

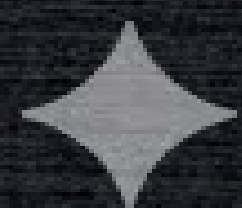
البحر المكد يد في تفسير القرآن المجيد

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة

١١٩١ هـ - ١٢٢٤ هـ

المجلد الأول

من أول سورة الفاتحة حتى آخر سورة النساء



البحر المكنون في تفسير القرآن المجيد

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة
١١٦١ هـ - ١٢٢٤ هـ

تحقيق وتعليق
أحمد عبدالله القرشي رسلان

المجلد الأول
من أول سورة الفاتحة حتى آخر سورة النساء

قدم له
أ. د. / جودة محمد أبو اليزيد المهدي
عميد كلية القرآن الكريم بطنطا

طبع على نفقة د. حسن عباس زكي
القاهرة ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

تفسير ابن عجيبة

«البحر المديد»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة
ويمنع طبع هذا الكتاب، أو أى جزء منه،
أو نقله على أى نحو، وبأية طريقة .
١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه، وعلى آله وصحبه وأوليائه. وبعد...،
فهذا كتاب «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، للإمام البارع، والعالم المتقن، شيخ الطريقين
وعمدة الفريقين، أبي العباس أحمد بن عجيبة الحسنى المغربي، المتوفى في عام ١٢٢٤هـ.

وهو كتاب فريد في بابه، ولم ينسج أحد على منواله، تشوف له أرياب القلوب والأحوال طويلاً،
سلك فيه صاحبه مسلك العلماء الراسخين في تفاسيرهم، وزاد عليهم بما يذكره من معاني إشارية
دقيقة، استشفها من آيات القرآن، الذي لا تنقضى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد.

حفل هذا التفسير بالأحاديث والآثار، وتناول القراءات القرآنية وتوجيهها، واشتمل على مسائل
الفقه والأصول، وجمع الكثير من القضايا اللغوية واللطائف الأدبية. وتميز بحسن الترتيب، وحلاوة
العبارة، ودقة التصوير، وسهولة الأسلوب.

ومن أهم ما يميز هذا التفسير هو هذه المعاني الإشارية، التي بسط المفسر الحديث فيها عن
آداب السلوك، والمقامات، كالإخلاص، والصدق، والصبر، والورع، والزهد، والرضا، والتوكل،
والشكر، والحب، والكشف، والإلهام، والكرامات... وغير ذلك مما يطول ذكره، وقدم لنا ابن عجيبة
من خلال هذه الإشارات منهجاً تربوياً صوفياً إسلامياً متكاملًا، يسلكه من أراد أن تصفو روحه
وتزكو نفسه ويحيى قلبه، ويحظى بنور معرفة الحق تعالى.

وعلى الجملة فنحن أمام موسوعة قرآنية تفسيرية صوفية كبيرة وقيّمة، تُعد دليلاً واضحاً
للحائرين، ومنهجاً كريماً للسالكين.

ولا غرابة في ذلك، فابن عجيبة عالم تطلع من علوم الشريعة واللغة، ورسخت قدمه فيها، وخاض
في علوم التصوف ذوقاً وحالاً ومقاماً، وصحب أهل الأذواق والقلوب، وسلك مسلكهم، حتى انجلت عين
بصيرته، وتفجرت ينابيع الحكمة في قلبه، وكان له في هذا المقام مدد واسع وفيض لا ينقطع.

ولأهمية هذا الكتاب، وتفرده في بابه، فقد توفرت على استخراج من أصوله، وتحقيقه تحقيقاً
علمياً، وإظهاره في صورة تكشف روائعه وتبرز كنوزه، ومكثت في هذا العمل خمس سنوات،
مواصلاً الليل والنهار، كنت سعيداً خلالها بما حباني الله من شغل في هذا العمل الشريف، رغم أن
التحقيق عمل شاق جداً، ولا يعرف ذلك إلا من مارسه وقام به. والواقع أن كل جهد يبذل في خدمة
هذا التفسير يهون بالنسبة لقيّمته العظيمة.

فالحمد لله الذى يسر وأعان على إتمام هذا العمل وإخراجه فى هذه الصورة الطيبة، وأرجو الله جلّت قدرته أن يجعل جزائى عنده على ما بذلت من جهد فيه، جزاء من بذل الوسع وأفرغ الطاقة، ولم يدخر شيئاً كان فى مكنّته أن يبذله، إنه سبحانه ولى الجزاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ومن أوجب الواجبات علىّ أن أشكر هنا هذه المأثرة، التى تفضل بإسداؤها فرع الدوحة النبوية، الأستاذ الدكتور/ حسن عباس زكى، وزير الاقتصاد الأسبق، والداعية الإسلامى الكبير، والعلم الصوفى الشهير. فقد تفضل - حفظه الله - بتحمل نفقات طبع هذا الكتاب، كدأبه فى سائر المشروعات العلمية، حرصاً من سعادته على العلم، ورغبة فى نشر الآثار الدينية القيمة، وغيره على ذخائر العلماء من أن تأتى عليها يد الضياع أو الإهمال. شكر الله له، وكتب له هذه اليد الكريمة فى سجل الباقيات الصالحات - آمين.

وأثنى بشكر عظيم وتقدير صادق لكل من قدّم لى عوناً ومساعدة، وأخص بالذكر أستاذى الكبير والعالم القرآنى، الأستاذ الدكتور/ جودة محمد المهدي، عميد كلية القرآن الكريم، فقد لازم العمل من بدايته حتى نهايته، بكل ما عرف عنه من النشاط والدأب وتحري الدقة، وكذلك أستاذى الكريم، الأستاذ الدكتور/ على جمعه، أستاذ أصول الفقه بجامعة الأزهر، فقد كانت له نظرات واعية فى التقويم والتوجيه، كما ذلل الله على يديه كثيراً من الصعاب، متّع الله الأمة بهذين الرجلين العلامتين العارفين بالبركتين، وجزاهما الله عن العلم وأهله خير الجزاء.

كما أرفع أسمى آيات الشكر والتقدير لوالدى، السيد الشريف، والعالم العارف، الأستاذ الشيخ/ عبد الله القرشى، لقاء ما أسدى من نصيح وبذل من توجيهات، وما عملى فى هذا الكتاب إلا أثر من آثار فضله وعلمه منحه الله العافية ورضى عنه. كما أشكر الأخ الكريم الدكتور/ عثمان رسلان، على ما بذله من جهد، وما أبداه من ملاحظات وإشارات، فبارك الله فيه وأثابه.

وبعد فإننى أقدم هذا الكنز الثمين، داعياً الله العلى القدير أن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به.

ربّ إني أبرأ إليك من الحول إلا بك، وأسألك المزيد من فضلك ومعاونتك، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،

أحمد عبد الله القرشى رسلان

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور/ حسن عباس زكى

نحمدك اللهم، فاتح كنوز الغيب للصفوة من عبادك، مانح فيض علمك للخلاصة من خلقك، فاستودعت قلوبهم خفى سرك، وأشهدت أرواحهم حقيقة أمرك، فكانوا أعرف عبادك بمضمرات إشاراتك، وأفهمهم لمعاني كلامك، فإن نطقوا فهم تراجمة لروحك، وإن عبروا فهم ألسنتك تُخبر بمرادك، وإن فاهوا فإنما يفصحون عن بديع حكمك. أعزرتهم بما توجتهد من العلم والعرفان، فعزوا على الناس بما خصوا به من أسرار معجم القرآن، وحلهم لطاسم ورموز الفرقان.

ولما لم يسعف العقل بعض الناس بفهم تلك الإشارات، ولم يحيطوا بإدراك تلك المذاقات، أنكروا مقالهم، وجحدوا حالهم، وغاب عنهم اختصاصهم، وفاتهم أن الحق هو المتكلم فيهم، وأنهم مشيرون به، أو هو المشير بهم، «فاذا أحبيته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، ولكن استعاذنى لأعيزته»^(١)، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

ونصلى ونسلم عليك يا عين الحقائق، ويا قرآن جمع العلم والمعلوم، ويا فرقان الشرائع والعلوم، أنزل عليك ريك كتاباً فى عالم الظهور، أنت سره وحقيقته، فكنت تعاجل جبريل به قبل النزول، كتاباً منه آيات محكمات، هن أم الكتاب، يفهمها الخصوص والعموم، وأخر متشابهات، يختص بفهمها أولو العلم الراسخون. صلى الله عليك وعلى آلك وأحبابك مشارق شمس العرفان، ومطالع كواكب الحقائق. المتبرئون من الأوهام والظنون، ما كرت الأيام ومرت الدهور والسنون.

(أما بعد): فإن القرآن كلام الله، وكلام الله صفته النفسية، والصفة تدل دلالة واضحة على الموصوف، وكما أن الموصوف - وهو الحق سبحانه - لا تدرك حقيقته فكذلك صفته.. لهذا وقفنا أمام كلام الله حائرين، لا نجزم بتحديد مراميه، ولا نقطع بأن ذلك التفسير عين مراد الحق منه؛ لأن كلام الله القديم، إنما يفسره المفسرون بلغتنا

(١) الحديث أخرجه بطوله البخارى فى (الرقاق، باب التواضع) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) من الآية ٢٦٩ من سورة البقرة.

العربية المحدثه، بدءاً على مدركات عقولهم البشرية. واللغة العربية من صنع المخلوق، وكلام المخلوق محدود؛ لأنه يُعبّر عن محدود، ومُحال أن يُحيط بالتعبير صنع المخلوق المحدود عن كلام الله وصفته، التي لا تحدّها الحدود.

وإذا كان أساطين اللغة والأدب يرون أن اللغة العربية على كثرة مترادفات، وضخامة معاجمها، وغزارة ما تحتويه من ألفاظ، واحتشاد تراثها بالمجازات والكنائيات، عاجزة عن التعبير عن مشاعر الإنسان وأحاسيس البشر، فإنها - والقياس غير جائز - لعن تحديد المراد من كلام الله وقرآنه أعين وأعجز.

ومن هنا كان القرآن حملاً لوجوه عدة من المعاني، وكان أمراً طبيعياً ما يتجدد فيه كل يوم من فهم، وستظل تلك المعاني تتجدد إلى ما شاء الله، وسيبقى القرآن معها كما هو، لا تبلى جدته، ولا يكشف عن حقيقة مراده.

وليس غريباً بعد ذلك أن يذهب المسلمون مذاهب شتى في تأويله، فالمفسرون من علماء الشريعة يقفون عند ظاهر اللفظ، وما دل عليه الكلام من الأمر والتهي، والقصص والأخبار، والتوحيد وغير ذلك. وأهل التحقيق، أو الصوفية، يقرون تفسيرهم هذا، ويرونه الأصل الذي نزل فيه القرآن. ولكن لهم في كلام الله - مع الأخذ بهذا التفسير الظاهري - مذاقات لا يمكنهم إغفالها؛ لأنها بمثابة واردات، أو هواتف من الحق لهم.

فلا ينبغي أن نقف القرآن على تفسير معين على أنه المراد، فلا نقول كما يقول البعض: إن التفسير الظاهري وحده هو المقصود، كما لا يرى أهل التحقيق أن تفسيرهم وحده هو المراد، لأن القول بالتفسير الظاهري وحسب، تحديد (لكلام الله) غير المحدود، وإخضاع القرآن للغة التي مقياسها العقل المحدود، والوقوف في تفسير كلام الله عند العقل المحدود عقاب عن الانطلاق فيما وراء الغيوب، وإغلاق الباب لمذاقات ليس العقل مجالها، لأنها لا تخضع لمقاييسه وإنما تخضع لشيء آخر فوقه، وتدرك بلطفية أخرى سواء.

إنّ فهناك ما فوق العقل، ألا وهو القلب.

وليس المقصود بالقلب قطعة اللحم الصدوبرية، وإنما المراد به تلك اللطيفة النورانية الربانية.

إنه القلب الذي لا تحده الحدود، لأنه عرش استواء تجليات الرب على مملكة الجسم. قال رب العزة في حديثه القدسي: «ما وسعني سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن»^(١) وهو القلب الذي اختصه الله

(١) أخرجه الديلمي (الفردوس ١٧٤/٣ ح ٤٤٦٦) من حديث أنس بن مالك، بلفظ: «لا يسعني شيء، ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين... الحديث، وانظر: إتحاف السادة المتقين، للزبيدي (٢٣٤/٧) وكشف الخفاء للمجلوني: (١٩٥/٢ ح ٢٢٥٧).

بالأسرار، والذي يجب أن يستفتيه الإنسان إذا حار. سأل وابصة بن معبد رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «يا وابصة استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»^(١).

ذلك هو القلب المراد، وله لغته، كما أن للعقل لغته. وإذا كانت لغة العقل تدرك بالألفاظ، ويُعبّر عنها بالكلمات، فلغة القلب تدرك بالذوق؛ لأنه لا يحيط بالتعبير عنها اللفظ. ولنقرب إلى الفهم؛ فلغة القلب مثل التفاحة.. فلن يستطيع من أكلها وأحس حلاوتها أن يترجم باللفظ أو يُعبّر بالوصف لمن لم يأكلها قبل عن طعمها ومذاقها. وهكذا لا تدرك لغة القلب بوصف أو بلفظ، وإنما يدركها ذو قلب متذوق. ولذلك لا تحيط بالتعبير عن لغة القلب العبارة، وإنما يُعبّر عنها بالإشارة. فالإشارة ترجمان لما يقع في القلوب من تجليات ومشاهدات، وتلويح لما يفيض به الله على صفوته وأحبابه، من أسرار في كلام الله وكلام رسوله.

ومن هنا كانت مذاقات الصوفية وأهل التحقيق في قرآن الله الكريم وكلامه القديم.. وهم لا يرون أن تلك المذاقات وحدها هي المرادة، وإنما يأخذونها إشارات من الله لهم، بعد إقرار ما قاله أهل الظاهر من تفسير باعتباره أصل التشريع.

وجلى بعد ذلك أنه لا مجال لمعتراض ممن ينكر عليهم مذاقاتهم، ويرأها ميلاً بكلام الله عن مجراه، ماداموا لا يأخذون بمذاقاتهم وحدها، وإنما يأخذون بها مع إقرارهم لتفسير أهل الشرع. فلا يعنينا من ذى جدل أن يقول عن هذه الإشارات: إنها إحالة لكلام الله عز وجل، وتغيير لسياقه ومجراه؛ لأن ذلك يصدق لو قالوا: إنه لا معنى للآية إلا هذا، وهم لا يقولون ذلك، بل يقولون الظواهر على ظواهرها، ويفهمون عن الله ما أفهمهم.

وذلك مصداق الحديث الشريف: «لكل آية ظاهر وباطن وحدٌ ومطلع»^(٢) فالباطن لا يعارض الظاهر، والظاهر لا يعارض الباطن.. وذلك النهج بعيد كل البعد عما نادى به (الباطنية) من الأخذ بباطن القرآن لا ظاهره، وقصرهم معاني القرآن على ما ادعوه من تفسيراتهم دون غيره، لأنهم بذلك لا يقرون الشريعة ويبطلون العمل بها. وهم لا يخضعون لدعواهم للنص القرآني، بل يخضعون للنص القرآني لدعواهم.

وهنا يزول ما التبس على البعض من أن مذاقات الصوفية في القرآن الكريم نزعة باطنية، فبينهم وبينها آماد وأبعاد، بل إنهم ليريدون منها، وينكرونها كل الإنكار، وواضح ذلك من أنهم يأخذون بالباطن بعد الأخذ بالظاهر،

(١) أخرج حديث وابصة، الإمام أحمد في المسند (٢٢٨/٤).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/١) وابن حبان (الإحسان ١٤٦/١ ح ٧٥) والبزار (كشف الأسرار، باب كم أنزل القرآن في حرف ٩٠/٣ ح ١٣١٢) من حديث عبد الله بن مسعود. وعزاه السيوطي في الجامع الصغير (ح ٢٧٢٧) للطبراني في الكبير. وأخرجه البغوي في شرح السنة (ح ١٢٢) عن الحسن البصري مرسلًا.

ويقرون الحقيقة بعد الأخذ بالشرعية. ويرون أن الحقيقة نفسها أساسها الشرعية، فالفرق ثمة كبير، والبون شاسع وعظيم.

ولا مجال بعد هذا الإيضاح لإنكار من ينكر على الصوفية مذهبهم في الإشارات، وما يختصهم الله به في كلامه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسرار والفيوضات.

على أن تلك الإشارات أمر مشروع، أقره الحديث المذكور آنفاً: «لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع»، فأربابها متبعون لا مبتدعون، اختصهم الله بأسراره في آياته، ليكونوا مصابيح الهدى في غسق الدجى، كما أقره عمدة الدين، وذو العلم من المؤلفين.

قال سعد الدين في شرح العقائد النسفية: «وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها، ومع ذلك فهي إشارات خفية إلى حقائق تنكشف لأرباب السلوك، يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان». وقال الشيخ زروق رضى الله تعالى عنه: «نظر الصوفى أخص من نظر المفسر وصاحب فقه الحديث، لأن كلا منهما يعتبر الحكم والمعنى، ليس إلا، وهو يزيد بطلب الإشارة بعد إثبات ما أثبتاه».

فإذا دار المفسرون في حدود اللفظ القرآنى، واستنبط منه الفقهاء ما استنبطوا من أحكام، فلاولى الأبواب وذوى البصائر فيه بعد ذلك من الأسرار والحقائق، ما لا ينكشف لسواهم، ولا يدركه غيرهم. وذلك لتجدد واردات الحق عليهم، ودوام تنزل الفيوضات على قلوبهم، لأنهم أهله ومحبه.

ثم إن فيض الله المتجدد في كلامه لهم إنما يزيد في كمال إعجاز القرآن، ويؤكد أن إعجازه أسمى من أن يكون في فصاحة لفظه، وقوة أسره، وبلاغة أسلوبه، وإنما إعجازه فوق ذلك؛ في أسراره ومعانيه، ومراده ومراميه. وأهل الله أولى الناس بفهم مراده ومعرفة مرامى كلامه، ومن ثم كان ما ينكشف لهم في كلام الله من أسرار بمثابة إشارات لهم - وحدهم؛ لأن الإشارة لغة المحب مع المحبوب، والإشارة بعد ذلك تلويح للمراد، لا إفصاح عنه، لعدم قدرة الألفاظ على تحمل المراد؛ لأن العبارة تحدد ما يشيرون إليه، وما يشيرون إليه إنما يكون عن مشاهدة. وما يشاهدونه ليس بمحدود؛ إذ هو من عالم الغيوب، فلا اللفظ قادر على تحديد المراد، ولا قابليات العقول تطبيق ذلك. ومن ثم سميت مذاقاتهم في القرآن إشارات، ولم تسم تفسيراً.

وقد تحلى القرآن الكريم بمثل تلك الإشارات من رموز الحواميم والآتم، وهطسم،... إلخ، وهى إشارات بين الحق ورسوله، أو «شفرات» - بالتعبير الحديث - بين المحبوب وحبيبه، ولا يعرف حلها إلا من لديه مفتاحها. ومفتاح تلك «الشفرات» وفهم تلك الإشارات فى حوزة من لديه الفهم لمراد المشير، وهم - بعد الرسول ﷺ - ورثته

من العلماء بالله وأوليائه . نُقل عن الصالحين أن الله تعالى لما أنزل على سيد العالمين ﷺ قوله تعالى : (كهيعص) قال جبريل عليه السلام : (ك) قال النبي - اللهم صلى عليه - : عرفت . قال جبريل عليه السلام : (هـ) ، قال : - اللهم صلى عليه وآله - عرفت ، قال جبريل : (ي) ، قال : عرفت ، قال : جبريل : (ع) قال : عرفت ، قال جبريل : (ص) ، قال النبي : عرفت ، قال جبريل : عرفت وأنا لم أعرف ، سبحان من أعطاك . ومن هنا فهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وحده مقالة الرسول - عليه الصلاة والسلام - حين نظر إليه ، وقال : (أتذكر يوم لا يوم) ؟ فقال نعم ، ولم يفهمها غيره من الصحابة الحاضرين . ولما سئل الصديق رضي الله عنه ذلك ، قال : إنه يوم الميثاق .

ولا عجب فيما ينكشف لأرباب الإشارات من فيوض في قرآن الله ، أو حديث رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، فما زال المفسرون يتجدد لهم في كلام الله كل يوم معان لم تسبق ، لا ينكرها الناس ، بل إليها يستريحون ، ففيم الإنكار على أرباب الإشارات ، وهم عن الله مشاهدون ، ولهم منازل ومقامات ، فيتكلمون بما يشاهدون في منازلهم ، وينطقون عما يرون في مقاماتهم ؟

أجل : معذور من ينكر عليهم ، لأنه لم يذق مذاقوا ، فلو ذاق لعرف ، وينبغي ألا يغيب عنه أن تلك الإشارات بمثابة اصطلاح يفهمه أهل التحقيق ، ولا يجدر أن يعارضهم في اصطلاحهم جماعة أخرى مادام لكل اصطلاحه .

فالحق أن كلام الله نور يرسل إلى القلوب ، وهي أوعية يتلون ذلك النور بلونها .. وكل يرسل بتفسيره شعاعاً حسب استعداده وقابليته وما استودع فيه .

على أن أهل التحقيق لا يدعون أنه محال على غيرهم ما يفاض به عليهم ، ولكنهم يعتقدون أن كل إنسان لديه الاستعداد لما عندهم ، غير أنهم فتحوا عيون قلوبهم ، فاطلعوا على ما اطلعوا من أسرار ، وغيرهم فتحوا نوافذ تفكيرهم فوقوا في الحيرة والوهم ، وقاسوا بعقولهم مذاقات تلك القلوب فأنكروها ، ولو أن عيون قلوبهم كأهل الله ، لكان ما استغريوه أمراً عادياً ، بل لا اعتقدوا اعتقاداً جازماً ما أنكروه .

فليع كل ذي لب قدر هؤلاء الصفوة من أهل التحقيق ، وليدرك أنهم ملهمون إن نطقوا ، فلا ينطقون بأنفسهم ، وإن أشاروا فمحرك الإشارة فيهم مولاهم . وارجع إلى الصدر الأول من عصر المسلمين الزاهر ، تجد أن من أئمة هؤلاء الملهمين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والذي قال فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (إن من أمتي مكلمين ومحدثين ، وإن عمر منهم) .

ومنهم الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، الذي أشار إلى صدره بعد أن تأوه مرتين ، ثم قال : (إن هاهنا علوماً جمّة .. لو وجدت لها حملة!!) . ويروى عنه أنه قال : (لو شئت لأوقرت من تفسير الفاتحة سبعين بعيراً) ، أولئك هم

علماء الله بحق، الذين عناهم رسول الله ﷺ بقوله: «إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى، فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله عز وجل».

ذلك نذر يسير مما عليه أهل الإشارات من مكانة، وقدر ضئيل مما شرفهم الله به من منزلة. ونستطيع بعد ذلك أن نعرض من مميزات وخصائص علم الإشارات ما يأتي:

١ - علم الإشارات لا ينظر إلى قصص الأنبياء في القرآن الكريم على أنها قصص انتهت بانتهاى أممهم، وأن تلاوتها الآن للعظة والاعتبار، فحسب، وإنما يرون مع ذلك أن الخطاب بها مازال قائماً، يوجه إلى الإنسان في كل عصر وأوان، باعتباره مملكة الله الصغرى، التى انطوى فيها العالم كله، فمثلاً يرمزون لموسى بالقلب أو الروح، وإلى فرعون بالنفس.

وبذلك يكون القرآن فى حالة تجدد نزول، لم ينته الخطاب بانتهاى زمانه، باعتباره كلام الله وصفته القائمة بذاته، وتظل بذلك صفة الكلام قائمة غير معطلة، لم تنته بنزول الكتب السماوية، فمازال الحق سبحانه متكلماً أبداً.

٢ - علم الإشارات يكشف عن صدق أهله مع ربهم، وأمانتهم عند الحديث عن كلامه، فكل ما قاله القرآن وما تناولته ألفاظه من أداء، هو فى مذهبهم حقيقة، لا يعرفون مجازاً، ولا يلجئون إلى كناية، لأنهم بما شاهدوا وذاقوا يدركون هذه الحقائق. ولما كانت تلك مواجيد وأذواق لا يمكن نقلها إلى الغير بعبارة رمزوا لها وأشاروا، ومن هنا أنكر عليهم من أنكر، أما من شاهد مثلهم فقد عرف ما عرفوا، بل ربما تجدد له من ذلك مشهد أو حقيقة أو مذاق.

وهكذا نرى أن أهل الله أمناء على كلامه؛ دفعتهم غيرتهم على محبتهم، وعظيم احترامهم لجلبه، وإكبارهم لكلامه، ألا يميلوا عن منطوق ألفاظه إلى مجاز أو كناية، خشية البعد عن مراده. ولم اللجوء إلى المجاز مادام للحقيقة عندهم مخلص؟ فهم لا يرون فى قوله سبحانه: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾^(١) أن السؤال لأهلها فحسب، بتقدير مضاف، كما قيل، أى: وأسأل أهل القرية، وإنما السؤال للقرية بكل ما فيها، ومن فيها، ماداموا يشاهدون تسبيح الجماد ونطق الحيوان. وقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَّا تُفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٢) وقوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾^(٣) وقوله فى حق السماء والأرض: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٤) ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾^(٥) إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث. وعلى ذلك فلا يكون سؤال القرية قاصراً على أهلها، لأنه سؤال لما فيها ومن فيها. والمخاطب بذلك لو كانت لديه الخصوصية لمخاطب القرية بكل ما تحويه من كائنات.

(٢) من الآية ٤٢ من سورة الإسراء.

(٤) من الآية ١١ من سورة فصلت.

(١) من الآية ٨٢ من سورة يوسف.

(٣) من الآية ١٠ من سورة سبأ.

(٥) من الآية ٢٩ من سورة الدخان.

وثمة مثال ثانٍ : فهم لا يعترفون بأن كلمة في القرآن وضعت مكان كلمة أخرى أو بمعناها؛ ففي قوله جل شأنه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾^(١) لا يرون أن «عن» بمعنى «من» تمشياً مع إنابة حروف الجر بعضها عن بعض، وإنما ينظرون إلى منطوق اللفظ نفسه، وهو «عن»، ففي اللغة تفيد معنى المجاوزة، ويكون المراد - والله أعلم -: أن الحق يقبل التوبة متجاوزاً عن عبادته في توبتهم لعدم خلوصها، رحمةً منه بهم، وذلك المعنى لا شك أبلغ وأفصح.

على أن في مذهب أهل الإشارات حلاً لكل العقد، وحسماً للخلافات، وزوالاً للشبه والريب من مسائل الكسب والاكتساب، والجبر والاختيار، والنعيم والعذاب للجسم أو للروح.. إلخ.

كل هذا وغيره من خلافات أهل علم الكلام والعقائد لا ظل له عندهم، لأنهم اطلعوا على سر الله في أقصيته ومقدراته، وتحققوا بذلك، فاستراحوا، وملأت قلوبهم السكينة، وأفئدتهم الطمأنينة، فاستشعروا في حياتهم من السعادة ما لم يذقه غيرهم. ذلك لأنهم فتحوا عيون قلوبهم، ولم يقيسوا بعقولهم، لأن العقل مجاله محدود، لا يكشف مهما كانت قدرته عما وراء الغيوب، وإلا فبم يعلل العقل رؤية نبيينا لموسى - عليهما الصلاة والسلام - مرتين في قصة الإسراء والمعراج؛ مرة ببيت المقدس، وهو يصلي وراءه، وأخرى في السماء، وهو يراجع في أمر الصلاة، مع أن موسى لم يترك قبره، ولم يفارق مثواه. والعقل يحار أيضاً أمام حديث سجود الشمس تحت العرش كل يوم، وأنها لا تطلع حتى يؤذن لها بالطلوع، مع أنها لا تغيب عن الكون لحظة. وشبه ذلك كثير من الأمثلة.

هذا وفي سوق الواقعة الآتية ما يجعلك تلمس أن أهل التحقيق هم الذين يفهمون عن الله ورسوله ما لا يفهمه غيرهم، وأن من رحمة الله بعباده أن يكونوا بينهم، واليك الواقعة:

اشتكى رجلٌ مرضاً حار فيه «نطس» الأطباء، فرأى رسول الله ﷺ يرشده إلى أن يأخذ من ثمرة شجرة (لا ولا) ويستعملها ففيها شفاؤه. وحار الرجل في تفسير رؤياه، وحار معه في حل رمزها علماء العصر، حتى شاء الله له الخير، فالتقى برجل من أهل التحقيق، فأجابه على الفور: أمرك يسير، علاجك في شجرة الزيتون فهي التي يقول الله فيها: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾^(٢).

تلك - أيها القارئ - ومضة خاطفة من قبس أنوار أهل التحقيق، ومكانتهم عند ربهم، وجولة سريعة في علم الإشارات، ومذهب أهلها، عرضناها عليك. ألمعنا بها إليك كتمهيد للسفر الجليل والكنز الثمين الذي نحن بصدد الحديث عنه، والذي ظل طي الكتمان ودفن النسيان، حتى قيض الله له باحثاً أميناً، له في هذا العمل، من الشباب القوة، ومن الشيوخ الخبرة، فأخرجه إلى النور، وهياه للنشر والظهور.

والآن يسعدني أن أقدم للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها عامة، ولذوى الألباب والبصائر خاصة، ولكل باحث متصوف: تفسير القرآن، للعالم والداعية الكبير «ابن عجيبة»، وهو نموذج من نماذج فيوضات أهل التحقيق،

(١) من الآية ٢٥ من سورة الشورى. (٢) من الآية ٣٥ من سورة النور.

ومذاق من مذاقات أولى الإشارات، وأرياب السلوك، وأصحاب الطريق. ففيه تذكير بأن ما عذب عن الأفهام دركة من أسرار التفاسير الصوفية الأخرى الدسمة، لا يمسها بالعيب والطنين؛ لقصور العقل عن الدهوض باستشراق ما أطلع عليه أهلها من أسرار، فكُم من مذاقات تناولها بالعقل متناولوها فمسخوها، ووصلوا بأهلها إلى الحلول والإلحاد، وهم بعقائدهم النقية أبعد الناس عن ذلك، ومن الجور الفادح أن تلبسهم بذلك ثياب الملحدين، وتزعمهم بالكفر أو الانحراف عن سواء السبيل.

ومن مميزات ذلك التفسير أنه يكشف عن مشارب القوم، ونهج الصوفية في استمدادهم من الحق تعالى، في كل ما يأتون من مواجيد، فهو يدلُّ خلال قراءته - في وعى - على أن كل صغيرة وكبيرة من مفاهيم الصوفية لها أصل من القرآن أو سند من السنة؛ لأن قلوبهم مرايا صافية، يسطع عليها نور الحق، ومحال أن تعكس ما لا يرضى الحق. فليس الصوفية في الواقع إلا روافد تستقي من ينبوع الشريعة ومعينها الطيب، غاية الأمر أنهم ملهمون بتجلي الله عليهم في كلامه، بالجديد من أسرار، وتجليات الله لا تتناهى. ووقف غيرهم عند المسطور المتوارث، فداروا في نطاقه، ولم يتجاوزوا حدوده.

هذه نبذة عاجلة عن الكتاب وبعض مميزاته. أما عن المؤلف فقد تناول محقق التفسير ما فيه الكفاية والغنى عن البيان. وأبرز استعداده الفطري وحافظته الواعية، وذكاءه النادر، ما كان سبيلاً إلى أن يحصل من دراسته الأدب والعلوم العقلية والنقلية، دينية وغير دينية، ما جعله كنزاً للعلوم والآداب، عدا موهبة سخية في نظم الشعر، وتذوق الأسلوب العري، وعقيدة نقية في تمسكه بمذهب أهل السنة، لم يشبها ما خاض فيه من علم الكلام وخلافات أهله.

فالمؤلف - رحمه الله - كان مؤهلاً أن يدرس الأسلوب القرآني، ويستخرج منه ما يستخرج من إشاراته. والحق أن تلك الإشارات ليست وليدة دراسة العقول، وإنما هي وليدة الإلهامات بعد فتح عيون القلوب. وفيما سبق من توضيح ذلك ما يغنى عن تكرار التبيان.

فإن كان لإمامنا ابن عجيبة ما سبق من شهرة علمية ودينية وأدبية ولغوية وعقيدية، فذلك سمة من السمات الدالة على أن رجال الله يعدّهم قبل أن يختارهم لحضرته، ليعزهم بعزته، ويكونوا خلفاءه - بحق - في أرضه، يخاطبون كلاً حسب استعداده، فتملاً هيبتهم كل فراغ، ويكونون فرسان الحلبة في كل ميدان ومجال.

على أن تلك الكنوز العلمية المكتسبة التي اشتهر بها إمامنا ابن عجيبة، ليست شرطاً فيمن يختارهم الله من رجاله، فمن شاءه ولياً، وأراد له حبيباً علّمه من علمه اللدني، حتى ولو كان أمياً. وسيدى «عبدالعزیز التباغ، صاحب الإبريز المشهور، وسيدى «على الخواص، شيخ الإمام الشعراني وغيرهما من فحول الصوفية، خير مثال لذلك، وبذلك تصدق المقولة المشهورة: (ما اتخذ الله من ولي جاهل، ولو اتخذ له لعله).

والآن أعدك أيها القارئ الكريم لذلك الكتاب العظيم لتدرك بنفسك نفائسه.. وأختم حديثي تيمناً - بترديد الكلمة المباركة التي كانت أول خطاب من الله لرسوله - عليه الصلاة والسلام - أول بعثته فأقول لك: «اقرأ».

د. حسن عباس زكي

كلمة

أ. د. / جودة محمد أبو اليزيد المهدي

عميد كلية القرآن الكريم بطنطا

الحمد لله الذي أنزل من حضرة ربيوته على قلب أعظم رسله هذا القرآن العظيم، هدى ونورا، وجعله معجزة المعجزات، وجامع حقائق حضرات الذات والصفات والأسماء والأفعال، فسطرت فيه أسرار الوجود تسطيرا.

والصلاة والسلام على أكمل خلق الله، سيدنا محمد، الذي تجلى عليه مولاه باسم (الرحمن)، فعلمه القرآن، وأرسله بالحق بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، وورثته القرآنيين، الذين أشربوا حب القرآن، وتدبروا آياته، وغاصوا في بحار معانيه، واستخرجوا جواهر حقائقه، ودرر أسرارهِ، فدالوا فضلا كبيرا. رضى الله عنهم، وسلك بنا مسلكهم، وحشرنا في زميرتهم، ولقانا بهم نصرة وسورا.

أما بعد :

فقد أدرك الفقهاء عن الله تعالى أن ذروة الفضل، وذوابة الشرف، وجوهر السعادة في التعلق بكتاب الله تعالى، الذي هو حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وهو مأدبة الله تعالى، ودستوره الخالد، والمحيط الجامع لأنواع العلوم والمعارف، والمنهاج الأعظم للتربية والتحقيق، ومن ثم تبثلت قلوبهم في محراب التنزيل، وعكفوا على تدبر آياته واستكناه أسرارهِ لاستخلاص حقائق الوجود من مشكاة عرفانه.

لقد أذعنوا لقول الحق تعالى: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾^(١) ولقوله عز من قائل: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٢). وأيقنوا بمقولة حبر الأمة، سيدنا عبد الله بن عباس - رضى الله تعالى عنهما -: «جمع الله في هذا الكتاب علوم الأولين وعلوم الآخرين، وعلم ماكان وعلم ما يكون، والعلم بالخالق - جل جلاله - في أمره وخلقهِ»^(٣).

وقد تعددت وتنوعت منازع ومناهج المشتغلين بتفسير كتاب الله تعالى.

(١) سورة الأنعام/٣٨. (٢) سورة النحل/٨٩.

(٣) انظر: جامع الأصول لابن الأثير: ٨/٤٦٤: حديث رقم/٦٢٣٣.

فمنهم من توفرت همهم على جمع المأثور في تفسيره من السنة النبوية، وأقوال السلف الصالح، من الصحابة والتابعين وتابعيهم، دون إعمال للرأى، أو مع إعماله بضوابطه. ومنهم من صرف وكده في تفسيره إلى الجانب اللغوى، فبرزت إلى الصعيد التفسيري مدارس التفسير اللغوى، والنحوى، والبلاغى، والبيانى بألوانها الشائعة المعطاءة. ومنهم من أثر المتجه الكلامى العقدى، فحفل تفسيره بخوض عباب المباحث العقدية، ونصرة مذهب على المذاهب الأخرى، فى شتى القضايا الكلامية، فكانت موسوعات تفسيرية فى هذا الجانب. ومنهم من جنح فى تفسيره إلى الجانب الفقهى المذهبى، فكان اللون المعروف بتفاسير الأحكام، وكل منها فى مذهب بعيده، وقد استخدمت فيه القواعد الأصولية. ومنهم من غلب عليه الطابع القصصى، فتوسع فى الروايات والآثار فى معالجة قصص القرآن الكريم، ما بين صحيح ودخيل.

وهكذا اتخذ المشتغلون بالتفسير طرائق قِدا، ومنازع شتى، ومناهج متنوعة، ما بين تحليلى، وموضوعى، ومقارن، وتاريخى، واستقرائى. وكلها حققت للمكتبة التفسيرية ثراء حافلاً فى تناول كتاب الله الخاتم، لم ينله ولم يدن منه فى تاريخ الوجود توفر على كتاب سواه، وذلك من لوازم حقيقته ومصادقته وإعجازه.

★ بيد أنه - مع كل ذلك - لا يبلغ البناء التفسيري كماله وتعام مصادقته فى تحقيق وفاء معانى التنزيل بتفسير حقائق الوجود بأسرها إلا بإعمال المنهج الصوفى الإشارى فى التفسير، وإحراز نتائج (علم الموهبة) الذى اعتده أساطين علوم القرآن الكريم وتفسيره علماً أساسياً ومصدراً رئيساً للمفسر، ضمن العلوم الخمسة عشر التى يحتاج إليها المفسر، حيث ذكره الإمام السيوطى - رضى الله تعالى عنه - فى ختامها - بالإتقان - قائلاً: (الخامس عشر: علم الموهبة : وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم، وإليه الإشارة بحديث^(١) : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » - ثم قال : قال ابن أبى الدنيا: وعلوم القرآن وما يستنبط منه : بحر لا ساحل له .

قال: فهذه العلوم - التى كالألة للمفسر - لا يكون مفسراً إلا بتحصيلها، فمن فسر بدونها: كان مفسراً بالرأى المنهى عنه، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسراً بالرأى المنهى عنه^(٢) .

أجل: إن التفسير القرآنى بدون الوقوف على الجانب الإشارى، الذى يسبر باطن العبارة القرآنية بالكشف الذوقى العرفانى، ليفتقد تلك الثمرة اليانعة، والروعة الرائعة، التى يمتن بها الحق تعالى على أوليائه العارفين، الذين طهرت قلوبهم وأرواحهم، بعد إماتة نفوسهم بسيف الجهاد الأكبر، فعلمهم الحق من لدنه علماً، وأتاح لطلاب

(١) أخرجه الحافظ أبو نعيم، عن سيدنا أنس رضي الله عنه، وخرجه عنه العجلونى فى كشف الخفاء من ٣٦٥.

(٢) الإمام الحافظ: سيدى جلال الدين السيوطى - رضى الله تعالى عنه: الإتقان فى علوم القرآن. بتحقيق: محمد أبى الفضل إبراهيم: (١٨٨/٤) ط / المشهد الحسينى.

المعرفة وعشاق الحقيقة أن يدهلوا من رحيقه، بالمثل في رجايبهم، واقتطاف الأزاهير من بساطينهم، فيكتمل المفاد التفسيري بإحراز التعرف إلى الباطن القرآني - بالمفهوم السنّي لا الشيعي للباطن - إلى جانب معرفة الظاهر والحد والمطلع، فتلك روافد العطاء المعرفي للقرآن الكريم، كما بيّنها الرسول الأعظم ﷺ بقوله: «إن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً»^(١).

فالمراد بالظهور: ما يظهر من معاني التنزيل لأهل العلم بالظاهر. والمراد بالباطن: ما يتضمنه من الأسرار التي اطلع الله تعالى عليها أرباب الحقائق. فالباطن روح الأنفاظ، أي: الكلام المعنوي على المدارك الآلية بجواهر الروح القدسية. والحد: مراد به: أن لكل حرف من القرآن منتهى فيما أراده الله تعالى من معناه. والحد: إما بين الظهور والباطن، وإما بين البطن والمطلع، فيرتقى به من البطن إليه عند إدراك الرابطة بين الصفة والاسم، واستهلاك صفة العبد تحت تجليات صفة المتكلم جل شأنه. والمطلع - بضم الميم وفتح الطاء المشددة واللام -: هو مكان الاطلاع من الكلام النفسي إلى الاسم المتكلم، المشار إليه بقول الصادق: «لقد تجلّى الله تعالى في كتابه لعباده ولكن لا يبصرون، ومن ثمّ فالمطلع: ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام»^(٢). جعلنا الله تعالى من أهل ذاك المقام، بجاء سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وهكذا نجد أن السنة النبوية الشريفة - بحديث: «إن للقرآن ظهراً وبطناً» ونظائره^(٣) - تعاضد القرآن العظيم في تأصيل التفسير الفيضي، أو الإشاري في نحو قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٤) وقوله سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾^(٥)، ففيهما الإشارة الثاقبة إلى التفسير الإشاري. ومن ثمّ روى عن باب مدينة العلم. سيدنا علي كرم الله وجهه أنه قال: «لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من فاتحة الكتاب، وقال: «من فهم القرآن فسر به جمل العلم»^(٦).

ولتجسّد أصالة التفسير الصوفي الإشاري وحتمية وجوده لتجلية حقائق القرآن المستنبطة منه بفهم أهل الله تعالى: فقد اعتد أساطين علماء التنزيل به، وضمّنوه تفاسيرهم، ووضعوا له التعريف العلمي بضوابطه التي تخرج عنه ما يلتبس به عند غير ذوي العلم، مما يعرف بالتفسير الباطني الذي يقصر دلالة النص القرآني على تأويلات الباطنية من الشيعة المنحرفة، فهذا لا علاقة له بالتفسير الصوفي على الحقيقة.

من ثمّ عُرِف التفسير الصوفي الفيضي الإشاري بأنه: تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية، تظهر لأهل السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة^(٧).

(١) أخرجه ابن حبان، في صحيحه، عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه عنه الحافظ العراقي في (المغنى عن حمل الأسفار. بتحقيق ما في الإحياء من الأخبار) بحاشية الإحياء (١/٨٨).

(٢) انظر روح المعاني لشيخنا الإمام الآلوسي القمي، عليه رضوان الله تعالى (١/٧).

(٣) من نظائر هذا الحديث الشريف: ما أخرجه الديلمي عن سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: (القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يحاج العباد).

(٤) سورة (محمد) ﷺ: الآية/٢٤. (٥) سورة النساء/٧٨.

(٦) انظر إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي رحمته الله، (١/٢٦٠) ط/العثمانية.

(٧) انظر - مع الإتيان للإمام السيوطي ١٩٨/٤ - : التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي ١٨/٣.

وعلى ذلك: فقد اعتمد علماء القرآن الكريم التفسير الصوفي الإشاري بشروط أربعة لقبوله:
أولها: عدم مذاقته لمقتضى اللغة ولظاهر النظم القرآني الكريم.
وثانيها: أن يكون له شاهد شرعي يؤيده من الكتاب أو السنة أو سائر الأصول المعتمدة.
وثالثها: ألا يكون له معارض شرعي قطعي.

ورابعها: ألا يدعى أن هذا التفسير الإشاري هو وحده المراد دون الظاهر، بل لابد من إقرار التفسير العباري الظاهر أولاً ثم الأخذ بالمعنى الإشاري^(١).

★ هذا: ومن المفسرين الأعلام من جرد همته للتفسير الظاهر - كالزمخشري مثلاً - ولم يعن بالتفسير الإشاري، وليس كذلك البيضاوي، خلافاً لما ذكره الدكتور الذهبي، حيث قرنه بالزمخشري في الاختصار على الظاهر. وقد حققنا الاتجاه الصوفي عند القاضي البيضاوي في بحث مستقل^(٢).

★ ومن أعلام المفسرين من صرف جل وكده للتفسير الظاهر، مع تعرضه للجانب الإشاري بقدر، كما نراه في تفاسير الإمام الفخر الرازي والإمامين الديسابوري والآلوسي - رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

★ ومنهم من غلب عليه الطابع الإشاري، ولم يحفل بالتفسير إلا قليلاً، كالإمام سهل بن عبد الله التستري (ت سنة ٢٠٠هـ) رضى الله تعالى عنه، وتفسيره وجيز جليل القدر.

★ ومنهم من اقتصر على الجانب الإشاري تماماً كالإمام أبي عبد الرحمن السلمي (ت ٤١٢هـ) - رضوان الله عليه - في كتابه: (حقائق التفسير).

★ ومنهم من جمع بين التفسير الظاهر وبين التفسير الإشاري، في توازن بينهما، وإشباع علمي في كلا الجانبين، فجاء تفسيره متكاملًا بالجواهر والدرر، كالعلامة إسماعيل حقي الإسلامبولي الحنفي (ت ١١٣٧هـ) رضى الله عنه في تفسيره (روح البيان)، وكالإمام العلامة العارف بالله تعالى الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني (١١٦٠ - ١٢٢٤هـ) صاحب هذا التفسير الفريد المسمى (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد)، وهو الذي نقدم له بهذه السطور، فقد جاء هذا التفسير آية رائعة في التفسير القرآني، الجامع بين تفسير أهل الظاهر بمعطياته وملكاته وأدواته، وإشارة أهل الباطن - بالمدلول السني للباطن - مستوفياً ضوابطه وشروطه، حافلاً بأزهاره وثماره، حتى إنه ليعد موسوعة قرآنية في الحقائق وعلم السلوك.

وأسأل الله - عز وجل - أن يتقبل هذا العمل، وأن يحشرنا به في زمرة أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته. وصلى الله تعالى على أعظم رسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أ. د. جودة محمد أبو اليزيد المهدي

عميد كلية القرآن الكريم بطنطا

وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

(١) انظر: المرجع الأخير مع زيادة تحرير في العبارة: ٤٣/٢.

(٢) حوله كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا: العدد الثالث سنة ١٤١٢هـ - سنة ١٩٩١م ص ٥٧-٧.

ترجمة الإمام ابن عجيبة (١)

اسمه :

هو الإمام العلامة المفسر أحمد بن محمد بن المهدي بن الحسين بن محمد المعروف بابن عجيبة، والمكنى بأبي عباس، الحسنى نسباً، القطوانى داراً، الفاسى تعليماً، المالكى مذهباً، الشاذلى طريقة، أعجوبة زمانه، وعديم النظير فى أمثاله، مؤلف التآليف العديدة، ومفيد العلوم المفيدة. العالم العلامة، والصوفى الفهامة، والعارف المحقق، الشيخ الكامل الجليل، الشريف البركة.

مولده

ولد الإمام ابن عجيبة فى قرية (أعجبيش)، من قبيلة (أنجرة)، التى تسكن الجبال المحيطة بمدينة تطوان (٢)، الواقعة فى أقصى شمال المغرب، على مسافة عشرة كيلومترات، من ساحل البحر الأبيض المتوسط. وكان مولده رحمه الله، حسبما أورد فى فهرسته - سنة ستين أو إحدى وستين ومائة وألف هجرية (٣) ولا خلاف بين المصادر الأخرى التى أوردت تاريخ ولادته، وإن كانت قد اقتصرت على ذكر إحدى السنتين. ويرجع عدم جزم شيخنا بإحدى السنتين إلى أن مولده لم يُؤرخ بالسنين، بل أرخ بحادث حصار (المستضيء بن إسماعيل) لتطوان، وكان ذلك بين سنتى ستين وإحدى وستين (٤).

أسرته : ولد الشيخ من أبوين صالحين، كلاهما من آل بيت النبوة، يرجع نسبهما إلى الإمام الحسن بن على عليه السلام والسيدة فاطمة - رضى الله عنها - بنت سيد الكونين، وصخرة العالمين، حبيب الرحمن، من قدمه فوق رؤوسنا شرف لنا، ومن إذا انتسب إليه أحد نسباً فاز بالمنى.

والمستطلع لتاريخ آبائه يدرك صلاحهم وتقواهم، ومدى ما كانوا عليه من خشية لله وشرف هاشمى. فجدده عبد الله بن عجيبة، ولى مشهور، وقبره مزار بقبيلة أنجرة، كما أن جد والده والحسين الحجوجى، صاحب كرامات عديدة ومآثر حميدة، أما جده المهدي، فكان كما يقول شيخنا: (رجلاً صالحاً صموتاً خلواً - أى: يحب الخلوة - مغفلاً عن أمور الدنيا، ولانجده إلا وحده، تالياً، أو مصلياً، أو مشغلاً بما يعنيه) (٥) وأبوه

(١) أخذت ترجمة الشيخ ابن عجيبة عن (العسكرى، مخطوط طبقات أصحاب الدرقاوى) ورقة ١٤٢ وما بعدها، عبد القادر الكوهن مخطوط: (إمداد ذوى الاستعداد) ورقة ٢٠، مخلوف: شجرة النور الزكية ص ٤٠٠، الأزهرى اليواقيت الثمينة ج ١ / ص ٧٠، الكتانى: فهرس الفهارس ج ٢ / ص ٨٥٤، الحسن الكوهن: طبقات الشاذلية ص ١٦٤ وما بعدها، مركيس: معجم المطبوعات ١٦٩ / ١ الزركلى: الأعلام ج ١ / ص ٢٤٥، رضا كحالة: معجم المؤلفين ١ / ٦٣، تيمور: فهرس التيمورية ٣ / ١٩٧، د / درنيقة: الطريقة الشاذلية وأعلامها / ٩٢ - ٩٤ وذلك فضلاً عن الفهرسة للشيخ المفسر.

(٢) عبد المجيد الصغير، إشكالية إصلاح الفكر الصوفى ١ / ١٢٦. (٣) ابن عجيبة: الفهرسة ص ١٦.

(٥) الفهرسة ص ٢٧.

(٤) انظر المصدرين السابقين.

«محمد بن المهدي، كان رجلاً صالحاً، لا يجلس في الغالب إلا وحده، فقيراً من الدنيا، يبيت يقرأ القرآن. توفي رحمه الله سنة ١١٩٦هـ. (١).

نشأته العلمية:

نشأ الشيخ ابن عجيبة في بيت صلاح وتقوى، وأقبل على حفظ القرآن وهو في سن مبكرة، وقد تميز الشيخ بالقدرة على التركيز العلمي، وتوقد القريحة، ورحل إلى مدينة القصر الكبير، وأقام فيها نحواً من عامين، اجتهد خلالهما في تحصيل العلم، حتى قال عن نفسه: (أهملت نفسي، ونسيت أمرها، وكنت أقرأ سبعة مجالس، بين الليل والنهار) (٢).

ولم يقنع الطالب بما حصل في مدينة القصر الكبير، بل زاده شغفاً في القدوم إلى تطوان، وهي مؤناً للعلم والحكمة، ومهبط كثير من العلماء، فقدمها ابن عجيبة وهو ابن العشرين، وأقام فيها، وأقبل على تحصيل العلم في شتى الأبواب بكل جد، وتنوعت مجالسه بين أئمة الفقه، والتفسير، والحديث، واللغة، والنحو، والصرف، والمنطق، أقبل على هؤلاء وهؤلاء، يستمع منهم، ويقرأ عليهم، يأخذ عنهم، وأقبلوا عليه يعطونه كل ما عندهم؛ لما وجدوا فيه من حسن الإعداد والاستعداد، فواصل الليل بالنهار.

وسرعان ما ظهرت ثمار هذا الجد والاجتهاد، فلم يبلغ شيخنا تسعاً وعشرين سنة، حتى بزغ نجمه وعلا شأنه، وجلس للتدريس في مساجد تطوان ومدارسها، ولكن ذلك لم يمنعه من مواصلة العلم في مظانه، فالظمان إلى المعارف لا يرتوي مهما نهل، ولعله كلما نهل استطاب العلم فازداد إليه ظمأ، والعلم ليس له نهاية له وليس له حدود. يقول شيخنا بعد جلوسه للتدريس: (فكنت في العلم الظاهر نتعلم ونعلم فما تركت العلم قط بعد التصدر للتعليم، نعلم من تحتنا ونأخذ عن فوقنا) (٣).

ولهذا شد الرحال إلى فاس، وهو في سن الأربعين، فسمع من علمائها، وأخذ عنهم، وقد توفر له فيها أساطين العلم في مختلف الفروع، فأخذ علم الحديث عن محدث عصره (التاودي بن سودة)، ودرس التفسير والفرائض واللغة، ومكث كذلك سنتين، عاد بعدهما إلى تطوان ليتابع تدريسه وتأليفه.

يتحدث رحمه الله عما حصله من علوم، فيقول: (والذي حصلناه من علوم الأذهان (العقلية): علم المنطق، والكلام على مذهب أهل السنة، والمهم من علم الهيئة (الفلك)، ومن علم الأديان: علوم القرآن، خصوصاً التفسير.. وحصلنا الفقه بأنواعه، وأصول الفقه، وأصول الدين، وحصلت أيضاً علم الحديث، وعلم السير، وعلم المغازي، والتاريخ، والشمال، ومن علم اللسان: علم اللغة والتصريف، والنحو، والبيان، بأنواعه، أما التصوف؛ فهو علمي ومحط رحلي، فلي فيه القدم الفالج، واليد الطولى) (٤) وهكذا كان حظه من ثقافة عصره حظاً وافراً، فقد أحاط بسائر علوم وقته، وانعكس ذلك على تفسيره، فجاء بحره مرآة لثقافته الواسعة.

(١) المصدر السابق ص ٢٣.

(٢) الفهرسة / ٢٩.

(٣) الفهرسة ٧٦.

(٤) الفهرسة / ١٠١.

شيوخه :

تتلمذ شيخنا أبو العباس على كثير من علماء عصره، وأثبت هنا تعريفاً بأهم شيوخه، الذين اتصل بهم أكثر من غيرهم، واشتهر بالأخذ عنهم.

١- الفقيه القاضي عبد الكريم بن قريش [ت- ١١٩٧هـ] (١) أول من تتلمذ عليه ابن عجيبة بتطوان، ترجم له داود في تاريخه قائلاً: (الإمام العالم، الفقيه المدرس، الخطيب، كان رحمه الله مشاركاً في كثير من الفنون، وكان يستظهر مختصر خليل حفظاً، ودارت عليه الفتوى في زمانه بتطوان. تولى قضاء طنجة قهراً، فأظهر العدل وحمدت سيرته، وكان كما يقول تلميذه ابن عجيبة: (ملجأ الناس في الفتوى والشفاعة عند الولاية) مات في الحجاز سنة (١١٩٧هـ) ويعتبر ابن قريش أحد الأساتذة الذين أكثر مفسرنا الأخذ عنهم (٢).

٢- الفقيه الشيخ (أبو الحسن علي بن أحمد بن شطير الحسني) [ت- ١١٩١هـ] (٣) نعته داود نقلاً عن أزهار البستان، فقال: (الفقيه الإمام المحدث العالم النحرير، كان رحمه الله فقيهاً نحويًا محدثاً ذا ورع تام) درس البخاري والألفية، ومختصر خليل، وشمائل الترمذي، بتطوان، وكان كما يقول ابن عجيبة: (صابراً لإلقاء الدرس، ذا عناية بالعلم، متواضعاً متقشفاً، يلبس الخشن من الثياب، على طريقة السلف الصالح). أخذ عنه مفسرنا بتطوان ألفية ابن مالك ومختصر خليل، وغير ذلك.

٣- الفقيه العلامة (أبو عبد الله محمد بن الحسن الجنوي الحسني) [١١٣٥ - ١٢٠٠هـ] (٤) أحد أعلام تطوان وزهادها، وأشهر أساتذة ابن عجيبة، (الشيخ الإمام، المحقق، المتقن، الفهامة، العارف بالله الأمين المعروف بالصلاح والدين المتين)، هكذا حلاه مخلوف في (شجرة النور)، ووصفه تلميذه ابن عجيبة (بالإمام الحبر الهمام مفتي الأنام، وأحد أئمة الإسلام: وخاتمة المحققين، وشمس المدققين). كان مشاركاً في الأصول والفروع يحرر المسائل ويدققها، ولا يرضى بالتقليد في شيء من علومه، وكان ملجأ الناس في حل المشكلات، تأتي الفتاوى إليه من أقطار المغرب، كما كان متبحراً في علوم التصوف، مطلعاً على غالب فروعه ومسائله، وكان يفر من الشهرة وملاقة السلطان. لازمه شيخنا ابن عجيبة ملازمة تامة، حتى توفي الجنوي سنة ١٢٠٠هـ، بعد أن أخذ عنه تفسير القرآن، والبخاري مرتين، سماعاً، وبعضه شرحاً، وكذلك مسلم ومختصر خليل السبكي، وورقات الخطاب في أصول الفقه للإمام الجويني، وفي علوم التصوف أخذ عنه الرسالة القشيرية، وحكم ابن عطاء، وأصول الطريقة، والنصيحة الكافية، للشيخ زروق.

(١) انظر في ترجمته: تاريخ تطوان ٩٦/٣ ومخطوط أزهار البستان في طبقات الأعيان، لابن عجيبة/ ٢١٣، والفهرسة، لابن عجيبة / ١١.

(٢) راجع الفهرسة، لابن عجيبة / ١١. (٣) انظر في ترجمته: تاريخ تطوان (٩٦-٩٥/٣) والفهرسة/ ٣١.

(٤) انظر: شجرة النور الزكية/ ٧٧٥، تاريخ تطوان (٩٦/٣) مخطوط أزهار البستان / ٢١٧.

٤ - العلامة المحدث (أبو عبد الله محمد التاود بن الطالب بن سودة المري) [١١١٦ - ١٢٠٩ هـ] (١) الإمام الهمام، شيخ الإسلام، وعمدة الأنام، وخاتمة المحققين الأعلام، وهلال المغرب وقُدوته وبركته. هكذا حلاه صاحب شجرة النور، وقال عنه الحافظ الزبيدي:

ومنهم محمد بن الطالب التاودي العدل ذو المواهب

رئيس قاس، كاشف الغيوم وعالم المنطوق والمفهوم

إليه في بلاده يُشار عليه في المعارف المدار

انفرد بالإمامة في الحديث، كما كان مُقدِّماً في التفسير، والفقه، والتصوف،، والكلام، والمنطق،، والأصول، قال عنه الكتاني في فهرسته: (لا أعلم أحدا ممن ينتمى إلى العلم بالمغرب، إلا وله عليه مدة التعليم، إما بواسطة أو بغير واسطة أو بهما معا)، وحلاه تلميذه ابن عجيبة في أزهاره (بشيخ الجماعة، وملحق الحفداء والأجداد) أخذ عن أحمد مبارك اللطفي، وابن عبد السلام بناني، ومحمد جسوس، وغيرهم، ومن شيوخه بمصر، الشيخ العيدروس، وحسن الجبرتي، وأبو الحسن العدوي. وكانت له رحلات لتدريس العلم بمصر والحجاز، فأقرأ بالأزهر الموطأ، فتسارع - كما يقول كلون - الناس للأخذ عنه لما رأوا من حفظه وإتقانه، وحضره أعيان المذاهب الأربعة، وكبار مصر وصلحاؤها، كالشيخ الدردير والحافظ الزبيدي.

ومن تأليفه المفيدة: (زاد المجد الساري إلى قراءة صحيح البخاري) في نحو أربعة مجلدات، وحاشية على تفسير ابن جزى، وشرح الأربعين النووية و(المنحة الثابتة في الصلاة الفائقة) و(طالع الأمانى على مختصر الشيخ الزرقاني) وغير ذلك كثير. أخذ عنه شيخنا ابن عجيبة صحيح البخاري وصحيح مسلم، وحصل منه على إجازة مطلقة عامة (٢).

٥ - الحافظ أبو عبد الله الطيب بن عبد المجيد بن كيران (١١٧٢ - ١٢٢٧ هـ) (٣) أحد أساتذة ابن عجيبة بقاس، قال عنه مخلوف في شجرة النور: (الإمام، الحامل لواء المعارف والعرفان، العلامة المتفطن في العلوم، الحامل راية المنثور والمفهوم)، وقال عنه صاحب إمداد ذوي الاستعداد: (أعجوبة الزمان في الحفظ والتحصيل والإتقان)، أخذ عن محدث عصره التاودي بن سودة، وبناني، وجسوس، وعنه أخذ عبد القادر الكوهن وغيره كثير، وكان يحضر مجلسه السلطان فمن دونه، درس التفسير في القرويين، فكان يستحضر أقوال المفسرين جميعاً، ويقابل بينها ويناقشها، ويرد الزائف منها بالدلائل القوية والحجج البينة، كما كان له في العربية باع طويل، ونظم سديد، له

(١) انظر: شجرة النور/ ٣٧٥، فهرس الفهارس ٢٥٨/١ مخطوط أزهار البستان/ ٢١٨.

(٢) نص الإجازة في الفهرسة ص ٣٥ - ٣٦.

(٣) انظر (فهرس الفهارس للكتاني (٨٤٨/٢)، النبوغ المغربي لكلون ٢٢٥/١، شجرة النور الزكية/ ٣٧٦، مخطوط إمداد ذوي الاستعداد للكوهن/ ٥.

تأليف مختلفة منها: تفسير القرآن، غير أنه لم يتمه، قال عن تفسيره عبدالقادر الكوهن: لو تم لكان تمام الأمانة، لكن أخرجت مؤلفه المتية. له أيضا حاشية على كل من صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن النسائي، وله شرح ألفية العراقي في علم الحديث، وشرح حكم ابن عطاء الله، له كتب أخرى تنيف على العشرين.

٦ - العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بنيس الفاسي (دارا ومنشأ) [١١٦٠ - ١٢١٣ هـ] (١) (الحافظ العمدة المحقق، الجامع لشتات العلوم والمعارف والمنطوق والمفهوم) هكذا حلاه صاحب شجرة النور، وقال عنه تلميذه ابن عجيبة في أزهاره: (له مشاركة في الفنون واختص بعلم الفرائض، وكان الملجأ بفاس في حل مشكلاته) أخذ عن الشيخ محمد جسوس، وعبد الرحمن المنجرة ومحمد عبد السلام الفاسي، وحج ولقي أعلاماً واستفاد وأفاد، وأخذ عنه السلطان سليمان، وحمدون بن الحاج، وعبد القادر الكوهن، وغيرهم كثير. له مؤلفات طيبة منها: (بهجة البصير في شرح فرائض مختصر خليل) و (لوامع أنوار الكوكب الدر في شرح همزية البوصيري). و (تحصيل ما للأئمة الأعلام في مسائل الحيازة الدائرة بين الحكام). أخذ عنه شيخنا ابن عجيبة علم الفرائض وكتاب التسهيل لابن مالك، وحصل منه على إجازة عامة (٢).

٧ - العامة الصالح أبو عبد الله محمد بن علي الورزازي (٣) من شيوخ ابن عجيبة بتطوان ترجم له صاحب فهرس الفهارس قائلا: (الفقيه العلامة الحجة البركة العارف بالله). أخذ عنه شيخنا تلخيص المفتاح في البيان، وجامع الجوامع في الأصول، وقد حصل منه ابن عجيبة على إجازة مطلقة (٤) ولم تذكر المصادر تاريخ وفاته إلا أن إجازته لابن عجيبة مؤرخة في سنة ١٢١٤ هـ.

عقيدة ابن عجيبة :

قبض الله - عز وجل - لشيخنا له بيعة طيبة، نشأ فيها على عقائد أهل السنة والجماعة، فشيخنا سني العقيدة، يؤمن بكل ما كان عليه السلف الصالح، ويبرأ من كل ما يخالف ماكانوا عليه. وفي أكثر من موضع من مؤلفاته يقرر ﷺ : (أن أحسن المذاهب في الاعتقاد هو مذهب السلف، من اعتقاد التنزيه، ونفي التشبيه، وتفويض المتشابه، والوقوف مع ما ورد كما ورد، مالم يحتاج إلى تقييد، بما ينفي شبهته من غير زائد) (٥).

(١) انظر: اليواقيت الثمينة للأزهري / ٢٥٤ سلوة الأنفاس ١/ ٢٠٤. شجرة النور / ٣٧٤ أعلام الزركلي ٦/ ١٥. مخطوط أزهار البستان / ٢١٩.

(٢) نص الإجازة في الفهرسة ص / ٣٦.

(٣) انظر فهرس الفهارس ٢/ ١١١٢.

(٤) نص الإجازة في الفهرسة / ٣٧.

(٥) الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية - ٨٣.

وفى تفسيره مواقف تبرز عقيدته السنية، ومن ذلك رده القوى على الفرق المخالفة، ودحض آرائهم، كلما عرضت مسألة من المسائل الخلافية، وإبراز رأى أهل السنة فيها.

وقد خص رحمته الله إحدى رسائله ببيان ما يدين به، وهى (رسالة العقائد)، ومن أقواله فى هذه الرسالة لأحد مريديه: (عليك أن تعتقد أن الله موجود قبل الأكران، قديم لا أول له، أزلى لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدي لا نهاية له.. وأنه ليس بجسم مصور، ولا جوهر محدود مقدر، وأنه لا يماثل الأجسام، لا فى التقدير ولا فى قبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر، ولا تحله الجواهر، ولا بعرض، ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجوداً، ولا يماثل موجود، وليس كمثله شيء، ولا هو مثل شيء، وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأنظار، ولا تحيط به الجهات. هو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد، لا يماثل قرينه قرب الأجسام، كما لا تماثل ذاته ذوات الأجسام، وأنه لا يحل فى شيء، ولا يحل فيه شيء، تعالى عن أن يحويه مكان، كما تقدس عن أن يحده زمان..)^(١) وفى قضية الاستواء على العرش يقول: (عليك أن تعتقد أن الله مستو على العرش، على الوجه الذى قاله، وبالمعنى الذى أراده، استواء منزهاً عن المماساة والاستقرار، والتمكن والحلول والاشتغال، لا يحمله العرش بل العرش، وحملته محمولون بلطائف قدرته، ومقهورون فى قبضته، وهو فوق العرش وفوق كل شيء)^(٢).

تصوفه

بعد أن نال الشيخ ابن عجيبة الحظ الأوفر، والنصيب الأكبر من علوم عصره؛ العقلية والنقلية، وحصل منها ما جعله حائزاً لرئاسة العلم فى بلاده، حبيب إليه سلوك طريق التصوف، وواكب فى هذا الوقت ظهور حركة الشيخ العربى الدرقاوى، مجدد الطريق الشاذلى فى الألف الثانى، ووجد الشيخ ابن عجيبة فى الدرقاوى شيخاً استجمع آداب الرائد المرسى، فاتصل بالشيخ محمد البوزيدى الغمارى، التلميذ للشيخ الدرقاوى، وأخذ عنه الطريقة الدرقاوية الشاذلية. وقد عقد شيخنا رحمته الله فصلاً كاملاً فى فهرسته^(٣)، سجل فيه تجربته الفريدة فى تصوفه ومجاهداته، وهى مجاهدات لا يطيقها إلا الصادقون المخلصون، وسرعان ما أثمرت مجاهداته المخلصة. وفاضت بحار علومه، وأشرقت فى صدره أنوار العرفان، ووقع له الفتح الكبير، والمدد الصافى الغزير.

وأعطى شيخنا مرتبة الإمامة والافتداء، والتربية، والتكميل، وكان له فى ذلك باع طويل. يقول عنه الشيخ الكوهن: (كان نظره إكسيراً، إذا أتاه أو التقى معه من يعرفه، يرقيه فى ميدان حسدات الأبرار سيئات المقربين، حتى كثرت على يديه الأتباع والمريدون، وحصل لهم تنوير الباطن، ونالوا مقامات العارفين)^(٤). ويقول عنه العسكرى: (كان حجة الطائفة الدرقاوية مبيناً لأحكامها، وناشراً لأعلامها، سبر على علومها حتى صار ينبوعاً لشموسها، وأقمارها ونجومها)^(٥).

(٢، ١) مخطوط رسالة العقائد ص ٨١ - ٨٢.

(٣) انظر الفهرسة ص ٥٣ وما بعدها.

(٤) جامع الكرامات العلية - ١٦٣.

(٥) م. طبقات أصحاب الدرقاوى - ١٤٢.

ويقول الكوهن أيضاً : (لقد نال مانال وتكلم على أسرار أهل الكمال، فأبدى علوماً غريبة، وأسراراً عجيبة، وأجمعت على ولايته أهل المغرب بأسرها،)^(١) وفي موضع آخر يقول : (.. أعطى ناطقة أسرار أهل الله، وأدرك مقامات العارفين بربهم حتى عد قطب الزمان، وأوحد الأوان، وتكلم بما أبهر عقول الأعيان ..)^(٢).

شيوخ ابن عجيبة في التصوف :

سلك ابن عجيبة الطريق الصوفي على يد رجلين :

الأول : الشيخ الدرقاوي^(٣) : وهو (أبو المعالي العرب بن أحمد الحسني) الشهير (بالدرقاوي) نسبة إلى جده محمد بن يوسف الملقب بأبي درقة؛ (لدرقة كبيرة كانت له يتوقى بها في الحروب) . وصفه الكوهن (بقدوة أهل الكمال ومرشد السالكين إلى أعلى المقامات والأحوال، الإمام الهمام)، وحلّاه العسكري (بالعارف الأكبر، والقطب الأشهر) وقال عنه صاحب السلوة: (كان من العارفين بالله، الدالين بأقوالهم وأفعالهم وجميع أحوالهم على الله، جامعاً لمحاسن الشيم والأخلاق) . وقال عنه الأزهرى: (وكان آية في المعرفة بالله) ولد ربيع الثاني عام ١٥٥٠ هـ، بقبيلة بني زروال بشمال المغرب، واشتغل بقراءة العلم بفاس، ثم لقي الشيخ على الجمل وسلك على يديه .

أسس الطريقة الدرقاوية الشاذلية، وتخرج على يديه عدد لا يحصى من الشيوخ، أرباب التمكين والرسوخ، قال الشيخ (ابن سودة المري) : ما توفي مولانا العربي، حتى خلف نحواً من الأربعين ألف تلميذ، كلهم متأهلون للدلالة على الله سبحانه). توفي رحمه الله في صفر الخير من عام ١٢٣٩ هـ وله من المؤلفات :

– الرسالة، وتسمى (بشور الهدية في مذهب الصوفية) قال عنها ابن إدريس الكتاني: (رسائله نفعا الله به من أنفع الرسائل للمريد، وأدلى على كيفية السلوك والتجريد، لا يستغنى عن مطالعتها سالك) .
– جواهر القرطاس .
– مناقب الشيخ على الجمل .

الثاني : الشيخ البوزيدي^(٤) : هو محمد بن الحبيب أحمد البوزيدي الحسني، من قبيلة غمارة، بشمال المغرب، والتي ينتسب إليها أيضاً أبو الحسن الشاذلي، التقى بالدرقاوي، ولازمه مدة ست عشرة سنة، ويعد البوزيدي أقرب أتباع الدرقاوي إليه . كان رحمه الله آمياً لا يكتب ولا يقرأ، ومع ذلك أعطاه الله مالا يخطر بالبال من العلوم والأسرار، وله كتاب «الآداب المرضية في طريق الصوفية»، يقول الكوهن عن كتابه هذا، من يطلع عليه

(١) الحسن الكوهن، طبقات الشاذلية / ٢٤٠ .

(٣) انظر: في ترجمته (مخطوط سلوة الأنفاس ١٧٢/١ اليواقيت الثمينة / ٢٥٤ مخطوط، أصحاب الدرقاوي ص ٦١، طبقات الشاذلية / ٢٠٣، الطريقة الشاذلية وأعلامها / ١٢٩) .

(٤) انظر في ترجمته: طبقات الشاذلية للكوهن / ٢٤٠، مخطوط أصحاب الدرقاوي / ١٢٥، إشكالية إصلاح الفكر الصوفي ١ / ٤٨ .

يحكم بأن البوزيدى واحد الزمان، وشيخ أهل العرفان، وله أيضا القصيدة الثانية فى السلوك، والتى شرحها تلميذه ابن عجيبة، توفى رحمه الله فى (١٢٢٩هـ) ومقامه فى (مستغانم) من بلاد وهران بالجزائر.

تخرج على يديه عدد كثير من فضلاء أهل الله، يقول الكوهن: «ولو لم يكن من تلاميذه إلا سيدى ابن عجيبة الحسن لكفى. مع أنه تخرج من تلاميذه جملة فضلاء من أهل الله، لا يحصرهم عدد، كلهم على قدم المعرفة وفى غاية التمكن، ومن أقواله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأكرامه أعظم من الإستقامة ظاهرا وباطنا لأن الكرامات الحسية تكون عند استقامة الظاهر دون استقامة الباطن، أما بعد استقامة الباطن والظاهر، فلا يكون إلا الكرامات المعنوية، وكل من ظن أن الولاية شىء زائد على الاستقامة فهو جاهل بالولاية»^(١).

على مثل هذه التعاليم نشأ شيخنا أو العباس، وبين الدرقاوى والبوزيدى عاش حياته الصوفية العملية، حتى فتح له على أيديها، ونال ما نالت الرجال، وفى ذلك يقول: (والله ما عرفنا قلوبنا ولا ذقنا حلاوة المعانى حتى صحبتنا الرجال أهل المعانى)^(٢).

ثناء العلماء عليه:

يحظى شيخنا فيما كتب عنه من تراجم بألقاب وأوصاف، تنم عن تقدير له، وعرفان بفضلته، وتشير إلى ما بلغه من مقام رفيع فى العلم، ومرتبة عالية فى المعرفة بالله، وتشهد بما رزقه الله من معارف إلهامية، أدهشت العقول وأثارت الإعجاب، فيصفه الكوهن فى جامع المرامات بـ (الشريف الحسيب، قطب دائرة الولاية الكبرى، ومنبع أسرار أهل الحقيقة، شيخ الطريقين، وعمدة الفريقين، ولى الله الأكبر، وغوثة الأشهر، كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهل التمكين)^(٣).

أما العسكرى فيصفه بـ (العلم المفرد، يتيمة هذا العقد، عديم النظير فى أمثاله. جبل النية والصحبة والصدق، وخرق العادات والسير الحميدة، الذى لا يوجد فى وقته من نسيج - والله - على منواله، مؤلف التأليف العديدة، ومقيد العلوم الغريبة المفيدة، العالم العلامة، الصوفى المشارك، الفهامة العارف المحقق الجليل، الشيخ الكامل الجليل، الشريف البركة، ولى الله تعالى...)^(٤).

وذكره الأزهرى فى (البواقيت الثمينة فى أعيان مذهب عالم المدينة) وحلاه بقوله: (العالم الحجة الفهامة البارع الصوفى، الجامع بين الشريعة والحقيقة)^(٥) كذلك ذكره مخلوف فى (شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية)، وأعلى شأنه، ووصفه بقوله: (العلامة، المؤلف، المحقق، الفهامة، البارع، المدقق)^(٦).

(١) إشكالية اصلاح الفكر ١/ ٤٩.

(٢) إيقاظ الهمم / ٤١٣.

(٣) جامع الكرامات العلية ١٦٣.

(٤) مخطوط طبقات أصحاب الدرقاوى ورقة ١٤٢.

(٥) البواقيت الثمينة ١/ ٧٠.

(٦) شجرة النور / ٤٠٠.

مؤلفاته

يقول الكوهن عن مؤلفات ابن عجيبة: (تأليفه - عليها لوائح نفثات أهل المعرفة الكُمل، فإنه أُعطي ناطقة أسرار أهل الله، وكلامه عال، أحل مشكلات القوم، وفك طلاسم أسرارهم، وتكلم بما أبهر عقول الأعيان) (١).

وقد ألف رحمته في التفسير والحديث والفقه واللغة، أما أكثر مؤلفاته ففي التصوف. وتبلغ حصيلة ما كتبه ما يزيد على خمسة وأربعين تأليفاً، بعضها كبير في مجلدات، وبعضها متوسط، وبعضها صغير الحجم غزير العلم، وجل ذلك لا زال مخطوطاً، لم يعرف نور الطباعة بعد.

وأورد فيما يلي ثبثاً بأسماء مؤلفاته، مرتبة حسب الموضوع الرئيس للكتاب، مع تعريف موجز به، وأماكن وجوده، وتاريخ تأليفه، ما أمكن ذلك (٢).

أولاً - التفسير والقراءات:

١ - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد. وسأفرد له الكلام فيما بعد.

٢ - التفسير الكبير للفتاحة: يقع في (٢٦٨) صفحة، وقد صنف هذا التفسير قبل تصنيفه للبحر المديد، كما هو واضح من كلامه، في آخر تفسير الفتاحة الكبير، حيث قال: (ويلو إن شاء الله تفسير سورة البقرة)، ولكن ناسخ المخطوطة قال في تعقيبه: قد جعل صاحب هذا التفسير رحمته تفسيره هذا - أي: التفسير الكبير للفتاحة - تفسيراً مستقلاً، ثم أنشأ تفسيراً آخر مختصراً، بلى عليه تفسيره (البحر المديد). وقد انتهى نسخه في عام ١٢٣٣ هـ، على يد عبدالغفور بن التهامي.

٣ - التفسير الوسيط للفتاحة: ذكر صاحب الإصلاح (٣) أنه يقع في ١٧ صفحة، وتوجد منه نسخة تحت رقم (١٤٨ ك) خزانة الرباط، تم تحريرها سنة ١٢١٣ هـ.

٤ - التفسير المختصر للفتاحة: توجد منه مخطوطة بدار الكتب المصرية، ويقع في ورقتين، وانتهى ابن عجيبة منه في يوم الثلاثاء، خامس ربيع الثاني سنة ١٢١٩ هـ.

٥ - الدرر المتناثرة في توجيه القراءات المتواترة: وهو تأليف - كما قال ابن عجيبة - (٤) يشتمل على آداب القراءة، والتعريف بالشيوخ العشرة ورواتهم، وتوجيه قراءة كل واحد منهم، وفيه عشرون كراسة.

(١) الحسن الكوهن: جامع الكرامات العلية / ١٦٤.

(٢) اعتمدت في حصر مؤلفات الشيخ ابن عجيبة على المصادر الآتية: الفهرسة / ٣٨ - ٣٩، التصور والتصديق للشيخ أحمد الصديق / ٢١، فهرس المخطوطات، العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالمغرب (القسم الثالث، الجزء الأول)، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، لعبدالعزیز بن عبدالله (٢/٤٥)، وما بعدها، إصلاح الفكر الصوفي للأستاذ/ محمد الصغير (١/١٧٤ - ١٨٤) فهرس المخطوطات بدار الكتب المصرية، فهرس معهد المخطوطات (٢/٤٥) (١/١٧٧).

(٣) إصلاح الفكر الصوفي / ١٧٧.

(٤) الفهرسة / ٣٨.

٦ - الكشف والبيان في متشابه القرآن : قال العلامة داود - الذى وقف على أوراق من هذا الكتاب - إنه آخر كتاب ألفه ابن عجيبة، بناء على ما ذكره ناسخ المخطوط، ولذلك لم يتم تأليفه.

ثانيا - الحديث والأذكار النبوية :

٧ - حاشية على الجامع الصغير للسيوطي : فرغ من تأليفها : أواسط شعبان عام ١٢٢٤هـ، وتوجد منه نسخة خطية بالخرانة العامة بالمغرب، تحت رقم (١٨٣١د) تم كتابتها فى عام ١٢٥١هـ .

٨ - أربعون حديثاً في الأصول والفروع والرفائق : ذكره فى الفهرسة.

٩ - الأنوار السنية في الأذكار النبوية : فرغ من تحريرها سنة ١٢٠٥هـ ومنها مخطوطة بمكتبة تطوان تحت رقم ٨٥٣م، ونسخة أخرى بالخرانة العامة بالمغرب تحت رقم (٢١٣٤د) .

١٠ - الأدعية والأذكار المحقة للذنوب والأوزار : فرغ من تحريرها سنة (١٢٢٢هـ) ومنها مخطوطة بتطوان تحت رقم (٢٧٤ ق.م) .

ثالثا - الفقه والعقائد :

١١ - حاشية على مختصر خليل : ذكر ابن عجيبة أنه لم يقمه .

١٢ - رسالة في العقائد والصلاة : منها مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت (مجاميع شنقيطى ٤/٧) ، فرغ منها سنة (١١٩٩هـ) ، وهى رسالة صغيرة الحجم، لا تتعدى عشر صفحات، ولكنها غزيرة العلم .

١٣ - تسهيل المدخل لتنمية الأعمال بالنية الصالحة عند الإقبال : وهو تأليف فى النية وأحكامها . فرغ منه سنة (١١٩٦هـ) منه نسخة بتطوان تحت (٨٧٢ ق.م) .

١٤ - سلك الدرر في ذكر القضاء والقدر : ألفه الشيخ زمن الوفاء الذى اجتاح تطوان فى عام (١٢١٤هـ) ويقع فى ٢٨ صفحة، وانتهى الشيخ من تأليفه : زوال يوم الجمعة، ثالث شوال (١٢١٤هـ) ومنه مخطوطة بالخرانة العامة بالمغرب تحت (١١٤٨ك) .

رابعا - اللغة :

١٥ - الفتوحات القدوسية في شرح المقدمة الآجرومية : وهو مؤلف شرح فيه شيخنا مقدمة ابن آجروم النحوية، شرحاً جمع فيه بين النحو والتصوف، فيذكر عبارة المؤلف، ويشرحها بمقتضى علم النحو ويتبعها بالمعنى

الإشاري، فيندهش القارئ - كما يقول العلامة (عبدالله الصديق)^(١) - لحسن تنزيل عبارة المتن على المعاني الصوفية، ويخيل إليه أن ابن أجروم، ألف مقدمته في علم التصوف. توجد منه نسخة تحت رقم (٢٠٠٤/د/١: ق.م الخزانة العامة بالرباط، عدد صفحاتها (٢١٩) ووافق الفراغ من تأليفه بعد ظهر الإثنين (١٨ ربيع النبوي عام ١٢٢٣هـ).

وقد قام الشيخ عبدالقادر بن أحمد الكوهن، المتوفى بالمدينة عام (١٢٥٤هـ) بتجريده مما يتعلق بالنحو، واقتصر على الإشارات الصوفية، وسماه: (منية الفقير المتجرد وسمير المريد المتفرد) وقد طبع هذا التجريد بإستانبول عام ١٣١٥هـ.

خامساً - التراجع:

١٦ - أزهار البستان في طبقات الأعيان: ذكره مخلوف في شجرة النور تحت عنوان: (أزهار رياض الزمان في طبقات الأعيان)، وذكره صاحب الإصلاح تحت عنوان: (أزهار البستان في طبقات العلماء والصلحاء والأعيان)، وقد ترجم فيه الشيخ لأرباب المذاهب الفقهية، والتعريف بمشاهير أصحاب مذهب الإمام مالك، من زمانه إلى زمان ابن عجيبة، على ترتيب وجودهم، كل قرن على حدة، ثم أتبعهم بذكر النحويين والمحدثين وبعض الصوفية. وقد ذكر ابن عجيبة أنه لم يتمه رغم حجمه الكبير، وهو مؤلف جدير بالنشر، توجد منه نسخة مخطوطة في خزانة الرباط تحت رقم (٢٨٦ك) ومنه صورة في معهد إحياء المخطوطات بالقاهرة، تحت رقم (١٣٥٢ تاريخ).

وقد استفدت كثيراً من هذه الصورة في ترجمة بعض أساتذة المفسر، إلا أن كثيراً من صفحاتها فاسدة التصوير لا تُقرأ.

١٧ - الفهرسة: وهي سيرة الشيخ الذاتية، انتهى من تنقيحها سنة (١٢٢٤هـ) وإن كان قد بدأ تأليفها قبل ذلك بمدة. رأت نور الطباعة أول مرة باللغة الفرنسية، حيث ترجمها المستشرق الفرنسي المسلم «جان لوى ميشون»، ثم صدرت بمصر باللغة العربية سنة ١٩٩٠م، بتحقيق د/ عبدالحميد صالح.

سادساً - التصوف:

١٨ - الأنوار السنية في شرح القصيدة الهمزية: ملها نسخة مخطوطة بنطوان تحت رقم (١٣١) وتتكون من (٢٣٠) صفحة، وفرغ من تأليفها عام (١١٩٩هـ).

١٩ - الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية: وهو شرح كبير لمنظومة ابن البنا السرقسطي، في آداب وقواعد الصوفية، فرغ من تبليغه أواسط رمضان سنة (١٢١١هـ). وقد طبع الكتاب أكثر من مرة، آخرها طبعة عالم الفكر ١٩٨٣م. بتحقيق الأستاذ عبدالرحمن حسن محمود.

(١) في كتابه بدع التفاسير، ص ٢٢٢.

٢٠ - اللوائح القدسية في شرح الوظيفة الزروقية: فرغ من تأليفها سنة (١١٩٦هـ) ومنها نسخة مخطوطة تحت (٣٠١م تطوان)، وفي الهيئة العامة للكتاب بمصر نسخة مخطوطة كتبت سنة (١٢٠٠هـ) تحت رقم (١/٨١٦م مجاميع) باسم اللوائح القدسية.

٢١ - إيقاظ الهمم في شرح الحكم: أشهر كتب الشيخ، وأشهر شروح حكم ابن عطاء الله، انتهى من تبليضه: ثامن جمادى الأولى سنة (١٢١١هـ) وقد طبع أكثر من مرة في مصر وسوريا، ومنها طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٥م بمراجعة وتقديم محمد أحمد حسب الله.

٢٢ - ديوان قصائد في التصوف: فيه ما يقرب من خمسمائة بيت، ما بين قصائد طويلة ومقطوعات، والديوان ملحق بكتاب الفهرسة المطبوع بتحقيق د/ عبد الحميد صالح.

٢٣ - رسالة في ذم الغيبة ومدح العزلة والصمت: توجد منها نسخة مخطوطة بالهيئة العامة للكتاب بمصر تحت رقم (٣٢٩٩ج) فرغ من تأليفها سنة (١١٩٨هـ).

٢٤ - شرح أسماء الله الحسنى: ذكرها ابن عجيبة في فهرسته وقال: (أفردت لكل اسم بابا كما فعل القشيري في التحبير، توجد منه نسخة خطية بخزانة القرويين تحت رقم (١٥١١)(١)).

٢٥ - شرح بردة الأبوصيري: فرغ منه سنة (١٢٠٣هـ)، وذكر العلامة داود، أنه يقع في ٢٣٨ صفحة.

٢٦ - شرح الحزب الكبير للشاذلي: منه نسخة مخطوطة بتطوان، ضمن مجموعة رقم (٣٠١)، ويقع في ١٤٥ صفحة، وفرغ منه في عام ١٢٠٠هـ.

٢٧ - شرح كتاب الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين: لابن الجزري، المتوفى سنة ٧٣٩هـ، ذكر ابن عجيبة أنه لم يكمله.

٢٨ - شرح القصيدة الخميرية لابن الفارض: أولها: (شربنا على ذكر الحبيب مدامة)، منه نسخة مخطوطة، بالخط المعتاد، بالهيئة العامة للكتاب بمصر ضمن مجموعة رقم (٣٢٩٩ج)، وكان الفراغ من تبليضه: يوم الإثنين، أواسط رمضان سنة (١٢١٣هـ).

٢٩ - شرح القصيدة المنفرجة لابن النحوي: تاريخ التحرير (١٢٠١هـ) مخطوطة تحت (٦/٤٥٧م تطوان) ويقع في ٤٠ صفحة)

٣٠ - شرح القصيدة الهائية في التصوف للرفاعي:

وأولها: (يا مَنْ تَعَاظَمَ حَتَّى رَقَّ مَعْنَاهُ ولا تَرَدَّى رِداءَ الْكِبَرِ إِلَّا هُوَ).

منه نسخة مخطوطة تحت رقم (١٩٧٤ د/٩ق) الرباط، فرغ منه عام (١٢١٣هـ)، ويقع في ٣١ صفحة.

٣١ - شرح الكواكب الدرية في مدح خير البرية : منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت (١١١٧/ شعر تيمور). .

٣٢ - شرح تائية البوزيدي: منه نسخة تحت (١٧٣٦ د/١١ق/الرباط)، وأيضاً تطوان (٨٤٥) ويقع في ٩٥ صفحة، وفرغ منه في يوم الجمعة سادس عشر رمضان (١٢٢١هـ) وأول القصيدة .
أيا مَنْ في بهاء جماله وسرُّ كماله وعزُّ ورفعة .

٣٣ - شرح آخر (مطول) علي تائية البوزيدي: كان الفراغ من تمامه صحوة: يوم الأربعاء ١٤ من ذي القعدة الحرام سنة (١٢٢٢هـ) نسخَه في جمادى الأولى سنة (١٢٣٥هـ) على يد عبدالغفور التهامي. ويقع في ١٢٥ صفحة.

٣٤ - شرح على تائية الشيخ علي بن مسعود الجعيدي التطواني :
وأول القصيدة: (بدأت باسم الله من بعد حمده على نعم لا تُحصى جلت ودقت) .
ألفه سنة (١١٩٦هـ)، ويقع في ٣٥ صفحة، كما ذكر صاحب الإصلاح، نقلاً عن داود في تاريخ تطوان .
٣٥ - شرح رائية البوزيدي في السلوك :

فرغ منه سنة (١٢١٤هـ) كما ذكر صاحب الإصلاح، نقلاً عن داود ويقع في حوالي ٣٠ صفحة .
٣٦ - شرح صلاة ابن العربي الحاتمي : منه نسخة خطية بمكتبة د/ حسن عباس زكي، ويقع في عشر صفحات، وكان الفراغ من تبليغه: يوم الخميس خاتمة جمادى الأولى سنة (١٢١٩هـ) وقد طبع هذا الشرح بالمغرب سنة ١٤٠٢هـ .

٣٧ - شرح صلاة عبدالسلام بن مشيش : توجد نسخ منه تحت أرقام (١٧٣٦ د/الرباط) .
٣٨ - شرح على أبيات (توضاً بماء الغيب إن كنت ذا سر) : المنسوبة للإمام الجديد، وتنسب أيضاً إلى الشيخ ابن عربي الحاتمي . منه نسخة خطية تحت رقم (١٧٣٦ د/الرباط) وهذا الشرح مثبت في كتاب (إيقاظ الهمم في شرح الحكم) . ص ٤٥ : ٤٨

٣٩ - شرح على مقطعة في محبة الله ، للششتري : مطلع المقطعة: (صَحَّ عِنْدِي الْخَيْرُ وَسَرَى فِي سَرَى)
منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة رقم (٣٢٩٩ج) فرغ منها في صفر ١٢١٤هـ .

٤٠ - شرح نظم ما يدل عليه لفظ الجلالة للششتري:

أوله: أَلْفُ قَبْلَ لَامَيْنِ وهَاءُ قَرَّةِ الْعَيْنِ

منه نسخة خطية بالهيئة العامة للكتاب، ضمن مجموعة رقم (٣٢٩٩ ج). انتهى منه يوم الخميس أواسط صفر (١٢١٤هـ).

٤١ - شرح نونية الششتري:

مطلع القصيدة: (أرى طالباً مناً الزيادة لا الحسنى بفكرٍ رمى سَهْمًا فعُدَى به عدنا). منه نسخة خطية بالرباط تحت رقم (١٧٣٦ د/٧) ويقع في ٦٣ صفحة. فرغ منه الشيخ سنة (١٢٢٠هـ).

٤٢ - كشف النقاب عن سر لب الألباب:

فرغ من تبليضه في (١٨ من ذى القعدة سنة ١٢١٩هـ) يقع في ٩ صفحات. منه نسخة خطية في دار الكتب، ضمن مجموعة (٣٢٩٩ ح)، كتبت سنة ١٣٣٥هـ.

٤٣ - معراج التشوف إلى حقائق التصوف: وهو في مصطلحات الصوفية جمع فيه الشيخ نحواً من مائة مصطلح، وفصل موضوعاتها، فرغ منه ١٢٢١هـ، وقد طبع الكتاب في دمشق عام ١٣٥٥هـ - ١٩٣٧ م بمطبعة الاعتدال، بتعليق محمد بن أحمد الحسنى، كما ترجمه المسير (ج.ل. ميشون) إلى الفرنسية.

وفاته:

بعد عمر قضاة في العلم والعمل، توفي الشيخ - رحمه الله - في السابع من شوال سنة ١٢٢٤هـ.

وكانت وفاته في قبيلة (بنى سلمان) بغمارة، حيث كان ابن عجيبة في زيارة لشيخه البوزيدى، فأصابه وباء الطاعون، فتوفي في دار شيخه، متأثراً بهذا الوباء فغسله شيخه وصلى عليه ودُفن بغمارة، ثم نقل إلى تطوان. ولئن وارى القبر جسده الطاهر الكريم، فما وارى علمه وفضله ومعارفه، فلمثل هذا فليعمل العاملون.

منهج ابن عجيبة في التفسير

سار ابن عجيبة في تفسيره على منهج واضح المعالم، فهو يبدأ في تفسير السورة ببيان مكان نزولها، وعدد آياتها، ويذكر الاختلاف في عدد الآيات - إن وجد - مع ذكر مناسبة السورة لما قبلها، وسبب نزولها، - إن وجد - وفضائلها، ومضمونها الإجمالي، ثم يشرع في تفسير الآيات؛ فيبدأ بالشرح اللغوي للكلمات الغريبة، ذاكرًا الإعراب، ثم يبين المعنى المراد معتمدًا في ذلك على القرآن والأحاديث والآثار، وأقوال المفسرين المتقدمين.

وهذه أهم معالم منهج الإمام ابن عجيبة في تفسيره بإيجاز:

١- تفسير القرآن بالقرآن:

ومن ذلك ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ...﴾ (١) فينقل الشيخ - أن الكلمات التي تلقاها آدم هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢)

٢- القراءات:

اهتم الشيخ ابن عجيبة بذكر القراءات المختلفة في الآية، مسجلًا المعنى المترتب على ذلك، وهو في أغلب ذلك ينسب القراءة لصاحبها، وأحيانًا يغفل ذلك، فيبهم، ويقول: «وقرئ بكذا». كما أنه يذكر أحيانًا بعض القراءات الشاذة.

٣- أسباب النزول:

من الواضح في تفسير ابن عجيبة استناده إلى أسباب النزول، ليستعين بها على فهم الآيات. انظر ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (٣)، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (٤) والأمثلة كثيرة جدًا مما يجعل هذا التفسير من أمهات المراجع في علم أسباب النزول.

٤- السنة والآثار:

اعتماد ابن عجيبة على السنة الشريفة في تفسيره للقرآن الكريم سمة واضحة، ومن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبْنِهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَahَكَ وَإِلَahَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...﴾ (٥) يستشهد الشيخ على أن إسماعيل عدُّ من آباء يعقوب مع أنه عمه، بقوله ﷺ: «عم الرجل صنو أبيه»، وقال في العباس: «هذا بقية آبائي».

كذلك جاء تفسير ابن عجيبة حافلًا بنقل الأجلاء من الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم -، وحين تتعدد الروايات عن الصحابة في تفسير كلمة أو آية، فإنه يذكرها، ولا يرجع بعضها على بعض، أو يقدح في شيء منها، وذلك إشارة منه إلى أن معنى الآية يحتمل جميع المعاني.

(٢) الآية ٢٣ من سورة الأعراف.

(٤) الآية ٢٠٤ من سورة البقرة.

(١) الآية ٣٧ من سورة البقرة.

(٣) الآية ١٩٨ من سورة البقرة.

(٥) الآية ١٣٣ من سورة البقرة.

والمتتبع لما أورده المفسر في تفسيره من أحاديث وآثار يتبين:

- أن المفسر لا يلتزم غالباً بتخريج الأحاديث ونسبتها إلى مصادرها.

- من الأحاديث ما أدرجه في سياق الكلام دون أن ينبه إلى أنه من السُّنة .

- يكتفى أحياناً بالقول: وقد ثبت في الصحيح، ويأتى بمعنى الحديث.

- يذكر أحياناً بعض الإسرائيليات، مثل ما ذكره عند تفسير قصة هاروت وماروت. وقد نقل الشيخ هذه الأخبار تأسيساً بمن نقلها من المفسرين السابقين، وهو مقل منها بالنسبة لغيره، وما يذكره من ذلك يصدره غالباً بلفظ «روى» أو «قيل»، مما يشعر بضعف الرواية، ويُعدها عن الصحة، وحبذا خلّو تفسيره من هذه الأخبار.

د - اللغة والنحر: يلاحظ في البحر المديد

- عناية المفسر بالإعراب. وإذا كانت الآية تحتمل أوجهاً من الإعراب، فإنه يذكرها، ويذكر المعنى على اختلاف الأعراب.

- كثيراً ما يتوسع المفسر في الكلام على مسألة نحوية يوضح ويبين، ومن ذلك كلامه الذي عقده لبيان الفرق بين (بلى) و (نعم) عند تفسير قوله تعالى: ﴿بلى من كسب سيئة...﴾ (١).

- عنايته ببيان معنى المفردات القرآنية.

- الاستشهاد بالشعر: اعتمد ابن عجيبة كثيراً على الشعر في بيان المعاني اللغوية، مثل ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ (٢). يقول الشيخ: والأسباب العهود والوصل التي كانت بينهم في الدنيا، يتوادون عليها، وأصل السبب: كل شيء يتوصل به إلى شيء، ومنه قيل للحبل الذي يصعد به: سبب، وللطريق: سبب، قال الشاعر:

ومن هَابَ أسباب المنية يلقيها ولو رام أسباب السماء بسلم

ويلاحظ في البحر المديد أن الشيخ يذكر النص الشعري مجرداً من اسم قائله، باستثناء بعض الأبيات.

هـ - الفقه:

نلاحظ أن الشيخ يتعرض للأحكام الفقهية، إذا مر في تفسيره بأيات الأحكام، وهو في ذلك.

- لا يكتفى غالباً بذكر رأى مذهبه المالكي، بل يقدم رأياً يخالف مذهبه، بناء على قوة الأدلة والحجج.

- أحياناً يكتفى برأى الإمام مالك، ولا يذكر رأى المذاهب الأخرى.

(١) الآية ٨١ من سورة البقرة. (٢) الآية ١٦٦ من سورة البقرة.

مصادره فى التفسير :

- تعد المصادر التى يعتمد عليها المفسر اللبنة الأولى لوضع تفسيره، وأهم مصادر الشيخ ابن عجيبة فى تفسيره هى:
 - تفسير: أنوار التنزيل للإمام البيضاوى .
 - تفسير مدارك التنزيل لأبى البركات النسفى .
 - تفسير التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى الأندلسى .
 - تفسير السيوطى على تفسير البيضاوى، المسماة «نواهد الأبرار وشوارد الأفكار» .
 - حاشية أبى زيد الفاسى على تفسير الجلالين .
- تفسير الكشف والبيان لأبى أسحاق الثعلبى .
- تفسير المحرر الوجيز للإمام ابن عطية .
- تفسير إرشاد العقل السليم للعلامة أبى السعود .

مصادره فى الحديث :

- صحيح البخارى ومسلم . ستن أبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجة وغير ذلك من كتب السنن .
- شروح كتب السنة كفتح البارى، وشرح مختصر ابن جمرة وغيرهما

مصادره فى اللغة :

- الألفية ، والكافية الشافية لابن مالك، والتسهيل لابن هشام .
- كتب معانى القرآن، ككتاب معانى للفراء والزجاج .
- كتب المعاجم كالصاحح للجوهرى والأساس للزمخشري .

التفسير الإشارى

يُعرف الشيخ الزرقانى التفسير الإشارى بأنه: (تأويل آيات القرآن بغير ظاهره، بإشارات خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف، ويمكن التطبيق بينها وبين الظاهر)^(١) .

مفاهيم القرآن لا تتناهى :

يرتكز السادة الصوفية فى ذكرهم لهذا الإشارات والأذواق على أن القرآن الكريم فيه أسرار لا تتناهى، ومعانٍ لا تُحد، وإشارات وراء الظاهر، يفتح الله بها على من يشاء من عباده، ببركة العمل بكتابه، فإن من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم . ومن المنقول عن الشيخ سهل بن عبد الله - رضى الله عنه - قوله: لو أعطى العبد لكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية ما جعل الله فى آية من كتاب الله تعالى من الفهم؛ لأنه كلام الله، وكلام الله صفته^(٢) . وكما أن صفات الله لا تتناهى، فكذلك مفاهيم كلماته لا تتناهى ولا يمكن أن يحيط بها مخلوق . قال تعالى: ﴿ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ..﴾ الآية^(٣) كما

(٢) انظر اللمع للطوسى / ١٠٧ .

(١) مناهد العرفان ٢ / ٧٨ .

(٣) الآية ٢٧ من سورة لقمان .

يستند الصوفية في ذكرهم لهذا الإشارات إلى الحديث النبوي الشريف: «كل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع».

وتعددت أقوال العلماء في معنى الظاهر والباطن^(١) وكلها لا تشير إلى أن القرآن حقيقتين، إحداهما ظاهرة، والأخرى باطنة، بل تعني أن القرآن له حقيقة واحدة، ولكن هذه الحقيقة تتنوع وتختلف بالنسبة للناس. فالناس طبقات؛ منهم الكافر الذي لا يزيده القرآن إلا خساراً، ومنهم المنافق الذي لا يزداد إلا مرضاً، ومنهم المسلم الذي يواجه القرآن الفهم بسيط، ومنهم المؤمن الذي يقرأه بفكر دقيق ووعي عميق، ومنهم المحسن الذي يعبد الله كأنه يراه، فيقرأ القرآن كأنه يسمعه من ربه. وهناك من يقف عند ظاهر اللفظ، وهناك من يطلعه الله على ما تضمنه هذا الظاهر من أسرار وإشارات.

ولقد كان باطن اللفظ القرآني المخزون في ظاهر اللفظ شيئاً معروفاً لدى الصحابة، في زمن الرسول، ﷺ، ومن ذلك: قصة سيدنا عمر بن الخطاب، مع سيدنا عبدالله بن عباس وجلة الصحابة - رضی اللہ عنہم أجمعين - في سؤاله لهم تفسير سورة النصر، وفهم ابن عباس أن ذلك فيه إشارة إلى نعي الرسول - صلى الله عليه وسلم^(٢). الفرق بين مذهب الباطنية ومذهب الصوفية:

فرق كبير جداً بين مذهب السادة الصوفية الراشدين، في فهم إشارات القرآن، وبين ما يقول الباطنية، فالباطنية ومن والاهم يجعلون المراد من النص ليس لفظه الظاهر بمعناه القريب، ولكنهم يعتقدون أن المراد بالذات من النص إنما هو الإشارة التي ينطوي عليها النص، وبذلك تأولوا القرآن، واستخرجوا لأنفسهم أحكاماً وعقائد ليست من الإسلام في شيء على الإطلاق.

أما (السادة الصوفية فهم يعتقدون أن النص على ظاهره مراداً به حقيقة الظاهرة، ولا يحيلون كلام الله تعالى عن وجهه المجمع عليه من الأمة، ولكنهم يرون أن الله يفتح على بعض خواصه بأسرار ودقائق، تزيد على المفهوم العام من النص، ولا تتعارض معه، بل هي تؤيده، وتعتبر إضافة من شرائف المعاني التي تزيد من شرف الظاهر، فهي فتوحات، لا تبطل شيئاً من الأمر والنهي، ولكنها تصفى عليه زينة وجمالاً)^(٣).

ولنستمع إلى صوت حجة الإسلام الغزالي في هذا الشأن إذ يقول: (فالقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أولاً، ليتقى به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط... ولا يجوز التهاون بحفظ الظاهر أولاً، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب...)^(٤).

(١) انظر في بيان معاني الظاهر والباطن (تفسير الألوسي ٧/١، التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي ٢/٢٤٠)

(٢) أخرج القصة البخاري في (التفسير، سورة وإذا جاء نصر الله والفتح).

(٣) مجلة المسلم عدد ربيع الأول عام ١٣٩٥ هـ. مقال «معالم التفسير الصوفي، للإمام الرائد محمد زكي إبراهيم».

(٤) إحياء علوم الدين ١ / ٣٤٣.

ويقول العلامة الألوسي عند تفسير قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ...﴾ (١) ليس ما نحن فيه - أى: التفسير الإشاري - من هذا القبيل - أى: من قبيل التفاسير الباطنية - كما يزعمه المحجوبون؛ لأن ذلك إنما يكون بإنكار أن يكون الظاهر مراداً لله تعالى، وقصر مراده سبحانه على هذه التأويلات، ونحن نبرأ إلى الله عز وجل من ذلك، فإنه كفر صريح، وإنما نقول: المراد هو الظاهر، وبه تعبد الله تعالى خلقه، لكن فيه إشارة إلى أشياء آخر لا يكاد يحيط بها نطاق الحصر، يوشك أن يكون ما ذكر بعضنا منها (٢). ومنقراً في مقدمة تفسير البحر المديد قول الشيخ ابن عجيبة (ولا يصح ذكره - أى التفسير الإشاري - إلا بعد تقرير الظاهر..).

هل الإشارات تفسير؟

التفسير بالمصطلح العلمي التقليدي لا يمكن تطبيقه على إشارات السادة الصوفية؛ لأن الإشارات غير مرتبطة بالخط المنهجي للتفسير، والصوفي نفسه لا يقول بأن ما وقع له من مواجيد ومعانٍ هو تفسير للقرآن، ولكنه قبس من إشراق، وفيض من فتح، لا يتعلق به حكم ولا يرتبط به واجب، ومن ثم فقد أطلق الصوفية على هذه المعاني (إشارات) كما فعل العلامة (ابن عجيبة) والعلامة الألوسي. وإطلاق تسمية (التفسير) عليها يعتبر من قبيل العرف والمجاز. يقول الزركشي في البرهان: (كلام الصوفية في تفسير القرآن، قيل: إنه ليس بتفسير، وإنما هو معانٍ ومواجيد يجدونها عند التلاوة) (٣).

الإشارات في البحر المديد:

أفصح الشيخ عن مراده من تفسيره حين قال: (مرادنا تربية اليقين بكلام رب العالمين). وقد بسط المفسر الحديث في إشاراته عن آداب السلوك، والأخلاق، والمقامات، والثمرات، وقدم لنا من خلال ذلك منهجاً تربوياً صوفياً إسلامياً متكاملًا، يسلكه من أراد أن تصفو روحه، وتزكو نفسه، ويحيا قلبه بنور معرفة الحق تعالى.

- ويلاحظ أن الشيخ ابن عجيبة لا ينظر إلى الخطابات الواردة في القرآن على أنها موجهة إلى أقوام مخصوصين فحسب، وإنما يرى مع ذلك أن الخطاب بهذه الآيات مازال قائماً، يوجه إلى الإنسان في كل عصر وأوان، يقول الشيخ رضى الله عنه: (إذا توجه الخطاب إلى طائفة مخصوصة، حملة أهل الفهم عن الله على عمومهم، فإن الملك إذا عاتب قوماً بمحض آخرين كان المراد بذلك تحذير لكل سامع).

- والشيخ ابن عجيبة باعتباره صوفياً يدعو إلى مقام الإحسان، فإن له قاعدة في إشارته، يقول الشيخ عنها: (اعلم أن قاعدة تفسير أهل الإشارة هي أن كل عتاب توجه لمن ترك طريق الإيمان، وأنكر على أهله، يتوجه مثله لمن ترك طريق مقام الإحسان، وأنكر على أهله).

(١) الآية ٤١ من سورة المائدة. (٢) روح المعاني ٦ / ١٤٧.

(٢) راجع مناهل العرفان للزرقاني ٢ / ٧٨.

وهاكم بعض الأمثلة من إشارات الشيخ :

عند قوله تعالى ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون علي الله ما لا تعملون﴾ (١). يقول الشيخ في إشارة الآية: اعلم أن كثيراً من الناس يعتمدون على صحبة الأولياء، ويطلقون عنان أنفسهم في المعاصي والشهوات، ويقولون: سمعنا من سيدي فلان يقول: من رأنا لا تمسه النار، وهذا غلط وغرور، وقد قال عليه الصلاة والسلام لابنته: «يا فاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئاً اشتر نفسك من الله» وقال للذي قال: ادع الله أن أكون رفيقك في الجنة، فقال له «أعنى على نفسك بكثرة السجود».

وعند قوله تعالى: ﴿قل أتعاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾ (٢).

يقول الشيخ في إشارة الآية: كل من أقامه الحق في جهة، ووجهه إليها، فهو عامل لله فيها، قائم بمراد الله منها، وما اختلفت الأعمال إلا من جهة المقاصد، وما تفاوتت الناس إلا من جهة الإخلاص، فالخلق كلهم عبيد للملك المجيد، وما وقع الاختصاص إلا من جهة الإخلاص، فمن كان أكثر إخلاصاً لله كان أولى من غيره بالله، ويقدر ما يقع للعبد من الصفاء يكون له من الاصطفاء، فالصوفية والعلماء والعُباد والزُهاد وأهل الأسباب على اختلاف أنواعهم، كلهم عاملون لله، ليس أحد منهم بأولى من غيره بالله، إلا من جهة الإخلاص وإفراد القلب لله. فمن ادعى الاختصاص بالله من غير هذه الوجهة فهو كاذب، ومن اعتمد على عمل غيره فهو مغرور، يقال له: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾.

وقد جاءت إشارات الإمام ابن عجيبة جامعة لدرر من المنظوم والمنثور، فقد ضمنها الشيخ أقوال مجموعة كبيرة من كبار الصوفية، كأبي يزيد البسطامي، والجنيد، والقشيري، والشاذلي، وأبي العباس المرسى، وابن عطاء السكندري، وزروق، والدرقاوي، والبوزيدي، وغيرهم. كما أنه ذكر كثيراً من أشعارهم، كشعر ابن الفارض والجيلي والششتري، ونقل حكماً كثيرة من حكم ابن عطاء السكندري وغيره، كما نقل في مواضع عديدة عن لطائف الإشارات للقشيري، وعرائس البيان للشيرازي، وإحياء علوم الدين للغزالي، وغيث المواهب العلية لابن عباد، وبالتالي فقد حفل هذا التفسير بثرات جم من الفكر الصوفي.

(٢) الآية ١٣٩ من سورة البقرة.

(١) الآية ٨ من سورة البقرة.

وصف النسخ

اعتمدت في التحقيق على ثلاث نسخ:

النسخة الأولى : محفوظة في مكتبة السيد الفريق / حسن التهامي . ومنها صورة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٦٢٤٦) مصورات خارج الدار، وهي نسخة قيمة، وتقع في (٢٠٠٩) صفحة . وتتكون من أربعة أجزاء كبيرة:

الأول : من أول مقدمة المفسر حتى آخر تفسير سورة الأنفال - ويقع في (٥٢٠) صفحة، وسقطت من هذا الجزء ملزمة من تفسير سورة الأعراف من (ص١٥٦) إلى (ص١٨٧) . ورقم ميكروفيلم هذا الجزء بدار الكتب: (٤٣١٨٨) .

الثاني : من أول تفسير سورة التوبة حتى آخر تفسير سورة المؤمنون . ويقع في (٥٣٧) صفحة، ورقم ميكروفيلم هذا الجزء (٤٣١٨٥) .

الثالث : من أول تفسير سورة النور حتى آخر تفسير سورة فصلت . ويقع في (٤٥٤) صفحة ورقم الميكروفيلم (٤٣١٨٧) .

الرابع : من أول تفسير سورة الشورى حتى تفسير سورة الناس . وعدد صفحاته (٤٩٨) ورقم الميكروفيلم (٤٣١٨٧) . وتعتبر هذه النسخة الأم لكل النسخ الأخرى، فقد كُتبت في عهد المفسر، وكان الفراغ من تبويبها كاملة في: السادس من ربيع الأول عام (١٢٢١هـ) . ووردت استدراكات على هامش هذه النسخة، مما يفيد أن الشيخ المفسر قد راجعها، وقد أدرجت هذه الاستدراكات في صلب النسخ الأخرى .

وناسخ هذه المخطوطة هو الشيخ «عبد الغفور التهامي»، ناسخ جُل كتب الشيخ المفسر . والمخطوطة بخط مغربي حسن وواضح، ومقاس صفحاتها ٢٠ × ٣٠ سم . والصفحة تشتمل على ٣١ سطراً .

النسخة الثانية : محفوظة في مكتبة الأستاذ الدكتور / حسن عباس زكي . وتتكون من أربعة أجزاء كاملة .

الأول : من أول مقدمة المفسر حتى آخر تفسير سورة الأنعام، ويقع في ٤٢٩ صفحة .

الثاني : من أول تفسير سورة الأعراف حتى آخر تفسير سورة الكهف . ويقع في ٤١٨ صفحة .

الثالث : من أول تفسير سورة مريم حتى آخر تفسير سورة الصافات . ويقع في ٤١١ صفحة .

الرابع : من أول تفسير سورة «ص»، حتى آخر سورة الناس . ويقع في ٤٩٠ صفحة .

وهذه النسخة أقل وضوحاً من النسخة الأولى. وقد تعددت فيها مواطن التحريف وسقوط الكلمات، وغير ذلك من تصحيف وتحريف.

النسخة الثالثة: محفوظة في دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٤١) تفسير تيمور، وتتكون من أربعة أجزاء، إلا أن الجزء الرابع غير كامل.

الجزء الأول: من أول مقدمة المفسر حتى تفسير قوله تعالى: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ الآية ١٤٧ من سورة النساء. ويقع هذا الجزء في (٢٤١) لوحة، وكل لوحة تشتمل على صفحتين. ورقم ميكروفيلم هذا الجزء بدار الكتب (٢٧٢٨٦).

الجزء الثاني: أوله: تفسير قوله تعالى: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء﴾ الآية ١٤٨ من سورة النساء، وآخره: تفسير قوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ الآيتان ٩١ - ٩٢ من سورة التوبة، ويقع هذا الجزء في (٢٠٠) لوحة. ورقم الميكروفيلم (٣٨٠٦٦).

الجزء الثالث: أوله تفسير قوله تعالى: ﴿إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء...﴾ الآية ٩٣ من سورة التوبة. وآخره: آخر تفسير سورة الكهف ويقع في (٢٤٧) لوحة. ورقم الميكروفيلم (٣٧٢٨٦).

الجزء الرابع: أوله: تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ الآية ٤٦ من سورة العنكبوت إلى آخر سورة الصافات. ثم من أول سورة الشورى، حتى تفسير قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز الحكيم﴾ الآية ٩ من سورة الزخرف. وبين هذا الجزء وبين سابقه سقط كبير وملازم مفقود.

ويقع الموجود من هذا الجزء في (١٦١) لوحة. ورقم الميكروفيلم (٢٩١٧٢) ونسخت هذه المخطوطة عام (١٢٩٩هـ)، ومقاس صفحتها ١٢ × ١٨ سم، والصفحة تشتمل على ٢٨ سطراً. وكتبت بخط مغربي. كما كتبت الآيات وأسماء الأعلام بلون مخالف. لم يظهر في التصوير. وهذه النسخة مثل سابقتها في تعدد مواطن التحريف والنقص والتصحيف.

منهج التحقيق

- (١) اعتمدت في التحقيق على ثلاث نسخ، وبعد دراستها، والتزام المقابلة بينها جميعاً بكل دقة، اعتمدت النسخة المحفوظة بمكتبة السيد الفريق / حسن التهامي أصلاً، وذلك للاعتبارين الآتيين:
- أنها نسخة المؤلف.
- أنها أكثر النسخ ضبطاً ودقة ووضوحاً وتاماً.
ومن ثم حررت النص، بحيث يظهر على صورة مطابقة للنسخة المذكورة.
- (٢) تغاضيت عن الإشارة إلى الفروق الموجودة في النسخ الأخرى، كالسقط والتصحيف، وذلك لئلا أثقل الكتاب بكثرة الهوامش التي لا ضرورة لها، ولئلا يتضخم حجم الكتاب. أما الفروق الجوهرية فأشرت إليها، وهي قليلة جداً.
- (٣) حرصت أشد الحرص على تدبر النص، مستعيناً بأصول المؤلف ومصادره في تفسيره. ونبهت في الهامش على ما إذا كان النقل بالمعنى، أو كان هناك اختلاف في بعض العبارات.
- (٤) راعيت إثبات قراءة حفص في الهامش، في كل موضع جاءت القراءة فيه على غير هذه القراءة، مع تخريج القراءات من مصادرها.
- (٥) بداية من المجلد الثاني خُرجت الآيات القرآنية، بإرجاعها إلى سورها، وذكر أرقامها في تلك السور كما عملت على تخريج ما أوماً إليه المفسر من آيات، وحرصت على ذكر نص الآيات بالهامش.
- (٦) بداية من المجلد الثاني خُرجت الأحاديث النبوية والآثار، بإرجاعها إلى مصادرها. فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اقتصر عليه، وإن كان في غيرها توسعت في التخريج قدر الإمكان، ونبهت إلى النص الأصلي للحديث، كلما كان إيراد المعنى. كما عزوت أسباب النزول إلى مظانها، من كتب الحديث وكتب التفسير الأخرى، كالطبري والبقوي والدر المنثور للسيوطي.
- (٧) ضبطت بالشكل ما يشتبه من الألفاظ والأسماء وغيرها.
- (٨) شرحت بعض الألفاظ بالرجوع إلى معاجم اللغة المشهورة.
- (٩) علّقت باختصار على بعض المسائل التي تحتاج إلى تعليق.
- (١٠) وزعت النص توزيعاً فنياً، ييسر الاطلاع عليه والانتفاع منه.
- (١١) أثبت في أعلى كل صفحة اسم السورة، ورقم الآية، ورقم الجزء، تيسيراً للاستفادة، وتوفيراً للوقت على القارئ، عند البحث عن تفسير آية معينة.

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أذكر : أنه ولا بد وأن يوجد فى هذا العمل بعض النقص والهفوات، التى يسبق إليها القلم، أو يذهل عنها الفكر، والكمال لله وحده .

وأسأل الله أن يتقبل هذا العمل، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبنى عليه بما يثيب به عباده الصالحين .. والحمد لله رب العالمين .

أحمد عبد الله القرشى رسلان
المدرس المساعد بقسم التفسير
بكلية أصول الدين - بطنطا جامعة الأزهر

بنها فى ٢٧ - رمضان - ١٤١٩ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم)

قال الشيخ الإمام الحَبْرُ الهَمَامُ، العارف الريانى والقطب الصمدانى، قدوة السالكين ومنازل الواصلين، بحر العرفان، ومشرق شمس العيان، مهيع الطريقة، الجامع بين الشريعة وبحر الحقيقة، أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى - رضى الله عنه وأرضاه - آمين:

نحمدك يا من تجلّى لعباده فى كلامه، بكمال بهائه وجماله، وفق أسئلة العلماء النحارير لاستخراج درره وآله، وفجر قلوبهم بيدابيع الحكم المؤيدة بأصوله ومبانيه، واستفادوا عند غوصهم فى تياره من فرائده ومثانيه، فدحضوا بآياته الباهرة، وحججه الظاهرة القاهرة شبه من يناويه ويعانيه، والكل معترف بالتقصير، مغترف على حسب الفهم والتيسير، من بحر أسرارهِ ومعانيهِ، فهو البحر الطام الذى لا يدرك له قعر، والروض المونق الذى لا يعدم منه زهر ولا نور، وكيف لا، وهو كلام مولانا العالم بالخفيات، وبما كان وما هو الآن وما هو آت ١٢.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد، مظهر الرحمات، المبعوث بخوارق العادات ولوامع البينات، وعلى آله وأصحابه أولى الندى والسماحة، وجبال اليقين فى اشتداد الأزمت وتفاقم المعضلات.

وبعد... فإن علم تفسير القرآن من أجل العلوم، وأفضل ما يُفَقُّ فيه نتائج الأفكار وقرائح الفهوم، ولكن لا يتقدم لهذا الخطر الكبير إلا العالم النحرير، الذى رسخت أقدامه فى العلوم الظاهرة، وجالت أفكاره فى معانى القرآن الباهرة، بعد أن تزلّج من العلم الظاهر، عربيةً وتصريفاً ولغةً وبياناً، وفقهاً وحديثاً وتاريخاً، يكون أخذ ذلك من أفواه الرجال، ثم غاص فى علوم التصوف ذوقاً وحالاً ومقاماً، بصحبة أهل الأذواق من أهل الكمال، وإلا فسكوته عن هذا الأمر العظيم أسلم، واشتغاله بما يقدر عليه من علم الشريعة الظاهرة أتم.

واعلم أن القرآن العظيم له ظاهر لأهل الظاهر، وباطن لأهل الباطن، وتفسير أهل الباطن لا يذوقه إلا أهل الباطن، لا يفهمه غيرهم ولا يذوقه سواهم، ولا يصح ذكره إلا بعد تقرير الظاهر، ثم يشير إلى علم الباطن بعبارة رقيقة وإشارة دقيقة، فمن لم يبلغ فهمه لذوق تلك الأسرار فليُسَلِّمْ، ولا يبادر بالإنكار؛ فإن علم الأذواق من وراء طور العقول، ولا يدرك بتواتر النقول.

قال فى لطائف العنن: اعلم أن تفسير هذه الطائفة - يعنى الصوفية - لكلام الله وكلام رسوله ﷺ بالمعانى الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له ودلت عليه فى حرف اللسان،

وَتَمَّ أَفْهَامُ بَاطِنَةِ تَفْهَمُ عِنْدَ الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ لِمَنْ فَتَحَ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَقَدْ جَاءَ أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَالَ: «لِكُلِّ آيَةٍ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ وَحَدٌّ وَمُطَّلَعٌ». فَلَا يَصْدُنْكَ عَنْ تَلْقَى الْمَعَانِيَ الْغَرِيبَةَ مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ لَكَ ذُو جَدَلٍ وَمَعَارِضَةٌ: هَذَا إِحَالَةٌ لِكَلَامِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ فَلَيْسَ بِإِحَالَةٍ، وَإِنَّمَا يَكُونُ إِحَالَةً لِكَلَامِ اللَّهِ لَوْ قَالُوا: لَا مَعْنَى لِلْآيَةِ إِلَّا هَذَا، وَهُمْ لَا يَقُولُونَ ذَلِكَ. بَلْ يَقْرُونُ الظَّوَاهِرَ عَلَى ظَوَاهِرِهَا وَمَرَادَاتِهَا وَمَوْضُوعَاتِهَا، وَيَفْهَمُونَ عَنِ اللَّهِ مَا أَفْهَمَهُمْ. هـ.

وَقَالَ سَعْدُ الدِّينِ فِي شَرْحِ عَقَائِدِ النَّسْفِيِّ - بَعْدَ إِبْطَالِ الْإِلْحَادِ -: (وَأَمَّا مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَنَّ النُّصُوصَ عَلَى ظَوَاهِرِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَفِيهَا إشاراتٌ خَفِيَّةٌ إِلَى حَقَائِقَ تَنْكَشِفُ لِأَرْبَابِ السُّلُوكِ، يُمْكِنُ التَّطْبِيقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الظَّوَاهِرِ الْمُرَادَةِ، فَهُوَ مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ وَمَحْضِ الْعِرْفَانِ). وَقَوْلُهُ: يُمْكِنُ التَّطْبِيقُ... إلخ، أَيْ: يُمْكِنُ أَنْ يُشَارَ إِلَيْهَا فِي بَاطِنِ الْخُطَابِ بِحَيْثُ لَا يَنْبُو عَنْهَا سِرُّ الْخُطَابِ، وَلَا يَبْعُدُ اللَّفْظُ عَنْهَا كُلَّ الْبَعْدِ حَتَّى يَكُونَ تَحْرِيفًا.

وَقَالَ الشَّيْخُ زُرُّوقٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: نَظَرُ الصُّوفِيِّ أَخْصُ مِنْ نَظَرِ الْمُفَسِّرِ وَصَاحِبِ فِقْهِ الْحَدِيثِ، لِأَنَّ كِلَا مَذْهَبٍ يُعْتَبَرُ الْحُكْمُ وَالْمَعْنَى لَيْسَ إِلَّا، وَهُوَ يَزِيدُ بِطَلَبِ الْإِشَارَةِ بَعْدَ إِثْبَاتِ مَا أُثْبِتَ. وَالْأَوَّلُ فَهُوَ بَاطِنِي خَارِجٌ عَنِ الشَّرِيعَةِ فَضْلًا عَنِ الْمُتَّصِفَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. هـ.

وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لِكُلِّ آيَةٍ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ وَحَدٌّ وَمُطَّلَعٌ» فَالظَّاهِرُ لِمَنْ اعْتَنَى بِظَاهِرِ اللَّفْظِ، كَالنَّحَاةِ وَأَهْلِ اللُّغَةِ وَالتَّصْرِيفِ، وَالبَاطِنُ لِمَنْ اعْتَنَى بِمَعْنَى اللَّفْظِ، وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْقَصَصِ وَالْأَخْبَارِ وَالتَّوْحِيدِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ نَظَرُ الْمُفَسِّرِينَ. وَالْحَدُّ لِمَنْ اعْتَنَى بِاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ مِنْهُ، وَهُمْ الْفُقَهَاءُ، فَهُمْ يَنْتَهَوْنَ إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ وَسَبْقَ لِأَجَلِهِ، دُونَ زِيَادَةِ عَلَيْهِ. وَالْمُطَّلَعُ لِأَهْلِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَكْبَارِ الصُّوفِيَّةِ، لِأَنَّهُمْ يَطْلَعُونَ مِنَ ظَاهِرِ الْآيَةِ إِلَى بَاطِنِهَا، فَيُكْشَفُ لَهُمْ عَنْ أَسْرَارِ وَعُلُومٍ وَغَوَامِضَ، تَنْجَلِيٌّ لَهُمْ عِنْدَ اسْتِعْمَالِ الْفِكْرِ فِيهَا.

قَالَ فِي الصُّحَاخِ: فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ هَوَلَ الْمُطَّلَعُ»، شَبَّهَ مَا أَشْرَفَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ بِالْمُطَّلَعِ وَهُوَ الْمَأْتَى. يُقَالُ: أَيْنَ مُطَّلَعُ هَذَا الْأَمْرِ؟ أَيْ: مَاتَاهُ، وَهُوَ مَوْضِعُ الْإِطْلَاعِ مِنْ إِشْرَافٍ إِلَى انْحِدَارٍ. هـ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْحَقَائِقِ يُشْرِفُونَ مِنَ ظَاهِرِ الْآيَةِ إِلَى أَسْرَارِ بَاطِنِهَا، وَيَفُوصُونَ فِي لُجَجِ بَحْرِهَا. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

هَذَا.. وَقَدْ نَدَبْنِي شَيْخِي الْعَارِفُ الرَّبَّانِيُّ سَيِّدِي مُحَمَّدُ الْبُوزِيْدِيُّ الْحَسَنِيُّ، وَكَذَلِكَ شَيْخُهُ الْقُطْبُ الْجَامِعُ شَيْخُ الْمَشَايِخِ مَوْلَايَ الْعَرَبِيِّ الدَّرَقَاوِيُّ الْحَسَنِيُّ، أَنَّ أَضْعَفَ تَفْسِيرٍ يَكُونُ جَامِعًا بَيْنَ تَفْسِيرِ أَهْلِ الظَّاهِرِ وَإِشَارَةِ أَهْلِ الْبَاطِنِ، فَأُجِيبَتْ سَوَالَهُمْ وَأُسْعِفَتْ طَلِبَتَهُمْ، رَجَاءً أَنْ يَعْمَ بِهِ الْإِنْتِفَاعُ، وَيَكُونَ مُمْتَعًا لِلْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ. مُقَدِّمًا فِي كُلِّ آيَةٍ مَا يَتَعَلَّقُ بِمَعْنَى الْعَرَبِيَّةِ وَاللُّغَةِ، ثُمَّ بِمَعْنَى الْأَلْفَاظِ الظَّاهِرَةِ، ثُمَّ بِالْإِشَارَاتِ الْبَاطِنَةِ. مُتَوَسِّطًا فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْإِطْنَابِ

والاختصار. منتظرا في ذلك كله ما يفتح على من خزائن الكريم الغفار.. وسميته (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد) نسأل الله أن يكسوه جلاباب القبول، وأن يبلغ فيه القصد المأمول، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وقد ذكرت في تفسير الفاتحة الكبير عشر مقدمات تتعلق بأصول العلوم وتفاريعها، وعلوم القرآن وأصل منابعها، فلينظرها من أراها. وبالله التوفيق.

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

مكية . ولها عشرة أسماء: الفاتحة والوافية والكافية والشافية، والسبع المثاني؛ لأنها سبع آيات عدد الشافعي منها البسملة، وأسقطها مالك وجعل السابعة: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الآية، أو تثنى في كل صلاة، أو لاشتمالها على الثناء على الله. وأم القرآن؛ لأنها مفتحة ومبدؤه، أو لأنها اشتملت على ما فيه إجمالاً على ما يأتي، وسورة الحمد والشكر، وسورة تعليم المسألة، وسورة الصلاة لتكريرها فيها، وأساس القرآن؛ لأنها أصله ومبدؤه ويبنى سائرہ عليها.

واتفقت المصاحف على افتتاحها بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ واختلف الأئمة فيها، فقال مالك: ليست آية لا من الفاتحة ولا من غيرها إلا من النمل خاصة، وقال الشافعي: هي آية من الفاتحة فقط، وقال ابن عباس: هي آية من كل سورة.

فحجة مالك: ما في الصحيح عنه عليه السلام قال: «أُنزِلَتْ عَلَى سُورَةٍ لَيْسَ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» ولم يذكر البسملة. وكذلك ما ورد في الصحيح أيضاً أن الله يقول: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ. يَقُولُ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» فبدأ بها دون البسملة.

وحجة الشافعي: ما ورد في الصحيح «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين». وحجة ابن عباس: ثبوت البسملة مع كل سورة في المصحف، مع تحري الصحابة ألا يدخلوا في المصحف غير كلام الله، وقالوا: ما بين الدفتين كلام الله.

وإذا ابتدأت أول سورة بسملة إلا براءة، وسيأتي الكلام عليها. وإذا ابتدأت جزء سورة فأنتم مخير عند الجمهور. وإذا أتممت سورة وابتدأت أخرى فاختلف القراء في البسملة وتركها.

وأما حكمها في الصلاة، فقال مالك: مكروهة في الفرض دون النفل، وقال الشافعي: فرض تبطل الصلاة بتركها، فيبسم - عنده - جهراً في الجهر وسراً في السر، وعند أبي حنيفة كذلك إلا أنه يسرها مطلقاً، وحجة مالك أنها ليست بآية: ما في الحديث الصحيح عن أنس أنه قال: (صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ، فَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) لا يذكرون البسملة أصلاً. وحجة الشافعي أنها عنده آية: ما ورد في الحديث من قراءتها كما تقدم.

ولم تكن البسملة قبل الإسلام، فكانوا يكتبون: باسمك اللهم، حتى نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا﴾ فكتبوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ حتى نزل: ﴿... أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ فكتبوا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ﴾ حتى نزل: ﴿... وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فكتبوها.

وحذفت الألف لكثرة الاستعمال، والباء متعلقة بمحذوف، اسم عند البصريين، أى: ابتدائي كائن بسم الله، فموضعها رفع. وفعل عند الكوفيين، أى: أبداً أو أتلو. فيقدر كل واحد ما جعلت البسملة مبدأ له، فموضعها نصب، ويقدر مؤخراً لإفادة الحصر والاختصاص. وهو مشتق من السمو عند البصريين، فلامه محذوفة، وعند الكوفيين من السمة، أى: العلامة، ففاؤه محذوفة، ودليل البصريين: التصغير والتكسير، فقالوا: أسماء، ولم يقولوا أوسام، وقالوا: سمي، ولم يقولوا: وسيم.

و (الله) علم على الذات الواجبة الوجود، المستحق لجميع المحامد، وهل هو مشتق أو مرتجل؟ قولان يأتي الكلام عليهما في (الحمد لله)، وكذلك (الرحمن الرحيم).

قال الحق جل جلاله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الْأَرْحَمَنَ الرَّحِيمَ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

قلت : (الحمد) مبتدأ، و (الله) خبر، وأصله النصب، وقرئ به، والأصل: أحمد الله حمداً، وإنما عدل عنه إلى الرفع ليدل على عموم الحمد وثباته، دون تجدده وحدوثه، وفيه تعليم اللفظ مع تعريض الاستغناء. أى: الحمد لله وإن لم تحمدوه. ولو قال (أحمد الله) لما أفاد هذا المعنى، وهو من المصادر التي تنصب بأفعال مضمرة لا تكاد تذكر معها. والتعريف للجنس؛ أى: للحقيقة من حيث هي، من غير قيد شيوعها، ومعناه: الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد أن الحمد ما هو. أو للاستغراق؛ إذ الحمد في الحقيقة كله لله؛ إذ ما من خير إلا وهو مولاه بواسطه وبغير واسطة. كما قال: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ﴾ وقيل: للعهد، والمعهود حمده تعالى نفسه في أزله.

وقرئ (الحمد لله) بإتباع الدال للام^(١)، وبالعكس^(٢)، تنزيلاً لهما من حيث إنهما يستعملان معا منزلة كلمة واحدة.

ومعناه في اللغة: الثناء بالجميل على قصد التعظيم والتبجيل، وفي العرف: فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعماً. والشكر في اللغة: فعل يشعر بتعظيم المنعم، فهو مرادف للحمد العرفي، وفي العرف: صرف

(١) في الكسر - وهي قراءة شاذة.

(٢) أى: إتباع اللام الدال في الضم، وهي قراءة شاذة أيضاً.

العبد جميع ما أنعم الله عليه من السمع والبصر إلى ما خلق لأجله وأعطاه إياه . وانظر شرحنا الكبير للفاتحة في النسب التي بينها نظماً ونثراً .

و (الله) اسم مرتجل جامد، والألف واللام فيه لازمة لا للتعريف، قال الواحدى: اسم تفرّد به البارئ - سبحانه - يجرى في وصفه مجرى الأسماء الأعلام، لا يعرف له اشتقاق، وقال الأقبليشي: إن هذا الاسم مهما لم يكن مشتقاً كان دليلاً على عين الذات، دون أن يُنظر فيها إلى صفة من الصفات، وليس باسم مشتق من صفة، كالعالم والحق والخالق والرازق، فالألف واللام على هذا في (الله) من نفس الكلمة، كالزاي من زيد، وذهب إلى هذا جماعة، واختاره الغزالي وقال: كل ما قيل في اشتقاقه فهو تعسف.

وقيل: مشتق من التأله وهو التعبد، وقيل: من الولهان، وهو الحيرة؛ لتحير العقول في شأنه . وقيل: أصله: الإله، ثم حذفت الهمزة ونقلت حركتها إلى اللام، ثم وقع الإدغام وفُخمت للتعظيم، إلا إذا كان قبلها كسر.

و (رب) نعت (الله)، وهو في الأصل: مصدر بمعنى التربية، وهو تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ثم وُصف به للمبالغة كالصوم والعدل.

وقيل: هو وصف من ربه يرّبه، وأصله: رَبَّ ثَم أُدْغِمَ، سُمِيَ به المالك؛ لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه، ولا يطلق على غيره تعالى إلا بقيد كقوله تعالى: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ . قال ابن جزى: ومعانيه أربعة: الإله والسيد والمالك والمصلح، وكلها تصلح في رب العالمين، إلا أن الأرجح في معناه: الإله؛ لاختصاصه بالله تعالى.

و (العالمين) جمع عالم، والعالم: اسم لما يُعَلَّم به، كالخاتم لما يُخْتَم به، والطابع لما يطبع به . غلب فيما يُعلم به الصانع . وهو كل ما سواه من الجواهر والأعراض، فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثر واجب لذاته، تدل على وجوده، وإنما جُمع ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة، وغلب العقلاء منهم فُجِعَ بالياء والنون كسائر أوصافهم، فهو جمع، لا اسم جمع، خلافاً لابن مالك.

وقيل: اسم وضع لذوى العلم من الملائكة والثقلين، وتناولهم لغيرهم على سبيل الاستتباع، وقيل: عنى به هنا الناس، فإن كل واحد منهم عالم، حيث إنه يشتمل على نظائر ما في العالم الكبير، ولذا سوى بين النظر فيهما فقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ .

قلت : وإليه يشير قول الشاعر :

يا تائهاً في مَهْمَةٍ عَنْ سِرِّهِ انْظُرْ تَجِدُ فِيكَ الْوُجُودَ بِأَسْرِهِ
أَنْتَ الْكَمَالُ طَرِيقَةً وَحَقِيقَةً يا جَسَامِيعاً سِرُّ الْإِلَهِ بِأَسْرِهِ

و « الرحمن الرحيم » اسمان بُدِيا للمبالغة، من رَحِمَ، كالغضبان من غضب، والعليم من علم، والرحمة في اللغة: رِقَّة القلب، وانعطاف يقتضى التفضل والإحسان، ومنه الرَّحِم؛ لانعطافها على ما فيها. وأسماء الله تعالى إنما تُؤخذ باعتبار الغايات، التى هى أفعال، دون المبادئ التى هى انفعالات. و (الرحمن) أبلغ من (الرحيم)؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، كقَطَعَ وقَطَعَ، وذلك إنما يؤخذ تارة باعتبار الكمية، وأخرى باعتباره الكيفية.

فعلى الأول: قيل: يا رحمن الدنيا؛ لأنه يعمُّ المؤمن والكافر، ورحيم الآخرة؛ لأنه يختص بالمؤمن، وعلى الثانى قيل: يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا؛ لأن النعم الأخروية كلها جِسَام، وأما النعم الدنيوية فجَلِيلَة وحَقِيرَة.

وإنما قدّم (الرحمن) - والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى - لتقدّم رحمة الدنيا، ولأنه صار كالعلم من حيث إنه لا يوصف به غيره؛ لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ فى الرحمة غايتهَا، وذلك لا يصدق على غيره تعالى. انظر البيضاوى. وسيأتى الكلام عليهما فى المعنى.

و (مَلِك) نعت لما قبله، قراءة الجماعة بغير ألف من (المَلِك) بالضم، وقراء عاصم والكماتى بالألف، من (المَلِك) بالكسر، والتقدير على هذا: مالك مجيء يوم الدين، أو مالك الأمر يوم الدين. وقراءة الجماعة أرجح، لثلاثة أوجه: الأول: أن الملك أعظم من مالك، إذ قد يوصف كل أحد بالمالك لماله، وأما المَلِك فهو سيد الناس، والثانى: قوله: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾، والثالث: أنها لاتقتضى حذفاً، والحذف خلاف الأصل^(١).

و (يوم الدين) ظرف مضاف إلى ما قبله على طريق الاتساع، وأجرى الظرف مجرى المفعول به، والمعنى على الظرفية، أى: الملك فى يوم الدين، أو ملك الأمر يوم الدين، فيكون فيه حذف. وقد رُويت القراءتان - أى: القصر والمد - عن النبى ﷺ.

(١) ينبغى ألا يكون ترجيح فى هذا المجال، مع ورود القراءتين عن الرسول ﷺ والقراءتان - كما يقول الألوسى -: فرسا رهان، ومتى أردت الترجيح تعارضت الأدلة.

وقد قرئ (ملك) بوجه كثيرة تركنا ذكرها لشذوذها. فإن قيل: ملك و مالك نكرة؛ لأن إضافة اسم الفاعل لا تخصص، وكيف يُنعت به (الرحمن الرحيم) وهما معرفتان؟ قلت: إنما تكون إضافة اسم الفاعل لا تخصص إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال؛ لأنها حينئذ غير محضة، وأما هذا فهو مستمر دائماً، فإضافته محضة. قاله ابن جزي.

يقول الحق جل جلاله معلماً لعباده كيف يفتنون عليه ويعظمونه ثم يسألونه: يا عبادي قولوا: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ أى: الثناء الجميل إنما يستحقه العظيم الجليل، فلا يستحق الحمد سواه، إذ لا منعم على الحقيقة إلا الله، ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾. أو جميع المحامد كلها لله، أو الحمد المعهود في الأذهان هو حمد الله تعالى نفسه في أزله، قبل أن يوجد خلقه، فلما أوجد خلقه قال لهم: الحمد لله، أى: احمّدوني بذلك الحمد المعهود في الأزل.

وإنما استحق الحمد وحده لأنه ﴿رب العالمين﴾، وكأن سائلاً سأله: لم اختصت بالحمد؟ فقال: لأنى رب العالمين، أنا أوجدتهم برحمتي، وأمددتهم بنعمتي، فلا منعم غيري، فاستحققت الحمد وحدي، منى كان الإيجاد وعلى توالى الإمداد، فأنا رب العباد، فالعوالم كلها - على تعدد أجناسها واختلاف أنواعها - فى قبضتي وتحت تربيتي ورعايتي.

قال بعضهم: خلق الله ثمانية عشر ألف عالم، نصفها فى البر ونصفها فى البحر. وقال الفخر الرازي: روى أن بنى آدم عشر الجن، وبنو آدم والجن عشر حيوانات البر، وهؤلاء كلهم عشر الطيور، وهؤلاء كلهم عشر حيوانات البحار، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الأرض الموكلين ببنى آدم، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة سماء الدنيا، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الثانية، ثم على هذا الترتيب إلى ملائكة السماء السابعة، ثم الكل فى مقابلة الكرسي نزر قليل، ثم هؤلاء عشر ملائكة السرادق الواحد من سرادقات العرش، التى عددها: مائة ألف، طول كل سرادق وعرضه - إذا قوبلت به السموات والأرض وما فيهما وما بينهما - يكون شيئاً يسيراً ونزراً قليلاً. وما من موضع شبر إلا وفيه ملك ساجد أو راکع أو قائم، وله زجلٌ بالتسبيح والتهليل. ثم هؤلاء كلهم فى مقابلة الذين يجولون حول العرش كالقطرة فى البحر، ولا يعلم عددهم إلا الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾. هـ.

وقال وهب بن منبه: (قوائم العرش ثلاثمائة وست وستون قائمة، وبين كل قائمة وقائمة ستون ألف صحراء، وفى كل صحراء ستون ألف عالم، وكل عالم قدر الثقلين).

فهذه العوالم كلها فى قبضة الحق وتحت تربيته وحفظه، يوصل المدد إلى كل واحد وهو فى مستقره ومستودعه، إما إلى روحانيته من قوة العلوم والمعارف، وإما إلى بشريته من قوة الأشباح، من العرش إلى الفرش،

كلها مقدرة أرزاقها محصورة آجالها، محفوظة أشباحها، معلومة أماكنها ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.

ثم هذه التربية التي ربي سبحانه بها خلقه إنما هي رحمة منه وإحسان، لا لزوم عليه وإيجاب، ولذلك وصله بقوله ﴿الرحمن الرحيم﴾، أي: الرحمن بنعمة الإيجاد، الرحيم بنعمة الإمداد. «نعمتان ما خلا موجود عنهما، ولا بد لكل مكوّن منهما: نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، أنعم أولاً بالإيجاد، وثنى بتوالي الإمداد». كما في (الحكم) (١). فاسمه (الرحمن) يقتضى إيجاد الأشياء وإبرازها، واسمه (الرحيم) يقتضى تربيتها وإمدادها. ولذلك لا يجوز إطلاق اسم (الرحمن) على أحد، ولم يتسم أحد به؛ إذ الإيجاد لا يصح من غيره تعالى، بخلاف اسمه (الرحيم) فيجوز إطلاقه على غيره تعالى؛ لمشاركة صدور الإمداد في الظاهر من بعض المخلوقات مجازاً وعارية.

أو: الرحمن في الدنيا والآخرة، والرحيم في الآخرة؛ لأن رحمة الآخرة خاصة بالمؤمنين. أو الرحمن بجلال النعم والرحيم بدقائقها، فجلال النعم مثل: نعمة الإسلام والإيمان والإحسان، والمعرفة والهداية، وكشف الحجاب وفتح الباب والدخول مع الأحباب، ودقائق النعم مثل: الصحة والعافية والمال الحلال، وغير ذلك مما يأتي ذكره في المنعم عليهم.

ثم من تحقق منه الإيجاد والإمداد استحق أن يكون ملكاً لجميع العباد، ولذلك ذكره بآثره فقال: ﴿ملك يوم الدين﴾ أي: المتصرف في عبادته كيف شاء، لا راد لما قضى ولا مانع لما أعطى، فهو ملك الملوك رب الأرباب في هذه الدار وفي تلك الدار. وإنما خصّ يوم الدين - وهو يوم الجزاء - بالملكية؛ لأن ذلك اليوم يظهر فيه الملك لله عياناً لجميع الخلق، فإن الله تعالى يتجلى لفصل عبادته، حتى يراه المؤمنون عياناً، بخلاف الدنيا فإن تصرفه تعالى لا يفهمه إلا الكملة من المؤمنين، ولذلك ادعى كثير من الجهلة الملك ونسبوه لأنفسهم. ويوم القيامة ينفرد الملك لله عند الخاص والعام، قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

الإشارة: لما تجلّى الحق سبحانه من عالم الجبروت إلى عالم الملكوت، أو تقول: من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، حمد نفسه بنفسه، ومجد نفسه بنفسه، ووجد نفسه بنفسه، والله درّ الهروي، حيث قال:

مَا وَحَّدَ الْوَاحِدَ مِنْ وَاحِدٍ إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدٌ

(١) لابن عطاء الله السكندري.

توحيد مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْتِهِ عاريةً أَبْطَلَهَا الْوَاحِدُ
توحيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ ونعتٌ مَنْ يَنْعَتُهُ لِأَحَدٍ^(١)

فقال في توحيد نفسه بنفسه مترجماً عن نفسه بنفسه: (الحمد لله رب العالمين)، فكأنه يقول في عنوان كتابه وسر خطابه: أنا الحامد والمحمود، وأنا القائم بكل موجود، أنا رب الأرباب، وأنا مسبب الأسباب لمن فهم الخطاب، أنا رب العالمين، أنا قيوم السموات والأرضين، بل أنا المتوحد في وجودي، والمتجلى لعبادي بكرمي وجودي، فالعوالم كلها ثابتة بإثباتي، مَحْوَةٌ بأحدية ذاتي.

قال رجل بين يدي الجنيد: (الحمد لله) ولم يقل: (رب العالمين)، فقال له الجنيد: كَمَلْهَا يَا أَخِي، فقال الرجل: وَأَيَّ قَدَرٍ لِلْعَالَمِينَ حَتَّى تَذَكَّرَ مَعَهُ؟ فقال الجنيد: قُلْهَا يَا أَخِي؛ فَإِنَّ الْحَادِثَ إِذَا قُرِنَ بِالْقَدِيمِ تَلَاشَى الْحَادِثُ وَيَبْقَى الْقَدِيمُ.

يقول سبحانه: يَا مَنْ هُوَ مِنِّي قَرِيبٌ، تَدَبَّرْ سِرِّي فَإِنَّهُ غَرِيبٌ، أَنَا الْمَحَبُّ، وَأَنَا الْحَبِيبُ، وَأَنَا الْقَرِيبُ، وَأَنَا الْمَجِيبُ، أَنَا الرَّحِيمُ الرَّحْمَنُ، وَأَنَا الْمَلِكُ الدِّيانُ، أَنَا الرَّحْمَنُ بِنِعْمَةِ الْإِيجَادِ، وَالرَّحِيمُ بِتَوَالِي الْإِمْدَادِ. مَنِّي كَانَ الْإِيجَادُ، وَعَلَى دَوَامِ الْإِمْدَادِ، وَأَنَا رَبُّ الْعِبَادِ، أَنَا الْمَلِكُ الدِّيانُ، وَأَنَا الْمَجَازِي بِالْإِحْسَانِ عَلَى الْإِحْسَانِ، أَنَا الْمَلِكُ عَلَى الْإِطْلَاقِ، لَوْلَا جِهَالَةُ أَهْلِ الْعَنَادِ وَالشَّقَاقِ، الْأَمْرُ لَنَا عَلَى الدَّوَامِ، لَمَنْ فَهْمَ عَنَا مِنَ الْأَنَامِ.

قال في الرسائل الكبرى^(٢): لا عبرة بظواهر الأشياء، وإنما العبرة بالسر المكنون، وليس ذلك إلا بظهور أمر الحق وارتفاع غطائه وزوال أستاره وخفائه، فإذا تحقق ذلك التجلى والظهور، واستولى على الأشياء الفناء والذُّنُورُ، وانقشعت الظلمات بإشراق النور، فهناك يبدو عين اليقين ويَحِقُّ الحق المبين، وعند ذلك تبطل دعوى المدعين، كما يفهم العامة بطلان ذلك في يوم الدين، حين يكون الملك لله رب العالمين، وليت شعري أَيُّ وَقْتٍ كَانَ الْمَلِكُ لِسَوَادٍ حَتَّى يَقَعَ التَّقْيِيدُ بِقَوْلِهِ: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾؟! لَوْلَا الدَّعَاوَى الْعَرِضَةُ مِنَ الْقُلُوبِ الْمَرِضَةِ. هـ.

(١) مضمون الأبيات كما يقول الشيخ ابن عجيبة في إيقاظ الهمم: أن الحق تولى توحيد نفسه بنفسه. فكل من ادعى أنه وحده بنفسه فهو جاحد لوحدانيته، حيث أشرك معه نفسه، وكل من ينعته بنفسه فهو لا أحد - أي: مائل عن الصواب. وهذا المعنى من المعاني التي ينبغي أن تفهم في ضوئها هذه الأبيات. ولأبيات محامل أخرى ذكرها العلامة ابن القيم. فلتنظر في كتابه مدارج السالكين. وانظر أيضا: مدارج الملوك لأبي بكر بناني.

(٢) لابن عباد النفري، شارح الحكم.

ثم تنزل لبيان العبودية، فقال:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

قلت : (إياك) مفعول (نعبد)، وقُدِّمَ للتعظيم والاهتمام به، والدلالة على الحصر، ولذلك قال ابن عباس: (نعبدك ولا نعبد معك غيرك)، ولتقديم ما هو مقدَّم في الوجود وهو الملك المعبود، وللتنبية على أن العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولاً وبالذات، ومنه إلى العبادة، لا من حيث إنها عبادة صدرت عنه، بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه، ووصلة بينه وبين الحق، فإن العارف إنما يحقُّ وصوله إذا استغرق في ملاحظة جناب القدس، وغاب عما عداه، حتى إنه لا يلاحظ نفسه ولا حالاً من أحوالها إلا من حيث إنها تجلُّ من تجلياته ومظهر لربوبيته، ولذلك فضَّل ما حكى الله عن حبيبه حين قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، على ما حكاه عن كليمه حيث قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أى: حيث صرَّح بمطلوبه، و(إياك) مفعول (نستعين) وقُدِّمَ أيضاً للاختصاص والاهتمام، كما تقدم في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. وكرَّر الضمير ولم يقل: إياك نعبد ونستعين؛ لأن إظهاره أبلغ في إظهار الاعتماد على الله، وأقطع في إحضار التعلق بالله والإقبال على الله وأمدح، ألا ترى أن قولك: بك أنتصر وبك أحتمى وبك أنال مطالبى - أبلغ وأمدح من قولك: بك أنتصر وأحتمى... إلخ؟

وقدَّم العبادة على الاستعانة ليتوافق رءوس الآي، وليعلم منه أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة، فإن من تلبَّس بخدمة الملك وشرع فيها بحسب وسعته، ثم طلب منه الإعانة عليها أجيب إلى مطلبه، بخلاف من كلفه الملك بخدمته، فقال: أعطنى ما يعيننى عليها، فهو سوء أدب، وأيضاً: من استحضر الأوصاف العظام ما أمكنه إلا المسارعة إلى الخضوع والعبادة، وأيضاً: لما نسب المتكلم العبادة إلى نفسه أوهم ذلك تبجحاً واعتداداً منه بما يصدر عنه فعقبه بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، دفعاً لذلك التوهم.

والعبادة: أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه طريق مُعَبَّد، أى: مُذَلَّل، والاستعانة: طلب المعونة، والمراد طلب المعونة في المهمات كلها، أو في أداء العبادات.

والضمير المستتر في الفعلين للقارئ ومن معه من الحفظة وحاضرى صلاة الجماعة، أوله ونسائر الموجودين. أدرج عبادته في تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تُقبل ببركتها ويُجاب إليها، ولهذا شرعت الجماعة. قاله البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله ، تنميماً لتعليم عباده : فإذا أثبتتم على ومجدتموني وعظمتموني فأقرؤا لى بالربوبية ، وأظهروا من أنفسكم العبودية ، واطلبوا منى العون فى كل وقت وقولوا : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ، وكأنه - جل جلاله - لما ذكر أنه مستحق للمحامد كلها قديمها وحديثها ؛ لأنه رب العوالم وقيومها ، أصل الأصول وفروعها ، أنعم عليها أولاً بالإيجاد ، وثانياً بتوالى الإمداد ، فهو مالکها على الإطلاق ، ذكر أنه لا يستحق أن يُعبد سواه ؛ إذ لا مُنعم على الحقيقة إلا الله ، فهو أحق أن يُعبد ، وأولى أن يفرد بالوجهة والقصد ، لأنه مُستبدٌ وغير مُستمدٌ ، والمادة من عين الجود ، فإذا انقطعت المادة انعدم الوجود .

قال البيضاوى : ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد ، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات ، تعلّق العلم بمعلوم معين ، خوطب بذلك ، أى : يا من هذا شأنه نخصّك بالعبادة والاستعانة ، ليكون أدل على الاختصاص ، وللترقى من الغيبة إلى الشهود ، وكأن المعلوم صار عياناً ، والمعقول مُشاهداً ، والغيبة حضوراً . بنى أول الكلام على ما هو مبادئ حال العارف ؛ من الذكر والفكر والتأمل فى أسمائه ، والنظر فى آلائه ، والاستدلال بصنائه على عظيم شأنه وباهر سلطانه ، ثم قفى بما هو منتهى أمره ، وهو أن يخوض لُجّة الوصول ، ويصير من أهل المشاهدة ، فيراه عياناً ويناجيه شفاهاً . اللهم اجعلنا من الواصلين إلى العين دون التابعين للأثر . ومن عادة العرب التفنن فى الكلام والعدول عن أسلوب إلى آخر ، تطرية وتنشيطاً للسامع ، فتعدّل من الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم ، كقوله : ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ...﴾ ولم يقل (بكم) وقوله ﴿أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ...﴾ أى : ولم يقل : فساقه .. انظر تمام كلامه .

والالتفات هنا فى قوله : ﴿إياك نعبد﴾ ولم يقل : إياه نعبد ؛ لأن الظاهر من قبل الغيبة ، وحسنه أن الموصوف تعيّن وصار حاضراً .

قال الأقلشيشى : فهذه الآية هى التى قال فيها النبى ﷺ : «فإذا قال العبد : إياك نعبد وإياك نستعين ، يقول الله تعالى : هذه بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل» . معناه : أى عبد توجه إلى بالعبادة وسألنى العون عليها فعبادته متقبلة ، والعون منى له عليها حاصل حتى يوقعها على وجهها ، فالعبادة وصف العبد ، والعون من الله تعالى للعبد ، فلهذا قال : «فهذه بينى وبين عبدى» .

قال ابن جزى : أى نطلب العون منك على العبادة وعلى جميع أمورنا ، وفى هذا دليل على بطلان قول القدرية والجبرية ، وأن الحق بين ذلك .

الإشارة: لما تجلى الحق جل جلاله من عالم الجبروت إلى عالم الملكوت، وحمّد نفسه بنفسه، تجلى أيضا وتنزل من عالم الملكوت إلى عالم الملك بقدرته وحكمته؛ لإظهار آثار أسمائه وصفاته، فأظهر العبودية وأخفى الربوبية، أظهر الحكمة وأبطن القدرة، فجعل عالم الحكمة يخاطب عالم القدرة، ويخضع له، ويتعبد ويستمد، منه الإعانة والهداية، ويتحرز من طريق الضلالة والغواية.

فعالم الحكمة محل التكليف، وعالم القدرة محل التصريف، عالم الحكمة عالم الأشباح، وعالم القدرة عالم الأرواح، فإياك نعبد لأهل عالم الحكمة، وإياك نستعين لأهل عالم القدرة. ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسى رحمته الله: «إياك نعبد» شريعة، و«إياك نستعين» حقيقة، «إياك نعبد» إسلاما، و«إياك نستعين» إحسانا، «إياك نعبد» عبادة، و«إياك نستعين» عبودية، «إياك نعبد» فرق «إياك نستعين» جمع. هـ.

وإن شئت قلت: «إياك نعبد» لأهل العمل لله وهم المخلصون، و«إياك نستعين» لأهل العمل بالله وهم الموحدون، العمل لله يوجب المثوبة، والعمل بالله يوجب القرينة، العمل لله يوجب تحقيق العبادة، والعمل بالله يوجب تصحيح الإرادة، العمل لله نعت كل عابد، والعمل بالله نعت كل قاصد، العمل لله قيام بأحكام الظواهر، والعمل بالله قيام بإصلاح الضمائر. قاله القشيري.

ثم إن الناس في شهود القدرة والحكمة على ثلاثة أقسام: قسم حجبوا بالحكمة عن شهود القدرة، وهم أهل الحجاب من أهل الغفلة، وقفوا مع قوله: «إياك نعبد»، وقسم حجبوا بشهود القدرة عن الحكمة، وهم أهل الفناء، وقفوا مع قوله: «إياك نستعين»، وقسم لم يحجبوا بالحكمة عن القدرة ولا بالقدرة عن الحكمة، أعطوا كل ذي حق حقه ووقفوا كل ذي قسط قسطه، وهم أهل الكمال من أهل البقاء، جمعوا بين قوله: «إياك نعبد وإياك نستعين»، وبالله التوفيق.

ثم بين المقصود الأعظم وما هو المطلوب الأهم، وهو طلب الهداية والتوفيق إلى عين التحقيق، فقال:

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

قلت: الهداية في الأصل: الدلالة بلطف، ولذلك تستعمل في الخير، وقوله: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ على التهكم، والفعل منه (هدى) بالفتح، وأصله أن يُعَدَى باللام، أو «إلى»، فعومل هنا معاملة: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾. والصراط لغة: الطريق، مشتق من سَرَطَ الطعام إذا ابتلعه، فكأنها تبتلع السابلة؛ أي

المارة به، وَقَلِبَتِ السَّيْنَ صَاداً لِنَطَائِقِ الطَّاءِ فِي الْإِطْبَاقِ، وَقَدْ تَشَمَّ زَايَاً لِقَرَبِ الْمَخْرَجِ، وَ (المستقيم): الذي لا عوج فيه، والمراد به طريق الحق الموصلة إلى الله.

يقول الحق جل جلاله: مُعَلِّماً لِعِبَادِهِ كَيْفَ يَطْلُبُونَهُ، وَمَا يَدْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَطْلُبُوا، أَيْ: قُولُوا (اهدنا) أَيْ: أُرْشِدْنَا إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، الْمَوْصِلَةِ إِلَى حَضْرَةِ النَّعِيمِ، وَالطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ السَّيْرُ عَلَى الشَّرِيعَةِ الْمَحْمُودِيَةِ فِي الظَّاهِرِ، وَالتَّبَرُّيِّ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ فِي الْبَاطِنِ، أَوْ تَقُولُ: هُوَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُكَ شَرِيعَةً وَبَاطِنُكَ حَقِيقَةً، ظَاهِرُكَ عِبُودِيَّةً وَبَاطِنُكَ حُرِيَّةً، الْفَرْقَ عَلَى ظَاهِرِكَ مَوْجُودٍ وَالْجَمْعَ فِي بَاطِنِكَ مُشْهُودٍ، وَفِي الْحُكْمِ: «مَتَى جَعَلَّكَ فِي الظَّاهِرِ مِمْتَثِلاً لِأَمْرِهِ وَفِي الْبَاطِنِ مُسْتَسْلِماً لِقَهْرِهِ، فَقَدْ أَعْظَمَ الْمِنَّةَ عَلَيْكَ».

فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي أَمَرْنَا الْحَقَّ بِطَلْبِهِ هُوَ: الْجَمْعُ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ، وَالْمَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَلِذَلِكَ وَصَلَهُ بِهِ، فَكَأَنَّ الْحَقَّ - سُبْحَانَهُ - يَقُولُ: يَا عِبَادِي أَحْمَدُونِي وَمَجْدُونِي وَأَفْرِدُونِي بِالْقَصْدِ وَخُصُّونِي بِالْعِبَادَةِ، وَكُونُوا فِي ظَاهِرِكُمْ مُشْتَغَلِينَ بِعِبَادَتِي، وَفِي بَاطِنِكُمْ مُسْتَعِينِينَ بِحَوْلِي وَقُوَّتِي، أَوْ كُونُوا فِي ظَاهِرِكُمْ مُتَأَدِّبِينَ بِخِدْمَتِي، وَفِي بَاطِنِكُمْ مُشَاهِدِينَ لِقُدْرَتِي وَعِظْمَةِ رِبَوِيَّتِي.

وَقَالَ سَيِّدُنَا عَلَى - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - : (الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هَذَا الْقُرْآنُ). وَقَالَ جَابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (هُوَ الْإِسْلَامُ) يَعْنِي الْحَنِيفِيَّةَ السَّمْحَاءَ، وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: (هُوَ طَرِيقُ مُحَمَّدٍ ﷺ). يَعْنِي اتِّبَاعَ مَا جَاءَ بِهِ. وَحَاصِلُهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِصْلَاحِ الظَّاهِرِ بِالشَّرِيعَةِ وَالْبَاطِنِ بِالْحَقِيقَةِ، فَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي مِنْ سَلَكِهِ كَانَ مِنَ الْوَاصِلِينَ الْمُقَرَّبِينَ إِلَى النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا كَانَ الْعَبْدُ ذَاهِباً عَلَى هَذَا الْمَنْهَاجِ الْمُسْتَقِيمِ، فَكَيْفَ يَطْلُبُ مَا هُوَ حَاصِلٌ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ طَلَبُ التَّثْبِيتِ عَلَى مَا هُوَ حَاصِلٌ، وَالْإِرْشَادُ إِلَى مَا هُوَ لَيْسَ بِحَاصِلٍ، فَأَهْلُ مَقَامِ الْإِسْلَامِ يَطْلُبُونَ الثَّبَاتَ عَلَى الْإِسْلَامِ، الَّذِي هُوَ حَاصِلٌ، وَالتَّرْقَى إِلَى مَقَامِ الْإِيمَانِ الَّذِي لَيْسَ بِحَاصِلٍ، عَلَى طَرِيقِ الصُّوفِيَّةِ، الَّذِينَ يَخْصُونَ الْعَمَلَ الظَّاهِرَ بِمَقَامِ الْإِسْلَامِ، وَالْعَمَلَ الْبَاطِنَ بِمَقَامِ الْإِيمَانِ، وَأَهْلُ الْإِيمَانِ يَطْلُبُونَ الثَّبَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ الَّذِي هُوَ حَاصِلٌ، وَالتَّرْقَى إِلَى مَقَامِ الْإِحْسَانِ الَّذِي لَيْسَ بِحَاصِلٍ، وَأَهْلُ مَقَامِ الْإِحْسَانِ يَطْلُبُونَ الثَّبَاتَ عَلَى الْإِحْسَانِ، وَالتَّرْقَى إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنْ كَشُوفَاتِ الْعِرْفَانِ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمَرْسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بِالتَّثْبِيتِ فِيمَا هُوَ حَاصِلٌ، وَالْإِرْشَادَ فِيمَا لَيْسَ بِحَاصِلٍ، ثُمَّ قَالَ: عَمُومُ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُونَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أَيْ: بِالتَّثْبِيتِ فِيمَا هُوَ

حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنه حصل لهم التوحيد وفاتهم درجات الصالحين، والصالحون يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ معناه: نسألك التثبيت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء، والشهداء يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنهم حصلت لهم الشهادة وفاتهم درجات الصديقين، والصديقون يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم درجات القطب. والقطب يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنه حصل له رتبة القطبانية، وفاته علم ما إذا شاء الله أن يطلع عليه أطلعه. هـ.

وقال بعضهم: الهداية إما للعين وإما للأثر الدال على العين، ولا نهاية للأولى. قلت: فالأولى لأهل الشهود والعيان، والثانية لأهل الدليل والبرهان، فالهداية للعين هي الدلالة على الله. والهداية للأثر هي الدلالة على العمل، «مَنْ دَلَّكَ عَلَى اللَّهِ فَقَدْ نَصَحَكَ، وَمَنْ دَلَّكَ عَلَى الْعَمَلِ فَقَدْ أَتَعَبَكَ». وإنما كانت الأولى لا نهاية لها؛ لأن الترقى بعد المعرفة لا نهاية له. بخلاف الدلالة على الأثر فنهايتها الوصول إلى العين، إن كان الدال عارفاً بالطريق.

قال البيضاوى: وهداية الله تتنوع أنواعاً لا يحصيها عد ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ لكنها تنحصر فى أجناس مترتبة:

الأول: إفاضة القوى التى بها يتمكن المرء من الاهتداء إلى مصالحه، كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة.

الثانى: نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وهديناه النجدين﴾، وقال: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ فَأَسْتَحِبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾.

الثالث: الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإياها عني بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، وقوله: ﴿إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

الرابع: أن يكشف عن قلوبهم السرائر ويريهم الأشياء كما هي بالوحي والإلهام والمنامات الصادقة. وهذا يختص بنبيه الأنبياء والأولياء، وإياه عني بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾، ﴿والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا﴾.

فالمطلوب: إما زيادة ما منحوه من الهدى والذبات عليه، أو حصول المراتب المترتبة عليه، فإذا قال العارف الواصل عني بقوله: أرشدنا طريق السير فيك، لتمحو عنا ظلمات أحوالنا، وتميط غواشي أبداننا، لنستضيء بنور قدسك فنراك بنورك. هـ.

قلت: قوله الرابع... إلخ، في عبارته قلق واختصار، والصواب أن يقول: الرابع - أن يكشف عن قلوبهم الظلم والأغيار، ويشرق عليها الأنوار والأسرار، ويريهم الأشياء كما هي بالوحي والإلهام، وباستعمال الفكرة في عظمة الملك العلّام، حتى تستولي أنوار المعاني على حس الأواني، ثم يقول: وهذا قسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء.

وقوله: فإذا قال العارف.. إلخ، الصواب أن يقول: فإذا قاله المرید السائر؛ لأن الواصل انمحت عنه الظلمات كلها والغواشي وسائر الأكدار؛ لأن الله تعالى غطى وصفه بوصفه ونعته ببعته، فلم يبق له وصف ظلماني. وأيضاً قوله: [أرشدنا إلى طريق السير] إنما يناسب السائر دون الواصل؛ لأن الواصل ما بقي له إلا الترقى، ولا يسمى في اصطلاح الصوفية [السير] إلا قبل الوصول. والله تعالى أعلم.

ثم فسر الطريق المستقيم، فقال:

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (٧)

قلت: (صراط) بدل من الأول - بدل الكل من الكل - وهو في حكم تكرير العامل من حيث إنه المقصود بالنسبة، وفائدته: التوكيد والتنصيص على أن طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة، على أكد وجه وأبلغه؛ لأنه جعله كال تفسير والبيان له، فكأنه من البين الذي لا خفاء فيه، وأن الصراط المستقيم ما يكون طريق المؤمنين، و«غير المغضوب عليهم» بدل من (الذين) على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال. أو صفة له مبيّنة أو مقيدة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة، وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من الغضب والضلال، وذلك إنما يصح بأحد تأويلين: إجراء الموصول مجرى النكرة، إذ لم يقصد به معهود كال معروف في قوله:

وَلَقَدْ أَمَرُ عَلَى اللّٰكِمِ بِسُبْنَى (١)

أو يجعل (غير) معرفة؛ لأنه أضيف إلى ماله ضد واحد، وهو المنعم عليه، فيتعين تعيين الحركة غير السكون، وإلا لزم عليه نعت المعرفة بالنكرة. فقامله.

(١) هذا شطر بيت، وتامه: (فمضيت ثمة قلت لا يعيلني).

والغضب: ثوران النفس إرادة الانتقام، فإذا أسند إلى الله تعالى أريد غايته وهو العقوبة، و (عليهم) نائب فاعل، و (لا) مزيدة لتأكيد ما في (غير) من معنى اللقي، فكأنه قال: ولا المغضوب عليهم ولا الضالين، وقرأ عمر رضي الله عنه (وغير الضالين) والضلal: العدول عن الطريق سوى عمداً أو خطأ، وله عرض عريض والتفاوت بين أدناه وأقصاه كبير. قاله البيضاوي.

وإنما أسند النعمة إلى الله والغضب إلى المجهول تعليماً للأدب، ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله...﴾ الآية. يقول الحق جل جلاله في تفسير الطريق المستقيم: هو طريق الذين أنعمت عليهم بالهداية والاستقامة، والمعرفة العامة والخاصة، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، والمُنعم عليهم في الآية مطلق، يصدق بكل مدعم عليه بالمعرفة والاستقامة في دينه، كالصحابا وأضرابهم. وقيل: المراد بهم أصحاب سيدنا موسى عليه السلام قبل التحريف. وقيل: أصحاب سيدنا عيسى قبل التغيير. والتحقيق أنه عام.

قال البيضاوي: ونعم الله وإن كانت لا تحصى كما قال الله: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ تلحصر في جنسين: دنيوي وأخروي.

فالأول: وهو الدنيوي - قسمان: موهبي وكسبي، والموهبي قسمان: روحاني، كنفس الروح فيه وإشراقه بالعقل وما يتبعه من القوى، كالفهم والفكر والنطق، وجسماني: كتخليق البدن بالقوة الحالة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وكمال الأعضاء. والكسبي: كتزكية النفس عن الرذائل، وتحليتها بالأخلاق الحسنة والملكات الفاضلة، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلى المستحسنة، وحصول الجاه والمال.

والثاني: وهو الأخروي - : أن يغفر له ما فرط منه ويرضى عنه ويؤثقه في أعلى عليين، مع الملائكة المقربين أبد الآبدين، والمراد القسم الأخير، وما يكون وصلة إلى نيله من القسم الأول، وأما ما عدا ذلك فيشترك فيه المؤمن والكافر. هـ.

قال ابن جزى: النعم التي يقع عليها الشكر ثلاثة أقسام، دنيوية: كالصحة والعافية والمال الحلال. ودينية: كالعلم والتقوى والمعرفة. وأخروية: كالثواب على العمل القليل بالعطاء الجزيل. وقال أيضاً: والناس في الشكر على مقامين: منهم من يشكر على النعم الواصلة إليه، الخاصة به، ومنهم من يشكر الله عن جميع خلقه على النعم الواصلة إلى جميعهم. والشكر على ثلاث درجات: فدرجة العوام: الشكر على النعم، ودرجة الخواص: الشكر على النعم والنعم وعلى كل حال، ودرجة خواص الخواص: أن يغيب عن رؤية النعمة بمشاهدة المنعم. قال رجل

لإبراهيم بن أدهم رحمته : الفقراء إذا أعطوا شكروا وإذا مدعوا صبروا، فقال إبراهيم: هذه أخلاق الكلاب، ولكن القوم إذا منعوا شكروا وإذا أعطوا آثروا . هـ .

ثم احتسب من الطريق غير المستقيمة، فقال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أى: غير طريق الذين غضبت عليهم، فلا تهدنا إليها ولا تسلك بنا سبيلها، بل سلماً من مواردها. والمراد بهم: اليهود، كذا فسرهما النبي صلى الله عليه وسلم، ويصدق بحسب العموم على كل من غضب الله عليهم، «ولا الضالين» أى: ولا طريق الضالين، أى: التالفين عن الحق، وهم النصارى كما قال صلى الله عليه وسلم. والتفسيران مأخوذان من كتاب الله تعالى. قال تعالى فى شأن اليهود: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبِ عَلَى غَضَبٍ﴾، وقال فى حق النصارى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

واعلم أن الحق - سبحانه - قسم خلقه على ثلاثة أقسام: قسم أعدهم للكرم والإحسان، ليظهر فيهم اسمه الكريم أو الرحيم، وهم المنعم عليهم بالإيمان والاستقامة. وقسم أعدهم للانتقام والغضب، ليظهر فيهم اسمه المنتقم أو القهار، وهم المغضوب عليهم والضالون عن طريق الحق عقلاً أو عملاً، وهم الكفار، وقسم أعدهم الله للحلم والعفو، ليظهر فيهم اسمه تعالى الحليم والعفو، وهم أهل العصيان من المؤمنين.

فمن رام أن يكون الوجود خالياً من هذه الأقسام الثلاثة، وأن يكون الناس كلهم سواء فى الهداية أو ضدها، فهو جاهل بالله وبأسمائه؛ إذ لا بد من ظهور آثار أسمائه فى هذا الآدمى، من كرم وقهرية وحلم وغير ذلك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الطريق المستقيم التى أمرنا الحق بطلبها هى: طريق الوصول إلى الحضرة، التى هى العلم بالله على نعت الشهود والعيان، وهو مقام التوحيد الخاص، الذى هو أعلى درجات أهل التوحيد، وليس فوقه إلا مقام توحيد الأنبياء والرسل، ولا بد فيه من تربية على يد شيخ كامل عارف بطريق السير، قد سلك المقامات ذوقاً وكشفاً، وحاز مقام الفناء والبقاء، وجمع بين الجذب والسلوك؛ لأن الطريق عويص، قليل خطاره، كثير قطاعه، وشيطان هذه الطريق فقيه بمقاماته ونوازلها، فلا بد فيه من دليل، وإلا ضل سالكها عن سواء السبيل، وإلى هذا المعنى أشار ابن البناء، حيث قال:

وَأَتَمَّ الْقَوْمُ مُسَافِرُونَ	لِحَضْرَةِ الْحَقِّ وَظَاعِنُونَ
فَأَفْتَقَرُوا فِيهِ إِلَى دَلِيلٍ	ذِي بَصَرٍ بِالسُّيْرِ وَالْمَقِيلِ
قَدْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ثُمَّ عَادَ	لِيُخْبِرَ الْقَوْمَ بِمَا اسْتَفَادَ

وقال في لطائف المنن : (من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الاتباع، ويكشف له عن قلبه القناع، فهو في هذا الشأن لقيط لا أب له، دعي لا نسب له، فإن يكن له نور فالغالب غلبة الحال عليه، والغالب عليه وقوفه مع ما يرد من الله إليه، لم ترضه سياسة التأديب والتهديب، ولم يقده زمام التربية والتدريب)، فهذا الطريق الذي ذكرنا هو الذي يستشعره القارئ للفاتحة عند قوله: «اهدنا الصراط المستقيم» مع الترقى الذي ذكره الشيخ أبو العباس المرسى رحمته الله المتقدم، وإذا قرأ «صراط الذين أنعمت عليهم» استشعر، أي: أنعمت عليهم بالوصول والتمكين في معرفتك.

وقال الورتجبي: اهدنا مرادك منّا؛ لأن الصراط المستقيم ما أراد الحق من الخلق، من الصدق والإخلاص في عبوديته وخدمته. ثم، قال: وقيل: اهدنا هدى العيان بعد البيان، لنستقيم لك حسب إرادتك. وقيل: اهدنا هدى من يكون منك مبدؤه ليكون إليك منتهاه. ثم قال: وقال بعضهم: اهدنا، أي: ثبتنا على الطريق الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام، وهو الطريق المستقيم والمنهاج القويم «صراط الذين أنعمت عليهم» أي: منازل الذين أنعمت عليهم بالمعرفة والمحبة وحسن الأدب في الخدمة. ثم قال: «غير المغضوب عليهم» يعنى: المطرودين عن باب العبودية، «ولا الضالين» يعنى المفلسين عن نفائس المعرفة هـ.

قلت: والأحسن أن يقال: «غير المغضوب عليهم» هم الذين أوقفهم عن السير اتباع الحظوظ والشهوات، فأوقعهم في مهاوى العصيان والمخالفات، «ولا الضالين» هم الذين حبسهم الجهل والتقليد، فلم تنفذ بصائرهم إلى خالص التوحيد، فنكسوا عن توحيد العيان إلى توحيد الدليل والبرهان، وهو ضلال عند أهل الشهود والعيان، ولو بلغ في الصلاح غاية الإمكان.

وقال في الإحياء: إذا قلت «بسم الله الرحمن الرحيم» فافهم أن الأمور كلها بالله، وأن المراد هاهنا المسمى، وإذا كانت الأمور كلها بالله فلا جرم أن الحمد كله لله، ثم قال: وإذا قلت: «الرحمن الرحيم» فأحضر في قلبك أنواع لطفه لتتفتح لك رحمته فينبعث به رجاؤك، ثم استشعر من قلبك التعظيم والخوف من قولك: «يوم الدين». ثم قال: ثم جدد الإخلاص بقولك: «إياك نعبد». وجدّد العجز والاحتياج والتبرى من الحول والقوة بقولك: «إياك نستعين»، ثم اطلب اسم حاجتك، وقل: «اهدنا الصراط المستقيم» الذي يسوقنا إلى جوارك ويفضى بنا إلى مرضاتك، وزدّه شرحاً وتفصيلاً وتأكيذاً، واستشهد بالذين أفاض عليهم نعم الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين واليهود والنصارى والصابئين هـ. ملخصاً.

وقال القشيري: قوله تعالى: «اهدنا الصراط المستقيم» الأمر في هذه الآية مضمّر، أى: قولوا: اهدنا. والصراط المستقيم: طريق الحق، وهو ما عليه أهل التوحيد، أى: أرشدنا إلى الحق لئلا نتكل على وسائط المعاملات، فيقع على وجه التوحيد غبار الظنون والحسابات لتكون دليلنا عليك. ثم قال: «صراط الذين أنعمت عليهم» أى: الواصلين بك إليك، ثم قال: «غير المغضوب عليهم» بنسيان التوفيق والتعاضد عن رؤية التأييد، «ولا الضالين» عن شهود سابق الاختيار، وجريان تصارييف الأقدار. هـ.

تتمات :

الأولى : هذه السورة جمعت معانى القرآن كلها، فكانها نسخة مختصرة منه، ولذلك سُميت أم القرآن، فالإلهيات حاصلة من قوله: «الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم»، والدار الآخرة من قوله: «ملك يوم الدين»، والعبادات كلها من الاعتقادات والأحكام الظاهرة التى تقتضيها الأوامر والنواهي، من قوله: «إياك نعبد» والمقامات وأسرار المعاملات الباطنة - تخلية وتحلية - من قوله: «اهدنا الصراط المستقيم» والأنبياء وغيرهم من قوله: «الذين أنعمت عليهم» وذكر طوائف الكفار من قوله: «غير المغضوب عليهم ولا الضالين».

وقال الشيخ ابن أبى جمرة رحمته الله فى بيان تضمنها لكتاب الله: إن لفظ (الحمد) يتضمن كل ما فى كتاب الله من الحمد والشكر؛ لأن الحمد أعم من الشكر، وأتى بالعام ليدل على الصفتين. ولفظة (الله) تدل على ما فى الكتاب العزيز من أسماء الترفيع والتعظيم؛ لأنه قيل: إنه اسم الله الأعظم، ولفظ: «رب العالمين» يدل على ما فيه من أسماء الله، سبحانه، وعلى العوالم وعلى اختلافها وخالقها والمتصرف فيها. ولفظ: «الرحمن الرحيم» يتضمن كل ما فى الكتاب من المغفرة والرحمة والإنعام والعفو والإفضال، ولفظ «ملك يوم الدين» يدل على ما فيه من ذكر الآخرة وما فيه من الأهوال، ولفظ «إياك نعبد» يتضمن ما فيه من التعبّدات وإفراده بالألوهية، ولفظ «إياك نستعين» يدل على ما فيه من طلب الاستعانة وذكر الاضطرار، ولفظ «اهدنا الصراط المستقيم» يتضمن ما فيه من طلب الهداية إلى سبيل الخير، ولفظ: «صراط الذين أنعمت عليهم» يتضمن ما فيه من ذكر الخصوص والمرضى عنهم والمعفو عنهم وأهل السعادة، ولفظ «غير المغضوب عليهم» يتضمن ما فيه من أنواع الكفر والمخالفات ومساوئهم ومآلهم فاستحققت أن تسمى أمّا هـ.

وعن علي - كرم الله وجهه - قال: (شرح موسى ﷺ التوراة في سبعين سفرًا، ولو أذن لي رسول الله ﷺ لأُقرت على الفاتحة سبعين بعيرًا). قلت: قوله (سبعين) تقريبًا، وإلا فهي قابلة لأكثر من ذلك، وتفصيل ذلك يطول، وقد ذكرنا أصول علومها في شرحنا الكبير عليها. والله تعالى أعلم.

الثانية: قال ابن جزى: قولنا: «الحمد لله رب العالمين» أفضل عند المحققين من (لا إله إلا الله) لوجهين: أحدهما: ما أخرج النسائي: عن رسول الله ﷺ «أنه من قال: لا إله إلا الله، كتبت له عشرون حسنة، ومن قال: الحمد لله رب العالمين، كتبت له ثلاثون حسنة». والثاني: أن التوحيد الذي تقتضيه (لا إله إلا الله)، حاصل في قولك: (رب العالمين) وزادت بقولك: الحمد لله، وفيه من المعاني ما قدمنا. وأما قوله ﷺ: «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله» فإنما ذلك للتوحيد الذي تقتضيه، وقد شاركها (الحمد لله رب العالمين) في ذلك وزادت عليها. وهذا لمؤمن حقق إيمانه وطلب الثواب، وأما لمن دخل في الإسلام فيتعين «لا إله إلا الله». هـ.

قلت: والتحقيق أن كل ما يدل على التوحيد من الألفاظ يكفي في الدخول في الإسلام، كما قال البناني في حاشيته.

الثالثة: قراءة الفاتحة في الصلاة واجبة عند مالك والشافعي خلافا لأبي حنيفة، وقد ذكرنا في الشرح الكبير منشأ الخلاف.

الرابعة: التأمين عند ختم الفاتحة مطلوب للدعاء الذي فيها، قال رسول الله ﷺ: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين». رواه ابن ماجة. وقال أيضا ﷺ: «إن الله أعطاني خصالاً ثلاثة: أعطاني صلاة الصغوف وأعطاني التحية، وإنها لتحية أهل الجنة، وأعطاني التأمين، ولم يعطه أحداً من النبيين قبلي، إلا أن يكون الله أعطاه هارون، يدعو موسى ويؤمن هارون» رواه ابن خزيمة. وسمع عليه الصلاة والسلام رجلاً يدعو ويلح فقال: «أوجب إن ختم» فقال بعض القوم: بأي شيء يختم؟ فقال: «يؤمن؛ فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب». قال أبو زهير - راوى الحديث - فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة. ولعله مرفوع إلى النبي ﷺ، رواه أبو داود.

ولفظ «آمين» بالمد والقصر مخففاً. وتشديد الميم لغة. قيل: هو اسم من أسماء الله تعالى.. وقيل معناه: اللهم استجب، أو كذلك فافعل، أو كذلك فليكن. قال المنذرى في الترغيب. قال البيضاوي: بنى على الفتح كَأَيِّنْ لالتقاء الساكنين، وجاء مد ألفه وقصرها. قال:

ويرحم الله عبداً قال آميناً (١)

(١) هذا شطر بيت، أوله: (يا رب لا تسلبني حبها أبداً....) ونسبه ابن منظور في اللسان إلى عمر بن أبي ربيعة. قلت: وقد أغفل الشيخ المفسر ذكر مثال القصر. وهو كما في أنوار التنزيل ولسان العرب: تباعد منى فطحل، إذ سأله أمين فزاد الله ما بيئنا بعداً

وليس من القرآن اتفاقاً ، ولكن يُسنُّ ختمُ السورة به لقوله عليه الصلاة والسلام: «عَلَّمَنِي جِبْرِيلُ ﷺ آمِينَ عِنْدَ فِرَاقِي مِنَ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ» . وقال: إِنَّهُ كَالْخَتَمِ عَلَى الْكِتَابِ .

ويقوله الإمام ويجهرُ به في الجهرية، لما رَوَى عَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ «أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ: آمِينَ، رَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ» وَعَنْ أَبِي حَنِيْفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ لَا يَقُولُهُ . والمشهور عنده أَنَّهُ يُخْفِيهِ كَمَا رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَغْفَلٍ وَأَنَسٌ . قلت: ومشهورٌ مذهب مالك أَن الإمام لا يَقُولُهُ في الجهرية .

ثم قال : والمأموم يؤمن معه لقوله - عليه الصلاة والسلام - : «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ وَلَا الضَّالِّينَ، فَقُولُوا: آمِينَ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ: آمِينَ، فَمَنْ وَافَقَ تَأْمِينَهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» . وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد عَيْنِ الْحَقِّ وَالتَّحْقِيقِ، وعلى آله وصحبه المطهرين بعده، أعلام الطريق، وسلم تسليماً .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

قال سيدنا علي - كرم الله وجهه -: (أول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة)^(١). وفيها ستة آلاف ومائة وإحدى وعشرون كلمة، ومائتان وست وثمانون آية، وقيل: سبع وثمانون. قال رسول الله ﷺ: «لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ، وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ. مَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ نَهَارًا لَمْ يَدْخُلْهُ شَيْطَانٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ لَيْلًا لَمْ يَدْخُلْهُ شَيْطَانٌ ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَفِيهَا سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ، وَهِيَ آيَةُ الْكَرْسِيِّ». وإنما كانت سنام القرآن، أي ذروته؛ لأنها اشتملت على جملة ما فيه من أحوال الإيمان وفروع الإسلام.

وقال ﷺ: «أُعْطِيَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ مِنَ الذِّكْرِ الْأَوَّلِ، وَأُعْطِيَتْ طَهَ وَالطَّوَّاسِينَ مِنَ الْوَحْيِ مُوسَى، وَأُعْطِيَتْ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ الْبَقَرَةِ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ».

ثم افتتح السورة برمز رمز بها بينه وبين حبيبته، فقال: ﴿الْم﴾

وقد حارت العقول في رموز الحكماء، فكيف بالأنبياء؟ فكيف بالمرسلين؟ فكيف بسيد المرسلين؟، فكيف يطمع أحد في إدراك حقائق رموز رب العالمين؟! قال الصديق ﷺ: (في كل كتاب سر وسر، القرآن فواتح السور). هـ. فمعرفة أسرار هذه الحروف لا يقف عليها إلا الصفوة من أكابر الأولياء. وكل واحد يلتمح له على قدر صفاء شربه.

وأقرب ما فيها أنها أشياء أقسم الله بها لشرفها. فقيل: إنها مختصرة من أسمائه تعالى، فالألف من الله، واللام من اللطيف، والميم من مهيمن أو مجيد. وقيل: من أسماء نبيه ﷺ فالميم مختصرة إما من المصطفى، ويدل عليه زيادة الصاد في ﴿الْمَص﴾، أو من المرسل، ويدل عليه زيادة الراء في ﴿الْمَرْ﴾. و﴿الْمَرْ﴾ مختصرة من الرسول. فكان الحق تعالى يقول: يا أيها المصطفى، أو يا أيها الرسول ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أو «هذا كتاب أنزل إليك» أو غير ذلك، ويدل على هذا توجيه الخطاب إليه ﷺ بعد هذه الرموز. و﴿كَهَيْعَتِ﴾ مختصرة من الكافي والهادي والولي والعالم والصادق، و﴿طه﴾ من طاهر، و﴿طس﴾ من يا طاهر يا سيد، ويا محمد في ﴿طَسَمَ﴾، إلى غير ذلك.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١/٤٦ عن عكرمة وعزاه لأبي دأود في النسخ والمنسوخ. ولم أقف عليه منسوباً إلى سيدنا علي - كرم الله وجهه ..

وعند أهل الإشارة يقول الحق جل جلاله: ألف: أفرد سرك إلى، انفراد الألف عن سائر الحروف، واللام: لين جوارحك لعبادتي، والميم: أقم معي بمحو رسومك وصفاتك، أزيك بصفاء الأنس والقرب مني. قاله الثعلبي.

قلت: والأظهر أنها حروف تشير للعوالم الثلاثة، فالألف لوحدة الذات في عالم الجبروت، واللام لظهور أسرارها في عالم الملكوت، والميم لسريان أمدادها في عالم الرحموت، والصاد لظهور تصرفها في عالم الملك. وكل حرف من هذه الرموز يدل على ظهور أثر الذات في عالم الشهادة، فالألف يشير إلى سريان الوحدة في مظاهر الأكوان، واللام: يشير إلى فيضان أنوار الملكوت من بحر الجبروت، والميم يشير إلى تصرف الملك في عالم الملك، وكأن الحق تعالى يقول: هذا الكتاب الذي تنلو يا محمد. هو فائض من بحر الجبروت إلى عالم الملكوت، ومن عالم الملكوت إلى الرحموت، ثم نزل به الروح الأمين إلى عالم الملك والشهادة، فلا ينبغي أن يرتاب فيه، ولذلك رتب عليه قوله تعالى:

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ... ﴾

قلت : الريب: تحرك القلب واضطرابه بالشكوك والأوهام، وتقابله الطمأنينة بالسكون إلى الحق على الدوام.

يقول الحق جل جلاله: يا أيها الرسول المصطفى والنبى المجتبى ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ الذى أنزلناه عليك من جبروت قدسنا وملكوت عزنا ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أنه من عندنا. فمن ارتاب فيه، أو نسبه إلى غيرنا، فقد استحق البعد من ساحة رحمتنا، وحلت عليه شذائد نعمتنا، ومن تحقق به أنه من لدنا، وآمن بمن جاء به من عندنا، فقد استحق دخول حضرة قدسنا حتى يسمع منا ويتكلم بنا، فإذا أحببته كنت له، فبى يسمع، وبى يبصر، وبى يتكلم.... الحديث. فيكون من الصديقين المقربين مع النبيين والمرسلين، وكان فى ذروة درجات المتقين، الذين يهتدون بهدى القرآن المبين، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ ... هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

قلت: (هدى) خبر عن مبتدأ مضمّر، أو مبتدأ بتقديم الخبر. أى: هو هاد للمتقين، أو فيه الهدى لهم. والهدى: هو الإرشاد والبيان، ومعناه: الدلالة الموصلة إلى الحق. والمتقى: من جعل بينه وبين مقت الله وقاية، وله ثلاث درجات:

- حفظ الجوارح من المخالفات،
- وحفظ القلوب من المساوىء والهفوات،
- وحفظ السرائر من الوقوف مع المحسوسات،

فالأولى لمقام الإسلام، وإليه توجه الخطاب بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، والثانية لمقام الإيمان، وإليه توجه الخطاب بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، والثالثة لمقام الإحسان، وإليه توجه الخطاب بقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الذى لا يقرب ساحته شك ولا ارتياب، هو عين الهداية لأهل التقى من ذوى الألباب، فلا يزالون يترقون به فى المقامات والأحوال حتى يسمعه من الكبير المتعال، بلا واسطة تبليغ ولا إرسال، قد انمحت فى حقهم الرسوم والأشكال، وهذه غاية الهداية، وتحقيق سابق العناية.

قال جعفر الصادق: (والله لقد تجلى الله تعالى لخلقه فى كلامه ولكن لا يشعرون) وقال أيضا - وقد سأله عن حالة لحقته فى الصلاة حتى خر مغشيا عليه، فلما سرى عنه، قيل له فى ذلك فقال -: (مازلت أريد الآية على قلبى حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته).

فدرجات القراءة ثلاث:

أدناها: أن يقرأ العبد كأنه يقرأ على الله تعالى واقفاً بين يديه، وهو ناظر له ومستمع منه، فيكون حاله السؤال والتعلق والتضرع والابتهال.

والثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله تعالى يخاطبه بألفاظه، ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم، والإصغاء والفهم.

والثالثة: أن يرى فى الكلام المتكلم، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته، بل يكون فانياً عن نفسه، غائبا فى شهود ربه، لم يبق له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله قرار.

فالأولى لأهل الفناء فى الأفعال، والثانية لأهل الفناء فى الصفات، والثالثة لأهل الفناء فى شهود الذات، رضى الله عنهم، وحشرنا على منهاجهم.. آمين.

ثم وصف المتقين، الذين خصوا بهداية كتابه المبين، بثلاثة أوصاف، فقال:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

قلت: هذه الأوصاف تتضمن ثلاثة أعمال: الأول: عمل قلبى وهو الإيمان، والثانى: عمل بدنى، وهو الصلاة، والثالث: عمل مالى، وهو الإنفاق فى سبيل الله، وهذه الأعمال هى أساس التقوى التى تدور عليها.

أما العمل القلبي: فهو الإيمان أولاً، والمعرفة ثانياً، فما دام العبد محجوباً بشهود نفسه، محصوراً في الأكوان وفي هيكل ذاته فهو مؤمن بالغيب، يؤمن بوجود الحق تعالى، وبما أخبر به من أمور الغيب، يستدل بوجود أثره عليه، فإذا فنى عن نفسه وتلطفت دائرة حسه، وخرجت فكرته عن دائرة الأكوان، أفضى إلى الشهود والعيان، فصار الغيب عنده شهادة، والملك مكتوباً، والمستقبل حالاً، والآتي واقعاً، وقد قلت في ذلك:

فَلَا تَرْضَى بِغَيْرِ اللَّهِ حَبًّا وَكُنْ أَبَدًا بِعِشْقٍ وَاشْتِاقٍ
تَرَى الْأَمْرَ الْمُغَيَّبَ ذَا عِيَانٍ وَتَحْظَى بِالْوَصُولِ وَبِالتَّلَاقِ

وفي الحكم: «لو أشرق نور اليقين في قلبك لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها، ولرأيت بهجة الدنيا وكسوة الفناء ظاهرة عليها». وقال في التنوير: ولو أنهتك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان، ولأشرق نور الإيقان فغطى وجود الأكوان. هـ.

وإنما اقتصر الحق تعالى على الإيمان بالغيب لأنه هو الملك به؛ إذ هو الذي يطيقه جل العباد، بخلاف المعرفة الخاصة فلا يطيقها إلا الخصوص، والله تعالى أعلم.

وأما العمل البدني: فهو إقامة الصلاة، والمراد بإقامتها إتقان شروطها وأركانها وخشوعها، وحفظ السر فيها، قال الشيخ أبو العباس المرسى رحمته الله: (كل موضع ذكر فيه المصلون في معرض المدح فإنما جاء لمن أقام الصلاة، إما بلفظ الإقامة، وإما بمعنى يرجع إليها، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ ، وقال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ ، ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةَ﴾ ، ولما ذكر المصلين بالغفلة قال: ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ ولم يقل: فويل للمقيميين الصلاة).

وأما العمل المالي فهو الإنفاق في سبيل الله واجبا أو مندوباً، وهو من أفضل القربات، يقول الله - تبارك وتعالى - : «يا ابن آدم أنفق، أنفق عليك» ، وفي حديث آخر: «أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالا» ، وقال رحمته الله: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنهما من ظاهرها. قيل لمن هي يا رسول الله؟ قال: لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام». وقال أيضاً رحمته الله: «إن الله - عز وجل - ليدخل باللقمة من الخبز والقبضة من التمر ومثله مما ينتفع به المسكين، ثلاثة، الجنة: رب البيت الأمر به، والزوجة تصلحه، والخادم

الذى يناوله المسكين». وقال أيضاً: ﷺ «إن الصدقة لتسد سبعين باباً من سوء». وقال أيضاً ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر».

الإشارة: يا من غرق في بحر الذات وتيار الصفات (ذلك الكتاب) الذي تسمعه من أنوار ملكوتنا، وأسرار جبروتنا (لاريب فيه) أنه من عندنا، فلا تسمعه من غيرنا، (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه)، فهو هاد لشهود ذاتنا، ومرشد للوصول إلى حضرتنا، لمن اتقى شهود غيرنا، وغرق في بحر وحدتنا، الذي يؤمن بغيب غيبنا، وأسرار جبروتنا، التي لا تحيط بها العلوم، ولا تسمو إلى نهايتها الأفكار والفهوم، الذي جمع بين مشاهدة الربوبية، والقيام بوظائف العبودية، إظهاراً لسر الحكمة بعد التحقق بشهود القدرة، فهو على صلاته دائم، وقلبه في غيب الملكوت هائم، ينفق مما رزقه الله من أسرار العلوم ومخازن الفهوم، فهو دائماً ينفق من سعة علمه وأنوار فيضه، فلا جرم أنه على بيئة من ربه.

ولما ذكر الحق تعالى من آمن من العرب، ذكر من آمن من أهل الكتاب، فقال:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ﴿١﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى

مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢﴾

قلت: الموصول مبتدأ، و(أولئك) خبره، أو عطف على (المتقين)، وحذف المنزل عليه في جانب الكتب المتقدمة، فلم يقل: وما أنزل على من قبلك؛ إشارة إلى أن الإيمان بالكتب المتقدمة دون معرفة أعيان المنزل عليهم كاف، إلا من ورد تعيينه في الكتاب والسنة فلا بد من الإيمان به، أما القرآن العظيم فلا بد من الإيمان أنه منزل على نبينا محمد ﷺ، فمن اعتقد أنه منزل على غيره كالروافض فإنه كافر بإجماع، ولذلك ذكر المتعلق بقوله: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ يصدقون ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد من الأخبار الغيبية والأحكام الشرعية، والأسرار الربانية والعلوم الدنيوية ﴿وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الكتب السماوية، والأخبار القدسية، وهم ﴿يُوقِنُونَ﴾ بالبعث والحساب والرجوع إلينا والمآب، على نعمت ما أخبرت به في كتابي وأخبار أنبيائي، ﴿أُولَئِكَ﴾ راكبون على متن الهداية، مستعملون على محمل العناية، محفوفون بجيش النصر والرعاية، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ﴾ الظافرون بكل مطلوب، الناجون من كل مخوف ومرهوب، دون من عداهم ممن

سبق له الخذلان، فلم يكن له إيمان ولا إيقان، فلا هداية له ولا نجاح، ولا نجاة له ولا فلاح، نسأل الله العصمة بمنه وكرمه.

الإشارة : قلت: كأن الآية الأولى في الواصلين، والثانية في السائرين، لأن الأولين وصفهم بالإنفاق من سعة علومهم، وهؤلاء وصفهم بالتصديق في قلوبهم، فإن داموا على السير كانوا مفلحين فائزين بما فاز به الأولون. فأهل الآية الأولى من أهل الشهود والعيان، وأهل الثانية من أهل التصديق والإيمان. أهل الأولى ذاقوا طعم الخصوصية، فقاموا بشهود الربوبية وآداب العبودية، وأهل الثانية صدقوا بنزول الخصوصية ودوامها، واستنشقوا شيدا من روائح أسرارها وعلومها، فهم يوقنون بوجود الحقيقة، عالمون برسوم الطريقة، فلا جرم أنهم على الجادة وطريق الهداية، وهم مفلحون بالوصول إلى عين العناية. دون الفرقة الثالثة التي هي بالإنكار موسومة، ومن نيل العناية محرومة، التي أشار إليها الحق تعالى بقوله:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

قلت: (سواء) خبر مقدم، و(أنذرتهم) مبتدأ لسبك همزة التسوية، أى: الإنذار وعدمه سواء فى حق هؤلاء الكفرة، والجملة خبر إن، و(غشاوة) مبتدأ، والجار قبله خبره، والغشاوة: ما يغشى الشئ ويغطيه، كنى به عن مانع قهرهم عن الإيمان.

يقول الحق جل جلاله: يا محمد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بما أنزل إليك جهراً، وسبقت لهم منى الشقاوة سراً، لا ينفع فيهم الوعظ والإنذار، ولا البشارة والتذكار، فإنذارك وعدمه فى حقهم سواء، لما سبق لهم منى الطرد والشقاء، فالتذكير فى حقهم عناء، والغيبة عن أحوالهم راحة وهناء، لأنى ختمت على قلوبهم بطابع الكفران، فلا بهتدون إلى إسلام ولا إيمان، ومنعت أسماعهم أن تصغى إلى الوعظ والتذكير، فلا يدجع فيهم تخويف ولا تحذير، وغشيت أبصارهم بظلمة الحجاب فلا يبصرون الحق والصواب، قد أعددتهم لعذابى ونقمتى، وطردتهم عن ساحة رحمتى ونعمتى.

وانما أمرتك بإنذارهم لإقامة الحجة عليهم، وإنى وإن حكمت عليهم أنهم من أهل مخالفتى وعنادى؛ فإنى لأظلم أحدا من خلقى وعبادى، ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾. فما ظلمتهم؛ لأنى بعثت الرسل مبشرين ومنذرين، ولكن ظلموا أنفسهم فكانوا هم الظالمين، فحكمتى اقتضت الإنذار، وقدرتى اقتضت

القهر والإجبار، فالواجب عليك أيها العبد أن تكون لك عيذان: عين تنظر لحكمتي وشريعتي فتتأدب، وعين تنظر لقدرتي وحقيقتي فتسلم، وتكون بين الأمن والرهب، فلا تأمن مكري وإن أمثلك، ولا تيأس من حلمي وإن أبعدتك، فعلمي لا يحيط به محيط، إلا من هو بكل شيء محيط.

الإشارة: إن الذين أنكروا وجود الخصوصية، وجحدوا أهل مشاهدة الربوبية من أهل التربية النبوية، لا ينفع فيهم الوعظ والتذكير، بما سبق لهم في علم الملك القدير، فسواء عليهم أنذرتهم وبال القطيعة والحجاب، أم لم تنذرهم؛ لعدم فتح الباب، قد ختم الله على قلوبهم بالعوائد والشهوات، أو حلاوة الزهد والطاعات، أو تحرير المسائل والمشكلات، وعلى سمع قلوبهم بالخواطر والغفلات، وجعل على أبصارهم غشاوة الحجاب، فلا يبصرون إلا المحسوسات، غائبون عن أسرار المعاني وأنوار التجليات، بخلاف قلوب العارفين، فإنها ترى من أسرار المعاني مالا يرى للناظرين، وفي ذلك يقول الشاعر:

قلوب العارفين لها عيون	تري مالا يرى للناظرينا
والسنة بأسرار تداجي	تغيب عن الكرام الكاتبينا
وأجنحة تطير بغير ريش	إلى ملكوت رب العالمينا ^(١)

فسبحان من حجب العالمين بصلاحهم عن مصلحتهم، وحجب العلماء يعلمهم عن معلومهم، واختص قوماً بنفوذ عزائمهم إلى مشاهدة ذات محبوبهم، فهم في رياض ملكوته يتنزهون، وفي بحار جبروته يسبحون، «لمثل هذا فليعمل العاملون».

ولما ذكر الحق - جل جلاله - من أعلن بالإنكار، ذكر من أسر بالجحود وأظهر الإقرار، فقال جل وعلا:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ إِنَّمَا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

قلت: (من) موصوفة مبتدأ، والخبر مقدم، أي: ومن الناس ناس يقولون كذا، والمخادعة: إظهار خلاف ما يخفى من المكروه، وأصل الخدع: الإخفاء، ومنه المخدع للبيت الذي يخبأ فيه المتاع. وقيل: الفساد لأن المنافقين

(١) تنسب هذه الأبيات للحلاج، كما تنسب لميمونة السوداء في قصة مع إبراهيم بن أدهم.. راجع كتاب عقلاء المجانين.

يفسدون إيمانهم بما يُخفون، وجملة (وما يشعرون) حالية، أى: غير شاعرين، والشعور: التفتن، وفعله من باب كَرَمَ وتَصَرَّ. وليت شعري: أى: ليت فطنتى تدرك -، وجملة (فى قلوبهم مرض) تعليلية للمخادعة، والمرض: الضعف والفتور، وهو هنا مرض القلوب بالشك والنفاق. والعياذ بالله.

يقول الحق جل جلاله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ مر م مغموص عليهم بالنفاق كبعض اليهود والمنافقين، يقولون بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم، يقولون: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وما هم فى عداد المؤمنين، ﴿يُخَادِعُونَ﴾ بزعمهم ﴿اللَّهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما يظهرون من الإيمان، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ فى الحقيقة ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ لأن وبال خداعهم راجع إليهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن خداعهم وبال عليهم، وإنما حصلت لهم هذه المخادعة لأن ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مرضاً من الشك والحسد، فقلوبهم مذبذبة، وأنفسهم مغمومة، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ على مرضهم بما ينزل عليهم من الآيات التى تفضحهم، ﴿وَلَهُمْ﴾ فى الآخرة - إذا قدموا على الله - ﴿عَذَابٌ﴾ موجع بسبب تكذيبهم رسول الله أو كذبهم على الله. هذا مضمَّن الآية.

افتتح الحق - جل جلاله - بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم السنتهم، ثم ثنى بالكافرين الذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً، ثم ثلث بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبث الكفرة؛ لأنهم خلطوا بالكفر استهزاء وخداعاً، ولذلك كانوا فى الدرك الأسفل من النار.

الإشارة: ومن الناس من يتراعى بالدعوى على الخصوصية، ويدعى تحقيق مشاهدة الربوبية، وهو فى الدرك الأسفل من العمومية، يظهر خلوص الإيمان وتحقيق العرفان، وهو فى أودية الشكوك والخواطر حيران، وفى فيافى القطيعة والفرقِ ظمآن، لسانه منطلق بالدعوى، وقلبه خارب من الهدى، يخادع الله بالرضا عن عيوبه ومساوئه، ويخادع المسلمين بتزيين ظاهره، وباطنه معمور بحظوظه ومهاويه، يتزى بزي العارفين ويتعامل معاملة الجاهلين، ويصدق عليه قول القائل:

أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ وَأَرَى نِسَاءَ الْحَىِّ غَيْرَ نِسَائِهَا (١)

وما يخادع فى الحقيقة إلا نفسه، حيث حرّمها الوصول، وتركها فى أودية الأكوام تجول، قلبه بمرض الفرق والقطيعة سقيم، وهو يظن أنه فى عداد من يأتى الله بقلب سليم، فزاده الله مرضاً على مرضه حيث رضى بسقمه وعيبه، وله عذاب الحرص والتعب فى الحقيق الحجاب والنصب بسبب كذبه على الله، وإنكاره على أولياء الله، فجزاؤه البعد والخذلان، وسوء العاقبة والحرمان، عائذاً بالله من المكر والطغيان.

(١) البيت نسبة القرطبي فى تفسيره لأبى بكر الشبلى، فى قصة - وجاء فى ديوان الشبلى: قسم أشعار تمثل بها الشبلى.

ثم ذكر أقوالهم الشليعة، وأحوالهم الفظيعة، فقال:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قلت: «إذا» ظرف خافض لشرطه منصوب بجوابه، أى: قالوا نحن مصلحون، وقت قول القائل لهم: لا تفسدوا، والجملة بيان وتقرير لخداعهم، أو معطوفة على (من يقول آمنا)، أى: ومن الناس فرقة إذا قيل لهم: لا تفسدوا، قالوا: إنما نحن مصلحون.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بالمعاصى والتعويق عن الإيمان، وإغراء أهل الكفر والطغيان على أهل الإسلام والإيمان، وتهيج الحروب والفتن، وإظهار الهرج والمرج والمحن، وإقشاء أسرار المسلمين إلى أعدائهم الكافرين، فإن ذلك يودى إلى فساد النظام، وقطع مواد الإنعام، ﴿ قَالُوا ﴾ فى جوابهم الفاسد: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ فى ذلك، فلا تصح مخاطبتنا بذلك، فإن من شأننا الإصلاح والإرشاد، وحالنا خالص من شوائب الفساد، قال تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ هنالك، ولكن لا شعور لهم بذلك.

قلت: فردّ الله ما ادعوه من الانتظام فى سلك المصلحين بأقبح رد وأبلغه، من وجوه الاستئناف الذى فى الجملة، والاستفتاح بالتنبيه، والتأكيد بـ «إن» وضمير الفعل، وتعريف الخبر، والتعبير بنفى الشعور، إذ لو شعروا أدنى شعور لتحقيقوا أنهم مفسدون.

وهذه الآية عامة لكل من اشتغل بما لا يعنيه، وعوق عن طريق الخصوص، ففيه شعبة من النفاق، وفى صحيح البخارى: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان».

الإشارة: وإذا قيل لمن يشتغل بالتعويق عن طريق الله والإنكار على أولياء الله: أقصر من هذا الإفساد، وارجع عن هذا النقي والعناد، فقد ظهرت معالم الإرشاد لأهل المحبة والوداد. قال: إنما أنا مصلح ناصح، وفى أحوالى كلها صالح، يقول له الحق جل جلاله: بل أفسدت قلوب عبادى، ورددتهم عن طريق محبتى وودادى، وعوقتهم عن دخول حضرتى، وحرمتهم شهود ذاتى وصفاتى، سدّدت بابى فى وجه أحبائى، آيستهم من وجود التريية، وتحكمت على القدرة الأزلية، ولكنك لا تشعر بما أنت فيه من البلية.

ولقد صدق من سبقت له العناية، وأتحف بالرعاية والهداية، حيث يقول (١):

فَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْإِشْرَاقِ كَانَتْ وَتَبَقِيَ مَا الْوُجُودُ بَاقٍ
وقال أيضا :

وَأَنْكَرُوهُ مَلَأَ عَوَامٌ لَمْ يَفْهَمُوا مَقْصُودَهُ فَهَامُوا

فَتَبَّ أَيُّهَا الْمُنْكَرُ قَبْلَ الْفَوَاتِ، واطلب من يأخذ بيدك قبل الممات، لئلا تلقى الله بقلب سقيم، فتكون في الحضيض الأسفل من عذابه الأليم، فسبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النعيم النظر لوجهه الكريم، منحنا الله منه الحظ الأوفى في الدنيا والآخرة. آمين.

ثم ذكر الحق تعالى استهزاءهم بالإسلام وامتناعهم منه، فقال:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ
وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣)

قلت : الكاف من ﴿ كَمَا آمَنَ ﴾ صفة لمصدر محذوف، و(ما) مصدرية. أى: إذا قيل لهم آمنوا إيماننا خالصا من النفاق مثل إيمان المسلمين، أو من أسلم من جلدتهم، والسفه: خفة وطيش في العقل، يقال: ثوب سفیه، أى: خفيف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ ﴾ لهؤلاء المنافقين من المشركين واليهود: اتركوا ما أنتم عليه من الكفر والجحود، وراقبوا الملك المعبود، وطهروا قلوبكم من الكفر والنفاق، وأقصروا مما أنتم فيه من البعاد والشقاق ﴿ ءَامِنُوا ﴾ إيماننا خالصا مثل إيمان المسلمين، لتكونوا معهم فى أعلى عليين، «مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا حُسْرَ مَعَهُمْ». «المرء مع من أحب»، ﴿ قَالُوا ﴾ مترجمين عما فى قلوبهم من الكفر والنفاق: ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ الذين لا عقل لهم، إذ جلهم فقراء وموالى.

قال الحق تعالى فى الرد عليهم وتقبيح رأيهم: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ﴾ لا غيرهم، حيث تركوا ما هو السبب فى الفوز العظيم بالنعيم المقيم، وارتكبوا ما استوجبوا به الخلود فى الدرك الأسفل من الجحيم ﴿ وَلَكِن لَّا

(١) القائل: ابن البنا السرقسطى فى المنظومة.

يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿١٥﴾، عبر الحق في هذه الآية بـ «لا يعلمون» وفي الأولى بـ «لا يشعرون»؛ لأن الفساد في الأرض يدرك بأدنى شعور، بخلاف الإيمان والتميز بين الحق والباطل؛ فيحتاج إلى زيادة تفكر واكتساب علم، والله تعالى أعلم.

الإشارة: وإذا قيل لأهل الإنكار على أهل الخصوصية، القاصدين مشاهدة عظمة الربوبية، قد تجردوا عن لباس العز والاشتهار، ولبسوا أطمار الذل والافتقار، آمنوا بطريق هؤلاء المخصوصين، وادخلوا معهم كي تكونوا من المقربين. قالوا: (أنؤمن كما آمن السفهاء) ونترك ما نحن عليه من العز والكبرياء، قال الله تعالى في تسفيه رأيهم وتقبيح شأنهم: (ألا إنهم هم السفهاء)؛ حيث تعززوا بعز يفنى، وتركوا العز الذي لا يفنى، قال الشاعر:

تَذَلُّ لِمَنْ تَهْوَى لِيَكْسِبَ عِزَّةً فَكَمْ عِزَّةٍ قَدْ نَالَهَا الْمَرْءُ بِالدُّلِّ
إِذَا كَانَ مَنْ تَهْوَى عَزِيزًا، وَلَمْ تَكُنْ ذَلِيلًا لَهُ، فَاقْرَ السَّلَامَ عَلَى الْوَصْلِ

فلو علموا مافى طي الذل من العز، وما فى طي الفقر من الغنى، لجالدوا عليه بالسيوف، ولكن لا يعلمون.

ثم بين الحق تعالى ما أضمره من النفاق وأظهره من الوفاق، فقال:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٥﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٧﴾﴾

قلت: اللقاء: المصادفة بلا قصد، والخلو بالشئ أو معه: الانفراد به، ضمنه هنا معنى رجع، ولذلك تعدى بالي، و(الشیطان) فيعال، من شطن، إذا بعد، أو فعلاً من شاط، إذا بطل، والاستهزاء بالشئ: الاستخفاف بحقه، والعمه في البصيرة كالعمى في البصر.

يقول الحق جل جلاله في وصف المنافقين تقريراً لنفاقهم: إنهم كانوا ﴿إِذَا لَقُوا﴾ الصحابة أظهروا الإيمان، وإذا رجعوا ﴿إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ أى: كبرائهم المتمردين فى الكفر والطغيان، ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ لم

نخرج عن ديننا ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ بهم، ومستسخرون بشأنهم. نزلت في عبد الله بن أبي - رأس المنافقين - كان إذا لقي سعداً قال: نعم الدين دين محمد، وإذا خلا برؤساء قومه من أهل الكفر، قال: شدوا أيديكم على دين آبائكم.

وخرج ذات يوم مع أصحابه فاستقبلهم نفر من الصحابة - رضوان الله عليهم - فقال عبدالله لأصحابه: انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم، فأخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه فقال: مرحباً بالصديق سيد بنى تيم، وشيخ الإسلام، وثاني رسول الله ﷺ في الغار، البازل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد عمر، فقال: مرحباً بسيد بنى عدى بن كعب، الفاروق، القوى في دين الله، البازل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد علي؛ فقال: مرحباً بابن عم رسول الله ﷺ وختنه^(١)، سيد بنى هاشم، ما عدا رسول الله ﷺ، فقال علي رضي الله عنه: يا عبد الله، اتق الله ولا تنافق، فإن المنافقين شر خلق الله، فقال عبد الله: مهلاً يا أبا الحسن، أنى تقول هذا؟ والله إن إيماننا كإيمانكم، وتصديقنا كتصديقكم، فنزلت الآية^(٢).

ثم رد الله تعالى عليهم فقال: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ أى: يفعل بهم فعل المستهزئ؛ بأن يفتح لهم باباً إلى الجنة وهم فى النار، ويطلع المؤمنين عليهم، فيقول لهم: ادخلوا الجنة، فإذا جاءوا يستبقون إليها وطمعوا فى الدخول، سُدَّتْ عليهم ورجعوا إلى النار، ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ الآية. ﴿وَيَمْدُهُمْ﴾ أى: يمهلهم ﴿فِي﴾ كفرهم، و﴿طُغْيَانِهِمْ﴾ يتحiron إلى يوم يبعثون؛ لأنهم ﴿اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أى: استبدلوا بها رأس مالهم، فضلاً عن الريح، إذ الإيمان رأس المال، وأعمال الطاعات ربح، فإذا ذهب الرأس فلا ربح؛ ولذلك قال تعالى ﴿فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾، بل خسرت صفقتهم، ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى أسباب الريح أبداً، لاستبدالهم الهدى - التى هى رأس المال - بالضلالة - التى هى سبب الخسران. وبالله التوفيق.

وهاهنا استعارات وبلاغات يطول سردها، إذ مرادنا تربية اليقين بكلام رب العالمين.

الإشارة: الناس فى طريق الخصوص على أربعة أقسام:

قسم: سبقت لهم من الله العناية، وهبت عليهم ريح الهداية، فصدقوا ودخلوا فيها، وبذلوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله، فَتَجَرُّوا فيه وربحوا، فعوضهم الله تعالى جنة المعارف، يتبوءون منها حيث شاءوا، فإذا قدموا عليه أدخلهم جنة الزخارف، يسرحون فيها حيث شاءوا، وأتحفهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم.

(١) ختن الرجل: المتزوج بابنته أو بأخته.

(٢) سند هذا الأثر واه جداً، انظر: الفتح السماوى فى تخريج أحاديث البيضاوى، وتنزيه الشريعة المرفوعة.

وقسم: سبقت لهم من الله الهداية، وحفتهم الرعاية، فصدقوا وأقروا، ولكنهم ضعفوا عن الدخول، ولم تتعلق همتهم بالوصول، فبقوا في ضعفاء المسلمين ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ...﴾ .

وقسم : أنكروا وأظهروا وجحدوا وكفروا، فتجروا وخسروا ، «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ» .

وقسم رابع : هم مذبذبون بين ذلك إذا لقوا أهل الخصوصية قالوا: آمنا وصدقنا فأنتم على الجادة، وإذا رجعوا إلى أهل التمرّد من المنكرين - طعنوا وجحدوا، وقالوا: إنما كنا بهم مستهزئين، «الله يستهزئ بهم» بما يظهر لهم من صور الكرامات والاستدراجات، ويمدهم في تعاطي العوائد والشهوات، وطلب العلو والرئاسات، متحيرين في مهامه الخواطر والغفلات، «أولئك الذين اشتروا الضلالة» عن طريق الخصوص من أهل الوصول، «بالهدى» الذى كان بيدهم، لو حصل لهم التصديق والدخول، فما ربحوا فى تجارتهم، وما كانوا مهتدين إلى بلوغ المأمول . قال بعض العارفين: (التصديق بطريقتنا ولاية، والدخول فيها عناية، والانتقاد عليها جنابة) . وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق .

ثم ضرب مثل المنافقين، زيادة فى توبيخهم وتقبيح شأنهم، فقال:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ

لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧) صُمُّ بَكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

قلت : (استوقد) يحتمل أن تكون للطلب، أو زائدة بمعنى أوقد، و(لما) شرطية، و«ذهب» جواب، وإذا كان لفظ الموصول مفرداً واقعاً على جماعة، يصح فى الضمير مراعاة لفظه فيفرد، ومعناه فيجمع، فأفرد فى الآية أولاً، وجمع ثانياً. ويقال: أضاء يضئ إضاءة، وضاء يضوء ضوئاً.

يقول الحق جل جلاله : مثل هؤلاء المنافقين من اليهود ﴿كَمَثَلِ﴾ رجل فى ظلمة، تائه فى الطريق، فاستوقد ناراً ليبصر طريق القصد ﴿فَلَمَّا﴾ اشتعلت و﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ فأبصر الطريق، وظهرت له معالم التحقيق، أطفأ الله تلك النار وأذهب نورها، ولم يبق إلا جمرها وحرها. كذلك اليهود كانوا فى ظلمة الكفر والمعاصى ينتظرون ظهور نور النبى ﷺ ويطلبونه، فلما قدم عليهم، وأشرقت أنواره بين أيديهم كفروا به، فأذهب الله عنهم نوره، ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ الكفر والشك والنفاق، ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ ولا يهتدون، ﴿صُمٌّ﴾ عن سماع الحق،

﴿بُكُمْ﴾ عن النطق به ﴿عُمِي﴾ عن رؤية نوره، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ عن غيهم، ولا يقصرون عن ضلالتهم.

الإشارة: مثل من كان في ظلمات الحجاب قد أحاطت به الشكوك والارتياح، وهو يطلب من يأخذ بيده ويهديه إلى طريق رشده، فلما ظهرت أنوار العارفين، وأحدثت به أسرار المقربين، حتى أشرقت من نورهم أقطار البلاد، وحيى بهم جل العباد، أنكرهم وبعد منهم، فتصامم عن سماع وعظهم، وتباكهم عن تصديقهم، وعمى عن شهود خصوصيتهم، فلا رجوع له عن حظوظه وهواه، ولا انزجار له عن العكوف على متابعة دنياه، مثله كمن كان في ظلمات الليل ضالا عن الطريق، فاستوقد نارا لتظهر له الطريق، فلما اشتعلت وأضاءت ما حوله أذهب الله نورها، وبقي جمرها وحرها، وهذه سنة ماضية: لا ينتفع بالولى إلا من كان بعيدا منه. وفي الحديث: «أزهد الناس في العالم جيرانه»، وقد مثلوا الولي بالنهر الجاري كلما بعد جريه عم الانتفاع به، ومثلوه أيضا بالنخلة لا تظل إلا عن بعد. والله تعالى أعلم.

ثم ضرب لهم مثلا آخر، فقال:

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعْدٌ وَيَبْرَقُ يُجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيءَ إِذَا نِهِم مِّنَ الصَّوْعِقِ
حَذَرُ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا
أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّا اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

قلت: (أو) للتويع، أو بمعنى الواو، و(الصيب): المطر، فيعل، من صاب المطر إذا نزل، وهو على حذف مضاف، أي: أو كذى صيب، وأصله: صيوب، كسيد، قلبت الواو ياء وأدغمت، ولا يوجد هذا إلا في المعتل كميت وهين وضيق وطيب. و(الرعد): الصوت الذي يخرج من السحاب، و(البرق): النور الذي يخرج منه. قال ابن عزيز: روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل ينشئ السحاب فتنطق أحسن النطق، وتضحك أحسن الضحك، فنطقها الرعد، وضحكها البرق». وقال ابن عباس: (الرعد ملك يسوق السحاب، والبرق سوط من نور يزجر به السحاب). هـ. والصواعق: قطعة من نار تسقط من المخراق الذي بيد سائق السحاب، وقيل: تسقط من نار بين السماء والأرض، والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله : ومثل المنافقين أيضا كأصحاب مطر غزير ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَّرَعْدٌ﴾ وهدير أصابهم في ليلة مظلمة وقفراء مُدْلَهَمَةٌ . فيه ﴿بَرْقٌ﴾ يلمع ، وصاعقة تقمع ، إذا ضرب الرعد وعظم صوته جعلوا ﴿أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ من الهول والخوف حذرا من موت أنفسهم ، وقد ماتت أرواحهم وقلوبهم ، وإذا ضرب البرق كاد ﴿أَنْ يَخْطِفَ أَبْصَارَهُمْ﴾ ، فإذا لمع أبصروا الطريق ، ﴿وَمَشَوْا فِيهِ﴾ ، وإذا أظلم عليهم قاموا ﴿مُتَحِيزِينَ حَائِدِينَ عَنِ عَيْنِ الْحَقِيقِ﴾ ، ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ . ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ بصوت ذلك الرعد ، ﴿وَأَبْصَارَهُمْ﴾ بلمعان ذلك البرق ، ﴿إِنْ أَلَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء .

هذا مثلهم في تحيرهم واضطرابهم ، فيحتمل أن يكون من التشبيه المركب ، وهو تشبيه الجملة بالجملة ، أو من المفصل ، فيكون المطر مثالا للقرآن ، وفيه ذكر الكفر والنفاق المُشْبِهَيْنِ بالظلمات ، والوعد عليه والزجر المشبه بالرعد ، والحُجج الباهرة التي تكاد أحيانا تبهرهم المشبهة بالبرق ، وتخوفهم ، وروعهم هو جعل أصابعهم في آذانهم ، فلا يسمعون فيميلوا إلى الإيمان ، وفَضَحُ نفاقهم وتكاليْفُ الشرع التي يكرهونها هي الصواعق . والله تعالى أعلم .

الإشارة : أهل الخصوصية إذا ظهروا بين العموم بأحوال غريبة وعلوم وهبية ، وأسرار ربانية وأذكار نورانية ، دهشوا منهم وتحيروا في أمرهم ، وخافوا على أنفسهم ، فإذا سمعوا منهم علوماً لدنية وأسراراً ربانية فروا منها ، وجعلوا أصابعهم في آذانهم ، خوفاً على نفوسهم أن تفارق عوائدها وهواها ، وإذا خاصمهم أحد من العموم أجموه بالحجة ، فتكاد تلك الحجة تخطفه إلى الحضرة ، كلما لمع له شيء من الحق مشى إلى حضرته ، وإذا كرت عليه الخصوم والخواطر ، وأظلم عليه الحال ، وقف في الباب حيران ، ولو شاء الله لذهب بعقله وسمعه وبصره ، فيبصر به إلى حضرته . من استغرب أن ينقذه الله من شهوته ، وأن يخرج من وجود غفلته ، فقد استعجز القدرة الإلهية ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ .

فالصَّيْبُ الذي نزل من السماء كناية عن الواردات والأحوال التي ترد على قلوب العارفين ، ويظهر أثرها على جوارحهم ، والظلمات التي فيها كناية عن اختفاء بعضها عن أهل الشريعة فينكرونها ، والرعد كناية عن اللهج بذكر الله جهرا في المحافل والخلق ، والبرق كناية عن العلوم الغريبة التي ينطقون بها والحجج التي يحتجون بها على الخصوم ، فإذا سمعها العوام اشمأزت قلوبهم عن قبولها ، فإذا وقع منهم إنصاف تحققوا صحتها فمالوا إلى جهتها ، ومَشَوْا إلى ناحيتها ، فإذا كُرَّت عليهم الخصوم قاموا منكبين ، ولو شاء ربك لهدى الناس جميعا ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ .

ولما ذكر الحق من تخلق بالإيمان ظاهراً وباطناً، ومن تحلى به كذلك، ومن أخفى الكفر وأظهر الإيمان، دعا الكل إلى توحيده وعبادته، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قلت : جملة الترجي حال من الواو في (اعبدوا) ، أى: اعبدوا ربكم راجين أن تتخبطوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح، المستوجبين جوار الله تعالى، نبه به على أن التقوى منتهى درجات السالكين؛ وهو التبرى من كل شيء سوى الله تعالى - إلى الله تعالى.

و(الَّذِي جَعَلَ) صفة للرب، و (فَلَا تَجْعَلُوا) معطوف على (اعبدوا) على أنه نهى، أو منصوب بأن، جواب له، و(الأنداد) جمع نَدٍّ، بكسر النون. وهو الشبه والمثل، و(أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) حال من ضمير (فَلَا تَجْعَلُوا) أى: فلا تجعلوا لله أندادا والحال أنكم من أهل العلم.

يقول الحق جل جلاله : يا عبادى اعبدونى بقلوبكم بالتوحيد والإيمان، وبعوارحكم بالطاعة والإذعان، وبأرواحكم بالشهود والعيان، فأنا الذى أظهرتكم من العدم - أنتم ومن كان قبلكم - وأسبغت عليكم سوابغ النعم، الأرض تقلكم والسماء تظلكم، والجهات تكتنفكم، وأنزلت من السماء ماء فأخرجت به أصنافاً من الثمرات رزقا لكم، فأنتم جوهرة الصدق، تنطوى عليكم أصداف مكنوناتى، وأنتم الذين أطلعتكم على أسرار مكنوناتى، فكيف يمكنكم أن تتوجهوا إلى غيرى؟ وقد أغنيتكم بلطائف إحسانى ويرى، أنعمت عليكم أولا بالإيجاد، وثانيا بتوالى الإمداد، خصصتكم بنور العقل والفهم، وأشرقت عليكم نبذة من أنوار القدم، فبى عرفتمونى، ويقدرتى عبدتمونى، فلا شريك معى ولا ظهير، ولا احتياج إلى معين ولا وزير.

الإشارة : توجه الخطاب إلى العارفين الكاملين فى الإنسانية الذين يعبدون الله تعظيماً لحق الربوبية، وقياماً بوظائف العبودية، وفيهم قال صاحب العينية^(١):

هُم النَّاسُ فَالزَّمْ إِنَّ عَرَفْتَ جَنَابَهُمْ فَفِيهِمْ لِضُرِّ الْعَالَمِينَ مَنَافِعُ

(١) وهو: الشيخ عبدالكريم الجبلى.

وقال قبل ذلك:

هم القَصْدُ للملُوفِ والكنز والرجا ومنهم ينال الصب ما هو طامع
بهم يهتدى للعين من ضل في العمى بهم يجذب العشاق، والربيع شاسع
هم القَصْدُ والمطلوب والسؤل والمنى واسمهم للصب في الحب شافع

فعبادة العارفين: بالله ومن الله وإلى الله، وعبادة الجاهلين: بأنفسهم ومن أنفسهم ولأنفسهم، عبادة العارفين حمد وشكر، وعبادة الغافلين اقتضاء حظ وأجر، عبادة العارفين قلبية باطنية، وعبادة الغافلين حسية ظاهرية، يا أيها الناس المخصوصون بالأنس والقرب دوموا على عبادة القريب، ومشاهدة الحبيب، فقد رفعت بيني وبينكم الحجب والأسرار، وأشهدتكم عجائب الألفاف والأسرار، أبرزتكم إلى الوجود، وأدخلتكم من باب الكرم والجود، ومنحتكم بفضل غاية الشهود، لعلمكم تتقون الإنكار والجود، وتعرفونني في كل شاهد ومشهود.

فقد جعلت أرض نفوسكم مهاداً لعلوم الشريعة، وسماء قلوبكم سقفاً لأسرار الحقيقة، وأنزلت من سماء الملكوت ماء غيبياً تحيا به أرض النفوس، وتهتز بواردات حضرة القدوس، فتخرج من ثمرات العلوم اللدنية، والأسرار الربانية، والأحوال المرضية، ما تتقوت به عائلة المستمعين، وتتغش به أسرار السائرين، فلا تشهدوا معي غيري، ولا تملوا لغير إحساني وبري، فقد علمتم أني منفرد بالوجود، ومختص بالكرم والجود، فكيف يرجى غيري وأنا ما قطعت الإحسان؟! وكيف يلتفت إلى ما سواي وأنا بذلت عادة الامتنان؟! منى كان الإيجاد، وعلى دوام الإمداد، فتقوا بي كفيلاً، واتخذوني وكيلاً، أعطكم عطاء جزيلاً، وأمنحكم فخراً جليلاً.

ولما أمر عباده بعبادته وتوحيده، أمرهم بتصديق كلامه والإيمان برسوله، فقال:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رِزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رِزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

فإن قلت: الريب في القرآن قد وقع من الكفار قطعاً، فكيف عبرَ بيانُ الدالة على الشك والتردد؟

قلت: (إن) جازمة للفظ الشرط أو محله، موضوعة للشك في الشرط. و«إذا» لا تجزم في اللفظ، وتدل على الجزم في المعنى، وفي ذلك يقول القائل:

أنا إن شككتُ وجدُّتموني جازِمًا وإذا جَزَمْتُ فإنني لم أجزم

فإن قلت: الريب في القرآن قد وقع من الكفار قطعاً، فكيف عبرَ بيانُ الدالة على الشك والتردد؟ قلت: لما كان ريبهم واقعاً في غير محله - إذ لو تأملوا أدنى تأمل لزال ريبهم لوضوح الأمر وسطوع البرهان - كان ريبهم كأنه مشكوك فيه ومتردد في وقوعه، و(الشهداء) جمع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة، أو الناصر، أطلق على الأصنام؛ لأنهم يزعمون أنها تشهد لهم، ومعنى (دون): أدنى مكان من الشيء، ثم استعير للرتب فقل: زيد دون عمرو؛ أي: في الشرف، ثم اتسع فيه فاستعير لكل تجاوز حدٍّ إلى حدٍّ، وتخطى أمر إلى آخر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ يَامَعْشَرَ الْكُفَّارِ فِي شَكٍّ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ مُحَمَّدٍ عَبْدِنَا﴾ ورسولنا المختار لسرٍّ وحيداً، ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ جَنَسِهِ فِي الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ، مُشْتَمِلَةٍ عَلَىٰ عِلْمٍ وَأَسْرَارٍ وَمَغِيَّاتٍ كَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابِي، ﴿وَأَدْعُوا﴾ مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِمَّنْ تَنْتَصِرُونَ بِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ الْإِتْيَانِ، مَنِ آلِهَتِكُمُ الَّتِي تَزْعُمُونَ أَنَّهَا تَشْهَدُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَوْ مِنْ حَضَرِكُمْ مِنَ الْبُلْغَاءِ وَالْفَصَحَاءِ مِمَّنْ تَنْتَصِرُونَ بِهِ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي أَنَّهَا تَنْفَعُكُمْ. ﴿فَإِنْ لَّمْ تَقْدِرُوا أَنْ تَفْعَلُوا﴾ ذَلِكَ ﴿وَلَنْ تَقْدِرُوا أَبَدًا فَاسْلُمُوا وَأَقْرَأُوا بِالْحَقِّ، وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أَي: حجارة الكبريت، فَهَمَّا حَطَبُهَا وَقُودُهَا ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَبَشِّرِ﴾ يَا مُحَمَّدُ وَيَا مَنْ يَصْلَحُ مِنْهُ التَّبَشِيرُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، ﴿وَعَمِلُوا﴾ مَا كَلَفُوا بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ ﴿الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي: مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا، وَهِيَ أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ. ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا﴾ أَي: صَنَفًا، ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الطَّبَاعَ تَمِيلُ إِلَى الْمَأْلُوفِ، فَالصِّفَةُ مُتَّفِقَةٌ وَالطَّعْمُ مُخْتَلَفٌ. أَوْ فِي الْجَنَّةِ، قِيلَ: هَذَا لَمَّا رَوَى عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيَتَنَاوَلُ الثَّمَرَةَ لِيَأْكُلَهَا فَمَا هِيَ وَاصِلَةٌ إِلَى جَوْفِهِ حَتَّى يَبْدُلَ اللَّهُ تَعَالَى مَكَانَهَا مِثْلَهَا»، فَلَعَلَّهُمْ إِذَا رَأَوْهَا عَلَى الْهَيْئَةِ الْأُولَى قَالُوا

ذلك، لفرط استغرابهم، وتبجحهم بما وجدوا من التفاوت العظيم في اللذة والتشابه البليغ في الصورة، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ أى: حور ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ من الحيض، وسائر الأدناس، ومن الأخلاق المذمومة، والشيم الذميمة، ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ فإن النعيم إذا كان يعقبه الفناء تنغص على صاحبه، كما قال الشاعر:

لاخير في العيش مادامت منغصة لذاته بأدكار الموت والهـرم

الإشارة : وإن كنتم يا معشر العوام فى شك مما خصصنا به ولينا من الأنوار، وما أنزلنا على قلبه من المعارف والأسرار، وما ظهر عليه من البهجة والأنوار، وما اهتدى على يديه من الصالحين والأبرار، فأتوا أنتم بشيء من ذلك، وانتصروا بما قدرتم من دون الله إن كنتم صادقين فى المعارضة. قال القشيري: وكما أن كيد الكافرين يضمحل فى مقابلة معجزات الرسول، فكذلك دعاوى الملبسين تتلاشى عند ظهور أنوار الصديقين هـ.

فإن لم تفعلوا ما ذكرنا من المعارضة، وإن تقدرُوا على ذلك أبداً، فأذعنوا، واخضعوا، واتقوا نار القطيعة والحظوظ، والطمع والهلع، التى مادتها النفوس والفلوس؛ إذ بهما هلك من هلك وفاز من فاز، أعدت تلك النار للمنكرين الخصوصية، الجاحدين لوجود التربية النبوية.

ويُشر الصديقين بوجود الخصوصية، المنقادين لأهلها، أن لهم جنات المعارف فى الدنيا، وجنات الزخارف فى الآخرة، تجرى من تحت قلوب أهلها أنوار العلوم والمعارف، فإذا كشف لهم يوم القيامة عن أسرار ذاته، قالوا: هذا الذى عرفناه من قبل فى دار الدنيا، إذ الوجود واحد والمعرفة متفاوتة، وأتوا بأرزاق المعارف متشابهة؛ لأن من عرفه فى الدنيا عرفه فى الآخرة، ومن أنكره هنا أنكره يوم القيامة، إلا فى وقت مخصوص على وجه مخصوص، ولهم فى جنات المعارف عرائس المعارف والكشوفات، مطهرات من أدناس الحس وعبث الهوى والشهوات، وهم بعد تمكنهم من شهود الذات، خالدون فى عرش الحضرة، فيها يسكنون وإليها يأوون.

وقال القشيري: كما أن أهل الجنة يجدد لهم النعيم فى وقت، فالثانى عندهم على ما يظنون كالأول، فإذا ذاقوه وجدوه غير ما تقدم، كذلك أهل الحقائق: أحوالهم فى الزيادة أبداً، فإذا رقى أحدهم عن محله، توهم أن الذى سيلقاه فى هذا النفس مثل ما تقدم، فإذا ذاقه وجدده فوق ذلك بأضعاف، كما قال قائلهم:

ما زلت أنزل من ودايك منزلاً تتحير الأبواب عدد نزوله (١)

(١) البيت ذكره البغدادى فى تاريخ بغداد ٥/ ١٣٥ فى قصة مع أبى الحسن التورى.

ولما ضرب الله الأمثال في القرآن للمنافقين وغيرهم تكلم في ذلك بعض الكفار والملحدين، بين الحق تعالى وجه ذلك فقال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

قلت: الحياء: خلق كريم يمنع صاحبه من ارتكاب ما يعاب به، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ»، و(مثلاً) مفعول، و(ما) نكرة، صفته، و(بعوضة) بدل، والبعوضة: الذباب. وفي الحديث: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تُسَاوِي عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَاسَقَى الْكَافِرَ مِنْهَا جُرْعَةً مَاءٍ»، وقيل: صِغَارُ الْبَقِّ، أى: إن الله لا يترك أن يضرب مثلاً - أى مثل كان - بعوضة فما فوقها. أو (بعوضة) مفعول أول، و(مثلاً) مفعول ثان، من باب جعل، و(ماذا) إما مبتدأ وخبر، على أن (ذا) موصولة، أو مفعولة بأراد على أنها مركبة، و(مثلاً) حال أو تمييز. والفسق: الخروج، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ ﴾ لا يترك ترك المستحي ﴿ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ بالخسيس والكبير كالذباب والعنكبوت وغير ذلك. فأما المؤمنون فيتيقنون ﴿ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾، وحكمته: إبراز المعاني اللطيفة في قوالب المحسوسات ليسهل الفهم، وأما الكفار فيعترضون ويقولون: ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ ﴾ بهذه الأمثال؟ فإن الله منزه عن ضرب الأمثال بهذه الأشياء الخسيسة، قال الله تعالى في الرد عليهم: أراد بهذا إضلال قوم بسبب إنكارها، وهداية آخرين بسبب الإيمان بها، ﴿ وَمَا يُضِلُّ ﴾ بذلك المثل إلا الخارجين عن طاعته، ﴿ الَّذِينَ ﴾ نقضوا العهد الذى أخذ عليهم فى عالم الذر، أو مطلق العهد، ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ من الأنبياء والرسل والأرحام وغيرها، ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالمعاصى والتعويق عن الإيمان، ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الكاملون فى الخسران، نعوذ بالله من الخذلان.

الإشارة : إن الله لا يترك أن يظهر مثلاً من أنوار قدسه بارزاً بقدرته، مرتدياً برداء حكمته، ملتبساً بأسرار ذاته، مكمّساً بأنوار صفاته من الذرة إلى مالا نهاية له، فالمتجلى في النملة هو المتجلى في الفيلة، فأما الذين صدّقوا بتجلى الذات في أنوار الصفات، فيقولون: إنه الحق فائض من نور الربوبية، محتجبا برداء الكبرياء وسبحات الألوهية. وأما الجاحدون لظهور نور ذات الربوبية فينكرونه في حال ظهوره، ويقولون: ماذا أراد الله بهذه العوالم الظاهرة؟ فيقول الحق تعالى: أردت ظهور قدرتي وعجائب حكمتي، ليظهر سر ربوبيتي في مظاهر عبوديتي.

قال الشيخ أبو الحسن رحمته: «العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية» وقيل لأبي الحسن الثوري: ما هذه الأماكن والمخلوقات الظاهرة؟ فقال: عز ظاهر وملك قاهر، ومخلوقات ظاهرة به، وصادرة عنه، لا هي متصلة به ولا منفصلة عنه، فرغ من الأشياء ولم تفرغ منه، لأنها تحتاج إليه وهو لا يحتاج إليها. هـ.

فأراد الله بظهور هذا الكون أن يضل به قوما فيقفون مع ظاهر غرته، ويهدي به قوما فينفذون إلى باطن عبرته. وما يضل به إلا الفاسقين الخارجين عن دائرة الشهود، المنكرين لتجليات الملك المعبود، الذين ينقضون عهد الله، وهو معرفة الروح التي حصلت لها وهي في عالم الذر، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل من الشيوخ العارفين، الذين ألهم الله للتربية والترقية، وهم لا ينقطعون ما دامت الملة المحمدية، ويفسدون في الأرض بالإنكار والتعويق عن طريق الخصوص، بتضييعهم الأصول، وهي صحبة العارفين، والتأدب لهم، والتعظيم لحرمتهم. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم عجب الحق تعالى خلقه من خفائه بعد شدة ظهوره، فقال:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِنَّكُمْ لَعِندَ رَبِّكُمْ فَآخَرُونَ ﴾

إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

قلت: (كيف) حال؛ لأنها وقعت قبل كلام تام.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ وتجدون نعمه المتواليّة، ﴿ ر ﴾ الحالة أنكم ﴿ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ نطفاً في الأرحام، ﴿ فَأَحْيَاكُمْ ﴾ بنفخ الروح في أجسادكم، ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم، ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ عند البعث لحسابكم، ثم يسكنكم دار القرار، إما إلى الجنة وإما إلى النار. فهذه الآثار دالة على باهر قدرته وتمام حكمته، فقد وضح الحق وظهر، ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾.

الإشارة : كيف تتكرون ظهور نور الحق في الأكوان، وتبعدون عن حضرة الشهود والعيان، وقد كنتم أمواتا بالغفلة وغم الحجاب، فأحياكم باليقظة والإياب، ثم يميتكم بالفناء عن شهود ما سواه، ثم يحييكم بالرجوع إلى شهود أثره بالله، ثم إليه ترجعون في كل شيء لشهود نوره في كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وعند كل شيء «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان».

ولما ذكر نعمة الإيجاد أتبعها بنعمة الإمداد، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٩)

قلت: «جميعاً» حال مؤكدة من «ما»، و«ثم» للترتيب الذكري لا الخارجي^(١)؛ لأن دحا الأرض مؤخر عن خلق السماء، إلا أن يكون العطف على معنى الجملة، والتقدير: هو الذي خلق لكم الأرض مشتملة على جميع منافعكم، ثم استوى إلى السماء فخلقهن سبعاً، ثم دحا الأرض وبسطها.

والنسوية: خلق الأشياء سالمة من العوج والخلل، و(سبع): بدل من الضمير، أو بيان له، وجملة «وهو بكل شيء عليم» تعليل لما قبله. أي: ولكونه عالماً بكنه الأشياء كلها خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع.

يقول الحق جل جلاله على لسان الواسطة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ لأجلكم «ما» استقر ﴿فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ تنتفعون به في الظاهر قوتاً لأشباحكم، ودواء لأبدانكم، ومتعة لنفوسكم، وتنتفعون به في الباطن بالتفكير والاعتبار، وزيادة في إيمانكم وقوة لإيقانكم، ثم قصد ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ قصد إرادة، فخلقهن ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ مستوية تامة، ليس فيها تفاوت ولا خلل، تظلكم بجرمها، وتضيء عليكم بشمسها وقمرها وكواكبها، وقد أحاط علمه بالأشياء كلها، فلذلك خلقها على هذا النمط الغريب والإتقان العجيب.

الإشارة: يا عبادي خلقت الأشياء كلها من أجلكم، الأرض تقلكم، والسماء تظلكم، والجهات تكتنفكم والحيوانات تخدمكم، والنباتات تنفعكم، وخلقكم من أجل، فكيف تميلون إلى غيري، وتنسون إحساني وبري؟! الأشياء كلها عبيدكم وأنتم عبيد الحضرة، «أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك».

(١) أي: ترتيب الإخبار، لا ترتيب الأمر في نفسه.

وفي بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى: (يا عبدي؛ إنما منحتك صفاتي لتعرفني بها، فإن ادعيتها لنفسك سلبتُك الولاية، ولم أسلبك صفاتي، يا عبدي: أنت صفتي وأنا صفتك، فارجع إليّ أرجع إليك، يا عبدي: فيك للعلوم باب مفتاحه أنا، وفيك للجهل باب مفتاحه أنت، فاقصد أيّ البابين شئت، يا عبدي: قربي منك بقدر بعدك عن نفسك؛ وبعدى عنك بقدر قربك من نفسك، فقد عرفتُك الطريق، فاترك نفسك تصل إليّ في خطرة واحدة، يا عبدي: كل ما جمعك على فهو مني، وكل ما فرقك عني فهو منك، فجاهد نفسك تصل إليّ، وإنني لغني عن العالمين، يا عبدي: إن منحنتي نفسك رددتها إليك راضية مرضية، وإن تركتها عندك فهي أعظم بلية، فهي أعدى الأعداء إليك فجاهدها تعدّ بالفوائد إليك).

وفي بعض الآثار المروية عن الله تعالى: «يا عبدي: أنا بذكّك اللازم فالزم بذكّك»^(١). ويمكن أن يشار بالأرض إلى أرض العبودية، وبالسما إلى سماء الحقيقة، وبالسبع سموات إلى سبع مقامات؛ وهي الصبر والشكر والتوكل والرضى والتسليم والمحبة والمعرفة. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر خلق العالم العلوي والسفلي، ذكر كيفية ابتداء من عمر العالم السفلي من جنس آدمي، فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ ٢٠ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ ٢١ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ ٢٢ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ ٢٣﴾

لما أراد الله تعالى عمارة الأرض، بعد أن عمر السموات بالملائكة، أخبر الملائكة بما هو صانع من ذلك؛ تنويرها بآدم وتشريفها لذريته، وتعليمها لعباده أمر المشاورة، فقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يخلفني في أرضي وتنفيذ أحكامي، ﴿قَالُوا﴾ على وجه الاستفهام، أو من الإدلال، إن كان من المقربين، بعد أن رأوا الجن قد أفسدوا وسفكوا الدماء: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، وشأن الخليفة الإصلاح، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، أي: نُسبح ملتبسين بحمدك، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نطهر أنفسنا لأجلك، أو ننزهك عما لا يليق بجلال قدسك، فنحن أحق بالخلافة منهم.

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس (٢٣٠/٥ ح ٨٠٤٠) عن أنس مرفوعاً. ورواه الخطيب في تاريخ بغداد ٢/٧٤٢ وقال: هذا الحديث موضوع المتن.

قال الحق جل وعلا: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ فإني أعلم أنه يكون منهم رسل وأنبياء وأولياء، ومن يكون مثلكم أو أعظم منكم، ولما ألقى الخليل في النار ضجبت الملائكة وقالت: «يا رب هذا خليك يحرق بالنار». فقال لهم: «إن استغاث بكم فأغيثوه». فلما رفع همته عنهم قال الحق تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثم وجه الحق تعالى استحقاقه للخلافة؛ وهو تشريفه بالعلم، فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، أى: مسميات الأسماء؛ بأن ألقى في روعه ما تحتاج إليه ذريته من اللغات والحروف، وخواص الأشياء ومنافعها، ثم عرض تلك المسميات على الملائكة، إظهاراً لعجزهم، وتشريفاً لآدم بالعلم، ﴿فَقَالَ﴾: أخبروني ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ المسميات ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى ادعائكم استحقاق الخلافة، فلما عجزوا عن معرفة تلك الأسماء ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أى: تنزيها لك عن العيب، ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾، ﴿الْحَكِيمُ﴾ لإتقانك كل شيء، وهذا اعتراف منهم بالقصور والعجز، وإشعار بأن سؤالهم كان استفهاماً وطلباً لتفسير ما أشكل عليهم، ولم يكن اعتراضاً.

قال الحق جل جلاله: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، وعين لهم اسم كل مسمى، فلما أخبرهم بذلك بحيث قال مثلاً: هذا فرس وهذا جمل، وعين ذلك لهم، وظهرت ميزته عليهم بالعلم حتى استحق الخلافة، قال الحق تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: ما غاب، وأعلم ما تظهرونه من قولكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾ إلخ، وما تكتُمونه من استحقاقكم الخلافة، وقولكم: لن يخلق الله تعالى أحداً أعلم منا لتقدمنا، والفضل لمن صدق لا لمن سبق.

قال البيضاوى: أعلم أن هذه الآيات تدل على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله على العبادة، وأنه شرط فى الخلافة، بل العمدة فيها، وأن التعليم يصح إطلاقه عليه تعالى، وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه؛ لاختصاصه بمن يحترف به، وأن اللغات توقيفية - علمها الله بالوحي -، وأن آدم عليه السلام أفضل من هؤلاء الملائكة؛ لأنه أعلم منهم، والأعلم أفضل لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وأن الله يعلم الأشياء قبل حدوثها. هـ. باختصار.

وقال فى تفسير الملائكة: إنهم أجسام لطيفة قادرة على التشكل، وهى منقسمة على قسمين: قسم شأنهم الاستغراق فى معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره، - وهم العليون، والملائكة المقربون - وقسم يدبرون الأمر من

السماء إلى الأرض على ما ثبت به القضاء وجرى به القلم الإلهي، وهم المدبرون أمراء، فمنهم سماوية، ومنهم أرضية. هـ. مختصراً.

الإشارة : اعلم أن الروح القائمة بهذا آدمي هي قطعة من الروح الأعظم التي هي المعاني القائمة بالأواني، وهي آدم الأكبر والأب الأقدم، وفي ذلك يقول ابن الفارض:

وإني وإن كنت ابن آدم صورةً فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

فلما أراد الحق تعالى أن يستخلف هذا الروح في هذه البشرية لتدبرها وتصرفها فيما أريد منها، قالت الملائكة بلسان حالها: كيف تجعل فيها من يفسد فيها بالميل إلى الحظوظ والشهوات، ويسفك الدماء بالغضب والحميات، ونحن نسبحك وننزهك عما لا يليق بك؟ رأت الملائكة ما يصدر من بعض الأرواح من الميل إلى الحضيض الأسفل، ولم تر ما يصدر من بعضها من التصفية والترقية، فقال لهم الحق تعالى: «إني أعلم ما لا تعلمون»؛ فإن منها من تعرج إلى عرش الحضرة، وتعبدني بالفكرة والنظرة، وتستولي على الوجود بأسره، وتكشف لها عند ذلك أسرار الذات وأنوار الصفات وأسماء المسميات.

فيقول الحق تعالى للملائكة: هل فيكم من كشف له عن هذا السر المكنون، والاسم المصون، فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ من علم الصفات دون أسرار الذات ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ يقول الحق تعالى لروح العارف التي نفذت إلى بحر وحدة الذات وتيار الصفات: أنبلهم بما غاب عنهم من أسرار الجبروت، وأسماء الملكوت، فلما أعلمهم بما كوشف له من الأسرار، وانقلب له من الأنوار، أقروا بشرف آدمي، وسجدوا لطلعة آدم عليه السلام فقال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ أي: ما غاب في سماء الأرواح من الأسرار وفي أرض النفوس من الأنوار، وأعلم ماتظرونه من الانقياد، وما تكتمنونه من الاعتقاد، والله تعالى أعلم.

ولما تبين شرف آدم عليه السلام وبان فضله أمرهم بالسجود له، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

قلت: (إذ) ظرف للماضي، ضد إذا، وهي معمولة لفعل مقدر، يفسره قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ﴾، فحيثما وردت في القرآن فيقدر له «اذكر»، والاستثناء متصل؛ إذا قلنا إبليس من الملائكة، ومنقطع؛ إذا قلنا من الجن، والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ** ﴿٣٥﴾، لما تبينت فضيلة، آدم أمرهم بالسجود، فقال لهم: **﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾** سجدوا انحناء، **﴿فَسَجَدُوا﴾** كلهم، لأنهم شهدوا الجمع ولم يشهدوا الفرق، فرأوا آدم قبلة، أو نوراً من أنوار عظمته، **﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾** أى: امتنع؛ حيث نظر الفرق بحكمة الواحد القهار، فاستكبر **﴿وَكَانَ﴾** من جملة **﴿الْكَافِرِينَ﴾**. وكفره باعتراضه على الله وتسفيه حكمه، لا بامتناعه؛ إذ مجرد المعصية لا تكفر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا كمل تصفية الروح، وظهر شرفها، خضع لها كل شيء، وتواضع لها كل شيء، وانقاد لأمرها من سبقت له العناية، وهبت عليه ريح الهداية، لأنها صارت آدم الأكبر، إلا من أبلسه المشيئة، وطردته القدرة، فاستكبر عن تحكيم جنسه على نفسه، وكان من الكافرين لوجود الخصوصية، فجزأوه حرمان شهود طلعة الربوبية، وهبوطه إلى حضيض العمومية.

ثم ذكر الحق تعالى دخول آدم الجنة، ونزوله إلى الخلافة التي أخبر الحق تعالى بها قبل، فقال:

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥) **﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾** (٣٦) **﴿فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** (٣٧)

قلت: (رغدا): صفة لمصدر محذوف، أى: أكلا رغدا واسعا، و(تكونا): منصوب، جواب الأمر، أو معطوف على (تقربا)، و (أزلهما): أوقعهما فى الزلل بسبب الأكل، أو أذهبهما عن الجنة، ويدل عليه قراءة حمزة: «فأزلهما»، وجملة (بعضكم لبعض عدو) : حالية، أى: متعادين.

يقول الحق جل جلاله: **﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ﴾** حين سجدت له الملائكة ودخل الجنة: **﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾** حواء **﴿الْجَنَّةَ﴾**، وكانت خلقت من ضلعه الأيسر، **﴿وَكُلَا﴾** من ثمار الجنة **﴿حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾**: العنب أو التين أو الحنطة؛ **﴿فَتَكُونَا﴾** إن أكلتما منها **﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** لنفسيكما. فدخل إبليس خفية أو فى فم الحية^(١)، فتكلم مع آدم **﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾** فقال له آدم **﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾**: ما أحسن هذه الحالة لو كان الخلود. فحفظها إبليس، ووجد فيها مدخلا من جهة الطمع، فقال له: **﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾** فذله على أكل الشجرة، وقال: **﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا﴾** عنها **﴿إِلَّا﴾** كراهية **﴿أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ﴾**

(١) ليس لنا البحث عن كيفية وسوسة إبليس لآدم، ولانقطع القول بلا دليل. وهذا من الإنصاف.

الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٣٨﴾. وأكلت حواء أولاً، ثم قالت له: قد أكلت ولم يضرني، ثم أكل آدم عليه السلام من جنس الشجرة، لا من عينها، متأولاً، فطار القاج واللباس، وأخرجهما ﴿٣٩﴾ مما كانا فيه ﴿٣٨﴾ من رغد العيش والهداء، وأهبطهما إلى الأرض، للتعب والعناء، ليكون خليفة على ما سبق به القضاء.

فقال لهم الحق تعالى: ﴿٣٩﴾ اهْبِطُوا ﴿٣٨﴾ آدم وحواء وإبليس والحية، ﴿٣٨﴾ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿٣٩﴾ استقرار وتمتع ﴿٣٨﴾ إِلَى حِينٍ ﴿٣٩﴾ وفاتكم، فتقدمون على فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ﴿٣٩﴾ فَتَلَقَى ﴿٣٨﴾ أى أخذ ﴿٣٨﴾ آدم من ربه كلمات ﴿٣٩﴾ وهى: ﴿٣٨﴾ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٩﴾، ﴿٣٨﴾ فتاب ﴿٣٩﴾ الحق تعالى عليه واجتباة لحضرته، فإنه ثواب كثير التوبة على عباده، رحيم بهم، أرحم من أبيهم وأمههم، اللهم ارحمنا رحمة تعصمنا بها عن رؤية السوء، إنك على كل شيء قدير.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله للروح، إذا كمل تهذيبها، وتمت تربيتها: اسكن أنت وبشرتك التى تزوجتها. قال تعالى: ﴿٣٩﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٣٨﴾ - جنة المعارف، وكلاً من ثمار أذواقها وأنهار علومها، وتبوءاً من قصور ترفياتها، أكلاً واسعاً ما دمتما متحليين بالأدب، ولا تقرباً شجرة المعصية وسوء الأدب (فتكونا من الظالمين)، فلما سكنت جنة الخلود، وشرفت إلى الخلود، أهبطها الله إلى أرض العبودية، وردها إلى البقاء؛ لتستحق الخلافة، وتقوم بحقوق الربوبية، بسبب ما ارتكبه من المعصية، وهى الشره إلى دوام الحرية، «أكرم بها معصية أورثت الخلافة»، فكل ما ينزل بالروح إلى قهرية العبودية، فهو سبب إلى الترقى لشهود نور الربوبية، وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول، فلما أراد الحق تعالى أن ينزلها إلى أرض العبودية بالسلوك بعد الجذب، قال لها ولمن يحاربها من الشيطان والهوى والدنيا وسائر الحظوظ: اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم - أيها العارفون بعد جهاد أعدائكم - فى أرض العبودية، استقرار وتمتع بتجليات أنوار الربوبية، إلى حين الملاقاة الحقيقية. فتلقت الروح من ربها كلمات الإنابة، وهب عليها، نسيم الهداية، بما سبق لها من عين العناية، فتاب عليها، وقربها إلى حضرة الشهود، ومعاينة طلعة الملك الودود، إنه ثواب رحيم جواد كريم.

ثم كرر الحق تعالى أمرهم بالهبوط، فقال:

﴿٣٩﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

قلت: (إن): شرط، و (ما) زيدت لتقوية الشرط، ولذلك دخلت نون التوكيد، وعبر إن دون (إذا)، مع تحقق مجيء الهدى؛ لأنه غير واجب عقلا، وجملة الشرط الثاني وجوابه، الشرط الأول، و(جميعا) حال مؤكدة؛ أى: اهبطوا أنتم أجمعون، ولذلك لا يقتضى اجتماعهم على الهبوط فى زمان واحد.

ولما أمر الحق جلا جلاله آدم أولا بالهبوط من الجنة، جعل يبكى ويتضرع ويقول: ألم تخلقنى بيدك؟ ألم تسجد لى ملائكتك؟ ألم تدخلنى جنتك؟ ثم ألهم الكلمات التى تلقاها من ربه، فتاب عليه ورحمه، فطمع آدم حين سمع من ربه قبول توبته فى البقاء فى الجنة، فقال له الحق جل جلاله: يا آدم لا يجاورنى من عصائى، وقد سبقت كلمتى بهبوطك إلى الأرض لتكون خليفتى بذريتك، فكرر عليه الأمر بالهبوط ثانيا. فقال: ﴿اهبطوا منها جميعا﴾ أنتم بما اشتملتما عليه من ذريتكما. فمهما ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ أى: بيان وإرشاد إلى توحيدى ومعرفتى، على يد رسول أو نائب عنه، ﴿فَمَنْ تَبِعَ﴾ ذلك الإرشاد، واهتدى إلى معرفتى وتوحيدى، وعمل بطاعتى وتكاليفى، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوات محبوب، لأنى أصرف عنهم جميع المكاره، وأجلب لهم المنافع، ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على قدرتنا المنزلة على رسلنا، ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن النظر فيها، أو عن الخضوع لمن جاء بها، ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الإشارة: إذا سكنت الأرواح فى عش الحضرة، وتمكنت من الشهود والنظرة، أمرها الحق تعالى بالنزول إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ، فتنزل بالإذن والتمكين، والرسوخ فى اليقين، لا لطلب جزاء أو لقضاء شهوة، بل تنزل بالله ومن الله وإلى الله، فمن نزل منها على هذا الهدى الحسن ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ومن ركب بحر التوحيد مع غير رئيس عارف، ولم يأو إلى سفينة الشريعة، واستكبر عن الخضوع إلى تكاليفها لعبت به الأمواج، فكان من المغرقين. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، لأن من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق، ومن تشرع ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق، جعلنا الله ممن تحقق بهما. وسلك على منهاجهم إلى المعات، آمين.

ولما ذكر الحق تعالى شرف كتابه، ونفى وجود الريب عن ساحته، ثم دعا إلى توحيده، وبرهن على وجوده، بابتداء خلق العالم من عرشه إلى فرشه، وذكر كيفية ابتداء عمارته، خاطب بنى إسرائيل؛ لأنهم أهل العلم بالأخبار المتقدمة، وقد سمعوا هذه الأخبار من نبي أمى لم يعهد بقراءة ولا تعلم، فقامت الحجة عليهم، وتحققوا أنه من عند الله. وما منعهم من الإسلام إلا الحسد وحب الرئاسة، فلذلك أطال الحق الكلام معهم، تارة يقرعهم على عدم

الإيمان وما فعلوا مع أنبيائهم، وتارة يذكرهم النعم التي أنعم الله على أسلافهم، فقال تعالى:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَأَمِئُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قلت: (إسرائيل): هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل - عليهم الصلاة والسلام - وهو اسم عجمي، وينو تميم تقول: «إسرائيلين» بالنون، (وإسرا) بالعبرانية: عبد، و (إيل): اسم الله تعالى، فمعناه: عبد الله، وينو إسرائيل: هم أولاد يعقوب عليه السلام، و (بعهدي) من إضافة المصدر إلى فاعله، و «بعهدكم» إلى مفعوله، و (إياي) منصوب بفعل مضمر، يقدر مؤخرًا. أي: إياي ارهبوا فارهبون. وحذف مفعول (ارهبون) لرؤوس الآي، وكذا قوله: (وإياي فاتقون)، والرهبة: خوف مع تحرز، و (تكتموا): معطوف على (تلبسوا)، أو منصوب بأن مضممة بعد النهي، و (أنتم تعلمون): جملة حالية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ التي خصصتكم بها، بأن فضلتكم على أهل زمانكم، وجعلت فيكم أنبياء ورسلا، كلما انقرض نبي بعثت نبياً آخر، وجعلتكم ملوكاً وحكاماً على الناس، قبل أن تفسدوا في الأرض بقتل الأنبياء، فتكفروا بهذه النعم، فإن الإنسان حسود غيور بالطبع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله على غيره حملة الحسد والغيرة على السخط والكفران، وإذا نظر إلى ما أنعم الله به عليه حملة حب النعمة على الرضا والشكر. فاذكروا ما أنعمت به عليكم، وقيدوه بالشكر، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الذي عهدت إليكم، وهو أنكم إن أدركتم محمداً ﷺ لتؤمنن به ولتنصرنه، ولتبينن صفته التي في كتابكم، ولا تكتمونها، ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بأن أدخلكم جنتي، وأبيح لكم النظر إلى وجهي، وأحل عليكم رضواني في جملة عبادي، ولا ترهبوا أحداً غيري، فإنه لا فاعل غيري.

وبادروا إلى الإيمان ﴿بِمَا أَنْزَلْتُ﴾ على محمد رسولي، من كتابي، الذي هو مصدق ﴿لِمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة، ومهيمن عليه، ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ﴾ فريق ﴿كَافِرٍ بِهِ﴾، فتبوءوا بإثمكم وإثم من تبعكم، ولا تستبدلوا الإيمان الذي هو سبب الفوز في الدارين، بالعرض الفاني الذي تأخذونه من سفلتكم، فإنه ثمن قليل يعقبه عذاب جليل وخزي كبير. ولا تخشوا أحداً سواي، فإن النفع والضرب بيدي، ولا تخطوا ﴿الْحَقَّ﴾ الذي هو ذكر

محمد ﷺ وصفته التي في كتابكم، ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الذي تريدونه تحريفاً وتأويلاً، ﴿و﴾ لا ﴿تَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ الذي عندكم؛ من ذكر محمد وصحة رسالته، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم محرفون، ولا بسون عنادا وحسداً، فيحل عليكم غضبي وعقابي، ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾. فإذا حصلتم أصول الدين، وهو الإيمان، فاشتغلوا بفروعه، وهي الصلاة والزكاة وغيرهما، فأدوهما على منهاج المسلمين. واجعلوا صلاتكم في جماعة المؤمنين؛ فإن صلاة الجماعة تفضل غيرها بسبع وعشرين درجة، مع سريان الأسرار واقتباس الأنوار من الصالحين والأبرار، وبالله التوفيق.

الإشارة: إذا توجه الخطاب إلى طائفة مخصوصة، حملة أهل الفهم عن الله على عمومته لكل سامع، فإن الملك إذا عاتب قوماً بمحضر آخرين، كان المراد بذلك تحذير كل من يسمع، فكأن الحق جل جلاله يقول: يا بني آدم اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وتفكروا في أصولها وفروعها، واشكروني عليها بنسبتها إليّ وحدي، فإنه لا منعم غيري، فمن شكرني شكرته، ومن فيض إحساني وبري مددته، ومن كفر نعمتي سلبته، وعن بابي طردته، وأوفوا بعهدي بالقيام بوظائف العبودية، أوف بعهدكم بأن أطلعكم على أسرار الربوبية.

أو: أوفوا بعهدي بالقيام برسوم الشريعة، أوف بعهدكم بالهداية إلى مدار الطريقة، أو: أوفوا بعهدي بسلوك منهاج الطريقة، أوف بعهدكم بالإيصال إلى عين الحقيقة، أو: أوفوا بعهدي بالاستغراق في بحر الشهود، أوف بعهدكم بالتفرق أبداً إلى الملك الودود، وخصوني بالرهب والرغب، وتوجهوا إليّ في كل سؤال وطلب، أعطف عليكم بعنايتي وودي، وأمنحكم من عظيم إحساني ورفدي، وآمنوا بما أنزلت على قلوب أوليائي، من مواهب أسرارى وآلاتي، تصديقاً لما أتحت به رسلي وأنبيائي، فكل ما ظهر على الأولياء فهو معجزة للأنبياء وتصديق لهم، ولا تبادروا بالإنكار على أوليائي، فتكونوا سبباً في طرد عبادي عن بابي، ولا يمنعكم حب الرئاسة والجاه عن الخضوع إلى أوليائي، ولا ترقبوا أحداً غيري، فإنني أمنعكم من شهود سري.

ولا تلبسوا الحق بالباطل، فتظهروا شعار الصالحين وتبطنوا أخلاق الفاسقين، تتزيوا بزي الأولياء، وتفعلوا فعل الأغوياء، وإذا تحققت بخصوصية أحد من عبادي، فلا تكتموها عن أهل محبتي وودادي، وأقيموا صلاة القلوب بالخضوع تحت مجارى الأقدار، وأدوا زكاة النفوس بالذل والانكسار، وكونوا مع الخاشعين، واركعوا مع الراكعين، أمنحكم معونتي ونصري، وأفيض عليكم من بحر إحساني وبري، أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى.

ثم وبخ الحق تعالى من عرف الحق وحرّم نفسه منه من أهل الكتاب وغيرهم، فقال:

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

قلت: البر، بالكسر: يجمع وجوه الخير وأنواع الطاعات، والنسيان: الترك.

يقول الحق جل جلاله في توبيخ أحبار اليهود، كانوا إذا استرشدتهم أحد من العرب دلوه على الإسلام، وقالوا له: دين محمد حق، وهم يمتنعون منه، وقيل: كانوا يأمرون الناس بالصدقة وهم ييخلون، فقال لهم: كيف تأمرون الناس بالبر ﴿وَالْإِحْسَانَ﴾ وتتركون ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ في الكفر والعصيان، وأنتم تدرسون التوراة الصحيح، وتعلمون أن ذلك من أقبح القبيح؟ أفلا عقل لكم يزجركم عن هذه الخصلة الذميمة؟ فإن من شأن العقل التمييز بين القبيح والحسن والنافع والضار، فكل من تقدم لما فيه ضرره فلا عقل له.

الإشارة: كل من أشار إلى مقام لم يبلغ قدمه إليه، فهذا التوبيخ متوجه إليه، وكل من ذكر غيره بعيب لم يتخلص منه، قيل له: تأمر الناس بالبر وتنسى نفسك خالية منه، فلا يسلم من توبيخ هذه الآية من أهل التذكير إلا الفرد النادر من أهل الصفاء والوفاء.

وقال البيضاوي: (المراد بها حث الواعظ على تزكية النفس، والإقبال عليها بالتكميل لتقوم فيقيم، لا منع الفاسق عن الوعظ، فإن الإخلال بأحد الأمرين المأمور بهما لا يوجب الإخلال بالآخر). فانظره. وتأمل قول القائل:

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا	ومن الضنا وجواه أنت سقيم
وأراك تلقح بالرشاد عقولنا	نصحاً، وأنت من الرشاد عديم
ابداً بنفسك فأنهها عن غيرها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت، ويقتدى	بالقول منك، وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

لكن من حصل له بعض الصفاء، ذكر غيره ونفسه معهم، وكان بعض أسيادنا يقول حين يذكر الفقراء: نحن إنما ننبج على نفوسنا.

ثم أشار الحق تعالى إلى الدواء، فقال:

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قلت: الصبر: هو حبس القلب على حكم الرب، فيحتمل أن يراد به ظاهره، أو يراد به هذا الصوم، لأن فيه الصبر عن الشهوات. والخشوع في الجوارح: سكونها وذُلُّها، والخضوع في القلب: انقياده لحكم الرب.

يقول الحق جل جلاله: يا من ابتلى بالرياسة والجاه، واستكبر عن الانقياد لأحكام الله؛ التي جاءت بها الرسل من عند الله، استعن على نفسك ﴿بالصبر﴾ على قطع المألوفات، وترك الحظوظ والشهوات، وأصل فروعها حب الرياسة والجاه، فمن صبر على تركهما فاز برضوان الله. وفي الحديث: «وفي الصبر على ما تكره خير كثير». وقال الشاعر:

وَالصَّبْرُ كَالصَّبْرِ مَرٌّ فِي مَذَاقِهِ لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

أو: ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾ بالصوم ﴿وَالصَّلَاةِ﴾، فإن في الصوم كَسْرَ الشَّهْوَةِ وتصفية النفس، فإذا صفت النفس من الرذائل تحلت بأنواع الفضائل، كالتواضع والإنصاف، والخشوع وسائر سنى الأوصاف، وفي الصلاة أنواع من العبادات النفسية والبدنية، كالطهارة، وستر العورة، وصرف المال فيهما، والتوجه إلى الكعبة، والعكوف للعبادة، وإظهار الخشوع بالجوارح، وإخلاص النية بالقلب، ومجاهدة الشيطان، ومناجاة الرحمن وقراءة القرآن، وكف النفس عن الأطميين^(١)، وفي الصلاة قضاء المآرب وجبر المصائب، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام - إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، ﴿وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: شاقة على النفس؛ لتكريرها في كل يوم، ومجيدتها وقت حلاوة النوم، ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الذين سكنت حلاوتها في قلوبهم، وتلججوا فيها مع ربهم، حتى صارت فيها قرّة عينهم.

الذين يتيقنون ﴿أَنَّهُمْ مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ فيتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم، ويتيقنون أيضاً أنهم راجعون إلى ربهم بالبعث والحشر للثواب والعقاب، وإنما عبر الحق تعالى هذا بالظن في موضع اليقين إبقاءً على المذنبين، وتوفيراً على العاصين، الذين ليس لهم صفاء اليقين؛ إذ لو ذكر اليقين صرفاً لخرجوا من الجملة، فسبحانه من رب حلیم، وجواد كريم. اللهم امنن علينا بصفاء المعرفة واليقين، حتى لا يختلج قلوبنا وهم ولا ريب، يا رب العالمين.

الإشارة: يا من رام الدخول إلى حضرة الله، تذلل وتواضع لأولياء الله، وتجرع الصبر في ذلك كي يدخلوك حضرة الله، كما قال القائل:

تَذَلُّ لِمَنْ تَهْوَى، فَلَيْسَ الْهَوَى سَهْلٌ^(٢) إِذَا رَضِيَ الْمَحْبُوبُ صَحَّ لَكَ الْوَصْلُ

(١) أي: الأكل والجماع. قاله الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي ٢/٤٥١.

(٢) أرى أن يكون: (تذلل لمن تهوى فما في الهوى سهل).

فإن منعك من ذلك حب الرئاسة والجاه، فاستعن على ذلك بالصبر والصلاة، فإن الصبر عنوان الظفر، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. فأدمن قرع الباب حتى تدخل مع الأحباب، فالإدمان على عبادة الصلاة أمره كبير، إلا من خلس إلى مناجاة العلى الكبير، وتحقق بملاقاة الشهود والعيان، ورجع إلى مولاه فى كل أوان، فإن الصلاة حينئذ تكون له من قرة العين. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ولما أمرهم بالأصول والفروع، ذكرهم بالنعم، وخوفهم بالوعيد على عدم شكرها، فقال:

﴿يَبْنِي إِسْرَاءَ يَلْ أذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قلت: «العدل» بالفتح: الفداء، وبالكسر: الحمل، رجمة «لا تجزى»: صفة ليوم، والعائد محذوف، أى: لا تجزى فيه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ﴾ على آبائكم بالهداية وبعث الرسل، ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: أهل زمانكم، فاذكروا هذه النعم واشكرونى عليها؛ بأن تتبعوا هذا النبى الجليل، الذى تجدرنه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل.

وخافوا ﴿يَوْمًا﴾ لا تقضى فيه ﴿نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ بحيث لا تجلب لها نفعاً، ولا تدفع عنها ضرراً، ولا تقبل ﴿مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ إن رقت الشفاعة فيها، ولا يؤخذ منها فداء، إن أرادت الفداء عنها، ولا تلتصر فى دفع العذاب، إن أرادت الانتصار بعشيرتها. فانقضى عنها وجوه الامتناع من العذاب بأى وجه أمكن؛ فإن الإنسان إذا أخذ للكمال احتال على نفسه إما بالشفاعة، أو بالفداء إن لم تقبل الشفاعة فيه، أو بالانتصار بأقاربه، والآية فى الكفار، فلا حجة لمن ينفى الشفاعة فى عصاة المؤمنين، والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد يتوجه العتاب إلى أهل الرئاسة والجاه، من العلماء والنصالحين، وكل من خص بشرف أو خصوصية، فيقول لهم الحق تعالى: ﴿أذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بالعلم أو السيادة أو الصلاح، وبأن فضلتكم على أهل زمانكم، وخصصتكم من أبناء جنسكم؛ فقد روى: «أن العبد يحاسب على جاهه كما يحاسب على ماله». فمن صرفه فى طاعة الله، وتواضع لعباد الله، وسعى فى حوائجهم، وأبلغ الجهد فى قضاء مآربهم، كان ذلك شكراً لنعمة الجاه؛ فقد روى فى الحديث: «مَنْ سَعَى فى حَاجَةِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، قُضِيَتْ أَوْ لَمْ تُقْضَ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَكُتِبَ لَهُ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ».

ولا يأخذ على ذلك أجراً ولا جُعلاً؛ فإن ذلك سحت وربا، ومن تكبر به وطغى، أو أخذ على ذلك أجراً، قيل له يوم القيامة: قد استوفيت أجرك فلا حظ لك عندنا، فلا تنفعه شفاعة، ولا يقبل منه فداء، ولا يقدر أن ينتصر من موارد الهوان والردى، ففي بعض الأخبار: يقول الله تعالى للفقراء الذين يعظمون في الدنيا لأجل فقرهم: ألم أرخص لكم الأسعار؟ ألم أوسع لكم المجالس؟ ألم أعطف عليكم عبادي؟ فقد أخذتم أجركم في الدنيا. أو كما قال. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى بنى إسرائيل بنعمة أخرى، فقال:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

قلت: (إذ): معمول لاذكروا، و (فرعون): اسم لكل من ملك القبط، كما أن قيصر اسم لمن ملك الروم، وكسرى اسم لمن ملك الفرس، واسم (فرعون) الذي كان في زمن موسى عليه السلام: «مصعب بن ريان»، وقيل: ابنه الوليد. وسام يسوم: طلب ويغى، يقال: سامه خسفا إذا أولاه ظلما، وجملة (يسومونكم): حال من (آل فرعون)، وجملة (يذبحون): بيان لها. وسوء العذاب: أفظعه وأقبحه.

يقول الحق جل جلاله: يا بنى إسرائيل اذكروا نعمة أخرى أنعمت بها على أسلافكم، وأنتم عالمون بها، وذلك حين أنجيناكم من عذاب فرعون ورهطه، يولونكم أقبح العذاب وأشنع، كانوا يستعبدون رجالكم ونساءكم في مشاق الخدمة والمهنة، ولما أخبره الكهان أنه سيخرج منكم ولد يخرب ملكه، جعل يذبح ذكوركم ويترك نساءكم، وفي ذلك محنة ﴿مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ وابتلاء ﴿عَظِيمٌ﴾، أو في ذلك الإنجاء اختبار من ربكم عظيم، فاذكروا هذه النعمة، وتحصنوا بالإيمان بمحمد ﷺ من محنة أخرى، ولا ينفع حذر من قدر، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾. وبالله التوفيق.

الإشارة: لكل زمان فراعين وجبابرة يقطعون الناس عن الانقطاع إلى الله والدخول إلى حضرة الله، (ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)، يقول الحق جل جلاله للذين تخلصوا منهم: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم بها؛ حيث أنجيتكم من فراعين ومنكم، يسومونكم سوء العذاب؛ وهو البقاء في غم الحجاب، والانقطاع عن الأحباب، يقتلون ما ربيتم من اليقين في قلوبكم والمعرفة في أسراركم، ويستحيون

شهوَاتكم وحظوظكم، (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم). قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ...﴾ . وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾

ثم ذكرهم الحق تعالى نعمة أخرى؛ وهى فلق البحر وإغراق العدو، فقال:

يقول الحق جل جلاله: واذكروا أيضا حين ﴿فرقنا﴾ بسببكم ﴿البحر﴾، حين فررتم من عدوكم، فسلكتم فيه اثني عشر مسلكا يابسا، حتى خلصتم إلى الشام، فلما أدرككم عدوكم، واستتم دخوله فيه، أطبقنا عليهم البحر ﴿فأنجيناكم وأغرقنا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ وأنتم تعاينون غرقهم وهلاكهم، فاشكروا هذه النعم التى أنعمت بها على أسلافكم، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم على نبي أُمى، لم يكن له علم بهذا، حتى علمه بالوحى من ربكم.

الإشارة: قال بعض الحكماء: (الهوى بحر لا ساحل له إلا الموت). فلا يقطع بحر الحظوظ والعوائد، إلا الخواص، الذين من الله عليهم بسلوك الطريقة، والغرق فى بحر الحقيقة، على يد رجال جمعوا بين الشريعة والحقيقة، فيقول الحق - جل جلاله - لمن تخلص من بحر هواه، وأفضى إلى مشاهدة مولاه: اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم؛ حيث خلصتكم من بحر الشهوات والعوائد، وأطلعكم على أسرار العلوم وذخائر الفوائد، وأغرقنا فيه من تكبر وطمع، وأنت تنظرون ما فيه الناس من غم الحجاب وسوء الحساب، فى بحر لجى يغشاه موج الذنوب، من فوقه موج الحظوظ، من فوقه سحب الأثر، إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور. وبالله التوفيق.

ثم ذكرهم نعمة التوراة التى أنزلها على موسى، وفى ضمنه التوبيخ على عبادة العجل، فقال جل جلاله:

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ٥١ ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ٥٢ ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ٥٣

قلت: (أربعين): مفعول لواعدنا، لا ظرف، و (العجل): مفعول أول، والثانى محذوف، أى: اتخذتموه إلها، و (الفرقان): معطوف على (الكتاب).

يقول الحق جل جلاله: واذكروا أيضا حين ﴿وَأَعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ أن يصوم ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ بأيامها متواصلة، وذلك حين طلبتم منه أن ينزل عليه الكتاب فيه بيان الأحكام، ثم لما صامها، وهى: ذو القعدة وعشر ذى الحجة، وأتى إلى المناجاة، كفرتم، ﴿وَأَتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ الذى صاغه السامري من الحلى، الذى أخذته نساء بنى إسرائيل من القبط عارية، ففروا به ظلما منهم أنه حلال، فقال لهم هارون عليه السلام: لا يحل لكم، فطرحوه فى حفرة، فصاغ منه السامري صورة العجل، وألقى فى جوفه قبضة أخذها من تحت حافر فرس جبريل عليه السلام حين عبر معهم البحر، فجعل يخور، فقال السامري: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ﴾، ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ فى عبادته، ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ بالتوبة وقتل النفس على ما يأتى، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فلا تعصون بنعمة، ﴿وَ﴾ اذكروا أيضا: ﴿إِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ الذى طلبتم، وهو التوراة، وهو ﴿الْفَرْقَانُ﴾ الذى فرقنا فيه بين الحق والباطل، كي تهتدوا إلى الصواب فتنجوا من العذاب.

الإشارة: مازالت الأشياخ والأولياء الأقدمون ينتحلون طريق سيدنا موسى عليه السلام فى استعمال هذه الأربعين، ينفردون فيها إلى مولاهم، مؤانسة ومناجاة، وفى ذلك يقول ابن الفارض رحمته الله:

وَصِرْتُ مُوسَى زَمَانِي مَذْصَارَ بَعْضِي كُلِّي

وقال:

صَارَتْ جِبَالِي دُكَا مِنْ هَيْبَةِ الْمُتَجَلِّي

فيفارقون عشائريهم وأصحابهم فى مناجاة الحبيب، والمؤانسة بالقرب، فمن أصحابهم من يبقى على عهده فى حال غيبة شيخه، من المجاهدة والمشاهدة، ومنهم من تسرفه العاجلة فيرجع إلى عبادة عجل حظه وهواه، فيظلم نفسه بمتابعة دنياه، فإن بادر بالتوبة والإقلاع، ورجع إلى حضرة شيخه بالاستماع والاتباع، وقع عنه العفو والغفران، ورجا ما كان يؤمله من المشاهدة والعيان، وإلا بقاء بالعقوبة والخسران، وكل من اعتزل عن الأحباب والعشائر والأصحاب، طالبا جمع قلبه، ورضى ربه، فلا بد أن ترد عليه أسرار ربانية ومواهب لدنية، من لدن حكيم عليم، يظهر بها الحق، ويدفع بها الباطل، فيفرق بين الحق والباطل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى كيفية توبة من عبد العجل منهم، فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ

فَأَقِلُّوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

قلت: الباري هو: المقدر للأشياء والمظهر لها.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا يا بنى اسرائيل حين ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ لقومه ﴾ لما رجع من الطور، وجدهم قد عبدوا العجل: ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ وبخستموها ﴿ باتخاذكم العجل ﴾ إلهكم، ﴿ فَتَوْبُوا لِي ﴾ خالفكم الذى صوركم فى أحسن تقويم، ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ بهدم هذه البنية التى ركبتموها فى أحسن صورة، فبخستموها، ولم تعرفوا قدرها، فعبدتم أبلد الحيوان، الذى هو البقرة. من لم يعرف حق النعمة فحقيق أن تسترد منه.

فذلكم القتل والمبادرة إلى التوبة ﴿ خير لكم ﴾ عند خالفكم، لأنه يفضى إلى الحياة الدائمة والبهجة السرمدية، فلما صعب عليكم القتل؛ للشفقة على الأخ أو القريب، ألقينا عليكم ضيابة حتى أظلم المكان، فاقتلتكم من الغداة إلى العشى، فدعا موسى وهارون - عليهما السلام - بالكشف عنهم، فرفعت السحابة، وقد قتل سبعون ألفا، ففعلتم ذلك القتل، فتاب الحق تعالى عليكم، فقبل توبة من بقى منكم، وعفا عن مات، ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ أى: كثير الترفيق للتوبة، أو كثير قبولها، الرحيم بعباده المؤمنين.

الإشارة: ما قاله سيدنا موسى ﷺ لقومه، يقال مثله لمن عبد هواه، وعكف على متابعة دنياه: يا من بخس نفسه بإرخاء العنان فى متابعة هواها، حتى حرمها من مشاهدة جمال مولاها، تب إلى ريك، وانتبه من غفلتك، واقتل نفسك بمخالفة هواها، فلعلها تحيا بمشاهدة مولاها، فما دامت النفس موجودة، وحظوظها لديها مشهودة، وآمالها ممدودة، كيف تطمع أن تدخل حضرة الله، وتتمتع بشهود جماله وسناه؟

إِنْ تَرَدُّوْاْ وَصَلْنَا فَمَوْتُكَ شَرْطٌ لَا يَنْدَالُ الْوَصَالُ مَنْ فِيْهِ فَضْلُهُ (١)

وقال الحلاج فى هذا المعنى:

لَمْ أَسْلِمِ النَّفْسَ لِلْأَسْقَامِ تُتْلِفُهَا إِلَّا لِعِلْمِيْ بِأَنَّ الْوَصْلَ يُحْيِيْهَا

وقال أيضا:

أَقْتُلُونِيْ يَا ثَقَاتِيْ	إِنْ فِى قَبْتِيْ حَيَاتِيْ
وَحَيَاتِيْ فِى مَمَاتِيْ	وَمَمَاتِيْ فِى حَيَاتِيْ
أَنَا عِنْدِيْ: مَخْوُذَاتِيْ	مِنْ أَجْسَلِ الْمَكْرُمَاتِ
وَبَقَائِيْ فِى صِفَاتِيْ	مِنْ قَبِيحِ السَّيِّئَاتِ

(١) البيت للشُّلُّرى.

وقال أيضا:

إِنْ كَانَ سَفَاكَ دَمِي أَقْصَى مُرَادِكُمْ فَمَا غَلَّتْ نَظْرَةٌ مِنْكُمْ بِسَفَاكَ دَمِي

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رحمته الله: (لا يدخل على الله إلا من بابين، أحدهما: الموت الحسى، وهو الموت الطبيعي، والآخر: الموت الذى تعنيه هذه الطائفة). هـ. وهو موت النفوس، فمن لم تمت نفسه لم تحيى روحه.

وقال بعض العارفين: (لا يحصل الدخول على الله حتى يموت أربع موتات: موت أحمر، وموت أسود، وموت أبيض، وموت أخضر. أما الموت الأحمر فهو مخالفة الهوى، وأما الموت الأسود فهو تحمل الأذى، وأما الموت الأبيض فهو الجوع - أى: المتوسط - وأما الموت الأخضر فهو لبس المرقعات، وطرح الرقاع بعضها على بعض).

قلت: ورأس الهوى وعنصره هو حب الجاه وطلب الرئاسة. فمن نزل إلى أرض الخمول، وخرق عوائد نفسه فيه، انخرقت له الحجب، ولاحت له الأنوار، وأشرقت عليه الأسرار فى مدة قريبة، وبالله التوفيق وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم وبخهم الحق تعالى على طلب الرؤية قبل إيمانها، وقبل تحصيل شروطها، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٦﴾

قلت: (جهرة): مصدر نرى؛ لأنه نوع منه، أى: نرى الله رؤية عيان، أو حال من الفاعل؛ أى: نراه معانين له، أو من المفعول؛ أى: نراه معاينة.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا أيضا، يا بنى إسرائيل، حين قلتم لموسى عليه السلام لما رجع من الطور، ووجدكم قد عبدتم العجل، فأخذ منكم سبعين رجلا ممن لم يعبد العجل، وذهب يعتذر، فلما سمعتم كلامى أنكرتموه وحرفتموه، وقلتم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أن هذا كلام الله ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ﴾ بسبب طلبكم ما لا طاقة لكم به، فغبتم عن إحساسكم، وذهبت أرواحكم، ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ما فعل بكم، فاستشفع فيكم موسى عليه السلام وقال: يا رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا، كيف أرجع إلى قومى بغير هؤلاء؟ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾، وعشتم زماناً بعد ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة، وتقومون بحسن الخدمة، فتقروا بربوبيتى، وتصدقوا برسلى، فلم تفعلوا.

الإشارة: من شأن الأرواح الطيبة التشوق الى الحضرة، والتشوف إلى العيان والنظرة، فلا يحصل لها كمال التصديق والإيقان إلا بعد الشهود والعيان، فلما علم الحق سبحانه من بعض الأرواح صدق الطلب، رفع عنها الحجاب، وفتح لها الباب، فأخذتها صاعقة الدهشة والحيرة، ولم تعلق صدمة المشاهدة والنظرة، فغابت عن الأشكال والرسوم في مشاهدة أنوار الحى القيوم، ثم منَّ عليها بالبعث من موت الفناء إلى حياة البقاء، فأمنت من الشقاء، فحصلت لها الحياة الدائمة والسعادة السرمدية . فالصاعقة عند أهل الفن هي عبارة عن الغيبة عن النفس، وفناء دائرة الحس، وهي شهود عدمك لوجود الحق، والبعث منها هو مقام البقاء، وهو شهود الأثر بالله . وهو مقام حق اليقين . وحاصله: شهود وجود الحق وحده، لاعدمك ولاوجودك، «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان» . وبالله التوفيق .

ثم ذكرهم الحق لطفه بهم في حال التيه، فقال:

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ٥٧ ﴿

قلت: (الْغَمَامُ): السحاب الرقيق، و(الْمَنَّاءُ) هنا: العسل، و(السَّلْوَى) قيل: اللحم، والأصح: أنه اسم طائر كالسماني .

يقول الحق جل جلاله في تذكير بني اسرائيل ما أنعم به عليهم في حال التيه: ﴿ وَ ﴾ قد ﴿ ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ يقيكم من الحر في أيام التيه، ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ ﴾ وهو عسل كان ينزل على الشجر من الفجر إلى الطلوع، فيغرفون منه ما شاءوا ، ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ السَّلْوَى ﴾، وهو طير كانت تحشره الجذوب، فينزل عليهم، فيأخذون منه ما شاموا، ولا يمتنع منهم، فيذبحون ويأكلون لحما طرياً، فقلنا لهم: ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ بمخالفتهم أمر نبيهم وسوء أدبهم معه، حيث قالوا: ﴿ فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ، فعاقبهم بالتية أربعين سنة، يتيهون في مقدار خمسة فراسخ أو ستة . ﴿ وَلَكِنْ ﴾ ظلموا أنفسهم؛ حيث أوقعوها في البلاء والمحنة .

روى أنهم لما أمروا بجهاد الجبارين، جبنوا وقالوا تلك المقالة، فدعا عليهم سيدنا موسى ﷺ فوقعوا في التيه بين مصر والشام، فكانوا يمشون النهار فيدببتون حيث أصبحوا، ويمشون الليل فيصبحون حيث أمسوا، فقالوا

لموسى عليه السلام: من لنا بالطعام؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى، قالوا: كيف بحر الشمس؟ فظل عليهم الغمام، قالوا: من نستصبح بالليل؟ فضرب لهم عمود نور في وسط محلتهم، قالوا: من لنا بالماء؟ فأمر موسى عليه السلام بضرب الحجر، فقالوا: من لنا باللباس؟ فأعطوا ألا يبلى لهم ثوب، ولا يخلق، ولا يدرن، وأن ينمو بنمو صاحبه، وقيل كساهم مثل الظفر، «والله على كل شيء قدير».

الإشارة: لما انفصلت الأرواح من عالم الجبروت، كانت على الطهارة الأصلية، والنزاهة الأزلية، عالم بأسرار الربوبية وعظمة الألوهية، لكن لم يكن لها إلا جنة الحرية، دون جنة العبودية، فلما أراد الحق تعالى أن يمنحها بجننتين عن يمين وشمال، أمرها بالنزول إلى أرض العبودية، في ظل من غمام البشرية، فمن عليها بحلاوة المشاهدات وسلوان المناجات، وقال لها: كلوا «من طيبات ما رزقناكم» من طرائف العلوم، وفواكه الفهوم هذا لمن اعتلى بروحه فاستكمل فضيلتها، وخالف هواها، فنفذت من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، فلم تلحجب بسحب الآثار إلى نفوذ شهود الأنوار، بل غابت عن شهود الآثار بشهود الأنوار. أما من حجبت عن شهود الأنوار بالوقوف مع الآثار، ووقعت في شبكة الحظوظ والشهوات، وربطت بعقال الأسباب والعادات، فقد ظلمت نفسها وبخست حقها من مشاهدة مولاها، حتى اتسعت عليها دائرة الحس، ولم تنفذ إلى المشاهدة والأنس. وأنشدوا:

كَمَلْ حَقِيقَتَكَ الَّتِي لَمْ تَكْمَلِ	وَالْجِسْمَ ضَعْفُهُ فِي الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ
أَتَكْمَلُ الْفَانِي وَتَتْرُكُ بَاقِيَا	هَمَلًا، وَأَنْتِ بِأَمْرِهِ لَمْ تَحْفَلِ؟
فَالْجِسْمَ لِلنَّفْسِ النَّفِيسَةِ آلَةٌ	مَا لَمْ تُحَصِّلْهُ بِهَا لَمْ يَحْمِلْ
يَفْنَى، وَتَبْقَى دَائِمًا فِي غِيبَةِ	أَوْ شِقْوَةٍ وَنَدَامَةٍ لَا تَنْجِسُ إِلَى
أَعْطَيْتَ جِسْمَكَ خَادِمًا فَخَدَمْتَهُ	أَتَمَّاكَ الْمَفْضُولَ رِقًّا الْأَفْضَلَ؟
شَرَكٌ كَثِيفٌ أَنْتَ فِي أَحْبَابِهِ	مَا دَامَ يُمَكِّنُكَ الْخَلَّاصُ فَعَجَّلْ
مَنْ يَسْتَطِيعُ بُلُوغَ أَعْلَى مَنْزِلِ	مَا بَالَهُ يَرْضَى بِأَدْنَى مَنْزِلِ!

ثم وبخهم على ما وقع منهم من المخالفة، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قلت: (حطة): خبر مبتدأ مضمرة، أى: أمرنا حطة، أى: تواضع وانحطاط، وقال هنا: (فكلوا)، وفى الأعراف بالواو؛ لأن الأكل مرتب على الدخول، بخلاف السكى، فإنها تفارق الأكل، فكانه مأمور به.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا يابلى إسرائيل حين قلنا لأسلافكم بعد أن خرجوا من التيه: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أعنى بيت المقدس، أو أريحاء، بعد أن تجاهدوا أهلها، ﴿فَكُلُوا﴾ من نعم ما فيها أكلا واسعا، لأنها مخصصة، ﴿وَادْخُلُوا﴾ باب القرية راكعين، تواضعا وشكرا، ﴿وَقُولُوا﴾ فى دخولكم: شأننا ﴿حِطَّةٌ﴾، أى: شأننا الانحطاط والتواضع لله، فإن فعلتم ذلك ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، وسنزيدكم من امتثل أمرنا، وأحسن الأدب معنا، خيرا كثيرا، فى الدنيا والآخرة، ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منهم قولا غير الذى أمروا به، وقالوا مكان حطة: حنطة، حبة فى شعرة، ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾ عذابا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قيل: هو الطاعون، فمات منهم سبعون ألفا فى يوم واحد، بسبب فسقهم وتعديهم الحدود.

الإشارة: يقول الحق سبحانه للأرواح، لما كمل تطهيرها من البقايا، وتكاملت فيها المزايا: ادخلوا هذه الحضرة المقدسة، وتلعموا فيها حيث شئتم بالمشاهدة، والمكالمة، والمواجهة، والمساورة، والمفاتحة، والمناجاة، وادخلوا بابها أذلاء صاغرين، فلا دخول للحضرة المقدسة إلا من باب الذل والافتقار، وأنشدوا:

وَمَا رُمْتُ الدَّخُولَ عَلَيْهِ حَتَّى
حَلَّيْتُ مَحَلَّةَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ
وَأَغْمَضْتُ الْجُفُونَ عَلَى قَذَاهَا
وَصُغْتُ النَّفْسَ عَنْ قَالٍ وَقِيلِ (١)

وقيل لأبى يزيد: يا أبا يزيد، خزائننا معمورة بالخدمة، إئتنى من كوة الذل والافتقار. وفى رواية قيل له: يا أبا يزيد: تقرب إلينا بما ليس عندنا، فقال: يارب؛ وما الذى ليس عندك؟ فقال: الذل والافتقار. هـ. وقال شيخ المشايخ القطب الجيلانى رحمته الله (أتيت الأبواب كلها، فوجدت عليها الزحام، فأتيت من باب الذل والافتقار، فوجدته خاليا، فدخلت منه، وقلت: هلموا). أو كما قال. وقال الشاعر:

تَذَلُّ لِمَنْ تَهْوَى فَلَيْسَ الْهَوَى سَهْلُ (٢)
إِذَا رَضِيَ الْمُحِبُّوبُ صَحَّ لَكَ الْوَصْلُ

وقولوا عند دخولكم الحضرة: شأننا حطة؛ أى: شأننا السفليات دون العلويات، فالسلوك من باب السفليات واجب، وإلا فلا وصول، فكل من سلك من باب السفليات طهر من البقايا، وتكاملت فيه المزايا، فيصلح لدخول الحضرة،

(١) الأبيات للسرى السقطى، كما فى زاد المسير لابن الجوزى.

(٢) راجع التعليل على هذا الشطر ص ١٠٢.

وينخرط في سلك أهل الشهود والنظرة، فيكون من المحسنين المقربين، فلا جرم أن الله يزيده ترقياً في العلوم والأسرار، في هذه الدار، وفي تلك الدار، بخلاف من خالف ما أمر به من سلوك طريق السفليات، وتعاطى الأمور العلويات، قبل كمال التربية؛ فإنه يرجع إلى غم الحجاب، وسوء الحساب؛ بسبب خروجه عن طريق الأحباب، وسلوكه طريق أهل الغفلة والارتباب. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ذكرهم بنعمة الماء الذي سقاهم في التيه، فقال:

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ﴾

قلت: «استسقى»: طلب السقى، و«الـ» في «الحجر» للعهد، وهو الحجر الذي فر بثوبه، أو حجر خفيف مربع مثل رأس الرجل، أمر أن يحمله معه، فكان يضعه في مخلاته، فإذا احتاج الماء ضربه، قيل: كان من رخام، وقيل: كان كذآن^(١)، كان فيه اثنتا عشرة حفرة، تتبع من كل حفرة عين ماء عذب، على عدد الأسباط، فإذا أراد حمله ضربه فجف الماء منه، وقيل: للجنس، فكان يضرب أي حجر وجد، فتنفجر منه عيوناً، ثم تسير كل عين في جدول إلى سبط، فقالوا: إن أفضينا إلى أرض لا حجارة فيها عطشنا، فأوحى إليه: أن كلمه يطعك لعلمهم يعتبرون.

و«فانفجرت»: معطوف على محذوف؛ أي: فضرب فانفجرت، والعثو: أشد الفساد، عثاً يعثو عثواً، وعثى يعثى عثياً، وعاث يعيث عيثاً، و«مفسدين»: حال مؤكدة لعاملها، أو مقيدة، إن قلنا: إن العثو أعم من الفساد، لصدقه على القصاص، فإنه عثو غير فساد. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا يا بني إسرائيل حين عطشتم في التيه، فطلبت من موسى السقى، فاستسقى لكم، ﴿فقلنا﴾ له: ﴿اضرب بعصاك﴾ التي أخذتها من شعيب عليه السلام، وكانت من آس الجنة، وورثت عن آدم عليه السلام، فيها عشرة أذرع، فضرب ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ على عدد أسباطكم، فكل عين تجرى إلى سبط ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ معينا، لا يعدو أحد على أحد، فقلنا لهم: ﴿كلوا﴾ من المن والسلوى، ﴿واشربوا﴾ من الماء الذي رزقناكم، ولا تطغوا بالنعم فتفسدوا في الأرض بالمعاصي والذنوب، فيكون ذلك كفراً مستوجباً للسلب بعد العطاء، روى أنهم كانوا ستمائة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً. والله تعالى أعلم.

(١) الكذآن: جمع كذانة، وهي حجارة فيها رخاوة، وربما كانت نخرة. قلت: لا يبنى على تعيين هذا الحجر أمر ديني. والأسلم تفويض علمه إلى الله تعالى.

الإشارة : اعلم أن الأرواح إذا تطهرت من الأكدار، وتحررت من الأغيار، وأشرقت عليها الأنوار والأسرار، وكمل تطهيرها، وتمت تصفيتها، كان صاحبها آية من آيات الله، وحجة من حجج الله، إذا ضرب بعضا همته القلوب القاسية أو الأنفس الأبية، لانت وانفجرت بالعلوم القدسية، كل واحد بما يليق به، فمنها من تنبع بالعلوم الوهبية، ومنها من تنبع بالعلوم الرسمية، ومنها من تنبع بالكرامات وخوارق العادات، ومنها من تنبع ملها المكاشفات والاطلاعات، قد علم كل أناس مشربهم، على حسب ما سبق لهم، فيقول الحق تعالى لهم: كلوا من ثمرات ما اجتنيتم من العلوم والمعارف التي أوليناكم، واشربوا من مناهل المنازل التي فيها أقمناكم، أو كلوا من ثمرات المعرفة ما تتقوى به معانيكم، واشربوا من خمر الحبيب ما تغيثوا به عن وجودكم، ولا تتعدوا أطواركم من القيام بوظائف العبودية، ومعرفة عظمة الربوبية، فتكونوا لسلب ما أولاكم متعرضين، ولعقوبته مستحقين، عائذا بالله من السلب بعد العطاء. آمين.

ولما سئموا من المن والسلوى، استبدلوا غيرهما، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى، فقال:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ۚ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ ۖ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَانَةُ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

قلت : المراد بالطعام الواحد: هو المن والسلوى. ووحدته لأنه لا يختلف ولا يتبدل، كقولهم: طعام مائدة الأمير واحد، والبقل: جميع الخضر، كالنجم والكرنب والكراث وغير ذلك. والقثاء: جمع قثاءة، وهي الخيار والفقوس والبطيخ وغير ذلك من الفواكه التي تستنبت، والفوم قيل: الحنطة، والأصح أنه الثوم. قال الشاعر:

وَأَنْتُمْ أَنْاسٌ لِنَامِ الْأَصُولِ طَعَامُكُمْ الْفُومُ وَالْحَوْقَلُ

أراد: الثوم والبصل. والعرب تعاقب بين الفاء والثاء فتقول: معافير ومعائير، وتقول للقبر: جدث وجدف.

والعدس: معلوم، روى على - كرم الله وجهه - عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالعدس، فإنه مبارك مقدس، وإنه يرفق القلب، ويكثر الدمعة، وإنه بارك فيه سبعون نبيا، آخرهم عيسى بن مريم» (١).

(١) الحديث ذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا أيضا حين ﴿ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ حين ملئتم من العسل واللحم، وملئتم إلى عَكْرِكُمُ السوء، أى: مألوفكم وشهواتكم السيئة، لأنهم كانوا فلاحين، فقلتم: ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴾، أى: من جنس ما ينبت الله فيها من البقل والقثاء والعدس والفوم والبصل، قال موسى ﷺ: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى ﴾ وأخس من الثوم والبصل وغيرهما، ﴿ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ من اللحم والعسل، ﴿ أَهْبِطُوا ﴾ إلى مصر من الأمصار، تجدوا ما تشتهون، إذ لا يوجد ذلك إلا فى القرى والأمصار، أو ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ التى كنتم فيها أدلاء مستعبدين، تجدوا حظوظكم وشهواتكم؛ لأن الحظوظ والشهوات منوطة بالذل والهوان، ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾، أى: ألزموها لزوم الدرهم المضروب لضربه ونقشه، فالذلة: ضرب الجزية، والمسكنة: فقر النفس وإن كان موسراً.

وإنما ضُرِبَتْ عليهم الذلة والمسكنة لأنهم لم يرضوا بتدبير الحق، ولم يقنعوا برزقه، فكل من لم يقنع بقسمته وسلم من اتحاد رزقه، خيف عليه من ضرب الذل والمسكنة، وانقلبوا أيضا ﴿ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ حيث نقصوا العهود، وتعدوا الحدود، فكفروا وطغوا وقتلوا الأنبياء بغير حق، وسبب ذلك: تمردهم فى العصيان، فإن المعاصى تجر بعضها إلى البعض حتى تنتهى إلى الكفر، والعياذ بالله من سخطه وغضبه.

الإشارة: كل من لم يقنع بالقسمة الأزلية، ولم يقم حيث أقامته القدرة الإلهية، بل جدح إلى حظوظه وهواه، وحرص على تحصيل أغراضه ومناه، قيل له: أتعبدل تدبيرك - الذى هو أدنى - بتدبير الحق - الذى هو خير؟ أترك تدبير الحكيم العظيم، الرؤوف الرحيم، إلى تدبير عقلك الضعيف الجاهل الخسيس اللئيم؟! فعسى أن تدبر شيئا يكون لك فإذا هو عليك. وعسى أن تأتيك المسار من حيث تعتقد المضار، وتأتيك المضار من حيث ترتجى المسار. والله در القائل:

وَكَمْ رُمْتُ أَمْرًا خَرْتُ لِي فِي انْصِرَافِهِ،	فَلَا زِلْتُ لِي مِثْلِي أَبَرَّ وَأَرْحَمًا
عَزَمْتُ عَلَى الْأَحْسَنِ بِخَاطِرٍ	عَلَى الْقَلْبِ إِلَّا كُنْتُ أَنْتَ الْمُقَدِّمًا
وَأَلَا تَرَانِي عِنْدَ مَا قَدْ نَهَيْتَنِي؛	لِكُونِكَ (١) فِي قَلْبِي كَبِيرًا مُعْظَمًا

(١) فى المخطوطات الثلاث (لأنك).

يا من لم يقنع بتدبير مولاه، ومال إلى نيل حظه وهواه، اهبط إلى أرض الحظوظ والشهوات تجد فيها ما ألفتَه
نفسك من عوائدك السيئات. يا من أخذت نفسه إلى الهوى ومتابعة الشيطان، كيف تستبدل العز الدائم بالذل
والهوان؟! وأنشدوا:

لَا تَتَّبِعِ النَّفْسَ فِي هَوَاهَا إِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى هَوَانٌ^(١)

قال في التنوير: (فائدة) اعلم أن بنى إسرائيل لما دخلوا التيه، ورزقوا المن والسلوى، واختار الله لهم ذلك رزقاً،
رزقهم إياه، يبرز من عين المنة، من غير تعب منهم ولا نصب، فرجعت نفوسهم الكثيفة لوجود، العادة، والغيبة عن
شهود تدبير الله، إلى طلب ما كانوا يعتادونه، فقالوا: ﴿ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض﴾ الآية. ﴿قال
أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير. اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم. وضربت عليهم الذلة والمسكنة
وباءوا بغضب من الله﴾، وذلك لأنهم تركوا ما اختار الله لهم، مائلين لما اختاروا لأنفسهم. فقل لهم عن طريق
التوبيخ: ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾؟ فظاهر التفسير: أتستبدلون الفوم والعدس والبصل بالمن
والسلوى؟ وليس النوعان سواء في اللذة ولا في سقوط المشقة وسر الاعتبار، أتستبدلون مرادكم لأنفسكم بمراد الله
تعالى لكم؟ ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى﴾ وهو ما أردتموه، ﴿بالذي خير﴾، وهو ما أراده الله لكم؟ ﴿اهبطوا
مصر﴾ فإن ما اشتهيتموه لا يليق إلا أن يكون في الأمصار، وفي سر الخطاب: اهبطوا عن سماء التفويض وحسن
التدبير منا لكم، إلى أرض التدبير والاختيار منكم لأنفسكم، موصوفين بالذل والمسكنة؛ لاختياركم مع اختيار الله،
وتدبيركم لأنفسكم مع تدبير الله. هـ المراد منه.

ولما ذكّرهم الحق تعالى بالنعمة، وويّخهم على ارتكاب الآثام، رغبهم في الإسلام، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّةَ مِنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلْ
صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

قلت: (إن): ناصبة مؤكدة، وخبرها: جملة (من آمن) أو (فلهم أجرهم). و(من آمن): بدل من اسمها، أو
محذوف، والموصول: مبتدأ، أى: إن الذين آمنوا بمحمد ﷺ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين هادوا كذلك.
(وهادوا): تهودوا، أى: دخلوا في اليهودية. وسموا يهوداً؛ إما نسبة لأبيهم الأكبر (يهودا بن يعقوب)، أو من هاد، إذا
تاب؛ لأنهم تابوا من عبادة العجل.

(١) البيت للإمام البرعى.

والنصارى: جمع نصران، وسَمُوا بذلك إما لنصرهم المسيح ﷺ، أو لسكنائهم معه في قرية يقال لها: (نصران)، والصابئون: طائفة من أهل الكتاب، خرجوا عن دين اليهودية وعبدوا الكواكب، يقال: صبا يصبو، إذا مال وخرج من دين إلى دين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ والذين آمنوا بموسى، والذين آمنوا بعتسى - عليهما السلام - ، والذين خرجوا عن دينهم وصبوا، ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وتبع محمداً ﷺ وعمل بشريعته، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ إذا قدموا عليه بالنعيم المقيم، والنظر إلى وجهه الكريم، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ حين يخاف الكفار، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين يحزن المقرطون والأشرار؛ إذ لا يلحقهم وبال ولا يفوتهم نوال. وبالله التوفيق.

الإشارة: إن الذين آمنوا إيماناً لا يختلجه وهم، ولا يطرق ساحته شك ولا ريب، إما عن برهان قاطع، أو عن شهود ساطع، والذين تابوا عن هواجس الخواطر وغفلات الضمائر، والذين نصروا الدين، وشيدوا منار شريعة المسلمين، والذين صبوا إلى الحبيب، ومالوا عن كل بعيد وقريب، فهؤلاء الذين سبقت لهم من الله العناية، وهبت عليهم ريح الهداية، جمعوا بين تزيين البواطن بأنوار الإيقان، وتزيين الظواهر بأنواع الطاعة والإذعان، فلا جرم أنهم، إذا قدموا على ربهم، أجل منصبهم، وأجزل ثوابهم، وأعلى مقامهم، فأولئك أولياء الله الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فالمخصوصون بالعناية أربعة: قوم أقامهم الحق تعالى لتنمية الإيمان وتربية الإيقان، إما عن دليل وبرهان - وهم أهل النظر والاعتبار -، وإما عن شهود وعيان - وهم أهل الشهود والاستبصار -، وقوم أقامهم الحق تعالى لتصفية نفوسهم وتزكية أحوالهم بالتوبة، والإقلاع عن كل وصف مذموم، وهم الساترون والطالبون، وقوم أقامهم لنصرة الدين وإظهار شريعة المسلمين، إما بتقرير قواعده أو جهاد معانده، وهم العلماء والمجاهدون، وقوم أقامهم لخدمته، وملأ قلوبهم بهيبته، وهم العباد والزهاد، مالوا عن الشهوات وتأنسوا به في الخلوات، هجروا الأوطان وفارقوا الأحباب والإخوان، صبوا إلى محبة الحبيب وتلذذوا بمناجاة القريب، فهؤلاء المخصوصون بعين العناية، المحفوظون بغاية الرعاية، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. حققنا الله بمقام الجميع بمنه وكرمه. آمين.

ثم وبَّخهم على نقض العهود، وعدم الوقوف مع الحدود، فقال:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ٦٣ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٦٤

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَلَنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴿

قلت : (لولا): حرف امتناع لوجود (١)، تلزم الدخول على المبتدأ، وخبرها واجب الحذف عند سيبويه، أى: لولا فضل الله عليكم ورحمته موجودان، وقال الكوفيون: فاعل بمحذوف: أى: لولا أن ثبت فضل الله عليكم ورحمته، و(لكنتم): جوابها.

يقول الحق جل جلاله: و اذكروا يا بنى إسرائيل حين ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أن تقبلوا تكاليف التوراة، وكانت شاقة عليهم، فلما أبيتم قبولها، قلنا الطور، ورفعناه فوقكم على مقدار عسركم، كالظلة، وقلنا لكم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من التوراة بجد واجتهاد، ﴿واذكروا ما فيه﴾ من الوعظ والتذكير ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الله، فتفوزون بالخير الكثير، فقبلتم ذلك كرها ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم بعد ذلك، فسفكتم الدماء، وقتلتم الأنبياء، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بتوفيقكم للتوبة، ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بقبولها منكم، لخسرتم الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ ما جرى للذين ﴿اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ فى زمن داود عليه السلام، وذلك فى قرية يقال لها: «أَيْلَة»، كانت على شاطئ البحر، وقد نهوا عن الاصطياد يوم السبت، فكانت الحيتان تخرج يوم السبت شرعاً، فتخرج خراطيمها للبر، فإذا كان يوم الأحد دخلت فى البحر، فحفروا حياضاً، وشرعوا إليها جداول، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد، فلما لم يعاقبوا على ذلك أحلوا يوم السبت، فانقسمت القرية على ثلاث فرق: قوم نهوا، وقوم سكتوا، وقوم اصطادوا، فمسح من اصطاد قرده وخنازير؛ الشبان قرده، والشيوخ خنازير، فبقوا ثلاثة أيام وماتوا. فجعلنا تلك الفعلة التى فعلنا بهم - ﴿نَكَالًا﴾ وزجراً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ فى زمانها، وما خلفها؛ من يأتى بعدها، ﴿وموعظة﴾ : وتذكيراً ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ من أمة محمد ﷺ .

الإشارة: اعلم أن المريدين إذا دخلوا فى يد شيخ، وأخذوا عنه العهد، حملهم من أعباء التكليف وخرق العوائد ما تموت به نفوسهم، وتحيا به قلوبهم، كذبج النفوس وخط الرؤوس ودفع الفلوس، فإذا هموا بالتقصير، ظلل عليهم جبل همته، وأدار عليهم يد حفظه ورعايته، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن: (والله لا يكون الشيخ شيخاً حتى تكون يده مع الفقير أينما ذهب). والمراد باليد: الهمة والحفظ، ولا يزال الشيخ يرأسهم بهذه التكاليف، ويحضهم على الأخذ بها، والاجتهاد فى العمل بها، حتى تموت نفوسهم وتحيا قلوبهم، وترسخ معرفتهم، وتكمل تربيتهم، فحينئذ ينتقلون إلى روح وريحان فى جنات الشهود والعيان.

(١) أى: امتناع شئ لوجود غيره.

قلت : وقد كان شيخنا يرسل لنا البطاقات في حال البدايات، فما كنت أفتحها حتى ترتعد نفسي مما فيها، لأنها تعلم أنه ما يرسل لها إلا ما فيه موتها، فلولا فضل الله علينا ورحمته - حتى قوانا على العمل بما فيها - لكنا من الخاسرين، ولقد أخطأت العناية قوماً، فتعدوا حدود الشيوخ، أو خرجوا عن دائرتهم قبل كمال تربيتهم، فمسخت قلوبهم، وانصحت من ديوان الولاية رسومهم، جعل الله ذلك عبرة لغيرهم، وزاجراً لمن حذا حذوهم، نعوذ بالله من السلب بعد العطاء، وكفران النعم وحرمان الرضى، وبالله التوفيق وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم وبخهم بما فعل أسلافهم من قتل النفس والتشغيب على نبيهم، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ خَدُّنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لِنَارِكَ يَبِينَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لِنَارِكَ يَبِينَ لَنَا مَا لَوْ نُهَاهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لِنَارِكَ يَبِينَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهَا بَقَرَةٌ تَشْبَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا أَلَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

قلت : الفارض: المسنة التى لا تلد، يقال: فرضت البقرة تفرض فروضا، إذا أسدت. والبكر: الصغيرة التى لم تلد، العوان: المتوسطة بين المسنة والصغيرة، والفاقع: الناصع الصفرة، يقال: أصفر فاقع، وأسود حالك: أى: شديد السواد. وأصل شية: وشية، كعدة، حذفت فاؤها وعوض عنها التاء، والوشى: الرقم.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا يا بنى إسرائيل حين ﴿ قال موسى لقومه ﴾ لما تخاصموا إليه فى قتل وجد فى قرية ولم يدر قاتله، وذلك أن رجلا فقيرا من بنى إسرائيل قتل قريبا له كان موسرا ليرثه، ثم رماه فى قرية أخرى، ثم ذهب يطلب دمه، فترافعوا إلى موسى ﷺ فقال لهم بوحي: ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾، وأبهم الأمر عليهم، ﴿ قَالُوا أَنْتَ خَدُّنَا هُزُؤًا ﴾ أى: مهزوءا بنا، حيث نسألك عن بيان القاتل وأنت تأمرنا أن نذبح (١) بقرة، وهذا من تعنتهم وسوء أدبهم. ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾؛ إذ لا يستهزئ بأمر الدين إلا الجاهل.

(١) فى الأصول: (نذبحوا).

فلما رأوا جده «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ»، هل هي كبيرة أو صغيرة أو متوسطة؟ «قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ أَي: كبيرة، «وَلَا بَكْرٌ أَي: ولا صغيرة، «عَوَانٌ» متوسطة بين ما ذكر من الصغر والكبر، «فَفَاعِلُوا مَا تُمَرُونُ»، فإن الله يبين لكم القاتل، «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونُهَا»، أي حمراء أو سوداء أو صفراء؟ «قَالَ إِنَّهُ» تعالى «يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لُونُهَا» ناصع صفرتها «تَسْرُ النََّاظِرِينَ» لسمعتها وبهجة لونها، «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ»، فإن البقر الصفر كثير، وقد تشابه علينا أمرها؟ «قَالَ إِنَّهُ» تعالى يقول: إنها مسلمة من العمل ليست ذلولا، أي: مذنبة بالعمل لا «تُشِيرُ» أي: تقلب «الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ» بالسانية (١). «مُسْلِمَةٌ» من العيوب كلها، «لَّا شَيْءَ فِيهَا» أي: لا رقم فيها يخالف الصفرة.

فلما تبين لهم الأمر «قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ» الواضح، فوجدوها عند شاب كان بيد أمه، قد استودعها له أبوه في غيضة (٢)، فاشتروها منه بملء جلداه ذهبا، أو بوزنها، «فَذَبَحُوهَا»، وضربوا القتل بجزء منها، فجلس وعروقه تسيل دما، وقال: قتلني ابن عم لي، ثم رجع، «وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» لكثرة ترددهم، أو لفحش غلوها. قال عليه الصلاة والسلام: «لو ذبحوا أدنى بقرة لكفتهم لكن شددوا فشدد الله عليهم».

ثم ذكر أول القصة، فقال:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأَتْكُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قلت: حق هذه الآية أن تتقدم قبل قوله: ﴿إِنْ إِلَهُ يَأْمُرُكُمْ...﴾ وإنما أخرها الحق تعالى ليتوجه العتاب إليهم مرتين؛ على ترك المسارعة لا مثال أمر نبيهم، وعلى قتل النفس، ولو قدمها لكانت قصة واحدة بتوبيخ واحد.

يقول الحق جل جلاله: «و» اذكروا «إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا» حرصا على الدنيا «فَادَرَأَتْكُمْ» أي: تدافعت في شأنها، كل قرية تدفع عنها، «وَاللَّهُ» تعالى «مُخْرِجٌ» ومبين «مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» من القتل، ومن قتله، «فَقُلْنَا»: اضربوا القتل أو قبره «بِبَعْضِهَا» قيل: اللسان، وقيل: القلب، وقيل: الفخذ أو الذنب، فضربوه فحيى، وأخبر بقاتله كما تقدم، «كَذَلِكَ» أي: كما أحيا هذا القتل، «يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى» من قبورها «وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ» الدالة على قدرته، «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» فتعلمون أن من قدر على إحياء نفس واحدة يقدر على إحياء الأنفس كلها.

(٢) الموضع الذي يكثر فيه الشجر.

(١) السانية: الساقية.

واستدلّت المالكية بالقصة على التدمية الحمراء^(١)، وهي قبول قول القاتل قبل موته بأن فلانا قتله، وفيه نظر؛ لأن هذا حيى بعد موته فلا يتطرقه الكذب، واستدلّت أيضا على حرمان القاتل من الإرث، وفيه نظر؛ لأن هذه شريعة من قبلنا يتطرقها النسخ، لكن ثبت في الحديث أنه لا يرث. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا أمر الشيخ المريدين بذبح نفوسهم بخرق عوائدها، فمن تردد منهم في فعل ما تموت به نفسه، كان ذلك دليلا على قلة صدقه وضعف نهايته، ومن بادر منهم إلى قتلها دلّ ذلك على صدقه وفلاحه ونجح نهايته، فإذا ماتت النفس بالكلية حييت روحه بالمعرفة والمشاهدة الدائمة، فلا موت بعدها أبدا، قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾، وأما الموت الطبيعي فإنما هو انتقال من مقام إلى مقام، ومن وطن ضيق إلى وطن واسع، وأنشدوا:

لَا تَظُنُّوا الْمَوْتَ مَوْتًا إِنَّهُ	لَحْيَاةٌ، وَهُوَ غَايَةُ الْمَنَى
لَا تَرَعُكُمْ هَجْمَةُ الْمَوْتِ فَمَا	هُوَ إِلَّا أَنْتَقَالَ مِنْ هُنَا
فَاخْلَعُوا الْأَجْسَادَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ	تُبْصِرُوا الْحَقَّ عَيَانًا بَيِّنًا

قلت: والسيف الذي يُجهز على النفس ويسرع قتلها هو الذل والفقر، فمن ذل نفسه بين أبناء جنسه، وخرق عوائد نفسه، وزهد في الدنيا، ماتت نفسه في طرفة عين، وحييت روحه، وظفر بقرّة العين، وهي معرفة مولاه، والغيبة عما سواه.

وكمال الوقت في ذبح النفس أن تكون متوسطة بين الصغر والكبر، فإن الصغيرة جداً لا يؤمن عليها الرجوع، والكبيرة جدا قد يصعب عليها النزوع، كاملة الأوصاف بحسن الزهد والعفاف، تسر الناظرين لبهجة منظرها وحسن طلعتها، وكذلك من كان من أهل الشهود والنظرة، تسحر مشاهدته القلوب، ويسوقها بسرعة إلى حضرة علام الغيوب، لما أقيم به من مشاهدته الملكوت، حتى إن من لاحظته تناسى أحوال البشرية، واستولت عليه أنوار الروحانية، وغاب في ذكر الحبيب عن البعيد والقريب، كما في الحديث: «أولياء الله من إذا رؤوا ذكر الله»، وتكون أيضا هذه النفس غير مذلة بطلب الدنيا والحرص عليها، مسلمة لا عيب فيها، ولا ريق لشيء من الأثر عليها، فحينئذ تصلح للحضرة، وتتمتع بنعيم الشهود والنظرة، لم يبق لخصم الفرق معها تدارؤ ولا نزاع، بل أقر الخصم وارتفع النزاع.

(١) التدمية الحمراء في القتل الذي به جرح أو أثر ضرب أو سم، فإن لم يكن به فهي التدمية البيضاء.

ثم ويخهم على عدم تأثير هذه المعجزة في قلوبهم، فقال:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

قلت : القسوة والقساوة: هي الصلابة واليبوسة، كالشقوة والشقاوة، يقال حجر قاس، أى: يابس. قال الشاعر :

وَلَا أَرَى أَثْرًا لِلذِّكْرِ فِي جَسَدِي وَالْحَبْلُ فِي الْجَبَلِ الْقَاسِي لَهُ أَثَرُ

و (أو) للإضراب، أو بمعنى الواو، أو للتلويع، فبعضها كالحجارة وبعضها أشد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ يا معشر اليهود، وببست فلم تلتن ولم تخشع، مع ما رأت من الآيات كانفجار الحجر بالماء في التيه، وإنزال المن والسلوى، وتظليل الغمام، وإحياء الميت وغير ذلك.

قال الكلبي: (أنكروا بعد ما رأوا ذلك، وقالوا: ما قتلنا، فما كانوا قط أعمى قلباً، ولا أشد تكذيباً منهم لنبيهم عند ذلك) فقلوبهم كالحجارة، بل أشد، أو إن شَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ بِالْحِجَارَةِ أَصَبْتُمْ، وبما هو أشد أصبتم، بل في الحجارة فضل عليها في اللين، فإن منها ما تتفجر ﴿مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ الكبار، ومنها ما تشقق ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ﴾ العيون الجارية، ومنها ما تهبط من رأس الجبل ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾. وفي بعض الأخبار: «كل حجر تردى من رأس جبل فهو من خشية الله»، وقلوبكم يا معشر اليهود لا تلين ولا تخشع ولا تأتى بخير. نسأل الله السلامة بمنه وكرمه.

الإشارة: كل من أساء الأدب مع أستاذه، أو خرج عن دائرته إلى غيره، قسا قلبه، وذهب حاله ولبه، فإن رجع قريباً واستدرك ما فات، لان قلبه ونهض حاله، وإلا وقع في مهاوى القطيعة، ولم يأت منه شيء. وللقلب القاسى علامات: منها جمود العين، وطول الأمل، وعدم الحزن على ما فاتته من الطاعات وما صدر منه من السيئات، وعدم الفرح بما يصدر منه من الطاعات، فإن المؤمن تسره حسناته وتسيئه سيئاته، ودواؤه: صحبة الفقراء والذاكرين الخاشعين، والجلوس بين يدي العارفين الكاملين، وتعاهد الصيام، والصلاة بالليل والناس نيام، والتضرع إلى الحي القيوم الذي لا ينام، وللشافعي رحمته الله:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلْمًا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بَعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ كذلك القلوب القاسية إذا لانت بالإنابة إلى ربها، والرجوع عن مآلوفاتها، تتفجر منها أنهار العلوم، وتشقق منها أسرار الحكم، ومنها من تذوب من هيبة المتجلى لها، فتندك جبالها، وتزلزل أرض نفوسها، كما قال القائل:

لَوْ عَايَنْتُ عَيْنَاكَ يَوْمَ تَزْلُزَلُ أَرْضُ النُّفُوسِ وَدُكَّتِ الْأَجْسَالُ
لَرَأَيْتُ شَمْسَ الْحَقِّ يَسْطَعُ نَوْرَهَا حِينَ التَّزَلُّزِ، وَالرَّجَالُ رَجَالُ

والله تعالى أعلم .

ثم آيس المؤمنين من الطمع في إيمان من كان هذا وصفه فقال:

﴿أَفَنظَمُعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضِبُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سِتْرًا لعلهم يفتخرون بالله عليكم ليحاجوكم به، عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

قلت: ضمن الإيمان معنى الإذعان والإقرار؛ ولذلك عداه باللام، وجملة (قد كان) حال من فاعل الإيمان، و(إذا لقوا) عطف على (كان)، والتقدير: أفنظمعون في إيمانهم والحالة أن من سلف منهم كانوا يحرفون كلام الله، ومن حضر منهم الآن ينافقونكم في دين الله، فلا مطمع في إيمان من هذا وصفه.

يقول الحق جلا جلاله: ﴿أَفَنظَمُعُونَ﴾ يا معشر المسلمين أن يذعن لكم أهل الكتاب ويصدقوكم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾، وهم السبعون الذين ذهبوا مع موسى للاعتذار، ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ حين كلمهم وكلفهم بمشاق التوراة، فحرفوا وقالوا: قال افعلوا ما استطعتم، فإذا لم يحصل لهم الإيمان مع سماع الكلام بلا واسطة، فكيف يؤمن لكم هؤلاء، وهم إنما يسمعون بواسطة الرسالة؟ أو ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ في التوراة ثم يحرفونه، محو أو تأويلاً، كصفة سيدنا محمد ﷺ وآية الرجم وغير ذلك، ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ ما فهموه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه كلام الله، أو ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم محرفون ومغيرون لكلام الله.

وكيف تطمعون أيضا في إيمانهم وهم مناققون؟ ﴿إِذَا لَقُوا﴾ المؤمنين ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾، وصفة نبيكم مذكورة في كتابنا، ﴿وَإِذَا خَلَا بِعَضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ لامهم من لم ينافق، و﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من علم التوراة فتطلعونهم عليه ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ﴾ أى: يغلّبكم بالحجة ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، فيقولون: كنتم عالمين بنبوة نبينا فجحدتم وعاندتم، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حتى تطلعوهم على ما فتح الله به عليكم. أو يقول الحق تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يا معشر المسلمين فتطمعون في إيمانهم بعد هذه الخصال التي فيهم، قال الحق جل جلاله: ﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، بَلْ يَعْلَمُ﴾ ما يسرونه وما يعلنونه، فيجازيهم على ما أخفوا وما أعلنوا.

الإشارة : من سبقت له المشيئة بالخذلان، وحكم عليه القدر والقضاء بالحرمان، يرجع إلى الدليل والبرهان، بعد الاستشراف على الشهود والعيان، فيرجع إلى مشاهدة الآثار والرسوم، وينسى ما كان يعهده من دقائق العلوم، سبب ذلك كله: الإخلال بالأدب مع المشايخ والأصحاب، أو مفارقة الإخوان، وعدم مواصلة أهل العرفان، وضم إلى ذلك الإنكار على أولياء الله، وتحريف ما سمعه منهم من مواهب الله، فلا مطمع في رجوعه وإيابه، وقد بعد من الفتح وأسبابه، لا سيما إذا اتصف باللفاق، إذا لقي أهل النسبة أظهر الرفاق، وإذا خلا إلى العامة أظهر الشقاق، فمثّل هذا لا يرجى له فلاح، ولا يسعد بصلاح ونجاح. نعوذ بالله من ذلك.

ولما ذكر الحق تعالى رؤساء اليهود أتبعهم بذكر أتباعهم، فقال:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

قلت: أمانى: جمع أممية، وهى فى الأصل: ما يُقدِّره الإنسان فى نفسه من مَنى إذا قَدَّر، ولذلك تطلق على الكذب، وعلى ما يتمنى وما يقرأ (١)، قاله البيضاوى. والاستثناء منقطع، أى: لكن أكاذيب، ويقال: تمنى الرجل، إذا كذب واختلق الحديث، ومنه قول عثمان رضي الله عنه: (والله ما تمنيت ولا تمنيت منذ أسلمت).

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أى: من اليهود عوام ﴿أُمِّيُونَ﴾ لا يقرءون الكتاب ولا يفهمونه، لكن يسمعون من أحبارهم ﴿أَمَانِي﴾ كاذبة، وأشياء يظنونها من الكتاب، ولا علم لهم بصحتها، كتغيير صفته ﷺ.

(١) لأن القارئ يتصور ويقدّر أن كلمة كذا بعد كذا.

وغير ذلك، أو مواعيد فارغة، ومطامع خاوية، سمعوها منهم، من أن الجنة لا يدخلها إلا هم، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة، وغير ذلك من أمنيّتهم الفارغة وأمانيتهم الباطلة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن المنكرين على أهل الخصوصية ثلاث فرق: أهل الرئاسة المتكبرون، والفقهاء المتجمدون، والعوام المقلدون، يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمَيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا﴾؛ إذ لا علم عندهم يميزون به المحق من المبطل، وإنما هم مقلدون، فوزرهم على من حرمهم بركة الاعتقاد، وأدخلهم في شؤم الانتقاد، ولقد أحسن «ابن البناء» حيث قال في شأن أهل الإنكار:

وَعَلِمَ رَعَاكَ اللَّهُ مِنْ صَدِيقٍ	أَنْ الْوَرَى حَادُوا عَنِ التَّحْقِيقِ
إِذْ جَاهَلُوا النَفْسَ وَالْقُلُوبَ	وَطَلَبُوا مَا لَمْ يَكُنْ مَطْلُوبًا
وَأَشْتَغَلُوا بِعَسَائِمِ الْأَبْدَانِ	فَالْكَلُّ نِجَاءٌ مِنْهُمْ وَدَانٍ
وَأَنْكَرُوا مَا جَاهَلُوا وَزَعَمُوا	أَنْ لَيْسَ بَعْدَ الْجَسَمِ شَيْءٌ يَعْلَمُ
وَكَفَرُوا وَزَنَدَقُوا وَبَدَّعُوا	إِذَا دَعَاَهُمُ اللَّيْبُ الْأَوْزَعُ
كُلٌّ يَرَى أَنْ لَيْسَ فَوْقَ فَهْمِهِ	فَهُمْ وَلَا عِلْمٌ وَرَاءَ عِلْمِهِ
مُخْتَجِبًا عَنْ رُؤْيَةِ الْمَرَاتِبِ	عَلَّ يَسْمَى عَالِمًا وَطَالِبِ
هِيَ هَاتِ هَذَا كُلُّهُ تَقْصِيرُ	يَأْنِفُهُ الْحَادِقُ وَالنَّخْرُ

ثم توعّد أهل التحريف من الأخبار، فقال:

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (٧٩)

قلت: (ويل): كلمة يستعملها كل واقع في هلكة، وأصلها العذاب والهلكة، وهو في الأصل مصدر لا فعل له، وسوغ الابتداء به الدعاء، وقال أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «الويلُ وادٍ في جهنم» (لو سیرت فيه جبال الدنيا لانماعت) (١).

(١) انماعت: أي ذابت. قلت: والعبارة التي بين المعكوفتين ليست من الحديث المذكور، بل هي من كلام عطاء بن يسار، كما في تفسير الطبري والواحدى، أو من كلام أبي سعيد الخدري، كما في تفسير البغوي.

يقول الحق جلا جلاله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ تحريفاً لكتاب الله، ﴿وَيَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ خوفاً من أن تزول رئاستهم، وينقطع عنهم ما كانوا يأخذونه من سفلتهم، نزلت في أحبار اليهود لما قدم النبي ﷺ المدينة، خافوا أن تزول رئاستهم، فاحتالوا في تعويق اليهود عن الإسلام، وكانت صفة النبي ﷺ في التوراة: «حسن الوجه، حسن الشعر، أكحل العينين، ربعة»، فغيروها، وكتبوا: طوالاً، أزرق، سبط الشعر، ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾، يأخذون من سفلتهم، فهو وإن كان كثيراً في الحس فهو، بالنسبة إلى ما استوجبوه من العذاب الأليم، قليل.

الإشارة: ينزجر بهذه الآية صنفان: أحدهما: علماء الأحكام، إذا أفتوا بغير المشهور، رغبة فيما يقبضون على الفتوى من الحطام الفاني، وكذلك القضاة إذا حكموا بالهوى، رغبة فيما يقبضون من الرشاً، أو يحصلونه من الجاه، ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ الثاني: أهل الرئاسة والجاه من أولاد الصالحين وغيرهم، فإنهم إذا رأوا أحداً قام بولاية أو نسبة خافوا على زوال رئاستهم، فيحتالون على الناس بالتعويق عن الدخول في طريقته، فيكتبون في ذلك سفسطات وترهات، ينفرون الناس عن اتباع الحق، ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

ثم ذكر الحق تعالى بعض أمانيتهم الفارغة، فقال:

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْتَا مَتَّعُدُونَ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۚ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قلت: (بلى): حرف جواب كنعم، والفرق بينهما أن (بلى) لا يقع إلا في جواب النفي ويصير إثباتاً، تقول: ألم يأت زيد؟ فتقول بلى. أى: أتى، ومثله: ﴿قالوا لن تمسنا النار﴾ فقال تعالى: (بلى) أى تمسكم، بخلاف نعم؛ فإنها لتقرير ما قبلها نفياً أو إثباتاً، فإذا قيل: ألم يأت زيد؟ فقلت: نعم، أى لم يأت، وإذا قيل: هل أتى زيد فقلت: نعم، أى أتى. وقد نظم ذلك بعضهم فقال:

«نعم» لتقرير الذى قبلها إثباتاً أو نفياً، كذا قرروا

«بلى، جواب النفى لكنه يصير إثباتاً، كذا حرروا

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَقَالُوا﴾ أى: بنو إسرائيل فى أمانهم الباطلة: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أربعين يوماً مقدار عبادة العجل، ثم يخلفنا فيها المسلمون. قال الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ بذلك عهداً عند الله ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ - ﴿بَلَى﴾ تمسكم النار وتخلدون فيها؛ لأن ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أى: كفراً ومات عليه، ﴿وَأَخَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أى: أهدقت به، واستولت عليه، ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما نزل على محمد ﷺ ﴿وَعَمِلُوا﴾ بشريعته المطهرة الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذه عادته تعالى؛ إذا ذكر فريقاً شفع بضده ترغيباً وترهيباً وبالله التوفيق.

الإشارة: اعلم أن كثيراً من الناس يعتمدون على صحبة الأولياء، ويطلقون عنان أنفسهم فى المعاصى والشهوات، ويقولون: سمعنا من سيدى فلان يقول: من رآنا لا تمسه النار. وهذا غلط وغرور، وقد قال - عليه الصلاة والسلام - لابنته: «يا فاطمة بنت محمد، لا أغنى عنك من الله شيئاً، اشترى نفسك من الله». وقال للذى قال: ادع الله أن أكون رفيقك فى الجنة فقال له: «أعنى على نفسك بكثرة السجود». نعم، هذه المقالة: إن صدرت من ولى متمكن مع الله فهى حق، لكن بشرط العمل ممن رآه بالمأمورات وترك المحرمات، فإن المأمول من فضل الله، ببركة أوليائه، أن يتقبل الله منه أحسن ما عمل، ويتجاوز عن سيئاته، فإن الأولياء المتمكنين اتخذوا عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده؛ وهو أن من تعلق بهم وتمسك بالشرعية شفعوا فيه.

والغالب على من صحب أولياء الله المتمكنين - الحفظ وعدم الإصرار، فمن كان كذلك لا تمسه النار، وفى الحديث: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا لَمْ يَضُرَّهُ ذَنْبٌ»، يعنى: يلهم القوة سريعاً، كما قيل لأهل بدر: «أَفْعَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ». ولا يتخذ عند الله العهد إلا أهل الفناء والبقاء، لأنهم بالله فيما يقولون، فليس لهم عن أنفسهم إخبار، ولا مع غير الله قرار، وأما من لم يبلغ هذا المقام فلا عهد له؛ لأنه بنفسه، فمن تعلق بمثل هذا فهو على خطر، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿بلى من كسب سيئة﴾ ، من اقتلى حب الدنيا أحاطت به أشغالها وعلائقها، فهو في نار القطيعة مقيم، أحاط به سرائق الهموم والأكدار، تلدغه عقارب الشكوك والأغيار، بخلاف من أشرقت عليه أنوار الإيمان، وصحب أهل الشهود والعيان، فإنه في روح وريحان وجنة ورضوان، متعنا الله بذلك في الدارين. آمين.

ثم قرعهم على نقض العهد الذي أخذ عليهم، فقال:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٨٣﴾

قلت: (لا تعبدون): خبر في معنى النهي، كقوله تعالى: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ ، وهو أبلغ من صريح النهي، لما فيه من إيهام أن المنهى سارع إلى الانتهاء، وقيل: حذفت «أن»، وارتفع المضارع، وهو على حذف القول، أي: وقلنا لهم: لا تعبدون، وقرأ ابن كثير وحمة والكسائي بالغيب.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا إذ أخذنا الميثاق على بني إسرائيل وقلنا لهم: لا يتصور منكم شرك معي ولا ميل إلى غيري، فلا تعبدوا إلا إياي، وأحسنوا ﴿بالوالدين﴾ إحساناً كاملاً، وأحسنوا ﴿بذي القربى﴾ بنسباً وديناً، وأحسنوا باليتامى ﴿والمساكين﴾ ، بالمواساة والملاطفة، ﴿وقولوا للناس﴾ قولاً ﴿حسناً﴾ أو ذا حسن، وهو ما لا لغو فيه، ولا تأثيم بل ما فيه نصح وإرشاد، ﴿وأقيموا الصلاة﴾ بإتقان شروطها وكمال آدابها، وأدوا ﴿الزكاة﴾ لمستحقها، ﴿ثم﴾ بعد ذلك ﴿تولَّيْتُمْ﴾ ، وأعرضتم ﴿إلا قليلاً﴾ ممن أسلم ﴿منكم﴾ وأنتم معرضون ﴿عن الحق بعد ظهوره﴾ .

ذكر الحق تعالى في هذا العهد أربعة أعمال: عمل خاص بالقلب، وهو التوحيد، وعمل خاص بالبدن، وهو الصلاة، وعمل خاص بالمال، وهو الزكاة، وعمل عام وهو الإحسان، ورتبها باعتبار الأهم فالأهم، فقدّم الوالدين لتأكيد حقهما الأعظم، ثم القرابة لأن فيهم أجر الإحسان وصلة الرحم، ثم اليتامى لقلة حيلتهم، ثم المساكين لضعفهم، والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل عهد أخذ على بني إسرائيل يؤخذ مثله على الأمة المحمدية، وهذا حكمة ذكر قصصهم لنا، وسرد مساوئهم علينا؛ لنتحرز من الوقوع فيما وقعوا فيه، فنهلك (١) كما هلكوا، وكل عهد أخذ على العموم باعتبار

(١) في الأصول: فنهلكوا.

الظاهر يؤخذ مثله على الخصوص باعتبار الباطن، فقد أخذ الحق سبحانه العهد على المتوجهين إليه ألا تتوجه همتهم إلا إليه، ولا يعتمدون بقلوبهم إلا عليه، وأن يتخلقوا بالإحسان، مع الأقارب والأجانب وكافة الإخوان، وخصوصا الوالدين من قبل البشرية أو الروحانية، وهم أهل التربية النبوية، فحقوق أب الروحانية تُقدم على أب البشرية، لأن أب البشرية كان سبباً في خروجه إلى دار الفناء والهوان، وأب الروحانية كان سبباً في دخوله إلى رَوْح وريحان.

وأخذ العهد على المتوجهين أن يكلموا الناس بالملاطفة والإحسان، ويرشدوهم إلى الكريم المنان، ويقيموا الصلاة بالجوارح والقلوب، ويؤدوا زكاة نفوسهم بتطهيرها من العيوب، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون، وعن دائرة الولاية خارجون.

ثم ويُخهم على نقض عهد آخر، فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْدُوهُمْ وَهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قلت: (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ) «أَنْتُمْ»: مبتدأ، و«هَؤُلَاءِ»: خبر، و«تَقْتُلُونَ»: حال، كقولك: أنت ذلك الرجل الذي فعلت كذا وكذا، أو «هَؤُلَاءِ»: بدل، و«تَقْتُلُونَ»: خبر أو منادى، أى: يا هؤلاء، أو منصوب على الاختصاص، وَالْعُدْوَانِ: الإفراط في الظلم، و«أُسْرَى» حال، جمع أسير، ويجمع على أسرى، وقرئ به؛ أى: مأسورين، و«هُوَ» ضمير الشأن، و«مُحَرَّمٌ» خبر، و«إِخْرَاجُهُمْ» مبتدأ مؤخر، أو ضمير الإخراج فيكون مبتدأ، و«مُحَرَّمٌ» خبره، و«إِخْرَاجُهُمْ» بدل من الضمير، وهذه الجملة متصلة بقوله: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، وما قبلها اعتراض.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وقلنا لكم ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أى: لا يسفك بعضكم دم بعض، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أى: لا يخرج أحدكم أخاه من داره

ويجلبه عنها، وجعلهم الحق نفساً واحدة، وكذلك هو في الحقيقة، وفي ذلك يقول الشاعر:

عُنْصُرُ الْأَنْفَاسِ مِنَّا وَاحِدٌ وَكَذَا الْأَجْسَامُ جِسْمٌ عَمَّا

﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ ﴾ بهذا العهد والتزمتموه لأنفسكم ﴿ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ على أنفسكم بذلك، ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ ﴾ يا ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ اليهود ﴿ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى: يقتل بعضهم بعضاً، ﴿ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ إجلاءً عنها، تتغالبون ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ بالظلم والطغيان، ﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ ﴾ مأسورين تفدوهم بمالككم، وذلك الإخراج محرم عليكم.

وحاصل الآية: أن الله تعالى أخذ على بنى إسرائيل العهد فى التوراة ألا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وأيما عبدٍ أو أمةٍ وجدتموه من بنى إسرائيل أسيراً فاشتروه بما كان من ثمنه واعتقوه، فكانت قريضة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، وكانوا يقتتلون فى الحرب فيعين بنو قريضة حلفاءهم الأوس، فيقاتلون بنى النضير فى قتالهم مع الخزرج، فإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم منها، فإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه، فعيرتهم العرب، فقالوا: تقاتلونهم وتفدونهم؟ فيقولون: قد أمرنا أن نفديهم وحرّم علينا قتالهم، قالوا: فلم تقاتلونهم؟ فقالوا: إنا نستحي أن يذل حلفاؤنا، فوبخهم الله على ذلك، فقال:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ ﴾ وهو الفداء ﴿ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ ﴾ وهو القتل والإخراج؟ ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ ﴾ أى: ذل وهوان ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾، وهو السبى والقتل لبنى قريضة، والجلاء والإخراج من الوطن لبنى النضير، أو الذل والجزية للفريقين إلى يوم القيامة، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾. وليس ما أصابهم تكفيراً لذنوبهم، بل نقمة وغضباً عليهم، ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

الإشارة: الناس على قسمين: قوم ضعفاء تمسكوا بظاهر الشريعة ولم ينفذوا إلى باطنها، ولم يقدروا على قتل نفوسهم، ولا على الخروج من وطن عوائدهم، فيقول لهم الحق جل جلاله: لا تسفكون دماءكم فى محبتى؛ لأنكم لا تقدرون على ذلك، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم فى سياحة قلوبكم، فقد أقررتم بعجزكم وضعفكم، ويقول للأقوياء: ثم أنتم يا هؤلاء تقتلون أنفسكم فى طلب معرفتى، وتخرجون فريقاً منكم من ديار عوائدهم فى طلب مرضاتى، تتعاونون على نفوسكم بالقهر والغلبة، وكذلك ورد فى بعض الأخبار: (أول ما يقول الله للعبد: اطلب العافية والجنة والأعمال وغير ذلك، فإن قال: لا، ما أريد إلا أنت، قال له: من دخل فى هذا معى فإنما يدخل بإسقاط الحظوظ، ورفع الحدث، وإثبات القدم، وذلك يوجب العدم) وأنشدوا:

مَنْ لَمْ يَكُنْ قَانِيًا عَنْ حَظِّهِ وَعَنِ الْفِتْنِ وَالْأُنْسِ بِالْأَحْسَابِ
فَلَأَنَّهُ بَيْنَ الْمَنَازِلِ وَقَافٌ لِمَنَالٍ حَظٌّ أَوْ لِحُسْنِ مَأَبٍ (١)

ويقول أيضا للأقوياء الذين قتلوا أنفسهم وخرجوا عن عوائدهم: وإن يأتوكم أسارى فى أيدي نفوسهم وعوائدهم، أو فى طلب الدنيا وشهواتها، تفدوهم من أسرهم، وتفكدهم من قيودهم، وتدخلوهم فى حضرة مولاهم، وفى بعض الآثار: (طالب الدنيا أسير، وطالب الآخرة أجير، وطالب الحق أمير) هـ. والأمير هو الذى يفك الأسارى من أيدي العدو، لأجل ما ملكه الله من القوة والاستعداد، فإذا انفك العبد من هواه، دخل فى حضرة مولا، فمن رام إخراجه منها بعد دخوله يقال له: وهو محرم عليكم إخراجهم، فكيف تؤمنون بظاهر الشريعة وتنكرون علم الطريقة، وأنوار الحقيقة؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي فى الحياة الدنيا وهو الحرص والطمع، والخوف والجزع وطول الأمل، وعدم النهوض إلى العمل، (ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب)، وهو غم الحجاب وسوء الحساب، (وما الله بغافل عما يعملون).

ثم بين الحق تعالى وصفهم وذكر ما أعد لهم، فقال :

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٨٦)

يقول الحق جل جلاله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الناقضون للعهود المتعدون الحدود ﴿اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وزخارفها الغرارة ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ الباقية الدائمة، ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ ساعة فى الدنيا بالذل والهوان، وفى الآخرة بدخول النيران، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بالامتناع منه فى كل أوان.

الإشارة : أولئك الذين نظروا إلى غرة ظاهر الأكوان، ولم ينفذوا إلى عبرة باطنها، فلا ينقطع عنهم عذاب الوهم والحجاب، ولا هم ينصرون من أليم العذاب.

ثم وبَّخهم الحق تعالى على تكذيب الرسل وقتلهم إياهم، فقال :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧)

(١) نسبهما الطوسي فى اللمع لأبى على الرويارى.

قلت: (قفينا): أتبعنا، و (عيسى) عجمي معدول عن أيشوع في لغة السريانية، وهو غير منصرف للعلمية والعجمة، و (مريم): بمعنى الخادم، ووزنه: مَفْعَل لا فَعِيل، و (أيدناه) أى: قويناه ونصرناه، و (روح القدس) هنا جبريل عليه السلام: أى: الروح المقدسة - من إضافة الموصوف إلى الصفة -، سمي به لطهارته من كدر الحس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ التوراة، فما قمتم بحقها ولا عملتم بما فيها، واتبعنا بعده الرسل كلما مات رسول بعثنا بعده آخر اعتناء بكم، ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ المعجزات الواضحات كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالمغيبات، والإنجيل، ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ بجبريل عليه السلام كان يسير معه حيث سار، ورفعته إلى السماء حين أردتم يا معشر اليهود قتله، ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ﴾ من مشاق الطاعات وترك الحظوظ والشهوات، ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ وامتنعتم من الإيمان به ﴿فَفَرِّقُوا﴾ منهم كذبتموه كعيسى وسليمان ومحمد - عليهم السلام -، ﴿وَفَرِّقُوا﴾ تقتلونهم كزكريا ويحيى - عليهما السلام -؟ قال القشيري: أصغوا إلى الداعين بسمع الهوى، فصار معبودهم صفاتهم وهواهم. هـ.

الإشارة: كل ما قاله الحق جل جلاله لبنى إسرائيل في فحوى الخطاب يقوله لهذه الأمة في سر الخطاب، فلقد آتانا الكتاب، وبين فيه الرشد والصواب، وقفى بعد إنزاله بعلماء أنقياء، وأولياء أصفياء، يحكمون بحكمه، ويهدون بهديه، فإذا أمروا بالزهد فى الدنيا وترك الحظوظ والهوى رفضوهم وكذبوهم، وربما كفروهم وقتلوهم، واستكبروا عن الإذعان لهم والانقياد لقولهم، ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون.

وفى الحديث قال ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ، فَقَالُوا: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: نَعَمْ.. وَمَنْ إِذْنٌ؟» أى: ومن تتبعون إلا هم؟. فالدعاة إلى الله لا ينقطعون مادام الدين قائماً، فقوم يدعون إلى أحكام الله، وقوم يدعون إلى معرفة الله، فالأول: العلماء، والثانى: الأولياء، فإذا أمروا بالخروج عن العوائد والشهوات، رموهم بسهام العتاب والمخالفات، إذ لم يأت أحد بمثل ما جاءوا به إلا عودى، إلا من خصته سابق العناية، وهبت عليه ريح الهداية، فيتبع آثارهم، وقليل ما هم.

ثم ذكر الحق تعالى مقاتلهم الشنيعة، فقال:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾

قلت: (غلف): جمع أغلف، كأحمر وحمر، وأصفر وصفّر، وهو الذى عليه غشاوة، أى: هى فى غلاف؛ فلا تفقه ما تقول، بمنزلة الأغلف، وهو غير المختون، وقيل: أصله (غلف) بضم اللام، وبه قرأ ابن محيصن.

فيكون جمع غلاف، كحجاب وحجب، وكتاب وكتب، ومعناه: قلوبنا أوعية لكل علم فلا نحتاج إلى علمك وكتابك. و(قليلًا) صفة لمحذوف؛ أي: فإيماننا قليلًا، أو عددًا قليلًا يؤمنون، أو ظرف؛ لأنه من صفة الأحيان، والعامل فيه ما يليه، و(ما) لتأكيد القلة، أي: في قليل من الأحيان يؤمنون، أو حال من الواو في (يؤمنون) أي: فيؤمنون في حال قلتهم.

يقول الحق جل جلاله: قالت اليهود استهزاء بما تدعوهم إليه: ﴿قُلُوبُنَا﴾ مغلفة ومغشاة فلا نفقه ما تقول، أو أوعية للعلوم فلا نحتاج إلى علمك، قال الله تعالى: ﴿بَلْ لَا غِطَاءَ عَلَى قُلُوبِهِمْ حَسَاءٌ بَلْ هِيَ عَلَى الْفِطْرَةِ لَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وطردهم وخذلهم بسبب ﴿كُفْرِهِمْ﴾ فأبطل استعدادها للعلم، ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: فإيماننا قليلًا يؤمنون كإيمانهم ببعض الكتاب، أو فلا يؤمن إلا قليل منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه، والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا أمر الدعاة إلى الله أهل الدنيا بذبح النفوس وخط الرءوس ودفع الفلوس، ليتأهلوا به لدخول حضرة القدوس، أو أمروهم بخرق العوائد، لتخرق لهم العوائد^(١)، أنفوا وعنفوا وقالوا: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، فيقال لهم: بل سبق لكم من الله البعد والحرمان، فأنكرتم أسباب الشهود والعيان، لكن من سبقت له من الله العناية، وهب عليه نسيم الهداية، فلا تضره الجناية، فقد يلتحق بالخصوص، وإن كان من أعظم اللصوص، وهو قليل بالنسبة إلى من جاهد نفسه في طلب السبيل، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾.

ثم ويخهم ولعنهم على عدم الإيمان بالقرآن مع إقرارهم به قبل الإتيان، فقال:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ

كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

قلت: (لما) حرف وجود لوجود إذا وليها الماضي، ولها شرط وجواب، وهو هنا محذوف دل عليه جواب (لما) الثانية، أي: ولما جاءهم كتاب من عند الله كفروا به، أو (لما) الثانية تأكيد للأولى. والجواب: (كفروا به)، أو فلما وجوابها جواب الأولى، كقوله ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ...﴾ الآية، و(يستفتحون) ينتصرون، وفي الحديث: «أن النبي ﷺ كان يستفتح بصعاليك المهاجرين»، الذين لا مال لهم.

(١) خرق العوائد الأولى هي خرق الحجب، من غفلة وظلمة قلب، وغير ذلك، وقد يعنى بها الكرامات، وخرق العوائد الثانية هي خرق ما تعودته النفس وألفته حتى صعب خروجها عنه، ككثرة الأكل والشرب، وحب الجاه والرئاسة والمدح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أى: اليهود، القرآن مصداقاً ﴿لَمَّا مَعَهُمْ﴾ من التوراة، أى: موافقاً له وشاهداً له بالصحة، وقد كانوا قبل ظهوره يستنصرون على أعدائهم بالنبي الذى جاء به، فيقولون: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث فى آخر الزمان، الذى نجد نعته فى التوراة، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: (قد أظلم زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم)، فلما ظهر وعرفوه كَفَرُوا بِهِ ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ﴾ عليهم، فوضع الظاهر موضع المضمرة؛ للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم، فاللام فى ﴿الْكَافِرِينَ﴾ للعهد، وهم كفار اليهود، أو للجنس، فتكون اللعنة عامة لكل كافر، ويدخلون فيها دخولا أوليا، والله تعالى أعلم.

الإشارة: ترى كثيراً من الناس إذا ذكر لهم الأولياء المتقدمون أقروهم وصدقوهم، وإذا ذكر لهم أولياء أهل زمانهم أنكروهم وجحدوهم، مع كونهم يستنصرون بأهل زمانهم فى الجملة. فهذه نزعة يهودية، آمنوا ببعض وكفروا ببعض.

والناس فى إثبات الخصوصية ونفيها على ثلاثة أقسام: قسم أثبتوها للمتقدمين، ونفوها عن المتأخرين، وهم أقبح العوام، وقسم أقروها قديماً وحديثاً، وقالوا: إنهم أخفيا فى زمانهم، فحرمهم الله بركتهم، وقوم أقروا الخصوصية فى أهل زمانهم، وعرفوهم وظفروا بهم وعظموهم، وهم السعداء الذين أراد الله أن يوصلهم إليه ويقربهم إلى حضرته. وفى الحكم: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه». وبالله التوفيق.

ثم أشار الحق تعالى إلى تسفيه رأى اليهود حيث استبدلوا الإيمان بالكفر، والريح بالخسران، فقال:

﴿يَسْمَا أَشْرَوَاءَ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءٌ وَبِعَصَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾

قلت: بئس ونعم: فعلان جامدان مختصان بالدخول على ما يدل على العموم، إما نكرة، فتتصب على التمييز المفسر للضمير الفاعل، أو معرف بأل الجنسية، فيرتفع على الفاعلية، تقول: بئس رجلاً زيد، وبئس الرجل زيد، ويذكر بعد ذلك المخصوص: إما خبر عن مبتدأ مضمرة، أو مبتدأ والخبر مقدم. وإنما اختصت بالدخول على ما يدل على العموم؛ لأن (نعم) مستوفية لجميع المدح، و (بئس) مستوفية لجميع الذم. فإذا قلت: نعم الرجل زيد، فكأنك قلت: استحق زيد المدح الذى يكون فى سائر جنسه، وكذلك تقول فى بئس.

و (ما) المتصلة ببئس ونعم: نكرة منصوبة على التمييز، أى: بئس شيئاً اشتروا به أنفسهم، وهو كفرهم، أو معرفة تامة مرفوعة على الفاعل، أى: بئس الشيء شيء اشتروا به أنفسهم. و (اشتروا) هنا بمعنى باعوا، كَشَرُوا على خلاف الأصل، وقد يمكن أن يبقى على أصله، على ما يأتى فى بيان المعنى.

و (بغياً) مفعول من أجله ليكفروا، و (يكفرون) حال من الفاعل فى (قالوا)، و (وراء) فى الأصل: مصدر جعل ظرفاً، ويضاف إلى الفاعل ويراد به ما يتوارى به وهو خلقه، وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو قدامه، ولذلك عد من الأضداد، قاله البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله فى شأن اليهود: بئس شيئاً باعوا به حظ أنفسهم، وهو كفرهم بما أنزل الله، أو ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ بحسب ظلمهم، فإنهم ظلموا أنهم خلصوا أنفسهم من العذاب بما فعلوا، وهو كفرهم بما أنزل الله على محمد ﷺ بغياً وحسداً أن يكون النبى من غيرهم، فانقلبوا ﴿بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ للكفر والحسد لمن هو أفضل الخلق، أو لكفرهم بمحمد - عليه الصلاة والسلام - بعد عيسى عليه السلام، أو لتضييعهم التوراة، وكفرهم بمحمد ﷺ، ﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى: يذلهم ويخزيهم فى الدنيا والآخرة، بخلاف عذاب العاصى فإنه كفارة لذنوبه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُوَلَاءَ الْيَهُودُ: ﴿آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ﴾ قَالُوا نُرْمِي بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ من التوراة، وهم ﴿يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أى: بما سواه، وهو القرآن، حال كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة ومهيماً عليه. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾ هذا الزمان، وهو محرم عليكم فى التوراة، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ به ؟ فهذا يبطل دعوكم الإيمان بالتوراة؛ إذ الإيمان بالكتاب يقتضى العمل به، وإلا كان دعوى، وإن فعله أسلافكم فأنتم راضون به وعازمون عليه.

الإشارة: اعلم أن قاعدة تفسير أهل الإشارة هى أن كل عتاب توجه لمن ترك طريق الإيمان، وأنكر على أهله يتوجه مثله لمن ترك طريق مقام الإحسان، وأنكر على أهله. وكل وعيد توعده به أهل الكفران يتوعد به من ترك السلوك لمقام الإحسان، غير أن عذاب أهل الكفر حسى بدنى، وعذاب أهل الحجاب معنوى قلبى.

فنقول فيمن رضى بعيبه وأقام على مرض قلبه وأنكر الأطباء ووجود أهل التربية: بئسما اشتروا به أنفسهم، وهو كفرهم بما أنزل الله من الخصوصية على قلوب أوليائه بغياً وحسداً، أو جهلاً وسوء ظن، أن ينزل الله من فضله على

من يشاء من عباده، فباءوا بغضب الحجاب على غضب البعد والارتياح، أو بغضب سقم القلوب على غضب الإصرار على المساوي والعيوب. (من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر) كما قال الشاذلي رحمته الله، ولا يصح التغلغل فيه إلا بصحبة أهله. وللكافرين بالخصوصية عذاب الطمع وسجن الأكوان، وهما شجرة الذل والهوان.

وإذا قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله من أسرار الحقيقة وأنوار الطريقة، قالوا: نؤمن بما أنزل علينا من ظواهر الشريعة، ويكفرون بما وراءه من أسرار الحقيقة، ككشف أسرار الذات وأنوار الصفات، وهو - أي: علم الحقيقة - الحق؛ لأنه خالص لب الشريعة، والله در صاحب المباحث الأصلية حيث قال:

هل ظاهر الشرع وعلم الباطن إلا كجسم فيه روح ساكن؟

وقال أيضا :

ما مثل المعقول والمنقول	إلا كدر زاهر مجهر
حتى إذا أخرجه الغواص	لم يك للدر إذن خلاص
وانما خلاصه في الكشف	عن الغطاء حيث لا يستخفي
فالسدف الظاهر ثم الدر	معقوله والجهل ذاك البحر

وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول: (هل ثم شيء غير ما فهمناه من الكتاب والسنة؟)، كان يقول ذلك إذا قيل له: إن الشيخ الشاذلي فاض اليوم بعلوم وأسرار، فلما التقى بالشيخ وأخذ بيده، قال: (أي والله .. ما قعد على قواعد الشريعة التي لا تنهدم إلا الصوفية). ويقال لمن ادعى التمسك بالشريعة وأنكر ما وراءها: فلم تشتغل بجمع الدنيا واحتكارها وتخاف من الفقر، وتهتم بأمر الرزق وتجزع من المصائب، والشريعة تنادى عليك بدم ذلك كله إن كنت مؤمناً؟! وبالله التوفيق.

ثم نعى عليهم عبادة العجل بعد ما رأوا من الآيات البينات، إبطالا لدعواهم الإيمان بالتوراة، فقال:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾

قلت: جملة: «وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ» حال من (اتخذتم).

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ﴾ بالمعجزات الواضحات: كالعصا واليد وفلق البحر، ثم لم ينجح ذلك فيكم، فاتخذتم العجل إلها تعبدونه من بعد ذهابه إلى الطور ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ في ذلك، فأين دعوكم الإيمان بالتوراة؟

الإشارة: ويقال لمن أقام على عيبه، ورضى بمرض قلبه، حتى لقي الله بقلب سقيم: لقد جاءتكم أوليائي بالآيات الواضحات، ولو لم يكن إلا شفاء المرضى على أيديهم - أعلى مرضى القلوب - لكان كافياً، ثم اتخذتم الهوى إلهكم، وعبدتم العاجلة بقلوبكم، وعزّت عليكم نفوسكم وقلوسكم، وأنتم ظالمون في الإقامة على مساوئكم وعيوبكم، مع وجود الطبيب لمن طلب الشفاء، وحسن الظن وشهد الصفاء. (كن طالباً تجد مرشداً) وبالله التوفيق.

ثم عدد الحق تعالى عليهم مساوئ تقدمت لأسلافهم تبطل دعوى إيمانهم، فقال:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْمَايَا مُرْكُم بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٣﴾

قلت: (إن كنتم): شرط حذف جوابه، أي: إن كنتم مؤمنين فبئس ما يأمركم به إيمانكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأَذْكُرُوا أَيْضاً﴾ إذ أخذنا ميثاقكم ﴿أَنْ تَعْمَلُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَبَيْتُمْ﴾ ورفعنا فوقكم ﴿جبل﴾ الطور ﴿وقلنا﴾: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ واجتهدوا ﴿واسمعوا﴾ ما أقول لكم فيه ﴿قالوا﴾ بلسان حالهم: ﴿سمعنا﴾ قولك ﴿وعصينا﴾ أمرك، حيث لم يمثلوا، أو بلسان المقال لسوء أدبهم، ﴿وأشربوا في قلوبهم﴾ حب ﴿العجل﴾ حتى صبغ فيها ورسخ رسوخ الصبغ في الثوب، لأنهم كانوا مجسمّة، ولم يروا منظرأ أعجب من العجل الذي صنعه السامري، (قل) لهم يا محمد: ﴿بئسما يأمركم به إيمانكم﴾ بالتوراة الذي ادعينموه، ﴿إن كنتم مؤمنين﴾، لكن الإيمان لا يأمر بهذا فلستم مؤمنين.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله لمن ادعى كمال الإيمان، وهو منكر على أهل الإحسان، مع إقامته على عوائد نفسه، وكونه محجوباً بشهود حسه: وإذ أخذنا ميثاقكم، بأن تجاهدوا نفوسكم، وتخرقوا عوائدكم لتدخلوا حضرة

ريكم، ورفعنا فوق رؤوسكم سيوف التخويف، أو جبال التشويق، وأوضحنا لكم سواء الطريق، وقلنا لكم: خذوا ما آتيناكم من خرق العوائد، واكتساب الفوائد، بجد واجتهاد، فأبيتكم وعزّت عليكم نفوسكم، وقلتم بلسان حالكم: سمعنا وعصينا، وأشربت قلوبكم حب العاجلة، وآثرتم الدنيا على الآخرة، بلسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين.

ومن جملة ما ادعاه اليهود اختصاصهم بالجنة، فردّ الله عليهم بقوله:

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٩٤ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ٩٥

قلت: (خالصة) خبر كان، و (عند) متعلق بكان على الأصح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ يا محمد لبنى إسرائيل الذين ادعوا أن الجنة خاصة بهم: ﴿ إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله ﴾ أى: فى غيبه، ﴿ خالصة ﴾ لكم ﴿ من دون ﴾ سائر ﴿ الناس ﴾، أو من دون المسلمين، ﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ فى اختصاصكم بها، فإن العبد إذا تحقق أنه صائر إليها اشتاق إلى الموت الذى يوصل إليها، كما قال عمار رضي الله عنه عند موته:

الآن ألقى الأحبّة مُحمّداً وحزبه

وقال حذيفة رضي الله عنه حين احتضر: (جاء حبيب على فاقة، لا أفلح من ندم). أى: على التمنى، أو على الدنيا.

قال تعالى: ﴿ ولن يتمنوه أبدا ﴾ بسبب ﴿ ما قدمت أيديهم ﴾ من الكفر والعصيان، فما تمناه أحد منهم قط، قال ابن عباس: (لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم فى النار). وقال فى الإحياء: (دعا - عليه الصلاة والسلام - اليهود إلى تمنى الموت، وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه، فحيل بينهم وبين النطق بذلك). وذكر غيره: أن بعضهم تمناه، فما جاءت العشاء حتى أخذته الذبحة فى حلقه فمات^(١). ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾، فيه تهديد لهم وتلبيه على أنهم ظالمون فى دعوى ما ليس لهم، ونفيه عنهم هو لهم.

(١) لم أقف على ما يفيد ذلك: ولو وقع لنقل واشتهر لتوافر الدواعى إلى نقله؛ لأنه أمر عظيم. بل على العكس؛ فالأخبار الواردة فى أنهم ما تمنوا بلغت مبلغ التواتر، كما يقول الفخر الرازى.

الإشارة: في هذه الآية ميزان صحيح توزن به الأعمال والأحوال ويتميز به المدعون من الأبطال، فكل عمل يهدمه الموت فهو مدخول، وكل حال يهزمه الموت فهو معلول، وكل من فرّ من الموت فهو في دعواه المحبة كذاب، فمن ادعى الخصوصية على الناس يختبر بهذه الآية.

والناس في حب البقاء في الدنيا على أربعة أقسام:

رجل أحب البقاء في الدنيا لاغتنام لذاته ونيل شهواته، قد طرح أخراه، وأكبّ على دنياه، واتخذ إلهه هواه، فأصمه ذلك وأعماه، إن ذكر له الموت فرّ عنه وشرّد، وإن وعظ أنف وعندّ، عمره ينقص، وحرصه يزيد، وجسمه يبلى، وأمله جديد، وحتفه قريب، ومطلبه بعيد، فهذا إن لم تكن له عناية أزلية، وسابقة أولية فيمسك عليه الإيمان، ويختتم له بالإسلام، والا فقد هلك.

ورجل قد أزيل عن عينه قذاها، وأبصر نفسه وهواها، وزجرها ونهاها، قد شمر ليتلافى ما فات، ونظر فيما هو آت، وتأهب لحلول الممات، والانتقال إلى محلة الأموات، ومع هذا فإنه يكره الموت أن يشاهد وقائعه، أو يرى طلائعه، وليس يكره الموت لذاته، ولا لأنه هادم لذاته، لكنه يخاف أن يقطعه عن الاستعداد ليوم المعاد، ويكره أن تطوى صحيفة عمله قبل بلوغ أمله، وأن يبادر بأجله قبل صلاح خاله، فهو يريد البقاء في هذه الدار لقضاء هذه الأوطار، فهذا ما أفضل حياته: وأطيب مماته! لا يدخل تحت قوله ﷺ: «مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

ورجل آخر قد عرف الله تعالى بأسمائه الحسنی، وصفاته العليا، وشهد ما شهد من كمال الربوبية، وجمال حضرة الألوهية، فملأت عينه وقلبه، وأطاشت عقله ولبه، فهو يحن إلى ذلك المشهد، ويستعجل إنجاز ذلك الموعد، قد علم أن الحياة الدنيوية حجاب بينه وبين محبوبه، وستر مسدل بينه وبين مطلوبه، فهذا من المحبين العشاق، قد حن إلى الوصال والتلاق، أحب لقاء الله فأحب لقاءه، فما أحسن حياته ولقاءه!

ورجل آخر قد شهد ما شاهد ذلك، وربما زاد على ما هنالك، لكنه فوض الأمر إلى خالقه، وسلم الأمر لبارئه، فلم يرض إلا ما رضى له، ولم يرد إلا ما أريد به، وما اختار إلا ما حكم به فيه، إن أبقاه في هذه الدار أبقاه، وإن أخذه فهو بغيته ومناه، فهذا من العارفين المقربين. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه. آمين.

ثم ذكر الحق تعالى ما يبطل دعواهم أن الجنة خالصة لهم؛ وهو حرصهم على البقاء في هذه الدار، فقال:

﴿ وَلِلَّجِدَّةِ هُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

قلت: (ومن الذين أشركوا): على حذف مضاف، أى: وأحرص من الذين أشركوا، فيوقف عليه، و (لو يعمر) مصدرية، أى: يود أحدهم تعمير ألف سنة. و (أن يعمر) فاعل لمزحزحه، أى: وما هو بمزحزحه من العذاب تعميره.

يقول الحق جل جلاله: ولتجدن يا محمد اليهود «أحرص الناس» على البقاء في هذه الدار الدنية، فكيف يزعمون أنهم أولى الناس بالجنة، ولتجدنهم أيضا أحرص من المشركين على البقاء، مع كونهم لا يقرون بالجزاء، فدل ذلك على أنهم صائرون إلى النار، فلذلك كرهوا اللقاء وحرصوا على البقاء، يتمنى أحدهم لو يعيش «ألف سنة» وليس ذلك «بمزحزحه» أى: مبعده من العذاب^(١)، بل زيادة له في العقاب «والله بصير بما يعملون»: تهديد وتخويف.

الإشارة: يفهم من سر الخطاب أن كل من قصر أمله، وحسن عمله، وطيب نفسه للقاء الحبيب، واشتغل في هذه اللحظة القصيرة بما يقربه من القريب، كان قربه من الله بقدر محبته للقاءه، وكل من طول أمله، وحرص على البقاء في هذه الدار الفانية، كان بعده من الله بقدر محبته للبقاء، إلا من أحب البقاء لزيادة الأعمال، أو الترقى في المقامات والأحوال، فلا بأس به، ويفهم منه أيضا أن من اشتد حرصه على الحياة الفانية كانت فيه نزعة يهودية.

واعلم أن الناس، في طول الأمل وقصره، على قسمين: منهم من طول في أمله فازداد في كسله، ودخله الوهن في عمله، وآخر قد قصر أمله وجعل التقوى بضاعته، والعبادة صناعته، ولم يتجاوز بأمله ساعته، ومثل هذا قد رفع التوفيق عليه لواءه، وألبسه رداءه، وأعطاه جماله وبهاءه، فانظر رحمك الله أى الرجلين تريد أن تكون، وأى العاملين تريد أن تعمل، وبأى الرداءين تريد أن تشتمل؟ فليست تلبس هناك إلا ما تلبس هنا. وبالله التوفيق.

ومن أشنع كفر بنى إسرائيل وأقبح مساوئهم، بغضهم لجبريل عليه السلام وإلى ذلك أشار الحق تعالى بقوله:

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(١) لأن الإمهال بحسب الزمان وإن حصل، لكنهم لاقترافهم المعاصي بالتعمير زاد عليهم من حيث شدة العذاب.

قلت: (من) شرطية وجوابها محذوف، أى: فليمت غيظاً، أو (فإنه نزله) على معنى: من عادى منهم جبريل فقد خلع ريقه الإنصاف، أو كفر بما معه من الكتاب؛ لأنه نزل بكتاب مصدقاً لما قبله من الكتب، وجبريل فيه ثمانى لغات، أربع قرئ بهن. وهى: جَبْرَائِيل كسلسبيل، وجَبْرَائِل كجحمرش، وجَبْرِيل - بفتح الجيم - بلا همز، وجَبْرِيل بكسرهما، وأربع شواذ: جِبْرَالُ، وجَبْرَائِيل، وجَبْرَائِل، وجَبْرِين بالنون، ومعناه: عبدالله. وفى ميكائيل أربع لغات: ميكائيل ممدود، وميكائيل مقصور، وميكلل مهموز مقصور، وميكال على وزن ميعاد.

يقول الحق جل جلاله فى الرد على اليهود، كابن صوريا وغيره، حيث قالوا للنبي ﷺ: من الذى يأتيك بالوحي؟ فقال: جبريل، فقالوا: ذلك عدونا من الملائكة؛ لأنه ينزل بالشدة والعذاب، ولو كان ميكائيل لاتبعتك؛ لأنه ينزل بالخصب والسلم، فقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ فليمت غيظاً، فإنه هو الذى نزل القرآن ﴿عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب، وهداية ﴿وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإن كان ينزل بالشدة والعذاب على الكافرين، فإنه ينزل بالهداية والبشارة على المؤمنين.

ومن كان عدواً لجبريل فإنه عدو لله، إذ هو رسوله للأنبياء، وصفيه من الملائكة، وعدو أيضاً لميكائيل فإنه وزيره، وللرسل أيضاً فإنه سفيرهم، و ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ فإن الله عدو له. وعطف جبريل وميكائيل من عطف الخاص على العام لزيادة شرفهما. ووضع الظاهر موضع الضمير فى قوله: ﴿عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل: لهم، تسجيلاً عليهم بالكفر، وبيان أن الله إنما عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة والرسل كفر، عصمنا الله من موارد الردى. آمين.

الإشارة: إذا كانت معاداة الملائكة والرسل هى معاداة الله، فكذلك معاداة أوليائه هى معاداة الله أيضاً، ولذلك قال تعالى: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ». فالبعض هو الكل، ويؤخذ بالمفهوم أن محبة الملائكة والرسل هى محبة الله. وكذلك محبة أولياء الله هى محبة الله، وكذلك أيضاً محبة عباد الله هى محبة الله، ومعاداتهم معاداة الله. «الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ، وَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ». وكل من ادعى أنه يحب الله وفى قلبه عداوة لمسلم فهو كاذب، وكل من ادعى أنه يعرف الله وفى قلبه إنكار على مخلوق فهو فى دعواه أيضاً كاذب، فالواجب على العبد أن يحب جميع العباد، من كان طائعاً فظاهر. ومن كان عاصياً أحب له التوبة والإنابة، ومن كان كافراً أحب له الإسلام والهداية، ولا يكره من العبد إلا فعله، والله در القائل:

أَرْحَمَ بَنَى جَمِيعَ الْخَلْقِ كُلَّهُمْ وَانْظُرْ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الْحِلْمِ وَالشَّفَقَةِ
وَقَرُّ كَبِيرَهُمْ وَأَرْحَمَ صَغِيرَهُمْ وَرَاعَ فِي كُلِّ خَلْقٍ حَقَّ مَنْ خَلَقَهُ^(١)

وبالله التوفيق.

ولما قال ابن صوريا للنبي ﷺ: يا محمد ما جئت بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبئك لها؛ فنزل قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿آيَاتٍ﴾ واضحات، مشتملة على علوم غيبية، وأخبار نبوية، وشرائع محكمة، وأنوار قدسية، وأسرار جبروتية، وما يجحدها ويكفر بها إلا المتمرد في الكفر والطغيان، الخارج عن الطاعة والإيمان، فالفسق، إذا استعمل في نوع من المعاصي، دل على أعظمه وأقبحه، وهو هنا الكفر، والعياذ بالله.

الإشارة: اعلم أن العبد إذا سبقت له من الله العناية، ألقى الله في قلبه التصديق والهداية، من غير أن يحتاج إلى علامة ولا آية، بل يكشف له الحق تعالى عن سر الخصوصية وأنوارها، فيشهد سره لصاحبها بالتقويم، وتخضع له روحه بالتعظيم، فتبدو له أنوار الإيمان وتشرق عليه شمس العرفان، من غير توقف على دليل ولا برهان، بخلاف من سبق له الحرمان، فلا ينجح فيه دليل ولا برهان، والعياذ بالله من الخذلان.

ولما ذكر النبي ﷺ اليهود في شأن العهد الذي أخذه الله عليهم فيه، قال مالك بن الصيف: والله ما عهد إلينا في محمد عهد ولا ميثاق، نزل:

﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَاهِدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

قلت: الهمزة للإنكار، والواو للعطف على محذوف تقديره: أكفروا بالآيات وكلماء عاهدوا عهداً، و ﴿كَلِمَاتٍ﴾ منصوب على الظرفية، وهي متضمنة معنى الشرط فتفتقر للجواب، وهو العامل فيها. والنبد: الطرح، لكنه يغلب فيما ينسى، قاله البيضاوي.

(١) نسبهما الشيخ المفسر في إيقاظ الهمم إلى الحسن الحراني.

يقول الحق جل جلاله في شأن اليهود والإنكار عليهم: ﴿أَوْ كَلِمًا﴾ أعطوا عهداً وعقدوه على أنفسهم طرحه ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ ؟ فقد أعطوا العهد أنهم إن أدركوا محمداً ﷺ ليؤمنن به ولننصرنه، فلما أدركوه نبذوا ذلك العهد ونسوه. وكذلك أعطوا العهد للنبي ﷺ ألا يعاونوا المشركين عليه، فنبذه بنو قريظة والنضير، ولم ينقضه جميعهم بل فريق منهم، وهم الأكثر، ولذلك قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فالأكثر هم الناقضون للعهد، المجاوزون للحدود. والله تعالى أعلم.

الإشارة: نقض العهد مع الله أو مع عباده من علامة النفاق، ومن شيم أهل البعاد والشقاق، والوفاء بالعهد من علامة الإيمان، ومن شيم أهل المحبة والعرفان. قال تعالى في صفة المفلحين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾، ولا سيما عهود الشيوخ؛ أهل التمكين والرسوخ. فمن أخذ عقد الصحبة مع الشيخ الذي هو أهل للتربية؛ فليحذر من حلّ العقدة بينه وبينه، فإن ذلك يقطع الإمداد، ويوجب الطرد والبعاد، والالتفات إلى غيره تسويس لبذرة الإرادة، وموجب لقطع الزيادة والإفادة، ثم إن الانجماع على الشيخ، وقطع النظر والالتفات إلى غيره هو سبب للكون - كذلك - مع الله، فبقدر الانقطاع إلى الشيخ يحصل الانقطاع إلى الله، وبقدر ترك الاختيار وسلب الإرادة مع الشيخ يحصل كذلك مع الله، وبقدر الوفاء بعهود شيوخ التربية يحصل الوفاء بعهود حقوق الربوبية. فمن كانت غيبته في الشيخ أقوى، وانحياشه إليه أكثر، وجمعه عليه أدوم، كان كذلك مع ربه، وكذلك التعظيم والأدب، والله يعامل العبد على حسب ذلك.

قال الشيخ زروق رحمه الله: (ولا تنتقل عنه، ولو رأيت من هو أعلى منه، فتحرم بركة الأول والثاني)، ولذلك كان المشايخ يمنعون أصحابهم من صحبة غيرهم، بل من زيارتهم، وأنشدوا:

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الْبَدْرِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحْلِ

وحاصل أمر الزيارة لغير شيخه أن فيه تفصيلاً: فمن كمل صدقه، وتوفر عقله، بحيث إذا زار لا يستنقص شيخه، ولا الذي زاره، جازله أن يزور من شاء، ومن لم يكمل صدقه وعقله، بحيث إذا زار: إما يستنقص شيخه، أو الشيخ الذي زاره، فليكف عن زيارة غير شيخه. وقال محيي الدين بن العربي: يجب على المريد أن يعتقد في شيخه أنه عالم بالله، ناصح لخلق الله، ولا ينبغي له أن يعتقد في شيخه العصمة. وقد قيل للجنيدي: أيزني العارف؟ فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾. وصحب تلميذ شيخاً، فرآه يوماً قد زنا بامرأة، فلم يتغير من خدمته، ولا أخل في شيء من مرسومات شيخه، ولا ظهر منه نقص في احترامه. وقد عرف الشيخ أنه رآه، فقال له يوماً:

يا بنى قد عرفت أنك رأيتنى حين فسقتُ بتلك المرأة، وكنت أنتظر فراقك عني من أجل ذلك، فقال له التلميذ: ياسيدى الإنسان معرض لمجارى أقدار الله عليه، وإننى من الوقت الذى دخلت فيه إلى خدمتك ما خدمتك على أنك معصوم، وإنما خدمتك على أنك عارف بطريق الله تعالى، عارف بكيفية السلوك عليه الذى هو طلبى، وكونك تعصى أو لا تعصى شىء بينك وبين الله عز وجل، لا يرجع من ذلك شىء على، فما وقع منك يا سيدى شىء لا يوجب نفارى وزوالى عنك، وهذا هو عقدى، فقال له الشيخ: وفقت وسعدت هكذا وإلا فلا... فريح ذلك التلميذ، وجاء منه ما تقرُّ به العين من حسن الحال وعلو المقام (١) . هـ .

ولما وسمهم الحق تعالى بنقض العهود، ذكر جزئية من ذلك، فقال:

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠١)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يعنى اليهود ﴿ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ محمد ﷺ ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ من التوراة بموافقة له فى بعض الأخبار ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾، وهم من كفر من أحرار يهود، ﴿ كِتَابَ اللَّهِ ﴾: التوراة، ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾، حيث لم يعملوا بما فيه من الأمر بالإيمان بالنبي ﷺ، وغيروا صفته التى فيه، وكتموها، فكأنهم طرحوه وراء ظهورهم، وكأنهم لا علم لهم بشىء من ذلك.

قال البيضاوى: اعلم أن الحق تعالى دل بالآيتين على أن حال اليهود أربع فرق: فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمنى أهل الكتاب، وهم الأقلون المدلول عليهم بقوله: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، وفرقة جاهرُوا بنبذ عهودها، وتخطى حدودها، تمردا وفسوقا، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿ نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴾، وفرقة لم يجاهرُوا بنبذها، ولكن نبذوا لجهلهم بها، وهم الأكثرون، وفرقة تمسكوا بها ظاهرا، ونبذوها خفية، عالمين بالحال بغيا وعنادا، وهم المتجاهلون. هـ . قلت: ولعلم المنافقون منهم .

ولما نبذوا كتاب الله اشتغلوا بكتب السحر مكانه، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ
كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ

(١) مغزى القصة: التنبيه على أن المرید ينبغي له ألا يعتقد العصمة فى الشيخ؛ فإن الشيخ وإن كان على أكمل الحالات فليس بمعصوم.

مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلِيُنْشَأَ مَا شَكَرُوا بِهِ ۚ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَقَوْا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

قلت: ﴿ عَلَى مَلِكٍ سُلَيْمَانَ ﴾ على حذف مضاف، أى: على عهد ملك سليمان، أو «عَلَى» بمعنى «فِي»، وقوله: «وَمَا أَنْزَلَ» عطفٌ على السحر، عطفٌ تفسيري، والفتنة في الأصل: الاختبار، تقول: فتنك الذهب والفضة إذا أدخلتهما النار لتعلم جودتهما من رداءتهما، وقوله «لِمَثُوبَةٍ» جواب «لَوْ»، والأصل: لأثيبوا، ثم عدل إلى الجملة الاسمية لئلا يدل على الثبوت.

يقول الحق جل جلاله في شأن اليهود: ولما جاءهم كتاب من عند الله نبذوه ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ ما تقرأ ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ على الناس من السحر ﴿عَلَى﴾ عهد ﴿مَلِكٍ سُلَيْمَانَ﴾، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أكاذيب، ويلقونها إلى الكهنة، وهم يدنونها ويعلمونها الناس، وفشاً ذلك في عهد سليمان حتى قيل: إن الجن يعلم الغيب، وإن ملك سليمان إنما قام بهذا، وأنه به سخر الجن والإنس والريح، فجمع سليمان ما دون منه ودفنه، فاستخرجته الشياطين بعد موته، فرد الله تعالى قولهم بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ باستعمال السحر؛ لأنه تعظيم غير الله بالتقرب للشيطان، والنبي معصوم، ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ هم الذين ﴿كَفَرُوا﴾ باستعماله ﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ﴾ إغواء واضلالاً، ويعلمون ﴿مَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَكِينَ﴾ في بلد بابل من سواد الكوفة، وهما ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾.

كانا ملكين من أعبد الملائكة، ولما رأت الملائكة ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة في زمن إدريس عليه السلام عيروهم بذلك، وقالوا: يا ربنا هؤلاء الذين جعلتهم خليفة في الأرض يعصونك؟ فقال الله تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرض، وركبت فيكم ما ركبت فيهم لارتكبتم ما ارتكبوا، قالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك. فقال الله تعالى: فاختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض. فاختاروا هاروت وماروت، وكانا من أعبد

الملائكة، فركب الله تعالى فيهما الشهوة، وأمرهما أن يحكما في الأرض بين الناس بالحق، ونهاهما عن الشرك والقتل بغير الحق، والزنا وشرب الخمر، فكانا يقضيان بين الناس يومهما، فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء، فاختصمت إليهما ذات يوم امرأة يقال لها الزهرة: وكانت من أجمل النساء من أهل فارس، فأخذت بقلبيهما، فراوداها عن نفسها، فأبت، ثم عاودت في اليوم الثاني، ففعلا مثل ذلك فأبت، وقالت: إلا أن تعبدوا ما أعبد، وتصلوا لهذا الصلح، وتقتلا النفس وتشربا الخمر، فأبيا هذه الأشياء، وقالوا: إن الله نهانا عنها، فانصرفت، ثم عادت في اليوم الثالث، فراوداها، فعرضت عليهما ما قالت بالأمس، فقالا: الصلاة لغير الله ذنب عظيم، وأهون الثلاثة شرب الخمر، فشربا، وانتشيا، ووقعا بالمرأة، فلما فرغا رأهما إنسان فخافا أن يظهر عليهما فقتلاه.

وفى رواية عن سيدنا علي - كرم الله وجهه - أنه قال: (قالت لهما: لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء، فقالا: باسم الله الأعظم، فطماها ذلك، فتكلمت به، وصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكبا). ولذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا رأى سهيلا قال: «لَعَنَ اللَّهُ سُهَيْلًا؛ كَانَ عَشَارًا بِالْيَمَنِ، وَلَعَنَ اللَّهُ الزَّهْرَةَ، وَقَالَ: إِنَّهَا فَتَنَتْ مَلَكَينَ».

قلت: قصة هاروت وماروت ذكرها المنذري في شرب الخمر، وقال في حديثها: رواه أحمد وابن حبان في صحيحه من طريق زهير بن محمد، وقد قيل: إن الصحيح وقفه على كعب. هـ. وقال ابن حجر: قصة هاروت وماروت جاءت بسند حسن، خلافا لمن زعم بطلانها كعياض ومن تبعه.

وتمام قصتهما: أنهما لما قارفا الذنب وجاء المساء هما بالصعود، فلم تطاوعهما أجنحتهما، فعلما ما حل بهما، فقصدا إدريس عليه السلام، فأخبراه، وسألاه الشفاعة إلى الله تعالى فشفع فيهما، فخيرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاخترارا عذاب الدنيا لانقطاعه، فهما يعذبان في بئر ببابل، منكسان معلقان بالسلاسل من أرجلهم، مزرقة أعينهما، ليس بينهما وبين الماء إلا قدر أربعة أصابع، وهما يعذبان بالعطش^(١). هـ.

فإن قلت: الملائكة معصومون فكيف يصح هذا من هاروت وماروت؟ قلنا: لما ركب الله فيهما الشهوة انسلخا من حكم الملكية إلى حكم البشرية ابتلاء من الله تعالى لهما، فلم يبق لهما حكم الملائكة من العصمة.

(١) أعل أهل العلم بالحديث هذه الروايات، وحكم بوضعها ابن الجوزي في الموضوعات، وقال القاضى عياض: لم يرد في ذلك شيء أصلاً لاسقيم ولا صحيح. ورد القصص جل المفسرين، وقال الحافظ ابن كثير: ظاهر سياق القرآن إجمال القصص من غير بسط ولا إطناب فيها. فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى. انظر في الموضوع: الشفا للقاضى عياض، وتعليق الشيخ أحمد شاكر على مسند الإمام أحمد، وتعليقه على تفسير الطبري، وكتاب الاسرائيليات والموضوعات لأبى شهبه رحمه الله..

﴿ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ السحر حتى ينصحاه ويقولوا: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ لكم، واختبار من الله تعالى لعباده، ليظهر من يصبر عنه ومن لا يصبر، وكان تعلمه في ذلك الوقت كفراً. فيقولان له ﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ بتعلمه، فكانوا يتعلمون ﴿ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وقدرته، فلا تأثير لشيء إلا بإذن الله، ويتعلمون منهما ﴿ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾، ولقد علم بنو إسرائيل أن من اشتراه واستبدله بكتاب الله والعمل بما فيه ﴿ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ ﴾ نصيب، ﴿ وَلَبِئْسَ ﴾ ما باعوا به حظ أنفسهم من النعيم ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾، لكن لما لم يعملوا بعلمهم كانوا كمن لا علم عنده.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا ﴾ بالله ورسوله ﴿ وَاتَّقَوْا ﴾ الكفر والسحر، لأثيبوا ثواباً كبيراً، وكان ذلك خيراً لهم مما استوجبوه من العقاب ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾.

الإشارة: كل من أكب على دنياه وتتبع حظوظه وهواه، وترك العمل بما جاء من عند الله، يصدق عليه أنه نبذ كتاب الله، واشتغل بما سواه من حب الدنيا والرئاسة والجاه، فالدنيا سحارة غرارة، تسحر القلوب وتغيبها عن حضرة علام الغيوب وفي الحديث: «اتَّقُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا أُسْحَرُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ»، ولا شك أنها تفرق بين الأحباب وبين العشائر والأصحاب. ولقد علم من أخذ الدنيا ونعيمها، وأكب عليها ما له في الآخرة من نصيب، فبقدر ما يأخذ من نعيم الدنيا وشهواتها ينقص له من نعيم الآخرة. وللبس ما شروا به أنفسهم - حيث آثروا الحياة الدنيا على الآخرة - لو كانوا يعلمون. ولو أنهم آمنوا بالله، واتقوا كل ما يشغل عن الله لكانوا من أولياء الله، وتلك المثوبة - التي صاروا إليها - خير لو كانوا يعلمون.

قال عبدالواحد بن زيد: سمعت أن جارية مجنونة في خراب الأبلّة تنطق بالحكم، فطلبتها حتى وجدتھا، وهی محلوقة الرأس، وعليها جبة صوف، فلما رأنتی قالت: مرحباً بك يا عبدالواحد، ثم قالت: يا عبدالواحد ما جاء بك؟ فقلت: تعطينني، فقالت: واعجبا لواعظ، يوعظ، يا عبدالواحد.. اعلم أن العبد إذا كان في كفاية، ومال إلى شيء من الدنيا، سلبه الله حلاوة الزهد، وظل حيراناً ولهاً، فإن كان له عند الله نصيب عاتبه وحياً في سره، فيقول له: عبيد أردت رفع قدرك عند ملائكتي، وأجعلك دليلاً لأوليائي، ومرشداً لأهل طاعتي، فملت إلى عرض الدنيا وتركتني، فأورثك ذلك الوحشة بعد الأنس، والذل بعد العز، والفقر بعد الغنى، أرجع إلى ما كنت عليه أرجع إليك ما كنت تعرفه من نفسك. ثم انصرفت عني وتركتني وبقيت حسرتها في قلبي . هـ.

ولما كان المسلمون يقولون للرسول ﷺ: راعنا يا رسول الله وأرعنا سمعك، يعنون من المراعاة والانتظار، وهي عند اليهود سب من الرعوننة، ففرحت اليهود، وقالوا: كنا نسب محمدا سرا، فأعلنوا له بالشتم، فكانوا يقولون: يا محمد راعنا ويضحكون، نهى الله تعالى المسلمين عن هذه اللفظة، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

قلت: يقال راعى الشيء يراعيه مراعاة: انتظره أو التفت إليه. ويقال: رعى إلى الشيء، وراعه وأرعه: إذا أصغى إليه واستمعه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ للرسول ﷺ: ﴿رَاعِنَا﴾ أى: انتظرنا أو أمهل علينا لأن فى ذلك ذريعة لسب اليهود، أو قلة أدب، وقولوا: ﴿انْظُرْنَا﴾ أى: انتظرنا ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ المؤذنين لرسول الله ﷺ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: موجع.

الإشارة: حسن الخطاب من تمام الآداب، وتتمام الآداب هو السبب الموصول إلى عين الصواب، فمن لا أدب له لا تربية له، ومن لا تربية له لا سير له لا وصول له، فمن لا يتربى على أيدي الرجال لا يربى الرجال، وقد قالوا: من أساء الأدب مع الأحباب طرد إلى الباب، ومن أساء الأدب فى الباب طرد إلى سياسة الدواب. وقالوا أيضا: اجعل عمالك ملحا، وأدبك دقيقا. وقال آخر: إن الإنسان ليبلغ بالخلق وحسن الأدب إلى عظيم الدرجات وهو قليل العمل، ومن حرم الأدب حرم الخير كله، ومن أعطى الأدب فقد مكن من مفاتيح القلوب.

قال أبو عثمان رضي الله عنه: الأدب عند الأكابر وفى مجالس السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلا والخير فى الدنيا والعقبى. وقال أبو حفص الحداد رضي الله عنه: التصوف كله آداب، لكل وقت أدب، ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب، فمن لازم الأدب بلغ مبلغ الرجال، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب، مردود من حيث يرجو الوصول. وقال ذو النون المصرى رضي الله عنه: (إذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء). وقيل: من لم يتأدب لوقت فوقته مقت. وقيل: من حبسه النسب أطلقه الأدب، ومن قل أدبه كثر شغبه. وقيل: الأدب سند الفقراء، وزينة الأغنياء. هـ. وبالله التوفيق.

ومن مساوى اليهود أيضا الحسد والغل، وإليه أشار الحق تعالى بقوله:

﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

قلت: الود: محبة الشيء مع تمنيه، و«مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» بيانية كقوله: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»، و«أَنْ يُنْزَلَ» معمول يود، و«مِنْ خَيْرٍ» صلة، و«مِنْ رَبِّكُمْ» ابتدائية.

يقول الحق جل جلاله: ما يتمنى ﴿الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ إنزال خير عليكم ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ولا المشركون حسدا منهم، بل يتمنون أن تبقوا على ضلالتكم وذلكم، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ كالنبوة والولاية ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده. فلا يجب عليه شيء ولا يمتنع عليه ممكن، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، فيمن بالنبوة أو الولاية على من يشاء فضلا وإحسانا.

الإشارة: في الآية تنبيهان: أحدهما: أن من كان يحسد أهل الخصوصية وينكر عليهم، فيه نزعة يهودية، وخصلة من خصال المشركين، والثاني: أن حسد أهل الخصوصية والإنكار عليهم أمر شائع وسنة ماضية، فليوطن المرید نفسه على ذلك، وليعلم أنه ما يقال له إلا ما قيل لمن قبله، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، وما من نعمة إلا وعليها حسود.

وقال حاتم الطائي: وَمِنْ حَسَدٍ يَجُورُ عَلَى قَوْمِي وَأَيُّ الدَّهْرِ ذُو لَمْ يَحْسُدُونِي

وبالله التوفيق .

ومن مساوئهم أيضا إنكار النسخ للأحكام، فرد الله عليهم بقوله:

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾

قلت: النسخ في اللغة يطلق على معنيين؛ أحدهما: التغيير والتحويل، يقال: مسخه الله قرداً ونسخه. قال الفراء: ومنه نسخ الكتاب، والثاني: بمعنى رفع الشيء وإبطاله. يقال: نسخت الشمس الظل، أي: ذهبت به وأبطلته، وهو المراد هنا. والإنساء هو الترك والإذهاب، والنساء هو التأخر. و« مَا » شرطية منصوبة بشرطها مفعولا به. و« نَأْتِ » جوابها.

يقول الحق جل جلاله: في الرد على اليهود حيث قالوا: انظروا إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، فأجاب الله عنهم بقوله: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ أي: نزيل لفظها أو حكمها أو هما معا، ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ في

الخفة أو في الثواب، ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ من قلب النبي - عليه الصلاة والسلام - بإذن الله، أو نتركها غير مدسوخة، أو نؤخر إنزالها أو نسخها. باعتبار القراءات، ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه نسخ ولا غيره ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهما كيف يشاء، لا راد لما قضى ولا معقب لما حكم به وأمضى، ينسخ من شرائع أحكامه ما شاء، ويثبت فيها ما شاء، بحسب مصالح العباد، وماتقنضيه الرأفة والوداد.

وهو جائز عقلاً وشرعاً، فكما نسخت شريعتهم ما قبلها نسخها ما بعدها، فمن تحكم على الله، أو رد على أصفياء الله ممن اصطفاهم لرسالته، فليس له ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يمنع من عذاب الله، ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ ينصره من غضب الله.

والنسخ إنما يكون في الأوامر والنواهي دون الأخبار، لأنه يكون كذباً، ومعنى النسخ: انتهاء العمل بذلك الحكم، ونقل العباد من حكم إلى حكم لمصلحة، فلا يلزم عليه البداهة كما قالت اليهود، والنسخ عدداً على ثلاثة أقسام: نسخ اللفظ والمعنى: كما كان يُقرأ: «لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر»، ثم نُسخ، ونسخ اللفظ دون المعنى: «كالشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»، ثم نسخ لفظه، وبقي حكمه وهو الرجم، ونسخ المعنى دون اللفظ: كآية السيف بعد الأمر بالمهادنة مع الكفار. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال الشيخ أبو العباس المرسى رحمته الله في تفسيرها: ما نذهب من بدل إلا ونأت بخير منه أو مثله. هـ. ومعناه: ما نذهب بولى إلا ونأت بخير منه أو مثله إلى يوم القيامة، وبهذا يرد على من زعم أن شيخ التربية انقطع؛ فإن قدرة الله عامة، وملك الله قائم، والأرض لا تخلو ممن يقوم بالحجة حتى يأتي أمر الله.

قال في لطائف المنن: وقد سئل بعض العارفين عن أولياء المدد: أينقصون في زمن؟ فقال: لو نقص منهم واحد ما أرسلت السماء قطرها، ولا أبرزت الأرض نباتها، وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم، ولا بنقص إمدادهم، ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله وقوع اختفائهم مع وجود بقائهم، ثم قال: وقد قال على - كرم الله وجهه - في مخاطبته لكميل: اللهم لا تخلو الأرض من قائم لك بحجتك، أولئك الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، قلوبهم معلقة بالمحل الأعلى. أولئك خلفاء الله في بلاده وعباده، واشوقاه إلى رؤيتهم.

وروى الترمذى الحكيم عن ابن عمر رضي الله عنهما يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره». وبالله التوفيق.

ولما سأل رافع بن حريملة اليهودي رسول الله ﷺ أن يريه آية، كتفجير ماء أو غيره، نزل قوله تعالى:

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

قلت: (أم) للإضراب بمعنى بل؛ وهو على قسمين: إما إضراب عن المعنى السابق، أو لفظه فقط كما هنا، انظر تفسير ابن عطية، وإضافة الرسول إليهم باعتبار ما في نفس الأمر. وهو نص في إرساله إليهم كما أرسل إلى غيرهم. والضلال: التلف. و«سواء السبيل»: وسط الطريق.

يقول الحق جل جلاله: أتريدون يامعشر اليهود أن تقترحوا على نبيكم الذي أرسلت إليكم، وإلى كافة الخلق من غيركم الآيات، وتسألوه أن يريكم المعجزات، كما سألتهم موسى من قبل فقلتم: «أرنا الله جهرة» تشغيبا وتعتنا، وأبيتم عن الإيمان، واستبدلتموه بالكفر والعصيان، «ومن يتبدل الكفر بالإيمان» فقد تلف عن طريق الحق والسداد، ومأواه جهنم وبئس المهاد.

الإشارة: لا يشترط في الولي ظهور الكرامة، وإنما يشترط فيه كمال الاستقامة، ولا يشترط فيه أيضا هداية الخلق على يديه؛ إذ لم يكن ذلك للنبي فكيف يكون للولي؟ قال تعالى: ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ وقد سرى في طبع العوام ما سرى في طبع الكفار، قالوا: ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ الآية. فكثير من العوام لا يقرون الولي حتى يروا له آية أو كرامة، مع أن الولي كلما رسخت قدمه في المعرفة قل ظهور الكرامة على يديه؛ لأن الكرامة إنما هي معونة وتأيد وزيادة إيقان. والجبل الراسي لا يحتاج إلى عماد.

والحق هو ما قاله الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: (وإنهما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان على نعت الشهود والعيان، وكرامة العمل على السنة والمتابعة، ومجانبة الدعاوى والمخادعة، فمن أعطيتهما ثم اشتاق إلى غيرهما فهو مفتر كذاب، أو ذو خطأ في العلم والفهم، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضى والكرامة، ثم جعل يشاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا) أو كما قال رحمه الله.

وقال شيخنا رحمه الله: (الكرامة الحقيقية هي الأخلاق النبوية والعلوم اللدنية). فمن أنكر أولياء أهل زمانه وطلب منهم الدليل غير ما تقدم فقل سواء السبيل، وبقي مربوطا في سجن البرهان والدليل. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما ظهر حسد اليهود واجتهادهم في الرد على الإسلام، أمر الحق تعالى المسلمين بالعفو والصفح حتى يأذن في قتالهم، فقال:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

قلت: «لو» مصدرية مفعول «ودَّ»، و«كفاراً»: مفعول ثان، و«حسداً»: مفعول له، علة لود، أو حال من الواو، و«من عند» متعلق بود، أى: يتمنوا ذلك من عند أنفسهم وتشهيههم، أو بقوله: «حسداً»، فالوقف على قوله «كفاراً»، أى: حسداً حاصلًا من تلقاء أنفسهم، لم يستندوا فيه إلى شبهة ولا دليل، والعفو: ترك العقوبة بالذنب. والصفح: الإعراض عن المذنب، كأنه يولى عنه صفحة عنقه، فهو أبلغ من العفو.

يقول الحق جل جلاله في التحذير من اليهود وغيرهم من الكفار: تمنى الذين كفروا من أهل الكتاب وغيرهم لو يصرفونكم عن دينكم و«يردوكم من بعد إيمانكم» بنبيكم «كفاراً» ضالين، كما كنتم قبل الدخول فيه، وذلك «حسداً من» تلقاء «أنفسهم» غير أن تكون النبوة في غيرهم، وذلك «من بعد ما تبين لهم الحق» وعرفوه كما يعرفون أبناءهم، «فاعفوا» عن عتابهم، وأعرضوا عن تشغيبيهم «حتى يأتى الله بأمره» فيهم بالقتل والجلاء. «إن الله على كل شيء قدير»، واشتغلوا بما كلفكم به من أداء حقوق العبودية، والقيام بوظائف الربوبية، كإتقان الصلاة وأداء الزكاة، واعلموا أن الله لا يضيع من أعمالكم شيئاً، فما تقدموا لأنفسكم ليوم فقركم تجدوه عند الله خيراً وأعظم أجراً، إن الله لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأحوالكم.

نزلت الآية في عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، أتيا بيت المدراس^(١)، فألأنا لهم الكلام، فطمعوا في صرفهما عن دينهما، ففضحهم الله ورد كيدهم في نحركم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من جملة ما دبَّ إلى بعض الطوائف المتجمدين على تقليد أشياخهم: التعصب والحمية على طريق أشياخهم، ولو ظهر الحق عند غيرهم، وخصوصاً أولاد الصالحين منهم، فإذا رأوا أحداً ظهرت عليه أنوار الولاية،

(١) المدراس - بتقديم الراء على الألف: البيت الذى يدرسون فيه. وقال فى النهاية: مفعال غريب فى المكان.

وأسرار الخصوصية، تمتنوا أن يردوهم عن طريق الحق، وبصرفهم إلى مخالطة الخلق، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، فيقال لمن توجه إلى الحق: فاعفوا واصفحوا حتى يظهر الحق، ولا تلتفتوا إلى تشغيبيهم، ولا تشتغلوا قط بعيبيهم فتكونوا أقبح منهم.

قال بعض العارفين: (لا تشتغل قط بمن يؤذيك واشتغل بالله يرده عنك، وقد غلط في هذا الأمر خلق كثير، اشتغلوا بمن يؤذيهم فطال الأذى مع الإثم. ولو أنهم رجعوا إلى مولاهم لكفاهم أمرهم). بل ينبغي لمن يحسد أو يؤذى أن يغيب عن الحاسد وكيدته، ويشغل بما هو مكلف به من حقوق العبودية وشهود عظمة الربوبية، فإن الله لا يضيع من التجأ إليه، ولا يخيب مقصود من اعتمد عليه. وبالله التوفيق.

ومن جملة أمانى اليهود الفارغة: ادعاء اختصاصهم بالجنة، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

قلت: «وقالوا» عطف على «هود الذين كفروا»، والضمير يعود على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أى: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، و«هود»: جمع هائد، كبازل وبزل وحائل وحول، و«الأماني»: جمع أمنية، وهى ما يتمنى المرء ويشتهي، وأصله أمنية كأضحوكة وأعجوبة، فقلبت الواو ياء وأدغمت، و«هاتوا»: اسم فعل بمعنى الأمر، ومعناه آت، وأهمل ماضيه ومضارع، و«أسلم» معناه: استسلم وخضع، والخوف مما يتوقع، والحزن على ما وقع.

يقول الحق جل جلاله: وقالت اليهود: «لن يدخل الجنة» إلا من كان يهوديا، أى: على دينهم، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، وهذه دعاوى باطلة، وأمانى فارغة ليس عليها بينة، بل مجرد أمانيهم الكاذبة، «قل» لهم يامحمد: «هاتوا برهانكم» أنكم مختصون بالجنة «إن كنتم صادقين» فى هذه الأمنية، بل يدخلها غيركم من أهل الإسلام والإحسان، فإن «من أسلم وجهه لله» أى: انقاد بكلية إلى «وهو محسن» فى أفعاله واعتقاده، «فله أجره عند ربه» وهو دخول النعيم والنظر إلى وجهه الكريم، «ولا خوف عليهم» من مكروه يتوقع «ولا هم يحزنون» على فوات شيء يحتاجون إليه؛ لأنهم فى ضيافة الكريم تساق إليهم المسار وتدفع عنهم المضار، وبالله التوفيق.

الإشارة : من جملة ما دخل على بعض الفقراء أنهم يَخْصُون الخصوصية بهم ويمن تبع شيخهم، وينفونها عن غيرهم، وهذه نزعة يهودية، وتحكم على القدرة الإلهية، فيقال لهم: تلك أمانيكُم الفارغة، بل ينالها غيركم، فمن قصد الله صادقاً وجده، وأنجز بالوفاء مواعده، فمن خضع لله وانقاد لأولياء الله، فله أجره عند ربه، وهو المعرفة به، ولا خوف عليه من القطيعة، ولا يحزن على فوات نصيبه من المعرفة. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما قدم نصارى نجران على النبي ﷺ سمعت بهم اليهود، فجاءوا إليهم، وتناظروا حتى تسابوا، وكفر اليهود بعيسى وبملائته والإنجيل، وكفر النصارى بموسى والتوراة، فأنزل الله في شأنهم:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يقول الحق جل جلاله إخباراً عن مقالات اليهود والنصارى وتقبيحاً لصنيعهم: «وقالت اليهود» في الرد على النصارى: «ليست النصارى على شيء» يعتد به، «وقالت النصارى» في سب اليهود: «ليست اليهود على شيء» يعتمد عليه، والحالة أنهم «يتلون الكتاب»، فاليهود يتلون التوراة وفيها البشارة بعيسى عليه السلام، والنصارى يتلون الإنجيل، وفيه تقرير شريعة التوراة وصحة نبوة موسى عليه السلام، فقد كفرت كل فرقة بكتابها غضبا وتعصبا، ومثل مقالاتهم هذه «قال الذين لا يعلمون»، وهم المشركون، فقالوا: ليس المسلمون على شيء، «فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» فيدخل أهل الحق الجنة وأهل الباطل النار. وبالله التوفيق.

الإشارة: كل ما قصه الحق تعالى علينا من مساوئ غيرنا فالمقصود به التنفير والتحذير من مثل ما ارتكبه، والتخلق بضد ما فعلوه، فكل من تراه ينقص الناس ويصغرهم فهو أصغرهم، وكل من تراه يقول: أصحاب سيدي فلان ليسوا على شيء، وأصحاب سيدي فلان ليس عندهم شيء، فليس هو على شيء، وقد ابتلى بعض المتصوفة بهذا الوصف الذميم، ينصب الميزان على الناس، فيسقط قوما ويرفع آخرين، وهو يتلو كتاب الله، ويسمع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا...﴾ الآية.

وأكثر ما تجد هذا الوصف في بعض الفقهاء المتجمدين على ظاهر الشريعة، يعتقد ألا علم فوق علمه، ولا فهم فوق فهمه، كيف؟ والله تعالى يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، وقد قال إمام الحرمين: (لأن أدخل ألف كافر في الإسلام بشبهة خير من إخراج واحد منه بشبهة).

فالواجب على من أراد السلامة أن يحسن الظن بجميع المسلمين، ويعتقد فيهم أنهم كلهم صالحون، ففي الحديث: «خَصَلْتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ: حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِعِبَادِ اللَّهِ، وَخَصَلْتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا شَيْءٌ مِنَ الشَّرِّ: سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ، وَسُوءُ الظَّنِّ بِعِبَادِ اللَّهِ». وبالله التوفيق.

ثم ويخ الحق - تعالى - النصارى على منع الناس من بيت المقدس وإيذاء من يصلى فيه، وطرح الأقدار فيه، مع زعمهم أنهم على الحق دون غيرهم، قاله ابن عباس، أو كفار قريش حيث منعوا المسلمين من الصلاة فيه، وصدوا رسول الله عن الوصول إليه، قاله ابن زيد، والتحقيق: أن الحق تعالى ويخ الجميع، فقال:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

قلت: «من» مبتدأ، و«أظلم» خبر، و«أن يذكر» إما منصوب على إسقاط الخافض وتسلط الفعل عليه، أى: من أن يذكر، أو بدل اشتمال من «مساجد»، أو مجرور بالحرف المحذوف، قاله سيوييه. و«خائفين» حال من الواو.

يقول الحق جل جلاله: لا أحد أكثر جرماً ولا أعظم ظلماً «ممن» يمنع «مساجد الله» من «أن يذكر» اسم الله فيها، جماعة أو فرادى، فى صلاة أو غيرها، «وسعى فى خرابها» حيث عطل عمارتها، «أولئك ما كان» ينبغى «لهم أن يدخلوها» إلا بخشية وخشوع، فكيف يجترئون على تخريبها؟ أو ما كان الواجب أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلاً عن أن يمنعهم منها، أو «ما كان لهم» فى علم الله وقضائه «أن يدخلوها إلا خائفين»، فيكون وعداً أنجزه الله لهم، وقد فتح الله لهم مكة والشام، فكان لا يدخل بيت الله الحرام كافر إلا خفية، خائفاً من القتل، ولا يدخل نصرانى بيت المقدس إلا خائفاً من المسلمين، فنالهم «فى الدنيا خزي» وهو قتل الحربى، وضرب الجزية على الذمى، وخزي المشركين قتلهم يوم الفتح، وإذلالهم بدخولها عليهم عنوة، ولمن مات على الكفر «فى الآخرة عذاب عظيم».

وهذه الآية - وإن نزلت فى الكفار - فهى عامة لكل من يمنع الناس من الذكر فى المساجد، كيفما كان قياماً أو قعوداً، جماعة أو فرادى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: مساجدُ الله هي حضرة القلوب وحضرة الأرواح وحضرة الأسرار، فحضرة القلوب لأهل المراقبة من أهل الإيمان، وحضرة الأرواح والأسرار لأهل المشاهدة والمكالمة من أهل الإحسان، فمن منع نفسه من الدخول في هذه الحضرات الثلاث، وسعى في خراب باطنه باتباع الحظوظ والشهوات، ومال إلى الدنيا وزخارفها الغرارات، فلا أحد أظلم منه نفساً، ولا أبخس منه صفقة. فلا ينجع في هؤلاء إلا خوف مزعج أو شوق مقلق. فإن لم يكن أحد من هذين بقي على غيه حتى مخايل الموت، فيحن إلى الدخول فيها خائفاً، ولا ينفع حينئذ الندم، وقد زلت به القدم، له في الدنيا ذلك الفقر والجزع، وله في الآخرة غم الحجاب وسوء الحساب وحسرة العتاب، نسأل الله العافية في الدارين. آمين، بمنه وكرمه.

وقال القشيري: نفسُ العابدِ وطنُ العبادة، وقلبُ العارف وطنُ المعرفة، وروحُ الواجد وطنُ المحبة، وسرُ الموحدِ وطنُ المشاهدة، ولا أظلم ممن سعى في خراب وطن العابد بالشهوات، وفي وطن المعرفة بالمنى والعلاقات، وفي وطن المحبة بالحظوظ والمساكنات، وفي وطن الموحد بالالتفات إلى القربات. هـ. وبالله التوفيق.

ولما ذكر الحق تعالى تعطيل بعض المساجد والمنع من الصلاة فيها، وسع على عباده في الصلاة حيث شاءوا، فقال:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِيعُ عَلِيمٍ﴾

قلت: (أينما) شرطية، و(تولوا) شرطها، وجملة (فثم) جوابها، و«ولّى» يستعمل بمعنى أدير وبمعنى أقبل، تقول: ولّيت عن كذا أو كذا، والوجه هنا بمعنى الجهة، تقول: سافرت في وجه كذا، أى في جهة كذا. قاله ابن عطية.

يقول الحق جل جلاله: «ولله المشرق والمغرب»، والجهات كلها له، لا يختص ملكه بمكان دون آخر، فإذا منعتم من الصلاة في المساجد ففي أى مكان كنتم ووليتم وجهكم إلى القبلة التى أمرتم بالتوجه إليها فثم جهته التى أمر بها، أو فثم ذاته المقدسة، أى: عالم مطلع على ما يفعل فيه، «إن الله واسع» بإحاطته بالأشياء، أو برحمته يريد التوسعة على عباده، «عليم» بمصالحهم وأعمالهم فى الأماكن كلها.

وعن ابن عمر: أنها نزلت فى صلاة المسافرين على الراحلة حيثما توجهت به، وقيل: فى قوم عميت عليهم القبلة فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم، وعلى هذا: لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ، لم يلزمه التدارك. قاله البيضاوى.

الإشارة: اعلم ان الأماكن والجهات، وكل ما ظهر من الكائنات، قائمة بأنوار الصفات، ممحوة بأحدية الذات، «كان الله ولا شىء معه، وهو الآن على ما عليه كان»؛ إذ لا وجود لشىء مع الله، «فأينما تولوا فثم

وجه الله، محق الآثار بأفلاك الأنوار، وانمحت الأنوار بأحدية الأسرار، وانفرد بالوجود الواحد القهار، والله در القائل:

مَذْ عَرَفْتُ الْإِلَهَ لَمْ أَرْ غَيْرًا وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ
مَذْ تَجَمَّعْتُ مَا خَشِيتُ أَفْجِرَاقًا فَأَنَا الْيَوْمَ وَاصِلٌ مُجْمُوعُ
وقال آخر: (١)

فَالْكَلُّ دُونَ اللَّهِ إِنَّ حَقَّقَتَهُ عَدَمٌ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ
مَنْ لَا وَجُودَ لِدَاثِهِ مِنْ دَاثِهِ فَسُجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنٌ مُحَالِ
وقال صاحب العينية:

تَجَلَّى حَبِيبِي فِي مَرَأَى جَمَالِهِ فَفِي كُلِّ مَرْنَى الْحَبِيبِ طَلَانِعُ
فَلَمَّا تَبَدَّى حُسْنُهُ مُتَنَوِّعًا تَسْمَى بِأَسْمَاءٍ فَهِنَّ مَطَالِعُ
وقال الششتري:

مَحْبُوبِي قَدْ عَمَّ الْوَجُودُ وَقَدْ ظَهَرَ فِي بَيْضٍ وَسُودُ

قال بعض السلف: (دخلت ديراً فجاء وقت الصلاة، فقلت لبعض النصاري: دلني على بقعة طاهرة أصلي فيها، فقال لي: طهر قلبك عما سواه، وقف حيث شئت، قال: فخجلت منه). ويحكي عن أبي يزيد رحمته الله أنه كان يصلي إلى أي جهة شاء، ويتلو هذه الآية، (٢) فالوجه عند أهل التحقيق هو عين الذات، يعني أسرار الذات وأنوار الصفات. قال تعالى: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» أي: كل شيء فانٍ ومستهلك في الحال والاستقبال إلا ذاته المقدسة، وأنشدوا:

فَالْعَارِفُونَ فَنَوْا بِأَنْ لَمْ يَشْهَدُوا شَيْئًا سِوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالَى
وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَالِكًا فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالْأَسْتَقْبَالِ

(١) وهو الشيخ أبو مدين.

(٢) التوجه نحو البيت الحرام شرط من شروط صحة الصلاة؛ لقوله تعالى: «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ». وأما آية: «فَإِنَّمَا تَوَلَّوْا فَنَمَّ وَجْهَ اللَّهِ»، فسبق أنها نزلت في مناسبة مخصوصة، وقيل: إنها مذبذبة. وقيل: للمعنى: أيما كنتم في شرق وغرب فثم وجه الله الذي أمرنا باستقباله وهو الكعبة الشريفة. وما حكى عن أبي يزيد - إن صح - فهو من قبيل الشطحات؛ فلا نأخذ بها.

وقلت في تائيتي الخمرية في وصف الخمرة الأزلية:

تَنَزَّهَتْ عَنْ حُكْمِ الْحُلُولِ فِي وَصْفِهَا فَلَيْسَ لَهَا فِي سِوَى شَكْلِهِ حَلِيتُ
تَجَلَّتْ عَرُوسًا فِي مَرَاتِي جَمَالِهَا وَأَرَخْتُ سُتُورَ الْكِبْرِيَاءِ بِعِزَّةِ
فَمَا ظَهَرَ فِي الْكَوْنِ غَيْرُ بَهَائِهَا وَمَا احْتَجَبَتْ إِلَّا لِحِجْبِ سَرِيرَةِ

ولما قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت المشركون: الملائكة بنات الله، ردَّ الله تعالى عليهم بقوله:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾
بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

قلت : هذه الجملة معطوفة على قوله: «وقالت اليهود... إلخ، ومن قرأ بغير واو جعلها مستأنفة، و(بدیع) بمعنى مُبدع، والإبداع: اختراع الشيء من غير تقدم شيء. وقوله: (كن فيكون)، قَدْرُهُ سيبويه: فهو يكون، وقرأ ابن عامر بنصب المضارع، وَلَحْنُهُ بعضهم؛ لأن المنصوب في جواب الأمر لابد أن يصلح جواباً لشرطه، تقول: اضرب زيدا فيستقيم، أى: إن تضربه يستقيم. ولا يصلح أن تقول هنا: إن يكن يكن، وقد يجاب بحمله على المعنى، والتقدير: إن قلت كن يكن.

يقول الحق جل جلاله: وقالت اليهود والنصارى والمشركون: «اتخذ الله ولدا» تعالى الله عن قولهم، وتنزه عن ذلك؛ لأنه يقتضى الجنسية والمثابرة والاحتياج، والحق منزّه عن ذلك. بل كل ما استقر في السموات السبع والأرضين السبع ملكه وعبيده، فكيف يكون العبد ولداً لمالكة؟. وأيضاً كل ما ظهر في الوجود كله قانت، أى: خاضع ومطيع لله، وعابد له، ومقهور تحت حكمه ومشيلته، وذلك منافی لحال النبوة.

وأيضاً: كل ما دخل عالم التكوين فهو مُبدع ومُخترع لله، ومصنوع من مصنوعات الله، فلا يصح أن يكون ولداً، وأيضاً: الولد يحتاج إلى صاحبة ومعالجة ومهلة، والحق تعالى أمره بين الكاف والنون، بل أسرع من لحظ العيون، فإذا «قضى أمراً» أى: أراده، «فإنما يقول له كن فيكون»، ولا يتوقف على لفظة «كن»، وإنما هو كناية عن سرعة الاقتدار.

قال البيضاوي: واعلم أن السبب في هذه الضلالة أن أرباب الشرائع المتقدمة كانوا يطلقون الأب على الله تعالى، باعتبار أنه السبب الأول، حتى قالوا: إن الأب هو الرب الأصغر، والله تعالى هو الرب الأكبر، ثم ظن الجهلة منهم أن المراد به معنى الولادة، فاعتقدوا ذلك تقليداً، ولذلك كفر قائله ومنع منه مطلقاً حسماً لمادة الفساد. هـ.

الإشارة: اعلم أنك إذا نظرت بعين البصيرة، أو بحق البصيرة، إلى الوجود بأسره، وجدته ذاتاً واحدة، ونسبته من الحق نسبة واحدة، أنوار ظاهرة، وأسرار باطنة، حكمته ظاهرة، وقدرته باطنة حسن ظاهر، ومعنى باطن، عبودية ظاهرة، وأسرار معاني الربوبية باطنة؛ إذ لا قيام للعبودية إلا بأسرار معاني الربوبية، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقال في الحكم: «الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة، فالنفس تنظر إلى ظاهر بهجتها، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها». فأهل الفرق يثبتون الأشياء مستقلة مع الله، وربما تغالي بعضهم فأشركها معه في الألوهية، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قال محيي الدين الحاتمي: من رأى الخلق لا فعل لهم فقد فاز، ومن رآهم لا حياة لهم فقد جاز، ومن رآهم بعين العدم فقد وصل. هـ. قلت: ومن أثبتهم بالله فقد تمكن وصاله، وأنشدوا:

مَنْ أَبْصَرَ الْخَلْقَ كَالسَّرَابِ	فَقَدْ تَرَقَّى عَنِ الْحِجَابِ
إِلَى وَجُودٍ تَرَاهُ رَتَقَا	بِلَا ابْتِغَادٍ وَلَا اقْتِرَابِ
وَلَمْ تُشَاهِدْ بِهِ سَوَاهُ	هَنَّاكَ تَهْدِي إِلَى الصَّوَابِ
فَلَا خِطَابَ بِهِ إِلَيْهِ	وَلَا مُشِيرَ إِلَى الْخِطَابِ. هـ.

ولما قال رافع بن حريملة - من أحبار يهود - للرسول ﷺ: أسمعنا كلام الله إن كنت رسوله، أو أرنأ آية تصدقك، رد الله تعالى عليه، فقال:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

قلت: هذه المقالة صدرت من بعض اليهود والمشركين، قالوا ذلك تعنتا وعنادا، لا طلبا لليقين، فلذلك نفى الله عنهم العلم رأسا، والمقصود في هذه الآيات كلها توبيخ اليهود.

يقول الحق جل جلاله: «وقال الذين لا علم عندهم: هلا «يكلمنا الله» حتى نسمع منه أنك رسوله، «أو تأتينا آية» ظاهرة، نراها جهرة تدل على رسالتك، كما كانت لموسى - عليه السلام -.

وهذه المقالة التي صدرت من اليهود، تعنتاً وعناداً، قد صدرت ممن قبلهم من أسلافهم، فقالوا: «أرنا الله جهرة»، ومن النصارى فقالوا: «هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء»، ومن المشركين فقالوا: «لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً». الآية. فقد تماثلت قلوبهم في الكفر والعناد، وتشابهت في العتو والفساد، قد أوضحنا لك الآيات البيّنات، تحقق رسالتك وتقرر اصطفايتك، لمن طلب مزيد الإيقان، وكشف البيان على نعت العيان، فأعظمها القرآن، ثم ما أوضحت من شرائع الأحكام، وما بينته من الحلال والحرام، ثم ما أخبرت به من الغيوب، وما كشفت عن القلوب من الكروب، ثم نطق الجمادات والأحجار، كحنين الجذع وانقياد الأشجار، وتسبيح الحصى، وتسليم الحجر، وقد نبع الماء من بين أصابعه وانهمر، إلى ما لا يعد ولا يحصى.

فقد «أرسلناك بالحق»، أى: متبساً بالحق ومبيناً له، «بشيراً» لمن صدقك واتبعتك بالنعيم المقيم، و«نذيراً» لمن خالفك بعذاب الجحيم. فلا تسأل عن حالهم إذا أفضوا إليه، فإنه أعظم من أن يذكر، وأفظع من أن يسمع، إذ لا يمكن تفسير حالهم، ولا يستطيع أحد سماع أهوالهم، فالله يعصمنا من موارد الردى، ويوفقنا لاتباع الحق والهدى، أو لا يسألك ربك عنهم فهو أعلم بحالهم، وبالله التوفيق.

الإشارة: طلب الكرامات وظهور الآيات من طبع أهل الجهل والعناد، وليس هو من شيم أهل الهداية والاسترشاد. فالطريق واضح لمن طلب السبيل، والحق لائح لمن أبصر الدليل، فمن كحل عين بصيرته بإثمد التوحيد الخاص، لم يقع بصره إلا على الحق، ولا يعرف إلا إياه، ورأى الأشياء كلها قائمة بالله، بل لا وجود لها مع الله، ومن فتح الله سمع قلبه لم يسمع إلا من الحق، ولا يسمع إلا به، كما قال القائل: أنا بالله أنطق ومن الله أسمع.

وقال الجنيد رحمته الله: (لى أربعون سنة أناجى الحق، والناس يزؤون أنى أناجى الخلق). فالخلق محذوفون عند أهل العلم بالتحقيق، مثبتون عند أهل الجهل والتفريق. يقولون: لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية، مع أنه يكلمهم فى كل

وقت وساعة، كذلك قال من شاركهم في الجهل بالله، مع وضوح الآيات لمن عرف الله. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ولما قالت اليهود والنصارى لرسول الله ﷺ: اجعل بيننا وبينك هدنة نتبعك بعدها، وأضمرُوا في نفوسهم أنهم لا يتبعونه حتى يتبع ملتهم، فضحهم الله تعالى، فقال:

﴿ وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١٢٠)

قلت: الملة هي الشريعة، وهي ما شرع الله على لسان أنبيائه ورسله، من أملاكت الكتاب وأمليته، إذا قرأته. والهوى: رأى يتبع الشهوة.

يقول الحق جل جلاله لرسوله ﷺ: «ولن ترضى عنك اليهود» وتتبع دينك أبدا، «ولا النصارى» كذلك «حتى تتبع ملتهم» على فرض المحال، والمقصود قطع رجائه من إسلامهم باختيارهم؛ لأن اتباعه ملتهم محال، وكذلك إسلامهم. ولعله في قوم مخصوصين. ثم زاد في التنفير من اتباعهم فقال: «ولئن اتبعت أهواءهم» الباطلة فرضا وتقديرا «بعد الذي جاءك من العلم» بالله وبأحكامه على المنهاج القويم، «ما لك من الله من ولي» يمنعك منا، «ولا نصير» ينصرك من غيرنا، أي: لا ولي ولا نصير لك إلا نحن؛ حيث واليتنا، وأحببتنا، وأظهرت ملتنا، فنحن لك على ما تحب وترضى.

الإشارة: التماس رضى الناس من علامة الإفلاس، ولن يرضى عنك الناس حتى تتبع أهواءهم، ولكن اتبعت أهواءهم بعد ما تحققت ما هم فيه، إنك إذا لمن الظالمين، فمن التمس رضى الناس وقع في سخط الله، ومن التمس رضى الله قطع يأسه من الناس. ولذلك قال بعضهم: كل ما سقط من عين الخلق عظم في عين الحق، وكل ما عظم في عين الخلق سقط من عين الحق، وقال آخر: إن الذى تكرهون منى هو الذى يشتهي قلبى . هـ.

وقال بعض الصالحين: (لَقِيتُ بَعْضَ الْأَبْدَالِ، فَقُلْتُ لَهُ: دُلَّنِي عَلَى الطَّرِيقِ؟ فَقَالَ: لَا تَخَالِطِ النَّاسَ؛ فَإِنْ مَخَالَطْتَهُمْ ظَلَمْتَ، فَقُلْتُ: لَا بَدَّ مِنْ مَخَالَطَتِهِمْ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ؟ فَقَالَ لَا تَعَامِلُهُمْ، فَإِنْ مَعَامَلْتَهُمْ خَسِرَانَ. قُلْتُ: لَا بَدَّ مِنْ مَعَامَلَتِهِمْ؟ فَقَالَ: لَا تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ فِي الرُّكُونِ إِلَيْهِمْ هَلَكَةٌ، فَقُلْتُ: هَذَا لَعَلَّهُ يَكُونُ؟ فَقَالَ: يَا هَذَا، أَتَخَالِطُ الْبَطَالِينَ، وَتَعَامِلُ الْجَاهِلِينَ، وَتَرْكُنُ إِلَى الْهَلَكَى، وَتَحِبُّ أَنْ يَكُونَ قَلْبُكَ مَعَ اللَّهِ؟ هَيْهَاتَ.. هَذَا لَا يَكُونُ أَبَدًا، ثُمَّ غَابَ عَنِّي وَلَمْ أَرَهُ).

ولما عاتب الله بنى إسرائيل ووبخهم استثنى من آمن منهم، فقال:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٢١)

قلت: جملة (يتلون) حال، و(أولئك) خبر الموصول.

يقول الحق جل جلاله: «الذين آتيناهم الكتاب»، كعبد الله بن سلام وأصحابه، حالتهم «يتلون» حق تلاوته غير محرفين له، ولا كاتمين ما فيه، «أولئك» هم الذين «يؤمنون به» حقيقة، وأما غيرهم ممن حرف وكتب صفة الرسول ﷺ فقد كفر به، «ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون» أى: الكاملون فى الخسران، حيث بخسوا أنفسهم من عز الدارين.

الإشارة: ما قيل فى التوراة وأصحابه يقال مثله فى القرآن وأهله؛ فمن آتاه الله القرآن، وتلاه حق تلاوته، بحيث جود حروفه وتدبر معانيه، وعمل بما فيه، فأولئك هم المؤمنون به حقاً، والفائزون بثمار معانيه حلاوة وذوقاً، ومن ترك التدبر فى معانيه فقد حرم نفسه ثمار حلاوته، وذلك عين الخسران عند أهل الإيقان. وبالله التوفيق.

ثم رجع الحق تعالى إلى تذكيرهم بالنعم، فقال:

﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١٢٣)

قلت: جملة (لا تجزى): نعت ليوم، وحذف العائد، أى: لا تجزى فيه نفس، قال المرادى: (إذا نعت بالجملة اسم زمان جاز حذف عائد) ثم استدل بالآية. وهل حذف برمته أو بالتدرج؟ قولان.

يقول الحق جل جلاله: «يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتي التى أنعمت عليكم» بأن جعلت الأنبياء تسوسكم، والملوك منكم يدبرون أموركم، و«فضلتكم» على عالم زمانكم، فاشكروا هذه النعم بالإيمان بالرسول الذى أرسلته إليكم، وخافوا أهوال يوم القيامة الذى لا تغنى فيه «نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها» فداء إن أرادت الفداء، «ولا تنفعها شفاع» شافع، ولا يدفع عنها أهوال ذلك اليوم ولى ولا ناصر، إلا من اتخذ يداً عند الملك القادر، وبالله التوفيق. وتقدمت إشارة هذه الآية فى الآية الأولى.

ولما أراد الحق تعالى أن يمسح القبلة ويردها إلى بيت الله الحرام بعد أن كانت إلى بيت المقدس، ذكر خصوصية من بناه، وكيفية بنائه، وفي ضمن ذلك ذكر شرفه ليكون ذلك داعياً إلى الامتثال، فقال:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

قلت: (ابتلى) اختبر، و(إبراهيم) مفعول، وفيه أربع لغات: إبراهيم وإبراهيم وإبراهيم وبالقصر، و(ريه) فاعل، وقدم المفعول للاهتمام، ولذا يعود الضمير على ما بعده لفظاً ورتبة، و(عهدي) فاعل، و(الظالمين) مفعول. يقول الحق جل جلاله: واذكر يا محمد، أو اذكروا يا بنى إسرائيل، حين اختبر «إبراهيمَ رَبُّهُ بكلمات» أن يعمل بها، وهى: تسليم بدنه للنيران، وولده للقربان، وطعامه للضيوفان، أو عشر خصال: خمس فى الرأس: المضمضة، والاستنشاق، وقص الشارب، والسواك، وفرق الرأس. وقيل: وإعفاء اللحية، وخمس فى الجسد: تقليم الظفر، وحلق العانة، ونتف الإبط، والاستنجاء بالماء، والاختتان. أو مناسك الحج أو الخصال التى امتحن بها وهى: الكوكب، والقمر، والشمس، والدار. والهجرة، والذبح، والأحسن أنها ثلاث: الهجرة من وطنه، ورمى ولده بمكة، وذبح الآخر حين بلغ أن يسعى معه^(١). «فأتمهن» أى: وفى بهن، فلما وفى بهن (قال) الله تعالى له: «إني جاعلك للناس إماماً»، أى: قدوة بك فى التوحيد، أو فى الأصول والفروع، إذ لم يبعث بعده نبي إلا كان من ذريته، وأمور باتباعه.

ولما جعله الله إماماً طلب ذلك لأولاده فقال: «ومن ذريتي» فاجعل أئمة، «قال» الحق تعالى: «لا ينال عهدي» أى: لا يلحق عهدي بالإمامة «الظالمين» منهم، إذ لا يصلح للإمامة إلا البررة الأتقياء، لأنها أمانة من الله وعهد، والظالم لا يصلح لها، وفيه تنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظلمة لا يستحقون الإمامة، وفيه دليل على عصمة الأنبياء قبل البعثة، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة. قاله البيضاوى.

الإشارة: إذا أراد الله تعالى أن يجعل ولياً من أوليائه إماماً يقتدى به، وداعياً يدعو إليه، ابتلاه، فإن صبر ورضى اصطفاه، ولحضرت اجتهاده، فيكون إماماً يقتدى به، وداعياً يهتدى به، وهذه سنة الله تعالى فى أصفائه

(١) قوله: (ورمى ولده بمكة وذبح الآخر)، يفيد أن الذبيح غير الذى ترك بمكة. وإذا كان الذى ترك بمكة هو إسماعيل - كما هو معروف - فإن الذبيح يكون إسحاق. وهذا ما ذهب إليه قلة من العلماء. والراجح أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وهذا هو المروى عن جمهرة الصحابة والتابعين - وعليه غالب المحدثين والمفسرين، واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة. انظر: تفسير: الرازى وابن كثير، والقول الصحيح فى تعيين الذبيح، للسيوطى، والإسرائيليات والموضوعات، للدكتور أبى شهبه.

يبتليهم الله تعالى بتسليط الخلق عليهم وأنواع من البلايا، فإذا نقوا من البقايا، وتكلمت فيهم المزايا، أظهرهم للخلق داعين إلى الله ومرشدين إلى طريق الله، وقد تبقى الإمامة في ذريتهم إن ساروا على هديهم، ومن لم يسلك به هذا المسلك فلا يصلح للإمامة، وإن توجه إليها كان ناقصا في الدعوة، ولذلك قال بعضهم: (من ادعى شهود الجمال قبل تأدبه بالجلال، فرفضه فإنه دجال). هـ. وكل من اتصف بشيء من ظلم العباد لا ينال عهد الإمامة في طريق الإرشاد، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ذكر شرف البيت الذي هو المقصود، فقال:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾

قلت: (المثابة): المرجع الذي يثوب الناس إليه كل سنة، و(اتخذوا): على قراءة الأمر، محكى بقول محذوف، أى: وقلنا اتخذوا، وعلى قراءة الماضي: معطوف على (جعلنا)، أى: جعلناه مثابة، واتخذها الناس مصلى.

يقول الحق جل جلاله: (و) اذكر يا محمد «إذ جعلنا البيت» الحرام، أى: الكعبة، مرجعاً للناس يرجعون لزيارته والطواف به كل سنة، وجعلناه محل أمن، كل من دخله كان آمناً من عقوبة الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن الناس يتخطفون من حوله، وأهله آمنون، وأما في الآخرة فلأن الحج يجب ما قبله، وهذا يدل على شرف البيت وحرمة.

وقلنا لهم: «اتخذوا من مقام إبراهيم»، وهو الحجر الذي فيه أثر قدميه، «مصلى» تصلون إليه، وهو الذي يصلون خلفه ركعتي الطواف، «وعهدنا» أى: أوحينا «إلى إبراهيم وإسماعيل» ولده، بأن قلنا لهما: «طهرا بيتي» من الأدناس والأرجاس والأصنام والأوثان، «للتطائفين» به «والعاكفين» أى: المقيمين فيه، والمصلين فيه الراكعين الساجدين. فكان البيت مطهرا في زمانهما وبعدهما زمانا، ثم أدخلت فيه [الأصنام] (١) فطهره نبينا محمد ﷺ، وتبقى طهارته حتى يأتي أمر الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: القلب هو بيت الرب، يقول الله تبارك وتعالى لبعض أنبيائه: «طهر لى بيتا أسكنه، فقال: يارب أى بيت يسعك؟ فقال له: لن تسعنى أرضى ولا سمائى، ووسعنى قلب عبدى المؤمن». فإذا تطهر القلب من الأغيار

(١) ما بين المعكوفتين زيادة ليست فى الأصول.

وملئء بالأنوار، وتمكنت فيه المعارف والأسرار، كان مرجعاً وملجأ للعباد، كل من وصل إليه، وطاف به، كان آمناً من الزيف والعداء، ومن خواطر السوء وسوء الاعتقاد، ومن دخله بالمحبة والوداد، أمن من الطرد والبعاد، وكان عند الله من أفضل العباد. ومقام إبراهيم - عليه السلام - هو الاستغراق في عين بحر الشهود، ورفع الهمة عن ما سوى الملك المعبود.

وهذا المقام هو الذي اتخذته العارفون كعبة لصلاة قلوبهم، وغاية لمنتهى قصودهم.

عِبَارَاتُهُمْ شَتَّى، وَحُسْنُكَ وَاحِدٌ، وَكُلُّ إِلَى ذَاكَ الْجَمَالِ يُشِيرُ

وقد عهد الله تعالى إلى أنبيائه وأصفياه أن يطهروا قلوبهم من الأغيار، ويرفضوا كل ما سواه من الأكدار، لنتهاء بذلك لطواف الواردات والأنوار، ولعكوف المعارف والأسرار، وتخضع لهيبتها ظواهر الأشباح، وتنقاد لجمال بهجتها القلوب والأرواح، وما ذلك على الله بعزيز.

ثم ذكر الحق تعالى دعاء إبراهيم الخليل لمكان البيت، زيادة في تشريفه، فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

قلت : الإشارة تعود إلى المكان، أو البلد، أى: اجعل هذا المكان بلداً آمناً، قال بعضهم: نكر البلد هنا، وعرفه في سورة إبراهيم، لأن هذا الدعاء وقع قبل أن يكون بلداً، وفي سورة إبراهيم وقع بعد أن كان بلداً فلذلك عرفه، وفيه نظر من جهة التاريخ، وسيأتى تمامه هناك إن شاء الله.

وقوله: (مَنْ آمَنَ) : بدل من (أهله)، بدل البعض للتخصيص، و(مَنْ كَفَرَ) : معطوف على (مَنْ آمَنَ)، على حذف المضارع، أى: وارزق من كفر.

يقول الحق جل جلاله : «و» اذكر «إذ قال إبراهيم» في دعائه لمكة لما أنزل ابنه بها بواد غير ذي زرع، وتركه في يد الله تعالى: «رب اجعل هذا» المكان «بلداً آمناً» يأمن فيه كل من يأوى إليه، «وارزق أهله من» أنواع «الثمرات»، كالحبوب وسائر الفواكه، «مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» «قال» الحق جل جلاله: بل وارزق أيضاً «مَنْ كَفَرَ» في الدنيا، «فأمتعه» زمناً «قليلاً»، أو تمتيعاً قليلاً. «ثم» أجهه «إلى عذاب النار» وبئس المرجع مصيره.

قاس إبراهيم الخليل الرزق على الإمامة، فذبه سبحانه وتعالى أن الرزق رحمة دنيوية، نعم المؤمن والكافر، بخلاف الإمامة، والتقدم في الدين، فإنها سبب النعيم الأخرى، ولا ينالها إلا أهل الإيمان والصلاح.

الإشارة: دعاء الأنبياء عليهم السلام، كما يصدق بالحس يصدق بالمعنى، فيشمل دعاء الخليل القلوب التي هي بلد الإيمان، والأرواح التي هي معدن الأسرار والإحسان، فتكون آمنة من طوارق الشيطان، ومحفوظة من الوقوف مع رؤية الأكوان، آمنة من الأكدار، محفوظة من رؤية الأغيار، فيرزقها الله من ثمرة العلوم، ويفتح لها من مخازن الفهوم، من آمن منهم بالشرعية الظاهرة، وجاهد نفسه في عمل الطريقة الباطنة، حتى أشرقت عليه أنوار الحقيقة العيانية، وأما من كفر بطريق الخصوص، ووقف مع ظواهر النصوص، فإنما يمتع بعلم الرسوم الذي حد حلاوته اللسان، ثم يلجأ إلى عذاب الحجاب، وسوء الحساب، ولم يفض إلى حلاوة الشهود والعيان، التي يمتع بها الجنان حتى يفضي إلى نعيم الجنان، فيتم النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم، منحنا الله من ذلك حظاً وافراً بمره وكرمه.

ثم ذكر الحق تعالى كيفية بناء البيت، وما كان شعارهما في حالة بنائه، فقال:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧)

قلت: (القواعد) جمع قاعدة، وهي الأساس، وكأنه مأخوذ من القعود بمعنى الثبات، وأما القواعد من النساء، فجمع قاعد، بلا تاء، لأنه وصف خاص بالنساء، فلا يحتاج إلى تمييز التاء، و(ربنا) منصوب على النداء محكى بحال محذوفة، أى: حال كونهم قائلين ربنا... إلخ.

يقول الحق جل جلاله: واذكر وقت رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، وبنائهما له، بعد أن درس بالطوفان، وكان بناء آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض بإعلام الملائكة. كان إبراهيم عليه السلام يبنى، وإسماعيل يناوله الحجارة، فنسب البناء لهما لتعاونهما، وقيل: كانا بينيان كل في ناحية، حال كونهما قائلين: «ربنا تقبل منا» عملنا هذا، «إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» بنياتنا وسرائرنا.

الإشارة: ينبغي للعبد أن يرفع قواعد إسلامه، ويشيد دعائمه بتحقيق أركانه، كإتقان الشهادتين بتحقيق معانيها، وإتقان الصلاة بإتقان أركانها الظاهرة والباطنة، وإتقان الزكاة بإخلاص أدائها، وإتقان الصيام بتحصيل آدابه، وإتقان الحج بتحصيل مناسكه بعد وجوبه، ويرفع أيضا قواعد إيمانه بتحقيق أركانه، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، حلوه ومره، اعتقاداً وذوقاً، ويرفع أيضا قواعد إحسانه،

بتحصيل مراتبه، كتحقيق المشاهدة، وهو أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يستطع فليعبده كأن الله يراه، وإن شئت قلت: رفع قواعد الإسلام يكون بتحقيق التوبة والتقوى والاستقامة، ورفع قواعد الإيمان يكون بتحقيق الإخلاص والصدق والطمأنينة، ورفع قواعد الإحسان يكون بالمراقبة والمشاهدة والمعرفة، كما قال الساحلي - رحمه الله -.

ثم ذكر الحق تعالى دعاءهم بعد البناء، فقال:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

قلت: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما فرغ إبراهيم وإسماعيل من بناء البيت، دعوا بهذا الدعاء، فقالا: (ربنا واجعلنا مسلمين لك) أي: منقادين لأوامرك الظاهرة ولأحكامك القهرية.

واجعل «من ذريتنا أمة» أي: جماعة «مسلمة لك». علماً - بوحى أو إلهام - أنه يكون من ذريتتهما من يكفر بالله، «وأرنا» أي: عرفنا وعلمنا «مناسكنا» في الحج. والنسك في الأصل: غاية العبادة، وشاع في الحج لما فيه من المشاق والكلفة، والبعد عن العادة. «وتب علينا» مما لا يليق بحالنا، فحسنت الأبرار سيئات المقربين، فلكل مقام ما ينقصه وإن كان كاملاً. ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يستغفر في المجلس سبعين مرة. إذ ما من مقام إلا وقبلة ما فيه نقص، فإذا ترقى عنه استغفر منه، «إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» أي: كثير القبول والإقبال على التائبين.

«رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ» أي: في الذرية «رَسُولًا مِنْهُمْ» وهو مولانا محمد صلى الله عليه وسلم قال - عليه الصلاة والسلام -: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى»، حال كونه «يَتْلُو عَلَيْهِمْ» أي: يبلغهم «آيَاتِكَ» الدالة على توحيدك وصدق رسالتك، «ويعلمهم الكتاب» أي: القرآن «والحكمة» أي: الشريعة أو السنة. وقال مالك: هي الفقه في الدين والفهم فيه، أو نور يضيئه في قلب من شاء من عباده، «ويُزَكِّيهِمْ» أي: يطهرهم من لوث المعاصي وكدر الحس، «إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ» الغالب في حكمه وسلطانه، «الْحَكِيمُ» في صنعه وإتقانه، والله تعالى أعلم.

الإشارة: تضمن دعاؤهما عليهما السلام ثلاثة أمور يُطلب التماسها والتحقق بها من كل أحد؛ أولها: الانقياد لله في الظاهر والباطن، بامتثال أمره والاستسلام لقهره، حتى يسرى ذلك في الأصل إلى فرعه، وهي غاية المنة، قال في الحكم: «متى جعلك في الظاهر ممثلاً لأمره، وفي الباطن مستسلماً لقهره، فقد أعظم منته

عليك». والثاني: معرفته الطريق، والسلوك على جادتها، كارتكاب مشاق الطاعات، ومعانقة مخالفة الهوى والشهوات، ورؤية التقصير في ذلك، وطلب التوبة مما هنالك، وهذه هي مناسك حج القلوب، والطريق الموصل إلى عرفة حضرة الغيوب، والثالث: الظفر بالداعى إلى الله والదال عليه، وهو المعلم الأكبر، صحبته تطهر من العيوب، ورؤيته تغنى القلوب، وتدخلها إلى حضرة الغيوب، ظاهره قائم بوظائف الحكمة، وباطنه مشاهد لتصاريف القدرة، وهذا هو القائم بالتربية النبوية. وبالله التوفيق.

ولما قرر شرف إبراهيم عليه السلام وجعله إماما يقتدى به، حذر من ترك دينه والرغبة عن ملته، فقال:

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

قلت: (من): استفهامية إنكارية، فيها معنى النفسى، مبتدأ، و(يرغب) وما بعده خبر، و(إلا) إبطال لتفويضها الذى تضمنته، و(من سفه) بدل من ضمير (يرغب) على المختار، و(نفسه) مفعول «سفه»؛ لتضمنه معنى جهل أو أهلك، قاله الزجاج، أو على التمييز؛ قاله الفراء؛ لأن الضمير فيه معنى الشيوع الذى فى (من) فلم يكسب التعريف، أو على إسقاط الجار وإيصال الفعل إليه، كقولهم: ضرب فلان الظهر والبطن. و(إذ) معمول لاصطفيناه، وأوصى ووصى: لغتان، إلا أن وصى فيه معنى الكثير. وضمير (بها) يعود على كلمة (أسلمت)، أو الملة، و(يعقوب) معطوف على «إبراهيم»، و(بنى) محكى بحال محذوفة، أى: قائلين يابنى، أو مبتدأ، والخبر محذوف، أى: قال يابنى... إلخ، فيوقف على (بنيه).

يقول الحق جل جلاله: «ومن» هذا الذى «يرغب عن ملة إبراهيم» الواضحة «إلا» من جهل قدر «نفسه» وبخسها حقها؟ أو إلا من خف رأيه وسفهن نفسه؟ وكيف يرغب عاقل عنها وقد اخترناه إماماً «فى الدنيا» يقتدى به أهل الظاهر والباطن؟ «وانه فى الآخرة لمن الصالحين» لحضرتنا، والساكنين فى جوارنا.

وانما اخترناه لذلك لأنه حين «قال له ربه»: استسلم لحكمنا، وانقد لأمرنا، قال سريعاً: «أسلمت» وجهى «لرب العالمين»، وانقدت بكليتى إليه. «ووصى» بهذه الكلمة أو الملة «إبراهيم»، عند موته، «بنيه»، وكانوا أربعة: إسماعيل وإسحاق ومدين ومدان. وكذلك حفيده «يعقوب» أوصى بهذه الكلمة بنيه. وكانوا اثنى عشر، على ما يأتى فى الأسباط، قائلين فى تلك الوصية: «يا بنى إن الله» اختار لكم «الدين» الحنيف الواضح المنيف، فتمسكوا به ما عشتُم، ولا تموتن «إلا وأنتم مسلمون» متمسكون به.

الإشارة: ملة أبينا إبراهيم عليه السلام هي رفع الهممة عن الخلق، وإفراد الوجهة للملك الحق، ورفض الوسائط والأسباب، والتعلق برب الأرباب، وفي ذلك يقول الشاعر، وهو الششتري:

فَرَفَضَ السُّوَىَ فَرَضَ عَلَيْنَا لِأَنَّا بِمِلَّةِ مَحْوِ الشَّرِكِ وَالشُّكِّ قَدْ دَنَا

ومن ملته أيضا: ترك التدبير والاختيار، والاستسلام لأحكام الواحد القهار، فمن تمسك بهذه الخصال على التمام، ووصى بها من نقيه من الأنام، جعله الله في الدنيا إماما يقتدى بأقواله ويهتدى بأنواره، وإنه في الآخرة لمن الصالحين المقربين مع النبيين والمرسلين، وأما من رغب عن هذه الملة الحنيفية فقد خسر الدنيا والآخرة. نسأل الله الحفظ بمنه وكرمه.

ولما ادعت اليهود أن اليهودية هي ملة إبراهيم عليه السلام كذبهم الله تعالى، فقال:

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

قلت: (أم) منقطعة، والاستفهام فيها للإنكار، أي: ما كنتم حاضرين حين حضر يعقوب الموت، وقال لبنيه ما قال، فكيف تدعون اليهودية عليه، و(إلهها واحدا) بدل من (إله آبائك)، وفائدته التصريح بالتوحيد، ونفى التوهم الناشئ عن تكرير المضاف، لتعذر العطف على المجرور، والتأكيد، أو نصب على الاختصاص أو الحال، وعد إسماعيل من الآباء تغليباً، أو لأنه كالأب؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «عم الرجل صنو أبيه» وقال في العباس: «هذا بقية آبائي». قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله في توبيخ اليهود على زعمهم أن اليهودية كانت ملة إبراهيم، وأن يعقوب عليه السلام أوصى بها عند موته، فقال: هل كنتم حاضرين عند يعقوب حين حضرته الوفاة حتى أوصى بما زعمتم؟ وإنما كانت وصيته أن قال لبنيه: «ما تعبدون من بعدى» أي: أي شيء تعبدونه؟ أراد به تقريرهم على التوحيد وأخذ ميثاقهم على الثبات عليه، (قالوا) في جوابه: «نعبد إلهك» المتفق على وجوب وجوده وثبوت ألوهيته الذي هو «إلهك وإله آبائك» من قبلك «إبراهيم» وولده «إسماعيل وإسحاق» الذي هو إله واحد. ونحن منقادون لأحكامه، مستسلمون لأمره إلى مماتنا، فلم يوص يعقوب إلا بما سمعتم، فانتسابكم يا معشر اليهود إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم.

فتلك «أمة» أى: جماعة «قد خلت لها ما كسبت» من الخير، «ولكم ما كسبت» أنتم، «ولا تسألون عما كانوا يعملون» فلا تؤاخذون بسيئاتهم، كما لا تثابون بحسناتهم. وهذا كما قال ﷺ لقريش: «لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم».

الإشارة : يقال لمن حصر الخصوصية فى أسلافه، ونفاهما عن غيرهم: هل حضرتم معهم حين أوصوا بذلك؟ بل ما كانوا يوصون إلا بإخلاص العبودية، وتوحيد الألوهية، ومشاهدة عظمة الربوبية، فمن حصل هذه الخصال كانت الخصوصية معه أينما كان، ومن حاد عنها ومال إلى متابعة الهوى انتقلت إلى غيره، ويقال له: إن أسلافه قد جدوا وجدوا، وأنت لا تنتفع بأعمالهم فى طريق الخصوصية، (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبت...) الآية. وبالله التوفيق.

ولما أمر اليهود والنصارى المسلمين باتباع دينهم، لأنه أقدم، رد الله عليهم، فقال:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

قلت: الضمير فى (قالوا) لأهل الكتاب، و(أو) للتفصيل، أى: قالت اليهود: كونوا هودا، وقالت النصارى: كونوا نصارى. و(تهتدوا) جواب الأمر، و(ملة) منصوب بفعل محذوف، على حذف مضاف، أى: بل نكون أهل ملة إبراهيم، أو نتبع أو نلزم ملة إبراهيم، و(حنيفا) حال من المضاف إليه، لأنه كجزئه، أى: مائلا عن الباطل إلى الحق.

يقول الحق جل جلاله: وقالت اليهود للمسلمين: «كونوا» معنا هودا «تهتدوا»؛ فإن ديننا أقدم، وقالت النصارى لهم أيضا: كونوا «نصارى» معنا «تهتدوا»؛ فإن ديننا أصوب، «قل» لهم يامحمد: «بل» نلزم «ملة إبراهيم» الذى كان مائلا عن الباطل متبعاً للحق، ومشاهداً له وحده. ولم يكن من المشركين كما أشركتم بعزير وعيسى وغيرهما، تعالى الله عن قولكم علواً كبيراً.

الإشارة: قد سرى هذا الطبع فى بعض المنتسبين، يرغبون الناس فى طريقهم، ويحرصون على اتباعهم والدخول معهم، وينقصون طريق غيرهم، وهو وصف مذموم، بل الواجب أن ينظر الإنسان بعين البصيرة، فمن وجده يدل على الله ويغيب عما سواه، ينهض حاله ويدل على الله مقالته، اتبعه وحط رأسه له، ولزم ملته وطريقه أينما كان، وكيفما كان. ومن وجده على غير هذا الوصف، أعرض عنه، والتمس غيره، وليس من شأن الدعاة إلى

الله الحرص على الناس، أو الترغيب في اتباعهم، بل هم أزهق الناس في الناس، من أتاهم دلوه على الله، ومن لقيهم نصحوه في الله، هم على قدم الرسول ﷺ وقد قال له الحق تعالى: ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾. ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾، ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾، فكان ﷺ بعد ذلك يدل على الله وينظر ما يفعل الله. وبالله التوفيق.

ثم بين الحق تعالى كيفية الإيمان الذي يجب اتباعه، وأبطل ما سواه، فقال :

﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٣٦) فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِءِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ نَلَوْا فِيمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾

قلت : الأسباط: الأحفاد، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل، والباء في (بمثل) : يحتمل أن تكون زائدة كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة بمثلها﴾، أو (مثل) مقحم، أي: فإن آمنوا بما آمنتم به، كقوله تعالى: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾. والشقاق: المخالفة، كأن كل واحد من المتخالفين في شق غير شق الآخر، و(صبغة الله): مصدر مؤكد لآمنا؛ لأن الإيمان ينصبغ في القلوب، ويظهر أثره على الجوارح ظهور الصبغ على المصبوغ، ويتداخل في قلوبهم تداخل الصبغ للثوب. أي: آمنا وصبغنا الله به صبغة.

وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وعبر عنها بالصبغ للمشكلة؛ فإن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، وبه تحقق نصرانيتهم، فرد الله تعالى عليهم بأن صبغة الله أحسن من صبغتهم وقيل : نصب على البدل من (ملة إبراهيم)، أو على الإغراء، أي: ألزموا صبغة الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُولُوا﴾ يامعشر المسلمين في تحقيق إيمانكم: ﴿آمنا بالله﴾ أي: صدقنا بوجوده متصفا بصفة الكمال، منزها عن النقائص، ﴿وما﴾ بما ﴿أنزل إلينا﴾ وهو القرآن، ﴿وما﴾ بما ﴿أنزل﴾ من الصحف ﴿إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب﴾ ولد إسحاق، ﴿والأسباط﴾ أولاد يعقوب ﷺ وهم: روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وريالون ويشحر، ودنية بنته، وأمهم ليا، ثم خلف على أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، وولد له من سرّيتين: دان ونفتالي وجاد وأشر.

قال ابن حجر: اختلف في نبوتهم، فقيل: كانوا أنبياء، وقيل: لم يكن فيهم نبي، وإنما المراد بالأسباط قبائل من بني إسرائيل، فقد كان فيهم من الأنبياء عدد كثير. هـ. وممن صرح بنفي نبوتهم عياض وجمهور المفسرين. انظر: المحشى الفاسى.

وقولوا: آمنا بما أنزل إلى «موسى» وهو التوراة، «وعيسى» وهو الإنجيل، وبما «أوتى النبيون» كلهم «من ربهم» من عرفنا منهم ومن لم نعرف، «لا تفرق بين أحد» وأحد «منهم» كما فرقت اليهود والنصارى، فقد آمنا بالله وبجميع أنبيائه «ونحن له مسلمون» أى: منقادون لأحكامه الظاهرة والباطنة.

قال الحق جل جلاله: «فإن آمنوا» أى: أهل الكتاب إيماناً مثل إيمانكم، «فقد اهتدوا» إلى الحق والصواب، وإن أعرضوا عن ذلك فاتركهم حتى تأمرك فيهم، «فإنما هم فى شقاق» وخلاف لك، فلا تهتم بشأنهم، «فسيكفيهم الله» أى سيكفيك شرهم وينصرك عليهم، «وهو السميع» لدعائكم، «العليم» بإخلاصكم، فالزموا «صبغة الله» التى صبغتم بها، وهى الإيمان بما ذكرت لكم؛ فإنه لا أحسن صبغة من صبغة الله، «و» قولوا: «نحن له عابدون».

الإشارة: كما أوجب الله تعالى الإيمان بجميع الرسل فى طريق العموم، كذلك أوجب الله التصديق بكل من ثبتت ولايته فى طريق الخصوص، فمن فرق بينهم فقد كفر بطريقهم، ومن كفر بطريقهم طرد عن بابهم، ومن طرد عن بابهم طرد عن باب الله، لأن إسقاطه من الولاية إيذاء له^(١)، ومن آذى ولياً فقد آذن الله بالحرب، فالواجب، على من أراد أن يرد مآهلهم، أن يصدق بجميعهم، ويعظم من انتسب إليهم، حتى تنصبغ فى قلبه حلوة الإيمان، وتشرق عليه شمس العرفان، فمن فعل هذا فقد امتدى إلى الحق والصواب، واستحق الدخول مع الأحباب، ومن أعرض عن هذا فإنما هو فى شقاق، وربما يخاف عليه من شؤم الكفر والنفاق، فسيكفى الله أوليائه سوء شره، والله غالب على أمره.

قال القشيري: فللقلوب صبغة، وللأرواح صبغة، وللسرائر صبغة، وللظواهر صبغة، فصبغة الأشباح والظواهر بآثار التوفيق، وصبغة الأرواح والسرائر بأنوار التحقيق. هـ. وقال الورتجبي: صبغة الله: صفته الخاصة

(١) الولي لا ينظر إلى الخلق بل غايته رضا الله عنه. فانكار الناس ولاية ولي لا يؤذى الولي، وإنما أذى الإنكار يعود على المنكر نفسه، طبقاً للحديث الوارد.

التي خلق آدم عليها، وأورثت ذلك في أرواح ذريته من الأنبياء والأولياء. ثم قال: وسقاها من شراب الزلفة، وألهمها خصائص علوم الربوبية، فاستنارت بنور المعرفة، وخاضت في بحر الربوبية، وخرجت منها تجليات أسرار الوجدانية، وتكونت بصيغ الصفات. هـ. وبالله التوفيق.

ولما ادعت اليهود والنصارى أنهم أولى الناس بالله من غيرهم لتقدم دينهم، رد الله عليهم ووبخهم فقال: (قل أتحاجوننا...) الآية. وقيل: إن اليهود قالوا للنبي ﷺ: الأنبياء كلهم منا، فلو كنت نبيا لكنت منا، فرد الله عليهم بقوله:

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ (١٣٩)
 أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى
 قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا
 تَعْمَلُونَ ﴿ ١٤٠ ﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿ ١٤١ ﴾

قلت: الذي يظهر أن (أم) منقطعة، بمعنى بل، على قراءة الخطاب والغيبة؛ لأن المقصود إنكار وقوع الأمرين معا، لأحدهما.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد لأهل الكتاب: أخاصموننا ﴿في الله﴾ وتقولون: أنتم أولى به منا ﴿وهو ربنا وربكم﴾، لا يختص به واحد دون آخر، ﴿ولنا أعمالنا﴾ نتقرب بها إليه، ﴿ولكم أعمالكم﴾ تتقربون بها أيضا، فكيف تختصون به دوننا ﴿ونحن له مخلصون﴾ في أعمالنا وقلوبنا دونكم فإنكم؛ أشركتم به غيره، فإن قلتم: إن الأنبياء كلهم منكم وعلى ملكتكم فقد كذبتكم، أتقولون ﴿إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب﴾ وأولاده ﴿الأسباط كانوا يهودا﴾ على دينكم يا معشر اليهود، ﴿أو نصارى﴾ على ملكتكم يا معشر النصارى.

﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿أنتم أعلم أم الله﴾ وقد نفى الأمرين معا عن إبراهيم فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ وقال: ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾، وهؤلاء المعطوفون عليه: أتباعه في الدين، فليسوا يهودا ولا نصارى، فكيف تدعون أنهم كلهم منكم، وعلى دينكم، وأنتم تشهدون أنهم لم يكونوا على دينكم؟ ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾، وهي شهادة الحق

لإبراهيم بالحنيفية، والبراءة من اليهودية والنصرانية، أى: لا أحد أظلم منه، وليس الله تعالى «بغاقل عما تعملون»، بل يجازيكم على النقيير والقطمير، فإن اعتمدتم على نسبكم إليهم فقد اغتررتكم.

«تلك أمة» قد مضت، «لها ما كسبت» لا ينتفع به غيرها، «ولكم ما كسبتم» لا ينفعكم غيره، ولا تسألون عن عملهم كما لا يسألون عن أعمالكم. قال البيضاوي: كرره للمبالغة في التحذير، والزجر عما استحکم في الطباع من الافتخار بالآباء، والاتكال عليهم، وقيل: الخطاب فيما سبق لهم، وفي هذه الآية لنا، تحذيرا عن الاقتداء بهم، وقيل: المراد بالأمة في الأولى الأنبياء، وفي الثانية أسلاف اليهود والنصارى. هـ.

الإشارة: كل من أقامه الحق في وجهة، ووجهه إليها، فهو عامل لله فيها، قائم بمراد الله منها، وما اختلفت الأعمال إلا من جهة المقاصد، وما تفاوت الناس إلا من جهة الإخلاص. فالخلق كلهم عبيد للملك المجيد، وما وقع الاختصاص إلا من جهة الإخلاص. فمن كان أكثر إخلاصاً لله كان أولى من غيره بالله، ويقدر ما يقع للعبد من الصفاء يكون له من الاصطفاء، فالصوفية والعلماء والعباد والزهاد وأهل الأسباب على اختلاف أنواعهم كلهم عاملون لله، ليس أحد منهم بأولى من غيره بالله إلا من جهة الإخلاص وإفراد القلب لله، فمن ادعى الاختصاص بالله من غير هذه الوجهة فهو كاذب، ومن اعتمد على عمل غيره فهو مغرور، يقال له: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾.

ولما أراد الله تعالى أن ينسخ القبلة من جهة الشام ويردها إلى الكعبة، أخبر أنه سينكرها قوم خفت أحلامهم، وفست بالتقليد الردي عقولهم، وهم أحبار اليهود والمنافقون والمشركون، فقال:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

يقول الحق جل جلاله: «سيقول السفهاء من الناس» الذين لا عقل لهم ولا دين، حين تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة: ما صرفهم «عن قبلتهم التي كانوا عليها»، فلو دام عليها لاتبعناه. «قل» لهم يا محمد: «الله المشرق والمغرب» لا يختص ملكه بمكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع من إقامة غيره مقامه، بل الأماكن عند الله سواء: والخلق في حقه سواء، «يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»، ويضل من يشاء عن المنهاج القويم ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، والصراط المستقيم: ما ترتضيه الحكمة وتفتضيه المصلحة من التوجه إلى بيت المقدس تارة، والكعبة أخرى، وفائدة تقديم الإخبار به: توطين النفس وإعداد الجواب. قاله البيضاوي.

قال بعض العارفين: (لى أربعون سنة ما أقامنى الحق فى شىء فكرهته، ولا نقلنى إلى غيره فسخطته). بخلاف السفهاء من الجهال، فشأنهم الإنكار عند اختلاف الأحوال، فمن رأوه تجرد عن الأسباب وانقطع إلى الكريم الوهاب، قالوا: ما ولأه عن حاله الذى كان عليه؟ وأكثروا من الاعتراض والانتقاد عليه، وكذلك من رأوه رجع إلى الأسباب بعد الكمال، قالوا: قد انحط عن مراتب الرجال. وهو إنما زاد فى مراتب الكمال. فالملك كله لله، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، ويضل من يشاء بعدله الحكيم.

ثم شهد الحق تعالى لهذه الأمة بالعدالة والفضل، فقال:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾

قلت: (الوسط) هو العدل الخير الفاضل، وهو فى الأصل اسم للمكان الذى تستوى إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة؛ لوقوعها بين طرفى إفراط وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، ثم أطلق على المتصف بها مستويًا فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث. قاله البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله: وكما جعلناكم مهتدين إلى الصراط المستقيم، وجعلنا قبلكم أفضل الجهات، جعلناكم أمة أفضل الأمم، خيارا عدولا مزكّين بالعلم والعمل، لتصلحوا للشهادة على غيركم، فتكونوا يوم القيامة «شهداء على الناس»، ويزكيكم نبيكم فيشهد بعدالتكم.

قال البيضاوى: روى (أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالبهم الله ببيلة التبليغ وهو أعلم بهم، إقامة للحجة على المنكرين، فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق. فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمة فيشهد بعدالتهم).

وهذه الشهادة، وإن كانت لهم، لكن لما كان الرسول كالرقيب المهيمن على أمة عدوى بعلّى، وقُدّمت الصلة للدلالة على اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم. هـ.

الإشارة: التفاضل بين الرجال إنما يكون بالعلم والحال، فمن قوى علمه بالله كان أعظم قدراً عند الله، والعلم الذى به الشرف عند الله هو العلم بذات الله وصفاته وأسمائه، وكذا العلم بأحكام الله إذا حصل معه العلم بالله، فكما انكشف الحجاب عن القلب كان أقرب إلى الرب، وانكشف الحجاب يكون على قدر التخلية والتخلية، فبقدر ما يتخلّى القلب عن الرذائل، ويبعد عن القواطع والشواغل، ويتخلّى بأنواع الفضائل، ينكشف عنه الحجاب ويدخل مع

الأحباب، ويقدر ما يتراكم على القلب من الخواطر والشواغل، ويدخل عليه من المساويئ والردائل، يقع البعد عن الله، ويطرده العبد عن باب الله، فلا يدل على كمال العبد كثرة الأعمال، وإنما يدل على كماله علو الهمة والحال، وعلو الهمة على قدر اليقين، وقدر اليقين على قدر المعرفة، والمعرفة على قدر التوجه والتصفية، والتوجه تابع للقسمة الأزلية. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم إن العلماء بأحكام الله إذا لم يحصل لهم الكشف عن ذات الله يكونون حجة على عباد الله. والعلماء بالله الذين حصل لهم الكشف عن ذات الله حتى حصل لهم الشهود والعيان يكونون حجة على العلماء بأحكام الله. فكما أن الأمة المحمدية تشهد على الناس، والرسول يشهد عليهم ويزكيهم، فكذلك العلماء يشهدون على الناس، والأولياء يشهدون على العلماء، فيزكون من يستحق التزكية، ويردون من لا يستحقها؛ لأن العارفين بالله عالمون بمقامات العلماء أهل الظاهر، لا يخفى عليهم شيء من أحوالهم ومقاماتهم، بخلاف العلماء، لا يعرفون مقامات الأولياء، ولا يشمون لها رائحة، كما قال القائل:

تركنا البحورَ الزاخراتِ ورأنا فمن أين يدري الناس أين توجُّهنا

قال القشيري: (جعل هذه الأمة خيار الأمم، وجعل هذه الطائفة خيار هذه الأمة، فهم خيار الخيار. وكما أن هذه الأمة شهداء على الأمم في القيامة؛ فهذه الطائفة هم المدار وهم القطب، وبهم يحفظ الله جميع الأمة. وكل من قبلته قلوبهم فهو المقبول، ومن ردت قلوبهم فهو المردود. فالحكم الصادق لفراساتهم، والصحيح حكمهم، والصائب نظرهم، عصم جميع الأمة من الاجتماع على الخطأ، وعصم هذه الطائفة من الخطأ في النظر والحكم والقبول والرد، ثم إن بناء أمرهم مستند إلى سنة الرسول ﷺ، فكل من لا يكون له اقتداء بالرسول فهو عندهم مردود، وصاحبه كلا شيء). وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى حكمة نسخ القبلة، فقال :

﴿... وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ

رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

قلت : (جعل) تصييرية، و (القبلة) مفعول أول، و (التي) صفة للمفعول الثاني المحذوف، أى: وما جعلنا القبلة الجهة التى كنت عليها وهى بيت المقدس، ثم وجهناك إلى الكعبة إلا لنعلم الثابت على الإيمان من غيره، أو: وما صيرنا القبلة الجهة التى كنت عليها بمكة وهى الكعبة، فإنه كان - عليه الصلاة والسلام - يصلى إليها بمكة.

وقيل: كان يستقبل بيت المقدس ويجعل الكعبة بينه وبينها، كما قال ابن عباس، و (إن) مخففة، و اللام فارقة. أى: وإنه، أى: الأمر والشأن: كانت التحويلة لشاقة على الناس، والرأفة: شدة العطف، فهى أبلغ من الرحمة. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: وما نسخنا حكم القبلة وجعلناها الجهة التى كنت عليها بمكة دون التى كانت بالمدينة، وهى بيت المقدس، «إلا لنعلم» علم ظهور وشهادة «من يتبع الرسول» فى التحول إليها «ممن ينقلب على عقبيه» لضعف إيمانه وقلة إيقانه، فإن التحويلة عن القبلة الأولى والرجوع عنها إلى الثانية شاق على النفوس، إلا من سبقت له الهداية وحقت به الرعاية، فإنه يدور مع مراد الله أينما دار، ويتبع رسوله أينما سار. ومن مات قبل التحويل إلى الكعبة فإن الله لا يضيع أجر عمله «وما كان الله ليضيع إيمانكم» أى: صلاتكم إلى بيت المقدس؛ «إن الله بالناس لرؤوف رحيم».

الإشارة: الخروج عن العادات وترك الأمور المألوفات كلاهما شاق على النفوس، إلا على الذين هدى الله، ولذلك كان خرق العوائد هو الفصل بين الخصوص والعموم، ومفتاح لمخازن العلوم والفهوم. فمن لم يخرق عوائد نفسه فلا يطمع أن يدخل حضرة قدسه. «كيف يخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد». وهو الميدان الذى تحقق به سير السائرين. «لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين». وهو عند شيوخ التربية ميزان يتميز به من يتبع الرسول ويلزم طريقه إلى الوصول، ممن ينقلب على عقبيه، فمن رأوه خرق عوائد نفسه، وزهد فى ملبسه وجنسه، تحققوا بدخوله حضرة قدسه، إلا من سبق له الحرمان والعياذ بالله من الخذلان، ومن رأوه وقف مع العادات، وركن إلى المألوفات، ومال إلى الرخص والتأويلات، علموا أن مقامه مقام أهل الحجاب، يأخذ أجره من وراء الباب، ولا نصيب له فى الدخول مع الأحاب.

وأىضا عند تخالف الآثار وتنقلات الأطوار، يظهر الإقرار من الإنكار. أهل الإقرار عارفون فى كل حال، يدورون مع رياح الأقدار حيث سارت، ويسيرون معها حيث سارت، وأهل الإنكار جاهلون بالله فى كل حال، معترضون عليه عند اختلاف الأحوال، نعوذ بالله من الضلال.

ثم ذكر الحق تعالى كيفية ابتداء نسخ القبلة، فقال:

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ... ﴾

قلت: التقلب: التردد، ووليت كذا: جعلته واليا له، والشطر هنا: الجهة.

يقول الحق جل جلاله لنبيه - عليه الصلاة والسلام - حين تمنى أن يحول إلى الكعبة، لأنها قبله أبيه إبراهيم وأدعى إلى إسلام العرب، وهى أقدم القبلتين، فكان ينظر إلى السماء، ويقلب وجهه فيها انتظارا للنزول الوحي، وهذا من كمال أدبه - عليه الصلاة والسلام - حيث انتظر ولم يطلب، فقال له الحق تعالى: «قد نرى» أى: ربما نرى تردد «وجهك فى السماء» انتظارا للوحى، فلنعطينك ما تمنيت، ونوجهك إلى قبله «ترضاها» وتحبها لمقاصد دينية وافقت المشيئة، واقتضتها الحكمة، «فولِّ وجهك» أى: اجعله مواليا «شطر» أى: جهة «المسجد الحرام». وحيثما كنتم» أيها المؤمنون أى فى أى مكان كنتم «فولوا ووجوهكم شطره» جهته.

وانما ذكر الحق تعالى شطر المسجد، أى: جهته، دون عين الكعبة؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - كان فى المدينة، والبعيد يكفيه مراعاة الجهة، فإن استقبال عينها حرج عليه، بخلاف القريب، فإنه يسهل عليه مسامحة العين^(١)، وقيل: إن جبريل - عليه السلام - عينها له بالوحى فسميت قبله وحى.

روى أنه ﷺ قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا، ثم وجه إلى الكعبة فى رجب بعد الزوال قبل قتال بدر بشهرين، وقد صلى بأصحابه فى مسجد بنى سلمة ركعتين من الظهر، فتحول فى الصلاة، واستقبل الميزاب، وتبادل الرجال والنساء صفوفهم، فسمى مسجد القبلتين. قاله البيضاوى.

الإشارة: فى الآية إشارة إلى أن ترك التصريح من كمال الأدب، وفى الحكم: «ربما دلهم الأدب على ترك الطلب، كيف يكون دعاؤك اللاحق سبباً فى قضائه السابق؟! جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل». فإذا تمنيت شيئا وتوقفت على أمر فاصبر وتأدب واقعد بنبيك - عليه الصلاة والسلام - حتى يعطيك ما ترضى، أو يعوضك منها مقام الرضا. وفى المسألة كلام، والتحقيق أن ينظر إلى ما ينشر به صدره فى الوقت، فإن انشرح للدعاء دعاء، وإن انقبض عن الدعاء سكت. والله يرزق من يشاء بغير حساب ولا علة ولا أسباب.

(١) سامته: قابله ووازاه وواجهه.

وإن شئت قلت: قد نرى فكرتك أيها العارف في سماء المعاني، غائبا في شهود الأواني، فلنوليك قبلة ترضاها، وتتلذذ بشهود جمالها وسناها، وهي الحضرة المطهرة التي هي صلاة القلوب، فول وجهك ووجهتك إلى تلك الحضرة، وحيثما كنت فول وجهك شطره، ودم على صلاة الفكرة والنظرة، فهي صلاة العارفين، ومنتهى أمل القاصدين، وبالله التوفيق.

ولما تحولت القبلة إلى الكعبة غضبت اليهود، حيث ترك قبلتهم، مكابرة وعنادا، وقالوا: لو بقى على قبلتنا لرجونا أن يكون هو النبي المبعوث في آخر الزمان فننعبه، فرد الله عليهم وكذبهم فقال:

﴿... وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَاتِبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

قلت: (ولئن) اللام موطنة للقسم، و (إن) شرطية، و (أتيت) فعل الشرط، و (ما تبعوا) جواب القسم المحذوف سد مسد جواب الشرط. قال في الألفية:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

يقول الحق جل جلاله: «وإن الذين أوتوا الكتاب» من أحبار اليهود «ليعلمون» أن التحول إلى الكعبة حق «من ربهم» لما يجدون في كتابهم أنه يصلى إلى القبلتين، وأن عادته تعالى تخصيص كل أمة بشريعة، «وما الله بغافل عما يعملون» من التعنت والعناد، وإنما يمهلهم ليوم المعاد، والله لئن أتيتهم بكل حجة وبرهان على صحة التوجه إلى الكعبة «ما تبعوا قبلك»؛ لأنهم ما تركوا قبلك لشبهة تزيلها الحجة، وإنما خالفوك مكابرة وعنادا. وقد طمعوا أن ترجع إلى قبلتهم، ونست «بتابع قبلتهم» أبدا، بل لهم قبلتهم؛ صخرة بيت المقدس، وللنصارى قبلتهم؛ مطلع الشمس، وليس بعضهم «بتابع قبلة بعض»؛ لتصلب كل حزب بما هو فيه، وإن كان على خطأ وفساد؛ لأن مفارقة العوائد هنا صعب على النفوس إلا من سبقت له العناية.

«ولكن اتبعوا أهواءهم» الباطلة وآراءهم الزائفة فرضاً وتقديراً «من بعد ما جاءك من العلم» الواضح والوحي الصحيح «إنك إذا لمن الظالمين»، لكنك معصوم، فلا يتصور اتباعك لهم أبداً .

«الذين آتيناهم الكتاب» أى: اليهود «يعرفونه» أى: الرسول - عليه الصلاة والسلام - وإن لم يتقدم ذكره لدلالة الكلام عليه أو القرآن أو التحويل، «كما يعرفون أبناءهم» لا يشكون فى صحة رسالته كما لا يشكون فى معرفة آبائهم. وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله ﷺ فقال: (أنا أعلم به منى بابلى، قال له: ولم؟ قال: لأنى لست أشك فى محمد أنه نبي الله. وأما ولدى فلعل والدته قد خانت).

وبعد حصول هذه المعرفة لهم جحدوه وكنتموا صفته، إلا من عصمه الله بالإيمان كعبد الله بن سلام وأصحابه - فقد كتم فريق منهم الحق وهم أحبارهم، وهم يعلمون أنه حق حسداً وعداداً.

هذا الذى أنت عليه يا محمد هو «الحق من ربك»، فلا تكونن من الممترين» أى: من الشاكين فى أنه الحق، أو فى كتمانهم الحق عالمين به. والخطاب مصروف للسامعين لا للنبي ﷺ؛ لأنه غير متوقع منه، وإنما المراد تحقيق الأمر، وإنه بحيث لا يشك فيه ناظر، أو أمر الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ. قاله البيضاوى.

الإشارة: مما جرت به سنة الله تعالى فى خلقه أن أهل الحقيقة منكرين عند أهل الشريعة، أو تقول: علماء الباطن منكرين عند علماء الظاهر، يقابلونهم بالإذابة والإنكار، مع أنهم يعلمون أن الحقيقة حق من ربهم، وأن علم الباطن حق لقوله - عليه الصلاة والسلام - : «إن من العلم كهية المكنون، لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا سمعه أهل الغرة بالله أنكروه عليهم». أو كما قال - عليه الصلاة والسلام -، وقال ﷺ: «لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع».

«وما الله بغافل عما يعملون» فجزأؤهم الحرمان عن لذة الشهود والعيان، فيقال لأهل الباطن: ولكن أتيتهم بكل آية وبرهان ما تبعوا وجهتك التى توجهت إليها؛ لأنها منوطة بصوت النفوس وحط الرؤوس ودفع الفلوس، وخرق العوائد لاكتساب الفوائد، ومفارقة الأوطان والغيبة عن الأهل والولدان، وما أنت أيها المرید بتابع وجهتهم التى توجهوا إليها، ولكن اتبعوا أهواءهم من بعدما ظهر لك من علم التحقيق: إنك إذا لمن الظالمين لنفوسهم.

الذين آتيناهم الكتاب من علماء الشريعة يعرفون علم الحقيقة، كما يعرفون أبناءهم، أى: يقولون به فى الجملة وينكرون وجود أهله مخصوصين، وقد يتحققون به ويكتمون الحق حسداً، وهم يعلمون وجود خصوصيته، فيقال

للعارف: هذا الذي أنت عليه من سلوك جادة الطريق، وعلم التحقيق، هو الحق من ربك فلا تكونن من الممتريين أنك على الحق المبين.

ثم بين الحق تعالى قبله من بعد عن مكة، فقال:

﴿ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُومُؤَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِنَّ مَاتَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا ۖ إِنَّ اللَّهَ عَلَيَّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٤٨ ۖ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٤٩ ۖ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۚ ۝١٥٠ ۖ﴾

قلت: التنوين في (لكل) تنوين العوض، أي ولكل أمة قبله، أو لكل قوم من المسلمين جهة وجانب من الكعبة، و(وجهة) مبتدأ، والخبر: المجرور قبله. و (هو) مبتدأ، و (موليها) خبر مقصور، و (ولي) يتعدى إلى مفعولين، وهو هنا محذوف، أي: موليها وجهه إن كان الضمير يعود على المضاف المحذوف، ويحتمل أن يعود على الله تعالى، أي: الله تعالى موليها إياه، أي: يجعلها موالية له إن استقبل جهتها.

وقرأ ابن عامر: (هو مؤولها) بالباء للمفعول، فالنائب ضمير يعود على (هو)، وهو المفعول الأول، والثاني: المضاف إليه تخفيفاً، وأصله: مؤلى إياها، أي مصروفاً إليها.

يقول الحق جل جلاله: ولكل فريق من المسلمين جهة من الكعبة يستقبلها ويوليها وجهه، أينما كان وحيثما حل، فأكثرُوا من الصلوات، واستقبلوا الخيرات قبل هجوم هادم اللذات، «أينما تكونوا» في مشارق الأرض ومغاربها، يأتكم الممات، ويأت بكم إلى المحشر حفاة عراة، ولا ينفعكم حينئذ إلا صالح عمل قدمتموه، أو فعل خير أسلفتموه، «إن الله على كل شيء قدير»، فلا يعجزه بعث العباد، ولا جمعهم من أعماق الأرض وأقطار البلاد. وإذا علمت أن لكل قوم جهة يستقبلونها، فمن «حيث خرجت» وفي أي مكان حالت «قول وجهك شطر المسجد الحرام»، والله «إنه للحق من ربك» فبادر إلى امتثاله، «وما الله بغافل عما تعملون» من خير أو شر، فيجازي كل واحد على ما أسلف.

ثم كرر الحق تعالى الأمر بالتوجه إلى الكعبة لعله أخرى سيذكرها، فقال: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وحيثما حللتُم ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾. قال البيضاوى: كرر هذا الحكم لتعدد علله، فإنه تعالى ذكر للتحويل ثلاث علل: تعظيم الرسول ﷺ بابتغاء مرضاته، وجرت العادة الإلهية على أن يؤتى أهل كل ملة وصاحب دعوة وجهة يستقبلها ويتميز بها، ودفع حجج المخالفين على ما بينه، وقرن كل علة بمعلولها، مع أن القبلة لها شأن، والنسخ من مظان الفتنة والشبهة، فبالحرى أن يؤكد أمرها ويعاد ذكرها مرة بعد أخرى. هـ.

ثم ذكر العلة الثالثة وهى دفع حجج المخالفين، فقال:

﴿... لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

قلت: الاستثناء من (الناس) أى: لئلا يكون لأحد من الناس حجة عليكم إلا المعاندين منهم، و(لأتم) متعلق بمحذوف، أى: ولإتمام نعمتى عليكم وإرادة امتدائكم أمرتكم بالتحويل، أو معطوف على محذوف؛ أى: واخشونى لأحفظكم ولأتم نعمتى عليكم.

يقول الحق جل جلاله: وإنما أمرتكم بالتوجه إلى الكعبة دون الصخرة لتدفع حجج الناس، فإن اليهود ربما قالوا: المنعوت فى التوراة قبلته الكعبة، وهذا يستقبل الصخرة، أو إن محمدا يخالف ديننا ويستقبل قبلتنا. والمشركون ربما قالوا: يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته، فأمرتكم باستقبال القبلة دفعا لحجج الناس، إلا المعاندين منهم فلا ينقطع شغبهم، فإنهم يقولون: ما تحول إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه، وحبا لبلده، أو بداً له فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم.

فلا تخافوهم ولا تلتفتوا إلى مطاعنهم، فإنها لا تضركم، ﴿واخشونى﴾ أكفكم شرهم، فإن من خافنى خاف منه كل شيء، ومن لم يخشنى خاف من كل شيء، وأمرتكم أيضاً بالتوجه إلى قبلة جدكم ﴿لأتم نعمتى عليكم﴾ بإقرار عين نبيكم، وإرادة امتدائكم، فاشكروا ما أوليتكم، واذكروا ما به أنعمت عليكم أزدكم من فضلى وإحسانى، وأسبغ عليكم إنعامى وامتنانى.

الإشارة: من حكمة المدبر الحكيم أن دبر ملكه العظيم، ووجه كل فرقة بوجهة من مصالح عباده، أفناه فيها وولاه إياها. فقوم اختصهم لمحبتة واصطفاهم لحضرته؛ وهم العارفون، وقوم أقامهم لخدمته وأفناه فى عبادته؛

وهم العباد والزهاد، وقوم أقامهم لحمل شريعته وتمهيد دينه؛ وهم العلماء العاملون، وقوم أقامهم لحفظ كتابه رسماً وتلاوة وتفهماً؛ وهم القراء والمفسرون، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقوم أقامهم لتسكين الفتن ودفع المظالم والمحن؛ وهم الحكام ومن يستعان بهم في تلك الوجهة، وقوم أقامهم لحفظ نظام الحكمة؛ وهم القائمون بالأسباب الشرعية على اختلاف أنواعها وتعدد فروعها، وقوم أعددهم لظهور حلمه وعفوه فيهم؛ وهم أهل المعاصي والذنوب، وقوم أعددهم للانتقام وظهور اسمه القهار؛ وهم أنواع الكفار.

فكل وجهة من هؤلاء توجهت لحق شرعي أقامتها القدرة فيه، وحكم بها القضاء والقدر، إلا أن القسمين الأخيرين لا تقرهما الشريعة. فلو حسنت المقاصد لكان الكل عملاً لله، فيقال لهم: «استبقوا الخيرات» بتحسين المقاصد والنيات، وبادروا إلى الطاعات قبل هجوم هادم اللذات، أينما تكونوا يجمعكم للحساب، وتعينوا جزاء ما أسلفتم من عذاب أو ثواب، ومن حيث خرجت أيها العارف قول وجهتك وكييتك لمسجد الحضرة باستعمال الفكرة والنظرة، فإنها حق وما سواها باطل، كما قال الشاعر:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ^(١)

وحيثما كنتم أيها العارفون فولوا وجوهكم إلى قبلة تلك الحضرة، واعبدوا ريك بعبادة الفكرة، فإنها صلاة القلوب، ومفتاح ميادين الغيوب، وفي ذلك يقول القائل^(٢):

يَا قِبْلَتِي فِي صَلَاتِي إِذَا وَقَفْتُ أَصَلِّي
جَمَالُكُمْ نُصَبَ عَيْنِي إِلَيْهِ وَجْهْتُ كُلِّي

فإذا تحققت بهذه الحضرة، وتحصنتم بحسن الشهود والنظرة، انقطع عنكم حجج خصيم النفس والجنس، وتنزهتم في رياض القرب والأنس، إلا الخواطر التي تحوم على القلوب، فلا تقدر في مشاهدة الغيوب، فلا تخافوا غيري، ولا تتوجه همكم إلا لإحساني ويرى؛ فإنني أتم عليكم نعمتي، وأرشدكم إلى كمال معرفتي، وأنحفكم بلصري ومعونتي.

(١) نقل الحافظ ابن حجر في الفتح ١٨٨/٧: (أَنْ لَبِيداً أَنْشَدَ مِنْ شِعْرِهِ (أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ)، فَقَالَ عَثْمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ: صَدَقْتَ. فَقَالَ لَبِيدٌ: (وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ). فَقَالَ عَثْمَانُ: كَذَبْتَ؛ نَعِيمُ الْجَنَّةِ لَا يَزُولُ..).

(٢) ابن الفارض.

ثم ذكر الحق تعالى نعمة الواسطة، فقال:

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي
وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾

قلت: (كما) متعلق بأتى، أى: ولأتى نعمتى عليكم فى شأن القبلة كما أتممتها عليكم بإرسال الرسول. أو
بأذكرونى، أى: كما ذكرناكم بالإرسال، فأذكرونى بالمقال والحال. وقدم هنا التزكية على التعليم، باعتبار القصد؛
لأن القصد من الإرسال والتعليم هو التطهير، وآخره فى دعوة إبراهيم باعتبار الفعل، لأن الإرسال والتعليم مقدم
على التطهير، وأعاد العامل فى قوله: «ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون» إيذاناً بأنه جنس آخر شرفاً له.

يقول الحق جل جلاله: يا عبادى اذكروا برى وإحسانى؛ فقد أتممت عليكم نعمى وآلائى بإسعافكم فى تحويل
القبلة، كما أتممتها عليكم بأعظم النعم وأجلها، وهو إرسال من يعلمكم «رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا» الموصلة
إلى حضرتنا، ويظهركم من المساوى والعيوب، «ويعلمكم الكتاب» المشتمل على علم الغيوب ودواء القلوب،
ويعلمكم «الحكمة» وهى الشريعة المطهرة والسنة النبوية، «ويعلمكم» علوماً غيبية لم يكن لكم بها علم ولا معرفة،
«فأذكرونى» بالطاعة والإحسان «أذكركم» بالثواب ونعيم الجنان. قال ﷺ: «مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهَ، وَإِنْ قَلَّتْ
صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ وَتِلَاوَتُهُ الْقُرْآنَ. وَمَنْ عَصَى اللَّهَ فَقَدْ نَسِيَ اللَّهَ، وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ وَتِلَاوَتُهُ».

أو فأذكرونى بالجنان أذكركم بنعمة الشهود والعيان، أو فأذكرونى بالقلوب أذكركم بكشف الحجب، أو فأذكرونى
بالتوحيد والإيمان أذكركم بالدرجات فى الجنان. قال الصديق ﷺ: (كفى بالتوحيد عبادةً، وكفى بالجنة
ثواباً). أو فأذكرونى بالشكر أذكركم بالزيادة، أو فأذكرونى على ظهر الأرض أذكركم فى بطنها. قال الأصمعى:
(رأيت أعرابياً واقفاً يوم عرفة بعرفات، وهو يقول: إلهى عجت لك الأصوات بضروب اللغات يسألونك الحاجات،
وحاجتى إليك أن تذكرنى عند البلاء إذا نسينى أهل الدنيا).

أو: فأذكرونى فى الدنيا أذكركم فى العقبى، أو: فأذكرونى بالطاعات أذكركم بالمعافاة، يعنى يحييه حياة
طيبة. أو: فأذكرونى فى الخلاء والملا أذكركم فى أفضل الملا، دليله الحديث: «أنا عند ظن عبدي بى فليظن بى

مَا شَاءَ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَمَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي. وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأَ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأَ خَيْرٍ مِنْ مَلَأَهُ...» الحديث.

أو: فاذكروني في النعمة والرخاء أذكركم في الشدة والبلاء، أو: فاذكروني بالتسليم والرضا أذكركم بحسن التدبير ولطف القضاء، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أو: فاذكروني بالشوق والمحبة أذكركم بالوصال والقرية. أو: فاذكروني بالتوبة أذكركم بغفران الحوبة، أو: فاذكروني بالدعاء أذكركم بالعطاء، أو: فاذكروني بالسؤال أذكركم بالنوال، إلى غير ذلك مما لا ينحصر.

واعلم أن الذكر ثلاثة أنواع: ذكر اللسان فقط وهو ذكر الغافلين^(١)، وذكر اللسان والقلب وهو ذكر السائرين، وذكر القلب فقط، وهو ذكر الواصلين، والذكر هو أفضل الأعمال كما تقتضيه الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وهو أقرب الطرق الموصلة إلى الله تعالى، إذا كان بشيخ كامل، واعلم أن الذكر على أنواع كثيرة من تهليل وتكبير وتسبيح وحمدلة وحسبلة وحقلة وصلاة على رسول الله ﷺ، ولكل خاصية وثمره، وتجتمع في ذكر المفرد، وهو: الله، الله. فإن ثمرته الفناء في الذات، وهي الغاية والمنتهى. انظر ابن جزى.

قال الحق تعالى: واشكروا لي ما أوليتكم من إحسانى ويرى بأن تنسبوا لي لا لغيري، ولا تجحدوا إحسانى فأسلبكم ما خولتكم من إنعامى.

الإشارة: كما أنعم الله على الأمة المحمدية بأن بعث فيهم رسولا منهم يعلمهم الشريعة النبوية، ويظهرهم من شهود الغيرية، ويعلمهم العلوم الدنية، كذلك من الله تعالى على عباده من هذه الأمة في كل زمان، ببعث شيوخ التربية يظهرهم الناس من العيوب، ويدخلونهم حضرة الغيوب، ويطلعونهم على شهود القدرة الأزلية والحكمة الإلهية، ويعلمهم من غرائب العلوم، ويفتح لهم مخازن الفهوم، فيطلعون على السر المصون، ويعلمون ما لم يكونوا يعلمون، فيقول لهم الحق جل جلاله: اذكروني بأرواحكم وأسراركم، أذكركم بالغيبة عن رؤية أشباحكم، اذكروني بالفكرة والنظرة أمتعكم بدوام شهود الحضرة، واشكروا لي آلائى ويرى، ولا تكفروا بالركون إلى غيرى فإنى أسلبكم من مزيد معونتى ونصرى.

(١) الغفلة هنا باعتبار عدم موافقة القلب للسان في الذكر.

ولما أمر عباده بالشكر أمرهم بمقام الصبر لأنه أخوه في ضده؛ إذ الشكر في النعمة والصبر في البلية، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

قلت : (أحياء) و (أموات) خبران عن مبتدأ مضمر، والابتلاء هو الاختبار، حيثما ورد في القرآن، ومعناه في حقه تعالى: أنه يظهر في الوجود ما في علمه لتقوم الحجة على العبد، وليس كاختبار الناس بعضهم بعضاً؛ لأن الله علم ما كان وما يكون، و الصلاة هنا المغفرة والتطهير، و الرحمة: اللطف والإحسان.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا استعينوا» على نيل رضوانى وبرى وإحسانى «بالصبر» على مشاق الطاعات وترك المعاصى والهفوات، وبالصلاة التى هى أم العبادات، ومحل المناجاة ومعدن المصافاة، فيها تشرق شوارق الأنوار، وتتسع ميادين الأسرار، وهى معراج أرواح المؤمنين ومناجاة رب العالمين، فإن تجرعت مرارة الصبر فإن «الله مع الصابرين»، وأعظم مواطن الصبر عند مفارقة الأحباب، وذهاب العشائر والأصحاب، فإن كان موتهم فى الجهاد فلا ينبغى لأجلهم أسف ولا نكاد؛ لأنهم «أحياء عند ربهم يرزقون»، وكذلك من الحق بهم من ذى هدم وغرق وحرق ونفاس وطاعون، فلا تقولوا لمن يقتل «فى سبيل الله» من هؤلاء: هم «أموات»، «بل» هم «أحياء» حياة روحانية لا بشرية، «ولكن لا تشعرون» بحياتهم لأنهم مجرد أرواح، وأنتم قد لبستم طلسم الأشباح، فاخفى عنكم مقام الأرواح، وكذلك أرواح المؤمنين كلهم أحياء.

وإنما خص الشهداء لمزيد بهجة وكرامة. وإجراء رزقهم عليهم دون غيرهم، فى الحديث: «أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تعلق من ورق الجنة». أى: تأكل، وفى حديث آخر: «يخلق الله الشهداء جُسُوماً على صورة طير خضر، فتكون فى حواصلها، فتسرح بها فى الجنة، وتأكل من ثمارها، وتنال من خيراتها ونعيمها، حتى تحشر منها يوم القيامة».

ولا يدخل الجنة أحد غيرهم إلى ميقاتها إلا الصديقون، وهم العارفون، فهم أعظم من الجميع؛ لمزيد تصرف وإدراك وسعة روح وريحان، وتحقق شهود وعيان، فهم في نعيم الجنان كالشهداء، لكن الصديقين غير محصورين في حواصل الطيور، بل لهم هياكل وصور سرحوا بها حيث شاءوا. وكذلك من فوقهم من الأنبياء والرسل، والله تعالى أعلم.

ثم قال الحق جل جلاله: ولتختبركم يا معشر المسلمين «بشيء» قليل «من الخوف» لهيجان العدو وصوله الكفار، «والجوع» لغلاء الأسعار وقلة الثمار، «ونقص من الأموال» بموت الحيوان وتعذر التجارة أو الخسران، «والأنفس» بالموت في الجهاد، «والثمرات» بذهابها بالجوائح.

وعن الشافعي رحمته الله (الخوف خوف الله، والجوع صوم رمضان، والنقص من الأموال بالزكوات والصدقات، ومن الأنفس بالأمراض، ومن الثمرات موت الأولاد). وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ولد العبد قال الله للملائكة: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول الله تعالى: أقبضتم ثمرة قلبه؟ فيقولون: نعم. فيقول الله تعالى: ماذا قال؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد».

«وبشر الصابرين» يا من تتأتى منه البشارة؛ «الذين إذا أصابتهم مصيبة» في بدن أو أهل أو مال أو صاحب «قالوا إنا لله» ملكاً وعبيداً يحكم فينا بما يريد، «وإنا إليه راجعون» فيجازينا بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فتغيب مصائب الدنيا في جانبه.

وفي الحديث: «من أصابته مصيبة فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم أجرني في مصيبتى واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً مما أصابه» قالت أم سلمة: فلما مات زوجي أبو سلمة قلت ذلك، فأبدلني الله برسوله صلى الله عليه وسلم.

«أولئك» الصابرون الراجعون إلى الله «عليهم صلوات» أي: مغفرة وتطهير «من ربهم ورحمة» أي: عطف ولطف «وأولئك هم المهتدون» لكل خير في الدنيا والآخرة.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا بطريق الخصوص استعينوا على سلوك طريق حضرتنا ومشاهدة أنوار قدسنا بالصبر على ما تكره النفوس؛ من ترك الحظوظ والشهوات، والميل إلى العادات والمألوفات، وبالصلاة الدائمة وهي صلاة القلوب بالعكوف في حضرة الغيوب. «إن الله مع الصابرين» بالمعونة والتأييد، وإشراق أنوار التوحيد، ولا تقولوا لمن ترونه قتل نفسه بالذل والافتقار، وخرق العوائد وخلع العذار: إنه قد مات، بل هو حي لا يموت، قال

الله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ فإذا ماتت نفس المريد. واستوى عنده الذل والعز والمدح والذم، والغنى والفقر، والموت والحياة، فقد حبيت روحه واتسع عليها فضاء الشهود، وتمتعت بالنظرة إلى الملك المعبود. فلا يزيد لها الموت الحسى إلا اتصالاً وتمتعاً وشهوداً، فهي في الترقى أبداً سرمداء، ولكن لا تشعر بمرور ما هم فيه في هذه الدار وفي تلك الدار.

ويقال لهم عند إرادة سلوكهم الطريق إلى عين التحقيق: والله لنبلونكم يا معشر المریدين بشيء من إذابة الخلق وتصنيق الرزق، وذهاب الأموال، وضعف الأبدان بالمجاهدة، وتأخير الفتح بظهور ثمرة المشاهدة؛ ليظهر الصادق في الطلب بالثبوت في أحكام العبودية، حتى تشرق عليه أنوار الربوبية، من الكاذب بالرجوع إلى العوائد والشهوات، والركون إلى الرخص والتأويلات، «ويُشر الصابرين» الثابتين في الطلب، بالظفر بكل ما أملوا، وبالوصول إلى ما إليه رحلوا، الذين إذا أصابتهم نكبة أو وقفة تحققوا بضعف العبودية، وتعلقوا بقوة الربوبية، فرجعوا إلى الله في كل شيء، فأواهم إليه من كل شيء، أولئك عليهم تحنن من ربهم وتقريب، وهم المهتدون إلى جوار الحبيب.

قال ابن جزى: (فائدة) ورد ذكر الصبر في القرآن في أكثر من سبعين موضعاً؛ وذلك لعظم موقعه في الدين، قال بعض العلماء: كل الحسنات لها أجر معلوم إلا الصبر، فإنه لا يحصر أجره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وذكر الله للصابرين ثمانياً من الكرامات:

أولها: المحبة، قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾، والثاني: النصر، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، والثالث: غرفات الجنة، قال: ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾، والرابع: الأجر الجزيل، قال: ﴿إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ والأربعة الأخرى المذكورة في هذه الآية، فمنها البشارة قال: «ويُشر الصابرين»، والصلاة والرحمة والهداية قال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

والصبر على أربعة أوجه: صبر على البلاء، وهو منع النفس عن التسخط والهلع والجزع، وصبر على النعم، وهو تقييدها بالشكر وعدم الطغيان والتكبر بها، وصبر على الطاعة بالمحافظة والدوام عليها، وصبر على المعاصي بكف النفس عنها. وفوق الصبر التسليم، وهو ترك الاعتراض والتسخط ظاهراً، وترك الكراهية باطناً، وفوق التسليم الرضا بالقضاء، وهو سرور النفس بفعل الله، وهو صادر عن المحبة، وكل ما يفعل المحبوب محبوب. هـ.

ولمّا ذكر الحق تعالى الكعبة، وأمر بالتوجه إليها، ناسب أن يذكر الصفا والمروة؛ لقربهما منها ومشاركتهما لها في أمر الدين. وذلك أن الصحابة تخرجوا أن يطوفوا بهما؛ لأن الصفا كان عليه صنم يقال له إساف، وعلى المروة صنم يقال له نائلة، فخافوا أن يكون الطواف بينهما تعظيماً لهما، فرفع الله ذلك فقال:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

قلت: (الصفا) في أصل الوضع: جمع صفاة، وهي الصخرة الصلبة الملساء، يقال: صفاة وصفا، كحصاة وحصى، وقطاة وقطا، ونواة ونوى. وقيل: مفرد، وتثنيته: صفوان، وجمعه: أصفاء، و (المروة) ما لأن من الحجارة وجمعه مرو ومروات، كتمر وتمر وتمر. والمراد هنا جبلان بمكة، و (شعائر الله): أعلام دينه، جمع شعيرة أو شعارة، والشعيرة: كل ما كان معلما لقربان يتقرب به إلى الله تعالى، من دعاء أو صلاة أو أداء فرض أو ذبيحة.

والحج في اللغة: القصد، والعمرة: الزيارة، ثم غلبا شرعاً في العبادتين المخصوصتين.

وقرأ الأخوان وخلف: (يطوع) بلفظ المضارع، مجزوم اللفظ، وهو مناسب لقوله (أن يطوف)، أصله: يتطوع، أدغمت التاء في الطاء لقرب المخرج، والباقيون بلفظ الماضي، مجزوم المحل، وهو مناسب لقوله: (فمن حج البيت). و (الجناح): الإثم، من جَنَحَ إذا مال، كأن صاحب الإثم مال عن الحق إلى الباطل، و (خيراً): صفة لمصدر محذوف، أو على إسقاط الخافض.

يقول الحق جل جلاله: «إن» الطواف بين «الصفا والمروة» من معالم دينه ومناسك حجه، «فمن» قصد «البيت» للحج أو العمرة «فلا جناح عليه أن يطوف» بينهما، ولا يضره الصتمان اللذان كانا عليهما في الجاهلية؛ فإن الله محا ذلك بالإسلام، «ومن تطوع» لله بخير من حج أو عمرة أو صلاة أو غير ذلك، «فإن الله» يشكر فعله ويجزل ثوابه. واختلف في حكمه، فقال مالك والشافعي: ركن لا يجبر بالدم، وقال أبو حنيفة: فرض يجبر بالدم، وقال أحمد: سنة، والله تعالى أعلم.

الإشارة: الصفا والمروة إشارة إلى الروح الصافية والنفس اللينة الطيبة، فالاعتناء بتطهيرهما وتصفيتهما من معالم الطريق، وبهما يسلك إلى عين التحقيق، فمن قصد بيت الحاضرة لحج الروح بالفناء في الذات، أو عمرة النفس بالفناء في الصفات، فلا جناح عليه أن يطوف بهما؛ ويشرب من كأسهما، حتى يغيب عن حسهما، ومن تطوع خيراً ببذل روحه لله، والغيبة عنها في شهود مولاه، فإن الله يشكر فعله، وينشر فضله ويظهر خيره، ويتولى أمره، والله ذو الفضل العظيم.

ولما ذكر الحق تعالى نسخ القبله ردّاً على اليهود، والمنكرين للنسخ، رجع إلى معاتبته على كتمان الحق، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

قلت: الضمير في (فيها): يعود على اللعنة أو النار، وإضمارها قبل الذكر تفخيماً لشأنها، وتهويلاً لأمرها.

يقول الحق جل جلاله في شأن أخبار اليهود حيث كتموا صفة الرسول ﷺ: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ» ما أنزلناه عليهم في كتابهم من صفة محمد - عليه الصلاة والسلام - من الآيات الواضحات في شأنه، وبيان صفته وبلده وشريعته، وما يهدي إلى وجوب اتباعه، والإيمان به، «مَنْ بَعْدَمَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ» في التوراة، «أُولَٰئِكَ» الكاتمون «يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ» ويطردهم عن ساحة رحمته، «وَيَلْعَنُهُمُ» الجن والإنس، وكل من يتأتى منه اللعن، كالملائكة وغيرهم. «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا» من الكتمان، وكل ما يجب أن يتاب منه، «وَأَصْلَحُوا» ما أفسدوا من الدين بالتدارك، «وَبَيَّنَّاهُ» ما كتموا «فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ» وأرحمهم «وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» أي: المبالغ في قبول التوبة وإفاضة الرحمة، وأما من مات على الكفر ولم يتب فأُولَٰئِكَ «عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ»، ومن يُعْتَدَّ بِلْعْنَتِهِ من «الملائكة والناس أجمعين» خالدين في اللعنة أو في النار «لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ» ساعة، ولا هم يمهلون عنه، أو لا ينتظرون للاعتذار أو الفداء.

الإشارة: ما قيل في أخبار اليهود يقال مثله في علماء السوء من هذه الأمة، الذين ملكتهم جيفة الدنيا، وأسروهم الهوى، الذين يقبضون الرشاً على الأحكام، فيكتمون المشهور الواضح، ويحكمون بشهوة أنفسهم، فأُولَٰئِكَ يلعنهم اللاعنون، وفي ذلك يقول ابن المبارك - رحمه الله -:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ	وَأَحْبَبَ أَسْوَأَ رَهْبَانُهَا
وَبَاعُوا النُّفُوسَ وَلَمْ يَرْتَحُوا	وَلَمْ تَغْلُ فِي الْبَيْعِ أَثْمَانُهَا
لَقَدْ رَتَعَ الْقَوْمُ فِي جِيفَةٍ	يَبِينُ لِيذِي الْعَقْلِ إِنْتَانُهَا

وكان يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله يقول لعلماء وقته: (يا معشر العلماء، دياركم هَامَانِيَّة، وملايسكم قَارُونِيَّة، ومراكبكم فرعونِيَّة وولانمكم جالوتِيَّة، فأين السنة المحمدية؟). إلا من تاب وأصلح ما أفسد، وبين ما كتم، فأُولَٰئِكَ يتوب الله عليهم.

تنبيه : العلم باعتبار وجوب إظهاره وكتمه على ثلاثة أقسام:

قسم يجب إظهاره ، ومن كتمه دخل في وعيد الآية، وهو علم الشريعة الظاهرة، إذا تعين على المسئول بحيث لم يوجد من يفتي في تلك النازلة.

وقسم يجب كتمه ، وهو علم سر الربوبية، أعلى التوحيد الخاص، فهذا لا يجوز إفشاؤه إلا لأهله، وهو من بذل نفسه وفسده وخرق عوائد نفسه، فهذا لا يحل كتمه عنه إذا طلبه.

وقسم يستحب كتمه، وهو أسرار القدر المغيبات، فهذا من باب الكرامات يستحب كتمها ولا يجب، والله تعالى أعلم.

هنا انتهى العتاب لبني إسرائيل والكلام معهم، وابتدأه من قوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم...﴾. وإنما تخلل الكلام ذكر إبراهيم وبنيه توطئة لنسخ القبلة الذي أنكروه، فذكر بناء الكعبة وبيان شرفها، وانجر الكلام إلى ذكر الصفا والمروة لقرب المناسبة والجوار. فلما فرغ من عتابهم دلهم على التوحيد، وشاركهم في ذلك غيرهم، فقال:

﴿وَالْهَيْكُلُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَاهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

قلت : «إلهكم إله واحد» مبتدأ وخبر، وجملة «لا إله إلا هو» : تقرير لها وتأکید، و «الرحمن الرحيم» : خبران آخران، أو عن مبتدأ مضمرة، وأنث «الفلك» لأنه بمعنى السفينة، و «من السماء» ابتدائية، و «من ماء» بيانية، و «بث» : عطف على «أنزل» أو «أحيا» لأن الحيوانات تنمو بنزول المطر والخصب، و البث : النشر والتفريق و «تصريف الرياح» : هبوبها من الجهات المختلفة.

يقول الحق جل جلاله : «والهكم» يا معشر العباد الذي يستحق أن يعبد «إله واحد» لا شريك له، ولا نظير، ولا ضد له ولا ند، «لا إله إلا هو»، إذ لا يستحق العبادة غيره، إذ هو «الرحمن» بنعمة الإيجاد «الرحيم» بنعمة الإمداد، فكل ما سواه مكن مخلوق، إما منعم عليه أو نعمة، فلم يستحق العبادة غيره.

ثم برهن على وجوده، وثبوت وحدانيته بثمانية أمور، فقال: «إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ» طباقاً متفاصلة مرفوعة بغير عمد، وما اشتملت عليه من الكواكب والبروج والمنازل، وفي «الْأَرْضِ» وما اشتملت عليه من الجبال والبحار والأنهار والأشجار وأنواع الثمار، وفي «اِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» بالطول والقصر، أو تعاقبهما بالذهاب والمجيء، (و) في «الْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ» بقدرته مع إمكان رسوبها إلى الأسفل، متبسة «بِهَا يَنْفَعُ النَّاسُ» من التجارة وغيرها. وقال البيضاوي: القصد الاستدلال بالبحر وأحواله، وتخصيص الفلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه؛ ولذلك قَدِّمه على ذكر المطر والسحاب، لأن منشأهما منه في الغالب. هـ.

(و) في «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ» من غير ظهور مادة سابقة، بل تبرزه القدرة من عالم الغيب قريب عهد بالله، ولذلك (كان عليه الصلاة والسلام يَتَمَطَّرُ) أى: يَتَصَبُّ وجهه للمطر إذا نزل تبركاً به، «فَأَحْيَا» الحق تعالى بذلك المطر «الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» وَيَبْسِهَا، بالنبات والأزهار وأصناف الثوار والثمار، وفيما نشر «فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ» من النملة إلى الفيلة، (و) في «تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ» وهبوبها من جهات مختلفة، وهى الجهات الأربع وما بيدها بصفات مختلفة، مُتَقَحَّةٌ للشجر وعقيم وصِرَ^(١)، وللنصر والهلاك، (و) في «السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ» أى: المُنْزَلُ «بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» لا يسقط ولا يرتفع، مع أن الطبع يقتضى أحدهما، أو مسخر للرياح تُقَلِّبه في جو السماء بمشيئة الله «لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». أى: تلك المخلوقات آيات دالة على وحدانيته تعالى وباهر قدرته، و﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

وفى الآية حُضٌّ على التفكير، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «وَيْلٌ لِّمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فَمَجَّ بِهَا»^(٢)، أى: لم يتفكر فيها، وفيها دلالة على شرف علم التوحيد العام والخاص. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال الجديد: (التوحيد معنى تَضَمُّنٌ فيه الرسوم وتدرج فيه العلوم، ويكون الله كما لم يزل). قلت: وهذا هو التوحيد الخاص، أعنى توحيد أهل الشهود والعيان. ثم قال: (وأصوله خمسة أشياء: رفع الحدث، وإثبات

(١) ريح صر وصرصر: شديدة البرد.

(٢) لم يرد هذا الحديث فى شأن هذه الآية، وإنما ورد فى شأن قوله تعالى: (إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولَى الْأَبْصَارِ) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران. وأخرجه ابن حبان فى صحيحه (الإحسان: كتاب الرقاق: باب التوبة ١٠/٢) مطولاً عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

القدم، وهُجْرَانُ الْإِخْوَانِ، ومفارقةُ الأوطانِ، ونسيانُ ما عَلِمَ وَجَهْلٍ). هـ. قلت: قوله: (وهجران الإخوان)، يعنى: غيرَ مَنْ يَسْتَعِينُ بِهِمْ عَلَى السَّيْرِ، وأما مَنْ يَسْتَعِينُ بِهِمْ فَلَا يَسْتَغْنَى عَنْهُمْ.

واعلم أن توحيد الخلق لله تعالى على ثلاث درجات:

الأولى: توحيد العامة: وهو الذى يعصمُ النفسَ والمالَ، وينجُو به من الخلود فى النار، وهو نفىُ الشركاءِ والأندادِ، والصاحبةِ والأولادِ، والأشباهِ والأضدادِ.

الثانية: توحيد الخاصة: وهو أن يرى الأفعال كلها صادرة من الله وحده، ويشاهد ذلك بطريق الكشف لا بطريق الاستدلال، فإن ذلك حاصل لكل مؤمن، وإنما مقامُ الخاصة يقينٌ فى القلب بعلم ضرورى لا يحتاج إلى دليل، وثمره هذا العلم الانقطاعُ إلى الله، والتوكل عليه وحده، فلا يرجو إلا الله، ولا يخاف أحدا سواه، إذ ليس يرى فاعلا إلا الله، فيطرحُ الأسبابَ، وينبذ الأريابَ.

الدرجة الثالثة: ألا يرى فى الوجود إلا الله، ولا يشهد معه سواه، فيغيبُ عن النظر إلى الأكوان فى شهود المكون، وهذا مقامُ الفناء، فإن رُدَّ إلى شهود الأثر بالله سُمى مقامُ البقاء. هـ. قال بعضه ابنُ جزى باختصار.

قلت: وفى التحقيق أنهما مقامان؛ مقام أهل الدليل والبرهان، وهو المذكور فى الآية، لأنه هو الذى يطيقه جميع العباد، ومقام أهل الشهود والعيان، وهو خاص بالأفراد الذين بذلوا مهجهم فى طلب الله، باعوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله، فعوضهم الله فى الدنيا جنة المعارف، وزادهم فى الآخرة جنة الزخارف.

(أهل الدليل والبرهان عمومٌ عند أهل الشهود والعيان)؛ لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق تعالى عن أن يحتاج إلى دليل، فكيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟ كيف يستبدل عليه بما هو فى وجوده مفتقر إليه؟ أ يكون لغيره من الظهور ما ليس له؟ - متى غاب حتى يحتاج إلى دليل عليه؟ ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه؟ - والله در القائل:

لقد ظهرتَ فما تخفىَ على أحدٍ إلا على أكمه لا يبصرُ القمرَ

لكن بطنتَ بما أظهرتَ محتجبا وكيف يبصرُ من بالعزة استترا؟

وقال آخر (١):

ما لِلْحِجَابِ مَكَانٌ فِي وَجُودِكُمْ إِلَّا بِسِرِّ حُرُوفٍ (انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ)
 أَنْتُمْ دَلَّلْتُمْ عَلَيْكُمْ مِنْكُمْ وَلَكُمْ دَيْمُومَةٌ عَبَّرَتْ عَنْ غَامِضِ الْأَزَلِ
 عَرَفْتُمْ بِكُمْ هَذَا الْخَبِيرَ بِكُمْ أَنْتُمْ هُمْ يَا حَيَاةَ الْقَلْبِ يَا أَمَلِي

ولما كانت المحبة تزيد وتنقص باعتبار شهود الوجدانية، فكلمنا قَوَى التوحيد في القلب قويت المحبة؛
 لانحصارها في واحد، ذكرها بأثر التوحيد، فقال:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...﴾

قلت: ويحتمل في وجه المناسبة، أن يكون الحق تعالى لما ذكر دلائل التوحيد ذكر من أعرض بعد وضوحها
 فأشرك معه، ليرتب بعد ذلك ما أعد له من العذاب، و الأنداد: جمع نِدَ وهو المثل، والمراد هنا الأصنام أو
 الرؤساء، والإضافة في «حُبِّ الله» من إضافة المصدر إلى مفعوله، والحب: ميل القلب إلى المحبوب، وسيأتي في
 الإشارة، إن شاء الله.

يقول الحق جل جلاله: «ومن الناس من يتخذ من دون الله أشباها وأمثالا من الأصنام والرؤساء
 «يحبونهم»، وينقادون إليهم، كما يحبون الله تعالى، فيسبون في المحبة بين الله تعالى العلى الكبير، وبين المصنوع
 الذليل الحقير، «والذين آمنوا بالله ووحدوه «أشد حبا لله»؛ لأن المؤمنين لا يلتفتون عن محبتهم في الشدة ولا
 في الرخاء، بخلاف الكفار فإنهم يعبدونهم في وقت الرخاء، فإذا نزل البلاء التجأوا إلى الله. قال تعالى: ﴿ثم إذا
 مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ الآية، وأيضا: المؤمنون يعبدون الله بلا واسطة، والكفار يعبدونه بواسطة أصنامهم «ما
 نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» وأيضا المؤمنون يعبدون رباً واحداً فاتحدت محبتهم.

قال سعيد بن جبیر: (إن الله تعالى يأمر يوم القيامة من عبد الأصنام أن يدخلوا النار مع أصنامهم، فيمتنعون
 لعلمهم بالخلود فيها، ثم يقول للمؤمنين بين يدي الكفار: إن كنتم أحبائي فادخلوا، فيقتحم المؤمنون النار، وينادي
 مُنَادٍ مِنْ تَحْتَ الْعَرْشِ: «والذين آمنوا أشد حبا لله»). وفي ذلك يقول ابن الفارض:

(١) وهو المشتري.

أَحِبَّايَ أَنْتُمْ، أَحْسَنَ الدَّهْرِ أَمَ أَسَا فكونوا كَمَا شِئْتُمْ، أَنَا ذَلِكَ الْخَلُّ
وقال أيضا:

لَوْ قَالَ تَبِهَا: قَفَّ عَلَى جَمْرِ الْغَضَا^(١)، لَوَقَفْتُ مُنْتَلَا وَلِــــمَّ أَتَوَقَّفُ
وقال آخر:

وَلَوْ عَذَّبْتَنِي فِي النَّارِ حَتْمًا دَخَلْتُ مُطَارِعًا وَسْطَ الْجَحِيمِ
إِذَا كَانَ الْجَحِيمُ رِضَاكَ عَنِّي فَمَا ذَاكَ الْجَحِيمُ سِوَى نَعِيمِ

الإشارة: المحبة: ميلٌ دائم بقلب هائم، أو مراقبة الحبيب في المشهد والمغيب، أو مواطأة القلب لمراد الرب، أو خوف ترك الخدمة مع إقامة الحرمة، أو استئصال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك، أو معانقة الطاعة ومباينة المخالفة، وقال الشبلي: (أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك) والمحبة على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له غير مشيئته، وقال الشيخ أبو الحسن رحمته: (المحبة أخذة من الله لقلب عبده المؤمن عن كل شيء سواه، فتري النفس مائلة لطاعته، والعقل متحصنا بمعروفه، والروح مأخوذة في حضرته، والسر مغمورا في مشاهدته، والعبد يستزيد من محبته فيزداد، ويفتح بما هو أعذب من لذية مناجاته، فيكسى حال التقريب على بساط القرية، ويمس أبكار الحقائق وثيبات العلوم، فمن أجل ذلك قالوا: أولياء الله عرائس، ولا يرى العرائس المجرمون...) إلخ كلامه.

واعلم أن محبة العبد لمولاه سببها شيان:

أحدهما: نظر العبد لإحسان الله إليه وضروب امتنانه عليه، وجبيلات القلوب على حب من أحسن إليها، وهذا هو المسمى بحب الهوى، وهو مكتسب، لأن الإنسان مغمور بإحسانات الله إليه، ومتمكن من النظر فيها، فكلما طالع منة من منن الله التي لا تقبل الحصر ولا العد، كان ذلك كحبة زُرعت في أرض قلبه الطيب الزكي، فلا يزال يطالع منة بعد منة، وكل منة أعظم من التي قبلها، لأنه كلما طالع المنن تنور قلبه وازداد إيمانا، وكشف من دقائق المنن ما لم يكن يكشف له قبل، وظهر له خفايا المنن، وعظمت محبته.

(١) الغضي: شجر خشبه من أصلاب الخشب، وجمره يبغي زمانا طويلا لا ينطفئ.

الثاني : كشف الحجب، وإزالة الموانع عن ناظر القلب، حتى يرى جمال الحق وكماله، والجمال محبوب بالطبع، وهذان هما اللذان قصدت رابعة العدوية - رضى الله عنها - :

أَحِبُّكَ حُبِّينَ : حُبَّ الْهَوَى	وَحُبًّا لَأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَلِكَ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُسْبُ الْهَوَى	فَشَغْلَى بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ	فَكَشْفُكَ لِلْحُجْبِ حَتَّى أَرَاكَ
فَلَا الْحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي	وَلَكِنَّ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ

وانما خَصَّصَتْ الحُبَّ الناشئ عن شهود الجمال بالأهلية دون الأول، وإن كان أهلا للجميع؛ لأن هذا منه إليه، لا كسب للعبد فيه، والآخر فيه كسب، وعمل العبد معلول، وقولها: (فشغلى بذكرك عمن سواك) من باب التعبير بالمسبب عن السبب، والأصل: فثمرته شغلى بذكرك عمن سواك، فهو مسبب عن المحبة لأنفسنا، وقولها أيضا (كشفك للحجب حتى أراك)، من باب التعبير بالسبب عن المسبب، والأصل، فبسببه كشفك للحجب حتى رأيتك بعينى قلبى. وقولها: (فلا الحمد...) إلخ، إخبار منها بأن الحُبَّين معاً منه وإليه وبه فى الحقيقة، لا كسب لها فى واحد منهما باعتبار الحقيقة، بل هو الحامد والمحمود، وإدراك التفاوت بين المقامين، - أعنى بين المحبة الناشئة عن شهود الإحسان، والناشئة عن شهود الجمال - ضرورى عند كل ذائق، وأن الثانية أقوى. قاله فى شرح الشريشية (١).

قال ابن جزى: اعلم أن محبة العبد لربه على درجتين؛ أحدهما: المحبة العامة، التى لا يخلو منها كل مؤمن، وهى واجبة، والآخرى: المحبة الخاصة التى ينفرد بها العلماء الربانيون والأولياء والأصفياء، وهى أعلى المقامات، وغاية المطلوبات، فإن سائر مقامات الصالحين: كالخوف والرجاء والتوكل، وغير ذلك، مَبْنِيَّةٌ عَلَى حُظُوظِ النَّفْسِ، ألا ترى أن الخائف إنما يخاف على نفسه، والراجى إنما يرجو منفعة نفسه، بخلاف المحبة، فإنها من أجل المحبوب فليست من المعاوضة.

واعلم أن سبب محبة الله: معرفته، فتقوى المحبة على قدر المعرفة، وتضعف على قدر ضعف المعرفة، فإن الموجب للمحبة أحد أمرين أو كلاهما إذا اجتمعا، ولا شك أنهما اجتمعا فى حق الله تعالى على غاية الكمال؛

(١) الشريشية للشيخ أحمد بن محمد البكرى الشريشى، وشارحها أحمد بن يوسف الفاسى.

فالموجب الأول: الحسن والجمال، والآخر الإحسان والإجمال، فأما الجمال فهو محبوب بالطبع، فإن الإنسان بالضرورة يحب كل ما يستحسن، ولا جمال مثل جمال الله تعالى، في حكمته البالغة وصنائه البديعة، وصفاته الجميلة الساطعة الأنوار، التي تروق العقول وتبهج القلوب، وإنما يدرك جماله تعالى بالبصائر لا بالأبصار.

وأما الإحسان فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وإحسان الله إلى عباده متواتر، وإنعامه عليهم باطن وظاهر، ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾، ويكفيك أنه يحسن إلى المطيع والعاصي، وإلى المؤمن والكافر، وكل إحسان ينسب إلى غيره فهو في الحقيقة منه وحده، فهو المستحق للمحبة وحده.

واعلم أن محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح، من الجد في طاعته، والنشاط لخدمته، والحرص على مرضاته والتلذذ بمناجاته، والرضا بقضائه، والشوق إلى لقائه، والأنس بذكره، والاستيحاش من غيره، والفرار من الناس، والانفراد في الخلوات، وخروج الدنيا من القلب، ومحبة كل ما يحب الله، وكل من يحب الله، وإيثار الله على كل ما سواه.

قال الحارث المحاسبى: (المحبة ميلك إلى المحبوب بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك، ثم موافقته سرا وجهرا، ثم علمك بتقصيرك في حبه).

قلت: ظاهره أن المحبة أعلى من المعرفة، والتحقيق أن المعرفة أعلى من جميع المقامات؛ لأنها لا تبقى معها بقية من الحجاب أصلا، بخلاف المحبة، فإنها تكون مع بقية الحجاب، ألا ترى أن المحب يستوحش من الخلق، والعارف لا يستوحش من شيء لمعرفته في كل شيء.

قال في الحكم: > إنما استوحش العباد والزهاد من كل شيء لغيبته عن الله في كل شيء، ولو عرفوا الله في كل شيء ما استوحشوا من شيء. وأيضاً: العارف أكمل أدبا من المحب؛ لأن المعرفة إنما تحصل بعد كمال التهذيب والتدريب، وقد تحصل المحبة قبل كمال التهذيب، مع أن المعرفة هي غاية المحبة ونهايتها، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق وعيد من أشرك مع الله في عبادته أو محبته، بعد وضوح برهان وحدانيته، فقال:

﴿... وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۝١٦٥﴾
 إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُكُمْ لَنَكْفِيَنَّكُمْ مَا تَدْرِكُنَا بِهِمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَبْلَ ۚ فَكَيْفَ يُقْبَلُ مِنْكُمْ شِرْكُ اللَّهِ ۚ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَبُولٌ عَدِيمٌ ۝١٦٧﴾

قلت: «لو» شرطية، و«ترى» شرطها، قرأ نافع وابن عامر ويعقوب بالخطاب للنبي ﷺ أو لكل سامع، والباقون بالغيب وإسناده إلى الظالم، لأنه المقصود بالوعيد والتهديد، و«إذا» ظرف للرؤية، وموضع «يرون» خفض بالإضافة، قرأ ابن عامر بضم الياء، على البناء للمفعول، والفاعل الحقيقى هو الله تعالى، بدليل «يريههم الله»، والباقون بالفتح على البناء للفاعل، على حد: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾. و«أن القوة» معمول للجواب المحذوف، تعظيماً لشأنه، والتقدير: لو ترى يا محمد، أو يا من يسمع، الذين ظلموا حين يرون العذاب، أو يريهم الله العذاب، لرأيت أمراً فظيماً وخطباً جسيماً، ولعلمت أن القوة لله جميعاً.

و«جميعاً» حال، أى: أن القوة ثابتة فى حال اجتماعها، وقرأ أبو جعفر ويعقوب (إن) بالكسر فى الموضعين على الاستئناف، و (إذا تبرأ) بدل من (إذا يرون)، والأسباب: العهود والوصل التى كانت بينهم فى الدنيا يتوادون عليها، وأصل السبب: كل شئ يتوصل به إلى شئ، ومنه قيل للحبل الذى يصعد به: سبب، والطريق: سبب، قال الشاعر (١):

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنِيِّ يَلْقَهَا وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمٍ

(و.حسرات): حال، إن كانت بصرية، على مذهب أهل السنة، أو مفعول ثالث إن كانت علمية على مذهب المعتزلة القائلين بعدم تشخص الأعمال.

يقول الحق جل جلاله: «ولو ترى» يا محمد، أو كل من يتأتى منه الرؤية، حال «الذين ظلموا» باتخاذهم الأنداد والأوثان، بعد وضوح الأدلة وسطوع البرهان، حيث «يرون العذاب» محيطاً بهم، والزبانية تغلبهم، والنار تلتقطهم، لرأيت أمراً فظيماً، وخطباً جسيماً، ولعلمت «أن القوة لله جميعاً»، أو لو يرى الذين ظلموا العذاب الذى أعد لهم بسبب شركهم، لرأوا أمراً عظيماً، ولتيقنوا «أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب».

وذلك حين يتبرأ المتبوعون - وهم الرؤساء -، من الأتباع - وهم القلة الضعفاء - والحالة أنهم «رأوا العذاب» الفظيع، «وتقطعت بهم الأسباب» أى: أسباب المودة والوصلات التى كانت بينهم فى الدنيا، وصارت مودتهم عداوة، ﴿وَقَالَ﴾ حينئذ الضعفاء «الذين اتبعوا» شياطينهم فى الكفر والضلال: «لو أن لنا كرة» أى: رجعة للدنيا «فنتبرأ منهم» أى: من كبرائهم «كما تبرءوا منا» اليوم. «كذلك» أى: مثل ذلك الإبراء الفظيع «يريههم الله أعمالهم حسرات» وندامات «عليهم» فيدخلون النار على سبيل الخلود، «وما هم بخارجين من النار».

(١) وهو زمير بن أبى سلمى.

الإشارة: يا من أقبل على مولاه، وجعل محبة سيده بُقِيته ومُنَاه، فلم يُشرك في محبة حبيبه سواه، لو رأيت من ظلم نفسه باتباع هواه، وأشرك مع الله في محبته سواه، باتباع حظوظ دنياه، وذلك حين يرون ما هم فيه من الانحطاط والبعاد، وما أعد الله لأهل المحبة والوداد من الفوز بالقرب من الحبيب، ومشاهدة جمال القريب، لرأيت أمرا عظيما وخطبا جسيما، ولعلمت أن القوة كلها لله، قَرَبَ مَنْ شَاءَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَأَبْعَدَ مَنْ شَاءَ بِعَدْلِهِ وَحُكْمَتِهِ، وذلك حين يتبرأ الأكابر في الجرم من الأصاغر، ويقع التفريق بين الأصحاب والعشائر، إلا من اجتمعوا على محبة الحبيب، وتعاونوا على طاعة القريب المجيب، ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾. لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله - فكل من صحب أهل الغفلة أو ركن إلى أهل الدنيا فلا بد أن يرى ذلك حسرات يوم القيامة، يوم لا ينفع الندم وقد زل القدم. والله درُّ صاحب العينية ﷺ حيث يقول:

وَقَاطِعُ لِمَنْ وَاصَلَتْ أَيَّامَ غَفْلَةٍ فَمَا وَاصَلَ الْعَذَالَ إِلَّا مَقَاطِعُ
وَجَانِبُ جَنَابِ الْأَجْنَبِيِّ لَوْ أَنَّهُ لِقُرْبِ انْتِسَابٍ فِي الْمَنَامِ مُضَاجِعُ
فَلِلنَّفْسِ مِنْ جَلَّاسِهَا كُلِّ نَسَبَةٍ وَمِنْ خَلَّةِ الْقَلْبِ تِلْكَ الطَّبَائِعُ

ولما حذر الحق تعالى من الشرك الجلى والخفى، حذر من متابعة المشركين فى التحريم والتحليل بلا حكم شرعى فقال:

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

قلت: «حلالا» حال، أو مفعول به، و«طيبا» نعت له، و«الخطوات» جمع خطوة، وهى بالفتح - مصدر خطأ يخطو، وبالضم - اسم لمسافة ما بين القدمين، ويكسر على خطأ، ويصحح على خطوات، مثلث الطاء، أعنى: الضم على الإتياع، كغرفات وقريات، قال ابن مالك:

وَالسَّالِمَ الْعَيْنِ الثَّلَاثَى اسْمًا أَنْلَ إِتْبَاعَ عَيْنٍ فَأَهَّ بِمَا شَكَلَ

والسكون على الأصل فى المفرد، والفتح تخفيفا، قال فى الألفية:

وَسَكَنَ الْقَالِي غَيْرَ الْفَتْحِ أَوْ خَفَّفَهُ بِالْفَتْحِ فَكَلَّا قَدْ رَوَا

وقرئ فى المتواتر بالضم والإسكان، وفى الشاذ بالفتح.

قال الخليل: (خطوات الشيطان: آثاره وطرقه، يقول: لا تقتدوا به). هـ. وأصل السوء: كل ما يسوء صاحبه ويحزنه. والفحشاء: ما قبح من القول والفعل، مصدر فحش كالبأساء والضراء والأواء.

قال ابن عباس: (الفحشاء: ما فيه حد، والسوء: ما لا حد فيه)، وقال مقاتل: (كل ما في القرآن من ذكر الفحشاء فإنه الزنا، إلا قوله: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ فإنه البخل). قال البيضاوي: السوء والفحشاء: ما أنكره العقل واستقبحه الشرع، والعطف لاختلاف الوصفين، فإنه سوء لا غتمام العاقل به، وفحشاء باستقبحه إياه، وقيل: السوء يعم القبائح، والفحشاء ما تجاوز الحد في القبح. هـ.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الناس كلوا» من جميع ما خلقنا لكم في الأرض من نباتها مما يُستطاب أكله، وحيواناتها إلا ما حرّمناه عليكم، حالة كون ذلك «حلالاً» قد انحلت عنه التبعات، وزالت عنه الشبهات، «طيباً» مستلذاً يستلذه الطبع، ويستحسنه الشرع، «ولا تتبعوا» طرق «الشيطان» فتحرّموا برأيكم ما أحل الله لكم، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وبعض الحرث الذي جعلتموه للأصنام، فإن ذلك من تزيين الشيطان، وهو «لکم عدو مبین». ومن شأن العدو الخداع والغرور، فإتما يأمركم بما يسوء وجوهكم من الذنوب، وما يردكم من قبائح المعاصي والعيوب، «وأن تقولوا على الله» ما لا علم لكم به من تحليل الحرام، أو تحريم الحلال، أو ادعاء الولد أو الصاحبة في جانب الكبير المتعال.

الإشارة: اعلم أن الحق تعالى جعل للبشرية قوتا ونعيما تتنعم به، وجعل للروح قوتا ونعيما تتلذذ به، فقوت البشرية الطعام والشراب، ونعيمها: الملابس والمناكب والمراكب. وقوت الروح: اليقين والعلوم والأنوار، ونعيمها: الشهود والاستبصار، والترقى في المعارف والأسرار، فكما أن النفس تأكل مما في الأرض حلالا طيبا، كذلك الروح تأكل مما في الأرض حلالا طيبا، إلا أن أكل النفس حسي، وأكل الروح معنوي، وهو التفكير والاعتبار، أو الشهود والاستبصار، وفي ذلك يقول المجدوب عليه السلام:

الْخَلْقُ نَوَّارٌ	وَأَنَا رَعِيْتُ فِيهِمْ
هُمْ الْحِجَابُ الْأَكْبَرُ	وَالْمَدْخَلُ فِيهِمْ

وقال المشتري عليه السلام:

عَيْنُ الزَّحَامِ هُوَ	الْمَسِيرُ لِحَيَاتِنَا
------------------------	-------------------------

وكان شيخُ شيوخنا سيدى على رحمته الله يقول: (من أراد أن يذوق فليذهب إلى السوق). وذلك لأنه مظنة الزحام، وفيه عند الأقوياء الريح التام، فيقال لهم: يا أيها الناس الكاملون فى الإنسانية؛ كلوا مما فى الأرض بأرواحكم وأسراركم، شهودا واعتبارا، حلالا طيبا، ولا تتبعوا خطوات الشيطان، فتقفوا مع ظواهر الأكوان، فتُحجبوا عن الشهود والعيان، فإنه لكم فى صورة العدو المبين، لكنه فى الحقيقة يحوشكم إلى الرسوخ والتمكين، لأنه كلما حرككم بنزغهِ فزَعَمَ إلى رِكم فى دفعه، حتى يمكنكم من حضرته، فإنما يأمركم بما يسوء وجوهكم ويغُم قلوبكم، من مفارقة شهود الأحباب، والوقوف من وراء الباب، وأن تقولوا على الله ما ليس بحق ولا صواب، كذبوت السوى، أو الالتفات إلى الهوى. والله تعالى أعلم.

ثم أعلمنا الحق تعالى أن بعض من سبق عليه الشقاء لا يخرج عن هواه، ولا يجيب من دعاه، فقال:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أُولَٰئِكَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ١٧٠

قلت: الضمير فى (لهم) يعود على (من يتخذ من دون الله أندادا)، أو على (الناس)، من قوله: (يا أيها الناس)، أو على (اليهود) المتقدمين قبل، وألفى: بمعنى وجد، يتعدى إلى مفعولين، وهما هنا: (آباءنا) والجار والمجرور، أى: نتبع فى الدين ما وجدنا آباءنا كائنين عليه.

يقول الحق جل جلاله: «وَإِذَا قِيلَ» لهؤلاء المشركين من كفار العرب: «اتبعوا ما أنزل الله» على رسوله من التوحيد، وترك الأنداد له والأمثال، وتحريم الحرام وتحليل الحلال، «قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ» ما وجدنا «عليه آباءنا» من عبادة الأصنام، وارتكاب المعاصى والآثام، قال الحق جل جلاله: أيتبعونهم تقليدا وعمى، ولو كان آباؤهم جهلة «لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا» من الدين، ولا يفكرون فى سبيل المهتدين؟! وقال ابن عباس: رضى الله عنهما -: دعا النبى ﷺ اليهود إلى الإسلام، ورغبهم فيه، فقال له رافع بن خارجه ومالك بن عوف: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا خيرا وأعلم منا، فأنزل الله تعالى هذه الآية. هـ.

الإشارة: وإذا قيل لمن أكْبُ على دنياءه واتخذ إلهه هواه، فأشرك فى محبة الله سواء: أقلع عن حظوظك وهواك، وأفرد الوجهة إلى مولاك، واتبع ما أنزل الله من وجوب مخالفة الهوى ومحبة المولى، قال: بل أتبع ما وجدت عليه الآباء والأجداد، وأكْبُ عليه جلُّ العباد، فيقال له: أنتبِعهم فى متابعة الهوى، ولو كانوا لا يعقلون شيئا

من طرق الهدى؟ وقد قال - عليه الصلاة والسلام - : «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» . هـ .

ثم ضرب الحق مثلا لمن تبع هواه، فأصممه وأعماه، فقال:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمَىٰ فَهَمُّ

لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

قلت: (ومثل) إلخ، يحتمل أن يكون على حذف مضاف، أي: مثلُ واعظِ الذين كفروا، أو لا يحتاج إلى تقدير. وسيأتى بيانه، ونعق، كضرب، ينق نعقا ونعيقا، إذا صاح وزجر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومثل﴾ واعظ ﴿الذين كفروا﴾ وداعبهم إلى الله ﴿كمثل﴾ الراعى الذى يرعى البهائم، وينعق عليها؛ ليزجرها، أو يدعوها فإذا سمعت النداء رفعت رءوسها ولم تعقله، ثم عادت إلى مراعيها، فلا تسمع من الراعى يزجرها ﴿إلا دعاء ونداء﴾، ولا تفقه ما يقول لها، كذلك الكفار المنهمكون فى الكفر، إذا دعاهم أحد إلى التوحيد لا يلتفتون إليه، ولا يفقهون ما يقول لهم، كالبهائم أو أضل.

أو ﴿مثل الذين كفروا﴾ فى انهماكهم فى التقليد والجهل، مع مَنْ يدعوهم إلى الله ﴿كمثل﴾ بهائم الذى ينق ويصيح عليها صاحبها فلا تسمع ﴿إلا دعاء ونداء﴾ ولا تفقه ما يقول لها، أو ﴿مثل الذين كفروا﴾ فى دعائهم الأصنام التى لا تسمع ولا تعقل، كمثل الناعق بغنمه، فلا ينتفع من نعيقه بشيء، غير أنه فى عناء وتعب من دعائه وندائه، ثم وصفهم بالصمم والبكم والعمى مجازا، أى: هم «صم» عن سماع الحق فلا يعقلونه، «بكم» عن النطق به، «عمى» عن النظر إلى أسبابه، أو عن الهدى فلا يبصرونه، «فهم لا يعقلون» شيئا ولا يتدبرون.

الإشارة: إذا تمكن الهوى من القلوب عز دواؤه وشق علاجه، وعظم على الأطباء عناؤه، فالمنهمكون فى الغفلة لا ينفع فيهم التذكير، ولا ينجح فيهم التخويف والتحذير، فالواعظ لهم كالناعق بالبهائم التى لا تسمع إلا دعاء ونداء، قد أعماهم الهوى، وأصمهم عن سماع أسباب الهدى.

(إِنَّ الْهَوَىٰ مَا تَوَلَّى يَصْمُ أَوْ يَصِمُ) (١)

(١) قوله: (يصم)، أى: يقتل، من أصميت الصيد، إذا رميته فقتلته وأنت تراه، وقوله: (أو يصم) أى: يعيب، من الوصم، وهو العيب، يقال: ما فى فلان رصمة، أى: عيب. قلت: وهذا شطر بيت، أوله: (فأصرف هواها وحاذر أن توليه) والبيت من القصيدة المعروفة بالبردة للبوصيرى

فلا يُقلع الهوى من قلوبهم إلا بسابق العناية، أو هبوب ريح الهداية، فتثير في قلوبهم خوفاً مزعجاً، أو شوقاً مُقلِّقاً، أو نوراً خارقاً ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ .

ولما فرغ من تذكير الكفار وتخويفهم ذكّر المؤمنين، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٢) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٧٣) ﴿

قلت: أصل اضطرَّ: اضْطَرَّ، على وزن افتعل، من الضرر، أبدلت التاء طاءً لقرب مخرج التاء من الطاء، قال في الألفية: ط ا تا افتعال ردّ إثر مطبق

ثم أدغمت الراء في الراء بعد ذهاب حركتها، وقرأ أبو جعفر: بكسر الطاء حيث وقع. ووجهه: نقل حركة الراء إلى الطاء، وأصل البغى: قصد الفساد، يقال: بغى الجرح بغياً، إذا ترامي إلى الفساد، ومنه قيل للزنا: بغاء، وللزانية: بغى، وأصل العدوان: الظلم ومجاوزة الحد، يقال: عداً يعدو عدواناً وعدواً.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا كلوا» من لذيذ «طيبات ما رزقناكم» وقِفُوا عند ما حلّ لكم ولا تحرموا برأيكم ما أحلّنا لكم، كما فعل مَنْ سَلَفَ قبلكم، «واشكروا» نعمة الله عليكم الظاهرة والباطنة «إن كنتم» تَخْصُونَهُ بعبادتكم، فقد أحلّنا لكم جميع ما خلقنا لكم على وجه الأرض التي تُنْقَلِكُمْ.

«إنما» حرّما «عليكم» ما فيه ضرركم كالميتة لخبثها، «والدم» لأنه يقسى قلوبكم، «ولحم الخنزير» لأنه يورث عدم الغيرة، وما ذكر عليه غير اسم الله، وهو الذي «أُهِلُّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ» أي: رُفِعَ الصوت عند ذبحه لغير الله، وهو الصنم «فمن اضطر» وألجئ إلى شيء من هذه المحرمات، «غير باغ» أي: ظالم بأكلها اختياراً، «ولا عاد» متعدّ يتعدى الحلال إلى الحرام، فيأكلها وهو غنى عنها «فلا إثم عليه»، «أو غير باغ» غير قاطع للطريق، «ولا عاد»: مفارق للأمة خارج عن الجماعة، فمن خرج يقطع الرحم، أو يُخَيِّفُ ابن السبيل، أو يُفْسِدُ في الأرض، أو أَبَقَ من سيده، أو فرّ من غريمه أو عاصياً بسفره، واضطر إلى شيء من هذه، فلا تحلّ له حتى يتوب ويأكل، «فإن الله غفور رحيم». وقال سهل بن عبد الله: «غير باغ»: غير مفارق للجماعة «ولا عاد»: مبتدع مخالف للسنة، فلم يرخص للمبتدع تناول المحرمات عند الضرورات.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا إيمان أهل العرفان، كلوا من طيبات ما رزقناكم من حلاوة الشهود والعيان، واشكروا الله الكريم المنان، إن كنتم تخلصونه بالعبادة والإحسان، أو: يا أيها الذين آمنوا إيمان أهل الصفاء، ووقفوا مع الحدود وقوف أهل الوفاء، كلوا من طيبات ما رزقناكم من ثمرات بساتين العلوم، واشكروا الله يزدكم من المواهب والفهوم، إن كنتم تعبدون الحي القيوم، إنما حرم عليكم ما يعوقكم عن هذه المواهب، أو ينزلكم عن منابر تلك المراتب، كالميل إلى جيفة الدنيا، أو الركون إلى متابعة الهوى، أو تأخذون منها ما قصد به غير الله، أو تقبضونها من يد غير الله. فمن اضطر إلى أخذ شيء من نجاستها، فأخذ القدر الذي احتاج إليه منها، دون التشوف إلى ما زاد عليه، غير قاصد بذلك شهوة ولا متعة، فلا إثم عليه، إن الله غفور رحيم.

قال شيخ شيوخنا سيدي على الجمل رحمته الله لما تكلم على الغنى بالله، قال: (علامته هو الذي ترك الدنيا للخلق، حتى لا يكون له فيها حق معهم، إلا ما فضل عنهم من بعد اضطراره واحتياجه، ويترك الآخرة لمولاه، حتى لا يكون له فيها حق إلا النظر في وجه الله، ويترك أيضا نفسه لله حتى لا يكون فيها حق إلا حق مولاه، ولا إرادة له إلا ما أراد مولاه، ويكون كالغصن الرطب أينما مالت به الرياح يلين ويميل معها، ولا ينكر على الخلق حالا من أحوالهم). هـ.

ومن جملة ما ألحق بهذه المحرمات الرشا وأكل أموال الناس بالباطل، ولذلك ذكره الله تعالى بإثر ما أحله للمؤمنين، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ - ثُمَّ قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَاةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

قلت: (ما) تعجبية، مبتدأ، وهي نكرة، وسوغ الابتداء معنى التعجب، وجملة (أصبرهم) خبر، أي: أي شيء عظيم صبرهم صابرين، أو استفهامية، أي: أي شيء حملهم على الصبر على النار؟.

يقول الحق جل جلاله في رؤساء اليهود وعلمائهم، كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والخراج، ويدعون أن النبي المبعوث منهم، فلما بعث نبينا محمد ﷺ خافوا ذهاب مأكلتهم ورئاستهم، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَحْرِفُونَهَا فِي الْمَعْنَى وَيَنْزِعُونَهَا مِنْ الْكِتَابِ﴾ أي: التوراة، «ويشترون» بذلك التحريف «ثمنا قليلا» أي: عوضا حقيقيا يذهب ويفنى في زمان قليل، «أولئك» الذين يكتُمون ويأكلون ذلك العوض الحقيقير - «ما يأكلون في بطونهم» إلا نار جهنم؛ لأنها مآلهم وعقوبة أكلهم، «ولا يكلمهم الله» إهانة وغضباً عليهم حين يكلم أوليائه ويسلم عليهم، «ولا يذكىهم» أي: لا يطهرهم من دنس ذنوبهم حتى يتأهلوا للحضرة، «ولهم عذاب أليم» موجه. «أولئك الذين» استبدلوا «الضلالة بالهدى» أي: باعوا الهدى واشتروا به الضلالة، واستبدلوا «العذاب بالمغفرة» التي كانت لهم لو آمنوا وبيّنوا، فما أجرأهم على اقتحام النار باقتحام أسبابها، أو فما أبقاهم في النار، أو ما الذي أصبرهم على النار حتى تركوا الحق ومالوا إلى الباطل؟! استفهام توبيخي.

«ذلك» العذاب الذي استحقوه وتجروا عليه بسبب أن «الله» تعالى «أنزل الكتاب» القرآن ملتبسا «بالحق»، فاختلّفوا فيه؛ فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، «وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد» أي: لفي خلاف وضلال بعيد.

الإشارة: كل من كتم علمه، ولم ينشره إلا في مقابلة حظ دنيوي، صدق عليه قوله تعالى: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾. روى أن بعض الصحابة كان يقرئ أهل الصفة، فأهدى له أحدهم قوسا، فأتى به النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله: كنت أعلم أهل الصفة فأهدى لي فلان قوسا، وقال: هو لله، فقال له - عليه الصلاة والسلام - : «لَقَدْ تَقَلَّدْتَ قَوْسًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ». أو كما قال ﷺ، وأمره برده. ولعل هذا من باب الورع، فأراد عليه السلام أن يرفع همة ذلك الصحابي، وإلا فقد ورد في الحديث: «أَحَقُّ مَا أَخَذْتُ عَلَيْهِ الْأَجْرَ كِتَابُ اللَّهِ».

فمن ملكته نفسه، وأسرته الهوى، فقد اشترى الضلالة بالهدى، اشترى الضلالة عن طريق أولياء الله، بالهدى الذي كان له لو ملك نفسه وهواه، وعذاب القطيعة والحجاب، بالمغفرة والدخول مع الأحياء، فما أصبرهم على غم الحجاب وسوء الحساب، سبب ذلك اختلاف قلبه، وتفريق همه ولّبه، وقد قال - عليه الصلاة والسلام - : «أَقْرَأُوا الْقُرْآنَ مَا اتَّخَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا». أو كما قال.

وسبب تفرق القلب وعدم حضوره، حب الدنيا فقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُسِمَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ».

والقلب الذي اختلف في فهم الكتاب وتشئت عنه في شقاق بعيد عن الحضرة؛ لأن عنوان صحة القلب: جمعه على كلام الله وتدبر خطابه والتلذذ بسماعه، وقد تقدم في أول السورة درجات القراءة، فانظره إن شئت. وبالله التوفيق.

ولما ادعت اليهود والنصارى أن البر خاص بقبيلتهم، لأنها قبلة الأنبياء، رد الله تعالى عليهم، فقال:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا
عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

قلت: لما ذكر الحق تعالى التوحيد وبراهينه الذي هو رأس الدين، وحذر من الشرك وفروعه، ذكر هنا بقية أركان الدين، وهي الإيمان والإسلام، فذكر في هذه الآية قواعد الإيمان وبعض قواعد الإسلام؛ وهي الصلاة والزكاة، ثم ذكر بعد ذلك الصيام وأحكامه، ثم ذكر الحج وأركانه، ثم ذكر الجهاد والنكاح والطلاق والعدة، ثم ذكر البيوع وما يتعلق بها من الربا، ثم الشهادات والرهن، وبها ختم السورة.

لكن الحديث ذو شجون، والكلام يجزُّ بعضه بعضاً، فقله: «ليس البر أن تولوا» اسم ليس وخبرها، وكلاهما معرفتان، الأول بـال والثاني بالإضافة، إذ التقدير: تولية وجوهكم، فمن رجع تعريف الألف واللام، جعل (البر) اسمها، و(أن تولوا) خبرها، وبه قرأ الأكثر، ومن رجع بالإضافة جعل (البر) خبرها مقدماً، والمصدر اسمها مؤخراً، وبه قرأ حمزة وحفص.

وقوله: «ولكن البر» من خفف جعلها عاطفة الجملة، و«البر» مبتدأ، و(من آمن) خبر على حذف مضاف، أي: بر من آمن؛ إذ لا يُخبر بالذات عن المعنى، أو قصد المبالغة، ومن شدد نصب بها، لوقوعها بين

جملتين، وهى استدراكية، و«على حبه» حال من المال، و«الصابرين» نصب على المدح، ولم يعطفه بالرفع لفضل الصبر وشرفه.

يقول الحق جل جلاله فى الرد على أهل الكتاب: «ليس البر» محصوراً فى شأن القبلة، «ولكن البر» الذى ينبغى أن يعتنى بشأنه هو الإيمان بالله، وما يجب له من الكمالات، وباليوم الآخر وما بعده، وبالملائكة وما يجب أن يعتقد فى شأنهم، والكتاب المنزل من السماء كالقرآن وغيره، و«النبیین» وما يجب لهم وما يستحيل فى حقهم.

فالبر هو بر من اعتقد فى قلبه هذه الأشياء، وأظهر على جوارحه ما يصدق صحة اعتقادها، وذلك كالاتصاف بالسخاء والكرم، فأعطى المال على محبته له، أى: مع حبه، فقد سئل - عليه الصلاة والسلام -: «أى الصدقة أفضل؟ فقال: أن تتصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر». «وأتى المال» على حب الله، لا جزاء ولا شكورا، فأعطى ذلك المال ذوى قرابته المحاييج، وقدمهم لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «صدقك على المساكين صدقة، وعلى ذوى القربى اثنتان؛ صدقة وصلة». وأعطى «اليتامى» لإهمالهم، وأعطى «المساكين» الذين أسكنهم الفقر فى بيوتهم، «وابن السبيل» وهو المسافر الغريب، كأن الطريق ولدته، أو الضيف «والسائلين» ألجأتهم الحاجة إلى السؤال. وفى الحديث: «أعط السائل ولو على فرسه». وقال أيضا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هدية الله إلى المؤمن السائل على بابه». وأعطى فى فك «الرقاب» من الرق أو الأسر.

«وأقام الصلاة» المفروضة، «وأتى الزكاة» المعلومة. ومن أهل البر أيضا: «الموفون بعهدهم» فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم وبين الناس «إذا عاهدوا» الله أو عباده، فإذا وعدوا أنجزوا، وإذا حلفوا أو نذروا أوفوا، وإذا قالوا صدقوا، وإذا انتمنوا أدوا، وأخص من أهل البر «الصابرين فى البأساء» كالفقر والذل وإذابة الخلق، و«الضراء» كالمرض والزمانة^(١)، أو (البأساء): الأهوال، و(الضراء) فى الأنفس، والصابرين «حين البأس» أى: الحرب والجهاد، «أولئك الذين صدقوا» فى طلب الحق، «وأولئك هم المتقون» لكل ما يقطع عن الحق، أو يشغل عنه. فقد اشتملت هذه الآية على كمالات الإنسان بأسرها؛ لاشتمالها على ما يزين البواطن من الاعتقادات وما يزين الظواهر من المعاملات، وما يركب النفوس من الرذائل ويحلها بالمحاسن والكمالات. ولذلك

(١) الزمانة: مرض يدوم.

وَصَفَ الْمُتَصِفَ بِهَا بِالصَّدْقِ وَالتَّقَى، الَّذِينَ هُمَا أَسَاسُ الطَّرِيقَةِ وَمَبْنَى أَسْرَارِ التَّحْقِيقِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقِ، وَهُوَ الْهَادِي إِلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ.

الإشارة: ليس المطلوب من العبد أن يتوجه إلى الحق بجهةٍ مخصوصة، كما إذا توجه إليه بالظاهر وأهمل الباطن، أو توجه بالباطن وأهمل الظاهر، ولكن المطلوب منه أن يزين باطنه بأنوار الإيمان واليقين، ويزين ظاهره بسائر وظائف الدين، ويزكي نفسه من الرذائل؛ كالشح والبخل والغش والخيانة والكذب والخوف والجزع، ويحليها بأنواع الفضائل؛ كالسخاء والكرم والوفاء بالعهد والأمانة، والصبر والشجاعة، والعفة والقناعة، وسائر أنواع الفضائل، فإذا تخلص من الرذائل وتحلى بأضدادها من الفضائل استحق الدخول مع الأبرار، وكان من العارفين الكبار، أولئك الذين ظفروا بصدق الطلب فنالوا الغاية من كل مطلب، وأولئك هم المتقون حق التقاء، فنالوا أعلى الدرجات، منحنا الله من ذلك الحظ الوافر بمنه وكرمه.

وَلَمَّا مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى الصَّبْرَ وَالْجُرْأَةَ فِي الْحَرْبِ، أَمَرَ بِالقَصَاصِ؛ لِئَلَّا يَتَسَعَ النَّاسُ فِي إِطْلَاقِ الْجُرْأَةِ، حَتَّى يَتَجَرَّءُوا عَلَى قَتْلِ الْمُسْلِمِ، فَقَالَ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعَدَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوَةٌ يَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

قلت: (عفا) لازم يتعدى بالحرف: بعن إلى الجناية، وباللام إلى الجاني، فيقال: عفوت لفلان عن جنايته (واتباع) خبر عن مضمّر، أى: فالأمر اتباع، و(حياة) مبتدأ، و(في القصاص) خبره، و(لكم) خبر ثان، أو صلة له، أو حال من الضمير المستكن فيه. وفيه من البلاغة والفصاحة ما لا يخفى، جعل الشيء مجيئاً ضده، وعرف القصاص ونكر الحياة ليدل على التعظيم والتعظيم، أى: ولكم نوع من الحياة عظيم، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين، ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم، فإذا اقتص من القاتل سلم الباقون، ويصير ذلك سبباً لحياتهم. قاله البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله: يا أيها المؤمنون ﴿كتب عليكم القصاص في﴾ شأن ﴿القتلى﴾ في العمد، فاستسلموا للقصاص، فالحر يقتل بالحر، ولا يقتل بالعبد. بل يغرّم قيمته لسيدته، ودليله قوله - عليه الصلاة

والسلام :- « لا يُقتل مسلمٌ بكافرٍ ولا حرٌ بعبدٍ » ، والعبد يقتل بالعبد، إن أراد سيد المقتول قتله، فإن استحياء خير سيده بين إسلامه وفدائه بقيمة العبد. وكذلك إن قُتل الحر خير أوليائه بين قتله أو استرقاقه، فإن استحيوه خير سيده بين إسلامه وفدائه بديّة الحر العمد، والأنثى تُقتل بالأنثى والذكر، والذكر يقتل بالأنثى.

وتخصيصُ الآية بالمساوي، قال مالك: (أحسن ما سمعتُ في هذه الآية: أنه يُراد بها الجنس - أى: جنس الحر والذكر والأنثى فيه سواء. وأعيد ذكرُ الأنثى تأكيداً وتهمماً بإذهاب أمر الجاهلية). هـ. يعنى أن (أل) في الحر: للجنس، تشمل الذكر والأنثى. وأعاد ذكرُ الأنثى اهتماماً برّد ما كان يفعله الجاهلية من عدم القود فيها.

ثم قال الحق جل جلاله: «فمن عَفَى له من» دم أخيه «شيء» ولو قَلَّ، فقد سقط القتل، فالواجب اتباعُ للقاتل بالدية «بالمعروف» من غير تعنيف ولا تعنيت، و«أداء» من القاتل «بإحسان» من غير مظل ولا بخس.

«ذلك» - الذى شرعتُ لكم من أمر العفو والدية - «تخفيف من ربحكم ورحمة» بكم، وقد كُتب على اليهود القصاص وحده، وعلى النصارى العفو مطلقاً. وخيركم أيها الأمة المحمدية بين أخذ الدية والقصاص. «فمن اعتدى» بعد أخذ الدية وقُتل «فله عذاب أليم» فى الدنيا والآخرة، فى الدنيا: بأن يُقتل لا محالة؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام :- « لا أعافى أحداً قتلَ بعد أخذ الدية ».

«ولكم» يا معشر المسلمين «فى» تشريع «القصاص حياة» عظيمة فى الدنيا، لانزجار القاتل إذا علم أنه يُقتص منه، وقد كانوا يقتلون الجماعة فى الواحد، فسلموا من القتل بشروع القصاص، أو فى الآخرة، فإن القاتل إذا اقتص منه فى الدنيا لم يؤخذ به فى الآخرة، فاعتبروا «يا أولى الألباب» أى: العقول الكاملة، ما فى حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس، «لعلكم تتقون» الله فى المحافظة على القصاص، والحكم به والإذعان له، أو تكفون عن القتل خوفاً من الله.

الإشارة: كما جعل الله القصاص فى الجناية الحسية، جعل القصاص فى الجناية المعنوية، وهى الجناية على النفس بسوء الأدب مع الله، فكل من صدر منه هفوة أو زلة، اقتص الحق تعالى منه فى دار الدنيا، إن كانت له من الله عناية، الكبيرة بالكبيرة والصغيرة بالصغيرة. وتأمل قضية الرجل الذى كان يطوف بالكعبة، فنظر إلى امرأة، فلطمته كفاً من الهوى، وذهبت عينه، فقال: آه، فقيل له: لطمه بنظرة، وإن زدت زدنا. هـ. وقضية أبى تراب النخشبى: قال (عليه السلام): ما تمننت نفسى شهوة من الشهوات إلا مرة واحدة، تمنيت خبزاً وبيضا وأنا فى سفر، فعدلت إلى قرية، فقام واحد، وتعلق بى، وقال: هذا رأيته مع اللصوص، فضربونى سبعين درة، ثم عرفنى رجل منهم، وحملنى إلى منزله، وقدم لى خبزاً وبيضا. فقلت فى نفسى: كلُّ بعد سبعين درة.

وقضية أبي الخير العسقلاني: انتهى السمك فلما مدَّ يده ليأكل أخذت شوكة من عظامها أصبعه، فذهبت في ذلك يده. وقضية إبراهيم بن شيان: قال: (اشتهيت شبعة من الخبز والعدس، فاتفق ذلك، فأكلت حتى شبع، ثم رأيت منكراً، فغيرته، فأخذوني وضربوني مائة خشبة، وطرحوني في السجن أربعة أشهر، حتى شفع في شيخى، فخرجت، وقال: أخذتها مجاناً)، أى: حيث عوقبت في ظاهرك دون باطنك.

وقضية خير النساج: قال: (عاهدت الله وعقدت ألا أكل الرطب فغلبتني نفسي، فأخذت نصف رطل، فلما أكلت واحدة إذا برجل نظر إلى وقال: يا خير، أين هربت منى؟ وكان له عبد اسمه خير، فوقع على شبهه. قال: فبقيت معه عدة أشهر أنسج له الكرياس - وهو القطن الأبيض -، ثم تبّت فزال عني الشبه).

فمن عفى له عن شيء من هذه الجناية، بعد الأدب أو قبله، فليشكر الله، ويتبع ما أمره به، ويؤدى ما فرضه عليه بالمعروف، من غير إسراف، ولا تقصير، ذلك تخفيف من الله عنه، ورحمة به، فمن اعتدى بعد ذلك، ورجع إلى ما تاب عنه فله عذاب أليم، وهو الطرد عن حضرة الأحاب، إلى الوقوف بالباب أو سياسة الدواب، إلا من تاب وعمل صالحاً فإن الله يتوب على من تاب. ولكم في القصاص في دار الدنيا - حياة عظيمة لأرواحكم وأسراركم؛ لأن ذلك اعتناء بكم يا أولى الألباب، لعلكم تتقون كل ما يشغلكم عن مولاكم.

ولما ذكر القصاص وهو مظنة الموت، والموت من أسباب الوصية ذكرها بإثره، فقال:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٨٠) ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴾ (١٨١) ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٨٢)

قلت: «إذا حضر» ظرف، العامل فيه: «كتب»، أى: توجه إيجاب الوصية عليكم إذا حضر الموت. أو مصدر محذوف يفهم من الوصية، أى: كتب عليكم الإيصاء إذا حضر الموت، و«الوصية» نائب فاعل «كتب»، ولا يصح أن تعمل في (إذا)؛ لتقدمه عليها؛ لأن المصدر لا يعمل في ما قبله، إلا على مذهب الأخفش. اللهم إلا أن يتوسع في الظروف، وجواب الشرطين محذوف، أى: إذا حضر أحدكم الموت، إن ترك خيراً، فقد كتبت عليه الوصية. والجنف: الميل عن الصواب، فإن كان خطأ فهو جنف بلا إثم، وإن كان عمداً فهو جنف إثم.

يقول الحق جل جلاله : كتب الله ﴿عليكم﴾ أن توصوا للوالدين والأقربين ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾، إن ترك ﴿المستحضر﴾ ﴿خيراً﴾ أى: مالا، قال سيدنا على - كرم الله وجهه -: (ألف درهم فصاعدا، فلا وصية فى أقل). وقال النخعي: (خمسمائة درهم لا أقل). وقال الزهري: (تجب فيما قل وكثر)، وعن عائشة - رضى الله عنها -: (أن رجلاً أراد أن يوصى، فسأله: كم ماله؟ فقال: ثلاثة آلاف. فقالت: كم عيالك؟ فقال: أربعة، فقالت: لا، إنما قال الله تعالى ﴿إن ترك خيراً﴾ وإن هذا لشيء يسير، فاتركه لعيالك).

وتكون تلك الوصية «بالمعروف»، أى: بالعدل، فلا يفضل الذكور، ولا يتجاوز الثلث. قد حَقَّ الله ذلك ﴿حقاً﴾ واجبا «على المتقين»، فمن غيره من الأوصياء أو الشهود «بعد ما سمعه» وعلمه، «فإنما إثم على الذين يبدلونه» من الأوصياء أو الشهود، لأنه هو الذى خالف الشرع وغير دون الميت، «إن الله سميع عليم» فلا يخفى عليه من بدل أو غير، فهو حسيبه ومعاقبه، «فمن خاف» أى: علم «من موص جنفاً» أى: ميلاً بالخطأ فى الوصية، «أو إثمًا» تعمدًا للجنف، «فأصلح» بين الموصى لهم وبين الورثة، بأن أجراهم على مذهب الشرع، أو نقص للموصى لهم، أو زاد لمصلحة رآها «فلا إثم عليه»؛ لأنه تبديل لمصلحة. والتبديل الذى فيه الإثم إنما هو تبديل الهوى، «إن الله غفور رحيم» فيغفر للمبدل لمصلحة ويرحمه.

وهذه الآية منسوخة فى وصية الوالدين، مُحْكَمَةٌ فى الأقربين غير الوارثين، بقوله - عليه الصلاة والسلام - فى الحديث المشهور: «إِنَّ اللَّهَ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فَلَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ»، فإذا كان الوالدان غير وارثين كالكافرين أو العبدَيْن فهى مُحْكَمَةٌ، والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن المرید إذا منع نفسه من الشهوات، وحفظ قلبه من الخطرات، وصان سره من الغفلات - وأعظم الشهوات حبُّ الرئاسة والجاه، فإذا قتل نفسه ونزل بها إلى السفليات حتى حضرها الموت، وانقطع عنها الخواطر والخيالات - فإنها تفيض بالعلوم والواردات، فالواجب من طريق الجزم أن يقيد تلك العلوم، أو يوصى من يقيدها لينتفع بها الوالدان وهما الأشياخ، والأقربون وهم الإخوان. فإن الحكمة ترد فى حال التجلى كالجبَل، فإن لم يقيدها وأهملها رجعت كالجمال، فإن أهملها رجعت كالكبش، فإن أهملها رجعت كالطير، ثم ترجع كالبيضة ثم تذهب. هكذا كان يقول شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رحمته الله، وكان شيخه سيدى العربى بن عبدالله يقول له: (إن ورد عليك وارد فقيدته وأعطني منه نسخة). وهكذا كان أشياخنا يأمرونا بتقييد الواردات، فمن قيد وارداً

أو سمعه من غيره، فلا يُغيره بمجرد رأيه وهواه. فإن تحقق منه نقصاً أو ميلاً عن منهاج الطريقة والحقيقة، فأصلحه، فلا إثم عليه، ﴿إن الله غفور رحيم﴾.

ولما ذكر في الآية المتقدمة قاعدتين من قواعد الإسلام في قوله: ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾، بعد أن ذكر قواعد الإيمان، ذكر هنا القاعدة الثالثة، وهي الصيام، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

قلت: (أياماً) منصوب على الظرفية، واختلف في العامل فيه، والأحسن أنه الصيام، ولا يضره الفصل؛ لأن الظرف يتوسع فيه ما لا يتوسع في غيره، و(معدودات) نعت له، و(عدة) مبتدأ؛ أي: فعليه عدة. و(أخر) ممنوع من الصرف للعدل عن الألف واللام والوصف. و(شهر رمضان) إما خبر عن مضمّر، أو مبتدأ، والخبر: (فمن شهد)، أو بدل من (الصيام)، على حذف مضاف، أي: صيام شهر رمضان.

و(رمضان) مصدر رمض إذا احترق، وأضيف إليه الشهر، وجعل علماً، ومنع من الصرف للعلمية والألف والنون. وسموه بذلك إما لارتماض القلب فيه من حرّ الجوع والعطش، أو لارتماض الذنوب فيه، أو وافق الحرّ حين نقلوا الشهور عن اللغة القديمة. و(الشهر) ظرف، لقوله: (شهد) أي: حضر، وقوله (ولتكمّلوا...) الآية، هذه ثلاث علل لثلاثة أحكام على سبيل ألف والنشر المعكوس، أي: ولتكمّلوا العدة أمرتكم بقضاء عدة أيام آخر، ولتكبروا الله عند تمام الشهر أمرتكم بصيام الشهر كله، ولعلكم تشكرون أردت بكم اليسر دون العسر.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا» فُرض عليكم «الصيام» كما فرض «على الذين من قبلكم» من الأنبياء وأممهم من لدن آدم، فلكم فيهم أسوة، فلا يشق عليكم «لعلكم تتقون» المعاصي، فإن الصوم يكسر الشهوة. ولذلك قال - عليه الصلاة والسلام -: «مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ».

وذلك الصيام إنما هو في أيام قلائل «معدودات»، فلا يهولكم أمره، «فمن كان منكم مريضاً» يشق عليه الصيام، «أو على سفر» فأفطر فعليه صيام عدة ما أفطر «من أيام آخر» بعد تمام الشهر، «وعلى الذين يطيقونه» بلا مشقة، إن أرادوا أن يفطروا «فدية» وهي: «طعام مساكين»: مد لكل يوم. وفي قراءة «فدية» طعام مسكين» أي: وهي طعام مسكين لكل يوم. وقيل: نصف صاع. «فمن تطوع» بزيادة المد، أو أطعم مسكينين عن يوم، «فهو خير له» وأعظم أجراً، «وأن تصوموا» أيها المطيقون للصيام، «خير لكم إن كنتم تعلمون» ما في الصيام من الأسرار، والخير المدرار، ثم نسخ بقوله: «فمن شهد منكم الشهر فليصمه».

وذلك الصيام الذي أمرتم به هو «شهر رمضان» المبارك «الذي أنزل فيه القرآن» أي: ابتداء نزوله فيه. أو إلى سماء الدنيا، حالة كونه «هدى للناس» أي: هادياً لهم إلى طريق الوصول، وآيات واضحات «من الهدى والفرقان» الذي يفرق بين الحق والباطل. وإن شئت قلت: فيه هدى للناس إلى مقام الإسلام، «وبيّنات»، أي: حججا واضحة تهدي إلى تحقق الإيمان، وإلى تحقق الفرق بين الحق والباطل، وهو ما سوى الله، فيتحقق مقام الإحسان.

«فمن» حضر منكم في «الشهر» ولم يكن مسافراً «فليصمه» وجوباً، وكان في أول الإسلام على سبيل التخيير؛ لأنه شق عليهم حيث لم يألفوه، فلما ألفوه واستمروا معه، حثّمه عليهم في الحضور والصحة. «ومن كان مريضاً» يشق عليه الصيام، «أو على جناح» سفر، بحيث شرع فيه قبل الفجر فأفطر فيه، فعليه «عدة من أيام آخر» يريد الله بكم اليسر والتخفيف، حيث خفف عنكم، وأباح الفطر في المرض والسفر، «ولا يريد بكم العسر» إذ لم يجعل عليكم في الدين من حرج، وإنما أمركم بالقضاء «لتكملوا العدة» التي أمركم بها، وهي تمام الشهر، «ولتكبروا الله على ما هداكم»، أمركم بصيامه فتكبروا عند تمامه.

ووقت التكبير عند مالك: من حين يخرج إلى المصلى، بعد الطلوع، إلى مجيئ الإمام إلى الصلاة. ولفظه المختار: (الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر والله الحمد على ما هدانا، اللهم اجعلنا من الشاكرين)؛ لجمعه

بين التهليل والتكبير والشكر، امتثالاً لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ما أوليناكم من سابغ الإنعام، وسهلنا عليكم فى شأن الصيام.

الإشارة: كُتِبَ عليكم الصيام عن الحظوظ والشهوات، كما كُتِبَ على من سلك الطريق قبلكم من العارفين الثقات، فى أيام المجاهدة والرياضات، حتى تنزلوا بساحة حضرة المشاهدات، لعلكم تتقون شهود الكائنات، ويكشف لكم عن أسرار الذات، فمن كان فيما سلف من أيام عمره مريضاً بحب الهوى، أو على سفر فى طلب الدنيا، فليبادر إلى تلافى ما ضاع فى أيام آخر، وعلى الأقوياء الذين يطبقون هذا الصيام، إطعام الضعفاء من قوت اليقين ومعرفة رب العالمين. فمن تطوع خيراً بإرشاد العباد إلى ما يقوى يقينهم، ويرفع همهم فهو خير له. وأن تدوموا أيها الأقوياء على صومكم عن شهود السوى، وعن مخالطة الحس بعد التمكن، فهو خير لكم وأسلم، إن كنتم تعلمون ما فى مخالطة الحس من تفريق القلب وتوهين الهمم، إذ فى وقت هذا الصيام يتحقق وحى الفهم والإلهام، وتترادف الأنوار وسواطع العرفان. فمن شهد هذا فليدُم على صيامه، ومن لم يقدر عليه فليَبْك على نفسه فى تضييع أيامه.

واعلم أن الصيام على ثلاث درجات: صوم العوام، وصوم الخواص، وصوم خواص الخواص.

أما صوم العوام: فهو الإمساك عن شهوتى البطن والفرج، وما يقوم مقامهما من الفجر إلى الغروب، مع إرسال الجوارح فى الزلات، وإهمال القلب فى الغفلات. وصاحب هذا الصوم ليس له من صومه إلا الجوع، لقوله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ». وأما صوم الخواص: فهو إمساك الجوارح كلها عن الفضول، وهو كل ما يشغل العبد عن الوصول، وحاصله: حفظ الجوارح الظاهرة والباطنة عن الاشتغال بما لا يعنى. وأما صوم خواص الخواص: فهو حفظ القلب عن الالتفات لغير الرب، وحفظ السر عن الوقوف مع الغير، وحاصله: الإمساك عن شهود السوى، وعكوف القلب فى حضرة المولى. وصاحب هذا صائم أبداً سرمداً. فأهل الحضرة على الدوام صائمون، وفى صلاتهم دائمون، نفعنا الله بهم وحشرنا معهم. آمين.

ولمّا كان الصيام يرقّق القلب فيحصل به القرب من الحق، ذكره بإثر الصيام، فقال:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

يقول الحق جل جلاله : في جواب رجل سأل: هل قريب ربنا فتناجيّه، أو بعيد فنناديه؟ فنزل: «وإذا سألك عبادي عني». فقل لهم: «إني قريب» إليهم من أرواحهم لأشباحهم، ومن وسواس قلوبهم لقلوبهم، علماً وقدرة وإحاطة، أجيب دعوة الداعي إذا دعان، سراً أو جهراً، ليلاً أو نهاراً، على ما يليق بحاله في الوقت الذي نريد، لا في الوقت الذي يريد، «فليستجيبوا لي» إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، أسلك بهم طريق المعرفة، «وليؤمنوا بي» أني قريب منهم فيستحيوا مني، حياء من يرى أني معه حيث كان، «لعلهم يرشدون» إلى سلوك طريقتي ودوام محبتي.

قال البيضاوي: اعلم أنه، تعالى، لما أمرهم بصوم الشهر، ومراعاة العدة على القيام بوظائف التكبير والشكر، عقّبه بهذه الآية الدالة على أنه خبير بأحوالهم، سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم، مجازيهم على أعمالهم، تأكيداً وحثاً عليه. هـ.

الإشارة: قُرب الحق تعالى من عباده هو قرب المعاني من المحسوسات، أو قرب الصفات من الذات، أو الذات من الصفات. فإذا تحقق المحر والاضمحلال، وزال البين، وثبت الوصال، لم يبق قرب ولا بعد ولا بين ولا انفصال. قال الشيخ القطب العارف الكبير سيدي عبدالسلام بن مشيش رحمته الله لأبي الحسن رحمته الله: حدّد بصر الإيمان تجد الله في كل شيء وعند كل شيء، ومع كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وقريباً من كل شيء، ومحيطاً بكل شيء، بقرب هو وصفه، وبحيطة هي نعمته، وعدّ عن الظرفية والحدود، وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب في المسافات، وعن الدّور بالمخلوقات، وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن، «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان».

وقال بعض العارفين: الحق تعالى منزّه عن الأئين والجهة والكيف والمادة والصورة. ومع ذلك لا يخلو منه أين ولا مكان، ولا كم ولا كيف، ولا جوهر ولا عرض، لأنه للطفه سار في كل شيء، ولنوريته ظاهر في كل شيء، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف، غير متقيّد بذلك، فمن لم يعرف هذا ولم يدقه ولم يشهده فهو أعمى البصيرة، محروم من مشاهدة الحق تعالى. هـ.

وهذه الإشارات لا يفهمها إلا أهل الذوق من أهل المعاني، فاصحب الرجال أهل المعاني تذق أسرارهم، وتفهم إشاراتهم. وإلا فحسبك أن تعتقد كمال التنزيه، وبطلان التشبيه، وتمسك بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وسلم للرجال في كل حال.

إِنْ لَمْ تَرَ الْهَلَالَ فَسَلِّمْ * لِأَنَّا نَرَاهُ بِالْأَبْصَارِ

وإذا تحققت أن الحق قريب منك كفاك لسان الحال عن طلب المقال، وبالله التوفيق.

ثم نَمَّ الحق تعالى بقية أحكام الصوم، فقال:

﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

قلت: الرفث: مُحَرَّك الجِماع، والفحش كالرفوث، وكلام النساء في الجماع. قاله في القاموس، وقال الأزهري اللغوي: الرفث: كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته، وضمته هنا الإفضاء، فعذاه بآلى.

يقول الحق جل جلاله في نسخ ما كان في أول الإسلام من تحريم الجماع في رمضان بعد العشاء أو النوم، ثم إن عمر رضي الله عنه باشر امرأته بعد العشاء، فندم وأتى رسول الله ﷺ يعتذر إليه، فقام رجال فاعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزل قوله: «أحل لكم ليلة الصيام» قبل الفجر، الإفضاء «إلى نساءكم» بالجماع. وعبر بالرفث تقبيحاً لما ارتكبهوه.

ثم علل التحليل بقوله: «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن»، أي: وإنما أبحت لكم الجماع لقلة صبركم عليهن، حتى تعانقوهن ويعانقنكم، فيشتمل بعضكم على بعض، كاشتغال اللباس على صاحبه، كما قال الشاعر: (١)

إِذَا مَا الضَّجِيعُ نَتَّى عِطْفَهَا تَنَنَّتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاساً

وهذه الحالة يقل فيها الصبر عن الوقاع، «علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم» أي تخونونها فتعرضونها للعقاب، وتحرمونها من الثواب، «فتاب عليكم» لما تبتم واعترفتم بما اقترفتم، وعفا عنكم فمحا ذنوبكم، «فالآن باشروهن». والمباشرة: إلصاق البشرة بالبشرة، كناية عن الجماع، «وابتغوا ما كتب الله

(١) وهو النابغة الجعدي.

لكم» من النسل، فلا تبashروهن لمجرد قضاء الشهوة، بل اطلبوا ما قَدَّرَ الله لكم، وأثبتته في اللوح المحفوظ من الولد، لأنه هو المقصود من تشريع النكاح، وخلق الشهوة، لا مجرد قضاء الوطر. وفي الحديث: «إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، وَعِلْمٍ بَقِيَ فِي صُدُورِ الرِّجَالِ، وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» .

وفي حديث طويل عن عائشة - رضي الله عنها - في قصة الحولاء - امرأة من الأنصار -، قال لها رسول الله ﷺ: ما من امرأة حملت من زوجها حين تحمِل، إلا لها من الأجر مثل القائم ليله الصائم نهاره، والغازی في سبيل الله، وما من امرأة يأتيها الطلق، إلا كان لها بكل طَلقة عِتق نسمة، وبكل رَضعة عتق رقبة، فإذا فَطَمَت ولدها ناداهم من السماء: قَدْ كُفِّيتِ الْعَمَلُ فِيمَا مَضَى، فاستأنفى العمل فيما بقي. قالت عائشة - رضي الله عنها -: قَدْ أُعْطِيَ النِّسَاءُ خَيْرًا كَثِيرًا، فَمَا لَكُمْ يَا مَعْشَرَ الرِّجَالِ؟ فضحك النبي ﷺ ثم قال: ما من رجل مؤمن أخذ بيد امرأته يرأودها، إلا كتب الله له حسنة، وإن عانقها فعشر حسنات، وإن ضاجعها فعشرون حسنة، وإن أتاها كان خيراً من الدنيا وما فيها، فإذا قام ليغتسل لم يمر الماء على شعرة من جسده إلا مَحَى عنه سيئة، ويُعطى له درجة، وما يعطى بغسله خيرٌ من الدنيا وما فيها، وإن الله تعالى يباهى الملائكة فيقول: انظروا إلى عبدي؛ قام في ليلة قرّة يغتسل من الجنابة، يتيقن بأنى ربه، اشهدوا أنى قد غفرت له» (١). هـ. من الثعلبي.

ثم أباح الحق تعالى الأكل والشرب، ليلة الصيام إلى الفجر، فقال: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ» شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق، بالخيط الأبيض، وما يمتد معه من غبش الليل، بالخيط الأسود.

ولم ينزل قوله تعالى: «من الفجر» إلا بعد مدة، فحملة بعض الصحابة على ظاهره، فعمد إلى خيط أبيض وخيط أسود فجعلهما تحت وسادته، فجعل يأكل وينظر إليهما، فلم يتبينهما، ومنهم عدى بن حاتم، قال: فغدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فضحك، وقال: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا، إِنَّمَا ذَلِكَ بَيَاضُ النَّهَارِ وَسَوَادُ اللَّيْلِ»، والحديث ثابت في البخاري وغيره. واعترضه الزمخشري بأن فيه تأخير البيان عن وقت الحاجة، وذلك لا يجوز، لما فيه من التكليف بما لا يطاق.

(١) الحديث موضوع، ذكره ابن الجوزي في الموضوعات وابن عراق في تنزيه الشريعة. وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة: سند هذا الحديث واه جداً. وقال الدارقطني: هذا حديث باطل، وقال: ذهب عبد الرحمن بن مهدي وأبو داود إلى زياد بن ميمون - أحد رجال سند هذا الحديث - فأنكروا عليه هذا الحديث، فقال: اشهدوا أنى قد رجعت عنه.

وأجيب بأنه ليس فيه تأخير البيان عن وقت الحاجة، وإنما فيه تأخير البيان لوقت الحاجة، وهو جائز. وبيان ذلك أنه لما نزل قوله تعالى: «حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود» فهم رسول الله ﷺ والمؤمنون مراد الله منهما، واستمر عملهم على ذلك، فكانت الآية مبينة في حقهم لا مجملة. وأما عدى بن حاتم فكان بدوياً مشتغلاً بالصيد، ولم يكن فيه حنكة أهل الحاضرة، فحمل الآية على ظاهرها؛ ولذلك قال له رسول الله ﷺ: «إِنَّكَ لَعَرِيسُ الْقَفَا». فنزلت الآية تبين لعدى مراد الله عند الحاجة إلى البيان. مع أن السيوطي ذكر في التوشيح خلاف هذا؛ ونصه:

قال بعضهم: كأن عدياً لم يسمع هذه اللفظة من الآية؛ لأنها نزلت قبل إسلامه بمدة، وذلك أن إسلامه كان في السنة التاسعة أو العاشرة، بعد نزول الآية بمدة، قال: علّمني رسول الله ﷺ الصلاة والصيام، فقال: «صل كذا، وصم كذا، فإن غابت الشمس فكل حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فأخذ الخيطين...». الحديث. فقال له - عليه الصلاة والسلام: «ألم أقل لك من الفجر؟» فتبين أن قوله في الحديث: «فأنزل الله من الفجر» من تصرف الرواة. هـ. مختصراً، فهذا صريح في أن الآية نزلت بتمامها مبينة فلم يكن فيها تأخير، والله تعالى أعلم.

ثم بين الحق تعالى غاية الصوم، فقال: «ثم أتوا الصيام إلى الليل» فمن أفطر مع الشك في الغروب، فعليه الكفارة، بخلاف الشك في الفجر للاستصحاب. ولما كان الاعتكاف من لوازم الصوم ذكر بعض أحكامه بإثره فقال: «ولا تباشروهن» أي: النساء «وأنتم عاكفون في المساجد»، فالمباشرة للمعتكف حرام، وتفسد الاعتكاف. كانت المباشرة في المسجد أو خارجه. وكان الرجل يكون معتكفاً فيخرج فيصيب زوجته ثم يرجع، فنزلت الآية - «تلك حدود الله» قد حدما لكم، «فلا تقربوها» فضلاً عن أن تعتدوها، «كذلك» أي: مثل هذا البيان التام، «يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون» محارمه.

الإشارة: قد تقدم أن صوم الخواص، وخواص الخواص، هو الإمساك عن الفضول، وعن كل ما يقطع عن الوصول. أو الإمساك عن شهود الأغيار، وعن كل ما يوجب الأكدار. فإن عزمَت النفس على هذا الصوم وعقدت النية عليه، حل لها أن تباشر أبكار العلوم اللدنية الوهبية، والحقائق العرفانية، وتفضي إلى ثيبات العلوم الرسمية الكسبية. العلوم اللدنية الوهبية شعارها، والعلوم الرسمية دثارها^(١). العلوم اللدنية لباس باطنها، والعلوم الرسمية لباس ظاهرها.

(١) الشعار: ما ولى جسد الانسان دون ماسواه من الثياب، والدثار: الثوب الذي يكون فوق الشعار.

قال أبو سليمان الداراني: إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت، ثم عادت إلى صاحبها بطرائف العلوم، من غير أن يؤدي إليها عالمٌ علماً . هـ .

قال الحق تعالى: «علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم» بدنس الهفوات، فمنعكم من مباشرة تلك العلوم الروهبيات، فلما عقدتم التوبة، وعزمت على تركها، تاب عليكم وعفا عنكم، فالآن باشروها، وابتغوا ما كتب الله لكم، من الوصول إلى معرفته، والعكوف في حضرة قدسه، وكلوا من ثمرات تلك العلوم، واشربوا من خمرة الحي القيوم، حتى يطلع عليكم فجر الكشف والبيان، وتشرق على قلوبكم شمس نهار العرفان، فحينئذ تضمحل تلك العلوم، وتمحى تلك المعالم والرسوم. ولم يبق إلا الاستغراق في مشاهدة الحي القيوم، فلا تباشروها وأنتم عاكفون في تلك المساجد. فمشاهدة وجه الحبيب تغني عن مطالعة المعالم والمشاهد. تلك حدود الله فلا تقربوها، أي: لا تقفوا مع تلك العلوم وحلاوة تلك الرسوم؛ فإنها تمنعكم من مشاهدة الحي القيوم. كذلك يبين الله آياته الموضحة لطريق وصوله للناس، لعلهم يتقون مشاهدة ما سواه. والله تعالى أعلم.

ولما أراد الحق أن يتكلم على الحج قدم الكلام على الأموال؛ لأنها سبب في وجوبه، والوصول إليه في الغالب، فقال:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قلت: أصل الإدلاء: إرسال الدلو في الماء ليتوصل به إلى أخذ الماء من البئر، ثم أطلق في كل ما يتوصل به إلى شيء، يقال: أدلى بماله إلى الحكام، أي: دفعه رشوة، ليتوصل بذلك إلى أخذ أكثر منه، وهو المراد هنا، وفي القاموس: أدلى برحمته: توسل، وبحجته: أحضرها، وإليه بماله: دفعه. ومنه: (وتدلوا بها إلى الحكام) . هـ . و(تدلوا) معطوف على (تأكلوا)، منهي عنهما معا.

يقول الحق جل جلاله: «ولا تأكلوا» يا معشر المسلمين «أموالكم» أي: أموال بعضكم بعضا، «بالباطل» أي: بغير حق شرعي؛ إما بغير حق أصلا كالغصب والسرقة والخيانة والخدع والتطفيف والغش وغير ذلك. أو بحق باطل كما يؤخذ في السحر والكهانة والغال والقمار والجاه، وهديّة المديان^(١)، وهديّة القرض، والضمان،

(١) رجل مديان: إذا كان عادته أن يأخذ بالدين.

والرشوة، والربا، وغير ذلك مما نهى الشارعُ عنه. ولا يدخل في ذلك التماثل والعزائم إذا كان بالقرآن أو السنة وغلب الشفاء، وكذلك لا يدخل أيضا الغبن، إذا كان البائع عالما بالمبيع.

أو «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل» بأن تنفقوها في المأهلي والزنا والشرب واللواط، وغير ذلك من المحرمات، ولا «تدلو» أي: تتوسلوا بها، أي: بدفعها «إلى الحكام» رشوة «لتأكلوا فريقا من أموال الناس» بأن يحكم لكم بها القاضي، تأخذونها متلبسين «بالإثم» أي: بالمعصية «وأنتم تعلمون» أنها لغيركم؛ فإن حكم الحاكم لا يحل حراما.

وفي الحديث عنه عليه السلام قال: «إنما أنا بشرٌ مثلكم، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له، فمن قضيت له بشيء من مال أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار».

الإشارة: الباطل كل ما سوى الحق، فكل من كان يأخذ من يد الخلق ولا يشاهد فيهم الحق فإنما يأخذ أموال الناس بالباطل. قال في الحكم: «لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك، فإذا كنت كذلك فخذ ما وافقك العلم». ويحتاج العامل بهذا إلى عسة^(١) كبيرة، وشهود قوي، حتى يقلى عن نظره مشاهدة الخلق في شهود الملك الحق. وكان بعضهم يطلب من هذا وصفه فيعطى للفقير العطاء، ويقول: خذ، لا لك، فلا يسمع من أحد شيئا، حتى أعطى لبعض الفقراء، وقال: خذ، لا لك، فقال: أقبض لا منك. هـ. قلت: الوصول إلى الحكام على شأن الدنيا أو للانتصار للنفس حرام في طريق الخصوص، بل يصبر حتى يحكم الله بينه وبين خصمه، وهو خير الحاكمين، فإن اضطر إلى شيء ولم يجد بدا منه فليؤكل، وبالله التوفيق.

ولما أراد الحق تعالى أن يتكلم على أحكام الحج، قدم الكلام على الهلال؛ لأنه معتبر في الحج، أداء وقضاء، فقال:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ...﴾

قلت: الذي سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنمة^(٢)، فقالا: يا رسول الله: ما بال الهلال يبدو رقيقا كالخيوط، ثم لا يزال يزيد حتى يستوى، ثم لا يزال ينقص حتى يرجع كالخيوط؟ فقال الحق جل جلاله: «يسئلونك عن الأهلة»

(١) أي: اجتهد وجد، من عس يعس: إذا طلب.

(٢) في الأصول (غنم)، والصواب: غنمة، كما في أسد الغابة، والإصابة.

أى: عن حكمة اختلاف الأهلة بالزيادة والنقص، «قل» لهم يا محمد: «هى مواقيت للناس» يوقتون بها ديونهم، ويعرفون بها أوقات زرعهم، وعدد نسايتهم وصيامهم. وهى أيضا مواقيت للحج، يعرفون بذلك وقت دخوله وخروجه، فيعرفون الأداء من القضاء، فلو كانت على حالة واحدة لم يعرفوا ذلك. أجابهم الحق تعالى بغير ما ينتظرون؛ إشارة إلى أن السؤال عن سر الاختلاف، ليس فيه متفعة شرعية، وإنما ينبغى الاهتمام بما فيه منفعة دينية.

قال أهل الهيئة: إن نوره من نور الشمس، وجرمه أطلس، فكلما بعد من مسامتة الشمس قابله نورها، فإذا قرب منها لم يقابله من نورها إلا بعض جرمه، فإذا دخل تحتها فى الفلك كان ظهره كله إليها، فلم يقابله شىء من نورها، فإذا خرج من تحتها قابله بقدر ذلك، والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا ظهر هلال السعادة فى أفق الإرادة، وهبت ريح الهداية من ناحية سابق العناية، دخل وقت حج القلوب إلى حضرة علام الغيوب، فهلال الهداية للسايرين، وهم أرباب الأحوال أهل التلوين، يزداد نوره بزيادة اليقين، وينقص بنقصانه، على حسب ضعف حاله وقوته، حتى يتحقق الوصال، ويرزق صفة الكمال. وأنشدوا:

كُلُّ يَوْمٍ تَتَلَوْنَ غَيْرُ هَسْدا بِكَ أَجْمَلُ

فصاحب التلوين بين الزيادة والنقصان، إلى أن تطلع عليه شمس العرفان، فإذا طلعت شمس العرفان فليس بعدها زيادة ولا نقصان، وأنشدوا:

طَلَعَتْ شَمْسُ مِنْ أَحَبِّ بَلِيلٍ واستضاءت فمسا تلاها غروبُ
إِنْ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْلِ لَمْ وَشَمْسَ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ

بخلاف صاحب التمكين؛ فإنه أبدا فى ضياء معرفته، متمكن فى برج سعادته، لا يلحق شمس كسوف ولا حجاب، ولا يستر نورها ظلمة ولا سحب، فلو طلب الحجاب لم يجب. قال بعض العارفين: (لو كُلفت أن أرى غيره لم أستطع، فإنه لا غير معه حتى أشهده).

ثم حذر الحق تعالى مما ابتدعه المشركون فى الحج، فقال:

﴿... وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ وَآتَىٰ

الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

قلت: كانت الأنصار إذا حجوا أو اعتمرُوا، يقولون: لا يحول بيننا وبين السماء سَقَفٌ، حتى يدخلوا بيوتهم، فإذا رجعوا تسوروا الجدران، أو تنقبوا فى ظهور بيوتهم، فجاء رجلٌ منهم فدخل من الباب، فعير بذلك، فأنزل الحق جل جلاله: «وليس البر» أى: الطاعة، «بأن تأتوا البيوت من ظهورها» فتتسوروها، أو تنقبوا من أعلاها، «ولكن البر من اتقى» المحارم وخالف الشهوات.

أو: ليس البر بأن تعكسوا مسائلكم بأن تسألوا عما لا نفع لكم فيه، وتتركوا مسائل العلم التى تنفعكم فى العاجل والآجل. «ولكن البر من اتقى» ذلك، «وأأتوا» بيوت العلم من أبوابها، فتحسنون السؤال وتتأدبون فى المقال، وتقدمون الأهم فالأهم، والأنفع فالأنفع. «واتقوا الله» فلا تغيروا أحكامه، ولا تعترضوا على أفعاله، «لعلكم تفلحون» بتوفيقه وهدايته.

الإشارة: اعلم أن البيوت التى يدخلها المريد ثلاثة: بيت الشريعة وبيت الطريقة وبيت الحقيقة، ولكل واحد أبواب فمن أتى البيت من بابه دخل. ومن أتاه من غيره طُرد.

فبيت الشريعة له ثلاثة أبواب: الباب الأول: التوبة، فإذا دخل هذا الباب، وحقق التوبة بأركانها وشروطها، استقبله باب الاستقامة، وهى: متابعة الرسول فى أقواله وأفعاله وأحواله، فإذا دخله، وحقق الاستقامة، استقبله باب التقوى بأقسامها. فإذا حقق التقوى ظاهرا وباطنا، دخل بيت الشريعة المطهرة، وتنزه فى محاسنه ومعانيه، ثم يروم دخول بيت الطريقة، وله ثلاثة أبواب:

الباب الأول: الإخلاص وهو: إفراد العمل لله من غير حرف ولا حظ، فإذا حقق الإخلاص استقبله باب التخلية وهى التطهير من العيوب الباطنة، وهى لا تنحصر، لكن من ظفر بالشيخ أطلعه عليها، وعلمه أوديتها، فإذا حقق التخلية استقبله باب التحلية، وهى: الاتصاف بأنواع الفضائل؛ كالصبر والحلم والصدق والطمأنينة والسخاء والإيثار، وغير ذلك من أنواع الكمالات. فإذا حقق الإخلاص والتخلية والتحلية فقد حقق بيت الطريقة، ثم يستقبله بيت الحقيقة.

فأول ما يقرع باب المراقبة، وهى: حفظ القلب والسر من الخواطر الردية، فإذا تطهر القلب من الخواطر الساكنة، استشرف على باب المشاهدة، وهى: محو الرسوم فى مشاهدة أنوار الحى القيوم، أو تلطيف الأوانى عند ظهور المعانى، فإذا دخل باب المشاهدة، وسكن فيها، استقبله باب المعرفة، وهى محل الرسوم والتمكين، وهى الغاية والمنتهى، فبيت الحقيقة هو مسجد الحضرة الربانية. وما بقى بعدها إلا الترقى فى المقامات، وزيادة المعارف والكشوفات أبدا سرمدًا، منحنا الله من ذلك حظا وافرا بمنه وكرمه.

ولما كان البيت الحرام عند فرض الحج معمورا بالكفار، أمرهم بجهادهم ليتمكن المسلمون من الحج، فقال:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ
وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ
﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا
فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ
فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾

قلت: (التهلكة): مصدر هلك - بتشديد اللام - قاله ابن عطية. وضمن (تلقوا) معنى تفضوا، أو تنتهوا، فعذاه

بالى، أى: ولا تفضوا بأنفسكم إلى التهلكة. ولا يحتاج إلى زيادة الباء.

وسبب نزول الآية: أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وصالحوه على أن يرجع فى قابل، فيخلوا له البيت ثلاثة أيام، فرجع لعمره القضاء، وخاف المسلمون ألا يفوا لهم، فيقاتلوا فى الحرم والشهر الحرام، وكرهوا ذلك، فنزلت الآية.

يقول الحق جل جلاله: «وقاتلوا فى سبيل الله» وإعلاء كلمته «الذين يقاتلونكم» أى: يبدءونكم بالقتال، «ولا تعتدوا» فتقاتلوهم قبل أن يبدءوكم؛ «إن الله لا يحب المعتدين» لا ينصرهم ولا يؤيدهم. ثم نسخ هذا بقوله: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً... ﴾ الآية. «واقتلوهم حيث تقتلهم» أى: وجدتموهم، ولا تتحرجوا من قتالهم فى الحرم، فإنهم هم الذين صدوكم وبدأوكم بالإذابة، «وأخرجوهم» من مكة «حيث أخرجوكم» منها، «والفتنة» أى: الكفر الذى هم فيه، «أشد من القتل» لهم فى الحرم، «ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام» ابتداءً «حتى يقاتلوكم فيه»، فإن قاتلوكم فيه «فاقتلوهم» فيه، وفى غيره، «كذلك جزاء الكافرين» يفعل بهم ما فعلوا بغيرهم، «فإن انتهوا» عن الشرك وأسلموا «فإن الله غفور» لهم «رحيم» بهم.

«وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ أَيْ: شُرَكَاءُ دِينِ الْإِسْلَامِ» خَالِصًا لِلَّهِ بِحَيْثُ لَا يَبْقَى فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ إِلَّا دِينٌ وَاحِدٌ، «فَإِنْ انْتَهَوْا» عَنْ قِتَالِكُمْ، فَلَا تَعْتَدُوا؛ فَإِنَّهُ «لَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ» إِذْ لَا يَحْسُنُ أَنْ يَظْلَمَ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ.

الْقِتَالُ الصَّادِرُ مِنْكُمْ لَهُمْ فِي «الشَّهْرِ الْحَرَامِ» فِي مَقَابِلَةِ الصَّدِّ الَّذِي صَدَرَ مِنْهُمْ لَكُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، «وَالْحَرَمَاتِ قِصَاصٌ» يَقْتَصُّ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، فَكَمَا انْتَهَكُوا حُرْمَةَ الشَّهْرِ الْحَرَامِ، بِمَنْعِكُمْ مِنَ الْبَيْتِ، فَانْتَهَكُوا حُرْمَتَهُمْ بِالْقِتْلِ فِيهِ. «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ» بِالْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ، أَوْ فِي الْحَرَمِ «فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ» فَلَا تَنْتَصِرُوا لِنَفْسِكُمْ، «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» بِالْحِفْظِ وَالتَّأْيِيدِ.

«وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ، وَلَا تَمْسِكُوا عَنِ الْإِنْفَاقِ فِيهِ فَتَلْقُوا «بِأَيْدِيكُمْ» أَيْ: بِأَنْفُسِكُمْ «إِلَى التَّهْلُكَةِ» أَيْ: الْهَلَكَةِ فَيَسْتَوْلِي عَلَيْكُمْ عَدُوُّكُمْ.

رَوَى عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ (أَنَّهُ كَانَ عَلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى عَسْكَرِ الْعَدُوِّ، فَقَالَ قَوْمٌ: أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: لَا، إِنْ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الْأَنْصَارِ، قَالُوا: لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَكَثُرَ أَهْلُهُ -: لَوْ رَجَعْنَا إِلَى أَهْلِينَا وَأَمْوَالِنَا نَقِيمُ فِيهَا وَنُصْلِحُهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِينَا «وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ»، وَأَمَّا هَذَا فَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ اللَّهُ تَعَالَى: «وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ...»).

أَوْ: وَلَا تَنْفَقُوا كُلَّ أَمْوَالِكُمْ فَتَتَعَرَّضُوا لِلْهَلَكَةِ، أَوِ الطَّمَعُ فِي الْخَلْقِ، وَلَكِنْ الْقَصْدُ، وَهُوَ الْوَسْطُ. «وَأَحْسِنُوا» بِالْتَّفَضُّلِ عَلَى الْمَحَاوِجِ وَالْمَجَاهِدِينَ «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» فَيَحْفَظُهُمْ، وَيَحْفَظُ عَقِبَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الْإِشَارَةُ: اعْلَمْ أَنَّ أَعْدَاءَ الْإِنْسَانِ الَّتِي تَقْطَعُهُ عَنْ حَضْرَةِ رَبِّهِ أَرْبَعَةٌ: النَّفْسُ وَالشَّيْطَانُ وَالْدُنْيَا وَالنَّاسُ. فَمَجَاهِدَةُ النَّفْسِ: بِمُخَالَفَةِ هَوَاهَا، وَتَحْمِيلِهَا مَا يَثْقُلُ عَلَيْهَا حَتَّى تَرْتَضَ، وَمَجَاهِدَةُ الشَّيْطَانِ: بِعَصْيَانِهِ، وَالِاشْتِغَالُ بِاللَّهِ عَنْهُ، فَإِنَّهُ يَذُوبُ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَمَجَاهِدَةُ الدُّنْيَا: بِالزُّهْدِ فِيهَا، وَالْقَنَاعَةِ بِمَا تيسرُ مِنْهَا، وَمَجَاهِدَةُ النَّاسِ: بِالْغَيْبَةِ عَنْهُمْ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ فِي الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ. فَيَقُولُ الْحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ لِلْمُتَوَجِّهِينَ إِلَيْهِ: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ» وَيَصُدُّونَكُمْ عَنْ حَضْرَتِهِ، وَلَا تَعْتَدُوا فَتَشْتَغَلُوا بِهِمْ عَنْ ذِكْرِي، وَالْإِقْبَالِ عَلَيَّ، «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ». بَلْ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَعَرَّضُوا لَكُمْ فَقَطْ، فَإِذَا ظَهَرَتْ صُورَةُ النَّفْسِ أَدْبَاهَا، ثُمَّ غَابَ فِي اللَّهِ عَنْهَا، وَكَذَلِكَ بَقِيَّةُ الْقَوَاطِعِ.

وكان شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رحمته الله يقول: (عداوة العدو حقاً هي اشتغالك بمحبة الحبيب حقاً، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو فانتك محبة الحبيب، ونال العدو مراده منك). هـ. وأخرجوهم من قلوبكم من حيث أخرجوكم من حضرة ربكم، يعنى: كما أخرجوكم من الحضرة فى أيام الغفلة، أخرجوهم من قلوبكم فى أيام اليقظة. والفتنة بالاشتغال بهم أشد من القتل لهم، ولا تقاتلوهم عند مسجد الحضرة وحال الغيبة فى الله، فإن ذلك التفات إلى غير الله، كمن كان مقبلاً عليه حبيبه فجعل يلتفت إلى من يكلمه ويشغله عنه. وذلك فى غاية الجفاء، حتى يقاتلوكم فيه، ويريدون أن يخرجوكم منه بوسوستهم، فإن قاتلوكم، وخطر على بالكم شىء من وسوستهم، فاقتلوهم بذكر الله، والتعود منهم، فإن الله يكفيكم أمرهم، وينهزمون عنكم، كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا عنكم، وانقطع عنكم خواطرهم، فغيبوا عنهم فإن الله يستركم عنهم، وقاتلوهم على الدوام حتى لا تكون فى قلوبكم فتنة منهم، ويكون التوجه كله لله، لا يذازه شىء مما سواه، فإن انتهوا عنكم فلا تتعرضوا لهم؛ فإن ذلك عدوان وظلم، ﴿ولا عدوان إلا على الظالمين﴾.

فإن جَنَحَتْ نَفْسُكَ إلى حرمة الطاعة الظاهرة؛ كتدريس علم أو جهاد أو صلاة أو غيرها، وأرادت أن تخرجك من حرمة الحضرة القدسية؛ وهى الفكرة والشهود والمعاني، فقاتلها وأخرجها من حرمة تلك الطاعة، فالحرمان قصاص. فكما أخرجتك من حضرة ربك القدسية أخرجها من حضرة الطاعة الحسية إلى الطاعة القلبية. فإن الذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح.

فمن اعتدى عليكم، فى زمن البطالة، فاعتدوا عليه فى زمن اليقظة بمثل ما اعتدى عليكم. وكان شيخنا البوزيدي رحمته الله يقول: جوروا على نفوسكم بقدر ما جارت عليكم. هـ. أى: اقاتلوها بقدر ما قتلتكم بالبعد عن ربكم. وكان أيضاً يقول: (جوروا على الوهم قبل أن يجور عليكم). هـ. واتقوا الله فإن الله يعينكم عليها، ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾. وأنفقوا أنفسكم ومهجمكم فى سبيل الله، بأن تطرحوها فى يد الله يفعل بها ما يشاء. ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ فتدبروا لها، وتختاروا لها، وتعتنوا بشئونها، فإن ذلك غفلة عن ربكم. ﴿وأحسنوا﴾ أى: ادخلوا فى مقام الإحسان؛ بأن تعبدوا الله كأنكم ترونه ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ أى: يقربهم إلى حضرته، ويصطفيهم إلى محبته ومعرفته، خرطنا الله فى سلكهم بمنه وكرمه.

ثم أمر الحق تعالى بإتمام الدسك الذى دخل فيه، وحض على الإخلاص فيه، فقال:

﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ۖ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ ...﴾

قلت : المشهور في اللغة أن أحصر الرباعي: بالمرض، وحصر الثلاثي: بالعدو، وقيل: بالعكس، وقيل: هما سواء. و(ما استيسر): خبر أو مبتدأ، أي: فالواجب ما استيسر، أو: فعليه ما استيسر.

يقول الحق جل جلاله: «وَأَتِمُوا الْحَجَّ الَّذِي دَخَلْتُمْ فِيهِ، وَالْعُمْرَةَ وَجُوبًا كَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ لِلَّهِ لَا رِيَاءَ وَلَا سَمْعَةَ، وَإِنَّمَا خَصَّ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ بِالْحُضِّ عَلَى الْإِخْلَاصِ، لَمَّا يَسْرِعُ إِلَيْهِمَا مِنَ الْخَلَلِ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِمَا، فَمَنْ أَفْسَدَهُمَا وَجِبَ عَلَيْهِ قَضَاؤُهُمَا، «فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ» وَمَنْعْتُمْ مِنْ إِتِمَامِهِمَا فَتَحَلَّلُوا مِنْهُمَا، وَعَلَيْكُمْ «مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ»، وَذَلِكَ شَاةٌ «وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ» أَي: لَا تَتَحَلَّلُوا «حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ»، أَي: حَيْثُ يَحِلُّ ذَبْحُهُ، وَهُوَ مَحَلُّ الْإِحْصَارِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ، فَيَذْبَحُ فِيهِ بَنِيَةَ التَّحَلُّلِ وَيُفَرِّقُ، وَمِنْهُ أَوْ مَكَّةَ عِدَّةً مَالِكٌ، فَيُرْسِلُهُ فَإِذَا تَحَقَّقَ أَنَّهُ وَصَلَ وَذُبِحَ حُلٌّ وَحَلَقٌ.

ويحرم على الْمُحْرَمِ إزالة الشعث، ولبس المخيط بالعضو، فمن كان «مريضاً أو به أذى» صداع أو نحوه، فحلق رأسه، أو لبس ثيابه، فعليه فدية «من صيام» ثلاثة أيام، «أو صدقة» على ستة مساكين، مَدَّانَ لِكُلِّ مَسْكِينٍ، «أو نسك» بشاة فأعلى، فهو مخير بين الثلاثة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا عقد المريد مع ربه عَقْدَةً، فالواجب عليه إتمامها حتى يَجْنِيَ ثَمَرَتَهَا، فإذا عقد عَقْدَةَ الْمَجَاهِدَةِ فليجاهد نفسه حتى يَجْنِيَ ثَمَرَتَهَا، وهي المشاهدة، وإذا عقد مع الشيخ عَقْدَةَ الصَّحْبَةِ، فليلزم خدمته حتى يدخله إلى بيت الحضرة، ويشهد له بالترشيد. وهكذا كل من عقد مع الله عَقْدَةً يجب عليه إتمامها، فإن أحصر ومنع من إتمامها فليفعل ما استيسر من ذبح نفسه وخط رأسه، و﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا﴾، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْجَلَ الْفَتْحَ قَبْلَ إِبَائِهِ، فَلَعَلَّهُ يُعَاقَبُ بِحَرَمَانِهِ، فَكَمْ مِنْ مَرِيدٍ طَلَبَ مِنْ شَيْخِهِ أَنْ يُطْلَعَ عَلَى سِرِّ الرِّيَاسَةِ قَبْلَ بُلُوغِ مَحَلِّهِ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ عَطْبِهِ، فَيَقَالُ لَهُ: وَلَا تَحْلِقْ رَأْسَكَ مِنْ شُهُودِ السُّوَى حَتَّى يَبْلُغَ هَدْيُ نَفْسِكَ مَحَلَّهُ فَيَذْبَحَ، فَإِذَا ذُبِحَتِ النَّفْسُ وَأُجْهِزَ عَلَيْهَا حَلَقُ رَأْسِهِ حِينَئِذٍ مِنْ شُهُودِ السُّوَى، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

إِنْ تَرَدَّدْتَ وَصَلْنَا فَمَوْتُكَ شَرَطٌ لَا يَنَالُ الْوَصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلَةٌ

فمن كان مريضاً بضعف عزمه، أو به أذى بعدم نهوض حاله، بحيث لم تُسَعِفْهُ المقادير في مجاهدة نفسه، فليشتغل بالنسك الظاهر من صيام أو صدقة أو قراءة أو غير ذلك، حتى يَمُنَّ عَلَيْهِ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما ذكر الحق تعالى هدى الإحصار وفدية الأذى، ذكر هدى التمتع، فقال:

﴿... فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: فإذا حصل لكم الأمن من المرض أو العدو، وأردتم الحج «فمن تمتع» منكم «بالعمرة إلى الحج» بأن قدم العمرة في أشهر الحج، ثم حج من عامه، فالواجب عليه «ما استيسر من الهدى»؛ شاة فأعلى؛ لكونه تمتع بإسقاط أحد السفرين ولم يفرد لكل عبادة سفراً مخصوصاً. «فمن لم يجد» الهدى، ولم يقدر على شرائه، فعليه «صيام ثلاثة أيام» في زمن «الحج»، وهو زمن إحرامه إلى وقوفه بعرفة، فإن لم يصم في ذلك الزمان صام أيام التشريق. ثم يصوم سبعة أيام إذا رجع إلى مكة أو إلى بلده. فتلك «عشرة» أيام «كاملة»، ولا تنوهموا أن السبعة بدل من الثلاثة، فلذلك صرح الحق تعالى بفذلكة الحساب (١).

وهذا الهدى أو الصيام إنما يجب على المتمتع؛ إذا لم يكن ساكناً بأهله في مكة أو ذي طوى، وأما من كان (أهله حاضري المسجد الحرام) فلا هدى عليه؛ لأنه يحرم بالحج من مكة فلم يسقط أحد السفرين، «واتقوا الله» في امتثال أوامره، وخصوصاً مناسك الحج؛ لكثرتها وتشعب فروعها، ولذلك أفردت بالتأليف، «واعلموا أن الله شديد العقاب» لمن ترك أوامره وارتكب نواهيه. وبالله التوفيق.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله على طريق الإشارة للمتوجهين إليه: فإذا أمنتُمْ من أعدائكم الذين يقطعونكم عن الوصول إلى حضرتنا، أو أمنتُمْ من الرجوع بعد الوصال، أو من السلب بعد العطاء، وذلك بعد التمكين من شهود أسرار الذات، وأنوار الصفات، إذ الكريم إذا أعطى لا يرجع، فإذا حصل لكم الأمن، فمن تمتع بأنوار الشريعة إلى أسرار الحقيقة فعليه ما استطاع من الهدى والسمت الحسن والخلق الحسن؛ لأنه إذ ذاك قد اتصف بصفة الكمال وتصدر لتربية الرجال، فمن لم يجد ذلك فليرجع إلى ما تيسر من المجاهدة حتى يتمكن من ذلك الهدى الحسن والخلق الحسن، هذا لمن لم يتمكن في الحضرة الأزلية، وأما من كان مقيماً بها، عاكفاً في شهود أنوارها، فلا كلام عليه، لأنه قد تولاه مولاه، وغيبه عن شهود نفسه وهواه، فأمره كله بالله وإلى الله. جعلنا الله فيهم بمنه وكرمه،

(١) الفذلكة: مجمل ما فصل وخلصته.

لكن لا يغفل عن التقوى؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام: «أنا أعرفكم بالله، وأنا أتقاكم له». وقالوا: «من علامة النهايات الرجوع إلى البدايات»، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى ميقات الحج الزماني، فقال:

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَأْتُوا فِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ ﴾

قلت: (الحج): مبتدأ، على حذف مضاف، أي: إحرام الحج أو فعل الحج، و (أشهر): خبر، وإذا وقع الزمان خبراً عن اسم معنى؛ فإن كان ذلك المعنى واقعا في كل ذلك الزمان أو جلّه؛ تعيّن رفعه عند الكوفيين، وترجع عند البصريين إذا كان الزمان نكرة، نحو: السفر يوم. إن كان السفر واقعا في جميع ذلك اليوم أو في جلّه؛ لأنه باستغراقه إياه صار كأنه هو، ويصح: السفر يوما، أو في يوم. وإن كان ذلك المعنى واقعا في بعض ذلك الزمان تعيّن نصبه أو جرّه بـ (في)، نحو: السفر يوم الجمعة، أو في يوم الجمعة وقد يرفع نادرا.

قال في التسهيل: ويغنى - أي: ظرف الزمان - عن خبر اسم معنى مطلقا، فإن وقع في جميعه، أو في أكثره، وكان نكرة، رُفِعَ غالبا، ولا يمتنع نصبه ولا جره بـ (في) خلافا للكوفيين. وربما رُفِعَ خبرُ الزمان الموقّع في بعضه. هـ. ومن ذلك: «الحج أشهر معلومات» فإن جُلّها تصلح للإحرام.

يقول الحق جل جلاله: وقت إحرام الحج «أشهر معلومات»: شوال وذو القعدة وذو الحجة، فمن أحرم قبلها كره عند مالك، وبطل عند الشافعي، «فمن فرض» على نفسه «فيهن الحج» فيلزم الأدب والوقار، ويجانب شهوة النساء، (فلا) يقع منه «رفث» أي: جماع أو كلام فحش، «ولا فسوق» أي: ذنوب، «ولا جدال في» زمان «الحج» ولو مع المكارى (١) أو الخدّام، ولا غيره من أنواع الخصام؛ فإنه في حضرة الملك العلام. «وما تفعلوا من خير» كحلّم وصبر وحسن خلق «يعلمه الله» فاستبقوا الخيرات، وتزودوا قبل هجوم الممات، واتقوا الله حق تقاته «فإن خير الزاد التقوى». أو تزودوا لسفر الحج، ولا تسافروا كالأعلى الناس؛ «فإن خير

(١) المكارى: هو مكربى الدواب. ويغلب على الحمّار والبغال، وجمعه: مكاريون.

الزاد التقوى» عن الطمع في الخلق، «وانلقون يا أولى الألباب»، وأفرِدُونِي فِي سِرْكُمْ حَتَّى أَفْتَحَ لَكُمْ الْبَابَ، وَأَدْخَلَكُمْ مَعَ الْأَحْبَابِ.

الإشارة: معاملة الأبدان مؤقتة بالأماكن والأزمان، ومعاملة القلوب أو الأرواح غير مؤقتة بزمان مخصوص، ولا مكان مخصوص، فحج القلوب، الأزمنة كلها له ميقات، والأماكن كلها عرفات، حج القلوب هو العكوف في حضرة علام الغيوب، وهي مُسَرَّمَةٌ عَلَى الدَّوامِ عَلَى مَرَّ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، فكل وقت عندهم ليلة القدر، وكل مكان عندهم عرفة المُشْرِفَةُ الْقَدْرَ، وأنشدوا :

لولا شهود جمالكم في ذاتي	ما كنت أرضى ساعة بحياتي
ما ليلة القدر المعظم شأنها	إلا إذا عمّرت بكم أوقاتي
إن المحب إذا تمكّن في الهوى	والحب لم يحتج إلى ميقات

وقال آخر (١) :

كلُّ وقتٍ من حَسْبِيبي	قَدْرُهُ كَأَلْفِ حَاجَةٍ
فأز من خَلَى الشُّوَاغِلُ	ولمُولَاهُ تَرْجُؤُة

فَمَنْ فَرَضَ عَلَى قَلْبِهِ حَجَّ الْحَضْرَةِ فَلْيَلْتَزِمِ الْأَدَبَ وَالنَّظْرَةَ، وَالسَّكُوتَ وَالْفِكْرَةَ، قَالَ تَعَالَى «وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا» فَلَا رَفْثَ وَلَا فَسُوقَ وَلَا جِدَالَ وَلَا مَرَاءَ، إِذْ مَبْنَى طَرِيقَهُمْ عَلَى التَّسْلِيمِ وَالرَّضَى، وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِخَفَى. وَتَزَوَّدُوا بِتَقْوَى شُهُودِ السَّوَى، «فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»، وَجَمَاعُ التَّقْوَى هِيَ مَخَالَفَةُ الْهَوَى، وَمَحَبَّةُ الْمَوْلَى، فَهَذِهِ تَقْوَى أَوْلَى الْأَلْبَابِ؛ الَّذِينَ صَفَتْ مِرَاةُ قُلُوبِهِمْ، فَأَبْصَرُوا الرُّشْدَ وَالصَّوَابَ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ.

ثم أباح الحق تعالى التجارة في مواسم الحج، فقال:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ...﴾

قلت: (أن تبتغوا): على إسقاط حرف الجر، أى: فى أن تبتغوا، وسبب نزول الآية: أن عكاظاً ومَجَنَّةً وذا المجاز - أسماء مواضع - كانت أسواقاً فى الجاهلية يعمرونها فى مواسم الحج، وكانت معاشهم منها، فلما جاء الإسلام تأثّموا وتخرجوا أن يتجروا فيها، فقال لهم الحق جل جلاله: «ليس عليكم جناح» أى: إثم أو ميل

(١) وهو المشتري.

عن الصواب، في «أن تبتغوا فضلا من ربكم» أي: عطاء ورزقا تستفيدونه من التجارة في مواسم حركم، إذا خلصت نيتكم، وغلب قصد الحج على التجارة.

وما هنا قاعدة ذكرها الغزالي في الإحياء، وحاصلها: أن العمل إذا تمحّض لغير الله فهو سبب العقاب، وإذا تمحّض لله خالصا فهو سبب القرب والثواب، وإذا امتزج بشوب من الرياء أو حظوظ النفس فينظر إلى الغالب وقوة الباعث؛ فإن كان باعث الحظ أغلب، سقط، وكان إلى العقوبة أقرب، لكن عقوبته أخف ممن تجرد لغير الله، وإن كان باعث التقرب أغلب، حط منه بقدر ما فيه من باعث الحظ، وإن تساوى تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه.

ثم قال: ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأُثيب عليه. ثم قال: والصواب أن يقال: مهما كان الحج هو المحرك الأصلي، وكان غرض التجارة كالتابع، فلا ينفك نفس السفر عن ثواب، ثم طرد هذا الاعتبار في الجهاد باعتبار الغنيمة، يعني: ينظر لغالب الباعث وخلوص القصد، وكذلك الصوم للحمية والثواب، ينظر لغالب الباعث.

قلت: وتطرد هذه القاعدة في المعاملات كلها، وجميع الحركات والسكنات والحرف وسائر الأسباب، فالخالص من الحظوظ مقبول، والمتمحّض للحظوظ مردود، والمشوب ينظر للغالب كما تقدم.

وقد ذكر شيخ المشايخ سيدى أبو الحسن الشاذلى رحمته الله قاعدة أخرى أدق من هذه فقال: إذا أكرم الله عبدا في حركاته وسكناته، نصب له العبودية لله وستر عنه حظوظ نفسه، وجعله يتقلب في عبوديته، والحظوظ عنه مستورة، مع جرى ما قدر له، ولا يلتفت إليها؛ لأنها في معزل عنه، وإذا أهان الله عبدا في حركاته وسكناته، نصب له حظوظ نفسه، وستر عنه عبوديته، فهو يتقلب في شهواته، وعبودية الله عنه بمعزل، وإن كان يجرى عليه شيء منها في الظاهر، قال: وهذا باب من الولاية والإهانة. وأما الصديقية العظمى، والولاية الكبرى، فالحظوظ والحقوق كلها سواء عند ذوى البصيرة؛ لأنه بالله فيما يأخذ ويترك. هـ.

الإشارة: العبد لا يستغنى عن طلب الزيادة، ولو بلغ من الكمال غاية النهاية، فالقناعة من الله حرمان، واعتقاد بلوغ النهاية نقصان، فليس عليكم جناح أيها العارفون أن تبتغوا فضلا من ربكم زيادة في إيقانكم، وترقياً في معانيكم، إذ كمالات الحق لا نهاية لها، وأسرار الذات لا إحاطة بها، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾. والله ولى التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى الوقوف بعرفة، والرجوع إلى المزدلفة والمشعر الحرام، فقال:

﴿... فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ
حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ
مَنْاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا...﴾

قلت: (أفَضْتُمْ): دفعتم، وأصل الإفاضة: الدفع بقوة، من فاض الماء إذا نبغ بقوة، ثم استعمل في مطلق
الاندفاع على سبيل المبالغة. و(عرفات) فيها الصرف وعدمه، كأذرعات. وسمى عرفات لقول إبراهيم الخليل
عليه السلام لجبريل حين علمه المناسك: قد عرفت. أو لمعرفة آدم حواء فيها. والكاف في (كما هداكم) تعليلية، و(ما)
مصدرية، أى: واذكروه لأجل هدايته لكم. و(إن كنتم) مخففة، واللام فارقة، وقوله: (أو أشد) نعت لمصدر
محذوف، أى: أو ذكرا أشد.. إلخ.

يقول الحق جل جلاله: فإذا وقفت بعرفة، وأفضت منها، فانزلوا المزدلفة وبيتوا بها، فإذا صليت الصبح
بغسل فقفوا عند «المشعر الحرام»، وهو جبل في آخر المزدلفة، واذكروا الله عنده بالتهليل والتكبير والتلبية إلى
الإسفار، هكذا فعل الرسول - عليه الصلاة والسلام -، «واذكروه» لأجل ما هداكم إليه من معالم دينه ومناسك
حجه، وغير ذلك من شعائر الدين، أو فاذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة، وقد كنتم من قبل هذه الهداية
«لن الضالين».

وكانت قريش لا تقف مع الناس ترفعاً عليهم، بل تقف بالمزدلفة، فأمرهم الحق جل جلاله بالوقوف مع الناس،
فقال لهم: «ثم أفيضوا» يا معشر قريش «من حيث أفاض الناس» بأن تقضوا معهم، وتفيضوا من حيث
أفاضوا، «واستغفروا الله» في تغييركم مناسك إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - «إن الله غفور» لكم،
«رحيم» بكم إن تبتم ورجعتم واتبعت رسولكم. «فإذا قضيت مناسككم» وفرغتم من حجتكم «فاذكروا الله»
ذكراً كثيراً «كذكركم آباءكم» أو ذكراً «أشد ذكراً» منهم، حيث كنتم تذكرونهم عند فراغ حجتكم بالمفاخرة،
وكانوا إذا فرغوا من حجهم وقفوا بمعنى، بين المسجد والجبل، فيذكرون مفاخر آبائهم، ومحاسن أيامهم، فأمرُوا أن

يبدلوا ذلك بذكر الله، وذكر إحسانه إليهم، وشكر ما أسداه إليهم من مفاخر الدنيا والآخرة، إن آمنوا واتبعوا رسوله ﷺ.

الإشارة: إذا وقفت القلوب على جبل عرفة المعارف، وتمكنت من شهود جمال معاني تلك الزخارف، حتى صارت تلك المعاني هي روحها وسرها، وإليها مآلها ومسيرها، أمرت بالنزول إلى أرض العبودية، والقيام بوظائف الربوبية، شكراً لما هداها إليه من معالم التحقيق، وما أبان لها من منار الطريق، وإن كانت من قبله لمن الضالين عن الوصول إلى رب العالمين. ثم يؤمرون بمخالطة الناس بأشباحهم، وانفرادهم عنهم بأرواحهم. أشباحهم مع الخلق تسعى، وأرواحهم في الملكوت ترعى، فإذا وقع منهم ميل أو سكون إلى حس؛ فليستغفروا الله ﴿إن الله غفور رحيم﴾. ثم يقال لهم: فإذا قضيتم مناسككم، بأن جمعتم بين مشاهدة الربوبية في باطنكم، والقيام بوظائف العبودية في ظاهرهم، فاذكروا الله على كل شيء، وعند كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، حتى لا يبقى من الأثر شيء، كما كنتم تذكرون آباءكم وأبناءكم، في حال غفلتكم، بل أشد ذكراً وأعظم وأتم، والله ذو الفضل العظيم.

ثم بين الحق تعالى مقاصد الناس، وهمهم في طلبهم وسعيهم، فقال:

﴿... فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله في بيان مقاصد الناس وهمهم في طلبهم في الحج وغيره: ﴿فمن الناس﴾ من قصرت نيته وانحطت همته، ﴿يقول ربنا آتنا في الدنيا﴾ ما تشتهي نفوسنا من حظوظها وشهواتها، وليس له ﴿في الآخرة من خلاق﴾ أي: نصيب، لأنه عجل نصيبه في الدنيا. «إن الله يرزق العبد على قدر نيته، ومنهم» من أراد كرامة الدنيا وشرف الآخرة ﴿يقول ربنا آتنا في الدنيا﴾ حالة ﴿حسنة﴾؛ كالمعرفة، والعافية، والمال الحلال، والزوجة الحسنة، وجميع أنواع الجمال، ﴿وفي الآخرة حسنة﴾؛ كالنظرة، والحرور العين، والقصور، وجميع أنواع النعيم، ﴿وقنا عذاب النار﴾ بالعفو والمغفرة، وقال سيدنا علي - كرم الله وجهه -: (الحسنة في الدنيا: المرأة الصالحة، وفي الآخرة: الحوراء. وعذاب النار في الدنيا: المرأة السوء) وقال الحسن: (الحسنة في الدنيا: العلم والعبادة، وفي الآخرة: الجنة). ﴿وقنا عذاب النار﴾: احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار، وهذه كلها أمثلة للحالة الحسنة.

«أولئك» الذين طلبوا خير الدارين «لهم نصيب» وحظ من الجزاء الوافر من أجل ما كسبوا من الأعمال الصالحات، «والله سريع الحساب» يحاسب عباده على كثرتهم، وكثرة أعمالهم، في مقدار لمحة. قيل لعلّ رَمَوْا: كيف يحاسب الله عباده في ساعة واحدة؟ فقال: كما يرزقهم في ساعة واحدة. هـ. أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب عباده، فبادروا إلى اغتنام الطاعات، واكتساب الحسنات، قبل هجوم الممات.

الإشارة: الناس ثلاثة: صاحب همة دنيّة، وذو همة متوسطة، وصاحب همة عالية، أما صاحب الهمة الدنيّة فهو الذي أنزل همته على الدنيا الدنية، وأكبّ على جمع حطامها الفانية، فقلب هذا خالٍ من حب الحبيب، فما له في الآخرة من نصيب. وأما صاحب الهمة المتوسطة فهو الذي طلب سلامة الدارين، وصلاح الحالين، قد اشتغل في هذه الدار بما ينفعه في دار القرار، ولم ينس نصيبه من الدنيا ليقتضي ما له فيها من الأوطار، فهذا له في الدنيا حسنة، وهي الكفاية والغنى، وفي الآخرة حسنة، وهي النعمة والسرور والهنا.

وأما صاحب الهمة العالية فهو الذي رفع همته عن الكونين، وأغمض طرفه عن الالتفات إلى الدارين، بل علّق همته بمولاه، ولم يقنع بشيء سواه، قد ولي عن هذه الدار متغنيا، وأعرض عنها موليا، ولم يشغله عن الله شيء، يقول بلسان المقال إظهاراً لعبوديته للكبير المتعال: «ربنا آتانا في الدنيا حسنة» وهي النظرة والشهود، ورضا الملك الودود، «وفي الآخرة حسنة» وهي اللقوق بأهل الرفيق الأعلى، من المقربين والأنبياء، في حضرة الشهود المؤبد ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾. أتقنا الله من ذلك بحظ وافر، بمنه وكرمه، نحن وأحباءنا أجمعين، آمين.

ثم تمّ الحق تعالى ما بقي من مناسك الحج؛ وهي رمي الجمار أيام منى، فقال:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُخْشَرُونَ﴾ ﴿٢٠٣﴾

يقول الحق جل جلاله: «واذكروا الله في أيام معدودات» وهي ثلثي النحر وثالثه ورابعه، وهي أيام التشريق وأيام منى، وأما الأيام المعلومات فهي يوم النحر وثانيه وثالثه. والمراد بالذكر: التكبير عند الرمي، وذبح القرابين، وخلف الصلوات الخمس، وغير ذلك، «فمن تعجل في يومين» بحيث رمى ثلثي النحر وثالثه، ورجع، «فلا إثم عليه ومن تأخر» لرمي رابع النحر، وهو ثالث أيام منى، «فلا إثم عليه»، والقصد بنفي الإثم:

التخيير والرد على الجاهلية، فإن منهم من أثم المتعجل، ومنهم من أثم المتأخر. هذا كله «لمن اتقى» الله في حجه، فلم يرفُث، ولم يفسُق، فإنه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، كما قال الصادق المصدوق، «واتقوا الله» في جميع أموركم، فإنه ذكرٌ وشرفٌ لكم، «واعلموا أنكم إليه تحشرون» فتجاوزون على ما أسلفتم من خير أو شر.

الإشارة: الأيام المعدودات هي أيام الدنيا؛ فإنها فلائل معدودة، وهي كلها كيوم واحد، وأيام البرزخ يوم ثانٍ، وأيام البعث وما بعده يوم ثالث، فمن تعجل في يومين، بحيث طوى في نظره أيام الدنيا وأيام البرزخ، وسكن بقلبه في يوم القيامة فلا إثم عليه، وهذا هو صاحب الهمة المتوسطة، ومن تأخر حتى زهد في الأيام الثلاثة، وعلق همته بمولاه، ولم يلتفت إلى ما سواه، فلا إثم عليه في ذلك التأخر، إن اتقى شهود السوى، وعلق همته بمحبة المولى، ثم حض سبحانه على هذه التقوى فقال: (واتقوا الله) فلا تشهدوا معه سواه، (واعلموا أنكم إليه تحشرون) فتروا ما فاز به المتقون.

ولما أمر الحق سبحانه عباده بالتقوى ذكر من لم يرفع بذلك رأساً واتبع هواه، ومن امتثل أمره وباع نفسه لله فقال :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلِئْسَ الْمُهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

قلت: نزلت الآية في الأخنس بن شريق الثقفي وصهيب بن سنان الرومي، أما الأخنس فكان رجلاً حسن المنظر، حلوا المنطق، كان يوالى رسول الله ﷺ ويدعى الإسلام، ثم ارتد، ومرض على زرع وحمّر للمسلمين فقتلها وأفسد الزرع، قال ابن عطية: ولم يثبت أنه أسلم. قلت: بل ذكره في القاموس من الصحابة، فانظره، ولعله تاب بعد نزول الآية. وأما صهيب الرومي فأخذه المشركون وعذبوه ليرتد، فقال لهم: إني شيخ كبير؛ لا أنفعكم إن كنت معكم، ولا أضركم إن كنت عليكم، فخلوني وما أنا عليه، وخذوا مالي، فقبلوه منه، وأتى المدينة فلما رآه ﷺ قال له: «رَبِّحْتَ يَا أَبَا يَحْيَى» .

وقيل: نزلت في المنافقين ومن نحا نحوهم، وفيمن باع نفسه لله في الجهاد وتغيير المذكر من المسلمين. و (في الحياة الدنيا) يتعلق بالقول، و (ألد الخصام) شديده، وفي الحديث: «أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُ الْخَصِمَ». والخصام: مصدر، أو جمع خصيم.

يقول الحق جل جلاله: «ومن الناس» قوم حلو اللسان خراب الجنان، إذا تكلم في شأن الدنيا «يعجبك قوله» فيها لرونقه وفصاحته، «ويشهد الله» أي: يحلف على أنه موافق لقلبه، وأن ظاهره موافق لباطنه، وهو شديد الخصومة والعداوة للمسلمين، أو أشد الخصوم، «وإذا تولى» أي: أدبر وانصرف عنك، «سعى في الأرض» أي: مشى فيها بنية الإفساد «ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل» كما فعل الأخنس، أو كما فعله أهل الظلم، فيحبس الله القطر، فيهلك الحرث والنسل بشؤم معاصيهم، «والله لا يحب الفساد» أي: لا يرتضيه، فاحذروا غضبه. «وإذا قيل له اتق الله» وارجع عما أنت عليه من الفساد «أخذته العزة» أي: حملته الحمية والأنفة بسبب الإثم الذي ارتكبه، فلا ينزجر عن غيئه. أو حملته الحمية على الإثم الذي يؤمر باتقائه. «فحسبه جهنم» أي: كفته عذابا وعقابا، وهي علم لدار العقاب، كالنار، «وليس المهاده» هي، أي: بنس الفراش الذي مهده لنفسه.

ونزل في مقابله، وهو صهيبي، أو كل من بذل نفسه لله: «ومن الناس من يشرى نفسه» أي: يبيعها ويبدلها لله في الجهاد وغيره، «ابتغاء مرضات الله» والوصول إلى حضرته «والله رءوف بالعباد» الذين يفعلون مثل هذا، فيدرا عنهم المضار، ويجلب لهم المسار أينما حلوا من الدارين.

الإشارة: الناس على قسمين: قسم زينوا ظواهرهم وخربوا بواطنهم، ظاهرهم جميل وباطنهم قبيح، إذا تكلموا في الدنيا أو في الحس، أعجبك قولهم، وراقك منظرهم، وإذا تكلموا في الآخرة، أو في المعنى، أخذتهم الحبسة والدهشة. وفي بعض الكتب المنزلة: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَوْمًا أَلْسَنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَقُلُوبُهُمْ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الصَّنَانِ مِنَ اللَّيْنِ، يَجْتَرُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَبَى يَغْتَرُونَ، وَعَلَى يَجْتَرُونَ؟ حَلَفْتُ لَأُسَلِّطَنَّ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً تَدْعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا».

وقوله (يلبسون.. إلخ). كناية عن إظهار اللين والسهول ليخدع ويغر الناس ليتوصل إلى حظ نفسه من الدنيا، ومع ذلك يدعى موافقة ظاهره لباطنه، وهو شديد الخصومة لأهل الله، وإذا تولى عنك اشتغل بالمعاصي والذنوب، ليفسد في الأرض، ويهلك الحرث والنسل بشؤم معاصيه، وإذا ذكر: أنف واستكبر، وأخذته حمية الجاهلية، فحسبه البعد في نار القطيعة.

والقسم الثانى: قوم زيّنوا بواطنهم وخبّروا ظواهرهم، عمّروا قلوبهم بمحبة الله، وبذلوا أنفسهم فى مرضات الله، قلوبهم فى أعلى عليين، وأشباحهم فى أسفل سافلين، فأولئك المقربون مع النبيين والمرسلين. قال بعض العارفين: كلما وضعت نفسك أرضاً أرضاً، سماء قلبك سماء سماء، وكل ما نقص من حسك زاد فى معنك. وفى الحديث: «من تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره». وبالله التوفيق.

ثم دعا الحق، تعالى عباده، إلى التوغل فى الإسلام، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾

قلت: (السلم)، بالفتح والكسر: هو الاستسلام والانقياد، ويبعد هنا تفسيره بالصّلح. و (كافة): حال من الوار والسلم معاً، كقوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا» بمحمد ﷺ من أهل الكتاب «ادخلوا فى» شرائع الإسلام «كافة» بحيث لا تهملوا شيئاً منها، ولا تلتفتوا إلى غيرها. نزلت فى عبدالله بن سلام وأصحابه، حيث دخلوا فى الإسلام، وأرادوا أن يعظموا السبت، وتخرجوا من لحوم الإبل. أو فى المنافقين حيث أسلموا فى الظاهر، ونافقوا فى الباطن، فقال لهم الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا» فى الظاهر، ادخلوا فى الإسلام «كافة» ظاهراً وباطناً. أو فى المسلمين يأمرهم بالتمسك ب شرائع الإسلام كلها، والبحث عن أحكامها وأسرارها، «ولا تتبعوا خطوات الشيطان» أى: طرقه الدالة على التفريق والتفرق؛ «إنه لكم عدو مبين» أى: بين العداوة.

«فإن زللتم» عن طريق الجادة؛ ففرقتم بين أجزاء الشريعة، أو التفتّم إلى غير شريعتكم، «من بعد ما جاءكم» الآيات «البينات» الدالة على صحة الدين ونبوة محمد ﷺ، «فأعلموا أن الله عزيز» أى: غالب لا يعجزه عقابكم، «حكيم» فى إمهاله إلى وقت معلوم.

الإشارة: أمر الحق جل جلاله جميع عباده بالصّلح معه والاستسلام لأحكامه، بحيث لا يصدر منهم نزاع لأحكامه، ولا اعتراض على أفعاله، بل ينظرون ما يبرز من عنصر القدرة، فيتلقونه بالرضى والتسليم، أو الصبر والتصبر، سواء ظهرت هذه الأفعال على أيدي الوسائط أو بلا وسائط، إذ لا فاعل سواه، وكل من عند الله، فإن

زللتم واعترضتم، أو سخطتم، من بعد ما جاءكم الآيات البينات الدالة على وحدانية الحق في ذاته وصفاته وأفعاله، فاعلموا أن الله عزيز حكيم، لا يعجزه عقوبتكم وإبعادكم، لكنه من حكمته يُمهّل ولا يهمل، والله غالب على أمره، ومن تاب تاب الله عليه.

ثم ذكر وعيد من خالف أمره، فقال:

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

قلت: (الظلل): جمع ظلة، وهي ما أظلك من فوق، و (الغمام): السحاب الرقيق الأبيض.

يقول الحق جل جلاله: ما ينتظر هؤلاء الممتنعون من الدخول في شرائع الإسلام - إلا أن تقوم الساعة، ويأتيهم الله للفصل بين عباده «في ظلل من الغمام» بأن يتجلى لعباده على ما يليق بجلاله؛ إذ تجليات الحق لا تنحصر. وتأتيهم «الملائكة» تحيط بهم «وقضى الأمر» بعذابهم، «والى الله ترجع الأمور» كلها، فهو المتصرف وحده. وقد ذكر المنذرى حديث هذا التجلى بطوله، وذكر فيه النزول والفصل بين عباده، والمرور على الصراط، والناس في أنوار إيمانهم. وذكره الفاسي في الحاشية بتمامه. ومن كحل عين بصيرته يأنس^(١) التوحيد الخاص، لم يستصعب عليه فهم هذا الحديث وأمثاله؛ لسعة دائرة معرفته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية تهديد لأهل الحجاب الذين لم يتحققوا بالصلح مع الله، بل هم يخاصمون الله في مظاهر خلقه، ويعترضون على الله في قضائه وحكمه، فقال لهم الحق جل جلاله: هل ينتظر هؤلاء المنكرون على في أفعالي، المعترضون على في حكمي وإبرامي - إلا أن أتعرف لهم في ظلل من الغمام، وهو سحب الآثار، فإذا أنكروني أخذتهم الملائكة، وقضى الأمر بهلاكهم، وإلى الله ترجع الأمور كلها، فليلتزم العبد الأدب مع مولاه، وليسلم الأمور كلها إلى الله، إذ لا موجود سواه^(٢)، فما برز من العباد: كله من الله، فمن اشتغل بعبادتهم فاته الأدب مع الله، إلا ما أمرت به الشريعة، فليكن في ذلك كالعبد يُؤدب ابن سيده؛ يده تؤدب وقلبه يعظم، والله تعالى أعلم وأرحم.

(١) الإئتمد: حجر يتخذ منه الكحل. وقيل: هو نفس الكحل.

(٢) أى: لا موجود بحق.

ثم هدد بنى إسرائيل على عدم دخولهم فى الإسلام، أو على عدم تمسكهم بشرائعه كلها، فقال :
﴿ سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَلَكُمَ ءَاتَيْنَهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ مَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يُبْدِلَ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢١١)

قلت : (كم) خبرية، أو استفهامية، محلها نصب بفعل محذوف يُقدر مؤخرًا للصدرية، أى: كم آياتنا آتيناهم، أو رفع بالابتداء، والعائد محذوف، أى: آتيناهموه.

يقول الحق جل جلاله لرسوله - عليه الصلاة والسلام - أو لكل سامع: «سل بنى إسرائيل» سؤال تقرير، وقل لهم: «كم آتيناهم من آية بينة» أى: كثيرا ما آتيناهم من آية واضحة فى شأنك، تدل على صدق رسالتك وعلو شأنك وفخامة أمرك، اعتناء بأمركم، ونعمة على من أدرك زمانك منهم. ثم إنهم بدلوا نعمة الله كفرًا، وجحدوا فكتموا تلك النعمة وكفروها، «ومن يبديل نعمة الله» من بعد مجيئها إياه، «فإن الله شديد العقاب» لمن كفر نعمه وجحد رسله، نعوذ بالله من السلب بعد العطاء، ومن كفران النعم، وحرمان الرضا.

الإشارة: ما قيل لبنى إسرائيل، يقال لمن تحقق بولاية ولى من أولياء الله، ثم جحدوا وكتمها، وحرّم نفسه بركة ذلك الولي، فمات على مرضه، فيقال له: «ومن يبديل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب». وعقوبته: أن يلقي الله بقلب سقيم، فيبعث مع عوام أهل اليمين، ويحرّم درجة المقربين، التى تلى درجة النبيين والمرسلين. عائذًا بالله من الحرمان، وشؤم عاقبة الخذلان.

ثم ذكر الحق جل جلاله سبب هذا الحرمان، وهو حب الدنيا، فقال:

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢١٢)

قلت : (زين) مبنى للمفعول، والفاعل هو الله، إذ لا فاعل سواه.

يقول الحق جل جلاله: «زين للذين كفروا» من أهل الكتاب وغيرهم، «الحياة الدنيا» أى: حسنت فى أعينهم، وأشرّيت محبتها فى قلوبهم، حتى تهالكوا عليها، وأعرضوا عن غيرها، فلم تتفرغ قلوبهم للتفكير والاعتبار، ولم تستمع آذانهم للوعظ والتذكّار، بل أعمتتهم، وأصمتتهم، وقصروا عليها همّتهم، حتى جعلوا يسخرون ممن أعرض عنها، كفقراء المسلمين وأهل الصفة، فكانوا يستهزئون بهم، حيث رفضوا الدنيا وأقبلوا على الله، فرفعهم الله

فى أعلى عليين، وخفض الكفار فى أسفل سافلين. فهم يسخرون منهم فى دار الدنيا «والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة» لأنهم فى عليين، والآخرون فى أسفل سافلين. أو لأنهم فى كرامة، والآخرون فى مذلة. أو لأنهم يسخرون منهم يوم القيامة كما سخروا منهم فى الدنيا.

وعبر بالتقوى لأنها سبب رفعهم واستعلائهم. وأما استهزاؤهم بهم لأجل فقرهم، فإن الفقر شرف للعبد، والبسط فى الدنيا لا يدل على شرفه؛ فقد يكون استدراجاً، وقد يكون عوناً، فالله «يرزق من يشاء بغير حساب»، أى بغير تقدير، فيوسع فى الدنيا استدراجاً وإبتلاءً، ويقتصر على من يشاء اختباراً وتمحيصاً، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

الإشارة : اعلم أن عمل أهل الباطن كله باطنى قلبى، بين تفكر واعتبار، وشهود واستبصار، أو نقول: بين فكرة ونظرة وعكوف فى الحضرة، فلا يظهرون من أعمالهم إلا المهم من الواجبات، ولذلك قال بعضهم: إذا وصل العمل إلى القلوب استراحت الجوارح، (ومعلوم أن الذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح)^(١)؛ لأن أعمال القلوب خفية، لا يطلع عليها ملك فيكتبها، ولا شيطان فيفسدها، الإخلاص فيها محقق وأيضاً: تفكر ساعة أفضل من عبادة ستين سنة. وسئل - عليه الصلاة والسلام - : «أى الأعمال أفضل؟ قال العلم بالله. قيل: يا رسول الله سألناك عن العمل؟ فقال: العلم بالله، ثم قال ﷺ: إذا حصل العلم بالله كفى قليلاً العمل». أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فلما خفيت أعمال أهل الباطن سخر منهم أهل الظاهر، واستصغرو شأنهم؛ حيث لم يروا عليهم من الأعمال ما رأوا على العباد والزهاد. والذين اتقوا شهود ما سوى الله، أو كل ما يشغل عن الله، فوقهم يوم القيامة؛ لأنهم من المقربين وغيرهم من عوام المسلمين، والله يرزق من يشاء فى الدارين بغير حساب، أى: بغير تقدير ولا حصر، فيرزق العلوم، ويفتح مخازن الفهوم على من توجه إلى مولاه، وفرغ قلبه مما سواه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى حكمة بعثه الرسل، فقال :

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

(١) عزاء السراج الطرسى فى اللمع إلى أبى سليمان الداراني. وقال السراج موضحاً معناه: هذا الذى قال أبو سليمان يحتمل معنيين، أحدهما: أنه أراد بذلك استراحت الجوارح من المجاهدات والمكابدات من الأعمال، إذا تشغل بحفظ قلبه ومراعاة سره من الخواطر المشغلة والمولرض المذمومة التى تشغل قلبه عن ذكر الله تعالى، ويحتمل أيضاً أنه أراد بذلك: أن يتمكن من المجاهدة، والأعمال والعبادات وتصير وطنه حتى يستلذها بقلبه ويجد حلاوتها، ويسمى عنه التعب ووجود الألم الذى كان يجد قبل ذلك.

لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ
بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

قلت: (فبعث) معطوف على محذوف، أى: فاختلفوا فبعث، و (بغيا): مفعول له، و (من الحق) بيان (لما).

يقول الحق جل جلاله: «كان الناس» فى زمن آدم عليه السلام وما قرب منه «أمة واحدة» أى: جماعة
واحدة، متفقة على التوحيد، والطاعة، فاختلفوا بعد ذلك فى أمر التوحيد، «فبعث الله النبيين مبشرين» لأهل
التوحيد والطاعة بالنعيم المقيم، «ومنذرين» أى: مخوفين لأهل الكفر والعصيان بالعذاب الأليم.

«وأنزل معهم الكتاب» أى: جنس الكتب، فيشمل الكتب السماوية كلها، متلبساً ذلك الكتاب «بالحق»، ودالا
عليه «ليحكم» الحق تعالى على لسان الرسل «بين الناس» فى الأمر الذى «اختلفوا فيه» من أمر التوحيد
وغيره. ثم اختلفوا أيضا فى الكتب المنزلة، فبعضهم آمن، وبعضهم كفر بها أو ببعضها، «وما اختلف فيه» أى:
فى الكتاب المنزل، «إلا الذين أوتوه» حسداً أو كبراً؛ فاليهود آمنوا بالتوراة وكفروا بالإنجيل، والنصارى آمنوا
بالإنجيل وكفروا بالتوراة، «من بعد ما جاءتهم»: الآيات الواضحات فى صحة ذلك الكتاب الذى كفروا به،
والأمر بالإيمان به.

وإنما وقع ذلك الكفر منهم «بغيا» وحسداً «بينهم»، فأنزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته، فأمرهم
أن يتألفوا بالعلم، فتحاسدوا، واختلفوا طلباً للرئاسة والجاه، «فهدى الله الذين آمنوا» بمحمد - عليه الصلاة والسلام -
للأمر الذى اختلف فيه أهل الكتاب، وهو الحق الذى جاءت به الرسل، فأمنوا بالجميع، وتألفوا على طاعة الله «بإذنه»
وإرادته، «والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»، ويضل من يشاء عن طريقه القويم، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ
وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

الإشارة: الأصل فى الأرواح كلها: الاتفاق والإقرار، وإنما حصل لها الخلاف والإنكار بعد دخولها فى عالم
الأشباح، وهبوطها من عالم الأرواح، فبعث الله النبيين يذكرون الناس العهد القديم، فمن سبقت له السعادة حصل له
الإقرار، ومن سبق له الشقاء حصل له الإنكار، ولذلك قال - عليه الصلاة والسلام -: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى
الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». ثم بعث الله الحكماء، وهم العارفون بالله، يعالجون ما حصل

للروح من الجهل والإنكار، فمن سبقت له العناية آمن بهم، وصدقهم، واستسلم بكلية إليهم، فحصل له الوصول، وبلغ كل المأمول، ومن سبق له الحرمان لم يحصل له بهم إيمان، وبقي دائماً في قلبه حيران.

وما وقع هذا الإنكار في الغالب إلا من أهل الرئاسة والجاه، أو من كان عبداً لدنياه وهواه، بغيا وحسدا منهم، فهدي الله الذين آمنوا - وهم أهل الفطرة والنية - لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فحصل لهم التصديق، ووصلوا إلى عين التحقيق، «والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» وهو طريق الوصول إلى الحضرة القدسية التي كانت مقراً للأرواح الزكية، منها جاءت وإليها عادت. وفي ذلك يقول ابن البنا رحمته الله:

وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ النَّفْسِيَّةُ مَوْصُولَةٌ بِالْحَضَرَةِ الْقُدْسِيَّةِ
وَإِنَّمَا يَعْقُوبُهَا الْمَوْضُوعُ وَمِنْ هُنَا يُبْتَدَأُ الطَّلُوعُ

ولما كانت المحبة والهداية إلى أسبابها مقرونتين بالبلاء ذكره الحق تعالى بإثر الهداية، فقال:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِاسَاءِ وَالضَّرَاءِ
وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٢١٤)

قلت: «أم» منقطعة بمعنى بل، وتتضمن استفهاماً إنكارياً، وحسب، تتعدى إلى مفعولين، أى: أظننتم دخول الجنة حاصلًا من غير أن يأتيكم؟ و (لما) أصلها (لم) زيدت عليها «ما»: وهى تدل على توقع منفيها بخلاف لم. و (حتى يقول) يصح فيه النصب بتقدير (أن)؛ لأن الزلزلة متقدمة على قول الرسول، والرفع على حكاية الحال، أى: وزلزلوا حتى حالتهم حينئذ أن الرسول ومن معه يقولون كذا وكذا. وفائدة الحكاية: فرض ما كان واقعاً في الزمان الماضي واقعاً في هذا الزمان، تصوراً لتلك الحال العجيبة، واستحضاراً لصورتها في مشاهدة السامع، وإنما وجب رفعه عند إرادة الحال؛ لأن نصبه يؤدي إلى تقدير (أن)، وهى للاستقبال، والحال ينافية، ويصح في موضع «حتى»، الداخلة على الحال الغاء السببية.

يقول الحق جل جلاله للرسول - عليه الصلاة والسلام - والمؤمنين، تسلياً لهم وتشجيعاً لقلوبهم: أظننتم أن تدخلوا الجنة ولما يصيبكم مثل ما أصاب من قبلكم من الأنبياء وأممهم، فقد «مستهم البأساء» فى أموالهم بالغصب والنهب والموت «والضراء» فى أبدانهم بالقتل فى الحرب والمرض وأنواع البلاء، «وزلزلوا» أى: ضربوا بالمحن والشدائد، وطلال عليهم البلاء، وتأخر عنهم النصر، حتى أفضى بهم الحال إلى أن قالوا: «متى» يأتينا «نصر الله»؟ استبطاء لمجيئه مع شدة البلاء.

قال الحق جل جلاله بشارة لهم: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ فلا تستعجلوا، ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

الإشارة: الجنة حفت بالمكاره، ولا فرق بين جنة الزخارف وجنة المعارف، فمن رام دخول جنة المعارف قبل أن يمسه شيء من المكاره، فقد رام المحال. قال أبو المراهب: من ادعى شهود الجمال، قبل تأدبه بالجلال، فارقضه فإنه دجال. وقال بعض العارفين: [صيحة العدو سوط الله يزجر به قلوب أوليائه لللا تسكن إلى غيره]. وفي الحكم: «إنما أجرى الأذى عليهم كي لا تكون ساكناً إليهم، أراد أن يزجرك عن كل شيء حتى لا تكون ساكناً إلى شيء». وقال الشيخ أبو الحسن رحمته الله: [اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا]. فتسلط الخلق على أولياء الله في بدايتهم سنة ماضية، وحكمة إلهية، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ .

حتى إذا تخلصوا من البقايا، وكملت فيهم المزايا، نشر فضيلتهم لعباده، فأقروهم ليعرفوهم الطريق إلى الله، ويدلوا العباد على الله، بعد أن كساهم حينئذ كسوة الجمال وكسوة الجلال، فبكسوة الجمال يقع الائتلاف عليهم والعطف لهم، وبكسوة الجلال يقع الامتثال لأمرهم والاستماع لقولهم. والله تعالى أعلم.

ولما أمر الحق تعالى بالنفقة في الجهاد وغيره، سألوا ما الذي ينفقون؟، فبين الله تعالى لهم المنفق والمحل الذي تدفع فيه، فقال:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

قلت: (ماذا) إما مفعول (ينفقون)، أو مبتدأ وخبر بحذف العائد، أي: ما الذي ينفقونه، والسائل هو عمرو بن الجموح، كان ذا مال فقال: يا رسول الله، ماذا تنفق من أموالنا، وأين نضعها؟ فنزلت الآية.

يقول الحق جل جلاله: «يسألونك» يا محمد «ماذا ينفقون» من أموالهم؟ «قل» لهم: «ما أنفقتم من خير» أي خير كان، ذهباً أو فضة أو طعاماً أو ثياباً أو حيواناً أو غير ذلك، فادفعوه للأهم فالأهم؛ كالوالدين والأقربين؛ لأن فيهم الصلة والصدقة، «واليتامى» الذين مات آباؤهم؛ لهضم حالهم، «والمساكين»؛ لضعفهم، «وابن السبيل»؛ لغريته واحتياجه إلى ما يبلّغه إلى وطنه، «وما تفعلوا من خير» يجازيكم به الله، فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم، وهذه النفقة غير الزكاة، فلا نسخ في الآية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الإنفاق على قسمين: حسي ومعنوي، الإنفاق الحسي هو بذل الأموال والفلوس، والإنفاق المعنوي هو بذل الأرواح والنفوس، فمن بذل أمواله لله عوضه الله جنة الزخارف، ومن بذل نفسه لله عوضه الله جنة المعارف، ومن دخل جنة المعارف لا يشاق إلى جنة الزخارف، وكما أن لنفقة الأموال محلاً تُصرف فيه، كما ذكره الحق تعالى هنا، كذلك لنفقة النفوس محل تُصرف فيه؛ وهو خدمة الشيوخ العارفين بالله، والإخوان الذين يستعين بهم على الوصول إلى الله، وكذلك من احتاج إليه من اليتامى الذين لا شيخ لهم، فيرشدهم وينصحهم، والمساكين الضعفاء الذين لا قدرة لهم على مجاهدة نفوسهم، فيقويهم بحاله أو مقله، والغريب الذي انفرد عن الإخوان، ولم يجد ما يستعين به على سيره فيرشده إلى الصحبة والاجتماع بأهل المحبة، وإلى هذا المنزع أشار الشيخ أبو مدين رحمته الله:

وَبِالتَّقْنَى عَلَى الْإِخْوَانِ جَدُّ أَبَدًا حَسًّا وَمَعْنَى، وَغَضُّ الطَّرْفِ إِنْ عَثَرَ

ولما ذكر الحق جل جلاله قواعد الإسلام، وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج، بعد أن أشار إلى كلمة التوحيد بقوله: ﴿وَالْهُكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾، ذكر الجهاد - الذي هو حفظ نظامه - فقال:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾
قلت: الكره - بالضم - : اسم لما يشقُّ على النفس، وبالفتح المصدَّر.

يقول الحق جل جلاله: فرض عليكم الجهاد، وهو شاق عليكم، تكرهه نفوسكم، وفيه خير كبير لكم، «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم»، ففي الجهاد نصر دينكم، وإعلاء كلمة إسلامكم، والغنيمة والظفرُ بعدوكم، والأجر الكبير عند ربكم، من مات كان شهيداً، ومن عاش عاش سعيداً، وكذلك بقية التكاليف، فإن النفس تكره الإقدام عليها، وهي مناط صلاحها، وسبب فلاحها، «وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم» فقد تحبون الراحة وترك الجهاد وفي ذلك دُكُّكم، وظهور العدو عليكم، وفوات الأجر من ربكم، وحرمان درجة الشهادة عند ربكم. وكذلك جميع المنهيات؛ فإن النفس تحبها بالطبع، وتشرُّه إليها، وهي تُفضي بها إلى ذلها وهوانها، وعبرُ الحق سبحانه بعسى؛ لأن النفس إذا ارتاضت انعكس الأمر عليها، فيخف عليها أمر الطاعة، ويصعب عليها أمر المخالفة، «والله يعلم» ما فيه مصلحتكم، «وأنتم لا تعلمون»؛ لجهلكم بعواقب أموركم.

الإشارة: الجهاد على قسمين: جهاد أصغر وهو جهاد السيف، وجهاد أكبر وهو جهاد النفس، فيجاهدها أولاً في القيام بجميع المأمورات، وترك جميع المنهيات، ثم يجاهدها ثانياً في ترك العوائد والشهوات، ومجانبة الرخص والتأويلات، ثم يجاهدها ثالثاً في ترك التدبير والاختيار، والسكون تحت مجارى الأقدار، حتى لا تختار إلا ما اختار الحق تعالى لها، ولا تشتت إلا ما يقضى الله عليها، فإن النفس جاهلة بالعواقب، فعسى أن تكره شيئاً وهو خير لها، وعسى أن تحب شيئاً وهو شر لها.

فعسى أن تأتيها المسار من حيث تعتقد المضار، وعسى أن تأتيها المضار من حيث ترجو المسار، وعسى أن تنتفع على أيدي الأعداء، وعسى أن تضر على أيدي الأحياء، وعسى أن تكره الموت وهو خير لها، وعسى أن تحب الحياة وهي شر لها، فالواجب تسليم الأمور إلى خالقها، الذى هو عالم بمصالحها، «والله يعلم وأنتم لا تعلمون»، وهذا كله قبل تصفيتها وكمالها، وأما إذا تهذبت وكملت رياضتها، فالواجب اتباع ما يتجلى فيها، إذ لا يتجلى فيها إلا الحق، وهذا هو ثمرة الجهاد الأكبر، وأما الجهاد الأصغر فلا يحصل شيء من هذا، فلذلك كان مفضولاً عند أهل الجهاد الأكبر^(١). وبالله التوفيق.

ولما كان القتال محرماً فى الأشهر الحرم فى أول الإسلام، ووقع من بعض الصحابة، فندموا وتخرجوا، أزال الله ذلك الحرج عنهم، فقال :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾

قلت: (قتال): بدل اشتغال من (الشهر الحرام)، وقد وقع خبط فى عطف (المسجد الحرام)، والصواب: ما قاله الزمخشري وابن عطية أنه عطف على (السبيل)؛ إذ هو المتبادر من جهة المعنى، أى: وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام أكبر جرماً من قتل السرية فى الشهر الحرام، والقواعد النحوية إنما هى أغلبية.

(١) لا يعنى هذا الغض من جهاد أعداء الدين، وقد كان للصوفية فيه دور كبير مهم..

يقول الحق جل جلاله : «يسألونك» يا محمد «عن الشهر الحرام» أى: عن القتال فى الأشهر الحرم، «قل» لهم: القتال فى الشهر الحرام أمره «كبير»، لكن ما وقع من الكفار من صد الناس «عن سبيل الله» أى: منعهم من الإسلام والطاعة، وكذلك كفرهم بالله وصدّهم المسلمين عن «المسجد الحرام» عام الحديبية، وإخراج المسلمين من مكة التى هى بلدهم - «والفتنة» التى هم فيها من الكفر، وافتتان الناس عن دينهم - «أكبر» جرماً من القتال الذى وقع فى الشهر الحرام تأويلاً وظناً أنه لم يدخل الشهر الحرام.

وذلك أن النبى ﷺ بعث سريةً وأمر عليها عبدالله بن جحش فى آخر جمادى الآخرة، فلقوا عمرو بن الحضرمي، مع أناس من قريش، بعد غروب الشمس من جمادى الآخرة، فرموا عمراً فقتلوه، وأخذوا الغنيمة، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «لم أمركم أن تقتلوا فى الشهر الحرام، فندموا، وبعثت قريش بالعتاب للنبى ﷺ: كيف تستحل القتال فى الشهر الحرام؟ فنزلت هذه الآية. ثم نسخ تحريم القتال فى الأشهر الحرم بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾.

ثم قال الحق جل جلاله فى التحذير من الكفار: «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا»، لكن لا يطيقون ذلك، «ومن يرتدد منكم عن دينه» ويستمر عليه حتى يموت «وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا» فلا حرمة له، ولا نصيب له فى الفىء والغنيمة، وفى «الآخرة» فلا يرى لها ثواباً، «وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

ومفهوم الآية: أنه إن رجع قبل الموت لا يحبط عمله، وهو قول الشافعى. وقال مالك: يحبط أجر كل ما عمل، ويحيد الحج، إن تقدم على الردة، ويقبل منه الإسلام إن رجع، فإن لم يرجع أمهل ثلاثة أيام، ثم يقتل.

ولما نزلت الآية فى إسقاط الحرج، ظنوا أنه لا أجر لهم فى ذلك الجهاد، فأنزل الحق جل جلاله: «إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله» أى ثوابه، «والله غفور» لهم «رحيم» بهم، فلا يضيع جهادهم فى هذه السرية، وأعاد الموصول لتعظيم شأن الهجرة والجهاد، وعبر بالرجاء إشعاراً بأن العمل غير موجب للثواب، وإنما هو عبودية، والأمر بيد الله؛ إن شاء أتاب وإن شاء عاقب، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

الإشارة: تعظيم الزمان والمكان يكون بقدر ما يقع فيه من طاعة الملك الديان، فالزمان الذى تهب فيه نفحات القبول والإقبال، لا ينبغي أن يقع فيه ملاجعة ولا قتال، وهو وقت حضرة الذكر، أو التذكير، أو الجلوس مع

العارفين أهل الإكسير، فسوء الأدب فيه أمره كبير، ومنع القاصدين من وصوله جرّمه كبير، وصد القلوب عن نفحات تلك الحضرة أكبر من كل كبير، ولا يزال قُطَاعُ هذه الطريق يردون من أراد سلوكها على التحقيق، لكن من سبق له التأييد لا يرده عن الحق جبار ولا عنيد، ومن سبق له الحرمان، وحكم عليه القضاء بالخذلان، رجع ولو بعد العيان، وأنشدوا :

وَاللّٰهُ مَا نَشْكُرُ خَلِيْعٍ وَإِنْ ثَمَلْ. وَإِنْ صَحَا
وَإِنْ ثَبَّتْ، سَيَزِرْ سَرِيْعٍ وَإِنْ شَرِبَ حَتَّى امْتَحَا
حَسَتِي يَقْطَعُ فِي الْقَطِيْعِ وَيَدُوْرُ دَوْرَ الرَّحَا (١)

إن الذين آمنوا وصدقوا بطريق الله، وهاجروا أهواءهم في مرضاة الله، وجاهدوا نفوسهم في محبة الله، أولئك يرجون رحمة الله، فلا يخيبهم الكريم؛ لأنه غفور رحيم.

ولما كان الخمر حلالاً في أول الإسلام، وكانوا يشربونه، ويتجرون فيه، فيتصدقون بثمنه ويثمن القمار، بين الحق تعالى ذلك، بعد الأمر بالإنفاق؛ لئلا يقع التساهل في المعاملة بعلّة الصدقة، فقال :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا...﴾

قلت: الخمر في اللغة: ما يستر الشيء ويغطيه، ومنه: خمار المرأة، وسمى الخمر خمراً لستره العقل. وفي الاصطلاح: ما غيب العقل دون الحواس مع النشوة والطرب. وقال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ».

والميسر: قال ابن عباس والحسن: كل قمار ميسر، من شطرنج ونرد ونحوه، حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب، إذا كان بالفلوس، وسمى ميسراً ليسر صاحبه بالمال الذي يأخذه، وأما إذا كان بغير عوض، إنما هو لعب فقط، فلا بأس. قاله ابن عرفة.

يقول الحق جل جلاله: «يسألونك عن» حكم «الخمر والميسر قل» لهم: «فيهما إثم كبير» أي: عظيم لما في الميسر من أكل أموال الناس بالباطل، وما ينشأ عنه من العداوة والشحناء، وما في الخمر من إذهاب العقل والسياب والافتراء والإذابة، والتعدّي الذي يكون من شارب. وقرأ حمزة والكسائي: «كثير» بالمثلثة، أي: آثام كثيرة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لَعَنَ اللَّهُ الْخَمْرَ، وَبَائِعَهَا، وَمُبْتَاعَهَا، وَالْمُسْتَرَاةَ لَهُ، وَعَاصِرَهَا، وَالْمَعْصُورَةَ لَهُ».

(١) زجل للششتري.

وساقِها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة له، وأكل ثمنها، فهذه آثام، وفيها «منافع للناس» أي: منافع دنيوية؛ ككسب المال بلا تعب، وإطعام الفقراء من كسبه، كما كانت تصنع العرب في الميسر، وفي الخمرة اللذة والنشوة، كما قال حسان رحمته الله:

ونَشْرِبُهَا فَتَنْتَرِكُنَا مُلُوكًا وَأُسْدًا لَا يَنْهِنُنَا الْقَلَاءُ^(١)

«وإثمهما أكبر من نفعهما»؛ لأن منفعتهما دنيوية، وعقوبة إثمهما أخروية، وهذه الآية نزلت قبل التحريم. روى أنه لما نزل بمكة قوله تعالى: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً﴾، أخذ المسلمون يشربونها، ثم إن عمر ومعاذ في نفر من الصحابة، قالوا: أفتنا يا رسول الله في الخمر؛ فإنها مذهب للعقل، فنزلت هذه الآية، فشربها قوم وتركها آخرون، ثم دعا عبدالرحمن بن عوف ناساً إلى داره، فشربوا وسكروا، ثم قام يصلي بهم فقراً: (قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون)؛ من غير نفى، فنزلت: ﴿... لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى...﴾ فاجتنبوها في أوقات الصلاة. ثم دعا عتب بن مالك سعد بن أبي وقاص في جماعة، فلما سكروا افتخروا وتناشدوا، فأنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار، فضربه أنصاري بلحى بعير فشجه، فشكى إلى رسول الله ﷺ، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ...﴾ إلى قوله ﴿... فُهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فقال عمر: قد انتهينا يا رب. هـ.

ولما شربها بعض الناس بعد التحريم، كان عليه الصلاة والسلام - يضرب فيها بالنعال والجريد، ضرباً غير محدود، وضرب أبو بكر وعمر أربعين، وأول من حد فيها ثمانين سيدنا عثمان^(٢)، لما تهافت الناس فيها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الحق تعالى جعل للعقل نوراً يميز بين الحق والباطل، بين الضار والنافع، وبين الصانع والمصنوع، ثم إن هذا النور قد يتغطى بالظلمة الطينية؛ وهي نشوة الخمر الحسية. وقد يتغطى أيضاً بالأنوار الباهرة من الحضرة الأزلية إذا فاجأته، فيغيب عن الإحساس في مشاهدة الأنوار المعنوية، وهي أسرار الذات الأزلية، فلا يرى إلا أسرار المعاني القديمة، وينكر الحوادث الحسية، فسمى الصوفية هذه الغيبة خمرة؛ لمشاركتها للخمر في غيبوبة العقل، وتغنوا بها في أشعارهم ومواجيدهم، قال ابن الفارض رحمته الله:

شَرِينَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً سَكَرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرَمُ^(٣)

(١) قوله: (لا ينهنا)، النهمة: الكف واللمع، والمراد: لا نخاف لقاء العدر.

(٢) الوارد أن سيدنا عمر رضي الله عنه هو أول من حد في شرب الخمر ثمانين. انظر فتح الباري ١٢/ ٧٠ - ٧٥.

(٣) هذا الشعر مبني على اصطلاح الصوفية. فإنهم يذكرون في عباراتهم الخمرة بأسمائها وأوصافها. ويريدون بها ما أدار الله على ألبابهم من المعرفة، أو من الشوق والمحبة. وقوله: (سكراً) كناية عن إغفال أمور الدنيا والحياة، مع معرفة الله عز وجل. وهو كما يقول الألويسي: سكر أرواح لا أشباح.

ثم قال:

على نفسه فليَبْكِ مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ وليسَ لَهُ مِنْهَا نَصِيبٌ ولا سَهْمٌ

وقلت فى عينيتى:

وَلِيْ لَوْعَةٍ بِالرَّاحِ إِذْ فِيهِ رَاحَتِي وَرَوْحِي وَرَيْحَانِي، وَخَيْرٌ وَاسِعٌ
سَكَرْنَا فَهَمْنَا فِي بَهَاءِ جَمَالِهِ فَغَبْنَا عَنِ الْإِحْسَاسِ، وَاللَّوْرُ سَاطِعٌ

والميسر فى طريق الإشارة: هو الغنى الذى يحصل بهذه الخمرة، وهو الغنى بالله عن كل ما سواه، (قل فيهما
إثم كبير) أى: فى تعاطيهما حرج كبير، ومنافع للناس بعد تعاطيهما، فيهما إثم كبير عند طالب الأجور، ومنافع
للناس لمن طلب الحضور ورفع الستور. وأنشدوا:

لَوْ كَانَ لِيْ مُسْعِدٌ بِالرَّاحِ يُسْعِدُنِي لَمَّا انْتِظَرْتُ لَشُرْبِ الرَّاحِ إِفْطَارَا
فَالرَّاحُ شَيْءٌ شَرِيفٌ أَنْتَ شَارِيهِ، فَاشْرَبْ، وَلَوْ حَمَلْتُكَ الرَّاحُ أَوْزَارَا
يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى صَهْبَاءٍ (١) صَافِيَةً خُذِ الْجِسْنَانَ، وَدَعْنِي أُسْكِنُ النَّارَا

وقال ابن الفارض:

وَقَالُوا: شَرِبْتَ الْإِثْمَ! كَلَّا، وَإِنَّمَا شَرِبْتُ التِّي فِي تَرْكِهَا عِنْدِي الْإِثْمُ

وقال آخر (٢):

طَابَ شُرْبُ الْمَدَامِ فِي الْخَلَوَاتِ اسْقِنِي يَا نَدِيمُ بِالْآتِيَّاتِ
خَمْرَةٌ تَرْكُهَا عَلَيْنَا حَرَامٌ، لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا شُبُهَاتُ
عَتَّقَتْ فِي الدُّنَا مِنْ قَبْلِ آدَمَ أَصْلُهَا طَيِّبٌ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
أَفْتِ لِي أَيُّهَا الْفَقِيهُ وَقُلْ لِي: هَلْ يَجُوزُ شُرْبُهَا عَلَى عَرَفَاتِ؟

فيهما إثم كبير عند أهل الحجاب، ونفع كبير عند ذوى الألباب، يعنى: فى الخمرة الأزلية والغنى بالله. وقوله
تعالى: (وإثمهما أكبر من نفعهما): خطاب على قدر ما يفهم الناس؛ لأن إثمهما ظاهر للعوام، وهو ما يظهر على

(١) الصهباء: الخمر.

(٢) وهو المشتري.

النشوان من خراب الظاهر، وصدور الأحوال الغريبة، ونفعهما خاص عند خواص الخواص، لا يفهمه إلا الخواص، بل يجب كتبه عن غير أهله. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم وقع سؤال ثالث عن قدر المنفق، فأشار إليه الحق جل جلاله بقوله:

﴿... وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...﴾

قلت: (العفو): ضد الجهد، وهو السهل، ويقال للأرض السهلة: عفو، والمراد: أن ينفق ما تيسر بذله، ولا يبلغ به الجهد، وهو خبر، أو مفعول، أى: هو العفو، أو ينفقون العفو.

يقول الحق جل جلاله: «ويسألونك» ما القدر الذي ينفقونه؟ «قل» لهم: هو «العفو» أى: السهل الذي لا مشقة فى إعطائه، ولا ضرر على المعطى فى فقده، روى أن رجلاً أتى النبي ﷺ بقدر بيضة من الذهب، فقال: خذها عنى صدقة، فأعرض عنه، حتى كرر مراراً، فقال: هاتها، مغضباً، فحذفها حذفاً لو أصابه لشجه، فقال: «يأتى أحدكم بماله كله يتصدق به، ويجلس يتكفف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى». قاله البيضاوى مختصراً.

قلت: وهذا يختلف باختلاف اليقين؛ فقد تصدق الصديق ﷺ بماله كله، وعمره ﷺ بنصف ماله، فأقرهما، ورد فعل غيرهما، فدل ذلك على أن العفو يختلف باختلاف الأشخاص، على حسب اليقين.

«كذلك يبين الله لكم الآيات» أى: مثل هذا التبیین الذى ذكرنا، (يبين) لكم الآيات، حتى لا يترك لكم إشكالا ولا وهماً، «لعلكم تتفكرون» بعقولكم، وتأخذون بما يعود نفعه عليكم، فتتفكرون «فى الدنيا» وسرعة ذهابها وتقلبها بأهلها، إذا أقبلت كانت فتنة، وإذا أدبرت كانت حسرة، لا يفى طالبها بمقصوده منها ولو ملكها بحذافيرها، ضيقة الزمان والمكان، عمارتها إلى الخراب، وشأنها إلى انقلاب، سريعة الزوال، وشيكة الانتقال، فتزهدون فيها وترفعون هممكم عنها.

وفى الحديث عنه ﷺ: «مَالِي وَلِلدُّنْيَا، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَجُلٍ سَافَرَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَوْدَعَ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا». وفى صحف إبراهيم عليه السلام: «عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك، عجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب. أى: يتعب. عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها». وأنشدوا:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا كَأَحْلَامٍ نَّائِمٍ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَيْسَ فِيهَا بِدَائِمٍ
تَذَكَّرْ إِذَا مَا نِلْتَ بِالْأَمْسِ لَذَّةً فَأَفْذَيْتَهَا هَلْ أَنْتَ إِلَّا كَحَالِمٍ

وتتفكرون فى (الآخرة) ودوام نعيمها، وسعة فضائها، وبهجة منظرها؛ فترغبون فى الوصول إليها، وتتأهبون للقائها، فتؤثرونها على هذه الدار القانية. قال بعض الحكماء: لو كانت الدنيا من ذهب ينفى، والآخرة من طين يبقى، لكان ينبغي للعاقل أن يختار ما يبقى على ما ينفى، لاسيما والأمر بالعكس، الدنيا من طين ينفى، والآخرة من ذهب يبقى، فلا يختار هذه الدار إلا أحمق خسيس الهمة، وبالله التوفيق.

الإشارة: كما نهى الحق جل جلاله عن السرف فى الأموال، نهى عن السرف فى الأحوال، فالسرف، من حيث هو، يؤدى إلى الملل والانقطاع، «أحب العمل إلى الله ما دام عليه صاحبه، وإن قل» كما فى الحديث، والله ما رأينا أحدا أسرف فى الأحوال إلا ملّ، وضعف حاله، وفى الحديث: «لَا يَكُنْ أَحَدُكُمْ كَالْمُنْبَتِّ - أى: المنقطع - لأرضا قطع، ولا ظهراً أبقي». وقال فى المباحث:

فاحتلّ على النفس فربّ حيله أنفع فى النُصرة من قبيله

فلا يزال يساسس نفسه شيئا فشيئا حتى يملكها، ويظفر بها، فإذا ظفر بها كانت له شبكة يصطاد بها العلوم والمعارف، فتتفكر فى الدنيا فتراها فانية فترحل عنها، ثم تتفكر فى الآخرة فتراها باقية، فإذا رامت السكنى فيها رأتها كونا مخلوقا فرحلت إلى خالقها، فكشف الحق عنها الحجاب، وأدخلها مع الأحباب، فغابت عن الكونين فى شهود المكون، فلم يبق لها دنيا ولا آخرة، بل هى الآن فى بهجة ونصرة (إلى ربها ناظرة)، حققنا الله بهذا المقام العلى. آمين.

ثم سألو أيضا عن مخالطة اليتامى، فأجابهم الحق تعالى بقوله:

﴿... وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي مَنَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

قلت: العنت: التعب والمشقة، أعنتكم: أتعبكم.

يقول الحق جل جلاله: «ويسألونك عن» مخالطة «اليتامى» أى: خلط مال اليتامى بمال الوصى، أو القائم به، فيأكلون جميعا، «قل» لهم: يفعلون ما هو «إصلاح» لليتيم وأحفظ لماله، فإن كان خلط مال اليتيم مع

مال الوصى أحفظ لماله، وأوفر، فهو خير، فإنما هم إخوانكم في الدين، وإن كان عزل ما لهم عن مالكم، وأكله وحده، أوفر لماله، فاعتزالهم خير، «والله يعلم» من قصده الإفساد، ممن قصده الإصلاح، فيعامل كل واحد بقصده، «ولو شاء الله» لأمركم بعزلهم وحفظ مالهم مطلقاً، فيخرجكم، ويشق عليكم، «إن الله عزيز» غالب، لا يعجزه شيء، «حكيم» لا يفعل شيئاً إلا لحكمة ومصلحة.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا...﴾ الآية، تخرج الصحابة من مخالطة اليتامى، فسألوا رسول الله ﷺ، فنزلت الآية.

الإشارة: كل من لا شيخ له في طريق القوم فهو يتيم، لا أب له، فإن ادعى شيئاً من الخصوصية سُمى عندهم لقيطاً أو دعياً، أى: منسوباً إلى غير أبيه، وما زالت الأشياخ تُحذّر من مخالطة العوام، ومن مخالطة المتفجرة الجاهلة، أعنى: الذين لا شيخ لهم يصلح للتربية، حتى قالوا: مخالطتهم سُم قاتل. وقال بعضهم: يجتنب المرید مخالطة ثلاثة أصناف من الناس: المتفجرة الجاهلين، والقراء المداهنين، والجبابرة المتكبرين.

قلت: وكذلك الفروع المتجمدين على ظاهر الشريعة، فصحبتهم أقبح من الجميع، ومن ابتلى بمخالطة العوام فلينصحبهم، ويرشدهم إلى مصالح دينهم، إنما هم إخوان في الدين، والله يعلم المفسد من المصلح، فمن خالطهم طمعا في مالهم أو جاههم، أفسده الله، ومن خالطهم نصحاً وإرشاداً أصلحه الله، ولو شاء الله لأمر الفقراء باعتزالهم بالكلية، وفي ذلك حرج ومشقة، ومن حكمته تعالى أن جعلهم حجاباً لأهل الحجاب، ومدخلا لذوى الأبواب، حجاباً للضعفاء، ومدخلا ومشهداً للأقوياء. والله تعالى أعلم.

ولما فرغ الحق جل جلاله من ذكر بعض أمر الجهاد وما يتعلق به، شرع يتكلم على النكاح، فقال:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَا أُمَّةً مُؤْمِنَةً خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ
وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ
إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

قلت: بدأ الحق جل جلاله بذكر محل النكاح، وسيأتى في سورة النساء تمامه في قوله: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم...﴾ الآية.

يقول الحق جل جلاله: ولا تتزوجوا النساء «المشركات حتى يؤمن»، ونكاحهن حرام، بخلاف الكتابيات، كما في سورة المائدة. ونكاح أمة سوداء «مؤمنة خير من» نكاح «مشركة ولو أعجبتكم» حسناً وحسباً ومالاً، أو: ولا امرأة مؤمنة أمة كانت أو حرة خير من مشركة؛ إذ النساء كلهن إماء الله.

روى أنه - عليه الصلاة والسلام - بعث مرثداً الغنوي إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين فأنته امرأه يقال لها: عناق، وكان يهواها في الجاهلية - فقالت: ألا تخلو؟ فقال: إن الإسلام حال بيننا، فقالت: هل لك أن تتزوج بي؟ فقال: نعم، ولكن أستشير رسول الله ﷺ فاستشاره، فنزلت الآية. قاله البيضاوي.

ولا تزوجوا «المشركين» وليتكم، وهو حرام مطلقاً؛ إذ الرجال قوامون على النساء، ولا تسلط للكافر على المسلمة، فلا تنكحوهم «حتى يؤمنوا»، «ولعبد» أسود مملوك «مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم» حسباً ومالاً؛ إذ لا حسب مع الكفر. وإنما حرم نكاح أهل الكفر؛ لأنهم «يدعون إلى» الكفر، وهو سبب «النار»، والصحية توجب عقد المحبة، والطباع تُسرق، فلا يؤمن جانب الكفر أن يغلب على الإيمان، «والله» تعالى إنما «يدعو إلى» سبب «المغفرة»، والتطهير من لوث الكفر والمعاصي «بإذنه» وقدرته، فلا يأمر إلا بما يقوى عقد الإيمان واليقين، وينهض إلى الطاعات، وهو صحبة أهل الإيمان واليقين، «ويبين آياته» الدالة على جمع عباده إليه «لعلهم يتذكرون» فيها، ويتعظون بتذكيرها ووعظها.

الإشارة: لا ينبغي للفقير أن يعقد مع نفسه عقد الصحبة والمودة، أو ينظر إليها بعين الشفقة والرحمة، ما دامت مشركة بشهود السوء، أو مائلة بطبعها إلى الهوى، ولأن تكون عندك نفس مؤمنة بعلم التوحيد، خير من نفس مشركة برؤية الخير، ولو أعجبتك في الطاعة، وظهور الاستقامة، فقد تظهر الطاعة والخدمة، وتبطن مالها فيها من الحظوظ والمتعة، فليتهمها ما دامت مشركة، فإذا آمنت ووحدت الله تعالى، فلم تر معه سواه، فلا بأس بعقد النكاح معها، فإنها لا تأمره إلا بما يقوى شهودها وتوحيدها. وكذلك لا ينبغي أن يعقد نكاح نفسه، ويدفعها لمن يشهد السوء؛ شيخاً أو أخاً، ولو أعجبتك طاعته واجتهاده، ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه، خير من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، أولئك أهل النفوس - يدعون إلى نار الشهوات والحظوظ العاجلة أو الآجلة، والله يدعو إلى التطهير من شهود الأغيار، والدخول في حضرة الأسرار، وهذا لا يكون إلا للعارفين الأبرار؛ الذين تطهروا من الأكدار، وتخلصوا من شهود الأغيار، كذلك يبين الله آياته للناس - الدالة على وحدانيته - لعلهم يتعظون فينزعجون عن متابعة الهوى، أو رؤية وجود السوء. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما بين الحق تعالى ما يحرم في النكاح أصالةً، بين ما يحرم فيه عروضا، فقال:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾
 نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ وَشِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ
 وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

قلت: المحيض: مصدر، كالمقيل والمعيش والمجىء، وهو الحيض.

يقول الحق جل جلاله: «ويسألونك» يا محمد «عن» قرب النساء بالجماع في زمن «المحيض»، قل: «نهم: «هو أذى»، أى: مضر، أو مُنتن مستقذر، لا يرضى ذو همة أن يقربه، «فاعتزلوا» مجامعة «النساء في» زمن «المحيض ولا تقربوهن» بالجماع في المحل «حتى يطهرن» من الدم، بانقطاعه، ويغتسلن بالماء، «فإذا تطهرن» بالماء «فأتوهن من حيث أمركم الله» وهو الفرج، الذى أمركم باجتنابه في الحيض؛ إذ هو محل زراعة النطفة. فمن غلبته نفسه حتى وطئ في الحيض، أو النفاس، فليبادر إلى التوبة، «إن الله يحب التوابين» كلما أذنبوا تابوا.

ولا تجب كفارة على الواطئ، على المشهور. وقال ابن عباس والأوزاعي: (من وطئ قبل الغسل تصدق بنصف دينار، ومن وطئ في حال سيلان الدم تصدق بدينار). رواه أبو داود حديثاً. ومن صبر وتنزه عن ذلك فإن الله «يحب المتطهرين» من الذنوب والعيوب كلها، وإنما أعاد العامل؛ لأن محبته للمتزهين أكثر.

قال البيضاوى: روى أن أهل الجاهلية كانوا لا يسأكون الحائض؛ ولا يؤاكلونها، كفعل اليهود والمجوس، واستمر ذلك إلى أن سأل أبو الدحداح، فى نفر من الصحابة، عن ذلك، فنزلت. ولعله سبحانه - إنما ذكر «يسألونك» من غير واو، ثلاثاً، ثم بها ثلاثاً؛ لأن السؤالات الأول كانت فى أوقات متفرقة، والثلاثة الأخيرة كانت فى وقت واحد؛ فلذلك ذكرها بحرف الجمع. هـ.

ثم بين الحق تعالى كيفية إتيان النساء بعد الطهر، فقال: «نساؤكم حرث لكم»، أى: مواضع حرثكم، شبه ما يلقى فى أرحامهن من النطف، بالبذر، والأرحام أرض لها، «فأتوا حرثكم» أى: محل حرثكم، وهو الفرج، «أنتم شئتم» أى: من أى جهة شئتم.

روى أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته من خلفها في قبلها جاء الولد أحول، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت. وقيل: إن قريشاً كانوا يأتون النساء من قدام، مستلقية، والأنصار كانوا يأتوهن من خلف، بركة، فتزوج رجل من المهاجرين امرأة من الأنصار، فأراد أن يفعل عادته، فامتنعت، وأرادت عادتها، فاخصما إلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية بالتخيير للرجل، مع الإتيان في المحل. وأما الإتيان في الدبر فحرام، ملعون فاعله، وقال في القوت: «فأتوا حرثكم أنى شئتم» أى: فى أى وقت شئتم، ومن أى مكان شئتم، مع اتحاد المحل. هـ.

ثم حذر الحق تعالى من متاع شهوة النساء، والغفلة عن الله، فقال: «وقدموا لأنفسكم» ما تجدون ثوابه مدخراً عنده، وهو ذكر الله فى مكان الغفلة، قيل: التسمية قبل الوطء وقيل: طلب الولد، والتحقيق: أنه الحضور مع الحق عند هيجان الشهوة، قال بعض العارفين: إني لا أغيب عن الله ولو فى حالة الجماع. هـ. وهذا شأن أهل الجمع، لا يفترون عن الحضرة ساعة. وهذه التقوى التى أمر الله بها بقوله: «واتقوا الله» أى: لا تغيبكم عنه شهوة النساء، «واعلموا أنكم ملاقوه» فترون وبال الغفلة وجزاء اليقظة، «ويشرك المؤمنون» بالقرب من رب العالمين.

الإشارة: إذا سئلت - أيها العارف - عن النفس فى حال جنابتها بالغفلة، وحال تلبسها بنجاسة حب الدنيا، فقل: هى أذى، أى: قذر ونجس، من قرب منها لطخته بنجاستها، فلا يحل القرب منه، أو الصحبة معها، حتى تطهر من جنابة الغفلة باليقظة، ومن نجاسة حب الدنيا بالزهد، ورفع الهمة عنها، فإذا تطهرت فأتها، وردها إلى حضرة مولاه، كما أمرك الله، «إن الله يحب التوابين»، وقد تابت ورجعت إلى مولاه، «ويحب المتطهرين»، وقد تطهرت من جنابة الغفلة، وتزهت عن نجاسة الدنيا برفع الهمة، فصارت لك أرضاً لزراعة حقوق العبودية، ومتبناً لبذر شهود عظمة الربوبية، فأتوا حرثكم - أيها العارفون - أنى شئتم، أى: ازرعوا فى أرض نفوسكم من أوصاف العبودية ما شئتم، وفى أى وقت شئتم.

فيقدر ما تزرعون من العبودية تحصدون من الحرية. ويقدر ما تزرع فيها من الذل تحصد من العز، ويقدر ما تزرع فيها من الفقر تحصد من الغنى، ويقدر ما تزرع فيها من التواضع تحصد من الشرف والرفعة.

والحاصل: بقدر ما تزرع فيها من السفليات تحصد منه من العلويات. قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾. فإذا تركتها هملاً، أنبت لك الشوك والحنظل. «وقدموا لأنفسكم» من أوصاف العبودية ما تجدونه أمامكم من مشاهدة الربوبية، واتقوا الله فلا تشهدوا معه سواه، واعلموا أنكم ملاقوه حين تغيبون عن وجودكم وتفقدونه، ويشرك المؤمنون الموقنين بشهود رب العالمين.

ولما تكلم الحق جل جلاله على بعض أحكام النكاح، أراد أن يتكلم على الإيلاء، وهو الحلف على عدم مس المرأة وجماعها، وقدم على ذلك النهي عن كثرة الحلف؛ لأنه هو السبب في الوقوع في الإيلاء، فقال:

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

قل : العرضة: فعلة، بمعنى مفعولة: أى: معرضاً منصوباً، لأيمانكم تحلفون به كثيراً، فيصير اسم الجلالة مبتدلاً بينكم. و (أن تبرؤا): مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ أى: اسم الجلالة، معرضاً «لأيمانكم»، فتبتذلونه بكثرة الحلف، فتمتنعون من فعل الخير بسبب الحلف، كراهة «أن تبرؤا» أى: تفعلوا فعل البر، وهو الإحسان، وكراهة أن «تتقوا» أن تجعلوا بينكم وبين الله وقاية بفعل المعروف، وذلك أن يحلف الرجل ألا يصل رحمه، أو لا يسلم على فلان، أو لا يضمن أحداً، أو لا يبيع بدين، أو لا يسلف أحداً، أو لا يتصدق، فهذه الأمور كلها بر وتقوى، نهى الله تعالى عن الحلف على عدم فعلها، أو يحلف ألا يصلح بين الناس، فيجب على الحالف على ذلك أن يحنث، ويكفر عن يمينه. ولذلك قال - عليه الصلاة والسلام - : «إِنِّي لَأَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى خَيْراً مِنْهَا، فَأُكْفِرُ عَنْ يَمِينِي، وَآتَى الَّذِي هُوَ خَيْرٌ». وقال لابن سمرّة: «إِذَا حَلَفْتُ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتُ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، فَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكَفَرْتُ عَنْ يَمِينِكَ».

أو يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾، تحلفون به كثيراً، نهيتكم عن ذلك، إرادة أن تكونوا أبراراً متقين، مصلحين «بين الناس»؛ فإن الحالف مجترئ على الله، والمجترئ لا يكون براً متقياً، ولا موثقاً به في إصلاح ذات البين، «والله سميع» لأيمانكم، «عليم» بنياتكم.

ثم رفع الحق تعالى الحرج عن يمين اللغو الذي لا قصد فيه - فقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾، وهو ما يجرى على اللسان من غير قصد، كقول الرجل في مجرى كلامه: لا والله وبلى والله، قاله ابن عباس وعائشة - رضى الله عنهما -، وبه قال الشافعي.

وقال أبو هريرة والحسن وابن عباس - في أحد قوليه -: هو أن يحلف على ما يعتقد فيظهر خلافه. وبه قال مالك (رحمته الله)، والأول أليق بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أى: بما عقدت عليه قلوبكم، «والله غفور»؛ حيث لم يؤاخذكم باللغو، «حليم»؛ حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجد، تربصاً للتوبة.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله: ﴿لَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾، ولكن اجعلوه عرضة لتعظيم قلوبكم ومشاهدة لأسراركم، فإنني ما أظهرت اسمي لتبتذلوه في الأيمان والجدال، وإنما أظهرت اسمي لتتلقوه بالتعظيم والإجلال، فمن عظم اسمي فقد عظم ذاتي، ومن عظم ذاتي جعلته عظيماً في أرضي وعند أهل سمواتي، وجعلته براً تقياً، من أهل محبتي وودادي، وداعياً يدعو إلى معرفتي، ويصلح بيني وبين عبادي، فمن حلمي ورأفتي: أني لا أؤاخذ بما يجرى على اللسان، وإنما أؤاخذ بما يقصده الجنان.

تنبيه: كثرة الحلف مذموم يدل على الخفة والطيش، وعدم الحلف بالكلية تعسف، وخير الأمور أوسطها، كان عليه الصلاة والسلام يحلف في بعض أحيانه، يقول: «لَا وَمَقْلَبِ الْقُلُوبِ»، «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ». والله تعالى أعلم.

ثم أشار الحق تعالى إلى حكم الإيلاء، فقال:

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾

قلت: (الإيلاء): يمين زوج مكلف على عدم وطء زوجته، أكثر من أربعة أشهر. وآلى: بمعنى حلف، يتعدى بعلى، ولكن لما ضمَّن هنا معنى البعد من المرأة، عدَّى بمن، و (تربص): مبتدأ، و «لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ»: خبر.

يقول الحق جل جلاله: «لِلَّذِينَ» يبعدون «من نسائهم» ويحلفون ألا يجامعوهن أكثر من أربعة أشهر، غضباً وقصدًا للإضرار، «تربص» أي: تمهل «أربعة أشهر»، لا يُطالبُ فيهن بغيثة ولا حنث، «فإن فاءوا» أي: رجعوا عما حلفوا عليه، وحنثوا وكفروا بأيمانهم، «فإن الله غفور» لما قصدوا من الإضرار، بالغيثة التي هي كالنوبة، «رحيم» بهم؛ حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، «وإن عزموا الطلاق» أي: صمموا عليه، ولم يرجعوا عما حلفوا عليه، «فإن الله سميع» لطلاقهم، «عليم» بقصدهم ونيتهم. ومذهب مالك والشافعي: أن القاضي يوقفه: إما أن يرجع بالوطء إن قدر، أو بالوعد إن عجز، أو يطلق عليه طلاق رجعية، عند مالك. ومذهب أبي حنيفة: أنها تبين بمجرد مضي أربعة أشهر. وأحكام الإيلاء مقررة في كتب الفقه.

الإشارة: لا ينبغي للعبد أن يصرف عمره كله في معاداة نفسه ومجانبتها، إذ المقصود هو الاشتغال بمحبة الحبيب، لا الاشتغال بعداوة العدو، فلمجاهدة نفسه ومجانبتها حد معلوم ووقت مخصوص، وهو مادامت جموحة

جاهلة بالله. فإن فاءت ورجعت إلى الله، وارتاضت لحضرة الله، وجبت محبتها والاصطلاح معها؛ لأن النفس بها ربح من ربح، ومنها خسر من خسر، من عرف قدرها، واحتال عليها حتى ردها إلى ربها - ربح، ومن أهملها وجهل قدرها - خسر، وكان شيخ شيوخنا يقول: جزاها الله عنا خيراً؛ والله ما ربحنا إلا منها، يعنى نفسه. وفي بعض الآثار: (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ). وإن عزموا الطلاق، يعنى: العباد والزهاد عزموا ألا يرجعوا إلى أنفسهم أبداً، فإن الله سميع عليم بقصدهم؛ هل قصدهم طلب الحظوظ أو محبة الحبيب، وأما العارفون فلا تبقى لهم معادة مع أحد قط، قد اصطلحوا مع الوجود بأسره، فمكنهم الله من التصرف في الوجود بأسره. والله ذو الفضل العظيم.

ثم ذكر الحق تعالى عدة الطلاق، فقال:

﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا...﴾

قلت: القرء هو الطهر الذى يكون بعد الحيض، عند مالك، وجمع القلة: أقراء، والكثرة: قروء، واستعمله هنا باعتبار كثرة المطلقات، و(ثلاثة): مفعول مطلق، أو ظرف، و(بعولتهن): جمع بعل، والتاء لتأنيث الجماعة.

يقول الحق جل جلاله: «والمطلقات يتربصن» أى: يمكن عن النزوح، «بأنفسهن ثلاثة قروء» أى: أطهار، وتعتد بالطهر الذى طلقها فيه، فتحيض، ثم تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، فإذا رأت الحيضة الثالثة خرجت من العدة، هذا فى غير الحامل، وأما الحامل فعدتها وضع حملها. «ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن» من الولد؛ استعجالاً لإتمام العدة، أو من الحيض؛ استبقاءً لتمادى العدة، وتصدق فى ذلك كله، فإن كانت «تؤمن بالله واليوم الآخر» فلا يحل لها أن تكتم ما استؤمنت عليه، «وبعولتهن» أى: أزواجهن، «أحق بردهن فى ذلك» التربص، إن كان الطلاق رجعياً، وإلا بانته منه، وينبغى للزوج أن يراجعها فى العدة، إن أراد بذلك الإصلاح والمودة، لا الإضرار بها، وإلا حرم عليه ارتجاعها، إذ «لا ضرر ولا ضرار»، كما قال - عليه الصلاة والسلام -.

الإشارة: إذا طلقت النفس، ووقع البعد منها حتى طهرت ثلاثة: الطهر الأول: من الإصرار على الذنوب والمخالفات، الطهر الثانى: من العيوب والغفلات، الطهر الثالث: من الركون إلى العادات والوقوف مع المحسوسات، دون المعانى وأنوار التجليات - حلت رجعتها والاصطلاح معها، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن: من العلوم والمعارف والأنوار، وذلك إذا استشرفت على حضرة الأسرار، فإنها تفيض بالعلوم والحكم،

أو ما لا يحصى، فينبغي أن تطلع عليها من يقتدى بشأنها. ويعولتهن أحق بردهن، والصلح معهن، بعد تمام تطهيرهن، إن أرادوا بذلك إصلاحا، وهو إدخالها في الحضرة، ونعيمها بالشهود والنظرة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق جل جلاله حقوق الزوجية، فقال:

﴿... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

يقول الحق جل جلاله: وللنساء حقوق على الرجال، كما أن للرجال حقوقاً على النساء، فحقوق النساء على الرجال: الإنفاق، والكسوة، والإعفاف، وحسن المعاشرة، وكان ابن عمر - رضي الله عنهما - يقول: إني لأحب أن أترين للمرأة كما تتزين لي، ويقرأ هذه الآية.

وحقوق الرجل على المرأة: إصلاح الطعام والفرش، وطاعة زوجها في كل ما يأمرها به من المباح، وحفظ فرجها، وصيانة ماله الذي ائتمنت عليه - إلى غير ذلك من الحقوق، فللنساء حقوق على الرجال «مثل الذي عليهن بالمعروف» من غير ضرر ولا ضرار. ولا تفريط ولا إفراط، «وللرجال عليهن درجة» أي: فضيلة؛ لأن الرجال قوامون على النساء، ولهم فضل في الميراث، والقسمة، وكثير من الحقوق، فضلهم الله على النساء. «والله عزيز» لا يعجزه عقاب من خالف أمره، لكنه يهمل ولا يهمل، «حكيم» لا يفعل إلا لمصلحة ظاهرة أو خفية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: للنفس حقوق على صاحبها، كما له حقوق عليها، قال - عليه الصلاة والسلام -: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ». فالنفس مغرفة للسر، فإذا تعبت سقط منها السر، كذلك نفس الإنسان، إذا تحامل عليها حتى تعلت، ودخلها الوجع، تعذر عليها كثير من العبادات، لاسيما الفكرة، فلا بد من حفظ البشرية، وإنما ينبغي قتلها بالأمور التي لا تخل بصحتها، فعليها طاعتك فيما تأمرها به، كما عليك حفظها مما تتضرر به. وللرجال الأقوياء عليها تسلط وتصرف، فهي مملوكة في أيديهم، وهم غالبون عليها، والله غالب على أمره، وهو العزيز الحكيم.

ثم ذكر الحق تعالى عدد الطلاق، فقال:

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا

أَفْتَدَتْ بِهٖ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

قلت: (فإمساك بمعروف): مبتدأ، والخبر: محذوف، أى: أحسن أو أمثل. أو خبر، أى: فالواجب إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

يقول الحق جل جلاله: «الطلاق» الذى تقع الرجعة بعده - إنما هو «مرتان»، فإن طلق ثلاثة فلا رجعة بعدها، فإن طلق واحدة أو اثنتين فهو مخير، فإما أن يمسكها ويرتجعها بحسن المعاشرة، والقيام بحقوق الزوجية بالمعروف، وإما أن يسرحها حتى تنقضى عدتها «بإحسان»، من غير إضرار، ولا تطويل عدة. «ولا يحل لكم»، أيها الأزواج، «أن تأخذوا مما آتيتموهن» من الصداق «شيئاً» - خُلْعاً - «إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله» بأن ظن الزوج أو الزوجة فساد العشرة بينهما، وعدم القيام بحقوق الزوجية، «فإن خفتن» أيها الحكام، أو من ينوب عنهم، «ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به» من العصمة، فيحل للزوج أن يأخذ منها الفداء، ولو بجميع ما تملك، إذا كان الضرر منها أو منهما. فإن انفرد بضررها، حرّم عليه أخذ الفداء، وطلّقت عليه.

«تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون» أى: هذه الأحكام التى ذكرنا من عدد الطلاق وأخذ الخُلْع على وجهه - هى حدود الله التى حدها لعباده، فمن تعداها فهو ظالم.

(فإن) طلق الزوج مرةً ثالثة «فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره»، ويدخل بها، من غير شرط التحليل، «فإن طلقها» الثانى، «فلا جناح عليهما أن يتراجعا» بنكاح جديد «إن ظنا أن يقيما» حقوق الزوجية، وحسن العشرة، «وتلك» الأحكام المذكورة هى «حدود الله يبينها» الحق تعالى «لقوم يعلمون» أى: يفهمون ويتدبرون الأمور.

الإشارة: إذا طلق المريد الدنيا، ثم رجع إليها، ثم تاب وتوجه إلى الله، ثم رجع إليها، ثم تاب وتوجه مرةً ثانية، قبلت توبته، فإن رجع إليها بعد الطلقة الثانية، فلا يرجى فلاحه فى الغالب؛ لأنه متلاعب، قال تعالى: (الطلاقُ

مرّتان) فإمساكُ لها بمعروف بأن يواشى بها من يحتاج إليها، أو تسريح لها من يده بإحسان من الله إليه، حتى يدخله في مقام الإحسان، فإن طلقها مرة ثالثة فلا تحل له أبداً حتى يأخذها من يد الله بالله، بعد أن كان يأخذها بنفسه، فكأنه أخذها بعصمة جديدة، فإن تمكن من الفداء والبقاء، فلا جناح عليه أن يرجع إليها غلياً بالله عنها. والله تعالى أعلم.

ثم نهى الحق تعالى عن إمساك الزوجة، إضراراً، كما كانت تفعل الجاهلية، فقال :

﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ
ضِرَارًا لِّلْعَنَادِ وَأَمَّنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ۝٢٣١﴾

قلت : (ضرارا) : مفعول له، أو حال، أى: مضارين.

يقول الحق جل جلاله: «وإذا طلقتم النساء» فـقرب بلوغ أجل عدتهن «فأمسكوهن» بالرجعة متلبسين بالمعروف والإحسان إليها، «أو سرّحوهن» يتزوجن غيركم «بمعروف» لا إضرار فيه، «ولا تمسكوهن» بنية طلاقهن «ضرارا» أى: لأجل الضرر بتطويل عدتهن «لتعتدوا» عليهن «ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه».

نزلت في رجل قال لامرأته: لا آويك، ولا أدعك تحلين لغيري. فقالت: كيف؟ فقال: أطلقك، فإذا دنا مضى عدتك راجعتك، فشكت ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت الآية. وكان بعضهم يطلق، ويعتق، ثم يرجع، ويقول: كنت أهزأ بذلك وألعب، فنزل قوله تعالى: «ولا تتخذوا آيات الله هزوا» أى: مهزوءاً بها، وفي الحديث: «ثلاث هزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة». «واذكروا نعمة الله عليكم» بالهداية وبعثة الرسول، «وما أنزل عليكم من الكتاب» فيه ما تحتاجون إليه ظاهراً وباطناً، «والحكمة» أى: السنة المطهرة، «يعظكم» بذلك ويزكيكم، «واتقوا الله» فيما يأمركم به، وينهاكم عنه، «واعلموا أن الله بكل شيء عليم»؛ ﴿يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

الإشارة: يقال للمريدين المتجربين إذا طلقتم الدنيا، وآيسم أنفسكم من الرجوع إليها حتى تمكّن اليقين من القلب بحيث انقطع الاهتمام بالرزق من القلب، وزالت عنه الشكوك والأوهام، فإذا رجعت إليه الدنيا، فإما أن يمسكها بمعروف بأن تكون في يده لا في قلبه، أو يسرحها من يده، بسبب مقام الإحسان الذي عوضه الله عنها، ولا تمسكوا الدنيا، أيها الفقراء، قبل كمال اليقين، فإنها ضرر لكم، فقد أخذت الرجال لا سيما الأطفال. «ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه»، حيث حرّمها الوصول، وتركها في حيرة الأوهام تجول، فاحذروا لذيق عاجلها، لكره آجلها، «ولا تتخذوا آيات الله هزوا» بالرخص والتأويلات، «واذكروا نعمة الله عليكم» بالهداية إلى الطريق، «وما أنزل عليكم من الكتاب»: فيه بيان التحقيق «والحكمة» التي هي إصابة عين التوفيق، «واتقوا الله»، فلا تركوا إلى شيء سواه، فإن مالت قلوبكم إلى شيء من السوى، أو نزعت إلى محبة الهوى، فاعلموا «أن الله بكل شيء عليم» فيبعدكم بعد الوصول. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم نهى الحق تعالى عن منع النساء من التزوج إضراراً، فقال:

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

قلت: العضل: المنع والتضييق والتعسير، يقال: أعضلت الدجاجة، إذا عسر بيضها.

يقول الحق جل جلاله: «وإذا طلقتم النساء» فانقضت عدتهن «فلا» تمنعهن، أيها الأولياء، من «أن ينكحن أزواجهن» الذين كانوا يملكون ثم طلقوا، أو الخطّاب الأجانب، «إذا تراضوا بينهم بالمعروف» أي: بأن كانوا أكفاء لهن، وبذلوا من المهر ما يناسبهن، أو كانت رشيدة. «ذلك» الذي ذكرنا لكم - يتعظ به، ويقف معه، من كان «يؤمن بالله واليوم الآخر»؛ لأنه هو الذي ينجع فيه الرعظ وينتفع بالتذكير، «ذلكم أزكى لكم» أي: أرفع لقدركم، إن تمسكتم به، «وأطهر» لكم من الذنوب والعيوب، «والله يعلم» ما فيه صلاحكم، «وأنتم لا تعلمون». نزلت الآية في معقل بن يسار، زوج أخته ثم طلقها زوجها، وأمهلها حتى انقضت عدتها، ثم جاء يخطبها، فقال معقل: تركها حتى ملكت نفسها، ثم جاء يخطبها، والله لا أزوجه من أبدأ. والمرأة أرادت أن ترجع إليه، فنزلت الآية، فرجع معقل عن قسمه وزوجها.

وفيه دليل أن المرأة لا تزوج نفسها، خلافاً لأبي حنيفة. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغي للشيخ إذا تحققوا من المريدين كمال اليقين، وظهر عليهم أمارات الرشد، ألا يمنعهم من تعاطي الأسباب، وأخذ ما جاءهم من الدنيا، بلا استشراف ولا طمع، فقد يكون ذلك عوناً لهم على الدين، وعمارة لزاوية الذاكرين، فذلك أركى لهم وأظهر لقلوبهم، (والله يعلم وأنتم لا تعلمون).

ثم ذكر تعالى حكم الرضاع، فقال:

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَوْلُ وَاللَّهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَتَعُ لَكُمْ بَصِيرًا ﴾

يقول الحق جل جلاله : ويجب على الوالدات أن «يرضعن أولادهن حولين كاملين» إذا كن في العصمة، ولا شرف لهن؛ لجرى العرف بذلك، أو مطلقاً، ولم يقبل الولد غيرهن، هذا «لمن أراد أن يتم الرضاعة»، فإن اتفقا على فطامه قبلهما، جاز، كما يأتي. ويجب «على المولود له» وهو الأب، رزق أمهات أولاده، «وكسوتهن»؛ إذ هو الذي ينسب المولود له، وذلك «بالمعروف»، لا يكلف الله نفساً إلا ما في وسعها وتطبيقه، فلا «تضار والدته بولدها»، بحيث ترضعه وهي مريضة، أو انقطع لبنها. بل يجب على الأب أن يستأجر من يرضعه، ولا يضار «مولود له بولده»، بحيث يكلف من الإنفاق والكسوة فوق جهده. فإن مات الأب وترك مالاً. فعلى «الوارث» الكبير «مثل ذلك» من الكسوة والإنفاق، يجريها من مال الأب، ويحسبها من حق الصبي، فإن لم يكن للأب مال - فعلى جماعة المسلمين.

«فإن أرادا» أي: الأب والمرضعة، «فصالا» أي: فطاما للصبي قبل تمام الحولين، «عن تراض منهما وتشاور» بينهما، «فلا جناح عليهما»، إن لم يخف على الولد ضعف. «وإن أردتم»، أيها الأزواج، «أن تسترعوا أولادكم» عند غير الأم، برضاها، «فلا جناح عليكم» في ذلك «إذا سلمتم» أي: أعطيتم للمراضع، «ما آتيتم» أي: ما أردتم إتياءه من الأجرة «بالمعروف» من غير مظل ولا تقتير. والشرط إنما هو

على وجه الكمال والإحسان، «واتقوا الله» فيما كُلفتم به من الحقوق، «واعلموا أن الله» لا يخفى عليه شيء من أموركم؛ فإنه «بما تعملون بصير».

الإشارة: اعلم أن تربية الولاية في قلب المرید، على نمط تربية الطفل الصغير، تنبت في قلب المرید وقت عقد الصحبة بينهما، ثم لا تزال تنمو، أو الشيخ يرضعه بلبن الإمداد حتى يتم أوان رضاعه، ولذلك قالوا: الثدي الميتة لا ترضع. هـ. يشيرون إلى أن الشيخ الميت لا يربي، فلا يزال الشيخ يربي الروح، ويمدها حتى تدخل بلد الإحسان، وتشتعل فكرتها. وهذا تمام الحولين في حقها، وهو أوان كمال الحقيقة والشرعية لمن أراد إتمامها، فتأكل الروح حينئذ من كل شيء، وتشرب من كل شيء، وتستمد من الأشياء كلها، ثم لا يزال يحاذيها بهمته حتى ترشد، فيطلق لها التصرف، فتصلح لتربية غيرها.

وعلى الشيخ رزق المریدين من قوت القلوب وكسوتهم، تقيهم من إصابة الذنوب والعيوب، إلا ما سبق به القضاء في علم الغيوب، فليس في طرق أحد دفعه، لا تكلف نفس إلا وسعها، فإذا مات الشيخ، ووصى بمن يرث مقامه، فعلى الوارث مثل ذلك، فإن أراد المرید انفصالاً عن الشيخ، وتعمير بلد، أو تذكير عباد الله، عن تراض منهما وتشاور من الشيخ، فلا جناح عليهما، وإن أردتم، أيها الشيوخ، أن تسترضعوا أولادكم بإرسال من يذكرهم، ويمدهم، نائباً عنكم، فلا جناح عليكم إذا سلمتم لهم من الإمداد ما يمدهم به، واتقوا الله في شأن المریدين، في جبر كسرهم، وقبول عذرهم، واعلموا أن الله بما تعملون بصير.

ثم ذكر الحق تعالى عدة الوفاة، فقال:

﴿الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَقْرِمُوا عُقَدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

قلت: و«الذين يتوفون»: مبتدأ، و«يتريصن»: خبر، ولا بد من الحذف ليصح الإخبار، إما من الصدر أو من العجز، أى: وأزواج الذين يتوفون، أو الذين يتوفون أزواجهن يتريصن.

يقول الحق جل جلاله: «والذين يموتون منكم، أيها المؤمنون، ويتركون «أزواجاً»، فلا يتزوجن حتى «يتريصن» أى: يمكن «بأنفسهن أربعة أشهر» وعشرة أيام؛ لأن الجنين يتحرك لثلاثة أشهر إن كان ذكراً، ولأربعة إن كان أنثى فى الغالب^(١)، وزيد عشرة، استظهاراً، هذا فى غير الحامل، أما الحامل، فعدتها وضع حملها. «فإذا بلغن أجلهن» أى: انقضت عدتهن، «فلا جناح عليكم» أيها الأولياء «فيما فعلن فى أنفسهن» من التزين والتعرض للنكاح أو الزوج، «بالمعروف»، بحيث لا ينكره الشرع من تزين ونكاح، «والله بما تعملون خبير» فيجازيكم على ما فعلتم.

«ولا جناح عليكم» أيها الخطأب «فيما عرضتم به» للمعتدات «من خطبة النساء»، كقول الرجل: إني لراغب فى صحبتكم، وإنى أريد أن أتزوج فى هذه الساعة. وإنك لنافقة^(٢)، أو لا يصلح لك أن تبقى بلا زوج، ونحو هذا، «أو أكننتم» أى: أضمرتم «فى أنفسكم» فى زمن العدة من أمر التزوج دون تصريح، «علم الله أنكم» ستذكرون النساء المعتدات، وتتكلمون فى نكاحهن، حرصاً وتمنياً، فعرضوا بذلك، «ولكن لا تواعدوهن سرا» أى: فى الخلوة، أو لا تواعدوهن نكاحاً أو جماعاً، «إلا أن تقولوا قولاً معروفاً» وهو التعريض بالألفاظ المتقدمة.

ولا تقطعوا «عقدة النكاح»، وتعزموا على فعله، «حتى يبلغ» كتاب المعتدة «أجله»، وتنقضى العدة، «واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم» من الرغبة والحرص، «فاحذروه» فإن الحرص على الشيء، والرغبة فيه، قبل أوانه، ربما يعاقب صاحبه بحرمانه، وما قدر لك لا يكون لغيرك، وما كان لغيرك لا يكون لك، ولو فعلت ما فعلت، «واعلموا أن الله غفور» لما استعجلتم؛ فإن الإنسان خلق عجولاً، «حليم» فلا يعاجلكم ولا يفضح سرائركم.

(١) ذكر ذلك البيضاوى، فى أنوار التنزيل. وفيه مناقاة للحديث المتفق عليه: (إن أحكم يجمع خلقه فى بطن أمه...) الحديث إلى قوله ﷺ: (ثم يرسل الملك، فينفخ فيه الروح...) وظاهر الحديث يفيد: أن نفخ الروح بعد هذه المدة مطلقاً، لا فرق بين ذكر وأنثى. راجع تفسير الألوسى.

(٢) نافقه أى: مرغوب فيها.

الإشارة: إذا ماتت النفس عن الهوى، وتركت حظوظاً وشهوات، فلا ينبغي أن يردّها إلى ذلك حتى تتريص مدة، ليظهر عليها آثارُ الزهد؛ من السكون إلى الله، والتأنس بمشاهدة الله حتى تغيب عما سواه. فإذا بلغت هذا الوصف فلا جناح على المريد أن يسعفها فيما تفعل بالمعروف، من غير سرف ولا ميل إلى هوى، لأن فعلها حينئذ بالله، ومن الله، وإلى الله، «والله بما تعملون خبير» لا يخفى عليه شيء من أمرها، ولا جناح عليكم، أيها المريدون، إن تزكت نفوسكم، وطهرت من الأغيار قلوبكم، فيما عرضتم به من خطبة أكار الحقائق وثيبات العلوم، أو أكنتم في أنفسكم من المعارف والفهوم، علم الله أنكم ستذكرون ذلك باللسان قبل أن يصل الذوق إلى الجنان، فلا تصرحوا بعلوم الحقائق مع كل الخلائق؛ فإن ذلك من فعل الزنادق، إلا أن تقولوا قولاً معروفاً، إشارة أو تلويحاً، فعلمنا كله إشارة، فإذا صار عبارة خفى.

ولا تطلبوا علم الحقائق قبل بلوغ أجله، وهو موت النفوس، والزهد في الفلوس، وكمال التربية، وتمام التصفية، «واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم» من الشره إليها قبل أوانها، «فاحذروه» أن يعاقبكم بحرمانها، «واعلموا أن الله غفور حلیم» لا يعاجلكم بحرمان قصدكم، إن صح مقصدكم، والله تعالى أعلم، وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق جل جلاله حكم الطلاق قبل المسيس، فقال:

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعَا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٣٦) وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

قلت: (ما) مصدرية ظرفية، و«أو تفرضوا» معطوف على «تمسوهن» أي: لا تبعة عليكم ولا إثم إن طلقتم النساء قبل البناء، مدة كونكم لم تمسوهن ولم تفرضوا لهن مهراً، و«إلا أن يعفوا» مبنى؛ لاتصاله بنون النسوة، ووزنه: يفعلن كقوله تعالى: ﴿السَّحْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وقوله ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾، و«حقاً» مفعول مطلق.

يقول الحق جل جلاله: لا حرج عليكم من إثم أو صداق، «إن طلقتم النساء» مدة كونكم «لم تمسوهن» بالجماع، «ولم تفرضوا لهن فريضة» من الصداق، فطلقوهن حينئذ، «ومتعوهن» أى: اعطوهن ما يتمتعن به ويجبر كسرهن، على قدر حال الزوج؛ «على الموسع» أى: الغنى، «قدره» من المتعة كأمة أو كسوة أو مال يليق بحاله، «وعلى المقتر» أى: الذى تقتدر رزقه، أى ضيق عليه، وهو الفقير، «قدره» ما يقدر عليه، فمتعوهن «متاعا بالمعروف» من غير سرف ولا تقتير، «حقا على المحسنين» أى: حق ذلك عليهم حقاً. حمل مالك الأمر على النذب، وحمله غيره على الوجوب، وهو الظاهر.

وإن طلقتموهن بعد المسيس فالصداق كامل، «وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن» صداقاً «فأنصف ما فرضتم» يجب عليكم، «إلا أن يعفون» أى: النساء، عن نصف الصداق، «أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح»، وهو الأب فى ابنته البكر؛ قاله مالك، أو الزوج بأن يدفعه كاملاً، قاله الشافعى، «وأن تعفوا» أيها الأولياء عن الزوج، فلا تقبضوا منه شيئاً، «أقرب للتقوى»؛ لأن المرأة لم يذهب لها شيء فسألته قائمة، «ولا تنسوا الفضل» والإحسان «بيتكم»، فتسامحوا يسمح لكم، «إن الله بما تعملون بصير» لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فيجازى المحسن بإحسانه، «والله يحب المحسنين».

الإشارة: من المريدين من تحصل له الغيبة عن نفسه، والجذب عنها، بعد أن يمسه بالمجاهدة والمكابدة، فحينئذ يمتعها بالشهود والعيان، وهذه طريق الجادة. ومنهم من تحصل له الغيبة عن نفسه والجذب عنها قبل أن يمسه، ويجاهدها، وهو نادر بالنسبة إلى الأول، فيقال لهؤلاء الفريق: لا جداح عليكم إن طلقتم أنفسكم، وغبتم عنها، من قبل أن تمسوها، وقبل أن تعرضوا عليها وظائف العبودية. ومتعوهن بالشهود والعيان على قدر وسعكم وقوة شهودكم، على الموسع قدره من لذة الشهود، وعلى المقتر - أى: المضيق عليه فى المعرفة - قدره من لذة الشهود، حق ذلك حقاً على المحسنين الذين حازوا مقام الإحسان، وفازوا بالشهود والعيان.

وإن حصل لكم جذب العناية، وطلقتم أنفسكم قبل أن تمسوها، وقد كنتم وظفتم عليها أوراداً من وظائف العبودية؛ فأنصف ما فرضتم، وهو المهم منها؛ لأن عبادتها صارت قلبية، فيكفيها من العبادة القلبية المهم، إلا أن تقوى على ذلك مع الشهود. أو يأمرها الذى بيده عقدة نكاحها، وهو الشيخ، فلا يضرها الاشتغال بها حيث كان بإذن، وأن تعفوا، أيها الشيوخ، عن المريدين فى العبادة الحسية، وتأمرهم بالعبادة القلبية، أقرب للتقوى الكاملة، وهى تقوى السوى. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر الحق تعالى شأن النساء، حذر من الاشتغال بهن عن العبادة، فقال:

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجًا لَا أَرْكَبَانَا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: «حافظوا» أيضا على أداء «الصلوات» الخمس في أوقاتها؛ بإتقان شروطها وأركانها وخشوعها وآدابها، ولا تشتغلوا عنها بشهوات النساء وتشغيب أحكامهن، ولا بغير ذلك، وحافظوا أيضا على «الصلاة الوسطى» وهي العصر عند الشافعي، وهو ظاهر الحديث، أو الصبح عند مالك؛ لفضلها، أو لتوسطها بين صلاتي الليل والنهار. وما من صلاة إلا وقيل فيها الوسطى. وقيل: أخفيت كساعة الجمعة وليلة القدر.

«وقوموا لله» في الصلاة «قانتين» أي: ساكتين، وكنان، قبل نزول الآية، الكلام في الصلاة جائزا، أو قيل: مطيعين. إذ القنوت في القرآن كله بمعنى الطاعة. «فإن خفتكم» من عدو، أو سبع، أو سيل، فصلوا قياما على أرجلكم بالإيماء للسجود، «أو ركبانا» على خيولكم بالإيماء للركوع والسجود، «فإذا أمنتكم» في الصلاة، أو بعدها، فصلوا صلاة أمن، و«اذكروا الله» في الصلاة، وصلوا «كما علمكم» من الكيفية «مالم تكونوا تعلمون» قبل ذلك.

الإشارة: حافظوا على الصلوات الحسية قياما بوظائف العبودية، وعلى الصلاة القلبية قياما بشهود عظمة الربوبية؛ وهي الصلاة الوسطى لدوامها في كل ساعة، قيل لبعضهم: هل للقلوب صلاة؟ قال: نعم، إذا سجد لا يرفع رأسه أبدا. هـ. أي: إذا خضع لهيبة العظمة لم يرفع أبدا، وفي ذلك يقول الشاعر:

فَسَجْدٌ لِهَيْبَةِ الْجَلَالِ عَنْ دُءَانِي
وَلَقَدْ قَرَأَ آيَةَ الْكَمَالِ سَبْعَ مِثْقَالِي

وأشار بقوله «آية الكمال» لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليجمع بين الشريعة والحقيقة، فسجود القلب حقيقة، وسجود الجوارح شريعة، وقوموا لله بآداب العبودية قانتين خاشعين، فإن خفتكم ألا تصلوا إلى ركن، قبل انقضاء أجليكم، فسيروا إليه رجلا أو ركبانا، خفافا أو ثقالا، فإذا أمنتكم من القطيعة - وذلك بعد التمكين - فاذكروا الله شكرا لأجل ما أطلعكم عليه، وعلمكم مالم تكونوا تعلمون؛ من عظمة الربوبية، وكمال آداب العبودية.

ثم رجع الحق تعالى إلى الكلام على النساء، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٤١)

قلت: (وصية): مبتدأ، والخبر محذوف، أى: عليهم وصية، ومن نصب، فمفعول مطلق، أى: فليوصوا وصية، و(غير): حال من الأزواج، أى: حال كونهن غير مخرجات.

يقول الحق جل جلاله: «والذين يتوفون منكم» ويتركون «أزواجا» بعدهم، فيجب عليهم أن يوصوا لأزواجهم وصية يتمتعن بها من كسوة ونفقة وسكنى، إلى تمام «الحول» مادام الأزواج لم يخرجن من مسكن الزوج، «فإن خرجن» بأنفسهن، فلا نفقة ولا كسوة ولا سكنى عليكم أيها الأولياء، ولا حرج عليكم «فيما فعلن فى أنفسهن» من التزين والتعرض للنكاح بعد تمام عدتهن، على ما هو معروف فى الشرع، والوصية منسوخة بآية الميراث، وتربص الحول بآية ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ المتقدمة (١) المتأخرة فى النزول، «والله عزيز حكيم» ينسخ ما يشاء، ويحكم ما يريد، باعتبار الحكمة والمصلحة.

الإشارة: والذين يتوفون عن الحظوظ والشهوات، ويتركون علوما وأسرارا، ينبغي لهم أن يوصوا بحفظها وتدوينها، كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمته الله إذا استغرق فى الكلام وفاضت عليه المواهب، يقول: (هلاً رجلٌ يقيد عنا هذه العلوم). هـ ليقع التمتع بها للسائرين والطالبيين، (غير إخراج) لغير أهلها، فإن قضى الوقت بخروجها، من غير قصد، فلا حرج، إما لغلبة وجد أو هداية مريد، (والله عزيز حكيم)، فعزته اقتضت الغيرة على سره: أن يأخذه غير أهله، وحكمته اقتضت ظهوره فى وقته لأهله. والله تعالى أعلم.

ثم كرر أمر المتعة تأكيداً، فقال:

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢٤٢) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٣﴾

(١) أى: مقدمة فى التلاوة.

قلت : إنما كرره لأن الأولى في غير المدخول بها، إذا طُلِّقَتْ قبل الفرض، وهذه في المدخول بها، وعبر أولاً بالمحسن : لأن المتعة قبل الدخول لا يعطيها إلا أهل الإحسان؛ لأن المطلق لم يحصل له تمتع بالزوجة، بخلاف الثاني، فمطلق المدخول بها، التقوى تحمله على الإمتناع.

وقيل : لما نزلت الآية الأولى، قال رجل من المسلمين: إن أحسنتُ متعتُ وإلا تركتُ، فنزلت الثانية تأكيداً. وقال: «حقاً على المتقين» الشرك، أى: على كل مؤمن، وحكمها: الندب، عند مالك، على تفصيل ذكره في المختصر، فقال عاطفاً على المندوب: والمتعة على قدر حاله، بعد العدة للرجعة، أو ورثتها، ككل مُطَلَّقة في نكاح لازم، لا في فسْخٍ؛ كلعانٍ وملك أحد الزوجين، إلا من اختلعت، أو فرض لها وطُلِّقَتْ قبل البناء، ومختارة لعتقها أو لعيبه أو مخيرة أو مملّكة.

الإشارة: كل من طلق نفسه وخالف هواها تمتع بحلاوة المعاملة مع ربه، فمن اتصل بشيخ التربية تمتع بحلاوة العبادة القلبية كالشهود والعيان، ومن لم يتصل بالشيخ تمتع بحلاوة العبادة الحسية. فالآية الأولى في المريدين والواصلين، وهذه الآية في العباد والزهاد، ولذلك عبر في الأولى بالمحسنين، وفي الثانية بالمتقين، والله تعالى أعلم.

ثم حذر من الفرار من الموت، توطئة للترغيب في الجهاد، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

قلت : الاستفهام للتعجب والتشويق، والرؤية قلبية، والوار للحال، و(حذر) مفعول من أجله. يقول الحق جل جلاله : ألم تنظروا يا محمد، بعين الفكر والاعتبار، «إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف» عشرة، أو ثلاثون، أو أربعون، أو سبعون، حذراً من «الموت» في زمن الطاعون. وكانوا في قرية يقال لها: (داوردان) فلما وقع بها الطاعون، خرجت طائفة هاربين، وبقيت أخرى، فهلك أكثر من بقي، وسلم الخارجون، ثم رجعوا، فقال الباقيون: لو صنعنا مثلهم لبقينا، لكن أصابنا الطاعون مرة ثانية لخرجنا، فأصابهم من قابل، فهربوا كلهم، ونزلوا وادياً أفيح^(١)، فناداهم ملك من أسفل الوادي، وآخر من أعلاه، أن:

(١) الأفيح والفيحاح: كل موضع واسع، ومنه: روضة فيحاء.

موتوا، فماتوا كلهم أجمعون، ومرت عليهم مدة ثمانية أيام أو أكثر حتى انتفخوا، وقيل: صاروا عظاماً، فمرّ عليهم نبي الله (حزقيل)، فدعا الله تعالى، واستشفع فيهم، فأحياهم الله، وعاشوا دهرأ، عليهم سيما الموت؛ لا يلبسون ثوباً إلا عاد كالكفن، واستمر في أسباطهم هـ.

قال الأصمعي: لما وقع الطاعون بالبصرة، خرج رجل منها على حمار معه أهله، وله عبد يسوق حماره، فأنشأ العبد يقول:

لن يسبق الله على حمار ولا على ذي مشعة طيَّار
قد يصبح الله أمام الساري^(١)

فرجع الرجل بعياله.

والآية تدل على أن الفرار من الطاعون حرام في تلك الشريعة، كما حرم في شرعنا، وروى عبد الرحمن ابن عوف أن النبي ﷺ قال: «إِذَا سَمِعْتُمْ هَذَا الْوَبَاءَ يَبْلُدُ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ يَبْلُدُ وَأَنْتُمْ فِيهِ فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهُ».

قلت: وقد اختلف الأئمة في حكم الفرار والقُدوم: فممنهم من شهر المنع فيهما تمسكا بظاهر الحديث، وممنهم من شهر الكراهة. والمختار في الفرار: التحريم، وفي القُدوم: التفصيل، فمن قوى يقينه، وصفا توحيدته، حلَّ له القُدوم، ومن ضعف يقينه، بحيث إذا أصابه شيء نسب التأثير لغير الله حرم عليه القُدوم.

وفي حديث عائشة - رضي الله عنها - قلت: يا رسول الله، ما الطاعون؟ قال: «غدة كغدة البعير، المقيم فيه كالشهيد، والفار منه كالفار من الزحف». قال ابن حجر: كون المقيم فيه له أجر شهيد إنما بشرط أن يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، وأن يسلم إليه أمره ويرضى بقضائه، وأن يبقى في مكانه ولا يخرج منه بقصد الفرار، فإذا اتصف الجالس بهذه القيود حصل له أجر الشهادة. ودخل تحته ثلاث صور، الأولى: من اتصف بذلك فوقع له الطاعون ومات فهو شهيد. والثانية: من وقع به ولم يمت به فهو شهيد وإن مات بعد ذلك. والثالثة: من لم يقع به أصلاً ومات بغيره عاجلاً أو آجلاً فهو شهيد، إذا حصلت فيه القيود الثلاثة، ومن لم يتصف بالقيود الثلاثة فليس بشهيد، ولو مات بالطاعون. والله أعلم هـ.

وأما القُدوم من بلد الطاعون إلى البلد السالمة منه فجائز. ولا يمنع من الدخول، قاله الباجي وابن حجر والخطاب وغيرهم لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «لَا عَدْوَى وَلَا طَيْرَةٌ» وأما قوله عليه الصلاة والسلام:

(١) ذكر القرطبي البيت الثاني كاملاً، وهو: أو يأتي الحنف على مقدار قد يصبح الله أمام الساري.

«فِرُّ مِنَ الْمَجْذُومِ فِرَّارَكَ مِنَ الْأَسَدِ»، وقوله: «لَا يُورَدُ مُعْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ»، فهو محمول على حسم العادة وسد الذريعة؛ لئلا يحدث للمخالط شيء من ذلك، فيظنه بسبب المخالطة، فيثبت العدوى التي نفاها الشارع هذا المختار في الجمع بين الحديثين. والله تعالى أعلم. وإنما أطلت في المسألة لمس الحاجة؛ لأن التأليف وفي زمن الوباء، حفظنا الله من وبائها.

وقيل: إن الذين خرجوا من ديارهم قوم من بني إسرائيل، أمروا بالجهاد، فخافوا الموت بالقتل في الجهاد فخرجوا من ديارهم فراراً من ذلك، فأماهم الله؛ ليعرفهم أنهم لا ينجيهم من الموت شيء، ثم أحياهم؛ وأمرهم بالجهاد، بقوله: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» الآية. وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ»؛ حيث أنزل بهم رحمته، ففروا منها، ولم يعاقبهم، حيث أحياهم بعد موتهم، «ولكن أكثر الناس لا يشكرون»؛ إذ لا يفهم النعم في طي النقم إلا القليل، فيشكروا الله في السراء والضراء.

الإشارة: ألم تر أيها السامع إلى الذين خرجوا من ديار عوائدهم وأوطان شهواتهم، وهم جماعة أهل التجريد، القاصدين إلى صفاء التوحيد، والغرق في بحر التفريد، حذراً من موت أرواحهم بالجهل والفرق؛ فاصطفاهم الله لحضرته، وجذبهم إلى مشاهدة ذاته، فقال لهم الله: موتوا عن حظوظكم، وغيبوا عن وجودكم، فلم ماتوا عن حظوظهم، وغابوا عن وجودهم، أحياهم الله بالعلم والمعرفة، «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ» حيث فتح لهم باب السلوك، وهبهم لمعرفة ملك الملوك، «ولكن أكثر الناس لا يشكرون» حيث تجلى لهم وعرفهم به، وهم لا يشعرون، إلا من فتح الله بصيرتهم، وقليل ما هم.

ثم حرّض الحق تعالى المؤمنين على الجهاد، فقال:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

يقول الحق جل جلاله: «وَقَاتِلُوا» الكفار «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وإعلاء كلمة الله حتى يكون الدين كله لله، «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ» لأقوالكم ودعائكم، «عَلِيمٌ» بنياتكم وإخلاصكم، فيجازي المخلصين، ويحرم المخطئين.

الإشارة: وجاهدوا نفوسكم في طريق الوصول إلى الله، وأديموا السير إلى حضرة الله، فحضرة القدوس محرمة على أهل النفوس. قال الششتري:

إِنْ تَرَدَّ وَصَلْنَا فَمَوْتُكَ شَرْطٌ
لَا يَدَالُ الْوِصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلُهُ

ومجاهدة النفس هو تحميلها ما يثقل عليها، وبعدها مما يخف عليها، حتى لا يثقل عليها شيء، ولا تشره* إلى شيء، بل يكون هواها ما يقضيه عليها مولاهما. قيل لبعضهم: [ما تشتهي؟ قال: ما يقضى الله]. واعلموا أيها السائرون أن الله سميع لأذكاركم، عليم بإخلاصكم ومقاصدكم.

ولما كان الجهاد يحتاج إلى مؤنة التجهيز، وليس كل الناس يقدر على ذلك، رَغِبَ الحق تعالى الأقوياء بالإنفاق على الفقراء، فقال:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٤٥﴾

قلت: القرض هو القطع، أطلق على السلف؛ لأن المقرض يقطع قطعة من ماله ويدفعها للمستلف، والمراد بها الصدقة؛ لأن المتصدق يدفع الصدقة فيردها الحق تعالى له بضعف أمثالها؛ فأشبهت القرض في مطلق الرد.

يقول الحق جل جلاله: مَنْ هذا الذي يعامل الله تعالى ويقرضه «قرضاً حسناً» بأن يتصدق على عباده صدقة حسنة بنية خالصة، فيكثرها الله تعالى له «أضعافاً كثيرة»؛ بسبعمئة إلى ما لا نهاية له، ولا يحمله خوف الفقر على ترك الصدقة؛ فإن الله تعالى يقبض الرزق عن يشاء ولو قل إعطاؤه، ويبسط الرزق على من يشاء ولو كثر إعطاؤه، بل يقبض على من قبض يده شحاً وبخلًا، ويبسط على من بسط يده عطاءً وبذلاً، يقول: «يا ابن آدم أنفق أنفق عليك»، «أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا».

ونسبة القرض إليه تعالى ترغيب وتقريب للأفهام، كما قال في الحديث القدسي: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا ابن آدم، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ! كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدَّهُ. أَمَا إِنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ. يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعَمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ! كَيْفَ أَطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تُطْعَمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي. يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتَكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ! كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ. أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي».

الإشارة: من هذا الذي يقطع قلبه عن حب الدارين، ويرفع همته عن الكونين، فإن الله (يضاعفه له أضعافاً كثيرة) بأن يملكه الوجود بما فيه، «أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان

معك، (والله يقبض ويبسط) فيقبض الوجود تحت حكمك وهمتك، إن رفعت همتك عنه، ويبسط يدك بالتصرف فيه، إن علقت همتك بخالقه. أو يقبض القلوب بالفقد والوحشة، ويبسطها بالإيناس والبهجة. أو يقبض الأرواح بالوفاة، ويبسطها بالحياة. والقبض والبسط عند أهل التصوف: حالتان تتعاقبان على القلوب تعاقب الليل والنهار، فإذا غلب حال الخوف كان مقبوضاً، وإذا غلب حال الرجاء كان مبسوطاً، وهذا حال السائرين، أما الواصلون فقد اعتدل خوفهم ورجاؤهم، فلا يؤثر فيهم قبض ولا بسط، لأنهم مالكو الأحوال.

قال القشيري: فإذا كاشف العبد بنعت جماله بسطه، وإذا كاشفه بنعت جلاله قبضه. فالقبض يوجب إحاشه، والبسط يوجب إيناسه، واعلم أنه يردُّ العبد إلى حال بشريته، فيقبضه حتى لا يطيق ذرةً، ويأخذه مرةً عن نعوته، فيجد لحمل ما يردُّ عليه قدرة وطاقه، قال الشبلي رحمته: (من عرف الله حمل السموات والأرض على شعرة من جفن عينه، ومن لم يعرف الله - جل وعلا - لو تعلق به جناح بعوضة لضجَّ).

وقال أهل المعرفة: [إذا قبض قبض حتى لا طاقة، وإذا بسط بسط حتى لا فاقة، والكل منه وإليه]. ومن عرف أن الله هو القابض الباسط، لم يعتب أحداً من الخلق، ولا يسكن إليه في إقبال ولا إدبار، ولم ييأس منه في البلاء، ولا يسكن إليه في عطاء، فلا يكون له تدبير أبداً. هـ.

ولكل من القبض والبسط آداب، فأداب القبض: السكون تحت مجارى الأقدار، وانتظار الفرج من الكريم الغفار. وآداب البسط: كف اللسان، وقبض العنان، والحياء من الكريم المنان. والبسط مزلة أقدام الرجال. قال بعضهم: (فتح على باب من البسط فزلت زلة، فحجبت عن مقامى ثلاثين سنة). ولذلك قيل: قف على البساط وإياك والانبساط.

واعلم أن القبض والبسط فوق الخوف والرجاء، وفوق القبض والبسط: الهيبة والأنس فالخوف والرجاء للمؤمنين، والقبض والبسط للسائرين، والهيبة والأنس للعارفين، ثم المحو في وجود العين للمتمكنين، فلا هيبة لهم، ولا أنس، ولا علم، ولا حس. وأنشدوا:

فلو كنت من أهل الوجود حقيقة
لغبت عن الأكوان والعرش والكرسى
وكنت بلا حال مع الله واقفاً
تصان عن التذكّار للجن والإنس^(١)

(١) ورد هذان البيتان في قصة مع أبي سعيد الخراز، ذكرها القشيري في الرسالة.

ثم ذكر الحق تعالى قصة من أمر بالجهاد فجهن عنه، ترهيباً من التشبه به، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

يقول الحق جل جلاله: «ألم تر» يا محمد - فتعتبر - «إلى» قصة جماعة «من بنى إسرائيل من بعد» موت «موسى» حين طلبوا الجهاد، وقالوا «لنبي لهم» يقال له: شمويل، وقيل: شمعون: «أبعث لنا ملكاً» يسوس أمرنا ونرجع إليه في رأينا؛ إذ الحرب لا تستقيم بغير إمام «نقاتل» معه «في سبيل الله، قال» لهم ذلك النبي: «هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا» أي: هل أنتم قريب من التولى والفرار إن كتب عليكم القتال؟ والمعنى: أتوقع جبنكم عن القتال إن فرض عليكم. والأصل: عساكم أن تجبنوا إن فرض عليكم، فأدخل (هل) على فعل التوقع، مستفهما عما هو المتوقع عنده، تقريراً وتنبيهاً.

«قالوا» في جوابه: «وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله» أي: أي مانع يمنعنا من القتال وقد وجد داعيه؟ وهو تسلط العدو علينا فأخرجنا من ديارنا وأسر أبناءنا، وكان الله تعالى سلط عليهم جالوت ومن معه من العمالة، كانوا يسكنون ساحل بحر الروم^(١) بين مصر وفلسطين، وذلك لما عصوا وسفكوا الدماء، فخرّب بيت المقدس، وحرق التوراة، وأخذ التابوت الذي كانوا ينتصرون به، وسبى نساءهم وذراريهم^(٢). روى أنه سبى من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين، فسألوا نبيهم أن يبعث لهم ملكا يجاهدون معه، «فلما كتب عليهم القتال» ويسر لهم ملكا يسوسهم وهو طالوت، جبنوا وتولوا «إلا قليلاً منهم»، وهم من عبّر النهر مع طالوت، «والله عليم بالظالمين» فيخزيهم ويفسد رأيهم. نعوذ بالله من ذلك.

(١) ويسمى الآن البحر المتوسط.

(٢) الذراري: جمع نرية، وهي النسل.

الإشارة: ترى كثيراً من الناس يتمنون أن لو ظفروا بشيخ التربية، ويقولون: لو وجدناه لجاهدنا أنفسنا أكثر من غيرنا، فلما ظهر، وعُرف بالتربية، تولى ونكص على عقبيه، وتعلل بالإنكار وعدم الأهلية، إلا قليلاً ممن خصه الله بعنايته (والله يختص برحمته من يشاء). (والله ذو الفضل العظيم). سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه.

ثم عين لهم الملك الذي طلبوا، فقال:

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول الحق جل جلاله: «وقال لهم نبيهم» شمويل: «إن الله قد بعث لكم» ملكاً، أى: عينه لكم لتقاتلوا معه، وهو «طالوت» وهو علم عبراني كداود، «قالوا» تعنتاً وتشغيلاً: «أنى يكون له الملك علينا» أى من أين يستأهل التملك علينا وليس من دار الملك؟ لأن المملكة كانت فى أولاد يهوذا، وطالوت من أولاد بنيامين، والنبوة كانت فى أولاد لاوى. وقالوا: «نحن أحق بالملك منه» وراثة ومُكنة، لأن دار المملكة فينا. وأيضاً هو فقير «لم يؤت سعة من المال» يتقوى به على حرب عدوه، وكان طالوت فقيراً راعياً أو سقاءً أو دباغاً. «قال» لهم نبيهم - ﷺ -: «إن الله اصطفاه عليكم» رغم أنفكم. قال وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبيهم: إذا دخل عليك رجل فَنَشَّ (١) الدهن الذى فى القرن (٢) فهو ملكهم، فلما دخل طالوت نَشَّ الدهن.

وقال السدى: أرسل الله إليه عصاً، وقال له: إذا دخل عليك رجل على طول هذه العصا فهو ملكهم، فكان ذلك طالوت فتبين أن الله تعالى اصطفاه للملك، «وزاده بسطة فى العلم» فكان أعلم بنى إسرائيل بالتوراة وقيل: بالحروب وعلم السياسة. وزاده أيضاً بسطة فى «الجسم»، فكان أطول بنى إسرائيل يبلغ إلى منكبيه. وذلك ليكون أعظم خطراً فى القلوب، وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب، (والله يؤتى ملكه من يشاء)؛ لأنه ملك الملوك

(١) نَشَّ الماء ينش نشاً ونشيشاً ونشش: إذا صوت عند الغليان.

(٢) القرن: هو قرن الثور وغيره. وأراد به هنا: القنينة التى يكون فيها الدهن، وكانوا يتخذونها من قرن البقر وغيرها.

يضع ملكه حيث شاء، (والله واسع) فيوسع على الفقير ويغنيه بلا سبب، (عليم) بمن يليق بالملك بسبب وبلا سبب.

ثم ذكر آية أخرى تدل على ملكه، فقال:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٤٨﴾

قلت: قال الجوهري: أصل التابوت: تأبوة، مثل ترقة وهي فعلة، فلما سكنت الواو، انقلبت هاء التأنيث تاء، فلفة قريش بالتاء، ولفة الأنصار بالهاء.

يقول الحق جل جلاله: «وقال لهم نبيهم» لما طلبوا منه الحجة على اصطفاه طالوت للملك: «إن آية ملكه أن يأتكم التابوت» وهو صندوق من خشب الشمشام مموء بالذهب، طوله ثلاثة أذرع في سعة ذراعين «فيه سكينة من ربكم» أي: فيه ما تسكن إليه قلوبكم وتثبت عند الحرب. وكانوا يقدمونه أمامهم في الحروب فلا يفرون، وينصرون على عدوهم، وقيل: كان فيه صور الأنبياء من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ. وقيل: كان فيه طست من ذهب غسلت به قلوب الأنبياء - عليهم السلام - وهي السكينة - وفيه «بقية مما ترك آل موسى» وهي رُضاض^(١) الألواح، وعصا موسى، وثيابه، وعمامة هارون والآل: مقحم فيهما.

«تحمله الملائكة» قال وهب: لما صار التابوت عند القوم الذين غلبوا بني إسرائيل - فوضعوه في كنيسة لهم فيها أصنام، فكانت الأصنام تصبح منكسرة، فحملوه إلى قرية قوم، فأصاب أولئك القوم أوجاع، فقالوا: ما هذا إلا لهذا التابوت، فلنتركه إلى بني إسرائيل، فأخذوا عجلة فجعلوا التابوت عليها وريطوها ببقرتين، وأرسلوهما نحو بلاد بني إسرائيل، فبعث الله ملائكة تسوق البقرتين حتى دخلتا على بني إسرائيل، وهم في أمر طالوت فأيقنوا بالنصر. وقيل غير ذلك.

(١) رُضاض الشيء: كساره وفنائه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون من كلام نبيهم، أو من كلام الحق تعالى لنبينا - عليه الصلاة والسلام -.

الإشارة: من شأن غالب النفوس ألا تقبل الخصوصية عند أحد حتى تظهر علامتها، ولذلك طالب الكفار الرسل بالمعجزات، وطالب العوام الأولياء بالكرامات، ويكفي في الولي استقامة ظاهره، وتحقيق اليقين في باطنه. قال الشيخ أبو الحسن رحمته: «إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان ونعت العيان، وكرامة العمل على السنة والمتابعة، وترك الدعاوى والمخادعة، فمن أعطيهما ثم جعل يشنق إلى غيرهما فهو مفتر كذاب، أو ذو خطأ في العلم والعمل... إلخ كلامه رحمته».

وقال في العوارف: وقد يكون من لا يكشفُ بشيء من معاني القدر أفضل ممن يكشف بها، إذا كاشفه الله تعالى بصرف المعرفة، فالقدرة أثر من القادر، ومن أهل لقرب القادر لا يستغرب ولا يستكثر شيئاً من القدرة، ويرى القدرة تتجلى من سحب أجزاء عالم الحكمة. فالكرامة إنما تظهر للقلوب المضطربة والنفوس المتزلزلة، وأما من سكن قلبه باليقين واطمأننت نفسه بالعيان لم يحتج إلى دليل ولا برهان؛ إذ الجبال الراسية لا تحتاج إلى دعامة، والله تعالى أعلم.

وكل من طالب أهل الخصوصية بالكرامة الحسية ففيه نزعة اسرائيلية، حيث قالوا لنبيهم بعد أن عين لهم من أكرمه الله بخصوصية الملك: (أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه). ورد الحق تعالى عليهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُوْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾. وما أظهر لهم كرامة الثابت إلا بعد امتناعهم من الجهاد المتعين عليهم رحمة بهم. والله تعالى أعلم.

ثم كمل قصة خروجهم إلى العدو، فقال:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾

قلت : قال في القاموس: غَرَفَ الماءَ يَغْرِفُهُ: أَخَذَهُ بِيَدِهِ، كَاغْتَرَفَهُ، وَالْغُرْفَةُ لِلْمَرَّةِ، وبالكسر: هَيْئَةُ الْغُرْفِ وبالضم: اسم للمفعول، كالغرافة، لأنك ما لم تغرفه لا تسميه غُرْفَةً، ثم قال: والغُرْفَةُ، بالضم: الْعُلْيَا (١).

يقول الحق جل جلاله: ولما اتفقوا على ملك طالوت تجهز للخروج، وقال: لا يخرج معه إلا الشبابُ النشيط الفارعُ ليس وراءه عُلَّةٌ (٢)، فاجتمع ممن اختار ثمانون ألفاً، وقيل: ثلاثون، فلما انفصل عن بلده بالجنود وساروا في البداء، - وكان وقت الحر والقيظ - عطشوا، وسألوا طالوت أن يجرى لهم نهراً، فقال لهم بوحى، أو بإلهام، أو بأمر نبيهم: «إِنَّ اللَّهَ مَبْتَلِيكُمْ» أى: مُخْتَبِرُكُمْ «بِنَهْرٍ» بسبب اقتراحكم، «فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ» كَرَعَا بِلَا واسطة «فَلَيْسَ مِنِّي» أى: من جيشي، «وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ» أى: يَذُقْهُ، «فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ» فإنها تكفيه لنفسه ولفرسه، فالاستثناء من الجملة الأولى.

«فَشَرِبُوا مِنْهُ» أى: كَرَعُوا، وسقطوا على وجوههم، «إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ» ثلاثمائة وأربعة عشر، على عدد أهل بدر، وقيل: ألفاً. روى أن من اقتصر على الغُرْفَةِ كَفَّتْهُ لَشْرِبِهِ وَدِرَابِهِ، ومن لم يقتصر غلب عطشه، واسودت شفته ولم يقدر أن يمضي. وعن ابن عباس: أن القوم شربوا على قدر يقبلهم: فالكفار شربوا شرباً الهيم، وشرب العاصي دون ذلك، وانصرف من القوم ستة وسبعون ألفاً، وبقي بعض المؤمنين لم يشرب شيئاً، وأخذ بعضهم الغُرْفَةَ، فأما من شرب فاشتد به العطش وسقط، وأما من ترك الماء فحسن حاله، وكان أجلد ممن أخذ الغُرْفَةَ. هـ.

وحكمة هذا الامتحان: ليتخلص للجهاد المطيعون المخلصون، إذ لا يقع النصر إلا بهم، فلما جاوز النهر طالوتُ ومن بقي معه ممن لم يشرب قال بعضهم لبعض: «لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ»؛ لكثرتهم وقلة عددنا، «قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ» أى: يَتَيَقَّنُونَ «أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ» ويتوقعون ثواب الشهادة وهم الخَلَصُ من أهل البصيرة: لا تفرعوا من كثرة عددهم «كَمْ مِنْ قَلَّةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ قَلَّةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ» وإرادته ومعونته، و«كَمْ» للتكثير، «وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» بالنصر والمعونة.

الإشارة: قال بعض الحكماء: الدين كنهز طالوت، لا ينجو منها إلا من لم يشرب أو اغترف غُرْفَةً بِيَدِهِ، فمن أخذ منها قَدَرَ الضَّرُورَةَ كَفَّتْهُ، ونَشَطَ لِعِبَادَةِ مَوْلَاهُ، ومن أخذ فوق الحاجة حُبَسَ فِي سَجْنِهَا، وكان أسيراً في يدها.

(١) العلية بضم العين وكسرهما - هي الغرفة في الطبقة الثانية من الدار وما فوقها، وجمعها (علالي)

(٢) أى: ما يتعلق به وجمعها عُلَى. وذلك كتجارة، وزوجة لم يدخل بها، وغير ذلك.

وقال بعضهم: طالب الدنيا كشارب ماء البحر، كلما زاد شربه ازداد عطشه . هـ . وقال عليه السلام: «من أشرب قلبه حب الدنيا الناط (١) منها بثلاث: بشغل لا ينفد عنه، وأمل لا يبلغ منتهاه، وحرص لا يدرك مداه» وقال عيسى عليه السلام: الدنيا مزرعة لإبليس، وأهلها حراث له هـ . وقال علي عليه السلام: الدنيا كالحية: لئن مسها، قاتل سمها، فكن أحذر ما تكون مدها، أسر ما تكون بها؛ فإن من سكن منها إلى إيناس أزاله عنها إحاش .

وقال عليه الصلاة والسلام: «من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها، ولا يبال ما عنده إلا بتركها» . وقال سيدنا علي - كرم الله وجهه - : أول الدنيا عنه، وآخرها فناء، حلالها حساب، وحرامها عقاب، ومتشابها عتاب، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن . هـ . وقيل: الدنيا تقبل إقبال الطالب، وتدبر إدبار الهارب، وتصل وصال الملول، وتفارق فراق العجول، خيرها يسير، وعمرها قصير، ولذاتها فانية، وتبعاتها باقية .

وقال عيسى عليه السلام: تعملون للدنيا، وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل . هـ . وقيل: أوحى الله إلى الدنيا: من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه .

وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الأبيات (٢):

نهارك يا مغرور سهو وغفلة	وليس لك نوم، والأسى لك لازم
تسر بما يفنى، وتفرح بالمتى	كما سر باللذات في النوم حالم
وشغلك فيها سوف تكره غبه	كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وقال آخر (٣):

هي الدار دار الأذى والقذى	ودار الفناء ودار الغيـر
فلونلتها بحذاقيرها	لميت ولم تقض منها الوطر
أيا من يؤمل طول الخلود	وطول الخلود عليه ضرر
إذا ما كبرت وفات الأسباب	فلا خير في العيش بعد الكبر

(١) الناط: أى التصق .

(٢) الأبيات لمعمر بن كدام، كما في حلية الأولياء ٧ / ٢٢٠

(٣) وهو أبو العتاهية .

ثم ذكر الحق تعالى قصة جالوت وملك داود عليه السلام، فقال:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا أَمْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ
وَأَتَتْهُ اللَّهُ الْمُلْكُ وَالْحِكْمَةُ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ
بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ
آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ولما برز طالوت بمن معه «لجالوت»، أي: ظهر في البراز، ودنا بعضهم من بعض، تضرعوا إلى الله واستنصروه، وقالوا: «ربنا أفرغ علينا صبرا» أي: أصببه علينا صبا، «وثبت أقدامنا» عند اللقاء للثبات، «وانصُرنا على القوم الكافرين». وفي دعائهم ترتيب بليغ؛ سألوا أولا إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القدم في مداخض الحرب المسبب عنه، ثم النصر على العدو المرتب عليها غالبا.

فهزم الله عدوهم وأجاب دعاءهم بإذنه وقدرته، «وقتل داود جالوت». وقصة قتله: أن أصحاب طالوت كان فيهم بنو إيش، وهو أبو داود عليه السلام ستة أو سبعة، وكان داود صغيرا يرعى غنما، فلما حضرت الحرب قال في نفسه: لأذهبن لرؤية هذه الحرب، فمر في طريقه، بحجر فناداه نيا داود خذني، فبى تقتل جالوت، ثم ناداه حجر آخر ثم آخر فأخذها، وجعلها في مخلاته وسار، فلما حضر البأس خرج جالوت يطلب البراز، وكاع^(١) الناس عنه، أي: تأخروا خوفا، حتى قال طالوت: من يبرز له ويقتله فأنا أزوجه ابنتي، وأحكمه في مالي، فجاء داود، فقال له طالوت: اركب فرسي وخذ سلاحى، ففعل، وخرج في أحسن شكله، فلما مشى قليلا رجع، فقال الناس: جبن الفتى، فقال داود: إن الله سبحانه لم يقتله ولم يعنى عليه، لم ينفعنى هذا الفرس ولا هذا السلاح، ولكنى أحب أن أقاتله

(١) كاع فلان: جبن وضعف.

على عادتي. وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع، فنزل، وأخذ مخلاته فتقلدها، وأخذ مقلاعه فخرج إلى جالوت، وهو شاكٍ^(١) في السلاح، فقال جالوت: أنت يا فتى تخرج إليّ! قال: نعم، قال: هكذا كما تخرج إلى الكلب! قال: نعم، وأنت أهون، قال: لأطعمن لحمك اليوم الطير والسباع، ثم تدانينا فأدار داود فأخذ مقلاعه وأدخل يده إلى الحجارة، فروى أنها التأمت، وصارت حجراً واحداً، فأخذه ووضعته في المقلاع، وسمى الله، وأداره، ورماه، فأصاب رأس جالوت فقتله، وجز رأسه، وجعله في مخلاته، واختلط الناس، وحمل أصحاب طالوت فكانت الهزيمة.

ثم إن داود جاء يطلب شرطه من طالوت، فقال: حتى تقتل مائتين من هؤلاء الجراجمة^(٢) الذين يؤذون الناس وتجبنني بسلبهم، فقتل داود منهم مائتين، وجاء بذلك، فدفع إليه امرأته وتخلي له عن الملك^(٣). ولما تمكن داود - عليه السلام - من الملك، أجلى من بقى من قوم جالوت إلى المغرب، فمن بقيتهم البرابرة من الشلوح وسائر الأرياف.

فأتى الله داود «الملك والحكمة» وهي النبوة، وقيل: صنعة الدروع ومنطق الطير «وعلمه مما يشاء» من أنواع العلوم والمعارف والأسرار، وقد دفع الله بأس الكافرين ورد كيدهم في نحركم، «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» أي: لولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض، فينصر المسلمين على الكافرين، ويكف فسادهم، تغلبوا وأفسدوا في الأرض. أو: لولا أن الله نصب السلطان، وأقام الحكام لينصفوا المظلوم من الظالم، ويردوا القوى عن الضعيف، لتوالت الخلق بعضهم على بعض، وأكل القوى الضعيف فيفسد النظام. أو: لولا أن الله يدفع بالشهود عن الناس في حفظ الأموال والنفوس والدماء والأعراض، لوقع الفساد في الأرض.

أو: لولا أن الله يدفع بأهل الطاعة والإحسان عن أهل الغفلة والعصيان، لفسدت الأرض بشؤم أهل العصيان. وفي الخبر عنه ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ بِالْمُصَلِّيِّ مِنْ أُمَّتِي عَمَّنْ لَا يُصَلِّي، وَبِمَنْ يَزُكِّي عَمَّنْ لَا يَزُكِّي، وَبِمَنْ يَصُومُ،

(١) يقال: رجل شاكٍ السلاح: تام التسلح.

(٢) الجراجمة: قوم من العجم بالجزيرة. ويقال: الجراجمة نبط الشام.

(٣) هذا القصص كله لين الأسانيد - كما قال ابن عطية. وقال الدكتور أبو شهبة: نحن في غنية عن هذا القصص بما في أيدينا من القرآن والسنة، ولنا في حاجة إلى شيء من هذا في فهم القرآن وتدبره. انظر الإسرائيليات والموضوعات للدكتور أبي شهبة - رحمه الله.

عَمَّنْ لَا يَصُومُ، وَمِمَّنْ يَحُجُّ، عَمَّنْ لَا يَحُجُّ، وَمِمَّنْ يُجَاهِدُ عَمَّنْ لَا يُجَاهِدُ. وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى تَرْكِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مَا أَنْظَرَهُمُ اللَّهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ» .

وفى حديث آخر: «لولا عباد الله رُكَّع، وصبيّة رُضَّع، لصبّ عليكم العذاب صبا» . وروى جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليُصَلِّحُ بِصَلَحِ الرجل - ولده وولدَ ولده، وأهل دُويرته، ودويراتِ حوله، ولا يزالون في حِفْظِ الله مادام فيهم» . هـ . فهذا من فضل الله على عباده يصلح طالحهم بصالحهم، ويشفع خيارهم في شرارهم، ولولا ذلك لعوجلوا بالهلاك، «ولكن الله ذو فضل على العالمين» .

«تلك» يا محمد، «آيات الله» والإشارة إلى ما قص من حديث الألوف، وتمليك طالوت، وإتيان التابوت، وانهزام الجبابرة أصحاب جالوت، «نتلوها» أى: نقصها عليكم «بالحق» أى: بالوجه المطابق الذى لا يشك فيه أهل الكتاب وأرباب التواريخ، «وانك لمن المرسلين» حيث أخبرت بها من غير تعرف ولا استماع ولم يعهد منك تعلم ولا اطلاع، فلا يشك أنه من عند الخبير العليم، إلا من طبع الله على قلبه . نعوذ بالله من ذلك .

الإشارة: «من علامة النُجْحِ فى النهايات الرجوع إلى الله فى البدايات»، فإذا برز المرید لجهاد أعدائه من النفس والهوى والشيطان وسائر القُطاع، واستنصر بالله وتبرأ من حوله وقوته، كان ذلك علامة على نصره وظفره بنفسه، وكان سبباً فى نَجْحِ نهايته، فيملكه الله الوجود بأسره، ويفتح عليه من خزائن حكمته . قال أبو سليمان الداراني: (إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام، جالت فى الملكوت ثم عادت إلى صاحبها بطرائف الحكم من غير أن يؤدّى إليها عالمٌ علماً) . وفى الخبر: «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم» . وكان حينئذ رحمة للعباد، يدفع الله بوجوده العذاب عن مستحقه من عباده .

وفى الحديث القدسى: «يقول الله عز وجل: إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى جعلت همته ولذته فى ذكرى، ورفعت الحجاب فيما بينى وبينه، لا يسهو إذا سها الناس، أولئك كلامهم كلام الأنبياء، أولئك الأبطال حقاً، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذاباً ذكرتهم فصرفت بهم عنهم» . حققنا الله بمحبتهم وجعلنا منهم .. آمين .

ولما ذكر في هذه السورة جملة من الأنبياء والرسل، وشهد لرسوله ﷺ أنه من المرسلين ذكر تفضيل بعضهم على بعض في الجملة، فقال:

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ... ﴾

قلت: (تلك): مبتدأ، و(الرسل): نعت، أو بدل منه، أو بيان، و(فضلنا): خبر، أو (الرسل) خبر، و(فضلنا): خبر ثان، والإشارة إلى الجماعة المذكور قصصها في السورة.

يقول الحق جل جلاله: «تلك الرسل» الذين قصصناهم عليك، وذكرت لك أنك منهم، «فضلنا بعضهم على بعض» بخصائص ومناقب لم توجد في غيره. لكن هذا التفضيل إنما يكون في الجملة من غير تعيين المفضل، لأنه تنقيص في حقه وهو ممنوع. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»، «ولا تفضلوني على يونس بن متى» فإن معناه النهي عن تعيين المفضل، لأنه غيبة وتنقيص، وقد صرح ﷺ بفضله على جميع الأنبياء بقوله: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ». لكن لا يُعَيَّنُ أَحَدًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِالْمَفْضُولِيَّةِ؛ لِئَلَّا يُوْدَى إِلَى نَقْصِهِ، فَلَا تُعَارِضُ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ.

«منهم من كلم الله» وهو موسى عليه السلام في جبل الطور، وسيدنا محمد ﷺ حين كان قاب قوسين أو أدنى، «ورفع بعضهم درجات» وهو نبينا محمد ﷺ؛ فإنه خُصَّ بالدعوة العامة، والحُجَجِ المتكاثرة، والمعجزات المستمرة، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر، والفضائل العلمية والعملية الفائقة للحصر. والإبهام لتفخيم شأنه، كأنه العلم المشهور المتعين لهذا الوصف المستغنى عن التعيين. وقيل: إبراهيم، خصه بالخلة التي هي أعلى المراتب. قلت: بل المحبة أعلى منها^(١)، وقيل: إدريس لقوله: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾، وقيل: أولو العزم من الرسل، قاله البيضاوي.

«وآتينا عيسى بن مريم البينات» أي: الآيات الواضحات، كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، (وأيديناه بروح القدس)، أي: جبريل عليه السلام كان معه أينما سار، وخصه بالتعيين؛ لإفراط اليهود والنصارى في تحقيره وتعظيمه، فردهم إلى الصواب باعتقاد نبوته دون ربوبيته.

(١) سواء كانت المحبة أعلى أم الخلة - فكلاهما حاصلة لنبينا وسيدنا محمد ﷺ. وانظر في مسألة: أيهما أعلى: المحبة أم الخلة؟ الشفا للقاضي عياض ١ / ٢١٣.

الإشارة: كما فضل الله الرسل بعضهم على بعض، كذلك فضل الأولياء بعضهم على بعض، وإنما يقع لتفضيل بكمال اليقين، والتغلغل في علم التوحيد الخاص، ذوقا وكشفًا، والترقي في المعارف والأسرار. وذلك بخدمة الرجال وصحبة أهل الكمال، والتفرغ التام، والزهد الكامل في النفس والفلس والجنس، فمنهم من تحصل له المشاهدة وتصحبها المكاملة، ومنهم من تحصل له المشاهدة دون المكاملة، ومنهم من تحصل له الكرامات الواضحة، ومنهم من لا يرى شيئاً من ذلك استغناءً عنها بكرامة المعرفة. وما قيل في الرسل من عدم تعيين المفضل، مثله يقال في حق الأولياء، وإلا وقع في الغيبة الشليعة؛ فإن لحوم الأولياء سموم، فليعتقد الكمال في الجميع، ولا يصرح بتعيين المفضل كما تقدم. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر الحق تعالى أحوال الرسل، وتفاوتهم في العناية، ذكر أحوال أممهم وتفاوتهم في الهداية، فقال:

﴿... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا

فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿٢٥٣﴾

قلت: إذا وقع فعل المشيئة بعد (لو) فالغالب حذف مفعوله، كقوله: ﴿لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾، أى: لو شئنا رفعه لرفعناه بها، وكقوله: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَل...﴾، أى: لو شاء هدايتهم ما اقتتلوا، وغير ذلك.

يقول الحق جل جلاله: ولما بعثت الرسل، وفضلت بعضهم على بعض، اختلفت أممهم من بعدهم فاقتتلوا، وكل ذلك بإرادتي ومشيتي، ﴿ولو شاء الله﴾ هداية أممهم ﴿ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم﴾ المعجزات الواضحات في تحقيق رسالتهم وصحة نبوتهم، ﴿ولكن اختلفوا﴾ بغيا وحسدا؛ ﴿فمنهم من آمن﴾ بتوفيقه لاتباع دين الأنبياء، ﴿ومنهم من كفر﴾ بمخالفتهم، فكان من الأشقياء، ﴿ولو شاء الله﴾ جمعهم على الهدى ﴿ما اقتتلوا﴾، لكن حكمته اقتضت وجود الاختلاف؛ ليظهر سر اسمه المنتقم والقهار واسمه الكريم والحليم، ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ ﴿لَا يُسَالُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

وفي الآية دليل على أن الحوادث كلها بيد الله خيرها وشرها، وأن أفعال العباد كلها بقدرته تعالى، لا تأثير لشيء من الكائنات فيها. وهذا يرد قول المعتزلة القائلين بخلق العبد أفعاله، فما أبعدهم عن الله. نسأل الله العصمة بعنه وكرمه.

الإشارة: اختلاف الناس على الأولياء سنة ماضية وحكمة أزلية، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، فمن رأيت من الأولياء اتفق الناس على تعظيمه في حياته فهو ناقص أو جاهل بالله؛ إذ

الداخل على الله منكور، والراجع إلى الناس مبرور، وهذا هو الغالب، والنادر لا حكم له، فلو كان الاتفاق محموداً لكان على الأنبياء أولى، فلما لم يقع للأنبياء والرسول، لم يقع للأولياء؛ إذ هم على قدمهم، وقائمون بالوراثة الكاملة عنهم. والله تعالى أعلم.

ثم حض على الصدقة في سبيل الله؛ لأنها برهان الإيمان وعنوان الهداية، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم» واجباً أو تطوعاً في وجوه الخير، وخصوصاً في الجهاد الذي نحن بصدد الحض عليه، وقدموا لأنفسكم ما تجدونه بعد موتكم «من قبل أن يأتي يوم» الحساب، واقتضاء الثواب، يوم ليس فيه «بيع» ولا شراء، فيكتسب ما يقع به الفداء، وليس فيه «خُلَّة» تنفع إلا خلة الأتقياء، «ولا شفاعة» ترجى «إلا من أذن له الرحمن ورَضِيَ له قولاً» فأنفقوا مما خولناكم في سبيل الله، واجاهدوا الكافرين أعداء الله، فإن الكافرين «هم الظالمون»؛ حيث وضعوا عبادتهم في غير محلها، ونسبوا الربوبية لغير مستحقها، إذ لا يستحقها إلا الحي القيوم، الذي أشار إليه الحق جل جلاله:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

قلت: (الله): مبتدأ، وجملة (لا إله إلا هو): خبره، والضمير المنفصل بدل من المستتر في الخبر، و(الحي): إما خبر ثان، أو لمبتدأ مضمرة، أو بدل من (الله)، و(قيوم) فيقول، مبالغة من القيام، ومعناه: القائم بنفسه المستغنى عن غيره.

يقول الحق جل جلاله: «الله» الواجب الوجود لا يستحق العبادة غيره، فمن عبد غيره فقد أتى بظلم عظيم «الحى» أى: الدائم بلا أول، الباقي بلا زوال؛ الذى لا سبيل عليه للموت والفناء، «القيوم» أى: دائم القيام بتدبير خلقه فى إيصال المنافع ودفع المضار، وجلب الأرزاق وأنواع الارتقاء، «لا تأخذه سنة ولا نوم» السنة: ما يتقدم النوم من الفتور، والنوم: حالة تعرض للإنسان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة، فتقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً.

وتقديم السنة عليه، على ترتيب الوجود، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾، وجمع بينهما؛ لأنه لو اقتصر على نفي السنة عنه لتوهم أن النوم يغلبه لأنه أشد، ولو اقتصر على نفي النوم لتوهم أن السنة تلحقه لخفتها. والمراد تلذذيه تعالى عن آفات البشرية، وتأكيد كونه حياً قيوماً، فإن من أخذته نعاس أو نوم يكون مؤوفاً^(١) الحياة، قاصراً فى الحفظ والتدبير. ولذلك ترك العطف فيه وفى الجمل التى بعده؛ لأنها كلها مقررة له، أى: للحى للقيوم.

وقد ورد أنه اسم الله الأعظم، وقال عليه الصلاة والسلام لفاطمة - رضى الله عنها: «ما منعك أن تسمعى ما أوصيك به تقولين إذا أصبحت وإذا أمسيت يا حى يا قيوم، برحمتك أستغيث أصلح لى شأنى كله، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين». رواه النسائى. وأخرج مسلم عن أبى موسى رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات قال: إن الله عز وجل لا ينام، ولا يتبغى له أن ينام، يخفص القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور - وفى رواية - النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه».

«له ما فى السموات وما فى الأرض» هذا تقرير لقيوميته تعالى، واحتجاج على تفرده فى الألوهية. والمراد بما فيهما: ما هو أعم من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما، المتمكنة فيهما، من العقلاء وغيرهم، فهو أبلغ من (له السموات والأرض وما فيهن)، يعطى: أن الله يملك جميع ذلك من غير شريك ولا منازع، وعبر بـ (ما) تغليباً للغالب.

(١) أف الطعام أوفاً وآفة: فسد، والبلاء: أصابتها آفة من قحط أو مرض أو غيرهما.

«من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه» هذا بيان لكبرياء شأنه، وأنه لا يدانيه أحد ليقدّر على تغيير ما يريد، بشفاعته واستكانته، فضلاً عن أن يعاوقه عناداً أو مناصبة. والاستفهام إنكارى، أى: لا أحد يشفع عنده لمن أراّه تعالى عقوبته، إلا بإذنه، وذلك أن المشركين زعموا أن الأصنام تشفع لهم، فأخبر تعالى أنه لا شفاعته عنده إلا بإذنه، يريد بذلك شفاعته النبي ﷺ وبعض الأنبياء والأولياء والملائكة.

«يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم» أى: ما قبلهم وما بعدهم، أو بالعكس، لأنك تستقبل المستقبل وتستدبر الماضى؛ وقيل: «يعلم ما بين أيديهم» من الدنيا «وما خلفهم» من الآخرة، وقيل: عكسه، لأنهم يقدمون ويخلفون الدنيا وراءهم، وقيل: يعلم ما قدموه بين أيديهم من خير أو شر، وما خلفهم وما هم فاعلوه، أو عكسه والمراد أنه سبحانه أحاط بالأمور كلها، فلا يخفى عليه شيء «ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء» أى: لا يحيطون بشيء من معلوماته تعالى إلا بما شاء أن يطلعهم عليه، وعطفه على ما قبله؛ لأن مجموعه يدل على تفردّه تعالى بالعلم الذاتى التام، الدال على وحدانيته تعالى فى ذاته وصفاته.

«وسع كرسیه السموات والأرض» يقال: فلان يوسع الشيء سعة إذا احتمله وأطاقه وأمكنه القيام به. ويقال: وسع الشيء الشيء إذا أحاط به وغمره حتى اضمحل فى جانبه، وهذا المعنى هو اللائق هنا. وأصل الكرسي فى اللغة: من تركب الشيء بعضه على بعض، ومنه الكراسى، لتركب أوراقها بعضها على بعض، وفى العرف: اسم لما يقعد عليه، سُمي به لتركب خشباته. واختلف فيه فقيل: العرش، وقيل: غيره.

والصحيح أنه مخلوق عظيم أمام العرش، فوق السموات السبع دون العرش. يقال: إن السموات والأرض فى جنب الكرسي كحلقة فى فلاة. والكرسي فى جانب العرش كحلقة فى فلاة. وعن ابن عباس: (أن السموات فى الكرسي كدراهم سبعة فى ترس) وقيل: كرسية: علمه.

قال البيضاوى: هو تصوير لعظمته تعالى وتمثيل مجرد، كقوله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ولا كرسي فى الحقيقة ولا قاعد^(١). وقيل: كرسية مجاز عن

(١) هذا الذى اختاره جم من الخلف، فراراً من توهم التجسيم، والحق: أن الكرسي ثابت كما نطقت به الأخبار الصحيحة. ومذهب ساداتنا من السلف الصالح هو: جعل ذلك من الأمور التى لا يحيط المرء بها علماً، مع تفويض العلم فيها إلى الله تعالى، مع اعتقاد التنزيه والتقديس له تعالى شأنه. وهذا هو الأسلم.

علمه أو ملكه، مأخوذ من كرسى العلم والملك، وقيل: جسم بين يدي العرش محيط بالسموات السبع لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كحلقة في فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة» ولعله الفلك المشهور بفلك البروج. هـ. قلت : وقد اعترض السيوطي في حاشيته عليه^(١). فأنه تعالى أعلم.

«ولا يؤوده» أى: لا يثقله ولا يشق عليه «حفظهما» أى: حفظ السموات والأرض. وإنما لم يتعرض لذكر ما فيهما لأن حفظهما مستتبع لحفظه، «وهو العلى» أى: المتعالى عن الأشباه والأنداد، «العظيم» أى: عظيم الشأن، جليل القدر، الذى يستحق كل شيء دون عظمته.

وهذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلهية، فإنها دالة على أنه تعالى موجود واحد فى الألوهية، متصف بالحياة الذاتية، واجب الوجود لذاته، موجد لغيره؛ إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره، منزّه عن التحيز والحلول، مبرراً عن التغير والفتور، لا يناسب الأشباح، ولا يعتريه ما يعتري الأرواح، مالك الملك والملوك، مبدع الأصول والفروع، ذو البطش الشديد، الذى لا يشفع عنده إلا من أذن له. عالم بالأشياء كلها: جليها وخفيها، كليها وجزئها. واسع الملك والقدرة لكل ما يصح أن يملك ويقدر عليه، لا يشق عليه شاق، ولا يشغله شأن عن شأن، متعال عن تناول الأوهام، عظيم لا تحيط به الأفهام، ولذلك تفردت عن أخواتها بفضائل رائعة وخواص فائقة، قال ﷺ: «أعظم آية فى القرآن آية الكرسي». وقال عليه الصلاة والسلام: «من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت». وفى رواية - كان الذى يتولى قبض روحه ذو الجلال والإكرام - ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمن على نفسه وجاره وجار جاره، والأبيات حوله.

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما قرئت هذه الآية فى بيت إلا هجرت الشياطين ثلاثين يوماً، ولا يدخله ساحر ولا ساحرة أربعين يوماً، يا على؛ علمها ولدك وأهلك وجيرانك، فما نزلت آية أعظم منها». قاله البيضاوى وأبو السعود، وتكلم السيوطي فى بعض هذه الأحاديث. والفضائل يعمل فيها بالضعيف. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا إيمان أهل الخصوصية - (أنفقوا مما رزقناكم) من سعة العلوم ومخازن الفهوم، من قبل أن يأتى يوم اللقاء، يوم تسقط فيه المعاملات وتغيب تلك الإشارات، لا ينفع فيه إلا الدخول من باب الكرم،

(١) فى حاشيته على البيضاوى، والمسموعة نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار.

فيلقى الله بالله دون شيء سواه، والجاحدون لهذا هم الظالمون لأنفسهم، حيث اعتمدوا على أعمالهم فلقوا الله بالصنم الأعظم. والحي القيوم المتعال غنى عن الانتفاع بالأعمال. وبالله التوفيق.

ومن عرف أنه الحي الذي لا يموت توكل عليه. قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾. والتعلق به: استمداد حياة الروح بالعلم والمحبة الكاملة. ومن عرف أنه الحي القيوم وثق به، ونسى ذكر كل شيء بذكره، ولم يشاهد غيره بمشاهدة قيوميته. والتعلق به استمداد معرفة قيوميته حتى يستريح من نكد التدبير، والتخلق به بأن تكون قائما على ما كلفت به من أهلٍ وولدٍ ونفسٍ ومالٍ، وكل من تعلق بك من النساء والرجال.

ولما وصف الحي تعالى نفسه بأوصاف الكمال من الكبرياء والعظمة والجلال، وكانت شواهد ذلك ظاهرة في خلقه حتى تبين الحق من الباطل، بين ذلك بقوله:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قلت: (الرشد): مصدر رَشَدَ، بالكسر والصنم، رشداً ورشاداً، و (الغى): مصدر غَوَى، إذا ضلَّ في معتقده، و (الطاغوت): فعلوت من الطغيان، وأصله: طغيوت، فقلبت لام الكلمة لعينها فصار طيغوت، ثم قلبت الياء ألفاً. وهو كل ما عبد من دون الله راضياً بذلك، و (العروة): ما تستمسك به اليد عند خوف الزلل كالحبل ونحوه، ووثوقها: متانتها، وانفصامها أن تنفك عن موضعها، وأصل انفصم في اللغة: أن ينفك الخلخال ونحوه ولا يبين، فإذا بان فهو القصم - بالقاف - وهو هنا استعارة للدين الصحيح.

يقول الحق جل جلاله في شأن رجلٍ من الأنصار، تنصَّر ولداه قبل البعثة فلما جاء الإسلام قديماً إلى المدينة فدعاهما أبوهما إلى الإسلام فامتنعا، فلزمهما أبوهما وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فاختصما إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، فهو خبر بمعنى النهي، أي: لا تُكرهوا أحداً على الدخول في الدين. وهو خاص بأهل الكتاب.

قال البيضاوي: إذ الإكراه في الحقيقة هو: إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً، ولكن «قد تبين الرشد من الغي» أي تميز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة، وبلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى السعادة الأبدية، والكفر غي يوصل إلى الشقاوة السرمدية. والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلباً للفوز بالسعادة والنجاة، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء. هـ.

«فمن يكفر بالطاغوت» أى: يبعد عنها ويجحد ربوبيتها «ويؤمن بالله» أى: يصدق بوحدانيته، ويقر برسله، «فقد استمسك بالعروة الوثقى» أى: فقد تمسك بالدين المتين، لا انقطاع له أبداً، «والله سميع» بالأقوال، «عليم» بالنيات، فإن الدين مشتمل على قول باللسان وعقد بالجنان، فحسن التعبير بصفة السمع والعلم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال فى الحكم: «لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق، إنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك». وقال أحمد بن حنبل: الطريق واضح، والحق لائح، والداعى قد أسمع، ما التحير بعد هذا إلا من العمى. هـ. فطريق اسير واضحة لمن سبقت له العناية، باقية إلى يوم القيامة، وكل ما سوى الله طاغوت، فمن اعرض عن السوى، وعنى قلبه بمحبة المولى، فقد استمسك بالعروة الوثقى، التى لا انفصام لها على طول المدى. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم بين الحق تعالى حال أهل العناية من أهل الشقاوة، فقال:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ
الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

قلت: الولي: هو المحب الذى يتولى أمور محبوبه، أو الناصر الذى ينصر محبوبه، ولا يخذله بأن يكله إلى نفسه. وجملة (يخرجهم): حال من الضمير المستتر فى الخبر، أو من الموصول أو منهما، أو خبر ثان.

يقول الحق جل جلاله: «الله ولي الذين آمنوا» أى: محبهم ومتولى أمورهم، «يخرجهم من» ظلمات الكفر والجهل، ومتابعة الهوى وقبول الوسواس، والشبه المشككة فى التوحيد. إلى نور الإيمان واليقين، وصحة التوحيد، ومتابعة الداعى إلى الله، «والذين كفروا أولياؤهم» أى: أحباؤهم «الطاغوت» أى: الشياطين، أو المضلات من الهوى والشيطان وغيرهما، «يخرجونهم من النور» الذى منحوه بالفطرة الأصلية، أو يصدونهم من الدخول فى الإيمان إلى ظلمات الكفر والجهل، والتقليد الردىء واتباع الهوى، «أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» بسبب نيأتهم البقاء على الكفر إلى الممات، ولم يذكر فى جانب المؤمنين دخول الجنة؛ لتكون عبادتهم عبودية، لا خوفاً ولا طمعاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: (الله ولي الذين آمنوا)؛ حيث تولاهم بسابق العناية، وكلاهم بعين الرعاية، يخرجهم أولاً من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ثم من ظلمات الحس ورؤية الأكوان إلى نور المعانى بحصول الشهود والعيان، فافن

عن الإحساس تر عبراً. «الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه». أو تقول: الكون كله ظلمة لأهل الحجاب، وأما عند أهل المعرفة فالكون عندهم كله نور، وإنما حجبه ظهور الحكمة فيه، «فمن رأى الكون ولم يشهد النور فيه، أو قبله، أو بعده، فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شمس المعارف بسحب الآثار». والذين كفروا - وهم الذين سبق لهم الشقاء، وحكم عليهم بالبعد القدر والقضاء - أولياؤهم الطاغوت، وهم القواطع: من الهوى والشيطان والدنيا والناس، (يخرجونهم من النور إلى الظلمات) أى: يمنعونهم من شهود تلك الأنوار السابقة، إلى الوقوف مع تلك الظلمات المتقدمة، فهم متعاكسون مع من سبقت لهم العناية، فما خرج منه أهل العناية وقع فيه أهل الغواية. نسأل الله الحفظ والعافية في الدنيا والآخرة.

ثم بين الحق تعالى حال من سبق له الشقاء، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

قلت: (أن آتاه): على حذف لام العلة، و(إذ قال): ظرف لـ (حاج)، أو بدل من (آتاه الله).

يقول الحق جل جلاله متعجباً من جهالة النمرود، والمراد تعجيب السامع: «ألم تر» يا محمد، «إلى» جهالة «الذي حاج إبراهيم» أى: خاصمه «فى ربه» لأجل «أن» أعطاه «الله الملك»، أى: حملة على ذلك بطر الملك. وذلك أنه لما كسر إبراهيم الأصنام، سجنه أياماً، وأخرجه من السجن، وقال له: من ربك الذى تعبد؟ «قال» له «إبراهيم» عليه السلام: «ربى الذى يحيى ويميت»، أى: يخلق الأرواح فى الأجسام، ويخرجها عند انقضاء آجالها، (قال) نمرود: «أنا أحيى وأميت»، فدعا برجلين فقتل أحدهما، وعفا عن الآخر، فلما رأى إبراهيم عليه السلام غلظه وتشغيبه عدل له إلى حجة أخرى، لا مقدور للبشر على الإتيان بمثلها، فقال له: «فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها» أنت «من المغرب»؛ لأنك تدعى الربوبية، ومن شأن الربوبية أن تقدر على كل شيء، ولا يعجزها شيء، «فبُهِتَ الذى كفر» أى: غلب وصار مبهوراً، «والله لا يهدي القوم الظالمين» إلى قبول الهداية، أو إلى طريق النجاة، أو إلى محبة الاحتجاج.

الإشارة: قال بعض الحكماء: للنفس سر، ظهر على فرعون والنمرود، حتى صرحا بدعوى الربوبية. قلت: وهذا السر هو ثابت للروح في أصل نشأتها؛ لأنها جاءت من عالم العز والكبرياء. انظر قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، وقال أيضا: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: سر من أسرارهِ، فلما رُكبت في هذا القالب الذي هو قالب العبودية - طلبت الرجوع إلى أصلها. فجعل لها الحق جل جلاله باباً تدخل منه فتخرج إلى أصلها؛ وهو النذل والخضوع والانكسار والافتقار، فمن دخل من هذا الباب، واتصل بمن يعرفه ربه، رجعت روحه إلى ذلك الأصل، وأدركت ذلك السر، فعندئذ من تتسع لذلك السر وتطيقه، ومنها من تضيق عن حمله وتبوح به، فتقتلها الشريعة، كالحلاج وأمثاله، ومن طلب الرجوع إلى ذلك الأصل من غير بابه، ورام إدراكه بالعز والتكبر، طُرد وأبعد، وهو الذي صدر من النمرود وفرعون وغيرهما ممن ادعى الربوبية جهلاً. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى من أدركته العداية، وفي قصته برهان على إحياء الموتى الذي احتج به إبراهيم - عليه السلام - فقال:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ ۖ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۖ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ﴾

قلت: (أو): عاطفة، و (كالذي): معطوف على الموصول المجرور بـ"أنى"، أى: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه، وإلى مثل الذي مر على قرية. وإنما أدخل حرف التشبيه؛ لأن المنكر للإحياء كثير، والجاهل بكيفيته أكثر، بخلاف مدعى الربوبية فإنه قليل. وقيل: الكاف مزيدة، والتقدير: ألم تر إلى الذي حاج وإلى الذي مر، و (أنى): ظرف ليُحيى، بمعنى: متى، أو حال بمعنى كيف، و (يتسنه) بمعنى يتغير، وأصله: يتسنن، فأبدلت النون الثالثة حرف علة. قال في الكافية:

وَنَالَتْ الْأُمْدَالُ أَبْدِلْنَهُ يَا نَحْوُ (تَظَلَّنِي خَالِدٌ تَظَلَّنِيَا)

فصار تسلى ثم حذفت للجازم، وأتى بهاء السكت ، وقفا ووصلا، كالعوض من المحذوف، وقيل: من السنه، وهو التغير، فالبهاء أصلية، و (لنجعلك): معطوف على محذوف، أى: لتعتبر ولنجعلك آية للناس.

يقول الحق جل جلاله: ألم تر يا محمد أيضا إلى مثل الذى «مرَّ على قرية»، وهو عزيز، حبر بنى إسرائيل.. - وقيل: غيره - مرَّ على بيت المقدس حين خربها بختنصر «وهى خاوية» ساقطة حيطانها «على عروشها» أى: سقفها، وذلك بعد مائة سنة حتى سقطت العروش، ثم سقطت الحيطان عليها، فلما رآها خالية، وعظام الموتى فيها بالية، «قال» فى نفسه: «أئننى يحيى هذه الله بعد موتها» أى: متى يقع هذا. اعترافا بالقصور عن معرفة طريق الإحياء، واستعظاما لقدرة المحيى، إن كان القائل عزيزا، أو استبعادا إن كان كافرا، «فأماته الله مائة عام» أى: ألبته مائة مائة عام، «ثم بعثه» بالإحياء، فقال له على لسان الملك، أو بلا واسطة: «كم لبثت» مائة؟ «قال لبثت يوما أو بعض يوم»، وذلك أنه مات ضحى وبعث بعد مائة عام قبل غروب الشمس، فقال قبل النظر إلى الشمس (يوما)، ثم التفت فرأى بقية منها، فقال: «أو بعض يوم» على الإضراب، قال له الحق جل جلاله: «هل لبثت مائة عام».

وذلك أن عزيزا ذهب ليخترف^(١) لأهله فجعل على حمارة سلة عنب وجرة عصير. فلما مرَّ بلك القرية ربط حمارة، وجعل يتعجب من خرابها وخلائها بعد عمارتها، فقال فى نفسه ما قال، فلفظ الله به، وأراه كيفية الأحياء عيانا، فأماته مائة عام، حتى بليت عظام حمارة وبقي العصير والعنب كأنه حين جنى وعصر فقال له جل جلاله: «فانظر إلى طعامك» وهو العنب، «وشرايك» وهو العصير، «لم يتسنه»، أى: لم يتغير بمرور الزمان وطول المدة، «وانظر إلى حمارك» كيف تفرقت أوصاله، ولبيت عظامه، فعلا ذلك بك لتشهد قدرتنا، «ولنجعلك آية للناس» بعدك، «وانظر إلى العظام» أى: عظام حمارك، «كيف ننشزها»، أى: نحياها، من نشرَّ الله الموتى: أحيها. أو: «كيف ننشزها» بالزأى - أى: نرفع بعضها، ونركبه عليه، «ثم نكسوها لحما».

فنظر إلى العظام، فقام كلُّ عظمٍ إلى موضعه، ثم كسى لحما وجلدا، وجعل ينهق، «فلما تبين له» ما كان استغريه وأشكل عليه «قال أعلم» علم اليقين «أن الله على كل شيء قدير»، أو فلما تبين له الحق، وهو قدرته تعالى على كل شيء، قال لنفسه: «أعلم أن الله على كل شيء قدير».

(١) خَرَفَ الرجل يَخْرِف: أخذ من طَرَفِ الفواكه، والمعنى: ذهب ليجتلى الثمر والفواكه.

رُوى أنه أتى قومه على حماره، وقال أنا عزيز، فكذبوه، فقرأ التوراة من حفظه، ولم يحفظها أحد قبله، فعرفوه بذلك، وقالوا: هو ابن الله - تعالى عن قولهم - وقيل: لما رجع إلى منزله - وكان شاباً - وجد أولاده شيوخاً، فإذا حدثهم بحديث قالوا: حديث مائة سنة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في هذه الآية والتي بعدها، الإشارة إلى الأمر بتربية اليقين والترقى فيه من علم اليقين إلى عين اليقين، فإن الروح مادامت محجوبة بالوقوف مع الأسباب والعوائد، وبرؤية الحس والوقوف مع الوسائط، لم تخل من طوارق الشكوك والخواطر، فإذا انقطعت إلى ربها، وخرقت عوائد نفسها، كشف لها الحق تعالى عن أستار غيبه، وأطلعها على مكنونات سره، وكشف لها عن أسرار الملكوت، وأراها سنا الجبروت، فنظرت إلى قدرة الحى الذى لا يموت، وتمتعت بشهود الذات وأنوار الصفات، فى هذه الحياة وبعد الممات، فحينئذ ينقطع عنها الشكوك والأوهام، وتتطهر من طوارق الخواطر، وتزول عنها الأمراض والأسقام.

قال فى الحكم: «كيف تُخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد». فانظر إلى عزيز.. ما أراه الحق قدرته عياناً حتى خرق له عوائده فأماته ثم أحياه، فكذلك أنت أيتها المريد؛ لا تطمع أن تخرق لك العوائد، فتشاهد قدرة الحق أو ذاته عياناً، حتى تموت عن حظوظك وهواك، ثم تحيا روحك وسرك، فحينئذ تشاهد أسرار ربك، ويكشف الأستار عن عين قلبك. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم ذكر الحق تعالى قصة خليله ﷺ فى طلبه رؤية عين القدرة فى إحياء الموتى، ليترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٦٠﴾

قلت: رأى: البصرية، إنما تتعدى إلى مفعول واحد، فإذا أدخلت عليها الهمزة تعدت إلى مفعولين. وعلقها هنا عن الثانى الاستفهام، (وصرهن) أى: أملهن واضممن إليك. وفيه لغتان: صار يصير ويصور، ولذلك قرئ بكسر الصاد وضمها، و(سعيًا): حال، أى: ساعيات.

يقول الحق جل جلاله: واذكر يا محمد، أو أيها السامع، حين «قال إبراهيم ﷺ: يا رب أرنى كيف تحيى الموتى» أى: أبصرنى كيفية إحياء الموتى، حتى أرى ذلك عياناً، أراد ﷺ أن ينتقل من علم

اليقين إلى عين اليقين، وقيل: لما قال للتمرود: «رى الذى يحيى ويميت» قال له: هل عاينت ذلك؟ فلم يقدر أن يقول: نعم. وانتقل إلى حجة أخرى، ثم سأل ربه أن يريه ذلك؛ ليطمئن قلبه على الجواب، إن سئل مرة أخرى فقال له الحق جل جلاله: «أولم تؤمن» بأننى قادر على الإحياء بإعادة التركيب والحياة؟ وإنما قال له ذلك، مع علمه بتحقيق إيمانه؛ ليجيبه بما أجاب فيعلم السامعون غرضه، «قال» إبراهيم عليه السلام: «بلى» آمنت أنك على كل شيء قدير، «ولكن» سألتك «ليطمئن قلبي»؛ إذ ليس الخبر كالعيان، وليس علم اليقين كعين اليقين، أراد أن يضم الشهود والعيان إلى الوحي والبرهان.

قال له الحق جل جلاله: «فخذ أربعة من الطير»؛ طاووساً وديكاً وغراباً وحمامة، ومنهم من ذكر النسر بدل الحمام، «فصرهن إليك» أى: اضممهن إليك لتتأملها وتعرف أشكالها، لئلا يلتبس عليك بعد الإحياء أشكالها، «ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً» أى: ثم جزّئهن، وفرق أجزاءهن على الجبال التى تحضرك. قيل: كانت أربعة وقيل: سبعة، «ثم ادعهن» وقل لهن: تعالين بإذن الله، «يأتينك سعيًا» أى: ساعيات مسرعات، روى أنه أمر أن يذبحها وينتف ريشها، ويقطعها ويخلط بعضها ببعض، ويوزعها على الجبال، ويمسك رؤوسها عنده، ثم يناديها، ففعل ذلك، فجعل كل جزء يطير إلى الآخر ويلتئم بصاحبه حتى صارت جثثاً، ثم أقبل إليه فأعطى كل طير رأسه فطار فى الهواء. فسبحان من لا يعجزه شيء، ولا يغيب عن علمه شيء، ثم نبه إلى التفكير فى عجائب قدرته وحكمته فقال: «واعلم أن الله عزيز» لا يعجزه شيء، «حكيم» ذو حكمة بالغة فيما يفعل ويذر.

الإشارة: من أراد أن تحيا روحه الحياة الأبدية، وينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، فلا بد أن تموت نفسه أربع موات:

الأولى: تموت عن حب الشهوات والزخارف الدنيوية، التى هى صفة الطاووس.

الثانية: عن الصولة والقوى النفسانية، التى هى صفة الديك.

الثالثة: عن خسة النفس والدناءة وبعد الأمل، التى هى صفة الغراب.

الرابعة: عن الترفع والمبارعة إلى الهوى المتصف بها الحمام.

فإذا ذبح نفسه عن هذه الخصال حييت روحه، وتهذبت نفسه، فصارت طوع يده، كلما دعاها إلى طاعة أتت إليها مسرعة ساعية.

والى هذا المعنى أشار الشيخ أبو الحسن الشاذلى بقوله فى حزيه الكبير: (واجعل لنا ظهيراً من عقولنا ومهيماً من أرواحنا، ومسخرًا من أنفسنا، كى نسبحك كثيراً، ونذكرك كثيراً، إنك كنت بنا بصيراً).

ولما كانت حياة الروح متوقفة على أمرين: بذل النفوس، ودفع الفلوس وقدم الإشارة إلى الأول بقوله: «وقاتلوا في سبيل الله»، أشار إلى الثاني بقوله:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾

قلت: (مثل الذين): مبتدأ، و(كمثل): خبر، ولا بد من حذف مضاف، إما من المبتدأ أو الخبر، أى: مثل نفقة الذين ينفقون كمثل حبة، أو مثل الذين ينفقون كمثل باذر حبة... إلخ.

يقول الحق جل جلاله في التحريض على النفقة في سبيل الله: «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله» أى: يتصدقون بها في سبيل الله، كالجهاد ونحوه، «كمثل» زارع «حبة أنبتت» له «سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة»، فالمجموع سبعمائة. وفي الحديث عنه ﷺ: «الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة». وإسناد الإنبات إلى الحبة مجاز، والمنبت هو الله، وهذا مثال لا يقتضى الوقوع، وقد يقع في الذرة والدخن (١) في الأرض الطيبة، بحيث تخرج الحبة ساقاً يتشعب إلى سبع شعب، في كل شعبة سنبله، «والله يضاعف» تلك المضاعفة «لمن يشاء» بفضله، على حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه، وبحسبه تتفاوت الأعمال في مقادير الثواب، «والله واسع» لا يضيق عليه ما يتفضل به من الثواب، «عليم» بنية المنفق وقدر إنفاقه.

ثم ذكر شرطين آخرين في قبول النفقة، فقال: «الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى». المن: أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه؛ بحيث يقول: أنا فعلت معه كذا، وكذا إظهاراً لمميزته عليه. والأذى: أن يتناول عليه بذلك. ويقول: لولا أنا لم يكن منك شيء، مثلاً. فمن فعل هذا فقد ذهب صدقته هباءً منثوراً، ومن سلم من ذلك، وأنفق ماله ابتغاء وجه الله ف «لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». وقال زيد بن أسلم رحمته الله: إذا أعطيت أحداً شيئاً وظننت أن سلامك يقلل عليه فكف سلامك عنه. هـ.

(١) الدخن: نبات عشبي من النجيليات، حبه صغير أملس، كحب السمسم، ينبت برية ومزروعاً.

قيل: إن الآية نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنهما؛ أما عثمان فإنه جهز جيش العسرة بألف بغير بأفتابها وأحلاسها. وقال عبدالرحمن بن سمرة: جاء عثمان بألف دينار في جيش العسرة، فصَبَّها فسى حجر النبي ﷺ، فرأيت النبي ﷺ يدخل يده فيها، ويقلبها ويقول: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم». زاد في رواية أبي سعيد: فرأيت النبي ﷺ رافعاً يدعو لعثمان، ويقول: «يارب عثمان بن عفان، رضيت عنه فارض عنه». وأما عبدالرحمن: فإنه أتى النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم، صدقة، وأمسك أربعة آلاف لعياله، فقال له النبي ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت».

وإنما لم يدخل الفاء في قوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، مع أن الموصول قد تضمن معنى الشرط، إيهاماً بأنهم أهل لذلك، وإن لم يفعلوا، فكيف بهم إذا فعلوا. قاله البيضاوى.

الإشارة: التقرب إلى الله تعالى يكون بالعمل البدنى وبالعمل المالى، وبالعمل القلبى، أما العمل البدنى، ويدخل فيه العمل اللسانى، فقد ورد فيه التضعيف بعشر وعشرين وثلاثين وخمسين ومائة، وأكثر من ذلك أو أقل، وكذلك العمل المالى: قد ورد تضعيفه إلى سبع مائة، ويتفاوت ذلك بحسب النيات والمقاصد، وأما العمل القلبى: فليس له أجر محصور، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، فالصبر، والخوف، والرجاء، والورع، والزهد، والتوكل، والمحبة، والرضا، والتسليم، والمعرفة، وحسن الخلق، والفكرة، وسائر الأخلاق الحميدة، إنما جزاؤها: الرضا، والإقبال والتقريب، وحسن الوصال. قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أى: أكبر من الجزاء الحسى الذى هو القصور والحدود.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة». فإنما هو كناية عن الكثرة والمبالغة، كقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾. ومثله قول الشاعر (١):

كُلُّ وَقْتٍ مِنْ حَبِيبِي قَدْرُهُ كَأَلْفِ حِجَّةٍ

أى: سنة. والله تعالى أعلم.

ثم بين الحق تعالى أن حسن الخلق ولين الجانب أفضل من الصدقة المشوبة، فقال:

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ (٦٢)

قلت: (قول): مبتدأ، و(خير): خبر، والمسوغ الصفة.

(١) وهو الششتري.

يقول الحق جل جلاله: «قول» جميل يقوله الإنسان للسائل في حال رده، حيث لم يجد ما يعطيه، «خير» وأفضل عند الله من الصدقة التي يتبعها المن والأذى، ومثال القول المعروف: الله يرزقنا وإياك رزقاً حسناً. والله يغنينا وإياك من فضله العظيم، وشبه ذلك من غير تعبيس ولا كراهية. «ومغفرة» للسائل والعفو عن جفوته والحاحه، «خير» أيضاً «من صدقة يتبعها» من، أو «أذى» للسائل، علم الحق جل جلاله أن الفقير إذا ردّ بغير نوال شقّ عليه، فربما أطلق لسانه وأظهر الشكوى فأمر المسئول بالعفو والتواضع. ولو شاء الحق تعالى لأغنى الجميع، لكنه أعطى الأغنياء ليظهر شكرهم، وابتلى الفقراء لينظر كيف صبرهم، «والله» تعالى «غنى» عن إنفاق يصحبه من أو أذى، «حليم» عن معاملة من يمن أو يؤذى بالعقوبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يفهم من الآية أن حسن الخلق، ولين الجانب، وخفض الجناح، وكف الأذى، وحمل الجفاء، وشهود الصفاء، من أفضل الأعمال وأزكى الأحوال وأحسن الخلال، وفي الحديث: «إِنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ يَعْدِلُ الصِّيَامَ وَالْقِيَامَ».

وفي قوله: «والله غنى حليم»: تربية للسائل والمسئول، فتربية السائل: أن يستغنى بالغنى الكبير عن سؤال العبد الفقير، ويكتفى بعلم الحال عن المقال، وتربية المسئول: أن يحلم عن جفوة السائل فيتلطف في الخطاب، ويحسن الرد والجواب. قال في شرح الأسماء: والتخلق بهذا الاسم - يعنى الحليم - بالصفح عن الجنايات، والسمح فيما يقابلونه به من الإساءات، بل يجازيهم بالإحسان، تحقيقاً للحلم والغفران. هـ.

ثم حذر الحق تعالى من المن والأذى في الصدقة، فقال:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

قلت: (كالذى): الكاف في محل نصب على المصدر، أى: إبطالا كإبطال الذى ينفق ماله رثاء الناس. أو حال، أى: مشبهين بالذى ينفق رثاء. و(رثاء) مفعول له، والصفوان: الحجر الأملس، والصلد: البارز الذى لا تراب عليه، وجمع الضمير فى قوله: (لا يقدرُونَ) باعتبار معنى (الذى)؛ لأن المراد به الجنس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا﴾ أجر صدقتكم بسبب ﴿المن﴾ بها على المتصدق عليه، ﴿والأذى﴾ الذي يصدر منكم له، بأن تذكروا ذلك للناس، فتكون صدقتكم باطلة، ﴿كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾، فإن أجره يوم القيامة يكون هباء منثوراً، ﴿فمثله﴾ في انتفاعه بصدقته، وتستره بها في دار الدنيا، واقتضاحه يوم القيامة، كحجر أملس ﴿عليه تراب﴾ يستره، فيظن الرائي أنه أرض طيبة تصلح للزراعة، ﴿فأصابه وابل﴾ أى: مطر غزير ﴿فتركه صلداً﴾ حجراً يابساً خالياً من التراب، كذلك المراءون بأعمالهم، ينتفعون بها في الدنيا بثناء الناس عليهم وستر حالهم، فإذا قدموا يوم القيامة وجدوها باطلة، ﴿لا يقدرון على﴾ الانتفاع بـ ﴿شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ إلى مرآشدهم ومصالح دينهم. وفيه تعريض بأن الرياء والمن والأذى من صفة الكافر، ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها. وبالله التوفيق.

الإشارة: تصفية الأعمال على قدر تصفية القلوب، وتصفية القلوب على قدر مراقبة علام الغيوب، والمراقبة على قدر المعرفة. والمعرفة على قدر المشاهدة. والمشاهدة تحصل على قدر المجاهدة، ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾. وفي الحكم: «حسن الأعمال من نتائج حسن الأحوال. وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال» والحاصل أن من لم يتحقق بمقام الفناء لا تخلو أعماله من شوب الخلل، ومن تحقق بالزوال لم ير لنفسه نسبة في عطاء ولا منع، ولا حركة ولا سكون، ولم ير لغيره وجوداً حتى يرجو منه نفعاً ولا خيراً. وفي بعض الإشارات: يا من يرائي أمر من من ترائي بيد من تعصيه. هـ. وفي تمثيله بالحجر إشارة إلى قساوة قلبه وبيوسة طبعه، فلا يرجى منه خير قط. والعياذ بالله.

ثم ذكر الحق تعالى ضد هؤلاء، وهم المخلصون، فقال:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾

قلت: الربوة - مثلثة الراء -: المكان المرتفع، والوابل: المطر الغزير، والطل: المطر الخفيف، وفي ذلك يقول

الراجز:

والطلُّ ما خفَّ من الأمطارِ والوابلُ الغزيرُ ذو انهيمارِ

و(ابتغاء مَرْضَاتِ اللَّهِ) و(تثبيناً): حالان من الواو في: (ينفقون)، أو مفعولان له. والتثبيت بمعنى التثبيت، أى: التحقق، كقوله تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ إِلَيْهِ تَبَيُّلاً﴾ أى: تبثلاً.

يقول الحق جل جلاله: «مثل الذين ينفقون أموالهم» فى سبيل الله «ابتغاء مرضات الله» وتحققاً «من أنفسهم» بثواب الله، أو تحقيقاً من أنفسهم بالوصول إلى رضوان الله إن بذلوا أموالهم فى طلب رضى الله، مثل نفقتهم فى النمو والارتفاع «كمثل جنة» أى: بستان «بريوة» بمكان مرتفع، فإن شجره يكون أحسن منظراً وأزكى ثمرأ، «أصابها وابل» أى: مطر غزير «فآتت أكلها» أى: ثمارها «ضعفين» أى: مثلي ما كانت تثمر فى عادتها، أى: حملت فى سنة ما يحمل غيرها فى سنتين، بسبب هذا المطر الذى نزل بها، «فإن لم يصيبها وابل فطل» أى: فيصيبها طل، أى: مطر قليل يكفيها؛ لطيب تربتها وارتفاع مكانها، فأقل شئ يكفيها.

والمراد: أن نفقات هؤلاء، لإخلاصهم وكمال يقينهم، كثيرة زاكية عند الله، وإن كانت قليلة فى الحس فهى كثيرة فى المعنى. وفى الحديث: «مَنْ تَصَدَّقَ وَلَوْ بِقُرْصَةٍ وَقَعَتْ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ فَيُرِيَهَا كَمَا يُرَى أَحَدُكُمْ قُلُوبَهُ أَوْ فَصِيلَهُ^(١)، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ». وفى قوله: «والله بما تعلمون بصير»: تحذير من الرياء، وترغيب فى الإخلاص. والله تعالى أعلم.

الإشارة: تنمية الأعمال على قدر تصفية الأحوال، وتصفية الأحوال على قدر التحقق بمقامات الإنزال، أى: على قدر التحقق بالإنزال فى مقامات اليقين، فكل من تحقق بالنزول فى مقامات اليقين، ورسخت قدمه فيها، كانت أعماله كلها عظيمة، مضاعفة أضعافاً كثيرة، فتسبيحة واحدة من العارف، أو تهليلة واحدة، تعدل الوجود بأسره، ولا يزنها ميزان، وكذلك سائر أعمال العارف: كلها عظيمة مضاعفة؛ لأنها بالله ومن الله وإلى الله، وما كان بالله ومن الله لا يطرقة نقص ولا يشوبه خلل، ولأجل هذا صارت أوقانهم كلها ليلة القدر، وأماكنهم كلها عرفات، وأنفاسهم كلها زكيات، وصحبتهم كلها نفحات، ومخالتهم كلها بركات. نفعا الله بذكرهم وخرطنا فى سلكهم. آمين.

ثم حذر الحق تعالى من طوارق الخلل بعد تمام العمل، فقال:

﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

(١) انفلو: هو المهر الصغير، والفصيل: ولد الناقة بعد أن يفصل عن أمه.

قلت: الإعصار: عمود من ريح فيه عجاجة، يدور ويرتفع.

يقول الحق جل جلاله: أَيْتَمَنِي حَدِّكُم «أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ» أَيْ: بَسْتَان «مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ»، هُمَا الْغَالِبَانِ فِيهِ؛ لِكثْرَةِ مَنَافِعِهِمَا، «تَجْرَى مِنْ» تَحْتَ تِلْكَ الْأَشْجَارِ «الْأَنْهَارِ»؛ إِذْ مِنْ كَمَالِ الْبَسْتَانِ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَى الْمَاءِ الْبَارِدِ وَالظِّلِّ الْمَمْدُودِ، وَ«لَهُ فِيهَا» أَيْ: فِي تِلْكَ الْجَنَّةِ «مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» زَائِدَةٌ عَلَى النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ، ثُمَّ «أَصَابَهُ الْكِبَرُ» فَضَعَفَ عَنِ الْقِيَامِ بِتِلْكَ الْجَنَّةِ، «وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضَعَفَاءُ» لَا يَسْتَطِيعُونَ الْقِيَامَ بِأَنْفُسِهِمْ لِصِغَرِهِمْ، فَأَصَابَ تِلْكَ الْجَنَّةَ «إِعْصَارٌ» أَيْ: رِيحٌ شَدِيدٌ «فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ» تِلْكَ الْجَنَّةُ، فَلَا تَسْأَلُ عَنْ حَسْرَةِ صَاحِبِ هَذَا الْبَسْتَانِ، لَخَوْفِهِ مِنْ ضِيَاعِ نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ. وَهَذَا مِثَالٌ لِمَنْ يَكْثُرُ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ، كَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَالْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ثُمَّ يَعُجِبُ بِهِ، وَيَفْتَخِرُ وَيَمُنُّ بِصِدْقَتِهِ أَوْ يُوْذِي، فَتَحْبِطُ تِلْكَ الْأَعْمَالُ وَتَذْهَبُ، فَيَتَحَسَّرُ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَيْهَا. أَوْ يَعْمَلُ بِالنَّطَاعَةِ فِي أَيَّامِ عَمْرِهِ، فَإِذَا قَرَّبَ الْمَوْتَ عَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى خَتَمَ لَهُ بِهَا فَحْبَطَتِ تِلْكَ الْأَعْمَالُ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ «كَذَلِكَ يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ» فِيهَا فَتَعْتَبِرُونَ، وَتَخْلُصُونَ فِي أَعْمَالِكُمْ، وَتَخَافُونَ مِنْ سُوءِ عَاقِبَتِكُمْ. أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ.

الإشارة: فِي الْآيَةِ تَخْوِيفٌ لِلْمُرِيدِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى عَوَائِدِهِ، وَيَلْتَفِتَ إِلَى عَوَالِمِ حَسْرَةِ، فَيَشْتَغِلَ بِالدُّنْيَا بَعْدَ أَنْ اسْتَشْرَفَ عَلَى جَنَّةِ الْمَعَارِفِ، تَجْرَى عَلَى قَلْبِهِ أَنْهَارُ الْعُلُومِ، فَيَنْقُضُ الْعَهْدَ مَعَ شَيْخِهِ، أَوْ يَسِيءُ الْأَدَبَ مَعَهُ، وَلَمْ يَتَبَّ حَتَّى تَبْيَسَ أَشْجَارُ مَعَارِفِهِ، وَتَلْعَبَ بِهِ رِيحُ الْهَوَى، فَيَحْتَرِقُ قَلْبُهُ بِنَارِ الشَّهَوَاتِ.

قال البيضاوي: وَأَشْبَهُهُمْ بِهِ مَنْ جَالَ سِرَّهُ فِي عَالَمِ الْمَلَكُوتِ، وَتَرَفَّى بِفِكْرِهِ إِلَى جَنَابِ الْجَبَرُوتِ، ثُمَّ نَكَصَ عَلَى عَقْبِهِ إِلَى عَالَمِ الزُّورِ، وَالتَفَتَ إِلَى مَا سِوَى الْحَقِّ وَجَعَلَ سَعْيَهُ هَبَاءً مَنْثُورًا. هـ.

ثُمَّ رَغِبَ الْحَقُّ تَعَالَى فِي الصَّدَقَةِ مِنَ الْكَسْبِ الطَّيِّبِ، فَرَضًا وَنَفْلًا، فَقَالَ:

﴿يَتَائِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِينَ بِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ

حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

قلت: (تيمموا): أصله: تتيمموا، أي تقصدوا، وجملة (تنفقون): حال مقدرة - من فاعل (تيمموا)، و (منه): يصح أن يتعلق بـ (تنفقون) أو بـ (الخبِيث)، أي: ولا تقصدوا الخبيث حال كونكم تنفقونه، أو لا تقصدوا الخبيث تنفقون منه، و (لستم بأخذه): حال أيضا من فاعل (تنفقون).

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم» من الأموال في التجارة وغيرها، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «يا معشر التجار، أنتم فجار إلا من اتقى وبرّ وصدق وقال بالمال (١) هكذا وهكذا» .

وقوله «من طيبات ما كسبتم» أي: من حلاله، أو من خياره، أما في الزكاة فعلى الوجوب، إذ لا يصح دفع الرديء فيها، وأما في التطوع فعلى سبيل الكمال، وأنفقوا أيضا من طيبات «ما أخرجنا لكم من الأرض» من أنواع الحبوب والثمار والفواكه، وفي الحديث عنه ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا طَائِرٌ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» . ولا تقصدوا «الخبِيث» أي: الرديء من أموالكم، فتنفقون منه وأنتم «لستم بأخذيته» في ديونكم «إلا أن تُغْمضُوا» بصركم فيه، وتقبضونه حياء أو كرها أو مسامحة .

نزلت في قوم كانوا يتصدقون بخبِيث التمر وشراره، فنهوا عنه، وأدبهم بقوله: «واعلموا أن الله غني» عن إنفاقكم، وإنما أمركم به منفعة لكم، «حميد» بقبوله وإثابته، فهو فعيل بمعنى فاعل، مبالغة، أي: يحمد فعلكم ويشكره لكم، إن أحسنتم فيه، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم، وإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، لا يكسب عبد مالا من حرام فيتصدق منه فيقبل منه، ولا ينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، وإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن، وإن الخبيث لا يمحوه الخبيث» .

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص، أنفقوا العلوم الدنية والأسرار الربانية، من طيبات ما كسبتم؛ من تصفية أسراركم وتزكية أرواحكم، وأنفقوا أيضا علوم الشريعة وأنوار الطريقة، مما أخرجنا لكم من أرض نفوسكم التي تزكت بالأعمال الصافية والأحوال المرضية .

ولا تيمموا العمل الخبيث أو الحال الخبيث، تريدون أن تنفقوا منه شيئا من تلك العلوم، فإن ذلك لا يزيد النفس إلا جهلا وبعدا، فكما أن الحبة لا تنبت إلا في الأرض الطيبة، كذلك النفس لا تدفن إلا في الحالة المرضية، فلا تؤخذ العلوم الدنية من النفس حتى تدفن في أرض الخمول، وأرض الخمول هي الأحوال المرضية، الموافقة للقواعد الشرعية، وإليه الإشارة بقوله: «ولستم بأخذيته» أي: لستم بأخذي العلم اللدني من الحال الخبيث، إلا أن تغيبوا فيه عن حِسْكم، ومن غلبه الحال لم يبق عليه مقال . وعليها تتخرج قصة لص الحمام (٢)، فلا يقتدى به لغلبة الحال عليه، واعلموا أن الله غني حميد، لا يتقرب إليه إلا بما هو حميد . والله تعالى أعلم .

(١) أي: صرف المال في وجوه الخير، قال ابن الأثير: العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال، وتطلقه على غير الكلام واللسان . فنقول: قال بيده، أي: بأخذه . وقال برجله، أي: مشى . وكل ذلك على المجاز .

(٢) وهو رجل عرف بالزهد وأقبل الناس عليه، فدخل حماما وليس ثياب غيره، وخرج، فوقف في الطريق حتى عرفه الناس، فأخذوه وضربوه، واستردوا الثياب وهجره . قلت: ما فعل هذا الرجل مبالغة وشطط لا يقره الشرع . وكما قال المفسر: لا يقتدى به لغلبة الحال عليه . والقصة ذكرها الغزالي في الإحياء ٣ / ٣٠٥، وابن عباد في شرح الحكم ١ / ٨٠ .

ثم حذر من الشح، فقال:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٦٨)

قلت: يقال: وعده خيراً ووعدته شراً، هذا إن ذكر الخير أو الشر، وأما إذا لم يذكر فيقال في الخير: وعده، وفي الشر: أوعده، قال الشاعر:

وَأَنَّى وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لَمَخْلَفٌ إِيْعَادِي وَمَنْجَزٌ مَوْعِدِي (١)

و (الفحشاء) هنا: البخل والشح.

يقول الحق جل جلاله: «الشيطان يعدكم» أي: يخوفكم «الفقر» بسبب الإنفاق، ويقول في وسوسته: إن أعطيت مالك بقيت فقيراً تتكفف الناس، «ويأمركم بالفحشاء» أي: ويأمركم بالبخل والشح، والعرب تسمى البخيل فاحشاً، وفي الحديث: «البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة قريب من النار، والسخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار. ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل». وفي حديث آخر: «إن الله يأخذ بيد السخي كلما عثر». «والله يعدكم» في الإنفاق «مغفرة منه» لذنوبكم، وسترًا لعيوبكم، «وفضلاً» أي: خلفاً أفضل مما أنفقتُم في الدنيا والآخرة، «وما أنفقتُم من شيء فهو يخلفه»، «والله واسع» الفضل والعطاء، «عليم» بما أنفقتُم، ولماذا أنفقتُم، وفيما أخلصتُم، لا يخفى عليه شيء من أموركم.

الإشارة: إذا توجه المرید إلى الله تعالى، وأراد سلوك طريق التجريد والزهد والانقطاع إلى الله تعالى، تعرض له الشيطان، اختباراً منه تعالى وابتلاء، إذ الحضرة محروسة بالقواطع؛ ليظهر الصادق في الطلب من الكاذب، فيخوفه من الفقر، ويأمره بالوقوف مع الأسباب والعوائد، وهي أفحش المعاصي عند الخواص، إذ الهمة العالية تأنف عن الاشتغال بغير الحضرة الإلهية. والله يعدكم - أيها المتوجهون إليه - مغفرة لذنوبكم، وسترًا لعيوبكم، فيغطي وصفكم بوصفه، ونعتكم بنعته، فيوصلكم بما منه إليكم من الفضل والجود، لا بما منكم إليه من المجاهدة والمكابدة، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، (والله واسع) الجود والإحسان، (عليم) بمن يستحق الفضل والامتنان.

(١) البيت لعامر بن طفيل.

ومن نتائج الزهد والانقطاع: ورود الحكمة على لسان العبد وقلبه، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٣٦٩)

قال البيضاوي: الحكمة: تحقيق العلم وإتقان العمل . هـ . وقيل: هي سرعة الجواب وإصابة الصواب، وقيل: كل فصل جزل من قول أو فعل.

يقول الحق جل جلاله: «يؤتي» الحق تعالى «الحكمة من يشاء» من عباده، وهي التفقه في الدين والتبصر في الأمور. قال ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفْقَهُهُ فِي الدِّينِ، وَيُلْهِمُهُ رُشْدَهُ»، وقيل: الحكمة: الإصابة في الرأي. وقيل: الفهم في كتاب الله. وقيل: الفهم عن الله. «ومن يؤت الحكمة» أى: أعطيها، «فقد أوتى خيراً كثيراً»؛ لأنه حاز خير الدارين، ولا شك أن من حقق العلم بالله وبأحكامه، وأتقن العمل بما أمره الله به، فقد صفا قلبه، وتطهر سره، فصار من أولى الألباب ولذلك قال عقبه: «وما يذكر إلا أولوا الألباب».

الإشارة: الحكمة هي: شهود الذات مرتديةً بأنوار الصفات، وهي حقيقة المعرفة، ومن عرف الله هابه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «رأس الحكمة مخافة الله». وقيل: هي تجريد السر لورود الإلهام، وقيل: هي النور المفرق بين الوسواس والإلهام، وقيل: شهود الحق تعالى في جميع الأحوال. والتحقيق: أن الحكمة هي إبداع الشيء وإتقانه حتى يأتي على غاية الكمال، ويجرى ذلك في العلم والعمل والحال والمعرفة.

وقال القشيري: الحكمة: أن يحكم عليك خاطر الحق لا داعي الباطل، وأن تحكم قواهر الحق لا زواجر الشيطان. ويقال: الحكمة: صواب الأمر، ويقال: هي ألا تغلب عليك رعونات البشرية، ومن لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره. ويقال: الحكمة: موافقة أمر الله، والسفه: مخالفة أمره، ويقال: الحكمة شهود الحق، والسفه: شهود الغير. قاله المحشي.

واعلم أن الصوفية، في اصطلاحهم، يعبرون عن أسرار الذات بالقدرة، وعن أنوار الصفات - وهي ظهور آثارها - بالحكمة. فالوجود كله قائم بين الحكمة والقدرة، فالقدرة تبرز الأشياء، والحكمة تسترّها. فربط الأشياء واقتربانها بأسبابها تسمى عندهم الحكمة، وإنفاذ الأمر وإظهاره يسمى القدرة، فمن وقف مع الحكمة حجب عن

شهود القدرة، وكان محجوباً عن الله. ومن نفذ إلى شهود القدرة ولم يرتبط مع الأسباب والعوائد كان عارفاً محبوباً. فالعارف الكامل هو الذي جمع بين شهود القدرة وإقرار الحكمة، فأعطى كل ذي حق حقه، ووفى كل ذي قسط قسطه، لكن يكون ذلك ذوقاً وكشفاً، لا علماً وتقليداً. وبالله تعالى التوفيق:

ثم رَغِبْ فِي الْإِخْلَاصِ، وَحَذِّرْ مِنْ شُوبِ الْحُظُوظِ فِي النَّفَقَةِ، فَقَالَ:

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧٠) **﴿إِنْ تَبَدُّوا الْأَصْدَاقَ فَنَعِمًا هِيَ وَإِنْ تَخَفَوْهَا وَتَوَتَّوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** (٢٧١)

قلت: النذر: هو إلزام المكلف نفسه ما لم يجب، كقوله: الله على أن أتصدق بكذا، أو أن أصلي كذا، أو أن أصوم كذا، أو إن شفى الله مريضى فعلى كذا، فمن نطق بشيء من ذلك لزمه، ومن علق بشيء وحصل ذلك لزمه ما نطق به. (ونعما) أصلها: نعم ما هي، فأدغمت الميم في الميم، وفي (نعم): ثلاث لغات: «نعم» بفتح النون وكسر العين وهي الأصل، ويسكونها، ويكسر النون وسكون العين، فمن قرأ بكسر النون والعين، فعلى لغة كسر العين، وأتبع النون للعين، ومن اختلس، أشار إلى لغة السكون، ومن قرأ بفتح النون وكسر العين، فعلى الأصل وأدغم المثليين، ومن قرأ بفتح النون وسكون العين فعلى لغة (نعم) بالفتح والسكون، ثم أدغم، ولم يعتبر التقاء الساكنين لعروضه، أو لكون الثاني مشدداً سهل ذلك. والله أعلم.

ومن قرأ: (ونكفر)، بالجزم، فعطف على محل الجزاء، ومن قرأ بالرفع، فعلى الاستئناف، أي: ونحن نكفر، أو: فهو يكفر، على القراءتين.

يقول الحق جل جلاله: «وما أنفقتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ» قليلة أو كثيرة، سراً أو علانية، في حق أو باطل، «أو نذرتُمْ مِنْ نَذْرٍ» بشرط أو بغير شرط، في طاعة أو معصية، «فإن الله يعلمه»، فيجازيكم عليه، فمن أنفق في طاعة أو نذر قربة كان من المحسنين، ومن أنفق في معصية أو نذر معصية كان من الظالمين. «وما للظالمين من أنصار» ينصرونهم من عذاب الله.

«إن» تظهروا «الصدقات»، مخلصين فيها، «فنعماً هي» أي: فنعم شيئاً إبدائها، ولا سيما للمقتدى به، فهو أفضل في حقه، «وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء» خفية «فهو خير لكم»، لأنه أقرب للإخلاص، وهذا

في التطوع، تفضل علانيته بسبعين ضعفاً. وأما الفريضة ففيها تفصيل، فمن خاف على نفسه شوب الرياء أخفى أو نوب، ومن آمن أظهر. فقد ورد أن علانية الفريضة تفضل سرها بخمسة وعشرين ضعفاً، فإن فعلتم ما أمرتم به في الوجهين، فقد أحسنتم، «ونكفر عنكم من سيئاتكم» أي: نستتر عنكم بعض ذنوبكم، وقد ورد في صدقة السر أن صاحبها يظله الله يوم لا ظل إلا ظله «والله بما تعملون خبير»؛ لا يخفى عليه من أسر أو جهر، ومن أخلص أو خلط، ففيه ترغيب وترهيب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: معاملة العبد مع مولاه: إما أن تكون لطلب الأجور، وإما لرفع الستور، فالأول يُعطى أجره من وراء الباب، والثاني يدخل مع الأحباب. وأما العامل للدنيا فهو ظالم لنفسه (وما للظالمين من أنصار)، وفي بعض الآثار: طالب الدنيا أسير، وطالب الآخرة أجير، وطالب الحق أمير.

ثم الناس في معاملة الحق على أقسام ثلاثة: قسم يليق بهم الإخفاء والإسرار، وهم طالبو الإخلاص من المريدين السائرين. وقسم يليق بهم الإظهار وهم أهل الاقتداء من العلماء المخلصين. وقسم لا يقفون مع ظهور ولا خفاء، بل مع ما يبرز في الوقت، وهم العارفون الكاملون. ولذلك قال الشيخ أبو العباس رحمته الله: (من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبداً لله فسواء عليه أظهره أم أخفاه).

والهداية كلها بيد الله، ليس لغيره منها شيء، كما أبان ذلك الحق جل جلاله بقوله:

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾

يقول الحق جل جلاله لنبيه عليه الصلاة والسلام: «ليس عليك» يا محمد «هداهم» أي: لا يجب عليك أن تخلق الهداية في قلوبهم، وليس من شأنك ذلك، إنما أنت نذير تدل على الخير، كالنفقة وغيرها، وتنتهي عن الشر كالمُن والأذى، وإنفاق الخبيث، وغير ذلك من المساوي «ولكن الله يهدي من يشاء» بفضله وإحسانه، فالأمور كلها بيد الله خيرها وشرها، لكن من جهة الأدب ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾. وبالله التوفيق.

الإشارة: ما قيل في الرسول - عليه الصلاة والسلام - يقال في ورثته من أهل التذكير، فليس بيدهم الهداية والتوفيق، وإنما شأنهم الإرشاد وبيان الطريق، فليس من شأن الدعاة إلى الله الحرص على هداية الخلق. وإنما من

شأنهم بيان الحق. ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ . والله تعالى أعلم.

ثم رجع الحق تعالى إلى الترغيب في الصدقة والإخلاص فيها، فقال:

﴿... وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٧٢﴾

قلت: هذه ثلاث جمل كلها تدل على الترغيب في إنفاق الطيب وإخلاص النية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما تنفقوا من خير﴾ قليل أو كثير، فهو «لأنفسكم» لا ينتفع به غيركم، فإن كان طيباً فلأنفسكم، وإن كان خبيثاً فأجره لكم، وإن مننتم به أو آذيتهم فقد ظلمتم أنفسكم، وإن أخلصتم فيه فلأنفسكم. وأيضاً إنكم تدعون أنكم «ما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله»، فكيف تقصدون الخبيث، وتجعلونه لوجه الله؟ وكيف تملكون أو تؤذون بها وهي لوجه الله؟ هذا تكذيب للدعوى، وكل ما تنفقون من خير قليل أو كثير «يُوفَّ إليكم» جزاؤه يوم القيامة بسبعمائة إلى أضعاف كثيرة، ويخلفه لكم في الدنيا، «وأنتم لا تظلمون» شيئاً من أعمالكم إن أخلصتم أو أحسنتم . وستأتى إشارتها مع ما بعدها.

ثم بين المصرف، فقال:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٧٣﴾

قلت: (للفقراء): متعلق بمحذوف، أى: يعطى ذلك للفقراء، أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء، والإلحاف: هو الإلحاح فى السؤال، وهو أن يلزم المسئول حتى يعطيه، وهو منصوب على المصدر أو الحال.

يقول الحق جل جلاله: تجعلون ما تنفقونه «للفقراء الذين أحصروا» أى: حبسوا أنفسهم فى «سبيل الله» وهو الجهاد، «لا يستطيعون ضرباً فى الأرض» أى: ذهاباً فى الأرض للتجارة أو للأسباب، بل شغلهم الجهاد والتبذل للعبادة عن الأسباب، وهم أهل الصفة، كانوا نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين، يسكنون صفة المسجد، يستغرقون أوقاتهم فى العلم والذكر والعبادة، وكانوا يخرجون فى كل سرية بعثها رسول الله ﷺ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وقف النبي ﷺ يوماً على أصحاب الصفة، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم، فقال: «أبشروا يا أصحاب الصفة، فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه، راضياً بما فيه فإنه، من رفائلى» .

وقيل: المراد الفقراء مطلقاً، حصرهم الفقر عن الضرب فى الأرض للتجارة، «يحسبهم الجاهل» بهم «أغنياء من التعفف»، أى: من أجل تعففهم عن السؤال، «تعرفهم بسيماهم» من الضعف ورثاة الحال. الخطاب للرسول، أو لكل أحد «لا يسألون الناس إلحافاً»، أى: لا يسألون، وإن سألوا عن ضرورة لم يلحوا، وقيل: نفى للأمرين معاً، أى: ليس لهم سؤال، فيقع فيه إلحاف، كقول الشاعر:

على لا حبٍ لا يَهْتَدَى بمنارِهِ (١)

وليس ثم لاحب ولا منار، وإنما المراد نفيهما، وفى الحديث عنه ﷺ: «من سأل، وله أربعون درهماً، فقد سأل إلحافاً» .

«وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم» فيجازى على القليل والكثير، وهذا ترغيب فى الإنفاق، وخصوصاً على هؤلاء .

الإشارة: ما أفلح من أفلح، وخسر من خسر، إلا من نفسه وفلسه، فمن جاد بهما، أو بأحدهما، فقد فاز وأفلح وظفر بما قصد، والجود بالنفس أعظم، وهو يستلزم الجود بالفلس، والجود بالفلس، إن دام، يوصل إلى الجود بالنفس، والمراد بالجود بالنفس: إسلامها للشيخ يفعل بها ما يشاء، وتكون الإشارة فيها كافية عن التصريح، ومن بخل بهما أو بأحدهما، فقد خسر وخاب فى طريق الخصوص، ومصرف ذلك هو الشيخ، أو الفقراء المنقطعون إلى الله؛ الذين حصروا أنفسهم فى سبيل الله، وهو الجهاد الأكبر.

قال فى القوت: وكان بعض الفضلاء يؤثر بالعتاء فقراء الصوفية دون غيرهم، فقيل له فى ذلك، فقال: لأن هؤلاء همهم الله عز وجل، فإذا ظهر منهم فاقة تشئت قلب أحدهم، فلأن أرد همه واحد إلى الله أحب إلى من أن أعطى ألفاً من غيرهم ممن همه الدنيا. فذكر هذا الكلام لأبى القاسم الجنيد، فقال: هذا كلام ولى من أولياء الله. ثم قال: ما سمعت كلاماً أحسن من هذا. وبلغنى أن هذا الرجل اقتر حاله فى أمر الدنيا

(١) هذا صدر بيت عجزه: (إذا سافه العود النباطى جرجراً) وهو من قصيدة لامرئ القيس. واللاحب: الطريق الواسع.

حتى هم بترك الحانوت؛ فبعث إليه الجنيد بمال كان صرف إليه، وقال له: اجعل هذا في بضاعتك، ولا تترك الحانوت فإن التجارة لا تضرُ مثلك. ويقال: إن هذا لم يكن يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه . هـ .

وكان عبدالله بن المبارك يصرف مصروفه لأهل العلم، ويقول: إني لا أعرف بعد النبوة أفضل من العلماء، فإذا اشتغل قلب أحدهم بالحاجة والعيلة لم يتفرغ للعلم، ولا يقبل على تعليم الناس، فرأيت أن أكفيهم أمر الدنيا؛ لأفرغهم للعلم، فهو أفضل . هـ . والله تعالى أعلم .

ثم رغب في النفقة مطلقاً، فقال:

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

قلت: الموصول مبتدأ، و(فلهم أجرهم) : خبر، والفاء للسببية، ولأن في الموصول معنى الشرط، وقيل: الخبر محذوف، أي: ومنهم الذين ينفقون إلخ، و(فلهم) : استئناف بياني.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية﴾، ويعمرون أوقاتهم بفعل الخيرات، ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ إذا قدموا عليه، ﴿ولا خوف عليهم﴾ من لحوق مكروه، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على فوات محبوب، بل وجدوا الله فأغناهم عن كل شيء.

قيل: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه؛ تصدّق بأربعين ألف دينار، عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة بالسر، وعشرة بالعلانية، أو في علي - كرم الله وجهه - لم يملك إلا أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، ودرهم نهاراً، ودرهم سرّاً، ودرهم علانية. وهي عامة لمن فعل فعلهما.

الإشارة: أجر بذل الأموال هو إعطاء الثواب من وراء الباب، والأمن من العذاب وسوء المآب، وأجر بذل النفوس هو دخول حضرة القدوس، والأنس بالأحباب داخل الحجاب، فمن بذل نفسه لله على الدوام، أمانه من الحجة في دار السلام، فلا خوف يلحقهم في الدارين، ولا يعتريهم حزن في الكونين، وبالله التوفيق.

ولما رغب في الصدقة، وكانت في الغالب لا يتوصل إليها إلا بتعاطي أسباب المال، وهو البيع والشراء حذر من الرياء؛ لئلا يتساهل الناس في المعاملة به، حرصاً على الصدقة، فقال:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَالَّذِي لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾

قلت: (الربا) في الأصل: هو الزيادة، ربا المال يربو: زاد. وكتبت بالواو مراعاة للأصل، وهو المصدر، قال الفراء: إنما كتبوه بالواو لأن أهل الحجاز تعلموا الكتابة من أهل الحيرة، ولغتهم الربو، فعلموهم صورة الحروف، وكذلك قرأها أبو السمال العدوي، وقرأ الأخوان بالإمالة لمكان الكسرة، والباقون بالتفخيم.

والربا في اصطلاح الشرع على قسمين: ربا الفضل وriba النساء، فأما ربا الفضل فهو التفاضل بين الطعامين أو النقدين في المبادلة من الجنس الواحد، فإن اختلفت الأجناس فلا حرج، وأما ربا النساء فهو بيع الطعامين أو النقدين ببعضهما ببعض بالتأخير، وهذا حرام ولو اختلفت الأجناس.

يقول الحق جل جلاله: «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا» أي: يأخذونه، وإنما خص الأكل لأنه أعظم منافع المال، «لَا يَقُومُونَ» من قبورهم يوم البعث «إِلَّا كَمَا يَقُومُ» المجنون «الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ» أجل «الْمَسِّ» الذي يمسه يقوم ويسقط، روى أن بطونهم تكون أمامهم كالبيت الضخم، يقوم أحدهم فتميل به بطنه فيصرع، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أُسْرِى بِي إِلَى السَّمَاءِ رَأَيْتُ رِجَالًا بَطُونُهُمْ كَالْبُيُوتِ، فِيهَا حَيَاتٌ تَرَى مِنْ خَارِجِ بَطُونِهِمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ فَقَالَ: أَكَلَةُ الرِّبَا».

«ذلك» العذاب بسبب أنهم استحلوا الربا، و«قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا» فنظموا الربا والبيع في سلك واحد، وفيه عكس التشبيه. والأصل: إنما الربا مثل البيع، قصدوا المبالغة، كأنهم جعلوا الربا أصلاً وقاسوا عليه البيع. وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حل ماله على غريمه يقول الغريم: زدني في الأجل أزدك في المال، فيفعلان، ويقولان: سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند محل الدين، هو مراضاة. فكذبهم الحق تعالى بقوله: «وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا»؛ لأن القياس مع وجود النص فاسد، والفرق ظاهر؛ فإن من باع درهما

بدرهمين ضيع درهما من غير فائدة، بخلاف من اشترى سلعة بدرهم، وباعها بدرهمين، ففعل مساس الحاجة، والرغبة فيها، توقع رواجها فيجبر الغبن.

«فمن جاءه موعظة من ربه» كالنهي عن الربا، «فانتهى» وترك الربا «قله ما سلف» قبل التحريم ولا يردّه، «وأمره إلى الله» لا إلى أحد منكم، فلا يتعرض له، «ومن عاد» إلى تحليل الربا بعد بلوغه النهي «فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» لأنهم كفروا وسفهاوا أمر الله. «يمحق الله الربا» أي: يذهب بركته، ويهلك المال الذي يدخل فيه «ويربى الصدقات» أي: يضاعف ثوابها ويبارك في المال الذي أخرجت منه، فقد روى عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «ما نقص مال من صدقة»، «وأنه يربى الصدقة حتى تكون مثل الجبل». قال يحيى بن معاذ: (ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة).

«والله لا يحب كل كفار» أي: مُصِرٌّ على تحليل المحرمات، «أثيم» أي: منكم في ارتكاب المنهيات، أي: لا يرتضى حاله، ولا يحبه كما يحب التوابين.

ثم ذكر مقابله فقال: «إن الذين آمنوا بالله، وصدقوا بما جاء من عنده، وعملوا الأعمال الصالحات وأقاموا الصلاة» أي: أتقنوها «وآتوا الزكاة» أي: أدوها على التمام، فلهم أجرهم عند ربهم إذا قدموا عليه، «ولا خوف عليهم» من آت، «ولا هم يحزنون» على ما فات، إذ لم يفتهم شيء حيث وجدوا الله.

ثم أكد في أمر الربا، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أي: اتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا، فلا تقبضوها منهم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. فإن دليل الإيمان: امتثال ما أمرتم به، روى أنه كان لثقيف مال على بعض قريش، فطالبوهم عند الحل بالمال والربا، فنزلت الآية.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ وتتركوا ما نهيتم عنه، ﴿فَأَذْنُوبُ﴾ أي: فاعلموا ﴿بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ومن قرأ: ﴿فَأَذْنُوبُ﴾ بالمد، فمعناه: أعلموا بها غيركم، روى أنها لما نزلت، قالت ثقيف: لا يدان^(١) لنا بحرب الله ورسوله. ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ﴾ من تعاطى الربا واعتقاد حله ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ الغريم بأخذ الزيادة، ﴿وَلَا تَظْلَمُونَ﴾ ﴿بِنَقْصِ رَأْسِ مَالِكُمْ﴾ مفهومه إن لم يتب فليس له شيء، لأنه مرتد. والله تعالى أعلم.

(١) يقال: مالى بهذا الأمر يد ويدان أي: لاطاقة لى به، لأن المدافعة تكون باليد، فكان يده معدومه لعجزه عن دفعه.

الإشارة: مدار صفاء المعاملة على تصفية اللقمة، فمن صفاً طعمته صفت معاملته، ومن صفت معاملته أفضى الصفاء إلى قلبه، ومن خلط في لقمته تكدرت معاملته، ومن تكدرت معاملته تكدر قلبه، ولذلك قال بعضهم: (من أكل الحلال أطاع الله، أحب أم كره، ومن أكل الحرام: عصي الله، أحب أم كره) وكذلك الواردات الإلهية، لا ترد إلا على من صفاً طعمته ومشربه، ولذلك قال بعضهم: (من لا يعرف ما يدخل بطنه لا يفرق بين الخواطر الربانية والشيطانية).

وقال سيدي على الخواص رحمته الله: (اعلم أن المدد الذي لم يزل فياضاً على قلب كل إنسان ويتلون بحسب القلب، والقلب يتلون بحسبه هو بحسب صلاح الطعمة وفسادها). هـ. فالذين يأكلون الحرام؛ كالربا وشبهه، لا يقومون إلى معاملتهم للحق إلا كما يقوم المجنون الذي يلعب به الشيطان، ولا يدري ما يقول ولا ما يقال له، فقد حرم لذيق المناجاة وحلاوة خلوص المعاملات، فإن احتج لنفسه واستعمل القياس لم يرج فلاحه في طريق الخواص، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى، وطلب العفاف فقد عفا الله عما سلف. ومن عاد إلى ما خرج عنه؛ من متابعة هواه، فنار القطيعة مثواه ومأواه.

ومن شأن الحق جل جلاله مع عباده: أن من طلب الزيادة في حس ظاهره محق الله نور باطنه، ومن حسم مادة زيادة الحس في ظاهره قوى الله مدد الأنوار في باطنه، (يمحق الله الربا ويربي الصدقات)، أي: يقوى مدد ثواب الصدقات. (والله لا يحب كل كفار أثيم)، وإنما يحب كل مطيع منيب، وهو من آمن بإيمان أهل التحقيق، وسلك مسلك أهل التوفيق. فلا جرم أنه ينخرط في سلك أهل العناية، ويسلك به مسلك أهل الولاية، (الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) حق ثقاته، واتركوا ما بقى في باطنكم من بقايا الحس وأسبابه، إن كنتم طالبين إيمان أهل الشهود، والوصول إلى الملك المعبود. فإن لم تفعلوا ذلك فاعلموا أنكم في مقام البعد من حيث لا تظنون، معاندون وأنتم لا تشعرون. وإن رجعتم إلى ربكم فلكم رؤوس أموالكم، وهو نور التوحيد، لا تنقصون منه ولا تزيدون عليه، إلا إن أفردتم الوجهة إليه، وطلبت الوصول منه إليه، فإن الله لا يخيب من أمل جوده، ولا يرد من وقف ببابه، بمنه وكرمه.

ثم ذكر حال المعسر، فقال:

﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُوْعُسْرَةً فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨٠) **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** (٢٨١)

كَلِمَاتُ: (كان): تامة بمعنى حضر، وقرأ أبى وابن مسعود: (ذا عُسْرَة) فتكون ناقصة، و(نظرة): مبتدأ، والخبر محذوف، أى: فعليكم نظرة، أو فالواجب نظرة. وهو مصدر بمعنى الإنظار، وهو الإمهال، و(ميسرة): فيه لغتان: الفتح والضم، وهى مفعلة من اليسر، فالضم لغة أهل الحجاز، والفتح لغة تميم وقيس ونجد.

يقول الحق جل جلاله: وإن حضر الغريم وهو معسر، فعليكم إنظاره، أى: إمهاله إلى زمان يسره ولا يحل لكم أن تضيقوا عليه، و تطالبوه بما ليس عنده إن أقام البيئة على عسره «وأن تصدقوا» عليه برؤوس أموالكم ولا تطالبوه بها «خير لكم إن كنتم تعلمون» ما فى ذلك من الخير الجزيل والذكر الجميل.

روى أبوهريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا، أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، أَظْلَمَ اللَّهُ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» وقال - عليه الصلاة والسلام - : «مَنْ أَحَبَّ أَنْ تُسْتَجَابَ دَعْوَتُهُ، وَتُكْشَفَ كُرْبَتُهُ، فَلْيَسِرْ عَلَى الْمُعْسِرِ». وقال ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا كَانَ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ بِمِثْلِ مَا أَنْظَرَهُ بِهِ». وقد ورد فى فضل الدين قوله - عليه الصلاة والسلام: «إن الله مع المدين حتى يقضى دينه، ما لم يكن فيما يكره الله». فكان عبدالله^(١) يقول: «إني أكره أن أبيت ليلة إلا والله تعالى معي، فيأمر غلامه أن يأخذ بدين».

وقد ورد الترغيب أيضا فى الإسراع بقضاء الدين دون مطلق، قال ﷺ: «مَنْ مَشَى إِلَى غَرِيمِهِ بِحَقِّهِ، صَلَّتْ عَلَيْهِ دَوَابُّ الْأَرْضِ وَنُورُ الْمَاءِ، وَكُتِبَتْ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَذَنْبٌ يَغْفِرُ لَهُ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ وَمَطْلٌ فَهُوَ مُعْتَدٍ». وقال أيضا: «مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ، وَإِذَا أَتَبَعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتَّبِعْ».

ثم قال تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ»، وهو يوم القيامة، فتأهبوا للمصير إليه بالصدقة وسائر الأعمال الصالحة، «ثم توفى كل نفس» جزاء ما أسلفت، «وهم لا يظلمون» بنقص ثواب أو تضعيف عقاب. قال ابن عباس: (هذه آخر آية نزل بها جبريل، فقال: ضعها فى رأس المائتين والثمانين من البقرة، وعاش بعدها رسول الله ﷺ أحدا وعشرين يوما). وقيل: أحدا وثمانين، وقيل غير ذلك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وإن كان ذو عسرة من نور اليقين والمعرفة، فلينظر إلى أهل الغنى بالله، وليصحبهم ويتعلق بهم، وهم العارفون، فإنهم يغنونه بالنظر. وفى بعض الأخبار: إن لله رجالا؛ من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا. هـ. والله رجال إذا نظروا أغنوا، وفى هذا المعنى يقول صاحب العينية:

فَشَمَّرْ، وَلِذُّ بِالْأَوْلِيَاءِ فَإِنَّهُمْ
لَهُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تِلْكَ الْوَقَائِعُ
هُمْ الدُّخْرُ لِلْمَهُوفِ، وَالْكَثْرُ لِلرَّجَا
وَمِنْهُمْ يَنَالُ الصَّبُّ مَا هُوَ طَامِعُ

(١) هو راوى الحديث سيدنا عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه.

وقال الشيخ أبو العباس رحمته: والله ما بينى وبين الرجل إلا أن أنظر إليه وقد أغنيته. وقال فيه شيخه: نعم الرجل أبو العباس، يأتيه البدوي يبول على ساقه، فلا يمسي إلا وقد أوصله إلى ربه. وقال شيخ شيوخنا سيدى العربى بن عبد الله: لو أتانى يهودى أو نصرانى، لم يمسي إلا وقد أوصلته إلى الله . هـ . وفى كل زمان رجال يغنون بالنظر، وقد أدركتهم، وصحبتهم والحمد لله . والإشارة بقوله: «وأن تصدقوا خير لكم» إلى أهل الغنى بالله، يتصدقون على الفقراء بالنظرة والهمة، حتى يحصل لهم الغنى بالله . والله تعالى أعلم.

ثم أمر الحق تعالى بتحصيل الأموال؛ بتقيد الدين والإشهاد عليها، فقال:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ...﴾

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين» أى: دابن بعضكم بعضا فى بيع أو سلف، «إلى أجل مسمى» أى: معلوم بالأيام أو الأشهر، لا بالحصاد أو قدوم الحاج، إلا فى السلم، «فاكتبوه»؛ لأنه أوثق وأدفع للنزاع. والجمهور: أن الأمر للاستحباب، «وليكتب بينكم كاتب بالعدل» لا يزيد ولا ينقص، ولا بد أن يكون عدلا حتى يجيىء مكتوبه موثوقاً به، «ولا يأب كاتب أن يكتب» أى: ولا يمتنع كاتب من الكتابة «كما علمه الله فليكتب كما علمه الله من كتابة الوثائق، أو: لا يأب أن ينفع الناس بكتابه كما نفعه الله بتعليمها. «وليمل الذى عليه الحق» أى: وليكن المملى من عليه الحق؛ لأنه المقر للشهود، يقال: أملك وأملى، إذا ذكر ما عنده أو ما عليه، «وليتق الله ربه» أى: المملى أو الكاتب، «ولا يبخس منه شيئا» أى: ولا ينقص من الحق الذى عليه شيئا فى الإملاء أو فى الكتابة.

«فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً»: ناقص العقل مُبذراً، «أو ضعيفاً» شيخاً مخبلاً، أو صبيّاً صغيراً، «أو لا يستطيع أن يعمل هو»، لخرس أو جهل باللغة، «فليمثل» عنه «وليّه بالعدل»، من وصيّ أو وكيل، «واستشهدوا» على معاملتكم «شهيدين من رجالكم» المسلمين، «فإن لم يكونا رجلين»، بأن تعذر إحضارهما، «فرجل وامرأتان» فأكثر، تقوم مقام رجلين «ممن ترضون من الشهداء» لعلمكم بعدالتهم، وإنما شرط تعدد النساء لأجل «أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى» أي: إن ضلت إحداهما الشهادة، ونسيتها، ذكرتها الأخرى؛ لأنها ناقصة عقل ودين.

ثم حذر الشهود من الامتناع عن تحمل الشهادة أو أدائها، فقال:

﴿... وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكُتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكُتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُقُومٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٨٢)

قلت: السَّام هو: المأل، و(لا يضار) يحتمل أن يكون مبنيًا للفاعل، وأصله: يضارر بالكسر، أو للمفعول، فيكون الأصح بالفتح.

يقول الحق جل جلاله: ولا يمتنع «الشهداء» من تحمل الشهادة إذا دعوا إليها، حيث تعينت عليهم، وسموا شهداء باعتبار المأل، وإنما تتعين إذا لم يوجد غيرهم. أو: من أدائها حيث لا ضرر، «ولا تساموا أن تكتبوه» أي: ولا تملوا من كتابة الحق إذا تكرر «صغيراً» كان «أو كبيراً»، فقيدوا ذلك «إلى أجله»، «ذلكم أقسط عند الله» أي: ذلك الكتاب والتقيد للحقوق، أكثر قسطاً عند الله؛ لأنه أدفع للنزاع وأحفظ للحقوق، «وأقوم للشهادة» أي: أثبت لها وأعون على أدائها، «وأدنى ألا ترتابوا» أي: وأقرب لعدم الريب والشك في جنس الدين وقدره وأجله، لأنه إذا كتب جنسه وقدره وأجله لم يبق لأحد شك في ذلك، «إلا أن تكون تجارة حاضرة» لا أجل فيها، «تدبرونها بينكم» أي: تتعاملون فيها نقداً، «فليس عليكم جناح ألا تكتبوها»؛ لقلة النزاع فيها، «وأشهدوا إذا تبايعتم» مطلقاً بدين أو نقد؛ لأنه أحوط، خوفاً من الإنكار، والأوامر في هذه الآية للاستحباب عند الأكثر.

«ولا يضار كاتب ولا شهيد» بالتحريف والتغيير في الكتابة والشهادة، على البناء للفاعل، أو: ولا يضارا بأن يعجلا عن مهم، أو يكلفا الأداء من شقة بعيدة، أو يمنع من أجرته، «وإن تفعلوا» ذلك الضرار وما نهيتهم عنه «فإنه فسوق بكم» أى: خروج بكم عن حد الاستقامة، «واتقوا الله» فى مخالفة أمره ونهيه، «ويعلمكم الله» العلوم الدنية «والله بكل شىء عليم»؛ فلا يخفى عليه من اتقى الله ممن عصاه. وكرر لفظ الجلالة فى الجمل الثلاث، لاستقلالها، فإن الأولى حث على التقوى والثانية وعد بتعليم العلم، والثالثة تعظيم لشأنه، ولأنه أدخل فى التعظيم من الكناية. قاله البيضاوى.

وأدخل الواو فى جواب الأمر ليقضى أن تعليمه سبحانه لأهل التقوى ليس هو مسبباً عن التقوى، بل هو بمحض الفضل والكرم، والتقوى إنما هى طريق موصل لذلك الكرم، لا سبب فيه «جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل». والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى حكم الرهان، فقال:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنْ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُوتِيَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

قلت: (فرهان): خبر، أو مبتدأ، أى: فالمستوثق به رهان، أو فعلية رهان.

يقول الحق جل جلاله: «وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً يكتب شهادة البيع أو الدين، فالمستوثق به عوضاً من الإشهاد: «رهان مقبوضة». وليس السفر شرطاً فى صحة الارتهان، لأنه عليه الصلاة والسلام «رهن برعه عند يهودى بالمدينة فى شعير» لكن لما كان السفر مظنة إغواز الكتاب، ذكره الحق تعالى حكماً للغالب. والجمهور على اعتبار القبض فيه، فإن لم يقبض حتى حصل المانع، فلا يختص به فى دينه، «فإن أمن بعضكم بعضاً» واستغنى بأمانته عن الارتهان، لوثوقه بأمانته فداينه بلا رهن، «فليؤد الذى أوتى أمانته» أى: دينه، وسماء أمانة؛ لائتمانه عليه بلا ارتهان ولا إشهاد، «وليتق الله ربه» فى أداء دينه وعدم إنكاره.

«ولا تكتُموا الشهادة» أيها الشهود، أو أهل الدين، أى: شهادتهم على أنفسهم، «ومن يكتُمها» منكم بأن يمتنع من أداء ما تحمل من الشهادة، أو من أداء ما عليه من الدين، «فإنه آثم قلبه» حيث كتم ما علمه به، لأن الكتمان من عمل القلوب فتعلق الإثم به، ونظيره: «العين زانية وزناها النظر»، أو أسنده إلى القلب، مبالغة؛ لأنه رئيس الأعضاء، فإذا آثم قلبه فقد آثم كله، وكأنه قد تمكن الإثم منه فأخذ أشرف أجزائه، وفاق سائر ذنوبه، ثم هدد

الكاتمين فقال: «والله بما تعملون عليم»؛ لا يخفى عليه ما تبدون وما تكتمون، روى عنه عليه السلام أنه قال: «من كتم شهادة إذا دُعي - كان كمن شهد بالزور».

الإشارة: كما أمر الله تعالى بتقييد الديون الدنيوية، والاعتناء بشأنها، أمر بتقييد العلوم الدنية والواردات القدسية والاعتباط بأمرها، بل هي أولى؛ لدوام ثمراتها وخلود نتائجها، فإن الحكمة ترد على القلب من عالم القدس عظيمة كالجبل، فإن أهملتها ولم تبادر إلى تقييدها، رجعت كالجمل، فإن أخرتها رجعت كالطير، ثم كالبيضة، ثم تمتحى من القلب، وفي هذا المعنى قيل:

العلم صيدٌ والكتابة قَيْدُهُ قَيْدُ صَيْودِكَ بِالْحِبَالِ الْمُوثِقَةِ
وَمِنَ الْجَهَالَةِ أَنْ تَصِيدَ حَمَامَةً وتتركها بين الأوائس مطلقَةً

فإن لم يحسن الكتابة، فليملأه على من يحسنها، ولا يبخل منه شيئا، بل يملأه على ما ورد في قلبه، فإن كان ضعيف العبارة، فليملأه عنه من يحسنها بالعدل، من غير زيادة ولا نقصان في المعنى، وليشهد عليها رجال أهل الفن وهم العارفون، فإن لم يكونوا، فمن حضر من الفقراء المتكئين؛ لتلا يكون في تلك الحكمة شيء من الخل؛ لنقصان صاحبها، أو: وليشهد على ذلك الوارد عدلين، وهما الكتاب والسنة، فإن كان موافقا لهما، قبل، وإلا رد.

قال الجنيدي رحمته الله: إن اللكثة لنقع في قلبي فلا أقبلها إلا بشهادة عدلين: الكتاب والسنة. هـ. وإن كنتم مستعجلين، ولم تجدوا كاتباً، فارتهنوها في قلوب بعضكم بعضاً، حتى تقيد. ومن كتم الواردات عن شيخه أو إخوانه، فقد أثم قلبه؛ لأنه نوع من الخيانة في طريق التربية. والله تعالى أعلم.

ثم هدد الحق تعالى عباده، على مخالفة ما أمرهم به، فقال:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قلت: من قرأ (فيغفر)؛ بالجزم، فعلى العطف على الجواب، ومن قرأ بالرفع فعلى الاستئناف، أي: فهو يغفر.

يقول الحق جل جلاله: «الله ما في السموات وما في الأرض» خلقا وملكا وعبيدا، يتصرف فيهم كيف شاء؛ يرحم من يشاء بفضله، ويعذب من يشاء بعدله، «وإن تبدوا ما في أنفسكم» أي: تظهروا «ما في أنفسكم» من السوء والعزم عليه، «أو تخفوه» في قلوبكم، «يحاسبكم به الله» يوم القيامة؛ «فيغفر لمن يشاء» مغفرته، «ويعذب من يشاء» تعذيبه، «والله على كل شيء قدير» لا يعجزه عذاب أحد ولا مغفرته. وعبر الحق تعالى بالمحاسبة دون المؤاخظة، فلم يقل: يؤاخذكم به الله؛ لأن المحاسبة أعم، فتصدق بتقرير الذنوب دون المؤاخظة بها، لقوله - عليه الصلاة والسلام: «يدنو المؤمن من ربه حتى يضع كنفه عليه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف

كذا؟ فيقول: يارب، أعرف، فيوقفه على ذنبه ذنباً، ذنباً فيقول الله تعالى: أنا الذى سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم». فله الفضل والمدة، وله الحمد والشكر.

الإشارة: (وإن تبدوا ما فى أنفسكم) من الخواطر الردية والطوايق الشيطانية، أو تخفوه فى قلوبكم، حتى يحول بينكم وبين شهود محبوبيكم، (يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء) فيمحو ظلمته من قلبه؛ بإلهام التوبة والمبادرة إلى اليقظة، (ويعذب من يشاء) بتركه مع ظلمة تلك الأغيار، وخوضه فى بحار تلك الأكدار، فما منع القلوب من مشاهدة الأنوار إلا اشتغالها بظلمة الأغيار، فرغ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار، فإن أردت أن تكون عين العين، فامح من قلبك نقطة الغين، وهى نقطة السوى، والله در القائل:

إن تَلَا شَى الْكَوْنُ عَنْ عَيْنٍ كَشَفِي شاهدَ السِّرِّ غَيْبَهُ فى بَيَانِي
فَاطْرَحَ الْكَوْنُ عَنْ عِيَانِكَ وَامْحَ نقطةَ الْغَيْنِ إنْ أردتَ تَرَانِي

واعلم أن الخواطر أربعة: ملكى وربانى ونفسانى وشيطانى، فالملكى والربانى لا يأمران إلا بالخير، والنفسانى والشيطانى لا يأمران إلا بالشر، وقد يأمران بالخير إذا كان فيه دسيمة إلى الشر، والفرق بين النفسانى والشيطانى: أن الخاطر النفسانى ثابت لا يزول بتعود ولا غيره، إلا بسابق العناية، بخلاف الشيطانى: فإنه يزول بذكر الله، ويرجع مع الغفلة عن الله. والله تعالى أعلم.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما فى أنفسكم...﴾ الآية. شق ذلك على الصحابة - رضى الله عنهم - فجاء الصديق والفاروق وعبدالرحمن ومعاذ، وناس من الأنصار، فجئوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله، ما نزلت علينا آية أشد من هذه الآية وإنا إن أخذنا بما نحدث به أنفسنا هلكتنا! فقال النبى ﷺ: «هكذا نزلت». فقالوا: كلفنا من العمل ما لا نطيق، فقال - عليه الصلاة والسلام: «فلعكم تقولون كما قالت بنو إسرائيل: ﴿سمعنا وعصينا﴾، قولوا: سمعنا وأطعنا»، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله التخفيف، وحكى ما وقع لهم من الإيمان والإذعان، فقال:

﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

قلت: من قرأ: (لا تفرق) بالنون، فعلى حذف القول، أى: قالوا: لا تفرق، ومن قرأ بالياء فيرجع إلى الكل، أى: لا يفرق كل واحد منهم بين أحد من رسله، و(بين): من الظروف النسبية، لا تقع إلا بين شيئين أو أشياء، تقول: جلست بين زيد وعمرو، وبين رجلين، أو رجال، ولا تقول بين زيد فقط، وإنما أضيف هنا إلى أحد لأنه فى معنى الجماعة، أى: لا تفرق بين أحاد منهم كقوله عليه الصلاة والسلام: «ما أحلت الغنائم لأحد، سود الرؤوس، غيركم». و(غفرانك): مفعول مطلق، أى: اغفر لنا غفرانك. أو: نطلب غفرانك، فيكون مفعولا به.

يقول الحق جل جلاله: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾ إيمان تحقيق وشهود، «والمؤمنون» كل على قدر إيقان، «كل» واحد منهم «آمن بالله» على ما يليق به من شهود وعيان، أو دليل وبرهان، وآمن بملائكته وأنهم عباد مكرمون ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، «وكتبه» وأنها كلام الله، مشتملة على أمر ونهى ووعد ووعيد وقصص وأخبار، ما عرف منها؛ كالتوراة والإنجيل والزيور والفرقان، وجب الإيمان به بعينه، ومالم يعرف وجب الإيمان به فى الجملة، «ورسله» وأنهم بشر متصفون بالكمالات، منزهون عن النقائص، كما يليق بحالهم، حال كون الرسول والمؤمنون قائلين «لا تفرق بين أحد من رسله» أو: (لا يفرق) كل منهم بين أحد من رسله؛ بأن يصدقوا ببعض، دون البعض كما فرقت اليهود والنصارى، «وقالوا» أى المؤمنين «سمعنا وأطعنا» أى: سمعنا قولك وأطعنا أمرك، نطلب «غفرانك» يا ربنا «واليك المصير» بالبعث والنشور، وهذا إقرار منهم بالبعث الذى هو من تمام أركان الإيمان.

فلما تحقق إيمانهم، وتيقن إذعانهم، خفف الله عنهم بقوله: «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» أى: إلا ما فى طاقتها وتسعه قدرتها. وهذا يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال ولا يدل على امتناعه. أما المحال العادى^(١) فجائز التكليف به، وأما المحال العقلى^(٢) فيمتنع، إذ لا يتصور وقوعه، وإذا كلف الله عباده بما يطيقونه، فكل نفس «لها ما كسبت» من الخير فتوفى أجره على التمام، «وعليها ما اكتسبت» من الشر، فترى جزاءه، إلا أن يعفو ذو الجلال والإكرام.

وعبر فى جانب الخير بالكسب، وفى جانب الشر بالاكْتساب، تعليماً للأدب فى نسبة الخير إلى الله، والشر إلى العبد. فتأمل.

ثم قالوا فى تمام دعائهم: «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا»، أى: لا تؤاخذنا بما أدى بنا إلى نسيان أو خطأ من تفريط أو قلة مبالاة، وفى الحديث: «إن الله رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما حدثت به نفسها».

(١) المحال العادى: كرفع إنسان جبلا.

(٢) المحال العقلى: كالجمع بين الضدين.

ويجوز أن يراد نفس الخطأ واللسان؛ إذ لا تمتنع المؤاخذه بهما عقلاً، فإن الذنوب كالسموم، فكما أن تناول السم يؤدي إلى الهلاك، وإن كان خطأ - فتعاطى الذنوب لا يبعد أن يقضى إلى العقاب، وإن لم يكن عزيمة، لكنه تعالى وعد التجاوز عنه رحمة وفضلاً. ويجوز أن يدعوه الإنسان، استدامة واعتداداً بالنعمة فيه. ويؤيد ذلك مفهوم قوله - عليه الصلاة والسلام -: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنَّسْيَانُ»، أى: فإن غير هذه الأمة كانوا يؤاخذون به، فدل على عدم امتناعه. قاله البيضاوى.

ثم قالوا: «رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا» أى: عهداً ثقيلاً يَأْصِرُ ظُهورنا، أى: يثقله، فتعذبنا بتركه وعدم حمه، «كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا» مثل اليهود فى تكليفهم بقتل الأنفس فى التوبة، وقطع موضع النجاسة، وغير ذلك من التكليف الشاق، «رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ» من التكليف التى لا تسعها طاقتنا، وهذا يدل على جواز التكليف بما لا يطاق عادة، وإلا لما سئل التخلص منه، «وَاغْفِرْ عَنَّا» أى: امح ذنوبنا، «وَاغْفِرْ لَنَا» أى: استر عيوبنا، «وَارْحَمْنَا» أى: تعطف علينا. «اغْفِرْ عَنَّا الصَّغَائِرَ، وَارْحَمْنَا» الكبائر، «وَارْحَمْنَا» عند الشدائد والحسرات، «أَنْتَ مَوْلَانَا» أى: سيدنا وناصرنا، «فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»؛ فإن من شأن المولى أن ينصر مواليه على الأعداء.

قال البيضاوى: (روى أنه عليه الصلاة والسلام - لما دعا بهذه الدعوات قيل له: فعلت). وعنه عليه الصلاة والسلام: «أُنْزِلَ آيَتَانِ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، كَتَبَهُمَا الرَّحْمَنُ بِيَدِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ بِأَلْفِي سَنَةٍ، مِنْ قَرَأَمَا بَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ أَجْزَأَتَاهُ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ». وعنه عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَّتَاهُ». وهو يرد قول من استكره أن يقال سورة البقرة، وقال: ينبغى أن يقال السورة التى يذكر فيها البقرة، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: «السورة التى يذكر فيها البقرة فسقاط القرآن فتعلموها؛ فَإِنْ تَعَلَّمَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرَكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَهَا الْبَطَلَةُ». قيل: وما البطلة؟ قال: السحرة» (١).

الإشارة: يفهم من سر الآية أن من شق عليه أمر من الأمور، أو عسرت عليه حاجة، أو نزلت به شدة أو بلية، فليرجع إلى الله، ولينطرح بين يدي مولاه، وليعتقد أن الأمور كلها بيده؛ فإن الله تعالى لا يخليه من معونته ورفده، فيخفف عنه ما نزل به، أو يقويه على حمه، فإن الصحابة - رضى الله عنهم - لما شق عليهم المحاسبة على الخواطر سلّموا وأذعنوا لأمر مولاهم، فأنزل عليهم التخفيف، وأسقط عنهم فى ذلك التكليف، وكل من رجع فى أموره كلها إلى الله قضيت حوائجه كلها بالله. «من علامات النجح فى النهايات الرجوع إلى الله فى البدايات».

(١) قال الشهاب الخفاجى فى حاشيته على البيضاوى، موقفاً بين القائلين بكراهة أن يقال: سورة البقرة، وقول الجمهور بجوازه: إنما المنع من ذلك كان فى صدر الاسلام، لما استهزأ سفهاء المشركين بسورة العنكبوت ونحوها، فمنع ذلك دفعاً للملحدين. ثم لما استقر الدين، وقطع الله دابر القوم الظالمين، شاع ذلك وماغ.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّنا وَلَا تَحْمِلْنا ما لَا طاَقةَ لنا بِهِ﴾، قيل: هو الحب لله، فلا يسأل العبد من مولاه من حبه إلا ما يطيقه، وتأمل قضية الرجل الذي سأل سيدنا موسى ﷺ أن يرزقه الله حبه، فلما سأل ربه موسى ﷺ هام ذلك الرجل، وشق ثيابه، وتمزقت أوصاله حتى مات. فنادى موسى ﷺ ربه في شأنه، فقال: يا موسى، ألف رجل كلهم سألوني ما سأل ذلك الرجل، فقسمت جزءا من محبتي بينهم، فتابه ذلك الجزء. أو كما قال سبحانه.

وقال بعض الصالحين: حضرتُ مجلسَ ذي اللون، في فسطاط مصر، فَحَزَرْتُ^(١) في مجلسه سبعين ألفاً، فتلكم ذلك اليوم في محبته تعالى فماتَ أحدَ عشرَ رجلاً في المجلس، فصاح رجل من المريدين فقال: يا أبا الفيض، ذكرتُ محبةَ الله تعالى فاذا ذكر محبة المخلوقين، فتأوه ذو اللون تأوها شديداً، ومد يده إلى قميصه، وشقه اثنتين، وقال: آه! غلقت رهونهم، واستعبرت عيونهم، وحالفوا السُّهَادَ، وفارقوا الرُّقَادَ، فليلُهم طويل، ونومهم قليل، أحزانهم لا تُنفذ. وهموم لا تفقد، أمورهم عسيرة، ودموعهم غزيرة، باكية عيونهم، قريحة جفونهم، عاداهم الزمان والأهل والجيران.

قلت: هذه حالة العباد والزهاد، أولى الجد والاجتهاد، غلب عليهم الخوف المزعج، أو الشوق المقلق، وأما العارفون الواصلون؛ فقد زال عنهم هذا التعب، وأفضوا إلى الراحة بعد النصب، قد وصلوا إلى مشاهدة الحبيب، ومناجاة القريب، فعبادتهم قلبية، وأعمالهم باطنية، بين فكرة ونظرة، مع العكوف في الحضرة، قد سكن شوقهم وزال قلقهم، قد شربوا ورووا، وسكروا وصحوا، فلا تحركهم الأحوال، ولا تهيجهم الأقوال، بل هم كالجبال الرواسي، نفعا الله بذكرهم، وجعلنا من حزينهم. آمين.

قوله تعالى: (واعف عنا)، قال الورتجبي: أي: (واعف عنا) قلة المعرفة بك، (واغفر لنا) التقصير في عبادتك، (وارحمنا) بمواصلتك ومشاهدتك. هـ. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.



(١) حزر الشيء حزرًا: قدره بالتخمين فهو حازر.

سُورَةُ الْعَمْرَانِ

مدنية . وآياتها: مائتان، وقيل: مائة وسبع وثمانون . وكلماتها: ثلاثة آلاف وأربعمئة وثمانون كلمة، ومناسبتها لما قبلها: قوله تعالى في أولها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ إلخ، فكأنه تتميم لقوله، ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، وتفسير له .

ومضمونها: توجيه العتاب لثلاث طوائف: للنصارى؛ لغلوهم في عيسى عليه السلام، ولامتناعهم من الدخول في الإسلام، ويسببهم نزلت السورة، أعنى نصارى نجران، واليهود؛ لتفريطهم في اتباع النبي - عليه الصلاة والسلام - وللمسلمين؛ لما وقع لهم من الفشل يوم أحد، ولذلك افتتح السورة بذكر الكتب الثلاثة، إذ لو قاموا بحقوقها ما توجه لهم عتاب، فقال:

﴿الْعَمْرَانِ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ... ﴿٣﴾

قلت: فواتح السور كلها موقوفة خالية عن الإعراب؛ لفقدان موجب ومقتضيه، فيوقف عليها بالسكون، كقولهم: واحد، اثنان. وإنما فتح الميم هنا في القراءة المشهورة؛ لإلقاء حركة الهمزة عليها. انظر البيضاوى. قال ابن عباس رضي الله عنهما: (الألف آلاؤه، واللام لطفه، والميم ملكه).

قلت: ولعل كل حرف يشير إلى فرقة ممن توجه العتاب إليهم، فالآلاء لمن أسلم من النصارى، والالطف لمن أسلم من اليهود، والملك لمن أسلم من الصحابة - رضوان الله عليهم -، فقد ملكهم الله مشارق الأرض ومغاريها. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: أيها الملك المعظم، والرسول المفخم، بلغ قومك أن الله واحد في ملكه، ليس معه إله، ولا يحب أن يعبد معه سواه؛ إذ لا يستحق أن يعبد إلا الحي القيوم، الذي تعجز عن إدراكه العقول ومدارك الفهوم، قائم بأمر عبادته، متصرف فيهم، على وفق مراده، فأعذر إليهم على السنة المرسلين، وأنزل عليهم الكتب بيانا للمسترشدين، فنزل ﴿عليك الكتاب﴾ منجما في عشرين سنة، متلبسا بـ ﴿بالحق﴾، حتى ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾، أو متلبسا بالحجج التي تدفع كل باطل، أو بالعدل حتى ينتفى به جور كل مائل، ﴿مصدقا﴾ لما تقدم قبله من الكتب الإلهية؛ إذ هو موافق لما فيها من القصص والأخبار، فكان شاهدا عليها بالصحة والإبرار.

«وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ» من قبله هادياً لمن كُلف باتباعهما من الأنعام، أو للجميع، إذا كان شرع من قبلنا شرعاً لنا - معشر أهل الإسلام -، ثم ختم الوحي بإنزال «الفرقان»، وكلف بالإيمان به الإنس والجان، فرق به بين الحق والباطل، واندفع به ظلمة كل كافر وجاهل؛ وقدم ذكره على الكتب؛ لعظم شرفه، وختم به آخرها لتأخر نزوله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لما أراد الحق جل جلاله أن يشير إلى وحدة الذات وظهور أنوار الصفات، قدم قبل ذلك رموزاً وإشارات، لا يفهمها إلا من غاص في قاموس بحر الذات، وغرق في تيار الصفات، فيستخرج بفكرته من يواقيت العلوم وغوامض الفهوم، ما تحار فيه الأذهان، وتكل عنه عبارة اللسان، فحينئذ يفهم دقائق الرموز وأسرار الإشارات، ويطلع على أسرار الذات وأنوار الصفات، ويفهم أسرار الكتب السماوية، وما احتوت عليه من العلوم الدنية، والمواهب الربانية، ويشرق في قلبه أنوار الفرقان، حتى يرتقى إلى تحقيق أهل الشهود والعيان. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

ثم هدد من كفر بالفرقان، بعد وضوح سواطع البرهان، فقال:

﴿... إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ٤﴾

قلت: الانتقام والنقمة: عقوبة المجرم. وفعله: نقم؛ بكسر القاف وفتحها.

يقول الحق جل جلاله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ» المنزلة على نبيه أو على سائر أنبيائه، أو الآيات الدالة على وحدانيته، «لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ» يوم يظهر نفوذ الوعد والوعيد، فينتقم الله فيه من المجرمين، ويتعطف على عباده المؤمنين، فإن «اللَّهُ عَزِيزٌ» لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب، «ذُو انتِقَامٍ» كبير ولطف كثير. لطف الله بنا وبجميع المسلمين. آمين.

الإشارة: ظهور أولياء الله لطف من آيات الله، فمن كفر بهم حرم بركتهم، وبقي في عذاب الحجاب وسوء الحساب، تظهر عليه النقمة والمحنة، حين يرفع الله المقربين في أعلى عليين، ويكون الغافلون مع عوام المسلمين، (ذلك يوم التغابن). والله تعالى أعلم.

ولما وصف الحق جل جلاله نفسه بالوحدانية والحياة والقيومية المقتضية للغنى المطلق، وصف نفسه أيضاً بالعلم المحيط والقدرة النافذة، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ من أمر خلقه، إيماناً أو كفراناً، طاعة أو عصياناً، أحاط علمه بما في السموات العلى وما في الأرضين السفلى، كلياً كان أو جزئياً، حسياً أو معنوياً، يعلم عدد الحصى والرمال، ومكايل المياه ومثاقيل الجبال، ويعلم حوادث الضمائر، وهواجس الخواطر، بعلم قديم أزلي، وله قدرة نافذة، وحكمة بالغة، فبقدرته صور النطف في الأرحام كيف شاء سبحانه من نقص أو تمام، وأتقنها بحكمته، وأبرزها إلى ما يسر لها من رزقه، سبحانه من مدبر عليم، عزيز حكيم، لا يعجزه شيء، ولا يخرج عن دائرة علمه شيء، لا موجود سواه، ولا نعبد إلا إياه، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

الإشارة: مَنْ تحقق أن الله واحد في ملكه، لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وأنه أحاط به علماً وسمعاً وبصراً، وأن أمره بين الكاف والنون، (إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) - كيف يشكو مانزل به منه إلى أحد سواه؟ أم كيف يرفع حوائجه إلى غير مولاه؟ أم كيف يعولهما، وسيدُهُ من خيره لا ينسأه؟ من دبرك في ظلمة الأحشاء، وصورك في الأرحام كيف يشاء، وآتاك كل ما تسأل وتشاء، كيف ينسأك من بره وإحسانه؟ أم كيف يخرجك عن دائرة لطفه وامتنانه؟ وفي ذلك يقول لسان الحقيقة:

تَذَكَّرْ جَمِيلِي فِيكَ إِذْ كُنْتَ نُطْفَةً	وَلَا تَنْسَ تَصَوِيرِي لِشَخْصِكَ فِي الْحَشَا
وَكُنْ وَائْتَقِ بِي فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا	سَأَكْفِيكَ مِنْهَا مَا يَخَافُ وَيَخْتَشَى
وَسَلِّمْ لِي الْأَمْرَ وَاعْلَمْ بِأَنَّنِي	أَصْرَفُ أَحْكَامِي وَأَفْعَلُ مَا أَشَاءُ

ثم وصف كتابه الفرقان بأنه مشتمل على ما هو مُحْكَم واضح البيان، وعلى ما هو متشابه لا يعلمه إلا الله، والراسخون من أهل العرفان، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْبَيْتِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

قلت : (منه) : خبر مقدم ، و(آيات) : مبتدأ ، فيوقف على (الكتاب) ، وقيل : (منه) : نعت لكتاب ، وهو بعيد .

قال ابن السبكي : المحكم : المتضح المعنى ، والمتشابه : ما استأثر الله بعلمه ، وقد يُطْلَعُ عليه بعض أصفياه . و(هن أم الكتاب) : جملة ، وحق الخبر المطابقة فيقول : أمهات ، وإنما أفردته على تأويل كل واحدة ، أو على أن الكل بمنزلة آية واحدة . والزيغ : الميل عن الحق . و(الراسخون في العلم) : معطوف على (الله) ، أو مبتدأ ؛ إن فسر المتشابه بما استأثر الله بعلمه ، كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة ، أو بما دل القاطع على أن ظاهره غير مراد . قاله البيضاوي . و (إذ هديتنا) : ظرف مجرور بالإضافة مسبوك بالمصدر ، أى : بعد هدايتك إيانا .

يقول الحق جل جلاله : إن الذى انفرد بالوحدانية والقيومية ، ولا يخفى عليه شئ فى العالم العلوى والسفلى «هو الذى أنزل عليك الكتاب» المبين ، فمنه ما هو «آيات محكمات» واضحات المعنى ، لا اشتباه فيها ولا إجمال ، «هن أم الكتاب» أى : أصله ، يُرد إليها غيرها ، «و» منه آيات «آخر متشابهات» أى : محتملات ، لا يتضح مقصودها ؛ لإجمال أو مخالفة ظاهر ؛ إلا بالفحص وجودة الفكر ، ليظهر فضل العلماء النقاد ، ويزداد حرصهم على الاجتهاد فى تدبرها وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها ، فينال بها ، وبإتباع القرائح فى استخراج معانيها ، والتوفيق بينها وبين المحكمات ، أعلى الدرجات وأرفع المقامات .

قال فى نواذر الأصول : لما تكلم على المتشابه قسمه على قسمين ؛ منه ما طوى علمه إلا على الخواص ؛ كعلم فواتح السور ، ومنه ما لم يصل إليه أحد من الرسل فمن دونهم ، وهو سر القدر ؛ لا يستقيم لهم مع العبودية ، ولو كشف لفسد العبودية ، فطواه عن الرسل والملائكة ؛ لأنهم فى العبودية ، فإذا زالت العبودية احتملوها ؛ أى : أسرار القدر . هـ . ولمثل هذا يشير قول سهل : للألوهية سر - لو انكشف لبطلت النبوة ، وللنبوة سر - لو انكشف لبطل العلم ، وللعلم سر لو انكشف لبطلت الأحكام . هـ .

قلت : فَتَحَصَّلَ أَنَّ الكتاب العزيز مشتمل على المحكم والمتشابه . وأما قوله تعالى : «كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ» فمعناه : أنها حفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ ، وقوله تعالى : «كِتَاباً مُتَشَابِهاً» معناه : أنه يشبه بعضه بعضاً فى صحة المعنى وجزالة اللفظ .

ثم إن الناس فى شأن المتشابه على قسمين : «فأما الذين فى قلوبهم زيغ» : أى : شك ، أو ميل عن الحق ، كالمبتدعة وأشباههم ، «فيتبعون ما تشابه منه» ، فيتعلقون بظاهره ، أو بتأويل باطل ، «ابتغاء الفتنة» أى : طلباً لفتنة الناس عن دينهم : بالتشكيك والتلبيس ، ومناقضة المحكم بالمتشابه ، «وابتغاء تأويله» على ما يشتهون ليوافق بدعتهم .

رَوَى عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فَقَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ عَنِ الْمُتَشَابِهِ مِنْهُ، وَيَجَادِلُونَ فِيهِ، فَهَمُّ الَّذِينَ عَنَّا اللَّهُ تَعَالَى، فَاحْذَرُوهُمْ، وَلَا تَجَالِسُوهُمْ» .

(وما يعلم تأويله) على الحقيقة (إلا الله) تعالى، وقد يُطلع عليه بعض خواص أوليائه، وهم (الراسخون) أى: الثابتون فى العلم، وهم العارفون بالله أهل الفناء والبقاء، وهم أهل التوحيد الخاص.. فقد أطلعهم تعالى على أسرار غيبه، فلم يبق عندهم متشابه فى الكتاب ولا فى السنة، حال كونهم (يقولون آمنا به) ، وصدقنا أنه من كلامه، (كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا) ؛ المحكم والمتشابه، وقد فهمنا مراده فى القسمين، وهم أولو الألباب، ولذلك مدحهم فقال: (وما يذكّر إلا أولوا الألباب) أى: القلوب الصافية من ظلمة الهوى وغبش الحس.

سُئِلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : مَنْ الراسخون فى العلم ؟ فقال: « من برّ يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، وعفّ بطنه وفرجه، فذلك الراسخ فى العلم » . وقال نافع بن يزيد: الراسخون فى العلم: المتواضعون لله، المتذللون فى طلب مرضات الله، لا يتعظمون على مَنْ فوقهم، ولا يحقرون من دونهم. هـ. وقيل: الراسخ فى العلم: من وجد فيه أربعة أشياء: التقوى بينه وبين الله، والتواضع بينه وبين الخلق، والزهد بينه وبين الدنيا، والمجاهدة بينه وبين نفسه. هـ. قلت: ويجمع هذه الأوصاف العارف بالله، فهو الراسخ فى العلم كما تقدم.

ويقولون أيضا فى تضرعهم إلى الله: «ربنا لا تزغ قلوبنا» عن نهج الحق بالميل إلى اتباع الهوى، «بعد إذ هديتنا» إلى طريق الوصول إلى حضرتك، «وهب لنا من لدنك رحمة» تجمع قلوبنا بك، وتضم أرواحنا إلى مشاهدة وحدانيتك، «إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ» ؛ تهب للمؤمل فرق ما يؤمل. «ربنا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ» الجزاء الذى «لَا رَيْبَ فِيهِ» ، فاجمعنا مع المقربين؛ إِنَّكَ «لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ» ، فأنجز لنا ما وعدتنا فى ذلك اليوم. وخلف الوعد فى حقه تعالى محال. أما الوعد بالخير فلا إشكال، وأما الوعيد بالشر، فإن كان فى مُعَيَّنٍ فلا يخلفه، وإن كان فى الجملة فيخلفه بالعفو. والله تعالى أعلم.

وقال فى النوادر أيضا: لَمَّا رَدَّ الراسخون فى العلم عِلْمَ الْمُتَشَابِهِ إِلَى عَالَمِهِ، حَيْثُ قَالُوا: «آمنا به كل من عند ربنا» ، خافوا شَرَّهَ النُّفُوسِ لَطَلِبَهَا؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ لَذِيذٌ، وَفِتْنَةٌ تَلْكَ اللَّذَّةَ لَهَا عِتَابٌ، فَفَزَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ فَقَالُوا: «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة» ، علموا أن الرحمة تطفئ تلك الفتنة. ولما كان يوم القيامة ينكشف فيه سر القدر حنوا إليه فقالوا: «ربنا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ...» الآية. سكتوا نفوسهم لمجىء ذلك اليوم الذى تَبَيَّنُ فِيهِ الْحِكْمَةُ، وتظهر فيه القدرة. هـ بالمعنى.

الإشارة: إذا صفت القلوب، وسكنت فى حضرة علام الغيوب، تزلزلت عليها الواردات الإلهية والعلوم اللدنية، والمواهب القدسية، فمدّها ما تكون محكمات المبني، واضحات المعنى، ومنها ما تكون مجملة فى حال ورودها،

وبعد الوعي يكون البيان، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾. وقد تكون خارجة عن مدارك العقول. فأما أهل الزيغ والانتقاد فيتبعون المتشابه من تلك الواردات، ابتغاء فتنة العامة، وصرفهم عن طريق الخاصة، وابتغاء تأويله، ليقيم عليه حجة الشريعة، (وما يعلم تأويله إلا الله)، أو من تحقق فناؤه في الله، وهم الراسخون في معرفة الله، يقولون: (آمنا به كل من عند ربنا)؛ إذ القلوب المطهرة من الهوى لا تنطق عن الهوى، وهم أرباب القلوب يقولون: (ربنا لاترغ قلوبنا) عن حضرة قدسك (بعد إذ هديتنا) إلى الوصول إليها، (وهب لنا من لدنك رحمة) نعصمنا من النظر إلى سواك، (إنك أنت الوهاب)

ربنا إنك جامع الناس. وهم المسائرون إليك ليوم لا ريب في الوصول إليه، وهو يوم اللقاء، (إنك لا تخلف الميعاد) فاجمع بيننا وبينك، وحل بيننا وبين من يقطعنا عنك؛ (إنك على كل شيء قدير).

ثم هدد أهل الزيغ والفساد، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝ كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾

قلت: (الوقود) بالفتح: الحطب، وبالضم: المصدر، (كذاب آل فرعون) خبر، أي: دأبهم كذاب آل فرعون. والدأب: مصدر دأب، إذا دام، ثم نقل إلى الشأن والعادة، و(كذبوا): حال بإضممار «قد»، أو مستأنف، تفسير حالهم، أو خبر؛ إن ابتدأت بالذين من قبلهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما أنزلته، على نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام -، إذا عاينوا العذاب ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾، أي: بدلاً من رحمته أو طاعته، أو بدلاً من عذابه، ﴿شَيْئًا﴾، وأولئك هم حطب جهنم، فشانهم كشأن ﴿آل فرعون والذين من قبلهم﴾، قد ﴿كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي: أهلكهم، وشدد العقوبة عليهم، ﴿والله شديد العقاب﴾ لمن أعرض عنه وركن إلى غيره.

الإشارة: كل من جحد أهل الخصوصية، وفاته حظه من مشاهدة عظمة الربوبية، حتى حصل له الطرد والبعد، وفاته مرافقة أهل المحبة والوداد، لن تغنى عنه - بدلاً مما فاته - أموال ولا أولاد، واتصلت به الأحزان والأنكاد؛ كما قال الشاعر:

مَنْ فَاتَهُ مِنْكَ وَصْلُ حَظِّهِ النَّسَمُ وَمَنْ تَكُنْ هَمَّهُ تَسْمُوبُهُ الْهَمُّ

وقال آخر:

مَنْ قَاتَهُ طَلَبُ الْوُصُولِ وَنَيْلُهُ مِنْهُ، فَقُلْ: مَا الَّذِي هُوَ يَطْلُبُ
حَسْبُ الْمَحِبِّ فِدَاؤُهُ عَمَّا سِوَى مَحْبُوبِهِ إِنَّ حَاضِرًا وَمُغِيبًا

وقال آخر:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا فَارَقْتَهُ عِوَضٌ وَلَيْسَ لِلَّهِ إِنْ فَارَقْتَ مِنْ عِوَضٍ

وفي الحكم: «ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضى دونك بدلا، ولقد خسر من بنى عليك متحولا». فكل من وقف مع شيء من السوى، وفاته التوجه إلى معرفة المولى، فهو في نار القطيعة والهوى، مع النفوس الفرعونية، وأهل الهمم الدنية. نسأل الله تعالى العافية.

ثم بدأ بعتاب اليهود، بعد أن قرر شأن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من المحكم والمتشابه، توطئة للكلام معهم، فقال:

﴿قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾

قلت: لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة بدر غالباً منصوراً بالغنائم والأسارى، جمع اليهود في سوق بنى قينقاع، وقال لهم: يا معشر اليهود، اتقوا الله وأسلموا، فإنكم تعلمون أنى رسول الله حقا، واحذروا أن ينزل الله بكم من نعمته ما أنزل على قريش يوم بدر، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك أنك لقيت أغماراً لا علم لهم بالحرب، لكن قاتلنا لتعلمن أننا نحن الناس. فأنزل الله فيهم هذه الآية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من بنى إسرائيل، أو مطلقاً: ﴿سِتْغَلِبُونَ﴾ إن قاتلتم المسلمين، ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ بعد الموت والهزيمة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ ما مهدتم لأنفسكم من العذاب، وقد صدق وعده بقتل قريظة، وإجلاء بنى النضير، وفتح خيبر، وضرب الجزية على من عداهم. فقد غلبوا أيما ثقفوا، وحشروا إلى جهنم، إلا من أسلم منهم.

ثم ندبهم للاعتبار بما وقع من النصر للمسلمين يوم بدر فقال لهم: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ يا معشر اليهود، ﴿آيَةٌ﴾ أى: عبرة ظاهرة، ودلالة على صدق ما أقول لكم: إنكم ستغلبون، ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾ أى: جماعتين ﴿الَّتَقَتَا﴾ يوم بدر، وهم

المسلمون، وكانوا ثلاثمائة وأربعة عشر، والمشركون كانوا زهاء ألف، ﴿فَلَمَّا تَقَاتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المؤمنون، ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾، وهم المشركون، ﴿تَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ﴾ أى: ترون، يا معشر اليهود، الكفار مِثْلَى عدد المسلمين رأى تحقيق، ومع ذلك أيدهم الله بالنصر والمدد حتى نصرهم على عدوهم، وكذلك يفعل بهم معكم.

والرؤية، على هذا، علمية. ومن قرأ (بالياء) يكون الضمير راجعاً للكفار، أى: يرى الكفار المسلمين مِثْلِهِمْ، وذلك بعد أن قلهم الله فى أعينهم حتى اجتروا عليهم، وتوجهوا إليهم، فلما لا قوهم كثروا فى أعينهم حتى غلبوا، مدداً من الله للمؤمنين.

أو: يرى المؤمنون المشركين مِثْلَى المؤمنين، وكانوا ثلاثة أمثالهم، ليثبتوا لهم، ويتيقنوا بالنصر الذى وعدهم الله بقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ...﴾ الآية. «والله يؤيد» أى: يقوى «بنصره من يشاء» نصره، كما أيد أهل بدر، «إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ» المفتوحة. وذلك حين نصر الله قوماً لا عدد لهم ولا عدة، على قوم لهم عدد وعدة، فلم تغن عنهم من الله شيئاً.

الإشارة: إذا توجه القلب إلى مولاه تعرض له جندان، أحدهما: جند الأنوار، وهو جند القلب، والثانى: جند الأغيار، وهو جند النفس، فيلتحم بينهما القتال، فجند الأنوار يريد أن يرتقى بالروح إلى وطنها؛ وهو حضرة الأسرار، وجند الأغيار يريد أن يهبط بالنفس إلى أرض الحظوظ والشهوات، فيحبسها فى سجن الأكوان، فإذا أراد الله تعالى سعادة عبد، قوى له جند الأنوار، وضعف عنه جند الأغيار، فينهزم عنه جند الأغيار، ويستولى على قلبه جند الأنوار، فلا تزال الأنوار تتوارد عليه حتى تشرق عليه أنوار المواجهة، فيدخل حضرة الأسرار، وهى حضرة الشهود، ويتحصن فى جوار الملك الودود، وتناديه ألسنة الهواتف: أيها العارف، قل للذين كفروا، وهم جند الأغيار: ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد. وإذا أراد الله خذلان عبده، بعدله، قطع عنه مدد الأنوار، وقوى لديه جند الأغيار، فتستولى ظلمة النفس على نور القلب، فتحبسه فى سجن الأكوان، وتسجنه فى ظلمة هيكَل الإنسان، (والله يؤيد بنصره من يشاء). ففى التقاء جندى الأنوار والأغيار عبرة لأولى الأبصار.

ثم بين الحق تعالى مدد جند الأغيار، والذى منع الأبصار من الاعتبار، فقال:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾

قلت: (زَيْن): بحذف الفاعل، وهو الله، حقيقة؛ إذ لا فاعل سواه، أو الشيطان، شريعة؛ إذ هو منديل لمسح أوساخ الأقدار. والقنطار: المال الكثير، وقيل: مائة ألف دينار، وقيل: ملء مسك الثور. وروى عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «القنطار: ألف دينار»، وفي رواية: «ألف دينار»، وفي عرفنا اليوم: ألف مثقال.

والمقنطرة: المنضدة بعضها فوق بعض، وسمى الذهب ذهباً؛ لذهابه وفنائه، أو لذهابه بالقلوب عن حضرة الغيوب، وسميت الفضة فضة؛ لأنها تنفض أي: تنفرك، أو تفرق القلوب لمن اشتغل بها. والمسومة: المعلمة أو الراعية أو المهيمة الحسان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ والركون إلى المألوفات، حتى صرفهم ذلك عن النظر والاعتبار، أو الشهود والاستبصار، وذلك لمن وقف مع متعتها، وغرته شهوة لذتها، وأما من ذكرته نعيم الجنان، وأعانتة على طاعة الملك الديان، فلم يقف مع متعتها، ولا التفت إلى عاجل شهوتها، بل نزل إليها بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين، فلا يشملها تحذير الآية؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «حُبُّ إِلَى مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ...» الحديث.

وقال بعض الأولياء: [كل شهوة تحجب القلب عن الله، إلا شهوة الجماع] يعني الحلال، وقال الورتجبي: ابتلاهم حتى يظهر الصادق بترك هذه الشهوات، من الكاذب بالشروع في طلبها، قيل: من اشتغل بهذه الأشياء قطعته عن طريق الحق، ومن استصغرها وأعرض عنها، عوض عليها السلامة منها، وفتح له الطريق إلى الحقائق. هـ.

ثم بدأ برأس الشهوات فقال: ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ وذلك لمن شغف بهن فصرف عن ذكر الله، أو تناولهن على وجه الحرام. وفي الخبر عنه - عليه الصلاة والسلام -: «مَا تَرَكْتُ فِي النَّاسِ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ». وفي خبر آخر: «النظر إلى محاسن المرأة من سهام إبليس». وَمَنْ ثُمَّ جُعِلَ فِي الْقُرْآنِ عَيْنَ الشَّهَوَاتِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

وقال بعض العارفين: ما أيس الشيطان من إنسان قط إلا أتاه من قبل النساء. وقال على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيها الناس، لا تطيعوا للنساء أمراً، ولا تدعوهُنَّ يدبرن أمر عيش، فإنهن إن تركن وما يردن أفسدن الملك، وعصين المالك، وجدناهن لا دين لهن في خلواتهن، ولا ورع لهن عند شهواتهن، اللذة بهن يسيرة، والحيرة بهن كثيرة، فأما صوالهن ففاجرات، وأما طوالهن فعاشرات - أي: زانيات -، وأما المعصومات فهن المعدومات، يتظلمن وهن

الظالمات، ويتمنعن وهن الراغبات، ويحلفن وهن الكاذبات، فاستعينوا بالله من شرارهن، وكونوا على وجل من خيارهن، والسلام. هـ (١).

«والبنين»: قال - عليه الصلاة والسلام -: «إنهم لثمرة القلوب، وقُرَّةُ الأعين، وإنهم مع ذلك لَمَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَحْزَنَةٌ». «والقناطير المقنطرة»: أى: المجموعة المنضدة، «من الذهب والفضة. والخيل المسومة»: أى: المعلمة: وهى البلق، أو غيرها، وفى الحديث عنه ﷺ: «الْخَيْلُ مَعْقُودَةٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ». وعن أنس قال: (لم يكن شيء أحب إلى النبي ﷺ بعد النساء، من الخيل). وعن أبى وهب الجشمي قال النبي ﷺ: «ارتبطوا بالخيل، وامسحوا بنواصيها، وقلدوها، ولا تقلدوها الأوتار، وعليكم بكل كُمَيْتٍ (٢) أغر مُحَجَّلٍ، أو أشقر أغر مُحَجَّلٍ، أو أدهم أغر مُحَجَّلٍ». وعن خباب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيل ثلاثة: فرس للرحمن، وفرس للإنسان، وفرس للشيطان، فأما فرس الرحمن فما اتخذ الله في سبيل الله، وقوتل عليه أعداء الله، وأما فرس الإنسان فما استطرق عليه. أى: ركب عليه في طريق حوائجه، وأما فرس الشيطان فما روهن عليه، وقومر عليه». وفى البخارى ما يشهد لهذا.

ومما زين للناس أيضا: حب «الأنعام»، وهى الإبل والبقر والغنم، إن شغلته عن ذكر الله، ومنع منها حق الله، «والحرث»: أى: الزراعة والغراسة، «ذلك» الذى ذكرت «متاع الحياة الدنيا» الفانية الزائلة، «والله عنده حسن المآب»، أى: المرجع فى دار البقاء التى لا يفنى نعيمها، ولاتنقطع حياتها إلى أبد الأبد.

الإشارة: كل ما يقطع القلب عن الشهود، أو يفتِّره عن السير إلى الملك المعبود، فهو شهوة، كائنًا ما كان، أغياراً أو أنواراً، أو علوماً أو أحوالاً، أو غير ذلك، فالتساء الأغيار، والبنون الأنوار، والقناطير المقنطرة من الذهب علوم الطريقة، والفضة علوم الشريعة، والخيل المسومة هى الأحوال، والأنعام الأذكار، والحرث استعمال الفكرة. فكل من وقف مع حلاوة شيء من هذا، ولم يفض إلى راحة الشهود والعيان، فهى فى حقه شهوة.

وبعد أن ذكر الحق تعالى أنواعاً من الشهوات، زهد فيها فقال: «ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب» قال أبو هاشم الزاهد رضي الله عنه: «سَمَّ الله الدنيا بالوحشة؛ ليكون أنس المريد بربه دونها، وليقبل المطيعون بالإعراض عنها، وأهل المعرفة بالله من الدنيا مستوحشون، وإلى الله مشتاقون. هـ.

(١) هذا الكلام مشكوك فى نسبه لسيدنا «على»، كرم الله وجهه. ومن يستطلع تاريخ السلف الصالح يقف على أمثلة كثيرة وعديدة لنساء صالحات تفوقن على كثير من الرجال فى الصلاح.

(٢) الكُمَيْت: مالونه بين السواد والحمرة.

وقد تعوذ النبي ﷺ من شر فتنتها، غناها وفقرها. وأكثر القرآن مشتمل على ذمها، وتحذير الخلق منها، بل ما ن داع يدعو إلى الله تعالى إلا وقد حذر منها، ورغب في الآخرة، بل هو المقصود بالذات من بيان الشرائع، كيف لا - وهي عدوة الله؛ لقطعها طريق الوصلة إليه، ولذلك لم ينظر إليها منذ خلقها. وعدوة لأوليائه؛ لأنها بينت بزيئها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها، وعدوة لأعدائه؛ لأنها استدرجتهم بمكرها، واقتنصتهم نبكتها، فوثقوا بها، فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها. كفانا الله شرها بعنه وكرمه.

ثم نبه الحق تعالى على ما هو المقصود الأهم لمن له عقل وافر، فقال:

﴿ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُدْرُونَ فِيهَا وَازْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝١٥ الَّذِينَ تُولُونَ رِيقًا إِنَّمَا أَمْنَا غَفِرْنَا ذُنُوبَكُمْ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٦ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ ۝١٧ وَالْمُتَّقِينَ ۝١٨ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ۝١٩ ﴾

قلت: (الذين): خبر، و(جنات): مبتدأ، وهو استئناف لبيان الخيرية، والرضوان فيه لغتان: الضم والكسر، العدوان والطغيان، و(الذين يقولون): بدل من (الذين اتقوا)، أو خبر عن مضمر، أو منصوب على المدح، أو بدل من العباد، و(الصابرين) وما بعده: نعت الموصول.

يقول الحق جل جلاله: «قل» يا محمد: أخبركم «بخير» من الذي ذكرت لكم من الشهوات الفانية اللذات الزائلة، وهو ما أعد الله للمتقين عند لقاء ربهم، وهو «جنات تجري من» تحت قصورها الأنهار؛ من ماء واللبن والعسل والخمر، «خالدين فيها»، لا كنعيم الدنيا الفاني، «ولهم فيها أزواج» من الحور العين، طهرات من الحيض والنفاس ومائر المستقذرات، «ورضوان من الله» الذي هو (أكبر) النعم.

فانظر: كيف ذكر الحق - جل جلاله - أدنى اللعيم وأوسطه وأعلىه؟ فأدناه: متاع الدنيا الذي زين للناس، أوسطه: نعيم الجنان، وأعلىه: رضى الرحمن. وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا لَنَا لَا نَرْضَى قَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نَعْطِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَهْلُ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أُسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا».

«والله بصير بالعباد»؛ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، فيثيب المحسن، ويعاقب المسيء، أو: (بصير) بأحوال المتقين .

«الذين يقولون ربنا إننا آمنّا فأغفر لنا ذنوبنا وقتنا عذاب النار». وفي ترتيب السؤال على مجرد الإيمان دليل على أنه كاف في استحقاق المغفرة والاستعداد لها.

ثم وصف المتقين بقوله: «الصابرين» على أداء الأمر واجتناب النهي، وفي البأساء والضراء وحين البأس، «والصادقين» في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فاستوى سرهم وعلاانيتهم، «والقانتين» أي: المطيعين، «والمنفقين» أموالهم في سبيل الله، «والمستغفرين بالأسحار»؛ لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة؛ لأن العبادة حينئذ أشق، والنفس أصفى، والروح أجمع، ولأ سيما للمتجهدين.

قيل: إنهم كانوا يصلّون إلى السحر، ثم يستغفرون ويدعون، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: (إن الله تعالى يقول: إني لأهم بأهل الأرض عذاباً، فإذا نظرت إلى عمار بيوتى، وإلى المتجهدين، وإلى المتحابين فيّ، وإلى المستغفرين بالأسحار، صرفت عنهم العذاب).

وقال سفيان: إن لله ريحاً يقال لها الصيحة، تهب وقت السحر، تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار، قال: ولغنا أنه إذا كان أول الليل، نادى مناد: ألا ليقيم القانتون، فيقومون يصلّون إلى السحر، فإذا كان وقت السحر، ينادى مناد: أين المستغفرون بالأسحار؟ فيستغفر أولئك، ويقوم آخرون، ويصلّون، فيلحقون بهم، فإذا طلع الفجر، نادى مناد: ألا ليقيم الغافلون، فيقومون من فرشهم كالموتى إذا نشروا من قبورهم.

الإشارة: للذين اتقوا شهود السوى عند ربهم جنات المعارف، تجرى من تحتها أنهار العلوم، وأصناف الحكم، مطهرة من العلل، منزهة من الخل، تهب عليهم نسيم الرضوان، تحمل الروح والريحان، مخلصون في نعيم الشهود والعيان، والله بصير بعباده المخلصين، المنزهين من العيوب، المبرئين من درن الذنوب، الصابرين على دوام المجاهدة، والصادقين في طلب المشاهدة، والقانتين لأحكام العبودية، والمنفقين أنفسهم ومهجهم في طلب مشاهدة أنوار الربوبية، والمستغفرين من شهود الأغيار، وخصوصاً إذا هب نسيم الأسحار، فإن كثيراً من العباد والزهاد شغلهم حلاوة نسيم الأسحار عن مطالعة أسرار الجبار، وهى أسرار التوحيد التى أشار إليها بقوله:

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ... ﴾

قلت: (قائما): حال من (الله)، وإنما جاز من بعض المعطوفات لعدم اللبس، كقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً...﴾، ولا يجوز: جاء زيد وعمرو راكباً؛ لعدم القرينة، أو من (هو)، والعامل الجملة؛ لأنه حال مؤكدة، أى: تفرد قائما، أو حقه قائما، (بالقسط) أى: العدل، و(إن الدين): جملة مستأنفة مؤكدة للأولى، أى: لا دين مرضى عند الله سوى الإقرار بالشهادة والدخول فيما جاء به محمد ﷺ، ومن قرأ بالفتح فهو بدل من (أنه)، بدل الكل، إن فسر الإسلام بالإيمان، وبدل الاشتمال إن فسر بالشرعية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ أى: بين وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها، وإنزال الآيات الناطقة بها، أو بتدبيره العجيب وصنعتة المتقنة وأموره المحكمة، وفي ذلك يقول القائل:

يا عَجَباً كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ	أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُ الْجَاهِدُ؟
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ	وَتَسْكِينَةٍ أَبَدٌ شَاهِدٌ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ	تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ ^(١)

وقيل لبعض العرب: ما الدليل على أن للعالم صانعا؟ فقال: البعرة تدل على البعير، وأثار القدم تدل على المسير، فهيكल علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلى بهذه الكثافة، أما يدلان على الصانع الخبير؟

﴿شهدت الملائكة﴾ أيضا بالإقرار بالوحدانية والإخبار بها، ﴿وأولو العلم﴾ وهم: الأنبياء والعلماء بالله، بالإيمان بها والاحتجاج عليها، شبه ذلك فى البيان والكشف بشهادة الشاهد. وفيه دليل شرف أهل العلم وفضلهم، حيث قرن شهادتهم بشهادته؛ لأن العلم صفة الله العليا ونعمته العظمى، والعلماء أعلام الإسلام، والسابقون إلى دار السلام، وسرج الأمكنة وحجج الأزمنة.

وعن جابر قال: قال النبي ﷺ: «سَاعَةٌ مِنْ عَالَمٍ يَنْكِيءُ عَلَى فِرَاشِهِ، يَنْظُرُ فِي عِلْمِهِ، خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الْعَابِدِ سَبْعِينَ عَامًا». وعن معاذ قال: قال النبي ﷺ: «تَعْلَمُوا الْعِلْمَ فَإِنْ تَعْلَمَهُ لِلَّهِ خَشْيَةً، وَمَدَارِسَتْهُ تَسْبِيحًا، وَابْحَثْ فِيهِ جِهَادًا، وَتَعْلِيمَهُ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةً، وَتَذَكُّرُهُ فِي أَهْلِهِ قُرْبَةً». ثم قال فى آخر الحديث فى فضل أهل العلم: «وَتَرَّغَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي خَلْقِهِمْ، وَبَاجَنْحَتْهَا تَمْسَحُهُمْ، وَفِي صَلَاتِهَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، وَكُلُّ رُطْبٍ وَيَابِسٍ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ. حَتَّى حَيْثَانِ الْبَحْرِ وَهَوَامِهِ، وَسَبَاعِ الْأَرْضِينَ وَأَنْعَامِهَا، وَالسَّمَاءِ وَنَجُومِهَا، أَلَا وَإِنَّ الْعِلْمَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ مِنَ الْعَمَى، وَنُورَ الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ، وَقُوَّةَ الْأَبْدَانِ مِنَ الضَّعْفِ، يَبْلُغُ بِالْعَبْدِ مَنْزِلَ الْأَحْرَارِ وَمَجَالِسَةَ الْمُلُوكِ، وَالْفِكْرَ فِيهِ يُعَدِّلُ بِالصِّيَامِ، وَمَدَارِسَتْهُ بِالْقِيَامِ، وَبِهِ يَعْرِفُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَبِهِ تَوْصِلُ الْأَرْحَامَ، الْعِلْمُ إِمَامٌ وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ، يُلْهِمُهُ السَّعَادَةَ، وَيُحَرِّمُهُ الْأَشْقِيَاءَ».

(١) الأبيات لأبى العتاهية، انظر ديوانه ١٢٢. وذكرها الأصبهاني فى محاضرات الأدباء ٣/٣٩٨ منسوبة للبيد.

حال كون الحق تعالى «قائماً بالقسط» أى: مُدبراً لأمر خلقه بالعدل، فيما حكم وأبرم، «لا إله إلا هو» كرر الشهادة للتأكيد، ومزيد الاعتبار بأمر التوحيد، والحكم به، بعد إقامته الدليل. عليه وقال جعفر الصادق (الأولى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم). أى: قولوا: «لا إله إلا هو»، أو ليرتب عليه قوله: «العزیز الحكيم»، فيعلم أنه الموصوف بهما، وقدم «العزیز» ليتقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته.

«إن الدين عند الله الإسلام» أى: إن الدين المرضى عند الله هو الانقياد لأمر التوحيد والإذعان لمن جا به. وروى عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من قرأ هذه الآية عند مدامه خلق الله تعالى سبعين ألف خلق يستغفرون الله له إلى يوم القيامة» (١). وهى أعظم شهادة فى كتاب الله، «من قرأها إلى (الحكيم) وقال: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهى لى عند الله وديعة، يقول الحق تعالى: إن لعبدى هذا عندى عهد وأنا أحق من وفى بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة» (٢).

الإشارة: صدر الآية يشير إلى الفرق، وعجزها يشير إلى الجمع، كما هى عادته تعالى فى كتابه العزيز يشرع أولاً، ويحقق ثانياً، فأثبت الحق - جل جلاله - شهادة الملائكة وأولى العلم مع شهادته؛ لإثبات سر الشريعة. ثم محاها بقوله: (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) بحكم الحقيقة. فأثبت الرسوم شريعة، ومحوها حقيقة، فتوحيد أهل الرسوم والأشكال دلالة من وراء الحجاب، وتوحيد أهل المحو والاضمحلال شهادة من داخل الحجاب، وتوحيد أهل الرسوم دلالة وبرهان، وتوحيد أهل المحو شهادة وعيان، أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان. إثبات الرسوم إسلام وإيمان، ومحوها شهود وإحسان، وكل توحيد لم تظهر ثمرته على الجوارح من الإذعان والانقياد لأحكام العبودية فهو مخدج (٣)، لقوله تعالى: «إن الدين عند الله الإسلام» أى، الانقياد والإذعان، ظاهراً وباطناً، لأحكام القهرية والتكليفية، فمن لا انقياد له لا دين له كاملاً.

ثم ذكر من سبق له الخذلان بعد سطوع الدليل والبرهان، فقال:

﴿... وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا إِلَيْكَ أَلَا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٩)

(١) ذكره ابن عراق فى تنزيه الشريعة ٢٩٨/١ وعزاه لأبى نعيم، من حديث أنس. وفيه مجاشع بن عمرو، قال ابن معين: أحد الكذابين.

(٢) أخرجه الطبراني فى الكبير والبيهقى فى الشعب، قال فى العلل المتناهية ١/١١٠: هذا حديث لا يصح، تفرد به عمر بن المختار وعمر يحدث بالباطيل.

(٣) الخداج: هو النقصان. وأصله: من خدجت الناقة إذا ألقت ولدها قبل أوانه، لغير تمام الأيام، وإن كان تام الخلق، أو ألقت ناقص الخلق، وإن كانت أيامه تامة، فهى مخدج والولد مخدج.

قلت: (بغياً): مفعول له، علة للاختلاف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ﴾ اليهود والنصارى فى حقيقة الإسلام والتدين به، ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أى: من بعد ما تمكنوا من العلم بصحته، وأن الدين عند الله هو الإسلام، فجحدوه ظلماً وحسداً. أو ما اختلف أرباب الكتب المتقدمة فى دين الإسلام؛ فأثبتته قوم، وقال قوم: إنه مخصوص بالعرب، ونفاه آخرون مطلقاً، إلا من بعد ما ثبت لهم العلم بصحته وعموم الدعوة له. أو فى التوحيد؛ فثلث النصارى، وقالت اليهود: عزيز ابن الله، بعد ما صح لهم العلم بالتوحيد فغيروا. وقال الربيع: إن موسى ﷺ لما حضره الموت، دعا سبعين حبراً من قومه، فاستودعهم التوراة، فلما مضى القرن الأول والثانى والثالث وقعت بينهم الفرقة، وهم الذين أوتوا الكتاب من أبناء السبعين، فأراقوا الدماء ووقع بينهم الشر والاختلاف.

وذلك من بعد ما جاءهم العلم، يعنى بيان ما فى التوراة، (بغياً بينهم) أى: طلباً للملك والرئاسة والتحاسد، فسلط عليهم الجبابرة، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المنزلة على رسوله، أو الدالة على وحدانيته، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ لا يشغله شأن عن شأن، وفيه تهديد لأهل الاختلاف.

الإشارة: الاختلاف على الصوفية، والإنكار عليهم، إن كان بغياً وحسداً وخوفاً على زوال رئاسة المنكر، فهذا معرض لمقت الله، فقد آذن بحرب الله، وبآله سوء الخاتمة، والعياذ بالله، وفى ذلك يقول القائل:

هَمَّهُمْ تَقْضِي بِحُكْمِ الْوَقْتِ مِنْكَرُهُمْ مُعْرِضٌ لِمَقْتِ

وإن كان غيرة على الشريعة، وسدّاً لباب الذريعة، فهذا معذور أو مأجور إن صح قصده، وهو منخرط فى سلك الضعفاء، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ولا ينكر على الفقير إلا المحرم المجمع على تحريمه، وليس فيه تأويل، كالزنى بالمعينة، واللواط، وشبهه، والمؤمن يلتمس المعاذر، والمنافق يلتمس العيوب، وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم بين الحق تعالى الدواء فى أذى المنكر، وهو الإعراض عنه، فقال:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ

فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

قلت: (ومن اتبعن)، عطف على فاعل (أسلمت)؛ الضمير (١).

(١) أى: التاء فى أسلمت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنْ حَاجُّوكَ فِي الدِّينِ، وَخَاصُّوكَ فِيهِ، بَعْدَ مَا أُقِيمَتِ الْحُجَّةُ عَلَى صَحَّتِهِ، فَقُلْ لَهُمْ: أَمَّا أَنَا فَقَدْ «أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ»، وَانْقَدْتُ بِكُلِّيَّتِي إِلَيْهِ، وَتَمَسَّكَتُ بِدِينِهِ الْقَوِيمِ، الَّذِي قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى حَقِّهِ، وَكَذَلِكَ مِنْ تَبَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَخَصَّ الْوَجْهَ بِالْإِنْقِيَادِ؛ لِأَنَّهُ أَشْرَفُ الْأَعْضَاءِ وَمَحَلُّ ظُهُورِ الْمَحَاسِنِ، فَإِذَا انْقَادَ الْوَجْهَ فَقَدْ انْقَادَ الْكُلُّ.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، «وَالْأُمِّيِّينَ» الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ: «أَسْلَمْتُمْ» كَمَا أَسْلَمْتُ، لَمَّا وَضَحْتُ لَكُمْ مِنَ الْحُجَّةِ؟ أَمْ أَنْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ بَغِيًّا وَحَسَدًا؟ وَالِاسْتِفْهَامُ مَعْنَاهُ الْأَمْرُ، كَقَوْلِهِ: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» أَيْ: أَسْلَمُوا، ﴿إِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ وَأَنْقَذُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وَأَعْرَضُوا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾، وَلَا يَضُرُّكَ عِنَادُهُمْ، فَقَدْ بَلَغْتَ مَا أَمَرْتُ بِهِ. ﴿وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ تَوَلَّى.

رَوَى أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَرَأَ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ لِلْيَهُودِ: «أَتَشْهَدُونَ أَنَّ عَزِيرًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ؟» فَقَالُوا: مَعَاذَ اللَّهِ، وَقَالَ لِلنَّصَارَى: «أَتَشْهَدُونَ أَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؟» فَقَالُوا: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ عِيسَى عَبْدًا. فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْآيَةَ.

الإشارة: لا يليق بالفقير، إذا توجه إليه الإنكار أو المجادلة والاستظهار، إلا السكوت والإقرار، والاستسلام بكليته لأحكام الواحد القهار، إذ لا يسرى فاعلاً إلا الله، فلا يركن إلى شيء سواه. وفي الحكم: «إِنَّمَا أُجْرِيَ الْأَذَى عَلَيْهِمْ لِثَلَا تَكُونَ سَاكِنًا إِلَيْهِمْ، أَرَادَ أَنْ يَزْعِمَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى لَا تَكُونَ سَاكِنًا إِلَى شَيْءٍ». وقال بعض العارفين: لا تشتغل قط بمن يؤذيك، واشتغل بالله يردك عنك، وقد غلط في هذا خلق كثير، اشتغلوا بمن يؤذيهم، فطال عليهم الأذى مع الإثم، ولو أنهم رجعوا إلى مولاهم لكفاهم أمرهم. هـ. بالمعنى. وبهذا يأمر الشيخ أتباعه، فإن انقادوا لأحكام الحق، فقد اهتدوا إلى طريق الوصول، وإن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، والهداية بيد السميع البصير.

ثم ويخ اليهود بما وقع لأسلافهم من البغي والفساد، وهم راضون بذلك، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّكَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

قلت: إنما دخلت الفاء في خبر إن؛ لتضمن اسمها معنى الشرط؛ لعموم الموصول وإيهامه، وهو خاص بـإن، دون ليت ولعل؛ لأن «إن» لا تغير معنى الابتداء، وإنما تؤكد. وقيل: الخبر: (أولئك...) إلخ.

يقول الحق جل جلاله: «إن الذين يكفرون بآيات الله» أى: بحججه الدالة على توحيده، وصحة نبوة رسله، أو بكلامه، وهم اليهود، «ويقتلون النبيين بغير حق» بل بغيا «ويقتلون الذين يأمرون بالعدل وترك الظلم من الأحزاب، فبشرهم بعذاب أليم» موجه، «أولئك الذين حبطت أعمالهم» أى: بطلت، «فى الدنيا والآخرة» فلا ينتفعون بها فى الدارين، «وما لهم من ناصرين» يمنعونهم من العذاب.

وعن أبى عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: سألت النبی ﷺ أى الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رجل قتل نبياً، أو رجل أمر بالمنكر ونهى عن المعروف، ثم قرأ النبى ﷺ «ويقتلون النبيين بغير حق» الآية، ثم قال: يا أبا عبيدة، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً أول النهار فى ساعة، فقام مائة وعشرون من عباد بنى إسرائيل فأمرهم بالمعروف ونهواهم عن المنكر، فقتلهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكرهم فى كتابه، وأنزل الآية فيهم» . هـ . من الثعلبى .

الإشارة: ذكر فى الآية الأولى تشجيع المريدين، وأمرهم بالصبر والتسليم لإذابة المؤذين، وذكر هذا وبال المؤذين الجاحدين لخصوصية المقربين، فالأولياء والعلماء ورثة الأنبياء، فمن آذاهم فله عذاب أليم، فى الدنيا؛ بغم الحجاب وسوء المنقلب، وفى الآخرة؛ بالبعد عن ساحة المقربين، وبالسقوط إلى درك الأسفلين، والله تعالى أعلم.

ومن مساوى اليهود أيضا إعراضهم عن الحق إذا توجه إليهم، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى، فقال:

﴿الَّذِينَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قلت: التذكير فى (نصيب)؛ يحتمل التحقير والتعظيم، والأول أقرب. وجملة: (وهم معرضون)؛ حال من (فريق)؛ لتخصيصه بالصفة.

يقول الحق جل جلاله: «ألم تر» يا محمد، أو من تصح منه الرواية، «إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» وهم: اليهود، تمسكوا بشيء من التوراة، ولم يعملوا به كله، كيف «يدعون إلى كتاب الله» القرآن «ليحكم بينهم» فيما اختلفوا فيه من أمر التوحيد وصحة نبوته - عليه الصلاة والسلام، فأعرضوا عنه، أو المراد بكتاب الله: التوراة. قال ابن عباس رضي الله عنه: (دخل النبى ﷺ على جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله تعالى، فقال نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أى دين أنت يا محمد؟ قال: «على ملة إبراهيم» قالوا: إن إبراهيم كان

يَهُودِيًّا، فَقَالَ لَهَا اللّٰبِي وَٱللَّيْ: «فَهَلُمُّوا إِلَى التَّوْرَةِ فَهِيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ» فَأَبَيَا عَلَيْهِ، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الرِّجَمِ، عَلَى مَا يَأْتِي فِي الْعُقُودِ.

«ذَلِكَ» الإِعْرَاضُ بِسَبَبِ اغْتِرَارِهِمْ وَتَسْهِيلِهِمْ أَمْرَ الْعِقَابِ، فَقَالُوا: «لَنْ نَعْسِنَا النَّارَ إِلَّا أَيْامًا مَّعْدُودَاتٍ»؛ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، قَدَرُ عِبَادَتِهِمُ الْعَجَلِ، ثُمَّ يَخْلَفُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، «وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» بِزَعْمِهِمُ الْفَاسِدِ وَطَمَعِهِمُ الْفَارِغِ.

يَقُولُ الْحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ: «فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْنَا لَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ»، وَهَذَا تَهْوِيلٌ لَشَأْنِهِمْ، وَاسْتِعْظَامٌ لِمَا يَحِقُّ بِهِمْ، «وَوَقَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ» مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، «وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ» أَيْ: لَا يَبْخُسُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ شَيْئًا، فَلَا يَنْقُصُ مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَلَا يَزَادُ عَلَى السَّيِّئَاتِ. وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَخْلُدُ فِي النَّارِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (أَوَّلُ رَايَةٍ تُرْفَعُ لِأَهْلِ الْمَوْقِفِ، ذَلِكَ الْيَوْمَ، رَايَةُ الْيَهُودِ، فَيَفْضَحُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ).

الإِشَارَةُ: تَرَى كَثِيرًا مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الْعِلْمِ وَالْدِينِ بِإِطْلَاقِ لِسَانِهِ بِدَعْوَى الْخُصُوصِيَّةِ، وَأَنَّهُ مُخْطَرٌ فِي سَلَكِ الْمُقَرَّبِينَ، فَإِذَا دُعِيَ إِلَى حَقٍّ، أَوْ وَقَفَ عَلَى عَيْبٍ مِنْ عَيُوبِ نَفْسِهِ، أَعْرَضَ وَتَوَلَّى، وَغَرَّتْهُ نَفْسُهُ، وَغَلَبَهُ الْهَوَى، فَجَعَلَ يَحْتَجُ لِنَفْسِهِ بِمَا عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ أَوْ الدِّينِ، أَوْ بِمَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِمْ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُهُ إِذَا أُقْبِلَ عَلَى اللَّهِ بِقَلْبٍ سَقِيمٍ، وَرَأَى مَنَازِلَ أَهْلِ الصِّفَاءِ الَّذِينَ لَقُوا اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، حِينَ تُرْفَعُ دَرَجَاتُهُمْ مَعَ الْمُقَرَّبِينَ، وَيَبْقَى هُوَ مَعَ عَوَامِ أَهْلِ الْيَمِينِ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ الْآيَةُ.

ثُمَّ ذَكَرَ الْحَقُّ تَعَالَى نَزْعَ مُلْكِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَسَلْبَ عِزِّهِمْ، وَانْتِقَالَهِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبِيدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

قُلْتُ: (اللَّهُمَّ) مَنَادَى مَبْنَى عَلَى الضَّمِّ، حُذِفَتْ مِنْهُ الْيَاءُ الْمُتَضَمَّةُ لِلْفَرْقِ، وَعَوِضَتْ مِنْهَا الْمِيمُ الْمُؤَدَّةُ بِالْجَمْعِ، لِأَنَّ الْيَمِينَ بَيْنَ الدَّاعِي وَالْمَدْعُوفِ فَرْقٌ (١)، وَ(مَالِكُ): نَعْتٌ لِمَحَلِّ الْمَنَادَى؛ لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ، وَمَنَادَى ثَانٍ عِنْدَ سَيِّبِيهِ، لِأَنَّ الْمِيمَ عِنْدَهُ تَمْلَعُ الْوَصْفِيَّةُ.

يَقُولُ الْحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ: «قُلْ» يَا مُحَمَّدُ فِي اسْتَنْصَارِكَ عَلَى عَدُوِّكَ: «اللَّهُمَّ» يَا «مَالِكُ الْمُلْكِ»؛ مُلْكُ الدُّنْيَا وَمُلْكُ الْآخِرَةِ، «تُؤْتِي الْمُلْكَ» وَالنَّصْرَ «مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ»، فَهَبْ لَنَا مُلْكَ الدَّارَيْنِ،

(١) هَذَا تَوْجِيهِهُ إِشَارِي.

والنصر على الأعداء في كل أين، وانزع الملك من يد عدونا، وانقله إلينا وإلى من تبعنا إلى يوم الدين. قال قتادة: (ذكر لنا أن النبي ﷺ سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم في أمته، فأنزل الله تعالى هذه الآية).

«وتعز من تشاء» بالإيمان والطاعة «وتذل من تشاء» بالكفر والمعصية، أو تعز من تشاء بالمعرفة، وتذل من تشاء بالفكرة، أو تعز من تشاء بالقناعة والورع، وتذل من تشاء بالحرص والطمع، أو تعز من تشاء بالتوفيق والإذعان، وتذل من تشاء بالكسل والخذلان، «بيدك الخير» كله، فأعطينا من خيرك الجزيل، وأجرنا من الشر الويل، فالأمور كلها بيدك.

قال البيضاوي: ذكر الخير وحده؛ لأنه المقضى بالذات، والشر مقضى بالعرض؛ إذ لا يوجد شر جزئى مالم يتضمن خيرا كلياً. أو لمرعاة الأدب في الخطاب، أو لأن الكلام وقع فيه، إذ روى أنه عليه الصلاة والسلام - لما خط الخندق، وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، وأخذوا يحفرون، فظهر فيه صخرة عظيمة لم تعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره، فجاء عليه الصلاة والسلام، فأخذ المعول منه، فضرب به ضربة صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيتها^(١)، لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبر، وكبر معه المسلمون، وقال: أضاءت لي منها قصور الحيرة، كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية، فقال: أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة، فقال: أضاءت لي منها قصور صنعاء، وأخبرني جبريل أن أمي ظاهرة على كلها، فأبشروا، فقال المنافقون: ألا تعجبون! يمنيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة، وأنها تفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق^(٢) فنزلت، أي: الآية. ونبه على أن الشر أيضاً بيده بقوله: «إنك على كل شيء قدير».

ثم استدل على نفوذ قدرته بقوله: «تولج الليل في النهار» أي: تدخل أحدهما في الآخر بالتعقيب، أو بالزيادة أو النقص، فيولج الليل في النهار، إذا طال النهار حتى يكون خمس عشرة ساعة، وفي الليل تسع، ويولج النهار في الليل، إذا طال الليل كذلك، وفيه دلالة على أن من قدر على ذلك قدر على معاقبة العز بالذل، والملك بنزعه. «وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي» كالحيوانات من اللطف، وبالعكس، والنباتات من الحبوب، وبالعكس، أو المؤمن من الكافر والعالم من الجاهل، وبالعكس، «وترزق من تشاء» من الأقوات والعلوم والأسرار، «بغير حساب»، ولا تقدير ولا حصر. اللهم ارزقنا من ذلك الحظ الأوفر، (إنك على كل شيء قدير).

(١) اللابة: الحرة، وهي الحجارة السوداء، ولابتيتها: حرتان تكتنفان المدينة.

(٢) الفرق - يفتحان -: الخوف.

روى معاذ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «يا معاذ، أتحب أن يقضى الله عنك دينك؟» قال: نعم يا رسول الله، قال: «قل» (اللهم مالك الملك) إلى قوله: (بغير حساب)، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطى منهما ما تشاء، وتمنع منهما ما تشاء، اقض على ديني، فلو كان عليك ملء الأرض ذهباً وفضة لأداه الله عنك» .

وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: الفاتحة، وآية الكرسي، و(شهد الله)، و(قل اللهم مالك الملك...) إلى (... بغير حساب)، لما أراد الله أن يذلهم، تعلقن بالعرش وقلن: تهبطنا إلى دار الذنوب فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا يقرؤكن عبد، دبر كل صلاة مكتوبة، إلا أسكنته حظيرة القدس، على ما كان فيه، وإلا نظرت إليه بعيني المكنونة في كل يوم سبعين نظرة، وقضيت له في كل يوم سبعين حاجة، وأعزته من كل عدو، نصرته عليه... الحديث (١). انظر الثعلبي.

الإشارة: من ملك نفسه وهواه فقد ملكه الله ملك الدارين، ومن ملكته نفسه وهواه فقد أذله الله في الدارين، ومن ملك نفسه لله فقد ملكه الله من التصرف في الكون بأسره، وكان حراً حقيقة، وفي ذلك يقول الشاعر:

دَعَوْنِي لِمُلْكِهِمْ، فَلَمَّا أَجَبْتُهُمْ قَالُوا: دَعَوْنَاكَ لِلْمُلْكِ لَا لِلْمُلْكِ

ومن أذل نفسه لله فقد أعزه الله، قال الشاعر:

تَذَلُّ لِمَنْ تَهْوَى لِيَكْسِبَ عِزَّةً فَكَمْ عِزَّةٌ قَدْ نَالَهَا الْمَرْءُ بِالذُّلِّ
إِذَا كَانَ مَنْ تَهْوَى عَزِيزاً وَلَمْ تَكُنْ ذَلِيلًا لَهُ، فَأَقْرِ السَّلَامَ عَلَى الْوَصْلِ

قال ابن المبارك: (قلت لسفيان الثوري: من الناس؟ قال: الفقهاء، قلت: فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قلت: فمن الأشراف؟ قال: الأتقياء، قلت: فمن الغوغاء؟ قال: الذين يكتبون الحديث ليستأكلوا به أموال الناس، قلت: أخبرني ما السفلة؟ قال: الظلمة.) وقال الشبلي: (الملك هو الاستغناء بالمكون عن الكونين). وقال الوراق: (تعز من تشاء بقهر النفس ومخالفة الهوى، وتذل من تشاء باتباع الهوى). قلت: وفي ذلك يقول البرعي رضي الله عنه:

لَا تَتَّبِعِ النَّفْسَ فِي هَوَاهَا إِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى هَوَانٌ

وقال وهب: «خرج الغلي والعز يجولان، فلقيا القناعة فاستقرا». وقال عيسى عليه السلام لأصحابه: أنتم أغنى من الملوك، قالوا: يا روح الله، كيف، ولسنا نملك شيئاً؟ قال: أنتم ليس عندكم شيء ولا تريدونها، وهم عندهم أشياء ولا تكفيهم هـ.

(١) الحديث: أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة. عن سيدنا علي مرفوعاً وفي سنده الحارث بن عمير البصري. قال ابن حبان: يروى عن الأثبات الموضوعات، وأورد له الذهبي هذا الحديث على سبيل الإنكار.

أَلَا يَا نَفْسُ إِن تَرْضَيْنِي بِقُوْتٍ
دَعَىٰ عِنْدَكَ الْمَطَامِعُ وَالْأُمَانِي

فَأَنْتِ عَزِيْزَةٌ أَبَدًا غَدِيَّةُ
فَكَمْ أُمْنِيَّةٌ جَلَبَتْ مَدِيَّةُ

أَفَادَتْنِي الْقَنَاعَةُ كُلَّ عَزٍّ
فَصَيَّرَهَا لِنَفْسِكَ رَأْسَ مَالٍ
تَلَّ عِزًّا وَتَغْنَى عَنْ الْكَلِيمِ
وَهَلْ عِزٌّ أَعَزُّ مِنَ الْقَنَاعَةِ
وَصَيَّرَ بَعْدَهَا التَّقْوَى بِضَاعَةً
وَتَرَحَّلَ لِلْجَنَانِ بِصَبْرِ سَاعَةٍ

تولج ليل القبض في نهار البسط، وتولج نهار البسط في ليل القبض، وترزق من تشاء فيهما من العلوم والأسرار، بخير حساب ولا مقدار، أو تولج ليل العبودية في نهار الحرية، وتولج نهار الحرية في ليل العبودية، فمن كان في نهار الحرية تاه على الوجود، ومن كان في ليل العبودية عطل ذله ذل اليهود، والعبد لا يخلو من هذين الحالين، يتعاقبان عليه تعاقب الليل والنهار. والله تعالى أعلم.

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا ۚ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُّوا يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۖ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٣٠)

قُلْتُ : (تُقَاة) : مصدر تَقَّى، على وزن فَعَلَ، وله مصدران آخران: تَقَّى وَتَقَّيَّةٌ - بتشديد الياء -، وبه قرأ يعقوب، وأصله: تَقَّيَّةٌ، فقلبت الياء ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها. و (يوم) : ظرف، والعامل فيه: اذكر، أو اتقوا، أو المصير، أو تود، و(ما عملت) : مبتدأ، و(تود) : خبر، أو معطوف على (ما عملت) الأولى، و(تود) : حال.

२६१

يقول الحق جل جلاله، لقوم من الأنصار، كانوا يوالون اليهود؛ لقراية أو صداقة تقدمت في الجاهلية: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء»، أى: أصدقاء، إذ الحب إنما يكون في الله والبغض في الله، أو لا تستعينوا بهم في غزو ولا غيره، فلا تودوهم «من دون المؤمنين»؛ إذ هم أحق بالمودة، ففيهم مندوحة عن موالاة الكفرة، «ومن يفعل ذلك» الاتخاذ «فليس من» ولاية «الله في شيء»؛ إذ لا تجتمع ولاية الله مع ولاية عدوه. قال الشاعر:

تَوَدُّ عَدُوِّي ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّي صَدِيقَكَ، لَيْسَ الذُّوْكَ عَنكَ بِعَارِبٍ

والذُّوك - بضم النون -: الحمق.

فلا توالوا الكفار «إلا أن تتقوا منهم تقاة» أى: إلا أن تخافوا من جهتهم ما يجب اتقاؤه، فلا بأس بمداراتهم ظاهراً، والبعد منهم باطناً، كما قال عيسى عليه السلام: (كن وسطاً وامتش جانباً). وقال ابن مسعود رضى الله عنه: خالطوا الناس وزايلوهم، وصافحوهم بما يشتهون، ودينكم لا تثلّموه. وقال جعفر الصادق: إني لأسمع الرجل يشتمني في المسجد، فأستتر منه بالسارية لئلا يراني. هـ. «ويحذركم الله نفسه» أى: يخوفكم عذابه على موالاة الكفار ومخالفة أمره وارتاب نهيه، تقول العرب: احذر فلانا: أى: ضرره لا ذاته، وفي ذكر النفس زيادة تهديد يؤذن بعقاب يصدر منه بلا واسطة، «والى الله المصير»؛ فيحشر كل قوم مع من أحب.

«قل إن تخفوا ما فى صدوركم» من موالاة أعدائه، «أو تبدوه يعلمه الله»؛ فلا يخفى عليه ما تكن الصدور من خير أو شر. وقدم فى سورة البقرة الإبداء، وأخره هنا؛ لأن المحاسبة لا ترتب فيها بخلاف العلم، فإن الأشياء التى تبرز من الإنسان يتقدم إضمارها فى قلبه ثم تبرز، فقد تعلق علم الله تعالى بها قبل أن تبرز، فلذلك قدم هنا الإخفاء لتقدم وجوده فى الصدر، وأخره فى البقرة، لأن المحاسبة لا ترتب فيها، «ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض» فلا يخفى عليه شيء، «والله على كل شيء قدير»؛ فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا، والآية بيان لقوله: «ويحذركم الله نفسه»؛ لأن الذات العالية متصفة بعلم محيط بجميع المعلومات، وبقدرة تحيط بجميع المقدورات، فلا تجسروا على عصيانه، فإنه ما من معصية إلا وهو مطلع عليها، قادر على العقاب عليها يوم القيامة.

«يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً» بين يديها تنتفع به، «وما عملت من سوء تود له أن بينها وبينه أمداً بعيداً»، كما بين المشرق والمغرب، ولا يرفع الندم وقد زلت القدم. «ويحذركم الله نفسه»، كرهه للتأكيد وزيادة التحذير، وسيأتى فى الإشارة حكمة تكريره، «والله رؤوف بالعباد» حيث حذرهم مما يضرهم، وأمرهم بما يقربهم، فكل ما يصدر منه - سبحانه - فى غاية الكمال.

الإشارة: لا ينبغي للمريد الصادق أن يخالط أهل الغفلة، ولا يتودد معهم؛ فإن ذلك يقطعه عن ربه، ويصدّه عن دواء قلبه، وفي ذلك يقول صاحب العينية:

وَقَاطِعٌ لِمَنْ وَأَصَلَتْ أَيَّامَ غَفْلَةٍ فَمَا وَأَصَلَ الْعُذَالَ إِلَّا مُقَاطِعُ
وَجَسَانِبُ جَنَابِ الْأَجْدَبِيِّ لَوَائِهِ لِقُرْبِ انْتِسَابِ فِي الْمَنَامِ مُضَاجِعُ
فَلِلنَّفْسِ مِنْ جُلَاسِهَا كُلِّ نِسْبَةٍ وَمِنْ خَلَّةٍ لِلْقَلْبِ تِلْكَ الطَّبَائِعُ

إلا أن يتقى منهم تقية، بحيث تلجئه الضرورة إلى مخالطتهم، فيخالطهم بجسمه ويفارقهم بقلبه، وقد حذر الصوفية من صحبة أربع طوائف: الجبابرة المتكبرون، والقراء المداهنون، والمتفكرة الجاهلون، والعلماء المتجمدون؛ لأنهم مولعون بالطعن على أولياء الله، يرون ذلك قرية تقربهم إلى الله.

ثم قال: (ويحذركم الله نفسه) أن تقصدوا معه غيره، وهذا خطاب للسائرين بدليل تعقيبته بقوله: (والى الله المصير) أى: إليه ينتهى السير وإليه يكون الوصول، ثم شدد عليهم فى المراقبة فقال: (إن تخفوا ما فى صدوركم) من الميل أو الركون إلى الغير أو الوقوف عن السير، (أو تبدوه يعلمه الله)؛ فينقص عنكم المدد بقدر ذلك الميل، يظهر ذلك يوم الدخول إلى بلاد المشاهدة، (يوم تجد كل نفس) ما قدمت من المجاهدة، فيقدر المجاهدة تكون المشاهدة. ثم خاطب الواصلين فقال: (ويحذركم الله نفسه) من أن تشهدوا معه سواه، فلو كلف الواصل أن يشهد غيره لم يستطع، إذ لا غير معه حتى يشهده. ويدل على أن الخطاب هنا للواصلين تعقيبته بالمودة والرافة، اللائقة بالواصلين المحبوبين العارفين الكاملين. خرطنا الله فى سلكهم بمنه وكرمه.

ثم لا طريق للوصول إلى هذا كله إلا باتباع الرسول الأعظم، كما أشار إلى ذلك بقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قلت: قد تقدم الكلام على حقيقة المحبة عند قوله «يحبونهم كحب الله». وقال البيضاوى هنا: المحبة ميل النفس إلى الشيء لإدراك كمال فيه، بحيث يحملها - أى الميل - إلى ما يقربها إليه، والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقى ليس إلا لله، وأن ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله، لم يكن حبه إلا لله وفى الله، وذلك يقتضى إرادة طاعته، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة، وجعلت مستلزماً لاتباع الرسول فى عبادته، والحرص على مطاوعته. هـ.

وقوله: (فإن تولوا): فعل ماض مجزوم المحل، ولم يدغمه البزى هنا، على عادته في الماضي، لعدم مرجبه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمن يدعى أنه يحب الله ولا يتبع رسوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ كما زعمتم، ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ في أقوالى وأفعالى وأحوالى، ﴿يُحِبِّكُمْ اللَّهُ﴾ أى: يرضى عنكم ويقربكم إليه، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أى: يكشف الحجاب عن قلوبكم بغفران الذنوب ومحو العيوب، فيقربكم من جناب عزه، ويبوئكم فى جوار قدسه، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تحبب إليه بطاعته واتباع رسوله.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه، ﴿وَالرَّسُولَ﴾ فيما يسنه لكم ويرغبكم فيه، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عنه، فقد تعرضوا لمقت الله وغضبه بكفرهم به؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أى: لا يرضى عنهم ولا يقبل عليهم، وإنما لم يقل: لا يحبهم؛ لقصد العموم، والدلالة على أن التولى عن الرسول كفر، وأنه برئ من محبة الله، وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين.

روى أن نصارى نجران قالوا: إنما نعظم المسيح ونعبده، حباً لله وتعظيماً لله. فقال تعالى: (قُلْ) يا محمد: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ .. الآية. ولما نزلت الآية قال عبدالله بن أبى لأصحابه: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا أن نحبه كما أحببت النصارى عيسى، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية. وقال - عليه الصلاة والسلام -: «مَنْ أَطَاعَنِى فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ الْإِمَامَ فَقَدْ أَطَاعَنِى، وَمَنْ عَصَانِى فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَمَنْ عَصَى الْإِمَامَ فَقَدْ عَصَانِى» .

الإشارة: اتباع الرسول ﷺ ركن من أركان الطريقة، وشرط فى إشراق أنوار الحقيقة، فمن لا اتباع له لا طريق له، ومن لا طريق له لا وصول له، قال الشيخ زروق رحمته الله: (أصول الطريقة خمسة أشياء: تقوى الله فى السر والعلانية، واتباع النبى ﷺ فى الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق فى الإقبال والإدبار، والرجوع إلى الله فى السراء والضراء، والرضى عن الله فى القليل والكثير).

فالرسول - عليه الصلاة والسلام - حجاب الحضرة وبوابها، فمن أتى من بابه، بمحبته واتباعه، دخل الحضرة، وسكن فيها، ومن تكلب عنها طرد وأبعد، وفى ذلك يقول القائل:

وَأَنْتَ بَابُ اللَّهِ، أَيْ أَمْرِي
وَأَفَاءَ مِنْ غَيْرِكَ لَا يَدْخُلُ

وقال فى المباحث:

تَبِعَهُ الْعَالَمُ فِي الْأَقْوَالِ،
وَالْعَابِدُ الزَاهِدُ فِي الْأَفْعَالِ
وَفِيهِمَا الصُّوفِيُّ فِي السَّبَاقِ
لَكِنَّهُ قَدْ زَادَ فِي الْأَخْلَاقِ

فمن ادعى محبة الله أو محبة رسوله، ولم يطعهما، ولم يتخلق بأخلاقهما، فدعواه كاذبة، وفي ذلك يقول ابن المبارك^(١):

تَعَصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

ثم ذكر الحق تعالى بيان نشأة عيسى عليه السلام، وبيان أصله ونشأته أمه، توطئة للكلام مع النصاري والرد عليهم في اعتقادهم فيه. وقال البيضاوي: لما أوجب الله طاعة الرسل، وبين أنها الجالبة لمحبة الله، عقب ذلك ببيان مناقبهم تحريضا عليها فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهُمَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُكُمْ أَنَّىٰ لَئِي هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

قلت: (ذرية): حال، أو بدل من الآلين، أو من نوح، أي: أنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض. و(إذ قالت): ظرف لعليم، أو بإضمار اذكر. و(محررا): حال، والتحرير: التخلص، يقال: حررت العبد، إذا خلصته من الرق، وحررت الكتاب، إذا أصلحته وأخلصته، ولم يبق فيه ما يحتاج إلى إصلاح، ورجل حر، أي: خالص، ليس لأحد عليه متعلق، والطين الحر، أي: الخالص من الحماة. وقوله: (وإني سميتها مريم): عطف على (إني وضعتها)، وما بينهما اعتراض، من كلامها على قراءة التكلم، أو من كلام الله على قراءة التأنيث.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾؛ بالخلافة والرسالة، ﴿وَنُوحًا﴾؛ بالرسالة والندارة، ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ بالنبوة والرسالة، وهم: إسحاق، ويعقوب والأسباط، وإسماعيل، وولده سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ بالنبوة والرسالة والمحبة الجامعة. ﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾، وهم موسى وهارون - عليهما السلام - وهو عمران بن يصهر

(١) الشعر ينسب لأكثر من واحد.

ابن قاهث بن لاوى بن يعقوب، أو المراد بعمران: عمران بن أشهم بن أموى، من ولد سليمان عليه السلام، وهو والد مريم أم عيسى عليه السلام، وقيل: المراد عمران بن ماثان، أحد أجداد عمران والد مريم. وإنما خص هؤلاء؛ لأن الأنبياء كلهم من نسلهم. وقيل: أراد إبراهيم وعمران أنفسهما. «وآل، مقحمة، كقوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ أى: موسى وهارون، فقد فضل الحق - جل جلاله - هؤلاء الأنبياء بالخصائص الجسمانية والروحانية «على العالمين» أى: كلا على عالمي زمانه، وبه استدل على فضلهم على الملائكة. حال كونهم «ذرية» متشعبة «بعضها من» ولد «بعض» فى الدسب والدين، «والله سميع» لأقوال العباد وأعمالهم، «عليم» بسرانهم وعلاانيتهم، فيصطفى من صفا قوله وعمله، وخلص سره، للرسالة والنبوة.

ثم تخلص لذكر نشأة مريم، توطئة لذكر ولدها، فقال: واذكر «إذ قالت امرأة عمران» وهى حنة بنت فاقوذا، جدة عيسى عليه السلام: «رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً» لخدمة بيت المقدس، لا أشغله بشيء، أو مخلصاً للعبادة، «فتقبل منى إنك أنت السميع العليم»، وكان المحرر عندهم، إذا حرر، جعل فى الكنيسة يقوم عليها وينكسها، ولا يبرح منها حتى يبلغ الحلم، ثم يُخَيَّر، فإن أحب أقام أو ذهب حيث شاء، ولم يكن يحرر إلا الغلمان؛ لأن الجارية لا تصلح للخدمة؛ لما يصيبها من الحيض، فحررت أم مريم حملها ولم تدر ما هو.

وقصة ذلك: أن زكريا وعمران تزوجا أختين، فتزوج زكريا أشياع بنت فاقوذا، وتزوج عمران حنة بنت فاقوذا، فكان عيسى ويحيى ابنى الخالة^(١)، وكانت حنة عاقراً لا تلد، فبينما هى فى ظل شجرة، بصرت بطائر يطعم فرخاً، فتحركت لذلك نفسها للولد فدعت الله تعالى، وقالت: اللهم لك على، إن رزقتلى ولداً، أن أتصدق به على بيت المقدس، يكون من سدنته وخدمه، فحملت بمريم، فهلك عمران، وحنة حامل بمريم، «فلما وضعتها» أى: النذيرة، أو ما فى بطنها، قالت: «رب إنى وضعتها أنثى»، قالت ذلك تحسراً وتحزناً إلى ربها، لأنها كانت ترجو أن تلد ذكراً يصلح للخدمة، ولذلك نذرت.

قال تعالى: «والله أعلم بما وضعت»، تعظيماً لموضوعها وتدويناً بشأنها، أو من كلامها - على قراءة التكلم - تسلية لنفسها، أى: ولعل لله فيه سرّاً، قال تعالى: «وليس الذكر كالأنثى» أى: وليس الذكر الذى طلبت كالأنثى التى وهبت، أو من كلامها، أى: وليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرت. ثم قالت: «وانى سميتها مريم» راجية أن يطابق اسمها فعلها، فإن مريم فى نعتهم هى العابدة الخادمة، وكانت مريم أجمل النساء فى وقتها وأفضلهن، وفى الحديث عنه ﷺ: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ إِيمَرَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ﷺ».

(١) أى: بينهما هذه الجهة من القرابة، وهى جهة الخؤولة.

ثم قالت حنة أم مريم: «وانى أعيذها بك» أى: أحصنها بك «وذريتها من الشيطان الرجيم» أى: المرجوم بالشهب، أو المطرود، وفي الحديث: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهْلُ مِنْ مَسِّهِ، إِلَّا مَرْيَمَ وَأَبْنَاهَا». ومعناه: أن الشيطان يطمع فى إغواء كل مولود، بحيث يتأثر به، إلا مريم وابنها لمكان الاستعاذة، قلت: وكذا الأنبياء كلهم، لا يمسه لمكان العصمة. والله أعلم.

«فتقبلها ربها» أى: رَضِيَهَا فى النذر مكان الذكر، «بقبول حسن» أى: بوجه حسن، وهو إقامتها مقام الذكر، وتسلمها للخدمة عقب ولادتها قبل أن تكبر وتصلح للسُدانة^(١)، روى: أن حنة لما ولدتها لفتها فى خرقة، وحملتها إلى المسجد، ووضعها عند الأحبار، وقالت: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها، لأنها كانت ابنة إمامهم، وصاحب قريانهم، فإن (بنى ماثان) كانت رؤوس بنى إسرائيل وملوكهم، فقال زكريا: أنا أحق بها، عندى خالتيها، فأبوا إلا القرعة، وكانوا سبعة وعشرين، فانطلقوا إلى نهر، فألقوا فيه أقلامهم، فطفا قلم زكريا. أى: علا. على وجه الماء، ورسبت أقلامهم، فأخذها زكريا.

«وأنبئتها» الله «نبأًا حسنًا» أى: رباها تربية حسنة، فكانت تشب فى اليوم ما يشب المولود فى العام، «وكفلها زكريا» أى: ضمها إليه وقام بأمرها. وقرأ عاصم. فى رواية ابن عياش - بشد الفاء، أى: وكفلها الله زكريا، أى: جعله كافلاً لها وحاضناً. روى: أنه لما ضمها إليه بنى لها بيتاً، واسترضع لها، فلما بلغت، بنى لها محراباً فى المسجد، وجعل بابه فى وسطه لا يرقى إليها إلا بسلم، ولا يصعد إليها غيره، وكان يأتيها بطعامها وشرابها كل يوم، وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب.

«كلما دخل عليها زكريا المحراب»؛ ليأتيها بطعامها، «وجد عندها رزقاً» أى: فاكهة فى غير حينها، يجد فاكهة الشتاء فى الصيف، وبالعكس، «قال يا مريم أنى لك هذا» أى: من أين لك هذا الرزق الآتى فى غير أوانه، والأبواب مغلقة عليك؟ «قالت هو من عند الله» فلا يستبعد، قيل: تكلمت صغيرة، وقيل: لم ترضع ثدياً قط، خلاف ما تقدم، وكان رزقها ينزل عليها من الجنة.

ثم قالت: «إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» أى: بغير تقدير، أو بغير استحقاق تفضلاً منه، وقوله: (كلما): يقتضى التكرار، وفيه إشارة إلى أن زكريا لم يذَرَّ تعهداً، ولم يعتمد على ما كان يجد عندها، بل كان يتفقد حالها كل وقت، لأن الكرامات للأولياء ليس مما يجب أن تدوم قطعاً، بل يجوز أن يظهر ذلك عليهم دائماً وألا يظهر، فما كان زكريا معتمداً على ذلك، فيترك تفقد حالها، ثم كان يجدد السؤال بقوله: «يا مريم أنى لك هذا»، لجواز أن يكون الذى هو اليوم لا على الوجه الذى كان بالأمس، فإنه لا واجب على الله - سبحانه - . قاله القشيري.

(١) السُدانة: مصدر بمعنى الخدمة، والسادن: الخادم.

روى جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ أقام أياماً لم يطعم الطعام، فقام في منازل أزواجه، فلم يصيب عندهن شيئاً فأتى فاطمة فقال: «يا بنية، هل عندك شيء؟» فقالت: لا والله، بأبي أنت وأمي، فلما خرج النبي ﷺ، بعثت إليها جارتها برغيفين وبضعة لحم، فبعثت حسناً وحسيناً إلى النبي ﷺ، فجاء، فكشفت له الجفنة، فإذا الجفنة مملوءة خبزاً ولحمًا، فبهتت، وعرفت أنها بركة من الله تعالى، فقال النبي ﷺ: «من أين لك هذا يا بنية؟» قالت: «هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»، فحمد الله تعالى، وقال: «الحمد لله الذي جعلك شبيهاً بسيدة بنى إسرائيل، فإنها كانت إذا رزقها الله شيئاً قالت: «هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» ثم بعث النبي ﷺ إلى عليٍّ رضي الله عنه. ثم أكل أهل البيت كلهم، وجميع أزواج النبي ﷺ، وبقيت الجفنة كما هي فأوسعت على الجيران، وجعل الله فيها بركة وخيراً. انتهى^(١).

الإشارة: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين)، إنما اصطفى الحق تعالى هؤلاء الرسل؛ لكونهم قد أظهروا الدين بعد انطماس أنواره، وجددوه بعد خمود أسرارهم، هم أئمة الهدى ومقتبس أنوار الاقتداء، فكل من كان على قدمهم من هذه الأمة المحمدية، بحيث يجدد للناس دينهم، ويبين للناس معالم الطريق وطريق السلوك إلى عين التحقيق، فهو ممن اصطفاه الله على عالمي زمانه.

وفي الحديث: «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها». قال الحريري: (مات الحسن البصري عشية جمعة - أي: بعد زوالها - فلما صلى الناس الجمعة حملوه، فلم يترك الناس صلاة العصر في مسجد الجماعة بالبصرة منذ كان الإسلام، إلا يوم مات الحسن، واتبع الناس جنازته، فلم يحضر أحد في المسجد صلاة العصر، قال: وسمعت منادياً ينادي: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) واصطفى الحسن على أهل زمانه). قلت: والحسن البصري هو الذي أظهر علم التصوف، وتكلم فيه وهذبه. قال في القوت: وهو إمامنا في هذا العلم - يعني علم التصوف.

وقوله تعالى: «إذ قالت امرأة عمران.. الآية. كل من نذر نفسه وحررها لخدمة مولاه، تقبلها الله منه بقبول حسن، وأنبت فيها المعرفة نباتاً حسناً، وكفلها بحفظه ورعايته، وضمها إليه بسابق عنايته، ورزقها من طرف الحك وفواكه العلوم، مما لا تحيط به العقول وغاية الفهوم، فإذا قال لنفسه: من أين لك هذا؟ (قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب). وأنشدوا:

فَلَا عَمَلٌ مِنِّي إِلَيْهِ اكْتَسَبْتُهُ سِوَى مَحْضِ فَضْلٍ، لَا بِشَيْءٍ يُعَلَّلُ

وقال القشيري: قوله تعالى: (فتقبلها ربها بقبول حسن)، يقال: من القبول الحسن أنه لم يطرح كلها وشغلها علم زكريا، فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعاهدها بطعام وجد عندها رزقاً، ليعلم العالمون أن الله - تعالى - لا يلقى شغلاً

(١) إلى هنا ينتهي السقط المشار إليه سابقاً في النسخة التيمورية.

أوليائه على غيره، ومن خدم رلياً من أوليائه كان هو في رفق الولي، وهذه إشارة لمن يخدم الفقراء، يعلم أنه في رفقهم، لا أن الفقراء تحت رفقه. هـ.

قال أهل التفسير: فلما رأى زكريا ما يأتي لمريم من الفواكه في غير أوانها، قال: إن الذي قدر على أن يأتي مريم بالفاكهة في غير وقتها، قادر على أن يصلح زوجتي، ويهب لي ولداً على الكبر. فطلب الولد، كما أشار الحق تعالى إلى ذلك بقوله:

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ٣٨ ﴾
فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا
وَاحْصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَآمَرَأْتِي
عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ٤٠ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ٤١ ﴾

قلت: (هنالك): اسم إشارة للبعيد، والكاف: حرف خطاب، يطابق المخاطب في التذكير والتأنيث والإفراد والجمع في الغالب. والمحراب: مفعال، من الحرب، وهو الموضع المعد للعبادة، كالمسجد ونحوه، سمي به، لأنه محل محاربة لشیطان.

(والملائكة): جمع تكسير، يجوز في فعله التذكير والتأنيث، وهو أحسن، تقول: قام الرجال وقامت الرجال، فمن نرا: (فنادته الملائكة)، فعلى تأويل الجماعة، ومن قرأ: (فناداه)، أراد تنزيه الملائكة عن التأنيث، رداً على الكفار. المراد هنا: جبريل عليه السلام كقوله: ﴿يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ﴾، ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾، و(بشر): فيها ختان: التخفيف، وهي لغة تهامة، تقول: بشر يبشر - بضم الشين في المضارع، والتشديد، وهو أفصح، تقول بشر بشراً تبشيراً.

يقول الحق جل جلاله، مخبراً عن زكريا عليه السلام: «هنالك» أي: في ذلك الوقت الذي رأى ما رأى من خوارق عند مريم، «دعا زكريا ربه»، فدخل المحراب، وغلق الأبواب، وقال في مناجاته: «رب هب لي من دنك ذرية طيبة»، كما وهبتها لحنّة العجوز العاقر، «إنك سميع الدعاء» أي: مجيبه فاسمع دعائي يا

مجيب، «فنادته الملائكة»، وهو جبريل، لأنه رئيس الملائكة، والعرب تنادى الرئيس بلفظ الجمع؛ إذ لا يخلو من أصحاب، «وهو قائم يصلى فى المحراب» روى: أنه كان قائماً يصلى فى محرابه، فدخل عليه شاب، عليه ثياب بيض، ففزع منه، فناداه، وقال له: «إن الله يبشرك بهي»، سمي به؛ لأن الله تعالى أحيا به عقم أمه، أو لأن الله تعالى أحيا قلبه بمعرفته، فلم يهتم بمعصية قط، أو لأنه استشهد، والشهداء أحياء.

«مصدقاً بكلمة من الله» وهو عيسى، لأنه كان بكلمة: كن، من غير سبب عادى، «وسيداً» أى: يسود قومه ويفوقهم، «وحصوراً»، أى: مبالغاً فى حبس النفس عن الشهوات والملاهي. روى أنه مر فى صباه على صبيان، فدعوه إلى اللعب، فقال: ما للعب خلقت. أو عتيلاً، روى: «أنه كان له ذكر كالقذاة» رواه ابن عباس. وقال فى الأساس: (رجل حصور: لا يرغب فى النساء). قيل: كان ذلك فضيلة فى تلك الشريعة، بخلاف شريعة نبينا محمد ﷺ وفى الورتجى: الحصور: الذى يملك ولا يملك. وقال القشيري: «حصوراً»: أى: معتقاً من الشهوات، مكفياً أحكام البشرية، مع كونه من جملة البشر، «ونبياً من الصالحين» الذين صلحوا للنبوة وتأهلوا للحضرة.

ولما سمع البشارة هزه الفرح فقال: يا «رب أنى يكون لى غلام» أى: من أين يكون لى غلام؟ قاله استعظماً أو تعجباً أو استفهاماً عن كيفية حدوثه. هل مع كبر السن والعقم، أو مع زوالهما. «وقد بلغت الكبر»، وكان له تسع وتسعون سنة، وقيل: مائة وعشرون، «وامراتى عاقرة» لا تلد، ولم يقل: عاقرة، لأنه وصف خاص بالنساء. قال له جبريل: «كذلك الله يفعل ما يشاء» من العجائب والخوارق، فيخلق الولد من العاقر والشيخ الفانى، أو الأمر كذلك، أى: كما أخبرتك، ثم استأنف: «الله يفعل ما يشاء».

ولما تحقق بالبشارة طلب العلامة، فقال: «رب اجعل لى آية» أعرف بها حمل المرأة، لاستقبله بالبشارة والشكر، «قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام» أى: لا تقدر على كلام الناس ثلاثاً، فحبس لسانه عن الكلام دون الذكر والشكر، ليخلص المدة للذكر والشكر، «إلا رمزا» بيد أو رأس أو حاجب أو عين. «واذكر ربك كثيراً» فى هذه المدة التى حبست فيها عن الكلام، وهو يبين الغرض من الحبس عن الكلام. وتقيد الأمر بالكثرة جدل على أنه لا يفيد التكرار. «وسبح بالعشى» أى: من الزوال إلى الغروب، أو من العصر إلى جزء الليل، «والإبكار» من الفجر إلى الضحى، وقيل: كانت صلاتهم ركعتين فى الفجر وركعتين فى المغرب، ويؤيد هذا قوله تعالى فى الآية الأخرى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأصلاب الروحانية كالأصلاب الجسمانية، منها ما تكون عقيمة مع كمالها، ومنها ما تكون لها ولد أو ولدان، ومنها ما تكون لها أولاد كثيرة، ويؤخذ من قضية السيد زكريا عليه السلام: طلب الولد؛ إذا خاف الولي اندراس

علمه أو حاله بانقطاع نسله الروحاني، ولا شك في فضل بقاء النسل الحسي أو المعنوي، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ، أَوْ عِلْمٌ يَنْتَفِعُ بِهِ». وشمل الولد البشري والروحاني، وقال عليه الصلاة والسلام لسيدنا علي - كرم الله وجهه -: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ».

وقال بعض الشعراء^(١):

وَالْمَرْءُ فِي مِيزَانِهِ أَتْبَاعُهُ فاقْدُرْ إِذَنْ قَدَرَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٌ

وقد سلك هذا المسلك القطب ابن مشيش في طلب الولد الروحاني، حيث قال في تصليته المشهورة: (اسمع ندائي بما سمعت به نداء عبدك زكريا)، فأجابه الحق تعالى بشيخ المشايخ القطب الشاذلي. وغير واحد من الأولياء دخل محراب الحضرة، ونادى نداء خفيا في صلاة الفكرة، فأجابته الهوائف في الحال، بلسان الحال أو المقال: إن الله يبشرك بمن يحيى علمك ويرث حالك، مصدقا بكلمة من الله، وهم أولياء الله، وسيدا وحسورا عن شواغل الحس، مستغرقا في مشاهدة القرب والأنس، ينبئ بعلم الغيوب، ويصلح خلل القلوب، فإذا استعظم ذلك واستغربه، قيل له: الأمر كذلك، (الله يفعل ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون)، فحسبك الاشتغال بذكر الله، والغيبة عما سواه. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ذكر اصطفاية مريم بالخصوص بعد العموم فقال:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ

الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: واذكر «إذ قالت الملائكة» أي: جبريل، أو جماعة، كلمتها شفاها، كرامة لها. وفيه إثبات كرامة الأولياء، وليست نبيه؛ للإجماع على أنه تعالى لم يستنبي امرأة؛ لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ فقالوا لها: «يا مريم إن الله اصطفاك» لخدمة بيته، ولم يقبل قبلك أنثى قط، وفرغك لعبادته، وأغذاك برزقه عن رزق غيره، «وطهرك» من الأخلاق الذميمة، ومما يستقذر من النساء، «واصطفاك» ثانيا بهدايته لك، وتخصيصك بتكليم الملائكة، وبالبشارة بالولد من غير أب، فقد اصطفاك «على نساء العالمين».

(١) وهو الشيخ البوصيري.

(٢) انظر في مسألة نبرة مريم: فتح الباري ٥٤٢/٦.

وفى الحديث عنه ﷺ: «كَمَلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمَلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مَرْحَمٍ وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ».. الحديث. قال ابن عزيز: أى: عالمى دهرها، كما فضلت خديجة وفاطمة بنت رسول الله ﷺ على نساء أمة محمد ﷺ، بل قال أبو عمر: فاطمة فضلت على جميع النساء، وهو واضح، لحديث: سيدة نساء أهل الجنة، لكن جاء فى حديث آخر استثناء مريم. فالله أعلم.

وفى الاستيعاب: عن عمران بن حصين: أن النبى ﷺ عاد فاطمة، وهى مريضة، فقال: «كيف تجدك يا بُنَيَّةُ؟» فقالت له: إنى لوجعة، وإنه ليزيدنى أنى مالى طعام آكله، فقال: «يا بُنَيَّةُ، أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين؟» فقالت: يا أبت، فأين مريم بنت عمران؟ قال: «تلك سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك، والله لقد زوجتك سيداً فى الدنيا والآخرة» هـ. من المحشى.

«يا مريم اقنتى لربك» أى: أطبلى الصلاة شكراً لما اختصك به، «واسجدى واركعى مع الراكعين» أى: صلى مع المصلين، وقدم السجود على الركوع، إما لكونه كذلك فى شرعهم، أو للتنبيه على أن الواو لا ترتب، أو ليقترن «اركعى» بالراكعين، للإيذان بأن من ليس فى صلاتهم ركوع ليسوا بمصلين. وقيل: المراد بالقنوت: إداعة الطاعة، كقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً﴾، وبالسجود: الصلاة، لقوله: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾، وبالركوع: الخشوع والإخبات. قاله البيضاوى. وقال الأوزاعى: لما قالت لها الملائكة ذلك، قامت فى الصلاة حتى تورمت قدمها وسالت دما وقيحاً.

الإشارة: لا يصطفى الله العبد لحضرته إلا بعد تطهيره من الرذائل، وتحليته بأنواع الفضائل، وقطعه عن قلبه الشواغل، والقيام بوظائف العبودية، وبالأداب مع عظمة الربوبية، والخضوع تحت مجارى الأقدار، والتسليم لأحكام الواحد القهار، فأنفاس المريد ثلاثة: عبادة، ثم عبودية، ثم عبودة، ثم يترقى إلى مطالعة علم الغيوب، الذى أشار إليه الحق تعالى بقوله:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٤٤﴾

يقول الحق جل جلاله، لحبيبه ﷺ: «ذلك» القصص الذى أطلعك عليه، هو «من» أخبار «الغيب» الذى لم يكن لك به شعور، وما عرفته إلا بوحينا وإعلامنا، فلا يشك فى نبوتك إلا مطموس أعمى، (و) أيضاً: «ما

كنت لديهم» أى: عندهم، حين كانوا «يلقون أقلامهم» لما اقترعوا، «أيهم يكفل مريم، وما كنت لديهم إذ يختصمون» فى كفالتها، فتخبرهم عما شهدت، بل لم يكن شيء من ذلك، فتعين أن يكون وحياً حقيقاً، لأنه عليه الصلاة والسلام - كان أمياً لم يطالع شيئاً من كتب الأخبار، ولا جلس إلى من طالعهم من الأحبار، بإجماع الخاص والعام. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الوحي على أربعة أقسام: وحي منام، وحي إلهام، وحي أحكام، وحي إعلام، وشاركت الأولياء الأنبياء فى ثلاثة: الإلهام والمنام والإعلام، إن كان بغير الملك، ومعنى وحي إعلام: هو إطلاع الله النبىء على أمور مغيبة، فإن كان بواسطة الملك، فهو مختص بالأنبياء، كما اختصت بوحى الأحكام، وأما إن كان بالإلهام أو بالمنام أو بالفهم عن الله، فيكون أيضاً للأولياء، إذ الروح إذا تصفت وتطهرت من دنس الحس أطلعها الله على غيبه فى الجملة، وأما التفصيل فلا يعلمه إلا علام الغيوب. والله أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى البشارة بعيسى عليه السلام، وهو المقصود الأعظم من هذه القصص؛ ليتخلص للرد على النصارى فى زعمهم الفاسد فيه، فقال:

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٤٥ ﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ ٤٦ ﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ ٤٧ ﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿ ٤٨ ﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿ ٤٩ ﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٥٠ ﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿ ٥١ ﴾

قلت : (إذ قالت) : بدل من (وإذ قالت) الأولى، ويبعد إبدالها من (إذ يختصمون)، و(المسيح) وما بعده: إخبار عن اسمه، أو (عيسى) : خبر عن مضمرة، و(ابن مريم) : صفته، و(المسيح) : فعيل بمعنى مفعول، لأنه مُسَح من الأقدار، أى: طهر منها، أو مسح بالبركة، أو كان مسيح القدم، لا أخص له، أو مسحه جبريل بجناحه من الشيطان. أو بمعنى فاعل؛ لأنه كان يمسح المرضى فيبرءون، أو يمسح عين الأعمى فيبصر، أو لأنه كان يسبح في الأرض ولا يقيم في مكان؛ فتكون الميم زائدة.

وأما المسيح الدجال فإنه ممسوح إحدى العينين، أو لأنه يطوف الأرض ويمسحها، إلا مكة والمدينة، والحاصل: أن عيسى مسيح الخير، والدجال مسيح الشر، ولذلك قيل: إن المسيح يقتل المسيح. و(وجيهاً) : حال من (كلمة)؛ لتخصيصه بالصفة، و(فى المهد وكهلاً) : حالان، أى: طفلاً وكهلاً، والمهد: ما يهد للصبي. و(رسولاً) : مفعولٌ لمحذوف، أى: ونجعله رسولا، و(مصدقاً) : عطف على (رسولاً)، و(لأجل) : متعلق بمحذوف، أى: وجئكم لأجل. أو معطوف على معنى مصدقاً، كقولهم: جئتك معذراً، أو لأطيب قلبك.

يقول الحق جل جلاله: (ر) اذكر أيضاً «إذ قالت الملائكة» فى بشارتهم لمريم: «يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه»، أى: بولد يتكون بكلمة من الله؛ كن فيكون، وقيل: إنما سمي كلمة؛ لكونه مظهراً لكلمة التكوين، متحققاً ومتصرفاً بها. ولذلك كان يظهر عليه خوارق الأقدار أكثر من غيره من الأنبياء، «اسمه المسيح»، واسمه «عيسى بن مريم»، وإنما قال: «ابن مريم» والخطاب لها، تنبيهاً على أنه يولد من غير أب؛ إذ الأولاد إنما تنسب لأبائها إلا إذا فقد الأب. ثم وصف الولد بقوله: «وجيهاً فى الدنيا والآخرة» أى: شريفاً فى الدنيا بالنبوة والرسالة، وفى الآخرة بالشفاعة لمن تبعه. ويكون «من المقربين» إلى الله تعالى فى الدارين.

«ويكلم الناس» طفلاً «فى المهد» على وجه خرق العادة فى تبرئة أمه، «وكهلاً» إذا كمل عقله قبل أن يرفع، أو بعد الرفع والنزول، لأن الكهولة بعد الأربعين، والتحقيق: أنه بشرها بنبوة عيسى وكلامه فى المهد، معجزة، وفى الكهولة دعوة قبل الرفع وبعده، وما قارب الشئ يعطى حكمه، وحال كونه «من الصالحين» لحضرة رب العالمين.

ولما سمعت البشارة دهشت و«قالت»: يا «رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر»، والخطاب لله، فانية عن الوساطة جبريل، والاستفهام تعجباً، أو عن الكيفية: هل يكون بتزوج أم لا؟ «قال» لها الملك: «كذلك الله يخلق ما يشاء». أو الأمر كذلك كما تقولين، لكن «الله يخلق ما يشاء»؛ لا يحتاج إلى وسائط ولا أسباب، بل «إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون»، «ويعلمه الكتاب» أى: الكتابة والخط، «والحكمة» أى: النبوة، أو الإصابة فى الرأى، «والتوراة والإنجيل».

(و) يجعله «رسولا إلى بنى إسرائيل». وكان أول رسل بنى إسرائيل يوسف، وآخرهم عيسى - عليهما السلام -، وقال: عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ عَلَى إِثْرِ ثَمَانِيَةِ آلَافِ نَبِيٍّ، أَرْبَعَةُ آلَافٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ». فإذا بعث إليهم قال: «أَنَّى قَدْ جِئْتُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ؟ أَى: بَأَنَّى قَدْ جِئْتُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، قَالُوا: وَمَا هِىَ؟ قَالَ: «أَنَّى أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ؟ كَصُورَتِهِ، «فَأَنْفَخْتُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ»، وكان يخلق لهم صورة الخفاش، لأنها أكمل الطير؛ لأن لها ثدياً وأسناناً وتحيض وتطير، فيكون أبلغ فى المعجزة، وكان يطير مادام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عنهم سقط ميتاً؛ ليميز فعل الحق من فعل الخلق.

ثم قال لهم: ولى معجزة أخرى؛ أنى «أبرئ الأكمه» الذى ولد أعمى، فأحرى غيره، «والأبرص» الذى فيه وضوح^(١). وخصهما؛ لأنهما عاهتان معضلتان. وكان الغالب فى زمن عيسى الطب، فأراهم المعجزة من جنس ذلك. روى: أنه ربما اجتمع عليه من المرضى فى اليوم الواحد ألوف، من أطاق منهم البلوغ^(٢) أناه، ومن لم يطق أناه عيسى ﷺ، وإنما كان يداويهم بالدعاء على شرط الإسلام.

«وأحيى الموتى بإذن الله» لا بقدرتى دفعا لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من طوق البشر. روى أنه أحيى أربعة أنفس: (العاذر)، وكان صديقاً له، فأرسلت أخته إلى عيسى أن أخاك العاذر يموت، فأتاه من مسيرة ثلاثة أيام فوجده مات، فقال لأخته: انطلقى بنا إلى قبره، وهو فى صخرة مطبقة، فدعا الله تعالى، فقام العاذر يقطر ودكه^(٣)، فعاش وولد له. و(ابن العجوز)، مر بجنازته على عيسى ﷺ فدعا الله تعالى، فجلس على سريريه، ونزل عن أعناق الرجال، ولبس ثيابه، وحمل سريريه على عنقه، ورجع إلى أهله، وبقي حتى ولد له. و(ابنة العاشر)، كان يأخذ العشور، قيل له: أتحييها، وقد ماتت أمس؟ فدعا الله تعالى، فعاشت وولد لها. و(سام بن نوح)، دعا باسم الله الأعظم، فخرج من قبره، وقد شاب نصف رأسه، فقال: أقامت الساعة؟ قال: لا، لكنى دعوت الله فأحياك، مالى أرى الشيب فى رأسك، ولم يكن فى زمانك؟ قال: سمعت الصيحة، فظننت أن الساعة قامت فشيت من هولها. قيل: كان يحيى الموتى بـ «يا حى يا قيوم».

«وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون فى بيوتكم»، لما أبرأ الأكمه والأبرص قالوا: هذا سحر، أخبرنا بما نأكل وما ندخر؟ فكان يخبر الرجل بما يأكل فى غدائه وعشائه. وروى أنه لما كان فى المكتب، كان يحدث الغلمان بما يصنع لهم آبائهم من الطعام، فيقول للغلام: انطلق .. غداء أهلك كذا وكذا، فيقول أهله: من أخبرك بهذا؟ قال: عيسى، فحبسوا صبيانهم عنه، وقالوا: لا تلعبوا مع هذا الساحر، فجمعوهم فى بيت، فجاء عيسى

(١) هو بياض يعترى الجلد.

(٢) أى: بلوغ المريض المكان الذى فيه عيسى - عليه السلام -.

(٣) الودك: دسم اللحم ردهنه.

يطلبهم، فقالوا: ليسوا هاهنا، قال: ماذا في البيت؟ قالوا: خنازير، قال عيسى: كذلك يكونون، ففتحوا الباب، فإذا هم خنازير، فهموا بقتله، فهربت به أمه إلى مصر. قاله السدي.

ثم قال لهم: «إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين»، فإن غير المؤمنين لا ينتفع بالمعجزات لعناده، «ومصدقاً لما بين يدي من التوراة» أي: وجئكم مصدقاً للتوراة، وشاهداً على صحتها، «ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم» في شريعة موسى ﷺ كالشحوم والثروب (١) ولحم الأبل والعمل في السبت. وهذا يدل على أنه ناسخ للتوراة، ولا يخل بكونه مصدقاً له، كما لا يخل نسخ القرآن بعضه لبعض بصحته. فإن النسخ في الحقيقة: بيان لانتفاء العمل بذلك الحكم. ثم قال لهم: (و) قد «جئكم بآية» واضحة «من ربكم»، قد شاهدتموها بأعينكم، فما بقى إلا عنادكم، «فاتقوا الله وأطيعون».

ثم دعاهم إلى التوحيد بعد بيان الحجة فقال: «إن الله ربي وربكم فاعبدوه» ولا تعبدوا معه سواه، «هذا صراط مستقيم» لا عوج فيه. قال البيضاوي: أي: لما جئكم بالمعجزات القاهرة والآيات الباهرة، «فاتقوا الله» في المخالفة، «وأطيعون» فيما أدعوكم إليه، ثم شرع في الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل، فقال: «إن الله ربي وربكم»؛ أشار إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد، وقال: «فاعبدوه»؛ إشارة إلى استكمال القوة العملية بملازمة الطاعة، التي هي الإتيان بالأوامر والالتهاء عن المناهي، ثم قرر ذلك بأن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة، ونظيره: قوله عليه الصلاة والسلام: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمَّ».

الإشارة: كل من انقطع بكليته إلى مولاه، وصدف عن حظوظه وهواه، وأفنى شبابه في طاعة ربه، وجعل يلتبس في حياته دواء قلبه، تحققت له البشارة في العاجل والآجل، وحصل له التطهير من درن العيوب والردائل، ورزقه من فواكه العلوم، ما تتضاءل دون إدراكه غاية الفهوم، هذه مريم البتول أفنت شبابها في طاعة مولاه، فقربها إليه وتولاها، وبشرها بالاصطفائية والتطهير، وأمرها شكراً بالجد والتشمير، ثم بشرها ثانياً بالولد النزيه والسيد النبويه، روح الله وكلمة الله، من غير أب ولا سبب، ولا معالجة ولا تعب، أمره بأمر الله، يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، هذا كله ببركة الانقطاع وسر الاتباع.

قال ﷺ: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله تعالى إليها».

(١) الثروب: جمع ثرب، وهو شحم دقيق يغطي الكرش والأمعاء.

وقال بعضهم: صدق المجاهدة: الانقطاع إليه من كل شيء سواه. فالانقطاع إلى الله في الصغر يخدم على الإنسان في حال الكبر، ومعاصي الصغر تجر الوبال إلى الكبر، فكما أن عيسى عليه السلام كان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، كذلك من انقطع بكليته إلى الله أبرأ القلوب السقيمة بإذن الله، وأحيا موتى القلوب بذكر الله، وأخبر بالغيوب وما تدخره ضمائر القلوب، يدل على طاعة الله، ويدعو بحاله ومقاله إلى الله، يهدي الناس إلى الصراط المستقيم، ويوصل من اتبعه إلى حضرة النعيم. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما تمت البشارة بعيسى عليه السلام وظهر إلى الدنيا، وبلغ وقت الدعوة، بعثه الله إلى بنى إسرائيل، فكفروا به، فلما تحقق كفرهم طلب من ينصره إلى الله، كما أشار الحق تعالى إلى ذلك بقوله:

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا مِمَّا كَرِهَتْ أَعْيُنُهُنَّ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكَرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت: (من أنصاري إلى الله): الجار يتعلق بحال محذوفة، أي: ذاهباً إلى الله إلى نصر دينه، أو مضيفاً نفسه إلى الله، أو ملتجئاً إلى الله، أو يتعلق بـ (أنصاري)؛ مضمناً معنى الإضافة، أي: من يضيف نفسه إلى الله في نصره. وحواري الرجل: خاصته، الذين يستعين بهم في نوائبه، وفي الحديث عنه - عليه الصلاة والسلام -: «لكل نبي حواري، وحواري عيسى: أصحابه الذين نصره»، وسموا بذلك لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم. والحوار: البياض الخالص، وكل شيء بيضته فقد حورته، ويقال للبيضاء من النساء: حوارية. وقيل: كان الحواريون قصارين^(١)، يحورون الثياب، أي: يبيضونها، وقيل: كانوا ملوكاً يلبسون البياض.

يقول الحق جل جلاله: «فلما أحس عيسى» من بنى إسرائيل «الكفر»، وتحقق ما يدرك بالحواس، بعدما بعث إليهم، وأرادوا قتله، فرمهم واستنصر عليهم، و«قال من أنصاري» ملجأ «إلى الله»، أو ذاهباً إلى نصر دينه، «قال الحواريون نحن أنصار الله» أي: أنصار دينه، «آمنّا بالله واشهد» علينا بأننا «مسلمون»؛ لتشهد لنا يوم القيامة، حين يشهد الرسل لقومهم، «ربنا آمنّا بما أنزلت» على نبيك من الأحكام، «واتبعنا الرسول» عيسى عليه السلام، «فاكتبنا مع الشاهدين» بوحدانيتك، أو مع الذين يشهدون لأنبيائك

(١) القصار: المبيض للثياب، وهو الذي يهينء النسيج بعد نسجه، ببله ودقه بالقصرة - التي هي القطعة من الخشب.

بالصدق، أومع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم، أو مع أمة محمد - عليه الصلاة والسلام - فإنهم شهداء على الناس.

قال عطاء: سَلِمَتْ مريمُ عيسى إلى أعمال شتى، وآخر ما دفعته إلى الحواريين، وكانوا قصارين وصباغين، فأراد مُعَلِّمُ عيسى السفر، فقال لعيسى: عندي ثياب كثيرة مختلفة الألوان، وقد علمتك الحرفة فاصبغها، فطبخ جباً واحداً، وأدخل فيه جميع الثياب، وقال لها: كوني على ما أريد، فقدم الحوارى، والثياب كلها فى الجب، فلما رآها قال: قد أفسدتها، فأخرج عيسى ثوباً أصفر، وأحمر، وأخضر، إلى غير ذلك، فعجب الحوارى، وعلم أن ذلك من الله تعالى، ودعا الناس إليه، وآمنوا به، ونصروه، فهم الحواريون.

ولما أخرجه بنو إسرائيل عاد إليهم مع الحواريين، وصاح فيهم بالدعوة، فهُمُّوا بقتله، وتواطلوا عليه، «ومكروا» أى: دبروا الحيل فى قتله، «ومكر الله» بهم، أى: استدرجهم حتى قتلوا صاحبهم، ورفع عيسى ﷺ، فالمكر فى الأصل: هو حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة. ولا تُسند إلى الله إلا على حسب المقابلة والازدواج، كقوله: ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾، وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، «والله خير الماكرين». أى: أشدهم مكرًا، وأقوامهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب، أو أفضل المجازين بالعقوبة؛ لأنه لا أحد أقدر على ذلك منه. تنبيه: قيل للجديد رضي الله عنه: كيف رضى المكر لنفسه، وقد عابه على غيره؟ قال: لا أدري، ولكن أنشدنى فلان للطبرانية:

فَدَيْتَكَ قَدْ جُبِلْتُ عَلَى هَوَاكَ	وَنَفْسِي مَا تَحْنُ إِلَى سِوَاكَ
أَحْبَبَكَ، لَا يَبْغَضُنِي بَلْ بَكَلَّى	وَأَنْ لَمْ يَبْقِ حُبُّكَ لِي حِرَاكَا
وَيَقْبَحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي	وَتَفَعَّلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَ (١)

فقال له السائل: أسألك عن القرآن، وتجيبنى بشعر الطبرانية؟ قال: ويحك، قد أجبتك إن كنت تعقل. إن تخليتهم إياهم مع المكربة، مكر منه بهم. هـ.

قلت: وجه الشاهد فى قوله: (وتفعله فيحسن منك ذاك)، ومضمن جوابه: أن فعل الله كله حسن فى غاية الإتقان، لا عيب فيه ولا نقصان، كما قال صاحب العينية:

وَكُلُّ قَبِيحٍ إِنْ نَسَبْتَ لِحُسْنِهِ	أَنْتَكَ مَعَانِي الْحُسْنِ فِيهِ تُسَارِعُ
يُكَمِّلُ نَقْصَانَ الْقَبِيحِ جَمَالُهُ	فَمَا تَمَّ نَقْصَانٌ وَلَا تَمَّ بَاشِعُ

(١) القصة ذكرها مختصرة أبو حيان فى التفسير ٢/٤٩٦ مقتصراً على البيت الثالث .

وتخليته تعالى إياهم مع المكر، تسبب عنه الرفع إلى السماء، وإبقاء عيسى حياً إلى آخر الزمان، حتى ينزل خليفة عن نبينا - عليه الصلاة والسلام -، فكان ذلك في غاية الكمال والإتقان، لكن لا يفطن لهذا إلا أهل العرفان.

الإشارة: يجب على المرید الصادق الذي يطلب دواء قلبه، أن يفر من الوطن الذي يظهر فيه الإنكار، إلى الوطن الذي يكثر فيه الإقرار، يفر إلى من يعينه على نصر الدين من الأبرار المقربين، الذين جعلهم الله حوارى الدين، ففي الحديث الصحيح: «خَيْرُ مَا لِلْمُسْلِمِ غَلَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعْفَ^(١) الْجِبَالِ يَفِرُّ مِنَ الْفِتَنِ». فالؤمن يفر بدينه من شاهر جبل إلى شاهر جبل حتى يدركه الموت، وما زالت الأكابر تفر بنفسها إلى شواهد الجبال، يهربون من حس الدنيا وشغبها، ولا يرافقون إلا من يستعين بهم على ذكر الله، وهم أهل التجريد، الذين اصطفاهم الله لخالص التوحيد، فروا إلى الله فأواهم الله، قالوا: (آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) متقادون لما تريد منا، (ربنا آمنا بما أنزلت) من الأحكام الجلالية والجمالية، قد عرفناك في جميع الحالات، (فاكتبنا مع الشاهدين) لحضرتك، المنعمين بشهود ذاتك، ومن مكر بنا من القواطع الخفية فغيبنا عنه بشهود أنوارك القدسية، وانصرنا فإنك خير الناصرين، ولا تدعنا مع مكر الماكرين يا رب العالمين.

ثم ذكر الحق تعالى رفع عيسى إلى السماء فقال:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ سَلَامٌ عَلَيْكَ وَرَافِعُكَ إِلَيْنَا وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ٥٨﴾

قلت: (إذ قال): ظرف لمقدر، أى: اذكر، أو وقع ذلك إذ قال، أو لمكروا، و(مرافيك) أى: رافعك إلى وافيًا تامًا، من قولهم: توفيت كذا واستوفيته: قبضته وافيًا تامًا، أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت، أو منيمك؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾، روى أنه رفع نائمًا، والإجماع على أنه لم يميت،

(١) (شعف)، بفتح الشين والعين: جمع شفعة، وهى من كل شيء: أعلاه - والمراد بها هنا: رموس الجبال.

قال تعالى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ ، وقوله: (ذلك) مبتدأ، و(نقلوه): خبر، و(من الآيات): حال، أو (من الآيات): خبر، و(نقلوه): حال، أو خبر بعد خبر.

يقول الحق جل جلاله: اذكر «إذ قال الله لعيسى عليه السلام لما أراد رفعه: «يا عيسى إني متوفيك»، أي: قابضك إلى بيدك تاماً، «ورافعك إلى» أي: إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي، «ومطهرك من الذين كفروا» أي: من مخالطة دنس كفرهم، «وجاعل الذين اتبعوك» ؛ ممن صدق بنبوتك من النصاري والمسلمين، وقال قتادة والشعبي والربيع: هم أهل الإسلام. هـ. فوالله ما اتبعه من ادعاه ربا، فمن تبع دينه حقا جعل «فوق الذين كفروا» به من اليهود «إلى يوم القيامة»؛ يغلبونهم بالحجة والسيف. وقد حقق الله فيهم هذا الأمر، فإن اليهود لم ترفع لهم راية قط، ولم يتفق لهم ملك ولا دولة إلى زمننا هذا^(١).

ثم قال تعالى: «ثم إلى مرجعكم» بالبعث، «فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون» من أمر الدين وأمر عيسى. «فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة» أي: فأجمع لهم عذابا الآخرة لعذاب الدنيا الذي أصابهم فيها من القتل والسبي. «وأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فنوفى لهم أجورهم» في الدارين بالنصر والعز في الدنيا، وبالرضا والرضوان في الآخرة، «والله لا يحب الظالمين» ؛ لا يرضى فعلهم ولا يقربهم إليه.

«ذلك» الذي ذكرت لك من نبأ عيسى ومريم ومن ذكر قبلهما، «نقلوه عليك من الآيات» أي: العلامات الدالة على صدقك، لأنها أخبار عن أمور لم تشاهدها ولم تقرأها في كتاب، بل هي من «الذكر الحكيم» ، وهو القرآن المبين.

الإشارة: كل من طهر سره من الأكدار، وقدس روحه من دنس الأغيار، ورفع همته عن هذه الدار، عرج الله بروحه إلى سماء الملكوت، ورفع سره إلى مشاهدة سنا الجبروت، وبقي ذكره حيا لا يموت، وجعل من انتسب إليه في عين الرعاية والتعظيم، وفي محل الرفعة والتكريم، قال - عليه الصلاة والسلام - : «هاجروا تكسبوا العز لأولادكم» ، فمن هاجر وطن الحظوظ والشهوات، والركون إلى العوائد والمألوفات، عرجت روحه إلى سماء القدس ومحل الأنس، وتمكن من العز الذي لا يفنى، ينسحب عليه وعلى أولاده ومن انتسب إليه؛ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، (وهو خير الوارثين) . هذه سنة الله في خلقه، لأنهم نصروا دين الله ورفعوا كلمة الله، فنصرهم الله، ورفعهم الله، قال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ . وفي الحكم: «إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى، فلا تستعزن بعز يفنى» . والله تعالى أعلم.

(١) أي: إلى زمن المؤلف، أما في زمننا، فقد أنشأوا لهم دولة، في قلب عالمنا الإسلامي، في فلسطين العربية، بمعاونة الدول الظالمة. اللهم أزل دولتهم وفرق شملهم.. آمين.

وقال القشيري: الإشارة فيه: إني متوفيك عنك وقابضك منك، ورافعك عن نعوت البشرية، ومطهرك عن إرادتك بالكلية، حتى تكون مصدقاً لنا بنا، ولا يكون لك من اختيارك شيء، وتكون إسبال التولى عليك قائماً، وبهذا الوصف كان يظهر على يده إحياء الموتى، وما كانت تلك الأحداث حاصلة إلا بالقدرة عليه. هـ. وقال الورتجبي: متوفيك عن رسم الحدوثية، ورافعك إلى بدعت الربوبية، ومطهرك عن شوائب البشرية. هـ.

ثم ذكر نشأة عيسى وخلقه، فقال:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: «إن مثل عيسى عند الله» أي: إن شأنه الغريب في كونه وجد من غير أب (كمثل آدم). ثم فسر شأن آدم فقال: «خلقه من تراب» أي: خلق قلبه من تراب، «ثم» نفخ فيه الروح، «وقال له كن فيكون» أي: فكان، فشأنه أغرب من شأن عيسى، لأنه وجد من غير أب ولا أم، بخلاف عيسى عليه السلام، فلا يستغرب حاله ويتغالي فيه إلا من طبع الله على قلبه، فاستعجز القدرة الإلهية، «وكان الله على كل شيء مقتدرًا». هذا هو «الحق من ربك فلا تكن من الممترين» أي: الشاكين في مخلوقيته، وهذا خطاب للنبي ﷺ، على طريق التهيج لغيره، أو لكل سامع.

وسبب نزول الآية: أن وفد نجران قالوا للنبي ﷺ: مالك تشتم صاحبنا، فتقول: إنه عبد؟ قال: أجل، هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فغضبوا، وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله. فنزلت: «إن مثل عيسى عند الله كمثال آدم». أي: فهو أعجب من عيسى، لكونه بلا واسطة أصلاً. روى أن مريم حملت بعيسى وهي بنت ثلاث عشرة سنة، وأوحى الله إليه على رأس ثلاثين سنة، ورفعته إليه من بيت المقدس ليلة القدر، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين.

قال عليه الصلاة والسلام: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، فإنه نازل بأمتي وخليفتي فيهم، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، سبط الشعر، كأن شعره يقطر، وإن لم يصبه بلل، يدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويفيض المال، وليسكن الروحاء (١)، حاجاً أو معتمراً، أو ليثنتينهما جميعاً، ويقاقل الناس على الإسلام، حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها، ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة، الكذاب

(١) فج الروحاء: طريق بين مكة والمدينة، كان طريق رسول الله ﷺ إلى بدر، وإلى مكة، عام الفتح وعام الحج.

الدجال، وتقع في الأرض الأمنة، حتى ترتع الأسد مع الإبل، والنمر مع البقر، والذئب مع الغنم، ويلعب الغلمان بالحيات، ويلبث في الأرض أربعين سنة، ثم يتزوج ويولد له ثم يتوفى، ويصلى المسلمون عليه». ويدفونه في حجرة النبي ﷺ.

الإشارة: اعلم أن الحق - جل جلاله - أظهر هذا الآدمي في شكل غريب، وسر عجيب، جمع فيه بين الضدين، وأودع فيه سر الكونين، نوراني ظلماني، روحاني جسماني، سماوي أرضي، ملكوتي ملكي، معنوي حسي، أودع فيه الروح نورانية لاهوتية في نطفة ناسوتية، فوق التنازع بين الضدين، فالروح تحن إلى وطنها اللاهوتي، والنطفة الطينية تحن إلى وطنها الناسوتي، فمن غلبت روحانيته على طينته التحق بالروحانيين، وكان من المقربين في أعلى عليين، فصارت همته منصرفة إلى طاعة مولاه، والارتقاء إلى مشاهدة نوره وسناه، فانيا عن حظوظه وهواه، ومن غلبت طينته على روحانيته التحق بالشياطين، وانحط إلى أسفل سافلين، وكانت همته منصرفة إلى حظوظه وهواه، غائبا عن ذكر مولاه، قد اتخذ إلهه هواه.

وتأمل قضية السيد عيسى عليه السلام لما لم ينشأ من نطفة أمشاجية، كيف غلبت روحانيته، حيث لم تجد ما يجذبها إلى الحضيض الطيني، فلم يلتفت إلى هذا العالم الظلماني أصلا، وكذلك الأنبياء حيث طهروا من بقاياها في الأصالة، والأولياء حيث طهروها بالمجاهدة، كيف صارت أرواحهم لا تشاق إلا إلى الأذكار والعلوم والأسرار، فانية في محبة الواحد القهار، حتى لحقت بوطنها، ورجعت إلى أصلها، محل المشاهدة والمكالمة والمداخلة والمسارعة، هذا هو الحق من ربك فلا تكن من الممترين في إدراك الروح هذا المقام، إن لم يغلب عليها عالم الصلصال. والله - تعالى - أعلم.

ولما قامت الحجة على النصاري، وتبين عنادهم، دعاهم إلى المباهلة، فقال:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْنِدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

قلت: أصل (تعالوا): تعاليوا، على وزن تفاعلوا، من علو، فقلبت الياء ألفاً؛ لتحركها، ثم حذفتم، ومن قرأ بالضم نقل، وأصل معناها: ارتفع، ثم أطلق على الأمر بالمجىء. والابتغال: التضرع والمبالغة في الدعاء.

يقول الحق جل جلاله: «فمن» خاصمك يا محمد في شأن عيسى عليه السلام، وكان الذي خاصم في ذلك السيد والعاقب، لما قدموا مع نصاري نجران على النبي ﷺ، قال لهما النبي ﷺ: «أسلما»، قالوا: قد أسلما قبلك، قال: «كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما عيسى لله ولدا، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير»، قالوا: إن

لم يكن عيسى ولدًا لله فمن أبوه؟ فقال لهما النبي ﷺ: أستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: أستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى، قال: أستم تعلمون أن ربنا قيم كل شيء، ويحفظه، ويرزقه؟ قالوا: بلى، قال: فهل ملك عيسى شيئاً من ذلك؟ فقالوا: لا. قال: أستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى، قال: فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم؟ قالوا: لا. قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث، قالوا: بلى. قال: أستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعت كما تضع المرأة ولدها، ثم غذى كما يغذى الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟ قالوا: بلى. قال: كيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا.. فأنزل فيهم السورة إلى هنا.

فقال الحق لنبيه - عليه الصلاة والسلام -: «فمن حاجك فيه؟» أي: في عيسى من النصارى، «من بعد ما جاءك من العلم» بعبوديته، «فقل» لهم: «تعالوا» نتلاعن، أي: نلعن الكاذب منا؛ «ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم» أي: يدعو كل واحد منا نفسه وأعزة أهله وأصدقهم بقلبه إلى المباهلة، وإنما قدمهم على النفس؛ لأن الرجل يخاطر بنفسه دونهم، فكان تقديمهم أبلغ في الابتهاال، «ثم نبتهل»، أي: نجهد في الدعاء على الكاذب، «فتجعل لعنة الله على الكاذبين».

فلما قرأ النبي ﷺ هذه الآية على وفد نجران، ودعاهم إلى المباهلة، قالوا: حتى نرجع وننظر في أمرنا، فقالوا للعاقب - وكان ذا رأيهم - : ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتكم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما لآعن قوم قط نبياً فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم ذلك لتهلكن، فوادعوا الرجل. وانصرفوا، فأتوه وهو محتضن الحسن آخذ بيد الحسين، وقاطمة تمشي خلفه، وعليّ خلفها، وهو يقول لهم: «إذا دعوت فأمثوا»، فقال الأسقف: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوها لو سألو الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تتباهلوا فتهلكوا جميعاً إلى يوم القيامة. فقالوا: يا أبا القاسم، نرى ألا نلاعنك، فقال النبي ﷺ: أسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم، فأبوا، فقال: إني أنا بذككم، فقالوا: مالنا بحرب العرب طافة، ولكننا نصالحك على ألا تغزونا ولا تردنا عن ديننا، على أن تؤدى إليك في كل عام ألفي حلة، ألفاً في صفر، وألفاً في رجب، وثلاثين درعاً من حديد. فصالحهم النبي ﷺ على ذلك، فقال النبي: «والذي نفسي بيده لو تلاحنوا لمسخوا قردة، وخنازير، ولأضرم عليهم الوادى نارا، ولأستأصل الله نجران وأهلها، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا».

قال الله تعالى: «إن هذا» الذي أوحينا إليك «لهو القصص الحق وما من إله إلا الله»، خلافاً لما يزعم النصارى من التثليث، «وإن الله لهو العزيز» في ملكه «الحكيم» في صنعه، فلا أحد يساويه في قدرته التامة، ولا في حكمته البالغة، «فإن تولوا» وأعرضوا عن الإيمان، «فإن الله عليم بالمفسدين»، الذين يعبدون غير الله.

ووضع المظهر موضع الضمير، ليدل على أن التولى عن الحجج والإعراض عن التوحيد إفساد للدين، بل يؤدي إلى فساد العالم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للمريد، الذي تحقق بخصوصية شيخه، أن يلاعن من يخاصمه فيه، ويبعد عنه كل البعد، ولا يهين له لئلا يركبه، ويدفع عن شيخه ما استطاع، فإن هذا من التعظيم الذي هو سبب في سعادة المريد، ولا يصغى إلى المفسدين الطاعنين في أنصار الدين. قلت: وقد جاءني بعض من ينتسب إلى العلم من أهل فاس، فقال لي: قد اتفقت علماء فاس على بدعة شيخكم، فقلت له: لو اتفق أهل السموات السبع والأرضين السبع، على أنه من أهل البدعة، لقلت أنا: إنه من أهل السنة، لأنى تحققت بخصوصيته، كالشمس في أفق السماء، ليس دونها سحب. فأن الله يرزقنا حسن الأدب معهم والتعظيم إلى يوم الدين. آمين. فمن أعرض عن أولياء الله من المنكرين؛ (فإن الله عليم بالمفسدين).

ثم دعاهم إلى التوحيد الذي اتفقت عليه سائر الأديان، فقال:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ
وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قلت: (سواء): مصدر، نعت للكلمة، والمصادر لا تثني ولا تجمع ولا تؤنث، فإذا فتحت السين مددت، وإذا ضمت أو كسرت قصرت، كقوله: ﴿مَكَانًا سَوًى﴾ أى: مستو. وسواء كل شيء: وسطه، قال تعالى: ﴿فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ، أى: وسطه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى، ﴿تَعَالَوْا﴾: هلموا ﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ أى: عدل مستوية، ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾: لا يختلف فيها الرسل والكتب والأمم، هى ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أى: نوحده بالعبادة، ونقرله بالوحدانية، ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ أى: لا نجعل غيره شريكاً له فى استحقاق العبادة، ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى: لا نقول عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، ولا نطيع الأحرار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل، لأنهم بشر مثلنا.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ قال عدى بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله، قال: «أليس كانوا يحلون لكم ويحرّمون، فتأخذون بقولهم؟ قال: بلى، قال: هو ذاك» ﴿فَإِنْ

تولوا» وأعرضوا عن التوحيد «فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»، فقد لزمتمكم الحجة، فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم، وأنتم كافرون بما نطقتم به الكتب وتواطأت عليه الرسل.

تنبيه: انظر ما في هذه الآية من المبالغة وحسن التدرج في الاحتجاج، بين أولاً أحوال عيسى وما تطاور عليه من الأطوار المنافية للألوهية، ثم ذكر ما يحل عقدهم ويزيح شبهتهم، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباشرة بدواعي الإعجاز، ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد، عاد عليهم بالإرشاد، وسلك طريقاً أسهل وألزم، بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى وسائر الأنبياء والكتب، ثم لما لم يجد ذلك فيهم شيئاً، وعلم أن الآيات والنذر لا تغني عنهم شيئاً أعرض عنهم، وقال: «قولوا اشهدوا بأنا مسلمون». قاله البيضاوي.

الإشارة: الطرق كثيرة والمقصد واحد، وهو التوحيد الخاص، أعني مقام الفناء والبقاء. فالداعون إلى الله كلهم متفقون على الدعوة إلى هذا المقصد، فكل طريق لا توصل إلى هذا المقصد لا عبرة بها، وكل داع لا يبلغ إلى هذا الجمال فهو دجال، فإن رضى بتعظيم الناس، ولم يبين طريقه على الأساس، فليس لصاحبه إلا الإفلاس، وكل من أطاع المخلوق في معصية الله فقد اتخذ رباً من دون الله، وكل من تولى عن طريق الإرشاد فقد استوجب لنفسه الطرد والبعاد، فيقول له الواصلون أو السائرون: (فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون). وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما قدم وفد نجران المدينة، التقوا مع اليهود، فاختصموا في إبراهيم عليه السلام فاتاهم النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا محمد إنا اختلفنا في إبراهيم ودينه، فقالت النصارى: كان نصرانياً، وقالت اليهود: كان يهودياً، وهم أولى الناس به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كلا الفريقين برىء من إبراهيم، بل كان إبراهيم حنيفاً مسلماً، وأنا على دينه، فاتبعوا دينه الإسلام». فأنزل الله:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَاتِمٌ هَؤُلَاءِ حُجَجَتُمْ فِيهِمْ بِهِ. عَلِمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيهِمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قلت: (ها أنتم): أصله: أنتم، دخلت عليه هاء التنبيه، وقال الأخفش: أصله: أنتم، فقلبت الهمزة الأولى هاء، كقوله: هرفت. وتوجيه القراءات معلوم في محله، و(أنتم): مبتدأ، و(هؤلاء): خبره، و(حاججتم): جملة مبينة للأولى، أو (حاججتم): خبر، و(هؤلاء): منادى بحذف الداء، و(حنيفاً): حال، أى: مائلاً عن الأديان إلا دين الإسلام.

يقول الحق جل جلاله: «يا أهل الكتاب لم تُحاجون في إبراهيم»، ويدعى كل فريق أنه كان على دينه، «وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده»، فكيف يكون يهودياً، ودينكم إنما حدث بعد إبراهيم بألف سنة؟! وكيف يكون نصرانياً، ودين النصرانية إنما ظهر بعد إبراهيم بألف سنة؟! «أفلا تعقلون» فتدعون المحال، «ها أنتم» يا «هؤلاء» الحمقى «حاججتم فيما لكم به علم» من أمر محمد - عليه الصلاة والسلام - ونبوته، مما وجدتموه في التوراة والإنجيل، فأنكرتموه عناداً وحسداً، فلم تجادلون فيما لا علم لكم به، ولا ذكر في كتابكم من شأن إبراهيم؟ «والله يعلم» ما خالصتم فيه، «وأنتم لا تعلمون»، بل أنتم جاهلون.

ثم صرح بتكذيب الفريقين فقال: «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً» مائلاً عن العقائد الزائفة، (مسلماً) متقادراً لأحكام ربه. وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام، وإلا لكان مشركاً بالإلزام، لأن دين الإسلام مؤخر أيضاً، فكان إبراهيم إمام الموحدين، «وما كان من المشركين» كما عليه اليهود والنصارى والمشركون. ففيه تعريض بهم، ورد لادعائهم أنهم على ملته.

ثم ذكر من أولى الناس به، فقال: «إن أولى الناس بإبراهيم» أى: أخصهم به وأقربهم منه، «للمن اتبعوه» من أمته في زمانه، «وهذا النبي» محمد ﷺ، «والذين آمنوا»؛ لموافقهم له في أكثر الأحكام، قال ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ وَلَاةٌ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَإِنْ وُلِّيَ مِنْهُمْ أُمِّي وَخَلِيلُ رَبِّي». يعنى: إبراهيم عليه السلام، «والله ولي المؤمنين» أى: ناصرهم على سائر الأديان، ومجازيهم بغاية الإحسان.

الإشارة: ترى كثيراً من المتفكرة يخصون الكمال بطريقهم، ويخاصمون في طريق غيرهم، وهى نزعة أهل الكتاب، حائدة عن الرشد والصواب، فأولى بالحق من اتباع السنة المحمدية، وتخلق بالأخلاق المرضية، وزهد في الدارين، ورفع همته عن الكونين، ورفع حجاب الغفلة عن قلبه، حتى أشرقت عليه أنوار ربه، واتصل بأهل التربية النبوية، فزجوا به في بحار الأحدية، ثم ردوه إلى مقام الصحو والتكميل، فيأله من مقام جليل، فهذه ملة إبراهيم الخليل، وبها جاء الرسول الخليل حبيب الرحمن، وقطب دائرة الزمان، سيد المرسلين، وإمام العارفين، ورسول رب العالمين، صلى الله عليه وسلم دائماً إلى يوم الدين.

ثم شرع في معاتبة اليهود وذكر مساوئهم، فقال:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ
الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾

قلت: (لو): مصدرية، أى: تمنوا إضلالكم.

يقول الحق جل جلاله لبعض المسلمين - وهم حذيفة وعمار ومعاذ - دعاهم اليهود إلى دينهم وطمعوا فيهم: «ودت طائفة» أى: تمتل طائفة «من أهل الكتاب لو يضلونكم» أى: يفتنونكم عن دينكم، ويتلفونكم عن طريق الحق، «وما يضلون إلا أنفسهم»؛ لأن المسلمين لا يقبلون ذلك منهم، فرجع الضلال عليهم، وعاد وباله إليهم، وتضاعف عذابه عليهم، «وما يشعرون» أن وباله راجع إليهم.

ثم صرح الحق تعالى بعتابهم، فقال: «يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله» المنزلة على نبيه محمد ﷺ وتجدون رسالته؟ «وأنتم تشهدون» أنها من عند الله، وأنه نبي الله، وهو منصوص عندكم في التوراة والإنجيل، والمراد أحبارهم، أو تشهدون أنه نبي الله بالمعجزات الواضحات. «يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل» بالتحريف وإبراز الباطل في صورة الحق، حتى كتمتم نعت محمد وحرفتموه، وأظهرتم موضعه الباطل الذى سولت لكم أنفسكم؟ «وتكتمون الحق»؛ نبوة محمد ﷺ، «وأنتم تعلمون» أنه رسول الله حقاً وأن دينه حق، أو: وأنتم عالمون بكتمانكم.

الإشارة: ترى كثيراً من أهل الرئاسة والجاه من أولاد الصالحين، وممن ينتسب لهم، إذا رأوا من ظهر بالخصوصية في زمانهم يتمنون إضلالهم وإطفاء أنوارهم، خوفاً على زوال رئاستهم، وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون، (والله متم نوره ولو كره الكافرون)، وهذه نزعة يهودية سببها الحسد، والحسد لا يسود، وبعضهم يتحقق بخصوصية غيرهم، فيكتمها وهو يشهد بصحتها، فيقال لهم: لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون؟ ولم تلبسون الحق بالباطل، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون؟

ثم ذكر الحق - تعالى - خدع أهل الكتاب وحيلهم الفارغة، فقال:

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا
ءَاخِرَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قال الحسن والسدي: تواطأ اثنا عشر رجلاً من يهود خيبر - يعنى من أحبارهم - وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان لا بالاعتقاد، واكفروا به آخره، وقولوا: نظرنا في كتبنا، وشاورنا علمائنا، فوجدنا محمداً ليس بذلك، وظهر لنا كذبه، وإنما نفعل ذلك حتى نشكك أصحابه . هـ . فحذر الله تعالى المسلمين من قولهم، فقال جل جلاله: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعنى: أحبارهم: ﴿(آمَنُوا بِالَّذِي أَنْزَلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا) وَأظهروا الدخول في دينهم، ﴿وجه النهار واكفروا آخره﴾ وقولوا: نظرنا في كتبنا، وشاورنا علمائنا، فلم نجد محمداً بالنعته الذي في التوراة، لعل أصحابه يشكون فيه . لعنهم الله وأضل سعيهم .

وقيل: نزلت في شأن الكعبة، فإن كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف - من اليهود - قالوا لأصحابهما: صلوا معهم إلى الكعبة أول النهار، ثم صلوا إلى الصخرة آخره، لعلمهم يقولون: هم أعلم منا، وقد رجعوا، فيرجعون، ففضحهم الله وأبطل حيلتهم الواهية .

الإشارة: ترى كثيراً من الناس يدخلون في طريق القوم، ثم تثقل عليهم أعباؤها، فيخرجون منها؛ إما لضعفهم عن حملها، أو لكونهم دخلوا مختبرين لها، أو على حرف أو حيلة لغيرهم، فإذا رجع أحد منهم قال الناس: لو كانت صحيحة ما رجع فلان عنها، ويصدون الناس عن الدخول فيها والدوام عيها، وهذه نزعة إسرائيلية، قالوا: آمنا وجه النهار واكفروا آخره لعلمهم يرجعون وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لَتَسْلُكُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشْبِيرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: نعم، فمن إذن . وبالله التوفيق .

ثم ذكر الحق - تعالى - مقالة أخرى من مقالاتهم الشنيعة، فقال:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

قلت: يحتمل أن يكون قوله: (أن يؤتى): مفعولا بـ (تؤمنوا)، و(قل إن الهدى هدى الله): اعتراض، واللام في «لمن» صلة، (أو يحاجوكم): عطف على (يؤتى)، والتقدير: ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، إلا من كان على دينكم، ولا تصدقوا أن يحاجوكم عند ربكم، بل أنتم تحاجون غيركم . فرد الله عليهم (قل إن الهدى هدى الله)، و(إن الفضل بيد الله): ويحتمل أن يكون قوله: (أن يؤتى) مفعولا لأجله، والعامل فيه محذوف، والتقدير: أدبرتم ما دبرتم كراهية أن يؤتى أحد ما أوتيتم، ومخافة أن يحاجوكم عند ربكم ؟ .

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن اليهود: (و) قالوا ﴿لَا تُؤْمِنُوا﴾ أى: لا تقروا، أو تصدقوا ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ من العلم والحكمة وقلق البحر وسائر الفضائل، ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ﴾ دين اليهودية، وكان على ﴿دينكم﴾، ولا تؤمنوا أن ﴿يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾؛ لأنكم أصبح ديناً منهم. قال الحق جل جلاله: ﴿قُلْ لَهُمْ: إِنْ الْهُدَى هَدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَإِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أو يقول الحق جل جلاله: وقالوا: لا تصدقوا ولا تدعنوا ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ وكان من جلدتكم، فإن النبوة خاصة بكم. فكذبهم الحق بقوله: ﴿قُلْ إِنْ الْهُدَى هَدَى اللَّهُ﴾، يخص بها من يشاء من عباده، فكيف تحصرونها فيكم؟ لأجل ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ قلتم ما قلتم، ودبرتم ما دبرتم، حسداً وبغياً، (أو) خوفاً أن ﴿يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، يغلبوكم بالحجة لظهور دينهم، ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ فلا ينفذ في رده حيلة ولا خدع.

أو يقول الحق جل جلاله، للمؤمنين، تثبيتاً لهم وتشجيعاً لقلوبهم: ولا تصدقوا يا معشر المؤمنين أن يعطى أحد مثل ما أوتيتم من الفضل والدين القويم إلا من تبع دينكم الحق، وجاء به من عند الحق، ولا تصدقوا ﴿أَنْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ فى دينكم ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، أو يقدر أحد على ذلك، فإن الهدى هدى الله والفضل بيد الله، ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ الْفَضْلُ وَالْكَرَمُ﴾، ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الخصوصية والفضل، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ كالنبوة وغيرها، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾؛ لا حصر لفضله، كما لا حصر لذاته.

الإشارة: يقول الحق - جلت ذاته، وعظمت قدرته - لأهل الخصوصية: ولا تقروا بالخصوصية إلا لمن كان على دينكم وطريقكم، وتزياً بزيكم، وبذل نفسه وفلسه فى صحبتكم، مخافة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الخصوصية، وهو ليس أهلاً لها، فيأخذها علماً، فإما أن يتزندق أو يتفسق، أو يحاجوكم بالشرعية فيريق دماءكم؛ كما وقع للحلاج رحمته الله وفى ذلك يقول الشاعر:

وَمَنْ شَهِدَ الْحَقِيقَةَ فَلْيَصْنُهَا وَالْأَسْوَفَ يُقْتَلُ بِالسَّنَانِ
كَحَلَاكِ الْمَحَبَّةِ إِذْ تَبَدَّتْ لَهُ شَمْسُ الْحَقِيقَةِ بِالتُّدَانِ^(١)

وقال آخر:

بِالسَّرِّ إِنْ بَاحُوا تَبَاحَ دِمَاؤُهُمْ وَكَذَا دِمَاءُ الْبَاسِاحِينَ تَبَاحُ

(١) البيتان: من قصيدة للشيخ محبى الدين بن عربى، فى كتابه: الإسراء إلى المقام الأسرى، وفيه: ومن فهم الإشارة فليصنها.

وقل أيها العارف، لمن طلب الخصوصية قبل شروطها أو أنكر وجودها عند أهل شرطها: إن الهدى هدى الله يهـدى به من يشاء، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والرحمة - التي هي الخصوصية - في قبضة الله، يخص بها من يشاء، (والله ذو الفضل العظيم)؛ فمن أراد الخصوصية فليطلبها من معدنها، وهم العارفون بها، فيبذل نفسه وفلسه لهم حتى يعرفوه بها. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق - تعالى - وصف اليهود بالخيانة، فقال:

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥) ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٧٦)

قلت: الباء في (بقنطار)، بمعنى على، و(يؤده) : جواب الشرط مجزوم بحذف الياء، ومن قرأ بإسكان الضمير فلأنه أقامه مقام المحذوف، فجزمه عوضاً عنه، وقال الفراء: مذهب بعض العرب: يسكنون الهاء إذا تحرك ما قبلها، يقولون: ضريقه ضرباً شديداً.

يقول الحق جل جلاله: «ومن أهل الكتاب» من أسلم وآمن فصار من أهل الإيمان، «إن تأمنه» على «قنطار» من المال أو أكثر أداه إليك، ولم يخن منه شيئاً. وفي الحديث: «من ائتمن على أمانة فأداها، ولو شاء لم يؤدها، زوجه الله من الحور العين ما شاء». «ومنهم» من بقى على دينه من أهل الخيانة والخسران، «إن تأمنه» على «دينار» فأقل «لم يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً» على رأسه، مبالغاً في مطالبته. نزلت في عبدالله بن سلام، استودعه قرشى ألفاً ومائتى أوقية ذهباً، فأداها إليه، وفي فنحاص بن عازوراء اليهودى، استودعه قرشى آخر ديناراً، فجحده. وقيل: في النصارى واليهود، فإن النصارى: الغالب عليهم الأمانة، واليهود الغالب عليهم الخيانة.

وذلك الاستحلال بسبب أنهم «قالوا ليس علينا في الأميين سبيل» أى: ليس علينا فى شأن من ليسوا أهل كتاب، ولم يكونوا على ديننا، خرج فى أخذ مالهم وجحدها، ولا إثم، «ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» أنهم كاذبون؛ لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم، وقالوا: لم يجعل لهم فى التوراة حرمة.

وقيل: عامل اليهود رجلاً من قریش، فلما أسلموا تقاضوهم، فقالوا: سقط حقكم حيث تركتم دينكم. وقال ﷺ: «كذب أعداء الله، مامن شئ فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمي، إلا الأمانة؛ فإنها مؤداة إلى البر والفاجر».

ثم كذبهم الحق - تعالى - فقال: «بلى»؛ عليهم في ذلك سبيل، فإن «من أوفى بعهده واتقى» الشرك والمعاصي «فإن الله يحب المتقين» ومن أحبه الله كيف يباح ماله وتسقط حرمة ١٩ بل من أسقط حرمة فقد حارب الله ورسوله، أو «من أوفى»، بعهد الله من أهل الكتاب، فأمن بمحمد - عليه الصلاة والسلام - «واتقى» الخيانة، وأدى الأمانة، «فإن الله يحب المتقين». وأوقع المظهر موقع الضمير العائد إلى «من»؛ لعمومه، فإن لفظ المتقين عام يصدق برد الودائع وغيره، إشعاراً بأن التقوى ملاك الأمر وسبب الحفظ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد رأينا بعض الفقراء دخل بلد الحقيقة فسقطت من قلبه هيبة الشريعة، فتساهل في أموال الناس وسقطت لديه حرمة العباد، حتى لا تثق به في حفظ مال ولا أهل، فإذا أودعته شيئاً أو قارضته لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً. وهذه زندقة ونزعة إسرائيلية، لا يرضاها أدنى الناس، فما بالك بمن يدعي أنه أعلى الناس، وفي بعض الحكم: [كَمَالُ الدِّينَانِ تَرْكُ الْخِيَانَةِ]، وأعظم الإفلاس خيانة الناس، وفي الحديث: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ، إِنْ صَلَّى وَإِنْ صَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّعَمَّنَ خَانَ». فإذا احتج لنفسه الأمانة، وقال: لا سبيل علينا في متاع العوام، فقد خلع من عنقه ربة الإسلام، واستحق أن يعلو مفرقه الحسام. والله تعالى أعلم.

ومن جملة الخيانة: أكل أموال الناس بالأيمن الفاجرة، كما أشار إلى ذلك الحق - تعالى - فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٧﴾

يقول الحق جل جلاله: «إن الذين يشترون بعهد الله أي: يستبدلون بالوفاء بعهد الله كالإيمان بالرسول - عليه الصلاة والسلام - الذي أخذ على بنى إسرائيل في التوراة وبيان صفته، وأداء الأمانة، فكتموا ذلك واستبدلوا به «ثمناً قليلاً»؛ حطاماً فانياً من الدنيا، كانوا يأخذونه من سفلتهم، فخافوا إن بينوا ذلك زال ذلك عنهم، وكذلك الإيمان التي أخذها الله عليهم لأن أدركوا محمداً ﷺ ليؤمنن به ولينصرنه، فنقضوها، خوفاً من زوال رئاستهم، فاستبدلوا بالوفاء بها ثمناً قليلاً فانياً، «أولئك لا خلاق لهم» أي: لا نصيب لهم، «في الآخرة، ولا يكلمهم الله» بما يسرهم، أو بشيء أصلاً، وإنما الملائكة تسألهم، «ولا ينظر إليهم يوم القيامة» نظرة رحمة، بل يعرض عنهم، غضباً عليهم وهواناً بهم، «ولا يزكّيهم»؛ لا يطهرهم من ذنوبهم، أو لا يثني عليهم، «ولهم عذاب أليم» أي: موجه.

قال عكرمة: نزلت في أبي رافع وكنانة بن أبي الحقيق وحبي بن أخطب، وغيرهم من رؤساء اليهود، كتّموا ما عهد الله إليهم في التوراة في شأن النبي ﷺ من بيان صفته، فكتّموا ذلك وكتبوا غيره، وحلفوا أنه من عند الله، لئلا يفوتهم الرشا من أتباعهم.

وقال الكلبي: إن ناساً من علماء اليهود كانوا ذا حظ من علم التوراة، فأصابتهم سنة، فأتوا كعب بن الأشرف يستميرونه، أي: يطلبون منه الميرة - وهو الطعام -، فقال لهم كعب: هل تعلمون أن هذا الرجل رسول في كتابكم؟ قالوا: نعم، أو ما تعلمه أنت؟ قال: لا، قالوا: فإننا نشهد أنه عبد الله ورسوله، قال كعب: لقد قدمتم عليّ، وأنا أريد أن أميركم وأكسوكم، فحرمكم الله خيراً كثيراً، قالوا: فإنه شبه لنا، فرويذا حتى نلقاه، فانطلقوا، فكتبوا صفة غير صفته، ثم أتوا نبي الله - عليه الصلاة والسلام - فكلّموه، ثم رجعوا إلى كعب، فقالوا: قد كنا نرى أنه رسول الله، فأتيناه فإذا هو ليس بالنعى الذى نعت لنا، وأخرجوا الذى كتبوه، ففرح كعب، ومارهم. فنزلت الآية. قلت: انظر الطمع، وما يصنع بصاحبه! والعياذ بالله.

وقيل: نزلت في رجل أقام سلعته في السوق، وحلف لقد أعطى فيها كذا وكذا، وقيل: نزلت في الأشعث بن قيس، كانت بينه وبين رجل خصومة، فتوجهت اليمين على الرجل، فأراد أن يحلف. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد أخذ الله العهد على الأرواح ألا يعبدوا معه غيره، ولا يميلوا إلى شيء سواه، فكل من مال إلى شيء أو ركن بالمحبة إلى غير الله، فقد نقض العهد مع الله، فلا نصيب له في مقام المعرفة، ولا تحصل له مشاهدة ولا مكاملة حتى يثوب ويتوجه بكلية إلى مولاه. والله - تعالى - أعلم.

ومن مساوئهم أيضاً: تحريفهم لكتاب الله، كما أشار إلى ذلك الحق - تعالى - بقوله:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

يقول الحق جل جلاله: «وإن من أهل الكتاب لفريقاً»، وهو كعب بن الأشرف، وحبي بن أخطب، ومالك بن الصيف، وأبوياسر، وشعبة بن عامر، «يلوون» أي: يفتلون «ألسنتهم بالكتاب» أي: التوراة عند قراءته، فيميلون عن المنزل إلى المحرف، «لتحسبوه من الكتاب» أي: لتظنوا أن ذلك المحرف من التوراة، «وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب» فيما نسبوا إليه، «وهم يعلمون» أنه ليس من عند الله.

قال ابن عباس: نزلت في اليهود والنصارى جميعاً، حرفوا التوراة والإنجيل، وألحقوا به ما ليس منه، وأسقطوا منه الدين الحنيف، فبين الله كذبهم. وقيل: في الرجم، حيث كتموا الرجم، وألقى قارئ التوراة يده على آية الرجم، وقرأ ما حولها، فقال له ابن سلام: ارفع يدك، فإذا آية الرجم تلوح. والله أعلم.

الإشارة: هذه الآية تنسحب على علماء السوء، الذين يفتنون بغير المشهور، لحظ يأخذونه من الدنيا، وعلى قضاة الجور الذين يحكمون بالهوى، ويعتمدون على الأقوال الواهية، ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله. وكذلك بعض المنتسبين من الفقراء، يتصنعون إلى العامة، يطمعون فيما في أيديهم من الحطام، فيظهرون لهم علوماً ومعارف وحكماً، يلوون ألسنتهم بها وقلوبهم خاوية من معناها، فظاهر حالهم يوهم أن ذلك موافق لقلوبهم، وأنهم عاملون بذلك، وباطنهم يكذبهم في ذلك، (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم).

ثم أبطل الله تعالى شبهة اليهود والنصارى في عبادة عيسى وعزير وغيرهم، فقال:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

قلت: البشر: اسم جمع لا مفرد له، يطلق على الجماعة والواحد. والرباني: هو الذي يربي الناس ويؤدبهم ويهذبهم بالعلم والعمل. وقال ابن عباس: (هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره)، والنون فيه للمبالغة، كالحيانى وربانى. و(لا يأمركم) بالرفع، استئناف، وبالنصب: عطف على «يقول»، و«لا» مزيدة، أى ما كان لبشر أن يستعبده الله، ثم يأمر بعبادة نفسه، ويأمر باتخاذ الملائكة أرباباً. أو غير مزيدة، والتقدير: ليس له أن يأمر بعبادته ولا باتخاذ الملائكة أرباباً.

يقول الحق جل جلاله: «ما كان» ينبغى «لبشر أن يؤتیه الله الكتاب والحكم» أى: الفصل بين العباد، «والنبوّة» أى: الوحي بالأحكام، «ثم يقول» بعد ذلك «للناس كونوا عباداً لى من دون الله» أو مع الله، أو يرضى أن يعبد من دون الله، «ولكن» يقول لهم: «كونوا ربانيين» أى: علماء بالله، فقهاء فى دينه، علماء على الناس، تربيون الناس بالعلم والعمل والهمة والحوال، بسبب «ما كنتم تعلمون» من كتاب الله «وبما كنتم تدرسون» منه، أو «بما كنتم تعلمون» الناس من الخير بكتاب الله، وما كنتم تدرسونه عليهم. ولما مات ابن عباس - رضى الله عنهما - قال محمد بن الحنفية: (مات ربانى هذه الأمة).

«ولا يأمركم» ذلك البشر الذى خصه الله بالنبوّة، «أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً» من دون الله، «أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون» أى: منقادون لأحكام الله. قيل: سبب نزول الآية: أن نصارى نجران قالوا: يا محمد؛ تريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال النبى ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غيره». وقيل: إن رجلاً قال: يا رسول الله: نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ فقال: «لا ينبغى أن يسجد أحد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم، واعرفوا الحق لأهله».

الإشارة: مازال الفقراء يعظمون أشياخهم، ويبالغون في ذلك حتى يقبلون أرجلهم والتراب بين أيديهم، ويجتهدون في خدمتهم^(١)، فإذا رءاهم الأشياخ فعلوا ذلك سكتوا عنهم، لأن ذلك هو ربحهم وسبب فتحهم، وفي ذلك قال القائل:

بذبح النفوس وخط الرءوس تصفى الكلوس

لكنهم يرشدونهم إلى الحضرة، حتى يفهم عن شهود الواسطة، فيكون تعظيمهم وخط رأسهم إنما هو لله لا لغيره، وحينئذ يكونون ربانيين، علماء بالله مقربين، وكان شيخنا يقول: لا تزوروني على أنى شيخكم، ولكن اعرفوا فينا، وافتوا عن رؤية حسنا، حتى يكون التعظيم إنما هو لله ربنا. هـ. فدلالة الأشياخ للفقراء على التعظيم والأدب ليس ذلك مقصوداً لأنفسهم، وحاشاهم من ذلك. ما كان لبشر أن يؤتيه الله الخصوصية ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله، ولكن يقول لهم: كونوا ربانيين عارفين بالله، حتى يكون تعظيمكم إنما هو لله، ولا يأمر أيضاً بالفرق حتى يتخذوا الأشياء أرباباً من دون الله، ولكن يأمر بالجمع حتى يغيبوا عما سوى الله، وكيف يأمرهم بالفرق، وهو إنما يدلهم على الجمع؟ يأمرهم بالكفر بعد أن كانوا مسلمين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أخذ الميثاق على الأنبياء وأممهم فى الإيمان بالنبى ﷺ فقال:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قلت: اللام فى (لما)، موطلة للقسم؛ لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستخلاف، و(ما): يحتمل الشرطية، و(لتؤمنن): جواب القسم، سد مسد الجواب، أى: مهما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول الله لتؤمنن به. ويحتمل الموصولية، و(لتؤمنن): خبر عنه، وحذف شرط يدل عليه السياق؛ أى: للذى آتيناكم من كتاب وحكمة، ثم إذا جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به. ومن قرأ بكسر اللام كان تعليلاً للأمر بالإيمان بالرسول، أى: لأجل الذى خصصتكم به إذا جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به، وإذا كان أخذ الله الميثاق على الأنبياء كان على الأتباع أولى، أو استغنى بذكر الأنبياء عن ذكر أتباعهم؛ لأنهم فى حكمهم.

(١) هذا مشروط كما بين الشيخ مراراً. بأن يكون فى حدود الشرع الشريف.

يقول الحق جل جلاله: واذكر «إذ أخذنا» الميثاق على النبيين من لدن آدم ﷺ إلى عيسى ﷺ. وقلنا لهم: والله الذي خصصتكم به «من كتاب وحكمة»، ثم إن ظهر رسول «مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه» أنتم وأممكم، أو: لأجل الذي خصصتكم به مما تقدم للئن أدركتم محمدا لتؤمنن به ولتنصرنه. قال سيدنا علي - كرم الله وجهه -: (لم يبعث الله نبيا، آدم ومن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد، وأمره بأخذ العهد على قومه ليؤمنن به، ولئن بعث وهم أحياء لينصرنه).

«قال» الحق جل جلاله لمن أخذ عليهم العهد: «أأقررتكم» بذلك وقبلتموه، «وأخذتم على ذلكم إصري» أي: عهدي وميثاقي؟ «قالوا أقررنا» وقبلنا، «قال فاشهدوا» على أنفسكم، أو ليشهد بعضكم على بعض بالإقرار، أو فاشهدوا يا ملائكتي عليهم، «وأنا معكم من الشاهدين»، وفيه تأكيد وتحذير عظيم، «فمن تولى بعد ذلك» الإقرار والشهادة، وأعرض عن الإيمان به، ونصره بعد ظهوره، «فأولئك هم الفاسقون» الخارجون عن الإيمان المتمردون في الكفران.

الإشارة: كما أخذ الله العهد على الأنبياء وأممهم في الإيمان به عليه الصلاة والسلام، أخذ الميثاق على العلماء وأتباعهم من العامة، للئن أدركوا وليا من أولياء الله، حاملا لواء الحقيقة، مصدقا لما معهم من الشريعة، ليؤمنن به ولينصرنه، فمن تولى وأعرض عن الإذعان إليهم فأولئك هم الفاسقون الخارجون عن دائرة الولاية، محرومون من سابق العناية، فإن الحقيقة إنما هي لب الشريعة وخلاصتها، فإنما مثل الحقيقة والشريعة كالروح للجسد، فالشريعة كالجسد، والحقيقة كالروح، فالشريعة بلا حقيقة جسد بلا روح، والحقيقة بلا شريعة روح بلا جسد، فلا قيام لهذا إلا بهذا، فمن تشرع ولم يتحقق فقد تفسق، ومن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق، ومن خرج عن دين الله وطلب غيره. وإليه توجه الإنكار بقوله:

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا
وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

قلت: (أفغير): مفعول مقدم، و(يبغون): معطوف على محذوف، أي: أنتولون فتبغون غير دين الله، وقدم المعمول؛ لأنه المقصود بالإنكار، و(طوعا وكرها): حالان، أي: طائعين أو كارهين.

يقول الحق جل جلاله للنصارى واليهود، لما اختصموا إلى النبي ﷺ، وادعوا أن كل واحد على دين إبراهيم، فقال لهم - عليه الصلاة والسلام: «كلا كما برىء من دينه، وأنا على دينه، فخذوا به»، فغضبوا، وقالوا: والله لا نرضى بحكمك ولا نأخذ بدينك، فقال لهم الحق جل جلاله - منكرا عليهم -: أفتبغون غير دين الله الذي ارتضاه لخليله وحبيبه، وقد انقاد له تعالى «من في السموات والأرض» طائعين ومكرهين، فأهل السموات

انقادوا طائعين، وأهل الأرض منهم من انقاد طوعاً بالنظر واتباع الحجة أو بغيرها، ومنهم من انقاد كرهاً أو بمعائنة ما يلجئ إلى الإسلام؛ كتنق الجبل وإدراك الغرق والإشراف على الموت، أو: «طوعاً» كالملائكة والمؤمنين، فإنهم انقادوا لما يراد منهم طوعاً، (وكرهاً) كالكفار فانقادوا لما يراد منهم كرهاً، وكلٌ إليه راجعون، لا يخرج عن دائرة حكمه، أو راجعون إليه بالبعث والنشور. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الدين الحقيقي هو الانقياد إلى الله في الظاهر والباطن، أما الانقياد إلى الله في الظاهر فيكون بامثال أمره واجتناب نهيه، وأما الانقياد إلى الله في الباطن فيكون بالرضى بحكمه والاستسلام لقهره. فكل من قصر في الانقياد في الظاهر، أو تسخط من الأحكام الجلالية في الباطن، فقد خرج عن كمال الدين، فيقال له: أفغير دين الله تبغون وقد انقاد له (من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً)، فإما أن تنقاد طوعاً أو ترجع إليه كرهاً. وفي بعض الآثار يقول الله تبارك وتعالى: «من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي، فليخرج من تحت سمائي، وليتخذ رياءً سواي». .

وسبب تبرم القلب عن نزول الأحكام القهرية مرضه وضعف نور يقينه، فكل من استنكف عن صحبة الطبيب، فله من هذا العتاب حظ ونصيب، فالأولياء حجة الله على العلماء، والعلماء حجة الله على العوام، فمن لم يستقم ظاهره عوتب على تفريطه في صحبة العلماء، ومن لم يستقم باطنه عاتبه الله تعالى على ترك صحبة الأولياء، أعنى العارفين. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم بين الحق - تعالى - حقيقة الإيمان والإسلام الذي يجب اتباعه على جميع الأنام، فقال:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

قلت: (أنزل): يتعدى بالي؛ لأنه ينتهي إلى الرسل، ويتعدى بعلى؛ لأنه يأتي من ناحية العلو والاستعلاء، وفرق بعضهم بين التعبير هنا بعلى وفي البقرة بالي، فقال: لأن الخطاب هنا للرسول بالخصوص، وقد أنزل عليه الوحي مباشرة، وهناك الخطاب للمسلمين، وإنما أنزل الوحي متوجهاً إليهم بالواسطة، ولم يكن عليهم بالمباشرة. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الكتاب الذين فرقوا في إيمانهم بين الرسل: أما نحن فقد آمنا بالذي «أنزل علينا وما أنزل» على جميع الأنبياء والرسل «لا نفرق بين أحد منهم» كما فرقتم أنتم، فضللتم، «ونحن له مسلمون» أي: منقادون لأحكامه الظاهرة والباطنة، أو مخلصون في أعمالنا كلها، وقدم المنزل علينا على المنزل على غيرنا، لأنه عيار عليه ومُعَرَّفٌ به. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للفقير أن يبالغ في تعظيم شيخه، ويسوغ له التغالي في شأنه ما لم يخرج عن طور البشر، وما لم يؤد ذلك إلى إسقاط حرمة غيره من الأولياء بالتنقيص أو غيره، فحرمة الأولياء كحرمة الأنبياء، فمن فرق بينهم حرم بركة جميعهم. وبالله التوفيق.

ثم إن ملة الإسلام التي جاء بها نبينا - عليه الصلاة والسلام - هي التي أحرزت هذا الاعتقاد الصحيح، فكل من خرج عنها فقد ضل عن الحق الصريح، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ ٨٥
يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٨٦

قلت: (وشهدوا): عطف على ما في (إيمانهم) من معنى الفعل، والتقدير: بعد أن آمنوا وشهدوا.

يقول الحق جل جلاله لرجال من الأنصار ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، منهم الحارث بن سويد الأنصاري: «ومن» يطلب «غير الإسلام ديناً» يتدين به «فلن يقبل منه» أبداً، «وهو في الآخرة من الخاسرين»؛ لأنه أبطل الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها، واستبدلها بالتقليد الرديء، بعد أن عاين سواطع البرهان، وشهدت نفسه بالحق والبيان، ولذلك وقع التعجب والاستبعاد من هدايته فقال: «كيف يهدي الله قوماً كفروا» بعد أن آمنوا، «وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات» أي: المعجزات الواضحات، فإن الحائد عن الحق بعدما وضح، منهمك في الضلال، بعيد عن الرشاد، فقد ظلم نفسه وبخسها، «والله لا يهدي القوم الظالمين» الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر، ووضعوا الكفر موضع الإيمان، ولعل هذا في قوم مخصوصين سبق لهم الشقاء.

ثم ذكر جزاءهم، فقال:

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: «أولئك» المرتدون عن الإسلام - «جزاؤهم»: أن تلعنهم الملائكة والناس أجمعون، مؤمنهم وكافرهم، لأن الكافر يلعن من ترك دين الحق، وإن كان لا يشعر بمن هو على الحق. «خالدين» في اللعنة، أو في النار، لدلالة السياق عليها، أو في العقوبة. «لا يخفف عنهم العذاب» ساعة، ولا هم يمهلون عنها لحظة.

ثم إن الحارث ندم، وأرسل إلى قومه أن اسألوا الرسول ﷺ، هل لى من توبة؟ فنزل قوله تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: «إلا من تاب من بعد الردة، فأسلم وأصلح ما أفسد، فإن الله غفور» له فيما فعل، «رحيم» به حيث تاب.

ولما نزلت الآية حملها إليه رجل من قومه وقرأها عليه، فقال الحارث: إنك والله فيما علمت لصديق، وإن النبي ﷺ لأصدق منك، وإن الله - تعالى - لأصدق الثلاثة، فرجع الحارث إلى المدينة، فأسلم وحسن إسلامه.

الإشارة: كل من ابتغى الخصوصية من غير أهلها، أو ادعاها ولم يأخذها من معدنها، فلن تقبل منه، وهو عند القوم من الخاسرين في طريق الخصوصية، فكل من لا شيخ له في هذا الشأن فهو لقيط، لا أب له، دعى، لا نسب له.

والمراد بأهلها: العارفون بالله، أهل الفناء والبقاء، أهل الجذب والسلوك، أهل السكر والصحو، الذين شربوا الخمر فسكروا ثم صحووا وتكلموا، فمعدن الخصوصية عند هؤلاء، فكل من لم يصحبهم ولم يشرب من خمرتهم، لا يقتدى به، ولو بلغ من الكرامة ما بلغ، وأخسر من هذا من صحب أهل هذه الخمرة، وشهد بأن طريقهم حق، ثم رجع عنها، فهذا مغبون ملعون عند كافة الخلق، أى: مطرود عن شهود الحق، إلا من تاب ورجع إلى صحبتهم والأدب معهم، فإن الله غفور رحيم.

ثم ذكر الحق تعالى من ارتدّ وبقي على كفره، حتى مات، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَنِ الْإِيمَانِ، ثُمَّ أَرَادُوا فِي الْكُفْرِ، وَقَالُوا: نَتَرَبَّصُ بِمُحَمَّدٍ رَبِّبِ الْمُنُونِ، ﴿لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ﴾ أَيْ: لَا تَوْبَةَ لَهُمْ فَتَقْبَلُ، لِأَنَّهُ سَبَقَ لَهُمُ الشَّقَاءُ، وَأَلَانَهُمْ لَا يَتُوبُونَ إِلَّا عِنْدَ الْغُرُورَةِ، أَوْ ﴿لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ﴾ مَا دَامُوا عَلَى كُفْرِهِمْ. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ الْمُنْهَمَكُونَ فِي الضَّلَالَةِ.

قِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَصْحَابِ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ الْمُتَقَدِّمِ، وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا، لَمَّا رَجَعَ الْحَارِثُ قَالُوا: نَقِيمُ بِمَكَّةَ عَلَى الْكُفْرِ مَا بَدَأَ لَنَا، فَمَتَى أَرَدْنَا الرَّجْعَةَ رَجَعْنَا، فَلَمَّا افْتَتَحَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ، دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ بَعْضُهُمْ، فَقَبِلَتْ تَوْبَتَهُ، وَبَقِيَ مِنْ بَقِيَ عَلَى كُفْرِهِ، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ فِيهِمْ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ، كَفَرُوا بِعِيسَى بَعْدَ إِيمَانِهِمْ بِأَنْبِيَائِهِمْ، ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا بِكُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي النَّصَارَى كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ بِعِيسَى، ﴿ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا﴾ بِإِصْرَارِهِمْ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْفَرِيقَيْنِ مَعًا، كَفَرُوا بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ بِهِ قَبْلَ ظُهُورِهِ، ﴿ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا﴾ بِتَمَرُدِهِمْ فِيهِ، وَتَمَادِيهِمْ عَلَى الْمَعَاصِي. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الإشارة: اعلم أن من دَخَلَ طريق التَّوْبَةِ، وَأَخَذَ فِي تَهْذِيبِ نَفْسِهِ وَتَطْهِيرِهَا مِنَ الْمَسَاوِي وَأَوْسَاخِ الْحَسَنِ، ثُمَّ غَلَبَتْهُ الْقَهْرِيَّةُ وَرَجَعَ عَنْهَا، فَإِنْ تَابَ قَرِيبًا وَرَجَعَ إِلَيْهَا سَهْلًا عَلَيْهِ الرَّجُوعُ، وَرَجَى نَجْحَهُ وَقَبِلَتْ تَوْبَتَهُ، وَإِنْ اسْتَمَرَّ عَلَى رَجُوعِهِ عَنْهَا حَتَّى أَلْفَتْ نَفْسُهُ الْبَطَالََةَ؛ لَنْ تَرْجَى تَوْبَتَهُ وَصَارَ مِنَ الضَّالِّينَ، فَمِثْلُهُ كَأَنِّي، فَرَّغْتَ مِنْهَا لَبْنًا أَوْ عَسَلًا، وَعَمَّرْتَهَا بِالْقَطْرَانِ، فَإِنْ بَادَرْتَ بِإِهْرَاقِهِ مِنْهَا قَرِيبًا سَهْلًا غَسَلَهَا، وَإِنْ أَمْهَلْتَهَا حَتَّى صَبَغَ فِيهَا عَسْرُ غَسَلَهَا، وَتَعَذَّرَ زَوَالُ رَائِحَتِهِ مِنْهَا. [فَإِنْ مَاتَ عَلَى رَجْعَتِهِ فَلَا يَحْشُرُ فِي الْآخِرَةِ مَعَ أَهْلِ هَذِهِ الرَّفْقَةِ، وَلَوْ شَفَعَ فِيهِ أَلْفُ عَارِفٍ، بَلْ مِنْ كَمَالِ الْمَكْرِ بِهِ أَنْ يُلْقَى شَبْهَهُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى غَيْرِهِ، حَتَّى يَتَوَهَّمُ عَارِفُوهُ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ أَنَّهُ هُوَ، فَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ أَنَّهُ يَشْفَعُ فِيهِ]. قَالَ الْقَشِيرِيُّ.

قَالَ الْمُحْشَى: وَمَا ذَكَرَهُ رِيْمَا يَنْظُرُ إِلَى قَضِيَّةِ الْخَلِيلِ مَعَ أَبِيهِ، حِينَ يَلْقَاهُ وَعَلَيْهِ الْقَتْرَةُ، فَيُرِيدُ الشَّفَاعَةَ لَهُ، فَيَمْسُخُ ذِيخًا^(١) مُتَلَطِّخًا - أَيْ: خَنْزِيرًا - فَيَنْكُرُهُ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، فَتَذَكَّرَ وَاعْتَبَرَ. هـ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ، وَهُوَ الْهَادِي إِلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ.

ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ، فَقَالَ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلٌّ أَرْضٍ ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَى بِهِ﴾
 أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ تَنْصِيرٍ ﴿٩١﴾

(١) الذِيخ - بكسر الهمزة وفتح الدال بعدها ياء ساكنة -: ذكر الضباع. والجمع: أذياخ وذيوخ وذِيخَة. وأراد بالتلطيخ: التلطيخ برجيعة أو بالطين.

قلت : (ذهباً) : تمييز، و(لو افتدى به) : مخمُول على المعنى، كأنه قيل: فلن يقبل من أحدهم فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، أو عطف على محذوف، أى: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو تقرب به فى الدنيا، ولو افتدى به من العذاب فى الآخرة. قاله البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، واستمروا على كفرهم حتى ماتوا، لن «يقبل» منهم فدية، ولو افتدوا بملء الأرض ذهباً، بل يحصل لهم الإياس من رحمة الله، «أولئك لهم عذاب أليم»؛ فلا ينفعهم فداء منه ولا شفاعة ولا حميم، «وما لهم من ناصرين» ينصروهم من عذاب رب العالمين.

قال النبى ﷺ: «يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيُقال له: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَلَأُ الْأَرْضِ ذَهَبًا - أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ فيقول: نعم، نعم، فيُقال له: قَدْ سَأَلْتُ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ». . يعنى: لا إله إلا الله. ثبتنا الله عليها إلى الممات عالمين بها. آمين.

الإشارة: كل من كفر بطريق أهل الخصوصية، وحرّم نفسه من دخول الحضرة القدوسية، واستمر على كفرانه إلى الممات، فلا شك أنه يحصل له الندم وقد زلت به القدم، لأنه مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر، فإذا حشر مع عوام المسلمين، وسكن فى رِضِ الجنة مع أهل اليمين، ثم رأى منازل المقربين فى أعلى عليين، ندم وتحسّر^(١)، وقد غلبه القدر، فلو اشترى المقام معهم بملء الأرض ذهباً ما نفعه ذلك، فيمكث فى غم الحجاب وعذاب القطيعة هنالك، مقطوع عن شهود الأحباب على نعت الكشف والبيان، ممنوع عن الشهود والعيان. وبالله التوفيق.

ولما حكم الحق تعالى بأن الفداء لا ينفع يوم القيامة؛ ذكر أفضل ما يفتدى به العبد فى دار الدنيا؛ لأنه ينفع فيها ذلك، فقال:

﴿لَنْ نَسْأَلَكَ الْبَرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

قلت: البر: كمال الطاعة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لَنْ نَسْأَلَكَ الْبَرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، كمال الطاعة والتقرب «حتى تنفقوا مما تحبون»، أر: لن تسألك بر الله، الذى هو الرضى والرضوان، «حتى تنفقوا» بعض ما «تحبون» من المال وغيره، كبذل الجاه فى معاونة الناس، إن صحبه الإخلاص، وكبذل البدن فى طاعة الله، وكبذل المهج فى سبيل الله. ولما نزلت الآية

(١) هذا باعتبار عدم إدراكهم لمنازل المقربين، وإن كان مجرد دخول الجنة فوز ونجاح؛ قال تعالى: «فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز.. الآية».

جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله، إن أحب أموالي إليّ بئرحاء - وهو بستان كان خلف المسجد النبوي - وهو صدقة لله، أرجو برها وذخرها، فقال له - عليه الصلاة والسلام - «بَخْ بَخْ؛ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ - أو رائج - وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ» . فقسمها أبو طلحة في أقاربه .

وجاء زيد بن حارثة بفرس كان يحبها، فقال: هذه في سبيل الله، فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة ولده، فقال زيد: إنما أردت أن أتصدق بها، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَبِلَهَا» . فدل ذلك على أن الصدقة على الأقارب أفضل . وأعتقت امرأة جارية لا تملك غيرها، كانت تحبها، واشترطت عليها أن تقيم معها، فلما عُنِقَتْ، ذهبت، فقال لها عليه الصلاة والسلام: «دعيتها فقد حَبَبْتُكَ عَنِ النَّاسِ» .

وأمر عمر بن الخطاب بشراء جارية من سبى العراق، فلما جرى بها، ورآها عمرُ أعجبته غايةً، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾، فأعتقها . وذكر ابن عمر هذه الآية، فلم يجد عنده أحب من جارية كانت عنده، يطؤها فأعتقها، وقال: لولا أنني لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها . وكان الربيع يعطى للمائل إذا وقف في بابه السكر، فإذا قيل له في ذلك، قال: إن الربيع يحب السكر .

ثم إن الله - تعالى - يقبل الصدقة من المحبوب أو غيره، ولذلك قال: ﴿وَمَا تَنفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾؛ فيجازيكم بحسبه .

الإشارة: ليس للفقير شيء أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه، بل عند جميع الناس، فمن بذل روحه في مرضاة الله نال رضوان الله ومعرفته، وهو غاية البر، فمن أذل نفسه لله أعزه الله، ومن أفقر نفسه لله أغناه الله، ومن تواضع لله رفعه، فبذل النفس لله هو تقديمها لشيخ التربية يفعل بها ما يشاء، فكل ما يشير به إليه بادر إليه بلا تردد، فمن فعل ذلك فقد نال غاية البر، وأنفق غاية ما يحب، وكل من بذل نفسه بذل غيرها بالأحرى، إذ ليس أعز منها، وفي ذلك يقول ابن الفارض رحمته الله:

مَالِي سِوَى رُوحِي، وَبِأَذْلِ نَفْسِهِ (١)
فَلَنْ رَضِيَتْ بِهَا فَقَدْ أَسْعَفْتَنِي
فِي حُبِّ مَنْ يَهْوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفٍ
يَا خَيْبَةَ الْمُسْعَى إِذَا لَمْ تُسْعِفِ

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي: حقيقة المحبة أن تهب كلَّك لمن أحببته، حتى لا يبقى لك منك شيء . هـ .
وقال الجنيد رحمته الله: لن تنالوا محبة الله حتى تسخروا بأنفسكم لله . هـ .

(١) في الأصل: روحه .

ولما قال عليه الصلاة والسلام لليهود: «أنا على ملة إبراهيم» .. كما تقدم - قالوا: كيف تكون على ملة إبراهيم، وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟، وكان ذلك حراماً على إبراهيم، فأنزل الله تعالى:

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

قلت: (إسرائيل): هو يعقوب عليه السلام.

يقول الحق جل جلاله: «كل الطعام كان» حلالاً على بنى إسرائيل، كما كان حلالاً على الأنبياء كلهم، «إلا ما حرم إسرائيل» أى: يعقوب، «على نفسه»، كلحوم الإبل وألبانها، قيل: كان به عرق النسا^(١)، فنذر: إن شفاه الله لم يأكل أحب الطعام إليه، وكان ذلك أحب الطعام إليه. وقيل: فعل ذلك للتداوى بإشارة الأطباء، فترك ذلك بنوه ولم يحرم عليهم فى التوراة، وإنما هو شىء حرموه على أنفسهم.

فالتعام كله كان حلالاً على بنى إسرائيل وعلى الأنبياء كلهم قبل نزول التوراة، فلما نزلت التوراة حرم الله عليهم أشياء من الطيبات لظلمهم وبغيهم، فإن ادعوا أن لحوم الإبل كانت حراماً على إبراهيم، وأن كل ما حرم عليهم كان حراماً على إبراهيم وعلى الأنبياء قبله، فقل لهم: كذبتهم؛ «فأتوا بالتوراة فاتلوها» هل تجدون ذلك فيها؟ «إن كنتم صادقين» فى قولكم: إن كل شىء حرم عليكم كان حراماً على إبراهيم. روى: أنه - عليه الصلاة والسلام - لما قال لهم ذلك بهتوا، ولم يجسروا أن يأتوا بالتوراة، فتبين افتراؤهم على الله؛ «فمن افتترى على الله الكذب» بزعمه أن الله حرم لحوم الإبل وألبانها قبل نزول التوراة، «من بعد ذلك» البيان والزامهم الحجة، «فأولئك هم الظالمون» المكابرون بالباطل بعدما وضح الحق.

«قل» لهم يا محمد: «صدق الله» فيما أنزل، وكذبتهم فيما قلت، فتبين أن ملة إبراهيم هى الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ فأسلموا، واتبعوا «ملة إبراهيم حنيفاً»، فإن ملة الإسلام موافقة لملة إبراهيم، أو عيها، فادخلوا فيه وتخلصوا من اليهودية التى اضطرتكم إلى التحريف والمكابرة، وألزمكم تحريم طيبات أحلها الله لإبراهيم ومن تبعه، وقد خالفتم التوراة التى زعمتم أنكم متمسكون بها، وأشركتم مع الله عزيزاً وغيره، وقد كان إبراهيم حنيفاً مسلماً «وما كان من المشركين».

(١) النسا: العصب الوركى، وهو عصب يمتد من الورك إلى الكعب، وهو الذى يأخذه الممرض.

قال البيضاوي: فيه إشارة إلى أن أتباعه - أي: إبراهيم - واجب في التوحيد الصرف والاستقامة في الدين، والتجنب عن الإفراط والتفريط، وتعرض بشرك اليهود. هـ.

الإشارة: إذا تحقق للفقيه الإخلاص، وحصل على التوحيد الخاص، كان الطعام كله حلالاً له، لأنه يأخذه بالله، ويتناوله من يد الله ويدفعه لله، مع موافقة الشريعة، ولم يَغْضُ من أنوار الطريقة؛ بحيث لا يصحبه شره ولا طمع. وكان عبدالله بن عمر يقول: كُلْ مَا شِئْتَ، وَابْسُ مَا شِئْتَ، مَا أَخْطَأْتُكَ خَصْلَتَانِ: سَرَفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ. هـ.

وإنما امتنعت العباد والزهاد من تناول الشهوات المباحات خوفاً على أنفسهم أن تجمع بهم إلى تناول أسبابهما، فتعطلهم عن العبادة، وكذلك المريدون السائرون، ينبغي لهم التقلل من تناولها؛ لئلا يتعلق قلوبهم بشيء منها، فتعطلهم عن السير، وأما الواصلون العارفون، فقد تحقق فناؤهم وبقاؤهم، فهم يأخذون بالله من يد الله، كما تقدم.

والحاصل: أن النفس مادامت لم تسلم ولم تنقد إلى مشاهدة ربها، وجب جهادها ومخالفتها، فإذا أسلمت وانقادت إلى ربها، وجب الصلح معها وموافقتها فيما يتجلى فيها. والله تعالى أعلم.

ولما كانت اليهود لا تحج بيت الله الحرام، الذي بناه خليل الله إبراهيم عليه السلام، مع زعمهم أنهم على ملته، رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿إِنْ أُولَ بَيْتٍ...﴾ إلخ، وقيل: تفاخر المسلمون واليهود، فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل؛ لأنه مهاجر الأنبياء، وقال المسلمون: الكعبة أفضل؛ لأنه أول بيت وضع في الأرض، أنزل الله تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾

قلت: (بكة): لغة في مكة، والعرب تعاقب بين الباء والميم، نقول: ضربة لازم ولازب، وأغبطت عليه الحمى وأغمطت، وقيل: (مكة) بالميم: اسم للبلد كله، وبكة: اسم لموضع البيت، سميت بذلك؛ لأنها تبك أعناق الجبابرة - أي: تدقها - فما قصدها جبار قط بسوء إلا قصمه الله. و (مباركا): حال من الضمير في المجرور، والعامل فيه الاستقرار، أي: الذي استقر بركة مباركا، و (مقام إبراهيم): مبتدأ، والخبر محذوف، أي: منها مقام إبراهيم، أو بدل من (آيات)، بدل البعض من الكل، أو عطف بيان، على أن المراد بالآيات: أثر القدم في الصخرة الصماء، وغوصها فيها إلى الكعبين، وتخصيصها بهذه المزية من بين الصخور، وإيقاؤه دون سائر آثار الأنبياء، وحفظه مع كثرة أعدائه ألوف سنة، فكان مقام إبراهيم، وإن كان مفرداً، في قوة الجمع، ويدل عليه أنه قرئ (آية): بالتوحيد.

وقيل: (الآيات): مقام إبراهيم، وأمن من دخله، فعلى هذا يكون: (ومن دخله)، عطفًا على (مقام)، وعلى الأول: استئنافًا. و(حج البيت) مبتدأ، و(لله): خبر، والفتح لغة الحجاز، والكسر لغة نجد، و(من استطاع): بدل من (الناس)، وقيل: فاعل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنْ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِّ﴾ في الأرض «لنَّاسٍ» الذي استقر بمكة، وبعده بيت المقدس، وبينهما أربعون سنة. بنت الأول الملائكة حيال البيت المعمور، وأمر الله مَنْ في الأرض أَنْ يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، ثم بُنِيَ الثاني. وقيل: بناهما آدم عليه السلام ثم جدد الأول إبراهيم. حال كونه «مباركاً»؛ لأنه يتضاعف فيه الحسنات، بكل واحدة مائة ألف، وتكفر فيه السيئات، وتنزل فيه الرحمات، وتتوارد فيه النفحات.

«فيه آيات بينات» واضحات، منها: الحجر الذي هو «مقام إبراهيم»، وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت، فكان كلما طال البناء ارتفع به الحجر في الهواء، حتى أكمل البناء، وغرقت فيه قدمه كأنه طين، ومنها: أن الطير لا تعلقه، ومنها: إهلاك أهل الفيل وردُّ الجبابرة عنه، ونبع زمزم لهاجر بهمز جبريل عليه السلام، وحفر عبد المطلب لها بعد دثورها، وأن ماءها ينفع لما شرب له، «ومن دخله كان آمناً» من العقاب في الدارين؛ لدعاء الخليل: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، فكان في الجاهلية كل من فعل جريمة، ثم لجأ إليه لا يُهاج (١) ولا يعاقب مادام به، وأما في الإسلام فإن الحرم لا يمتنع من الحدود ولا من القصاص. وقال أبو حنيفة: الحكم باق، وإن من وجب عليه حد أو قصاص فدخل الحرم لا يهاج، لكن يُضيق عليه، فلا يطعم ولا يباع له حتى يخرج.

قال - عليه الصلاة والسلام -: «مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الْحَرَمَيْنِ بَعَثَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَمْنَيْنِ». وقال أيضاً: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ - فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

«ولله على الناس حج البيت» فرض عين على «من استطاع إليه سبيلاً» بالقدرة على الوصول بصحة البدن، راجلاً أو راكباً مع الزاد المبلغ، والأمن على النفس والمال والدين. وقيل: الاستطاعة: الزاد والراحلة. «ومن تركه، وكفر» به، كاليهود والنصارى، وكل من جحدته، «فإن الله غني» عنه، و«عن» حجه، وعن جميع «العالمين»، أو عبر بالكفر عن الترك، تغليظاً كقوله: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كَفَرَ» روى أنه - عليه الصلاة والسلام - لما نزل صدر الآية - جمع أرباب الملل، فخطبهم، وقال: «إن الله كتب عليكم الحج فحجوا»، فأمنت به ملة واحدة، وكفرت به خمس ملل، فنزل «ومن كفر...» إلخ.

(١) أي: لا يُقاتل.

الإشارة: قد وضع الله للناس بيتين: أحدهما حسى، وهو الكعبة، والآخر معنوى، وهو القلب، الذى هو بيت الرب، فما دام بيت القلب خالياً من نور الرب اشتاق إلى حج البيت الحسى، فإذا تعمّر البيت بنور ساكنه، صار قبلة لغيره، واستغنى عن الالتفات إلى غير نور ربه، بل صار كعبة تطوف به الواردات والأنوار، وتحفه المعارف والعلوم والأسرار، ثم يصير قطب دائرة الأكوان، وتدور عليه من كل جانب ومكان، فكيف يشاق هذا إلى الكعبة الحسية^(١)، وقد طافت به دائرة الوفود الكونية؟ والله در الحلاج رحمته حيث قال:

يَا أَيُّمَى لَا تَلْمَنِي فِي هَوَاهُ فَلَوْ	عَايَنْتَ مِنْهُ الَّذِي عَايَنْتَ لَمْ تَلَمْ
لِلنَّاسِ حُجٌّ وَلِي حُجٌّ إِلَى سَكَنِي	تُهْدِي الْأَضَاغِي، وَأُهْدِي مُهْجَتِي وَدَمِي
يَطُوفُ بِالْبَيْتِ قَوْمٌ لَا بِجَارِحَةٍ،	بِاللَّهِ طَافُوا فَأَغْنَاهُمْ عَنِ الْحَرَمِ ^(٢) .

فى هذا البيت آيات واضحات، وهى إشراق شمس المعارف والأنوار، فى فضاء سماء الأرواح والأسرار، وسطوع أنوار قمر التوحيد فى أرض التجريد والتفريد، وظهور أنوار نجوم العلم والحكم، فى أفق سماء ارتفاع الهمم، فهذا كان مقام إبراهيم، إمام الموحدين، فمن دخله كان آمناً من الطرد والبعاد إلى يوم الدين، ومن كفر وجوده؛ فإن الله غنى عن العالمين.

قال فى الحاشية فى قوله: (وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمناً)، قيل: وهكذا من دخل فى قلب ولى من أوليائه، فإن قلب العارف حرم المراقبات والمشاهدات . هـ . وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم رجع الحق تعالى إلى معاتبة أهل الكتاب، فقال:

﴿قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكْفُرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لَمْ تَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

قلت: (تبغونها): جملة حالية من الواو، أى: لم تصدون عن السبيل باغين لها عوجاً. والعوج - بالكسر - فى الدين والقول والعمل -، وبالفصح - فى الجدار والحائط وكل شخص قائم.

يقول الحق جل جلاله: «قل» يا محمد فى عتابك لليهود: «يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله» السمعية والعقلية الدالة على صدق نبيه ﷺ فيما يدعوكم إليه من الإسلام؟ «والله شهيد على ما تعملون» مطلع على سرها وجهرها، فيجازيكم عليها، فلا ينفعكم التحريف ولا الإسرار.

(١) الصالحون فى كل وقت يشاقون إلى الكعبة المشرفة، فهى قبلتهم فى الصلاة. وإليها يكون حج من استطاع منهم. وهى فى بلد ولد فيها سيدنا رسول الله ﷺ، فكيف لا يشاقون إليها!!

(٢) لو أن الله أغنى أحداً عن الحرم لأغنى سيدنا محمداً ﷺ.

«يا أهل الكتاب لم تصدون» عن طريق الله «من آمن» بها، وتبع من جاء بها، «تتفونها عوجاً» أى: طالبين لها اعوجاجاً، بأن تلبسوا على الناس، وتوهموا أن فيها عوجاً عن الحق، بزعمكم أن التوراة لا تُنسخ، وتتغير صفة الرسول - عليه الصلاة والسلام، أو بأن تحرشوا بين المسلمين؛ لاختلاف كلماتهم، ويختل أمر دينهم، وأنتم شهداء على أنها حق، وأن الصد عنها ضلال، أو: وأنتم عدول عند أهل ملتكم، يفتنون بأقوالكم، ويستشهدونكم في القضايا، «وما الله بغافل عما تعملون»؛ فلا بد أن يجازيكم على أعمالكم، فإنه يمهل ولا يهمل.

كرّر الخطاب والاستفهام مرتين؛ مبالغة في التقرّيع ونفى العذر، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مُستقبح في نفسه، مستقل باستجلاب العذاب. ولما كان المنكر عليهم في الآية الأولى: كفرهم، وهم يجهرون به، ختم بقوله: «والله شهيد على ما تعملون»، ولما كان في هذه الآية: صدهم المؤمنين عن الإسلام، وكانوا يخفونه ويحتالون فيه، قال: «وما الله بغافل عما تعملون». قاله البيضاوي.

الإشارة: كل من جحد وجود الخصوصية عند أهلها، وصد القاصدين للدخول فيها، استحق هذا العتاب بلا شك ولا ارتياب. والله تعالى أعلم.

ثم حذر المؤمنين من الاستماع لهم، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا»، الخطاب عام، والمراد: نفر من الأوس والخزرج، «إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب»، وهو شاس بن قيس اليهودي، كان شيخاً كبيراً، وكان عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين، مرّ بنفر من الأوس والخزرج، جلوساً يتحدثون، وكان بينهما عداوة في الجاهلية، فغاضه تألفهم واجتماعهم، وقال: قد اجتمع ملائكة بني قبيلة بهذه البلاد، فما لنا معهم قرار، فأمر شاباً من اليهود أن يجلس بينهم ويذكرهم يوم بعث - وهو يوم حرب كان بينهم في الجاهلية - وينشدهم بعض ما قيل فيه، وكان الظفر في ذلك اليوم للأوس، ففعل، وتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا، وقالوا: السلاح السلاح، واجتمع من القبيلتين خلق عظيم، فتوجه إليهم رسول ﷺ وأصحابه، فقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألف بينكم؟» فعلموا أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح، واستغفروا، وعانق بعضهم بعضاً، وانصرفوا مع الرسول - صلوات الله عليه وسلامه - فنزلت الآية.

«يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من اليهود يردوكم بعد إيمانكم كافرين»؛ يبيح بعضكم دماء بعض، كما كنتم في الجاهلية. «وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله» الدالة على تحريم الدماء والشحناء، «وفيكُم رسوله» الهادي إلى الصراط المستقيم، وهو إنكار وتعجب من كفرهم، بعد اجتماع الأسباب الداعية إلى الإيمان، الصارفة عن الكفران، وإنما خاطبهم الله بنفسه بعد ما أمر الرسول بأن يخاطب أهل الكتاب؛ إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعاراً بأنهم الأحقاء بأن يخاطبهم الله ويكلّمهم، دون أهل الكتاب؛ لبعدهم عن استحقاق مواجهة الخطاب من الكريم الوهاب. «ومن يعتصم بالله» ويتمسك بدينه «فقد هدى إلى صراط مستقيم» لا عوج فيه وأصل الاعتصام: التمسك.

ثم حض على التقوى الكاملة والدوام على الإسلام، تنفيراً من الاستماع لمن يخرج عنها، فقال: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته»، قال عليه الصلاة والسلام: «حق تقاته هو أن يطاع فلا يعصى طرفه عين، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر». ولما نزلت قالوا: يا رسول الله؛ من يقوى على هذا؟ وشق عليهم، فنزلت: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، فنسختها. وقال مقاتل: معناه: (اتقوا الله حق تقاته، فإن لم تستطيعوا فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون). وعن أنس ابن مالك، قال: (لا يتقى الله عبد حق تقاته حتى يخزن من لسانه)، وقيل: ليست بمنسوخة؛ لأن من جانب ما نهى الله عنه، وفعل من الطاعة ما استطاع، فقد اتقى الله حق تقاته، فمعناها واحد. وسيأتى تحديد ذلك في الإشارة، إن شاء الله.

قال البيضاوي: وقيل: معنى (حق تقاته): أن يئذه الطاعة عن الالتفات إليها، وعن توقع المجازاة عليها، وفي هذا الأمر تأكيد للنهي عن طاعة أهل الكتاب، «ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون» أي: لا تكونوا على حالة سوى الإسلام، إلى أن يدرككم الموت. هـ. أماتنا الله على حسن الختام، مع السلامة والعافية على الدوام.

الإشارة: كما نهى الله عن طاعة من يرد عن الإيمان، نهى عن طاعة من يصد عن مقام الإحسان، كأنما ما كان، وكيف يرجع عن مقام التحقيق، وقد ظهرت معالم الطريق لمن سبقت له العناية والتوفيق. قال بعضهم: والله ما رجع من رجع إلا من الطريق، وأما من وصل فلا يرجع أبداً. إذ لا يمكن أن يرجع من عين اليقين إلى علم اليقين، أو من اليقين إلى الظن. ومن أراد الثبات على اليقين فليعتصم بحبل الله المتين، وهو صحيفة العارفين، فمن اعتصم بهم فقد اعتصم بالله؛ ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

ثم خاطب أهل الإحسان فقال: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته» بأن تغيروا عما سواه، ولا تموتن إلا وأنتم منقادون لأحكام الربوبية، قائمون بوظائف العبودية. فهذه الآية خطاب لأهل الإحسان، و«اتقوا الله ما استطعتم»: خطاب لأهل الإسلام والإيمان. أو هذه لأهل التجريد، والثانية لأهل الأسباب، أو هذه لأهل الباطن،

والثانية لأهل الظاهر، فكل آية أهل ومحل، فلا نسخ ولا تعارض. وقال الشيخ أبو العباس رحمته الله: من أراد الجمع بين الآيتين فليثق الله حق ثقاته بباطله، وليثق الله ما استطاع بظاهره. هـ. وبالله التوفيق.

ثم حض الحق جل جلاله على الاجتماع، ونهى عن الفرقة التي رام العدو منهم، فقال:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

قلت: أصل الحبل في اللغة: السبب الموصول إلى البغية، سمي به الإيمان أو القرآن، لأنه يوصل إلى السعادة السرمدية، و (شفا حفرة) أى: طرفها، وأصله: (شفو)، فقلبت ألفا في المذكر، وحذفت في المؤنث، فقالوا: شفة.

يقول الحق جل جلاله: «واعتصموا» أى: تمسكوا يا معشر المسلمين «بحبل الله» أى: الإيمان، أو كتاب الله، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إن هذا القرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به...». الحديث. حال كونكم «جميعاً» أى: مجتمعين عليه، «ولا تفرقوا» تفرقكم الجاهلي، أو لا تفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب. قال عليه الصلاة والسلام: «إن بنى إسرائيل اختلفت على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، فقل: يا رسول الله، ماهذه الواحدة؟ فقبض يده وقال: الجماعة، ثم قرأ: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾».

«واذكروا نعمت الله عليكم»، التي من جملتها الهداية للإسلام المؤدى إلى التآلف وزوال الغل، «إذ كنتم أعداء» في الجاهلية، يقتل بعضكم بعضاً، «فألف بين قلوبكم» بالإسلام، «فأصبحتم بنعمته إخواناً» متحابين مجتمعين على الأخوة في الله. قال عليه الصلاة والسلام: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله». الحديث. روى أن الأوس والخزرج كانوا أخوين لأبوين، فوقع بين أولادهما العداوة، وتطاولت الحرب بينهما مائة وعشرين سنة، حتى أطفأها الله بالإسلام، وألف بينهم برسوله عليه الصلاة والسلام. فنزلت فيهم هذه الآية.

ثم قال لهم: «وكنتم على شفا حفرة من النار» أى: مشرفين على نار جهنم، إذ لو أدرككم الموت لوقعتم فى النار، «فأنقذكم» الله «منها» برسوله - عليه الصلاة والسلام - . روى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ هذه الآية، فقال الأعرابى: والله ما أنقذهم منها وهو يريد أن يوقعهم فيها، فقال ابن عباس رضي الله عنه خذوها من غير فقيه. هـ. «كذلك يبين الله لكم آياته» أى: مثل هذا التبیین «يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون» إلى الخير، وتزیدون ثباتا فيه.

الإشارة: المذاهب كلها وقع فيها الاختلاف والتفرق فى الأصول والفروع، إلا مذاهب الصوفية فكلها متفقة بداية ونهاية، إذ بدايتهم مجاهدة، ونهايتهم مشاهدة، وإلى ذلك أشار فى المباحث، حيث قال:

مذاهب الناس على اختلاف ومذهب القوم على اتّلاف

وإن وقع الاختلاف فى بعض الطرق الموصلة إلى المقصود، فقد اتفقت فى النهاية، بخلاف أهل الظاهر، لانجدهم يتفقون إلا فى مسائل قليلة، لأن مذهبهم مبنى على غلبة الظن، ومذهب القوم مبنى على التحقيق ذوقا وكشفا، وكذلك اختلفت أيضا قلوبهم وأرواحهم، إذ كلهم متخلقون بالشفقة والرافة والمودة والألفة والصفاء؛ لأنهم دخلوا الجنة - أعنى جنة المعارف - فتخلقوا بأخلاق أهل الجنة، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ ، فيقال لهم بعد الفتح: واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداء قبل اتصالكم بالطبيب، فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا متحابين، وكنتم على شفا حفرة من نار القطيعة والحجاب «فأنقذكم منها». مثل هذا البيان يوضح الله آياته، أى: تجلياته، لعلكم تهتدون إلى مشاهدة ذاته فى أنوار صفاته. والله تعالى أعلم.

ثم أمرهم الحق تعالى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجه اتصاله بما قبله: أنهم سكتوا حين حرّش بينهم اليهود حتى هموا بالقتال، ولم يأمرهم أحد بالإمساك عنه، فحذّره الله من نزغته، وحضّهم على الاجتماع، وأمرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن النكر إذا رأوا شيئا من ذلك، فقال:

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُقْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

قلت: (من): للتبويض؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية؛ إذ لا يصلح له كل أحد، أو للبيان، أى: كونوا أمة تأمرون بالمعروف، كقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ إلخ، و(يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر) عطف على الخبر، من عطف الخاص على العام؛ للإيذان بفضله.

يقول الحق جل جلاله: «ولتكن منكم» يا أمة محمد ﷺ «أمة» أي: طائفة «يدعون إلى الخير»، وهو كل ما فيه صلاح ديني، أو دنيوي إذا كان يؤول إلى الديني، أو صلاح قلبي أو روحاني، «ويأمرون بالمعروف» وهو ما يستحسنه الطبع ويرتضيه الشرع، «وينهون عن المنكر» وهو كل ما ينكره الطبع السليم والشرع المستقيم، فمن فعل ذلك فأولئك «هم المفلحون» المخصوصون بكمال الفلاح.

رؤى عنه عليه الصلاة والسلام: أنه سئل من خير الناس؟ فقال: «أمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله، وأوصلهم للرحم». وقال أيضا: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر كان خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه». وقال علي رضي الله عنه: (أفضل الجهاد: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشدائد الفاسقين - أي بغضهم - فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق، ومن شدا الفاسقين وغضب الله غضب الله له). وقال أبو الدرداء: (لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما، لا يجل كبيركم، ولا يرحم صغيركم، ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم، ويستنصرون فلا ينصرون، ويستغفرون فلا يغفر لهم). وقال حذيفة: (يأتي على الناس زمان لأن تكون فيه جيفة حمار، أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر).

وللمتصدى له شروط: العلم بالأحكام، ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها، والتمكن من القيام بها. ولذلك خاطب الحق تعالى الجميع، وطلب فعل بعضهم، إذ لا يصلح للقيام به إلا البعض، كما هو شأن فرض الكفاية، إذ هو واجب على الكل، بحيث لو تركوه لعوقبوا جميعا، لكنه يسقط بفعل البعض.

والأمر بالمعروف يكون واجبا ومندوبا، على حسب ما يأمر به، والنهي عن المنكر واجب كله؛ لأن جميع ما أنكره الشرع حرام. وأما المكروه فليس بمنكر، فيستحب الإرشاد إلى تركه. والأظهر أن العاصي يجب أن ينهى عما يرتكبه هو؛ لأنه يجب عليه تركه، فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «مروا بالمعروف وإن لم تعملوا بكلمه، وأنهوا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه كله».

الإشارة: (ولتكن منكم أمة) أي: طائفة ينهض حالهم ويدل على الله مقالهم، يدعون إلى الخير العظيم، وهو شهود ذات السميع العليم، ويأمرون بالمعروف بالهمة العلية، وينهون عن المنكر بالحال القوية، فكل من رآهم بالصفة انتمروا وانتهى، وكل من صحبتهم بالوفاء أخذ حظه من الغنى بالمكيال الأوفى، إن الله رجلا من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا، فهؤلاء يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر بالحال دون المقال.

يحكى أن بعض الشيوخ مر مع أصحابه يقوم يشربون الخمر تحت شجرة، فأراد أصحابه أن يغيروا عليهم، فقال لهم: إن كنتم رجلا فغيروا عليهم بحالكم دون مقالكم، فتوجهوا إلى الله بهمهمهم، فإذا القوم قد كسروا الأواني، وجاءوا إلى

الشيخ تائبين . وكذلك قضية معروف الكرخي مع أصحاب السفينة ، الذين كانوا مشتغلين باللهو واللعب ، فقال له أصحابه : ادع عليهم ، فقال : اللهم كما فرحتهم في الدنيا وفرحهم في الآخرة ، فتأبوا على يده جميعا . وبالله التوفيق ، وهو الهادي الى سواء الطريق .

ثم أعاد النهي عن الفرقة ، تأكيدا لزمها ، فقال :

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾
يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

قلت : (يوم) : متعلق بالاستقرار في خبر (أولئك) ، أو باذكر؛ محذوفة ، وقوله : (أكفرتم) : محكى بقول محذوف جواب (أما) ، أى : فيقال لهم : أكفرتم .

يقول الحق جل جلاله : «ولا تكونوا» كاليهود والنصارى الذين (تفرقوا) في التوحيد والتنزیه ، «واختلفوا» في أحوال الآخرة . قال عليه الصلاة والسلام : «افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافتترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة» . قيل : ومن تلك الواحدة ؟ قال : ما أنا وأصحابي عليه . وهذا الحديث أصح مما تقدم ، والصحابة يروون الحديث بالمعنى ، فعمل الأول نسي بعض الحديث . والله أعلم .

ثم إن النهي بخصوص بالتفرق في الأصول دون الفروع ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «اختلاف أمتي رحمة» ، ولقوله : «من اجتهد وأصاب فله أجران ، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد» .

ثم إن أهل الكتاب تفرقوا «من بعد ما جاءهم البينات» أى : الآيات والحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه ، «وأولئك لهم عذاب عظيم» ، يستقر لهم هذا العذاب «يوم تبيض وجوه» المؤمنين المتقين على التوحيد ، «وتسود وجوه» الكافرين المتفرقين فيه ، أو تبيض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين ، أو تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة . وبياض الوجوه وسوادها كدائتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف

فيه، وقيل: يُوسَم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعى النور بين يديه وييمينه، وأهل الباطل بأصداد ذلك. «فأما الذين اسودت وجوههم» فيقال لهم يومئذ: «أكفرتم» بمحمد - عليه الصلاة والسلام - بعد ظهوره، «بعد إيمانكم» به قبل ظهوره، وهم اليهود أو أهل الردة، آمنوا في حياته ﷺ وكفروا بعد موته. أو جميع الكفار، آمنوا في عالم الذر وأقروا على أنفسهم، ثم كفروا في عالم الشهادة. ويقال لهم أيضا: «ذوقوا العذاب» بسبب ما كنتم (تكفرون).

«وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله» أي: جنته، «هم فيها خالدون». وعبر بالرحمة عن الجنة؛ تنبيهاً على أن المؤمن، وإن استغرق عمره في طاعة الله - تعالى -، لا يدخل الجنة إلا برحمة الله وفضله، وكان حق الترتيب أن يقدم حلية المؤمنين لتقدم ذكرهم، لكن قصد أن يكون مطلع الكلام ومقطعه حلية المؤمنين وثوابهم. «تلك آيات الله» الواردة في وعده ووَعِيدِهِ، «نتلوها عليك» منبسة «بالحق» لا شبهة فيها، فقد أعذر وأنذر، «وما الله بريد ظلماً للعالمين»؛ إذ لا يحق عليه شيء فيظلم بنقصه، ولا يمنع من شيء فيظلم بفعله، كما بيّنه بقوله: «والله ما في السموات وما في الأرض» ملكاً وخلقاً وعبيداً، فيجازى كلا بما وعده وأوعده، «والى الله ترجع الأمور» كلها؛ فيتصرف على وفق مراده وسابق مشيئته، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

الإشارة: قد نهى الله - تعالى - أهل الجمع عن التشبه بأهل الفرق، في اختلاف قلوبهم ووجوههم وآرائهم وأنظارهم، من بعد ما جاءتهم الدلائل الواضحات على طلب جمع القلب على الله، والتودد في الله، وصرف النظرة في شهود الله، وأولئك المفترقون لهم عذاب عظيم، وأى عذاب أعظم من الحجاب؟ يوم تبيض وجوه العارفين، فتكون كالشمس الضاحية، يسرحون في الجنان حيث شاءوا، وتسود وجوه الجاهلين؛ لما يعتربها من الندم، وسوادها باعتبار وجوه العارفين في النقص عنها، وإن كانت مَبْيُضَّةٌ بنور الإيمان، لكن فاتهم نور الاحسان، فيقال: أكفرتم بالخصوصية في زمانكم، بعد إيمانكم بها فيمن سلف قبلكم؟ فذوقوا عذاب القطيعة عن شهود الحبيب في كل حين، وأما الذين ابيضت وجوههم وأشرقت بذور البقاء، ففي رحمة الله، أي: جنة المعارف ﴿فِي مَقْعَدٍ صَدَقَ عِنْدَ مَلِكٍ مَّقْتَدِرٍ﴾، فقد اتضحت الطريق، وظهرت أعلام التحقيق، لكن الهداية بيد الله، كما أن الأمور كلها بيده، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾. وبالله التوفيق.

ثم مدح الأمة المحمدية بامثال ما أمرها به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾

قلت: (كان): على بابها من الدلالة على المصنى، أى: كنتم فى اللوح المحفوظ، أو فى علم الله، أو فيما بين الأمم المتقدمة، أو: صلة، أى: أنتم خير أمة، و(للناس): يتعلق بأخرجت، أو بكنتم، أى: كنتم خير الناس للناس.

يقول الحق جل جلاله لأمة نبينا محمد ﷺ: «كنتم» فى سابق علمى «خير أمة» ظهرت «للناس» تجيئون بهم إلى الجنة بالسلاسل. ثم بين وجه فضلهم فقال: «تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» وبجميع ما يجب الإيمان به.

وقد ورد فى مدح هذه الأمة المحمدية أحاديث، منها: قوله ﷺ: «حُرِّمَتِ الْجَنَّةُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى أُدْخِلَهَا أَنَا، وَحُرِّمَتِ الْجَنَّةُ عَلَى الْأُمَمِ حَتَّى تُدْخِلَهَا أُمَّتِي». ومنها قوله ﷺ: «أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَعْطَى اللَّهُ كُلَّ رَجُلٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ رَجُلًا فَيَقَالُ: هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ».

وعن أنس قال: «خرجت مع النبي ﷺ، فإذا صوت يجيئ من شعب، فقال: يا أنس: قم فانظر ما هذا الصوت، فانطلقت فإذا برجل يصلى إلى شجرة، ويقول: اللهم اجعلنى من أمة محمد ﷺ، الأمة المرحومة، المغفور لها، المستجاب لها، المتاب عليها، فأتييت النبي ﷺ، فأخبرته، فقال: انطلق، فقل له: إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام، ويقول لك: من أنت؟ فأتيته، فأعلمته ما قال النبي ﷺ، فقال: اقرأ منى السلام على رسول الله ﷺ، وقل له: أخوك الخضر يقول لك: ادع الله أن يجعلنى من أمتك المرحومة المغفور لها»^(١). وقيل لعيسى بن مريم: هل بعد هذه الأمة أمة؟ قال: نعم، أمة أحمد. قيل: وما أمة أحمد؟ قال: علماء، حكماء، أبرار أتقياء، كأنهم من الفقه أنبياء، يرضون باليسير من الرزق، ويرضى الله عنهم باليسير من العمل، يدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله. هـ.

وليس أولها أولى بالمدح من آخرها، لقوله ﷺ: «أُمَّتِي كَالْمَطَرِ، لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَوْ آخِرُهُ»؟ وفى خبر آخر عنه ﷺ قال: «اشتقت إلى إخوانى، فقال أصحابه: نحن إخوانك يا رسول الله، فقال: أنتم أصحابى، إخوانى: ناس يأتون بعدى، يؤمنون بهى ولم يرونى، يؤد أحدهم لو يرانى بجميع ما يملك. يعدل عمل أحدهم سبعين منكم. قالوا: منهم يا رسول الله؟ قال: منكم. قالوا: ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: لأنكم وجدتم على الخير أعوانا، وهم لم يجدوا عليه أعوانا». أو كما قال - عليه الصلاة والسلام -.

قلت: التفضيل باعتبار أجور الأعمال، وأما باعتبار اليقين والمعرفة، فالصحابه أفضل الخلق بعد الأنبياء - عليهم السلام - ويدل على هذا قوله - عليه الصلاة والسلام -: «يعدل عمل أحدهم»، ولم يقل إيمان أحدهم^(٢). والله تعالى أعلم.

(١) ذكره الحافظ ابن حجر بالفاظ مقاربة فى الإصابة ١٢٢/٢، وعزاه لابن عساكر وابن شاهين وابن عدى فى الكامل.
(٢) قال الحافظ ابن حجر: الجمهور على أن فضيلة الصحبة لا يعادلها عمل؛ لمشاهدة رسول الله ﷺ. ثم قال: وزيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة. انظر بقية كلامه فى الفتح ٩/٧. وانظر أيضا تفسير القرطبي.

الإشارة : كنتم يا معشر الصوفية خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالجمع على الله والغيبة عما سواه، وتنهون عن كل ما يبعد عن الله ويفرق العبد عن مولاه، وتؤمنون بالله وبما وعد به الله، إيمان الشهود والعيان، الذي هو مقام الإحسان. قال القشيري في رسالته: (قد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه).

وقال الجنيد رحمه الله : لو نعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا، لسعيت إليه ولو حبوا . هـ . وكان كثيراً ما ينشد:

عِلْمُ التَّصَوُّفِ عِلْمٌ لَيْسَ يَعْرِفُهُ	إِلَّا أَخْوَفُظَّةً بِالْحَقِّ مَعْرُوفُ
وَلَيْسَ يُبْصِرُهُ مَنْ لَيْسَ يَشْهَدُهُ	وَكَيْفَ يَشْهَدُ ضَوْءُ الشَّمْسِ مَكْفُوفُ

وقال الشيخ الصقلي: (كل من صدق بهذا العلم فهو من الخاصة، وكل من فهمه فهو من خاصة الخاصة، وكل من عبّر به وتكلم فيه فهو من النجم الذي لا يدرك والبحر الذي لا ينزف). وقال في الإحياء - لما تكلم على معرفة الله والعلم بالله، قال: (والرتبة العليا في ذلك للأنبياء، ثم للأولياء العارفين، ثم للعلماء الراسخين، ثم للصالحين). فقد قدم الأولياء على العلماء. قال ابن رشد: وما قاله القشيري والغزالي متفق عليه. قال: ولا يشك عاقل أن العارفين بالله وما يجب له من الكمال، أفضل من العارفين بأحكام الله. انظر تمامه في المعيار. وقال في المباحث:

حُجَّةٌ مَنْ يُرْجَحُ الصُّوفِيَّةُ	على سواهم حُجَّةٌ قَوِيَّةُ
هُمْ أَتَّبَعَ النَّاسُ لَخَيْرِ النَّاسِ	مِنْ مَسَائِرِ الْأَنَامِ وَالْأَنَاسِ

ثم قال :

ثُمَّ بِشَيْئَيْنِ تَقُومُ الْحُجَّةُ	أَنَّهُمْ قَطَعُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ (١)
وَمَا أَتَوْا فِيهِ بِخَرْقِ الْعَادَةِ	إِذْ لَمْ تَكُنْ لِمَنْ سِوَاهُمْ عَادَةُ
قَدْ رَفَضُوا الْأَثَامَ وَالْعَيْسُوبَ	وَطَهَّرُوا الْأَبْدَانَ وَالْقُلُوبَ
وَبَلَّغُوا حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ	وَانْتَهَجُوا مَنَاهِجَ الْإِحْسَانِ

(١) المحجة: الطريق المستقيم.

ثم دعا أهل الكتاب إلى الإيمان، وهون أمرهم، فقال:

﴿... وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ أَلَا ذَبَارْثُمْ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١١٢﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قلت: الاستثناء في قوله (إلا بحبل) من أعم الأحوال، أي: ضربت عليهم الذلة في جميع الأحوال، إلا متلبسين بذمة من الله وذمة من الناس.

يقول الحق جل جلاله: «ولو آمن أهل الكتاب» إيماناً كائناً كإيمانكم، «لكان خيراً لهم» مما هم عليه. وليس أهل الكتاب سواء، بل «منهم المؤمنون» كعبد الله بن سلام وأصحابه، «وأكثرهم الفاسقون» المتمردون في الكفر والفسوق، فلا يهولكم أمرهم، فإنهم «لن يضرؤكم» إلا ضرراً يسيراً؛ كأذى باللسان من عيب وسب وتحريض بيلكم، ولا قدرة لهم على القتال، «وإن يقاتلوكم» يهزموا، «ويؤلؤكم الأدبار ثم لا ينصرون» أبداً عليكم.

وهذه الآية من المغيبات التي وافقها الواقع، إذ كان كذلك في بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع وخيبر، فلم ترفع لهم راية أبداً، بل «ضربت عليهم الذلة» والخزي والهوان، أي: أحاطت بهم إحاطة البيت المضروب على أهله، أو لزمته لزوم الدرهم المضروب لضربه، فلا تنفك عنهم «أين ما ثقفوا» ووجدوا، فلا يأمنون «إلا بحبل من الله» أي: بسبب عهد من الله، وهو عقد الذمة التي أمر الله بها، إذا أدوا الجزية للمسلمين، فلمهم حرمة بسبب هذا العقد، فلا يجوز التعرض لهم في مال ولا دم ولا أهل، «وحبل من الناس»، وهو عقد الذمة التي يعقدها مع الكفار إذا كانوا تحت ذمتهم. والحاصل أن الذلة لازمة لهم^(١) فلا يأمنون إلا تحت الذمة، إما من المسلمين وإما من الكفار. «وباءوا بغضب من الله» أي: انقلبوا به مستحقين له، «وضربت عليهم المسكنة» أي: أحاطت بهم، فاليهود في الغالب فقراء مساكين، لأن قلوبهم خاوية من اليقين، بالفقر والجزع لازم لهم، ولو ملكوا الدنيا بأجمعها.

(١) أقام اليهود لهم دولة بمعونة الظلمة، وحمايتهم لهم، كما فعل البريطانيون والأمريكان. لكن المسكنة لازمة لليهود وبيعت الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، حتى مع وجودهم محصلين داخل دولتهم.

«ذلك» الذل والمسكنة والبواء بالغضب بسبب أنهم «كانوا يكفرون بآيات الله» المنزلة على رسوله، أو الدالة على توحيده، «ويقتلون الأنبياء بغير حق» بل ظلماً وعدواناً، ذلك الكفر بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله، فإن الإصرار على الصغائر يفضي إلى الكبائر، والإصرار على الكبائر يؤدي إلى الكفر؛ لأن المعاصي بريد الكفر، والعياذ بالله.

الإشارة: ولو آمن أهل العلم الظاهر بطريق الخصوص، وخطوا رؤوسهم لأهل الخصوصية لكان خيراً لهم، لتسع عليهم دائرة العلوم، وتفتح لهم مخازن الفهم، منهم من يقر بوجود الخصوصية، ويعجز عن حمل شروطها، وأكثرهم ينكرونها ويحتجون لأنفسهم بقول من قال: انقطعت التربية في القرن الثامن، فيموتون مصرين على الإنكار والعصيان، فلن يضرركم إنكارهم أيها الفقراء، فإنهم لا قدرة لهم عليكم، للرعاية التي أحاطت بكم، إلا أذى بلسانهم، وعلى تقدير لحوق ضررهم في الظاهر، فإن الله يغيب ألم ذلك عنكم في الباطن، كما شاهدناه من بعض الفقراء، وإن يهددوكم بالقتل والجلاء، فإن الله لا يتصرهم في الغالب.

قلت: وقد هددونا بالضرب والرفع إلى السلطان والجلاء إلى بر النصارى، فلم يقدروا على شيء من ذلك، وقد وقع ذلك لبعض الصوفية زيادة في شرفهم وعزهم، فالمكر على الصوفية^(٢) لا يزال في هم وغم وذل ومسكنة، لخراب باطنه من نور اليقين. فإن الانتقاد على الأولياء جناية واعتقادهم عناية، فإن استمر على أذاهم كان عاقبته سوء الخاتمة، فيبوء بغضب من الله بسبب اعتدائه على أولياء الله، «ومن أذى لى ولياً فقد أذن بالحرب»، رزقنا الله الأدب معهم، وأماتنا على محبتهم، آمين.

ولما كان من اليهود من أسلم وحسن إسلامه استثناه الله تعالى، فقال:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

قلت: (قائمة) أى: مستقيمة، من أقمت العود فقام، أو قائمة بأمر الله. و(آناء الليل): ظرف، واحده: (إنى)، بكسر الهمزة وسكون النون، كنى وأنحاء، أو (إنى)، كمنى وأمعاء، و(لن تكفروه) أى: لن تحرموه، وعدى (كفر) إلى مفعولين لتضمنه معنى حرم أو منع.

(١) أى: الصوفية الملتزمة، لاصوفية المزمار.

يقول الحق جل جلاله: ليس أهل الكتاب «سواء» في الكفر والعدوان، بل منهم «أمة» أي: طائفة «قائمة» بالعدل مستقيمة في الدين، أو قائمة بأمر الله، أو قائمة في الصلاة «يتلون آيات الله» في تهجدهم «آناء الليل» أي: في ساعاته، «وهم يسجدون» في صلاتهم، أو في صلاة العشاء، لأن أهل الكتاب لا يصلونها، لما روى أنه ﷺ أخرها، ثم خرج، فإذا الناس ينتظرونها، فقال: «أبشروا؛ فإنه ليس من أهل الأرض أحد يصلي في هذه الساعة غيركم».

ثم وصفهم بالإيمان فقال: «يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات»، وهو عبدالله بن سلام وأصحابه ممن أسلم من اليهود، فقد وصفهم الله تعالى بخصائص لم توجد في اليهود، فإنهم منحرفون عن الحق غير متعبدين، مشركون بالله ملحدون في صفاته، يصفون اليوم الآخر بغير صفاته، مدهنون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متباطئون عن الخيرات، بخلاف ما وصف به من أسلم منهم، «وأولئك» الموصوفون بتلك الصفات «من الصالحين» أي: ممن صلحت أحوالهم عند الله، واستوجبوا رضاءه وثنائه، وهذه عادة الله مع خلقه، من تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً. ولذلك قال: «وما تفعلوا من خير فلن تكفروه» أي: فلن تحرموا ثوابه. ولن تجحدوا جزاءه، بل يشكره لكم ويجزيكم عليه، سمي الحرمان كفراناً كما سمي العطاء شكراً. «والله عليم بالمتقين»؛ فلا يخفى عليه مقاماتهم في التقوى. وفيه إشعار بأن التقوى مبدأ الخير وأحسن الأعمال، وأن الفائزين عند الله هم أهل التقوى. رزقنا الله منها الحظ الأوفر بمثله. آمين.

الإشارة: ليس أهل العلم سواء، بل منهم من جعله شبكةً يصطاد به الدنيا، يبيع دينه بعرض قليل، وهم علماء السوء وقضاة الجور، ومنهم من قرأه الله وعلمه الله، فأفنى عمره في تعليمه وتقييده، ومنهم من صرف همهته إلى جمعه وتأليفه، ومنهم من صرف همهته إلى العمل به فالتحق بالعباد والزهاد، «يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون» ومنهم من حرره وحققه، ثم توجه إلى علم الباطن وصحب العارفين، فكان من المقربين، فهؤلاء كلهم «يسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين»، فيقال لهم: «وما تفعلوا من خير فلن تكفروه والله عليم بالمتقين».

ثم ذكر الحق تعالى أضدادهم، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا ما جاء به الرسول ﷺ، (لَنْ تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ) عذاب «الله شيئاً» «وأولئك أصحاب النار» أى: مُلَازِمُوهَا، كَمُلَازِمَةِ الرَّجُلِ لَصَاحِبِهِ، «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

الإشارة: إن الذين كفروا بالخصوصية عند أهل زمانهم، وفاتهم اقتباس أنوارهم، لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا علومهم مما فاتهم من معرفة الله شيئاً، ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَ الله؟ وماذا فَقَدَ مَنْ وَجَدَ الله؟ قال الشاعر:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا فَارَقْتَهُ عِوَضٌ وَلَيْسَ لِلَّهِ إِنْ فَارَقْتَ مِنْ عِوَضٍ

ولا طريق لمعرفة الحق المعرفة الخاصة - أعلى معرفة العيان - إلا صحبة أهل الشهود والعيان، فكل من أنكرهم كان غايته الحرمان، ولزمته البطالة والخذلان، وجرب، ففي التجريب علم الحقائق، ومن حُرِمَ صحبتهم لا ينفك عن نار القطيعة وعذاب الحجاب، وعنت الحرص والتعب، عائداً بالله من ذلك.

ثم ضرب مثلاً لأعمال الكفار، فقال:

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١١٧﴾

قلت: في الكلام حذف، أى: مثل تلف ما ينفقون كمثل إتلاف ريح... إلخ، و(الصر): البرد الشديد، أو ريح فيها صوت ويرد، أو السموم الحارة.

يقول الحق جل جلاله: مثل ما ينفق الكفار، قرية أو مفاخرة وسمعة، أو ما ينفق سفلة اليهود على أحبارهم، أو المنافقون؛ رياء وخوفاً، «كمثل ريح» فيها برد شديد «أصابت حَرْثَ قَوْمٍ» أى: زرعهم، فأتلفتهم وأهلكته، والمراد: تشبيه نفقتهم وأعمالهم في تلفه وضياعه وعدم الانتفاع به، بحرث كفار، ضربته ريح فيها برد فاجتاحته، فأصبح صعيداً زلقاً، ولم تبق فيه منفعة في الدنيا والآخرة، «وما ظلمهم الله» بأن ضيع أعمالهم من غير سبب، ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب الكفر الذي أحبط أعمالهم.

الإشارة: كل من لم يحقق مقام الإخلاص، ولم يصحب أهل التخليص والاختصاص، لا تنفك أعماله من علل، ولا أحواله من دخل، فأعماله فارغة خفيفة، أقل ريح تقلعها وتسقطها عن درجة الاعتبار، وما زالت العامة تقول: الصحيح يصح، والخاوى يدرية الريح. وبالله التوفيق.

ثم حذر الحق تعالى من مخالطة أهل التخليط، فقال:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ
الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَىٰ صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾
هَآأَنْتُمْ أَوْ لَا تَحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا
عَصَبُوا عَلَيْكُمْ أَلَأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا يَعِظُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ابْدَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَسَكُمْ
حَسَنَةٌ نَّسُوهُمْ وَإِن تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَّفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصِيرُوا تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ
شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

قلت: بطانة الرجل: خواصه الذين يطلعهم على باطنه وسره، وسميت بطانة؛ تشبيها لها بالثوب الذي يلي
بطنه كالشعار. قال عليه الصلاة والسلام: «الْأَنْصَارُ شِعَارُ النَّاسِ دِثَارٌ». وهي اسم تطلق على المفرد والجمع
والمذكر والمؤنث. والألو: التقصير، وأصله: أن يتعدى بالحرف، تقول: لا آلو في نصحك؛ أي: لا أقصر فيه. ثم
عدى إلى مفعولين، كقولهم: لا آلوك نصحا، على تضمن معنى المنع أو النقص. والخبال: الفساد.

و(ما علتكم): مصدرية، والعتت: التعب والمشقة، والأنامل: جمع أنملة - بضم الميم وفتحها -، والضير والضر
واحد. ومضارع الأول: يضير، والثاني: يضر، وهو هنا مجزوم، وأصله: يضرركم، نقلت حركة الراء إلى الضاد،
وضمت الراء، إتباعا لحركة الضاد طلبا للمشكلة.

يقول الحق جل جلاله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً» أي: أصدقاء وأصفياء، تطلعونهم
على سرهم، وهم «من دونكم» ليسوا على دينكم، فإنهم «لا يألونكم خبالا» أي: لا يقصرون جهدهم في إدخال
الفساد بينكم بالتخليط والنميمة وإطلاع الكفار على عورتكم. نزلت في رجال من المسلمين، كانوا يصلون رجالا
من اليهود؛ لما كان بينهم من القرابة والصداقة، أو في المنافقين؛ كان يصلهم بعض المسلمين.

ثم وصفهم بأوصاف توجب التنفير منهم فقال: «ودوا ما عنتكم» أي: تملوا عنتكم وهالكم وضلالكم، «قد
بدت البغضاء من أفواههم» أي: ظهرت أماراة العداوة من أفواههم بالوقية في المسلمين، أو بإطلاع المشركين
على عوراتهم، أو في كلامهم مع المسلمين بالغيب، لأنهم لا يتمالكون أنفسهم لفرط بغضهم، «وما تخفى

صدورهم» من العداوة والبغضاء، «أكبر» مما أظهروه، لأن ظهوره منهم ليس عن روية واختيار، بل عن غلبة غيظ واضطرار. «قد بينا لكم» أيها المؤمنون «الآيات» الدالة على مجانبة الكافرين وموالاة المؤمنين، «إن كنتم تعلقون» ما يبين لكم.

«هأنتم» يا هؤلاء المخاطبين «تحبونهم» لما بينكم من المصاهرة والصداقة، «ولا يحبونكم» لما بينكم من مخالفة الدين، أو تريدون لهم الإسلام وهم يريدون لكم الكفر، وأنتم «تؤمنون بالكتاب» أي: بجنس الكتب، (كله) أي: بالكتب كلها، وهم لا يؤمنون بكتابكم، فكيف تحبونهم وهم يكذبون كتابكم ورسولكم؟ وهم أيضا ينافقونكم؛ «إذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا» مع أنفسهم «عضوا عليكم الأنامل من الغيظ» لما يرون من اختلاف المؤمنين، ولم يجدوا سبيلاً إلى التشفى فيكم، وهذه كناية عن شدة حقدهم، وإن لم يكن ثمّ عض في الخارج.

قال لهم الحق جل جلاله: «قل» لهم يا محمد: «موتوا بغيظكم»؛ فإنما ضرر غيظكم عليكم، أو دوموا على غيظكم حتى تموتوا عليه، فإن مادة الإسلام لا تزال تنمو حتى تهلكوا، «إن الله عليم بذات الصدور» أي: بحقيقة ما في قلوبكم من البغضاء والحق^(١)، أو بما في القلوب من خير أو شر. هو من مقول الرسول لهم، أو من كلام الله تعالى، استئناف، أي: لا تعجب من إطلاعي إياك على أسرارهم، فإنني عليم بالأخفى من ضمائرهم.

ومن فرط عداوتهم أنهم «إن تمسكم حسنة» كنصر وغنيمة «تسوءهم» أي: تحزنهم، «وإن تصبكم سيئة» كهزيمة أو قتل أو إصابة عدو منكم أو اختلاف بينكم، «يفرحوا بها، وإن تصبروا» على عداوتهم وأذاهم، وتخافوا ريكهم، «وتتقوا» ما نهاكم عنه، «لا يضرركم كيدهم شيئاً»، بفضل الله وحفظه، الموعود للصابرين والمتقين، «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ»، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾. ومن كان الحق معه لا يضره شيء، «إن الله بما يعملون محيط»؛ لا يخفى عليه ما يعمل أهل الكفر من العداوة والحق، فيجازيهم عليه.

الإشارة: لا ينبغي لأهل الخصوصية أن يتخذوا بطانة من دونهم من العامة حتى يطلعوهم على سرهم، فإن الإطلاع على السر، ولو كان غير الخصوصية، كله ضعف في العقل ووهن في الرأي، وفي ذلك يقول القائل:

(من أطلعَ الناسَ على سره استحقَّ الكيَّ على جهته)

وأما سر الربوبية فإفشائه لغير أهله حرام، والعامة مضادون لأهل الخصوصية، لا يألونهم خبالاً في قلوبهم وتشنيئاً لفكرتهم، إذا صحبوهم يودون أن لو كانوا مثلهم في العنت وتعب الأسباب، فإذا ظهر بالفقراء نقص أو خلل

(١) الحق: شدة الاغتيال.

ظهرت البغضاء من أفواههم، وما تحفى صدورهم أكبر، فإن كنتم أيها الفقراء تحبون لهم الخير فإنهم بعكس ذلك، وإن كنتم تقرون شريعتهم فإنهم لا يؤمنون بحقيقتكم، بل ينكرونها عليكم، ومنهم من يتصف بالنفاق، إذا لقي أهل الخصوصية أظهر التصديق والمحبة، وإذا خلا مع العامة أظهر العداوة والحق، وإن تمسكم أيها الفقراء حسنة، كعز وفتح وشهود ومعرفة تسوهم، وإن تصبكم سيئة، كمحنة أو بلية، يفرحوا بها، وإن تصبروا على أذاهم وجفوتهم، وتتقوا شهود السوى فيهم، لا يضركم كيدهم شيئاً (إن الله بما يعملون محيط).

ولما فرغ الحق تعالى من معاتبة أهل الكتابين، شرع في معاتبة بعض المسلمين؛ لما وقع لهم فى غزوة أحد من الفشل، فقال:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: وأذكر يا محمد حين «غدوت من أهلك» من منزل عائشة، الذى نزلت فيه بأحد، حين خرجت بها، حال كونك «تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ» أى: تهبئ لهم، «مقاعداً للقتال» أى: مواقع وأماكن يقفون فيها للحرب «والله سميع» لأقوالكم، «عليم» بإخلاصكم.

قال الواقدي: خرج النبى ﷺ من منزل عائشة - رضى الله عنها - ماشياً على رجليه إلى أحد، فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بهم القدح^(١). إن رأى صدرا خارجا، قال: تأخر. وذلك أن المشركين نزلوا بأحد، يوم الأربعاء، فلما سمع النبى ﷺ بنزولهم استشار أصحابه، ودعا عبدالله بن أبى بن سلول - ولم يدعه قط قبلها - فاستشاره، فقال عبدالله بن أبى وأكثر الأنصار: يا رسول الله! أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخل علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا! فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خاسئين. فأعجب النبى ﷺ هذا رأى، وقال بعض أصحابه: يا رسول الله! أخرج بنا إلى هذه الأكلب^(٢) لا يرون أنا جبناً عنهم وضعفنا. فقال النبى ﷺ: «إني رأيت فى منامى بقرأ تذيب، فأولتها ناساً من أصحابى يقتلون، ورأيت فى ذباب سيفى ثلماً^(٣)، فأولتها هزيمة، ورأيت أنى أدخل يدى فى درع حصينة، فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم فافعلوا». فقال رجال ممن فاتهم بدر، وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: أخرج بنا

(١) القدح - بالكسر: السهم قبل أن يصل ويراش.

(٢) فى نسخة: (الكلاب)، وكلاهما صحيح؛ فالكلب يجمع على كلاب وأكلب.

(٣) الثلم: الكسر.

إلى أعدائنا، وبالفؤاء، حتى دخل النبي ﷺ وليس لأمته (١). فلما رأوه قد لبس سلاحه ندموا، وقالوا: بئس ما صنعنا، نشير على النبي ﷺ والوحي يأتيه، فقاموا واعتذروا إليه. وقالوا: اصنع ما رأيت، فقال النبي ﷺ: « لا ينبغي للنبي أن يلبس لأمته فيصنعها حتى يُقاتل ».

فخرج بعد صلاة الجمعة، وأصبح بشعب من أحد، يوم السبت للنصف من شوال، سنة ثلاث من الهجرة، ونزل في عدوة من الوادي، وجعله ظهره وعسكره إلى أحد، وسوى صفهم كما تقدم، وأمر عبدالله بن جبير على الرماة، وقال: انضحوا عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، فكان من أمر الله ما كان، على ما يأتي (٢).

وخرج مع النبي ﷺ في غزوة أحد زهاء ألف، ووعدهم النصر إن صبروا، فلما بلغوا الشواط - موضع - انخزل ابن أبي في ثلاثمائة، وقال: علام نقتل أنفسنا! فتبعهم أبو جابر السلمي، فقال: أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم. فقال ابن أبي: لو نعلم قتالاً لا تبعناكم، وهمت بنو حارثة وبنو سلمة بالانصراف معه، فثبتوا مع النبي ﷺ، فذكرهم نعمته بقوله: «إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما» وناصرهما، حيث عصمهما من اتباع المنافقين، قال جابر: (ما يسرنا أنها لم تنزل، لقوله: «والله وليهما») فبنو سلمة من الخرج، وبنو حارثة من الأوس، «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» لا على غيره، إذ لا ناصر غيره.

الإشارة: من شأن شيوخ التربية أن يدّلوا المريدين على محاربة النفوس ومقاتلتها، ويطلعوهم على دسانسها ومخادعتها، ليهيئوا لهم بذلك مقاعد لقتالها، والله مطلع على إخلاصهم ونياتهم، فمنهم من يمل ويكل، فيرجع إلى وطن عوانده، ومنهم من يصبر حتى يفوز بالغنيمة العظمى والسعادة القصوى، وفي ذلك يقول القائل:

وَبَالَغُوا فِي الْجِدِّ حَتَّى مَلَ أَكْثَرُهُمْ وَعَانَقَ الْمَجْدَ مَنْ وَاَفَى وَمَنْ صَبَّرَا

قال بعضهم: انتهى سير السائرين إلى الظفر بنفوسهم، فإن ظفروا بها وصلوا. هـ. ومنهم من يلحقه الملل والفشل فيهم بالانصراف والرجوع، ثم يثبت الله تعالى وينصره، فيلحق بالصابرين السابقين، وعمدة المريد في مجاهدة نفسه: التوكل على الله والاعتماد عليه دون شيء سواه؛ «من علامة النجاح في النهايات: الرجوع إلى الله في البدايات». «وعلى الله فليتوكل المؤمنون».

ثم ذكر أهل أحد بما وقع لهم يوم بدر من النصر والظفر مع قلتهم؛ ليثبتوا، فقال:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(١) اللأمة - مهموزة -: الدرع.

(٢) عند تفسير قوله تعالى: «وما محمد إلا رسول».

قلت : (بدر) : بدر بين مكة والمدينة، كانت لرجل اسمه بدر، فسميت باسم صاحبها، وقعت فيها الغزوة التي نصر الله فيها رسوله ﷺ، فسميت الغزوة باسم المكان، وجملة : (وأنتم أذلة) : حال من الكاف، و(أذلة) : جمع ذليل، كأعزة، جمع عزيز.

يقول الحق جل جلاله : «ولقد نصركم الله» في وقعة بدر «وأنتم أذلة» ليس معكم مراكب ولا كثرة سلاح، مع قوة عدوكم بالعدة والعدد، «فاتقوا الله» واثبتوا مع رسوله، وانتظروا النصر من الله كما عودكم، «لعلكم» تكونون شاكرين، لما أنعم به عليكم من العز والنصر، فيزيدكم منه كما وعدكم.

الإشارة : جعل الله سبحانه وتعالى الأشياء كامنة في أضدادها، فمن أراد العز والنصر فليتحقق بالذل والمسكنة، ومن أراد الغنى فليتحقق بالفقر، ومن أراد الرفعة فليتحقق بالضعفة وإسقاط المنزلة، ومن أراد القوة فليتحقق بالضعف، وهكذا : [تحقق بأوصافك بمدك بأوصافه] . فاتقوا الله يا معشر المريدين، واطلبوا الأشياء في أضدادها لتظفروا بها، واشكروا الله على ما أولاكم يزدكم من فضله ونواله.

ثم ذكر كيفية نصره لهم ببدر فقال :

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَاتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

قلت : (إذ) : ظرف لنصركم، إذا قلنا : إن الإمداد يوم بدر فقط، أو بدل من (إذ غدوت) ، إذا قلنا : كان الإمداد يوم أحد بشرط الصبر، فلما لم يصبروا لم يقع . والتسويم : التعليم .

يقول الحق جل جلاله : ولقد نصركم الله ببدر حين كنت «تقول للمؤمنين» حين رأوا كثرة عدوهم وقلة عدتهم وعددهم : «ألن يكفيكم» في القوة والكثرة، «أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين» في السحاب ؟ «بلى» يكفيكم كما وعدكم، «إن تصبروا» وتثبتوا «وتتقوا» الله «ويأتوكم من فورهم» أي : من سرعتهم «هذا» الوقت، «يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة» بلا تراخ ولا تأخير، «مسومين» أي : معلمين بعمايم بيض إلا جبريل، فإنه كانت عمامته صفراء . أو معلمين أنفسهم أو خيلهم . قيل : كانت مجزوزة الأذنان، وقيل : كانت بلقاً.

فإن قلت: ما ذكر في الأنفال إلا ألفاً، وهنا خمسة آلاف. فالجواب: أن الله تعالى أمدهم أولاً بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف. قال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر، وفيما سوى ذلك يشهدون القتال معنا، ولا يقاتلون. هـ.

الإشارة: كل من توجه لجهاد نفسه في الله، واشتغل بذكر مولاه، أمدّه الله في الباطن بالأنوار والأسرار، وفي الظاهر بالملائكة الأبرار، وقد شوهد ذلك في الفقراء أصحابنا، إذا كانوا ثلاثة رأهم العامة ثلاثين، وإذا كانوا ثلاثين رأهم ثلاثمائة، وقد كنا في سفرة سبعين، فرأونا سبعمائة على ما أخبرونا به، «والله يؤيد بنصره من يشاء».

ثم ذكر الحق تعالى حكمة إمداده لهم، فقال:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ ١٢٦ لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ۝ ١٢٧ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ۝ ١٢٨ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ١٢٩﴾

قلت: (ليس لك من الأمر شيء): جملة معترضة بين قوله: (أو يكتمهم) وقوله: (أو يتوب عليهم)، أو تكون (أو) بمعنى (إلا)، أي: ليس لك من الأمر شيء، إلا أن يتوب عليهم فتبشرهم، أو يعذبهم فتتشفى فيهم. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: وما جعل الله ذلك الإمداد إلا بشارة لكم بالنصر، «ولتطمئن قلوبكم به» فتثبتوا للقتال، «وما النصر إلا من عند الله» فهو قادر على أن ينصركم بلا واسطة، لكن أراد أن يثيكم وينسب المزية إليكم، حيث قتلهم على أيديكم، فإن الله عزيز لا يغلب، حكيم فيما دبر وأبرم، وإنما نصركم يوم بدر «ليقطع طرفاً من الذين كفروا» بقتل بعض وأسر آخرين، فإنه قتل يومئذ سبعون، وأسر سبعون، «أو يكتمهم» أي: يحزنهم ويغيظهم، والكبت: شدة الغيظ، «فينقلبوا خائبين» مما أملوا.

ولما جرح - عليه الصلاة والسلام - في وجهه، وشجّ على قرن حاجبه، وكسرت رياعيته، همّ بالدعاء على الكفار، بل دعا عليهم، فأنزل الله: «ليس لك من الأمر شيء»؛ إنما أنت رسول إليهم، مأمور بإنذارهم وجهادهم، وأمرهم بيد مالكهم، إن شاء هداهم وإن شاء عذبهم. وإنما نهاه عن الدعاء عليهم؛ لعلمه بأن منهم من يسلم ويجاهد في سبيل الله، وقد كان كذلك؛ فجلبهم أسلموا وجاهدوا، منهم خالد بن الوليد - سيف الله في أرضه.

ثم عطف على قوله: «ليقطع طرقاً من الذين كفروا أو يكبتهم» قوله: «أو يتوب عليهم» إن أسلموا «أو يعذبهم» إن لم يسلموا، «فإنهم ظالمون» قد استحقوا العذاب بظلمهم، والأمور كلها بيد الله، «والله ما في السموات وما في الأرض» خلقاً وملاكاً وعبيداً، «يغفر لمن يشاء» غفرانه، «ويعذب من يشاء» تعذيبه، ولا يجب عليه شيء، «والله غفور رحيم» لعباده، فلا تبادر بالدعاء عليهم.

الإشارة: وما جعل الله التأييد الذي ينزله على أهل التجريد، حين يقابلهم بالابتلاء والتشديد، إذا أراد أن يوصلهم لصفاء التوحيد، إلا بشارة لفتحهم، ولتطمئن بمعرفة قلوبهم، فإن الامتكان على قدر الامتحان، وكل محنة تزيد مكنة، وهذه سنة الله في أوليائه؛ يسلط عليهم الخلق في بدايتهم، ويشدد عليهم البلاء، حتى إذا طهروا من البقايا، وكملت فيهم المزايا، كف عنهم الأذى، وانقلب الجلال جمالاً، وذلك اعتناء بهم، ونصراً لهم على أنفسهم، فإن النصر كله «من عند الله العزيز الحكيم». وذلك ليقطع عنهم طرقاً من الشواغل والعلائق، التي تقبضهم عن العروج إلى سماء الحقائق، فإن الروح إذا رقدت في ظل العز والجاه صعب خروجها من هذا العالم، فإذا ضيق عليها، وعكس مرادها، رحلت إلى عالم الملكوت، والأمر كله بيد الله. ليس لك أيها الفقير من الأمر شيء، إنما أنت مأمور بتحريك الأسباب^(١) والله يفتح الباب. وليس لك أيها الشيخ من الأمر شيء، إنما أنت مذكر، وعلى الله البلاغ، فلا تأس على ما فاتك، ولا تفرح بما آتاك، فملكوت السموات والأرض بيد الله، «يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم».

قال القشيري: جرّده - أي: نبيه ﷺ لما به عرفه عن كل غير وسبب، حيث أخبره أنه ليس له من الأمر شيء، ثم قال: ويقال: أقامه في وقتٍ مقاما؛ رمى بقبضة من التراب، فأصابت جميع الوجوه، وقال: «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» وقال في وقت آخر: «ليس لك من الأمر شيء». هـ.

يشير إلى أنهما مقامان: نيابة عن الله بالله، ونيابة الله عن عبده، والأول بقاء، والثاني فناء، قاله المحشي. قلت: الأول في مقام البسط، والثاني في مقام القبض، فقد قالوا: إذا بسط فلا فاقة، وإذا قبض فلا طاقة. والله تعالى أعلم.

ولما كان النصر في الجهاد لا يكون إلا بأكل الحلال وطاعة الكبير المتعال، قدّم ذكر ذلك قبل الأمر بالقتال في قضية أحد، فقال:

(١) في «أ» السبب.

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

قلت : الكظم هو: الكف والحبس، تقول: كظمت القرية: إذا ملأتها وسددت رأسها.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا» وتزيدوا فيها إذا حلَّ الأجل «أضعافاً مضاعفة»، ولعل التخصيص بحسب الواقع، إذ كان الرجل يحلُّ أجلَ دينه، فيقول للمدين: إما أن تقضى وإما أن تزيد، فلا يزال يؤخره ويزيد في دينه حتى يستغرق مال المدين، فنهوا عن ذلك. ورغبهم في التقوى التي هي غنى الدارين. فقال: «واتقوا الله» فيما نهيتكم عنه، «لعلكم تفلحون» في الدارين. ثم خوفهم بالنار إن لم ينتهوا، فقال: «واتقوا النار التي أعدت للكافرين»، وفيه إشعار بأن النار موجودة؛ إذ لا يعدُّ المعدوم، وأنها بالذات معدة للكافرين، وبالعرض للعاصين.

قال الورتجبي: في الآية إشارة إلى أن النار لم تعد للمؤمنين، ولم تخلق لهم، ولكن خوفهم بها زجراً وعظة، كالأب البار المشفق على ولده يخوفه بالأسد والسيف، وهو لا يضره بالسيف، ولا يلقيه إلى الأسد، فهذه الآية تلتطف وشفقة على عباده. هـ.

«وأطيعوا الله» فيما أمر ونهى، «والرسول» فيما شرع وسنَّ، «لعلكم ترحمون». والتعبير بلعل وعسى في أمثال هذه: دليل على عون التوصل إلى ما جعل طريقاً له.

«وسارعوا» أي: بادروا «إلى مغفرة من ربكم»؛ كالإسلام والتوبة والإخلاص، وسائر الطاعات التي توجب المغفرة، وقرأ نافع وابن عامر بغير واو على الاستئناف. وسارعوا أيضاً إلى «جنة عرضها السموات والأرض» لو وصل بعضها ببعض، وذكر العرض؛ للمبالغة في وصفها بالسعة؛ لأنه دون الطول. قال بعضهم: لم يرد العرض الذي هو ضد الطول، وإنما أراد عظمها، ومعناه: كعرض السموات السبع والأرضين السبع في ظلكم، أي: لا تدرك ببيان. «أعدت» أي: هيئت «للمتقين». وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة، وأنها خارجة عن هذا العالم.

ثم وصف أهلها من المتقين بأوصاف الكمال، فقال: «الذين ينفقون في السراء والضراء» أي: في حالتى الرخاء والشدة، وفي الأحوال كلها، كما هي حالة الأسخياء، قال ﷺ: «الجنة دار الأسخياء». وقال أيضا: «السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار. ولجاهل سخي أحب إلى الله من العالم البخل». وقال أيضا ﷺ: «السخاء شجرة في الجنة، أغصانها في الدنيا، من تعلق بغصن من أغصانها قادتته إلى الجنة، والبخل شجرة في النار، أغصانها في الدنيا، من تعلق ببعض من أغصانها قادتته إلى النار».

«والكاظمين الغيظ» أي: الكافين عن إمصائه مع القدرة عليه، قال عليه الصلاة والسلام: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إمصائه؛ ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً».

وقال بعض الشعراء:

وَإِذَا غَضِبْتَ فَكُنْ وَقُوراً كَاطِماً
لِلْغَيْظِ، تَبَصَّرْ مَا تَقُولُ وَتَسْمَعُ
فَكَفَى بِهِ شَرْفاً، تَصَبَّرْ سَاعَةً
يَرْضَى بِهَا عَنْكَ الْإِلَهُ وَيَرْفَعُ^(١)

«والعافين عن الناس» أي: عمن ظلمهم، وعن النبي ﷺ أنه قال عند ذلك: «إن هؤلاء في أمتي قليل، إلا من عصم الله، وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت». وعن أبي هريرة: أن أبا بكر كان مع النبي ﷺ في مجلس، فجاء رجل فوقع في أبي بكر، وهو ساكت، والنبي ﷺ يبتسم، ثم رد عليه أبو بكر بعض الرد، فغضب عليه الصلاة والسلام. وقام، فلحقه أبو بكر، وقال: يا رسول الله، شتمنى وأنت تبتسم، ثم رددت عليه بعض ما قال، فغضبت وقمت. قال: «حين كنت ساكناً كان معك ملك يرد عليك، فلما تكلمت وقع الشيطان، فلم أكن لأقعد في مقعد فيه الشيطان، يا أبا بكر، ثلاث حق: تعلم أنه ليس عبد يظلم مظلماً فيعفو عنها إلا أعز الله بها نصره، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله قلة، وليس عبد يفتح عطية أو صلة إلا زاده الله بها كثرة».

«والله يحب المحسنين» الذى أحسنوا فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم وبين عباد الله، و«أل»: يحتمل أن تكون للجنس، فيعم كل محسن، أو للعهد، فتكون الإشارة إلى من تقدم ذكرهم.

الإشارة: كل ما يقوى مادة الحس فهو رياء؛ لأنه يربى الحس ويقوى مادة الغفلة، فلا ينبغي لمريد أن يضاعفه ويتعاطى أسباب تكثيره، بل ينبغي أن يفر من موارده، وهي ثلاثة: مباشرة الحس، أو الفكر فيه، أو الكلام مع أهله

(١) البيهتان لأبى القاسم بن حبيب، كما فى تفسير البحر المحيط: ٦٣/٣.

فيه . والذي يقوى مادة المعنى ثلاثة: صحبة أهل المعنى، والفكرة فى المعانى، وذكر الله بالقلب . واتقوا الله فى مباشرة الحس (لعلكم تفلحون) بالوصول إلى صفاء المعانى، واتقوا نار القطيعة التى أعدت لمنكر الخصوصية، (وأطيعوا الله والرسول) فيما ندبكم إليه، (لعلكم ترحمون) بإحياء قلوبكم وأرواحكم بأسرار المعانى، وسارعوا إلى ما يوجب تغطية مساوئكم، حتى يغطى وصفكم بوصفه، ونعتكم بنعته، فيوصلكم بما منه إليكم، لا بما منكم إليه، فتدخلوا جنة المعارف، التى لا نهاية لفضاء شهودها، التى أعدت للمتقين السوى، الذين يبذلون مهجهم وأموالهم فى حال الجلال والجمال، (والكاظمين الغيظ) ؛ حيث ملكوا أنفسهم وأحوالهم، (والعاقين عن الناس) ؛ لأن الصوفى ماله مباح ودمه هدر . وكان بعض الصوفية يقول: إذا أردت أن تعرف حال الفقير فأغضبه، وانظر إلى ما يخرج منه . وقال شيخ شيوخنا رحمته الله : قطب التصوف: لا تغضب ولا تغضب . هـ .

ولعروة بن الزبير - رحمته الله :

لن يبلغ المجد أقوام وإن كرموا ، حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
ويشتموا فترى الألوان مشرقة ، لا عفواً ذل، ولكن عفواً أحلام

«والله يحب المحسنين» الذين حازوا مقام الإحسان، فعبدوا الله بالشهود والعيان، فعم إحسانهم ذا الإساءة والإحسان والإنس والجان . قال الحسن البصرى: (الإحسان: أن يعم إحسانه، ولا يكون كالشمس والرياح والمطر) . أى: يخص بلداً دون بلد . وقال سفيان الثورى: (ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، وإنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك . فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة كنفد السوق، خذ منى وهأت) . وقال السرى السقطى: (الإحسان: أن تحسن وقت الإمكان، فليس فى كل وقت يمكنك الإحسان) ، وأنشدوا:

ليس فى كل ساعةٍ وأوانٍ تَهَيَّأُ صنائعُ الإحسان
فإذا أمكنت فبادر إليها حذراً من تعدُّر الإمكان^(١)

وقال الورتجى: قوله: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة...» إلخ، علم الحق - سبحانه - علل الخلق وميلهم إلى منى النفوس، فدعاهم بطاعته إلى العلتين: المغفرة والجنة، ودعا الخاصة إلى نفسه، فقال: ﴿ففرّوا إلى الله﴾ ، ثم أعلم أن الكل فى درك امتحان الجرم، وأثبت بالآية ذنب الكل، لأنهم وإن كانوا معصومين من الزل،

(١) الأبيات لأبى العباس الجمانى، كما ذكر القرطبى فى تفسيره .

فذنبتهم قلة معرفتهم لأقدار الحق، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لو أن الله عذب الملائكة لحق منه، فقليل: إنهم معصومون، فقال عليه الصلاة والسلام: من قلة معرفتهم بربهم» (١). ولذلك دعاهم إلى المغفرة. هـ. قال في الحاشية: وقوله: (أثبت بالآية ذنب الكل)، يعنى: شمول قوله: (يغفر لمن يشاء) من في السموات الصادق بالملائكة، وإنما تكون المغفرة بعد ذنب، ولكنه في كل أحد على حسبه، وأما قوله: دعاهم إلى المغفرة، فكأنه من قوله: «سارعوا إلى مغفرة من ربكم»، وأن الخطاب يعم من في السموات أيضاً، وقد يتصور في حق الملائكة الاستناد لظواهر الأمور والاختلاف بينهم والاختصاص، مما هو معرض للخطأ، وذلك من دواعي المغفرة، وكذلك القصور عن معرفة كنه جلال الله: نقص لا يخلو منه مخلوق، لاستحالة الإحاطة به علماً، ولذلك كان الترقى في المعرفة لا حد له أبداً سرمداء. هـ.

ثم ذكر حال أهل اليمين، فقال:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوْا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: «والذين إذا فعلوا فاحشة» أى: فعلة بالغة في الفحش والقبح، كالزنى، «أو ظلموا أنفسهم» بأى ذنب كان، أو فعلوا كبيرة أو صغيرة، أو الفاحشة: ما يتعدى للغير، وظلم النفس ما يخص، أو الفاحشة بالفعل، وظلم النفس بالقول، «ذكروا الله» أى: عقابه وغضبه وعرضه الأكبر، أو «ذكروا الله» فى أنفسهم أن الله سائلهم عنه، أو كونه رقيباً عليهم، أو «ذكروا الله» باللسان «فاستغفروا لذنوبهم» بالندم والتوبة، «ومن يغفر الذنوب إلا الله» أى: لا أحد يغفره إلا الله، والمراد: وصفه تعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة، والحث على الاستغفار.

«ولم يصروا على ما فعلوا» أى: لم يدوموا عليها غير مستغفرين، لقوله ﷺ: «ما أصرَّ من استغفر، ولو عاد في اليوم سبعين مرة»، وذلك إذا صحبه الندم، وقال أيضاً: «لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع

(١) لم أقف عليه. وذكر المتقى الهندي في الكنز حديث: (لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمتهم لهم خيراً لهم من أعمالهم... وعزاء لأحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن حبان. انظر: (الكنز ١ / ١٣٠ ح ٦١٣).

الإصرار». قال قتادة: إياكم والإصرار، فإنما هلك المصرون الماضون قديماً في معاصي الله تعالى، لم يتوبوا حتى أتاهم الموت. هـ. «وهم يعلمون» أن الإصرار يضر بهم، أو: وهم يعلمون أن لهم رباً يغفر الذنب؛ لقوله عليه الصلاة والسلام -: «مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، غَفَرَ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ». وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى : «من علم أني ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالي». وفي بعض الكتب المنزلة: «يا ابن آدم، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي لِأَغْفِرَ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي». أو: (وهم يعلمون) أن التوبة تمحق الذنوب.

«أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم»؛ تغطية لذنوبهم، «وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها»، ولا يلزم من إعدادها للتائبين اختصاصهم بها، كما لا يلزم من إعداد النار للكفار اختصاصهم بها، ثم مدح أجر التائبين فقال: «ونعم أجر العاملين»، وانظر هذا الفرق العظيم الذي بين المحسنين وأهل اليمين، قال في الآية الأولى: «والله يحب المحسنين» وقال في هذه الآية: «ونعم أجر العاملين»، أهل الآية الأولى من خواص الأحاب، وأهل هذه يأخذون أجرهم من وراء الباب. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى عين التحقيق.

الإشارة: أهل مقام الإحسان عملهم قلبى، كالسخاء والعفو وكظم الغيظ، وأهل اليمين عملهم بدنى، بين طاعة ومعصية وغفلة ويقظة، إذا فعلوا فاحشة تابوا واستغفروا، وإذا فعلوا طاعة فرحوا واستبشروا، أهل مقام الإحسان غائبون عن رؤية أعمالهم ووجودهم، وأهل اليمين معتمدون على أعمالهم، إذا فعلوا طاعة قوى رجاؤهم، وإذا زلوا نقص رجاؤهم، أهل مقام الإحسان فانون عن أنفسهم باقون بربهم، وأهل اليمين أنفسهم موجودة وأعمالهم لديهم مشهودة، أهل مقام الإحسان محبوبون، وأهل اليمين محببون، أهل مقام الإحسان فنيت عندهم الرسوم والأشكال، وبقي في نظرهم وجود الكبير المتعال، وأهل اليمين: الأكوان عندهم موجودة، وشموس المعارف عن قلوبهم مفقودة، أهل مقام الإحسان يعبدون الله على نعت الشهود والعيان، وأهل اليمين يعبدون الله من وراء حجاب الدليل والبرهان، أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان.

واعلم أن لمعرفة الشهود والعيان ثمرات ونتائج، حصرها بعضهم في إحدى عشرة خصلة:

الأولى: الحرية، ومعناها أن يكون العارف فرداً لفرد، من غير أن يكون تحت رق شيء من الموجودات، لا من أغراض الدنيا ولا من أغراض الآخرة، فالحرية عبارة عن غاية التصفية والطهارة. قال بعضهم: ليس بحر من بقي عليه من تصفية نفسه مقدار فص نواة، المكاتب عبد ما بقي عليه درهم.

الثانية: الوجود، وهو الفوز بحقيقة الأشياء في الأصل، وهو عبارة عن إدراك مقام تضحل فيه الرسوم، بالاستغراق في الحقيقة الأزلية.

الثالثة: الجمع الأتم، وهو الحال الذي يقضى بقطع الإشارات، والشخص عن الأمارات والعلامات، بعد صحة التمكين والبرامة من التلوين.

الرابعة: الصحو، وهو عبارة عن تمكين حال المشاهدة، واتصالها، مع براء الروح من لدغات الدهش، ولا يكمل الصحو إلا بحياة الروح بوارد الجمع الدائم.

الخامسة: التحقيق، وهو الوصول إلى المعرفة بالله، التي لا تدرك بالحواس، لتخليص المشرب من الحق بالحق في الحق، حتى تسقط المشاهدات، وتبطل العبارات، وتغنى الإشارات.

السادسة: البسط، ونعني به: بسط الروح باسترسال شهود المعاني عند سقوط الأواني، وفي ذلك يقول ابن الفارض:

فما سكنت والهم يوماً بموضع كذلك لم يسكن مع النغم الغم

السابعة: التلبيس، وهو تغطية الأسرار بأستار الأسباب، إبقاء للحكمة وستراً عن العامة.

الثامنة: الهباء، والمراد به الخروج عن فناء المشاهدة إلى بقاء المعرفة، من غير أقول يخل بشمس المشاهدة، ولا رجوع إلى شواهد الحس، إنما هو استصحاب الجمع مع استئناس الروح بحلاوة المعاني، فهو كبائن دان. انظر بقيتها في [بغية السالك]. وبالله التوفيق.

ثم قوى قلوب أهل لما انكسرت بالهزيمة، فقال:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

قلت: السنن: الطرق المسلوكة، وقيل: الأمم.

يقول الحق جل جلاله: قد مضت «من قبلكم سنن» جرت على الأمم المكذبة لأنبيائها قبلكم، «ولن تجد لسنة الله تبديلاً»، وهو إمهالي واستدراجي إياهم، حتى يبلغ الكتاب الذي أجل لهم، فإذا بلغهم أهلكهم، وأدلت الأنبياء وأتباعهم عليهم، فإذا هلكوا بقيت آثارهم دارة، اعتباراً لمن يأتي بعدهم، «فسيروا في الأرض» وتعرفوا أخبارهم، وانظروا «كيف كان عاقبة المكذبين» لأنبيائهم قبلكم، فكذا يكون شأنكم مع من كذبكم. «هذا» الذي أمرتكم به من الاعتبار، «بيان للناس» لمن أراد أن يعتبر من الكفار، وزيادة هداية واستبصار «للمتقين».

ثم سلاهم وبشرهم فقال: «ولا تهنوا» أى: لا تضعفوا عن قتال عدوكم بما أصابكم، «ولا تحزنوا» على من قتل منكم، وهم سبعون من الأنصار وخمسة من المهاجرين، منهم: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير - صاحب راية النبي ﷺ وعبد الله بن جحش، وعثمان بن شماس، وسعد مولى عتبة - رضى الله عنهم - .
أو: (لا تحزنوا) لفوات الغنيمة «وأنتم الأعلون» بأن تكون لكم العاقبة والنصر، أو: وحالكم أنكم أعلى منهم شأنًا، فإنكم على الحق وقاتلكم الله، وقتلاككم فى الجنة، وهم على الباطل، وقتالهم للشيطان، وقتلهم فى النار، فلا تفشلوا عن الجهاد «إن كنتم مؤمنين» فإن الإيمان يقتضى قوة القلب بالوثوق بالله والاعتماد عليه، أو: (إن كنتم مؤمنين) بما وعدتكم من العلو والنصر. والله أعلم.

الإشارة : قد خلت من قبلكم، أيها المريدون، سدن الله فى أوليائه مع المتكرين عليهم من عوام عباده، فإنه أبعدهم عن ساحة حضرته، وحرّمهم من سابق عنايته، حتى ماتوا على البعد، فاندurst آثارهم وخرت ديارهم، فسيروا فى الأرض وانظروا كيف كان عاقبة المكذبين لأوليائه، هذا بيان للمعتبرين، وزيادة هدى وموعظة للمتقين، فلا تهنوا أيها الفقراء وتضعفوا عن طلب الحق بالرجوع عن طريق الجد والاجتهاد، لما يصيبكم من أذى أهل العناد، وأنتم الأعلون بالنصر والتأييد، ورفع درجاتكم مع خواص أهل التوحيد، إن كنتم مؤمنين بوعده الملك المجيد، فمن طلب الله وجده، وأنجز بالوفاء مواعده، لكن بعد نجرع كؤوس مرارة الصبر، ودوام الحمد والشكر، وأنشدوا:

لَا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمَرًا أَنْتَ أَكَلُهُ لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَ (١)

ثم سلاهم بمشاركة المكذبين فيما أصابهم، فقال:

﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

قلت : القرّح - بالفتح والضم -: الجرح، وقيل: بالفتح: الجرح، وبالضم: ألمه ووجعه . والمداولة: المفاعلة من الدولة، وهى الغلبة، و(الأيام): نعت أو خبر، و(نداولها): خبر أو حال، و(ليعلم): متعلق بمحذوف، أى: وفعل

ما فعل من الإدالة ليعلم، أو عطف على علة محذوفة، أي: نداولها ليكون كيت وكيت، وليعلم... إلخ، إيذاناً بأن العلة فيه غير واحدة، وأن ما يصيب المؤمن: فيه من المصالح ما لا يعلم، و(يعلم الصابرين): منصوب بأن، على أن الواو للجمع.

يقول الحق جل جلاله: «إِنْ يَمْسَسْكُمْ فِى غَزْوَةٍ أَحَدٌ «قَرْحٌ» كَقَتْلِ أَوْ جَرْحٍ، «فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ» مِنْ أَعْدَائِكُمْ يَوْمَ بَدْرٍ (قَرْحٌ مِثْلُهُ)، فَإِنْ كَانَ قَتْلُ مَنكُم خَمْسَةً وَسَبْعُونَ يَوْمَ أَحَدٍ، فَقَدْ قَتَلَ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ سَبْعُونَ وَأَسْرَ سَبْعُونَ. أَوْ: «فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ» يَوْمَ أَحَدٍ «قَرْحٌ» مِثْلُ مَا أَصَابَكُمْ، فَإِنَّكُمْ نَلْتَمِ مِنْهُمْ وَهَزَمْتُمُوهُمْ، قَبْلَ أَنْ تَخَالَفُوا أَمْرَ الرَّسُولِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، كَمَا نَالُوا مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ. «وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ» أَيْ: نَصْرُفُ دَوْلَتِهَا بَيْنَهُمْ، فَتَدِيلُ لِهَؤُلَاءِ تَارَةً وَلِهَؤُلَاءِ أُخْرَى، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا، وَيَوْمٌ لَنَا، وَيَوْمٌ نَسَاءُ، وَيَوْمٌ نُسَرُ^(١)

فقد أدب المسلمون على المشركين يوم بدر، فكانت الدولة لهم، وأدب المشركون يوم أحد. والمراد بالأيام: أيام الدنيا، أو أيام النصر والغبية. وإنما أدب للمشركين يوم أحد لئلا يميز المؤمنون من المنافقين، ويظهر علمهم للناس، وليتخذ الله «منكم شهداء» حين ماتوا فى الجهاد، أكرمهم الله بالشهادة، ولا تدل إدالة المشركين على أن الله يحبهم، فإن الله «لا يحب الظالمين». «إِنَّمَا أَهْلُكُمْ «لِيَمْحُصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» أَيْ: لِيُطَهَّرَهُمْ وَيُصَفِّيَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ، وَإِنَّمَا أَهْلُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمَشْرِكِينَ لِيَمْحُوكَ الْكَافِرِينَ وَيَقْطَعَ دَائِرَهُمْ. وَالْحَقُّ: نَقَصَ الشَّيْءُ قَلِيلاً قَلِيلاً.

ثم عاتب المسلمين فقال: «أَمْ حَسِبْتُمْ» أَيْ: ظَنَنْتُمْ «أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ» علم ظهور، «وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ» أَيْ: لَا تَظُنُّوا أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ كَمَا دَخَلَهَا مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ، وَلَمْ يَقَعْ مِنْكُمْ مِثْلُ مَا وَقَعَ لَهُمْ مِنَ الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْقَتْلِ وَالْجَرْحِ؛ حَتَّى يَقَعَ الْعِلْمُ ظَاهِرًا بِجِهَادِكُمْ وَصَبْرِكُمْ.

«وَلَقَدْ كُنْتُمْ» قَبْلَ خُرُوجِكُمْ إِلَى الْجِهَادِ «تَمَنُّونَ الْمَوْتَ» أَيْ: الْحَرْبَ؛ لِأَنَّهُ سَبَبُ الْمَوْتِ، وَتَقُولُونَ: لَيْتَ لَنَا يَوْمًا مِثْلَ يَوْمِ بَدْرٍ، فَلَقَدْ لَقِيتُمُوهُ وَعَايَنْتُمُوهُ يَوْمَ أَحَدٍ «وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» مَنْ مَاتَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ، فَمَا لَكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُوهُ جَبْنَكُمْ وَانْهَزَمْتُمْ؟ وَهُوَ عِقَابُ مَنْ طَلَبَ الْخُرُوجَ يَوْمَ أَحَدٍ، ثُمَّ انْهَزَمَ عَنِ الْحَرْبِ، ثُمَّ تَدَارَكَهُمْ بِالتَّوْبَةِ وَالْعَفْوِ، عَلَى مَا يَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الإشارة: إِنْ يَمْسَسْكُمْ بِأَمْعَشِ الْفُقَرَاءِ قَرْحٌ؛ كَحَبْسٍ أَوْ ضَرْبٍ أَوْ سَجْنٍ أَوْ حَرْجٍ أَوْ جَلَاءٍ، فَقَدْ مَسَّ الْعَمُومَ مِثْلَ ذَلِكَ، غَيْرَ أَنَّكُمْ تَسِيرُونَ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِمَعْرِفَتِكُمْ فِيهِ، وَهَمَّ لَا سِيرَ لَهُمْ لِعَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ، أَوْ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ أَهْلِ الْخُصُوصِيَّةِ مِثْلُ مَا أَصَابَكُمْ، فَفِيهِمْ أَسْوَةٌ لَكُمْ، وَهَذِهِ عَادَةُ اللَّهِ فِي أَوْلِيَائِهِ، يُدِيلُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَطْهَرُوا وَيَتَخَلَّصُوا، ثُمَّ يُدِيلُ لَهُمْ، وَإِنَّمَا أُدِيلُ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا لِيُطْهَرُوا مِنَ الْبَقَايَا وَتُكْمَلَ فِيهِمُ الْمَزَايَا، وَلِيَعْلَمَ

(١) البيت للامر بن كولب، كما ورد فى الكتاب لسبويه ٨٦ / ١.

الصادق في الطلب من الكاذب، فإن محبة الله مقرونة بالبلاء، وليتخذ منهم شهداء إن ماتوا على ذلك، كالحلاج وغيره، أو يتخذ مذهب شهداء الملكوت إن صبروا حتى ظفروا بالشهود. (والله لا يحب الظالمين) أي: المؤمنين لأوليائه، بل يمقتهم ويبعدهم.

(وليمحص الله الذين آمنوا) بطريق الخصوص، أي: يخلصهم من بقايا الحس، سلط عليهم الناس، وليمحق المنكرين عليهم بما يصيبهم من إيذائهم، فإن المنكر على أهل النسبة كمن يدخل يده في الخيران^(١)، فإذا سلم من الأول والثاني، قال: لا يلحقني منهم شيء، فإذا أدخل يده في غار آخر لدغته حية فأهلكته.

أم حسبتم يامعشر المریدین أن تدخلوا جنة المعارف، ولما يعلم الله الذين جاهدوا نفوسهم، ويعلم الصابرين على إيذاية من آذاهم، ولقد كنتم تعلمون موت نفوسكم وتطلبون ما يعينكم على موتها من قبل أن تلقوا الجلال، فقد رأيتموه وعايينتموه وأنتم تنظرون ما أصاب الأولياء غيركم، فما لكم تجزعون منه وتفرون من مواطنه؟. وكان شيخ شيوخنا رحمته الله يقول: العجب كل العجب، ممن يطلب معرفة الله، فإذا تعرف إليه أنكره.

وفي الحكم: «إذا فتح الله لك وجهة من التعرف فلا تبال معها، وإن قلّ عملك، فإنه ما فتحها إلا وهو يريد أن يتعرف إليك فيها، ألم تعلم أن التعرف هو موردك عليك، والأعمال أنت مهديها إليه، وأين ما تهديه إليه مما هو موردك عليك؟». وبالله التوفيق.

ثم ويخبرهم على ما وقع لهم من الفشل، حين سمعوا بموت النبي ﷺ، فقال:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبَ مُوَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

قلت : (كتابا) : مصدر، أي: كتب الموت كتابا موجلا.

يقول الحق جل جلاله: «وما محمد إلا رسول» يصيبه ما أصابهم، «قد» مضت «من قبله الرسل»، فسيمضى كما مضوا بالموت أو القتل، «أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم» بعد تقرر شريعته

(١) الخيران: جمع غار، ويجمع أيضا على أغوار.

وظهور براهينه، عاتبهم على تقدير أن لو صار منهم انقلاب لو مات ﷺ أو قتل، أو على ما صدر من بعض المنافقين وهم ساكتون.

قال أصحاب المغازي: خرج النبي ﷺ حتى نزل بالشعب من أحد، في سبعمائة رجل، وأمر عبد الله بن جبير على الرماة، وهم خمسون رجلاً، وقال: انضحوا عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، لا تبرحوا مكانكم، كانت لنا أو علينا، فإننا لن نزال غالبين ما ثبتكم مكانكم، فجاءت قریش، وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمة، ومعهم النساء. ثم انتشب القتال فقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ يَأْخُذْ هَذَا السِّيفَ بِحَقِّهِ؟» فجاء رجال فمنعهم، حتى جاء أبو دُجَانَةَ، فقال: وما حقه يارسول الله؟ قال: «تضرب به العدو حتى ينحني»، وكان رجلاً شجاعاً يخالل عند الحرب، فأخذه واعتم بعمامة حمراء، وجعل يتبختر بين الصفين، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع».

ثم حمل النبي ﷺ وأصحابه على المشركين فهزموهم، قال الزبير: (فرأيت هداً وصواحبها هاربات مصعدات في الجبل)، فلما نظر الرماة إلى القوم قد انكشفوا، قالوا: الغنيمة الغنيمة فقال لهم بعضهم: لا تتركوا أمر النبي ﷺ فلم يلتفتوا، وانطلق عامتهم، فلما رأى خالد قلة الرماة، صاح في خيله من المشركين، ثم حمل على أصحاب النبي ﷺ من خلفهم، وقتل عبد الله بن جبير، واختلط الداس، فقتل بعضهم بعضاً، ورمى عبد الله بن قملة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر، فكسر أنفه ورياعينه، وشجّه في وجهه، وكسر البيضة^(١) على رأسه، فذنب عنه مصعب بن عمير، وكان صاحب الراية، فقتله ابن قملة وهو يرى أنه قتل النبي ﷺ، فرجع إلى قومه، وقال: قد قتلت محمداً، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد مات. وقيل: إنه الشيطان، فأنكفأ الداس، وجعل الرسول - عليه الصلاة والسلام - يدعو: «إلى عباد الله»، فأنحاز إليه ثلاثون من الصحابة، وضموه حتى كشفوا عنه المشركين، وأصابت يد طلحة بن عبيد الله فيبست، حين وقى بها النبي ﷺ، وأصابت عين قتادة بن النعمان، حتى وقعت على وجنتيه، فردها النبي ﷺ مكانها، فعادت أحسن مما كانت.

وفشا في الداس أن رسول الله ﷺ مات - فقال بعض المسلمين: ليت ابن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان. وقال بعض المنافقين: لو كان نبيا ما قتل، ارجعوا إلى دينكم الأول. فقال أنس بن النضر - عم أنس بن مالك: (إن كان قد قتل محمد فإن رب محمد لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه، حتى تموتوا على ما مات عليه). ثم قال: اللهم إني أعوذ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبزأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني الكفار، ثم شد سيفه وقاتل حتى قتل، رحمة الله عليه.

(١) البيضة: الخوذة.

فأنزل فيما قال المنافقون: «ومن ينقلب على عقبيه» بارتداده «فلن يضر الله شيئاً» وإنما يضر نفسه، «وسيجزي الله الشاكرين» على نعمة الإسلام بالثبات عليه، كأنس وأضرابه، «وما كان» ينبغي «لنفس أن تموت إلا بإذن الله» أى: بإرادته ومشيلته، أو بإذنه لملك في قبض روحه، والمعنى: أن لكل نفس أجلاً مسمى في علمه تعالى وقضائه، لا تستأخر عنه ساعة ولا تستقدم، بالتأخر عن القتال ولا بالإقدام عليه، وفيه تشجيعهم على القتال ووعد للرسول بحفظه وتأخر أجله، فإن الله تعالى كتب أجل الموت «كتاباً موجلاً»، مؤقناً لا يتقدم ولا يتأخر.

ونزل في الرماة الذين خالفوا المركز للغميمة: «ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤتها منها» الجزء الجليل، «وسنجزي الشاكرين» الذين شكروا نعم الله، فلم يشغلهم شيء عن الجهاد في سبيل الله، بل كان همهم رضى الله ورسوله دون شيء سواه.

الإشارة : ينبغي للمريد أن يستغنى بالله، فلا يركن إلى شيء سواه، وتكون بصيرته نافذة حتى يغيب عن الوسطة بشهود الموسوط، فإن مات شيخه لم ينقلب على عقبيه، فإن تمكن من الشهود فقد استغنى عن كل موجود، وإن لم يتمكن نظر من يكمله، فالوقوف مع الوسائط وقوف مع النعم دون شهود المنعم، فلا يكون شاكراً للمنعم حتى لا يحجبه عنه شيء، ولما مات - عليه الصلاة والسلام - دهشت الناس، وتحيرت لوقوفهم مع شهود النعمة، إلا الصديق؛ كان نفذ من شهود النعمة إلى شهود المنعم، فخطب حينئذ على الناس، وقال: (مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنْ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ). ثم قرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...﴾ إلى قوله: ﴿وسنجزي الشاكرين﴾، وهم الذين نفذوا إلى شهود المنعم، ولم يقفوا مع النعمة.

ودخل بعض العارفين على بعض الفقراء فوجده يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ قال: مات أستاذي، فقال له العارف: ولم جعلت أستاذك يموت؟ وهلا جعلته حياً لا يموت. فنبهه على نفاذ بصيرته إلى شهود المنعم دون الوقوف مع النعمة، فالشيخ الحقيقي هو الذى يغنى صاحبه عنه وعن غيره، بالدلالة على ربه.

ثم صبرهم بما وقع لغيرهم قبلهم فقال:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

قلت : (كأين) : أصله : أى ، دخلت الكاف عليها وصارت بمعنى (كم) ، وأثبت التنوين نوناً على غير قياس ، وقرأ ابن كثير : (وكائن) ، على وزن فاعل ، وجهه : أنه قلب الياء قبل الهمزة فصار : كِيَاءٌ ، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فصار كائن ، وهما لغتان ، وقد جمع الشاعر بينهما فى بيت ، فقال :

كَأَيْنَ أَبَدْنَا مِنْ عَدُوِّ بَعِزَّنَا وَكَأَيْنَ أَجَرْنَا مِنْ ضَعِيفِ وَخَائِفِ

و(الرَّيُّون) : جمع رِيَّة ، أى : الفرقة . أى : معه جموع كثيرة ، وقيل : العلماء الأتقياء ، وقيل : الولاة ، وهو : إما مبتدأ فيوقف على (قُتِل) ، أو نائب فاعل (قُتِل) ، أو فاعل على من قرأ بالبناء له ، و(كثير) : نعت له ، كقوله : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ ؛ لأن فعلاً يخبر به عن المفرد والجمع .

يقول الحق جل جلاله : «وكأين» ؛ وكم «من نبي قُتِل» فى المعركة ومعه جموع كثيرة ، أو ريانيون علماء أتقياء ، فلم يفلتوا ولم يضعفوا ، بل ثبتوا على دينهم وجهاد عدوهم ، أو يقول : كثير من الأنبياء قتل معهم ريانيون كثير ، أى : ماتوا فى الحرب فثبت الباقون ، ولم يفتروا ولم يضعفوا عن عدوهم ، ويترجح الأول بما صرخ به الصارخ يوم أحد : إن محمداً قد مات ، فضرب لهم المثل بقوله : «وكأين من نبي قُتِل» ، ويترجح الثانى بأنه لم يقتل نبي قط فى المحاربة .

أو : «وكأين من نبي قاتل» أى : جاهد معه «رييون كثير» ، بعدما قتل نبيهم أو جموعهم «فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله» أى : فما فتروا ، ولم ينكسر جندهم ؛ لأجل ما أصابهم من قتل نبيهم أو بعضهم ، «وما ضعفوا» عن جهاد عدوهم ولا عن دينهم ، «وما استكانوا» أى : خضعوا لعدوهم ، من السكون ؛ لأن الخاضع يسكن لعدوه يفعل به ما يريد ، فالألف إشباع زائد ، أى : فما سكوا لعدوهم بل صبروا له ، «والله يحب الصابرين» فينصرهم ويعزهم ويعظم قدرهم .

«وما كان قولهم» عند قتل نبيهم مع ثباتهم على دينه ، «إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا» الصغائر ، «واسرافنا فى أمرنا» أى : ما تجاوزنا به الحد فى أمر ذنوبنا ، كالكبائر ، «وثبت أقدامنا» فى مداحض الحرب ؛ لئلا ننهزم ، «وانصرنا على القوم الكافرين» من أعدائنا ، فهلاً فعلتم مثلهم ، وقتلتم ذلك يا أصحاب محمد ﷺ .

«فآتاهم الله» فى ثواب الاستغفار واللجوء إلى الله «ثواب الدنيا» وهو النصر والغنيمة والعز وحسن الذكر ، «وحسن ثواب الآخرة» وهو النعيم الذى لا يفنى ولا يبيد ، وخص ثواب الآخرة بالحسن ؛ إشعاراً بفضله ، وأنه المعتمد به عنده ، «والله يحب المحسنين» الثابتين على دينهم ، لأنهم أحسنوا فيما بينهم وبين ربهم بحفظ دينه ، فأحبهم الله وقربهم إلى حضرته .

الإشارة : وكم من المريدين والأتباع مات شيخهم أوقتل، فثبتوا على طريقهم، فما فشلوا ولا ضعفوا، ولا خضعوا لمن يقطعهم عن ربهم، بل صبروا على السير إلى ربهم، أو الترقى في المقامات، ومن لم يرشد منهم طلب من يكمل له، (والله يحب الصابرين)، فإذا أحبهم كان سمعهم وبصرهم، كما في الحديث. وما كان حالهم عند موت شيخهم إلا الالتجاء إلى ربهم، والاستغفار مما بقى من مساوئهم، وطلب الثبات في مواطن حرب أنفسهم، فأعطاهم الله عز الدنيا والآخرة، عز الدنيا بالإيمان والمعرفة، وعز الآخرة بدوام المشاهدة، فكانوا أحباب الله؛ (والله يحب المحسنين).

ثم حذرهم الله تعالى من التكون إلى عدوهم، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله : «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا» وهم المنافقون، لما قالوا للمسلمين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دينكم الأول، ولو كان نبيا ما قتل، «يردوكم على أعقابكم» راجعين عن إيمانكم، «فتنقلبوا خاسرين» مفتونين عن دينكم، فتحبط أعمالكم فتخسروا الدنيا والآخرة، بل اثبتوا على إيمانكم، فإن الله «مولاكم» سينصركم ويعزكم، «وهو خير الناصرين»، وقيل: إن تسكنوا إلى أبي سفيان وأشياعه وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم. وقيل: عام في مطاوعة الكفرة والنزول على حكمهم؛ فإنه يجر إلى موافقتهم على دينهم، لا سيما إن طالت مدة الاستئمان.

قلت : وهذا هو السبب في ارتداد من بقى من المسلمين بالأندلس حتى رجعوا نصارى، هم وأولادهم، والعياذ بالله من سوء القضاء.

الإشارة : يا أيها المريدون - وخصوصا المتجربين - إن تطيعوا العامة، وتركوا إليهم، يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين بطلب الدنيا وتعاطى أسبابها، فنزل قدم بعد ثبوتها، وتلحظ من الهمة العالية إلى الهمة السفلى، فإن الطباع تُسرق، والمرء على دين خليله، بل اثبتوا على التجريد وتحقيق التوحيد، فإن الله مولاكم (وهو خير الناصرين)، فينصركم ويعزكم ويغنيكم بلا سبب، كما وعدكم؛ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

ولما انصرف أبو سفيان من أحد، قال: بئس ما صنعنا! قتلنا القوم ولم يبق إلا اليسير، ارجعوا حتى نستأصلهم، فألقى الله في قلبه الرعب، كما قال:

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ
سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿١٥١﴾

قلت : (الرعب) : الخوف، وفيه الضم والسكون، وهكذا كل ثلاثى ساكن الوسط، كالقدس والعسر واليسر، وشبه ذلك، و(بما أشركوا) : مصدرية.

يقول الحق جل جلاله : ستقذف ﴿ فى قلوب الذين كفروا ﴾ كأبى سفيان وأصحابه، ﴿الرعب﴾ والخوف، حتى يرجعوا عنكم بلا سبب، بسبب شركهم بالله ﴿ما لم ينزل به سلطانا﴾ ولا حجة على استحقاق العبادة، ﴿وماوَاهم النار﴾ أى : هى مقامهم، ﴿وبئس مَثْوَى الظالمين﴾ أى : قبح مقامهم. ووضع الظاهر موضع المضمرة للتغليظ فى العلة.

الإشارة : فيها تسلية للفقراء، فإن كل من هم بإذائهم ألقى الله فى قلبه الرعب، حتى لا يقدر أن يتوصل إليهم بشيء مما أمل فيهم، وقد رأيتهم هموا بقتلهم وضربهم وحبسهم، وسعوا فى ذلك جهدهم، وعملوا فى ذلك بينات على زعمهم، توجب قتلهم، فكفاهم الله أمرهم، وألقى الرعب فى قلوبهم، فانقلبوا خائبين وماتوا ظالمين، والله ولى المتقين.

ثم ذكرهم الله تعالى ما وعدهم من النصر، فقال :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۚ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرَبَكُمْ مَا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ
الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا
عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٥٢﴾

قلت : حسه : إذا قتله وأبطل حسه، وجواب (إذا) : محذوف، أى : حتى إذا فشلتُم وتنازعتُم وعصيتُم امتحناكم بالهزيمة، والوار لا ترتب، والتقدير : حتى إذا تنازعتُم وعصيتُم وفشلتُم سلينا النصر عنكم.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ولقد صدقكم الله﴾ ما وعدكم من النصر لو صبرتم واتفقتم، وذلك حين كنتم ﴿تحسونهم﴾ بالسيف، وتقتلونهم حتى انهزموا هاربين، بإذنه تعالى وإرادته، ﴿حتى إذا فشلتُم﴾ أى : جبنتم

وضعف رأيكم وملتم إلى الغنيمة، «وتتأزعتُم» في الثبات مع الرماة حين انهزم المشركون، فقلتم: الغنيمة الغنيمة، فما وقوفكم هنا؟ قال آخرون: لا تخالفوا أمر الرسول، ثم تركتم المركز، «وعصيتُم الرسول من بعد ما أراكم ما تحبون» من النصر والغنيمة، امتحناكم حينئذ بالهزيمة.

فمنكم «من يريد الدنيا» ليصرفها في الآخرة، وهم الذين خالفوا المركز وذهبوا للغنيمة، «ومنكم من يريد الآخرة» صرفاً، وهم الثابتون مع عبدالله بن جبير، محافظةً على أمر رسول الله ﷺ، «ثم صرفكم عنهم» حين خالفتم أمر الرسول، «ليبتليكم» أي: ليختبركم، فيتبين الصابر من الجازع، والمخلص من المنافق، «ولقد عفا عنكم» فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة، لاستحقاقكم ذلك، أو تجاوز عن ذنبكم وتفضل بالتوبة والمغفرة، «والله ذو فضل» عظيم «على المؤمنين»، يتفضل عليهم بالمغفرة في الأحوال كلها، سواء أدل عليهم أو لهم، فإن الابتلاء أيضاً رحمة وتطهير. والله تعالى أعلم.

الإشارة : يقول للفقراء الذين استشفروا على بلاد الخصوصية، ثم فشلوا ورجعوا إلى بلاد العمومية: ولقد صدقكم الله وعده في إدراك الخصوصية لو صبرتم، فإنكم حين كنتم تجاهدون نفوسكم وتحسونها بسيوف المخالفة، لمعت لكم أنوار المشاهدة، حتى إذا فشلتم وتفرقت قلوبكم، وعصيتُم شيوخكم قلّت أمدادكم، وأظلمت قلوبكم، من بعد ما رأيتم ما تحبون من مبادئ المشاهدة، فملتم إلى الدنيا الفانية، فمنكم يا معشر المنتسبين من يريد الدنيا، فصحب العارفين على حرف، وهو الذي رجع وفشل، ومنكم من يريد الآخرة وقطع يأسه من الرجوع إلى الدنيا، وهو الذي ثبت حتى ظفر، ثم صرفكم عن صحبة العارفين، يا من أراد الدنيا من المنتسبين، ليبتليكم، هل صحبكموهم لله أو لغيره، ولقد عفا عنكم وجعلكم من عوام المسلمين، ولم يسلب عنكم الإيمان عقوبة لترك صحبة العارفين. أو لقد عفا عنكم إن رجعتُم إلى صحبتهم والأدب معهم، فإن الله (نوفضل على المؤمنين) حيث لم يعاجلهم بالعقوبة. وبالله التوفيق.

وقال الورتجبي: قوله: «منكم من يريد الدنيا»، أي: منكم من وقع في بحر غنى القدم، واتصف به بنعت التمكين ورؤية النعم في شكر المنعم، كسليمان عليه السلام. ومنكم من وقع في بحر التنزيه وتقديس الأزلية، فغلب عليه القدس والطهارة، فخرج بنعت الفقر؛ تجريداً لتوحيده وإفراد قدمه من الحدث، كمحمد ﷺ حيث قال: «الفقر فخرى»^(١).

(١) قال الحافظ ابن حجر: لا أصل له. انظر: الأسرار المرفوعة.

ثم بين وقت الذلة التي افتقرت إلى العفو، فقال:

﴿ إِذْ تَصْعِدُونَ وَلَا تُلَوُّنَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ فَأَتْبَعَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

قلت : (إذ) : ظرف لعفا ، أو اذكر . وأصعد : أبعد في الأرض ، وصعد : في الجبل ، فالإصعاد : الذهاب في الأرض المستوية ، والصعود : الارتقاء في العلو . وقرئ بهما معاً ؛ لأنها وقعا معاً ، فممنهم من فر ذاهباً في الأرض ، ومنهم من صعد إلى الجبل . و(لكيلا) : متعلق بأثابكم .

يقول الحق جل جلاله : ولقد عفا عنكم حين كنتم «تصعدون» عن نبيه - عليه الصلاة والسلام - ، منهزمين عنه ، تبعدون عنه ، «ولا تلون على أحد» أي : لا يلتفت بعضكم إلى بعض ، ولا يلتظر بعضكم بعضاً ، «والرسول» محمد ﷺ «يدعوكم في أخراكم» أي : في سافقتكم ، يقول : «إلى عباد الله ، أنا رسول الله ، من يكره له الجنة» ، وفيه مدح للرسول ﷺ بالشجاعة والثبات ، حيث وقف في آخر المهزمين ، فإن الآخر هو موقف الأبطال ، والفرار في حقه ﷺ محال .

«فأثابكم» أي : فجازاكم على ذلك الفرار ، «غمًّا» ؛ وهو ظهور المشركين عليكم وقتل إخوانكم ، بسبب غم أوصلتموه للنبى ﷺ بعصيانه والفرار عنه ، وقدّر ذلك «لكيلا تحزنوا على ما فاتكم» من الغنيمة ، «ولا» على «ما أصابكم» من الجرح والهزيمة ، لأن من استحق العقوبة والأدب لا يحزن على ما فاته ولا على ما أصابه ؛ إذ جريمته تستحق أكثر من ذلك ، يرى ما نزل به بعض ما يستحقه ، فيهون عليه أمر ما نزل به أو ما فاته من الخير .

أو يقول : «فأثابكم غمًّا» متصلاً «بغم» ؛ فالغم الأول : ما فاتهم من الظفر والغنيمة ، والثاني : ما نالهم من القتل والهزيمة ، أو الأول : ما أصابهم من القتل والجراح ، والثاني : ما سمعوا من الإرجاف بقتل النبى ﷺ ، وذلك ليتمرنوا على المحن والشدائد حتى لا يجزعوا من شيء . وبذلك وصفهم كعب بن زهير في لاميته ، حيث قال :

لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ وَلَيْسُوا مَجَازِيْعًا إِذَا نِيلُوا

فإن المتمرن على المصائب المتعود عليها يهون عليه أمرها ، فلا يحزن على ما أصابه ولا ما فاته ، «والله خير بما تعملون» وبما قصدتم ، فيجازيكم على ذلك .

الإشارة : مازال الدعاة إلى الله من أهل التربية النبوية يدعون الناس إلى الله، ويعرفونهم بالطريق إلى الله، يبينون لهم الطريق إلى عين التحقيق، والناس يبعدون عنهم ويفرون منهم، وهم في آخرهم يقولون بلسان الحال أو المقال : يا عباد الله، هلم إلينا نعرفكم بالله، ونذكركم على الله، فلا يلوى إليهم أحد ولا يلتفت إليهم بشر، إلا من سبقت له العناية، وأراد الحق تعالى أن يوصله إلى درجة الولاية، سبحانه من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه، فأثابهم على الفرار غم الحجاب، متصلاً بغم الأسباب، فلا يحزنوا على ما فاتهم من المعرفة، إذ لم يعرفوا قدرها، ولا على ما أصابهم من الغفلة والبطالة، إذ لم يتفطنوا لها، (والله خبير بما تعملون) يا معشر العباد، من التودد أو العناد. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم أنزل على أهل الأمن والطمأنينة بعد الشدة والمحنة، كما أشار إلى ذلك الحق، بقوله:

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

قلت : (نعاساً) : بدل من (أمنة)، أو هو المفعول، و(أمنة) : حال منه، مقدمة، أو مفعول له، أى: أنزل عليكم نعاساً لأجل الأمنة، أو حال من كاف (عليكم)، أى: أنزل عليكم حال كونكم آمنين. والأمنة: مصدر أمن، كالعظمة والغلبة.

يقول الحق جل جلاله : «ثم أنزل عليكم» أيها المؤمنون «من بعد الغم» الذي أصابكم بموت إخوانكم، والإرجاف بقتل نبيكم، الأمن والطمأنينة، حتى أخذكم النعاس وأنتم في الحرب. قال أبو طلحة: (غَشِينَا النَّعَاسَ وَنَحْنُ فِي الْمَصَافِ، حَتَّى كَانَ السَّيْفُ يَسْقُطُ مِنْ يَدِ أَحَدِنَا فَيَأْخُذُهُ، ثُمَّ يَسْقُطُ فَيَأْخُذُهُ). وقال الزبير رضي الله عنه : لقد رأيتني حين اشتدَّ الخوف، ونحن مع النبي ﷺ، أرسل الله - تعالى - علينا النوم، والله إنى لأسمع قول معتب، والنعاس يغشاني، ما أسمع إلا كالحلم: (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا).

ثم إن هذا النعاس إنما «يغشى طائفة منكم» وهم المؤمنون، أو: هذه الأمنة إنما تغشى طائفة منكم، وأما المنافقون فقد «أهمتهم أنفسهم»، أى: أوقعتهم في الهموم والغموم، أو ما يهمهم إلا أنفسهم، يدبرون خلاصها

ونجاتها، فقد طارت قلوبهم من الخوف، فلا يتصور في حقهم النوم، «يظنون بالله غير الحق» أى: غير الظن الحق، لأنهم ظنوا أنه لا ينصر. عليه الصلاة والسلام، وأن أمره مضمحل، أو ظنوا أنه قتل، ظناً كظن الجاهلية، أهل الشرك، «يقولون» أى: بعضهم لبعض: «هل لنا من الأمر من شيء» أى: عزلنا عن تدبر أنفسنا، فلم يبق لنا من الأمر من شيء. قاله ابن أبي، لما بلغه قتل الخزرج.

«قل» لهم يا محمد: «إن الأمر كله لله»؛ ليس بيد غيره شيء من التدبير والاختيار، حال كون المنافقين «يخفون في أنفسهم» من الكفر والنفاق «مالا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا» أى: لو كان تدبيراً أو اختياراً ما خرجنا مع محمد حتى نقتل هاهنا ويقتل رؤسائنا. «قل» لهم يا محمد: أخرجتكم القدرة في سلسلة المقادير، رغماً على أنفسكم، فلو «كنتم في بيوتكم» آمنين «لبرز الذين كتب عليهم القتل»، ووصل أجلهم «إلى مضاجعهم» ومصارعهم، رغماً على أنفسهم، فإن الله قدر الأمور ودبرها في سابق أزله، لا معقب لحكمه، وإنما فعل ذلك، وأخرجكم إلى المعركة «ليبتلى الله ما في صدوركم» أى: يختبر ما فيها من الخير أو الشر، «وليمحص ما في قلوبكم» أى: يكشف ما فيها من النفاق أو الإخلاص، فقد ظهر خبث سريرتكم ومرض قلوبكم بالنفاق الذى تمكن فيه، «والله عليم بذات الصدور» أى: بخفاياها قبل إظهارها. وفيه وعد ووعد وتنبية على أنه غلى عن الابتلاء، وإنما فعل ذلك ليميز المؤمنين ويظهر حال المنافقين. قاله البيضاوى.

الإشارة : ثم أنزل عليكم أيها الواصلون المتمكنون، أو من تعلق بكم من السائرين، من بعد غم المجاهدة وتعب المراقبة أمانة في قلوبكم بالطمأنينة بشهود الله، وراحة في جوارحكم من تعب الخدمة في السير إلى الله، حتى وصلتكم فتمتم في ظل الأمن والأمان، وسكنتم في جوار الكريم المنان.

قال بعض العارفين: (إذا انتقلت المعاملة إلى القلوب استراحت الجوارح)^(١)، وهذه الراحة إنما تحصل للعارفين، أو من تعلق بهم من المريدين، وطائفة من غيرهم؛ وهم المتفكرة الجاهلون، الذين لا شيخ لهم، قد أهمتهم أنفسهم، تارة تصرعهم وتارة يصرعونها، تارة تشرق عليهم أنوار التوجه، فيقوى رجاؤهم في الفتح، وتارة تنقبض عنهم فيظنون بالله غير الحق، ظن الجاهلية، يقولون: هل لنا من الفتح من شيء؟.

قل لهم: (إن الأمر كله لله)؛ يوصل من يشاء ويبعد من يشاء، يخفون في أنفسهم من العيوب والخواطر الرديئة ما لا يبدون لك، فإذا طال عليهم الفتح، وغلب عليهم الفقر، تدموا على ما فاتهم من التمتع بالدنيا، يقولون: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا بالذل والفقر والجوع، قل لهم: ذلك الذى سبق في علم الله، لا محيد لأحد عنه، ليظهر الصادق في الطلب من الكاذب، [كن صادقاً تجد مرشداً]، فلو صدقتم في الطلب لأرشدكم إلى من يوصلكم ويريحكم من التعب. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

(١) سبق بيان معنى العبارة عند إشارة الآية / ٢١٢ من سورة البقرة.

ثم ذكر الحق تعالى علة انهزام من انهزم، فقال:

﴿ إِنَّا الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا
وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٥٥﴾

يقول الحق جل جلاله : «إن الذين تولوا منكم» وانهزموا يوم أحد، «يوم التقى الجمعان» جمع المسلمين وجمع الكفار إنما كان السبب في انهزامهم أن الشيطان «استزلهم»، أي: طلب زللهم فأطاعوه، أي: زين لهم الفرار فأطاعوه، بسبب بعض «ماكسبوا» من الإثم، كمخالفة أمر النبي ﷺ، والحرص على الغنيمة، وذنوب اقترفوها قبل الجهاد، فإن المعاصي تجر بعضها بعضاً، كالطاعة، «ولقد عفا الله عنهم» فيما فعلوا من الفرار؛ لتوبتهم واعتذارهم؛ «إن الله غفور» للذنوب، «حلیم» لا يعاجل بعقوبة المذنب كي يتوب.

الإشارة : إن الذين تولوا منكم يا معشر الفقراء، ورجعوا عن صحبة الشيوخ، حين التقى في قلبهم الخصمان: خصم يرغبهم في الثبوت، وخصم يدلهم على الرجوع، ثم غلب خصم الرجوع فرجعوا، إنما استزلهم الشيطان بسوء أدبهم، فإن تابوا ورجعوا، أقبلوا عليهم، وقبل الله توبتهم، وعفا عنهم، فإنه سبحانه غفور حلیم.

ثم حذر من التشبه بالمنافقين في ضعف اليقين، وما ينشأ عنه من مقالة الجاهلين، فقال:

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا
غُرًى لَّوْكَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١٥٦﴾

قلت : (غُرًى): جمع غازٍ، كعافٍ وعفى، وإنما وضع (إذا) موضع (إذ)؛ لحكاية الحال.
يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا» ونافقوا، كعبد الله بن أبي، وأصحابه، «وقالوا لإخوانهم» في النسب، أو في المذهب، أي: قالوا لأجلهم أو في شأنهم، «إذا ضربوا في الأرض» أي: سافروا للتجارة أو غيرها فماتوا، «أو كانوا غُرًى» أي: غازين فقتلوا في الغزو: «لو كانوا عندنا» مقيمين «ما ماتوا وما قتلوا»، وإنما نطقوا بذلك «ليجعل الله ذلك» القول الناشئ عن الاعتقاد الفاسد «حسرة في قلوبهم» بالاغتمام على ما فات، والتحسر على ما لم يأت، «والله» هو «يحيى ويميت» بلا سبب في الإقامة والسفر، فليس يمنع حذر من قدر، «والله بما تعملون» أيها المؤمنون «بصير»، ففيه تهديد لهم على أن يماثلوا المنافقين في هذا الاعتقاد الفاسد، ومن قرأ بالياء فهو تهديد لهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة : لا ينبغي للأقوياء من أهل اليقين أن يتشبهوا بضعفاء اليقين، كانوا علماء أو صالحين أو طالحين، حيث يقولون لإخوانهم إذا سافروا لأرض مخوفة أو بلد الوباء: لو جلسوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، وما دروا أن الله قدر الآجال كما قدر الأرزاق وجميع الشئون والأحوال، وعين لها أوقاتا محدودة في أزله، فكل مقدور يبرز في وقته، وما من نفس تبديه، إلا وله قدر فيك يعضيه، فما قدره في سابق علمه لا بد أن يكون، وما لم يقدره لا يكون، ولا تجلبه حركة ولا سكن. والله در القائل:

مَا لَا يَقْدَرُ لَا يَكُونُ بِحِيلَةٍ	أَبَدًا وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ
سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي وَقْتِهِ	وَأَخُو الْجَهَالَةِ مُنْعَبٌ مَحْزُونٌ
يَجْزِي الْحَرِيصُ وَلَا يَنَالُ بِحَرْصِهِ	شَيْئًا وَيَحْظَى عَاجِزٌ وَمَهِينٌ
فَدَعَ الْهَمُّومُ، تَعَرَّ مِنْ أَثْوَابِهَا،	إِنْ كَانَ عِنْدَكَ بِالْقَضَاءِ يَقِينٌ
هَوْنٌ عَلَيْكَ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقًا	فَأَخُو الْحَقِيقَةِ شَأْنُهُ التَّهْوِينُ

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يتمثل بهذه الأبيات:

فَهَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْأُمُورَ	بَكْفٍ الْإِلَهَ مَقَادِيرُهَا
فَلَيْسَ بِأَتَيْكَ مَصْرُوفُهَا	وَلَا عَازِبٌ عَنْكَ مَقْدُورُهَا

وكل من لم يحقق الإيمان بالقدر لا ينفك عن الحسرة والكدر، ومن أراد النعيم المقيم فليتلج صدره ببرد الرضا والتسليم، ومن أراد الروح والريحان فعليه بجنات العرفان، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم رغب الحق تعالى في الموت في الجهاد، ورجح الموت مطلقا على الحياة، فقال:

﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتِمَّتُمْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

قلت : إذا اجتمع القسم والشرط ذكر جواب الأول وأغنى عن الثاني، فقله: (لمغفرة): جواب القسم، أغنى عن جواب (إن)، والتقدير: إن قتلتم في سبيل الله غفر الله لكم، ثم سد عنه (لمغفرة.. إلخ، ومن قرأ: (مِتْم) بكسر الميم، فهو من: مات يمات، كهاب يهاب هبت، وخاف يخاف خفت، ومن قرأ بالضم: فمن مات يموت، كقال يقول قلت.

يقول الحق جل جلاله : إن السفر والغزو ليس هما مما يجلب الموت أو يقدم الأجل، وعلى تقدير: لو وقع ذلك وحضر أجلكم فيه وقتلتم «فى سبيل الله» بالسيف، «أو متم» حثف أنفكم، لما تنالون من المغفرة والرحمة والروح والريحان «خير مما تجمعون» من حطام الدنيا الفانية لو لم تموتوا، وعلى أى وجه متم أو قتلتم فلا تحشرون إلا إلى الله، لا إلى أحد غيره، فيوفى جزاءكم ويعظم ثوابكم، وأما البقاء فى الدنيا فلا مطمع لأحد فيه، سافر أو قعد فى بيته، وقدم أولاً القتل على الموت وأخره ثانياً؛ لأن الأول رتب عليه المغفرة والرحمة، وهما فى حق من قتل فى الجهاد أعظم ممن مات بغيره، فقدمه؛ اعتناء به، وفى الثانى رتب عليه الحشر، وهو مستور فى القتل والموت، فلا مزية فيه للقتل على الموت. والله أعلم.

الإشارة: ولئن قتلتم نفوسكم وبذلتم مهجكم فى طلب محبوبيكم، فظفرتم بالوصول إليه قبل موتكم، أو متم فى السير قبل الوصول إلى محبوبيكم، لما تنالون من كمال اليقين وشهود رب العالمين، أو من المغفرة والرحمة التى تضمكم إلى جواره، خير مما كنتم تجمعون من الدنيا قبل توجهكم إليه، فإن الموت والحشر مكتوب على كل مخلوق، فيظهر فوز المجاهدين والمتوجهين، وغبن القاعدين المتسوفين. وبالله التوفيق.

ولما وقع ما وقع يوم أحد من مخالفة الرسول والفرار عنه - عليه الصلاة والسلام - لم يعاتب ﷺ أحداً، ولكن ألان لهم الكلام وعفا عنهم، كما أخبر عن ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَظًا غَلِيظًا أَلْقَيْنَا الْقُلُوبَ لَانْفِصُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

قلت: (فبما): صلة. والفظ: الجافى، يقال: فظ فظاظه وفظوظاً، ورجل فظ، وامرأة فظة، والفض - بغير المشالة: التفرق، ويطلق على الكسر، ومنه: لا يفضض الله فاك.

يقول الحق جل جلاله : فبرحمة من الله ونعمة كنت سهلاً ليلاً رفيقاً، فحين عصوا أمرك، وفروا عنك، ألنت لهم جانبك، ورفقت بهم، بل اغتممت من أجلهم مما أصابهم، «ولو كنت فظاً» جافياً سيئ الخلق «غليظ القلب» قاسية فأغلظت لهم القول، «لأنفصوا من حولك» أى: لتفرقوا عنك، ولم يسكنوا إليك، «فاعف عنهم» فيما يختص بك، «واستغفر لهم» فى حق ربك حتى يشفعك فيهم، «وشاورهم فى الأمر» الذى يصح أن يشاور فيه؛ تطيباً لخاطرهم، ورفعاً لأقذارهم، واستخراجاً وتمهيداً لسنة المشاورة لغيرهم، وخصوصاً الأمراء.

قال عليه الصلاة والسلام: «ما شقى عبد بمشورة، وما سعد باستغناء برأى». وقال أيضاً: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار». وقال أيضاً - عليه الصلاة والسلام - «إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياءكم أسخياءكم، وأمركم شورى بينكم، فظهرت الأرض خيراً لكم من بطنها. وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياءكم بخلاءكم، ولم تكن أموركم شورى بينكم، فبطن الأرض خيراً من ظهرها».

«فإذا عزمتم على شيء بعد الشورى، (فتوكل على الله) أى: ثق به وكيلا، (إن الله يحب المتوكلين) فينصرهم ويهديهم إلى ما فيه صلاحهم.

الإشارة: ما اتصف به نبينا - عليه الصلاة والسلام - من السهولة والليونة والرفق بالامة، اتصفت به ورثته من الأولياء العارفين، والعلماء الراسخين، ليتهاياً لهم الدعوة إلى الله، أو إلى أحكام الله، ولو كانوا فظاظا غلاظا لانفض الناس من حولهم، ولم يتهاياً لهم تعريف ولا تعليم، فينبغي لهم أن يعفوا ويصفحوا ويغفروا ويصبروا على جفوة الناس، ويستغفروا لهم، ويشاوروهم في أمورهم، اقتداء برسولهم، فإذا عزموا على إمضاء شيء فليتوكلوا على الله؛ ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾.

قال الجنيد - رحمه الله -: (التوكل أن تقبل بالكلية على ربك وتعرض عمن دونه). وقال الثوري: أن تفنى تدبيرك في تدبيره، وترضى بالله وكيلاً ومدبراً، قال الله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾. وقال ذو النون: (خلع الأرباب، وقطع الأسباب). وقال الخواص: قطع الخوف والرجاء مما سوى الله تعالى. وقال العرجي: رد العيش إلى يوم واحد، وإسقاط هم غد. هـ. وقال سهل: معرفة معطى أرزاق المخلوقين، ولا يصح لأحد التوكل حتى تكون عنده السماء كالصفر^(١) والأرض كالحديد، لا ينزل من السماء قطر، ولا يخرج من الأرض نبات، ويعلم أن الله لا ينسى له ما ضمن من رزقه بين هذين. هـ. وقيل: هو اكتفاء العبد الذليل بالرب الجليل، كاكْتفاء الخليل بالخليل، حين لم ينظر إلى عناية جبريل. وقيل لبهلول المجنون: متى يكون العبد متوكلاً؟ قال: إذا كان بالنفس غريباً بين الخلق، وبالقلب قريباً إلى الحق.

وقال النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ».

قال ابن جزى: التوكل هو الاعتماد على الله في تحصيل المنافع وحفظها بعد حصولها، وفي دفع المضرات ورفعها بعد وقوعها، وهو من أعلى المقامات، لوجهين: أحدهما: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾، والآخر:

(١) الصفر: اللحاس.

الضمان الذي في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، وقد يكون واجبا لقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فجعله شرطا في الإيمان، ولظاهر قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ فإن الأمر محمول على الوجوب.

واعلم أن الناس في التوكل على ثلاث مراتب:

الأولى: أن يعتمد العبد على ربه، كاعتماد الإنسان على وكيله المأمون عنده، الذي لا يشك في نصيحته له وقيامه بمصالحه. الثانية: أن يكون العبد مع ربه كالطفل مع أمه؛ لا يعرف سواها ولا يلجأ إلا إليها. الثالثة: أن يكون العبد مع ربه كالميت بين يدي الغاسل، قد أسلم إليه نفسه بالكلية.

فصاحب الدرجة الأولى عنده حظ من النظر لنفسه، بخلاف صاحب الثانية. وصاحب الثانية له حظ من الاختيار، بخلاف صاحب الثالثة. وهذه الدرجات مبنية على التوحيد الخاص، الذي تكلمت عليه في قوله: ﴿وَالْهَكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾، فهي تقوى بقوته وتضعف بضعفه.

فإن قيل: هل يشترط في التوكل ترك الأسباب أم لا؟ فالجواب: أن الأسباب على ثلاثة أقسام:

أحدها: سبب معلوم قطعاً قد أجراه الله، فهذا لا يجوز تركه؛ كالأكل لرفع الجوع واللباس لرفع البرد.

الثاني: سبب مظنون؛ كالتجارة وطلب المعاش، وشبه ذلك، فهذا لا يقدر فعله في التوكل، فإن التوكل من أعمال القلوب لا من أعمال البدن، ويجوز تركه لمن قوى عليه.

والثالث: سبب موهوم بعيد، فهذا يقدر فعله في التوكل، قلت: ولعل هذا مثل طلب الكيمياء والكنوز وعلم النار والسحر، وشبه ذلك.

ثم فوق التوكل التفويض، وهو: الاستسلام لأمر الله تعالى بالكلية، فإن المتوكل له مراد واختيار، وهو يطلب مراده في الاعتماد على ربه، وأما المفوض فليس له مراد ولا اختيار، بل أسند الاختيار إلى الله تعالى، فهو أكمل أدباً مع الله. هـ وأصله للغزالي، وسيأتى بقية الكلام عند قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾. وبالله التوفيق.

ولما أمر نبيه - عليه الصلاة والسلام - بالتوكل، رغب فيه جميع عباده، فقال:

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُ لَكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٦)

يقول الحق جل جلاله: (إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ) كما نصركم يوم بدر، (فَلَا غَالِبَ لَكُمْ) من أحد من الناس، (وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ) كما خذلكم يوم أحد، (فَمَنْ) هذا (الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ) تعالى، أى: فلا ناصر سواه. وهذا تنبيه على الحث على التوكل، وتحريض على ما يستوجب به النصر، وهو الاعتماد على الله، وتحذير مما يستوجب الخذلان، وهو مخالفة أمره وعصيان رسوله، أو الاعتماد على غيره، ولذلك قال: (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)؛ لِمَا علموا ألا ناصر سواه.

الإشارة: إن ينصركم الله على مجاهدة النفوس، ودوام السير إلى حضرة القدوس، فلا غالب لكم من النفس، ولا من الداس ولا من الهوى ولا من الشيطان، وإن يخذلكم - والعياذ بالله - فمن ذا الذى ينصركم من بعد خذلانه لكم؟ فليعتمد المريد فى سيره على مولاه، وليستنصر به فى قطع حظوظه وهواه، فإنه لا ناصر له سواه. وأنشدوا:

إِذَا كَانَ عَوْنُ اللَّهِ لِلْمَرْءِ نَاصِرًا تَهَيَّأْ لَهُ مِنْ كُلِّ صَعْبٍ مُرَادُهُ
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ لُفْتِي فَأَكْثَرُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ولمّا تبادرت الرماة إلى الغنيمة كما تقدم، وقع فى وهمهم أنه - عليه الصلاة والسلام - يحرمهم من الغنيمة، وذلك غلول لا يليق بحاله - عليه الصلاة والسلام -، فلهذا الله نبيه عن ذلك، فقال:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦١)

قلت: الغلول: السرقة من الغنائم، فمن قرأ بفتح الياء وضم الغين، فمعناه: لا ينبغي له أن يأخذ شيئاً من الغنيمة خفية، والمراد: تبرئة رسوله - عليه الصلاة والسلام - من ذلك. ومن قرأ بضم الياء ففيه وجهان: أحدهما: أن يكون المعنى، ما كان للنبي أن يخان، أى: أن تخونه أمتة فى المغانم، وكذلك الأمراء، وإنما خص النبي ﷺ بذلك؛ لبشاعة ذلك مع النبي؛ لأن المعاصى تعظم بحضرته، والثانى: أن يكون المعنى: ما كان للنبي أن ينسب إلى الخيانة؛ كقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ أى: لا ينسبونك إلى الكذب.

يقول الحق جل جلاله: «مَا كَانَ» ينبغى «لنبي أن يغل» ويأخذ شيئاً من الغنيمة خفية؛ لأن ذلك خيانة والنبوة تنافى ذلك، والمراد: نزاهة الرسول - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك، كقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ

من ولده ﴿١﴾ ، ودفع ما توهمه الرماة، فقد روى أنه - عليه الصلاة والسلام - قال لهم لما تركوا المركز: «ألم أعهد إليكم ألا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى؟» قالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً، فقال النبي ﷺ: «بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم». فنزلت الآية. وقيل إنه - عليه الصلاة والسلام -: بعث طلائع، فغنم رسول الله ﷺ، وقسم على من معه فقط، فنزلت، فاسترجع ذلك منهم. وقيل: في قطيفة حمراء فُقدت يوم بدر، فقال المنافقون: لعل رسول الله ﷺ أخذها، فنزلت.

ثم ذكر وعيد الغلول، فقال: «ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة» أي: يأتي بالذي غله يحمله على رقبته، قال عليه الصلاة والسلام: «لا ألقى أحدكم يوم القيامة يجي على رقبته بغير له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر^(١)». ثم قال: «اللهم هل بلغت؟ ثلاثاً». كما في البخارى.

«ثم توفى كل نفس» جزاء «ما كسبت» تاماً، «وهم لا يظلمون» بنقص ثواب مطيعهم، ولا يزداد على عقاب عاصيهم وكان اللائق بما قبله أن يقول: ثم يوفى ما كسب. لكنه عمم الحكم؛ ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه، وأنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله، فالغال مع عظم جرمه بذلك أولى. قاله البيضاوى.

الإشارة: ما قيل في النبي - عليه الصلاة والسلام - يقال في ورثته الكرام، كالأولياء والعلماء الأتقياء، فإنهم ورثة الأنبياء، فيُظن بهم أحسن المذاهب، ويلتمس لهم أحسن المخارج، لأن الأولياء دلوا على معرفة الله، والعلماء دلوا على أحكام الله، وبذلك جاءت الرسل من عند الله، فلا يظن بهم نقص ولا خلل، ولا غلول ولا دخل، فلم يقط ونصيب من حرمة الأنبياء، ولا سيما خواص الأولياء، ومن يظن بهم نقصاً أو خللاً، ويغل قلبه على شيء من ذلك، فسيرى وباله يوم تفضح السرائر، ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾، قلحوم الأولياء والعلماء مسموم قاتلة، وظن السوء بهم خيانة حاصلة. والله تعالى أعلم.

فاعتقاد الكمال في الأنبياء والأولياء مستوجب لرضى الله، والانتقاد عليهم موجب لمقت الله، كما أشار إلى ذلك الحق - جلّت قدرته - فقال:

﴿أَفَمِنْ أَتْبَعِ رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيُسَلِّمُ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٦٢﴾ هُم

دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾

(١) تيعر: تصيح، واليعار: صوت الشاة.

يقول الحق جل جلاله: (أفمن اتبع رضوان الله) بأن اعتقد في نبيه الكمال، وأطاعه في وصف الجلال والجمال، وهم المؤمنون، حيث نزهوا نبيهم من النقائص، ومن هجس في قلبه شيء بادر إلى التوبة، ثم اتصف بكمال الخصائص، هل يكون «كمن بآء» بغضب «من الله»؟ وهم المنافقون، حيث نافقوا الرسول واتهموه - عليه الصلاة والسلام - بالغلول.

أو يقول: «أفمن اتبع رضوان الله» بالطاعة والانقياد «كمن بآء بسخط من الله» بالمعاصي وسوء الاعتقاد «ومأواه جهنم وبئس المصير» أي المنقلب، والفرق بين المصير والمرجع: أن المصير يجب أن يخالف الحالة الأولى، ولا كذلك المرجع . قاله البيضاوي.

«هم درجات عند الله» أي: أهل الرضوان درجات متفاوتة عند الله، على قدر سعيهم في موجب الرضا، وأهل السخط درجات أيضا، على قدر تفاوتهم في العصيان، وهو على حذف مضاف، أي: ذوو درجات، «والله بصير بما يعملون» فيجازى كلا على قدر سعيه.

الإشارة: (أفمن اتبع رضوان الله) بتعظيم الأولياء والعلماء وأهل النسبة، كمن بآء بسخط من الله بإهانة من أمر الله أن يعظم ويرفع، ومأواه حجاب الحس وعذاب البعد، «وبئس المصير»، فأهل القرب درجات على قدر تقربهم إلى ربهم، وأهل البعد درجات في البعد على قدر بعدهم من ربهم، بشؤم ذنبهم وسوء أدبهم، والله بصير بأعمالهم وما احتوت عليه قلوبهم.

ثم ذكر موجب التعظيم للرسول - عليه الصلاة والسلام - وهو كونه نعمة مهداة، فقال:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَزُكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: «لقد من الله على المؤمنين» حيث «بعث فيهم رسولا من أنفسهم» أي: من جنسهم، أو من نسبهم، عربيا مثلهم؛ ليفهموا كلامه بسهولة، ويفتخروا به على غيرهم. وتخصيص المؤمنين بالمنة، وإن كانت نعمته عامة؛ لزيادة انتفاعهم على غيرهم؛ لشرفهم وذكرهم به، حال كونه «يتلوا عليهم آياته»؛ القرآن، بعد أن كانوا جاهلية لا يعرفون الوحي ولا سمعوا به، «وزكّاهم» أي: يطهرهم من دنس الذنوب ودرن العيوب، «ويعلمهم الكتاب» أي: القرآن، «والحكمة» أي: السنة، «وإن كانوا» أي: وإنه، أي: الأمر والشأن كانوا «من قبل» بعثته «لفي ضلال مبين» أي: ظاهر بين.

الإشارة: لقد من الله على المتوجهين إليه الطالبين لمعرفة، حيث بعث لهم من يأخذ بأيديهم، ويطوى مسافة البعد عنهم، وهم شيوخ التربية، يتلون عليهم آياته الدالة على كشف الحجاب وفتح الباب، ويزكيهم من دنس العيوب المانعة لعلم الغيوب، ثم يزكيهم من درن الحس إلى مشاهدة القرب والأنس، ويعلمهم الكتاب المشتمل على عين التحقيق، والحكمة المشتملة على التشريع وبيان الطريق، فيجمعون لهم ما بين الحقيقة والشرعة، وقد كانوا قبل ذلك في ضلال مبين عن الجمع بينهما. وهذه المنة عامة في كل زمان، إذ لا تخلو الأرض من داع يدعو إلى الله، ومن اعتقد قطعه فقد قطع منة الله، واستعجز قدرة الله، وسد باب الرحمة في وجه عباد الله، والعياذ بالله.

ولما استغرب الصحابة - رضى الله عنهم - ما وقع بهم يوم أحد، مع كونهم وعدوا النصر، نبههم الحق تعالى أن ذلك منهم بشؤم مخالفتهم، فقال:

﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٦٥)

قلت: الهمزة - للتفريع، و(لَمَّا): ظرف، خافضة لشرطها، منصوبة بجوابها، وهي معطوفة على محذوف، أى: أكان ما كان يوم أحد، ولمَّا أصابكم مصيبة، قلتم ما قلتم، و(قَدْ أَصَبْتُمْ): جملة حالية.

يقول الحق جل جلاله: أحين «أصابتكم مصيبة» يوم أحد بقتل سبعين منكم، و«قد أصبتم مثليها» يوم بدر فقتلتم سبعين وأسرتهم سبعين، «قلتم أنى هذا» أى: من أين أصابنا هذا البلاء وقد وعدنا النصر؟ «قل» لهم: «هو من عند أنفسكم» أى: مما اقترفته أنفسكم من مخالفة المركز، والنصر الموعود كان مشروطاً بالثبات والطاعة، فلما اختل الشرط اختل المشروط، «إن الله على كل شيء قدير»؛ فيقدر على النصر بشرط وبغيره، لكن حكمته اقتضت وجود الأسباب والشروط؛ لأن هذا العالم قائم بين قدرة وحكمة.

أو: (قل هو من عند أنفسكم) باختياركم الفداء يوم بدر. روى عن علي رضي الله عنه قال: (جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر فقال: خير أصحابك في الأسارى، إن شاءوا القتل، وإن شاءوا الفداء، على أن يقتل منهم عاماً مقبلاً مثلهم، قالوا: الفداء ويقتل منا). والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا أصاب المرید شيء من المصائب والبلايا، فلا يستغرب وقوع ذلك به، ولا يتبرم منه، فإنه في دار المصائب والفجائع، «لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت في هذه الدار، فإنما أبرزت ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها». وإذا كان أصابته مصيبة في وقت، فقد أصابته نعم جمة في أوقات عديدة، فليشكر الله على ما أولاه، وليصبر على ما ابتلاه، ليكون صباراً شكوراً.

قال الشيخ أبو الحسن - رحمته - : (العارف هو الذي عرف إسماعته في إحسان الله إليه، وعرف شدائد الزمان في الألفاظ الجارية من الله عليه، فاذكروا آلاء الله لعلمكم تفلحون) . وأيضا: كل ما يصيب المؤمن فمن كسب يده، ويعفو عن كثير.

وإن كان المرید وعد بالحفظ والنصر، فقد يكون ذلك بشروط خفيت عليه، فلم تتحقق فيه، فيخالف حفظه لينفذ قدر الله فيه، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ .

وليتميز الصادق من الكاذب والمخلص من المنافق، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُوبًا فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

قلت: (وقيل لهم تعالوا): استئناف، أو معطوف على (نافقوا)، و(الذين قالوا لإخوانهم): بدل من الضمير المجرور في (لهم)، أى: وقيل للمنافقين: قاتلوا أو ادفعوا، ثم فسرهم بقوله: وهم (الذين قالوا لإخوانهم...) إلخ. أو من الواو في (يكتمون)، أو منصوب على الذم، أو مبتدأ، والخبر: (قل..). على من يجيز إنشاء الخبر، و(قعدوا): جملة حالية، على إضمار قد.

يقول الحق جل جلاله: «وما أصابكم» يا معشر المسلمين يوم أحد «يوم التقى» جمع المسلمين وجمع الكفار، من القتل والجرح والهزيمة، «فيا ذين الله» وقضائه، لا راد لإمضائه، «وليعلم» علم ظهور في عالم الشهادة «المؤمنين» والمنافقين؛ فيظهر إيمان هؤلاء وكفر هؤلاء، وقد ظهر نفاقهم حيث رجعوا مع عبدالله بن أبي، وكانوا ثلاثمائة.

وذلك أن ابن أبي كان رأيه ألا يخرج المسلمون إلى المشركين، فلما طلب الخروج قوم من المسلمين، فخرج - عليه الصلاة والسلام - كما تقدم، غضب ابن أبي، وقال: أطاعهم وعصاني. فرجع، ورجع معه أصحابه، فتبعهم

أبو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام، وقال لهم: ارجعوا (قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا)، أي: كثروا سواد المسلمين، فقال ابن أبي - رأس المنافقين - : ما أرى أن يكون قتالا، ولو علمنا أن يكون قتال (لا تبعناكم)، وكنا معكم.

قال تعالى: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾؛ لظهور الكفر عليهم من كلامهم، فأمارات الكفر عليهم أكثر من أمارات الإيمان، أو: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان، لأن رجوعهم ومقاتلتهم تقوية للكفار عليهم وتخاذيل للمسلمين، «يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم»، فهم يظهرون خلاف ما يبطنون، لا تواطئ قلوبهم ألسنتهم بالإيمان، وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتغليظ، «والله أعلم» منكم «بما تكتُمون» من النفاق؛ لأنه يعلمه مفصلاً بعلم واجب، وأنتم تعلمونه مجملًا بأمارات.

وهؤلاء المنافقون هم (الذين قالوا) في شأن إخوانهم الذين قُتلوا يوم أحد: «لو أطاعونا» وجلسوا في ديارهم «ما قُتلوا»، قالوا هذه المقالة وقد قعدوا عن الخروج، «قل» لهم يا محمد: «فادفعوا» أي: فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين، أنكم تقدرون أن تدفعوا القتل عنكم كتب عليه، فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه حين يبلغ أجلكم، فإنه أخرى بكم، فالفعود لا يتجى من الموت إذا وصل الأجل، فإن أسباب الموت كثيرة، فقد يكون الفعود سببا للموت إن بلغ الأجل، وقد يكون الخروج سببا للنجاة إن لم يبلغ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وما أصابكم يا معشر الفقراء عند توجهكم إلى الحق فارين من الخلق، حين استشرقتم على الجمع وجمع الجمع فبإذن الله؛ فإن الداخل على الله منكور، والراجع إلى الناس مبرور، وليظهر الصادق من الكاذب، فإن محبة الله مقرونة بالبلاء، والطريق الموصلة إليها محفوفة بالمكاره، مشروطة بقتل النفوس وحط الرؤوس، ودفع العلائق، والفرار من العوائق.

فإذا قيل للعوام: قاتلوا أنفسكم في سبيل الله لتدخلوا حضرة الله، أو ادفعوا عن أنفسكم العلائق لتشرق عليكم أنوار الحقائق، قالوا: قد انقطع هذا الطريق واندرست أرياب علم التحقيق، ولو نعلم قتالا بقي بوصلنا إلى ربنا، كما زعمتم؛ لا تبعناكم ودخلنا في طريقكم. هم للكفر يومئذ أقرب للإيمان، حيث تحكموا على القدرة الأزلية، وسدوا باب الرحمة الإلهية، وإنما يقولون ذلك احتجاجاً لنفوسهم، وإبقاء على حظوظهم، وليس ذلك من خالص قلوبهم، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

وإذا نزل بأهل النسبة نكبة أو بلية، قالوا لإخوانهم، الذين دخلوا في طريق القوم، وقد قعدوا هم مع العوام: لو أطاعونا ولم يدخلوا في هذا الشأن، ما قُتلوا أو عذبوا، فقل لهم أيها الفقير: القضاء والقدر يجري على الجميع، فادفعوا عن أنفسكم ما تكرهون، إن كنتم صادقين أن المكاره لا تصيب إلا من توجه لقتال نفسه. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ولما قُتل الشهداء يوم أحد أكرم الله أرواحهم بما يكل عنه اللسان، فقالوا: يا ليت قومنا يعلمون بما نحن فيه، كي يرغبوا في الجهاد، فقال لهم الله تعالى: أنا أخبرهم عنكم، فأنزل الله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

قلت: (الآخوف عليهم): بدل من (الذين لم يلحقوا)، أو مفعول لأجله، وكرر: (يستبشرون)؛ ليذكر ما تعلق به من الفضل والنعمة، أو: الأول بحال إخوانهم، وهذا بحال أنفسهم.

يقول الحق جل جلاله: «ولا تحسبن» أيها الرسول، أو أيها السامع، «الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل» هم «أحياء»، لأن الله تعالى جعل أرواحهم في حواصل طير خضر، يسرحون في الجنة حيث شاءوا عند ربهم، بالكرامة والزلقى، يرزقون من ثمار الجنة ونعيمها، فحالهم حال الأحياء في التمتع بأرزاق الجنة، بخلاف مائر الأموات من المؤمنين؛ فإنهم لا يتمتعون بالأرزاق حتى يدخلوا الجنة. قاله ابن جزى.

قلت: شهداء الملكوت - وهم العارفون - أعظم قدراً من شهداء السيوف، وراجع ما تقدم في سورة البقرة^(١).

«فرحين بما آتاهم الله من فضله» من الكرامة والزلقى والنعيم الذي لا يفنى، «ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم» أي: بإخوانهم الذي لم يقتلوا فيلحقوا بهم من بعدهم. وتلك البشارة هي: «ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، أو من أجل «ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

والحاصل: أنهم يستبشرون بما تبين لهم من الكرامة في الآخرة، وبحال من تركوا من خلفهم من المؤمنين، وهو أنهم إذا ماتوا أو قتلوا، كانوا أحياء، حياة لا يدركها خوف وقوع محذور، ولا حزن فوات محبوب. فالآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس، بل هو جوهر مدرك بذاته، لا يفنى بخراب البدن، ولا يتوقف على وجود البدن إدراكه وتألمه والتذاده. ويؤيد ذلك قوله تعالى في آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، وما روى ابن عباس من أنه ﷺ قال: «أرواح الشهداء في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل معلقة في ظل العرش» - قال معناه البيضاوى.

(١) عند إشارة الآية: ١٥٤ وما بعدها.

ولما ذكر استبشارهم بإخوانهم ذكر استبشارهم بما يخصهم فقال: «يستبشرون بنعمة من الله»؛ وهو ثواب أعمالهم الجسماني، «وفضل» وهو نعيم أرواحهم الروحاني، وهو النظر إلى وجهه الكريم، ويستبشرون أيضاً بكونه تعالى «لا يضيع أجر المؤمنين»، ماتوا في الجهاد أو على فرشهم، حيث حسنت سريرتهم وكرمت علانيتهم، قال ﷺ: «إن الله عباداً يصرفهم عن القتل والزلازل والأسقام، يطيل أعمارهم في حسن العمل، ويحسن أرزاقهم، ويحييهم في عافية، ويميتهم في عافية على الفرش، ويعطيهم منازل الشهداء»^(١). قلت: ولعلمهم العارفين بالله، جعلنا الله من خواصهم، وسلك بنا مسالكهم. آمين.

الإشارة: لا تحسبن الذين بذلوا مهجهم، وقتلوا أنفسهم بخرق عوائدها، وعكس مراداتها، في طلب معرفة الله، حتى ماتت نفوسهم، وحييت أرواحهم بشهود محبوبهم، حياة لا موت بعدها، فلا تظن أيها السامع أنهم أموات، ولو ماتوا حساً، بل هم أحياء على الدوام، وفي ذلك يقول الشاعر:

مَوْتُ التَّقِيِّ حَيَاةٌ لَا فَنَاءَ لَهَا قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ

فهم عند ربهم يشاهدونه مدة بقائهم، يرزقون من ثمار المعارف وفواكه العلوم، فرحين بما أتحفهم الله به من القرب والسر المكتوم، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم في المرتبة ممن تعلق بهم، وأنهم سيصلون إلى ما وصلوا إليه من معرفة الحي القيوم، فلا يلحقهم حيللذ خوف ولا حزن ولا هم ولا غم، لما سكن في قلوبهم من خمرة محبة الحبيب، والقرب من القريب المجيب، وفي ذلك يقول ابن الفارض:

وإنْ خَطَرَتْ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِ امْرِئٍ أَقَامَتْ بِهِ الْأَفْرَاحُ، وَارْتَحَلَ الْهَمُّ

يستبشرون بنعمة أدب العبودية، وفصل شهود أسرار عظمة الربوبية، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين المحبين لطريق المخصوصين، فإن طريق محبة طريق القوم عناية، والتصديق بها ولاية، وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما رجع أبو سفيان من غزوة أحد، هو وأصحابه، حتى بلغوا الروحاء، ندم وهم بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب أصحابه للخروج في طلبه، وقال: «لا يخرج معنا إلا من حضر بالأمس»، فخرج ﷺ في سبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد. وهي على ثمانية أميال من المدينة. وكان بأصحابه القرح، فتحاملوا على أنفسهم كي لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين، فذهبوا، فأنزل الله - تعالى - في شأن من خرج مع الرسول ﷺ:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

(١) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٣ للطبراني عن ابن مسعود مرفوعاً. وفيه: جعفر بن محمود الواسطي الوراق، قال الهيثمي: لم أعرفه وبقيته رجاله ثقات.

قلت : (الذين) : مبتدأ، وجملة (للذين أحسنوا) : خبر، أو صفة للمؤمنين قبله، أو نصب على المدح.

يقول الحق جل جلاله: «الذين استجابوا لله والرسول» فأتبعوه فيما نديهم إليه من الحقوق بالمشركين، إرهاباً لهم، «من بعد ما أصابهم القرع» أى: الجرح، فتحاملوا على أنفسهم حتى ذهبوا مع نبيهم، «للذين أحسنوا منهم» بأن فعلوا ما أمروا به، «واتقوا» الله فى مخالفة أمر رسوله، «أجر عظيم» يوم يقدمون عليه.

الإشارة: الذين استجابوا لله فيما نديهم من الوصول إلى حضرته، وللرسول فيما طلبهم به من اتباع سنته، فجعلوا قلوبهم محلاً لحضرته، وجوارحهم متبعة لشريعته، من بعد ما أصابهم فى طلب الوصول إلى ذلك قرع وضرب وسجن وإهانة، فصبروا حتى ظفروا بالجمع بين الحقيقة والشريعة، للذين أحسنوا منهم بالثبات على السير إلى الوصول إلى الحق، واتقوا كل ما يردهم إلى شهود الطرق، أجر عظيم وخير جسيم، بالعكوف فى الحضرة، والتتعم بالشهود والنظرة.

ثم قال الحق تعالى:

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا رِإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

قلت : الموصول بدل من الموصول قبله، و(يخوف) : يتعدى إلى مفعولين؛ للتضعيف، حذف الأول، أى: يخوفكم أوليائه من الكفار، أو حذف الثانى، أى: يخوف أوليائه القاعدين عن الخروج إلى ملاقات العدو.

وهنا تفسيران: أحدهما: أن يكون من قسمة غزوة أحد، وهو الظاهر، ليتصل الكلام بما بعده، وذلك أن أبا سفيان لما هم بالرجعة ليستأصل المسلمين، لقيه معبد الخزاعي، فقال له: إن محمداً خرج يطلبك فى جمع لم أر مثله، فدخله الرعب، فلقية ركب من عبد القيس يريد المدينة بالميرة، فقال لهم: ثبطوا محمداً عن لحوقنا، ولكم حمل بعير من الزبيب، فلما لقوا المسلمين خوفوهم، فقالوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، ومضوا حتى بلغوا حمراء الأسد ثم رجعوا، فعلى هذا:

يقول الحق جل جلاله: «الذين قال لهم الناس» وهم ركب عبد قيس حيث قالوا للمسلمين: «إن الناس» يعنى أبا سفيان ومن معه، «قد جمعوا لكم» ليرجعوا ليستأصلوكم «فاخشوهم» وارجعوا إلى دياركم

«فزادهم» ذلك «إيماناً» ويقيناً وتثبيتاً في الدين، وهذا يدل على أن الإيمان يزيد وينقص، فيزيد بحسب التوجه إلى الله والتفرغ مما سواه، وينقص بحسب التوجه إلى الدنيا وشغوبها، ويزيد أيضاً بالطاعة والنظر والاعتبار، وينقص بالمعصية والغفلة والاغترار.

ولما قال لهم الركب ذلك؛ ليخوفهم، «قالوا حسبنا الله» أى: كافينا الله وحده، فلا نخاف غيره، «ونعم الوكيل» أى: نعم من يتوكل عليه العبد، وهى كلمة يدفع بها ما يخاف ويكره، وهى الكلمة التى قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، «فانقلبوا» راجعين من حمراء الأسد، متلبسين «بنعمة من الله» وهى العافية والسلامة، «وفضل» وهى زيادة الإيمان وشدة الإيقان، «لم يمسخهم سوء» من جراحة وكيد عدو، «واتبعوا رضوان الله»، الذى هو مناط الفوز بخير الدارين، «والله ذو فضل عظيم»؛ فقد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان، والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد مع الرسول ﷺ الذى هو موجب الرضوان.

ثم حذرهم الحق تعالى ممن ثبطهم عن اللحق بالكفار، وهو ركب عبد القيس، تشبيهاً لهم بالشيطان، فقال: «انما ذلكم الشيطان» يخوفكم أولياءه من المشركين، أو «يخوف أولياءه» القاعدين من المنافقين، «فلا تخافوهم»؛ فإن أمرهم بيدى، «وخافون إن كنتم مؤمنين»؛ فإن الإيمان يقتضى إثارة خوف الله على خوف الناس.

التفسير الثانى: أن يكون الكلام على غزوة بدر الصغرى: وذلك أن أبا سفيان لما انصرف من أحد نادى: يا محمد، موعدنا بدر لقابل، إن شئت، فقال ﷺ: «إن شاء الله تعالى»، فلما كان العام القابل، خرج أبو سفيان فى أهل مكة، حتى نزل مر الظهران، فأنزل الله الرعب فى قلبه، وبدا له أن يرجع، فلقى نعيم بن مسعود الأشجعى معتمراً، فقال له: ائت المدينة وأعلمهم أننا فى جمع كثير، وثبطهم عن الخروج، ولك عندي عشر من الإبل، فأتى المدينة فأخبرهم، فكره أصحاب النبي ﷺ الخروج، فقال النبي ﷺ: «والذى نفسى بيده لأخرجن، ولو وحدي». فرجع الجبان وتأهب الشجعان، فخرجوا حتى أتوا بدر الصغرى، ورجع أبو سفيان إلى مكة، فسموا جيش السويق، ووافق المسلمون السوق ببدر، وكانت معهم تجارات، فباعوا وريحوا، وانصرف النبي ﷺ إلى المدينة^(١).

فعلى هذا، يقول الحق جل جلاله: «الذين استجابوا لله والرسول» ، يعنى: فى غزوة بدر الصغرى، لميعاد أبى سفيان، «من بعد ما أصابهم القرع» يعنى: فى غزوة أحد فى العام الأول، «للاذين أحسنوا منهم» بالخروج مع الرسول، «واتقوا» الله فى مخالفته، «أجر عظيم». الذين قال لهم الناس يعنى نعيم بن مسعود، وأطلق عليه الناس لأنه من جنسهم، كما يقال: فلان يركب الخيل، وما يركب إلا فرساً. أو: لأنه انضم إليه

(١) نزول الآية فى قصة حمراء الأسد هو ما عليه جمهور المفسرين، انظر: الطبرى والمحرر الوجيز.

ناس من المدينة وأذاعوا كلامه. «إن الناس قد جمعوا لكم» يعنى: أبا سفيان وأهل مكة لما خرج إلى مَرَّ الظهران. وقوله: «فانقلبوا بنعمة من الله» أى: عافية وسلامة، «وفضل» ما أصابوا من التجارة، وقوله: «إنما ذلكم الشيطان» يعنى: نعيماً يخوفكم «أولياءه» والباقي ظاهر.

الإشارة : أهل القوة من المريدين إذا قيل لهم: إن الناس قد جمعوا لكم ليردوكم أو يؤذوكم فاحشواهم، زادهم ذلك إيماناً وإيقاناً، وتحققوا أنهم على الجادة، لسلوكهم على منهاج من قبلهم، ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا﴾ الآية، واكتفوا بعلم الله ونظره وبرعايته ونصره، فانقلبوا بنعمة الشهود، وفصل الترقى فى عظمة الملك الودود، لم يمسه فى باطنهم سوء ولا نقصان، واستوجبوا من الله الرضى والرضوان، وإنما ذلكم شيطان يردهم عن مقام الشهود والعيان، فلا ينبغي لهم أن يخافوا ومطلبهم مقام الإحسان، الذى تبدل فى طلبه الأرواح والأبدان. وبالله التوفيق.

ثم هون شأن الكفار، وأمن المسلمين من ضررهم، فقال:

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنِ يَضُرُّوْا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنِ يَضُرُّوْا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

قلت : حَزَنَ يَحْزَنُ كَبَلَغَ يَبْلُغُ، وَأَحْزَنَ يَحْزَنُ، كَأَكْرَمَ يَكْرَمُ، لَغَتَانِ، وَالْأُولَى أَفْصَحُ.

يقول الحق جل جلاله : ولا يهولك شأن «الذين يسارعون فى الكفر» أى: يبادرون إلى الوقوع فيه، كالمنافقين أو الكفار جميعاً، فلا تخف ضررهم؛ «إنهم لن يضرروا الله شيئاً» أى: لن يضرروا أولياء الله، وإنما يرجع ضررهم إلى أنفسهم. «يريد الله» - بسبب ما أظهر فيهم من المسارعة إلى الكفر - «ألا يجعل لهم حظاً فى ثواب «الآخرة»؛ لما سبق لهم من الشقاء، حتى يموتوا على الكفر. وفى ذكر الإرادة إشعار بأن كفرهم بلغ الغاية، حتى أراد أرحم الراحمين ألا يكون لهم حظ من رحمته. «ولهم» مع ذلك «عذاب عظيم».

ثم كرر شأنهم تأكيداً فقال: «إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان» أى: استبدلوا الإيمان الذى ينجيهم من العذاب، لو دخلوا فيه، بالكفر الذى يوجب العذاب، «لن يضرروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم» موجه، أو يكون فى الكفار أصالة، وهذا فى المرتدين، والله تعالى أعلم.

الإشارة : إنكار العوام على الخصوص لا يضرهم، ولا يغيض من مرتبتهم، بل يزيدهم رفعةً وعلوًّا وعزًّا وقرباً، قال تعالى: ﴿لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وسمعت شيخنا البوزيدي رحمه الله يقول: «كلام الناس في الولي كناموسة نفخت على جبل». أي: لا يلحقهم من ذلك إلا ما يلحق الجبل من نفخ الناموسة، يريد الله ألا يجعل لهم من نصيب القرب شيئاً، ولهم عذاب البعد والنصب، في غم الحجاب وسوء الحساب، لا سيما من تمكن من معرفتهم، ثم استبدل صحبتهم بصحبة العوام، فلا تسأل عن حرمانه التام، والعياذ بالله.

ثم لا يدل إمهال الكافرين وتمتعهم بطول الحياة على إرادة الخير لهم، بل إنما ذلك استدراج وزيادة في الإثم، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

قلت : من قرأ بالتحنية، فالذين كفروا: فاعل، و(أن) وما بعدها : سد مسد المفعولين، ومن قرأ بالفوقية فالذين: مفعول أول، و(إنما): سد مسد الثاني، و(ما): مصدرية، والإملا: الإمهال والتأخير. ومنه: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي: حيناً طويلاً.

يقول الحق جل جلاله : ولا يظن الذين كفروا أن إمهالي لهم وإمدادهم بطول الحياة، هو خير لهم، إنما نمهلهم استدراجاً «ليزدادوا» إثماً وعقوبة، «ولهم عذاب مهين» يهينهم، ويخزيهم يوم يعز المؤمنين.

الإشارة: إمهال العبد وإطالة عمره، إن كانت أيامه مصروفة في الطاعة واليقظة، وزيادة المعرفة، فأطالتهما خير، والبركة في العمر إنما هي بالتوفيق وزيادة المعرفة، وفي الحكم: «من بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمان ما لا تدركه العبارة ولا تلحقه الإشارة». وإن كانت أيام العمر مصروفة في الغفلة والبطالة وزيادة المعصية، فالموت خير منها. وقد سئل - عليه الصلاة والسلام - أي الناس خير؟ قال: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ»، قيل فأى الناس شر؟ قال: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ». والله تعالى أعلم.

ولمّا قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله أطلعني على من يؤمن بي ممن يكفر». قال المنافقون: نحن معه ولا يعرفنا، فأنزل الله تعالى:

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٧٩)

قلت: ما ز يميز، ويميز يميز، بمعنى واحد، لكن في ميز معنى التكثر.

يقول الحق جل جلاله لعامة المؤمنين والمنافقين: «ما كان الله» ليعترك «المؤمنين على ما أنتم عليه» من الاختلاط، لا يعرف مخلصكم من منافقكم، بل لابد أن يختبركم حتى يتميز المنافق من المخلص، بالوحي أو بالتكاليف الشاقة، التي لا يصبر عليها إلا المخلصون، كبذل الأموال والأنفس في سبيل الله، ليختبر به بواطنكم، ويستدل به على عقائدكم، أو بما ظهر في غزوة أحد من الأقوال والأفعال التي تسدل على الإيمان أو النفاق، «وما كان الله ليطلعكم على الغيب» حتى تعرفوا ما في القلوب من كفر أو إيمان، أو تعرفوا: هل تغلبون أو تغلبون. «ولكن الله يجتبي» لرسالته «من يشاء»، فيوحي إليه ويخبره ببعض المغيبات، أو ينصب له ما يدل عليها، «فآمنوا بالله» الذي اختص بعلم الغيب الحقيقي، وآمنوا برسله الذين اختارهم لأسرار الغيوب، لا يعلمون إلا ما علمهم.

رُوي أن الكفرة قالوا: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا: من يؤمن منا ومن يكفر؟ فنزلت الآية. وقيل: سببها ما تقدم من قول المنافقين، ووجه المناسبة: هو ما صدر منهم يوم أحد من المقالات التي ميزتهم من المؤمنين. «وإن تؤمنوا إيماناً حقيقياً «وتتقوا» النفاق والشرك «فلكم أجر عظيم» عند الله.

الإشارة: من سنة الله في المتوجهين إليه إذا كثروا، وظهرت فيهم دعوى القوة، أرسل الله عليهم ريح التصفية، فيثبت الصحيح، والخواوي تذرؤه الريح، وما كان الله لينذرهم على ما هم عليه من غير اختبار، حتى يميز الخبيث من الطيب، أي: من همته الله ومن همته سواه، وما كان الله ليطلعكم على الغيب حتى يعلموا من يثبت ممن يرجع، أو يعلموا ما يلحقهم من الجلال والجمال، وإنما ذلك خاص بالرسول عليهم السلام، وقد يطلع على شيء من ذلك بعض خواص ورثتهم الكرام، فالتواجب على المرید أن يؤمن بالقدر المغيب، ولا يستشرف على الاطلاع عليه؛ «استشراقك على ما بطن فيك من العيوب، خير من استشراقك على ما حجب عنك من الغيوب». (وإن تؤمنوا) بمواقع القضاء والقدر، (وتتقوا) القنوط والكدر، (فلكم أجر عظيم).

ولما كان البخل هو معيار المخلصين من المخلطين، ذكره بإثر تمييز المؤمنين من المنافقين، فقال:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٨٠)

قلت: من قرأ بالخطاب؛ فالموصول مفعول أول، و (خيراً): مفعول ثان، والضمير للفصل، والخطاب للرسول ﷺ، ولا بد من حذف مضاف، أى: لا تحسبن بخل الذين يبخلون خيراً لهم، ومن قرأ بالغيب؛ ف(الذين): فاعل، والمفعول الأول محذوف، لدلالة (يبخلون) عليه، لا يحسبن البخلاء بخلهم خيراً لهم، والطوق: ما يدار بالعنق.

يقول الحق جل جلاله: ولا يظنن «الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله» من الأموال، فلم يؤدوا زكاتها، أن بخلهم خير لهم، «بل هو شر لهم»؛ لاستجلابه العذاب إليهم، ثم بيّنه بقوله: «سيطوقون ما بخلوا به» أى: يلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق للعنق، وقيل: يطوق به حقيقة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا إذا كان يوم القيامة - مثّل له شجاعاً أقرع، له زبيبتان، يطوقه، ثم يأخذ به ليمزقنيه - أى: شذقيه - يقول: أنا كنزك، أنا مالك، ثم تلا هذه الآية: «ولا يحسبن...». وقيل: يجعل يوم القيامة فى أعناقهم طوقاً من نار.

والمال الذى بخل به هو الله، وسيرجع الله، «ولله ميراث السموات والأرض» فهو الذى يرث الأرض ومن عليها، فكيف يبخل العبد بمال الله، وهو يعلم أنه يرجع الله، فيموت ويتركه لمن يسعد به! والله در القائل، حيث قال:

يَا جَامِعَ الْمَالِ كَمْ تَضُرُّهُ تَطْمَعُ بِاللَّهِ فِي الْخُلُودِ مَعَهُ
هَلْ حَسَلَ الْمَالُ مَسِيَّتٌ مَعَهُ؟ أَمَا تَرَاهُ لِغَيْرِهِ جَمَعَهُ؟

«والله بما تعملون خبير» لا يخفى عليه مدعكم ولا إعطائكم، فيجازى كلأ بعمله.

الإشارة: لا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضل الرئاسة والجاه، أن يبذلوها فى طلب معرفة الله، وبذلها: إسقاطها وإبدالها بالخمول، والنذل لله، وإسقاط المنزلة بين عباد الله، فلا يظنون أن بخلهم بذلك خير لهم، بل هو شر لهم، سيلزمون وبال ما بخلوا به يوم القيامة، حين يرون منازل المقربين كالشمس الضاحية فى أعلى عليين، وهم مع عوام أهل اليمين، محجوبون عن شهود رب العالمين، إلا فى وقت مخصوص وحين.

فمن بخل بماله حُشِرَ مع الفجار، ومن بخل بنفسه وجاهه، وبذل ماله، حُشِرَ مع الأبرار، ومن بذلها معا حُشِرَ مع المصطفين الأخيار، ومنتهى الملك لله الواحد القهار، وهو الغنى بالإطلاق. فمن وصفه بضد ذلك كان من أهل البعاد والشقاق. وإلى ذلك أشار بقوله:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

قلت: (وقتلهم): معطوف على (ما) المفعولة أو النائية عن الفاعل، على القرائتين رفعاً ونصباً، و (أن الله): عطف على (ما) أى: ذلك العذاب بسبب ما قدمتم وبأن الله منتف عنه الظلم، فلا بد أن يعاقب المسيئ ويثيب المحسن، (الذين قالوا إن الله عهد إلينا): صفة للذين (قالوا إن الله فقير)، أو بدل منه مجرور مثله.

يقول الحق جل جلاله: «لقد سمع الله قول» اليهود «الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء» وقائله: فنحاص بن عازوراء، فى جماعة منهم، وذلك أن النبى ﷺ كتب مع أبى بكر إلى يهود بنى قينقاع، يدعوهم إلى الإسلام، وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فدخل أبو بكر رضي الله عنه مدرّسهم^(١)، فوجد خلقاً كثيراً اجتمعوا إلى فنحاص، وهو من علمائهم - ومعه حبر آخر اسمه: (أيشع)، فقال أبو بكر لفنحاص: اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحق من عند الله، فأسلم وصدق، وأقرض الله قرضاً حسناً يدخلك الجنة، فقال فنحاص لعنه الله: يا أبا بكر! تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا، وما يستقرض إلا الفقير من الغنى، ولو كان غنياً ما استقرض، فلفظمه أبو بكر رضي الله عنه وقال: لولا ما ببينا من العهد لضربت عنقك، فشكاه إلى رسول الله ﷺ فقال له: عليه الصلاة والسلام: - «ما حملك على ما فعلت؟» فقال: يارسول الله، إن عدو الله قال قولا عظيماً، زعم أن الله فقير، وهم أغنياء، فجحد ما قال، فنزلت الآية؛ تكذيباً له.

(١) راجع معطى المدراس فى التطبيق على تفسير الآية / ١٠٩ من سورة البقرة.

والمعنى: أن الله سمع مقاتلتهم الشنيعة، وأنه سيعاقبهم عليها، ولذلك قال: «سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا» أى: سنسطرها عليهم فى صحائف أعمالهم، أو سنحفظها فى علمنا ولا نهملها، لأنها كلمة عظيمة، فيها الكفر بالله والاستهزاء بكتاب الله وتكذيب لرسول الله ﷺ، ولذلك نظمت مع قتلهم الأنبياء، حيث عطفه عليه، وفيه تدبیه على أن قولهم الشنيع ليس هو أول جريمة ارتكبوها، وأن من اجتراً على قتل الأنبياء لم يستبعد أمثال هذا القول منه.

ثم ذكر عقابهم، فقال: «وَنَقُولُ» لهم يوم القيامة: «ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» أى: المَحْرَق، والذوق: يطلق على إدراك المحسوسات كالمطعمات، والمعنويات كما هنا، وذكره هنا؛ لأن عذابهم مرتب على قولهم الناشئ عن البخل، والتهالك على المال، وغالب حاجة الإنسان إليه، لتحصيل المطاعم، ومعظم بخله للخوف من فقده.

«ذلك» العذاب بسبب ما «قدمت أيديكم» من قتل الأنبياء، وقولكم هذا، وسائر معاصيكم، وعبر بالأيدى؛ لأن غالب الأعمال بهن، وبأن «الله ليس بظلام للعبيد» بل يجازى كل عبد بما كسب من خير أو شر، فأنتم ظلمتم أنفسكم.

ثم إن قوماً منهم، وهو كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحیی بن أخطب وفتحاص وهب بن يهوذا، أتوا النبى ﷺ فقالوا: يا محمد؛ تزعم أن الله بعثك إلينا رسولا، وإن الله قد عهد إلينا فى التوراة، ألا نؤمن لرسول يزعم أنه نبى حتى يأتينا بقریان تأكله النار، فإن جئتنا به صدقناك، فأُنزل الله فيهم تكذيباً لهم: «الذين قالوا إن الله عهد إلينا» فى التوراة وأوصانا «ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقریان»؛ كصدقة أرنسيكة، «تأكله النار» كما كانت لأنبياء بنى إسرائيل.

وذلك أن القرابين والغنائم كانت حراماً على بنى إسرائيل، وكانوا إذا قُربوا قريانا، أو غنموا غنيمة، فتقبل منهم، ولم يُغل من الغنيمة، نزلت نار بيضاء من السماء، فتأكل ذلك القریان أو الغنيمة، فيكون ذلك علامة على القبول، وإذا لم يتقبل بقى على حاله، وهذا من تعنتهم وأباطليهم، لأن أكل القریان لم يُوجب الإيمان إلا لكونه معجزة، وسائر المعجزات فى ذلك سواء، فلذلك رد عليهم بقوله: «قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِى بِالْبَيِّنَاتِ» أى: المعجزات الواضحات، «وبالذى قلتم» من أكل النار القریان، فكذبتموهم وقتلتموهم كزكريا ويحيى وغيرهما، «فلم تقتلتموهم إن كنتم صادقين» فى دعوكم أنه ما منعكم من الإيمان إلا عدم ظهور هذه المعجزة، فما لكم لم تؤمنوا بمن جاء بها حتى قتلتموه؟ والله تعالى أعلم.

الإشارة: مازالت خواص العامة مولعةً بالإنكار على خواص الخاصة، يسترقون السمع منهم، إذا سمعوا كلمة لم يبلغها علمهم، وفيها ما يوجب النقص من مرتبتهم، يحفظوها، وحرفوها، وأذاعوها، يريدون بذلك إطفاء نورهم،

واظهار عوراهم، والله حفيظ عليهم، سيكتب ما قالوا وما قصدوا من الإنكار على أوليائه، ويقول لهم: ذوقوا عذاب البعد والحجاب، ومما يتشبهون به في الإنكار عليهم: اقتراحهم الكرامات التي كانت للأولياء قبلهم، ويقولون: لانصدق بهم حتى يأتوا بما أتى به فلان وفلان، فقد كان من قبلهم يطعنون فيهم مع ظهور ذلك عليهم، كما هو سنة الله فيهم. (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم).

ثم سأل الحق نبيه - عليه الصلاة والسلام - بقوله:

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوكَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾

قلت: (الزبر): جمع زبور، بمعنى مزبور، أى: مكتوب، من زبرت، أى: كتبت، وكل كتاب فهو زبور، وقال امرؤ القيس:

لَمَنْ طَلَّ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي كَخَطِّ زَبُورٍ فِي عَسِيبِ يَمَانٍ

يقول الحق جل جلاله، فى تسلية رسوله - عليه الصلاة والسلام - من تكذيب اليهود وغيرهم له: «فإن كذبوك» فليس ذلك ببدع؛ «فقد كذبت رسل» مثلك «من قبلك» جاءوا قومهم بالمعجزات البينات، وبالكتب المنزلات، فيها مواضع زاجرات، «وبالكتاب المنير» المشتمل على الأحكام الشرعية.

الإشارة: كما كذبت الأنبياء كذبت الأولياء، بعد أن ظهر عليهم من العلوم الباهرة والحكم الظاهرة والكرامات الواضحة، وأعظمها المعرفة، وهذه سنة ماضية، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

وعند الله تجتمع الخصوم؛ فيظهر المحق من المبطل، وتوفى كل نفس ما أسلفت، وتعلم علم يقين ما أظهرت وأضمرت، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَّةٌ الْغُرُورِ ﴾

قلت: (زحزح): بوعِد، والزحزحة: الجذب والإخراج بعجلة.

يقول الحق جل جلاله: كل نفس منقوسة لابد أن تذوق حرارة الموت، وتسقى كأس المنون، وإنما توفون جزاء أعمالكم يوم القيامة، يوم قيامكم من القبور، خيراً كان أو شراً.

قال البيضاوي: ولفظ التوفية يشعر بأنه قد يكون قبلها بعض الأجور، أي: توفية بعض الأجور، ويؤيده قوله ﷺ: «الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّارِ»، «فَمَنْ زَحَزَحَ» أي: بُوْعِدَ «عَنِ النَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ» بالنجاة ونيل المراد، وعنه ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحَزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ؛ فَلْتَدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ».

«وما الحياة الدنيا» وزخارفها ولذاتها «إلا متاع الغرور»؛ فإن الغار - وهو المدلس - يظهر ما هو حسن من متاعه، ويخفي ما هو معيب، كذلك الدنيا تبتهج لطالبها، وتظهر له حلاوتها وشهواتها، حتى تشغله عن ذكر الله وعن طاعته، فيؤثرها على آخرته، ثم يتركها أحوج ما يكون إليها، فينقلب نادماً متحسراً، وفي ذلك يقول الشاعر:

وَمَنْ يَحْمَدِ الدُّنْيَا لَشَيْءٍ يَسِرُّهُ فَسُوفَ لِلْعُسْرِ عَنْ قَرِيبٍ يُلَوِّمُهَا
إِذَا أُدْبِرَتْ كَانَتْ عَلَى الْمَرْءِ حَسْرَةً وَإِنْ أَقْبَلَتْ كَانَتْ كَثِيراً هُمُومُهَا

الإشارة: النفس، من حيث هي، كلها تقبل الموت لمن قتلها وجاهدتها، وإنما وقع التفريط من أربابها، فمن زحزها عن نار الشهوات، وقتلها بسيف المخالفات، حتى أدخلها جنات الحضرات، فقد فاز فوزاً عظيماً، وريح ريحاً كريماً. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالصبر على فقد الأموال والإخوان، وعلى أذى اليهود والمشركين، فقال تعالى:

﴿لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكَمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٨٦)

قلت: أصل (تبلون): تبلون كتلصرون، ثم قلبت الواو ألفاً، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، فصار تبلونن، ثم أكد بالنون، فاجتمع ثلاث نونات، حذفت نون الرفع فالتقى ساكنان؛ الواو ونون التوكيد، فحركات الواو بالضممة المجانسة، وهي النائبة عن الفاعل.

يقول الحق جل جلاله: والله «لتبلون» أي: لتختبرن «في أموالكم»؛ بما يصيبها من الآفات، وما كلفتم به من النفقات، «وأنفسكم»؛ بالقتل والجراحات، والأسر والأمراض وسائر العاهات. «ولتسمعن من الذين أوتوا

الكتاب من قبلكم» ؛ اليهود «ومن الذين أشركوا» ؛ كفار مكة ، «أذى كثيراً» كقولهم : إن الله فقير ، وهجاء الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، والظعن في الدين ، وإغراء الكفرة على المسلمين ، أو غير ذلك من الأذى . أعلمهم بذلك قبل وقوعه ، ليأهبوا للصبر والاحتمال ، حتى لا يروعهم نزولها حين الإنزال . «وإن تصبروا» على ذلك ، «وتتقوا» الله فيما أمركم به ، «فإن ذلك من عزم الأمور» أى : من معزومات الأمور التي يجب العزم عليها ، أو مما عزم الله على فعلها ، وأوجبها على عباده . والله تعالى أعلم .

الإشارة : كل من دخل في طريق الخصوص بالصدق والعزم على الوصول ، لا بد أن يُبتلى ويختبر في ماله ونفسه ، ليظهر صدقه في طلبه ، ولا بد أن يسمع من الناس أذى كثيراً ، فإن صبر ظفر ، وإن رجع خسر ، وهذه سنة الله في عباده : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ، قال الورتجبي : (لتبلون في أموالكم) ؛ بجمعها ومنعها والتقصير في حقوق الله فيها ، (وأنفسكم) ؛ باتباع شهواتها ، وترك رياضتها ، وملازمتها أسباب الدنيا ، وخلوها من النظر في أمر الميعاد ، وقيل : (لتبلون في أموالكم) ؛ بالاشتغال بها أخذاً وإعطاء . هـ .

ثم عاتب الحق تعالى اليهود ، ويؤخهم على كتمان الحق وإظهار الباطل ، فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لُبِّيْنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُيِّنَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ ﴿ ١٨٧ ﴾

قلت : الضمير في (نبذوه) : يعود على الكتاب ، أو الميثاق .

يقول الحق جل جلاله : «و» اذكر «إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب» وهم اليهود ، أخذ عليهم العهد ليبين للناس ما في كتابهم من صفة النبي ﷺ ولا يكتُمونه ، فنبدوا ذلك العهد أو الكتاب «وراء ظهورهم» ؛ فكتُموا صفته - عليه الصلاة والسلام - خوفاً من زوال رئاستهم ، «واشتروا» بذلك العهد ، أى : استبدلوا به «ثمنا قليلاً» من حطام الدنيا ، وما كانوا يأخذونه من سفلتهم ، «فبيئس ما يشترون» ، وهى تجر ذيلها على من كتم علماً سئل عنه ، قال عليه الصلاة والسلام : «مَنْ كَتَمَ عِلْماً عَنْ أَهْلِهِ الْجَمِ بِلَجَامٍ مِنْ نَارٍ» . وعن علي رضي الله عنه : (ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا) . وقال محمد بن كعب : (لا يحل للعالم أن يسكت على علمه ، ولا الجاهل أن يسكت على جهله) .

الإشارة: أهل العلم إذا تحققوا بوجود الخصوصية عند ولي، وكنتموا ذلك حسداً وخوفاً على زوال رئاستهم، دخلوا في وعيد الآية؛ لأن العوام تابعون لهم، فإذا كنتموا أو أنكروا تبعوهم على ذلك، فيحملون أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم، والله تعالى أعلم.

ولما سأل - عليه الصلاة والسلام - اليهود عن شيء في التوراة، وكنتموه وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد أروه أنهم أخبروه عما سألهم، واستحمدوا إليه فرحوا، أنزل الله فيهم:

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

قلت: من قرأ بالخطاب، فالذين: مفعول أول، والثاني: محذوف، أي: بمفازة من العذاب، أو هو المذكور، و(تحسبنهم): تأكيد للفعل الأول، ومن قرأ بالغيب؛ فالذين: فاعل، والمفعولان: محذوفان، دلّ عليهما ذكرهما مع الثاني، أي: لا يحسبوا أنفسهم فائزة. (فلا تحسبنهم): من قرأ بفتح التاء؛ فالخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام -، والفعل مبنى، ومن قرأ بالياء؛ فالخطاب للذين يفرحون، والفعل معرب، أي: لا يحسبوا أنفسهم بمفازة من العذاب -.

يقول الحق جل جلاله: «لا تحسبن» يا محمد «الذين يفرحون بما أتوا» أي: بما فعلوا من التدليس وكنتمان الحق، «ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا» من الوفاء بالعهد، وإظهار الحق، والإخبار بالصدق، أنهم فائزون من العذاب، فلا تظنهم «بمفازة من العذاب»، بل «لهم عذاب أليم» مرجع، «والله ملك السموات والأرض»؛ إن شاء عذب وإن شاء رحم، «والله على كل شيء قدير» فلا يعجزه من ذلك شيء، أو: لا يظن الذين يفرحون بما أتوا، ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، فلا يحسبون أنفسهم بمفازة من العذاب.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (أنها نزلت في المنافقين، كانوا إذا خرج النبي ﷺ (١) تخلّفوا، وإذا قدم اعتذروا، فإذا قبل عذرهم فرحوا، وأحبوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا). وما تقدم في التوطئة هو عن ابن عباس. وقال

(١) أي: إلى الغزو.

ابن حجر: ولا مانع من أن تتناول الآية كل من أتى بحسنة وفرح بها فرح إعجاب، وأحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بما ليس فيه . والله تعالى أعلم .

الإشارة : لا يظن أهل الفرق الذين يستندون الأفعال إلى أنفسهم، غائبين عن فعل ربهم، ويحبون أن يحمدهم الناس ويمدحهم بفعل غيرهم، أنهم فائزون عن عذاب الفرق، وحجاب العجب، إذ لا فاعل سوى الحق، فمن تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك، فإن فرح العبد بالطاعة من حيث ظهورها عليه، وهى عنوان العناية . ورأى نفسه فيها كالألة، معزولا عن فعلها، محمولا بالقدرة الأزلية فيها، فلا بأس عليه، ويزيد بذلك تواضعا وشكرا، وإن فرح بها من حيث صدورها منه، ويتبجح بها على عباد الله، فهو عين العجب، وفى الحكم: « لا تُفرحك الطاعة من حيث إنها صدرت منك، وافرح بها من حيث إنها هدية من الله عليك؛ ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ » .

ثم استدل على قدرته المفهومة من (القدير)، فقال:

﴿ إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاَتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (١٩٠)

يقول الحق جل جلاله: «إن فى خلق السموات والأرض وإظهارهما للعيان، لدلائل واضحة على وجود الصانع، وكمال قدرته، وعلمه، لذوى العقول الكاملة الصافية، الخالصة من شوائب الحس والوهم. قال البيضاوى: ولعل الاختصار على هذه الثلاثة فى هذه الآية؛ لأن مناط الاستدلال هو التغير، وهذه متعرضة لجملة أنواعه، فإنه - أى التغير - إما أن يكون فى ذات الشيء، كتغير الليل والنهار، أو جزئه، كتغير الناميات بتبدل صورها، أو لخارج عنها، كتغير الأفلاك بتبدل أوضاعها، وعن النبى ﷺ: «وَيْلٌ لِّمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا» .

الإشارة: الخلق هو الاختراع والإظهار، فإظهار هذه التجليات الأربعة يدل على أن الحق - تعالى - تجلى لعباده بين الصدين، بين النور والظلمة، بين القدرة والحكمة، بين الحس والمعنى، وهكذا خلق من كل زوجين اثنين، ليقع الفرار من إثنيية حسهما إلى فردية معنهما، ففروا إلى الله، فالسموات والنهار تورانيان، والأرض والليل ظلمانيان، ففى ذلك دلالة على وحدة المعانى، فلا تقف مع الأوانى، وخُض بحر المعانى، لعلك ترانى . وبالله التوفيق .

ثم وصف أولى الألباب الذين يدركون صفاء هذه المعانى، فقال:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله، في وصف أولى الألباب: هم «الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم»، أي: يذكرونه على الدوام، قائمين وقاعدين ومضطجعين، وعنه - ﷺ -: «من أراد أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله». وقيل: يصلون على الهيئات الثلاث، حسب الطاقة لقوله عليه الصلاة والسلام لعمران بن حصين، وكان مريضاً: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنبك وتومىء إيماء».

«ويتفكرون في خلق السموات والأرض» استدلالاً واعتباراً، وهو أفضل العبادات قال ﷺ: «لا عبادة كالتفكير»؛ لأنه المخصوص بالقلب، والمقصود من الخلق، وعنه ﷺ: «بينما رجل مستلقٍ على فراشه فنظر إلى السماء والنجوم، فقال: أشهد أن لك خالقاً، اللهم اغفر لي، فنظر الله إليه فغفر له». وهذا دليل واضح على شرف علم الأصول وفضل أهله. قاله البيضاوي. وسيأتي مزيد من كلام على التفكير في الإشارة إن شاء الله.

فلما تفكروا في عجائب المصنوعات، قالوا: «ربنا ما خلقت هذا باطلاً» أي: عبثاً من غير حكمة، بل خلقته لحكمة بديعة، من جملتها: أن يكون مبدءاً لوجود الإنسان، وسبباً لمعاشه، ودليلاً يدل على معرفتك ويحثه على طاعتك، لينال الحياة الأبدية، والسعادة السرمدية في جوارك، «سبحانك» تنزيهاً لك من العبث وخلق الباطل، «فقنّا عذاب النار» التي استحقها من أعرض عن النظر والاعتبار، وأخل بما يقتضيه من أحكام الواحد القهار، «وما للظالمين من أنصار» يمنعونهم من دخول النار. ووضع المظهر موضع المضمرة؛ للدلالة على أن ظلمهم سبب لإدخالهم النار، وانقطاع النصرة عنهم في دار البوار.

«ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان»، وهو الرسول العظيم الشأن، أو القرآن؛ قائلاً: «أن آمنوا بربكم» ووحده، فأجبنا نداءه وآمنا، «ربنا فاغفر لنا ذنوبنا» الكبائر، «وكفر عنا سيئاتنا» الصغائر، «وتوفنا مع الأبرار» المصطفين الأخيار، مخصوصين بصحبته، معدودين في زمريتهم، وفيه تنبيه على أنهم يحبون لقاء الله فأحب الله لقاءهم. «ربنا وآتنا ما وعدتنا على» تصديق «رسلك» من الثواب، أو على السنة

رسلك من الفضل والرحمة وحسن المآب، سألوا ما وعدوا على الامتثال، لا خوفاً من إخلاف الوعد، بل مخافة ألا يكونوا موعودين لسوء عاقبة، أو قصور في الامتثال، أو تعبداً، أو استكانة. قاله البيضاوي.

«ولا تخزنّا يوم القيامة» أي: لا تُهِنّا بسبب تقصيرنا، «إنك لا تخلف الميعاد» بإثابة المؤمن وإجابة الداعي، أو ميعاد البعث والحساب، وتكرير «ربنا»؛ للمبالغة في الابتهاال، والدلالة على استقلال المطالب وعلو شأنها، ففي بعض الآثار: (من حزيه أمر فقال خمس مرات: «ربنا»، أنجاه الله مما يخاف). (١) قاله البيضاوي.

الإشارة: قدم الحق الذكر على الفكر على ترتيب السير، فإن المرید يؤمر أول أمره بذكر اللسان، حتى يفضى إلى الجنان، فينتقل الذكر إلى القلب، ثم إلى الروح، وهو الفكر، ثم إلى السر، وهو الشهود والعيان، وهذا يخرس اللسان، ويغيب الإنسان في أنوار العيان، وفي ذلك يقول القائل:

مَا إِنْ ذَكَرْتُكَ إِلَّا هَمٌّ يَلْعَنُنِي	سِرِّي وَرُوحِي وَقَلْبِي عِنْدَ ذِكْرِكَ
حَتَّى كَأَنْ رَقِيباً مِنْكَ يَهْتَفُ بِي:	إِيَّاكَ: وَيَحْكُ والتذكّاراً إِيَّاكَ
أَمَا تَرَى الْحَقَّ قَدْ لَاحَتْ شَوَاهِدُهُ	وَوَاصَلَ الْكُلُّ مِنْ مَعْنَاهُ مَعْنَاكَ

فإذا بلغ العبد هذا المقام - الذي هو مقام الأفراد - اتحدت عنده الأوراد، وصار ورداً واحداً، وهو عكوف القلب في الحضرة بين فكرة ونظرة، أو أفراد القلب بالله، وتغيبه عما سواه.

قال في الإحياء في كتاب الأوراد: الموحّد المستغرق الهم بالواحد الصمد، الذي أصبح وهمومه هم واحد، فلا يحب إلا الله، ولا يخاف إلا منه، ولا يتوقع الرزق من غيره، ولا ينظر في شيء إلا يرى الله فيه، فمن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة، لم يفتقر إلى ترتيب الأوراد واختلافها، بل ورده بعد المكتوبات ورد واحد، وهو حضور القلب مع الله في كل حال، فلا يخطر بقلبه أمر، ولا يقرع سمعه قارع، ولا يلوح لنظره لائح، إلا كان له فيه عبرة وفكرة ومزید، فلا محرك ولا مسكن إلا الله. فهؤلاء جميع أحوالهم تصلح أن تكون سبباً لازديادهم، فلا تتميز عندهم عبادة عن عبادة، وهم الذين فروا إلى الله كما قال تعالى: ﴿فَفَرُوا إِلَى اللَّهِ﴾، وتحقق فيهم قوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾، وهذه الدرجة منتهى درجة الصديقين، ولا ينبغي أن يغتر المرید بما يسمعه من ذلك، فيدعيه لنفسه، ويفتر عن وظائف عباداته، فذلك علامته ألا يحس في قلبه وسواساً، ولا يخطر بقلبه معصية، لا يزعه هواجم الأحوال، ولا يستفزه عظامم الأشغال، وأنى تكون هذه المرتبة! هـ.

(١) حكى القرآن عن أولى الألباب في هذه الآيات - أنهم قالوا: (ربنا) خمس مرات. وعن الأثر الذي ذكره المصنف - قال المناوي في الفتح السماوي: لم أقف عليه.

قلت: قوله: [لا يخطر بقلبه معصية] غير لازم؛ لأن قلب العارف مرسى للتجليات النورانية والظلمانية، لكنها ثقل ولا تسكن.

وقال في موضع آخر: وأما عبادة ذوى الأبواب فلا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه؛ حباً لجلاله وجماله، وسائر الأعمال تكون مؤكدات. قال: والعامل لأجر الجنة؛ درجته درجة البله، وإنه ليدانها بعمله؛ إذ أكثر أهل الجنة البله. هـ. وقال في كتاب كيمياء السعادة: وقد غلط من ظن أن وظائف الضعفاء كوظائف الأقوياء، حتى قال بعض مشايخ الصوفية: من رآنى فى الابتداء، قال: صار صديقاً، ومن رآنى فى الانتهاء، قال: صار زنديقاً، يعنى أن الابتداء يقتضى المجاهدة الظاهرة للأعين بكثرة العبادات، وفى الانتهاء يرجع العمل إلى الباطن، فيبقى القلب على الدوام فى عين الشهود والحضور، وتفتر ظواهر الأعضاء، فيظن أن ذلك تهاون بالعبادة^(١)، وهيئات هيهات!!، فذلك استغراق لمخ العبادات ولبابها وغايتها، ولكن أعين الخفافيش تكل عن درك نور الشمس. هـ.

قال شيخ شيوخنا - سيدى عبد الرحمن العارف - بعد نقل كلام القشيري فى هذا المعنى: وما أشار إليه ظاهر فى أن أهل القلوب لا يتعاطون كل طاعة. وإنما يتعاطون من الطاعات ما يجمعهم ولا يفرقهم، ولذلك قال الجنيد: أحب للصوفى ألا يقرأ ولا يكتب؛ لأنه أجمع لهم، قال: وأحب للمريد ألا يشتغل بالتكسب وطلب الحديث؛ لئلا يتغير حاله. هـ. قلت: ومن رزقه الله شيخ التربية فما عينه له فهو عين ذكره، يسير به كيفما كان.

هذا ما يتعلق بحال الذكر الذى قدمه الله تعالى، وأما التفكير فهو أعظم العبادات وأفضل القربات، هو عبادة العارفين ومنتهى المقربين. وفى الخبر: «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة».

وقال الجنيد رحمته الله: أشرف المجالس وأعلاها: الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد، والتنسم بنسيم المعرفة، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد، والنظر لحسن الظن بالله تعالى. ثم قال: يا لها من مجالس، ما أجلها، ومن شراب ما ألذ، طوبى لمن رزقه. وقال القشيري رحمته الله: التفكير نعت كل طالب، وثمرته: الوصول بشرط العلم، فإذا سلم الفكر عن الشوائب ورد صاحبه على مناهل التحقيق. هـ.

وسئلت زوجة أبى ذر عن عبادة زوجها، فقالت: كان نهاره أجمع فى ناحية يتفكر. وكذلك زوجة أبى بكر قالت: كان ليله أجمع فى ناحية يتفكر. وكذا زوجة أبى الدرداء، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يقول: طوبى لمن كان قلبه ذكراً وصمته تفكراً، ونظره عبدة. وقال الحسن رحمته الله: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو. هـ. وقال فى الحكم: «ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة». وقال أيضاً: «الفكرة سراج القلب، فإذا ذهبت فلا إضاءة له». وقال أيضاً: «الفكرة فكرتان؛ فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان، فالأولى لأرباب الاعتبار، والثانية لأرباب الشهود والاستبصار».

(١) راجع التعليق على إشارة الآية ٢١٢ من سورة البقرة.

وفكرة الشهود والعيان هي عبادة العارفين ، ولا يُحصر ثوابها في ستين ولا في سبعين ، بل وقت منها يعدل ألف سنة ، كما قال الشاعر:

كُلُّ وَقْتٍ مِنْ حَبِيبِي قَدْرُهُ كَأَلْفِ حَاجَةٍ

فأوقات هؤلاء كلها ليلة القدر، ومن لم يبلغ هذا المقام فليبك على نفسه على الدوام، ومن ظفر بها ونالها حق له الهداء، وفي أمثاله قال القائل:

هُمُ الرُّجَالُ وَغَبْنُ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِمَعَانِي وَصَفِيهِمْ رَجُلٌ

حققنا الله بمقامهم، وسقانا من منازلهم، آمين.

وقوله : «ربنا ما خلقت هذا باطلا» بل هو ثابت بإثباتك، مَحْوٌ بأحدية ذاتك، فالباطل محال، وكل ما سواه باطل، كما قرره الرسول - عليه الصلاة والسلام (١). وقوله: «ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا» أي: كنا في الرعيّل الأول من أهل الإيمان، فجعل لنا سبيلا إلى مقام الإحسان، «ربنا وآتانا ما وعدتنا» وهو الوصول إلى العيان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما أجابهم به، فقال:

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ۚ فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَآخَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَآوَدُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

قلت: (استجاب): أخص من أجاب، لأن استجاب مُستلزم لفعل ما طلب منه، وأجاب يصدق بالوعد، ويتعدى بنفسه وباللام، و(بعضكم من بعض): جملة معترضة. قاله البيضاوي فانظره.

يقول الحق جل جلاله: «فاستجاب لهم ربهم» فيما طلبوه؛ لأنه لا يرد السؤال، ولا تخيب لديه الآمال، ولذلك قال: «أنى» أى: بسبب «أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى»، لأنكم «بعضكم من بعض»؛ لأن الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر، ولأنهما من أصل واحد، ولفرط الاتصال والاتحاد والاتفاق في الدين.

(١) حين قال ﷺ: (أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل). الحديث أخرجه البخاري في (مناقب الأنصار: باب أيام الجاهلية) ومسلم في (الشعر) من حديث أبي هريرة.

رُوى « أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَسْمَعُ اللَّهَ يَذْكُرُ الرِّجَالَ فِي الْهَجْرَةِ وَلَمْ يَذْكُرِ النِّسَاءَ، فَنَزَلَتْ. » من ذكر أو أنثى» الخ.

ثم فصل أعمال العمال، وما أعد لهم من الثواب فقال: «فَالَّذِينَ هَاجَرُوا» دار الشرك، وفارقوا الأوطان والأصحاب والعشائر، «وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذَوْا فِي سَبِيلِي» بسبب إيمانهم بالله، «وَقَاتِلُوا» الكفار، «وَقَاتِلُوا» أى: ماتوا في الجهاد. وقرىء بالعكس؛ لأن الواو لا ترتب، أو قتل بعضهم، وقاتل الباقون ولم يضعفوا، «لَا كُفِرْنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» أى: لأمحونها، «وَلَا دُخِلَتْ جَنَاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» أى: أثيبهم ثواباً من عند الله تفضلاً وإحساناً، «وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ» لا يعجزه شيء.

الإشارة: لما توجهوا إليه بهمهم العلية، وعزائمهم القوية، فقرعوا بابه بدوام ذكره، والتفكر في عظمة ذاته، وجميل إحسانه وبره، وتضرعوا إليه بلسان الذل والانكسار، وحال الخضوع والاضطرار، أجابهم ففتح في وجوههم الباب، وأدخلهم في حضرته مع الأحباب، لأنه يجيب السؤال، ولا يخيب الآمال، بعد أن هاجروا الأوطان، وفارقوا العشائر والإخوان، إلا من يزيد بهم إلى الرحمن، فقاتلوا نفوسهم حتى ماتت فحييت بالوصال، إلى جوار الكبير المتعال، قال الشاعر:

إِنْ تُرِدْ وَصَلْنَا فَمَوْتِكَ شَرْطٌ لَا يَنَالُ الْوَصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلُهُ

فمحا عن عين بصائرهم سيئات الأغيار، وطهر قلوبهم من درن الأكدار، حتى دخلوا جنة المعارف، التي لا يحيط بوصفها وصف واصف، تجرى من تحتها أنهار العلوم، وتنفتح منها مخازن الفهوم، ثواباً من عند الحى القيوم والله تعالى أعلم.

ولما بسط الله الدنيا على اليهود والمشركين، استدراجاً، قال بعض المؤمنين: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع والجهد، فأنزل الله تعالى:

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾

قلت: النزل - ويسكن - : ما يقدم للنازل من طعام وشراب وصلة، وانتصابه: على الحال من (جنات)، والعامل فيه: الظرف، أو على المصدر المؤكد، أى: أنزلوها نزلاً.

يقول الحق جل جلاله : « لا يغرنك أيها السامع أو أيها الرسول، والمراد: تثبيته على ما كان عليه، كقوله: ﴿فلا تطع المكذبين﴾ ، أى: دم على ما أنت عليه من عدم اغترارك بظاهر ما ترى عليه الكفار من البسط فى الدنيا، والتقلب فيها بالتجارات والزراعات، وما هم عليه من الخصب ولين عيش، فإن ذلك «متاع قليل» بلفظ فانية، ومتعة زائلة، وظلال آفلة، وسحابة حائلة. قال ﷺ : «ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعة فى اليم، فليَنظُر بِمَ يَرْجِعَ». فلا بد أن يرحلوا عنها قهراً، «ثم ما واهم» أى: مصيرهم «جهنم ويلس المهاده» ما مهدوا لأنفسهم.

والمعتبر عند الأكياس هو ما أعد الله للمتقين من الناس، قال تعالى: «لكن الذين اتقوا ربهم» وخافوا عقابه، «لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها»، هيا ذلك لهم وأعدده «نزلاً من عند الله» هذا النزول الذى يقدم للضيف، وأما ما أعد لهم بعد النزول فلا يعبر عنه لسان، ولذلك قال: «وما عند الله» من النعيم الذى لا يفنى، جسمانى وروحانى، «خير للأبرار» مما ينقلب إليه الفجار. قيل: حقيقة البر: هو الذى لا يؤذى الذر.

الإشارة: لا يغرنك أيها الفقير ما ترى عليه أهل الدنيا من اتخاذ المنازل المشيدة، والفرش الممهدة، فإن الدنيا متاعها قليل، وعزيزها قليل، وغنيها فقير، وكبيرها حقير، واعتبر بحال نبيك - عليه الصلاة والسلام -.

قال أنس رضي الله عنه: دخلت على النبي ﷺ وهو على سرير مرفل بالشريط - أى: مضاف إليه - وتحت رأسه وسادة من أدم، حشوها ليف، فدخل عليه عمر، وانحرف النبي ﷺ انحرافة، فرأى عمر أثر الشريط فى جنبه، فبكى، فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» فقال: مالى لا أبكى وكسرى وقصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا، وأنت على الحال الذى أرى، فقال له النبي ﷺ: «يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة». رواه البخارى.

وانظر ما أعد الله للمتقين الأبرار، الذين صبروا قدر ساعة من نهار، فأقصوا الى جوار الكريم الغفار فى دار القرار، «وما عند الله خير للأبرار»، ولا سيما العارفين الكبار. قال الورتجى: بين الحق - تعالى - رفعة منزل المتقين فى الجنان، ثم أبهم لطائف العناية بقوله: «وما عند الله خير للأبرار» أى: ما عنده من نعيم المشاهدة، ولطائف القرية، وحلاوة الوصلة، خير مما هم فيه من نعيم الجنة، وأيضاً: صرح فى هذه الآية ببيان مراتب الولاية، لأنه ذكر المتقين، والتقوى: تقديس الباطن عن لوث الطبيعة، وتنزيه الأخلاق عن دنس

المخالفة، وذلك درجة الأول من الولاية، والأبرار أهل الاستقامة في المعرفة، وبين أن أهل التقوى في الجنة، والأبرار في الحضرة. هـ.

ولما عاتب الحق تعالى، فيما تقدم، أهل الكتاب، وكان فيهم من لا يستحق العتاب؛ لاتباعه الحق والصواب، أخرجه الحق تعالى بقوله:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: «وإن من أهل الكتاب» كعبد الله بن سلام وأصحابه ممن أسلم من اليهود، «لمن يؤمن بالله» إيماناً حقيقياً، «وما أنزل إليكم» من القرآن، «وما أنزل إليهم» من التوراة، حال كونهم «خاشعين لله» خاضعين مخبتين وافرين بالعهد، «لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً»، كما فعل المحرفون من أحرار اليهود، «أولئك لهم أجرهم عند ربهم» أي: ما وعدوا به من تضعيف أجرهم مرتين، «إن الله سريع الحساب»؛ فيسرع إلى توفية أجرهم وإكرام منقلبهم؛ لأن الله عالم بالأعمال وما تستوجبه من الدوال، فلا يحتاج إلى تأمل ولا احتياط؛ لأنه غنى عن التأمل والاحتياط.

وقيل: نزلت في النصاري: أربعين من نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، قدموا على النبي ﷺ وأسلموا. وقيل: نزلت في النجاشي، لما نعاه جبريل إلى رسول الله ﷺ، فخرج - عليه الصلاة والسلام -، وصلى عليه، فقال المنافقون: انظروا إلى هذا، يصلى على علج^(١) نصراني، فنزلت الآية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد رأينا بعض الفقهاء حصل لهم الإيمان بخصوص أهل زمانهم، فتحققوا بولايتهم، ونالوا شيئاً من محبتهم، لكن لم تساعفهم الأقدار في صحبتهم، فظهرت عليهم آثار أنوارهم، واقتبسوا شيئاً من أسرارهم، فتدورت سريرتهم، وكملت شريعتهم، وأظهر عليهم آثار الخشوع، وأخذوا حظاً من التواضع والخضوع، متخلقين بالقناعة والورع، قد ذهب عن قلوبهم ما ابتلى به غيرهم من الجزع والهلع، فلا جرم أن هؤلاء لهم أجرهم مرتين: أجر ما تحملوا من الشريعة لنفع العوام، وأجر ما اكتسبوا من محبة القوم؛ «المرء مع من أحب». وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

(١) العلج: الرجل القوي الضخم.

ولمّا كان الصبر من الدين كالرأس من الجسد، فلو حصل للناس دائماً لم يتوجه العتاب لأحد، ختم به السورة،
التي عاتب فيها جل العباد، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

قلت : المرابطة: أن يربط هؤلاء خيولهم، وهؤلاء خيولهم، إرساداً لمن حاربهم، ثم أطلق على كل مقيم في
ثغر يدفع عن وراءه، وإن لم يكن له مركب، إذا كان بنية الدفع عن المسلمين كان بأهله أو وحده. المدار على
خلوص النية، خلاف ما قاله ابن عطية^(١)، وسيأتي صوابه^(٢) في تفسير المعنى، إن شاء الله.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا اصبروا» على مشاق الطاعات، وما يصيبكم من الشدائد
والأزمات، وعلى مجانبية المعاصي والمخالفات، وعلى شكر ما أوليتكم من مواهب العطايا «وصابروا» أي:
غالبوا الأعداء في مواطن الصبر، والثبوت في مداحض الحرب، «ورابطوا» أبدانكم وخيولكم في الثغور لتحفظوا
المسلمين من العدو الكفور، كي تفوزوا بعظام الأجر، قال ﷺ: «من رابط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل
صيام شهر وقيامه، لا يفطر ولا يفتل^(٣)» عن صلاته إلا لحاجة، ومن توفي في سبيل الله - أي: مرابطاً في سبيل
الله - أجرى الله عليه أجره حتى يقضى بين أهل الجنة وأهل النار. ومما يلحق بالرباط: «انتظار الصلاة بعد
الصلاة»، كما في الحديث.

«واتقوا الله» فيما يأمركم به وينهاكم عنه، «لعلكم تفلحون» فلاحاً لا خسران بعده أبداً.

الإشارة: (يا أيها الذين آمنوا) إيمان أهل الخصوص، (اصبروا) على حفظ مراسم الشريعة، (وصابروا) على
تحصيل أنوار الطريقة، (ورابطوا) قلوبكم على شهود أسرار الحقيقة، أو: اصبروا على أداء العبادة، وصابروا على
تحقيق العبودية، ورابطوا في تحصيل العبودية - أي: الحرية - أو: اصبروا على تحقيق مقام الإسلام، وصابروا على
دوام الإيمان، ورابطوا على العكوف في مقام الإحسان، أو: اصبروا على تخلص الطاعات، وصابروا على رفض
الحظوظ والشهوات، ورابطوا أسراركم على أنوار المشاهدات، (واتقوا الله) فلا تشهدوا معه سواه، (لعلكم تفلحون)،
بتحقيق معرفة الله. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

(١) قال ابن عطية - بعد كلام -: فأما سكان الثغور دائماً بأهلهم الذين يعتمرون ويكتبون هناك، فهم وإن كانوا حماة فليسوا بمرابطين.

(٢) في الأصول: ثوابه.

(٣) انفتل: انصرف.

سُورَةُ النَّسَاءِ

مدنية، وهي ستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفاً. وثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وأربعون كلمة. ومائة وستون آية. قاله الثعلبي. وقال البيضاوي: مائة وخمس وسبعون آية.

ومضمونها: الأمر بحفظ ستة أمور: حفظ الأموال، وحفظ الأنساب، وحفظ الأبدان، وحفظ الأديان، وحفظ اللسان، وحفظ الإيمان. بعد أن قدم الأمر بالتقوى، التي هي ملاك ذلك كله، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾

قلت: من قرأ: (والأرحام) بالنصب، فعطف على لفظ الجلالة، أي: اتقوا الأرحام أن تقطعوها، وقرأ حمزة بالخفض على الضمير من (به)؛ كقول الشاعر:

فَالْيَوْمَ قَدْ بَتَّ تَهْجُونَا وَتَشْتُمُنَا فَاذْهَبْ فَمَا بِكَ وَالْأَيَّامُ مِنْ عَجَبٍ (١)

وجمهور البصريين يمنعون العطف على الضمير إلا بإعادة الجار، فيقولون: مررت به ويزيد. وقال ابن مالك:

وَلَيْسَ عِنْدِي لَأَزْمًا إِذْ قَدْ أَتَى فِي النُّظْمِ وَالنَّثْرِ الصَّحِيحِ مُثَبَّتًا.

والنثر الصحيح هو ما قرأ به حمزة، وهذا هو التوجيه الصحيح، وأما من جعل الواو للقسم فبعيد.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الناس» أي: جميع الخلق، اتقوا ربكم فيما كلفكم به، ثم بين موجب التقوى فقال: «الذي خلقكم من نفس واحدة» يعني آدم، «وخلق منها زوجها» يعني حواء، من ضلع من أضلاعه، «وبث» أي: نشر «منهما رجالاً كثيراً ونساء» أي: نشر من تلك النفس الواحدة بنين وبنات. قال البيضاوي: واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء، إذ الحكمة تقتضي أن يكن أكثر، وذكر: «كثيراً»

(١) البيت أنشده سيبويه، انظر: شرح ابن عقيل على ألفية، باب عطف اللسق.

حملًا على الجمع، وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التي من حقها أن تخشى والنعمة الباهرة التي توجب طاعة مولاهم.

«واتقوا الله الذي تساءلون به» أي: يسأل بعضكم بعضًا فيقول: أسألك بالله العظيم، «والأرحام» أي: واتقوا الأرحام فلا تقطعوا، فمن قطعها قطعها الله، ومن وصلها وصلها الله، كما في الحديث. أو تساءلون به وبالأرحام، فيقول بعضكم لبعض: أسألك بالرحم التي بيني وبينك، أو بالقربة التي بيني وبينك. ثم هددهم على ترك ما أمروا به فقال: «إن الله كان عليكم رقيبًا» حافظًا مطلعًا شهيدًا عليكم في كل حال.

الإشارة: درجهم في آخر السورة في مدارج السلوك حتى زجهم في حضرة ملك الملوك، وأمرهم أن يتقوا ما يخرجهم عن مشاهدة ظلمة أنوار الربوبية، ثم دلاهم في أول السورة إلى التنزل لآداب العبودية بشهود آثار القدرة الإلهية، في النشأة الأولية، ليعلمهم الجمع بين آداب المراقبة ودوام المشاهدة، أو بين الفناء والبقاء.

وقد تكلم ابن جزى هنا على أحكام المراقبة، فقال: إذا تحقق العبد بهذه الآية وأمثالها، استفاد مقام المراقبة، وهو مقام شريف أصله علم وحال، ثم يثمر حالين. أما العلم: فهو معرفة العبد بأن الله مطلع عليه، ناظر إليه في جميع أعماله، ويسمع جميع أقواله، ويعلم كل ما يخطر على باله. وأما الحال: فهو ملازمة هذا العلم بالقلب، بحيث يغلب عليه ولا يغفل عنه. ولا يكفي العلم بون هذه الحال، فإذا حصل العلم والحال كانت ثمرتهما عند أصحاب اليمين: الحياء من الله، وهو يوجب بالضرورة ترك المعاصي والجد في الطاعات، وكانت ثمرتهما عند المقربين: المشاهدة، التي توجب التعظيم والإجلال لذي الجلال.

والى هاتين الثمرتين أشار الرسول ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»، فقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه» إشارة إلى الثمرة الثانية، وهي الموجبة للتعظيم، كمن يشاهد ملكًا عظيمًا فإنه يعظمه إذ ذاك بالضرورة، وقوله: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» إشارة إلى الثمرة الأولى، ومعناه: إن لم تكن من أهل المشاهدة - التي هي مقام المقربين - فاعلم أنه يراك، فكن من أهل الحياء الذي هو مقام أصحاب اليمين، فلما فسر الإحسان أول مرة بالمقام الأعلى، ورأى أن كثيرًا من الناس قد يعجزون عنه، تنزل منه إلى المقام الآخر.

واعلم أن المراقبة لا تستقيم حتى تتقدم قبلها المشاركة والمراقبة، ويتأخر عنها المحاسبة والمعاينة، فأما المشاركة فهي اشتراط العبد على نفسه التزام الطاعة، وترك المعاصي، وأما المراقبة فهي معاهدة العبد لربه على ذلك، ثم بعد المشاركة والمراقبة في أول الأمر تكون المراقبة... إلخ.

وبعد ذلك يحاسب العبد نفسه على ما اشترطه وعاهد عليه، فإن وجد نفسه قد وفى بما عاهد عليه الله يحمد الله، وإن وجد نفسه قد حلَّ عقد المشاركة ونقض عهد المراقبة، عاقب النفس عقاباً شديداً بزجرها عن العودة إلى مثل ذلك، ثم عاد إلى المشاركة والمراقبة، وحافظ على المراقبة، ثم اختبر بالمحاسبة، وهكذا يكون إلى أن يلقي الله تعالى . انتهى كلامه، وهو مقتبس من الإحياء . والله تعالى أعلم .

ثم شرع تعالى في الكلام على حفظ الأموال، وبدأ بأموال اليتامى، اعتناء بهم لضعفهم، فقال:

﴿وَأَتُوا الَّتِي هِيَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ

حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾

قلت: اليتيم: مَنْ فَقَدَ أَبَاهُ، ولا يقال فيه اليتيم عرفاً إلا قبل البلوغ، وهو هنا مجاز، أى: من كان يتيماً، والحوب: الإثم، ويقال فيه: حوباً، بالضم والفتح، مع الواو والألف، مصدر حاب حوباً وحوباً وحاباً.

يقول الحق جل جلاله: «وَأَتُوا» أى: أعطوا «الَّتِي هِيَ أَمْوَالُهُمْ» إذا بلغوا، وأنس منهم الرشد، وسماهم يتامى بعد البلوغ اتساعاً، لقرب عهدهم بالصغر، حثاً على أن يدفع إليهم أموالهم أول بلوغهم، قبل أن يزول عنهم هذا الاسم إذا أنس فيهم الرشد، ويدل على هذا ما قيل في سبب نزول الآية، وهو أن رجلاً من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له، فلما بلغ طلب مال أبيه، فمنعه، فنزلت الآية، فلما سمعها العم قال: أطلعنا الله ورسوله، ونعوذ بالله من الحوب الكبير. وقيل: إن العرب كانت لا تورث الصغار مع الكبار، فأمرُوا أن يورثوهم، وعلى هذا يكون اليتيم على حقيقته، فعلى الأول: الخطاب للأوصياء، وعلى الثانى: للعرب التى كانت لا تورث الصغار.

ثم قال: «وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ» أى: لا تبدلوا الحرام من أموالهم بالحلال من أموالكم، أو: لا تأخذوا الرفيع من أموالهم وتعطوا الخبيث مكانها من أموالكم. كان بعضهم يبدل الشاة السمينة من مال اليتيم بالمهزولة من ماله، والدرهم الطيب بالزائف. «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ» مضموماً «إِلَى أَمْوَالِكُمْ» فتنفقونها معاً، مع أن اليتيم لا يأكل كالكبير، إلا إذا كان المنفق قدراً أكله، أو لمصلحة. «إِنَّهُ» أى: الأكل، «كَانَ حُوبًا كَبِيرًا» أى: إثماً عظيماً.

الإشارة: أمر الحق جل جلاله أغنياء القلوب، وهم أكابر الأولياء الراسخون في علم الغيوب، أن يمنحوا من تعلق بهم من الفقراء والضعفاء، من الغنى بالله الذى منحهم الله، حتى لا يلتفتوا إلى سواه، وأن يقبلوا كل من أتى إليهم من العباد، سواء كان من أهل المحبة والوداد، أو من أهل المخالفة والعناد، ولا يتبدلوا الخبيث بالطيب، بحيث

يَقْبَلُونَ مِنْ وَجْدِهِ طَيْبُ الْأَخْلَاقِ، وَيُرَدُّونَ مِنْ وَجْدِهِ خَبِيثُ الْأَخْلَاقِ، فَإِنْ هَذَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِ أَهْلِ التَّوْبَةِ النَّبَوِيَّةِ، بَلْ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يَقْبَلُوا النَّاسَ عَلَى السُّوِيَّةِ، وَيَقْبَلُوا فِيهِمُ الْأَعْيَانَ، فَيَقْبَلُونَ الْعَاصِيَ طَائِعًا، وَالْكَافِرَ مُؤْمِنًا، وَالْغَافِلَ ذَاكِرًا، وَالشَّحِيحَ سَخِيًّا، وَالْخَبِيثَ طَيِّبًا، وَالْمُسِيئَ مُحْسِنًا، وَالْجَاهِلَ عَارِفًا، وَهَكَذَا؛ لَمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِكْسِيرِ، وَهِيَ الْخُمْرَةُ الْأَزْلِيَّةُ، أَيْ: الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَقْلِبَ الْأَعْيَانَ، كَمَا قَالَ ابْنُ الْفَارُضِ رحمته الله فِي وَصْفِهَا:

تَهْدِبُ أَخْلَاقَ الدَّامِي فِيَهْتَدِي بِهَا لَطَرِيقَ الْعَزْمِ مَنْ لَا لَهُ عَزْمٌ
وَيَكْرُمُ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْجُودَ كَفَّهُ وَيَحْلُمُ عِنْدَ الْغَيْظِ مَنْ لَا لَهُ حِلْمٌ

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ يعنى: حتى تتحققوا بوصول الغنى إلى قلوبهم، فإن تحققتم فخذوا ما بذلوا لكم من أموالهم. والله تعالى أعلم.

ولمّا كان الأولياء، إذا كانت تحتهم يتيممة لها مال، وخافوا أن يدخل معهم أجنبى، تزوجها أو زوجوها من أبنائهم، حرصاً على أكل مالها، ولا يقسطون لها فى صداقها، وربما أساءوا عشرتها انتظاراً لموتها، فنهاهم الله عن ذلك بقوله:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْمَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ۚ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝٢٤﴾

قلت: «ما، من شأنها أن تقع على ما لا يعقل، وهذا وقعت على النساء لقلة عقلمن حتى التحقق بمن لا يعقل (١) و (مثنى وثلاث ورباع) أحوال من (ما) ممنوعة من الصرف للوصف والعدل، أى: اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ يا معشر الأولياء ألا تعدلوا ﴿فِي الْيَنْمَى﴾ التى تحت حجركم إذا تزوجتم بهن طلباً لمالهن، مع قلة جمالهن، فتهجروهن أو تسيئوا عشرتهن، ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ من غيرهن، أو: وإن خفتم ألا تقسطوا فى صداقهن إذا أعجبكم لمالهن - الذى بيدكم - وجمالهن، فانكحوا غيرهن، ولا تنكحوهن إلا إذا أعطيتموهن صداق أمثالهن.

(١) قوله: (من شأنها أن تقع على ما لا يعقل)، فيه نظر، فإن (ما) تقع على العاقل وغير العاقل، قال تعالى عن الصالحين: «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ» (سورة ص آية ٢٤) وغير ذلك من آيات كثيرة، بل إن قول الله تعالى: «فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ» نص فى أن «ما، تقع على العاقل». أما قوله: [حتى التحقق بمن لا يعقل] فيلغظه الكثير من الآيات والأحاديث، قال تعالى: «لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى بِعِصْمٍ مِنْ بَعْضٍ» (آل عمران ١٩٥) وقال النبى ﷺ: «النساء شقائق الرجال، وللمفسرين فى الآية توجيهات آخر، أولى من توجيه شيخنا ابن عجيبة، منها: أن «ما، فى الآية موصولة أو موصوفة. راجع (تفسير: القرطبي - ابن عطية - الألوسى).

قالت عائشة - رضى الله عنها - : (هى اليتيمة تكون فى حجر وليها، فيرغب فى مالها وجمالها، ويريد أن ينكحها بأدنى صداقها، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق، وأُمرُوا أن ينكحوا ما سواهن من النساء). رواه البخارى.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : - (إن الرجل منهم كان يتزوج العشرة وأكثر - يعنى قبل التحريم - فإذا ضاق ماله أخذ من مال يتيمة) ، فقال لهم: إن خفتُم ألا تقسطوا فى اليتامى - أى: فى أموالهن - فانكحوا ما طاب لكم من غيرهن (مثنى وثلاث ورباع) أى: اثنتين اثنتين لكل واحدٍ، أو ثلاثاً ثلاثاً، أو أربعاً أربعاً، ولا تزيدوا، فمَنع ما كان فى الجاهلية من الزيادة على الأربع، وهو مُجمع عليه بنص الآية، ولا عبرة بمن جاوز تسعاً لظاهر الآية؛ لأن المراد التخيير بين تلك الأعداد، لا الجمع، ولو أراد الجمع لقال تسعاً، ولم يعدل عن ذلك إلى ما هو أطول منه وأقل بياناً.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بين الاثنتين أو الثلاث أو الأربع، فاقصروا على واحدة، أو على ما ملكت أيمانكم من قليل أو كثير؛ إذ لا يجب العدل بينهم، ﴿ذلك﴾ الاقتصار على الواحدة ﴿أدنى﴾ أى: أقرب ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أى: تجوروا أو تميلوا، أو ألا تجاوزوا ما فرض عليكم من العدل، أو أدنى ألا يكثر عيالكم فتفتقروا، وهى لغة حمير. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الحق تعالى جعل أوليائه أصنافاً عديدة؛ فمنهم من غلب عليه فيض العلوم، ومنهم من غلب عليه هجوم الأحوال، ومنهم من غلب عليه تحقيق المقامات. قال الشيخ أبو العباس المرسى رحمته الله : كان الجديد رحمته الله قطباً فى العلوم، وكان أبو يزيد رحمته الله قطباً فى الأحوال، وكان سهل بن عبد الله قطباً فى المقامات. هـ. أى: كل واحد غلب عليه واحد من ذلك، مع مشاركته للآخر فى الباقي، فينبغى لكل واحد أن يخوض فى فنه الذى خصه الله به ولا يتصدى لغيره. فقال لهم الحق - جل جلاله - من طريق الإشارة: فإن خفتُم يا مَنْ غلبت عليهم الأحوال أو المقامات، ألا تقسطوا فى يتامى العلوم التى اختص بها غيركم، فانكحوا ما طاب لكم من ثيبات الأحوال وأبكار الحقائق، كثيرة أو قليلة، فإن خفتُم أن تغلبكم الأحوال، أو التنزل فى المقامات، ولا تعدلوا فيها، فالزموا حالة واحدة ومقاماً واحداً، وهو المقام الذى ملكه وتحقق به، فإنه أقرب ألا ينحرف عن الاعتدال؛ لأن كثرة الأحوال تضر بالمرید كما هو مقرر فى فنه. والله تعالى أعلم.

ولمّا أمر بالنكاح أمر ببذل الصداق، فقال:

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾

قلت: «نحلة»: مصدر من «آتوهن»، لأنها في معنى الإيتاء، يقال: نحله كذا نحلة ونحلا؛ إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا توقع عوض ولا حكم حاكم، والضمير في «منه»، يعود على الصداق أو على «الإيتاء»، و(نفساً) تمييز، و(هنيئاً مريئاً): صفتان لمصدر محذوف، أى: أكلاً هنيئاً، وهو من هئو الطعام ومرو، إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه، وقيل الهنيء: ما يلذه الإنسان، والمرىء: ما تحمد عاقبته.

يقول الحق جل جلاله للأزواج: «وآتوا النساء» التى تزوجتموهن «صدقاتهن نحلة» أى: عطية مَبْتَلَةٌ^(١)، لا مطل فيها ولا ظلم، «فإن طبن لكم عن شيءٍ من الصداق، وأعطيته لكم عن طيب أنفسهن «فكلوه هنيئاً» لا تبعة عليكم فيه، «مريئاً»: سائغاً حلالاً لا شبهة فيه، روى أن ناساً كانوا يتحرجون أن يقبل أحدهم من زوجته شيئاً، فنزلت. وقيل: الخطاب للأولياء، لأن بعضهم كان يأكل صداق محجورته، فأمرُوا أن يعطوهن صداقهن، إلا إن أعطيتهم شيئاً عن طيب أنفسهن، والله تعالى أعلم.

الإشارة: وآتوا النفوس حقوقها من الراحة وقوت البشرية، نحلة، ولا تكلفوها فوق طاقتها، فإن طبن لكم عن شيء من الأعمال أو الأحوال، بانشرح صدر ونشاط، فكلوه هنيئاً مريئاً، فإن العباداة مع النشاط والفرح بالله أعظم وأقرب للدوام، وهذا فى حق النفوس المطمئنة، وأما النفوس الأمارة فلا يداسبها إلا قهرية المجاهدة مع السياسة؛ لتلا تمل، أو تقول: من أقامه الحق تعالى فى حال من الأحوال أو مقام من المقامات فليلزمه، وليقم حيث أقامه الحق، ويعطيه حقه، فإن طاب وقته لحال من الأحوال فليأكله هنيئاً مريئاً. فالفقير ابن وقته، ينظر ما يبرز له فيه من رزقه، فكل ما وجد فيه قلبه فهو رزقه، فليبادر إلى أكله لتلا يفوته رزقه منه. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم نهى الأوصياء عن تمكين اليتامى من أموالهم قبل الرشد، فقال:

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا

لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

قلت: «قيماً»: مصدر قام قياماً وقيماً، وأصله: قواماً، قلبت الواو ياء.

(١) البتل: القطع

(٢) قرأ نافع وابن عامر، قيماً، وقرأ الجمهور، قياماً..

يقول الحق جل جلاله للأوصياء: «ولا تؤتوا السفهاء» التي تحت حضانتكم «أموالكم» أى: أموالهم التي فى أيديكم، وإنما أضاف أموال اليتامى لهم حقاً على حفظها وتنميتها كأنها مال من أموالهم، أى: ولا تمكثوا السفهاء من أموالهم التي جعلها الله فى أيديكم «قيماً» لمعاشهم، تقومون بها عليهم، ولكن احفظوها، واتجروا فيها، واجعلوا رزقهم وكسوتهم فيها باعتبار العادة، فإن طلبوها منكم فعدوهم وعداً جميلاً، «وقولوا لهم قولاً معروفاً» أى: كلاماً ليناً بأن يقول له: حتى تكبر وترشد لتصلح للتصرف فيها. وشبه ذلك. وإنما قال: (وارزقوهم فيها) دون «منها»؛ لأن «فيها» يقتضى بقاءها بالتنمية والتجارة حتى تكون محلاً للرزق والكسوة دون «منها»، وقيل: الخطاب للأزواج، نهاهم أن يعمدوا إلى ما خولهم الله من المال فيعطوه إلى نساءهم وأولادهم، ثم ينظرون إلى أيديهم. وإنما سماهن سفهاء استخفاً بعقلهن، كما عبر عنهن بـ «ماء» التي لغير العاقل^(١).

وروى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما خلقت النار للسفهاء - قالها ثلاثاً - ألا وإن السفهاء النساء إلا امرأة أطاعت قيمها^(٢)». وقالت امرأة: يا رسول الله: سميتنا السفهاء! فقال: «الله تعالى سماكن فى كتابه»^(٣)، يشير إلى هذه الآية. وقال أبو موسى الأشعري رضى الله عنه: (ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها^(٤))، ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه، ورجل أعطى سفيهاً ماله، وقد قال الله تعالى: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم». قلت: إنما منعوا من إجابة الدعاء لتفريطهم فى مراسم الشريعة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا ينبغي للشيخ أن يطلع المريد على أسرار التوحيد، وهى أسرار المعانى التي جعلها الله تعالى قائمة بالأشياء، حتى يكمل عقله، ويتحقق أدبه، ويظهر صدقه، فإذا استعجلها قبل وقتها فليعده وعداً قريباً، وليقل له قولاً معروفاً، فكم من مريد استعجل الفتح قبل إبانة فعوقب بحرمانه، وكم من مريد اطلع على أسرار الحقيقة قبل كمال خدمته فطرد أو قتل، ووقتها هو حين تبرز معه فتأخذه الحيرة، اللهم إلا أن يراه الشيخ أهلاً لحملها؛ لرجحان عقله وكمال صدقه، فيمكنه منها قبل أن تبرز معه، ثم يريه فيها، وهذا الذى شهدناه من أسيافنا لشدة كرمهم - رضى الله عنهم وأرضاهم - ورزقنا حسن الأدب معهم، فأطلق الحق تعالى الأموال بطريق الإشارة على أسرار المعانى، وأمر الشيوخ أن يرزقوهم منها شيئاً فشيئاً بالتدريب والتدريج، وأن يكسوهم بالشرائع، ويحتمل أن تبقى الأموال

(١) راجع التعليق على تفسير الآية الثالثة من سورة النساء.

(٢) ذكره ببحر ابن كثير فى تفسيره، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) ذكره الألوسى فى تفسيره من رواية مجاهد وابن عمر عن أنس. وقال الطبرسى: (لى فى صحته شك).

(٤) يحمل سوء الخلق هنا على ما يطعن فى العفة والحياء. وإلا فظاهر هذا الكلام مخالف لقول النبي ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة» إن كره منها خلفاً رضى منها آخر.

على ظاهرها، ويكون أمر الشيوخ أن يمنعوا المریدین من أخذ الأموال قبل التمكين. أشار إلى هذا الورتجی، فانظره.

ثم ذكر الحق تعالى وقت دفع أموال الیتامی لهم، فقال:

﴿وَابْتَلُوا الیتامی حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝﴾

قلت: الابتلاء: الاختبار، وآنس: أبصر. والرشد هو كمال العقل بحيث يعرف مصالح نفسه وتبدير ماله من غير تبذير ولا إفساد. و«إسرافا وبدارا»: حالان من «الواو»، أو مفعولان لأجله، و«أن يكبروا» مفعول ببدار.

يقول الحق جل جلاله للأوصياء: واختبروا «الیتامی» قبل البلوغ بتتبع أحوالهم في تصرفاتهم، بأن يدفع لهم الدرهم والدرهمان، فإن ظهر عليهم حسن التصرف زادهم قليلاً قليلاً، وإن ظهر عليهم التبذير كفاً علمهم المال، «حتى إذا بلغوا النكاح»، وهو البلوغ بعلامته، «فإن آنستم» أي: أبصرتهم «منهم رشداً»، وهو المعرفة بمصالحه وتبدير ماله، وإن لم يكن من أهل الدين - واشترطه قوم، «فادفعوا إليهم» حينئذ «أموالهم» من غير تأخير. «ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا» أي: لا تأكلوها مسرفين ومبشرين كبرهم فتزول من يديكم، أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم، «ومن كان غنياً فليستعفف» عن أكلها في أجرة قيامه بها، «ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف» بقدر حاجته وأجر سعيه، وعنه عليه السلام: أن رجلاً قال له: إن في حجرى يتيماً أفأكل من ماله؟ قال: «بالمعروف، غير متأثلاً» (١) مالا ولا واق مأكلاً بماله.

«فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا» في قبضها منكم «عليهم»، فإنه أنفى للتهمة وأبعد من الخصومة، وهو ندب، وقيل: فرض، فلا يصدق في الدفع إلا ببينة، «وكفى بالله حسيباً» أي: محاسباً، فلا تخالفوا ما أمرتم به، ولا تجاوزوا ما حد لكم.

وإنما قال: «حسيباً»، ولم يقل: «شهيداً»، مع مناسبتة، تهديداً للأوصياء لئلا يكتموا شيئاً من مال الیتامی، فإذا علموا أن الله يحاسبهم على التقير والقطمير، ويعاقبهم عليه، انزعجوا عن الكتمان. والله تعالى أعلم.

(١) أي: غير جامع.

الإشارة: ينبغي للشيخ أن يختبر المريد في معرفته وتحقيق بغيته، فإذا بلغ مبلغ الرجال وتحققت فيه أوصاف الكمال، بحيث تحقق فناؤه، وكمل بقاؤه، وتمت معرفته، فيكون تصرفه كله بالله ومن الله وإلى الله، يفهم عن الله في كل شيء، ويأخذ النصيب من كل شيء، ولا يأخذ من نصيبه شيئا، قد تحلى بحلية الورع، وزال عنه الجزع والطمع، وزال عن قلبه خوف الخلق وهم الرزق، واكتفى بنظر الملك الحق، يأخذ الحقيقة من معدنها، والشرعة من موضعها، فإذا تحققت فيه هذه الأمور، وأنس رشفه، فليطلق له التصرف في نفسه، وليأمره بتربية غيره، إن رآه أهلا لذلك، ولا ينبغي أن يحجر عليه بعد ظهور رشفه، ولا يسرف عليه في الخدمة قبل رشفه، مخافة أن يزول من يده.

فإن كان غنيا عن خدمته فليستعفف عنه، وليجعل تربيته لله اقتداء بأنبياء الله. قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، وإن كان محتاجا إليها فليستخدمه بالمعروف، ولا يكلفه ما يشق عليه، فإذا دفع إليه السر، وتمكن منه، وأمره بالتربية أو التذكير فليشهد له بذلك، ويوصى بخلافته عنه، كي تطمئن القلوب بالأخذ عنه، (وكفى بالله وليا وكفى به نصيرا).

ولما أمر الحق تعالى بحفظ أموال اليتامى أمر بحفظ أموال النساء، وذكرهن بعدهن لمشاركتهن لهم في الضعف، فقال:

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ﴿٧﴾

قلت: جملة «مما قل.. إلخ، بدل (مما ترك)، ونصيبا: مصدر مؤكد كقوله: ﴿فريضة من الله﴾ أي: نصب لهم نصيبا مقطوعا، أو حال، أو على الاختصاص، أعلى: نصيبا مقطوعا.

يقول الحق جل جلاله: وإذا مات ميت وترك مالا فللرجال نصيب مما ترك آباؤهم وأقاربهم، وللنساء نصيب مما ترك والدهن وأقاربهن كالأخوة والأخوات، مما ترك ذلك الميت قل أو كثر، (نصيبا مفروضا) واجبا محتما.

روى أن أوس بن ثابت الأنصاري توفي، وترك امرأة يقال لها: (أم كحة) وثلاث بنات، فأخذ ابنا عم الميت المال، ولم يعطيا المرأة ولا بناته شيئا، وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير ولو كان ذكرا، ويقولون: إنما يرث من يحارب ويذب عن الموروث، فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ وهو في مسجد الفضية، فقالت:

يا رسول الله! إن أوس بن ثابت مات، وترك بنات ثلاثاً، وأنا امرأته، وليس عندي مال أنفق عليهن، وقد ترك أبوهن مالا حسناً، وهو عند سويد وعرفجة، فدعاهما النبي ﷺ، فقالا: يا رسول الله ولدها لا يركب فرساً، ولا يحمل سلاحاً، لا يئكأ عدوياً، فقال النبي ﷺ: «انصرفوا حتى أرى ما يحدث الله تعالى»، فانصرفوا. فنزلت الآية. فاثبت الله لهن في الآية حقاً، ولم يبين كم هو. فأرسل النبي ﷺ إلى سويد وعرفجة: «لا تفرقا من مال أوس شيئاً، فإن الله تعالى جعل لبناتهن نصيباً، ولم يبين كم هو حتى أنظر ما ينزل الله تعالى»، فأنزل الله تعالى بعد: «يوصيكم الله في أولادكم».. إلى قوله... «الفوز العظيم». فأرسل إليهما: «أن ادعيا إلى أم كحة الثمن، وإلى بناتهن الثلاثين، ولكما باقى المال».

الإشارة: كما جعل الله للنساء نصيباً من الميراث الحسى جعل لهن نصيباً من الميراث المعنوى، وهو السر، إن صحبت أهل السر، وكان لها أبو الروحانية، وهو الشيخ، فلرجال نصيب مما ترك لهم أشياخهم من سر الولاية، وللنساء كذلك على قدر ما سبق في القسمة الأزلية، قليلة كانت أو كثيرة، نصيباً مفروضاً معيناً في علم الله وقدره، وقد سواهن الله تعالى مع الرجال في آية السير، فقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى آخر الآية، فمن صار منهن مع الرجال أدرك ما أدركوا. وبالله التوفيق.

ثم أمر الورثة بالإحسان إلى من حضر معهم القسمة، فقال:

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾

﴿٨﴾

قلت: الضمير في (منه): يعود على المقسوم المفهوم من القسمة.

يقول الحق جل جلاله: «وإذا حضر» معكم في قسمة التركة ذوو القرابة ممن لا يرث، كالأخوال والخالات والعمات، «واليتامى والمساكين، فأرزقوهم» أى: فأعطوهم شيئاً من المال المقسوم تطيباً لقلوبهم. فإن كان المال لغيركم، أو كان الورثة غير بالغين، فقولوا لهم «قولا معروفا»، بأن تعلموهم أن المال لغيرنا، ولو كان لنا لأعطيناكم، والله يرزقنا وإياكم.

واختلف في هذا الأمر، هل للندب - وهو المشهور - أو للوجوب ونسخ بآية المواريث؟ وقيل: لم ينسخ، وهى مما تهاون الناس بها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله لخواص أحبائه: إذا دارت الكؤوس بخمرة الملك القدوس، وتعاطيتم قسمتها بين أرواحكم حتى امتلأت جميع أشباحكم، وروت منها عروقكم، وحضر معكم من ليس من أبناء جنسكم، ممن لا يحل شرب خمرتكم، فإن كان من أهل المحبة والوداد، أو من له بكم قرابة واستناد، فلا تحرموه من شراب خمرتكم، ولا من نفحات نسمتكم، فإنكم قوم لا يشقى جليسكم، فازرقوه من ثمار علومكم، واسقوه من شراب خمرتكم، وذكروهم بالله، وقولوا له ما يدلّه على الله، ويوصله إلى حضرة الله، وهذا هو القول المعروف، الذي هو بالنصح موصوف.

رُوى أن أبا هريرة رضي الله عنه نادى في سوق المدينة: يا معشر التجار، اذهبوا إلى المسجد، فإن تركة محمد تقسم فيه، لتأخذوا حَقَمَ منها مع الناس قبل أن تنفذ، فذهب التجار إلى المسجد النبوي، فوجدوه معموراً بالناس، بعضهم يصلي، وبعضهم يتلو، وبعضهم يذكر، وبعضهم يعلم العلم، فقالوا: يا أبا هريرة، ليس هنا ما ذكرت من قسم التركة فقال لهم: (هذه تركة محمد صلى الله عليه وسلم)، لا ما أنتم عليه من جمع الأموال) أو كما قال رضي الله عنه.

ثم حث الأوصياء على الرفق بأولاد الناس، الذي هم في حجرهم، فقال:

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا

اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١﴾﴾

قلت: «لو» - هنا - شرطية، تخلص للاستقبال، وجوابها: (خافوا)، وحذف مفعول «يخشى» للعموم، فيصدق بخشية العذاب وخشية العتاب وخشية البعد عن الأحباب، على حسب حال المخاطبين بهذه الخشية.

يقول الحق جل جلاله للأوصياء الذين في ولايتهم أولاد الناس: «وليخش» الذين يقولون يتامى الناس، فليحفظوا مالهم، وليحسنوا تنميته لهم ولا يضيعوه، وليخافوا عليهم الضيعة، كما يخافون على أولادهم، فإنهم لو ماتوا وتركوا «ذرية ضعافاً خافوا عليهم»، فكما يخافون على أولادهم بعدهم كذلك يخافون على أولاد الناس، «فليتقوا الله» في شأنهم، وليحفظوا عليهم أموالهم، وليرفقوا بهم ويلطفوهم في الكلام، كما يحبون أن يلاطف بأولادهم، «وليقولوا» لهم «قولا سديدا» أي: عدلاً صواباً بالشفقة وحسن الأدب.

وقيل: الخطاب لمن حضر المريض عند الإيصاء فيقولون له: قدم لنفسك، اعتق، تصدق، أعط كذا، حتى يستغرق ماله، فنهاهم الحق - تعالى - عن ذلك، وقال لهم: كما تخافون الضيعة على أولادكم بعدكم خافوا على أولاد الناس، فليتقوا الله في أمر المريض بإعطاء ماله كله، «وليقولوا له قولا سديدا»: عدلاً، وهو الثلث، وقيل: للمؤمنين كلهم عند موتهم، بأن ينظروا للورثة، فلا يسرفوا في الوصية بمجاوزة الثلث. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أمر الحق - جل جلاله - أهل التربية النبوية إذا خافوا على أولادهم الروحانيين أن ينقطعوا بعد موتهم، أن يمدوهم بالمدد الأبهر، ويدلوهم على الغنى الأكبر، حتى يتركوهم أغنياء بالله، قد اكتفوا عن كل أحد سواه، مخافة أن يسقطوا بعد موتهم في يد من يلعب بهم، فليتقوا الله في شأنهم، وليدلوهم على ربهم، وهو القول السديد.

وينسحب حكمها على أولاد البشرية، فمن خاف على أولاده بعد موته، فليتق الله وليكثر من طاعة الله، وليحسن إلى عباد الله، في أشباحهم وأرواحهم أما أشباحهم فيطعمهم مما خوله الله، ففي بعض الأثر عنه عليه الصلاة والسلام: «ما أحسن عبد الصدقة في ماله إلا أحسن الله الخلافة على تركته». وأما الإحسان إلى أرواحهم، فيدلهم على الله، ويرشدهم إلى طاعة الله، ويعلمهم أحكام دين الله. فمن فعل هذا تولى الله حفظ ذريته من بعده، فيعيشون في حفظ ورعاية وعز ونصر، كما هو مشاهد في أولاد الصالحين، قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ وتذكر قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾.

وقال القشيري في هذه الآية: إن الذي ينبغي للمسلم أن يدخر لعياله التقوى والصلاح، لا المال، لأنه لم يقل فليجمعوا لهم المال، وليكثروا لهم العقار والأسباب، وليخلفوا العبيد والأثاث، بل قال: ﴿فليتقوا الله﴾ فإنه يتولى الصالحين. هـ المراد منه.

ثم ذكر الحق تعالى وعيد من يأكل مال اليتيم، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ

سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

قلت: (ظلمًا): تمييز، أو مفعول لأجله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا﴾ من غير موجب شرعي، ﴿إنما يأكلون في بطونهم نارًا﴾، أي: ما يجر إلى النار ويؤول إليها.

وعن أبي برزة أنه رضي الله عنه قال: «يبعث الله أقوامًا من قبورهم تتأجج أفواههم نارًا»، فقيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «ألم تر أن الله يقول: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا﴾». أي: يحترقون في نار، وأي نار! والصلَّى: هو الشيء، تقول: صليت الشيء: شويته، وأصليته وصليته، وذكر البطون مبالغة وتهجين لحالهم.

الإشارة: حذر الحق - جل جلاله - أهل الدعوى، الذين نصبوا أنفسهم للشيخوخة، وادعوا مقام التربية، مع كونهم جهالا بالله، محجوبين عن شهود أسرار التوحيد، أن يأخذوا أموال الضعفاء، الذين تعلقوا بهم؛ لأنهم إنما يدفعون لهم ذلك طمعاً في الوصول إلى الله. وهم ليسوا أهلاً لذلك، فإذا أكلوا ذلك فإنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً، وهو تكليف الحجاب، وزيادة العنت والتعب، إن أقبل عليهم الناس فرحوا واستبشروا، وإن أدبروا عنهم حزنوا وغضبوا، فأى عذاب أعظم من هذا!!

فتحصل من أول الآية إلى آخرها، أن الحق - تعالى - أمر أهل الغنى الأكبر، وهم الذين أهلهم للتربية النبوية، بأن سلكوا الطريق وأشرقت عليهم شمس التحقيق على يد شيخ كامل، بالاستغفار، ولا يأخذوا إلا قدر الحاجة، من أموال من انتسب إليهم، وسد الباب لأهل الدعوى، لأنه من أكل أموال الناس بالباطل، لأنه يعطى على وجه لم يوجد في المعطى إليه، إلا إذا كان على وجه الصدقة المحضنة، مع أنه قد يكون غير مستحق لها. والله تعالى أعلم.

ثم بين الحق تعالى قسمة التركة، فقال:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ...﴾

يقول الحق جل جلاله: (يوصيكم الله) أى: يأمركم ويعهد إليكم، «فى أولادكم»، أى: فى بيان ميراثهم، ثم فصله فقال: «للذكر مثل حظ الأنثيين»، أى يعد كل ذكر بأنثيين، فإذا ترك ابناً وبنات، كانت من ثلاثة، للذكر سهمان وللبنات سهم، وإذا ترك ابناً وبنتين فله قسمتان، ولكل واحدة قسمة، وهكذا، قال ابن جزى: هذه الآية نزلت بسبب سعد بن الربيع، وقيل: بسبب جابر بن عبد الله، إذ عاده رسول الله ﷺ فى مرضه؛ ورفعت ما كان فى الجاهلية من ترك توريث النساء والأطفال. وقيل: نسخت الوصية للوالدين والأقربين.

وإنما قال: «يوصيكم» بلفظ الفعل الدائم، ولم يقل: أوصاكم، تنبيهاً على نسخ ما مضى، والشرع فى حكم آخر، وإنما قال: (يوصيكم) بالاسم الظاهر، أى: (الله) ولم يقل: نوصيكم، لأنه أراد تعظيم الوصية، فجاء بالاسم الذى هو أعظم الأسماء، وإنما قال: (فى أولادكم) ولم يقل: فى أبنائكم؛ لأن الابن يقع على الابن من الرضاغة، وعلى ابن البنت، وعلى الابن المتبنى، وليسوا من الورثة، فإن قيل: هلا قال: للأنثيين مثل حظ الذكر، أو للأنثى

نصف حظ الذكر؟، فالجواب، أنه بدأ بالذكر لفضله، ولأن القصد ذكر حظه، ولو قال للأنثيين مثل حظ الذكر لكان فيه تفضيل للإناث. (١).

الإشارة: كما أوصى الله - تعالى - في أولاد البشرية، أوصى على أولاد الروحانية، ويقع التفضيل في قسمة الإمداد على حسب التعظيم والمحبة والعطف من الشيخ، فبقدر ما يقع في قلب الشيخ، يسرى إليه المدد، فقد يأخذ مثل حظ رجلين أو أكثر، على حسب ما سبق في القسمة الأزلية. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكم البنات إذا انفردن، فقال:

﴿... فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ...﴾

قلت: أنت الضمير في (كن) باعتبار الخبر، أو يعود على المتروكات، وما قاله الزمخشري بعيد. ومن قرأ (واحدة) بالرفع، ففاعل كان التامة، ومن قرأ بالنصب، فخير كان.

يقول الحق جل جلاله: فإن كان المتروك من الأولاد «نساء» ليس معهن ذكور «فوق اثنتين» أي: اثنتين فما فوق، «فلهن ثلثا ما ترك»، والباقي للعاصب، وأخذ ابن عباس بظاهر الآية، فأعطاهما النصف كالواحدة، والجمهور على خلافه، وأن لفظ «فوق» زائدة كقوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ وقيل: أخذ الثنتين بالسنة، وإن «كانت» بنتاً «واحدة فلها النصف»، والباقي للعاصب، وفيه دليل على أن الابن يأخذ جميع المال إذا انفرد؛ لأن له مثل حظ الأنثيين.

الإشارة: انظر البنت، إذا انفردت أخذت النصف، وإذا اجتمعت مع غيرها نقص لها، كذلك أمداد الأشياء، من انفرد عندهم وحده، أخذ أكثر مما إذا اجتمع مع غيره، لانجماع نظر الشيخ إليه، وكان شيخنا رحمته يقول له شيخه: مازال يأتيك الرجال - أي: إخوانك من الفقراء - وكان وحده، فيقول له: الله لا يجعل أحدا يأتي حتى نشبع. وكذلك أيضاً، انفرد العبد بالعبادة، في وقت الغفلة، مددها أعظم من كونه مع غيره، كالمجاهد خلف الفارين. وكذلك قال عليه الصلاة والسلام: «طوبى للغرباء»، والله تعالى أعلم.

(١) راجع تفسير ابن جزى.

ثم ذكر ميراث الأبوين، فقال:

﴿... وَلَا بَوِيَّهَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ...﴾

قلت: (السدس) مبتدأ، و(لأبويه) خبر، و(لكل واحد)، بدل من (أبويه)، ونكتة البديل إفادة أنهما لا يشتركان في السدس، ولو قال: لأبويه السدس؛ لأوهم الاشتراك.

يقول الحق جل جلاله: إذا مات الولد، وترك أبويه، فلكل واحد منهما السدس إن كان له ولد ذكر أو أنثى، واحداً أو متعدداً، للصلب أو ولد ابن، فكلهم يرثون الأبوين للسدس، «فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه» فقط، «فلأُمِّهِ الثُّلُثُ»، والباقي للأب، «فإن كان له إخوة» أى: أخوان فأكثر، سواء كانوا أشقاء أو لأب أو لأم، أو مختلفين، «فلأُمِّهِ السدس»، والباقي للأب، ولا شيء للأخوة معه.

وأخذ ابن عباس بظاهر الآية، فلم يحجبها للسدس باثنين، وجعلهما كالواحد، واحتج بأن لفظ الإخوة جمع، وأقله ثلاثة، وأجيب بأن لفظ الجمع، يقع على الاثنين كقوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾، «إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ»، ولقوله ﷺ: «الْإِثْنَانِ فَمَا فَوْقَهُمَا جَمَاعَةٌ». وهذا كله، بعد إخراج الوصية وقضاء الدين، وإنما قدم الحق - تعالى - الوصية على الدين، مع كون الدين مقدماً في القضاء من رأس المال؛ لأن أرباب الدين أقوىاء، بخلاف الموصى لهم، فقدمهم اعتناء بهم.

الإشارة: الروح كالأب، والبشرية كالأم، وعقد الصحبة مع الشيخ كالولد، فإن كان الإنسان له صحبة مع شيخ تربية، يعنى له ورد منه، فالبشرية والروحانية سواء، إذ كلاهما يتهدبان ويتنوران بالأدب والمعرفة؛ الأدب للبشرية، والمعرفة للروحانية، إذا استمد بالطاعة الظاهر استمد الباطن، وبالعكس، وإن لم يكن عقد الصحبة موجوداً كان ميراث البشرية من الحس أقوى كميراث الأم مع فقد الولد، أو تقول: الإنسان مركب من حس ومعنى، فالحس كالأم، والمعنى كالأب، لأن المعانى قائمة بالحس، والروح تستمد منهما معاً، فهي كالولد بينهما، فإن كانت الروح حية بوجود المعرفة، استمدت منهما معاً، وإن كانت ميتة، كان استمدادها من الحس أكثر، كموت الولد في ميراث الأم.

أو تقول: الإنسان بين قدرة وحكمة، القدرة كالأب، والحكمة كالأم، والقلب بينهما كالولد، فإن وجد القلب استمدت الروح من القدرة والحكمة، واستوى نظرها فيهما. وإن فقد القلب غلب على الروح ميراث الحكمة، كفقد

الولد في ميراث الأم، وإن كان للقلب إخوة من الأنوار والأسرار يتقوى بهما فللروح من ميراث الحكمة السدس، والباقي كله للقدرة، ولا يعرف هذا إلا من حقق معرفة القدرة والحكمة، ذوقاً وكشفاً، والأ... فليسلم لأهل المعرفة. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى حكمة تقسيم تركة الأب والإبن على ما فرض، وأن ذلك لا يعلمه إلا هو، فقال:

﴿... أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ

اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: قد بينت لكم ما يرث الأب من ابنه، وما يرث الولد من أبيه، ولو وكلت ذلك إليكم لأفسدتكم القسمة؛ لأنكم لا تدرون أيهم أقرب نفعا للآخر، هل الأب أقرب نفعا لابنه، فتعطوه الميراث كله دون ولد الميت، أو الولد أقرب نفعا لأبيه، من الأب لابنه، فتخصونه بالإرث، ففرضت ميراث الأب وميراث الولد، ولم نكل ذلك إليكم. «فريضة» حاصلة «من الله»، «إن الله كان عليمًا» بمصالح العباد «حكيماً» بما فرض وقدر.

وقال ابن عباس: لا تدرون أيهم أطوع لله عز وجل من الآباء والأبناء، وأرفعكم درجة يوم القيامة، لأن الله تعالى يشفع المؤمنين في بعضهم بعضاً، فيشفع الولد في والديه، إن كان أرفع درجة منهما، فيرفعهما الله إليه، ويشفع الوالدين في ولدهما، إن كانا أرفع درجة منه، فيرتفع إليهما لتقر بذلك أعيدهما. هـ. بالمعنى.

الإشارة: الإنسان لا تقوم روحانيته إلا ببشريته، وبشريته إلا بروحانيته، فلا يدرى أيهما أقرب له نفعا، لأن البشرية محل للعبودية، والروحانية محل لشهود عظمة الربوبية، ولا بد للجمع بينهما، وكذلك الحس، لا يقوم إلا بالمعنى، والمعنى لا يقوم إلا بالحس، فلا تدرى أيهما أقرب نفعا لك أيها المريد، فتؤثره، وإن كانت المعاني هي المقصودة بالسير، لكن لا تقوم إلا بوجود الحس، فلا بد من ملاحظته.

وقال الورتجبي هنا ما نصه: أشكل الأمر من تلك الطائفتين، أيهم يبلغ درجة الولاية والمعرفة الموجبة مشاهدة الله وقربته، التي لو وقعت ذرة منها لأحد من هذه الأمة لينجو بشفاعته سبعون ألفاً بغير حساب، أي: اخدموا آباءكم وارحموا أولادكم، فربما يخرج منهم صاحب الولاية، ليشفع لكم عند الله تعالى، وحكمة الإبهام ها هنا؛ ليشمل الرحمة والشفقة على الجمهور، لتوقع ذلك الولي الصادق. هـ. قلت: فسر الآباء والأبناء بالحسين، وتشمل الآية أيضا الآباء والأبناء المعنويين والروحانيين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ميراث الزوج والزوجة، فقال:

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ تَرَيَنَّ لَهُنَّ وَلَدًا فَإِنْ كَانَ لهنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تَوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ... ﴾

يقول الحق جل جلاله : «ولكم» أيها الأزواج، من ميراث أزواجكم «نصف» ما تركن «إن لم يكن لهن ولد. فإن كان لهن ولد» وارث، ذكراً أو أنثى، مفرداً أو متعدداً، من بطلها أو من صلب بنيتها أو بنى بنيتها وإن سفل، منكم أو من غيركم، «فلكم الربع مما تركن»، بعد قضاء الدين وإخراج الوصية.

«ولهن» أي: الزوجات من ميراث الزوج «الربع» مما ترك «إن لم يكن» له ولد لاحق، ذكراً أو أنثى، على وزان ما تقسم في الزوجة، «فإن كان لكم ولد فلهن الثمن» تنفرد به إن كانت واحدة، ويقسم بينهما إن تعددن، ولا ينقص لأهل السهام مما فرض الله لهم إلا ما نقصه العول على مذهب الجمهور، خلافاً لابن عباس، فإنه لا يقول بالعول.

فإن قيل: لم كرر قوله: «من بعد وصية» مع ميراث الزوج وميراث الزوجة، ولم يذكره قبل ذلك إلا مرة واحدة في ميراث الأولاد والأبوين؟ فالجواب: أن الموروث في ميراث الزوج هو الزوجة، والموروث في ميراث الزوجة هو الزوج، فكل واحدة قضية مستقلة، فلذلك ذكر ذلك مع كل واحدة، بخلاف الأول؛ فإن الموروث فيه واحد، ذكر حكم ما يرث منه أولاده وأبواه، وهي قضية واحدة، فلذلك قال فيه: «من بعد وصية» مرة واحدة. قاله ابن جزي. قال البيضاوي: فرض للرجل بحق الزواج ضعف ما للمرأة كما في النسب، وهكذا قياس كل رجل وامرأة، إذا اشتركا في الجهة والقرب، ولا يستلني منه إلا أولاد الأم والمعتق والمعتقة. هـ.

الإشارة: إذا ماتت النفس، ولم تبق لها بقية، وورثت الروح ما كان لها من العلوم الكسبية: العقلية والعقلية، وأضافته إلى مآلها من العلوم الوهبية، فانقلب الجميع وهبياً، قال بعض شيوخ أشياخا: (كنت أعرف أربعة عشر علماً، فلما دخلت علم الحقيقة سرطت ذلك كله، فلم يبق إلا الكتاب والسنة)، أو كما قال. وقال أبو سليمان الداراني: إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام، جالت في الملكوت، ثم عادت إلى صاحبها بطرائف العلوم، من غير أن يؤدي إليها عالم علماً.

فإن بقي للنفس بقية، نقص ميراث الروح منها، بقدر البقية، كما أن الزوج ينقص ميراثه مع الفرع، وكذلك إذا ماتت الروح بالرجوع عن طريق الجد، ورثت النفس ما كان لها من العلوم الوهبية، والمعاني والأسرار القدسية، فتأكلها، وتردها فقلية حسية، بعد أن كانت وهبية ذوقية، فتتحسس المعاني، وتتكلف الأواني. والعياذ بالله من السلب بعد العطاء، إلا أن ميراث النفس من الروح أقوى، فإن بقي للروح شيء من الحياة، نقص ميراث النفس منها، كنقص الزوجة مع الفرع من ميراث الزوج، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ميراث الأخ للأخ، فقال:

﴿... وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

قلت: الكلاله: انقطاع النسل، بحيث لم يبق للميت فرع ولا أصل، لا ذكر ولا أنثى، وهو مصدر من تكلله النسب، إذا أحاط به كالإكليل، لأن ورثته أحاطوا به وليسوا منه. ونظم بعضهم معنى الكلاله، فقال:

إِنْ أَمْرٌ يُسْأَلُ عَنْ كَلَالَةٍ هُوَ انْقِطَاعُ النَّسْلِ لَا مَحَالَةَ
لَا وَالِدٌ يَبْقَى وَلَا مَوْلُودٌ قَدْ هَلَكَ الْأَبْنَاءُ وَالْجُودُودُ

فتحتمل أن تطلق هنا على الميت، أو على الورثة، أو على الورثة، أو على القرابة أو على المال. فإن كانت على الميت، فإعرابه خبر كان، و(يورث) صفة، أو (يورث) خبر كان، و(كلالة) حال من الضمير في (يورث)، أو كان، تامة، و(يورث) صفة و(كلالة) حال من الضمير. وإن كانت على الورثة، فهو خبر كان، على حذف مضاف؛ أي: ذا كلالة، وإن كانت الورثة فهو مصدر في موضع الحال، وإن كانت القرابة، فهو مفعول من أجله، أي: يورث من أجل القرابة. وإن كانت للمال، فهو مفعول ثانٍ ليورث، وكل من هذه يحتمل أن تكون «كان، تامة أو ناقصة. قاله ابن جزي. و(غير مضار)، منصوب على الحال، أو العامل فيه (يوصي)، و(مضار) اسم فاعل، ووصية: مصدر ليوصي، أو مفعول (مضار).

يقول الحق جل جلاله: «وإن كان الميت رجلاً أو امرأة، يورثان كلالة، بحيث لا فرع لهما ولا أصل، قد انقطع عمود نسبهما، ولهما أخ أو أخت لأم «فلكل واحد منهما السدس». «فإن كانوا أكثر من ذلك فهم

شركاء في الثلث»، الذكر والأنثى سواء، لأن الإدلاء للميت بمحض الأنوثة، ومفهوم الآية: أنهما لا يرثان مع الأم والجدة، كما لا يرثان مع البنت وبنت الابن، إذ ليس حينئذ بكلالة، وإنما قيدنا الأخ والأخت بكونهما للأم لأن الأخ الشقيق أو للأب سيأتي في آخر السورة. والأخت تقدم أن لها النصف، وأيضاً: قد قرأ سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود: «وله أخ أو أخت لأم».

وهذا كله «من بعد وصية يوصي بها أو دين» حال كونه «غير مضار» في الوصية أو الدين، كالوصية بأكثر من الثلث، أو للوارث، أو فراراً منه، فإن علم أنه قصد الإضرار، رد مازاد على الثلث، واختلف في رد الثلث على قولين. قال ابن جزي. «وصية من الله»، أي: نوصيكم وصية، أو غير مضار وصية من الله. قال ابن عباس: (الإضرار في الوصية من الكبائر). «والله عليم» بمصالح عباده، يقسم المال على حسب المصلحة، «حليم» لا يعاجل بالعقوبة من خالف حدوده.

الإشارة: اعلم أن الأخوة في الشيخ كالأخوة في النسب، لأنهم يرضعون من ثدي واحدة ولبن واحد، فإن مات أحدهم، ورث أخوه الممد الذي كان يأخذه من شيعه، وكذا إذا رجع - فإنه موت - فينقلب الممد إلى أخيه، ومثاله كماء فرق على قوايس، فإذا انسدت إحدى القوايس رجع الماء إلى الأخرى، فإن كانوا أكثر من واحد فهم شركاء في ذلك الممد، والله تعالى أعلم.

ثم حذر الحق - تعالى - من مخالفة ما حُد في الوصايا والمواثيق، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا مَاتَ أَحَدٌ مِنْكُمْ فَاذْكُرُوا الْوَصَايَا الَّتِي نَزَّلَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يُدْخِلُ فِيهَا لَكُمْ مَالَكُمْ وَلَكُمْ نِسَائِكُمْ وَأَوْلَاؤُكُمْ فَذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَاذِينَ ۚ وَاللَّهُ يَخْبُرُ الْمُتَّقِينَ ۝١٣﴾
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا مَاتَ أَحَدٌ مِنْكُمْ فَاذْكُرُوا الْوَصَايَا الَّتِي نَزَّلَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يُدْخِلُ فِيهَا لَكُمْ مَالَكُمْ وَلَكُمْ نِسَائِكُمْ وَأَوْلَاؤُكُمْ فَذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَاذِينَ ۚ وَاللَّهُ يَخْبُرُ الْمُتَّقِينَ ۝١٤﴾

قلت: توحيد الضمير في (ندخله) ^(١) مراعاة للفظ (من). وجمع الحال في (خالدین) مراعاة للمعنى. و(خالدین) و(خالدًا): حال مقدرة من ضمير (ندخله)، كقولك: مررت برجل معه صقر صائدًا به غدا، وليس صفتين لجنات ونارا، وإلا لوجب إبراز الضمير لأنهما جرتا على غير من هما له.

(١) قرأ نافع وابن عامر، ندخله، باللون، وقرأ الآخرون بالياء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿تلك﴾ الأحكام التي شرعناها لكم في أمر الوصايا والمواريث، هي «حدود الله» حدّها لكم لتقفوا معها ولا تتعدوها «ومن يطع الله» فيما أمر به وحده، ﴿ورسوله﴾ فيما شرّعه وسنّه «تدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها». ذلك هو الفوز أي: الفلاح «العظيم»، «ومن يعص الله» فيما أمر ونهى، «ورسوله» فيما شرّعه، «ويتعد حدوده» التي حدّها، فتجاوز إلى متابعة هواه، «تدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين». وهذا إذا أنكر مشروعيتها فيكون كافراً، والأكان عاصياً في حكم المشيئة، ومذهب أهل السنة أنه لا يخلد، وحملوا الآية على الكافر، أو عبارة عن طول المدة، كما في قاتل النفس. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد حدّ الحق - جل جلاله - لأهل الشريعة الظاهرة حدوداً قام ببيانها العلماء، وحدّ لأهل الحقيقة - وهي سر الولاية - حدوداً، قام بها الأولياء، فمن قام بحدود الشريعة الظاهرة كان من المؤمنين الصالحين، ومن تعداها كان من العاصين الظالمين، ومن قام بحدود الحقيقة الباطنية، وصحب أهلها كان من المحسنين العارفين المقربين، ودخل جنة المعارف، ومن تعدّ حدود الحقيقة، أو لم يصحب أهلها كان من عوام أهل اليمين، وله عذاب الحجاب في غم الحساب، وقال في الحاشية: في حد حدوده إشارة للعبودية، في إخراج كل عن نظره واختياره، ثم انقياده وذلته لحكم ربه، والوقوف عند حدوده.

وقال الورنجي: قيل: (تلك حدود الله) أي: الإظهار من الأحوال للمريدين على حسب طاقتهم لها، فإن التعدى فيها يهلكهم، وقال أبو عثمان: ما هلك امرؤ لزم حده ولم يتعد طوره. هـ. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما فرغ الحق تعالى من الأمر بحفظ الأموال، شرع في الكلام على حفظ الأنساب، وقدم الكلام أولاً على الزنى؛ إذ به تختلط الأنساب، ويختل نظام حفظها، ثم تكلم بعد على النكاح وما يحرم من النساء وما يحل، فقال:

﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَكَاذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

يقول الحق جلا جلاله: «و» النساء «اللاتي يأتين الفاحشة» أي: الزنى، سُمي فاحشة لفحش قبحه وبشاعة فعله شرعاً، «من نسائكم» المسلمات، «فاستشهدوا عليهن» أي: اطلبوا من رماهن بذلك أن يشهدوا

«عليهن أربعة منكم»، أى: من عدول المؤمنين يرونهما كالمرد في المكحلة، وإنما جعلوا أربعة مبالغة في الستر على المؤمن، أو ليكون على كل واحد اثنان، «فإن شهدوا» عليهن بذلك «فأمسكوهن في البيوت»، واجعلوه سجنًا لهن «حتى يتوفاهن الموت» أى: يستوفى أجلهن الموت، أو يتوفاهن ملك الموت، «أو يجعل الله لهن سبيلاً» كتعيين الحد المخلص من السجن، وكان هذا في أول الإسلام ثم نسخ بما في سورة النور من الحدود، ويحتمل أن يراد التوصية بإمساكنهن بعد أن يُجلدن كي لا يعُذَّن إلى الزنى بسبب الخروج والتعرض للرجال.

واكتفى بذكر حدّهن، بما في سورة النور، وهذا الإمساك كان خاصاً بالنساء بدليل قوله «واللذان يأتيانها منكم» أى: الزانى والزانية منكم، (فأذوهما) بالتوبيخ والتفريع - (فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما) أى: اقطعوا عنهما الأذى، أو أعرضوا عنهما بالإغماض عن ذكر مساوئهما.

قيل: إن هذه الآية سابقة على الأولى نزولاً، وكان عقوبة الزنى الأذى ثم الحبس ثم الجلد، وقيل، الحبس في المساحقات، والإيذاء في اللواطين، وما في سورة النور في الزناة. والذي يظهر، أن الحكم كان في أول الإسلام في الزنا: الإمساك للنساء في البيوت بعد الإيذاء بالتوبيخ، فتمسك في بيتها حتى تموت، أو يجعل الله لها سبيلاً بالتزوج بمن يعفها عنه. والإيذاء للرجال بالتعيير والتفريع والتحجيم حتى تتحقق توبته، ثم نسخ ذلك كله بالحدود، وهو جلد البكر مائة وتغريبه عاماً ورجم المحصن. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد، إذا طغى عليه نفسه، وأرادت ارتكاب الفواحش، أن يستشهد عليها الحفظة، الذين يحفظون عليه تلك المعاصي، فإن لم تستح، فليعاقبها بالحبس في سجن الجوع والخلة والصمت، حتى تموت عن تلك الشهوات، أو يجعل الله لها طريقاً بالوصول إلى شيخ يغيبه عنها، أو بوارد قوى من خوف مزعج أو شوق مفلق، فإن تابت وأصلحت، أعرض عنها واشتغل بذكر الله، ثم يغيب عما سواه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى وقت التوبة التي تُقبل، فقال:

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَوْبُوا مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٨ ﴾

يقول الحق جل جلاله: «إنما التوبة» التي يستحق «على الله» قبولها فضلاً وإحساناً هي «للذين يعملون السوء» أي: المعاصي متلبسين «بجهالة» أي: سفاهة وجهل وسوء أدب، فكل من اشتغل بالمعصية فهو جاهل بالله، قد انتزع منه الإيمان حتى يفرغ، وإن كان عالماً بكونها معصية، «ثم يتوبون» بعد تلك المعصية «من قريب» أي: من زمن قريب، وهو قبل حضور الموت؛ لقوله بعد: «حتى إذا حضر أحدهم الموت»، وقوله - عليه الصلاة والسلام -: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرُغْ» وإنما جعله قريباً لأن الدنيا سريعة الزوال، متاعها قليل وزمانها قريب، «فأولئك يتوب الله عليهم» تصديقاً لوعده المتقدم، «وكان الله عليماً» بإخلاصهم التوبة، «حكيماً» في ترك معاقبة التائب، إذ الحكمة هي وضع الشيء في محله.

وعن الحسن: قال: قال النبي ﷺ: «لما أهبط إبليس قال: وعزتك وعظمتك لا أفارق ابن آدم حتى تفارق روحه جسده، قال الله تعالى: وعزتي وعظمتي لا أحجب التوبة عن عبدي حتى يغرغرها». وعن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وعزتك لا أبرح أغوى عبادك، مادامت أرواحهم في أجسادهم. قال الله تعالى: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

قال ابن جزى: وإذا تاب العبد توبة صحيحة بشروطها، فيقطع بقبول توبته عند جمهور العلماء. وقال أبو المعالي: يغلب ذلك على الظن ولا يقطع. هـ.

«وليس التوبة» مقبولة «للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت» أي: بلغت الحلقوم «قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار» فلا توبة لهم، «أولئك أعتدنا» أي: أعدنا وهماً «لهم عذاباً أليماً»، قال البيضاوي: سوى الحق تعالى بين من سوف التوبة إلى حضور الموت من الفسقة، وبين من مات على الكفر في نفى التوبة؛ للمبالغة في عدم الاعتداد بها في تلك الحالة، وكأنه يقول: توبة هؤلاء وعدم توبة هؤلاء سواء. وقيل: المراد بالذين يعملون السوء: عصاة المؤمنين، وبالذين يعملون السيئات: المنافقون؛ لتضاعف كفرهم، وبالذين يموتون: الكفار. هـ.

الإشارة: توبة العوام ليست كتوبة الخواص، إن الله يمهّل العوام ترغيباً لهم في الرجوع، ويعاقب الخواص على التأخير على قدر مقامهم في القرب من الحضرة، فكلما عظم القرب عظمت المحاسبة على ترك المراقبة، منهم من يسامح له في لحظة، ومنهم في ساعة، ومنهم في ساعتين، على قدر المقام، ثم يعاتبهم ويردهم إلى الحضرة.

وقال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي في حاشيته: «إنما التوبة على الله» أي: إنما الهداية بعد الذلة، على الله؛ لأنه الذي يخلص من قهره بكرمه الفياض وبرحمته التي غلبت غضبه، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ

رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ ﴿١٩﴾ ، ونبه على وقوع الذنب بهم قهراً، ثم تداركهم بالهداية والإنابة، فضلاً على علمه بتربيتهم وتدريبهم لمعرفة العلم والحكمة بقوله: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ . هـ .

ثم شرع في أحكام النكاح، وبدأ بالعضل؛ لأنه يتعذر معه العقد، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَاءِ آتِيَتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ...﴾

قلت: أصل العضل: التضيق، يقال: عضلت الدجاجة ببيضها إذا ضاقت، ثم أطلق عرفاً على منع المرأة من التزوج .

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لا يحل لكم أن تملعوا النساء من النكاح لثرتوا ما لهن ﴿كرهاً﴾ . قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل، وله امرأة، كان قريبه من عصبته أحق بها من نفسها ومن غيره، فإن شاء تزوجها من غير صداق، إلا الصداق الأول الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئاً، وإن شاء عضلها وضيق عليها لتفتدى منه بما ورثت من الميت، أو تموت فيرثها، وإن ذهبت إلى أهلها قبل أن يلقى ولي زوجها ثوبه عليها فهي أحق بنفسها. فكانوا على ذلك في أول الإسلام، حتى توفي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري، وترك امرأته، كبشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها فطرح ثوبه عليها، ثم تركها ولم يقربها، ولم ينفق عليها، يضارها لتفتدى منه، فأنت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله؛ إن أبا قيس توفي وورث نكاحي ابنه، وقد أضربني وطول علي، فلا هو ينفق علي ولا يدخل بي، ولا يخلي سبيلي، فقال لها النبي ﷺ: «أعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر الله». قالت: فانصرفت وسمعت بذلك النساء في المدينة فأتين النبي ﷺ وهو في مسجد الفضيل، فقلن: يا رسول الله: ما نحن إلا كهيلة كبشة، غير أنه لا ينكحنا الأبناء، ونكحنا أبناء العم، فنزلت الآية. فمعنى الآية على هذا: لا يحل لكم أن تجعلوا النساء يورثن عن الرجال كما يورث المال.

وقيل: الخطاب للأزواج الذين يسكنون المرأة في العصمة ليرثوا مالها، من غير غبطة بها، وإنما يمسكها انتظاراً لموتها، وقيل: الخطاب للأولياء الذين يمنعون ولياتهم من التزوج ليرثوهن دون الزوج.

﴿ولا﴾ يحل لكم أيضاً أيها الأزواج أن «تعضلوهن»، أي: تحبسوهن؛ من غير حاجة لكم فيهن؛ «لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن» من الصداق افتداء فيه بإضراره. قال ابن عباس رضى الله عنه: (هي أيضاً في الأزواج الذين

يمسكون المرأة ويسيتون عشرينها حتى تفتدى بصداقها)، «إلا أن يأتين بفاحشة مبينة»، كالنشوز وسوء العشرة وعدم العفة، فيحل له حينئذ حبسها حتى تفتدى منه بصداقها، فيأخذه خلعا على مذهب مالك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا يحل للمريد أن يضيق على نفسه تضيقاً يفضي إلى العطب، فالنفس كالبهيمة: علفها واستخدامها، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا يكن أحدكم كالمنبت، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

فبعض الناس يسمعون أن من ضيق على نفسه أورثته العلوم، فيضيق عليها تضيقاً فاحشاً ليرث ذلك منها كرهاً، وإنما يمنعها من شهواتها الزائدة على قيام البنية، إلا أن تأتي بفاحشة مبينة، بحيث تطغى عليها، فيضيق عليها بما لا يفضي إلى الهلاك، وهذا كله إنما ينفعه إذا صح ملكه لها بالعقد الصحيح من الشيخ الكامل، وإلا كان تبعه باطلاً، كمن يريد أن يرى امرأة غيره أو دابة غيره. والله تعالى أعلم.

ثم أمر الحق تعالى بحسن العشرة مع النساء، فقال:

﴿... وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا

كَثِيرًا﴾

يقول الحق جل جلاله: وعاشروا النساء «بالمعروف» بأن تلاطفوهن في المقال وتجلوا معهن في الفعال، أو يتزين لها كما تتزين له. قال الورتجبي: كونوا في معاشرتهن في مقام الأنس وروح المحبة، وفرح العشق حين أنتم مخصوصون بالتمكين والاستقامة والولاية، فإن معاشرة النساء لا تليق إلا في المستأنس بالله، كالنبي ﷺ وجميع المستأنسين من الأولياء والأبدال، حيث أخبر ﷺ عن كمال مقام أنسه بالله ورؤيته لجمال مشاهدته حيث قال: «حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وجعلت قرّة عيني في الصلاة»^(١).

ثم قال: عن ذي النون: المستأنس بالله يستأنس بكل شيء مليح ووجه صبيح، وبكل صوت طيب وبكل رائحة طيبة. ثم قال: عن ابن المبارك: العشرة الصحيحة: ما لا يورثك الندم عاجلاً ولا أجلاً، وقال أبو حفص: المعاشرة بالمعروف: حسن الخلق مع العيال فيما ساءك. هـ.

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فاصبروا﴾ فاصبروا «فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً» إما ولداً صالحاً أو عاقبة حسنة في الدين. قال ابن عمر: إن الرجل يستخير الله فيخار له فيسخط على ربه، فلا يلبث أن ينظر في العاقبة فإذا هو قد خير له. هـ. حكى أن أبا الإمام مالك ﷺ تزوج امرأة فدخل عليها فوجدها سوداء، فبقى متفكراً.

(١) الحديث أخرجه أحمد والنسائي والحاكم وغيرهم: بدون لفظ: «ثلاث». وقال الحافظ ابن حجر: وليس في شيء من طرقه لفظ «ثلاث». انظر: الفتح السماوي.

ولم يقربها، فقالت له: هل استخرت ربك؟ فقال: نعم، فقالت: أنتهم ربك، فدخل بها، فحملت بالإمام مالك صاحب المذهب. وقال ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة - أى لا يبيغضها - إن سخط منها خلقاً رضى منها آخر». قال الورتجبي: قيل: غيب عنك العواقب؛ لئلا تسكن إلى مألوف، ولا تفر من مكروه.

الإشارة: إذا ظهرت النفس من البقايا، وكملت فيها المزاي، وانتقلت بكليتها إلى مولاها، وجب الإحسان إليها والصلح معها ومعاشرتها بالمعروف، فإنما تجب مجاهدتها مادامت كافرة فإذا أسلمت وانتقلت وجب محبتها والإحسان إليها. فإن كرهتها في حال اعوجاجها فجاهدتها ورضتها حتى استقامت كان في عاقبة ذلك خير كثير، وعادت تأتي إليك بالعلوم الدنية تشاهد فيها أسراراً ربانية.

قال الورتجبي: كل أمر من الله - سبحانه - جاء على مخالفة النفس امتحاناً واختباراً، والنفس كارهة في العبودية فإذا ألزمت عليها حقوق الله بنعت الرياضة والمجاهدة واستقامت في عبودية الله، أول ما يطلع على قلبك أنوار جنان القرب والمشاهدة، قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾، وفي أجواف ظلام المجاهدة للعارفين شمس المجاهدات وأقمار المكاشفات. هـ. المراد منه.

فإذا لم يصبر العبد على أذى زوجته، وأراد فراقها، فلا بد أن يؤدي إليها صداقها، كما أشار إلى ذلك الحق جل جلاله، فقال:

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

قلت: «بهتاناً»: حال، أو على إسقاط الخافض.

يقول الحق جل جلاله: «وإن أردتم أن تبدلوا زوجاً «مكان زوج» أخرى؛ بأن تطلقوا الأولى وتزوجوا غيرها، وقد كنتم أعطيتهم «إحداهن قنطاراً» أو أقل أو أكثر، «فلا تأخذوا منه شيئاً» بل أدوه لها كاملاً. ثم ويختم على ما كانوا يفعلون في الجاهلية، فقال: «أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً»، أى: مباهتين وأثمين، أو بالبهتان والإثم الظاهر، والبهتان: الكذب الذي يبهت المكذوب عليه، روى أن الرجل كان إذا أراد أن يتزوج امرأة

جديدة، بهت التي عنده بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه في تزوج الجديدة، فلهذا عن ذلك.

ثم استعظم ذلك فقال: «وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض» بالمماس والجماع حتى تقرر الصداق واستحقته بذلك، وقد «أخذن منكم ميثاقاً غليظاً» وهو حسن الصحبة، أو الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان، أو تمكينها نفسها منه، فإنها ما مكنته إلا لوفاء العهد في الصداق ودوام العشرة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا كان العبد مشغلاً بجمع دنياه، عاكفاً على حظوظه وهواه، ثم استبدل مكان ذلك الانقطاع إلى مولاه والاشتغال بذكر الله، حتى أفضى إلى شهود أنوار قدسه وسناؤه، فلا ينبغي أن يرجع إلى شيء خرج عنه لله. ولا يلتفت إلى ما ترك من أمر دنياه، فإن الرجوع في الشيء من شيم اللئام وليس من شأن الكرام، وتأمل ما قاله الشاعر:

إذا انصرفتَ نفسى عن الشيء لم تكن إليه بوجهٍ آخر الدهر تُقبلُ

وكيف تأخذ ما خرجت عنه لله، وقد أفضيت إلى شهود أنوار جماله وسكنى حماه، فاتحد عندك كل الوجود، وكل شيء عن عين بصيرتك مفقود، بعد أن أخذ عليك موثيق العهود، ألا ترجع إلى ما كان يقطعك عن حضرة الشهود، وبالله التوفيق. وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم شرع يتكلم على ما يحرم من النساء، فقال:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾

قلت: أوقع دما، على ما يعقل لقلة عقل النساء، كما تقدم (١)، أو مصدرية، والاستثناء منقطع أو متصل على وجه المبالغة في التحريم، أى لا تنكحوا ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف لأبائكم إن قدرتم عليه، فهو كقول الشاعر:

لا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم بهنٌ فلولٌ من قراعِ الكتائبِ (٢)

يقول الحق جل جلاله: ولا تتزوجوا ما تزوج به «آباؤكم من النساء» بالعقد في الحرائر والوطء في الإماء، ﴿إلا ما قد سلف﴾ فإن الله قد عفا عنكم بعد فسخه وردّه، ﴿إنه كان فاحشة﴾ عظيمة عند الله،

(١) راجع: تفسير قوله تعالى: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى﴾ الآية (٣) من هذه السورة.

(٢) البيت للناطقة الزبياني.

ما أحله لأحد من الأمم قبلكم، «ومقتناً» أى: ممقوتاً فاعله عند الله وعند ذوى المروءات من عباد الله، وكان يسمى ولد الرجل من امرأة أبيه مقيناً ومقنياً. «وسام سبيلاً»، ونس طريقاً لمن يريد أن يسلكه بعد التحريم. فالمراد باللكاح فى الآية: العقد، فعلى هذا لا تحرم المرأة على الولد إذا زنا بها أبوه على المشهور، قال فى الرسالة: ولا يحرم بالزنا حلال هـ.

الإشارة: ما جرى فى آباء البشرية يجرى فى آباء الروحانية من طريق الأدب لا من طريق الشرع، فلا ينبغي للمريد أن يتزوج بامرأة شيخه، مات عنها أو طلقها، فإن ذلك قبيح ومقت عند أرباب الأدب، وأما بنت الشيخ فإن قدر على القيام بتعظيمها فلا بأس، وقد تزوج سيدنا على - كرم الله وجهه - بنت سيدنا رسول الله ﷺ، لكن السلامة فى الترك أكثر.

وهنا إشارة أخرى أرق، وهى أن يشير بالنساء إلى الأحوال، فلا ينبغي للفقير أن يتعاطى أحوال الشيخ، ويفعل مثله. فإن الشيخ فى مقام وهو فى مقام، فإذا رجع الشيخ إلى الأسباب وتعاطى العلويات، فلا يقتدى به. إلا أن يدرك مقامه، وكان شيخ شيخنا يقول: (لا تقتدوا بالأشياخ فى أفعالهم، وإنما اقتدوا بهم فى أقوالهم، فإن أقوالهم لكم ولهم، وأفعالهم خاصة بهم). إلا ما قد سلف لهم من الأحوال فى حال سيرهم، فخذوها وسيروا من حيث ساروا، حتى تدركوا ما أدركوا، وافعلوا ما شئتم. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية المحرمات، فقال:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... ﴾

قلت: «كتاب الله عليكم»: مصدر مؤكد. أى: كتب الله ذلك كتاباً، أو على الإغراء.

يقول الحق جل جلاله: «حرمت عليكم» من النساء أصناف: منها بالنسب ومنها بالرضاع ومنها بالمصاهرة: فأما التي تحرم بالنسب فهي «أمهاتكم»، وهي الأم، والجدة من الأم ومن الأب ما علون، «وبناتكم» وهي البنت وبنت الابن، وبنت البنت ما سفلن، «وأخواتكم» وهي الأخت الشقيقة والتي للأب والأخت للأم، (وعماتكم) وهي أخت الوالد وأخت الجد ما علت، شقيقة أو لأب أو لأم، «وخالاتكم» وهي أخت الأم وأخت الجدة ما علت، شقيقة أو لأب أو لأم، «وبنات الأخ» الشقيق، أو للأب، وما تناسل منهم. «وبنات الأخت»، فيدخل كل ما تناسل من الأخت الشقيقة أو للأب أو للأم.

والضابط في ذلك: أنه يحرم على الرجل أصوله وإن علت، وفصوله وإن سفلت، وفصول أبويه ما سفلت، وأول فصل من كل أصل متقدم على أبويه.

ثم ذكر ما يحرم بالرضاع، فقال: «وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة» ذكر تعالى صنفين، وحرمت السنة كل ما يحرم من النسب. قال ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ» فيدخل الأصناف السبعة، وهي الأم من الرضاع والبنت والأخت والعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت.

ثم ذكر ما يحرم بالمصاهرة، فقال: «وأمهات نسائكم»، وتقدمت زوجة الأب، وسيأتي حليلة الابن، «وريائكم اللاتي في حجوركم من نسائكم» لا مفهوم لهذا القيد، لكنه جرى مجرى الغالب، فهي محرمة، كانت في حجره أم لا، على قول الجمهور، وروى عن علي رضي الله عنه أنه أجاز نكاحها إن لم تكن في حجره. وأما قوله: «اللاتي دخلتم بهن» فهو معتبر إجماعاً، فلو عقد على المرأة ولم يدخل بها، فله طلاقها وبأخذ ابنتها، ولذلك قال: «فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم» أن تنكحوهن.

«وحلائل أبنائكم» وهي التي عقد عليها الابن فحلت له، فتحرم على الأب بمجرد العقد. والحاصل: أن زوجة الأب وزوجة الابن وأم الزوجة يحرمون بالعقد، وأما بنت المرأة فلا تحرم إلا بالدخول بأمرها، فالعقد على البنات يحرم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرم البنات. وقوله تعالى: «الذين من أصلا بكم» احتراز به من زوجة المتبنى فلا تحرم حليلته، كقضية زيد مع رسول الله ﷺ.

«وأن تجمعوا بين الأختين»، شقيقتين أو للأب أو للأم، وهذا في النكاح، وأما في الملك دون الوطاء فلا بأس، أما في الوطاء فمنعه مالك والشافعي وأبو حنيفة، وأجازه الظاهرية، «إلا ما قد سلف» أي: في الجاهلية، فقد عفا عنكم، «إن الله كان غفوراً رحيماً»، قال ابن عباس: (كانت العرب تحرم كل ما حرمت الشريعة إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فلذلك ذكر الحق تعالى: «إلا ما قد سلف» فيهما.

﴿وَحَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى - «المحصنات من النساء» وَهُنَّ اللَّاتِي فِي عَصْمَةِ أَزْوَاجِهِنَّ، فَلَا يَحِلُّ نِكَاحُهُنَّ مَا دُمْنَ فِي عَصْمَةِ الزَّوْجِ، «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» مِنَ الْغَنِيمَةِ، فَإِذَا سَبَّيْتُ الْكَافِرَةَ، وَلَهَا زَوْجٌ، جَازَ لِمَنْ مَلَكَهَا أَنْ يَطَّأَهَا بِالْمَلِكِ بَعْدَ الْإِسْتِبْرَاءِ، قَالَ فِي الْمَخْتَصَرِ: وَهَدَمَ السَّبْيُ النِّكَاحَ، إِلَّا أَنْ تُسَبَّى وَتُسَلَّمَ فِي عِدَّتِهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا، وَقَدْ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَيْشًا إِلَى أَوْطَاسٍ، فَأَصَابُوا سَبِيًّا مِنَ الْعَدُوِّ، وَلَهُنَّ أَزْوَاجٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَتَأْتَمُّوا مِنْ غَشْيَانِهِنَّ، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ مُبَيِّحَةً لَذَلِكَ، «كِتَابُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» أَيْ: كَتَبَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ كِتَابًا، وَهُوَ مَا حَرَّمَ فِي الْآيَةِ مِنَ النَّسَاءِ.

الإشارة: اعلم أن الإنسان لا يصير كاملاً عارفاً حتى يولد ثلاث مرات بعد الأم الحسية، أولها: خروجه من بطن حب الدنيا الدنية، ثم من الغفلة والشهوات الجسمانية، ثم من ضيق الأكوان الظلمانية، إلى قضاء المشاهدة والمعايضة، وقال بعض الأولياء: (ليس منا من لم يولد مرتين): فاعتبر الأولى والثالثة، فإذا خرج الإنسان من هذه البطون حرم الله عليه نكاحها والرجوع إليها .

وكذا يحرم عليه الرجوع إلى ما تولد منه من الزلات، والأحوال الظلمانية، وما كان ألفه وتواخى معه من البطالات والمألوفات، وما وجد عليه أسلافه من التعصبات والحميات والرئاسات، ولا فرق بين ما واجهه من ذلك من قبل الآباء والأمهات، وكذلك ما ارتضع من ثدى الشهوات من إبان الغفلة، وتراكم الأكثات^(١)، فليبادر إلى تحریمها، وفطام نفسه عنها، قبل تحكّمها، كما قال البوصيري رحمه الله:

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تَهَمَّلَهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرُّضَاعِ وَإِنْ تَقَطَّعَهُ يَنْفَطِمِ

وكذا يحرم عليه، صحبة من ارتضع معه في هذا الثدى قبل الفطام؛ من الأخوة والأخوات، وكذا أمهات الخطايا، وهي حب الدنيا والرياسة والجاه، وكذلك حرمت عليكم رباب العلائق والعوائق، لتدخلوا بلاد الحقائق، فإن لم تكونوا من أهل الحقائق فلا جناح عليكم إذ كنتم من عوام الخلائق، وكذلك يحرم عليكم ما حل لأبناء جنسكم من تعاطي الأسباب والاشتغال بها عن خدمة رب الأرباب، وأن تجمعوا بين حب الدنيا ومحبة المولى. قال الشافعي رحمه الله: (من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها، فقد كذب).

إلا ما قد سلف في أيام البطالة، وكذا يحرم على المرید المتجرد المستشرف على المعاني تعاطي العلوم الظاهرة، التي دخل بها أهل الظاهر وأفتنوا بكارتها - إلا ما ملكه قبل التجريد، فلا يضره إن غاب عنها في أسرار التوحيد، والله تعالى أعلم بأسرار غيبه.

(١) الأكثات: الأغطية.

ثم ذكر الحق تعالى ما يحل من النساء، فقال:

﴿... وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ۖ
فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ
بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾

قلت: «وأُحِلَّ» عطف على الفعل العامل في «كتاب الله عليكم، أي: كتب الله عليكم تحريم ما ذكر، وأُحِلَّ ما سوى ذلك. ومن قرأ بالبناء للمفعول فعطف على «حرمت». و(أن تبتغوا) مفعول لأجله، أي: إرادة أن تبتغوا. أو بدل من (وراء ذلكم). و(محصنين) حال من الواو. والسفاح: الزنا، من السفح وهو الصب، لأنه يصب المني في غير محله.

يقول الحق جل جلاله: «وأُحِلَّ لكم» أن تتزوجوا من النساء ما سوى ذلك المحرمات، وما سوى ما حرمة السنة بالرضاع، كما تقدم، والجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها، فقد حرمتها السنة، وإنما أُحِلَّ لكم نكاح النساء إرادة أن تطلبوا بأموالكم الحلال، فتصرفوها في مهر النساء.. حال كونكم «محصنين». أي: أعف متحصنين بها من الحرام، «غير مسافحين» أي: غير زناة، تصبون الماء في غير موضعه، «فما استمتعتم به منهن» أي: من تمتعتم به من المنكوحات «فآتوهن أجورهن» أي: مهرهن، لأن المهر في مقابلة الاستمتاع «فريضة» أي: مفروضة مقدرة، لا جهل فيها ولا إبهام، «ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به» من زيادة على المهر المشروط، أو نقص منه، «من بعد الفريضة»، التي وقع العقد عليها، «إن الله كان عليماً» بمصالح خلقه، «حكيماً» فيما شرع من الأحكام.

وقيل قوله: «فما استمتعتم به...» إلى آخره. نزل في نكاح المتعة، التي كانت ثلاثة أيام في فتح مكة، ثم نسخ بما روى عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه أباحه، ثم أصبح يقول: «أيها الناس، إني كنتُ أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء، ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة». وهو النكاح المؤقت بوقت معلوم، سمي به لأن الغرض منه مجرد الاستمتاع، وتمتعها بما يعطى لها. وجوزها ابن عباس رضي الله عنهما ثم رجع عنه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله من طريق الإشارة: إذا خرجتم من بطن الشهوات، ورفضتم ما كنتم عليه من العوائد والمألوفات، وزهدتم فيما يشغل فكرتكم من العلوم الرسمية، حل لكم ما وراء ذلك من العلوم اللادنية

والأسرار الربانية، التي هي وراء طور العقول ولا تدرك بالطروس^(١) ولا بالنقول، وإليها أشار ابن الفارض رحمته حيث قال:

ولا تكُ مِمَّنْ طَيَّشَتْهُ طُروسه بحيثُ استخفت عقله واستفرت
فثم وراء النقلِ علمٌ يدقُّ عن مدارك غايات العقولِ السليمة
تلقَّيته متى وعلى أخذته ونفسي كانت من عطاءٍ مُدَّة

أردنا منكم أن تبتغوا ببذل أموالكم ومهجمكم تلك العلوم المقدسة، والأسرار المطهرة، متحصنين من دنس الحس والهوى، غير مباشرين لنجاسة الدنيا، ولا مصطحبين مع أهلها، لتتمتعوا بشهود أسرارنا، وأنوار قدسنا، فما استمتعتم به من ذلك، فصونوه عن غير أهله، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من إعطائه لأهله، من بعد حفظه عن لا يستحقه، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكم من عجز عن صداق الحرة، فقال:

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَنَيْتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَاَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ ... ﴾

قلت: الطول: الغنى والسعة، ويطلق على العلو، مصدر طال طَوْلاً، وهو مفعول «يستطيع»، أو مصدر له - لتقارب معانها، و(أن ينكح) بدل منه على الأول، أو مفعول به على الثاني، أى: لأن ينكح، و(محصنات غير مسافحات)، حالان، والعامل فيه: (انكحوهن)، والخدن: الخليل.

يقول الحق جل جلاله: «ومن لم يستطيع منكم طَوْلاً» أى: لم يجد غنى يقدر به على نكاح ﴿المحصنات﴾، أى: الحرائر ﴿المؤمنات﴾، فليتزوج من ما ملكت أيمانكم، من الإماء المؤمنات دون الكافرات، فإن أظهرت الإيمان فاكتفوا بذلك، وعلم الباطن لا يعلمه إلا الله، «والله أعلم بإيمانكم» فلا يمنعكم من نكاحهن خوف المعرة، فإنما أنتم جنس واحد، ودينكم واحد، «بعضكم من بعض» فلا تستنكفوا من نكاحهن،

(١) الطروس: الصحف.

﴿فَانكحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾، أى أربابهن، حتى يعقدوا لكم نكاحهن، ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾: أى: مهورهن، وهن أحق به دون ساداتهن، على مذهب مالك، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ من غير مظل، ولا نقص، على ما تقتضيه السنة. حال كونهن «محصنات» أى: عفيفات «غير مسافحات» أى: غير زانيات «ولا متخذات أخدان». أى: أصحاب يزنون بهن. وكان فى الجاهلية من النساء من تتخذ صاحبا واحداً تزنى معه خاصة، ومنها من لا ترد يد لامس.

قال ابن جزى: مذهب مالك وأكثر أصحابه أنه لا يجوز للحر نكاح الأمة إلا بشرطين: أحدهما: عدم الطول؛ وهو ألا يجد ما يتزوج به حرة، والآخر: خوف العنت؛ وهو الزنا. لقوله بعد هذا: «ذلك لمن خشى العنت منكم»، وأجاز ابن القاسم نكاحهن دون الشرطين، على القول بأن دليل الخطاب لا يعتبر، وانفقوا على اشتراط الإسلام فى الأمة، لقوله: «من فتياتكم المؤمنات» إلا أهل العراق فلم يشترطوه. هـ.

الإشارة: فمن لم يستطع أن ينكح أبكار الحقائق، لكونه لم يقدر أن يدفع عن قلبه الشواغل والعلائق، فليتنزل لنكاح العلوم الرسمية والأعمال الحسية، بأخذها من أربابها، ويحصنها بالإخلاص فى أخذها، ويقوم بحققها بقدر الإمكان، وهو بذلها لأهلها، والصبر على نشرها، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فإن صح قصده، وخلص عمله، فيض الله له ولياً من أوليائه يغنيه بالله، حتى يصير من الأغنياء به، فيتأهل لنكاح الحرائر، ويلتحق بأولياء الله الأكابر، (وما ذلك على الله بعزيز).

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمته الله لما تكلم على ثمرات المحبة - قال: فتدري النفس مائلة لطاعته، والعقل متحصناً بمعرفته (١)، والروح مأخوذة فى حضنته، والسر مغموراً فى مشاهدته، والعبد يستزيد [من حبه (٢)] فيزداد ويفتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته، فيكسى حلل التقريب على بساط القرية، ويمس أبكار الحقائق وثيبات العلوم. هـ. فعلم الحقائق أبكار، وما يوصل إليه من علوم الطريقة ثيبات حرائر، وما سواها من علوم الرسوم إماء بالنسبة إلى غيرها، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حد الأمة إذا زنت، فقال:

﴿... فَإِذَا أَحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَجِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ

الْعَذَابِ...﴾

قلت: أحصن الرجل - بفتح الهمزة وضمها -: صار محصناً بالفتح والكسر، وهذا مما اتحد فيه البناء للفاعل والمفعول. وقيل بالفتح، معناه: أسلم، وبالضم: تزوج.

(١) فى الأصول: بمعرفة، والمثبت هو ما فى لطائف المدن للسكندري.
(٢) ما بين المعكوفتين من تدخل الشيخ المفسر فى النقل.

يقول الحق جل جلاله: **إِنِ الْإِمَاءُ إِذَا تَزَوَّجْنَ ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾، وَهُوَ الزَّانَا، فَعَلِيهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْحُرَّةِ مِنَ الْعَدِّ، وَهُوَ خَمْسُونَ، لِأَنَّ حَدَّ الْبَكَرِ مِائَةٌ. وَفِيهِمْ مِنْهُنَّ أَنْهَ لَا تُرْجَمُ؛ لِأَنَّ الرِّجْمَ لَا يَتَّبِعُضُ. وَكَذَلِكَ الذَّكَوْرُ مِنَ الْعَبِيدِ عَلَيْهِمْ نِصْفُ الْحُدُودِ كُلِّهَا، وَلَا رَجْمَ عَلَيْهِمْ، وَسَمِيَ الْحَدَّ عَذَابًا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.**

الإشارة: بقدر ما يعلو المقام يَشُدُّ العقاب، ويقدر ما يحصل من القرب يُطَلَّبُ الآداب، فليست المعصية في البعد كالمعصية في القرب، وليس يُطَلَّبُ من البعيد ما يُطَلَّبُ من القريب، وانظر إلى أزواج النبي ﷺ حيث قال تعالى لهن: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾. وما ذلك إلا لحظوتهن وشدة قربهن من الله. ولذلك كان لا يدخل الحضرة إلا أهل الآداب والتهذيب، بعد التدريج والتدريب، وتأمل قضية الجديد، حيث قيل له في المنام: مثلك لا يرضى منه هذا، حيث خطر على قلبه الاعتراض على السائل، غير أن المقربين يعاتبون، ويردون إلى الحضرة، وأهل البعد يزيدون بعداً، ولكن لا يشعرون، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر شرط تزوج الأمة لعادم الطول، فقال:

﴿... ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٥﴾
 يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَنَّ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٢٦ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ
 أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ٢٧ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ٢٨﴾

قلت: العنت: المشقة والضرر، ولا ضرر أعظم من موافقة الإثم، ولا سيما بأفحش الفواحش؛ وهو الزنا، (يريد الله ليبين لكم)، أي: لأن يبين، واللام زائدة في المفعول، لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة.

يقول الحق جل جلاله: **﴿ذَلِكَ﴾** أي: نكاح الإماء إنما أَبَحُّهُ لِمَنْ خَشِيَ الْوُقُوعَ فِي الزَّانَا، الذي هو أقبح الفواحش، فنكاح الأمة، وإرفاق الولد يباع في الأسواق أخف من الزنا. **﴿وَأَن تَصْبِرُوا﴾** عن نكاحهن، مع التعفف عن الزنا، **﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾** للآل يرق أولادكم. وعن أنس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ طَاهِرًا مُطَهَّرًا فَلْيَتَزَوَّجِ الْحَرَائِرِ»** وقال أبو هريرة: سمعته ﷺ يقول: **«الْحَرَائِرُ صَلَاحُ الْبَيْتِ، وَالْإِمَاءُ هَلَكَ الْبَيْتُ (١)»**.

(١) الحديث ضعفه السيوطي في الجامع الصغير.

«والله غفور» لكم فيما سلف من المخالفة، «رحيم» بكم، حيث رخص لكم عند خوف الإثم نكاح الأمة، «يريد الله ليبين لكم» شرائع دينكم، ومصالح أموركم، «ويهديكم سنن الذين من قبلكم» أي: مناهج من تقدمكم من أهل الرشد، كالأنبياء والصالحين، لتسلخوا منهاجهم، كحفظ الأموال والأنساب، وتحريم الأمهات والبنات والأخوات، فإنهن محرمات على من قبلكم، «ويتوب عليكم» أي: يغفر ذنوبكم الماضية، أو يرشدكم إلى التوبة، أو يمنعكم من المعاصي بالعصمة. «والله عليم» بما أسلفتم وما تستقبلونه من أفعالكم، «حكيم» بما دبر وأبرم.

«والله يريد أن يتوب عليكم» كرهه توطئة لقوله: «ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا» عن الحق «ميلًا عظيمًا» بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات، وكأنه تعالى يقول: إنا نريد توبتكم ورشدكم، والذين يتبعون الشهوات يريدون ميلكم وإضلالكم، والمراد بهم الزناة؛ لأنهم يودون أن يكون الناس كلهم زناة، وأما من تعاطى شهوة النكاح في الحلال، فإنه متبع للحق لا لهم، وقد قال - عليه الصلاة والسلام -: «تَنَاقَحُوا تَنَاسَلُوا، فَإِنِّي مَبَاهٍ بِكُمْ أَلَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وقد كان سيدنا على - كرم الله وجهه - أزهد الصحابة، وكان له أربع حرائر وسبع جوارى سرّيات، وقيل: سبع عشرة، وقيل: المراد بهم اليهود والنصارى، لأن اليهود يحلون الأقارب من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت. وقيل: المجوس.

«يريد الله أن يخفف عنكم» فذلك شرع لكم الشريعة الحنيفية السمحة السهلة، ورخص لكم عند المضايق في نكاح الأمة. «وخلق الإنسان ضعيفًا» في كل شيء، لأنه خلق من ضعف، ويؤول إلى ضعف، أسير جوع، صريع شبة، وخصوصا عن شهوة النساء، فإنه لا يصبر عن الجماع، ولا يكون في شيء أضعف منه في أمر النساء، وعن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه أنه قال: (ألا ترونني أني لا أقوم إلا رفدا^(١))، ولا أكل إلا ما لين لي، وقد مات صاحبي - يعني ذكره - منذ زمان، وما يسرني أني خلوت بامرأة لا تحل لي، وأن لي ما تطلع عليه الشمس، مخافة أن يأتيني الشيطان فيحركه، على أنه لا سمع له ولا بصر .).

قال ابن عباس: ثمانى آيات في سورة النساء، هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، «يريد الله ليبين لكم»، «والله يريد أن يتوب عليكم»، «يريد الله أن يخفف عنكم»، «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه...» الآية، «إن الله لا يغفر أن يشرك به...» الآية، «إن الله لا يظلم مثقال ذرة...»، «ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه...» الآية، «ما يفعل الله بعذابكم...» الآية . هـ.

الإشارة: إنما ينزل المرید إلى العلوم الرسمية، أو الأعمال الحسية، إذا خشي الانمحاق أو الاصطلام في بحر الحقائق، وإن صبر وتماسك، حتى يتقوى على حمل أعبائها، فهو خير له، لأن الرجوع إلى الحس، لا يؤمن من

(١) أي: إلا بمعاونة غيره .

الحبس، والله غفور لمن تنزل لعله ما تقدم، رحيم حين جعل له الرخصة، «يريد الله ليبين لكم» سلوك الطريق إلى عين التحقيق، ويهديكم طرق الوصول، كما هدى من قبلكم، ويتوب فيما خطر ببالكم، من الفترة أو الوقفة، والله يريد أن يتعطف عليكم، لترجعوا إليه بكليتكم. وأهل الغفلة المنهمكون في الشهوات، يريدون ميلكم عن طريق الوصول إلى حضرة ربكم، يريد الله أن يخفف عنكم، فلا يحملكم من الواردات إلا ما تطيقه طاقتكم، لأنكم ضعفاء إلا إن قواكم. اللهم قونا على ما نريد، وأيدنا فيما نريد، إنك على كل شيء قدير.

ولما ذكر ما يتعلق بحفظ أموال اليتامى وأموال النساء، وانجر الكلام إلى ما يتعلق بهن من حدودهن، وما يحل وما يحرم منهن، ذكر ما بقي من حفظ أموال الرجال، فقال:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ...﴾

قلت: الاستثناء منقطع، وكان تامة لمن رفع، وناقصة لمن نصب، واسمها: ضمير الأموال، على حذف مضاف، إلا أن تكون الأموال أموال تجارة.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل» الذي لا تجوزه الشريعة، كالربا والقمار، والغصب والسرقة، والخيانة والكهانة والسحر وغير ذلك. «إلا أن تكون»، أى: لكن إن وجدت «تجارة» صحيحة «عن تراض منكم» أى: اتفاق منكم على البيع، وبه استدلت المالكية على انعقاد البيع بالعقد ولو لم يحصل تفرق بالأبدان.

وقال الشافعي: إنما يتم بالتفرق بالأبدان، لقوله - عليه الصلاة والسلام - : «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا». وحمله مالك على التفرق بالكلام، وقال أكثر المفسرين: التخيير، هو أن يُخير كل واحد منهما صاحبه بعد عقد البيع. وقد ابتاع عمرو ابن جرير فرساً، ثم خير صاحبه بعد البيع، ثم قال: سمعت أبا هريرة يقول: البيع عن تراض. قال البيضاوي: وتخصيص التجارة من الوجوه التي يحل بها انتقال مال الغير، لأنها أغلب وأوفق لذوى المروءات، ويجوز أن يراد بها الانتقال مطلقاً. وقيل: المقصود بالنهي: صرف المال فيما لا يرضاه الله تعالى، وبالتجارة: صرفه فيما يرضى به.

الإشارة: لا تصرفوا أموالكم ولا أحوالكم في غير ما يقربكم إلى الحق؛ فإن ما سوى الحق كله باطل، كما قال الشاعر:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ^(١)

(١) راجع التعليق على هذا البيت عدد إشارة الآية [١٥٠] من سورة البقرة.

إلا أن يكون صرفه في تجارة رابحة، تقربكم من الحبيب، وتجلبكم إلى حضرة القريب، فتلك تجارة رابحة وصفقة نافعة. والله تعالى أعلم.

ثم تكلم على بعض ما يتعلق بحفظ الأبدان، وسيأتى تمامه في قوله: (وما كان لمؤمن...) إلى آخر الآيات، فقال:

﴿... وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۖ ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۖ ﴿٣٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: «ولا تقتلوا أنفسكم»، بالخلق أو بالنخع^(١) أو بالجرح، الذي يؤدي إلى الموت، أو بالإلقاء إلى التهلكة. وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: (بعثني رسول الله ﷺ في غزوة ذات السلاسل، فأجئبت في ليلة باردة، فأشفقت على نفسي وصليت بأصحابي صلاة الصبح بالتييم. فلما قدمت ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟» قلت: نعم يا رسول الله، أشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قوله تعالى: «لا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً»، فضحك النبي ﷺ، ولم يقل شيئاً).

أو: ولا تقتلوا إخوانكم في الإسلام، فإن المؤمنين كنفس واحدة. قال البيضاوي: جمع في التوصية بين حفظ النفس والمال - الذي هو شقيقها من حيث إنه سبب قوامها - استبقاء لهم هـ.

وإنما نهاكم عن قتل أنفسكم رافة، ورحمة بكم، «إن الله كان بكم رحيماً»، فقد أمر بني إسرائيل بقتل أنفسهم، وأنتم نهاكم عنه. «ومن يفعل ذلك» القتل. أو جميع ما سبق من المحرمات «عدواناً وظلماً»، أي: إفراطاً في التجاوز عن الحد، وإتياناً بما لا يستحق، أو تعدياً على الغير وظلماً على النفس، بتعريضها للعقاب، «فسوف نصليه ناراً» أي: نحرقه ونشويه فيها. «وكان ذلك على الله يسيراً».

وفي الحديث عنه ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِبَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا» وهو تغليظ، أو لمن استحل ذلك. وهذا الوعيد الذي ذكره الحق هنا في قتل الإنسان بيده، أهون مما ذكره في قتل الغير، الذي يأتى، لأنه زاد هناك الغضب واللعة والعذاب العظيم، أما قول ابن عطية: إنه أجمع المفسرون أن هذه الآية في قتل بعضهم بعضاً، فليس بصحيح، والله تعالى أعلم.

(١) النخع: هو القتل الشديد، مشتق من قطع النخاع.

الإشارة: ولا تقتلوا أنفسكم باتباع الشهوات وتراكم الغفلات، فإنه يفوتها الحياة الحقيقية. وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: (لا تغفلوا عن حظ أنفسكم، فمن غفل عن حظ نفسه، فكأنما قتلها). وحظ النفس هو تزكيتها وتحليتها بالكمالات، أو قوتها من العلم اليقين، والمعرفة وصحة التمكين، والمراد بالنفس هنا الروح، وأما ما اصططلحت عليه الصوفية من أن النفس يجب قتلها، فإن مرادهم بذلك النفس الأمارة، فإن الروح مادامت مظلمة بالمعاصي والهوى سميت نفساً، فإذا تطهرت وتزكت سميت روحاً. وهو المراد هنا. سماها نفساً باعتبار ما كانت عليه. والله تعالى أعلم.

ثم إن قتل النفس من الكبائر، فمن اجتنبه مع غيره من الكبائر غُفِرَ له الصغائر، كما أشار إلى ذلك ترغيباً في اجتناب ما ذكر، فقال:

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾

قلت: المدخل - بالضم: مصدر، بمعنى الإدخال، وبالفتح: المكان، ويحتمل المصدر.

يقول الحق جل جلاله: إن تجتنبوا كبائر الذنوب التي تنهون عنها «نكفر عنكم سيئاتكم» الصغائر «وندخلكم مدخلا كريما» وهو الجنة، أو إدخالا مصحوبا بالكرامة والتعظيم، واختلف في الكبائر، هل تعرف بالعدد أو بالحد؟ فقيل: سبع، وقيل: سبعون، وقيل: سبعمائة، وقيل: كل معصية فهي كبيرة. وعنه رحمه الله أنه قال: «اجتنبوا السبع الموبقات: الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس بغير حقها، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، ورمي المحصنات الغافلات المؤمنات».

قال ابن جزى: لاشك أن هذه من الكبائر لنص الشارع عليها، وزاد بعضهم عليها أشياء ورد النص عليها في الحديث أنها من الكبائر، منها عقوق الوالدين، وشهادة الزور، واليمين الغموس، والزنا، والسرقة، وشرب الخمر، والنهبة، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، ومنع ابن السبيل الماء، والإلحاد في البيت الحرام، والنميمة، وترك التحرز من البول، والغلول، واستطالة الرجل في عرض أخيه، والجور في الحكم.

وقيل في حدها: كل جريمة تؤذن بقلة الدين ورقة الديانة، وقيل: ذنوب الظاهر صغائر، وذنوب الباطن كبائر. وقيل: كل ما فيه حق الغير فهو كبائر، وما كان بينك وبين الله تعالى صغائر، واحتج هذا بقوله - عليه الصلاة والسلام -: «يُنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنَادٍ مِنْ بَطْنِ الْعَرْشِ (١): يَا أُمَّةَ أَحْمَدَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: أَمَّا مَا كَانَ لِي قَبْلَكُمْ فَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكُمْ، وَبَقِيَتِ التَّبَاعَاتُ، فَتَوَاهَبُوهَا، وَادْخُلُوا الْجَنَّةَ».

(١) بطنان العرش: أي من وسطه، وقيل من أصله، وقيل: البطنان جمع بطن. يريد من دواخل العرش. انظر النهاية.

الإشارة: كل ما يبعد العبد عن حضرة ربه فهو من أكبر الكبائر، فمن اجتنب ذلك واتقى كل ما يشغله عن الله أدخله الله مدخلاً كريماً، وهو حضرة الشهود والتلذذ برؤية المعبود، والترقى في أسرار الحبيب الودود. قال الورعجي: قال أبو تراب: أمر الله باجتناب الكبائر، وهي الدعاوى الفاسدة، والإشارات الباطلة، وإطلاق اللفظ بغير الحقيقة هـ.

ولما قسم الله الموارث على ما تقدم، قال بعض النساء: ليتنا استويناً مع الرجال، أو يكون لنا سهمان؛ لأننا أخرج منهم، فأنزل الله:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾

يقول الحق جل جلاله: «ولا تتمنوا ما فضل الله به» من الميراث^(١) «بعضكم على بعض»، كتضعيف الذكر على الأنثى، فالرجال «نصيب مما اكتسبوا» أي: مما أصابوا وأحرزوا في القسمة، «ولللنساء نصيب مما اكتسبن» منه، قل أو أكثر، فلتقع بما قسم الله لها، ولا تعترض على أحكام الشريعة، ولكن «اسألوا الله من فضله» يعطكم من غير الميراث، هكذا فسرهما ابن عباس.

وقال مجاهد: قالت أم سلمة: يغزو الرجال ولا نغزو، فليتنا رجال نغزو، ونبلغ ما يبلغ الرجال. فنزلت. فيكون المعنى: ولا تتمنوا ما فضل الله به الرجال على النساء كالغزو وغيره، فالرجال نصيب مما اكتسبوا من ثواب الجهاد وسائر أعمالهم، (ولللنساء نصيب مما اكتسبن) من طاعة أزواجهن وحفظ فروجهن وسائر بقية أعمالهن.

والتحقيق أنها عامة في جميع المراتب الدينية والدنيوية لأن ذلك ذريعة إلى التحاسد والتعادي، ومعربة عن عدم الرضا بما قسم الله له، وإلى التشهي لحصول الشيء له من غير طلب، وهو مذموم؛ لأن تمني ما لم يقدر له، معارضة لحكمة القدر، وتمنى ما قدر له بكسب، بطالة وتضييع حظ، وتمنى ما قدر له بغير كسب، ضياع ومحال، قاله البيضاوي. فالرجال نصيب من أجل ما اكتسبوا من الأعمال، وتحملوا من المشاق، فيعطيه الله على قدر ما اكتسبوا «ولللنساء نصيب مما اكتسبن» كذلك، فلا فائدة في تمني ما للناس، ولكن (اسألوا الله من فضله) يعطكم مثله، أو أكثر من خزائنه التي لا تنفذ. «إن الله كان بكل شيء عليماً» وهو يعلم ما يستحقه

(١) سيذكر الشيخ بعد أن الآية عامة.

كل إنسان، فيُفَضَّلُ من شاء بما شاء عن علم وبيان، ومناسبة الآية حينئذ لما قبلها: أن تجلب الكبائر فضل من الله ونعمة، وهو أفضل ممن يقع فيها، لكن لا ينبغي تمنى ذلك من غير عمل، ولكن يسأل الله من فضله حتى يلحقه بأهل العصمة. وبالله التوفيق.

الإشارة: قد وقع التفضيل في مقامات الأولياء كالأنبياء، لكن لا ينبغي تعيين الفاضل من المفضل، لما يؤدي إليه من التقيص فيؤدي إلى الغيبة، والتفضيل يقع بزيادة اليقين وصحة التمكين، والترقى في أنوار التوحيد وأسرار التفريد. ويكون أيضاً بهداية الخلق على يده، وظهور إحسانه ورفده، فإذا رأى العبد أنه لم يبلغ إلى مقام غيره فلا يتمنى ذلك المقام بعينه، فقد يكون مقامه عند الله في علمه أعظم، وقد يكون أدون، فيسوء الأدب، فالخير كله في العبودية والرضى بأحكام الربوبية، فلأقرباء نصيب مما اكتسبوا بالقوة والمجاهدة التي خلق الله فيهم، حكمة وفضلاً، وللضعفاء نصيب مما اكتسبوا قسمة وعدلاً، ولكن يسأل الله من فضله العظيم، فإن الله بكل شيء عليم، فقد يعطى بلا سبب ويبلغ بلا تعب.

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسَالَ». وفي حديث آخر: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ». وقال الورعجي: أمر بالسؤال ونهى عن التمنى؛ لأن السؤال افتقار، والتمنى، اختيار. هـ. والله تعالى أعلم.

ثم تكلم على ميراث الحليف على ما كان في أول الإسلام، فقال:

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٣٣﴾

قلت: التنوين في «كل»: للعوض، ومما ترك، بيان للمعوض منه، أي: ولكل مال مما ترك الوالدان والأقربون جعلنا موالى، أي: ورثة، وهم الذرية والعصبة يرثون من ذلك المال، والوالدان على هذا فاعل، ويحتمل أن يكون مبتدأ والتنوين عوض عن الميت الموروث، أي: ولكل ميت جعلنا ورثة يرثون مما ترك ذلك الميت، وهم الوالدان والأقربون فيوقف على (ترك)، و(مما) يتعلق بمحذوف، و(الذين) مبتدأ، و(فآتوهم) خبر، دخلت الفاء لما في المبتدأ من العموم.

يقول الحق جل جلاله: ولكل ميت جعلنا ورثة يرثون «مما ترك» ذلك الميت، وهم «الوالدان والأقربون»، أو لكل تركة جعلنا لها «موالى» أي: ورثة يرثون مما ترك الوالدان والأقربون، «والذين عقدت أيمانكم» وهم موالى الحلف، كانوا يتحالفون في الجاهلية على النصرة والمؤازرة، يقول الرجل لآخر: دمي دمك،

وهدمى هدمك، وثأرى ثأرك. فيضرب بعضهم على يد الآخر فى عقد ذلك الحلف. فلذلك قال: «عقدت أيمانكم» فكان فى أول الإسلام يرث من حليفه السدس، وإليه أشار بقوله: «فآتوهم نصيبهم»، ثم نسخ.

وقيل: نزلت فى المؤاخاة التى آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكان يرث السدس، ثم نسخ بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. وعن أبى حذيفة: لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يتعاقلا ويتوارثا صح وورث. وقال ابن عباس: آتوهم نصيبهم من النصرة التى تعاقدوا عليها، فيوفى لهم بها، فلا نسخ.

«إن الله كان على كل شيء شهيدا»، هو تهديد لمن تعدى الحدود، ونقض العهود. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ولكل زمان جعلنا أروياء كبراء، يرثون مما ترك أشياخهم من خصوصية الولاية وسر العناية، إلى يوم القيامة؛ فالأرض لا تخلو ممن يقوم بالحجة ويظهر المحجة، فيقال لهم: والذين عقدت أيمانكم فى الصلابة معكم، فظهر صدقهم، وبانت خدمتهم، فآتوهم نصيبهم مما خصكم الله به من سر الولاية ولطف العناية، (إن الله كان على كل شيء شهيدا)، لا يخفى عليه من يستحق الخلافة ويرث سر الولاية. والله تعالى أعلم.

ثم بين حكمة تفضيل الرجال على النساء فى الموارث وغيرها، فقال:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالْصَّالِحَاتُ قَانِنَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ ۖ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُمْ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ۝﴾

قلت: (فالصالحات) مبتدأ، وما بعده إخبار عنه، وأتى بالفاء المؤذنة بالسببية والتفريع، وكأنه تعالى يقول: الرجال قوامون على النساء، فمن كانت صالحة قام عليها بما تستحقه من حسن المعاشرة، ومن كانت ناشزة عاملها بما تستحقه من الرعظ وغيره. وكل ما هنا من لفظ (ما) فهى مصدرية. إلا ما قرأ به أبو جعفر: [بما حفظ الله]، بالنصب، فهى عنده موصولة اسمية، أى: بالأمر الذى حفظ الله؛ وهو طاعتها لله فحفظها بذلك، وقيل إنها مصدرية. انظر الثعلبى.

يقول الحق جل جلاله: «الرجال قوامون على النساء» أى: قائمون عليهن قيام الولاة على الرعية، فى التأديب والإنفاق والتعليم، ذلك لأمرين: أحدهما وهبى، والآخر كسبى؛ فالوهبى: هو تفضيل الله لهم على

النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة في الأعمال والطاعات، ولذلك خصوا بالنبوة، والإمامة، والولاية، وإقامة الشعائر، والشهادة، في مجامع القضايا، ووجوب الجهاد والجمعة ونحوهما، والتعصيب، وزيادة السهم في الميراث، والاستبداد بالطلاق. والكسبي هو: (بما أنفقوا من أموالهم) في مهورهن، ونفقتهن، وكسوتهن.

فيجب على الزوج أن يقوم بالعدل في أمر نسائه، فالمرأة الصالحة القائنة، أي: المطيعة لزوجها والله تعالى، الحافظة للغيب، أي: لما غاب عن زوجها من مال بيته وفرجها وسر زوجها، حفظت ذلك بحفظ الله، أي: بما جعل الله فيها من الأمانة والحفظ، وبما ربط على قلبها من الديانة، أو بحفظها حق الله، فلما حفظت حقوق الله حفظها الله بعصمته، لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ». فمن كانت على هذا الوصف من النساء فيجب على الزوج حسن القيام بها، ومقابلتها في القيام بما قابلته من الإحسان، وعنه عليه السلام أنه قال: «خير النساء امرأةٌ إن نظرتَ إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها». وتلا هذه الآية.

وأما النساء التي «تخافون» أي: تتيقنون «نشوزهن» أي: ترفعهن عن طاعة أزواجهن وعصيانهن، «فعضوهن» بالقول، فإن لم ينفع فاهجروهن في المضاجع، أي: لا تدخلوا معهن في لحاف، أو لا تجامعهن، فإن لم ينفع فاضربوهن ضرباً غير مؤلم ولا شائن. قال عليه السلام: «عَلَّقَ السُّوْطَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُ الْبَيْتِ». وعن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: (كنتُ رابعَ نسوةٍ عند الزبير بن العوام، فإذا غضب على إحداها، ضربها بعود المشجب، حتى ينكسر). والمشجب: أعواد مركبة يجعل عليها الثياب.

«فإن أظعنكم» يا معشر الأزواج، أو عقدن التوبة مما مضى، «فلا تبغوا عليهن سبيلاً» أي: لا تطلبوا عليهن طريقاً تجعلونه سبيلاً لإيذائهن، بل اجعلوا ما كان منها من النشوز كأن لم يكن، (فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له). وقال ابن عبيّنة: أي لا تكلفوهن بحبكم. هـ. وقال الورتجبي: إذا حصل منهن صورة طاعة الرجال فلا يطلب منهن موافقة الطباع، فإن ذلك منازعة للقدر. قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، وذكر حديث: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ».

ثم هدد الأزواج فقال: «إن الله كان علياً كبيراً» فاحذروه، فإنه أقدر عليكم منكم على من تحت ولايتكم، أو: إنه على علو شأنه، يتجاوز عن سيئاتكم، فأنتم أولى بالعتو عن نساكنكم، أو: أنه يتعالى ويكبر أن يظلم أحداً أو ينقص حقه.

وسبب نزول الآية: أن سعد بن الربيع، وكان من النقباء، لطم امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير، وكانت نشزت عليه، فأنطلق أبوها معها إلى رسول الله ﷺ فقال: أفرشته كريمتي فلطمها، فقال - عليه الصلاة والسلام -: لتقتص منه، فأنصرفت لتقتص منه، فقال ﷺ: ارجعوا، هذا جبريل أتاني وأنزل الله هذه الآية: «الرجال قوامون على النساء» إلى آخرها، فقال عليه الصلاة والسلام: «أردنا أمراً، وأراد الله أمراً، والذي أراد الله خير» فرفع القصاص. وقيل: نزلت في غيره ممن وقع له مثل هذا من الشوز. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الرجال الأقوياء قوامون على نفوسهم قهارون لها، بفضل القوة التي مكنهم الله منها، وبما أنفقوا عليها من المجاهدات والرياضات، فهم ينظرون إليها ويهتمونها في كل حين، فإن صلحت وأطاعت وانقادت لما يراد منها من أحكام العبودية، والقيام بوظائف الربوبية، عاملوها بالإكرام والإجمال، ورفعوا عنها الآداب والنكال، وإن نشزت وترفعت أدبها وهجرها عن مواطن شهواتها ومضاجع نومها، وضربوها على قدر لجاجها وغفلتها.

وكان الشيخ أبو يزيد يأخذ قبضة من القضببان ويذهب إلى خلوته، فكلما غفلت ضربها، حتى يكسرها كلها، وكان بعض أصحابنا يأخذ خشبة ويذهب إلى خلوته، فكلما غفل ضرب رأسه بها، حتى يأتي رأسه كله مفلول. ويلغنى أن بعض أصحابنا كان يدخل في لحمه رجله سكيناً كلما غفل قلبه، وهذا إغراق، وخير الأمور أوسطها. وبالله التوفيق.

ولما تكلم على حكم المرأة الطائعة والناشزة، تكلم على ما إذا أشكل الأمر، فقال:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾

قلت: الشقاق: المخالفة والمساورة، وأضيف إلى الظرف توسعاً كقوله: ﴿لِي مَكْرُ اللَّيْلِ﴾، والأصل: شقاقاً بينهما، والضمير في (يريدا) للحكمين، وفي (بينهما) للزوجين، وقيل: للحكمين معاً، وقيل: للزوجين معاً.

يقول الحق جل جلاله: «وإن خفتم» يا معشر الحكام، أي علمتم خلافاً بين الزوجين ومشاررة، ولم تدروا الظالم من المظلوم، «فأبعثوا» رجلين أمينين يحكمان بينهما، يكون أحدهما من أهله والآخر من أهلها، لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال، وأطلب للإصلاح، فإن بعثهما الحاكم أجديبين صح، وكذا إن أقامهما الزوجان.

وما اتفق عليه الحكماء لزم الزوجين من خلع أو طلاق أو وفاق. وقال أبو حنيفة: ليس لهما التطلاق إلا أن يجعل لهما، وإذا اختلفا لم يلزم شيء، ويستأنفان الحكم، قال ابن جزي: ومشهور مذهب مالك: أن الحاكم هو الذي يبعث

الحكمين، وقيل: الزوجان، وجرت عادة القضاء أن يبعثوا امرأة أمينة ولا يبعثوا الحكمين، قال بعض العلماء: هو تغيير للقرآن والسنة الجارية هـ.

فإن بُعِثَ الحكمان، فإن أرادا إصلاحا بين الزوجين، واتفقا عليه، وفق الله بينهما ببركة قصدهما، وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه أصلح الله مبعثه. «إن الله كان عليماً خبيراً» بما في الظواهر والبواطن، فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق.

الإشارة: وإن خفتن، أيها الشيوخ، على صاحبكم مازعة النفس والروح؛ فكانت النفس تجمع به إلى أسفل سافلين، بمتابعة هواها وعصيان مولاها، والروح تجنح به إلى أعلى عليين، بجهاد هواها ومشاهدة مولاها، فابعثوا له واردين قويين، إما شوق مقلق يرحل الروح إلى مولاها، أو خوف مزعج يزجر النفس عن هواها. فإن أراد الله بذلك العبد إصلاحاً لحاله أرسلهما معاً متفقين على تخليصه وارتفاعه، فيتقدم الخوف المزعج ويستدركه الشوق المقلق، فيلتحق بأهل التحقيق من أهل التوفيق، وما ذلك على الله بعزيز، وفي الحكم: «لا يُخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج، أو شوق مقلق». والله تعالى أعلم.

ولما فرغ الحق جل جلاله من الكلام على حفظ الأموال، وحفظ الأنساب، وبعض حفظ الأبدان، شرع يتكلم على حفظ الأديان، وما يتعلق بذلك، فقال:

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ
وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣٦)

قلت: الجنب - بالضم -: البعيد، يقال فيه: جنب وأجنب وأجلبى، وسمى الجنب جنباً لأنه يبعد من المسجد وعن الصلاة وعن التلاوة، و(مختال) اسم فاعل، وأصله: مختيل، بالكسر، من الخيلاء وهو التكبر.

يقول الحق جل جلاله: «واعبدوا الله» أي: وحدوه وأطيعوه «ولا تشركوا به شيئاً» جلياً أو خفياً في اعتقادكم أو في عبادتكم، فمن قصد الحج والتجارة، فقد أشرك مع الله في عبادته، وأحسنوا بالوالدين إحساناً حسناً، وهو برهما والقيام بحقهما، «وبذي القربى»، أي: القرابة في النسب، أو الدين ﴿واليَتَامَى﴾ لضعف حالهم، ﴿والمساكين﴾ لقلة ما بيدهم، وقد شكى بعض الناس قساوة قلبه، فقال له عليه الصلاة والسلام: «إن أردت أن يلين قلبك، فأطعم والمسكين وامسح رأس اليتيم، وأطعمه».

«والجار ذي القربى» الذى قَرَّبَ جواره أو نسبه، «والجار الجنب» الذى بَعُدَ مكانه أو نسبه، وحدد بعضهم الجوار بأربعين داراً من كل ناحية. وقال ابن عباس: الجار ذي القربى: الجار الذى بينك وبينه قرابة، والجار الجنب: الجار من قوم آخرين. هـ.

قيل يا رسول الله: ما حق الجار على الجار قال: «إن دعاك أجبتَه، وإن أصابته فاقَّةٌ عُدَّتْ عليه، وإن استقرضك أقرضته، وإن أصابه خير هنأته، وإن مرض عُدته، وإن أصابته مصيبة عزيتَه، وإن توفى شهدت جنازته، ولا تستعل عليه بالبنيان لتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذُه بقتار قدرك - أى: بخارها - إلا أن تغرف له منها، وإن ابتعت فأكهة فأهد له منها، فإن لم تفعل فأدخلها سرّاً، ولا يخرج ولدك منها بشيء فيغيظ ولده، ثم قال: «الجيران ثلاثة: فجَارٌ له ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام، وجار له حقان: حق الجوار، وحق الإسلام، وجَارٌ له حق واحد: وهو المشرك من أهل الكتاب».

«والصاحب بالجنب»، وهو الرفيق فى أمر حسن، كتعلم وتصرف وصناعة وسفر، فإنه صاحبك بجانبك، وعن على - كرم الله وجهه - (أنها الزوجة)، فيتأكد فى حقها الإحسان زيادة على المعاشرة بالمعروف، قال بعضهم: أول قدم فى الولاية؛ كف الأذى وحمل الجفا، ومعيار ذلك حسن معاشرة الأهل والولد، وقال - عليه الصلاة والسلام -: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِنِسَائِي». «وابن السبيل»، وهو الضيف أو المسافر لغرابته، «وما ملكت أيمانكم»، من الإماء والعبيد، وكان آخر كلام النبى - عليه الصلاة والسلام -: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم».

«إن الله لا يحب من كان مختالاً» أى: متكبراً، يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم، «فخوراً» يتفاخر عليهم بماله وجاهه، وما خوله الله من نعمه، فهو جدير أن تسلب منه.

الإشارة: واعبدوا الله، أى: بالقيام بوظائف العبودية، ومشاهدة عظمة الربوبية، وقال بعض الحكماء: العبودية: ترك الاختيار، وملازمة للذل والافتقار. وقيل: العبودية أربعة أشياء: الوفاء بالعهود، والحفظ للحدود، والرضا بالموجود، والصبر على المفقود، وعنوان ذلك صفاء التوحيد، ولذلك قال: «ولا تشركوا به شيئاً» أى: لا تروا معه غيره، كما قال القائل:

مَذْ عَرَفْتُ إِلَهَ لَمْ أَرَ غَيْراً وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ

وقال آخر: (لو كُلفت أن أرى غيره، لم أستطع، فإنه لا غير معه حتى أشهده). فإذا حصلت العبودية فى الظاهر، وتحقق التوحيد فى الباطن، ظهرت عليه مكارم الأخلاق فيحسن إلى الأقارب والأجانب، ويجود عليهم

بالحس والمعنى، لأن الفتوة من شأن أهل التوحيد، ومن شيم أهل التجريد، كما هو معلوم من حالهم، نفعا الله بذكرهم، وخرطنا في سلكهم. آمين.

قال الورتجبي: «والدين»: مشايخ المعرفة. ثم نقل عن الجديد، أنه قال: أمرني أبي أمراً، وأمرني السري أمراً. فقدمت أمر السري على أمر أبي، وكل ما وجدت فهو من بركاته. هـ. وذوو القربى هم الأخوة في الشيخ، واليتامى: من قصدتهم من المتفجرة الجاهلة، والمساكين: ضعفاء اليقين من العامة، أمر الله تعالى أهل الخصوصية بالإحسان إليهم والبرور بهم، وهو أن يقرهم في طريقهم، ويحوشهم إلى ربهم.

والجار ذي القربى وهو جارك في السكنى وأخوك في النسبة، فيستحق عليك زيادة الإحسان. والجار الجنب: من جاورك من العوام فتنصحه وترشده، والصاحب بالجنب: من رافقك في أمر من العوام، كسفر وغيره، وابن السبيل: من نزل بأهل الخصوصية من الأضياف، فلهم حق الضيافة عليهم حساً ومعنى، وما ملكت أيمانكم: مالكم تصرف عليهم من الأهل والبلين والإماء والعبيد، فتقربونهم إلى حضرة الملك المجيد. ثم أمرهم بالتواضع والإقبال على الخاص والعام. فقال: «إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً». والله تعالى أعلم.

ثم بين حال أصدقاء هؤلاء، فقال:

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَاءً آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾ (٣٧) ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً﴾ (٣٨) ﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾ (٣٩) قلت: (الذين) بدل من: «من كان»، أو منصوب على النعم، أو مرفوع عليه، أي: هم. أو مبتدأ حذف خبره، أي: نعذبهم عذاباً مهيناً، أو أحقاء بكل ملامة، و(الذين ينفقون): عطف على الأولى، أو مبتدأ حذف خبره، أي: الشيطان قرينهم. والبخل فيه لغتان: البخل والبخل بحركتين.

يقول الحق جل جلاله: «الذين يبخلون» بأموالهم على أقاربهم وجيرانهم، «ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله» من الغنى، فيظهرون القلة والعيلة، أو يكتمون العلم بصفة النبي ﷺ، هم أحقاء بكل لوم وعتاب. «وأعتدنا للكافرين» منهم «عذاباً مهيناً» يهينهم ويخزيهم، نزلت في اليهود، كانوا يقولون

للأنصار: لا تنفقوا أموالكم، فإننا نخشى عليكم الفقر، وكنتموا صفته - عليه الصلاة والسلام -.. ووضَعَ الظاهر موضع المضمَر وكأنه يقول: وأعتدنا لهم، إشعاراً بأن مَنْ هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى، ومن كفر بنعمة الله وأهانها استحق عذاباً مهيناً.

«والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس» طلباً لمدحهم وخوفاً من ذمهم، «ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر»، يتحرون بإنفاقهم مراضيه، فالشيطان قرينهم لا يفارقهم، «ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً»، فلما كان الشيطان قرينهم زين لهم التهاالك على الأموال والرياء في الأعمال، وإنما أشرك أهل الرياء مع البخلاء في الوعيد من حيث إنهما طرفاً تفريط وإفراط، وهما سواء في القبح واستجلاب الذم.

«وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله» أي: لا ملامة عليهم ولا تبعة تحقيق بهم؛ لو أخلصوا الإيمان وأنفقوا مما رزقهم الكريم المنان. قال البيضاوي: وفيه تنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب إليه احتياطاً، فكيف إذا تضمن المنافع. وإنما قدم الإيمان هاهنا وأخره في الآية الأخرى: لأن القصد بذكره هنا التخصيص، وثم التقليل. هـ. «وكان الله بهم عليماً» لا يخفى عليه شيء من أمورهم وقصدهم.

الإشارة: قال بعض الصوفية: (من أقبح كل قبيح صوفى شحيح)، فالصوفية العارفون - رضى الله عنهم - الذين هم صفوة العباد متخلقون بأضداد ما وسم به الحق - تعالى - أهل العناد، فهم يجودون بأنفسهم وما خصهم الله بهم من العلوم اللدنية والأسرار القدسية، على من يستحقه من أهل التخلية والتحية، ويأمرون الناس بالسخاء ومكارم الأخلاق، ويتحدثون بما منحهم الملك الخلاق، ويظهرون الغنى بالله والاكتفاء به عن كل ما سواه، وإذا بذلوا أموالهم أعطوها لله وبالله ومن الله وإلى الله وابتغاء مرضاة الله، هجم عليهم اليقين، وتمكنوا من شهود رب العالمين، فلا يقرب ساحتهم الشيطان، ولا يرون في الدارين إلا الملك الديان، تحبهم ملائكة الرحمن، ويحن إليهم الإنس والجان. نفعنا الله بمحبتهم، وخرطنا في مسلكهم، آمين.

ثم رغب الحق - تعالى - في الإنفاق مع الإخلاص، الذي هو عنوان الدين الخاص، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾

قلت: الذرة: النملة الصغيرة الحمراء. وتطلق على جزء من أجزاء الهباء. ومن نصب (حسنة) فخبَرَ كان. وأنت الضمير باعتبار الخبر. أو لإضافة مثقال إلى ذرة، فاكسب التأنيث، ومن رفع فهي تامة، وحذف نونها على غير قياس، تشبيهاً لها بحروف العلة. وضاعف وضَعَف بمعنى واحد.

يقول الحق جل جلاله : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ» أحداً بحيث ينقص من ثواب عمله، أو يزيد في عقاب ما يستحقه، ولو مثقال ذرة. بل يجازى كلاً على قدر عمله. فإن كان صالحاً، ولو صغر قدره، عظم أجره. «فَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا» بعشر أمثالها إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، بحسب الإخلاص. قال أبو هريرة رضي الله عنه : سمعت النبي ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْمُؤْمِنَ عَلَى الْحَسَنَةِ أَلْفَ حَسَنَةٍ»، ثم تلا «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ» الآية.

«وَيُؤْتِ مَنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا»، وخيراً جسيماً، فضلاً منه وإحساناً. قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً، بَلْ يُثَابِعُهَا الرِّزْقَ فِي الدُّنْيَا وَيَجْزِيهِ بِهَا فِي الْآخِرَةِ. وَالْكَافِرُ يُعْطِيهِ بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ».

الإشارة: كما أن الحق تعالى لا يظلم طالبي الأجور، بل يضاعف لهم في زيادة الحور والقصور، كذلك لا يبخل طالبي القرب والحضور، ورفع الحجب والستور. بل كلما فعلوا من أنواع المجاهدات ضاعف لهم أنوار المشاهدات. وكلما نقص لهم من الحسن - ولو مثقال ذرة - زادهم في المعنى قدره وأكثر شهوداً ونظرة. وكلما يقهر النفس ولو مقدار الفتيل، شربوا مقداراً وأكثر من خمرة الجليل، وهذا كله مع صحبة المشايخ أهل التربية، والأفلا تزيد مجاهدته إلا حجباً وبعداً عن الخصوصية. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى الموطن الذي تظهر فيه مقادير الأعمال، فقال:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ﴿٤٢﴾

قلت: (كيف) إذا كان الكلام بعدها تاماً أعربت حالاً، كقولك: كيف جاء زيد؟ وإذا كان ناقصاً، كانت خبراً، كقولك: كيف زيد؟ وهي هنا خبر، أي: كيف الأمر إذا... إلخ. وهي مبنية لتضمنها معنى الاستفهام، والعامل في (إذا) مضمون المبتدأ، أو الخبر، أي: كيف يستقر الأمر أو يكون إذا جئنا؟ ومن قرأ (تسوى) بالشد، فأصله تتسوى، أدغمت الأولى في الثانية، ومن قرأ (لو تسوى) بالبناء للمفعول فحذف الثانية.

يقول الحق جل جلاله: «فَكَيْفَ» يكون حال هؤلاء الكفرة واليهود «إِذَا» قامت القيامة و«جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ» يشهد عليها بخيرها وشرها، وهو نبيهم الذي أرسل إليهم، «وَجِئْنَا بِكَ» أنت يا محمد «عَلَى هَؤُلَاءِ» الأمة التي بعثت إليهم «شَهِيدًا» عليهم، أو على صدق هؤلاء الشهداء شهوداً، تشهد على صدق رسالتهم وتبليغهم؟ لعلمك بعقائدهم واستجماع شرعك مجامع قواعدهم، وقيل: «عَلَى هَؤُلَاءِ» الكفرة المستفهم عن حالهم،

وقيل: على المؤمنين لقوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. «يؤمّنذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول» أى: الذين جمعوا بين الكفر والعصيان يتمنون أن «تسوى بهم الأرض» فيكونون ترابا لما يرون من هول المطلع، فإذا شهدت عليهم الرسل بالكفر قالوا: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فينطق ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بشركهم فيفتضحون «ولا يكتُمون الله حديثًا» واحدًا، لأنهم كلما هموا بالكتمان شهدت عليهم جوارحهم بالكفر والعصيان.

وقيل: إن القيامة مواطن، في موطن لا يتكلمون ولا تسمع إلا همسا، وفي موطن يتكلمون ويقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، إلى غير ذلك من اختلاف أحوالهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا بد أن يحصل اللدم لمن فاته صحبة أهل الخصوصية، حتى مات محجوبًا عن مشاهدة أسرار الربوبية، لا سيما إذا انضم إليهم كفرهم بخصوصيتهم والإنكار عليهم، وذلك حين يكشف له عن مقامهم البهى وحالهم السلى، مصاحبين للمقربين في جوار الأنبياء والمرسلين، وهو في مقام أهل اليمين، ثم يعاتب على ما أسر عليه من الكبائر، وهى معاصى القلوب والضمائر، وهذا إذا مات على الإسلام، وإلا فالإنكار على الأولياء شؤمه سوء الخاتمة. والعياذ بالله من ذلك. وقد تقدم أن العارفين بالله يشهدون على العلماء، والعلماء يشهدون على العموم، ونبينا - عليه الصلاة والسلام - يزكى من يحتاج إلى التزكية. والله تعالى أعلم.

ثم تكلم على عماد الدين وهى الصلاة، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَايَةِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾

قلت: جملة (وأنتم سكارى): حال، وسكارى: جمع سكران، ويجمع على سكارى بالفتح، وسكرى بالسكون، و(لا جنبًا) عطف على جملة الحال، و(جنب) يستوى فيه الواحد والاثنان والجماعة والمذكر والمؤنث، لأنه يجرى مجرى المصدر، فلا يثنى ولا يجمع. و(إلا عابري) مستثنى من عام الأحوال، وأصل الغائط: الموضع المنخفض من الأرض، ثم أطلق على الواقع فيه مما يخرج من الإنسان.

يقول الحق جل جلاله : «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى»: لا تقوموا إليها وأنتم سكارى من خمر، أو غلبة نوم، أو شدة غفلة، «حتى تعلموا ما تقولون» في صلاتكم، وتتدبروا ما تقرأون فيها، فالصلاة من غير حضور خاوية، وعند الخصوص باطلة، روى أن عبدالرحمن بن عوف صنع مأدبة، ودعا إليها نفرًا من الصحابة، حين كانت الخمر مباحة، فأكلوا وشربوا حتى ثملوا، وجاء وقت صلاة المغرب، فتقدم أحدهم ليصلي بهم، فقرأ: أعبد ما تعبدون - من غير نفى - فنزلت الآية قبل تحريم الخمر، ثم حرمت بآية المائدة.

ولا تقربوها حالة جنابتكم في أي حال كان، «إلا عابري سبيل» أي: في وقت سفركم، حيث لم تجدوا ماءً، بدليل ما يأتي، فيتيمم ويقرب الصلاة وهو جنب، وفيه دليل أن التيمم لا يرفع الحدث، قيل المراد بالصلاة مواضعها، وهي المساجد فلا يدخلها الجنب إلا ماراً، وبه قال الشافعي - رضى الله عنه - وقال أبو حنيفة: لا يجوز المرور، إلا إذا كان فيه الماء والطريق. وقال مالك: لا يدخل إلا بالتيمم ولا يمر به أصلاً.

فلا تقربوا الصلاة وأنتم جنب «حتى تغتسلوا».

«وإن كنتم مرضى» تخافون ضرر الماء، أو زيادته، أو تأخر براء، أو منع الوصول إلى الماء، «أو على سفر» لم تجدوه فيه، «أو» كنتم في الحضر محدثين حيث «جاء أحد منكم من الغائط»، أو البول، أو بغيره من الأحداث، «أو لامستم النساء» أي: مست بشرتكم بشرتهن، بقصد اللذة أو عند وجدانها، وبه قال مالك. وقال الشافعي: ينقض مطلقاً، قصد أم لا، وجد أم لا، ولو بميتة، وقال أبو حنيفة: إن كانت ملامسة فاحشة بحيث يحصل الانتشار نقضت، وإلا فلا.

وقال ابن عباس والحسن البصري ومحمد بن الحسن: لا تنقض الملامسة مطلقاً، ويقاس على اللمس سائر نواقض الأسباب، فتحصل أن «أو» تبقى على أصلها من التقسيم، فتكون الآية نصاً في تيمم الحاضر الصحيح، وبه قال مالك، ولا يعيد. وقال الشافعي: يصلى بالتيمم ويعيد، وقال أبو حنيفة: لا يصلى حتى يجد الماء، ومن قال: «أو» بمعنى الواو فخرج عن الأصل بلا داع.

ثم قيد التيمم في هذه الأحوال بفقد الماء، فقال: «فلم تجدوا ماء» كافياً، أو لم تقدروا على استعماله، «فتيمموا» أي: اقصدوا «صعيداً طيباً» أي: طاهراً، وهو ما صعد على وجه الأرض من جلسها؛ كتراب، وهو الأفضل، وتلج وخضخاض^(١) وحجر ومدر، لا شجر وحشيش ومعدن ذهب وفضة، وما التحق بالعقاير، كشب، وملح، وكبريت، وغاسول^(٢) وشبهه، فلا يجوز. وقال أبو حنيفة: بكل شيء من الأرض وما اتصل بها كشجر

(١) الخضخاض درب من القطران أسود رقيق تطلّى به الإبل الجري .

(٢) الغاسول: عشب ينبت في الصحراء .

وكحل، وزرنيخ، وشب ونورة، وجص، وجوهر، إلا منخالة الذهب والفضة والرصاص. وقال الشافعي: لا يجوز إلا بالتراب المذبت خاصة، وبه فسر الطيب، واشترط علق التراب بيده، ولم يشترطه غيره.

ثم علم الكيفية فقال: «فامسحوا بوجوهكم وأيديكم». قال مالك: اليد اسم للكف بدليل قطع السارق منه، فجعل المسح إلى المرفق سنة. وقال الشافعي: فرض، قياساً على الوضوء، «إن الله كان عفواً غفوراً» فلذلك يسر عليكم ورخص لكم في التيمم.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا صلاة الحضرة القدسية، وأنتم سكارى بحب الدنيا الدنية، حتى يذهب عنكم سكر حبها، وتعلموا ما تقولون في مناجاة خالقها، ولا جنباً من جنابة الغفلة، إلا ما يمر بالخواطر على سبيل الندرة والقلّة، حتى تغتسلوا بماء الغيب، الذي يحصل به طهارة الجنان، ويغيب المتطهر به عن رؤية الأكوان. وإليه أشار ابن العربي الحاتمي: كما في طبقات الشعراني، ونسبها غيره للجليد. رضى الله عنهم أجمعين. وهو الأصح، بقوله:

وَالْأَتِيَمَ الصَّعِيدِ أَوِ الصَّخْرِ	تَوْضاً بِمَاءِ الْغَيْبِ إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ
وَصَلِّ صَلَاةَ الظُّهْرِ فِي أَوَّلِ الْعَصْرِ	وَقَدْ كُنْتَ إِمَامًا كُنْتَ أَنْتَ إِمَامَهُ
فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَانْضَحِ الْبِرَّ بِالْبَحْرِ.	فَهَذِي صَلَاةَ الْعَارِفِينَ بِرَبِّهِمْ

أى: إن لم تقدر على الطهارة الأصلية؛ وهى الغيبة عن الأحداث الكونية، فاقصد العبادة الحسية، وقدم الشريعة أو من قام بها من أهل التربية النبوية أمامك، بعد أن كان يطلبك قبل أن تعرفه، واجمع ظهر الشريعة لعصر الحقيقة، فهذه صلاة العارفين، فإن كنت منهم فانضح برّ ظاهرك بحقيقة باطنك، فما كمن فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر. لهذا أشار تعالى بقوله: (وإن كنتم مرضى) بحب الهوى، (أو على سفر) فى عجلة شغل الدنيا، أو جاء أحد منكم من غائط الحس، أو لامستم العلوم الرسمية، وانطبع صور خيالها فى قلوبكم، ولم تجدوا من يسقيكم ماء الغيب، وهى الخمرة الأزلية، فاقصدوا الأعمال الحسية، فلعلها توصلكم إلى الأعمال الباطنية، (إن الله كان عفواً غفوراً)، وفى الحكم: «كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟».

ثم نبه الحق تعالى على عداوة اليهود، وأن من شأنهم إذا سمعوا عليكم مثل ما وقع من تحريف الآية الذي صدر من المصلى في حال السكر فرحوا بذلك، فحذر المؤمنين من العود لمثل ذلك، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۚ ﴾ (٤٤)

قلت: دخلت الباء على الفاعل في (كفى بالله)، لتضمنه معنى اكتف بالله وكلا.

يقول الحق جل جلاله: «ألم تر» يا محمد، أو يا من يسمع، ببصرك أو بقلبك، «إلى» حال «الذين أوتوا نصيباً» سيراً «من» علم «الكتاب» أى: التوراة، وهم أحرار اليهود، «يشترُونَ الضلال» بالهدى، أى: يستبدلون بها بعد تمكنهم منها عادة، «ويريدون أن تضلوا السبيل» أى: الطريق الموصلة إلى الحق، أى: يتمنون انحرافكم عنها، فإذا سمعوا عنكم ما يحرفكم عنها فرحوا واستبشروا، لأنهم انحرفوا عنها فحرفوا كتابهم وبدلوا، فتمنوا أن تكونوا مثلهم، فاحذروا ما يتوقع منكم أعداؤكم، فإن الله أعلم بهم منكم، فسيكفيكم الله أمرهم، فلقوا به وتكلموا عليه، فكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً، فسيتولى أمركم وينصركم على من عاداكم. وبالله التوفيق.

الإشارة: من شأن أهل الإنكار، ولا سيما من سلف له فى أسلافه رئاسة أو إظهار، إذا سمعوا بأهل النسبة وقع لهم شيء من الأكدار، فرحوا واستبشروا، وودوا لو حادوا كلهم عن سبيل الحق، والله مطلع على أسرارهم، وكاف بأسهم وشرهم، (وكفى بالله ولياً) لأوليائه ونصيراً لأحبابه. والله تعالى أعلم.

ثم بينهم، أو ذكر حال فريق منهم، فقال:

﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّائِيًا لِّسِنِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۚ ﴾ (٤٥)

قلت: (من الذين هادوا): خبر عن محذوف، أى: منهم قوم يحرفون، أو بيان للذين قبله، أو متعلق بأعدائكم.

يقول الحق جل جلاله: من اليهود قوم تمردوا فى الكفر؛ وهم أحرارهم، «يحرفون الكلم» وهو التوراة «عن مواضعه» أى: يميلونه عن مواضعه التى وضعه الله فيها، بإزالة لفظه أو تأويله. وقال ابن عباس: (لا يقدر أحد أن يحرف كلام الله ولكن يفسرونه على غير وجهه)، «ويقولون» لمن دعاهم إليه، وهو

الرسول ﷺ : «سمعنا» قولك، «وعصينا» أمرك، «واسمع» منا «غير مسمع» قولك، أى: لا نلتفت إليه، أو دعاء بالصمم: أى: لاسمعت، أو غير مسمع منا مكروهاً، نفاقاً، ويقولون له مكان انظرنا: «راعنا» قاصدين بذلك الشتم والسخرية، من الرعونة، وقد كان الصحابة يخاطبون به الرسول - عليه الصلاة والسلام - ومعناه: انظرنا. أو راعنا بقلبك، فوجد اليهود بها سبيلاً إلى الشتم، فنهاهم الله عن ذلك، وبقيت اليهود تقولها شتماً واستهزاء «لياً بالسنتهم»، أى: فتلاً لها عن معناها، من الانتظار إلى ما قصدوا من رميه بالرُعونة، «وطعنا فى الدين» أى: استهزاء به، «ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا» مكان سمعنا وعصينا، «واسمع» منا فقط، مكان: واسمع غير مسمع، «وانظرنا» مكان راعنا، «لَكَانَ» قولهم ذلك «خيراً لهم وأقوم» وأعدل، «ولكن لعنهم الله» أى: طردهم وأبعدهم بسبب كفرهم، «فلا يؤمنون إلا» إيماناً «قليلاً» لا يعبأ به وهو الإيمان بالبعث والكفر ببعض من الآيات والرسول. والله تعالى أعلم.

الإشارة: والله ما ربح من ربح، إلا بالأدب والتعظيم، وما خسر من خسر إلا من فقدهما. قال بعضهم: «اجعل عملك ملحاً، وأدبك دقيقاً». وآداب الظاهر عنوان آداب الباطن، ويظهر الأدب فى حسن الخطاب، ورد الجواب، وفى حسن الأفعال، وظهور محاسن الخلال. والله تعالى أعلم.

ثم دعاهم إلى الإيمان بعد أن رسمهم بالعصيان، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ ﴿٤٧﴾

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين أوتوا الكتاب» من اليهود «آمنوا بما نزلنا» من القرآن «مصدقاً لما معكم» من التوراة «من قبل أن نطمس وُجُوهًا» أى: نغير صورها ونمحو تخطيط أشكالها، فلا تبقى عين ولا أنف ولا حاجب، «فنردّها على» هيئة «أدبارها» من الأقفاء، أو نلكنسها إلى ورائها فى الدنيا، «أو نلعنهم» أى: نخزيهم بالسخ، «كما لعنا أصحاب السبت»، فمسخناهم قردة وخنازير، «وكان أمر الله مفعولاً»، لا مرد له، ولعله كان مشروطاً بعدم إيمان بعضهم، أو يراد بطمس الوجوه ما يكسوها من الذلة والصغار. ويراد باللعن حقيقة، أى: نلعنهم على لسانك كما لعنوا على لسان داود وعيسى بن مريم.

وهذه الآية كانت سبب إسلام كعب الأحبار، سمعها من بعض الصحابة فأسلم في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والمسح جائز على هذه الأمة، كما وقع في الأمم السابقة، بدليل ما في كتاب الأثرية من البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير، والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم، يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم لحاجة، فيقولون: ارجع إلينا غدا، فيبيتهم الله، ويضع عليهم العلم، ويمسح آخرين قرده وخنازير إلى يوم القيامة».

الإشارة: حملة الشريعة يخاطبون بالإيمان بأهل الحقيقة، لأنها لبها وصفاتها، فإن امتنعوا من الإيمان بها ومن الإذعان لأهلها، طمس الله وجوه قلوبهم، وملأها خوفاً وجزعاً وحباً للدنيا، وردّها على أدبارها، فلا تفهم أسرار الكتاب ولا تفقه إشارة الخطاب، فإن قصروا عن حقوق الشريعة، وغيروا أحكامها مسخوا قرده وخنازير. وفي نوادر الأصول بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تكون في أمتي قرعة، فيصير الناس إلى علمائهم، فإذا هم قرده وخنازير».

قال الترمذي الحكيم: فالمسح: تغيير الخلقة عن جهتها، وإنما حل بهم المسح لأنهم غيروا الحق عن جهته، وحرفوا الكلم عن مواضعه، فمسحوا عن أعين الخلق، وقلوبهم عن رؤية الحق. فمسح الله صورهم وبدل خلقتهم، كما بدلوا الحق باطلا. هـ. وبالله التوفيق.

ولما دعاهم إلى الإيمان، أخبرهم أنهم إن داموا على الكفر لا مطمع لهم في الغفران، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ

إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: «إن الله لا يغفر أن يشرك به» لأنه بت الحكم على خلود عذابه، لأن الله تعالى غيور لا أحد أغير منه. كما في الحديث، ومن عادة الملوك إذا خرج أحد من رعيته ونصر غيره لا يقبل منه إلا الرجوع أو الموت. ولا شفاعة تنفع فيه غير الرجوع عنه، «ويغفر ما دون ذلك» الشرك «لمن يشاء» من الكبائر والصغائر. تاب أم لا. فالعصاة إذا لم يتوبوا في مشيئة الله، «ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً»؛ ارتكب ما تستحقر دونه الآثام. وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب، والله تعالى أعلم.

(١) في الأصول «قرعة، بالفاء، والمثبت هو الذي الجامع الكبير للسيوطي وكنز العمال. والقرعة: قطعة من الغنم وجمعها: قرع. انظر النهاية في غريب الحديث (قرع).

الإشارة: ولما رأت الصوفية أن الشرك لا يُغفر، ولا يُسمح في شيء منه، جلياً أو خفياً، حققوا إخلاصهم، ودققوا معاملتهم مع ربهم، وفتشوا على قلوبهم، هل بقي فيها شيء من محبة غير مولاهم، أو خوف من شيء دونه، وطهروا توحيدهم من نسبة التأثير لشيء من الكائنات، فتوجهوا إلى الله في إزالة ذلك عنهم.

قال بعضهم: شربت لبناً فأصابني انتفاخ، فقلت ضرني ذلك اللبن، فلما كنت ذات يوم أتلو، وبلغت هذه الآية قلت: يا رب؛ أنا لا أشرك بك شيئاً، فقال لي هاتف: ولا يوم اللبن، فبادرت إلى التوبة. أ. هـ. بالمعنى. والله تعالى أعلم.

ثم عاتبهم على تزكية أنفسهم بالدعوى، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٠﴾

يقول الحق جل جلاله: «ألم تر» يا محمد «إلى الذين يزكون أنفسهم»، وهم اليهود، قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقيل: طائفة منهم، أتوا بأطفالهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: هل على هؤلاء ذنب؟ قال: «لا». قالوا: والله ما نحن إلا كهنتهم، ما عملنا بالنهار يكفر عنا بالليل، وما عملنا بالليل يكفر عنا بالنهار، فنزلت فيهم الآية. وفي معناهم: من زكى نفسه وأثنى عليها قبل معرفتها.

«بل الله يزكى من يشاء» لأنه العالم بخفيات النفوس وكمائناتها، وما انطوت عليه من قبيح أو حسن، فيزكى من يستحق التزكية، ويفضح المدعين، «ولا يظلمون فتيلًا»، وهو الخيط الذي في شق النواة، يضرب مثلاً لحقارة الشيء، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة، «انظر كيف يفترون على الله الكذب» في زعمهم أنهم أبناء الله، أو أنهم مغفور لهم، «وكفى به» أي: بالافتراء، «إثماً مبيناً» أي: ظاهراً لا يخفى على أحد.

الإشارة: قال بعض الصوفية: للنفس من النقائص ما لله من الكمالات، فلا ينبغي للعبد أن يزكى نفسه، ولو بلغ فيها من التطهير ما بلغ، ولا يرضى عنها ولو عملت من الأعمال ما عملت. قال أبو سليمان الداراني: لى أربعون سنة وأنا متهم لنفسي. وفي الحكم: «أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه؛ فأى علم لعالم يرضى عن نفسه؟! وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟!». «.

ثم ويخهم على سجودهم للأصنام. وشهانتهم لأهل الكفر بأنهم أهدى من أهل الإسلام، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۝٥٢﴾

قلت: الجبت في الأصل: اسم صنم، فاستعمل في كل ما عبد من دون الله، والطاغوت: كل باطل من معبود أو غيره، أو الجبت: السحر، والطاغوت: الساحر، وبالجملة: هو كل ما عبد أو أطيع من دون الله، وقال الجوهري: الجبت: اسم لكل صنم ولكل عاصٍ ولكل ساحر وكل مضل، والطاغوت: الشيطان، وأصله: طغيوت، فعلوت، من الطغيان، ثم قلب فصار طيغوت، ثم قلبت الياء ألفا.

يقول الحق جل جلاله: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من علم «الكتاب»، وهم أحبار اليهود «يؤمنون بالجبت والطاغوت»؛ يقولون بصحة عبادتهما، «ويقولون للذين كفروا هؤلاء» الكفرة «أهدى من الذين آمنوا» طريقا، نزلت في اليهود - لعنهم الله -: كانوا يقولون: إن عبادة الأصنام أرضى عند الله مما يدعو إليه محمد ﷺ، وقيل: في حبي بن أخطب وكعب بن الأشرف، خرجا في سبعين راكبا إلى مكة يحالفون قريشا على محاربة رسول الله ﷺ بعد وقعة أحد، وينقضون العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، فنزل كعب على أبي سفيان، فأحسن مثواه، ونزلت اليهود في دور قريش. فقال أهل مكة: أنتم أهل كتاب، ومحمد صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكيدة منكم، فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصلبيين، وآمنا بهما، ففعلوا، فذلك قوله تعالى: «يؤمنون بالجبت والطاغوت».

ثم قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم، فأينا أهدى سبيلا وأقرب إلى الحق، نحن أم محمد؟ قال كعب: اعرضوا على دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحز للحجيج الكوماء - أي: العظيمة - من النوق - ونسقى الماء، ونقرى الضيف، ونفك العاني، ونصل الرحم، ونعمر بيت ربنا، ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمد فارق دين آبائه، وقطع الرحم وفارق الحرم، فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلا. هـ.

«أولئك الذين لعنهم الله» وأبعدهم وأسحقهم، «ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا» ينصره من عذاب الله. فقد قتل هؤلاء كلهم شر قتلة، وذهبوا إلى الهاوية. عائذا بالله.

الإشارة: قال الورتجبي: ويخ الله تعالى أهل ظاهر العلم الذين اختاروا الرياسة، وأنكروا على أهل الولاية، وآثروا صحبة المخالفين، يقبلون هراجه نفوسهم التي هي الجبت، ويخطون على آثار الطاغوت، التي هي إبليس. هـ.

قلت: وينسحب التوبيخ على من فضّل أهل الظاهر على أهل الباطن، وفضّل العلماء على الأولياء، ويقولون: هم أهدى منهم سبيلاً. هيهات! بينهم من البون ما بين السماء والأرض.

والكلام إنما هو في التفضيل بين العارفين بالله، الذين جمعوا بين الفناء والبقاء، وبين العلماء والأتقياء. وأما العباد والزهاد والصالحون فلا شك أن العلماء الأتقياء أفضل منهم، واليهم أشار ﷺ بقوله: «فَضَّلُ الْعَالِمَ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ». وكذلك الأحاديث التي وردت في تفضيل العلماء. وأما العارفون بالله فهم أعظم العلماء، لأن علمهم متعلق بذات الله كشفاً وذوقاً، وعلماء الظاهر علمهم متعلق بأحكام الله. مفرقون عن الله، بل هم أشد حجاباً من غيرهم عن الله. قال بعض الأولياء: أشد الناس حجاباً عن الله: العلماء ثم العباد ثم الزهاد. هـ. لأن حلاوة ما هم فيه تمنعهم عن الانتقال عنه، وقد تقدم الكلام عند قوله: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» (١) بأبلغ من هذا. والله تعالى أعلم.

ثم ردّ الحق تعالى على اليهود، حيث ادعوا أن الملك سيصير إليهم، فقال:

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُوَفُّونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣﴾

قلت: «أم»: منقطعة، بمعنى بل، والهمزة للإنكار، وهو إنكار وجحد لما زعمت اليهود من أن الملك سيصير لهم، و(إذا) إن فصل بينها وبين المضارع بـ «لا» ففيها الإهمال والإعمال، وقد قرئ: (وإذا لا يلبثوا)، والنقير: النقرة التي في ظهر النواة، وهو هنا كناية عن نهاية بخلهم.

يقول الحق جل جلاله منكراً على اليهود: أيا حصل لهم «نصيب من الملك» والرياسة؟ هيهات، لا يكون هذا أبداً، فكيف يكون لهم الملك وهم أبخل الناس؟. فإذا أوتوا شيئاً من الملك لا يعطون الناس نقيراً، فما بالك بأكثر، والملك والنصر لا يكونان إلا لأجل الكرم والجود والشجاعة، وإصابة الرأي وحسن التدبير، وهم بعداء من هذه المكارم.

الإشارة: لا يمكن الله من العز والنصر والتصرف الظاهر أو الباطن إلا أهل السخاء والجود، فمن جاد بماله حتى لا يبالي كم أعطى ولا لمن أعطى، مكّنه الله من العز والتصرف الحسى، ومن جاد بنفسه وجاهه، وبذلها في مرضاة ربه، مكّنه الله من العز والنصر والتصرف المعنوى؛ يتصرف بهمته في الوجود بأسره، من عرشه إلى فرشه، ويدوم عزه ونصره إلى أبد الأبد. والله تعالى أعلم.

(١) راجع إشارة الآية ١١٠ من سورة آل عمران.

ولما كان الحسد والبخل رذيلتين متناهيتين في الذم وصفهم الحق - تعالى - أيضا به (١)، فقال:

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نُصِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

قلت: (أم) بمعنى بل، و(سعيرا) تمييز.

يقول الحق جل جلاله توبيخاً لليهود على الحسد: «أم يحسدون الناس»، أى: العرب حيث انتقلت النبوة إليهم، وقد كانت فى أسلافهم، «على ما آتاهم الله من فضله»، وهو ظهور النبوة فيهم، أو رسول الله ﷺ؛ لأنه اجتمع فيه ما افترق فى سائر الناس، حسدوه على ما آتاه الله من فضله، من النبوة وغيرها، وقالوا - لعنهم الله -: ماله هم إلا النساء، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء.

فكذبهم الله - تعالى - ورد عليهم بقوله: «فقد آتينا آل إبراهيم» وهم: يوسف وداود وسليمان، «الكتاب والحكمة» أى: النبوة، «وآتيناهم ملكاً عظيماً»، فقد اجتمع لداود عليه السلام مائة امرأة. وسليمان - عليه السلام - ألف امرأة: ثلاثمائة مهيبة، - أى بالمهر - وسبعمائة سرية، فقال لهم - عليه الصلاة والسلام - حين نزلت الآية: ألف امرأة عند رجل، ومائة امرأة عند آخر، أكثر من تسع نسوة، فسكتوا (٢).

«فمنهم» أى: اليهود، «من آمن به» أى: بمحمد - عليه الصلاة والسلام - كعبد الله بن سلام وأصحابه، «ومنهم من صد عنه» أى: أعرض عنه، أو: من آل إبراهيم من آمن بإبراهيم، ومنهم من صد عنه، ولم يكن فى ذلك توهين لقدر إبراهيم، فكذلك لا يؤمن كفر هؤلاء أمرك، أو: من أسلافهم من آمن بما أوتى آل إبراهيم من الكتاب والحكمة والملك، ومنهم من صد عنه، كما فعلوا مع سليمان وغيره. «وكفى بجهنم سعيراً» لمن كفر بما جاء به أحد من الرسل، أى: فإن لم يعاجلوا بالعقوبة فقد كفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم.

(١) أى بالحسد، فقد ذكر البخل فى الآية السابقة.

(٢) راجع تفسير البغوى.

ثم بين مآل من كفر، فقال: «إن الذين كفروا بآياتنا» المنزلة على رسلنا، أو الدالة على وحدانيتنا، «سوف نصليهم نارا» أى: نحرقهم بها ونشويهم، «كلما نضجت جلودهم» أى: لانت واحترقت «بدلناهم جلوداً غيرها»، قال ﷺ: «تبدل في ساعة مائة مرة». وقال الحسن: (تأكلهم النار في كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم وأنضجتهم قيل لهم: عودوا فيعودوا كما كانوا). وقال مجاهد: (ما بين جلده ولحمه دود، لها جلبة - أى حركة - وهرير كجلبة حمر الوحش). روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «غلظ جلد الكافر أثنان وأربعون ذراعاً، وضرسه مثل أحد».

وانما بدلت جلودهم «ليذوقوا» ألم «العذاب»، أى: يدوم لهم ذلك بخلق جلد آخر مكانه، والعذاب في الحقيقة للنفس العاصية لا لآلة إدراكها، فلا محذور، «إن الله كان عزيزاً» لا يمتنع عليه ما يريد، «حكيماً» يعاقب على قدر حكمته.

ثم ذكر مقابل هؤلاء فقال: «والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة» مما يستفذر «وندخلهم ظلاً ظليلاً» أى: دائماً لا تنسخه شمس، ولا يصحبه برد. قدم وعيد الكفار على وعد المؤمنين، لأن الكلام فيهم، وذكر المؤمنين بالعرض. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الحسد خلق مدموم، لا يتطهر منه إلا الصديقون، وكل من بقى فيه بقية من الحسد لا يشم رائحة المعرفة، إذ لو عرف الله لم يجد من يحسد، وقد قيل: الحسود لا يسود. وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب». وقال سفيان: (بلغنى أن الله تبارك وتعالى يقول: الحاسد عدو نعمتى، غير راضٍ بقسمتى التى قسمت بين عبادى). وأنشدوا:

أَلَا قُلْ لِمَنْ كَانَ لِي حَاسِداً	أَتَدْرِى عَلَى مَنْ أَسَاتِ الأَدَبِ
أَسَاتِ عَلَى اللَّهِ فِى فِعْلِهِ	إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبَ
جَزَاؤُكَ مِنْهُ الزِّيَادَةُ لِي	وَأَلَّا تَدَالَ الذِّى تَطْلُبُ

وقال آخر:

إِنْ تَحْسُدُونِى فَإِنِّى غَيْرُ لَائِمِكُمْ	قَبْلَى مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الْفَضْلِ قَدْ حَسَدُوا
فَسَدَامَ لِي وَلَهُمْ مَا كَانَ بِي وَبِهِمْ	وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غِيظًا بِمَا يَجِدُ

ثم إن الحسود لا تزول عداواته، ولا تنفع مداواته، وهو ظالم يشتكى كأنه مظلوم. ولقد صدق للقائل:

كُلُّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِزَالَتُهَا إِلَّا عَدَاوَةُ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ

وقال حكيم الشعراء:

وَأَظْلَمُ خَلْقِ اللَّهِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا لِمَنْ بَاتَ فِي نِعْمَانِهِ يَتَقَلَّبُ

وقال آخر:

إِنِّي لِأَرْحَمُ حَاسِدِي لِفَرْطِ مَا ضَمَمْتُ صُدُورَهُمْ مِنَ الْأَوْغَارِ

نَظَرُوا صُلَيْحَ اللَّهِ فِي فَعْيُونِهِمْ فَنَسِي جَنَّةٍ وَقُلُوبُهُمْ فِي نَارِ

قال بعض الحكماء: (الحاسدُ يضُرُّ نفسه ثلاث مضررات: إحداها: اكتساب الذنوب؛ لأن الحسد حرام. الثانية: سوء الأدب مع الله - تعالى - فإن حقيقة الحسد: كراهية إنعام الله على غيره، واعتراض على الله في فعله. الثالثة: تألم قلبه وكثرة همه وغمه). عافانا الله من ذلك كله، فالحاسد لا يتفك عن نار الحجاب وغم الحساب، والمتطهر منه يدخل جنة الرضى والتسليم فى جوار الحبيب، وهو محل الراحة والأمن فى الدارين، وهو الظل الظليل. والله تعالى أعلم.

ولما كان حفظ نظام الدين لا يقوم إلا بالجهاد، ولا ينتظم الجهاد إلا بنصب الإمام، تكلم الحق - جل جلاله - على ما يتعلق بالأمراء، ثم بعد ذلك يتكلم على الجهاد، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ

إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

قلت: «ما» فى (نِعِمَّا) تمييز أو فاعل، والمخصوص محذوف، أى نعم شيئاً شىء يعظكم به، أو نعم الذى يعظكم به ذلك الأمر، وهو رد الأمانات والعدل فى الحكومات.

قال زيد بن أسلم وشهر بن حوشب: نزلت الآية فى شأن الأمراء. هـ قلت: وإن نزلت فى شأن عثمان بن طلحة - سادى الكعبة - فهى عامة. والمخاطب بذلك أولاً الرسول ﷺ وهو سيد الأمراء، أمره الحق - تعالى - أن يرد المفاتيح إلى عثمان، وذلك أن عثمان أغلق باب الكعبة يوم فتح مكة، وأبى أن يدفعها إلى رسول الله ﷺ ليدخل

الكعبة، وقال: لو علمت أنه رسول الله (١) ما منعتُه، فلقى على يده، وأخذها منه، فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح، ويجمع له السدانة والسقاية، فأمره الله - تعالى - أن يرده إليه، فأمر علياً بأن يرده ويعتذر إليه، وكان ذلك سبباً لإسلام عثمان، ونزل الأمر بأن السدانة في أولاده أبداً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾، يا معشر الأمراء، أن تردوا «الأمانات إلى أهلها» من أنفسكم، أو من رعييتكم فتتصافوا المظلوم من الظالم، حتى يؤدي ما اتُّمن عليه من دين، أو ودعة، أو غصب، أو سرقة، أو غير ذلك من حقوق العباد، بعضهم من بعض، وأن تؤدوا الزكاة إلى من يستحقها، وتصرفوا بيت المال فيمن يستحقه، لا تظلموا أهلها، ولا تضيعوا منها شيئاً في غير مستحقها.

﴿وَيَأْمُرُكُمْ إِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ في من ينفذ عليه حكمكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ نَعَمَ يُعْظِمُكُمْ بِهِ﴾ أي: إن الله يعظمكم بأمر نعم ما هو، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ لا يخفى عليه أحكامكم، ولا ما أخفيتهم من أمانات غيركم.

الإشارة: أمر الحق - جل جلاله - شيوخ التربية أن يؤدوا السر إلى من يستحقه من الفقراء، إذا تحققوا أهليتهم له، بحيث تخلوا عن الرذائل، كالحسد والكبر وغيرهما، وتحلوا بالفضائل، كسلامة الصدر وسخاوة النفوس وحسن الخلق، وغير ذلك من أوصاف الكمال، فإن تحققوا بالتخلية والتحلية، استحقوا الاطلاع على أسرار الربوبية، التي هي أمانات عند أهل الخصوصية، وأمرهم أن يحكموا بين الفقراء بالعدل، فيمدوا كلاً على قدر صدقه وخدمته، والله تعالى أعلم.

ثم أمر الحق تعالى بطاعة الأمراء الذين أمرهم بالعدل وأداء الأمانة، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾

أعاد العامل في قوله: (وأطيعوا الرسول)، إشارة إلى استقلال الرسول بالطاعة، ولم يعده في «أولى الأمر» إشارة إلى أنه يوجد منهم من لا تجب طاعته، ثم بيّنه بقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ كأنه قيل: فإن لم يعملوا بالحق فلا تطيعوهم، وردوا ما تخالفتم فيه إلى حكم الله ورسوله. قاله الطيبي، وسيأتي تحرير ذلك إن شاء الله تعالى.

(١) أي: أنه مرسل من عند الله.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله» فيما أمركم به ونهاكم عنه، «وأطيعوا الرسول» كذلك. «وأولى الأمر منكم» أي: من ولي أمركم. من ولاية العدل كالخلفاء والأمراء بعدهم، تجب طاعتهم فيما أمروا به من الطاعة دون المعصية إلا لخوف هرج. قال عليه الصلاة والسلام: «إنما الطاعة في المعروف»، فإن لم يعدل: وجبت طاعته خوفاً من الفتنة. وهذا هو الأصح. لقوله - عليه الصلاة والسلام - : «سيليكم ولاية، فيليكم البر ببره، والفاجر بفجوره، فاستمعوا لهم، وأطيعوا في كل ما وافق الحق، فصلوا وراءهم، فإن أحسنوا فلهم، وإن أساءوا فلکم وعليهم». رواه أبو هريرة.

وفي حديث آخر: «لا أن تردوا كفراً بواحاً، لكم عليه من الله برهان». أي: فيجب عزلهم. وقال أيضاً ﷺ لما سأله أبو وائل فقال: يا رسول الله؛ أ رأيت إن كان علينا أمراء يمنعونا حقنا ويسألون حقهم؟ فقال ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، فإن عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم».

وقال جابر بن عبد الله والحسن والضحاك ومجاهد: أولو الأمر هم الفقهاء والعلماء، أهل الدين والفضل، يعلمون الناس معالم دينهم، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، دليله. قوله تعالى: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم...﴾ الآية. قال أبو الأسود: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك. هـ.

«فإن تنازعتم في شئ فمنكم» أي: اختلفتم في حكم شيء من أمر الدين فلم تعلموا حكمه، «فردوه إلى الله» أي: إلى كتاب الله، «وإلى الرسول» أي: في زمانه، أو سنته بعد موته، فإن لم يوجد بالنص فبالقياس. فالأحكام ثلاثة: مثبت بالكتاب، ومثبت بالسنة، ومثبت بالرد إليهما على وجه القياس. وعن إبراهيم بن يسار قال: قال النبي ﷺ: «اعملوا بالقرآن: أحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وآمنوا به ولا تكفروا بشيء منه، وما اشدبه عليكم فردوه إلى الله تعالى وإلى أولى العلم من بعدى، كيما يخبرونكم به»، ثم قال: «وليسعكم القرآن وما فيه من البيان؛ فإنه شافع مشفع، وماحل مصدق»^(١) وإن له بكل حرف نوراً يوم القيامة».

فردوا الأحكام إليه وإلى الرسول، «إن كنتم تؤمنون بالله اليوم الآخر» فإن الإيمان يوجب ذلك. «ذلك» الرد «خير» لكم «وأحسن تأويلاً» من تأويلكم بالرأى من غير رد، وأحسن عاقبة ومآلاً، والله تعالى أعلم.

(١) ماحل مصدق: أي خصم مصدق. والمعنى: أنه شافع لمن عمل بما فيه، ومصدق عليه فيما يرفع من مساويه إذا ترك العمل به. انظر النهاية.

الإشارة: أولو الأمر عند الصوفية، هم شيوخ التربية العارفون بالله، فيجب على المريدين طاعتهم في المنشط والمكروه، وفي كل ما أمروا به، فمن خالف أو قال: «لم، لم يفلح أبدا»، ويكفى الإشارة عن التصريح عند الحذاق أهل الاعتناء، فإن تعارض أمر الأمراء وأمر الشيوخ، قدم أمر الشيخ إلا لفتنة فادحة، فإن الشيخ يأمر بطاعتهم أيضا لما يؤدي من الهرج بالفقراء، فإن تنازعتم يا معشر الفقراء، في شيء من علم الشريعة أو الطريقة، فردوه إلى الكتاب والسنة. قال الجديد رحمته الله: طريقنا هذه مؤيدة بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويتعلم الحديث لا يقتدى به في هذا الشأن. هـ. ويكفى المهم من ذلك، وهو ما يتوقف عليه أمر عبادته. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى من أعرض عن حكم الله ورسوله، ورضى بحكم غيرهما، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۖ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ۖ ﴾

قلت: (رأيت المنافقين)، وضع الظاهر موضع المضمرة تسجيلاً عليهم بالنفاق وذمًا لهم به. وكان القياس: رأيتهم، و(صدودًا): مصدر، أو اسم مصدر الذي هو الصد، والفرق بينه وبين المصدر: أن المصدر اسم للمعنى الذي هو الحدث، واسم المصدر اسم للفظ المحسوس، و(يحلفون) حال، و(في أنفسهم) يتعلق بقول، وقيل ببليغا. وهو ضعيف؛ لأن الصفات لا يتقدم عليها معمولها، اللهم إلا أن يتوسع في الظروف.

يقول الحق جل جلاله: «ألم تر» يا محمد «إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك» وهم المنافقون، «يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت»، كعب بن الأشرف لفرط طغيانه. وفي معناه كل من يحكم بالباطل، «وقد أمروا أن يكفروا به»، ويؤمنوا بالله ويرضوا بحكمه. «ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالًا بعيدًا»، بأن يصرفهم عن حكم الله ورسوله.

قال ابن عباس: إن منافقاً خاصم يهودياً فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم اختصما إلى رسول الله ﷺ، فحكم لليهودي بالحق؛ فلم يرض المنافق، وقال: نتحاكم إلى عمر، فقال اليهودي: نعم فذهبوا إلى عمر رضي الله عنه فقال لليهودي: قضى لي رسول الله ﷺ قلم يرض بقضائه وخاصم إليك. فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، فقال: على رسلكما حتى أخرج إليكما، فدخل وأخذ سيفه فخرج، فضرب به عنق المنافق حتى برد^(١)، وقال: هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وسوله، فنزلت الآية.. وقال جبريل عليه السلام: إن عمر فرق بين الحق والباطل. فسمى الفاروق.

«وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين» أي: بعضهم، «يصدون عنك» غير راضين بحكمك «صدوداً» عظيماً. «فكيف» يكون حالهم «إذا أصابتهم مصيبة» كقتل عمر المنافق، بسبب ما قدمت «أيديهم» من عدم الرضى بحكم الله، «ثم جاؤوك» يطلبون دية صاحبهم، «يحلفون بالله إن أردنا» بالإنصراف إلى عمر «إلا إحساناً» منه بالخصمين، «وتوفيقاً» بينهما، قطعاً للنزاع بينهما، قال تعالى: «أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم» من النفاق، فلا يغنى عنهم الكتمان والحلف الكاذب من الله شيئاً، أو يعلم الله ما في قلوبهم من الطمع في الدية، «فأعرض عنهم»، أي: عن قبول معذرتهم ولا تمكنهم من طمعهم، «وقل لهم في أنفسهم»، أي: خالياً بهم «قولاً بليغاً» يبلغ إلى قلوبهم، ويؤثر فيهم، لينزجروا عن طلب دم صاحبهم، وإنما أمر أن يعظم خالياً بهم لأن النصيح في ذلك أنجح، وأقرب للقبول، ولذلك قيل: من نصحك وحذك فقد نصحك، ومن نصحك مع الناس فقد فضحك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من دخل تحت ولاية شيخ التربية، وجب أن يرد حكوماته كلها إليه، ويرضى بما قضى عليه، وترى بعض الفقهاء يزعمون أنهم في تربية الشيخ وتحت أحكامه، ثم يتحاكمون إلى حكام الجور وقضاة الزمان في أمر الدنيا وما يرجع إليها، فهؤلاء قد ضلوا ضلالاً بعيداً. إلا أن يتوبوا ويصلحوا ما أفسدوا، بإصلاح قلب الشيخ حتى يجبر كسرهم، فالمريد الصادق لا يصل إلى الحاكم، ولو ذهب ماله كله. فإن كان ولا بد. فليوكل عنه في ذلك.

فكيف إذا أصابت هؤلاء مصيبة وهي ظلمة القلب، وفتنة الدنيا بسبب ما قدمت أيديهم من تخطي حكم شيخهم إلى حكم غيره، ثم جاؤوك يحلفون بالله ما أردنا إلا إحساناً وهو حفظ مالنا، وتوفيقاً بيننا وبين خصمنا، فيجب على الشيخ أن يعرض عن عتابهم ويذكرهم حتى يتوبوا.. فإن تابوا فإن الله غفور رحيم.

(١) أي: مات.

ثم أعاد الأمر بطاعة الرسول وتحكيمه في جميع الأمور ترهيباً وترغيباً، فقال:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تِنَّهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾

قلت: (توابعاً رحيماً) مفعولاً (وجد) إن كانت علمية، أو (توابعاً) حال، و(رحيماً) بدل منه، أو حال من ضميره إن فسرت بصادف.

يقول الحق جل جلاله: «وما أرسلنا من رسول» من لدن آدم إلى زمانك، «إلا ليُطاع بإذن الله» وأمره بطاعته، فمن لم يطعه ولم يرض بأحكامه فهو كافر به. «ولو أنهم» أي: المنافقون حين «ظلموا أنفسهم» بالترافع إلى غيرك، والتحاكم إلى الطاغوت «جاءوك» تائبين «فاسغفروا الله» بالتوبة، «واستغفر لهم الرسول» حين اعتذروا إليه حتى انتصب لهم شفيعاً، «لوجدوا الله» أي: تحققوا كونه «توابعاً رحيماً»، قابلاً لتوبتهم متفضلاً عليهم بالرحمة والغفران. وإنما عدل عن الخطاب في قوله: «واستغفر لهم الرسول» ولم يقل: «واستغفرت لهم»، تفخيماً لشأنه، وتبنيهاً على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائبين، وإن عظم جرمهم، ويشفع لهم، ومن جلالته منصبه أن يشفع في عظام الذنوب وكبائرهما.

ثم أقسم بربوبيته على نفى إيمان من لم يرض بحكم رسوله، فقال: «فلا وريك لا يؤمنون» إيماناً حقيقياً «حتى يحكموك» أي: يترافعوا إليك، راضين بحكمك، «فيما شجر بينهم» أي: اختلف بينهم واختلفوا فيه «ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً» أي: ضيقاً وشكاً «مما قضيت»، بل تشرح صدورهم لحكمك؛ لأنه حق من عند الله. «ويسلموا» لأمرك «تسليماً». أي: يلقاؤك لأمرك ظاهراً وباطناً.

«ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم»، توبة من ذنوبكم، كما كتبناه على بنى إسرائيل، أو في الجهاد في سبيل الله، «أو اخرجوا من دياركم» كما خرج بنو إسرائيل حين أمرناهم بالهجرة من مصر، «ما فعلوه

إلا قليل منهم» وهم المخلصون. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (لو كتب ذلك علينا لكنت أنا أول خارج). قال ثابت بن قيس بن شماس: (لو أمرني رسول الله ﷺ أن أقتل نفسي لفعلت). وكذلك قال عمرو وعمار بن ياسر وابن مسعود وناس من أصحاب رسول الله ﷺ: لو أمرنا لفعلنا. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إِنْ مِنْ أُمَّتِي رَجَالًا: الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ أَثَبَّتْ مِنَ الْجِبَالِ الرُّوَاسِي». فهؤلاء من القليل.

وسبب نزول قوله: «فلا وريك ..» إلخ: قضية الزبير مع حاطب في شراج الحرة^(١)، كَانَا يَسْقِيَانِ بِهِ النَّخْلَ، فتخاصما إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ وَأَرْسِلْ إِلَى جَارِكَ»، فقال حاطب: لَأَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ. فقال - عليه الصلاة والسلام -: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، وَاحْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَبْلُغَ الْجَذْرُ^(٢)» واستوف حقه. وقيل: نزلت في اليهودي مع المنافق المتقدم، وهو أليق بالسياق.

«ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به» من طاعة الرسول، والرضى بحكمه، «لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» في آجلهم وعاجلهم، «وأشدَّ تثبيتًا» في دينهم وقوة في إيمانهم، أو تثبيتًا لثواب أعمالهم، «وإذا» لو فعلوا ذلك «لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا» يصلون بسلوكه إلى حضرة القدس، ودوام الأنس، ويفتح لهم أسرار العلوم، ومخازن الفهوم، قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلَّمَ اللَّهُ عِلْمًا مَا لَمْ يَعْلَمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ».

الإشارة: كما أمر الله بطاعة رسوله ﷺ في حياته، أمر بطاعة ورثته بعد مماته، وهم العلماء الأتقياء الذين يعدلون في الأحكام، والأولياء العارفون الذين يحكمون بوحى الإلهام، فالعلماء حُكَّامٌ عَلَى الْعُمَمِ، والأولياء حُكَّامٌ عَلَى الْخُصُوصِ، أعني من تعلق بهم من أهل الإرادة، فمن لم يرض بحكم العلماء، ووجد في نفسه حرجاً مما قضوا به عليه، ففيه شُبهة من النفاق، وخصلة من المنافقين. ومن لم يرض بحكم الأولياء فقد خرج من دائرتهم، ومن عَشَّ تربيتهم، لأن حكم الرسول - عليه الصلاة والسلام - وحكم ورثته هو حكم الله، ومن لم يرض بحكم الله خرج عن دائرة الإيمان.

فلا يكمل إيمان العبد حتى لا يجد في نفسه حرجاً من أحكام الله، القهرية والتكليفية، ويسلم لما يبرز من عنصر القدرة الأزلية، كيفما كان، فقراً أو غنى، ذلاً أو عزاً، منعاً أو عطاء، قبضاً أو بسطاً، مرضاً أو صحة، إلى غير ذلك من اختلاف المقادير. ويرضى بذلك ظاهراً وباطناً، وينسلخ من تدبيره واختياره؛ إلى اختيار مولاه فهو أعلم بمصالحه، وأرحم به من أمه وأبيه: وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

(١) الشراج: جمع شرجة، وهي مسيل الماء من الحرة إلى السهل، والحرة: هي الأرض ذات الحجارة السوداء.

(٢) الجذر: أى: الجدار الذي يحيط بالمزرعة، وهو أصفر من الجدار.

ثم وعد المطيعين وعداً جميلاً، وخيراً جزيلاً، ترغيباً في امتثال ما أمر به من طاعة الرسول، فقال:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

قلت: «رفيقاً»: تميز لما في (حسن) من معنى التعجب أو المدح، ولم يجمع؛ لأن فعيلاً يحمل على الواحد والجمع، أو لأنه أريد حسن كل واحد منهم.

يقول الحق جل جلاله: «ومن يطع الله والرسول» ويرضى بأحكامهما ويمتثل أمرهما ويجتنب نهيهما، «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم»، وهم أكرم الخلق عند الله وأعظمهم قدراً «من النبيين» والمرسلين «والصديقين» وهم من كثر صدقهم وتصديقهم وعظم يقينهم؛ وهم الأولياء العارفون بالله، «والشهداء» الذين ماتوا جهاداً في سبيل الله، «والصالحين» وهم العلماء الأتقياء، ومن صلح حاله من عامة المسلمين.

قال البيضاوي: قسمهم أربعة أقسام، بحسب منازلهم في العلم والعمل، وحث كافة الناس على ألا يتأخروا عنهم. وهم: الأنبياء الفائزون بكمال العلم والعمل، المتجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل. ثم الصديقون الذين صعدت نفوسهم تارة بمراقى النظر في الحجج والآيات، وأخرى بمعارج التصفية والرياضات إلى أوج العرفان، حتى اطلعوا على الأشياء وأخبروا عنها على ما هي عليها. ثم الشهداء الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجِد في إظهار الحق، حتى بذلوا مهجهم في إعلاء كلمة الله، ثم الصالحون الذين صرفوا أعمارهم في طاعته، وأحوالهم في مرضاته. ولك أن تقول: المنعم عليهم هم العارفون بالله، وهؤلاء إما أن يكونوا بالغين درجة العيان، أو واقفين في مقام الاستدلال والبرهان، والأولون إما أن ينالوا مع العيان القرب، بحيث يكونون كمن يرى الشيء قريباً، وهم الأنبياء، أو لا، فيكونون كمن يرى الشيء بعيداً، وهم الصديقون، والآخرين إما أن يكون عرفانهم بالبراهين القاطعة، وهم العلماء الراسخون الذين هم شهداء الله في أرضه. وإما أن يكون بأمارات وإقناعات تطمئن إليها نفوسهم، وهم الصالحون. انتهى كلامه.

وفيه نظر من وجهين: أحدهما: أنه أطلق على أهل الاستدلال أنهم عارفون، ولا يقال عند الصوفية فيه عارف، حتى يترقى عن مقام الاستدلال، وإلا فهو عالم فقط، والثاني: أنه جعل الصديقين بمنزلة من يرى الشيء بعيداً،

وأهل الفناء لم يبق لهم بُعدٌ، بل غابوا في القرب حتى امتحى اسمهم ورسمهم. فأى بينونة وأى بُعد يبقى للعارف؟ لولا فقدان الذوق، ولكن لكل فن أربابه، وسيأتى في الإشارة تحقيق ذلك إن شاء الله.

ثم قال جل جلاله: «وحسن أولئك رفيقا» أى: ما أحسنهم رفقا في الفرديس العلى، فهم يتمتعون فيها برؤيتهم وزيارتهم والحضور معهم، وإن كانوا أعلى منهم، فلا يلزم من كونه معهم أن تستوى درجته معهم، قال في الحاشية: وتعقل مرافقة من دون النبى في المداينات من حاله وكشفه، بحيث لا يحجب عنه، وإن كان لا مطمع له في منزلته، واعتبر برؤيه البصائر له وعدم غيبته عنهم وأنسهم به والاستفادة منه، وروى عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «يزور الأعلون من أهل الجنة الأسفلين، ولا يزور الأسفلون الأعلين، إلا من كان يزور في الله في الدنيا، فذلك يزور في الجنة حيث شاء».

روى أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أتاه يوما وقد تغير وجهه ونحل جسمه، فسأله عليه الصلاة والسلام عن حاله، فقال: ما بى وجع، غير أنى إذا لم أراك اشتقت إليك، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة فخفت ألا أراك هناك؛ لأنى عرفت أنك ترفع مع النبيين. وإن دخلت الجنة، كنت في منزل أدون من منزلك، وإن لم أدخل الجنة فذلك حرى ألا أراك أبدا. فنزلت الآية «ومن يطع الله والرسول...» إلخ.

«ذلك الفضل من الله» إشارة إلى ما للمطيعين من الأجور، ومزيد القرب والحضور، وأنه فضل تفضل على عباده، «وكفى بالله علما» بمقادير الأعمال والمقامات، فيجازى كلاً على حسب مقامه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الطاعة التى توجب المعية الحسية فى النعيم الحسى الجسمانى هى الطاعة الظاهرة الحسية. والطاعة التى توجب المعية المعنوية فى النعيم الروحانى هى الطاعة الباطنية القلبية. فالمعية الحسية صاحبها مفروق، والمعية المعنوية صاحبها مجموع، لا يغيب عن حبيبه لحظة. هؤلاء هم الصديقون المقربون. وفوقهم الأنبياء، وتحتهم الشهداء والصالحون.

وبيان ذلك أن العلم بالله تعالى: إما أن يكون عن كشف الحجاب وانقشاع السحاب، أعنى سحاب الأثر، وهم أهل الشهود والعيان. وإما أن يكون من وراء الحجاب، يأخذون أجرهم من وراء الباب، يستدلون بالآثار على المؤثر. وهم أهل الدليل والبرهان. والأولون إما أن يرتقوا إلى مكافحة الوحي ورؤية الملائكة الكرام. وهم الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - ، وإما أن يقصروا عن درجة الوحي ويكون لهم وحى إلهام، وهم الصديقون؛ أهل الحال والمقام، فقد اشتركوا فى مقام العيان. لكن مقام الحضرة فضاءه واسع، والترقى فى معارج أسرار التوحيد غير

متناه، فحيث انتهى قدم الولي ابتداء ترقى النبي، وأما أهل الحجاب فإما أن يكون علمهم بالله بالبراهين القطعية والدلائل السمعية، وهم العلماء الراسخون، وهو مقام الشهداء، وإما أن يكون علمهم بالرياضات والمجاهدات وتواتر الكرامات، وهم العباد والزهاد. وهو مقام الصالحين، ويلتحق بهم عوام المسلمين، لأن كل مقام من هذه المقامات فيه درجات ومقامات لا يحصرها إلا العالم بها. والله تعالى أعلم.

ثم رغب في الجهاد الذي هو المقصود، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْبِطُنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾

قلت: الحذر والحذر واحد، كالشبه والشبه، وبطأ يستعمل لازماً بمعنى ثقل، ومتعدياً - بالتضعيف - أى: بطأ غيره، و(لَمَن لَّيْبِطُنَّ) اللام الأولى للابتداء، والثانية للقسم، أى: وإن منكم - أقسم بالله - لمن لَّيْبِطُنَّ. وجملة: (كأن لم يكن): اعتراضية بين القول والمقول، تدبياً على ضعف عقيدتهم، وأن قولهم هذا قول من لا مواصلة بينكم وبينه.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا» تأهبوا واستعدوا لجهاد الأعداء، و«خذوا حذرکم» منهم؛ بالعدة والعدد، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، ولا حجة فيه للقدرية؛ لأن هذا من الأسباب التي ستر الله بها أسرار القدرة. وقد قال لنبيه - عليه الصلاة والسلام -: ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ وقال - عليه الصلاة والسلام -: «اعقلها وتوكل». وفي ذلك طمأنينة للقلوب التي لم تطمئن وتشريعاً للضعفاء، فإذا تأهبتم واستعددتكم «فانفروا» أى: اخرجوا إلى الجهاد «ثبات» أى: جماعات متفرقة، سرية بعد سرية، «أو انفروا جميعاً» أى: مجتمعين مع نبيكم، أو مع أميركم.

«وإن منكم» يا معشر المسلمين «لَمَن لَّيْبِطُنَّ» الناس عن الجهاد، أو ليتأقطن ويتخلفن عنه، وهو عبدالله بن أبي المنافق، وأشباهه من المنافقين، «فإن أصابكم مصيبة»؛ كقتل أو هزيمة «قال قد أنعم الله على»

حين تخلفت «إذ لم أكن معهم شهيدا» فيصيبني ما أصابهم. «ولئن أصابكم فضل من الله»، كنصر وغنيمة، «ليقولن» لفرط عداوته: «يا ليتني كنتُ معهم فأفوز فوزاً عظيماً»، بالمال والعز. كأن ذلك المذاق، لم يكن بينكم وبينه مودة ولا مواصلة أصلاً، حيث يتريص الدوائر، يفرح بمصيبتكم ويتحسر بعزكم ونصركم .

فإن تناقل هذا عن القتال أو بطاً غيره، «فليقاتل في سبيل الله» أهل الإخلاص والإيمان «الذين يشرون»، أي: يبيعون «الحياة الدنيا بالآخرة»، فيؤثرون الآخرة الباقية على الدنيا الفانية، «ومن يقاتل في سبيل الله» لإعلاء كلمة الله «فيقتل» شهيداً «أو يغلب» عدوه وينصره الله «فسوف نؤتيه أجراً عظيماً»، وإنما قال تعالى: «فيقتل أو يغلب» تنبيهاً على أن المجاهد ينبغي أن يثبت في المعركة، حتى يعز نفسه بالشهادة، أو الدين بالظفر والنصر. وألا يكون قصده بالذات القتل، بل إعلاء الحق وإعزاز الدين. قاله البيضاوي.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص؛ خذوا حذركم من خدع النفوس، لتلا تعوقكم عن حضرة القدس، فأنفروا إلى جهادها ثباتاً أو جماعة، «فإن يد الله مع الجماعة»، فالصحبة عند الصوفية شرط مؤكد وأمر محتم. والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح، فالنفس الحية لا تموت مع الأحياء، وإنما تموت مع الأموات، فهي كالحوث مادامت في البحر مع الحيتان لا تموت أبداً، فإذا أخرجتها وعزلتها عن أبناء جنسها ماتت سريعاً. كما قال شيخنا رحمه الله.

وإن من نفوسكم لمن لبيطلنكم عن السير إلى حضرة قدسكم، تفر من مواطن الشدة والمحن، وفي ذلك حياتها لو تعقل وتفظن، فإن أصابتكم - أهل النسبة - نكبة، أو تعرف من التعريفات، ولم يصادفها في ذلك الوقت شيء من تلك النكبات، قال: قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا، ولئن أصابكم بعد ذلك فضل من الله كنفحات ربانية وخمرات أزلية، قالت: يا ليتني كنتُ معهم فأفوز كما فازوا، فليجاهد نفسه في سبيل الله من أراد الظفر بحضرة الله، يقدمها إلى المكاره، وهو كل ما يثقل عليها، ويجنبها الشهوات، وهو كل ما يخف عليها، هكذا يسير معها ويقاثلها، حتى يموت أو يغلبها ويظفر بها.

قال بعض المشايخ: انتهى سير السائرين إلى الظفر بنفوسهم. فإن ظفروا بها وصلوا. هـ. وحينئذ تذهب عنه المتاعب والأنكاد، وتصير الأزمنة كلها عنده مواسم وأعياد، ويقال له حينئذ:

لك الدهر طوعٌ والأنام عبيدُ فعش كل يومٍ من أيامك عيدُ

ويقال له أيضا:

بَدَا لَكَ سِرُّ طَالٍ عَنْكَ اكْتِنَامُهُ وَلَاخَ صَبَاحَ كُنْتَ أَنْتَ ظَلَامُهُ
فَأَنْتَ حِجَابُ الْقَلْبِ عَنْ سِرِّ غَيْبِهِ وَلَوْلَاكَ لَمْ يُطْبِعْ عَلَيْهِ خِتَامُهُ
إِذَا غَبَّتْ عَنْهُ حَلٌّ فِيهِ وَطَبَّيْتُ (١) عَلَى مَوْكِبِ الْكَشْفِ الْمَصُونِ خِيَامُهُ
وَجَاءَ حَدِيثٌ لَا يَمْلُ سَمَاعُهُ شَهَى إِلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ
إِذَا سَمِعَتْهُ النَّفْسُ طَابَ نَعِيمُهَا وَزَالَ عَنِ الْقَلْبِ الْمَعْنَى غَرَامُهُ (٢)

ثم عاتب العباد على عدم الدهوض إلى الجهاد، فقال:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (٧٥)

قلت: (ما) مبتدأ. و(لكم) خبر. و(لا تقاتلون) حال، و(المستضعفين) عطف على اسم الجلالة، أى: أى شيء حصل لكم حال كونكم غير مجاهدين في سبيل الله وفي تخليص المستضعفين؟ و(الظالم) نعت للقرية، وإنما ذكر ولم يؤنث، لأنه أسند إلى المذكر، واسم الفاعل إذا جرى على غير من هو له أجرى مجرى الفعل، فيذكر ويؤنث باعتبار الفاعل.

يقول الحق جل جلاله: «وما لكم» يا معشر المسلمين «لا تقاتلون في سبيل الله»، وفي تخليص إخوانكم «المستضعفين» بمكة، الذين حبسهم العدو أو أسرهم ومنعهم من الهجرة؛ «من الرجال والنساء والولدان»، فهم في أيديهم مغلولون محتلون. قال البيضاوي: وإنما ذكر الولدان مبالغة في الحث وتبنيها على تنامي ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان، وأن دعوتهم أجيببت بسبب مشاركتهم في الدعاء، حتى تشاركوا في استئصال الرحمة واستدفاع البلية . هـ.

ثم ذكر دعاءهم فقال: «الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية» أى: مكة «الظالم أهلها» بالشرك والطفيان حتى تعدى إلى النساء والصبيان. «واجعل لنا من لدنك وليا» بصوتنا عن أذاهم، «ونصيرا» يمدنا

(١) الطَّبَّ - بضم تين -: الحبل الذي تشد به الخيمة ونحوها. (٢) الأبيات لأبي العباس العريف، انظر: إيقاظ الهمم.

من التخلف عن الهجرة إلى رسولك ﷺ، فاستجاب الله دعاءهم بأن يسر لبعضهم الخروج إلى المدينة، وجعل لمن بقى منهم أعظم ولي وناصر، بفتح مكة على نبيه ﷺ، فتولاهم ونصرهم، واستعمل عليهم عتاب بن أسيد، فحماهم وأعزهم حتى صاروا أعزاء أهلها، كما هي عادته سبحانه في إجابة دعاء المضطرين.

الإشارة: ما لكم يا معشر العباد، وخصوصا المريدين من أهل الجد والاجتهاد، لا تجاهدون نفوسكم في طريق الوصول إلى الله، كي تنالوا بذلك مشاهدة جماله وسنائه، وتخلصوا ما كمن في نفوسكم من الأسرار، وما احتوت عليه من العلوم والأنوار. فإن قرية البشرية قد احتوت عليها وأسرتها بظلمات شهواتها، واستضعفتها بتراكم غفلتها وتكثيف حجاب حسها. فمن جاهدها استخلص جواهر تلك العلوم والأسرار من صدقها. وفي ذلك يقول ابن البنا في مباحثه:

ولم تزل كل النفوس الأحياء	عَلَامَةً دُرَّكَةً لِلْأَشْيَاءِ
وإنما تعوقها الأبدان	والأنفس النزع والشيطان
فكل من أذاقهم جهاده	أظهر للقاعد خرق العاده

وقال أيضا:

وهي من النفوس في كُمون	كما يكون الحب في الغُصون.
------------------------	---------------------------

فالرجال: الأسرار والأنوار، والنساء: العلوم والأذكار، والولدان: الحكم بنات الأفكار. فكل هؤلاء مستضعفون تحت قهر البشرية الظالم أهلها. من الأنفس النزع والشياطين المغوية، فكل من جاهد هؤلاء القواطع أظهر تلك العلوم والأنوار المواطع، واستخلص رُوحه من أسر حجاب الأكوان، وأقضى إلى فضاء الشهود والعيان. وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم حث أوليائه من أهل الإيمان أن يقاتلوا أولياء الشيطان، فقال:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٧٦)

يقول الحق جل جلاله في مدح المخلصين: «الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله»، وابتغاء مرضات الله، وإعلاء لكلمة الله، «والذين كفروا»، من أهل مكة وغيرهم، «يقاتلون في سبيل الطاغوت» وهو

الشيطان، «فقاتلوا» يا أولياء الله «أولياء الشيطان» ولا يهولكم كيده؛ «إن كيد الشيطان كان ضعيفا»، وكيد الله للكافرين كان قويا متينا، فلا تخافوا أولياءه، فإنهم اعتمدوا على أضعف شيء وأوهده، وأنتم اعتمدتم على أقوى شيء وأمتته.

الإشارة: كل ما سوى الله طاغوت، فمن قصد بجهاده أو عمله رضى الله والوصول إلى حضرته دون شيء سواه، كان من أولياء الله، ومن قصد بجهاده أو أعماله حظا دنيويا أو أخرويا خرج من دائرة الولاية، فإما أن يكون مع عامة أهل الإيمان، أو من أولياء الشيطان. قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه». وقال في الحكم: «لا ترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرحى، يسير والذي ارتحل منه هو الذي ارتحل إليه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون، «وأن إلى ربك المنتهى»».

ثم عاتب الحق جل جلاله قوما طلبوا فرض الجهاد، فلما فرض عليهم خطر ببالهم شيء من طبع البشر، الذي هو الخوف من الموت، فقال:

﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ۖ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۖ﴾ (٧٧) ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ۖ﴾

قلت: (أو أشد) عطف على الكاف النائية عن المصدر، أى: خشية مثل خشية الله أو أشد، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أى: مثل خشيتهم الله.

يقول الحق جل جلاله: «ألم تر» يا محمد «إلى الذين» طلبوا منك فرض الجهاد حرصا على أن يجاهدوا، ف قيل لهم على لسان الرسول: «كفوا أيديكم» عنه إلى أوان فرضه، واشتغلوا بما أمرتم به من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، «فلما كتب عليهم القتال» دخلهم الخوف «إذا فريق منهم يخشون الناس» أى:

الكفار، أن يقتلوهم مثل خشية عقاب «الله» أو أشد خشية منه. «وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال» في هذا الوقت «لولا»: هلا «أخرتنا إلى أجل قريب» نتمتع فيه بحياتنا أو إلى أن نموت بآجالنا. قلت: والظاهر أنهم قالوا ذلك في نفوسهم، خواطر خطرت لهم، ولم يفوهوا به، إن نزلت في الصحابة - رضى الله عنهم -، وإن كانت في المنافقين فيمكن أن ينطقوا بها.

«قل متاع الدنيا قليل» وعيشها ذليل، وأجلها قريب، «والآخرة خير لمن اتقى»، وحياتها خير وأبقى، وستقدمون على مولاكم، فيكرم مثواكم، ويوفيكم جزاء أعمالكم، «ولا تظلمون فتيلًا» من ثواب أعمالكم، ولا تنقصون من أيام أعماركم، جاهدتم أو قعدتم.

«أينما تكونوا يدرككم الموت» عند انقضاء آجالكم، «ولو كنتم في بروج مشيدة» عالية محصنة. فإن كان الموت لا بد منه ففي الجهاد أفضل، لأنه حياة لا موت بعده. قال الكلبي: نزلت في قوم من الصحابة، منهم: عبدالرحمن بن عوف، والمقداد وقدامة بن مظعون وغيرهم، كانوا يؤذون بمكة، ويستأذنون النبي ﷺ في القتال، فيقول لهم: كفوا أيديكم حتى يؤذن فيه لكم، فلما هاجروا إلى المدينة وأمروا به، كرهه بعضهم كراهية الطبع البشري، فخطر ببالهم شيء مما حكى الله عنهم. فلما كانوا في عين العناية ومحل القرب والهداية عوقبوا على تلك الخواطر، ولو كان غيرهم من أهل البعد لسومح له في ذلك، وقيل: نزلت في قوم من المؤمنين أمروا بالجهاد فنافقوا من الجبن، وتخلفوا عن الجهاد، وهذا أليق بما بعده من قوله: «إن تصبهم حسنة». والله تعالى أعلم.

الإشارة: نرى بعض الفقراء يبطشون إلى مقام التجريد ومجاهدة نفوسهم قبل كمال يقينهم، فإذا أمروا بذلك، ورأوا ميادين الحروب واشتعال نيران قتل النفوس، وأمروا بالصبر على المكاره، من مواجهة الإنكار ولحوق الذل والافتقار، جبوا وكأوا ورجعوا التهقري، فيقال لهم: متاع الدنيا قليل وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، وكبيرها حقير، وما تنالون من الله في جزاء مجاهدتكم خير وأبقى، ولا تظلمون فتيلًا من مجاهدتكم لنفوسكم، فلو صبرتم لفزتم بالوصول إلى حضرة ربكم، فلما جبنتم ورجعتم، كان جزاؤكم الحرمان، عما ظفر به أهل العرفان.

وفي مثل هؤلاء يقول ابن الفارض رحمته الله:

تعرض قوم للغرام وأعرضوا	بجانبهم عن صحتي فيه واعتلوا
رضوا بالأمانى، وابتلوا بحفظهم	وخاصوا بحار الحب، دعوى، فما ابتلوا
فهم في السرى لم يبرحوا من مكانهم	وما ظعنوا في السير عنه، وقد كَلُوا

ثم حكى مقالتهن الدالة على نفاقهم، فقال:

﴿... وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ...﴾

يقول الحق جل جلاله في وصف أهل النفاق: وإنهم إن «تصيبهم حسنة» كخصب ورخاء ونعمة ظاهرة، قالوا: «هذه من عند الله»، ونسبوا إلى الله بلا واسطة، «وإن تصيبهم سيئة» كقحط وجوع وموت وقتل، قالوا للرسول - عليه الصلاة والسلام -: «هذه من عندك» بشؤم قدومك أنت وأصحابك، كما قالت اليهود - لعنهم الله -: منذ دخل محمد المدينة نقصت ثمارها وغلّت أسعارها.

قلت: بل زكت ثمارها، ورخصت أسعارها، وأشرقت أنوارها، ولاحت أسرارها، وقد دعا ﷺ للمدينة بمثل ما دعا إبراهيم لمكة، وأضعاف ذلك، فمازالت الخيرات تترادف إليها حساً ومعنى إلى يوم القيامة، وهذه المقالة قد صدرت ممن كان قبلهم؛ فقد قالوا لسيدنا صالح ﷺ: «قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ»، وقال تعالى: «وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ»، «مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ». قال تعالى مذكباً لهم: «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»؛ الحسنة بفضله، والسيئة بعدله. ثم عيرهم بالجهل فقال: «فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا»؛ فهم كالبهائم أو أضل سبيلاً، أو لا يفقهون القرآن ويتدبرون حديثه، ولو تدبروا لعلموا أن الكل من عند الله، وأنه خالق كل شيء، المقدر لكل شيء.

ثم علمنا الأدب بنسبة الكمالات إليه سبحانه بلا واسطة، ونسبة النقائص إلى شؤم ذنوبنا، فقال: «مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ أَوْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ» فضلاً وإحساناً، وأما طاعة العبد فلا نفى بشكر نعمة واحدة، ولذلك قال - عليه الصلاة والسلام -: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ». «وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ أَوْ مِنْ نِقَمٍ فَهُوَ مِنْكَ» أي: شؤم ذنبك، وعنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «مَا مِنْ خَدَشٍ يَعُودُ وَلَا اخْتِلَاجٍ عَرِقَ وَلَا غَيْرُهُ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَغْفِرُ اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ». فلا ينافي قوله: «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»؛ فإن الكل منه إيجاباً واختراعاً، غير أن الحسنة إحسان، والسيئة مجازاة وانتقام. كما قالت عائشة - رضي الله عنها -: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ وَصَبٌّ وَلَا نَصَبٌ، حَتَّى الشُّوكَةُ يُشَاكُهَا، وَحَتَّى انْقِطَاعُ شِرْعِ نَعْلِهِ، إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَغْفِرُ اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ».

وفي مصحف ابن مسعود: (قالوا ما أصابك من حسنة فمن الله) الآية، فتكون حينئذ من مقالة المنافقين، والآيتان كما ترى لاجبة فيها للمعتزلة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ثلاث خصال لا ينجو منها إلا القليل كما في الحديث: الطيرة، والحسد، والظن. فقال - عليه الصلاة والسلام: «إِذَا تَطَيَّرْتَ قَامُضٍ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبِغْ، وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تَحَقِّقْ». فيؤكد على المرید أن يتطهر من هذه الخصال، ويصفى مشربه من التوحيد، فلا يرى في الوجود إلا مولا، ولا ينسب التأثير إلى شيء سواه، إذا رأى نعمة به أو غيره، قال: من الله، وإذا رأى مصيبة كذلك تأدب مع الله، فيعتقد في قلبه أنها من قدر الله، يقول: «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»، وينسب النقص إلى نفسه وهواه، فالنفس والشيطان مناديل الحضرة، تمسح فيهما أوساخ الأقدار، «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ». والله تعالى أعلم.

ثم شهد جل جلاله لرسوله بالرسالة، تحريضا على تعظيمه وحثا على طاعته، وترهيبا من سوء الأدب معه، كما صدر من المنافقين، فقال:

﴿... وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٨٠﴾﴾

قلت: إن تعلق الجار بالفعل كان (رسولا) حال مؤكدة، وإن تعلق بالاسم كان حالا مؤسسة تفيد العموم؛ أي أرسلناك رسولا للناس جميعا، و(حفيظا) حال من الكاف.

يقول الحق جل جلاله: «وأرسلناك» يا محمد «لناس رسولا» تعلمهم التوحيد وتدلهم على الأدب، فالتوحيد محله البواطن، فلا يرى الفعل إلا من الله، والأدب محله الظواهر فينسب بلسانه النقص إلى نفسه وهواه. وإذا شهد الحق - جل جلاله - لرسوله بالرسالة أغنى عن غيره، «وكفى بالله شهيدا». وشهادة الحق له بالمعجزات الواضحات، والبراهين القطعية، والدلائل السمعية، فإذا ثبتت رسالته وجب على الناس طاعته، ولذلك قال: «من يطع الرسول فقد أطاع الله»؛ لأنه مبلغ عن الله لا ينطق عن الهوى. روى أنه ﷺ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ أَحَبَّنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ» فقال بعض المنافقين: ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه ربا، كما اتخذ النصراني عيسى. فنزل: «من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى» وأعرض «فما أرسلناك عليهم حفيظا» تحفظ عليهم أعمالهم، وتحاسبهم عليها، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

الإشارة: كما شهد الحق - جل جلاله - لرسله بالرسالة، بما أظهر لهم من المعجزات، شهد لأوليائه بالولاية بما منحهم من الكرامات. والمراد بالكرامة: هي تحقيق العرفان، ومعرفة الذوق والوجدان، واستقامة الظواهر والبواطن، وتهذيب الأخلاق وهداية الناس على يديه إلى العليم الخلاق، فهذه الكرامة المعتبرة عند المحققين، فمن أطاعهم فقد أطاع الله، ومن أعرض عنهم فقد أعرض عن معرفة الله، ومن أحبهم فقد أحب الله، ومن أبغضهم فقد أبغض الله؛ لأنهم نور من أنوار الله، وعين من عيون الله، إذ لم يبق فيهم بقية مما سوى الله، أقدامهم على قدم رسول الله، «إن الذين يبائعونك إنما يبائعون الله». فافهم، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أحوال أهل النفاق، فقال:

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٨١)

قلت: (طاعة): خبر، أي: أمرنا طاعة، وأصله النصب على المصدر، ورفع للدلالة على الثبوت، وبَيَّتَ الشيء: دبَّره ليلاً وأضمره في نفسه.

يقول الحق جل جلاله في شأن المنافقين: «ويقولون» لك إذا حضروا معك: أمرنا وشأننا «طاعة» لك فيما تأمرنا به، «فإذا برزوا» أي: خرجوا «من عندك بيَّت طائفة منهم» أي: دبَّرت ليلاً وأخفت من النفاق «غير الذي تقول» لك من قبول الإيمان وإظهار الطاعة، أو زورت خلاف ما قلت لها من الأمر بالطاعة، «والله يكتب ما يبيِّتون» أي: يُقْبِتُهُ في صحائفهم فيجازيهم عليه، «فأعرض عنهم» ولا تبال بهم، «وتوكل على الله» يكفك شرهم، «وكفى بالله وكيلاً» عليهم، فسينتقم لك منهم.

الإشارة: هذه الخصلة موجودة في بعض العوام؛ إذا حضروا مع أهل الخصوصية أظهرُوا الطاعة والإقرار، وإذا خرجوا عنهم بيَّتُوا الانتقاد والإنكار، فلا يليق إلا الإعراض عنهم، والغيبة في الله عنهم، فإن الله يكفى شرهم بكفالاته وحفظه. والله تعالى أعلم.

ثم دلَّهم على ما فيه دواء مرض قلوبهم، فقال:

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبُيُوتُ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُضِلُّونَ أَكْثَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَمْ يُؤْمَرُوا بِالْإِيمَانِ وَالْجَاهِدِ وَلَكِنْ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُونَ ﴾ (٨٢)

يقول الحق جل جلاله : أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون «القرآن» ، وينظرون ما فيه من البلاغة والبيان، ويتبصرون في معاني علومه وأسراره، ويطلعون على عجائب قصصه وأخباره، وتوافق آياته وأحكامه، حتى يتحققوا أنه ليس من طوق البشر، وإنما هو من عند الله الواحد القهار، «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» بين أحكامه وآياته، من تفاوت اللفظ وتناقض المعنى، وكون بعضه فصيحاً، وبعضه ركيكاً، وبعضه تصعب معارضته وبعضه تسهل، وبعضه توافق أخباره المستقبلية للواقع، وبعضه لا يوافق، وبعضه يوافق العقل، وبعضه لا يوافقه، على ما دل عليه الاستقراء من أن كلام البشر، إذا طال، قطعاً يوجد فيه شيء من الخل والتناقض.

قال البيضاوي: ولعل ذكره للتنبيه على أن اختلاف ما سبق من الأحكام ليس للتناقض في الحكم، بل لاختلاف الأحوال من الحكم والمصالح. هـ. قال ابن جزى: وإن عرّضت لأحد شبهة وظن اختلافاً في شيء من القرآن، فالواجب أن يتهم نظره، ويسأل أهل العلم ويطلب تأليفهم، حتى يعلم أن ذلك ليس باختلاف. هـ.

الإشارة: تدبر القرآن على حسب صفاء الجنان، فبقدر ما يتطهر القلب من حب الدنيا والهوى تتجلى فيه أسرار كلام المولى، ويقدر ما يتراكم في مرآة قلبه من صور الأكوان، ينحجب عن أسرار معاني القرآن؛ ولو كان من أكابر علماء اللسان. فلما كان القرآن هو دواء لمرض القلوب، أمر الله المنافقين بالتدبر في معانيه؛ لعل ذلك المرض ينقلع عن قلوبهم، لكن الأقفال التي على القلوب منعت القلوب من فهم كلام علام الغيوب، فحلاوة كلام الله لا يذوقها إلا أهل التجريد، الخائضون في تيار بحار التوحيد، الذين صفت قلوبهم من الأغيار، وتطهرت من الأكدار، يتمتعون أولاً بحلاوة الكلام، ثم يتمتعون ثانياً بحلاوة شهود المنكلم. والله تعالى أعلم.

ومن مساوي المنافقين إفشاء أسرار المؤمنين، كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ...﴾

قلت: استنبط الشيء: استخرجه من غيره، وأصل الاستنباط: إخراج النبط، وهو الماء، يخرج من البئر أول ما يحفر، والجار في (منهم): إما بيان للموصول، أي: لعلم المستنبطون الذين هم أولو الأمر، أو يتعلق بـ (علم)، أي: لعلمه الذين يستخرجونه إلى الناس من أولى الأمر.

يقول الحق جل جلاله: في ذم المنافقين أو ضعفة المسلمين: «وإذا جاءهم أمرٌ أي: خبر عن السرايا الذين توجهوا للغزو، من نصر وغنيمة وأمن وأخوف، وقتل وهزيمة، «أذاعوا به» أي: تحدثوا به، وأشهروه، وأرجفوا به قبل أن يصل إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأكابر الصحابة، الذين هم أولو الأمر وأهل البصائر، فيعرفون كيف يتحدثون به.

ولوردوا ذلك «إلى الرسول» وأخبروه به سراً، أو سكتوا حتى يصل إليه، أو يردوه «إلى أولى الأمر» من أكابر الصحابة، لعلمه الذين يسخرجونه إلى الناس «منهم»، فينقلونه على وجهه، ويعرفون كيف يتحدثون به من غير إرجاف ولا تخويف، أو «لَعَلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ» وهم أولو الأمر أولاً، ثم يعلم الناس، فلا يكون فيه إرجاف ولا سوء أدب. أو: وإذا جاءهم أمر من وحى السماء: من تخويف أو تأمين، أذاعوا به قبل أن يظهره الرسول - عليه الصلاة والسلام -، ولو سكتوا وردوا ذلك إلى الرسول حتى يتحدث به للناس، ويظهره أولو الأمر من أكابر أصحابه، لعلمه الذين يستخرجون ذلك الوحي من أصله، وهو الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأكابر أصحابه، كما فعل عمر رضي الله عنه: إذ سمع أن رسول الله ﷺ طلق نساءه، فدخل عليه فقال: أطلقت نساءك؟ قال: «لا»، فقام على باب المسجد، فقال: إن رسول الله ﷺ لم يطلق نساءه، فأنزل الله هذه القصة، قال: وأنا الذي استنبطته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قالت الحكماء: قلوب الأحرار قبور الأسرار، وهذه الخصلة التي ذمها الله تعالى توجد في كثير من العوام؛ مهما سمعوا خبراً: خيراً أو شراً، بادروا إلى إفشائه، ولا سيما إذا سمعوه على أهل النسبة أو أهل الخصوصية، وقد توجد في بعض الفقراء، وهي غفلة ونوع من الفضول، فالفقير الصادق غائب عن أخبار الزمان وأهله، وقد ترك الناس وما هم فيه، وقد تغلب عليه الغيبة في الله حتى تغيب عنه الأيام، وأما الفقير الذي يتسمع الأخبار ويبحث عنها فلا نسبة له في الفقر، إلا اسم بلا مسمى، وقد ترى بعض الفقراء، يبلغ مساوئ إخوانه إلى المشايخ، وهو سبب الطرد، والعياذ بالله. وقد كان ﷺ يقول: «لا تبلغوني مساوئ أصحابي»^(١)؛ لأن ذلك يسوؤهم، والخير كله في إدخال السرور على قلوب المشايخ.

وتنسحب الآية على من يَفْشِي أسرار الربوبية، ويطلع الفقراء على الحقيقة، ولوردوا ذلك إلى شيخهم حتى يكون هو الذي يطلعهم لكان أحسن، لأن الحقيقة إذا أخذت من الشيخ كان فيها سر كبير، بخلاف ما إذا أخذت من غيره، إلا إذا كان ماذوناً له في ذلك فكأنه هو. والله تعالى أعلم.

(١) الحديث لم أتف عليه بهذا اللفظ، وورد عنه ﷺ: «لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً فإنني أحب أن أخرج إليكم سليم الصدر». أخرجه أبو داود في (الأدب، باب رفع الحديث من المجلس) والترمذي في (المناقب، باب فضل أزواج النبي) من حديث ابن مسعود.

وقال الورتجبي: قال أبو سعيد الخزاز: إن له عباداً يدخل عليهم الخلل، ولولا ذلك لفسدوا وتعطلوا، وذلك أنهم بلغوا من العلم غاية، صاروا إلى علم المجهول، الذي لم يلصقه كتاب، ولا جاء به خبر، لكن العقلاء العارفون، يحتاجون له من الكتاب والسنة، بحسن استنباطهم ومعرفتهم، قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّهِ الَّذِينَ يَسْتَظُنُّونَهُ مِنْهُمْ﴾. هـ.

قلت: ومعنى كلامه: أن الله - تعالى - أشغل علماء الظاهر بتقرير علم الفرق، ولولا اشتغالهم بذلك لتعطلوا وتبطلوا، إذ لا قدرة لهم على عمل القلوب من الفكرة والنظرة، لكن العارفون يقررون لهم ذلك، ويحتاجون لهم بما في نشر العلم من الأجور، من الكتاب والسنة، لأنهم قاموا بنظام علم الحكمة ورفعوا علم الشريعة، ولولا قيامهم بذلك لتعين على أهل الباطن، ففتشوش عليهم قلوبهم، وكان شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل العمراني رحمته الله يقول: جزاهم الله عنا خيراً؛ رفعوا لنا علم الشريعة، نحن نغرق في البحر، ثم نرفع رأسنا فنرى العلم قائماً، ثم نرجع إلى البحر. هـ. بالمعنى، والله تعالى أعلم.

ثم إن الهداية بيد الله، قوم أقامهم في الفرق، وقوم هداهم إلى الجمع، كما قال تعالى:

﴿... وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

يقول الحق جل جلاله: لولا أن الله تفضل عليكم ورحمكم بنبي الرحمة، وأنقذكم من متابعة الشيطان وعبادة الأوثان، لبقيتكم على كفركم وضلالكم، ولاتبعتم الشيطان فيما يأمركم به من الكفر والعصيان، إلا قليلاً ممن اهتدى قبل بعثته، كقس بن ساعدة، وزيد بن نفيل، وورقة بن نوفل، رزقهم الله كمال العقل؛ فنظروا وتفكروا بعقولهم؛ فوجدوا الله واعتزلوا ما كان يعبد آباؤهم وإخوانهم. أما قس فاعتزل قومه، وعبد الله وحده، وكان يخطب على الناس ويأمرهم بالتوحيد، ويعيب عليهم عبادة الأصنام. وعاش سبعمئة عام. وأما زيد فتعلق بالحنيفية، دين إبراهيم، حتى مات قبل البعثة. وأما ورقة - فأخذ بدين النصرانية التي لم تُغيّر، وأدرك أول البعثة، وآمن بالرسول قبل أن يؤمر بالإنذار. قال - عليه الصلاة والسلام -: «رأيتُه في الجنة عليه ثياب خضر». والله تعالى أعلم.

الإشارة: لولا فضل الله عليكم بأن بعث لكم من يدلکم على الله ويعرفکم بالله، ورحمته بأن أخرجكم من ضيق الفرق، إلى فضاء الجمع، لا تبعتم الفرق علماً وعملاً، لكن الله تعالى بفضله ورحمته غيبيكم عن شهود الفرق بشهود الملك الحق. إلا فرقاً قليلاً تقيمون به رسم العبودية، وتظهرون به الآداب مع الربوبية.

قال الورتجبي: الفضل والرحمة منه للعموم، ومحبة للخصوص، الذين هم مستثلون بقوله: «إلا قليلا». هـ. قال القشيري: «ولولا فضل الله» مع أوليائه لهاموا في كل وادٍ من التفرقة كأشكالهم في الوقت. هـ. فخص الإشارة بالأولياء، وعليه فقوله: «إلا قليلا» أي: إلا تفرقة قليلة تعرض لهم، تربية لهم، وإبقاء لرسمهم ومناط تكليفهم. والله تعالى أعلم. قاله في الحاشية.

ولا يظهر هذا كله إلا بالجهاد الأكبر والأصغر، كما قال تعالى:

﴿ فَقَلِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيبًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِنَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾

قلت: (نفسك): مفعول ثان، والأول نائب، أي: لا يكلفك الله إلا نفسك.

يقول الحق جل جلاله: «فقاتل» يا محمد «في سبيل الله» ولو وُحِّدَكَ إن تلبطوا عن الجهاد، لانكلفك إلا أمر نفسك، «و» لكن «حرِّضَ المؤمنين» على الجهاد، إذ ماعليك إلا التحريض. فجاهدوا حتى تكون كلمة الله هي العليا. «عسى الله أن يكف» بجهادكم «بأس الذين كفروا» ويبطل دينهم الفاسد. «والله أشد بأسا» منهم «وأشد تنكيلا» أي: تعذيبا لهم. وقد حقق الله ذلك ففتح الله على نبيه قبائل العرب، فلم يبق فيهم مشرك، ثم فتح على الصحابة سائر البلاد، وهدى الله بهم جميع العباد، إلا من قرَّ من الكفار إلى شواحق الجبال.

وإنما أمرتك بالتحريض على الجهاد؛ لأن الدال على الخير كفاعله، وذلك كالشفاعة بين الناس ودلائلهم على إصلاح ذات البين، فمن «يشفع شفاعة حسنة» بأن يدفع المشفوع له، يدفع ضرر أو جلب نفع، ابتغاء وجه الله، «يكن له نصيب منها»، أي: حظ كبير من الثواب؛ لأنه دل المشفوع عنده على الخير، وأوصل النفع إلى المشفوع له، فله من الأجر مثل ما لهما، ومنها: الدعاء بظهر الغيب، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ دَعَا لِمُسْلِمٍ بَظَهْرِ الْغَيْبِ اسْتَجِيبَ لَهُ، وَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: لَكَ مِثْلُ ذَلِكَ».

«ومن يشفع شفاعة سيئة»، يريد بها فسادا بين الناس؛ كنميمة وزور وإحداث بدعة، «يكن له كفل» أي: نصيب «منها» أي: من وزرها، وفي الحديث: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ

القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». «وكان الله على كل شيء مقبلاً أي: مقتدرًا من أقات على الشيء: إذا قدر عليه، أو شهيداً حافظاً فيجازى على قدر الأعمال.

ومن هذا أيضاً: السلام، فإنه سبب في ثواب الرد، لذلك ذكره الحق في سلك الدلالة على الخير فقال: «وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها» بأن تقولوا: وعليكم السلام والرحمة والبركة، «أو ردوها» بأن تقولوا: وعليكم السلام.

وفي الخبر: «من قال لأخيه المسلم: السلام عليكم، كتب الله له عشر حسنات، فإن قال: السلام عليكم ورحمة الله، كتب الله له عشرين حسنة، فإن قال: وبركاته، كتب الله ثلاثين»، وكذلك لمن رد، فإن اقتصر على السلام، فعشر، وهكذا.. فإن ذكر المسلم الرحمة والبركة، قال الراد: وعليكم، فقط، إذ لم يبق ما يزداد، ورد السلام واجب على الكفاية، حيث يكون مشروعاً، فلا يرد في الخطبة، وقراءة القرآن، والذكر والتفكير، والاعتبار، ونظرة الشهود والاستبصار، لأنه يفتر ويشوش، وفي الحمام إذا كانوا عراة، وفي حال الجماع والأكل والشرب وغيرها من المسائل المستثناة. وقد نظمه بعضهم، فقال:

رد السلام واجب إلا على من في الصلاة أو بأكل شغلا
أو شرب أو قراءة أو أدعية أو ذكر أو خطبة أو تلبية

والسلام من تحية أهل الإسلام، خاص بهم. لذلك استغرب الخضر - عليه السلام - سلام سيدنا موسى عليه السلام فقال له: «وأنى بأرضك السلام»، وكذلك خليل الله إبراهيم عليه السلام، إنما أنكر الملائكة حيث سلموا عليه بتحية أهل الإسلام؛ لأنه كان بين أظهر قوم كفار، أما سلام أبي ذر على النبي ﷺ بتحية أهل الإسلام، قبل أن يسلم، فاعله سمعه من بعض الصحابة قبل أن يسلم، أو إلهام من الله. والله تعالى أعلم.

«إن الله كان على كل شيء حسيباً» يحاسبكم على التحية وغيرها. وبالله التوفيق.

الإشارة: فجاهد أيها الإنسان نفسك في سبيل الله، لا تكلف إلا إصلاحها وتزكيتها، وحرص من يسمع قولك من المؤمنين على جهاد أنفسهم، عسى الله أن يكف عنهم القواطع والعلائق، فيتأهلون لإشراق قلوبهم بأنوار الحقائق، فإن الله لا يغلبه شيء، فمن ذكر عباد الله، ودسهم إلى حضرة الله كان حظه كبيراً عند الله. ومن دلهم على غير الله فقد غشهم وكان مهاناً عند الله، وإذا وقع السلام على الفقراء؛ فإن كانوا سالكين غير مشتغلين بالذكر

وجب عليهم الرد بأحسن، وإذا كانوا ذاكرين أو متفكرين أو سكارى في شهود الحبيب سقط عنهم السلام، وكذلك إذا سلم عليهم اختباراً وتعديتاً لم يجب الرد. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر أمر الحساب ذكر وقته، فقال:

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (٨٧)

قلت: (الله): مبتدأ، و(لا إله): خبر، أو اعتراض، و(ليجمعنكم): خبر، وهو أوفق بالسياق، و(لا ريب فيه): حال، أو صفة لمصدر، أى: جمعاً لا ريب فيه.

يقول الحق جل جلاله: «الله لا إله إلا هو» أى: لا مستحق للعبادة إلا هو، والله «ليجمعنكم» أى: ليحشرنكم من قبوركم «إلى يوم القيامة» للحساب الذى وعدكم به، لا شك فيه، فهو وعد صادق، «ومن أصدق من الله حديثاً»، أى: لا أحد أصدق من الله حديثاً، لأن الكذب نقص، وهو على الله محال.

الإشارة: الحق تعالى واحد فى ملكه، فلا يذوق وحدانيته إلا من كان واحداً فى قصده وهمه، فكل من وحد قلبه وقصده وهمته فى طلبه، وانجمع بكيته إليه، جمعه الله لحضرته، ونعمه بشهود ذاته، وعداً حقاً وقولاً صدقاً، لا ريب فيه ولا اشتباه، إذ لا أحد أصدق من الله.

ثم رجع إلى الكلام مع المنافقين، فقال:

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ (٨٨) وَذُوالُو تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ... ﴿

قلت: (فتنين): حال، والعامل فيه: الاستقرار فى الجبر، وأركس الشيء: نكسه.

يقول الحق جل جلاله معاتباً الصحابة حين اختلفوا فى إسلام بعض المنافقين، فقال: «فما لكم» افتدقتم «فى» شأن «المنافقين» فرقتين، ولم تتفقوا على كفرهم، والحالة أن الله - تعالى - «أركسهم»، أى: نكسهم وردهم إلى الكفر بعد أن أظهروا الإسلام بسبب ما كسبوا من الآثام. «أتريدون أن تهدوا من أضل الله»، وسبق لهم الشقاء فى علم الله؟ ومن يضل الله فلن تجد له طريقاً إلى الهدى. قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : (نزلت فى قوم كانوا بمكة من المشركين، فزعموا أنهم آمنوا ولم يهاجروا، ثم سافر قوم منهم بتجارات إلى الشام، فاختلف

وكانت خزاعة وادعت النبي ﷺ وعقدت معه الصلح، فجاء بنو مدلج فدخلوا معهم في الصلح، فنهى الله عن قتالهم ماداموا معهم، فالقوم الذين بين المسلمين وبينهم ميثاق هم خزاعة، والذين وصلوا إليهم هم بنو مدلج. فالاستثناء على هذا منقطع، لأن بنى مدلج حينئذ كانت مظهرة للكفر لا مداقة، ويحتمل أن يكون متصلاً، أى: إلا الذين يصلون منهم... الخ، فتأمل. وكان هذا في أول الإسلام، ثم نسخ بقوله: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» الآية.

ثم ذكر قوماً آخرين نهى عن قتالهم، فقال: «أَوْ جَاءُوكُمْ» أى: إلا قوما جاءوكم، قد «حصرت صدورهم» أى: ضاقت عن «أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ» يعنى أنهم كرهوا قتالهم، وكرهوا قتال قومهم الكفار، فلا تقتلوههم أيضاً، لأن الله كف شرهم عنكم، «ولو شاء الله لسلطهم عليكم» بأن قوى قلوبهم وأزال رعبهم «فَلَقَاتِلُوكُمْ» ولم يكفوا عنكم، «فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ» ولم يتعرضوا لكم «وَالْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ» أى: الاستسلام والانقياد «فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا» أى: طريقاً إلى قتالهم.

الإشارة: نهى الله تعالى عن مساكنة النفوس وموالاتها، حتى تهاجر عن مواطن شهواتها إلى حضرة ربها، فإن تولت عن الهجرة وألفت البطالة والغفلة فليأخذها ليقتلها حينما ظهرت صورتها، ولا يسكن إليها أبداً أو يواليها، إلا إن وصلت إلى حضرة الشيخ، وأمره بالرفق بها، أو كفت عن طغيانها، أو كفى الله أمرها، بجذب أخرجها عن عوائدها، أو وارد قوى دفع شهواتها، فإنه يأتى من حضرة قهار، لا يصادم شيئاً إلا دمه، وهذه عناية من الرحمن، ولو شاء الله تعالى لسلطها على الإنسان يرخى لها العنان، فتجمع به فى ضحَضَاح النيران، فإن كفت النفس عن شهواتها، وانقادت إلى حضرة ربها، فما لأحدٍ عليها من سبيل، وقد دخلت فى حمى الملك الجليل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر صنفاً آخر من المنافقين، فقال:

﴿سَتَجِدُونََ الْآخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَّارِدُّوهُ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخَذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ٩١﴾

يقول الحق جل جلاله : «ستجدون» قوماً «آخرين» منافقين، وهم أسد وغطفان، قَدِمُوا المدينة، وأظهروا الإسلام نفاقاً ورياء؛ إذا لقوا النبي ﷺ قالوا: إنا على دينك، يريدون الأمن، إذا لقوا قومهم، وقالوا لأحدهم: لماذا أسلمت، ومن تعبد؟ فيقول: لهذا الفرد ولهذا العقرب والخنفساء، «يريدون» بإظهار الإسلام «أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم، كلما رُدوا إلى الفتنة أركسوا فيها»، أى: كلما دُعُوا إلى الكفر رَجَعُوا إليه أقبح رد، «فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم» أى: ولم يلقوا إليكم المسالمة والصلح، ولم «يكفوا أيديهم» بأن تعرضوا لكم «فاقتلوهم حيث ثقتموهم» أى: وجدتموهم، «وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً»، أى: تسلطاً «مبيناً» ظاهراً، لظهور كفرهم وثبوت عداوتهم.

الإشارة: النفوس على ثلاثة أقسام: قسم مطلقة العنان فى الجرائم والعصيان، وهى النفوس الأماره، واليهما الإشارة بالآية قبلها، والله أعلم. وقسم مذبذبة؛ تارة تظهر الطاعة والإذعان، تريد أن يأمنها صاحبها، وتارة ترجع إلى الغي والعصيان، مهما دُعيت إلى فتنة وقعت فيها، فإن لم تلتزمه عن ذلك، وتكف عن غيها، فالواجب جهادها وقتلها؛ حتى تنقاد بالكلية إلى ربها، وأما النفس المطمئنة فلا كلام معها لتحقيق إسلامها، فالواجب الكف عنها وحبها. والله تعالى أعلم.

ولما فرغ من حفظ الأديان؛ تكلم على بقية حفظ الأبدان، فقال:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

قلت: (وما كان لمؤمن) النفي هنا بمعنى النهي، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾، و(إلا خطأ): استثناء منقطع، و(خطأ): حال، أو مفعول من أجله، أو صفة لمصدر محذوف، أى: لا يحل له أن يقتل مؤمناً فى حال من الأحوال، لكن إن وقع خطأ فحكمه ما يأتى. وقيل: متصل. انظر ابن جزى. أو: إلا قتلاً خطأ، و(إلا أن يصدقوا): حال، أى: إلا حال تصديقهم، و(توبة): مفعول من أجله، أى: شرع ذلك لأجل التوبة. أو، مصدر، أى: تاب عليكم توبة.

يقول الحق جل جلاله: «وما كان» ينبغي «لمؤمن أن يقتل مؤمناً» مثله، أى: هو حرام عليه، «إلا» أن يقتله «خطأ» بأن ظنه كافراً، أو رمى غيره فصادفه. والآية نزلت بسبب قتل عياش بن ربيعة للحارث بن زيد، وكلن الحارث يعذبه على الإسلام، ثم أسلم الحارث، وهاجر، ولم يعلم عياشُ بإسلامه، فقتله.

ثم ذكر حكمه فقال: «ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة» أى: فعلية تحرير رقبة «مؤمنة» سالمة من العيوب، ليس فيها شوب حرية، تكون من مال القاتل، «وديةً مسلمة» أى: مدفوعة «إلى أهله» وهى على العاقلة كما بين الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وهى عند مالك: مائة من الإبل على أهل الإبل، وألف دينار شرعية على أهل الذهب، واثنى عشر ألف درهم، على أهل الورق، مقسطة على ثلاث سنين، فإن لم تكن العاقلة فعلى بيت المال، وتقسم على أهله، على حسب الموارث، إلا أن يتصدقوا بالدية على القاتل فتسقط، أى: تسمح فيها الورثة أو القتل قبل موته.

«فإن كان» المقتول «من قوم عدو لكم» أى: محاربين لكم، «وهو» أى: المقتول «مؤمن» فعلى القاتل «تحرير رقبة مؤمنة» ولا دية؛ لأنهم محاربون فينقروا بها على المسلمين، ورأى مالك أن الدية فى هذا واجبة لبيت المال، «وإن كان» المقتول مؤمناً وهو «من قوم بينكم وبينهم ميثاق» أى: عقد الصلح أو الذمة، فعلى القاتل «دية مسلمة إلى أهله»، وعليه أيضاً «تحرير رقبة مؤمنة» كفارة لخطئه. فإن كان غير مؤمن فلا كفارة فيه. وفيه نصف دية المسلم، «فمن لم يجد» الرقبة، أو لم يقدر عليها؛ فعليه «صيام شهرين متتابعين» عوضاً من العتق، جعل الله ذلك «توبة من الله» على القاتل لتفريطه. «وكان الله عليماً» بما فرض، «حكيماً» فيما قدر ودبر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الحق - جل جلاله - قد رغب فى إحياء النفوس، حساً ومعنى، ونهى عن قتلها حساً ومعنى، وما ذلك إلا لخصوص محبة له فيها، ومزيد اعتناء له بشأنها، فليس فى الوجود أعز عند الله من مظهر هذا آدمي، إن استقام فى العبودية لربه، فهو قلب الوجود، ومن أجله ظهر كل موجود، وهو المنظور إليه من هذا العالم السفلى، والمقصود باخطاب التكليفى: جزئى وكلّى، فهو المقصود من بيت القصيد، وهو الخبواب إليه، دون سائر العبيد، قال تعالى: ﴿واصطنعتك لنفسى﴾.

ومعنى إحيائها حساً: إنقاذها من الهلاك الحسى، ومعنى إحيائها معنى: إنقاذها من الهلاك المعنوى كالجهل والغفلة، حتى تحيا بالعلم والإيمان واليقظة، ومعنى قتلها حساً: إهلاكها، ومعنى قتلها معنى: إيقاعها في المعاصي والكفر وحملها على ذلك، وكذلك إهانتها وذلتها، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لَعَنُ الْمُؤْمِنُ كَقَتْلِهِ». فأمر من قتل خطأ أن يحيى نفساً أخرى في مقابلتها بإخراجها من موت إهانة الرق، فإن لم يقدر، فليحيى نفسه بقتل صولتها بالجوع حتى تنكسر، فتحيا بالتوبة واليقظة، ويجبر كسر أهل المقتول بالدية المسلمة.

هذا كله فى تفريطه وقلة حزمه حتى قتل خطأ، وأما إن قتل عمداً، فأشار إليه الحق جل جلاله بقوله:.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ﴿٩٣﴾

يقول الحق جل جلاله: «ومن يقتل مؤمناً متعمداً» مستحلاً لقتله «فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه» أى: طرده «وأعد له عذاباً عظيماً»، وقولنا: مستحلاً لقتله، هو أحد الأجوبة عن شبهة المعتزلة القائلين بتخليد عصاة المؤمنين فى النار. ومن جملةهم: قاتل النفس.

ومذهب أهل السنة: أنه لا يخلد إلا الكافر، ويؤيد هذا الجواب سبب نزول الآية، لأنها نزلت فى كافر، وهو (مقيس بن ضبابة الكناني)؛ وجد أخاه هشاماً قتيلاً فى بنى النجار. وكان مسلماً. فذكر ذلك للنبي ﷺ فأرسل معه رجلاً من بنى فهر، وقال له: «أنت بنى النجار، وقتل لهم: إن علمتم قاتل هشام فادفعوه لمقيس يقتص منه، وإن لم تعلموا فادفعوا إليه الدية». فقالوا: سمعاً وطاعة، لم نعلم قاتله، فجمعوا مائة من الإبل، فأخذها، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة، فوسوس إليه الشيطان، وقال: أى شيء صنعت؟ تقبل دية أخيك فتكون عليك سبة، اقتل الرجل الذى معك فتكون نفس مكان نفس وفصل الدية، فقتله وأخذ الدية، فنزلت فيه الآية.

أو يكون الخلود عبارة عن طول المكث، والجمهور على قبول توبته، خلافاً لابن عباس، ونقل عنه أيضاً قبولها، ولعله تعالى استغنى عن ذكر التوبة هنا اكتفاء بذكرها فى الفرقان، حيث قال: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا» ثم قال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾. وأما من قال: إن تلك منسوخة بهذه فليس بصحيح؛ لأن النسخ لا يكون فى الأخبار. أو فجزاؤه إن جوزى، ولا بدع فى خلف الوعيد لقوله: «ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»، لأن الوعيد

مشروط بعدم العفو، لدلائل منفصلة اقتضت ذلك كما هو مشروط بعدم التوبة أيضاً، والحاصل: أن الوعد لا يخلف لأنه من باب الامتنان، والوعيد يصح إخلافه بالعفو والغفران، كما في بعض الأخبار عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ وَعَدَ اللَّهَ - عز وجل - على عملٍ ثواباً فهو منجزه له لا محالة، وَمَنْ أَوْعَدَهُ على عملٍ عقاباً فهو بالخيار، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه» . هـ. ذكره في القوت.

فَتَحَصَّلَ أن القاتل لا يَخُذُّ على المشهور إلا إذا كان مستحلاً، وهذا أيضاً ما لم يقتص منه، وأما إذا اقتص منه فالصحيح أنه يسقط عنه العقاب؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ أَصَابَ ذَنْباً فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ» . وبه قال الجمهور، وكذلك إذا سَامَحَهُ ورثته الدم؛ لأنه حق ورثوه . والله تعالى أعلم.

الإشارة: الإيمان محله القلوب، فالقلب هو المنتصف بالإيمان حقيقة . فالمؤمن الحقيقي هو القلب، فمن قتله بتتبع الشهوات، وتراكم الغفلات، فجزاؤه نار القطيعة في سجن الأكوان، والبعد عن عرفان الشهود والعيان، وفي الحكم: «سبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم» . والله تعالى أعلم.

ثم إن اللسان ترجمان القلب، فمن أظهر الإيمان حرم التعرض له، كما أشار إلى ذلك الحق جل جلاله بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

قلت: (السلم) بالقصر: الانقياد والاستسلام، وبالمد: التحية. وجملة (تبتغون): حال من الواو، مشعرة بما هو الحامل على العجلة.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم أي: سافرتم وسرتم تجاهدون» في سبيل الله، «فتبينوا» الأمور وتثبتوا فيها ولا تعجلوا، فإن العجلة من الشيطان، «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم» أي: الانقياد والاستسلام، أو سلم عليكم تحية الإسلام، «لست مؤمناً»؛ إنما فعلت ذلك متعوداً خائفاً، فتقتلونه طمعاً في ماله، «تبتغون عرض الحياة الدنيا» وحطامها الفاني، «فعند الله مغانم كثيرة» وعدكم بها، لم تقدروا الآن عليها، فاصبروا وازهدوا فيما تشكون فيه حتى يأتيكم مالا شبهة فيه، «كذلك كنتم من قبل»

هذه الحال، كنتم تخفون إسلامكم خوفاً من قومكم، «فمن الله عليكم» بالعز والنصر والاشتهار، «فتتبينوا» وتتثبتوا ولا تعجلوا، وافعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل الله بكم، حيث حفظكم وعصمكم، ولاتبادروا إلى قتلهم ظناً بأنهم إنما دخلوا فيه اتقاء وخوفاً، فإن إبقاء ألف كافر أهدى من قتل مؤمن، وتكريره تأكيد لتعظيم الأمر. ثم هددهم بقوله «إن الله كان بما تعملون خبيراً» مطلعاً على قصدكم، فلا تنهافتوا في القتل، واحتاطوا فيه.

روى أن سرية لرسول الله ﷺ غزت أهل فدك فهربوا، وبقي مرداس ثقةً بإسلامه، لأنه كان مسلماً وحده، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل^(١)، وصعد عليه، فلما تلاحقوا وكبروا، كبر ونزل يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم، فقتله أسامة، واستاق غنمه، فنزلت الآية. فلما أخبر - عليه الصلاة والسلام - وجدَّ وجداً شديداً، وقال لأسامة: «كيف بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قالها ثلاثاً، حتى قال أسامة: ليتني لم أكن أسلمت إلا يومئذ، ثم استغفر له بعد، وقال له: «اعتق رقبة»، وقيل: نزلت في المقداد، مرُّ برجل في غنمه فأراد قتله، فقال: لا إله إلا الله، فقتله وظفر بأهله وماله، وقيل: القاتل: مُحَلِّم بن جثامة، والمقتول: عامر بن الأضبط. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يستفاد من الآية: الترغيب في خصلتين ممدوحتين وخصوصاً عند الصوفية:

الأولى: الثاني في الأمور والرزانة والطمأنينة، وعدم العجلة والخفة والطيش. وفي الحديث: «من تأني أصاب أو كاد، ومن استعجل أخطأ أو كاد». ولا يُقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، ويفهم عن الله أنه مراد الله في ذلك الوقت.

والثانية: حسن الظن بعباد الله كافة، واعتقاد الخير فيهم، وعدم البحث عما اشتمل عليه بواطنهم، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «أمرت أن أحكم بالظواهر والله يتولى السرائر»^(٢) وقال لأسامة: «هلا شققت عن قلبه»، حين قتل من قال: لا إله إلا الله، أو لغيره. وفي الحديث: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير: حسن الظن بالله، وحسن الظن بعباد الله، وخصلتان ليس فوقهما من الشر شيء: سوء الظن بالله، وسوء الظن بعباد الله». والله تعالى أعلم.

(١) أي: منعطف من الجبل.

(٢) لم يرد بهذا اللفظ. راجع كشف الخفا ٢٢١/١ والمقاصد الحسنة / ٩١.

ولما نهى عن العجلة نهضهم إلى الجهاد لئلا يتوهم أنها مذمومة حتى في الجهاد، فقال:

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٩٦ ﴾

قلت: (من المؤمنين): حال من (القاعدين)، و(غير) بالرفع: صفة للقاعدين، وبالنصب: حال، وبالجر: بدل من المؤمنين، و(درجة): نصب على إسقاط الخافض، أو على المصدر، لأنه متضمن معنى التفضيل، أو على الحال، أي: ذوى درجة. و(أجراً عظيماً): مصدر لفعل، لأنه بمعنى أجر، أو مفعول ثان لفعل، لأنه بمعنى أعطى، أي: أعطاهم زيادة على القاعدين أجراً عظيماً، و(درجات) وما بعده، كل واحد بدل من (أجراً)، و(درجات): نصب على المصدر، كقولك: ضريقه أسواط، و(أجراً): حال، تقدمت عليها؛ لأنها نكرة، و(مغفرة ورحمة): على المصدر بإضمار فعلهما.

يقول الحق جل جلاله ترغيباً في الجهاد: «لا يستوى القاعدون» عن الجهاد «من المؤمنين» مع المجاهدين في سبيل الله في الدرجة والأجر العظيم. ولما نزلت أتى ابن أم مكتوم وعبدالله بن جحش، وهما أعميان فقالا: يا رسول الله ذكر الله فضيلة المجاهدين على القاعدين، وحالنا على ما ترى، ونحن نشتهي الجهاد، فهل من رخصة؟ فأنزل الله: «غير أولى الضرر»، فجعل لهم من الأجر ما جعل للمجاهدين؛ لزمانتهم وحسن نياتهم.

ثم ذكر فضل من خرج على من قعد لعذر فقال: «فضل الله المجاهدين بأموالهم»، مواساة للمجاهدين، «وأنفسهم» ببذلها في سبيل رب العالمين، «على القاعدين» لعذر، «درجة» واحدة، لمزيد مشقة السفر والغزو والخطر بالنفس للموت، «وكلاً» من القاعدين لعلة والمجاهدين في سبيل الله، «وعد الله الحسنَى» أي: المثوبة الحسنَى، وهي الجنة. «وفضل الله المجاهدين على القاعدين» من غير عذر «أجراً عظيماً» وخيراً جسيماً. وفي البخارى: «إن لله مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض». الحديث. ثم بينها بقوله «درجات منه» أي: من فضله وإحسانه، «ومغفرة» لذنوبه، «ورحمة» تقرّبه إلى ربه، «وكان الله غفوراً» لما عسى أن يفرط منه، «رحيماً» بما وعدّه.

الإشارة: لا يستوى القاعد مع حظوظه وهواه، مشغلاً بتربية جاهه وماله وتحصيل مناه، غافلاً عن السير إلى حضرة مولاه، مع الذى سل سيف العزم فى جهاد نفسه وهواه، وبذل مهجته وجاهد نفسه فى طلب رضاه، حتى وصل إلى شهود أنوار جماله وسناه، هيهات هيهات، لا يستوى الأحياء مع الأموات، فإن قعد مع نفسه لعذر يظهره، مع محبته لطريق القوم وإقراره لأهل الخصوصية، فقد فضل الله عليه المجاهدين لنفوسهم بدرجة الشهود ومعرفة العيان للملك الودود، وإن قعد لغير عذر مع الإنكار لأهل الخصوصية، فقد فضل الله عليه المجاهدين أجراً عظيماً، درجات منه بالترقى أبداً، ومغفرة ورحمة، وفى البيضاضى: التفضيل بدرجة فى جهاد الكفار، ودرجات فى جهاد النفس؛ لأنه الأكبر للحديث. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكم من تخلف عن الهجرة والجهاد حتى مات، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَ بَيْنَهُمْ مَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: «إن الذين» تتوفاهم «الملائكة» أى: ملك الموت وأعرانه، يعنى: تقبض أرواحهم، «ظالمي أنفسهم» بترك الهجرة ومرافقة الكفرة، «قالوا» أى: الملائكة فى توبيخهم: «فيم كنتم» أى: فى أى شئ كنتم من أمر دينكم: أعلى الشك أو اليقين؟ أو: فى أى بلد كنتم: فى دار الكفر أو الإسلام؟ «قالوا كنا مستضعفين فى الأرض» فعجزنا عن الهجرة وإظهار الدين خوفاً من المشركين، «قالوا» أى: الملائكة تكذيباً لهم وتبكيماً: «ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها» إلى قطر آخر، كما فعل المهاجرون إلى الحبشة والمدينة، لكن حبستكم أموالكم، وعزّت عليكم أنفسكم، «فأولئك مأواهم جهنم» لتركهم الهجرة الواجبة فى ذلك الوقت، ومساعدتهم الكفار على غزو المسلمين، «وساءت مصيراً» أى: قبحت مصيراً جهنم التى يصيرون إليها.

نزلت فى ناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا، فخرجوا يوم بدر مع المشركين فرأوا قلة المسلمين، فقالوا: غر هؤلاء دينهم، فقتلوا، فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم، كما يأتى، فلا تجوز الإقامة تحت حكم الكفر مع الاستطاعة، بل تجب الهجرة، ولا عذر فى المقام، وإن منعه مانع فلا يكون راضياً بحاله مطمئن النفس بذلك، وإلا عمه البلاء، كما وقع لأهل الأندلس، حتى صار أولادهم كفاراً والعياذ بالله، وكذلك لا تجوز الإقامة فى موضع تغلب فيه المعاصى وترك الدين.

قال البيضاوي: في الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن فيه الرجل من إقامة دينه، وعن النبي ﷺ: «من فرّ بدينه من أرض، ولو كان شبراً من الأرض، استوجب الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد - عليهما الصلاة والسلام». (١) قلت: ويدخل فيه - على طريق الخصوص - من فرّ من موضع تكثر فيه الشهوات والعوائد، أو تكثر فيه العلائق والشواغل، إلى موضع يقل فيه ذلك، طلباً لصفاء قلبه ومعرفة ربه، بل هو أولى، ويكون رفيقاً لهما في حضرة القدس عند ملك مقتدر. والله تعالى أعلم.

ثم استثنى من تحقق إسلامه وحبه العذر، فقال: «إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان» أي: المماليك والصبيان، وفيه إشعار بأنهم على صدد وجوب الهجرة، فإنهم إذا بلغوا وقدروا على الهجرة، فلا محيص عنها، وأن قومهم يجب أن يهاجروا بهم متى أمكنت الهجرة. قال ابن عباس - رضى الله عنهما -: «كنت أنا وأبى وأُمى ممن استثنى الله بهذه الآية».

ثم وصفهم بقوله: «لا يستطيعون حيلة» أي: قوة على ما يتوقف عليه السفر، من ركوب أو غيره، «ولا يهتدون سبيلاً» أي: لا يعرفون طريقاً، ولا يجدون دليلاً، «فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم». وعبر بحرف الرجاء إيداناً بأن ترك الهجرة أمر خطير، حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن، ويترصّد الفرصة، ويعلق بها قلبه، «وكان الله غفوراً رحيماً» فيعفو ويغفر لمن غلبه العذر. وبالله التوفيق.

الإشارة: كل من لم يتغلغل في علم الباطن، مات ظالماً لنفسه، أي: باخساً لها؛ لما فوّتها من لذيذ الشهود، ومعرفة الملك المعبود، ولا يخلو باطنه من الإصرار على أمراض القلوب، التي هي من أكبر الذنوب، فإنما توفته الملائكة على هذه الحالة، قالت له: فيم كنت حتى لم تهاجر إلى من يطهرك من العيوب، ويوصلك إلى حضرة علام الغيوب؟ فيقول: كنت من المستضعفين في علم اليقين، ولم أقدر على صحبة أهل عين اليقين وحق اليقين؛ حبسني عنهم حبّ الأوطان، ومرافقة النساء والولدان. فيقال له: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجر فيها إلى من يخلصك من الحجاب، وينفي عنك الشك والارتياب؟ فلا جرم أن مأواه سجن الأكوان، وحرمان الشهود والعيان، إلا من أقر بوجود ضعفه، واضطر إلى مولاة في تخليصه من نفسه، فعسى ربه أن يعطف عليه، فيوصله إلى عارف من أوليائه، حتى يلتحق بأحبابه وأصفيائه. وما ذلك على الله بعزيز.

ثم رغب في الهجرة، فقال:

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

(١) أخرجه الثعلبي في التفسير من حديث الحسن مرسلاً. انظر الفتح السماوي ٢ / ٥١٥.

قلت: المِراغَم: المهرب والمذهب. قاله في القاموس. وقال البيضاوي: يجد متحولاً، من الرغام وهو التراب. وقيل: طريقاً يراغم قومه بسلوكه فيها، أي: يفارقهم على رغم أنوفهم، وهو أيضاً من الرغام.

يقول الحق جل جلاله: «ومن يهاجر في سبيل الله» لإعلاء كلمة الله وإقامة دينه، «يجد في الأرض» فضاءً كبيراً، ومتحولاً كبيراً يتحول إليه، وسعة بدلاً من ضيق ما كان فيه، من فهر العدو ومنعه من إظهار دينه، أو سعة في الرزق، وبسطاً في المعيشة، فلا عذره في المقام في مكان مُضَيِّقٍ عليه فيه في أمر دينه، «ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله» وجهاد في سبيله، «ثم يدركه الموت» قبل وصوله فقد ثبت أجره، ووجب على الله - وجوب امتنان - أن يبلغه قصده بعد موته، «وكان الله غفوراً» لما سلف له من عدم المبادرة، «رحيماً» به، حيث بلغه مأموله.

نزلت في جندع بن ضمرة، وكان شيخاً كبيراً مريضاً، فلما سمع ما نزل في شأن الهجرة قال: والله ما أنا ممن استثنى الله، ولي مال يبلغني المدينة، والله لا أبيت الليلة بمكة، اخرجوا بي، فخرجوا به على سريرهم حتى أتوا به التنعيم، فأدركه الموت بها، فصفق يمينه على شماله، وقال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك، أبايعك على ما أباعك عليه رسولك، فمات حميداً. فقال الصحابة: لو وافى المدينة، كان أتم أجراً، وضحك المشركون، وقالوا: ما أدرك ما طلب. فنزلت: «ومن يخرج من بيته..» إلخ.

وقيل: نزلت في خالد بن حزام، فإنه هاجر إلى أرض الحبشة، فنهشته حية في الطريق، فمات قبل أن يصل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ومن يهاجر من وطن حظوظه وهواه، طلباً للوصول إلى حضرة مولاه، يجد في أرض نفسه متسعاً للعلوم، ومفتاحاً لمخازن الفهوم، وسعة الفضاء والشهود، حتى ينطوي في عين بصيرته كل موجود، ويتحقق بشهود واجب الوجود. ومن يخرج من بيت نفسه وسجن هيكله إلى طلب الوصول إلى الله ورسوله، ثم يدركه الموت قبل التمكين، فقد وقع أجره على الله، ويبلغه الله ما كان قصده وتمناه، فيحشر مع الصديقين أهل الرسوخ والتمكين، التي تلي درجتهم درجة النبيين، وكذلك من مات في طلب العلم الظاهر ولم يدركه في حياته، حشر مع العلماء، قال عليه الصلاة والسلام: «من جاءه أجله وهو يطلب العلم لم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة واحدة». قلت: وهذه الدرجة التي بينه وبين النبوة هي درجة الصديقين المتقدمة قبله.

وكل من مات في طلب شيء من الخير، أدركه بعد موته بحسن نيته، كما في الأحاديث النبوية، قال القشيري: المهاجر في الحقيقة، من هاجر نفسه وهواه، ولا يصح ذلك إلا بانسلاخه عن جميع مراداته وقصوده،

فمن قصده - أى قصد الحق تعالى - ثم أدركه الأجل قبل وصوله، فلا يذلل إلا بساحات وصله، ولا يكون محط رفقته إلا مكان قربه . هـ . وفى بعض الآثار: الهجرة هجرتان: هجرة صغرى، وهجرة كبرى، فالصغرى: انتقال الأجسام من وطن غير مرضى إلى وطن مرضى، والكبرى: انتقال النفوس من مألوفاتها وحظوظها إلى معرفة ربها وحقوقها . هـ .

ثم ذكر ما يتعلق بالسفر؛ من قصر وغيره، فقال:

﴿ وَإِذَا ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ (١٠١)

يقول الحق جل جلاله: «وإذا ضربتكم في الأرض»، أى: سافرتكم للجهاد أو غيره من السفر المباح، أو المطلوب، «فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة» الرباعية إلى ركعتين، ونفى الجناح يقتضى أنها رخصة، وبه قال الشافعى، ويؤيده أنه - عليه الصلاة والسلام - أتم في السفر، وأن عائشة - رضى الله عنها - قالت: يا رسول الله قصرت وأتممت، وصمت وأفطرت؟ فقال: «أحسنت» (١) يا عائشة . وأرجبه أبو حنيفة؛ لقول عمر رضي الله عنه: (السفر ركعتان؛ تمام غير قصر، على لسان نبيكم) . ولقول عائشة: (أول ما فرضت الصلاة ركعتان، فأقرت صلاة السفر، وزيدت في الحضر) .

وقال مالك رضي الله عنه: القصر سنة؛ لكونه - عليه الصلاة والسلام - دام عليه في كل سفر، ولم يتم إلا مرة لبيان الجواز.

وقوله تعالى: «إن خفتكم الذين كفروا» ظاهره أن الخوف شرط في القصر، وبه قالت عائشة وعثمان - رضى الله عنهما -، والجمهور على عدم شرطه، وإنما ذكره الحق - تعالى - لكونه غالباً في ذلك الوقت، فلا يعتبر مفهومه، أو يؤخذ القصر في الأمن من السنة . ويؤيد هذا حديث يعلى بن أمية، قلت لعمر بن الخطاب: إن الله يقول: «إن خفتكم»، وقد أمن الناس؟ فقال: عجبت مما تعجبت منه . فسألت رسول الله ﷺ فقال: «صدق بها الله عليكم، فاقبلوا صدقته» . وقد ثبت أن النبى ﷺ قصر الصلاة وهو آمن .

وليس في الآية ما يدل على تحديد المسافة التي تقصر فيها الصلاة، بل ذكر مطلق السفر، ولذلك أجاز الظاهرية القصر في كل سفر، طال أو قصر . ومذهب مالك والشافعى: أن المسافة أربعة برد، واحتجوا بآثار عن ابن عمر وابن عباس . وقال أبو حنيفة: ستة برد، وكذلك لم يقيد الحق السفر بمباح ولا غيره، ولذلك أجاز أبو حنيفة القصر

(١) في الأصول: سلكت .

في كل سفر. ومنعه مالك في سفر المعصية. ومنعه ابن حنبل في المعصية والمباح. والمراد بالفتنة في قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ﴾: الجهاد والتعرض لما يُكره، وعداوة الكفار معلومة.

الإشارة: وإذا ضربتم في ميادين النفوس، وتحقق سيركم إلى حضرة القدوس، فلا جناح عليكم أن تقتصروا على المهم من الصلاة الحسية، وتدوموا على الصلاة القلبية، التي هي العكوف في الحضرة القدسية، إن خفتكم أن تشغلكم عن الشهود حلاوة المعاملة الحسية. قال بعض العارفين: اتقوا حلاوة المعاملة، فإنها سموم قاتلة. وكذلك قال القطب ابن مشيش في المقامات كالرضا، والتسليم: أخاف أن تشغلي حلاوتها عن الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر صلاة الخوف، فقال:

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ أيها الرسول ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾، أي: صلاة الخوف، وكذلك الأمراء النائبون عنه، ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾، وطائفة تقف وجاه العذر للحراسة، ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: المصلون معك، ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا﴾ أي: الطائفة الحارسة ﴿مِنْ وَرَائِكُمْ﴾، فإذا صلت نصف الصلاة مع الإمام، قضت في صلبه ما بقي لها وذهبت تحرس.

﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ النصف الباقي، فإذا سلمت، قضوا ما بقي لهم، فإذا كانت ثنائية: صلى بالأولى ركعة، وثبت قائماً ساكناً أو قارئاً، ثم صلى من صلت معه ركعة وتسلم، وتأتى الثانية فتكبر، فيصلّى بها ركعة ويسلم وتقضى ركعة. وإذا كانت رباعية، أو ثلاثية صلى بالأولى ركعتين، ثم تقوم الأولى فتصلّى ما بقي لها وتسلم وتأتى الثانية فتكبر وتصلّى معه ما بقي له، ثم تقضى ما بقي لها. هكذا قاله مالك والشافعي.

وقال أبو حنيفة: يصلى بالأولى ركعة، ثم تتأخر وهي في الصلاة، وتأتى الثانية فيصلّى بها ركعة، فإذا سلم ذهبت مكان الأولى قبل سلامها، فتأتى الأولى فتصلّى ركعة ثم تسلم، وتأتى الثانية فتصلّى ركعة ثم تسلم. وفي

صلاة الخوف عشرة أقوال على حسب الأحاديث النبوية، لأنها تعددت منه ﷺ، فكل واحد أخذ بحديث، وما قاله مالك والشافعي هو الذي فعله - عليه الصلاة والسلام - في غزوة ذات الرقاع.

ثم أمر الطائفة الحارسة بأخذ السلاح، والحذر من العدو فقال: «ولياًخذوا حذرهم وأسلحتهم»، ثم ذكر علة الحذر فقال: «ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة» أى: تمنا أن ينالوا منكم غرة، فيشدون عليكم شدة واحدة فيستأصلونكم.

روى أن المشركين لما رأوا المسلمين صلوا صلاة الظهر ندموا أن لو كانوا أغاروا عليهم فى الصلاة، ثم قالوا: دعوهم فإن لهم صلاة هى إليهم أحب من آباءهم وأبنائهم - يعنون صلاة العصر - فلما قام النبي - عليه الصلاة والسلام - لصلاة العصر نزل جبريل بصلاة الخوف.

ثم رخص لهم فى وضع السلاح، لعذر فقال: «ولا جناح عليكم» أى: لا إثم «إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرکم» منهم بالحراسة. روى أنها نزلت فى عبدالرحمن بن عوف، مريض فوضع سلاحه، فعطفه أصحابه، فنزلت الآية.

ثم هوّن شأن الكفار بعد أن أمر بالحذر منهم فقال: «إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً» فى الدنيا والآخرة.

قال البيضاوى: وعد المؤمنين بالنصرة على الكفار، بعد الأمر بالحذر، ليقوى قلوبهم، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لضعفهم وغلبة عدوهم، بل إن الواجب أن يحافظوا فى الأمور على مراسم التيقظ والتدبير. هـ.

الإشارة: إذا كنت فى جند الأنوار، وأحدثت بك حضرة الأسرار، ثم نزلت إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فلتقم طائفة من تلك الأنوار معك، لتحرسك من جيش الأغيار وجند الأكدار، حتى يكون رجوعك إلى الآثار مصحوباً بكسوة الأنوار وحلية الاستبصار، فيكون رجوعك إليها بالله لا بنفسك، فإذا سجد القلب فى الحضرة كانت تلك الأنوار من ورائه والأسرار من أمامه، ﴿والله من ورائهم محيط﴾، ولتأت طائفة أخرى لم تصل هذه الصلاة؛ لأنها لم تبلغ هذا المقام، فلتصل معك اقتباساً لأنوارك، لكن تأخذ حذرهما وتستعد من خواطر الأشغال، كى لا تميل عليهم فتفتنهم عن الحضور مع الكبير المتعال، فإن كان مريض القلب بالهوى وسائر العلل، فلا يكلف من الحضور إلا ما يطيقه، لأن القط لا يكلف بحمل الجمل. والله تعالى أعلم.

ثم نكر ما يعين على الحضور، ويتحصن به من العدو الكفور؛ وهو ذكر الله، فقال:

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وُقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ

فَاقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

يقول الحق جل جلاله : فإذا فرغتم من الصلاة «فاذكروا الله» في جميع أحوالكم «قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم» إن أردتم حراسة قلوبكم، والنصر على عدوكم، أو إذا أردتم قضاء الصلوات وأداء فرضها، وأنتم في المعركة، فصلوا كما أمكنكم، «قياماً» راجلين أو على خيولكم إيماءً، وحل للضرورة حينئذ مشى وركض وطمعن وعدم توجه، وإمساك ملطخ، وتلبية وتحذير، هذا للصحيح، «وقعوداً وعلى جنوبكم»، للمريض أو الجريح، هكذا قال جمهور الفقهاء في صلاة المسابقة^(١) وقال أبو حنيفة: لا يصلى المحارب حتى يطمئن.

«فإذا اطمأننتم» وذهب الخوف عنكم «فأقيموا الصلاة» على هيأتها المعلومة، واحفظوا أركانها وشروطها، وأتوا بها تامة، «إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً» أى: فرضاً محدود الأوقات، لا يجوز إخراجها عن وقتها في شيء من الأحوال. قال البيضاوى: وهذا دليل على أن المراد بالذكر الصلاة، وأنها واجبة الأداء، حال المسابقة، والاضطرار في المعركة، وتعطيل للأمر بالإتيان بها، كيف أمكن.

الإشارة: إذا فرغتم من الصلاة الحسية، فاستغرقوا أحوالكم في الصلاة القلبية، حتى تطمئن قلوبكم في الحضرة القدسية، فإذا اطمأننتم في الحضرة، فأقيموا صلاة الشهود والنظرة، وهى الصلاة الدائمة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾. وقال المرتضى: إذا كنتم في حالة التمكين وامتلائكم من أنوار ذكره، فينبغى أن تخرجوا من أبواب الرخص، والاستراحة في سعة الروح، وترجعوا إلى مقام الصلاة، فإن آخر سيركم في ربوبيتى: أول بدايتكم في عبوديتى. هـ.

ثم حذرهم من الوهن في أمر الجهاد، فقال:

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ
وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

قلت: الوهن: الفشل والضعف.

يقول الحق جل جلاله : ولا تضعفوا في طلب «القوم»، أى: الكفار، فتجاهدوهم في سبيل الله، فإن الحرب دائرة بينهم وبينكم، قد أصابهم مثل ما أصابكم، فإن ﴿تكونوا تألمون﴾، أى: تتوجعون من الجراح، ﴿فإنهم يألمون كما تألمون﴾، وأنتم ترجون من الله النصر والعز في الدنيا، والدرجات العلا في الآخرة، وهم لا يرجون

(١) المسابقة: المبارزة بالسيوف.

ذلك، فحقكم أن تكونوا أصبر وأرغب في الجهاد منهم، «وكان الله عليهما» بأعمالكم وضمائركم، «حكيمًا» فيما يأمركم به وينهاكم.

الإشارة: لا تهتوا عن طلب الظفر بنفوسكم، ولا تفشلوا عن السير إلى حضرة ربكم، فإن كنتم تألمون حال محاربتها ومخالفة شهواتها، فإنها تألم مثلكم، مادامت لم ترتض في حضرة ربكم، فإذا ارتاضت وتحلت صار الأمر عندها حلوا، وذلك إنما يكون بعد موتها وحياتها، فدوموا على سياستها ورياضتها، فإنكم ترجون من الله الوصول، ويلوغ المأمول، وهي ترجو الرجوع إلى المألوفات وركوب العادات، فاعكسوا مراداتها، حتى تطمئن في حضرة ربها، فتأمن غوائلها، فليس بعد الوصول رجوع، ولا إلى العوائد نزوع، والله غالب على أمره.

ثم ذكر ما يتعلق بحفظ اللسان، وهو الأمر الخامس من مضمون السورة، فقال:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنْ كَانَ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٠٦ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝١٠٧ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝١٠٨ هَتَأْتُمْ هَتُولَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝١٠٩ ﴾

قلت: أرى، هنا عرفانية، لا علمية، فلذلك لم تعد إلى ثلاثة.

يقول الحق جل جلاله للنبيه - عليه الصلاة والسلام - حين هم أن يخاصم عن طعمة بن أبييرق، وذلك أنه سرق درعاً من جاره قتادة بن النعمان، في جراب دقيق، فجعل الدقيق يسقط من خرق فيه، وخبأها عند يهودى، فالتمس الدرع عند طعمة، فلم توجد، وحلف ما أخذها، وما له بها علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودى فأخذوها، فقال اليهودى: دفعها إلى طعمة، وشهد له ناس من اليهود، فقال رهط طعمة من بنى ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فنسأله أن يجادل عن صاحبنا، وقالوا: إن لم يفعل هلك واقتضح، وبرى اليهودى، فهم رسول الله ﷺ اعتماداً على ظاهر الأمر، ولم يكن له علم بالواقعة، فنزلت الآية:

«إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق» أى: ملتبساً بالحق «لتحكم» بما فيه من الحق «بين الناس» بسبب ما «أراك» أى: عرّفك «الله» بالوحي، أو بالاجتهاد، ففيه دليل على إثبات القياس، وبه قال الجمهور. وفي اجتهاد الأنبياء خلاف. «ولا تكن للخائنين خصيماً» أى: عنهم للبراء، أو لأجلهم والذب عنهم.

«واستغفر الله» مما هممت به، «إن الله كان غفوراً رحيماً»، وفيه دليل على منع الوكالة عن الذمى، وبه قال ابن شعبان. وقال ابن عات: لعله أراد اللدب. وقال مالك بن دينار: كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة. والوكالة من الأمانة، والمصطفى. عليه الصلاة والسلام. لم يقصد شيئاً من ذلك، ولا علم له بالواقعة، لولا أطلعه تعالى، فلا نقص في اهتمامه، ولادرك^(١) يلحقه. وبالجمله، فالآية خرجت مخرج التعريف بحقيقة الأمر في النازلة.

ثم نهاه عن الذب عنهم، فقال: «ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم» وهم رهط ابن أبيرق السارق، قال السهيلي: هم بشر وبشير ومبشر وأسير، «إن الله لا يحب من كان خواناً» أى: كثير الخيانة، «أثيماً» أى: مصراً عليها، روى أن طعمة هرب إلى مكة، وارتد، ونقب حائطاً بها ليسرق أهله، فسقط الحائط عليه فقتله. ويستفاد من الآية امتناع الجدل عن علمت خيانتة بالأحرى، أو كان مظنة الخيانة، كالكافر ونحوه. وكذا قال ابن العربي في أحكام القرآن في هذه الآية: إن النياية عن المبطل المتهم في الخصومة لا تجوز، بدليل الآية. هـ.

ثم فصح سرهم، فقال: «يستخفون من الناس» أى: يستترون منهم، «ولا يستخفون من الله» وهو أحق أن يستحيا منه ويخاف «وهو معهم» لا يخفى عليه شيء، فلا طريق للنجاة إلا ترك ما يستقبح، ويؤخذ عليه سراً وجهراً. «إذ يبيتون» أى: يدبرون ويؤرون «ما لا يرضى من القول» من رمى البريء، والحلف الكاذب، وشهادة الزور، «وكان الله بما يعملون محيطاً» لا يفوته شيء، «هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا» ودفعتم عنهم المعرة، «فمن يجادل الله عنهم» أى: من يدافع عنهم عذابه «يوم القيامة»، أم من يكون عليهم وكيلاً يحميهم من عقاب الله، حين تفضح السرائر، ولا تنفع الأصحاب ولا العشائر.

الإشارة: في الآية عتاب للقضاة والولاة إذا ظهرت صورة الحق بأمارات وقرائن، ثم تجمدوا على ظاهر الشريعة، حمية أو رشوة، فإن القضاء جُلّه فِراسة، وفيها عتاب لشيخو التربية، إذا ظهر لهم عيب في المرید مستروه عليه حياء أو شفقة، ولذلك قالوا: شيخ التربية لا تليق به الشفقة، غير أنه لا يعين، بل يذكر في الجملة، وصاحب العيب يفهم نفسه، وفيها عتاب للفقراء إذا راقبوا الناس، وأظهروا لهم ما يحبون، وأخفوا عنهم ما لا يرضون، لقوله.

(١) الدرك: التبعة.

سبحانه -: «يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ...» الآية، بل يدبغى أن يكونوا بالعكس من هذا، قال بعضهم: إن الذين تكرهون منى، هو الذى يشتهيه قلبى. والله تعالى أعلم.

ثم حضنهم على التوبة، فقال:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: «ومن يعمل سوءاً» أى: ذنباً قبيحاً يسوء به غيره، «أو يظلم نفسه» بذنب يختص به، أو من يعمل سوءاً بذنب غير الشرك، أو يظلم نفسه بالشرك، أو من يعمل سوءاً بالكبيرة، أو يظلم نفسه بالصغيرة، «ثم يستغفر الله» بالتوبة «يجد الله غفوراً» لذنوبه «رحيماً» بقبول توبته، وفيه حث لطعمة وقومه على التوبة والاستغفار.

الإشارة: ومن يعمل سوءاً بالميل إلى الهوى، أو يظلم نفسه بالالتفات إلى السوى، أو من يعمل سوءاً بالهفوات والخطرات، أو يظلم نفسه بالغفلات والفترات، أو من يعمل سوءاً بالوقوف مع الكرامات وحلاوة الطاعات، أو يظلم نفسه بالقناعة من الترقى فى الدرجات والمقامات، ثم يستغفر الله من حينه يجد الله غفوراً رحيماً، حيث لم يُخْرِجْهُ من حضرته، ولم يتركه مع غفلته.

ثم عاتب رهط السارق على رميهم الغير بالسرقة، فقال:

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: «ومن يكسب إثماً» كسرقة أو يمين فاجرة، أو رمى غيره بجريمة، «فإنما يكسبه على نفسه» لا يتعدى ضررها إلى غيره، «وكان الله علماً» بسرائر عباد «حكيماً» فى إمهالهم وسترهم، «ومن يكسب خطيئة» أى: جريمة تتعدى إلى ضرر غيره، «أو إثماً» يختص بنفسه، «ثم يرم به بريئاً» منه، كما رمى طعمة زيدا اليهودي، «فقد احتمل بهتاناً» وهو أن يبهت الرجل بما لم يفعل، «وإثماً مبيناً» أى: ذنباً ظاهراً، لا يخفى قبحه وبشاعته.

الإشارة: الإثم: ما حاك فى الصدر وتلجلج فيه، ولم ينشرح إليه الصدر، وضده البر؛ وهو ما ينشرح إليه الصدر ويطمئن إليه القلب، فكل من فعل شيئاً قد تلجلج قلبه منه ولم يقبله؛ نقص من نوره، وأظلم قلبه منه، وإليه

الإشارة بقوله: (ومن يكسب إثماً..) الآية، أى: فإنما يسودُّ به نور نفسه وروحه، ومن تلبَّس بذنوب أو عيب، ثم يرم به غيره من باب سوء الظن (فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً) لأن الواجب على المرید السائر أن يشهد الصفاء من غيره، ويقصر النقص على نفسه، والواصل يرى الكمال فى كل شيء لمعرفة فى كل شيء. والله تعالى أعلم.

ثم شهد لرسوله بالهداية والعناية، فقال:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

قلت: الجار فى قوله: (من شيء)، فى موضع نصب على المصدر، أى: لا يضرونك شيئاً من الضرر.

يقول الحق جل جلاله: «ولولا فضل الله عليك» بالعصمة ورحمته بالعناية، «لهمت طائفة منهم» وهم رهط السارق «أن يضلوك» عن القضاء بالحق، مع علمهم بالقصة، لكن سبقت العناية، وحفت الرعاية، فلم تخرج من عين الهداية. وليس المراد نفي همهم لأنه وقع، إنما المراد نفي تأثيره فيه، «وما يضلون إلا أنفسهم» لعوده عليهم، «وما يضرونك من شيء»؛ لأن الله عصمك، وما خطر ببالك من المجادلة عنهم، كان اعتماداً منك على ظاهر الأمر، وإنما أمرت أن تحكم بالظواهر، والله يتولى السرائر.

«وأنزل الله عليك الكتاب» أى: القرآن، «والحكمة» ما نطق به من الحكم، «وعلمك ما لم تكن تعلم» من خفيات الأمور، التى لم تطلع عليها، أو من أمور الدين والأحكام، «وكان فضل الله عليك عظيماً» ولا فضل أعظم من النبوة، لا سيما وقد فضله على كافة الخلق وأرسله إلى كافة الداس، وهدى الله على يديه ما لم يهد على يد أحد من الأنبياء قبله، إلى غير ذلك من الفضائل التى تقوت الحصر.

الإشارة: لولا أن الله تفضل على أوليائه بسابق العناية، وحفت بهم منه الكلاءة والرعاية، لأضلتهم العموم عن عين التحقيق، ولأتلفتهم القواطع عن سلوك الطريق، لكن من سبقت له العناية لا يصيبه سهم الجناية، فثبت أقدامهم على سير الطريق، حتى أظهر لهم معالم التحقيق، فكشف عن قلوبهم رين الحجاب، حتى فهموا أسرار الكتاب، ونبع من قلوبهم يدايع الحكم والأسرار، واطلعوا على علوم لم يحيط بها كتاب ولا دفتر، فحازوا فى الدارين خيراً جسيماً، وكان فضل الله عليهم عظيماً.

ولما ظهرت السرقة على طُعْمَةٍ، كثر في شأنه التناجي والخوض فيما لا يعنى، فنهاهم الحق عن ذلك فقال:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١١٤﴾

قلت: إن كان المراد بالنجوى الكلام الخفى، فالاستثناء منقطع، وقد يكون متصلاً على حذف مضاف؛ أى: إلا نجوى من أمر... الخ. وإن كان المراد بالنجوى الجماعة المتناجين، فالاستثناء متصل. قاله ابن جزى.

يقول الحق جل جلاله محرضاً على الصمت: «لا خير فى كثير» مما يتناجون به فى شأن السارق أو غيره، بل لا خير فى الكلام بأسره «إلا من أمر بصدقة» واجبة أو تطوعية، فله مثل أجره، «أو معروف» وهو: ما يستحسنه الشرع، ويوافقه العقل، كالقرض، وإغاثة الملهوف، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وغير ذلك من أنواع المعروف. أو أمر بإصلاح «بين الناس»، أى: إصلاح ذات البين، كإصلاح بين طعمة واليهودى وغيرهما. قال مجاهد: (هى عامة للناس)، يريد أنه لا خير فيما يتناجى فيه الناس، ويخوضون فيه من الحديث، إلا ما كان من أعمال الخير.

«ومن يفعل ذلك» أى: الصدقة، والمعروف والإصلاح، «ابتغاء مرضات الله» أى: مخلصاً لله «فسوف نؤتيه أجراً عظيماً» وخيراً جسيماً. قال البيضاوى: بنى الكلام على الأمر، ورتب الجزاء على الفعل، ليدل على أنه لما دخل الأمر فى زمرة الخيرين كان الفاعل أدخل فيهم، وأن العمدية والغرض هو الفعل، واعتبار الأمر من حيث إنه صلة إليه. وقيد الفعل بأن يكون لطلب مرضاة الله؛ لأن الأعمال بالنيات، وأن من فعل خيراً رياء وسمعة، لم يستحق بها من الله أجراً، ووصف الأجر بالعظم تنبيهاً على حقارة مافات فى جنبه من أغراض الدنيا. هـ.

الإشارة: فى الآية حث على الصمت، وهو ركن قوى فى طريق التصوف، وهو أحد الأركان الأربعة؛ التى هى: العزلة والجوع والسهر، فهذه طريق أهل البداية، ومن لا بداية له لانهاية له، وقالوا: بقدر ما يصمت اللسان؛ يعمر الجنان، ويقدر ما كان يتكلم اللسان يخرب الجنان. وقالوا أيضاً: إذا كثر العلم قلّ الكلام، وإذا قلّ العلم كثر الكلام. وقالوا أيضاً: من عرف الله كلّ لسانه. وقيل لبعض العلماء: هل العلم فيما سلف أكثر، أو اليوم أكثر؟ قال: العلم فيما سلف أكثر، والكلام اليوم أكثر.

وفى قوله: «ومن يفعل ذلك..» إشارة إلى أن العمل أشرف من العلم بلا عمل. والله تعالى أعلم.

ثم نزل في شأن طعمة، لما هرب وارتد مشركاً :

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴿

قلت : المشاقة: المخالفة والمباعدة، كأن كل واحد من المتخالفين في شقٍّ غير شقٍّ الآخر.

يقول الحق جل جلاله : «ومن» يخالف «الرسول» ويتباعد عنه «من بعد ما تبين له الهدى» أى: بعد ما تحقق أنه على الهدى؛ بالوقوف على المعجزات، فيترك طريق الحق «ويتبع غير سبيل المؤمنين» أى: يسلك غير ما هم عليه، من اعتقاد أو عمل. «نوله ما تولى» أى: نتركه مع ما تولى، ونجعله وإياً له، ونُخْلِ بينه وبين ما اختاره من الضلالة، «ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ» أى: ندخله فيها، ونشويه بها، «وساءت مصيراً» أى: قُبِحت مصيراً جهنم التي يصير إليها. والآية تدلُّ على حرمة مخالفة الإجماع، لأن الله رتب الرعيد الشديد على مشاقة الرسول، واتباع غير سبيل المؤمنين، وكل منهما محرم، وإذا كان اتباع غير سبيلهم محرماً؛ كان اتباع سبيلهم واجباً، انظر البيضاوى.

ثم نزل في طعمة لما ارتد مشركاً: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» وقيل: كرر للتأكيد تقبيحاً لشأن الشرك، وقيل: أتى شيخ إلى رسول الله ﷺ فقال: إني شيخ منهمك في الذنوب إلا أنى لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته وآمنتُ به، ولم أأخذ من دونه وإيا، ولم أوقع المعاصي جرأة، وما تروهمت طرفة عين أنى أعجز الله هرباً، وإنى لنادم تائب، فما ترى حالى عند الله؟ فنزلت. «ومن يشرك بالله، فقد ضل» عن الحق «ضلالاً بعيداً»؛ لأن الشرك أقبح أنواع الضلالة، وأبعدها عن الثواب والاستقامة، وإنما ذكر في الآية الأولى. «فقد افترى»؛ لأنها متصلة بقصة أهل الكتاب، ومنشأ شركهم نوع افتراء، وهو دعوى الشيء على الله. قاله البيضاوى.

الإشارة: كل من خالف شيخه، وسلك طريقاً غير طريقه؛ ولاه الله ما تولى، واستدرجه من حيث لا يشعر، وقد توخّر العقوبة عنه فيقول: لو كان هذا فيه سوء أدب مع الله، لقطع الإمداد وأوجب البعاد، وقد يقطع عنه من حيث لا يشعر، ولو لم يكن إلا وتخليته وما يريد. وبالجملة: فالخروج عن مشايخ التربية والانتقال عنهم، ولو إلى من هو أكمل في زعمه، بعد ما ظهر له الفتح والهداية على يديه؛ طرد وبعد، وإفساد لبذرة الإرادة، فلا نتيجة له أصلاً. والله تعالى أعلم. وبالله التوفيق.

ثم قُبِحَ شأنُ الشرك، وشُنِعَ قبحه، فقال:

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ۖ لَعَنَهُ اللَّهُ ۖ وَقَالَ لَا أَخْخَذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۖ وَلَا أَضِلُّنَّهُمْ وَلَا أَزِيلُهُمْ وَلَا آمَنِينَهُمْ وَلَا أُمِرْتُهُمْ فَلَيُبَئِتَكُمْ ءَ إِذَا كَانَ الْأَنْعَامُ وَلَا أُمِرْتُهُمْ فَلَيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۖ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۖ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۖ﴾

قلت: المرید والمارد؛ هو الذى لا يعلق بخير، وأصل التركيب للملابسة، ومنه: صرح معرد، وغلّام أمرّد، وشجرة مردى، أى: سقط ورقها. قاله البيضاوى. هـ. وقيل: المرید: الشديد العاتى، الخارج عن الطاعة.

يقول الحق جل جلاله: «إِنْ يَدْعُونَ»: ما يعبدون «مِنْ دُونِهِ» تعالى «إِلَّا إِنَاثًا»، كالكالات والعزى ومناة، فإن ألفاظها مؤنثة عندهم، أو لأنها جرامد لا تعقل، فهي منفعة لا فاعلة، ومن حق المعبود إن يكون فاعلاً غير منفعل، أو يريد الملائكة؛ لأنهم كانوا يعبدونها، ويزعمون أنها بنات الله، وما يعبدون فى الحقيقة «إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا» عاصياً، لأنه هو الذى أمرهم بها، وأغراهم عليها، وكان يكلمهم من أجوافها.

ثم وصفه بأوصاف تُوجب التنفير عنه فقال: «لَعَنَهُ اللَّهُ» أى: أبعد من رحمته، «وَقَالَ لَا أَخْخَذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا» أى: مقطوعاً فرضته لنفسى، من قولهم: فرض له فى العطاء، أى: قطع، «وَلَا أَضِلُّنَّهُمْ» عن الحق «وَلَا آمَنِينَهُمْ» الأمانى الباطلة، كطول الحياة، والأبعث ولا عقاب، «وَلَا أُمِرْتُهُمْ فَلَيُبَئِتَكُمْ إِذَا كَانَ الْأَنْعَامُ» أى: يشقونها لتحريم ما أحل الله، وهى عبارة عما كانت العرب تفعل بالبحائر والسوائب، وإشارة إلى تحريم كل ما أحل الله، ونقص كل ما خلق الله كاملاً بالفعل أو بالقوة، «وَلَا أُمِرْتُهُمْ فَلَيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ»، صورة، أوصفة، فيندرج فيه خصاء العبيد والوشم، والتلمص - وهو نتف الحاجب -.

زاد البيضاوى: واللواط، والمساحقة، وعبادة الشمس والقمر، وتغيير فطرة الله التى هى الإسلام، واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمالاً ولا يوجب لها من الله زلفى. وعموم اللفظ يقتضى منع الخصاء مطلقاً، لكن الفقهاء رخصوا فى خصاء البهائم للحاجة، والجمل الأربع حكاية عما ذكره الشيطان نطقاً، أو أتاه فعلاً. هـ.

ثم حذر منه فقال: «ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله» باتباعه فيما أمره به دون ما أمر الله به، «فقد خسر خسراً مبيناً» واضحاً؛ حيث ضيع رأس ماله، وأبدل بمكانه من الجنة مكانه من النار. «يعدهم» أى: الشيطان، أموراً لا تُنجز لهم، ﴿ويعنيهم﴾ أمانى لا تعطى لهم، ﴿وما يعدهم﴾ أى: ﴿الشيطان إلا غروراً﴾، وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر، فكان يوسوس لهم أنهم على الحق وأنهم أولى بالجنة، إلى غير ذلك من أنواع الغرور، «أولئك» المغرورون «ماواهم جهنم» أى: هى منزلهم ومقامهم، «ولا يجدون عنها محيصاً» أى: مهرباً ولا معدلاً. من حاص يحيص: إذا عدل.

الإشارة: ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً، فاحذر أن تكون ممن يعبد من دون الله إنثاء، إن كنت تحب نفسك، وتؤثر هواها على حق مولاهما، أو تكون عبد المرأة أو الخميسة^(١) أو البهيمة، أو غير ذلك من الشهوات التى أنت تحبها، واحذر أيضاً أن تكون من نصيب الشيطان بإيحاك إلى الكريم المنان، وفى الحكم: «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عن ناصيتك بيده». فاشتغل بمحبة الحبيب، يكفيك عداوة العدو، فاتخذ الله ولياً وصاحباً، ودع الشيطان جانباً، غيب عن الشيطان باستغراقك فى حضرة العيان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ضد أهل الشرك، فقال:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾

قلت: (وعد الله) مصدر، مؤكد لنفسه، أى: وعدهم وعداً، و(حقاً) مؤكد لغيره، أى: لمضمون الجملة قبله. انظر البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله: «والذين آمنوا» بالله ورحمته، «وعملوا» الأعمال «الصالحات» التى كلفوا بها «سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً» وعدهم بذلك وعداً حقاً، «ومن أصدق من الله قِيلًا» أى: لا أحد أصدق من الله فى قوله. والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقرنائه، بوعد الله الصادق لأوليائه، ترغيباً فى تحصيل أسبابه. والله تعالى أعلم.

(١) الخميسة: ثوب خز، أو صرف.

الإشارة: والذين جمعوا بين توحيد عظمة الربوبية والقيام بوظائف العبودية سندخلهم جنة المعارف، تجرى من تحتها أنهار العلوم، خالدين فيها أبداً، وعداً حقاً وقولاً صدقاً . ومن أصدق من الله قيلاً؟ وهذا الوعد لا ينال بالأمانى مع البطالة والتواني؛ وإنما ينال بالأعمال الصالحة والمقاصد الخالصة، كما قال تعالى :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ ١٢٣ ﴿

قلت : اسم ليس ضمير الأمر، أى: ليس الأمر بآمانيتكم .

يقول الحق جل جلاله : «ليس» هذا الوعد الذى ذكرت لأهل الإيمان ينال «بآمانيتكم» أى: تمنيتكم أيها المسلمون، ولا بآمانى «أهل الكتاب»، أى: لا يكون ما تتمنون ولا ما يتمنى أهل الكتاب، بل يحكم الله بين عباده ويجازيهم بأعمالهم . روى أن المسلمين وأهل الكتاب تفاخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى منكم، نبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضى على الكتب المتقدمة، فنزلت . وقيل: الخطاب مع المشركين، وهو قولهم: لاجنة ولا نار، أو قولهم: إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء للكونن خيرا منهم وأحسن حالا .

وأمانى أهل الكتاب: قولهم ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ﴾ و ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ ثم قرر ذلك فقال: «من يعمل سوءاً يجز به» عاجلاً أو آجلاً؛ لما روى أنه لما نزلت قال أبو بكر: من ينجو مع هذا يارسول الله، إن كنا مجزيين بكل سوء عملناه؟ فقال له - عليه الصلاة والسلام -: «أما تعزن؟ أما تمرض؟ أما يصيبك اللأواء؟» (١) قال: بلى يارسول الله، قال: هو ذلك . فكل من عمل سوءاً جوزى به، «ولا يجد له من دون الله ولياً» يليه ويدفع عنه، «ولا نصيراً» ينصره ويمنعه من عذاب الله .

الإشارة: لاتنال المراتب بالأمانى الكاذبة والدعوى الفارغة، وإنما تنال بالهمم العالية، والمجاهدات القوية، إنما تنال المقامات العالية بالأعمال الصالحة، والأحوال الصافية، وأنشدوا:

(١) اللأواء: الشدة وضيق العيش .

بِقَدْرِ الْكَدِّ تُكَتَسِبُ الْمَعَالِي من أراد العز سهر الليالي
تُرِيدُ الْعِزَّ ثُمَّ تَنَامُ لَيْلًا يَفُوصُ الْبَحْرُ مَنْ طَلَبَ اللَّالِي

ولما نزل قوله تعالى: «ليس بآمانكم ولا أمانى أهل الكتاب...» الآية. قال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء، فأنزل الله تعالى:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾

قلت: (من ذكر أو أنثى): حال من الضمير فى (يعمل)، وكذا قوله: «وهو مؤمن» و(حنيفاً)، حال من (إبراهيم)؛ لأنه جزء ما أضيف إليه.

يقول الحق جل جلاله: «ومن يعمل» شيئاً «من» الأعمال «الصالحات» وهو المهم من المكلف به، إذ لا طاقة للبشر على الإتيان بكلها. حال كون العامل «من ذكر أو أنثى»؛ إذ النساء شقائق الرجال فى طلب الأعمال، والحالة أن العامل «مؤمن» لأن الإيمان شرط فى قبول الأعمال، فلا ثواب على عمل ليس معه إيمان. ثم ذكر الجواب فقال: «فأولئك يدخلون الجنة» أى: يتصفون بالدخول، أو يدخلهم الله الجنة، «ولا يظلمون» أى: لا ينقصون من ثواب أعمالهم «نقيراً» أى: مقداره، وهو النقرة فى ظهر النواة. قال البيضاوى: وإذا لم ينقص ثواب المطيع فبالأحرى ألا يزيد فى عقاب العاصى، لأن المجازى أرحم الراحمين. هـ.

«ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله» أى: لا أحد أحسن ديناً ممن انقاد بكلية إلى مولاه «وهو محسن» أى: موحد أحسن فيما بينه وبين الله، وفيما بينه وبين عباد الله، «واتبع ملة إبراهيم حنيفاً» بأن دخل فى الدين المحمدى الذى هو موافق لملة إبراهيم بل هو عينه، فمن ادعى أنه على ملة إبراهيم ولم يدخل فيه فقد كذب.

ثم ذكر ما يحث على اتباع ملته، فقال: «واتخذ الله إبراهيم خليلاً» أى: اصطفاه وخصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، وإنما أعاد ذكره ولم يضم؛ تفخيماً له وتنصيصاً على أنه الممدوح، وسمى خليلاً لأنه قد تخللت محبة الله فى جميع أجزائه.

روى أن إبراهيم عليه السلام كان يضيف الناس، حتى كان يسمى أبا الضيفان، وكان منزله على ظهر الطريق، فأصاب الناس سنةً، جهدوا فيها، فحشد الناس إلى باب إبراهيم، يطلبون الطعام، وكانت الميرة كل سنة تصله من صديق له بمصر، فبعث غلمانه بالإبل إلى الخليل الذي له بمصر يسأله الميرة، فقال لغلمانه: لو كان إبراهيم يريد لنفسه احتملت له ذلك، ولكنه يريد للأضياف، وقد أصابنا ما أصاب الناس، فرجع الرسل إليه، ومروا ببطحاء لينة، فملأوا منها الغرائر حياء من الناس، وأتوا إبراهيم فأخبروه، فاهتم إبراهيم لمكان الناس ببابه، فنام، وكانت سارة نائمة فاستيقظت، وقالت: سبحان الله! أما جاء الغلمان؟ فقالوا: بلى، فقامت إلى الغرائر فإذا فيها أجود الحواري - أى: الخالص من الدقيق - فخبزوا وأطعموا؟ فاستيقظ إبراهيم، وشم رائحة الخبز، فقال: يا سارة، من أين هذا؟ فقالت: من عند خليلك المصرى، فقال: هذا من عند خليلي الله - عز وجل -، فحينئذ سماه الله خليلًا^(١).

قال الزجاج: ومعنى الخليل: الذى ليس فى محبته خلل، أو لأنه ردّ خلقه، أى: فقره إلى الله مخلصاً به.

«ولله ما فى السموات وما فى الأرض» ملكاً وخلقاً وعبيداً، فالملك له، والعبيد عبيده، يختار ما يشاء كما يشاء من خلة ومحبة وخدمة، «وكان الله بكل شىء محيطاً» علماً وقدره، فيجازي كل على قدر سعيه وقصده. والله تعالى أعلم.

الإشارة: على قدر المجاهدة والمكابدة تكون المعاينة والمشاهدة، على قدر البدايات تكون النهايات، من أشرقت بدايته أشرقت نهايته، والجزاء على العمل يكون على قدر الهمم، فمن عمل لجنة الزخارف متع بها، ومن عمل لجنة المعارف تنعم بها، ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾، فمن انقاد بكلية إلى مولاه فلا أحد أحسن منه عند الله، ومن تمسك بالملة الحنيفية، وهى الانقطاع إلى الله بالكلية - فقد استمسك بالعروة الوثقى، وكان فى أعلى ذروة أهل التقى، من تخلق بخلق الحبيب كان أقرب إلى الله من كل قريب. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ومما يتعلق بحفظ اللسان الفتوى بما يطابق الحق، ولذلك ذكره بعد الأمر بالحكم بالعدل، وما بينهما اعتراض انجر الكلام إليه، فقال:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾

(١) قال ابن كثير: فى صحة هذا ووقوعه نظر. وغايته أن يكون خبراً اسرائيلى، لا يصدق ولا يكذب، وإنما سمي خليل الله لشدة محبته لربه - عز وجل - مما قام له به من الطاعة، التى يحبها ويرضاها.

قلت: و(ما يتلى): عطف على (الله)، أى: يفتيكم الله، والمتلو عليكم فى الكتاب، أى: فى القرآن. «وترغبون أن تنكحوهن» حذف الجار، وهو فى أو عن، ليصدق النهى بالراغب فيها إذا كانت جميلة، والراغب عنها إذا كانت دميمة، و«المستضعفين» عطف على (يتامى النساء) أى: والذى يتلى فى المستضعفين من ولدان، وهو قوله تعالى: «يوصيكم الله... الخ، أو على الضمير فى (فيهن) أى: يفتيكم فيهن وفى المستضعفين، و(أن تقوموا) عطف على (المستضعفين)، أو منصوب بمحذوف، أى: ويأمركم أن تقوموا... الخ.

يقول الحق جل جلاله: «ويستفتونك» يا محمد «فى» شأن «النساء» من الميراث وغيره، «قل الله يفتيكم فيهن»، فيأمركم أن تعطوهن حقهن من الميراث، «و» يفتيكم أيضا فيهن «ما يتلى عليكم فى الكتاب» فى أول السورة إذ قال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ ثم بيّنه فى تقسيم الميراث فى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾، وقال فى اليتامى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ...﴾ الآية، فقد أفتاكم فى اليتامى «اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن» من الصداق «وترغبون أن تنكحوهن» بدون صداق مثلهن، فأمركم أن تنكحوا غيرهن، ولا تنكحوهن إلا أن تقسطوا لهن فى الصداق، إذا كانت جميلة، أو لها مال، أو ترغبون عن نكاحهن إذا كانت دميمة، فتعضلوهن لثروتهن، فلا تفعلوا ذلك، بل تزوجوها أو زوجوها، وكانوا فى الجاهلية، إذا كانت اليتيمة ذات مال وجمال، رغبوا فيها وتزوجوها بدون صداقها، وإن كانت دميمة ولا مال لها رغبوا عنها وعضلوها، أو زوجوها غيرهم. فنهى الله تعالى الفريقين معا.

«و» يفتيكم أيضا فى «المستضعفين من ولدان» وهم الصغار، أن تعطوهم حقهم من الميراث مع الكبار، وكانوا لا يورثونهم، روى أن عيينة بن حصن أتى النبى ﷺ فقال: أخبرنا أنك تورث النساء والصبيان، وإنما كنا نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة؟ فقال له ﷺ: «كذا أمرت»، فنزلت الآية.

«و» يفتيكم أيضا ويأمركم «أن تقوموا لليتامى بالقسط» أى: العدل. وهو خطاب للأئمة أن ينظروا لهم بالمصلحة ويستوثقوا حقوقهم، ويحتاطوا لهم فى أمورهم كلها. ثم وعدهم بالثواب على ذلك فقال: «وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما»، فيجازيكم على قدر إحسانكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يستفتونك عن نساء العلوم الرسمية، وعن يتامى العلوم القلبية، وهن نتائج الأفكار، وهى العلوم الدنية، والأسرار الريانية؛ التى هى من علوم الحقيقة، ولا تليق إلا بالمستضعفين عند الخليفة، وفى الخبر: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ هو كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره فى قسمه». أو كما قال ﷺ. قل الله يفتيكم فيهن فيأمركم أن تأخذوا من العلوم الرسمية ما تتقنون به عبادة ربكم، وترغبوا فى علم الطريقة، التى هى علم

القلوب، ما تحققون به عبوديتكم، ومن نتائج الأفكار ما تشهدون به عظمة ربيكم، وبأمركم أن تقوموا بالعدل في جميع شئونكم، فتعطوا الشريعة حقها والطريقة حقها، وتحفظوا أسرار الحقيقة عن غير مستحقها، والله لا يضيع أجر المحسنين.

ثم أمر بالصلح بين الزوجين عند خوف النشوز، فقال:

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٢٨)

قلت: امرأة: فاعل بفعل يفسره ما بعده، وأصل (يُصْلِحُ) : يتصالحا، فأدغمت، و(صُلْحًا) مصدر. وقرأ الكوفيون: يُصْلِحَا؛ من الرباعي، فتنصب صُلْحًا على المفعول به، أو المصدر، و(بينهما) ظرف، أو حال منه، وجملة (الصلح خير): معترضة، وكذا: «وأحضرت الأنفس الشح»، ولذلك اغتفر عدم تجانسهما.

يقول الحق جل جلاله: «وإن امرأة خافت» وتوقعت من زوجها «نُشُوزًا» أى: ترفعا عن صحبتها، وتجاфия عنها، كراهية لها، ومنعا لحقوقها، «أو إعراضا» عنها، بأن يترك مجالستها، ومحادثتها، «فلا جناح عليهما» أن يتصالحا «بينهما صلحا» بأن تحط له من مهرها، أو من قسمها مع ضررتها، أو تهب له شيئا تستميله به.

نزلت في سعد بن الربيع، تزوج على امرأته شابة، وآثرها عليها. وقيل: في رجل كبرت امرأته، وله معها أولاد، فأراد طلاقها ليتزوج، فقالت له: دعنى على أولادى، واقسم لى فى كل شهرين أو أكثر، أو لا تقسم. فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال له: «قد سمع الله ما تقول، فإن شاء أجابك»، فنزلت. وقيل: نزلت فى سودة زوج النبى ﷺ، لما كبرت، أراد - عليه الصلاة والسلام - أن يفارقها، فقالت: أمسكنى فى نسائك ولا تقسم لى، فقد وهبت نوبتى لعائشة، فإنى أريد أن أبعث فى نسائك.

ثم رغب فى الصلح فقال: «والصلح خير» من المفارقة، أو من سوء العشرة والخصومة، أو خير فى نفسه، ولا يكون إلا مع ترك بعض حق النفس من أحد الخصمين، فلذلك ثقل على النفس فشحت به، وإليه أشار بقوله: «وأحضرت الأنفس الشح» أى: جعلته حاضرا لديها لا يفارقها، لأنها مطبوعة عليه، فالمرأة لا تكاد تسمح للزوج من حقها، ولا تسخو بشيء تعطيه لزوجها، والزوج لا يكاد يصبر على إمساكها وإحسان عشتها إذا كرهها،

«وإن تحسنوا» العشرة «وتتقوا» الشوز والإعراض ونقص حق المرأة مع كراهة الطبع لها، «فإن الله كان بما تعملون خبيراً» لا يخفى عليه إحسانكم ولانشوزكم، فيجازى كلاً بعمله، وفي بعض الآثار: «من صبر على أذى زوجته أعطاه الله ثواب أيوب عليه السلام». وكذلك المرأة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن النفس كالمرأة حين يتزوجها الرجل، فإنها إذا رأت من زوجها الجد في أموره والانقباض عنها، هابته وانقادت لأمره، وإذا رأت منه اللينة والسهولة استخفت بأمره وركبته، وسقطت هيبتة من قلبها، فإذا أمرها ونهاها لم تحتفل بأمره، وكذلك النفس إذا رأت من المريد الجد في بدايته والصولة عليها، هابته وانقادت لأمره وكانت له سماعة مطيعة، وإذا رأت منه الرخو والسهولة معها، ركبته وصعب عليه انقيادها وجهادها، فإذا صال عليها وقهرها فأرادت الصلح معه على أن يسامحها في بعض الأمور، وتساعفه فيما يريد منها، فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحا، والصلح خير، فإن دوام التشديد قد يفضي إلى الملل، وإن تحسنوا معها بعد معرفتها، وتتقوا الله في سياستها ورياضتها حتى ترد بكم إلى حضرة ربها، فإن الله كان بما تعملون خبيراً.

ثم أمر بالعدل بين النساء، فقال:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾

يقول الحق جل جلاله: «ولن تستطيعوا» يا معشر الأزواج، «أن تعدلوا بين النساء» العدل الكامل التام في الأقوال والأفعال والنفقة والكسوة والمحبة، «ولو حرصتم» على ذلك لضعف حالكم، وقد خفت عنكم، وأسقطت الحرج عنكم، فلا يجب العدل في البيت فقط، وكان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «اللهم هذه قسمتي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما لا أملك»، يعنى: ميل القلب، وكان عمر رضي الله عنه يقول: (اللهم قلبي فلا أملكه، وأما سوى ذلك فإني أرجو أن أعدل)، وأما الوطء فلا يجب العدل فيه، إلا أن تتحرك شهوته، فيكف لتتوفر لذته للأخرى.

«فلا تميلوا» إلى المرغوب فيها لجمالها أو شبابها، «كُلُّ الميل» بالنفقة والكسوة والإقبال عليها، وتدعوا الأخرى «كالمعلقة» التي ليست ذات بعل ولا مطلقة، كأنها محبوسة مسجونة، وعن النبي ﷺ: «من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما، جاء يوم القيامة، وأحد شقيهِ مائل»، «وإن تصلحوا» ما كنتم تفسدون في أمورهن بالعدل بينهما، «وتتقوا» الجور فيما يستقبل، «فإن الله كان غفوراً رحيماً»، يغفر لكم ما مضى من ميلكم.

الإشارة: من شأن العبودية: الضعف والعجز، فلا يستطيع العبد أن يقوم بالأمور التي كلف بها على العدل والتمام، ولو حرص كل الحرص، وجد كل الجد، فلا يليق به إلا التحقق بوصفه والرجوع إلى ربه، فيأتي بما يستطيع ولا يحرص على مالا يستطيع، فلا يميل إلى الدعة والكسل كل الميل، ولا يحرص على مالا طاقة له به كل الحرص، فإن التعقيد ليس من شأن أهل التوحيد، بل من شأنهم مساعفة الأقدار، والسكون تحت أحكام الواحد القهار، فلا تميلوا إلى التعمق والتشديد كل الميل، فتتركوا أنفسكم كالمعلقة، أي: المسجونة، وهذا من شأن أهل الحجاب، يحبسون في المقامات والأحوال، تشغلهم حلاوة ذلك عن الله تعالى . فإذا فقدوا ذلك الحال أو المقام سلبوا وأفلسوا. وأهل الغنى بالله لا يقفون مع حال ولا مقام، هم مع مولاهم، وكل ما يبرز من عنصر القدرة قبلوه، وتلونوا بلونه، وهذا مقام التلويح بعد التمكين.

وفى إشارة أخرى: اعلم أن القدرة والحكمة كالزوجين للقلب، يقيم عند هذه مدة، وعند هذه أخرى، فإذا أقام عند الحكمة كان في مقام العبودية من جهل وغفلة وضعف وذلة، وإذا أقام عند القدرة كان في مقام شهود الربوبية فيكون في علم وبقظة وقوة وعزة. ولا قدرة له على العدل بينهما، فلا يميل إلى إحداهما كل الميل بل يسير بينهما، ويعطى كل ذي حق حقه، بأن يعرف فضلها، ويسير بكل واحد منهما. وإن تصلحوا قلوبكم وتتقوا ما يشغلكم عن ربكم، فإن الله كان غفوراً رحيمًا؛ يغفر لكم ميلكم إلى إحدى الجهتين والله تعالى أعلم.

فإذا تعذر الإصلاح بين الزوجين، وأراد الفراق ففي الله الغنى عن كل شيء، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ (١٣٠) وَلِلَّهِ

مَكَافِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... ﴿١٣١﴾

يقول الحق جل جلاله: «وإن يتفرقا» أي: يفارق كل واحد منهما صاحبه، «يُغْنِ الله» كل واحد منهما عن صاحبه، ببذل أو سلو يقوم بأمره من رزق أو غيره، من سعة غناه وكمال قدرته، «وكان الله واسعا» بقدرته «حكيما» أي: متقنا في أحكامه وأفعاله. ثم بين معنى سعته فقال: «ولله ما في السموات وما في الأرض» أي: كل ما استقر فيهما فهو تحت حكمه ومشيلته، قائما بحفظه وتدبيره، يعطى كل واحد ما يقوم بأمره ويغنيه عن غيره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الروح مادامت مسجونه تحت قهر البشرية، محجوبة عن شهود معاني الربوبية، كانت فقيرة جائعة متعطشه، تتعشق إلى الأكوان وتفتقر إليها، وتقف معها، فإذا فارقت البشرية وانطلقت من سجن هيكلها،

وخرجت فكرتها من سجن الأكوان، أغناها الله بشهود ذاته، وأفضت إلى سعة فضاء الشهود والعيان، وملكت جميع الأكوان، «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك»، وكذلك البشرية يغنيها الله عن تعب الخدمة وتستريح في ظل المعرفة، فلما تفرقا أغنى الله كلاً من سعة فضله وجوده، لأنه واسع العطاء والجود، حكيم في تدبير إمداد كل موجود.

وفي قوله: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ إشارة إلى أن من كان بالله، ووصل إلى شهود ذاته، ملكه الله ما في السموات وما في الأرض، فيكون خليفة الله في ملكه، (وما ذلك على الله بعزيز).

ولما جرى الكلام على شأن النساء، وهن حبايل الشيطان، تشغل فتنتهن عن ذكر الرحمن، حذر الحق تعالى من فتنتهن، كما هو عادته تعالى في كتابه عند ذكرهن، وأمر بالتقوى التي هي حصن من كل فتنة، فقال:

﴿... وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾

قلت: (من قبلكم): يتعلق بأوتوا أو بوصينا، و(إياكم): عطف على الذين، و(أن اتقوا): على حذف الجار، أي: بأن اتقوا، أو مفسرة؛ لأن التوصية في معنى القول، و(إن تكفروا) على حذف القول، أي: وقتلنا لهم ولكم: وإن تكفروا... الخ.

يقول الحق جل جلاله: «ولقد وصينا» الأمم المتقدمة الذين أنزلنا عليهم «الكتاب من قبلكم» كأهل التوراة والإنجيل والزيور، وغيرهم من الأمم، ووصيناكم أنتم «أن اتقوا الله» بأن تمتثلوا أوامره، وتجتنبوا نواهيه، ظاهراً وباطناً، وقتلنا لهم ولكم: «وإن تكفروا» فإن الله غنى عن كفركم وشرككم؛ فقد استقر له «ما في السموات وما في الأرض» ملكاً وعبيداً، فله فيهما من الملائكة من هو أطوع منكم، فلا يتضرر بكفركم، كما لا ينتفع بشرككم وتقواكم، وإنما أوصاكم رحمة بكم، لا لحاجة إليكم، ثم قرر ذلك بقوله: «وكان الله غنياً حميداً» أي: غنياً عن الخلق وعبادتهم، محموداً في ذاته، حمد أولم يحمد.

«ولله ما فى السموات وما فى الأرض» كرده ثالثاً؛ للدلالة على كونه غنياً حميداً، فإن جميع المخلوقات تدل بحاجتها على غناه، وبما أفاض عليها من الوجود، وأنواع الخصائص والكمالات على كونه حميداً. قاله البيضاوى. «وكفى بالله وكيلًا» أى: حافظاً ومجيراً لمن تعلق به من أهل السموات والأرض. «إن يشأ يذهبكم أيها الناس» إن لم تتقوه، ويأت بقوم آخرين، هم أطوع منكم وأتقى، «وكان الله على ذلك قديراً» أى: بليغ القدرة لا يعجزه مراد.

قال البيضاوى: وهذا - أى قوله: (إن يشأ يذهبكم..) - أيضاً تقرير لغناه وقدرته، وتهديد لمن كفر وخالف أمره، وقيل: هو خطاب لمن خالف الرسول ﷺ من العرب، وهو معنى قوله: «وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم» لما روى: أنها لما نزلت ضرب رسول ﷺ يده على ظهر سلمان وقال: «إنهم قوم هذا».

الإشارة: التقوى أساس الطريق ومنهاج أهل التحقيق، عليها سلك السائرون، وبها وصل الواصلون، قد وصى بها الحق تعالى المتقدمين والمتأخرين، وبها قرب المقربين وشرف المكرمين. ولها خمس درجات: أن يتقى العبد الكفر؛ وذلك بمقام الإسلام، وأن يتقى المعاصى والمحرمات؛ وهو: مقام التوبة، وأن يتقى الشبهات؛ وهو مقام الورع، وأن يتقى المباحات، وهو مقام الزهد، وأن يتقى شهود السوى والحس؛ وهو مقام المشاهدة.

ولها فضائل مستنبطة من القرآن، وهى خمس عشرة: الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ، والنصرة؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ، والولاية؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ والمحبة؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ، وتنوير القلب؛ لقوله: ﴿إِيَّا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ ، والمخرج من الغم والرزق من حيث لا يحتسب، لقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ، وتيسير الأمور؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ وغفران الذنوب وإعظام الأجر؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ ، وتقبل الأعمال؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ والفلاح؛ لقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والبشرى؛ لقوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ، ودخول الجنة؛ لقوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ، والنجاة من النار؛ لقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ . هـ. من ابن جزى.

ومما ينسب للقبط ابن مشيش رحمته الله:

عليك بتقوى الله في السر والجهر
لأن التقى أصل إلى البر كله
وخير جميع الزاد ما قال ربنا فكن
يا أخى لله مثل الأمر

ولما قرر أن الملك كله بيده، رغب الناس في رفع حوائجهم إليه، فقال:

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا

بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

قلت: (من): شرطية، وجوابها محذوف؛ دل عليه الكلام، أى: من كان يريد ثواب الدنيا فليطلبه منه، فعند

الله ثواب الدنيا والآخرة، أو من كان يريد ثواب الدنيا فلا يقتصر عليه خاصة، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة.

يقول الحق جل جلاله: «من كان يريد ثواب الدنيا» والتوسع فيها، فليطلبه منا؛ فعند الله ثواب الدارين، أو من كان يريد ثواب الدنيا، فليطلب مع ذلك ثواب الآخرة أيضا، وليقل: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة﴾؛ «فعند الله ثواب الدنيا والآخرة»، فيعطيهما معا لمن طلبهما، والثانى أنهض من الأول، وأكمل منهما من أعرض عنهما وطلب مولاه، «وكان الله سميعا بصيرا»، لا يخفى عليه مقاصد خلقه، فيعطى كلاً على حسب قصده.

الإشارة: الهمم ثلاثة: هممة دنية تعلقت بالدنيا الدنية، وهممة متوسطة تعلقت بنعيم الآخرة، وهممة عالية تعلقت بالكبير المتعال. والله تعالى يرزق العبد على قدر همته، وبالهمم ترفع المقادير أو تسقط، فمن كانت همته دنية كان دنيا خسيسا، ومن كانت همته متوسطة؛ كان قدره متوسطا، رحل من كون إلى كون، كحمار الرحا، يسير، والذي ارتحل منه هو الذى عاد إليه، ومن كانت همته عالية كان عالى المقدار، كبير الشأن، حاز الكونين بما فيهما، وزاد مشاهدة خالقهما. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

ولما أمر بالعدل بين النساء؛ أمر بالعدل فى الأحكام كلها، فقال:

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ

الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا

وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

قلت: (شهداء): خبر ثان لكان، أحوال، (فالله أولى): علة للجواب؛ أى: إن يكن المشهود عليه غنياً عليه فلا تمتنعوا من الشهادة عليه تعظيماً له، وإن يكن فقيراً فلا تمتنعوا من الشهادة عليه إشفافاً عليه، فإن الله أولى بالغنى والفقير منكم، والضمير فى (بهما) راجع إلى مادل عليه المذكور، وهو جنسا الغنى والفقير، لا إليه وإلا لوحد؛ لأن «أو» لأحد الشيتين. و(أن تعدلوا): مفعول من أجله، ومن قرأ: تلوا- بضم اللام- فقد نقل ضم الواو إلى اللام وحذف أحد الواوين، وقيل: من الولاية.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط» أى: مجتهدين فى إقامة العدل مواظبين على الحكم به، وكونوا «شهداء لله بالحق» تقيمون شهادتكم لوجه الله، وابتغاء مرضاته، بلا طمع أجر ولا عوض، وهذا إن تعينت عليه، ولم يكن فى تحملها مشقة، وإلا أبيع له أجر تعبته، فأدوا شهادتكم «ولو» كانت «على أنفسكم» بأن تقرروا بالحق الذى عليها، لأن الشهادة بيان الحق، سواء كان عليها أو على غيرها، «أو» كانت الشهادة على «الوالدين والأقربين»، فلا تمتنعكم الشفقة والتعظيم من إقامة الشهادة عليهما، وأحرى غيرهما من الأجانب، «إن يكن» المشهود عليه «غنياً أو فقيراً» فلا تميلوا عن الشهادة بالحق عليهما، تعظيماً للغنى أو شفقة للفقير، فإن «الله أولى بهما» وبالنظر لهما، فلو لم تكن الشهادة عليهما صلاحاً لهما ما شرعها، «فلا تتبعوا الهوى» فتميلوا مع الغنى أو الفقير، فقد نهيتكم إرادة «أن تعدلوا» فى أحكامكم، فتكونوا عدولا، أو كراهية أن تعدلوا عن الحق أى: تميلوا، «وان تلوا» ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل «أو تعرضوا» عن أدائها فتكتموها «فإن الله كان بما تعملون خبيراً»، فيجازى الكاتم والمؤدى.

قال ﷺ عند نزولها: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقِمْ شَهَادَتَهُ عَلَى مَنْ كَانَتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَجِدُ حَقًّا هُوَ عَلَيْهِ، وَلِيُؤْذِهِ عَفْوَ، وَلَا يُلْجِهَ إِلَى السُّلْطَانِ وَخُصُومَتِهِ، لِيَقْتَطَعَ بِهَا حَقُّهُ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ خَاصَمَ إِلَى فَقْضِيَّتِهِ لَهُ عَلَى أَخِيهِ بِحَقِّ لَيْسَ لَهُ عَلَيْهِ، فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ».

الإشارة: قد أمر الحق تعالى عباده بإقامة العدل فى الأمور كلها، ونهى عن مراقبة الخلق فى الأشياء كلها، فيتأكد على المرید ألا يراقب أحدا من الخلق؛ وإنما يراقب الملك الحق، فيكون قوياً فى الحق، يقيمه على نفسه وغيره، فلا تجتمع مراقبة الحق مع مراقبة الخلق، من راقب الحق غاب عن الناس، ومن راقب الناس غاب عن الحق، وعاش مغموماً من الخلق، والله در القائل حيث قال:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِاللَّذَاتِ الْجَسُورِ

وكان شيخ شيخنا رحمته الله يقول: (مراقبة الخلق عند أهل الظاهر شيء كبير، وعدم المراقبة عند الباطن أمر كبير). فإقامة العدل على النفس؛ ألا يتركها تميل إلى الرخص والتأويلات، وإقامته على الوالدين تذكيرهما بالله ودلالتهما على الله بلطف ولين، وإقامته على الأقربين بنصحهم وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم، كانوا أغنياء أو فقراء، وإقامته على الأجانب كذلك. وبالله التوفيق.

ولما فرغ مما يتعلق بحفظ اللسان، تكلم على حفظ الإيمان، وهو الأمر السادس مما تضمنته السورة، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَوَالِ الْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ
وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَوَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: مخاطباً من أسلم من اليهود - وهو عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابنا كعب، وثعلبة بن قيس، وسلام بن أخت عبد الله بن سلام، وسلمة ابن أخيه ويامين - قالوا يا رسول الله، نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب؟ فقال النبي ﷺ: «آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ وبكتابيه القرآن، وبكل كتاب قبله»، فنزلت الآية.

فقال لهم جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا» بمحمد، بعد أن آمنوا بموسى؛ «آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله» القرآن «والكتاب الذي أنزل من قبل» أى: جسد الكتاب، فتدخل الكتب المتقدمة كلها، «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر» أى: ومن يكفر بشيء من ذلك «فقد ضل ضلالاً بعيداً» أى: أخطأ خطأ بعيداً لا يكاد يعود إلى الطريق، فلما نزلت قالوا: يا رسول الله؛ إنا نؤمن بالجميع، ولا نفرق بين أحد منهم، كما فرقت اليهود والنصارى.

وقيل: الخطاب للمنافقين، أى: يا أيها الذين آمنوا بالسنتهم آمنوا بقلوبكم، كما آمنتم بالسنتكم، وقيل: للمؤمنين، أى: دوموا على إيمانكم، واثبتوا عليه.

الإشارة: أمر الحق جل جلاله، أهل الإيمان أن يجددوا إيمانهم، فيثبتوا على ما هو حاصل، ويسترشدوا إلى ما ليس بحاصل، فإن أنوار الإيمان تتزايد وتترادف على القلوب بحسب التصفية والنظر، ويقدر الطاعة والتقرب، فلا يزال العبد يتقرب إلى الله، وأنوار التوجه تتوارد عليه، حتى تشرق عليه أنوار المواجهة؛ وهى أنوار الشهود، فشروق الأنوار على قدر صفاء الأسرار، وورود الإمداد على حسب الاستعداد، فيقدر التفرغ من الأغيار ترد على

القلوب المواهب والأسرار، وهذا كله لمن صحب العارفين وأخذ عنهم، ومالك زمام نفسه لهم، وإلا فحسبه الإيمان بالغيب، ولو عمل ما عمل، وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد من ارتد عن الإيمان، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ ءَارَدُوا كُفْرًا لَّيَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ ﴿١٢٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنَعُوتَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ﴿١٢٩﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ ثم تكرر منهم الإيمان والكفر، ثم أصرّوا على الكفر وهم المنافقون، ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ﴾ ؛ لما سبق لهم من الشقاء، أو ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بموسى ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بعبادة العجل ﴿ثُمَّ آمَنُوا﴾ حين تابوا ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بعبسى ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ، ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ﴾، وهم اليهود، والأول أظهر؛ لأن الكلام بعده في المنافقين، فقال تعالى في شأنهم: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ أى: طريقاً توصلهم إلى الحق، إذ يستبعد منهم أن يتوبوا، فإن قلوبهم أشربت الكفر، وبصائرهم عميت، لا ينفع علاجها، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم ينفعهم، وقد يكون إضلالهم عقاباً لسوء أفعالهم.

ثم ذكر وعيدهم فقال: «بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً». وهم «الذين يتخذون الكافرين أولياء» أى: أحباباً وأصدقاء «من دون المؤمنين»، وقد كان الكفار قبل ظهور الإسلام لهم الصولة والجاه، فطلب المنافقون أن ينالوا بولايتههم ومصادقتهم العزّ منهم، فردّ الله عليهم بقوله: «أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ يَـبُولَايَتُهُمْ؟» «فإن العزة لله جميعاً» ولرسوله ولأوليائه، ولا عزة لغيره؛ إذ لا يعبأ بعزة لا تدوم ويعقبها الذل.

الإشارة: من كان ضعيف الاعتقاد في أهل الخصوصية، ضعيف التصديق، تراه تارة يدخل وتارة يخرج، وتارة يصدق وتارة ينكر، لا يرجى فلاحه في طريق الخصوص، فإن ضم إلى ذلك صحبة أهل الإنكار وولايتهم، فبشره بالخيبة والخسران، فإن تعزز بعزهم أعقبه الذل والهوان، والعياذ بالله من الخذلان، فالعز إنما يكون بعز التوحيد والإيمان، وعزة المعرفة والإحسان، وبصحبة أهل العرفان، الذين تعززوا بعز الرحمن، فمن تعزز بعز يفتنى مات عزه، ومن تعزز بعز يبقى دام عزه، والشبكة التي يصطاد بها العز هو الذل لله، يظهره بين عباد الله. قال بعضهم: والله ما رأيت العز إلا في الذل. وقال الشاعر:

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَى لَتَكْسِبَ عِزَّةً فَكَمْ عِزَّةٌ قَدْ نَالَهَا الْمَرْءُ بِالْذُّلِّ

وبالله التوفيق.

ثم نهى عن صحبة أهل الخوض، فقال:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ...﴾

قلت: (أن) مخفف: نافية، فاعل نزل، و(يكفر) و(يستهزأ)، حالان من الآيات، وضمير (معهم): يعود على الكفار المفهوم من (يكفر)، وضمير (غيره): يعود على الكفر والاستهزاء، وهما شيء واحد.

يقول الحق جل جلاله في التحذير من مجالسة أهل الكفر والمعاصي: «وقد نزل عليكم» يا معشر المسلمين في القرآن في سورة الأنعام، أنه «إذا سمعتم آيات الله» حال كونها «يكفر بها، ويستهزأ بها، فلا تقعدوا معهم» بل قوموا عنهم، إن لم تقدروا أن تنكروا عليهم، والآية التي في سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ الآية. فما داموا في الخوض فاعرضوا عنهم حتى يخوضوا في حديث غير الخوض، فإن جلستم معهم في حال الخوض فإنكم «إذا مثلهم» في الإثم، إن لم ترضوا، أو في الكفر، إن رضيتم بخوضهم.

نزلت في قوم من المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرّون من القرآن، ويكذبون به ويحرفونه، فنهى المسلمين عن مجالستهم، قال ابن عباس: ودخل في هذه الآية كلُّ مُحَدِّثٍ في الدين ومُبتدِعٍ إلى يوم القيامة. هـ.

الإشارة: أولياء الله آيات من آيات الله: فمن استهزأ بهم فقد استوجب المقت من الله، وكل موطن يقع فيه الإنكار عليهم أو الغض من مرتبتهم، يجب الفرار منه، لأنه موطن الغضب ومحل الهلاك والعطب، فإن لحوم الأولياء سموم قاتلة، واللعة على من يقع فيهم حاصلة، فمن جلس مع أهل الخوض من غير عذر، كان من الخائضين، ومن فر منهم كان من الناجين، ومن أنكر على من يقع فيهم كان من المجاهدين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد الخائضين ومن رضى بخوضهم، فقال:

﴿... إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ﴿١٤١﴾

قلت : (الذين) : صفة المنافقين، أو نصب على الذم، و(نستحوذ) : نغلب، استحوذ: غلب، جاء على أصله، ولم يُعلَ كاستعاذ والقياس: استحاذ، يستحاذ، كاستعاذ يستعيذ، لكنه صحح تنبيهاً على الأصل.

يقول الحق جل جلاله : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَجَمٌ﴾ سيجم «المنافقين والكافرين»، أى: الخائضين والقاعدين معهم، ﴿فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ خالدين فيها. «الذين يتربصون بكم» أى: ينتظرون بكم الدوائر، أى: ما يدور به الزمان والدهر عليكم، وهم المنافقون، ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ كاللصر والغنيمة «قالوا» للمؤمنين: «ألم تكن معكم» على دينكم، فأعطونا مما غنمتم، «وإن كان للكافرين نصيب»؛ دولة أو ظهور على المسلمين، «قالوا» لهم: «ألم نستحوذ عليكم» أى: نغلبكم ونتمكن من قتلكم، وأبقينا عليكم فمنعناكم من قتل المسلمين لكم، بأن خذلناهم بتخييل ما ضعفت به عزيمتهم عليكم، وتوانينا في مظاهرتهم عليكم، فأشركونا مما أصبتم. وإنما سمي ظفر المسلمين فتحاً، وظفر الكافرين نصيباً؛ لخسة حظه، فإنه حظ دنيأوى، استدراجاً ومكراً، بخلاف ظفر المسلمين، فإنه إظهار الدين، وإعانة بالغنيمة للمسلمين.

﴿قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ فيدخل أهل الحق الجنة، ويدخل أهل الخوض النار، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أى: حجة، أو غلبة في الدنيا والآخرة، وفيه دليل على عدم صحة ملك الكافر للمسلم، فيباع عليه إن اشتراه، ويفسخ نكاحه إن تزوج مسلمة. والله تعالى أعلم

الإشارة: (المرء مع من أحب)؛ من أحب قوماً حشر معهم، فمن أحب أهل الخوض حشر مع الخائضين، ومن أحب أهل الصفا حشر مع المخلصين، وإن كان مذبذباً يميل مع كل ربح؛ حشر مع المخلطين، وهو من خف عقله وضعف يقينه، إن رأى بأهل النسبة من الفقراء عزاً ونصراً وفتحاً انحاز إليهم، وقال: ألم تكن معكم، وإن رأى لأهل الإنكار من العوام صولة وغلبة رجع إليهم، وقال: ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من دعاء الصالحين عليكم، فما لهذا عند الله من خلاق. وفي الحديث: «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً». قاله يحكم بينهم يوم القيامة، فيرفع أهل الصفا مع المقربين، ويسقط أهل الخوض مع الخائضين، وليس لأهل الخوض من أهل الإنكار سبيل ولا حجة على أهل الصفا من الأبرار، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

ثم ذكر أحوالهم الشنيعة، فقال:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢ مَذَبَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۝١٤٣﴾

قلت : جملة: (ولا يذكرون الله) ؛ حال من واو (يرءون) ، وكذلك (مذبذبين) أى: يراءون حال كونهم غير ذاكرين مذبذبين، أو منصوب على الذم، والمذبذب: المضطرب المتردد.

يقول الحق جل جلاله : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ بإظهار الإيمان وإخفاء الكفر، ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾، أى: مجازيهم على خداعهم؛ بأن يظهر لهم يوم القيامة نوراً يمشون به على الصراط، كما يعطى المؤمنين، فإذا مضوا به طُفِيَ نورهم وبقي نور المؤمنين، فينادونهم: ﴿انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا﴾، فيتهافتون فى النار. فسمى هذه العقوبة خداعاً تسمية للعقوبة باسم الذنب.

وكانوا ﴿إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى﴾ أى: متثاقلين، لا يريدون بها وجه الله، فإن رءاهم أحد، صلوا، وإلا أنصرفوا، فلم يصلوا، ﴿يُراءون﴾ بأعمالهم ﴿الناس﴾ أى: المؤمنين، ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾؛ لأن المرائى لا يذكر إلا بحضرة الناس، وهو أقل أحواله، أو لا يذكرونه فى صلاتهم إلا قليلاً، لأنهم لا يذكرون إلا التكبير والتسليم، وقال ابن عباس: إنما ذلك لأنهم يفعلونها رياءً وسمعةً، ولو أرادوا بذلك وجه الله تعالى لكان كثيراً. وقال قتاده: إنما قل ذكرهم، لأنه لم يقبل، فكل ما رُدَّ من العمل فهو قليل، وكل ما قُبِلَ فهو كثير.

وكانوا أيضاً ﴿مَذْذَبِينَ﴾ أى: مترددين ومتحيرين بين الكفر والإيمان، ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ أى: لا صائرين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين. قال قتادة: ما هم بمؤمنين مخلصين، ولا مشركين مصرحين بالشرك، هكذا سبق فى علم الله، ﴿وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أى: طريقاً إلى الهدى، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نَوْراً فَمَا لَهُ مِنْ نَوْراً﴾.

الإشارة: كل من أحب أن يرى الناس محاسن أعماله وأحواله، ففيه شعبة من النفاق وشعبة من الرياء، وعلامة المرائى: تزيين ظاهرة وتخريب باطنه، يتزين للناس بحسن أعماله وأحواله، يراقب الناس ولا يراقب الله، وكان بعض الحكماء يقول: يقول الله - تعالى -: «يامرائى: أمر من ترائى بيد من تعصيه». فمثل هذا أعماله كلها قليلة، ولو كثرت فى الحس كالجبال الرواسي، وأعمال المخلصين كلها كثيرة ولو قُلت فى الحس، وأعمال المرائين كلها قليلة ولو كثرت فى الحس. قال فى القوت: وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ الْمُنَافِقِينَ بِالْقَلَّةِ، لكونه غير خالص، كما قيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا كَثِيرًا﴾ أى: خالصاً، فسمى الخالص كثيراً هـ.

قوله تعالى: ﴿مَذْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾: هذه صفة أهل الدعوى، المستشرفين على الحقيقة بالعلم، ليسوا من الخصوص ولا من العموم، مترددين بين الفريقين، ومن يضل الله عن طريق التحقيق، فلن تجد له سبيلاً.

ثم نهى المؤمنين عن موالاة الكفار لئلا يتشبهوا بالمنافقين، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ۝١٤٤﴾

قلت: اتخذ، يتعدى إلى مفعولين، و(من دون): حال.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا لا تتشبهوا بالمنافقين فتتخذوا الكافرين أولياء» وأصدقاء «من دون المؤمنين»؛ لأن الله أعزكم بالإيمان والنصر، فلا تطلبوا العز من أحد سواه، «أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا» أى: حجة واضحة على تعذيبكم وسبباً فى عقابكم.

الإشارة: قد تقدم فى كثير من الإشارات النهى عن موالاة أهل الإنكار على الأولياء، وعن مخالطة أهل الدنيا وصحبتهم، فإن ذلك حجة واضحة على الرجوع إليهم ومصانعتهم، وهو عين النفاق عند المخلصين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد المنافقين، فقال:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝١٤٥﴾
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ
وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٤٦ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ
وَأَمَنْتُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ۝١٤٧﴾

قلت: الدرك: والدرك لغتان، كالظعن والظعن، والنهر والنهر، والنشر والنشر، وهى الطبقة السفلى، وسميت طبقاتهم دركات؛ لأنها متداركة متتابعة، وهى ضد الدرجات، فالدرجات للعلو، والدركات للسفل.

يقول الحق جل جلاله: «إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار» أى: فى الطبقة السفلى فى قعر جهنم؛ لأنهم أخبث الكفرة، حيث ضموا إلى الكفر الاستهزاء بالإسلام وخداع المسلمين. قال ابن مسعود رضي الله عنه: (هم فى توابيت من النار مقلعة عليهم فى النار، مطبقة عليهم). وعن ابن عمر رضي الله عنه: (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون لقوله: «إن المنافقين فى الدرك الأسفل

من النار» وقال في أصحاب المائدة: ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ . وقال: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ، «ولن تجد لهم نصيراً» يمنعهم من ذلك العذاب. «إلا الذين تابوا» عن النفاق «وأصلحوا» ما أفسدوا في سرائرهم وأعمالهم في حال النفاق، «واعتصموا بالله» أى: وثقوا به وتمسكوا به، دون أحد سواه، «وأخلصوا دينهم لله» لا يريدون بطاعته إلا وجه الله، لا رياء ولا سمعة «فأولئك مع المؤمنين» في الدين. قال الفرءاء: من المؤمنين، وقال العتبي: حاد عن كلامهم غيظاً عليهم، ولم يقل هم المؤمنون . هـ. قلت: إنما قال: «مع المؤمنين» ولم يقل: منهم، لأن التخلص من النفاق صعب، ولا يكون من المؤمنين، حتى يتخلص من جميع شعبه، وهو عزيز، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مَنَافِقٌ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّعَمَّنَ خَانَ» .

«وسوف يؤت الله المؤمنين» المخلصين «أجراً عظيماً» فيساهمونهم فيه إن تابوا وأصلحوا، فإن الله غنى عن عذابهم، ولذلك قال: «ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم» أى: لا حاجة له في عذابكم، فلا يشفى به غيظاً ولا يدفع به ضرراً، أو يستجلب به نفعاً؛ لأنه غنى عن المنافع، وإنما يعاقب المصر بكفره، لأن إصراره عليه كسوء المزاج يؤدي إلى مرض، فإن زال بالإيمان والشكر، ونقى منه قلبه، تخلص من تبعته. وإنما قدم الشكر؛ لأن الناظر يدرك النعم أولاً فيشكر شكراً مبهماً، ثم يمعن النظر حتى يعرف المنعم فيؤمن به. قاله البيضاوى. وقال الثعلبي: فيه تقديم وتأخير، أى إن آملتم وشكرتم، لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان. «وكان الله شاكراً» لأعمال عباده، يقبل اليسير ويعطى الكثير، «عليماً» بحقيقة شكرهم وإيمانهم، ومقدار أعمالهم، فيضاعفها على قدر تخلصها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لاشيء أصعب على النفس من الإخلاص؛ كلما اجتهد العبد في قطع الرياء؛ نبت على لون آخر، فلا يتطهر العبد منها إلا بتحقيق الفناء والغيبة عن السوى بالكلية. كما قال الششتري رحمته الله:

طَهَّرَ الْعَيْنَ بِالْمَدَامِ سَكْبًا مِنْ شُهُودِ السَّوَى تَزَلُّ كُلُّ عِلَّةٍ

قال بعضهم: [لا ينبت الإخلاص في القلب؛ حتى يسقط من عين الناس، ويسقط الناس من عينه]. والإخلاص من أعمال القلوب، فلا يطلع عليه إلا علام الغيوب. فلا يجوز أن يحكم على أحد بالرياء بمجرد ما يرى عليه من الإظهار، وقد تدخل الرياء مع الإسرار، وتتخلص من القلب مع الإظهار، وفي الحكم: «ربما دخل الرياء عليك حيث لا ينظر الخلق إليك». فإذا تخلص العبد من دقائق الرياء، وأصلح ما بينه وبين الله، واعتصم به دون شيء سواه، كان مع المخلصين المقربين؛ فيكون عمله موفوراً، وسعيه مشكوراً. وبالله التوفيق.

وقد تكلم في الإحياء على هذه الآية فقال: إنما كان المنافقون في الدرك الأسفل؛ لأنهم جحدوا بعد العلم، وإنما تضاعف عذاب العالم في معصيته؛ لأنه عصى عن علم. قلت: وافهم منه قوله ﷺ في أبي طالب: «وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ». وذلك لإعراضه مع العلم. وقال في الإحياء أيضاً: شدد أمر المنافقين؛ لأن الكافر كفر وأظهر، والمنافق كفر وستر، فكان ستره لكفره كفراً آخر، لأنه استخف بنظر الله إلى قلبه، وعظم أمر المخلوقين. هـ. والحاصل: أن التشديد في الرياء والتفاق؛ لِمَا في ذلك من تعظيم نظر الخلق على نظر الخالق، فكان أعظم من الكفر الصريح. هـ. من الحاشية.

ومن علامة تصفيته الباطن من الرياء والتفاق؛ تلبس الظاهر بأحسن الأخلاق، ولذلك ذكره بإثره، فقال:

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ ١٤٨
 ﴿ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ ١٤٩

قلت: (إلا من ظلم): استثناء منقطع، أي: لكن من ظلم فلا بأس أن يشكو بظالمه ويدعو عليه، وليس المراد أن الله يحب ذلك منه، إذ العفو أحسن كما يقوله بعد، وقرئ: (إلا من ظلم) بالبناء للفاعل، أي: ولكن الظالم يفعل ما لا يحبه الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ لا يحب الله الجهر ﴾ أي: الإجهار «بالسوء من القول»؛ لأنه من فعل أهل الجفاء والجهل (إلا من ظلم) فلا بأس أن يجهر بالدعاء على ظالمه، أو بالشكوى به. نظيرها: ﴿ وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾. قال مجاهد: هذا في الضيف النازل إذا لم يصف ومنع حقه، أو أسىء قراه، فقد رخص له أن يذكر ما صنع به. وزعم أن ضيفاً تصيف قوماً فأساءوا قراه، فاشتكاهم، فنزلت الآية رخصة في شكواه. ﴿ وكان الله سميعاً ﴾ لدعاء المظلوم، ورده على الظالم، فلا يحتاج إلى جهره، ﴿ عليماً ﴾ بالظالم فيعاقبه على قدر جرمه.

ثم رغب في العفو فقال: ﴿ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا ﴾: طاعة وبرا كحسن الخلق ولين الجانب، ﴿ أَوْ تُخَفُّوهُ ﴾ أي: تفعلوه سرا، ﴿ أَوْ تُعَفُّوْا عَنْ سُوءٍ ﴾ بأن لا تؤاخذوا به من أساء إليكم، وهذا هو المقصود بالذكر، وإنما ذكر إبداء الخير وإخفاؤه سبباً ووسيلة لذكره، ولذلك رتب عليه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ أي: كثير العفو عن العصاة، مع كمال قدرته على الانتقام، فأنتم أولى بذلك، وهو حث للمظلوم على العفو، بعدما رخص له في الانتصار، حملاً على مكارم الأخلاق.

الإشارة: اعلم أن الباطن إذا كمل تطهيره وتحقق تنويره؛ ظهر أثر ذلك على الظاهر من مكارم الأخلاق، ولين الجانب، وحسن الخطاب، وترك العتاب، فما كمن في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر؛ وما كمن فيك ظهر على فيك، وهذه أخلاق الصوفية - رضى الله عنهم وأرضاهم - وبذلك وصفهم القائل فيهم، فقال:

هَيْتُونَ لَيْتُونَ أَيَسَارَ بَنُويسَرَ سَوَاسُ مَكْرُمَةِ أَبْنَاءِ أَيَسَارِ
لَا يَنْطَقُونَ بِغَيْرِ الْحَقِّ إِنْ نَطَقُوا وَلَا يَمَارُونَ إِنْ مَارَوْا بِأَكْفَارِ
مَنْ تَلَقَى مِنْهُمْ تَقَلَّ هَذَاكَ سَيِّدَهُمْ مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَهْدَى بِهَا السَّارِ

ومن شأن الحضرة التهذيب والتأديب، فلا يبقى معها لغو ولا تأثيم، لأنها جنة معجلة، قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾.

وأيضاً أهل الحضرة حصل لهم القرب من الحبيب، فهم في حضرة القريب على بساط القرب على الدوام، ولا يتصور منهم الجهر بالكلام، وهم في حضرة الملك العلام. قال تعالى: ﴿وَشَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، فرفع الصوت عند الصوفية مذموم شنيع، يدل على بُعد صاحبه كيف ما كان، وتأمل قضية الصديق حيث قال له - عليه الصلاة والسلام -: «مالك تقرأ سراً؟»، فقال: (إن الذي نذاجيه ليس ببعيد). أو كما قال، وإنما قال له ﷺ: «إرفع قليلاً»؛ إخراجاً له عن مراده، تربية له. والله تعالى أعلم.

ولما قدم أقبح الكفر، وهو كفر المنافقين، ذكر ما يليه، وهو كفر اليهود، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۖ﴾

قلت: (حقاً): مصدر مؤكد للجملة، أو صفة لمصدر الكافرين، أى: كفروا كفراً محققاً يقيناً. وأصل (أعتدنا): أعددنا، أبدلت الدال تاء؛ لقرب المخرج.

يقول الحق جل جلاله: «إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله، «ويقولون نؤمن ببعض» الأنبياء «ونكفر ببعض»، كاليهود، آمنوا بموسى

وعزير والتوارة، وكفروا بعيسى ومحمد ﷺ، «ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً»، أى: طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر، ولا واسطة، إذ الحق لا يختلف، فإن الإيمان بالله إنما يتم برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه، تفصيلاً وإجمالاً، فالكافر بالبعض كالكافر بالكل فى الضلال. ولذلك حكم عليهم بصريح الكفر فقال: «أولئك هم الكفرون حقاً» أى: هم الكاملون فى الكفر حقيقة، وإنما أكد كفرهم لأنهم تحكموا على الله، واتخذوا إلههم هواهم، حيث جعلوا الاختيار لهم دون الله، وفى تلك منازعة للقدر، وتعطيل له، وهو كفر وشرك، ثم ذكر وعيدهم فقال: «وأعدنا» أى: هيأنا «للكافرين» منهم «عذاباً مهيناً» أى: يخزيهم ويهينهم، حين يكرم أوليائه ويرفع أقدارهم. جعلنا الله منهم. آمين.

الإشارة: الأولياء على قدم الأنبياء، فمن فرق بينهم حرم بركة جميعهم، ومن صدق بجميعهم وعظمهم اقتبس من أنوارهم كلهم، والله - تعالى - غيور على أوليائه، كما كان غيوراً على أنبيائه، فطرد من فرق بينهم، فكذلك يطرد من يقع فى بعض أوليائه ويعظم البعض، لأن البعض هو الكل. والله تعالى أعلم

ثم ذكر من لم يفرق، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٥٢﴾

قلت: (بين): من الأمور النسبية، فلا بد أن تدخل على متعدد، تقول: جلست بين فلان وفلان، وإنما دخلت هنا على (أحد)؛ لأنه يقتضى متعددًا لعمومه، لأنه وقع فى سياق النفي. قاله البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله: «والذين آمنوا بالله» وما يجب له من الكمالات، (ورسله) وما يجب لهم كذلك، «ولم يفرقوا بين أحد منهم» بأن آمنوا بجميعهم، وصدقوا بكل ما جاءوا به من عند ربهم، «أولئك سوف يؤتيهم»^(١) أجورهم» الموعودة لهم، بأن نجل مقدارهم، ونرفع مقامهم، ونبرئهم فى جنات النعيم. وتصديره بسوف؛ لتأكيد الوعد والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تأخر وقته، ولما كان العبد لا يخلو من نقص، رفع الخوف عنهم بقوله: «وكان الله غفوراً» لما فرط منهم «رحيماً» بهم بتضعيف حسناتهم.

الإشارة: والذين صدقوا بأولياء الله، وعظموا جميعهم، واقتبسوا من أنوارهم كلهم، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم، بأن أنعمهم فى جنات المعارف فى دار الدنيا، فإن ماتوا أسكنهم فى الفردوس العلى (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر). والله تعالى أعلم.

(١) قرأ حفص عن عاصم (يؤتيهم) بالياء، وقرأ الباقون بالنون.

ثم ذكر مساوي اليهود فقال:

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾

قلت: من قرأ: (لا تعدوا) بالسكون، فماضيه: عدا، ومن قرأ بتشديد الدال، فماضيه اعتدى، وأصله: لا تعتدوا، فنقلت حركة التاء إلى العين وأدغمت التاء في الدال، ومن قرأ بالاختلاس أشار إلى الأصل.

يقول الحق جل جلاله: «يسألك أهل الكتاب»، وهم أحبار اليهود، «أن تنزل عليهم كتابا من السماء» جملة واحدة، كما نزل التوراة، أو كتاباً بخط سماري على ألواح كما كانت التوراة، والسائل هو كعب بن الأشرف وفتحاص بن عازوراء وغيرهم، قالوا للبي (عليه السلام): (إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملة، كما أتى به موسى)، قال تعالى في الرد عليهم: «فقد سألوا موسى أكبر من ذلك»، وهو رؤية ذات الحق - تعالى - جهراً حساً. والمعنى: إن استعظمت ما سألوا منك فقد وقع منهم ما هو أعظم من ذلك.

وهذا السؤال، وإن كان من آبائهم، أسند إليهم؛ لأنهم كانوا آخذين بمذهبهم تابعين لهديهم، فما اقترحوا عليك ليس بأول جهالاتهم وتشغيبيهم؛ بل عرفهم راسخ في ذلك، فلا تستغرب ما وقع منهم.

ثم فسر سؤالهم بقوله: «فقالوا أرنا الله جهرة» أي: عياناً في الحس، «فأخذتهم الصاعقة»، بأن جاءت نار من السماء فأهلكتهم، فماتوا ثم بعثوا بدعوة موسى (عليه السلام) وذلك بسبب ظلمهم. وهو تعنتهم وسؤالهم لما استحيل في تلك الحال التي كانوا عليها. وذلك لا يقتضي امتناع الرؤية مطلقاً. وسيأتي في الإشارة تحرير ذلك.

«ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات» على وحدانيته تعالى. وهذه جناية أخرى اقترفها أيضاً أولئك، «فعفونا عن ذلك» حين تابوا، ولم نعالجهم بالعقوبة، «وأتينا موسى سلطاناً مبيناً» أي: تسلطاً ظاهراً عليهم، حين أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، توبة من اتخذهم العجل إلهاً، وحجة واضحة على نبوته كآيات التسع.

«ورفعنا فوقهم الطور» حين امتنعوا من قبول أحكام التوراة، بسبب ميثاقهم الذي أخذناه عليهم، وهو التزام أحكام التوراة، وقلنا لهم على لسان موسى: «ادخلوا الباب سجدا» أي: باب بيت المقدس، فدخلوا يزحفون على استناهم عنادا واستهزاء، وقلنا لهم: «لا تعدوا في السبت» على لسان داود عليه السلام، فاعتدوا فيه بالاصطياد، فمسخناهم قردة وخنازير، «وأخذنا منهم ميثاقا غليظا» على ذلك كله، فنقضوا جميع ذلك، أو ميثاقا غليظا في التوراة؛ لكن أدركوك ليؤمنن بك، وليبينن صفتك للناس، فنقضوا وكنتموا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اقتراح الآيات وطلب الكرامات من الأولياء، سنة ماضية، لأنهم على قدم الأنبياء - عليهم السلام - ما يقال لهم إلا ما قيل للأنبياء قبلهم، فلا تكاد تجد أحدا يصدق بولي حتى تظهر عليه الكرامة، وهو جهل كبير؛ لأن الكرامة قد تظهر على من لم تكمل له استقامة، وقد تكون استدراجا ومكرا. وأي كرامة أعظم من العلوم اللدنية والأخلاق النبوية؟ كما قال شيخنا رحمه الله. وقد ظهرت الكرامات على المتقدمين ولم ينقطع الإنكار عليهم.

واعلم أن طلب الرؤية في الدنيا ليس بممتنع، وإنما عاقب الله بنى إسرائيل على طلبها؛ لأنهم طلبوها قبل إيمانها، طلبوها من غير اتصاف بشروط حصولها، وهو كمال التهذيب والتطهير من دنس الحس، فمن كمل تهذيبه وتحقق تطهيره حصل له شهود الحق، حتى لو كلف أن يشهد غيره لم يستطع، وذلك حين تستولى البصيرة على البصر، فيشهد البصر ما كانت تشهد البصيرة، وذلك بعد كمال فتحها. ولذلك قال في الحكم: «شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق»... إلخ كلامه. وهذه المشاهدة لا تحصل إلا لمن اتصل بشيخ التربية، وإلا فلا مطمع فيها. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر عقوبة اليهود حيث نقضوا العهد، فقال:

﴿فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ وَكَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ۝١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨﴾

قلت: (فبما): صلة زیدت للتأكيد، و(نقضهم): مصدر مجرور بالباء، وهي متعلقة بالفعل المحذوف، أى: بسبب نقضهم فعلنا بهم ما فعلنا، أو بقوله: (حرمنا عليهم)، ويكون (فبظلم) على هذا بدلا من قوله: (فبما نقضهم)، فيكون التحريم بسبب النقص، وما عطف عليه. والاستثناء في قوله: (إلا اتباع الظن) منقطع؛ إذ العلم يناقض الظن.

يقول الحق جل جلاله: فلما أخذنا على بنى إسرائيل العهد والميثاق خالفوا ونقضوا، ففعلنا بهم ما فعلنا، بسبب نقضهم ميثاقهم، أو بسبب نقضهم وكفرهم «حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم»، ويسبب كفرهم أيضا «بآيات الله»؛ القرآن، أو بما في كتبهم، «وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف» أى: مغلفة لا تفقه ما تقول.

قال تعالى في الرد عليهم: «بل طبع الله عليها بكفرهم»، فجعلها محجوبة عن العلم، بأن خذلها ومنعها التوفيق للتدبر في الآيات والتذكر بالمواعظ، «فلا يؤمنون إلا قليلا» منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه، أو إيماننا قليلا لا عبرة به لنقصانه، «وبكفرهم» أيضا بعيسى عاقبناهم وطبعنا على قلوبهم، «وقولهم على مريم بهتانا عظيما» أى: نسبتها للزنى ويقولهم: «إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله» أى بزعمه، ويحتمل أنهم قالوه استهزاء، ونظيره: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، أو يكون استغناء من الله بمدحه، أو وضعنا للذكر الحسن موضع قولهم القبيح. قاله البيضاوى.

ثم رد الله تعالى عليهم فقال: «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم»، روى أن رهطاً من اليهود سبوه هو وأمه، فدعا عليهم، فمسخوا قردة وخنازير، فاجتمعت اليهود على قتله، فقال لهم: يا معشر اليهود، إن الله يبغيضكم، فغضبوا وثاروا ليقتلوه، فبعث الله تعالى جبريل فأدخله خوخة فيها كوة في سقفها، ورفع الله إلى السماء من تلك الكوة، فأمر اليهود رجلاً منهم يقال له: طيطانوس، أن يدخل الخوخة ويقتله، فلما دخل الخوخة، لم ير عيسى، فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه، فلما أبطأ عليهم دخلوا عليه، فظنوه عيسى، فقتلوه وصلبوه.

وقال قتادة: ذكر لنا أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه: أيكم يقذف عليه شبهي فيقتل؟ فقال رجل: أنا يا رسول الله، فقتل ذلك الرجل، ورفع عيسى عليه السلام، وكساه الريش وألبسه التور، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وصار مع الملائكة، فهو معهم في السماء إنسياً ملكياً، أرضياً سماوياً.

«وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه» فقال بعض اليهود: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان صاحبنا فأين عيسى؟ ويقال: إن الله تعالى ألقى شبه وجه عيسى على صاحبهم، ولم يلق عليه شبه جسده، فلما

قتلوه ونظروا إليه، فقالوا: الوجه وجه عيسى والجسد جسد صاحبنا. «مالهم به من علم إلا اتباع الظن» أى: لا علم لهم بقتله، لكن يتبعون الظن فقط. «وما قتلوه» قتلنا «يقينا» كما زعموا بقولهم: إنا قتلنا المسيح، «بل رفعه الله إليه» فهو فى السماء الثانية مع يحيى عليها السلام، «وكان الله عزيزاً حكيماً» أى: قوياً بالنعمة على اليهود، حكيماً فيما حكم عليهم من اللعنة والغضب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: نقض عهد الشيوخ من أسباب المقت والبعد عن الله، وكذلك الإنكار عليهم والطعن فيهم، وكذلك البعد عن وعظهم وتذكيرهم، وضد هذا من موجبات القرب والحب من الله، كحفظ حرمتهم، والوقوف مع أوامرهم، والذب عنهم حين تهتك حرمتهم، والدنو منهم، والسعى فى خدمتهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نزول عيسى فى آخر الزمان، فقال:

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٩﴾

يقول الحق جل جلاله: «وان من أهل الكتاب» أى: ما من يهودى ولا نصرانى، أى: الموجودين حين نزوله «إلا ليؤمنن» بعيسى «قبل موته» أى: عيسى، وذلك حين نزوله من السماء، روى أنه ينزل من السماء حين يخرج الدجال فيهلكه، ولا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن به، حتى تكون الملة واحدة، وهى ملة الإسلام، وتقع الأمانة حتى يرتع الأسود مع الإبل، والدمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات، ويلبث فى الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفونه.

وقيل الضمير فى (به) إلى عيسى، وفى (موته) إلى الكتابى، أى: وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى بأنه عبد الله ورسوله، «قبل موته» أى: قبل خروج نفس ذلك الكتابى إذا عاين الملك، فلا ينفعه حينئذ إيمانه، لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل. ويؤيد هذا قراءة من قرأ: «ليؤمنن به قبل موتهم» بضم التون، لأن (أحداً) فى معنى الجمع، وهذا كالوعيد لهم والتحريض على معاجلة الإيمان به من قبل أن يضطر إليه ولم ينفعه إيمانه، «ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً» يشهد على اليهود بالكذب، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: عند الموت تتحقق الحقائق، ويتميز الحق من الباطل، ويحصل الدم، ولا ينفع حين نزل القدم، فالمطلوب المبادرة بتحقيق الإيمان، وتحصيل مقام العرفان، قبل أن يسقط إلى جنبه، فينفرد رهيناً فى قبره بذنبه. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال ظلمهم وعدوانهم فقال:

﴿ فِظْلَمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ ﴾

يقول الحق جل جلاله : فبسبب ظلم «من الذين هادوا» ؛ وهو نقضهم الميثاق، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء، «حرمنا عليهم طيبات» كانت «أحلت لهم» كالشحوم، وكل ذى ظفر، وغير ذلك من لذيذ الطيبات، وكانوا كلما ارتكبوا كبيرة حرم عليهم شيئاً من الطيبات، وحرمنا ذلك أيضاً عليهم «بصددهم» عن طريق «الله» صدأ «كثيراً»، أى: بإعراضهم عنه إعراضاً كثيراً، أو بصددهم عنه ناساً كثيراً كانوا يخذلونهم عن الدخول فى دين الله، وبأخذهم الربا «وقد نهوا عنه»، فهو محرم عليهم وعلى الأمة المحمدية، وبأكلهم «أموال الناس بالباطل» كالرشوة وما كانوا يأخذونه من عوامهم، «وأعتدنا للكافرين منهم» بمحمد ﷺ «عذاباً أليماً»، دون من تاب وآمن به.

الإشارة: اعلم أن كل غفلة ومعصية وسوء أدب يحرم مرتكبه بسببه من لذيذ الطاعات وحلاوة المشاهدات على قدره، شعر أو لم يشعر، وقد يبعده من الحضرة وهو لا يشعر، مكرراً واستدراجاً، فإذا أصر عليه سلب من مقام الولاية بالكلية، ولا يزال ينقص إيمانه شيئاً فشيئاً، حتى يتفلس منه، والعياذ بالله، وإذا بادر بالتوبة رجلي قبوله، وكل يقظة وطاعة وحسن أدب يوجب لصاحبه الزلفى والقرب من الحضرة، ويزيده فى حلاوة المعاملة والمشاهدة على قدره، فلا يزال يتقرب إليه بتوافل الخيرات، حتى يحبه فيتولاه، فيكون سمعه وبصره، كما فى الحديث. وبالله التوفيق

ثم استثنى من تاب من اليهود، فقال:

﴿ لَكِن الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ۖ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ ﴾

قلت: والمؤمنون عطف على الراسخين، و(يؤمنون): حال منهم. و(المقيمين): نصب على المدح، لأن العرب إذا تطاولت في مدح شيء أو ذمه خالفوا بين إعراب أوله وأوسطه، نظيره: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ﴾. وقالت عائشة رضي الله عنهما: هو لحن من الكتاب^(١)، وفي مصحف ابن مسعود: (والمقيمون) بالرفع على الأصل.

يقول الحق جل جلاله: ليس أهل الكتاب كلهم كما ذكرنا، «لكن الراسخون في العلم منهم» كعبدالله ابن سلام، ومخيريق، وغيرهما ممن له علم بالكتب المتقدمة، «والمؤمنون» منهم بمحمد ﷺ، من عوامهم حال كونهم «يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك» أي: يؤمنون إيماناً كاملاً بلا تفريق، وأخص ﴿المقيمين الصلاة﴾، المتقنين لها، «المؤتون الزكاة» المفروضة، «والمؤمنون» منهم «بالله واليوم الآخر»، على صفة ما جاء به القرآن من البعث بالأجسام والحساب وغير ذلك؛ مما هو مقرر في السنة، «أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً»، فتكون الآية كلها في أهل الكتاب.

أو يقول الحق جل جلاله: «لكن الراسخون في العلم» من أهل الكتاب، «والمؤمنون» بمحمد ﷺ، من العرب، «والمقيمون الصلاة» منهم، «والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً».

الإشارة: كل من تحققت تربته بعد عصيانه، وظهرت يقظته بعد غفلاته، ورسخ في العلم بالله وبصفاته وأسمائه؛ التحق بالسابقين، وحشر مع المقربين، وكان ممن أوتي أجراً عظيماً وخيراً جسيماً، والحمد لله رب العالمين. ثم أجاب أهل الكتاب عن سؤالهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء فقال:

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۖ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۖ ﴾

(١) رد العلماء والمفسرون على هذا الخبر، ومنهم الإمام ابن جرير الطبري الذي قال: لو كان ذلك خطأ من الكاتب لكان الواجب أن يكون في كل المصاحف غير مصحفنا الذي كتبه لنا الكاتب، الذي أخطأ في كتابه. وفي اتفاق مصحفنا ومصحف أبي في ذلك ما يدل على أن الذي في مصحفنا من ذلك صواب غير خطأ. مع أن ذلك لو كان خطأ من جهة الخط لم يكن الذين أخذ عنهم القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ يعلمون من علموا ذلك من المسلمين على وجه اللحن، ولأصلحوه ولقنوه الأمة تعليماً على وجه الصواب. وفي نقل المسلمين جميعاً ذلك قراءة على ما هو به في الخط مرسوماً، أدل الدليل على صحة ذلك وصوابه، وأن لا صلح في ذلك للكاتب. انظر: تفسير الطبري بتعليق الشيخ شاكِر. والإتقان للسيوطي، وتفسير الرازي.

قلت: من قرأ (زيوراً) بالفتح، فالمراد به كتاب الزبور، ومن قرأ بالضم، فجمع «زير»؛ بكسر الزاي وسكون الباء، بمعنى مزبوراً، أى: مكتوباً، أى: آتينا داود كتباً متعددة، و(رسلاً): منصوب بمحذوف دل عليه «أوحينا»، أى: أرسلنا رسلاً، أو يفسره ما بعده، أى: قصصنا عليك رسلاً، و(رسلاً مبشرين): منصوب على البدل، أو على المدح، أو بإضمار أرسلنا، أو على الحال الموطئة لما بعده، كقولك: مررت بزيد رجلاً صالحاً.

يقول الحق جل جلاله: «إنا أوحينا إليك» بامحمد «كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده» ولم يكن ينزل عليهم الكتاب جملة واحدة، كما سألك أهل الكتاب تعليتها، بل كان ينزل عليهم الوحي شيئاً فشيئاً، فأمرهم كأمرهم. وقدم نوحاً عليه السلام لأنه أبو البشر بعد آدم، وأول نبي من أنبياء الشريعة، وأول نذير على الشرك، وأول رسول عذبت أمته بدعوته، وأطول الأنبياء عمراً، وجعلت معجزته في نفسه، فإنه عمر ألف سنة، ولم تنقص له سن، ولم تنقص له قوة، ولم تشب له شعرة، ولم يبالغ أحد في تأخير الدعوة ما بالغ هو عليه السلام، ولم يصبر أحد على أذى قومه ما صبر هو، كان يشتم ويضرب حتى يغمر عليه.

ثم قال تعالى: «وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط» أى: الأحفاد، وهم أنبياء بنى إسرائيل، «وعيسى وأيوب وهارون وسليمان»، وإنما خصهم بالذكر مع اشتغال النبيين عليهم تعظيماً لهم، فإن إبراهيم أول أولي العزم منهم، وآخرهم عيسى عليه السلام، والباقيون أشراف الأنبياء ومشاهيرهم، «وآتينا داود زبوراً» أى: كتاب الزبور، أو زبوراً أى: صحفاً متعددة، وأرسلنا «رسلاً» قد قصصناهم عليك من قبل» أى: من قبل هذه السورة، أو قبل هذا اليوم، «ورسلنا لم نقصصهم عليك»، وفي الحديث: «عددهم ثلاثمائة وأربعة عشر»، «وكلم الله موسى تكليماً» حقيقة، خص به من بين الأنبياء، وزاد نبينا محمد ﷺ بالرؤية مع الكلام.

قال الورتجبي: بادر موسى عليه السلام من بين الأنبياء لسؤال الرؤية، فأوقفه الحق في مقام سماع كلامه، ومنعه من مشاهدة رؤيته صرفاً، وتحمل نبينا محمد ﷺ أثقال السر بمطايا أسرار، ولم يسأل مشاهدة الحق جهراً بالانبساط، فأوصله الله إلى مقام مشاهدته، ثم أسمعته كلامه بلا واسطة ولا حجاب. قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ هـ. وقال ابن عطية: كلامه تعالى لموسى دون تكليف ولا تحديد، وكما أن الله تعالى موجود لا كالموجودات معلوم لا كالمعلومات، فكذلك كلامه لا كالكلام. هـ.

ثم ذكر حكمة إرسال الرسل فقال: أرسلنا «رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد» بعث «الرسل» فيقولون: لولا أرسلت إلينا رسولا يذنبها ويعلمنا ما جهلنا من أمر توحيديك والقيام بعبوديتك،

فقط عذر العباد ببعث الرسل، وقامت الحجة عليهم، وفي الحديث عنه - عليه الصلاة والسلام -: «مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنْ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ، وَمَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَمَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعَذْرُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ» .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب، فلا يجب عليه شيء، ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر من النبوة، وخص كل نبي بدواع من الوحي والإعجاز على ما يليق به في زمانه . والله تعالى أعلم .

الإشارة: علماء هذه الأمة كأنبيا بني إسرائيل، العارفون منهم كالرسل منهم، قال ابن الفارض رحمته الله:

فَعَالِمُنَا مِنْهُمْ نَبِيٌّ، وَمَنْ دَعَا إِلَى الْحَقِّ مَدَامَ بِالرَّسَالَةِ (١)

وعارفنا في وقتنا الأحمدي من أولى العزم منهم أخذ بالعزيمة

فإنهم يشاركونهم في وحي الإلهام، ويحصل لهم المكاملة مع المشاهدة، فيسمعون من الحق كما ينطقون به . كما قال الششتري:

أَنَا بِاللَّهِ أَنْطَقُ وَمِنْ اللَّهِ أَسْمَعُ

فتارة يسمعون كلامه بالوسائط، وتارة من غير الوسائط، يعرف هذا أهل الفن من أهل الذوق، وشأن من لم يبلغ مقامهم: التسليم .

إِنْ لَمْ تَرَ الْهَيْلَالَ فَسَلِّمْ لِأَنْفَاسٍ رَأَوْهُ بِالْأَبْصَارِ

وفي الورتجبي: وإن الله تعالى إذا أراد أن يسمع كلامه أحدا من الأنبياء والأولياء يعطيه سمعا من أسماعه، فيسمع به كلامه، كما حكى - عليه الصلاة والسلام - عنه - تعالى -: (فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتُ سَمْعَهُ....)، الحديث . أسمعه كلامه، وليس هناك الحروف والأصوات، بل أسمعه بحرف القدرة وصوت الأزلية، الذي هو منزله عن همهمة الأنفاس وخطرات الوسواس، وليس في ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شيء، حتى هناك السامع والمسمع واحد من حيث المحبة، لا من حيث الجمع والتفرقة . انتهى كلامه .

واعلم أن أهل الجمع لا يشهدون إلا متكلماً واحداً، قد انتفى من نظرهم التعدد والاثنيانية، غير أنهم يفرقون بين كلام القدرة وكلام الحكمة، كلام القدرة يبرز من غير اختيار، بل يكون المتكلم به مأخوذاً عنه، غائبا عن اختياره،

(١) في الأصول: بالرسالة . قلت: والرسالية: تأدية الرسالة .

وكلام الحكمة معه ضرب من الاختيار، وقد يسمعون كلام القدرة من الهوائف الغيبية، ومن الجمادات على وجه الكرامة، وكله بحرف وصوت. نعم مايقع من الهوائف القلبية والتجليات الباطنية، قد يكون بلا حرف ولا صوت، وقد تحصل لهم المكاملة بالإشارة بلا صوت ولا حرف، فقلوه: (بل أسمع بحرف القدرة وصوت الأزلية...) إلخ. إن أراد به التجليات الباطنية فمسلم، لكن ظاهره أن كلام الحق الذي يسمعه لأنبيائه وأوليائه محصور في ذلك، وأنه لا يكون إلا بلا حرف ولا صوت. وليس كذلك.

وقوله: (وليس في ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شيء) إلخ، معناه: لم يبق في ولاية أهل مشاهدة الأزل من رسوم الحوادث شيء. قلت: لكنهم يثبتونها حكمة، ويمحونها قدرة ومشاهدة، ولا يلزم من محوها عدم صدور الكلام منها بالحرف والصوت؛ فإن البشرية لا تطيق سماع كلام الحق بلا واسطة الحكمة، كما هو معلوم. والله تعالى أعلم.

ثم شهد لرسوله بالوحي والرسالة، فقال:

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى

بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝﴾

قلت: (لكن): حرف استدراك، وهو عن مفهوم ما تقدم، وكأنه قال: إنهم لا يشهدون بوحينا إليك. لكن الله

يشهد بذلك.

يقول الحق جل جلاله في الرد على اليهود لما قالوا للنبي ﷺ: لا نشهد لك بما أوحى إليك. فقال تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ إن لم يشهدوا به، «أنزله بعلمه» أي: متلبساً بعلمه الخاص به، وهو العلم بتأليفه على نظم يعجز عنه كل بليغ. أو متلبساً بعلمه الذي يحتاج الناس إليه في معاشهم ومعادهم. أو بعلمه المتعلق بمن يستأهل نزول الكتب إليه، «والملائكة» أيضاً يشهدون بذلك. وفيه تنبيه على أن الملائكة يودون أن يعلم الناس صحة دعوى النبوة، على وجه يستغنى عن النظر والتأمل، وهذا النوع من خواص الملك، ولا سبيل للإنسان إلى العلم بأمثال ذلك، سوى التفكير والنظر، فلو أتى هؤلاء بالنظر الصحيح لعرفوا نبوتك، وشهدوا بها كما عرفت الملائكة وشهدوا. قاله البيضاوي، وقد يخلق الله العلم في قلب الإنسان من غير تفكير ولا نظر، بل هداية من المالك القدير. «وكفى بالله شهيداً» لرسوله عن شهادة غيره.

الإشارة: كما شهد الحق تعالى لرسوله بالنبوة والرسالة، شهد لمن كان على قدمه من ورثته الخاصة بالولاية والخصوصية، وهم الأولياء العارفين بالله، وشهادته لهم بما أظهر عليهم من العلوم الدنية والأسرار الربانية، وبما اتحفهم به من الأخلاق النبوية والمحاسن البهية، وبما أظهر على أيديهم من الكرامات الظاهرة مع الاستقامة الشرعية، لكن لا يدرك هذه الشهادة إلا من سبقت له العناية، وكان له حظ في الولاية. «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه! ولم يوصل إليه إلا من أراد أن يوصله إليه» وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد من أعرض عن هذه الشهادة، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ۖ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۖ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝﴾

قلت: (خالدین): حال مقدره.

يقول الحق جل جلاله: «إن الذين كفروا» بما أنزلت على رسولنا من اليهود أو غيرهم، «وصدوا» الناس عن طريق الله الموصلة إليه، «قد ضلوا ضلالاً بعيداً»؛ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال، ولأن المضل يكون أغرق في الضلال وأبعد عن الانقلاع. «إن الذين كفروا وظلموا» الناس بصددهم عما فيه صلاحهم وخلصهم، أو ظلموا رسول الله بإنكار نبوته وكتمان صفته، أو ظلموا أنفسهم بالانهماك في الكفر، «لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً، إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً»، فجرى حكمه السابق ووعده الصادق على أن من مات على الكفر مخلص في النار، «وكان ذلك على الله يسيراً» لا يصعب عليه ولا يتعاضمه.

الإشارة: إن الذين كفروا بالخصوصية وأنكروا على أهلها، وصدوا الناس عن القصد إليها والدخول في حزبها؛ قد ضلوا عن طريق الوصول ضلالاً بعيداً، إذ لا وصول إلى الله إلا على يد أولياء الله؛ لأنهم باب الحضرة، فلا بد من الأدب معهم والخضوع لهم. إن الذين كفروا بأولياء الله، وظلموا أنفسهم؛ حيث حرموا الوصول، وتركوها في أودية الخواطر تجول، لم يكن الله ليستر مساوئهم ويقدر سرائرهم، ولا ليهديهم طريق المشاهدة ولا كيفية المجاهدة، وإنما يمكنهم من طريق التعب والنصب حتى يلقوا الله بقلب سقيم، والعياذ بالله.

ولما قرر أمر النبوة، وبين الطريق الموصل إلى العلم بها، وأوعد من أنكرها، خاطب الناس بالدعوة إليها فقال:

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾

قلت: (فآمنوا خيراً لكم)، و(انتهوا خيراً لكم): قال سيبويه: هو منصوب بفعل مضمر، تقديره: واتقوا خيراً لكم، وقال الخليل: منصوب بآمنوا وبانتهوا على المعنى. أى: اقصدوا. وقال الفراء: صفة لمصدر، أى: آمنوا إيماناً خيراً لكم. وقال بعض الكوفيين: هو خبر كان المحذوفة، وتقديره: ليكون الإيمان خيراً لكم.

قلت: وهو أظهر من جهة المعنى، وإن منعه البصريون، قالوا: لأن (كان) لا تحذف مع اسمها إلا في مواضع مخصوصة، قال ابن مالك:

وَيَحْذَرُونَهَا وَيُبْقُونَ الْخَبَرَ وَيَعْدَيْنِ، وَلَوْ، كَثِيرًا ذَا اشْتَهَرَ

ولعل هذا الموضع أتى على غير المشهور تنبيهاً على الجواز.

يقول الحق جل جلاله: «يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم» وهو محمد ﷺ، «فآمنوا به» يكن «خيراً لكم» مما أنتم فيه من الضلال، «وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض» وما تركبنا منه، ملكاً وخلقاً وعبيداً، فهو غنى عنكم، لا يتضرر بكفركم، كما لا ينتفع بإيمانكم، «وكان الله عليماً» بأحوالكم، «حكيماً» فيما دبر لكم.

الإشارة: الذي جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام - هو إتقان مقام الإسلام، وتصحيح مقام الإيمان، الذى من أركانه: الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وتحقيق مقام الإحسان الذى هو مقام الشهود والعيان، ولا يكمل هذا إلا بصحبة أهل العرفان، الذين صححوا مقام الفناء، وخرجوا إلى البقاء، خاضوا بحار التوحيد، وانفردوا بأسرار التفريد، ورسخ فيهم مقام الرضى والتسليم، فتلقوا المقادير كلها بقلب سليم، فمن لم يصحبهم ويتأدب بأدابهم بقى إيمانه ناقصاً، وحقه العتاب، فكان الحق - تعالى - يقول على لسان الإشارة: قد جاءكم وليى، وهو خليفة رسولى، فآمنوا بخصوصيته، وأذعنوا لأمره وتربيته، يكن خيراً لكم مما أنتم فيه من المساوى والأمراض، لئلا تلقونى بقلب سقيم، وبالله التوفيق.

ثم خص أهل الكتاب بالخطاب والعتاب، فقال:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾

قلت: أصل الغلو: مجاوزة الحد في كل شيء، يقال: غلا بالجارية لحمها وعظمها، اذا أسرعت إلى الشباب فجاوزت لداتها، أى: أقرانها، تغلو غلوا.

يقول الحق جل جلاله في عتاب النصارى - بدليل ما بعده: «يا أهل الكتاب» الإنجيل «لا تغلوا في دينكم» فتجاوزوا الحد فيه باعتقادكم في عيسى أنه الله، أو ابن الله، قصدوا تعظيمه فغلوا وأفرطوا، «ولا تقولوا على الله إلا الحق»، وهو تنزيه عن الصاحبة والولد.

ثم بين الحق فيه فقال: «إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله»، لا كما قالت اليهود: ليس برسول، ولا كما قالت النصارى: إنه الله، أو ابن الله، وإنما هو عبد الله ورسوله، «وكلمته ألقاها إلى مريم» أى: أوصلها إليها وحصلها فيها، وهى كلمة: كن. فَتَكُونُ بها فى رحم أمه فسمى بها، ﴿وروح منه﴾ وهو نفخ جبريل فى جيبها فحملت بذلك النفخ، وسمى النفخ روحاً، لأنه ربح يخرج عن الروح، فكانت روحه صادرة من روح القدس، كما قال فى آدم: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾، وقد قال: ﴿إِنْ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾، فنفخ جبريل فى الحقيقة لما كان بأمر الله صار هو نفخ الحق؛ لأن الوساطة محذوفة عند المحققين، فلذلك أضاف روحه إليه كروح آدم ﷺ.

﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾ أى: وحدوا الله فى ألوهيته، «ولا تقولوا ثلاثة» أى: الآلهة ثلاثة: الله، والمسيح، ومريم، «انتهاوا» عن التثليث يكن «خيراً لكم إنما الله إله واحد» فى ذاته وصفاته وأفعاله، «سبحانه» أى: تنزيهاً له أن يكون له ولد، لأنه لايجانس ولا يتطرقه الفناء، «له ما فى السماوات وما فى الأرض»، ملكاً وخلقاً وعبيداً، والعبرية تنافى البتوة، «وكفى بالله وكيلاً» فلا يحتاج إلى ولد؛ لأن الولد يكون وكيلاً عن أبيه وخليفته، والله تعالى قائم بحفظ الأشياء كافٍ لها، مستغن عن يعينه أو يخلفه لوجوب بقائه وغناه.

واعلم أن النصارى انقسموا على أربع فرق: نسطورية، ويعقوبية، وملكانية، ومرقسية، ومنهم نصارى نجران، فالنسطورية، قالوا في عيسى هو ابن الله، واليعقوبية والملكانية، قالوا هو الله، والمرقسية قالوا: هو ثالث ثلاثة، وكلهم ضالون.

الإشارة: الغلو كله مذموم، وخير الأمور أوسطها، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله»، ويرخص للفقير أن يتغالي في مدح شيخه، ما لم يخرج عن طوره، أو ينتقص غيره بمدحه، وفي الإشارة حث على حفظ مقام التوحيد، وتكزيهه تعالى عن الأضداد والأنداد. وفي ذلك يقول الشاعر:

أَرَبُّ وَعَبْدٌ وَنَفَى ضِدِّ
قُلْتُ لَهُ: لَيْسَ ذَاكَ عِنْدِي
فَقَالَ مَا عِنْدَكُمْ؟ فَقُلْنَا:
رُجُودٌ فَقَدْ وَفَقْدٌ وَجُد

فإثبات العبودية مستقلة تضاد الربوبية، ولذلك أنكرها الشاعر، أي: أثبت رباً وعبدًا، وأنت تقول بنفى الضد عنه وفي الحكم: «الأكوان ثابتة بإثباته محوأة بأحدية ذاته».

ولما قالت نصارى نجران للنبى ﷺ: إنك تعيب صاحبنا؟ فقال - عليه الصلاة والسلام - ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى. قال: وأى شيء أقول؟ قالوا: نقول إنه عبد الله. قال لهم - عليه الصلاة والسلام - «ليس بعار أن يكون عيسى عبداً لله»، أنزل الله تعالى:

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدَ اللَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

قلت: أصل الاستنكاف: التنحية، من قولهم: نكفت الدمع؛ إذا نحيت به بإصبعك كي لا يرى أثره عليك، ثم أطلق على الأنفة، والاستكبار دون الاستنكاف، ولذا عطف عليه؛ لأن الاستنكاف لا يستعمل إلا حيث لا استحقاق، بخلاف الاستكبار فإنه يكون باستحقاق. قاله البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله في الرد على التصاري: «لن يستتكف» أي: لن يأنف «المسيح أن يكون عبداً لله»؛ فإن عبوديته لله شرف يتباهى بها، وإنما المذلة والاستنكاف في عبوديته لغيره، «ولا الملائكة المقربون» لا يستنكفون أيضاً أن يكونوا عبيداً لله، بل ما كانوا مكرمين إلا بعبوديتهم لله، واحتج بالآية من فضل الملائكة على الأنبياء، لأن المعطوف يقتضى أن يكون أرفع درجة من المعطوف عليه، حتى يكون عدم استنكاف الملائكة كالدليل على عدم استنكاف المسيح.

والجواب: أن عطف الملائكة إنما أريد به التكثير والمبالغة، كقولهم: أصبح الأمير اليوم لا يخالفه رئيس ولا مرؤوس، والرئيس أفضل من المرؤوس، والتحقيق في المسألة: أن الأنبياء والرسل أفضل من خواص الملائكة كالمقربين، وخواص الملائكة: وهم المقربون - أفضل من خواص البشر كالأولياء، وخواص البشر أفضل من عوام الملائكة، وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر، ولذلك قيل: من غلب عقله على هواه، كان كالملائكة أو أفضل، ومن غلب هواه على عقله، كان كالبهائم أو أضل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد من استنكف عن عبوديته - تعالى - فقال: «ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً» فيجازيهم؛ «فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات» ولم يستنكفوا عن عبادته (فيوفيه أجورهم ويزيدهم من فضله) «ملا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأما الذين استنكفوا» عن عبوديته «واستكبروا» عن عبادته «فيعذبهم عذاباً أليماً» أي: موجعاً، وهو النار، وقال القشيري: العذاب الأليم: هو ألا يصلوا إليه أبداً بعد ما عرفوا جلاله، إذ صارت معرفتهم ضرورية - أي قهرية - فحسراتهم حينئذ على ما فاتهم أشد عقوبة لهم. هـ. «ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً».

فإن قلت: هذا التفصيل أعم من المفصل، لأن الحشر إنما ذكر للمتكبرين والتفصيل أعم، فالجواب: أن عموم المفصل يفهم من قوة الكلام، فكأنه قال: فسيحشرهم للمجازاة يوم يجازى عباده جميعاً، «فأما الذين آمنوا...» الخ، نظيره: قولا: جمع الأمير كافة مملكته، فأما العلماء فأكرمهم، وأما الطغاة فقطعهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: العبودية أشرف الحالات وأرفع المقامات، بها شرف من شرف، وارتفع من ارتفع، عند الله، وما خاطب الله أحباءه إلا بالعبودية، فقال تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾، وقال: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾، ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾... إلى غير ذلك.

وأوصاف العبودية أربعة: الذل، والفقر، والضعف والجهل. ومقابلها من أوصاف الربوبية أربعة: العز، والغنى والقوة والعلم، فبقدر ما يُظهر العبد من أوصاف العبودية يمدّه الحق من أوصاف الربوبية، فبقدر ما يظهر العبد من الذل يمدّه من العز، وبقدر ما يظهر من الفقر يمدّه بالغنى، وبقدر ما يظهر من الضعف يمدّه من القوة، وبقدر ما يظهر من الجهل يمدّه من العلم، تحقق بوصفك يمدك بوصفه، ولا يتحقق ظهور هذه الأوصاف إلا بين عباده لتمتحن بذلك أوصاف النفس.

ثم دعا الكل إلى كتابه والإيمان برسوله، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: «يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم» وهو الرسول عليه الصلاة والسلام وما اقترن به من المعجزات الواضحات، «وأنزلنا إليكم» على لسانه «نورا مبينا» وهو القرآن. أو جاءكم برهان من ربكم: المعجزات الظاهرة، «وأنزلنا إليكم نورا مبينا»: القرآن العظيم، أي: جاءكم دليل العقل وشواهد النقل، فلم يبق لكم عذر ولا علة.

«فأما الذين آمنوا بالله» أي: وحدوه في ربوبيته، «واعتصموا» أي: تمسكوا بدينه أو بكتابه، «فسيدخلهم في رحمة منه» وهي الجنة، «وفضل»: النظر لوجهه الكريم، قال البيضاوي: «في رحمة» أي: ثواب قدره بإزاء إيمانه وعمله، رحمة منه، لا قضاء لحق واجب، وفصل إحسان زائد عليهما. هـ. وقال القشيري: سيحفظ عليهم إيمانهم في المال عند التوفى، كما أكرمهم به وبالعرفان في الحال. هـ. «ويهديهم إليه» أي: إلى الوصول إليه، «صراطا مستقيما» أي: يبين لهم الوصول إليه، وهو طريق السير الذي لا عوج فيه؛ العلم والعمل والحال، وقال البيضاوي: هو الإسلام والطاعة في الدنيا، وطريق الجنة في الآخرة. هـ.

الإشارة: قد جاءكم من يعرفكم بالله، ويدلكم على الله، وهم أولياء الله، ببرهان واضح لا يخفى إلا على من كان خفاشيا، وأنزلنا إليكم من سر قدسنا، وبحر جبروتنا، نورا مبينا، تُشاهدون فيه أسرار الذات وأنوار الصفات، وهو ما ظهر من التجليات من القبضنة الأولية المحمدية، «فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به» في حال سيرهم إليه «فسيدخلهم في رحمة منه» وهي حضرة القدس، (وفضل) وهو الترقى في أسرار المعارف إلى مالا نهاية له،

ويهديهم إلى الوصول إليه، وهو شهوده في ذلك النور، طريقاً مستقيماً توصل إليه في أقرب زمان. ولعل الآية فيها تقديم وتأخير، أى: فسيهديهم إليه طريقاً مستقيماً يسرون فيه، حتى يصلوا إليه، ثم يدخلهم في رحمة حضرته، وفضل زيادة معرفته. والله تعالى أعلم.

ثم ختم السورة بميراث الكلالة، لأن آخر أحوال الإنسان الموت فيورث ماله، وكان المناسب ذكر يوصيكم هذا، لكنه أدرجه في حفظ الأموال لكونه أنسب، فقال:

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾

قلت: (في الكلالة)، يتعلق بيفتيكم، ويستفتونك، فيكون من باب التنازع، وأعمل الثاني على اختيار البصريين، وعمل الأول في الضمير المجرور حذف، أى: يستفتونك فيها، أو عمل الأول وحذف ضمير الثاني، أو يكون يستفتونك مقطوعاً فيوقف عليه، أو حذف متعلقه لدلالة الجواب عليه، أى: يستفتونك في الكلالة، وهو أظهر، وتقدم تفسير الكلالة^(١)، «إن امرؤ هلك»: ارتفع بفعل مضمر عند البصريين، من باب الاشتغال في المرفوع.

يقول الحق جل جلاله: «يستفتونك» في الكلالة، والمستفتي هو جابر بن عبد الله، كان مريضاً فعاده رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله. إني كلاله، فكيف أصنع في مالي؟ فنزلت، وهي آخر ما نزل من الأحكام. «قل الله يفتيكم في الكلالة»، ثم بين الفتوى فيها فقال: «إن امرؤ هلك ليس له ولد ولا والد، بل انقطع نسبه من الجهتين، «وله أخت» شقيقة أو لأب «فلها نصف ما ترك» والباقي للعصبة، ولا ميراث لها مع الأب أو الابن، «وهو يرثها» إن ماتت ولم يكن لها ولد ولا والد.

فإن استقل فله المال، وإن كان معه ذر سهم أخذ الباقي، «فإن كانتا اثنتين» فأكثر شقائق «فلهما الثلثان مما ترك»، وإن كانت شقيقة مع الأب أخذت الشقيقة النصف، والتي لأب السدس تكملة الثلثين، وإن كانت لأب

(١) راجع تفسير الآية ١٢ من نفس السورة.

مع الشقيقتين فلا شيء لها، «وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء» شقائق، مات أخوهم، «فللذكر مثل حظ الأنثيين»، ولا شيء للأخوة لأب من الشقائق. «يُبين الله لكم» الحق، كراهية «أن تضلوا، والله بكل شيء عليم»؛ فهو عالم بمصالح العباد في المحيا والممات. اللهم أحينا حياة طيبة وأمتنا مودة حسنة، في عافية وستر جميل، يا أرحم الراحمين، يارب العالمين.

الإشارة: الكلالة من الأولياء، هو الذي مات ولم ي خلف ولداً يرث حاله، فإن لم تكن له تلاميذ، فإن كان له أخ يقارب حاله، ورثه، وقد يرث سره أخته في النسبة، لكن لا تستوجب ذلك كله؛ لحكمة الله تعالى. يشير إليه قوله تعالى: «فلها نصف ما ترك»، وإن ترك إخوة في الشيخ اقتسموا سره كله، كل على قدر صدقه، والنساء الصادقات شقائق الرجال في نيل أسرار الولاية. وقد تقدم أول السورة أن مدد الشيخ كنهر أو كبحر يصب في القواديح، فإذا انسدت قادوس انتقل ماؤها إلى الأخرى. والله تعالى أعلم.



فهرس المجلد الأول

٥	تقديم المحقق
٧	تقديم بقلم الأستاذ الدكتور / حسن عباس زكى
١٥	كلمة الأستاذ الدكتور / جودة محمد المهدى
١٩	ترجمة الإمام ابن عجيبة
٣٣	منهج ابن عجيبة فى التفسير
٣٩	وصف النسخ
٤١	منهج التحقيق
٤٩	مقدمة المفسر
٥٣	تفسير سورة الفاتحة
٧١	تفسير سورة البقرة
٣٢١	تفسير سورة آل عمران
٤٥٩	تفسير سورة النساء

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/٥٩١٢

ISBN — 977 — 01 — 5669 — 8

البحر المكنون في تفسير القرآن المجيد

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة
١١٦١ هـ - ١٢٢٤ هـ

تحقيق وتعليق
أحمد عبدالله القرشي

المجلد الثاني
من أول سورة المائدة حتى آخر سورة يوسف

طبع على نفقة د. حسن عباس زكي
القاهرة ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

حقوق الطبع محفوظة
ويمنع طبع هذا الكتاب، أو أى جزء منه،
أو نقله على أى نحو، وبأية طريقة
١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

شارك فى استخراج هذا الجزء من الأصول الخطية
د / بركات أحمد أبو عوف د / أحمد شحاته الغزالي

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

مدنية. وهي مائة وعشرون آية، وألفان وثمان مائة وأربع كلمات، وقرأها النبي ﷺ في حجة الوداع، وقال: «يا أيها الناس، إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً، فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها» (١). وقال ابن عمر: (أنزلت سورة المائدة والنبي ﷺ على راحلته، فلم تستطع أن تعمله حتى نزل). وهي مكملة لما تضمنته سورة النساء من عقود الأحكام الستة، ولذلك افتتحها بالتوصية على الوفاء بها، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...﴾

أى: بالعهود التي عهدت إليكم أن تحفظوها، وهي حفظ الأموال، وحفظ الأنساب، وحفظ الأديان، وحفظ الأبدان، وحفظ اللسان، وحفظ الأيمان، ثم مرّ معها على الترتيب، فما ذكره هناك مستوفى، لم يعد منه هنا إلا أصله، وما بقى هناك في أصل من الأصول الستة كمله هنا، ولما ذكر فيما تقدم في أول السورة حكم الأموال باعتبار الملك، ولم يتكلم على ما يحل منها وما يحرم، تكلم هنا على ذلك، فقال:

﴿... أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلَى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾

قلت: إضافة (بهيمة الأنعام): للبيان، كثوب خز، أى: البهيمة من الأنعام، و (غير محلى الصيد): حال، قال الأخفش: من فاعل «أوفوا»، وفيه معنى النهي، وقال الكسائي: من منمير (لكم)؛ كما تقول: أحل لكم الطعام غير مفسدين فيه، فإن قلت: الحال قيد لعاملها، والحلية غير خاصة بوقت حرمة الصيد؟ قلت: لما كانت الحاجة إليها في ذلك الوقت أكثر، خص الحلية به ليكون أدعى للشكر، ويؤخذ عموم الحلية من سورة الحج (٢).

يقول الحق جل جلاله: «أحلت لكم بهيمة الأنعام» أى: الأنعام كلها، وهي الإبل والبقر والغنم، «إلا ما يتلى عليكم» بعد في قوله: «حرمت عليكم الميتة والدم...» الآية (٣)، حال كونكم «غير محلى الصيد»

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (التفسير ٢/٣١١) موقوفاً على (أم المؤمنين عائشة) رضى الله عنها. وصححه ووافقه الذهبي. وفي الفتح السامري (٥٥٢/٢) نقلاً عن الحافظ ابن حجر: لم ننف عليه مرفوعاً.

(٢) في قول الله تعالى: «وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم...» الآية / ٣٠.

(٣) الآية الثالثة من السورة نفسها.

فى حال الإحرام، ومعنى الآية فى الجملة: أحلت الأنعام كلها إلا مايتلى عليكم من الميتة وأخواتها، لكن الصيد فى حال الإحرام حرام عليكم، «إن الله يحكم ما يريد» من تحليل أو تحريم.

الإشارة: يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود التى عقدتموها على نفوسكم فى حال سيركم إلى حضرة ربكم، من مجاهدة ومكابدة، فمن عقد عقدة مع ربه فلا يحلها، فإن النفس إذا استأنست بحل العقود لم ترتبط بحال، ولعبت بصاحبها كيف شاءت، وأوفوا بالعقود التى عقدتموها مع أشياخكم بالاستماع والاتباع إلى معاتكم، وأوفوا بالعقود التى عقدها عليكم الحق تعالى، من القيام بوظائف العبودية، ودوام مشاهدة عظمة الربوبية، فإن أوفيتهم بذلك، فقد أحلت لكم الأشياء كلها تتصرفون فيها بهمتكم؛ لأنكم إذا كنتم مع المكون كانت الأكوان معكم. إلا مايتلى عليكم مما ليس من مقدوركم مما أحاطت به أسوار الأقدار، «فإن سوابق الهم لا تخرق أسوار الأقدار»، غير متعرضين لشهود السوى وأنتم فى حرم حضرة المولى. والله تعالى أعلم.

ولما نهى عن التعرض للصيد فى الحرم، نهى عن تغيير المناسك والتعرض للحجاج؛ لأنه من تعظيم حرمة الحرم، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَمِينَ
الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ
صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
وَالْعَدْوَنِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾

قلت: الشعائر: جمع شعيرة، وهى اسم ما أشعر، أى: جعل علامة على مناسك الحج ومواقفه، و(لا يجرمكم) أى: يحملنكم، أو يكسبنكم، يقال: جرم فلان فلاناً هذا الأمر، إذا أكسبه إياه وحمله عليه. والشنان: هو البغض والحق، يقال: بفتح النون وإسكانها، و(أن صدوكم) مفعول من أجله، و(أن تعتدوا) مفعول ثانٍ ليجرمنكم. ومن قرأ: (إن صدوكم)، بالكسر فشرط، أغنى عن جوابه: (لا بجرمنكم).

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله» أى: لا تستحلوا شيئاً من ترك المناسك، وذلك أن الأنصار كانوا لا يسمعون بين الصفا والمروة، وكان أهل مكة لا يخرجون إلى عرفات، وكان أهل اليمن يرجعون من عرفات، فأمرهم الله ألا يتركوا شيئاً من المناسك، أى: لا تحلوا ترك شعائر الله «و لا» تحلوا

«الشهر الحرام» بالقتال أو السبى، وهذا قبل النسخ، «ولا» تحلوا «الهدى»، أى: ما أهدى إلى الكعبة، فلا تتعرضوا له ولو من كافر، «ولا» تحلوا «القلائد» أى: ذوات القلائد، وهى الهدى المقلدة، وعطفها على الهدى للاختصاص؛ فإنها أشرف الهدى، أى: لا تتعرضوا للهدى مطلقاً. والقلائد جمع قلادة، وهى: ما قلد به الهدى من نعل أو لحاء الشجر، أو غيرهما، ليعلم به أنه هدى فلا يتعرض له، «ولا» تحلوا «آمين» أى: قاصدين البيت الحرام، أى: قاصدين لزيارته، «يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً» أى: يطلبون رزقاً بالتجارة التى قصدوها، ورضواناً بزعمتهم؛ لأنهم كانوا كفاراً.

وذلك، أن الآية نزلت فى الحطيم بن ضبيعة، وذلك أنه أتى المدينة، فخلف خيله خارج المدينة، ودخل وحده إلى النبى ﷺ فقال: إلام تدعو الناس إليه؟ فقال له: «إلى شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة». فقال: حسن، إلا أن لى امرأة لا أقطع أمراً دونهم، ولعلى أسلم، فخرج وغار على سرح المدينة فاستاقه، فلما كان فى العام المقبل خرج حاجاً مع أهل اليمامة، ومعه تجارة عظيمة، وقد قلد الهدى، فقال المسلمون للنبى ﷺ: هذا الحطيم قد خرج حاجاً فخل بيننا وبينه؟ فقال النبى ﷺ: «إنه قلد الهدى»، فقالوا يارسول الله: هذا شيء كنا نفعله فى الجاهلية - أى: تقية -، فأبى عليهم النبى ﷺ، فنزلت الآية (١).

وقال ابن عباس: كان المشركون يحجون ويهدون، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فنهاهم الله تعالى بالآية. «وإذا حللتم» من الحج والعمرة «فاصطادوا»، أمر بإباحة؛ لأنه وقع بعد الحظر، «ولا يجرمكم» أى: لا يحملنكم، أو لا يكسبنكم «شئان قوم» أى: شدة بغضكم لهم لأجل «أن صدوكم عن المسجد الحرام» عام الحديبية «أن تعتدوا» بالانتقام منهم؛ بأن تحلوا هداياهم وتتعرضوا لهم فى الحرم. قال ابن جزى: نزلت عام الفتح حين ظفر المسلمون بأهل مكة، فأرادوا أن يستأصلوهم بالقتل؛ لأنهم كانوا قد صدوهم عن المسجد الحرام عام الحديبية، فنهاهم الله عن قتلهم؛ لأن الله علم أنهم يؤمنون. هـ. ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ (٢).

ثم قال تعالى: «وتعاونوا على البر والتقوى» كالعفو، والإغضاء، ومتابعة الأمر، ومجانبة الهوى. وقال ابن جزى: وصية عامة، والفرق بين البر والتقوى؛ أن البر عام فى الواجبات والمندوبات، فالبر أعم من التقوى هـ. «ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» كالتشفى والانتقام. قال ابن جزى: الإثم: كل ذنب بين الله وعبيده، والعدوان: على الناس. هـ. «واتقوا الله إن الله شديد العقاب»؛ فانتقامه أشد.

الإشارة: قد أمر الحق - جل جلاله - بتعظيم عباده، وحفظ حرمتهم كيفما كانوا، فالخلق كلهم عيال الله، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله،، فيجب على العبد كف آذاه عنهم وحمل الجفا منهم، وألاً ينتقم لنفسه ممن آذاه

(١) أخرجه ابن جرير عن عكرمة. وذكره الواحدى فى الأسباب، عن ابن عباس.

(٢) من الآية ٥ من سورة التوبة.

منهم، ولا يحمله ما أصابه منهم على أن يعتدى عليهم ولو بالدعاء، بل إن وسع الله صدره بالمعرفة قابلهم بالإحسان، ودعا لعدوه بصلاح حاله؛ حتى يأخذ الله بيده، وهذا مقام الصديقية العظمى والولاية الكبرى، وهذا غاية البر والتقوى الذي أمر الله - تعالى - بالتعاون عليه، والاجتماع إليه، دون الاجتماع على الإثم والعدوان، وهو الانتصار للنفس والانتقام من الأعداء، فإن هذا من شأن العوام، الذين هم في طرف مقام الإسلام. والله تعالى أعلم.

ثم بين ما وعد به في قوله: ﴿إلا ما ينلّ عليكم﴾، فقال:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ
وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا
بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسَوْفَ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: «حرمت عليكم الميتة» أى: ما ماتت حتف أنفها بلا ذكاة، «والدم» المسفوح، أى: المهروق، وكانت الجاهلية يصبونه في الأمعاء، ويشوونها، ورخص في الباقي في العروق بعد التذكية، «ولحم الخنزير»، وكذا شحمه وسائر أجزائه المتصلة، بخلاف الشعر المجزؤ، «وما أهل لغير الله به» أى: رفع الصوت عليه عند ذبحه بغير الله، كقولهم: باسم اللات والعزى، وكذا ماترك عليه اسم الله عمداً، عند مالك «والمنخنقة» بحبل وشبهه حتى ماتت، «والموقوذة» أى: المضروبة بعصا أو بحجر أو شبهه، من: وقذته وقذاً: ضربته، «والمتردية» أى: الساقطة من جبل أو فى بئر وشبهه فماتت، «والنطيحة» التى نطحتها أخرى فماتت، فإن لم تمت؛ فإن كان فى المصران الأعلى فكذلك، لا فى الأسفل أو الكرش.

«وما أكل السبع» أى: أكل بعضه وأنفذ مقتله، والسبع: كل حيوان مفترس كالذئب والأسد والذئب والنمس والعقاب والنسر «إلا ما ذكيتكم» أى: إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك. قاله البيضاوى. وقال ابن جزى: قيل: إنه استثناء منقطع، وذلك إذا أريد بالمنخنقة وأخواتها: مامات من ذلك بالخنق وما بعده، أى: حرمت عليكم هذه الأشياء، لكن ما ذكيتكم من غيرها فهو حلال، وهذا ضعيف، وقيل: إنه استثناء متصل، وذلك إن أريد بالمنخنقة وأخواتها ما أصابته تلك الأسباب وأدركت حياته. والمعنى: إلا ما أدركتم حياته من هذه الأشياء، فهو حلال، واختلف أهل هذا القول؛ هل يشترط أن يكون لم تنفذ مقتله، أم لا؟ فالأئمة كلهم على عدم الاشتراط إلا مالكا - رحمه الله -، وأما من لم تشرف على الموت من هذه الأسباب، فذكاتها جائزة باتفاق. هـ.

«وحرّم عليكم أيضاً: «ما ذبح على النصب»، وهى أحجار كانت منصوبة حول البيت، يذبحون عليها ويعذون ذلك قرية، وليست بالأصنام؛ لأن الأصنام مصورة، والنصب غير مصورة، وقيل: (على) بمعنى اللام، أى: وما ذبح للنصب، والمراد: كل ما ذبح لغير الله.

«وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ» أى: تطلبوا ما قسم لكم فى الأزل من المقادير بالأزلام، جمع زلم - يضم الزاى وفتحها - وهى الأقداح على قدر السهام. وكانت فى الجاهلية ثلاثة، قد كُتب على أحدها: افعل، وعلى الآخر: لاتفعل، وعلى الثالث: مهمل، فإذا أراد الإنسان أن يعمل أمراً جعلها فى خريطة، وأدخل يده وأخرج أحدها، فإن خرج له الذى فيه «افعل»؛ فعل ما أراد، وإن خرج الذى فيه «لاتفعل»، تركه، وإن خرج المهمل أعاد الضرب، ويقاس عليه كل ما يدخل فى علم الغيب، كالقرعة والحظ والنسبة والكهانة، وشبهها.

«ذَلِكَ فَسْقٌ» الإشارة إلى المحرمات المذكورة، أو إلى الاستقسام بالأزلام، وإنما كان فسقاً؛ لأنه دخول فى علم الغيب الذى انفرد الله به، وفيه تجسس على سر الملك، وهو حرام، ولا يعارض ما ثبت جوازه من القرعة، فى أمور مخصوصة كتمييز الأنسبة فى القسمة، «وقد كان - عليه الصلاة والسلام - يقترح بين نسائه»، وغير ذلك مما تفيد تطيبب القلوب، دون الاطلاع على علم الغيوب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: حرمت عليكم يامعشر المريدين طلب الحظوظ والشهوات، وما تموت به قلوبكم من الانهماك فى الغفلات، وتناول ما أعطاكم لغير وجه الله، وقبضتموه من غير يد الله، بأن نظرتم حين قبضه إلى الواسطة، وغفلتم عن المعطى حقيقة، فمقتضى شريعة الخواص: إخراجه عن الملك، وحرمان النفس من الانتفاع به، كما وقع لبعض الأولياء، ولا تتناولوا من الطعام إلا ما ذكيتموه بأن شهدتم فيه المدعم دون الوقوف مع النعمة، ونزلتم إليه بالإذن، دون قصد الشهوة والمتعة، وهذا يحتاج إلى تيقظ كبير ومراقبة قوية. والله يتجاوز عن أمثالنا بحلمه وكرمه. آمين.

ولما حرم الله تعالى هذه الأشياء حصل للمشركين الإياس من موافقة المسلمين لهم فى دينهم، فلذلك ذكره الحق تعالى باثر تحريمها، فقال:

﴿... الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾

يقول الحق جل جلاله: «اليوم» الذى أنتم فيه، وهو يوم الجمعة، ويوم عرفة فى حجة الوداع، «يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» أن يبطلوه، أو يظهروا عليه بحصول المباينة لهم فى أمورهم كلها، ولظهور الإسلام فيه وكثرة المسلمين، قيل: إنه وقف معه ﷺ فى هذه الحجة: مائة ألف وأربعة عشر ألفاً، ويحتمل أن يريد باليوم الزمان الحاضر، وما يتصل به من الأزمنة الآتية، «فَلَا تَخْشَوْهُمْ» أن يظهروا عليكم، «وَأَخْشَوْنَ» وحذى؛ فأمرهم بىدى.

«اليوم أكملت لكم دينكم» بالنصر والإظهار على الأديان كلها، أو بالتنصيص على قواعد العقائد، والتوقيف على أحوال الشرائع وقوانين الاجتهاد، «وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» بالهداية والتوفيق، أو بإكمال الدين، وبالفتح والتمكين، بهدم مدار الكفر، ومحو علل الملحدين، «وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا» أى: اخترته لكم من بين الأديان، الذى لا ترتضى غيره ولا تقبل سواه.

الإشارة : إذا حصل المريد على أسرار التوحيد، وخاض بحار التفريد، وذاق حلاوة أسرار المعاني، وغاب عن شهود حس الأواني، وحصل له الرسوخ والتمكين في ذلك ، أيس منه الشيطان وسائر القواطع ، فلا يخشى أحداً إلا الله ، ولا يركن إلى شيء سواه ، وأمن من الرجوع في الغالب ، إلا لأمر غالب ، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ . ولذلك قال بعضهم : (والله مارجع من رجع إلا من الطريق ، وأما من وصل فلا يرجع) .

والوصول هو التمكين فيما ذكرنا ، فإذا حصل على كمال المعرفة ، ووقف على عرفة المعارف ، فقد كمل دينه واستقام أمره ، وظهرت أنواره ، وتحققت أسرارها ، وما بقي إلا الترقى في الأسرار أبداً سرمداً ، والسير في المقامات كسير الشمس في المنازل ، ينتقل فيها من مقام إلى مقام ، بحسب ما يبرز من عنصر القدرة ، فتارة يبرز معه ما يوجب الخوف ، وتارة ما يوجب الرجاء ، وتارة ما يوجب الرضا والتسليم ، وتارة ما يوجب التوكل ، وهكذا يتلون مع كل مقام ويقوم بحقه ، ولا يقف مع مقام ولا مع حال ، لأنه خليفة الله في أرضه ، وقد قال تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (١) ، وهذا هو التلويح بعد التمكين . والله تعالى أعلم .

ثم استثنى من تلك المحرمات حالة المضطر ، فقال :

﴿ ... فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قال البيضاوي : هو متصل بذكر المحرمات ، وما بينهما اعتراض مما يوجب التجنب عنها ، وهو أن تناولها فسوق ، وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضي . هـ .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فَمَنْ أَضْطَرَّ ﴾ إلى تناول شيء من هذه المحرمات ﴿ فِي مَخْصَصَةٍ ﴾ أي : مجاعة ، حال كونه ﴿ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ ﴾ أي : مائل للإثم وقاصد له ، بأن يأكلها تلهذاً أو متجاوزاً حد الرخصة ، قيل : هو سد الرمق ، وقال ابن أبي زيد : يأكل منها ويتزود ، فإن استغنى عنها طرحها . هـ . فإن تناولها للضرورة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ له ﴿ رَحِيمٌ ﴾ به ؛ حيث أباحها له في تلك الحالة .

الإشارة : قال بعض الحكماء : الدنيا كلها كالميتة ، لا يحل منها للذاكر إلا قدر الضرورة أكلاً وشرباً ، وملبساً ومركباً ، حتى يتحقق له الوصول ، فما بقي لأحد حينئذ ما يقول ، وعلامة الوصول : هو الاكتفاء بالله دون الاحتياج لشيء سواه ، إن افتقر اغتنى في فقره ، وإن ذل عز في ذله ، وإن فقد وجد في فقده ، وهكذا في تقلبات الأحوال لا يتضعضع ولا يتزلزل ، ولو سقطت السماء على الأرض . والله تعالى أعلم .

ولمّا ذكر ما حرم عليهم ؛ ذكر ما أحل لهم ، فقال :

(١) من الآية / ٢٩ من سورة الرحمن .

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾
الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ ...﴾

قلت: لم يقل ماذا أحل لنا، لأن «يسألونك» بلفظ الغيبة، وكلا الوجهين شائع في أمثاله. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: «يسألونك» يامحمد عن الذي «أحل لهم» من المأكَل، بعد الذي حرم عليهم من الخبائث، فقل لهم. «أحل لكم الطيبات» وهو عند مالك: ما لم يدل دليل على تحريمه من كتاب ولا سنة، وعند الشافعي: ما يستلذه الطبع السليم ولم يفر عنه، فحرم الخنافس وشبهها، «و» أحل لكم صيد «ما علمتم من الجوارح» أى: الكواسب، وهى الكلاب ونحوها، مما يصطاد به ويكسب الصيد على أهله، من سباع وذوات أربع، وطير، ونحوها، حال كونكم «مكَلِّبين» أى: معلمين لها الاصطياد، أى: مؤدبين لها، «تُعَلِّمونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ» من الحيل وصدق التأديب، فإن العلم بها إلهام من الله، أو مكتسب بالعقل الذى هو منحة من الله لابن آدم. وحد التعليم عند ابن القاسم: أن يفهم الجارح الإشلاء والزجر، وقيل: الإشلاء؛ أى: التسلط - فقط، وقيل: الزجر فقط، وقيل: أن يجيب إذا دعى.

«فكلوا مما أمسكن عليكم» ولم يأكل منه، لقوله ﷺ: «وإن أكل، فلا تأكل؛ فإنما أمسك على نفسه» (١). وهو مذهب الشافعي، وقال مالك: يؤكل مطلقاً لما فى بعض الأحاديث: «وإن أكل فكل» (٢)، وقال بعضهم: لا يشترط ذلك فى سباع الطير؛ لأن تأديبها إلى هذا الحد متعذر.

«واذكروا اسم الله عليه» أى: على ما علمتم عند إرساله، ولو لم ير المرسل عليه، وكذا عند الرمي بالمحدد ونحوه، فإن سمي على شيء معين ووجد غيره لم يؤكل، أو التبس مع غيره، وإن سمي على ما وجد أكل الجميع، ولا بد من نية الذكاة عند الإرسال أو الرمي، واختلف فى حكم التسمية، فقال الظاهرية: إنها واجبة مطلقاً، فإن تركت عمداً أو سهواً لم تؤكل عندهم، وقال الشافعي: مستحبة، حملاً للأمر على اللبس، فإن تركت عمداً أو سهواً أكلت عنده.

(١) بعض حديث أخرجه البخاري في (الذبائح والصيد، باب إذا أكل الكلب) ومسلم في (الصيد والذبائح، باب الصيد بالكلاب المعلمة) من حديث عدي بن حاتم.

(٢) أخرجه أبو داود في (الصيد، باب فى الصيد) عن أبي ثعلبة الخشني.

وفى التوفيق بين الحديثين قال الخطابي فى معالم السنن: يجعل حديث أبي ثعلبة أصلاً فى الإباحة، وأن يكون الدهى فى حديث عدي على معنى التنزيه دون التحريم. ويحتمل أن يكون الأصل فى ذلك: حديث عدي بن حاتم، ويكون الدهى على التحريم البات، ويكون المراد بقوله: «وإن أكل»، فيما مضى من الزمان وتقدم منه، لا فى هذه الحال، فكأنه قال: كل منه وإن كان قد أكل فيما تقدم، إذا لم يكن قد أكل فى هذه الحالة. انظر معالم السنن على هامش سنن أبي داود ٢٧٢/٣، وانظر أيضاً: فتح الباري ٤٩٤/٩.

وجعل بعضهم الضمير في «عليه»، عائداً على الأكل، فليس فيها على هذا أمر بالتسمية على الصيد، ومذهب مالك: أنه إن تركت التسمية عمداً لم تؤكل، وإن تركت سهواً أكلت، فهي عنده واجبة بالذكر ساقطة بالنسيان، وهذا الخلاف جار في الزكاة كلها.

﴿واتقوا الله﴾ في اجتناب محرماته، ﴿إن الله سريع الحساب﴾، فيؤاخذكم على ما جلت ودق.

﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ فيتناول الذبائح وغيرها، ويعم أهل الكتاب اليهود والنصارى، واستثنى على - كرم الله وجهه - نصارى بنى تغلب، وقال: (نيسوا على النصرانية، ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر). ولا يلحق بهم المجوس في ذلك، وإن ألقوا بهم في الجزية، لقوله ﷺ: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب، غير ألا تنكحوا نساءهم، ولا تأكلوا ذبائحهم»^(١) وكذلك المرتد مطلقاً لا تؤكل ذكاته.

قال ابن جزى: وأما الطعام، فهو على ثلاثة أقسام: أحدها: الذبائح، وقد اتفق العلماء على أنها مرادة في الآية، فأجازوا أكل ذبائح اليهود والنصارى، واختلفوا فيما هو محرم عنهم في دينهم، على ثلاثة أقوال: الجواز والمنع، والكراهة، وهو مبنى على: هل هو من طعامهم أم لا؟ فإن أريد بطعامهم ما ذبحوه، جازت، وإن أريد ما يحل لهم، منع، والكراهة توسط بين القولين. الثاني: مالا محاولة لهم فيه، كالقمح والفاكهة، فهو جائز لنا اتفاقاً. والثالث: ما فيه محاولة كالخبز وتعصير الزيت وعقد الجبن، وشبه ذلك مما يمكن استعمال النجاسة فيه، فمنعه ابن عباس؛ لأنه رأى أن طعامهم هو الذبائح خاصة، وأجازه الجمهور، لأنه رآه داخلاً في طعامهم، وهذا إذا كان استعمال النجاسة فيه محتملاً، أما إذا تحققنا استعمال النجاسة فيه؛ كالخمر والخنزير والميتة، فلا يجوز أصلاً، وقد صنف الطرطوشى في تحريم جبن النصارى، وقال: إنه ينجس البائع والمشتري والآلة؛ لأنهم يعقدونه على أنفحة الميتة. هـ.

﴿وطعامكم حل لهم﴾، فلا بأس أن تطعموهم من طعامكم، وتبيعوهم لهم، وأما ما حرم عليهم، فلا يجوز بيعه منهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يسألونك أيها العارف الرباني ماذا أحل للفقراء من الأعمال والأحوال، قل لهم: أحل لكم الطيبات، أى: الخالص من الأعمال، والصافى من الأحوال، والتلذذ بحلاوة المشاهدة والمكالمة، وما اصطادت لكم أنفسكم من العلوم الدنية والأسرار القدسية، بقدر تزكيتها وتربيتها، فكلوا مما أمسكن عليكم، أى: تمتعوا بما أنت به لكم من

(١) أخرجه مالك في الموطأ (الزكاة، باب جزية أهل الكتاب والمجوس) من حديث عبد الرحمن بن عوف، بدون ذكر: (غير ألا تنكحوا نساءهم ولا تأكلوا ذبائحهم) وجاءت هذه العبارة بنحوها في حديث أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦٩/٦ ح ١٠٠٢٨) والبيهقى في الكبرى (٩/١٩٢) عن الحسن بن محمد بن علي قال: (كتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام، فمن أسلم قبل، ومن أصر ضربت عليهم الجزية، على أن لا تؤكل لهم ذبيحة، ولا ينكح لهم امرأة).

أبكار الحكيم وعرائس الحقائق، فإن أنت بشيء من علوم الحس، فاذكروا اسم الله عليه ينقلب معاني، واتقوا الله أن تقفوا مع شيء سواه، (إن الله سريع الحساب)؛ فيحاسبكم على الخواطر والطوارق إن لم تعرفوا فيها. اليوم أحل لكم الطيبات، أي: حين دخلتم بلاد المعاني ورسختم فيها، أحل لكم التمتع بالمشاهدات والمناجات، وطعام العلوم الظاهرة حل لكم تتوسعون بها، وطعامكم حل لهم، أي: وتذكيركم بما يقدر عليهم حل لهم؛ لأن العارف الكامل يسير كل واحد على سيره، ويقلون معه بلونه، يقره في بلده ويحوشه إلى ربه. نفعا الله بذكره. آمين.

ثم تكلم على ما بقى من حفظ الأنساب، وهو جواز نكاح الكتابية إذ لم يتكلم عليه في سورة النساء، فقال:

﴿... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٥﴾

يقول الحق جل جلاله: وأحل لكم «المحصنات» أي: الحرائر «من المؤمنات» دون الإماء، إلا لخوف العنت، أو العفيفات دون البغايا، فإن نكاحها مكروه، «و» أحل لكم «المحصنات» أي: الحرائر «من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم»، فأحل الله نكاح اليهودية والنصرانية الحرّتين دون إمائهم، «إذا آتيتموهن أجورهن» أي: أعطيتموهن مهورهن. فلا يجوز نكاح الكتابية إلا بصدّق شرعي. حال كونكم «محصنين»، أي: متعفيين عن الزنى بنكاحها، «غير مسافحين» أي: مجاهرين بالزنى، «ولا متخذى أخدان» أي: أصحاب تسرون معهن بالزنى، والخدن: صاحب، يقع على الذكر والأنثى. والمعنى: أحللنا لكم نكاح الكتابيات، توسعة عليكم لتتعفوا عن الزنى سرا وجهرا.

ولما نزل إباحة الكتابيات قال بعض الناس: كيف أتزوج من ليس على ديني؟ فأنزل الله: «ومن يكفر بالإيمان» أي: بشرائع الإيمان «فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين»، ومن الكفر به إنكاره والامتناع منه.

الإشارة: قد تقدم أن علوم الحقائق أبكار، لأنها عرائس مخدرة، مهرها النفوس، وما سواها من العلوم ثيبات وإماء؛ لرخص مهرها، فإذا اتصل العارف بعلوم الحقائق ورسخ فيها؛ أحل له أن ينكح المحصنات من علوم الطريقة - وهي مبادئ التصوف، أي: التفطن فيها مع أهلها على وجه التركيز أو التعليم، والمحصنات من علوم الشريعة إذا أعطاه مهرها؛ من الإخلاص وقصد التوسع بها وتعليمها لأهلها، وهذه العلوم كلها مشروعة، والمشتغل بها متوجه إلى الله تعالى، «قد علم كل أناس مشربهم»، فمن كفر بها فقد حبط عمله، وهو عند الله من الخاسرين.

ثم تكلم على مابقى من حفظ الأديان، وهو الوضوء؛ إذ لم يتكلم عليه في النساء، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾

قلت: «إِذَا قُمْتُمْ»: أردتم القيام، كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ (١)، حذف الإرادة للإيجاز، وللتنبية على أن من أراد العبادة ينبغي أن يبادر إليها، بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة، وقوله: «بِرُءُوسِكُمْ» الباء للإصاق، تقول: أمسكت بثوب زيد، أى: ألصقت يدي به، أى: ألصقوا المسح برؤوسكم، أو للتبعيض، وهذا سبب الخلاف في مسحه كله أو بعضه، فقال مالك: واجب كله، وقال الشافعي: أقل ما يقع عليه اسم الرأس، ولو قل. وقال أبو حنيفة: الربع.

«وَأَرْجُلَكُمْ»، مَنْ نَصَبَ عَظْفَ عَلَى الْوَجْهِ، وَمَنْ خَفَضَ فَعَلِيَ الْجَوَارِ، وفائدته: التنبيه على قلة صب الماء، حتى يكون غسلاً يقرب من المسح. قاله البيضاوي. وردّه في المغنى فقال: الجوار يكون في النعت قليلاً، وفي التوكيد نادراً، ولا يكون في النسق؛ لأن العاطف يمنع من التجاور، وقال الزمخشري: لما كانت الأرجل بين الأعضاء الثلاثة مفسولات، تغسل بصب الماء عليها، كان مظنة الإسراف المذموم شرعاً، فعطف على الممسوح لا لتمسح، ولكن لينبه على وجوب الاقتصار في صب الماء عليها، وجيء فيهما بالغاية إمطة لظن من يظن أنها ممسوحة؛ لأن المسح لم يضرب له غاية في الشريعة. هـ.

يقول الحق جل جلاله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إذا أردتم القيام «إِلَى الصَّلَاةِ»، وأنتم محدثون «فاغسلوا وُجُوهَكُمْ» من منابت شعر الرأس المعتاد إلى الذقن، ومن الأذن إلى الأذن، «وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ» أى: معها، «وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ» أى: جميعها أو بعضها على الخلاف، «وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» العظمين النابتين في مفصلي الساقين، فهذه أربعة فرائض، وبقيت النية لقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ (٢)، ولقوله

(١) من الآية: ٩٨ من سورة النحل.

(٢) من الآية: ٥ من سورة البينة.

عليه الصلاة السلام:- «إنما الأعمال بالنيات». والدلك؛ إذا لا يسمى غسلًا إلا به، وإلا كان غمسًا، والفور؛ لأن العبادة إذا لم تتصل كانت عبثًا. ولما عطفت بالواو، وهي لا ترتب، علمنا أن الترتيب سنة.

«وإن كنتم مرضى» لم تقدروا على الماء «أو على سفر» ولم تجدوه، أو في الحضر؛ و«جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء» بالجماع أو غيره «ولم تجدوا ماء فتيمموا صعيدًا طيبًا فامسحوا بوجوهكم» أي: جميعه «وأيديكم منه»، وقيد الحضر بفقد الماء دون السفر؛ لأن السفر مظنة إعوازه، فالآية نص في تيمم الحاضر الصحيح للصلاة كلها، قال البيضاوي: وإنما كرره، - يعني مع ما في النساء - ليتصل الكلام في بيان أنواع الطهارة. هـ.

ثم قال تعالى: «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج» حتى يكلفكم بالطهارة في المرض أو الفقد من غير انتقال للتيمم، «ولكن يريد ليظهيركم» أي: ينظفكم بالماء أو بدله، أو يطهركم من الذنوب، فإن الذنوب تذهب مع صب الماء في كل عضو، كما في الحديث، «وليتم نعمته عليكم» بشرعه، ما هو مطهرة لأبدانكم، ومكفرة لذنوبكم، «ولعلمكم تشكرون» نعمه فيزيدكم من فضله.

الإشارة: كما أمر الحق جل جلاله بتطهير الظاهر لدخول حضرة الصلاة، التي هل محل المناجاة ومعدن المصافاة، أمر أيضًا بتطهير الباطن من لوث السهو والغفلات، فمن طهر ظاهره من الأوساخ والنجاسات، ولو ث باطنه بالوساوس والغفلات، كان بعيدًا من حضرة الصلاة؛ إذ لا عبرة بحركة الأبدان، وإنما المطلوب حضور الجنان. قال القشيري: وكما أن للظاهر طهارة فللسرائر طهارة، فطهارة الظاهر بماء السماء، أي: المطر، وطهارة القلوب بماء الندم والخجل، ثم بماء الحياء والوجل، ويجب غسل الوجه عند القيام إلى الصلاة، ويجب - في بيان الإشارة - صيانة الوجه عن التبذل للأشكال عند طلب خسائس الأغراض، وكما يجب مسح الرأس، يجب صونه عن التواضع لكل أحد. أي: في طلب الحظوظ والأغراض. وكما يجب غسل الرجلين في الطهارة الظاهرة، يجب صونها - في الطهارة الباطنة - عن التنقل فيما لا يجوز. هـ.

وقال عند قوله: «وإن كنتم جنبًا فاطهروا»: وكما يجب طهارة الأعلى، أي: الظاهر، فيقتضى غسل جميع البدن، فقد يقع للمريد فترة - توجب عليه الاستقصاء في الطهارة الباطنية - فذلك تجديد عقد وتأكيد عهد، وكما أنه إذا لم يجد المتطهر الماء ففرضه التيمم، فكذلك إذا لم يجد المريد من يفيض عليه صوب همته، ويغسله ببركات إشارته، اشتغل بما ينشر له من اقتفاء آثارهم، والاسترواح إلى ما يجد من سالف سيرتهم، ومأثور حكايتهم. هـ.

قلت: محصل كلامه أن من سقط على شيخ التربية، كان كمن وجد الماء فاستعمل الطهارة الأصلية الحقيقية، ومن لم يسقط على شيخ التربية، كان كالمستعمل للطهارة الفرعية المجازية؛ وهي التيمم، وإلى ذلك أشار الغزالي، لما سقط على الشيخ، ولأمه ابن العربي الفقيه على التجريد، فقال:

قَدْ تَيَّمَّمْتُ بِالصُّعِيدِ زَمَانًا وَالْآنَ قَدْ ظَفَرْتُ بِالْمَاءِ
مَنْ سَرَى مَطْبِقَ الْجُفُونِ وَأَضْحَى فَاتِحًا لَا يَرُدُّهَا لِلْعَمَاءِ

ثم قال، لما طلع قمر السعادة في ملك الإرادة وأشرقت شمس الوصول على أفق الأصول:

وَمِلْتُ إِلَى عَالِيَاءِ أَوَّلِ مَنَزِلٍ	تَرَكْتُ هَوَى لَيْلَى وَسُعْدَى بِمَعَزِلٍ
أَلَا أَيُّهَا السَّارَى رُوَيْدَكَ فَاَنْزِلِ	فَدَاثَلْتَنِي الْأَوْطَانَ أَهْلًا وَمَرْحَبًا
لِغَزَلِي نَسَاجًا فَكَسَّرْتُ مِغْزَلِي	غَزَلْتُ لَهُمْ غَزَلًا رَقِيقًا فَلَمْ أَجِدْ

لم ذكرهم الحق جل جلاله العهد الذي أخذهم عليه في الجهاد والطاعة، حين باعوا نبيه - عليه الصلاة والسلام -

في العقبة وغيرها، فقال:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

يقول الحق جل جلاله: «واذكروا نعمة الله عليكم» بالهداية والعز والنصر، «و» اذكروا «ميثاقه الذي واثقكم به» حين بايعتم نبيه في بيعة العقبة وبيعة الرضوان على الجهاد وإظهار الدين، وعلى السمع والطاعة في المشط والمكره، حين «قلتم» له: «سمعنا وأطعنا» فيما تأمرنا به في عسرنا ويسرنا، في منشطنا ومكرهنا، «واتقوا الله» في نقض العهود، «إن الله عليم بذات الصدور» أي: خفياتها، فيجازيكم عليها، فضلاً عن جليات أعمالكم، والمقصود: الترغيب في الجهاد الذي هو من كمال الدين.

الإشارة: يقال للفقراء الذين من الله عليهم بصحبة شيوخ التربية، وأخذوا عنهم العهد ألا يخالفوه: اذكروا نعمة الله عليكم، حيث يسر لكم من يسرركم إلى حضرة ربكم، ويعرفكم به، وغيركم يقول: إنه معدوم، أو خفي لا يعرفه أحد، وهذا الكنز الذي سقطتم عليه، قل من وجده، واذكروا أيضاً ميثاقه الذي واثقكم ألا تخالفوه، ولو أدى الأمر إلى حثف أنفكم.

كان شيخ شيوخنا - سيدي العربي بن عبد الله، يقول: الفقير الصادق، هو الذي إذا قال له شيخه: ادخل في عين الإبرة، يقوم مبادراً يحاول ذلك، ولا يتردد. وقال أيضاً: (صاحبى هو الذى نقتله بشعرة)، وقد تقرر أن من قال لشيخه: لم، لا يفلح، وهذا أمر مقرر في علم التربية؛ كما في قضية الخضر مع سيدنا موسى - عليه السلام - . واتقوا الله في اعتقاد مخالفتهم سراً؛ «إن الله عليم بذات الصدور» فإن الاعتراض سراً أقبح؛ لأنه خيانة، فليبادر المرید بالتوبة منه ويغسله من قلبه. والله تعالى أعلم.

ولما كان الجهاد لا يقوم إلا بنصب الإمام، ذكر ما يتعلق به من العدل في الأحكام، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾

قلت: (وعد): يتعدى إلى مفعولين، وحذف هنا الثاني، أى: وعدهم أجراً عظيماً، دل عليه الجملة بعده.

يقول الحق جل جلاله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»؛ عامٌ أريد به خاص، وهم أولوا الأمر منهم، الذين يلون الحكم بين الناس، وما تقدم في سورة النساء^(١) باقٍ على عمومته، أى: «كونوا قوامين» على من تحت حكمكم، راعين لهم؛ فإنكم مسئولون عن رعييتكم، وكونوا مخلصين «لله» فى قيامكم وولايتكم، «شهداء» على أنفسكم بالعدل، تشهدون عليها بالحق إن توجه عليها، ولا تمنعكم الرئاسة من الإنصاف فى الحق، إن توجه عليكم، أو على أقاربكم وأصدقائكم، ولا على عدوكم «ولا يجرمكم» أى: ولا يحملكم «شَنَاٰنُ قَوْمٍ» أى: شدة بغضهم لكم، «على ألا تعدلوا» فيهم، فتمنعهم من حقهم، أو تزيدوا فى نكالهم، تشفياً وغيظاً.

«اعدلوا هو» أى: العدل «أقرب للتقوى»، قال البيضاوى: صرح لهم بالأمر بالعدل، وبين أنه بمكان من التقوى بعد ما نهاهم عن الجور، وبين أنه مقتضى الهوى. فإذا كان هذا العدل مع الكفار، فما بالك مع المؤمنين؟ هـ «واتقوا الله»؛ ولا تراقبوا سواه، «إن الله خبير بما تعملون» فيجازى كلًّا على عمله، من عدل أو جور.

ثم ذكر ثواب من امتثل، فقال: «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم»؛ وأفضل الأعمال: العدل فى الأحكام. قال عليه الصلاة والسلام: «المُقْسِطُونَ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)... الحديث، وهو من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله.

ثم ذكر وعيد ضدهم، فقال: «والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم» كما هو عادته تعالى، يشفع بضد الفريق الذى يذكر أولاً، وفاءً لحق الدعوة، وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطبيب لقلوبهم. وهذه الآية فى مقابلة قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصَرِفْ عَنْكَ الْإِسْلَامُ فَاصْبِرْ إِنَّهُ يَنْصَرِفُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾. ثم قال: «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم»؛ وأفضل الأعمال: العدل فى الأحكام. قال عليه الصلاة والسلام: «المُقْسِطُونَ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)... الحديث، وهو من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله.

بالحكم (٣) وتكمل لها. والله تعالى أعلم.

(١) فى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ» ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين... الآية ١٣٥.

(٢) أخرجه مسلم فى (الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل...) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) من الآية ٥٨ من سورة النساء.

الإشارة : أمر الحق جل جلاله شيوخ التربية أن يعدلوا بين الفقراء في النظرة والإمداد، ولا يحملهم سوء أدب أحدهم، أو قلة محبته وصدقه، أن يبعده أو يمقته؛ لأن قلوبهم صافية، لا تحمل الكدر، فهم يحسنون إلى من أساء إليهم من العوام، فضلاً عن أصحابهم ؛ فهم مأمورون بالتسوية بينهم في التذكير والإمداد . والله تعالى يقسم بينهم على قدر صدقهم ومحبتهم، كما قال ﷺ : «إنما أنا قاسمٌ والله مُعطي» أي: إنما أنا أبين كيفية التوصل إلى الحق، والله - تعالى - يتولى إعطاء ذلك لمن يشاء من خلقه، فالأنبياء والأولياء مثلهم في بيان الطريق بالوعظ والتذكير، كمن يبين قسمة التركة بالقلم، والحاكم هو الذي يوصل إلى كل واحد من الورثة ما كان ينوبه في التركة، كذلك المذكر والمربي، يبين المقامات، والله يعطي ذلك بحكمته وفضله . والله تعالى أعلم .

ثم أمر نبيه ﷺ بشكر نعمة حفظه ورعايته، وتنسحب على الأمراء من بعده، إذ لا يخطر أحد منهم من عدو أو حاسد، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١١)

يقول الحق جل جلاله : «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم» بحفظه إياكم من عدوكم، ﴿إِذْ هُمْ قَوْمٌ﴾ أي: حين هم الكفار ﴿أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل، ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾، ولما كانت مصيبة قتل النبي ﷺ - لو قتل - تعم المؤمنين كلهم، خاطبهم جميعاً، وهى إشارة إلى ما همت به بنو قريظة، من قتله ﷺ، وذلك أنه ﷺ أتى بنى قريظة، ومعه الخلفاء الأربعة؛ يستعينهم فى دية رجلين مسلمين، قتلها عمرو بن أمية الضمري، خطأ، يظنهما مشركين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قد آن لنا أن نعيذك فاجلس حتى تطعم، فأجلسوه، وهموا بقتله، فعمد عمرو بن جحاش إلى رحي عظيمة ليطرحها عليه، فأمسك الله يده، ونزل جبريل فأخبره، فخرج النبي ﷺ إلى المدينة ولحقه أصحابه، وهذا كان سبب قتلهم فى غزوة بنى قريظة .

وقيل: نزلت فى قضية غورث، وذلك أن النبي ﷺ كان بيطن نخلة حاصراً لخطفان، فقال رجل منهم: هل لكم فى أن أقتل محمداً فأفذك به؟ قالوا: وددنا ذلك . فأتى النبي ﷺ متقلداً سيفه، فوجد النبي ﷺ نازلاً تحت شجرة قد تفرق أصحابه عنه، وقد علق سيفه فى الشجرة، فسله الأعرابي وقال: من يمنعك منى؟ وفى رواية: وجد النبي ﷺ نائماً فاستل السيف، فما استيقظ النبي ﷺ إلا والسيف فى يد الأعرابي، فقال: من يمنعك منى يا محمد؟ فقال: «الله»، فأسقطه جبريل من يده، وأخذ النبي ﷺ فقال: «وأنت، من يمنعك منى؟» فقال: كن خير آخذ، فعفى عنه - عليه الصلاة والسلام (١) - . زاد البيضاوى: أنه أسلم .

(١) أخرجه القصة: البخارى فى (الجهاد، باب من علق سيفه بالشجر) وفى مواضع أخرى، ومسلم فى (الفضائل، باب تركه ﷺ على الله) عن جابر رضى الله عنه .

وقيل نزلت في صلاة الخوف حين هم المشركون أن يغيروا على المسلمين في الصلاة. فالله تعالى أعلم.
ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تشهدوا معه سواه، وتوكلوا عليه يكفكم أمر عدوكم، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ فإنه يكفيكم أمرهم جلباً ودفعاً، من توكل على الله كفاه.

الإشارة: ماجرى على النبي ﷺ من قصد القتل والإذابة يجرى على خواص ورثته، وهم الأولياء - رضى الله عنهم - والعلماء الأتقياء، فقد هم قوم بقتلهم وسجنهم وضربهم، وإجلالهم من أوطانهم، فكف الله أيديهم عنهم، وكفاهم شرهم، لما صححوا التوكل عليه، وأخلصوا الوجهة إليه، ومنهم من لحقه شيء من ذلك، كما لحق بعض الأنبياء - عليهم السلام - زيادة في شرفهم وكرامتهم، جمع الله لهم بين مقام الشهادة والصديقية، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾.

ثم ذكر وبال من نقض العهد ترهيباً وترغيباً، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

قلت: النقيب: هو كبير القوم والمقدم عليهم، ينقب عن أحوالهم ويفتش عليها. والخائنة: إما مصدر؛ كالعاقبة واللاغية، أو اسم فاعل، والتاء للمبالغة، مثل: راوية ونسابة وعلامة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ على أن يجاهدوا مع موسى - عليه السلام - وينصروه، ويلتزموا أحكام التوراة، ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ اخترناهم وقدمناهم، على كل سبط نقيباً ينقب عن أحوال قومه، ويقوم بأمرهم، ويتكفل بهم فيما أمروا به.

رُوي أن بني إسرائيل لما خرجوا عن فرعون، واستقروا بأوائل الشام، أمرهم الله تعالى بالمسير إلى بيت المقدس، وهي في الأرض المقدسة، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون، وقال: إني كتبتها لكم داراً وقراراً، فاخرجوا إليها، وجاهدوا من فيها من العدو، فإني ناصركم. وقال لموسى ﷺ: خذ من قومك اثني عشر نقيباً، من كل

سبط نقيباً، يكون أميناً وكفيلاً على قومه بالوفاء على ما أمروا به. فاختار موسى النقباء، فسار بهم حتى إذا دنوا من أرض كنعان، وهي أريحا، بعث هؤلاء النقباء يتجسسون الأخبار، ونهاهم أن يحدثوا قومهم بما يرون، فلما قربوا من الأرض المقدسة رأوا أجراماً عظاماً وبأساً شديداً، فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم، إلا كالب بن يوفنا - من سبط يهوذا - ويوشع بن نون - من سبط إفرائيم بن يوسف - ثم «قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين» إلى آخر ما يأتى من قصتهم. وأما ما ذكره الثعلبى هنا، وغيره، من قصة عوج بن عناق، فقال القسطلانى: هي باطلة من وضع الزنادقة، فلا يجوز ذكرها في تفسير كتاب الله الصادق المصدق.

«وقال الله» لبني إسرائيل: «إني معكم» بالنصر والمعونة؛ «لئن أقمتُم الصلاة وآتيتُم الزكاة وآمنتُم برُسُلِي» التي أرسلت بعد موسى «وعزرتُموهم» أى: نصرتُموهم وقويتُموهم، «وأقرضتُم الله قرضًا حسنًا» بالإنفاق في سبيل الخير، «لأكفرن عنكم سيئاتكم» أى: أستر عنكم ذنوبكم فلا نفضحكم بها، «ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار، فمن كفر بعد ذلك» العهد المؤكد، المعلق عليه هذا الوعد العظيم، «فقد ضل سواء السبيل» أى: تلف عن وسط الطريق، تلفاً لا شبهة فيه ولا عذر معه، بخلاف من كفر قبل أخذ العهد؛ فيمكن أن تكون له شبهة، ويتوهم له معذرة.

ثم إن بنى إسرائيل نقضوا المواثيق التي أخذت عليهم، فكفروا وقتلوا الأنبياء، قال تعالى: «فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم» أى: طردناهم وأبعدناهم، أو مسخناهم، «وجعلنا قلوبهم قاسية» أى: يابسة صلبة لا ينفع فيها الوعظ والتذكير، أو رديئة مغشوشة بمرض الذنوب والكفر.

ثم بين نتيجة قسوة قلوبهم فقال: «يُحرفون الكلم عن مواضعه» لفظاً أو تأويلاً. ولا قسوة أعظم من الجراءة على تغيير كتاب الله وتحريفه، «ونسوا حظاً مما ذكروا به» أى: تركوا نصيباً واجباً مما ذكروا به من التوراة. فلو عملوا بما ذكّرهم الله في التوراة مانقضوا العهود وحرفوا كلام الله من بعد ما علموه، لكن رين الذنوب والانهماك في المعاصي، غطت قلوبهم فقست وبيست، «ولا تزال» يامحمد «تطلع على خائنة» أى: خيانة «منهم» أو على طائفة خائنة منهم، لأن الخيانة والغدر من عاداتهم وعادة أسلافهم، فلا تزال ترى ذلك منهم «إلا قليلاً منهم» لم يخونوا، وهم الذين أسلموا منهم، «فأعف عنهم واصفح» حتى يأتبك أمر الله فيهم، أو إن تابوا وآمنوا، أو إن عاهدوا والتزموا الجزية، «إن الله يحب المحسنين» إلى عباده كيفما كانوا. ومن الإحسان إليهم: جبرهم على الإيمان بالسيف وسوقهم إلى الجنة بسلاسل الامتحان.

الإشارة: قد أخذ الله على هذه الأمة أن يلتزموا أحكام القرآن، ويحافظوا على مراسم الإسلام والإيمان، ويجاهدوا نفوسهم في تحصيل مقام الإحسان، ويعت من يقوم ببيان شرائع الإسلام والإيمان، ومن يعرف الطريق إلى مقام الإحسان، وقال الله لهم: (إني معكم) بالنصر والتأييد، لئن أقمتُم شرائع الإسلام، وحققتم قواعد الإيمان، وعظمتُم من يعرفكم بطريق الإحسان، لأعطين مسائلكم، ولأحقق دعاويكم، فأوصلكم بما منى إليكم من الكرم

والجود، ولأدخلكم جنة المعارف تجرى من تحتها أنهار العلوم وأنواع الحكم، فمن لم يقم بهذا، أو جحده فقد ضل عن طريق الرشاد، ومن نقض عهد الشيوخ المعرفين بمقام الإحسان، فقد طرد وأبعد غاية الإبعاد، وقسا قلبه بعد اللين. وقد ذكرنا في تفسير الفاتحة الكبير معنى النقباء والنجباء وسائر مراتب الأولياء، وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ولما ذكر نقض اليهود ذكر نقض النصارى، فقال:

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرَى أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: وأخذنا أيضاً عهداً وميثاقاً من النصارى، الذين سموا أنفسهم نصارى؛ ادعاء لنصرة عيسى عليه السلام، ولم يقوموا بواجب ذلك عملاً واعتقاداً، أخذناه عليهم بالتزام أحكام الإنجيل، وأن يؤمنوا بالله وحده لا شريك له، ولا صاحبة ولا ولد، وأن يؤمنوا بمحمد - عليه الصلاة والسلام - إن أدركوه ويتبعوه، «فنسوا حظاً مما ذكروا به» أى: نسوا ما ذكرناهم به، وتركوا حظاً واجباً مما كلفوا به، «فأغرينا» أى: سلطنا «بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة»، فهم يقتتلون فى البر والبحر، ويتحاربون إلى يوم القيامة، فكل فرقة تلعن أختها وتكفرها، أو بينهم وبين اليهود، فالعداوة بينهم دائمة، «وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون» بالجزاء والعقاب.

الإشارة: يؤخذ من الآية أن من نقض العهد مع الله؛ بمخالفة ما أمره به أو نهاه عنه، أو مع أولياء الله، بالانتقاد عليهم وعدم موالاتهم، ألقى الله فى قلب عباده العداوة والبغضاء له، فيبغضه الله، ويبغضه عباد الله، ومن أوفى بما أخذ الله عليه من العهد بوفاء ما كلفه به، واجتنب ما نهاه عنه، وتودد إلى أوليائه، ألقى الله فى قلب عباده المحبة والوداد، فيحبه الله، ويحبه عباد الله، ويتعطف عليه أولياء الله، كما فى الحديث: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل، إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل. ثم ينادى فى الملائكة: إن الله يحب فلاناً فأحبه. فيحبه أهل السماء، ثم يلقى له القبول فى الأرض» (١) ... الحديث.

(١) أخرجه البخارى فى (الأدب، باب المقة المحبة، من الله) ومسلم فى (البر والصلة، باب إذا أحب الله عبداً حبه إلى عباده) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

ثم دعا أهل الكتابين إلى الإيمان برسوله ﷺ، فقال:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

قلت: الضمير في: (به)، يعود إلى النور والكتاب، ووحدته؛ لأن المراد به شيء واحد، لأن النور هو الكتاب المبين، أو لأنهما جنس واحد.

يقول الحق جل جلاله: «يا أهل الكتاب» اليهود والنصارى «قد جاءكم رسولنا» محمد ﷺ «يُبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب» كصفة محمد ﷺ، وآية الرجم التي في التوراة، وكبشارة عيسى بأحمد التي في الإنجيل، «ويعفو عن كثير» مما تخفونه وتحرفونه، فلم يخبر به، ولم يفضحكم، حيث لم يؤمر به، أو عن كثير منكم، فلا يؤاخذه بجرمه وسوء أدبه معه.

«قد جاءكم» يا أهل الكتاب «من الله نور وكتاب مبين»، عطف تفسير، فالنور هو الكتاب المبين، أو النور: محمد - عليه الصلاة والسلام - والكتاب المبين: القرآن؛ لأنه الكاشف لظلمات الشك والضلال، والواضح الإعجاز والبيان، «يُهدي به الله من اتبع رضوانه» أي: من اتبع رضى الله بالإيمان به، والعمل بما فيه، «سُبُلَ السَّلام» أي: طرق السلامة من العذاب، أو طرق الله الموصلة إليه، «ويخرجهم من الظلمات إلى النور» من ظلمات الكفر، إلى نور الإسلام «بإذنه» أي: بإرادته وتوفيقه، «ويهديهم إلى صراط مستقيم» أي: طريق توصلهم إليه لا عرج فيها.

الإشارة: قد أطلع الله علماء الباطن على مقامات علماء الظاهر وأحوالهم وجل مساوئهم، ولا سيما من كان عالماً بالظاهر ثم انتقل إلى علم الباطن، كالغزالي وابن عباد وغيرهما. فقد تكلم الغزالي في صدر الإحياء مع علماء الظاهر، ففضح كثيراً من مساوئهم. وكذلك ابن عباد في شرح الحكم، وعفوا عن كثير. فهم على قدم رسول الله ﷺ وخواص ورثته، لأنهم حازوا الوراثة كلها، كما في المباحث:

وَالْعَابِدُ الزَّاهِدُ فِي الْأَفْعَالِ
لَكِنَّهُ قَدْ زَادَ بِالْأَخْصَاقِ

تَبِعَهُ الْعَالِمُ فِي الْأَقْوَالِ
وَفِيهِمَا الصُّوفِيُّ فِي السِّبَاقِ

فالولى نور من نور الله، وسر من أسرارهِ، يُخرج به من سبقت له العناية من ظلمات الحجاب إلى نور الشهود، ويهْدِي به من اصطفاهِ لحضرته تعالى طريق الوصول إليه . وبالله التوفيق .

ثم ذكر مساوئ أهل الكتاب وضلالهم، تحريضاً على قتالهم إن لم يسلموا أو يعطوا الجزية، فقال:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم»، والقائل بهذه المقالة هي الطائفة اليعقوبية من النصارى، كما تقدم. وقيل: لم يصرح بهذه المقالة أحد منهم. ولكن لزمهم حيث قالوا بأن اللاهوت حل في ناسوت عيسى - مع أنهم يقولون الإله واحد، فلزمهم أن يكون هو المسيح، ولزمهم الاتحاد والحلول؛ فنسب إليهم لازم قولهم، توضيحاً لجهلهم، وتقبيحاً لمعتقدهم.

ثم رد عليهم بقوله: «قل فمن يملك من الله شيئاً» أى: من يمنع من قدرته وإرادته شيئاً، «إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً»، وبيان الرد عليهم: أن المسيح مقدور ومقهور، قابل للفناء كسائر الممكنات، ومن كان كذلك فهو معزول عن الألوهية. ثم أزال شبهتهم بحجة أخرى فقال: «ولله ملك السموات والأرض وما بينهما»؛ يتصرف فيهما كيف شاء، «يخلق ما يشاء»، والله على كل شيء قدير؛ فقدرته عامة؛ فيخلق من غير أصل؛ كالسموات والأرض، ومن أصل؛ كخلق ما بينهما، وينشئ من أصل ليس هو جنسه؛ كآدم وكثير من الحيوانات، ومن أصل يجانسه، إما من ذكر وحده؛ كحواء، أو من أنثى وحدها؛ كعيسى، أو منهما؛ كسائر الناس. قاله البيضاوى.

الإشارة: قد رُمى كثير من الأولياء المحققين بالاتحاد والحلول؛ كابن العربي الحاتمي، وابن الفارض، وابن سبعين، والششتري والحلاج، وغيرهم - رضى الله عنهم - وهم برءاء منه . وسبب ذلك أنهم لما خاضوا بحار التوحيد، وكوشفوا بأسرار التفريد، أو أسرار المعانى قائمة بالأواني، سارية في كل شيء، ماحية لكل شيء، كما قال في الحكم: «الأكوان ثابتة بإثباته محوكة بأحدية ذاته، فأرادوا أن يعبروا عن تلك المعانى فضاقت عبارتهم عنها؛ لأنها خارجة عن مدارك العقول، لاتدرك بالسطور ولا بالنقول. وإنما هي أنواق ووجدان؛ فمن عبر عنها

بعبارة اللسان كُفِّرَ وزندق، وهذه المعاني هي الخمرة الأزلية التي كانت خفية لطيفة، ثم ظهرت محاسنها، وأبدت أنوارها وأسرارها، وهي أسرار الذات وأنوار الصفات، فمن عرفها وكشف بها. اتحد عنده الوجود، وأفضى إلى مقام الشهود. وهي منزلة عن الحلول والاتحاد، إذ لا ثاني لها حتى تحل فيه أو تتحد معه، وقد أشرت إلى هذا المعنى في تائيتي الخمرية، حيث قلت:

تَنَزَّهَتْ عَنْ حُكْمِ الْحُلُولِ فِي وَصْفِهَا فَلَيْسَ لَهَا سِوَى فِي شَكْلِهِ حَلَّتِ
تَجَلَّتْ عَرُوساً فِي مَرَأَى جَمَالِهَا وَأَرَخَتْ سُتُورَ الْكِبْرِيَاءِ لِعِزَّتِي
فَمَا ظَاهِرٌ فِي الْكُونِ غَيْرُ بَهَائِهَا وَمَا احْتَجَبَتْ إِلَّا لِحُجُبِ سِرِّيَّتِي

فمن كوشف بأسرار هذه الخمرة، لم ير مع الحق سواه. كما قال بعض العارفين: (لو كُفِّتُ أن أرى غيره لم أستطع؛ فإنه لا غير معه حتى أشهده). ولو أظهرها الله تعالى للكفار لوجدوا أنفسهم عابدة لله دون شيء سواه، وفي هذا المعنى يقول ابن الفارض على لسان الحقيقة:

فَمَا قَصَدُوا غَيْرَهُ وَإِنْ كَانَ قَصْدُهُمْ سِوَايَ وَإِنْ لَمْ يَظْهَرُوا عَقْدَ نِيَّةٍ

والنصارى - دمرهم الله في مقام الفرق والضلال - حملهم الجهل والتقليد الردي على مقاللتهم التي قالوا في عيسى عليه السلام.

ثم ذكر مقالة أخرى لليهود والنصارى، فقال:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّتُوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١٨)

يقول الحق جل جلاله: «وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله» أي: أولاد بنيه؛ فاليهود يقولون: نحن أولاد عزيز، والنصارى يقولون: نحن أشياع عيسى. أو: فينا أبناء الله ونحن أحباؤه، أو: نحن مقربون عند الله كقرب الولد من والده. وهذه دعوى ردها عليهم بقوله: «قل» لهم: «فلم يعذبكم بذنوبكم»، وهل رأيتم والدا يعذب ابنه، وقد عذبكم في الدنيا بالمسخ والقتل والذل، وقد اعترفتم أنه يعذبكم بالنار أياماً معدودة، «بل أنتم بشر ممن خلق» أي: ممن خلقه الله، «يفغر لمن يشاء» بفضله؛ وهو من آمن منهم بالله ورسله، «ويعذب من

يشاء» بعدله؛ وهو من مات منهم على كفره، فأنتم كسائر البشر يعاملكم معاملتهم، لا مزية لكم عليهم، «ولله ملك السموات والأرض وما بينهما» كلها سواء في كونها ملكاً وعبيداً لله - سبحانه - «والله المصير»، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقى.

الإشارة: قوله تعالى: «فَلَمْ يَعَذِّبْكُمْ بِذُنُوبِكُمْ» أى: فلو كنتم أحباءه لما عذبكم؛ لأن الحبيب لا يعذب حبيبه، حكى عن الشبلى رحمته الله أنه كان إذا لبس ثوباً جديداً مزقه، فأراد ابن مجاهد أن يعجزه بمحضر الوزير، فقال له: أين تجد في العلم فساد ما ينتفع به؟ فقال له الشبلى: أين في العلم: «فَطُفِقَ مَسْحًا بِالسَّوْقِ وَالْأَعْنَاقِ» (١)؟ فسكت، فقال له الشبلى: أنت مقرئ عند الناس، فأين في القرآن: إن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فسكت ابن مجاهد، ثم قال: قل يا أبا بكر، فقرأ له الشبلى قوله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾، فقال ابن مجاهد: كأنى والله ماسمعتها قط. هـ.

وفي الحديث: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا لَا يَضُرُّهُ ذَنْبٌ»، ذكره في القوت. وفي المثل الشائع: (من سبقت له العناية لا تضره الجناية). وفي الصحيح: «لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: أَفَعَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» (٢)، وسببه معلوم، وفي القوت عن زيد بن أسلم: (إن الله - عز وجل - ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول له: اصنع ما شئت فقد غفرت لك). وفي القصد للشيخ أبي الحسن الشاذلي - رضى الله عنه - قال: يبلغ الولي مبلغاً يقال له: أصحابناك السلامة، وأسقطنا عنك الملامة، فاصنع ما شئت. هـ.

وليس معناه إباحة الذنوب، ولكنه لما أحبه عصمه أو حفظه، وإذا قضى عليه بشيء ألهمه التوبة، وهى ماحية للذنوب، وصاحبها محبوب، قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ». والله تعالى أعلم.

ثم دعاهم إلى اتباع رسوله - عليه الصلاة والسلام، فقال:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩)

قلت: جملة (يُبين): حال، أى: جاءكم رسولنا مبيناً لكم، و(على فترة) متعلق بجاء، أى: جاءكم على حين فترة وانقطاع من الوحي، و(أن تقولوا): مفعول من أجله، أى: كراهية أن تقولوا.

يقول الحق جل جلاله: «يا أهل الكتاب»؛ اليهود والنصارى «قد جاءكم رسولنا» محمد صلوات الله عليه «يُبين لكم» ما اختلفتم فيه، أو ما كتمتم من أوامر الدين، أو مطلق البيان. جاءكم «على» حين «فترة من الرسل»

(١) من الآية ٢٣ من سورة (ص).

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى فى (المغازى - باب فضل من شهد بدرًا) ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر) عن سيدنا على رضي الله عنه.

وانقطاع من الوحي، أرسلناه كراهية «أن تقولوا» يوم القيامة: «ما جاءنا من بشير ولا نذير»، فتعتذروا بذلك، «فقد جاءكم بشير ونذير» فلا عذر لكم، «والله على كل شيء قدير» فيقدر على الإرسال من غير فترة، كما في أنبياء بنى إسرائيل؛ فقد كان بين موسى وعيسى ألف نبى، وبينهما ألف وسبعمائة سنة، وعلى الإرسال على الفترة؛ كما بين عيسى ومحمد ﷺ. كان بينهما ستمائة سنة، أو خمسمائة سنة وتسع وستون سنة. قاله البيضاوى.

والذى فى الصحيح: أن الفترة ستمائة سنة^(١)، وفى الصحيح أيضاً عنه - عليه الصلاة والسلام - : «أنا أولى الناس بعيسى فى الأولى والآخرة وليس بيننا نبى»^(٢). وهو يرد ما حكاه الزمخشري وغيره: أن بينهما أربعة أنبياء: ثلاثة من بنى إسرائيل وواحد من العرب، وهو خالد بن سنان العيسى؛ لأن النكرة فى سياق النفي تعم. قاله المحشى.

الإشارة: ظهور أهل التربية بعد زمان الفترة، وخمود أنوار الطريقة وأسرار الحقيقة، حجة على العباد، ونعمة كبيرة على أهل العشق والوداد، من انتكب عنهم لقى الله بقلب سقيم، وقامت بهم الحجة عليهم عند الملك الكريم، ومن اتبعهم وحط رأسه لهم فاز بالخير الجسيم، والنعيم المقيم؛ حيث لقى الله بقلب سليم، وقد ظهوروا فى زماننا هذا بعد اندراس أنوار الطريقة، وخمود أسرار الحقيقة، فجدد الله بهم الطريقة، وأحيا بهم أسرار الحقيقة، منهم شيخنا أبو المواهب صاحب العلوم اللدنية والأسرار الربانية، البحر الفياض، سيدى محمد بن أحمد البوزيدى الحسنى، وشيخه القطب الواضح، والجبل الراسخ، شيخ المشايخ، مولاي العريى الدرقاوى الحسنى، أطال الله بركاتهما للأنام، فقد تخرج على أيديهما الجم الغفير من الأولياء. وليس الخبر كالعيان. وبالله التوفيق.

ثم ذكرهم بالنعم على لسان نبيه موسى - عليه السلام - فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمِرْ أَدْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾

يقول الحق جل جلاله: «و» انكر «إذ قال موسى لقومه»: يا بنى إسرائيل «اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء» يسوسونكم، كلما مات نبى خلفه نبى، فقد شرفكم بهم دون غيركم، إذ لم يبعث فى أمة مابعث فى بنى إسرائيل من الأنبياء، «وجعلكم ملوكاً» أى: جعل منكم ملوكاً، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثراً الأنبياء، فكان كل نبى معه ملك ينفذ أحكامه، فكانت دار النبوة ودار المملكة معلومة، يخلف بعضهم بعضاً فى النبوة والملك، استمر ذلك لهم، حتى قتلوا يحيى، وهموا بقتل عيسى، فنزع الله منهم الملك، وأنزل عليهم الذل والهوان.

وقيل: لما كانوا مملوكين فى أيدي القبط، فأنقذهم الله وجعلهم مالكيين لأنفسهم، سماهم ملوكاً.

(١) جاء ذلك فيما أخرجه البخارى فى (مناقب الأنصار - باب إسلام سلمان الفارسى رضى الله عنه) عن سلمان قال: (فترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة).

(٢) أخرجه البخارى فى (كتاب الأنبياء، باب: وإذكر فى الكتاب مريم) ومسلم فى (الفضائل، باب فضائل عيسى رضى الله عنه) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

«وَأَتَاكُمْ مَالٌ يُّؤْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ» من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها، أو المراد عالمي زمانهم، وعن أبي سعيد الخدري قال النبي ﷺ: «كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذَا كَانَ لِأَحَدِهِمْ خَادِمٌ وَامْرَأَةٌ يُكْتَبُ مَلَكًا» (١). وقال ابن عباس: (من كان له بيت وخادم وامرأة فهو ملك)، وعن أبي الدرداء قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ، آمِنًا فِي سِرِّهِ، عِنْدَهُ قُرْتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحِذَافِيرِهَا، يَكْفِيكَ مِنْهَا، يَا بَنَ آدَمَ، مَسَدٌ جَوْعَتِكَ، وَوَارٌ عَوْرَتِكَ، فَإِنْ كَانَ بَيْتُ يَوَارِيكَ فَذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةٌ فَبِخْ بَخٍ، فُلُقُ الْخَبْزِ، وَمَاءُ الْجَرِّ» (٢) وما فوق الإزار حساب عليك» (٣).

وقال الضحاك: (كانت منازلهم واسعة، فيها مائة جارية، فمن كان مسكنه واسعاً وفيه ماء جارٍ، فهو ملك). وقال قتادة: كانوا أول من ملك الخدم، وأول من سخر لهم الخدم من بنى آدم. هـ.

الإشارة: كل من رزقه الله من يأخذ بيده ومن يستعين به على ذكر ربه، فليذكر نعمة الله عليه، فقد أسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة. وكل من ملك نفسه وهواه، وأغناه الله عما سواه، فهو ملك من الملوك. وكل من خرجت فكرته عن دائرة الأكوان، واتصل بفضاء الشهود والعيان، فقد آتاه الله ما لم يؤت أحداً من العالمين. وقد كنت ذات يوم جالساً في الجامع الأعظم من مدينة تطوان، فانتبهت فإذا مصحف إلى جنبي، فقال لي الهاتف: انظر تجد مقامك، فأعرضت عنه، فأعاد علي الهاتف ثلاث مرات، فرفعته، ونظرت، فإذا في أول الورقة: «وَأَتَاكُمْ مَالٌ يُّؤْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ»، فحمدت الله تعالى وأثنت عليه.

ثم أمرهم بجهاد عدوهم، فقال:

﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَىٰ أَذْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢١) قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاهْذَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور لابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) الجر والجرار: جمع جرة: وهو الإناء المعروف من الفخار.

(٣) أخرجه إلى قوله: (حيزت له الدنيا) البخاري في الأدب المفرد (باب من أصبح آمناً في سربه) والترمذي في (الزهد باب ٣٤) وابن ماجه في (الزهد، باب القناعة)

قَعِيدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى
الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

قلت : (فتنقلبوا) : منصوب بأن في جواب الله، أو عطف على المجزوم، و (ما داموا) : بدل من (أبدا) ؛ بدل
بعض، و (أخي) يحتمل النصب عطف على (نفسى) ، أو رفع عطف على (أن) مع اسمها، أو مبتدأ حذف خبره،
أو جر عطف على ياء المضاف ، على مذهب الكوفيين .

يقول الحق جل جلاله حاكياً عن موسى - عليه السلام - : «يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة» ؛ أرض بيت
المقدس، قدسها الله، حيث جعلها قرار أنبيائه ومسكن المؤمنين . وفي مدحها أحاديث كثيرة . وقيل : الطور
وماحوله، أو دمشق وفلسطين، أو أنشام، «التي كتب الله لكم» أى : التي كتب الله فى اللوح المحفوظ، أنها لكم
مسكناً إن جاهدتم وأطعتم نبيكم، «ولا تترتدوا على أديباركم» أى : لا ترجعوا مدبرين هاربين خوفاً من الجبابرة،
أو : لا تترتدوا عن دينكم بالعصيان، وعدم الوثوق بالله، «فتنقلبوا خاسرين» الدنيا والآخرة . روى أنهم لما سمعوا
حالهم من النقباء بكوا، وقالوا : ليتنا متنا بمصر، تعالوا نجعل علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر، ثم قالوا
ياموسى إن فيها قوما جبارين أقوياء متغالبين، لا طاقة لنا بمقارمتهم، وهم قوم من العمالقة، من بقية قوم
عاد، «وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها» بأمر سمارى، أو يسلط عليهم من يخرجهم من غيرنا، «فإن
يخرجوا منها فإنا داخلون» فيها .

«قال رجلان» ؛ كالب بن يوقنا، ويوشع بن نون - ابن اخت موسى وخادمه - «من الذين يخافون» الله، أو
رجلان من الجبابرة أسلما وصارا إلى موسى، وعليه قراءة «يُخافان» بضم الياء، «أنعم الله عليهما» بالإسلام
والتثبيت، قالوا : «ادخلوا عليهم الباب» أى : باب المدينة، أى : باغثوهم بالقتال، «فإذا دخلتموه فإنا لكم
غالبون» أى : ظاهرون عليهم، فإنهم أجسام لا قلوب فيها . يحتمل أن يكون علمهما بذلك من قبل موسى، أو من
قوله تعالى : «التي كتب الله لكم»، أو من عادته سبحانه فى نصر رسله وأوليائه، وما عهدا من صنيعه تعالى
مع موسى من قهر أعدائه . ثم قال : «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين» به، ومصدقين لوعده .

«قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها» ، وهذا من تعنتهم وعصيانهم، وأشنع منه قولهم :
«فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» ، قالوه استهزاء بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما، وانظر فضيلة الأمة

المحمدية، وكمال أدبها مع نبيها - عليه الصلاة والسلام - فإن النبي ﷺ قال يوم الحديبية لأصحابه حين صد عن البيت: إني ذاهب بالهدى فناحره عند البيت، فقال المقداد بن الأسود: أما والله ما تقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون»، ولكن نقاتل عن يمينك وشمالك، ومن بين يديك ومن خلفك، ولو خضت البحر لخدمته معك، ولو تسنمت جبلا لعلوانه معك، ولو ذهبت بنا إلى برك الغمام لتبعناك، فلما سمعها أصحاب النبي ﷺ تابعوه على ذلك، فسر ﷺ بذلك وأشرق وجهه^(١). هـ.

ولما سمع موسى ﷺ مقالة قومه له غضب، ودعا ربه فقال: «رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي» أي: لا أثق إلا بنفسي وأخي، ولا قدرة لي على غيرهما، والرجلان المذكوران، وإن كانا موافقين له، لكنه لم يوثق عليهما، لما كبد من تلون قومه، ثم دعا عليهم فقال: «فأفرق بيننا وبين القوم الفاسقين» أي: احكم بيننا وبينهم بما يستحق كل واحد منا ومنهم، أو بالتباعد بيننا وبينهم، وتخليصنا من صحبتهم.

روى أنه لما دعا عليهم ظهر فوقهم الغمام، وأوحى الله إليه: ياموسى إلى متى يعصى هذا الشعب؟ لأهلكهم جميعا، فشفع فيهم موسى ﷺ فقال الله تعالى له: قد غفرت لهم بشفاعتك، ولكن بعد ماسميتهم فاسقين، ودعوت عليهم، بى حلفت لأحرمن عليهم دخول الأرض المقدسة، وذلك قوله تعالى: «قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض» يحتمل أن يكون «أربعين» متعلقاً بمحرمة، فيكون التحريم عليهم مؤقتاً غير مؤبد فيوافق ظاهر قوله: «التي كتب الله لكم».

ويؤيد هذا ما روى أن موسى - عليه السلام - لما خرج من التيه، سار بمن بقى معه من بنى إسرائيل، ويوشع على مقدمته، ففتح بيت المقدس، فبقى فيها ماشاء الله، ثم قبض. ويحتمل أن يكون «أربعين» متعلقاً بـ (يتيهون)، فيكون التحريم مؤبداً، وعلى هذا لم يبق أحد ممن دخل التيه إلا يوشع وكالب، ولم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال له: (اذهب أنت وربك...)، بل كلهم هلكوا فى التيه، وإنما دخلها أشياعهم.

روى أن موسى ﷺ لما حضره الموت فى التيه أخبرهم بأن يوشع بعده نبي، وأن الله أمره بقتال الجبابرة، فسار بهم يوشع، وقاتل الجبابرة، وكان القتال يوم الجمعة، فبقيت منهم بقية، وكادت الشمس أن تغرب ليلة السبت، فخشى أن يعجزوه، فقال: اللهم اردد الشمس على، وقال للشمس: إنك فى طاعة الله وأنا فى طاعته، فوقفت مثل يوم حتى قتلهم، ثم قتل ملوك الأرمانيين، وقتل من ملوك الشام أحداً وثلاثين ملكاً، فصارت الشام كلها لبنى إسرائيل، وفرق عماله فى نواحيها، وبقيت بنو إسرائيل فى التيه أربعين سنة يتيهون فى الأرض فى ستة فراسخ، بين فلسطين وأيلة، متحيرين، يسرون من الصباح إلى المساء جادين فى السير، فإذا هم بحيث ارتحلوا عنه، ثم

(١) المشهور أن قول المقداد كان يوم بدر. وقال العلامة ابن كثير: وهذا - إن كان محفوظاً يوم الحديبية - فيحتمل أنه كرر هذه المقالة يومئذ، كما قاله يوم بدر. انظر: تفسير ابن كثير.

يسرون بالليل كذلك فيصبحون حيث ارتحلوا، وكان الغمام يظلمهم من الشمس وعمود من نور يطلع بالليل فيضيء لهم، وكان طعامهم المن والسلوى، وماؤهم من الحجر الذي يحمله موسى، واختلف في الكسوة، فقيل: أبقي الله كسوتهم معجزة لموسى، وقيل: كساهم مثل الظفر. والأكثر أن موسى وهارون كانا معهم زيادة في درجاتهما، وكان عقوبة لقومهما وأنها ماتا فيه، مات هارون أولاً ودفنه أخوه في كهف، وقيل: رفع على سرير في قبة، ثم مات موسى - عليه السلام - ودفن بقرب من الأرض المقدسة، رمية بحجر، كما في الحديث، ثم دخل يوشع الأرض المقدسة بعد ثلاثة أشهر. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى لموسى ﷺ: ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ أى: لا تحزن، ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، خاطبه الحق تعالى بذلك لما ندم على الدعاء عليهم، فقال له: إنهم أحق بذلك لفسقهم وعصيانهم.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله للمتوجهين إليه من المريدين: ادخلوا الحضرة المقدسة التى كتب الله لكم، إن دتم على جهاد أنفسكم، وصدقتم فى طلب ربكم، وبقيتم فى تربية شيوخكم، ولا ترتدوا على أدباركم بالرجوع عن صحبة شيوخكم من الملل مع طول الأمل، فتتقلبوا خاسرين، فإن حضرتى محفوفة بالمكاره، والطريقة الموصلة إليها مرصودة للقواطع والعوائق، فإن كان ممن لم يكتب له فيها نصيب، قال: لن ندخلها أبداً مادام القواطع فيها، ورجع على عقبيه، يئيه فى مهامه شكوكه وأوهامه، وإن كان ممن سبقت له العناية وحقت به الرعاية قال: «ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين»، فيبادر إلى قتل نفسه، من غير تأن ولا خوف ولا فزع، فحضرة التحقيق لا ينالها إلا الشجعان، ولا يسكنها إلا الأكابر من أهل العرفان، وإلى ذلك أشار صاحب العينية بقوله:

وَأَيَّاكَ جَزَعًا لَا يَهُولُكَ أَمْرُهَا فَمَا نَا لَهَا إِلَّا الشُّجَاعُ الْمُقَارِعُ

وقال الورعجى فى قوله تعالى: ﴿لَا أَمْلَكَ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾: من بلغ عين التمكين ملك نفسه وملك نفوس المريدين؛ لأنه عرفها بمعرفة الله، وقمعها من الله بسلطان سائس قاهر، من نظر إليه يفزع من الله، لا يطيق عصيانه ظاهراً وباطناً، فأخبر ﷺ عن محل تمكينه وقدرته على نفسه ونفس أخيه، وأعلمنا أن بينهما اتحاداً، بحيث إنه إذا حكم على نفسه صار نفس أخيه مطمئنة طائعة لله بالانفعال. قال ﷺ: «المؤمنون كنفس واحدة» (٢). هـ.

ثم تكلم الحق جل جلاله على بقية حفظ الأبدان، فبيّن أول من سنّ القتل ويأل من تبعه، فقال:

(١) هكذا فى الأصول وكذا فى تفسير الورعجى، وأرى أنها (سارت).

(٢) أخرجه مسلم فى (البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم) عن النعمان بن بشير، بلفظ: (المؤمنون كرجل واحد..).

﴿ وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ آبَائِي بِوَيْحِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قلت : الضمير في (عليهم) : لبني إسرائيل؛ لتقدم شأنهم، ولاختصاصهم بعلم قصة ابني آدم، وإقامة الحجة عليهم بهمهم ببسط اليد إلى النبي ﷺ.

يقول الحق جل جلاله : «واتل عليهم» أي : على بني إسرائيل؛ إذ الكلام كان معهم، أو على جميع الأمة، أو على جميع الناس، إذ هو أول الكلام على بقية حفظ الأبدان - «نبأ ابني آدم» وهو قابيل وهابيل «بالحق» أي : تلاوة ملتبسة بالحق، أو نبأ ملتبساً بالحق موافقاً لما في كتب الأوائل.

«إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما» وهو هابيل، «ولم يتقبل من الآخر» وهو قابيل، وسبب تقربيهما القربان أن آدم - عليه السلام - كان يولد له من حواء توأمين في كل بطن : غلام وجارية، إلا شيئاً، فإنه ولد منفرداً، وكان جميع ما ولدته حواء أربعين، بين ذكر وأنثى، في عشرين بطناً، أولهم قابيل، وتوأمته أقليما، وآخرهم عبد المغيث، ثم بارك الله في نسل آدم. قال ابن عباس : لم يمض آدم حتى بلغ ولده، وولد ولده، أربعين ألفاً، ورأى فيهم الزنا وشرب الخمر والفساد، وكان غشيان آدم لحواء بعد مهبطهما إلى الأرض، وقال ابن اسحاق عن بعض العلماء بالكتاب الأول : إن آدم كان يغشى حواء في الجنة، قبل أن يصيب الخطيئة، فحملت في الجنة بقابيل وتوأمته، ولم تجد عليهما وحماً ولا غيره، وحملت في الأرض بهابيل وتوأمته، فوجدت عليهما الوحم والوصب والطلق والدم.

وكان آدم إذا كبر ولده يزوج غلام هذا البطن بجارية بطن آخر، فكان الرجل يتزوج أي أخواته شاء إلا توأمته، لأنه لم يكن نساء يومئذ، فأمر الله تعالى آدم أن يزوج قابيل لوداء توامة هابيل، وينكح هابيل أخت قابيل، وكانت أحسن الناس، فرضى هابيل وسخط قابيل، وقال : أختي أحسن، وهي من ولادة الجنة، وأنا أحق بها، فقال له أبوه : لا تحل لك، فأبى، فقال لهما آدم : قربا قرباناً، فأيكما قبل قربانه فهو أحق بها.

وكان قابيل صاحب زرع، فقرب حملاً من زرع رديء، وأضمر في نفسه : لا أبالي قبل أو لا، لا يتزوج أختي أبداً، وكان هابيل صاحب غنم، فقرب أحسن كبش عنده، وأضمر في نفسه الرضا لله تعالى، وكانت العادة حينئذ

أَنْ تَنْزِلَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتَأْكُلَ الْقُرْيَانُ الْمَقْبُولَ، وَإِنْ لَمْ يَقْبَلْ لَمْ تَنْزِلْ، فَنَزَلَتْ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَأَكَلَتْ قُرْيَانَ هَابِيلَ، وَتَرَكْتَ قُرْيَانَ قَابِيلَ، فَحَسَدَهُ، وَقَالَ لَهُ: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، حَسَدًا عَلَى تَقَبُّلِ قُرْيَانِهِ دُونَهُ، فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ الْكَفَرُ، أَيْ: إِنَّمَا أُوتِيتَ مِنْ قَبْلِ نَفْسِكَ بِتَرْكِ التَّقْوَى، لَا مِنْ قَبْلِي، فَلِمَ تَقْتُلَنِي؟

قال البيضاوي: وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغي أن يرى حرمانه من تقصيره، ويجتهد في تحصيل ما به صار المحسود محظوظاً، لا في إزالة حظه، فإن ذلك مما يضره ولا ينفعه، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقى. هـ. وفيه نظر: فإن تقوى المعاصي ليست شرطاً في قبول الأعمال بإجماع أهل السنة، إلا أن يحمل على تقوى الرياء والعجب. انظر الحاشية.

ثُمَّ قَالَ لَهُ أَخُوهُ هَابِيلُ: ﴿لَنْ يَسْطِيَ إِلَيَّ يَدُكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: لَنْ بَدَأْتَنِي بِالْقَتْلِ لَمْ أَبْدَأْكَ بِهِ، أَوْ لَمْ أَدْفَعْكَ عَنِّي، وَهَلْ تَرَكَهُ لِلدَّفْعِ تَوَرَّعًا، وَهُوَ الظَّاهِرُ، أَوْ كَانَ وَاجِبًا عَنْهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ؟ وَأَمَّا فِي شَرْعِنَا: فَيَجُوزُ الدَّفْعُ، بَلْ يَجِبُ، قَالَ ابْنُ جَزَى. وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ: قِيلَ: كَانَ هَابِيلُ أَقْوَى مِنْهُ، فَتَحَرَّجَ عَنْ قَتْلِهِ، وَاسْتَسْلِمَ لَهُ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ، لِأَنَّ الدَّفْعَ لَمْ يَبْجُ بَعْدَ، أَوْ تَحَرُّيًا لِمَا هُوَ الْأَفْضَلُ. قَالَ ﷺ: «كُنْ عَبْدَ اللَّهِ الْمَقْتُولِ، وَلَا تَكُنْ عَبْدَ اللَّهِ الْقَاتِلِ» (١). وَإِنَّمَا قَالَ: (مَا أَنَا بِبَاسِطٍ) فِي جَوَابِ (لَنْ يَسْطِيَ)؛ لِتَبَرُّي مِنْ هَذَا الْفِعْلِ الشَّيْعِ، وَالتَّحَرُّزِ مِنْ أَنْ يَوْصَفَ بِهِ، وَلِذَلِكَ أَكَّدَ النِّفْيَ بِالْبَاءِ. هـ.

ثُمَّ قَالَ لَهُ هَابِيلُ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أَيْ: إِنِّي أُرِيدُ بِالْإِسْتِسْلَامِ وَعَدَمِ الدَّفْعِ أَنْ تَنْقَلِبَ إِلَى اللَّهِ مُلْتَبِسًا بِإِثْمِي، أَيْ: حَامِلًا لِإِثْمِي لَوْ بَسَطْتُ إِلَيْكَ يَدِي، وَإِثْمُكَ بِبَسْطِكَ يَدِيكَ إِلَيَّ، وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ ﷺ: «الْمُسْتَبَانُ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِي مِنْهُمَا مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ» (٢). أَوْ بِإِثْمِ قَتْلِي وَإِثْمُكَ الَّذِي لَمْ يَتَقَبَّلْ مِنْ أَجْلِ قُرْيَانِكَ، أَوْ بِسَائِرِ ذُنُوبِي فَتَحْمِلَهَا عَلَيَّ بِسَبَبِ قَتْلِكَ لِي؛ فَإِنَّ الظَّالِمَ يَجْعَلُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذُنُوبَ الْمَظْلُومِ ثُمَّ يَطْرَحُ فِي النَّارِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ هَابِيلَ، أَوْ اسْتِثْنَاءٍ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، أَيْ: جَزَاءُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَحْمِلُوا أَوْزَارَ الْمَظْلُومِينَ، ثُمَّ يَطْرَحُونَ فِي النَّارِ، كَمَا فِي حَدِيثِ الْفَيْلَسِ.

وَلَمْ يَرُدْ هَابِيلُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ﴾، أَنَّهُ يُحِبُّ مَعْصِيَةَ أَخِيهِ وَشَقَاوَتَهُ، بَلْ قَصَدَ بِذَلِكَ الْكَلَامَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ الْقَتْلُ لَامِحَالَةً وَاقِعًا فَأُرِيدُ أَنْ يَكُونَ لَكَ لَا لِي، وَالْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ: أَلَا يَكُونَ لَهُ، لَا أَنْ يَكُونَ لِأَخِيهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْإِثْمِ عَقُوبَتُهُ، وَإِرَادَةُ عِقَابِ الْعَاصِي جَائِزَةٌ. قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ أَيْ: سَهَّلَتْ لَهُ وَوَسَّعَتْهُ وَلَمْ تَضِقْ مِنْهُ، أَوْ طَاوَعَتْهُ عَلَيْهِ وَزِينَتْهُ لَهُ، ﴿فَقَتَلَهُ﴾ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ دِينًا وَدُنْيَا، فَبَقِيَ مَدَّةَ عَمْرِهِ مَطْرُودًا مُحْزُونًا. قَالَ السُّدِّيُّ: لَمَّا قَصَدَ قَابِيلُ قَتْلَ هَابِيلَ،

(١) أَخْرَجَهُ بَلْحَوْه أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (١١٠/٥) مِنْ حَدِيثِ خُبَابِ بْنِ الْأَرْتِ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي (الْبِرِّ وَالصَّلَةِ، بَابِ اللَّهِ عَنِ السَّبَابِ) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: أَنَّ إِثْمَ السَّبَابِ الْوَاقِعَ مِنْ اثْنَيْنِ مُخْتَصٍ بِالْبَادِي مِنْهُمَا كُلَّهُ، إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ الثَّانِي قَدْرَ الْإِنْتِصَارِ فَيَقُولُ لِلْبَادِي أَكْثَرَ مِمَّا قَالَهُ لَهُ.

راغ هابيل في رؤوس الجبال، ثم أتاه يوماً من الأيام، فوجده نائماً فشدخ رأسه بصخرة فمات، وقال ابن جريج: لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل؟ فتمثل له إبليس، وأخذ طيراً فوضع رأسه على حجر، ثم شدخه بحجر آخر، وقابيل ينظر، فعلمه القتل، فوضع رأس أخيه على حجر وشدخه بحجر آخر. وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة، وقبره قيل: عند عقبة حراء، وقال ابن عباس: عند ثور، وقال جعفر الصادق: بالبصرة، في موضع المسجد الأعظم.

الإشارة: قد تضمنت هذه الآية من طريق الإشارة ثلاث خصال، يجب التحقق بها على كل مؤمن متوجه إلى الله تعالى: أولها: التطهير من رذيلة الحسد، الذي هو أول معصية ظهرت في السماء والأرض، وقد تقدم الكلام عليه في النساء^(١)، الثانية: التطهير من الشرك الجلى والخفى، والتغلغل في التبرى من الذنوب التي توجب عدم قبول الأعمال، ويتحصل ذلك بتحقيق الإخلاص، والثالثة: عدم الانتصار للنفس والدفع عنها إلا فيما وجب شرعاً، فقد قالوا: (الصوفى دمه هدر، وماله مباح)؛ فلا ينتصر لنفسه ولو بالدعاء، فإما أن يسكت، أو يدعو لظالمه بالرحمة والهداية، حتى يأخذ الله بيده اقتداء برسوله ﷺ، حيث قال: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون».

ولما قتل قابيل أخاه، لم يدر ما يفعل به؛ لأنه أول من مات من بنى آدم، فعلمه الله كيفية دفنه، فقال:

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَى سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوَلِّتَنِ
أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَى سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (٣١)

قلت: (ليريه) أى: يعلمه، وضمير الفاعل يعود على «الله، أو الغراب، و (كيف) : حال من الضمير فى (يوارى) والجملة مفعول ثان ليرى، أى: ليعلمه الله، أو الغراب، كيفية مواراة أخيه، و (ياويلتا): كلمة جزع وتحسر، والألف فيها بدل من ياء المتكلم، كيا حسرتا ويا أسفاً، وأصبح، هنا بمعنى صار.

يقول الحق جل جلاله: «فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض» أى: يحفر فيها، «ليريه» أى: الله، أو الغراب، «كيف يوارى» أى: يستر «سوء أخيه» أى: جسده؛ لأنه مما يستقبح أن يرى، وخصت بالذكر لأنها أحق بالستر من سائر الجسد، فعلم الله قابيل كيف يصنع بأخيه؛ لأنه لم يدر ما يصنع به، إذ هو أول ميت مات من بنى آدم، فتحير فى أمره، فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه، ثم ألقاه فى الحفرة وغطاه بالتراب.

قال قابيل لما رأى ذلك: «ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوء أخى» فأهتدى إلى ما اهتدى إليه، فحفر لأخيه ودفنه «فأصبح من النادمين» على قتله؛ لما كابد فيه من التحير فى أمره، وحمله على رقبته سنة أو أكثر، وتلمذة الغراب له، واسوداد لونه، وتبرى أبويه منه، إذ روى أنه لما قتله اسود وجهه،

(١) عند إشارة الآية ٥٤.

فسأله آدم عن أخيه، فقال: ماكنتُ عليه وكيلًا. فقال: بل قتلته؛ فلذلك اسود جسدك، وتبرأ منه، ومكث بعد ذلك مائة سنة لم يضحك، وعدم الظفر بما فعله من أجله. قاله البيضاوي، فانظره مع ما سيأتى عن الثعلبي.

واختلف في كفره؛ فقال ابن عطية: الظاهر أنه لم يكن قابيل كافراً، وإنما كان مؤمناً عاصياً، ولو كان كافراً ماتحرج أخوه من قتله، إذ لا يتحرج من قتل كافراً؛ لأن المؤمن يأبى أن يقتل موحداً، ويرضى بأن يُظلمَ ليُجازى في الآخرة. ونحو هذا فعل عثمان رضي الله عنه لما قصد أهل مصر قتله مع عبد الرحمن بن أبي بكر، لشبهة، وكانوا أربعة آلاف، فأراد أهل المدينة أن يدفعوا عنه، فأبى واستسلم لأمر الله. قال عياض: منعه من الدفع إعلام رسول الله ﷺ بأن ذلك سبق به القدر. حيث بشره بالجنة على بلوى تصيبه، كما في البخاري ^(١)، ونقل عن بعض أهل التاريخ: أن شيئاً سار إلى أخيه قابيل، فقائله بوصية أبيه له بذلك، متقلداً بسيف أبيه. وهو أول من تقلد بالسيف، فأخذ أخاه أسيراً وسلسله، ولم يزل كذلك حتى قبض كافراً. هـ.

قلت: ولعل تحرج أخيه من قتله؛ لأنه حين قصد قتله لم يظهر كفره، وظهر بعد ذلك، فلذلك قاتله أخوه شيئاً بعد ذلك وأسره، وذكر الثعلبي: أن قابيل لما طرده أبوه، أخذ بيد أخته أقليما، فهرب بها إلى أرض اليمن، فأتاه إبليس فقال له: إنما أكلت النار قربان هابيل، لأنه كان يخدم النار ويعبدها، فانصب أنت أيضاً ناراً تكون لك ولعقبك، فبنى بيت نار، وهو أول من عبد النار. هـ. فهذا صريح في كفره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا كان الحق جل جلاله يدل العصاة من عباده إذا تحيروا على ما يزيل حيرتهم، فكيف لا يدل الطائعين إذا تحيروا على ما يزيل شبهتهم، إذا فزعوا إليه والتجأوا إلى حماه ١٢ فكل من وقع في حيرة دينية أو دنيوية وفزع إلى الله تعالى، مضطراً إليه، فلا شك أن الله تعالى يجعل له فرجاً ومخرجاً من أمره، إما بواسطة أو بلا واسطة. كن صادقاً تجد مرشداً، ﴿قُلْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من قتل نفساً بغير حق، كما فعل قابيل، فقال:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾

قلت: (من أجل ذلك) : يتعلق بكتبتنا، فيوقف على ما قبله، وقيل: بالنادمين، فيوقف على (ذلك)، وهو ضعيف، قاله ابن جزى، وأصل (أجل): مصدر أجل يأجل، كأخذ يأخذ، أجلاً، أى: جناً جنائياً، استعمل في تعليل الجنايات، ثم اتسع فيه، فاستعمل في كل تعليل.

(١) انظر صحيح البخاري (كتاب أصحاب النبي، باب مناقب عثمان بن عفان - رضى الله عنه -).

يقول الحق جل جلاله : «من أجل ذلك» القتل الذي صدر من قابيل لأخيه هابيل، وما نشأ عنه من التجرؤ على الدماء والمفاسد، حيث سته أولاً ولم يكن يعرفه أحد، فاقتردى به من بعده، «كتبنا على بنى إسرائيل» فى التوراة الذى حكمه متصل بشريعتكم، «أنه من قتل نفساً بغير نفس» أى: فى غير قصاص، وبغير فساد فى الأرض، كقطع الطريق والكفر، «فكأنما قتل الناس جميعاً» من حيث إنه هتك حرمة الدماء، وسن القتل، وجراً للناس عليه.

وفى البخارى عن ابن مسعود قال : قال ﷺ : «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ» (١). أو من حيث إن قتل الواحد والجميع سواء فى استجلاب غضب الله والعذاب العظيم، أو يكون الناس خصماءه يوم القيامة؛ لأن هتك حرمة البعض كالكل.

«ومن أحيائها» أى: تسبب فى حياتها بعفو أو منع من القتل، أو استبقاء من بعض أسباب الهلكة؛ كإنقاذ الغريق والحريق وشبه ذلك، «فكأنما أحيانا الناس جميعاً»؛ أعطى من الأجر مثل ما لو أحيانا الناس جميعاً، وفى البخارى: «من أحيائها - أى مَنْ حَرَّمَ قَتْلَهَا إِلَّا بِحَقِّ حَيِّ النَّاسِ مِنْهُ جَمِيعاً. قال ابن جزى: والقصد بالآية تعظيم قتل النفس والتشديد فيه، ليزدجر الناس عنه وكذلك الثواب فى إحيائها كثواب إحياء الجميع لتعظيم الأمر والترغيب فيه. هـ. فما كتبه الله على بنى إسرائيل هو أيضاً شرع لنا. قال أبو سعيد: (والذى لا إله إلا هو ما جعل دم بنى إسرائيل أكرم على الله من دماننا).

وإنما خصهم بالذكر؛ لأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم فى قتل النفس فى كتاب، وغلظ عليهم بسبب طغيانهم، ولتلوح مذمتهم. انظر ابن عطية. وعنه ﷺ : «مَنْ سَقَى مُؤْمِنًا شَرِبَهُ مَاءٌ وَالْمَاءُ مُوجُودٌ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ سَبْعِينَ رَقَبَةً، وَمَنْ سَقَى فِي غَيْرِ مَوْطِنِهِ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً».

الإشارة: كل من صد نفساً عن إحياء قلبها وعوقها عن من يعرفها بربها فكأنما قتلها، ومن قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً؛ لأن المؤمنين كلهم كالجسد الواحد، كما فى الحديث، ومن أحيائها بأن أنقذها من الغفلة إلى اليقظة، ومن الجهل إلى المعرفة، فكأنما أحيانا الناس جميعاً؛ لأن الأرواح جنس واحد، فأحياء البعض كإحياء الكل.

وبهذا يظهر شرف مقدار العارفين، الدالين على الله، الدعاة إلى معرفة الله، الذين أحيانا الله بهم البلاد والعباد، وفى بعض الآثار أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم: إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحبون الله إلى عبادته، ويحبون عباد الله إلى الله، ويمشون فى الأرض بالنصيحة».

(١) أخرجه البخارى فى (كتاب الأنبياء، باب خلق آدم) ومسلم فى (القسامة، باب بيان إثم من سن القتل).

وهذه حالة شيوخ التربية: يحببون الله إلى عباده؛ لأنهم يطهرون القلوب من دنس الغفلة حتى ينكشف لها جمال الحق فتحبه وتعشقه، ويذكرون لهم إحسانه تعالى وآلاءه فيحبونه، فإذا أحبوه أطاعوه فيحبهم الله ويقربهم، والله تعالى أعلم. وقال الورتجبي: فيه إشارة لطيفة من الحق سبحانه أن النية إذا وقعت من قبل النفس الأمارة في شيء، وباشرته، فكأنها باشرت جميع عصيان الله تعالى؛ لأنها لو قدرت على جميعها لفعلت، لأنها أمارة بالسوء، ومن السوء خلقت، فالجزاء يتعلق بالنية. وكذلك إذا وقعت النية من قبل القلب الروحاني في خير، وباشره، فكأنه باشر جميع الخيرات؛ لأنه لو قدر لفعل. قال عليه السلام: «نية المؤمن أبلغ من عمله».

وفيه إشارة أخرى أن الله سبحانه خلق النفوس من قبضة واحدة مجتمعة، بعضها من بعض وصرفها مختلفة، وتعلقت بعضها من بعض من جهة الاستعداد والخلقة. فمن قتل واحداً منها أثر قتلها في جميع النفوس عالمة بذلك أو جاهلة، ومن أحيا نفس مؤمن بذكر الله وتوحيده، ووصف جلاله وجماله، حتى تحب خالقها، وتحيا بمعرفته، وجمال مشاهدته، فأثر حياتها وتزكيتها في جميع النفوس، فكأنما أحيا جميع النفوس. وفيه تهديد لأئمة الضلالة، وعز وشرف وثناء حسن لأئمة الهدى. انتهى كلامه.

وقوله في النفس الأمارة: (من السوء خلقت)، فيه نظر؛ فإن النفس هي الروح عند المحققين، فما دامت الطينية غالبية عليها، وهي مائلة إلى الحظوظ والهوى، سميت نفساً، فإن كانت منهمكة سميت أمارة، وإن خف عثارها، وغلب عليها الخوف، سميت لوامة، فإذا انكشف عنها الحجاب، وعرفت ربها، واستراحت من تعب المجاهدة، سميت روحاً، وإن تطهرت من غيبس الحس بالكلية سميت سرا، وأصلها من حيث هي نور ريانى وسر لاهوتى. ولذلك قال تعالى فيها: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، (١) فالسوء عارض لها، لا ذاتي، فما خلقت إلا من نور القدس. والله تعالى أعلم.

ثم عاتب بنى إسرائيل على سفك الدماء والإفساد في الأرض، بعد ما حرم ذلك عليهم في التوراة، فقال:

﴿... وَلَقَدْ جَاءَ تَهُم رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ

لَمُسْرِفُونَ﴾

يقول الحق جل جلاله: «ولقد جاءتهم» أى: بنى إسرائيل، «رُسُلنا بالبينات» أى: بالمعجزات الواضحات، «ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمُسْرِفُونَ» بسفك الدماء وكثرة المعاصي.

قال البيضاوى: أى: بعدما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل إتيان تلك الجناية، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيداً للأمر وتجديداً للعهد، كى يتحاموا عنها، كثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولايبالون، وبهذا اتصلت القصة بما قبلها، والإسراف: التباعد عن حد الاعتدال في الأمر. هـ.

(١) من الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

الإشارة: قد قبيض الله لهذه الأمة المحمدية من يقوم بأمر دينها، ظاهراً وباطناً، وهم ورثته في الظاهر والباطن، وفي الخبر: «علماء أمتي كأنبياء بنى إسرائيل»، فلكل زمان رجال يقومون بالشرعية الظاهرة وهم العلماء، ورجال يقومون بالحقيقة الباطنة، وهم الأولياء، فمن قصر في الجهتين قامت عليه الحجة، والله الحجة البالغة، فمن أسرف أو طغى أدبته الشريعة وأبعدته الحقيقة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وبال المسرفين من بنى إسرائيل وغيرهم، فقال:

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

قلت: سبب نزول الآية عند ابن عباس: قوم من اليهود كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فنقضوا العهد وقطعوا السبيل. وهو مناسب لما قبله، وقال جماعة: نزلت في نفر من عكل وعريثة، أظهروا الإسلام بالمدينة، ثم خرجوا وقتلوا راعي النبی ﷺ وأخذوا إبله، فبعث في إثرهم، فأخذوا، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم (١)، فماتوا، ثم حكمها جار في كل محارب، والمحاربة عند مالك: هي حمل السلاح على الناس في بلد أو في خارج عنه، وقال أبو حنيفة: لا يكون المحارب إلا خارج البلد، و (فساداً): منصوب على العلة، أو المصدر، أو على حذف الجار.

يقول الحق جل جلاله: «إنما جزاء الذين يحاربون الله» حيث حاربوا عباده. فهو تغليظ ومبالغة، «و» يحاربون «رسوله» كما فعل العريثيون أو غيرهم، «ويسعون في الأرض فساداً» بالفساد كإخافة الناس، ونهب أموالهم. قال ابن جزى: هو بيان للحراية، وهي درجات؛ فادناها: إخافة الطريق، ثم أخذ الأموال، ثم قتل النفس.

فجزاؤهم «أن يقتلوا أو يصلبوا»، فالصلب مضاف للقتل، فقيل: يقتل ثم يصلب، إرهاباً لغيره، وهو قول أشهب، وقيل: يصلب حياً ويقتل في الخشبة، وهو قول ابن القاسم، «أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلف»،

(١) سمل أعينهم، أى: فقأها بحديدة محمأة، أو غيرها.

فيقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، وإن عاد قطعت يده اليسرى ورجله اليمنى، وقطع اليد من الرسغ، والرجل من المفصل كالسرقة، «أو يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ» أى: ينفوا من بلد إلى بلد، ويسجنوا فيه حتى تظهر توبتهم. وقال أبوحنيفة: يسجن فى البلد بعينه. ومذهب مالك: أن الإمام مخير فى المحارب بين ماتقدم، إلا أنه قال: إن كان قتل فلا بد من قتله، وإن لم يقتل فالأحسن أن يؤخذ فيه بأيسر العقاب.

أولئك المحاربون «لهم خزى فى الدنيا»: ذل وفضيحة، «ولهم فى الآخرة عذاب عظيم» لعظم ذنوبهم. ظاهره أن العقوبة فى الدنيا لا تكون كفارة للمحاربين بخلاف سائر الحدود. ويحتمل أن يكون الخزى فى الدنيا لمن عوقب، وفى الآخرة لمن لم يعاقب، «إلا الذين تابوا من قبل أن تُقَدَّرُوا عَلَيْهِمْ» بأن جاءوا تائبين «فاعلموا أن الله غفور رحيم»، فيسقط عنهم حكم الحراية، واختلف: هل يطالب بما عليه من حقوق الناس كالدماء أم لا؟ فقال الشافعى: يسقط عنه بالتوبة حد الحراية، ولا يسقط حقوق بنى آدم، وقال مالك: يسقط عنه جميع ذلك، إلا أن يوجد معه مال رجل بعينه، فيرد إلى صاحبه، أو يطلبه ولى دم بدم تقوم البيعة فيه، فيقاد به، وأما الدماء والأموال التى لم يطالب بها، فلا يتبعه الإمام بشيء منها.

وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة، يدل على أنها بعد القدرة لا تسقط الحد، وإن أسقطت العذاب، والآية فى قطاع المسلمين؛ لأن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدمها. هـ. قاله البيضاوى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فرق كبير بين من يرجع إلى الله بملاطفة الإحسان، وبين من يقاد إليه بسلاسل الامتحان، هؤلاء المحاربون لم يرجعوا إلى الله حتى أخذوا وقتلوا وصلبوا أو قطعت أيديهم وأرجلهم. وإن رجعوا إليه اختياراً قبلهم، وتاب عليهم ورحمهم وتعطف عليهم، وكذلك العباد: من رجع إلى الله قبل هجوم منيته قبله وتاب عليه، وإن جد فى الطاعة قرّبه وأدناه، وإن تقدمت له جنایات، وقد خرج من اللصوص كثير من الخصوص، كالفضيل، وابن أدهم، وغيرهما، ممن لا يحصى، سبقت لهم العناية فلم تضرهم الجنایة. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم حضّ على التقوى التى هى مجمع الخير والفوز من كل شر، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ

لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾

يقول الحق جل جلاله «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله»، ولا تسلكوا سبيل بنى إسرائيل الذين جاءتهم الرسل، فعصوا وأفسدوا «وابتغوا إليه الوسيلة» أى: اطلبوا ما تتوسلون به إلى رضوانه، والقرب من جناب قدسه

من الطاعات، وترك المخالفات، «وجاهدوا في سبيله» بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة «لعلكم تفلحون» بالوصول إلى الله والفوز بكرامته.

الإشارة: لا وسيلة أقرب من صحبة العارفين، والجلوس بين أيديهم وخدمتهم، والتزام طاعتهم، فمن رام وسيلة توصله إلى الحضرة غير هذه فهو جاهل بعلم الطريق. قال أبو عمرو الزجاجي رحمته: لو أن رجلاً كشف له عن الغيب، ولا يكون له أستاذ لا يجيء منه شيء.

وقال إبراهيم بن شيبان رحمته: لو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح، ومن لا يأخذ أدبه من أمر له ونهيه يريه عيوب أعماله ورعونات نفسه، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات. هـ.

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رحمته: كل من لا يكون له في هذا الطريق شيخ لا يفرح به. هـ. ولو كان وافر العقل منقاد النفس، واقتصر على ما يلقى إليه شيخ التعليم فقط، فلا يكمل كمال من تقيد بالشيخ المري؛ لأن النفس أبداً كثيفة الحجاب عظيمة الإشراك، فلا بد من بقاء شيء من الرعونات فيها، ولا يزول عنها ذلك، بالكلية، إلا بالانقياد للغير والدخول تحت الحكم والقهر، وكذلك لو كان سبقت إليه من الله عناية وأخذة الحق إليه، وجذبه إلى حضرته، لا يؤهل للمشيخة، ولو بلغ ما بلغ، والحاصل: أن الوسيلة العظمى، والفتح الكبير، إنما هو في التحكيم للشيخ؛ لأن الخضوع لمن هو من جنسك تأنفه النفس، ولا تخضع له إلا النفس المطمئنة، التي سبقت لها من الله العناية. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضد أهل التقوى، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَاتَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

قلت: (لو أن لهم): الجار متعلق بالاستقرار، لأنه خبر «إن»، مقدما، والضمير في (به): يعود على ما ومثله، ووحده باعتبار ما ذكر كقوله: ﴿عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ (١).

يقول الحق جل جلاله: «إن الذين كفروا» حين يشاهدون العذاب يتمنون الفداء، فلو «أن لهم ما في الأرض جميعا» من الأموال والعقار «ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تكبل ما تكبل منهم»

(١) من الآية ٦٨ من سورة البقرة.

ولا ينفعهم «ولهم عذاب مقيم» لا خلاص لهم منه، وهذا كما ترى في الكفار، وأما عصاة المؤمنين فيخرجون منها بشفاعة نبيهم - عليه الصلاة والسلام - ولا حجة للمعتزلة في الآية، خلافاً لجهالة الزمخشري.

الإشارة: كل من مات تحت قهر الحجاب، ونكبت المشيئة عن دخول الحضرة مع الأحباب، حصل له الندم يوم القيامة، فلو رام أن يفتدى منه بملء الأرض ذهباً ما تقبل منه، بل يبقى مقيماً في غم الحجاب، معزولاً عن رؤية الأحباب، يتسلى عنهم بالحرور والولدان، وتفوته نظرة الشهود والعيان في كل حين وأوان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم ذكر حكم السارق الذي تقدم ذكره في قضية طعمة بن أبيرق؛ لما تقدم أن هذه السورة مكملتها لما قبلها، فقال ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٨) ﴿مَنْ تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٠)

قلت: (السارق): مبتدأ والخبر محذوف عند سيبويه، وهو الجار والمجرور، أي: مما يتلى عليكم حكم السارق والسارقة، وقال المبرد: الخبر هو جملة: (فاقطعوا)، ودخلت الفاء لمعنى الشرط؛ لأن الموصول - وهو «أد» - فيه معنى الشرط، ومثله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا﴾ (١)، قلت: وهو أظهر، فإن قلت: ما الحكمة في تقديم المذكر في هذه الآية، وفي آية الزنا قدم المؤنث، فقال: «الزانية والزاني»؟ فالجواب: أن السرقة في الرجال أكثر، والزنى في النساء أكثر، فقدم الأكثر وقوعاً. وقدم العذاب هنا على المغفرة لأنه قابل بذلك تقدم السرقة على التوبة، أو لأن المراد به القطع، وهو مقدم في الدنيا، و (جزاء) و (نكالا): علة أو مصدر.

يقول الحق جل جلاله: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما» أي: أيماهما من الرسغ، بشروط، منها: ألا يكون مضطراً بالجوع، على قول مالك، فيقدم السرقة على الميتة، إن علم تصديقه. ومنها: ألا يكون السارق أباً أو عبداً سرق مال ولده أو سيده. ومنها: أن يكون سرق من حرز، وأن يكون نصائباً، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساويهما عند مالك والشافعي، وقال أبوحنيفة: لا قطع في أقل من عشرة دراهم، وقال عثمان البتي: يقطع في درهم فما فوق. وفي السرقة أحكام مبسطة في كتب الفقه.

(١) من الآية ٢ من سورة النور.

وعلة القطع: الزجر، ولذلك قال: «جزاء بما كسبنا نكالا من الله والله عزيز حكيم». فإن قلت: ما الحكمة في قطعها في ربع دينار، مع أن ديتها إن قطعت، خمسمائة دينار؟ قلت: ذل الخيانة أسقطت حرمتها بعد عز الصيانة. فافهم حكمة الباري.

«فمن تاب من بعد ظلمه» أي: بعد سرقته، كقوله في سورة يوسف: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (١) أي: السارقين، «وأصلح» بأن رد ما سرق، وتخلص من التبعات ما استطاع، وعزم ألا يعود، «فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم»، فيقبل توبته، فلا يعذبه في الآخرة، وأما القطع: فهل يسقط، وهو مذهب الشافعي لظاهر الآية، أو لا يسقط، وهو مذهب مالك، لأن الحدود لا تسقط عنده بالتوبة إلا عن المحارب...؟ قاله ابن جزى، تبعاً لابن عطية، وفيه نظر، فإن مشهور مذهب الشافعي موافق لمالك، ولعله تصحف عنده الشافعي بالشعبي، كما نقل الثعلبي عنه. والله أعلم.

«ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض» يتصرف فيهما كيف شاء، فالخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام - أو لكل أحد، «يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ» قال السدي: يُعَذِّبُ مَنْ مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ، وَيَغْفِرُ لِمَنْ تَابَ مِنْ كُفْرِهِ. وقال الكلبي: «يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ» على الصغيرة إذا أقام عليها «ويغفر لمن يشاء» على الكبيرة إذا نزع منها، «والله على كل شيء قدير» لا يعجزه شيء.

الإشارة: كما أمر الحق - جل جلاله - بقطع سارق الأموال، أمر بقطع سارق القلوب، وهو الشيطان، وجنوده؛ الخواطر الرديئة؛ فإن القلب بيت كنز السر - أي: سر الربوبية - لأن القلب بيت الرب، والبصيرة حارسة له، فإذا طرقة الشيطان بجنوده، فإن وجد البصيرة متيقظة دفعته وأحرقته بأنوار ذكرها، وإن وجدها نائمة؛ فإن كان نومها خفيفاً اختلس منها وفطنت له، وإن كان نومها ثقيلاً؛ بتراكم الغفلات، خرب البيت ولم تفتن له، فيسكن فيه بجنوده الخواطر وهي نائمة. فالواجب على الإنسان حفظ قلبه، قبل أن يسكنه الشيطان، فيصعب دفعه، وحفظه بدوام ذكر الله القلبى، فإن لم يستطع فبدوام اللسان، فإن لم يستطع فبالنية الصالحة. وربنا المستعان.

ثم تكلم على ما يتعلق باللسان، وهو الأمر الخامس مما تضمنته السورة، فقال:

﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا

ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ...﴾

قلت: الباء في: (بأفواههم) - متعلقة بقالوا.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الرسول لا يحزنك» صنع المنافقين، «الذين يسارعون في الكفر» أي: يقعون فيه سريعا، فيظهرونه إن وجدوا فرصة، ثم يبينهم بقوله: «من الذين قالوا آمنا»، قالوه «بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم»، فلا يهولك شأنهم ولا تحتفل بكيدهم، فإن الله سيكفيك أمرهم. الإشارة: من شأن العارفين بالله تذكير عباد الله، ثم ينظرون إلى ما يفعل الله، فلا يحزنون على من لم تنفعه الموعظة، ولا يفرحون بسبب نجاح موعظتهم، إلا من حيث موافقة رضا ربهم، فهم في ذلك على قدم نبيهم، آخذين بوصية ربهم. والله تعالى أعلم.

ثم رجع إلى عتاب اليهود، فقال:

﴿... وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلشُّحِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قلت: (ومن الذين هادوا): يحتمل أن يكون عطفًا على (الذين قالوا) أي: لا يحزنك شأن المنافقين واليهود، (سماعون): خبر، أي: هم سماعون، ويحتمل أن يكون استئنافًا، فيكون (سماعون): مبتدأ على حذف الموصوف، (ومن): خبر، أي: ومن الذين هادوا قوم سماعون، واللام في: (للکذب): إما مزيدة للتأكيد، أو لتضمين السماع معنى القبول، وجملة (لم يأتوك): صفة لقوم، وجملة (يحرفون): صفة أخرى له.

يقول الحق جل جلاله: «ومن الذين هادوا» صنف «سماعون للکذب» أي: كثيروا السماع للکذب والقبول له، وهم يهود بني قريظة، «سماعون لقوم آخرين» وهم يهود خيبر، «لم يأتوك» أي: لم يحضروا مجلسك، تكبرا وبغضا، «يحرفون الكلم من بعد مواضعه» أي: يميلونه عن مواضعه الذي وضعه الله فيها، إما

لفظاً أو تأويلاً: ﴿يَقُولُونَ﴾: أى: الذين لم يأتوا النبى ﷺ، وهم يهود خيبر: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ أى: إن أُوتِيتُمْ هذا المحرّف وأفتاكم محمد بما يوافقّه فخذوه، ﴿وَإِنْ لَمْ تَوْتَوْهُ﴾ بأن أفتاكم بغيره ﴿فَاحْذَرُوا﴾ أن تقبلوا منه.

وسبب نزولها: أن شريكاً من يهود خيبر زنى بشريفة منهم، وكانا مُحْصَنَيْنِ، وكرهوا رجمهما، فأرسلوا مع رهطٍ منهم إلى بنى قريظة ليسألوا رسول الله ﷺ، وقالوا لهم: إِنْ أَمَرَكُمُ بِالْجَلْدِ وَالْتَّحْمِيمِ (١) فَاقْبَلُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمُ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا أَنْ تَقْبَلُوهُ مِنْهُ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالزَّانِيَيْنِ، وَمَعَهُمَا ابْنُ صُورِيَا، فَاسْتَفْتَوْهُ ﷺ، فَقَالَ لابنِ صُورِيَا: أَنْشُدْكَ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الَّذِي فَلَقَ الْبَحْرَ لِمُوسَى، وَرَفَعَ فَوْقَكُمُ الطُّورَ، وَأَنْجَاكُمُ وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ، وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمُ كِتَابَهُ، وَأَحْلَلَ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، هَلْ تَجِدُ فِيهِ الرَّجْمَ عَلَى مَنْ أَحْصَنَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَوُثِّبُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ: خِفْتُ إِنْ كَذَبْتَهُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا الْعَذَابُ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالزَّانِيَيْنِ فَرَجَمَا عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ، وَفِي رِوَايَةٍ: دَعَاهُمْ إِلَى التُّورَةِ فَأَتَوْا بِهَا، فَوَضَعَ ابْنُ صُورِيَا يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، وَقَرَأَ مَا حَوْلَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: ارْفَعْ يَدَكَ، فَإِذَا آيَةُ الرَّجْمِ تَلَوَّحَ، فَرَجَمَا. وَفِي الْقِصَّةِ اضْطِرَابٌ كَثِيرٌ. وَلَعَلَّ الْقِصَّةَ تَعَدَّدَتْ.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ أى: ضلّالته أو فضيحتة، ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أى: تقدر على دفعها عنه، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ من الكفر والشرك، ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أى: هوان وذل؛ بضرب الجزية والخوف من المؤمنين، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الخلود فى النيران.

هم ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، كرر للتأكيد، ويرتب عليه قوله: ﴿أَكَاَلُونَ لِلْسَّحْتِ﴾ أى: الحرام، كالرشا وغيرها، وسمى سحتاً؛ لأنه يسحت البركة ويستأصل المال، كما قال ﷺ: «مَنْ جَمَعَ الْمَالَ مِنْ نَهَائِشِ أَذْهَبَهُ اللَّهُ فِي نَهَابٍ» (٢).

ثم خير نبيه - عليه الصلاة والسلام - فى الحكم بينهم، فقال: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ﴾ متحاكمين إليك ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾، وقيل: نسخ بقوله: ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ (٣). والجمهور: أن ما كان من باب التظالم والتعدى فإن الحاكم يتعرض بهم ويبحث عنه، وأما التوازل التى لا ظلم فيها، وإنما هى دعاوى، فإن رضوا بحكمنا فالإمام مخير، وإن لم يرضوا فلا نتعرض لهم، انظر ابن عطية، وقال البيضاوى: ولو تحاكم كتابيان إلى القاضى لم يجب عليه الحكم، وهو قول الشافعى، والأصح: وجوبه؛ إذا كان المترافعان أو أحدهما ذمياً، لأننا التزمنا الذب عنهم، ومذهب أبى حنيفة: يجب مطلقاً. هـ.

﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّكَ شَيْئاً﴾؛ لأن الله عصمك من الناس، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أى: العدل الذى أمر الله به ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، فيحفظهم ويعظم شأنهم.

﴿وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ﴾ وهم لا يؤمنون بك، ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ أى: والحال أن الحكم منصوص عليه فى الكتاب الذى هو عندهم ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، أو ثم يتولون عن حكمك

(١) التحميم: تسويد الوجه بالفحم. (٢) النهارش: المظالم. والنهابر: المهالك والأمور المتبددة. (٣) من الآية ٤٩ من السورة

الموافق لكتابهم من بعد التحكيم، وفيه تنبيه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع، وإنما قصدوا به ما يكون عوناً لهم على هواهم، وإن لم يكن حكم الله في زعمهم، «وما أولئك بالمؤمنين» بكتابهم ولا بكتابك، لإعراضهم عنه أولاً، وعنك ثانياً، بل أولئك هم الفاسقون التابعون لأهوائهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من تعرض للشيخوخة وادعى مقام التربية، وهو يأمر أصحابه باتباع رخص الشريعة، والبقاء مع العوائد، ويقول لهم: (إن أوتيتم هذا فخذوه) ويزعم أنه سنة، وإن لم تؤتوه، ولقيتم من يأمركم بقتل النفوس، وحط الرؤوس ودفن الفلوس، وخرق العوائد فاحذروه. فمن كان حاله هذا، فالآية تجر ذيلها عليه، لأنه تعرض لفتنة نفسه بحب الجاه وغرور أولاد الناس، «ومن يرد الله فتنته قلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم» من الهوى، ولا بصيرتهم من شهود السوء؛ لأن تطهير القلوب مشروط بقتل النفوس، وقتل النفوس إنما يكون باتباع ما يثقل عليها من خرق عوائدها، كالذل والفقر وغير ذلك من الأعمال الشاقة عليها، ومن لم يطهر قلبه من الهوى يعيش في الدنيا في ذل الحجاب مسجوناً بمحيطاته، محصوراً في هيكل ذاته، وله في الآخرة أشد العتاب، حيث تعرض لمقام الرجال وهو عنه بمعزل، يقال لمن تبعه في اتباع الرخص: «سماعون للكذب أكالون للسحت»

قال الشيخ أبو العباس المرسى رحمته الله: من كان من فقراء الزمان يسمع الغناء، ويأكل أموال الظلمة، ففيه نزعة يهودية، قال تعالى: «سماعون للكذب أكالون للسحت» . هـ

فإن جاءوك أيها العارف، يستخبرونك، ويخاصمونك في الأمر بخرق العوائد، ويزعمون أنهم موافقون للسنة، «فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط»، وهو الأخذ بكل ما يقتل النفوس، ويجهز عليها، «إن الله يحب المقسطين» وكيف يحكمونك أو يخاصمونك، وعندهم القرآن فيه حكم الله بذلك، قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾^(١)، ولا يكون جهاد النفس إلا بمخالفتها، وقتلها بترك حظوظها وهواها. والله تعالى أعلم.

ثم قرر صحة كتابه التوراة، ووبال من أعرض عنه من اليهود، فقال:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(١) من الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

قلت : (للذين هادوا) : متعلق بيحكم، أو بأنزلنا، أو بهدى ونور، و (الريانيون) : عطف على (النبيون) ، وهم العباد والزهاد منهم، والأخبار: علماؤهم، جمع خبر - بكسر الحاء وفتحها ، وهو أشهر استعمالاً؛ للفرق بينه وبين المداد، و(بما استحفظوا): سببية متعلق بيحكم، أو بدل من (بها) والعائد إلى «ما، محذوف، أى: استحفظوه .

يقول الحق جل جلاله : «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى» أى: ما يهدى إلى إصلاح الظواهر من النواهي والأوامر، و «نور» تستنير به السرائر، وتشرق به القلوب والضمائر، من الاعتقادات الصحيحة والعقائد الراجحة، والعلوم الدينية والأسرار الريانية. «يحكم بها النبيون» الذين أتوا بعد موسى - عليه السلام - إلى محمد ﷺ، وهم «الذين أسلموا» أى: انقادوا بكليتهم إلى ربهم، ولم تبق بقية لغير محبوبهم، وفيه تنويه بشأن الإسلام وأهله، وتعرض باليهود؛ فإنهم بمعزل عن دين الأنبياء واقتفاء هديهم، حيث لم يتصفوا به، يحكم بها «للذين هادوا» وعليهم، وهم اليهود، «و» يحكم بها أيضا «الريانيون والأخبار» أى: زهادهم وعلماؤهم السالكون طريقة أنبيائهم، «بما استحفظوا من كتاب الله» أى: بسبب أمر الله تعالى لهم أن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف. «وكانوا عليه شهداء» أى: رقباء، فلا يتركون من غيرها أو يحرفها، ولما طال العهد عليهم حرفوا وغيروا، بخلاف كتابنا، حيث تولى حفظه الحق ربنا، فلا يزال محفوظاً لفظاً ومعنى إلى قيام الساعة، قال تعالى : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنَّا له لحافظون» (١) . قلله الحمد .

ثم خاطب الحكام، فقال : «فلا تخشوا الناس واخشون» أى: فلا تدهنوا في حكوماتكم خشية ظالم أو مراقبة كبير، فكل كبير في جانب الحق صغير، «ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً» أى: لا تستبدلوا بالحكم بالحق ثمناً قليلاً؛ كالرشوة والجاه، «ومن لم يحكم بما أنزل الله» مستهيناً به ومنكراً له «فأولئك هم الكافرون» ؛ لاستهانتهم به .

قال ابن عباس: نزلت الثلاثة في اليهود، الكافرون والظالمون والفاسقون، وقد روى في هذا أحاديث عن النبي ﷺ وقالت جماعة: هي عامة، فكل من لم يحكم بما أنزل الله من اليهود والمسلمين وغيرهم، إلا أن الكفر في حق المسلمين كفر معصية، وقال الشافعي: الكافرون في المسلمين، والظالمون في اليهود، والفاسقون في النصاري، وهو أنسب لسياق الكلام، والله تعالى أعلم .

الإشارة : قد وصف الله تعالى القرآن بأعظم مما وصف به التوراة . قال تعالى : «قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبيناً» (٢) ؛ فجعل التوراة ظرفاً للهداية والنور، وجعل القرآن نفس النور والهداية . وريانيو هذه الأمة : أولياؤها العارفون بالله، الذين يربون الناس ويرشدونهم إلى معرفة الشهود والعيان، وأخبارها : علماؤها .

(١) الآية ٩ من سورة الحجر .

(٢) الآية ١٧٤ من سورة النساء .

وقال الورتجبي: الرياني الذي نسب إلى الرب بالمعرفة والمحبة والتوحيد، فإذا وصل إلى الحق بهذه المراتب، واستقام في شهود جلاله وجماله، صار متصفاً بصفات الله - جل جلاله -، حاملاً أنوار ذاته، فإذا فلى عن نفسه وبقي بربه، صار ريانياً، مثل الحديد في النار، إذا لم يكن في النار كان مستعداً لقبول النار، فإذا وصل إلى النار واحمر، صار نارياً، هكذا شأن العارف، فإذا كان منوراً بتجلي الرب، صار ريانياً نورانياً ملكوتياً جبروتياً، كلامه من الرب إلى الرب مع الرب، ثم قال: العارف مخاطب من الله في جميع أنفاسه، وحركاته، ينزل على قلبه من الله وحى الإلهام، وربما يخاطبه بنفسه، ويكلمه بكلامه، ويحدثه بحديثه، لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «إن في أمتي محدثين أو مكلمين وإن عمر منهم» (١) . هـ .

ثم بين الحق تعالى ما كتب على بنى إسرائيل في التوراة، فقال:

﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٥)

قلت: من نصب الجميع: فعطف على النفس، وقصاص: خبر إن، ومن رفع العين: فيحتمل أن يكون مستأنفاً مرفوعاً بالابتداء، و«قصاص»: خبر، من عطف الجمل، أو يكون عطفاً على موضع النفس؛ لأن المعنى: قلنا لهم: النفس بالنفس، أو على الضمير المستكن في الخبر، ومن رفع الجروح فقط، فعلى ما تقدم في العين.

يقول الحق جل جلاله: «وكتبنا» على بنى إسرائيل، أي: فرضنا وألزمنا عليهم في التوراة «أن النفس» تقتل بالنفس في القتل العمد إن كان المقتول مسلماً حراً، فلا يقتل مسلم بكافر إلا إن قتله غيلة، ولا حر بعدد، للحديث، «والعين» تُفَقَّ «بِالعين»، «والأنف» تُجَدَّع «بِالأنف»، «والأذن» تُصَلَّم «بِالأذن»، «والسن» تُقْلَع «بِالسن»، «والجروح» قِصَاصٌ؛ يقتص من الجراح بمثل ما فعل، إلا ما يخاف منه كالمأمومة (٢)، والجائفة، وكسر الفخذ، فيعطى الدية، «فمن تصدق به» أي: بالدم، بأن عفى عن الجراح أو القاتل فلم يقتص، «فهو كفارة له» أي للمقتول، يغفر الله ذنوبه ويعظم أجره، أو كفارة للقاتل أو الجراح، يعفو الله بذلك عن القاتل، لأن صاحب الحق قد عفا عنه، أو كفارة للعافي؛ لأنه مسامح في حقه، أو من تصدق بنفسه ومكدها من القصاص فهو كفارة له، اقتص منه أو عفى عنه.

(١) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب ٥٤) ومسلم في (فضائل الصحابة، باب فضائل عمر رضي الله عنه) عن أبي هريرة، بلفظ: «إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون وإنه إن كان في أمتي هذه، فإنه عمرين الخطاب،

(٢) المأمومة: هي الشجة التي تبلغ أم الرأس، وهي الجلدة التي تجمع الدماغ.

وفيه دليل على أن الحدود مكفرة لا زاجر، وزعم ابن العربي: أن المقتول يُطالب يوم القيامة، ولو قتل في الدنيا قصاصاً؛ لأنه لم يتحصل للمقتول من قتل قاتله شيء، وأن القصاص إنما هو ردع، وأجيب بمنع أنه لم يتحصل له شيء، بل حصلت له الشهادة وتكفير لذنوبه، كما في الحديث: «السيف محاء للخطايا»^(١). ولو كان القصاص للردع خاصة لم يشرع العفو، قاله ابن حجر، وفي حديث البخاري: «من أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا، فهو كفارة له، وإن ستره الله فهو في المشيئة».

«ومن لم يحكم بما أنزل الله» من القصاص وغيره «فأولئك هم الظالمون»؛ المتجاوزون حدود الله، وما كتب الله على بنى إسرائيل هو أيضاً مكتوب علينا، لأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، ولا ناسخ هذا، بل قررته السنة والإجماع. والله تعالى أعلم.

الإشارة: القصاص مشروع وهو من حقوق النفس؛ لأنها تطلبه تشفياً وغيظاً، والعفو مطلوب ومرغب فيه، وهو من حقوق الله، هو طالبه منك، وأين ما تطلبه لنفسك مما هو طالبه منك؟ ومن شأن الصوفية الأخذ بالعزائم، واتباع أحسن المذاهب، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^(٢)، ومن شأنهم أيضاً: الغيبة عن حظوظ النفس، ولذلك قالوا: (الصوفي دمه هدر، وماله مباح)، وقالوا أيضاً: (الصوفي كالارض، يطرح عليها كل قبيح، وهي تنبت كل مليح)، - ومن أؤكد الأمور عندهم عدم الانتصار لأنفسهم. وبالله التوفيق.

ولما فرغ من الكلام مع اليهود شرع يتكلم مع النصارى، فقال:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ۖ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قلت: (قفينا): اتبعنا، مشتق من القفا؛ كأن مجيء عيسى كان في قفا مجيء النبيين وخلفهم، وحذف المفعول الأول، أى: أتبعناهم، و«بعيسى» مفعول ثان، وجملة: (فيه هدى ونور): حال من «الإنجيل»، و (مصدقاً): عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله: وأتبعنا النبيين المتقدمين وجئنا على إثرهم «بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه» أى: ما تقدم أمامه «من التوراة» وتصديقه للتوراة؛ إما لكونه مذكوراً فيها ثم ظهر، أو بموافقة ما جاء به من التوحيد والأحكام لما فيها، أو لكونه صدق بها وعمل بما فيها.

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد في المسند ١٨٥/٤. من حديث عتبة بن عبد السلمي.

(٢) من الآية ١٨ من سورة الزمر.

«وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ»؛ فالهدى لإصلاح الظواهر بالشرائع، والنور لإصلاح الضمائر بالعقائد الصحيحة والحقائق الربانية، «وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ» بتقرير أحكامها، والشهادة على صحتها، «وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ» أى: وإرشاداً وتذكيراً للمتقين؛ لأنهم هم الذين ينفع فيهم الموعظة والتذكير، دون المنهمكين فى الغفلة، قد طبع الله على قلوبهم فهم لا يسمعون.

ثم أمر الله أهل الإنجيل بالحكم بما فيه، فقال: «وَلِيَحْكَمْ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ» من الأحكام، وقرأ حمزة: (وليحكم) بلام الجر؛ أى: وأتينا الإنجيل ليحكم أهل الإنجيل بما فيه، «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ»؛ الخارجون عن طاعة الحق. قال البيضاوى: والآية تدل على أن الإنجيل مشتملة على الأحكام، وأن اليهودية منسوخة ببعث عيسى عليه السلام، وأنه كان مستقلاً بالشرع. وحملها على: وليحكموا بما أنزل الله، فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة خلاف الظاهر. هـ.

الإشارة: قد جمع الله فى هذه الأمة المحمدية ما افترق فى غيرها فى الأزمنة المتقدمة، فعلماءها وأولياؤها كالأنبياء والرسل، كلما مات عالم أو ولى قفاه الله بآخر، أما العلماء فأمرهم متفق وحالهم متقارب، فمدار أمرهم على تحصيل العلوم الرسمية والأعمال الظاهرية، وأما الأولياء - رضى الله عنهم -، فأحوالهم مختلفة، فمنهم من يكون على قدم نوح عليه السلام فى القوة والشدة، ومنهم من يكون على قدم إبراهيم عليه السلام فى الحنانة والشفقة. ومنهم من يكون على قدم موسى عليه السلام فى القوة أيضاً، ومنهم من يكون على قدم عيسى عليه السلام فى الزهد والانقطاع إلى الله تعالى، ومنهم من يكون على قدم نبينا محمد ﷺ، وهو أعظمهم لجمعه ما افترق فى غيره، وكل واحد يؤتية الله نوراً فى الباطن يجذب به القلوب إلى الحضرة، وهدى فى الظاهر يصلح به الظواهر فى الشريعة. والله تعالى أعلم.

ثم شرع يتكلم مع الأمة الإسلامية المحمدية، فقال:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۖ﴾

قلت: (مهيماً) أى: شاهداً، والشرعة والمنهاج: قال ابن عطية: معناهما واحد، وقال ابن عباس: أى: سبيلاً وسنة. قلت: والظاهر: أن الشرعة يراد بها الأحكام الظاهرة، وهى التى تصلح الظواهر، والمنهاج يراد به علوم الطريقة الباطنية، وهى التى تصلح الضمائر، وهو مضمن علم التصوف.

يقول الحق جل جلاله : «وأنزلنا إليك» يامحمد «الكتاب» أى: القرآن ملتبساً «بالحق مصدقاً لما بين يديه» من جسد الكتاب، أى: مصدقاً لما تقدمه من الكتب، بموافقة لهم فى الأخبار والتوحيد، «ومهيماً عليه» أى: شاهداً عليه بالصحة، أو راقباً عليه من التغيير فى المعنى، «فاحكم بينهم بما أنزل الله» إليك «ولا تتبع أهواءهم» منحرفاً عما جاءك من الحق إلى ما يشتبهونه، لكل نبي «جعلنا منكم شرعة» ظاهرة يصلح بها الظواهر، «ومنهاجا» أى: طريقاً واضحاً يسلك منها إلى معرفة الحق، وهو ما يتعلق بإصلاح السرائر، واستدل به على أنا غير متعبدين بالشرائع المتقدمة.

«ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة» أى: جماعة واحدة متفقة على دين واحد، «ولكن» عدد الشرائع وخالف بينها «ليبلوكم» أى: يختبركم فيما آتاكم من الشرائع المختلفة، أيكم ينقاد ويخضع للحق أينما ظهر، فإن اختلاف الأحوال وتنقلات الأطوار فيه يظهر الإقرار والإنكار، «فاستبقوا الخيرات» أى: بادروا إلى الانقياد إلى الطاعات واتباع الحق والخضوع لمن جاء به أينما ظهر، انتهازاً للفرصة، وحياسة لفضل سبق والتقدم، «إلى الله مرجعكم جميعاً» فيظهر السابقون من المقصرين، «فينبئكم» أى: يخبركم «بما كنتم فيه تختلفون» من أمر الدين بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل، والمبادر والمقصر، واختلاف الشرائع إنما هى باعتبار الفروع، وأما الأصول كالتوحيد والإيمان بالرسول، والبعث، وغير ذلك من القواعد الأصولية، فهى متفقة، قال - عليه الصلاة والسلام - : «نحن أبناء علات، أمهاتنا شتى وأبونا واحد»^(١). يعنى التوحيد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أعلم أن نبينا - عليه الصلاة والسلام - جمع الله له ما افترق فى غيره، فذاته الشريفة جمعت المحاسن كلها ظاهرة وباطنة، وكتابه جمع ما فى الكتب كلها فهو شاهد عليها، وشريعته جمعت الشرائع كلها، ولذلك كان الولي المحمدى هو أعظم الأولياء.

واعلم أن الحق - جل جلاله - جعل لكل عصر تربية مخصوصة بحسب مايناسب ذلك العصر، كما جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا بحسب الحكمة، فمن سلك بالمريدين تربية واحدة، وأراد أن يسيرهم على تربية المتقدمين، فهو جاهل بسلوك الطريق، فلو كان السلوك على نمط واحد ما جدد الله الرسل بتجديد الأزمنة والأعصار، فكل نبي وولى يبعثه الله تعالى بخرق عوائد زمانه، وهى مختلفة جداً، فتارة يغلب على الناس التحاسد والتباغض، فيبعث بإصلاح ذات البين والتآلف والتودد، وتارة يغلب حب الرياسة والجاه فيرى بالخمول وإسقاط المنزلة، وتارة يغلب حب الدنيا وجمعها فيرى بالزهد فيها والتجريد والانقطاع إلى الله. وهكذا فليقس ما لم يقل. والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه بنحوه البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب «واذكر فى الكتاب مريم ١٠٠») ومسلم فى (الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام) عن أبى هريرة.

ولما قصدت اليهود أن يفتنوا النبي ﷺ بأن يحكم لهم بما يشتهون، أنزل الله تعالى:

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قلت: (وأن احكم) : عطف على الكتاب، أى: وأنزلنا إليك الكتاب والحكم بينهم بما أنزل الله، أو على الحق، أى: أنزلناه بالحق وبالحكم بما أنزل الله، و (أن يفتنوك) : بدل اشتمال من الضمير، أى: احذر فتنتهم، واللام فى قوله: (لقوم) : للبيان، أى: هذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنهم هم الذين يعلمون ألا أحسن حكماً من الله.

يقول الحق جل جلاله لرسوله - عليه الصلاة والسلام -: ﴿و﴾ أمرناك ﴿أن احكم بينهم﴾ أى: بين اليهود ﴿بما أنزل الله﴾، قيل هو ناسخ للتخيير المتقدم، وقيل: لا، والمعنى أنت مخير، فإن أردت أن تحكم بينهم فاحكم بما أنزل الله ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ الباطلة، التى أرادوا أن يفتنوك بها، ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾، فيصرفوك عن الحكم به.

روى أن أحبار اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد لعلمنا نفتنه عن دينه، فقالوا: يا محمد، قد عرفت أننا أحبار اليهود، وأنا إن اتبعناك اتبعناك اليهود كلهم، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فتحاكم إليك، فنقضى لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك عليهم رسول الله ﷺ وردهم، فنزلت الآية (١).

قال تعالى لنبيه - عليه الصلاة والسلام -: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان، بل وأعرضوا عن اتباعك، ﴿فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ فى الدنيا، ويدخر جُلّها للآخرة، وقد أنجز الله وعده، فأجلى بنى النضير، وقتل بنى قريظة، وسبا نساءهم وذرياتهم، وباعهم فى الأسواق، وفتح خيبر، وضرب عليه الجزية، ﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾؛ خارجون عن طاعة الله ورسوله، ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ أى: يطلبون منك حكم الملة الجاهلية التى هى متابعة الهوى، ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ أى: لا أحد أحسن حكماً من الله تعالى عند أهل الإيقان؛ لأنهم هم الذين يتدبرون الأمر، ويتحققون الأشياء بأنظارهم، فيعلمون ألا أحسن حكماً من الله عز وجل.

الإشارة: إذا كثرت عليك الخصوم الوهمية أو الواردات القلبية، والتبس عليك أمرهم، ونم تدر أيهما تتبع؟ فاحكم بينهم بالكتاب والسنة، فمن وافق كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فاتبعه، فإن من أمر الكتاب والسنة على نفسه نطق بالحكمة، وإن وافق أكثر من واحد الكتاب أو السنة، فانظر أثقلهم على النفس، فإنه لا يثقل عليها إلا ما هو

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسير الآية، والبيهقى فى دلائل النبوة (باب ما جاء فى دخول عبدالله بن سلام على رسول الله ﷺ) عن ابن عباس.

حق، ولا تتبع أهواء النفوس والخواطر، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل على قلبك من العلوم والأسرار، فإن متابعة الهوى يعمى القلب عن مطالعة الأسرار، إلا إن وافق السنة.

قيل لعمر بن عبد العزيز: ما ألد الأشياء عندك؟ قال: حق وافق هواي. وفي الحديث عنه عليه السلام «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تابعا لما جئت به»، وفي الحكم: «يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك، إنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك».

فمن تولى عن هذا المنهاج الواضح، وجعل يتبع الهوى ويسلك طريق الرخص، فليعلم أن الله أراد أن يعاقبه ببعض سوء أدبه، حتى يخرج عن منهاج السالكين، والعياذ بالله، أو يؤديه في الدنيا إن كان متوجهاً إليه.

ثم حذر من صحبة أهل الأهواء، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ فترى الذين في قلوبهم مرض يسرعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصيبحوا على ما أسرؤا في أنفسهم نادمين ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَعَمَكُمُ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قلت: (يقول الذين آمنوا) قرئ بغير واو؛ استئنافا، وكأنه جواب عن سؤال، أي: ماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ فقال: يقول... إلخ، قرئ بالواو والرفع؛ عطف جملة على جملة، قرئ بالواو والنصب؛ عطف على (فيصبحوا) أو (يأتي).

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء» تنتصرون بهم، أو تعاشرنهم معاشرة الأحاب، أو تتوددون إليهم، وأما معاملتهم من غير مودة فلا بأس، ثم علل النهي عن موالاتهم فقال: هم «بعضهم أولياء بعض» أي: لأنهم متفقون على خلافكم، يوالى بعضهم بعضاً لاتحادهم في الدين، وإجماعهم على مضادكم، «ومن يتولهم منكم فإنه منهم» أي: من والاهم منكم فإنه من جملتهم.

قال البيضاوي: وهذا تشديد في وجوب مجانبتهم، كما قال عليه السلام «المؤمن والمشرک لا تتراءى نارهما» (١) أو لأن الموالين لهم كانوا منافقين. هـ.

(١) أخرجه أبو داود في (الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود) والترمذي في (السير، باب كراهة المقام بين أظهر المشركين) من حديث جرير: أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خلعهم، فاعتصم ناس بالسجود.. الحديث، وفيه: وقال: أنا برئ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا: ولم؟ لا تتراءى نارهما.

ومعناه: لا ينبغي لمسلم أن يسكن الكفار حتى إذا أوقدوا ناراً كان منهم بحيث يراها. أنظر معالم السنن للخطابي على هامش سنن أبي داود ٣ / ١٠٥.

وقال ابن عطية: من تولهم بمعتقده ودينه فهو منهم في الكفر واستحقاق النعمة والخلود في النار، ومن تولاهم بأفعاله من العَصْد ونحوه، دون معتقد ولا إخلال بإيمان، فهو منهم في المقت والمذمة الواقعة عليهم وعليه. هـ. وسئل ابن سيرين عن رجل أراد بيع داره للصاري يتخذونها كنيسة، فتلا هذه الآية: «ومن يتولهم منكم فإنه منهم». هـ. وفي أبي الحسن الصغير: أن بيع غير السلاح للعدو الكافر فسق، وبيع السلاح له كفر.

قلت: ولعله إذا قصد تقويتهم على حرب المسلمين، وأما الفداء بالسلاح إذا لم يقبلوا غيره، فيجوز في القليل دون الكثير. وأجازه سحنون مطلقاً، إذا لم يرج فداؤه بالمال. انظر الحاشية.

«إن الله لا يهدي القوم الظالمين» أي: ظلموا أنفسهم بموالة الكفار.

«فترى الذين في قلوبهم مرض» وهم المنافقون، «يسارعون فيهم» أي: في موالاتهم ومناصرتهم، «يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة» أي: يعتذرون بأنهم يخافون أن تصيبهم دائرة من الدوائر، بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار. روى أن عبادة بن الصامت قال لرسول الله ﷺ: إن لى موالى من اليهود، كثير عددهم، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم، فقال ابن أبي: إنى امرؤ أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية موالى، فنزلت الآية، قال تعالى رداً عليه: «فعسى الله أن يأتي بالفتح» لرسول الله ﷺ على أعدائه وإظهار المسلمين ونصرهم، «أو أمر من عنده»، يقطع شأفة اليهود، من القتل والإجلاء، «فيصبحوا» أي: هؤلاء المنافقون، «على ما أسروا في أنفسهم» من الكفر والنفاق، ومن مظاهرة اليهود «نادمين».

«ويقول الذين آمنوا» حينئذ - أي: حين فتح الله على رسوله وفصح سريرة المنافقين -: «أهلؤا الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم»، يقوله المؤمنون بعضهم لبعض، تعجباً من حال المنافقين وتبجحاً بما من الله عليهم من الإخلاص، أو يقولونه لليهود؛ لأن المنافقين حلفوا لهم بالمناصرة، كما حكى تعالى عنهم ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ (١) قاله البيضاوى. وقوله: «حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين». يحتمل أن يكون من كلام المؤمنين، أو من قول الله تعالى، شهادة عليهم بحبوط أعمالهم، وفيه معنى التعجب، كأنه قال: ما أحبط أعمالهم وما أخسرهم! والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تقدم مراراً النهى عن موالة الغافلين، وخصوصاً الفجار منهم، وملتحق بهم القراء المذاهلون؛ وهم فسقة الطلبة؛ الذين هم على سبيل الشيطان، والفقراء الجاهلون؛ وهم من لا شيخ لهم يصلح للتربية، والعلماء المتجمدون، فصحبة هؤلاء تقدح في صفاء البصيرة، وتخدم نور السريرة، وكل من تراه من الفقراء يميل إلى هؤلاء خشية الدوائر، ففيه نزعة من المنافقين. والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ١١ من سورة الحشر.

ثم تكلم على بقية حفظ الإيمان، فقال:

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۖ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَا يَمُرُّ بِكَ ذَلِكَ فَيُضِلَّ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۖ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

قلت: (من): شرطية، و(يرتدد)^(١): فعل الشرط، فمن قرأه بالتفكيك فعلى الأصل، ومن قرأه بالإدغام ففتحته تخفيفاً. وجملة (فسوف يأتي) : جواب، والعائد من الجملة محذوف، أى: فسوف يأتي الله بقوم مكانهم.. إلخ. و(أذلة): نعت ثان لقوم، جمع ذليل، وأتى به مع على؛ لتضمنه معنى العطف والحدو، و(لا يخافون): عطف على يجاهدون، وجملة: (وهم راكعون): حال، إن نزلت في على ﷺ، أو عطف إن كانت عامة.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه» ويرجع عنه بعد الدخول فيه، فسيأتي الله بقوم مكانهم؛ «يحبهم» فيثبتهم على دينهم، «ويحبونه» فيجاهدون من رجع عن دينه، وهم أهل اليمن، والأظهر أنهم أبو بكر الصديق وأصحابه، الذين قاتلوا أهل الردة، ويدل على ذلك الأوصاف التي وصفهم الله بها من الجد في قتالهم، والعزم عليه، التي كانت من أوصاف الصديق، وكذلك قوله: «أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين» فقد كان أبو بكر ضعيفاً في نفسه، قوياً في ذات الله، لم يخف في الله لومة لائم، حين لأمه بعض الصحابة في قتالهم.

وفي الآية إخبار بالغيب قبل وقوعه، فقد ارتد من العرب في أواخر عهد رسول الله ﷺ ثلاث فرق: بنو مدلج، وكان رئيسهم الأسود العنسي، تنبأ باليمن، واستولى على بلادهم، ثم قتله فيروز الديلمي، ليلة قبض رسول الله ﷺ من غدها، وأخبر بموته الرسول - عليه الصلاة والسلام - فسر المسلمون. وبنو حذيفة أصحاب مسيلمة الكذاب، تنبأ باليمامة، وكتب إلى رسول الله ﷺ: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد: فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك، فأجابه ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»، فحاربه أبو بكر بجند المسلمين، وقتله وحشى قاتل حمزة، وبنو أسد قوم طليحة، تنبأ فبعث إليه رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقاتله، فهرب إلى الشام، ثم أسلم وحسن إسلامه.

(١) قرأ نافع وابن عامر (يرتدد) بدالين، وقرأ الباقون (يرتد) بدال واحدة.

وفى عهد أبى بكر، بنو فزارة قوم عيينة بن حصن، وغطفان قوم قرّة بن مسلمة، وبنو سليم، وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة، وبعض تميم، قوم سجّاح المتنبة زوجة مسيلمة، وكندة قوم الأشعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين، فكفى الله أمرهم على يديه. وفى مدة عمر رضي الله عنه غسان، قوم جبلة بن الأيهم، الذى ارتد من اللطمة. فهؤلاء جملة من ارتد من العرب. فأتى الله بقوم أحبهم وأحبوه، فجاهدوهم حتى ردهم إلى دينهم. ومحبة الله للعبد: توفيقه وعصمته وتقريبه من حضرته. ومحبة العبد لله: طاعته والتحرز من معصيته، وسيأتي فى الإشارة الكلام عليها.

ثم وصفهم بقوله: «أذلة على المؤمنين» أى: عاطفين عليهم خافضين جناحهم لهم، «أعزة على الكافرين» شداد متغالبين عليهم، وهذا كقوله فيهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (١)، «يجاهدون فى سبيل الله» من ارتد عن دين الله، «ولا يخافون لومة لائم» لصلا بتهم فى دين الله، وفيه إشارة إلى خطأ من لام الصديق فى قتال أهل الردة، وقالوا له: كيف تقاتل قوما يقولون: لا إله إلا الله؟ فقال: (والله لئقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة) - فلم يلتفت إلى لومهم. «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»، الإشارة إلى ما خصهم الله به، من المحبة والأخلاق الكريمة، «والله واسع» الفضل والعطاء «عليم» بمن هو أهله.

ولما نهى عن موالة الكفار ذكر من هو أهل للموالة فقال: «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا»؛ لم يقل: أولياؤكم بالجمع، تنبيهاً على أن الرولية لله على الأصالة، ورسوله وللمؤمنين على التبع، ثم وصفهم بقوله: «الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون» أى: خاضعون لله، ولعباده متواضعون، منقادون لأحكامه، أو يتصدقون فى حال ركوعهم فى الصلاة، حرصاً على الخير ومسارة إليه، قيل: نزلت فى على - كرم الله وجهه -؛ سأله سائل وهو راكع فى صلاة، فطرح له خائمه، وقيل: عامة، وذكر الركوع بعد الصلاة؛ لأنه من أشرف أعمالها.

«ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا»، أى يتخذهم أولياء، «فإن حزب الله هم الغالبون» أى: فإنهم الغالبون، ووضع الظاهر موضع المضمّر ليكون كالبرهان عليه، فكانه قال: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، وتنوياً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم، وتعريضاً بمن يوالى غير هؤلاء، فإنه حزب الشيطان، وأصل الحزب: القوم يجتمعون لأمر حزبهم. قاله البيضاوى.

الإشارة: محبة الحق تعالى لعبده سابقة على محبته له، كما أن توبته عليه سابقة لتوبته، قال تعالى: «يحبهم ويحبونه»، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ (٢)، قال أبو يزيد رضي الله عنه: غلطت فى ابتداء أمرى فى أربعة أشياء: توهمت أنى أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه، فلما انتهيت، رأيت ذكره سبق ذكرى، ومعرفته تقدمت معرفتى، ومحبته أقدم من محبتى، وطلبه لى من قبل طلبى له. هـ.

(١) من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(٢) من الآية ١١٨ من سورة التوبة.

وفى الحكم: «أنت الذاكر من قبل الذاكرين، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعتاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين».

ومحبة الله لعبده: حفظه ورعايته، وتقريبه واصطفاه لحضرته، وقال القطب ابن مشيش - رضى الله عنه - : المحبة أخذة من الله قلباً من أحب، بما يكشف له من نور جماله، وقُدس كمال جلاله، وشراب المحبة: مزج الأوصاف بالأوصاف، والأخلاق بالأخلاق، والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماء، والنعوت بالنعوت، والأفعال بالأفعال.

قلت: ومعنى ذلك: غيبة العبد فى شهود الحق، وهو مقام الفناء، ثم قال رحمته : والشراب - أى: الشرب - سقى القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب، حتى يسكر، ويكون الشرب بالتدريب بعد التدريب والتهذيب، أى يكون شرب الخمرة شيئاً فشيئاً، ووقتاً فوقتاً، حتى يتمكن من شهود المعانى بلا فترة، فذلك الرى، وذلك بعد كمال التهذيب، فيسقى كل على قدره، فمنهم من يسقى بغير واسطة، والله سبحانه يتولى ذلك منه، (قلت: وهو نادر، والغالب عليه الانحراف)، ومنهم من يسقى من جهة الوسائط، كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين، (قلت: قوله : كالملائكة... تمثيل للوسائط، فالملائكة؛ للأنبياء، والعلماء بالله وأكابر المقربين لغيرهم)، ثم قال: فمنهم من يسكر بشهود الكأس، ولو لم يذوق بعد شيئاً، فما ظنك بعد بالذوق، وبعد بالشرب، وبعد بالرى، وبعد بالسكر بالمشروب، ١٩ ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى، كما أن السكر أيضاً كذلك. انظر بقية كلامه مع شرحه فى شرحنا لخمرة ابن الفارض.

وقال شيخنا البوزيذى رحمته : المحبة لها ثلاث مراتب: بداية ووسط ونهاية؛ فبدايتها لأهل الخدمة، كالعباد والزهاد والصالحين والعلماء المجتهدين. ووسطها لأهل الأحوال، الذين غلب عليهم الشوق حتى صدرت منهم شطحات ورقصات وأحوال غريبة ربما ينكرها أهل ظاهر الشريعة، فمنهم من يغلب عليه الجذب حتى يصطلم، ومنهم من يبقى معه شيء من الصحو، وهؤلاء تظهر عليهم كرامات وخوارق العادات، ونهايتها لأهل العرفان، أهل مقام الشهود والعيان، الذين شربوها من يد الوسائط وسكروا بها، وصحوا. هـ. بالمعنى.

وفى الورتجى ما حاصله: أن محبتهم بعد المشاهدة، وإلا لم تكن محبة حقيقة، لأن محبة الآلاء والنعماء معلولة، ولا كذلك هذه، لأن من رآه عشقه، وكيف يرجع عنه من كان مملوك القلب بعشقه لجماله؟ ولذلك لم يرددوا عن دينهم الذى هو المحبة. هـ.

وللمحبة علامات وثمرات، ذكر بعضها الحق تعالى بقوله: «أذلة على المؤمنين» أى: متواضعين عاطفين عليهم، «أعزة على الكافرين»، أى: القواطع، غالبين عليهم، «يجاهدون فى سبيل الله» أى:

أنفسهم وأهواءهم، «ولا يخافون لومة لائم»؛ إذ لا يراقبون سوى المحبوب، وليس للمحبة طريق إلا محض الفضل والكرم. «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم»؛ لكن صحبة المحبوبين عند الله من أسبابها العادية، وهم أولياء الله الذين هم حزب الله، فولايتهم والقرب منهم من أسباب القرب والمحبة، ومن موجبات النظر والغلبة؛ «ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون»

ثم نهى عن صحبة ضدهم، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قلت: (والكفار): من نصب عطف على الموصول الأول، ومن جر فعلى الموصول الثاني.

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُؤًا ولعبًا» من شدة كفرهم، وغلبة سفيهم «من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم» كاليهود والنصارى، «و» لا تتخذوا أيضا «الكفار» من المشركين «أولياء» وأصدقاء، أو: لا تتخذوا من اتخذ دينكم هُزُؤًا ولعبًا من أهل الكتاب ومن المشركين أولياء، «واتقوا الله» في مولاتهم «إن كنتم مؤمنين»؛ فإن الإيمان يقتضى الوقوف عند الأمر والنهي.

وكيف توالون من يستهزئ بدينكم، «وإذا ناديتُم إلى الصلاة اتخذوها هُزُؤًا ولعبًا»، روى أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: أحرق الله الكاذب. فدخل خادمه ذات ليلة بنار، وأمله نيام، فطار شرة في البيت، فأحرقته وأمله. وفي الآية دلالة على مشروعية الأذان من القرآن. ثم قال تعالى: «ذلك بأنهم قوم لا يعقلون»؛ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق والهُزء به، والعقل يقتضى المنع من الجهل والإقرار بالحق وتعظيمه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد حذر الحق جل جلاله من صحبة الأشرار، ويفهم منه الترغيب في موالاة الأخيار، وهم الصوفية الأبرار، ففي صحبتهم سر كبير وخير كثير، ولابن عباد رحمته في نظم الحكم:

إِنَّ التَّوَّاعِيَّ فِضْلُهُ لَا يُنْكَرُ	وَأَنْ خَلَا مِنْ شُرْطِهِ لَا يُشْكِرُ
وَالشَّرِيطُ فِيهِ أَنْ تَوَاضَعَ الْعَارِفُ	عَنِ الْحُظُوظِ وَاللَّحُظِ صَارِفًا
مَقَالَهُ وَحَالَهُ سَيِّئَانِ	مَادَعُونَا إِلَّا إِلَى الرَّحْمَانِ
أَنْوَارُهُ دَائِمَةُ السَّرَايَةِ	فِيكَ وَقَدْ حَفَّتْ بِهِ الرُّعَايَةِ

وفي الحكم: «لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله». وبالله التوفيق.

ثم ويخ أهل الكتاب، فقال:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ

فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قلت: نقم - بفتح القاف - ينقم - بالكسر -، بمعنى: عاب وأنكر، وانتقم إذا كافأه على إنكاره، ويقال: نقم - بالكسر - ينقم - بالفتح - وقرئ به في الشاذ، و (أن أكثركم): عطف على (آمنا) أى: ماتعيبون منا إلا أنا مؤمنون وأنتم فاسقون.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا﴾ أى: ماتنكرون علينا وتعيبوننا منا ﴿إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل﴾ من الكتب كلها، ﴿وأن أكثركم﴾ خارجون عن هذا الإيمان، وهذا أمر لا ينكر ولا يعاب، ونظير هذا في الاستثناء العجيب قول النابغة:

لا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب.

الإشارة: أهل الخصوصية يقرون أحوال أهل الشريعة كلها، ولا ينكرون على أهلها شيئاً من أمورهم، وأهل الشريعة ينكرون كثيراً من أحوال أهل الخصوصية ويعيبونها عليهم، وهى من أفضل القربات إلى الله عندهم، فيقولون لهم: هل تنقمون منا إلا أن آمنا بشريعتكم، وأنتم خارجون عن حقيقتنا ورؤية خصوصيتنا، لكن أهل الشريعة معذورون في إنكارهم، إذ ذاك مبلغهم من العلم، فإن كان إنكارهم غيراً على مافهموا من الدين فعذرهم صحيح، وإن كان حسداً أو حمية فهم ممقوتون عند الله. والله تعالى أعلم.

ولما جاء إلى رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فقالوا يامحمد: أخبرنا بمن تؤمن من الرسل، فتلا عليهم: ﴿قل آمنا بالله﴾ إلى قوله: ﴿وما أوتى موسى وعيسى﴾ (١) فلما سمعوا ذكر عيسى قالوا: مارأينا شراً من دينك، فأنزل الله تعالى في الرد عليهم:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ

وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

قلت: مشاركة اسم التفضيل هنا باعتبار زعمهم واعتقادهم، وإلا فلا مشاركة بين المسلمين وبينهم في الشر والضلال، و(مثوبة): تمييز عن شر، وضع موضع الجزاء، وأصل المثوبة: فى الخير، والعقوبة: فى الشر، فوضع هنا المثوبة موضع العقوبة تهكماً بهم، كقوله:

نَحْيَةُ بَيْنَهُمْ، ضَرْبٌ وَجِيعٌ.

(١) الآية ٨٤ من سورة آل عمران.

و(من لعنة الله): إما خبر، أى: هو مَنْ لعنه الله، أو بدل من شر، ولا بد من حذف مضاف، إما من الأول أو الثانى، أى: بشر من أهل ذلك الدين من لعنه الله، أو دين من لعنه الله.

ومن قرأ: (عبد) بفتح الباء، ففعل ماض، صلة لموصول محذوف، أى: ومن عبد، و (الطاغوت): مفعول به، ومن قرأ بضم الباء، فاسم للمبالغة، كيقظ، أى: كثير اليقظة، وهو عطف على القردة، والطاغوت مضاف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ لَهُمْ: «هَلْ» أَخْبِرْكُمْ بِأَقْبَحِ مِنْ ذَلِكَ الدِّينِ الَّذِي قُلْتُمْ مَا رَأَيْتُمْ شَرًّا مِنْهُ، هُوَ دِينُ «مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ»، أَوْ نَفْسٍ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، أَيْ: أَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ «وَغَضِبَ عَلَيْهِ» بِكُفْرِهِ وَعَصْيَانِهِ، وَهُمْ الْيَهُودُ، «وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقَرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ» أَيْ: مَسَخَ بَعْضَهُمْ قَرْدَةً وَخَنَازِيرَ، وَهُمْ أَصْحَابُ السَّبْتِ، مَسَخَ شَبَابَهُمْ قَرْدَةً، وَشَبَابَهُمْ خَنَازِيرَ، «وَجَعَلَ مِنْهُمْ أَيْضًا مِنْ «عِبَادِ الطَّاغُوتِ»، وَهُمْ عِبَادُ الْعَجَلِ، أَوِ الْكَهَنَةُ، أَوْ كُلٌّ مِنْ أَطَاعَرِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، «أُولَئِكَ شَرُّ مَكَانًا» أَيْ: أَقْبَحُ مَكَانًا، أَيْ: أَقْبَحُ مَرْتَبَةٍ وَأَخْسُ حَالًا، جَعَلَ مَكَانَهُمْ شَرًّا، لِيَكُونَ أَبْلَغُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى شَرِّيَّتِهِمْ، «وَهُمْ أَيْضًا «أَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ» أَيْ: عَنْ وَسْطِ الطَّرِيقِ، بَلْ حَادُوا عَنْهُ إِلَى طَرَفٍ تَفْرِيطٍ أَوْ إِفْرَاطٍ، حَيْثُ تَرَكُوا طَرِيقَ الْإِسْلَامِ، الَّذِي هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ.

الإشارة: من كان متلطفًا بالمعاصي والذنوب، وباطنه محشو بالمساوي والعيوب؛ كالحسد والجاه وحب الدنيا وسائر أمراض القلوب، ثم جعل يطعن في طريق الخصوص، يقال له: هل أنبيئك بشر من ذلك، هو من أبعد الله بسبب المعاصي والذنوب، وغضب عليه بسبب أمراض القلوب، ومسح قلبه عن مطالعة أنوار الغيوب، فهذا أقبح مكانًا وأضل سبيلًا، فكل من أولع بالطعن على الذاكرين، يمسح قلبه بالغفلة والقسوة، حتى يفضي إلى سوء الخاتمة. والعياذ بالله.

ثم رسمهم الحق تعالى بالنفاق، أى: اليهود، فقال:

﴿وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ الْقَوْلُ أَمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾

قلت: جملة: (وقد دخلوا)، وجملة: (وهم قد خرجوا)، حالان من فاعل (قالوا)، ودخلت (قد) على دخلوا وخرجوا؛ تقريباً للماضي من الحال، ليصح وقوعه حالاً؛ أى: ذلك حالهم فى دخولهم وخرجهم على الدوام، وأفادت أيضاً - لما فيها من التوقع - أن أمارات النفاق كانت لائحة عليهم.

يقول الحق جل جلاله فى ذكر مساوي اليهود: ﴿وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ﴾ ودخلوا عليكم، أظهروا الوفاق لكم، و ﴿قالوا آمنا﴾ بدينكم ﴿و﴾ هم ﴿قد دخلوا﴾ عليكم ملتبسين ﴿بالكفر﴾ فى قلوبهم، ﴿وهم قد خرجوا﴾ أيضاً ﴿به﴾، فلم ينفع فيهم وعظ ولا تذكير، بل كتموا النفاق وأظهروا الوفاق، ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾؛ فيفضحهم على رؤوس الأشهاد.

الإشارة: من سبق له الطرد والإبعاد لا تنفعه خلطة أهل المحبة والوداد، بل يخرج من عندهم كما دخل عليهم، لا ينفع فيه وعظ ولا تذكير، ولا ينجح فيه زاجر ولا نذير، وأما من سبقت له العناية فلا يخرج من عندهم إلا مصحوباً بالهداية والرعاية، إذا كان في أسفل سافلين أصبح في أعلى عليين؛ لأنهم قوم لا يشقى جليسهم. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية مساوئ اليهود، فقال:

﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قلت: (لولا): إذا دخلت على الماضي أفادت التوبيخ، وإذا دخلت على المستقبل أفادت التحضيض.

يقول الحق جل جلاله: «وترى» يا محمد، أو يامن تصح منه الرؤية «كثيراً» من اليهود «يسارعون» في الإثم أي: في الذنوب والمعاصي المتعلقة بهم في أنفسهم، «والعدوان» المتعلقة بغيرهم، كالتعدي على أموال الغير وأعراضهم وأبدانهم، «وأكلهم السحت»: الحرام؛ كالرشا والربا وغير ذلك، «لبئس ما كانوا يعملون» أي: قبح عملهم بذلك، وتناهى في القبح.

«لولا ينهاهم» أي: هلا ينهاهم «الريانيون» أي: عبادهم ورهبانهم، (والأحبار) أي: علماءهم وأساقفتهم، «عن قولهم الإثم» أي: الكذب، «وأكلهم السحت»: الحرام، «لبئس ما كانوا يصنعون» من السكوت عنهم، وعدم الإنكار عليهم، عبر أولاً بيعلمون وثانياً بيصنعون؛ لأن الصنع أبلغ، ولأن الصنع عمل بعد تدريب وتدقيق وتحري إجادته وجودته، بخلاف العمل، ولا شك أن ترك التغيير والسكوت على المعاصي من العلماء وأولى الأمر أقبح وأشد من موقعة المعاصي، فكان جديراً بأبلغ الذم، وأيضاً: ترك التغيير لا يخلو من تصنع، فناسب التعبير بيصنعون، وفي الحديث عنه ﷺ: «مَنْ رَجُلٍ يَجَاوِرُ قَوْمًا فَيَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ إِلَّا أَوْشَكَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَعْصِيَهُمْ مِنْهُ بِعِقَابٍ». وقد قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (١)، فالويل الذي يترتب على ترك الحسبة أعظم من الويل الذي يترتب على المعصية، فكان التوبيخ على ترك الحسبة أعظم.

(١) من الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

ثم نعى عليهم مقالاتهم الشنيعة، التى هى من جملة قولهم الإثم، فقال: «وقالت اليهود يد الله مغلولة» أى: مقبوضة عن بسط الرزق . روى أن اليهود أصابتهم سنة جدبة بشؤم تكذيبهم للنبي ﷺ فقالوا هذه المقالة الشنيعة، والذي قالها فنحاص، ونسبت إلى جملتهم؛ لأنهم رضوا بقوله، فغل اليد كناية عن البخل، وبسطها كناية عن الجود، ومنه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (١).

ثم رد عليهم فقال: «غُلَّت أيديهم»، يحتمل أن يكون دعاءً أو خبراً، ويحتمل أن يكون فى الدنيا بالأسر والقبض، أو فى الآخرة بجعل الأغلال فيها إلى عنقهم فى جهنم، قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أى: نعمه مبسطة على عباده، سحاء عليهم، الليل والنهار، وإنما ثلثت اليدين هنا، وأفردت فى قول اليهود؛ ليكون أبلغ فى الرد عليهم، ومبالغة فى وصفه تعالى بالجود والكرم، كما تقول: فلان يعطى بكلتا يديه؛ إذا كان عظيم السخاء، أو كناية عن نعم الدنيا والآخرة، أو عن ما يعطيه استدارجاً وما يعطيه للإكرام. ثم أكد بقوله: «يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ» أى: هو مختار فى إنفاقه، يوسع تارة ويضيق تارة أخرى، على حسب مشيئته ومقتضى حكمته.

ولما عميت بصيرتهم بالكفر، وقست قلوبهم بالذنوب، كانوا كلما ازدادوا تذكيراً بالقرآن، زادوا فى العتو والطغيان، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾؛ إذ هم متعصبون بالكفر والطغيان، ويزدادون طغياناً وكُفراً بما يسمعون من القرآن، كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح للأصحاء.

ومن مساوئهم أيضاً: تفريق قلوبهم بالعداوة والشحناء، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ فلا تتوافق قلوبهم ولا تجتمع آراؤهم؛ «كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله» أى: كلما أرادوا حرب الرسول - عليه الصلاة والسلام - وإثارة شر عليه، ردهم الله، وأبطل كيدهم، بأن أوقع بينهم منازعة كف بها شرهم، أو: كلما أرادوا حرب عدولهم هزمهم الله، فإنهم لما خالفوا حكم التوراة سلط عليهم بختنصر، ثم أفسدوا فسلط عليهم فطرس الرومى، ثم أفسدوا فسلط عليهم المجوس، ثم أفسدوا فسلط عليهم المسلمون. فكان شأنهم الفساد، ولذلك قال تعالى فيهم: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أى: الفساد بإثارة الحروب والفتن، وهتك المحارم، واجتهادهم فى الحيل والخدع للمسلمين، «والله لا يحب المفسدين» أى: لا يرضى فعلهم فلا يجازيهم إلا شراً وعقوبة.

(١) من الآية ٢٩ من سورة الإسراء.

الإشارة: قال الورتجبي: في الآية تحذير الريانيين العارفين بالله وبحقوق الله، والأخبار العلماء بالله وبعذاب الله لمن عصاه، ويثواب الله لمن أطاعه؛ لئلا يسكنوا عن الزجر للمبطلين والمغالطين، المائلين عن طريق الحق إلى طريق النفس، ويبن تعالى أن من داهن في دينه عذب وإن كان ريانياً. هـ. وفي بعض الأثر: «إذا رأى العالم المنكر وسكت، فعليه لعنة الله». والذي يظهر أن نهى الريانيين يكون بالهمة والحال، كقضية معروف الكرخي وغيره، ونهى الأخبار يكون بالمقال، وقد تقدم هذا. والله تعالى أعلم.

ثم ندبهم إلى الإسلام فقال:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: «ولو أن أهل الكتاب: اليهود والنصارى، «آمنوا» بمحمد ﷺ وبما جاء به، «واتقوا» مذكرنا من معاصيهم ومساويهم، «لكفرنا عنهم سيئاتهم» المتقدمة، ولم نؤاخذهم بها، «ولأدخلناهم جنات النعيم» مع المؤمنين، وفيه تنبيه على أن الإسلام يجب ما قبله ولو عظم، وأن الكتابي لا يدخل الجنة إلا أن يسلم.

«ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل» بالإيمان بما فيهما، وإذاعة علمهما، والقيام بأحكامهما، من غير تفريق بينهما، وآمنوا بما «أنزل إليهم من ربهم»، يعني: بسائر الكتب المنزلة، ومن جملتها القرآن العظيم، فإنهم لما كفوا بالإيمان بها صارت كأنها منزلة عليهم، فلو فعلوا ذلك «لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم» أي: لوسعنا عليهم أرزاقهم، ووسطنا عليهم النعم؛ بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض، أو: لأكلوا من فوقهم بكثرة ثمرة الأشجار، ومن تحت أرجلهم بكثرة الزروع، أو من فوقهم ما يجنون من ثمار أشجارهم، ومن تحت أرجلهم ما يتساقط منها، والمراد: بيان علة قبض الرزق عنهم، وأن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم، لا لقصور القدرة عن ذلك.

ولو أنهم أقاموا مذكرنا لوسعنا عليهم، ولحصل لهم خير الدارين، «منهم أمة مقتصدة» أي: جماعة عادلة غير غالية ولا مقصرة، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ، «وكثير منهم ساء ما يعملون» أي: قبح عملهم، وفيه معنى التعجب، أي: ما أسوأ عملهم! وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراض عنه، والإفراط في العداوة. قاله

البيضاوى. قال فى الحاشية: وفى الآية شاهد لما ورد من افتراق أهل الكتابين على فرق، كما أن شاهد افتراق هذه الأمة آية: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ (١)، وهذه هى الناجية من هذه الأمة هـ. يعنى التى تهدى بالحق إلى الحق، وتعديل به فى جميع الأمور.

الإشارة: كل من حقق الإيمان الكامل والتقوى الكاملة، وسع الله عليه فى أرزاق العلوم، وفتحت له مخازن الفهم، ودخل جنة المعارف، فلم يشتق إلى جنة الزخارف، وقال الورتجى: لو كانوا على محل التحقيق فى المعرفة لأكلوا أرزاق الله بالله من خزائن غيبه، كأصحاب المن والسلوى والمائدة من السماء، ويفتح لهم كنوز الأرض وهم على ذلك، بإسقاط رؤية الوسائط هـ.

وقال القشيري: لو سلكوا سبيل الطاعات لوسعنا عليهم أسباب المعيشة، وسهلنا لهم الحال، إن ضربوا يمناً، لا يلقون غير اليمن، وإن ضربوا يسرة، لا يجدون إلا اليسر هـ.

ثم أمر رسوله بالتبليغ من غير مبالاة بأهل التشغيب، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٧)

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الرسول بلغ» جميع «ما أنزل إليك من ربك» غير مراقب أحداً ولا خائف مكرهاً، «وان لم تفعل»؛ بأن لم تبلغ جميع ما أمرك وكنمت شيئاً منه، «فما بلغت رسالته» أى: كأنك ما بلغت شيئاً من رسالة ربك؛ لأن كتمان بعضها يخل بجميعها، كترك بعض أركان الصلاة. وأيضاً كتمان البعض يخل بالأمانة الواجبة فى حق الرسل، فتنتقض الدعوة للإخلاص بالأمانة، وذلك محال. ولا يمنعك أيها الرسول عن التبليغ خوف الإذابة فإن «الله يعصمك من الناس» بضمان الله وحفظه، «إن الله لا يهدي القوم الكافرين» أى: لا يمكنهم مما يريدونه منك. وقد قصده قوم بالقتل مراراً، فمنعهم الله من ذلك كما فى السير عن النبي ﷺ: «بعثنى الله برسالته، فضيقت بها ذرعاً، فأوحى الله لى: إن لم تبلغ رسالتي عذبتك، وضمن لى العصمة فقويت» (٢).

(١) من الآية ١٨١ من سورة الأعراف.

(٢) عزاء المناوى فى الفتح السماوى ٢ / ٥٧٤ لاسحاق بن راهويه فى مسنده من حديث أبى هريرة.

وعن أنس: كان رسول الله ﷺ يحرس، حتى نزلت، فأخرج رأسه من قبة آدم، فقال: «انصرفوا يا أيها الناس؛ فقد عصمتني الله من الناس»^(١). وظاهر الآية يوجب تبليغ جميع ما أنزل الله. ولعل المراد تبليغ ما يتعلق به مصالح العباد، وقصد بإنزاله إطلاعهم عليه، فإن من الأسرار الإلهية ما يحرم إفشاؤه. قاله البيضاوي.

الإشارة: قال الورتجبي: أمره بإبلاغ ما أنزل إليه من الذي يتعلق بأحكام العبودية، ولم يأمرهم بأنه يعرفهم أسرار ما بينه وبين الله، وما بين الله وبين أنبيائه وأوليائه. ثم قال: (والله يعصمك) أي: يعصمك أن يوقعك أحد في التعمية والغلط والحيل في طريقك إلى، وهذا لكونه مختاراً بالرسالة، وحقائق الرسالة في الرسول: ظهور أنوار الربوبية في قلبه، وبيان أحكام العبودية في سوره. وقال الأستاذ، يعني القشيري: يقال في قوله: (والله يعصمك من الناس) أي: حتى لا تفرق في بحر التوهم، بل تشاهدكم كما هم؛ وجوداً بين طرفي العدم. انتهى نقل الورتجبي.

وقال القشيري أيضاً: لا تكتم شيئاً مما أوحينا إليك ملاحظة غير، إذ لا غير في التحقيق إلا رسوماً موضوعة، أحكام القدرة عليها جارية. ثم قال: (والله يعصمك) أي: يعصم ظاهرك من أن يمسك من أذاهم شيء، فلم يتسلط عليه بعد هذا عذر، أي: وما وقع له من الشج وغيره كان قبل ذلك، وقيل: المراد عصمته من القتل، ثم قال: ونصون سرك عنهم، حتى لا يقع على إحساسهم. وقال شيخنا السلمي: قيل: يعصمك منهم أن يكون منك إليهم التفات، أو يكون لك بهم اشتغال. انتهى.

قلت: صدق الباطن، لا ينفك عنه من أول الامر؛ لأنه من ضروريات كونه رسول الله بالله، وهذا قد يتحقق للمأذون من أتباعه، فضلاً عنه، والظاهر ما صدر به من عصمة ظاهره، أو أن يقع خلل في طريقه؛ بتمويه أو غلط أو حيلة، كما أشار إليه الورتجبي. قلله دره. قاله المحشى الفاسي. والله تعالى أعلم.

ثم أبطل دين من حاد عن رسالة نبيه، فقال:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ

مِّن رَّبِّكُمْ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: «قل» يا محمد: «يا أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى، «لستم على شيء» أي: لستم على دين يعتد به، «حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم» على لسان محمد ﷺ، ومن إقامتها الإيمان بمحمد ﷺ والإذعان لحكمه، فإن الكتب الإلهية بأسرها، أمرت بالإيمان والإذعان، لمن صدقته المعجزة، وهي ناطقة بوجوب الطاعة له، والمراد بإقامة الكتابين: إقامة أصولهما ومالم ينسخ من فروعهما، لا جميعهما. والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الترمذي في (التفسير، سورة المائدة) والحاكم في (التفسير ٢ / ٣١٣)، وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في الدلائل (باب قول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

الإشارة : ما قيل لأهل الكتاب يقال لهذه الأمة المحمدية على طريق الإشارة، فيقال لهم: لستم على شيء، يُعبأ به من أعمالكم وأحوالكم، حتى تقيموا كتابكم القرآن، فتحلوا حلاله، وتحرموا حرامه، وتقفوا عند حدوده، وتمثلوا أوامره، وتجتنبوا نواهيه، وتقيموا - أيضاً - سنة نبيكم؛ فتقتدوا بأفعاله، وتتأدبوا بآدابه، وتتخلقوا بأخلاقه، على جهد الاستطاعة، ولذلك قال بعض السلف: ليس على في القرآن أشد من هذه الآية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ الآية. كما في البخارى (١).

ثم ذكر عثر اليهود وطغيانهم، فقال:

﴿... وَلِيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله : «وليزیدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا» على ما عندهم، فلا تحزن عليهم بزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبلغه إليهم، فإن ضرر ذلك لاحق بهم، لا يخطأهم، قال ابن عباس: جاء رسول الله ﷺ رافع بن حارثة وسلام بن مشكم وملك بن الصيف ورافع بن حريمة في جماعة من اليهود، فقالوا: يا محمد، ألسنت تزعم أنك على ملة إبراهيم، وأنت مؤمن بالتوراة وينبوة موسى، وأن جميع ذلك حق؟ قال: بلى، ولكنكم أحدثتم وكنتمم وغيرتم. فقالوا: إنا نأخذ بما في أيدينا فإنه الحق، ولا نصدقك ولا نتبعك، فنزلت فيهم هذه الآية.

الإشارة : من شأن أهل المحبة والاعتقاد، الذين سبقت لهم من الله العناية والوداد، إذا ازداد على أسيانهم فيض علوم وأنوار وأسرار؛ زادهم ذلك يقينا وإيمانا وعرفانا، يجدون حلاوة ذلك في قلوبهم وأسرارهم؛ فيزدادون قربا وشهودا، وأهل العناد الذين سبق لهم من الله الطرد والبعد؛ إذا سمعوا بزيادة علوم وأنوار على أولياء الله، زادهم ذلك طغيانا وبعدا، فلا ينبغي الالتفات إليهم، ولا الاحتفال بشأنهم، فإن الله كاف شرهم، وبالله التوفيق.

ثم رغب أهل الملل في الإسلام، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

قلت : (والصابئون) : مبتدأ، والخبر محذوف، أى: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون كذلك. انظر البيضاوى وابن هشام.

(١) القائل هو سيدنا سفيان بن عيينة، ونكره البخارى في (الرقاق - باب الرجاء والخوف).

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾: قوم بين النصارى والمجوس، أو عباد الكواكب، أو قوم بقرا على دين نوح - عليه السلام - ﴿وَالنَّصَارَى﴾: قوم عيسى، ﴿مَنْ آمَنَ﴾ منهم ﴿بِالله﴾ إيماناً حقيقياً؛ بلا شرك ولا تفريق، وآمن باليوم الآخر، ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، قال ابن عباس: نسخها: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(١)، وقيل: إن هؤلاء الطوائف من آمن منهم إيماناً صحيحاً فله أجره، فيكون في حق المؤمنين: الثبات عليه إلى الموت، وفي حق غيرهم: الدخول في الإسلام، فلا نسخ. وقيل: إنها فيمن كان قبل بعث النبي ﷺ فلا نسخ أيضاً. قاله ابن جزى.

الإشارة: الذي طلب الله من العباد ورغبتهم في تحصيله، وجعله سبباً للنجاة من كل هول في الدنيا والآخرة ثلاثة أمور: أحدها: تحقيق الإيمان بالله، والترقى فيه إلى محل شهود المعبود، الثاني: تحقيق الإيمان بالبعث وما بعده، حتى يكون نصب عينيه، ويقر به كأنه واقع يشاهده؛ إذ كل آت قريب. والثالث: إتقان العمل إظهاراً للعبودية، وتعظيماً لكمال الربوبية، على قدر الاستطاعة من غير تفريط ولا إفراط، وبالله التوفيق.

ثم خص اليهود بالعتاب لعظم جرأتهم، فقال:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمُّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمُّوْا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

قلت: المضارع إذا وقع بعد العلم وجب إهمال (أن) معه، فتكون مخففة، وإن وقعت بعد الظن يصح فيها الوجهان، فمن قرأ: (وحسبوا ألا تكون) بالرفع، فإن مخففة، ومن قرأ بالنصب فإن مصدرية. والفرق بين العلم والظن، أن علم العبد إنما يتعلق بالحال، و (أن) تخلص للاستقبال، فلا يصح وقوعها بعد العلم، فأهملت وكانت مخففة من الثقيلة، بخلاف الظن؛ فيتعلق بالحال والاستقبال، فصح وقوع (أن) بعده. و (كلما): ظرف لكذبوا أو يقتلون، و (كثير): بدل من فاعل عموا وصموا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أن يعملوا بأحكام التوراة، ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا﴾ يجددون العهد ويحثون على الوفاء به، ثم إنهم طغوا وعتوا؛ ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ من عند الله ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ من الشرائع التي تخالف أهواءهم ومشاق الطاعة، ﴿فَرِيقًا﴾ منهم كذبوهم ﴿وَفَرِيقًا﴾ يقتلونهم، أي: كذبوا فريقاً كداود وسليمان، وفريقاً قتلوهم بعد تكذيبهم كزكريا ويحيى، وقصدوا قتل عيسى عليه السلام فليس ما فعلوا معك ببدع منهم، فلهم سلف في ذلك.

(١) من الآية ٨٥ من سورة آل عمران.

«وحسبوا» أى: ظنوا «ألا تكون فتنة» أى: لا يقع بهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء - عليهم السلام - ، وتكذيبهم ، «فعموا» عن أدلة الهدى، أو عن الدين، «وصموا» عن استماع الوعظ والتذكير، كما فعلوا حين عبدوا العجل، «ثم تاب الله عليهم» لما تابوا، «ثم عموا وصموا» لما قتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء، واستمر على ذلك «كثير منهم»، وقليل منهم بقوا على العهد «والله بصير بما يعملون» فيجازيهم وفق أعمالهم.

الإشارة: لقد أخذ الله العهد على جميع بنى آدم فى شأن حمل الأمانة، التى حملها أبوه آدم، وبعث الأنبياء والأولياء يجددون العهد فى حملها، ويعرفون الناس بشأنها، وهى المعرفة الخاصة، التى هى شهود عظمة الربوبية فى مظاهر العبودية، وحملها لا يكون إلا بمخالفة الهوى وخرق عوائد النفوس، ولا يطبقها إلا الخصوص، فلذلك كثر الإنكار على الأنبياء والأولياء؛ إذ لم يأت أحد بخرق العوائد إلا عودى وأنكر، فكلما جاءهم رسول أو ولى بما لا تهوى أنفسهم فريقاً منهم كذبوا وفريقاً يقتلون، وظنوا أن الله لا يعاقبهم على ذلك، ولا تصيبهم فتنة فى قلوبهم على ما هنالك، فعموا عن مشاهدة أنوار الحق، وصموا عن يذكرهم بالحق، وقد تلمع لهم تارة قيس من أنوارهم، فيتوبون، ثم يصرون على الإنكار. والله بصير بما يعملون.

ثم ذكر مساوى النصارى، فقال:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِىْ إِبْرَاهِيْمَ ۖ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمِمَّنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُوا لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ أَنْظِرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرَانِ يُوقِفُوكَ ۝٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٧٦﴾

يقول الحق جل جلاله: «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم»؛ لما رأوا على يديه من الخوارق، «وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم» المعنى: لقد كفر من اتخذ عيسى إلهاً مع أنه كان يتبرأ من هذا الاعتقاد، ويقول لبني إسرائيل: اعبدوا الله خالقى وخالقكم.

والمشهور في الأخبار، أن النصارى هم الذين اعتقدوا هذا الاعتقاد دون بنى إسرائيل، نعم، أصل دخول هذه الشبهة على النصارى من يهودى يقال له: بولس، حسداً منه، وذلك أنه دخل في دينهم، وفرق أموالهم، وتأهب للتعبد معهم، ثم سار إلى بيت المقدس وقطع نفسه تقريباً عند قبرى مريم وعيسى - عليهما السلام - في زعمهم، وكان معه رجلان اسمهما: يعقوب وناسور، فأخذ يعلمهما ذلك الفساد ويقول لهما : عيسى هو الله أو ابن الله، فلما قطع نفسه صار الرجلان يفسيان ذلك عنه، فشاع مذهب الرجلين، وكان منهما الطائفة اليعقوبية والناسورية.

ثم هددهم على الشرك فقال، أى: عيسى: «إنه من يشرك بالله» في عبادته، أو فيما يختص به من الصفات والأفعال، «فقد حرم الله عليه الجنة» أى: يمنع من دخولها؛ لأنها دار الموحدين، «وماواه النار» أى: محله النار، لأنها معدة للمشركين، «وما للظالمين من أنصار» أى: ومالهم أحد ينصرهم من النار. ووضع المظهر موضع المضمهر، تسجيلاً على أنهم ظلموا بالإشراك، وعدلوا عن طريق الحق، وهو يحتمل أن يكون من تمام كلام عيسى عليه السلام، أو من كلام الله تعالى.

ثم ذكر تعالى صنفاً آخر منهم، فقال: «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة» أى: أحد ثلاثة، عيسى وأمه وهو ثالثهم، أو أحد الأقانيم الثلاثة، الأب والابن وروح القدس، يريدون بالأب الذات، وبالابن العلم، وروح القدس الحياة، لكن في إطلاق هذا اللفظ إيهام وإيقاع للغير في الكفر، وهذه المقالة - أعنى التثليث، هى قوله النسطورية والملكانية، وماسبق في قوله: «إن الله هو المسيح» قول اليعقوبية، القائلة بالاتحاد، وكلهم ضالون مضلون، «وما من إله إلا إله واحد» فى ذاته وصفاته وأفعاله، لا شريك له فى ألوهيته، متصلاً ولا منفصلاً، «وإن لم ينتهوا عما يقولون»، ولم يوحدا «ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم» أى: ليمس الذين بقوا منهم على الكفر ولم يتوبوا، عذاب موجه.

«أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه» أى: أفلا يرجعون عن تلك العقائد الزائفة والأقوال الفاسدة، ويستغفرونه بالتوحيد والتوبة عن الاتحاد والحلول، فإن تابوا غفر الله لهم، «والله غفور رحيم». وهذا الاستفهام: تعجب من إصرارهم، مع كون التوبة مقبولة منهم.

ثم رد عليهم بقوله: «ما المسيح ابن مريم إلا رسول» بشر «قد خلت من قبله الرسل»، وخصه الله بآيات، كما خصهم بها، فإن كان قد أحيا الله الموتى على يديه، فقد أحيا العصى، وجعلها حية تسعى على يد موسى، بل هو أعجب، وإن كان قد خلقه الله من غير أب، فقد خلق آدم من غير أب وأم، وهو أغرب، «وأمه صديقة» فقط، كسائر النساء اللاتى يلزمن الصدق أو التصديق، «كانا يأكلان الطعام» ويفتقران إليه افتقار

الحيوانات، قال البيضاوي: بين أولاً أقصى مالهما من الكمال، ودل أنه لا يوجب لهما ألوهية؛ لأن كثيراً من الناس يشاركنهما في مثله، ثم نبه على نقصهما، وذكر ما ينافي الربوبية ويقتضي أن يكون من عداد المركبات الكائنة الفاسدة، أي: القابلة للفساد، ثم عجب ممن يدعى الربوبية لهما مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة، فقال: «انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنا يوفكون» أي: كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمله، و (ثم) للتفاوت بين العجبين، أي: أن بياننا للآيات عجب، وإعراضهم عنها أعجب. هـ

ثم أبطل عبادتهم لعيسى عليه السلام فقال: «قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً» بل هو عاجز عن صرفه عن نفسه وجلب الخير لها، فكيف يقدر أن يدفعه عن غيره؟ وعبر عنه بما، دون (من) - إشارة إلى أنه من جنس مالا يعقل، وما كان مشاركاً في الحقيقة لجنس مالا يعقل، يكون معزولاً عن الألوهية، وإنما قدم الضر؛ لأن التحرز منه أهم من تحرى النفع، ثم هددهم بقوله: «والله هو السميع العليم» بالأقوال والعقائد، فيجازي عليهما، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد أن يصفى مشرب توحيده، ويعتنى بتربية يقينه، بصحبة أهل اليقين، وهم أهل التوحيد الخاص، فيترقى من توحيد الأفعال إلى توحيد الصفات، ومن توحيد الصفات إلى توحيد الذات، فنهاية توحيد الصالحين والعلماء المجتهدين تحقيق توحيد الأفعال، وهو ألا يرى فاعلاً إلا الله، لا فاعل سواه، وثمرة هذا التوحيد: الاعتماد على الله، والثقة بالله، وسقوط خوف الخلق من قلبه، لأنه يراهم كالألات، والقدرة تحركهم، ليس بيدهم نفع ولا ضرر، عاجزون عن أنفسهم فكيف عن غيرهم؟ ونهاية توحيد العباد والزهاد والناسكين المنقطعين إلى الله تعالى توحيد الصفات، فلا يرون قادراً ولا مريداً ولا عالماً ولا حياً ولا سميعاً ولا بصيراً ولا متكلماً إلا الله، قد انتفت عنه صفات الحدث وبقيت صفات القدم. وثمرة هذا التوحيد: الانحياش من الخلق والتأنس بالملك الحق، وحلاوة الطاعات ولذيق المناجات. ونهاية توحيد الواصلين من العارفين والمريدين السائرين: توحيد الذات؛ فلا يشهدون إلا الله، ولا يرون معه سواه. قال بعضهم: لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع، فإنه لا غير معه حتى أشهده. وقال شاعرهم:

مَذْ عَرَفْتُ الْإِلَهَ لَمْ أَرْ غَيْراً وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ
مَذْ تَجَمَّعْتُ مَا خَشِيتُ افْتِرَاقاً فَأَنَا الْيَوْمَ وَاصِلٌ مَجْمُوعُ

وقال في التلويز: أبى المحققون أن يشهدوا مع الله سواه؛ لما حققهم به من شهود الأحدية وإحاطة القيومية. هـ. وفي الحكم: «الأكوان ثابتة بإثباته، محوطة بأحدية ذاته». وهؤلاء هم الصديقون المقربون. نفعنا الله بذكرهم، وخرطنا في سلكهم. آمين.

ثم نهى أهل الكتاب عن الغلو في عيسى، فقال:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٧٧)

يقول الحق جل جلاله: «يا أهل الكتاب» أي: النصارى، «لا تغلوا في دينكم» وتقولوا قولاً غير الحق؛ وهو اعتقادكم في عيسى أنه إله، أو أنه لغير رشفة، ولا تفرطوا، «ولا تتبعوا أهواء قوم» سلفوا قبلكم، وهم أئمتكم في الكفر، «قد ضلوا من قبل» أي: من قبل مبعث محمد ﷺ، «وأضلوا» أناساً «كثيراً»؛ حملوهم على الاعتقاد الفاسد في عيسى وأمه، فقلدوهم وضلوا معهم، «وضلوا عن سواء السبيل» أي: عن قصد السبيل المستقيم، وهو الإسلام بعد مبعثه ﷺ، وقيل: الضلال الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل، والثاني إشارة إلى ضلالهم عما جاء به الشرع. قاله البيضاوي.

الإشارة: الغلو كله مذموم كما تقدم، وخير الأمور أوسطها، كما تقدم. وقد رخص في الغلو في ثلاثة أمور: أحدها: في مدح النبي ﷺ فلا بأس أن يبالغ فيه ما لم يخرج به عن طور البشرية، وهذا غلو ممدوح، مقرب إلى الله تعالى، قال في بردة المديح:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

الثاني: في مدح الأشياخ والأولياء، ما لم يخرجهم أيضاً عن طورهم، أو يفض من مرتبة بعضهم، فقد رخصوا للمريد أن يبالغ في مدح شيخه، ويتغالى فيه، بالقيدين المتقدمين؛ لأن ذلك يقربه من حضرة الحق تعالى. والثالث: في تعظيم الحق جل جلاله. وهذا لا قيد فيه ولا حصر. حدث عن البحر ولا حرج، إذا كان ممن يحسن العبارة ويتقن الإشارة، بحيث لا يومهم نقصاً ولا حلولاً. وبالله التوفيق.

ولما ذكر مساوي النصارى ذكر مساوي اليهود، فقال:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٧٨) ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٩) ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٨٠) ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٨١)

يقول الحق جل جلاله: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ أَي: لعنهم الله في الزبور على لسان نبيه داود ﷺ، ﴿و﴾ لعنهم الله أيضاً في الإنجيل على لسان «عيسى بن مريم»، فالأول: أهل أيلة؛ لما اعتدوا في السبت لعنهم داود ﷺ، فمسخوا قردة وخنازير، والثاني أصحاب المائدة، لما كفروا دعا عليهم عيسى، ولعنهم، فمسخوا خنازير، وكانوا خمسة آلاف رجل، ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾؛ ذلك اللعن الشنيع المقتضى للمسح بسبب عصيانهم واعتدائهم ما حرم عليهم.

«كَانُوا لَا يَتَّاهُونَ عَنْ مَنكَرٍ فَعْلُوهُ» أَي: لا ينهى بعضهم بعضاً عن معاودة منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله وتتهياؤوا له، أو: لا ينتهون عنه ولا يمتنعون منه، «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»، وهو تعجيب من سوء فعلهم مؤكداً بالقسم.

«تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ» أَي: من اليهود، «يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» أَي: يوالون المشركين بغضاً للرسول ﷺ وللمؤمنين، «لَبِئْسَ مَا قَدَمْتُ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ» أَي: لبس شيئاً قدموه، ليردوا عليه يوم القيامة، وهو «أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ» أَي: بس ما قدموا أمامهم، وهو سخط الله والخلود في النار، والعياذ بالله، «وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ» أَي: نبينهم كما يزعمون، «وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ» من التوراة وغيره، «مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ»؛ لأن النبي لا يأمر بموالاة الكفار، ولو آمنوا بمحمد ﷺ وما أنزل إليه - كما هو الواجب عليهم - ما اتخذوا الكفار أولياء، «وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» أَي: خارجون عن دينهم، أو خارجون عن الدين الحق الذي لا يقبل غيره، وهو الإسلام.

الإشارة: ذكر الحق جل جلاله في هذه الآية ثلاثة أمور، وجعلها سبباً للعن والطرده، وموجبة للسخط والمقت، أولها: الانهماك في المعاصي والعدوان، والإصرار على الذنوب والطغيان. والثاني: عدم الإنكار على أهل المعاصي والسكوت عنهم والرضا بفعلهم، والثالث: موالاة الفجار والمودة مع الكفار، ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو أزواجهم أو عشيرتهم، وفي بعض الأخبار: (لو أن رجلاً قام الليل وصام النهار، ثم تودد مع الفجار لبعث معهم، ولو أن رجلاً عمل بالمعاصي ما عمل، ثم أحب الأبرار لحشر معهم)، أو كما قال ﷺ، ويعضده حديث: «المرء مع من أحب». والله تعالى أعلم.

ثم بين تفاوت عداوة الكفار للمسلمين، فقال:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِيَتِ وَرَهْبَانَانَا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ

الَّذِينَ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَأَثْبِتْهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا
جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٥﴾

قلت : القسيس : العالم، والراهب : العابد، و (مما عرفوا) : سببية، و (من الحق) : بيان أو تبويض، وجملة :
(لأنؤمن) : حال، والعامل فيها متعلق الجار، أى : أى شيء حصل لنا حال كوننا غير مؤمنين، و (نطمع) : عطف
على (نؤمن)، أو خبر عن مضمر، أى : ونحن نطمع.

يقول الحق جل جلاله : «لتجدن أشد الناس عداوةً للمؤمنين؛ اليهود والمشركين، لشدة شكيمتهم
وتضاعف كفرهم، وانهماكهم فى اتباع الهوى، وركونهم إلى التقليد، وبعدهم عن التحقيق، وتمرنهم على تكذيب
الأنبياء، ومعاداتهم وعدوانهم لا ينقطع إلى الأبد.

«ولتجدن أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى»، للين جانبهم، ورقة قلوبهم، وقلة
حرصهم على الدنيا بالنسبة لليهود، وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل، وإليه أشار بقوله : «ذلك بأن منهم قسيسين»
أى : علماء، ومن جملة علمهم : علمهم بوصاية عيسى بالإيمان بمحمد ﷺ، «ورهباناً» أى : عباداً، «وأنهم
لا يستكبرون» عن قبول الحق إذا عرفوه، بخلاف اليهود؛ لكثرة جحودهم، وفيه دليل على أن التواضع والإقبال
على العلم والعمل محمود، وإن كان من كافر. قاله البيضاوى

«وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول» محمد ﷺ «ترى أعينهم تفيض من الدمع»؛ من البكاء، جعل
أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها، وإنما يفيض دمعها، وذلك «مما عرفوا من الحق» حين سمعوه،
أو من بعض الحق، فما بالك لو عرفوا كله؟ «يقولون ربنا آمنا» بذلك، أو بمحمد ﷺ، «فاكتبنا مع
الشاهدين» بأنه حق، أو بنبوة محمد ﷺ، أو من أمته الذين هم شهداء على الأمم.

نزلت فى النجاشى وأصحابه، حين دعوا جعفرًا وأصحابه، وأحضروا القسيسين والرهبان، وأمره أن يقرأ عليهم
القرآن، فقرأ سورة مريم، فبكوا وآمنوا بالقرآن. وقيل : نزلت فى ثلاثين أو سبعين رجلاً من قومه، وفدوا من عنده من
الحبشة بأمره على رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم سورة «يس»، فبكوا وآمنوا، فصدر الآية عام، فالنصارى كلهم أقرب
مودة للمسلمين، من آمن، ومن لم يؤمن، وإنما جاء التخصيص فى قوله : «وإذا سمعوا»، فالضمير إنما يرجع إلى
من آمن منهم، كالنجاشى وأصحابه. وإنما جاء الضمير عاماً؛ لأن الجماعة تحمد بفعل الواحد. انظر ابن عطية.

ولما دخل الإيمان في قلوبهم حين سمعوا القرآن، عاتبوا أنفسهم على التأخر عن الإيمان فقالوا: «وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق؟» ونحن «نطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين»، وهي أمة محمد ﷺ التي هي أفضل الأمم، وهذا منهم استفهام إنكار واستبعاد؛ لانتفاء الإيمان مع قيام الداعي، وهو الطمع في الانخراط مع الصالحين، والدخول في مداخلهم، «فأثابهم الله» أي: جازاهم «بما قالوا» واعتقدوا، «جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين» الذي اعتادوا الإحسان في جميع الأمور، أو الذين أحسنوا النظر وأتقنوا العمل.

ثم ذكر ضدهم فقال: «والذين كفروا وكذبوا بآيتنا أولئك أصحاب الجحيم»، شفع بهم حال المؤمنين المصدقين، جمعاً بين الترغيب والترهيب، ليكون العبد بين خوف ورجاء. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أشد الناس إنكاراً على الفقراء، وأشدهم عداوة لهم، من تقدم في أسلافه رئاسة علم أو جاه أو صلاح أو نسبة شرف، وأقرب الناس مودة لهم من لم يتقدم له شيء من ذلك، فالعوام أقرب وأسهل للدخول في طريق الخصوص من غيرهم. والله تعالى أعلم.

ولما تضمن الكلام مدح النصارى على ترهيبهم، والحث على حبس النفس، ورفض الشهوات، أعقبه بالتهى عن الإفراط في ذلك والاعتداء عما حده الله بجعل الحلال حراماً، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ

﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله أي: لا تحرموا ما طاب ولذ مما أحله الله لكم، «ولا تعتدوا» فتحرموا ما أحلت لكم، ويجوز أن يراد: ولا تعتدوا حدود ما أحل لكم إلى ما حرم عليكم، فتكون الآية ناهية عن تعريم ما أحل وتحليل ما حرم، داعية إلى القصد بينهما، والوقوف على ما حد دون التجاوز إلى غيره، روى أن رسول الله ﷺ وصف القيامة يوماً، وبالحق في إنذارهم، فرقوا، واجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون، واتفقوا على ألا يزالوا صائمين قائمين، وألا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم والودك^(١)، ولا يقربوا النساء والطيب، ويرفضوا الدنيا، ويلبسوا المسوح، ويسبحوا في الأرض، ويجبوا مذاكرهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إني لم أؤمر بذلك، إن لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأكل اللحم والدسم، وآتى النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٢). ونزلت الآية.

(١) الودك: دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه.

(٢) ذكره الواحدى في أسباب النزول عن المفسرين، بغير إسناد، ويحواه أورده الطبرى في التفسير عن السدى. وهو منتزع من أحاديث، وأصله في الصحيحين. راجع الفتح السماوى: (٥٧٩ - ٥٨١).

ثم قال تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أى: كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾، فأحلوا حلاله واستعملوه، وحرّموا حرامه واجتنبوه.

الإشارة: طريقة العباد والزهاد: رفض الشهوات والملذذات بالكلية، زهداً وورعاً وخوفاً من اشتغال النفس بطلبها، فيتعطل وقتهم عن العبادة، وطريقة المريدين السائرين: رفض ما يتعلق به النفس قبل الحصول، وتشهده إليه رياضة وتعقفاً، لئلا تتعلق بهمهم بغير الله، فما جاءهم من غير طلب ولا شره أكلوه وشكروا الله عليه، ولا يقفون مع جوع ولا شبع. وطريقة الواصلين العارفين: تجنب ما يقبض من غير يد الله، فإذا أخذتهم سنة حتى غفلوا عن التوحيد فقبضوا شيئاً، مع رؤية الواسطة، أخرجوه عن ملكهم، كما وقع لأبى مدين رضي الله عنه وبأخذون ماسوى ذلك قلّ أو كثر، ولا يقفون مع أخذ ولا ترك، وفى الحكم: «لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق، إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك، فإن كنت كذلك فخذ - ما وافقك العلم».

ولما صدر من بعض الصحابة يمين على ترك ما تقدم، ذكر لهم الكفارة، وفيما تجب، فقال:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتَهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّرتُهُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَحْضَوْا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

قلت: (فى أيمانكم): يتعلق باللغو، أو بيوأخذكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وهو ما يصدر من الإنسان بلا قصد، كقوله: لا والله، وبلى والله. وإليه ذهب الشافعى، وقيل: هو الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة، ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ عليه، أى: بما جزمتم عليه بالنية والقصد، ﴿فَكَفَّرتَهُ﴾ أى: ما عقدتم عليه إذا حلقتم، ويجوز التكفير قبل الحنث لظاهر الآية.

ثم بين الكفارة، فقال: ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾، فمن أطعم غنياً لم تجزه، واشترط مالك أن يكونوا أحراراً، وليس فى الآية ما يدل على ذلك، ثم بين نوعه فقال: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أى: من وسط طعام أهليكم فى القدر أو فى الصفة، أما القدر فقال مالك: يطعم مدّاً لكل مسكين بمد النبى ﷺ إذا كان فى المدينة

المشرفة، وفي غيرها وسط من الشيع، وقال الشافعي وابن القاسم: يجرى المد في كل مكان، وقال أبو حنيفة: إن غداهم وعشاها أجزأه. قلت: وهو قول في المدونة لمالك أيضاً. وأما الصنف، فاختلف: هل يطعم من عيش نفسه، أو من عيش بلده وهو المشهور؟

فمعنى الآية على هذا: «من أوسط ما تطعمون» أيها الناس «أهليكم» على الجملة «أو كسوتهم»؛ فيكسو كل مسكين ما تصح به الصلاة، فالرجل ثوب، والمرأة قميص وخمار، «أو تحرير رقبة» مؤمنة على مذهب مالك؛ لتقيدها بذلك في كفارة القتل. وأجاز أبو حنيفة عتق الكافر، لإطلاق اللفظ هنا، واشترط مالك أيضاً أن تكون مسلمة من العيوب، وليس في الآية ما يدل عليه، فهذه الثلاثة بالتخيير.

«فمن لم يجد» واحداً من هذه الثلاثة، ولم يقدر على شيء منها، بحيث لم يفضل له عن قوته وقوت عياله في يومه ما يطعم به، «فصيام ثلاثة أيام» يستحب تقابعها، واشترطه أبو حنيفة؛ لأنه قرئ: (أيام متتابعات)، والشاذ ليس بحجة، «ذلك» المذكور هو «كفارة أيمانكم إذا حلفت» وحنثتم، «واحفظوا أيمانكم» أي: صونوا ألسنتكم عن كثرة الحلف، فيكون الله عرضة لأيمانكم، أو احفظوها بأن تبروا فيها ولا تحنثوا، إلا إن كان في الامتناع من الخير، فالحنث فيها أحسن، كما في الحديث. أو احفظوها بأن تكفروها إذا حنثتم، ولا تنهاونوا بها، «كذلك يبين الله لكم آياته» أي: مثل ذلك البيان يبين لكم أعلام شرائعه «لعلكم تشكرون» نعمة التعليم، أو نعمة الواجب شكرها، فإن مثل هذا التبيين سهل لكم المخرج من ضيق اليمين، فهو نعمة يجب شكرها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ليس التشديد والتعقيد من شأن أهل التوحيد، إنما شأنهم الاسترسال مع ما يبرز من عنصر القدرة، ليس لهم وقت دون الوقت الذي هم فيه، قد حلّ التوحيد عقدهم ودكّ عزائمهم، فهم في عموم أوقاتهم لا يدبرون ولا يختارون، وإن وقع منهم تدبير أو اختيار رجعوا إلى ما يفعل الواحد القهار، لا يبشطون إلى شيء ولا يهريون من شيء، إلا إن كان فيه مخالفة للشرع.

ولا يعقدون على ترك شيء من المباحات ولا على فعله، لأنهم لا يرون لأنفسهم فعلاً ولا تركاً، إن صدرت منهم طاعة شهدوا المنّة لله، وإن وقعت منهم زلة أو غفلة تأدبوا مع الله، ويأدروا بالتوبه إلى الله، وما صدر من الصحابة - رضوان الله عليهم - فعمل ذلك كان حالاً غالباً عليهم، قد أزعجهم وعظ النبي ﷺ، وأنهضهم حاله، فلما رءاهم غلب عليهم الحال ردهم إلى حال الاعتدال، ولعل الحق - جل جلاله -، إنما جعل كفارة اليمين جبراً لخلل ذلك التعقيد، الذي صدر من الحالف مع تفريطه بالحنث، فكأنه حلف على فعل غيره، ففيه نوع من التآلي على الله. والله تعالى أعلم.

ولما أمر الحق جل جلاله بأكل الحلال الطيب أخرج ضده، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾

قلت: (رجس): خبر، وأفرده؛ لأنه على حذف مضاف، أي: تعاطى الخمر، أو خبر عن الخمر، وخبر المعطوفات محذوف، أي: كذلك.

يقول الحق جل جلاله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا» تناول «الخمر»؛ وهو كل ما غيب العقل، دون الحواس، مع اللشوة والطرب، «والميسر» وهو القمار «والأنصاب» وهو مائصب ليعبد من حجارة أو خشب، «والأزلام» أي: الاستقسام بها، وقد تقدم تفسيرها^(١)، «رجس» قدر خبيث تعافه العقول السليمة، «من عمل الشيطان» أي: من تسويله وتزيينه، «فاجتنبوه» أي: ما ذكر من تعاطى الخمر، وما بعده، «لعلكم تفلحون» أي: تفوزون بالرضوان والنعيم المقيم.

قال البيضاوي: اعلم أن الحق تعالى أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية، بأن صدر الجملة بإنما، وقرنها بالأنصاب والأزلام وسماهما رجساً، وجعلهما من عمل الشيطان، تنبيهاً على أن الاشتغال بهما شر محض، وأمر بالاجتناب عن عينهما، وجعله سبباً يرجى منه الفلاح، ثم قرّر ذلك بأن بين ما فيهما من المفسدات الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقال: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ»، وقد وقع ذلك في زمن الصحابة، وهي كانت سبب تحريمه، «ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة»؛ إنما خص الخمر والميسر بإعادة الذكر وشرح ما فيهما من الويل تنبيهاً على أنهما المقصودان بالبيان. وذكر الأنصاب والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة والشرارة؛ لقوله ﷺ: «شَارِبُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ الْوَثْنِ»^(٢).

وخص الصلاة من الذكر بالإفراد؛ للتعظيم والإشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان؛ من حيث إنها عماده، والفارق بينه وبين الكفر، ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتباً على ما تقدم من أنواع

(١) راجع تفسير الآية ٣ من السورة نفسها.

(٢) أخرجه بلفظه البزار، كشف الأستار (الأشربة، باب في شارب الخمر) من حديث عبدالله بن عمرو، وأخرجه ابن ماجه في (الأشربة باب مدمن الخمر) بلفظ: (مدمن الخمر).

الصوارف فقال: «فهل أنتم منتهون»؟ إيدانا بأن الأمر فى المنع والتحذير بلغ الغاية، وأن الأعذار قد انقطعت. هـ. ولذلك لما سمعها الفاروق رضي الله عنه حين نزلت، قال: (قد انتهينا ياربنا).

وبهذا الآية وقع تحريم الخمر، وقد كان حلالاً قبلها، بدليل سكوته ﷺ على شربها قبل نزول الآية، فإن قلت: حفظ العقول من الكليات الخمس التى اتفقت الشرائع على تحريمها؟ قلنا: لا حكم قبل الشرع، بل الأمر موقوف إلى وروده، ولما طالبت الفترة، وانقطعت الشرائع عند العرب، رجعت الأشياء إلى أصلها من الإباحة بمقتضى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (١)، حتى جاءت الشريعة المحمدية فحرمتها كالشرائع قبلها، فكانت حينئذ حراماً، ودخلت فى الكليات الخمس التى هى: حفظ العقول والأبدان والأموال والأنساب والأديان.

ثم أكد ذلك أيضاً بقوله: «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول» فيما أمر ونهى، «واحذروا» غضبهما إن خالفتم، «فإن توليتم» أو أعرضتم عن طاعتهما «فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين»؛ لاتضره مخالفتكم، إنما عليه البلاغ وقد بلغ.

الإشارة: المقصود هو النهى عن كل ما يصد عن الله أو يشغل العبد عن شهود مولاه، وخص هذه الأربعة، لأنها أمهات الخطايا ومنبع الغفلة والبلايا، فالخمر فيه فساد العقل الذى هو محل الإيمان، والميسر فيه فساد المال وفساد القلب بالعداوة والشحناء، وفساد الفكر لاستعماله فى الهوى، والأنصاب فيه فساد الدين الذى هو رأس المال، والأزلام فيه الفضول والاطلاع على علم الغيب، الذى هو سر الربوبية، وهو موجب للمقت والعطب، والعياذ بالله.

ثم عفا عما سلف من الخمر والميسر قبل التحريم، فقال:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا ءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٣)

يقول الحق جل جلاله: «ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح» أى: إثم «فِيمَا طَعِمُوا» من الخمر والميسر قبل التحريم، «إِذَا مَا اتَّقَوْا» أى: إذا اتقوا الشرك، «وَأَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا» المحرمات «وَأَمَنُوا» أى: حققوا مقام الإيمان، «ثُمَّ اتَّقَوْا» الشبهات والمكروهات «وَأَحْسَنُوا» أى: حصلوا مقام الإحسان، وهو إتقان العبادة، وتحقيق العبودية، ومشاهدة عظمة الربوبية، «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» أى: يقربهم

(١) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.

ويعصفيهم لحضرته، روى أنه لما نزل تحريم الخمر، قالت الصحابة - رضى الله عنهم -: يا رسول الله؛ فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر؟ فنزلت.

ويحتمل أن يكون هذا التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة، أى: الماضى والحال والمستقبل، أو باعتبار الحالات الثلاثة. فيستعمل التقوى فيما بينه وبين نفسه بالتزكية والتحلية، وفيما بينه وبين الناس بالكف عن التعرض لهم، وفيما بينه وبين الله بامتثال أمره واجتناب نهيه والغيبة عن غيره، ولذلك بدل الإيمان بالإحسان فى الكرة الثالثة، أو باعتبار المراتب الثلاثة؛ المبدأ والوسط والنهاية، أو باعتبار ما يتقى؛ فإنه ينبغي أن يتقى المحرمات توقياً من العقاب، ثم يتقى الشبهات تحفظاً من الحرام، ثم يتقى بعض المباحات تحفظاً للنفس عن خسة الشره، وتهذيباً لها عن دنس الطبيعة، قال معناه البيضاوى.

الإشارة: المقامات التى يقطعها المريد ثلاث: مقام الإسلام، ومقام الإيمان، ومقام الإحسان، فما دام المريد مشتغلاً بالعمل الظاهر؛ من صلاة وصيام وذكر اللسان، سُمى مقام الإسلام، فإذا انتقل لعمل الباطن من تخلية وتخليّة وتهذيب وتصفية، سُمى مقام الإيمان، فإذا انتقل لعمل باطن الباطن من فكرة ونظرة وشهود وعيان سُمى مقام الإحسان، وهذا اصطلاح الصوفية؛ سمو ما يتعلق بإصلاح الظواهر: إسلاماً، وما يتعلق بإصلاح القلوب والضمائر: إيماناً، وما يتعلق بإصلاح الأرواح والسرائر: إحساناً. وجعل الساحلى فى البغية كل مقام مركباً من ثلاثة مقامات، فالإسلام مركب من التوبة والتقوى والاستقامة، والإيمان مركب من الإخلاص والصدق والطمأنينة، والإحسان مركب من مراقبة ومشاهدة ومعرفة. وأطال الكلام فى كل مقام، لكن من سقط على شيخ التربية لم يحتج إلى شيء من هذا التفصيل. وبالله التوفيق.

ثم تكلم على حرمة الصيد فى الإحرام تبيناً لقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَبَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَآلَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّذَوْقِ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ أَجَلٌ لَّكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعَالِكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قلت : (فجزاء) : مبتدأ، والخبر محذوف، أى : فعليه جزاء، أو خبر عن مبتدأ محذوف، أى : فواجبه جزاء، و (مثل) : صفته، و (من النعم) : صفة ثانية لجزاء، أى : فعليه جزاء مماثل حاصل من النعم، ومن قرأ (مثل) بالجر، فعلى الإضافة، من إضافة المصدر إلى المفعول، أى : فعليه أن يجزى مثل ما قتل، أو يكون (مثل) مقحمة كما فى قولهم: مثلى لا يقول كذا. وقرئ بالنصب، أى : فليجزأ جزاء مماثلاً. وجملة (يحكم) صفة لجزاء أيضاً، أو حال من ضمير الخبر.

و(هذياً) : حال من ضمير (به)، أو من جزاء؛ لتخصيصه بالإضافة أو الصفة فيمن نون، و (بالغ) : صفة للحال، أو بدل من مثل باعتبار محله، أو لفظه فيمن نصبه، أو (كفارة) عطف على (جزاء) إن رفعته، وإن نصبت جزاء فهو خبر، أى : وعليه كفارة، و (طعام مساكين) : عطف بيان، أو بدل منه، أو خبر عن محذوف، أى : هى طعام، ومن جراً طعاماً قبلاً لإضافة للبيان، كقوله : خاتم فضة، أو (عدل) عطف على (طعام) فيمن رفعه، أو خبر فيمن جره، أى : عليه كفارة طعام، أو عليه عدل ذلك، و (ليذوق) : متعلق بمحذوف، أى : فيجب عليه الجزاء أو الطعام أو الصوم ليذوق سوء عاقبة فعله، و(متاعاً لكم) : مفعول من أجله، و(حرماً) : حال، أى : مادمت محرمين، أو خبر دام على النقص، ويقال: دام يدوم دمت، كقال يقول قلت، ودام يدام دمت، كخاف يخاف خفت. وبه قرئ فى الشاذ.

يقول الحق جل جلاله : «يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم» أى : والله ليختبرنكم «الله بشيء» قليل «من الصيد» يسلطه عليكم ويذلل لكم حتى «تناله أيديكم» بالأخذ «ورماحكم» بالطنن «ليعلم الله» علم ظهور وشهادة تقوم به الحجة، «من يخافه بالغيب» فيكف عن أخذه حذراً من عقاب ربه، نزل عام الحديبية، ابتلاهم الله بالصيد، كانت الوحوش تغشاهم فى رحالهم، بحيث يتمكنون من صيده، أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم، وهم مُحرمون، وكان الصيد هو معاش العرب ومستعملاً عندهم، فاخبروا بتركه مع التمكن منه، كما اختبر بنو إسرائيل بالحوث فى السبت.

وإنما قلَّه بقوله : ﴿بشيء من الصيد﴾ إشعاراً بأنه ليس من الفتن العظام كبذل الأنفس والأموال، وإنما هو من الأمور التى يمكن الصبر عليها، فمن لم يصبر عنده فكيف يصبر بما هو أشد منه ؟ «فمن اعتدى بعد ذلك» الابتلاء بأن قتل بعد التحريم، «فله عذاب أليم» فى الآخرة، لأن من لا يملك نفسه فى مثل هذه فكيف يملكها فيما تكون النفس فيه أميل وعليه أحرص ؟!

ثم صرح بالحرمة، فقال : «يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم» أى : محرمون جمع حرم، والمراد من دخل فى الإحرام أو فى الحرم، وذكر القتل ليفيد العموم، فيصدق بالذبح وغيره، وماصابه المحرم

أو صيد له ميتة لا يؤكل، والمراد بالصيد المدهى عن قتله: ما صيد وما لم يصد مما شأنه أن يصاد، وورد هنا الدهى عن قتله قبل أن يصاد، وبعده، وأما الدهى عن الاصطياد فيؤخذ من قوله: «وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً»، وخصص الحديث: الغراب والحدأة، والفأرة والعقرب والكلب العقور^(١)، فلا بأس بقتلهم، في الحل والحرم، وأدخل مالك في الكلب العقور كل ما يؤذى الناس من السباع وغيرها، وقاس الشافعي على هذه الخمسة كل ما لا يؤكل لحمه.

ثم ذكر جزاء قتله فقال: «ومن قتل منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم» أى: فعليه جزاء مثل ما يماثل من النعم، وهى الإبل والبقر والغنم، وفى النعامة بدنة، وفى الفيل ذات سنامين، وفى حمار الوحش وبقره بقرة، وفى الغزالة شاة، فالمثلية عند مالك والشافعي فى الخلقة والمقدار، فإن لم يكن له مثل؛ أطمع أو صام، يقوم بالطعام فيتصدق به، أو يصوم لكل مد يوماً، ومذهب أبى حنيفة أن المثلية: القيمة، يقوم الصيد المقتول، ويخير القاتل بين أن يتصدق بالقيمة أو يشتري بها من النعم ما يهديه. وذكر العمدة ليس بتقييد عند جمهور الفقهاء، خلافاً للظاهرية؛ بل المتعمد، والناسى فى وجوب الجزاء سواء، وإنما ذكره ليرتب عليه قوله: «ومن عاد فينتقم الله منه»، ولأن الآية نزلت فيمن تعمد، إذ روى أنهم عرض لهم حمار وحشى، فطعنه أبو اليسر برمحه فقتله، فنزلت الآية.

ولابد من حكم الحكمين على القاتل لقوله: «يحكم به ذوا عدل منكم»، فكما أن التقويم يحتاج إلى نظر واجتهاد، فكذلك تحتاج المماثلة فى الخلقة والهيئة إليهما، فإن أخرج الجزاء قبل الحكم عليه؛ فعليه إعادته، إلا حمام مكة؛ فإنه لا يحتاج إلى حكمين، ويجب عند مالك التحكيم فيما حكمت به الصحابة وفيما لم تحكم، لعموم الآية. وقال الشافعي: يكتفى فى ذلك بما حكمت به الصحابة، حال كون المحكوم به «هدياً» بشرط أن يكون مما يصح به الهدى، وهو الجذع من الضأن، والثني مما سواه، وقال الشافعي: يخرج المثل فى اللحم، ولا يشترط السن، «بالغ الكعبة» لم يرد الكعبة بعينها، وإنما أراد الحرم، وظاهره يقتضى أن يصنع به ما يصنع بالهدى؛ من سوق من الحل إلى الحرم، وقال الشافعي وأبو حنيفة: إن اشتراه فى الحرم أجزأه.

«أو كفارة طعام مساكين»؛ مد لكل مسكين، «أو عدل ذلك صياماً»؛ يوم لكل مد، عدد الحق - تعالى - ما يجب فى قتل الصيد، فذكر أولاً الجزاء من النعم، ثم الطعام، ثم الصيام، ومذهب مالك والجمهور: أنها على

(١) أخرج ذلك البخارى فى (جزاء الصيد، باب ما يقتل من الدواب) ومسلم فى (الحجر، باب ما يدب للمحرم وغيره قتله من الدواب فى الحل والحرام) من حديث السيدة عائشة رضى الله عنها.

التخيير، وهو الذى يقتضيه العطف بأو، ومذهب ابن عباس أنها مرتبة. وقد نظم ابن غازى الكفارات التى فيها التخيير أو الترتيب؛ فقال:

خَيْرُ بِصَوْمٍ ثُمَّ صَيْدٍ وَأَذَى وَقُلْ لِكُلِّ خَصْلَةٍ: يَأْخُذُ
وَرَتَّبَ الظُّهَارَ وَالتَّمَتُّعَا وَالْقَتْلَ ثُمَّ فِي الْيَمِينِ اجْتَمَعَا

وكيفية التخيير هنا: أن يخير الحكمان القاتل؛ فإن أراد الجزاء عيّنوا له ما يهدى، وإن أراد الإطعام قوموا الصيد بالطعام فى ذلك المحل، فيطعم مدّاً لكل مسكين، وإن أراد الصيام صام يوماً لكل مدّ، وكمل لكسره، فإذا قوم بعشرة مثلاً ونصف مدّ، صام أحد عشر يوماً.

ثم ذكر حكمة الجزاء، فقال: «ليذوق وبال أمره» أى: فعليه الجزاء أو الإطعام أو الصيام؛ ليذوق عقوبة سوء فعله، وسوء هتكه لحرمة الإحرام، «عفا الله عما سلف» فى الجاهلية أو قبل التحريم، «ومن عاد فينتقم الله منه» فى الآخرة، وليس فيه ما يمنع الكفارة على العائد؛ كما حكى عن ابن عباس وشريح. «والله عزيز ذو انتقام» ممن أصر على عصيانه.

ثم استثنى صيد البحر فقال: «أحل لكم صيد البحر» وهو ما لا يعيش إلا فى الماء، وهو حلال كله لقوله ﷺ فى البحر: «هو الطهور ماؤه، الحل مئنته»^(١). وقال أبو حنيفة: لا يحل منه إلا السمك، «وطعامه» أى: ما قدفه، أو طفا على وجهه؛ لأنه ليس بصيد إنما هو طعام. وقال ابن عباس: طعامه: ما ملّح وبقى، «متاعاً لكم وللسيارة»، الخطاب بكم للحاضرين فى البحر، والسيارة: المسافرون فى البر، أى: هو متاع تأتدّمون به فى البر والبحر، «وحرم عليكم صيد البر» يحتمل أن يريد به المصدر، أى الاصطياد، أو الشئ المصيد، أو كلاهما، وتقدم أن ما صاده محرم أو صيد له: ميتة، وحد الحرمة: «مادمتم حرماً» فإذا حلّتم فاصطادوا، «واتقوا الله» فى ترك ما حرم عليكم، «الذى إليه تحشرون» فيجازيكم على ما فعلتم.

الإشارة: إذا عقد المريد مع الله عقدة السير والمجاهدة، قد يختبره الله - تعالى - فى سيره بتيسير الشهوات، وتسليط العلائق والعوائق؛ ليعلم الكاذب من الصادق، فإن كف عنها وأعرض، هياه لدخول الحضرة، وإن انهمك فيها، واقتنص فى شبكتها، بقى مرهوناً فى يدها، أسيراً فى قبضة قهرها، فإذا نهض حتى دخل حرم الحضرة قاصداً لمعرفة المعارف، حرم عليه صيد البر، وهو كل ما يخرج من بحر الحقيقة إلى شهود بر السوى، فرقاً بلا جمع، كائناتاً ماكان، رسوماً أو علوماً أو أحوالاً أو أقوالاً، وحلّ له صيد البحر وطعامه، من أسرار أو أنوار أو حقائق،

(١) أخرجه مالك فى (الطهارة، باب الطهور للوضوء) والبيهقى فى الكبرى (١ / ٣) وأبو داود فى (الطهارة، باب الوضوء بماء البحر) والترمذى فى (الطهارة، باب ما جاء فى ماء البحر) والنسائى فى (الطهارة، باب ماء البحر) وابن ماجه فى (الطهارة، باب الوضوء بماء البحر) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

متاعاً لروحهم وسره، وللسيارة من أبناء جنسه، يطعمهم من تلك الأسرار، بالهمة أو الحال أو التذكار، وانتقوا الله في الاشتغال بما سواه، الذى إليه تحشرون، فيدخلكم جنة المعارف قبل جنة الزخارف. والله تعالى أعلم.

ولما عظم شأن الحرم عظم شأن الكعبة، فقال:

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ^{٩٧} ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^{٩٨} أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^{٩٩} مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ^{١٠٠} ﴾

قلت: (البيت الحرام): عطف بيان على جهة المدح، و(قياماً): مفعول ثان.

يقول الحق جل جلاله: «جعل الله الكعبة» التى هى «البيت الحرام قياماً للناس» أى: سبب انتعاشهم، يقوم بها أمر معاشهم ومعادهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار، ويتوجه إليه الحجاج والعمار، أو يقوم به أمر دينهم بالحج إليه، وأمر دنياهم بأمن داخله، وتجبى ثمرات كل شيء إليه.

قال القشيري: حكم الله - سبحانه - بأن يكون بيته اليوم ملجأ يلوذ به كل مؤمن، ويستقيم ببركة زيارته كل حائد عن نهج الاستقامة، ويظفر بالانتقال هناك كل ذى أرب. هـ.

«والشهر الحرام» جعله الله أيضاً قياماً للناس؛ والمراد به ذو الحجة، فهو قيام لمناسك الحج، وجمع الوجود إليه بالأموال من كل جانب، أو الجنس، وهى أربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، لأنهم كانوا يكفون عن القتال، ويأمن الناس فيها فى كل مكان، «والهدى»؛ لأنه أمان لمن يسوقه؛ لأنه لم يأت لحرب، «والقلائد» ، كان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلد شيئاً من السمر^(١)، وإذا رجع تقلد شيئاً من شجر الحرم؛ ليعلم أنه كان فى عبادة، فلا يتعرض له أحد بشر، فالقلائد هنا: ما تقلده المحرم من الشجر، وقيل: قلائد الهدى.

«ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض» أى: جعل ذلك الأمور، قياماً للناس؛ لتعلموا أن الله يعلم تفاصيل الأمور، فشرع ذلك دفعا للمضار وجلباً للمنافع، «وأن الله بكل شيء عليم» لا يخفى عليه محل مصالح عباده ومضارهم، وهو تعميم بعد تخصيص، ومبالغة بعد إطلاق.

(١) السمر - بضم الميم والراء: ضرب من الشجر، صغار الورق قصار الشوك.

ثم قال تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن أطاعه وأقبل عليه، وهو وعيد ووعد لمن انتسبك محارمه ولمن حافظ عليها، أو لمن أصرَّ ورجع، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد بلغ، فلم يبق عذر لأحد، وهو تشديد في إيجاب القيام بما أمر، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَعْبُدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ من تصديق وتكذيب وفعل وعزيمة .

الإشارة : كما جعل الله الكعبة قياماً للناس، يقوم به أمر دينهم ودنياهم، جعل القلوب، التي هي كعبة الأنوار والأسرار، قياماً للسائرين، يقوم بها أمر توحيدهم وبقينهم، أو أمر سيرهم ووصولهم. وفي الحديث: «إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ» ألا وهى القلب. وكما جعل الشهر الحرام والهدى والقلائد حرمة لأهلها، جعل النسبة والتزوي بها حفظاً لصاحبها، من تزيا بزى قوم فهو منهم، يجب احترامه وتعظيمه لأجل النسبة، فإن كان كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصحبكم بعض الذى يعدكم، وقد أخذ اللصوص بعض الفقراء، وانتهكوا حرمة، وأخذوا ثيابه، فاشتكى لشيخه فقال له: هل كانت عليك مرقعتك؟ قال: لا، فقال له: أنت فرطت! والمفرط أولى بالخسارة. هـ. والله تعالى أعلم.

ولمّا كان مدار الأمر كله على صلاح القلوب وفسادها ذكره بآثره، فقال:

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى
الْأَلْبَسِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ عند الله، فى القلوب والأحوال والأعمال والأموال والأشخاص، فالطيب من ذلك كله مقبول محبوب، والردىء مردود ممقوت، فالطيب مقبول وإن قل، والردىء مردود ولو جل، وهو معنى قوله: ﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾، فالعبرة بالجودة والرداءة، دون القلة والكثرة، وقد جرت عادته - تعالى - بكثرة الخبيث من كل شيء، وقلة الطيب من كل شيء، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّمَّ هُمْ﴾ (١)، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (٢)، وفى الحديث الصحيح: «النَّاسُ كِرَابِلُ مَائَةٍ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً» (٣)، وقال الشاعر:

إِنِّى لَأَفْتَحُ عَيْنِى حِينَ أَفْتَحُهَا عَلَى كَثِيرٍ وَلَكِنْ لَا أَرَى أَحَدًا

فأهل الصفا قليل فى كل زمان، ولذلك خاطبهم بقوله: ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أى: القلوب الصافية فى تجنب الخبيث وإن كثّر، وأخذ الطيب وإن قل، ﴿لعلكم تفلحون﴾ بصلاح الدارين.

(١) من الآية ٢٤ من سورة ص. (٢) من الآية ١٣ من سورة سبأ.

(٣) أخرجه البخارى فى (الرقاق باب رفع الأمانة) ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ: الناس كِرَابِلُ مائة ..) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ومعنى الحديث: أن الزاهد فى الدنيا، الكامل فى الزهد فيها قليل جداً، كقلة الراحلة فى الإبل.

الإشارة: لا عبرة بالأحوال الظلمانية وإن كثرت، وإنما العبرة بالأحوال الصافية ولو قلّت، صاحب الأحوال الصافية موصول، وصاحب الأحوال الظلمانية مقطوع، مالم يتب عنها، قال بعض الحكماء: (كما لا يصح دفن الزرع في أرض ردية، لا يجوز الخمول بحال غير مرضية).

والمراد بالأحوال الصافية: هي التي توافق مراسم الشريعة، بحيث لا يكون عليها من الشارع اعتراض، بأن تكون مباحة في أصل الشريعة، ولو أخلت بالمروءة عند العوام، إذ المروءة إنما هي التقوى عند الخواص، والمراد بالأحوال، كل ما يثقل على النفس وتموت به سريعاً، كالمشى بالحفا وتعرية الرأس، والأكل في السوق، والسؤال، وغير ذلك من خرق عوائدها، التي هي شرط في حصول خصوصيتها، وفي الحكم: «كيف تخرق لك العوائد؟ وأنت لم تخرق من نفسك العوائد». وبالله التوفيق

ومن جملة الأحوال الرديئة: كثرة الخوض فيما لا يعنى، التي أشار إليه بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾
ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

قلت: الجملة الشرطية صفة لأشياء، وأشياء اسم جمع لشيء، أصله عند سيوريه: شيناء، مثل فعلاء، قلبت إلى لفعاء، أى: قلبت لأمه إلى فائه، لثقل اجتماع الهمزتين، وقال أبو حاتم: أشياء وزنها أفعال، وهو جمع شيء، وترك العرف فيه سماع، وقال الكسائي: لم ينصرف أشياء، لشبه آخره بآخر حمراء، انظر ابن عطية. وجملة (عفا الله عنها): صفة أخرى لأشياء، أى: عن أشياء عفا الله عنها، ولم يكلف بها.

يقول الحق جل جلاله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ» ليس لكم فيها نفع، «إِنْ تُبَدِّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ» أى: إن تظهر لكم وتجاوبوا عنها تسؤكم؛ بالأخبار بما لا يعجبكم وبما يشق عليكم، قيل: سبب نزول الآية: كثرة سؤال الناس له ﷺ من الأعراب والمنافقين والجهال، فكان الرجل يقول للنبي - عليه الصلاة والسلام -؟ أين ناقتي؟ وآخر يقول: ماذا ألقى في سفري؟ ونحو هذا من التعنيت، حتى صعد المنبر ﷺ مغضباً، فقال: «لَا تَسْأَلُونِي الْيَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ». فقام رجل فقال: أين أنا؟ فقال: في النار، وقام عبد الله بن حذافة - وكان يطعن في نسبه فقال: من أبى؟ فقال: «أبوك حذافة»، وقال آخر: من أبى؟ قال: «أبوك سالم مولى شيبة»، فقام عمر بن الخطاب، فجثا على ركبتيه، فقال: رَضِينَا بِاللَّهِ رِئَاءً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً نعوذ بالله من الفتن. فنزلت هذه الآية (١).

(١) أخرج بعضه البخاري في: (مواقيت الصلاة، باب وقت الظهر عند الزوال) عن أنس، وأخرجه مختصراً في (التفسير - سورة المائدة) عن ابن عباس، وانظر فتح الباري (ج ٢٦٢١) والفتح السماوي (٢ / ٥٩٤ - ٥٩٥)

وقيل: سبب نزولها: أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا، فقالوا: يا رسول الله، أفي كل عام؟ فسكت، فأعادوا، فقال: لا، لو قلت: نعم، لوجبت، ولو وجبت لم تطيقوه، ولو تركتموه لهلكتم، فاتركوني ما تركتكم»^(١)، قال أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وعفا - من غير نسيان - عن أشياء، فلا تبحثوا عنها .

ثم قال تعالى: «وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن» أي زمنه «تبد لكم» أي: تظهر لكم، وفيه معنى الوعيد على السؤال، كأنه قال: لا تسألوا، وإن سألتكم أبدى لكم ما يسؤكم. والمراد بحين ينزل القرآن: زمان الوحي. فلا تسألوا عن أشياء قد عفا الله عنها» ولم يكلف بها أو عفا الله عما سلف من سؤالكم، فلا تعودوا إلى مثلها، «والله غفور حلیم» لا يعاجلكم بعقوبة مفرط منكم ويعفو عن كثير. «قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين»؛ حيث لم يأتروا بما سألوها، وجحدوا، وذلك أن بنى إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء؛ فإذا أمرؤا بها تركوها، فهلكوا. فالكفر هنا عبارة عن ترك ما أمرؤا به. وقال الطبري: كقوم صالح في سؤالهم الناقة، وكبنى إسرائيل في سؤالهم المائدة. زاد الشلبي: وكقريش في سؤالهم أن يجعل الله الصفا ذهباً. هـ. وكسؤالهم انشقاق القمر، وغير ذلك من تعنيقاتهم، والله تعالى أعلم.

الإشارة: مذهب الصوفية مبني على السكوت والتسليم والصدق والتصديق، مجلسهم مجلس حلم وعلم وسكينة ووقار، إن تكلم كبيرهم أنصتوا، كأن على رؤوسهم الطير، كما كان الصحابة - رضي الله عنهم -، ولذلك قالوا: من قال لشيخه: (لم) لم يفلح أبداً. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: إذا جلست مع الكبراء فدع ما تعلم وما لا تعلم؛ لتفوز بالسر المكنون. هـ.

وفي الحديث عنه رضي الله عنه: «إن الله ينهاكم عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»^(٢). وقال الورعجي: في الآية تحذير المريدين عن كثرة سؤالهم في البداية عن حالات المشايخ. هـ. قلت: وغلة النهي: لعله يطلع، بكثرة البحث عن حالهم، على أمور توجب له نفرة أو غضا من مرتبتهم قبل تربية يقيه، فالصواب: السكوت عن أحوالهم، واعتقاد الكمال فيهم، وكذلك يجب عليه ترك السؤال عن أحوال الناس، والغيبة عما هم فيه؛ شغلاً بما هو متوجه إليه، والإضاعة وقته، وتشتت قلبه، والله در القائل:

وَلَسْتُ بِسَائِلٍ مَا دُمْتُ حَيًّا أَسَارَ الْجَيْشِ أَمْ رَكِبَ الْأَمِيرُ؟

والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢ / ٥٠٨ ومسلم في (الحج، باب فرض الحج في العمر) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في (الأدب، باب عقوب الوالدين من الكبائر) ومسلم في (الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة..) عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن جملة ما وقع السؤال عنه : البحيرة وما معها، فأجابهم الحق - تعالى - بقوله :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قلت : البحيرة : فعيلة بمعنى مفعولة، من بحر، إذا شق، وذلك أن الناقة كانت إذا ولدت عندهم في الجاهلية عشرة أبطن، شقوا أذننها، وتركوها ترعى، ولا ينتفع بها، وأما السائبة فكان الرجل يقول : إذا قدمت من سفرى، أو برئت من مرضى، فناقى سائبة، فإذا قدم أو برئ سببها لآلهتهم، فلا تحلب، ولا تركب، ولا تمنع من شجر، وقد يسيبون غير الناقة، فإذا سببوا العبد فلا يكون عليه ولا لأحد، وإن قال ذلك، اليوم، فحمله على العتق، وولاؤه للمسلمين، وفعل ذلك - اليوم - فى الحيوان حرام، كما يفعله جهلة النساء فى الديك الأبيض؛ يحرر حتى يموت، فإذا فعل ذلك ذبح وأكل.

وأما الوصيلة : فكانوا إذا ولدت الناقة ذكراً وأنثى متصلين، قالوا : وصلت الناقة أخاها، فلم يذبحوها، وأما الحام : فكانوا إذا نتج من الجمل عشرة أبطن، قالوا : قد حمى ظهره، فلا يركب ولا يحمل عليه.

يقول الحق جل جلاله فى إبطال هذه الأشياء : «ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام» أى : ما شرع الله شيئاً من ذلك، ولا أمر به، «ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب» بتحريم ذلك، ونسبته إليه، «وأكثرهم لا يعقلون»، أى : جلهم لا عقل لهم، بل هم مقلدون غيرهم فى تحريم ذلك، وتقليد الآباء والرؤساء فى تحريم ما أحل الله - تعالى - شرك؛ لأنهم نزلوا غير الله منزلته فى التحريم والتحليل، وهو كفر، «وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول» من الحلال والحرام، «قالوا حسبننا» أى : يكفينا «ما وجدنا عليه آبائنا»، وهذا بيان لقصور عقولهم وانهماكهم فى التقليد، قال تعالى : أيتبعونهم «ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون» سبيلاً.

قال البيضاوى : الواو للحال، والهمزة دخلت عليها؛ لإنكار الفعل على هذه الحال، أى : أحسبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جهلة ضالين ؟ والمعنى : أن الاقتداء إنما يصح لمن علم أنه عالم مهتد، وذلك لا يعرف إلا بالحجة، فلا يكفى التقليد . هـ .

الإشارة : قد نفى الله تعالى الخصوصية عن أربعة أنفس من أنفس المدعين، منها : نفس دخلت بحر الحقيقة بالعلم، وتبحرت فى علمها دون الحال والنزق، وأهملت مراسم الشريعة حتى سقطت هيبتها من قلبها، فأنسل منها الإيمان والإسلام انسلاال الشعرة من العجين . ومنها نفس سائبة أهملت المجاهدة وانسابت فى الغفلة، وأخذت

الولاية بالوراثة من أسلافها، دعوى، أو ظهرت عليها خوارق، استدراجاً، مع إصرارها على كبائر العيوب، ومنها: نفس وصلت إلى الأولياء وصحبته، وخرجت عنهم قبل كمال التربية، وتصدرت للشيخوخة قبل إبانها، ومنها: نفس حمت ظهرها من التجريد، ووفرت جاهها مع العبيد، وادعت كمال التوحيد وأسرار التفريد، لمجرد مطالعة الأوراق، من غير صحبة أهل الأنواق، وهؤلاء بعداء من حيث يظنون القرب، مردودون من حيث يظنون القبول، والعياذ بالله من الدعوى وغلبة الهوى، فإذا قيل لهؤلاء: تعالوا إلى من يعرفكم بربكم، ويخرجكم من سجن نفوسكم، قالوا: نتبع ما وجدنا عليه أسلافنا، فيقال لهم: أتتبعونهم ولو كانوا جاهلين بالله؟

ثم نهى الله تعالى أهل التحقيق عن التعرض لمثل هؤلاء بعد نصيحهم، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

قلت: (عليكم): اسم فعل، وفاعله مستتر فيه وجوباً، و(أنفسكم): مفعول به على حذف مضاف؛ أي: الزموا شأن أنفسكم. قاله الأزهري.

يقول الحق جل جلاله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ»: احفظوها والزموا صلاحها، «لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»: أنتم، أي: لا يضرركم ضلال غيركم إذا كنتم مهتدين؛ ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته، قال ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُغَيِّرَهُ بِيَدِهِ، فَلْيُغَيِّرْ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ». والآية نزلت حيث كان المؤمنون يحرسون على الكفرة، ويتمنون إيمانهم، وقيل: كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سفهت آباءك، فلاموه، فنزلت.

وعن أبي ثعلبة الخشني قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ؟» فقال: «أَتَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِذَا رَأَيْتَ دُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَشُحًّا مُطَاعًا، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَوِصَّةِ نَفْسِكَ، وَذَرِعُوا مَهْمَ، فَإِنْ وَرَاءَكُمْ أَيَّامًا، الْعَامِلُ فِيهَا كَأَجْرِ خَمْسِينَ مِنْكُمْ» (١).

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه بلغه أن بعض الناس تأول الآية على أنه لا يلزم معها أمر ولا نهى، فصعد المنبر، فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ: لَا تَغْتَرُوا بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» فيقول أحدكم: على نفسي، والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فليسو منكم سوء العذاب). وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (ليس هذا بزمان هذه الآية، قولوا الحق ما قبل منكم، فإذا رد عليكم فعليكم أنفسكم).

(١) أخرجه الترمذي في: (التفسير، باب: ومن سورة المائدة) وابن ماجه في (الفتن، باب قوله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» وأبو داود في (الملاحم باب الأمر والنهي) وصححه الحاكم في المستدرک ٤ / ٣٢٢ ووافقه الذهبي.

قال ابن عطية: وجملة ما عليه أهل العلم في هذا: أن الأمر بالمعروف متعين متى رجي القبول، أو رجي رد المظالم، ولو بعنف، مالم يخف الأمر ضرراً يلحقه في خاصته، أو فتنة يدخلها على المسلمين، إما بشق عصا، وإما بضرر يلحق طائفة من الناس، فإذا خيف هذا فعليكم أنفسكم، حكم واجب أن يوقف عنده . هـ .

ثم هدد من لم ينته، فقال: ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ وفيه تنبيه على أن أحداً لا يواخذ بذنب غيره، وتسليّة عن أمور الدنيا، مكروهاً ومحبوهاً، بذكر الحشر وما بعده، وعن بعض الصالحين أنه قال: ما من يوم إلا يجيئني الشيطان فيقول: ما تأكل؟ وما تلبس؟ وأين تسكن؟ فأقول له: أكل الموت، وألبس الكفن، وأسكن القبر . هـ .

الإشارة: في الآية إغراء وتحضيض على الاعتناء بإصلاح النفوس وتطهيرها من الرذائل، وتحليتها بالفضائل، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ عليكم بإصلاح أنفسكم أولاً، فإذا صلحت فأصلحوا غيركم، فعلى العبد أن يشتغل بشأن نفسه ولا يلتفت إلى غيره، حتى إذا كمل تطهيرها، وفرغ من تأديبها، فإن أمره الحق - جل جلاله - بإصلاح غيره على لسان شيخ كامل، أو هاتف حقيقي، فليتقدم لذلك، فإنه حينئذ محمول محفوظ مأذون، وإلا فعليه بخاصة نفسه، كما تقدم . والله - تعالى - أعلم .

ولما جرى ذكر المرجع وما بعده، ولا يكون إلا بالموت، ناسب أن يذكر الوصية، التي من شأنها أن تكون عندها، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَدُوا بَيْنَكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنٌ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا اللَّهَ لَا يَهْدِيَ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

قلت: (شهادة): مبدأ، وخبره: (اثنان)، أي: مقيم شهادة بينكم اثنان، أو حذف الخبر، أي: فيما أمرتكم شهادة بينكم، و(اثنان) على هذا: فاعل شهادة، و(إذا): ظرف لشهادة، و(حين الوصية): بدل منه، ويجوز أن يكون (إذا): شرطية حذف جوابها، أي: إذا حضر الموت فينبغي أن يشهد حين الوصية اثنان، و(ذوا عدل): صفة

لاثنان، أو (آخران): عطف على (اثنان)، (إن أنتم): شرط حذف جوابه، دل عليه ما تقدم، أى: إن سافرتُم، فأصابتكم مصيبة الموت في السفر، فشهادة بينكم اثنان.

و(تحبسونهما): قال أبو على الفارسي: هو صفة لآخران، واعترض بين الصفة والموصوف قوله: (إن أنتم) إلى قوله: (الموت)، ليفيدا العد، لأن (آخران) من غير الملة، إنما يجوز لضرورة الضرب في الأرض وحلول الموت في السفر. وقال الزمخشري: هو استئناف كلام، (إن ارتبتم): شرطية، وجوابها محذوف، دل عليه (يقسمان)، و(لا نشترى) هو المقسم عليه، وجملة الشرط معترضة بين القسم والمقسم عليه، والتقدير: إن ارتبتم في صدقهما فأقسما بالله لانشترى به، أى: بالقسم، ثمناً قليلاً من الدنيا، و(الأوليان): خبر، فيمن قرأ بالبناء للمفعول، أو فاعل، فيمن قرأ بالبناء للفاعل، ومن قرأ (الأولين) - تثنية أول - فبذل من الذين، أو صفة له. قال مكي: (هذه الآية أشكل آية في القرآن؛ إعراباً ومعنى).

وسبب نزولها: أن تميم الداري وعدي بن بداء - وكانا أخوين -، خرجا إلى الشام للتجارة - وهما حينئذ نصرانيان - ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص، وكان مسلماً، فلما قدما الشام مرض بديل، فدون مامعه في صحيفة، وطرحها في متاعه، وشد عليها، ولم يخبرهما بها، وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله، ومات، ففتشاه، وأخذا منه إناء من فضة، قيمته: ثلاثمائة مثقال، منقوشاً بالذهب، فجلباه ودفعاه المتاع إلى أهله، فأصابوا الصحيفة، فطالبوهما بالإناء، فجحداه، فترافعا إلى رسول الله ﷺ فنزلت: «يا أيها الذين آمنوا شهداء بينكم» إلى قوله: «من الآثمين» فحلفهما رسول الله ﷺ، بعد صلاة العصر، عند المنبر، وخلا سبيلهما، ثم عثر بعد مدة على الإناء بمكة، فقبل لمن وجد عنده: من أين لك هذا؟ قال: اشتريته من تميم الداري وعدي بن بداء، فرفع بنو سهم الأمر إلى رسول الله ﷺ، فنزلت: «فإن عثر على أنهما استحقا إثماً فآخران يقومان مقامهما»، فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميان، فحلفا واستحقا الإناء^(١).

ومعنى الآية: يقول الحق جل جلاله: «يا أيها الذين آمنوا»، مما نأمركم به: أن تقع «شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت»، وأراد الوصية فيحضر عدلان منكم، فإن كنتم في سفر وتعذر العدلان منكم، فليشهد «آخران من غيركم» ممن ليس على دينكم، ثم إن وقع ارتياح في شهادتهما، «تحبسونهما» بعد صلاة العصر «فيقسمان بالله» ما كتما، ولا خناً، ولا نشترى بالقسم أو بالله عرضاً قليلاً من الدنيا، ولو كان المحلوف له قريباً منا، «ولا نكنتم شهادة الله» إنا إذا، إن كتما، «لمن الآثمين».

(١) أخرجه الترمذي في: (التفسير، سورة المائدة) عن ابن عباس عن تميم الداري، وقال الترمذي: ليس إسناده بصحيحه. وأخرجه مختصراً البخاري في (الوصايا، باب قول الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا شهداء بينكم») عن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء. وذكره مختصراً.

فإذا حلفا خلى سبيلهما، «فإن عثر» بعد ذلك «على» كذبهما و«أنهما استحقا إثماً» بسبب كذبهما، «فأخران» من رهنط الميت «يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم» المال المسروق، اللذان هم «الأوليان» أى: الأحقان بالشهادة، «فيقسمان بالله» فيقولان: والله «لشهادتنا أحق من شهادتهما»، وأصدق، وأولى بأن تقبل، «وما اعتدنا»: وما تجاوزنا فيها الحق، «إنا إذا لمن الظالمين»، فإن حلفا غرم الشاهدان ما ظهر عليهما، وتحليف الشهود منسوخ، وهذا الحكم خاص بهذه القضية.

قال البيضاوى: الحكم منسوخ إن كان الاثنان شاهدين، فإنه لا يحلف الشاهد، ولا تعارض يمين الوارث، وثابت إن كانا وصيين. هـ. وكذا شهادة غير أهل الملة منسوخة أيضاً، واعتبار صلاة العصر للتخليط، وتخصيص الحلف فى الآية باثنين من أقرب الورثة لخصوص الواقعة. قاله السيوطى.

قال تعالى: «ذلك» أى: تحليف الشهود، «أدنى» أى: أقرب «أن يأتوا بالشهادة على وجهها» كما تحملوها من غير تحريف ولا خيانة فيها، «أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم» أى: أو أقرب لأن يخافوا أن ترد اليمين على المدعين بعد أيمانهم، فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة، وإنما جمع الضمير، لأنه حكم يعم الشهود كلهم، «واتقوا الله واسمعوا» ماتوصون به، فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم قوما فاسقين، «والله لا يهدي القوم الفاسقين» أى: لا يهديهم إلى حجة أو إلى طريق الجنة.

الإشارة: أمر الحق - جل جلاله - فى الآية المتقدمة، بالاعتناء بشأن الأنفس، بتزكيتها وتحليتها؛ وأمر فى هذه الآية بالاعتناء بشأن الأموال؛ بحفظها، والأمر بالإيصاء عليها ودفعها لمستحقها؛ إذ كلاهما يقرىبان إلى رضوان الله، ويوصلان إلى حضرته، وقد كان فى الصحابة من قربه ماله، وفيهم من قربه فقره، وكذلك الأولياء، منهم من نال الولاية من جهة المال أنفق على شيخه فوصله من حينه، ومنهم من نال من جهة فقره أنفق نفسه فى خدمة شيخه، وقد روى أن سيدى يوسف الفاسى أنفق على شيخه قناطير من المال، قيل: أربعين، وقيل: أقل. والله تعالى أعلم.

ولما أمرهم بالتقوى، ذكر اليوم الذى تجنى فيه ثمراتها، فقال:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾

قلت: (يوم): بدل من (الله)، بدل اشتغال، أى: اتقوا يوم الجمع، أو ظرف لاذكر، و(ماذا): منصوب على المصدر، أى: أى إجابة أجبتكم.

يقول الحق جل جلاله: واذكر «يوم يجمع الله الرسل» والأمم يوم القيامة «فيقول» للرسل: «ماذا أجبتكم؟» أى: ما الذى أجابكم به قومكم، هل هو كفر أو إيمان، طاعة أو عصيان؟ والمراد بهذا السؤال توبيخ من

كفر من الأمم، وإقامة الحجة عليهم، فيقولون له في الجواب: «لا علم لنا» مع علمك، تأدبوا فوكلوا العلم إليه، أو علمنا ساقط في جنب علمك؛ «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ» لأن من علم الخفيات لا تخفى عليه الظواهر والبواطن، وقرئ بنصب علام، على أن الكلام قد تم بقوله: «إِنَّكَ أَنْتَ» أي: إِنَّكَ الموصوف بصفاتك المعروفة، وعلام نصب على الاختصاص أو النداء. قاله البيضاوي.

الإشارة: من حجة الله على عباده، أن بعث في كل أمة نذيراً يدعو إلى الله، إما عارفاً يعرف بالله، أو عالماً يعلم أحكام الله، ثم يجمعهم يوم القيامة فيسألهم: ماذا أجيبوا، وهل قولوا بالتصديق والإقرار، أو قولوا بالكذب والإنكار؟ فتقوم الحجة على العوام بالعلماء، وعلى الخواص بالعارفين الكبراء، أهل التربية النبوية، فلا ينجو من العتاب إلا من ارتفع عنه الحجاب، بصحبة العارفين وتعظيمهم وخدمتهم، إذ لا يتخلص من العيوب إلا من صاحبهم وأحبهم وملاك نفسه إليهم. والله تعالى أعلم.

ثم خص عيسى عليه السلام بتذكير النعم يوم الجمع توطئة للتوبيخ من عبده من دون الله، فقال:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

قلت: (إذ): بدل من (يوم يجمع)، أو باذكر، وجملة (تكلم): حال من مفعول (أيدتك).

يقول الحق جل جلاله: واذكر «إذ» يقول الله - جل وعز - يوم القيامة: «يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك» بالنبوة والرسالة، وعلى أمك بالاصطفائية والصديقية، وذلك حين «أيدتك» أي: قويتك «بروح القدس»، وهو جبريل عليه السلام كان لا يفارقك في سفر ولا حضر، أو بالكلام الذي تحيا به الأنفس والأرواح، الحيا الأبدية. كنت «تكلم الناس في المهد» أي: كائناً في المهد «وكهلاً» أي: تكلم في الطفولة والكهولة بكلام يكون سبباً في حياة القلوب، وبه استدل أنه ينزل، لأنه رفع قبل أن يكتهل، «و» اذكر «إذ علمتك الكتاب» أي: الكتابة

«والحكمة»: النبوة «والتوراة والإنجيل»، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتتفخ فيها فتكون طيرا بإذنى، وتبرئ الأكمة والأبرص بإذنى، وإذ تخرج الموتى بإذنى» وتقدم تفسيرها فى آل عمران.

وكرر «بإذنى» مع كل معجزة؛ إبطالاً لدعوى الربوبية فيه، إذ قد عزله عن قدرته ومشيتته مع كل معجزة. قال ابن جزى: الضمير المؤنث - يعنى فى «فيها» - يعود على الكاف، لأنها صفة الهيئة، وكذلك المذكور فى آل عمران. «فأنفخ فيه» يعود على الكاف؛ لأنها بمعنى مثل، وإن شئت قلت: هو فى الموضعين يعود على الموصوف المحذوف الذى وصف به كهيئة، فتقديره فى التأنيث: صورة، وفى التذكير: شخصاً، أو خلقاً وشبه ذلك. هـ.

«و» اذكر أيضاً «إذ كلفت بنى إسرائيل عنك» حين هموا بقتلك، «إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين» أى: ما هذا الذى جلتنا به إلا سحراً، أو: قالوا فى شأنك حين جنتهم: ما هذا إلا سحر مبين، «و» اذكر أيضاً «إذ أوحيت إلى الحواريين» أى: ألهمتهم، وأمرتهم بأن «آمنوا بهى ورسولى» عيسى، فامتثلوا، «وقالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون» أى: منقادون ومخلصون.

الإشارة: قال الورتجى: من تمام نعمة الله - تعالى - عليه صيرورة جسمه بنعت روحه فى المهد على شبابه بالقوة الإلهية، بأن نطق بوصف تنزيه الله وقده وجلاله، وربوبته وفناء العبودية فيه، وبقيت تلك القدرة فيه إلى كهولته، حتى عرّف عباد الله تنزيه الله وقده صفات الله وحسن جلال الله، وهذا معنى قوله تعالى: «تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا»، وزاد فى وصفه بقوله: «وإذ علمتك الكتاب»، تجلى بقدرته بيده حتى يخط بغير تعلم. هـ. فانظره، مع ماورد فى التاريخ أنه كان يذهب مع الصبيان للمكتب.

ثم ذكر معجزة المائدة، فقال:

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

(١) راجع تفسير الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

قلت : (ياعيسى ابن مريم) : ابن هذا بدل ، ولذلك كتب بالألف ، و(أن ينزل) : مفعول (يستطيع) ، ومن قرأ بالخطاب ، فمفعول بالمصدر المقدر ، أى : سؤال ربك إنزال مائدة ، و(لأولنا وآخرنا) : بدل كل ، من ضمير (لنا) ، لإفادته الإحاطة والشمول كالتوكيد ، و(ذلك) : شرط إبدال الظاهر من ضمير الحاضر ، وأعيدت اللام مع البدل للفصل ، وضمير (لا أعذبه) : نائب عن المصدر ، أى : لا أعذب ذلك التعذيب أحدا .

يقول الحق جل جلاله : واذكر ﴿ إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ﴾ أى : هل يطيعك ربك فى هذا الأمر ، أم لا ؟ فالاستفهام عن الإسعاف فى القدرة ، فهو كقول بعض الصحابة لعبد الله بن زيد : هل تستطيع أن ترينا كيف كان يتوضأ رسول الله ﷺ ؟ مع جزمهم بأن عبد الله كان قادراً على تعليمهم الوضوء . فالحواريون جازمون بأن الله - تعالى - قادر على إنزال المائدة ، لكنهم شكوا فى إسعافه على ذلك .

قال ابن عباس : كان الحواريون أعلم بالله من أن يشكوا أن الله تعالى يقدر على ذلك ، وإنما معناه ، هل يستطيع لك ؛ أى : هل يطيعك ، ومثله عن عائشة ، وقد أثنى الله - تعالى - على الحواريين ، فى مواضع من كتابه ، فدل أنهم مؤمنون كاملون فى الإيمان .

قال لهم عيسى عليه السلام : ﴿ اتقوا الله ﴾ من أمثال هذا السؤال واقتراح الآيات ، ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ بكمال قدرته وصحة نبوتى ، فإن كمال الإيمان يوجب الحياء من طلب المعجزة ، ﴿ قالوا نريد أن نأكل منها ﴾ أكلاً نتشرف به بين الناس ، وليس مرادهم شهوة البطن ، ﴿ وتطمئن قلوبنا ﴾ بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال ، أى : نعين الآية ضرورة ومشاهدة ، فلا تعرض لنا الشكوك التى فى الاستدلال ، ﴿ ونعلم أن قد صدقتنا ﴾ علماً ضروريا لا يختلجه وهم ولا شك ، ﴿ ونكون عليها من الشاهدين ﴾ أى : نشهد بها عند من لم يحضرها من الناس ، أو من الشاهدين للعين ، دون السامعين للخبر ، وليس الخبر كالعيان ، والحاصل : أنهم أرادوا الترقى إلى عين اليقين ، دون الاكتفاء بعلم اليقين .

﴿ قال عيسى ابن مريم ﴾ مسعفاً لهم لما رأى لهم غرضاً صحيحاً فى ذلك ، روى أنه لبس جبّةً شعر ، ورداء شعر ، وقام يصلى ويدعو ويبكي ، وقال : ﴿ اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ﴾ أى : لمتقدمنا ومتأخرنا ، يعود علينا وقت نزولها كل عام بالفرح والسرور ، فننخذ عيداً نحن ومن يأتى بعدنا ، ﴿ و ﴾ يكون نزولها ﴿ آية منك ﴾ على كمال قدرتك وصحة نبوتى ، ﴿ وازقنا ﴾ المائدة والشكر عليها ، ﴿ وأنت خير الرازقين ﴾ أى : خير من يرزق ؛ لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض ، ونسبة الرزق إلى غيره مجاز . ﴿ قال الله إني منزلها عليكم ﴾ كما طلبتم ، ﴿ فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ أى : من عالمي زمانهم ، أو مطلقاً .

قال ابن عمر: (أشد الناس عذاباً يوم القيامة: من كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون، والمنافقون). روى أنها نزلت سفرة حمراء بين غمامتين، وهم ينظرون إليها، حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة، ولا تجعلها مثلة وعقوبة، ثم قام وتوضأ وصلى وبكى، ثم كشف المنديل، وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية، تسيل دسماً وعند ذنبها خل، وحولها من أنواع البقول ما خلا الكراث، وخمسة أرغفة، على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد. قال شمعون: ياروح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما، ولكنه اخترعه الله بقدرته، كلوا ما سألتكم، واشكروا الله يمددكم ويزدكم من فضله، فقالوا: ياروح الله، لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى، فقال: ياسمكة؟: أحيى بإذن الله، فاضطربت، ثم قال لها: عودي، فعادت كما كانت، فعادت مشوية، ثم طارت المائدة، ثم عصوا بعدها فمسخوا.

وقيل: كانت تأتيهم أربعين يوماً، غيباً^(١)، يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار، يأكلون، فإذا فرغوا، طارت وهم ينظرون في ظلها، ولم يأكل منها فقير إلا غنى مدة عمره، ولا مريض إلا برئ ولم يمرض أبداً، ثم أوحى الله إلى عيسى: أن اجعل مائدتي في الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء، فاضطرب الناس، فمسخ منهم ثلاثة وثمانون. وقيل: لما وعد الله إنزالها بهذه الشريطة، استغفروا وقالوا: لا نريد، فلم تنزل. قلت: المشهور أنها نزلت، ويحكى أن أرجلها باقية بجزيرة الأندلس. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في سؤال الحواريين لسيدنا عيسى عليه السلام قلة أدب من وجهين: أحدهما: خطابه بقوله: (يا عيسى ابن مريم)؛ وقد كانت هذه الأمة المحمدية تخاطب رسول الله ﷺ يارسول الله، يانبي الله، لكمال أدبها، ويذكر شرف وعظم قدرها، فالأدب عند الصوفية ركن عظيم، بل هو روح التصوف وقطب دائرته، قال بعضهم: (اجعل عمالك ملحا، وأدبك دقيقاً)، والكلام فيه عندهم طويل شهير.

والوجه الثاني: ما في قولهم: (هل يستطيع ريك) من بشاعة التعبير، وسوء اللفظ، حتى اتهموا بالكفر من أجله. وقد تقدم تأويله، وأما سؤالهم المائدة، فقال بعض الصوفية: هي عبارة عن المعارف والأسرار الربانية التي هي قوت الأرواح السماوية، فقوت الأشباح الأرضية ما يخرج من الأرض من الأقوات الحسية، وقوت الأرواح السماوية ما ينزل من السماء من العلوم الدنية والأسرار الربانية، ينزل على قلوب العارفين، ثم يبرز منها إلى قلوب عائلة المستمعين، ولما طلبوها قبل إبانها وقبل الاستعداد لها، قال لهم: «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين»، فلما ألحوا في

(١) أى: يوماً بعد يوم، ليكون أشهى وأحب - أنظر حاشية الشهاب ٣ / ٣٠٢.

السؤال، بين الحق لهم أن إنزالها سهل على قدرته، لكن فيه خطر وسوء عاقبة، لأن الحقائق قد تضر بالمريد إذا لم يكمل أدبه واستعداده، فلما بينوا مرادهم من كمال الطمأنينة واليقين؛ دعا الله - تعالى - فرعدهم بالإنزال مع دوام الإيمان وكمال الإيقان، فمن كفر بها، ولم يعرف قدرها، عذب بعذاب لم يعذبه أحد من العالمين، وهو الطرد والبعد من ساحة حضرة رب العالمين - والله تعالى أعلم.

ثم وبخ من عبد عيسى من الكفرة، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

قلت: (من دون الله): صفة لإلاهين، أو صلة (اتخذوني)، و(أن اعبدوا): تفسيرية للمأمور به، أو بدل من ضمير به، وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقاً؛ لئلا يلزم منه بقاء الموصول بلا راجع، أو عطف بيان له، أو خبر عن مضمرة، أي: هو، أو مفعول به، أي: أعني، ولا يجوز إيداله من (ما)؛ لأن المصدر لا يكون مفعولاً للقول؛ لأنه مفرد، والقول لا يعمل إلا في الجمل أو مافى معناه.

(يوم ينفع): من نصب جعله ظرفاً لقال، أو ظرف، مستقر خبر (هذا) والمعنى: هذا الذي مرّ من كلام عيسى، واقع يوم ينفع، إلخ، وأجاز ابن مالك أن يكون مبنياً، قال في ألفيته:

وَقَبْلَ فَعَلٍ مُعَرَّبٍ أَوْ مُبْتَدَأٍ أَعْرَبَ، وَمَنْ بَنَى فَلَنْ يُقَنَّدَا (١)

ومن رفع، فخير، وهو ظرف متصرف.

(١) أنظر الألفية، باب الإضافة.

يقول الحق جل جلاله : واذكر «إذ قال الله يا عيسى» بعد رفعه إلى السماء، أو يقوله له يوم القيامة، وهو الصحيح، بدليل قوله: «قال الله هذا» إلخ، فإن اليوم الذي «ينفع الصادقين صدقهم» هو يوم القيامة، فيقول له حينئذ: «أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله» يريد به توبيخ الكفار الذين عبدوه وتبكيته، وفيه تنبيه على أن من عبد مع الله غيره فكأنه لم يعبد الله قط، إذ لا عبادة من أشرك معه غيره.

«قال» عيسى عليه السلام مبرءاً نفسه من ذلك وقد أَرعد من الهيبة: «سبحانك» أي: تنزيهاً لك من أن يكون لك شريك، «ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق» أي: ما ينبغي لي أن أقول ما لا يجوز لي أن أقوله، «إن كنتُ قُلْتُه فقد علمته»، وكل العلم إلى الله لتظهر براءته؛ لأن الله علم أنه لم يقل ذلك، «تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك» أي: تعلم ما أخفيته في نفسي، كما تعلم ما أعلنته، ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك، سلك في اللفظ مسلك المشاكلة، فعبر بالنفس عن الذات. «إنك أنت علام الغيوب» لا يخفى عليك شيء من الأقوال والأفعال.

«ما قُلْتُ لهم إلا ما أمرتني به» وهو عبادة الله وحده، فقلت لهم: «اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيداً» أي: رقيباً عليهم، أمنعهم أن يقولوا ذلك أو يعتقدوه. «مادمُ فيهم، فلما توفيتني» بالرفع إلى السماء، أي: توفيت أجلى من الأرض. والتوفى أخذ الشيء وافياً، فلما رفعتني إلى السماء «كنت أنت الرقيب عليهم» أي: المراقب لأحوالهم «وأنت على كل شيء شهيد»: مطلع عليه مراقب له.

«إن تعذبهم فإنهم عبادك» وأنت مالك لهم، ولا اعتراض على المالك في ملكه، وفيه تنبيه على أنهم استحقوا العذاب، أي: لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك، «وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم»، فلا عجز ولا استقبحاح، فإنك القادر والقوى على الثواب والعقاب بلا سبب، ولا تعاقب إلا عن حكمة وصواب، فإن عذبت فعدل، وإن غفرت ففضل، وعدم غفران الشريك مقتضى الوعيد، فلا امتناع فيه لذاته ليمتنع التردد والتعليل بأن. قاله البيضاوي.

وقال ابن جزى : فيه سؤالان : الأول: كيف قال: «إن تغفر لهم» وهم كفار، والكفار لا يغفر لهم؟ فالجواب: أن المعنى تسليم الأمر إلى الله، وإنه إن عذب أو غفر فلا اعتراض عليه؛ لأن الخلق عباده، والمالك يفعل ما يشاء، ولا يلزم من هذا وقوع المغفرة للكفار، وإنما يقتضى جوازها في حكمة الله وعزته، وفرق بين الجواز والوقوع، وأما على قول من قال: إن هذا الخطاب وقع لعيسى عليه السلام حين رفعه الله إلى السماء فلا إشكال، لأن المعنى: إن تغفر لهم بالتوبة، وكانوا حينئذ أحياء، وكل حي معرض للتوبة.

السؤال الثاني : ما مناسبة قوله : «العزيز الحكيم» لقوله : «إن تغفر لهم»، والأليق إن قال : فإنك أنت الغفور الرحيم ؟ فالجواب: أنه لما قصد التسليم له والتعظيم، كان قوله : (فإنك أنت العزيز الحكيم) أليق، فإن الحكمة

تَقْتَضِي التسليم، والعزة تَقْتَضِي التعظيم، فإن العزيز هو الذي يفعل ما يريد، ولا يغلبه غيره، ولا يمتنع عليه شيء. أراد، فاقْتَضَى الكلام تفويض الأمر إلى الله في المغفرة لهم أو عديمها؛ لأنه قادر على كلا الأمرين لعزته، وأيهما فعل فهو جميل لحكمته. وقال أبو جعفر بن الزبير: إنما لم يقل الغفور الرحيم؛ لئلا يكون شافعياً لهم بطلب المغفرة، فاقْتَصَرَ على التسليم والتفويض، دون الطلب، إذ لا نصيب في المغفرة للكفار. أنظر بقية كلامه.

قال التفنيزاني : ذكر المغفرة، يؤهم أن الفاصلة: (الغفور الرحيم)، لكن يعرف بعد التأمل أن الواجب هو العزيز الحكيم؛ لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه، وهو العزيز، أي: الغالب، ثم رجب أن يوصف بالحكمة على سبيل الاحتراس؛ لئلا يتوهم أنه خارج عن الحكمة. هـ.

قال الله تعالى: ﴿هَذَا﴾ أي: يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي: هنا ينتفع الصادقون في الدنيا بصدقهم، ويفتضح الكاذبون على الله بكذبهم. والمراد بالصادقين؛ أهل التوحيد، الذين نزهوا الله تعالى عما لا يليق بجلاله وجماله، فصدقوا فيما وصفوا به ربهم.

ثم ذكر ما وعدهم به، فقال: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ حيث رضوا بأحكامه القهرية والتكليفية، ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير، وهذا تنبيه على تكذيب النصارى، وفساد دعواهم في المسيح وأمه، وإنما لم يقل: ومن فيهن، تغليياً لغير العقلاء، وإنما غلبَ غير أولى العقل للإعلام بأنهم في غاية القصور عن معنى الربوبية، وإهانة لهم وتنبيهاً على أنهم جنس واحد، فمن يعقل منهم لقصور عقله ونظره كمن لا يعقل، فيبعد استحقاقهم للألوهية التي تنبئ عن تمام الحكمة وإحاطة العلم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من صدر نفسه للشيخوخة من غير إذن، وأشار إلى تعظيمه بلسان الحال أو المقال يلحقه العتاب يوم القيامة فيقال له: أنت قلت للناس عظموني من دون الله؟ فإن كان مقصوده بالأمر بالتعظيم الوصول إلى تعظيم الحق تعالى، والأدب معه في الحضرة دون الوقوف مع الواسطة، وبذل جهده في توصيل المريدين إلى هذا المقام، يقول: سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إلى تمام ما قال السيد عيسى عليه السلام، فيقال له: (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم). وإن كان مقصوده بالتصدر للتعظيم والأمر به، حظ نفسه، وفرح بتربية جاهه والإقبال عليه، افتضح وأهين بما افتضح به الكاذبون المدعون. نسأل الله تعالى الحفظ والرعاية بمنه وكرمه، وسيدنا محمد رسوله ونبيه - صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه وسلم..



سُورَةُ الْأَنْعَامِ

مكية غير ست آيات أو ثلاث، وقال الكلبي: الأنعام كلها مكية إلا آيتين نزلتا بالمدينة في فئاحص اليهودي، وهي: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ (١) مع ما يرتبط بهذه الآية.

وهي مائة وخمس وستون آية، قاله البيضاوي. قال ابن عباس: (نزلت سورة الأنعام وحولها سبعون ألف ملك، لهم زجل^(٢) يجأرون بالتسبيح). وقال كعب: (فاتحة الأنعام هي فاتحة التوراة؛ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ...﴾ إلى ﴿...يَعْدِلُونَ﴾، وخاتمة التوراة خاتمة هود؛ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٣). وقيل: خاتمتها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا...﴾ (٤) إلى ﴿...تَكْبِيرًا﴾. وقال سيدنا علي - كرم الله وجهه -: (من قرأ سورة الأنعام فقد انتهى في رضا ربه). قاله ابن عطية.

ومناسبتها لما قبلها: الاستدلال على قدرته تعالى التي ختم بها ما قبلها، ومضمونها: التعريف بالذات المقدسة، دلالة وعيادنا، والاستدلال على وحدانيته وما يجب لها من صفات الكمال، والرد على طوائف المشركين، وذم أحوالهم وأفعالهم، ومدح أهل التوحيد من العارفين أو المؤمنين، قال الشيخ زروق رحمته الله في شرح الرسالة: مذكروه الشيخ ابن أبي زيد، في عقائد رسالته، هو ما تضمنته سورة الأنعام. هـ. بالمعنى.

قال جل جلاله:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١)

قلت: (ثم الذين كفروا): عطف على جملة الحمد؛ على معنى: أن الله حقيق بالحمد على ما خلقه، نعمة على العباد، ثم الذين كفروا بربهم الذي رباهم بهذه النعم، يعدلون به سواء من الأصنام، يقال: عدلت فلاناً بفلان؛ جعلته نظيره. أو عطف على «خلق، وجعل»؛ على معنى أنه خلق وقدر ما لا يقدر عليه غيره، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء. ومعنى (ثم): استبعاد عدولهم بعد هذا البيان. والباء في «بربهم» متعلقة بكفروا، على الأول، ويعدلون على الثاني. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: جميع المحامد إنما يستحقها الله، إذ ما بكم من نعمة فمن الله. ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ التي تظلكم، مشتملة على الأنوار التي تضيء عليكم، ومحلاً للزول الرحمات والأمطار

(١) الآية ٩١ من سورة الأنعام. (٢) زجل، أي: صوت رفيع عال.
(٣) الآية ١٢٣ من سورة هود. (٤) الآية ١١١ من سورة الإسراء.

عليكم، ﴿و﴾ خلق ﴿الأرض﴾ التي تُقْلُكُمْ، وفيها نبات معاشكم في العادة، وفيها قراركم وبعد معاتكم، مشتملة على بحار وأنهار، وفواكه وثمار، وبهجة أزهار ونوار، ﴿وجعل الظلمات﴾ التي تستركم، راحة لأبدانكم وقلوبكم، كظلمات الليل الذي هو محل السكون. ﴿و﴾ جعل ﴿النور﴾ الذي فيه معاشكم وقوام أبدانكم وأنعامكم. ﴿ثم الذين كفروا﴾ بعد هذا كله، ﴿يعدلون﴾ عنه إلى غيره، أو يعدلون به سواء، فيسوّونه في العبادة معه.

قال البيضاوي: وجمع السموات دون الأرض وهي مثلهن؛ لأن طبقاتها مختلفة بالذات، متفاوتة الآثار والحركات، وقدمها؛ لشرفها وعلو مكانها. ثم قال أيضاً: وجمع الظلمات؛ لكثرة أسبابها والأجرام الحاملة لها، أو لأن المراد بالظلمة: الضلال، وبالنور: الهدى. والهدى واحد والضلال متعدد. وتقدمها لتقدم الإعدام على الملكة. ومن زعم أن الظلمة عرض يضاد النور احتج بهذه الآية، ولم يعلم أن عدم الملكة كالعمى ليس صرّف العدم حتى لا يتعلق به الجعل. هـ.

الإشارة: أثنى الحق - جل جلاله - على نفسه بإنشاء هذه العوالم، التي هي محل ظهور عظمته وجلاله وجماله وبهائه. فأنشأ سموات الأرواح، التي هي مظهر لشروق أنوار ذاته وصفاته، ومحل لظهور عظمة ربوبيته، وأنشأ أرض النفوس، التي هي مظهر لتصرف أقداره، ومحل لظهور آداب عبوديته، وتجلي بين الضدين؛ بين الظلمات والنور، ليقع الخفاء في الظهور، كما قال بعض الشعراء:

... لقد تكاملت الأضداد في كامل البهائم

ثم بعد هذا الظهور التام، عدل عن معرفته جل الأنام، إلا من سبقت له العناية من الملك العلام. وبالله التوفيق. ثم برهن على كمال قدرته، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾

قلت: (أجل): مبتدأ. و(مسمى): صفة. و(عنده): خبر، وتخصيصه بالصفة أغنى عن تقديم الخبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ أي: ابتداء خلقكم منه، وهو آدم، لأنه المادة الأولى، وهو أصل البشر. ﴿ثم قضى أجلاً﴾ تنتهون في حياتكم إليه، وهو الموت. ﴿وأجل مسمى﴾ معين للبعث، لا يقبل التغيير، ولا يتقدم ولا يتأخر، ﴿عن﴾ استأثر بعلمه، لا مدخل لغيره فيه بعلم ولا قدرة، وهو المقصود بالبيان، ﴿ثم أنتم تمتمرون﴾ أي: تشكون في هذا الأجل المسمى الذي هو البعث.

و «ثم»: لاستبعاد امترائهم بعد ما ثبت عنه أنه خالقهم، وخالق أصولهم ومحبيهم إلى آجالهم، فإن من قدر على خلق المواد وجمعها، وإبداع الحياة فيها وإبقائها ما شاء، كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً. قاله البيضاوي.

الإشارة: القوالب من الطين، والأرواح من نور رب العالمين، فالطينية ظرف لنور الربوبية، الذي هو الروح؛ لأن الروح نور من أنوار القدس، وسر من أسرار الله، فمن نظف طينته ولطفها ظهرت عليها أسرار الربوبية والعلوم اللدنية، وكشف للروح عن أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، وانخست الطينية، واستولت عليها الروح النورانية، ومن لطح طينته بالمعاصي وكثفها باتباع الشهوات، انحجبت الأنوار واستقرت، واستولت الطينية الظلمانية على الروح النورانية، وحجبتها عن العلوم اللدنية والأسرار القدسية، بحكمته تعالى وعدله وظهور قهره . وبالله التوفيق.

ثم برهن على وحدانيته الخاصة، فقال:

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَمُجَهَّرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ ﴿٣﴾

قلت: (هو): مبتدأ، و(الله): خبره. و(في السموات): خبر ثان، أي: وهو الله كائن أو موجود في السموات وفي الأرض بنوره وعلمه. قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (١). و(يعلم سركم وجهركم): تقرير له.

يقول الحق جل جلاله: هذا الذي اختص بالحمد وأبدع الكائنات كلها - ﴿ هو الله ﴾ ظاهر ﴿ في السموات وفي الأرض ﴾ بنوره وقدرته وعلمه وإحاطته، فلا شريك معه ﴿ يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون ﴾ من خير أو شر، فيثيب عليه ويعاقب، ولعله أراد بالسر والجهر ما يظهر من أحوال النفس، وبالمكتسب أعمال الجوارح. فالآية الأولى دليل القدرة التي ختم بها السورة، والآية الثانية دليل البعث، والآية الثالثة دليل الوحدة.

الإشارة: قال بعض العارفين: الحق تعالى منزّه عن الأين والجهة، والكيف، والمادة، والصورة، ومع ذلك لا يخلو منه أين، ولا مكان، ولا كم، ولا كيف، ولا جسم، ولا جوهر، ولا عرض. لأنه للطفه سار في كل شيء، ولنوريته ظاهر في كل شيء، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف، غير متقيد بذلك، فمن لم يعرف هذا ولم يذقه ولم يشهده، فهو أعمى البصيرة، محروم من مشاهدة الحق تعالى. ولا ين وفا:

هُوَ الرَّحْمَنُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ
فِي خَفِيهِ الشُّهُودُ عَنِ الشَّهِيدِ
هُوَ الْمُقْصِدُ مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ
سُجُودُ فِي الْقَرِيبِ وَفِي الْبَعِيدِ
فَكَفَّ النَّفْسَ عَنْ طَلَبِ الْمَزِيدِ

هُوَ الْحَقُّ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ
هُوَ الْمُشْهُودُ فِي الْأَشْهُادِ يَبْدُو
هُوَ الْعَيْنُ الْعَيَانُ لِكُلِّ غَيْبٍ
جَمِيعُ الْعَالَمِينَ لَهُ ظِلَالُ
وَهَذَا الْقَدْرُ فِي التَّحْقِيقِ كَافٍ

(١) من الآية: ٣٥ من سورة النور.

ثم ذم من أعرض عن دلائل توحيده، فقال:

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾

قلت: (من) الأولى: مزيدة للاستغراق، والثانية للتبويض.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما تأتيهم من آية ﴾ دالة على توحيد الله وكمال صفاته، إلا أعرضوا عنها، أي: الكفار، أو: ما تأتيهم معجزة من المعجزات الدالة على قدرة الله وصدق رسوله، أو: ما تأتيهم آية من آيات القرآن تدل على وحدانيته وكمال ذاته، ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾؛ تاركين للنظر فيها، غير ملتفتين إليها.

﴿ فقد كذبوا بالحق ﴾ وهو القرآن ﴿ لما جاءهم ﴾، وهو كالدليل لما قبله، لأنهم لما كذبوا بالقرآن - وهو أعظم الآيات - فكيف لا يعرضون عن غيره من الآيات؟ ثم هددهم بقوله: ﴿ فسوف يأتيهم أنباء ﴾ أي: أخبار ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي: سيظهر لهم، عند نزول العذاب بهم في الدنيا والآخرة، ما كانوا يستهزئون به من البعث والحساب، أو عند ظهور الإسلام وارتفاعه.

الإشارة: من سبق له الخذلان لاتنفعه الأدلة وتراثر البرهان، ولا تزيده ظهور المعجزات أو الكرامات إلا التحاسد وظهور العداوات، ولا يزيده الدعاء إلى الله والتناد، إلا الإعراض عنه والبعد، نعود بالله من الشقاء وسوء القضاء.

ثم أمر أهل الإنكار بالنظر والاعتبار، فقال:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

قلت: (كم): خبرية، مفعول «أهلكنا»، أي: كثيراً أهلكنا من القرون، والقرن: مدة من الزمان تهلك أسيانها وتقوم أطفالها، واختلف في حدها، قيل: مائة، وقيل: سبعون، وقيل: ثمانون، وقيل: القرن: أهل زمان فيه نبي أو فائق في العلم، قلت المدة أو كثرت، مشتق من قرين الرجل. والمطر المِدرار هو الغزير، وهي من أمثلة المبالغة، كمدكار ومينات.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ألم يروا ﴾ ببصائرهم رؤية اعتبار، ﴿ كم أهلكنا من قبلهم ﴾ من أهل عصر ﴿ مكناهم في الأرض ﴾ أي: جعلناهم متمكنين فيها بالقرار والسكنى والطمانينة فيها، أو أعطيناهم من القوة والآلات

ما تمكّنوا بها من أنواع التصرف فيها؛ فقد ﴿ مكناهم مالم يمكن لكم ﴾ يا أهل مكة، فقد جعلنا لهم من السعة وطول المقام مالم نجعله لكم، أو أعطيناهم من القوة والسعة في المال والاستظهار على الناس بالعدة والعدد وتهيؤ الأسباب مالم نجعله لكم..

﴿ وأرسلنا السماء ﴾ أى: المطر أو السحاب ﴿ عليهم مدرّاراً ﴾ أى: مغزّاراً على قدر المنفعة بحسب الحاجة، ﴿ وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ﴾ أى: أجرينا الأودية من تحت ديارهم وأراضيهم، فعاشوا فى الخصب والريف، بين الأنهار والثمار، فعصّوا وطمغوا ويطروا النعمة، فلم يغن ذلك عنهم شيئاً. ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا ﴾ أى: أحدثنا، ﴿ من بعدهم قرناً آخرين ﴾ بدلاً منهم. والمعنى: أنه تعالى كما قدر أن يهلك من تقدم من القرون، بعد أن مكّنهم فى البلاد واستظهروا على العباد، كعاد وثمود، وأنشأ بعدهم آخرين عمر بهم بلاده، يقدر أن يفعل ذلك بكم يامعشر الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ.

الإشارة: النظر والاعتبار يوجب للقلب الرقة والانكسار. وهى عبادة كبرى عند العباد والزهاد، أولى العزم والاجتهاد. وفوقها: فكرة الشهود والعيان، وهى الفكرة التى تطوى وجود الأكوان، وتغيب الأوانى بظهور المعانى، أو تربها حاملة لها قائمة بها، فالأولى فكرة تصديق وإيمان، والثانية فكرة شهود وعيان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر عنادهم، وأنهم لا تنفع فيهم المعجزة، فقال:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾
وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ
مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو نزلنا عليك ﴾ يامحمد ﴿ كتاباً ﴾ مكتوباً ﴿ فى قرطاس ﴾ أى: رق، فأروه بأعينهم، ولمسوه بأيديهم، حتى لا يبقى فيه تزوير، لعاندوا، ولقال ﴿ الذين كفروا منهم ﴾ بعد ذلك: ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ ؛ تعنتاً وعناداً، وتخصيص اللبس؛ لأن التزوير لا يقع فيه، فلا يمكنهم أن يقولوا: «إنما سكّرت أبصارنا»، وتقييده بالأيدى لدفع التجوز، فإنه قد يتجوز فيه فيطلق على الفحص كقوله: ﴿ وأنا لمسنّا السماء ﴾ (١).

ثم اقترحوا معجزة أخرى، ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ يكلمنا أنه نبي، ﴿ أو يكون معه نذيراً ﴾ أو شهيداً له بالرسالة، روى أن العاص بن وائل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود هم الذين سألوا ذلك. قال تعالى:

(١) من الآية ٨ من سورة الجن.

﴿ولو أنزلنا ملكاً﴾ ، كما طلبوا ﴿لقضى الأمر﴾ بهلاكهم ، فإن سنة الله جرت بذلك فيمن قبلهم ؛ مهما اقترحوا آية ، فظهرت ثم كفروا ، عجل الله هلاكهم ، ﴿ثم لا ينظرون﴾ أى : لا يمهلون بعد نزولها ساعة .

وعلى تقدير لو أنزلنا عليهم الملك - كما اقترحوا - فلا يمكن أن يظهر إلا على صورة البشر ليطبقوا رؤيته ، ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ ليمكنوا من رؤيته ، كما مكل جبريل فى صورة دحية ، فإن القوة البشرية لا تقوى على رؤية الملائكة . وإنما رأوهم كذلك الأفراد من الأنبياء ، لامتلاء أسرارهم بالأنوار القدسية ، فإذا ظهر على صورة البشر القبس الأمر عليهم فقالوا : إنما هو بشر لا ملك . فهذا معنى قوله : ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ أى : لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم ، أو لفعلنا لهم فى ذلك فعلاً ملبساً بطرق لهم إلى أن يلبسوا به على أنفسهم وضعفائهم ؛ فإن عادة الله فى إظهار قدرته أن تكون مرتدية برداء حكمته ؛ ليبقى سر الربوبية مصوناً ، فمن سبقت له العناية خلق الله فى قلبه التصديق بها ، حتى علمها ضرورة ، وغيره يلبس الأمر عليه فيها . وبالله التوفيق .

الإشارة : كرامات الأولياء كمعجزات الأنبياء ، لا تظهر إلا لأهل الصدق والتصديق ، ولا يتحقق بولايتهم إلا من سبق له الوصول إلى عين التحقيق . « سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه » ، فأهل الإنكار عليهم لا يرون إلا ما يقتضى البعد عنهم . وأهل الإقرار لا يرون إلا ما يقتضى القرب منهم والمحبة فيهم . والله تعالى أعلم .

ثم سلى رسوله - عليه الصلاة والسلام - فقال :

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

قلت : حاق يحيق حيقاً ، أى : نزل وأحاط ، و (منهم) : يتعلق بسخروا ، و (ماكانوا) : الموصول اسمى أو حرفى .

يقول الحق جل جلاله فى تسلية رسوله ﷺ : ﴿ولقد استهزئ برسل﴾ كثير ﴿من قبلك﴾ فصبروا على أذى قومهم حتى أهلكهم الله ، ﴿فحاق﴾ أى : أحاط ﴿بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزءون﴾ أى : نزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزءون به ويستبعدونه ، أو : نزل بهم ربال استهزائهم وهو الهلاك .

الإشارة : كل ما سلئت به الرسل تسلى به الأولياء ، فما من ولى صديق إلا ابتلاه الله بتسليط الخلق عليه ؛ حتى ترحل روحه عن هذا العالم لضيقه عليها ، وتتمكن من شهود عالم الملكوت ، فإذا ظهرت منه البقايا ، وكملت فيه المزايا ، رده إليهم غنياً عنهم ، وغائباً عنهم ، جسمه مع الخلق وقلبه مع الحق . هذه سنة الله فى أوليائه ، فكل ولى يتسلى بمن قبله فى إيذاء الخلق له . غير أن أولياء هذه الأمة إذا كمل مقامهم صاروا على قدم نبيهم ، يكونون رحمة

للعباد، مَنْ آذَاهُمْ لَا يُعَاجِلُ بِالْعُقُوبَةِ غَالِبًا، كما كان نبيهم رحمة للعالمين، فقال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». والله تعالى أعلم.

ثم جدد الأمر بالاعتبار، فقال:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿١١﴾

قلت: قال الزمخشري: فإن قلت: أي فرق بين قوله: (فانظروا)، وبين قوله: (ثم انظروا)؟ فالجواب: أنه جعل النظر مسبباً على السير في قوله: «فانظروا»، كأنه قال: سيروا لأجل النظر، وأما قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا﴾، فمعناه: إباحة السير للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في الهالكين. هـ. ولم يقل: كانت؛ لأن العاقبة مجاز تأنيهاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وجولوا في أقطارها، ﴿ثُمَّ أَنْظِرُوا﴾ كيف كان عاقبة المكذبين ﴿قُلْ﴾ قبلكم، كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدائن، كيف أهلكهم الله بعذاب الاستئصال، كي تعتبروا وتنتزجروا عن تكذيب محمد - عليه الصلاة والسلام -.

الإشارة: يقال لأهل التنكير على أهل الذكر والتذكير: سِيرُوا فِي الْأَرْضِ، وانظروا كيف كان عاقبة المنكرين على المتوجهين، كانت عاقبتهم الخذلان، وسوء الذكر بعد الموت والخسران كابن البراء وغيره من أهل التنكير. نعوذ بالله من التعرض لمقت الله.

لكن الأمر كله بيد الله، كما قال تعالى:

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُفْرُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿١٣﴾

قلت: جملة (ليجمعنكم)؛ مقطوعة، جواب لقسم محذوف، وقيل: بدل من الرحمة، وهو ضعيف؛ لدخول النون الثقيلة في غير موضعها. و«إلى»؛ هنا، للفاية، كما تقول: جمعت القوم إلى داري. وقيل: بمعنى «في»، و(الذين خسروا)؛ مبتدأ، وجملة: (فهم لا يؤمنون)؛ خبر، و(له ما سكن)؛ عطف على (لله)، وهو إما من السكنى فلا حذف، أو من السكون، فيكون حذف المعطوف. أي: ما سكن وتحرك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ لِلْمُشْرِكِينَ يَا مُحَمَّد: ﴿لَمَّا مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خَلَقًا وَمَلَكًا وَعَبِيدًا﴾. ﴿قُلْ﴾ لهم هو: ﴿لِلَّهِ﴾ لا لغيره، والقصد بالآية: إقامة البرهان على التوحيد وإبطال الشرك. وجاء ذلك بصيغة الاستفهام؛ لإقامة الحجة على الكفار، فسأل أولاً، ثم أجاب عن سؤاله بنفسه؛ لأن الكفار يوافقون على ذلك ضرورة، فثبت أن الإله الحق هو الذي له ما في السموات والأرض، وإنما يحسن أن يكون السائل مجيباً إذا علم أن خصمه لا يخالفه في الجواب الذي يقيم به الحجة عليه.

ثم دعاهم إلى الإيمان والتوبة بتلطّف وإحسان فقال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾؛ ﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(١) كما في الآية الأخرى، والكتابة هنا عبارة عن القضاء السابق، وقد فسرهما رسول الله ﷺ بقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهُوَ عِنْدَهُ» وفيه: «أَنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»^(٢) وفي رواية: «تَغْلِبُ غَضَبِي»^(٣).

قال البيضاوي: «كتب على نفسه الرحمة» أي: التزمها تفضلاً وإحساناً، والمراد بالرحمة: ما يعم الدارين، ومن ذلك: الهداية إلى معرفته، والعلم بتوحيده، بنصب الأدلة، وإنزال الكتب والإمهال على الكفر. هـ.

ثم ذكر محل ظهور هذه الرحمة، فقال: وَاللَّهُ ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: ليجمعنكم من القبور مبعوثين إلى يوم القيامة فيجازي أهل التوبة والإيمان، ويعاقب أهل الشرك والكفران، «لاريب» في ذلك اليوم، أو في ذلك الجمع، فيظهر أهل الخسران من أهل الإحسان، ولذلك قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بتضييع رأس مالهم، وهو النظر الصحيح الموجب للإيمان والتوحيد ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حتى أدركهم الموت؛ فلا خسران أعظم من ذلك. ودخلت الفاء في الخبر؛ للدلالة على أن عدم إيمانهم مسبب عن خسرانهم؛ فإن إبطال النظر، والانهماك في التقليد واتباع الوهم، أدى بهم إلى الإصرار على الكفر، والامتناع من الإيمان إلى الممات. فخسروا أولاً بتضييع النظر، فتسبب عنه عدم الإيمان.

ثم تمم جوابه فقال: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ أي: قل لهم: ما في السموات والأرض لله، وله أيضاً ما سكن ﴿فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: ما استقر فيهما وما اشتملنا عليه، أو ما سكن فيهما وتحرك، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل مسموع، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل معلوم؛ فلا يخفى عليه شيء في الليل والنهار، في جميع الأقطار.

(١) الآية ٥٤ من السورة نفسها.

(٢) أخرجه البخاري في (التوحيد، باب قول الله تعالى: «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين») من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري في (التوحيد، باب قوله تعالى «ويحذركم الله نفسه») ومسلم في (التوبة، باب: في سعة رحمة الله) من حديث أبي هريرة.

الإشارة: إذا علم العبد أن الخلق كلهم في قبضة الله، وأمورهم كلها بيد الله، أحاط بهم علماً وسمعاً وبصراً، لم يبق له على أحد عتاب، ولا ترتيب خطأ ولا صواب، إلا ما أمرت به الشريعة على ظاهر اللسان. بل شأنه أن ينظر إلى ما يفعل المالك في ملكه، فيلتقاه بالقبول والرضى، وفي الحكم: «ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله فيه»، هذا شأن أهل التوحيد؛ يدورون مع رياح الأقدار حيثما دارت، غير أنهم يتحللون بقلوبهم إلى رحمة الكريم العنان، وينهضون بهمتهم إلى مظان السعادة والغفران، ويرجون منه الجمع عليه في روح وريحان، وجنة ورضوان، بمحض فضل منه وإحسان. جعلنا الله منهم بفضله وكرمه. آمين.

ثم أقام الحجة على أهل الشرك، فقال:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَ يَمْذِفُ فَقْدَ رَحْمَةٍ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: (فاطر): نعت لله، ومعناه: خالق ومبدع. قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ما كنت أعرف معنى فاطر، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها بيدي). وجملة: (وهو يطعم): حال، وقري بعكس الأول؛ ببناء الأول للمفعول، والثاني للفاعل، على أن ضمير (هو) راجع لغیر الله، وبنائهما للفاعل؛ على معنى يطعم تارة، ويمنع أخرى، كقوله: ﴿يَقْبُضُ وَيَبْسُطُ﴾^(١)، وجملة (إن عصيت): معترضة بين الفعل والمفعول، والجواب: محذوف دل عليه ما قبله، أي: إن عصيت فإني أخاف عذاب يوم عظيم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ لهم يامحمد: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَخَذُ وَلِيًّا﴾ أي: معبوداً أو إليه بالعبادة والمحبة، وأشركه مع الله الذي أبدع السموات والأرض، ﴿وَهُوَ﴾ الغنى عما سواه، الصُّمَدَانِي، ﴿يُطْعِمُ﴾ عباده ولا ﴿يُطْعَمُ﴾ ولا يحتاج إلى من يطعمه، فهو يرزق ولا يرزق، وتخصيص الطعام؛ لشدة الحاجة إليه. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، وأنقاد بكليتي إلى هذا الإله الحقيقي، الغنى بالإطلاق، وأرفض كل ما سواه، ممن عمه الفقر ابتداءً ودواماً. فكان عليه الصلاة والسلام هو أول سابق إلى الدين. ثم قيل له: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ تنفيراً لغيره من الشرك، وإلا فهو مبرأ منه - عليه الصلاة والسلام -.

(١) من الآية: ٢٤٥ من سورة البقرة.

﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي ﴾ بالشرك وغيره ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ ، وهذه مبالغة أخرى في قطع أطماعهم ، وتعريض لهم بأنهم عصاة ، مستوجبون للعذاب ، ﴿ من يصرف عنه ﴾ ذلك العذاب ، ﴿ يومئذ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ فقد رحمه ﴾ أى : نجاه ، وأنعم عليه ، ﴿ وذلك الفوز المبين ﴾ أى : وذلك الصرف أو الرحمة هو الفلاح المبين .

ثم ذكر حجة أخرى على استحقاقه للعبادة والولاية ، فقال : ﴿ وإن يمسك الله بضر ﴾ كمرض أو فقر ، ﴿ فلا كاشف له إلا هو ﴾ ؛ إذ لا يقدر على صرفه غيره ، ﴿ وإن يمسكك بخير ﴾ ؛ بنعمة ، كصحة وغنى ومعرفة وعلم ، ﴿ فهو على كل شيء قدير ﴾ ، فهو قادر على حفظه وإدامته ، ولا يقدر أحد على دفعه ، كقوله تعالى : ﴿ فلا راد لفضله ﴾ (١) ، ﴿ وهو القاهر ﴾ لجميع خلقه ؛ كلهم فى قبضته ، ﴿ فوق عباده ﴾ بهذه القهرية والغلبة والقدرة ، ﴿ وهو الحكيم ﴾ فى صنعه وتدبيره ، ﴿ الخبير ﴾ بخفايا أمور عباده ، لا يخفى عليه شيء من أحوالهم الباطنة والظاهرة .

الإشارة : فى الآية حض على محبة الحق ، وولايته على الدوام ، ورفض كل ما سواه ممن عمه الفقر من الأنام ، وفيها أيضاً : حث على المسابقة إلى الخيرات ، والمبادرة إلى الطاعات ، اقتداء بسيد أهل الأرض والسموات ، فكان - عليه الصلاة والسلام - أول من عبد الله ، وأول من توجه إلى مولاه ، قال تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ (٢) ، فلو جاز أن يتخذ ولداً ، لكنت أنا أولى به ، لأنى أنا أول من عبده .

قال الورتجبي : ﴿ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ أى : أمرنى حين كنت جوهر فطرة الكون - حيث لم يكن غيرى فى الحضرة - أن أكون أول الخلق فى المحبة والعشق والشوق ، وأول الخلق له منقاداً بنعت محبتى له ، راضياً بربوبيته ، غير منازع لأمر مشيئته . وقال بعضهم : أكون أول من انتقاد للحق إذا ظهر . هـ .

ولما قالت قريش للنبى ﷺ : يا محمد : لقد سألنا عنك اليهود والنصارى ، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة ، فأرنا من شهد لك ؟ أنزل الله تعالى :

﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۖ ۞ ﴾

قلت : (قل الله شهيد) : يحتمل المبتدأ والخبر ، أو يكون (الله) خبراً عن مضمراً ، أو مبتدأ حذف خبره ، وشهيد : خبر عن مضمراً ، أى : قل هو الله ، أو الله أكبر شهادة ، وهو شهيد بينى وبينكم ، و (من بلغ) : عطف على مفعول ، وأنذر ، أى : لأنذركم يا أهل مكة ، وأنذر من بلغه القرآن ، وحذف مفعول (بلغ) .

(١) من الآية: ١٠٧ من سورة يونس .

(٢) من الآية: ٨١ من سورة الزخرف .

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للذين سألك مَنْ يشهد لك بالنبوة: ﴿أَيُّ شَيْءٍ﴾ عندكم هو ﴿أكبر شهادة﴾ ؟ فإن لم يجيبوا فقل لهم: هو «الله» ؛ فإنه أكبر الشاهدين، وهو الذي يشهد لى بالنبوة والرسالة؛ بإقامة البراهين وإظهار المعجزات، وهو ﴿شهيد بيني وبينكم﴾ ، وكفى به شهيدا.

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ﴾ أي: لأخوفكم به، إن أعرضتم عنه، وأبشركم به إن آمنتم به، واكتفى بذكر الإنذار عن ذكر البشارة؛ لأنه مصرح به في موضع آخر، ولأن الأهم هنا هو الإنذار؛ لغلبة الكفر حينئذ، وأنذر به أيضا كل من بلغه القرآن من الأحمر والأسود، والجن والإنس إلى يوم القيامة. وفيه دليل على أن أحكام القرآن نعم الموجودين وقت النزول ومن بعدهم، وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلغه، وهو نادر، قال سعيد بن جبیر: (مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنَ فَكَأَنَّمَا رَأَىٰ مُحَمَّدًا ﷺ).

الإشارة: في الآية حث على الاكتفاء بعلم الله، والاستغناء به عما سواه، وعلامة الاكتفاء بعلم الله ثلاث: استواء المدح والذم، والرضى بالقليل والكثير، والرجوع إلى الله وحده في السراء والضراء.

واعلم أن الحق تعالى إذا شهد لك بالخصوصية، ثم اكتفيت بشهادته فأنت من أهل الخصوصية، وإن لم تكف بشهادته، وتطلعت إلى أن يعلم الناس بخصوصيتك، فأنت كاذب في دعوى الخصوصية. وإطلاع الحق تعالى على ثبوت خصوصيتك هو شهادته لك، فاقنع بعلم الله، ولا تلتفت إلى أحد سواه، لللا يلزعها من قلبك، حيث لم تقنع بعلم الله فيك. وبالله التوفيق.

ولما أتى قوم من الكفار إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد؛ أما تعلم أن مع الله إلها آخر؟ أنزل الله تعالى:

﴿... أَيْتَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ

مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

قلت: الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

يقول الحق جل جلاله، في الإنكار على المشركين: ﴿أنتكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى﴾ تستحق أن تعبد ﴿قل﴾ لهم يا محمد: أنا ﴿لا أشهد﴾ بما تشهدون به، ﴿قل﴾ لهم: ﴿إنما هو إله واحد﴾ ؛ بل أشهد ألا إله إلا هو، ﴿وإنني بريء مما تشركون﴾ به من الأصنام.

الإشارة: لم يبرأ من الشرك الخفى والجلى إلا أهل الفناء؛ الذين وحدوا الله فى وجوده، فلم يروا معه سواه. قال بعض من بلغ هذا التوحيد: (لو كُلفت أن أرى غيره لم أستطع؛ فإنه لا غير معه حتى أشهده) وقال آخر: مُحال أن تشهده وتشهد معه سواه. وقال شاعرهم:

مَذْعَرَفْتُ الْإِلَهَ لَمْ أَرْ غَيْرًا وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَعْنُوعٌ

إلى غير ذلك من مقالاتهم الدالة على تحقيق وجدانهم. نفعلنا الله بذكرهم ومحبتهم. آمين.

ولما قالت قريش: قد سألنا اليهود والنصارى عنك، فلم يجدوا لك عندهم ذكراً، ردَّ الله عليهم، فقال:

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ من اليهود والنصارى، ﴿ يعرفونه ﴾ أى: محمداً ﷺ بحليته المذكورة فى التوراة والإنجيل، ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ أو أشد، وإنما كتموه؛ جحداً وخوفاً على رياستهم.. ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ من أهل الكتاب؛ حيث كذبوا وكتموا، ومن المشركين حيث كفروا وجحدوا، ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾؛ لتضييعهم مابه يكتسب الإيمان من النظر والتفكير والإنصاف للحق، فقد ظلموا أنفسهم وبخسوها.

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾؛ بأن كتم شهادة الحق، وهى صفة الرسول - عليه الصلاة والسلام - أو ادعاء للملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعائنا عند الله، ﴿ أو كذب بآياته ﴾؛ كالقرآن والمعجزات وسموها سحراً، أى: لا أحد أظلم ممن فعل هذا، وإنما عبر بـ «أو»، وهم قد جمعوا بين الأمرين؛ تنبيهاً على أن كل واحد منهما وحده بالغ غاية الإفراط فى الظلم على النفس، ﴿ إنه ﴾ أى: الأمر والشأن ﴿ لا يفلح الظالمون ﴾، فضلاً عن لا أحد أظلم منه.

الإشارة: أقبح الناس منزلة عند الله، من تحقق بخصوصية ولى من أولياء الله، ثم كتمها وجعدها؛ حسداً وعناداً، وجعل ينكر عليه، فقد آذن بحرب من الله، فالتسليم عناية، والانتقاد جناية، والاستنصاف من شأن الكرام، والتعصب من شأن اللئام. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد أهل الشرك، فقال:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قلت: «لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا»، من قرأ بالرفع والتأنيث: ففتنة اسمها، و(إلا أن قالوا): خبرها، ومن قرأ بالنصب: فخبير مقدم، والتأنيث لأجل الخبر، ومن قرأ بالتذكير والنصب، فخبير مقدم، و(إلا أن قالوا): اسمها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر يا محمد ﴿يوم نحشرهم﴾ أى: المشركين، ﴿جميعاً﴾ ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم ﴿أى: آلهتكم التى جعلتموها شركاء لله،﴾ الذين كنتم ﴿تزعمونهم شركاء، وتودونها وتنتصرون لها، فيحال بينهم وبينها، ويتبرأون منها، كما قال تعالى:﴾ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴿أى: لم تكن عاقبة كفرهم الذى افتتنوا به، إلا التبرؤ منه، بعد الانتصار له والتعصب عليه، أو: لم يكن جواب اختبارهم إلا التبرؤ من الشرك، فيكذبون ويحلفون عليه، مع علمهم بأنه لا ينفع من فرط الحيرة والذهشة.

فإن قلت: كيف يجحدون مع قوله: ﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾^(١) فالجواب: أن ذلك يختلف باختلاف الطوائف والمواطن، فيكتم قوم ويقر آخرون، ويكتمون فى موطن ويقرّون فى موطن آخر؛ لأن يوم القيامة طويل، وقال ابن عباس لما سئل عن هذا: (إنهم جحدوا، طمعاً فى النجاة، فختم الله على أفواههم وتكلمت جوارحهم، فلا يكتُمون حديثاً).

قال تعالى: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ بنفى الشرك عنها بعد تحققها به ونظيره قوله: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾^(٢) ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أى: غاب عنهم ما كانوا يعبدونه من الشركاء افتراء على الله.

الإشارة: من أحب شيئاً فهو عبد له، ويوم القيامة يتبرأ منه، ويرى وبال فتنته والاشتغال به، فينبغى لمن أراد السلامة من الفتنة، أن يفرد محبته لله، ويتبرأ من كل ما سواه، ويفرد وجهته لله، ولا يشتغل ظاهراً ولا باطناً إلا

(١) من الآية ٤٢ من سورة النساء.

(٢) من الآية: ١٨ من سورة المجادلة.

(١) من الآية: ٤٢ من سورة يونس.

بما يقربه من الله ويبعده عما سواه وفي الحديث: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالْذَّرْهَمَ وَالْخَمِيصَةَ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ» (١).

ثم ذكر أحوالهم في الدنيا باعتبار الكفر والعدا، فقال:

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءً آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قلت: «من»: لفظها مفرد ومطابقا جمع، فيجوز في الضمير مراعاة اللفظ فيفرد، كقوله هنا: «ومنهم من يستمع إليك»، ويجوز مراعاة المعنى فيجمع، كقوله في يونس: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ (٢) والأكنة: الأغطية، جمع كنان، و(أن يفقهوه): مفعول له؛ أى: كراهية أن يفقهوه، و(حتى): غاية، أى: انتهى التكذيب حتى وصلوا إليك يجادلونك، والجملة بعدها: إما في محل جر بها ويجادلونك جواب لها، و(يقول): تبين لها، وإما لا محل لها، فتكون ابتدائية. والأساطير: جمع أسطورة، أو أسطار؛ جمع سطر، فيكون جمع الجمع.

يقول الحق جل جلاله: ومن الكفار ﴿ من يستمع إليك ﴾ حين تقرأ القرآن، والمراد: أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم، اجتمعوا فسمعوا رسول الله ﷺ يقرأ، فقالوا للنضر: ماتقول؟ فقال: والذي جعلها بيننا وبينه ما أدرى ما يقول، إلا أنه يحرك لسانه، ويقول أساطير الأولين، مثل ما جعلتكم به. قال السهيلي: حيث ماورد في القرآن: «أساطير الأولين» فإن قائلها هو النضر بن الحارث، وكان قد دخل بلاد فارس وتعلم أخبار ملوكهم، فكان يقول: حديثي أحسن من حديث محمد، فنزلت فيه وفي أصحابه.

﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ أى: أغطية؛ كراهية ﴿ أن يفقهوه ﴾؛ لما سبق لهم من الشقاء، ﴿ و ﴾ جعلنا ﴿ في آذانهم وقرا ﴾ أى: ثقلاً وصمماً فلا يسمعون معانيه، ولا يتدبرونها. ﴿ وإن يروا كل آية ﴾ ومعجزة ﴿ لا يؤمنوا بها ﴾؛ لفرط عنادهم، واستحكام التقليد فيهم، وسبق الشقاء لهم، فلا يزال التكذيب والشك يعظم فيهم ﴿ حتى إذا جاءوك يجادلونك ﴾ أى: حتى ينتهى بهم التكذيب إلى أن يجيؤوك يجادلونك؛ ﴿ يقول الذين كفروا إن ﴾ أى: ما ﴿ هذا إلا أساطير ﴾ أى: أكاذيب ﴿ الأولين ﴾، فإن جعل أصدق الحديث خرافات الأولين غاية التكذيب.

(١) إذا شيك فلا انتقش: أى: إذا شاكته شركة فلا يقدر على انتقاشها، وهو إخراجها بالمنقاش.. والحديث أخرجه البخارى مطولا في (الجهاد والسير، باب الحراسة). من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
(٢) من الآية: ٤٢ من سورة يونس.

﴿وهم﴾ أيضا ﴿يَنَّهُونَ عَنْهُ﴾ أى: ينهون الناس عن القرآن، أو عن الرسول والإيمان به، ﴿وَيَأْوِنُ عَنْهُ﴾ أى: يبعدون عنه، فقد ضلوا وأضلوا، أو ينهون عن التعرض لرسول الله ﷺ، ويأوِنُ عنه؛ فلا يؤمنون، كأبى طالب ومن كان معه، يحمى رسول الله ﷺ وهو فى مكة. وفى (ينهون) ضربٌ من ضروب التجنيس من علم البلاغة. قال تعالى: ﴿وَإِنْ﴾ أى: ما ﴿يُهْلِكُونَ﴾ بذلك ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن ضررهم لا يتعداهم إلى غيرهم.

الإشارة: اعلم أن القلب تحجبه عن تدبر كلام الله والتمتع بحلاوته أربعة حُجُب:

الأول: حجاب الكفر والشرك ويندفع بالإيمان والإسلام..

والثانى: حجاب المعاصى والذنوب، وينخرق بالقوة والانقلاع.

والثالث: حجاب الانهماك فى الحظوظ والشهوات واتباع الهوى، وينخرق بالزهد والورع والتعفف ونوع من الرياضة.

والرابع: حجاب الغفلة والخوض فيما لا يعنى، والاشتغال بالبطالة، وينخرق باليقظة والتوجه إلى الحق، والانقطاع إلى الله بكلية، فإذا انخرقت هذه الحجب عن القلب، تمتع بحلاوة القرآن، ومناجاة الحق على نعت القرب والمراقبة.

وبقى حجابان آخران، إذا خرقيهما العبد أفضى إلى مشاهدة المتكلم دون واسطة، أولهما: حجاب حلاوة الطاعة والمعاملة الظاهرة، والوقوف مع المقامات أو الكرامات، فإنها عند العارفين سموم قاتلة. وثانيهما: حجاب الوهم والوقوف مع ظاهر الحس، دون الوصول إلى باطنه، فيقف مع الأوانى دون شهود المعانى، وقد قال الششتري:

لَا تَنْظُرْ إِلَى الْأَوَانِي وَخُضْ بِحَرَ الْمَعَانِي لَسَعْلُكَ تَرَانِي.

وقال الغزالي: الموانع التى تحجب القلب عن الفهم أربعة: الأول: جعل الفهم مقصوراً على تحقيق الحروف؛ بإخراجها من مخارجها، فهذا يتولى حفظه شيطان وكلّ بالقراء، يصرفهم عن معانى كلام الله تعالى. الثانى: أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه، من غير وصول إليه ببصيرة. الثالث: أن يكون مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى بهوى فى الدنيا مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب، وهو كالخبء على المرأة، فيمنع جليلة الحق فيه، وهو أعظم حجب القلب، وبه حجب الأكثرين، الرابع: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما يتأول عن ابن عباس، ومجاهد وغيرهما، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى منهى عنه، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة، فإن القرآن بحر لا ساحل له، وهو مبذول لمن يغرف منه إلى يوم القيامة، كل على قدر سعته وصفاء قلبه.. هـ. بالمعنى.

ثم هددهم بما أعد لهم يوم القيامة، فقال:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾
بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قلت: (لو): شرطية، وجوابها محذوف: أى: لرأيت أمراً فظيماً هائلاً، وإنما حذف فى مثل هذا ليكون أبلغ ما يقدره السامع. و(لا نكذب) و(نكون): قرئ بالرفع، على الاستئناف والقطع عن التمنى، ومثله سيبيويه بقولك: (دعنى ولا أعود) أى: وأنا لا أعود، ويحتمل أن يكون حالاً، أى: غير مكذبين، أو عطفاً على: (نرد)، وقرئ بالنصب؛ على إضمار «أن» - بعد واو المعية فى جواب التمنى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو ترى ﴾ يامحمد، أو: يا من تصح منه الرؤية، حال الكفار ﴿ إذ وقفوا على النار ﴾ حين يعاينونها أو يطلعون عليها، أو يدخلونها، فيعرفون مقدار عذابها، لرأيت أمراً شديداً وهولاً فظيماً؛ ﴿ فقالوا ﴾ حينئذ: ﴿ ياليتنا نرد ﴾ إلى الدنيا، ﴿ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾، ندموا حين لم ينفع اللدم، وقد زلت بهم القدم، قال تعالى: ﴿ بل بدأ لهم ﴾ أى: ظهر لهم يوم القيامة فى صحائفهم ﴿ ما كانوا يخشون من قبل ﴾ فى دار الدنيا من عيوبهم وقبائح أعمالهم، أو: بدأ لهم حقيقة الإيمان وبطلان ضده، عياناً، لما وقفوا على التوحيد وعرفوه ضرورة، وقد كانوا فى الدنيا يخفونه ويظهرون الشرك، عياداً بالله. قال تعالى: ﴿ ولو ردوا ﴾ إلى الدنيا بعد الوقوف والظهور، ﴿ لعادوا لما نهوا عنه ﴾ من الكفر والمعاصي؛ لأنهم من قبضة الشقاء، والعياد بالله، ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ فيما وعدوا من أنفسهم من الإيمان وعدم التكذيب. وفى هذا: الإخبار بما لا يكون، ولو كان كيف يكون، وهو مما انفرد الله بعلمه.

الإشارة: يوم القيامة هو محل ظهور حقائق الأشياء على ما هى عليه، فإن كانت حقاً ظهرت حقيقتها وصحتها، وإن كانت باطلة، ظهر بطلانها عياناً، لكن لا تلغ المعرفة حينئذ، لرفع حجاب الحكمة وظهور القدرة، فلم يبق غيب، وإنما المزية فى الإيمان بالغيب، والمعرفة فى النكران، والشهود خلف رداء الكبرياء، بشهود المعانى خلف الأوانى، فإن ظهرت المعانى فلا إيمان، وإنما يبقى العيان، لأهل العيان، والخيبة لأهل الخذلان.

قال الورتجى: القوم لم يعرفوا حقائق الكفر فى الدنيا، ولو عرفوه لكانوا موحدين، فيظهر لهم يوم القيامة حقيقة الكفر، ولا ينفعهم ذلك؛ لقوتهم السير فى النكرات، التى معرفتها توجب المعارف، وذلك المقام فى أماكن صدورهم، وهم كانوا يخفونه بمناعبة صورة الكفر وشهوة العصيان بغير اختيارهم؛ لقلّة عرفانهم به، ولا يكون قلب من العرش إلى الثرى إلا ويطرقة هواتف الغيب، بإلهام الله الذى يعرف به طرق رضى الحق، وصاحبه يعلم ذلك ويسمع ويخفيه فى قلبه، لأنه أدق من الشعرة، وحركته أخفى من دبيب النمل، ومع ذلك يعرفه من نفسه، ولكن من غلبت شهوات نفسه عليه، لا يتبع خطاب الله بالسر، فأبدى الله لهم ما كانوا يخفونه، تعبيراً لهم وحجة عليهم. انتهى.

قلت: قوله: ولا يكون قلب... إلخ، حاصل كلامه: أن القلب من حيث هو لابد أن يطرقه الخصم إن حاد عن الحق، وهو المراد بهواتف الغيب، لكنه أخفى من ديبب النمل في حق الغافلين. فإن كان القلب حياً متيقظاً تتبع ذلك الخصم؛ حتى يزيله بظهور الحق، وإن كان ميتاً بغلبة الشهوات أخفاه حتى يموت، فيبدو له ما كان يخفيه من قبل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر اعتقادهم الفاسد، وما أداهم إليه، فقال:

﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا أَيْحَسِرْتُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا ﴾ أي: الكفار في إنكار البعث: ﴿ إن هي ﴾ أي: الحياة ﴿ إلا حياتنا الدنيا ﴾ لا حياة بعدها، ﴿ وما نحن بمبعوثين ﴾، قال جل جلاله: ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ﴾، كناية عن حبسهم للسؤال والتوبيخ، أو: وقفوا على قضاء ربهم بين عباده، وعرفوه حق التعريف، قال لهم الحق جل جلاله: ﴿ أليس هذا ﴾ الذي كنتم تذكرونه، ﴿ بالحق ﴾. قالوا بلى وربنا ﴿ إنه لحق ﴾، ولكننا كنا قومًا ضالين، وهو إقرار مؤكد باليمين، لانجلاء الأمر غاية الجلاء، قال تعالى لهم: ﴿ فذوقوا ﴾ أي: باسروا ﴿ العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ أي: بسبب كفركم.

﴿ قد خسر الذين كذبوا بقاء الله ﴾، حيث فاتهم النعيم، واستوجبوا العذاب المقيم، والمراد بقاء الله: البعث وما يتبعه. فاستمروا على التكذيب ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة ﴾ أي: فجأة ﴿ قالوا يا حسرتنا ﴾ أي: يا هلكتنا ﴿ على ما فرطنا ﴾ أي: قصرنا ﴿ فيها ﴾ أي: في الحياة الدنيا، أو في الساعة، أي: في شأنها والاستعداد لها، ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾، كناية عن تحمل الذنوب، لأن العادة حمل الأثقال على الظهر، وقيل: إنهم يحملونها حقيقة، وقد روى: أن الكافر يركبه عمله، بعد أن يتمثل له في أقبح صورة، وأن المؤمن يركب عمله، بعد أن يتصور له في أحسن صورة. قال تعالى في شأن الكفار: ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ أي: بشئ سيئًا يزرونه ويرتكبونه في الدنيا وزرهم هذا، الذي يتحملونه على ظهورهم يوم القيامة.

وسبب هذا: الركون إلى دار الغرور، ونسيان دار الخلود، ولذلك قال تعالى بإثره: ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾ أى: وما أعمالها إلا لعب ولهو، تلهى الناس وتشغلهم عما يعقب منفعة دائمة ولذة حقيقية، وما مدة بقائها مع ما يعقبها من الفناء إلا كمدة اللعب واللهو، إذ لا طائل تحته لمن لم يعمر أوقاتها بطاعة ربه، ﴿وللدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ ؛ لدوامها وخلوص نعيمها وصفاء لذاتها، ﴿أفلا تعقلون﴾ أى الأمرين خير، هل دار الخراب والفناء، أو دار النعيم والبقاء، وفى قوله: ﴿للذين يتقون﴾ : تنبيه على أن ما ليس من أعمال المتقين كله لعب ولهو.

الإشارة: إذا كمل نور العقل حصل لصاحبه التمييز بين الحق والباطل، وبين الضار والنافع، فنظر بعين اعتباره إلى الدنيا، فوجدتها ذاهبة فانية، ونظر إلى الآخرة، فرأها مقبلة باقية دائمة، فصدف عن الدنيا مولياً، وأعرض عن زهرتها مدبراً، وأقبل بكلية إلى مولاه، غائباً عن كل ما سواه، فجعل الموت وما بعده نصب عييه، وخلف الدنيا وراء ظهره أو تحت قدميه. وفى الحكم: «لو أشرق نور اليقين فى قلبك، لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها، ولرأيت الدنيا، وكسفة الفناء ظاهرة عليها» وقال بعض الحكماء: (لو كانت الدنيا من ذهب يلقى، والآخرة من طين يبقى، لاختار العاقل ما يبقى على ما يلقى، ولا سيما والأمر بالعكس، الدنيا من طين يلقى، والآخرة من ذهب يبقى). فلا يختار هذه الدار إلا من لا عقل له أصلاً. وفى الحديث عنه ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، لها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادى من لا علم عنده» (١). أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

ثم سلى رسول الله ﷺ على ما لقى من قومه، فقال:

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَعَاثَتِ اللَّهُ بِمُجْحَدُونَ
 (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَنْتَهُمْ نَصْرًا وَلَا مُبَدِّلَ
 لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كِبُرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ
 اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِثَابِتٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
 لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) ﴾

قلت: قد، للتحقيق، وإنه ضمير الشأن، وقرأ نافع: يحزن، بضم الياء حيث وقع، إلا قوله: ﴿لا يحزنهم﴾ الفرع الأكبر (٢) والباقون: بفتح الياء، وفيه لغتان: حزن يحزن، كنصر ينصر، وأحزن يحزن. والأول أشهر.

(١) أخرجه بلحوه أحمد فى المسند ٧١/١٦ من حديث السيدة عائشة - رضى الله عنها.

(٢) من الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء .

ومن قرأ: ﴿يَكْذِبُونَكَ﴾ بالتشديد؛ فمعناه: لا يعتقدون كذبك، وإنما هم يجحدون الحق مع علمهم به، ومن قرأ بالتخفيف فمعناه: لا يجدونك كاذباً، يقال: أكذبت الرجل إذا وجدته كاذباً، وقيل: معناه واحد، يقال: كذب فلان فلاناً، وأكذبه، بمعنى واحد، وفاعل (جاءك): مضمر، أى: نبأ أو بيان، وقيل: الجار والمجرور. وجواب (فإن استطعت): محذوف، أى: فافعل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ أى: الكفار في جانبك؛ من أنك شاعر أو كاهن أو مجنون أو كاذب، ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ في الحقيقة، لجزمهم بصحة نبوتك، ولكنهم يجحدون بآيات الله، حسداً وخوفاً على زوال الشرف من يدهم. نزلت في أبي جهل، قال لرسول الله ﷺ: **إِنَّا لَا نَكْذِبُكَ، وَلَكِنْ نَكْذِبُ بِمَا جِئْتَ بِهِ** ^(١). وقال الأخنس بن شريق: **والله إن محمداً لصادق، ولكنى أحسده على الشرف، ووضع (الظالمين) موضع المضمر؛ للدلالة على أنهم ظلموا لجحودهم، أو جحدوا لتمرنهم على الظلم.**

ثم سلاه عن ذلك، فقال: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا﴾ أى: صبروا على تكذيبهم وأذاهم، ﴿حتى أتاهم نصرنا﴾، فاصبر كما صبروا حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم، وفيه إيماء بوعد النصر للصابرين، ولذلك قيل: **الصبر عنوان الظفر**. ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ السابقة بنصر الصابرين، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ ^(٢): الآية. ﴿ولقد جاءك من نبي المرسلين﴾ أى: من قصصهم، وما كابدوا من قومهم حتى نصرهم الله، فتأنس بهم وانتظر نصرنا.

﴿وإن كان كبر﴾ أى: عظم وشق ﴿عليك إعراضهم﴾ عنك وعن الإيمان بما جئت به، ﴿فإن استطعت أن تبغي نفقا﴾ أى: سرياً ﴿في الأرض﴾ فتدخل فيه لتطلع لهم آية، ﴿أو سلماً في السماء﴾ لترتقى فيه ﴿فتأتيهم بآية﴾ حتى يعاينوها فافعل، ولكن الأمر بيدي، فإنما أنت نذير.

قال البيضاوي: المقصود: بيان حرصه البالغ على إسلام قومه، وأنه لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها؛ رجاء إسلامهم، ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ أى: لو شاء الله جمعهم على الهدى لوفقهم للإيمان حتى يؤمنوا، ولكن لم تتعلق به مشيئته. وفيه حجة على القدرية. أو: لو شاء الله لأظهر لهم آية تلجئهم إلى الإيمان، لكن لم يفعل؛ لخروجه عن الحكمة، ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ أى: من الذين يحرصون على ما لم تجر به المقادير، أى: دم على عدم كونك منهم، ولا تقارب حالهم بشدة التحسر هـ.

وقال في نواذر الأصول: إن الخطاب به تربية له، وترقية من حال إلى حال، كما يربى أهل التقريب وينقلون من ترك الاختيار، فيما ظاهره بر وقربة. هـ. قلت: تشديد الخطاب على قدر علو المقام، كما هو معلوم

(١) أخرجه الترمذي في: (تفسير سورة الأنعام) عن سيدنا علي - كرم الله وجهه -

(٢) الآيتان: ١٧١ - ١٧٢ من سورة الصافات.

من الأب الشفيق أو الشيخ الناصح، وقد قال لنوح عليه السلام: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (١). وهذا الخطاب أشد لعلو مقامه عليه السلام.

الإشارة: كل ما سلّيت به الرسل تسلى به الأولياء؛ لأنهم ورثتهم الخاصة، وكل ما أمرت به الرسل تؤمر به الأولياء، من الصبر وعدم الحرص، فليس من شأن الدعاة إلى الله الحرص على الناس، ولا الحزن على من أدبر عنهم أو أنكر، بل هم يزرعون حكمة التذكير في أرض القلوب، وينظرون ما يثبت الله فيها، اقتداءً بما أمر به الرسول - عليه الصلاة والسلام، وما تخلق به، فمن أصول الطريقة: الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرجوع إلى الله في السراء والضراء. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر علّة إعراضهم، وهو موت أرواحهم، فقال:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (٣٦)

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لك، ويجيب دعوتك إلى الإيمان، ﴿الذين يسمعون﴾ سماع تفهم وتدبر، وهو من كان قلبه حياً، وأما الكفار فهم موتى لا يسمعون ولا يفقهون، ﴿والموتى﴾ وهم الكفار الذين ماتت أرواحهم بالجهل حتى ماتوا حساً، ﴿يبعثهم الله﴾، فيظهر لهم حينئذ الحق، ويسمعون حين لا ينفع الإيمان، أو يبعثهم الله في الدنيا بالهداية، أو الموتى حقيقة حساً، يبعثهم الله للحساب، ﴿ثم إليه يرجعون﴾ للجزاء.

الإشارة: إنما يستجيب لدعوة الخصوصية، ويجيبون الدعاة إلى السير لشهود عظمة الربوبية، الذين سبقت لهم العناية، وأحيا الله قلوبهم بالهداية، فيسمعون بسمع القلوب والأرواح، ويترقّون من حضرة عالم الأشباح إلى حضرة عالم الأسرار والأرواح؛ والموتى بالغفلة والجهل يبعثهم الله ببركة صحبة أهل الله، فتهبّ عليهم نفحات الهداية؛ لما سبق لهم من سر العناية، ثم إليه يرجعون فيتنعمون في حضرة الشهود، في مقعد صدق عند الملك الودود.

ثم عاتبهم على اقتراح الآيات، فقال:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّا اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ نُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (٣٨)

(١) من الآية ٤٦ من سورة هود.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا﴾ - حين سمعوا ذكر البعث والرجوع إلى الله -: ﴿لولا نزل عليه آية من ربه﴾ تدل على ما ادعاه من البعث والرجوع إلى الله، وعلى أنه رسول من عند الله، ﴿قل﴾ لهم: ﴿إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ خارقة للعوائد، يرونها عياناً، وتضطرهم إلى الإيمان، ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن إنزالها وبال عليهم؛ لأنهم إن عاينوها ولم يؤمنوا عوجلوا بالعقاب، أو: لا يعلمون أن الله قادر على أكثر مما طلبوا؟.

وهذا الطلب قد تكرر منهم في مواضع من القرآن، وأجابهم الحق تعالى بأجوبة مختلفة، منها: ما يقتضى الرد عليهم في طلبهم الآيات؛ لأنهم قد أتاهم بآيات، وتحصيل الحاصل لا ينبغي، كقوله: ﴿قد بينا الآيات﴾ (١)، ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ (٢) ومنها: ما يقتضى الإعراض عنهم؛ لأن الخصم إذا تبين عناده سقطت مكالمته. ويحتمل أن يكون منه قوله هنا: ﴿قل إن الله قادر...﴾ الآية.

فإن قيل: كيف طلبوا آية وهم قد رأوا آيات كثيرة، كانشقاق القمر، وإخبارهم بالغيب، وغير ذلك؟ فالجواب: أنهم لم يعتقدوا بما رأوا؛ لأن سر الربوبية لا يظهر إلا ومعه شيء من أروية القهرية، وهم قد طلبوا آية يدركونها من غير نظر ولا تفكر، وهو خلاف الحكمة.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث وغيره، فقال: ﴿وما من دابة﴾ تدب ﴿في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه﴾ في الهواء، ﴿إلا أُمُّ أمثالكم﴾؛ مقدرة أرزاقها، محدودة آجالها، معدودة أجداسها وأصنافها، محفوظة ذواتها، معلومة أماكنها، كلها في قبضة الحق، وتحت قدرته ومشيلته، فدل ذلك على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره، فبدل على قدرته على أن ينزل آية، وعلى بعثهم وحشرهم؛ لأنه عالم بما تنقص الأرض منهم، كما قال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب﴾ أي: اللوح المحفوظ، ﴿من شيء﴾؛ فإنه مشتمل على ما يجري في العالم من جليل ودقيق، لم يهمل فيه أمر حيوان ولا جماد، ظاهراً ولا باطناً، أو القرآن؛ فإنه قد اشتمل على كل ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلاً ومجماً، حتى قال بعض السلف: (لو ضاع لى عقال لوجدته في كتاب الله) أي: باعتبار العموم وأصول المسائل.

قال تعالى: ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ أي: الأمم كلها، فينصف بعضها من بعض. كما روى أنه يؤخذ للجماء من القرناء (٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية: (يحشر الخلق كلهم يوم القيامة: البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً، فذلك حين يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَاباً﴾ (٤) وفي المسألة اضطراب بين العلماء، والصحيح هو حشرها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ (٥) وعن ابن عباس رضي الله عنه: (حشرها موتها). والله تعالى أعلم.

(٢) من الآية ٥١ من سورة العنكبوت.

(١) من الآية ١١٨ من سورة البقرة.

(٣) كما في حديث: التؤذين الحرق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة للجماء من الشاة القرناء، أخرجه مسلم في (البر والصلة، باب تحريم الظلم) من حديث أبي هريرة. والجماء: التي لا قرن لها.

(٥) الآية ٥ من سورة التكوين.

(٤) من الآية ٤٠ من سورة النبا.

الإشارة: قد تقدم مراراً أن طلب الكرامات من الأولياء: لقلة الاعتقاد فيهم وقلة الصدق. وأكمل الكرامات: الاستقامة على التوحيد في الباطن، وتحقيق العبودية في الظاهر. وبالله التوفيق.

ثم قُبْحُ شأن أهل التكذيب، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّوا وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ الدالة على كمال قدرتنا وتحقيق وحدانيتنا، أو بآياتنا المنزلة على رسولنا، هم ﴿صم﴾ لا يسمعون مثل هذه الآيات - الدالة على ربوبيته وكمال علمه وعظيم قدرته - سماعاً تتأثر به نفوسهم، ﴿و﴾ هم أيضاً ﴿بكم﴾ لا ينطقون بالحق، وهم ﴿في الظلمات﴾ أى: خائضون في بحر ظلمات الكفر والجهل، وظلمة العناد، وظلمة التقليد، فوصفهم بالصمم والبكم والعمى، ويؤخذ العمى من قوله: ﴿في الظلمات﴾، وهذا كله داخل تحت مشيئته وعلمه السابق؛ ﴿من يشأ الله يضلله﴾ عدلاً، ﴿ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾؛ بأن يرشده إلى الهدى ويحملة عليه، فيتبع الطريق الذي لا عوج فيه.

الإشارة: أولياء الله في أرضه آية من آيات الله، فمن كذب بهم بقى في ظلمة الجهل بالله وظلمة حجاب النفس وحجاب الأكوان، محجوباً بمحيطاته، محصوراً في هيكل ذاته، قلبه أصم عن تذكّر الحقائق، ولسانه أبكم عن النطق بحكم العلم والأسرار، لم تسبق له في مشيئة الحق عناية، ولا هب عليه شيء من رياح الهداية، عائداً بالله من سوء القضاء ودرك الشقاء.

ثم أقام لهم البرهان على توحيده، فقال:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

قال في المشارق: رأيته: معناه: الاستخبار والاستفهام، أى: أخبرنى عن كذا، وهو بفتح التاء في المذكر والمؤنث والواحد والجمع، تقول: رأيته وأرايتكما وأرايتكم، ولم تكن ما قبل علامة المخاطب ولم تجمع، فإذا أردت معنى الرؤية - أى البصرية - ثنيت وجمعت وأنثت، فقلت: رأيته قائماً، وأرايتك قائمة، وأرايتكما وأرايتموكم وأرايتيكن. هـ. وقال في الإتقان: إذا دخلت الهمزة على رأيت، امتنع أن يكون من رؤية العين والقلب، وصار المعنى: أخبرنى، وهو خلاف ما قال في المشارق، فانظره وانظر الحاشية الفاسية.

قال البيضاوى: (أرايتكم): استفهام تعجب، والكاف: حرف خطاب، أكد به الضمير للتأكيد، لكن لا محل له من الإعراب، لأنك تقول: رأيته زيدا ما شأنه، فلو جعلت الكاف مفعولاً - كما قاله الكوفيون - لعديت الفعل إلى ثلاثة

مفاعيل، ولزم في الآية أن يقول: أرأيتمكم، بل الفعل معلق، أو المفعول محذوف، وتقديره: أرأيتمكم آلهتكم تنفعكم إذ تدعونها إن أتاكم عذاب الله، ويدل عليه: (أغير الله تدعون). هـ. وجواب (إن): محذوف؛ أي: إن أتاكم عذاب الله أو أتكم الساعة فمن تدعون؟ وجواب (إن كنتم): محذوف أيضاً؛ أي: إن كنتم صادقين في أن غير الله ينفعكم فادعوه، ثم وصفهم بأنهم لا يدعون حينئذ إلا الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿أرأيتم﴾ أي: أخبروني ﴿إن أتاكم عذاب الله﴾ في الدنيا كما أتى من قبلكم، ﴿أو أتكم الساعة﴾ وأهوالها، ﴿أغير الله تدعون﴾ وتلجئون إليه في كشف ما نزل بكم ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن الأصنام آلهة، لا، ﴿بل إياه تدعون﴾ وحده، ﴿فيكشف ما تدعون إليه﴾ أي: ما تدعونه إلى كشفه، ﴿إن شاء﴾ أن يتفضل عليكم بالكشف في الدنيا، وقد لا يشاء، ﴿وتنسون ما تشركون﴾ أي: وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت؛ لما ركز في العقول من أنه قادر على كشف الضر دون غيره، أو تنسون من شدة الأمر وهوله.

الإشارة: إنما يظهر توحيد الرجال عند هجوم الأحوال، فإن رجع إلى الله وحده ولم يلتفت إلى شيء سواه، علمنا أنه من الأبطال، وإن فزع إلى شيء من السوء، علمنا أنه من جملة الضعفاء. وعندهم من جملة أصول الطريق: الرجوع إلى الله في السراء والضراء، فإن رجع إليه أجابه فيما يريد، وفي الوقت الذي يريد، وقد لا يريد على حسب إرادة المريد. والله تعالى أعلم.

ثم حض على الرجوع إليه في حالة الضراء، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بِأُسْنَاهُمْ تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله، تخويفاً لهذه الأمة: ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم﴾ مضت ﴿من قبلك﴾ رسلاً فأنذروهم، فكذبوا وكفروا ﴿فأخذناهم بالبأساء﴾ أي: الشدة، كالفقح والجوع، ﴿والضراء﴾ كالأمراض والموت والفتن، تخويفاً لهم ﴿لعلهم يتضرعون﴾ أي: يتذللون ويتوبون من ذنوبهم، فلم يفعلوا، ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ أي: هلاً تذللوا حين جاءهم البأس فدرحمهم، وفيه دليل على نفع التضرع حين الشدائد، ﴿ولكن قست قلوبهم﴾

أى: صُلِبَتْ ولم تَلَن، ﴿وَزَيْنَ لَهُم الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ فَصَرَّفَهُم عَنِ التَّضَرُّعِ، أَى: لَا مَانِعَ لَهُم مِنَ التَّضَرُّعِ إِلَّا قِسَاوَةَ قُلُوبِهِمْ، وَإِعْجَابَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ الَّتِي زَيَّنَهَا الشَّيْطَانُ لَهُمْ.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أَى: تَرَكُوا الْإِتْعَازَ بِمَا ذُكِّرُوا بِهِ مِنَ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ، وَلَمْ يَنْزَجِرُوا، ﴿فَتَحْنَأُ عَلَيْهِمُ أَبْوَابُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّزْقِ وَضُرُوبِ النِّعَمِ، مَرَاوِحَةً عَلَيْهِمْ بَيْنَ نَوْبَتَيْ الضَّرَاءِ وَالسَّرَاءِ، وَامْتِحَانًا لَهُمْ بِالشَّدَةِ وَالرِّخَاءِ، الْإِزَامًا لِلْحُجَّةِ وَإِزَاحَةً لِلْعُلَّةِ، أَوْ مَكْرًا بِهِمْ، لَمَّا رَوَى أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «مَكْرٌ بِالْقَوْمِ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ»^(١). ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا﴾ أَى: أُعْجِبُوا ﴿بِمَا أُوتُوا﴾ مِنَ الدَّعَمِ، وَلَمْ يَزِيدُوا عَلَى الْبَطْرِ وَالِاسْتِغْثَالِ بِالنِّعَمِ عَنِ الْمُنْعَمِ وَالْقِيَامِ بِحَقِّهِ، ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أَى: فَجَاءَةً، ﴿فَإِذَا هُمْ مَبْسُطُونَ﴾ مُتَحِيرُونَ آيِسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، ﴿فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَى: قَطَعَ آخِرَهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الْاسْتِئْصَالِ بِالْكُلِّيَّةِ، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عَلَى إِهْلَاكِهِمْ، فَإِنَّ إِهْلَاكَ الْكَفَّارِ وَالْعَصَاةِ نِعْمٌ جَلِيلَةٌ، يَحِقُّ أَنْ يُحْمَدَ عَلَيْهَا؛ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ خَلَاصٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ شُؤْمِ عَقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

الإشارة: المقصود من إظهار النقم الظاهرة؛ ما يؤول الأمر إليه من النعم الباطنة، فإن الأشياء كامنة في أصدادها، النعمة في النعمة، والرخاء في الشدة، والعز في الذل، والجمال في الجلال، إن وقع الرجوع إلى الله والانكسار والتذلل. «أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي». فانكسار القلوب إلى علام الغيوب عبادة كبيرة، توجب نعمًا غزيرة، فإذا فسدت القلوب ولم يقع لها عند الشدة انكسار ولا رجوع، كان النازل بلاءً ونقمة وطرْدًا وبعداً. فإن ما ينزل بالإنسان من التعريفات منها: ما يكون أدباً وكفارة، ومنها: زيادة وترقية، ومنها: ما يكون عقوبة وطرْدًا، فإن صاحبها التيقظ والتوبة، كان أدباً مما تقدم من سوء الأدب، وإن صاحبه الرضى والتسليم، ولم يقع ما يوجب الأدب، كان ترقية وزيادة، وإن غضب وسخط كان طرداً وبعداً. أعادنا الله من موارد النقم.

ثم احتج عليهم بوجه آخر، فقال:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

(١) لم أقف عليه مرفوعاً. وذكره السيوطي في الدر موقوفاً على الحسن، وعزاه لابن أبي حاتم. لكن روى أحمد في المسند ١٤٥/٤ والطبراني في الكبير ٣٣١/١٧ وابن جرير في التفسير، من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً: (إِنْ رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ. ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ...)) (الآية والتي بعدها).

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ لهم أيضاً: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أى: أصمكم وأعماكم، ﴿وَحَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾؛ بَأَنْ غَطَى عَلَيْهَا بِمَا يَزُولُ بِهِ عَقْلُكُمْ وَفَهْمُكُمْ، ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ أى: بذلك المأخوذ. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ﴾ أى: نُكْرَرُهَا عَلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، كَتَصْرِيفِ الرِّيحِ، تَارَةً مِنْ جِهَةِ الْمَقْدِمَاتِ الْعَقْلِيَّةِ، وَتَارَةً مِنْ جِهَةِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ، وَتَارَةً بِالتَّنْبِيْهِ وَالتَّذْكِيرِ بِأَحْوَالِ الْمُتَقَدِّمِينَ، ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْذَفُونَ﴾ أى: يَعْرِضُونَ عَنْهَا وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهَا، وَ(ثُمَّ): لِاسْتِبْعَادِ الْإِعْرَاضِ بَعْدَ تَصْرِيفِ الْآيَاتِ وَظَهْرِهَا.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضاً: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً﴾ من غير مقدمة ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بتقدیمها، فالبغته: مالم يتقدم لهم به شعور، والجهرة: ما قدمت لهم مخايله، وقيل: بغته بالليل، وجهرة بالنهار، ﴿هَلْ يُهْلِكُ﴾ أى: ما يهلك به هلاك سخط وتعذيب، ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بالكفر والمعاصي.

الإشارة: إنما خلق الأسماع والأبصار، لسماع الوعظ والتذكار، ولنظرة التفكر والاعتبار، فمن صرفهما في ذلك فقد شكر نعمتهما، ومن صرفهما في غير ذلك فقد كفر نعمتهما، ومن كفر نعمتهما يوشك أن تؤخذ منه تلك النعمة، وكذلك نور العقل، ما جعله الله في العبد إلا ليعرفه به، ويعرف دلائل توحيده، ويتبصر به في أمره. فإذا صرفه في تدبير هواه وشهواته فقد كفر نعمته، فيوشك أيضاً أن يؤخذ منه..

وإذا أنعم الله عليه باستعمال هذه الحواس فيما خلقت لأجله؛ فليكن على حذر من أخذ ذلك منه أيضاً، فلا يأمن مكر الله، فإن الأسماع والأبصار والقلوب بيد الله، يقلبها كيف شاء، فإن أخذها لن يقدر على ردها، ولذلك كان العارف لا يزول اضطرابه، ولا يكون مع غير الله قراره، والعذاب الذي يأتي بغته، هو السلب بغته، أى: فقد القلب في مرة واحدة، والذي يأتي جهرة هو فقد شيناً فشيناً، وسبب هذا الهلاك: هو ظلم العبد لنفسه، إما بسوء أدب مع الله، أو نقض عهد الشيوخ العارفين بالله. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم رغب في الإيمان بالرسول، وحذر من الكفر بهم، فقال:

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ أَمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿٤٩﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين﴾ للمؤمنين بالنعيم المقيم، ﴿ومنذرين﴾ للكفار بالعذاب الأليم، ولم نرسلهم ليقتدرح عليهم ويتلهم بهم، ﴿فمن آمن﴾ بهم، ﴿وأصلح﴾ ما يجب إصلاحه على ما شرع لهم، ﴿فلا خوف عليهم﴾ من العذاب، ﴿ولا هم يحزنون﴾ لفوات الثواب، ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾

يمسهم العذاب ﴿أى: يلحقهم، جعل العذاب ماساً لهم كأنه الطالب للوصول إليهم، واستغنى بتعريفه عن توصيفه. وذلك المس ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أى: بسبب خروجهم عن التصديق والطاعة.

الإشارة: مامن زمان إلا ويبعث الله أولياء عارفين، مبشرين لمن أطاعهم واتبعهم بطلعة أنوار الحضرة على أسرارهم، ومنذرين لمن خالفهم بظهور ظلمة الكون على قلوبهم، وانطباع الأكوان فى أسرارهم، فمن آمن بهم وصحبهم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، بدليل قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١)، ومن كذب بهم وبما يظهر على أيديهم من أسرار المعارف يمسهم عذاب القطيعة، بما كانوا يفسقون، أى: بخروجهم عن طاعتهم والإذعان إليهم.

وليس من شرط الداعين إلى الله ظهور المعجزات أو الكرامات، كما قال تعالى:

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم يامحمد: أنا ﴿لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ فأتاكم منها بكل ما تترجون على من المعجزات، بل خزائن مقدوراته تعالى فى علم غيبه، ليس لى منها إلا ما يظهره منها بقدرته، ﴿ولا أعلم الغيب﴾ حتى أخبركم بالمغيبات، بل مفاتيح الغيب عنده، لا يعلمها إلا هو، إلا ما يوحى إلى منها، ﴿ولا أقول لكم إنى ملك﴾ فأستغنى عن الطعام والشراب، أو أقدر على ما يقدر عليه الملك، إن أنا إلا بشر أوحى إلى أن أنذركم، فأتبع ما يوحى إلى؛ وأتبرأ من دعوى الألوهية والملكية، وأدعى النبوة التى هى من كمالات البشر.

﴿قل﴾ لهم: ﴿هل يستوي الأعمى الذى هو ضال جاهل، والبصير الذى هو مهتد عالم، أو: هل يستوى مدعى المستحيل؛ كالألوهية والملكية ومدعى الحق، كالنبوة والرسالة،﴾ أفلا تفكرون ﴿فتميزوا بين ادعاء الحق والباطل، فتهتدوا إلى اتباع الحق وتجنب الباطل.

الإشارة: ما قالته الرسل للكفار حين اقترحوا عليهم المعجزات، تقوله الأولياء لأهل الإنكار، حين يطلبون منهم الكرامات، وتقول لهم: إن نتبع إلا ما أمرنا به ربنا وسنه لنا رسولنا، فمن اهتدى وتبصر فلنفسه، ومن عمى فعليها.

وقال الورتجى - بعد قوله -: ﴿ولا أقول لكم إنى ملك﴾: تواضع ﷺ حين أقام نفسه مقام الإنسانية، بعد أن كان أشرف خلق الله من العرش إلى الثرى، وأظهر من الكروبيين والروحانيين على باب الله سبحانه، خضوعاً

(١) الآية ٦٢ من سورة يونس.

لجبروته، وخُشوعاً في أنوار ملكوته، بقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾، وليس لي اختيارٌ في نبوتى، ﴿إِنْ أَتَبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾. هل يكون من هذا وصفه، بعد كونه بصيراً بنور الله، ورأفته به، كالذى عمى عن رؤية إحاطته بكل ذرة من العرش إلى الثرى؟ أفلا تتفكرون أن من ولد من العدم بصيراً بنور القدم، ليس كمن ولد من العدم أعمى عن رؤية عظمته وجلاله. انتهى كلامه.

ثم أمره بالإنذار لمن ينتفع به، فقال:

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ

لَهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾

قلت: الضمير في (به): يعود على (ما يوحى)، وجملة (ليس): حال من ضمير (يحشروا).

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأَنْذِرْ﴾ أى: خوف بما أوحى إليك، المؤمنين المقصرين في العمل؛ ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث للحساب، حال كونهم في ذلك الوقت ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾ ينصرهم من عذابه، ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يرده عنهم بشفاعته، ﴿لَهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: كى يصيروا بإنذارك متقين، وإنما خص الإنذار هنا بالذين يخافون؛ لأنه تقدم في الكلام ما يقتضى اليأس من إيمان غيرهم، فكأنه يقول: أنذر الخائفين؛ لأنه ينفعهم الإنذار، وأعرض عمن تقدم ذكرهم من الذين لا يسمعون ولا يعقلون، أو: أنذر من يتوقع البعث والحساب، أو يتردد فيه مؤمناً أو كافراً. قاله البيضاوى.

الإشارة: لا ينفع الوعظ والتذكير إلا من سبق له الخوف من الملك القدير؛ إذ هو الذى ينهضه الخوف المززعج أو الشوق المقلق، وأما من سَوَدَّتْ قَلْبَهُ الْخَطَايَا، وانطبعت في مرآته صور الأشياء، فلا ينفع فيه زاجر ولا واعظ، بل ران على قلبه ما اقترفه من المآثم، والعياذ بالله.

ثم أمره بالدنو ممن ينفعه التذكير، ونهاه عن ضده، فقال:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ

حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَنْ يَبِينُنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ

بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قلت: (فتطردهم): جواب النفي، و (فتكون): جواب النهي، أى: ولا تطرد فتكون من الظالمين، فليس عليك من حسابهم شيء فتطردهم .

يقول الحق جل جلاله للبيه - عليه الصلاة والسلام -، حين طلب منه صناديد قريش أن يطرد عنه ضعفاء المسلمين ليجالسوه، فهم بذلك طمعاً في إسلامهم، فنزلت: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ أى: يعبدونه بالذكر وغيره، أو يدعونه بالتضرع والابتهال، ﴿بالغداة والعشي﴾ أى: على الدوام. وخص الوقتين بالذكر؛ لشرفهما. وفى الخبر: «يا ابن آدم، اذكرنى أول النهار وآخره، أكفك ما بينهما»^(١). وقيل: صلاة الصبح والعصر، وقيل: الصلاة بمكة قبل فرض الخمس.

قال البيضاوى: بعد ما أمره بإنذار غير المتقين ليتقوا - أى: على التفسير الثانى فى الآية المتقدمة - أمره بإكرام المتقين وتقريبهم، وألا يطردهم، ترضية لقريش، روى أنهم قالوا: لو طردت هؤلاء الأعداء - يعنون فقراء المسلمين، كعمار وصهيب وخباب وبلال وسلمان - جلسنا إليك، فقال: «ما أنا بطارد المؤمنين». قالوا: فأقمهم عنا، قال: «نعم». [وروى أن عمر قال له: لو فعلت حتى تنظر إلى ما يصيرون؟] قالوا: فاكتب بذلك كتاباً، فدعاً بالصحيفة وعلّى؛ ليكتب، فنزلت^(٢). هـ. وفى ذكر سلمان معهم نظر لتأخر إسلامه بالمدينة.

ثم وصفهم بالإخلاص فقال: ﴿يريدون وجهه﴾ أى: يدعونه مخلصين طالبين النظر لوجهه، وفيه تنبيه على أن الإخلاص شرط فى الأعمال، ورتب النهى عليه؛ إشعاراً بأنه يقتضى إكرامهم، وينافى إبعادهم، ثم علل عدم طردهم فقال: ﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم﴾ أى: أنت لا تحاسب عنهم، وهم لا يحاسبون عنك، فلا شيء تطردهم؟ وقيل: الضمير: للكفار، أى: أنت لا تحاسب عنهم، وهم لا يحاسبون عنك، فلا تهتم بأمرهم، حتى تطرد هؤلاء من أجلهم، ﴿فتكون من الظالمين﴾ بطردهم، لكنه - عليه الصلاة والسلام - لم يفعل، فلا ظلم يلحقه فى ذلك؛ لسابق العناية والعصمة.

﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾ أى: ومثل ذلك الاختبار، وهو اختلاف أحوال الناس فى أمر الدنيا، ﴿فتنا بعضهم ببعض﴾ أى: ابتلينا بعضهم ببعض فى أمر الدين، فقدّمنا هؤلاء الضعفاء على أشرف قريش؛ بالسبق إلى الإيمان ﴿ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ أى: أهؤلاء من أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق دوننا، ونحن الأكابر والرؤساء، وهم المساكين والضعفاء، فنحن أحق منهم به إن كان حقاً، وهذا إنكار منهم لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق والسبق إلى الخير، كقولهم ﴿لو كان خيراً ما سبقونا﴾^(٣). واللام فى «ليقولوا»: للعاقبة. قال تعالى

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء، عن أبى هريرة .. انظر كنز العمال / ١٧٩٥ .

(٢) أخرجه بنحوه ابن ماجه فى: (الزهد، باب مجالسة الفقراء) والطبرانى فى الكبير (٨٧/٤ ح ٩٦٩٣) والواحدى فى أسباب النزول، وابن جرير فى التفسير عن خباب، بدون ذكر سلمان، وكذلك بدون ذكر مشورة سيدنا عمر، وقد جاء ذكر مشورة سيدنا عمر عند ابن جرير والواحدى عن عكرمة .

(٣) من الآية ١١ من سورة الأحقاف .

في الرد عليهم: ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ أي: بمن يقع منهم الإيمان والشكر فيوفقهم، ومن لا يقع منه فيخذله. وبالله التوفيق.

الإشارة: في صحبة الفقراء خيرٌ كثيرٌ وسرٌ كبير، وخصوصاً أهل الصفاء والوفاء منهم، وفي ذلك يقول الشيخ أبو مدين رحمته الله:

مَالِدَةُ الْعَيْشِ إِلَّا صُحْبَةُ الْفُقَرَا هُمُ السَّلَاطِينُ وَالْعُسَادَاتُ وَالْأُمَرَا
فَاصْحَبَهُمْ وَتَأْدَبْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَخَلْ حِظَّكَ مَعَهُمَا خَلْفُوكَ وَرَا

إلى آخر كلامه.

فلا يحصل كمال التربية والتهذيب إلا بصحبته، ولا تصفو المعاني إلا بمجالستهم والمذاكرة معهم، والمراد من دخل منهم بلاد المعاني، وحصل مقام الفناء في الذات، فالجلوس مع هؤلاء ساعة تعدل عبادة الثقلين سنين، ومن شأن شيوخ التربية: العطف على الفقراء والمساكين وتقريبهم، ولا يطرّدون أحداً منهم ولو عمل ماعمل، اقتداء بما أمر به نبيهم ﷺ. بل شأنهم الإقبال على من أقبل إليهم، عصاة كانوا أو طائعين، وإقبالهم على العصاة المذنبين أكثر، جبراً لكسرهم، وتألّفاً لهم، وسوقاً لهم إلى الله بملاطفة الإحسان. وبالله التوفيق.

ولما أمره بتقريب الضعفاء من المؤمنين، أمره بإكرامهم بالسلام والبشارة بغفران الآثام، فقال:

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ
أَنَّهُ مِنْكُمْ مِنْكُمْ سُوءٌ أَوْ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

قلت: من فتح (أنه)؛ جعله بدلاً من الرحمة، ومن كسره؛ فعلى الاستئناف، و(بجهالة)؛ حال، ومن قرأ (فإنه) بالكسر؛ فالجملة: جواب الشرط، ومن فتح؛ فخير عن مضمّن، أي: فجزاؤه الغفران، أو مبتدأ؛ فالغفران جزاؤه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾؛ وهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، خصهم بالإيمان بالقرآن، بعد ما وصفهم بالمواظبة على الطاعة والإحسان، فإذا أقبلوا إليك ﴿فقل﴾ لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ تحية مني عليكم، أو من الله أبلغه إليكم، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: حتمها عليه فضلاً منه، وهي ﴿أَنَّهُ مِنْكُمْ مِنْكُمْ سُوءٌ أَوْ بِجَهَالَةٍ﴾ أي: بسفاهة وقلة أدب، أو جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد، ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد عمل السوء ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالتدارك والندم على ألا يعود إليه، ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لذنبه، ﴿رَحِيمٌ﴾ به بقبول توبته.

قال البيضاوي: أمره أن يبدأ بالتسليم، أو يبلغ سلام الله ويبشرهم بسعة رحمته وفضله، بعد النهي عن طردهم؛ إيداناً بأنهم الجامعون لفضيلتي العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يقرب ولا يطرد، ويعز ولا يذل، ويبشر من الله بالسلامة في الدنيا وبالرحمة في الآخرة، وقيل: إن قوماً جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً عظيماً، فلم يرد عليهم، فانصرفوا، فنزلت هـ.

قال القشيري: أحله محل الأكاير والسادات، فإن السلام من شأن الجائي إلا في صفة الأكاير، فإن الجائي والآتي يسكت لهيبة المأتي، حتى يبتدئ ذلك المقصود بالسؤال، فعند ذلك يجيب الآتي هـ.

الإشارة: من شأن الأكاير من الأولياء، الداعين إلى الله، إكرام من أتى إليهم بحسن اللقاء وإظهار المسرة والبرور، وخصوصاً أهل الانكسار فيؤنسونه، ويوسعون رجاءهم، ويفرحونهم بما يسمعون منهم من سعة فضل الله وكرمه.

كان الشيخ أبو العباس المرسى رحمه الله إذا دخل عليه أحد من أهل العصيان - كأرياب الدولة والمخزن -، قام إليهم، وفرح بهم، وأقبل عليهم، وإذا أتى إليه أحد من العلماء أو الناسكين لم يعتن بشأنهم، فقيل له في ذلك، فقال: أهل العصيان يأتوننا فقراء منكسرين من أجل ذنوبهم، لا يرون لأنفسهم مرتبة، فأردت أن أجبر كسرهم، وهؤلاء أهل الطاعة يأتوننا أغنياء معتمدين على طاعتهم، فلا يحتاجون إلى ما عندنا. أو كلاماً هذا معناه، ذكره في لطائف المنن. والله تعالى أعلم.

ثم بين علة ما تقدم من النهي عن الطرد وغيره، فقال:

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

قلت: قرئ بقاء الخطاب، ونصب السبيل؛ على أنه مفعول به، وقرئ بقاء التأنيث ورفع السبيل؛ على أنه فاعل مؤنث، وبالياء والرفع؛ على تذكير السبيل؛ لأنه يجوز فيه التذكير والتأنيث.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أي: ومثل ذلك التفصيل الواضح لفصل الآيات، أي: نشرح آيات القرآن ونوضحها في صفة المطيعين والمجرمين، والمصريين والأوابين، ليظهر الحق، ولتستوضح يا محمد ﴿ سبيل المجرمين ﴾ فتعاملهم بما يحق لهم من الإبعاد إن بعدوا، أو الإقبال إن أقبلوا. أو لتبين طريقهم ويظهر فسادها ببيان طريق الحق.

الإشارة: سبيل المؤمنين من أهل اليمين، هو التمسك بظاهر الشريعة المحمدية؛ بامتنال الأمر واجتناب النهي، والمبادرة إلى التوبة، إن أخل بأحد الأمرين من غير تحرُّلٍ وراء ذلك، وسبيل المتوجهين من السائرين والواصلين: تصفية القلوب وتهذيبها لإشراق أسرار علم الغيوب؛ بتخليتها من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل؛ لتتهدى بذلك

لطلوع شمس العرفان، والدخول في مقام الكشف والعيان، الذي هو مقام الإحسان، وما خرج عن هذين السبيلين فهو سبيل المجرمين: إما بالكفر، وإما بالإصرار على العصيان، والعياذ بالله.

ثم نهى عن سلوك هذا السبيل - أعنى سبيل المجرمين - فقال:

﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِبِعُ أَهْوَاءَ كُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ يا محمد: ﴿ إني نهيت ﴾ أى: نهاني ربي ﴿ أن أعبد الذين تدعون ﴾ أى: تعبدون ﴿ من دون الله ﴾ ، أو ما تدعونها آلهة؛ أى: تسمونها بذلك، وتخضعون لها من دون الله، ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ لا أتبع أهواءكم ﴾ الفاسدة وعقائدكم الزائغة، ﴿ قد ضللت ﴾ عن الحق ﴿ إذا ﴾ أى: إذا اتبعت أهواءكم، ﴿ وما أنا من المهتدين ﴾ أى: ما أنا في شيء من الهدى حتى أكون من عداهم إن اتبعت أهواءكم، وفيه تعريض بهم، وأنهم ضالون حائدون عن طريق الهدى، ليسوا على شيء منها.

﴿ قل إني على بينة ﴾ أى: طريق واضحة ﴿ من ربي ﴾ توصلني إلى تحقيق معرفته، واستجلاب رضوانه، أنا ومن اتبعني، ﴿ وأنتم ﴾ كذبتُم به ﴿ أى: بربي ﴾ حيث أشركتم به وعبدتم غيره، أو كذبتُم بطريقه؛ حيث أعرضتم عنها، واستعجلتم عقابه في الدنيا، ﴿ ما عندي ما تستعجلون به ﴾ من العذاب أو المعجزات، ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ فى تعجيل العذاب وتأخيره، أو فى إظهار الآيات وعدم إظهارها، ﴿ يقص ﴾ القصص ﴿ الحق ﴾ وهو القرآن، أى: ينزله على لأنذركم به، أو يقضى القضاء الحق من تعجيل ما يعجل وتأخير ما يؤخر، فيحكم بيني وبينكم إن شاء، ﴿ وهو خير الفاصلين ﴾ أى: القاضين.

﴿ قل لو أن عندى ﴾ أى: فى قدرتى وطوقى ﴿ ما تستعجلون به ﴾ من العذاب ﴿ لقضى الأمر بيني وبينكم ﴾ أى: لأهلككم عاجلاً؛ غضباً لربى، وانقطع ما بيني وبينكم، ولكن الأمر بيد خالقكم الذى هو عالم بأحوالكم، ﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ أى: عالم بما ينبغي أن يؤخذ عاجلاً، ومن ينبغي أن يمهل، فمفتاح الغيب كلها عنده، كما سيذكره.

الإشارة: قل، أيها العارف، المتوجه إلى الله، المنقطع بكنيته إلى مولاه، الغائب عن كل ما سواه: إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله؛ من حب الدنيا، ومن الرياسة والجاه. قل: لا أتبع أهواءكم؛ لأننى قد اجتمعت

أهوائى فى محبوب واحد، حين وصلت إلى حضرته، وتلعمت بشهود طلعتة، فأنحصرت محبتى فى محبوب واحد، وفى ذلك يقول القائل:

كَانَتْ لِقَلْبِي أَهْوَاءٌ مُفَرِّقَةٌ فَاسْتَجَمَعَتْ مَذْرَأَتَكَ الْعَيْنُ أَهْوَائِي
فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ وَصِرْتُ مَوْلَى الْوَرَى مَذْصِرْتُ مَوْلَائِي
تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ وَدِينَهُم شُغْلًا بِذِكْرِكَ يَادِينِي وَدُنْيَائِي

وقال آخر:

تَرَكْتُ لِلنَّاسِ مَا تَهْوَى نَفْسُهُمْ مِنْ حُبِّ دُنْيَا وَمِنْ عَزٍّ وَمِنْ جَاهٍ
كَذَاكَ تَرَكُ الْمَقَامَاتِ هُنَا وَهَنَا وَالْقَصْدُ غَيْبَتَنَا عَمَّا سِوَى اللَّهِ

«قل إنى على بينة من ربي» أى: بصيرة نافذة فى مشاهدة أسرار ربي، فقد كذبتكم بخصوصيتى، وطلبتكم دلائل ولايتى، ما عندى ما تستعجلون به من الكرامات، «إن الحكم إلا لله»، يقضى القضاء الحق، فيظهر ما يشاء، ويخفى من يشاء، «وهو خير الفاصلين» أى: الحاكمين بين عباده، قل لو أن عندى ما تستعجلون به؛ من نفوذ دعوتى فى إظهار كرامتى، لقضى الأمر بينى وبينكم، والله أعلم بالمكذبين بأوليائه.

ثم قال تعالى:

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٥٩)

قلت: (مفاتيح): جمع مفتاح - بكسر الميم - مقصور، من مفتاح، وهو آلة الفتح، وهو مستعار لما يتوصل به إلى الغيوب، أو يفتحها، وهو المخزن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وعنده مفاتيح الغيب﴾ أى: علم المغيبات، لا يعلمها غيره، إلا من ارتضى من خلقه، أو: عنده خزائن علم الغيوب لا يعلمها غيره، والمراد بها الخمسة التى ذكرها الحق تعالى فى سورة لقمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (١) الآية؛ لأنها تعم جميع الأشياء، وسيأتى الكلام عليها إن شاء الله، فقد اختص

(١) الآية ٣٤ من سورة لقمان.

سبحانه يعلم المغيبات ﴿ لا يعلمها إلا هو ﴾ ؛ فيعلم أوقاتها وما في تعجيلها وتأخيرها من الحكم، فيظهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته، وفيه دليل على أن الله تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها، وهو أمر ضروري.

﴿ ويعلم ما في البر والبحر ﴾ من عجائب المصنوعات وضروب المخلوقات؛ على اختلاف أجناسها وأنواعها، حيها وجامدها، فيعلم عددها وصفتها وأماكنها، ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ كيف تسقط، على ظهرها أو بطنها، وما يصل منها إلى الأرض وما يتعلق في الهواء، وهو مبالغ في إحاطة علمه بالجزئيات، كما تعلق بالكليات، ﴿ ولا حبة في ظلمات الأرض ﴾ من حبوب الثمار وبذور سائر النباتات، والرمل، وغير ذلك من دقائق الأشياء وجلائلها، ﴿ ولا رطب ولا يابس ﴾ من الأشجار والنبات والحيوانات التي فيها الحياة والتي فارقتها، فهي من جنس اليابس، ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ أى: علم الله القديم، أو اللوح المحفوظ، فعلى الأول، يكون بدلاً من الاستثناء الأول، بدل الكل من الكل، وعلى الثاني: بدل اشتمال، وقرئت بالرفع، على العطف على محل: ﴿ من ورقة ﴾، أو على الابتداء، والخبر: ﴿ في كتاب مبين ﴾.

الإشارة: مفاتيح الغيب هي أسرار الذات وأنوار الصفات، أو أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، لا يعلمها إلا هو، فما دام العبد محجوباً بوجود نفسه، محصوراً في هيكل ذاته، لا يذوق شيئاً من هذه الغيوب، فإذا أراد الحق جل جلاله أن يفتح على عبده شيئاً من هذه الغيوب، غطى وصف عبده بوصفه، ونعته بنعته، فغيبه عن وجود نفسه، فصار هو سمعه وبصره وقلبه وروحه، فيعلم تلك الأسرار به، لا بنفسه، فما علم تلك الأسرار غيره، ويحيط بأسرار الأشياء كلها، برها وبحرها؛ لأنه يصير خليفة الله في أرضه. وقال الورتجبي: غيبه ذاته القدسية، وهي خزانة أسرار الأزل والآباد، ومفاتيحها: صفاتها الأزلية، لا يعلم صفاته وذاته بالحقيقة إلا هو تعالى بنفسه، فنفى الغير عن البين، حيث لا حيث ولا بين. انظر تمامه فيه.

ومن جملة الغيوب التي اختص الله بها: انقضاء الأجل، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَاضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذي يتوفاكم﴾ أى: يقبض أرواحكم ﴿بالليل﴾ إذا نمتم، وفى ذلك اعتبار واستدلال على البعث الأخرى، ﴿ويعلم ما جرحتم﴾ أى: ما كسبتم من الأعمال ﴿بالنهار﴾. وخص الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على المعتاد، ﴿ثم﴾ إذا توفاكم بالليل ﴿يبعثكم فيه﴾ أى: فى النهار، ﴿ليُقضى أجل مسمى﴾ أى: ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له فى الدنيا، وهو أجل الموت، ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ بالموت ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ فيعاتب المسىء ويكرم المحسن.

روى: أن العبد إذا قبض عرجت الملائكة بروحه إلى سِدرة المنتهى، فيُوقف به هناك، فيُعاتبه الحق تعالى على ما فرط منه حتى يرفض عرقاً، ثم يقول له: قد غفرت لك، اذهبوا به ليرى مقعده فى الجنة، ثم يرد إلى السؤال.

﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ بالقهر والغلبة، ﴿ويرسل عليكم حفظة﴾؛ ملائكة تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون، والحكمة فيه: أن العبد إذا علم أن أعماله تكتب عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد، كان أزجر له عن المعاصى، ثم لا تزال الملائكة تكتب عليه أعماله ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رُسُلنا﴾ أى: ملك الموت وأعوانه، ﴿وهم لا يُفرطون﴾ بالتوانى والتأخير، ولا يجاوزون ما حد لهم بالتقديم والتأخير. ﴿ثم رُدُّوا إلى الله﴾ أى: إلى حكمه وجزائه، أو مشاهدته وقربه، ﴿مولاهم﴾ الذى يتولى أمرهم، ﴿الحق﴾ أى: المتحقق وجوده، وماسواه باطل، ﴿ألا له الحكم﴾ يومئذ، لاحكم لغيره فيه، ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾؛ يحاسب الخلائق فى مقدار حُب شاة، لا يشغله حساب عن حساب، ولا شأن عن شأن، سبحانه لا إله إلا هو.

الإشارة: وهو الذى يتوفاكم، أى: يخلصكم بليل القبض، ويعلم ما كسبتم فى نهار البسط، ثم يبعثكم من ليل القبض إلى نهار البسط، وهكذا؛ ليُقضى أجل مسمى للإقامة فيهما، ثم إليه مرجعكم بالخروج عنهما؛ لتكونوا لله لا شىء دونه، وفى الحكم: «بسطك كى لا يبقيك مع القبض، وقبضك كى لا يتركك مع البسط، وأخرجك عنهما، كى لا تكون لشىء دونه».

وقال فارس رحمته الله: القبض أولاً ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط؛ لأن القبض والبسط يقعان فى الوجود؛ أى: فى وجود النفس، وأما مع الفناء والبقاء فلا. هـ. أى: فلا قبض ولا بسط؛ لأن العارف الواصل مقبوض فى بسطه، مبسوط فى قبضه، لا تؤثر فيه هواجم الأحوال؛ لأنه مالك غير مملوك. والله تعالى أعلم.

ومن علم أن الله قاهر فوق عباده، انسلخ من حوله وقرته، وانعزل عن تدبيره واختياره؛ لإحاطة القهرية به، ومن تحقق عموم قهاريته تعالى، علم أنه لا حجاب حسى بينه وبينه، إذ لو حجب شىء لستره ما حجب به، ولو كان له سائر كان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشىء فهو له قاهر، (وهو القاهر فوق عباده)، وإنما المحجوب: العبد عن ربه بوجود وهمه وجهله، ومن تحقق أن الملائكة تحفظ أعماله استحيا من ارتكاب القبائح، لئلا تعرض على رؤوس الأشهاد.

ثم أمر بالرجوع إليه عند الشدائد، فقال:

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مَنْ ظَلَمْتَ الْبِرَّ وَالْبَحْرَ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَحْنَا مِنْ هَذِهِ
لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل من ينجيكم ﴾ أى: يخلصكم ﴿ من ظلمات البر والبحر ﴾ أى: من شدائدهما، استعير الظلمة للشدّة؛ لمشاركتها في الهول، فقليل لليوم الشديد: يوم مظلم، أو: من الخسف في البر والغرق في البحر، حال كونكم ﴿ تدعونه تضرعاً وخفية ﴾ أى: جهراً وسراً، قائلين: ﴿ لئن أنجيتنا من هذه ﴾ (١) الظلمة، أى: الشدة، ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ بإقرارنا بوحداانيتك، ﴿ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ﴾ أى: غم سواها، ﴿ ثم أنتم تشركون ﴾ أى: تعودون إلى الشرك ولا توفون بالعهد، وهذا شأن النفس اللئيمة؛ في وقت الشدة ترجع إلى الحق وتوحده، وفي وقت السعة تنساه وتشرك معه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٢).

الإشارة: ظلمات البر هو ما يخوض القلب ويظلمه؛ من أجل ما يدخل عليه من حس الظاهر، الذى هو بر الشريعة، وظلمات البحر هو ما يدهش الروح ويحيرها من أجل ما يدهمها من علم الحقائق، عند الاستشراق عليها، أو ما يشكل عليها في علم التوحيد، فإذا رجع إلى الله فيهما، وتمسك بشيخ كامل في علم الحقائق - أنجاه الله منهما، فإذا شكر الله وأفرد النعمة إليه دامت نجاته، وإن التفت إلى غيره خيف عليه العود إلى ما كان عليه. وبالله التوفيق. ثم هدد أهل الشرك، أو: هم مع غيرهم، فقال:

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ
بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَتُنْظَرُونَ كَيْفَ نُصْرِفُ الْأَيَّاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ
قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ يا محمد: ﴿ هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ ، كما فعل بقوم نوح ولوط وأصحاب الفيل، ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ ، كما أغرق فرعون وخسف بقارون، وقيل: من فوقكم:

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (أنجيتنا) بالياء والفاء بعد الجيم من غير ألف.. وقرأ الباقون (أنجانا) بألف بعد الجيم من غير ياء ولا تاء. انظر الإتحاف (١٦/٢).

(٢) الآية ٢٣ من سورة الروم.

بتسليط أكابرهم وحكامهم عليكم، ومن تحت أرجلكم: سفلتكم وعبيدكم، ﴿أَوْ يَلْبَسَكُمْ﴾ أى: يخلطكم ﴿شِعْرًا﴾ أى: فرقا متحزبين على أهواء شتى، فينشب القتال بينكم، ﴿وَيُذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، يقتال بعضكم بعضا.

وفى الحديث عنه عليه السلام: أنه لما نزلت: ﴿أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ولما نزلت: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجَلِكُمْ﴾ قال أيضا: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ولما نزلت: ﴿أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِعْرًا﴾ قال: «هَذَا أَهْوَنُ»^(١)، فقضى الله على هذه الأمة بالقتل والقتال إلى يوم القيامة، نعوذ بالله من الفتن.

قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ﴾ أى: نقلها بورود الوعد والوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ ما نزل إليهم.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ أى: بالعذاب، أو بالقرآن، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الواقع لا محالة، أو الصدق فى أخباره وأحكامه، ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أى: وكل إلى أمركم فأمنعكم من التكذيب، أو أجازيكم، إنما أنا منذر، والله هو الحفيظ. ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ﴾ أى: خبر عذاب أو إيعاد به، ﴿مُسْتَقَرٍّ﴾ أى: وقت استقراره ووقوعه، يعرف - عند انقضائه - صدقه من كذبه، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يحل بكم عند وقوعه فى الدنيا والآخرة.

الإشارة: الخطاب للمريدين السائرين، أو الواصلين - خوفهم بأن يحول بينهم وبين شهود عظمتهم الفوقية والتحتية، فينزل عليهم عذاب الفرق من جهة العلو أو السفلى، فلا يشهدون إلا الأكوام محيطة بهم، أو يخالف بين وجوههم ويلبسهم شيعا، فإذا تفرقت الوجوه تفرقت القلوب غالبا، والعياذ بالله، لأن الفتح والنصر مرتب على الجمع، قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾^(٢). قال القشيري: فيه إشارة إلى أن الجمع مؤذن بالفتح. هـ. فيدبغى للمريد أن يشهد الصفاء فى الجميع، ويتوحد إلى الجميع، حتى لا يبقى معه فرق. والله تعالى أعلم.

ثم حذر من صحبة أهل الخوض، فقال:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُمْ أَعْرَافُهُمْ﴾
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا...

(١) أخرجه البخارى فى: (تفسير سورة الأنعام، باب: قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) الآية ٢٦ من سورة مباء.

قلت: ﴿ولكن ذكرى﴾: مفعول بمحذوف، أى: يذكرونهم ذكرى، أو مبتدأ، أى: عليهم ذكرى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا﴾ أى: القرآن؛ بالكذب والاستهزاء بها والطعن فيها ﴿فأعرض عنهم﴾ ولا تجالسهم، بل قم عنهم ﴿حتى يخوضوا فى حديث غيره﴾ أى: غير القرآن، ﴿وإما ينسبك الشيطان﴾ النهى عن مجالستهم، وجلست نسياناً، ﴿فلا تقعد بعد الذكرى﴾ أى: بعد أن تذكر النهى، ﴿مع القوم الظالمين﴾، ونسبة النسيان إلى الشيطان أدباً مع الحضرة، ﴿قل كل من عند الله﴾^(١)، ووضع المظهر موضع المضمَر، أى: معهم، للدلالة على أنهم ظلموا بوضع الكذب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم.

﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أى: ما على المتقين الذين يجالسونهم شيء من حسابهم، بل عقابهم على الخوض خاصٌ بهم، ﴿ولكن﴾ عليهم ﴿ذكرى﴾ أى: تذكيرهم ووعظهم ومنعهم من الخوض إن قدرُوا، وكراهية ذلك إن لم يقدروا، فيعظونهم ﴿لعلهم يتقون﴾، فيجتنبون ذلك الخوض؛ حياءً أو كراهية مساءتهم، وإنما أبيع للمؤمنين القعود مع الكفار الخائضين ومخالطتهم؛ لأن ذلك يشق عليهم، إذ لا بد لهم من مخالطتهم فى طلب المعاش وفى الطواف، وغير ذلك، بخلافه - عليه الصلاة والسلام -؛ لأن الله أغناه عنهم به، فنهاه عن مخالطة أهل الخوض مطلقاً.

ثم قال له: ﴿وذُرِّ الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً﴾ أى: بدوا أمر دينهم على التشهى، وتديبوا بما لا يعود عليهم بنفع، عاجلاً وأجلاً، كعبادة الأصنام واتخاذ البحائر والسوائب، أو اتخذوا دينهم الذى كلفوا بالدخول فيه لعباً ولهواً، حيث سخرُوا به، أى: أعرض عنهم ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم. ومن جعله منسوخاً بآية السيف حملة على الأمر بالكف عنهم، وترك التعرض لهم، ﴿وغرَّتْهم الحياة الدنيا﴾ وزخرفها، حتى نسوا البعث وأنكروه، والعياذ بالله.

الإشارة: قد تقدم مراراً التحذير من مخالطة أهل الخوض وصحبة العوام، وكل من ليس من جنس أهل الدسبة، فإن ألجأ الحال إلى صحبتهم - فليذكرهم، ويعظهم، وينهضهم إلى الله بمقاله أو حاله ما استطاع. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه - عليه الصلاة والسلام - بالتذكير، فقال:

(١) من الآية: ٧٨ من سورة النساء.

﴿... وَذَكَرْ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾

قلت: (تبسل): تحبس وتسلم للهلكة، وفي البخارى: «تَبْسَلُ: تَفْضَحُ، أُبْسِلُوا: فَضِحُوا وَأَسْلَمُوا» (١).

يقول الحق جل جلاله لنبيه - عليه الصلاة والسلام -: ﴿وَذَكَّرْ﴾ بالقرآن الناس؛ مخافة ﴿أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أى: لئلا تحبس كل نفس وترتهن بما كسبت أو تسلم للهلكة، أو لئلا تفضح على رؤوس الأشهاد بما كسبت، ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يدفع عنها العذاب، ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ﴾ أى: وإن تفد كل فداء ﴿لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا﴾ أى: لا يقبل منها.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ أى: أسلموا للعذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة، أو افتضحوا بما كسبوا ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وهو الماء الحار، ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، والمعنى: هم بين ماء مغلى يتجرجر فى بطونهم، ونار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم، والعياذ بالله.

الإشارة: لا ينبغي للشيخ أو الواعظ أن يمل من التذكير، ولو رأى من أصحابه غاية الصفاء، ولا ينبغي للمريد أن يمل من التصفية والتشمير، ولو بلغ من تصفية نفسه ما بلغ، أو أظهرت له من الاستقامة ما أظهرت، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا﴾.

قال أبو حفص النيسابورى رحمته الله: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها فى جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروها فى سائر أيامه، كان مغرورا، ومن نظر إليها باستحسان شئ منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه؛ والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، يقول: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (٢). وقال أيضا: منذ أربعين سنة اعتقady فى نفسى - أن الله ينظر إلى نظر السخط، وأعمالى تدل على ذلك. وقال الجنيد رحمته الله: لا تسكن إلى نفسك، وإن دامت طاعتها لك فى طاعة ربك. وقال أبو سليمان الداراني رحمته الله: (ما رضيت عن نفسى طرفة عين). إلى غير ذلك من مقالاتهم التى تدل على عدم الرضى عن النفس وعدم القناعة منها بالتصفية التى أظهرت.

ويحكى عن القطب ابن مشيش؛ أنه لما بلغ فى تلاوته هذه الآية، تواجد وأخذ حال عظيم اقتطعه عن حسه، حتى كان يتميل، فيميل الجبل معه يمينا وشمالا. نفعا الله بذكرهم آمين.

(١) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الأنعام) من قول ابن عباس رحمته الله.

(٢) من الآية ٥٣ من سورة يوسف.

فإن قلت: العارف لم تبق له نفس يتهمها؛ لفنائها في شهوده وانطوائها في وجوده؟ قلت: العارف الكامل هو الذي لا يحجبه جمعه عن فرقه، ولا فرقه عن جمعه، فإذا رجع إلى شهود فرقه، رأى نفسه عبداً متصفاً بنقائص العبودية التي لا نهاية لها، واذلك قالوا: للنفس من النقائص ما لله من الكمالات. فلو تطهرت كل التطهير لم يقبل منها، وإذا نظر إلى نعت جمعه رأى نفسه مجموعاً في الحضرة، متصفاً بالكمالات التي لا نهاية لها، فيغيب عن شهود عبوديته في عظمة ربوبيته، لكنه لا يحجب بجمعه عن فرقه؛ لكماله، وإلى هذا المعنى أشار في الحكم بقوله: «لأنهاية لهماك إن أرجعك إليك، ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك». وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه - عليه الصلاة والسلام - بالتبرؤ من الشرك مطلقاً، تشريعاً، فقال:

﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلًّا بِكَ هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمَّا الْيُتْسَلِمُونَ لِلرَّبِّ الْعَلِيمِ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

قلت: (ونرد): عطف على (ندعو) والهمزة للإنكار، والرد على العقب: الرجوع إلى وراء، لعل في المشي، واستعير للمعاني، و(كالذي استهوته) : الكاف في موضع نصب على الحال من الضمير في (نرد) أي: كيف نرجع مشبهين بمن استهوته الشياطين، أو نعت لمصدر محذوف، أي: رداً كرد الذي... إلخ. واستهوى: استفعل، من هوى في الأرض إذا ذهب، وقال الفارسي: استهوى بمعنى أهوى، مثل استزل بمعنى أزل، و(حيران): حال من مفعول استهوى.

وأن أقيموا: عطف على «النسلم»، أو «أمرنا». «قوله الحق»: مبتدأ، ويوم يقول: خبر مقدم، أي: قوله الحق حاصل يوم يقول: كن فيكون، وفاعل «يكون»: ضمير فاعل كن، أي: حين يقول للشيء: كن فيكون ذلك الشيء، ويوم ينفخ: ظرف لقوله: «الملك»، كقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ (١).

(١) من الآية ١٦ من سورة غافر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد «أندعو من دون الله﴾ أى: نعبد ﴿مالا ينفعنا ولا يضرنا﴾ من الأصنام الجامدة، ﴿ونُردُّ على أعقابنا﴾ أى: نرجع إلى الشرك ﴿بعد إذ هدانا الله﴾ وأنقذنا، ورزقنا الإسلام، وهذا على الصحابة. وأما النبي ﷺ فلم يتقدم له شرك؛ لعصمته، أى: كيف نرد على أعقابنا رداً ﴿كالذي استهوت الشياطين﴾، أى: أضلته مردة الجن عن الطريق المستقيم، فذهب ﴿فى الأرض حيران﴾؛ متحيراً ضالاً عن الطريق، ﴿له أصحاب﴾ أى: رفقة ﴿يدعونه إلى الهدى﴾ أى: إلى الطريق المستقيم، يقولون له: ﴿اتنا﴾ وكن معنا للثلاثاء. وهو مثال لمن ترك الإسلام وضل عنه.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إن هدى الله﴾، وهو الإسلام، ﴿هو الهدى﴾ وحده، وما عداه ضلال. ﴿و﴾ قد ﴿أمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ نكون على الجادة من الهدى، ﴿و﴾ أمرنا ﴿أن أقيموا الصلاة واتقوا﴾ أى: أمرنا بإقامة الصلاة، والتقوى، روى أن عبد الرحمن بن أبى بكر دعا أباه إلى عبادة الأوثان، فنزلت، وعلى هذا أمر الرسول بهذا القول إجابة عن الصديق تعظيماً لشأنه، وإظهاراً للاتحاد الذى كان بينهما. قاله البيضاوى. وقال ابن جزى: ويبطل هذا قول عائشة: ما نزل فى آل أبى بكر شيء من القرآن إلا برائتى. هـ. قلت: ليس بحجة؛ لصغر سنّها وقت نزول الآية بمكة، والإسلام يحرم ما قبله. ثم قال جل جلاله: ﴿وهو الذى إليه تحشرون﴾ يوم القيامة؛ فيظهر من تبى الحق من الباطل.

﴿وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق﴾، أى: قائماً بالحق والحكمة، فهو أحق بالعبادة وحده، ﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾ أى: قوله العدل حاصل يوم يقول للبعث والحشر: كن فيكون، ﴿وله الملك يوم ينفخ فى الصور﴾ أى: انفرد الملك له يوم ينفخ فى الصور فيقول: لمن الملك اليوم؟ فلا يجاب، فيقول: لله الواحد القهار ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أى: هو عالم بما غاب وما ظهر، ﴿وهو الحكيم﴾ فى صنعه، ﴿الخبير﴾ بأمر عباده.

الإشارة: إذا توجه العبد إلى مولاه، وانقطع بكلّيته إلى الله، طالباً منه معرفته ورضاه، قد يمتحن بشيء من شدائد الزمان؛ كالفاقة وإيذاء الخلق والأحزان، فيقال اختباراً له: تعلق فى دفع ما نزل بك بشيء من السوء، فيجب عليه أن يقول: ﴿أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونردُّ على أعقابنا﴾ بالالتفات إلى غير ربنا، بعد إذ هدانا الله إلى توحيد معرفته، ونكون كالذى استهوت الشياطين فى الأرض، حيران بالفتنات إلى غير الكريم المنان: ﴿قُلْ إن هدى الله﴾ أى: هدايته الخاصة، وهى الانقطاع إليه وحده فى الشدائد، ﴿هو الهدى﴾، وقد أمرنا بالانقياد بكلّيتنا إلى ربنا، وأمرنا إذا حزينا شيء بإقامة الصلاة؛ لأنها مفتاح الفرج، وبالتقوى؛ لأنها سبب النصر: ﴿إنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، وآخر أمرنا الموت والحشر إلى ربنا، والاستراحة إلى الروح والريحان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة إبراهيم إيطالا لدعوى الشرك، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أُصْنَامًا ؕ إِلَٰهَةٌ إِنِّي أَرَٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

قلت: آزر: عطف بيان، أو بدل من أبيه، ومنع من الصرف؛ للعلمية والعجمة. وقرأ يعقوب بالضم - على النداء، وقيل: إن آزر اسم صم؛ لأنه ثبت أن اسم أبي إبراهيم تارخ. فعلى هذا يحتمل أن يكون لقب به؛ لملازمته له، وقيل: هما علتمان له كإسرائيل ويعقوب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واذكر ﴾ إذ قال إبراهيم لأبيه آزر، حين دعاه إلى التوحيد: ﴿ اتَّخِذْ أُصْنَامًا إِلَٰهَةً ﴾ تعبدوها من دون الله، وهي لاتنفع ولا تضر، ﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾: بين الضلالة، ظاهر الخطأ.

الإشارة: كل من سكن إلى شيء دون الله، أو مال إليه بالعشق والمحبة، فهو صم في حقه، فإن لم ينزع عن محبته، ولم يقطع عن السكون إليه، كان حجاباً بينه وبين شهود أسرار التوحيد. وفي الحكم: «ما أحببت شيئاً إلا وكلت عبداً له، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً». وفي الحديث: «تعبس عبد الدينار والدرهم، ... أي: خاب وخسر، فإذا اطلع الحق تعالى على قلب عبده فرآه مائلاً لغيره، حجب عنه أنوار قدسه، وفي ذلك يقول الششتري رحمه الله:

لي حبيب إنما هو غيور، يطل في القلب كطير حذور،
إذا رأى شيئاً امتنع أن يزور.

وبالله التوفيق.

ثم ذكر احتجاج إبراهيم على قومه، وتبصره بأمر ربه، فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ؕ قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّ أَفْلَقَ قَالَ لَا أَحِبُّ ٱلْأَفْلَٰقَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّ رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّ أَفْلَقَ قَالَ لَيْنَ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّ رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّ أَفْلَتَ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

قلت: المَلَك: ما ظهر في عالم الشهادة من المحسوسات، والملَكوت: ما غاب فيها من معاني أسرار الربوبية، والجبروت: ما لم يدخل عالم التكوين من أسرار المعاني الأزلية .

يقول الحق جل جلاله: ﴿وكذلك﴾ أي: مثل ذلك التبصر الذي بَصَرْنَا به إبراهيم حتى اهتدى للرد على أبيه، نُرِيه ﴿ملكوت السموات والأرض﴾ أي: نكشف له عن أسرار التوحيد فيهما، حتى يشاهد فيهما صانعهما، ولا يقف مع ظاهر حسهما، وإنما فعلنا له ذلك ﴿ليكون من الموقنين﴾ بمعرفتنا، عارفاً بأسرار قدسنا.

ولما كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والقمر والشمس، أراد أن يرشدهم إلى التوحيد من طريق النظر والاستدلال؛ ﴿فلما جن عليه الليل﴾ أي: ستره بظلامه، ﴿رأى كوكبا﴾ وهو الزهرة أو المشتري، ﴿قال هذا ربي﴾ على سبيل التذلل إلى قول الخصم، وإن كان فاسداً؛ فإن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصم، ثم يكرّ عليه بالفساد؛ لأن ذلك أدعى إلى الحق، وأقرب إلى رجوع الخصم، ﴿فلما أفل﴾ أي: غاب، ﴿قال لا أحب الآفلين﴾؛ فضلاً عن عبادتهم؛ فإن التغير بالاستتار والانتقال يقتضي الإمكان والحدوث وينافي الألوهية.

﴿فلما رأى القمر بازغا﴾: مبتدئاً في الطلوع، ﴿قال هذا ربي﴾، فلما أفل قال لمن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين. استعجز نفسه واستعان ربه في درك الحق، وأنه لا يهتدي إليه إلا بتوقيفه؛ إرشاداً لقومه، وتنبيهاً لهم على أن القمر أيضاً؛ لتغير حاله، لا يصلح للألوهية، وأن من اتخذها إلهاً، فهو ضالٌّ.

﴿فلما رأى الشمس بازعة قال هذا ربي﴾، إنما ذكر الإشارة لتذكير الخبر، وصيانة للرب عن شبهة التأنيث ﴿هذا أكبر﴾ لكبر النور وسطوعه أكثر، ﴿فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ من الأجرام المحدثه المحسوسة، المحتاجة إلى محدث يحدثها، ومخصص يخصصها.

ولما تبرأ من عبادتها توجه إلى موجدتها ومبدعها، فقال: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر﴾ أي: أبدع ﴿السموات والأرض﴾ حال كوني ﴿حنيفاً﴾ أي: مائلاً عن دينكم ﴿وما أنا من المشركين﴾ مثلكم. وإنما احتج بالأقول دون البزوغ، مع أنه تغير؛ لأن الأقول أظهر في الدلالة؛ لأنه انتقال مع اختفاء واحتجاب. ولأنه رأى الكوكب الذي يعبدونه في وسط السماء حين حاول الاستدلال. وقيل: إن هذا الاستدلال والاحتجاج كان في حال طفولته قبل التكليف. فقد روى أنه لما ولدته أمه في غار، خوفاً من نمرود؛ إذ كان يقتل الأطفال؛ لأن المنجمين أخبروه أن هلاكه على يد صبي يولد في هذا العصر، فكان يستدل بما رأى على توحيد ربه، وهو في الغار، وهذا ضعيف لأن قوله: ﴿إني بريء مما تشركون﴾ يقتضي المحاجة والمخاصمة لقومه.

وقوله ﷺ: ﴿هذا ربي﴾ مع قوله ﴿إني سقيم﴾^(١) و﴿فعله كبيرهم هذا﴾^(٢)، ليس بكذب؛ للعصمة، وإنما هو تورية. وفي الحديث: «ليس بكاذب من كاذب ظالماً، أو دفع ضرراً، أو رعى حقاً، أو حفظ قلباً». وفي

(١) من الآية ٧٩ من سورة الصافات.

(٢) من الآية ٦٣ من سورة الأنبياء.

رواية أخرى: «ليس بكاذب، من قال خيراً أو نواه». وأما اعتذاره في حديث الشفاعة؛ فلهول المطلع، فيقع الحذر من أدنى شيء. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لما كشف إبراهيم بعالم الملكوت، رأى الله في الأشياء كلها، كما ورد في بعض الآثار: (ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه). وإنما قال: ﴿لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾؛ حذراً من الوقوف مع الحس دون شهود المعنى، إذ بحر المعاني متصل دائم ليس فيه تغيير ولا انتقال. وإنما تتغير الأواني دون المعاني، فشمس المعاني مشرقة على الدوام، ليس لها مغيب ولا تغير ولا انتقال، ولذلك قيل:

طَلَعَتْ شَمْسٌ مِنْ أَحِبِّ لَيْلٍ وَأَسْتَنَارَتْ فَمَا تَلَاهَا غُرُوبُ
إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْلِ وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَ لَهَا مَغِيبُ

أى: طلعت شمس نهار عرفانهم على ليل وجودهم، فامتحت ظلمة وجودهم في شهود محبوبهم، وفي الحكم: «أنار الظواهر بأنوار آثاره، وأنار السرائر بأنوار أوصافه، لأجل ذلك أفلت أنوار الظواهر، ولم تأقل أنوار القلوب والسرائر».

قال الجوزي: لما بدا لإبراهيم نجم العلم، وطلع قمر التوحيد، وأشرقت شمس المعرفة. قال: «إني برىء مما تشركون إني وجهت وجهي...» الآية. هـ. قيل: لما نظر إبراهيم ﷺ بعيون رأسه إلى نور النجم والشمس والقمر الحسى، نودى في سره: يا إبراهيم، لا تنظر ببصرك إلى الجهة الحسية، وانظر ببصيرتك إلى الحقيقة المعنوية؛ لأن الوجود كله عين الأحدية، فافهم معاني الأسماء، ولا تقف مع جرم الأرض والسماء، فإن الوقوف مع الحس حجاب عن المعنى. فقال إبراهيم: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾. هـ. وفي ذلك يقول الششتري أيضاً:

لَا تَنْظُرْ إِلَى الْأَوَانِي وَخُضْ بِحَرِّ الْمَعَانِي لَعَلَّكَ تَرَانِي .

ولما احتج إبراهيم ﷺ على قومه خاصموه في ذلك، كما قال تعالى:

﴿وَحَاجَّهٖ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ...﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَحَاجَّهٖ قَوْمُهُ﴾ أى: خاصموه في التوحيد، فقال لهم: ﴿أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ﴾ أى: في وحدانيته، أو في الإيمان به، وقد هداني إلى توحيدهِ وأرشدني إلى معرفته، فلا ألتفت إلى غيره، ولا أعبأ بمن خاصمني فيه، والأصل: تحاجونني، فحذف نافع وابن عامر نون الرفع، وأبقى نون الوقاية، وقيل: العكس، وأدغم الباقون إحدى النونين في الأخرى.

الإشارة: مخاصمة العموم لأهل الخصوصية سنة ماضية؛ (ولن تجد لسنة الله تبديلاً)؛ لأن من أنكر شيئاً عاداه، فأهل الخصوصية يعذرون من أنكر عليهم؛ لأن ذلك مبلغهم من العلم، والعامة لا يعذرون أهل الخصوصية؛ لخروجهم عن بلادهم؛ فلا يعرفون ما هم فيه. والله تعالى أعلم.

ولما خاصموا إبراهيم عليه السلام فلم يلتفت إليهم، خوفه بأصنامهم، فقال لهم:

﴿... وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قلت: الاستثناء في قوله: (إلا أن يشاء)؛ منقطع. قاله ابن جزى. وظاهر كلام البيضاوى: أنه متصل، وهو المتبادر، أى: ولا أخاف ما تشركون فى حال من الأحوال إلا أن يشاء ربي أن يصيبنى بمكروه من جهتها؛ استدراجاً لكم، وفتنة. وقال الواحدى: لا أخاف إلا مشيئة ربي أن يعذبنى.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن خليله إبراهيم: ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ أى: لا أخاف معبوداتكم أن تصيبنى بشيء؛ لأنها جوامد لا تضر ولا تنفع، ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾ يصيبنى بقدره وقضائه، فإنه يصيبنى لا محالة، لا بسببها، ﴿وسيع ربي كل شيء علماً﴾، كأنه علة الاستثناء، أى: لا أخاف إلا ما سبق فى مشيئة الله، لأنه أحاط بكل شيء علماً، فلا يبعد أن يكون فى علمه وقدره أن يحقق بى مكروه من جهتها، ﴿أفلا تتذكرون﴾ فتميزوا بين الصحيح والفاقد، والقادر والعاجز؟

﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ وهو جامد عاجز لا يتعلق به ضرر ولا نفع؟ ﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله﴾ وهو أحق أن يخاف منه كل الخوف، لأنه القادر على الانتقام ممن أشرك معه غيره، وسوى بينه وبين مصنوع عاجز، لا يضر ولا ينفع، فأنتم أحق بالخوف؛ لأنكم ﴿أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾ أى: لم ينزل بإشراكه كتاباً، ولم ينصب عليه دليلاً، ﴿فأي الفريقين أحق بالأمن﴾: أهل التوحيد والإيمان، أو أهل الشرك والعصيان؟ ﴿إن كنتم تعلمون﴾ ما يحق أن يخاف منه.

ثم أجاب عن الاستفهام: الحق تعالى أو خليله، فقال: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا﴾ أى: يخلطوا ﴿إيمانهم بظلم﴾ أى: بشرك، بل آمنوا بالله ولم يعبدوا معه غيره، ﴿أولئك لهم الأمن﴾ فى الآخرة، ﴿وهم مهتدون﴾ فى الدنيا. أما الطائع فأمنه ظاهر، وأما العاصى فيؤمن من الخلود وتحريم الجنة عليه.

ولما نزلت الآية أشفق منها أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: أينما لم يظلم نفسه؟ لأنهم فهموا عموم الظلم؛ فقال رسول الله ﷺ: «ليس ما تظنون، إنما هو ما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ﴾» (١)،

(١) الآية ١٣ من سورة لقمان.... والحديث أخرجه البخارى فى (أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى «ولقد آتينا لقمان الحكمة...») ومسلم فى (الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه.

وقد كان المشركون يَقْرُون بالصانع ويخلطون معه التصديق بربوبية الأصنام، فقد آمنوا بوجود الصانع، ولكنهم لبسوا إيمانهم بالشرك، فلا أمن لهم ولا هداية. وبهذا يرد جهالة الزمخشري في إنكاره الحديث الصحيح، ولو بقي الظلم على عمومته - أى: ولم يخلطوا إيمانهم بمعصية - لصح، ويكون المراد بالأمن أمناً خاصاً وهداية خاصة، لكن ما قاله - عليه الصلاة والسلام - يوقف عنده.

الإشارة: العارف بالله، المتحقق بوحدانية الله، لا يسكن خوف الخلق في قلبه، ولا ينظر إلا إلى ما يبرز من عند ربه، فإن وعده بالعصمة أو الحفظ لم يترك بذلك التصرع والالتجاء إلى ربه؛ لسعة علمه تعالى، وقد يكون ذلك متوقفاً على أسباب وشروط، أخفاها الحق تعالى إظهاراً لقهره، ولذلك قال الخليل عليه السلام: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. وقال سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(١). فالعارف لا يزول اضطرابه، ولا يكون مع غير الله قراره، وأما الأمن من التحويل والانقلاب، فاختلف فيه؛ فقال بعضهم: يحصل للولي الأمن، إذا تحقق بمقام القرب، وحصل له الفناء والبقاء، متمسكاً بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾. وقال بعضهم: لا يحصل الأمن إلا للأنبياء - عليهم السلام -؛ للعصمة.

قال الورتجبي: مقام الأمن لا يحصل لأحد، مادام هو بوصف الحدثية، وكيف يكون آمناً منه وهو في رقب العبودية ويعرف نفسه بها، ويعرف الحق بوصف القدم والبقاء وقهر الجبروت؟ وقال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٢). فإذا رأى الله تعالى بوصف المحبة والعشق والشوق، وذاق طعم الدنو، واتصف بصفات الحق، بدا له أوائل الأمن، لأن في صفة القدم لا يكون علة الخوف والرجاء، لأن هناك جنة القرب والوصال، وهم فيها آمنون من طوارق القهر، وهم مهتدون ماداموا متصفين بصفاته، وإن كانوا في تسامح من مناقشة الله بدقائق خفايا مكره. هـ.

فظاهر كلامه، أن المتحقق بمقام الفناء والبقاء، يحصل له الأمن من الشقاء، وكذلك قال أبو المواهب: من رجع إلى البقاء أمن من الشقاء. وقال في نوادر الأصول: مَنْ حَظَّهُ مِنْ أَهْلِ التَّقَرُّبِ: الجلال والجمال، وقد أقيم في الهيبة والأنس، قد غاب عن خوف العقوبة، ولكنه يخاف التحويل والهوى والسقوط، لما ركب في نفوس بني آدم من الشهوات، فمن أبداً يهوين بصاحبهن عن الله إلى الإخلاق والبطء، وإنما يسكن خوف التحويل إذا خلص إلى الفردانية وتعلق بالوحدانية؛ لتلاشي الهوى منه والشهوة؛ بكشف الغطاء، ولا يذهب خوف ذلك بالكلية عنه، وإن

(١) الآية ٨٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٩٩ من سورة الأعراف.

سكن؛ لبقاء خيال ذلك في حق غير الأنبياء. وأما هم فلم يبق لهم ظلُّ الهوى، فبُشِّروا بالنجاة؛ فلم تَغْرهم البُشرى؛ لأنهم لم يبق لهم نفوس، فتستبد وتجر إذا أمنت السقوط، ومن بعدهم بقي لهم في نفوسهم شيء فمدعوا البُشرى، وأبهم عليهم الأمر؛ صنعاً بهم؛ ونظراً لهم، لتكون نفوسهم منقعة بخوف الزوال. هذا هو الأصل فافهمه. هـ.

وحاصل كلامه: أن غير الأنبياء لا يقطع عنه خوف التحويل، بل يسكن خوفه فقط، ولا يبشر بالأمن إلا الأنبياء، وهو الصواب، لبقاء قهر الربوبية فوق ضعف العبودية، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (١). والله تعالى أعلم.

ثم مدح خليله بما أظهر على يديه من الحجة والعلم، فقال:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٣)

قلت: (على قومه): متعلق بحجتنا، إن جعل خبراً عن (تلك)، وبمحذوف، إن جعل بدله، أى: وتلك الحجة آتيناه إبراهيم حجة على قومه. ومن قرأ: درجات: بالتثنية؛ فمن نشاء: مفعول، ودرجات: تمييز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وتلك حجتنا آتيناه إبراهيم على قومه﴾، إشارة إلى ما تقدم من استدلاله على وحدانيته تعالى بأفول الكوكب والقمر والشمس، واحتجاجه بذلك على قومه، وإتيانه إياها: وإرشاده لها وتعليمه إياها، قال تعالى: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ في العلم والحكمة، أو في اليقين والمعرفة، ﴿إن ربك حكيم﴾ في رفعه وخفضه، ﴿عليم﴾ بحال من يرفعه ويخفضه، وبحال الاستعداد لذلك.

الإشارة: رفع الدرجات في جنات الزخارف يكون بالعلم والعمل وزيادة الطاعات، ورفع الدرجات في جنة المعارف يكون بكبر اليقين، والترقى في شهود رب العالمين. وذلك بحسب التبذل والانقطاع، والتفرغ من شواغل الحس ودوام الأنس. والله تعالى أعلم.

ومما خص به إبراهيم عليه السلام وكان زيادة في درجته، أن الأنبياء جلهم من ذريته، كما قال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ

دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٤)

وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٥)

فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ

(١) من الآية ١٨ من سورة الأنعام.

مُسْتَقِيمٌ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا بِكَفْرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْ لَهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

قلت: الضمير في (ذريته) لإبراهيم عليه السلام؛ لأن الحديث عليه، أو لنوح عليه السلام؛ لذكر لوط، وليس من ذرية إبراهيم، لكنه ابن أخيه فكأنه ابنه، و(داود): عطف على (نوح)؛ أي: وهدينا من ذريته داود، و(من آبائهم): في موضع نصب، عطف على (نوح)؛ أي: وهدينا بعض آبائهم، والهاء في (اقتده): للسكت، فتحذف في الوصل، ومن أثبتها راعى فيها خط المصحف، وكأنه وصل بنية الوقف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ووهبنا﴾ لإبراهيم ﴿إسحاق﴾ ابنه، ﴿ويعقوب﴾ حفيده، ﴿كلاً﴾ منهما ﴿هدينا﴾ و﴿نوحاً﴾ قد هديناه ﴿من قبل﴾ إبراهيم، وعده نعمة على إبراهيم؛ من حيث إنه أبوه، وشرف الوالد يتعدى إلى الولد، ﴿ومن ذريته﴾ أي: إبراهيم، ﴿داود﴾ بن أيشا، ﴿وسليمان﴾، وأيوب ﴿بن قوص بن رازح بن عيصو بن إسحاق﴾ ويوسف ﴿بن يعقوب بن إسحاق﴾، وموسى وهارون ﴿ابنا عمران بن بصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب﴾. وكذلك نجزي المحسنين جزاء مثل ما جازينا إبراهيم؛ برفع درجاته وكثرة أولاده، وجعل النبوة فيهم.

﴿وزكريا﴾ بن آذن بن بركيا، من ذرية سليمان، ﴿ويحيى﴾ بن زكريا، ﴿وعيسى﴾ بن مريم بنت عمران، وفيه دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنات، ﴿وإلياس﴾ بن نسي بن فتاح بن إلغاز بن هارون. وقيل: هو إدريس جد نوح، وفيه بُعد. ﴿كل من الصالحين﴾ الكاملين في الصلاح، وهو الإتيان بما ينبغي والتحرز مما لا ينبغي.

﴿وإسماعيل﴾ بن إبراهيم، قد هدينا أيضاً، وهو أكبر ولد إبراهيم، وهو ابن هاجر، ﴿واليسع﴾ بن أخطوب بن العجوز، وقرئ: ﴿والليسع﴾ بالتعريف، كأن أصله: ليسع، وآل، فيه: زائدة، لا تفيد التعريف؛ لأنه علم، ﴿ويونس﴾ بن متى، اسم أبيه، وهو من ذرية إبراهيم، خلافاً للبيضاوي. قال القرطبي: لم يبعث الله نبياً من بعد إبراهيم إلا من صلبه. هـ. ويونس مثلث النون كيوسف، يعنى بتثليث الميم. ﴿ولوطا﴾ هو ابن هاران أخى إبراهيم، فهو ابن أخيه، وقيل: ابن أخته، فقد يطلق على العم أب مجازاً، ﴿وكلاً فضلنا على العالمين﴾ أي: عالمي زمانهم بالنبوة والرسالة. فكل واحد فضل على أهل زمانه.

﴿ ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ﴾ أى: فضلنا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم، أو هدينا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، ﴿ واجتبناهم ﴾ أى: اخترناهم للرسالة واصطفيناهم للحضرة، ﴿ وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾ الذى يوصل إلى حضرة قدسنا. ﴿ ذلك هدى الله ﴾ أى: ذلك الدين الذى دانوا به هو هدى الله ﴿ يهدى به ﴾ أى: بسببه، ﴿ من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾، تحذيراً من الشرك، وإن كانوا معصومين منه.

﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب ﴾ أى: جنس الكتب، ﴿ والحكم ﴾ أى: الحكمة، أو الفصل بين العباد، على ما يقتضيه الحق، ﴿ والنبوة ﴾؛ الرسالة، ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء ﴾: أهل مكة، ﴿ فقد وكلنا بها ﴾ أى: بالإيمان بها والقيام بحقوقها، ﴿ قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾؛ وهم الأنبياء المذكورون، وتابعوهم، وقيل: الصحابة المهاجرون والأنصار، وهو الأظهر. وقيل: كل مؤمن، وقيل: الفرس. والأول أرجح؛ لدلالة ما بعده عليه، وهو قوله: ﴿ أولئك الذين هدى الله ﴾، الإشارة إلى الأنبياء المذكورين، ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ أى: اتبع آثارهم، والمراد بهديهم: ماتوا على من التوحيد وأصول الدين، دون الفروع المختلف فيها، فإنها ليست هدى مضافاً إلى الكل، ولا يمكن التأسي بهم جميعاً؛ فليس فيه دليل على أنه عليه الصلاة والسلام متعبد بشرع من قبله. قاله البيضاوى.

﴿ قل لا أسألكم عليه ﴾ أى: التبليغ أو القرآن، ﴿ أجراً ﴾ أى: جعلاً من جهنم، كحال الأنبياء قبلى؛ اقتداء بهم فيه، فهو من جملة ما أمر بالاعتداء بهم فيه، ﴿ إن هو ﴾ أى: ما هو، أى: التبليغ أو القرآن، ﴿ إلا ذكرى للعالمين ﴾؛ إلا تذكرة وموعظة لهم.

الإشارة: فضل هؤلاء السادات على أهل زمانهم بما هداهم إليه من أنوار التوحيد وأسرار التفريد، وبما خصهم به من كمال العبودية والآداب مع عظمة الربوبية. وفى قوله لحبيبه: ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ فتح لباب اكتساب التفضيل، فكل من اقتدى بهم فيما ذكر شرف على أهل زمانه، وقد جمع فى حبيبه ﷺ ما افترق فيهم، وزاد عليهم بالمحبة ورفع الدرجات، فكان هو سيد الأولين والآخرين، فكل من اقتدى به فى أفعاله وأقواله وأخلاقه نال من السيادة بقدر اقتدائه، وأمره سبحانه له بالاعتداء بهم، إنما هو فى الآداب، وكان ذلك قبل أن يترقى عنهم إلى مقامه الذى خصه الله به. فإن للأنبياء سيرا وترقىاً يليق بهم. كما للأولياء سير وترقى يليق بهم.

قال الورتجى: أمر حبيبه - عليه الصلاة والسلام - بالاعتداء بالأنبياء والرسل قبله فى آداب الشريعة، لأن هناك منازل الوسائط، فإذا أوصله بالكيفية إليه، وكحل عيون أسرار به كحل الربوبية، جعله مستقلاً بذاته مستقيماً بحاله، وخرج عن حد الإرادة إلى حد المعرفة والاستقامة، وأمره بإسقاط الوسائط، حتى قال: «لو كان موسى حياً ما وسعته إلا أتباعي»، وغير ذلك. هـ. وقال الشاذلى رحمه الله: أمره بالاعتداء بهم فيما شاركوه فيه، وإن انفرد عنهم بما خص به. هـ.

ولما ذكر مشاهير الرسل، وما اتَّحَفَهُمْ به من الهداية وإنزال الوحي، ردَّ على من أنكر ذلك، فقال:

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قِرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله في الرد على اليهود: ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ أي: ما عرفوه حق معرفته في الرحمة والإنعام على العباد بالوحي وغيره، إذ لو عرفوه لهابوا أن ينكروا بعثة الرسل، أو ما جَسَرُوا على هذه المقالة، أو ما عظموه حق تعظيمه. حيث كذبوا رسله وأنكروا أن يكون أنزل عليهم كتابًا، إذ لو عظموه حق تعظيمه لصدقوا الرسول الوارد عنه، وهو معنى قوله: ﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بشرٍ من شيء ﴾، والقائلون هم اليهود، كفتحاص ومالك بن الصيِّف وغيرهما، قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن ونبوة محمد ﷺ، فردَّ الله عليهم بما لا بدَّ لهم من الإقرار به وهو إنزال التوراة على موسى، فقال: ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورًا وهدى للناس ﴾، فالنور للبواطن، والهداية للظواهر، ﴿ تجعلونه ﴾ أي: التوراة، ﴿ قراطيس ﴾ أي: تجزؤونه أجزاء متفرقة، ماوافق أهواءكم أظهرتموه وكتبتموه في ورقات متفرقة، وماخالف أهواءكم كتبتتموه وأخفيتتموه.

روى أن مالك بن الصيِّف قاله، لما أغضبته النبي ﷺ بقوله: «أُنشِدُكَ الله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين»، فأنت الحبر السمين، فغضب، وقال: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء، فردَّ الله عليه بما تقدَّم (١). وقيل: القائلون ذلك: المشركون، والزامهم بإنزال التوراة؛ لأنه كان مشهوراً عندهم يَقْرُونَ به، ولذلك قالوا: ﴿ أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ ﴾ (٢).

﴿ وَعِلِّمْتُمْ ﴾ على لسان محمد ﷺ ﴿ ما لم تعلموا أنتم ولا آبَاؤُكُمْ ﴾، زيادة على ما في التوراة، وبياناً لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم. ونظيره: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٣) أو: وعلمتم من التوراة ما لم تكونوا تعلمتم أنتم ولا آبَاؤُكُمْ قبل إنزاله، وإن كان الخطاب لقريش؛ فالذي علموه: ماسمعوا من النبي ﷺ من القصص والأخبار.

(١) أخرجه الطبري في التفسير. وذكره الواحدى في أسباب النزول، عن سعيد بن جبير مرسلًا.

(٢) الآية ١٥٧ من السورة نفسها.

(٣) الآية ٧٦ من سورة النمل.

ثم أجاب عن استفهامه بقوله: ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ أى: أنزله الله، أو الله أنزله. قال البيضاوى: أمره بأن يجيب عنهم؛ إشعاراً بأن الجواب بهذا متعين لا يمكن غيره، وتبديهاً على أنهم بهتوا بأنهم لا يقدرُونَ على الجواب هـ. ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ فى أباطيلهم. فلا عليك بعد التبليغ والزام الحجة، وأصل الخوض فى الماء، ثم استعير للمعاني المشككة، وللقلوب المتفرقة فى أودية الخواطر.

الإشارة: يفهم من الآية أن من أقر بأنزال الكتب وآمن بجميع الرسل، فقد قدر الله حق قدره وعظمه حق تعظيمه. وهذا باعتبار ضعف العبد وعجزه وجهله؛ وإلا فتعظيم الحق حق تعظيمه، ومعرفته حق معرفته، لا يمكن انتهاؤها، ولا الوصول إلى عشر العشر منها. قال تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾^(١)، وقال: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾^(٢) فلو بقى العبد يترقى فى المعرفة أبداً سرمداً، ما عرف الله حق معرفته، حتى ينتهى إلى غايتها، ولو بقى يعبد أبد الأبد ما قام بواجب حقه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ استشهد به الصوفية، فى طريق الإشارة، على الانفراد والانقطاع إلى الله، وعدم الالتفات إلى ما عليه الناس من الخوض والاشتغال بالأغيار والأكدار، والخروج عنهم إلى مقام الصفا، وهو شهود الفردانية، والعكوف فى أسرار الوجدانية. قال ابن عطاء الله - لما تكلم على أهل الشهود - قال: (لأنهم لله لا لشيء دونه، ﴿قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾). وقد ينكر عليهم من لم يفهم إشارتهم؛ تجمداً ووقوفاً مع الظاهر، وللقرآن ظاهر وباطن لا يعرفه إلا الريانيون. نفعا الله بهم، آمين.

ثم قرر صحة إنزال كتابه، فقال:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾^(١٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ أى: كثير البركة، حساً ومعنى؛ لكثرة فوائده وموم نفعه، أو: كثير خيره، دائم منفعته، قال القشيري: مبارك: دائم باق، لا يفسخه كتاب، من قولهم: برك الطير على الماء هـ. ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المتقدمة، ﴿وَلِتُنْذِرَ﴾ أنت ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ أى: مكة،

(١) من الآية ١١٠ من سورة طه.

(٢) الآية ٢٣ من سورة عبس.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من المشرق والمغرب أو لينذر القرآن أم القرى ومن حولها أي: أنزلناه للبركة والإنذار، وإنما سميت مكة أم القرى؛ لأنها قبلة أهل القرى وحجهم ومجمعهم، وأعظم القرى شأنًا. وقيل: لأن الأرض دحيت من تحتها أو لأنها مكان أول بيت وضع للناس.

﴿والذين يؤمنون بالآخرة﴾ هم الذين ﴿يؤمنون به، وهم على صلاتهم يحافظون﴾؛ لأن من صدق بالآخرة، وخاف عاقبتها، تحرى لنفسه الصواب، وتفكر في صدق النجاة، فأمن بالنبي ﷺ وصدق بما جاء به، وحافظ على مراسم الشريعة، وأهمها: الصلاة؛ لأنها عماد الدين وعلم الإيمان، من حافظ عليها حفظ ما سواها، ومن ضيعها ضيع ما سواها.

الإشارة: مفتاح القلوب هو كتاب الله، وهو عنوان السير، فمن فتح له في فهم كتاب الله، عند سماعه والتدبر في معانيه، فهو علامة فتح قلبه، فلا يزال يزداد في حلاوة الكلام، حتى يشرف على حلاوة شهود المتكلم من غير واسطة؛ وذلك غاية السير، وابتداء الترقى في أنوار التوحيد وأسرار التفريد، التي لانهاية لها. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد من كذب به أو عارضه، فقال:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْكِبُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

قلت: (كما خلقناكم): بدل من (فُرَادَى)، أو حال ثانية، و(لقد تقطع بينكم): من قرأ بالرفع، فهو فاعل، أي: تقطع وصلكم، ومن قرأ بالنصب، فظرف، على إضمار الفاعل، أي: تقطع الاتصال بينكم، أو على حذف الموصول؛ لقد تقطع ما بينكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أنه يوحى إليه، كمسيلة الكذاب والأسود العنسى، أو: غير الدين، كمعروبن لحبي وأمثاله، ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كابين أبي مَرْح

ومن تقدم، إلا من تاب، كابن أبي سرح. ﴿ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله﴾ كالذين قالوا: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ (١) كالنصر بن الحارث وأشباهه .

﴿ولو ترى إذ الظالمون﴾ من اليهود والكذابين والمستهزئين، حين يكونون ﴿في غمرات الموت﴾ : شدائد، ﴿والملائكة باسطو أيديهم﴾ لقبض أرواحهم، أو بالضرب لوجوههم وأدبارهم، قائلين لهم: ﴿أخرجوا أنفسكم﴾ من أجسادكم؛ تغليظاً عليهم، ﴿اليوم﴾ وما بعده ﴿تجزون عذاب الهون﴾ أى: الهوان، يريد العذاب المتضمن للشدّة والهوان، وإضافته للهوان لتمكنه فيه. وذلك العذاب ﴿بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾ كادعاء النبوة كذباً، وادعاء الولد والشريك لله، ﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ فلا تستمعون لها، ولا تؤمنون بها فلو أبصرت حالهم ذلك الوقت لرأيت أمراً فظيماً وهولاً شنيعاً.

يقول الحق سبحانه لهم: ﴿ولقد جئتمونا﴾ للحساب والجزاء، ﴿فراذى﴾ . متفردين عن الأعوان والأوثان أو عن الأموال والأولاد، وهذا أولى بقوله: ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ أى: على الهيئة التى ولدتم عليها من الانفراد والتجريد حفاة عراة غرلاً (٢) ﴿وتركتم ما خولناكم﴾ أى: تفضّلنا به عليكم من الدنيا فشغلتم به عز الآخرة، ﴿وراء ظهوركم﴾ ، فلم تقدّموا منه شيئاً، ولم تحملوا معكم منه نقيراً، ﴿وما نرى معكم شفعاءكم﴾ أى: أصنامكم ﴿الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ أى: أنهم شركاء مع الله فى ربوبيتكم واستحقاق عبادتكم ﴿لقد تقطع بينكم﴾ أى: تفرّق وصلّكم وتشتت شملكم، ﴿وضل﴾ أى: غاب ﴿عنكم ما كنتم تزعمون﴾ أنهم شفعاءكم، أو لا بعث ولا حساب لظهور كذبكم.

الإشارة: كل من ادعى حالاً أو مقاماً، يعلم من نفسه أنه لم يدركه ولم يتحقّق به، فالآية تجرّ ذيلها عليه. وفى قوله: ﴿ولقد جئتمونا فراذى...﴾ إلخ، إشارة إلى أن الدخول على الله والوصول إلى حضرته، لا يكون إلا بعد قطع العلائق والعوائق والشواغل كلها، وتحقيق التجريد ظاهراً وباطناً؛ إذا لا تتحقّق الفردانية إلا بهذا.

وقال المرتجى: ولى هنا لطيفة أخرى، أى: ولقد جئتمونا موحدّين بوجدانيّتى، شاهدين بشهادتى، بوصف الكشف والخطاب، كما جئتمونا من العدم فى بدء الأمر، حين عرفّتمكم نفسى بقولى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (٣)، بلا إشارة التشبيه وغلط التعطيل، كما وصفهم نبيه ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»، يعنى: على

(١) من الآية ٣١ من سورة الأنفال.

(٢) أى غير مختونين.

(٣) من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف

فطرة الأزل بلزوم سمة العبودية بلا علة الاكتساب، عند سبق الإرادة. انتهى. قلت: وحاصل كلامه: أن مجيئهم فرادى، كناية عن دخولهم الحضرة القدسية بعد تقديس الأرواح وتطهيرها، حتى رجعت لأهلها، كما خلقها أول مرة، أعلى: مقدسة من شواهد الحس، مطهرة من لوث الأغيار، على فطرة الأزل، فشبه مجيئها الثاني بعد التطهير بيروزها الأول، حين كانت على أصل التطهير، كأنه قال: ولقد جئتمونا فرادى من الحس وشهود الغير كما خلقناكم كذلك في أول الأمر. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرْكُمَ مَا خُولِنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أى: من العلوم الرسمية، والطاعات البدنية والكرامات الحسية، قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي العارف: كنت أعرف أربعة عشر علماً، فلما علمت علم الحقيقة سرطت ذلك كله، فلم يبق لى إلا التفسير والحديث والمنطق هـ. وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُم﴾ إشارة إلى أنهم دخلوا من باب الكرم لا من باب العمل. والله تعالى أعلم.

ثم شرع يذكر دلائل توحيده وتعريف ذاته، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

قلت: (ومُخْرِجُ): معطوف على (فالق)، على المختار؛ لأنَّ (يُخْرِجُ الْحَيَّ) - واقع موقع البيان له، و(سكناً): مفعول بفعل محذوف، أى: جعله سكناً، إلا أن يريد بجاعل: الاستمرار، فحينئذ ينصب المفعول.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ أى: يفلق الحب تحت الأرض لخروج النباتات منها، ويفلق النوى لخروج الشجر منها، ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ﴾ أى: كل ما ينمو من الحيوان والنبات؛ ليطابق ما قبله، ﴿مِنَ الْمَيِّتِ﴾ مما لا ينمو كالنطف والحب. ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ أى: ومخرج الحب والنطف من الحي، ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ أى: ذلكم المخرج والمحيي المميت هو الله المستحق للعبادة دون غيره، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ تصرفون عنه إلى غيره.

﴿فالق الإصباح﴾ أى: شاق عمود النهار عن ظلمة الليل، ﴿وجاعل^(١) الليل سكناً﴾ أى: يسكن فيه من تعب النهار للاستراحة، ﴿وجعل﴾ الشمس والقمر حُسْبَانًا أى: على أدوار مختلفة، يعلم بها حساب

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي - وكذا خلف - : (جَعَلَ) فعلاً ماضياً. وقرأ باقي السبعة (جَاعَلَ) باسم الفاعل مضافاً إلى الليل.

الأزمنة والليل والنهار، أو حسباً كحسبان الرُّحا يدور بهما الفلك دورة بين الليل والنهار، ﴿ذلك﴾ التسيير بالحساب المعلوم، هو ﴿تقدير العزيز العليم﴾ الذي قهرهما بعزته، وسيرهما على ذلك السير البديع بعلمه وحكمته.

الإشارة: إذا أحب الله عبداً فلق حبة قلبه بعشقه ومحبه، وخلق نواة عقله بالتبصر في عجائب قدرته، فلا يزال قلبه يميل إلى حضرته، وعقله يتشعشع أنواره بازدياد تفكره في عجائب عظمته، حتى تشرق عليها شمس العرفان، فيفلق عمود فجرها عن ظلمة ليل وجود الإنسان، فيصير حياً بمعرفته، بعد أن كان ميتاً بجهله وغفلته، فيميتة عن شهود نفسه، ثم يحييه بشهود ذاته، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي، جاعل ليل العبودية سكناً، وشمس العرفان وقمر الإيمان حسباً، تدور الفكرة بأنوارهما، كما يدور الفلك بالشمس والقمر الحسيين، ذلك تقدير العزيز العليم.

ثم ذكر برهاناً آخر، فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩٧﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها﴾ أي: ببعضها ﴿في ظلمات البر والبحر﴾ أي: في ظلمات الليل في البر والبحر، وأضاف الظلمات إليهما؛ لملابستها بهما، أو في مشتبهات الطرق في البر والبحر، وسماها ظلمات على الاستعارة، ﴿قد فصلنا الآيات﴾؛ بينهاها ﴿لقوم يعلمون﴾ فإنهم المنتفعون بها.

الإشارة: جعل الحق - جل جلاله - نجوم العلم يهتدى السائرون بها في مشكلات أمور الشريعة وأمور الحقيقة، فالبر الشريعة علم يسير به أهله إلى جنته ورضوانه، والبحر الحقيقة علم يسير به أهلها الطالبون لها إلى معرفة ذاته وصفاته، وشهودها في حال جلاله وجماله، والله در المجدوب رَبِّهِ، حيث قال:

العلم مرايا من هند، والجهل صندوق راشي من لا قرأش يعرف الله ما هو مبلى على شى (١)

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٩٨﴾

(١) زجل بلهجة مغربية.

قلت: من قرأ (مستقر) بفتح القاف، فمصدر، أو اسم مكان ومن قرأه بالكسر؛ فاسم فاعل، وعلى كل - هو مبتدأ، حذف خبره؛ الجار والمجرور، أى: لكم مستقر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدم ﷺ ﴿فَمُسْتَقَرٍّ وَمُسْتَوْدَعٍ﴾ أى: فلکم استقرار فى الأصلاب أو فوق الأرض، واستيداع فى الأرحام أو تحت الأرض، أو موضع استقرار واستيداع فيهما، أو: فمنكم مُستقرٌّ فى الأصلاب أو فى الأرض، أى: قارٌّ فيهما، ومنكم مستودعٌ فى الأرحام أو تحت الأرض.

وقيل: الاستقرار: فى الأرحام، والاستيداع: فى الصلب، بدليل قوله: ﴿وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ (١).

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أى: يفهمون دقائق أسرار القدرة، ذكر مع النجوم: ﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ لأن أمرها ظاهر، وذكر مع تخليق بنى آدم: ﴿يَفْقَهُونَ﴾؛ لأن إنشاءهم من نفس واحدة، وتصريفهم على أحوال مختلفة، دقيق يحتاج إلى زيادة تفهم وتدقيق نظر.

الإشارة: بعض الأرواح مستقرها الفناء فى الذات، ومستودعها الفناء فى الصفات، وهم العارفون من أهل الإحسان، وبعضها مستقرها الفناء فى الصفات، ومستودعها الاستشراق على الفناء فى الذات، وهم أهل الإيمان بالغيب. وقال الورتجى: بعض الأرواح مستقرها الصفات، ومستودعها الذات، بنعت البقاء فى الصفات، والفناء فى الذات؛ لأن القدم منزه أن يحل فيه الحدث. هـ.

ثم ذكر برهاناً آخر، فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١)

قلت: الضمير فى (منه) : يعود على النبات، و(خضراً) : نعت لمحذوف، أى: شيئاً خضراً، و(قِنْوَانٌ) : مبتدأ، و(من النخل) : خبر، و(من طلّعها) : بدل، والطلع: أول ما يخرج من التمر فى أكمامه، والقنوان: جمع قنو، وهو العنقود من التمر، و(مُشتَبِهًا) : حال من الزيتون والرمان، أو من كل ما تقدم من النبات، و(جَنَّاتٍ) : عطف على (نبات كل شيء)، و(ينعه) أى: نضجه وطيبه، يقال: ينعت الثمرة، إذا أدركت وطابت.

(١) من الآية ٥ من سورة الحج.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذي أنزل من السماء﴾ أى: السحاب أو جانب السماء، ﴿ماء﴾ فأخرجنا، ﴿فيه الالتفات من الغيبة إلى التكلم، ﴿به﴾ أى: بذلك الماء، ﴿نبات كل شيء﴾ أى: نبات كل صنف من النباتات على اختلاف أنواعه، فالماء واحد والزهر ألوان، ﴿فأخرجنا منه﴾ أى: من النبات، شيئاً ﴿خَضِرًا﴾ وهو ما يتولد من أصل النبات من الفراخ، ﴿نُخْرَجُ منه﴾ أى: من الخَضِر، ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ وهو السنبُل؛ لأن حبه بعضه فوق بعض، وكذلك الرمان والذرة وشبهها، ﴿ومن النخل من طلعها قنوان دانية﴾ أى: ويخرج من طلع النخل عناقيد متدانية قريبة من المتناول، أو ملتفة، قريب بعضها من بعض، وإنما اقتصر على المتداني دون العالى؛ لزيادة النعمة والتمكن من النظر فيه، دون ضده.

﴿و﴾ أخرجنا أيضا بذلك الماء، ﴿جنات﴾ أى: بساتين، ﴿من أعناب﴾ مختلفة الألوان والأصناف، ﴿و﴾ أخرجنا به ﴿الزيتون والرمان﴾ على اختلاف أصنافها، ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ أى: من النباتات والثمار ما يشبه بعضه بعضاً، فى اللون والطعم والصورة، ومنه ما لا يشبه بعضه بعضاً، وفى ذلك دليل قاطع على الصانع المختار القدير العليم المريد، ولذلك أمر بالنظر والاعتبار فقال: ﴿انظروا إلى ثمره﴾ أى: انظروا إلى ثمرة كل واحد من ذلك ﴿إذا أثمر﴾، ﴿و﴾ انظروا إلى ﴿يَنْعَم﴾ إذا ينعم، أى: طاب ونضج، والمعنى: انظروا إلى ثمره أول ما يخرج ضعيفاً لا منفعة فيه، ثم ينتقل من طور إلى طور، حتى يينع ويطيب.

﴿إِنَّ فى ذلكم لآياتٍ﴾ دالة على وجود الحكيم ووحدانيته، فإن حدوث الأجسام المختلفة والأنواع المتفننة، ونقلها من حال إلى حال، لا يكون إلا بإحداث قادر، يعلم تفاصيلها، ويرجح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها، ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه، أو ضد يعانده، ولذلك عقبه بتوبيخ من أشرك فقال: ﴿وجعلوا لله شركاء...﴾ إلخ. قاله البيضاوى.

الإشارة: مَنْ كَحَلَّ عينه بإثم التوحيد، غرق الكائنات كلها فى بحر التوحيد والتفريد، فكل ما يبرز لنا من المظاهر والمطالع، ففيه نور من جمال الحضرة ساطع، ولذلك قال ابن الفارض رحمته الله:

عَيْنِي لِغَيْرِ جَمَالِكُمْ لَا تَنْظُرُ وَسِوَاكُمْ فِي خَاطِرِي لَا يَخْطُرُ

وقال الششتري رحمته الله:

انْظُرْ جَمَالِي شَاهِدًا فِى كُلِّ إِنْسَانٍ
كَالْمَاءِ يَجْسُرِي نَسَافِدًا فِى أَسْنِ الْأَغْصَانِ
يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَالزُّهْرُ الْأَوَانُ

وقال صاحبُ العينية:

تَجَلَّى حَبِيبِي فِي مَرَاتِي جَمَالِهِ فَفِي كُلِّ مَرْنِي لِلْحَبِيبِ طَلَائِعُ
فَلَمَّا تَبَدَّى حُسْنُهُ مُتَنَوِّعاً تَسَمَّى بِأَسْمَاءٍ فَهْنُ مَطَالِعُ

فما برز في عالم الشهادة هو من عالم الغيب على التحقيق، فرياض الملكوت فائضة من بحر الجبروت، (كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان)، ولا يعرف هذا ذوقاً إلا أهل البصيرة، الذين وحدوا الله في وجوده، وتخلصوا من الشرك جليبه وخفيه، الذي أشار إليه بقوله:

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ ١٠١ ﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿ ١٠٢ ﴾

قلت: (الجن): مفعول أول لجعلوا، و(شركاء): مفعول ثانٍ، وقَدْ لاسْتَغْطَامُ الْإِشْرَاقِ، أو (شركاء): مفعول أول، و(الله): في موضع المفعول الثاني، و(الجن): بدل من شركاء، وجملة (خلقهم): حال، و(بديع): خبر عن مضمير، أو مبتدأ وجملة (أنى): خبره، وهو من إضافة الصفة إلى مفعولها أى: مبدع السموات، أو إلى فاعلها: أى: بديع سمواته، من بدع؛ إذا كان على نمط عجيب، وشكل فائق، وحسن لائق.

يقول الحق جل جلاله، توبيخاً للمشركين: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ في عبادته، وهم ﴿ الْجِنُّ ﴾ أى: الملائكة؛ لاجتنانهم أى: استتارهم، فعبدوهم واعتقدوا أنهم بنات الله، أو الجن حقيقة، وهم الشياطين؛ لأنهم أطاعوه كما يطاع الله تعالى، أو: عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم، فقد أشركوا مع الله، ﴿ وَ ﴾ الحال أن الله قد ﴿ خَلَقَهُمْ ﴾ أى: الجن أى: عبدوهم وهم مخلوقون، أو الضمير للمشركين، أى: عبدوا الجن، وقد علموا أن الله قد خلقهم دون الجن لعجزه، وليس من يخلق كمن لا يخلق.

﴿ وَخَرَقُوا لَهُ ﴾ أى: اختلقوا وافتروا، أو زوروا برأيهم الفاسد له ﴿ بَنِينَ ﴾ كالنصارى في المسيح، واليهود في عزير، ﴿ وَبَنَاتٍ ﴾ كقول العرب في الملائكة: إنهم بنات الله - تعالى الله عن قولهم - قالوا ذلك ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى: بلا دليل ولا حجة، بل مجرد افتراء وكذب، ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴾ أى: تنزيهاً له، وتعظيم قدره ﴿ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ من أن له ولداً أو شريكاً.

وكيف يكون له الولد أو الشريك، وهو ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ٤. أى: مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه، ولا قانون ينتحيه، والمعنى: أنه تعالى مبدع لقطرى العالم العلوى والسفلى بلا مادة؛ لأنه تعالى منزّه عن الأفعال بالمادة. والوالد عنصر الولد، ومنفصل بانتقال مادته عنه، فكيف يمكن أن يكون له ولد؟ ولذلك قال: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أى: من أين، أو كيف يكون له ولد، ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ يكون منها الولد، فإن انتفاء الصاحبة مستلزم لانتفاء الولد، ضرورة استحالة وجود الولد بلا والدة فى العادة، وانتفاء الصاحبة مما لا ريب فيه، وكيف أيضا يكون له ولد ﴿وَوَلَدٌ﴾ قد ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولدا لخالقه؟ وهو بكل شيء عليم ﴿أى: أحاط بما من شأنه أن يعلم كائناً ما كان، فلا تخفى عليه خافية مما كان، ومما سيكون من الذوات والصفات، ومن جملتها: ما يجوز عليه تعالى وما يستحيل كالولد والشريك.

﴿ذَلِكُمْ﴾ المنعوت بما ذكر من جلائل الصفات، هو ﴿اللَّهُ﴾ المستحق للعبادة خاصة، ﴿رَبُّكُمْ﴾ أى: مالك أمركم لا شريك له أصلاً، ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، مما كان وسيكون، ولا تكرار مع ما قبله؛ لأن المعتبر فيما تقدم خالقيته لما كان فقط، كما تقتضيه صيغة الماضى، بخلاف الوصف يصلح للجميع، وإذا تقرر أنه خالق كل شيء ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾؛ فإن من كان خالقاً لكل شيء، جامعاً لهذه الصفات، هو المستحق للعبادة وحده، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أى: هو متولى أمور جميع عباده ومخلوقاته، التى أنتم من جملتها، فكلوا أمركم إليه، وتوسلوا بعبادته إلى جميع مآربكم الدنيوية والأخرية، فإنه يكفيكم أمرها بقدرته وحفظه.

الإشارة: كل من خضع لمخلوق فى نيل حظ دنيوى، إنسياً أو جنياً، أو أطاعه فى معصية الخالق، فهو مشرك به مع ربه، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١)، فلذلك عمل الصوفية على مجاهدة نفوسهم فى مخالفة الهوى؛ لئلا تميل بهم إلى شيء من السوء، وتحرروا من رق الطمع، وتوجهوا بهمتهم إلى الحق وحده، ليتبرأوا من أنواع الشرك كلها، جليها وخفيها. حفظنا الله بما حفظهم به. آمين.

ثم عرّف بذاته المقدسة، فقال:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٠٣)

يقول الحق جل جلاله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ أى: لا تحيط به، ولا تناله بحقيقته، وعن ابن عباس: (لا تدركه فى الدنيا، وهو يرى فى الآخرة)، ومذهب الأشعرية: أن رؤية الله فى الدنيا جائزة عقلاً، لأن موسى عليه السلام سألها، ولا يسأل موسى ما هو محال، وأحالاته المعتزلة مطلقاً، وتمسكوا بالآية، ولا دليل فيها؛ لأنه ليس الإدراك مطلق الرؤية، ولا النفس فى الآية عامّاً فى الأوقات، فلعله مخصوص ببعض الحالات، ولا فى الأشخاص؛ فإنه فى قوة قولنا: لا كل بصر يدركه، مع أن النفس لا يوجب الامتناع. قاله البيضاوى.

(١) الآية ١١٦ من سورة النساء

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أى: يحيط علمه بها؛ إذ لا تخفى عليه خافية، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصار، ويجوز أن يكون تعليلاً للحُكْمَيْنِ السابقين على طريق اللف، أى: لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف، وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير، فيكون اللطيف مقابلاً للكثيف، لا يدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها. قاله البيضاوى وأبو السعود.

الإشارة: اعلم أن الحق جل جلاله قد تجلى لعباده فى مظاهر الأكوان، لكنه لحكمته وقدرته، قد تجلى بين الضدين، بين الأنوار والأسرار، بين الحس والمعنى، بين مظهر الربوبية وقالب العبودية. فالأنوار ما ظهر من الأوانى، والأسرار ما خفى من المعانى، فالحس ما يدرك بحاسة البصر، والمعنى ما يدرك بالبصيرة. فالحس رداء للمعنى، فمن فتح الله بصيرته استولى نور بصيرته على نور بصره، فأدرك المعانى خلف رقة الأوانى، فلم تحجبه الأوانى عن المعانى، بل تمتحق فى حقه الأوانى، ولا يرى حينئذ إلا المعانى. لذلك قال الحلاج، لما سئل عن المعرفة، قال: (استهلاك الحس فى المعنى)، فإذا فتى العبد عن شهود حسه بشهود معناه، غاب وجوده فى وجود معبوده، فشاهد الحق بالحق. فالعارفون لما فتوا عن أنفسهم، لايقع بصرهم إلا على المعانى، فهم يشاهدون الحق عياناً. ولذلك قال شاعرهم:

مَذَعَرَفْتُ الْإِلَهَ لَمْ أَرْ غَيْرًا وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعٌ

وقال فى الحكيم: «ما حجبك عن الحق وجودٌ موجدٌ معه؛ إذ لا شىء معه، وإنما حجبك توهمٌ موجدٌ معه».

وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أى: الأبصار الحادثة، وإنما تدركه الأبصار القديمة فى مقام القضاء. وقال الورتجى: لا تدركه الأبصار، إلا بأبصار مستفادة، من أبصار جلاله، وكيف يدركه الحدثان؟ ووجود الكون عند ظهور سطوات عظمتهم عدم هـ. أو لا تحيط به، إذ الإحاطة بكنه الربوبية متعذرة. وعلى هذا حمل الآية فى نوازل الأصول، قال: إدراك الهوية ممتنع، وإنما يقع التجلى بصفة من صفاته.

وقال ابن عبد الملك فى شرح مشارق الصغاني، ناقلاً عن المشايخ: إنما يتجلى الله لأهل الجنة، ويرىهم ذاته تعالى، فى حجاب صفاته، لأنهم لا يطيقون أن يروا ذاته بلا حجاب مرتبة من مراتب الصفات. وقال الورتجى: التجلى لا يكون بكنية الذات، ولا بكنية الصفات، وإنما يكون على قدر الطاقات، فيستحيل أن يقال: تجلى كل الهوى لذرة واحدة، وإنما يتجلى لها على قدرها. هـ.

وتتفاوت الناس فى لذة النظر يوم القيامة على قدر معرفتهم فى الدنيا، وتدوم لهم النظرة على قدر استغراقهم هنا، فمن كان هنا محجوباً لا يرى إلا الحس، كان يوم القيامة كذلك، إلا فى وقت مخصوص، يغيبه الحق تعالى

عن حمه، فيشاهد معاني أسرار الربوبية في مظاهر أنوار صفاته. ومن كان هنا مفتوحاً عليه في شهود المعاني، كان يوم القيامة كذلك، لا تغيب عنه مشاهدة الحق ساعة.

قال الغزالي في كتاب الأربعين: إذا ارتفع الحجاب بعد الموت انقلبت المعرفة بعينها مشاهدة. قلت: ومعنى كلامه: أن ما عرفه به هنا من التجليات، صار بعينه هناك مشاهدة؛ لأن المعنى هناك غالب على الحس، بخلاف دار الدنيا، الحس فيها غالب، إلا لمن غاب عنه واستهلكه. ثم قال: ويكون لكل واحد على قدر معرفته، ولذلك تزيد لذة أولياء الله تعالى في النظر على لذة غيرهم، ولذلك يتجلى الله تعالى لأبي بكر خاصة، ويتجلى للناس عامة.

وقال في الإحياء: ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي على درجات متفاوتة، ثم ذكر حديث التجلي لأبي بكر المتقدم. ثم قال: فلا ينبغي أن يظن أن غير أبي بكر، ممن هو دونه، يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر، بل لا يجده، إلا عشر عشره، إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشره، ولما فضل الناس بسر وفر في صدره، فضل لا محالة يتجل أنفرد به.

وقال أيضاً: يتجلى الحق للعبد، تجلياً يكون انكشاف تجليه، بالإضافة إلى ما علمه، كانكشاف تجلي المرئيات بالإضافة إلى ما تخيله - أي: إلى ما وصفه له الواصف. ثم قال: وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية، ثم قال: المعرفة الحاصلة في الدنيا هي التي تستكمل، فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا اختلاف، إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح. وقال أيضاً: وبحر المعرفة لا ساحل له، والإحاطة بكنهه جلاله محال، وكلما كثرت المعرفة وقويت؛ كثر النعيم في الآخرة، وعظم، كما أنه كلما كثر البذر وحسن؛ كثر الزرع وحسن، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا، ولا يزرع إلا في صعيد القلب، ولا حصاد إلا في الآخرة هـ.

قال شيخنا مولاي العربي رحمته الله: بل الرجال زرعوا اليوم وحصدوا اليوم. وفي تفسير الأقليشي لقوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ (١): ليس لهذه الهداية - مادام العبد في الدنيا - نهاية، حتى إذا حصل في جوار الجبار، ونظر إلى وجهه العظيم، كان حظه من النعيم بقدر ما هداه في الدنيا لصراطه المستقيم هـ. وقال في نوادر الأصول: في الحديث: ﴿إن من أهل الجنة من ينظر إلى الله عز وجل غدوة وعشيا﴾. وروى عن معاذ أنه قال: «صنف من أهل الجنة من ينظر إلى الله عز وجل، لا يستر الرب عنهم ولا يحتجب، ثم قال: وذكر أن الرضوان آخر ما ينال أهل الجنة، ولا شيء أكبر منه، وكل عبد من أهل الجنة حظه من الرضوان هناك فيها على قدر جوده بنفسه على الله في الدنيا هـ.

(١) الآية ٦ من سورة الفاتحة.

وقوله تعالى: «وهو اللطيف الخبير»، قال أورتجبي: هو بلطف ذاته ممتنع عن مطالعة خلقه، مع علو شأن علمه وإحاطته بجميعهم، وجوداً وعدمًا، أي: وإنما يرى بنوره، لا بالحواس الخفائية، فإنها تضعف عن مقاومة شعاعه، وتنخس عند انكشاف سبحاته هـ. على نقل الحاشية الفاسية. والله تعالى أعلم.

ولما كان الاطلاع على هذه الأسرار، به تنفتح البصائر، أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ

بِحَفِظٍ ﴿١٠٤﴾

قلت: البصائر: جمع بصيرة، وهي عين القلب، كما أن البصر عين البدن، فالبصيرة ترى المعاني القديمة، والبصر يرى الحسيات الحادثة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي: براهين توحيده، ودلائل معرفته، حاصلة من ربكم، تنفتح بها البصائر، وتبصر بها أنوار قدسه، ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ ﴾ الحق، وآمن به، واستعمل الفكر فيه حتى عرفه، ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ أبصر، ولها نفع، ﴿ وَمَنْ عَمِيَ ﴾ عنها، ولم يرفع بها رأساً، وضل عن الحق، ﴿ فَعَلَيْهَا ﴾ وباله وضرره، ولا يتضرر بها غيره، ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ ﴾ أرقب أعمالكم وأجازيكم، وإنما أنا منذر، والله هو الحفيظ عليكم، يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها.

الإشارة: البصيرة كالبصر، أدنى شيء يقع فيها يضربُ بناظرها، وهي على أقسام: منها ما تكون عمياء، والعياذ بالله، وهي التي فسد ناظرها بفساد الاعتقاد، كبصيرة الكفار ومن قاربهم، ومنها ما تكون مريضة فقط، لا تقاوم شعاع شمس التوحيد الخاص، وهي بصيرة أهل الغفلة، ومنها ما يخف مرضها فيكون لها شعاع، تدرك قرب نور الحق منها؛ وهي بصيرة المتوجهين من العباد والزهاد ونهاية الصالحين.

ومنها ما تكون قريبة البرء والصحة، قد انفتحت، لكنها حيرى؛ لما فاجأها من النور، وهي بصيرة المريدين السائرين من أهل الفناء، ومنها ما تكون صحيحة قوية، قد تمكنت من شهود الأنوار، ورسخت في بحر الأسرار، وهي بصيرة العارفين المتمكنين في مقام البقاء، وقد أشار في الحكم إلى الثلاثة فقال: «شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق لعدمك ولا وجودك، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان».

ونذكر هذه الآيات، سبب لضلal أهل الشقاء وهداية أهل العناية، كما بين ذلك بقوله:

﴿ وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا أَدْرَسَتْ وَلَنُيَبِّئَنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

قلت: تصريف الشيء: إجراؤه على أحوال متعاقبة وجهات مختلفة، ومنه: تصريف الرياح لهبوبها من جهات مختلفة، ولما كانت آيات القرآن تنزل على أنواع مختلفة في أوقات متعاقبة، شبهت بتصريف الرياح على أنحاء مختلفة، (وليقلوا): متعلق بمحذوف، أى: وليقلوا: درست، صرفنا الآيات، واللام للعاقبة، وكذلك: (ولنبينه): المتعلق واحد.

يقول الحق جل جلاله: ومثل ذلك التصريف الذى صرفنا من الآيات، من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ (١) إلى قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (٢). ﴿نُصْرِفُ الْآيَاتِ﴾ فى المستقبل لتكون عاقبة قوم الشقاء بها بتكذيبهم إياها، ﴿وليقلوا﴾ لك: ﴿دارست﴾ (٣) أهل الكتاب، وتعلمت ذلك منهم، وليس بوحى، أو ﴿درست﴾ هذه الأخبار وعفت، وأخبرت بها من إملاء غيرك عليك، كقولهم: أساطير الأولين، وليكون عاقبة قوم آخرين الاهتداء، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿ولنبينه لقوم يعلمون﴾ أى: وليتضح معناه عند قوم آخرين، فيهدتوا به إلى معرفتى وتوحيدي ومحل رضوانى وكرامتى، فالخطاب متحد، والأثر مختلف على حسب السابقة.

الإشارة: ظهور الآيات على يد أهل الخصوصية - كالعلوم الدنية والمواهب الربانية - لا يوجب لهم التصديق لجميع الخلق، فلو أمكن ذلك لكان النبى ﷺ أولى به، بل لا بد من الاختلاف، فقوم قالوا: هذه العلوم... دارس فيها وتعلمها، وقوم قالوا: بل هى من عند الله لا كسب فيها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (٤).

ثم أمر نبيه بالإعراض عن أهل الإنكار، فقال:

﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٧)

يقول الحق جل جلاله: ﴿اتبع ما أوحى إليك من ربك﴾ بالدوام على التمسك به، والاهتداء بهديه، ودم على توحيده، ﴿لا إله إلا هو﴾: فلا تصغ إلى من يعبد معه غيره، ﴿وأعرض عن المشركين﴾، فلا تحتفل بأقوالهم، ولا تلتفت إلى رأيهم، وهذا محكم، أو: أعرض عن عقابهم وقتالهم، وهو منسوخ بآية السيف، ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾: لكن سبقت مشيئته بإشراكهم، ولو أراد إيمانهم لآمَنُوا، وهو حجة على المعتزلة، ﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾: رقيباً، ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ تقوم بأمرهم، وتلجئهم إلى الإيمان؛ ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (٥).

(٢) الآية ١٠٤ من السورة نفسها.

(١) الآية ٩٥ من سورة الأنعام.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (دارست) بآلف، وقرأ ابن عامر ويعقوب (درست) أى: قدمت ولبيت، وقرأ الباقر (درست) أى: حفظت وقرأت.. انظروا إتعاظ فضلاء البشر.

(٥) الآية ٢٣ من سورة فاطر.

(٤) الآية ١١٨ من سورة هود.

الإشارة: الإعراض عن الخلق والاكتفاء بالملك الحق ركن من أركان الطريق، قال الشيخ زروق رحمته الله: أصول الطريقة خمسة أشياء: تقوى الله في السر والعلانية، واتباع الرسول في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرجوع إلى الله في السراء والضراء، والرضا عن الله في القليل والكثير. هـ.

ثم نهى عن التعرض لأصنامهم، فقال:

﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زِينَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَا تَسْبُوا﴾ أصنامهم ﴿الذين﴾ يدعونها آلهة، ويخضعون لها ﴿من دون الله﴾ أي: ولا تذكروا آلهتهم بسوء، ﴿فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا﴾ أي: ظلماً وتجاوزاً عن الحق إلى الباطل، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: على جهالة بالله تعالى، وبما يجب أن يذكر به من التعظيم، روى أنه عليه السلام كان يظعن في آلهتهم، فقالوا: لتنتهين عن آلهتنا أو لنهجون إلهك، فنزلت. وقيل: كان المسلمون يسبون آلهتهم، فنهوا؛ لئلا يكون سبهم سبباً لمسب الله تعالى، واستدل المالكية بهذا على سد الذرائع. قال البيضاوي: وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت لمعصية راجحة وجب تركها، فإن ما يؤدي إلى الشر شر. هـ. وقال ابن العربي: وقاية العرض بترك سنة واجب في الدين. هـ.

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ زِينَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ من الخير والشر، نحملهم على ما سبق لهم توفيقاً أو تخذيلاً، أو يكون مخصوصاً بالشر، أي: زينا لكل أمة من الكفرة عملهم السوء؛ كسب الله تعالى وغيره من الكفر، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الخير فيجازيهم عليه، أو من الشر فيعاقبهم عليه.

الإشارة: العارف الكامل لا ينقص شيئاً من مصنوعات الله، ولا يصغر شيئاً من مقدورات الله، بل يتأدب مع كل شيء؛ لرؤية صنعة الله في كل شيء، وكذلك المرید اللبيب، يتأدب مع كل من ظهر بالخصوصية في زمنه، كان صادقاً أو كاذباً؛ لئلا يؤدي إلى تنقيص شيخه، حين يذكر غيره بنقص أو غرض. وفي الحديث: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ يَسُبُّ وَالِدَيْهِ»، فقالوا: وكيف يسبُّ والديه يا رسول الله؟ قال: يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ الرجل أباه وأمه^(١) أو كما قال عليه السلام.

ثم رد عليهم في اقتراح الآيات، فقال:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

(١) أخرجه البخاري في (الأدب، باب: لا يسب الرجل والديه) ومسلم في (الإيمان، باب: بيان الكبائر) عن عبدالله بن عمرو. ولفظ البخاري: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه».

قلت : (جهد) : مصدر لعامل محذوف، أى: واجتهدوا جهد أيمانهم، وهو حال، أى: وأقسموا جاهدين أيمانهم، ومن قرأ: (أنها) ؛ بالفتح، فهو مفعول يشعركم، أى: وما يدريك أن الآيات إذا جاءت لا يؤمنون، وقيل: (لا): مزيدة، أى: وما يدريك أنهم لا يؤمنون إذا رأوها، وقيل: أن، هنا، بمعنى لعل. ومن قرأ بالكسر فهو استئناف، وتم الكلام فى قوله: (وما يشعركم) أى: وما يشعركم ما يكون منهم، فعلى القراءة بالكسر، يوقف على: (ما يشعركم)، وأما على القراءة بالفتح، فإن كانت أن - مصدرية لم يوقف عليه؛ لأنه عامل فيها، وإن كانت بمعنى: لعل، فأجاز بعض الناس الوقف، ومنعه بعضهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ أى: المشركون، ﴿بِاللَّهِ﴾ واجتهدوا فى أيمانهم، ﴿لئن جاءتهم آية﴾ ظاهرة يشاهدونها، ﴿ليؤمنن بها﴾ ويمن جاء بها، ﴿قل﴾ لهم: ﴿إنما الآيات عند الله﴾ وفى قدرته وإرادته، يظهرها حيث شاء، وليس فى قدرتى منها شيء، ﴿وما يشعركم﴾ أى: وما يدريك أيها المومنون، ﴿أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ بها، لما سبق لهم من الشقاء، وقد كان المؤمنون يتمنون إنزالها طمعاً فى إيمانهم، وفيه تنبيه على أنه تعالى إنما لم ينزلها؛ لعلمه بأنها ﴿إذا جاءت لا يؤمنون﴾ بها. وقيل: الخطاب للمشركين، ويتأتى هذا على كسر هـ، أو على قراءة ابن عامر وحمزة: «لا تؤمنون»؛ بتاء الخطاب، وقرئ: ﴿وما يشعرهم﴾ بالغيبة، فيكون إنكاراً لهم على حلفهم.

ثم ذكر سبب عدم إيمانهم فقال: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ عند نزول الآية، أى: نصرف قلوبهم ونحولها عن الحق، فلا يفقهون بها، ونقلب أبصارهم عن النظر والتفكر، فلا يبصرون بها الحق، فيصرفون عن الإيمان بما أنزل إليك ﴿كما لم يؤمنوا به﴾ أى: بما أنزل من الآيات، ﴿أول مرة ونذرهم فى طغيانهم﴾ أى: فى كفرهم وجحدهم ﴿يعمّهون﴾ أى: يتحIRON، فلا نهديهم هداية المؤمنين.

الإشارة: سألنى بعض العوام، فقال لى: ليس لكم ولا لأصحابكم كرامات تظهر فىمن آذاكم، فقد كان أصحاب سيدى فلان وفلان يظهر الكرامات، وينفذون فى من آذاهم؟! فقلت له: نحن على قدم نبينا ﷺ، أرسله الله رحمة للعالمين، فقد أودى وضرب، فلما خيره ملك الجبال فى أن يطبق عليهم الأخشبين - أى الجبلين - قال: «لا، لعل الله تعالى يخرج منهم من يعبد الله»، وقال حين أكثروا إيذاءه: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»، فالأولياء المحققون: رحمة للعباد، يتحملون آذاهم، ويتوجهون لمن آذاهم فى الدعاء له بالهداية والتوفيق، فهم قوم لا يشقى جليسهم، جالسهم بالإنكار أو بالإقرار، وقد ظهرت الكرامات على بعض الأولياء ولم ينقطع عنهم الإنكار، فإن الإيمان أو التصديق بالنبي أو الولي إنما هو محض هداية من الكبير العلى، كما بين ذلك بقوله:

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَكُ كَكَلِمَةِ الْمَوتِ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾

قلت: (قبلاً): بكسر القاف؛ معاينة، ويضمّنين: جمع [قبيل] (١)، أى: ضمناً، وهو حال.

يقول الحق جل جلاله، فى الرد على المشركين، حين أقسموا: لنن رأوا آية ليؤمنن بها، فقال تعالى: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ تشهد لك بالدعوة كما اقترحوا، ﴿وكلمهم الموتى﴾ كما طلبوا بقولهم: ﴿فأتوا بآبائنا﴾ (٢)، وقالوا: إن قصياً كان شيخ صدق، فابعثه لنا يكلمنا ويشهد لك بما تدعى.

﴿و﴾ لو ﴿حشرنا عليهم﴾ أى: جمعنا عليهم، ﴿كل شيء﴾ من الحيوانات والجمادات، معاينة، أو ضمناً، تشهد لك بالرسالة والدعوة، ﴿ماكانوا ليؤمنوا﴾ بك فى حال من الأحوال، ﴿إلا أن يشاء الله﴾ إيمانهم فيمن لم يسبق له الشقاء، ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ أنهم لو أوتوا بكل آية لم يؤمنوا، فكيف يقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يعلمون؟، فالجهل بهذا المعنى حاصل لأكثرهم، ومطلق الجهل حاصل لجميعهم، أو: ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون، فيتمنون نزول الآية طمعاً فى إيمانهم. قاله البيضاوى.

الإشارة: فى الآية تسكين لقلوب الأولياء الداعين إلى الله، حين يرون الخلق قد حادوا عن باب الله، وتعلقت همهم بالدنيا الدنية، وتشتتت قلوبهم، وضاعت عليهم أعمارهم، فيتأسفون عليها، فإذا تفكروا فى هذه الآية وأمثالها سكنوا وردوا أمر عباد الله إلى مشيئته وإرادته، فلو شاء الله لهدى الناس جميعاً، ولايزالون مختلفين: (ماكانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله). وبالله التوفيق.

ومما تعلقت به المشيئة، وجرت به الحكمة، أنه لا بد أن يبقى للنبي من يحركه إلى ربه، كما أبان ذلك بقوله:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قلت: (شياطين): بدل من (عدو)؛ إذ هو بمعنى الجمع، أو مفعول أول لجعلنا، و(عدواً): مفعول ثان، والضمير فى (فعلوه): للوحى، أو للعداوة، و(غروراً): مفعول له، أو مصدر فى موضع الحال (لتصغى): عطف على غروراً، أو متعلق بمحذوف، أى: فعلنا ذلك لتصغى... إلخ.

يقول الحق جل جلاله، فى تسلية نبيه - عليه الصلاة والسلام -: وكما جعلنا لك أعداء من الكفار، ﴿جعلنا لكل نبي عدواً﴾ من شياطين ﴿الإنس والجن﴾ أى: من مردة الفريقين، وشياطين الإنس أقيح؛ لأنه يأتى فى

(٢) كما جاء فى الآية ٣٦ من سورة الدخان

(١) فى الأصول: قبل.

صورة ناصح، لا يدفع بتعوذ ولا غيره. ﴿يُوحِي﴾ أى: يُوسوس، ﴿بعضهم إلى بعض﴾، فيوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، ثم يوسوس شياطين الإنس إلى من يريد الحق اختباره وابتلاءه، يلقي إليه ذلك الشيطان ﴿زخرف القول﴾ أى: أباطيله، أى: قولاً مزخرفاً مزوّقاً ﴿غرورا﴾ أى: لأجل الغرور، فإن أراد الله خذلان ذلك العبد غره ذلك الشيطان بزخرف ذلك القول فيتبعه، وإن أراد توقيفه وزيادته أيده وعصمه، وكل شيء بقدره وقضائه، ﴿ولو شاء ربك﴾ هدايتهم ما فعلوا ذلك الوحي، أو ما ذكر من المعادة للأنبياء، ﴿فذرهم وما يفترون﴾ على الله من الكفر وغيره، فلا تهتم بشأنهم.

وإنما فعلنا ذلك الإيحاء ﴿لتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ فيفتروا به، ﴿وليرضوه﴾ لأنفسهم، ﴿وليقتربوا ما هم مقتربون﴾ أى: وليكتسبوا من الإثم والكفر ما هم مكتسبون بسبب ذلك الوحي من الجن أو الإنس، وفي الآية دليل لأهل السنة في أن الله خالق الكفر والإيمان، والطاعة والمعصية، فالمعصية خلقها وقدرها، ولم يرضها، ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ (١).

الإشارة: كما جعل الله لكل نبي عدواً من شياطين الإنس والجن؛ جعل للأولياء كذلك؛ تحويشاً لهم إليه، وتطهيراً لهم من البقايا ليصلحوا لحضرته، قال في الحكم: «إنما أجرى الأذى عليهم كي لا تكون ساكنات إليهم، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء». وقال في لطائف المنن: اعلم أن أولياء الله حكمهم في بدايتهم أن يسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا، وتكمل فيهم المزايا، كي لا يساكنوا هذا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد، ومن أذاك فقد أعتقك من رقى إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه، ولذلك قال ﷺ: «من أسدى إليكم نعماً فكافئوه، فإن لم تقدرُوا فادعوا له». كل ذلك ليتخلص القلب من رقى إحسان الخلق، ويتعلق بالملك الحق. هـ.

وقال الشيخ أبو الحسن ﷺ: أذاني إنسان فضقت به ذرعاً، فرأيت يُقال لي: من علامة الصديقية كثرة أعدائها ثم لا يبالي بهم. وقال بعضهم: الصيحة من العدو، سوطٌ من الله يزجر بها القلوب إذا ساكنت غيره، وإلا رقد القلب في ظل العز والجاه، وهو حجاب عن الله تعالى عظيم. هـ.

وقال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل ﷺ: (عداوة العدو حقاً: اشتغالك بمحبة الحبيب حقاً، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو نال مراده منك، وفانتك محبة الحبيب). وقال بعض أشياخ الشعراني في بعض وصاياه له: لا تشتغل قط بمن يؤذيك، واشتغل بالله يرده عنك؛ فإنه هو الذى حركه عليك؛ ليختبر دعواك فى الصدق، وقد غلط فى هذا الأمر خلق كثير، فاشتغلوا بأذى من آذاهم، فدام الأذى مع الإثم، ولو أنهم رجعوا إلى الله لردهم عنهم وكفاهم أمرهم. هـ.

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء.

وهذا كله إنما يكون في البدايات، كما قال الشاذلي رحمته الله: (اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا) .. فإذا تمت أنوارهم وتطهرت من البقايا أسرارهم، حكمهم في العباد، وأذلهم لهم، فيكون العبد المجتبي سيفاً من سيوف الله، ينتصر الله به لنفسه؛ كما نبه على ذلك في لطائف المنن. وذلك من أسرار عدم مشروعية الجهاد من أول الإسلام؛ تشريعاً لما ذكرنا، وتحذيراً من الانتصار للنفس، وعدم تمحض النصر للحق. وعند الرسوخ في اليقين، والأمن من مزاحمة الصديق غيره، وقع الإذن في الجهاد، هذا بالنسبة إلى الصحابة الكرام، وأما النبي ﷺ فكامل من أول نشأته، وإنما ذلك تشريع لغيره، وترفع لرتبته. والله تعالى أعلم.

ولما طلبوا من يحكم بينهم وبينه ﷺ، أنزل الله:

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

قلت: (غير): مفعول، و(حكما): حال، وهو أبلغ من حاكم، ولذلك لا يوصف به غير العادل، و(صدقاً وعدلاً): تمييز، أو حال، أو مفعول له.

يقول الحق جل جلاله: قل يا محمد: ﴿ أفغير الله ﴾ أطلب ﴿ حكماً ﴾ يحكم بيني وبينكم، ويفصل المحق من المبطل، ﴿ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب ﴾ أي: القرآن المعجز، ﴿ مفصلاً ﴾؛ مبيناً، قد بين فيه الحق من الباطل، بحيث انتفى به الالتباس، فهو الحاكم بيني وبينكم، فلا أطلب حاكماً غيره، وفيه تنبيه على أن القرآن بإعجازه مفر عن سائر الآيات. ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ كأخبار اليهود، ﴿ يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾؛ لتصديقه ما عندهم، وموافقه له في كثير من الأخبار، ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ في أنهم يعلمون ذلك، أو في أنه منزل من ربك، والمراد غيره - عليه الصلاة والسلام - معن يطرقه ارتياب، والمعنى: أن الأدلة تعاضدت على صحته، فلا ينبغي لأحد أن يمتري فيه.

﴿ وتمت كلمة ربك ﴾؛ آيات القرآن، بلغت الغاية في التمام والكمال، ﴿ صدقاً وعدلاً ﴾ أي: من جهة الصدق والعدل، صدقاً في الأخبار والمواعيد، وعدلاً في الأقضية والأحكام، فلا أصدق منها فيما أخبرت، ولا أعدل منها فيما حكمت، ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي: لا أحد يقدر أن يبدل منها شيئاً بما هو أصدق وأعدل، ولا أن يحرف شيئاً منها، كما فعل بالتوراة، فهو ضمان من الحق لحفظ القرآن، كما قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١)

(١) الآية ٩ من سورة الحجر.

أو: لا نبي ولا كتاب بعدها ينسخها ويبدل أحكامها، ﴿وهو السميع﴾ لكل ما يقال، ﴿العليم﴾ بكل ما يضمن، فمن أهد أو بدل فالله عليم به.

الإشارة: من قواعد أهل التصوف: الرجوع إلى الله في كل شيء، والاعتماد عليه في كل نازل، والتحاكم إلى الله في كل أمر، إن توقفوا في حكم رجعوا إلى كتاب الله، فإن لم يجدوه نصاً، رجعوا إلى سنة رسول الله، فإن لم يجدوه، استفتوا قلوبهم، وفي الحديث عنه: «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون وأفتوك». وفي بعض الآثار قالوا: يارسول الله؛ أرايت إن اختلفنا بعدك، ولم نجد نصاً في كتاب الله ولا في سنة رسول الله؟ قال: «ردوه إلى صلحائكم، واجعلوه شورى بينهم ولا تتعدوا رأيهم». أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثم نهى عن الركون إلى الجهال، فقال:

﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ (١١٦) **﴿إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾** (١١٧)

قلت: (من يضل): موصولة، أو موصوفة في محل نصب بفعل دل عليه «أعلم»، أي: يعلم من يضل، فإن أفعال التفضيل لا ينصب المفعول به إجماعاً. أو مبتدأ، والخبر: «يضل، على أن (من) استفهامية، والجملة: معلق عنها الفعل المقدر، كقوله تعالى: ﴿لنعلم أي الحزبين أحصى﴾ (١).

يقول الحق جل جلاله لرسوله - عليه الصلاة والسلام - ولمن كان على قدمه: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض﴾، من الكفار أو الجهال أو من اتبع هواه ﴿يضلوك عن﴾ طريق ﴿الله﴾، الموصلة إلى معرفته، وحلول رضوانه، فإن الضال لا يأمر إلا بما هو فيه، مقالاً أو حالاً. والمراد بهم: من لا يقين عندهم، بل ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾، وهو ما استحسنته عقولهم، إما تقليداً، كظنهم أن آباءهم كانوا على الحق، أو ما ابتدعوه برأيهم الفاسد من العقائد الزائفة والآراء الفاسدة، ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ أي: يكذبون على الله فيما ينسبون إليه؛ كاتخاذ الولد، وجعل عبادة الأوثان وصلة إلى الله، وتحليل الميتة وتحريم البحائر، أو يقدرون في عقولهم أنهم على شيء، وكل ذلك عن تخمين وظن لا يقين فيه، ثم قال لنبيه: ﴿إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي: هو عالم بالفريقين، لا يخفى عليه أهل الحق من أهل الباطل.

الإشارة: مخالطة العموم والركون إليهم والمعاملة معهم سموم قاتلة، قال بعض الصوفية: قلت لبعض الأبدال: كيف الطريق إلى التحقيق والوصول إلى الحق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق، فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لا بد لي،

(١) من الآية ١٢ من سورة الكهف.

قال: لا تسمع كلامهم؛ فإن كلامهم قسرة، قلت: لأبد لي، قال: فلا تعاملهم، فإن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة، قلت: أنا بين أظهرهم، لأبد لي من معاملتهم، قال: لا تسكن إليهم؛ فإن السكن إليهم هلكة، قلت: هذا لعله يكون، قال: يا هذا، تنظر إلى اللاعبين، وتسمع إلى كلام الجاهلين، وتعامل البطّانين، وتسكن إلى الهلكى، وتريد أن تجد حلالة المعاملة في قلبك مع الله عز وجل!! هيهات، هذا لا يكون أبدا. هـ.

وفى الخبر المروى عن رسول الله ﷺ: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي ضَعْفُ الْيَقِينِ»^(١). وإنما يكون برؤية أهل الغفلة ومخالطة أرباب البطالة والقسوة، وتربية اليقين وصحته إنما تكتسب بصحبة أهل اليقين واستماع كلامهم، والتودد إليهم وخدمتهم. وفى بعض الأخبار: (تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين)، وفى رواية: «فَإِنِّي أَتَعَلَّمُهُ»، والحاصل: أن الخير كله فى صحبة العارفين الراسخين فى عين اليقين. أو حق اليقين، وما عداهم يجب اعتزالهم، كيفما كانوا، إلا بقصد الوعظ والتذكير، ثم يغيب عنهم، وإلى هذا أشار ابن الفارض رحمته الله بقوله:

تَمَسَّكَ بِأَذْيَالِ الْهَرَى وَاخْلَعْ الْحَيَا وَخَلَّ سَبِيلَ النَّاسِكِينَ وَإِنْ جَلَا

وبالله التوفيق.

وأصل تنوير القلب باليقين والمعرفة: هو أكل الحلال وتجنب الحرام، كما بيّنه الحق تعالى بقوله:

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ١١٨ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿ ١١٩ ﴾ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿ ١٢٠ ﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخِنَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُوَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿ ١٢١ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ عند ذبحه، ولا تتورعوا منه، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾، فإن الإيمان يقتضى استباحة ما أحل الله تعالى، واجتناب ما حرمه، ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أى: ما يمنعكم منه، وأى غرض لكم فى التحرّج عن أكله؟ ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ﴾ فى الكتاب،

(١) ذكره بلخوره السيوطى فى الجامع الصغير، وعزاه للطبرانى فى الصغير والبيهقى فى الشعب، من حديث أبى هريرة، رحمه الله.

أَوْ فَصَّلَ اللَّهُ لَكُمْ ﴿مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مِمَّا لَمْ يَحْرَمْ بِقَوْلِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ...﴾ (الآية^(١))
﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مِمَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ؛ فَإِنَّهُ حَلَالٌ حَالِ الضَّرُورَةِ.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ﴾ بِتَحْلِيلِ الْحَرَامِ وَتَحْرِيمِ الْحَلَالِ ﴿بَاهْوَانِهِمْ﴾ أَيْ: بِمَجْرَدِ أَهْوَانِهِمْ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾
وَلَا دَلِيلٍ، بَلْ بِتَشْهِي أَنْفُسِهِمْ، ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ الْمَجَاوِزِينَ الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ، وَالْحَلَالِ إِلَى الْحَرَامِ،
﴿وَذَرُوا﴾ أَيْ: اتْرَكُوا ﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ أَيْ: سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ، أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْجَوَارِحِ وَالْقُلُوبِ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ
يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ سِرًّا أَوْ عَلَانِيَةً، ﴿سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾؛ يَكْتَسِبُونَ.

وَلَمَّا أَمَرَهُمْ بِأَكْلِ الْحَلَالِ نَهَاَهُمْ عَنِ الْحَرَامِ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، بِأَنْ تَرَكَ التَّسْمِيَةَ
عَلَيْهِ عَمْدًا لِاسْهَوَاءٍ؛ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ^(٢). وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: تَوْكُلُ مطلقًا، لِقَوْلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -:
«ذَبِيحَةُ الْمُسْلِمِ حَلَالٌ وَإِنْ لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ»^(٣)، وَقَالَ أَحْمَدُ وَدَاوُدُ: لَا تَوْكُلُ إِنْ تَرَكَتَ مطلقًا، عَمْدًا
أَوْ سَهْوًا.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: إِنَّمَا جَاءَ الْكَلَامُ فِي سِيَاقِ تَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ وَغَيْرِهَا مِمَّا ذُبِحَ لِلنُّصَبِ، فَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ لَمْ
يَكُنْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وَجوبِ التَّسْمِيَةِ فِي ذَبَائِحِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى عَمُومِهِ كَانَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ. وَقَالَ
عطاء: هَذِهِ الْآيَةُ أَمَرَ بِذِكْرِ اللَّهِ عَلَى الذَّبْحِ وَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ هـ.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أَيْ: الْأَكْلُ مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴿لِفَسْقٍ﴾ أَوْ: وَإِنَّهُ - أَيْ: عَدَمُ ذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ عَلَى الذَّبِيحَةِ،
لِفَسْقٍ وَمِنْ تَزْيِينِ الشَّيَاطِينِ، ﴿إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾؛ لِيُوسَّسُونَ ﴿إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ مِنَ الْكُفَّارِ
﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ بِقَوْلِهِمْ: إِنَّكُمْ تَأْكُلُونَ مَا قَتَلْتُمْ أَنْتُمْ وَجَوَارِحَكُمْ وَتَدْعُونَ مَا قَتَلَ اللَّهُ. وَهَذَا يُؤَيِّدُ أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا لَمْ
يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ هُوَ الْمَيْتَةُ، ﴿وَإِنْ أَطْعَمْتُمُوهُمْ﴾ فِي اسْتِحْلَالِ مَا حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ، ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ مِثْلَهُمْ،
لَأَنَّ مِنْ أَحَلِّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَالْجَوَابُ عَنْ شِبْهَتِهِمْ: أَنَّ الذَّكَاةَ تَطْهِيرُ لَخَبِثِ الْمَيْتَةِ، مَعَ ضَرْبٍ مِنَ التَّعَبُّدِ.

الإِشَارَةُ: لَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ التَّسْمِيَةِ عَلَى الطَّعَامِ أَوْ غَيْرِهِ مَجْرَدُ اللَّفْظِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ حَضُورُ الْمَسْمُومِ، وَهُوَ شَهُودُ
الْمُنْعَمِ فِي تِلْكَ النِّعْمَةِ؛ لِأَنَّ الْوَقْتَ الَّذِي يَغْلِبُ فِيهِ حَظُّ النَّفْسِ، يَنْبَغِي لِلذَّاكِرِ الْمُتَيَقِّظِ أَنْ يَغْلِبَ فِيهِ جَانِبُ الْحَقِّ،

(١) الْآيَةُ ٣ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ.

(٢) فَرَّقَ أَبُو حَنِيفَةَ بَيْنَ الْعَامِدِ وَالنَّاسِي.

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي مَرَاسِيلِهِ (بَابُ فِي الضَّحَايَا وَالذَّبَائِحِ) مِنْ حَدِيثِ الصَّلَاتِ السُّدُوسِيِّ. وَهَذَا الْمُرْسَلُ يَعْضُدُهُ مَا رَوَاهُ الدَّارِقُطْنِيُّ
فِي السُّنَنِ: (الصَّيْدُ وَالذَّبَائِحِ) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: (إِذَا ذُبِحَ الْمُسْلِمُ وَلَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ فَلْيَأْكُلْ، فَإِنَّ الْمُسْلِمَ فِيهِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ).
وَيُؤَيِّدُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَيْضًا مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي: (الصَّيْدِ وَالذَّبَائِحِ، بَابُ ذَبِيحَةِ الْأَعْرَابِ) عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
إِنْ قَوْمًا يَأْتُونَنَا بِاللَّحْمِ لَا نَدْرِي أَذْكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَمْ لَا؟ قَالَ: «سَمَوْا أَنْتُمْ وَكَلَّوْا». قَالَتْ: وَكَانُوا حَدِيثِي عَهْدَ بِالْكَفْرِ. رَاجِعُ تَفْسِيرِ:
الْقُرْطُبِيُّ وَابْنُ كَثِيرٍ.

فيكون تناوله لتلك النعمة بالله من الله إلى الله، وهذا هو المقصود من الأمر بذكر اسم الله، لأن الاسم عين المسمى في التحقيق، فإن كان الأكل أو غيره مما شرعت التسمية في أوله، على هذا التيقظ، فهو طائع لله وعابد له في أكله وشربه، وسائر أحواله، وإن كان غافلاً عن هذا، فأكله فسق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفَاسِقٌ﴾، سبب ذلك: غلبة الغفلة. والغفلة من وحى الشيطان، ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾. أو: ولا تنظروا إلى الأشياء بعين الفرق والغفلة، بل اذكروا اسم الله عليها وكلوها بفكرتكم ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ﴾ عليه من الأشياء؛ فإنه غفلة وفسق في الشهود، وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾؛ هو ما ظهر على الجوارح من الذنوب، وقوله: ﴿وَبَاطِنِهِ﴾؛ هو ما كمن في السرائر من العيوب. والله تعالى أعلم.

ثم حذر من الشرك والكفر، فقال:

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُينَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٢)

قلت: (كَمَنْ): موصولة، (مَثَلُهُ): مبتدأ، و(في الظلمات): خبره، وقيل: مثل - هنا - زائدة، أي: كمن هو في الظلمات، و(ليس بخارج): حال من الضمير في الخبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا﴾ (١) بالكفر والجهل ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بالإيمان والعلم، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ في قلبه أي: نور الإيمان والعلم، ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾، فيذكرهم بالله، ويدلهم على الله، ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ﴾ غريق ﴿في الظلمات﴾ في ظلمة الكفر والجهل والتقليد والذنوب، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ أي: لا يفارق ضلاله بحال. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما زين الإيمان لهؤلاء ﴿زُينَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قال البيضاوي: مثل به من هداه الله تعالى وأنقذه من الضلال، وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل، ثم قال: والآية نزلت في حمزة وأبي جهل، وقيل: في عمار وعمر وأبي جهل. هـ. ولفظها أعم، وفي الآية من أنواع البيان: الطباق؛ في قوله: ﴿مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾.

الإشارة: الروح تكون أولاً على القطرة التي فطرها الله عليها، من العلم والإقرار بالربوبية، فإذا بلغت قد تطرأ عليها مواتات، ثم تحيا من كل واحدة على حسب المشيئة، فقد تموت بالكفر، ثم تحيا بالإيمان، وقد تموت بالذنوب والجرائم، ثم تحيا بالتوبة، وقد تموت بالحظوظ والشهوات، ثم تحيا بالزهد والورع والرياضة، وقد تموت بالغفلة والبطالة ثم تحيا باليقظة والإنابة، وقد تموت برؤية الحس وسجن الأكوان والهيكل، ثم تحيا برؤية المعاني وخروج الفكرة إلى فضاء الشهود والعيان، ثم لا موت بعد هذا إلى أبد الأبد. والله تعالى أعلم.

(١) قرأ نافع: «ميتاً، بالتشديد، وقرأ الآخرون: «ميتاً، بالتخفيف.

وسبب هذه الموتات: صحبة الغافلين؛ الموتى، وطاعتهم حتى يمكروا بصاحبهم، كما قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمَّا كُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢٣)

قلت: (جعلنا) بمعنى صيرنا، يتعدى إلى مفعولين، و(مجرميها): مفعول أول، مؤخر، و(أكابر): مفعول ثان، وفيه ضعف من جهة الصناعة؛ لأن أكابر جمع أكبر، وهو من أفعال التفضيل، فلا يستعمل إلا بالإضافة، أو مقروناً بمن. قاله ابن جزى. قلت: ويجاب بأنه لم يقصد به المفاضلة، وإنما المراد مطلق الوصف، أى: جعلناهم كبراء، فلا يلزم إفراده ولا اقترانه بمن. فتأمل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وكذلك﴾ أى: كما جعلنا فى مكة أكابر مجرميها، ليكروا فيها بأهلها، ﴿جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها﴾ أى: مجرميها أكابر، ﴿ليكروا فيها﴾ بمن فيها، فيمكروا بالناس فيتبعوهم على ذلك المكر، لأنهم أكابر تصعب مخالفتهم، فيحملونهم على الكفر والعصيان، ويخذلونهم عن الإسلام والإيمان، ﴿وما يكرون إلا بأنفسهم﴾؛ لأن وبال مكرهم راجع إليهم، ﴿وما يشعرون﴾ بذلك.

الإشارة: إذا أراد الله بقوم خيراً جعل الخير فى أكابرهم، فيجعل أمراءهم عدولاً حُلَمَاء، وعلماءهم زهاداً أعفَاء، وأغنياءهم رحماء أسخياء، وصلحاءهم قانعين أغنياء، وإذا أراد بهم شراً جعل الشر فى كبرائهم، فيجعل أمراءهم فجاراً يحكمون بالهوى، وعلماءهم حراساً جامعين للدنيا، وأغنياءهم أشقاء قاسية قلوبهم، وصلحاءهم طماعين فى الناس، منتظرين لما فى أيديهم، فبهؤلاء يصلح الدين إذا صلحوا، ويفسد إذا فسدوا، وفى ذلك يقول ابن المبارك رحمه الله:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ وَأَخْبَارُ سُوءٍ وَرَهْبَانُهَا

وقد تقدم تمامه فى تفسير سورة البقرة^(١). وبالله التوفيق.

ثم بين حال تلك الأكابر المجرمين، فقال:

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٤)

قلت (حيث): مفعول بفعل مقدر، لا بأعلم؛ لأن أفعال التفضيل لا ينصب المفعول به، أى: يعلم حيث يجعل رسالته، أى: يعلم المكان الذى يصلح للرسالة، إلا إن أول أفعال تفضيل فيه، فينتصب المفعول به، ويحتمل أن

(١) راجع إشارة الآية (١٥٩) وما بعدها من سورة البقرة.

يكون هذا منه، قال أبو حيان: ويحتمل أن تكون حيث على بابها من الظرفية المجازية، ويضمنُ أعلم معنى يتعدى إلى الظرف، والتقدير: الله أنفذ علما حيث يجعل رسالته. انظر المحشى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ﴾ أى: هؤلاء المجرمين الأكابر، ﴿آيَةٌ﴾ نزلت على نبي، ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَا ﴾ حتى نُؤْتَى ﴾ من النبوة ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلُ اللَّهِ ﴾، فنكون أنبياء مثلهم، والقائل لهذه المقالة أبو جهل، قال: تزاحمنا: بنو عبد مناف الشرف مع بنى هاشم، حتى إذا صرنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يوحى إليه، والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه، فنزلت الآية. وقيل: فى الوليد بن المغيرة، قال: أنا أولى بالنبوة من محمد^(١). فرد الله على من قال ذلك بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾. فعلم أن محمداً ﷺ أهل للرسالة، فخصه بها، وعلم أنهم ليسوا بأهل لها، فحرّمهم إياها، فإن النبوة ليست بمجرد النسب والمال، وإنما هى بفضائل نفسانية يَخُصُّ الله بها من يشاء من عباده، بل بمحض الفضل والكرم، فيجتبى لرسالته من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذى فيه يضعها.

ثم ذكر وعيد المنكرين، فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى: ذل وحقارة يوم القيامة، بعد تكبرهم وارتفاعهم فى الدنيا. روى أنهم يُبعثون فى صورة الذُرِّ، يطوهم الناس فى المَحْشَرِ. ﴿وَيُصِيبُهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ أى: بسبب مكرهم، أوجزاء مكرهم. كما تدين تدان.

الإشارة: ما حَرَّمَ النَّاسَ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا خَصْلَتَانِ: التَّكْبَرُ وَالْحَسَدُ، فمن طهر قلبه من الحسد، وتواضع لكل أحد، نال الرفعة والشرف عند الله فى الدنيا والآخرة، ولا يضع الله سر الخصوصية إلا فى قلب طاهر متواضع، يحط صاحبه رأسه لأقدام الرجال، ويذل نفسه لأهل الصفاء والكمال، وفى ذلك يقول الشاعر:

يَا مَنْ يَلُومُ خَمَرَةَ الْحَبَّةِ	قُولُوا لَهُ عَنِّي هِيَ حَلَالٌ
وَمَنْ يُرِدُّ يُسْقَى مِنْهَا غِبًّا	خَدَّ يَضَعُ لِأَقْدَامِ الرِّجَالِ
رَأْسِي حَطَطْتُ بِكُلِّ شَيْبَةٍ	هُمُ الْمَوَالِي سَقَوْنِي زَلَالٌ

فكما أن الحق تعالى علم حيث يجعل رسالته، علم حيث يجعل سر ولايته، وهى النفوس المتواضعة المتطهرة من رذائل النفوس؛ كالحسد والكبر وسائر الأوصاف المذمومة.

(١) ذكره البغوى فى التفسير عن مقاتل.

ثم ذكر علامة الهداية والشقاء، فقال:

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

قلت: من قرأ «حرجا»؛ بالفتح، فهو مصدر وصف به للمبالغة، ومن قرأ بالكسر، فوصف، أى: شديد الضيق، ومن قرأ «يصعد»؛ بالشد والقصر، فأصله: يتصعد، أدغم التاء فى الصاد، ومن قرأ: «يصاعد»؛ فأصله: يتصاعد، فأدغم أيضا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ ﴾ أى: يعرفه طريق الحق ويوفقه للإيمان ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ ﴾ أى: يوسعه ﴿ لِلْإِسْلَامِ ﴾، فيتسع له، ويقبله، ويغتنبط به، ويبتهج، فرحاً وسروراً. والشرح: كناية عن جعل النفس قابلة للحق، مهياًة لحلوله فيها، مصفاة عما يمنعها منه، وإليه أشار النبي ﷺ، حين سئل عنه، فقال: «نور يقذفه الله فى قلب المؤمن، فينشرح له ويلفح، قالوا: هل لذلك أمارة يعرف بها؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول» (١).

ثم ذكر ضده، فقال: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾؛ شديد الضيق، بحيث ينبو عن قبول الحق، فلا يدخله الإيمان، ولا ينشرح صدره له، بل يفر منه، ويثقل عليه ﴿ كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ أى: يتكلف الصعود فيه. شبهه - على وجه المبالغة - بمن يحاول ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء غاية فيما يبعد عن الاستطاعة، تنبيهاً على أن الإيمان تمتع عليه كما يمتنع عليه الصعود إلى السماء، ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى: كما يضيق صدر الكافر ويبعد قلبه عن الحق، ﴿ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ ﴾ أى: العذاب والخذلان، ﴿ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، ووضع الظاهر موضع المضمحل للتعليل.

﴿ وهذا ﴾ البيان الذى جاء به القرآن، أو ما سبق من التوفيق والخذلان، ﴿ صِرَاطُ رَبِّكَ ﴾ أى: الطريق الذى ارتضاه، إن قلنا: الإشارة للبيان، أو عادته وطريقه الذى اقتضته حكمته، إن قلنا ما سبق من التوفيق والخذلان، حال كونه ﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾ لا عوج فيه، أو عادلاً مطرداً لا جور فيه، ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ ﴾ أى: بيناها ﴿ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴾ فيعلمون أن الفاعل هو الله وحده، وأن كل ما يحدث من خير وشر، أو إيمان وكفر، بقضائه وخلقه، فإنه عالم بأفعال العباد، حكيم عادل فيما يفعل بهم من تقريب أو إبعاد.

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٣٧٧/٣/٢) وابن جرير فى تفسير الآية، والحاكم فى المستدرک (١١/٤)، وسكت عنه وتعقبه الذهبى. من حديث ابن مسعود موصولاً. وأخرجه مرسلاً من حديث أبى جعفر: ابن جرير فى التفسير، وابن المبارك فى الزهد/ ١٠٦ والبيهقى فى الأسماء/ ١٥٦.

الإشارة: فمن يرد الله أن يهديه لسر الخصوصية ونور الولاية يشرح صدره للدخول في طريقها، ويرفقه لبذل نفسه وروحه في تحصيلها، ويصبره على حمل لأوائها^(١)، وينهضه إلى السير في ميدانها، بعد أن يسقطه على شيخ كامل عارف بطريقها، فيحققه بخصوصيته، ويطلعه على سر ولايته، حتى يلقي القيادة إليه بكليته، فلا يزال يسايره حتى يقوله له: ها أنت وريك. ومن يرد أن يصله عنها يجعل صدره ضيقاً عن قبولها، حرجاً عن الدخول فيها، حتى يثقل عليه حمل أعبائها، أو ينكر وجود أهلها، كذلك يجعل الله رجس حجابيه على الذين لا يؤمنون بطريق الخصوص، فإنه طريق مستقيم يوصل إلى حضرة النعيم في الدنيا والآخرة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما أعد لأهل التوفيق، فقال:

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ التي هي الجنة. والسلام اسم الحق تعالى، وأضافها إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من المكاره، أو دار التحية؛ ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾^(٢)، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ذخيرة لهم عنده حين يقدمون عليه، لا يعلم كنهها غيره، أو في ضمانه وكفالاته، ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أي: مولاهم وناصرهم في الدارين، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب أعمالهم، أي: تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة، فيحفظهم في الدنيا، هم وذريتهم، ويحفظهم في الآخرة كذلك.

الإشارة: من هداه الله لطريق الخصوصية، واستعمله في الوصول إليها، ووصله إلى من يسيره إليها، فقد دخل دار السلام قبل موته، فله جنتان؛ جنة المعارف وجنة الزخارف، لمن دخل جنة المعارف لم يشق إلى جنة الزخارف^(٣)، لأن الله تولاه وأغناه عما سواه.

ثم ذكر ما أعد لأهل الخذلان، فقال:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

(٢) من الآية ١٠ من سورة يونس.

(١) أي: شديتها.

(٣) ودبت لو أن الشيخ المفسر - رحمه الله - ترك هذه العبارة المشعرة بدرنية ما أطلق عليه جنة الزخارف. وهي الدار التي سماها الله عز وجل دار السلام، وفيها يتحقق للمؤمن رؤية النبي ﷺ وفوق هذا: رؤية الله تعالى. فكيف لا يشفق المؤمن إلى هذه الجنة؟

قلت: (خالدين): حال مقدرة من الكاف، والعامل فيه: «مثواكم»، إن جعل مصدرا، أو معنى الإضافة، إن جعل مكاناً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نحشرهم﴾ (١) أي: الثقلين، ﴿جميعاً﴾ ونقول: ﴿يا معشر الجن﴾ أي: الشياطين ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ أي: من إغوائهم وإضلالهم، أو استكثرتم منهم بأن جعلتموهم في أتباعكم، فحشروا معكم، ﴿وقال أولياؤهم من الإنس﴾ الذين أطاعوهم في الكفر: ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أي: انتفع الإنس بالجن، بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها، وانتفع الجن بالإنس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم، وقيل: استمتع الإنس بهم أنهم كانوا يعوذون بهم في المفاز وعند المخاوف، كان الرجل إذا نزل وادياً يقول: أعود بصاحب هذا الوادي، يعنى كبير الجن، واستمتعهم بالإنس: اعترفهم بأنهم يقدرون على إجارته، ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ وهو الموت أو البعث والحشر، وهو اعتراف بما فعلوا من طاعة الشياطين واتباع الهوى، وتكذيب البعث، وتحسر على حالهم، وإظهار للاستكانة والضعف. أقرأوا بذنبهم لعله ينفعهم.

﴿قال النار مشواكم﴾: منزلكم، ﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾؛ إلا أوقات، ينتقلون فيها من النار إلى الزمهرير، وقيل: ليس المراد بالاستثناء هنا الإخراج، وإنما هو على وجه الأدب مع الله وإسناد الأمور إليه. وسيأتى في الإشارة تكميله إن شاء الله، ﴿إن ربك حكيم﴾ في أفعاله، ﴿عليم﴾ بأعمال الثقلين.

﴿وكذلك﴾ أي: كما ولينا الشياطين على الكفرة، ﴿نؤلي بعض الظالمين بعضاً﴾ أي: نكل بعضهم إلى بعض، أو نجعل بعضاً يتولى بعض فيقربهم، أو: أولياءهم وقرناءهم في العذاب، كما كانوا قرناء في الدنيا، وذلك التولى والتسليط ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر والمعاصي.

الإشارة: ليست الآية خاصة بالكفار، بل كل من عرق الناس عن طريق الخصوص، واستكثر من العموم؛ بأن أبقاهم في حزيه، يقال له: يا معشر أهل الرياسة قد استكثرتم من العموم، فيقول أهل اليمين من العموم: ربنا استمتع بعضنا ببعض فتبعناهم في الوقوف مع الحظوظ والعوائد، وتمتعوا بتكثير سوادهم بنا وتنعيش رياستهم، مع ما يلحقهم من الارتفاق من قبلنا، فيقول الحق تعالى: نار القطيعة والحجاب مثواكم خالدين فيها، إلا وقت الرؤية مع عوام الخلق، وهذه عادته تعالى: يولي بعض الغافلين بعضاً بسبب غفلتهم.

وفى قوله تعالى: ﴿إلا ما شاء الله﴾ - إرشاد إلى استعمال الأدب، ورد الأمور كلها إلى رب الأرباب، وعدم التحكيم على غيب مشيئته وعلمه، وقوفاً مع ظاهر الوعد أو الوعيد، فالأكابر لا يقفون مع وعد ولا وعيد، (١) قرأ حفص (يحشرهم) بالياء، وقرأ الباقون (نحشرهم) بالنون.

كقول عيسى عليه السلام: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)، وكقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ (٢) الآية، وكقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣)، وكقول شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ (٤) وكاستغفار نبينا ﷺ للمنافقين قبل نزول النهي، وبعد نزوله، ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً...﴾ (٥) الآية. وكقوله، يوم بدر: «إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ لَنْ تَعْبُدَ»، مع تقدم الوعد بالنصر، وكخوف موسى بعد قوله: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ﴾ (٦) الآية.

ومنه: خوف الأكابر بعد تأمينهم؛ لأن ظاهر الوعد والوعيد لا يقضى على باطن المشينة والعلم، ومثله يجرى في سورة هود في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ (٧)، وفي سورة يوسف: ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ (٨) بالتخفيف، وغير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة، وانظر الورتجبي. فقد انفرد بمقالة، بعد حكاية اتفاق مذاهب المسلمين جميعاً على عدم غفران الشرك، ولكن قول عيسى عليه السلام: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ...﴾ الآية، يشير إلى ما أشار إليه ابن عباس وابن مسعود في قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قال (٩): تؤمر النار أن تأكلهم وتفتنيهم، ثم يجدد خلقهم، ويرجى من كرم الله ولطفه إدخالهم بعد ذلك الجنة، قال: وهذا مرجو، ليس بمعتقد أهل السنة. هـ.

قال في الحاشية: وهو يرجع عند التحقيق إلى طرح الأسباب وعدم الوقوف معها، نظراً إلى أن الحق تعالى لا يتقيد في وعيد ولا وعد، فمن غلبه النظر إليه، سرى إليه الرجاء في عين التخريف، كما أنه يسرى الخوف في عين الرجاء، لكونه اقتطع من الوقوف مع خصوص وصف، ولما كانت تلك الحالة هي عين الأدب اللائق بالعبودية مع الله تعالى أرشد تعالى إليها بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، وهو حال أهل الحقيقة، والوقوف مع خصوص الوعد أو الوعيد حال أهل الشريعة. انتهى ببعض اختصار. وقد رد الثعالبي هذه المقالة التي حكاها الورتجبي.

ثم وبخهم على عدم الإيمان بالرسول، فقال:

﴿يَمَعْشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ الَّذِينَ آتَاكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُوكُم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَٰهَدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَٰهَدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾

(٣) الآية ٣٦ من سورة إبراهيم.
(٦) الآية ٤٦ من سورة طه.
(٩) أي: الورتجبي.

(٢) الآية ٨٠ من سورة الأنعام.
(٥) الآية ٨٠ من سورة التوبة.
(٨) من الآية ١١٠

(١) الآية ١١٨ من سورة المائدة.
(٤) الآية ٨٩ من سورة الأعراف.
(٧) من الآية ١٠٧.

وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

قلت: (ذلك أن لم يكن ربك) : خبر عن مضمر، وأن على حذف لام العلة، أى: الأمر ذلك؛ لأجل أن لم يكن ربك متصفاً بالظلم .

يقول الحق جل جلاله، يوم القيامة فى توبيخ الكفار: ﴿ يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ أى: من مجموعكم، أو رسل الجن: نذرههم الذين يبلغون لهم شريعة الإنس؛ إذ ليس فى الجن رسل على المشهور. وروى الطبرى من طريق الضحاك بن مزاحم إثبات ذلك، واحتج بأن الله تعالى أخبر أن من الجن والإنس رسلاً أرسلوا إليهم، يعنى ظاهر هذه الآية. وأجاب الجمهور بأن معنى الآية: أن رسل الإنس رسل من قبل الله إليهم، ورسل الجن يبلغون كلام رسل الإنس إليهم، ولهذا قال قائلهم: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ الآية (١)، فالرسالة إلى الجن خاصة بنبينا محمد ﷺ، أى: مع الإنس.

حال كون الرسل الذين أتوكم ﴿ يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ يعنى يوم القيامة، قالوا فى الجواب: ﴿ شهدنا على أنفسنا ﴾ بالكفر والعصيان، وهو اعتراف منهم بما فعلوا.

قال تعالى: ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾؛ ألهمتهم بزخرفها عن النظر والتفكر، ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾، وهذا ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات الفانية، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية، حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد؛ تحذيراً للسامعين وإرشاداً لهم. قاله البيضاوى.

ثم ذكر حكمة إرسال الرسل فقال: ﴿ ذلك ﴾ الإرسال حكمته لـ ﴿ أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ أى: إنما أرسل الرسل لئلا يكون ظالماً لهم بإهلاكهم بسبب ظلم فعلوه، وهم غافلون عن الإنذار، بحيث لم ينذره أحد، أو: لم يكن مهلك القرى ملتبساً بظلم حيث أهلكتهم من غير إنذار، ففاعل الظلم، على الأول: القرى، وعلى الثانى: الله تعالى، على تقدير إهلاكهم من غير إنذار. والأول يتمشى على مذهب المعتزلة، والثانى على مذهب أهل السنة. انظر ابن جزى.

(١) الآية ٣٠ من سورة الأحقاف.

﴿ولكلٍّ﴾ من الإنس والجن ﴿درجات﴾ مراتب، ﴿فما عملوا﴾ من أجل أعمالهم بالخير والشر، فهم متفاوتون في النعيم والعذاب، وظاهر الآية: أن الجن يثابون ويعاقبون؛ لأنهم مكلفون، وهو المشهور، واختلف: هل يدخلون الجنة أم لا؟ فروى الطبري وابن أبي حاتم عن أبي الدرداء موقوفاً: أنهم يكونون ثراباً كسائر الحيوانات، وروى عن أبي حنيفة مثله، وذهب الجمهور - وهو قول الأئمة الثلاثة والأوزاعي وأبي يوسف، وغيرهم؛ أنهم يثابون على الطاعة ويدخلون الجنة. ثم اختلفوا، هل يدخلون مدخل الإنس، وهو الأكثر، أو يكونون في ريع الجنة، وهو عن مالك وطائفة، أو أنهم أصحاب الأعراف، أو التوقف عن الجواب؟ في هذا أربعة أقوال، والله تعالى أعلم بغيبه. ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ فيخفى عليه عمل أو قدر ما يستحق عليه من ثواب أو عقاب.

﴿وربك الغني﴾ عن العباد وعبادتهم، ﴿ذو الرحمة﴾ يترحم عليهم بالتكليف، تكميلاً، ويمهلهم على المعاصي حلاً، وليس له حاجة في طاعة ولا معصية، ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أيها العصاة، ﴿ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾ من الخلق، ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾؛ فأنشأكم قرناً بعد قرن، لكنه أبقاكم رحمة بكم، ﴿إن ما توعدون﴾ من البعث وما بعده، ﴿لآت﴾ لا محالة، ﴿وما أنتم بمعجزين﴾؛ تعجزون قدرة الله الطالب لكم بالبعث والحساب.

الإشارة: كما أن الحق تعالى لم يعذب الكفار إلا بعد إرسال الرسل، كذلك لا يعاقب أهل الإصرار إلا بعد بعث الأطباء؛ وهم أهل التربية النبوية، فكل من لم يصحبهم ويتقّد إليهم مات مصراً على الكبائر - أي: كبائر القلوب - وهو لا يشعر، فيلقى الله بقلب سقيم، فيعاقبه الحق تعالى على عدم صحبتهم، ومعانفته له: بعده عن مشاهدته وعن مقام المقربين، فإذا رأى مقام المقربين وقربهم من الحضرة، قال: غرتنا الحياة الدنيا وزخارفها، وجاهها ورياستها، وشهد على نفسه أنه كان غافلاً.

فحكمة وجود الأولياء في كل قرن؛ لتقوم الحجة على أهل الغفلة، فإذا وقع البعد لقوم لم يكن الحق ظالماً لهم، فالدرجات على حسب المقامات، والمقامات على حسب الأعمال، وأعمال القلوب هي التي تقرب إلى حضرة علام الغيوب، بها يقع القرب، وبالخلو عنها يقع البعد. وعليها دلت الأولياء بعد الأنبياء، لأن الأنبياء جاءوا بالشرعية الظاهرة والحقيقة الباطنة، فمن رآه أهلاً لسر الحقيقة دلوه عليها، فكان من المقربين، ومن رآه ضعيفاً عنها دلوه على الشريعة، فكان من أصحاب اليمين. وبالله التوفيق.

ثم أمره بتهديد قريش وتخويفهم، فقال:

﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

قلت: «من تكون»: إما مفعول (تعلمون)، أو مبتدأ، وهى إما موصولة أو استفهامية، والمكانة: التمكن أو الجهة، يقال: مكان ومكانة كمقام ومقامة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿يَا قَوْمِ اَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أَي: تَمَكَّنْكُمْ مِنْ هَوَاكُم وَشَهْوَاتِكُم الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا، أَوْ عَلَى نَاحِيَّتِكُمْ وَجَهَتِكُم الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا مِنَ الْكُفْرِ وَالْهَوَى، وَالْمَعْنَى: اثْبَتُوا عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِدَاوَةِ، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ مِنَ الْمَصَابِرَةِ وَالثَّبَاتِ عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ. وَالتَّهْدِيدُ بِصِغَةِ الْأَمْرِ مَبَالِغَةٌ فِي الْوَعِيدِ، كَأَنَّ الَّذِي يَهْدِدُهُ يَرِيدُ تَعْذِيبَهُ لَا مُحَالَةً، فَيَحْمِلُهُ بِالْأَمْرِ عَلَى مَا يَفْضِي بِهِ إِلَيْهِ، وَتَسْجِيلُ بَأْسِ الْمُهْدَدِ لَا يَأْتِي مِنْهُ إِلَّا الشَّرُّ، كَالْمَأْمُورِ بِهِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ أَنْ يَنْقُضِي عَنْهُ. قَالَ الْبَيْضاوِيُّ.

ثم صرح بالتهديد فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أَي: أَيُّنَا تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ الْحَسَنَى الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ لَهَا هَذِهِ الدَّارَ، أَي: وَهِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ، أَوْ: فَسَوْفَ تَعْرِفُونَ الَّذِي تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ سَكْنَى الدَّارِ الْآخِرَةِ وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ، أَوْ: مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ هَذِهِ الدَّارِ بِالنَّصْرِ وَالظُّهُورِ عَلَى الْأَدْيَانِ - أَنَا أَوْ أَنْتُمْ، وَفِيهِ إِنْصَافٌ فِي الْمَقَالَ حَالِ الْإِنْذَارِ، وَحَسَنُ الْأَدَبِ، وَتَنْبِيهُ عَلَى وَثُوقِ الْمُنْذَرِ لِأَنَّهُ مُحَقَّقٌ. قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّهُ﴾، أَي: الْأَمْرُ وَالشَّأْنُ، ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، وَالظُّلْمُ أَعَمُّ مِنَ الْكُفْرِ، وَلِذَلِكَ وَضَعَ مَوْضِعَهُ؛ لِعُمُومِهِ.

الإشارة: إذا انكب الناس على الدنيا، وأخذتهم الغفلة، وغلب عليهم الهوى، ثم وقع الوعظ والتذكير من أهل الإنذار، فقابلوهم بالإبعاد والإنكار، يقول لهم المذكر والواعظ: ﴿يَا قَوْمِ اَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ...﴾ الآية.

ثم ذكر جهالة الجاهلية وحمقهم، فقال:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿١٣٦﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَجَعَلُوا﴾ أَي: مَشْرَكُوا الْعَرَبَ، ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أَي: خَلَقَ، ﴿مِنْ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾، وَهُمْ حَيٌّ مِنْ خَوْلَانِ، يُقَالُ لَهُمْ: الْأَدِيمُ، كَانُوا يَجْعَلُونَ مِنْ زُرْعِهِمْ وَثَمَارِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ نَصِيبًا، ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ أَي: بِدَعْوَاهُمْ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ، وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ الزَّعْمُ فِي الْكُذْبِ، ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾.

رُوى أنهم كانوا يُعينون شيئاً من حرث أو نتاج إلى الله، فيصرفونه إلى الضيفان والمساكين، وشيئاً منها إلى آلهتهم، فينفقونه على سدنتهم - أى: خدامهم، والقيام بأصنامهم، ويذبحون عندها، ثم إذا رأوا ما عيّنوا لله أزكى وأكثر، بدلوه لآلهتهم وقالوا: الله غنى عنه، وإذا رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها؛ حباً لآلهتهم، وإذا هبت ريح فحملت شيئاً من الذى لله إلى الذى للأصنام أقروه، وإن حملت شيئاً من الذى للأصنام إلى الذى لله ردوه، وإذا أصابتهم سنة، أكلوا نصيب الله وتحاموا نصيب شركائهم، تعظيماً لها.

وفى قوله: ﴿مَّا ذَرَأُ﴾ : تنبيه على فرط جهالتهم، فإنهم أشركوا الخالق فى خلقه، جماداً لا يقدر على شيء، ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكى له، وفى قوله: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ : تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه، ولم يأمرهم الله تعالى به. «سأء» أى: قبح، ﴿مَآيَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا الذى اخترعوه من عند أنفسهم.

الإشارة: مما ينخرط فى سلك الآية، وتجر ذيلها عليه، ما يفعله بعض الناس من التساهل فى حقوق الله الواجبة، والمصارعة إلى حقوق الناس التى ليست بواجبة عليه، فترى بعض العوام يقدمون مد أبى العباس السبتي، ويتساهل فى الزكاة، وترى بعض الناس يسارع إلى إطعام الطعام وقرى الأضياف، وهو لا يفي زكاته. وبعضهم يجعلون للصالحين شيئاً من أموالهم لتصلح وتلمو ويعتنى بشأنها، وقد لا يعتنى بزكاته ولا يخرجها، وهذا كله شعبة من فعل أهل الشرك، وعلامة اتباع الهوى. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نوعاً آخر من كفرهم، فقال:

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِّكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ
شُرَكَاءُهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ
وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ١٣٧

قلت: قرأ الجمهور: «زَيْن»؛ بالبناء للفاعل ونصب قتل، على أنه مفعول به، وخفض (أولادهم) بالإضافة، ورفع (شركاؤهم)؛ فاعل (زَيْن)، فالشركاء على هذه القراءة هم الذين زينوا القتل، وقرأ ابن عامر: بضم الزاى؛ على البناء للمفعول، ورفع «قتل»؛ على النياحة عن الفاعل، ونصب «أولادهم» على أنه مفعول بقتل، وخفض «شركائهم» بالإضافة إلى قتل، إضافة المصدر إلى فاعله، أى: زين لهم أن يقتل شركاؤهم أولادهم، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بأولادهم، وهو معمول للمصدر، وهو جائز فى العربية، قال ابن مالك فى الألفية:

فَصَلَ مَضَافٌ شَبَهَ فِعْلٍ مَا نَصَبَ مَفْعُولًا أَوْ ظَرْفًا أَجْزَ، وَلَمْ يَعْ

وهذا من فصل المفعول، فهو جائز فى السعة؛ خلافاً للزمخشري ومن تبعه، وقد شنع عليه الشاطبى فى حرز الأمانى.

يقول الحق جل جلاله : ومثل ذلك التزيين الذى وقع لهم فى الحرث والأنعام ، ﴿ زَيْنٌ لَكثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ ﴾ ؛ زين لهم ذلك شركاؤهم من الجن ، أو من السدنة ، وحملوهم عليه ، خوفاً من الجوع أو من العار ، وكانوا يقتلون البنات دون البنين ، زيدوا لهم ذلك ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ أى : ليهلكوهم بالإغواء ، ﴿ وَلِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ أى : ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل ، أو ما وجب عليهم أن يتدينوا بـ ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أى : ما فعل المشركون مازين لهم ، أو ما فعل الشركاء التزيين ، أو الفريقان جميع ذلك ، ﴿ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أى : اتركهم مع افتراءهم ، أو : والذى يفترونه من الإفك ، وهذا قبل الأمر بالسيف ، ثم نسخ به .

الإشارة : مما يخطر فى سلك الآية : إهانة البنات وتعظيم البنين ، وقد نهى الشارع - عليه الصلاة والسلام - عن تخصيص الذكور بالوصية ، وقال للذى أراد أن يفعله : « لا تشهدنى على جور » ، وهنا إشارة أرق من هذا ، وهو أن يراد بالأولاد ما تنتجه الفكرة الصافية من العلوم والمواهب ، وقتلها : إهمال الفكرة عن استخراجها حتى ضاعت عليه ، والذى زين له ذلك هو شرك القلب ، واشتغاله برسوم الفرق ، حتى تعطلت الفكرة ، وماتت تلك العلوم من قلبه ، وقع ذلك التزيين بأهل الفرق ليسقطوهم عن درجة المقربين ؛ أهل العلوم الدنية والأسرار الربانية ، وليلبسوا عليهم دينهم بالخواطر والشكوك ، والأوهام ، ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً .

ثم ذكر أيضاً نوعاً آخر من جهالتهم ، فقال :

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمٌ وَحَرَّتْ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ ﴿ ١٣٨ ﴾

قلت : (حِجْرٌ) : فعل ، بمعنى مفعول ، يستوى فيه الواحد والكثير ، والمذكر والمؤنث ، ومعناه : حرام ، و (افتراء) : حال ، أو مفعول من أجله ، أو مصدر .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَقَالُوا ﴾ أيضاً : ﴿ هَذِهِ ﴾ الأشياء التى جعلوها لأصنامهم ، وهى ﴿ أَنْعَمٌ وَحَرَّتْ ﴾ ، وهى ﴿ حِجْرٌ ﴾ أى : حرام محجر ، ﴿ لَا يَطْعَمُهَا ﴾ ؛ لا يأكلها ﴿ إِلَّا مَنْ نَشَاءُ ﴾ ، وهم خدام الأوثان وسدنتها ، والرجال دون النساء . قالوا ذلك ﴿ بِزَعْمِهِمْ ﴾ وافتراءهم من غير حجة ، ﴿ وَأَنْعَمٌ ﴾ أخرى ﴿ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ ؛ وهى البحائر والسوائب والحوامى ، ﴿ وَأَنْعَمٌ ﴾ أخرى ﴿ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ فى الذبح ، وإنما يذكرون عليها اسم آلهتهم ؛ ﴿ افْتِرَاءٌ ﴾ على الله ، لأنهم قسموا أموالهم على هذه القسمة ، ونسبوا ذلك إلى الله ؛ افتراء وكذباً ، ﴿ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى : بسببه فيعذبهم عليه .

الإشارة: ما عاب الله على المشركين إلا الشرك والتحكم على الله، فالواجب على من أراد السلامة أن يوحد ربه، وينفرد بكليته إليه، ويخلص أعماله لله، ويصرف أمواله في مرضاة الله، ويقف في أموره كلها عند ما حدد له الله، ويبينه رسول الله؛ يكون من أولياء الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر جهالة أخرى لهم، فقال:

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّيتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝١٣٩﴾

قلت: «خالصة»: خبر لـ (ما)، وأنه؛ حملاً على المعنى، لأن (ما) واقعة على الأجنة، وذكر (محرم)؛ حملاً على لفظ «ما»، ويحتمل أن تكون التاء للمبالغة، ومن قرأ: (تكن)؛ بالتأنيث، فالمراد: الأجنة، ومن قرأ بالتذكير فراعى لفظ «ما».

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا ما﴾ استقر ﴿في بطون هذه الأنعام﴾، يعني: البحائر والسوائب، من الأجنة، ﴿خالصة لذكورنا﴾ لا يشاركون فيه، ﴿ومحرم على أزواجنا﴾ أي: نساتنا، يعني: أن ما يولد للبحائر والسوائب، قالوا هو حلال لذكورهم دون نسايتهم، هذا إن ولد حياً، ﴿وإن يكن ميتة﴾؛ بأن ولد ميتاً ﴿فهم فيه شركاء﴾؛ فالذكور والإناث سواء، ﴿سيجزئهم وصفهم﴾ أي: سيجزيهم على ما وصفوا وافتدوا على الله من الكذب في التحليل والتحريم، فهو كقوله: ﴿وتصف ألسنتهم الكذب﴾^(١)، ﴿إنه حكيم﴾ في صلعه، ﴿عليم﴾ بخلقه؛ فيجزي كلاً على قدر جرمه.

الإشارة: اعلم أن جيفة الدنيا اشترك النساء مع الرجال فيها، لقوله تعالى: ﴿وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء﴾، والزهد في النساء قليل بالنسبة إلى الرجال، واعلم أيضاً أن الحق تعالى يجازي عبده جزاء موافقاً لوصفه، فإن كان وصفه التعظيم لكل شيء عظمه الله، ومن كان وصفه التصغير صغره الله، ومن كان وصفه الإحسان أحسن الله إليه، ومن كان وصفه الإساءة أساء الله إليه، ومن كان وصفه الفرق فرقه الله، ومن كان وصفه الجمع جمعه الله، وهكذا: كما تدين تدان، كما تقابل الأشياء تقابلك، قال تعالى: ﴿سيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم﴾.

ثم شنع عليهم قتل الأولاد، فقال:

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۝١٤٠﴾

قلت: (سفها): حال أو مصدر، وكذلك: (افتراء).

(١) من الآية ٦٢ من سورة النحل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم﴾ ؛ يعلى: العرب الذين كانوا يقتلون بداتهم مخافة السبى أو الفقر، «بغير علم» ولا دليل؛ لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله رازق أولادهم كما يرزقهم، وليسوا هم الرازقين لهم، ﴿وحرّموا ما رزقهم الله﴾ من البحائر والسوانب ونحوهما؛ ﴿افتراء على الله﴾ من عدد أنفسهم، ﴿قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ إلى الحق والصواب.

الإشارة: قد خسر الذين ضيعوا قلوبهم فلم تنتج لهم شيئاً من أبنكار الحقائق وأسرار العلوم، بل اشتغلوا بالسفه من القول والفعل، بغير علم ولا بصيرة نافذة، وحرّموا ما رزقهم الله من العلوم والأسرار، لو طهروا قلوبهم، وخرّبوا ظواهرهم وخرّقوا عوائدهم، لكنهم حكموا على فعل ذلك بالتحريم، تجمدوا على علم الرسوم وحفظ المروءة، والمروءة إنما هي التقوى والدين، كما قال الإمام مالك رحمته الله، قد ضلوا عن طريق الوصول، وما كانوا مهتدين إلى طريق الخصوص، ما داموا على ما هم عليه من زى اللصوص.

ثم بين أن الأشياء كلها لله، ليس لأحد فيها شيء حتى يحل منها أو يحرم، فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ
وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتُ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ
حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

قلت: (مختلفاً): حال مقدرة؛ لأنه لم يكن كذلك عند الإنشاء، والضمير في «أكله»: يعود على النخل، والزرع مقبس عليه، أو للجميع؛ على تقدير: كل واحد منهما.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذي أنشأ﴾ أى: خلق ﴿جنان﴾ ؛ بساتين مشتملة على كروم - أى: دوالي - ﴿معروشات﴾ أى: مرفوعة بالعرشان والدعائم، ﴿وغير معروشات﴾ أى: مبسطة على وجه الأرض، قيل: المعروشات: ما غرسه الناس في العمران، وغير المعروشات: ما أنبتته في الجبال والبرارى.

﴿و﴾ أنشأ ﴿النخل والزرع مختلفاً أكله﴾ أى: ثمره الذي يؤكل منه، واختلافه في اللون والطعم والرائحة والحجم والهيئة والكيفية، وذلك دليل على عظمة القادر المريد، ﴿و﴾ أنشأ ﴿الزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه﴾ أى: تتشابه بعض أفرادهما في اللون والطعم، ولا يتشابه بعضهما. ﴿كلوا من ثمره﴾ أى: من ثمر كل واحد منهما، ﴿إذا أثمر﴾ وإن لم يطب، قيل: فائدة الأمر بالأكل: رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق الله منه قبل الطيب، أى: قبل أن تجب زكاته، وأما إذا طاب فلا بد من التخييص (١).

(١) خريص النخلة والكرمة يخرصها خرصاً: إذا حزر ما عليها من الرطب تمراً، ومن العنب زبيباً، فهو من الخرص أى: الظن؛ لأن الحزر إنما هو تقدير بظن. انظر النهاية (مادة: خرص).

﴿وَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ ؛ يريد: ما كان يتصدق به يوم الحصاد، لا الزكاة المقدرة؛ لأنها فرصت بالمدينة، وكان ذلك واجباً ثم نسخ بالعشر. وقيل: الزكاة حقيقة، والآية مدنية، وقيل: مكية، ولم يعين قدرها إلا بالمدينة، والأمر بإتيانها يوم الحصاد؛ ليهتم به حينئذ، حتى لا يؤخر عن وقت الأداء، خلاف ما يفعله العامة من خزينها مع ماله، حتى يدفعها في نوائب المخزن^(١)، وليعلم أن الوجوب بالإفراک والطيب، لا بالتصفية، ولذلك شرع التخريض، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بصرفها في غير محلها، ولا تتعدوا ما أمرتم به فتجعلوا ما أنشأ الله للأصنام، أو: لا تسرفوا في التصديق بالكل، كقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾^(٢)، ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أى: لا يرضى فعلهم.

الإشارة: وهو الذى أنشأ جنات المعارف لمن خرق عوائده، معروشات بشهود أسرار الجبروت، وغير معروشات بشهود أنوار الملكوت، أو معروشات بشهود المعاني مع الأواني، وغير معروشات بشهود الأواني فقط، أو معروشات بشهود المؤثر والأثر، وغير معروشات بشهود المؤثر فقط، وكلها ترجع لمعنى واحد، والمعروش أرفع من غيره وأكمل، والأول: مقام البقاء والصحو، والثانى: مقام الفناء والسكر، والنخل والزرع: الحقيقة والشرعية على اختلاف علومهما، والزيتون والرمان: الأعمال والأحوال، متفقة وغير متفقة، وثمره: حلاوة الشهود، فليأكل منها المرید إذا طاب وقته، ولا تسرفوا فى الأحوال، إنه لا يحب المسرفين.

ثم ذكر إنشاء الأنعام، فقال:

﴿وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ كُلُوا مِنْ مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَحْنُ نَحْكُمُ فِيكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

قلت: (حمولة وفرشاة): عطف على جنات، و«ثمانية أزواج»: بدل من حمولة، و(من الضأن اثنين): بدل من

ثمانية.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الإسراء.

(١) أى: جامع الضرائب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأَنْشَأَ آيضًا ﴿۱﴾ مِنَ الْأَنْعَامِ ﴿۲﴾ أَنْعَامًا ﴿۳﴾ حَمُولَةً ﴿۴﴾ مَا يَحْمِلُ الْأَثْقَالَ، كَالْكِبَارِ مِنْهَا، ﴿۵﴾ وَفَرَشًا ﴿۶﴾ مَا لَا يَحْمِلُ، كَالصِّغَارِ لَدُنُوهَا مِنَ الْأَرْضِ. أَوْ حَمُولَةً لِلْإِبِلِ، وَفَرَشًا لِلْغَنَمِ، لِأَنَّهَا تَفْرَشُ لِلذَّبْحِ، وَتَفْرَشُ مَا يَنْسَجُ مِنْ صَوْفِهَا، ﴿۷﴾ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴿۸﴾ أَيْ: كُلُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ مِنْهَا، ﴿۹﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿۱۰﴾ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ، ﴿۱۱﴾ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿۱۲﴾؛ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ.

ثم فصلها فقال: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴿۱﴾ ذَكَرٌ وَأُنْثَىٰ مِنْ كُلِّ صَنْفٍ، وَالصَّنْفُ: مَامَعُهُ آخَرُ مِنْ جِنْسِهِ يَزَاوِجُهُ، ثُمَّ بَيَّنَّهَا فَقَالَ: ﴿مِنْ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ﴿۲﴾ ذَكَرٌ وَأُنْثَىٰ؛ كَبِشٌ وَنَعْجَةٌ، ﴿۳﴾ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴿۴﴾؛ التَّيْسُ وَهُوَ الذَّكَرُ، وَالْعَنْزُ وَهِيَ الْأُنْثَىٰ، ﴿۵﴾ قُلْ ﴿۶﴾ لَهُمْ ﴿۷﴾ الْذَكَرَيْنِ ﴿۸﴾ أَيْ: ذَكَرُ الضَّأْنِ وَالْمَعْزِ، ﴿۹﴾ حَرَّمَ أُمُّ الْأَثْنَيْنِ ﴿۱۰﴾ مِنْهُمَا؟ ﴿۱۱﴾ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَثْنَيْنِ ﴿۱۲﴾ مِنَ الْأَجْنَةِ، ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَىٰ؟ ﴿۱۳﴾ نَبْشُونِي بِعِلْمٍ ﴿۱۴﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ حَرَّمَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، ﴿۱۵﴾ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿۱۶﴾ فِي دَعْوَى التَّحْرِيمِ عَلَيْهِ.

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ ﴿۱﴾ ذَكَرٌ وَأُنْثَىٰ، ﴿۲﴾ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴿۳﴾ كَذَلِكَ. ﴿۴﴾ قُلْ الْذَكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأَثْنَيْنِ ﴿۵﴾ أَمْ حَرَّمَ مَا ﴿۶﴾ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَثْنَيْنِ ﴿۷﴾ مِنَ الْجَنِينِ مُطْلَقًا؟ وَهَذَا تَقْسِيمٌ عَلَى الْكُفَّارِ حَتَّى يَتَّبِينَ كَذِبَهُمْ عَلَى اللَّهِ، وَتَوْبِيخٌ لَهُمْ، حَيْثُ حَرَّمُوا بَعْضَ الذُّكُورِ مَرَّةً وَبَعْضَ الْإِنَاثِ مَرَّةً، فَأُلْزِمَهُمْ تَحْرِيمَ جَمِيعِ الذُّكُورِ، إِنْ كَانَ عِلَّةُ التَّحْرِيمِ وَصْفُ الذُّكُورَةِ، أَوْ تَحْرِيمُ جَمِيعِ الْإِنَاثِ، إِنْ كَانَتْ الْعِلَّةُ الْأُنُوَّةُ، أَوْ تَحْرِيمُ الْجَمِيعِ إِنْ كَانَ الْمَحْرَمُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْأَرْحَامُ، وَلَا وَجْهَ لِلتَّخْصِيسِ، فَالِاسْتِفْهَامُ لِلإِنْكَارِ، وَأَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ ﴿۱﴾ حَاضِرِينَ حِينَ ﴿۲﴾ وُصِّدَكُمْ اللَّهُ بِهَذَا ﴿۳﴾ التَّحْرِيمِ، وَلَا طَرِيقَ لَكُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ هَذَا إِلَّا الْمَشَاهِدَةُ وَالسَّمَاعُ، وَلَيْسَ لَكُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ مُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿۱﴾؛ فَنَسَبَ إِلَيْهِ تَحْرِيمَ مَا لَمْ يَحْرَمْ، وَالْمَرَادُ: كِبَرَاؤُهُمُ الْأَوَائِلَ كَعَمْرَوِ بْنِ لَحْيٍ وَأَمْثَالِهِ، أَيْ: لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، ﴿۲﴾ لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿۳﴾ إِلَى مَرَاشِدِهِمْ، أَوْ إِلَى مَا يَنْفَعُهُمْ.

الإشارة: وَمِنَ الْأَحْوَالِ مَا تَحْمِلُ صَاحِبُهَا إِلَى مَقَامِ الْحَرِيَّةِ، بِشُهُودِ الرِّبَوِيَّةِ، فَيُغْلِبُ عَلَيْهِ الْعِزُّ وَالِاسْتِظْهَارُ، وَمِنْهَا مَا تَحْمِلُهُ إِلَى مَقَامِ الْعِبُودِيَّةِ، فَيُغْلِبُ عَلَيْهِ الذُّلُّ وَالْإِنْكَسَارُ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «حَمُولَةٌ وَفَرَشًا»، فَلْيَتَمَتَّعِ الْمُرِيدُ بِمَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ مِنْهُمَا، وَلَا يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَيَتَعَدَّى طَوْرَهُ، وَلَا يَعْرِفْ قُدْرَهُ.

وهذه الأحوال ثمانية أنواع: أربعة سفلية تناسب العبودية، وأربعة علوية تناسب الربوبية. فالأربعة السفلية: الذل، والفقر، والعجز، والضعف. والأربعة العلوية: العز، والغنى، والقدرة، والقوة. فمن أراد التعلق بهذه الأوصاف فلينادِ مِنْ كُوَّةِ الذُّلِّ: يَا عَزِيزُ مِنْ لِلذَّلِيلِ سِوَاكَ؟، وَمِنْ كُوَّةِ الْفَقْرِ: يَا غَنِيٌّ مِنَ لِلْفَقِيرِ سِوَاكَ؟، وَمِنْ كُوَّةِ الْعِزِّ: يَا قَدِيرُ مِنَ لِلْعَاجِزِ سِوَاكَ؟، وَمِنْ كُوَّةِ الضَّعْفِ: يَا قَوِيٌّ مِنَ لِلضَّعِيفِ سِوَاكَ؟، يَرِ الْإِجَابَةَ طَوْعَ يَدِيهِ، وَمَنْ أَرَادَ التَّحَقُّقَ بِهَا، فَلْيَتَحَقَّقْ بِذَلِكَ يَمْدَهُ بَعْزُهُ، وَلْيَتَحَقَّقْ بِفَقْرِهِ يَمْدَهُ بَغْنَاهُ، وَلْيَتَحَقَّقْ بِعِزِّهِ يَمْدَهُ بِقُدْرَتِهِ، وَلْيَتَحَقَّقْ بِضَعْفِهِ يَمْدَهُ بِقُوَّتِهِ، «تَحَقَّقْ بِوَصْفِكَ يَمْدَكَ بِوَصْفِهِ»، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

ثم بين ما حرم عليهم ليقفوا عنده، فقال:

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٤٥﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ لا أجِدُ فيما أُوحي إلي ﴾ في القرآن أو مطلق الوحي، ﴿ محرماً ﴾ أى: طعاماً محرماً، ﴿ على طاعم يطعمه ﴾، أو يطعم منه غيره، ﴿ إلا أن يكون ﴾ الطعام ﴿ ميتة ﴾، وفى قراءة بالقاء؛ لتأنيث الخبر، ﴿ أو ﴾ يكون ﴿ دماً مسفوحاً ﴾ أى: مصبوحاً كدم المنحر، ﴿ أو لحم خنزير فإنه رجس ﴾ أى: خبيث، قيل: إنه يورث عدم الغيرة بالخاصية ﴿ أو ﴾ يكون ﴿ فسقاً ﴾، من صفته: ﴿ أهلاً لغير الله به ﴾ أى: ذبح لغير الله، وذكر عليه اسم الصنم، وإنما سمي فسقاً؛ لتوغله فى الفسق.

والآية تقتضى حصر المحرمات، فيما ذكر، وقد جاء فى السنة تحريم أشياء لم تذكر هنا، كالحوم الحمر الإنسية والكلاب، وغيرها، فذهب قوم إلى أن السنة نسخت هذا الحصر. وذهب آخرون إلى أن الآية وردت على سبب، فلا تقتضى الحصر، وذهب آخرون إلى أن ما عدا ما ذكر: مكروه.

وقال البيضاوى: والآية مُحكمة؛ لأنها تدل على أنه لم يجد فيما أُوحي إليه إلى تلك الغاية محرماً غير هذه، ولا ينافى ورود التحريم فى شيء آخر، فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد، ولا على حل الأشياء غيرها، إلا مع الاستصحاب^(١) هـ.

ثم استثنى المضطر، فقال: ﴿ فمن اضطر ﴾ إلى تناول شيء من ذلك، ﴿ غير باغ ﴾ على مضطر مثله، ﴿ ولا عاد ﴾ أى: متجاوز قدر الضرورة، ﴿ فإن ربك غفور رحيم ﴾ لا يؤاخذ.

الإشارة: الأحوال كلها تنقوت منها الروح، إلا ما كان غير مباح فى الشرع، فلا سير فيه، والمراد بالأحوال: خرق عوائدها، بكل ما يثقل عليها، وأما ما كان محرماً فى الشرع فلا بركة فى تناوله؛ لأنه رجس، وأجازه بعض الصوفية محتجاً بقضية لص الحمام، وفيه مقال، فمن اضطر إلى تناوله، لغلبة حال عليه، غير قاصد لمخالفة الشرع، فإن الله غفور رحيم، وعليه حمل بعضهم قصة لص الحمام^(٢). والله تعالى أعلم.

(١) الاستصحاب - اصطلاحاً: هو الحكم بثبوت أمر فى الزمن الثانى، بناء على ثبوته فى الزمان الأول. (التعريفات/ ٤٤).

(٢) راجع قصة لص الحمام فى التعليق على إشارة الآية ٢٦٧ من سورة البقرة.

ثم ذكر ما حرم على بنى إسرائيل، فقال:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

قلت: الحوايا هي الأمعاء، أى: المصارين التى فيها البعر، وتسمى المباعر، جمع حوية، فعيلة، فوزنها على هذا: فعائل، فصنع بها ما صنع بهراوا، وقيل: جمع حارية، فوزنها: فواعل، كقوارب، وهو عطف على ما فى قوله: ﴿إلا ما حملت﴾.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾؛ ماله أصبع، كالإبل والأوز والنعام، وغيرها من الحيوان، الذى هو غير منفرج الأصابع وله ظفر، وقيل: كل ذى مخلب وحافر، وسمى الحافر ظفراً؛ مجازاً

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ كالذروب وشحوم الكلى، ﴿إلا ما حملت ظُهُورُهُمَا﴾ أى: إلا ما علق من الشحم بظهور البقر والغنم، فهو حلال عليهم، لكنهم اليوم لا يأكلونه، حدثنى شيخى الفقيه الجنوى أنه سأل بعض أئمه: هل هو حرام فى كتابكم؟ فقال له: لا، لكنهم قاسوه سداً للذريعة. هـ. فلما شددوا شدد الله عليهم، ﴿أو الحوايا﴾ أى: ما احتوت عليه الأمعاء والحشوة مما يتحوى فى البطن من الشحوم، فهو حلال عليهم ﴿أو ما اختلط بعظم﴾ فى جميع الجسد، فإنه حلال عليهم، لكنهم شددوا فحرموا الجميع عقوبة من الله ﴿ذلك﴾ التحريم جزاء ﴿جزيناهم﴾ به بسبب بغْيهم، أى: ظلمهم، ﴿وإننا لصادقون﴾ فيما أخبرنا به من التحريم، وفى ذلك تعريض بكذب من حرم غير ما حرم الله.

الإشارة: يؤخذ من الآية أن الذنوب والمعاصى تضيق على العبد لذائذ متعته، وتقتصر عليه طيب رزق بشريته، وتضيق عليه أيضاً حلاوة المعاملة فى قلبه، ولذة الشهود فى روحه وسره، لقوله تعالى: ﴿ذلك جزينهم ببغيهم﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (١)، وقال فى شأن القلب: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ (٢)، أى: نوراً يفرق بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (٣) أى: علماً لدنيا، فالمعصية كلها تبعد العبد من الحضرة، إن لم يتب، والطاعة كلها تقرب من الحضرة. والتنعيم إنما هو على قدر القرب، ونقصانه على قدر البعد. والله تعالى أعلم.

(١) الآية ٩٦ من سورة الأعراف (٢) الآية ٢٩ من سورة الأنفال.

(٣) من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

ولما كانت المعصية توجب تعجيل العقوبة أخبر تعالى عن سعة حلمه، فقال:

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١٤٧)
 يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ يا محمد، ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم: ﴿ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ يمهلكم على التكذيب، فلا تغتروا بإمهاله؛ فإنه يمهّل ولا يهمل. ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ حين ينزل بهم، أو ذو رحمة واسعة على المطيعين، وذو بأس شديد على المجرمين، فأقام مقامه: ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾، لتضمنه التوبيخ على إنزال البأس عليهم، مع الدلالة على أنه لا زب لا يمكن رده. قاله البيضاوي. وفي ابن عطية: ولكن لا تغتروا بسعة رحمته، فإن له بأساً لا يرد عن القوم المجرمين. هـ.

الإشارة: يؤخذ من تقديم الرحمة الواسعة على البأس الشديد أن جانب الرجاء أقوى من جانب الخوف؛ لأن حسن الظن بالله مطلوب من العبد على كل حال، لأن الرجاء وحسن الظن يستوجبان محبة العبد وإحاشه إلى سيده بخلاف الخوف، وهذا مذهب الصوفية: أن تغليب الرجاء هو الأفضل في كل وقت، ومذهب الفقهاء أن حال الصحة ينبغي تغليب الخوف لينزجر عن العصيان، وحال المرض يغلب الرجاء؛ إذ لا ينفع حينئذ، فالصوفية يرون أن العبد معزول عن الفعل، فليس له قدرة على فعل ولا ترك. وإنما ينظر ما تفعل به القدرة، فهو كحال المستشرف على الموت. والفقهاء يرون أن العبد له كسب واختيار. والله تعالى أعلم.

ولا ينفع الاحتجاج بالقدر على كلا المذهبين، كما قال تعالى:

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (١٥٠)
 قلت: (هلم) اسم فعل، وهو عند البصريين بسيط، وعند الكوفيين مركب. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ في الاحتجاج لأنفسهم: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ عدم شركنا ﴿ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ﴾ أشرك ﴿ آبَاؤُنَا، وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ من البحائر وغيرها، فلو لم نكن على حق مرضى عند الله ما أمهلنا ولا تركنا عليه؛ فإمهاله لنا وتركه لنا على ما نحن فيه دليل على أنه أراد منا.

والجواب عن شبهتهم: أنه خلاف ما أنزل الله على جميع رسله، والحق تعالى لم يتركهم على ذلك، بل بعث لهم الرسل يكلفهم بالخروج عنه، والإرادة خلاف التكليف، وأيضاً: قولهم هذا لم يصدر منهم على وجه الاعتذار؛ وإنما صدر منهم على وجه المخاصمة والاحتجاج. ولا يصح الاحتجاج بالقدر. والحاصل أنهم تمسكوا بالحقيقة ورفضوا الشريعة، وهو كفر وزندقة، إذ لا بد من الجمع بين الحقيقة في الباطن، والتمسك بما جاءت به الرسل من الشريعة في الظاهر، وإلا فهو على باطل.

ولذلك ردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ الرسل، فتمسكوا بالحقيقة الظلمانية، ﴿حتى ذاقوا بأسنا﴾ أى: عذابنا الذى أنزلناه عليهم بتكذيبهم ﴿قل﴾ لهم: ﴿هل عندكم من علم﴾ يدل على أن الله أمركم بالشرك، وتحريم ما أحل، وأنه رضى ذلك لكم، ﴿فتخرجوه﴾ أى: فتظهروه ﴿لنا﴾، بل ﴿إن تبعون﴾ فى ذلك ﴿إلا الظن﴾ ولا تحقيق عندكم، ﴿وإن أنتم إلا تخرصون﴾؛ تكذبون على الله تعالى، وفيه دليل على أن الظن لا يكفى فى العقائد.

﴿قل﴾ لهم: ﴿فله الحجة﴾ على عباده، ﴿البالغة﴾، حيث بعث الرسل مبشرين ومنذرين، وأمروا بتوحيد الله وطاعته، فكل من خالفهم قامت الحجة عليه، هذا باعتبار التشريع الظاهر، وأما باعتبار باطن الحقيقة، فالأمور كلها بيد الله؛ يضل من يشاء بعدله، ويهتدى من يشاء بفضله، ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ ولكن شاء هداية قوم وضلال آخرين، ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ (١) فقول المشركين: ﴿لو شاء الله...﴾ الخ، حق فى نفسه، لكنهم لم يعذروا؛ لإهمالهم الشريعة.

﴿قل هلم﴾ أى: أحضروا، ﴿شهداءكم﴾ أى: كبراءكم وأئمتكم، ﴿الذين يشهدون أن الله حرم هذا﴾، استحضرهم ليلزمهم الحجة، ويظهر بانقطاعهم ضلالهم، وألاً متمسك لهم فى ذلك. ثم قال لنبيه - عليه الصلاة والسلام -: ﴿فإن شهدوا﴾ بشيء من ذلك، ﴿فلا تشهد معهم﴾ أى: لا تصدقهم وبين لهم فسادهم؛ ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآيتنا﴾، والأصل أن يقول: ولا تتبع أهواءهم، فوضع الظاهر موضع المضمرة، للدلالة على أن مكذب الآية متبع للهوى لا غير، وأن متبع الحق لا يكون إلا مصداقاً لها. ﴿و﴾ تتبع أيضاً ﴿الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾؛ كعبدة الأوثان، ﴿وهم بربهم يعدلون﴾؛ يجعلون له عديلاً ومثيلاً.

الإشارة: اعلم أن الحق جل جلاله كلف عباده فى هذه الدار، بالقيام بوظيفتين: الشريعة والحقيقة، الشريعة محلها الظواهر، والحقيقة محلها البواطن، الشريعة تقتضى التكليف، والحقيقة تقتضى التعريف، الشريعة شهود الحكمة، والحقيقة شهود القدرة. وجعل الشريعة رداء الحقيقة ولباساً لها، ثم جعل سبحانه فى القلب عينين، وتسمى

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء.

البصيرة، إحداهما تنظر للحكمة فتقوم بالشرائع، والأخرى تنظر للقدرة فتقوم بالحقائق. فقوم فتحوا عين الحقيقة وأعموا عين الشريعة، وهم أهل الكفر والزندقة، ولذلك قالوا: ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾، وقوم فتحوا عين الشريعة وأهملوا عين الحقيقة، وهم عوام المسلمين من أهل اليمين، فلذلك طال خصمهم للمقادير الأزلية مع إقرارهم بها، فإن أنكروها فقد عميت بصيرتهم.

وقوم أحبهم الله، ففتح لهم عين الحقيقة، فأسندوا الأفعال كلها إلى الله ولم يروا معه سواه، فتأدبوا في الباطن مع الأشياء كلها، وفتح لهم عين الشريعة فقاموا بوظائف العبودية على المنهاج الشرعى، وهم الأولياء العارفين بالله، فمن تمسك بالحقائق العلمية دون الشرائع كان زنديقا، ومن تمسك بالشرائع دون الحقائق كان فاسقا، ومن تمسك بهما كان صديقا، فمن رام التمسك بالشرائع، ولم تسغه الأقدار، فإن كان عن سكر وجذب فهو معذور، وإن كان عن كسل فهو مخذول، وإن كان عن إنكار لها فهو مطرود معدود من حزب الشيطان، والعياذ بالله.

ثم بين لهم ما حرم عليهم، فقال:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْمِيزَانُ بِالْقِسْطِ لَأَنْكَلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

قلت: (تعالوا): أمر من تعالى، وأصله: أن يقوله من كان في علو لمن كان في سفلى، فأتسع فيه بالتعميم في كل أمر بالقدوم، و(الأتشركوا): فيه تأويلات؛ أحدها: أن تكون مفسرة لاموضع لها، و(لا): ناهية جازمة الفعل، أو تكون مصدرية في موضع رفع، أى: الأمر ألا تشركوا، و(لا): نافية حينئذ، أو بدل من «ما»، و(لا): زائدة، أو على حذف الإغراء، أى: عليكم ألا تشركوا.

قال ابن جزى: والأحسن أن يكون ضمّن «حرم» معنى وصى، وتكون «أن» مصدرية، و«لا» نافية، ولا تفسد المعنى؛ لأن الوصية في المعنى تكون بتحريم وتحليل وبوجوب وندب، ويدل على هذا قوله بعد ذلك:

﴿ذلكم وصاكم به﴾ ولا ينكر أن يريد بالتحريم - الوصية؛ لأن العرب قد تذكر اللفظ الخاص، وتريد به العموم، كما تذكر اللفظ العام وتريد به الخصوص، فتقدير الكلام على هذا: قل تعالوا أتل ما وصاكم به ربكم، ثم أبدل منه، على وجه التفسير والبيان، فقال: ألا تشركوا، ووصاكم بالإحسان بالوالدين، وهكذا.. فجمعت الوصية ترك الإشراك وفعل الإحسان بالوالدين، وما بعد ذلك، انظر بقية كلامه.

وإنما قال الحق سبحانه: (من إملاق)، وقدم الكاف في قوله (نرزقكم)، وفي الإسراء قال: ﴿خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ﴾^(١)، وأخر الكاف؛ لأن ما هنا نزل في فقراء العرب، فكان الإملاق نازلاً بهم وحاصلاً لديهم، فلذلك قال: ﴿من إملاق﴾، وقدم الخطاب لأنه أهم. وفي الإسراء نزلت في أغنيائهم، فكانوا يقتلون خوفاً من حقوق الفقر، لذلك قال: ﴿خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ﴾، وقدم الغيبة فقال: ﴿نحن نرزقهم﴾؛ حين نخلقهم وإياكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿تعالوا﴾ أى: هلموا، ﴿أتل﴾ أى: أقرأ ﴿ما حرم ربكم عليكم﴾، واجتمعت عليه الشرائع قبلكم، ولم ينسخ قط في ملة من الملل، بل وصى به جميع الملل، هو ﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾ بل توحدوه وتعبدوه وحده، ﴿و﴾ أن تحسنوا ﴿بالوالدين إحساناً﴾، ولا تسيلوا إليهما؛ لأن من أساء إليهما لم يحسن إليهما. ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾ أى: من أجل الفقر الحاصل بكم، وكانت العرب تقتل أولادها خوفاً من الفقر فنزلت فيهم، فلا يفهم منه إباحة قتلهم لغيره، ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾، فلا تهتموا بأمرهم حتى تقتلوهم.

﴿ولا تقربوا الفواحش﴾؛ كبار الذنوب ﴿ما ظهر منها﴾ للناس ﴿وما بطن﴾ فى خلوة، أو: ما ظهر منها على الجوارح، وما بطن فى القلوب من العيوب، ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق﴾؛ كالقود، وقتل المرتد، ورجم المحسن. قال ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: زنى بعد إحصان، وكفر بعد إيمان، وقتل نفس بغير نفس»^(٢). ﴿ذلكم﴾ المتقدم، ﴿وصاكم به لعلكم تعقلون﴾، فتتدبرون فيما ينفعكم وما يضركم.

﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي﴾ بالخصلة التى ﴿هى أحسن﴾؛ كحفظه وتثمينه. والنهى عن القرب: يعم وجوه التصرف، وفيه سد الذريعة؛ لأنه إذا نهى عن القرب كان الأكل أولى، ﴿حتى يبلغ أشده﴾ وهو البلوغ مع الرشد، بحيث يعرف مصالح نفسه ويأمن عليه التبذير، فيدفع له، ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾؛ بالعدل والتوفية، ﴿لا تكلف نفساً إلا وسعها﴾؛ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، ولما أمر بالقسط فى الكيل والوزن، وقد علم أن القسط الذى لا زيادة فيه ولا نقصان مما يجرى فيه الحرج - أمر بالوسع فى ذلك وعفا عما سواه.

(١) الآية ٣١ من سورة الأسراء.

(٢) أخرجه البخارى فى (الديات، باب قول الله تعالى: «أن النفس بالنفس») ومسلم فى (القسماء، باب ما يباح به دم المسلم). عن ابن مسعود، رضى الله عنه.

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فِي حُكْمَةٍ وَنَحْوِهَا ، ﴿ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ﴾ المقول له في شهادة أو حكومة ﴿ ذا قربي ﴾ ؛ فيجب العدل في ذلك ، ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ أى : ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع ، أو ما عاهدتم مع عباده ، ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ ؛ تتعظون به .

﴿ وَأَنْ هَذَا ﴾ أى : ما تقدم في السورة كلها ، ﴿ صراطى مستقيما فاتبعوه ﴾ ؛ لأن السورة بأسرها إنما هي في إثبات التوحيد ، والنبوة ، وبيان الشريعة ، ﴿ ولا تتبعوا السبل ﴾ ؛ الأديان المختلفة والطرق التابعة للهوى ، فإن مقتضى الحجة واحد ، ومقتضى الهوى متعدد ؛ لاختلاف الطبائع والعادات ، ولذلك تفرقت . والمراد بالطرق : اليهودية والنصرانية وغيرهما من الأديان الباطلة ، ويدخل فيه البدع والأهواء ، وفي الحديث أن النبي ﷺ خط خطاً ، ثم قال : « هذا سبيل الله » ، ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : « هذه سبل ، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعوا إليها » (١) . ﴿ ذلكم ﴾ الاتباع ﴿ وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ الضلال والتفرق عن الحق . وبالله التوفيق .

الإشارة : قد وصى الحق - جل جلاله - على التخلص من الشرك ، جليه وخفيه ، ولا يكون إلا بتحقيق الإخلاص والتوحيد الخاص . وهو مطلب الصوفية ، وبالإحسان بالوالدين الروحانيين والبشريين ، أى : والد الأرواح - وهو الشيخ المربى - ووالد الأشباح ، ولا بد للمريد من طاعتها ، إلا أنه يقدم طاعة الشيخ ، كما تقدم عن الجنيد في (سورة النساء) .

ووصى بعدم قتل الأولاد ، وهم المواهب والعلوم بإهمال القلب في الغفلة ، وعدم قرب القواحش : الظاهرة الحسية ، والباطنية القلبية ؛ كالحسد ، والكبر ، وحب الجاه والدنيا ، وسائر العيوب . وعدم قتل النفس بالانهماك في الهوى والغفلة حتى تموت بالجهل عن المعرفة . وعدم قرب مال اليتيم ، وهو الذى ليس له شيخ ، فإن الغالب عليه عدم المسامحة ، وسيأتى عند قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (٢) ، إشارة لها أرق من هذه ، وعلى التوفية في الأمور كلها ؛ لأن الصوفى من أهل الصفاء والوفاء ، وعلى الصدق فى الأقوال والأفعال والأحوال . وعلى الوفاء بالعهد ، وأعظمها عهد الشيوخ المربين ، وعلى اتباع طريق السلوك الموصلة للحضرة وهى ما عينه الشيوخ للمريدين ، فلا يتعدى نظرهم ولو لحظة . وبالله التوفيق .

ولما ذكر ما وصى به هذه الأمة ، ذكر ما وصى به بنى إسرائيل ، فقال :

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى

وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يُلْقَاؤَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿ ١٥٤ ﴾

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٤٣٥/١ .

(٢) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .

قلت: (ثم): هذا للترتيب الإخباري، وقال ابن جزى: هذه الوصية قديمة لكل أمة على لسان نبيها، فصح الترتيب. وقال البيضاوي: (أو): للتفاوت في الرتبة، كأنه قيل: ذلکم وصاکم به قديماً وحديثاً، ثم أعظم من ذلك: أنا آتينا موسى الكتاب... إلخ. وهو عطف على (وصاكم)، و(تماماً، وتفصيلاً): حالان، أو علتان، أو مصدران.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم﴾ نخبرك أنا ﴿آتينا موسى الكتاب﴾؛ التوراة، ﴿تماماً على الذي أحسن﴾ القيام به من بنى إسرائيل، ويدل عليه قراءة: (أحسنوا)، أى: تماماً للنعمة على العاملين به، أو تماماً على موسى الذي أحسن القيام به، أى: آتينا الكتاب تفضلاً وتماماً للنعمة؛ جزاء على ما أحسن من طاعة ربه وتبليغ رسالته، ففاعل أحسن: ضمير موسى. أو: ﴿تماماً﴾ أى: إكمالاً على ما أحسن الله به إلى عباده، فالفاعل على هذا: ضمير الله تعالى، ﴿وتفصيلاً﴾ أى: تبيناً ﴿لكل شيء﴾ يحتاجون إليه في الدين. ﴿وهدى﴾ أى: هداية للظواهر، ﴿ورحمة﴾ للقلوب، ﴿لعلهم﴾ أى: بنى إسرائيل، ﴿بلقاء ربهم﴾ للجزاء، ﴿يؤمنون﴾ إيماناً صحيحاً، وهو اللقاء بالأجسام والأرواح، والدعيم أو العذاب للأشباح. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من أحسن عبادة ربه في الظاهر، وحقق عبوديته في الباطن، أتم الله عليه نعمته بشهود ذاته وأنوار صفاته، ووهب له علوماً لدنية تفصل له ما أشكل، يكون له هداية لزيادة الترقى، ورحمةً يتهيأ بها قلبه لوحى الإلهام والتلقى. وبالله التوفيق.

ثم ذكر فضل كتابه العزيز، فقال:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

قلت: (أن تقولوا): مفعول له، أى: كراهة أن تقولوا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهذا﴾ القرآن ﴿كتاب أنزلناه مبارك﴾ كثير النفع ﴿فاتبعوه﴾ فى الأصول والفروع، ﴿واتقوا﴾ الشرك والمعاصى، ﴿لعلكم تُرحمون﴾ ببركة اتباعه؛ فتحيا به قلوبكم، وتنتعش به

أرواحكم، وإنما أنزلناه؛ كراهة ﴿ أن تقولوا يوم القيامة ﴾ في الحجة: ﴿ إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾؛ اليهود والنصارى، وإنما خصهما بالذكر لشهرتهما دون الكتب السماوية، ﴿ وإن كنا ﴾ وأنه، أى: الأمر والشأن، كنا ﴿ عن دراستهم ﴾ أى: قراءتهم ﴿ لغافلين ﴾ أى: كنا غافلين عن قراءة أهل الكتاب، لاندرى ما هي ولا نعرف مثلها، أو لم ندرس مثل دراستهم، ولم نعرف ما درسوا من الكتب، فلا حجة علينا، فقد قامت الحجة عليكم بنزول القرآن.

﴿ أو ﴾ كراهة أن ﴿ تقولوا ﴾ أيضاً: ﴿ لو أنا أنزل علينا الكتاب ﴾ كما أنزل إليهم، ﴿ لكننا أهدي منهم ﴾ لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا، ولذلك تلقفنا فنوناً من العلم، كالقصص والأشعار والخطب والأنساب، مع كوننا أميين، قال تعالى لهم: ﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم ﴾ وهو القرآن؛ حجة واضحة تعرفونها؛ ﴿ وهدي ورحمة ﴾ لمن تدبره وعمل به، ﴿ فمن أظلم ﴾ أى: لا أحد أظلم ﴿ من كذب بآيات الله ﴾ بعد أن عرف صحتها، ﴿ وصدف ﴾؛ أعرض ﴿ عنها، سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب ﴾؛ ألمه وقبحه، ﴿ بما كانوا يصدفون ﴾ أى: يعرضون ويصدون عنها.

الإشارة: جعل الله رحمة القلوب وحياة الأرواح فى شيتين: فى التمسك بالقرآن العظيم وتدبر معانيه، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، وفى التحصن بالتقوى جهد استطاعته، فبقدر ما يتحقق بهذين الأمرين تقوى حياة قلبه وروحه وسره، حتى يتصل بالحياة السرمدية، ويقدر بما يخل بهما يحصل له موت قلبه وروحه، والإنسان إنما فضل وشرف بحياة قلبه وروحه، لا بحياة جسمه، ولا حجة له أن يقول: كنت مريضاً ولم أجد من يعالجنى، ففى كل زمان رجال تقوم الحجة بهم على عباد الله، فيقال لهم: قد جاءكم بينة من ربكم، وهو الولي العارف، وهدي ورحمة لأهل عصره، لمن تمسك به وصحبه، وأما من أعرض عنه بعد معرفته فلا أحد أظلم منه، ﴿ فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها... ﴾ الآية.

ثم هدد أهل الإعراض، فقال:

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنًا مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴾ (١٥٨)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ هل ينظرون ﴾ أى: ما ينتظر أهل مكة ﴿ إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾ لقبض أرواحهم، أو بالعذاب، لأجل كفرهم، وهم لم يكونوا ينتظرون ذلك، ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر شبيهاً بالمنتظرين، ﴿ أو يأتى ربك ﴾ أى: أمره بالعذاب، ﴿ أو يأتى بعض آيات ربك ﴾ يعنى: أشراف الساعة.

وعن حذيفة والبراء بن عازب: كنا نتذاكر الساعة، إذ أشرق علينا رسول الله ﷺ، فقال: ما تذكرون؟ قلنا: نتذاكر الساعة، فقال: «إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدجال ودابة الأرض، وخسفاً بالمشرق، وخسفاً بالمغرب، وخسفاً بجزيرة العرب، والدخان، وطلوع الشمس من مغربها، وبأجوج ومأجوج، ونزول عيسى، وناراً تخرج من عدن»^(١).

﴿يوم يأتي بعض آيات ربك﴾، وهو طلوع الشمس من مغربها، كما في حديث الصحيحين^(٢)، قال الأقلبيشي: وذلك أن الله تعالى، إذا أراد طلوعها من مغربها، حبسها ليلة تحت العرش، فكلما سجدت واستأذنت لم يجر لها جواب، حتى يحبسها مقدار ثلاث ليال، فيأتيها جبريل عليه السلام فيقول: إن الرب تعالى يأمرك أن ترجعي إلى مغربك فتطلعي منه، وأنه لا ضوء لك عندنا ولا نور، فتبكي عند ذلك بكاء يسمعها أهل السبع سموات، ومن دونها، وأهل سرادقات العرش وحملته من فوقها، فيبكون لبكائها مما يخالطهم من خوف الموت، وخوف يوم القيامة، قال: فيبيت الناس ينتظرون طلوعها من المشرق، فتطلع الشمس والقمر خلف أقفيتهم من المغرب، أسودين مُكدرين، كالقارنين، ولا ضوء للشمس ولا نور للقمر، فيتصايح أهل الدنيا، وتذهل الأمهات عن أولادهن، والأحبة عن ثمره قلوبها، فتشتغل كل نفس بنفسها، ولا يدفع التوحيد حينئذ. هـ.

وهو معنى قوله تعالى: ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها﴾؛ كالمحتضر إذا صار الأمر عياناً، وإنما ينفع الإيمان بالغيب، وقد فات يومئذ، فلا ينفع الإيمان نفساً ﴿لم تكن آمنت من قبل﴾، ولا تنفع التوبة من المعاصي وترك الواجبات حينئذ؛ لقوله: ﴿أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ أي: لا ينفع نفساً مؤمنة لم تكن كسبت خيراً قبل ذلك اليوم، حيث كانت فرطت فيه قبل، وينفع اكتسابه بعد.

والحاصل: أن طلوع الشمس من مغربها يُغلق بعده باب التوبة؛ فلا يقبل الإيمان من كافر، ولا التوبة من عاصٍ، وأما الإيمان المجرد عن العمل، إذا كان حاصلاً قبل ذلك اليوم، فإنه ينفع على مذهب أهل السنة، وكذلك العاصي بالبعض ينفعه بعض الذي كان يعمل، كالزاني مثلاً، إذا كان يصلي، فتتفعه صلاته ويعاقب على العصيان، وهكذا، والمنفى قبله: إنما هو الخير المتروك قبل ذلك اليوم، فلا ينفع استدراكه بعد.

ثم قال تعالى: ﴿قل انتظروا﴾ إتيان أحد الثلاثة؛ الملائكة بعذابكم، أو أمر الله تعالى بإهلاككم، أو بعض آياته، ﴿إنا منتظرون﴾ ذلك، لنا الفوز وعليكم الويل.

الإشارة: ما ينتظر الغافلون والمنهمكون في اللذات والشهوات والإعراض عن الله إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم فجأة، فيصوتون على الغفلة، فتنزل بهم الحسرة والندم، وقد زلت القدم بهم، أو يأتي أمر الله بطردهم والطبع على قلوبهم، فلا ينفعهم وعظ ولا تذكير، أو يأتي بعض آيات ربك؛ مصيبة أو داهية تثقل قلوبهم عن

(١) أخرجه بنحوه مسلم في (الفتن، باب في الأمارات التي تكون قبل الساعة).

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعين...» الحديث بطوله أخرجه البخاري في (تفسير سورة الأنعام) ومسلم في (الإيمان، باب: إتيان الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان).

الترجى إلى الله، وجوارحهم عن طاعة الله. فالغافل والعاصى بين هذه الثلاثة، إن لم يقلع ويتب. والله تعالى أعلم.

ثم أمرهم بالإعراض عن أهل الإعراض، فقال:

﴿ إِنَّا الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم

بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين فرقوا دينهم﴾؛ فآمنوا بالبعض وكفروا بالبعض، وهم اليهود والنصارى، وقيل: أهل الأهواء والبدع، فيكون إخباراً بغيب، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافتترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة». قيل: يا رسول الله، وما تلك الواحدة؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي».

وقرئ: «فارقوا، أى: تركوا دينهم»، ﴿وكانوا شيعاً﴾؛ جمع شيعه، أى: فرقاً متشعبة، كل فرقة تتشيع لمذهبها وتتشيع إمامها، أى: تنسب إليه. ﴿لست منهم في شيء﴾ أى: أنت برىء منهم، فلست فى شيء من السؤال عنهم وعن تصرفهم، أو عن عقابهم، وقيل: هو نهى عن التعرض لهم؛ فيكون منسوخاً بآية السيف، ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾ يتولى جزاءهم، ﴿ثم ينبئهم بما كانوا يعملون﴾ من التفرق فيعاقبهم عليه.

الإشارة: الافتراق المذموم، إنما هو فى الأصول؛ كالتوحيد وسائر العقائد، فقد افتترقت المعتزلة وأهل السنة فى مسائل منه، فخرج من المعتزلة اثنان وسبعون فرقة، وأهل السنة هى الفرقة الناجية، وأما الاختلاف فى الفروع فلا بأس به، بل هو رحمة لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «خلاف أمتى رحمة»، كاختلاف القراء فى الروايات، واختلاف الصوفية فى كيفية التربية، فكل ذلك رحمة وتوسعه على الأمة المحمدية، إذ كل من أخذ بمذهب منها فهو سالم، مالم يتبع الرخص. وقال بعضهم: مادامت الصوفية بخير ما افترقوا، فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم. ومعنى ذلك: إنما هو فى التناصح والإرشاد والنهى بعضهم لبعض عما لا يليق فى طريق السير، فإذا سكت بعضهم عن بعض؛ مداينةً وحياءً فلا خير فيهم، وأما قلوبهم فلا بد أن تكون متفقة متوددة، لا بغض فيها ولا تحاسد، وإلا لم يكونوا صوفية. والله تعالى أعلم.

ثم رغب فى الخير قبل فوات إبانته، فقال:

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا

وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿من جاء بالحسنة﴾ قولية أو فعلية أو قلبية، ﴿فله عشر أمثالها﴾ من الحسنات، فضلاً من الله، وهذا أقل ما وعد من الأضعاف، وقد جاء الوعد بسبعين وسبعمئة، وبغير حساب، ولذلك قيل: المراد بالعشر: الكثرة دون العدد، ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾؛ قضية للعدل، ﴿وهم لا يظلمون﴾ بنفس الثواب وزيادة العقاب.

الإشارة: إنما تضاعف أعمال الجوارح وما كان من قبل النيات، وأما أعمال القلوب فأجرها بغير حساب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١)، وقال ﷺ: «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة». وقال الشاعر:

كُلُّ وَقْتٍ مِنْ حَبِيبِي قَدْرُهُ كَأَلْفِ حِجَّةٍ

وقد تقدم هذا في سورة البقرة (٢).

ثم إن تضعيف الحسنات إنما يكون لمن تمسك بالدين القيم، وهو الذي أشار إليه بقوله:

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ

الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦١)

قلت: (دينًا): بدل من محل «صراط»؛ لأن الأصل: هداني صراطاً مستقيماً ديناً قيماً، و(قيماً): فيعمل من القيام، فهو أبلغ من مستقيم، ومن قرأ بكسر القاف: فهو مصدر وصف به؛ للمبالغة، و(ملة إبراهيم): عطف بيان لدين، و(حنيفاً): حال من إبراهيم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿إني هداني ربي إلى صراط مستقيم﴾ بالوحي والإرشاد إلى ما نصب من الحجج والآيات، ﴿دينًا قيماً﴾؛ مستقيماً يوصل من تمسك به إلى جوار الكريم، في حضرة النعيم، وهو ﴿ملة إبراهيم﴾ أي: دينه، حال كونه ﴿حنيفاً﴾: مائلاً عما سوى الله، ﴿وما كان من المشركين﴾، وهو تعريض لقريش، الذين يزعمون أنهم على دينه، وقد أشركوا بالله عبادة الأوثان.

الإشارة: قد أخذ الصوفية من هذا الدين القيم، الذي هدى الله إليه نبيه - عليه الصلاة والسلام - خلاصته ولبابه، فأخذوا من عقائد التوحيد: الشهود والعيان على طريق الذوق والوجدان؛ ولم يفتنعوا بالدليل والبرهان، وأخذوا من الصلاة: صلاة القلوب، فهم على صلاتهم دائمون مع صلاة الجوارح، على نعت قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ

(١) الآية ١٠ من سورة الزمر.

(٢) راجع إشارة الآية ١٩٧ من سورة البقرة.

فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿١٦١﴾ وأخذوا من الزكاة: زكاة نفوسهم بالرياضة والتأديب وإضافة الكل إليه . (العبد وما كسب لسيده) ، مع أداء الزكاة الشرعية لمن وجبت عليه . وكان الشيخ أبو العباس السبتي رحمته الله يعطى تسعة أعشار زرعه ، ويمسك العشر لنفسه .

وأخذوا من الصيام: صيام الجوارح كلها ، مع صيام القلب عن شهود السوء . وأخذوا من الحج: حج القلوب إلى حضرة علام الغيوب ، فالكعبة تشتاق إليهم وتطوف بهم ، كما تقدم في آل عمران . ومن الجهاد: الجهاد الأكبر ، وهو جهاد النفوس ، وهكذا مراسم الشريعة كلها عندهم صافية خالصة من الشوائب ، بخلاف غيرهم ، فلم يأخذ منها إلا قشرها الظاهر وعمل الأشباح ، فهي صور قائمة لا روح فيها ؛ لعدم الإخلاص والحضور فيها . والله تعالى أعلم .
ثم بين مقام الإخلاص ، فقال :

﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾
قلت : (رباً) : حال من (غير) .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد : ﴿ إن صلاتي ونسكي ﴾ أي : عبادتي كلها ، وقرباتي أو حبي ، ﴿ ومحياي ومماتي ﴾ أي : وعمل في حياتي ، وعند موتي من الإيمان والطاعة ، أو الحياة والممات أنفسهما ، ﴿ لله رب العالمين ، لا شريك له ﴾ أي : هي خالصة لله لا أشرك فيها غيره ، ﴿ وبذلك ﴾ أي : بذلك القول والإخلاص ، أمرني ربي ، ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ ؛ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته

﴿ قل ﴾ لهم : ﴿ أغير الله أبغى رباً ﴾ فأشرك مع الله ، ﴿ وهو رب كل شيء ﴾ ؛ لأن كل شيء مربوب لا يصلح للربوبية . وهو جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم . ﴿ ولا تكسب كل نفس ﴾ من شرك أو غيره ﴿ إلا عليها ﴾ وزره ، فلا ينفعني ضمانكم وكفالتكم من عقاب ربي ، وهو رد على الكفار حيث قالوا له : اعبد آلهتنا ونحن نتكفل لك بكل تباعة تتوقعها في دنياك وأخراك ، ثم أوضح ذلك بقوله : ﴿ ولا تزر ﴾ أي : تحمل نفس ﴿ وازرة ﴾ أي : آثمة ﴿ وزر ﴾ نفس ﴿ أخرى ﴾ أي : لا يحمل أحد ذنوب أحد ، ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم ﴾ بالبعث والحساب ، ﴿ فينبئكم ﴾ ، أي : يخبركم ﴿ بما كنتم فيه تَخْلِفُونَ ﴾ من أمر الدين ؛ فيبين الرشد من الغي ، والمحق من المبطل .

الإشارة : الإخلاص سر من أسرار الله ، يودعه قلب من أحب من عباده ، وهو إخلاص العبودية لله وحده ، ولا يتحقق ذلك للعبد إلا بعد تحرره من رق الهوى وخروجه من سجن وجود نفسه ، وهذا شيء عزيز . ولذلك قيل

وقال الشيخ أبو طالب المكي رحمته : الإخلاص عند المخلصين: إخراج الخلق من معاملة الخالق، وأول الخلق: النفس، والإخلاص عند المحبين: ألا يعمل عملاً لأجل النفس، وألاً يدخل عليه مطالعة العوض، أو تشوف إلى حظ طبع، والإخلاص عند الموحدين: خروج الخلق من النظر إليهم، أي: لا يرون مع الله غيره في الأفعال، وترك السكون إليهم، والاستراحة إليهم في الأحوال. هـ.

وبالإخلاص تتفاوت الدرجات، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٦٥)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ أي: يخلف بعضكم بعضاً، أو خلفاء الله في أرضه؛ تتصرفون فيها بإذنه، على أن الخطاب عام، أو خلفاء الأمم السابقة، على أن الخطاب للمسلمين، ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ في الشرف والغناء والقوة والجاه، وفي العلوم والأعمال والأحوال والإخلاص والمعارف، وغير ذلك مما يقع به التفاصل بين العباد، ﴿ ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ أي: ليختبر شكركم على ما أعطاكم، وأعمالكم فيما مكنكم فيه من الخلافة.

﴿ إن ربك سريع العقاب ﴾ لمن كفر نعمه، إما في الدنيا لمن عجل أخذه؛ لأن كل آت قريب، ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن شكر نعمه وآمن وعمل بطاعته، جمع بين التخويف والترجية ليكون العبد بينهما. وبالله التوفيق.

الإشارة: من شرف هذا الآدمي أن جعله خليفة عنه، في ملكه، يتصرف فيه بنيابته عنه، ثم إن هذا التصرف يتفاوت على قدر الهمم، فبقدر ما ترتفع الهممة عن هذا العالم يقع للروح التصرف في هذا الوجود، فالعوام إنما يتصرفون فيما ملكتهم الله من الأملاك الحسية. والخواص يتصرفون بالهممة في الوجود بأسره، وخواص الخواص يتصرفون بالله، أمرهم بأمر الله، إن قالوا لشيء: كن - يكون بإذن الله، مع إرادة الله وسابق علمه وقدره، وإلا فالهمم لا تخرق أسوار الأقدار، والحاصل: أن من بقى مع الأكوان شهوداً وافتقاراً، كان محبوساً معها، ومن كان مع المكون كانت الأكوان معه، يتصرف فيها بإذن الله، خليفة عنه فيها، وهم متفاوتون في ذلك كما تقدم.

وقال تعالى: ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ أي: خلفاء عنه تتصرفون في الوجود بأسره بأرواحكم، وأنتم في الأرض بأشباحكم، ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾؛ من أقطاب وأوتاد ونجباء ونقباء وغير ذلك، مما هو مذكور في محله. خرطنا الله في سلكهم ومنحنا ما منحهم، بمنه وكرمه، ويسيدنا محمد صلوات الله عليه حبيبته ونبيه. آمين - والحمد لله رب العالمين.



سُورَةُ الْأَعْرَافِ

هي مكية إلا ثمانى آيات، من قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا﴾، وقيل: إلى قوله: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. وآياتها: مائتان وخمس. قاله البيضاوى. ومضمونها: الحث على اتباع ما أنزله على نبيه من التوحيد والأحكام، والتحذير من مخالفته ومتابعة الشيطان، وذكر وبال من تبعه من القرون الماضية، وما لحقهم من الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، تكميلاً لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

وافتح السورة بالرموز التى بينه وبين حبيبته، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْمَصِّ

إما أن تكون مختصرة من المصطفى، على عادة العشاق؛ يرمزون إلى ذكر بعض حروف المحبوب، اتقاء الرقباء، أى: يا أيها المصطفى المختار لرسالتنا؛ هذا كتاب أنزل إليك، وإما أن تشير إلى العوالم الثلاثة: الجبروت والملوك والملك. وزاد هذا الصاد، إشارة إلى صدقه فيما يخبر به من علم الغيوب، ولذلك ذكر هنا جملة من القصص والأخبار.

وقال الورتجى: كان الله - تبارك وتعالى - إذا أراد أن يتكلم مع نبيه محمد ﷺ بقصص الأنبياء، وما جرى عليهم فى الدهور والأعصار، وشأنه معهم فى الأسرار والحقائق والشرائع، وأراد أن يخصه ﷺ بشريعته، وما يكون من طريقته الخاصة إلى حضرته، ويخبره بما كان وما يكون، أشار إلى هذه الأشياء بحروف التهجى، وأعلمه سر ذلك بخفى الإشارة ولطيف الخطاب، وعلم تعالى أنه عليه الصلاة والسلام يعرف بتلك الإشارة مراده من علم سابق، ونبأ صادق، وعلم تعالى أن عموم أمته لا تعرف تلك الإشارة، فعبر عنها بسورة طويلة من القرآن؛ ليعرفوا مراده سبحانه من خطابه، وخواص أمته ربما تطلع على سر بعضها، كالصحابة والتابعين والمتقدمين من العلماء والأولياء، كأن حروف المقطعات رموز ومعانى سور القرآن، لا يعرف تلك الرموز إلا الريانيون والأخبار من الصديقين. هـ.

(١) من الآية ١٦٥ من سورة الأنعام.

ثم ذكر حكمة إنزال الكتاب، فقال:

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٢﴾

قلت: (كتاب): خبر، أى: هذا كتاب، و(أنزل): صفته، والخرج: الضيق، و(لتنذر): متعلق بأنزل، أو بلايكن، لأنه إذا أيقن أنه من عند الله جسر على الإنذار، وكذا إذا لم يخفهم، و(ذكرى): يحتمل النصب بإضمار فعل، أى: لتنذر ولتذكر ذكرى، والجر عطف على (لتنذر)، أى: للإنذار والتذكير، والرفع عطف على (كتاب).

يقول الحق جل جلاله: هذا ﴿ كتاب أنزل إليك ﴾ من ربك، ﴿ فلا يكن فى صدرك حرج منه ﴾ أى: ضيق وثقل من أجل تبليغه لمن يكذب به، مخافة أن تكذب فيه، أو مخافة أن تقصر على القيام بتبليغه، أو بحقوقه، وتوجيه النهى إلى الحرج للمبالغة، كقولك: لا أرىك ها هنا، كأنه قال: فلا يخرج صدرك منه، وإنما أنزلناه إليك لتنذر به من بلغه، ﴿ وذكرى للمؤمنين ﴾ أى: وتذكيراً وموعظة للمؤمنين؛ لأنهم هم المنتفعون بمواعظه.

الإشارة: تذكير أهل الإنكار ووعظهم يحتاج إلى سياسة كبيرة وحلم كبير وصبر عظيم، لا يطيقه إلا الأكابر من أهل العلم بالله؛ كالأنبياء والصديقين، لسعة معرفتهم، واتساع صدورهم لحمل الجفاء وتحمل الأذى، ونهيه تعالى لنبيه - عليه الصلاة والسلام - عن ضيق صدره: تشريع لورثته من بعده؛ الداعون إلى الله - عز وجل - والآن فهو بحر واسع، لا تكدره الدلاء، كما قال البوصيرى.

فَهُوَ الْبَحْرُ وَالْأَنَامُ إِضَاءٌ^(١)

والله تعالى أعلم.

ثم حض على الإتياع، فقال:

﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٣﴾

قلت: (قليلًا): صفة لمصدر، أو زمان محذوف، أى: تتذكرون تذكراً قليلاً، أو زماناً قليلاً، والعامل فيه: تذكرون، و(ما): زائدة لتأكيد القلة.

(١) الإضاءة: جمع إضاءة، وهى: الغدران - جمع غدير. قلت: وهذا شطر بيت، أوله: لا تَقْسُ بالنبي فى الفضل خلقاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿اتَّبِعُوا﴾ أيها الناس ﴿مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ من أحكام القرآن والسنة؛ إذ كله وحى يوحى، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (١)، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مَن دُونَهُ﴾ أى: الله، ﴿أُولِيَاءَ﴾ من الجن والإنس يضلونكم عن دينه، أو: ولا تتبعوا من دین ما أنزل إليكم أولياء، تتبعونهم فيما يأمرونكم به ويلهونكم، وتتركون ما أنزل إليكم من ربكم، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾: تتعطلون حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره، بعد كمال إنذاره ووضوح تذكاره، وذلك لانطماس البصيرة وعمى القلوب، والعياذ بالله.

الإشارة: اتباع الحبيب فى أمره ونهيه يدل على صحة دعوى المحبة، ومخالفته يدل على بطلانها.

تَعْصِي الْإِلَهِ وَأَنْتَ تَظْهَرُ حُبَّهُ هَذَا مَحَالٌّ فِي الْقِيَّاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ (٢)

وجمع المحبة فى محبوب واحد يدل على كمالها، وتفرق المحبة يدل على ضعفها، ولذلك قال الشاعر:

كَانَتْ لِقَاسِمِي أَهْوَاءَ مُفْرَقَةً فَاسْتَجْمَعَتْ مَذْرَأَتُكَ الْعَيْنُ أَهْوَائِي

فلا تجتمع المحبة فى محبوب واحد إلا بعد كمال معرفة المحبوب، وشهود أنوار جماله وكمال أسرارته. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من لم يتبع، فقال:

﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (٤) ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَاهُ إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٥) ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦) ﴿فَلَنَقْصِصَنَّهُمْ عَلَيْكُمْ يَعْلَمُ مَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (٧)

قلت: (كم): خبرية، مفعول (أهلكنا)، وهو على حذف الإرادة، أى: فى الحال أردنا إهلاكها، و(بيئاتا) أو هم قائلون): حالان، أى: بائتين أو قائلين، وأغنى الضمير فى (هم) عن واو الحال.

(١) الآية ٥ من سورة النجم.

(٢) البيتان لعبد الله بن المبارك.

يقول الحق جل جلاله: كثيراً من القرى ﴿أهلكناها﴾ لما عصت أمرنا، وخالفت ما جاءت به رسلنا، ﴿فجاءها بأسنا﴾ أى: عذابنا ﴿بياتاً﴾ أى: ليلاً، كقوم لوط؛ قلبت مدينتهم، عاليها سافلها، وأرسلت عليهم الحجارة بالسحر، ﴿أو هم قائلون﴾ نصف النهار، كقوم شعيب، نزلت عليهم نار فأحرقتهم، وهو عذاب يوم الظلة، وإنما خص الوقتين؛ لأنهما وقت دعة واستراحة، فيكون مجيء العذاب فيهما أفظع.

﴿فما كان دعواهم﴾ أى: دعاؤهم واستغاثتهم حين جاءهم بأسنا، ﴿إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أى: إلا اعترفهم بظلمهم فيما كانوا عليه وبطلانه، تحسراً، أو: ما كان دعاؤهم إلا قولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا إنا كنا ظالمين﴾، فما زالت تلك دعاؤهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين^(١): ميتين، فإذا أحييناهم وبعثناهم من قبورهم، فوالله ﴿لنسألن الذين أرسل إليهم﴾ عن قبول الرسالة وإجابة الرسل، ﴿ولنسألن المرسلين﴾ عما أجيئوا به، والمراد بهذا السؤال: توبيخ الكفرة وتقريرهم، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾^(٢) قالمنفى: سؤال استعلام؛ لأن الله أحاط بهم علماً، أو الأول فى موقف الحساب، وهذا عند حصول العقاب.

﴿فلنقصن عليهم﴾ أى: على الرسل والأمم، فنقص على الرسل ما قولوا به من تصديق أو تكذيب، وعلى الأمم ما قابلوا به الرسل من تعظيم أو إنكار، أو فلنقص على الرسل ما علمنا من قومهم حين يقولون: ﴿لَا عَلِمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^(٣). نقص ذلك عليهم ﴿بعلم﴾ وتحقيق؛ لاطلاعنا على أحوالهم، وإحاطة علمنا بسرهم وعلانياتهم. ﴿وما كنا غائبين﴾ عنهم، فيخفى علينا شيء من أحوالهم، بل كنا حاضرين لديهم، محيطين بسرهم وعلانياتهم.

الإشارة: ما أهلك الله قوماً وعذبهم إلا بتضييع الشرائع أو إنكار الحقائق، فمن قام بهما معاً كان مصحوباً بالسلامة، موصوفاً بالكرامة فى الدارين، ومن ضيعهما أو أحدهما لحقه الوبال فى الدارين، فإذا لحقه إهلاك لم يسعه إلا الإقرار بالظلم والتقصير، حيث فاته الحزم والتشمير، فإذا ندم لم ينفعه الندم، حيث زلت به القدم، فالبدار البدار إلى التوبة والانكسار، والتمسك بشريعة النبی المختار، والتحقيق بمعرفة الواحد القهار، وصحبة الصالحين الأبرار، والعارفين الكبار، قبل أن تصير إلى قبرك فتجده إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار.

وكما أن الحق تعالى يسأل الرسل عما أجيئوا به، يسأل خلفاءهم - وهم الأولياء والعارفون - عما إذا قولوا من تعظيم أو إنكار، فيرفع من عظمهم فى أعلى عليين، ويحط من أنكرهم فى محل أهل اليمين. وبالله التوفيق.

(١) الآيتان ١٤ - ١٥ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية ٧٨ من سورة القصص.

(٣) من الآية ١٠٩ من سورة المائدة.

ثم ذكر مقادير الأعمال ووزنها، فقال:

﴿ وَالْوِزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ (٩)

قلت: (الوزن): مبتدأ، و(يومئذ): خبره، و(الحق): صفة، أى: الوزن العدل حاصل يومئذ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والوزن ﴾ أى: وزن الأعمال، على نعت الحق والعدل، حاصل يوم القيامة، حين يسأل الرسل والمرسل إليهم. والجمهور على أن صحائف الأعمال توزن بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه الخلاق؛ إظهاراً للمعدلة وقطعاً للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم، فتعترف بها ألسنتهم، وتشهد بها جوارحهم، ويؤيده ما روى: « أن الرجل يؤتى به إلى الميزان، فيُنشر عليه تسعة وتسعون سجلاً، كُلُّ سَجَلٍ مَدَّ البَصَرِ، فتُخرج له بطاقة فيها كلمة الشهادة، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فتثقل البطاقة، وتطيش السجلات » (١).

وقيل: توزن الأشخاص؛ لما روى عنه ﷺ أنه قال: «إنه ليأتى العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله تعالى جناح بعوضة» (٢). والتحقيق: أن المراد به الإهانة والتصغير، وأنه لا يساوى عند الله شيئاً؛ لاتباعه الهوى.

ثم فصل في الأعمال فقال: ﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ أى: حسناته، أو الميزان الذى يوزن به حسناته، وجمعه باعتبار اختلاف الموزونات وتعدد الوزن، فعلى الأول هو جمع موزون، وعلى الثانى جمع ميزان، فمن رجحت حسناته ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ الفائزون بالنجاة والثواب الدائم، ﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ بتضييع الفطرة السليمة التى فطروا عليها، واقتراف ما عرضها للهلاك، ﴿ بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ حيث بدلوا التصديق بها بالكذب، والعمل فيها بالتفريط. نسأل الله تعالى الحفظ.

الإشارة: العمل الذى يثقل على النفس كله ثقل فى الميزان؛ لأنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً، والعمل الذى يخف على النفس كله خفيف؛ لأنه فيه نوع من الهوى؛ إذ لا يخف عليها إلا مالها فيه حظ وهوى. وفى الحكم:

(١) أخرجه بلحوه الإمام أحمد فى المسند ٢/٢١٣ والترمذى فى (الإيمان، باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله) وابن ماجه فى (الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة) وصححه الحاكم ١/٦، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.
(٢) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الكهف، باب: أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم...) ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفة القيامة...) من حديث أبى هريرة.

«إذا التبس عليك أمران، فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه؛ فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً». وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: والله ما ثقل ميزان عبد إلا باتباعه الحق، وما خف إلا باتباعه الهوى. قال تعالى: «والوزن يومئذ الحق». هـ. بمعناه، ذكره في القوت. وهذا في غير النفس المطمئنة، وأما هي فلا يثقل عليها شيء، وقد يثقل عليها الباطل، ويخف عليها الحق، لكمال رياضتها. والله تبارك وتعالى أعلم.

ثم ذكرهم بالنعم، فقال:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ تتصرفون فيها بالبناء والسكن، وبالفرس والحرث والزرع، وغير ذلك من أنواع التصرفات، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾: أسباباً تعيشون بها؛ كالتجارة وسائر الحرف، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ على هذه النعم، فتقابلون المنعم بالكفر والعصيان، فأنتم جديرون بسلبها عنكم، وإبدالها بالنقم، لولا فضله ورحمته.

الإشارة: نعمة التمكين في الأرض متحققة في أهل التجريد، المنقطعين إلى الله تعالى، فهم يذهبون في الأرض حيث شاءوا، ومائدتهم ممدودة يأكلون منها حيث شاءوا، فهم متمكنون من أمر دينهم؛ لقلة عوائدهم، ومن أمر دنياهم؛ لأنها قائمة بالله، تجري عليهم أرزاقهم من حيث لا يحتسبون، تخدمهم ولا يخدمونها؛ «يادنياي اخدمى من خدمنى، وأتعبى من خدمك». فمن قصر منهم في الشكر توجه إليه العتاب بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، ومن تحقق شكره قيل له: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (١). والله تعالى أعلم.

ولما ذكر نعمة الإمداد أتبعه بنعمة الإيجاد، فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

(١) الآيات: ٥ - ٦ من سورة القصص.

قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَيَسَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد خلقناكم﴾ أى: خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور، ﴿ثم صورناكم﴾ أى: صورنا خلقه أبيكم آدم. نزل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويره؛ لأنه المادة الأصلية، أى: ابتدأنا خلقكم ثم تصويركم بأن خلقنا أباكم آدم، ثم صورناه، ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ تعظيماً له، حيث وجد فيه ما لم يوجد فيهم، واختباراً لهم ليظهر من يخضع ممن لم يخضع، ﴿فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ لآدم.

﴿قال﴾ له الحق تبارك وتعالى: ﴿ما منعك ألا تسجد﴾ أى: أن تسجد، فلا: زائدة، مؤكدة معنى الفعل الذى دخلت عليه، ومنبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود، وقيل: الممنوع من الشيء كالمضطر إلى خلافه، فكأنه قال: ما اضطررك إلى ترك السجود ﴿إذ أمرتك﴾.

وفيه دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والفور، فأجاب بقوله: ﴿قال أنا خير منه﴾، أى: المانع لى من السجود هو كونى أنا خير منه، ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول، فكيف يحسن أن يؤمر به، فإبليس هو الذى سن التكبر، وقال بالتحسين والتقبيح العقلين أولاً، وبهذا الاعتراض كفر إبليس؛ إذ ليس كفره كفر جحود.

ثم بين وجه الأفضلية، فقال: ﴿خلقنتي من نار وخلقته من طين﴾، فاعتقد أن النار خير من الطين، وقد غلط فى ذلك، فإن الأفضلية إنما تظهر باعتبار النتائج والثمرات، لا باعتبار العنصر والمادة فقط، ولا شك أن الطين ينشأ منه ما لا يحصى من الخيرات؛ كالثمار والحبوب وأنواع الفواكه.

قال البيضاوى: رأى الفضل كله باعتبار العنصر، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ (١) أى: بغير واسطة، وباعتبار الصورة، كما نبه عليه بقوله تعالى: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ وباعتبار الغاية، وهو ملاكه، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له؛ لما تبين لهم أنه أعلم منهم، وأنه له خواصاً ليست لغيره. هـ.

(١) من الآية ٧٥ من سورة ص.

ولما تبين عذابه قال له تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أى: من السماء أو من الجنة، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ أى: فما يصح لك ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصى؛ فإنها موطن الخاشع المطيع، وفيه دليل على أن الكبر لا يليق بأهل الجنة، فإنه تعالى إنما أنزله وأهبطه؛ لتكبره لا لمجرد عصيانه، ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أى: ممن أهانه الله لتكبره. قال ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ» (١).

ولما تحقق إبليس أنه مطرود، سأل الإمهال فقال: ﴿أَنْظِرْنِي﴾ أى: أخرنى، ﴿إِلَى يَوْمٍ يُعْثُونَ﴾ فلا تمتلئ، ولا تعجل عقوبتى، ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾؛ يقتضى أنه أجابه إلى ما سأل، لكنه محمول على ما فى الآية الأخرى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٢)؛ وهو نفخ الصور النفخة الأولى، ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أى: بعد أن أمهلتنى لأجتهدن فى إغوائهم بأى طريق يمكننى، بسبب إغوائك إياى، والله ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وهو الطريق الذى يوصلهم إليك، فأقعد فيه، وأردهم عنه، ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾؛ فآتيهم من الجهات الأربع، وذلك عبارة عن تسلطه على بلى آدم كيفما أمكنه.

قال ابن عباس: «من بين أيديهم»: الدنيا يزيناها لهم، «ومن خلفهم»: الآخرة ينسيها لهم، (وعن أيمانهم): الحسنات يثبطهم عنها، «وعن شمائلهم»: السيدات يزيناها فى أعينهم. هـ. ولم يجعل له سبيلاً من فوقهم، ولا من تحت أرجلهم؛ لأن الرحمة تنزل من أعلى، فلم يحل بينهم وبينها، والإتيان من تحت موحش، وأيضاً: السفليات محل للتواضع والخشوع، فتكثر فيه الأنوار فيحترق بها. وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه: (لأن فوق: التوحيد، وتحت: الإسلام، ولا يمكن أن يأتى من توحيد ولا إسلام).

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾؛ مطيعين، قال بعض الصوفية: (لو كان ثم مقام أعظم من الشكر لذكره إبليس)؛ فالشكر أعظم المقامات، وهو الطريق المستقيم الذى قعد عليه إبليس، والشكر: هو ألا يعصى الله بنعمه، أو: صرف الجوارح كلها فى طاعة الله، أو رؤية المنعم فى النعمة. وإنما قال إبليس ذلك؛ ظناً لقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ (٣)، وسيأتى فى الإشارة حقيقته.

﴿قَالَ﴾ تعالى لإبليس: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾؛ من السماء أو الجنة، ﴿مَذْذَوَّمًا﴾ أى: مذبذباً، من ذامه، أى: ذمه، ﴿مَدْحُورًا﴾ أى: مطروداً. والله ﴿لِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ فى الكفر ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: منك وممن تبعك.

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (الباب ٥٧) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -.

(٢) الآية ٢٨ من سورة الحجر.

(٣) من الآية ٢٠ من سورة سبأ.

تنبيه: ذكر الفخر الرازي، في تفسيره، عن الشهرستاني أن إبليس جرت بينه وبين الملائكة مناظرة بعد الأمر بالسجود لآدم، فقال لهم: إني أسلم أن الله خالقى وموجدى، وهو موجد الخلق، ولكن لى على حكمته أسئلة: الأول: ما الحكمة فى إيجاد خلقه، لاسيما وكان عالماً بأن الكافر لا يستوجب عند خلقه الآلام؟ الثانى: ما الفائدة فى التكليف، مع أنه لا يعود عليه نفع ولا ضرر، وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف؟ الثالث: هب أنه كلفنى بطاعته ومعرفته، فلماذا كلفنى بالسجود لآدم؟ الرابع: لما عصيته فلم لعننى وأوجب عقابى، مع أنه لا فائدة له ولا لغيره فيه، وفيه أعظم الضرر؟ الخامس: لما فعل ذلك فلم مكننى من الدخول إلى الجنة ووسوسة آدم؟ السادس: ثم لما فعل ذلك، فلم سلطنى على أولاده، ومكننى من إغوائهم وإضلالهم؟ السابع: ثم لما استمهله بالمدة الطويلة فى ذلك فلم أمهلنى، ومعلوم أن العالم لو كان خالياً من الشر لكان ذلك خيراً؟ هـ. قال شارح الأناجيل: فأوحى الله إليه من سرادقات الكبرياء: إنك ما عرفتنى، ولو عرفتنى لعلمت أنه لا اعتراض علىّ فى شيء من أفعالى، فأنا الله لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعل.

قال الشهرستاني: اعلم أنه لو اجتمع الأولون والآخرون، وحكموا بتحسين العقل وتقبّحه لم يجدوا عن هذه الشبهات تخلصاً، أما إذا أجبنا بما أجاب به الحق - سبحانه - زالت الشبهات واندفعت الاعتراضات. هـ. قلت: من تشمرت فكرته بنور المعرفة، وعرف أسرار الحكمة والقدرة، لم يصعب عليه مثل هذه الشبهات، وسأذكر الجواب عنها على سبيل الاختصار:

أما الحكمة فى إيجاد خلقه؛ فخلقهم ليعرف بهم. وفى الحديث القدسى: «كنت كنزاً لم أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقاً لأعرف بهم»، وليظهر بهم آثار قدرته وأسرار حكمته. وأما تعذيب الكافر بالآلام فليظهر فيه مقتضى اسمه المنتقم.

أما فائدة التكليف؛ فلتقوم الحجة على العبيد، وليتميز من يستحق الإحسان ممن يستحق العذاب، فإذا عذبه لم يكن ظالماً له؛ ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾^(١)، وتظهر صورة العدل فى الجملة. وأما تكليفه بالسجود لآدم؛ فلأنه ادعى المحبة، ومقتضاها الطاعة للحبيب فى كل ما يشير إليه، ولا تصعب إلا فى الخضوع للجنس، أو من دونه، فأمره بالسجود لمن دونه فى زعمه؛ ليظهر كذبه فى دعوى محبته، وأما لعنه وطرده؛ فهو جزاء من كذب

(١) من الآية ٤٩ من سورة الكهف.

وعصى . وهذا الطرد كان في علمه تعالى ، ولكن حكمته تعالى اقتضت ترتيب الأسباب وارتباطها بالمسببات ، فكان امتناعه واعتراضه سبباً لإظهار ما سبق له في علم الله ، كما كانت وسوسته لآدم سبباً في إظهار خروجه من الجنة السابق في علم الله . وأما تمكينه من دخول الجنة ؛ فليستسبب عنه هبوط آدم الذي سبق في علمه ؛ لأن الحكمة اقتضت أن لكل شيء سبباً . أما تسلطه على أولاده ، فليكون منديلاً تمسح به أوساخ الأقدار ؛ إذ إن الكفر والإيمان والطاعة والعصيان إنما هو بمثيلة الواحد القهار ، ولا فعل لغيره ، لكن الحق تعالى علمنا الأدب ، فخلق الشيطان والنفس والهوى مناديل ، فما كان فيه كمال نسبه لله ، وما كان فيه نقص نسبه للشيطان والنفس ؛ أدباً مع الحضرة .

وأما إمهاله ؛ فليدوم هذا المنديل عندهم ، يمسحون فيه أوساخ المقادير التي تجري عليهم إلى انقضاء وجودهم . وقوله : (معلوم أن العالم لو كان خالياً من الشر لكان ذلك خيراً) ، مغالطة ؛ لأن حكمته تعالى اقتضت وجود للضدين : الخير والشر ، وبهما وقع التجلي والظهور ؛ ليظهر آثار أسمائه تعالى ؛ فإن اسمه المنتقم والقهار يقتضي وجود الشر ، فيما نفهم ، وليظهر انتقامه وبطشه للعيان ، ومعلوم أن الملك إذا وصف بوصف جلالى أو جمالى لا يظهر شرف ذلك الاسم إلا بظهور آثاره في مملكته . وقوله : (إنك ما عرفتني ..) الخ .. يقتضى أنه لو عرف الله حق معرفته لفهم أسرار هذه الأشياء التي اعترض بها على ما بينهاها . والله تعالى أعلم .

الإشارة : الأكوان ظاهرها أغيار ، وباطنها أنوار وأسرار ، فمن وقف مع ظاهرها لزمه الاعتراض والإنكار ، ومن نفذ إلى شهود باطنها لزمه المعرفة والإقرار ، ولعل إبليس لم ير - في حال الأمر بالسجود - من آدم إلا الأغيار ، ولو رأى باطنه لكان أول ساجد لله الواحد القهار .

ثم ذكر دخول آدم الجنة وخروجه منها ، فقال :

﴿ وَبَنَادُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝١٩ ۞ فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِبَدَىٰ لُهُمَا مَا وَرَىٰ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَدَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠ ۞ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝٢١ ۞ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ

لَكُمْ أَعْدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾
 قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
 تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويا آدمُ اسكن أنت وزوجك ﴿﴾ حواء ﴿﴾ الجنة فكلَا من حيث شئتما ﴿﴾ من ثمارها، ﴿﴾ ولا تقربَا هذه الشجرة ﴿﴾؛ التين أو العنب أو الحنطة، ﴿﴾ فتكونا من الظالمين ﴿﴾ لأنفسكما بمخالفتكما، ﴿﴾ فوسوس لهما الشيطان ﴿﴾ أى: فعل الوسوسة لأجلهما، وهو الصوت الخفى، ﴿﴾ ليُبدى ﴿﴾ أى: ليظهر ﴿﴾ لهما ما وورى ﴿﴾ أى: ما غطى ﴿﴾ عنهما من سَوَاتِيهما ﴿﴾ أى: عوراتهما، واللام: للعاقبة، أى: فعل الوسوسة لتكون عاقبتهما كشف عورتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما، ولا أحدهما من الآخر. وفيه دليل على أن كشف العورة، ولو عند الزوج من غير حاجة - قبيح مستهجن فى الطباع.

﴿﴾ وقال ﴿﴾ لهما: ﴿﴾ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا ﴿﴾ كراهية ﴿﴾ أن تكونا ملكين ﴿﴾. واستدل به من قال بفضل الملائكة على الأنبياء، وجوابه: أنه كان من المعلوم عندهما أن الحقائق لا تَنَقَلِبُ، وإنما كانت رغبتهما فيما يحصل لهما من الغنى عن الطعام والشراب، فيمكن لهما الخلود فى الجنة، ولذلك قال: ﴿﴾ أو تكونا من الخالدين ﴿﴾ الذين يخلدون فى الجنة.

ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿ما نهاكما ربكما﴾، أن آدم عليه السلام لم يكن ناسيا للنهى، وإلا لما ذكره بقوله: ﴿ما نهاكما ربكما﴾، وقوله فى سورة طه: ﴿فَنَسِيَ﴾، أى: نسى أنه عدوله، ولذلك ركن إلى نصيحته، وقبل منه حتى تأول أن النهى عن عين الشجرة لا عن جنسها، فأكل من جنسها؛ رغبة فى الخلود، ولكنه غره من حيث الأخذ بالظواهر وترك الاحتياط.

ولم يقصد إبليس إخراجهما من الجنة، وإنما قصد إسقاطهما من مرتبتهما، وإبعادهما كما بعد هو، فلم يبلغ قصده ولا أدرك مراده، بل ازداد سخينة عين، وغيظ نفس، وخيبة ظن. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (١)، فصار عليه السلام خليفة لله فى أرضه، بعد أن كان جاراً له فى داره، فكم بين الخليفة والجار؟

(١) الآية ١٢٢ من سورة طه.

﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أى: حلف لهما ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ فيما قلت لكما. وذكر قسم إبليس بصيغة المفاعلة التى تكون بين اثنين مبالغة؛ لأنه اجتهد فيه، أو لأنه أقسم لهما، وأقسم له أن يقبل نصيحته.

﴿فَدَلَاهُمَا﴾، أى: أنزلهما إلى الأكل من الشجرة، ﴿بَغُرُورٍ﴾ أى: بما غرهما به من القسم، لأنهما ظنا أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا، ﴿فلما ذاقا الشجرة﴾ أى: وجدا طعمها، آخذين فى الأكل منها، ﴿بدت لهما سوراتهما﴾، وتهافت عنهما ثيابهما، فظهرت لهما عوراتهما؛ أدبا لهما. وقيل: كان لباسهما نورا يحول بينهما وبين النظر، فلما أكلا انكشف عنهما، وظهرت عورتهم، ﴿وطفقا﴾ أى: جعلا ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أى: أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة ليستقرا به، قيل: كان ورق التين. فأدم أول من لبس المرقعة، ﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾؛ هذا عتاب على المخالفة، وتوبيخ على الاغترار بالعدو. وفيه دليل على أن مطلق النهى للتحريم.

ثم صرحا بالتوبة فقالا: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ حين صدرناها للمعصية، وتعرضنا للإخراج من الجنة، ﴿وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾؛ وهذه هى الكلمات التى تلقاها من ربه فتاب عليه بها.

قال البيضاوى: فيه دليل على أن الصغائر يعاقب عليها إن لم تغفر، وقالت المعتزلة: لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر، ولذلك قالوا: إنما قالوا ذلك على عادة المقربين فى تعظيم الصغير من السيئات، واستحقاق العظيم من الحسنات. هـ.

﴿قال اهبطوا﴾؛ الخطاب لآدم وحواء وذريتهما، أو: لهما ولإبليس، وكرر الأمر له تبعا؛ ليعلم أنهم قرناء له أبدا. حال كونكم ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ أى: متعادين، ﴿ولكم فى الأرض مستقر﴾ أى: استقرار، ﴿ومتاع﴾ أى: تمتع، ﴿إلى حين﴾ انقضاء آجالكم، ﴿قال فيها﴾ أى: فى الأرض ﴿تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ للجزاء، بالنعيم، أو بالعذاب الأليم، على حسب سعيكم فى هذه الدار الفانية.

الإشارة: قال بعض العارفين: كل ما نهى الله تعالى عنه فهو شجرة آدم، فمن دخل جنة المعارف، ثم غلبه القدر فأكل من تلك الشجرة - وهى شجرة سوء الأدب - أخرج منها، فإن كان ممن سبقت له العناية ألهم التوبة، فتاب عليه وهداه، وأهبطه إلى أرض العبودية؛ ليكون خليفة الله فى أرضه، فأنعم بها معصية أورثت الخلافة والزلفى. وفى الحكم: «ربما قضى عليك بالذنوب فكان سبب الوصول». وقال أيضا: «معصية أورثت ذلا وافتقارا، خير من طاعة أورثت عزاء واستكبارا». وقال بعضهم: كل سوء أدب يثمر لك أدبا فهو أدب. والله تعالى أعلم.

ثم ذكرهم بنعمة اللباس، الذي عوضهم به في الدنيا عن لباس الجنة، فقال:

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكْمُ وَرِيْشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قلت: من قرأ: (لباس)؛ بالرفع؛ فهو مبتدأ، والجملة: خبر، والرابط: الإشارة، والريش: لباس الزينة، مستعار من ريش الطير.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا﴾ أى: خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة، ونظيره: قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾^(٢). من صفة ذلك اللباس: ﴿يُورِي﴾ أى: يستر ﴿سَوَاءَ تَكْمُ﴾ التى قصد إبليس إبداءها، ويغديكم عن خصف الورق. روى أن العرب كانوا يطوفون بالببيت عراة، ويقولون: لا نطوف فى ثياب عصينا الله تعالى فيها، فنزلت. ولعل ذكر قصة آدم مقدمة لذلك؛ حتى يعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان، وأنه أغواهم فى ذلك كما أغوى أبويهم. قاله البيضاوى.

﴿وَرِيْشًا﴾ أى: ولباساً فاخراً تتجملون به ﴿وَلِبَاسٌ﴾ أى: وأنزلنا عليكم لباس ﴿التَّقْوَىٰ﴾؛ وهى خشية الله تعالى، أو الإيمان، أو السمات الحسن، واستعار لها اللباس؛ كقولهم: ألبسك الله لباس تقواه، وقيل: لباس الحرب. ومن قرأ بالرفع؛ فخبيره: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أى: لباس التقوى خير من لباس الدنيا؛ لبقائه فى دار البقاء دون لباس الدنيا؛ فإنه فان فى دار الفناء، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى: إنزال اللباس من حيث هو خير ﴿من آيات الله﴾ الدالة على فضله ورحمته، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ فيعرفون نعمه، فيشكرون عليها، أو يتعظون فينزعجون عن القبائح.

الإشارة: اللباس الذى يوارى سوءات العبودية - أى: نقائصها - هى أوصاف الربوبية ونعوت الألوهية؛ من عز وغنى، وعظمة وإجلال، وأنوار وأسرار، التى أشار إليها فى الحكم بقوله: «لو كنت لا تصل إليه إلا بعد فناء مساوئك، ومحو دعاويك، لم تصل إليه أبداً، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه، ونعتك بنعته، فوصلك بما منه إليك، لا بما منك إليه». والريش هو بهجة أسرار المعانى التى تغيب ظلمة الأوانى، أو بهجة الأنوار التى تُفنى الأغيار، ولباس التقوى هى حفظه ورعايته لأوليائه فى الظاهر والباطن مما يكدر صفاءهم أو يطمس أنوارهم. والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ٦ من سورة الزمر.

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الحديد.

ثم حذّرهم من الشيطان، وأعلمهم بسابق عداوته، فقال:

﴿يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمَانِ إِنَّهُ يَرْتِكُمُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يأبني آدم لا يفتنكُم الشيطان﴾؛ بأن يشغلكم عما يقربكم إلى الله، ويحملكم على ما يمنعكم من دخول جنته، ﴿كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ بسبب غروره، والذهي، في اللفظ، للشيطان، والمراد: نهيمهم عن اتباعه. حال كون أبويكم ﴿ينزع﴾ الشيطان ﴿عنهما لباسهما﴾ بسبب غروره لهما، وإسناد النزاع إليه: مجاز؛ للسببية؛ ﴿ليريهما سوء تهما إنهما يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾، وهو تعليل للنهي، وتحذير من فتنته، و﴿قبيله﴾: جنوده. ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم في الجملة لا يقتضي امتناع رؤيتهم وتمثلهم لنا، وقد جاءت في رؤيتهم أحاديث صحيحة؛ فتحمل الآية على الأكثر والغالب. قال تعالى: ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾؛ بما أوجدنا بينهم من التناسب، أو بإرسالهم عليهم، وتمكينهم من خذلانهم، وحملهم على ماسولوا لهم، والآية هي مقصود القصة وفذلكة الحكاية. قاله البيضاوي.

الإشارة: الحكمة في خلق الشيطان هي كونه منديلاً تمسح فيه أوساخ الأقدار، وكونه يحوش أولياء الله إلى الله، كلما نخسهم بنزعه فزعوا إلى مولاهم، فلا يزال بهم كذلك حتى يوصلهم إلى حضرته، فحينئذ ينقاد إليهم، ويخدمهم بأولاده. وفي الحكم: «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عن ناصيتك بيده».

قال محمد بن واسع: تمثل لي الشيطان في طريق المسجد، فقال لي: يا ابن واسع، كلما أردت أن وجدت بيني وبينك حجاباً، فما ذاك؟ قال: أقرأ، كلما أصبحت؛ اللهم إنك سلطت علينا عدواً من أعدائنا، بصيراً بعيوبنا، مطلعاً على عوراتنا، يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم، اللهم آيسه منا كما آيسته من رحمتك، وقنطه منا كما قنطته من عفوك، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بين المشرق والمغرب - وفي رواية: كما باعدت بينه وبين جنتك - إنك على كل شيء قدير. هـ.

ثم ذكر مساوئ أولياء الشيطان، فقال:

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (٣٠)

يقول الحق جل جلاله، في وصف المشركين: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً ﴾ أى: فعلت متناهية في القبح؛ كعبادة الصنم، وكشف العورة في الطواف، احتجوا بفعل آبائهم فقالوا: ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ فاعتذروا بعندين باطلين: أحدهما: تقليد آبائهم، والآخر: افتراءهم على الله، فأعرض عن الأول؛ لظهور فساده، ورد الثانى بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾؛ لأن الله تعالى جرت عادته على الأمر بمحاسن الأفعال ومكارم الخلال. ولا حجة فيه للمعتزلة. انظر البيضاوى.

والآية كأنها جواب سؤالين مترتبين؛ كأنه قيل لهم: لِمَ فعلتم هذه الفواحش؟ قالوا: وجدنا عليها آباءنا، فقيل: ومن أين أخذها آبائكم؟ قالوا: الله أمرنا بها، فكذبهم الله بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، أى: أنتقلون على الله ما لا علم لكم به؛ إنكار يتضمن النهى عن الافتراء على الله.

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ أى: العدل، وهو الوسط من كل أمر، المتجافى عن طرفى الإفراط والتفريط، وأمر بأن قال: ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أى: افعلوا الصلاة فى كل مكان يمكن فيه السجود إذا حضرتمكم، ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم. والمعنى: إباحة الصلاة فى كل موضع، فهو كقوله ﷺ: «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا». وقيل: المراد إحضار النية والإخلاص لله فى كل صلاة بدليل قوله: ﴿ وَادْعُوهُ ﴾ أى: اعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى: الطاعة، فلا تعبدوا معه غيره، فإنكم راجعون إليه، ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ فيجازيكم على أعمالكم، فاحتج على البعث الأخرى بالبداة الأولى؛ لاشتراكهما فى تعلق القدرة بهما، بل العود أسهل باعتبار العادة، وقيل: كما بدأكم من التراب، تعودون إليه، وقيل: كما بدأكم حفاة عراة غرلا، تعودون، وقيل: كما بدأكم مؤمنًا وكافرًا، يعيدكم. قاله البيضاوى.

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ ﴾؛ بأن وفقهم للإيمان، ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾؛ بمقتضى القضاء السابق، أى: خذل فريقًا حق عليهم الضلالة، ﴿ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ ﴾ يطيعونهم فيما يأمرهم به، ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾،

وهذا تعليل لخذلانهم وتحقيق لضلالتهم، ﴿وَيَحْسِبُونَ﴾ أى: يظنون ﴿أنهم مهتدون﴾، فهم على جهل مركب، وفيه دليل على أن الكافر المخطئ والمعاند: سواء فى الذم واستحقاق العذاب؛ إذ لا يعذر بالخطأ فى أمر التوحيد.

الإشارة: تقليد الآباء فى المساوى من أقبح المساوى، واحتجاج العبد بتخليته مع هواه هو ممن اتخذ إلهه هواه، إن الله لا يأمر بالفحشاء، فإذا قال العبد - فى حال انهماكه: هكذا أحببني ربي، فهو خطأ فى الاحتجاج؛ بل يجاهد نفسه فى الإقلاع، ويتضرع إلى مولاه فى التوفيق؛ فإن الحق تعالى إنما يأمر بالعدل والإحسان، ودوام الطاعة والإذعان، والخضوع لله فى كل زمان ومكان، والتحقق بالإخلاص فى كل أوان، وإفراد المحبة والولاية للكریم المنان. وبالله التوفيق.

ثم أمرهم بستر العورة فى الصلاة والطواف، فقال:

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١)

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم﴾ أى: ثيابكم التى تستر عورتكم، ﴿عند كل مسجد﴾ لطواف أو صلاة، واحتج به من أوجب ستر العورة فى الصلاة، ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن ثيابه للصلاة، وقيل: المراد بالزينة: زيادة على الستر، كالتجمل للجمعة بأحسن الثياب وبالسواك والطيب، ﴿وكلوا واشربوا﴾ أمر إباحة؛ لما روى أن بنى عامر، فى أيام الحج، كانوا لا يأكلون من الطعام إلا قوتاً، ولا يأكلون دسماً؛ يعظمون بذلك حجهم، وهم المسلمون بذلك، فنزلت.

﴿ولا تسرفوا﴾؛ بتحريم الحلال، أو بالتقدم إلى الحرام، أو بإفراط الطعام والشره إليه، وقد عدّ فى الإحياء من المهلكات: شره الطعام، وشره الوقاع، أى: الجماع. ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾؛ لا يرتضى فعلهم. وعن ابن عباس رضي الله عنه: (كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة) (١) أى: تكبر. وقال على بن الحسين بن واقد: جمع الله الطب فى نصف آية؛ فقال: ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾.

الإشارة: إنما أمر الحق - جل جلاله - بالتزين للصلاة والطواف؛ لأن فيهما الوقوف بين يدي ملك الملوك، وقد جرت عادة الناس فى ملاقات الملوك: التهيب لذلك بما يقدر عليه من حسن الهيئة؛ لأن ذلك زيادة تعظيم

(١) أخرجه ابن أبى شبة فى المصنف (الأدب واللباس) موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه. وأخرجه مرفوعاً للنسائي فى (الزكاة، باب الاختيال فى الصدقة) وابن ماجه فى (اللباس، باب البس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة) وأحمد فى المسند ١٨١/٢ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم يخالطه إسراف أو مخيلة».

للملك، وتزيين البواطن بالمحبة والوداد أحسن من تزيين الظواهر وخراب البواطن؛ «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (١). وملاقاة الملك بالذل والانكسار أحسن من ملاقاته بالتكبر والاستظهار. والله تعالى أعلم.

ولما تعاهدت قريش، ومن دان دينها، أنهم لا يأكلون أيام الحج دسماً ولا سمناً ولا أقطاً ولا طعاماً جاء من الحل، رد الله عليهم بقوله:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٣٤)

قلت: من قرأ: (خالصة)؛ بالرفع، فخير بعد خير، أو خير عن مضمر، ومن قرأ بالنصب، فحال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قُلْ ﴾ لهم: ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ﴾؛ وهى ما يتجمل به من الثياب وغيرها، ﴿ التى أخرج لعباده ﴾ من النبات؛ كالقطن والكتان، أو الحيوان؛ كالحرير والصوف والوبر، والمعادن؛ كالدرع والحلى، ﴿ و ﴾ قُلْ أيضاً: من حرم ﴿ الطيبات من الرزق ﴾ أى: المستلذات من المأكول والمشرب، ويدخل فيها المناكح؛ إذ هى من أعظم الطيبات. وفيه دليل على أن الأصل فى المطاعم والملابس وأنواع التجملات: الإباحة؛ لأن الاستفهام للإنكار، وبه رد مالك - رحمه الله - على من أنكر عليه من الصوفية، وقال له: اتق الله يا مالك؛ بلغنى أنك تلبس الرقيق، وتأكل الرقاق، فكتب إليه بالآية.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾، ويشاركهم فيها الكفار، ويوم القيامة تكون ﴿ خالصة ﴾ لهم دون غيرهم. ﴿ كذلك نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أى: كتفصيلنا هذا الحكم نُفَصِّلُ سائر الأحكام ﴿ لقوم يعلمون ﴾ فينزلونها فى محلها بخلاف الجاهل.

(١) أخرجه مسلم فى (البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾؛ وهى ما تزايد قبحها من المعاصى، وقيل: ما يتعلق بالفروج، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أى: جهرها وسرها، أو ما يتعلق بالجوارح الظاهرة والعوالم الباطنية وهى القلوب، ﴿وَالْإِثْمَ﴾؛ كقطع الرحم، أو عام فى كل ذنب، ﴿وَالْبَغْيَ﴾؛ وهو الظلم؛ كقطع الطريق والغصب، وغير ذلك من ظلم العباد، أو التكبر على عباد الله؛ وقوله: ﴿بَغْيِرَ الْحَقِّ﴾: تأكيد له فى المعنى. ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أى: حجة على استحقاق العبادة، وهو تهكم بالمشركين، وتنبية على تحريم ما لم يدل عليه برهان. ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الإلحاد فى صفاته، والافتراء عليه؛ كقولهم: ﴿اللَّهُ أَمَرَنَا﴾ (١)، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ (٢).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أى: مدة ووقت لنزول العذاب بها إن لم يؤمنوا، وهو تهديد لأهل مكة، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ أى: انقضت مدتهم، أو دنى وقت هلاكهم، ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ عنه ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أى: لا يتأخرون ولا يتقدمون عنه أقصر وقت، أو لا يطيقون التقدم والتأخر لشدة الهول، وجعل بعضهم: (ولا يستقدمون) استثناءً؛ لأن الأجل إذا جاء لا يتصور التقدم، وحينئذ يوقف على: «ساعة»، ثم يقول: ولا هم يستقدمون عنه قبل وصوله.

الإشارة: قال شيخنا البوزيذى رحمته الله: زينة الله التى أظهر لعباده هى لباس المعرفة، وهو نور التجلى، والطيبات من الرزق هى حلاوة الشهود. هـ. وهى لمن كمل إيمانه وصدقته فى الحياة الدنيا، وتصفوه إلى يوم القيامة، فهى حلال على أهل التجريد؛ يتمتعون بها فى الدارين، وإنما حرّم عليهم ما يشغلهم عن ربهم من جهة الظاهر، وما يقطعهم عن شهوده من جهة الباطن، وسوء الأدب مع الله، والتعرض لعباد الله، والشرك بالله؛ بأن يشهدوا معه سواه، وأن يقولوا على الله ما يوهم نقصاً أو خلافاً فى أنوار جماله وسنائه. والله تعالى أعلم.

ثم إن العباد والزهاد وأهل البداية من المريدين السائرين - ينبغى لهم أن يزهدوا فى زينة الدنيا وطيباتها؛ لئلا تركزن إليها نفوسهم، فيثبط سيرهم، وأما الواصلون فهم مع الله، لا مع شىء سواه، يأخذون من الله بالله، ويدفعون بالله، وقد اتسعت دائرة علمهم، فليسوا مع لباس ولا أكل ولا شرب ولا جوع ولا شبع، هم مع ما يبرز فى الوقت من المقدورات. والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ٢٨ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ١٤٨ من سورة الأنعام.

ثم وصاهم على الإيمان بالرسول، عند ظهورهم، فقال:

﴿يَبْنِيءَ آدَمَ إِمَامًا يَأْتِينَكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَقْصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قلت: (إما): شرط مؤكد بما ذكره بحرف الشك؛ للتنبيه على أن إتيان الرسل جائز، غير واجب، كما ظله المعتزلة، وجوابه: (فمن اتقى.. الخ، وإدخال الفاء في الجواب الأول دون الثاني؛ للمبالغة في الوعد والمسامحة في الرعيد. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ مهما ﴿يَأْتِينَكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَقْصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ الدالة على توحيدى ومعرفتى، ﴿فَمَنِ اتَّقَى﴾ الشرك والكذب، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ فيما بينى وبينه، منكم، بالعمل الصالح، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، فمن كمال الإيمان: أن يقدر الإنسان نفسه أن لو كان فى زمان كل رسول، لكان أول من تبعه، ولكان من خواص أصحابه، هكذا يسير بعقله مع كل رسول من زمان آدم ﷺ إلى مبعث رسولنا محمد ﷺ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد جعل الله لكل نبي خلفاء يخلفونه فى تبليغ أحكامه الظاهرة والباطنة، وهم العلماء الأتقياء، والأولياء العارفون الأصفياء، فمن أراد أن يكون ممن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فليتبع علماء أهل زمانه فى الشريعة، وأولياء أهل عصره فى تربية الحقيقة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد من استكبر، فقال:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ بأن نسب إليه الولد والشريك، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ التى جاءت بها الرسل من عنده، أى: لا أحد أظلم منه، أو: نقول على الله ما لم يقله، وكذب بما

قَالَ، ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أَي: يُلْحَقُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِمَّا كُتِبَ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ؛ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْأَجَالِ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ انْقَضَتْ أَعْمَارُهُمْ وَ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أَي: يَتَوَفَّوْنَ أَرْوَاحَهُمْ، ﴿قَالُوا﴾ لَهُمْ تَوْبِيخًا: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: أَيْنَ الْآلِهَةُ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ لِتُدْفَعَ عَنْكُمْ الْعَذَابُ؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ غَابُوا عَنَّا ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾، اعْتَرَفُوا بِأَنَّهُمْ كَانُوا ضَالِّينَ فِيمَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَنَدِمُوا حَيْثُ لَمْ يَنْفَعِ الدَّمُ، وَقَدْ زَلَّتْ بِهِمُ الْقَدَمُ.

الإشارة: كل من أعرض عن خصوص أهل زمانه، واشتغل بمتابعة حظوظه وهواه، ينال نصيبه من الدنيا الفانية وما قُسم له فيها؛ فإذا جاءت مديته ندم وتحسر، وقيل له: أين ما تمتعت به وشغلك عن مولاك؟ فيقول: قد غاب ذلك وفنى وانقضى، وكأنما كان برقاً سرى، أو طيف كرى، والدهر كله هكذا؛ لمن سدد نظراً، وعند الصباح يحمد القوم السرى، ومتعلم، إذا انجلي الغبار، أفرس تحتك أم حمار.

وقد قال ﷺ في بعض خطبه: «لَا تَخْذَعْلَكُمْ زُخَارِفُ دُنْيَا دُنْيَةٍ، عَنْ مَرَاتِبِ جَنَاتٍ عَالِيَةٍ؛ فَكَانَ قَدْ كُشِفَ الْقِنَاعُ، وَارْتَفَعَ الْارْتِيَابُ، وَلَاقَى كُلُّ أَمْرٍ مَسْتَقَرَّهُ، وَعَرَفَ مَثْوَاهُ وَمُنْقَلَبَهُ». وفي حديث آخر: «مَنْ بَدَأَ بِنَصِيبِهِ مِنَ الدُّنْيَا فَاتَهُ نَصِيبُهُ مِنَ الْآخِرَةِ، وَلَمْ يُدْرِكْ مِنْهَا مَا يَرِيدُ، وَمَنْ بَدَأَ بِنَصِيبِهِ مِنَ الْآخِرَةِ، وَصَلَ إِلَيْهِ نَصِيبُهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَدْرَكَ مِنَ الْآخِرَةِ مَا يَرِيدُ».

ثم ذكر عذاب أهل التكذيب، فقال:

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأُولَٰئِهِمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَاتِبَهُمْ عَذَابًا ضَعِيفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَتْ أُولَٰئِهِمْ لِأَخْرَيْنَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قَالَ﴾ الله تعالى أَي: يوم القيامة للكفار، بواسطة ملك، أو بغيرها: ﴿ادْخُلُوا فِي﴾ جملة ﴿أُمَمٍ﴾ كانوا من قبلكم؛ ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ متفقين معكم في الكفر والضلال، فادخلوا مصاحبين معهم ﴿فِي النَّارِ﴾. قال تعالى، مخبراً عن حالهم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ منهم في النار ﴿لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي ضلّت

بالاقتداء بها، ﴿حتى إذا أدركوا﴾ أى: تداركوا وتلاحقوا، ﴿فيها جميعاً قالت أخرجهم﴾؛ دخولاً أو منزلة، وهم الأتباع السفلة، ﴿لأولاهم﴾ وهم المتبوعون الرؤساء - أى: قالت لأجلهم؛ لأن الخطاب مع الله لا معهم، قالوا: ﴿ربنا هؤلاء﴾ الرؤساء ﴿أضلونا﴾؛ حيث سئروا لنا الضلال فاقتدينا بهم، ﴿فأتهم عذاباً ضعفاً﴾ أى: مضاعفاً ﴿من النار﴾؛ لأنهم ضلوا وأضلوا. ﴿قال﴾ تعالى: ﴿لكلٍّ واحد منكم﴾ ﴿ضعف﴾ أى: عذاباً مضاعفاً، أما القادة؛ فكفرهم وتضليلهم، وأما الأتباع؛ فكفرهم وتقليدهم، ﴿ولكن لا تعلمون﴾ ما لكم، أو ما لكل فريق منكم.

﴿وقالت أولاهم لأخرجهم﴾ أى: المتبوعون للأتباع: ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ فى الإيمان والتقوى توجب أن يكون عذابنا أشد من عذابكم، حتى يتضاعف علينا العذاب دونكم؛ فإنا وإياكم متساوون فى الضلال واستحقاق العذاب، ﴿فذوقوا﴾ أى: باسروا ﴿العذاب بما كنتم تكسبون﴾؛ هو من قول القادة، أو من قول الله - تعالى - لجميعهم.

الإشارة: إذا قامت القيامة تحققت الحقائق، وتميزت الطرائق، للخاص والعام، فيرتفع المقربون فى أعلى عليين، ويبقى أهل اليمين فى أسفل منازل أهل الجنة مع عوام المسلمين، فيتعلق عوامهم بخواصهم، فيقولون لهم: أنتم رددتمونا عن صحبة هؤلاء، وأنتم خذلتُمونا عنهم، ثم يقولون: ربنا هؤلاء أضلونا عن صحبة هؤلاء المقربين، فأتهم حجاباً ضعفاً مما لنا، قال: لكل ضعف من الحجاب، هم بتضليلهم لكم عن صحبتهم، وأنتم بتقليدكم لهم، ولكن لا تعلمون ما أعددت للمقربين حين صبروا على جفاكم، وتحملوا مشاق طاعتي ومعرفتي؛ لأن كل آية فى الكفار تجر ذيلها على أهل الغفلة من المؤمنين. والله تعالى أعلم.

ثم حرم على الكفار دخول الجنة، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾
﴿مَهَادُوٌّ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

قلت: (سمّ الخياط): عين الإبرة، وفى السين: الفتح والكسر والضم، والخياط: ما يخاط به، على وزن حِزام، والتنوين فى (غواش): للعوض عن الياء، عدد سيبويه، وللصرف عدد غيره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن: الإيمان بها، ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾؛ لادّعتيهم وأعمالهم؛ فلا تقبل، أو: لا تفتح لأرواحهم إذا ماتوا، بل تغلق دونها إذا وصلت بها

الملائكة إليها، فيطرحونها فتسقط من السماء، بخلاف أرواح المؤمنين؛ تفتح لهم أبواب السماء حتى يفضوا إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ﴾ أى: يدخل، ﴿الْجَمَلُ﴾ وهو البعير ﴿فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أى: فى ثقب الإبرة، والمعنى: لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبداً، فلا يدخلون الجنة أبداً، وقرأ ابن عباس (الْجَمَلُ)؛ بضم الجيم وسكون الميم، وهو حبل السفينة، الذى جُمِعَ بعضُه إلى بعض حتى صار أغلظ ما يكون .

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي المجرمين، ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أى: فراش، ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أى: أغطية من النار. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ عبّر عنهم بالمجرمين تارة، وبالظالمين أخرى؛ إشعاراً بأنهم يتكذيبهم الآيات، اتصفوا بالجرم والظلم، وذكر مع الحرمان من الجنة: الجرم، ومع التعذيب بالنار: الظلم؛ تنبيهاً على أن الظلم أعظم الإجرام.

الإشارة: أهل التربية النبوية من الشيوخ العارفين: آية من آيات الله، من كَذَبَ بهم، واستكبر عن الخضوع لهم، لا تفتح لفكرته أبواب السماء، بل يبقى مسجوناً بمحيطاته، محصوراً فى هيكل ذاته، ولا يدخل جنة المعارف أبداً، بل يحيط به الحجاب من فرقه ومن أسفله، فتحصّر روحه فى الأكوان، ولم تفض إلى فضاء الشهود والعيان. وفى الحِكْمِ: «الكائن فى الكون، ولم تفتح له ميادين الغيوب، مسجون بمحيطاته، محصور فى هيكل ذاته». وقال أيضاً: «وسعك الكون من حيث جثمانيتك، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك»، فكل من لم تثبت له الروحانية: فهو محصور فى الكون، وكل من تثبت له الروحانية؛ بأن استولى معناه على حسه، لم يسعه الكون، ولم يحصره عرش ولا فرش، وكذلك الصوفى؛ لا تظله السماء ولا تقله الأرض، أى: لا يحصره الكون من حيث فكرته. والله تعالى أعلم.

ثم شفع بضدّهم، فقال:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنُدْخِلَنَّهُمْ الْجَنَّاتِ﴾
 ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لهذا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدانا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
 ﴿٤٣﴾

قلت: جملة (لا نُكَلِّفُ): معترضة بين المبتدأ والخبر؛ للترغيب في اكتساب النعيم المقيم، بما تسعه طاقاتهم، ويسهل عليهم، و (ما كنا لنهتدي): اللام لتأكيد النفي، وجواب «لولا»: محذوف، أى: لولا هدايته إيانا ما اهتدينا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالرسول، ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ على قدر طاقاتهم، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى: ما تسعه طاقتها، فمن فعل ذلك ف﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ ﴿أَي: نُخْرِجُ مِنْ قُلُوبِهِمْ كُلَّ غُلٍّ وِعْدَاةٍ، وَنُظْهِرُهَا مِنْهُ، حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهُمْ إِلَّا التُّودُّ، فَيَصِيرُونَ أَحِبَّاءًا وَإِخْوَانًا، وَإِنَّمَا عَبَّرَ بِالْمَاضِي؛ لِتَحَقُّقِ وَقْعِهِ، كَأَنَّهُ وَقَعَ وَمَضَى، وَكَذَلِكَ مَا يَجِيءُ بَعْدَهَا، ثُمَّ وَصَفَ الْجَنَّةَ فَقَالَ: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ﴾ أى: من تحت قصورهم، ﴿الْأَنْهَارُ﴾ من عسل وخمر وماء ولبن؛ زيادة في لذتهم وسرورهم، فالقصور مرتفعة في الهواء، والأنهار تجري تحتها.

﴿وَقَالُوا﴾ حينئذ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ أى: لما جزاؤه هذا النعيم من الإيمان في الدنيا والعمل الصالح، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ بأنفسنا ﴿لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ بتوفيقه وإرادته، ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فاهتدينا بإرشادهم، يقولون ذلك اغتباطاً وتبجحاً بأن ما عملوه في الدنيا يقيناً، صار لهم عين اليقين في الآخرة، ﴿وَنُودُوا﴾ أى: نادتهم الملائكة، أو الحق تعالى: ﴿أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾ أى: هذه الجنة ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ أى: أعطيتُموها ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: بسبب أعمالكم، وهذا باعتبار الشريعة، وأما باعتبار الحقيقة فكل شيء منه رالیه . ولذلك قال ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدُكُمْ عَمَلُهُ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ، قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ» (١). فالشريعة تنسب العمل للعبد، والحقيقة تعزله عنه، وقد آذنت بها الآية قبله بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾، فقد نطقوا بما تحققوا به يوم القيامة.

وقال القشيري: إنما قال: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ تسكيناً لقلوبهم، وتطييناً لهم، وإلاً، فإذا رأوا تلك الدرجات، علموا أن أعمالهم المشوبة لم تبلغ تلك الدرجات. هـ. وعن ابن مسعود أنه قال: (يجوزون الصراط بعفو الله، ويدخلون الجنة برحمة الله، ويقتسمون المنازل بأعمالهم). هـ.

الإشارة: والذين آمنوا بطريق الخصوص، وعملوا الأعمال التي تناسبها، من خرق العوائد واكتساب الفوائد، والتخليّة من الرذائل والتحلية بأنواع الفضائل على حسب الطاقة؛ أولئك أصحاب جنة المعارف، هم فيها خالدون في الدنيا والآخرة، قد نزع الله من قلوبهم المساوىء والأكدار، وطهرها من جملة الأغيار، حتى صاروا إخواناً متحابين؛ لا لغو بينهم ولا تأثيم، تجري من تحت أفكارهم أنهار العلوم، وتفتح لهم مخازن الفهم، فإذا تمكنوا من

(١) أخرجه البخاري في (الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل) من حديث السيدة عائشة - رضى الله عنها.

هذه الحضرة (قالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله)، تحققوا أنهم محمولون بسابق العناية، محفوفون بعين الرعاية، فتحققوا بما جاءت به الرسل من عند الله، وما نالوه على يد أولياء الله من الذوق والوجدان، وكشف الغطاء عن عين العيان، منحنا الله من ذلك حظاً وافراً، بمنه وكرمه.

ثم ذكر تبجح أهل الجنة على أهل النار، فقال:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَنَدْخُلَنَّهُمْ فَمَا وَهُمْ يُطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

قلت: (أن): فى هذه المواضع: مخففة من الثقيلة، أو: تفسيرية، وحذف مفعول: (وعد) الثانى؛ استغناء بمفعول وعد الأول، أو لإطلاق الوعد، فيتناول الثواب والعقاب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من النعيم ﴿حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ أَنْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من البعث والحساب ﴿حَقًّا﴾، إنما قال أهل الجنة ذلك؛ تبجحاً بحالهم، وشماتة بأصحاب النار، وتحسيراً لهم، فأجابهم أهل النار بقولهم: ﴿نعم﴾، قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين: ﴿أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾؛ الكافرين، ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ النَّاسَ﴾ عن سبيل الله ﴿وَهُى الْإِسْلَامُ﴾، ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أى: يطلبونها لها ﴿عِوَجًا﴾؛ زيفاً وميلاً عما هو عليه من الاستقامة، أو يطلبونها أن تكون ذات عوج، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أى: جاحدون.

﴿وبينهما﴾ أى: بين الفريقين ﴿حِجَابٌ﴾، أو بين الجنة والنار حجاب، يمنع دخول أثر أحدهما للأخرى، ﴿وعلى الأعراف﴾؛ وهو السور المضروب بين الجنة والنار، ﴿رِجَالٌ﴾؛ طائفة من الموحدين استوت حسناتهم وسيئاتهم، كما فى الحديث. وقال فى الإحياء: يشبه أن يكونوا من لم تبلغهم الدعوة فى أطراف البلاد، فلم تكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية، فلا وسيلة تقريبهم، ولا جناية تبعدهم، ولهم السلامة فقط، لا تقريب ولا تبعيد. هـ. قلت: لكن سيأتى أنهم يدخلون الجنة.

ثم وصفهم بقوله: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنة والنار، ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾: بعلامتهم التي أعلمهم الله بها؛ كيباض الوجوه في أهل الجنة، وسوادها في أهل النار، أو غير ذلك من العلامات. ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، إذا نظروا إليهم، فقالوا لهم: ﴿أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، أى: نادوهم بالسلام عليهم، ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أى: الجنة، ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فى دخولها.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أى: التفتوا إليهم على وجه القلة، تعوذوا من حالهم، ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فى النار.

الإشارة: إذا وصل أهل الجَد والتشمير إلى حضرة العلى الكبير؛ نادوا أهل البطالة والتقصير، فقالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا؛ من كشف الحجاب والدخول مع الأحباب، حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً كما وجدنا نحن؟ قالوا على وجه الدعوى والغلط: نعم، فأذن مؤذن بينهم، بلسان الحال: أن لعنة الله على الظالمين؛ الذين بقوا مع حظوظ أنفسهم، ولم يخرقوا شيئاً من عوائدهم، مع تراميهم على مراتب الرجال، وادعائهم بلوغ غاية الكمال، الذين يصدرن عن طريق الخصوص ويبغونها عوجاً، وهم بالخصلة الآخرة - وهى إشراق نور الحقيقة على أهل التربية - هم كافرون، وبينهما حجاب كبير، وهو حجاب الغفلة، فلا يعرفون أهل اليقظة، وهم أهل مقام الإحسان، بل بينهما مفارز ومهامه^(١)، كما قال الشاعر:

تَرَكْنَا الْبُحُورَ الزُّخْرَاتِ وَرَأَيْنَا فَمِنْ أَيْنَ يَذَرِي النَّاسُ أَيْنَ تَوَجَّهْنَا

وعلى الأعراف؛ وهو البرزخ الذى بين الحقيقة والشرعية، رجال من أهل الاستشراق، يعرفون كلاً من العوام والخواص بسيماهم، ونادوا أصحاب الجنة أى: الواصلين إلى جنة المعارف: أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون، لأنهم فى حالة السير، وإذا صرقت أبصارهم تلقاء أصحاب النار، أى: نار الحجاب والتعب، وهم العوام، قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

ثم ذكر شماتة أهل الأعراف بأهل النار، فقال:

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ أَهْتُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿٤٩﴾

(١) المهامة: جمع مهمّة: وهى المفازة البعيدة. انظر اللسان (مهمه).

قلت: (ما أغنى): استفهامية أو نافية، و(ما كنتم): مصدرية، و(ادخلوا): محكى بقول محذوف، أى: قيل لهم ادخلوا... الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً﴾ من رؤساء الكفرة، ﴿يعرفونهم بسيماهم﴾؛ بعلامة فيهم من سوء حالهم، ﴿قالوا﴾ لهم: ﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾ أى: كثرتكم، أو جمعكم للمال، شيئاً أو أى شيء أغنى عنكم جمعكم، ﴿وما كنتم تستكبرون﴾؟ أى: واستكباركم؟ ﴿أهلؤا الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ وهم ضعفاء المسلمين الذين كانت الكفرة تستحقهم فى الدنيا، ويحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة، قد قيل لهم: ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾. أو تقول الملائكة لأهل الأعراف: ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾، بعد أن حبسوا على الأعراف حتى أبصروا الفريقين وعرفوهم، وقالوا لهم ما قالوا، تفضل الله عليهم، فقيل لهم: ادخلوا الجنة.

وقيل: لما عير أصحاب الأعراف أهل النار، أقسموا - أى: أهل النار - أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة، فقال لهم الله تعالى: ﴿أهلؤا الذين أقسمتم لا ينالهم برحمة، ادخلوا﴾ يا أهل الأعراف «الجنة». والله تعالى أعلم.

الإشارة: أصحاب الأعراف: قوم من الصالحين حصل لهم محبة القوم، ليسوا من عوام أهل اليمين ولا من خواص المقربين، فإذا نظروا إلى أهل الطعن على الفقراء المتوجهين، والترفع عليهم، قالوا لهم: ما أغنى عنكم جمعكم واستكباركم، أهلؤا الذين كنتم تطعنون عليهم، وأقسمتم أنهم ليسوا على شيء؟ قد قيل لهم: ادخلوا الجنة المعارف لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون، وأنتم حصل لكم الخيبة، والحرمان، والأسر فى أيدي النفوس، والحصار فى سجن الأكوان، عائذاً بالله من ذلك.

ثم ذكر استغاثة أهل النار بأهل الجنة، فقال:

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إنا لله حرمهما على الكافرين﴾ ﴿٥٠﴾ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننسهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بشائناً يجمعون﴾ ﴿٥١﴾ ولقد جئناهم بكتب ففضلناه على علمهم هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ ﴿٥٢﴾ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسلنا بالحق فهل لنا

مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

قلت: (هدى ورحمة): حال من مفعول (فصلناه)، (فيشفعوا): جواب الإستفهام، (أو نرد): بالنصب: عطف عليه، وبالرفع: استئناف، فعلى الأول: المستول أحد الأمرين؛ إما الشفاعة أو الرد، وعلى الثاني: المستول الشفاعة فقط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ونادى﴾، يوم القيامة، ﴿أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا﴾ أى: صبوا ﴿علينا من الماء﴾، وفيه دليل على أن الجنة فوق النار، أو: صبوا علينا مما رزقكم الله؛ من سائر الأشربة، ليلائم قوله «أفيضوا»، أو: من الطعام؛ على حذف الفعل، أى: أو أعطونا مما رزقكم الله، ﴿قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾، أى: منعهما عنهم، ﴿الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعباً﴾؛ كتحرير البحائر والسوائب، والتصدية حول البيت، والطواف به؛ عريانا، وغير ذلك مما أحدثوه، واللهو: صرف القلب إلى ما لا يحصل به نفع أخروى. واللعب: طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به؛ لخلوه عن منفعة دينية، ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾؛ بأن أنسهم القيامة، ﴿فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا﴾، والكاف: للتعليل، أى: ننسأهم؛ لأجل نسيانهم لقاء يومهم هذا، فلم يخطر به بالهم، ولم يستعدوا له، ﴿وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ أى: نهملهم لأجل إهمالهم الاستعداد للقاء، وإهمالهم آياتنا حتى جحدوا أنها من عند الله.

﴿ولقد جنأهم بكتاب فصلناه على علم﴾ أى: بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ، مفصلة ﴿على علم﴾، أى: عالمين بوجه تفصيله حتى جاء فى غاية الإتقان، ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ فإنهم المنتفعون بهدايته ورحمته دون غيرهم.

﴿هل ينظرون﴾ أى: ما ينتظر الكفار به ﴿إلا تأويله﴾، أى: ما يقول إليه أمره؛ من تبين صدقه، بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد، بقيام الساعة وما بعدها، ﴿يوم يأتى تأويله﴾؛ بظهور ما نطق به، ﴿يقول الذين نسأه من قبل﴾، ولم يؤمنوا به: ﴿قد جاءت رسلنا بالحق﴾ أى: قد تبين أنهم جاءوا بالحق، وحصل لهم اليقين حيث لم ينفع، ثم طلبوا من يشفع فيهم فقالوا: ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ اليوم، ﴿أو نرد﴾ أى: وهل نرد إلى الدنيا ﴿فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾ فنستبدل الكفر بالإيمان، والعصيان بالطاعة والإذعان، أو: فيشفعوا لنا فى أحد الأمرين: إما السلامة من العذاب، أو الرد إلى الدنيا فنستبدل الكفر بالإيمان. قال تعالى: ﴿قد خسروا أنفسهم﴾؛ أى: بخسوها بسوء أعمالهم وكفرهم، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أى: غاب عنهم افتراؤهم فلم ينفعهم.

الإشارة: إذا وصل أهل الجد والتشمير إلى حضرة العلى الكبير، وأفاض عليهم من ماء غيبه، حتى امتلأت قلوبهم وأسرارهم، فأنمر لهم العلوم الدنية والأسرار الربانية؛ ناداهم أهل البطالة والتقصير: أفيضوا علينا من الماء الذى سقاكم الله منه، أو مما رزقكم من العلوم والمعارف. قالوا: إن الله حرمهما على البطالين؛ الذين اتخذوا طريق القوم لهواً ولعباً، وغرتهم الحياة الدنيا فقبضتهم فى شبكتها، فيقول تعالى: فالיום ننسأهم من لذيذ مشاهدتى، وحلاوة معرفتى، كما نسأ لقائى بشهود ذاتى، وأنكروا على أوليائى وأهل معرفتى، وجحدوا وجود التربية وحجروا على قدرتى، ولقد جلتأهم بكتاب فصلنا فيه كل شىء؛ فقلنا فيه: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ (١) إلى يوم القيامة، هل ينظرون إلا تأويله؟ يوم يأتى تأويله بظهور درجات المقربين، فى أعلى عليين، حينئذ يحصل لهم اليقين بوجود المقربين، أو بالتربية النبوية فى كل زمان وحين، فيطلب الشفاعة فى الحقوق بهم، أو يرد إلى العمل بعملهم.. هيهات! قد بعث ما فى القبور، وحصل ما فى الصدور، فخرس المبطلون، وفاز المجتهدون السابقون. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

ثم عرّف الحق - جل جلاله - بنفسه؛ ليعرفه من أراد معرفته فى الدنيا، فقال:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قلت: (حَثِيثًا) أى: سريعاً؛ صفة لمصدر محذوف، أى: طلباً حثيثاً، أو حال من الفاعل، أى: حائثاً، و(مسخرات) حال فيمن نصب، وخبر فيمن رفع، و(تضرعاً وخفية): مصدران، حالان من الوار، وكذلك (خوفاً وطمعاً) ..

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى يَسْتَحِقُّ أَنْ تَعْبُدُوهُ، هُوَ اللَّهُ﴾ وحده ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى: أظهرهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أى: مقدار ستة أيام من أيام الدنيا؛ إذ لم يكن ثم شمس، ولو شاء خلقهن فى لمحة، والعدل إليه؛ لتعليم خلقه التأنى والتثبت.

(١) من الآية ١٠٦ من سورة البقرة.

﴿ثم استوى على العرش﴾ استواء يليق به، والعرش: جسم عظيم محيط بالأكوان. سمي به؛ لارتفاعه، وللتشبيه بسرير الملك، فالأكوان في جوفه محوقة؛ فقد استولى عليها ومحققها، كذلك أسرار معاني الربوبية الأزلية. قد استولت عليه ومحققته، فيمكن أن يكون الحق تعالى عبّر بالاستواء عن هذا الاستيلاء، وسيأتي في الإشارة تمامه إن شاء الله.

وقال القشيري: ثم استوى على العرش، أي: تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت، وملوكنا إذا أرادوا التجلّى والظهور للحشَم والرعية؛ برزوا لهم على سرير مُلْكِهِمْ في إيوان مشاهدتهم. فأخبر الحق - سبحانه وتعالى - بما يَقْرُبُ من فَهْمِ الخلق، بما ألقى إليهم من هذه الكلمات، بأنه استوى على العرش، ومعناه: اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية، وانفراده بتعت الجبروت وجلاء الربوبية، وتقْدُسُ الجَبَّارُ عن الأقطار، والمعبود عن الحدود. هـ.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: يَغطِي نور النهار بظلمة الليل، ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ أي: يعقبه سريعاً؛ كالطالب له، لا يفصل بينهما شيء، ﴿و﴾ ﴿خَلَقَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ أي: بقضائه وتصريفه، ومن عجائب تسخيرها أن جعلها مقرونة بأمر غيبية، دالة على ظهور شيء منها.

واللهي عن النظر في النجوم أو تصديق المنجمين؛ إنما هو لمن اعتقد التأثير لها مستقلة بنفسها، أو تصديقهم في تفصيل ما يخبرون به؛ لأنهم إنما يقولون ذلك عن ظن وتخمين وجهل، فإن علم النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء، ثم اندرس ذلك العلم، فلم يبق إلا ما هو مختلط، لا يتميز فيه الصواب من الخطأ، فاعتقاد كون الكواكب أسباباً لآثار يخلق الله - تعالى - بها في الأرض، وفي النبات والحيوان شيئاً، يعنى في الجملة ليس قادحاً في الدين، بل هو الحق، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل: قادح في الدين، فالكواكب ما خلقت عبثاً، ولهذا نظر عليه الصلاة والسلام إلى السماء، وقرأ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا...﴾ الآية (١). انظر: الإحياء للغزالي.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي: الإيجاد والتصرف بالأمر والنهي، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: تعاليم في ألوهيته، وتعالى في ربوبيته، وتفرد في وحدانيته.

قال البيضاوي: (وتحقيق الآية - والله أعلم - أن الكفرة كانوا متخذين أرباباً، فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد - وهو الله تعالى؛ لأنه الذي له الخلق والأمر، فإنه تعالى خلق العالم على ترتيب قويم، وتدبير حكيم؛ فأبدع الأفلاك العلوية، والأجرام السفلية، ثم بعد تمام خلق عالم الملك أخذ في تدبيره؛ كالمالك الجالس على عرشه

(١) الآية ١٩١ من سورة آل عمران.

وسريه لتدبير مملكته، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض، بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب، وتكوين الليالي والأيام، فله الخلق والأمر. وكذلك قال في آية السجدة بعد ذكر الخلق: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ (١)، قرب الخلاق: من هذا صفته، لا غيره. انتهى بالمعنى.

ثم أمرهم بأن يدعوه، متذللين مخلصين، فقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أى: ذوى تضرع وخفاء؛ فإن الإخفاء دليل الإخلاص، ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين ما أمروا به فى الدعاء وغيره، ونبه على أن الداعى ينبغي ألا يطلب ما لا يليق به؛ كرتبة الأنبياء، وقيل: الاعتداء فى الدعاء، هو الصياح به، والتشدد، أو اختراع دعوة لا أصل لها فى الشرع، وعن النبى ﷺ: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ، وَحَسْبُ الْمَرْءُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا يَقْرَبُ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ». ثم قرأ: ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٢).

﴿وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي، ﴿بعد إصلاحها﴾ يبعث الأنبياء، وشرع الأحكام، أو: ولا تفسدوا فى الأرض بالمعاصي الموجبة لفساد العالم بالقحط والفتن، بعد إصلاحها بالخصب والأمان، ﴿وادعوه خوفًا وطمعًا﴾ أى: خوفًا من الرد لقصور الأعمال، وطمعًا فى القبول بالفضل والكرم؛ ﴿إن رحمت الله قريبٌ من المحسنين﴾ المخلصين.

قال البيضاوى: هو ترجيح للطمع، وتنبيه على ما يتوصل به إلى الإجابة، وتذكير قريب؛ لأن الرحمة بمعنى الترحم، أو لأنه صفة محذوف؛ أى: أمر قريب، أو على تشبيهه فعيل الذى هو بمعنى مفعول، أو للفرق بين القريب من النسب، والقريب من غيره. هـ. قلت: والأحسن أنه إنما ذكره؛ لأن المراد بالرحمة هنا: سر الخصوصية، وهو مذكر، فراعى معنى اللفظ، كأنه قال: إن سر الولاية - وهى الخصوصية - قريب من المحسنين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: (فى ستة أيام): قال الورتجى: فى كل يوم من هذه الأيام: ظهور صفة من صفاته الست: أولها: العلم، والثانى: القدرة، والثالث: السمع، والرابع: البصر، والخامس: الكلام، والسادس: الإرادة، كملت الأشياء بظهور أنوار الصفات الستة، ولما أتمها صارت الحدثان؛ كجسد آدم بلا روح، فتجلى من صفته السابعة.

(١) الآية ٤ من سورة السجدة.

(٢) أخرجه أبو يعلى فى مسنده ٧١/٢، من حديث سعد بن أبى وقاص. وصدر الحديث إلى قوله (فى الدعاء) أخرجه أبو داود فى (الطهارة، باب الإسراف فى الماء) وابن ماجه فى (الدعاء، باب كراهية الاعتداء فى الدعاء) والحاكم فى المستدرک ١٥٤٠/١، وصححه ووافقه الذهبى، من حديث عبدالله بن مغفل.

وهي حياته القديمة الأزلية الباقية، المنزهة عن مهمة الأنفاس والمشابهة والقياس - فقامت الأشياء بصفاته القائمة بذاته، ويكون إلى الأبد؛ لحياتها بروح حياته، المقدسة عن الاتصال والانفصال. قلت: وهي المعبر عنها بالمعاني القائمة بالأواني. ثم قال: وفي أدق الإشارة: السموات: الأرواح، والأرض: الأشباح، والعرش: القلوب، بدأ بكشف الصفات للأرواح، وبدأ بكشف الأفعال للأشباح، ثم بدأ بكشف الذات للقلوب؛ لأن مناظر القلوب للغيوب، والغيوب من القلوب محل تجلي استواء القدم، استوى قهر القدم، بنعت الظهور للعدم، أي: فتلاشى العدم، ثم استوى تجلي الصفات على الأفعال، واستوى تجلي الذات على الصفات، فاستوى بنفسه لنفسه، المنزه عن المباشرة بالحدثان والاتصال والانفصال عن الأكوان. قلت: أي: إذ لا حدثان ولا أكوان؛ لأنها لما قرنت بالقدم تلاشت، وما بقي إلا نعت القدم.

ثم قال: خصّ السموات والأرض بتجلي الصفات، وخصّ العرش بتجلي الذات. قلت: لأن المعاني المستولية على العرش باقية على أصلها، وهي أسرار الذات لم تتردّد برداء الكبرياء، وهو حجاب الحس الظاهر، بخلاف المعاني القائمة بالأواني، وهي أنوار الصفات، تجلت مرتدية بحجاب القهرية، فقل لها: تجلي الصفات.

ثم قال: السموات والأرض جسد العالم، والعرش قلب العالم، والكرسي دماغ العالم، خصّ الجميع بالأفعال والصفات، وخصّ العرش بظهور الذات؛ لأنه قلب الكل، وهو غيب الرحمن وعلمه وحكمته، رأيت في المكاشفة أنواراً شعاعياً، بلا جسم ولا مكان ولا صورة، يتلأأ، فسألت عن ذلك، فقيل لي: هذا عالم يسمى عرشاً. انتهى.

قلت: وأقرب من هذا كله: أن العرش قد استولى على ما في جوفه من العوالم، حتى صارت في وسطه كلا شيء، ومعاني أسرار الربوبية، وهي العظمة الأصلية - قد استولت عليه، وأحاطت به، ومحت وجوده، فعبر الحق - جل جلاله - عن استيلاء هذه العظمة - التي هي أسرار الربوبية - على العرش بالاستواء. وإلى هذا أشار في الحكم العطائية بقوله: «يا من استوى برحمانيته على عرشه، فصار العرش غيباً في رحمانيته، كما صارت العوالم غيباً في عرشه، محقت الآثار بالآثار، ومحوت الآثار - وهي العرش وما احتوى عليه - بمحيطات أفلاك الأنوار» وهي أسرار الذات المحيطات بالآثار، من العرش إلى الفرش، فعبر عن المعاني المستولية على العرش بالرحمانية؛ لأن الرحمانية صفة الذات، والصفة لاتفارق الموصوف، فافهم.

قلت: ومن كحل عينه بإثمد توحيد الذات لا يستبعد أن يكون الحق - جل جلاله - يتجلى بتجل خاص من أسرار ذاته وأنوار صفاته، يستوى بتلك العظمة على العرش، كما يتجلى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، إذ تجلياته لا تنحصر، بل كل ما ظهر في عالم الشهادة فإنما هو نور من تجلي ذاته وصفاته. وهذا القدر كاف لمن شم شيئاً

من أسرار التوحيد، وقد تكلم ابن جزى هذا على الخوف والرجاء، وأطال فيهما، ولكنه يجنح لتصوف أهل الظاهر، وقد تقرر في محله.

وقوله تعالى: «إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»: هو تقييد لقوله: «يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ»؛ فالمختص بالرحمة هم المحسنون. انظر لفظ الحكم. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق - جل جلاله - تصارييف قدرته المفهوم من قوله: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)، فقال:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقَّتْهُ لَبَدٍ مِّمَّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

قلت: (نُشْرًا): حال من الرياح، وهو جمع نشور، بمعنى ناشر، ومن قرأ بسكون الشين، فهو تخفيف منه، ومن قرأ بفتح النون، فمصدر في موضع الحال، بمعنى: ناشرات، أو مفعول مطلق؛ فإن الإرسال والنشر متقاربان، ومن قرأه بالباء وسكون الشين فهو جمع بشير، مخفف، و(أَقْلَّتْ): مشتق من القلة؛ لأن الحامل للشيء يستقله، و(ثَقَالًا): جمع؛ لأن السحاب جمع بمعنى السحاب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ ﴾ أو الريح ﴿ نُشْرًا ﴾ أى: تشر السحاب، وتفرقه إلى الأرض التى أراد الله أن تمطر، أو بشارة بالمطر^(١)، ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى: قبل نزول المطر، فهي قدامه؛ فإن الصبا تثير السحاب، والشمال تجمعها، والجنوب تذرعه، والدبور تفرقه. قاله البيضاوى.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ ﴾ أى: حملت ﴿ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ بالماء؛ لأنها تحمل الماء فتثقل به، ﴿ سُقَّتْهُ ﴾ أى: السحاب بما اشتمل عليه من الماء، ﴿ لَبَدٍ مِّمَّتٍ ﴾ أى: لإحيائه أو لسقيه بعد يبسه، كأنه ميت، ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ ﴾ أى: بالبلد، أو بالسحاب، أو بالسوق، أو بالريح، ﴿ الْمَاءَ ﴾ الذى فى السحاب، ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ أى: بالماء، ﴿ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ من كل أنواعها وأصنافها، ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَ ﴾ من القبور، أى: كما نحى البلاد بإحداث القرة

(١) هذا المعنى على قراءة «بُشْرًا»، جمع بشير، وهى قراءة عاصم. وقرأ الباقون «نُشْرًا» بالنون. راجع الإتحاف (٥٢/٢).

النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات ﴿ كذلك نُخرج الموتى ﴾ من الأجداث ونحييها ببرد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى الحسية. قاله البيضاوى.

وقال ابن جزى: هو تمثيل لإخراج الموتى من القبور بإخراج الزرع من الأرض، وقد وقع ذلك فى القرآن فى مواضع منها: ﴿ كذلك النُّشُورُ ﴾ (١) و ﴿ كذلك الخُروجُ ﴾ (٢). هـ. ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ ؛ فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على إحياء الموتى، إذ لا فرق.

﴿ والبلد الطيب ﴾ أى: الأرض الكريمة والتراب الجيد ﴿ يخرج نباته ﴾ بسهولة، حسناً قوياً نصراً، ﴿ بإذن ربه ﴾ أى: بمشيئته وقدرته، ﴿ والذي خُبث ﴾ من الأرض؛ كالحره والسبخة، ﴿ لا يخرج إلا نكداً ﴾ ؛ قليلاً عديم النفع، أو عسيراً بمشقة، ﴿ كذلك نُصرف الآيات ﴾ ؛ نُكررها ونُردها ﴿ لقوم يشكرون ﴾ نعمة الله، فيتفكرون فيها، ويعتبرون بها.

قال البيضاوى: والآية مثل لمن تدبر الآيات وانتفع بها، ولمن لم يرفع إليها رأساً ولم يتأثر بها، ومثله فى البخارى فى حديث طويل (٣). وقال ابن عباس وغيره: هو ضرب مثل للمؤمن والكافر. وقال ابن جزى: يحتمل أن يكون المراد ما يقتضيه ظاهر اللفظ، فتكون متممة للمعنى الذى قبلها فى المطر، وأن تكون تمثيلاً للقلب؛ فالطيب: قلب المؤمن، والخبث: قلب الكافر، وقيل: هما للفهم والبليد. هـ.

الإشارة: وهو الذى يرسل رياح الهداية، تنشر سحب الواردات الإلهية والنفحات الربانية، بين يدي معرفته، أو تبشر بها قبل وصولها، حتى إذا أقلت سحاباً ثقلاً بالعلوم الدنية، سقناه لقلب ميت بالجهل والهوى، فأنزلنا مما فيه من ماء ذلك الأمطار، فأخرجنا به من ثمرات العلوم وأزهار الحكم ونوار اليقين. وفى الحكم: «لاتزكين وارداً لم تعلم ثمرته، فليس المقصود من السحابة الأمطار، وإنما المقصود وجود الأثمار». (كذلك نخرج الموتى) أى: نحى القلوب الموتى بالجهل، (لعلكم تذكرون). والبلد الطيب، وهو القلب الطيب، إذا هبت عليه هذه الواردات، ونزلت فيه أمطار النفحات، يخرج نباته من العلوم والمعارف بإذن ربه، والذي خبث من القلوب لا يخرج ما فيه إلا نكداً. أى: ضعيفاً؛ لعدم تأثره بالواردات والمواظ. هـ.

وقال الورتجى: ذكر - سبحانه - القلب الذى هو بلد الله الذى مطر عليه من بحر امتنانه، ويخرج نبات ألوان الحالات والمقامات. ثم قال: وكل قلب بذره الهوى فنباته الشهوات. هـ.

(١) من الآية ١١ من سورة ق.

(٢) من الآية ٩ من سورة فاطر.

(٣) وذلك قول الرسول ﷺ: «مثل ما بعثنى الله به من العلم والهدى كمثل الفيث الكثير...» الحديث أخرجه البخارى فى (العلم - باب فضل من علم وعلم) ومسلم فى (الفضائل - باب بيان ما بعث النبى ﷺ من الهدى والعلم) عن أبى موسى رضى الله عنه.

ثم شرع في ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، تفصيلاً لقوله: (وكم من قرية أهلكناها...) ... الآية، فقال:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۚ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرُوكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلَغُكُمْ رَسُولَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

قلت: (أَوْ عَجِبْتُمْ): الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، أى: أكلبتكم وعجبتم، و(فى الفلك): يتعلق بأنجيناه، أو بمن معه، أو حال من الموصول.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن إدريس، نبيء بعده (١)، بعث وهو ابن خمسين سنة أو أربعين، وعاش ألفاً وثلاثمائة سنة، ﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وحده ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ يستحق أن يعبد، ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾، إن لم تؤمنوا وتوحدوا الله ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة، أو يوم نزول الطوفان.

﴿ قَالَ الْمَلَأُ ﴾ أى: الأشراف ﴿ مِنْ قَوْمِهِ ﴾؛ لأنهم يملأون العيون عند رؤيتهم، قالوا له: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى: فى خطأ بين عن الحق، ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ أى: ليس بى شيء من الضلال، بالغ لهم فى النفى كما بالغوا له فى الإثبات، وعرض لهم به، وتلطف لهم فى القول، ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: لست فى ضلال كما اعتقدتم، ولكنى فى غاية من الهدى؛ لأنى رسول من رب العالمين، ﴿ أَبْلَغُكُمْ رَسُولَتِ رَبِّي ﴾ كما أمرنى، ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ جهدى، ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من صفاته الجلالية والجمالية ومن رحمته وعذابه، أو من قدرته وشدة بطشه، أو أعلم من جهة وحيه أشياء لا علم لكم بها، وجمع الرسالات؛ لاختلاف أوقاتها، أو لتنوع معانيها، كعلم العقائد والمواعظ والأحكام.

(١) أى: بعد إدريس - عليه السلام.

ثم قال لهم: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ﴾ أى: أكذبتم وعجبتم من ﴿أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ أى: تذكير ووعظ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾
 ﴿عَلَى﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ أى: من جعلتكم، أو من جنسكم؛ كانوا يتعجبون من إرسال البشر ويقولون:
 ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (١)، قال القشيري: عجبوا من كون شخص
 رسولاً، ولم يعجبوا من كون الصلح شريكاً لله، هذا فرط الجهالة وغبية الغواية. هـ. وحكمة إرساله؛ كونه جاءكم
 ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ عاقبة الكفر والمعاصي، ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ الله بسبب ذلك الإنذار، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ بتلك التقوى،
 وفائدة حرف الترجي؛ التنبه على أن التقوى غير موجب للترحم بذاته، وإنما هو - أى: الترحم - فضل من الله، وأن
 المنقى ينبغي ألا يعتمد على تقواه، ولا يأمن من عذاب الله.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ هو ومن آمن به، وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وقيل: عشرة، وقيل:
 ثمانية، حملناهم ﴿فِي الْفُلِّ﴾ أى: السفينة، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالطوفان؛ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
 عَمِينَ﴾ أى: عمى القلوب، غير مستبصرين، وأصله: عميين، مخفف. قاله البيضاوي.

الإشارة: الشريعة المحمدية: سفينة نوح ﷺ، فمن ركب بحر الحقائق وحاد عنها؛ حال بينه وبينها المرج
 فكان من المغرقين فى بحر الزندقة والكفر، ومن تمسك بها فى ذلك كان من الناجحين الفائزين.

ثم ذكر قصة هود عليه السلام فقال:

﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ
 ٦٥ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّكَ لَنرَبِّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ
 الْكَاذِبِينَ ٦٦ قَالَ يَنْقُومِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٦٧
 أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ
 عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
 فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَآذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٦٩ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ

(١) كما جاء فى الآية ٢٤ من سورة (المؤمنون).

اللَّهُ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنُنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

قلت: (أخاهم): عطف على نوح، (ر(هوداً): عطف بيان أو بدل، وكذلك (أخاهم صالحاً) وما بعده؛ حيث وقع. يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى﴾ قبيلة ﴿عاد أخاهم﴾ أى: واحد من قبيلتهم، كقولهم: يا أخا العرب، فإنه هود بن عبدالله بن رياح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وقيل: هو هود بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، فهو ابن عم أبى عاد، وإنما أرسل إليهم منهم لأنهم أفهم لقوله، وأعرف بحاله، وأرغب فى اتباعه، ثم وعظهم فقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ وحده؛ ﴿ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ عذاب الله، ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾، كان قومه أحسن من قوم نوح، إذ كان من أشrafهم من آمن به؛ كمرثد بن سعد، ولذلك قيد الملأ بمن كفر، بخلاف قوم نوح؛ لم يكن أحد منهم آمن به، فأطلق الملأ، قالوا لهود عليه السلام: ﴿إنا لنراك في سفاهة﴾ أى: متمكناً فى خفة العقل، راسخاً فيها، حيث فارقت دين قومك، ﴿وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ فى ادعاء الرسالة.

﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة﴾، ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي، وأنا لكم ناصح أمين، يحتمل أن يريد أمانته على الوحي، أو أنهم كانوا قد عرفوه بالأمانة والصدق قبل الرسالة. ثم قال: ﴿أو عجبتم﴾ من ﴿أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾، تقدم تفسيرها.

قال البيضاوى: وفى ذكر إجابة الأنبياء الكفرة عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا به والإعراض عن مقالاتهم: كمال النصيح والشفقة، وهضم النفس، وحسن المجادلة، وهكذا ينبغي لكل ناصح، وفى قوله: ﴿وإنا لكم ناصح أمين﴾: تنبيه على أنهم عرفوه بالأمرين. هـ.

ثم قال لهم: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ فى مساكنهم، أو خلفاء فى الأرض من بعدهم بأن جعلكم ملوكاً، فإن شداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض، من رمل عالج إلى بحر عمان، خوفهم أولاً من

عقاب الله، ثم ذكرهم بإنعامه ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾ أي: قامة وقوة، فكانوا عظام الأجساد، فكان أصغرهم: ستين ذراعاً، وأطولهم: مائة ذراع. ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ أي: نعمه، تعميم بعد تخصيص، ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي: لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها المزدى إلى الفلاح، ومن شكرها: الإيمان برسولهم.

﴿قالوا أجنبتنا لعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا﴾ من الأصنام، استبعدوا اختصاص الله بالعبادة والإعراض عما رجدوا عليه آباءهم؛ انهماكاً في التقليد، وحباً لما ألفوه مع اعترافهم بالربوبية، ولذلك قال لهم هود عليه السلام: ﴿قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾، بعد أن قالوا: ﴿فأتينا بما تعدنا﴾ من العذاب ﴿إن كنت من الصادقين﴾ فيه.

﴿قال قد وقع﴾ أي: وجب ﴿عليكم من ربكم رجس﴾، عذاب ﴿وغضب﴾ إرادة الانتقام، ﴿أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم﴾ أي: أتجادلونني في عبادة مسميات أسماء، ففي الكلام حذف. وأراد بقوله: ﴿سميتوها أنتم وآباؤكم﴾ أي: جعلتم لها أسماء، فدل ذلك على أنها محدثة، فلا يصح أن تكون آلهة، أو سميتوها آلهة من غير دليل، وهو معنى قوله: ﴿مانزل الله بها من سلطان﴾ أي: حجة تدل على استحقاقها للعبادة، فالمجادلة يحتمل أن تكون في عبادتها، أو في تسميتها آلهة، والمراد بالاسم - على الأول - المسمى، وعلى الثاني: التسمية.. قاله ابن جزى. ﴿فانتظروا﴾ نزول العذاب، الذي طلبتم حين أصررتم على العناد، ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ نزوله.

قال تعالى: ﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا﴾ عليهم. قال القشيري: لارتبة فوق رتبة الذبوة، ولا درجة أعلى من درجة الرسالة، وقد أخبر سبحانه: أنه نجى هوداً برحمته، وكذا نجى الذين آمنوا معه برحمته، ليُعلم أن النجاة لا تكون باستحقاق العمل، وإنما تكون ابتداءً فضل من الله ورحمة، فما نجاً من نجاً إلا بفضل الله سبحانه وتعالى. هـ.

﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي: استأصلناهم، ﴿وما كانوا مؤمنين﴾، تعريض بمن آمن منهم، وتنبيه على أن الفارق بين من نجاً وبين من هلك: هو الإيمان.

روى أنهم كانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم هوداً فكذبوه، وزادوا عتوا، فأمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم، وكان الناس حينئذ، مسلمهم ومشرِكهم، إذا نزل بهم بلاء توجهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من الله الفرج، فجهزوا إليه قيل بن عذرة، ومرثد بن سعد، في سبعين من أعيانهم، وكان إذ ذاك بمكة العمالقة؛ أولاد عمليق بن لاود بن سام، وسيدهم: معاوية بن بكر، فلما قدموا عليه، وهو بظاهر مكة، أنزلهم وأكرمهم، وكانوا أخواله وأصهاره، فلبثوا عنده شهراً يشربون الخمر، وتغنى عليهم الجرادتان - قَيْنَتَانِ له - فلما رأى ذهولهم عما

بعثوا له أهمه ذلك، واستحيا أن يكلمهم فيه؛ مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم، فعلم المغنيتين بيتين من الشعر، وأمرهما أن تغنيا به وهما:

أَلَا يَأْتِيَنَّكَ، قُمْ، فَهَيْتُمْ لَعَلَّ اللَّهَ يَسْقِينَا الْغَمَامَا
فَيَسْقِي أَرْضَ عَادٍ، إِنَّ عَادًا قَدْ أَمْسَوْا لَا يُبِيدُونَ الْكَلَامَا

فلما غنينا به أزعجهم ذلك، فقال مرثد: والله لأيسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم، وتبتم إلى الله، سقيتم، فقالوا لمعاوية: احبسنا عنا، لا يقدم معنا مكة؛ فإنه قد اتبع دين هود، وترك ديننا، ثم دخلوا مكة، فقال قيل: اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله سحباب ثلاثا؛ بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه من السماء: يا قيل؛ اختر لنفسك ولقومك. فقال: اخترت السوداء؛ فإنها أكثرهن ماء، فخرجت إلى عاد من وادي المغيث، فاستبشروا بها، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، فجاءتهم، فيها ريح عقيم، فأهلكتهم، روى أنها لما قربت من ديارهم حملت أنعامهم في الهواء، كأنها جراد، فاستمرت عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام، شذخت رؤوسهم إلى الحجارة حتى هلكوا جميعا، ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة وعبدوا الله حتى هلكوا. قاله البيضاوي وغيره.

وها هنا بحث؛ وهو أن البيت إنما بناه إبراهيم عليه السلام حسبما في الصحيح، ولم تعمر مكة إلا بعد إنزال إسماعيل فيها، وهود كان قبل إبراهيم، والبيت حينئذ خرب، كان خربه الطوفان، فكيف يتوجهون إليه وهو لم يكن؟

ويمكن الجواب : بأنهم كانوا يلتجئون إلى رسومه وخبرته التي بقيت بعد الطوفان؛ لأن أول من بناه آدم عليه السلام فلما خربه الطوفان بقي أثره، فكانوا يتبركون به، وفي بعض التواريخ: أن العمالق بنوه قبل إبراهيم، فكانوا يطوفون به ويتبركون، ثم هدم، وبناه بعدهم خليل الله إبراهيم. وبهذا - إن صح - يزول الإشكال. والله تعالى أعلم. وأما من قال: إن هوداً تعدد، فغير سديد.

الإشارة: قد تضمنت موعظة هود عليه السلام لقومه خصلتين، بهما النجاة من كل هول وشر، والفوز بكل خير، وهما: التوحيد والتقوى، وهى الطاعة لله ورسوله فيما جاء به من أمر ونهى. فالتوحيد تطهير الباطن من الشرك الجلى والخفى، والتقوى: حفظ الجوارح من المخالفة فى السر والعلانية، وهاتان الخصلتان هما أساس الطريق ونهايته. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام، فقال:

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثِيرُ بَيْنِكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَن ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ؕ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورِ لَقَدْ أَتَلَقْتُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تَحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾ ۝

قلت: «آية»: حال، والعامل فيها: الإشارة، و «ببيوتا»: حال من الجبال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ر ﴾ أرسلنا ﴿ إلى ثمود ﴾؛ قبيلة أخرى من العرب، سموها باسم أبيهم الأكبر: ثمود بن غابر بن إرم بن سام، وقيل: سموها به؛ لقلة ما بهم من الثميد، وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر، بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، وقد دخلها رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال لهم ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ؛ مخافة أن يصيبكم مثل ما أصابهم» (١).

أرسلنا إليهم ﴿ أخاهم صالحا ﴾، وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود. وقال وهب بن منبه: بعث الله صالحاً حين راهق الحلم. وقال الكواشي: إنه مات ابن ثمان وخمسين سنة، وأقام في قومه بلذره عشرين - هـ.

(١) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء - باب قول الله تعالى: ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا ﴾) ومسلم في (الزهد - باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن أن تكونوا بأكين) من حديث سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنه.

﴿ قَالَ ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم ﴾ ، معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتى ، وهى : ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ ، لأنها جاءت من عند الله بلا وسائط وأسباب ، على ما سيأتى ، ﴿ فذروها ﴾ أى : اتركوها ، ﴿ تأكل في أرض الله ﴾ العشب ، ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ ، نهى عن المس ، الذى هو مقدمة الإصابة بالمسوء الجامع لأنواع الأذى ، مبالغة فى الأمر وإزاحة للعذر . قاله البيضاوى . ﴿ فياخذكم ﴾ إن مستموها بسوء ﴿ عذاب أليم ﴾ ، وهو الهلاك بالصيحة .

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم ﴾ أى : هيا لكم القرار ﴿ في الأرض ﴾ أى : أرض الحجاز ، ﴿ تتخذون من سهولها قصوراً ﴾ أى : تبنيون مما انبسط منها قصوراً ، فالسهل ضد الجبل ، ﴿ وتحتون الجبال بيوتا ﴾ أى : تنجرون بيوتا من الجبال ، وكانوا يسكنون القصور فى الصيف والجبال فى الشتاء . ﴿ فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ بالمعاصى والكفر .

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه ﴾ عن الإيمان ، ﴿ للذين استضعفوا ﴾ أى : للذين استضعفهم واستذلهم . أعنى لمن آمن منهم - : ﴿ أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ﴾ ؟ ، قالوه على وجه الاستهزاء ، ﴿ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ ، لم يقولوا فى الجواب : نعم ؛ تنبيهاً على أن إرساله أظهر من أن يشك فيه عاقل أو يخفى على ذى رأى ، وإنما الكلام فيمن آمن ومن كفر ، فلذلك قال : ﴿ قال الذين استكبروا إنا بالذي آمتم به كافرون ﴾ ، على المقابلة ، ووضعوا « آمتم به » موضع « أرسل به » ، رداً لما جطوه معطوماً مسلماً .

﴿ فعقروا الناقة ﴾ ، نحروها ، أسند إلى جميعهم فعل بعضهم كما يأتى ، لأنه كان برضاهم ، ﴿ وعتوا عن أمر ربهم ﴾ أى : استكبروا عن امتثال أمره ، وهو ما بلغهم صالح بقوله : ﴿ فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء ﴾ ، ﴿ وقالوا يا صالح اتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فآخذتهم الرجفة ﴾ أى : صيحة جبريل ، ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ ، باركين على ركبهم ، ميتين .

رُوى : أنهم بعد عاد عمروا بلادهم وخلفهم ، وكثروا ، وعمرُوا أعماراً طويلاً لا تفى بها الأبنية ، ففتحوا البيوت من الجبال ، وكانوا فى خصب وسعة ، فعثوا وأفسدوا فى الأرض ، وعبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم صالحاً من أشrafهم ، فأنذرهم ، فسألوه آية ، فقال لهم : أى آية تريدون ؟ فقالوا : اخرج معنا إلى عيدين فتدعو إلهك وتدعو آلِهتنا ، فمن استجيب له اتبع ، فخرج معهم ، فدعوا أصنامهم فلم تجبهم ، ثم أشار سيدهم جددع بن عمرو ، إلى صخرة منفردة يقال لها : « الكائبة » ، قال له : أخرج من هذه الصخرة ناقةً مخرجة جوفاء وبراء ، فإن فعلت صدقناك ، فأخذ

عليهم صالح موثيقهم: لئن فعلت ذلك لتؤمنن؟ قالوا: نعم، فصلى، ودعا ربه، فتمخضت الصخرة تمخض النورج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشاء، جوفاء وبراء كما وصفوا، وهم ينظرون، ثم أنتجت ولداً مثلها فى العظم، فأمن به جندع فى جماعة، ومنع الناس من الإيمان: ذؤاب بن عمرو، والحباب صاحب أصنامهم، ورياب كاهنهم.

فمكنت الناقة مع ولدها ترعى الشجر، وترد الماء غباً، فما ترفع رأسها من البدر حتى تشرب كل ما فيها، ثم تنفجج^(١)، فيحلبون ما شاءوا حتى تمتلئ، أوانيهم، فيشربون ويدخرون، وكانت تصيف بظهر الوادى فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه، وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره؛ فشق ذلك عليهم، فزيت عقرها لهم، عنيزة أم غنم، وصدقة بنت المختار، فعقروها واقتسموا لحمها، وعاقرها: الأحمر، واسمه قدار، استعان برجل آخر، فلما شريت اختبأ لها فى جانب تل، فضربها صاحبه بالسهم، وعقرها قدار بسيفه، واقتسموا لحمها، فرقى ولدها جبلاً اسمه: قارة، فرغى ثلاثاً، ودخل صخرة أمه، فقال لهم صالح عليه السلام: أدركوا الفصيل، عسى أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدرُوا عليه حيث دخل الصخرة بعد رغائه، فقال لهم صالح عليه السلام: تصبح وجوهكم غداً مصفرة، وبعد غد محمرة، واليوم الثالث مسودة، ويصبحكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله إلى أرض فلسطين. ولما كان ضحوة اليوم الرابع: تحنطوا وتكفوا بالأنطاع، فانتهم صيحة من السماء فنقطعت قلوبهم فهلكوا.

﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾، ظاهره: أن توليته عنهم بعد أن أبصرهم جاثمين؛ ولعله خاطبهم به بعد هلاكهم، كما خاطب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر، وقال لهم: «قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟»^(٢) أو ذكر ذلك على سبيل التحسر عليهم. قاله البيضاوى.

الإشارة: كل ما قص علينا الحق - جل جلاله - من قصص الأمم الماضية، فالمراد به: تخويف هذه الأمة المحمدية وزيادة فى يقينهم، فالواجب على من أراد السلامة فى الدارين أن يتمسك بما جاء به الرسول ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، ويتحرى فى ذلك جهده؛ يقصد بذلك رضا الله ورسوله. ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣)، ومن سلك الطريق المستقيم وصل إلى النعيم المقيم. والله تعالى أعلم.

(١) الفجج: تباعد ما بين الفخذين. انظر النهاية (فجج).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى فى، (المغازى - باب قتل أبى جهل) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) من الآية ١٠١ من سورة آل عمران.

ثم ذكر قصة لوط عليه السلام، فقال:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كُنْتُمْ بِمُعْظِمْهُمْ فَاسَافِكِينَ ۚ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ۚ إِنَّهُمْ أَنْوَاسٌ يُنْظَرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ۚ إِلَّا امْرَأَتَهُ ۚ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ۝

قلت: (شهوة): مفعول له، أو مصدر في موضع الحال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ أرسلنا ﴿ لوطاً إذ قال لقومه ﴾، واعظاً لهم: ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ أي: اللواط؛ توبيخاً وتقريراً على تلك الفعل المتناهية في القبح، ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ أي: ما فعلها أحد قبلكم، وبخهم على أمرين: إتيان الفاحشة، واختراعها أولاً، ثم قال لهم: ﴿ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ﴾، وصفهم بالشهوة البهيمية، وفيه تنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة: طلب الولد وإبقاء النوع لا قضاء الوطر، ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ أي: عادتكم السرف في كل شيء، حتى تجاوزتم ما أحل الله لكم من النساء إلى ما حرم عليكم من إتيان الذكور، وهو إضراب عن الإنكار إلى الإخبار بحالهم التي أدت بهم إلى ارتكاب أمثالها، وهي اعتياد الإسراف في كل شيء، أو عن الإنكار عليها إلى الذم لهم على جميع معاصيهم، أو عن محذوف، مثل: لا عذر لكم فيه، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف. قاله البيضاوي.

﴿ وما كان جواب قومه ﴾ له حين وعظهم، ﴿ إلا أن قالوا أخرجوهم ﴾ أي: لوط ومن آمن به، ﴿ من قريبتكم ﴾ أي: ما أجابوه بشيء يصلح للجواب، لكن قابلوا نصحه بالأمر بإخراجهم من قريبتهم، والاستهزاء بهم، حيث قالوا: ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ من الفواحش.

قال تعالى: ﴿ فأنجيناها وأهلها ﴾ أي: من آمن معه، ﴿ إلا امرأته ﴾ فإنها كانت تسر الكفر؛ ﴿ كانت من الغابرين ﴾ أي: الباقيين في ديارهم فهلكوا وهلك معهم.

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ أي: نوعاً عجيباً من المطر، بيّنه بقوله: ﴿ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ (١)، ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾.

(١) الآية ٧٤ من سورة الحجر.

رُوى أن لوط بن هاران بن تارح لما هاجر عمه إبراهيم إلى الشام، ونزل بالأردن، وكان هاجر هو معه، أرسله الله تعالى إلى أهل سدوم، ليدعوهم إلى الله، وينهاهم عما اخترعوه من الفاحشة، فلم ينتهوا عنها، فقلع جبريل مدينتهم، وجعل عاليها سافلها، وأمطر الحجارة على ماقريهم من القرى، وسيأتى فى سورة هود بقية قصتهم، إن شاء الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إنما أهلك الله قوم لوط حيث أثروا شهوة نفوسهم على عبودية ربهم، وغلبهم الطبع البهيمى على مقتضى العقل الصافى، وقد تقدم قول الغزالى: إن الشره إلى الوقاع من جملة المهلكات. فعلى المريد أن يصفى قصده، ولا ينزل إلى أرض الحظوظ إلا بالإذن والتمكين والرسوخ فى اليقين، ولا ينزل بالشهوة والمتعة. وقد قال عليه السلام: «المؤمن يأكل شهوة أهله»^(١) فلا يأتى ما أحل الله له من متعة النساء إلا قياماً بحق الغير وطلباً للنسل. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة شعيب عليه السلام فقال:

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ

(١) أخرجه الديلمى فى الفردوس (ج ٦٥٤٧) من حديث أبى أمامة الباهلى، بلفظ «المؤمن يأكل شهوة عياله، والمنافق يأكل أهله شهوته».

نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا
وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِبَنِ أَتْبَعْتُمْ
شُعَيْبًا إِنْ كُنَّا إِذَا الْخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا ﴿٩١﴾
الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٢﴾
فَنُودِيَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُوا لَقَدْ أَتَلَعْتُمْ كُتُبَكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنُصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى
عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين أخاهم شعيباً﴾، ومدين: قبيلة من أولاد مدين بن إبراهيم، شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل، على ما قيل. وقد تقدم في البقرة أن مدين ومدان من ولد إبراهيم عليه السلام، وشعيب هذا يسمى خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه.

﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾، قد جاءتكم بينة من ربكم ﴿يريد المعجزة التي كانت له﴾، وليس في القرآن بيان ما هي معجزته. وحمل الواحدى البينة على الموعظة. وقال في الكشف: ومن معجزات شعيب: ما روى من محاربة عصا موسى للتنين، حين دفع إليه غلغه، وولادة الغنم الدرع خاصة، حين وعده أن يكون له الدرع من أولادها، ووقوع عصا آدم في يده في المرات السبع، وغير ذلك من الآيات. هـ. وفيه نظر؛ لأن هذ وقعت بعد مقالته لقومه، وإنما كانت إرهابات لموسى عليه السلام، وفي حديث البخارى: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا وَاتَّاهُ مَا مِثْلُهُ أَمِنْ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيًّا، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١). وهو صريح في أنه لا بد من الآية لكل رسول، ولعل الله تعالى لم يذكر معجزة شعيب وهود في القرآن مع وجودها؛ لظاهر الحديث.

ثم قال لهم: ﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾، وكانوا مطغفين، أى: فأوفوا المكيال الذى هو آلة الكيل، أى: كبروها؛ بدليل قوله: «والميزان» الذى هو الآلة، ويحتمل أن يريد بهما المصدر، أى: الكيل والوزن.

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ أى: لا تلتصوهم حقوقهم، وإنما قال: «أشياءهم»، للتعميم تدبياً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير، والقليل والكثير، وقيل: كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه. ﴿ولا تفسدوا فى الأرض﴾ بالكفر والظلم، ﴿بعد إصلاحها﴾ بإقامة الشرائع وظهور العدل، ﴿ذلكم خير لكم﴾ إن كنتم مؤمنين. أى: ذلك الذى أمرتكم به ونهيتكم عنه هو خير لكم من إبقائكم على ما أنتم عليه، ومعنى الخيرية: الزيادة مطلقاً؛ إذ لا خير فيما هم فيه، أو: فى الإنسانية وحسن الأحودة وجمع المال. قاله البيضاوى.

(١) أخرجه بنحوه البخارى فى (فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أى: طريق ﴿تُوْعِدُونَ﴾ من أراد الإيمان بالعقوبة، وكانوا يجلسون على الطرقات والمراسد، يقولون لمن يريد شعيباً: إنه كذاب فلا يفتنك عن دينك؛ ويوعدون من آمن، وقيل: كانوا يقطعون الطريق.

﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: تصدون الناس عن طريق الله، وهو الإيمان به ورسوله، وهو الذى قعدوا لأجله فى كل طريق، وقوله: ﴿من آمن به﴾ من أراد الإيمان به، أو من آمن حقيقة؛ كانوا يصدونه عن العمل، وتبغونها عوجاً﴾ أى: وتطلبون لطريق الله عوجاً بإلقاء الشبه فيها، أو بوصفها للناس بأنها معوجة. ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً﴾ عددكم وعددكم ﴿فكثركم﴾ بالبركة فى النسل والمال، ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ من الأمم قبلكم، فاعتبروا بهم.

﴿وإن كانت طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا﴾ أى: تریصوا ﴿حتى يحكم الله بيننا﴾ أى: بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين، فهو وعد للمؤمنين ووعد للكافرين، وهو خير الحاكمين؛ إذ لا معقب لحكمه، ولا حيف فيه.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ فى جوابه عن وعظه: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنَّ في ملتنا﴾ أى: ليكون أحد الأمرين؛ إما إخراجكم من القرية أو عودكم فى الكفر، وشعيب عليه السلام لم يكن فى ملتهم قط؛ لأن الأنبياء - عليهم السلام - لا يجوز عليهم الكفر مطلقاً، لكنهم غلبوا الجماعة على الواحد؛ فخطب هو وقومه بخطابهم، وعلى ذلك أجرى الجواب فى قوله: ﴿قال أو لو كنا كارهين﴾. قاله البيضاوى. وقال ابن عطية: وعاد: قد يكون بمعنى صار، فلا يقتضى تقدم ذلك المحال، قلت: ويؤيده ما فى حديث الجهنميين: «قد عادوا حمماً» (١) أى: صاروا.

ثم قال شعيب عليه السلام: ﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾ أى: إن رجعنا إلى ملتكم بعد الخلاص منها، فقد اختلفنا على الله الكذب، وهذا كله فى حق قومه كما تقدم. ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ خذلاننا وارتدادنا، وفيه تسليم للإرادة المغيبة، والعلم المحيط، فإن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء. فإن قلت: هو معصوم فلا يصح فيه العود؟ قلت: قاله أدباً مع الربوبية، واستسلاماً لقهر

(١) جزء من حديث طبري أخرجه البخارى فى (الرقاق - باب صفة الجنة والدار) ومسلم فى (الإيمان - باب معرفة طريق الرؤية) من حديث أبى سعيد الخدرى عليه السلام.

الآلوهية، كقول نبينا ﷺ: « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ »^(١). ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ أى: أحاط علمه بكل شيء مما كان وما يكون منا ومنكم، ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ فى أن يثبتنا على الإيمان، ويخلصنا من الإشراك. ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا ﴾ أى: احكم بيننا ﴿ وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ بالعدل، بتمييز المحق من المبطل، ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ أى: الفاصلين.

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لئنِ اتَّبَعْتُمْ شَعِيْبًا ﴾ وتركتم دينكم ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا ﴾ أى: إذا اتبعتموه ﴿ الْخَاسِرُونَ ﴾ ؛ لاستبدالكم ضلاله بهداكم، أو لفوات ما يحصل لكم من البخس والتطفيف. ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ ﴾ أى: الزلزلة. وفى سورة الحجر. ﴿ الصَّيْحَةَ ﴾، ولعلها كانت من مبادئها، ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ ﴾ أى: فى مدينتهم ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ : باركين ميتين.

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أى: استؤصلوا كأنهم لم يقيموا فيها ساعة. ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ ديناً ودنياً، بخلاف الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا؛ فإنهم الرابحون، ولأجل التنبيه على هذا والمبالغة فيه كرر الموصول، واستأنف الجملة وأتى بهما إسميتين.

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾، قاله بعد هلاكهم، تأسفاً عليهم، ثم أنكر على نفسه فقال: ﴿ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ ليسوا أهلاً للحنن عليهم، لاستحقاقهم ما نزل بهم.

الإشارة: يؤخذ من قوله: ﴿ وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ أن إقامة الشرائع، وظهور الدين من علامة إصلاح الأرض وبهجتها، وخصبها وعافيتها، وترك الشرائع وظهور المعاصي من علامة فساد الأرض وخرابها. ويؤخذ من قوله: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ... ﴾ الآية، أن حض الناس على الإيمان ودلائلهم على الله من أفضل القربات عند الله، وأعظم الوسائل إلى الله.

ويؤخذ من قوله: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أن الإنسان لا يقف مع ظاهر الوعد والوعيد، ولعل الله تعالى علّق ذلك الوعد أو الوعيد بشروط وأسباب أخفاها، ولذلك كان العارف لا يزول اضطرابه، ولا يكون مع غير الله قراره. وفى بعض الآثار القدسية: « يَا عَبْدِي لَا تَأْمَنُ مَكْرِي وَإِنْ أَمْنَتْكَ، فَعَلِمَى لَا يَحِيطُ بِهِ مُحِيطٌ ». والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه مطولاً أحمد فى المسند (٩١/٦) عن السيدة عائشة رضى الله عنها والترمذى فى (القدر - باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن) من حديث أنس رضى الله عنه. وفى (الدعوات، باب ٩٠) من حديث أم سلمة رضى الله عنها.

ولما سرد قصص الأمم السالفة ذكر حاله معهم، فقال:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ
يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ
آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا
وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ وَأَمِنَ أَهْلُ
الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ
مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي ﴾ أي: رسول ﴿ إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ﴾ أي: بالبؤس والضر، كالقحط والأمراض، ﴿ لعلهم يضرعون ﴾ أي: يتضرعون ويتذللون، ﴿ ثم بدلنا مكان ﴾ الحالة ﴿ السيئة ﴾ الحالة ﴿ الحسنة ﴾ أي: أعطيناهم، بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة، السلامة والسعة، ﴿ حتى عفا ﴾ : كثروا عددا وعددا، يقال: عفا النبات: إذا كثر، ومنه: «اعفوا للحي»^(١). ﴿ وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ : كُفِرَ لنعمة الله عليهم، ونسياناً لذكره، واعتقاداً بأنه من عادة الدهر يتعاقب في الناس بين السراء والضراء، فقد مس آباءنا منه شيء مثل مامسنا، ﴿ فأخذناهم بغتة ﴾ : فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بنزول العذاب.

﴿ ولو أن أهل القرى ﴾ المتقدمة في قوله: ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي ﴾ وقيل: مكة وما حولها. وقيل: مطلقاً، ﴿ آمنوا واتقوا ﴾ مكان كفرهم وعصيانهم، ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ : لو سَعْنَا عليهم الخير، ويسرناه لهم من كل جانب. وقيل: المراد: المطر والنبات. ﴿ ولكن كذبوا ﴾ بالرسول، وكفروا النعم، ﴿ فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿ أفأمن أهل القرى ﴾ أي: أبعد ذلك أمن أهل القرى ﴿ أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ﴾ ؟ أي: ليلاً، في حال نومهم. ﴿ أو آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ﴾ أيضاً ﴿ ضحى ﴾ : ضحوة النهار ﴿ وهم يلعبون ﴾ من

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في (اللباس - باب إعفاء الحي) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فرط الغفلة، أو يشتغلون بما لا ينفعهم ﴿١٠٠﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴿١٠١﴾ وهو أن يستدرجهم بالنعم حتى يأخذهم بغتة؟ ﴿١٠٢﴾ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٣﴾ الذين خسروا أنفسهم، بترك النظر والاعتبار، حتى هلكوا، فلم ينفعهم حينئذ الندم.

الإشارة: إظهار المحن والمنن وتعاقبهما على الإنسان، حكمتها: الرجوع إلى الله، وتضرع العبد إلى مولاه، فمن فعل ذلك كان معتمداً عليه في الحالتين، مغترفاً من بحر المنة بكلتا اليدين، ومن نزلت به المحن ثم أعقبته لطائف المنن، فلم يرجع إلى مولاه، ولا شكره على ما خوله من نعماء، بل قال: هذه عادة الزمان؛ يتعاقب بالسراء والضراء على الإنسان، فهذا عبد منكم في غفلته، قد اتسعت دائرة حسه، وانطمست بصيرة قدسه، يصدق عليه قوله تعالى: ﴿١٠٣﴾ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٤﴾.

وقال القشيري في قوله تعالى: ﴿١٠٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا... الآية: أى: لو آمنوا بالله واتقوا الشرك (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) بأسباب العطاء، فإن سبق بخلافه القضاء فأبواب الرضا، والرضا أتم من العطاء. ويقال: ليس العبرة بالنعمة؛ العبرة بالبركة في النعمة. هـ.

قوله تعالى: ﴿١٠٥﴾ وَلَكِنْ كَذَّبُوا ﴿١٠٦﴾ أى: شكوا في هذا الوعد فلم يتقوا بالإيمان والتقوى حتى يتركوا الأسباب، والشاك في الصادق المصدق مكذب. وقال الشيخ أبو العباس المرسى رحمته الله: للناس أسباب، وسببنا الإيمان والتقوى، ثم تلا هذه الآية: ﴿١٠٧﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا... الآية، وقد تقدم عند قوله: ﴿١٠٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴿١٠٩﴾. ما يتعلق بالأمن من مكر الله.

ولما ذكر هلاك الأمم الماضية، خوفاً من خلفهم بعدهم إلى يوم القيامة، فقال:

﴿١١٠﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُوكَ الْآرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١١١﴾ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١١٢﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١١٣﴾

(١) من الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٨٢ من سورة الأنعام.

قلت: (أن لو نشاء): «أن، مخففة، وهى وما بعدها: فاعل (يهد) أى: أو لم يتبين لهم قدرتنا على إهلاكهم لو نشاء ذلك؟ وإنما عدى 'يهدى' باللام؛ لأنه بمعنى يتبين، و(نطبع): استئناف، أى: ونحن نطبع على قلوبهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ﴾ أى: يتبين ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أى: يخلفون من قبلهم ويرثون ديارهم وأموالهم، ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ﴾ أى: أهلكناهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ بسبب ذنوبهم، كما أهلكنا من قبلهم، لكن أمهلناهم ولم نهملهم، ﴿وَ﴾ نحن ﴿نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بالغفلة والانهماك فى العصيان، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واعتبار.

﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾، التى قصصنا عليك آنفاً، ﴿نَقِصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ من أخبارها، أى: بعض أخبارها، ولها أبناء غيرها لا نقصها عليك ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾: بالمعجزات، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ عند مجيئهم، بها ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ مجيئها، يعنى: أن ظهور المعجزات لم ينفعهم، بل الشئ الذى كذبوا به قبل مجيئها، وهو التوحيد وتصديق الرسل؛ استمروا عليه بعد مجيئها.

أو: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ مدة عمرهم بما كذبوا به أولاً، حين جاءتهم الرسل، فلم تؤثر فيهم دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة. ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تلين شكيمةهم بالآيات والنذر.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ﴾ أى: لأكثر أهل القرى ﴿مِنْ عَهْدٍ﴾، بل جُلُّهم نقضوا ما عهدناهم عليه من الإيمان والتقوى بإنزال الآيات ونصب الحجج، ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ﴾ أى: علمناهم ﴿لِفَاسِقِينَ﴾، وإن، مخففة، واللام: فارقة.

الإشارة: ينبغى لمن فتح الله بصيرته أن ينظر بعين الاعتبار فيمن سلف قبله، كيف تركوا الدنيا ورحلوا عنها، ولم يأخذوا منها إلا ما قدموا أمامهم؟ قدموا على ما قدموا، وندموا على ما خلفوا، ولم ينفعهم الندم وقد زلت بهم القدم، فالدهر خطيب يسمع القاصى والقريب، وهو ينادى بلسان فصيح، عادلاً عن الكناية إلى التصريح، قائلاً: أما حصل لكم الإنذار؟ أما كفاكم ما تشاهدون فى الاعتبار؟ أين من سلف قبلكم؟. أو ما كانوا أشد منكم أو مثلكم؟ قد نما ذكرهم وعلا قدرهم، وخسف بعد الكمال بدرهم، فكأنهم ما كانوا، وعن قريب مضوا وبانوا، أفضوا إلى ما قدموا، وانقادوا قهراً إلى القضاء وسلموا، فيا أيها الغافلون، أنتم بمن مضى للاحقون، ويا أيها الباقون؛ أنتم إليهم تساقون، قضاءً مبرماً، وحكم ملزماً، ليس عنه محيد لأحد من العبيد.

ثم شرع في قصص موسى ﷺ، فقال:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ: فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ثم بعثنا ﴾ من بعد الرسل المتقدمين ﴿ موسى ﴾ بن عمران ﴿ بآياتنا ﴾: بمعجزاتنا الدالة على صدقه، ﴿ إلى فرعون وملائته فظلموا بها ﴾ أي: طغوا بسببها، وزادوا عتواً على عتوهم، ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ كيف غرقوا عن آخرهم، وأكلهم البحر.

الإشارة: إذا أراد الله - تعالى - أن يهلك قومًا بعث إليهم من يذكرهم، فإذا زادوا في العتو والطغيان عاجلهم بالعقوبة. ذكر الشعراني: أن مدينة بالمشرق صنعوا وليمة ينتزهون فيها، فخرجوا إلى بستان، فلما صنعوا الطعام دخل عليهم فقير، فقال: أعطوني، فأعطوه، ثم قال: أعطوني فزادوه، ثم قال: أعطوني، فجروه حتى أخرجوه، فأرسل عليهم من أخرجهم من تلك المدينة وخربها، فهي خربة إلى اليوم. سبحان المدير الحكيم الواحد القهار!

ثم ذكر دعوة موسى إلى فرعون، وما كان من أمره معه، فقال:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ
عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قلت: من قرأ: (على؛ بشد الباء، فحقيق؛ مبتدأ، و(على؛ متعلق به، و(الأ أقول): خبره، أي: حقيق على قول الحق. ومن قرأ: (على؛ بالتخفيف، فحقيق: صفة لرسول، و(على؛ حرف جر، و(الأ أقول): مجرور، أي: إني رسول حقيق على قول الحق، وعداه بعلى؛ لتضمنه معنى حريص، أو تكون (على) بمعنى الباء أي: حقيق بقول الحق، وقد يبقى على أصله لأمن الالتباس؛ والمعنى: حقيق على قول الحق أن أكون أنا قائله، لا يرضى إلا مثله ناطقاً به. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال موسى يافرعون إني رسول من رب العالمين، حقيق ﴾ واجب ﴿ على أن لا أقول على الله إلا الحق ﴾؛ لأنني معصوم من النطق بغيره، فإن كذبتني فقد ﴿ جئتكم ببينة من ربكم ﴾ أي: بمعجزة واضحة، تدل على صدقي، وهي العصا. ﴿ فأرسل معي بني إسرائيل ﴾ أي: فخل سبيلهم، حتى يرجعوا معي إلى الأرض المقدسة: التي هي وطن آبائهم، وكان قد استعبدتهم واستخدمهم في الأعمال الشاقة؛ وذلك أنه لما توفي يوسف ﷺ غلب عليهم فرعون واستعبدتهم حتى أنقذهم الله على يد موسى، وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى رسولاً إلى فرعون: أربعمائة عام.

ثم طلب منه إظهار المعجزة، فقال:

﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِیْنَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تَوْكَّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾

قلت: يقال: أرجأ، بالهمز، يرجىء بمعنى أخر؛ فمن قرأ بالهمزة فعلى الأصل، ومن قرأه بغير الهمزة فيحتمل أن يكون بمعنى المهموز، وسهلت الهمزة، أو يكون بمعنى الرجاء، أى: أطمعه، وأما ضم الهاء وكسرها فلفغان، وأما إسكانها فلفغة؛ أجرى فيها الوصل مجرى الوقف. وقد تتبع البيضاوى توجيه القراءات، فانظره إن شئت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قال ﴾ فرعون لموسى ﴿﴾: ﴿ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ ﴾ مَنْ عِنْدَ مَنْ أَرْسَلَك، كما ذكرت، ﴿ فَأْتِ بِهَا ﴾ وأحضرها ليثبت بها صدقك ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾ فى دعواك، ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أى: ظاهر أمره، لا يشك فى أنه ثعبان، وهى الحية العظيمة.

رُوى أنه لما ألقاها صار ثعباناً أشعر، فاغراً فاه، بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون، فهرب منه وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، وصاح فرعون: ياموسى، أنشدك الذى أرسلك خذه، وأنا أومن بك، وأرسل معك بنى إسرائيل، فأخذه فعاد عصاً. قاله البيضاوى.

ثم أظهر له معجزة أخرى: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ من جيبه، أو من تحت إبطه، ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِیْنَ ﴾ أى: ببيضاء بياضاً خارجاً عن العادة، يجتمع عليها النظارة، أو ببيضاء للنظار، لا أنها كانت بيضاء فى خلقها، بل كانت شديدة الأدمة كلون صاحبها. رُوى أنه كان شديد الأدمة فأدخل يده فى جيبه أو تحت إبطه، ثم نزعها، فإذا هى ببيضاء نورانية، غلب شعاعها شعاع الشمس.

﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ﴾، قيل: قاله هو وأشراف قومه، على سبيل المشاورة فى أمره، فحكى عنه فى سورة الشعراء، وعنهم هنا، أو قاله هو ووافقوه عليه، كعادة جلساء الملوك مع أتباعهم. ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ بالحيل، أو بالقتال، أو بإخراج بنى إسرائيل، وكانوا خداماً لهم، فتخرب البلد

من بعدهم، لأنهم خدامها وعمارها. قال فرعون: ﴿فماذا تأمرون﴾ أي: تشيرون على أن أفعل؟ ﴿قالوا أرجه﴾ أي: أخره ﴿وأخاه﴾ أي: أخرهما حتى تنظر في أمرهما، وقيل: أمروه بسجنهما، ﴿وأرسل في المدائن﴾ أي: مدائن عمالك ﴿حاشرين﴾ يحشرون لك السحرة، ﴿يأتوك بكل ساحر عليم﴾.

ثم ذكر مجيئهم، وما كان من أمرهم مع موسى عليه السلام، فقال:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾
 قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لِمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ
 الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا
 بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾
 فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَا لِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾﴾

قلت: من قرأ: (أئن) بهمزة، فهو اسم استفهام، ومن قرأ بهمزة واحدة، فيحتمل أن يكون خبراً، كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر، أو استفهاماً حذف منه الهمزة، والتكثير للتعظيم، واستأنف الجملة، كأنها جواب عن سائل قال: فماذا قالوا إذ جاءوا؟ قالوا: إن لنا لأجراً... الخ، و(إنكم): عطف على ماسد مسده نعم، من تمام الجواب، كأنه قال: نعم نعطيكم الأجر ونقريكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وجاء السحرة فرعون﴾ بعد ما أرسل الشرطة في طلبهم، ﴿قالوا﴾ لما وصلوا إليه: ﴿إن﴾ أي: ﴿لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ لموسى؟ ﴿قال نعم﴾ إن لكم أجراً ﴿وإنكم لمن المقربين﴾ إلى. فأنعم لهم بالأجر، وزادهم التقريب منه والجاه عنده؛ تحريضاً لهم. واختلف في عدد السحرة اختلافاً متبايناً، من سبعين رجلاً إلى سبعين ألفاً، وكل ذلك لا أصل له في صحة النقل.

ولما خرجوا إلى الصحراء لمقابلته ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملحقين﴾؛ خيروا موسى مراعاة للأدب، وإظهاراً للجلادة، ولكن كانت رغبتهم في أن يلحقوا قبله، ولذلك عبروا عن إلقاء موسى بالفعل وعن إلقائهم بالجملة الإسمية، وفيه إشارة إلى أنهم أهل الإلقاء المتمكنون فيه. ولذلك أسعفهم، ﴿قال ألقوا﴾ أسعفهم كرمًا ومسامحة وازدراء بهم، ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس﴾، بأن خيلوا إليها خلاف ما في حقيقة الأمر، ﴿واسترهبهم﴾ أي: خوفهم بما أظهروا لهم من أعمال السحر، ﴿وجاؤوا بسحر عظيم﴾ في فته. روى أنهم ألقوا حبلاً غلاظاً، وخشباً طوالاً، كأنها حيات، ملأت الوادي، وركب بعضها بعضاً.

﴿ وَأَوْحِينَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ، فَأَلْقَاهَا ، فَصَارَتْ ثُعْبَانًا عَظِيمًا ، عَلَىٰ قَدَرِ الْجَبَلِ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ طَالَ حَتَّىٰ جَاوَزَ النَّيْلَ ، ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ أَى : تَبْتَلَعُ ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ مَا يُزَوِّرُونَهُ مِنْ إِفْكَهِمْ وَكَذِبِهِمْ . رُوى أَنَّهَا لَمَّا ابْتَلَعَتْ حَبَالَهُمْ وَعَصِيَهُمْ ، وَكَانَتْ مَلَأَتْ الْوَادِىَ ، فَابْتَلَعَتْهَا بِأَسْرَها ، أَقْبَلَتْ عَلَى الْحَاضِرِينَ ، فَهَرَبُوا وَازْدَحَمُوا حَتَّىٰ هَلَكَ مِنْهُمْ جَمْعٌ عَظِيمٌ ، ثُمَّ أَخَذَهَا مُوسَىٰ فَصَارَتْ عَصَاً كَمَا كَانَتْ ، فَقَالَ السَّحَرَةُ : لَوْ كَانَ هَذَا سِحْرًا لَبَقِيتْ حَبَالُنَا وَعَصِينَا .

﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾ أَى : ثَبَتَ بظهور أمره ، ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَغَلَبُوا هَنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ أَى : صَارُوا أَذْلَاءَ مَبْهُوتِينَ ، أَوْ انْقَلَبُوا إِلَى الْمَدِينَةِ مَقْهُورِينَ .

وَلَمَّا رَأَى السَّحَرَةُ ذَلِكَ عَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ طَرِيقِ الْبَشَرِ ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ السَّحَرِ ، فَتَحَقَّقُوا أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَأَمَنُوا ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ :

﴿ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴾ ﴿ ١٢٠ ﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ١٢١ ﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿ ١٢٢ ﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ ١٢٣ ﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ ١٢٤ ﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿ ١٢٥ ﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَارُ رَبِّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿ ١٢٦ ﴾ ﴿

يَقُولُ الْحَقُّ جَل جَلَالُهُ : ﴿ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ ﴾ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴿ سَاجِدِينَ ﴾ لَمَّا عَرَفُوا الْحَقَّ وَتَحَقَّقُوا بِهِ ، فَأَمَنُوا ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ بِهِرَهُمْ ، وَاضْطَرَّهُمْ إِلَى السَّجُودِ بِحَيْثُ لَمْ يَتِمَّاكَوْا ، أَوْ أَلْهَمَهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ وَحَمَلَهُمْ عَلَيْهِ ، حَتَّىٰ يَنْكَسِرَ فِرْعَوْنُ بِالَّذِينَ أَرَادَ بِهِمْ كَسْرَ مُوسَىٰ ، وَيَنْقَلِبَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ .

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ أَبْدَلُوا الثَّانِي مِنَ الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ فِرْعَوْنَ . ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ أَى : بِاللَّهِ أَوْ بِمُوسَىٰ ، ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ ﴾ أَى : إِنَّ هَذِهِ لَحِيلَةٌ صَنَعْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَمُوسَىٰ ﴿ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ ؛ فِي مِصْرَ ، وَدَبَّرْتُمُوهَا قَبْلَ أَنْ تَخْرُجُوا لِلْمِيعَادِ ؛ ﴿ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ أَى : الْقَبِيطَ ، وَتَخْلُصَ لَكُمْ وَلِبْنَى إِسْرَائِيلَ ، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عَاقِبَةُ مَا صَنَعْتُمْ .

ثم فصل ما هددهم به، فقال: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ من كل شق عضو، كيدٍ ورجلٍ من كل واحد، ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم، وليس في القرآن أنه أنفذ ذلك، ولكن روى عن ابن عباس وغيره أنه فعله. قيل: إنه أول من سن ذلك - أي: القطع من خلاف - فشرعه الله للقطاع تعظيماً لجرمهم، فلذلك سماه الله محاربة لله ورسوله.

﴿قَالُوا﴾ أي: السحرة لما خوفهم: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ بالموت، فيكرم مثوانا، فلا نبالي بوعيدك، كأنهم اشتاقوا إلى اللقاء، فهان عليهم وعيده، أو إنا وأنت إلى ربنا منقلبون، فيحكم بيننا وبينك، ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا﴾ أي: وما تعيب علينا ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتُنَا﴾، وهو لا يعاب عند العقلاء، لأنه خير الأعمال، وأصل المناقب ومحاسن الخلال، ثم فزعوا إلى الله فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: اصيب علينا صبراً يغمرنا، كما يفرغ الماء على الشيء فيغمره، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام. قال البيضاوي: قيل: إنه فعل بهم ذلك، وقيل: إنه لم يقدر عليه، لقوله: ﴿أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١). هـ. وقد تقدم قول ابن عباس وغيره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: انظر من سبقت له العناية، هؤلاء السحرة جاءوا يحادون الله فأمسوا أولياء الله، فكم من خصوص تخرج من اللصوص، وانظر أيضاً صبرهم وثباتهم على دينهم، وعدم مبالاتهم بعدوهم، هكذا ينبغي أن يكون من مراده مولاه، لا يلتفت إلى شيء سواه، وعند هذه التصرفات يفتضح المدعون ويثبت الصادقون، عند الامتحان يعز المرء أو يهان.

ثم قال تعالى في تمة قصة موسى عليه السلام:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنْقُبِلْ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا بِاللَّهِ يُورِثُهُا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)

(١) من الآية ٣٥ من سورة القصص.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾ أى: تتركهم يخالفون دينك ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: يخربوا ملكك بتغيير دينك ودعوتهم إلى مخالفتك، ﴿وَيَذَرُكَ وَالْهَيْكَلُ﴾ أى: يترك موسى دينك ومعبوداتك التي تعبد، قيل: كان يعبد الكراكب، وقيل: صنع لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه. ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾. قال فرعون فى جوابهم: ﴿سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أى: ذكورهم ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أى: بناتهم، كما كنا نفعل من قبل، ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة، ولا يتوهم أنه المولود الذى حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يديه. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ غالبون، وهم مهجورون تحت أيدينا.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾، قاله تسكيناً لهم حين سمعوا قول فرعون وما هددهم به، ثم قال لهم: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وسيورثها لكم إن صبرتم وآمنتم. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، فتكون العاقبة لكم إن اتقيتم، وهو وعد لهم بالنصر والعز، وتذكير بما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وملكهم.

﴿قَالُوا﴾ أى: بنو إسرائيل: ﴿أَوْ ذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ بقتل الأبناء، ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ بإعادته، فلم يرتفع عنا الذل بمجيتك، ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، تصريحاً بما كفى عنه أولاً، لما رأى أنهم لم يتسلوا بذلك، ولعله أتى بحرف الطمع، أى: الترجى؛ لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم، أو أولادهم، وقد روى أن مصر إنما فتح لهم فى زمن داود عليه السلام. قاله البيضاوى. ﴿فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أى: فإذا استخلفكم يرى ما تعملون من شكر أو كفران، أو طاعة أو عصيان، فيجازيكم على حسب ما يوجد منكم من كفر أو إحسان.

الإشارة: ما وقع للأنبياء مع قومهم وقع مثله لأشياخ هذه الأمة وفقرائها مع أهل زمانهم، ولما كثرت الأحوال من الفقر أو خرق العوائد، وظهروا بتخريب ظواهرهم، وقعت بهم الشكاية إلى السلطان، وقالوا له: هؤلاء يخربون ملكك، فآل على نفسه إن مكنته الله منهم لا يترك منهم أحداً، فكفى الله بأسه، فاستعانوا بالله وصبروا، واشتغلوا بذكر الله، وغابوا عن سواه، فكانت العاقبة للمتقين.

ثم ذكر ابتلاءه لقوم فرعون، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣٠)
فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ
أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣١)

(١) كما جاء فى الآية ٢٤ من سورة النازعات.

قلت: عبر في جانب الحسنه بإذا، المفيدة للتحقيق، وعرف الحسنه؛ لكثرة وقوعها، وعبر في جانب السيئة بأن المفيدة للشك، ونكر السيئة لندورها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ أى: بالجذب والقحط لقلة الأمطار والمياه، ﴿ونقص من الثمرات﴾ بكثرة العاهات، ﴿لعلهم يذكرون﴾ أى: لكى ينتبهوا أن ذلك من شؤم كفرهم ومعاصيهم، ويتعظوا، وترق قلوبهم بالشدائد، فيفرعوا إلى الله، ويرغبوا فيما عنده.

﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ من الخصب والسعة والرخاء، ﴿قالوا لنا هذه﴾ أى: قالوا: هذه لنا ولسعودنا، ونحن مستحقون له. ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ جذب وبلاء ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ أى: ينشأموا بهم، ويقولون: ما أصابتنا إلا بشؤمهم، وهذا إغراق فى وصفهم بالغباوة والفساوة؛ فإن الشدائد ترقق القلوب، وتذلل العرائك أى: الطبائع، وتزيل التماسك، سيما بعد مشاهدة الآيات، وهى لم تؤثر فيهم، بل زادوا عندها عتوا وانهماكاً فى الغى.

قال تعالى: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ أى: سبب طائرهم وشرهم عنده، وهو حكمه ومشينه، أو سبب شؤمهم عند الله، وهو أعمالهم المكتوبة عنده، فإنها التى ساقط إليهم ما يسوؤهم. قال ابن جزى: أى: حظهم ونصيبهم الذى قدر لهم من الخير والشر عند الله، وهو مأخوذ من زجر الطير، ثم سمي به ما يصيب الإنسان، ومقصود الآية: الرد عليهم فيما نسبوا إلى موسى من الشؤم. هـ. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن ما يصيبهم من الله تعالى بلا واسطة، أو من شؤم أعمالهم.

الإشارة: هذه الخصلة جارية أيضا فى هذه الأمة، أعني التطاير، ترى العوام إذا نزل بهم بلاء أو شدة قالوا: بظهور هؤلاء وقع بنا ما وقع، ولقد سمعت ممن حكى لي هذه المقالة عن العامة وقت ابتداء ظهور الفقراء، وذلك أنهم آذوهم أذى شديداً، فأرسل الله عليهم كثرة الأمطار كادت أن تكون طوفانا، فقالوا: ما أصابنا هذا إلا من شؤم هذه المرقعات التى ظهرت، ولم يدروا أن ذلك منهم لإذابتهم أهل الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر عتو آل فرعون، وعقوبته لهم، فقال:

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْنِيهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخَنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَاءَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَدْعُ لِنَارِكَ بِمَا

عَهْدٍ عِنْدَكَ لِيَنِ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلِنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴿

قلت : (مهما) : اسم شرط جازم، و(تأتنا) : شرطها، وجملة (فما نحن) : جوابها، قيل : مركبة، وأصلها : «ما، الشرطية، ضُمت إليها «ما، الزائدة، نحو : أينما، ثم قُلبت الألف هاء، والمشهور : أنها بسيطة، ومحلها : رفع بالابتداء، أو نصب بفعل يفسره : «تأتنا»، والضمير في : «به»، عائد على «مهما» .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وقالوا ﴾ أي : فرعون وقومه : ﴿ مهما تأتنا به من آية ﴾ ، وإنما سموها آية على زعم موسى، لا لاعتقادهم، ولذلك قالوا : ﴿ لتسحرنا بها ﴾ أي : لتسحر بها أعيننا وتشبهه علينا، ﴿ فما نحن لك بمؤمنين ﴾ . وهذا من عظيم عتوهم وانهماكم في الكفر .

قال تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ وهو مطر شديد نزل بهم مع فيض النيل، حتى هدم بيوتهم وكادوا يهلكون، وامتنعوا من الزراعة، وقيل : الطاعون، وقيل : الجدري، وقيل الموتان، ﴿ والجراد ﴾ وهو المعروف، أكل زروعهم وثمارهم، حتى أكل ثيابهم وأبوابهم وسقف بيوتهم، ﴿ والقمل ﴾ قيل : أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها، وقيل : البراغيث، وقيل السوس، والتحقيق : أنه صغار القراد، دخل ثيابهم وشعورهم ولحاهم، وقرىء : «القمل» بفتح القاف وهو القمل المعروف، دخل ثيابهم وامتلات منها، ﴿ والضفادع ﴾ ، وهي المعروفة، كثرت عندهم حتى امتلات بها فروشهم وأوانيهم، وإذا تكلم أحدهم وثب الضفدع إلى فيه . ﴿ والدم ﴾ صارت مياههم دماً، فكان يستسقى من البئر القبطي والإسرائيلي في إناء واحد، فيخرج ما يلي القبطي دماً، وما يلي الإسرائيلي ماء .

قال البيضاوي : روي أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة، لا يقدر أحد أن يخرج من بيته، ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، وكانت بيوت بني إسرائيل متصلة ببيوتهم، فلم يدخل فيها قطرة، وركب على أرضهم فمنعهم من الحرث والتصرف فيها، ودام ذلك عليهم أسبوعاً، فقالوا لموسى عليه السلام : أدع لنا ربك بما عهد

عندك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا الله فكشف عنهم، ونبت لهم من الكلاً والزرع والثمار ما لم يعهد مثله، ولم يؤمنوا، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت زرعهم وثمارهم، ثم أخذت تأكل الأبواب والسقوف والثياب، ففرعوا إليه ثانياً، فدعا، وخرج إلي الصحراء، وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب، فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها، فلم يؤمنوا، فسلط عليهم القمل وأكل ما أبقاها الجراد، فكان يقع في أطعمتهم ويدخل في ثيابهم وجلودهم فيمصها، ففرعوا إليه فرفع عنهم، فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر، ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا ينكشف ثوب ولا طعام إلا وجدت فيه، وكانت تملأ مضاجعهم، وتثب إلى قدورهم وهي تغلي وأقواهم عند التكلم، ففرعوا وتضرعوا، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهد، فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياههم دماً، حتى يجتمع القبطي مع الإسرائيلي على الماء، فيكون ما يلي القبطي دماً، وما يلي الإسرائيلي ماء، ويمص الماء من فم الإسرائيلي فيصير دماً في فيه، وقيل: سلط عليهم الرعاف. هـ.

﴿ آيات ﴾ أى: حال كون ما تقدم آيات ﴿ مَفْصَلَات ﴾، مبيّنات، لا تشكّل على عاقل أنها آيات الله ونقمة. قيل: كان بين كل واحدة منها شهر، وامتداد كل واحدة أسبوعاً، وقيل: إن موسى ثبت فيهم، بعد ما غلب السحرة، عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل، ﴿ فاستكبروا ﴾ عن الإيمان ﴿ وكانوا قوماً مجرمين ﴾ أى: عادتهم الإجرام.

﴿ ولما وقع عليهم الرّجز ﴾ يعنى: العذاب المفصل، أو البطاعون الذي أرسله عليهم بعد ذلك، ﴿ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ أى: بعهدك عندك، وهو النبوة، أو بالذي عهدك إليك أن تدعوه به فيجيبك كما أجابك في آياتك. والمعنى: ادع الله متوسلاً إليه بما عهد عندك من النبوة والجاه، أو بدعائك إليه ووسائلك، ﴿ لئن كشفت عنا الرّجز ﴾ : العذاب ﴿ لنؤمن لك ﴾ أى: أقسمنا بعهد الله لئن كشفت عنا الرّجز لنؤمن لك ﴿ ولنرسلنّ معك بنى إسرائيل ﴾ كما طلبت، قال تعالى: ﴿ فلما كشفنا عنهم الرّجز إلى أجل هم بالغوه ﴾ إلى حد من الزمان هم بالغوه ثم يهلكون، وهو وقت الغرق أو الموت، وقيل: إلى أجل عينوه لإيمانهم، ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ ؛ جواب لمّا، أى: فلما كشفنا عنهم جاءوا بالنكث من غير تأمل ولا توقف، ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ أى: فأردنا الانتقام منهم، ﴿ فأغرقناهم فى اليم ﴾ أى: البحر الذي لا يدرك قعره أو لجنته، ﴿ بأنهم ﴾ أى: بسبب أنهم ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ التى أرسلناها عليهم. ﴿ وكانوا عنها غافلين ﴾ أى: أغرقناهم بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم فكرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها.

﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ﴾ بالاستعباد وذبح الأبناء ﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ يعنى: أرض الشام، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة، وتمكنوا من نواحيها ﴿ التى باركنا فيها ﴾ بالخصب وسعة العيش، وهى أرض الشام. وزاد ابن جزى: ومصر.

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحَسَنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ أى: نفذت ومضت واستقرت، والكلمة هنا: ما قضى فى الأزل من إنقاذهم من عدوهم، وقيل: قوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ (١) وكانت حسنى؛ لما فيها من النصر والعز، ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى: بسبب صبرهم على الشدائد ﴿ وَدَمَّرْنَا ﴾ أى: خربنا ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ من القصور والعمارات، ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ من البديان المرتفع كصرح هامان، أو ما كانوا يرفعون من الكروم فى البساتين على العرشان، فالأول من العرش، والثانى من العريش .

الإشارة : قد جرت عادة الله فى خلقه أن يظهر الخواص من عباده، فيُنكروا أو يستضعفوا، حتى إذا طهروا من البقايا وتمكنوا من شهود الحق، من الله عليهم بالعز والنصر والتمكين، فمنهم من يمكن من التصرف فى الحس والمعس، ويقره الوجود بأسره، ومنهم من يمكن من التصرف فى الكون بهمته، ولكنه تحت أستار الخمول، لا يعرفه إلا من اصطفاه لحضرته، وهذا من شهداء الملكوت، صن به الحق تعالى فلم يظهره لخلقه . والله تعالى أعلم وأحكم .

ثم ذكر نجاته موسى ﷺ وقومه من فرعون، وخروجهم إلى الشام، فقال:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ أى: قطعنا بهم ﴿ الْبَحْرَ ﴾ ، روى أنهم عبروه يوم عاشوراء، بعد مهلك فرعون، فصاموه شكرا، ﴿ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ ﴾ أى: مروا على قوم من العمالة، وقيل: من لخم، ﴿ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾ أى: يقيمون على عبادتها، قيل: كانت تماثيل البقر، وذلك أول شأن عبادة العجل،

(١) من الآية ٥ من سورة القصص .

وهؤلاء القوم، قيل: هم الجبارون الذين أمر موسى بقتالهم بعد وصوله إلى الشام، ولما رآهم بنو إسرائيل ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً﴾ أى: مثلاً نعبده ﴿كما لهم آلهة﴾ يعبدونها، ﴿قال﴾ لهم موسى ﷺ: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾، وصفهم بالجهل المطلق، وأكدته بيان: أبعد ما صدر منهم، بعد ما رأوا من الآيات الكبرى.

قال البيضاوى: ذكر ما أحدثه بنو إسرائيل من الأمور الشنيعة بعد أن من الله تعالى عليهم بالنعم الجسام، وآراهم من الآيات العظام، تسلية لرسول الله ﷺ عما كان يرى منهم ويلقى من التشغيب، وإيقاظاً للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم. هـ. وذكر في «القوت» أن يهودياً قال لعلى عليه السلام: كيف اختلفتم وضربتكم وجوه بعضكم بالسيف، ونبيكم قريب عهد بكم؟ فقال: أنتم لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ هـ.

ثم قال لهم موسى ﷺ: ﴿إن هؤلاء متبرء﴾: مدمر هالك ﴿ما هم فيه﴾ يعنى: أن الله تعالى يهدم دينهم الذى هم فيه، ويحطم أصنامهم ويجعلها رصاصاً. ﴿وباطل﴾: مضمحل ﴿ما كانوا يعملون﴾ من عبادتها، وإن قصدوا بها التقرب إلى الله تعالى، وإنما بالغ فى هذا الكلام تنفيراً وتحذيراً عما طلبوا. ﴿قال أغير الله أبعيكم﴾ أطلب لكم ﴿إلهاً﴾ أى: معبوداً ﴿وهو فضلكم على العالمين﴾ أى: والحال أنه قد خصكم بنعم لم يعطها غيركم، وفيه تنبيه على سوء مقابلتهم حيث قابلوا تخصيص الله لهم بما استحقوه تفضلاً، بأن قصدوا أن يشركوا به أخس شيء من مخلوقاته وأبلده، وهو البقر.

﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون﴾ أى: واذكروا صنعه معكم فى هذا الوقت حيث نجاكم من فرعون ورهطه ﴿يسومونكم﴾ أى: يذيقونكم ﴿سوء العذاب﴾، ثم بيّنه بقوله: ﴿يقتلون أبناءكم﴾ تذكوركم ﴿ويستحيون نساءكم﴾ أى: بناتكم، ﴿وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ أى: وفى ذلك القتل امتحان عظيم، أو فى ذلك الإنجاء نعمة عظيمة وامتنان عظيم.

الإشارة: من جاوز بحر التوحيد وحاد عنه، ولم يغرق فيه، لا يخلو من طلب شرك جلى أو خفى؛ لأن النفس مادامت لم تغرق فى بحر الوحدة، ولم تسبها جمال المعانى، قطعاً تميل إلى شيء من جمال الحس، لأن الروح فى أصلها عشاق، إن لم تعشق جمال الحضرة تعشق جمال الحس، ومن ركن إلى شيء مما سوى الله فهو شرك عند الموحدين من المحققين، ويؤخذ من الآية أن شكر النعم هو تلخيص التوحيد، وانفراد الوجهة إلى الله تعالى؛ لأن بنى إسرائيل لما أنعم الله عليهم بالإنجاء وقلق البحر قابلوا ذلك بطلب الشرك، فسقطوا من عين الله واستمر ذلهم إلى يوم القيامة. والله تعالى أعلم.

ولما استقر بنو إسرائيل بالشام طلبوا من نبيهم نزول الكتاب وتقرير الشرائع، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وواعدنا موسى﴾؛ لإنزال الكتاب ﴿ثلاثين ليلة﴾ من ذي القعدة، ﴿وأتمناها بعشر﴾ من ذي الحجة، ﴿فتم ميعات ربه﴾ بالغاً ﴿أربعين ليلة﴾، روى أنه عليه السلام وعد بني إسرائيل، بمصر، أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من الله تعالى، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره بصوم ثلاثين، فلما أتم أنكر خلوف فيه فتسوك، فقالت الملائكة: كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشراً، ثم أنزل عليه التوراة .

﴿وقال موسى لأخيه هارون﴾، عند ذهابه إلى الطور للمناجاة: ﴿اخلفني في قومي﴾ أي: كن خليفتي فيهم ﴿وأصلح﴾ ما يجب أن يصلح من أمورهم، أو كن مصلحاً، ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ أي: لا تتبع سبيل من يسلك الإفساد، ولا تطع من دعاك إليه .

الإشارة : كل من انقطع إلى الله تعالى بكلية واعتزل عن الخلق، وأخلى قلبه عما سوى الحق، حصلت له المناجاة والمكالمة، كما وقعت للكليم عليه السلام، وكل ما منحه الله للأنبياء يكون منه نصيب للأولياء من هذه الأمة، والله تعالى أعلم . وفي الحديث: «مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ظَهَرَتْ يَدَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ» (١) .

قال بعض الحكماء: والسرف في ذلك أن الله تعالى أمر بطينة آدم فخمزت في الماء أربعين يوماً، فترى فيها أربعون حجاباً، فلو لا تلك الحجب ما استطاع المقام في الأرض، فمن أیده الله على زوالها تشبه بالملأ الأعلى، وخرقت له العوائد، وأشرق النور من قلبه . ولهذا المعنى بقى داود عليه السلام ساجداً أربعين يوماً، فقبلت توبته، ومكث إبراهيم عليه السلام في نار الممرود أربعين يوماً، فاتخذته الله خليلاً، وكان بعد ذلك يقول: ما رأيت أحلى من تلك الأيام، فمن أخلص في عبادته وأزال تلك الحجب عن قلبه كان ربانياً . قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ (٢) . انظر الشطبي .

ويؤخذ من الآية أن الشيخ إذا أراد أن يسافر من زاويته ينبغي له أن يخلف خليفة عنه ليقوم له بنظام الزاوية، إذ لا خير في قوم ليس فيهم من يعظهم في الله . وبالله التوفيق .

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية، بسند ضعيف عن أبي أيوب . ورواه أحمد بنحوه عن مكحول مرسلًا . راجع كشف الخفاء (٢٢٤/٢) .
(٢) من الآية ٧٩ من سورة آل عمران .

ولما سمع سيدنا موسى ﷺ كلام الحق بلا واسطة، طمع في الرؤية بلا واسطة، كما قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَبَحَّلَىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٤٣)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ الذي وقتنا له ﴿ وكلمه ربه ﴾ من غير واسطة كما يكلم الملائكة . وفيما روى: أنه كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة، وفيه تنبيه على أن سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المحدثين . قاله البيضاوي . وقال الورعجي: أي: أسمع عجائب كلامه كليمة ليعرفه بكلامه؛ لأن كلامه مفاتيح كنوز الصفات والذات . هـ . وقال ابن جزى: لما سمع موسى كلام الله طمع في رؤيته، فسألها، كما قال الشاعر:

وأبرح ما يكون الشوق يوماً
إذا دنت الديار من الديار.

﴿ قال رب أرني أنظر إليك ﴾ أي: أرني نفسك أنظر إليك، بأن تكشف الحجب عني، حتى أنظر إلى ذاتك المقدسة من غير واسطة، كما أسمعني كلامك من غير واسطة . قال البيضاوي: وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة؛ لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصاً ما يقتضي الجهل بالله، ولذلك رده بقوله تعالى: ﴿ لن تراني ﴾ دون لن أرى ولن أريك، ولن تنظر إلي، تنبيهاً على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على حال في الرائي، لم توجد فيه بعد، وجعل السؤال لتبكيته قومه الذين قالوا: ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ (١) خطأ، إذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبههم، كما فعل بهم حين قالوا: ﴿ اجعل لنا إلها ﴾ (٢)، والاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ؛ إذ لا يدل الإخبار عن عدم رؤيته إياه على أنه لا يراه أبداً، وألا يراه غيره أصلاً، فضلاً عن أن يدل على استحالتها. ودعوى الضرورة فيه مكابرة وجهالة بحقيقة الرؤية . هـ .

وهو تعريض بالزمخشرى ورد عليه، فإنه هنا أطلق لسانه في أهل السنة - عفا الله عنه - . والتحقيق: أن رؤيته تعالى برداء الكبرياء - وهي أنوار الصفات - جائزة واقعة -، وأما رؤية أسرار الذات - وهي المعاني الأزلية، التي هي كنه الربوبية - فغير جائزة؛ إذ لو ظهرت تلك الأسرار لتلاشت الأكوان واضمحلت، ولعل هذا المعنى هو الذي طلب سيدنا موسى ﷺ، فلذلك قال له: ﴿ لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه ﴾ عند تجلي هذه

(١) من الآية ١٥٣ من سورة النساء .

(٢) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف .

الأسرار له، ﴿فسوف ترانى، فلما تجلى ربّه للجبل﴾ أى: أظهر له شيئاً من أنوار الربوبية التى هى أسرار المعانى الأزلية، ﴿جعله دكاً﴾ أى: مذكوكاً مفتتاً، والدك والدق واحد. وقرأ حمزة: «دكاه، بالمد، أى: أرضاً مستوية، ومنه: ناقة دكاه لاسم لها. ﴿وخرموسى صَعْقاً﴾ مغشياً عليه من هول ما رأى، ﴿فلما أفاق قال﴾ تعظيماً لما رأى: ﴿سبحانك تبت إليك﴾ من الجرأة والإقدام على السؤال بغير إذن، وقال بعضهم: تبت إليك من عدم الاكتفاء بقوله: ﴿لن ترانى﴾ حتى نظر إلى الجبل، ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ أنك لا ترى بلا واسطة نور الصفات، أو أول أهل زمانى إيماناً.

الإشارة: رؤية الحق جائزة واقعة عند الصوفية فى الدارين، ولكن لا ينالها فى هذه الدار إلا خواص الخواص، ويعبرون عنها بالشهود والعيان، ولا يكون ذلك إلا بعد الفناء، وفناء الفناء بعد موت النفس وقتلها، ثم الغيبة عن حمها ورسمها، تكون بعد التهذيب والتدريب والتربية على يد شيخ كامل، لا يزال يسير به ويقطع به فى المقامات، ويغيبه عن نفسه ورؤية وجوده، حتى يقول له: ها أنت وريك، وذلك أن الحق جل جلاله تجلى لعباده بأسرار المعانى خلف رداء الأوانى، وهو حس الأكوان، فأسرار المعانى لا يمكن ظهورها إلا بواسطة الأوانى، أو تقول: أسرار الذات لا تظهر إلا فى أنوار الصفات، فلو ظهرت أسرار الذات بلا واسطة لاضمحلت الأشياء واحترقت، كما فى الحديث: «حِجَابُهُ الثُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» (١).

فالمراد بالدور نور الصفات، وهو الأوانى الحاملة للمعانى، لو كشف ذلك الدور حتى تظهر أسرار الذات لأحرقت كل شئ أدركه بصره. والواسطة عند المحققين هى عين الموسط، فلا يزال المرید يفنى عن عين الواسطة فى شهود الموسط حتى يغيب عن الواسطة بالكلية، أو تقول: لا يزال يغيب عن الأوانى بشهود المعانى حتى تشرق شمس العرفان، فتغيب الأوانى فى ظهور المعانى، فيقع العيان على فقد الأعيان، «كان الله ولا شئ معه، وهو الآن على ما عليه كان»، «ما حجبك عن الحق وجود موجود معه، إذ لا شئ معه، وإنما حجبك توهم موجود معه».

والحاصل: أن الحق تعالى تكون رؤيته أولاً بالبصيرة دون البصر، لأن البصيرة تدرك المعانى، والبصر يدرك الحسيات، فإذا انفتحت البصيرة استولى نورها على نور البصر، فلا يرى البصر حينئذ إلا ما تراه البصيرة. قال بعض العارفين: هذه المزية العظمى - وهى رؤية الحق تعالى - فى الدنيا على هذا الوجه: خاص بخواص الأمة

(١) أخرجه مسلم فى (الإيمان - باب فى قوله ﷺ: إن الله لا ينالم) من حديث أبى موسى.

المحمدية - دون سائر الأمم - وراثه عن نبيهم ﷺ، فإنه خص بالرؤية دون غيره من الأنبياء، وإلى ذلك أشار ابن الفارض في تائيته، مترجماً بلسان الحقيقة المحمدية، حيث قال:

ودونك بحراً خضتُهُ، وقَفَ الألى بساحله، صَوْنًا لمَوْضِعِ حُرْمَتِي
ولا تَقْرَبُوا مالَ اليتيمِ إشارةً لكَفِّ يَدِ مُدَّتْ لَهُ، إِذْ تَصَدَّتْ
وما نال شيئاً منه غيري سوى فتى على قَدَمِي فِي الْقَبْضِ والبسطِ ما فتى

قال شارحه القاشاني: أراد بهذا البحر: الرؤية التي منع منها موسى ﷺ، وخص بها محمد - عليه الصلاة والسلام - وأفراد من أتباعه. ثم قال: ورد في الخبر: أنه لما أفاق موسى ﷺ من صعقته قيل له: ليس ذلك لك، ذلك ليتيم يأتي من بعدك، ثم قال: سبحانه تبت إليك عما تعديت لما ليس لي، وأنا أول المؤمنين بتخصيص محمد ﷺ بهذا المقام. هـ.

وقيل في قوله: ﴿فلما تجلّى ربّه للجبل﴾ أي: جبل العقل، بحيث طمس نوره بنور شمس العرفان، وخر موسى صعقاً، أي: ذهب وجوده في وجود محبوبه، وحصل له الزوال في مكان الفناء والسكر، فلما أفاق ورجع إلى البقاء تمسك بمقام العبودية والأدب مع الربوبية فقال: «سبحانك تبت إليك» من رؤية جبل الحس قبل شهود نور المعنى، وأنا أول المؤمنين بأن نور المعاني خلف رداء الأواني، لا يدرك إلا بعد الصعقة، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر نزول التوراة، فقال:

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي فَخُذْ مَاءً اتَّيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

قلت: الرُّشْد والرُّشْد: لغتان، قرئ بهما.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال يا موسى إني اصطفيتك﴾ اخترتك ﴿على الناس﴾ الموجودين في زمانك، وهارون، وإن كان نبياً، كان مأموراً باتباعه، ولم يكن كليماً ولا صاحب شرع. فقد اصطفيتك على أهل زمانك ﴿برسالتى﴾ لك إليهم، ومن قرأ بالجمع فالمراد: أوقات التبليغ بأنواع الأحكام أو أسفار التوراة، ﴿و﴾ خصصتك ﴿بكلامى﴾، وقد شاركه نبينا محمد ﷺ مع زيادة الرؤية، ﴿فخذ ما آتيتك﴾ أي: أعطيتك من الرسالة والتكليم، واقنع بهما ولا تطلب غير ذلك، ﴿وكن من الشاكرين﴾ على هذه النعمة، وفيه نوع تأديب له. روى أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة، وأعطاه التوراة يوم النحر.

﴿قال تعالى:﴾ وكتبنا له في الألواح من كل شيء ﴿يحتاجون إليه﴾ موعظة ﴿أي: تذكيراً﴾ وتفصيلاً لكل شيء ﴿يتوقفون عليه في الأحكام والوعظ. واختلف في الألواح: هل كانت سبعة أو عشرة أو اثنين، وهل كانت من زمرد أو زبرجد أو ياقوت أحمر، أو خشب، أو صخرة صماء، شقها الله تعالى لموسى ﷺ فقطعها بيده، وكان فيها التوراة.

قال تعالى لموسى ﷺ: ﴿فخذها﴾ أي: الألواح أو الرسالة ﴿بقوة﴾ أي: بجهد واجتهاد، ﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ بأحسن ما فيها، فإن فيها ما هو حسن وأحسن منه؛ كالقصاص مع العفو، أو بواجباتها، فإن الواجب أفضل من المندوب، وهذا كقوله في كتابنا: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (١)، ويجوز أن يراد بالأحسن: البالغ في الحسن مطلقاً، لا بالإضافة إلى غيره، كقولهم: الصيف أحر من الشتاء، فيكون الأمر بأخذ كل ما فيها لأنه بالغ الحسن، ثم بشرهم بخراب ملك عدوهم، فقال: ﴿سأوريكم دار الفاسقين﴾ أي: دار فرعون وقومه خاوية على عروشها، أي: أريكم كيف أفقرت منهم لما هلكوا، وقيل: منازل عاد وثمود ومن هلك من الأمم، لتعتبروا بها، وقيل: جهنم.

وقرأ ابن عباس: «سأورثكم، با لثاء المثلثة، كقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَاها بني إِسْرَائِيلَ﴾ (٢).

﴿سأصرف عن آياتي﴾ المنصوبة في الآفاق والأنفس الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا من عجائب المصنوعات فلا يفكرون فيها، أو القرآن وغيره من الكتب، أصرف عنها ﴿الذين يتكبرون في الأرض﴾ بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون، ولا يؤمنون بها، عقوبة لهم على تكبرهم، وقيل: الصرف: منعهم من إبطالها

(١) من الآية ٥٥ من سورة الزمر.

(٢) من الآية ٥٩ من سورة الشعراء.

وأطفاء نورها، وإن اجتهدوا، كما فعل فرعون وغيره، فعاد عليهم بإعلانها وإظهار نورها، وذلك التكبر صدر منهم ﴿بغير الحق﴾ أى: تكبروا بما ليس بحق، وهو دينهم الباطل .

﴿وإن يروا كل آية﴾ منزلة أو معجزة ﴿لا يؤمنوا بها﴾ لعنادهم، واختلال نظرهم، بسبب انهماكهم في الهوى وحب الجاه، ﴿وإن يروا سبيل الرشد﴾ أى: طريق الصواب والحق ﴿لا يتخذوه سبيلاً﴾ لاستيلاء الشيطان عليهم، ﴿وإن يروا سبيل الغي﴾ أى: الضلال ﴿يتخذوه سبيلاً﴾ أى: يسلكونه ويتبعونه، لأن سجيتهم الضلال، ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ أى: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم وعدم تدبرهم الآيات.

﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة﴾ أى: ويلقائهم الدار الآخرة، أو: ما وعد الله فى الآخرة، ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ لا ينتفعون بها، ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أى: لا يجزون إلا مقدار أعمالهم . ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (١).

الإشارة: كل من أقامه الله فى مقام من المقامات، أو حال من الأحوال، كيفما كان، يقال له: خذ ما آتيتك، واقنع بما أوليتك، وكن من الشاكرين عليه، وإلا سلبتك ما أعطيتك، فالرضا بالقسمة واجب، وطلب باب الفضل والكرم لازب، والأمر مبهم، والعراقب مغيبة، ومنتهى المقام على التعيين لا يعلم إلا بعد الموت. وقوله تعالى: ﴿فخذها بقوة﴾ أى: بجِد واجتهاد. قال فى الإحياء: الأخذ بالجد أن يكون القارئ متجرداً لله عند قراءته، منصرف الهمّة إليه عن غيره، وهو يشير للحضور.

وقوله تعالى: ﴿يأخذوا بأحسنها﴾ قال الورتجى: يأخذون بأبيدتها لهم، وهى المحكمات التى توجب العبودية، ويأخذون بمتشابهها التى هى وصف الصفات بحسن الاعتقاد والتسليم فيها، لأن علومها وحقائقها لا تكشف إلا للربانيين. قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ...﴾ (٢) الآية. هـ. وقوله تعالى: ﴿مأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض﴾. قال القشيري: سأحرم المتكبرين بركة الاتباع، حتى لا يتلقوا الآيات التى يكاشفون بها بالقبول، ولا يسمعوا ما يخاطبون به بسمع الإيمان. هـ.

(١) من الآية ٤٩ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٧ من سورة آل عمران.

ثم شرع في ذكر مساوي بني إسرائيل فبدأ بعبادتهم العجل، فقال:

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَسُوا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

قلت: «عجلاً»: مفعول أول لاتخذ، وجسداً: بدل منه، وحذف الثاني - أي: «إلهاء» - لدلالة أوله، و(له خور): نعت له.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده ﴾ أي: من بعد ذهابه للميقات، ﴿ من حلّيتهم ﴾ التي كانوا استعاروها من القبط، حين هموا بالخروج من مصر، وإضافتها إليهم؛ لأنها كانت تحت أيديهم، فصنع لهم منها السامري ﴿ عِجْلًا جَسَدًا ﴾ بلا روح، فألقى في جوفه من تراب أثر فرس جبريل، فصار ﴿ له خور ﴾، فقال لهم: ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾، فعكفوا على عبادته، واتخذوه إلهاء.

قال تعالى: ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾ أي: ألم يروا، حين اتخذوه إلهاء، أنه لا يقدر على كلام، ولا على إرشاد سبيل، كأحاد البشر، حتى حسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقدر، وهذا تقريع على فرط ضلالهم وإخلالهم بالنظر. قال تعالى: ﴿ اتخذوه ﴾ إلهاء ﴿ وكانوا ظالمين ﴾ في اتخاذه، وضعوا الأشياء في غير محلها، أي: كانت عبادتهم الظلم، فلم يكن اتخاذ العجل بدعاً منهم.

﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾: كناية عن اشتداد ندمهم، فإن النادم المتحسر يعض يده غماً، فتصير يده مسقوطة فيها. أو يسقط رأسه، أي: يطأطأها لبعض يده. وقال الدميامي: العرب تضرب الأمثال بالأعضاء، ولا تريد أعيانها، تقول للنادم: يسقط في يده، وفي الدليل: رغم أنفه. هـ. أي: ولما ندموا على ما فعلوا، ﴿ ورأوا ﴾ أي: علموا ﴿ أنهم قد ضلوا ﴾ باتخاذ العجل، ﴿ قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا ﴾ بالتجاوز عن خطيئتنا، ﴿ لنكونن من الخاسرين ﴾ دنيا وأخرى.

الإشارة: كل من ركن إلى شيء وعكف على محبته من دون الله فهو في حقه عجل يعبد من دون الله، «ما أحببت شيئاً إلا وكنت عبداً له، وهو لا يحب أن تكون عبداً لغيره». عافانا الله من ذلك.

ثم ذكر رجوع موسى ﷺ من الطور، فقال :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ بَشِمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمُ
أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي
وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتُ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ
رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
الْعِجْلَ سَيْنًا لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾
وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾

قلت : (بشما) : إما، نكرة موصوفة : تمييز، تفسير للضمير المستكن في (بلس)، والمخصوص : محذوف، أي :
بلس شيئاً خلفتموني خلافتكم هذه، وابن أم، منادى مضاف، منصوب بفتحة مقدرة قبل ياء المتكلم، وأصله : ابن
أُمي، فحذفت الياء، وفتحت الميم تخفيفاً.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولما رجع موسى ﴾ من ميقاته ﴿ إلى قومه غضبان ﴾ على قومه، ﴿ أسفا ﴾
أي : حزيناً عليهم حيث ضلوا، ﴿ قال ﴾ لهم، أو لأخيه ومن معه من المؤمنين : ﴿ بشما خلفتموني من بعدى ﴾
أي : من بعد انطلاقي إلى المناجاة، ﴿ أعجلتكم أمر ربكم ﴾ أي : أسابقتكم قضاء ربكم ووعدته، واستعجلتكم إتياني قبل
الوقت الذي قدر فيه، أو أعجلتكم عقوبة ربكم وإهلاكه لكم حيث عبدتم غيره .

﴿ وألقى الألواح ﴾ : طرحها من شدة الغضب حمية للدين، روى أن التوراة كانت سبعة أسفار في سبعة ألواح،
فلما ألقاها انكسرت، فرفع ستة أسباعها، وكان فيها تفصيل كل شيء، وبقي سبع كان فيه المواعظ والأحكام، ﴿ وأخذ
برأس أخيه ﴾ : بشعر رأسه ﴿ يجره إليه ﴾ : توهماً في أنه قصر في زجرهم، وهارون كان أكبر منه بثلاث سنين،
وكان حمولاً لينا، ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل، ولما رأى هارون ما يفعل به أخوه ﴿ قال ابن أم ﴾، ذكر الأم
ليرققه، وكان شقيقاً له، ﴿ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ﴾ حين أنكرت عليهم، فقد بذلت جهدي في
كفهم، وقهروني حتى قاربوا قتلي، فلم أقصر، ﴿ فلا تسمت بي الأعداء ﴾ : فلا تفعل بي ما يشمتون بي، أي :
يستشفون بي لأجله، ﴿ ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ معدوداً في عدادهم بالمؤاخذه، أو نمية التقصير.

﴿ قال ﴾ موسى : ﴿ رب اغفر لي ﴾ ما صنعت بأخي، ﴿ ولأخي ﴾ : إن فرط في كفهم، ﴿ وأدخلنا في
رحمتك ﴾ بمزيد الإنعام علينا، ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ فأنت أرحم منا على أنفسنا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ وهو ما أمرهم من قتل أنفسهم، أو الطاعون الذي سلب عليهم، ﴿وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهي ضرب الجزية والهوان إلى يوم القيامة، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ على الله، ولا فرية أعظم من فريتهم، حيث «قالوا هذا إلهكم وإله موسى»، ولعله لم يفتر أحدٌ مثلها قبلهم ولا بعدهم، حيث جعلوا البقر إلههم وإله الرسول، نسأل الله الحفظ.

ثم ذكر توبتهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من الكفر والمعاصي، ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾؛ من بعد السيئات ﴿وَأَمَنُوا﴾ واشتغلوا بما يقتضيه الإيمان من الأعمال الصالحات، ﴿إِنْ رِبْكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وإن عظم الذنب؛ كجريرة عبدة العجل - وكثراً كجرائم بنى إسرائيل.

الإشارة: الغضب لله وبالله، والأسف على دين الله، من أمارة الغيرة على دين الله، لكن صاحب هذا المقام مالك نفسه، يظهر الغلظة ويبطن الرحمة، قياماً بشهود الحكمة والقدرة، وأما ما صدر من سيدنا موسى - عليه السلام - فتشريع لأهل التشريع، لتلايق التساهل في تغيير المناكر. وساق الإمام الهروي هذه الآية في منازل السائرين في باب المراد، وهو المخصوص من ربه بما لم يرده هو ولا خطر بباله، والإشارة بذلك إلى الضنائن الذين ورد فيهم الخبر: «إِنَّ اللَّهَ ضَنَّاوْنٌ مِنْ خَلْقِهِ، أَلْبَسَهُمُ النُّورَ السَّاطِعَ، وَغَذَاهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، وَفَعَلَ بِهِمْ وَفَعَلَ...» أورده الإمام أبو نعيم في الحلية (١).

وحاصله: أن المرادين هم قوم مخصوصون، ملطوف بهم، محمول عنهم، ومنه: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ (٢) فقد خص - عليه الصلاة والسلام - بما لم يخطر على باله قبل النبوة.

قال الهروي: والمراد: ثلاث درجات: الدرجة الأولى: أن يعصم العبد وهو مستشرف للجفا؛ اضطراراً بتغيب الشهوات وتعويق الملاذ، وسد مسالك المعاطب عليه، إكراماً، والدرجة الثانية: أن توضع عن العبد عوارض النقص، ويعافيه من سمة اللائمة، ويملكه عواقب الهفوات، كما فعل لسليمان عليه السلام في قتل الخيل؛ حملة على الريح الرخاء، فأغناه عن الخيل، وكما فعل لموسى عليه السلام؛ حين ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه لم يعتب عليه كما عتب على آدم ونوح وداود ويونس - عليهم السلام - هـ.

قال شارحه الإمام عبد المعطي السكندري: وهذه الدرجة أتم في الحمل على الأعمال وركوب الأهوال، والتلطف في تعليم الإقبال مما قبلها، فإن ما قبلها منع من الشهوات، وصيانة عن الآفات؛ جبراً وقهراً وحفظاً، وهذا حفظ عنها؛ بإظهار صفح برفق وإكرام ولطف، فتقوى المحبة في القلب، فيحمل ذلك على سرعة الموافقة، ومتى

(١) الجزء الأول ص ٦ بلحوه عن ابن عمر - مرفوعاً.

(٢) من الآية ٨٦ من سورة القصص.

عرف العبد تقصيره في حق مولاه، ورأى مع ذلك تجاوزه عنه، وإحسانه إليه، فضلاً عن ترك مؤاخذته بما جناه، انغرس في قلبه محبته، وقوى بذلك نشاطه، وخفت عليه الأعمال، وقويت منه الأحوال، فكلاهما محفوظ معان، إلا أن الأول قهر مع تعلقه، وهذا إكرام ولطف بعد جريان هفوته، ثم ذكر الدرجة الثالثة، فانظره . هـ . بنقل المحشى .

ثم كمل القصة، فقال :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ ١٥٤

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولما سكت ﴾ أي : سكن ﴿ عن موسى الغضب ﴾ ؛ لما كان الغضب هو الحامل له على ما فعل صار كأنه كان يأمره به ويغريه عليه، حتى عبر عن سكونه بالسكوت، أي : لما سكن غضبه ﴿ أخذ الألواح ﴾ التي ألقاها، ﴿ وفي نسختها ﴾ أي : وفيما نسخ فيها، أي : كتب ﴿ هدى ورحمة ﴾ أي : بيان للحق وإرشاد إلى الصلاح والخير، ﴿ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ أي : للذين يخافون ربهم ويهابونه ؛ لأنهم هم المنتفعون بها، ودخلت اللام في المفعول ؛ لضعف العامل بتأخره .

الإشارة : الغضب لأجل النفس يفسد الإيمان، كالحنظل مع العسل، ولذلك قال - عليه الصلاة والسلام - للذي قال له : أوصني، قال : « لا تغضب »، ثم كرر عليه : أوصني، قال : « لا تغضب »، ثلاثاً، لأن الغضب المفرط يغطي نور العقل، فيصدر من صاحبه أمور منكرة، قد يخرج بها عن الإيمان بالكلية، وقد يؤدي إلى قتل نفسه والعياذ بالله، والغضب معيار الصوفية ؛ قال بعضهم : إذا أردت أن تعرف الرجل فغضبه وانظر ما يخرج منه، إلى غير ذلك مما ورد فيه، فإن كان غضبه لله أو بالله فلا كلام عليه، وهو حال الأنبياء وأكابر الأولياء - رضى الله عنهم - .

ولما انقضت قضية العجل أراد سيدنا موسى ﷺ أن يذهب بقوم، يعتذرون عن عبادة العجل، كما قال تعالى :

﴿ وَأَخْبَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ ١٥٥ ﴿ وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدَّنَا إِلَيْكَ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿واختار موسى قومه﴾ من قومه ﴿سبعين رجلاً﴾ يعتذرون عن قومهم في عبادة العجل، ﴿لميقاتنا﴾ الذي وقتنا لهم يأتون إليه، وقيل: إن الله تعالى أمره به بأن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فاختر من كل سبط ستة، فزاد على السبعين اثنان، فقال: يتخلف منكم رجلان، فتشاجروا، فقال: إن لمن قعد أجر من خرج، فقع كالب ويوشع، وذهب معه الباقون، فلما دنوا من الجبل غشيه غمام، فدخل موسى بهم الغمام وخرّوا سجداً، فسمعوه يكلم موسى، يأمره وينهاه، ثم انكشف الغمام، فأقبلوا إليه، وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (١)، ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أى: الصعقة، أو رجفة الجبل، عقاباً لهم على قولهم، فصعقوا منها، يحتمل أن تكون رجفة موت أو إغماء. والأول أظهر؛ لقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ (٢).

﴿فلما أخذتهم الرجفة قال﴾ موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَآيَا﴾، تمنى هلاكهم وهلاكه قبل ذلك الوقت، لأنه خاف من تشييب بني إسرائيل عليه، إن رجع إليهم دون هؤلاء السبعين، ربما قالوا: عرّضهم للهلاك، أو يكون قال ذلك على وجه الاستسلام والانقياد للقضاء، أى: لو شئت أن تهلكنا من قبل ذلك لفعلت، فإننا عبيدك وتحت قهرك تفعل بنا ما تشاء، أو يكون قاله على وجه التضرع والرغبة، أى: لو شئت أن تهلكنا قبل اليوم لفعلت، لكنك عافيتنا وأنقذتنا وأغرقت عدونا، فافعل بنا الآن كما عودتنا، وأحى هؤلاء الذين أمتهم، إذ ليس ببعيد من عميم إحسانك، ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ من العناد والتجاسر على طلب الرؤية، أو بما فعل السفهاء من عبادة العجل.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أى: ابتلاؤك حين أسمعنتهم كلامك، حتى طمعوا في الرؤية، أو فتنتك لهم بأن أجريت الصوت من العجل حتى افتتنوا به، وهذا اعتراف بالقدر، ورجوع إلى قوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فُتِنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ...﴾ (٣) الآية، ولذلك قيل: إنه قال له تعالى: نعم هي فتنتي يا حكيم الحكماء. هـ. أى: ما هذه الأمور كلها التي صدرت من بني إسرائيل إلا فتنتك ﴿تضل بها من تشاء﴾ ضلالته، باتِّباع المخايل، ﴿وتهدى من تشاء﴾ هدايته، فيقوى بها إيمانه، وهو اعتذار عن فعل السفهاء فإنه كان بقضاء الله ومشيتته.

﴿أنت ولينا﴾ القائم بأمرنا، أو ناصرنا من الوقوع في أسباب المهالك، ﴿فاغفر لنا﴾ ما قارفنا من الذنوب، ﴿وارحمنا﴾ أى: اعصمنا من الوقوع في مثله، ﴿وأنت خير الغافرين﴾ تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة، ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة﴾ أى: حالة حسنة من حسن معيشة وتوفيق طاعة، ﴿وفي الآخرة﴾ حسنة؛ نعيم الجنة، ﴿إنا هُدىنا إليك﴾ أى: تبنا إليك، من هاد يهود: إذا رجع، أى: رجعنا إليك بالتوبة مما سلف منا.

(٢) من الآية ٥٦ من سورة البقرة.

(١) من الآية ٥٥ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٨٥ من سورة طه.

الإشارة: السلامة من العطب هو في مقام الهيبة والأدب، ولذلك قيل: قف بالبساط، وإياك والانبساط. وأما مقام الإدلال فلا يصح إلا من أكابر الأنبياء، والأولياء المحققين بمقام المحبوبة، المتحفين بغاية الخصوصية، ومنه قول سيدنا موسى عليه السلام: «أتهلكنا بما فعل السفهاء منا»، كما قال في الإحياء. والإدلال: هو انبساط يثور من مقام الأنس والتحقيق بالمحبة الخاصة، ولا يتفق إلا من محبوب مأخوذ عنه، ليس عليه بغية من نفسه، ولا شعور بوجوده وأنايته، ولا رد في وجهه وكان سبب عطبه. ومن الإدلال: ما وقع لأبي الحسن الشاذلي رحمته الله في حزنه الكبير، من قوله: وليس من الكرم ألا تحسن إلا لمن أحسن إليك... إلخ. وقد وقع لغيره من المحبوبين. والله تعالى أعلم.

ثم أجاب الحق - سبحانه وتعالى - سؤال موسى عليه السلام في قوله: (واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة) فقال:

﴿... قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ذَرَوْا وَابْنَاءَهُمْ وَعِزَّزُوا وَنَصَرُوا وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: في جواب سيدنا موسى عليه السلام: ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء﴾ ممن أخذته الرجة وغيرهم، ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ في الدنيا للمؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مخصوصة بالمؤمنين، ﴿فسأكتبها﴾ كتابة خاصة لا تليق بكم يا بني إسرائيل، إنما تليق بالأمة المحمدية الموسومة بالآداب المرضية، الذين ﴿يتقون﴾ الكفر والمعاصي، وإن وقعت هفوة بادروا إلى التوبة، ﴿ويؤتون الزكاة﴾، خصصها بالذكر لأنها كانت أشق عليهم. ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ فلا يكفرون بشيء منها، بل يؤمنون بجميع الكتب والأنبياء، وليس ذلك لغيرهم. ولذلك خصهم الله بهذه الرحمة، فنصرهم على جميع الأمم، وأعلى دينهم على جميع الأديان، ومكن لهم مالم يمكن لغيرهم.

﴿الذين يتبعون الرسول﴾ ﷺ ﴿النبي الأمي﴾ وهو نبينا ومولانا محمد ﷺ، وكونه أمياً شرفاً له، إذ الكتابة وسيلة للعلوم، وقد أعطى منها ما لم يُعطَ أحدٌ من العالمين، من غير تعب تعلمها، ولا ارتفاع الارتياح في نبوته ﷺ، فهي من جملة معجزاته؛ قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب...﴾ الآية (١). قال بعضهم: لما قال الله تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ طمع فيها كل أحد، حتى إبليس، فلما قال: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾ يئس إبليس، وبقيت اليهود والنصارى، فلما قال: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾ يئس اليهود والنصارى. هـ.

﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ اسماً وصفة، ونص ما في التوراة على ما في صحيح البخاري، عن عبد الله بن سلام: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحِزْراً للأمينين، أنتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمِيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِقَطْرٍ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا صَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يُجَازِي بِالسَّيْفَةِ السَّيْفَةَ، وَلَكِنْ يَغْفِرُ وَيَصْفَحُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يَقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ؛ بَأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمَيَّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا» (٢).

ومما في التوراة أيضاً، وهو مما أجمع عليه أهل الكتاب، وهو باق في أيديهم إلى الآن؛ أن الملك قد نزل على إبراهيم، فقال له: في هذا العام يولد لك غلام اسمه إسحاق، فقال إبراهيم: يارب ليت إسماعيل يعيش يخدمك، فقال الله لإبراهيم: ذلك لك، قد استجيب لك في إسماعيل، وأنا أباركه، وأنميّه، وأكثره، وأعظمه بما دُماد، وتفسيره: محمد ﷺ.

ومن ذلك مما في التوراة أيضاً: أن الرب - تعالى - جاء من طور سيناء، وطلع على «ساغين»، وظهر من جبل فاران، ويعنى بطور سيناء: موضع مناجاة موسى، وساغين موضع عيسى، وفاران هي مكة، موضع مولد نبينا محمد ﷺ، وفي التوراة أيضاً: أن هاجر أم إسماعيل لما غضبت عليها سارة، تراءى لها ملك، فقال لها: يا هاجر، أين تريدان، ومن أين أقبلت؟ فقالت: أهرب من سيدتي سارة، فقال لها: يا هاجر، ارجعي إلى سارة، وستحملين وتلدن ولداً اسمه إسماعيل، وهو يكون عين الناس، وتكون يده فوق الجميع، وتكون يد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع. هـ.

وهذا الذي وعدنا الملك إنما ظهر بمبعث النبي ﷺ وظهور دينه وعلو مكانه، ولم يكن ذلك لإسماعيل ولا لغيره من أولاده، لكن الأصل يشرف بشرف فرعه، وفي التوراة أيضاً: أن الله أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: قد أجبت دعائك في إسماعيل، وباركت عليه، وسيلد اثني عشر عظيماً، وأجعله لأمة عظيمة. وفي بعض كتبهم: لقد

(١) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت.

(٢) أخرجه البخاري في (تفسير سورة الفتح، باب: «إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً») من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

تقطعت السماء من بهاء محمد المحمود، وامتلات الأرض من حمده، لأنه ظهر بخلاص أمته هـ. ونص ما في الإنجيل: أن المسيح قال للحواريين: إني ذاهب عنكم، وسيأتيكم الفارقليط، الذي لا يتكلم من قبل نفسه، إنما يقول كما يقال له، هـ. والفارقليط بالعبرانية: اسم محمد ﷺ، وقيل معناه: الشافع المشفع.

وعن شهر بن حوشب - في قصة إسلام كعب الأحبار، وهو من اليمن من حمير -: أن كعباً أخبره بأمره، وكيف كان ذلك، وكان أبوه من مؤمنى أهل التوراة برسول الله ﷺ، قبل ظهوره، قال كعب: وكان أبى من أعلم الناس بالتوراة وكتب الأنبياء، ولم يكن يدخر عنى شيئاً مما كان يعلم، فلما حضرته الوفاة دعانى فقال: يا بنى، قد علمت أنى لم أكن أدخر عنك شيئاً مما كنت أعلم، إلا أنى حبستُ عنك ورقتين فيهما ذكر نبي يبعث، وقد أطل زمانه، فكرهت أن أخبرك بذلك، فلا آمن عليك بعد وفاتى أن يخرج بعض هؤلاء الكذابين فتتبعه، وقد قطعتهما من كتابى، وجعلتهما فى هذه الكوة التى ترى، وطليت عليهما، فلا تعرض لهما حتى يخرج هذا النبي، فإذا خرج فاتبعه وانظر فيهما، فإن الله تعالى يزيدك بهذا خيراً، فلما مات والدى لم يكن شئ أحب إلى من أن ينقضى المأثم حتى أنظر ما فى الورقتين، فإذا فيهما: محمد رسول الله ﷺ، خاتم النبيين لا نبي بعده، مولده بمكة، ومهاجره طيبة، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيدة السيئة، ولكن يجزى بالسيدة الحسنة، ويعفو ويغفر ويصفح، أمته الحمادون، الذين يحمدون الله على كل شرف وعلى كل حال، وتذل أسنتهم بالتكبير، وينصر الله نبيهم على كل من ناواه، يغسلون فروجهم بالماء، ويتأزرون على أوساطهم، وأناجيلهم فى صدورهم، ويأكلون قربانهم فى بطونهم، ويؤجرون عليها، وتراحمهم بينهم تراحم بنى الأم والأب، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم، وهم السابقون المقربون، والشافعون المشفع فيهم، (١). ثم أسلم على يد عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

قال الحق جل جلاله فى بقية أوصاف نبينا - عليه الصلاة والسلام -: ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات﴾ مما حرم على اليهود؛ كالشحوم وغيرها، ﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ كالدم ولحم الخنزير وسائر الخبائث، أو كالربا والرشوة وغيرهما من المحرمات. قال ابن جزى: مذهب مالك أن الطيبات هى الحلال، وأن الخبائث هى الحرام. ومذهب الشافعى: أن الطيبات هى المستلذات، إلا ما حرمه الشرع منها، كالخمر والخنزير، وأن الخبائث هى المستقذرات كالخنافس والعقارب. هـ.

﴿ويضع عنهم إصرهم﴾ أى: الثقل الذى عليهم، وهو مثال لما كلفوا به - أى: بنو إسرائيل - فى شرعهم من المشقات؛ كقتل الأنفس فى التوبة، وقطع موضع النجاسة من الثوب، وتعيين القصاص فى العمد والخطأ. (*)

(١) أخرجه بنحوه مختصراً الدارمى فى (المقدمة - باب صفة النبى ﷺ) والبخارى فى تفسيره، (٢٨٩/٣) وابن سعد فى الطبقات ١/٣٦٠.

(*) من هنا يبدأ سقط كبير فى المخطوطة الأصلية سيستمر حوالي عشرين صفحة.

﴿وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾؛ عبارة عما منعت منه شريعتهم، كتحريم الشحوم، وتحريم العمل يوم السبت، وشبه ذلك. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾ أى: ملعوه وحفظوه من عدوه، حتى لا يقوى عليه، أو عظموه بالتقوية حتى انتصر، وأصله: الملح، ومنه التعزير، ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ حتى أظهروا دينه فى حياته وبعد مماته، ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ وهو القرآن، وإنما سماه نوراً؛ لأنه بإعجازه ظاهر أمره ومظهر غيره، أو لأنه كاشف للحقائق مظهر لها. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالرحمة الأبدية، وهذا آخر جواب سيدنا موسى عليه السلام.

الإشارة: قوله تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، قال القشيري: لم يُطَقَّها بالمشيئة - يعنى: كما قال فى العذاب - لأنها نفس المشيئة، ولأنها قديمة، والإرادة لا تتعلق بالقديم، فلما كان العذاب من صفات الفعل علَّقه بالمشيئة، بعكس الرحمة لأنها من صفات الذات. ويقال فى قوله تعالى: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾: مجال لآمال العصاة؛ لأنهم، وإن لم يكونوا من جملة المطيعين العابدين والعارفين، فهم «شياء» هـ.

قلت: وبهذا العموم تشبث إبليس فى قضية له مع سهل، وذلك أنه لما تراءى له، ضحك، فقال له: كيف تضحك وقد أبليت من رحمة الله؟ فقال له: قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وأنا شيء، فسكت سهل، ثم تذكر تمام الآية، فقال: قال تعالى: ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، فهى مقيدة لا مطلقة، فقال له: التقوى فعل العبد، والرحمة صفة الرب، ولا يتغير وصف الحق بفعل العبد، فعجز سهل. قلت: والجواب: أن إبليس جاء من جهة الفرق، ولو نظر للجمع لوجد الرحمة وصفه، والتقوى فعله، وفعله يغير وصفه، والكل منه وإليه. والله تعالى أعلم.

وقال الورعجي: جميع الخلائق مستغرقون فى بحر الرحمة، لأن إيجاد الحق إياهم، على أى وصف كانوا، عين رحمته، حيث دخلوا تحت نظره وسلطانه وربوبيته، ومباشرة قدرته فيهم، ثم إن الخلق بالتفاوت فى الرحمة فالجمادات مستغرقة فى نور فعله، وهى الرحمة الفعلية، والحيوانات مستغرقة فى نور صفاته، وهى الرحمة الصفاتية، والعقلاء من الجن والإنس والملائكة مستغرقون فى نور ذاته، وهى الرحمة القديمة الذاتية من جهة تعريفهم ربوبيته ووجدانيته، وهم من جهة الأجسام وما يجرى عليها، فى الرحمة العامة، ومن جهة الأرواح وما يجرى عليها، فى الرحمة الخاصة، وهم فيها بالتفاوت، فبعضهم فى رؤية العظمة ذابوا، وبعضهم فى رؤية القدم والبقاء تاهوا، وبعضهم فى رؤية الجلال والجمال عشقوا وطاشوا، ومن خرج من مقام الرحمة إلى أصل الصفة، ومن الصفة إلى أصل الذات استغرق فى الراحم، وفنى عن الرحمة، فصار رحمة للعالمين، وهذا وصف نبيل - عليه الصلاة والسلام -، لأنه وصل بالكل إلى الكل، فوصفه برحمة الكل بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١)، ثم خص رحمته الخاصة الصفاتية، بعد أن عم الكل برحمته العامة للمنفردين بالله عن غير الله، القانتين بعظمته فى عظمة الذين بذلوا وجوههم لحق ربوبيته عليهم بقوله: ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ...﴾ هـ.

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

قال في الحاشية: واعتبر قوله: ﴿فسأكتبها﴾، فإنه يقتضى كون الرحمة السابقة مطلقة، والتغيير طارئ، والطارئ لا ينافى الذات. هـ. قلت: فتكون على هذا الرحمة التى وسعت كل شيء رحمة عامة، إذ لا يخلو مخلوق من رحمته فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فالخلق كلهم مرحومون إيجاباً وإمداداً، وأما فى الآخرة فما من عذاب إلا والله أشد منه فى قدرته، والرحمة التى كتبت للمؤمنين رحمة خاصة، ويدل على هذا ما فى القوت^(١) على قوله: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾، قال: معناه خصوص الرحمة وصفوها لا كلها، إذ لا نهاية للرحمة، لأنها صفة الراحم الذى لا حد له، ولأنه لم يخرج من رحمته شيء، كما لم يخرج من حكمته وقدرته شيء. هـ.

وقال السيوطي: فسأكتبها فى الآخرة، ووجه تخصيصها فى الآخرة بالمؤمنين: تمحصها هنالك من غير شوب بضد، ولا كذلك فى الدنيا، وإن كانت غالبية، والكافر عمته فى الدنيا عموماً ظاهراً، وسلب منها فى الآخرة بحسب الظاهر، وإن لم يخل عنها فى الجملة، لأن غضبه تعالى لا حد له لولا رحمته.

وحاصله: أنه لم تقى جهنم بغضبه، لأنه لا يفى المتناهى بغير المتناهى ورحمته عمت الكافر فى الدنيا لإمهاله وبسط نعمه عليه، وفى الإمهال فسحة فى الحال وأمل الإقلاع فى المآل، وقد يتفق كثيراً، أى: الإقلاع، فلا يتعين أن يكون الإمهال استدراجاً، على أنه إنما يتجلى تجلياً أولياً ذاتياً برحمة مطلقة من غير تفصيل، إذ لا تعدد فى الذات، وإنما يظهر التفصيل بالصفات، وإن كان يسرى إليها من الذات، ولكن الرحمة تظهر أولاً من الذات، مع قطع النظر عن الصفات؛ لظهورها، ولا تظهر النعمة إلا من الصفات، وهى خفية فى تجلى الذات المطلق، ولذلك قال: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾، وعلق العذاب على المشيئة، فخص به دونها. هـ. من الحاشية مع زيادة بيان.

ثم أمره بالدعاء إلى الإيمان، فقال:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٥٨﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾؛ الأحمر والأسود، والعرب والعجم، والإنس والجن، خص بهذه الدعوة العامة، وإنما بعثت الرسل إلى قومها خاصة. فادع الناس أيها الرسول إلى الله تعالى، ﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ يتصرف فيهما كيفما شاء، ﴿لا إله إلا هو﴾؛ لأن من ملك العالم كان هو الإله لا غير، ﴿يحي ويُميت﴾؛ لعموم قدرته ونفوذ أمره،

(١) أى قوت القلوب لأبى طالب المكي.

﴿فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أي: ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل قبله من كتبه ووحيه. وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة، أي: لم يقل: فآمَنُوا بِاللَّهِ وَآمَنُوا؛ لإجراء هذه الصفات عليه، الداعية إلى الإيمان به واتباعه، ولذلك قال: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى طريق الحق والرشد، جعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين؛ تنبيهاً على أن من صدقه، ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد في خطط الضلالة. قاله البيضاوي.

الإشارة: لاغنى للمريد عن متابعة الرسول ﷺ، ولو بلغ ما بلغ، لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، وغاية الاهتداء غير متناهية، لأن أدب العبودية مقرون مع عظمة الربوبية، فكما أن الترقى في مشاهدة الربوبية لا نهاية له، كذلك أدب العبودية لا نهاية له، ولا تعرف كيفية الأدب إلا بواسطة تعليمه عليه الصلاة والسلام، فواسطة النبي ﷺ لا تفارق العبد، ولو عرف ما عرف، وبلغ ما بلغ. والله تعالى أعلم.

ثم رجع الحق تعالى إلى الكلام مع بنى إسرائيل، فقال:

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾، يعنى بنى إسرائيل، ﴿أُمَّةٌ﴾ طائفة ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس بكلمة الحق، أو متلبسين ﴿بِالْحَقِّ﴾، وهم الذين ثبتوا حين افتنن الناس بعبادة العجل، والأحبار الذين تمسكوا بالتوراة من غير تحريف، أو الذين آمنوا بمحمد ﷺ، ﴿وَبِهِ﴾ أي: بالحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾ فى أحكامهم وقضايائهم. قال البيضاوي: أتبع ذكرهم ذكر أصدقائهم على ما هو عادة القرآن؛ تنبيهاً على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر. هـ.

الإشارة: فى كل أمة، وفى كل عصر، أمة صالحة، يُبَصِّرُونَ الناس بالحق، ويدعون إلى الله، فممنهم من يهدى إلى تزيين الظواهر بالشرائع، وهم العلماء الأتقياء، ومنهم من يهدى إلى تنوير السرائر بالحقائق، وهم الصوفية الأولياء، المحققون بمعرفة الله. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أحوال بنى إسرائيل، فقالوا:

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عِيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

قلت : أسباطاً: بدل لا تميز؛ لأن تمييز العدد يكون مفرداً، والتميز محذوف، أى: فرقة أسباطاً. وقال الزمخشري: يصح تمييزاً؛ لأن كل قبيلة أسباط لا سبط. هـ. فكأنه قال: وقطعناهم اثنتى عشرة سبطاً سبطاً. والسبط فى بنى إسرائيل كالقبيلة عند العرب، و(أمما): بدل بعد بدل على الأول، وعلى الثانى بدل من أسباط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ أى: بنى إسرائيل، أى: فرقناهم ﴿اثنتى عشرة أسباطاً﴾؛ اثنتى عشر سبطاً، ﴿أمما﴾ متميزة، كل سبط أمة مستقلة، ﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاء قومه﴾ فى التيه، ﴿أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست﴾؛ انفجرت، إلا أن الانبجاس أخف من الانفجار، أى: فضرب فانبجست، وحذفه للإيماء إلى أن موسى لم يتوقف فى الامتثال، وأن ضربه لم يكن مؤثراً يتوقف عليه الفعل من ذاته، بل سبب عادى وحكمة جارية، والفعل إنما هو بالقدرة الإلهية، أى: نبعت ﴿منه اثنتا عشرة عينا﴾، قد علم كل أناس ﴿كل سبط﴾ مشربهم، وظللنا عليهم الغمام ﴿لتقيهم من حر الشمس﴾، وأنزلنا عليهم المن والسلوى، وقلنا لهم: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ سبق فى سورة البقرة، وكذلك الإشارة (١).

ثم قال:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكروا ﴿إذ قيل﴾ لبنى إسرائيل: ﴿اسكنوا هذه القرية﴾؛ بيت المقدس، ﴿وكلوا منها حيث شئتم، وقولوا﴾: أمرنا ﴿حطة﴾، وادخلوا الباب سجداً ﴿سجود انحناء﴾، ﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾ التى سلفت، ﴿سنزيد المحسنين﴾؛ وعد بالغفران والزيادة عليه، وإنما أخرج الثانى مخرج الاستئناف، يعنى: سنزيد، ولم يقل: وسنزيد؛ للدلالة على أنه تفضل محض، ليس فى مقابلة ما أمروا به، ﴿فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم﴾؛ قالوا: حبة فى شعرة، مكان حطة، لأنهم حملوا الحطة على الحنطة. ﴿فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون﴾ قد مر تفسيره، وإشارته، فى سورة البقرة (٢).

(١) راجع تفسير الآية ٦٠ من سورة البقرة.

(٢) راجع تفسير الآية ٥٨ من سورة البقرة.

تنبيه: وقع اختلاف كثير في اللفظ بين هذا الموضع من هذه السورة وبين سورة البقرة، في ﴿انفجرت﴾ و﴿انبحست﴾، وقوله: ﴿وإذا قلنا ادخلوا﴾ و﴿وإذا قيل لهم اسكنوا﴾، وقوله هنا: ﴿وكلوا﴾، وهناك ﴿فكلوا﴾. فقال الزمخشري: لا بأس باختلاف العبارتين، إذا لم يكن هناك تناقض. ووجه بعضهم الفرق بأن ما في هذه السورة سيق في محل الغضب والعقاب على عبادة العجل، وما في سورة البقرة سيق في محل الامتنان، فلذلك عبر هنا بانبحست؛ لأنه أقل من انفجرت، وعبر هنا بقيل؛ مبنياً للمجهول؛ تحقيراً لهم أن يذكر نفسه لهم، وعبر هنا بالسكنى؛ لأنه أشق من الدخول ويستلزمه، وعبر هنا بالواو؛ لأن السكنى تجامع الأكل، بخلاف الدخول، فإن الأكل مسبب عنه، فعبر بالفاء، وزاد في البقرة الواو في: ﴿سنزيد﴾، كأنه نعمة أخرى، بخلاف هذا، وزاد هنا ﴿منهم﴾؛ لتقدم ذكرهم في قوله: ﴿وإذا قيل لهم﴾، وعبر هنا بالظلم؛ لأنه أعم من الفسق وغيره. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر اعتدائهم في السبت وما ترتب عليه، فقال:

﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِصَمٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

قلت: (إذ يعدون): بدل من (القرية)، بدل اشتمال، أو منصوب بكانت، أو بحاضرة، و(إذ تأتيتهم): منصوب ببيعدون، و(سبتهم): مصدر مضاف للفاعل، يقال: سبت اليهود سبتاً: إذا عظم يوم السبت وقطع شغله فيه، و(شُرَعاً): حال، ومعناه: ظاهرة قريبة منهم، يقال: شرع منه فلان إذا دنا منه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿واسألهم عن القرية﴾ أي: اليهود، سؤال تقرير وتوبيخ على تقديم عصيانهم وعما هو من معلومهم، الذي لا يعلم إلا بتعليم أو وحى، وقد تحققوا أنك أمي، فيكون ذلك معجزة وحجة عليهم، ﴿عن القرية﴾ أي: عن خبرها وما وقع لها، ﴿التي كانت حاضرة البحر﴾ قريبة منه، وهي إيلة، قرية بين مدين والطور، على شاطئ البحر، وقيل: مدين، وقيل: طبرية، ﴿إذ يعدون في السبت﴾: يتجاوزون حدود الله

بالاصطياد في يوم السبت، وكان حراماً عليهم لاشتغالهم عنه بالعبادة، ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعاً﴾ : ظاهرة على وجه الماء، دانية منهم، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ بل تغوص كلها في البحر ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل هذا البلاء الشديد ﴿نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب فسقهم. وقيل: «كذلك»: متصل بما قبله، أي: لا تأتيتهم مثل ذلك الإتيان الذي تأتته يوم السبت.

ثم افتقرت بنو إسرائيل ثلاث فرق: فرقة عصت بالصيد يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلت القوم. وفرقة سكنت واعتزلت فلم تنه ولم تعص. ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ﴾، وهي التي لم تنه ولم تعص، لما رأت مهاجرة الناهية وطغيان العاصية: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ﴾ بالموت بصاعقة، ﴿أَوْ مَعْذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة؟ ﴿قَالُوا﴾: نهينا لهم ﴿مَعَذرةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي: عذراً إلى الله تعالى، حتى لا ننسب إلى تفريط في النهي عن المنكر، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فينزعجون عن العصيان، إذ اليأس منهم لا يحصل إلا بالهلاك.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: تركوا ما وعظوا به ترك الناسي، ﴿أُنْجِنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ بالاعتیاد ومخالفة أمر الله، ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ : شديد، من بؤس يبؤس بؤساً، وقرىء (بئس) على وزن ضيغم، وبئس بالكسر والسكون، كحذر، وبئس بتخفيف الهمزة، ومعناها واحد، أي: بما عاقبناهم بالمسخ، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب فسقهم.

قال ابن عباس: لا أدري ما فعل بالفرقة الساكنة؟ وقال عكرمة: لم تهلك؛ لأنها كرهت ما فعلوه. ورجع إليه ابن عباس وأعجبه، لأن كراهيتها تغيير المنكر في الجملة، مع قيام الفرقة الناهية به؛ لأنه فرص كفاية. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ﴾ تكبراً عن ترك ما نهوا عنه، ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أذلاء صاغرين. قال البيضاوي: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا﴾، هو كقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١)، والظاهر يقتضي أن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد، فعتوا بعد ذلك، فمسخهم قردة وخنازير، ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلاً للأولى.

روى أن الناهين لما أيسوا عن اتعاط المعتدين، كرهوا مساكنتهم، فقسموا القرية بجدار فيه باب مطروق، فأصبحوا يوماً ولم يخرج إليهم أحد من المعتدين، فقالوا: إن لهم شأنًا، فدخلوا عليهم فإذا هم قردة، فلم يعرفوا أنسابهم، ولكن القردة تعرفهم، فجعلت تأتي أنسابهم وتشم ثيابهم، وتدور باكية حولهم، ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام. هـ.

الإشارة: المسخ على ثلاثة أقسام: مسخ الأشباح، ومسخ القلوب، ومسخ الأرواح، فمسخ الأشباح هو الذي وقع لبنى إسرائيل، قيل: إنه مرفوع عن هذه الأمة، والصحيح: أنه يقع في آخر الزمان، ومسخ القلوب يكون بالانهماك

(١) الآية ٤٠ من سورة النحل.

فى الذنوب، والإصرار على المعاصى، وعلامته: الفرغ بتيسير العصيان، وعدم التأسف على ما فاته من الطاعة والإحسان، ومسح الأرواح: الانهماك فى الشهوات، والوقوف مع ظواهر الحسيات، أو تكثيف الحجاب، والوقوف مع العوائد والأسباب، دون مشاهدة رب الأرباب. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر عقوبة بنى إسرائيل فى الدنيا، فقال:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبُّكَ لِبَعَثْنَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ١٦٧

قلت: تأذن: أعلم، وهى تفعل، وهى من الإيذان بمعنى الإعلام، كتوعّد وأوعد، أو: عزم، لأن العازم على الشىء يؤذن نفسه بفعله، وأجرى مجرى القسم كعلم الله وشهد الله، ولذلك أجيب باللام القسمية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أى: أعلم وأظهر ذلك فى عالم الشهادة، ﴿لِبَعَثْنَهُمْ﴾ على بنى إسرائيل، أى: ليعلموا ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾؛ كالإذلال وضرب الجزية، وقد بعث الله عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر، فحرب ديارهم، وقتل مقاتلتهم، وسبى نساءهم وذراريهم، وضرب الجزية على من بقى منهم، وكانوا يؤدونها إلى المجوس، حتى بعث الله نبينا محمداً ﷺ ففعل بهم ما فعل، فى بنى قريظة والنضير وخبير، ثم ضرب الله عليهم الجزية إلى آخر الدهر، ﴿إِنْ رَبُّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ فعاقبهم فى الدنيا، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب وآمن، وإنما أكد هنا الخبر باللام دون ما فى آخر الأنعام (١)، لأن ما هنا فى اليهود، وما فى آخر الأنعام فى المؤمنين، فأكد ما هنا باللام، فقال: ﴿لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾، زيادة فى توبيخهم ونكالهم.

الإشارة: مواطن الذل والهوان هو الانهماك فى المخالفة والعدوان، وقد ينسحب ذلك فى الذرية إلى آخر الزمان، فإن الله تعالى يقول: أنا الملك الودود، أعاقب الأحفاد بمعاصى الجدود، ومواطن العز والحرمة والأمان: هو الطاعة والتعظيم والإحسان، ينسحب ذلك على الأحفاد، إلى منتهى الزمان، فإن الله تعالى يحفظ الأولاد ببركة الأجداد. وقد تذاكر بعض التابعين ما يكون فى آخر الزمان من الفتن والفساد، فقال بعضهم: ياليتنى كنت عقيماً أو لم أتزوج، فقال له من هو أكبر منه: ألا أدلك على ما يحفظ الله به عقبك؟ قال: نعم، دلنى، قال: قوله تعالى: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا...﴾ الآية (٢). وبالله التوفيق.

(١) فى قوله تعالى: ﴿إِنْ رَبُّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الآية الأخيرة من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٩ من سورة النساء.

ثم قال تعالى في شأن اليهود:

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

قلت: (أُمَمًا): مفعول ثانٍ لقطعنا، أو حال، وجملة (منهم الصالحون): صفة، وجملة (يأخذون): حال من فاعل (ورثوا)، و(يقولون) عطف على (يأخذون)، أحوال، والفعل من (سيغفر): مسند إلى الجار والمجرور، أو إلى مصدر (يأخذون)، و(أن لا يقولوا): عطف بيلن من (ميثاق الكتاب)، أو تفسير له، أو متعلق به، أي: لأن لا يقولوا، و(درسوا): عطف على (ألم يؤخذ) من حيث المعنى، أي: ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ولم يدرسوا ما فيه، أحوال، أي: وقد درسوا، و(الذين يمسكون): مبتدأ، وجملة: (إننا لانضيع أجر المصلحين): خبر، والرباط: ما في المصلحين من العموم، فوضع موضع الضمير؛ تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضییع، أو حذف العائد، أي: منهم، ويحتمل أن يكون عطفاً على (الذين يتقون) أي: خير للمتقين والذين يتمسكون بالكتاب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ ﴾ أي: فرقناهم ﴿ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ : فرقاً، ففي كل بلد من البلدان فرقة منهم، فليس لهم إقليم يملكونه، تنمة لإذلالهم، حتى لا تكون لهم شوكة قط، ﴿ مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ ﴾ وهو من تمسك بدين التوراة، ولم يحرف، ولم يفرق، أو من آمن منهم بالنبي ﷺ في زمانه وبعده، ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي: ومنهم ناس دون ذلك، أي: منحطون عن الإصلاح، وهم كفرتهم وفسقتهم، ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ ﴾ أي: اختبرناهم ﴿ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ أي: بالنعم والنقم، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ؛ ينتبهون فينزعجون عما هم عليه .

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أي: فخلف، من بعد الأولين، خلف، أي: بدل سوء، وهو مصدر نعت به، فالخلف، بالسكون، شائع في الشر، يقال: جعل الله منك خلفاً صالحاً. والمراد بالخلف في الآية: اليهود الذين أدركوا النبي ﷺ، ﴿ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾ ؛ التوراة، من أسلافهم، يقرؤونها ويقفون على ما فيها، ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ ؛ حطام هذا الشيء الحقير، من الدنو، أو من الدناءة، وهو ما كانوا يأخذون من الرشا في الأحكام، وعلى تحريف الكلام. ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ؛ لا يؤاخذنا الله بذلك ويتجاوز عنه، اغتراراً وجملاً.

﴿ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ أى: يرجون المغفرة، والحال أنهم مصررون على الذنب، عائدون إلى مثله، غير تائبين منه، ﴿ أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ ﴾ أى: فى الكتاب، وهو التوراة، ﴿ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾، وهو تكذيب لهم فى قولهم: ﴿ سَيُغْفِرُ لَنَا ﴾، والمراد: توبيخهم على القطع بالمغفرة مع عدم التوبة، والدلالة على أنه افتراء على الله، وخروج عن ميثاق الكتاب، ﴿ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ أى: وقد درسوا ما فيه، وعلموا ما أخذ عليهم فيه من المواثيق، ثم تجرأوا على الله، ﴿ وَالْدارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ مما يأخذ هؤلاء من العرض الفانى. ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) فيعلموا ذلك، ولا يستبدلوا الأدنى الحقيق المؤدى إلى العقاب بالنعيم الكبير المخلد فى دار الثواب، ومن قرأ بالخطاب فهو لهم، من باب التلوين فى الكلام.

﴿ وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ ﴾ أى: يتمسكون بالتوراة، ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ المفروضة عليهم، ﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ منهم. وهذا فيمن مات قبل ظهور الإسلام، أو: والذين يتمسكون بالقرآن، ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ مع المسلمين، ﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾.

الإشارة: تفريق النسب فى البلدان، إن كان فى الذل والهوان، فهو من شؤم المخالفة والعصيان، وإن كان مع العز وحفظ الحرمة، فقد يكون لقصد الخير والبركة، أراد الله أن ينمى تلك البلاد، بنقل ذلك إليها، كأولاد الصالحين والعلماء وأهل البيت. ويؤخذ من قوله: ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، أن العبد مأمور بالرجوع إلى الله فى السراء والضراء، فى السراء بالحمد والشكر، وفى الضراء بالتسليم والصبر.

ويؤخذ من مفهوم قوله: ﴿ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾، أن من عقد التوبة وحل عقدة الإصرار غفر له ما مضى من الأوزار. وفى قوله: ﴿ أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ... ﴾ الآية، تحذير لعلماء السوء. وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ... ﴾ الآية، أى: والذين يتمسكون بظاهر الكتاب وأقاموا صلاة الجوارح، ﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ مع عامة أهل اليمين، والذين يتمسكون بباطن الكتاب وأقاموا صلاة القلوب - التى هى العكوف فى الحضرة - حضرة الغيوب - إنا لانضيع أجر المصلحين لقلوبهم، وهو شهود رب العالمين مع المقربين، فى حضرة الأنبياء والمرسلين، جعلنا الله منهم وفى حزبهم، آمين.

ولما ذكر من تمسك بالكتاب طوعاً، ذكر من تمسك به كرهاً من أسلاف اليهود، فقال:

﴿ وَإِذْ نَنْتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٧١)

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب «تعقلون»، بالخطاب، وقرأ الباقر بالغيب. انظر الإتحاف (٦٨/٢).

قلت: جملة (خذوا): محكية، أى: وقولنا لهم: خذوا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ نَتَقْنَا﴾ أى: قلنا ورفعنا ﴿الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أى: فوق بنى اسرائيل، ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أى: سقيفة، والظلة: كل ما أظلك، ﴿وظنوا﴾ أى: تيقنوا ﴿أنه واقع بهم﴾ أى: ساقط عليهم بسبب عصيانهم؛ لأن الجبل لا يثبت فى الجو؛ لأنهم كانوا يوعدون به، وإنما عبر بالظن؛ لأنه لم يقع بالفعل حين الظن، وسبب نتق الجبل أنهم امتنعوا من أحكام التوراة، فلم يقبلوها؛ لتقلها، فرفع الله الطور فوقهم، وقيل لهم: إن قبلتم ما فيها وإلا ليقعن عليكم، فقلنا لهم حين الرفع: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الأحكام ﴿بقوة﴾، واذكروا ما فيه ﴿بالعمل به، ولا تتركوه كالمُنْسَى﴾، ﴿لعلكم تتقون﴾ قبائح الأعمال وذنابل الأخلاق.

الإشارة: من لم ينقد إلى الله بملاطفة الإحسان، قيد إليه بسلاسل الامتحان، عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل.

ولما ذكر الميثاق الخاص، ذكر الميثاق العام، فقال:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

قلت: (من ظهورهم): بدل من (بنى آدم)، أى: من ظهور بنى آدم، و(ذريتهم): مفعول به، و(بلى): حرف جواب، يجاب بها عن الهمزة إذا دخلت على منفى، فخرجت عن الاستفهام إلى التقرير، وهو حمل المخاطب على الإقرار بما بعد النفى، نحو: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١)، فيجاب ببلى، أى: شرحت، وكذا نظائرها، ومنه: (ألسنت بربكم.. الآية).

وقد يجاب بها الاستفهام المجرد عن النفى، كما فى الحديث: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قالوا: بلى» (٢). ولكنه قليل، فلا يقاس عليه، بل يوقف على ما سمع، والكثير: أنها جواب للنفى، ومعناها: إثبات مانفى، ورفع النفى، لا إثباته وتقريره، بخلاف نعم؛ فإنها تقر ما قبلها من إثبات أو نفى، ولذا قال ابن عباس: (ولو قالوا: نعم، لكفروا)، وقد تقدم الفرق بينهما فى سورة البقرة، (٣) ثم الكثير: مراعاة صورة النفى، فيجاب ببلى، وقد

(١) الآية الأولى من سورة الشرح.

(٢) أخرجه مسلم فى (الإيمان - باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة) من حديث عبدالله بن مسعود - رضى الله عنه.

(٣) راجع تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة.

ينظر للمعنى وما يفيد الاستفهام الإنكارى من نفيه للنفي، فيصير الكلام إيجاباً، فيصح الجواب بنعم فى الجملة، لكن لما كان محتملاً امتنع فى الآية. انظر المغنى. وقوله: (أن تقولوا): مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾؛ من ظهور بنى آدم ﴿فَرِيتَهُمْ﴾؛ وذلك أن الله تعالى لما خلق آدم، وأهبطه إلى الأرض، أخرج من صلبه نسيم بنيه، بعضهم من صلب بعض، على نحو ما يتوالدون، قرناً بعد قرن كالذر، وكان آدم بنعمان، وهو جبل يواجه عرفة، وقال لهم حين أخرجهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ فأقروا كلهم، ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أنت ربنا، ﴿شَهِدْنَا﴾ بذلك على أنفسنا، لأن الأرواح حينئذ كانت كلها على الفطرة، علامة درأكة، فلما ركبت فى هذا القالب نسيت الشهادة، فبعث الله الأنبياء والرسل يذكرّون الناس ذلك العهد، فمن أقرب به نجا، ومن أنكره هلك، ويحتمل أن يكون ذلك من باب التمثيل، وأن أخذ الذرية من الظهر عبارة عن إيجادهم فى الدنيا، وأما إشهادهم فمعناه: أن الله نصب لبنى آدم الأدلة على ربوبيته، وشهدت بها عقولهم، فكأنه أشهدهم على أنفسهم، وقال: (ألسن بريكم)؟ وكأنهم قالوا بلسان الحال: أنت ربنا.

والأول هو الصحيح؛ لتواتر الأخبار به، فقوله: (شَهِدْنَا): هو من تمام الجواب، فهو تحقيق لربوبيته وأداء لشهادتهم بذلك، فينبغى أن يوقف عليه، وقيل: إن (شَهِدْنَا): من قول الله أو الملائكة، فيوقف على (بلى)، لكنه ضعيف.

ثم ذكر حكمة هذا الأخذ، فقال: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أى: فعلنا ذلك كراهة أن تقولوا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾، أو كراهية أن تقولوا: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فافتدينا بهم، ﴿أَفْهَلْ كُنَّا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾، يعنى: آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك، ولا بد من حذف كلام هنا لتتم الحجة، والتقدير: أخذنا ذلك العهد فى عالم الأرواح، وبعثنا الرسل يجددونه فى عالم الأشباح، كراهة أن تقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً...﴾ الآية (١). وقوله: ﴿رَسُولاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لئَلَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ (٢)، ولا يكفى مجرد الإشهاد الروحاني فى قيام الحجة؛ لأن ذلك العهد نسيت الأرواح حين دخلت فى عالم الأشباح، فلا تهتدى إليه إلا بدليل يذكرها ذلك.

قال البيضاوى: والمقصود من إيراد هذا الكلام ها هنا: إلزام اليهود مقتضى الميثاق العام، بعد ما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم، والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية، ومنعهم من التقليد، وحملهم على النظر والاستدلال، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على وحدانيتنا سمعاً وعقلاً، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن التقليد واتباع الباطل.

(٢) الآية ١٦٥ من سورة النساء.

(١) الآية ١٥ من سورة الإسراء.

الإشارة: أَخَذَ الحق جل جلاله العهد على الأرواح أن تعرفه وتُوحده مرتين، أحدهما: قبل ظهور الكائنات، والثاني: بعد ظهورها. والأول أخذه عليها في معرفة الربوبية، والثاني تجديداً له مع القيام بأداب العبودية. قال بعضهم: أخذ الأول على الأرواح يوم المقادير، وذلك قبل السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم أخذ الثاني على النفوس بعد ظهورها في عالم الأشباح، كما نبهت عليه الآية والأحاديث.

وقال ابن الفارض في تائيته:

وَسَابِقِ عَهْدٍ لَمْ يَحُلْ مَذْ عَهْدَتَهُ وَلَا حَقِ عَقْدٍ جَلَّ عَنْ حَلِّ فِتْرَةٍ

قال القاشاني: أراد بالعهد السابق: ما أخذه الله على الأرواح الإنسانية المستخرجة من صلب الروح الأعظم، الذي هو آدم الكبير، في صور المثل، قبل تعلقها بالأشباح، وهو عقد المحبة بين الرب والمريوب، في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ...﴾ الآية. وبالعهد اللاحق: ما أخذه عليهم بواسطة الأنبياء، من عقد الإسلام بعد التعلق بالأبدان، وهو تأكيد للعهد الأول، وتوثيقه بالتزام أحكام الربوبية والتزامها هـ. وقال في الحاشية: كلام ابن الفارض ينظر إلى العهد الأول، الروحاني، وكلام غيره ينظر إلى الثاني النفساني، وهو ظاهر الآية هـ. قلت: وفيه نظر، فإن كلام ابن الفارض مشتمل على العهدين معاً، الروحاني في الشطر الأولي، والنفساني في الشطر الثاني.

والحاصل مما تقدم: أن العهد أخذ على الأرواح ثلاث مرات، أحدها: حين استخرجت من صلب الروح الأعظم الذي هو آدم الكبير، وهو معنى القبضنة النورانية، التي أخذت من عالم الجبروت. والثاني: حين استخرجت من صلب آدم الأصغر، كالذر، والثالث: حيث دخلت في عالم الأشباح، على ألسنة الرسل، ومن ناب عنهم، فالمذكور في الآية هو الثاني، وهو أحسن من حمل القاشاني الآية على الأول.

فالحاصل: أن الأخذ الأول كان على الأرواح مجردة عن مادة التطوير والتمثيل، بإقرارها إقرار النفوس، لا إقرار الألسنة، والأخذ الثاني كان على الأرواح بعد خروجها من الوجود العلمي إلى الوجود العيني، فتطورت الأرواح بصفات الذاتية، من سمع وبصر ولسان وغيرها، في عالم المثال، بصور مثالية؛ لتبصر بها ظهور الرب، وتسمع خطابه، وتجيب سؤاله، بإقرارها حينئذ إقرار الألسنة، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية. وأما العهد الذي أخذه بواسطة الأنبياء في ظهور عالم الأشباح فإنما هو تذكير للعهدين، وتجديد لهما، وهو الذي تقوم به الحجة عليها، فلا بد من انضمامه إلى الأولين في قيام الحجة، كما تقدم.

فالموجودات ثلاث: علمي، ثم خيالي مثالي، ثم نوعي حسي. فأخذ على كل واحد عهد؛ من الأولين بلا واسطة، والثالث بواسطة الرسل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من نقض هذا العهد، مع تمكنه من العلم به، فقال:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ
الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَشَلِلْهُ
كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ مِّنْ يَّهْدِي اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

قلت: أتبعه الشيطان: أدركه، يقال: أتبع القوم: لحقهم، ومنه: ﴿فاتبعهم فرعون وجنوده﴾ (١) أي: لحق بني إسرائيل. قاله في الأساس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿واتل عليهم﴾؛ على اليهود ﴿نبأ﴾ أي: خبر ﴿الذي آتيناه آياتنا﴾؛ علماً بكتابنا، ﴿فانسلخ منها﴾؛ بأن كفر بها، وأعرض، ﴿فاتبعه الشيطان﴾ فأدركه ﴿فكان من الغاوين﴾. قال عبد الله بن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى ﷺ إلى ملك مدين، داعياً إلى الله، فرشاه الملك، وأعطاه الملك على أن يترك دين موسى، ويتابع الملك على دينه، ففعل وأضل الناس على ذلك.

وقال ابن عباس: هو رجل من الكنعانيين، اسمه: بلعم، كان عنده الاسم الأعظم، فلما أراد موسى قتل الكنعانيين، وهم الجبارون، سأله أن يدعو على موسى باسم الله الأعظم، فأبى، فألحوا عليه حتى دعا ألا يدخل المدينة، ودعا موسى عليه. فالآيات التي أعطيها، على هذا: اسم الله الأعظم، وعلى قول ابن مسعود: هو ما علمه موسى من الشريعة. قيل: كان عنده من صحف إبراهيم. وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: هو أمية بن أبي الصلت الثقفي (٢)، وكان قد أوتى علماً وحكمة، وأراد أن يسلم قبل غزوة بدر، ثم رجع عن ذلك ومات كافراً، وكان قد قرأ الكتب، وخالط الرهبان، وسمع منهم أن الله تعالى مرسل رسولاً في ذلك الزمان، فرجاً أن يكون هو، فلما بعث الله محمداً ﷺ حسده، وقال: ما كنت لأؤمن لرسول ليس من ثقيف.

(١) من الآية ٩٠ من سورة يونس.

(٢) أخرجه اللسانى في السنن الكبرى (التفسير - ٣٤٤/٦) والطبرى في تفسيره (١٢٠/٩)، قال أبو حيان في البحر: والأولى في مثل هذا - إذا ورد عن المفسرين - أن تحمل أقاويلهم على التمثيل، لا على الحصر في معين، فإنه يؤدي إلى الاضطراب والتناقض.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾ إلى منازل الأبرار ﴿بِهَا﴾ أي: بسبب تلك الآيات وملازمتها، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: مال إلى الدنيا وجطامها، أي: أخلد إلى أرض الشهوات، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في إثارة الدنيا واسترضاء قومه، أو صيانة رئاسته وجاهه. قال البيضاوي: وكان من حقه أن يقول: ولكنه أعرض عنها، فأوقع مرقعه: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ مبالغة وتنبهاً على ما حمله عليه، وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. هـ. ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي: فصفته التي هي مثل في الخسة، ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ أي: كصفته في أخس أحواله، وهو ﴿إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ﴾ أي: يلهث دائماً، سواء حمل عليه بالزجر والطرء، أو ترك ولم يتعرض له، بخلاف سائر الحيوانات؛ لضعف فؤاده، واللهث: إدلاع اللسان من التنفس الشديد، والمراد: لازم اللهث، وهو نفى الرفع ووضع المنزلة.

قال ابن جزى: اللهث: هو تنفس بسرعة، وتحريك أعضاء الفم، وخروج اللسان، وأكثر ما يعتري ذلك الحيوانات عند الحر والتعب، وهي حالة دائمة للكلب، ومعنى: إن تحمل عليه: أن تفعل معه ما يشق عليه، من طرد أو غيره، أو تتركه دون أن تحمل عليه، فهو يلهث على كل حال. ووجه تشبيه ذلك الرجل به أنه إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال، فضلالته على كل حال. هـ. وقال الواحدي: وذلك أنه زجر في المنام عن الدعاء على موسى، فلم ينزجر، وترك عن الزجر، فلم يهتد. هـ. وقيل: إن ذلك الرجل خرج لسانه على صدره، فصار مثل الكلب، وصورته ولهذه حقيقة. هـ. وفعل به ذلك حين دعا على موسى ﷺ. وفي ابن عطية: ذكر المعتمد، أن موسى قتله.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾؛ صفتهم كصفة الكلب في لهته وخسته، أو كصفة الرجل المشبه به، لأنهم إن أُنذروا لم يهتدوا، وإن تركوا لم يهتدوا. أو شبههم بالرجل في أنهم رأوا الآيات فلم تنفعهم، كما أن الرجل لم ينفعه ما عده من الآيات. وقال الواحدي: يعني: أهل مكة كانوا متمنين هادياً يهديهم، فلما جاءهم من لا يشكون في صدقه كذبوه، فلم يهتدوا لما تركوا، ولم يهتدوا أيضاً لما دعوا بالرسول، فكانوا ضالين عن الرسول في الحالتين. هـ.

﴿فَاقْصِصْ الْقِصَصَ﴾ المذكور على اليهود، فإنها نحو قصصهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تفكراً يؤدي إلى الانعاط، فيؤمنوا به، فإن هذه القصص لا توجد عند من لم يقرأ إلا بوحى، فيتيقنوا نبوتك. ﴿سَاءَ﴾ أي: قبح ﴿مَثَلًا﴾ مثل ﴿الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾؛ حيث شبهوا بالكلاب اللاهثة، ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ﴾ بتعريضها للهلاك. قال البيضاوي: إما أن يكون داخل في الصلة، معطوفاً على ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا﴾، بمعنى: الذين

جمعوا بين تكذيب الآيات وظلم أنفسهم، أو منقطعاً عنها، بمعنى: وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم، فإن وباله لا يتخطاها ولذلك قَدَّم المفعول. هـ.

﴿من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضل فأولئك هم الخاسرون﴾، هو تصريح بأن الهدى والضلال بيد الله تعالى، وأن هداية الله يخص بها بعضاً دون بعض، وأنها مستلزمة للاهتداء، والإفراد في الأول والجمع في الثاني؛ لاعتبار اللفظ والمعنى، تنبيهاً على أن المهتدين كواحد؛ لاتحاد طريقهم، بخلاف الضالين. والاقتصار في الإخبار عن هداه الله بالمهتدي: تعظيم لشأن الاهتداء، وتنبيه على أنه، في نفسه، كمال جسيم، ونفع عظيم، لو لم يحصل له غيره لكفاه، وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها. قاله البيضاوي.

الإشارة: في الحديث: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه علمه» (١). والعلم النافع هو الذي تصحبه الخشية والمراقبة والتعظيم والإجلال، ويوجب لصاحبه الزهد والسخاء والتواضع والانكسار، وهو علم التوحيد الخاص، الذي هو مشاهدة الحق. وقال المرتجبي في قوله: ﴿آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾: ذكر أنه تعالى أعطاه آياته، ولو أعطاه قرب مشاهدته ما انسلخ منه، لأن من رآه أحبه، ومن أحبه استأنس به واستوحش مما سواه، فمن ذلك تبين أنه كان مستدرجاً بوجدان آياته، وتصديق ذلك ما أخبر سبحانه من ارتداده عن دينه، واشتغاله بهواه وعداوة كنيمه بقوله: ﴿فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾، ولو ذاق طعم حبه لم يلتفت إلى غيره، مكر به في الأزل، فكان مكره مستداماً إلى الأبد، فالكرامات الظاهرة عارضة للامتحان بين الأزل والأبد، وعند الأصل القديم لا يعتبر العرض الطارئ. هـ.

وقال في الإحياء: إن بلعم أوتى كتاب الله تعالى فأخلد إلى الشهوات، فشبه بالكلب، أي: سواء أوتى الحكمة أو لم يؤتها فهو يلث إلى الشهوات. هـ. وفي ذكر قصته تحذير لعلماء هذه الأمة وصلحائها. وقال الشيخ أبو الحسن رحمه الله: من أخلدت نفسه إلى أرض الشهوات، وغلبته عن النهوض إلى الطاعات، فدواؤه في حرفين، أحدهما: أن يذكر منة الله عليه بنعمة الإيمان والإسلام، ويقيّد هذه النعمة بالشكر، لئلا تفلت من يده، والثاني: أن يتوجه إلى الله بالتضرع والاضطرار، أثناء الليل والنهار، وفي رمضان راجياً الإجابة، قائلاً: اللهم سلّم سلّم. فإن أهمل هاتين الخصلتين فالشقاوة لازمة له. هـ. بالمعنى لطول العهد به. وبالله التوفيق.

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (باب في نشر العلم - ح ١٧٧٨) وزاد الميوطي في الجامع الصغير (ح ١٠٥) عزوه لابن عدي في الكامل والطبراني في الصغير عن أبي هريرة، وضعفه.

ثم ذكر علامة أهل الضلالة والخسران، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد ذرأنا ﴾؛ خلقنا ﴿ لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾؛ كتبنا عليهم الشقاء فى سابق الأزل، فهم من قبضة أهل النار، كما قال: «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي» (١).

ثم ذكر علامتهم فقال: ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ المواعظ والتذكير؛ للأكمة التى جعلت عليها، ﴿ ولهم أعين لا يبصرون بها ﴾ دلائل وحدانيتنا وكمال قدرتنا، فلا ينظرون بها نظر اعتبار، ﴿ ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾ الآيات والمواعظ، سماع تأمل وتدبر، ﴿ أولئك كالأنعام ﴾ فى عدم التفقه والاستبصار، أو فى أن همهم ومشاعرهم متوجهة إلى أسباب التعيش، مقصورة عليها، فهمهم فى بطونهم وفروجهم، ﴿ بل هم أضل ﴾ من الأنعام، لأنها تطلب منافعها وتهرب من مضارها، وهؤلاء يقدمون على النار معاندة، وأيضاً: الأنعام رُفِعَ عنها التكليف فلا تعذب، بخلاف الكافر، وأيضاً: البهائم تقبل الرياضة والتأديب لما يراد بها، والكافر عاص على الدوام، ﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ الكاملون فى الغفلة المنهمكون فيها.

الإشارة: النار على قسمين: حسية ومعنوية، كما أن الجنة كذلك، فالنار الحسية لتعذيب الأشباح، والنار المعنوية لتعذيب الأرواح، والجنة الحسية لنعيم الأشباح، والمعنوية لنعيم الأرواح. النار الحسية معلومة. والنار المعنوية هى نار القطيعة وغم الحجاب، وأهلها هم أهل الغفلة، وهم كثير من الجن والإنس، ليس لهم قلوب تجول فى معاني التوحيد، وليس لهم أعين تنظر بعين الاعتبار، وليس لهم آذان تسمع المواعظ والتذكير، إن هم إلا كالأنعام، غير أن الله تعالى تفضل عليهم برسم الإسلام. والجنة الحسية هى جنة الزخارف، والجنة المعنوية هى جنة المعارف، وأعداها الله لقلوب تجول فى الأنوار والأسرار، ولأعين تنظر بعين الاعتبار والاستبصار، حتى تشاهد أنوار الواحد القهار، ولآذان تسمع المواعظ والتذكير، وتعي ما تسمع من الحكم والأسرار، وبالله التوفيق.

(١) أخرج أحمد فى المسند (٢٣٩/٥) عن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فقبض بيديه قبضتين فقال: «هذه فى الجنة ولا أبالي وهذه فى النار ولا أبالي».

ثم عرّف بذاته؛ بتعريف أسمائه، فقال:

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٨٠ ﴿

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ تسعة وتسعين، ﴿فادعوه بها﴾ أى: سموه بها. قال ابن جزى: أى: سموه بأسمائه، وهذا إباحة لإطلاق الأسماء على الله سبحانه، فأما ما ورد منها فى القرآن والحديث فيجوز إطلاقه على الله إجماعاً، وأما ما لم يرد، وفيه مدح ولا تتعلق به شبهة، فأجاز أبو بكر بن الطيب إطلاقه على الله، ومنع ذلك أبو الحسن الأشعري وغيره، ورأوا أن أسماء الله تعالى موقوفة على ما ورد فى القرآن والحديث. وقد ورد فى حديث الترمذى عدتها^(١)، أعني: تعيين التسعة والتسعين.

واختلف أهل الحديث: هل هى مرفوعة أو موقوفة على أبى هريرة؟ والذى فى الصحيح: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢). وهل الإحصاء بالحفظ أو بالعلم أو بالتخلق أو بالتعلق أو بالتحقق؟ أقوال. قلت: كونها موقوفة بعيد جداً؛ إذ ليس هذا مما يقال بالرأى.

وسبب نزول الآية: أن أبا جهل سمع بعض الصحابة يقرأ، فيذكر الله مرة، والرحمن أخرى، فقال: يزعم محمد أن الإله واحد، وها هو يعبد آلهة كثيرة، فنزلت الآية مبينة أن تلك الأسماء الكثيرة هى لمسمى واحد، و(الحسنى): مصدر وصف به، أو تأنيث أحسن، وحسن أسماء الله هى أنها صفة مدح وتعظيم وتحميد، وقيل: الدعاء بها: التوسل بكل واحد منها.

قال تعالى: ﴿وَذَرُوا﴾ أى: اتركوا ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ أى: يميلون ﴿فِي أَسْمَائِهِ﴾ عن الكمال؛ إما بتعطيلها، أو إنكار شىء منها، وإما بزيادة فيها، مما يوهم نقصاً أو فساداً.

قال القشيري: الإلحاد: هو الميل عن القصد، وذلك على وجهين: بالزيادة والنقصان؛ فأهل التمثيل زادوا فألحدوا، وأهل التعطيل نقصوا فألحدوا. هـ. قال البيضاوي: أى: اتركوا تسمية الزائغين فيها، الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، إذ ربما يوهم معنى فاسداً، كقولهم: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، أو لا تبالوا بإنكارهم ما سمي به نفسه، كقولهم: ما نعرف إلا رحمان اليمامة، أو: وذروهم وإلحادهم فيها باطلاقها على الأصنام، واشتقاقها منه؛ كالكالات من الله، والعزى من العزيز، فلا توافقوهم عليه، أو أعرضوا عنهم ولا تحاوروهم. هـ.

(١) أخرج حديث الأسماء الحسنى الترمذى فى (الدعوات باب ٨٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) أخرجه البخارى فى (الدعوات - باب لله مائة اسم غير واحد) ومسلم فى (الذكر والدعاء - باب فى أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها). من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - مرفوعاً.

قال ابن جزى: قيل: معنى (ذروا): اتركوهم فلا تجادلوهم ولا تتعرضوا لهم، فالآية، على هذا، منسوخة بالقتال، وقيل: معنى (ذروا) للوعيد والتهديد، كقوله: ﴿ذرني والمكذبين﴾ (١)، وهو الأظهر. هـ. قلت: وهو أليق بقوله بعده: ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾ من الإلحاد وغيره.

الإشارة: قال القشيري بعد كلام: ويقال إن الله سبحانه وقف الخلق بأسمائه، فهم يذكرونها قالةً، وتعزّز بذاته، والعقول - وإن صفت - لا تهجم على حقائق الإشراف؛ إذ الإدراك لا يجوز على الحق، فالعقول عند بواده الحقائق متقنعة بنقاب الحيرة عن التعرض للإدراك، وطلبه في أحوال الرؤية. والحق سبحانه عزيز باستحقاق نعوت تعالى متفرد. هـ.

قلت: وأسماء الله الحسنى كلها تتجلى في مظاهر الإنسان، وتتوارد عليه انفراداً واجتماعاً، وقد تجتمع في واحد، إذا كان عارفاً، كلها، بحيث ينخلق بها، غير أن تجلياتها تختلف عليه، تارة ملكاً قدوساً، وتارة رحمانياً رحيماً، وهكذا. وقد تقدم بيان كيفية التعلق والتخلق والتحقيق بها، في شرحنا: الفاتحة الكبير، والله تعالى أعلم.

ولما ذكر فيما تقدم خواص قوم سيدنا موسى، ذكر هنا خواص هذه الأمة المحمدية، فقال:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أى: ومن جملة ما خلقنا: ﴿أمة﴾: طائفة ﴿يهدون﴾ الناس ﴿بالحق﴾ ويحملونهم عليه، ﴿وبه يعدلون﴾ فى حكوماتهم وقضاياهم. روي عن النبى ﷺ أنه قال: «هذه الآية لكم، وقد تقدم مثلها لقوم موسى» (٢).

قال البيضاوى: ذكر ذلك بعدما مابئن أنه خلق للنار طائفة ضالين، ملحدين عن الحق، للدلالة على أنه خلق أيضاً للجنة أمة هادين بالحق، عادلين فى الأمر، واستدل به على صحة الإجماع، لأن المراد منه أن فى كل قرن طائفة بهذه الصفة؛ لقوله ﷺ: «لَا تَزَالُ مِنْ أُمَّتِي طَائِفَةٌ عَلَى الْحَقِّ، إِلَى أَنْ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ» (٣) إذ لو اختص بعهد الرسول أو غيره لم يكن لذكره فائدة، فإنه معلوم. هـ.

الإشارة: هذه الأمة التى خلقها الله لهداية خلقه، وهى الطائفة التى لا تزال على الحق، وهى مؤلفة من العلماء الأتقياء على اختلاف أصنافهم وعلومهم، ومن الأولياء العارفين، فالعلماء يهدون إلى التمسك بالشرائع وإتقانها، والأولياء العارفون يهدون إلى التحقق بالحقائق وأذواقها، فالعلماء داعون إلى أحكام الله، والعارفون داعون إلى

(١) الآية ١١ من سورة المزمل.

(٢) أخرجه بنحوه الطبرى فى التفسير (١٣٥/٩).

(٣) أخرجه البخارى فى (الاعتصام - باب قول النبى: لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق) ومسلم فى (الإمارة - باب قول النبى ﷺ: لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق) من حديث المغيرة.

معرفة ذات الله، العلماء لإصلاح الظواهر، والأولياء لإصلاح البواطن، ولا يقوم هذا إلا بهذا، فالظاهر من غير باطن فسق، والباطن من غير ظاهر إحداث، وسيأتى عند قوله: ﴿فلولا نفر من كل فرقة...﴾ (١) الآية، تمثيل منزلتهم عند الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم، فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

قلت: أصل الاستدراج: الاستصعاد، أو الاستنزال درجة بعد درجة، ومعناه: نسوقهم إلى الهلاك شيئاً فشيئاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾، وألحدوا في أسمائنا، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ أى: ندرجهم إلى الهلاك شيئاً فشيئاً، ﴿من حيث لا يعلمون﴾ ما نريد بهم، وذلك أن تتواتر النعم عليهم، فيظنوا أنها لطف من الله بهم، فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغي، حتى تحقق عليهم كلمة العذاب. ﴿وأُمْلِي لَهُمْ﴾ أى: وأمهلتهم، أى: وأمدهم بالأموال والبنين والعدة والعدد، حتى نأخذهم بغتة، ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أى: أخذي شديد، وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان.

الإشارة: قال الشيخ زروق رحمته الله: الاستدراج: هو كُمون المحنة في عين المنّة، وهو من درج الصبى؛ إذا أخذ في المشى شيئاً بعد شيء، ومنه: الدرج الذي يرتقى عليه إلى العلو، كذلك المستدرج هو الذي تؤخذ منه النعمة شيئاً بعد شيء، وهو لا يشعر. قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هـ. فالاستدراج ليس خاصاً بالكفار، بل يكون في المؤمنين؛ خواصهم وعوامهم.

قال في الحكم: «خف من وجود إحسانه إليك، ودوام إساءتك معه، أن يكون ذلك استدراجاً لك؛ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾». وقال سهل بن عبد الله رحمته الله: نمدهم بالنعم، وننسيهم الشكر عليها، فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم: أخذوا.

وقال ابن عطاء رحمته الله: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة. وقال الشيخ ابن عباد رحمته الله: الخوف من الاستدراج بالنعم من صفة المؤمنين، وعدم الخوف منه مع الدوام على الإساءة من صفة الكافرين. يقال: من أمارات الاستدراج: ركوب السيئة والاعتزاز بزمن المهلة، وحمل تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة، وهذا من المكر الخفى. قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: لا يشعرون بذلك،

(١) من الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

وهو أن يلقى في أوهامهم أنهم على شيء، وليسوا كذلك، يستدرجهم في ذلك شيئاً فشيئاً، حتى يأخذهم بغتة، كما قال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾؛ إشارة إلى مخالفتهم وعصيانهم، بعدما رأوا من الشدة، ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ أى: فتحنا عليهم أسباب العوافى وأبواب الرفاهية، ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ من الحظوظ الدنيوية، ولم يشكروا عليها برجوعهم منها إلينا، ﴿أخذناهم بغتة﴾ أى: فجأة، ﴿فإذا هم مبلسون﴾^(١)؛ آيسون قانطون من الرحمة هـ.

ثم نديهم إلى التفكير، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(١٨٤) ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾^(١٨٥) ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾^(١٨٦) ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(١٨٦)

قلت: (وما خلق) :عطف على (ملكوت)، و(أن عسى) : مخففة، و(أن يكون) : مصدرية، أو عطف على (ملكوت) أيضاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ فى أمر محمد ﷺ؛ حتى يتحققوا أنه ﴿ما بصاحبهم من جنة﴾؛ يعنى: نبينا محمداً ﷺ. روى أنه ﷺ لما أمر بالإنذار صعد الصفا، فدعاهم، فخذاً فخذاً، يحذرهم بأس الله تعالى، فقال قائلهم: إن صاحبكم لمجنون، بات يصوت إلى الصباح، فنزلت^(٢).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أى: بين الإنذار واضح أمره، لا يخفى على ناظر. ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾^(*) نظر استدلال ﴿في ملكوت السماوات والأرض﴾ أى: فى عظمتها وما اشتملتا عليه من العجائب، ﴿وما خلق الله من شيء﴾ أى: وينظروا فيما خلق الله من شيء من الأجناس التى لا يمكن حصرها، لتدلهم على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها، وعظم شأن مالكا ومتولى أمرها، ليظهر لهم صحة مايدعوههم إليه.

﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أى: أَوَلَمْ يَنْظُرُوا أيضاً فى اقتراب أجلهم وتوقع حلول الموت بهم، فيسارعوا إلى طلب الحق، والتوجه إلى ما ينجيهم من عذابه، قبل مفاجأة الموت ونزول العذاب. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ أى: بعد القرآن، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إن لم يؤمنوا به، وهو النهاية فى البيان؟ كأنه إخبار عنهم بالطبع

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنعام.

(٢) أخرجه الطبرى فى التفسير، (١٣٦/٩) بإسناد صحيح إلى قتادة.

(*) إلى هنا ينتهى السقط الموجود فى المخطوطة الأصلية.

على القلوب والتصميم على الكفر، بعد إلزام الحجة والإرشاد إلى النظر، وقيل: هو متعلق بقوله: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾؛ كأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب، فما لهم لا يبادرون بالإيمان بالقرآن، وماذا ينتظرون بعد وضوحه؟ وإن لم يؤمنوا به فبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به؟!... قاله البيضاوي.

ثم بين أن أمرهم بيده، فقال: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ أصلاً، ولا يقدر أحد عليه، ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾^(١) في طغيانهم يعمهون. يتحIRON. ومن قرأ بالياء فماسب لقوله: (من يضلل)، ومن جزمه فعطف على محل: (فلا هادي له)؛ لأنه جواب الشرط.

الإشارة: قد أرشد الحق - تعالى - عباده إلى التفكير والاعتبار، وقد تقدم الكلام عليه في آل عمران،^(١) وقد علم هنا أهل الاستدلال كيفيته؛ وهو أن ينظر الإنسان في أمر الرسول ﷺ، وما ظهر على يديه من المعجزات وخوارق العادات، وأعظمها القرآن العظيم، ثم ما أتى به من العلوم الدنية والأسرار الربانية، وما نطق به من الحكم العجيبة، وما أخبر به من قصص الأمم الدارسة والشرائع المتقدمة، مع كونه أمياً لم يقرأ ولم يكتب، ولم يجالس أحداً ممن له خبرة بذلك، فتطلع عليه شمس المعرفة به حتى لا يخالطه وهم، ولا يخطر بساحته خاطر سوء، ثم يتفكر في عجائب ملكوت السموات والأرض، وما اشتملتا عليه من ضروب المصنوعات، وعجائب المخلوقات، فيتحقق بوجود الصانع القادر على كل شيء، هذا إن لم يجد شيخاً يخرج من سجن الدليل، وإن وجده استغنى عن هذا بإشراق شمس العرفان، والخروج إلى فضاء الشهود والعيان.

ثم ذكر أمر الساعة، التي خوفهم بها بقوله: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾، فقال:

﴿إِسْأَلُونَا عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرَسْنَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١٨٧)

قلت: إنما سميت القيامة ساعة: لسرعة حسابها، أو وقوعها، لقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾^(٢).

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وابو جعفر (نذرهم) بنون العظمة ورفع الراء على الاستئناف، وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء على الغيبة ورفع الراء، وقرأ حمزة والكسائي بالياء وجزم الراء عطفاً على محل قوله تعالى ﴿فلا هادي له﴾ راجع الإتحاف (٧٠/٢).

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَسْأَلُونَكَ أَيَّ قَرْيَةٍ﴾ عن الساعة ﴿أَيَّ قَرْيَةٍ﴾ أي: قيام الناس من قبورهم للحساب، ﴿أَيَّانَ مَرَسَاها﴾ أي: متى إرساؤها، أي: ثبوتها ووقوعها؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ استأثر بعلمها، لم يطلع عليها ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلًا، ﴿لَا يُجَلِّيها لَوَقْتِها﴾ أي: لا يظهرها عند وقت وقوعها، ﴿إِلَّا هُوَ﴾، والمعنى أن إخفاءها يستمر إلى وقت وقوعها، ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عظمت على أهلها من الملائكة والثقلين لهولها، وكأنه إشارة إلى الحكمة في إخفائها. أو ثقلت على السموات والأرض أنفسهما؛ لتبدلهما وتغير حالهما، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾: فجأة على غفلة، كما قال ﷻ: «إِنَّ السَّاعَةَ تَهِيْجُ بِالنَّاسِ، وَالرَّجُلُ يَصْلِحُ حَوْضَهُ، وَالرَّجُلُ يَسْقَى مَاشِيَتَهُ، وَالرَّجُلُ يَقُومُ سِلْعَتَهُ فِي سُرْقِهِ، وَالرَّجُلُ يَخْفِضُ مِيزَانَهُ وَيَرْفَعُهُ» (١). والمراد: النفخ في الصور للصعق، لأن الساعة مرتبة عليه وقريبة منه.

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: عالم بها، من حفي على الشيء: إذا سأل عنه، فإن من بالغ في السؤال عن الشيء، والبحث عنه، استحكم علمه فيه، أي: يسألونك عن وقت قيامها، كأنك بليغ في السؤال عنها فعلمتها، وليس كما يزعمون، وأما قوله: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ (٢): فقيل: معناه: التعجب عن كثرة اهتمامه بالسؤال، أي: في أي شغل أنت من ذكرها والسؤال عنها؟ ولا يعارض ما هذا؛ لأنه استغنى عن ذلك بتلك الآية، وبعدها نزلت هذه، والله أعلم.

وقيل: «عنها»: يتعلق بـ (يسألونك)، أي: يسألونك عنها كأنك حفي بهم، أي: شفيق بهم، قيل: إن قریشاً قالوا: إن بيننا وبينك قرابة، فقل لنا: متى الساعة؟ فقال له الحق تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ لا يعلمها غيره، وكرره؛ لتكرر يسألونك، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن علمها عند الله لم يؤته أحداً من خلقه.

الإشارة: إذا أشرق نور اليقين في القلب صارت الأمور المستقبلية حاصلة، والغائبة حاضرة، والآجلة عاجلة، فأهل اليقين الكبير قدّموا ما كان آتياً، فحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا، ووزنوا أعمالهم قبل أن توزن عليهم، وجازوا الصراط بسلوكهم المنهاج المستقيم، ودخلوا جنة المعارف قبل حصول جنة الزخارف، فالموت في حقهم إنما هو انتقال من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، ومن دار الغرور إلى دار الهناء والسرور. وفي الحكم: «لو أشرق لك نور اليقين في قلبك، لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها».

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن جرير في التفسير، (١٠٤/٩) من حديث قتادة، وفي البخاري، عن أبي هريرة رفعه: «لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرِّجْلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتْبَاعَانَهُ وَلَا يَطْوِيَانَهُ». أخرجه البخاري في (الرقاق - باب ٤) وينحوه مسلم في (الفتن - باب قرب الساعة).

(٢) الآية ٤٣ من سورة النازعات.

قال الشيخ ابن عباد رحمته الله: نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هي عليه، فيحق به الحق، ويبطل به الباطل، والآخرة حق، والدنيا باطل، فإذا أشرق نور اليقين في قلب العبد أبصر به الآخرة التي كانت غائبة عنه حاضرة لديه، حتى كأنها لم تزل، فكانت أقرب إليه من أن يرتحل إليها، فحق بذلك حقها عنده، وأبصر الدنيا الحاضرة لديه، قد انكشف نورها وأسرع إليها الفناء والذهاب، فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة، فظهر له بطلانها، حتى كأنها لم تكن، فيوجب له هذا النظر اليقيني الزهادة في الدنيا والتجافي عن زهرتها، والإقبال على الآخرة، والتهيؤ لنزول حضرتها، ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور. كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : «إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الْقَلْبَ انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَسَحَ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلْ لَدُنْكَ مِنْ عِلْمَةٍ يُعْرَفُ بِهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. التَّجَافَى عَنِ دَارِ الْغُرُورِ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالْإِسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزْوِلِهِ» (١). أو كما قال - صلى الله عليه وسلم - .

وعند ذلك تموت شهواته وتذهب دواعي نفسه، فلا تأمره بسوء، ولا تطالبه بارتكاب منهي، ولا تكون له همة إلا المسارعة إلى الخيرات، والمبادرة لاغتنام الساعات والأوقات، وذلك لاستشعاره حلول الأجل، وفوات صالح العمل، وإلى هذا الإشارة بحديثي حارثة ومعاذ -رضي الله عنهما- . روى أنس بن مالك رحمته الله قال: بينما رسول الله ﷺ يمشي إذ استقبله شاب من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ حَقًّا، قَالَ: انْظُرْ مَا تَقُولُ، فَإِنْ لَكَ قَوْلٌ حَقِيقَةٌ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَزَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي وَأَضْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي بَعْرَشُ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَعَاوَنُونَ فِيهَا، فَقَالَ: أَبْصَرْتَ فَالْزَمْ، عَبْدُ نَوْرِ اللَّهِ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ..» إلى آخر الحديث (٢).

وروى أنس رحمته الله أيضاً: أن معاذ بن جبل دخل على النبي ﷺ وهو يبكي، فقال له: كيف أصبحت يا معاذ؟ فقال: أصبحت بالله مؤمناً، قال النبي ﷺ: «إِنْ لَكَ قَوْلٌ مُصَدِّقًا، وَلِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةٌ، فَمَا مُصَدِّقُ مَا تَقُولُ؟» فقال: يانبي الله، ما أصبحت صباحاً قط إلا ظننت أني لا أمسي، ولا أمسيت قط إلا ظننت أني لا أصبح، ولا خطوت خطوة قط إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى، وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها، معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله، وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة. قال رسول الله ﷺ: «عَرَفْتُ فَالْزَمْ». انظر بقية كلامه ﷺ.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٦٢/٧).

(٢) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية ١٢٦ من سورة الأنعام.

ثم أمر نبيه ﷺ بالاعتراف بالتقصير عن علم الغيب، الذي اختص الله به؛ كعلم الساعة وغيرها، فقال:

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سَتَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٨٨)

قلت: «وما مسني السوء»: عطف على «استكثرت»، أي: لو علمت الغيب لاستكثرت الخير واحترست من السوء، أو لستأنف، فيوقف على ما قبله، ويراد حينئذ بالسوء: الجنون، والأول أحسن؛ لاتصاله بما قبله، و(لقوم): يجوز أن يتعلق ببشير ونذير، أي: أبشر المؤمنين وأنذرهم، وخصهم بالبشارة والندارة لانتفاعهم بهما، ويجوز أن يتعلق بالبشارة وحدها، فيوقف على (نذير)، ويكون المتعلق بنذير محذوف، أي: نذير للكافرين، والأول أحسن. قاله ابن جزي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد: أنا ﴿ لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ﴾ أي: لا أجلب لها نفعا ولا أدفع عنها ضررا، ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ من ذلك، فيعلمني به، ويوقني عليه، وهو إظهار للعبودية والتبري من ادعاء العلم بالغيوب، ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾ أي: لو كنت أعلم ما يستقبلني من الأمور المغيبة؛ كشدائد الزمان وأهواله، لاستعددت له قبل نزوله باستكثار الخير والاحتراس من الشر، حتى لا يمسنى سوء، ﴿ إن أنا إلا نذير وبشير ﴾ أي: ما أنا إلا عبد مرسل بالإنذار والبشارة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾؛ فإنهم المنتفعون بهما، أو نذير لمن خالفني بالعذاب الأليم، وبشير لمن تبعني بالنعيم المقيم.

الإشارة: العبودية محل الجهل وسائر النقائص، والربوبية محل العلم وسائر الكمالات، فمن آداب العبد أن يعرف قدره، ولا يتعدى طوره، فإن ورد عليه شيء من الكمالات فهو وارد من الله عليه، وإن ورد عليه شيء من النقائص فهو أصله ومحلّه، فلا يستوحش منه، وكان شيخنا يقول: إن علمنا فمن ربنا، وإن جهلنا فمن أصلنا وفصلنا. أو كلام هذا معناه، فالاستشراف إلى الاطلاع على علم الغيوب من أكبر الفضول، وموجب للمقت من علام الغيوب. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أصل النشأة، ليدل على نقص العبد وجهله، فقال:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١٩٠)

يقول الحق جل جلاله: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾؛ آدم ﷺ، ﴿وجعل منها زوجها﴾ أى: خلق من ضلعها زوجها حواء، سلها منه وهو نائم، ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾؛ ليستأنس بها، ويطمئن بها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه.

﴿فلما تغشاها﴾ أى: جامعها حين ركبت فيه الشهوة، ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾ أى: خف عليها، ولم تلق منه ما تلقى بعض الحبالى من حملهن من الأذى والكرب، أو حملاً خفيفاً، يعنى النطفة قبل تصورها، ﴿فمرت به﴾ أى: ذهبت وجاءت به، مخففة، واستمرت إلى حين ميلاده، ﴿فلما أثقلت﴾ أى: ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبره فى بطنها، ﴿دعوا الله ربهما﴾ آدم وحواء، قائلين: ﴿لئن آتيتنا ولداً صالحاً﴾ أى: سويًا سالمًا فى بدنه، تام الخلقة، ﴿لنكونن لك﴾ من الشاكرين ﴿على هذه النعمة المجددة﴾.

﴿فلما آتاهما﴾ ولداً ﴿صالحاً﴾ كما سألا، جعل أولادهما ﴿له شركاء فيما آتاهما﴾، فسموا عبد العزى وعبد مناف وعبد الدار. فالآية إخبار بالغيب فى أحوال بنى آدم ممن كفر منهم وأشرك، ولا يصح فى آدم وحواء هذا الشرك؛ لعصمة الأنبياء، وهذا هو الصحيح. وقد يعاتب الملك الأب على ما فعل أولاده، كما إذا خرجوا عن طاعته فيقول له: أولادك فعلوا وفعلوا، على عادة الملوك.

وقيل: لما حملت حواء أتاها إبليس فى صورة الرجل، فقال لها: وما يدريك ما فى بطنك لعله بهيمة أو كلب، وما يدريك من أين يخرج؟ فخافت من ذلك، ثم قال لها: إن أطعنينى، وسميته عبد الحارث، فسأخلصه لك، وكان اسم إبليس فى الملائكة: الحارث، وإن عصيتنى قتلته، فأخبرت بذلك آدم، فقال لها: إنه عدونا الذى أخرجنا من الجنة، فلما ولدت مات الولد، ثم حملت مرة أخرى، فقال لها إبليس مثل ذلك، فعصته، فلما ولدت مات الولد، ثم حملت مرة ثالثة، فسمياه عبد الحارث؛ طمعاً فى حياته^(١)، فقله: ﴿جعلاً له شركاء فيما آتاهما﴾ أى: فى التسمية لا غير، لا فى عبادة غير الله.

والقول الأول أصح، لثلاثة أوجه: أحدها: أنه يقتضى براءة آدم وحواء من الشرك، قليله وكثيره، وذلك هو حال الأنبياء - عليهم السلام - . والثاني: أن جمع الضمير فى قوله: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾، يقتضى أن الشرك وقع من أولادهما، لا منهما. الثالث: أن هذه القصة تفتقر إلى نقل صحيح، وهو غير موجود. انظر: ابن جزى.

الإشارة: قال الورتجى: فى قوله «ليسكن إليها»: لم يجد آدم ﷺ فى الجنة إلا سناً تجلى الحق، فكاد أن يضمحل بنور التجلى، لتراكمه عليه، فعلم الله - سبحانه - أنه لا يتحمل أثقال التجلى، وعرف أنه يذوب فى نور

(١) هذه القصة يظهر عليها أنها من آثار أهل الكتاب، وقد أعلها أهل الحديث، رغم ورودها فى كتب الحديث وغيرها. راجع تفسير: ابن كثير (٢/ ٢٧٥)، والإسرائيليات والموضوعات للشيخ أبى شعبة (١٧٩). والآية تتحدث عن (نمط) فى السلوك البشرى، وترسم نموذجاً لأى زوجين بشريين يريدان الإنجاب من الله - بإلحاح، وعندما يعطيها الله تعالى ما سألاه، يسبان ذلك لغير الله تعالى.

حسنه، وكل ما في الجنة مستغرق في ذلك النور، فيزيد عليه ضوء الجبروت والملكوت، فخلق منه حواء ليسكن آدم إليها، ويستوحش بها سويغات من سطوات التجلى، ولذلك قال ﷺ لعائشة -رضي الله عنها-: «كلميني يا حميراء». ثم قال: وقال بعضهم: خلقها ليسكن آدم إليها، فلما سكن إليها غفل عن مخاطبة الحقيقة، بسكونه إليها، فوقع فيما وقع من تناول الشجرة هـ. فكل من سكن إلى غير الله تعالى كان سكونه بلاء في حقه، يخرج من جنة معارفه. والله تعالى أعلم.

ثم رد على من أشرك من بنى آدم، فقال:

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ مع الله أصناماً جامدة، لا يخلقون شيئاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، فهي مخلوقة غير خالقة. والله تعالى خالق غير مخلوق، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: لا يقدر أن ينصروا من عبدهم، ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها، فهي في غاية العجز والذلة، فكيف تكون آلهة؟

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ أي: وإن تدعو الأصنام إلى الهدى لا تجيبكم، فلا تهتدي إلى مادعيت إليه؛ لأنها جمادات، أو: وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى الحق لا تجيبكم، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ عن دعائهم، فالدعاء في حقهم وعدمه سواء، وإنما لم يقل: أم صمتكم؛ ليفيد الاستمرار على عدم إجابتهم؛ لأن الجملة الإسمية تقتضي الاستمرار.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله، هم ﴿عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾ من حيث إنها مسخرة مملوكة، فكيف يعبد العبد مع ربه، ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنها تستحق أن تعبد، والأمر للتعجيز؛ لأن الأصنام لا تقدر أن تجيب فلا تستحق أن تعبد.

ثم عاد عليهم بالنقض فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، ومعناه: أن الأصنام جمادات عادمة للحس والجوارح والحياة، ومن كان كذلك لا يكون

إلها، فإن من وصف الإله الإدراك والحياة والقدرة. وإنما جاء هذا البرهان بلفظ الاستفهام؛ لأن المشركين مقرون أن أصنامهم لا تعشي، ولا تبطش، ولا تبصر، ولا تسمع، فلزمتهم الحجة، والهمزة في قوله: ﴿أَلْهَم﴾: للاستفهام مع التوبيخ، و(أم)، في المواضع الثلاثة: تضمنت معنى الهمزة ومعنى بل، وليست عاطفة. قاله ابن جزى. ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾؛ استعبدوا بهم في عداوتي، ﴿ثم كيدون فلا تنظرون﴾ أي: لا تؤخرون، فإنكم وأصنامكم لا تقدرون على مضرتي وكيدي، ومفهوم الآية: الرد عليهم ببيان عجز أصنامهم وعدم قدرتها على المضرة.

الإشارة: كل ما سوى الله قد عمه العجز والتقصير، فليس بيده نفع ولا ضرر، وفي الحديث: «لو اجتمع الإنس والجن على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قدره الله عليك». أو كما قال ﷺ، فالخلق كلهم في قبضة القهر، مصروفون بقدرة الواحد القهار، ليس لهم أرجل يمشون بها، ولا أيد يبطشون بها، ولا أعين يبصرون بها، ولا آذان يسمعون بها، وإنما هم مجبورون في قوالب المختارين، فلا تركز إليهم أيها العبد في شيء، إذ ليس بيدهم شيء، ولا تخف منهم في شيء، إذ لا يقدر على شيء. قال ابن جزى: وفيها - أي: في الآية - إشارة إلى التوكل على الله والاعتصام به وحده، وأن غيره لا يقدر على شيء.

ثم أفصح بذلك، فقال:

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٩٦﴾

يقول الحق جل جلاله: قل لهم أيضاً يا محمد: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ﴾ أي: هو ناصرى وحافظى منكم، فلا تضروننى ولو حرصتم أنتم وآلهتكم، ﴿الذى نزل الكتاب﴾ أي: القرآن، ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ أي: ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلاً عن أنبيائه، فلا أخافكم بعد أن تولى حفظى منكم.

الإشارة: قال القشيري: من قام بحق الله تولى أموره على وجه الكفاية، فلا يحوجه إلى أمثاله، ولا يدع شيئاً من أحواله إلا أجراه على ما يريد بحسن إفضاله، فإن لم يفعل ما يريده جعل العبد راضياً بما يفعله، فروح الرضا على الأسرار أتم من راحة العطاء على القلوب . هـ.

ثم قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ ﴿١٩٧﴾
﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَبِّصُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٩٨﴾

يقول الحق جل جلاله ، فى إتمام الرد على المشركين: ﴿والذين تدعون من دونه﴾ أي: تعبدونها من دونه، ﴿لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾، فلا تُبال بهم أيها الرسول، ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون﴾، يحتمل أن يريد الأصنام، فيكون تحقيراً لها، ورداً على من عبدها؛ فإنها جماد موات لا تسمع شيئاً، أو يريد الكفار، ووصفهم بأنهم لا يسمعون، يعنى: سمعاً ينتفعون به، لإفراط نفورهم، أو لأن الله طبع على قلوبهم، ﴿وتراهم﴾ أي: الأصنام، ﴿ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾؛ لأنهم مصورون بصورة من ينظر، فقوله: ﴿وتراهم ينظرون إليك﴾: مجاز، ﴿وهم لا يبصرون﴾ حقيقة، لأن لهم صورة الأعين، وهم لا يرون بها شيئاً، هذا إن جعلناه وصفاً للأصنام، وإن كان وصفاً للكفار فقوله: ﴿وتراهم ينظرون إليك﴾ حقيقة، ﴿وهم لا يبصرون﴾ مجاز، لأن الإبصار وقع منهم فى الحس، لكن لما لم ينفعهم؛ لعمى قلوبهم، نفاه عنهم كأنه لم يكن. قال المحشى: شاهدوا بأبصار رؤوسهم، لكنهم حجبوا عن الرؤية ببصائر أسرارهم وقلوبهم، فلم يعتد برؤيتهم. هـ.

الإشارة: فى الآية تحوُّش للعبد إلى الاعتماد على الله واستنصاره به فى جميع أموره، فلا يركن إلى شيء سواه، ولا يخاف إلا من مولاه، إذ لا شيء مع الله.

وقوله تعالى: ﴿وتراهم ينظرون إليك...﴾ الآية. قال المحشى: يقال: رؤية الأكابر ليست بشهود أشخاصهم، لكن لما يحصل للقلوب من مكاشفة الغيوب، وذلك على مقدار الاحترام وحضور الإيمان. هـ.

يعنى: أن النظر إلى الأكابر، من العارفين بالله، ليست مقصودة لرؤية أشخاصهم، وإنما هى مقصودة لفيضان أمدادهم، وذلك على قدر التعظيم والاحترام، وصدق المحبة والاحتشام، فكل واحد من الناظرين إليهم يغرف على قدر محبته وتعظيمه. روى أن بعض الملوك زار قبر أبى يزيد البسطامى، فقال: هل هنا أحد ممن أدرك الشيخ أبا يزيد البسطامى؟ فأتى بشيخ كبير، فقال: أنا أدركته، فقال: ما سمعته يقول؟ فقال: سمعته يقول: (من رآنى لا تأكله النار). فقال الملك: هذا لم يكن للنبي - عليه الصلاة والسلام -؛ فقد رآه كثير من الكفار فدخلوا النار، فكيف يكون لغيره؟ فقال له الشيخ: يا هذا، الكفار لم يروه ﷺ على أنه رسول الله، وإنما رأوه على أنه محمد بن عبد الله، فسكت. والله تعالى أعلم.

ثم أمر نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، فقال:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله للبيه ﷺ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ أي: اليسر من أخلاق الناس ولا تبحث عنها، أو: خذ من الناس، في أخلاقهم وأموالهم ومعاشرتهم، ما سهل وتيسر مما لا يشق عليهم؛ لئلا ينفروا. فهو كقول الشاعر:

خُذِ الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي (١)

أو: خذ في الصدقات ما سهل على الناس من أموالهم وهو الوسط، ولا تأخذ كرائم أموالهم مما يشق عليهم، أو تمسك بالعفو عن ظلمك ولا تعاقبه، وهذا أوفق لتفسير جبريل الآتي، ﴿ وأمر بالعرف ﴾ أي: المعروف، وهو أفعال الخير، أو العرف الجاري بين الناس. واحتج المالكية بذلك على الحكم بالعرف الذي يجري بين الناس. ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ أي: لا تكافئ السفهاء على قولهم أو فعلهم، واحلم عليهم. ولما نزلت سأل رسول الله ﷺ جبريل عنها، فقال: « لا أدري حتى أسأل، فعرج، ثم رجع فقال: يا محمد، إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك » (٢). وعن جعفر الصادق: (أمر الله نبيه ﷺ فيها بمكارم الأخلاق)، وهي على هذا ثابتة الحكم، وهو الصحيح. وقيل: كانت مداراة للكفار، ثم نسخت بالقتال.

﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ﴾؛ ينخسك منه نخس، أي: وسوسة تحملك على خلاف ما أمرت به؛ كاعتراء غضب، ومقابلة سفيه، ﴿ فاستعذ بالله ﴾ والتجئ إليه؛ ﴿ إنه سميعٌ عليم ﴾ يسمع استعاذتك، ويعلم ما فيه صلاح أمرك، فالاستعاذة عند تحريك النفس مشروعة، وفي الحديث: أن رجلاً اشتد غضبه، فقال ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما به؛ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» (٣).

الإشارة: كل ما أمر به الرسول ﷺ تؤمر به أمته، وخصوصاً ورثته من الصوفية، فهم مطالبون بالتخلق بأخلاقه ﷺ أكثر من غيرهم، لأن غيرهم لم يبلغ درجتهم. وقال الورتجبي: ﴿خذ العفو﴾: أي: فاعف عنهم من قلة عرفانهم حقا، ﴿وأمر بالعرف﴾ أي: تطف عليهم في أمرك ونهيك لهم، فإنهم ضعفاء عن حمل وارد أحكام شرائعك وحقائقك، ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ الذين ليس لهم استعداد النظر إليك، ولا يعرفون حقوقك، فإن منكر معجزات أنبيائي وكرامات أوليائي لا يبلغ إلى درجة القوم. قال بعض المشايخ -حين ذكر أهل الظاهر-: دع هؤلاء الثقلاء. هـ. فوصف علماء الظاهر بالثقلاء؛ لثقل ظهورهم بعلم الرسوم، فلم ينهضوا إلى حقائق العلوم ودقائق الفهوم، وفي تائيه ابن القارض:

(١) هذا شطر بيت تمامه: (ولا تنطق في سورتي حين أغضب) وهو لحاتم، راجع: تفسير أبي حيان (٤/٤٤٤).
(٢) أخرجه الطبري في التفسير (١٥٥/٩) عن سفيان بن عيينه عن أبي المرادي، وقال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف: (هذا منقطع، وأخرجه ابن مردويه موصولاً من حديث جابر وحديث قيس بن سعد). انظر تفسير البغوي (٣/٣١٦) مع حاشية المحقق.
(٣) أخرجه بنحوه البخاري في (بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده) ومسلم في (البر - باب فضل من يملك نفسه عند الغضب) من حديث سليمان بن صرد.

وَجَزْءٌ مَثْقَلًا لَوْ خَفَ طِفٌّ مُوَكَّلًا بِمَنْقُولٍ أَحْكَامٍ وَمَعْقُولٍ حِكْمَةٍ

قال شارحه: أمره بالمجازة عن المثقلين بأثقال العلوم الظاهرة، من الفقهاء، والمتكلمين بأحكام المنقولات، والفلاسفة الموكلين بالمعقولات والحكمة، ووصف مَثْقَلًا بأنه: لو خف طفا، أى: لأنه لو كان خفيفاً بوضع الأثقال عنه كان طفيفاً، لا يرى لنفسه قدراً، واللازم منتف فالملزوم مثله هـ.

ثم إن البشر لا بد أن تعتريه أحكام البشرية، كالغضب وشبهه، كما بيّنه الحق تعالى بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾
﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

قلت: الطيف - بسكون الياء -: مصدر طاف به الخيال يطيف طيفاً، أو مخفف؛ من طيف؛ كهين ولين وميت. ومن قرأ (طائف): فاسم فاعل، والمراد به: لَمَّةُ الشيطان ووسوسته. وحذف مفعول (تذكروا)؛ للعموم على ما يأتي في المعنى. وقوله: (فإذا هم مبصرون): أتى بإذا الفجائية؛ ليقضى سرعة تيقظهم، وبالجمله الإسمية ولم يقل: تذكروا فأبصروا؛ ليفيد أنهم كانوا على البصرى، وإنما السنة طرقتهم ثم رجعوا عنها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصى، ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ أى: لَمَّةٌ منه، كما فى الحديث: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً وَلِلْمَلِكِ لَمَّةً...»^(١) إلخ، فإذا أخذتهم تلك السنة وغفلوا ﴿تَذَكَّرُوا﴾ عقاب الله وغضبه، أو ثواب الله وإنعامه، أو مراقبته والحياء منه، أو منته وإحسانه، أو طرده وإبعاده، أو حجبته وإهماله، أو عدواة الشيطان وإغواءه، كل على قدر مقامه، فلما تذكروا ذلك ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ بسبب ذلك التذكر، أى: فإذا هم على بصيرة من ربهم التي كانوا عليها قبل المس، أو: فإذا هم مبصرون مواقع الخطأ ومكائد الشيطان فيحترزون منها، ولا يعودون إليها بخلاف المنهمكين فى الغفلة، كما قال تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَىِّ﴾ أى: وإخوان الشياطين، الذين لم يتقوا، يمدونهم، أى: ينصرونهم، ويكونون مدداً لهم فى الضلال والغى؛ بالتزيين والحمل عليه، ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾؛ لا يمسكون عن إغوائهم حتى يوردوهم النار، أو: لا يقصر الكفار عن غيهم وضلالهم حتى يهلكوا.

الإشارة: البصيرة حارسة للقلب، الذى هو بيت الرب، فإذا نامت طرقها الشيطان، فإن كان نومها خفيفاً أحست به وطرده، وهذه بصيرة المتقين، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾، وإذا كان نومها ثقيلاً سرق الشيطان ما فيها، ولم تفتن به، وهذه بصيرة الغافلين، الذين هم إخوان الشياطين.

(١) أخرجه الترمذى فى (تفسير سورة البقرة، آية: «الشيطان يعدكم الفقر...»). من حديث عبدالله بن مسعود. والمراد باللمة: النزول والقرب، والمراد بها: ما يقع فى القلب بواسطة الشيطان أو الملك. فأما كان من خطرات الخير فهو من الملك، وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان. راجع: النهاية (لعم ٢٧٣/٤).

قال القشيري: إنما يمس المتقين طيفُ الشيطان في ساعات غفلتهم عن ذكر الله، ولو أنهم استداموا ذكر الله بقلوبهم لما مسهم طائفُ الشيطان، فإن الشيطان لا يقرب قلباً في حال شهوده الله؛ لأنه يخس عند ذلك، ولكل عازم فترة، ولكل عالم هفوة، ولكل عابد شدة، ولكل قاصد فترة، ولكل سائر وقفة، ولكل عارف حجة. قال - عليه الصلاة والسلام -: «الحدة تعترى خيار أمتي» (١). فأخبر بأن خيار الأمة، وإن جلت رتبهم، لا يتخلصون عن حدة تعترىهم في بعض أحوالهم، فيخرجهم عن دوام الحلم. هـ. وكأنه يشير إلى أن طائف الشيطان يمس الواصلين والسائرين، وهو كذلك بدليل أول الآية في قوله: ﴿وإما ينزغك...﴾ الآية، ومسه للسائر أو الواصل زيادة به، وترقية له، وتحويش له إلى ربه، والله تعالى أعلم.

ثم رد الله على من طلب الآيات، فقال:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِثَآئِرٍ قَالُوا لَوْلَا آجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَٰذَا بَصَآئِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ﴾ أي: الكفار، ﴿بآية﴾؛ بمعجزة مما اقترحوا، أو من القرآن حين يتأخر الوحي، ﴿قَالُوا لَوْلَا﴾؛ هــا ﴿آجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: تخيرتها وطلبتها من ربك، أو هـا اخترعتها وتقولنها من نفسك كسائر ما تقرأ؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ فلا أطلب منه آية، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ (٢)، أو: لا اخترع القرآن من عند نفسي، بل أتبع ما يوحى إلي من ربي.

﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بصائر﴾ للقلوب ﴿من ربكم﴾، أي: من عند ربكم، بها تبصر الحق وتدرك الصواب، ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾؛ وإرشاد أو طمأنينة لقلوب المؤمنين.

الإشارة: قد تقدم مراراً ما في طلب الآيات من ضعف اليقين، وعدم الصدق بطريق المقربين، وإنما على الأولياء أن يقولوا: ﴿هَٰذَا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ بطريق المخصوصين. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالإنصات للقرآن، الذي هو أعظم الآيات، فقال:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾، مطلقاً، ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾؛ لكي تعتبروا وتتدبروا، فإنما نزل لذلك، وهل على الوجوب أو الاستحباب - وهو الراجح؟ قولان، وقيل: الاستماع المأمور به

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٤/١١) عن ابن عباس رضي الله عنه، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير (ج ٨ ص ٢٨٠).

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.

لقراءة الإمام في الصلاة، وقيل: في الخطبة، والأول الراجح، لوجهين: أحدهما: عموم اللفظ، ولادليل على تخصيصه، والثاني: أن الآية مكية، والخطبة إنما شرعت بالمدينة. وقوله تعالى: ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي: بسبب ما تكتسبه القلوب من الرقة والخشية عند استماع القرآن، قال بعضهم: الرحمة أقرب شيء إلى مستمع القرآن؛ لهذه الآية. قاله ابن جزى.

الإشارة: الاستماع لكلام الحبيب أشهى للقلوب من كل حبيب، لاسيما لمن سمعه بلا واسطة، فكل واحد ينال من لذة الكلام على قدر حضوره مع المتكلم، وكل واحد ينال من لذة شهود المتكلم على قدر رفع الحجاب عن المستمع، والله تعالى أعلم.

ثم أمر بالذكر القلبي، فقال:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢٠٥) **يَسْجُدُونَ** ﴿٢٠٦﴾

يقول الحق جل جلاله، لنبيه ﷺ ولمن تبعه: ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ أي: في قلبك؛ بحركة لسان القلب، أو في نفسك؛ سرًا بحركة لسان الحس، ﴿تضرعًا وخيفةً﴾ أي: متضرعًا وخائفًا، ﴿ودون الجهر من القول﴾ أي: متكلمًا كلاماً فوق السر ودون الجهر، فإنه أدخل في الخشوع والإخلاص، ولا حجة فيه لمن منع الذكر جهراً؛ لأن الآية مكية حين كان الكفر غالباً، فكانوا يسبون الذاكر والمذكور، ولما هاجر المصطفى - عليه الصلاة والسلام - إلى المدينة، جهر الصحابة بالتكبير والذكر. فالآية منسوخة. انظر: الحاوي في الفتاوي للإمام السيوطي. فقد أجاب عن الآية بأجوبة.

فقوله: ﴿بالغدو والآصال﴾ أي: في الصباح والعشي، حين تنقبط من نومك الشبيه بالبعث، وحين تريد النوم الشبيه بالموت، وقيل: المراد صلاة العصر والصبح، وقيل: صلاة المسلمين، قبل فرض الخمس، وقيل: للاستغراق، وإنما خص الوقتين؛ لأنهما محل الاشتغال، فأولى غيرهما. ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ عن ذكر الله.

﴿إن الذين عند ربك﴾، يعني ملائكة الملائكة الأعلى، ﴿لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه﴾؛ يلزموه عما لا يليق به، ﴿وله يسجدون﴾ أي: يخصونه بالعبادة والتذلل، لا يشركون به غيره، وهو تعريض بالكفار،

وتحريض للمؤمنين على التشبه بالملأ الأعلى، ولذلك شرع السجود عند قراءتها. وعن النبي ﷺ قال: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ، فَسَجَدَ، أَعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ؛ أُمِرَ هَذَا بالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بالسُّجُودِ فَعَصَيْتُ فَلِيَ النَّارُ» (١).

الإشارة: اعلم أن الذكر على خمسة أقسام: ذكر اللسان فقط؛ لعوام المسلمين، وذكر اللسان مع القلب؛ لخواص الصالحين وأول المتوجهين، وذكر القلب فقط؛ للأقوياء من السائرين، وذكر الروح؛ لخواص أهل الفناء من الموحدين، وذكر السر؛ لأهل الشهود والعيان من المتمكنين، وفي قطع هذه المقامات يقع السير للسائرين، فيترقى من مقام، إلى مقام، حتى يبلغ إلى ذكر السر، فيكون ذكر اللسان في حقه غفلة.

وفي هذا المقام قال الواسطي رحمه الله: الذاكرون في حال ذكره أشد غفلة من التاركين لذكره؛ لأن ذكره سواه. وفيه أيضا قال الغزالي: ذكر اللسان يوجب كثرة الذنوب. وقال الشاعر:

مَا إِنْ ذَكَرْتُكَ إِلَّا هَمَّ يَلْعَنُنِي	سُرِّي، وَقَلْبِي، وَرُوحِي، عِنْدَ ذِكْرَاكَ
حَتَّى كَأَنْ رَقِيبًا مِنْكَ يَهْتَفُ بِي:	إِيَّاكَ، وَنَحْسَكَ، وَالتَّذْكَارَ إِيَّاكَ
أَمَا تَرَى الْحَقَّ قَدْ لَاحَتْ شَوَاهِدُهُ	وَوَاصِلَ الْكُلِّ مِنْ مَعْنَاهُ مَعْنَاكَ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ... الآية، قال القشيري: أثبت لهم عندية الكرامة، وحفظ عليهم أحكام العبودية؛ كي لا ينفك حال جمعهم عن نعت فرقهم، وهذه سنة الله تعالى مع خواص عباده، يلقاهاهم بخصائص عين الجمع، ويحفظ عليهم حقائق عين الفرق، لئلا يخلوا بآداب العبودية في أوان وجود الحقيقة. هـ.



(١) أخرجه مسلم في (الإيمان - باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

مدنية. وآياتها: ست وسبعون آية، نزلت كلها في غزوة بدر الكبرى، حين اختلف الصحابة - رضى الله عنهم - في قسمة الغنائم، وهى الأنفال. ووجه المناسبة لما قبلها: تحريض المؤمنين على الطاعة، والانقياد في شأن الغنائم وغيرها حتى يتشبهوا بالملائكة في سرعة الانقياد والخضوع لله تعالى، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ الآية (١).

قال الحق جل جلاله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يسألونك عن﴾ قسمة ﴿الأنفال﴾ وهى الغنائم، سميت الغنيمة نفلاً لأنها عطية من الله تعالى، وزيادة فضل، كما يسمى ما يشترطه الإمام للشجاع المقتحم خطراً، نفلاً؛ لأنه عطية له زيادة على سهمه، وكما سمي يعقوب عليه السلام نافلاً؛ لأنه عطية زائدة على ولد إبراهيم عليه السلام، حيث كان حفيده. ثم أجابهم الحق تعالى فقال: ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ أى: أمرها إلى الله ورسوله، يقسمها رسول ﷺ حيث يأمره الله تعالى، وفي الوضع الذى يعينه له.

وسبب نزولها: اختلاف المسلمين في غنائم بدر كيف تقسم، هل فى المهاجرين لفقرهم، أو فى الأنصار لنصرهم، أو فيهما معاً. قال ابن جزى: وذلك أنهم كانوا يوم بدر ثلاث فرق: فرقة مع النبى ﷺ فى العريش تحرسه وتؤنسه، وفرقة اتبعوا المشركين فقتلوهم وأسروهم، وفرقة أحاطوا بأسلاب العدو وعسكرهم لما انهزموا، فلما انجلت الحرب واجتمع الناس، ورأت كل فرقة أنها أحق بالغنيمة من غيرها، اختلفوا فيما بينهم. فنزلت الآية. هـ.

(١) الآية: ٢٠٦ من سورة الأعراف.

وقيل: شرط رسول الله ﷺ لمن كان له غداء أن ينفله، فتسارع شبابهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين، ثم طلبوا نفلهم، وكان المال قليلاً، فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا رداءً لكم، وفئة تنحازون إلينا، فلا تختصوا بشيء دوننا، فنزلت، فقسمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء. ولهذا قيل: لا يلزم الإمام الوفاء بما وعد، وهذا قول الشافعي رحمه الله.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر قتل أخى عمير، وقتلت سعيد بن العاص، وأخذت سيفه، وأتيت به رسول الله ﷺ، واستوهبته منه، فقال: «ليس هذا لي، ولكن صنعه في القبض (١)، فطرحته، وفي قلبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سبلي، فما جاوزتها إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فاذهب فخذ» (٢).

﴿فاتقوا الله﴾ في المشاجرة والاختلاف، ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي: أصلحوا الحال التي بينكم بالمواساة والمواددة وسلامة الصدور، والمساعدة فيما رزقكم الله، وتسليم أمره إلى الله تعالى ورسوله، ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ فيما يأمركم به ﴿إن كنتم مؤمنين﴾؛ فإن الإيمان يقتضي الاستماع والاتباع، أو إن كنتم كاملي الإيمان؛ فإن كمال الإيمان يقتضي التمسك بهذه الخصال الثلاث: امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان.

ثم ذكر شروط كمال الإيمان، فقال: ﴿إنما المؤمنون﴾ الكاملون في الإيمان: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾؛ خافت واقشعرت لذكره؛ استعظماً له وهيبة من جلاله، وقيل: هو الرجل يهيم بالمعصية فيقال له: اتق الله، فينزع عنها خوفاً من عقابه، ﴿وإذا تلى عليهم آياته﴾ القرآنية ﴿زادتهم إيماناً﴾ أي: يقيناً وطمأنينة بتظاهر الأدلة التي اشتملت عليها، أو بالعمل بموجبها. وهو دليل على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، بناء على أن العمل داخل فيه، والتحقيق: أن العمل خارج عنه، لكن نوره يتقوى به وينقص بنقصانه أو بالمعصية، وسيأتي في الإشارة الكلام عليه.

ومن أوصاف أهل الإيمان: التوكل على الله والاعتماد عليه، كما قال: ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ وقد تقدم في آل عمران، الكلام على التوكل (٣)، ثم وصفهم بإقامة الدين فقال: ﴿الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم

(١) القبض - بالتحريك: بمعنى المقبوض، وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم. انظر: النهاية (قبض).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ١٨٠ وابن أبي شيبة (٣٧٠/ ١٢) وسعيد بن منصور (٢٦٨٩) والطبري في التفسير، وبنحوه أخرجه أبو داود في (الجهاد، باب في النفل) والترمذي في (التفسير - سورة الأنفال).

(٣) راجع إشارة الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

ينفقون ﴿ في الواجب والتطوع. ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ ؛ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلب، من الخشية والإخلاص والتوكل، ومحاسن أعمال الجوارح التي هي العيار عليها، كالصلاة والصدقة، ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ أى: كرامات وعلو منزلة، أو درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم، ﴿ ومغفرة ﴾ لما فرط من ذنوبهم، ﴿ ورزق كريم ﴾ أعده لهم في الجنة، لا ينقطع مدده، ولا ينتهى أمده، بمحض الفضل والكرم.

الإشارة: الأنفال الحقيقة هي المواهب التي ترد على القلوب، من حضرة الغيوب؛ من العلوم اللدنية والأسرار الربانية، لا تزال تتوالى على القلوب، حتى تغيب عما سوى المحبوب، فيستغنى غناء لا فقر معه أبداً، وهذه غنائم خصوص الخصوص، وغنائم الخصوص: هي القرب من الحبيب، ومراقبة الرقيب، بكمال الطاعة والجد والاجتهاد، وهذه غنائم العباد والزهاد، وغنائم عوام أهل اليمين: مغفرة الذنوب، والمستر على العيوب، والنجاة من النار، ومرافقة الأبرار، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: « مَنْ قَالَ عِنْدَ نَوْمِهِ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ، وَعَدَدَ الرَّمَالِ وَعَدَدَ أَيَّامِ الدُّنْيَا » (١).

قال الشيخ زروق: وهذه هي الغنيمة الباردة، وهذه الأمور بيد الله وبواسطة رسول الله ﷺ وهو معنى قوله: ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ ، ثم دل على موجباتها فقال: ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم... ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ زادتهم إيماناً ﴾ : اعلم أن الإيمان على ثلاثة أقسام: إيمان لا يزيد ولا ينقص، وهو إيمان الملائكة، وإيمان يزيد وينقص، وهو إيمان عامة المسلمين، وإيمان يزيد ولا ينقص وهو إيمان الأنبياء والرسل، ومن كان على قدمهم من العارفين الروحانيين الراسخين في علم اليقين، ومن تعلق بهم من المريدين السائرين، فهؤلاء إيمانهم دائماً في الزيادة، وأرواحهم دائماً في الترقى في المعرفة، يزيدون بالطاعة والمعصية؛ لتيقظهم وكمال توحيدهم، وفي الحكم: «وربما قضى عليك بالذنوب فكان سبب الوصول». وقال أيضاً: «معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خيراً من طاعة أورثت عزاً واستكباراً» والله تعالى أعلم.

ثم تكلم على الخروج إلى غزوة بدر، فقال:

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ ﴿٦﴾

(١) أخرجه الترمذى في (الدعوات - باب ١٧) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

قلت : (كما أخرجك) : خبر عن مبتدأ محذوف، أى : هذه الحال، وهى عزلهم عن تولية الأنفال فى كراهتهم لها، كحال إخراجك فى الحرب فى كراهتهم لها، أو حالهم فى كراهية ما رأيت من تنفيلك للغزاة، مثل حالهم فى كراهية خروجك، أو صفة لمصدر الفعل المقدر فى قوله : «الله والرسول»، أى : الأنفال تثبت لله وللرسول ﷺ، ما كراهتهم، ثباتاً مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك، يعنى المدينة؛ لأنها مسكنه أو بيته منها، وجملة : (وإن فريقاً) حال من أخرجك، أى : أخرجك فى حال كراهية فريق من المؤمنين.

يقول الحق جل جلاله للبيه ﷺ : قد كره أصحابك قسمتك للأنفال كما كرهوا إخراجك ﴿ربك من بيتك بالحق﴾ لقتال العدو، والحال أن ﴿فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ خروجك لذلك، وتلك الكراهية من قبل النفس وطبع البشرية، لا من قبل الإنكار فى قلوبهم لأمر الله ورسوله، فإنهم راضون مستسلمون، غير أن الطبع ينزع لحظه، والعبد مأمور بمخالفته وجهاده.

وذلك الفريق الذى كره خروجك للقتال ﴿يُجادلونك فى الحق﴾ أى : يخاصمونك فى إثباتك الجهاد لإظهار الحق، حيث أرادوا الرجوع للمدينة، وقالوا : إنا لم نخرج لقتال، قالوا ذلك ﴿بعد ما تبين﴾ لهم أنهم منصورون أينما توجهوا، بإعلام الرسول لهم، لكن الطبع البشري ينزع إلى مواطن السلامة، ﴿كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ أى : يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت، وهو يشاهد أسبابه، وكان ذلك لقله عددهم وعدم تأهبهم، إذ روى أنهم كانوا رجالاً، وما كان فيهم إلا فارسان، وذلك أن رسول الله ﷺ لم يخرج لقصد الجهاد، وإنما لملاقاة عير قريش، لما سمع أنها قدمت من الشام، وفيها تجارة عظيمة، ومعها أربعون ركباً، فيهم أبو سفيان، وعمر بن العاص، ومنخرفة بن نوفل، وعمر بن هشام، فأراد رسول الله ﷺ أن يتعرض لها ويأخذها غنيمة، حيث أخبره جبريل بقدمها من الشام، فأخبر رسول الله ﷺ المسلمين، فأعجبهم تلقاها، لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا، بلغ الخبر أبا سفيان، فسلك بالغير طريق الساحل، واستأجر من يذهب إلى مكة يستنفرها، فلما بلغهم خروج رسول الله ﷺ لغيرهم، نادى أبو جهل فوق الكعبة : يا أهل مكة، النجاء النجاء، على كل صعب وذلول، عيركم وأموالكم إن أصابها محمد بن تفلحوا بعدها أبداً.

وقد رأت، قبل ذلك بثلاث ليال، عاتكة بنت المطلب، رؤيا؛ وهو أن رجلاً تمثل على جبل قبيس فنادى : يا آل لُكع، اخرجوا إلى مصارعكم، ثم تمثل على الكعبة، فنادى مثل ذلك، ثم أخذ حجراً فضرب به، فلم يبق بيت فى مكة إلا دخله شيء من ذلك الحجر، فحدثت بها العباس، وبلغ ذلك أبا جهل، فقال : أما ترضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تتنبأ نساؤهم ؟ للتريص ثلاثاً، فإن لم يظهر ما نقول لنكتبن عليكم يا بنى هاشم أنكم أكذب بيت فى العرب، فلما مضت ثلاث ليال جاء رسول أبى سفيان ليستنفرهم.

فخرج أبو جهل بجموع أهل مكة، ومضى بهم إلى بدر، وهو ماء كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوماً في السنة، وكان رسول الله ﷺ هوادى ذفران، فنزل عليه جبريل بالوعد بإحدى الطائفتين: إما العير وإما قریش، فاستشار فيه أصحابه، فقال بعضهم: ما خرجنا لقتال ولا تهيأنا له، وردد عليهم وقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله، عليك بالعير ودع العدو، فغضب رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر وعمر فأحسنّا، ثم قام سعد بن عباد فقال: انظر في أمرك، وامض، فوالله لو سرت إلى عدن ما تخلف رجل من الأنصار، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: امض يا رسول الله لما أمرك ربك، فإننا معك حيثما أحببت، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (١)، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فتبسم رسول الله ﷺ، فقال: أشيروا علي أيها الناس، يريد الأنصار؛ لأنهم كانوا عددهم، وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة أنهم براء من نمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوف ألا يروا نصرته إلا على عدو دهمه بالمدينة، فقام سعد بن معاذ وقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: أجل، فقال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، فأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فنشطه قوله، ثم قال: «سيروا على بركة الله، وأبشروا؛ فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم».

ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل بأصحابه آخر مياه من مياه بدر، فبنى له هناك عريش، فجلس فيه هو وأبو بكر، فلما انتشب القتال أخذ قبضة من تراب فرمى بها وجوه القوم، وقال: شامت الوجوه، فلم تبق عين من الكفار إلا وقع فيها شيء منها، ونزلت الملائكة في العنان، أي: السماء، فقتل منهم سبعون، وأسر سبعون، وقيل: إن رسول الله ﷺ لما فرغ من غزوة بدر، قيل له: عليك بالعير، فقال العباس - وهو في وثاقه: لا يصلح، فقيل له: لم؟ فقال له: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك، فكره بعضهم قوله، ثم رجع ﷺ إلى المدينة منصوراً فرحاً مسروراً، وقد أنجزه الله ما وعده.

الإشارة: من حكمته تعالى الجارية في عباده أن كل ما يثقل على النفوس ويشق عليها في بدايته تكون عاقبته الفتح والنصر، والهناء والسرور، فكل ما تكرمه النفوس فغايته حضرة القدوس، وما تحقق سير السائرين إلا

(١) الآية ٢٤ من سورة المائدة.

بمحاربة نفوسهم ومخالفة عوائدهم. وفي الحديث عنه ﷺ، قال لابن عباس في حديث طويل: «وفي الصبر على ما تكره خير كثير». والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية قصة بدر، فقال:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

قلت: (واذ): ظرف لا ذكر، محذوفة، و(أنها لكم): بدل اشتمال من (إحدى الطائفتين)، والشوكة: الحدة، مستعارة من واحد الشوك، وسميت الحرب شوكة لحدة سلاحها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكروا ﴿إذ﴾ يعدكم الله إحدى الطائفتين ﴿﴾؛ فريشاً، أو غيرهم، وعدكم ﴿أنها﴾ لكم، وتودون ﴿﴾؛ وتتمنون ﴿أن﴾ غير ذات الشوكة ﴿أي﴾: ذات الحرب ﴿تكون﴾ لكم ﴿﴾ وهي العير، فإنها لم يكن فيها إلا أربعون رجلاً، وتكرهون ملاقاته النفير لكثرة عددهم وعددهم، ﴿ويريد الله أن يحق الحق﴾ أي: يظهر الحق، وهو الإسلام، بقتل الكفار وهلاكهم في تلك الغزوة، ﴿بكلماته﴾ أي: بإظهار كلماته العليا، أو بكلماته التي أوحى بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالإمداد، أو بنفوذ كلماته الصادقة بهلاكهم، ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ أي: يستأصلهم ويقطع شوكتهم.

ومعنى الآية: أنكم تريدون أن تصيبوا ما لا ولا تلقوا مكروهاً، والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق، وما يحصل لكم من فوز الدارين. وإنما فعل ما فعل من سوقكم إلى القتال؛ ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ أي: ليظهر الدين ويبطل الكفر.

قال البيضاوي: وليس بتكرار؛ لأن الأول لبيان المراد، وما بينه وبين مرادهم من التفاوت، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول ﷺ على اختيار ذات الشوكة وقصره عليها. هـ. وقال ابن جزي: ليس تكراراً للأول؛ لأن الأول مفعول يريد، وهذا تعليل لفعل الله تعالى، ويحتمل أن يريد بالحق الأول الوعد بالنصرة، وبالحق الثاني الإسلام، فيكون المعنى: أنه نصرهم ليظهر الإسلام، ويؤيد هذا قوله: ﴿ويبطل الباطل﴾ أي: يبطل الكفر، ﴿ولو كره المجرمون﴾ ذلك، فإن الله لا بد أن يظهر دينه على الدين كله، ولو كره الكافرون.

الإشارة: وعد الله المتوجهين إليه بالوصول إلى سر الخصوصية، وهي الولاية، لكن بعد المجاهدة والمحاربة للنفوس؛ لأن الحضرة لا يدخلها إلا أهل التهذيب والتدريب، وترى كثيراً من الناس يتمنون أن تكون لهم من غير حرب ولا قتال، ويريد الله أن يحق الحق بكشف الحجب عن القلوب، حتى لا يشاهدوا إلا الحق، ويبطل الباطل، وهو السوى، ولا يكون في العادة إلا بعد موت النفوس وتهذيبها وتطهيرها بالرياضة على شيخ عارف. قال الششتري مترجماً عن لسان الحقيقة:

إِنْ تَرَدَّ وَصَلْنَا فَمَوْتِكَ شَرْطٌ لَا يَدَالُ الْوَصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلُهُ

ثم ذكر إمدادهم بالملائكة، فقال:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾
 ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

قلت: (إذ): بدل من (إذ يعدكم)، أو متعلق بقوله: (ليحق الحق)، أو بذكر.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا حين كنتم ﴿تستغيثون ربكم﴾ وتدعون بالغوث والنصر، وذلك أن الصحابة - رضی الله عنهم - لما علموا ألا محيص لهم عن القتال أخذوا يقولون: ربنا انصرنا على عدوك، يا غياث المستغيثين أغثنا.

وعن عمر: رضي الله عنه (أنه عليه السلام نظر إلى المشركين وهم ألف، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد في الأرض»، فمازال كذلك حتى سقط رداؤه، فقال أبو بكر: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك^(١). وقد تقدم أن الأنبياء وكبراء الأولياء لا يقفون مع ظاهر الوعد والوعيد، لسعة دائرة علمهم، بل لا يزول اضطرابهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم، ولعل ذلك الوعد يكون متوقفاً على شروط أخفاها الحق تعالى؛ لتظهر قهريته وانفراده بالعلم المحيط.

ولما استغاثوا بالله وأظهروا الحاجة إليه أجابهم فقال: ﴿فاستجاب لكم أني ممدكم﴾؛ مقويكم ومكثركم ﴿بألف من الملائكة مردفين﴾ يتبع بعضهم بعضاً، ويتبع المؤمنين، فكانوا خلفهم رداً لهم، فمن قرأ بفتح الدال

(١) أخرجه مسلم في (الجهاد - باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر).

فهو اسم مفعول، ومن قرأه بالكسر فاسم فاعل، وصح معنى القراءتين، لأن الملائكة المنزلين يتبع بعضهم بعضاً، فملهم تابعون ومتبوعون، ومن قرأ بالفتح فالمراد مردفين بالمؤمنين، فكانوا مقدمة الجيش، ومن قرأ بالكسر فالمراد مردفين للمؤمنين تابعين لهم، فكانوا ساقية للجيش.

ثم ذكر حكمة الإمداد بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: الإمداد، ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾ أي: بشارة بالنصر، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ فيزول ما بها من الوجع لقتلكم، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا يتوقف على سبب، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلب، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير الأسباب وترتيبها رداء للقدرة الأزلية، فإمداد الملائكة، وكثرة العدد، والتأهب، وسائط، لا تأثير لها، فلا تحسبوا النصر منها، ولا تيأسوا منه بفقدائها، فحكم الأزل جل أن يضاف إلى العلل.

الإشارة: إظهار الفاقة والابتهاال لا يقدح في صحة التوكل على الكبير المتعال، بل هو شرف للإنسان، وتقريب من الكريم المنان، بل من شأن العارف الكامل الرجوع إلى الله في كل شيء، والتعلق به في كل حال، ولو وعده بالنصر أو الإجابة، لا يقطع عنه السؤال، عبودية وتعلقاً بين يدي الحبيب.

وقد اختلف الصوفية: أي الحالين أشرف: هل الدعاء والتضرع؟ أو السكوت والرضى تحت مجارى الأقدار؟ وقال بعضهم: يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه، صاحب رضى بقلبه، ليجمع بين الأمرين. قال القشيري: والأولى أن يقال: إن الأوقات مختلفة، ففي بعض الأحوال الدعاء أفضل، وفي بعض الأحوال السكوت أفضل، وإنما يعرف ذلك في الوقت؛ لأن علم الوقت يحصل في الوقت، فإذا وجد في قلبه إشارة إلى الدعاء؛ فالدعاء منه أولى، وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت أتم. هـ. وقد تقدم في آل عمران إشارة الإمداد^(١). وبالله التوفيق.

ثم ذكر تأمينهم، فقال:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (١١) ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١٢)

(١) راجع إشارة الآية ١٢٥ من سورة آل عمران.

قلت: (إذ): بدل ثان من (إذ يعدكم)، أو متعلق بالنصر، لما في (عدد الله) من معنى الفعل، أو بإضمار اذكروا. ومن قرأ بضم الياء، فهو من أغشى، أى: غطى، ومن قرأ بالتشديد، فهو من غشى المضعف، وكلاهما يتعدى إلى مفعولين، الكاف الأول والنعاس الثانى، ومن قرأ بالفتح والتخفيف، فهو من غشى يغشى؛ المتعدى إلى واحد، و(أمنة): مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمْ﴾، أى: حين كان يغشيكم ﴿النَّعَاسُ﴾ وأنتم فى القتال، حين ينزل عليكم الأمن من العدو بعد شدة الخوف، وذلك لأجل الأمن الذى نزل من الله عليكم بعد شدة خوفكم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: النعاس عند حضور القتال علامة أمن من العدو.

ثم ذكرهم بمدة أخرى، فقال: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ من الحدث والجنابة، ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أى: وموسمه وتخويفه إياهم من العطش، روى أنهم نزلوا فى كثيب رمل دهم، تسوخ فيه الأقدام، على ماء قليل، وناموا فاحتلم أكثرهم، فوسوس إليهم الشيطان، وقال: كيف تنصرون وأنتم تصلون محدثين مجنبين، وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله؟، فأشفقوا، فأَنْزَلَ اللهُ المَطَرَ، فمطروا ليلاً حتى جرى الرادى، فاتخذوا الحياض على عدوته، وسقوا الركاب، واغتسلوا وتوضؤوا، وتلبد الرمل الذى بينهم وبين العدو، حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الدهوسة، وهذا معنى قوله: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ أى: وليربط على قلوبكم بالوثوق على لطف الله وزوال ما وسوس إليهم الشيطان، وذهاب الكسل عنها. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ حتى لا تسوخ فى الرمل، أو بالربط على القلوب حتى تثبت فى مداخص الحرب.

واذكروا أيضاً: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْى مَعَكُمْ﴾ أى: أثبت أقدامكم حين أوحى إلى الملائكة أنى معكم فى نصر المؤمنين وتثبيتهم، ﴿فَظَبْتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتكثير عددهم، أو بالبشارة لهم، أو بمحاربة أعدائهم، على قول من قال: إنهم باشروا القتال. ﴿سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ﴾ والجزع، حتى لا يثبتوا لقتالكم، يحتمل أن يكون من خطاب الله للملائكة، أو استئناف؛ إخباراً للمؤمنين عما يفته بعدوهم عاجلاً وأجلاً. ثم قال للملائكة أو للمؤمنين: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أى: أعاليها التى هى المذابح والرؤوس، ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أى: أصابعهم، أى: جزوا رقابهم واقطعوا أطرافهم.

الإشارة: كان شيخ شيخنا يشير على الفقراء، إذا كثرت عليهم الخواطر والهواجس، بالنوم، ويقول: من تشوش خاطره فليرقد حتى يشبع من النعاس، فإنه يجد قلبه؛ لأن النعاس أمنة من الله يذهب به رجز الشيطان وثقله، ويربط على القلوب فى الحضرة؛ لأنه زوال، وإذا زال العبد ظهر الحق وزهق الباطل.

وقوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلْ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ : هو ماء الغيب الذى يظهر القلوب من شهود السوى، ويذهب به رجز الشيطان، وهى ظلمة الأكوان، التى تدعقد فى القلب من حب الهوى الذى هو من تزيين الشيطان، ويثبت به الأقدام، حتى تثبت عند مصادمة أنوار الحضرة، التى هى تجلى الذات، فلا يثبت لها إلا الشجعان والأبطال وأكابر الرجال. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر علة أمرهم بقتل الكفار، فقال:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۖ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ۖ ﴾

قلت : (ذلكم) : مبتدأ حذف خبره، أى : ذلكم العقاب أو العذاب، أو خبر، أى : الأمر ذلكم، أو منصوب بمضمرة يفسره فذوقوه، و(أن للكافرين) : عطف على (ذلكم)، أو نصب على المفعول معه، وقرئ بالكسر؛ استئنافاً.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ذلك ﴾ الضرب لأعناق الكفار، أو الأمر به ﴿ بأنهم ﴾ ؛ بسبب أنها ﴿ شاقوا ﴾ أى : خالفوا ﴿ الله ورسوله ﴾ ، وصاروا كأنهم فى شق وهو فى شق؛ مبالغة فى المخالفة والمباعدة ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله ﴾ ويبعد عنهما ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ لكل من خالفه أو خالف رسوله، وه تقرير للتعليل، أو وعيد بما أعد الله لهم فى الآخرة بعد ما حاق بهم فى الدنيا، ﴿ ذلكم ﴾ العذاب ﴿ فذوقوه ﴾ وياشروا مرارته، ﴿ وأن للكافرين عذاب النار ﴾ ، والمعنى : ذوقوا ما عجل لكم من النعمة فى الدنيا مع ما يحل عليكم فى الآخرة من عذاب النار، ووضع الظاهر موضع المضمرة؛ للدلالة على أن الكفر سبب العذاب العاجل والآجل.

الإشارة : مخالفة الله ورسوله توجب الطرد والبعاد، وموافقة الله ورسوله توجب القرية والوداد، وهذا الموافقة التى توجب للعبد المحبة والوداد تحصل بخمسة أشياء : امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإكثار من ذكره، والاستسلام لقهره، والافتداء بنبيه ﷺ والتأدب بأدابه، والتخلق بأخلاقه، وبإضداد هذه الأشياء، يحصل للعبد المخالفة التى توجب طرده ويُعده، وهى مخالفة أمره، وارتكاب نهيه، والغفلة عن ذكره والتسخط عند نزول قهره، وعدم الاقتداء بنبيه ﷺ؛ بارتكاب البدع المحرمة والمكروهة، حتى يُقضى بال الحال إلى المشاققة والمباعدة، ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ . وبالله التوفيق.

ثم نهى عن الفرار فى الحرب، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

قلت: (زحفاً): مصدر، وزحف الصبى إذا دب على مقعده قليلاً قليلاً، سعى به الجيش المقابل للقتال؛ لأنه يندفع للقتال شيئاً فشيئاً، ونصبه على الحال من فاعل «لقيتم»، أو «من الذين كفروا»، و(متحرفاً) و(متحيزاً): حالان، و(إلا) ملغاة، ووزن متحيز: متفعل، لا متفعل، وإلا لكان متحوزاً؛ لأنه من حاز يحوز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا﴾ زاحفين لهم، تدبون إليهم ويدبون إليكم، تريدون قتالهم متوجهين إليهم، ﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ بالانهزام عنهم، فإنه حرام، وهو من الكبائر، ويفيد بالألا يكون الكفار أكثر من ثلثى المسلمين، فإن زادوا على ثلثى المسلمين حلّ الفرار، وأن يكون المسلمون مسلحين، وإلا جاز الفرار ممن هو بالسلاح دونه، ﴿ومن يُولِهِمْ يَوْمئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾، وهو أن يكرّ راجعاً أمام العدو ليرى عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه، وهو من مكائد الحرب، ﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾ أى: منحازاً إلى جماعة من المسلمين ليستعين بهم، فإن كانت الجماعة حاضرة فى الحرب، أو قريبة، فالتحيز إليها جائز باتفاق، واختلف فى التحيز إلى المدينة والإمام والجماعة إذا لم يكن شيء من ذلك حاضراً.

ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أنا فئة لكل مسلم. وروى عن ابن عمر: أنه كان فى سرية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففرّوا إلى المدينة، فقلت: يا رسول الله، نحن الفرّارون، فقال: «أَنْتُمْ الْكَرَّارُونَ، وَأَنَا فَلَتُكُمْ» (١).

فمن فرّ من الجهاد بالشرط المتقدم ﴿فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾، ومن هذا يفهم أنه من الكبائر. قال البيضاوى: وهذا إذا لم يزد العدو على الضعف، لقوله: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ...﴾ (٢) الآية، وقيل: الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه فى الحرب. هـ.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله للمتوجهين إليه بالمجاهدة والمكابدة: إذا لقيتم أعداءكم من القواطع؛ كالحظوظ، والشهوات، وسائر العلائق، فاثبتوا حتى تظفروا، ولا ترجعوا وتولوهم الأدبار فيظفروا بكم، إلا متحرفاً

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٧٠) وأبو داود فى (الجهاد - باب فى التولى يوم الزحف) والترمذى وحسنه فى (الجهاد - باب

ما جاء فى الفرار يوم الزحف).

(٢) الآية ٦٦ من سورة الأنفال.

لقتال؛ بإيثار بعض الرخص، ليقوى على ما هو أشد منها مشقة عليها، أو متحيزاً إلى جماعة من أكابر العارفين، فإنهم يغفونه بالمشاهدة عن المجاهدة، إذا ملكهم زمام نفسه، وفعل كل ما يشيرون به عليه، فإن ذلك يقضى به إلى الراحة بعد التعب، والمشاهدة بعد المجاهدة، إذ لا تجتمع المجاهدة في الظاهر مع مشاهدة الباطن عند أهل الذوق.

قال القشيري - بعد كلامه على الآية: فالأقوياء من الأغنياء ينفقون على خدَمِهِم من نعمهم، والأصفياء من الأولياء ينفقون على مريدِهِم من همَمِهِم؛ يجبرون كسرهم وينوبون عنهم، ويساعدونهم بحسن إرشادهم، ومن أهمل مريداً وهو يعرف صدقه، أو خالف شيخاً وهو يعرف فضله وحقه، فقد بآء من الله بسخط، والله تعالى حسبه في مكافأته على ما حصل من قبيح وصفه. هـ.

ثم عزلهم عن الحول والقوة، فقال:

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَبًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: فَلَمْ تَقْتُلُوا الكفار بحولكم وقوتكم وذلتكم، وقلة عدتكم وعددكم، وكثرة عدد عدوكم وعدتهم، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ بواسطة مباشرتكم، حيث أيدكم وسلطكم عليهم، وإمداد الملائكة لكم، وإلقاء الرعب في قلوب عدوكم.

قال البيضاوي: روى أنه لما أطلت قريش من العققل - اسم جبل - قال ﷺ: «هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها، يكذبون رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني»، فأتاه جبريل، وقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان تناول كفاً من الحصباء فرمى بها في وجوههم، وقال: «شأنت الوجوه»، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه، فانهزموا. وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر، فيقول الرجل: قتل وأسرت، فنزلت الآية، وإلغاء جواب شرط محذوف، تقديره: إن اقتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم، ولكن الله قتلهم، ﴿ وما رميت ﴾ يا محمد رمياً توصلها إلى أعينهم، ولم تقدر عليه ﴿ إذ رميت ﴾ أي: حين ألقيت صورة الرمي، ﴿ ولكن الله رمى ﴾، أتى بما هو غاية الرمي، فأوصلها إلى أعينهم جميعاً، حتى انهزموا وتمكنت من قطع دابرهم. هـ. فالرمي، حقيقة، إنما وقع من الله تعالى، وإن ظهر حساً من النبي ﷺ.

وإنما فعل ذلك ليقطع طرفاً من الكفار، ويحد شوكتهم، ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ أى: ليختبر المؤمنين منه اختباراً حسناً، ليظهر شكرهم على هذه النعمة، أو لينعم عليهم نعمة عظيمة؛ بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثتهم ودعائهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بدياتهم وأحوالهم. ﴿ذَلِكَ﴾ أى: البلاء الحسن، أو القتل، أو الرمي، واقع لا محالة، أو الأمر ذلكم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: مضعف كيد الكافرين، ومبطل حيلهم، أى: المقصود بذلك القتل أو الرمي إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله للمريدين المتوجهين لحضرة محبوبهم: فَلَمْ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ بِمُجَاهِدَتِكُمْ؛ إذ لا طاقة لكم عليها، ولكن الله قتلها بالنصر والتأييد، حتى حييت بمعرفته، ويقول للشيخ : وما رميت القلوب بمحبتى ومعرفتى، ولكن الله رمى تلك القلوب بشيء من ذلك، وإنما أنت واسطة وسبب من الأسباب العادية، لا تأثير لك فى شيء من ذلك.

حكى أن الحلاج، لما كان محبوساً للقتل، سأله الشبلى عن المحبة، فقال: الغيبة عما سوى المحبوب، ثم قال: يا شبلى، ألسنت تقرأ كتاب الله؟ فقال الشبلى: بلى، فقال: قد قال الله لنبيه - عليه الصلاة والسلام -: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾، يا شبلى؛ إذا رمى الله قلب عبده بحبة من حبه، نادى عليه مدى الأزمان بلسان العتاب. هـ. والمقصود بذلك: تخصيص أوليائه المقربين بالمحبة والمعرفة والتمكين، وتوهين كيد الغافلين المنكرين لخصوصية المقربين. والله تعالى أعلم.

ولما أرادت قريش الخروج إلى غزوة بدر، تعلقوا بأستار الكعبة، وطلبوا الفتح، وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿إِنْ تَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

يقول الحق جل جلاله لكفار مكة على جهة التهكم: ﴿إِنْ تَسْتَفِئِحُوا﴾ أى: تطلبوا الفتح، أى: الحكم على أهدى الفئتين وأعلى الجندين وأكرم الحزبين، ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ الحكم كما طلبتم، فقد نصر الله أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين، وهو محمد ﷺ وحزبه، ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين، ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ لمحاربتة ﴿نَعُدْ﴾ لنصره، ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ﴾ تدفع عنكم فئتكم ﴿شَيْئًا﴾ من المضار ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فئتكم، إذ العبرة بالنصرة لا بالكثرة، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والمعونة.

ومن قرأ بالفتح؛ فعلى حذف الجار، أى: ولأن الله مع المؤمنين، وقيل: الخطاب للمؤمنين، والمعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وإن تنتهوا عن التكاسل فى القتال، والرغبة عما يختاره الرسول، فهو خير لكم، وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار، أو تهيج العدو، ولن تغنى، حينئذ، عنكم كثرتكم؛ إذ لم يكن الله معكم بالنصر، فإنه مع الكاملين فى إيمانهم. قاله البيضاوى.

الإشارة: إن تستفتحوا أيها المتوجهون، أى: تطلبوا الفتح من الله فى معرفته، فقد جاءكم الفتح، حيث صح توجهكم وترككم حظوظكم وعلائقكم، لأن البدايات مجلّة النهايات، من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو علامة القبول آجلاً، وإن تنتهوا عن حظوظكم وعوائقكم فهو خير لكم، وبه يقرب فتحكم، وإن تعودوا إليها نعد إليكم بالتأديب والإبعاد، ولن تغنى عنكم جماعتكم شيئاً فى دفع التأديب، أو البعد، ولو كثرت، وأن الله مع المؤمنين الكاملين فى الإيمان؛ بالنصر والرعاية.

ثم أمر بالسمع والطاعة، فقال:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتُّمَّ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿ورسوله﴾ فيما ندبكم إليه، من الجهاد وغيره، ﴿ولا تولوا﴾ أى: تعرضوا عن الرسول ﴿وأنتم تسمعون﴾ القرآن يأمركم بالتمسك به، والافتداء بهديه. والمراد بالآية: النهى عن الإعراض عن الرسول. ونكر طاعة الله إما هو للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله فى طاعة الرسول، لقوله: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (١)، ثم أكد النهى بقوله: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا﴾ بأذناننا، كالكفرة والمنافقين، ادعوا السماع، ﴿وهم لا يسمعون﴾ سماعاً ينتفعون به، فكانهم لا يسمعون رأساً.

الإشارة: لما غاب عليه الصلاة والسلام بقى خلفاؤه فى الظاهر والباطن؛ وهم العلماء الأتقياء، والعارفون الأصفياء. فمن تمسك بهم، واستمع لقولهم، فقد تمسك بالرسول ﷺ، ومن أعرض عنهم فقد أعرض عنه ﷺ، فمن تمسك بما جاءت به العلماء، فاز بالشريعة المحمدية، وكان من الناجحين الفائزين. ومن تمسك بالأولياء العارفين، واستمع لهم، وتبع إرشادهم، فاز بالحقيقة الربانية، وكان من المقربين. ومن سمع منهم الوعظ والتذكير،

(١) من الآية ٨٠ من سورة النساء.

ثم صرفه عن نفسه إلى غيره، يصدق عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ وكان من شر الدواب التي أشار إليهم تعالى بقوله:

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ٢٢ ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ٢٣

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾؛ وهو كل من يدب على وجه الأرض، ﴿ الصَّمُّ ﴾ عن سماع الحق، ﴿ الْبُكْمُ ﴾ عن النطق به، ﴿ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الحق ولا يعرفونه، عدهم من البهائم ثم جعلهم شرها؛ لإبطالهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله، وهو استعمال العقل فيما ينفعهم من التفكير والاعتبار. قال ابن قتيبة: نزلت هذه الآية في بنى عبد الدار، فإنهم جدوا في القتال مع المشركين، يعنى يوم بدر، وحكمها عام.

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾؛ سعادة كذبت لهم، أو انتفاعاً بالآيات، ﴿ لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ سماع تفهم، ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ مع كونه قد علم الأخير فيهم، ﴿ لَتَوَلَّوْا ﴾ عنه، ولم ينتفعوا به، وارتدوا بعد التصديق والقبول، ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ عنه، لعنادهم، وقيل: إنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يحيي لهم قصي بن كلاب، ويشهد له بالرسالة، حتى يسمعوا منه ذلك، فأنزل الله: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ كلامه بعد إحيائه، ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾، لسبق الشقاوة في حقهم.

الإشارة: اعلم أن الأمر الذي شرف به آدمي وفضل غيره هو معرفة خالقه، واستعمال العقل فيما يقربه إليه، وسماع الوعظ الذي يزجره عن غيه، فإذا فقد هذا كان كالبهائم أو أضل، ولله در ابن البنا، حيث يقول في مباحثه:

وَأَعْلَمُ أَنَّ عَصْبَةَ الْجُهَالِ بِهِائِمٍ فِي صُورِ الرُّجَالِ

واعلم أيضاً أن بعض القلوب لا تقبل علم الحقائق، فأشغلها بعلم الشرائع، ولو علم فيها خيراً لأسمعها تلك الأسرار، ولو أسمعها، مع علمه بعدم قبولها، لتولت عنها وأعرضت؛ لضيق صدرها وعدم التفرغ لها.

ثم دل على ما فيه حياة القلوب، فقال:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ تَحْشُرُونَ ﴾ ٢٤

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله﴾ أي: أجيبوه فيما دعاكم إليه، ﴿وللرسول﴾ فيما دلكم عليه من الطاعة والإحسان، ﴿إذا دعاكم لما يحييكم﴾ من العلوم الدينية؛ فإنها حياة القلب، كما أن الجهل موته، أو ﴿إذا دعاكم لما يهلككم﴾ الحياة الأبدية، في النعيم الدائم، من العقائد والأعمال، أو من الجهاد، فإنه سبب بقائكم؛ إذ لو تركتموه لغلبكم العدو وقتلكم، أو الشهادة، لقوله تعالى: ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١)، ووجد الضمير في قوله: ﴿إذا دعاكم﴾ باعتبار ما ذكر، أو لأن دعوة الله تسمع من الرسول.

وفي البخاري: أن الرسول ﷺ دعا أبا بن كعب، وهو في الصلاة، فلم يجب، فلما فرغ أجاب، فقال له ﷺ: «ما منعك أن تجيبني؟» فقال: كنت أصلي، فقال: ألم تسمع قوله: «استجبوا لله وللرسول». (٢) فاختلف فيه العلماء، فقيل لأن إجابته ﷺ لا تقطع الصلاة، فيجب، ويبقى على صلاته، وقيل: إن دعاءه كان لأمر لا يقبل التأخير، وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله، كإفقاد أعمى وشبهه.

ثم قال تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾؛ فينقله من الإيمان إلى الكفر، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن اليقين إلى الشك، ومن الشك إلى اليقين، ومن الصفاء إلى الكدر، ومن الكدر إلى الصفاء. قال البيضاوي: هو تمثيل لغاية قربه من العبد؛ كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (٣)، وتنبيه على أنه مطلع على مكنونات القلوب، مما عسى أن يغفل عنها صاحبها، أو حث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها، قبل أن يحول الله بينه وبين قلبه بالموت أو غيره، أو تصوير وتخيل لتملكه على العبد قلبه؛ فيفسخ عزائمه، ويغير مقاصده، ويحول بينه وبين الكفر، إن أراد سعادته، وبينه وبين الإيمان، إن قضى شقاوته. هـ. ﴿و﴾ اعلموا أيضاً ﴿أنه إليه تحشرون﴾؛ فيجازيكم بأعمالكم وعقائدكم.

الإشارة: قد جعل الله، من فضله ورحمته، في كل زمان وعصر، دعاة يدعون الناس إلى ما تحيا به قلوبهم، حتى تصلح لدخول حضرة محبوبهم، فهم خلفاء عن الله ورسوله، فمن استجاب لهم وصحبهم حيى قلبه، وتطهر سره ولبه، ومن تنكب عنهم ماتت روحه في أودية الخواطر والأوهام.

(١) من الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه البخاري في (تفسير سورة الأنفال - باب قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول..)) وفيه أن المدعو هو أبو سعيد المعلى، وليس «أبي»، أما حديث أبي فأخرجه الترمذي في: (فضائل القرآن - باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب) وأحمد في المسند ١١٤/٥ والدرامي في (فضائل القرآن - باب فضل فاتحة الكتاب) والحاكم في المستدرک (٥٥٨/١) وصححه ووافقه الذهبي. وقال الحافظ ابن حجر: وجمع البيهقي بأن القصة وقعت لأبي بن كعب ولأبي سعيد بن المعلى. راجع الفتح ١٥٨/٨.

(٣) الآية ١٦ من سورة ق.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ ؛ حيلولة الحق تعالى بين المرء وقلبه هو تغطيته وحجبه عن شهود أسرار ذاته وأنوار صفاته، بالوقوف مع الحس، وشهود الفرق بلا جمع، ويعبر عنه أهل الفن بفقد القلب، فإذا قال أحدهم: فقدت قلبي، فمعناه: أنه رجع لشهود حسه ووجود نفسه، ووجدان القلب هو احتضاره بشهود معاني أسرار الذات وأنوار الصفات، فيغيب عن نفسه وحسه، وعن سائر الأكوان الحسية، وفقدان القلب يكون بسبب سوء الأدب، وقد يكون بلا سبب؛ اختباراً من الحق تعالى، هل يفزع إليه في فقدته أو يبقى مع حاله.

وقد تكلم الغزالي على القلب فقال، في أول شرح عجائب القلب من الإحياء: إن المطيع بالحقيقة لله هو القلب، وهو العالم بالله، والعامل لله، وهو الساعي إلى الله، والمتقرب إليه، المكاشف بما عند الله ولديه، وإنما الجوارح أتباع، والقلب هو المقبول عند الله، إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقاً في غير الله، وهو المطالب والمخاطب، وهو المعاتب والمعاقب، وهو الذي يسعد بالقرب من الله، فيفلح إذا زكاه، ويخيب ويشقى إذا دنسه ودساه. ثم قال: وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وإذا جهله فقد جهل نفسه، وإذا جهل نفسه، جهل ربه، ومن جهل قلبه فهو لغيره أجهل، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته، ومعرفة صفاته، وكيفية تقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن، إلى أعلى عليين، ويرتقى إلى عالم الملائكة المقربين، ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه، ويترصده ما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه، فهو ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ (١) الآية. هـ.

وقد أنشد من وجد قلبه، وعرف ربه، وغنى بما وجد، فقال:

أَنَا الْقُرْآنُ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي	وَرُوحُ الرُّوحِ لَا رُوحَ الْأَوَانِي
فَوَادِي عِنْدَ مَعْلُومٍ مَقِيمٍ	تَنَاجِيهِ وَعِنْدَكُمْ لِسَانِي
فَلَا تَنْظُرْ بِطَرْفِكَ نَحْوَ جِسْمِي	وَعُدْ عَنِ التَّنَعُّمِ بِالْأَوَانِي
فَأَسْرَارِي تَرَاءَتْ مَبْهَمَاتٍ	مُسْتَرَّةً بِأَنْوَارِ الْمَعَانِي
فَمَنْ فِهِمَ الْإِشَارَةَ فَلْيَصْنُهَا	وَالْأَسْوَفَ يَقْتُلْ بِالسِّنَانِ
كَحَلَّاجٍ الْمُحِبِّةِ إِذْ تَبَدَّتْ	لَهُ شَمْسُ الْحَقِيقَةِ بِالتَّدَانِي

(١) الآية ١٩ من سورة الحشر.

ومن أسباب نشئت القلب وفقده دخول الفتنة عليه، الذي أشار إليه بقوله:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

قلت: دخلت النون في (لاتصيبين)؛ لأنه في معنى النهي، على حد قوله: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ﴾ (١).

انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿واتقوا فتنة﴾، إن نزلت، ﴿لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾، بل تعم الظالم وغيره، ثم يبعث الناس على نيتهم، وذلك كإقرار المنكر بين أظهركم، والمداخلة في الأمر بالمعروف، واقتراف الكبائر، وظهور البدع، والتكاسل في الجهاد، وعن الفرائض، وغير ذلك من أنواع الذنوب، وفي الحديث: «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أُرِيعَ مَنَّا اللَّهُ بِعَذَابِهِ» (٢). أو كما قال ﷺ. قالت عائشة رضى الله عنها: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث» (٣).

قال القشيري، في معنى الآية: احذروا أن ترتكبوا زلةً توجب لكم عقوبة لا تخص مرتكبها، بل يعم شؤمها من تعاطاها ومن لم يتعاطاها. وغير المجرم لا يؤخذ بجرم من أذنب، ولكن قد ينفرد واحد بجرم فيحمل أقوام من المختصين بفاعل هذا الجرم، كأن يتعصبوا له إذا أخذ بحكم ذلك الجرم، فبعد ألا يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاونتهم وتعصبهم لهذا الظالم؛ فتكون فتنة لا تختص بمن كان ظالماً في الحال، بل تصيب أيضاً ظالماً في المستقبل؛ بسبب تعصبه لهذا الظالم، ورضاه به. هـ. وسيأتى تمامه في الإشارة.

وحكى الطبري أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر وطلحة والزبير، وأن الفتنة ما جرى لهم يوم الجمل. هـ. قال تعالى: ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ لمن ارتكب معاصيه وتسبب في فتنة غيره.

الإشارة: في القشيري، لما تكلم على تفسير الظاهر، قال: وأما من جهة الإشارة فإن العبد إذا باشر زلةً بنفسه عادت إلى القلب مدحها الفتنة، وهي العقوبة المعجلة، ونصيب النفس من الفتنة العقوبة، والقلب إذا حصلت

(١) من الآية ١٨ من سورة النمل.

(٢) أخرجه بلفظ مقارب الإمام أحمد في المسند (٣٨٨/٥). والترمذي في (الفتن - باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وحسنه. من حديث حذيفة بن اليمان. ولفظ الترمذي: «والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».

(٣) أخرجه البخاري في (المنافق، باب علامات النبوة في الإسلام) عن أم المؤمنين زينب بنت جحش مطولاً. وفيه السائلة: زينب، وليست عائشة - رضي الله عن أزواجه نبينا الطاهرات.

منه فتنة، وهو همه بما لا يجوز، تعدت فتنته إلى السروهي الحجة. وكذلك المقدم في شأنه، إذا فعل مالا يجوز، انقطعت البركات التي كانت تتعدى منه إلى متبعية وتلامذته، فكان انقطاع تلك البركات عنهم نصيبهم من الفتنة، وهم لم يعملوا ذنباً، ويقال: إن الأكابر إذا سكتوا عن التنكير على الأصاغر أصابتهم فتنة بتركهم الإنكار عليهم فيما فعلوا من الإجمام.

ثم قال: ويقال: إن الزاهد إذا انحط إلى رخصة الشرع في أخذ الزيادة من الدنيا بما فوق الكفاية - وإن كانت من وجه حلال - تعدت فتنته إلى من يتخرج على يديه من المبتدئين، فيحمله على ما رأى منه على الرغبة في الدنيا، وترك الثقل، فيؤديه إلى الانهماك في أودية الغفلة في الأشغال الدنيوية. والعابد إذا جنح إلى سوء ترك الأوراد تعدى ذلك إلى ما كان ينشط في المجاهدة به، ويتوطن الكسل، ثم يحمله الفراغ وترك المجاهدة على متابعة الشهوات، فيصير كما قيل:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة (١)

فهذا يكون نصيبهم من الفتنة، والعارف إذا رجع إلى ما فيه حظ له، نظر إليه المريد فتتداخله فتنة فترة فيما هو به من صدق المنازلة، فيكون ذلك نصيبه من فتنة العارف. وبالجمل: إذا غفل الملك، وتشاغل عن سياسة رعيته، تعطل الجند والرعية، وعظم فيهم الخلل والبلى، وفي معناه أنشدوا:

رُعَاتُكَ ضَيَعُوا - بالجهل منهم غَنِيَمَاتُ فَسَاسَتَهَا ذُنَابُ.

انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

ثم ذكرهم بالنعم، فقال:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يخطفكم الناس﴾ فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴿٢٦﴾ أي: أذكروا هذه النعمة، حيث كنتم بمكة وأنتم قليل عددكم مع كثرة عدوكم، ﴿مستضعفون في الأرض﴾ أي: أرض مكة، يستضعفكم قريش ويعذبونكم ويضيقون عليكم، ﴿تخافون أن يخطفكم الناس﴾ أي: قريش، أو من عداهم، ﴿فآواكم﴾ إلى المدينة، وجعلها لكم مأوى

(١) البيت لأبي العتاهية.. انظر: (نهاية الأرب ٨٠/٣ ومعاهد التنصيص ٨٣/٢).

تتحصنون بها من أعدائكم، ﴿وَأَيَّدَكُمْ﴾ أى: قواكم ﴿بنصره﴾ على الكفار، أو بمظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة يوم بدر، ﴿ورزقكم من الطيبات﴾؛ من الغنائم، ﴿لعلكم تشكرون﴾ هذه النعم.

والخطاب للمهاجرين، وقيل: للعرب كافة؛ فإنهم كانوا أذلاء فى أيدي فارس والروم، يخافون أن يتخطفهم الناصر من كثرة الفتن، فكان القوى يأكل الضعيف منهم، فأواهم الله إلى الإسلام، فحصل بينهم الأمن والأمان، وأيده بنصره، حيث نصرهم على جميع الأديان، وأعزهم بمحمد ﷺ، ورزقهم من الطيبات، حيث فتح عليهم البلاد وملكو ملك فارس والروم، فملكو ديارهم وأموالهم، ونكحوا نساءهم وبناتهم، لعلهم يشكرون.

الإشارة: التذكير بهذه النعمة يتوجه إلى خصوص هذه الأمة، وهم الفقراء المتوجهون إلى الله، فهم قليل فى كل زمان، مستضعفون فى كل أوان، حتى إذا تمكنوا وتهذبوا، وطهروا من البقايا، من عليهم بالنصر والعز والتأييد كما وعدهم بقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية (١)، والغالب عليهم شكر هذه النعم، لما خصهم به من كمال المعرفة. والله تعالى أعلم.

ثم نهاهم عن الخيانة، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٢٨﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله﴾؛ بتضييع أوامره وارتكاب نواهيه، ﴿والرسول﴾؛ بمخالفة أمره وترك سنته، أو بالغلل فى الغنائم، أو بأن تبطنوا خلاف ما تظهرون.

قيل: نزلت فى أبى لبابة فى قصة بنى قريظة. روى أنه ﷺ حاصرهم إحدى وعشرين ليلة، فسألوا الصلح كما صالح إخوانهم بنى النضير، على أن يصيروا إلى إخوانهم بأذرعَاتٍ وأريحا من الشام، فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل لنا أبا لبابة، وكان مدافعا لهم؛ لأن عياله وماله فى أيديهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما ترى؟ هل نزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه، أنه الذبح، فقال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله، فنزل وشد نفسه إلى سارية فى المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت، أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل له: قد تيب عليك فحل نفسك، فقال:

(١) الآية ٥ من سورة القصص.

لا والله لا أهلها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلنى، فجاء رسول الله ﷺ فحلّه، فقال: إن من تمام توبيتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالى، فقال ﷺ: «يَجْزِيكَ الثُّلُثُ أَنْ تَتَّصِدَّقَ بِهِ» (١).

ثم قال تعالى: ﴿وتخوبوا! أماناتكم﴾ فيما بينكم، أو فيما أسر الرسول إليكم من السر ففتفشوه، ﴿وأنتم تعلمون﴾ أن الخيانة ليست من شأن الكرام، بل هى من شأن اللئام، كما قال الشاعر:

لا يَكُنُّمُ السِّرُّ إِلَّا كُلُّ ذِي ثِقَةٍ فالسِّرُّ عِنْدَ خِيَارِ النَّاسِ مَكْنُومٌ

أو: وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح.

﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾؛ لأنه سبب الوقوع فى الإثم والعقاب، أو محنة من الله تعالى ليبلوكم فيهم، فلا يحملنكم حبهم على الخيانة، كما فعل أبو لبابة. ﴿وأن الله عنده أجرٌ عظيم﴾ لمن أثر رضا الله ومحبته عليهم، وراعى حدود الله فيهم، فعلقوا هممكم بما يؤديكم إلى أجره العظيم، ورضاه العميم، حتى تفوزوا بالخير الجسيم.

الإشارة: خيانة الله ورسوله تكون بإظهار الموافقة وإبطان المخالفة، بحيث يكون ظاهره حسن وباطنه قبيح، وهذا من أقبح الخيانة، وينخرط فيه إبطان الاعتراض على المشايخ وإظهار الوفاق، وهو من أقبح العقوق لهم، وأما خيانة الأمانة فهي إقضاء أسرار الربوبية لغير أهلها، فمن فعل ذلك فسيب الشريعة فوق رأسه، إذا كان سالكا غير مجذوب، لأن من أفشى سر الملك استحق القتل، وكان خائناً، ومن كان خائناً لا يؤمن على السر، فهو حقيق أن ينزع منه، إن لم يقتل أو يتب، والله در القائل:

سَأَكْتُمُ عِلْمِي عَنْ ذَوِي الْجَهْلِ طَاقَتِي (٢)	وَلَا أَنْتَرُ الدُّرَّ الدَّفِيسَ عَلَى الْبَهَمِ
فَإِنْ قَدَّرَ اللَّهُ الْكَرِيمُ بِلُطْفِهِ	وَلَا قَنِيْتُ أَهْلًا لِلْعُلُومِ وَلِلْحِكَمِ
بَذَلْتُ عُلُومِي وَاسْتَفَدْتُ عُلُومَهُمْ	وَالْأَفْمَخَزُونَ لِيَدِي وَمُكْتَنَمِ

(١) أخرجه عن قتادة - مرسلًا - ابن جرير فى التفسير، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ وابن جرير.

(٢) إذا لم يعلم الجاهل وكنمنا عنه العلم، فما فائدة العلم إذن؟ ١٢٠٠

ثم دلهم على ما فيه دواء القلوب ومحو العيوب، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله﴾، كما أمركم، ﴿يجعل لكم فرقانا﴾؛ نورا في قلوبكم، تفرقون به بين الحق والباطل، والحسن والقبيح. قال ابن جزى: وذلك دليل على أن التقوى تنور القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة. هـ. أو: نصرا يفرق بين المحق والمبطل؛ بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، أو مخرجاً من الشبهات، أو نجاة مما تحذرون في الدارين من المكروهات، أو ظهوراً يشهر أمركم ويثبت صيغكم، من قولهم: سطع فرقان الصبح، أى: نوره، ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ أى: يسترها، فلا يفضحكم يوم القيامة، ﴿ويغفر لكم﴾؛ يتجاوز عن مساوئكم، أو يكفر صفائركم ويغفر كبائركم، أو يكفر ما تقدم ويغفر ما تأخر، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾، ففضله أعظم من كل ذنب، وفيه تنبيه على أن ما وعده لهم على التقوى تفضل منه وإحسان، لا أن نقواهم أوجب ذلك عليه، كالسيد إذا وعد عبده أن يعطيه شيئاً في مقابلة عمل أمره به، مع أنه واجب عليه لا محيد له عنه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الفرقان الذى يلقى الله فى قلوب المتقين من المتوجهين هو نور الواردات الإلهية، التى ترد على القلوب من حضرة الغيوب، وهى ثلاثة أقسام: وارد الانتباه: وهو نور يفرق به بين الغفلة واليقظة، وبين البطالة والنهوض إلى الطاعة، فيترك غفلته وهواه، وينهض إلى مولاه، ووارد الإقبال: وهو نور يفرق به بين الوقوف مع ظلمة الحجاب وبين السير إلى شهود الأحباب، ووارد الوصال: وهو نور يفرق به بين ظلمة الأكوان، ونور الشهود، أو بين ظلمة سحب الأثر وشهود شمس العرفان.

وإلى هذه الواردات الثلاثة أشار فى الحكم بقوله: «إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه وارداً، أورد عليك الوارد ليسلمك من يد الأغيار، ويحررك من رق الآثار، أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك».

ثم ذكر نبيه ﷺ بما فعل معه من الحفظ والرعاية من أعدائه اللئام، فقال:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَ اذْكُرْ ، يَا مُحَمَّدُ ، نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكَ بِحِفْظِهِ وَرِعَايَتِهِ لَكَ ﴾ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿ مِنْ قُرَيْشٍ ، حِينَ اجْتَمَعُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ ﴾ لِيُثْبِتُوكَ ﴿ أَوْ يَحْبِسُوكَ فِي الْوُثَاقِ وَالسَّجَنِ ، ﴾ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ بِسُيُوفِهِمْ ، ﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ مِنْ مَكَّةَ .

وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم للنبي ﷺ ، خافوا على أنفسهم ، واجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره ، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ ، وقال : أنا من نجد ، سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم ، ولن نعدموا مني رأياً ونصحاً ، فقال أبو البختري : أرى أن تحبسوه في بيت ، وتسدوا منافذه ، غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه فيها ، حتى يموت ، فقال الشيخ : بس الرأي ، يأتيكم من يقاتلكم من قومه ، ويخلصه من أيديكم . فقال هشام بن عمرو : أرى أن تحمله على جمل ، فتخرجوه من أرضكم ، فلا يضركم ما صنع ، فقال الشيخ : بس الرأي ، يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم . فقال أبو جهل : أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً ، وتعطوه سيفاً ، فتضربوه ضربة واحدة ، فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم ، فإن طلبوا العقل عقلاه . فقال الشيخ : صدق هذا الفتى ، فتفرقوا على رأيه ، فأتى جبريل النبي ﷺ وأخبره الخبر ، وأمره بالهجرة ، فبيت علياً عليه السلام على مضجعه ، وخرج مع أبي بكر إلى الغار ، ثم سافر مهاجراً إلى المدينة (١) .

قال تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ ؛ برد مكرهم عليهم ، أو مجازاتهم عليه ، أو بمعاملة الماكرين معهم ، بأن أخرجهم إلى بدر ، وقتل المسلمين في أعينهم ، حتى تجرءوا على قتالهم ، فقتلوا وأسروا ، ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ ؛ إذ لا يؤبه بمكرهم دون مكره ، وإسناد أمثال هذا مما يحسن ، للمزاوجة ، ولا يجوز إطلاقها ابتداء ؛ لما فيه من إيهام الذم . قاله البيضاوي .

الإشارة : وإذ يمكر بك أيها القلب الذين كفروا ، وهم القواطع من العلائق والحظوظ والشهوات ، ليحبسوك في سجن الأكوان ، مسجوناً بمحيطاتك ، محصوراً في هيكل ذاتك ، أو يقتلوك بالغفلة والجهل وتوارد الخواطر والأوهام ، أو يخرجوك من حضرة ربك إلى شهود نفسك ، أو من صحبة العارفين إلى مخالطة الغافلين ، أو من حصن طاعته إلى محل الهلاك من موطن معصيته ، أو من دائرة الإسلام إلى الزيغ والإلحاد ، عائداً بالله من المحن ، والله خير الماكرين ، فيرد كيد الماكرين ، وينصر أوليائه المتوجهين والواصلين . وبالله التوفيق .

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير ، وأبو نعيم في الدلائل (باب عصمة رسول الله ﷺ حين تعاهد المشركون على قتله) عن ابن عباس ، وأخرجه عبدالرزاق ، في المصنف : (المغازي ، باب من هاجر إلى الحبشة) عن عروة بن الزبير . وأخرجه ابن سعد في الطبقات (باب خروج رسول الله ﷺ وأبي بكر إلى المدينة) عن عائشة رضي الله عنها ..

﴿ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِن هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا تُلِيْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ القرآنية ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ ما تكلوه علينا، ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: أخبارهم المسطورة أو أكاذيبهم المخلقة. قال البيضاوى: وهذا قول النضر بن الحارث، وإسناده إلى الجمع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم، فإنه كان قاصهم، أى: يقص عليهم أخبار فارس والروم، فإذا سمع القرآن يقص أخبار الأنبياء قال: لو شئت لقلت مثل هذا، أو قول الذين ائتمروا فى شأنه: وهذا غاية مكائدهم، وفرط عنادهم، إذ لو استطاعوا ذلك لسارعوا إليه، فما منعهم أن يشاءوا وقد تحداهم وقرعهم بالعجز عشر سنين، ثم قارعهم بالسيف، فلم يعارضوا، مع أنفثهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا، خصوصاً فى باب البيان؟ هـ. بالمعنى.

الإشارة: هذه المقالة بقيت سنة في أهل الإنكار على أهل الخصوصية، إذا سمعوا منهم علوماً لدنية، أو أسراراً ربانية، أو حكماً قدسية، قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا، وهم لا يقدرون على كلمة واحدة من تلك الأسرار، وهذا الغالب على المعاصرين لأهل الخصوصية، دون من تأخر عنهم، فإنهم مغرورون عنده، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (١).

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا فَاهْبِطْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ﴿٣٢﴾

قلت : الحق : خير كان .

(١) من الآية ٤٣ من سورة فاطر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قالوا اللهم إن كان هذا﴾ الذي أتى به محمد ﴿هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾؛ كأصحاب لوط، ﴿أو اثنا بعذاب أليم﴾، قيل: القائل هذا هو النضر بن الحارث، وهو أبلغ في الجحود. روى أنه لما قال: «إن هذا إلا أساطير الأولين»، قال له النبي ﷺ: «ويلك إنه كلام الله» فقال هذه المقالة. والذي في صحيح البخاري ومسلم: أن القائل هو أبو جهل^(١)، وقيل: سائر قريش لما كذبوا النبي ﷺ دعوا على أنفسهم، زيادة في تكذيبهم وعثرهم. وقال الزمخشري: ليس بدعاء، وإنما هو جحود، أي: إن كان هذا هو الحق فأمطر علينا، لكنه ليس بحق فلا نستوجب عقاباً. بالمعنى.

الإشارة: قد وقعت هذه المقالة لبعض المنكرين على الأولياء، فعجلت عقوبته، ولعل ذلك الولي لم تتسع دائرة حلمه ومعرفته، وإلا لكان على قدم نبيه ﷺ؛ حيث قال الله تعالى في شأنه:

﴿وَمَا كَانُوا لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانُوا اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾
﴿٢٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ
إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ موجود ﴿فيهم﴾، ونازل بين أظهرهم، وقد جعلتك رحمة للعالمين، خصوصاً عشيرتك الأقربين، ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ قيل: كانوا يقولون: غفرانك اللهم، فلما تركوه عذبوا يوم بدر، وقيل: وفيهم من يستغفر، وهو من بقى فيهم من المؤمنين، فلما هاجروا كلهم عذبوا، وقيل: على الفرض والتقدير، أي: ما كان الله ليعذبهم لو آمنوا واستغفروا.

قال بعض السلف: كان لنا أمانان من العذاب: النبي ﷺ والاستغفار، فلما مات النبي ﷺ ذهب الأمان الواحد وبقي الآخر^(٢)، والمقصود من الآية: بيان ما كان الموجب لإمهاله لهم والتوقف على إجابة دعائهم، وهو وجوده ﷺ أو من يستغفر فيهم.

ثم قال تعالى: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ أي: وأي شيء يمنع من عذابهم؟ وكيف لا يعذبون ﴿وهم يصدون﴾ الناس ﴿عن المسجد الحرام﴾؟ أي: يمنعون المتقين من المسجد الحرام، ويصدون رسوله عن

(١) أخرجه البخاري في (تفسير سورة الأنفال) ومسلم في (صفات المنافقين، باب في قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٢) رسول الله ﷺ باقى فينا بهديه وسنته، فواعلموا أن فيكم رسول الله.

الوصول إليه. ﴿وما كانوا أولياءه﴾ المستحقين لولايته مع شركهم وكفرهم، وهو رد لما كانوا يقولون: نحن ولاية البيت الحرام؛ فنصد من نشاء وندخل من نشاء. قال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ أى: ما المستحقون لولايته إلا المتقون، الذين يتقون الشرك والمعاصي، ولا يعبدون فيه إلا الله، ويعظمونه، حق تعظيمه. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن لا ولاية لهم عليه، وإنما الولاية لأهل الإيمان، وكأنه نبيه بالأكثر على أن منهم من يعلم ذلك ويعاند، أو أراد به الكل، كما يراد بالقلة العدم. قاله البيضاوى.

الإشارة: قد جعل الله رسوله ﷺ أماناً لأمة مادام حياً، فلما مات ﷺ بقيت سنته أماناً لأمة، فإذا أميت سنته أُنَاهم ما يوعدون من البلاء والفتن، وكذلك خواص خلفائه، وهم العارفون الكبار، فوجودهم أمان للناس، فقد قالوا: إن الإقليم الذى يكون فيه القطب لا يصيبه قحط ولا بلاء، ولا هرج ولا فتن؛ لأنه أمان لذلك الإقليم، خلافة عن رسول الله ﷺ. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر تلاعبهم بالدين، فقال:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان صلاتهم﴾ التى يصلونها فى بيت الله الحرام، ويسمونها صلاة، أو ما يضعون موضعها، ﴿إلا مكاء﴾ أى: تصفيراً بالفم، كما يفعله الرعاة، ﴿وتصدية﴾ أى: تصفيقاً باليد، الذى هو من شأن النساء، مأخوذ من الصدى، وهو صوت الجبال والجدران. قال ابن جزى: كانوا يفعلون ذلك إذا صلى المسلمون، ليخلطوا عليهم صلاتهم.

وقال البيضاوى: روى أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال والنساء، مشبكين بين أصابعهم، يصفرون فيها ويصفقون، وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي ﷺ أن يصلى، يخلطون عليه، ويرون أنهم يصلون أيضاً، ومساق الآية: تقرير استحقاقهم العذاب المتقدم فى قوله: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾، أو عدم ولايتهم للمسجد، فإنها لا تليق بمن هذه صلاته. هـ.

قال تعالى: ﴿فذوقوا العذاب﴾ الذى طلبتم، وهو القتل والأسر يوم بدر، فاللام للعهد، والمعهود: (أو انتنا بعذاب أليم)، أو عذاب الآخرة، ﴿بما كنتم تكفرون﴾ أى: بسبب كفركم اعتقاداً وعملاً.

الإشارة: وما كان صلاة أهل الغفلة عند بيت قلوبهم إلا ملعبة للخواطر والهواجس، وتصفيقاً للوسواس والشيطان، وذلك لخراب بواطنهم من النور، حتى سكنتها الشياطين واستحوذت عليها، والعياذ بالله، فيقال لهم: ذوقوا عذاب الحجاب والقطيعة، بما كنتم تكفرون بطريق الخصوص وتبعدون عنهم. والله تعالى أعلم.

ولما سلمت عير قريش من النبي ﷺ، ووقعت غزوة بدر، وكان مات فيها صناديدهم، حبس أبو سفيان ذلك المال، وأنفق في حرب رسول الله ﷺ، فأنزل الله في ذلك وفي غيره، ممن أنفق في إعانة الكفار على حرب المسلمين قوله:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا ﴾ بذلك ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، ويحاربون الله ورسوله. قيل: نزلت في أصحاب العير؛ فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم: أعيثوا بهذا المال على حرب محمد، لعلنا ندرك منه ثأرنا، ففعلوا، وقيل: في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش، يطعم كل واحد منهم، كل يوم، عشر جزر، وقيل: في أبي سفيان، استأجر ليوم أحد ألفين من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية.

قال تعالى: ﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ﴾ بنمامها، ﴿ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ يتأسفون على إنفاقها من غير فائدة، فيصير إنفاقها ندماً وغماً، لفواتها من غير حصول المقصود، وجعل ذاتها تصير حسرة، وهي عاقبة إنفاقها؛ مبالغة. قال البيضاوي: ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم في تلك الحال، وهو إنفاق بدر، والثاني عن إنفاقهم فيما يستقبل، وهو إنفاق غزوة أحد، ويحتمل أن يراد بهما واحد، على أن مساق الأول لبيان غرض الإنفاق، ومساق الثاني لبيان عاقبته، وهو لم يقع بعد. هـ. قلت: وهذا الأخير هو الأحسن.

ثم ذكر وعيدهم فقال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: الذين ثبتوا على الكفر منهم؛ إذ أسلم بعضهم، ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾؛ يضمون ويساقون، ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾؛ الكافرين من المؤمنين، أو الفساد من الصلاح، أو ما أنفقه المشركون في عدواة رسول الله ﷺ، وما أنفقه المسلمون في نصرته، أي: حشرهم إليه ليفرق بين الخبيث والطيب، ﴿ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ ﴾ أي: يجمعه، أو يضم بعضه إلى بعض، حتى يتراكموا من فرط ازدحامهم، ﴿ فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ ﴾ كله، ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الكاملون في الخسران، لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم، والإشارة تعود على الخبيث؛ لأنه بمعنى الفريق الخبيث، أو على المنفقين ليصدوا عن سبيل الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من أنفق ماله في لهو الدنيا وفرجتها، من غير قصدٍ حسن، بل لمجرد الحظ والهوى، تكون عليه حسرة وندامة، تلقضى لذاته وتبقى تبعاته، وهو من كفران نعمة المال، فهو معرض للزوال، وإن بقي فهو استدراج، وعلامة إنفاقه في الهوى: أنه إن أتاه فقير يسأله درهماً منعه، وينفق في الذخيرة والفرجة الثلاثين والأربعين، فهذا يكون إنفاقه حسرة عليه، والعياذ بالله.

ثم ندب إلى التوبة، فقال:

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل للذين كفروا ﴾ كقریش وغيرهم: ﴿ إن ينتهوا ﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول بالدخول في الإسلام، ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾ من ذنوبهم، ولو عظمت، ﴿ وإن يعودوا ﴾ إلى الكفر وقتاله ﴿ فقد مضت سنتُ الأولين ﴾ أى: مضت عادتي مع الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير والهلاك، كعاد وثمود وأضرابهم، وكما فعل بهم يوم بدر، فليتوقعوا مثل ذلك، وهو تهديد وتخويف.

الإشارة: قل للمهمكين في الذنوب والمعاصي: لا تقنطوا من رحمتي، فإنني لا يتعاضمني ذنب أغفره، فإن تنتهوا أغفر لكم ما قد سلف. وأنشدوا:

يستوجب العفو الفتى، إذا اعترف بما جنى، وما أتى، وما اقترف

لقوله: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾

وللشافعي رحمه الله:

فلما قسا قلبي وضائق مذاهبي جعلت الرجاء مني لعفوك سلماً

تعاضمني ذنبي، فلما قرنته بعفوك ربي، كان عفوك أعظماً

فما زلت ذا جودٍ وفضلٍ ومنّة تجود وتعفو مني وتكرماً

فإن لم ينته المنهمك في الهوى فقد مضت سنة الله فيه؛ بالطرد والإبعاد، ويخاف عليه سوء الختام، والعياذ بالله.

ثم أمر بجهاد من لم ينته عن كفره، فقال:

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ لَنتَهُوَ
فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٣٩ ﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ
النَّصِيرِ ٤٠ ﴾

يقول الحق جل جلاله : وقاتلوا من لم ينته عن كفره ﴿ حتى لا تكون فتنة ﴾ ، أى : حتى لا يوجد منهم
شرك، فهو كقوله عليه الصلاة السلام : «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» (١). ﴿ ويكون الدين
كله لله ﴾ بحيث تضحل الأديان الباطلة ويظهر الدين الحق، ﴿ فإن انتهوا ﴾ عن الكفر وأسلموا، ﴿ فإن الله بما
يعملون بصير ﴾ ؛ فيجازيهم على انتهائهم، وقرأ يعقوب بن نساء الخطاب ؛ على معنى : ﴿ فإن الله بما تعملون ﴾
يا معشر المسلمين ؛ من الجهاد، والدعوة إلى الإسلام، والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ﴿ بصير ﴾
فيجازيكم، ويضاعف أجوركم بمن أسلم على أيديكم.

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ ، ولم ينتهوا عن كفرهم، ﴿ فاعلموا أن الله مولاكم ﴾ ؛ ناصركم، فذوقوا به ولا تبالوا
بمعاداتهم، ﴿ نعم المولى ﴾ ؛ فلا يضيق من تولاه، ﴿ ونعم النصير ﴾ ؛ فلا يغلب من نصره .

الإشارة : يؤمر المرید بجهاد القواطع والعلائق والخواطر، حتى لا يبقى في قلبه فتنة بشيء من الحس، ويكون
القلب كله لله، فإن انتهت القواطع فإن الله بصير به، يجازيه على جهاده، ومجازاته : إدخاله الحضرة المقدسة، مع
المقربين، وإن لم ينته فليستمر على مجاهداته وانقطاعه إلى ربه، وليستنصر به في مجاهدته، فإن الله مولا
وناصره، وهو نعم المولى ونعم النصير.

ثم ذكر قسم الغنائم التي تنشأ عن القتال، فقال:

﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَآبِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ
يَوْمَ الْفَتْحِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٤١ ﴾

(١) أخرجه البخاري في (الاعتصام - باب الاقتداء بسنن النبي ﷺ) ومسلم في (الإيمان - باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

قلت : (فإن لله) : مبتدأ حذف خبره، أى: فكون خمسة لله ثابت، أو خبر، أى: فالواجب كون خمسة لله.

يقول الحق جل جلاله : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ مما أخذتموه من الكفار؛ قهراً بالقتال، لا الذى هربوا عنه بلا قتال، فكله للإمام فىء، يأخذ حاجته ويصرف باقيه فى مصالح المسلمين، ولا الذى طرحه العدو خوف الغرق، فلواجده، بلا تخميس، وكذا ما أخذه من كان ببلاد العرب على وجه التلصيص، فأما ما أخذه بالقتال: فله ﴿خمسَه وللرسول ولذی القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل﴾؛ الجمهور على أن ذكر الله للتعظيم كقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ (١)، وإنما المراد: قسم الخمس على الخمسة الباقية.

واختلف العلماء فى الخمسة، فقال مالك: الرأى للإمام، يلحقه ببيت الفء، ويعطى من ذلك البيت لقراءة رسول الله ﷺ ما رءاه، كما يعطى منه اليتامى والمساكين وغيرهم، وإنما ذكر من ذكر على جهة التدبیه عليهم، لأنهم من أهم ما يدفع إليهم. وقال الشافعي: يعطى للخمسة المعطوفة على (الله)، ولا يجعل لله سهماً مختصاً، وإنما ذكر ابتداء تعظيماً، لأن الكل ملكه، وسهم الرسول يأخذه الإمام، يصرفه فى المصالح، فيعطى للأربعة المعطوفة على الرسول، ويفضل أهل الحاجة. وقال مالك: لا يجب التعميم، فله أن يعطى الأحمق، وإن حرم غيره، ومبنى الخلاف: هل اللام لبيان المصروف أو للاستحقاق، كما فى آية الزكاة.

وقال أبو حنيفة: على ثلاثة أسهم، لليتامى والمساكين وابن السبيل، قال: وسقط الرسول وذوو القربى بوفاته عليه الصلاة والسلام. وقال أبو العالية: يقسم على ستة، أخذاً بظاهر الآية، ويصرف سهم الله إلى الكعبة، وسهم الرسول فى مصالح المسلمين، وسهم ذوى القربى لأهل البيت الذين لا تحل لهم الزكاة، ثم يعطى سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل.

قال البيضاوي: وذوو القربى: بنو هاشم، وبنو المطلب، لما روى: أنه ﷺ قسم سهم ذوى القربى عليهما، فقال عثمان وجبير بن مطعم: هؤلاء إخوانك بنو هاشم لانكرك فضلهم لمكانك الذى جعلك الله منهم، أرأيت إخواننا من بنى المطلب، أعطيتهم وحرمتنا، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إنهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام» وشبك بين أصابعه (٢). وقيل: بنو هاشم وحدهم. قلت: وهو مشهور مذهب مالك - وقيل: جميع قريش - هـ.

(١) من الآية ٦٢ من سورة التوبة.

(٢) أخرجه أبو داود فى (الخراج - باب فى بيان مواضع قسم الخمس) وابن ماجه فى (الجهاد - باب قسمة الخمس) من حديث جبير بن مطعم. وفى البخارى بعضه، راجع صحيح البخارى (فرض الخمس - باب: ومن الدليل على أن الخمس للإمام).

ثم قال تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ ﴾ ، أى : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء ، فسلموه إليه ، واقنعوا بالأخماس الأربعة ، ﴿ وما ﴾ وكذا إن كنتم آمنتم بما ﴿ أنزلنا على عبدنا ﴾ محمد ﷺ من القرآن ، فى شأن الأنفال ، ومن النصر والملائكة ، ﴿ يوم الفرقان ﴾ ؛ يوم بدر ، فإنه فرق فيه بين الحق والباطل ، ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾ ؛ المسلمون والكفار ، ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ ؛ فيقدر على نصر القليل على الكثير ، بالإمداد بالملائكة ، وبلا إمداد ، ولكن حكمته اقتضت وجود الأسباب والوسائط ، والله حكيم عليم .

الإشارة : واعلموا أنما غنمتم من شيء من العلوم الدنية ، والمواهب القدسية ، والأسرار الريفانية ، بعد مجاهدة العلائق والعوائق ، حتى صار دين القلب كله لله ، فله خمسه ؛ فداء ، وللرسول ؛ بقاء ، ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ؛ تعظيماً وآداباً . يعنى : أن العلم بالله يقتضى القيام بهذه الوظائف : الفداء فى الله ، بالغيبة عما سواه ، وشهود الداعى الأعظم ، وهو رسول الله ، والأدب مع عباد الله ، ليتحقق الأدب مع الله . والله تعالى أعلم بأسرار كتابه .

ثم بين يوم الفرقان ، فقال :

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينَاوَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصَوِّ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا قَلْبُكُمُ الْفِتْنَةُ وَلَئِنْ تَرَغُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَئِنْ أَمَرَ اللَّهُ سَلَامًا إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّاقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

قلت : (إذ) : بدل من (يوم الفرقان) ، أو ظرف لالتقى ، أو لا ذكر ، محذوفة ، والعدوة مثلث العين : شاطئ الوادى ، و(الدنيا) أى : القربى ، نعت له ، و(القصوى) : تأنيث الأقصى ، وكان قياسه : قلب الواو ياء ، كالدنيا والعليا ؛ تفرقة بين الاسم والصفة ، فجاء على الأصل ، كالقود ، وسمع فيه : القصيا ، على الأصل ، وهو شاذ . و(الركب) : مبتدأ ، و(أسفل) : ظرف خبره .

يقول الحق جل جلاله : واذكروا ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا ﴾ أى : بعدوة الوادى القريبة من المدينة ، ﴿ وهم ﴾ أى : كفار قريش ، ﴿ بالعدوة القصوى ﴾ أى : البعيدة منها ، ﴿ والركب ﴾ أى : العير التى قصدتكم ، ﴿ أسفل منكم ﴾ أى : فى مكان أسفل منكم ، يعنى الساحل ، ثم جمع الله بينكم على غير ميعاد ، ﴿ ولو تواعدتكم ﴾ لهذا الجمع ، أنتم وهم للقتال ، ثم علمتم حالكم وحالهم ﴿ لاختلفتم في الميعاد ﴾ ؛ هيبة منهم ؛ لكثرتهم وقتلتكم ، لتتحققوا أن ما اتفق لكم من الفتح والظفر ليس إلا صنيعاً من الله تعالى خارقاً للعادة ، فتزدادوا إيماناً وشكراً ، ﴿ ولكن ﴾ الله جمع بينكم من غير ميعاد ؛ ﴿ ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ﴾ ؛ سابقاً فى الأزل ، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه فى ذلك اليوم ، لا يتخلف عنه ساعة .

﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ﴾ ، أى : قدر ذلك الأمر العجيب ليموت من يموت عن بينة عاينها ، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها ، لئلا يكون له حجة ومعذرة ، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة ، فكل من عاينها ولم يؤمن قامت الحجة عليه . أوليهالك بالكفر من هلك عن بينة وحجة قائمة عليه ، ويحيى بالإيمان من حي به عن بينة من ربه ، ﴿ وإن الله لسميعٌ عليمٌ ﴾ بكفر من كفر وإيمان من آمن ، فيجازى كلا على فعله . ولعل الجمع بين وصف السمع والعلم ؛ لاشتغال الأمرين على القول والاعتقاد .

واذكر أيضاً ﴿ إذ يُريكهم الله فى منامك قليلاً ﴾ ، كان ﷺ قد رأى الكفار فى نومه قليلاً ، فأخبر بذلك أصحابه ، فقويت نفوسهم وتجرءوا على قتالهم ، وكانوا قليلاً فى المعنى ، ﴿ ولو أراكم كثيراً ﴾ فى الحس ﴿ لفشلتكم ﴾ لجبنتم ، ﴿ ولتنازعتهم فى الأمر ﴾ ؛ فى أمر القتال ، وتفرقت آراؤكم ، ﴿ ولكن الله سَلَمٌ ﴾ أى : أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ؛ ﴿ إنه عليمٌ بذات الصدور ﴾ أى : يعلم ما يكون فيها من الخواطر وما يغير أحوالها .

﴿ و ﴾ اذكر أيضاً ﴿ إذ يُريكموهم ﴾ أى : يريكم الله الكفار ، ﴿ إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ﴾ ، حتى قال ابن مسعود لمن إلى جنبه : أتراهم سبعين ؟ فقال : أراهم مائة ، تثبتاً وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ ، ﴿ ويُقلِّلكم فى أعينهم ﴾ ، حتى قال أبو جهل : إن محمداً وأصحابه أَكَلَةُ جُزُورٍ - بفتح الهمزة والكاف - جمع أكل - ، أى : قدر ما يكفيهم جذور فى أكلهم .

قال البيضاوى : قللهم فى أعينهم قبل التحام القتال ؛ ليجترءوا عليهم ولا يستعدوا لهم ، ثم كثرتهم حين رأوهم سائلهم ؛ لتفجأهم الكثرة فتبتهتهم وتكسر قلوبهم ، وهذا من عظام آيات الله فى تلك الوقعة ، فإن البصر ، وإن كان قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً ، لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد ، وإنما يتصور ذلك بصد الله الأبصار عن إحصاء بعض من بعض ، مع التساوى فى المرئى . هـ .

وإنما فعل ذلك في الجهتين؛ ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أى: ليظهر الله أمراً كان سبق به القضاء والقدر، فكان مفعولاً في سابق العلم، لا محيد عنه، ومن شأن الحكمة إظهار الأسباب والعلل، كما أن من شأن القدرة إبراز ما سبق في الأزل، وإنما كرره؛ لاختلاف الفعل المعلن به؛ لأن الأول علة لالتقائهم من غير ميعاد، وهنا لتقليلهم في أعين الكفرة، أو للتنبية على أن المطلوب من العبد هو النظر إلى سابق القدر، ليخف عليه ما يبرز منه من الشدائد والأهوال، ولذلك قال أثره: ﴿وإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، وإذا كانت الأمور كلها راجعة إلى الله تعالى فلا يسع العبد إلا الرضا والتسليم لكل ما يبرز منها، فكل ما يبرز من عند الحبيب حبيب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأرواح والأسرار بالعدوة القريبة من بحر الحقائق، ليس بينها وبينه إلا إظهار أدب العبودية، وهو الذى بين بحر الحقيقة والشرعية، والأنفس وسائر القواطع بالعدوة القصوى منه، والقلب، الذى هو الركب المتنازع فيه، بينهما، أسفل من الروح، وفوق مقام النفس، الروح تريد أن تجذبه إليها ليسكن الحضرة، والنفس وجنودها تريد أن تميله إليها ليسكن وطن الغفلة معها، والحرب بينهما سجال، تارة ترد عليه الواردات الإلهية، التى هى جند الروح، فتتزل عليه بغتة من غير ميعاد، فتجذبه إلى الحضرة.

وتارة ترد عليه الخواطر والهواجم الردية فتحطه إلى أرض الحظوظ بغتة، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً في سابق علمه، فإذا أراد الله عناية عبد قلل عنه مدد الأغيار، حتى يراها كلا شيء، وقواه بمدد الأنوار حتى يغيب عنه كل شيء، فتذهب عنه ظلمة الأغيار، وإذا أراد الله خذلان عبد قطع عنه مدد الأنوار، وقوى عليه مدد الأغيار، حتى ينحط إلى الدرك الأسفل من النار، والعياذ بالله من سوء القضاء والقدر، وإليه الإشارة بقوله: (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) الآية. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ما يقوى مدد الأنوار، وهو الصبر والذكر، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُيِّمْتُمْ فِي شَأْنٍ فَاثْبِتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْزَعُوا فَنفْسُكُمُ وَالنَّفْسُ كَاذِبَةٌ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

قلت : (بطراً ورناء) : مصدران في موضع الحال، أى : بطرين ومراءين، أو مفعول لأجله، و(يصدون) : عطف على (بطراً) ؛ على الوجهين، أى : صادين، أو للصد.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ ؛ جماعة من الكفار عند الحرب، ﴿ فَانْتَبِهُوا ﴾ للقاءهم، ولا تفروا، ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ في تلك الحال سراً داعين له، مستظهريين بذكره، متوجهين لنصره، معتمدين على حوله وقوته، غير ذاهلين عنه بهجوم الأحوال وشدائد الأهوال؛ إذ لا يذكر الله تعالى في ذلك الحال إلا الأبطال من الرجال، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ بالظفر وعظيم النوال. قال البيضاوي : وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي ألا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد، ويقبل عليه بشرائره^(١)، فارغ البال، واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في جميع الأحوال. هـ.

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه؛ فإن الطاعة مفتاح الخيرات، ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ باختلاف الآراء، كما فعلتم في شأن الأنفال، ﴿ فَتَفْشَلُوا ﴾ وتجهلوا، ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ أى : ريح نصركم بانقطاع دولتكم، شبه النصر والدولة بهبوب الريح؛ من حيث إنها تمشى على مرادها، لا يقدر أحد أن يردّها، وقيل : المراد بها الريح حقيقة، فإن النصر لا تكون إلا بريح يبعثه الله من ناحية المنصور تذهب إلى ناحية المخدول. وفي الحديث : «نُصِرْتُ بالصَّبَا، وَأُهْلِكْتُ عَادًا بِالدُّبُورِ»^(٢). ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالمعونة والكلاءة والنصر.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾، يعنى : أهل مكة، خرجوا ﴿ بَطْرًا ﴾ أى : فخراً وأشراً ﴿ وَرَنَاءَ النَّاسِ ﴾ ؛ ليثبتوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة أتاهم رسولُ أبي سفيان، يقول لهم : ارجعوا فقد سلمت عيركم، فقال أبو جهل : لا والله حتى نأتى بدرًا، ونشرب بها الخمر، وتغلى علينا القيان، ونطعم بها من حضرنا من العرب، فتسمع بنا سائر العرب، فتهابنّا، فوافوها، ولكن سقوا بها كأس المذايا، وناحت عليهم الدوائح؛ مما نزل بهم من البلايا، فنهى الله المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مراءين، وأمرهم أن يكونوا أهل تقوى وإخلاص، لأن النهى عن الشيء أمرٌ بضده. ﴿ وَيَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : خرجوا ليصدوا الناس عن طريق الله، باتباع طريقهم، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فيجازيهم عليه.

الإشارة : خاطب الله المتوجهين إليه، السائرين إلى حضرته، وأمرهم بالثبوت ودوام السير، وبالصبر ولزوم الذكر عند ملاقات القواطع والشواغب، وكل ما يصدّهم عن طريق الحضرة، وذلك بالغيبة عنه والاشتغال بالله عنه،

(١) أى : بجملته، واحدة : شرشرة.

(٢) أخرجه البخارى في (الاستسقاء - باب قول النبي ﷺ : «نُصِرْتُ بالصَّبَا») ومسلم في (الاستسقاء - باب ريح الصباء والدبور). عن ابن عباس رضى الله عنهما.

وعدم الإصغاء إلى خوضه وتكديره، فمن صبر ظفر، ومن دام على السير وصل، وأمرهم أيضاً بطاعة الله ورسوله، ومن يدلهم على الوصول إليه، ممن هو خليفة عنه في أرضه، وأمرهم بعدم المنازعة والملاجة، فإن التنازع يوجب تفرق القلوب والأبدان، ويوجب الفشل والوهن، ويذهب بريح النصر والإعزاز، كما أن الوفاق يوجب النصر ودوام العز.

ونهاهم عن التشبه بأهل الخوض والتكدير، ممن أولع بالطعن والتكدير، بل يكونون على خلافهم مخلصين في أعمالهم وأحوالهم، دالين على الله، داعين إلى طريق الله، يحبون الله إلى عباده، ويحبون عباد الله إلى الله، وهذه صفة أهل الله. نفعا الله بذكرهم. آمين.

ثم ذكر الباعث على خروج الكفار لغزوة بدر، فقال :

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ السيلة، ومن جمعتها: خروجهم إلى حريك؛ بأن وسوس لهم، ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾، قيل: قال لهم ذلك مقالة نفسانية، بأن ألقى في روعهم، وخيل إليهم أنهم لا يغلِبون ولا يطاقون، لكثرة عددهم وعددهم، وأرهمهم أن اتباعهم إياه في ذلك قرية مجيرة لهم من المكاره.

﴿فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِئْتَانِ﴾ أي: تلاقى الفريقان، ورأى بعضهم بعضاً، ﴿نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾؛ رجع القهقهري، أي: بطل كيده، وعاد ماخيل لهم أنه مجير لهم سبب هلاكهم، ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، أي: تبرأ منهم وخاف عليهم، وأيس من حالهم، لما رأى إمداد المسلمين بالملائكة.

وقيل: إن هذه المقالة كانت حقيقة لسانية. روى أن قريشاً، لما اجتمعت على المسير إلى بدر، ذكرت ما بينهم وبين بنى كنانة من العداوة، فهموا بالرجوع عن المسير، فمثل لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك الكتاني، وقال: لا غالب لكم اليوم وإنني جارٌّ لكم، وإنني مجيركم من بنى كنانة، فلما رأى الملائكة تنزل نكص على عقبه، وكانت يده في يد الحارث بن هشام، فقال له: إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، ودفع في صدر الحارث، فانطلق وانهمزوا، فلما بلغوا مكة، قالوا: هزم الناس سراقاً، فبلغه ذلك، فقال: والله ما شعرت بسيركم حتى بلغني هزيمتكم! فلما أسلموا علموا أنه الشيطان.

وعلى هذا، يحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أى: أخاف أن يصيبني مكروهاً من الملائكة، أو يهلكنى، ويكون هذا الوقت هو الوقت الموعود، إذ رأى فيه ما لم يرقبله. والأول: ما قاله الحسن، واختاره ابن حجر. وقال الورنجي: أى: إني أخاف عذاب الله، وذلك بعد رؤية البأس، ولا ينفع ذلك، ولو كان متحققاً في خوفه ما عصى الله طرفة عين. هـ.

وذكر ابن حجر عن البيهقي، عن عليّ - كرم الله وجهه -، قال: هبت ريح شديدة، فلم أر مثلاً، ثم هبت ريح شديدة، وأظنه ذكر ثالثة، فكانت الأولى جبريل، والثانية ميكائيل، والثالثة إسرافيل، وكان ميكائيل عن يمين النبي ﷺ، وفيها أبوبكر، وإسرافيل عن يساره، وأنا فيها. وعن عليّ أيضاً: قيل لى ولأبى بكر يوم بدر: مع أحدكما جبريل، ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يحضر الصف ويشهد القتال. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، يجوز أن يكون من كلام إبليس، وأن يكون مستأنفاً. الإشارة: عادة الشيطان مع العوام أن يغريهم على الطعن والإنكار على أولياء الله، وأيذائهم لهم، فإذا رأى غيره الله على أوليائه نكص على عقبيه، وقال: إني منكم برىء؛ إني أرى مالا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب.

ثم ذكر مقالة المنافقين في شأن المسلمين، حيث خرجوا لغزوة بدر، فقال:

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

يقول الحق جل جلاله: واذكروا ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ من أهل المدينة، أو نفر من قريش كانوا أسلموا ويقوا بمكة، فخرجوا يوم بدر مع الكفار، منهم: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو القيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن ربيعة بن الأسود، وعلي بن أمية بن خلف، ﴿و﴾ هم ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أى: شك؛ لم تطمئن قلوبهم، بل بقى فيها شبهة، قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ أى: اغتر المسلمون بدينهم، فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف. فأجابهم الحق تعالى بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أى: غالب لا يذل من استجار به، وإن قل، ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل، ويعجز عن دركه الفهم.

الإشارة: إذا عظم اليقين في قلوب أهل التقى أقدموا على أمور عظام، تستغرب العادة إدراكها، أو يغلب العطب فيها، فيقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: غرَّ هؤلاء طريقتهم، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز

لا يُغلب، ولا يُغلب من انتسب إليه، وتوكل في أموره عليه، حكيم فلا يخرج عن حكمته وقدرته شيء، أو عزيز لا يُذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ به، والتجأ إلى ذمارة^(١)، حكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره، قاله في الإحياء. ثم قال: وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد هو تدبیه على قطع الملاحظة عن الأغيار، والتوكل على الواحد القهار. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر عاقبة أهل النفاق والريب، فقال:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ٥١ ﴾

قلت: جواب (لو) محذوف، أى: لرأيت أمراً عظيماً، و(الملائكة): فاعل (يتوفى) فلا يوقف على ما قبله، ويرجحه قراءة ابن عامر بالتاء، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير (الله)، و(الملائكة): مبتدأ، و(يضربون): خبر، والجملة: حال من (الذين كفروا)، والرابط: ضمير الواو، وعلى هذا فيوقف على ما قبله، وعلى الأول (يضربون): حال من الملائكة، و(ذوقوا): عطف على (يضربون) على حذف القول، أى: ويقولون ذوقوا. و(ذلك): مبتدأ، و(بما قدمت): خبر، و(أن الله): عطف على ما، للدلالة على أن مقيدة بانضمامه إليه. انظر البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو ترى ﴾ يا محمد، أو يا من تصح منكم الرؤية، حال ﴿ الذين كفروا ﴾ حين تتوفاهم ﴿ الملائكة ﴾ ببدر، أو مطلقاً، وهم ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾، أو حين يتوفاهم الله ويقبض أرواحهم، حال كونهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، أى: يضربون ما أقبل منهم وما أدبر، فيعمونهم بالضرب، أو يضربون وجوههم وظهورهم، أو أسنانههم، لرأيت أمراً فظيماً. ﴿ و ﴾ يقولون لهم: ﴿ ذوقوا ﴾ أى: باسروا ﴿ عذاب الحريق ﴾ يوم القيامة؛ بشارة لهم بما يلقون من العذاب في الآخرة. وقيل: تكون معهم مقامع من حديد، كلما ضربوا التهبّت النار منها، ﴿ ذلك ﴾ العذاب إنما وقع بكم ﴿ بما ﴾ بسبب ﴿ قدمت أيديكم ﴾ أى: بما كسبتم من الكفر والمعاصي، ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾؛ حتى يعذب بلا سبب، أو يهمل العباد بلا جزاء.

الإشارة: قد ذكر الحق جل جلاله حال الكاملين في العصيان في هذه الآية، وذكر في سورة النحل الكاملين في الطاعة، بقوله ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ... ﴾ الآية^(٢) وسكت عن المخطئين، ولعلمهم يرون طرفاً من هذا أو طرفاً من هذا. والله تعالى أعلم.

(١) الذمارة: الحوزة والحرم والأهل.. انظر: اللسان (نمر). (٢) الآية ٣٢ من سورة النحل.

ثم ذكر حال المتقدمين من الجبابرة، فقال:

﴿ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت : (كذاب) : خبر عن مضمرة، أى: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون، وهو عملهم وطريقتهم، التى دأبوا فيها، أى: داموا عليها، (ذلك) : مبتدأ، و(بأن الله) : خبر، وقال سيبويه: خبر، أى: الأمر ذلك، والفاء سببية.

يقول الحق جل جلاله : عادة هؤلاء الكفرة العاصين المعاصرين لك، فى استمرارهم على الكفر والمعاصى، كعادة ﴿ آل فرعون والذين ﴾ مضوا ﴿ من قبلهم ﴾، ثم فسر دأبهم فقال: ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ الدالة على توحيده، المنزلة على رسله، ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ كما أخذ هؤلاء، ﴿ إن الله قوى شديد العقاب ﴾، لا يغلبه فى دفعه شىء.

﴿ ذلك ﴾ العذاب الذى حل بهم، بسبب ذنوبهم وكفرهم؛ لأن ﴿ الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم ﴾ فيبدلها بالنقمة، ﴿ حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ أى: حتى يبدلوا ما بأنفسهم، من حال الشكر إلى حال الكفر، أو من حال الطاعة إلى حال المعصية، كتغيير قريش حالهم: من صلة الرحم، والكف عن التعرض لإيذاء الرسول ومن تبعه، بمعادة الرسول، والسعي فى إراقة دم من تبعه، والتكذيب بالآيات والاستهزاء بها، إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد البعثة، ﴿ وأن الله سميع ﴾ لما يقولون، ﴿ عليم ﴾ بما يفعلون.

دأبهم فى ذلك التغيير ﴿ كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون ﴾ لما بدلوا وغيروا، ولم يشكروا ما بأيديهم من النعم، ﴿ وكل ﴾ من الفرق المكذبة ﴿ كانوا ظالمين ﴾؛ فأغرقنا آل فرعون، وقتلنا صناديد قريش، بظلمهم، وما كنا ظالمين.

الإشارة : إذا أنعم الله على قوم بدعم ظاهرة أو باطنة، ثم لم يشكروا الله عليها، بل قابلوها بالكفران، وبارزوا المنعم بالذنوب والعصيان، فاعلم أن الله تعالى أراد أن يسلبهم تلك النعم، ويبدلها بأضدادها من النقم، فمن شكر النعم فقد قيدها بعقالها، ومن لم يشكرها فقد تعرض لزوالها. فالشكر قيد الوجود وصيد المفقود، فمن أعطى ولم

يشكر، سلب منها ولم يشعر، والشكر: ألا يعصى الله بنعمه، كما قال الجليلي رحمه الله . والله تعالى أعلم

ومن جملة كفران النعم، نقض العهد، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٥ ﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ٥٦ ﴿ فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ٥٧ ﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ٥٨ ﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ٥٩ ﴾

قلت: (فهم لا يؤمنون): جملة معطوفة على جملة الصلة، والغاء للتبعية على أن تحقق المعطوف عليه يستدعي تحقق المعطوف، و(الذين عاهدت): بدل بعض من (الذين كفروا)، و(فشرد): جواب (إما)، والتشريد: تفريق على اضطراب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ منزلة ﴿ الذين كفروا ﴾، تحقق كفرهم، وسبق به القدر، ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ أبداً؛ لما سبق لهم من الشقاء. نزلت في قوم مخصوصين، وهم بلو قريظة، ﴿ الذين عاهدت منهم ﴾ أي: أخذت عليهم العهد ألا يعاونوا عليك الكفار، ﴿ ثم يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ ﴾ أي: يخونون عهدهم بعد المرة، فأعانوا المشركين بالسلاح يوم أحد، وقالوا: نسينا، ثم عاهدتهم، فنكثوا ومالؤهم عليه يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف في ملائمتهم إلى مكة، فحالفوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ، فقتل مقاتلتهم وسبأ ذراريهم، ﴿ وهم لا يتقون ﴾ شؤم الغدر وتبعته، أو: لا يتقون الله في ذلك الغدر ونصرته للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم.

قال تعالى للتبعية عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ ﴾ أي: مهما تصادفهم وتظفر بهم ﴿ في الحرب فشردهم ﴾ أي: فرقك عنك من يناصر بك بسبب تكليفهم وقتلهم، أو نكل بهم ﴿ من خلفهم ﴾؛ بأن تفعل بهم من النعمة ما يزجر غيرهم؛ ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ أي: لعل من خلفهم يتعظون فيلنجزوا عن حريك.

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ ﴾ معاهدين ﴿ خيانة ﴾ أي: نقض عهد بأمارات تلوح لك، ﴿ فانبد إليهم ﴾ أي: فاطرح إليهم عهدهم ﴿ على سواء ﴾ أي: على عدل وطريق قصد في العداوة، ولا تنالهم بالحرب قبل العلم بالنبد، فإنه يكون خيانة منك، أو على سواء في العلم بنقض العهد، فتستوي معهم في العلم بنقض العهد، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ أي: لا يرضى فعلهم، وهو تعليل للأمر بالنبد والنهي عن المناجزة القتال المدلول عليه بالحال.

﴿ولا تحسبن﴾ ، يا محمد، ﴿الذين كفروا سبّقوا﴾ قدرتنا، ونجوا من نكالنا؛ ﴿إنهم لا يعجزون﴾ أى: لا يفوتون فى الدنيا والآخرة، فلا يعجزون قدرتنا، أو لا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم، بل الله مُحِيط بهم أينما حلوا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: شرف الإنسان وكماله فى خمسة أشياء: الإيمان بالله، وبسائر ما يتوقف الإيمان عليه، والوفاء بالعهود، والوقوف مع الحدود، والرضى بالموجود، والصبر على المفقود. وذله وخسسته فى خمسة أشياء: الكفر والجحود، ونقض العهود، وتعدى الحدود، وعدم الرضى بالموجود، والجزع على المفقود.

وقال القشيري فى قوله تعالى: ﴿فإما تثقفنهم فى الحرب...﴾ الآية: أى: إن صادفتَ واحداً من هؤلاء الذين دأبهم نقضُ العهد، فاجعلهم عبرةً لمن يأتي بعدهم، لئلا يسلكوا طريقهم، فيستوجبوا عقوبتهم. كذلك من فسَخَ عقده مع الله بقلبه، برجوعه إلى رخصِ التأويلات، ونزوله إلى السكون مع العادات، يجعله الله نكالا لمن بعده، بحرمان ما كان خوله وتنغيصه عليه. ثم قال عند قوله: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾: يريد، إذا تحققت خيانة قوم منهم، فصَرَحَ بأن لا عهدَ بينك وبينهم، فإذا حصلت الخيانة زال سَمْتُ الأمانة، وخيانة كل أحدٍ على ما يليق بحاله. هـ.

ثم أمر بالاستعداد للحرب لمن نقض العهد، فقال:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأعدوا لهم﴾ ، أى: لناقضى العهد، أو لمطلق الكفار، ﴿ما استطعتم من قوة﴾ ، أى: ما قدرتم عليه من كل ما يقوى به فى الحرب. وعن عتبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «الآن إن القوة الرمي» (١) قالها ثلاثاً، ولعله عليه الصلاة والسلام خصه بالذكر؛ لأنه أعظم القوى، ﴿و﴾ أعدوا لهم أيضا ﴿من رباط الخيل﴾ أى: من الخيل المربوطة للجهاد، وهو اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله، بمعنى مفعول، أو مصدر، أو جمع ربيط؛ كفصيل وفصال.

(١) أخرجه مسلم فى (الإمارة - باب فضل الرمي) عن عتبة بن عامر رضي الله عنه.

والمراد : الحث على استعداد الخيل العتاق التي تربط وتعلق بقصد الجهاد، وهو من جملة القوة، فهو من عطف الخاص على العام، للاعتناء بأمر الخيل لما فيها من الإرهاب. ولذلك قال: ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ ﴾ أى: تخوفون بذلك الأعداء، أو بما ذكر من الخيل المربوطة، ﴿ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾، يعنى: كفار مكة، ﴿ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ أى: من غيرهم من الكفرة، كفارس والروم وسائر الكفرة، ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمْ ﴾ أى: لاتعرفونهم اليوم، ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾، وسيمكنكم منهم، فتقاتلونهم وتملكون ملكهم، ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، فى شأن الاستعداد وغيره؛ مما يستعان به على الجهاد، ﴿ يُوفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ جزاؤه، ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ بتضييع عمل أو نقص أجر، بل يضاعفه لكم أضعافاً كثيرة، بسبعمائة أو أكثر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وأعدوا، لجهاد القواطع والعلائق التي تعوقكم عن الحضرة، ما استطعتم من قوة، وهو العزم على السير من غير التفات، ومن رباط القلوب فى حضرة الحق، تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ، وهو الشيطان، وعدوكم، وهى النفس، وآخرين من دونهم: الحظوظ واللحوظ وخفايا خدع النفوس، لا تعلمونهم، الله يعلمهم؛ كالرياء والشرك الخفي، فإنه يدب دبيب النمل، وما تنفقوا من شيء يُوفَّ إِلَيْكُمْ أضعافاً مضاعفة، بالعز الدائم والغنى الأكبر، وأنتم لَا تُظْلَمُونَ.

وقال الورتجبي: أعلم الله المؤمنين والعارفين استعداد قتل أعداء الله، وسمى آلة القتال بقوة، وتلك القوة قوة الإلهية، التي لا ينالها العارف من الله إلا بخصوعه بين يديه، بنعت الفناء فى جلاله، فإذا كان كذلك يلبسه الله لباس عظمته ونور كبريائه وهيبته، ويغريه إلى الدعاء عليهم، ويجعله منبسطاً، حتى يقول فى سره: إلهي خذهم، فياخذهم بلحظة، ويسقطهم صرعى بين يديه بعونه وكرمه، ويسلى قلب وليه بتفريجه من شرور معارضيه ومنكريه، وذلك سهم رمى نفوس الهمة عن كنانة الغيرة، كما رمى نبي الله ﷺ إلى منكريه حين قال: « شأنت الوجوه»، وهذا الرمي من الله بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

سمعت أن ذا النون المصري رحمته الله كان فى غزو، وغلب المشركون على المؤمنين، فقليل له: لو دعوت الله، فنزل عن دابته ومجد، فهزم المشركون فى لحظة، وأخذوا جميعاً، وأسروا، وقتلوا.

وأيضاً: وأعدوا: أى: اقتبسوا من الله قوة من قوى صفاته لنفوسكم حتى يقويكم فى محاربتها. قال أبو على الروذباري، فى قوله: ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾، فقال: القوة هى الثقة بالله، قيل ظاهر الآية: إنه الرمي بسهام القسي. وفى الحقيقة: رمى سهام الليالى فى الغيب؛ بالخضوع والاستكانة، ورمى القلب إلى الحق؛ معتمداً عليه، راجعاً إليه عما سواه. هـ.

ثم بين أن المعول على الله ونصرته، لا على السلاح والآلات بقوله: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾، أى: قواك بقوته الأزلية، ونصرك بنصرته الأبدية، ووفق المؤمنين بإعانتك على عدوك. ثم بين سبحانه أن نصرة المؤمنين لم تكن إلا بتأليفه بين قلوبهم، وجمعها على محبة الله ومحبة رسوله، بعد تباينها بتفرقة الهموم فى أودية الامتحان، بقوله: ﴿وألف بين قلوبهم﴾. وقال القشيري: الإشارة بقوله: ﴿ترهبون﴾: إلى أنه لا يجاهد على رجاء غنيمة يئالها، أو إشفاء صدر عن قضية حقد، بل قصده أن تكون كلمة الله هى العليا. هـ.

ثم دل على الصلح لمصلحة، فقال:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ﴾ أى: وإن مالوا للصلح ﴿فاجنح لها﴾ أى: فصالحهم، ومل إلى المعاهدة معهم، وتوكل على الله؛ فلا تخف منهم أن يكونوا أبطنوا خداعاً؛ فإن الله يعصمك من مكرهم؛ ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (١)، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ بعد الصلح ﴿فإنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أى: فحسبك الله وكافيك شرهم، ﴿هو الذي أيدك﴾ أى: قواك ونصرك ﴿بنصره﴾؛ تحقيقاً، ﴿وبالمؤمنين﴾؛ تشريفاً، أو ﴿بنصره﴾ قدرة ﴿وبالمؤمنين﴾ حكمة، والقدرة والحكمة منه وإليه، فلا دليل عليه للمعتزلة حيث نسبوا الفعل للعبد، وقالوا: العطف يقتضى المغايرة.

﴿وألف بين قلوبهم﴾ مع ما كان فيها فى زمن الجاهلية من المعصية والضغائن والتهالك على الانتقام، حتى لا يكاد يأتلف فيهم قلبان، ثم صاروا كنفس واحدة، وهذا من معجزاته ﷺ. قال تعالى: ﴿لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً﴾، فى إصلاح ما بينهم، ﴿ما ألفت بين قلوبهم﴾؛ لتناهى عدواتهم إلى حد لو أنفق منفق فى إصلاح

(١) من الآية ٤٢ من سورة فاطر.

ذات بينهم ما فى الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة بينهم، ﴿ولكن الله ألفت بينهم﴾ بقدرته البالغة؛ فإنه المالك للقلوب يقبها كيف يشاء. ﴿إنه عزيز﴾ تام القدرة، لا يعصى عليه ما يريد، ﴿حكيم﴾ يعلم كيف ينبغي أن يفعل ما يريد.

قيل: إن الآية نزلت فى الأوس والخزرج، كان بينهم إحْن وضغائن لا أمد لها، ووقائع هلكت فيها ساداتهم، فأنساهم الله ذلك، وألف بينهم بالإسلام، حتى تصادقوا وصاروا أنصار الدين. وبالله التوفيق.

الإشارة: وإن مالت النفس وجنودها إلى الصلح مع صاحبها؛ بأن ألقت السلاح، ومالت إلى فعل كل ما فيه خير وصلاح، وعقدت الرجوع عن هواها، والدعوى على طاعة مولاه، فالواجب عقد الصلح معها، وتصديقها فيما تأمر به أو تنهى عنه، مما يرد عليها، مع التوكل على مولاه، فإن خدعت بعد ذلك، أو رجعت إلى مألوفها، فالله يكفى أمرها، ويقوى صاحبها على ردها، إما بسبب شيخ كامل، أو أخ صالح، فإن الصحبة فيها سر كبير، لاسيما مع أهل الصفاء، الذين صفت قلوبهم، وألف الله بينهم بالمحبة والوداد، وحسن الظن والاعتقاد، وإما بسابق عناية ربانية وقوة إلهية. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه بالاكْتفاء بالله وعدم الالتفات إلى ما سواه، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

قلت: (حسبك): مبتدأ، و(الله): خبر، ويصح العكس، و(من اتبعك): إما عطف على (الله)، أى: كفاك الله والمؤمنون، أو فى محل نصب على المفعول معه، أو فى محل جر؛ عطف على الضمير، على مذهب الكوفيين، أى: حسبك وحسب من اتبعك الله، والأول: أصح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها النبي حَسْبُكَ اللهُ﴾ أى: كافيك الله، فلا تلتفت إلى شىء سواه، أى: لما مننت عليك باتلاف قلوب المؤمنين فى نصرتك، فلا تلتفت إليهم فى محل التوحيد، فإنى حسبك وحدى بغير معاونة اخلق، فينبغى أن تفرد القدم عن الخدوث فى سيرك منى إلى، وأنا حسب المؤمنين عن كل ما دونى، وإن كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلًا، ولا ينبغى فى حقيقة التوحيد النظر إلى غيرى، وإنما أيدتك بواسطة المؤمنين، وذكرتهم معى؛ تشریفاً لأمتك، وستراً لقدرتى، وإظهاراً لكمال حكمتى، وإلا فقدرتى لا يفوتها شىء، ولا تتوقف على شىء؛ «جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل».

قال البيضاوى: نزلت الآية تأييداً فى غزوة بدر، وقيل: أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة، ثم أسلم عمر رضي الله عنه، فنزلت. ولذلك قال ابن عباس - رضى الله عنهما -: نزلت فى إسلامه.

الإشارة: ماخوطف به النبي ﷺ يخاطب به ورثته الكرام، من الاكتفاء بالله وعدم الالتفات إلى ما سواه، وتصحيح عقد التوحيد، والاعتماد على الكريم المجيد. والله تعالى أعلم.

ثم أمره بالتحريض على الجهاد، فقال:

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۚ﴾
 ﴿٦٥﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

قلت: التحريض: هو الحدث على الشيء والمبالغة في طلبه، وهو من الحرّض، الذي هو الإشفاء على الهلاك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حثهم ﴿عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: الجهاد. ثم أمرهم بالصبر والثبات للعدو بقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهذا خبر بمعنى الأمر، أي: يقاتل العشرون منكم المائتين، والمائة الألف، وليثبتوا لهم، ولا يصح أن يكون خبراً محضاً؛ إذ لو كان خبراً محضاً لما تخلف في الواقع، ولو في جزئية؛ إذ خبره تعالى لا يخلف.

قال الفخر الرازي: حسن هذا التكليف لما كان مسبوقاً بقوله: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فلما وعد المؤمنين بالكفاية والنصر كان هذا التكليف سهلاً؛ لأن من تكفل الله بنصره فإن أهل العالم لا يقدرّون على إذايته. هـ.

وإنما كان القليل من المؤمنين يقاوم الكثير من الكفار ﴿بأنهم﴾؛ بسبب أنهم ﴿قوم لا يفقهون﴾، أي: لأنهم جهلة بالله واليوم الآخر، فلا يثبتون ثبات المؤمنين، رجاء الثواب والترقي في الدرجات، قتلوا أو ماتوا، بخلاف الكفار؛ فلا يستحقّون من الله إلا الهوان والخذلان.

ولما كلفهم بهذا في أول الإسلام، وشق ذلك عليهم، خفف عنهم فقال: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾؛ فلا يقاوم الواحد منكم العشرة، ولا المائة الألف، ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ،

وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله ﴿٦٧﴾؛ أمرهم بمقاومة الواحد لاثنتين. وقيل: كان فيهم قلة، فلما كثروا خفف عنهم، وتكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المتناسبة؛ للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد، والضعف: ضعف البدن، لا ضعف القلب.

قال بعض الصحابة - رضي الله عنهم -: لما نزل التخفيف ذهب من الصبر تسعة أعشار، وبقي العشر. ولذلك قال تعالى هنا: ﴿٦٨﴾ والله مع الصابرين ﴿٦٩﴾، أى: بالنصر والمعونة، فكيف لا يغلب من يقاومهم ولو كثر عدده ٩.

الإشارة: ينبغي لأهل التذكير أن يحرضوا الناس على جهاد نفوسهم، الذى هو الجهاد الأكبر، وإنما كان أكبر؛ لأن العدد الحسى يقابلك وتقابله، بخلاف النفس فإنها جاء تحت الرماية خفية عدو حبيب، فلا يتقدم لجهادها إلا الرجال، فينبغى للشيخ أن يحضوا المريدين على جهادها، ويهونوا لهم شأنها؛ فإن النفس لا يهول أمرها إلا قبل رمى اليد فيها، فإذا رميت يدك فيها بالعزم على قتلها ضعفت ولانت، وسهل علاجها، وإذا خفت منها، وسؤفت لها، طالت عليك وملكتك. ولا بد فى جهادها من شيخ يريك مساوئها، ويعينك بهمته على قتلها، وإلا بقيت فى العنت معها، والشغل بمعاناتها حتى تموت بلا حصول نتيجة جهادها، وهى المعرفة بسيدها وخالقها. والله تعالى أعلم.

ثم عاتبهم على أخذ الفداء من الأسارى، فقال:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ۚ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٦٧ ۝ لَوْلَا كُتِبَ مِنَّا لِلَّهِ سَبَقٌ لِّمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُم عَذَابٌ عَظِيمٌ ٦٨ ۝ فَكُلُوا مِنَّمَا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٦٩ ۝ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿٦٧﴾ ما كان لنبي أن يكون له أسرى ﴿٦٨﴾ يقبضها ﴿٦٩﴾ حتى يثخن ﴿٧٠﴾ أى: يبالغ ﴿٧١﴾ فى الأرض ﴿٧٢﴾؛ بالقتل حتى يذل الكفر ويقل حزيه، ويعز الإسلام ويستولى أهله. ﴿٧٣﴾ تريدون ﴿٧٤﴾ بقبض الأسارى ﴿٧٥﴾ عرض الدنيا ﴿٧٦﴾؛ حطامها بأخذ الفداء منهم، ﴿٧٧﴾ والله يريد الآخرة ﴿٧٨﴾ أى: يريد لكم ثواب الآخرة، الذى يدوم ويبقى، أو يريد سبب نيل الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه، ﴿٧٩﴾ والله عزيز ﴿٨٠﴾ يغلب أوليائه على أعدائه، ﴿٨١﴾ حكيم ﴿٨٢﴾ يعلم ما يليق بكمال حالهم ويخصهم بها، كما أمر بالإثخان، ومنع من أخذ الفداء حين كانت الشوكة للمشركين، وخير بينه وبين المن لما تحولت الحال، وصارت الغلبة للمؤمنين.

روى أنه عليه الصلاة والسلام أتى يوم بدر بسبعين أسيراً، فيهم العباس وعقيل بن أبى طالب. فاستأذن فيهم؛ فقال أبو بكر رضي الله عنه: قومك وأهلك، استبقهم، لعل الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك. وقال عمر

﴿صَلَّى﴾: اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ، فَإِنَّهُمْ أَيْمَةُ الْكُفْرِ، وَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَاكَ عَنِ الْفِدَاءِ، فَمَكَّنِي مِنْ فُلَانٍ - لَسَيْبٍ لَهُ - وَمَكَّنْ عَلِيًّا وَحَمْزَةً مِنْ أَخَوَيْهِمَا، فَلَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَلَمْ يَهُوَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُلِينُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَلَيْنَ مِنْ كُلِّ لَيْنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَشْدُدُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَإِنْ مَثَّلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ مَثَلُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: «فَمَنْ تَبَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (١)، وَمَثَّلَكَ يَا عُمَرُ مَثَلُ نُوحٍ، قَالَ: «رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا» (٢). فَخَيَّرَ أَصْحَابَهُ، فَأَخَذُوا الْفِدَاءَ، فَتَزَلَّتْ، فَدَخَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ يَبْكِيَانِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَخْبِرْنِي، فَإِنْ أَجِدُ بُكَاءَ بَكَيْتُ، وَإِلَّا تَبَاكَيْتُ؟ فَقَالَ: «أُبْكِي عَلَى أَصْحَابِكَ فِي أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، وَلَقَدْ عَرِضَ عَلَى عَذَابِهِمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ» (٣) لِشَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ.

والآية دليل على أن الأنبياء - عليهم السلام - يجتهدون، وإنه قد يكون الخطأ، ولكن لا يقرون عليه. قاله البيضاوي. قال القشيري: أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ، وَكَانَ ذَلِكَ جَائِزًا لَوْجُوبِ الْعَصْمَةِ، وَلَكِنْ لَوْ قَتَلَهُمْ كَانَ أَوْلَى. هـ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: إِنَّمَا تَوَجَّهَ الْعِتَابُ لِلصَّحَابَةِ عَلَى اسْتِيقَاءِ الرِّجَالِ دُونَ قَتْلِهِمْ، لِأَعْلَى الْفِدَاءِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَانَ خَيْرَهُمْ، فَاخْتَارُوا الْفِدَاءَ عَلَى أَنْ يَقْتُلَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ، كَمَا تَقْدِمُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٤). ثُمَّ قَالَ: وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَارِجٌ عَنْ ذَلِكَ الْاسْتِيقَاءِ. انظر تمامه في الحاشية.

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا كَانَ الْحَقُّ تَعَالَى خَيْرَهُمْ فَكَيْفَ عَاتَبَهُمْ، وَهَمَّ لَمْ يَرْتَكِبُوا مُحْظُورًا؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْعِتَابَ تَابِعٌ لِعُلُوِّ الْمَقَامِ، فَالْخَوَاصُّ يِعَاتَبُونَ عَلَى الْمُبَاحِ، إِنْ كَانَ فَعْلُهُ مَرْجُوحًا، وَالْحَقُّ تَعَالَى إِنَّمَا عَاتَبَهُمْ عَلَى رَغْبَتِهِمْ فِي أَمْرِ دُنْيَوِيٍّ، وَهُوَ الْفِدَاءُ، حَتَّى أَثَرُوا قَتْلَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى أَخْذِهِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾، وَهَذَا إِنَّمَا كَانَ فِي بَعْضِهِمْ، وَجَلَّهِمْ إِنَّمَا اخْتَارُوا الْفِدَاءَ اسْتِيقَاءً لِقَرَابَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي تَمَامِ عِتَابِهِمْ: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أَيْ: لَوْلَا حُكْمُ اللَّهِ سَبَقَ إِثْبَاتَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَهُوَ إِلَّا يِعَاقِبُ الْمَخْطِئَ فِي اجْتِهَادِهِ، أَوْ أَنَّهُ سَيَحِلُّ لَكُمْ الْعَنَائِمُ، أَوْ مَا سَبَقَ فِي الْأَزْلِ مِنَ الْعَفْوِ عَنْكُمْ، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾؛ مِنَ الْفِدَاءِ أَوْ مِنَ الْأَسَارِ، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. رَوَى أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ، حِينَ نَزَلَتْ: «لَوْ نَزَلَ الْعَذَابُ مَا نَجَا مِنْهُ غَيْرُ عُمَرَ وَسَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ»؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ أَيْضًا أَشَارَ بِالْإِثْنَانِ.

(١) الآية ٣٦ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية ٢٦ من سورة نوح.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣٨٣/١) والترمذي ببعض الاختصار في (تفسير سورة الأنفال) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي في (المغازي، ٢١/٣) وكذلك أخرجه البيهقي في الدلائل (١٣٨/٣) كلهم عن ابن مسعود. وأخرجه بنحوه مسلم في (الجهاد - باب الإمداد بالملائكة) من حديث ابن عباس عن سيدنا عمر - رضي الله عن الجميع.

(٤) عند تفسير قوله تعالى: (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا) الآية ١٦٥.

ثم أباح لهم الغنائم وأخذ الفداء فقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الكفار، ومن جملته: الغدية، فإنها من الغنائم، ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أى: أكلاً حلالاً، وفائدته: إزاحة ما وقع فى نفوسهم بسبب تلك المعاتبة، أو حرمتها على المتقدمين. روى أنه لما عاتبهم أمسكوا عنها حتى نزلت: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾، ووصفه بالنعيب؛ تسكيناً لقلوبهم، وزيادة فى حليتها. وفي الحديث عنه ﷺ: «أَعْطَيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: أُدِّيتُ لِي الْغَنَائِمُ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَخُصِّصَتْ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ» (١). أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى مخالفته: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى: يغفر لكم ما فرط، ويرحمكم بإباحة ما حرم على غيركم؛ توسعة عليكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما ينبغى لتفكير المتوجه أن يكون له أتباع يتصرف فيهم ويستفيد منهم، عوضاً عن الدنيا، حتى يبالغ فى قتل نفسه وتموت، ويأمن عليها الرجوع إلى وطنها من حب الرئاسة والجاه، أو جمع المال، والتمتع بالخطوط، فإن تعاطي ذلك قبل موت نفسه كان ذلك سبب طرده، وتعجيل العقوبة له، حتى إذا تداركه الله بلطفه، وسبقت له عناية من ربه، فيقال له حينئذ: لولا كتاب من الله سبق لمسك فيما أخذت عذاب عظيم.

ثم بشر الأسارى بخلف ما أخذ منهم من الفداء بأكثر منه، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

قلت: (أسرى): جميع أسير، ويجمع على أسارى. وقرئ بهما، و(خيراً مما): اسم تفضيل، وأصله: أخير، فاستغنى عنه بخير، وكذلك شر؛ أصله: أشر، قال فى الكافية:

وغالباً أغناهم خير وشر عن قولهم: أخير منه وأشر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ الذين أخذتم منهم الفداء: ﴿إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ أى: إيماناً وإخلاصاً يكون فى المستقبل، ﴿يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا﴾ أى: أفضل وأكثر مما أخذ منكم من الفداء.

(١) أخرجه البخارى فى (أول كتاب التيمم) ومسلم فى (المساجد) من حديث جابر بن عبد الله - بلفظ: «وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس كافة، بدل: «وخصصت بجوامع الكلم»، وقد جاءت هذه العبارة بدحوها فى رواية عند مسلم عن أبى هريرة، وفيها: (فضلت على الأنبياء بست) وساق الخمس السابقة.

رُوى أنها نزلت في العباس رضي الله عنه؛ كلفه رسول الله ﷺ أن يفدى نفسه، وابنى أخويه: عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال: يا محمد؛ تركتني أتكف قريشاً ما بقيت، فقال له عليه الصلاة والسلام: وأين الذهب الذي دفعته لأُم الفضل وقت خروجك، قلت لها: لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لك، ولعبد الله، وعبيد الله والفضل، وقُتم، قال له وما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي تعالى، قال: فأشهد أنك صادق، وأن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل.

قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك، أعطاني رسول الله ﷺ من المال الذي قدم من البحرين ما لم أقدر على حمله، ولى الآن عشرون عبداً، إن أدناهم يضرب - أي: يتجر - في عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم، ما أحب أن لى بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربكم، يعنى: الموعود بقوله تعالى: (يغفر لكم والله غفور رحيم) (١).

﴿وإن يريدوا﴾؛ الأسارى ﴿خيانتك﴾؛ بنقض ما عهدوك به، ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾؛ بالكفر والمعاصي ﴿فأمكن منهم﴾ وأمكنك من ناصيتهم، فقبضوا وأسروا ببدر، ﴿والله عليم﴾ لا يخفى عليه شيء، ﴿حكيم﴾ فيما دبر وأمضى.

الإشارة: يقال للفقراء المتوجهين إلى الله، الذين بذلوا أموالهم ومهجهم، وقتلوا نفوسهم في طلب محبوبهم: إن يعلم الله في قلوبكم خيراً، كصدق وإخلاص، يؤتكم أفضل مما أخذ منكم، من ذبح النفوس وخط الرؤوس ودفع الفلوس. وهو الغناء الأكبر، والسر الأشهر، الذى هو الفناء في الله، والغيبة عما سواه، وثمرته: المشاهدة التى تصحبها المكاملة، وهذا هو الإكسير والغنا الكبير، فكل من باع نفسه في طلب هذا فقد ربح صفقته وزكت تجارته، مع غفران الذنوب، وتغطية المسارى والعيوب. وبالله التوفيق.

ثم بين فضائل المهاجرين والأنصار، ومنزلة من آمن ولم يهاجر، والذين هاجروا بعد الحديبية، تنميماً للتحريض على الجهاد، فبدأ أولاً بالمهاجرين والأنصار، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهِاجِرُوا مَا لَكُم مِّنَ شَيْءٍ

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرک ٣ / ٣٢٤) وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبى. والطبرى في تفسير الآية، عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ
فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ أوطانهم في الخروج مع رسول الله ﷺ، لنصرة الدين بالجهاد، ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ فصرفوها في الإعداد للجهاد، كالكراع والسلاح، وأنفقوها على المجارح، ﴿وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ بمباشرة القتال، ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا﴾ رسول الله ومن هاجر معه، وواسوهم بأموالهم، ﴿وَنَصَرُوا﴾ دين الله ورسوله، ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في التعاون والتناصر، أو في الميراث. وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة، دون الأقارب، حتى نسخ بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ (١).

ثم ذكر من لم يهاجر فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ لا في النصرة، ولا في الميراث، ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ إليكم، ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ﴾ على المشركين ﴿فِي﴾ إظهار الدين فعليكم النصر ﴿أَيُّ﴾ فواجب عليكم نصرهم وإعانتهم، لئلا يستولى الكفر على الإيمان، ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ﴾ كان ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ عهد و﴿مِيثَاقٌ﴾، فلا تلغوا عهدهم بنصرهم، فإن الخيانة ليست من شأن أهل الإيمان. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه من أوفى ومن نقض.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث. ويدل بمفهومه، على منع التوارث والمؤازرة بينهم وبين المسلمين. ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إلا تفعلوا ما أمرتم به من موالة المؤمنين ونصرتهم، أو نصرة من استنصر بكم ممن لم يهاجر، ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾؛ باستيلاء المشركين على المؤمنين، ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ بإحلال المشركين أموال المؤمنين وفروجهم، أو: إلا تفعلوا ما أمرتم به من حفظ الميثاق، تكن فتنة في الأرض، فلا يفي أحد بعهد أبداً، وفساد كبير بنهب الأموال والأنفس.

الإشارة: أهل التجريد، ظاهراً وباطناً، هم الذين آمنوا وهاجروا حظوظهم، وجاهدوا نفوسهم بسيوف المخالفة، وآووا من نزل أو التجأ إليهم من إخوانهم أو غيرهم، أو آووا أشياخهم وقاموا بأموالهم، ونصروا الدين بالذكور

(١) الآية ٦ من سورة الأحزاب.

والإرشاد والدلالة على الله، أينما حلوا من البلاد، أولئك بعضهم أولياء بعض في العلوم والأسرار، وكذلك في الأموال. فقد قال بعض الصوفية: (الفقراء: لا رزق مقسوم، ولا سر مكتوم). وهذا في حق أهل الصفاء من المتحابين في الله.

والذين آمنوا ولم يهاجروا هم أهل الأسباب من المنتسبين، قد نهى الله عن موالاتهم في علوم الأسرار وغوامض التوحيد؛ لأنهم لا يطيقون ذلك؛ لشغل فكرتهم بالأسباب أو بالعلوم الرسمية، نعم، إن وقعوا في شبهة أوحيدة، وجب نصرهم بما يزيل إشكالهم، لئلا تقع بهم فتنة أو فساد كبير في اعتقادهم. والله تعالى أعلم.

ثم أثنى على المهاجرين والأنصار، فقال:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

قال البيضاوي: لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام، - أي: مهاجرين، وأنصار، ومن آمن ولم يهاجر - بين أن الكاملين في الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم، بتحصيل مقتضاه من الهجرة، والجهاد، وبذل المال، ونصرة الحق، ووعد لهم الوعد الكريم، فقال: «لهم مغفرة ورزق كريم»؛ لا تبعة له، ولا فتنة فيه. ثم ألحق بهم في الأمرين من يلتحق بهم ويتسم بسمتهم فقال:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ...﴾

أي: من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار. هـ.

ثم نسخ الميراث المتقدم، فقال:

﴿... وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

يقول الحق جل جلاله ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ من قرابة النسب، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوراث من الأجانب، وظاهره: توريث ذوى الأرحام، كالخال والعمة وسائر ذوى الأرحام، وبه قال أبو حنيفة، ومنعه مالك، ورأى أن الآية منسوخة بآية المواريث التي في النساء، أو يراد بالأولية: غير الميراث، كالنصرة وغيرها. وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في القرآن، أو اللوح المحفوظ. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أمر المواريث وغيرها، أو عليم بحكمة إناطتها بنسبة الإسلام والمظاهرة أولاً، وبالقرابة ثانياً، والله تعالى أعلم.

الإشارة: الناس ثلاثة: عوام، وخواص، وخواص الخواص. فالعوام: هم الذين لا شيخ لهم يصلح للتربية. والخواص: هم الذين صحبوا شيخ التربية، ولم ينهضوا إلى مقام التجريد. وخواص الخواص: هم الذين صحبوا شيخ التربية وتجردوا ظاهراً وباطناً، خربوا ظواهرهم، وعمّروا بواطنهم، وهم الذين خاضوا بحار التوحيد، وذاقوا أسرار التفريد. وهم الذين أشار المجذوب إلى مقامهم بقوله:

ياقارئ علم التوحيد هذا البحور إلى تغبى

هذا مقام أهل التجريد الواقفين مع ربى

فأهل التجريد، كالمهاجرين والأنصار، وأهل الأسباب من أهل النسبة، كمن لم يهاجر من الصحابة، ومن تجرد بعد ودخل معهم، التحق بهم. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ﴾، ومن لا نسبة له كمن لا صحبة له، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق. صلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وصحبه، وسلم تسليماً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين*.



* كتب في آخر المجلد الأول من النسخة الأصلية: هذا آخر السفر الأول من (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد)، ووافق الفراغ من تبليغه سادس عشر من جمادى الأولى، سنة ست عشر ومائتين وألف، بتلوه سورة التوبة بحول الله وقوته. انتهى، بحوله وقوته، عشية يوم استخراجه من مبيضته؛ الجمعة ثالث وعشرين من جمادى الأولى، أيضاً، من تلك السنة المذكورة قبل. ونسأله الإعانة على التمام، بجاه النبي - عليه السلام - صلى الله عليه - على مر الليالي والأيام.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

(مدنية) . ولها أسماء أخرى: سورة براءة؛ لتبرئها من المنافقين، والمُقَدِّسَةُ. أي: المبرئة من النفاق، والبُحُوث؛ لبحثها عن أحوال المنافقين، والمبعثرة والمنقرة والمثيرة، والحافرة؛ لأنها بعثرت ونقرت وأثارت وحفرت عن أحوال المنافقين، والمخزية والفاضحة، والمنكلة، والمشردة، والمدممة، وسورة العذاب؛ لأنها أخزت المنافقين، وفضحتهم، ونكلتهم، وشردتهم، ودمّمت عليهم، وذكرت ما أعد الله لهم من العذاب.

وآياتها: مائة وثلاثون، وقيل: وتسع وعشرون. ومناسبتها: قوله: ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١)، فذكر في هذه السورة نقض ذلك الميثاق.

وانفقت المصاحف والقراء على ترك البسملة في أولها، فقال عثمان رضي الله عنه: أشبهت معانيها معاني الأنفال، أي: لأن في الأنفال ذكر العهد وفي براءة نبذها، وكائننا تدعى القرينتين في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلذلك قرئت بينهما ووضعتهما في السبع الطوال (٢)، وكان الصحابة قد اختلفوا: هل هما سورة واحدة أو سورتان؟ فتركت البسملة بينهما لذلك. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: البسملة أمان، وبراءة نزلت بالسيف، فلذلك لم تبدأ بالأمان. وقال البيضاوي: لما اختلف الصحابة في أنهما سورة واحدة، وهي سابعة السبع الطوال، أو سورتان، تركت بينهما فرجة، ولم تكتب بسم الله. هـ.

ثم ابتداء بنقض عهد المشركين، فقال:

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ۚ﴾

قلت: (براءة): خبر عن مضمرة، أي: هذه براءة، و(من): ابتدائية، متعلقة بمحذوف، أي: واصلة من الله، و(إلى الذين): متعلقة به أيضاً، أو مبتدأ لتخصيصها بالصفة، و(إلى الذين): خبر.

* بداية المجلد الثاني في النسخة الأصلية. (١) من الآية ٧٢ من سورة الأنفال.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥٧/١) وأبو داود في (الصلاة، باب من جهر بيسم الله الرحمن الرحيم) والترمذي في (التفسير، سورة التوبة) والحاكم في (٢٢١/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

يقول الحق جل جلاله: هذه ﴿براءة﴾ أى: تبرئة ﴿من الله ورسوله﴾ واصلة ﴿إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾، فقد تبرأ الله ورسوله من كل عهد كان بين المشركين والمسلمين، لأنهم نكثوا أولاً، إلا أناساً منهم لم ينكثوا، وهم بنو ضمرة وبنو كنانة، وسيأتى استثنائهم. قال البيضاوى: وإنما علفت البراءة بالله ورسوله، والمعاهدة بالمسلمين؛ للدلالة على أنه يجب عليهم نبذ عهود المشركين إليهم، وإن كانت صادرة بإذن الله واتفاق الرسول؛ فإنهما برئتا منها. هـ.

وقال ابن جزى: وإنما أسند العهد إلى المسلمين؛ لأن فعل الرسول ﷺ لازم للمسلمين، وكأنهم هم الذين عاهدوا المشركين، وكان النبي ﷺ قد عقد العهد مع المشركين إلى آجال محدودة، فممنهم من وفى، فأمر الله أن يتم عهده إلى مدته، وممنهم من نقض أو قارب النقض، فجعل له أجل أربعة أشهر، وبعدها لا يكون له عهد. هـ. وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر﴾ آمنين لا يتعرض لكم أحد، وبعدها لا عهد بينى وبينكم. وذكر الطبرى: أنهم أسلموا كلهم فى هذه المدة ولم يسح أحد. هـ.

وهذه الأربعة الأشهر: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، لأنها نزلت فى شوال، وقيل: هى عشرون من ذى الحجة، والمحرم، وصفر، وربيع الأول، وعشر من الآخر، لأن التبليغ كان يوم النحر؛ لما روى (أنها لما نزلت أرسل رسول الله ﷺ علياً عليه السلام راكباً العصباء ليقرأها على أهل الموسم، وكان قد بعث أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الموسم، فقيل: لو بعثت بها إلى أبى بكر؟ فقال: «لا يؤدى عني إلا رجل مني» فلما دنا على رضي الله عنه سمع أبو بكر الرغاء، فوقف، وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ، فوقف، فلما لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور، فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضي الله عنه، وحدثهم عن مناسكهم، وقام على - كرم الله وجهه - يوم النحر، عند جمرة العقبة، فقال: يا أيها الناس، إني رسول رسول الله ﷺ إليكم، فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية من أول السورة، ثم قال: أمرت بأربع: ألا يقرب البيت بعد هذا مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده. (١).

ولعل قوله ﷺ: «ولا يؤدى عني إلا رجل مني» خاص بنقض العهود؛ لأنه قد بعث كثيراً من الصحابة ليؤدوا عنه، وكانت عادة العرب ألا يتولى العهد ونقضه على القبيلة إلا رجل منها. قاله البيضاوى مختصراً. ثم قال تعالى لأهل الشرك: ﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ أى: لا تفوتونه، وإن أمهلكم، ﴿وأن الله مخزي الكافرين﴾ فى القتل والأسر فى الدنيا، والعذاب المهين فى الآخرة.

(١) أخرجه البخارى فى (الصلاة - باب ما يستتر من العورة) ومسلم فى (الحج - باب لا يحج البيت مشرك) كلاهما من حديث أبى هريرة، وليس فيه ذكر قوله ﷺ: (لا يؤدى عني إلا رجل مني)، وقد جاءت فى رواية عبد أحمد فى المسند (٣/١) والترمذى فى (تفسير سورة التوبة).

الإشارة: قد وقع التبرؤ من أهل الشرك مطلقاً، أما الشرك الجلى فقد تبرأ منه الإسلام والإيمان، وأما الشرك الخفى فقد تبرأ منه مقام الإحسان، ولا يدخل أحدٌ مقام الإحسان حتى لا يعتمد على شيء، ولا يستند إلى شيء، إلا على من بيده ملكوت كل شيء، فيطرح الأسباب وينبذ الأسباب، ويرفض النظر إلى العشائر والأصحاب، حتى لا يبقى في نظره إلا الكريم الوهاب، فمن أصرَّ على شركه الجلى أو الخفى فإن الله يمهّل ولا يهمل، فلا بد أن يلحقه وباله: إما خزي في الدنيا، أو عذاب في الآخرة، كلٌّ على ما يليق به.

وقال القشيري: إن قطع عنهم الوصلة فقد ضرب لهم مدةً على وجه المهلة، فأمنهم في الحال؛ ليتأهبوا لتحمل مقاساة البراءة فيما يستقبلونه في المال. والإشارة فيه: أنهم إن أقبلوا في هذه المهلة عن الغي والضلال، وجدوا في المال ما فقدوا من الوصال، وإن أبوا إلا التماذى في ترك الخدمة والحرمة، انقطع ما بينه وبينهم من الوصلة. هـ. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بإظهار تلك البراءة للناس، فقال:

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا الْبَيْعَ الَّذِي لَكُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٤﴾

قلت: (وأذان): مبتدأ، أو خبر، على ما تقدم في براءة، وهو فعال بمعنى إفعال؛ كالعطاء بمعنى الإعطاء، أى: وإعلام من الله ورسوله واصل إلى الناس، ورفع «رسوله»؛ إما عطف على ضمير برىء، أو على محل «إن»، واسمها، أو مبتدأ حذف خبره، أى: ورسوله كذلك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ واصل إلى الناس، يكون ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ وهو يوم النحر؛ لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن الإعلام كان فيه. ولما روى أنه - عليه الصلاة والسلام - وقف يوم النحر، عند الجمرات، في حجة الوداع، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»^(١)، وقيل: يوم عرفه؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «الحج عرفة»^(٢). ووصف الحج بالأكبر؛ لأن العمرة تسمى الحج الأصغر.

(١) أخرجه البخاري في (الحج - باب الخطبة أيام منى) عن نافع عن ابن عمر.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٠٩/٤) وأبو داود في (المناسك، باب من لم يدرك عرفة) والترمذي في (الحج، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج)، كذلك أخرج الحديث النسائي وابن ماجه من حديث عبدالرحمن بن يعمر.

وذلك الإعلام بأن ﴿الله براء من المشركين ورسوله﴾ - عليه الصلاة والسلام - كذلك. قال البيضاوي: ولا تكرار؛ فإن قوله: «براءة من الله»: إخبار بثبوت البراءة، وهذا إخبار بوجوب الإعلام بذلك، ولذلك علقه بالناس ولم يخص بالمعاهدين. هـ. ﴿فَإِنْ تَبَتُّمْ﴾ يا معشر الكفار ورجعتم عن الشرك، ﴿فَهُوَ﴾ أي: الرجوع ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم عن التوبة وأصررتم على الكفر ﴿فَاعْلَمُوا أَنَكُمْ غَيْرُ مُعْجَزِي اللَّهِ﴾؛ لا تفوتونه طلباً، ولا تعجزونه هرباً في الدنيا، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة.

ولما أمر بنقض عهود الناكثين استثنى من لم ينقض فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ أي: لكن الذين عاهدتم ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وهم بنو ضمرة وبنو كنانة، ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً﴾ من شروط العهد، ولم ينكثوا، ولم يقتلوا منكم، ولم يضروكم قط، ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً﴾ أي: لم يعاونوا عليكم أحداً من أعدائكم، ﴿فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى﴾ تمام ﴿مُدَّتِهِمْ﴾، وكانت بقيت لهم من عهدهم تسعة أشهر. ولا تجروهم مجرى الناكثين؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وهو تعليل وتنبية على أن إتمام عهدهم من باب التقوى. قاله البيضاوي.

الإشارة: من أعظم شؤم الشرك: أن الله ورسوله تبرأ من أهله مرتين: خاصة وعامة، فيجب على العبد التخلص منه خفياً أو جلياً، ويستعين على ذلك بصحبة أهل التوحيد الخاص، حتى يخلصوه من أنواع الشرك كلها، فإن صدر منه شيء من ذلك فليبادر بالتوبة، فإن تولى وأصر على شركه، كان ذلك سبب هوانه وخزيه، وبالله التوفيق.

ثم أمر بجهاد المشركين، بعد الأربعة الأشهر التي أمهلهم فيها، فقال:

﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ﴾ أي: انقضى الأشهر ﴿الْحُرُمَ﴾ وهي الأربعة التي أمهلهم فيها، فمن قال: إنها شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، فهي الحرم المعروفة، زاد فيها شوال، ونقص رجب، وسميت حرماً؛ تغليباً للأكثر، ومن قال: إنها ذو الحجة إلى ربيع الثاني، فسميت حرماً؛ لحرمتها ومنع القتال فيها حينئذ. وغلط من قال: إنها الأشهر الحرم المعلومة؛ لإخلاله بنظم الكلام ومخالفته للإجماع؛ لأنه يقتضى بقاء حرمة الأشهر الحرم. انظر البيضاوي.

فإذا انقضت الأربعة التي أمهلتهم فيها ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ الناكثين ﴿ حيث وجدتموهم ﴾ من حل أو حرم، ﴿ وخذوهم ﴾ أسارى، ويقال للأسير: أخيد، ﴿ واحصروهم ﴾؛ واحبسوهم، ﴿ واقعدوا لهم كل مرصد ﴾؛ كل ممر وطريق؛ لئلا ينبسطوا في البلاد، ﴿ فإن تابوا ﴾ عن الشرك وآمنوا، ﴿ وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾؛ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم؛ ﴿ فخلوا سبيلهم ﴾ أى: فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك.

وفيه دليل على أن تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلى سبيله، بل يقاتل؛ كما فعل الصديق رضي الله عنه بأهل الردة. والآية: فى معنى قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة...» الحديث (١).

﴿ إن الله غفور رحيم ﴾، هو تحليل لعدم التعرض لمن تاب، أى: فخلوهم؛ لأن الله قد غفر لهم، ورحمهم بسبب توبتهم.

الإشارة: فإذا انقضت أيام الغفلة والبطالة التي احترقت النفس فيها، فاقتلوا النفوس والقواطع والعلائق حيث وجدتموهم، وخذوا أعداءكم من النفس والشیطان والهوى، واحصروهم، واقعدوا لهم كل مرصد يتعرضون فيه لكم، فإن أذعنوا، وانقادوا، وألقوا السلاح، فخلوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم.

ولما أمر بقتال المشركين وأخذهم أينما ثقفوا، استثنى من أتى يطلب الأمان، فقال:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

قلت: «أحد»: فاعل بفعل يفسره: «استجارك».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن ﴾ أنك ﴿ أحد من المشركين ﴾ المأمورين بالتعرض لهم، حيثما وجدوا، ﴿ استجارك ﴾؛ يطلب جوارك، ويستأمنك، ﴿ فأجره ﴾ أى: فأمنه؛ ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ ويتدبره، ويطلع على حقيقة الأمر، لعله يسلم، ﴿ ثم أبلغه مأمنه ﴾ أى: موضع أمانه إن لم يسلم، ولا تترك أحداً يتعرض له حتى يبلغ محل أمانه؛ ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ أى: ذلك الأمر الذي أمرتك به بسبب أنهم قوم لا علم لهم بحقيقة الإيمان، ولا ما تدعوهم إليه، فلا بد من إيجارهم، لعلهم يسمعون ويتدبرون؛ فيكون ذلك سبب إيمانهم.

(١) أخرجه البخارى فى (الاعتصام - باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ) ومسلم فى (الإيمان - باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله). من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

الإشارة: وإن استجارك - أيها العارف - أحد من عوام المسلمين ممن لم يدخل معكم بلاد الحقائق، وأراد أن يسمع شيئاً من علوم القوم، فأجره حتى يسمع شيئاً من علومهم وأسرارهم، فلعل ذلك يكون سبباً في دخوله في طريق القوم. ولا ينبغي للفقراء أن يطردوا من يأتيهم من العوام، بل يتلطفوا معهم، ويسمعوهم ما يليق بحالهم؛ لأن العوام لا علم لهم بما للخواص، فإن أطلعوا على ما خصهم الله به من العلوم دخلوا معهم، إن سبق لهم شيء من الخصوصية.

وقال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رحمته الله: لا ينبغي لأهل الخصوصية أن يدخلوا بلد العموم إلا في جوار أحد منهم، وإلا أنكرته البلد؛ لأن البلد أم تغير على غير أبنائها، ولا ينبغي أيضاً للعموم أن يدخلوا بلد الخصوصية إلا في جوار رجل منهم، وإلا أنكرته البلد. هـ. بالمعنى.

ثم استبعد الحق أن يكون للمشركين عهد مع المسلمين، فقال:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُّوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾
 ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

قلت: (إلا الذين): محله النصب على الاستثناء، أو جر على البدل من «المشركين»، أو رفع على الانقطاع، أى: لكن الذين عاهدتم فما استقاموا لكم، و(الإل): القرابة والحلف، وحذف الفعل في قوله: (كيف وإن يظهروا عليكم)؛ للعلم به بما تقدم، أى: كيف يكون لهم عهد والحال أنهم إن يظهروا عليكم.. إلخ

يقول الحق جل جلاله، في استبعاد العهد من المشركين والوفاء به: ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله﴾؟ مع شدة حقدهم وعداوتهم للرسول وللمسلمين، مع ما تقدم لهم من النقص والخيانة فيه، ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾ قيل: هم المستثنون قبل. وقال ابن اسحاق: هي قبائل بنى بكر، كانوا

دخلوا وقت الحديبية، في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فلم يكن نقض إلا قريش وبنو الدئل من بنى بكر، فأمر المسلمون بإتمام العهد لمن لم يكن نقض. وقال ابن عباس: هم قريش، وقال مجاهد: خزاعة، وفي هذين القولين نظر؛ لأن قريشاً وخزاعة كانوا أسلموا وقت الأذان؛ لأنهم أسلموا في الفتح، والأذان بعده بسنة.

قال تعالى في شأن من استثنى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾ على العهد ولم يغيروا، ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ على الوفاء، أي: تريضوا بهم وانتظروا أمرهم، فإن استقاموا لكم فاستقيموا لهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين إذا عاهدوا وفوا، وإذا قالوا صدقوا.

ثم كرر استبعاد وفائهم فقال: ﴿كَيْفَ﴾ يصح منهم الوفاء بعهدكم ﴿و﴾ هم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ ويظفروا بكم في وقعة ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ أي: لا يراعوا ﴿فِيكُمْ إِلَّا﴾ قرابة أو حلفاء، وقيل: ربوبية، أي: لا يراعون فيكم عظمة الربوبية ولا يخافون عقابه، ﴿وَلَا ذِمَّةٌ﴾ أي: عهداء، أو حقاً يعاب على إغفاله، ﴿يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بأن يعدوك بالإيمان، والطاعة، والوفاء بالعهد، في الحال، مع استبطان الكفر والغدر، ﴿وَتَأْبَى﴾ أي: تمنع ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ ماتفوه به أفواههم، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ متمردون، لا عقيدة تزجرهم، ولا مروءة تردعهم، وتخصيص الأكثر؛ لما في بعض الكفرة من التماذى على العهد، والتعفف عما يجر إلى أحداثة السوء. قاله البيضاوى.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: استبدلوا بها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: عرضاً يسيراً، وهو اتباع الأهواء والشهوات، ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ دينه الموصول إليه، أو بيته بصد الحجاج عنه. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: قبح عملهم هذا، أو ساء ما كانوا يعملون من كونهم ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ فيكون تفسيراً لعملهم السوء، لا تكريراً. وقيل: الأول في الناقضين العهد، وهذا خاص بالذين اشتروا، وهم اليهود، أو الأعراب الذين جمعهم أبوسفيان وأطعمهم.

وقوله تعالى: ﴿فِي مُؤْمِنٍ﴾ فيه إشارة إلى أن عداوتهم إنما هي لأجل الإيمان فقط، وقوله أولاً: ﴿فِيكُمْ﴾، كان يحتمل أن يظن ظان أن ذلك للإحن التي وقعت بينهم، فزال هذا الاحتمال بقوله: ﴿فِي مُؤْمِنٍ﴾. قاله ابن عطية.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ في الشرارة والقبح. ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ فإخوانكم في الدين؛ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، ﴿وَنَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، حث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين وخصال النائبين. قاله البيضاوى.

الإشارة: لا ينبغي للخواص أن يثقوا بمحبة العوام، ولا يغتروا بما يسمعون من عهودهم، فإن محبتهم على الحروف، مهما رأوا خلاف ما أملوا من حروفهم، وأطماعهم، نكثوا وأدبروا، فللعارف غنى بالله عنهم. وفي ذلك

يقول سيدنا على - كرم الله وجهه -:

مَا الْفَخْرُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ، إِنَّهُمْ
وَقَدَّرُ كُلِّ أَمْرٍ مَا كَانَ يَحْسِنُهُ
عَلَى الْهُدَى لِمَنْ اسْتَهْدَى أَدْلَاءُ
وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ

ثم ذكر حكم من نقض العهد، فقال:

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ
إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا
بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَكَدُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً كَانُوا فِيهَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ فَأَلَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ
صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أى: نقضوها ﴿من بعد عهدهم﴾ أى: من بعد ما أعطوكم من العهود على الوفاء بها، ﴿وطعنوا في دينكم﴾ بصريح التكذيب وتقبيح الأحكام، ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ أى: فقاتلوهم لأنهم أئمة الكفر، فوضع أئمة الكفر موضع الضمير؛ للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم في الكفر، فهم أحقاء بالقتل، وقيل: المراد رؤساء المشركين، والتخصيص: إما لأن قتلهم أهم، وهم أحق به، أو لمنع من مراقبتهم، ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ على الحقيقة، وإلا لم يقدروا أن ينكثوها، واستشهد به الحنفية على أن يمين الكافر لا تلزم، وهو ضعيف؛ لأن المراد نفي الوثوق عليها، لا أنها ليست بأيمان. قاله البيضاوي. قلت: وما قالته الحنفية هو مذهب المالكية، إذا حث في حال الكفر، ثم أسلم، فلا يلزمه شيء. وقرأ ابن عامر بكسر الهمزة، أى: لا إيمان لهم صحيحاً يعصم دماءهم.

﴿لعلهم ينتهون﴾ أى: ليكن غرضكم في مقاتلتهم أن ينتهوا عما هم عليه، كما هي طريقة أهل الإخلاص، لا إيصال الإذابة لهم، أو مقابلة عداوة.

ثم حض على قتالهم فقال: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ التى حلفوها للرسول ﷺ وللمؤمنين على ألا يعاونوا عليهم، فعاونوا بنى بكر على خزاعة، ﴿وهموا بإخراج الرسول﴾ حين تشاوروا فى أمره بدار الندوة

على ما مر، ﴿وهم بدءوكم أول مرة﴾ بالمعاداة والمقاتلة؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - بدأهم بالدعوة، والزام الحجة بالكتاب والتحدى به، فعدلوا عن معارضته إلى المعاداة والمقاتلة، فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم، ﴿أتخشونهم﴾ أي: أتهابون قتالهم حتى تتركوا أمري، ﴿فإن الله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾؛ فإن قضية الإيمان ألا يخاف إلا منه.

ثم وعدهم بالنصر فقال: ﴿قاتلوهم يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ﴾؛ يهنهم بالقتل والأسر، ﴿وينصركم عليهم﴾، فيمكنكم من رقابهم، ويملككم أموالهم ونساءهم، ﴿ويشفي صدور قوم مؤمنين﴾، يعني: بني خزاعة شفا صدورهم من بني بكر؛ لأنهم كانوا أغاروا عليهم وقتلوا فيهم. وقيل: بطوناً من اليمن قدموا مكة وأسلموا، فلقوا من أهلها أذى شديداً، فشكوا إلى رسول الله ﷺ، فقال: أبشروا، فإن الفرج قريب. ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾؛ بما لقوا منهم حين أغاروا عليهم، وقد أوفى الله بما وعدهم؛ بفتح مكة وهوازن.

والآية من المعجزات. قاله البيضاوي. وهذا يقتضي أن هذا التخصيص كان قبل الفتح، فيلتزم مع ما بعده، ويبعد اتسامه مع ما قبله من البراءة، ونبذ العهد والإعلام بذلك؛ لكونه بعد الفتح، والله أعلم. قاله المحشي. ويمكن الجواب بأن يكون صدر السورة نزل بعد الفتح، وبعضها؛ من قوله: (وإن أحد من المشركين...) إلخ نزل قبل الفتح، فإن الآيات كانت تنزل متفرقة فيقول ﷺ: «اجعلوا هذه الآية في محل كذا». والله تعالى أعلم.

ثم أخبر تعالى بأن بعض المشركين يتوب من كفره بقوله: ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ هدايته، فيهديه للإيمان، ثم يتوب عليه، وقد كان ذلك في كثير منهم. ﴿والله عليم﴾ بما كان ويكون، ﴿حكيم﴾ لا يفعل ولا يحكم إلا على وفق حكمته.

الإشارة: من رجع عن طريق القوم، ونقض عهد الأشياخ، ثم طعن في طريقهم، لا يرجي فلاحه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، أعني في طريق الخصوص؛ لأنه جمع بين نقض العهد والطعن على الأولياء، وقد قال تعالى: «من أذى لي ولياً فقد آذنتي بالحرب». ومن رجع عنها؛ لضعف وهن، مع بقاء الاعتقاد والتسليم، فربما تقع الشفاعة منهم فيلحق بهم، بخلاف الأول، فقد تقدم عن القشيري، في سورة آل عمران، أنهم يريدون الشفاعة فيه، فيخلق الله صورة على مثله، فإذا رأوها تركوا الشفاعة فيه، فيبقى مع عوام أهل اليمن. فانظره^(١). وبالله التوفيق.

(١) راجع إشارة الآية ٩٠ من سورة آل عمران.

ثم عاتبهم على تأخر بعضهم عن الجهاد، فقال:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً ۖ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٦)

قلت: «أم»: منقطعة، بمعنى الهمزة؛ للإنكار والتوبيخ على الحسبان، والخطاب للمؤمنين أو المنافقين، والوليعة: البطانة والصحبة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أم حسبتم﴾ أي: أظنتم ﴿أن تتركوا﴾ من غير اختبار، ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ أي: ولم يتبين الخلف منكم، وهم الذين جاهدوا، من غيرهم، والمراد: علم ظهور، أي: أظننتم أن تتركوا ولم يظهر منكم المجاهد من غيره. قال البيضاوي: نفى العلم، وأراد نفى المعلوم؛ للمبالغة، فإنه كالبرهان عليه من حيث أن تحقق العلم به مستلزم لوقوعه هـ. بل يختبركم حتى يظهر الذين جاهدوا منكم.

﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾؛ بطانة، أي: جاهدوا، وأفردوا محبتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يتخذوا من دونهم بطانة، أي: أصحاب سر يوالونهم ويبثون إليهم أسرارهم، بل اكتفوا بمحبة الله ومودة رسول الله والمؤمنين، دون موالة من عاداهم، والتعبير بـ(لما): يقتضي أن ظهور ذلك متوقع، ﴿والله خير بما تعملون﴾: تهديد لمن يفعل ذلك.

الإشارة: إفراد المحبة لله ولأولياء الله من أعظم القربات إلى الله، وأقرب الأمور الموصلة إلى حضرة الله، والالتفات إلى أهل الغفلة؛ بالصحبة والمودة، من أعظم الآفات والأسباب المبعدة عن الله، والعياذ بالله. وفي الحديث: «المرء على دين خليله»، و«المرء مع من أحب»، و«من أحب قوماً حشر معهم»، إلى غير ذلك من الآثار في هذا المعنى.

ثم نهى عن دخول المشركين المساجد، فقال:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (١٧) ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٨)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ أى: ما صح لهم ﴿ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ أى: شيئاً من المساجد، فضلاً عن المسجد الحرام، وقيل: هو المراد، وإنما جمع؛ لأنه قبلة المساجد وإمامها، فأمره كأمرها، ويدل عليه قراءة من قرأ بالتوحيد، أى: ليس لهم ذلك، وإن كانوا قد عمروه تغلباً وظلماً، حال كونهم ﴿ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ ﴾؛ بإظهار الشرك وتكذيب الرسول، أى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متباينين: عمارة بيت الله، وعبادة غير الله، ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ فى الدنيا والآخرة؛ لما قارنها من الشرك والافتخار بها، ﴿ وَفِى النَّارِهِمْ خَالِدُونَ ﴾؛ لأجل كفرهم.

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾، أى: إنما تستقيم عمارتها بهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية، ومن عمارتها: تزيينها بالفرش، وتلوينها بالسريرج، وإدامة العبادة والذكر ودروس العلم فيها، وصيانتها مما لم تبين له؛ كحديث الدنيا.

وعن النبى ﷺ قال: قال الله تعالى: «إِنَّ بُيُوتِي فِي أَرْضِي الْمَسَاجِدِ، وَإِنْ زُورَ فِيهَا عُمَارُهَا، فَطُوبَى لِعَبْدٍ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ زَارَنِي فِي بَيْتِي، فَحَقُّ عَلَى الْمَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ زَائِرَهُ». ووقف عبد الله بن مسعود على جماعة فى المسجد يتذاكرون العلم فقال: بأبى وأمى العلماء، بروح الله انتلقتم، وكتاب الله تلوتم، ومسجد الله عمرتم، ورحمة الله انتظرتهم، أحبكم الله وأحب من أحبكم. هـ.

وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ؛ لما علم أن الإيمان بالله قرينه وتمامه الإيمان به، ولدلالة قوله: «وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ» عليه. قاله البيضاوي.

﴿ وَلَمْ يَخْشَ ﴾ فى أموره كلها ﴿ إِلَّا اللَّهَ ﴾، فهذا الذى يصلح لعمارة بيت الله، ﴿ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾، وعبر بعسى، قطعاً لأطماع المشركين فى الاهتداء والانتفاع بأعمالهم، وتوبيخاً لهم على القطع بأنهم مهتدون؛ فإن كان اهتداء هؤلاء، مع كمالهم، دائراً بين عسى ولعل، فما ظنك بأضدادهم؟، ومنعاً للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم فينكروا عليها. وفى الحديث عنه ﷺ: «مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَتَعَاهَدُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ»، ثم تلا الآية (١).

الإشارة: مساجد الحضرة محرمة على أهل الشرك الخفي والجلي، لا يدخل الحضرة إلا قلب مفرد، فيه توحيد مجرد، لا يعمر مساجد الحضرة إلا قلب مطمئن بالله، غائب عما سواه، قد رفض الركون إلى الأسباب، وأفرد

(١) أخرجه الترمذى فى (التمهيد - سورة التوبة) وابن ماجه فى (المساجد - باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة) والدارمى فى (الصلاة - باب المحافظة على الصلوات) من حديث أبى سعيد الخدرى.

الوجهة لمسبب الأسباب، قطع الشواغل والعلائق حتى أشرقت أنوار الحقائق. إنما يعمر مساجد حضرة القدوس من آمن بالله واليوم الآخر، وأقام صلاة القلوب، وآتى زكاة النفوس، ولم يراقب أحداً من المخلوقين، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين إلى حضرة رب العالمين.

ولما افتخر قوم من قريش بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، بين الله تعالى أن الجهاد أفضل من ذلك، فقال:

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا، وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

قلت: السقاية والعمارة: مصدران، فلا يشبهان بالجثة، فلا بد من حذف، أى: أجعلتم أهل سقاية الحاج كمن آمن، أو أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَجَعَلْتُمْ ﴾ أهل ﴿ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾، و ﴿ أهل ﴾ عمارة المسجد الحرام ﴿ من أهل ﴾ الشرك المحبطة أعمالهم، ﴿ كمن آمن بالله واليوم الآخر ﴾ من أهل الإيمان، ﴿ وجاهد في سبيل الله ﴾؛ لإعلاء كلمة الله، المثبتة أعمالهم، بل ﴿ لا يستوون عند الله ﴾ أبداً؛ لأن أهل الشرك الذين حبطت أعمالهم فى أسفل سافلين، إن لم يتوبوا، وأهل الإيمان والجهاد فى أعلى عليين.

ونزلت الآية فى على - كرم الله وجهه - والعباس وطلحة بن شيبه، افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، وعندى مفاتحه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية، وقال على عليه السلام: لقد أسلمت وجاهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبين الله تعالى أن الإيمان والجهاد أفضل، وويخ من افتخر بغير ذلك فقال: ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أى: الكفرة الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم، وداموا على ذلك، وقيل: المراد بالظالمين: الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين.

ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾، وأعلى رتبة، وأكثر كرامة، ﴿ عند الله ﴾، ممن لم يستجمع هذه الصفات، أو من أهل السقاية والعمارة عندكم،

﴿ وأولئك هم الفائزون ﴾ بكل خير، الظافرون بديل الحسنى والزلفى عند الله، دون من عداهم ممن لم يفعل ذلك.

ثم زاد فى كرامتهم فقال: ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ﴾ أى: تقريب وعطف منه ﴿ ورضوان وجنات لهم فيها ﴾ أى: فى الجنان ﴿ نعيم مقيم ﴾؛ دائم، لانفاد له ولا انقطاع. وتكثير المبشر به؛ إشعار بأنه وراء التعيين والتعريف، حال كونهم ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾، أكد الخلود بالتأبيد؛ لأنه قد يطلق على طول المكث، ﴿ إن الله عنده أجر عظيم ﴾ يستحق دونه مشاق الأعمال المستوجبة له، أو نعيم الدنيا؛ إذ لا قدر له فى جانب نعم الآخرة.

الإشارة: لا يستوي من قعد فى وطنه مع عوائده وأسبابه، راكناً إلى عشائره وأحبابه، واقفاً مع هواه، غافلاً عن السير إلى مولاه، مع من هاجر وطنه وأحبابه، وخرق عوائده وأسبابه، وجاهد نفسه وهواه، سائراً إلى حضرة مولاه، لا يستويون أبداً عند الله؛ لأن هؤلاء مقربون عند الله، والآخرين فى محل البعد عن الله، ولو كثر علمهم وعملهم عند الله، شتان بين من همته القصور والحدود، وبين من همته الحضور ورفع الستور، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان، وجنات المعارف لهم فيها نعيم لأرواحهم، وهو الشهود والعيان، لا يحجب عنهم طرفة عين، إن الله عنده أجر عظيم، لا يخطر على قلب بشر. لا حرمانا الله من ذلك.

ثم نهى عن موالاة أهل الغفلة وإن قربوا نسباً، فقال:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ
ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ
كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ
فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٤)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم ﴾؛ الذين بقوا على كفرهم ﴿ أولياء ﴾؛ توالونهم بالمحبة والطاعة، ﴿ إن استحبوا الكفر ﴾ واختاروه على الإيمان. نزلت فى شأن المهاجرين؛ فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا: إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرتنا، وذهبت تجارتنا، وبقينا ضائعين. ونزلت فيمن ارتد ولحق بمكة، فنهى الله عن موالاتهم. ﴿ ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾؛ بوضعهم الموالاة فى غير موضعها.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أى: أصحابكم، أو أقرباؤكم، ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾؛ اكتسبتموها، ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أى: فوات وقت إنفاقها، ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾؛ لحسنها وسعتها، فإن كان ذلك ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: من الإيمان بالله وصحبه رسوله، ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾، فأنترتم ذلك، وتخلفتم عن الإيمان والهجرة، ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أى: بعقوبة عاجلة أو آجلة، أو بنصر وفتح على المؤمنين، كفتح مكة وغيرها، والمراد بالمحبة: الاختيارية دون الطبيعة؛ فإنها لا تدخل تحت التكليف، والتحفظ عنها؛ لأن حب الأوطان والعشائر طبعي، والحب المكلف به اختياري، بحيث يجاهد نفسه في إبدال الطبيعي بالاختياري.

ثم هدد من وقف مع حب الأوطان بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ لا يرشدهم ولا يوفقهم. وفي الآية تهديد عظيم، وقل من تحفظ عنه. قاله البيضاوي.

الإشارة: الهجرة من أوطان الغفلة واجبة، ومفارقة الأصحاب والعشائر؛ الذين لا يوافقون العبد على النهوض إلى الله فريضة، فيجب على المريد أن يهاجر من البلد التي لا يجد فيها قلبه، ولا يجد فيها من يتعاون به على ربه، كائنه ما كانت، وما رأينا ولياً قط أنتج في بلده، إلا القليل، فلما هاجر ﷺ من وطنه إلى المدينة. وحينئذ نصر الدين، بقيت سنة في الأولياء، لا تجد ولياً يعمر سوقه إلا في غير بلده، ويجب عليه أيضاً أن يعتزل من يشغله عن الله من الآباء والأبناء والأزواج والعشائر، وكذلك الأموال والتجارات التي تشغل قلبه عن الله، بعد أن يقيم في أولاده حقوق الشريعة، فالليبي هو الذي يجمع بين الحقيقة والشريعة، فلا يضيع من يعول، ولا يترك حق من يتعلق به من الزوجة أو غيرها، ويذكر الله مع ذلك، فيخالطهم بحسه، ويفارقهم بقلبه، فإن لم يستطع وأراد دواء قلبه فليخير الزوجة، ويؤكل من ينوب عنه في القيام بحقوق العيال، حتي يقوى قلبه ويتمكن مع ربه، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (١).

ولإبراهيم بن أدهم رحمته الله:

هَجَرْتُ الْخَلْقَ طَرًّا فِي رِضَاكَ وَأَيَّمْتُ الْبَنِينَ لَكِي أَرَاكَ
فَلَوْ قَطَعْتَنِي إِرْبًا فَارِبًا لَمَّا حَنَّ الْفُؤَادُ إِلَى سَوَاكَ

وبالله التوفيق

(١) الآيتان: ٢ - ٣ من سورة الطلاق.

ثم ذكرهم بالنعم، فقال:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّدْيَنَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ تَوَبَّ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

قلت: (ويوم حنين): عطف على (مواطن)، أو منصوب بفعل مضمر، وهذا أحسن؛ لأن قوله: (إذ أعجبكم كثرتكم) خاص بيوم حنين. انظر: ابن جزي.

يقول الحق جل جلاله، في تذكيرهم بالنعم: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي: في مواقف الحرب ومداخضها في مواضع كثيرة، ﴿و﴾ نصركم أيضاً ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، وهي غزوة كانت بعد فتح مكة، متصلة بها، في موضع يقال له: حنين، سمي باسم رجل كان يسكنه، وهو واد بين مكة والطائف، حارب فيه رسول الله ﷺ والمسلمون، وكانوا اثني عشر ألفاً: عشرة آلاف من الذين حضروا فتح مكة، وألفان انضموا إليهم من الطلقاء، قاتلوا هوازن وثقيف ومن انضم إليهم من قبائل العرب. وكانوا ثلاثين ألفاً، فلما التقوا مع بعض المشركين قال بعض المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة، إعجاباً بكثرتهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، فأدرك المسلمين إعجابهم، واعتمادهم على كثرتهم، فانهزموا حتى وصل جلهم إلى مكة، وبقي رسول الله ﷺ في مركزه، ليس معه إلا عمه العباس، أخذاً بلجامه، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث، وناهيك شهادة على تناهي شجاعته ﷺ، فقال للعباس: وكان صيئاً -: صح بالناس، فنادى: يا عباد الله، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، فكروا عنقا واحداً، يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة، فالتقوا مع المشركين، فقال -عليه الصلاة والسلام-: هذا حين حمى الوطيس^(١)، ثم أخذ كفاً من تراب فرماهم، وقال: شأهت الوجوه، ثم قال: انهزموا ورب الكعبة، فانهزموا^(٢).

(١) الوطيس: حفرة تحتقر تحت الأرض، فتوقد فيها النار ويصغر رأسها، ويحرق فيها خرق للدخان. ثم يوضع فيها اللحم، ويسد، ثم يؤتى من الغد واللحم غاب لم يحترق، ولحمها شواء، وهي مجاز في شدة الحرب.

(٢) أخرجه بفحوه مسلم في (الجهاد - باب غزوة حنين) من حديث سيدنا العباس ؓ.

فأشار تعالى إلى مقاتلتهم معاتباً لهم عليها بقوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾ أى: فلم تُغْنِ تلك الكثرة عنكم شيئاً من الإغناء، أو من أمر العدو. وهذه المقالة صدرت من غير النبي ﷺ كما تقدم؛ لأنه معصوم من الإعجاب، وإن ثبت أنه قال ذلك فليس على وجه الإعجاب، بل على وجه الإخبار، وعلى ذلك جرى الحكم في المذهب: من حرمة الفرار عند بلوغ اثني عشر ألفاً، وكان المسلمون يومئذ اثني عشر ألفاً بالطلاق؛ وهم مسلمة الفتح؛ وكانوا ألفين، وسُموا بالطلاق؛ لمن النبي ﷺ عليهم، يقال لمن أطلق من أسر: طليق، وجمعه على طلقاء نادر؛ لأنه يشترط في فعيل، الذي يجمع على فعلاء، أن يكون بمعنى فاعل، كظريف وشريف، لا بمعنى مفعول، كدفين ودفني، وسخين وسخني، ومله . طليق.

ثم قال تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾؛ برحبها، أى: ضاقت على كثرة اتساعها، فلم تجدوا فيها مكاناً تطمئن إليه نفوسكم من الدهش، ﴿ثُمَّ وَلِيْتُم مَدْبَرِينَ﴾؛ هاربيين عن رسول الله ﷺ، ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أى: طمأنينته ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعد انهزامهم، فرجعوا وقاتلوا، أو على من بقى مع الرسول ﷺ، ولم يفروا. وإعادة الجار؛ للتنبيه على اختلاف حالهما.

﴿وَأَنْزَلَ جُنُوداً﴾ من الملائكة ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ بأعينكم، وكانوا خمسة آلاف، أو ثمانية، أو ستة عشر، على اختلاف الأقوال. ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر والسبي، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أى: ما فعل بهم هو جزاء كفرهم في الدنيا، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ منهم، بالتوفيق للإسلام، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يتجاوز عنهم ويتفضل عليهم بالتوفيق والهداية.

روى أن أناساً منهم جاؤا إلى رسول الله ﷺ وأسلموا، وقالوا: يا رسول الله، أنت خير الناس وأبرهم، وقد سبى أهلونا وأولادنا، وأخذت أموالنا - وقد سبى يومئذ ستة آلاف نفس، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى، فقال: «اختاروا، إما سببكم، وإما أموالكم». فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء جاءونا تائبين، وأنا خيرتهم بين الدار والدار، فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده سبى فطابت نفسه أن يرده فشأنه، ومن لا، فليعطنا، وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مثله»، فقالوا: رضينا وسلمنا، فقال: «إني لا أدري، لعل فيكم من لا يرضى، فارجعوا حتى يرفع إلي عرfaؤكم أمركم» فرفعوا إليه أمرهم، وقالوا: قد رضوا، فرد السبى إليهم، وقسم الأموال في المؤلفة قلوبهم^(١)، ترغيباً في تسكين قلوبهم للإسلام. والغزوة مطولة في كتب السيرة، والله تعالى أعلم.

(١) القصة أخرجها البخاري في (المغازي باب قول الله تعالى: ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم) عن عروة عن المسور ومروان.

الإشارة: لقد نصركم الله، يا معشر المریدین، على جهاد نفوسكم وتيسير أموركم، في مواطن كثيرة، إذا رجعتم إلى ربكم، واعتزلتم من حولكم وقوتكم في جميع أموركم، فمن علامة النجاح في النهاية الرجوع إلى الله في البداية، ما تعذر مطلب أنت طالبه بريك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك. فمن رجع إلى نفسه، أو استند إلى عقله وحده، لم تغن عنه شيئاً، وضافت عليه الأرض بما رحبت، ورجع من حيث جاء، فإن انتبه، ورجع إلى ربه، أنزل سكينه عليه، وأيده باليقين، ورجا أن يدرك أمه من رب العالمين.

قال الورتجبي: قوله تعالى: (ثم أنزل الله سكينته على رسوله)، سكينته - عليه الصلاة والسلام - زيادة أنوار كشف مشاهدة الله، له، حين خاف من مكر الأزل، فأراه الله اصطفايته الأزلية، وأمنه من مكره، لا أنه ينظر من الحق إلى نفسه طرفة عين، لكن إذا غاب في بحر القدم لم ير للحدث أثراً، ورأى الحدثان متلاشية في فيض العظمة، ففرغ منه به، فأواه الله منه إليه، حتى سكن به عنه. هـ.

ثم أمر بمنع المشركين من دخول البيت الحرام، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ
اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس﴾ أي: عين الخبث، مبالغة في خبثهم، إما لخبث باطنهم بالكفر، أو لأنهم لا يتطهرون من النجاسات، ولا يتوقفون منها، فهم ملابسون لها غالباً. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن أعيانهم نجسة كالكلاب. قاله البيضاوي. ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾، وهو نص على منع المشركين - وهم عبدة الأوثان - من المسجد الحرام، وهو مجمع عليه، وقاس مالك على المشركين جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، وقاس على المسجد الحرام سائر المساجد، ومنع جميع الكفار من جميع المساجد.

وجعلها الشافعي عامة في الكفار، خاصة بالمسجد الحرام، فمنع جميع الكفار من دخول المسجد الحرام خاصة، وأباح دخول غيره، وقصرها أبو حنيفة على موضع النهي، فمنع المشركين خاصة من دخول المسجد الحرام وأباح لهم دخول سائر المساجد، وأباح دخول أهل الكتاب في المسجد الحرام وغيره. قاله ابن جزي.

قوله تعالى: ﴿بعد عامهم هذا﴾ يعني: سنة تسع من الهجرة، حين حج أبو بكر بالناس، وقرأ على رضي الله عنه عليهم سورة براءة.

﴿وإن خِفْتُمْ عِيْلَةً﴾ أى: فقراً بسبب منع المشركين من الحرم، وكانوا يجلبون لها الطعام، فخاف الناس قلة القوت منها، إذا انقطع المشركون عنهم، فوعدهم الله بالغنى بقوله: ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾؛ من عطائه وتفضله بوجه آخر، وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدراراً، وأسلمت العرب كلها، وتمادى جلب الطعام إلى مكة، ثم فتح عليهم البلاد، وجلبت لهم الغنائم، وتوجه الناس إليهم من أقطار الأرض، ومازال كذلك إلى الآن.

وقيده بالمشيئة؛ لتقطع الآمال إلى الله، ولينبه على أنه متفضل فى ذلك، وإن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفى عام دون عام، ﴿إن الله عليمٌ﴾ بأحوالكم، ﴿حكيمٌ﴾ فيما يعطى ويمنع.

الإشارة: بيوت الحضرة - وهى القلوب المقدسة - لا ينبغى أن يدخلها شيء من شرك الأسباب، أو الوقوف مع رفق الأصحاب، أو الركون إلى معلوم حتى يفرد التعلق بالحق القيوم، ولا ينبغى أيضاً أن يدخلها شيء من نجاسة حس الدنيا وأكدارها وأغيارها، فيجب على أربابها الفرار من مواطن الكدر، والعزلة عن أربابها؛ لئلا يدخل فيها شيء من نجاستها، فتموت بعد حياتها، وكان عيسى -عليه الصلاة والسلام- يقول لأصحابه: (لاتجالسوا الموتى فتموت قلوبكم، قالوا: من الموتى يا روح الله؟ قال: المحبون للدنيا الراغبون فيها). فإن خِفْتُمْ عِيْلَةً؛ بالفرار منهم واعتزال نجاستهم، فسوف يغنيكم الله من فضل غيبه إن شاء، فى الوقت الذى يشاء، إذ لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء. والله تعالى أعلم.

قال القشيري: ﴿إنما المشركون نجس﴾ أى: لأنهم فقدوا طهارة الأسرار، فبقوا فى مزابيل الظنون والأوهام، فَمَنَعُوا قُرْبَانَ الْمَسَاجِدِ التى هى مساجد القرب، وأما المؤمنون فطهرهم عن التدنس بشهود الأغيار، فطالعوا الحق فرداً فيما ينشيه من الأمر ويمضيه من الحكم. هـ.

ثم أمر بجهاد أهل الكتاب، فقال:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

يقول الحق جل جلاله للمؤمنين: ﴿قاتلوا﴾ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿الذين لا يؤمنون بالله﴾ على ما يجب له، لإشراكهم عزيز وعيسى، ولتجسيمهم، ﴿ولا باليوم الآخر﴾؛ لأنهم ينكرون المعاد الجسماني،

فإيمانهم في الجانبين كلا إيمان، ﴿ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله﴾ محمد ﷺ؛ لأنهم يحلون الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير، وغير ذلك مما حرّمته الشريعة المحمدية، ﴿ولا يدينون دين الحق﴾ أي: لا يدخلون في الإسلام، الذي هو الدين الحق، الناسخ لسائر الأديان ومبطلها.

ثم بين الذين أمر الله بقتالهم بقوله: ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾؛ وهم اليهود والنصارى. وحين نزلت خرج رسول الله ﷺ لغزوة تبوك لقتال النصارى، ووصل إلى أوائل بلد العدر، فصالح أهل أدرج وأيلة، وغيرهما، على الجزية وانصرف، وذلك امتثال للآية.

قال تعالى: ﴿فقاتلوهم حتى يعطوا الجزية﴾ أي: ما تقرر عليهم أن يعطوه، وقدرها عند مالك: أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهما على أهل الورق، يؤخذ ذلك من كل رأس، واتفق العلماء على قبول الجزية من اليهود والنصارى، ويلحق بهم المجوس؛ لقوله ﷺ: «سُئِلُوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»^(١)؛ لأن لهم شبهة كتاب، فألحقوا بهم. واختلفوا في قبولها من عبدة الأوثان؛ قال مالك: تؤخذ من كل كافر إلا المرتد، ولا تؤخذ من النساء والصبيان والمجانين.

وقوله تعالى: ﴿عن يدي﴾ أي: يباشر إعطاءها بيده، لا يبعثها مع أحد، أو لا يمطل بها، كقولك: يدأ بيد، أو عن استسلام وانقياد، كقولك: ألقى فلان بيده. ﴿وهم صاغرون﴾؛ أذلاء محقورون. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: تؤخذ الجزية من الذمى، وتوجأ عنقه، أي: تصفع.

الإشارة: يؤمر المرید بقتل نفسه وحظوظه وهواه، وأعظمها: حب الدنيا والرئاسة والجاه، ولا يزال يخالف هواها، ويعكس مراداتها، ويحملها ما يثقل عليها، حتى تنقاد إليه بالكلية، بحيث لا يثقل عليه شيء، ويستوى عندها العز والذل، والفقر والغنى، والمدح والذم، والمنع والعطاء، والفقد والوجد، فإن استوت عندها هذه الأحوال فقد أسلمت وأعطت ما يجب عليها، فيجب حفظها ورعايتها، وتصديقها فيما يرد عليها. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الباعث على جهاد أهل الكتاب، وهو فساد اعتقادهم، فقال:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرَ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ
ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلْنَا لَهُمْ

(١) أخرجه مالك في الموطأ (الزكاة، باب جزية أهل الكتاب والمجوس) والشافعي في مسنده (الجزية) والبيهقي في السنن الكبرى (١٨٩/٩)، والبغوي في شرح السنة (١٦٩/١١) عن عبد الرحمن بن عوف.

اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

قلت: (عزيز): (مبتدأ)، و(ابن الله): خبر، فمن نونه جعله مصروفاً؛ لأنه عنده عري، ومن حذف تنوينه: إما لمنعه من الصرف؛ للعلمية والعجمة عنده، وإما لالتقاء الساكنين؛ تشبيهاً للنون بحروف اللين، وهو ضعيف، والأول أحسن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾، قال ابن عباس: هذه المقالة قالها أربعة منهم، وهم: سلام بن مشكم، ونعمان أولقمان بن أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف^(١). وقيل: لم يقلها إلا فحاص، ونسب ذلك لجميعهم؛ لسكوته عنده. قال البيضاوي: إنما قال ذلك بعضهم من متقدميهم، أو ممن كانوا بالمدينة، وإنما قالوا ذلك؛ لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة بختنصر من يحفظ التوراة، وهو - أي عزير - لما أحياه الله بعد مائة عام، أملى عليهم التوراة حفظاً، فتعجبوا من ذلك، وقالوا: ما هذا إلا أنه ابن الله، والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية قرئت عليهم فلم يكذبوا مع تهالكهم على التكذيب. هـ.

﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾، هو أيضاً قول بعضهم، وإنما قالوه استحالة أن يكون الولد بلا أب، أو لما كان يفعل من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وتقديم الرد عليهم، وسبب إدخال هذه الشبهة عليهم، في سورة المائدة^(٢).

قال تعالى: ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ من غير دليل ولا برهان، بل قالوا به من عندهم ﴿يضاهئون﴾ أي: يشابهون في هذه المقالة ﴿قول الذين كفروا من قبل﴾، يعني: قدماءهم، على معنى أن الكفر قديم فيهم. قال ابن جزى: فإن كان الضمير لليهود والنصارى، أي: المتقدمين، فالإشارة بقوله: (الذين كفروا من قبل) للمشركين من العرب، إذ قالوا: الملائكة بنات الله، وهم أول كافر، أو للصابئين، أو لأمم تقدمت، وإن كان الضمير للمعاصرين للنبي ﷺ، من اليهود والنصارى، فالذين كفروا من قبل هم أسلافهم المتقدمون. هـ.

(١) انظر تفسير البغوي (٣٦/٤).

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم...﴾ الآية ٧٢.

﴿ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ ﴾ أى: أهلكهم ودمرهم؛ لأن من قاتله الله هلك، فيكون دعاء، أو تعجباً من شناعة قولهم، ﴿ أنى يؤفكون ﴾ أى: كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

﴿ اتخذوا أحبارهم ﴾ أى: علماءهم ﴿ ورهبانهم ﴾ عبادهم ﴿ أرباباً من دون الله ﴾؛ بأن أطاعوهم فى تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله، وفى السجود لهم، ﴿ والمسيح ابن مريم ﴾؛ بأن جعلوه ابن الله، ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾ وهو الله الواحد الحق، وأما طاعة الرسول - عليه الصلاة والسلام - وسائر من أمر بطاعته، فهو فى الحقيقة طاعة لله، ﴿ لا إله إلا هو ﴾؛ تقرير للتوحيد، ﴿ سبحانه عما يشركون ﴾؛ تنزيهاً له عن أن يكون معه شريك.

﴿ يريدون أن يطفئوا ﴾ أى: يخمدوا ﴿ نور الله ﴾؛ القرآن أو الإسلام بجملته، ﴿ بأفواههم ﴾ كقولهم فيه: سحر، وشعر، وغير ذلك، وفيه إشارة إلى ضعف حيلتهم فيما أرادوا، ﴿ ويأبى الله ﴾؛ لا يرضى ﴿ إلا أن يتم نوره ﴾ بإعلاء التوحيد، وإظهار الإسلام، وإعزاز القرآن وأهله، ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ ذلك، فإن الله لا محالة يتم نوره، ويظهر دينه.

﴿ هو الذي أرسل رسوله ﴾ محمداً ﷺ ﴿ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾، الضمير فى يظهره: للدين الحق، أو للرسول ﷺ، واللام فى «الدين»: للجنس، أى: على سائر الأديان فينسخها، أو على أهلها فيخذلهم، وقد أنجز وعده، وأظهر دينه ورسوله على الأديان كلها، حتى عم المشارق والمغارب، ﴿ ولو كره المشركون ﴾ ذلك الإظهار، فيظهره الله رغماً عن أنفهم. وقيل: يتحقق ذلك عند نزول عيسى عليه السلام، حتى لا يبقى دين إلا دين الإسلام، والله تعالى أعلم.

الإشارة: من انطمس نور بصيرته نسب لله مالا يليق بكمالاته، ومن لم تنهضه سوابق العناية وقف مع الوسائط، ولم ينفذ إلى شهود الموسط، وقد عير الله قوماً وقفوا مع الوسائط فقال: ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾، وقال، فى شأن الوسطة العظمى؛ غيرة على القلوب أن تقف مع غيره: ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ (١)، ﴿ إنما أنت نذير ﴾ (٢)، ودخل بعض العارفين على إنسان وهو يبكى، فقال: وما يبكيك؟ فقال له: مات أستاذى، فقال له ذلك العارف: ولم جعلت أستاذك من يموت؟.

فالوسائط؛ كالأنبياء والأولياء، إنما هم موصولون إلى الله، دالون عليه، فمن وقف معهم ولم ينفذ إلى الله فقد اتخذهم رياءً عند الخواص.

(١) من الآية ١٢٨ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ١٢ من سورة هود.

وقال الورتجبي على هذه الآية: غير الحق تعالى من بقى فى رؤية المقتدى به دون رؤية الحق، وإن كان وسيلة منه، فإن فى أفراد القدم من الحدوث، النظر إلى الوسائط، وهو شرك، وتصديق ذلك تمام الآية: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا﴾. غيرة الوجدانية ما أبقت فى البين غيراً من الشواهد والآيات وجميع الخلق. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ (١). ولما رأى ﷺ غيرة القدم على شأن استهلاك الغير زجر من مدحه وتجاوز فى المدح فقال: «لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح».

ثم قال الورتجبي: قال بعضهم فى هذه الآية: سكنوا إلى أمثالهم، فطلبوا الحق من غير مظانه، وطرق الحق واضحة لمن كحل بنور التوفيق، ويصر سبل التحقيق، ومن أعمى عن ذلك كان مردوداً عن طريق الحق إلى طرق الضالين من الخلق، وقد وقع أنهم معيرون وموبخون بقلّة عرفانهم أهل الحقائق، وركونهم إلى أهل التقليد، وسقطوا عن منازل أهل التوحيد فى التفريد، وهكذا شأن من اقتدى بالزوّاقين من أهل السالوس المتزيين بزي المشايخ والعارفين المتحققين، وتخلّف خلف الجامعين للدنيا، الذين يقولون: نحن أبناء المشايخ ونحن رؤساء الطريقة، يضحك الله الدهر من جهلهم حيث علموا أن الولاية بالنسب، حاشا أن من لم يذوق طعم وصال الله، وقلبه معلق بغير الله، هو من أولياء الله.

قال الجنيد: إذا أراد الله بالمريد خيراً هداه إلى صحبة الصوفية، ووقاه من صحبة القراء. ولو اشتغلوا بشأنهم وجمع دنياهم، ولم يتعرضوا لأولياء الله، ولم يقصدوا إسقاط جاههم، لكفيهم شقاوتهم، لا سيما ويطعنون على الصديقين العارفين. قال الله فى شأنهم: ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾، كيف تطفأ بتراب حسبانهم أنوار شمس الصفات، التى تبرز من جباه وجوههم، ولئالىء خدودهم، وأصلها ثابت فى أفلاك الوجدانية وسموات القيومية، ويزيد نورهم على نور؛ لأنه تعالى بلا نهاية ولا منتهى لصفاته.

قوله تعالى: (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق): إن الله سبحانه سن سنة أزلية: ألا يجد أحد سبيله إلا من يقبض له أستاذاً عارفاً بالله، وبسر دينه وربوبيته، فيدله إلى منهاج عبوديته، ومعارج روحه وقلبه، إلى مشاهدة ربوبيته، ويكون هو واسطة بينه وبين الله، وإن كان الفضل بيد الله، يؤتیه من يشاء بغير علة ولا سبب، جعله واسطة للتأديب لا للتقريب، وصيره شافعاً للجنايات، لا شريكاً فى الهدايات، هداه نور القرآن، وبينه حقيقة البيان، مع إظهار البرهان. قيل: جعل الله الوسائط طريقاً لعباده إليه، ويعثهم أعلاماً على الطرق ونوراً يهتدى بهم، وعرفهم سبل الحق وحقيقة الدين، قال الله تعالى: (أرسل رسوله بالهدى ودين الحق). انتهى كلامه.

(١) من الآية ٩١ من سورة الأنعام.

ثم ذكر مساوئ الأحرار والرهبان، تنفيراً من طاعتهم، وذماً لمن اتخذهم أرباباً، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ
أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ
وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى
فِي نَارِجَهِنَّ فَتُكَوَّى بِهَا جِبَاهُهُنَّ وَجُنُوبُهُنَّ وَظُهُورُهُنَّ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ
فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قلت: (يحمى عليها): الجار والمجرور: نائب الفاعل، وأصله: يوم تحمى النار الشديدة الحمى عليها، فجعل الإحماء للنار؛ مبالغة، ثم حذفت النار، وأسند الفعل إلى الجار والمجرور؛ تنبيهاً على المقصود، فانتقل من صيغة التانيث إلى صيغة التذكير.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾؛ يأخذونها بالرشا في الأحكام، وسمى أخذ المال أكلاً؛ لأنه الغرض الأعظم منه، ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أى: يعوقون الناس عن الدخول في دينه، ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ أى: يدخرونها ﴿ولا ينفقونها﴾ أى: الأموال المفهومة من الذهب والفضة، أو الكنوز، أو الفضة، واكتفى بذكرها عن الذهب؛ إذ الحكم واحد، ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾؛ وهو الكى بها، وهذا الحكم يحتمل أن يرجع لكثير من الأحبار والرهبان، فيكون مبالغة في وصفهم، بالحرص على المال وجمعه، وأن يراد به المسلمون الذين يجمعون الأموال، ويقتنونها ولا يؤدون حقها، ويكون اقتترانه بأكلة الرشا من أهل الكتب؛ للتغليظ. ويدل عليه: أنه لما نزلت على رسول الله ﷺ، ذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ، فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم.» (١) وقوله - عليه الصلاة والسلام - : «ما أدى زكاته فليس يكثر» (٢). وقال أبو ذر وجماعة من الزهاد: كل ما فضل عن حاجة الإنسان فهو كنز، وحمل الآية عليه.

(١) أخرجه أبو داود في (الزكاة، باب في حقوق المال) والحاكم في المستدرک (٤٠٩/١) من حديث ابن عباس، والحديث صحيحه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (كتاب الزكاة ٨٣/٤) وابن عدى في الكامل في (ترجمة سويد بن عبد العزيز ١٣٦٢/٣) من حديث ابن عمر مرفوعاً وأخرجه موقفاً البخارى (٢٧١/٢).

ثم ذكر وعيدهم فقال: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأموال المكتوزة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: يوم توقد النار ذات الحمى الشديد عليها، حتى تكون صفيحة واحدة، ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾، خصهم بالعذاب، لأنهم كانوا يعرضون عن السائل، ويولون ظهره، فيعرضون عنه بجباههم وجنوبهم. أو لأنها أشرف الأعضاء، لاشتمالها على الدماغ والقلب والكبد. أو لأنها أصول الجهات الأربع، التي هي مقام الإنسان؛ مؤخره وجنبتاه.

يقال لهم: ﴿هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا نَفْسَكُمْ﴾ أي: لمفعتها، وكان عين مضرتها وسبب تعذيبها، ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: وبال كنزكم، أو ما كنتم تكنزون. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُوْدِي مِلْحًا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَىٰ بِهَا جَبِينُهُ وَجَنْبَاهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّىٰ يَقْضَىٰ بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَىٰ سَبِيلَهُ: إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». رواه مسلم بطوله (١).

قال ابن عطية: روى أن أصحاب النبي ﷺ قالوا: قد ذم الله تعالى كسب الذهب والفضة، فلو علمنا أي المال خير حتى نكسبه؟ فقال عمر: أنا أسأل لكم رسول الله ﷺ، فسأله، فقال: «لِسَانَ ذَاكِرٍ، وَقَلْبَ شَاكِرٍ، وَزَوْجَةَ تُعِينُ الْمَرْءَ عَلَى دِينِهِ» (٢). وروى أن النبي ﷺ قال، لما نزلت الآية: «تَبَا لِلَّذِينَ هَبُوا ذَهَبًا وَفِضَّةً» (٣). فحينئذ أشفق أصحابه، وقالوا ما تقدم. هـ. ولابن حجر:

من خير ما يتخذ الإنسان في دنياه كيما يستقيم دينه .
قلب شكور، ولسان ذاكِر، وزوجة صالحة تُعينه .

وهو نظم لهذا الحديث، وقد تكلم عليه في الجامع وشرحه . قاله المحشى .

الإشارة: هذه الآية تغبر في وجوه علماء سوء، الذين يتساهلون في أكل الدنيا بالعلم، كقبض الرشأ، وقبض ما فوق أجرته في الأحكام، فترى بعض قضاة الجور يقبضون المثاقيل على إنزال يده على الحكم، مع أنه واجب عليه، حيث تعين عليه بنصب الإمام له، وتجر ذيلها على أغنياء الدنيا، الذين يجمعون الأموال ويكنزونها، فترى

(١) أخرجه مسلم في (الزكاة، باب إثم مانع الزكاة) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٧٨/٥ - ٢٨٢) والترمذي في (الفسير - سورة التوبة) وابن ماجه في (الكفاح باب أفضل النساء) عن ثوبان.
(٣) أخرج هذه الرواية الإمام أحمد في المسند (٣٦٦/٥) عن عبدالله بن أبي الهذيل.

أحدهم ينفق في نزهته وشهوة نفسه الأموال العريضة، وإذا أتاه فقير يسأله درهماً أو درهماين، تمعر^(١) وجهه، وتغير لونه، فبشرهم بعذاب أليم. وبالله التوفيق.

ولما ذكر وعيد من لم يترك كنزه، ذكر الحول التي تجب به الزكاة، فقال:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قلت: (عند الله): معمول لعدة؛ لأنها مصدر، و(في كتاب الله): صفة لاثنى عشر، و(يوم): متعلق بالثبوت المقدر في الخبر، أى: ثابتة في كتاب الله يوم خلق الأكوان والزمان، وقوله: (منها): أى: الأشهر، ثم قال: (فيهن). وضابط الضمير إن عاد على الجماعة المؤنثة، حقيقة أو مجازاً، إن كانت أكثر من عشرة، قلت: منها وفيها، وإن كانت أقل من عشرة، قلت: منهن وفيهن، قال تعالى: ﴿يَا كُلُّهُنَّ﴾^(٢) وقال هنا: (فيهن). انظر الإتيان. و(كافة): حال من الفاعل أو المفعول.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ في كل سنة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ فى علم تقديره، ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾: أولها المحرم، وآخرها ذو الحجة. وأول من جعل أولها المحرم: عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وهذه العدة ثابتة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾؛ اللوح المحفوظ، أو فى حكمه، أو القرآن، ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، أى: هذا أمر ثابت فى نفس الأمر منذ خلق الله الأجرام والأزمنة، ﴿مِنْهَا﴾ أى: الأشهر ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾؛ واحد فرد، وهو رجب، وثلاثة سَرْد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى: تحریم الأشهر الحرم هو الدين القويم، دين إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وتمسكت به العرب حتى غيرهم بعضهم بالنسب، ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾؛ بهتك حرمتها والقتال فيها، ثم نسخ بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أى: فى الأزمنة كلها؛ ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾؛ لأنهم، إن قاتلتموهم فيها قاتلوكم فهذا نسخ لتحریم القتال فى الأشهر الحرم.

(١) أى يتغير، وأصله: قلة النضارة وعدم إشراق اللون، من قولهم: مكانٌ أَمْعَر، وهو الجذب الذى لا خصب فيه... انظر النهاية فى غريب الحديث (مع)، واللسان (مع).

(٢) من الآية ٤٦ من سورة يوسف.

وقال عطاء: لا يحل للناس أن يغزوا في الأشهر الحرم، ولا في الحرم، إلا أن يبدأوا بالقتال، ويرده غزوه ﷺ حنيئاً والطائف في شوال وذى القعدة. ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ بالنصر والمعونة، وفيه بشارة وضمنان لهم بالنصر بسبب تقواهم.

الإشارة: أهل الفهم عن الله: الأزمنة كلها عندهم حرم، والأمكنة كلها عندهم حرام، فهم يحترمون أوقاتهم، ويغتنمون ساعاتهم لئلا تضيع. قال الحسن البصري: أدركت أقواماً كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنائيركم ودراهيمكم، يقول: كما لا يخرج أحدكم ديناراً ولا درهماً إلا فيما يعود عليه نفعه، كذلك لا يحبون أن يخرجوا ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نفعه. وقال الجنيد رحمه الله: الوقت إذا فات لا يستدرك، وليس شيء أعز من الوقت. هـ.

وكل جزء يحصل له من العمر غير خال من عمل صالح، يتوصل به إلى ملك كبير لا يقنى، ولا قيمة لما يتوصل إلى ذلك؛ لأنه في غاية الشرف والنفاسة، ولأجل هذا عظمت مراعاة السلف الصالح لأنفاسهم ولحظاتهم، ويأدروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم، ولم يضيعوا أعمارهم في البطالة والتقصير، ولم يقدعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجد والتشمير، وإلى هذا الإشارة بقوله: (فلا تظلموا فيهن أنفسكم)؛ بتضييعها في غير ما يقرب إلى الله. ثم أمر بجهاد القواطع، التي تترك العبد في مقام الشرك الخفى، ويشرهم بكونه معهم بالنصر والتأييد، والمعونة والتسديد.

ثم عاب على المشركين ما أحدثوا من النسيء، فقال:

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُرْتُ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قلت: (النسيء): التأخير، يقال بالهمزة وبقلبها ياء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾، وهو تأخير حرمة الشهر الحرام إلى شهر آخر، وذلك أن العرب كانوا أصحاب حروب وإغارات، وكانت محرمة عليهم في الأشهر الحرم، فيشق عليهم تركها، فيجعلونها في شهر حرام، ويحرمون شهراً آخر بدلاً منه، وربما أحلوا المحرم وحرموا صفر، حتى يكملوا في العام أربعة أشهر محرمة، وإنما ذلك ﴿زيادة في الكفر﴾؛ لأنه تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله، وهو كفر آخر ضموه إلى كفرهم، ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عن الحق، ضلالاً زائداً على ضلالهم، أو يضلهم الله بذلك، ﴿يُحْلُونَهُ عَامًا﴾ أى: يحلون الشهر الحرام عاماً، ويحعلون مكانه آخر، ﴿ويحرمونه عاماً﴾، فيتركونه على حرمة، فكانوا تارة ينسلون وتارة يتركون.

قيل: أول من أحدث ذلك: جنادة بن عوف الكنانى؛ كان يقوم على جمل فى الموسم فينادى: إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه، ثم ينادى من قابل: إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه، فتتبعه العرب.

ثم حرموا شهراً آخر مكان المحرم ﴿ليواطئوا﴾؛ ليوافقوا ﴿عدة ما حرم الله﴾، وهى الأربعة الحرم، ﴿فيحلوا ما حرم الله﴾ عليهم من القتال فى الأشهر الحرم، ﴿زين لهم سوء أعمالهم﴾ أى: خذلهم وأضلهم، والمزين حقيقة: الله، أو الشيطان؛ حكمة وأدباً. ﴿والله لا يهدى القوم الكافرين﴾ إلى طريق الرشد، ماداموا على غيهم، حتى يسلكوا سبيل نبيه ﷺ.

الإشارة: إنما تأخير التوبة واليقظة، وترك السير إلى مقام التصفية والترقية، زيادة فى البعد والقسوة، يضل به الذين هجروا طريق التربية والتصفية، عن مقام أهل الإحسان والمعرفة، فتارة يحلون المقام مع النفس الأمارة، ويقولون: قد انقطعت التربية، وعدم الطبيب الذى يداوئها ويخرجها عن وصفها، وتارة يحرمون المقام معها والاشتغال بحفظها وهواها، ويقولون: البركة لا تنقطع، والمدد لا يعدم، ليوافقوا بين الأمر بمجاهدتها فى قوله: ﴿والذين جاهدوا فىنا﴾، وبين من قال: قد انقطعت التربية، زين لهم سوء أعمالهم، والله لا يهدى القوم الكافرين إلى السير والوصول إلى ربهم.

ثم عاتبهم على التأخر عن الجهاد فى غزوة تبوك، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ لَا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

قلت: (أتأقلمت): أصله: تأقلمت التاء فى الثاء، وجلبت الهمزة للساكن، وقرئ على الأصل، وضمن معنى الإخلاد، فعدى يالى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله﴾؛ للجهاد مع رسول الله ﷺ، ﴿أتأقلمت﴾ أى: تباطأتم وأخلدتم ﴿إلى الأرض﴾ كسلاً وفشلاً، وكان ذلك فى غزوة تبوك، أمروا بها بعد رجوعهم من الطائف، فى وقت عسر، وحر، وبعد الشقة، وكثرة العدو، فشق عليهم ذلك، ﴿أرضيتم﴾

بالحياة الدنيا ﴿ وكدرها، ﴿ من الآخرة ﴾، بدل الآخرة ونعيمها، ﴿ فما متاع الحياة الدنيا ﴾ أى: التمتع بها فى جانب الآخرة، ﴿ إلا قليل ﴾ ؛ مستحقر، لسرعة فثائه ومزجه بالكدر.

﴿ إلا تنفروا ﴾ مع رسوله إلى ما استنفرتُم إليه، ﴿ يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ فى الدنيا والآخرة؛ فى الدنيا: بالإهلاك بأمرٍ فظيع، كقحط وظهور عدو، وغير ذلك من المهلكات، وفى الآخرة: بعذاب النار. ﴿ ويستبدل ﴾ مكانكم ﴿ قوماً غيركم ﴾ فى الدنيا، يكونون مطيعين لله ورسوله، كأهل اليمن وأمثالهم، ﴿ ولا تضرُّوه شيئاً ﴾؛ إذ لا يقدح تفاقلكم فى نصر دينه شيئاً، فإنه الغنى عن كل شيء، فى كل وقت. وقيل: الضمير للرسول ﷺ؛ فإن الله وعده بالعصمة والنصرة، ووعدده حق، ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ لا يعجزه شيء، فيقدر على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد، كما فعل معه فى الغار والهجرة، على ما يأتى.

الإشارة: ما لكم إذا قيل لكم: انفروا إلى من يعرفكم بالله، ويعلمكم كيف تجاهدون نفوسكم فى طلب مرضاة الله، اتاقلتم وأخلدتم إلى أرض الحظوظ والشهوات، أرضيتم بالحياة الدنيا الدنية، بدل الحياة الأبدية، فى الحضرة القدسية؟ أرضيتم بحياة الأشباح بدل حياة الأرواح؟ فما متاع الحياة الدنيا الفانية فى جانب الحياة الأبدية فى الحضرة العلية، إلا نزر قليل حقير ذليل، إلا تلتفروا لجهاد نفوسكم، يعذبكم عذاباً أليماً، بغم الحجاب، وشدة التعب والنصب، وتوارد الخواطر والهموم، وترادف الأكدار والغموم، ويستبدل قوماً غيركم يكونون عارفين بالله، مرضيين عند الله، راضين عن الله، والله على كل شيء قدير.

ثم ذكر نصرته لرسوله بلا سبب، فقال:

﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كُلَّ كَلِمَةٍ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قلت: «إن: شرط، وجوابه محذوف، دلّ عليه قوله: ﴿ فقد نصره الله ﴾ أى: إن لم تنصروه فسينصره الله، الذى نصره حين أخرجه الذين كفروا، حال كونه ثانى اثنين، فدل بنصره فى الماضى على نصره فى المستقبل، وإسناد الإخراج إلى الكفرة؛ لأن همهم بإخراجه أو قتله كان سبباً لإذن الله له فى الخروج، و(إذ هما): بدل من (أخرجته)؛ بدل البعض، و(إذ يقول): بدل ثان، و(كلمة الله): مبتدأ، و(العليا): خبر. وقرأ يعقوب: بالنصب؛ عطفاً على «كلمة الذين كفروا»، والأول: أحسن؛ للإشعار بأن كلمة الله عالية فى نفسها، فاقت غيرها أم لا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾؛ تنصروا محمداً، وتناقلتم عن الجهاد معه، فسينصره الله، كما نصره حين ﴿أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكة، حال كونه ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ أى: لم يكن معه إلا رجل واحد، وهو الصديق، ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾؛ نقب في أعلى غار ثور، وثور جبل عن يمين مكة، على مسيرة ساعة. ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾: أبى بكر رضي الله عنه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بالعصمة والنصرة.

رُوى أن المشركين طلَعوا فوق الغار يطلبون رسول الله ﷺ، حين فقده من مكة، فأشفق أبو بكر على رسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا» (١) فأعماههم الله عن الغار، فجعلوا يترددون حوله فلم يروه. وقيل: لما دخل الغار بعث الله حمامتين، فباضتا في أسفله، والعنكبوت نسجت عليه.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أى: أَمَنَهُ الذى تسكن إليه القلوب، ﴿عَلَيْهِ﴾ أى: على رسوله ﷺ، أو على صاحبه، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾، يعنى الملائكة، أنزلهم ليحرسوه فى الغار، أو يوم بدر وأحد وغيرهما، فتكون على هذا: الجملة معطوفة على: (فقد نصره الله). ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهى الشرك، أو دعوى الكفر، ﴿السُّفْلَى﴾. وكلمة الله التى هى التوحيد، أو دعوة الإسلام، ﴿هِيَ الْعُلْيَا﴾؛ حيث خلص رسوله ﷺ من بين الكفار، ونقله إلى المدينة، ولم يزل ينصره حتى ظهر التوحيد وبطل الكفر، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾؛ غالب على أمره، ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أمره وتدبيره.

الإشارة: ما قيل فى حق الرسول ﷺ يقال فى حق ورثته، الداعين إلى الله بعده؛ من العارفين بالله، فيقال لمن تخلف عن صحبة ولى عصره وشيخ تربية زمانه: إِنْ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ وَأَعَزَّهُ، وأغناه عن غيره، فمن صحبه فإنما ينفع نفسه، فقد نصره الله حين أنكره أهله وأبناء جنسه، كما هى سنة الله فى أوليائه، لأن الداخل على الله منكور، والراجع إلى الناس مبرور، فمن دخل مع الخصوص قطعاً أنكرته العموم، فخرجته ثانى اثنين هو وقلبه، فيأوى إلى كهف الأتس بالله، والوحشة مما سواه، فيقول لقلبه: لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا، فينزل الله عليه سَكِينَةَ الطمأنينة والتأييد، وينصره بأجناد أنوار التوحيد والتفريد، فيجعل كلمة أهل الإنكار السفلى، وكلمة الداعين إلى الله هى العليا، والله عزيز حكيم.

(١) أخرجه البخارى فى (فضائل أصحاب النبى، باب مناقب المهاجرين) ومسلم فى: (فضائل الصحابة، باب فضائل أبى بكر رضي الله عنه).

ثم نهضهم إلى الجهاد، فقال:

﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبِعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا مَخْرَجَنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٤٢)

قلت: (يهلكون): حال من فاعل (يحلفون)، أو بدل منه. قال في القاموس: (الشقة)- بالضم والكسر: البعد والداحية يقصدها المسافر، والسفر البعيد والمشقة. هـ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ انْفِرُوا ﴾ للجهاد مع الرسول ﷺ، حال كونكم ﴿ خِفَافًا ﴾؛ نشاطاً، ﴿ وَثِقَالًا ﴾؛ كسالى لمشقته، أو (خفافاً) لمن قلَّ عياله، (وثقالاً) لمن كثر عياله، أو خفافاً لمن كان فقيراً، وثقالاً لمن كان غنياً، أو خفافاً ركبانا، وثقالاً مشاة، أو خفافاً بلا سلاح، وثقالاً بالسلاح، أو خفافاً شباباً، وثقالاً شيوخاً، أو خفافاً أصحاء، وثقالاً مرضى. ولذلك قال ابن أم مكتوم لرسول الله ﷺ: أَعْلَى الْغَزْوِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «نعم»، حتى نزل: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ (١). ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى: بما أمكن؛ إما بهما أو بأحدهما، ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من تركه، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما فى ذلك من الأجر العظيم والخير الجسيم، أى: لو علمتم ذلك ما قعدتم خلف سرية.

ثم عاتب من أراد التخلف، فقال: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ من الدنيا، ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾؛ متوسطاً أو قريباً، ﴿ لَا تَبِعُوكَ ﴾ أى: لو كان مادعوا إليه أمراً دنيوياً، كغنيمة كبيرة، أو سفراً متوسطاً، لا تبعرك ولوافقوك على الخروج، ﴿ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ أى: المسافة التى تقطع بمشقة، وذلك أن الغزوة - أى: تبوك - كانت إلى أرض بعيدة، وكانت فى شدة الحر، وطيب الثمار، فشقت عليهم. ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ أى: المتخلفون إذا رجعت من تبوك، معتذرين، يقولون: ﴿ لَوْ اسْتَطَعْنَا ﴾ الخروج ﴿ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾، لكن لم تكن لنا استطاعة من جهة العدة والبدن وهذا إخبار بالغيب قبل وقوعه. ﴿ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ بوقوعها فى العذاب، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى ذلك؛ لأنهم كانوا مستطيعين الخروج، وإنما قعدوا كسلاً وجبنًا، والله تعالى أعلم.

(١) الآية ٦١ من سورة النور.

الإشارة: انفروا إلى جهاد أنفسكم وقطع علائقكم وعوائقكم، لكي تستأهلوا لدخول حضرة ربكم، وسافروا إلى من يعينكم ويقوى مدد أجناد أنواركم، وهم المشايخ العارفون، فسيروا إليهم خفافاً وثقالاً، نشاطاً وكسلاً، والغالب أن النفس يشق عليها ما يكون سبباً في قتلها، فلا ينفر إليها خفافاً أول مرة إلا النادر.

ثم أمر ببذل الأموال والمهج في طريق الوصول إلى حضرة الله، وعاتب من تخلف عن ذلك وطلب الراحة والبقاء في وطن نفسه. قال القشيري: أمرهم بالقيام بحقه، والبدار إلى أداء أمره على جميع أحوالهم، «خفافاً» أى: في حال حضور قلوبكم، فلا يمسكم نصب المجاهدات، «وثقالاً» أى: إذا رددتم إليكم في مقاساة نصب المكابدات. فإن البيعة أخذت عليكم في المنشط والمكروه. هـ. ومثله عند الورتجبي عن أبي عثمان قال: خفافاً وثقالاً؛ في وقت النشاط والكراهية، فإن البيعة على هذا وقعت، كما روى عن جرير بن عبد الله أنه قال: بايعنا رسول الله على المنشط والمكروه. هـ.

ثم عاتب رسوله ﷺ لشدة قربيه، وعظيم منزلته، وتلطّف له على إذنه للمنافقين في التخلف، فقال:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ (٤٣)
لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنْفِقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَوَاتُ
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ فِي رِيْبِهِمْ يَرْدَدُونَ ﴿٤٥﴾

يقول الحق جل جلاله، لنبيه - عليه الصلاة والسلام -؛ ملاطفاً له في الكلام: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾، لم بادرت إلى الإذن إلى المنافقين في التخلف، واستكفيت بالإذن العام في قولنا: ﴿فأذن لمن شئت منهم﴾ (١)، فإن الخواص من المقربين لا يكتفون بالإذن العام، بل يتوقفون إلى الإذن الخاص. ولذلك عوّب يونس عليه السلام. والمعنى: لأى شيء أذنت لهم في القعود حين استأذنوك واعتذروا لك بأكاذيب؟ وهلا توقفت ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾ في الاعتذار، ﴿وتعلم الكاذبين﴾ فيه.

قال ابن عطية: قوله: ﴿الذين صدقوا﴾ يريد: فى استأذنانك، وأنت لو لم تأذن لهم لخرجوا معك، وقوله: ﴿وتعلم الكاذبين﴾ يريد: أنهم استأذنوك يظهرون لك أنهم يقفون عند حدك، وهم كذبة، قد عزموا على

(١) من الآية ٦٢ من سورة الدور.

العصيان، أَذْنَتْ أَوْ لَمْ تَأْذِنْ. هـ. قَالَ ابْنُ جَزَى: كَانُوا قَدْ قَالُوا: اسْتَأْذَنُوهُ فِي الْقُعُودِ، فَإِنْ أَذِنَ لَنَا قَعَدْنَا، وَإِنْ لَمْ يَأْذِنْ قَعَدْنَا، وَإِنَّمَا كَانَ يَظْهَرُ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ لَوْ لَمْ يَأْذِنْ لَهُمْ، فَحِينَئِذٍ كَانَ يَقَعِدُ الْعَاصِي وَالْمُنَافِقُ، وَيَسَافِرُ الْمُطِيعُ الصَّادِقُ. هـ.

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أَيْ: لَيْسَ مِنْ عَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْتَأْذِنُوكَ فِي أَنْ يُجَاهِدُوا، بَلِ الْخُلُوصُ مِنْهُمْ يُبَادِرُونَ إِلَيْهِ، وَلَا يَوْقِفُونَهُ عَلَى الْإِذْنِ فِيهِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا فِي التَّخَلُّفِ عَنْهُ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾؛ فَيُثَبِّتُهُمْ وَيُقَرِّبُهُمْ، وَهِيَ شَهَادَةٌ لَهُمْ بِالتَّقْوَى وَعِدَّةٌ لَهُمْ بِثَوَابِهِ.

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ فِي التَّخَلُّفِ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وَخُصَّصَ ذِكْرُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ إِشْعَارًا بِأَنَّ الْبَاعْثَ عَلَى الْجِهَادِ وَالْوَارِزَ عَنْهُ: الْإِيمَانُ وَعَدَمُ الْإِيمَانِ بِهِمَا، ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَيْ: شَكَّتْ فِي الْإِيمَانِ وَالْبَعْثِ، ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾: يَتَحَيَّرُونَ. وَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ، وَأُمَثَّلَ لَهَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ.

الإشارة: لَا يَنْبَغِي لِلْعَارِفِينَ بِاللَّهِ؛ الدَّاعِينَ إِلَى اللَّهِ، أَنْ يَأْذِنُوا لِمَنْ اسْتَأْذَنَهُمْ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ، وَيُرْخِصُونَ لَهُ فِي الْبَقَاءِ مَعَ النَّفْسِ وَالْهَوَى، وَجَمَعَ حَطَامَ الدُّنْيَا، شَفَقَةً وَرَحْمَةً؛ لِأَنَّ الشَّفَقَةَ فِي هَذَا الْمَعْنَى لَا تَلِيْقُ بِأَهْلِ التَّزْيِينِ، فَقَدْ قَالُوا: الشَّفَقَةُ وَالرُّطُوبَةُ لَا تَلِيْقُ بِشَيْخِ التَّزْيِينِ، بَلِ لَا يَلِيْقُ بِهِمْ إِلَّا الْأَمْرُ بِمَا تَمُوتُ بِهِ النَّفُوسُ، وَتَحْيَا بِهِ الْأَرْوَاحُ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ حَقْفُهُمْ. وَقَدْ قَالُوا أَيْضًا: إِذَا كَانَ الشَّيْخُ يَحْرُشُ عَلَى الْمُرِيدِ^(١)، وَيَقْدِمُهُ لِلْمَهَالِكِ فِي نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ جَاهِهِ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يُحِبُّهُ وَيَنْصَحُهُ، وَإِذَا كَانَ يَرْخِصُ لَهُ فِي أُمُورِ نَفْسِهِ، وَيَأْمُرُهُ بِالْمَقَامِ مَعَهَا، فَهُوَ غَيْرُ نَاصِحٍ لَهُ.

وأما الإذن في التجريد وعدمه: فَإِنْ رَأَاهُ أَهْلًا لَهُ؛ لِنَفْوَ عَزْمِهِ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَهُ بِهِ، وَإِنْ رَأَاهُ لَا يَلِيْقُ بِهِ؛ لِعَوَارِضٍ قَامَتْ بِهِ، مَنَعَهُ مِنْهُ، حَتَّى يَنْظُرَ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِ، وَسَأَلَ رَجُلٌ الْقُطْبَ ابْنَ مَشِيْشٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا سَيِّدِي؛ اسْتَأْذِنُكَ فِي مُجَاهَدَةِ نَفْسِي؟ فَقَالَ لَهُ: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾. إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ.

(١) أَيْ: يَدْفَعُهُ.

ثم ذكر سبب تخلفهم، وهو عدم الإرادة، فقال:

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ (٤٦) ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٤٧) ﴿ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُون ﴾ (٤٨)

قلت: (ما زادوكم إلا خبالاً) قال بعضهم: هو استثناء منقطع، أى: ما زادوكم شيئاً، لكن خبالاً يُحدثونه فى عسكريهم بخروجهم. قال ذلك؛ لئلا يلزم أن الخبال واقع فى عسكر المسلمين، لكن خروجهم يزيد فيه. وفيه نظر؛ لأن الاستثناء المفرغ لا يكون منقطعاً، ويمكن هنا أن يكون متصلاً؛ لأن غزوة تبوك خرج فيها كثير من المنافقين، فحصل الخبال، فلو خرج هؤلاء المستأثنون فى التخلف، القاعدون، ل زاد الخبال بهم.

وقوله: (ولأوضعوا) أى: أسرعوا، والإيضاع: الإسراع، و(خلالكم): ظرف، أى: لأسرعوا بينكم بالمشى بالنميمة، وجملة: (يبغونكم): حال من فاعل «أوضعوا».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا ﴾؛ أراد المنافقون ﴿ الْخُرُوجَ ﴾ إلى الغزو معكم، وكانت لهم نية فى ذلك ﴿ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ أى: لاستعدوا له أهبطه قبل أوانه. فما فعلوا، ﴿ وَلَكِنْ ﴾ تثبطوا؛ لأنه تعالى كره ﴿ انْبِعَاثَهُمْ ﴾، أى: نهوضهم للخروج، ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أى: حبسهم وكسر عزمهم، كسلاً وجبناً، ﴿ وَقِيلَ ﴾ لهم: ﴿ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ من النساء والصبيان وذوى الأعذار، وهو ذم لهم وتوبيخ. والقائل فى الحقيقة هو الله تعالى، وهو عبارة عن قضائه عليهم بالقعود، وبناء للمجهول تعليماً للأدب. قال البيضاوى: هو تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج فى قلوبهم، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود، أو حكاية قول بعضهم لبعض، أو إذن الرسول لهم. هـ.

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ﴾ ما زادكم خروجهم شيئاً ﴿ إِلَّا خَبَالًا ﴾؛ فساداً وشرًا. والاستثناء من أعم الأحوال، فلا يلزم أن يكون الخبال موجوداً، وزاد بخروجهم، أو إذا وقع خبال بحضور بعضهم معكم ما زادكم هؤلاء القاعدون بخروجهم إلا خبالاً زائداً على ما وقع. ﴿ وَلَا وُضِعُوا ﴾ أى: لأسرعوا ﴿ خِلَالَكُمْ ﴾ أى: فيما بينكم، فيسرعون فى المشى بالنميمة والتخليط والهزيمة والتخذيل، ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أى: حال كونهم طالبين لكم الفتنة، بإيقاع

الخلل بينكم، حتى تختلف قلوبكم ورأيكم، فيذهب ريح نصركم، ﴿وَفِيكُمْ﴾ قوم ﴿سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾؛ فيقبلون قولهم، إما بحسن الظن بهم، أو لنفاق بهم، فيقع الخلل بسبب قبول قولهم، أو فيكم سماعون لأخباركم فينقلونه إلى غيركم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾؛ فيعلم ضمائرهم، وما ينشأ عنهم، وسيجازيهم على فعلهم.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ﴾ أى: تشتيت أمرك وتفريق أصحابك ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبل هذا الوقت، كرجوعهم عنك يوم أحد، ليوقعوا الفشل فى الناس، ﴿وَقَلُّوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أى: دبروها من كل وجه، فدبروا الحيل، ودوروا الآراء فى إبطال أمرك، فأبطل الله سعيهم، ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أى: علا دينه، ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أى: على رغم أنفسهم، والآياتان تسليية للرسول ﷺ والمؤمنين على تخلفهم، وبيان ما ثبطهم الله لأجله وكره انبعاثهم له، وهتك أسرارهم، وكشف أسرارهم، وإزاحة اعتذارهم. انظر البيضاوى.

الإشارة: الناس على ثلاثة أقسام: قسم أقامهم الحق تعالى لخدمة أنفسهم وحفظهم؛ عدلاً. وقسم أقامهم الحق تعالى لخدمة معبودهم؛ فضلاً. وقسم اختصهم بالترحمه إلى محبوبهم؛ رحمة وفضلاً.

فالأولون: أنقلهم بكثرة الشراغل والعلائق، ولو أرادوا الخروج منها لأعدوا له عدة بالتخفيف والزهد، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم، وقيل: أقعدوا مع القاعدين، أقامهم لإصلاح عالم الحكمة، وأما أهل الخدمة: فرأهم لم يصلحوا لصريح معرفته، فشغلهم بخدمته، ولو أرادوا الخروج من سجن الخدمة إلى فضاء المعرفة لأعدوا له عدة؛ بصحبة أهل المعرفة الكاملة. وأما أهل التوجه إلى محبته وصريح معرفته فلم يشغلهم بشيء، ولم يتركهم مع شيء، بل اختصهم بمحبته، وقام لهم بوجود قسمته، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (١). وكل قسم لو دخل مع من فوقه على ما هو عليه، لأفسده، ومازاده إلا خبالاً وشراً. والله تعالى أعلم.

ولما دعا النبي ﷺ الناس إلى غزوة تبوك، قال له الجد بن قيس - من كبار المنافقين -: ائذن لى فى القعود، ولا تفتنى بروية بنات بنى الأصفر، فإنى لا أصبر على النساء، فأنزل الله فى شأنه (٢):

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩) **﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾** (٥٠)

(١) الآية ٧٤ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه مطولاً ابن جرير فى التفسير (١٠٤/١٠) وذكره الواحدى فى الأسباب (٢٥٢)، من طريق على بن أبى طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي﴾ في القعود، ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾؛ ولا توقعنى فى الفتنة، أى: فى العصيان والمخالفة، بأن تأذن لى، وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف، أذن أو لم يأذن، أو فى الفتنة؛ بسبب ضياع المال والعيال؛ إذ لا كافل لهم بعدى، أو فى الفتنة بنساء الروم، كما قال الجد بن قيس: قد علمت الأنصار أنى مولى بالنساء، فلا تفتنى ببنات بنى الأصفر، ولكنى أعينك بمال، واتركنى.

قال تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أى: إن الفتنة هى التى سقطوا فيها، وهى فتنة الكفر والنفاق، لا ما احترزوا عنه، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَخِيطةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، أى: دائرة بهم يوم القيامة، أو الآن؛ لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها، ومن أعظم أسبابها: بغضك وانتظارهم الدوائر بك.

﴿إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ﴾؛ كنصر أو غنيمة فى بعض غزواتك، ﴿تَسْؤُهُمْ﴾؛ لفرط حسدهم وبغضهم، ﴿وَإِنْ تُصِيبْكَ﴾ فى بعضها ﴿مُصِيبَةٌ﴾؛ ككسر أو شدة كيوم أحد، ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ أى: يتبجحوا بتخلفهم أو انصرافهم، واستحمدوا رأيهم فى ذلك، ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ عن متحدّثهم ومجمعهم، أو عن رسول الله ﷺ، ﴿وَهُمْ فَرَحُونُ﴾ مسرورون بما صنعوا من التخلف عن الجهاد.

الإشارة: ومن ضعفاء اليقين من يستأذن المشايخ فى البقاء مع الأسباب وفتنة الأموال، ويقول: لا تفتنى بالأمر بالتجريد، فإنى لا أقدر عليه، ويرضى بالسقوط فى فتنة الأسباب والشواغل، فإن ضم إلى ذلك الإنكار على أهل التجريد، بحيث إذا رأى منهم نكبة أو كسرة من أجل التجريد، والخروج عن عوائد الناس وما هم عليه، فرح، وإذا رأى منهم نصراً وعزاً انقبض، ففيه خصلة من النفاق، والعياذ بالله.

ثم رد عليهم، بقوله:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١) ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ (٥٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿لَنْ يَصِيْبَنَا﴾ من حسنة أو مصيبة، ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ في اللوح المحفوظ، لا يتغير بموافقكم ولا بمخالفكم، ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾؛ متولى أمرنا وناصرنا، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: وإليه فليفوض المؤمنون أمورهم؛ رضاً بتدبيره؛ لأن مقتضى الإيمان ألا يتوكل إلا على الله؛ إذ لا فاعل سواه، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ أى: تنتظرون ﴿بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ أى: إلا إحدى العاقبتين اللتين كل منهما حسنى: إما النصر وإما الشهادة، ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أيضاً إحدى العاقبتين السوأيتين: إما ﴿أَنْ يَصِيْبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ بقارعة من السماء، ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أى: أو بعذاب بأيدينا، وهو القتل على الكفر، ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ ما هو عاقبتنا، ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم.

الإشارة: ثلاثة أمور توجب للعبد الراحة من التعب، والسكون إلى رب الأرباب، وتذهب عنه حرارة التدبير والاختيار، وظلمة الأكدار والأغيار: أحدها: تحقيق العلم بسبقية القضاء والقدر، حتى يتحقق بأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه. قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَصِيْبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ (١)، وليتأمل قول الشاعر:

مَا لَا يَقْدَرُ لَا يَكُونُ بِحِيلَةٍ أَبَدًا، وَمَا هُوَ كَائِنْ سَيَكُونُ
سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنْ فِي وَقْتِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ مُتَعَبٌ مُحْزُونٌ

وقد ورد عن سيدنا على - كرم الله وجهه - أنه قال: سبع آيات: من قرأها أو حملها معه؛ لو انطبقت السماء على الأرض؛ لجعل الله له فرجاً ومخرجاً من أمره، فذكر هذه الآية: ﴿قُلْ لَنْ يَصِيْبَنَا﴾، وآية في سورة يونس: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ...﴾ الآية (٢)، وآيتان في سورة هود: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ...﴾، الآية (٣)، ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ...﴾ الآية (٤)، وقوله تعالى: ﴿وَكَايِنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٥)، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦) و ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ...﴾ في الزمر إلى قوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٧)، ونظمها بعضهم فقال:

(٢) الآية ١٠٧ من سورة يونس.

(٤) الآية ٥٦ من سورة هود.

(٦) الآية ٢ من سورة فاطر.

(١) من الآية ١٧ من سورة الأنعام.

(٣) الآية ٦ من سورة هود.

(٥) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت.

(٧) الآية ٣٨ من سورة الزمر.

عليك بقل، وإن، وما، إني، في هود وكأين، ما يفتح، ولئن؛ مكسلا

وإنما أشار ﷺ إلى معنى الآيات لا إلى لفظها؛ لأنها كلها تدل على النظر لسابق القدر، والتوكل على الواحد القهار.

الأمر الثاني: تحقق العبد برأفته - تعالى - ورحمته، وأنه لا يفعل به إلا ما هو في غاية الكمال في حقه، إن كان جمالا فيقتضى منه الشكر، وإن كان جلالا فيقتضى منه الصبر، وفيه غاية التقريب والتطهير وطي المسافة بينك وبين الحبيب. وفي الحكم: «خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فافتك، وترد فيه إلى وجود ذلك، إن أردت بسط المواهب عليك فصصح الفقر والفاقة لديك، الفاقة أعياد المردين». إلى غير ذلك من كلامه في هذا المعنى.

الأمر الثالث: تحققه بخالص التوحيد؛ فإذا علم أن الفاعل هو الله ولا فاعل سواه؛ رضى بفعل حبيبه، كيفما كان، كما قال ابن الفارض رحمته:

أَحِبَّايَ أَنْتُمْ، أَحْسَنَ الدَّهْرِ أَمَاسَا فكونوا كما شئتم أنا ذلك الخَلِّ

وكما قال صاحب العينية:

تَلَدُّ لِي الْآلَامَ إِذْ كُنْتَ مُسَقِّمِي وَإِنْ تَخْتَبِرْنِي فَهِيَ عِنْدِي صَنَائِعُ
تَحْكُمُ بِمَا تَهْوَاهُ فِي فِائِنِّي فَقِيرٌ لِسُلْطَانِ الْمَحَبَّةِ طَائِعُ

فهذه الأمور الثلاثة، إذا تفكر فيها العبد دام حبوره وسروره، وسهلت عليه شئونه وأموره.

وقوله تعالى: (قل هل تريبصون بنا...) الآية، مثله يقول أهل النسبة لأهل الإنكار: هل تريبصون بنا إلا إحدى الحسنين، إما حسن الختام بالموت على غاية الإسلام، يموت المرء على ما عاش عليه، وإما الظفر بمعرفة الملك العلام على غاية الكمال والتمام، ونحن نتريص بكم أن يصيبكم الله بعقوبة من عنده؛ بسبب إذايتكم، أو بدعوة من عندنا إذا أذن لنا. وبالله التوفيق.

ثم * ذكر سبب إبطال عملهم وصدقاتهم، فقال:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾

* تفسير قوله تعالى: «قل أنفقوا طوعاً أو كرها» الآية ٥٣، لا يوجد في النسخ الخطية التي بين أيدينا.

قلت: (أن تقبل): بدل من ضمير (منعهم)، أو على حذف الجار، و(إلا أنهم كفروا): فاعل، أى: وما منع قبول نفقاتهم، أو من قبول نفقاتهم، إلا كفرهم بالله وبرسوله، ويحتمل أن يكون الفاعل ضميراً يعود على الله تعالى و(أنهم) مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما منعهم﴾؛ وما منع المنافقين من قبول نفقاتهم وأعمالهم ﴿إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾؛ إلا كفرهم بالله وبرسوله، أو: ما منعهم الله من قبول نفقاتهم إلا لأجل كفرهم بالله وبرسوله، وكونهم ﴿لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾؛ متثاقلين، ﴿ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾ أى: لا يعطون المال إلا فى حال كراهيتهم للإعطاء؛ لأنهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون بتركها عقاباً، فهم يعطون ذلك رياء ونفاقاً. الإشارة: لا يتقبل الله إلا عمل المخلصين، إما إخلاص العوام؛ لقصد الثواب وخوف العقاب، أو إخلاص الخواص؛ لإظهار العبودية وإجلال الربوبية، وعلامة الإخلاص: وجود النشاط والخفة حال المباشرة للعمل، أو قبلها، وانغية عنه بعد الوقوع، والله تعالى أعلم.

ثم نهى عن الاغترار بحال المنافقين، فقال:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلا تعجبك﴾، أيها الناظر إلى المنافقين، كثرة ﴿أموالهم ولا أولادهم﴾؛ فإن ذلك استدراج ووبال لهم ﴿إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بها في الحياة الدنيا﴾؛ بسبب ما يكابدون فى جمعها وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها من الأمراض والمصائب، أو ما ألزموا به من أداء زكاتها، مع كونهم لا يرجون خلفها ﴿وتزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وهم كافرون﴾؛ فلا يستوفون التمتع بها فى الدنيا؛ لقصر مدتها، ولا يجدون ثواب ما أعطوا منها؛ لعدم إيمانهم. وأصل الزهوق: الخروج بصعوبة، لصعوبة خروج أرواحهم، والعياذ بالله.

الإشارة: ينبغى لمريد الآخرة ألا يستحسن شيئاً من الدنيا، التى هى مدرجة الاغترار، بل ينبغى له أن ينظر إليها وإلى أهلها بعين الغض والاحتقار، حتى ترتفع همته إلى دار القرار، وينبغى لمريد الحق - تعالى - ألا يحقر

شيئاً من مصنوعاته، ولا يصغر شيئاً من تجلياته، إذ ما في الوجود إلا تجليات العلى الكبير، إما من مظاهر اسمه الحكيم، أو اسمه القدير، فيعطى الحكمة حقها والقدرة حقها، ويتلون مع كل واحدة بلونها، وبالله التوفيق.

ثم ذكر وصف نفاق المنافقين، فقال:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾
لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَخْرَجًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قلت: الفرق: الخوف، و(مَدْخَلًا): أصله: متدخلا، مفتعل من الدخول، قلبت التاء دالاً وأدغمت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويحلفون﴾ لكم ﴿بالله إنهم منكم﴾ أى: من جملة المسلمين، ﴿وما هم منكم﴾؛ لكفر قلوبهم، ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾: يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركون، فيظهرون الإسلام تقية وخوفاً ﴿لو يجدون ملجأ﴾ أى: حصناً يلتجئون إليه، ﴿أو مَخْرَجًا﴾؛ غيراناً، ﴿أو مَدْخَلًا﴾؛ ثقباً أو جحراً ينحجرون فيه. وقرأ يعقوب: «مَدْخَلًا»؛ بضم الميم وسكون الدال، أى: دخولا، أو مكاناً يدخلون فيه، ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أى: يسرعون إسراعاً لا يرددهم شيء كالفرس الجموح.

الإشارة: قد يتطفل على القوم من ليس منهم، فيظهر الوفاق ويبطن النفاق، كحال أهل النفاق، فينبغى أن يستر ويحلم عليه، كما فعل عليه الصلاة والسلام - بالمنافقين، تطف معهم فى حياتهم، والله يتولى سرائرهم، وبالله التوفيق.

ثم شرع يتكلم فى مساوئ المنافقين، فقال:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قلت: (لو): شرطية، و(أنهم): قال سيبويه: مبتدأ، والخبر محذوف: ولو رضاهم ثابت أو موجود... الخ. وقال غيره: فاعل بفعل محذوف؛ ولو ثبت رضاهم، وجواب (لو): محذوف، أى: ولو أنهم رضوا لكان خيراً لهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن المنافقين ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ أى: يعيبك، ويعترض عليك ﴿فِي﴾ قسم ﴿الصَّدَقَاتِ﴾، ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾ وفرحوا، ﴿وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا﴾ شيئاً ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾. والآية نزلت فى ابن أبي؛ رأس المنافقين، قال: ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم، ويزعم أنه يعدل. وقيل: فى ذى الخويصرة رأس الخوارج، كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين، فاستعطف قلوب أهل مكة، فأثرهم بالعتاء، فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: «ويلك، إن لم أعدل فمن يعدل؟» (١).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أى: بما أعطاهم الرسول من الغنيمة، وذكر الله؛ للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان بأمر الله ووحيه، فكانه فعله هو. ﴿وَقَالُوا﴾ حسينا الله ﴿أى: كفانا فضله، ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ صدقة أو غنيمة أخرى، فيؤتينا أكثر مما آتانا، ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فى أن يُغْنينا من فضله وجوده. فلو فعلوا هذا لكان خيراً لهم من اعتراضهم عليك، الموجب لهم المقت والعذاب.

الإشارة: لا يكون المؤمن كاملاً حتى يستوى عنده المنع والعطاء، والفقد والوجد، والفقر والغنى، والعز والذل. وأما إن كان فى حالة العطاء والوجد يفرح، وفى حالة المنع والفقد يسخط، فلا فرق بينه وبين أهل النفاق، إلا من حيث التوسم بالإيمان، ولو أنه رضى بما قسم الله له، واكتفى بعلمه، ورغب الله فى زيادته من فضله، لكان خيراً له وأسلم. والله تعالى أعلم وأحكم.

ثم بين مصرف الصدقات الواجبة؛ قطعاً لأطماع من لا يستحقها، فقال:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّمَا﴾ تدفع ﴿الصدقات﴾ الواجبة - أى: الزكاة - لهؤلاء الثمانية، وهذا يرجح أن لمزهم كان فى قسم الزكاة لا فى الغنائم، واختصاص دفع الزكاة بهؤلاء الثمانية مجمع عليه، واختلف: هل يجب تعميمهم؟ فقال مالك: ذلك إلى الإمام، إن شاء عمم وإن شاء خصص، وإن لم يلها الإمام؛ فصاحب المال

(١) أخرجه البخارى فى (المنافق، باب علامات النبوة) ومسلم فى (الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم) من حديث أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه -.

مخير، وبه قال أبو حنيفة وأحمد، وأفتى به بعض الشافعية، وقال الشافعي: يجب أن تقسم على هذه الأصناف بالسواء، إن وجدت.

أولها: الفقير: وهو من لا شيء له، وثانيها: المسكين: وهو من له شيء لا يكفيه. فالفقير أحوج، وهو مشتق من فقار الظهر، كأنه أصيب فقاره، والمسكين من السكون، كأن العجز أسكنه. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ (١)، فسامهم مساكين مع ملكهم السفينة، وأنه ﷺ سأل المسكنة؛ وقيل بالعكس، لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (٢). وقيل: هما سواء. ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي: الساعين في تحصيلها وجمعها، ويدخل فيهم الحاشر والكاتب والمفرق، ولا بأس أن يعطى خيلهم منها، ويضافون منها بلا سرف. ﴿وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ﴾ قال مالك: هم كفار ظهر ميلهم للإسلام، فيعطون ترغيباً في الإسلام. وقيل: قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة، فيعطون ليتمكن الإسلام في قلوبهم، وحكمهم باق، وقيل: أشرف يترقب بإعطائهم إسلام نظائهم.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي: في فك الرقاب، يشترون ويعتقون. ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ أي: من عليهم دين، فيعطى ليقضى دينه، ويشترط أن يكون استدانه في غير فساد ولا سرف، وليس له ما يبيع في قضائه. ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: الجهاد، فيعطى منها المجاهدون وإن كانوا أغنياء، ويشتري منها آلة الحرب، ولا يبلى منها سور ولا مركب. ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المحتاج لما يوصله لبلده، ولم يجد مسلفاً، إن كان ملياً ببلده، وإلا أعطى مطلقاً.

فرض الله ذلك ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ أي: حقاً محدوداً عند الله. قال ابن جزى: ونصبه على المصدر. يعني: لفعل محذوف كما تقدم. فإن قيل: لم ذكر مصرف الزكاة في تضاعيف ذكر المنافقين؟ فالجواب: أنه خص مصرف الزكاة في تلك الأصناف؛ ليقطع طمع المنافقين فيها، فاتصلت هذه الآية في المعنى بقوله: (ومنهم من يلمزك في الصدقات..). هـ. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ يضع الأشياء في مواضعها.

الإشارة: إنما النفحات والمواهب للفقراء والمساكين، الذين افتقروا من السوى، وسكنوا في حضرة شهود المولى. وفي الحكم: «ورود الفاقات أعياد المريدين، ربما وجدت من المزيد في الفاقة ما لاتجده في الصوم والصلاة، الفاقات بسط المواهب. إن أردت بسط المواهب عليك فصحح الفقر والفاقة لديك. «إنما الصدقات للفقراء والمساكين».

(١) من الآية ٧٩ من سورة الكهف.

(٢) الآية ١٦ من سورة البلد.

وقال الهروي: الفقر صفة مهجورة، وهو ألد ما يناله العارف، لكونها تدخله على الله، وتجلسه بين يدي الله، وهو أعم المقامات حكماً؛ لقطع العوائق، والتجرد من العلائق، واشتغال القلب بالله. قيل: الفقير الصادق لا يملك ولا يملك. وقال الشبلي: الفقير لا يستغنى بشيء دون الله. وقال الشيخ ابن سبعين رحمته الله: الفقير هو الذي لا يحصره الكون. هـ. يعنى: لخروج فكرته عن دائرة الأكوان. وقال القشيري: الفقير الصادق عندهم: من لا سماء تظله، ولا أرض تغطيه، ولا سهم يتناوله، ولا معلوم يشغله، فهو عبد الله بالله. هـ.

وقال السهروردي في عوارفه: الفقر أساس التصوف، وبه قوامه، ويلزم من وجود التصوف وجود الفقر؛ لأن التصوف اسم جامع لمعانى الفقر والزهد، مع زيادة أحوال لا بد منها للصوفي، وإن كان فقيراً زاهداً. وقال بعضهم: نهاية الفقر بداية التصوف؛ لأن التصوف اسم جامع لكل خلق سني، والخروج من كل خلق دني، لكنهم اتفقوا ألا دخول على الله إلا من باب الفقر، ومن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بشيء مما أشار إليه القوم.

وقال أبو إسحاق الهروي أيضاً: من أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف؛ فليختر سبعاً على سبع، فإن الصالحين اختاروها حتى بلغوا سنام الخير. اختاروا الفقر على الغنى، والجوع على الشبع؛ والدون على المرتفع، والذل على العز، والتواضع على الكبر، والحزن على الفرح، والموت على الحياة. هـ. وقال بعضهم: إن الفقير الصادق ليحترز من الغنى؛ حذراً أن يدخله؛ فيفسد عليه فقره، كما يحترز الغنى من الفقر؛ حذراً أن يفسد عليه غناه.

قال بعض الصالحين: كان لي مال، فرأيت فقيراً في الحرم جالساً منذ أيام، ولا يأكل ولا يشرب وعليه أطمار رثة، فقلت: أعينه بهذا المال؛ فألقيته في حجره، وقلت: استعن بهذا على دنياك، فنفض بها في الحصباء، وقال لي: اشتريت هذه الجلسة مع ربى بما ملكك، وأنت تفسدها على؟ ثم انصرف وتركني ألقطها. فوالله ما رأيت أعز منه لماً بددها، ولا أذل منى لما كنت ألقطها. هـ.

وكان بعضهم إذا أصبح عنده شيء؛ أصبح حزينا، وإذا لم يصبح عنده شيء؛ أصبح فرحاً مسروراً، فقيل له: إنما الناس بعكس هذا، فقال: إني إذا لم يصبح عندي شيء فلي برسول الله ﷺ أسوة، وإذا أصبح لي شيء لم يكن لي برسول الله ﷺ أسوة حسنة. هـ. وجمهور الصوفية: يفضلون الفقير الصابر على الغنى الشاكر، ويفضلون الفقر في الجملة على الغنى؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - اختاره، وما كان ليختار المفضل. وشذ منهم يحيى بن معاذ الواعظ وأحمد بن عطاء.

قال القشيري: كان ابن عطاء يفضل الغنى على الفقر، فدعا عليه الجديد فأصيب عقله ثلاثين سنة، فلما رجع إليه عقله قال: إنما أصابني ما أصابني بدعاء الجنيد. وتكلم يحيى بن معاذ، ففضل الغنى على الفقر، فأعطاه بعض الأغنياء ثلاثين ألف درهم، فدعا بعض المشايخ عليه، فقال: لا بارك الله له فيها، فخرج عليه اللص فنهبه إياها. هـ. وحكى عن أبي يزيد البسطامي: أنه قال: أسرى بروحي، فرأيت كأنى واقف بين يدي الله، فسمعت قائلاً يقول: يا أبا يزيد، إن أردت القرب منا فأتنا بما ليس عندنا، فقلت: يامولاي وأى شيء ليس عندك، ولك خزائن السماوات والأرض؟ فسمعت: يا أبا يزيد، ليس عندي ذل ولا فقر، فمن أتاني بهما بلغته. هـ.

وقال في الإحياء: الفقر المستعاذ منه: فقر المضطر، والمسئول هو: الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله عز وجل. هـ. قلت: والأحسن أن المستعاذ منه هو: فقر القلوب من اليقين، فيسكنها الجزع والهلع، والفقر المسئول هو: التخفيف من الشواغل والعلائق، والله تعالى أعلم.

وقد تكلم النقشيري هنا على أخذ الزكاة وتركها، فقال: من أهل المعرفة من رأى أن أخذ الزكاة المفروضة أولى، قالوا: لأن الله - سبحانه - جعل ذلك ملكاً للفقير، فهو أحل له من المتطوع به. ومنهم من قال: الزكاة المفروضة لأقوام مستحقة، ورأوا الإيثار على الإخوان أولى، فلم يزاحموا أرباب السهمان، وتخرجوا من أخذ الزكاة، ومنهم من قال: إن ذلك وسخ الأموال، وهو لأصحاب الضرورات، وقالوا: نحن آثرنا الفقر اختياراً.. فلم يأخذوا الزكاة المفروضة. هـ.

وقوله تعالى: (والعاملين عليها): هم: المستعدون للمواهب بالتفرغ والتجريد، (والمؤلفة قلوبهم) على حضرة محبوبهم، والجادون في فك الرقاب من الجهل والغفلة؛ وهم أهل التذكير، الداعون إلى الله، (والغارمين) أى: الدافعون أموالهم ومهجهم في رضى محبوبهم، فافتقروا فاستحقوا حظهم من المواهب والأسرار، (وفي سبيل الله) أى: والمجاهدون أنفسهم في مرضاة الله، (وابن السبيل): السائحون في طلب معرفة الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر نوعاً آخر من مساوئ المنافقين، فقال:

﴿ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قلت: (قل أذن خير): من قرأ بالإضافة؛ ف(لكم): متعلق بالاستقرار، أى: هو أذن خير كائن لكم. ومن قرأ بالتثنية؛ ف(خير): خبر عن «أذن»؛ خبر ثان، ومن قرأ: «ورحمة»؛ بالرفع فعطف على (أذن خير)، ومن قرأ بالجر، فعطف على «خير»، المجرور.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون﴾ فيه: ﴿هو أذن﴾ يسمع كل ما يقال له ويصدق؛ حقاً كان أو باطلاً، فإذا حلفنا له أننا لم نقل شيئاً صدقنا. والقائل لهذه المقالة: قيل: هو نبتل بن الحارث، وكان من مرءة المنافقين. وقيل: عتاب بن قشير، فى جماعة، قالوا: محمد أذن سامع، نقول ماشئنا، ثم نأتيه فيصدقنا فيما نقول. قال البيضاوى: سمي بالجارحة للمبالغة؛ كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع، كما سمي الجاسوس عيناً. هـ.

قال تعالى فى الرد عليهم: ﴿قل أذن خير لكم﴾ أى: هو لكم سماع خير وحق، فيسمع الخير والحق ويبلغه لكم، أو قل: هو أذن خير لكم من كونه غير أذن؛ لأن كونه أذن يقبل معاذيركم؛ ولو كان غير أذن لكذبكم وفضحكم. وفى (الوجيز) أى: مستمع خير وصلاح، لا مستمع شر وفساد.

قال البيضاوى: وهو تصديق لهم بأنه أذن، لكن لا على الوجه الذى ذموا به - يعنى من تنقصه بقلة الحزم والانخداع - بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يؤمن بالله﴾؛ يصدق بالله وما له من الكمالات، ﴿ويؤمن للمؤمنين﴾؛ ويصدقهم؛ لما يعلم من خلوصهم، واللام مزيدة؛ للتفرقة بين إيمان التصديق وإيمان الإذعان والأمان، ﴿ورحمة للذين آمنوا منكم﴾ أى: هو رحمة لمن أظهر الإيمان منكم، بحيث يقبله ولا يكشف سره. وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم؛ جهلاً بكم، بل رفقاً بكم وترحمًا عليكم. قاله البيضاوى.

وفى ابن عطية: وخص الرحمة بالذين آمنوا؛ إذ هم الذين نجوا بالرسول وفازوا. وفى الوجيز: وهو رحمة لهم، لأنه كان سبب إيمانهم. هـ. فظاهره أن الإيمان الصادر منهم كان حقيقياً، وهو حسنٌ خلاف ظاهر. قال البيضاوى: أى: هو رحمة لمن وفقه الله للإيمان منكم.

﴿والذين يؤذون رسول الله﴾ بأى نوع من الإيذاء، ﴿لهم عذاب أليم﴾ موجه بسبب إيذايته.

الإشارة: تعظيم الرسول ﷺ ومدحه وذكر محاسنه، من أجل القربات وأعظم الطاعات؛ لأن تعظيمه ناشئ عن محبته، ومحبته عقد من عقود الإيمان، لا يتم الإيمان إلا بها، والإخلال بهذا الجانب من أعظم المعاصي عند الله، ولذلك قبح كفر المنافقين واليهود، الذين كانوا يؤذون جانب النبوة، وما عابه به المنافقون في هذه الآية هو عين الكمال عند أهل الكمال.

قال القشيري: عابوه بما هو أمانة كرمه، ودلالة فضله، فقالوا: إنه؛ لحسن خلقه، يسمع ما يقال له، وقد قال ﷺ: «المؤمن غر كريم، والمنافق خب لئيم»^(١). قالوا: من الفاضل؟ قالوا: الفطن المتغافل، وأنشدوا:

وإذا الكريم أتيت به خديعة
فرايته فيمما تروم يسارع

فاعلم بأنك لم تخادع جاهلاً
إن الكريم - بفضله - يتخادع^(٢). هـ.

وكل ولي يتخلق بهذا الخلق السلي؛ الذي هو التغافل والانخداع في الله، وكان عبد الله بن عمر يقول: (من خدعنا في الله انخدعنا له). ورأى سيدنا عيسى ﷺ رجلاً يسرق، فقال له: سرقت يا فلان؟ فقال: والله ما سرقت، فقال ﷺ: (آمنت بالله وكذبت عيني). فمن أخلاق الصوفي أن يؤمن بالله، ويؤمن للمؤمنين، كيف كانوا، ورحمة للذين آمنوا، فمن آذى من هذا وصفه فله عذاب ألیم. وبالله التوفيق.

ومن مساوئ المنافقين أيضاً: أنهم يرضون الناس بسخط الله، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا

مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا

ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

قلت: إنما وحد الضمير في (يرضوه) إما لأن رضى أحدهما رضى الآخر، فكأنهما شيء واحد، أو لأن الكلام إنما هو في إيذاء الرسول - عليه الصلاة والسلام - وإرضائه، فذكر الله تعظيماً لجانب الرسول، أو لأن التقدير: والله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك؛ فهما جملتان. والضمير في (أنه من يحادِدِ الله ورسوله فأَنَّهُ) : ضمير الشأن، و(فَأَنَّهُ) : إما تأكيد

(١) أخرجه أبو داود في (الأدب، باب في حسن العشرة) والترمذي في (البر والصلة، باب ما جاء في البخيل) عن أبي هريرة، بلفظ: «الفاجر، بدل المنافق».

(٢) البيهقي مسويان إلى عبدالمجيد بن إسماعيل الرومي، راجع النجوم الزاهرة ٥/٢٧٢.

لأن الأولى، وجملة (قله) : جواب، أو تكون بدلاً منها، أو فى موضع خبر عن مبتدأ محذوف، أى: فحق، أو واجب له نار جهنم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أى: المنافقون، ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون، حين يعتذرون فى التخلف عن الجهاد وغيره، ﴿لِيَرْضَوْكُمْ﴾ أى: لترضوا عنهم وتقبلوا عذرهم، ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ بالطاعة والوفاق، واتباع ما جاء به، ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ صادقين فى إيمانهم. ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ﴾ أى: الأمر والشأن، ﴿مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعاديهما، ويخالف أمرهما ﴿فَأَنَّ لَهُ﴾ :، فواجب أن له ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾، ذلك الخزى ﴿أى: الهول﴾ العظيم، والهلاك الدائم، والعياذ بالله.

الإشارة: من أَرْضَى الناسَ بسخط الله أسخطهم عليه وسخط عليه، ومن أسخط الناس فى رضى الله أَرْضَاهم عليه، وَرْضَى عنه، فمن أقر منكراً؛ حياءً أو خوفاً من الناس، فقد أسخط مولاه، ومن أنكر منكراً، ولم يراقب أحداً، فقد أَرْضَى مولاه، ومن راقب الناس لم يراقب الله، ومن راقب الله لم يراقب الناس، (والله ورسوله أحق أن يَرْضَوْهُ إن كانوا مؤمنين). وتأمل قول الشاعر:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِالذَّاتِ الْجَسُورِ

وبالله التوفيق.

ومن أخلاقهم أيضاً: الخوف من الفضيحة، والاستهزاء بالدين، كما أبان ذلك بقوله:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزْؤُاْ
إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ
وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قلت: الضمائر فى «عليهم»، و«تنبئهم»، و«قلوبهم»، تعود على المنافقين؛ خلافاً للزمخشري فى الأولين، فقال: يعود على المؤمنين، وتبعه البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فى شأنهم، ﴿سُورَةٌ﴾ من القرآن على النبى ﷺ، ﴿تُنَبِّئُهُمْ﴾ أى: تخبرهم، أى: المنافقين، ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الشك والنفاق، وتهتك أَسْأَارِهِمْ،

وكانوا يستهزؤون بأمر الوحي والدين، فقال تعالى لنبيه - عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ لَهُمْ: ﴿استهزءوا﴾؛ تهديداً لهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ من إنزال السورة فيكم، أو ما تحذرون من إظهار مساوئكم

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ عَنْ اسْتَهْزَائِهِمْ، ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فيما بيننا. رَوَى أَنَّ رَكْباً مِنَ الْمُنَافِقِينَ مَرُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَقَالُوا: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، يَرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ قُصُورَ الشَّامِ وَحِصُونَهُ، هِيَاهُ هِيَاهُ!! فَأَخْبَرَ اللَّهُ نَبِيَهُ، فَدَعَاهُمْ فَقَالَ: «قُلْتُمْ: كَذَا وَكَذَا؟»، فَقَالُوا: لَا، وَاللَّهِ، مَا كُنَّا فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ، وَلَا مِنْ أَمْرِ أَصْحَابِكَ، وَلَكِنَّا كُنَّا فِي شَيْءٍ مِمَّا يَخُوضُ فِيهِ الرِّكْبُ، لِيَقْصُرَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ السَّفَرُ^(١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، تَوْبِيخاً لَهُمْ عَلَى اسْتَهْزَائِهِمْ بِمَا لَا يَصِحُّ الِاسْتَهْزَاءُ بِهِ، ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ أَيُّ: لَا تَشْتَغَلُوا بِاعْتِذَارَاتِكُمُ الْكَاذِبَةِ؛ ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أَيُّ: قَدْ أَظْهَرْتُمُ الْكُفْرَ بِإِذَاءِ الرَّسُولِ وَالطَّعْنَ عَلَيْهِ، بَعْدَ إِظْهَارِ إِيمَانِكُمُ الْكَاذِبِ. ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾؛ بِتَوْبَتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ، حَيْثُ سَبَقَ لَهُمْ ذَلِكَ؛ كَانَ مِنْهُمْ رَجُلٌ اسْمُهُ مَخْشِيُّ، تَابَ وَمَاتَ شَهِيداً. أَوْ لَكَفَهُمْ عَنِ الْإِذَاءِ، ﴿نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا﴾ فِي عِلْمِ اللَّهِ ﴿مُجْرِمِينَ﴾؛ مُصْرِينَ عَلَى النِّفَاقِ، أَوْ مُسْتَمْرِينَ عَلَى الْإِذَاءِ وَالِاسْتَهْزَاءِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الإشارة: الاستهزاء بالأولياء والطعن عليهم من أسباب المقت والبعد من الله، والإصرار على ذلك شؤمه سوء الخاتمة، وترى بعض الطاعنين عليهم يحذر منهم أن يكتشفوا بأسرارهم، وقد يطلع الله أوليائه على ذلك، وقد لا يطلعهم، وبعد أن يطلعهم على ذلك لا يواجهوهم بكشف أسرارهم لتخليقهم بالرحمة الإلهية. والله تعالى أعلم.

ومن مساوئ المنافقين أيضاً: أمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف، كما قال تعالى:

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٧٣/١٠) عن قتادة.

أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ
كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ
حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾

قلت: قال في الأساس: ومن المجاز: نسيبت الشيء: تركته، (نسوا الله فَنَسِيَهُمْ). قال في المشارق: ونسى بمعنى ترك، معناه مشهور في اللغة، ومنه: (نسوا الله فَنَسِيَهُمْ) أي: تركوا أمره فتركهم. وقوله: (كالذين من قبلكم): خبر، أي: أنتم كالذين، أو مفعول بمحذوف، أي: فعلتم مثل فعل من قبلكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ أي: متشابهة في الكفر والبعد عن الإيمان، لا فرق بين ذكورهم وإناثهم في النفاق والكفر، وهو نفى لأن يكونوا مؤمنين. وقيل: إنه تكذيب لهم في حلفهم بالله: ﴿إنهم لمنكم﴾ وتقرير لقوله: ﴿وما هم منكم﴾، وما بعده كالدليل عليه، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين. وهو قوله: ﴿يأمرون بالمنكر﴾؛ كالكفر والمعاصي، ﴿وينهون عن المعروف﴾؛ كالإيمان والطاعة، ﴿ويقبضون أيديهم﴾ عن الإعطاء والمبار، وهو كناية عن البخل والشح. ﴿نسوا الله﴾ أي: غفلوا، أي: أغفلوا ذكره، وتركوا طاعته، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾؛ فتركهم من لطفه ورحمته وفضله، ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾؛ الكاملون في التمرد والفسوق عن دائرة الخير.

﴿وعَدَ اللهُ المنافقين والمنافقات والكفار﴾ أي: المجاهرين بالكفر، ﴿نار جهنم خالدين فيها﴾ أي: مقدرين الخلود. قال ابن جزى: الأصل في الشر أن يقال: أوعد، وإنما يقال فيه: وعده، إذا صرح بالشر. هـ. ﴿هي حسبتهم﴾ أي: جزاؤهم عقاباً وعذاباً، وفيه دليل على عظم عذابها، ﴿ولعنهم الله﴾؛ أبعدهم من رحمته، وأهانهم، ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ لا ينقطع، وهو العذاب الذي وعدوه، أو ما يقاسونه من تعب النفاق، والخوف من المؤمنين.

﴿كالذين من قبلكم﴾ أي: أنتم كالذين من قبلكم، أو فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم، ﴿كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً﴾، وهو بيان لتشبيههم بهم، وتمثيل حالهم بحالهم، ﴿فاستمتعوا بخلاقهم﴾ أي: نصيبهم من ملاذ الدنيا وحظوظها، فأملوا بعيداً وبنوا مشيداً، فرحلوا عنه وتركوه، فلا ما كانوا أملوا أدركوا، ولا إلى ما فاتهم رجعوا، ﴿فاستمتعتم﴾ أنتم ﴿بخلافتكم﴾ أي: بنصيكم مما خلق الله لكم وقدره لكم في الأزل، ﴿كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾، ثم تركوا ذلك ورحلوا عنه، كذلك ترحلون أنتم عنه وتتركونه.

قال البيضاوي: ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم المخذجة من الشهوات الفانية، والتهائم بها عن النظر في العاقبة، والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيرة؛ تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء آثارهم. هـ.

﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ فى الباطل ﴿ كَالَّذِى خَاضُوا ﴾ أى: كخوضهم، أو كالخوض الذى خاضوه، وقيل: كالذين خاضوا فيه، فأوقع الذم على الجمع. ﴿ وَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أى: لم يستحقوا عليها ثواباً فى الدارين، ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾؛ الكاملون فى الخسران، خسروا الدنيا والآخرة.

الإشارة: ينبغى لأهل الإيمان الكامل أن يتباعدوا عن أوصاف المنافقين؛ فيأمررون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويمدّون أيديهم بالعطاء والإيثار، ويذكرون الله على سبيل الاستهتار، حتى يذكرهم برحمته. ويتشبهون بمن قبلهم من الصالحين الأبرار، فقد استمتعوا بلذيق المناجاة، وحلاوة المشاهدات، وبلطائف العلوم والمكاشفات، أولئك الذين ثبتت لهم الكرامة من الله فى الدنيا والآخرة، وأولئك هم الفائزون.

ثم هدد المنافقين بإهلاك من قبلهم، فقال:

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

يقول الحق جل جلاله، فى شأن المنافقين: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ﴾: خبر ﴿ الذين من قبلهم ﴾، كيف دمرهم الله وأهلكهم، حيث خالفوا رسلهم، ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾؛ أغرقهم بالطوفان، ﴿ وَ ﴾ قَوْمِ ﴿ عَادٍ ﴾؛ أهلكهم بالريح، ﴿ وَثَمُودَ ﴾؛ أهلكهم بالصيحة، ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾؛ أهلك نمرود ببعوض، وأهلك أصحابه به، أرسل عليهم سحابة من البعوض فخرطتهم، ودخلت بعوضة فى دماغه فأكلت دماغه، حتى هلك، ﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾، وهم قوم شعيب، أهلكوا بالنار يوم الظلة، ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾؛ مدائن قوم لوط، انتفكت بهم، أى: انقلبت، فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارات من سجيل. ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾ أى: كل واحدة منهن أتاه رسول ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾؛ بالمعجزات الواضحة، ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أى: لم يكن من عادته ما يشابه ظلم الناس، كالعقاب بلا جرم. ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾؛ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب.

الإشارة: ينبغى للمؤمن المشفق على نفسه أن يتحرى مواطن الهلكة، فيجتنبها بقدر الإمكان؛ فينظر ما فعل الله بأهل المخالفة والمعاصي، فيهرب منها بقدر إمكانه، وينظر ما فعل بأهل طاعته وطاعة رسوله من النصر والعز فى الدارين، فيبادر إليها فوق ما يطيق، ويعظم الرسل، ومن كان على قدمهم ممن حمل الأمانة بعدهم، ويشد يده على صحبتهم وخدمتهم؛ فهذا يسعد سعادة الدارين. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أصدقاء المنافقين، فقال:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ﴾ أى: أصدقاء ﴿بَعْضٍ﴾، وهذا فى مقابلة قوله: ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، وخص المؤمنين بالوصف بالولاية، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾؛ ضد ما فعله المنافقون، ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾؛ ضد قوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فى سائر الأمور، ضد قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ لا محالة؛ لأن السين مؤكدة للوقوع، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾؛ غالب على كل شىء، لا يمتنع عليه ما يريده، ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها.

ثم ذكر ما أعد لهم فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أى: تستطيبها النفس، أو يطيب فيها العيش. وفى الحديث: «إنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر» (١). وفى حديث آخر: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يَرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعْدَهَا اللَّهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَلَانَ الْكَلَامَ، وَبَذَلَ السَّلَامَ، وَتَابَعَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ» (٢).

وذلك ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾، أى: إقامة وخلود. وعنه - عليه الصلاة والسلام -: «جَنَاتُ عَدْنٍ: دَارُ اللَّهِ، الَّتِي لَمْ تَرَهَا عَيْنٌ، وَلَا تَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، لَا يَسْكُنُهَا غَيْرُ ثَلَاثَةٍ: النَّبِيُّونَ، وَالصَّادِقُونَ، وَالشَّهَدَاءُ. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: طُوبَى لِمَنْ دَخَلَ.» (٣) قاله البيضاوى. ثم قال: ومرجع العطف فيها - أى: فى قوله: «ومساكن طيبة» - يحتمل

(١) أخرجه بسياق آخر مطولاً، البزار كما فى كشف الأستار (٥١/٣)، وعزاه فى الفتح السماوى (٦٨٦/٢) لابن أبى حاتم وابن مردويه كلهم عن الحسن بن عمران بن حصين وأبى هريرة.

(٢) أخرجه الامام أحمد فى المسند (٣٤٣/٥) والطبرانى فى الكبير (٣٤٢/٣) وعبد الرزاق فى المصنف (٤١٨/١١) والبيهقى فى التفسير (٣٠٦/٦) عن أبى مالك الأشعرى.

(٣) أخرجه البزار، (كشف الأستار ١٩٢/٤) وابن جرير فى التفسير (١٨٠/١٠)، من حديث أبى الدرداء.

أن يكون لتعدد الموعد لكل واحد له، أى: فكل مؤمن ومؤمنة له جنات ومساكن، أو للجميع؛ على سبيل التوزيع، أى: فالجنات والمساكن معدة للجميع، ثم يقسمونها على حسب سعيهم فى الدنيا، أو إلى تباير وصفه - أى: الموعد - فكانه وصفه أولاً بأنه جنس ما هو أبهى الأماكن التى يعرفونها؛ لتميل إليه طبائعهم أول ما يقرع أسماعهم. ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش، معرى عن شوائب الكدورات التى لاتخلو عن شىء منها أماكن الدنيا، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات فى جوار رب العالمين، لايعتريهم فيها فناء ولا تغيير.

ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة، والمؤدى إلى نيل الوصول والفوز باللقاء. وعنه ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لانرضي وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك. قالوا: وأي شىء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبداً» (١). ﴿ذلك﴾ أى: الرضوان، أو جميع ما تقدم، ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذى تستحقرونه الدنيا وما فيها. هـ.

الإشارة: قد أعد الله لأهل الإيمان الحقيقى؛ الذين بذلوا مهجهم وأموالهم فى مرضاته، جنات المعارف، تجرى من تحت أفكارهم أنهار العلوم والحكم، ومساكن طيبة، هى: عكوف أرواحهم فى الحضرة، متلذذين بحلاوة الفكرة والنظرة، فى محل المشاهدة والمكاملة، والمساررة والمناجاة، ورضوان من الله، الذى هو نعيم الأرواح، أكبر من كل شىء؛ لأن نعيم الأرواح أجل وأعظم من نعيم الأشباح، حتى إن المقربين ليضحكون على أهل اليمين، حين يرونهم يلعبون مع الولدان والهور، كما ذكر الغزالي. وأما المقربون فيشاركونهم فى ذلك، ويزيدون عليهم بلذة الشهود.

قال القشيري، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُون﴾ (٢): إنه لا تنافى بين اشتغالهم بِلذاتهم مع أهلهم وبين شهود مولاهم، كما أنهم اليوم مستلذون بمعرفته بأى حالة هم فيها، ولا يقدح اشتغالهم بحظوظهم فى معارفهم. انتهى لفظه، وهو حسن. والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخارى فى (الرقاق، باب صفة الجنة والنار) وفى مواضع أخرى، ومسلم فى (الجنة، باب: إحلال الرضوان على أهل الجنة) من حديث أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه -.

(٢) الآية ٥٥ من سورة يس.

ثم أمر نبيه بالإغلاظ على المنافقين، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ
وَهُمْ أَوَّامِلٌ فَلْيَنْبَأُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ
وَإِنْ يَسْتَوُوا يَعَذِّبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار﴾ بالسيف، ﴿والمنافقين﴾ باللسان؛ بالزام الحجة
وبإقامة الحدود؛ ما لم يظهر عليهم ما يدل على كفرهم، فإن ظهر عليهم ذلك فحكمهم كحكم الزنديق، فيقتل على
المشهور. ﴿واغلظ عليهم﴾ بالقول والفعل، إن استوجبوا ذلك، ولا تراقبهم، ﴿وماوهم جهنم وبئس المصير﴾
أى: المرجع، مصيرهم.

﴿يخلفون بالله ما قالوا﴾، روى: أنه ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرين، ينزل عليه القرآن، ويعيب المتخلفين،
فقال الجلّاس بن سويد: لئن كان ما يقول محمد في إخواننا حقاً لنحن شر من الحمير، فبلغ النبي ﷺ؛ فاستحضره،
فحلف بالله ما قال، فنزلت، فتأب الجلّاس وحسنت توبته (١).

قال تعالى: ﴿ولقد قالوا كلمة الكفر﴾، يعنى: ما تقدم من قول الجلّاس، أو قول ابن أبي: سَمْنُ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ،
أو: «لئن رجعنا إلى المدينة»... الآية. ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾؛ وأظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام، ولم يقل:
بعد إيمانهم؛ لأنهم يقولون بألسنتهم: آمنا، ولم يدخل في قلوبهم، ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ من قتل النبي ﷺ وهو:
أن خمسة عشر منهم توافقوا، عند مرجعه من تبوك، أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي، إذا وصل إلى العقبة بالليل،
فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها، وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هم كذلك إذ سمع حذيفة تقعقع أخفاف
الإبل وقعقة السلاح، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فهربوا (٢). أو: هموا بإخراجه من المدينة، أو إخراج
المؤمنين، أو هموا بأن يتوجوا عبد الله بن أبي، وإن لم يرض رسول الله ﷺ، فلم ينالوا شيئاً من ذلك.

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (باب مرجع النبي ﷺ من تبوك) عن عروة بن الزبير.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ٥/٥٣ عن أبي الطفيل. والبيهقي في الدلائل (باب رجوع النبي ﷺ من تبوك) عن عروة.

﴿ وما نَقَمُوا ﴾ أى: وما عابوا وكرهوا ﴿ إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ الذى حقهم أن يشكروا عليه، وذلك أن أكثر أهل المدينة كانوا محاريج، فى صنك من العيش، فلما قدمهم رسول الله ﷺ استغنوا بالغنائم، وقُتل للجلاس مولى، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثنى عشر ألفاً، فأعطيت له، فاستغنى.

﴿ فإن يتوبوا يك خيراً لهم ﴾، وهذا حمل الجلاس على التوبة، والضمير يعود على الرجوع المفهوم من التوبة، ﴿ وإن يتولوا ﴾ عنك؛ بالإصرار على النفاق، ﴿ يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة ﴾؛ بالقتل والنار، ﴿ ومالهم فى الأرض من ولي ولا نصير ﴾ ينجيهم من العذاب.

الإشارة: كفار الخصوصية على قسمين: قسم أظهروا الإنكار على أهلها، وقسم أبطنوه وأظهروا الوفاق، ففيهم شبه بأهل النفاق، فينبغى الإعراض عن الجميع، والاشتغال بالله عنهم، وهو جهادهم والإغلاظ عليهم، فعداوة العدو حقا هو اشتغالك بمحبة الحبيب حقاً. وقد تصدر عنهم فى جانب أهل الخصوصية مقالات ثم ينكرونها، وقد يهيموا بما لم ينالوا من إذايتهم وقتلهم، لو قدروا. والله يتولى الصالحين.

ونزل فى ثعلبة بن حاطب، قوله تعالى:

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِىْ ءَاتِنَا مِنْ فَضْلِهِ ؕ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴾ (٧٥) ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَتْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؕ بَخِلُوا بِهِ ؕ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٧٦) ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (٧٧) ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (٧٨)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومنهم من عاهد الله ﴾ وقال: ﴿ لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾، وهو ثعلبة بن حاطب، أتى النبی ﷺ وقال: ادع الله أن يرزقنى مالاً. فقال له النبی ﷺ: يا ثعلبة، قليل تودی شكره خير من كثير لا تطيقه. فراجعته، وقال: والذى بعثك بالحق، لئن رزقنى الله مالاً لأعطين كل ذى حق حقه، فدعا له، فاتخذ غنماً، فتمت كما تنمو الدود، حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً، وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه النبی ﷺ، فقيل: كثر ماله حتى لا يسعه واد، فقال: «يا ويح ثعلبة، فبعث له مصدقين لأخذ الصدقات؛ فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومروا بثعلبة فسألاه الصدقة، وأقرأه الكتاب الذى فيه الفرائض، فقال: ما هذه صدقة، ما هذه إلا أخت الجزية، فارجعا حتى أرى رأى، فنزلت فيه الآية، فجاء ثعلبة بالصدقة، فقال: إن الله منعنى أن أقبل منك، فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال له ﷺ: «هذا منك؛ فقد أمرتك فلم

تطعني»، فقُبض الرسول ﷺ، فجاء بها إلى أبي بكر، فلم يقبلها، ثم جاء بها إلى عمر في خلافته، فلم يقبلها منه، وهلك في زمن عثمان، بعد أن لم يقبلها منه (١).

وهذا معنى قوله: ﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به﴾ أي: منعوا حق الله منه، ﴿وتولوا﴾ عن طاعة الله، ﴿وهم معرضون﴾ أي: وهم قوم عادتهم الإعراض عنها، ﴿فأعقبهم﴾ أي: فأردفهم ﴿نفاقاً في قلوبهم﴾؛ عقوبة على العصيان بما هو أشد منه، أو فجعل الله عاقبة فعلهم ذلك نفاقاً متمكناً في قلوبهم وسوء اعتقاد. قال البيضاوي: ويجوز أن يكون الضمير للبخل، والمعنى: فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم ﴿إلى يوم يلقونه﴾، أي: يلقون الله بالموت، والمراد: يلقون جزاءه أو عقابه. وذلك ﴿بما أخلقوا الله ما وعدوه﴾ أي: بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصديق والصلاح، ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ أي: ويكونهم كاذبين فيه؛ فإن خلف الوعد متضمن للكذب، مستقبح من الوجهين.

﴿ألم يعلموا﴾ أي: المنافقون، أو من عاهد الله، ﴿أن الله يعلم سرهم﴾ أي: ما أسروا في أنفسهم من النفاق، ﴿ونجواهم﴾؛ ما يتناجون فيه، فيما بينهم، من المطاعن وتسمية الزكاة جزية، ﴿وأن الله علام الغيوب﴾؛ فلا يخفى عليه شيء من ذلك، والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الحكم العطائية: «من تمام النعمة عليك: أن يرزقك ما يكفيك، ويمنعك ما يطغيك». وقال أبو سعيد الخدري رحمه الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير الرزق ما يكفي، وخير الذكر الخفي» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم: «ما طلعت شمسٌ إلا وبجانبها مكان يناديان، يسمعان الخلائق: أيها الناس، هلموا إلى ربكم، ما قل وكفى خير مما كثر وألهى» (٣). وقال بعض العارفين: كل من لا يعرف قدر ما زوى عنه من الدنيا، ابتلى بأحد وجهين: إما بحرص مع فقر يتقطع به حشرات، أو رغبة في غنى تنسيه شكر ما أنعم به عليه.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٦٠/٨) والبيهقي في الدلائل (باب قصة ثعلبة بن حاطب ٩٠/٥) وابن جرير في التفسير (١٨٩/١٠). كذلك البغوي وغيره، كلهم عن أبي أمامة الباهلي، وذكر الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف: أن إسناد هذه القصة ضعيف جداً. راجع: الكافي الشاف (٢٩٢/٢) والإصابة (٤٠١/١) والحاوي للسيوطي (١٨٣/٢).

وثعلبة بن حاطب - المذكور في القصة شهد بدرًا. وقد قال ع: «لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية». وحكى ع عن رب العزة أنه قال لأهل بدر: «أعطوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فمن هذا شأنه، كيف يؤزل به الأمر إلى ما آل إليه ما نزلت فيه الآيات؟ وقد استشهد ثعلبة يوم أحد، وفي القصة المذكورة أنه هلك في عهد عثمان. وهذا دليل على أن القصة غير صحيحة أصلاً، راجع في هذا: الشهاب الناقب في الذب عن الصحابي ثعلبة بن حاطب..

(٢) أخرجه أحمد ١٧٢/١، عن سعد بن مالك. وأخرجه ابن حبان - بتقديم وتأخير - عن سعد بن أبي وقاص (الإحسان ٨٩/٢ ح ٨٠٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٩٧/٥) وابن حبان (٢٤٧٦ موارد) والحاكم (٤٤٥/٢)، وصححه ووافقه الذهبي كلهم عن أبي الدرداء. وقال الهيثمي (١٢٢/٣): رجاله رجال الصحيح.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ الْغِنَى بِكَثْرَةِ الْعَرَضِ، إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ». وغنى النفس عن الدنيا: شرف الأولياء المختارين، وعز أهل التقوى المؤمنين المحسنين. ولقد صدق قول الشاعر:

غِنَى النَّفْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ سَدِّ خَلَّةٍ فَإِنْ زِدْتَ شَيْئاً عَادَ ذَلِكَ الْغِنَى فَقَرَأَ.

وقد قيل: من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أعمى الله عينى قلبه. وقالت الجارية المجذونة لعبد الواحد بن زيد: يا عبد الواحد، اعلم أن العبد إذا كان في كفاية، ثم مال إلى الدنيا، سلبه الله حلاوة الزهد، فيظل حيراناً والهاً، فإن كان له عند الله تعالى نصيب، عاتبه وحيأ في سره، فقال: عبدي؛ أردت أن أرفع قدرك عند ملائكتي وحملة عرشي، وأجعلك دليلاً لأوليائي وأهل طاعتي في أرضي، فملت إلى عرض من أعراض الدنيا وتركتني؛ فورثتك بذلك الوحشة بعد الأنس، والذل بعد العز، والفقر بعد الغنى، عبدي؛ ارجع إلى ماكنت عليه، أرجع بك إلى ما كنت تعرفه. هـ. وقد تقدمت الحكاية. وفي بعض الكتب: إن أهون ما أصنع بالعالم، إذا مال إلى الدنيا أن أسلبه حلاوة مناجاتي. هـ.

ثم ذم المنافقين بعيب آخر، فقال:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩) ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠)

قلت: (الذين): مبتدأ حذف خبره، أي: منهم الذين، أو خبر عن مبتدأ، أو منصوب على الذم، أو بدل من ضمير سرهم. وأصل المطوعين: المتطوعين، فأدغمت التاء في الطاء، و(جهدهم): مصدر جهد في الأمر: بالغ فيه.

يقول الحق جل جلاله: ومنهم ﴿الذين يلمزون﴾ أي: يعيبون ﴿المطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾، روى أنه ﷺ حث على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف، فأقرضت ربي أربعة، وأمسكت لعيالي أربعة. فقال رسول الله ﷺ: «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أُعْطِيتَ وَفِيمَا أَمْسَكْتَ». فبارك الله له حتى صالحته إحدى زوجتيه عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم. وتصدق عاصم بن عدي بثمانية أوسق تمرأ، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره على تمر الصدقات،

فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياءً، ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل، فنزلت الآية (١).

ونزلت في أبي عقيل: ﴿والذين لا يجدون إلا جُهدَهُمْ﴾؛ إلا طاقتهم، ﴿فيسخرون منهم﴾؛ يستهزئون بهم. قال تعالى: ﴿سخر الله منهم﴾؛ جازاهم على سخريتهم، كقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (٢)، ﴿ولهم عذابٌ أليمٌ﴾ على كفرهم.

﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾، يريد به التساوى بين الأمرين فى عدم الإفادة، كما نص عليه بقوله: ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾، روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبي - وكان من خيار المسلمين - سأل رسول الله ﷺ، فى مرض أبيه، أن يستغفر له، ففعل، فنزلت: ﴿سواءٌ عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾ (٣)، وذلك لأنه - عليه الصلاة والسلام - فهم من السبعين العدد المخصوص، وقال: ولو علمت أنى إن زدت على السبعين غفر له، لزدت (٤)، فبين له أن المراد به التكثير، دون التحديد، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة فى التكثير؛ لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد، فكأنه العدد بأسره قاله البيضاوى.

﴿ذلك﴾ أى: عدم قبول استغفارك بسبب أنهم ﴿كفروا بالله ورسوله﴾ أى: ليس لبخل منا، ولا تقصير فى حقك، بل لعدم قابليتهم؛ بسبب الكفر الصارف عنها. ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾؛ المتمردين فى كفرهم، وهو كالدليل على الحكم السابق، فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر، والإرشاد إلى الحق، والمنهمك فى كفره، المطبوع عليه، لا ينقلع ولا يهتدى، والتنبية على عذر الرسول فى استغفاره، وهو عدم يأسه من إيمانهم، مالم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم؛ لقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ الآية (٥). قاله البيضاوى.

الإشارة: من نصب الميزان على المؤمنين فيما يصدر منهم، أو على الصالحين أو الأولياء فيما يظهر عليهم، حتى يسخر منهم، سخر الله منه، وأبعده من رحمته، فلا تلج فيه شفاعة الشافعين ولا استغفار المستغفرين. وفى

(٢) من الآية ١٥ من سورة البقرة.

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النزول (٢٦٠) عن قتادة.

(٣) من الآية ٦ من سورة المنافقون.

(٤) أخرجه بسياق آخر، البخارى فى (تفسير سورة التوبة) - ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر) عن ابن عمر.

(٥) الآية ١١٣ من سورة التوبة.

بعض الأخبار: «من تتبّع عورة أخيه المؤمن تتبّع الله عورته حتى يفضحه، ولو في جوف بيته». ومن اشتغل بإذابة الأولياء، ولم يتب، مات على سوء الخاتمة، وذلك جزاء من حارب الله - والعباد بالله -.

ثم ذكر تخلف المنافقين عن الجهاد، فقال:

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَلِيفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

قلت: (خلاف رسول الله): منصوب على الظرفية، أى: بعده، يقال: أقام خلاف الحي، أى: بعدهم، وقيل: مصدر خالف، فيكون مفعولاً لأجله، أو حال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ أى: الذين خلفهم الله عن الغزو، وأقعدهم عنه، ولذلك عبر بالمخلفين دون المتخلفين، فرحوا ﴿ بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾ أى: بعده فى غزوة تبوك، ﴿ وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ﴾؛ إيثاراً للراحة والدعة على طاعة الله ورسوله. وفيه تعريض بالمؤمنين الذين أثروا عليها تحصيل رضاه؛ ببذل الأموال والمهج، وأما المنافقون فأثروا الراحة وقعدوا، ﴿ وقالوا لا تنفروا فى الحر ﴾، قاله بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً لهم. قال ابن جزى: قائل هذه المقالة رجل من بنى سليم، ممن صعب عليه السفر إلى تبوك فى الحر. ﴿ قل نار جهنم أشد حراً ﴾، وقد أترتموها بهذه المخالفة، ﴿ لو كانوا يفقهون ﴾ أن مآلهم إليها، أو كيف هى؟... ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

﴿ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون ﴾، وهو إخبار عما يقول إليه حالهم فى الدنيا والآخرة، أى: سيضحكون قليلاً، ويبكون كثيراً؛ لما يرون من سوء العاقبة، وأتى به على صيغة الأمر؛ للدلالة على أنه حتم واجب وقوعه. قال ابن جزى: أمر بمعنى الخبر، فضحكهم القليل فى الدنيا مدة بقائهم فيها،

ويكاؤهم الكثير في الآخرة، أى: سيضحكون قليلاً في الدنيا، ويكون كثيراً في الآخرة، وقيل: هو بمعنى الأمر، أى: يجب أن يكونوا يضحكون قليلاً ويكون كثيراً في الدنيا، لما وقعوا فيه. هـ.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ أى: فإن رذك الله من الغزو إلى المدينة، وفيها طائفة من المتخلفين - يعني منافقيهم - وكانوا اثني عشر رجلاً ممن تخلف من المنافقين، وإنما لم يقل: إليهم؛ لأن منهم من تاب من النفاق، وندم على التخلف، ﴿فَاسْتَأْذِنَكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد تبوك، ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾؛ عقوبة لهم، وفيها خزي وتوبيخ لهم، ﴿إِنْكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، يعنى: عن تبوك، وهو تعليل لعدم خروجهم معه في المستقبل، ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أى: المتخلفين، أى: لعدم تأهلهم للجهاد كالنساء والصبيان.

الإشارة: من قل إيقانه، وضعف نور إيمانه، فرح ببقائه، مع متابعة هواه وتيسير أمور دنياه، وكره ارتكاب مشاق المجاهدة، واقتحام حر المخالفة والمكابدة، وثبط من رآه يروم تلك الوجهة، ويريد أن يتأهب لدخول ميدان تلك الحضرة؛ فسيندم قريباً، حين يفوز الشجعان بحضرة الوصال، ويتأهلون لمشاهدة الكبير المتعال، ولا ينفع الندم وقد زلت القدم، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى. ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (١). وبالله التوفيق.

ثم نهى نبيه عن الصلاة على المنافقين، فقال:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨٤) وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥)

قلت: (أبدأ): ظرف لمات، أى: مات فى مدة لا حياة بعدها؛ فإن حياة الكافر للتعذيب، وهى كلا حياة.

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ﴾ من المنافقين إذا مات على كفره، بحيث (مات أبداً) أى: موة لا حياة بعدها. نزلت فى عبدالله بن أبى راس المنافقين، فإنه لما مرض، دعا رسول الله ﷺ، فسأله أن يستغفر له ويكفنه فى ثوبه الذى يلى جسده، ويصلى عليه، فلما مات أرسل قميصه ليكفن فيه، وذهب ليصلى عليه، فنزلت. وروى أن رسول الله ﷺ لما تقدم للصلاة عليه جذب جبريل بثوبه، وتلى عليه الآية

(١) الآيات ١١ - ١٣ من سورة الواقعة.

فانصرف، ولم يصل عليه. وقيل: صلى عليه ثم نزلت. وفي البخاري: أن رسول الله ﷺ لما تقدم للصلاة عليه جذبته عمر، فقال: كيف تصلي عليه وقد نهاك ربك عن الصلاة على المنافقين؟ فقال: «إِنَّمَا خَيْرَنِي...» الحديث (١).

قال البيضاوي: وإنما لم ينه عن التكفين في قميصه، ونهى عن الصلاة عليه؛ لأن الضئنة بالقيص كانت مَحْذُومَةً بالكرم، ولأنه كان مكافأة لإلباس العباس قميصه حين أسر بهدر (٢)، والمراد من الصلاة: الدعاء للميت والاستغفار له، وهو ممنوع في حق الكافر، ولذلك رتب النهي على قوله: (مات أبداً)؛ يعني: الموت على الكفر، فإن إحياء الكافرين للتعذيب، دون التمتع، فكأنه لم يحيى هـ.

واستدل ابن عبد الحكم، بهذه الآية، على وجوب الصلاة على المؤمنين، وقرر اللخمي وجه الدليل منها بطريق النهي عن الشيء أمر بضده؛ لأن ضد النهي عن الصلاة أمر بها. وأبطله المازري قائلاً: وإنا هو من دليل الخطاب، ومفهوم المخالفة، وبيان عدم صحة كونها من باب النهي عن الشيء، أن شرط ذلك اتحاد متعلق الأمر والنهي، كقولك لزيد: لا تسكن، ومعناه تحرك، ومتعلقهما هنا مختلف، فمتعلق النهي: المنافقون، ومتعلق الأمر: المؤمنون. وكذا رد كونها دالة مفهوم المخالفة. انظر الحاشية الفاسية.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ أي: ولا تقف على قبره للدفن، أو الزيارة، ثم على النهي فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا﴾، والحال أنهم ﴿فَاسِقُونَ﴾؛ خارجون عن دائرة الإسلام.

ثم نهى عن الاغترار بمالههم فقال: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾، وقد تقدم، وإنما كرره؛ للتأكيد، وهو حقيق به، فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد، والنفوس مجبولة على حبهما، فكرر النهي عن الاغترار بهما، ويجوز أن تكون هذه في فريق آخر غير الأول. والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري في (الجدائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين) ومسلم في (فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر) وبتمام الحديث: «إِنَّمَا خَيْرَنِي اللَّهُ فَقَالَ: «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ...» الآية، وسأزيد على سبعين» فصل في صلى عليه رسول الله ﷺ، وأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾.

(٢) أخرجه البخاري في (الجهاد، باب الكسوة للأسارى) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما - قال: (لما كان يوم بدر أتى بالعباس، ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ له. قميصاً، فوجدوا قميص عبد الله بن أبي بكر عليه، فكساه النبي ﷺ إياه، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه).

الإشارة: إذا حصل للعبد القرب من الحبيب قربت منه الأشياء كلها، ورغبت في خلقه الملائكة والجن والإنس والروحانيون، فإذا مات صلت على جسده أجناد الأرض، وعلى روحه أجناد السماء، وفرحت بقدمه الملائكة والروحانيون، وربما شفعه الله في أهل عصره أجمعين، وإذا حصل للعبد البعد من ربه بعدت عنه الأشياء كلها، ورفضت جسده وروحه الجن والإنس والملائكة، فلا يصل عليه أحد، ولا يقف على قبره بشر، فالحذر الحذر من كل ما يبعد من حضرة الحبيب من المخالفات والإصرار على الزلات، فإنه بريد الكفر، الذي هو البعد الكبير. والعياذ بالله.. والبدار البدار إلى ما يقرب من الحبيب، من أنواع الطاعات، والمصارعة إلى الخيرات، وسائر الأخلاق الحسنة والشيم المستحسنة. وبالله التوفيق.

ثم أشار إلى تخلفهم عن الجهاد مع قدرتهم عليه، فقال:

﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾، أو بعضها، في شأن الجهاد قائلة: ﴿أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ وحده، ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ ﷺ، ﴿اسْتَأْذَنَكَ﴾ في التخلف ﴿أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي: أولوا الغنى والسعة، ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾؛ الذين قعدوا لعذر، ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾؛ مع النساء، جمع خالفة، وقد يقال: الخالفة؛ للذي لا خير فيه. ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بالكفر والنفاق، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما في الجهاد وموافقة الرسول من السعادة، وما في التخلف عنه من الشقاوة.

﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي: إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا، فقد جاهد من هو خير منهم، ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾؛ منافع الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة. وقيل: الحور، لقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ (١)، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ الفائزون بالمطالب

(١) الآية ٧٠ من سورة الرحمن.

البهية والمراغب السنية. ﴿أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾؛ بيان لبعض الخيرات الآخروية.

الإشارة: إذا ظهر الدعاة إلى الله يُشوقون الناس إلى حضرة الله؛ ترى من صُرِفَ عنه عَنَانُ العناية، ولم يضرب له مع السابقين بسهم الهداية، يميل إلى التقاعد إلى وطن الراحة، والميل إلى ما ألفه من سيىء العادة، يستأذن أن يتخلف مع النساء والصبيان، ويتنكب طريق الأقوياء من الشجعان، فإن تخلف هذا مع عوام الضعفاء فقد تقدم لهذا الأمر من يقوم به من الأقوياء، اختارهم الله لحضرته، وقواهم على مكافحة مشاهدته ومحبتته، جاهدوا نفوسهم فى معرفة محبوبهم، وبذلوا أموالهم ومهجهم فى الوصول إلى مطلوبهم، (وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون).

ثم ذكر اعتذار الأعراب، فقال:

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

قلت: (المُعَذِّرُونَ): أصله: المعتذرون، نقلت حركة التاء إلى العين، وأدغمت التاء فى الذال. وقرأ يعقوب: «المُعَذِّرُونَ»: اسم مفعول، من أعذر، إذا بالغ فى العذر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وجاء المُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ يعتذرون فى التخلف عن الغزو؛ ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ فى القعود، قيل: هم أسد وغطفان؛ استأذنوا فى التخلف؛ معتذرين بالجهد وكثرة العيال. قيل: كاذبين، وقيل: صادقين. وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك غارت طيىء على أهالينا ومواشينا، وقيل: نزلت فى قوم من غفار. ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ من غير هؤلاء، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا فى تخلفهم، فكذبوا فى دعواهم الإيمان بالله ورسوله، يقال: كذبت فلاناً - بالتخفيف، أى: أخبرته بالكذب. ثم ذكر وعيدهم فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ فى الدنيا بالقتل، وفى الآخرة بالنار.

الإشارة: المتخلفون عن طريق الخصوص على ثلاثة أقسام:

قسم: أقروا بها، وعرفوا صحتها، ثم شحوا بأنفسهم وبخلوا بأموالهم، فاعتذروا فى التخلف عنها بأعذار باطلة، فهؤلاء لا حجة لهم عند الله، وقوم أقبح منهم، لم يلتفتوا إلى من جاء بها ولم يرفعوا بذلك رأساً. قال تعالى فى مثلهم: ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقسم: أقرؤا بها، وطلبوا الدخول فيها، لكن غلبتهم الأقدار، وأظهروا غاية الاعتذار، وتحقق عذرهم عند الواحد القهار، واليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قلت: جواب «إذا» يحتمل أن يكون (تولوا)، وجملة (قلت): حال من الكاف فى (أتوك)، أى: أتوك قائلاً: لأجد... إلخ، ويحتمل أن يكون الجواب: «قلت»، و(تولوا) استئناف لبيان حالهم حينئذ، و(من الدمع): للبيان، وهى، مع المجرور، فى محل نصب على التمييز، فهو أبلغ من تفيض دمعها؛ لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فياضاً، و(حزناً): علة، أو حال، أو مصدر لفعل دل عليه ما قبله، و(ألا يجدوا): متعلق به، أى: حزناً على ألا يجدوا ما ينفقون، و(إنما السبيل): راجع لقوله: (ما على المحسنين من سبيل).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ليس على الضُّعَفَاءِ﴾؛ كالهزيمى، ﴿ولا على المرضى﴾؛ كالزمنى ومن أضناه المرض، ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ فى الغزو ﴿خرج﴾ أى: لا حرج على هؤلاء فى التخلف عن الغزو، ﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾ بالإيمان والطاعة فى السر والعلانية. قيل: نزلت فى بنى مكرن، وهم ستة أخوة صحبوا النبى ﷺ، وقيل: فى عبدالله بن مغفل.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ أى: ليس عليهم جناح، ولا إلى معاتبتهم سبيل، وإنما وضع المحسنين موضع المضمرة؛ للدلالة على أنهم منخرطون فى سلك المحسنين، غير معاتبين فى ذلك، ﴿والله غفور رحيم﴾ بالمسيء فكيف بالمحسنين؟ ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ معك إلى الغزو، وهم البكاؤون؛ سبعة من الأنصار: معقل بن يسار، وصخر بن خنساء، وعبدالله بن كعب، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة^(١)، (١) فى الأصل: خثمة.

وعبدالله بن مَعْقِل^(١)، وعليه بن زيد. أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المَرْقُوعَة، والنعال المَخْصُوفَة، نغزوا معك، فقال: لا أجد، فتولوا وهم يبيكون^(٢). وقيل: هم بنو مَقَرَن، وقيل: أبو موسى وأصحابه، وعليه اقتصر البخارى.

﴿ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾؛ وليس عندى ما أحملكم عليه، ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ عنك ﴿ وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ أى: يفيض دمعها؛ ﴿ حَزَنًا ﴾ على ﴿ أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ فى غزوهم.

زاد البخارى: فلما رجع أبو موسى وأصحابه، أتى - عليه الصلاة والسلام - بنهب إيل^(٣)، فدعاهم وحملهم عليها، فقالوا: يا رسول الله، إِنَّكَ حَلَفْتَ أَلَّا تَحْمِلَنَا، فحَفْنَا أَنْ نَكُونَ أَغْفَلْنَاكَ يَمِينِكَ، فقال: « ما أنا حملتكم، ولكن الله حملكم، وإِنِّى وَاللَّهِ، مَا أَحْلَفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا كَفَرْتُ عَنْ يَمِينِى وَأَتَيْتُ الَّذِى هُوَ خَيْرٌ »^(٤). أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾ أى: الحرج والمعاتبة ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ فى القعود، ﴿ وَهُمْ أَغْنَاءُ ﴾؛ واجدون للأهبة، ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾؛ كالنساء والصبيان، وهو استئذان لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر، وهو رضاهم بالدناءة، والانتظام فى جملة النساء والصبيان؛ إثارة للدعة والكسل، ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ بالكفر والغفلة؛ حتى غفلوا عن وخامة العقوبة، ﴿ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما يؤول إليه حالهم من الندم والأسف.

الإشارة: كل من لم ينهض إلى صحبة الخصوص؛ الذين جعلهم الله أدوية القلوب، توجه العتاب إليه يوم القيامة، إذ لا يخلو من لم يصحبهم من عيب أو نقص أو خاطر سوء، حتى ربما يلقي الله بقلب سقيم.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رَحِمَهُ اللهُ: من لم يتغلغل فى علمنا هذا، مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر. وقال الغزالى: دواء القلوب واجب عيناً على كل مسلم، فكل من قصر فى ذلك عوقب يوم القيامة، إلا من حبسه عذر صحيح: من مرض مزمن، أو كبر سن، أو فقر مدلق. قال تعالى: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله)، فإن أحبوا أولياء الله، وصدقوهم وعظموهم، ودلوا الناس على صحبتهم، فهؤلاء محسنون، (ما على المحسنين من سبيل والله غفور) لضعفهم، (رحيم) بهم.

(١) فى الأصول: معقل.

(٢) أخرجه الطبرى فى التفسير (١٤٦/١٠) وذكره الواحدى فى الأسباب (٢٦٢) عن محمد بن كعب القرظى.

(٣) نهب أى: غنيمته. (٤) أخرجه البخارى فى (المغازى، باب قدوم الأشعرين وأهل اليمن).

وقال الورعجى: (إذا نصحووا لله ورسوله) أى: إذا عرفوا عباد الله طريق الله، والأسوة بسنة رسوله الله. هـ. وقد قال الحواريون: ياروح الله، ما النصيحة لله؟ قال: تقديم حق الله على حق الناس. هـ. ولا حرج أيضا على من لم يجد ما ينفق على الأشياخ من الأموال، فإن من أعطى نفسه كفته عن إعطاء المال. قال تعالى: (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) إلى الحضرة (قلت لا أجد ما أحملكم عليه)؛ فإن بذل الأموال مع المهج أنهض من أحدهما، (تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون)؛ ليتحببوا به فى قلوب المشايخ. قال بعض المشايخ: أردنا أن نجعل من يسوق مع من لا يسوق على حد سواء، فلم يعتدلوا. هـ.

وقوله تعالى: (حزناً ألا يجدوا ما ينفقون)، ليس حزنهم على فوات الدنيا، وإنما حزنهم على تخلفهم عن رسول الله، وعن صحبة أهل الكمال. وقال القشيري: شق عليهم أن يكون على قلب الرسول - عليه الصلاة والسلام - منهم، أو بسببهم، شغل، فتمنوا أن لو أزيحت علتهم، لا ميلاً إلى الدنيا؛ ولكن للآل يعود إلى قلب الرسول من فطهم كراهة، ولقد قيل:

مَنْ عَفَّ خَفَّ عَلَى الصَّدِيقِ لِقَاؤُهُ وَأَخْرَجَ الْهَوَانِجَ وَجْهَهُ مَمْلُوءٌ. هـ (١)

ولما رجع - عليه الصلاة والسلام - من غزوة تبوك، جاء المنافقون يعتذرون بالأعذار الكاذبة، ففضحهم الله بقوله:

﴿بَعَثَرُوتَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

(١) فى القشيري: (مُفَجِّجٌ مَمْلُوءٌ) قلت: والبيت ورد غير منسوب فى عيون الأخبار (٣/ ١٩١) وورد: (أنشد ثعلب) فى أدب الدنيا والدين (٣٣٨).

قلت : مفعول (نبأ) الثانى : محذوف، أى: نبأنا جملة من أخباركم، و(جزاء) : مصدر لمحذوف، أى: يجازون جزاء، أو علة، أى: للجزاء بما كسبوا.

يقول الحق جل جلاله : ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ يعنى: المنافقين، ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من نبوك، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ بالمعاذير الكاذبة؛ لأنه ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أى: لن نصدقكم فيها؛ لأنه ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾؛ أعلمنا بالوحى، على لسان نبيه ﷺ، ببعض أخباركم، وهو ما فى ضمائركم من الشر والفساد.

﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ : هل تتوبون من الكفر، أم تثبتون عليه؟ وكأنه استتابة وإمهال للتوبة، ﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وهو الله، والأصل: ثم تردون إليه؛ فوضع هذا الوصف موضع الضمير؛ للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلاانيتهم، لا يعزب عن علمه شىء من ضمائرهم وأعمالهم، ﴿فَيَنْبِئُكُمْ﴾ أى: يخبركم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ بالتوبيخ والعقاب عليه.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من غزوكم؛ ﴿لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أى: عن عتابهم، ﴿فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾؛ لا تريخوهم؛ ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾؛ لخبث قلوبهم لا ينفع فيهم التأنيب، فإن المقصود من العتاب: التطهير بالحمل على الإنابة، وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علة للإعراض وترك المعاتبة، ﴿وَمَا وَاهِمُ جَهَنَّمَ﴾ أى: منقلبهم إليها، والمعنى: أن النار كفتهم عتاباً، فلا تتكلفوا عتابهم، وذلك ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والنفاق.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ﴾ بحلفهم، فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم من الستر والإرفاق، وإشراكهم فى الغنائم، ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ بذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: فإن رضاكم لا يستلزم رضى الله، ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا فى سخط الله ويصدد عقابه، أو إن أمكنهم أن يلبسوا عليكم لا يمكنهم أن يلبسوا على الله؛ فإنه يهتك سترهم وينزل الهوان بهم. والمقصود من الآية: النهى عن الرضا عنهم والاعتذار بمعاذيرهم، بعد الأمر بالإعراض عنهم وعدم الالتفات نحروهم. قاله البيضاوى.

الإشارة: قد يظهر لهذه الطائفة منافقون، إذا ظهر على أهل الله عز أو نصر جاءوا يعتذرون عن تخلفهم عنه، ويحلفون أنهم على محبتهم؛ فلا ينبغى الاعتذار بشأنهم، ولا مواجهتهم بالعتاب؛ بل الواجب الإعراض عنهم والغيبة فى الله عنهم، فسيرى الله عملهم ورسوله، ثم يردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤهم بما كانوا يعملون.

ثم ذكر منافقى البادية، فقال:

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۗ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سِوَىٰ خُلُوفِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿الْأَعْرَابُ﴾، وهم سكان البادية، قال ابن عزيز: يقال: رجل أعرابي، إذا كان بدويًا. وإن لم يكن من العرب، ورجل عري، إذا كان منسوباً إلى العرب، وإن لم يكن بدويًا. أهل البوادي من المنافقين هم ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحاضرة، وذلك لتوحشهم وقساوتهم، وعدم مخالطتهم لأهل العلم، وقلة استماعهم للكتاب، ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أى: أحق ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ من الشرائع وقرائنها وسننها، لبعدهم عن مجالس العلم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ يعلم كل واحد من أهل الوبر والمدر، حكيم فيما يدبر من إسكان البادية، أو الحاضرة، ويختار لكل واحد بحكمته البالغة ما يليق به، وسيأتى بقية الكلام على سكنى الحاضرة أو البادية فى الإشارة، إن شاء الله.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ أى: يعد ﴿مَا يُنْفِقُ﴾ من الزكاة وغيرها فى سبيل الله، ﴿مَغْرَمًا﴾ أى: غرامة وخسرانا؛ إذ لا يحتسبه عند الله، ولا يرجو عليه ثواباً، وإنما ينفقه لرياء أو تقية، فيثقل عليه ثقل المغرم الذى ليس بحق، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أى: دوائر الزمان ونوبه، أو ينتظر بكم مصائب الزمان، لينقلب الأمر عليكم؛ فيتخلص من الإنفاق الذى كلف به.

قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾، وهو دعاء عليهم بنحو ما يتربصونه - أى: عليهم يدور من الدهر ما يمسوهم - أو جعل الله دائرة السوء نازلة بهم. قال ابن عطية: كل ما كان بلفظ دعاء من جهة الله - عز وجل - فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء؛ لأن الله تعالى لا يدعو على مخلوقاته وهى فى قبضته، ومن هذا قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (١)، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (٢)، وهى كلها أحكام تامة تضمنها خبره تعالى هـ. أو إخبار عن

(١) الآية الأولى من سورة الهمزة.

(٢) الآية الأولى من سورة المطففين.

وقوع ما يتربصونه عليهم. قال البيضاوى: الدوائر فى الأصل: مصدر أضيف إليه السوء؛ للمبالغة، كقولك: رجلٌ صدق. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «السوء» هنا، وفى الفتح (١) بضم السين. هـ. ﴿والله سميعٌ﴾ لما يقولونه عند الإنفاق، ﴿عليمٌ﴾ بما يضمرونه من الرياء وغيره.

ثم ذكر ضدّهم، فقال: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويتخذ ما ينفق﴾ أى: يعد ما ينفقه من الزكاة وغيرها ﴿قرباتٍ عند الله﴾؛ تقربهم إليه زلفى؛ لإخلاصهم فيها. ﴿وصلواتِ الرسول﴾ أى: ويتخذ ما ينفق سببَ صلوات الرسول؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - كان يدعو للمتصدقين، ويقول: اللهم صل على فلان، ويستغفر لهم. ولذلك من للمصدق عليه أن يدعو للمتصدق عند أخذ صدقته، لكن ليس له أن يصلّى عليه، كما كان يفعل ﷺ؛ لأن ذلك منصبه، فله أن يتفضل به على غيره.

﴿ألا إنها﴾ أى: نفقاتهم، ﴿قربةٌ لهم﴾ تقربهم إلى حضرة ربهم، وهذا شهادة من الله لصحة معتقدهم وكمال إخلاصهم، ﴿سيدخلهم الله فى رحمته﴾، وعد من الله لهم بإحاطة الرحمة بهم، أو سيدخلهم فى جنته التى هى محل رحمته وكرامته، والسين لتحقيق وقوعه. ﴿إن الله غفور رحيم﴾؛ يغفر ما فرط من الخلل، ويتفضل برحمته على ما نقص عن درجات الكمال. قيل: إن الآية الأولى نزلت فى أسد وغطفان وبنى تميم؛ فهم الذين يتخذون ما ينفقون مغرماً. والثانية نزلت فى عبد الله ذى البجادين وقومه؛ فهم الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله وصلوات الرسول. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد ورد الترغيب فى سكنى المدن؛ لأنها محل العلم وسماع الوعظ، وفيها من يستعان بهم على الدين، وورد الترغيب أيضاً فى سكنى الجبال والفرار بالدين من الفتن، وخصوصاً فى آخر الزمان. ولهذا اختار كثير من الصحابة والتابعين سكنى البوادي؛ كأبى ذر، وسلمة بن الأكوع، وغيرهما - رضى الله عنهم -.

والتحرير فى المسألة: أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والمقاصد، فمن كان مراده تحقيق الشريعة، وتحرير مسائل العلم الظاهر، والقيام بوظائف الدين، ولم يجد فى البادية من يعينه على ذلك؛ فسكنى المدن أفضل له، ومن كان مراده تصفية قلبه وتحقيق علم الطريقة، وتهينة القلب لإشراق أنوار الحقيقة، فالاعتزال فى البوادي، وقرون الجبال، أوفق له، إن وجد من يستعين بهم على ذلك؛ لأن شواغل المدن وعوائدها كثيرة، وقد كثرت فيها الحظوظ والأهوية؛ فلا تجد فيها إلا من هو مفتون بدنيا أو مبتلى بهوى، بخلاف أهل البادية، هذه العوائد فيهم قليلة، وجلّ أهلها على الفطرة.

وأيضاً: هم مفتقرون إلى من يسوسهم بالعلم أكثر من غيرهم، فمن تصدى لتعليمهم وتذكيرهم لا يعلم قدره إلا الله. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمته الله: [أرحم الناس بالناس: من يرحم من لا يرحم نفسه]. أى: من يرحم

(١) فى قوله تعالى: «ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء...» الآية ٦ من سورة الفتح.

الجاهل الذى لا يرحم نفسه؛ بأن يعلمه ما ينفع به نفسه ويرحمها. وقال الغزالى فى الإحياء: يجب على العلماء أن يبعثوا من يعلم الناس فى البوادر؛ فإن أخلوا بذلك الأمر عاقبهم الله، فمن تعرض لتعليمهم قام بهذا الواجب. والله تعالى أعلم. وأما ما يذكر حديثاً: «أمتى فى المدن، وقليل فى البادية»، فلم يصح، بل قال - عليه الصلاة والسلام - للرجل الذى أراد أن ينتقل إلى المدينة: «اعبد الله حيثما كنت، فإن الله لن يترك من أعمالك شيئاً». وكذلك قوله: إذا أراد الله بعبد خيراً نقله من البادية إلى الحاضرة؛ لم أقف عليه حديثاً. وبالله التوفيق.

ثم ذكر فضل السابقين إلى الإسلام، فقال:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

قلت: (السابقون): مبتدأ، (والذين اتبعوهم): عطف عليه، وجملة (رضى الله عنهم): خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿والسابقون الأولون﴾ إلى الإسلام ﴿من المهاجرين﴾؛ وهم الذين صلوا إلى القبلتين، أو الذين شهدوا بدرأ، أو الذين أسلموا قبل الهجرة، ﴿و﴾ من ﴿الأنصار﴾؛ وهم أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة، أو أهل العقبة الثانية، وكانوا سبعين، أو الذين أسلموا حين قدم عليهم مصعب بن عمير.

﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾؛ اللاحقين بالسابقين من الفريقين، أو من الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة، ﴿رضى الله عنهم﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم، ﴿ورضوا عنه﴾ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية، ﴿وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾ وقرأ ابن كثير: «من تحتها»، كما هى فى مصحف أهل مكة. ﴿خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ أى: الفلاح الدائم الكبير.

الإشارة: لكل زمان سابقون، قد شمروا عن ساق الجد والاجتهاد، ورفضوا كل ما يقطعهم عن محبوبهم من العشائر والأولاد، قد خرقوا عوائد أنفسهم، فأبدلوا العز بالذل، والجاه بالخمول، والغنى بالفقر، والرفعة بالتواضع، والرغبة بالزهد، وشغل الظاهر بالتفرغ؛ ليتفرغ بذلك الباطن. وسافروا فى طلب محبوبهم، وصحبوا المشايخ، وخدموا الإخوان، حتى ارتفعت عنهم الحجب والأسرار، وتمتعوا بمشاهدة الكريم الغفار؛ فتهيئوا لتذكير العباد، وحيث بهم الأقطار والبلاد. وفى مثلهم يقول الشاعر:

تَحْيَا بِكُمْ كُلُّ أَرْضٍ تَنْزِلُونَ بِهَا كَأَنَّكُمْ فِي بِقَاعِ الْأَرْضِ أَمْطَارٌ
وَتَشْتَهِي الْعَيْنُ فِيكُمْ مَنَظَرًا حَسَنًا كَأَنَّكُمْ فِي عُيُونِ النَّاسِ أَقْمَارٌ.

(فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون).

ثم ذكر بقية من المنافقين، فقال:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ
لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٠١﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن حولكم﴾ يا أهل المدينة، ﴿من الأعراب منافقون﴾ ساكنون حولكم، وهم: جهينة، ومزينة، وأسلم، وغفار، وأشجع، كانوا نازلين حول المدينة، أما أسلم وغفار فتابوا، ودعا لهم - عليه الصلاة والسلام - فقال: «أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها» وأما الباقي فأسلم بعضهم.

قال تعالى: ﴿ومن أهل المدينة﴾ قوم ﴿مردوا﴾ أى: استمروا ﴿على النفاق﴾، واجترأوا عليه، وتمرنوا وتمهروا فيه، ﴿لا تعلمهم﴾ أى: لا تعرفهم يا محمد بأعيانهم، وهو بيان لمهارتهم وتنوقهم فى تحرى مواقع التهم إلى حد قد خفى عليك حالهم، مع كمال فطنتك وحذق فراستك، ﴿نحن نعلمهم﴾، ونطلع على أسرارهم، إن قدروا أن يلبسوا عليك فلا يقدرون أن يلبسوا علينا، ﴿سنعذبهم مرتين﴾ بالفضيحة والقتل، أو بأحدهما وعذاب القبر، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان فى الحرب، أو بإقامة الحدود وعذاب القبر، أو بتسليط الحمى عليهم مرتين فى السنة، ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ بعد الموت، وهو عذاب النار.

الإشارة: قد جعل الله - سبحانه - بحكمته وقدرته، فى كل عصر وأوان بحرین: بحرأ من النور وبحرأ من الظلمة، من عصر النبى ﷺ إلى قيام الساعة، فلا بد فى كل عصر من نور وظلمة، وإيمان وكفران، ونفاق وإخلاص، وصفاء وخوض، فأهل النور نورهم فى الزيادة إلى قرب قيام الساعة، وأهل الظلمة كذلك، إذ لا تعرف الأشياء إلا بأضدادها، ولا يظهر شرف النور إلا بوجود الظلمة، ولا شرف الصفاء إلا بوجود الخوض، ولا فضل العلم إلا بوجود الجهل، وهكذا جعل الله من كل زوجين اثنين، ليقع الفرار إلى الواحد الحق، فمن رام انفراد أحدهما فى الوجود فهو جاهل بحكمة الملك الودود. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر من كمل صفاؤه من السابقين، ومن كمل خوضه من المنافقين، ذكر من جمع بين الصفاء والخوض، فقال:

﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ قوم ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾؛ وهو التخلف عن الجهاد، ولم يعتذروا عن تخلفهم بالأعذار الكاذبة، وهم طائفة من المتخلفين لما بلغهم ما نزل في المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد، وقالوا: لا نحل أنفسنا حتى يحلنا رسول الله ﷺ، فلما قدم رسول الله ﷺ دخل المسجد، فصلى فيه ركعتين، على عادته، فرآهم وسأل عنهم، فذكر له سببهم، فنزلت الآية فأطلقهم (١).

﴿خلطوا عملاً صالحاً﴾ بعمل سيئ ﴿وآخر سيئاً﴾ بعمل صالح، خلطوا العمل الصالح الذى هو إظهار الندم والاعتراف بالذنب، بآخر سيئ وهو التخلف وموافقة أهل النفاق، أو خلطوا عملاً صالحاً، وهو ما سبق لهم من الجهاد مع الرسول، وغيره من الأعمال، بآخر سيئ، وهو تخلفهم عن تبوك. ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ أى: يقبل توبتهم المدلول عليها بقوله: ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾، والرجاء فى حقه تعالى واجب. ﴿إن الله غفور رحيم﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليهم.

قال بعضهم: ما فى القرآن آية أرجى لهذه الأمة من هذه الآية. وقال القشيري: قوله: ﴿وآخر سيئاً﴾ بعد قوله: ﴿عملاً صالحاً﴾، دليل على أن الزلة لا تحبط ثواب الطاعة؛ إذ لو أحبطته لم يكن العمل صالحاً، وهو كذلك. انتهى. قلت: وما ذكره من عدم الإحباط هو مذهب أهل السنة، خلافاً للمعتزلة، ولا يعارضه حديث مسلم: «أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله قال: من الذى يتألى (٢) على ألا أغفر لفلان، وإنى غفرت له وأحبطت عمله (٣) أو كما قال؛ لأن هذا الرجل كان من بنى إسرائيل، ولعل شرعهم مخالف لشرعنا؛ لأن هذه الأمة المحمدية قد وضع الله عنها أنقال بنى إسرائيل، فهى ملة سمحة، ولعل هذا الرجل أيضاً كان قانطاً من رحمة الله ومكذباً بها، فهو كافر. انظر الحاشية الفاسية.

الإشارة: الناس ثلاثة: سابقون ومخلطون ومنهمكون. فالسابقون فائزون، والمخلطون راجون، والمتهمكون هالكون، إلا من تاب وعمل صالحاً، فالسابقون هم الذين غلب إحسانهم على إساءتهم، وصفاءهم على كدرهم، إن هفوا رجعوا قريباً، فقد تمر عليهم السنين الطويلة ولا يكتب عليهم ملك الشمال شيئاً؛ وذلك ليقظتهم، لا لعصمتهم،

(١) أخرجه البيهقي فى الدلائل (باب حديث أبى لبابة وأصحابه ٥/٥٧٢) وابن جرير فى التفسير (١١/١٠) عن ابن عباس - رضى الله عنه.

(٢) يتألى: يحلف. والآلية: اليمين.. انظر النهاية (ألى ١/٦٢).

(٣) أخرجه مسلم فى (البر والصلة، باب النهى عن تقليد الإنسان من رحمة الله) من حديث جندب - رضى الله عنه.

والمخلطون هم الذين يكثر سقوطهم ورجوعهم، عسى الله أن يتوب عليهم. والمنهمكون هم المصرون على الفواحش، فإن سبقت لهم عناية رجعوا، وإن لم تسبق لهم عناية فهم معرضون لنقمة الله وحلمه. والله تعالى أعلم. ولما تاب الله على المتخلفين، وأطلقهم رسول الله ﷺ من الوثاق، قالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا التي خلفتنا، خذها فتصدق بها وطهرنا، فقال عليه الصلاة والسلام: «مَا أَمَرْتُ أَنْ أَخْذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئاً». فأنزل الله فى ذلك:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، لنبيه - عليه الصلاة والسلام: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ التى عرضوها عليك، ﴿ صَدَقَةً ﴾، وهو الثلث، فأخذ عليه الصلاة والسلام من أموالهم الثلث، وترك لهم الثلثين، أو: خذ من أموالهم صدقة، وهى الزكاة المفروضة، والضمير لجميع المسلمين. من صفة تلك الصدقة: ﴿ تُطَهِّرُهُمْ ﴾ أنت يا محمد بها من الذنوب، أو حب المال المؤدى بهم إلى البخل، الذى هو أقبح الذنوب. وقرئ بالجزم؛ جواب الأمر.

﴿ وَتُزَكِّيهِمْ ﴾ أى: تنمى بها حسناتهم، أو ترفعهم ﴿ بها ﴾ إلى درجات المخلصين، ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: ترحم عليهم، وادع لهم بالرحمة، فكان عليه الصلاة والسلام يقول لمن أتاه بصدقته: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلَانٍ». فأتى أبو أوفى بصدقته فقال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى» (١).

﴿ إِنْ صَلَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾؛ تسكن إليها نفوسهم، وتطمئن بها قلوبهم، لتحققهم بقبول دعائه عليه الصلاة والسلام. قال القشيري: انتعاشهم بهمتك معهم أتم من استقلالهم بأموالهم. هـ. وجمع الصلوات؛ لتعدد الموعد لهم، وقرأ الأخوان وحفص بالتوحيد. ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى: سميع باعترافهم عليم بندامتهم.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ إذا صحت، والضمير إما للتوب عليهم، والمراد أن يمكن فى قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقته، أو لغيرهم، والمراد به التحضيض على التوبة، ﴿ وَ ﴾ أنه هو الذى يأخذ الصدقات؛ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدى بدله، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ أى: من شأنه قبول توبة التائبين، والمتفضل عليهم بجروده وإحسانه.

(١) أخرجه البخارى فى (الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة) ومسلم فى (الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقته) من حديث عبدالله بن أبى أوفى.

الإشارة: أخذ المشايخ من أموال الفقراء سبب فى غناهم، واتساع حالهم حساً ومعنى، وقد قالوا: إذا أراد الله أن يغنى فقيراً سلط عليه ولياً يأخذ ماله، أو أمره شيخه بإعطاء ماله، فإن ذلك عنوان على غناه. وقد ذكر ذلك شيخ أسياننا سيدى على الجمل العراني فى كتابه. وقد رأيت فى مناقب شرفاء وزان: أن الشيخ مولاي التهامي أرسل إلى أخيه مولاي الطيب، وكان من خواص تلامذته، أن يدفع إليه جميع ماله ليصنع به كسوة للمرابطين، فأرسل له جميع ما يملك، حتى كسوة الدار وأثاث البيت، فكان ذلك سبباً فى فيضان ماله، فلا تجد مدينة ولا قبيلة إلا وفيها ملك من أملاك مولاي الطيب، حتى إلى بلاد الجزائر وما والاها، وذلك بسبب تجارة شيخه له. والله تعالى أعلم.

ثم هدد أهل التخليط، فقال:

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ١٠٥

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقل اعملوا﴾ ما شئتم من خير أو شر، ﴿فسيرى الله عملكم﴾؛ فإنه لا يخفى عليه؛ خيراً كان أو شراً، ﴿وسيرى ذلك أيضاً﴾ رسولُهُ والمؤمنون، فيظهر لهم ما يبدو منكم، فإن الطول يفضح صاحبه. ﴿وستردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾؛ بالموت، ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾؛ فيخبركم بما عملتم؛ بالمجازاة عليه.

الإشارة: كل من ظهر بدعوى أو تعرض لمقام من المقامات يقال له: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)، فإن كان أمره مبدئياً على أساس الإخلاص والتقوى ثبت وانتهض، وشعشع نوره، وإن كان مبدئياً على غير أساس، افتضح وكسف نوره، وسيرد الجميع إلى عالم الغيب والشهادة، فيجازى كلأ بعمله.

ثم نزل فى شأن الثلاثة الذين خلفوا قوله تعالى:

﴿ وَآخَرُونَ مَرْجُونٌ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ١٠٦

قلت: الإرجاء هو التأخر، يقال: أرجاه - بالهمز وتركه -: أخره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وآخرون﴾ من المتخلفين، تخلفوا من غير عذر، ولم يعتذروا بشيء، ﴿مَرْجُونٌ﴾ أى: مؤخرون ﴿لأمر الله﴾ فى شأنهم؛ ﴿إما﴾ أن ﴿يعذبهم﴾ على تخلفهم عن الجهاد مع

رسوله، ﴿وإما﴾ أن ﴿يتوب عليهم﴾ حيث تابوا وندموا، والترديد باعتبار العباد، وفيه دليل على أن كلا الأمرين بإرادته تعالى، ﴿والله عليم﴾ بأحوالهم، ﴿حكيم﴾ فيما فعل بهم.

والمراد بهؤلاء الثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرة بن الربيع، أمر رسول الله ﷺ الناس ألا يسلموا عليهم ولا يكلموهم، فلما رأوا ذلك أخلصوا نياتهم، وفوضوا أمرهم إلى الله، فرحمهم^(١)، وسيأتى تمام قصتهم وتوبة الله عليهم بعد، إن شاء الله.

الإشارة: وآخرون مؤخرون عن صحبة المشايخ العارفين، حتى ماتوا مفروقين، إما أن يعذبهم على ما أصروا من المساوىء والذنوب، وإما أن يتوب عليهم بفضلهم وكرمه، إنه عليم لا يخفى عليه ما أسروا، حكيم فيما قضى عليهم من أمر الحجاب بعدله وقضائه.

ثم ذكر أهل مسجد الضرار، فقال:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يُشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

قلت: قرأ نافع وابن عامر: بغير واو^(٢)؛ مبتدأ حذف خبره، أى: معذبون، أو فى: (لا تقم فيه أبداً)، أو فى قوله: (لا يزال)، أو صفة لقوله: (وآخرون)، على من يقول: إن المرجون، غير الثلاثة المخلفين، بل فى المنافقين الذين كانوا معرضين للتوبة مع بنيانهم مسجد الضرار. ومن قرأ بالواو فعطف على قوله: (آخرون)، أو مبتدأ حذف

(١) أخرج قسطنطيم البخارى فى (المغازى، باب حديث كعب بن مالك) ومسلم فى (التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك) من حديث عبدالله بن كعب عن أبيه.

(٢) فى قوله تعالى: «والذين اتخذوا....».

خبره، أى: وممن وصفنا: الذين، أو منصوب على الذم، و(ضراراً) وما بعده: علة، وأصل (هـا): هائر، فأخبرت الهمزة، ثم قلبت ياء، ثم حذفت؛ لالتقاء الساكنين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدَ ضَرَّارًا وَكُفْرًا﴾ أى: لأجل المضارة بالمؤمنين وللكفر الذى أسروه، وهو تعظيم أبى عامر الكافر، ﴿وتفريقاً بين﴾ جماعة ﴿المؤمنين﴾ الذين كانوا يصلون فى مسجد قباء.

روى أن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم فيصلى فيه، فأتاهم فصلى فيه، فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف، فبنوا مسجداً على قصد أن يؤمهم فيه أبو عامر الراهب، إذا قدم من الشام، فلما أتموه أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: إنا قد بنينا مسجداً لذى الحاجة والعلة والليلة المطيرة، فصل لنا فيه حتى نتخذهُ مصلى، وكان ذلك قبل خروجه لتبوك، فقال لهم: «إنى على جناح سفر، وإذا قدماً، إن شاء الله، صلياً فيه». فلما قدم أتوه، فأخذ ثوبه ليقوم معهم، فنزلت الآية، فدعا مالك بن الأخشم، ومعن بن عدى، وعامر بن السكّن، فقال: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه؛ ففعلوا، واتخذوا مكانه كناسة^(١).

ثم أشار إلى قصدهم الفاسد، فقال: ﴿وإِصْرَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: واتخذوه انتظاراً ليؤمهم فيه من حارب الله ورسوله، يعنى: أبا عامر الراهب، فإنه قال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فانهزم مع هوازن، ثم هرب إلى الشام؛ ليأتى من قيصر بجنود يحارب بهم رسول الله ﷺ، فمات بقتل^(٢) طريداً وحيداً. وكان أهل المدينة يسمونه قبل الهجرة: الراهب، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق.

وقوله: ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ متعلق بحارب، أى: حارب من قبل هذا الوقت، أو باتخذوا، أى: اتخذوا مسجداً من قبل أن يوافق هؤلاء بالتخلف؛ لأنه قبيل غزوة تبوك. ﴿وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحَسَنَى﴾ أى: ما أردنا ببنيانه إلا الخصلة الحسنى، وهى الصلاة والذكر والتوسعة على المسلمين. ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فى حلفهم.

ثم نهاه عن الصلاة فيه فقال: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ للصلاة؛ إسعافاً لهم، ﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده، ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أى: أولى بأن تصلى فيه، وهو مسجد قباء، أسسه رسول الله ﷺ فى أيام مقامه بقباء، حين هاجر من مكة، من الاثنين إلى الجمعة، وهذا أوفق للقصة. وقيل: مسجد الرسول ﷺ؛ لقول أبى سعيد: سألت رسول الله ﷺ عنه؟ فقال: «مَسْجِدُكُمْ هَذَا؛ مَسْجِدُ الْمَدِينَةِ»^(٣).

(١) انظر تفسير البغوى ٩٣/٤ - ٩٤ وأسباب النزول للواحدى (٢٦٤).

(٢) قنسرين: مدينة قريبة من حلب من جهة حمص.

(٣) أخرجه مسلم فى (الحج، باب بيان أن المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد النبى ﷺ بالمدينة).

﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ ، كانوا يستنجون بالماء، ويجمعون بين الماء والحجر، أو يتطهرون من المعاصى والخصال المذمومة، طلباً لمرضات الله تعالى، أو من الجنابة، فلا ينامون عليها، ﴿ والله يحب المطهرين ﴾ ؛ يرضى عنهم، ويذنبهم من جنابه إدناء المحب لحبيبه.

وقيل: لما نزلت مشى رسول الله ﷺ، ومعه المهاجرون، حتى وقف على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس، فقال: «أموؤنون أنتم؟ فسكتوا، فأعادها، فقال عمر: إنهم مؤمنون وأنا معهم، فقال عليه الصلاة والسلام: أترضون بالقضاء؟ فقالوا: نعم، قال: أتصبرون على البلاء؟ قالوا: نعم، قال: أتشكرون فى الرخاء؟ قالوا: نعم، فقال عليه الصلاة والسلام: مؤمنون ورب الكعبة. فجلس، ثم قال: يا معشر الأنصار، إن الله عز وجل قد أثنى عليكم، فما الذى تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟ فقالوا: يارسول الله، نتبع الغائط الأحجار الثلاثة، ثم نتبع الأحجار الماء. فقال: «رجال يحبون أن يتطهروا» (١).

﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ﴾ ؛ بأن قصد به وجه الله، وابتغاء مرضاته، فحسنت النية فى أوله، ﴿ خير أم من أسس بنيانه على ﴾ قصد الرياء والمنافسة، فكأنه بنى على ﴿ شفا ﴾ أى: طرف ﴿ جرف ﴾: حفرة ﴿ هار ﴾ أى: واه ضعيف، أشرف على السقوط، أو ساقط، ﴿ فأنهار به فى نار جهنم ﴾ أى: طاح فى جهنم، وهذا ترشيح للمجاز، فإنه لما شبهه بالجرف وصفه بالانهيار، الذى هو من شأن الجرف، وقيل: إن ذلك حقيقة، وإنه سقط فى جهنم، وإنه لم يزل يظهر الدخان فى موضعه إلى قيام الساعة.

والاستفهام للتقرير، والذى أسس على التقوى والرضوان: هو مسجد قباء، أو المدينة، على ما تقدم، والذى أسس على شفا جرف هار هو مسجد الضرار، وتأسيس البناء على التقوى هو تحسين النية فيه، وقصد وجه الله، وإظهار شرعه، والتأسيس على شفا جرف هار هو فساد النية وقصد الرياء، والتفريق بين المؤمنين، وذلك على وجه الاستعارة والتشبيه البالغ. قاله ابن جزى. ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ إلى ما فيه صلاح ونجاة.

﴿ لا يزال بنيانهم ﴾ أى: مبنيهم، مصدر بمعنى المفعول، ﴿ الذى بنوا ريبة ﴾ أى: شكاً ونفاقاً ﴿ فى قلوبهم ﴾ ، والمعنى: أن بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم وتزايد نفاقهم، فإنه حملهم على ذلك، ثم لما هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك فى قلوبهم وازداد، بحيث لا يزول رسمه من قلوبهم، ﴿ إلا أن تقطع ﴾ أى: تنقطع ﴿ قلوبهم ﴾

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف: لم أجده هكذا، وكأنه ملفق من حديثين، فإن صدر الحديث أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس إلى قوله (ورب الكعبة)، وروى بقبته ابن مردويه. انظر الفتح السامى (٢/٧٠٤).

بالموت، بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك، أو لا يزال بنيانهم ريبة، أى: شكاً فى الإسلام بسبب بنيانه، لاعتقادهم صواب فعلهم، أو غيظاً بسبب هدمه، ﴿والله عليم﴾ بنياتهم، ﴿حكيم﴾ فيما أمر من هدم بنيانهم.

الإشارة: من أراد أن يؤسس بنيان أعماله وأحواله على التقوى والرضوان، فليؤسسه على الإخلاص والنية الحسنة، ومتابعة السنة المحمدية، فإنها لا تنهدم أبداً، ومن أراد أن يؤسسها على شفا جرف هار، فليؤسسها على الرياء والسمعة، وقصد الكرامات وطلب الأعواض، فإنها تنهدم سريعاً ولا تدوم، فما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل. وبالله التوفيق.

ثم ذكر كرامة أهل الإخلاص، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِالَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

قلت: جملة (يقاتلون): حال من (المؤمنين)؛ بياناً للشراء، أو استئناً؛ لبيان مالأجله الشراء، وقيل: يقاتلون: بمعنى الأمر، و(وعداً): مصدر لما دل عليه الشراء، فإنه فى معنى الوعد، أى: وعدهم وعداً حقاً لاخلف فيه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ أى: عوضهم فى بذل مهجهم وأموالهم فى سبيله الجنة ونعيمها، ومن جملة: النظر إلى وجهه الكريم. قال بعضهم: فانظر.. ماأكرمه سبحانه، فإن أنفسنا هو خلقها، وأموالنا هو رزقها، ثم وهبها لنا، ثم اشتراها منا بهذا الثمن الغالى، فإنها لصفقة رابحة. هـ.

ثم بين وجه الشراء فقال: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء كلمة الله، ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ الكفار، ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ شهداء فى سبيل الله. وقرأ الأخوان بتقديم المبنى للمفعول؛ لأن الواو لا ترتب، وأن فعل البعض قد يسند إلى الكل، أى: فيموت بعضهم ويجاهد الباقي. وعد ذلك لهم ﴿وعداً عليه حقاً﴾؛ لا خلف فيه، مذكوراً ذلك الوعد ﴿فى التوراة والإنجيل والقرآن﴾ أى: إن الله بين فى الكتابين أن الله اشترى من أمة محمد أنفسهم وأموالهم بالجنة،

كما بيّنه فى القرآن، أو كل أمة أمرت بالجهاد ووعدهم هذا الوعد. ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ ؟ هو مبالغة فى الإنجاز، أى: لا أحد أوفى منه بالعهد، ﴿فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به﴾ أى: فافرحوا به غاية الفرح، فإنه أوجب لكم أعظم المطالب، كما قال: ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾. قال بعضهم: ناهيك من بيع، البائع فيه رب العلا، والثمن جنة المأوى، والواسطة محمد المصطفى ﷺ.

الإشارة: قد اشترى الحق جل جلاله منا أنفسنا وأموالنا بالجنة، فمن باع نفسه لله؛ بأن خالف هواها وخرق عوائدها، وسعى فى طلب مولاها، عوضه جنة المعارف، معجلة، وزاده جنة الزخارف، مؤجلة. ومن باع ماله؛ بأن أنفقه فى مرضاة الله، وبخل بنفسه، عوضه جنة الزخارف، مؤجلة.

قال فى الإحياء - فى باب الذكر وفضيلته -: وأنه يوجب الأنس والحب، فإذا حصل الأنس بذكر الله انقطع عن غير الله، وما سوى الله هو الذى يفارقه عند الموت، فلا يبقى معه فى القبر أهل، ولا مال، ولا ولد، ولا ولاية، ولا يبقى معه إلا ذكر الله، فإن كان فى أنس به تمتع به، وتلذذ باقطاع العوائق الصارفة عنه، إذ ضرورات الحاجات فى الحياة تصد عن ذكر الله، ولا يبقى بعد الموت عائق، فكأنه خلى بينه وبين محبوبه، فعظمت غبطته، وتخلص من السجن الذى كان ممنوعاً فيه، عما به أنسه.

ثم قال: ولأجل شرف ذكر الله عظمت رتبة الشهادة؛ لأن المطلوب هو الخاتمة، ومعنى الخاتمة: وداع الدنيا كلها، والقُدوم على الله، والقلب مستغرق بالله، منقطع العلائق عن غيره، والحاضر صف القتال قد تجرد قلبه لله، وقطع طمعه من حياته، حباً لله وطمعاً فى مرضاته، وحالة الشهيد توافق معنى قولك: (لا إله إلا الله)، فإنه لا مقصود له سوى الله. هـ. فما يجده أهل التعلق من لذيذ الحلاوة فى مناجاتهم، وأهل الشهود فى حال غيبتهم فى محبوبهم، ليس هو من نعيم الدنيا، بل من نعيم الجنة، قدّمه الله لأوليائه، وهو معنى جنة المعارف المعجلة؛ عرضاً لمن باع نفسه لله.

قال بعض العارفين: النفوس ثلاثة: نفس معيبة، لا يقع عليها بيع ولا شراء، وهى نفس الكافر، ونفس تحررت؛ لا يصح بيعها، وهى نفس الأنبياء والمرسلين، لأنها خلقت مطهرة من البقايا، ونفس يصح بيعها وشراؤها، وهى نفس المؤمن، فإذا باعها لله، واشتراها الحق تعالى منه، وقع عليها التحرير، وذلك حين تتحرر من رق الأكوان، وتتخلص من بقايا الأثر.

وقال بعض أهل التحقيق: اشترى الله تعالى أعز الأشياء بأجل الأشياء، وإنما اشترى الأنفس دون القلوب؛ لأن القلب حر لا يقع عليه البيع؛ لأنه لله؛ فلا يباع ولا يشتري، أما سمعت قول رسول الله ﷺ: «القلب بيت الرب».

أى: لأنه محل مناجاته، ومعدن معرفته، وخزانة سره، فليس للشيطان عليه من سبيل. قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (١). وأما النفس فإنها مملوكة تباع وتشتري. هـ.

ثم بين أوصاف البائعين، فقال:

﴿التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْفَكِّهُونَ الْمُسْتَطِيعُونَ
الْمُحْسِنُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُتَّقُونَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالرِّقَابَ
وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدُورُونَ فِي
الْأَمْشَاقِ﴾ (١١٢)

قلت: (التائبون): خبر، أى: هم التائبون، أو مبتدأ حذف خبره، أى: التائبون فى الجنة وإن لم يجاهدوا، لقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ (٢)، أو خبره ما بعده، أى: التائبون عن الكفر، على الحقيقة، هم الجامعون لهذه الخصال.

يقول الحق جل جلاله، فى وصف البائعين أنفسهم وأموالهم: هم ﴿التائبون﴾ عن الكفر والمعاصى والهفوات والغفلات، ﴿العابدون﴾ لله، مخلصين له الدين، ﴿الحامدون﴾ لله فى السراء والضراء وعلى كل حال، ﴿السائحون﴾ أى: الصائمون، لقوله عليه الصلاة والسلام: «سِيَّاحَةُ أُمَّتِي الصُّوم» (٣)، شبه بها من حيث إنه يعوق عن الشهوات، أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملكوت والجبروت. أو السائحون للجهاد، أو لطلب العلم، أو لزيارة المشايخ والإخوان.

﴿الراكون الساجدون﴾ فى الصلاة، ﴿الأمرون بالمعروف﴾ أى: بكل ما هو معروف محمود، كالإيمان والطاعة، ﴿والناهون عن المنكر﴾ أى: كل ما هو منكر فى الشرع، كالكفر والمعاصى، ﴿والحافظون لحدود الله﴾ أى: لكل ما حده الشارع وعينه من الحقائق والشرائع. قال البيضاوى: وعطف قوله: ﴿والناهون عن المنكر﴾ دون ما قبله؛ للدلالة على أنه بما عطف عليه فى حكم خصلة واحدة، كأنه قال: الجامعون بين الوصفين، وعطف أيضاً قوله: ﴿والحافظون لحدود الله﴾؛ للتنبيه على أن ما قبله مفصل الفضائل، وهذا مجملها، وقيل:

(١) من الآية ٦٥ من سورة الإسراء.

(٢) من الآية ٩٥ من سورة النساء.

(٣) أخرجه ابن جرير فى التفسير (٣٥/١١) موقوفاً على السيدة عائشة، بلفظ «سِيَّاحَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الصِّيَامِ»، وأخرجه مرفوعاً، عن عبيد بن عمير، بلفظ: (سئل النبي ﷺ عن السائحين فقال: «هم الصائمون»).

للإيدان بأن التعداد قد تم بالسابع، من حيث إن السبعة هو العدد التام، والثامن ابتداء لعدد آخر معطوف عليه، ولذلك سمى واو الثمانية. هـ. بالمعنى.

﴿وبشّر المؤمنين﴾ الموصوفين بهذه الفضائل، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم؛ للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشر به؛ للتعظيم، كأنه قيل: وبشرهم بما يجلب عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام. قاله البيضاوى.

الإشارة: قد جمعت هذه الآية معارج الترقى من البداية إلى النهاية، فأول المقامات: التوبة، فإذا تابت النفس ورجعت عن هواها قصدت السير إلى حضرة مولاه، فاشتغلت بالعبادة الظاهرة، التى هى عمل الشريعة، فإذا ظهر عليها أمارات التوفيق، ولاحت لها أنوار التحقيق، حمدت الله وشكرته؛ تقييداً لتلك النعمة، ثم تسبح فكرتها فى ميادين الغيوب من الملكوت إلى الجبروت، ثم ترد إلى مراسم الشريعة، إذ منتهى الكمال: التزام الشرائع، فتركع وتسجد البشرية، أدباً فى عالم الأشباح، ويركع القلب ويسجد فى مسجد الحضرة فى عالم الأرواح، فحينئذ تصلح للوعظ والتذكير، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر الظاهرين؛ لأهل التشريع، والباطنين؛ لأهل التحقيق، فالأول يسمى وعظاً وتذكيراً، والثانى يسمى تربية وترقية، ولا يقبل ذلك إلا ممن وقف مع الحدود، ووفى بالعهود، فيبشر حينئذ بالسعادة العظمى والمقام الأسنا.

قال القشيري: قوله تعالى: ﴿السَّائِحُونَ﴾ أى: الصائمون، ولكن عن شهود غير الله، الممتنعون عن خدمة غير الله، المكتفون من الله بالله. ويقال: السائحون الذين يسيحون فى الأرض على جهة الاعتبار؛ طلباً للاستبصار، ويسيحون بقلوبهم فى مشارق الأرض ومغاربها؛ بالتفكر فى جوانبها ومناكبها، والاستدلال بتغيرها على منشئها، والتحقق بحكم خالقها بما يرون من الآيات التى فيها، ويسيحون بأسرارهم فى الملكوت، فيجدون روح الوصال، ويعيشون بنسيم الأنس؛ بالتحقيق بشهود الحق. انتهى.

وانظر الورتجى؛ فقد جعل وصف الإيمان يحمل على التوبة، ثم التوبة الصادقة تستدعى العبادات والمجاهدات المؤدية للعبودية، فإذا تمت له نعمة العبودية اقتضت حمد الله تعالى، فيحمده تعالى معترفاً بعجزه عن القيام بحمده؛ كما فى حديث: «أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(١)، ثم الحمد والذكر يقتضى حبس النفس عن مألوفاتها حين عاين حمى هلال جماله فى سماء الإيقان. ألا ترى كيف قال عليه الصلاة والسلام: «صُومُوا لِرُؤْيَيْهِ»،

(١) أخرجه مسلم فى (الصلاة، باب: ما يقال فى الركوع والسجود) من حديث السيدة عائشة - رضى الله عنها.

ولا يكون فطره إلا على حلاوة مشاهدته لقوله: «وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَيْهِ»، فالسائحون طيارون بقلوبهم فى أقطار الغيب، وذلك يقتضى الخضوع بنعت الفناء عند مشاهدة العظمة، فيركع شوقاً لجماله، وخضوعاً لجلاله، وعند ركوعه وخضوعه تحيط به أنوار الصفات، فيسجد لكل الجهات؛ (فأينما تولوا فثم وجه الله) (١). وهذا السجود يقتضى الغربة، والغربة تقتضى المشاهدة، والمشاهدة تُصير شاهداً متصفاً بصفاتها، فمن وقع فى نور أسماء الله وصفاته صار متصفاً بوصف الربوبية، متمكناً فى العبودية، فيحكم بحكم الله، ويعدل بعدل الله، فيصفهم الله بهذه النعوت، قال: (الأمرون بالمعروف) الداعون الخلق إلى الحق، والناهون لهم عن متابعة الشهوات، والحافظون لحدود الله، القائمون فى مقام العبودية بعد كشف صفات الربوبية لهم، فلا يتجاوزون عن حد العبودية، وإن ذاقوا طعم حلاوة الربوبية؛ لأنهم فى محل التمكين على أسوة مراتب النبى ﷺ، مع كماله، قال: «أنا العبد لا إله إلا الله». انتهى.

ثم نهى نبيه عن الاستغفار للمشركين، ويخطر فى فهم من تخلف عن تبوك من المنافقين، فقال:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ما كان ﴾ ينبىء ﴿ للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ الذين ماتوا على الشرك، ﴿ ولو كانوا أولى قُرْبَى ﴾ أى: من قرابتهم، ﴿ من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾؛ لموتهم على الشرك. روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لأبى طالب، لما حضرته الوفاة: «قُلْ: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله». فأبى، فقال: «والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فكان يستغفر له حتى نزلت الآية (٢). وقيل: إن النبى ﷺ استأذن ربه أن يستغفر لأمه، فنزلت، وقيل: إن المسلمين أرادوا أن يستغفروا لأبائهم، فنزلت، وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم؛ إذ لم يتحقق أنهم أصحاب الجحيم، فإنه طلب توفيقهم للإيمان.

ثم رفع إيهام النقض باستغفار إبراهيم ﷺ لأبيه الكافر، فقال: ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾، وقيل: إنه ﷺ قال فى شأن عمه: «لأستغفرن لك، كما استغفر إبراهيم لأبيه»، فنزلت:

(١) من الآية ١١٥ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه البخارى فى (مناقب الأنصار، باب: قصة أبى طالب) ومسلم فى (الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت).

«وما كان استغفار إبراهيم لأبيه». والموعدة التى وعدها إياه قوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (١). أى: لأطلبن المغفرة لك بالتوفيق للإيمان، فإنه يجب ما قبله.

والمعنى: لا حجة لكم فى استغفار إبراهيم لأبيه، فإن ذلك لم يكن إلا لوعده تقدم بقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ...﴾ إلخ. ﴿فلما تبين له أنه عدو لله﴾؛ بأن مات على الكفر، أو أوحى إليه بأنه لن يؤمن، ﴿تبرأ منه﴾؛ بأن قطع استغفاره له، ﴿إن إبراهيم لأواه﴾ أى: لكثير التأوه، وهو كناية عن فرط ترحمه، أو كثير الدعاء، أو مؤمن، أو فقيه، أو كثير الذكر لله، أو كثير التأوه من خوف الله، ﴿حليم﴾؛ صبور على الأذى، والجملة: لبيان ما حمله على الاستغفار.

الإشارة: الشفاعة لا تكون فيمن تحقق غضب الله عليه، فإن ذلك من سوء الأدب، كالدعاء بالمحال، وأما من لم يتحقق غضبه عليه فالشفاعة فيه مرغوب فيها. قال عليه الصلاة والسلام: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا» (٢)، والاستغفار شفاعه. وقد ورد فى الخبر: «مَنْ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً كُتِبَ مِنَ الْأَبْدَالِ».

والشفقة مطلوبة، مالم يظهر مراد الله من خلقه، فإن برز من عنصر القدرة شيء من القهريات، فالتسليم لمراده تعالى أحسن، فالله أرحم بعباده منك أيها الشفيق، وسيأتى عند قوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ (٣)، وبالله التوفيق.

ثم عذر نبيه فى استغفاره لعمه قبل النهى، أو من استغفر من المسلمين لأسلافهم المشركين، فقال:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١٥) **إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** (١١٦)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان الله ليضل قوماً﴾؛ أى: يسميهم ضلالاً، ويؤاخذهم مؤاخذتهم، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ للإسلام، ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أى: حتى يبين لهم خطر ما يجب اتقاؤه، فإن خالفوا بعد

(١) من الآية ٤ من سورة الممتحنة.

(٢) أخرجه البخارى فى (الأدب، باب: تعاون المؤمنين) ومسلم فى (البر والصلة، باب: استحباب الشفاعة) من حديث أبى موسى الأشعرى، وبقيّة الحديث: (ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء).

(٣) الآية ٧٦ من سورة هود.

البيان، أضلهم وأخذهم إن لم يتوبوا. قال البيضاوى: وكأنه بيان عذر الرسول فى قوله لعمه: «لأستغفرن لك»، ولمن استغفر لأسلافه المشركين قبل المنع. وقيل: إنه فى قوم مضوا على الأمر الأول فى القبلة والخمر، ولم يعلموا بالنسخ والمنع. وفى الجملة: دليل على أن الغافل غير مكلف. هـ. وقال ابن جزى: نزلت فى قوم من المسلمين استغفروا للمشركين من غير إذن، فخافوا على أنفسهم من ذلك، فنزلت الآية تأنيساً لهم، أى: ما كان الله ليؤاخذكم بذلك قبل أن يبين لكم المنع من ذلك. هـ. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ فيعلم أمرهم قبل النهى وبعده.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يتصرف فيهما وفى ساكنهما كيف يشاء، ﴿يُحْيِي﴾ من يريد إبرازه لعالم الشهادة، ﴿وَيُمِيتُ﴾ من يريد رده لعالم الغيب، أو يحيى قلوباً بالإيمان والمعرفة، ويميت قلوباً بالكفر والغفلة. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

قال البيضاوى: لما منعهم من الاستغفار للمشركين، ولو كانوا أولى قربى، وتضمن ذلك وجوب التبرى منهم رأساً، بين لهم أن الله تعالى مالك كل موجود، ومتولى أمره والغالب عليه، ولايتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه، ليتوجهوا إليه ويتبرؤوا مما عداه، حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه. هـ.

الإشارة: وما كان الله ليضل قوماً عن السير إلى حضرته، أو الترقى فى العلوم والمعارف بعد الوصول، حتى يبين لهم ما يتقون من سوء الأدب على لسان الشارع أو المشايخ، فإذا تبين لهم ذلك ثم ارتكبوه وأصروا عليه، أضلهم، وأتلفهم عن الوصول إلى حضرة قدسه، فإن كل طاعة وحسن أدب يقرب من الحضرة، وكل معصية وسوء أدب يبعد عن الحضرة، وقد قالوا: من أساء الأدب على البساط، طرد إلى الباب، ومن أساء الأدب فى الباب، طرد إلى سياسة الدواب. وبالله التوفيق.

ثم ذكر توبته على الثلاثة المرجون، فقال:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

قلت: فى «كاد» ضمير الشأن، أو يرتفع بها قلوب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أى: برأه وطهره من الذنوب، كقوله: ﴿لِيُخْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (١)، ﴿و﴾ ﴿تَابَ عَلَى﴾ المهاجرين والأنصار ﴿مِمَّا عَسَى أَنْ يَكُونَ ارْتِكَبُوهُ؛ إِذْ لَا يَخْلُو الْعَبْدُ مِنْ ذَنْبٍ أَوْ عَيْبٍ. وَقِيلَ: هو حُضَّ عَلَى التَّوْبَةِ، وإظهار لفضلها، بأنها مقام الأنبياء والصالحين. وَقِيلَ: تَابَ عَلَيْهِمْ مِنْ نَقْصِ الْمَقَامَاتِ الَّتِي تَرَقَّوْا عَنْهَا، إِلَى مَا هُوَ أَكْمَلُ مِنْهَا، فَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَقَامٌ يَسْتَنْقِصُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَوْقَهُ.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمته: ذَكَرَ تَوْبَةً مِنْ لَمْ يَذْنِبْ؛ لِئَلَّا يَسْتَوْحِشَ مِنْ أَذْنِبْ، لِأَنَّهُ ذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ، وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ، وَلَمْ يَذْنِبُوا، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾، فَذَكَرَ مَنْ لَمْ يَذْنِبْ؛ لِيُؤْنَسَ مِنْ قَدْ أَذْنِبْ، فَلَوْ قَالَ أَوَّلًا: لَقَدْ تَابَ عَلَى الثَّلَاثَةِ لَتَفَطَّرَتْ أَكْبَادُهُمْ. هـ.

ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، يعنى: حين محاولة غزوة تبوك. والساعة هنا بمعنى الحين والوقت، والعسرة: الشدة والضيق، أى: الذين خرجوا معه وقت العسرة والضيق، فقد كانوا فى عسرة الظهر، يعتقب العسرة على بعير واحد، وفى عسرة الزاد؛ حتى قيل: إن الرجلين كانا يفتسمان ثمرة واحدة. ﴿مَنْ بَعْدَ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ عن الثبات على الإيمان، أو عن اتباع الرسول ﷺ، لما رأوا من الشدة والضيق وشدة الحر، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾؛ كرده للتأكيد، وللتنبية على أنه تاب عليهم لأجل ما كابدوا من العسر، ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾؛ حيث قَبَّلَهُمْ، وتاب عليهم، وتاب على الثلاثة، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ، تخلفوا عن غزوة تبوك من غير عذر ولا نفاق، ولا قصد للمخالفة، فلما رجع رسول الله ﷺ عتب عليهم، وأمر الناس ألا يكلموهم، وأن يعتزلوا نساءهم، فبقوا على ذلك خمسين ليلة، ثم أنزل الله توبتهم. وقد وقع حديثهم فى البخارى ومسلم (٢) وكتب السير.

ومعنى قوله: ﴿الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ أى: تخلفوا عن الغزو. وقال كعب بن مالك: خلفوا عن قبول العذر، وليس بالتخلف عن الغزو، ويقوى ذلك كونه جعل: ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾ غاية للتخلف، أى: خلفوا عن قبول العذر، وأخروا ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أى: برحبها وسعتها، وذلك لإعراض الناس

(١) من الآية ٢ من سورة الفتح.

(٢) انظر البخارى فى (تفسير سورة التوبة، باب: قوله تعالى: (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا...))، ومسلم فى (التوبة)، حديث توبة كعب ابن مالك وصاحبيه.

عنهم بالكلية، وهو مثل لشدة الحيرة. ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾؛ من فرط الوحشة والغم، ﴿وَضَنُوا﴾ أى: علموا ﴿أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: من سخطه ﴿إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أى: إلا إلى استغفاره والرجوع إليه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾؛ بالتوفيق بالتوبة، ﴿لِيَتُوبُوا﴾ بإظهارها والدوام عليها، ﴿وَلِيَعْدُوا مِنَ التَّوْبَيْنِ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ لمن تاب، ولو عادوا فى اليوم سبعين مرة، ﴿الرَّحِيمُ﴾؛ متفضل عليهم بالنعم التى لا تحصى.

الإشارة: قال الورتجى: التوبة توبتان: توبة العبد، وتوبة الله، توبة العبد: الرجوع من الزلات إلى الطاعات، وتوبة الله: رجوعه إلى العبد بنعت الوصال، وفتح باب المآب، وكشف النقاب عن الاحتجاب، وطلب العتاب. إذا مَرَضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمْ وتذنبون فَنَأْتِيَكُمْ وَنَعْتَذِرُ.

انظر لطف الله بنبيه وأصحابه، كيف تاب لأجلهم مكان توبتهم، رجع إليهم قبل رجوعهم إليه، ليسهل عليهم طريق الرجوع إليه، فرجوعه إلى نبيه بكشف المشاهدة، ورجوعه إليهم بكشف القرية، فتوبته للنبي ﷺ من غيبته عن المشاهدة؛ باشتغاله بأداء الرسالة، وتوبة القوم من غيبتهم عن ملاحظة الحضرة، فلما ذاقوا طعم الجذائيات، واحتجبوا عن المشاهدات؛ أدركهم فيض الوصال، وانكشف لهم أنوار الجمال، وهكذا سنة الله فى الأنبياء والأولياء، إذا ذابوا فى مقام الامتحان، وبقوا فى الحجاب عن مشاهدة الرحمن، تمطر عليهم ويل سحاب الكرم، ويلمع لأبصار أسرارهم نور شرف القدم؛ فيؤنسهم بعد إياسهم، ويوصلهم بعد قنوطهم. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ...﴾ الآية (٢). ثم قال عن بعضهم: توبة الأنبياء فى مشاهدة الخلق فى وقت الإبلاغ؛ إذ الأنبياء لا يغيبون عن الحضرة، بل لا يحضرون فى مواضع الغيبة؛ لأنهم فى عين الجمع أبدا. هـ.

قال المحشى: وحاصله: توبة الله المذكورة وهَبِيَّةٌ، وهى فى كل أحد على حسب ما يليق بمقامه، وإنما يليق بمقام الرسل ترقيته عن مقام إلى أعلى، أو من شعور بخلق؛ لأجل الإبلاغ، إلى الغيبة عن ذلك، وكذلك أبدا كأهل الجنة. هـ.

ثم حضَّ على الصدق، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ بالمحافظة على ما أمركم به، والانتكاف عما نهاكم عنه، ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فى إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم وعهودهم.

(٢) الآية ١١٠ من سورة يوسف.

(١) الآية ٢٨ من سورة الشورى.

قال ابن جزى: ويحتمل أن يريد به صدق اللسان؛ إذ كان هؤلاء قد صدقوا ولم يعتذروا بالكذب، فنفعهم الله بذلك، ويحتمل أن يريد أعم من صدق اللسان؛ وهو الصدق فى الأقوال والأعمال والمقاصد والعزائم، والمراد بالصادقين: المهاجرين، لقوله فى الحشر: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ...﴾: إلى قوله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١). وقد احتج بها أبو بكر الصديق على الأنصار يوم السقيفة، فقال: (نحن الصادقون، وقد أمركم الله أن تكونوا معنا)؛ أى: تابعين لنا. هـ زاد السهيلي: ولما استحق الصادقون أن تكون الخلافة فيهم، استحق الصديق أن تكون الخلافة له، مادام حياً؛ إذ كان صديقاً. هـ.

الإشارة: الصدق سيف حازم، ما وضع على شيء إلا قطعه. ويكون فى الأقوال، وهو صيانتها من الكذب، ولو أدى إلى التلف. وفى الأفعال، وهو صيانتها من الرياء وطلب العوض. وفى الأحوال، وهو تصفيتها من قصد فاسد، كطلب الشهرة، أو إدراك مقام من المقامات، أو ظهور كرامات، أو غير ذلك من المقاصد الدنية. قال القشيري: الصادقون هم السابقون الأولون، كآبى بكر وعمر وغيرهما، والصدق: استواء السر والعلانية، وهو عزيز، وكما يكون فى الأقوال يكون فى الأحوال، وهو أتم. هـ.

ثم عاتب الحق تعالى أهل المدينة ومن جاورها على التخلف عن الغزو، فقال:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْشُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا أَكُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا أَكُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

قلت: (ولا يرغبوا) منصوب بالعطف، أو مجزوم بالنهى، والوادي: أصله: فاعل، من ودي، إذا سال، وهو منقوص، وهو فى اللغة: كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل.

(١) الآية ٨ من سورة الحشر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ مَا كَانَ ﴾ يصح ﴿ لأهل المدينة ﴾، ولا لمن ﴿ حولهم من الأعراب ﴾، أن يتخلفوا عن رسول الله ﴿ فى غزوة ولا سرية ولا غيرهما، وهو نهى بصيغة النفى؛ للمبالغة. ﴿ ولا ﴾ ينبغي لهم أن ﴿ يَرْغَبُوا بأنفسهم عن نفسه ﴾؛ بأن يصونوها من اقتحام المشقات والمتاعب التى تحملها نبي الله ﷺ، حيث قعدوا عنه، ولم يكابدوا معه ما كابده من الأهوال.

رُوى أن أبا خيثمة دخل بستانه، بعد خروجه - عليه الصلاة والسلام - لتبوك، وكانت له امرأة حسناء، فرشت له فى الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظِلٌّ ظَلِيلٌ، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله ﷺ فى الضح (١) والريح، ما هذا بخير، فقام، فرحل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومرتالريح، فمد رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق، فإذا براكب يقطع السراب، فقال: كن أبا خيثمة، فكانه (٢)، ففرح به رسول الله ﷺ، واستغفر له (٣).

ثم علل النهى بقوله: ﴿ ذلك ﴾؛ إشارة إلى النهى عن التخلف المفهوم من الكلام، ﴿ بأنهم ﴾؛ أى: بسبب أنهم ﴿ لا يُصِيبُهُمْ ﴾ فى سفرهم ﴿ ظَمًا ﴾ من حر العطش، أو عطش، ﴿ ولا نَصَبٌ ﴾؛ تعب، ﴿ ولا مَخْمَصَةٌ ﴾؛ مجاعة، ﴿ فى سبيل الله ﴾، ﴿ ولا يَطْثُونَ ﴾ يدوسون بأرجلهم أو بدوابهم ﴿ مَوْطَأًا ﴾؛ مكاناً ﴿ يَغِيطُ الكفار ﴾ أى: يغيظهم ذلك الوطء، ﴿ ولا ينالون من عدو نيلاً ﴾؛ كالقتل، والأسر، والنصب، وكل ما ينكبهم، ﴿ إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ ﴾، أى: إلا استوجبوا به ثواباً جزيلاً. وذلك مما يوجب النهوض إلى الغزو معه ﷺ؛ فإن ﴿ الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ على إحسانهم. وهو تعليل لقوله: ﴿ إلا كتب لهم... ﴾ الخ.

وفيه تنبيه على أن الجهاد إحسان، أما فى حق الكفار؛ فلأنه سعى فى تكميلهم بأقصى ما يمكن، كضرب المداوى للمجنون، وأما فى حق المؤمنين؛ فلأنه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم على الإسلام. قاله البيضاوى.

﴿ ولا يُنفقون نفقةً صغيرة ﴾ فى أمر الجهاد، ولو علاقة سيف، ﴿ ولا كبيرة ﴾؛ مثل ما أنفق عثمان رضى الله عنه فى جيش العسرة، ﴿ ولا يقطعون وادياً ﴾ فى سيرهم، وهو كل منفرج ينفذ فيه السيل، ﴿ إلا كُتِبَ لهم ﴾ ذلك، ولم يضع منه شيء، ﴿ ليجزيهم الله ﴾ بذلك ﴿ أحسن ما كانوا يعملون ﴾، أى: جزاء أحسن أعمالهم، أو أحسن جزاء أعمالهم. قاله البيضاوى.

(١) الضح. بالكسر: ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض... راجع النهاية ٨٧.

(٢) أى: فكان هو.

(٣) أخرجه بدحوه البيهقى فى الدلائل (باب لعوق أبى ذر وأبى خيثمة برسول الله ﷺ بعد خروجه). وانظر الفتح السماوى (٢/ ٧٠٧ - ٧٠٨).

الإشارة: لا ينبغي للفقراء أن يتخلفوا عن أشياخهم إذا سافروا لحج أو غزو أو تذكير أو زيارة، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، فيقعدون فى الراحة والدعة؛ وشيخهم فى التعب والنصب؛ لأن ما يصيبهم من مشاق السفر زيادة فى ترقيتهم ومعرفتهم، وتقوية لمعانيهم، إلى غير ذلك من فوائد السفر، فهو فى حق السائرين أمر مؤكد، فكما سار البدن فى عالم الشهادة سار القلب فى عالم الغيب، كما هو مجرب. والله تعالى أعلم.

ولما ذم الله تعالى من تخلف عن تبوك، ووسمه بالنفاق، لم يقدر أحد بعد ذلك على التخلف، فخفف عنهم بقوله:

﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان المؤمنون﴾ يستقيم لهم أن ينفروا ﴿كافة﴾؛ جميعاً للغزو، أو طلب علم، كما لا يستقيم لهم أن يقعدوا جميعاً، فإنه بخل، وهن للإسلام. قال ابن عباس: هذه الآية فى البعث إلى الغزو والسرايا، أى: لا ينبغي خروج جميع المؤمنين فى السرايا، وإنما يجب ذلك إذا خرج رسول الله ﷺ بنفسه، ولذلك عاتبهم فى الآية المتقدمة على التخلف عنه. فالآية الأولى فى الخروج معه ﷺ، وهذه فى السرايا التى كان يبعثها، وقيل: هى ناسخة لكل ماورد من الأمر بخروج الجميع، فهى دليل على أن الجهاد فرض كفاية.

﴿فلولا﴾: فهلا ﴿نفر من كل فرقة﴾؛ جماعة كبيرة، كقبيلة أو بلدة، ﴿طائفة﴾ قليلة منها؛ ﴿ليتفقها﴾ فى الدين، أما إذا خرجوا للغزو؛ فإنه لا يخلو الجيش من عالم أو عارف يتفقون، مع أن مشاق السفر تشد الأنفان، وترقق البشرية، فتستفيد الروح حينئذ علوماً لدنية، وأساراً ربابية، من غير تعلم، وهذا هو العلم الذى يصلح للإنذار.

قال فى الإحياء: التفقه: الفقه عن الله؛ بإدراك جلاله وعظمته، وهو العلم الذى يورث الخوف والخشية والهيبة والخشوع، ويحمل على التقوى وملازمتها، وهذا مقتضى الآية. فإن معرفة صفاته تعالى المخوفة والمرجوة هو الذى يحصل به الإنذار، لا الفقه المصطلح عليه. هـ. وأما إذا وقع الخروج لطلب العلم فالتفقه ظاهر.

ثم قال تعالى: ﴿وليُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾، أى: وليجعلوا غاية سعيهم ومُعظم غرضهم من التفقه إرشاد القوم وإنذارهم. وتخصيصه بالذكر؛ لأنه أهم، وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية، وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه أن يستقيم ويقيم، لا الترفع على الناس والتبسط فى البلاد. قاله البيضاوى. وقوله: ﴿لعلهم يحذرون﴾، أى: لعلهم يخافون مما حذروا منه.

قال البيضاوى: وقد قيل: للآية معنى آخر، وهو أنه لما نزل في المتخلفين ما نزل؛ تسابق المؤمنون إلى النفير، وانقطعوا عن التفقه، فأمرُوا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد، ويبقى أعقابهم يتفقهون، حتى لا ينقطع التفقه الذى هو الجهاد الأكبر؛ لأن الجدل بالحجة هو الأصل، والمقصود من البعثة، فيكون الضمير فى ﴿لِتَتَفَقَّهُوا﴾، و﴿لِيُنْذِرُوا﴾: للفرق البواقى بعد الطوائف النافرة للغزو، وفى ﴿رَجِعُوا﴾: للطوائف النافرة، أى: وليُنْذِرُوا البواقى من قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا أيام غيبتهم من العلوم. هـ. وتقدير الآية على هذا: فلو لا نفر من كل فرقة طائفة، وجلس طائفة ليتفقهوا فى الدين، وليُنْذِرُوا قومهم الخارجين للغزو إذا رجعوا إليهم من غزوهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال القشيري: لو اشتغل الكل بالتفقه فى الدين لتعطل عليهم المعاش، ولمنعهم الكافر عن درك المطلوب، فجعل ذلك فرضاً على الكفاية. ويقال: المسلمون على مراتب: فعوامهم كالرعية للملك؛ وكتبه الحديث كخزنة الملك. وأهل القرآن كحفاظ الدفاتر ونفائس الأموال. والفقهاء بمنزلة الوكلاء؛ إذ الفقيه يوقع الحكم عن الله. وعلماء الأصول كالقواد وأمراء الجيوش. والأولياء كأركان الباب. وأرباب القلوب وأصحاب الصفاء كخواص الملك وجلّسائه. فشغل قوماً بحفظ أركان الشرع، وآخرين بإمضاء الأحكام، وآخرين بالرد على المخالفين، وآخرين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعل قوماً مفردين لحضور القلب؛ وهم أصحاب الشهود، ليس لهم شغل، يراعون مع الله أنفاسهم، وهم أصحاب الفراغ، لا يستفزّهم طلب، ولا يهزّهم أمر، فهم بالله الله، بمحو ما سوى الله، وأما الذين يتفقهون فى الدين فهم الداعون إلى الله، وإنما يفهم الخلق عن الله بمن كان يفهم عن الله. هـ.

قوله: وأما الذين يتفقهون.. إلخ، الداعون إلى الله على الحقيقة هم العارفون بالله، وهم أصحاب الشهود، الذين وصفهم قبل، وأما الفقهاء فى الدين فإنما يدعون إلى أحكام الله، وتعلم دينه دون معرفة ذاته وصفاته؛ فدعواهم ضعيفة التأثير، فلا ينهض على أيديهم ما ينهض على أيدي العارفين.

وقال الورعجبى، فى قوله تعالى: (لِتَتَفَقَّهُوا فى الدين): قال المرتضى: السياحة والأسفار على ضربين: سياحة لتعلم أحكام الدين وأساس الشريعة، وسياحة لآداب العبودية ورياضة الأنفس، فمن رجع عن سياحة الأحكام قام بلسانه يدعو الخلق إلى ربه، ومن رجع من سياحة الأدب والرياضة قام فى الخلق يهديهم لأخلاقه وشمائله. وسياحة هى سياحة الحق، وهى رؤية أهل الحق والتأدب بآدابهم، فهذا بركته تعم البلاد والعباد. هـ.

ثم أمر بجهاد الأقرب فالأقرب، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣)

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾، أى: جاهدوا الأقرب فالأقرب بالتدريج، كما أمر رسوله ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين، فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح. وقيل: هم يهود حوالى المدينة، كقريظة والنضير وخيبر، وقيل: الروم بالشام؛ وهو قريب من المدينة، وكانت أرض العرب قد عمها الإسلام، وكانت العراق حينئذ بعيدة. ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾؛ شدة وصبراً على قتالهم، ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ بالإعانة والنصر والحراسة.

الإشارة: ينبغى لأهل الوعظ والتذكير أن يبدأوا بالأقرب فالأقرب على التدريج، قال الرفاعى رحمته الله: إذا أراد الله أن يرقى عبداً إلى مقامات الرجال؛ كلفه بأمر نفسه أولاً، فإذا أدب نفسه واستقامت معه، كلفه بأهله؛ فإن أحسن إليهم وساسهم، كلفه بأهل بلده، فإن أحسن إليهم وساسهم، كلفه جهة من البلاد، فإن هو نصحهم، وساسهم، وأصلح سريرته مع الله، كلفه رتبة ما بين السماء والأرض، فإن لله خلقاً لا يعلمهم إلا الله، ثم لا يزال يرتفع من سماء إلى سماء حتى يرتفع ويصل إلى محل القطب الغوث، وهناك يطلعه الله على بعض غيبه. انتهى.

والغلظة التى تكون فى المذكر، إذا رأى منكراً، أو ذكر له وأراد النهى عنه. وأما فى الترغيب والإرشاد فينبغى أن يغلب جانب اللطافة واللين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حال المنافقين عند نزول الوحي، لأن السورة جُلها فى فضيحتهم، فقال:

﴿وَإِذَا مَا أَنزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ءِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ ءِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٢٥) ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٢٦) ﴿وَإِذَا مَا أَنزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً﴾ من القرآن، ﴿فَمِنْهُمْ﴾؛ فمن المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ﴾؛ إنكاراً واستهزاء: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة ﴿إِيمَانًا﴾، كما يزعم أصحاب محمد: أن القرآن يزيدهم إيماناً، فلا زيادة فيه، ولا دليل أنه من عند الله. قال تعالى في الرد عليهم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً﴾؛ لتنوير قلوبهم، وصفاء سرائرهم، فتزيدهم إيماناً وعلماً؛ لما فيها من الإنذار والإخبار، ولانضمام الإيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم، ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنزولها؛ لأنها سبب لزيادة إيمانهم، وارتفاع درجاتهم، بخلاف قلوب المنافقين؛ فلظلماتيتها وخصوصها لم تزد لهم إلا خوصاً، كما قال تعالى:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾؛ كفر وشك، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي: كفرأ بها، مضموماً إلى الكفر بغيرها، الذي كان حاصلًا فيهم، ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: وتحكم ذلك في قلوبهم حتى ماتوا عليه.

﴿أَوْ لَا يَرَوْنَ﴾ أي: المنافقون، ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يُبْتَلَوْنَ وَيُخْتَبَرُونَ بأصناف البليات، كالأمرض والجوع، أو بالجهاد مع رسول الله ﷺ، فيعاينون ما يظهر عليه من الآيات، أو يفضحون بكشف سرائرهم. يفعل ذلك بهم ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾، ثم لا يتوبون: ﴿لَا يَلْتَهُونَ مِنْ نِفَاقِهِمْ وَكُفْرِهِمْ﴾، ولا هم يذكرون؛ يعتبرون.

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾، يريدون الهرب، يقولون: ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ إذا قمت، فإن لم يره أحد قاموا وانصرفوا. قال البيضاوي: تغامزوا بالعيوب، إنكاراً لها وسخرية، أو غيظاً؛ لما فيها من عيوبهم. هـ. قال ابن عطية: المعنى: إذا ما أنزلت سورة فيها فضيحتهم، نظر بعضهم إلى بعض على جهة التقرير، يفهم من تلك النظرة: التقرير: هل معكم من ينقل عنكم؟ هل يراكم من أحد حين تدبرون أمركم؟ وقوله: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾؛ أي: عن طريق الاهتداء، وذلك أنهم حينما بين لهم كشف أسرارهم، يقع لهم - لا محالة - تعجب وتوقف ونظر، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مظنة لهم، فهم، إذ يصممون على الكفر، ويرتبكون فيه، كأنهم انصرفوا عن تلك الحال، التي كانت مظنة النظر الصحيح والاهتداء. هـ.

والتحقيق: أن معنى ﴿انصرفوا﴾: قاموا عن مجلس النبي ﷺ؛ مخافة الفضيحة. ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الإيمان؛ دعاء عليهم، أو إخبار، فيستوجبون ذلك؛ ﴿بأنهم﴾؛ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ لا يفهمون عن الله؛ ولا عن رسوله - عليه الصلاة والسلام -، أو لا يفقهون سوء فهمهم أو عدم تدبرهم.

الإشارة: زيادة الإيمان عند سماع القرآن يكون على حسب التصفية والتطهير من الأغيار، فبقدر ما يصفو القلب من الأغيار يكشف له عن أسرار القرآن. قال بعضهم: كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة، فجاهدت نفسي

وطهرتها، فصرت كأنى أسمع من النبى ﷺ، يتلو على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه، فكنت أتلوه كأنى أسمع من جبريل يلقيه على رسول الله ﷺ، ثم من على الله بملزلة أخرى، فأنا الآن أسمع من المتكلم به، فعندها وجدت له نعيماً لا أصبر عليه. هـ. بلفظه.

مثل هذا يزيد القرآن إيقاناً، ويستبشر قلبه عند سماعه، وأما من كان مريض القلب بحب الدنيا، مغموراً بالشكوى والأوهام والخواطر، فلا يزيد القرآن إلا بعداً؛ حيث لم يتدبر فيه، ولم يعمل بمقتضاه، وإذا حضر مثل هذا الغافل مجلس وعظ أو تذكير أو ذكر لم يطق الجلوس، بل نظر: هل يراه من أحد؟ ثم انصرف، صرف الله قلبه عن حضرة قدسه؛ لعدم فهمه عن ربه. والله تعالى أعلم.

ثم ختم السورة بذكر محاسن نبيه - عليه الصلاة والسلام -؛ لما ظهر عليه فى هذه السورة من الرحمة والرفقة بالمؤمنين، ومن العفو والصفح عن المعتذرين، فقال:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

قلت: «عزيز»: صفة «الرسول»، و«ما عنتكم»: فاعله، و«ما»: مصدرية، أى: عزيز عليه عنتكم، أو عزيز: خبر مقدم، و«ما عنتم، مبتدأ، والعنت: المشقة والتعب.

يقول الحق جل جلاله، مخاطباً العرب، أو قريش، أو جميع بنى آدم: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾: محمد ﷺ، أى: من قبيلتكم، بحيث تعرفون حسبه وصدقه وأمانته، وتفهمون خطابه، أو من جنسكم من البشر. وقرأ ابن نشيط: بفتح الفاء، أى من أشرافكم. قال ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى بنى هاشم من قريش، واصطفانى من بنى هاشم، فأنا مصطفى من مصطفين».

﴿عزيز عليه﴾، أى: شديد شاق عليه ﴿ما عنتم﴾ أى: عنتكم ومشقتكم ولقاؤكم المكروه فى دينكم ودنياكم. ﴿حريص عليكم﴾ أى: على إيمانكم وسعادتكم وصلاح شأنكم، ﴿بالمؤمنين﴾ منكم ومن غيركم ﴿رؤوف رحيم﴾ أى: شفيق بهم، قدم الأبلغ منهما؛ لأن الرأفة شدة الرحمة؛ للفاصلة. وسمى رسوله هنا باسمين من أسمائه تعالى.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بك، بعد هذه الحالة المشهورة، التى من الله عليهم بها، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى: كافينى أمركم، فإن قلت ذلك؛ فإنه يكفيك شأنهم ويعينك عليهم، أو فإن أعرضوا فاستعن بالله وتوكل عليه، فإنه كافيك، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ فلا يتوكل إلا عليه، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، أى: الملك العظيم، أو الجسم الأعظم المحيط، الذى تنزل منه الأحكام والمقادير.

وعن أبى: آخر ما نزل هاتان الآيتان. وعن النبى ﷺ: «ما نزل القرآن على إلا آية آية، وحرفاً حرفاً، ما خلا سورة براءة، و(قل هو الله أحد) فإنهما أنزلتا على ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة» (١) قاله البيضاوى. وهاتان الآيتان أيضاً معا وجدتا عند خزيمة بن ثابت، بعد جمع المصحف، فألحقنا فى المصحف، بعد تذكر الصحابة لهما وإجماعهم عليهما. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى لورثته - عليه الصلاة والسلام - الداعين إلى الله، أن يتخلقوا بأخلاقه ﷺ، فيشق عليهم ما ينزل بالمؤمنين من المشاق والمكاره، ويبسرون ولا يعسرون عليهم، ويحرصون على الخير للناس كافة، ويبذلون جهدهم فى إيصاله إليهم، ويرحمونهم ويشفقون عليهم، فإن أدبروا عنهم استغفوا بالله وتوكلوا عليه، وفوضوا أمرهم إليه، من غير أسف ولا حزن.

وقال الورعجبى: قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، اشتد عليه مخالفتنا مع الحق، ومتابعتنا هواناً واحتجابنا عن الحق. قال بعضهم: شق عليه ركوبكم مراكب الخلاف. قال سهل: شديد عليه غفلتكم عن الله ولو طرفة عين. ثم قال فى قوله تعالى: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ...) الآية: سلى قلبه بإعراضهم عن متابعتة، مع كونه حريصاً على هدايتهم، أى: ففى الله كفاية عن كل غير وسوى.

قال النقشبرى: أمره أن يدعوا الخلق إلى التوحيد، ثم قال له: فإن أعرضوا عن الإجابة فكُنْ بنا، بنعت التجريد. ويقال: قال له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾، ثم أمره أن يقول: حَسْبِيَ اللَّهُ. قوله تعالى: ﴿حَسْبُكَ﴾: عين الجمع، وقوله: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فرق، بل هو الجمع، أى: قل، ولكن بنا تقول، فنحن المقولون عنك وأنت مُسْتَهْلَكٌ فى عين التوحيد؛ فأنت بنا، ومحو عن غيرنا. هـ

وبالله التوفيق. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم



(٢) عزاه فى الفتح السماوى، للعلبى، من حديث السيدة عائشة، وقال الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف: (إسناده واه)، وقال الولى العراقى: هو منكر جداً. وقال التفثازانى فى حاشيته على الكشاف: هذا يخالف ما ثبت فى أحاديث صحيحة وردت فى أسباب نزول كثير من الآيات، فإنها نزلت منفردة. وذلك يدل على أن السورة لم تنزل جملة، ولو لم تكن إلا آية: «وعلى الثلاثة الذين خلفوا..» لكفى. هـ. راجع الفتح السماوى (٧١١/٢)

سُورَةُ يُوسُفَ

مكية . وهى مائة وتسع آيات . ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (١) مع قوله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ ، فقد تعجبوا منه مع كونهم يعرفون أمانته وصدقته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّتِّلِكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿ ٢ ﴾

قلت : (عجبا) خبر كان، واسمها : (أن أوحينا) ، ومن قرأ بالرفع فالأمر بالعكس ، أو كان تامة ، واللام متعلقة بعجبا ، وهو مصدر للدلالة على أنهم جعلوه أعجوبة لهم ، يتوجهون نحوه بإنكارهم واستهزائهم .

قال في المغني : المصدر الذى ليس فى تقدير حرف الموصول وصلته لا يمنع التقديم عليه ، على أن السعد قال فى المطول : إن معمول المصدر إذا كان ظرفا أو شبهه ، أظهر أنه جائز التقديم ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مِنْهُ السَّعْيَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ ﴾ (٣) ومثل هذا كثير فى الكلام ، وليس كل ما أول بشيء حكمه حكم ما أول به ، مع أن الظرف مما يكيّفه رائحة الفعل ؛ لأن له شأنًا ليس لغيره ؛ لتنزله من الشيء منزلة نفسه ؛ لوقوعه فيه وعدم انفكاكه عنه ، ولهذا اتسع فى الظروف ما لم يتسع فى غيرها . هـ .

يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المجتبى المختار ﴿ تلك ﴾ الآيات التى تنزل عليك هى ﴿ آياتُ الكتابِ الحكيمِ ﴾ ، الذى اشتمل على الحكم الباهرة والعبر الظاهرة ، أو المحكم الذى لم ينسخ منه شيء بكتاب آخر بعده ، أو كلام حكيم . ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ ﴾ أى : كفار قريش وغيرهم ﴿ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ ولم يكن من عظمائهم ؟ والاستفهام للإنكار ، والرد على من استبعد النبوة ، أو تعجب من أن يبعث الله رجلاً من وسط الناس .

(١) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

(٢) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات .

(٣) من الآية ٢ من سورة النور .

قيل : كانوا يقولون: العجب أن الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب. وهذا من فرط حماقتهم، وقصور نظرهم على الأمور العاجلة، وجهلهم بحقيقة الوحى والنبوة.

هذا .. وأنه - عليه الصلاة والسلام - لم يكن يقصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه، إلا فى المال، وخفة الحال أعون شىء فى هذا الباب، ولذلك كان أكثر الأنبياء قبله كذلك - أى: خفافاً من المال - وقيل: تعجبوا من أنه بعث بشراً رسولاً، كما سبق فى سورة الأنعام. قاله البيضاوى.

ثم فسر الوحى المذكور فقال: ﴿ أن أنذر الناس ﴾ أى: أوحينا إليه بأن أنذر الناس أى: خوفهم من غضب ربهم، ﴿ وبشر الذين آمنوا ﴾، عمم الإنذار، إذ ليس من أحد إلا وفيه ما ينبغى أن ينذر منه، وخصص البشارة إذ ليس للكفار ما يصح أن يبشروا به، قاله البيضاوى.

أى: بشر المؤمنين بأن ﴿ لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ أى: سابقة ومنزلة رفيعة، سميت قدماً لأن السبق يكون بها، كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد، وأضيفت إلى الصدق لتحقيقها وللتنبية على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والدية. قال ابن جزى: أى: عمل صالح قدمه، وقال ابن عباس: السعادة السابقة لهم فى اللوح المحفوظ. هـ وقال ابن عطية: والصدق فى هذه الآية بمعنى الصلاح، كما تقول: رجل صدق ورجل سوء. هـ.

﴿ قال الكافرون إن هذا ﴾ الكتاب، أو ما جاء به الرسول، ﴿ لسحر (١) مبين ﴾ أى: بين ظاهر، وقرأ ابن كثير والكوفيون: «لساخر»، على أن الإشارة إلى الرسول، وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول أموراً خارقة للعادة، معجزة لهم عن المعارضة، وكلامهم هذا يحتمل أن يكون تفسيراً لما ذكره قبل من تعجبهم، أو يكون مستأنفاً.

الإشارة: تعجب الناس من أهل الخصوصية سنة ماضية، فكما خفى عن أعين الكفار سر النبوة، خفى عن أعين الخفافيش سر الخصوصية، فلا يطلع عليها إلا من سبق له قدم صدق عند ربه، فسبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية؛ فلم يدل عليها إلا من أراد أن يوصله إلى مشاهدة عظمة الربوبية.

قال فى لطائف المنن: فأولياء الله أهل كهف الإيواء، فقليل من يعرفهم، وسمعت الشيخ أبا العباس رحمته الله يقول: معرفة الولي أصعب من معرفة الله، فإن الله تعالى معروف بكماله وجماله، ومتى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب؟ وإذا أراد الله أن يعرفك بولى من أوليائه طوى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته. هـ.

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وحمة والكسائي «لساخر» بالالف وكسر الحاء. وقرأ الباقر «لسحر» بغير ألف، إشارة إلى الوحى - انظر الإتلاف (١٠٤/٢).

ثم فسر عظمة ربوبيته، فقال:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ الذى يستحق العبادة وحده هو ﴿الله﴾ الذى أظهر الكائنات من العدم إلى الوجود، وبه رد على من أنكر النبوة، كأنه يقول: إنما أدعوكم إلى عبادة الله الذى خلق الأشياء، فكيف تنكرون ذلك وهو الحق المبين؟ ثم فصل ذلك فقال: ﴿الذى خلق السماوات والأرض﴾ التى هى أصول الكائنات، ﴿فى﴾ مقدار ﴿ستة أيام﴾ من أيام الدنيا، ولم يكن حينئذ ليل ولا نهار، والجمهور: أن ابتداء الخلق يوم الأحد. وفى حديث مسلم: يوم السبت، وأنه خلق الأرض، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك. ﴿ثم استوى على العرش﴾ استواء يليق به، كاستواء الملك على سريره ليدير أمر مملكته، ولذلك رتب عليه: ﴿يُدِيرُ الْأُمْرَ﴾، وقد تقدم الكلام عليه فى الأعراف^(١).

قال البيضاوى: يدير أمر الكائنات على ما تقتضيه حكمته، وسبقت به كلمته، بتحريك أفلakها، وتهيئ أسبابها، والتدبير: النظر فى عواقب الأمور لتجىء محمودة العاقبة. هـ.

﴿ما من شافعٍ﴾ تقبل شفاعته ﴿إلا من بعد إذنه﴾ له فى الشفاعة، وهو تقرير لعظمته وعزة جلاله، ورد على من يزعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وفيه إثبات الشفاعة لمن أذن له، كالأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء. ﴿ذلكم الله﴾ أى: الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية هو ﴿الله ربكم﴾ لا غير؛ إذ لا يشاركه أحد فى شىء من ذلك، ﴿فاعبدوه﴾: أفردوه بالعبادة ﴿أفلا تذكرون﴾ أى: تتفكرون أدنى تفكر، فتعرفون أنه المستحق للربوبية والعبادة، لا ما تعبدونه من الأصنام.

﴿إليه مرجعكم﴾ بالبعث ﴿جميعاً﴾ فيجازيكم على أعمالكم، ويعاقبكم على شرككم، ﴿وعد الله حقاً﴾: مصدر مؤكد لنفسه؛ لأن قوله: ﴿إليه مرجعكم﴾ وعد من الله. ﴿إنه يبدأ الخلق﴾ بإظهاره فى الدنيا ﴿ثم يعيده﴾ بعد إهلاكه فى الآخرة. ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، تعليل للعودة؛ وهى البعثة،

(١) راجع تفسير الآية: ٥٤ من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالعدل؛ بأن يعدل فى جزائهم، فلا يظلم مثقال ذرة، أو يعدلهم وقيامهم على العمل فى أمورهم، أو بآيمانهم؛ لأنه العدل القويم، كما أن الشريك ظلم عظيم. وهو الأوجه لمقابلة قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بسبب كفرهم وشركهم. الذى هو الظلم العظيم. لكنه غير النظم للمبالغة فى استحقاقهم العذاب والتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة، وأما العقاب فإنما هو واقع بالعرض، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه، ولذلك لم يعينه، وأما عقاب الكفرة فإنه إنما ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم.

والآية كالدليل لقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، فإنه لما كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاة الله المكلفين على أعمالهم، كان مرجع الجميع إليه لا محالة، ويؤيده قراءة من قرأ: «أنه يبدأ، بالفتح، أى: لأنه، ويجوز أن يكون منصوباً بما نصب «وعد الله»، قاله البيضاوى.

الإشارة: تقدم بعض إشارة هذه الآية فى الأعراف، وقال الورتجى هنا: جعل العرش مرآة تجلى قدسه ومأوى أرواح أحبائه لقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى...﴾ الآية، ثم قال: ثم دعاهم إلى عبادته بعد معرفته بقوله: «فاعبدوه». وقال القشيري: «ذكّم الله ربكم» تعريف، وقوله: ﴿فاعبدوه﴾ تكليف، فحصول التعريف بتحقيقه، والوصول إلى ماورد به التكليف بتوقيفه. هـ. وقال فى قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾: الرجوع يقتضى ابتداء، والأرواح قبل حصولها فى الأشباح كان لها فى موطن التسبيح والتقديس إقامة، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند محبيه وذويه، وأنشدوا:

أَيَا قَادِمًا مِنْ سَفَرَةِ الْهَجْرِ مَرْحَبًا أَنَا ذَاكَ لَا أَنْسَاكَ مَا هَبَّتِ الصَّبَا. هـ.

وفى الإحياء: كل من نسى الله أنساه. لا محالة. نفسه، ونزل إلى رتبة البهائم، وترك الترقى إلى أعلى الملائكة الأعلى، وخان فى الأمانة التى أودعها له تعالى، وأنعم بها عليه، وكان كافراً لنعمته، ومتعرضاً لنقمته؛ فإن البهيمة تتخلص بالموت، وأما هذا فعنده أمانة سترجع. لا محالة. إلى مودعها، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها، وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة، وإنما هبطت إلى هذا القالب الفانى وغربت فيه، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها، وتعود إلى بارئها وخالقها، إما مظلمة منكسة، وإما زاهرة مشرقة، والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية، والمظلمة أيضاً راجعة إلى الحضرة؛ إذ المرجع ومصير الكل إليه، إلا أنها ناكسة رؤوسها عن جهة أعلى عليين، إلى جهة أسفل سافلين، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (١) فبين أنهم عند ربهم منكسون منحوسون، قد انقلبت وجوههم إلى أفقيتهم، وانتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل، وذلك حكم الله تعالى فيمن حرمه ترفيقه، ولم يهده طريقه، فتعوذ بالله من الضلال والنزول فى منازل الجهال. هـ.

(١) من الآية ١٢ من سورة المسجدة.

قلت: ظاهر كلامه: أن الروح لا ترجع إلى وطنها وتتصل بحضرة ربها إلا بعد خراب هذا البدن، والحق أنها ترجع لأصلها، وتتصل بحضرة ربها مع قيام هذا البدن؛ إذا كمل تطهيرها وتمت تصفيتها من بقايا الحس، وانقطع عنها علائق هذا العالم الجسماني، فتتصل حينئذ بالعالم الروحاني، مع قيام العالم الجسماني، كما هو مقرر عند أهل التحقيق، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة إيجاد النيرين، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي آخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَاوَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلَتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

قلت: «ضياء»: مفعول ثان، أى: ذات ضياء، وهو مصدر كقيام، أو جمع ضوء كسياط، والياء منقلبة عن الواو، وفي رواية عن ابن كثير بهمزتين في كل القرآن على القلب، بتقديم اللام على العين، والضمير في «قدره»، للشمس والقمر، كقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ (١)، أو للقمر فقط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء﴾ أى: ذات ضوء وإشراق أصلى، ﴿والقمر نوراً﴾ أى: ذا نور عارض، مقتبس من نور الشمس عند مقابلته إياها، ولذلك يزيد نوره وينقص، فقد نبه سبحانه بذلك على أنه خلق الشمس نيرة في ذاتها، والقمر نوراً بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها، فالنور أعم من الضياء، والضياء أعظم من النور. ﴿وقدره منازل﴾ أى: قدر سير كل واحد منهما منازل، أو القمر فقط، وخصصه بالذكر لسرعة سيره، ومعاينة منازل، وإناطة أحكام الشرع به. ولذلك علله بقوله: ﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ أى: حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالي في معاملتكم وتصرفاتكم:

﴿ما خلق الله ذلك﴾ الذى تقدم من أنواع المخلوقات ﴿إلا بالحق﴾ أى: ملتبساً بالحق، مراعيًا فيه مقتضى الحكمة البالغة، لا عبثاً عارياً عن الحكمة، أو ما خلق ذلك إلا ليُعرف فيها، فما نُصبت الكائنات لتراها، بل لتُرى

(١) من الآية ٦٢ من سورة التوبة.

فيها مولاها . وقال الشيخ أبو العباس المرسى رحمته الله : الحق الذى خلق الله به كل شيء كلمة دكن . قال سبحانه ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾ (١) . هـ . وهو بعيد هنا .

﴿ نَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) فإنهم المنتفعون بالنظر فيها والاعتبار بها .

ثم بين وجه الاعتبار فقال : ﴿ إِنْ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى : تعاقبهما بالذهاب والمجيء ، أو بالزيادة والنقصان ، ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من أنواع الكائنات وضروب المخلوقات ، ﴿ لآيَاتٍ ﴾ دالة على وجود الصانع ووحدته ، وكمال علمه وقدرته ، ﴿ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ الله ، ويخشون العواقب ، فإن ذلك يحملهم على التفكير والتدبر ، بخلاف المنهمكين فى الغفلة والمعاصى ، الذين أشار إليهم بقوله :

﴿ إِنْ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ أى : لا يتوقعونه ، أو : لا يخافون بأسه لإنكارهم البعث ، وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها ، ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ : فتعوا بها بدلاً من الآخرة لغفلتهم عنها ، ﴿ وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾ أى : سكنوا إليها مقصرين همهم على لذائذها وزخارفها ، وسكنوا فيها سكن من يظن أنه لا ينزعج عنها . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا ﴾ المتقدمة الدالة على كمال قدرتنا ، ﴿ غَافِلُونَ ﴾ : لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون : لانهم ماكهم فى الغفلة والذنوب .

قال البيضاوى : والعطف إما لتغاير الوصفين ، والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأساً ، والانهماك فى الشهوات ، بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم أصلاً ، وإما لتغاير الفريقين ، والمراد بالأولين : من أنكر البعث ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، وبالأخرين من ألهاه حب العاجل عن التأمل فى الآجل والإعداد له . هـ .

﴿ أُولَئِكَ مَاوَاهُم النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى : بما واطبوا عليه وتمرنوا به من المعاصى . قال ابن عطية : وفى هذه اللفظة رد على الجبرية ، ونص على تعلق العقاب بالتكسب . هـ .

الإشارة : هو الذى جعل شمس العيان مشرقة فى قلوب أهل العرفان ، لا غروب لها مدى الأزمان ، وجعل قمر توحيد الدليل والبرهان نوراً يهتدى به إلى طريق الوصول إلى العيان ، وقدر السير به منازل - وهى مقامات اليقين ومنازل السائرين - ينزلون فيها مقاماً مقاماً إلى صريح المعرفة ، وهى التوبة والخوف ، والرجاء والورع ، والزهد والصبر ، والشكر والرضى والتسليم والمحبة ، والمراقبة والمشاهدة . ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، ليتوصل به إلى الحق . إن فى اختلاف ليل القبض ونهار البسط على قلب المرید لآيات دالة له على السير ، لقوم يتقون السوء ، أو شواغل الحس .

(١) من الآية ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب بياء الغيب (يفصل) . والباقون بنون العظمة (نفصل) انظر الإتعاظ (١٠٤/٢) .

إن الذين لا يرجون الوصول إلينا لقصر همّهم، ورضوا بالحياة الدنيا وشهواتها، واطمأنوا بها ولم يرحلوا عنها، إذ لا يتحقق سير السائرين إلا بمجاهدة تركها والرحيل بالقلب عنها، والذين هم عن آياتنا غافلون؛ لانهماكهم فى الهوى والحظوظ، أولئك مأواهم نار القطيعة وغم الحجاب، بما كانوا يكسبون من الاشتغال بالحظوظ والشهوات. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أضدادهم، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

قلت: (تجرى): جملة استئنافية، أو خبر ثانٍ لأن، أو حال من الضمير المنصوب فى «يهديهم». و(دعواهم): مبتدأ، و(سبحانك): مقول للخبر - أى: قولهم سبحانك. والتحية مأخوذة من تمنى الحياة والدعاء بها، يقال: حياه تحية، ويقال للوجه: محياً لوقوع التحية عند رؤيته، و(آخر): مبتدأ، و(أن الحمد لله): خبر، وأن مخففة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أى: يسددهم «بإيمانهم»؛ بسبب إيمانهم إلى الاستقامة والنظر، أو إلى سلوك سبيل يودى إلى الجنة، أو إلى إدراك الحقائق العرفانية، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلَّمَ اللَّهُ أَوْرَثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»، أو لما يشتهونه فى الجنة، ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الأربعة، ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾ أى: دعاؤهم فيها: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أى: اللهم إنا نسبحك تسبيحاً. وروى: أن هذه الكلمة هى ثمر أهل الجنة، فإذا اشتهى أحدهم شيئاً قال: سبحانك اللهم، فينزل بين يديه. رواه ابن جريج وسفيان بن عيينة.

﴿وتحيتهم فيها سلام﴾ أى: ما يحيى به بعضهم بعضاً، أو تحية الملائكة إياهم، أو تسليم الله تعالى عليهم فيها سلام، ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ أى: وخاتمة دعائهم فى كل موطن حمده تعالى وشكره. والمعنى: أنهم إذا دخلوا الجنة وعابنوا عظمتهم وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال، وقُدسوه عند مشاهدته عن كل تمائيل وخیال، فحيّاهم بسلام من عنده، وعند ما منحهم سلامه وأحلّ عليهم رضوانه، وأدام لهم كرامته وجواره، وأراهم وجهه، حمدوه بما حمد به نفسه، فكانت بدايتهم بالتنزيه والتعظيم، وخاتمة دعائهم فى كل موطن حمده وشكره على ما مكنهم فيه، من رؤية وجهه الكريم، ودوام النعيم المقيم، وسمى دعاء لأنه يستدعى المزيد من فضله. قاله المحشى.

الإشارة: إن الذين استكملوا الإيمان، وأخلصوا الأعمال، يهديهم ربهم إلى من يوصلهم إلى جنة حضرته، ببركة إيمانهم، تجرى من تحت أفكارهم أنهار العلوم، فى جنات مشاهدة طلعتة، والتنعم بأنوار معرفته، فإذا عاينوا ذلك أدهشتهم الأنوار، فبادروا إلى التنزيه والتقديس، فيجيبهم الحق تعالى بإقباله عليهم بأنوار وجهه، وأسرار ذاته، فيحمدونه ويشكرونه على ما أولاهم من سوابغ نعمته، والسكون فى جوار حضرته، منحنا الله من ذلك الحظ الأوفر، آمين.

ولما تعجب الكفار من بعث الرسول منهم، وكفروا به، استعجلوا ما خوفهم به من العذاب، فأنزل الله جواباً لهم:

﴿ وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

قلت: (استعجالهم): نصب على المصدر، أى: استعجالاً مثل استعجالهم بالخير. قال البيضاوى: وضع موضع تعجيله لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم فى الخير، حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم هـ. (فندر): عطف على فعل محذوف دلت عليه الشرطية، كأنه قيل: ولكن لا نعجل ولا نقضى بل نمهلهم فندر .. الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ﴾ حيث يطلبونه، كقولهم: ﴿ فَاَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اِئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١)، ﴿ اِنْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ (٢) ﴿ استعجالهم بالخير ﴾؛ كما يعجل الله لهم الخير حين يسألونه ﴿ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ﴾ أى: لأميتوا وأهلكوا من ساعتهم، وقرأ ابن عباس ويعقوب: «لَقَضَى» بالبناء للفاعل، أى: لقضى الله إليهم أجلهم، ولكن من حلمه تعالى وكرمه يمهلهم إلى تمام أجلهم، ﴿ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ استدراجاً وإمهالاً ﴿ فى طغيانهم يعمهون ﴾: يتحيرون. والعمه: الخبط فى الضلال، وهذا التفسير أليق بمناسبة الكلام. وقيل: نزلت فى دعاء الإنسان على نفسه وماله وولده بالشر، أى: لو عجل الله للناس الشر كما يحبون تعجيل الخير لهلكوا سريعاً، فهو كقوله ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ (٣) ويكون قوله: ﴿ فَنَذَرُ... ﴾ الخ استئنافاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من حلمه تعالى وسعة جوده أنه لا يعامل عبده بما يستحقه من العقاب، ولا يعاجله بما يطلبه إن لم يكن فيه سداد وصواب، حكى أن رجلاً قال لبعض الأنبياء عليهم السلام: قل لربى: كم أعصيه وأخالفه ولم يعاقبنى، فأوحى الله إلى ذلك النبی: ليعلم أنى أنا وأنت أنت هـ. بل من عظيم كرمه تعالى أنه قد يعامل

(٣) من الآية ١١ من سورة الإسراء.

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

(٢) من الآية ٧٧ من سورة الأعراف.

السائرين بعكس ما يستحقونه فى جانب المخالفة؛ فقد تهوى بهم أنفسهم إلى مقام الخفض فيرتفعون، وإلى مقام البعد فيقتربون، وهذا فى قوم سبقت لهم العناية، فلم تضرهم الجناية، وحفت بهم الرعاية، فلم تستهوهم الغواية، إذا صدرت منهم المخالفة ندموا وانكسروا. والغالب فيمن كان تحت جناح الأولياء الكبار أن يسلك به هذا المسلك العظيم وما ذلك على الله بعزيز.

وإذا كان الحق تعالى يعجل الخير ويمهل الشر، كان الواجب على العبد شكره على الدوام، لا الإعراض عنه ونسيانه، كما نبه عليه تعالى بقوله:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قلت: (لجنبه): متعلق بحال محذوفة، أى: مضطجعا لجنبه، و(كأن) مخففة

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ فى بدنه أو ماله أو أحبابه، ﴿دَعَانَا﴾ لإزالته مخلصا فيه، وتضرع إلينا حال كونه مضطجعا ﴿لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾، وفائدة التردد تقسيم الدعاء لجميع الأحوال أو لأصناف المضار، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾ أى: مضى على طريقه واستمر على كفره، ولم يشكر الله على دفعه، أو مر عن موقف الدعاء، ولم يرجع إليه. ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ أى: كأنه لم يدعنا ﴿إِلَى﴾ كشف ﴿ضُرِّ مَسَّهُ﴾ قط ﴿نَبِيٍّ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ (١) ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ﴾ أى: مثل هذا التزيين زين للمُسْرِفِينَ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الانهماك فى الشهوات، والإعراض عن شكر المنعم عند المسرات وذهاب العاهات.

وفى الآية تهديد لمن تشبه بهذه الحالة، بل الواجب على العبد دوام التجائه إلى ربه، والشكر له عند ظهور إجابته وإسداًل عافيته.

الإشارة: من حسن الأدب؛ السكون تحت مجارى الأقدار، والتسليم لأحكام الواحد القهار، فليس الشأن أن تُرْزَق الطلب، إنما الشأن أن تُزْرَق حسن الأدب، وحسن الأدب: هو الفهم عن الله؛ فإذا شرح صدرك للدعاء، قادع ولا تكثر، فإن المدعو قريب، ليس بغافل فينبه، ولا ببعيد فتنادى عليه، فإذا دعوته وأجابك فاشكره، وإن أخرج عنك

(١) الآية ٨ من سورة الزمر.

الإجابة فاصبر؛ فقد ضمن الإجابة فيما يريد، لا فيما تريد، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد. والله تعالى أعلم.

ثم هدد من أساء الأدب، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ يا أهل مكة، ﴿ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ بالكفر وتكذيب الرسل، ﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾: بالمعجزات الواضحات، الدالة على صدقهم، ﴿ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ أى: ما استقام لهم أن يؤمنوا، لما سبق لهم من الشقاء وفساد استعدادهم، أو ما كانوا ليؤمنوا بعد أن هلكوا لفوات محله، ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى: مثل ذلك الجزاء - وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم الرسل وإصرارهم عليه، بحيث تحقق أنه لا فائدة في إمهالهم - ﴿ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى: نجزي كل مجرم، أو نجزيهم، ووضع المظهر موضع المضمرة؛ للدلالة على كمال جرمهم، وأنهم أعلام فيه. قاله البيضاوي.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ ﴾ يا أمة محمد ﴿ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ من بعد إهلاكهم، فقد استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها، استخلاف من يختبر ﴿ لِنَنْظُرَ ﴾ أى: لنظهر ما سبق به العلم، فيتبين في الوجود، ﴿ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾، أخيراً أم شراً؟ فنعاملكم على مقتضى أعمالكم.

وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «إنما جعلنا خلفاً لينظر كيف عملنا، فأروا الله حسن أعمالكم في السر والعلانية، وكان أيضاً يقول: (قد استخلفت يا ابن الخطاب، فانظر كيف تعمل).

الإشارة: ما هلك من هلك إلا لإخلاقه بالشرائع أو بالحقائق، فالشرائع، صيانة للأشباح، والحقائق صيانة للأرواح، فمن قام بالشرائع كما ينبغي صان نفسه من الآفات الدنيوية والأخروية، ومن قام بالحقائق على ما ينبغي، صان روحه من الجهل بالله في هذه الدار، وفي تلك الدار، ومن قام بهما معاً صان جسمه وروحه، وكان من المقربين، ومن قام بالشرائع دون الحقائق صان جسمه وترك روحه معذبة في هذه الدار بالخواطر والوساوس والأوهام، وفي تلك الدار بالبعد والمقام مع العوام. ومن قام بالحقائق دون الشرائع فإن كان دعوى عذب جسمه وروحه لزندقته، وإن كان حقاً عذب جسمه هنا بالقتل، كما فعل بالحلاج، والتحق بالمقربين في تلك الدار.

ويقال لأهل كل عصر: ولقد أهلكنا القرون من قبلكم بالبُعد وغم الحجاب، لما ظلموا بالوقوف مع الحظوظ والشهوات، وجاءتهم رسلهم التى توصلهم إلى ربهم - وهم أولياء زمانهم - بالآيات الواضحة على صدقهم، ولو لم يكن إلا هداية الخلق على يديهم - فأنكروهم، وما كانوا ليؤمنوا بهم لما سبق لهم من البُعد، ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم، للنظر كيف تعملون مع شيوخ التربية فى زمانكم، هل تذكرونهم أو تقرّونهم. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حال أهل الإنكار، فقال:

﴿ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بِشُرِّهٖٓ اِنْ غَيْرِ هَٰذَا اَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُوْنُ لِيْ اَنْ اُبَدِّلَهٗ مِنْ تِلْقَايَ نَفْسِيْٓ اِنْ اَتَّبِعُ اِلَّا مَا يُوْحٰى اِلَيَّ ۚ اِنِّىْٓ اَخَافُ اِنْ عَصَيْتُ رَّبِّيْٓ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللّٰهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَا اَدْرَاكُمْ بِهٖٓ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيْكُمْ عُمُرًا مِّنْ قَبْلِهٖٓ اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى كفار قريش ﴿ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ قال الذين لا يرجون لقاءنا ﴿ من المشركين ﴾ ﴿ أَنتِ بِشُرِّهٖٓ اِنْ غَيْرِ هَٰذَا ﴾ أى: بكتاب آخر ليس فيه ما نستبعده من البعث والحساب، والعقاب بعد الموت، أو ما ذكره من سب آلهتنا، وعيب ديننا، أو اجعل هذا الكلام الذى من قبلك على اختيارنا، فأحل ما حرّمته، وحرّم ما أحلّته؛ ليكون أمرنا واحداً وكلمتنا متصلة، ﴿ اَوْ بَدِّلْهُ ﴾ بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى.

﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد: ﴿ مَا يَكُوْنُ ﴾: ما يصح ﴿ لِيْ اَنْ اُبَدِّلَهٗ مِنْ تِلْقَايَ نَفْسِيْ ﴾: من قبل نفسى، وإنما اكتفى بالجواب المذكور عن التبديل؛ لاستلزام امتناعه امتناع الإتيان بقرآن آخر، قل لهم: ﴿ اِنْ ﴾ أى: ما ﴿ اَتَّبِعُ اِلَّا مَا يُوْحٰى اِلَيَّ ﴾، لا أقدر أن أقول شيئاً من عندى. قال البيضاوى: هو تعليل لما يكون، فإن المتبع لغيره فى أمر لم يستبد بالتصرف فيه برجه، وجواب للنقض بنسخ بعض الآيات لبعض، ورد لما عرّضوا له بهذا السؤال من أن القرآن كلامه واختراعه، ولذلك قيد التبديل فى الجواب وسماء عصياناً فقال: ﴿ اِنِّىْٓ اَخَافُ اِنْ عَصَيْتُ رَّبِّيْٓ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ ﴾ يوم القيامة، وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح. هـ.

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللّٰهُ ﴾ ﴿ مَا ﴾ أرسلنى إليكم، ولا ﴿ تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾، ولا أدراكم ﴿ أى: أعلمكم ﴾ به ﴿ على لسانى. وفى قراءة ابن كثير: «ولأدراكم»، بلام التأكيد، أى: لو شاء الله ما تلوته عليكم ولأعلمكم به على لسان غيرى.

والمعنى أنه الحق لا شك فيه، لو لم أُرسل به أنا لأرسل به غيرى. وحاصل المعنى: أن الأمر بمشيئة الله لا بمشيئتي، حتى أجعله على نحو ما تشتهون. ثم قرر ذلك بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ منذ أربعين سنة ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أى: من قبل نزول هذا القرآن، لا أتلوه ولا أعلم منه شيئاً، وفيه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة، فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يدرس فيها علماً، ولا يشاهد عالماً، ولم ينشد قريضاً - أى شعراً - ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً أعجزت فصاحته كل منطق، وفاق كل منظوم ومثلث، واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع، وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه، علم أنه معلم به من عند الله. قاله البيضاوى.

فكل من له عقل سليم أدرك حقيقته، ولذلك قرعهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى: أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر، فتعلموا أنه ليس من طرق البشر، بل هو من عند الحكيم العليم الواحد القهار.

الإشارة: إذا ظهر أهل التربية الداعون إلى الله بطريق صعبة على النفوس، يسرون الناس عليها، كخرق العوائد وتخريب الظواهر والتجريد، قال من لا يرجو الوصول إلى الله - لغلبة الهوى عليه: اتكنا بطريق غير هذا لتتبعكم عليه، يكون سهلاً على النفوس، موافقاً لعوائدنا، أو بدلوا هذا بطريق أسهل، وأما هذا الذى أتيتم به، فلا نقدر عليه، وربما رموه بالبدعة، فيقولون لهم: ما يكون لنا أن نبدله من تلقاء أنفسنا، إن نتبع إلا ما سلك عليه أشياخنا وأشياخهم، فما ربونا به نربى به من تبعنا، فإن خالفنا طريقهم خفنا من عقاب الله، حيث غششنا من اتبعنا، وقد مكثنا معكم قبل صحبتة أشياخنا سنين، فلم تروا علينا شيئاً من ذلك حتى صحبتناهم، فدل ذلك على أنه موروث عن أشياخهم وأشياخ أشياخهم، أفلا تعقلون؟

ثم سجل بالظلم على من كذب أو كذب، فقال:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِعَايِنَتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ
هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِئُوكَ اللَّهُ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فمن أظلم﴾ لا أحد أظلم ﴿من افترى على الله كذباً﴾ بأن تقول على الله ما لم يقل، وهذا بيان لبراءته مما اتهموه به من اختراعه القرآن، وإشارة إلى كذبهم على الله فى نسبة الشركاء له

والولد، ﴿أَوْ كَذَّبَ بآيَاتِهِ﴾ فكفر بها، فلا أظلم منه ﴿إِنَّهُ﴾ أى: الأمر والشأن ﴿لَا يَفْلَحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أى: لا يظفرون ببغيته، ولا تنجح مساعيهم؛ لا شراكم بالله. كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ من الجمادات التى لا تقدر على ضر ولا نفع، والمعبود ينبغي أن يكون مثيراً ومُعاقباً حتى تكون عبادته لجلب نفع أو دفع ضرر. ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ﴾ الأوثان ﴿شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا، أو فى الآخرة إن يكن بعث، وكأنهم كانوا شاكين فيه، وهذا من فرط جهالتهم، حيث تركوا عبادة الموجد للأشياء، الضار النافع، إلى عبادة ما يعلم قطعاً أنه لا يضر ولا ينفع. ﴿قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ﴾ أتخبرونه ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ وجوده ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وهو أن له شريكاً فيهما يستحق أن يعبد. وفيه تقريع وتهكم بهم.

قال ابن جزى: هو رد عليهم فى قولهم بشفاعة الأصنام، والمعنى: أن شفاعة الأصنام ليست بمعلومة لله الذى هو عالم بما فى السموات والأرض، وكل ما ليس بمعلوم له فهو عدم محض، ليس بشيء، فقله: ﴿أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ﴾ تقرير لهم على وجه التوبيخ والتهكم، أى: كيف تعلمون الله بما لا يعلم. هـ. قال ابن عطية: وفى التوقيف على هذا أعظم غلبة لهم، إذ لا يمكنهم إلا أن يقولوا: لا نفعل ولا نقدر أن نخبر الله بما لا يعلم.

ثم نزه نفسه عن ذلك فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ أى: تنزيهاً له وتعاضماً ﴿عَمَّا يَشْرِكُونَ﴾ أى: إشراكهم، أو عن الشركاء الذين يشركونهم معه. وقرأ الأخوان: بالتاء، أى: عما تشركون أيها الكفار.

الإشارة: فى هذه الآية زجر كبير لأهل الدعوى، الذين ادعوا الخصوصية افتراء، ولأهل الإنكار الذين كذبوا من ثبتت خصوصيته، وتسجيل عليهم بالإجرام، وعدم النجاح والفلاح، وفيها أيضاً: زجر لمن اعتمد على مخلوق فى جلب نفع أو دفع ضرر، أو اغتر بصحبة ولى يظن أنه يشفع له مع إصراره وعظيم أوزاره. والله تعالى أعلم.

ثم إن اختلاف الناس على الأنبياء وتكذيبهم وإشراكهم؛ إنما هو أمر عارض، حصل لهم باندراس العلم وقلة الإنذار، كما قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ

لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة﴾ موحددين، على الفطرة الأصلية، أو متفقين على الحق، وذلك فى عهد آدم، إلى أن قتل قابيل أخاه هابيل، أو بعد الطوفان إلى زمان اختلافهم، أو الأرواح

حيث استخرجهم واستشهدهم، فاتفقوا على الإقرار، ثم اختلفوا فى عالم الأشباح باتباع الهوى والأباطيل، أو ببعثة الرسل فتبعتهم طائفة وكفرت أخرى. ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ فى اللوح المحفوظ، بتأخير الحكم، أو العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة، فإنه يوم الفصل والجزاء، ﴿ لقضى بينهم ﴾ عاجلاً ﴿ فيما فيه يختلفون ﴾ بإهلاك المبطل وإبقاء المحق.

الإشارة: اختلاف الناس على الأولياء كاختلافهم على الأنبياء، أمر سبق به الحكم الأزلى لا محيد عنه، فمن طلب اتفاقهم عليه فهو جاهل بالله وبطريق أهل الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر اقتراحهم الآيات، فقال:

﴿ وَيَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويقولون ﴾؛ يقول الكفار: ﴿ لولا ﴾؛ هلاً ﴿ أنزل عليه آية ﴾ ظاهرة ﴿ من ربه ﴾ تدل على صدقه، يعاينها الناس كلهم، فتلجئهم إلى الإيمان به، وهذا الأمر على هذا الوجه لم يكن لنبي قط، إنما كانت الآية تظهر معرضة للنظر، فيهدى بها قوم، ويكفر بها آخرون، ﴿ فقل ﴾ لهم: ﴿ إنما ﴾ علم ﴿ الغيب ﴾ لله ﴿ مختص به ﴾، فلم أطلع عليه حتى أعلم وقت نزولها، ولعله علم ما فى نزولها من الضرر لكم فصرفها عنكم، ﴿ فانظروا ﴾ نزول ما اقترحتموه، ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ لذلك، وهذا وعد قد صدقه الله بنصرته. عليه الصلاة والسلام - وأخذهم ببدر وغيره، أو من المنتظرين لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات.

الإشارة: مازالت العامة تطلب من مشايخ التربية الكرامات، فجوابهم ما قال تعالى لنبيه ﷺ: (قل إنما الغيب لله) فانظروا ما يظهر على أيديهم من الهداية والإرشاد، وإحياء البلاد والعباد بذكر الله، وهذا أعظم الكرامة، فإن إخراج الناس عن عوائدهم وعن دنياهم خارق للعادة، سيما فى هذا الزمان الذى احتوت فيه الدنيا على القلوب، فلا ترى عالماً ولا صالحاً ولا ملتسباً إلا وهو مغروق فى بحر ظلماتها، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

ثم ذكر جزئيات من الآيات لمن فهم واعتبر، فقال:

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرُفٌ ءَايَا إِنَّا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِرَبِّهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَ تَهَاوِيحُ عَصِيفٌ وَجَاءَ هُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ

وَضَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغِيكُم مَّا عَلَيْكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

قلت : (جاءتها) : جواب « إذا » ، وجملة (دعوا) : بدل من « اظنوا » بدل اشتغال ؛ لأن دعاءهم من لوازم الظن .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة ﴾ ، كصحة وعافية وخصب ﴿ من بعد ضراء مستهم ﴾ ، كمرض أو قحط ﴿ إذا لهم مكر في آياتنا ﴾ بالظن فيها ، والاحتيال في دفعها ، فقد قحط أهل مكة حتى أكلوا الجلود والميتة ، ثم رحمهم بالغيث ، فطعنوا في آياته بالتكذيب ، وكادوا رسوله - عليه الصلاة والسلام - ﴿ قل الله أسرع مكرأ ﴾ منكم ، فقد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدكم ، ووصف مكر الله بالسرعة وإن كان الاستدراج يمهلهم ؛ لأنه متيقن واقع لا محالة ، وكل آت قريب .

﴿ إن رسلنا ﴾ الحفظة ﴿ يكتبون ما تمكرون ﴾ فنجازيكم عليه . قال البيضاوى : هو تحقيق للانتقام ، وتبويه على أن ما يدبرون في إخفائه لم يخف على الحفظة فضلاً أن يخفى على الله . وعن يعقوب : « يمكرون » بالياء ليوافق ما قبله . هـ . قال ابن جزى : هذه الآية للكفار ، وتتضمن النهى لمن كان كذلك من غيرهم ، والمكر هنا : الطعن في آيات الله وترك شكره ، ومكر الله الموصوف بالسرعة هو عقابه لهم ، سماه مكرأ مشاكلة لفعلهم ، وتسمية للعقوبة باسم الذنب . هـ .

فنزول الرحمة بعد الشدة آية تدل على كمال قدرته . وقد ورد أنه لما نزل بهم القحط التجلوا إليه ﷺ وقالوا : يا محمد ؛ إنك جئت تأمر بمكارم الأخلاق ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله بغيثنا ، فدعا ، فنزل عليهم الغيث ، فكانت معجزة له - عليه الصلاة والسلام - .

ثم ذكر آية أخرى فقال : ﴿ هو الذي يسيركم ﴾ بقدرته ﴿ في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك ﴾ : السفن ، ﴿ وجريين بهم ﴾ بمن فيها ، عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة ، كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم ، ففيه التفات . ومقتضى القياس : وجريين بكم ﴿ بريح طيبة ﴾ : لينة الهبوب ، ﴿ وفرحوا بها ﴾ لسهولة السير بها ، ﴿ جاءتها ریح عاصف ﴾ أى : شديد الهبوب ، ﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ من كل جهة لهيجان البحر حينئذ ، ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ أى : أهلكوا ، أو سدت عليهم مسالك الخلاص ، كمن أحاط به العدو .

قال ابن عطية: ركوب البحر وقت حسن الظن به للجهاد والحج متفق على جوازه، وكذا لضرورة المعاش بالصيد ويتصرف للتجر، وأما ركوبه لطلب الدنيا والاستكثار فمكروه عند الأكثر. قلت: ما لم يكن لبلد تجرى فيه أحكام الكفار على المسلمين ولا حرم. ثم قال: وأما ركوبه وقت ارتجائه فممنوع، وفي الحديث: «من ركب البحر في ارتجائه فقد برئت منه الذمة» وقال النبي ﷺ: «البحر لا أركبه أبداً».

وعن على - كرم الله وجهه - أنه قال: لولا هذه الآية، لضربت عنق من يركب البحر. فقال ابن عباس: إني لأعلم كلمات من قالهن عدد ركوب البحر وأصابه عطب فعلى دينه، قيل: وما هي؟ قال: اللهم يا من له السموات خاشعة، والأرضون السبع خاضعة، والجبال الراسية طائعة، أنت خير حفظاً وأنت أرحم الراحمين، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١) صلى الله على محمد النبي المصطفى، وعلى أهل بيته، وأزواجه وذريته، وعلى جميع النبيين والمرسلين، والملائكة المقربين، ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢). قال بعض الفضلاء: جريته فصيح. هـ.

ثم قال تعالى في وصف الكفار عند إحاطة البحر بهم: ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من غير إشراك؛ لتراجع الفطرة وزوال المعارض من شدة الخوف، قائلين: ﴿لئن أنجيتنا من هذه الشدة﴾ لنكونن من الشاكرين، ﴿فلما أنجاهم﴾ إجابة لدعائهم ﴿إذا هم ييغون في الأرض﴾ بالكفر والمعاصي، ﴿بغير الحق﴾ أى: سارعوا إلى ما كانوا عليه من البغي والفساد في الأرض بغير الحق، واحترز بقوله: ﴿بغير الحق﴾ عن تخريب المسلمين ديار الكفرة، وإحراق زروعهم، وقلع أشجارهم، فإنها إفساد بحق. قاله البيضاوى. قلت: وفي كونه بغياً نظراً، والأظهر أن قوله: ﴿بغير الحق﴾ تأكيد لا مفهوم له.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ فإن وباله عائد عليكم، أو على أبناء جنسكم، وذلك ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ تتمتعون به ساعة، ﴿ثم إلينا مرجعكم﴾ في القيامة، ﴿فنبشركم بما كنتم تعملون﴾ بالجزاء عليه.

الإشارة: وإذا أذقنا الناس حلاوة المعرفة والعلم، بعد ضرر الجهل والغفلة، إذا لهم مكر في آياتنا وهم الأولياء والمشايخ، الذين فتح الله بسببهم عليهم - بالطعن عليهم والانتقال عنهم، كما يفعله بعض المريدين، أو جلُّ طلبة

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر.

(٣) الآية ٤١ من سورة هود.

العلم، بنسيان مشايخهم ونسيان العهد إليهم، قل الله أسرع مكرأ بهم، فيريهم أن الأمداد باقية، تجرى عليهم استدراجاً، ثم يحبس ذلك عنهم فتبيس أشجار معانيهم، وتظلم قلوبهم.

ثم قال تعالى: ﴿هو الذي يُسيركم﴾ إليه في بر الشريعة، وبحر الحقيقة، فيقع السير بينهما، فإذا كانت الشريعة أقوى نقص له منها وزاد في حقيقته، وإذا قويت حقيقته نقص له منها إلى شريعته، هكذا حتى تعتدلاً، فتكمل تربيته، فإذا ركبوا سفن الأفكار وساروا بأرواحهم في تيار البحار، فخاضوا بأفكارهم بحار التوحيد وأسرار التفريد، وجرت أفكارهم في عالم الملكوت بريح طيبة - وهى ريح السلوك - جاءت بها ريح عاصف، وهى الواردات الإلهية، تأتي من حضرة القهار، لا تصادم شيئاً إلا دمغته، فإذا خافوا على نفوسهم صدمات الجذب أو المحو؛ دعوا الله مخلصين له الدين، فلما ردهم إلى السلوك اشتغلوا بريضة نفوسهم بالمجاهدة والمكابدة، فبغوا عليها كما بغت عليهم في أيام غفلتهم. وبالله التوفيق.

ثم حذر من زهرة الدنيا، فقال:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَنَاهَا أَمْرًا نَالِيًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فى سرعة تقضيها، وذهاب نعيمها بعد إقبالها، واغترار الناس بها ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ﴾ أى: اشتبك ﴿بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ حتى اختلط بعضه ببعض، ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ من الزرع والبقول والحشيش، ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أى: زينتها وبهجتها بكمال نباتها، ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أى: تزييت بأصناف النبات وأشكالها وألوانها المختلفة؛ كمروس أخذت من ألوان الثياب والحبلى فتزييت بها.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ أى: أهل الأرض ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ متمكنون من حصدها ورفع غلتها، ﴿أَتَنَاهَا أَمْرًا﴾ أى: بعض الجوائح، كالريح والمطر، ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا﴾ أى: زرعها ﴿حَصِيدًا﴾: شبيهاً بما

حصد من أصله، ﴿كَانَ لَمْ تَغْنَ﴾ : كَانَ لَمْ تَغْنَ ﴿بِالْأَمْسِ﴾ ، أو كَانَ لَمْ يَغْنَ زَرْعَهَا، أى: لَمْ يَنْبِتْ. والمراد: تشبيه الدنيا فى سرعة انقضائها بنبات احضر ثم صار هشيمًا، ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويتدبرون عواقب الأمور، فيعلمون أن الدنيا سريعة الزوال، وشيكة التغير والانتقال، فيزهدون فيها ويجعلونها مزرعة لدار السلام، التى هى دار البقاء.

وهى التى دعا إليها عباده بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ أى: السلامة من الفناء وجميع الآفات، أو دار الله الذى هو السلام. وتخصيص هذا الاسم للتنبية على ذلك، أو دار يسلم الله والملائكة فيها على من يدخلها، وهى الجنة، ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ تَوْفِيقَهُ ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ، التى توصل إليها وإلى رضوانه فيها، وهو الإسلام والتدرع بلباس التقوى، وفى تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة، وأن المَصِرَّ على الضلالة لم يرد الله رشده. قاله البيضاوى.

الإشارة: ما ذكره الحق تعالى فى هذه الآية هو مثال لمن صرف همه إلى الدنيا، وأتعب نفسه فى جمعها، فبنى وشيد وزخرف وغرس، فلما أشرف على التمتع بذلك اختطفته المنية، فلا ما كان أُمْلُ أدرك، ولا إلى ما فاته من العمل الصالح رجع.

وفى بعض خطبه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «أما رأيتم المُواخِذِينَ على الغرة، المزعَجِينَ بعد الطمأنينة، الذين أقاموا على الشبهات، وجنحوا إلى الشهوات، حتى أتتهم رسل ربهم، فلا ما كانوا أُمْلُوا أدركوا، ولا ما فاتهم رجعوا، قَدِمُوا على ما قَدِمُوا، وتدموا على ما خلفوا، ولم ينفع الدم وقد جف القلم». وقال أيضا ﷺ: «لا تخذلكنم زخارف دنيا دنية عن مراتب جنات عالية، فكأن قد كشف القناع، وارتفع الارتياح ولاقى كل امرئ مستقره، وعرف مثواه ومقلبه».

وروى عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: شَهِدْتُ مَجْلِسًا مِنْ مَجَالِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ أَبْيَضٌ، حَسَنُ الشَّعْرِ وَاللَّوْنِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الدُّنْيَا؟ فَقَالَ: حِلْمُ النَّاسِ، وَأَهْلُهَا مُجَازُونَ وَمُعَاقِبُونَ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا الْآخِرَةُ؟ قَالَ: الْأَبَدُ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ، وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا الْجَنَّةُ؟ قَالَ: تَرَكَ الدُّنْيَا بِدَعِيمِهَا أَبَدًا، ثُمَّ قَالَ: فَمَا خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالَ: الَّذِي يَعَجَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، قَالَ: فَكَيْفَ يَكُونُ الرَّجُلُ فِيهَا؟ - أَى فِي الدُّنْيَا - قَالَ: مُتَشَمِّرًا كَطَالِبِ قَافِلَةٍ، قَالَ: وَكَمْ الْقَرَارُ بِهَا؟ قَالَ: كَقَدْرِ الْمُتَخَلِّفِ عَنِ الْقَافِلَةِ، قَالَ: فَكَمْ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ قَالَ كَغَمَضَةِ عَيْنٍ. ثُمَّ ذَهَبَ الرَّجُلُ فَلَمْ يَر، فَقَالَ ﷺ: «هَذَا جَبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يَزْهِدُكُمْ فِي الدُّنْيَا».

وقال المرتضى عند قوله: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾: الله تعالى يدعو العباد من هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية، لئلا يفتتنوا بزخرفها وغرورها، وليصلوا إلى جواره ونعيم مشاهدته. هـ.

قال المحشى: قلت: وذلك أن أعلى اللذات التحقق بصفات الربوبية، وهى محبوبة للقلب والروح بالطبع، لما فيه من المناسبة لها. ولذلك قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ (١)، ثم المناسب إنما هو بقاء لافناء فيه، وعز لا ذل فيه، وغنى لا فقر فيه، وكمال لا نقص فيه، وأمن لا خوف فيه، وهذا كله من أوصاف الربوبية، وحق كل عبد أن يطلب ملكاً عظيماً لا آخر له، ولا يكون ذلك فى الدنيا لانصرافها وشوبها بآلام مكدرات، وإنما ذلك فى الآخرة، ولكن الشيطان بتلبسه وحسده يدعو إلى مالا يدوم من العاجلة، متوسلاً بما فى الطبع من العجلة، والله يدعو إلى الملك الحقيقى، وذلك بالزهد فى العاجل والراحة منه عاجلاً، ليكون ملكاً فى الدنيا، وبالقرب من الله والرغبة فى التحقق به وبأوصافه ليكون ملكاً فى الآخرة.

وفى الطبى: قيل لابن أدهم: مالنا ندعو فلا نجاب؟ فقال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه، ثم قرأ: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾، ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٢). هـ.

ثم فسر ما دعا إليه، فقال:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله: ﴿للذين أحسنوا﴾ فيما بينهم وبين ربهم بتوحيده وعبادته، وفيما بينهم وبين عباده بكف أذاهم وحمل جفاهم، لهم ﴿الحسنى﴾ أى: المثوبة الحسنى، وهى الجنة وزيادة، وهى النظر إلى وجهه الكريم، أو الحسنى: ما يثيب به على العمل، والزيادة: ما يزيد على ما يستحق العبد تفضلاً كقوله: ﴿ويزيدهم من فضله﴾ (٣)، أو الحسنى: مثل حسناتهم، والزيادة: التضعيف بعشر أمثالها إلى سبعمائة أو أكثر، ﴿ولا يرهق وجوههم﴾: لا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾: غبرة فيها سواد تغير الوجه ﴿ولا ذِلَّةٌ﴾ أى: هوان، والمعنى لا يرهقهم ما يرهق أهل النار، أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من خزي وسوء حال، ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾: دائمون، لا زوال لهم عنها، ولا انقراض لنعيمها، بخلاف الدنيا وزخارفها فقد تقدم مثالها.

(٣) من الآية ١٧٣ من سورة النساء.

(١) من الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ٢٦ من سورة الشورى.

الإشارة : للذين أحسنوا بالانقطاع إلى الله والزهد فيما سواه، الحسنى، وهى المعرفة، وزيادة، وهى الترقى فى المقامات، والعروج فى سماء المشاهدات، والازدياد من الأسرار والمكاشفات، وترداف المناجاة والمكالمات، ولا يغشى وجوههم قتر ولا ذلة، بل وجوههم بنور البقاء ضاحكة مستبشرة، وهم خالدون فى نعيم الفكرة والنظرة.

ثم ذكر أصدادهم، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ
كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قلت : (والذين) : مبتدأ على حذف مضاف، أى: جزاء الذين كسبوا، و(جزاء) : خبر، أو على تقدير لهم، أو معطوف على (الذين أحسنوا) على مذهب من يجوز: فى الدار زيد والحجرة عمرو. أو (جزاء) : مبتدأ، و(بمثلها) : خبر، والجملة حينئذ كبرى. ومن قرأ (قطعا) بفتح الطاء فجمع قطع، وهو مفعول ثان، و(مظلمًا) : حال من الليل، ومن قرأ (قطعا) بالسكون فمصدر، و(مظلمًا) نعت له، أو حال منه أو من الليل .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾ كالكفر والشرك، وما يتبعهما من المعاصى، جزاؤهم ﴿ سيئة بمثلها ﴾ لا يزداد عليها، فلا تضاعف سيئاتهم، عدلاً منه سبحانه، ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ أى: هوان عند حشرهم للنار، ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ يعصمهم من عذاب الله وغضبه، ﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلمًا ﴾ أى: يحشرون مسودة وجوههم، كأنما أكتسبت وجوههم قطعا كثيرة من الليل المظلم، أو قطعا مظلمًا من الليل، ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

قال البيضاوى : هذا مما يحتج به الوعيدية - يعنى المعتزلة - فى تخليد العصاة. والجواب: أن الآية فى الكفار؛ لاشتغال السيئات على الكفر والشرك، ولأن الذين أحسنوا يتناول الكثير من أهل القبلة، فلا يتناولهم قسيمه . هـ .

الإشارة : جزاء المعاصى البعد والهوان، وتسويد وجوه القلوب والأبدان، كما أن جزاء الطاعة التقريب والإبرار، وتلوين وجوه القلوب والأسرار والإحسان، وفى ذلك يقول ابن النحوى فى منفرجه:

وَمَعَاصِي اللَّهِ سَمَاجَتُهَا تَزْدَانُ لِذِي الْخُلُقِ السَّمْعِ (١)
وَلِطَاعَتِهِ وَصَبَّاحَتُهَا أَنْوَارُ صَبَّاحِ مُتَبَلِّجٍ

(١) ساجتها: من سمج - بالضم - أى: قبح - وتزدان، أى: تزين وتحسن، والسمج: القبيح.

قيل لبعض الصالحين: ما بال المجتهدين من أحسن الناس خلقاً؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن فالبسهم نوراً من نوره. هـ نعم، إن صاحب المعصية توبةً وانكساراً، وصاحب الطاعة عز واستكباراً، انقلبت حقيقتهما، فقد تقرب المعصية وتبعد الطاعة. وفى الحكم: «معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خيراً من طاعة أورثت عزاً واستكباراً، وقال أيضاً: «وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول».

ثم ذكر موطن وعد المحسنين ووعيد المسيئين، فقال:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكفى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قلت: (مكانكم): مفعول، أى: الزموا مكانكم، و(أنتم) تأكيد للضمير الملتقل إليه، و(شركاؤكم) عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يوم نحشرهم جميعاً ﴾ يعنى فريق الحسنى، وفريق النار، ﴿ ثم نقول للذين أشركوا ﴾: الزموا ﴿ مكانكم ﴾ من الخزي والهوان، حتى تنظروا ما يفعل بكم، ﴿ أنتم وشركاؤكم ﴾ معكم، تمثل حينئذ معهم، ﴿ فزيلنا ﴾: فرقنا ﴿ بينهم ﴾ وقطعنا الوصل التى كانت بينهم، ﴿ وقال شركاؤهم ﴾، ينطقها الله تعالى تكذيباً لهم فتقول: ﴿ ما كنتم إيانا تعبدون ﴾، وإنما عبدتم فى الحقيقة أهواءكم؛ لأنها الأمانة لكم بالإشراك. وقيل المراد بالشركاء: الملائكة والمسيح.

﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴾، فإنه العالم بحقيقة الحال، ﴿ إن كنا ﴾ أى: إنه الأمر والشأن كنا ﴿ عن عبادتكم لغافلين ﴾، لم نأمركم بها ولم نرضها. قال ابن عطية: وظاهر هذه الآية أن محاورتهم إنما هى مع الأصنام دون الملائكة وعيسى، بدليل القول لهم: ﴿ مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾. ودون فرعون، ومن عبد من الجن، بدليل قوله: ﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾، وهؤلاء لم يغفلوا قط عن عبادة من عبدتهم. هـ.

﴿ هنالك تبلوا ﴾: فى ذلك المقام تبلوا ﴿ كل نفس ما أسلفت ﴾ أى: تختبر ما قدمت من الأعمال خيراً أو شراً؛ فتعابن نفعه وضرره، وقرأ الأخوان: «تتلوا» من التلاوة، أى: تقرأه فى صحائف أعمالها، أو من التلو، أى: تتبع عملها فتقودها إلى الجنة أو إلى النار. والمعنى: تفعل بها فعل المختبر لحالها المعروف لسعادتها وشقاوتها،

فتعرف ما أسلفت من أعمالها، ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ : إلى جزائه إياهم بما أسلفوا، ﴿مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ﴾ أى متولى أمورهم على الحقيقة، لا ما اتخذوه مولى بافترائهم، ﴿وَضَلُّ﴾ أى: ضاع وغاب ﴿عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم، أو ما كانوا يدعون أنها آلهة.

الإشارة : من أحب شيئاً كان عبداً له، ومن عبد شيئاً حُشر معه. روى: أن الدنيا تبعث على صورة عجوز شمطاء زرقاء، تنادى: أين أولادى وأحبابى؟ ثم تذهب إلى جهنم فيذهبون معها. فمن عبد دنياه وهواه وقف موقف الهوان، ومن أحب موله ولم يحب معه شيئاً سواه، وقف موقف العز والتقريب فى مواطن الإحسان. فهناك تفضح السرائر، وتكشف الضمائر، وتظهر مقامات الرجال، ويفتضح من أسر النقص وادعى الكمال فيرتفع المقربون إلى شهود مولاهم الحق، ويبقى المدعون مع حظوظهم فى حجاب الحس والخلق. والله تعالى أعلم.

ثم عرفهم من يستحق العبادة، فقال:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بإنزال الأمطار، وإنبات الحبوب، فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية، أو من كل واحد منهما؛ توسعة عليكم، أو من السماء لأهل التوكل، ﴿وَمَنْ﴾ من ﴿الْأَرْضِ﴾ لأهل الأسباب. وقل لهم أيضاً: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أى: من يستطيع خلقهما وتسويتهما، أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتيهما، وسرعة انفعالهما من أدنى شيء، أو من أمرهما بيده، إن شاء ذهب بهما؟ وقل لهم أيضاً: ﴿وَمَنْ﴾ يقدر أن ﴿يُخْرِجَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾، فيخرج الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان؟ وهكذا.

وقل لهم أيضاً: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أى: ومن يلى تدبير العالم، من عرشه إلى فرشه؟ وهو تعميم بعد تخصيص، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، لا محيص لهم عن الإقرار بسواه؛ إذ لا يقدر على المكابرة والعناد فى ذلك؛ لفرط وضوحه. ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عقاب الله وغضبه؟ بسبب إشراككم معه ما لا يشاركه فى شيء من ذلك، ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾ أى: المتولى لهذه الأمور هو ربكم، الذى يستحق أن تعبدوه، الثابت ربوبيته، لأنه هو

الذى أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم، دون من تعبدونه من الأوثان. ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ أى: ليس بعد الحق إلا الضلال، فمن تخطى الحق - الذى هو عبادة الله - وقع فى الضلال.

قال ابن عطية: حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة فى هذه المسئلة - التى هى توحيد الله تعالى - وكذلك هو الأمر فى نظائرها، وهى مسائل الأصول التى الحق فيها فى طرف واحد، لأن الكلام فيها إنما هو فى تقرير وجود ذات كيف هى، وذلك بخلاف مسائل الفروع التى قال تعالى فيها: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ (١). هـ.

﴿فأنى تصرفون﴾ عن الحق إلى الضلال.

﴿كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ أى: كما حق الحق فى الاعتقادات؛ ﴿كذلك حقت﴾ أى: وجبت وثبتت - ﴿كلمت ربك﴾ فى اللوح المحفوظ ﴿أنهم لا يؤمنون﴾، وذلك فى قوم مخصوصين. قال البيضاوى: أى: كما حقت الربوبية لله، أو أن الحق بعده الضلال، أو أنهم مصروفون عن الحق، كذلك حقت كلمة الله وحكمه ﴿على الذين فسقوا﴾: تمردوا فى كفرهم، وخرجوا عن حد الإصلاح ﴿أنهم لا يؤمنون﴾، وهو بدل من الكلمة، أو تعليل لها، والمراد بها العدة بالعذاب، وقرأ نافع وابن عامر: كلمات، بالجمع هنا، وفى آخر السورة، وفى غافر (٢). هـ.

الإشارة: قل من يرزقكم من سماء الأرواح علوم الأسرار والحقائق، ومن أرض النفوس علوم الشرائع والطرائق؟ أمّن يملك السمع والأبصار فيصرفهما إلى سماع الوعظ والتذكّار، ونظر التفكير والاعتبار؛ ليلتحق صاحبهما بالمقربين الأبرار؟ وقدم السمع لأنه أنفع لإيصال النفع إلى القلب من البصر. أم من يخرج الحى من الميت، فيخرج العارف من الجاهل، والذاكر من الغافل، أو يخرج القلب الحى من الميت؛ بحيث يحييه بالمعرفة بعد الجهل؟ ومن يدبر الأمر لخواص عباده؟ أى: تدبيراً خاصاً، بحيث يقوم لهم بتدبير شئونهم، بحيث لم يدبروا معه. فمن لم يدبر دبر له، فالفاعل لهذه الأمور هو الحق المنفرد بالوجود، فكل ما سواه باطل، كما قال القائل:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ

قال رحمه الله: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةٌ لَيْبِدُ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ ...» الخ (٣). فكل من صرف عن شهود الحق إلى نظر السوى فهو فى ضلال. قال تعالى ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون﴾، لكن من حقت عليه

(١) الآية ٤٨ من سورة المائدة. (٢) فى قوله تعالى: «وكذلك حقت كلمت ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار» الآية ٦/.

(٣) راجع إشارة الآية ١٥٠ من سورة البقرة.

كلمة الشقاء لا يؤمن بأهل الفناء والبقاء، فلا يزال في تعب وشقاء، إذ لا طريق إلى شهود الحق وإفراده بالوجود إلا بصحبة أهل الفناء والبقاء، الموصوفين بالكرم والجود، واعلم أن كل من لم يصل إلى مقام الشهود، فهو ضال عندهم في مذهبهم، وبالله التوفيق.

ثم ذكر عجز آلهتهم، احتجاجاً عليهم، فقال:

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَأَلْكَرْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (٣٥)

قلت: من قرأ (يَهْدِي) (١) بفتح الهاء، فأصله: يهتدي، نقلت حركة التاء إلى الهاء، وأدغمت في الدال. ومن قرأ بكسر الهاء فعلى التقاء الساكنين، حين سكنت التاء لقدغم. ومن كسر الياء فعلى الاتباع، ومن قرأ بالاختلاس فإشارة إلى عروض الحركة، ومن قرأ: «يَهْدِي، بالسكون، فمعناه يهدي غيره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قُلْ ﴾ لهم: ﴿ هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ﴾ بإظهاره للوجود ﴿ ثم يُعِيدُهُ ﴾ بالبعث. فإن قلت كيف يحتج عليهم بالإعادة، وهم لا يعترفون بها؟ فالجواب: أنها لظهور برهانها وتواتر أخبارها كأنها معلومة عندهم، فلو أنصفوا ونظروا لأقروا بها، ولذلك أمر الرسول بأن يدوب عليهم في الجواب، فقال: ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾؛ لأن لجاحهم وجحودهم لا يتركهم يعترفون بها، ولذلك قال لهم: ﴿ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾: تصرفون عن سواء السبيل. و﴿ قُلْ ﴾ لهم أيضاً: ﴿ هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ﴾ بنصب الدلائل، وإرسال الرسل، والتوفيق للنظر والتدبر؟ ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾. قال البيضاوي: وهدى كما يعدي بآلى؛ لتضمنه معنى الانتهاء، يعدي باللام للدلالة على منتهى غاية الهداية. انظر تمامه.

﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ وهو الله ﴿ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي ﴾ إلى شيء، فأولى ألا يهدي غيره ﴿ إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ ﴾؟ أى: إلا أن يهديه غيره، وهى معبوداتهم، كالملائكة والمسيح وعزير، فلا يستطيعون أن يهدوا أنفسهم إلا أن يهديهم الله. وحمل ابن عطية الآية على الأصنام، وقال: معنى قوله: ﴿ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ ﴾ هى

(١) فى قوله تعالى: «أَمَّنْ لَا يَهْدِي». وقد قرأ حفص ويعقوب بفتح الباء وكسر الهاء وتشديد الدال، وقرأ ابن كثير وابن عامر زورث بفتح الياء والهاء وتشديد الدال. وقرأ أبو بكر بكسر الياء والهاء، وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال. وقرأ قالون وأبو عمرو بفتح الياء وتشديد الدال، واختلف فى الهاء عنهما.. انظر الإتحاف (١٠٩/٢).

عبارة عن أنها لا تنتقل إلا أن تنقل. قال: ويحتمل أن يكون ما ذكره الله من تسبيح الجمادات؛ هو اهتداؤه. ويحتمل أن يكون الاستثناء فى اهتدائها إشارة إلى مناصرة الكفار يوم القيامة حسبما مضى فى هذه السورة. هـ. ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أى: أى شىء حصل لعقولكم، فكيف تحكمون بشىء يقتضى العقل بطلانه بأدنى تفكر؟.

الإشارة: فى الآية تحريض على رفع الهمة عن السوى، إلى من بيده البدء والإعادة، والإرشاد والهداية، إلا من جعل على يديه الإرشاد والهداية، وهم الأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء، فالخضوع إليهم خضوع إلى الله على الحقيقة، واتباعهم اتباع لله على الحقيقة، وكل من تبع غيرهم فإنما يتبع الظن والهوى دون الحق، كما أبان ذلك بقوله تعالى:

﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنَى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما يتبع﴾ أكثر المشركين فى اعتقادهم ﴿إلا ظناً﴾ مستنداً إلى خيالات فارغة وأقيسة فاسدة، كقياس الغائب على الشاهد، والخالق على المخلوق، بأدنى مشاركة موهومة. والمراد بالأكثر: الجميع، أو من ينتسب منهم إلى تمييز ونظر، ولم يرض بالتقليد الصرف، ﴿إن الظن لا يغنى من الحق﴾؛ من علم التحقيق ﴿شيئاً﴾، أو ﴿من﴾ الاعتقاد ﴿الحق شيئاً﴾ من الإغناء. قال البيضاوى: وفيه دليل على أن تحصيل العلم فى الأصول واجب، وأن الاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز. هـ. وعدم الاكتفاء بالظن إنما هو فى الأصول، وأما الفروع فالظن فيها كاف. ﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾، هذا وعيد لهم على اتباعهم الظن، وإعراضهم عن النظر والاستدلال، وعلى عدم اتباعهم من يدلهم على الحق. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الناس على قسمين: أهل تصديق وإيمان، وأهل شهود وعيان. فأهل التصديق والإيمان هم عامة أهل اليمين، وهم أكثر المسلمين من العلماء والصالحين، يستندون فى معرفتهم بالله إلى الدليل والبرهان، فتارة يقوى عندهم الدليل فيترقون عن اتباع الظن إلى الجزم والتصميم، وتارة يضعف فيرجعون إلى اتباع الظن الراجح. وأما أهل الشهود والعيان، فقد غابت عنهم الأكوان فى شهود المكون، فصاروا يستدلون بالله على وجود غيره، فلا يجدونه، حتى قال بعضهم: لو كُلفت أن أرى غيره لم أستطع، فإنه لا غير معه حتى أشهده، محال أن تشهده وتشهد معه سواه. وقال شاعرهم:

مَذَّ عَرَفْتُ الْإِلَهَ لَمْ أَرْ غَيْرًا وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ
مَذَّ تَجَمَّعَتْ مَاخَشَيْتُ افْتِرَاقًا فَأَنَا الْيَوْمَ وَأَصِلُ مَجْمُوعُ

وقال آخر:

عجبت لمن يبغى عليك شهادة وأنت الذى أشهدته كل شاهد

وقال فى الحكم: «شأن بين من يستدل به أو يستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله، فأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا.. فمضى غاب حتى يستدل عليه، ومضى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه!». .

ولا مطمع لأحد فى التطهير من الظنون والأوهام إلا بصحبة شيخ كامل عارف بالله، فيلقى إليه نفسه، فلا يزال يسير به، حتى يقول له: ها أنت وريك، فحينئذ ترتفع عنه الشكوك والظنون والأوهام، ويبلغ فى مشاهدة الحق إلى عين اليقين وحق اليقين. وأما قول الجنيد رحمته الله: (أدركت سبعين صديقا، كلهم يعبدون الله على الظن والوهم، حتى الشيخ أبا يزيد، ولو أدرك صبيا من صبياننا لأسلم على يديه). فقال الشيخ أبو العباس المرسى رحمته الله: معنى كلامه: أنهم ظنوا وتوهموا أنهم بلغوا إلى مقام النهاية، بحيث لا مقام فوق ذلك، ولو أدرك أحدهم صبيا لنبههم على أن ما فاتهم أكثر مما أدركوا ولا نقادوا له. هـ بالمعنى. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر أن اتباع الظن غير كاف، ذكر ما يجب اتباعه وهو القرآن، فقال:

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قلت: «تصديق»: مصدر، والعامل فيه «كان» محذوفة، أو «أنزل»، ولا ريب: خبر ثالث لها، ومن رب العالمين: خبر آخر، أى: كائنا من رب العالمين، أو متعلق بتصديق أو بتفصيل، ولا ريب: اعتراض، أو بالفعل المعطى بهما - وهو «نزل» - ويجوز أن يكون حالا من «الكتاب»، أو من الضمير فى «فيه»، وأم: منقطعة بمعنى بل مع الاستفهام الإنكارى، وكيف، خبر كان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ أى: ما صح له أن يفترى من الخلق، إذ لا قدرة له على ذلك، ﴿ولكن﴾ كان ﴿تصديق الذى بين يديه﴾ من الكتاب، أو: ولكن أنزله تصديقا

لما سلف قبله من الكتب الإلهية، المشهود على صدقها؛ لأنه مطابق لها، فلا يكون كذباً، كيف وهو لكونه معجزاً عيار عليها، شاهد على صحتها؟ ﴿وتفصيل الكتاب﴾ أى: وأنزله تفصيلاً ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع، التى تضمنها الكتاب، ﴿لا ريب فيه﴾: لا ينبغي أن يرتاب فيه؛ لما احتقت به من شواهد الحق، وارتباب الكفار فيه كلا ريب. كائناً ﴿من رب العالمين﴾، أو نزل منه.

﴿أم﴾: بل ﴿يقولون افتراه﴾ محمد من عند نفسه؟ ﴿قل فأتوا﴾ أنتم ﴿بسورة مثله﴾ فى البلاغة وحسن النظم، وجودة المعنى، فإنكم مثلى فى العربية والفصاحة، ﴿وادعوا من استطعتم﴾: من قدرتم عليه من الجن والإنس، يعينكم على ذلك، ﴿من دون الله﴾ فإنه وحده قادر على ذلك، ﴿إن كنتم صادقين﴾ أنه مفترى.

﴿بل كذبوا﴾ أى: سارعوا إلى التكذيب ﴿بما لم يحيطوا بعلمه﴾ وهو القرآن، بحيث لم يستمعوه، ولم يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه، حتى يعلموا أحق هو أم لا، أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علماً، من ذكر البعث والجزاء، وسائر ما يخالف دينهم، ﴿ولم يأتهم تأويله﴾ أى: ولم يقفوا بعد على تأويله، ولم تبلغ أذهانهم معانيه، أو لم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب، حتى يتبين لهم أنه صدق أو كذب، والمعنى: أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى، ثم إنهم فاجتوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه، ويتصفحو معناه.

ومعنى التوقع فى ﴿لما﴾: أنه قد ظهر بالآخرة إعجازه؛ لما كرر عليهم التحدى؛ فزادوا أذهانهم فى معارضته؛ فتضاءلت دونها، أو لما شاهدوا وقوع ما أخبر به طبق ما أخبر مراراً فلم يقلعوا عن التكذيب تمرداً وعناداً. قاله البيضاوى. قال ابن جزى: لما يأتهم ما فيه من الوعيد لهم، أى: وسيأتهم يوم القيامة أو قبله. ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أنبياءهم، ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾، فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم.

﴿ومنهم﴾ من المكذبين ﴿من يؤمن به﴾ أى: يصدق به فى نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند، أو من يؤمن به ويتوب عن كفره، ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ فى نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره، أو لا يؤمن فيما يستقبل فيموت على كفره، ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾: بالمعاندين أو المصرين.

الإشارة: إذا تطهرت القلوب من الأغيار، وتصفّت من الأكدار، أوحى إليها بدقائق العلوم والأسرار، وما كان لتلك العلوم أن تفتري من دون الله؛ ولكن تكون تصديقاً لما قبلها من علوم القوم وأمرارها، التى يهبها الله لأوليائه، وفيها تفصيل طريق السير، وما أوجبه الله على المريدين من الآداب، وشروط المعاملة، فمن طعن فى ذلك فليأت بشيء من ذلك من عند نفسه، ويستعن على ذلك بأبناء جنسه، بل كذب بما لم يحط به علمه، ولم يبلغه عقله

وفهمه، فإن كشفت عند الله الحقائق ظهر تأويل ما ينطق به أهل الحقائق، ومن الناس من يؤمن بهذه الأسرار، ومنهم من لا يؤمن بها ويطن على أهلها، حتى ربما رموهم بالزندقة لأجلها، وربك أعلم بالمفسدين.

ثم أمر نبيه بالبراءة ممن كذبه، فقال:

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قلت: «من» الموصولة لفظها مفرد، ومعناها واقع على الجمع أو غيره، فإن عاد الضمير عليها جاز فيه مراعاة المعنى ومراعاة اللفظ، فقوله: «ومنهم من يستمعون» راعى جانب المعنى، وقوله: «ومنهم من ينظر» راعى جانب اللفظ، فإن راعى أولاً اللفظ جاز أن يرجع إلى مراعاة المعنى، كقوله: «﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا ﴾» (١) وأما إن راعى أولاً المعنى فلا يرجع إلى مراعاة اللفظ، لأن مراعاة المعنى أقوى. انظر الإتيان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ : كذبك قومك بعد إلزام الحجة لهم ﴿ فقل ﴾ لهم: ﴿ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ أى: فتبرأ منهم وقل لهم: لى جزاء عملى، ولكم جزاء عملكم، حقا كان أو باطلا، ﴿ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ، لا تؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم، ولأجل ما فيه من إيهام الإعراض عنهم وتخليه سبيلهم قيل: إنه منسوخ بآية السيف.

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ إذا قرأت القرآن، أو علمت الشرائع، ولكن لا يقبلون، كالأصم الذى لا يسمع أصلاً، ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ﴾ تقدر على إسماعهم ﴿ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى: ولو انضم إلى صممهم فقد عقولهم، فهو أخرى فى عدم الاستماع.

قال البيضاوى: وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام هو فهم المعنى المقصود منه، ولذلك لا توصف به - أى: بالاستماع - البهائم، وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل وتدبره. وعقولهم لما كانت مؤوفة - أى: قاصرة بمعارضة الوهم ومشايعة الإلف والتقليد بعدت أفهامهم عن فهم الحكم والمعانى الدقيقة، فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناق. هـ.

(١) من الآية ١٦ من سورة سيدنا (محمد ﷺ).

﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ أى: يعاينون دلائل نبوتك، ولكن لا يصدقون، كأنهم عمى عنها، ﴿ أفأنت تهدي العمى ﴾ : تقدر على هدايتهم ﴿ ولو كانوا لا يبصرون ﴾ أى: وإن انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة، فإن المقصود من الإبصار هو الاعتبار والاستبصار، والعمدة فى ذلك البصيرة، فإذا فقدت فلا اعتبار ولا استبصار، ولذلك يحس الأعمى المتبصر، ويتفطن لما لا يدركه البصير الأحمق. والآية كالتعليل للأمر بالتبرى.

﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ﴾ بسلب حواسهم وعقولهم، ﴿ ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ بإفسادها وإهمالها، وتفويت منافعها عليهم. وفيه دليل على أن للعبد كسباً، وأنه ليس مسلوب الاختيار بالكلية، كما زعمت الجبرية، ويجوز أن يكون وعيداً لهم، بمعنى: أن ما يحيق بهم يوم القيامة من العذاب عدل من الله، لا يظلمهم به، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف أسبابه. قاله البيضاوى.

الإشارة: إذا رأى أهل الوعظ والتذكير قوماً غرقوا فى بحر الهوى، وأخذتهم شسبكة الدنيا واستحوذت عليهم الغفلة، فذكروهم وبذلوا جهدهم فى نصحتهم، فلم يقلعوا، فليتبسروا منهم، وليقولوا: نحن براء مما تعملون، وأنتم بريئون مما نعمل. ومنهم من يستمع إلى وعظك أيها الواعظ، ولكن لا يتعظ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون. ومنهم من يشاهد كرامتك وخصوصيتك ولكن لا يهتدى، أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون؟ ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ﴾، بل فى كل زمان يبعث من يذكر ويدأى أمراض القلوب، (ولكن الناس أنفسهم يظلمون)، حيث حادوا عنهم، وأساءوا الظن بهم، وبالله التوفيق.

ثم ذكر وقت مجيء تأويل ما كذبوا به، فقال:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئَنَّكَ فَاِلْتِنَامَ رَجْعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قلت: ﴿ كأن لم يلبثوا ﴾: حال، أى: نحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة. أو صفة ليوم، والعائد محذوف، أى: كأن لم يلبثوا قبله، أو لمصدر محذوف، أى: حشراً كأن لم يلبثوا قبله. وجملة: ﴿ يتعارفون ﴾: حال أخرى مقدرة، أو بيان لقوله: ﴿ كأن لم يلبثوا ﴾، أو لتعلق الظرف، والتقدير: يتعارفون يوم نحشرهم. وإما: شرط،

و«نرينك» فعله، «أو نتوفينك»: عطف عليه. «فإلينا» جواب «نتوفينك»، وجواب الأول محذوف، أى: إن أرينك بعض عذابهم فى الدنيا فذاك، وإن توفيناك قبل ذلك فإلينا مرجعهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ انكروا ﴿يوم نحشرهم﴾ ونجمعهم للحساب، فتقصر عندهم مدة لبثهم فى الدنيا وفى البرزخ، ﴿كان لم يلبثوا إلا ساعة من النهار﴾ يستقصرون مدة لبثهم فى الدنيا، أو فى القبور؛ لهول ما يرون، حال كونهم ﴿يتعارفون بينهم﴾ أى: يعرف بعضهم بعضاً، كأن لم يتعارفوا إلا قليلاً، وهذا فى أول حشرهم، ثم ينقطع التعارف؛ لشدة الأمر عليهم لقوله: ﴿ولا يسئل حميم حميماً﴾. يُصرونهم ﴿١﴾.

﴿قد خسر الذين كذبوا بقاء الله﴾ خسراناً لا ربح بعده، ﴿وما كانوا مهتدين﴾ إلى طريق الريح أصلاً، أو إلى طريق توصلهم إلى معرفة الله ورضوانه، لتترك استعمال ما منحوه من العقل فيما يوصل إلى الإيمان بالله ورسوله، فاستكسبوا جهالات أدت بهم إلى الردى والعذاب الدائم.

﴿وإما نرينك﴾ أى: مهما نبصرك ﴿بعض الذى نعدهم﴾ من العذاب فى حياتك، كما أراه يوم بدر. ﴿أونتوفينك﴾ قبل أن نريك ﴿فإلينا مرجعهم﴾ فنريكه فى الآخرة، ﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾، فيجازيهم عليه حينئذ، فالترتيب إخبارى.

وقال البيضاوى، تبعاً للزمخشري: ذكر الشهادة وأراد نتيجتها ومقتضاها، وهو العقاب، ولذلك رتبها على الرجوع بثم، أو مؤدَّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة. هـ.

﴿ولكل أمة﴾ من الأمم الماضية ﴿رسول﴾ يبعثه إليهم، يدعوهم إلى الحق، ﴿فإذا جاء رسولهم﴾ بالمعجزات فكذبوه، ﴿قضى بينهم بالقسط﴾: بالعدل، فأنجى الرسول ومن تبعه، وأهلك المكذبين ﴿وهم لا يظلمون﴾، حيث أعذر إليهم على أسنة الرسل. وقيل معناه: لكل أمة يوم القيامة رسول تنسب إليه. كقوله: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ (٢) فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر أو بالإيمان ﴿قضى بينهم﴾ بإنجاء المؤمنين وعقاب الكافرين، كقوله: ﴿وجيء بالنبين والشهداء وقضى بينهم﴾ (٣).

﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ الذى تعدنا، استبعاداً له واستهزاء به ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيه، وهو خطاب منهم للنبي ﷺ.

(١) من الآيتين ١٠ - ١١ من سورة المعارج.

(٢) الآية ٧١ من سورة الإسراء.

(٣) الآية ٦٩ من سورة الزمر.

الإشارة : أهل الغفلة إذا بعثوا أو ماتوا ندموا على ما فوّتوا، وقصر بين أعينهم ما عاشوا فى البطالة والغفلة، كأن لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار. فالبدار البدار أيها الغافل إلى التوبة واليقظة، قبل أن تسقط إلى جنبك، فتنفرد رهيباً بذنبك.

فأما أهل اليقظة - وهم العارفون بالله - فقد حصل لهم اللقاء، قبل يوم اللقاء، قد خسر الوصول من كذب بأهل الوصول، وما كان أبداً ليهتدى إلى الوصول إلا بصحبة أهل الوصول. وإما نرينك أيها العارف بعض الذى نعدم من الوصول لمن تعلق بك، أو نتوفيتك قبل ذلك، فإلينا مرجعهم فتوصلهم بعدك بواسطة أو بغيرها. ولكل أمة رسول يبعثه الله يذكر الناس ويدعوهم إلى الله، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط، فيوصل من تبعه ويبعد من انتكبه. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم أجاب عن قولهم متى هذا الوعد، فقال:

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَسْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتُمْ إِذَا مَاقَعَاءَ أَمْنُكُمْ بِهِ ءَآلَ الْكَفِّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قلت : قدّم فى الأعراف (١) النفع، وهنا الضرر؛ لأن السؤال فى الأعراف عن مطلق الساعة المشتملة على النفع والضرر، وهنا السؤال عن العقاب الذى وعدهم به، بدليل قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾. وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ منقطع، ويصح الاتصال. وقوله ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وضع المظهر موضع المضمّر، أى: ماذا تستعجلون منه؟. والجملة الاستفهامية جواب الشرط، كما يقال: إن أتيتك ماذا تعطينى؟، أو محذوف، أى: إن أتاكم ألكم منه منعة أو به طاقة فماذا تستعجلون منه؟

وقال الواحدى: الاستفهام للتهويل والتفطيع، أى: ما أعظم ما تستعجلون منه، كما تقول: أعلمت ماذا تجنى على نفسك؟. «أثم إذا ما وقع»، دخلت همزة التقرير على «ثم» العاطفة، أى: إن استعجلتم ثم وقع بكم العذاب آمنتم به حين لا ينفعكم.

(١) فى قوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا...﴾ الآية ١٨٨ .

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، فكيف أملك لكم ما تستعجلون من طلب العذاب؟ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾: لكن ما شاء الله من ذلك يكون، أو: لا أملك إلا ما ملكنى ربى بمشيئته وقدرته، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مضروب إلى هلاكهم، ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً﴾، ﴿وَلَا﴾ هم ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عنه، فلا تستعجلوا، فسيحىن وقتكم وينجز وعدكم، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾ الذى تستعجلون ﴿بَيَاتًا﴾ أى: وقت بيات واشتغال بالنوم، ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ حين تشتغلون بطلب معاشكم، ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾؟ أى شىء من العذاب يستعجلونه وكله مكروره لا يلائم الاستعجال؟ وهو متعلق بأرأيتم، لأنه فى معنى أخبرونى، والمجرمون، وضع موضع المضمر؛ للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغى أن يفزعوا من مجىء العذاب، لا أن يستعجلوه. قاله البيضاوى.

﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ أى: أنتم تؤمنون إذا وقع العذاب وعايينتموه، حين لا ينفعكم إيمانكم، ﴿آلَانَ﴾ أى: فيقال لكم الآن آمنتم حين فات وقته، ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً واستهزاء، ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بعد هلاكهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أى: العذاب المؤلم الذى تخلدون فيه، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصى.

الإشارة: لا يشترط فى الولى أن يكشف بالأمور المغيبة حتى يحترز من المكاره أو يجلب المنافع، إذ لم يكن ذلك للنبي، فكيف يكون للولى؟ بل هو معرض للمقادير الجارية على الناس، يجرى عليه ما يجرى عليهم، نعم.. باطنه محفوظ من السخط أو القنط، يتلقى كل ما يلقى إليه بالرضا والتسليم. فمن شرط ذلك فيه فهو محروم من بركة أولياء زمانه. والله تعالى أعلم.

ثم استخبروا عن العذاب أو الوحى، هل هو حق أم لا؟ كما قال تعالى:

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ﴾ ﴿٥٣﴾
 وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ
 بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

قلت: (أحق): مبتدأ، والضمير فاعله سد مسد الخبر، و(إي): حرف جواب، بمعنى نعم، وهو من لوازم القسم، ولذلك يوصل بواوه، فيقال: إي والله، ولا يقال (إي، وحده).

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَكَ ﴾ أى : يستخبرونك ﴿ أَحَقُّ هُوَ ﴾ أى : ما نقول من الوعد أو ادعاء النبوة . قيل : قاله حى بن أخطب لما قدم مكة . ﴿ قُلْ ﴾ لهم : ﴿ إِي وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ أى : العذاب الموعود لحق ، أو ما ادعيته من النبوة لثابت ، والأول أرجح لقوله : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ : بفائتين العذاب الموعود .

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ بالشرك أو التعدى على الغير ﴿ مَا فِى الْأَرْضِ ﴾ من خزائنها وأموالها ﴿ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ : لجعلته فدية لها من العذاب ، ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ ﴾ أى : أخفى رؤساء هؤلاء الكفار الندامة خوف الشماتة والتعيير من سفلتهم ، ﴿ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ ، أو جميعهم ، لأنهم بهتوا بما عاينوا ، مما لم يحتسبوا من فظاعة الأمر وهوله ، فلم يقدروا أن ينطقوا ، وقيل أظهروها ، من قولهم : أسر الشيء : أظهره ، ومنه : أسارى الوجه ، ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ، ليس تكراراً ؛ لأن الأول قضاء بين الأنبياء ومكذبيهم ، والثانى فى جزاء المشركين على شركهم . قاله البيضاوى .

الإشارة : كثير من الناس من يستخبر عن شيخ التربية ، أحق وجوده أم لا ؟ قل : إي وربى إنه لحق ، ولا يخلو منه زمان ، إذ القطب والعدد الذى يقوم الوجود بهم لا ينقطع ، والقطبانية لاتدرك من غير تربية أصلاً ، وما أنتم بفائتين عنه إن طلبتموه بصدق الاضطرار . ولو أن لكل نفس ظلمت نفسها - حيث بقيت بعيبها وغم حجابها حتى لقيت مولاها - ما فى الأرض جميعاً لافتدت به من البعد وغم الحجاب ، وفوات القرب من الأحباب ، وقد قضى بين الخلائق بالحق ، فارتفع المقربون الذين لقوا الله بقلب سليم ، وانحط الغافلون ، الذين لقوا الله بقلب سقيم ، وندموا على ترك صحبة من يخلصهم من عيبهم ، فإن كانت لهم رئاسة علم أو صلاح أضمرنا ذلك عن قلوبهم ، ﴿ وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ .

ولذلك قال :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْآلَآءُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٥٥
هُوَ يُحْيِ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ ٥٦ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً ، يتصرف فيهم تصرف المالك فى ملكه ، فلا يتطرقة ظلم ولا جور . ويحتمل أن يكون تقريراً لقدرته على الإثابة والعقاب ، ﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى : ما وعد به من الثواب والعقاب ، لاخلف فيه ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لقصور

عقولهم، فلا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، ﴿هو يحيى ويميت﴾ يحيى من يريد إظهاره للدنيا، ويميت من يريد نقله للآخرة، ﴿واليه ترجعون﴾ بالموت والنشور؛ لأن من قدر على الإيجاد والإعدام فى الدنيا قدر عليها فى العقبى؛ لأن القادر لذاته لا تزول قدرته، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت قابلة لهما أبداً. هـ. من البيضاوى.

الإشارة: ما وعد به الحق سبحانه القاصدين إليه من الوصول والمعرفة به حق، إن وفوا بشرطه، وهو صحبة من يوصل إليه، مع الصدق والتعظيم، وإخلاص القصد، هو يحيى قلوباً بمعرفته، ويميت قلوباً بالغفلة والجهل به، واليه ترجعون، فيظهر العارف من الجاهل والذاكر من الغافل.

فهذه موعظة لمن اتعظ، كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قلت: (بفضل الله) يتعلق بمحذوف، يفسره ما بعده، أى: تليقروا بفضل الله، أو بقوله «فليفرحوا». وكرر قوله: (فبذلك) تأكيداً، والفاء بمعنى الشرط، كأنه قال: إن فرحوا بشيء فبهما فليفرحوا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم﴾ يعنى القرآن العظيم، ﴿وشفاء لما فى الصدور﴾ من الشك والجهل، ﴿وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ هداية فى بواطنهم بأنوار التحقيق، ورحمة فى ظواهرهم بأداب التشريع.

قال البيضاوى: قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية^(١)، الكاشفة عن محاسن الأعمال وقبائحها، والراغبة فى المحاسن، والزاجرة عن القبائح، والحكمة النظرية التى هى شفاء لما فى الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وهدى إلى الحق واليقين، ورحمة للمؤمنين؛ حيث أنزلت عليهم فنجوا من ظلمات الضلال بنور الإيمان، وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان. والتنكير فيها للتعظيم. هـ.

﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ أى: بمطلق الفضل والرحمة، ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ لا بغيره، أو الفضل: الإسلام، والرحمة: القرآن. وقرأ يعقوب بتاء الخطاب، وروى مرفوعاً، ويؤيده قراءة من قرأ: «فافرحوا»، ﴿هو خير

(١) فى الأصول: «العلمية، والمثبت هو الذى فى البيضاوى؛ وهو أنسب بالسياق.

فما يجمعون ﴿ من حطام الدنيا، فإنها إلى الزوال، وقرأ ابن عامر: «تجمعون، بالخطاب، على معنى: فبذلك فليفرح المؤمنون، فهو خير مما تجمعون أيها المخاطبون.

الإشارة: قد جعل الله في خواص أوليائه موعظة للناس بما يسمعون منهم من التذكير والإرشاد، وشفاء لما في الصدور، لما يسرى منهم إلى القلوب من الإمداد، وما يكتسبه من أصحابهم من أنوار التحقيق، وهدى إلى صريح العرفان وإشراق أنوار الإحسان، ورحمة بسكون القلوب والطمأنينة بذكر علام الغيوب، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا، ففضل الله: أنوار الإسلام والإيمان، ورحمته: أنوار الإحسان، أو فضل الله: أحكام الشريعة، ورحمته: الطريقة والحقيقة، أو فضل الله: حلاوة المعاملة، ورحمته: حلاوة المشاهدة، أو فضل الله: استقامة الظواهر، ورحمته: استقامه البواطن، أو فضل الله: محبته، ورحمته: معرفته. إلى غير ذلك مما لا ينحصر، ولم يقل: فبذلك فلتفرح يا محمد؛ لأن فرحه ﷺ بالله، لا بشيء دونه.

ولما كانت موعظه القرآن العظيم مشتملة على التحليل والتحريم، رد الله تعالى على من افتري خلافه، فقال:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآلَهُ

أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ؕ
إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

قلت: (ما أنزل): نصب بأنزل أو بأرأيتم؛ لأنه بمعنى أخبروني.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل أرأيتم ﴾: أخبروني ﴿ ما أنزل الله لكم من رزق ﴾ بقدرته، وإن سترها بالأسباب العادية، وقوله: ﴿ لكم ﴾ دل على أن المراد منه: ما حل، ولذلك وبخ على التبعض بقوله: ﴿ فجعلتم منه حراماً وحلالاً ﴾ كالبحائر وأخواتها، ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواننا ﴾ (١).

﴿ قل لهم ﴾: ﴿ آله أذن لكم ﴾ في التحريم والتحليل، فتقولون ذلك عنه، ﴿ أم على الله تفترون ﴾ في نسبة ذلك إليه ٢، ﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾، أي شيء ظنهم يفعل بهم، أيحسبون

(١) من الآية ١٣٩ من سورة الأنعام.

أنه لا يجازيهم عليه؟ وفيه تهديد عظيم لهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، حيث أنعم عليهم بالعقل، وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وشرع لهم الأحكام، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة.

قال ابن عطية: نئى بإيجاب الفضل على الناس فى الإمهال لهم مع الافتراء والعصيان، والإمهال داعية إلى التوبة والإنابة، ثم استدرك من لا يرى حق الإمهال ولا يشكره، ولا يبادر فيه على جهة الذم لهم، والآية بعد هذا نعم جميع فضل الله، وجميع تقصير الخلق فى شكره، لا رب غيره. هـ.

الإشارة: الوقوف مع حدود الشريعة، والتمسك بالسنة النبوية قولاً وفعلًا، وأخذًا وتركًا، والاهتداء بأنوار الطريقة تخلية وتجليه، هو السير إلى أسرار الحقيقة، فمن تخطى شيئاً من ذلك فقد حاد عن طريق السير. وبالله التوفيق.

ثم هددهم بمراقبته عليهم، فقال:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

قلت: الضمير فى «منه» يعود على القرآن، وإن لم يتقدم ذكره؛ لدلالة ما بعده عليه، كأنه قال: وما تتلو شيئاً من القرآن، وقيل: يعود على الشأن، والأول أرجح؛ لأن الإضمار قبل الذكر تفخيم للشيء. قاله ابن جزى. قلت: والأحسن أن يعود على الله تعالى؛ لتقدم ذكره قبل، ومن قرأ: «ولا أصغر»، «ولا أكبر» بالفتح فعطف على «مِثْقَالٍ» ممنوع من الصرف، أو مبنى مع «لا»، ومن قرأ بالرفع فعطف على موضعه، أو مبتدأ، و«إلا فى كتاب»: خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أى: أمر من الأمور، والخطاب للنبي ﷺ والمراد هو وجميع الخلق، ولذلك قال فى آخرها. «ولا تعملون من عمل»، ومعنى الآية: إحاطة علم الله تعالى بكل شيء، ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أى: وما تتلو شيئاً من القرآن، أو وما تتلو من الله من قرآن، أى: تأخذه عنه. ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أى عمل كان، وهو تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم^(١)، ولذلك ذكر الحق تعالى، حيث خص بالذكر ما فيه فخامة وتعظيم، وذكر حيث عمم ما يتناول الجليل والحقير، أى: لا تعملون شيئاً

(١) أى: رأس المخاطبين، وهو رأس الوجود، سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام -.

﴿إلا كنا عليكم شهوداً﴾: رقباء مطلعين عليه ظاهراً وباطناً، ﴿إذ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: حين تخوضون فيه وتندفعون إليه، يقال: أفاض الرجل فى الأمر: إذا أخذ فيه بجد واندفع إليه، ومنه: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾^(١)، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ أى: ما يغيب عنه ﴿من مثقال ذرة﴾: ما يوازن نملة، ﴿فى الأرض ولا فى السماء﴾ والمراد: لا يغيب عنه شىء فى الوجود بأسره، وخصهما لأن العامة لا تعرف غيرهما. قال فى الكشف: فإن قلت: لم قدم هنا الأرض بخلاف سورة سبأ^(٢)؟ فالجواب: أن السماء قدمت فى سبأ لأن حقها التقديم، وقدمت الأرض هنا لما ذكرت الشهادة على أهل الأرض. هـ. ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين﴾ أى: اللوح المحفوظ، أو علمه تعالى المحيط، المبين للأشياء على ما هى عليه.

الإشارة: هذه الآية وأمثالها هى أصل المراقبة عند القوم، وهى على ثلاثة أقسام: مراقبة الظواهر، ومراقبة القلوب، ومراقبة السرائر. فالأولى للعوام، والثانية للخواص، والثالثة لخواص الخواص.

فأما مراقبة الظواهر: فهى اعتقاد العبد أن الله يراه، ومطلع عليه فى كل مكان، فيلتجئ له الحياء من الله، فيستحي أن يسئ الأدب معه وهو بين يديه، وفى بعض الأخبار القدسية: «إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم، فالخلل فى إيمانكم، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم؟».

وقال - عليه الصلاة والسلام -: «أفضل الناس إيماناً من يعلم أن الله معه فى كل مكان» أو كما قال ﷺ: وروى أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه مر براعى غنم، فقال له: أعطنا شاة من غنمك، فقال له: ليست لى. فقال له: قل لصاحبها أكلها الذئب، فقال له الراعى: وأين الله؟! وروى أن رجلاً خلا بجارية فراودها على المعصية، وقال لها: لا ترانا إلا الكواكب، فقالت له: وأين مكوبها؟.

وأما مراقبة القلوب فهى: تحقيق العبد أن الله مطلع على قلبه، فيستحي منه أن يجول فيما لا يعلى، أو يدبر مالا يفيد ولا يجدى، أو يهم بسوء أدب؛ فإن جال فى ذلك استغفر وتاب.

وأما مراقبة السرائر فهى: كشف الحجاب عن الروح، حتى ترى الله أقرب إليها من كل شىء، فتستحي أن تجول فيما سواه من المحسوسات، فإن فعلت بادرت إلى التوبة والاستغفار، فالتوبة لاتفارق أهل المراقبة مطلقاً، وقد تقدم فى أول سورة النساء^(٣) بعض الكلام على المراقبة، فمن لم يحكم أمر المراقبة، لم يذق أسرار المشاهدة.

(١) من الآية ١٩٨ من سورة البقرة. (٢) فى قوله تعالى «عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض...» الآية: ٣.

(٣) راجع إشارة الآية الأولى من سورة النساء.

فالمراقبة مفتاح المشاهدة، والمشاهدة مفتاح المعرفة، والمعرفة هى الولاية، التى أشار إليها بقوله:

﴿الْأَيُّكُمُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكَلِمَاتٍ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

قلت: «الذين آمنوا»: صفة للأولياء، أو منصوب على المدح، أو مرفوع به على تقدير: «هم»، أو مبتدأ، ولهم البشرى»: خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألا إن أولياء الله﴾ الذين يتولونه بالطاعة، وهو يتولاهم بالكرامة ﴿لا خوف عليهم﴾ من لحوق مكروه، ﴿ولا هم يحزنون﴾ بفوات مأمول.

ثم فسرهم بقوله: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾، فمن جمع بين الإيمان والتقوى فهو ولى - أعنى الولاية العامة - وسيأتى بقية الكلام فى الإشارة إن شاء الله، ﴿لهم البشرى فى الحياة الدنيا﴾ وهو ما بشر به المتقين فى كتابه، على لسان نبيه ﷺ من الحفظ والعز والكفاية، والنصر فى الدنيا وما يثيبهم به فى الآخرة، أو ما يريهم من الرؤيا الصالحة يراها أو ترى له. روى ذلك عن رسول الله ﷺ^(١)، أو محبة الناس للرجل الصالح، أو ما يتحفهم به من المكاشفات، أو التوفيق لأنواع الطاعات، أو بشرى الملائكة عند النزح، أو رؤية المقعد قبل خروج الروح، ﴿وفى الآخرة﴾ هى الجنة أو تلقى الملائكة إياهم عند الحشر بالبشرى والكرامة.

﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ أى: لا تغيير لأقواله ولا اختلاف لمواعيده، واستدل ابن عمر بالآية على أن القرآن لا يقدر أحد أن يغيره، ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ الإشارة إلى كونهم مبشرين فى الدارين، أو لانتفاء الخوف والحزن عنهم مع ما بشروا به، والله تعالى أعلم.

الإشارة: الولاية على قسمين: ولاية عامة، وولاية عرفية خاصة، فالولاية العامة، هى التى ذكرها الحق تعالى، فكل من حقق الإيمان والتقوى؛ فله من الولاية على قدر ما حصل منها، والولاية الخاصة خاصة بأهل الفناء والبقاء، الجامعين بين الحقيقة والشرعية، بين الجذب والسلوك، مع الزهد التام والمحبة الكاملة، وصحبة من

(١) عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: (لهم البشرى فى الحياة الدنيا) قال: «هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، أخرجه أحمد فى المسند (٣١٥/٥)، والترمذى فى: (الرؤيا، باب ذهب النبوة وبقيت المبشرات) وابن ماجه فى (الرؤيا ح ٣٨٩٨) والحاكم وصححه ووافقه الذهبى (٣٤٠/٢) والدارمى فى: (الرؤيا).

تَحَقَّقَتْ وَلَايَتُهُ . فَقَدْ سَأَلَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ السَّلَامُ - عَنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، فَقَالَ: «الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا، حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا، وَاهْتَمُّوا بِأَجْلِ الدُّنْيَا حِينَ اهْتَمَّ النَّاسُ بِعَاجِلِهَا؛ فَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا خَشَوْا أَنْ يُعَيِّتَهُمْ، وَتَرَكُوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أَنْ سَيَتَرَكُهُمْ، فَمَا عَارَضَهُمْ مِنْ نَائِلِهَا عَارِضٌ إِلَّا رَفَضُوهُ، وَلَا خَادِعُهُمْ مِنْ رَفَعَتِهَا خَادِعٌ إِلَّا وَضَعُوهُ، خَلَقَتِ الدُّنْيَا فِي قُلُوبِهِمْ فَمَا يَجِدُونَهَا وَخَرِبَتْ بَيْنَهُمْ فَمَا يَعْمُرُونَهَا، وَمَاتَتْ فِي صُدُورِهِمْ فَمَا يُحْيُونَهَا، بَلْ يَهْدُمُونَهَا، فَيَبْنُونَ بِهَا آخِرَتَهُمْ، وَيَبِيعُونَهَا فَيَشْتَرُونَ بِهَا مَا يَبْقَى لَهُمْ، نَظَرُوا إِلَى أَهْلِهَا صِرْعَى قَدْ حَلَّتْ بِهِمُ الْمُثَلَّاتُ، فَمَا يَرُونَ أَمَانًا دُونَ مَا يَرْجُونَ، وَلَا خَوْفًا دُونَ مَا يَجِدُونَ» .

وفى حديث آخر: قيل: يا رسول الله من أولياء الله؟ قال «المتحابون فى الله» . وقال القشيري رحمه الله: علامة الولي ثلاث: شغله بالله، وفراره إلى الله، وهمه الله . هـ

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله: إذا أراد الله أن يوالى عبداً من عباده فتح عليه باب ذكره، فإذا اشتد ذكره فتح عليه باب القرب، ثم رفع إلى مجلس الأنس، ثم أجلسه على كرسى التوحيد، ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية، وكشف له عن الجلال والعظمة، فإذا عاين ذلك بقى بلا هو، فحينئذ يفنى نفسه ويبرأ من دعاويها . هـ

فأنت ترى كيف جعل الفناء هو نهاية السير والوصول إلى الولاية، فمن لا فناء له لا محبة له، ومن لا محبة له لا ولاية له . وإلى ذلك أشار ابن الفارض رحمه الله، فى نائيته بقوله:

فَلَمْ تَهَوِّنِي مَا لَمْ تَكُنْ فِي فَانِيَا وَلَمْ تَفْنِ مَا لَمْ تَجْتَلْ فِيكَ صُورَتِي

وقوله تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا» أى: إيمان الخصوص، «وكانوا يتقون» ما سوى الله؛ فلا يطمنون إلى شيء سواه، «لهم البشرى فى الحياة الدنيا» حلاوة الذوق والوجدان، مع مقام الشهود والعيان، «وفى الآخرة» بإدراك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر ببال من المعارف والأسرار، فمن أدرك هذا فليوطن نفسه على الإنكار.

ولذلك سأل نبيه، وينسحب على ورثته مما يلقيه من أهل الإنكار، فقال:

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٦٥﴾

قلت: (إن) استئناف، ومن قرأ بالفتح فعلى إسقاط لام العلة.

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ فى جانب الربوبية، أو فى جانبك بالطعن والشتم والتهديد، فالعاقبة لك بالنصر والعز؛ فإن الله يعز أوليائه، ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أى: إن الغلبة لله جميعاً،

لا يملك غيره منها شيئاً، فهو يقهرهم وينصرك عليهم، ﴿هو السميع﴾ لأقوالهم، ﴿العليم﴾ بمكائدهم، فيجازيهم عليها.

الإشارة: الداخل على الله منكور، فكل من رام الخصوصية فليعول على الطعن والإنكار، وليتسل بما تسلى به النبى المختار، ولينتظر العز والنصر من الواحد القهار، فإن الأمر كله بيده كما قال:

﴿الْآيَاتِ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسَمِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قلت: (وما يتبع): يحتمل الاستفهام، فتكون منصوبة بمتبع، أى: أى شيء يتبعون ما يتبعون؟ إلا الظن، ويحتمل النفي، أى: ما يتبع الذين يدعون الشركاء يقيناً؛ إن يتبعون إلا الظن، أو تكون «إن» تأكيداً لها، وإلا الظن، إبطال لنفى «ما».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض﴾ من الملائكة والثقلين ملكاً وعبيداً، فلا يصلح أحد منهم للألوهية، وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكّنات لا تصلح للربوبية، فأحرى الجامدات التى يدعونها آلهة، ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ أى: أى شيء يتبعون، تحقيراً لهم، أو ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء يقيناً، ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ وما سولت لهم أنفسهم، ﴿وإن هم إلا يخرون﴾: يكذبون فيما ينسبون إلى الله، أو يحزرون^(١) ويقدرّون أنها شركاء تقديرًا باطلاً، بل الواجب أن يعبدوا من عمت قدرته ونعمه على خلقه، ولذلك قال: ﴿هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ راحة لأبدانكم، ﴿والنهار مبصراً﴾ طلباً لمعاشكم، وفيه تنبيه على كمال قدرته وعظيم نعمته، ليدلهم على تفردّه باستحقاق العبادة ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ سماع تدبر واعتبار.

الإشارة: كل من ركن إلى شيء دون الله، محبة أو خوفاً أو طمعاً فيه، فقد أشرك مع الله، ولم يتبع إلا الظن والوهم، وفى الحكم: «ما قالك شيء مثل الوهم، أنت حرّ مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت فيه طامع، فكيف يترك العبد سيده الذى بيده ملك السموات والأرض، ويتعلق بعبد مثله حقير؟. يترك الملك الكبير ويتعلق بالعبد الصغير».

(١) حزر الشيء: قدره تخميناً.

هو الذى جعل ليل القبض لتسكنوا فيه عن التعلق بالغير، ونهار البسط لتبصروا فى انتشاركم الحقائق العرفانية والأسرار الربانية، إن كنتم تسمعون به ومنه، فتنزّهونه عما لا يليق به، كما قال تعالى:

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلِ إِيَّاكَ الَّذِينَ
يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعُ فِي الدُّنْيَا مَرَجَعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ
الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

قلت: (عندكم): متعلق بالاستقرار، و(من سلطان) فاعل به؛ لأن المجرور والظرف إذا نفى يرفع الفاعل بالاستقرار، و(متاع): خبر، أى: ذلك متاع... الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قَالُوا﴾ أى: المشركون ومن تبعهم: ﴿اتخذ الله ولدا﴾ أى: تبناه كالملائكة وغيرهم، ﴿سبحانه﴾ أى: تزيها له عما يقول الظالمون، فإن التبنى لا يصح إلا ممن يتصور منه الولد، ﴿هو الغنى﴾ عن كل شيء، مفتقر إليه كل شيء، والولد مسبب عن الحاجة، والحق تعالى ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ ملكا وعبيدا، فلا يفتقر إلى اتخاذ الولد، وهو الغنى بالإطلاق، لا يحتاج إلى من يعينه، واجب الوجود لا يفتقر إلى من يخلفه فى ملكه. ﴿إن عندكم﴾ أى: ما عندكم ﴿من سلطان﴾ أى: برهان ﴿بهذا﴾، بل افتريتموه من عندكم، ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾، وهو توبيخ وتقريع على اختلاقهم وجهلهم، وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأن العقائد لا بد فيها من قاطع، وأن التقليد فيها غير سائغ. قاله البيضاوى.

قلت: والتحقيق أن إيمان المقلد صحيح، وأن تقليد الأنبياء والرسل والكتب السماوية صحيح مكتمل عن الدليل. ثم هدد أهل الشرك فقال: ﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب﴾ باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه، ﴿لا يفلحون﴾: لا ينجون من النار، ولا يفوزون بالجنة، إنما ذلك الافتراء ﴿متاع فى الدنيا﴾ يقيمون به رئاستهم فى الكفر، فيتمتعون به قليلا، أو لهم تمتع فى الدنيا مدة أعمارهم، ﴿ثم إلينا مرجعهم﴾ بالموت، فيلقون الشقاء المؤبد، ﴿ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾.

الإشارة: إظهار الكائنات من الغيب إلى الشهادة كلها على حد سواء فى الاختراع والافتقار، ليس بعضها أقرب من بعض، وأما قوله: عليه الصلاة والسلام: «الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله» فمعناه أنهم فى حفظه وكفالتهم مفتقرون إليه فى إيصال المادة، كافتقار الولد إلى أبيه.

وأما قرب العبد من ربه بطاعته فمعناه قرب محبة ورضا، لا قرب مسافة أو نسب؛ إذ أوصاف العبودية غير مجانسة لأوصاف الربوبية، بل هي بمعسدة منها مع شدة قربها، ولذلك قال فى الحكمة: «إلهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك... الخ»، وقد تشرق على العبد أنوار الربوبية فتكسوه حتى يغيب عن حسه ورسمه فلا يرى إلا أنوار ربه، فربما تغلبه الأنوار، فيدعى الاتحاد أو الحلول، وهو معذور عند أهل الباطن لسكره، وقد رفع التكليف عن السكران، فإذا صحى وبقي على دعواه قتل شرعاً. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بعض قصص الأنبياء عليهم السلام، تسلية لرسوله ﷺ، فقال:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كِبَرُ عَلَيَّكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِمَا يَتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَفًا وَآخَرُفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذَكِّرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

قلت: (وشركاءكم): مفعول معه، أو بفعل محذوف أى: اعزموا أمركم وأجمعوا شركاءكم ومن قرأ: «اجمعوا» بهمزة وصل، فشركاءكم: معطوف، واغمة: خفياً، وفى الحديث: «فَإِنْ غَمُّ عَلَيْكُمْ فَأَقْدَرُوا لَهُ».

يقول الحق جل جلاله: ﴿واتل عليهم نبأ نوح﴾ أى: خبره مع قومه، قيل: اسمه عبدالغفار، وسمى نوحاً لكثرة نوحه من هيبه ربه، ﴿إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر﴾ أى: عظم وشق ﴿عليكم مقامى﴾ أى: كونى بين أظهركم، وإقامتى بينكم مدة مديدة أذكركم بالله، أو قيامى عليكم لوعظكم، أو نفسى ووجودى معكم، كقولك: فعلت كذا لمكان فلان، أى: له، أى: لو صعب عليكم وجودى بينكم، ﴿وتذكيرى﴾ لكم ﴿بآيات الله﴾ أدعوكم بها إلى الله، ﴿فعلى الله توكلت﴾: وثقت به، فلا أبالى ببعدهم عنى وتخريفكم إياى، ﴿فاجمعوا أمركم﴾ أى: اعزموا عليه، ﴿وشركاءكم﴾ مع شركائكم، أو أمر شركائكم، أو أجمعوا أمركم واتفقوا عليه وأجمعوا شركاءكم. والمعنى: أنه أمرهم بالعزم والإجماع على قصده، والسعى فى إهلاكه، على أى وجه يمكنهم؛ لشدة ثقته بالله وعدم مبالاته بهم.

﴿ثم لا يكن أمركم﴾ فى قصد إهلاكى ﴿عليكم غمة﴾: مستورا خفياً، بل اجعلوه ظاهراً مكشوفاً تتمكنون فيه، لأن من يكتنم أمراً ويخفيه لا يقدر أن يفعل ما يريد، أو ثم لا يكن حالكم عليكم غماً، أى: لا يلحقكم غم إذا

أهلكتمونى وتخلصتم من ثقل مقامى وتذكيرى. ﴿ثم أفضوا﴾ أى: أنفذوا قضاءكم ﴿إلى﴾ فيما تريدون. وقرأ
المصرى بن ينعَم: «أفضوا» بالفاء وقطع الهمزة، أى: انتهوا إلى بشركم، ﴿ولا تنظرون﴾ : ولا تمهلون.

﴿فإن توليتهم﴾ : أعرضتم عن تذكيرى، ﴿فما سألتكم من أجر﴾ يوجب توليكم وإعراضكم لقله عليكم.
واتهامكم إياى لأجله، أو يفوتنى إذا توليتهم على، ﴿إن أجرى﴾ : ما ثوابى على الدعوة والتذكير ﴿إلا على الله﴾
لا تعلق لى بشىء دونه، آمنتم أو توليتهم، ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ المنقادين لحكمه، لا أخالف أمره،
ولا أرجو غيره.

﴿فكذبوه﴾ : فأصروا على تكذيبه بعد إزامهم الحجة، وتبين أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمردهم فلا
جرم حقت عليهم كلمة العذاب، فهلكوا بالغرق، ﴿فنجينا من آمن﴾ معه فى الفلك، وكانوا ثمانين،
﴿وجعلناهم خلائف﴾ عمروا الأرض بعد الهالكين وخلفوهم فيها، ولم يعقب منهم إلا أولاد نوح عليه السلام،
﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ بالطوفان، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾، تعظيم لما جرى عليهم،
وتحذير لمن كذب الرسول، وتسلية له. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا يكون الرجل كامل اليقين حتى يسقط من قلبه خوف المخلوقين، فلا يبالى بهم ولو أجمعوا على
كيدته، إذ ليس بيدهم شىء، وإنما أمرهم بيد الله، ويقول لهم كما قال نوح عليه السلام: (فأجمعوا أمركم وشركاءكم).
وكما قال هود عليه السلام: ﴿فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربى وربكم﴾ (١). وفى
الحديث: «لو اجتمع الخلق كلهم على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قدره الله عليك، جفت الأقدام
وطويت الصحف». وقال أيضا ﷺ: «لا يكمل إيمان العبد حتى يكون الناس عنده كالأبعاد». يعنى: لا يهابهم
ولا يراقبهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما بين نوح وموسى - عليهما السلام - من الأنبياء، على سبيل الإجمال، فقال:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ
مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾

(١) الأيتان ٥٥ - ٥٦ من سورة هود.

قلت : (بما كذبوا به) ذكر هنا الرابط، وحذفه فى سورة الأعراف، إشارة إلى جواز الأمرين، وإليه أشار فى الألفية، بقوله :

كَذَا الَّذِي جُرَّ بِمَا الْمَوْصُولُ جَرَّ ك «مُرَّ بِالَّذِي مَرَرْتُ فَهَوَّيْتُ» (١)

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ : من بعد نوح ﷺ ﴿ رَسُلًا ﴾ : كهود وصالح وإبراهيم وغيرهم ﴿ إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ ، كل رسول إلى قومه ، ﴿ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ : بالمعجزات الواضحات المثبتة لدعواهم ، ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ : فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم فى الكفر، ولسبق شقاوتهم، فما آمنوا ﴿ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ مجيئهم المعجزات، يعنى أنهم طلبوا المعجزات ليؤمنوا، فلما جاءتهم استمروا على تكذيبهم ، ﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ فلا تنفع فيهم معجزة ولا تذكير، وفيه دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة الله، مع إثبات كسب العبد، لقيام عالم الحكمة - الذى هو رداء لتصرف القدرة - . والله تعالى أعلم .

الإشارة : كما بعث الله فى كل أمة رسولا يذكرهم ويدعوهم إلى الله، بعث الله فى كل عصر وليا عارفا، يدعو الخلق إلى معرفة الله وتوحيده الخاص، فمن سبقت له العناية آمن به من غير طلب آية، ومن سبق له الخذلان لا يصدق به ولو رأى ألف برهان . وبالله التوفيق .

ثم ذكر بعثة موسى وهارون - عليهما السلام - ؛ مفصلة لما فيها من النأسى والتسلية، فقال :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝ ٧٥ ﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مِثْنٌ ۝ ٧٦ ﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ۝ ٧٧ ﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِظَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝ ٧٨ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ : من بعد هؤلاء الرسل ﴿ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ إلى فرعون وملائته بآياتنا ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ عن اتباعها ، ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ معتادين الإجرام، فلذلك تهاونوا برسالة ربهم، واجترأوا على ردها، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ وعرفوه، وهو بعثة موسى ﷺ؛ لتظاهر المعجزات على يديه، القاهرة المزينة للشك، ﴿ قَالُوا ﴾ من فرط تمردهم : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ الذى جلت به ﴿ لَسِحْرٌ مِثْنٌ ﴾ : ظاهر .

﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ﴾ إنه سحر، فكيف يقدر السحرة على مثله ؟ ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ : أيتوهم أحد أن يكون هذا سحرا ؟ ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ أى : لو كان سحرا لاضمحل، ولم يبطل سحر

(١) انظر باب الموصول (حذف العائد) .

السحرة، والعالم بأن الساحر لا يفلح لا يستعمل السحر، فهذا كله من كلام موسى ﷺ، أو من تمام قولهم؛ إن جعل قوله: «أسحر هذا» محكياً لقولهم، كأنهم قالوا: أجنثنا بالسحر لتطلب به الفلاح ولا يفلح الساحرون، والأول أرجح.

﴿ قالوا أجنثنا لتلفتنا ﴾ : لتصرفنا ﴿ عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ من عبادة الأصنام، ﴿ وتكون لكم الكبرياء فى الأرض ﴾ : الملك فيها، سمي الملك كبرياء لا تصاف الملوك بالتكبر، ﴿ وما نحن لكم بمصدقين ﴾ : بمصدقين.

الإشارة: السحر على قسمين: سحر يسحر القلوب الى حضرة الرحمن، وسحر يسحرها الى حضرة الشيطان، فالسحر الذى يسحر الى حضرة الرحمن: هو ما جاءت به الأنبياء والرسل، وقامت به الأولياء بعدهم من الأمور التى تقرب إلى الحضرة، إما ما يتعلق بالظواهر، ككتبيين الشرائع، وإما ما يتعلق بالبواطن، ككتبيين الطرائق والأمور التى تشرق بها أسرار الحقائق، وأما السحر الذى يسحر إلى حضرة الشيطان: فكل ما يشغل عن ذكر الرحمن، ولذلك قال ﷺ: «اتقوا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت».

ثم ذكر معارضة فرعون، فقال:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴾ ٧٩ ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ ٨٠ ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ٨١ ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ٨٢ ﴿

قلت: (ما جئتم به) موصولة على من قرأ: «السحر» بلا استفهام، ومن قرأ بالاستفهام فدما، مبتدأ، و(جئتم) خبرها، و(السحر): بدل منه، أو خبر لمحذوف، أى: أهر السحر؟ أو مبتدأ حذف خبره، أى: السحر هو.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال فرعون ﴾ لما أراد معارضة موسى ﷺ: ﴿ اتئونى بكل ساحر ﴾ وفى قراءة الأخوين: «سحار»، ﴿ عليم ﴾ : حاذق فى فنه، ﴿ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ ، ﴿ فلما ألقوا ﴾ حبالهم وعصيهم، فانقلبت حيات فى أعين الناس، يركب بعضها بعضاً، ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ موسى ما جئتم به السحر ﴾ أى: الذى جئتم به هو السحر، لا ما سماه فرعون وقومه سحراً من معجزات العصا. وقرأ البصرى: «السحر» أى: أى شئ جئتم به السحر هو؟ ﴿ إن الله سيبطله ﴾ : سيمحقه، أو سيظهر بطلانه، ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ لا يثبت ولا يديمه، وفيه دليل على أن السحر تعويه لا حقيقة له، ﴿ ويحق الله الحق بكلماته ﴾ السابقة الأزلية، أو بأوامره وقضائاه، ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ ذلك.

الإشارة: الأكوان كلها عند أهل التحقيق شعودة سحرية، خيالية كخيال السحر الذى يظهره المشعوذ، تظهر ثم تبطن، وليس فى الوجود حقيقة إلا الواحد الأحد الفرد الصمد، فهى ثابتة بإثباته، محوطة بأحدية ذاته. وهى أيضاً

أشبه شيء بالظلال، والظلال لا وجود لها من ذاتها، وإنما تابعة لشواخصها، ولذلك قالوا: ظلال الأشجار لا تعوق السفن عن التسيار، فظلال الأكوان وأجرامها لا تعوق سفن الأفكار عن التسيار فى بحار معانى الأسرار، بل تغيب عن ظلال حسها إلى فضاء شهود معانيها، فالعارف لا يحجبه عن الله شيء؛ للفوزة إلى شهود أسرار الربوبية فى كل شيء، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر من تبع موسى، فقال:

﴿ فَمَاءَ آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ٨٣

قلت: الضمير فى «ملئهم» يعود على فرعون، وجمعه على ما هو المعتاد فى ضمير العظماء، أو باعتبار آل فرعون، كما يقال: ربيعة ومضر، أو على الذرية، أو على «قومه»، (أن يفتنهم) بدل من فرعون، أو مفعول بخوف، وأفرد ضمير الفاعل، فلم يقل: أن يفتنهم؛ للدلالة على أن الخوف من الملاء كان بسبب فرعون.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فما آمن لموسى﴾ أى: صدقه فى أول مبعثه ﴿إلا ذرية﴾: إلا شباب وفتيان ﴿من قومه﴾: من بنى إسرائيل، آمنوا ﴿على خوف من فرعون وملئهم﴾ أى: مع خوف من فرعون وقومه، أو على خوف من فرعون وملأ بنى إسرائيل؛ لأن الأكابر من بنى إسرائيل كانوا يمنعون أولادهم من الإيمان خوفاً من فرعون، وهذا أرجح. خافوا ﴿أن يفتنهم﴾: يعذبهم حتى يردهم عن دينهم، ﴿وإن فرعون لعالٍ فى الأرض﴾: لغالب فيها، ﴿وإنه لمن المسرفين﴾ فى الكفر والعنوت حتى ادعى الربوبية، واسترق أسباط الأنبياء.

الإشارة: أهل التصديق بأهل الخصوصية قليل فى كل زمان، وإيذاء المنتسبين لهم سنة جارية فى كل أوان، فكل زمان له فراعين يؤذون المنتسبين، والعاقبة للمتقين.

ثم أمرهم بالتوكل والثبات، فقال:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَاقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِن كُنتُمْ مِّنْ مُّسْلِمِينَ ﴾ ٨٤ ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ٨٥ ﴿ وَبِحَنَاءٍ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ٨٦

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﷻ لِقَوْمِهِ ، لِمَ رَأَيْتُمْ خَوْفَهُم مِّنْ فِرْعَوْنَ : ﷻ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمِنْتُمْ بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﷻ أَيْ : ثِقُوا بِهِ وَاعْتَمِدُوا عَلَيْهِ ، وَلَا تَبَالُوا بِغَيْرِهِ ، ﷻ إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﷻ مُسْتَسْلِمِينَ لِقَضَاءِ اللّهِ ، أَوْ مُنْقَادِينَ لِأَحْكَامِهِ ، قَائِمِينَ بِطَاعَتِهِ بَعْدَ تَحْصِيلِ الْإِيمَانِ بِهِ ، وَقَالَ لَهُمْ ذَلِكَ مَعَ عِلْمِهِ بِإِيمَانِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ ؛ إِنِهَاضًا لَهُمْ وَتَحْرِيسًا عَلَى الصَّبْرِ ، كَمَا تَقُول : إِن كُنتَ رَجُلًا فَافْعَلْ كَذَا .

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا ﷻ لِأَنَّا مُؤْمِنُونَ مُخْلِصُونَ ، ﷻ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ﷻ أَيْ : مَوْضِعَ فِتْنَةٍ ﷻ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﷻ أَيْ : لَا تَسْلُطْهُمْ عَلَيْنَا فَيَفْتِنُونَا ، ﷻ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﷻ أَيْ : مِنْ كَيْدِهِمْ ، أَوْ مِنْ شُؤْمِ مُشَاهَدَتِهِمْ . وَفِي تَقْدِيمِ التَّوَكُّلِ عَلَى الدَّعَاءِ تَبْيِيهِ عَلَى أَنَّ الدَّاعِيَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَوَكَّلَ أَوَّلًا لِفُجَابِ دَعْوَتِهِ ؛ لِأَنَّهُ يَتَسَبَّبُ فِي نَجَاحِ أَمْرِهِ ، ثُمَّ يَدْعُو . وَاللّهُ تَعَالَى أَعْلَم .

الإشارة : التوكل هو ثمرة الإيمان ونتيجته ، فكلما قوى الإيمان واشتدت أركانه قوى التوكل وظهرت أسرارها ، وكلما ضعف الإيمان ضعف التوكل ، فالتوغل فى الأسباب نتيجة ضعف الإيمان ، والتقلل منها نتيجة صحة التوكل والإيقان ، والتوكل : أن تكون بما فى يد الله أوثق مما فى يدك . قال تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللّهِ بَاقٌ ﷻ ﴾ (١) والتوكل قد يوجد مع الأسباب ، ومع التجريد أنفع ، وقد تقدم الكلام عليه فى آل عمران (٢) . وبالله التوفيق .

ثم أمر بنى إسرائيل باتخاذ المساجد ، وجعلها فى البيوت خوفاً من فرعون ، فقال :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا الْقَوْمَ كَمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَأَجْعَلُوا يُبُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِمُْوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا ﷻ أَيْ : اتَّخَذَا ﷻ لِقَوْمِكَمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﷻ لِلصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ ، وَقِيلَ : أَرَادَ الْإِسْكَندَرِيَّةَ ، وَهِيَ مِنْ مِصْرَ ، ﷻ وَأَجْعَلُوا ﷻ أَنْتُمَا وَقَوْمُكُمَا ﷻ بُيُوتَكُمْ ﷻ الَّتِي تَسْكُنُونَ فِيهَا ﷻ قِبْلَةً ﷻ : مَصَلًى وَمَسَاجِدَ . رُوى أَنَّ فِرْعَوْنَ أَخَافَهُمْ ، وَهَدَمَ مَوَاضِعَ كَانُوا اتَّخَذُوهَا لِلصَّلَاةِ ، فَأَمَرُوا بِإِخْفَائِهَا وَجَعَلَهَا فِي بُيُوتِهِمْ ، وَتَكُونُ مُتَوَجِّهَةً نَحْوَ الْقِبْلَةِ - يَعْنَى مَكَّةَ - وَكَانَ مُوسَىٰ يَصَلُّى إِلَيْهَا .

فإن قلت : لِمَ خُصَّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ بِالْخُطَابِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَنْ تَبَوَّءَا ﷻ ﴾ ، ثُمَّ خُوطِبَ بِهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ ﷻ ﴾ ؟ فالجواب : أَنَّ التَّبَوُّأَ وَاتَّخَاذَ الْمَسَاجِدِ مِمَّا يَتَعَاطَاهُ رُؤُوسُ الْقَوْمِ لِلتَّشَاوُرِ ، بِخِلَافِ جَعْلِ الْبُيُوتِ قِبْلَةً فَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَفْعَلَهُ كُلُّ أَحَدٍ .

(١) الآية ٩٦ من سورة الدحل .

(٢) عند إشارة قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ الآية ١٥٩ .

﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ فى تلك البيوت، أمروا بذلك أول مرة لئلا تظهر عليهم الكفرة ويفتلونهم عن دينهم،
﴿ وبشر المؤمنين ﴾ بالنصر والعز فى الدنيا، وبالجنة فى العقبى .

الإشارة : اتخاذ الأماكن للعبادة والعزلة مطلوب عند القوم، وفى الحكم : « ما نفع القلب شيءٌ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة » ، وأصلهم فى ذلك : اعتزاله ﷺ فى غار حراء فى مبدأ الرُوحى ، فالخلوة للمريد لا بد منها فى ابتداء أمره ، فإذا قوى نوره ودخل مقام الفناء ؛ صلح له حينئذ الخلطة مع الناس ، بحيث يكون جسده مع الخلق وقلبه مع الحق ، فإن لله رجالاً أشباحهم مع الخلق تسعى ، وأرواحهم فى الملكوت ترعى . وقال بعضهم : [الجسد فى الحانوت والقلب فى الملكوت] ، فإذا رجع إلى البقاء لم يختر حالاً على حال ؛ لأنه مع الله على كل حال ، وهذا من أقوىاء الرجال . نفعا الله بهم .

ثم ذكر دعاء موسى على فرعون ، فقال :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ
يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٨٨ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَقِيمَ وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾

قلت : اللام فى (ليضلوا) لام كى ، متعلقة بآيت محذوفة ، أو بالمذكورة ، ولفظ (ربنا) تكرر ، أو تكون لام الأمر ، فيكون دعاء عليهم بلفظ الأمر ، بما علم من قرائن أحوالهم أنه لا يكون غيره . « فلا يؤمنوا » : جواب الدعاء ، أو عطف على (ليضلوا) .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملاؤه زينة ﴾ : ما يتزين به من الملابس والمراكب ونحوها ، ﴿ وأموالاً ﴾ : أنواعاً من المال ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ استدراجاً ، ﴿ ربنا ﴾ آتيتهم ذلك ﴿ ليضلوا عن سبيلك ﴾ طغياناً وبطراً بها ، وصرفها فى غير محلها ، أو ربنا اجعلهم ضالين عن سبيلك ، كقول نوح عليه السلام : ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضللاً ﴾ (١) لما أيس من إيمانهم ، ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ أى : أهلكها وامحقها ، ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ بالقسوة ، واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان ، ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ أى : إن تطمس على أموالهم وتشد على قلوبهم لا يؤمنوا إلا قهراً .

(١) الآية ٢٦ من سورة نوح .

وفى الآية دليل على جواز الدعاء على الظالم بالمعصية، أو الكفر، وقد فعله سعد بن أبى وقاص على الذى شهد فيه بالباطل، ووجه جوازه مع استلزامه وقوع المعاصى: أنه لم يُعتبر من حيث تأديته إلى المعاصى، ولكن من حيث تأديته إلى نكايه الظالم وعقوبته، وهذا كما قيل فى تمنى الشهادة أنه مشروع، وإن كان يؤدى إلى قتل الكافر للمسلم، وهو معصية ووهن فى الدين، ولكن الغرض من تمنى الشهادة ثوابها، لا نفسها.

﴿ قال ﴾ تعالى: ﴿ قد أجيبْت دعوتُكما ﴾ يعنى موسى وهارون، وكان يؤمن على دعاء أخيه، ﴿ فاستقيما ﴾ أى: اثبتا على ما أنتما عليه من الاستقامة والدعوة والزام الحجة، ولا تستعجلا، فإن ما طلبتما كائن ولكن فى وقته، روى أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة، ﴿ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾: طريق الجهلة فى استعجال الأشياء قبل وقتها، أو فى عدم الوثوق والاطمئنان بوعدنا، وقرأ ابن ذكوان: «ولا تتبعان، باللون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين، وهو قليل، قال ابن مالك:

وَلَمْ تَقَعْ خَفِيفَةً بَعْدَ الْأَلِفِ (١).

ويحتمل أن تكون نون الرفع، ولا، نافية، أى: والأمر لا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون.

الإشارة: دعاء الأولياء على الظالم مشروع بعد الإذن الإلهامى على ما يفهمونه، وقد مكث الشيخ أبو الحسن سنين لم يدع على ابن البراء (٢)؛ حتى كان سنة فى عرفة، فقال: الآن أذن لى فى الدعاء على ابن البراء.... الخ. فإن لم يكن إذن فالصبر أولى، بل الأولى الدعاء له بالهداية، حتى يأخذ الله بيده؛ وهذا مقام الصديقين، فإذا وقع الدعاء مطلقاً وتأخرت الإجابة فلا يستعجل، فيكون تبع سبيل الذين لا يعلمون، وفى الحكم: «لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح فى الدعاء موجباً ليأسك، فقد ضمن لك الإجابة فيما يختار لك لا فيما تختار أنت لنفسك، وفى الوقت الذى يريد، لا فى الوقت الذى تريد، وقال أيضاً: «لا يشككنك فى الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه؛ فلا يكون ذلك قدحاً فى بصيرتك، وإخماًداً للور سريرتك». وبالله التوفيق.

ثم أجاب دعاءهما، فقال:

﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَاْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاْمَنْتُ بِهِ ءَبْنُوْا إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١٠)

(١) عجز البيت: لكن شديدة وكسرها ألف.

(٢) هو أبو القاسم ابن البراء، قاضى تونس عند دخول الشيخ الشاذلى إليها. وقد رأى ابن البراء إقبال الناس على الشاذلى، فسعى فى الكرد له واتهامه عند السلطان بالعمل على قلب نظام الحكم. ولكن الله نجاه من كل هذه المكائد.

ءَالْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفِلُونَ ﴿٩٢﴾

قلت: (فأتبعهم) أى: تبعهم، يقال: تبع وأتبع، لغتان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ أى: جاوزناهم فى البحر ييساً؛ حتى بلغوا الشط الآخر حافظين لهم. روى أن بنى إسرائيل حين جاوزوا البحر كانوا ستمائة ألف، وكان يعقوب عليه السلام قد دخل مصر فى نيف وسبعين من ذريته، فتناسلوا حتى بلغوا وقت موسى العدد المذكور.

﴿فأتبعهم﴾: فأدركهم ﴿فرعون وجنوده﴾، روى أنهم كانوا ثمانمائة ألف أدهم، سوى ما يناسبها من أواسط الخيل. تبعهم ﴿بغياً وعدوا﴾: باغين وعادين عليهم. مستمراً على بغيه ﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾ قال آمنت أنه ﴿أى: بأنه﴾ لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴿فأمن حين لا ينفع الإيمان بمعاينة الموت، ومن قال بصحة إيمانه ففلط﴾ كالحاتمي (١) فإنه قال فى الفصوص: إنه من الناجين، وذلك من جملة هفواته.

قال تعالى لفرعون: ﴿الآن﴾ أى: أتؤمن الآن وقد أيست من نفسك، ﴿وقد عصيت قبل﴾ مدة عمرك ﴿وكنت من المفسدين﴾: الضالين المضلين، ﴿فالיום ننجيك﴾ أى: نلقذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر، ونجطك طافياً على وجه الماء، أو نلقيك على نجوة من الأرض ليراك الناس، فيتحققوا بغرق من معك، حال كونك ﴿بيدك﴾ عارياً عن الروح، أو عرياناً بلا لباس، أو بدرعك، وكانت له دروع من ذهب يعرف بها، وكان مظاهراً بينها.

﴿لتكون لمن خلقت آية﴾: لمن وراءك علامة يعرفون أنك من الهالكين، والمراد: بنو إسرائيل؛ إذ كان فى نفوسهم من عظمتهم ما خيل إليهم أنه لا يهلك، حتى كذبوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه، إلى أن عاينوه منطرحاً على معرهم من الساحل، أو لمن يأتى بعدك من القرون إذا سمعوا مآل أمرك، فيكون ذلك عبرة ونكالا للطغيان، أو حجة تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظيم الشأن وكبرياء الملك مملوك مقهور، بعيد عن مظان الربوبية، أو آية تدل على كمال قدرته وإحاطة علمه وحكمته، فإن إفراده بالإلقاء إلى الساحل دون غيره؛ يفيد أنه مقصود لازاحة الشك فى أمره.

﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها، والإخبار بهذا الأخذ الذى وقع فى قعر البحر من أعلام النبوة؛ إذ لا يمكن أن يخبر بها إلا أعلم الغيوب الذى لا يخفى عليه شيء، ولا يخلو منه مكان. والله تعالى أعلم.

(١) أى: الشيخ محبى الدين بن عربى.

الإشارة : كل من دخل بحر التوحيد علماً - وهو فرعون برؤية نفسه -، ولم يصحب من يغيبه عنها غرق فى بحر الزندقة والدعوى، فإن رجع إلى الإيمان بعد معاينة الهلاك بسيف الشريعة قيل له : الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟ فإن تاب حقيقة رُجى له النجاة، وإن قتل كان آية ونكالا لمن خلفه . والله تعالى أعلم .

ثم ذكر بنى إسرائيل بما أنعم عليهم، فقال :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٩٣)

قلت : (مُبوأ) : ظرف بمعنى منزل

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولقد بوأنا ﴾ أى : أنزلنا ﴿ بنى إسرائيل مَبُوءًا صِدْقٍ ﴾ أى : منزل صدق، أى : منزلاً صالحاً مرضياً يصدق فيه ظن قاصده وساكنه، فما ظن فيه من الكمالات وجدها صدقاً وحقاً، والمراد به : الشام وقراها، ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ من اللذائذ، وكانوا متفقين على دينهم، وعلى ظهور دين الإسلام، ﴿ فما اختلفوا ﴾ فى أمر دينهم ﴿ حتى جاءهم العلم ﴾ ؛ بأن قرؤوا التوراة وعلموا أحكامها، ثم طغوا وعصوا، أو فى أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه بدعوته وتظاهر معجزاته، ﴿ إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ ، فيميز المحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك .

الإشارة : قد يمد الله عباده بأنواع النعم، ثم يبعث لهم من يذكرهم بأيام الله، ويعرفهم به، فإذا اختلفوا عليه ظهر الشاكر من غيره، فيغير عليهم تلك النعم، فيوصل إليه أهل التصديق والاستماع والاتباع، ويبعد أهل الإنكار والابتداع . وبالله التوفيق .

ثم أمر بالسؤال لأهل العلم لمن وقعت له شبهة، فقال :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ (٩٥)

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والمراد به: من وقع له شك، فإن الملك إذا أراد أن يعرض بأحد؛ خاطب كبير القوم وهو يريد غيره، فهو كقول العامة: الكلام مع السارية وافهمى يا جارية.

وأما النبى ﷺ فهو بعيد من الشك؛ لأنه عين اليقين، وهو الذى علم الناس اليقين، ولذلك قال - عليه الصلاة والسلام - لما نزلت: «لَا أَشْكُ وَلَا أَسْأَلُ» (١) والمراد بالذين يقرءون الكتاب: من أسلم منهم، كعبد الله بن سلام وغيره، أو فإن كنت أيها المستمع فى شك مما أنزلنا إليك على لسان فاسأل... الخ، وفيه تنبيه على أن من خالجه شبهة فى الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها، بالرجوع إلى أهل اليقين إن كانت فى التوحيد، أو إلى أهل العلم إن كانت فى الفروع.

قال ابن عطية: الخواطر التى لا ينجو منها أحد، هى خلاف الشك الذى يحال فيه على الاستشفاء بالسؤال. هـ. أى: فإنها معفو عنها.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ واضحاً لا مدخل للمرية فيه بالآيات القاطعة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾: الشاكين بالزلزل على ما أنت عليه من الجزم واليقين، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وهذا كله يجرى على ما تقدم من أنه لكل سامع. وقال البيضاوى: هو من باب التهيج والتثبيت، وقطع الأطماع عنه، كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢) هـ.

الإشارة: لا تنقطع عن العبد الأوهام والشكوك والخواطر، حتى يدخل مقام الإحسان ويكشف بمقام الشهود والعيان، بالغيبة عن حس الأكوان، بسطوع أنوار المعانى عند غيبة الأوانى، ومن غاب عن حس نفسه غاب عنه حس جميع الأكوان؛ وذلك بصحبة أهل العرفان، الذين سلكوا الطريق حتى أفضوا إلى عين التحقيق، فزاحت عنهم الشكوك والأوهام، وانحلت عنهم الشبهة، وزالت عن قلوبهم الأسقام، واطلعوا على تأويل المتشابه من القرآن، فبصحبة هؤلاء ترتفع الخواطر والشكوك، ويرتفع العبد إلى حضرة ملك الملوك، فجلوس ساعة مع هؤلاء تعدل عبادة سنين. وفى بعض الآثار: (تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين) قلت: وقد من الله علينا بمعرفتهم وصحبته، بعد أن تحققنا بخصوصيتهم، فله الحمد وله الشكر.

ثم أخبر عن سبق له الشقاء، فلا ينفع فيه سؤال ولا صحبة، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۚ﴾

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (١٦٨/١١)، عن قتادة وسعيد بن جببر، وزاد المناوى فى الفتح السماوى (٧١٦/٢) عزوه لعبد الرزاق فى تفسيره.

(٢) من الآية ٨٦ من سورة القصص.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ بأنهم لا يؤمنون ، أو بأنهم مخلصون فى العذاب ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أبداً ، إذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه ، ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ وعابروها فإن السبب الأصلى لإيمانهم هو تعلق إرادته تعالى ، وقد أراد خلافه ، فلا يؤمنوا ﴿ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وحينئذ لا ينفعهم ، كما لم ينفع فرعون ، وبالله التوفيق .

الإشارة : من انتكبه التوفيق لا يصدق بأهل التحقيق ، ولو رأى منهم ألف كرامة ، فلا تنفك عنه الشكوك والأوهام ، حتى يفضى إلى شرب كأس الحمام ، فيلقى الله بقلب سقيم ، وربما مات على الشك ، فيلحقه العذاب الأليم ، عانداً بالله من ذلك .

ثم ويخ من فوت إيمانه عن وقته ، فقال :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

قلت : (قلولا) تحضيضية ، و(إلا قوم يونس) : استثناء منقطع ، ويجوز الاتصال ، فيكون الاستثناء من معنى النفى الذى تضمنه حرف التحضيض ؛ لأن المراد بالقرى : أهلها ، كأنه قال : ما آمن أهل قرية من القرى الماضية فنفعها إيمانها إلا قوم يونس ، ويؤيده قراءة الرفع . ويونس : عجمى مثلث الدون .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ ﴾ هلاً وجدت ﴿ قَرْيَةً ﴾ من القرى التى أهلكناها ﴿ ءَامَنَتْ ﴾ قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخر الإيمان إلى نزوله كما فعل فرعون ، ﴿ فَنَفَعَهَا ﴾ حينئذ ﴿ إِيمَانُهَا ﴾ بأن يقبله الله منها ؛ فيكشف عنها العذاب ، ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ قَوْمَ يُونُسَ ﴾ لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا ، فرفعنا عنهم العذاب حين آمنوا بعد أن ظهرت مخايله ، فلجوا ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ : إلى تمام آجالهم .

روى أن يونس عليه السلام بعث إلى أهل نينوى من الموصل ، فكذبوه وأصروا على تكذيبه ، فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث ، فلما دنا الموعد وأغامت السماء غيماً أسود ذا دخان شديد فهبط حتى غشى مدينتهم ، فهابوا ، فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه ، فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ، وفرقوا بين كل والدها ، فحن بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والضجيج ، وأخلصوا التوبة والإيمان ، وتضرعوا إلى الله تعالى ، فرحمهم وكشف العذاب عنهم ، وكان يوم عاشوراء ويوم الجمعة . والله تعالى أعلم .

الإشارة : ينبغى للعبد أن يعتنى بتربية إيمانه وتقوية إيقانه قبل فوات إيمانه ، وهو انصرام أجله . وتربيته تكون بصحبة أهل اليقين ، فإن لم يعثر بهم فبمطالعة كتبهم ، والوقوف على أخبارهم ومناقبتهم ، مع دوام التفكير والاعتبار ،

والإكثار من الطاعة والخضوع والافتقار، والتمسك بالذل والانكسار. قال تعالى فى بعض الأخبار: أنا عدد المنكسرة قلوبهم من أجلى، وبالله التوفيق.

كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٩) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿ ١٠٠ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو شاء ربك ﴾ هداية الخلق كلهم ﴿ لأمن من فى الأرض كلهم جميعاً ﴾ بحيث لا يتخلف عنه أحد، لكن حكمته اقتضت وجود الخلاف، فمن رام اتفاقهم على الإيمان فقد رام المحال، ولذلك قال: ﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ بالقهر على ما لم يشأ الله منهم ﴿ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ كلهم.

قال البيضاوى: وترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء، وإيلاؤها حرف الاستفهام الإنكارى، وتقديم الضمير على الفعل، للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل، فلا يمكنه تحصيله بالإكراه فضلاً عن الحث والتحريض عليه، إذ روى أنه - عليه الصلاة والسلام - كان حريصاً على إيمان قومه، شديد الاهتمام به، فلزلت، ولذلك قرره بقوله: ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ ؛ بمشيئته وألطافه وتوفيقه ؛ فلا تجهد نفسك فى هداها، فإنه إلى الله تعالى. ﴿ ويجعل الرجس ﴾ : العذاب أو الخذلان فإنه سببه ﴿ على الذين لا يعقلون ﴾ : لا يستعملون عقولهم بالنظر فى الحجج والآيات، أو لا يعقلون دلائل القرآن وأحكامه ؛ لما على قلوبهم من الطبع. ويؤيد الأول قوله ﴿ قل انظروا... ﴾ الخ. هـ.

الإشارة: فى الآية تسلية لأهل التذكير حين يرون الناس لم ينفع فيهم تذكيرهم، وفيها تأديب لمن حرص على هداية الناس كلهم، أو يتمنى أن يكونوا كلهم خصوصاً، فإن هذا خلاف حكمته تعالى. قال تعالى: ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ (١) فالداعون إلى الله لا يكونون حرصاً على الناس أبداً، بل يدعون إلى الله، ويذكرون بالله، وينظرون ما يفعل الله اقتداء بنبيه الله، بعد أن علمه الله كيف يكون مع عباد الله. والله تعالى أعلم.

ثم أمر باستعمال العقل فى التفكير والاعتبار، فقال:

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٠١) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿ ١٠٢ ﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ١٠٣ ﴾

(١) من الآية ١١٨ من سورة هود.

قلت : (ماذا) إن كانت استفهامية علقت (انظروا) عن العمل، وإن كانت موصولة فمفعول به، و(ما تغنى الآيات) : يحتمل الاستفهام فى محل نصب بتغنى، أو النفى. «ثم ننجى، معطوف على محذوف دل عليه: (إلا مثل أيام) أى: فكانت عادتنا معهم أن نهلك المكذبين، ثم ننجى رسلنا ومن آمن معهم. وكذلك، مصدر معمول لننجى، و(حقاً) اعتراض بينهما، وهو مصدر لفعل محذوف، أى: مثل ذلك الإنجاء ننجى المؤمنين بحق ذلك حقاً، وعلى هذا يوقف على: (الذين آمنوا)، ثم يبدأ بقوله: (كذلك حقاً.. الخ. وقيل: خبر عن (الذين آمنوا) أى: والذين آمنوا مثلهم فى الإنجاء، وهو ضعيف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ للمشركين الذين طلبوا منك الآية: ﴿انظروا ماذا فى السموات والأرض﴾ من الآيات والعبر، وعجائب الصنع ليدلکم على وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته، ثم بين أن الآيات لا تفيد من سبق عليه الشقاء، فقال: ﴿وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ فى علم الله وحكمه، ثم هددهم بالهلاك فقال: ﴿هل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أى: مثل وقائعهم ونزول العذاب بهم؛ إذ لا يستحقون غيره، فهو من قولهم: أيام العرب، لوقائعها.

﴿قل﴾ لهم: ﴿فانتظروا﴾ هلاككم ﴿إنى معكم من المنتظرين﴾ لذلك، أو فانتظروا هلاكى إنى معكم من المنتظرين هلاككم، ﴿ثم ننجى رسلنا﴾ أى: عادتنا أن ننجى رسلنا ﴿والذين آمنوا﴾ معهم من ذلك الهلاك، ﴿كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين﴾ من أصحاب محمد ﷺ حين نهلك المجرمين؛ حقاً واجباً علينا كما هى عادتنا مع من تحبب إلينا بالإيمان والطاعة.

الإشارة: أمر الحق - جل جلاله - أهل النظر والاستبصار بأن ينظروا ماذا فى السموات والأرض من الأسرار والأنوار، أمرهم أن يشاهدوا أسرار الذات وأنوار الصفات، دون الوقوف مع الأجرام الحسيات، أمرهم أن ينظروا المعانى خلف رقة الأوانى، لا أن يقفوا مع الأوانى، وإليه أشار ابن الفارض فى خمريته، حيث قال:

ولطف الأوانى - فى الحقيقة - تابع للطف المعانى، والمعانى بها تسمو

فالأكوان كلها أوانى حاملة للطف المعانى، وأصل الأوانى معانى، تحمست وتكثفت فمن لطف الأوانى وذوياً بفكرته رجعت معانى، واتصلت المعانى بالمعانى، وغابت حينئذ الأوانى، ولا يعرف هذا إلا من صحب أهل المعانى، وهم أهل الفناء والبقاء، ومن لم يصحبهم فحسبه الوقوف مع الأجرام الحسية، ويستعمل فكرة التصديق والإيمان، وهى عبادة التفكير والاعتبار والأولى فكرة أهل الشهود والاستبصار، وفى أمثالهم قال الشاعر:

هم الرجال وغبن أن يقال لمن لم يتصف بمعانى وصفهم رجل

وقد ذكر فى الحكم هذه الإشارة فقال: «أباح لك أن تنظر ما فى المكونات، وما أباح لك أن تقف مع ذوات المكونات، (قل انظروا ماذا فى السموات) فتح لك باب الأفهام، ولم يقل: انظروا السموات؛ لئلا يدلك على وجود الأجرام».

ومن سبق له فى العلم القديم الخذلان لا يخرج عن دائرة الأكوان، فلا يؤمن بوجود أهل الشهود والعيان، فما ينتظر مثل هذا إلا ما نزل بأمثاله، من هجوم الحِمام قبل خروجه من سجن الأجرام، فإنه لا ينجو من سجن الأكوان إلا من صحب أهل العرفان، الذين أقضوا إلى فضاء الشهود والعيان، وقليل ما هم.

ثم أمر نبيه بالتبرء من الشرك وأهله، فقال:

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

قلت: (وأن أقم): عطف على (أن أكون) وإن كان بصيغة الأمر؛ لأن الغرض وصل «أن» بما يتضمن معنى المصدر ليدل معه عليه، وصيغ الأفعال كلها كذلك، سواء الخبر منها والطلب، والمعنى: وأمرت بالإيمان والاستقامة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ يا محمد لأهل مكة أو لجميع الناس: ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى شك من ديني ﴾؛ بأن شككم فى صحته حتى عبدتم غير الله، ﴿ فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ﴾ فهذا خلاصة دينى اعتقاداً وعملاً، فأعرضوها على العقل السليم، وانظروا فيها بعين الإنصاف، لتعلموا صحتها، وهو أنى لا أعبد ما تخلقونه وتعبدونه، ولكن أعبد خالقكم، الذى هو يوجودكم ويتوفاكم. وإنما خص التوفى بالذكر لأنه أليق بالتهديد، انظر البيضاوى. ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ بالله وحده، الذى دل عليه العقل ونطق به الوحي.

﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ﴾؛ مائلاً عن الأديان الفاسدة، أى: أمرت بالاستقامة بذاتى كلها فى الدين والتوغل فيه، بأداء الفرائض والانتهاى عن القبائح، أو: أن أقيم وجهى فى الصلاة باستقبال القبلة. وقيل لى: ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ بالله فى شىء، ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾ بنفسه ولا بدعوته، ﴿ فإن فعلت ﴾ ودعوته ﴿ فإنك إذا من الظالمين ﴾، وهو تنفير وتحذير للغير من الميل اليه.

ثم بين من يستحق العبادة والدعاء، وهو الله تعالى فقال: ﴿ وإن يمسك الله ﴾ أى: يصيبك «بضر فلا كاشف له»: لا رافع له ﴿ إلا هو ﴾ أى: الله، ﴿ وإن يردك بخير فلا راد ﴾: لا دافع ﴿ لفضله ﴾ الذى أرادك به.

قال البيضاوى: ولعله ذكر الإرادة مع الخير، والمس مع الضر، مع تلازم الأمرين للتببيه على أن الخير مراد بالذات، وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد بهم من الخير لا لاستحقاق لهم عليه، ولم يستثن لأن مراد الله لا يمكن رده. هـ.

﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ بذلك الخير ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، فتعرضوا لخيره بالتضرع والسؤال، ولا يمنعكم من ذلك ما اقترفتكم من العصيان والزلل، فإنه غفور رحيم.

الإشارة: ينبغي لمن تمسك بطريق الخصوص، وانقطع بكليته إلى مولاه، أن يقول لمن خالفه فى ذلك: إن كنتم فى شك من دينى - من طريقى - فلا أعبد ما تعبدون من دون الله، من متابعة الهوى والحرص على الدنيا، ولكن أعبد الله الذى يخوفاكم، وأمرت أن أكون من المؤمنين، وأن أقیم وجهى للدين حنيفاً مائلاً عن دينكم ودنياكم، كما قال القائل:

تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ وَدِينَهُمْ شُغْلًا بِذِكْرِكَ يَادِينِي وَدُنْيَائِي

وقال آخر:

تَرَكْتُ لِلنَّاسِ مَا تَهْوَى نَفْسُهُمْ مِنْ حُبِّ دُنْيَا وَمِنْ عَزٍّ وَمِنْ جَاهٍ
كَذَلِكَ تَرَكْتُ الْمَقَامَاتِ هُنَا وَهَذَا وَالْقَصْدُ غَيْبَتَنَا عَمَّا سِوَى اللَّهِ.

﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾، وهو ما سوى الله، فليس بيد أحد ضر ولا نفع، ولا جلب ولا دفع، قال فى الحكم: «لا ترفعن إلى غيره حاجة هو مورها عليك، فكيف يرفع إلى غيره ما كان هو له واضعاً؟ من لا يستطيع أن يرفع حاجته عن نفسه، فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعاً؟».

قال بعضهم: من اعتمد على غير الله فهو فى غرور؛ لأن الغرور ما لا يدوم، ولا يدوم شيء سواه، وهو الدائم القديم، لم يزل ولا يزال، وعطاؤه وفضله دائماً، فلا تعتمد إلا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء، فى كل نفس وحين وأوان وزمان. هـ.

وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود أما وعزتى وجلالى وعظمتى لا يلتصربى عبد من عبادى دون خلقى، أعلم ذلك من نيته فتكیده السموات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له منهن فرجاً ومخرجاً، أما وعزتى وجلالى لا يعتصم عبد من عبادى بمخلوق، دونى، أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السموات من يده، وأسخطت الأرض من تحته ولا أبالى فى أى واد هلك. هـ.

وقال بعضهم: قرأت فى بعض الكتب: أن الله عز وجل يقول: [وعزتى وجلالى، وجودى وكرمى، وارتفاعى فوق عرشى فى علو مكانى، لأقطعن آمال كل مؤمل لغيرى بالإياس، ولأكسونه ثوب المذلة بين

الناس، ولأنحيتُه من قربي، ولأقطعته من وصلي، أؤمِّلُ غيري في الدواب، والشدائد بيدي، وأنا الحي، ويرجى غيري ويقرع بالفكر باب غيري، ويبيد مفتح الأبواب، وهي مغلفة وبابي مفتوح لمن دعاني، ومن ذا الذي أُمِّلِي لدائبة فقطعت به دونها؟ ومن ذا الذي رجاني بعظيم جرمه فقطعت رجاءه مني؟ ومن ذا الذي قرع بابي فلم أفتح له؟ جعلت آمال خلقى بيني وبينهم متصلة، فقطعت بغيري، وجعلت رجاءهم مدخوراً لهم عندي؛ فلم يرضوا بحفظي، وملأت سمواتي بمن لا يملون تسبيحي من ملائكتي، وأمرتهم ألا يخلقوا الأبواب بيني وبين عبادي، فلم يثقوا بقولي، ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي أنه لا يملك كشفها أحدٌ غيري؟ فما لي أراه بآماله معرضاً عني؟ ومالي أراه لاهياً إلى سوى، أعطيته بجودي ما لم يسألني، ثم انتزعت منه فلم يسألني رده، وسأل غيري، أفتراني أبدأ بالعطية قبل المسألة ثم أسأل فلا أجيب سألني؟ أبخيل أنا فيبخلني خلقى؟ أليس الدنيا والآخرة لي؟ أليس الفضل والرحمة بيدي؟ أليس الجود والكرم لي؟ أليس أنا محل الآمال؟ فمن ذا الذي يقطعها دوني؟ وما عسى أن يؤمِّل المؤمنون لو قلت لأهل سمواتي وأهل أرضي: أملوني، ثم أعطيت كل واحد منهم من الفكر مثل ما أعطيت الجميع، ما انتقص ذلك من ملكي عضو ذرة، وكيف ينقص ملك كامل أنا فيه؟ فيا بؤس القانطين من رحمتي، ويا بؤس من عصاني ولم يراقبني، وثبَّ على محارمي ولم يستح مني. هـ

ثم أراح عذرهم بإرسال النذير، فقال:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۝١٠٨ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝١٠٩ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ﴾ الرسول أو القرآن، ﴿ فمَنِ اهْتَدَى ﴾ بالإيمان والمتابعة ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾، لأن نفعه لها، ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾، لأن وبال الضلال عليها، ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي: موكلٌ عليكم، فأفهمكم على الإيمان، وإنما أنا بشير ونذير. وهو منسوخ بآية السيف. ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ بالامثال والتبليغ، ﴿ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ بينك وبين عدوك، بالأمر بالقتال ثم بالنصر والعز، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه، لا اطلاعه على السرائر كاطلاعه على الظواهر.

الإشارة : يأيها الناس قد جاءكم من يُعرفكم بالحق من ربكم، فمن اهتدى بمعرفته واتباعه نفع نفسه، حيث أخرجها من غم الحجاب، وشفأها من سقم الشك والارتباب، ومن ضل عن معرفته فوبأله عليه، حيث ترك نفسه فى أودية الخواطر تجول، وحرمها من الله حقيقة الوصول. ويقال للعارف إذا أعرض الخلق عنه، ولم ينفع فيهم تذكيره ووعظه: اتبع ما يوحى إليك من وحي الإلهام، فإنه حق فى حق الخصوص؛ إذ لا يتجلى فى قلوبهم إلا ما هو حق، حيث تطهرت من خواطر الخلق. واصبر حتى يحكم الله بإرسال ربح الهداية، وهو خير الحاكمين. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق .



سُورَةُ هُودٍ

مكية إلا قوله تعالى: ﴿إِنْ الْحَسَنَاتُ يُذْهَبْنَ السَّيِّئَاتُ﴾؛ نزلت في نبهان التمار بالمدينة، وهي مائة وثلاث وعشرون آية. ووجه المناسبة لما قبلها: قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ (١)؛ وهو كتاب أحكمت آياته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الر *

قال في القوت، في تفسير ﴿الر﴾: هذه ثلاثة أسماء: (الله، لطيف، رحيم). وقيل: هي حرف من اسم الرحمن. قلت: أو مختصرة من الرسول؛ خطاباً للنبي ﷺ. ويمكن أن يشير بالحروف للعوالم الثلاثة؛ فالألف لوحدة الجبروت، واللام لتدفق أنوار الملكوت، والراء لسريان إمداد الرحموت في سائر الموجودات، وأعظمها وعصرها: نزول الكتاب العزيز. ولذلك بدأ بذكره، فقال:

﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمِيعَكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٥﴾

قلت: (كتاب): خبر، أي: هذا كتاب. و(أحكمت): صفة. و(من لدن): خبر ثان، أو خبر كتاب، إن جعل مبتدأ، أو صفة له، إن كان خبراً. و(ألا تعبدوا): أن، مفسرة، أو مصدرية في موضع مفعول لأجله، أو بدل من الآيات، أو مستأنف. و(أن استغفروا): عطف عليه. و(حين): متعلق بمحذوف، أي: ألا إنهم يثنونها حين يستغشون... إلخ. و(يعلم): استئناف لبيان النقص عليهم.

يقول الحق جل جلاله: أيها الرسول المصطفى، هذا الذي تقرؤه ﴿كتاباً أحكمت آياته﴾؛ أتقنت، ونظمت نظاماً محكماً، لا يعثره خلل من جهة اللفظ ولا المعنى، أو أحكمت من النسخ بشريعة أخرى، أو أحكمت

(١) من الآية: ١٠٩ من سورة يونس.

بالْحُجَج والبراهين، أو جعلت حكيمة؛ لأنها مشتملة على أمهات الحكم العملية. ﴿ثُمَّ فَصَّلْتُ﴾؛ بُيِّنْتُ لاشتمالها على بيان العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار. أو فصلت سورة سورة؛ ليسهل حفظها، وفصلت بالإنزال نجماً نجماً، فى أزمنة مختلفة. أو فصل فيها ولخص ما يحتاج إليه من الأحكام. و(ثم): للفتاوت فى الحكم؛ لأن الأحكام صفة ذاتية، والتفصيل إنما هو بحسب من يفصل له. نزل ذلك الكتاب ﴿مَنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، ولذلك كان محكماً مفصلاً بالغاً فى ذلك الغاية؛ لأن الحكيم الخبير لا يخفى عليه ما يخل بنظم الكلام.

قائلاً ذلك الكتاب: ألا تعبدوا معه غيره. وقال فى القوت: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ﴾ يعنى: بالتوحيد، ﴿ثُمَّ فَصَّلْتُ﴾ أى: بالوعد والوعيد. ثم قال: ﴿مَنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ أى: بالإحكام للأحكام، ﴿خَبِيرٍ﴾ بالتفصيل للحلال والحرام. ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾؛ هذا هو التوحيد الذى أحكمه. ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ بالعذاب، ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالثواب لمن آمن به. هذا هو الوعد والوعيد. قال البيضاوى: ﴿إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ﴾ أى: من الله، (نذير وبشير) بالعقاب على الشرك والثواب على التوحيد. ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾: عطف على «ألا تعبدوا»، ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾؛ ثم توصلوا إلى مطلبكم بالتوبة؛ فإن المعرض عن طريق الحق لا بد له من رجوع. وقيل: استغفروا من الشرك، ثم توبوا إليه بالطاعة، ويجوز أن يكون «ثم»: للفتاوت بين الأمرين. هـ.

قال ابن جزى: (استغفروا ربكم) مما تقدم من الشرك والمعاصى، ثم ارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة. هـ. وقال الواحدى: (استغفروا ربكم) من ذنوبكم السابقة، (ثم توبوا إليه) من المستأنفة متى وقعت. هـ. ﴿يَمْتَعِكُمْ مَتَاعاً حَسَناً﴾؛ يحييكم حياة طيبة بالأرزاق والنعم والخيرات، فتعيشوا فى أمن ودعة. ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ تمام أجلكم، فلا يستأصلكم بالعذاب، أو يمتعكم بالرجاء فيه والرضا بقضائه؛ لأن الكافر قد يمتع بالأرزاق فى الدنيا؛ استدراجاً، ﴿وَيُؤْتِ﴾ فى الآخرة ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾؛ عمل صالحاً، ﴿فَضْلُهُ﴾ أى: جزاء فضله، فيؤفى ثواب عمله، أو يعطى كل ذى فضل فى دينه جزاء فضله فى الدنيا والآخرة. وهو وعد للمؤمن الثائب بخير الدارين.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى: وإن تتولوا عما أمرتكم به، ﴿فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾؛ يوم القيامة، أو يوم الشدة بالقحط والجوع، وقد نزل بهم حتى أكلوا الجيف. أو يوم بدر ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى: رجوعكم فى ذلك اليوم الكبير، أو بالموت، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فيقدر على بعثهم وعذابهم أشد العذاب. وكأنه تقرير لكبر اليوم.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ﴾؛ يلوونها عن الحق وينحرفون عنه، أو يعطفونها على الكفر وعداوة النبى ﷺ، أو يولون ظهورهم إلى النبى ﷺ؛ لئلا يروه من شدة البغض والعداوة، ﴿لِيَسْتَخَفُّوا مِنْهُ﴾ أى: من الرسول - عليه الصلاة والسلام - أو: من الله بسرهم، فلا يطلع رسوله والمؤمنين عليه. قيل: إنها نزلت فى طائفة من المشركين، قالوا: إن أرحمنا ستورنا، واستغشنا ثيابنا، وطوينا صدورنا على عداوة محمد ﷺ كيف يعلم ذلك؟

والحاصل : إن الإثناء إن كان عن الحق - فالضمير في : (منه) ، يعود على الله ، وإن كان عن النبي ﷺ فالضمير يعود عليه ؛ وفي البخاري عن ابن عباس : (أنها نزلت فيمن كان يستحي أن يتخلى أو يجامع فيفضي إلى السماء) .

وقوله : ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ : يحتمل أن يكون عند النوم ، فيكون الإثناء عن الحق ، أو عن الله ، أو عند مواجهة الرسول ، فيكون الإثناء عن رؤيته - عليه الصلاة والسلام ، أو عن سماع القرآن . قال تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ﴾ في قلوبهم ، ﴿وَمَا يَعْلَنُونَ﴾ بأفواههم ، - فقد استوى في علمه سرهم وعلانياتهم ، فكيف يخفى عليه أمرهم واستخفاؤهم منه ؟ ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي : بالأسرار صاحبة الصدور ، أو بحقائق الصدور وما احتوت عليه .

الإشارة : يقول الحق جل جلاله : هذا كتاب أحكمت آياته بالتعريف بالذات ، ثم فصلت ببيان الصفات ، أو : أحكمت بتبيين الحقائق ، ثم فصلت بتبيين الشرائع . أو : أحكمت ببيان ما يتعلق بعالم الأرواح من التعريف ، ثم فصلت ببيان ما يتعلق بعالم الأشباح من التكليف ، أو : أحكمت ببيان أسرار الملكوت ، ثم فصلت ببيان أحكام الملك . ثم بين ما يتعلق بالذات فقال : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ ، وبين ما يتعلق بالصفات من التفصيل فقال : (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ) ، أو : بين ما يتعلق بالحقائق ، ثم ما يتعلق بالشرائع ، وهكذا . فإن جمعت بين الحقائق والشرائع يمتنع متاعاً حسناً ؛ بشهود ذاته ، والتمتزه في أنوار صفاته ، إلى أجل مسمى ، وهو : النزول في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ويؤت كل ذي فضل من المعرفة جزاء فضله من الشهود ، فمن تولى عن هذا خاف من عذاب يوم كبير ، وهو : غم الحجاب ، والتخلف عن الأحباب . ثم عاتب أهل الشهود حيث تركوا مقام المشاهدة وتنزلوا إلى مقام المراقبة ، بقوله : (أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ...) الآية .

ثم بين كمال علمه تكميلاً لقوله : (يعلم ما يسرون وما يعلنون) ، فقال :

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝٦﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : كل ما يدب عليها ؛ عاقلاً أو غيره ، ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ؛ غذاؤها ومعاشها ؛ لتكفله إياه بذلك ؛ تفضلاً وإحساناً . وإنما أتى بعلی التي تقتضى الوجوب ؛ تحقيقاً لوصله ، وتهيجاً على التوكل وقطع الوسوس فيه ، ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ ؛ أماكنها في الحياة والممات ، أو الأصلاب والأرحام . أو : مستقرها في الأرض بعد وجودها ، ومستودعها : موادها قبل إيجادها . أو بالعكس : مستقرها : موادها في العلم قبل الظهور ، ومستودعها : إقامتها في الدنيا بعد الوجود . ﴿كُلٌّ﴾ واحد من الدواب على اختلاف أجناسها وأصنافها ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ؛ مذكور في اللوح المحفوظ ، أو في العلم القديم المبين للأشياء ، قال البيضاوي : وكأنه أريد بالآية كونه عالماً بالمعلومات كلها ، وبما بعدها بيان كونه قادراً على الممكنات بأسرها ، تقريراً للتوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد . هـ .

الإشارة: هم الرزق، وخوف الخلق، من أمراض القلوب، ولا ينقطع عن العبد حتى يكشف بعلم الغيوب وهو التوحيد الخاص؛ أعلى: الرسوخ في الشهود والعيان. وإنما يضر العبد ما كان ساكناً، وأما الخواطر التي تلمع وتذهب، فلا تضر؛ لأن الإنسان خلق ضعيفاً.

واعلم أن الرزق على قسمين: رزق الأرواح، ورزق الأشباح. فرزق الأرواح معنوي، وهو: قوت الروح من المعرفة وعلم اليقين. ورزق الأشباح حسي، وهو: الطعام والشراب. وقد تكفل الله بالأمرين معاً، وأمر بالتسبب فيهما، قياماً برسم الحكمة. فالتكفل حقيقة، والتسبب شريعة، فالعامة اشتغلوا بالتسبب في الرزق الحسي والبحث عنه، ولم يعبأوا بالرزق المعنوي، ولا عرفوه؛ من شدة إعراضهم عنه، مع أنهم لو فقدوا الرزق المعنوي لماتت أرواحهم. والخاصة اشتغلوا بالتسبب في الرزق المعنوي والبحث عنه، ولم يعبأوا بالرزق الحسي من شدة إعراضهم عنه، مع أنهم لو فقدوا الرزق الحسي لهلكت أشباحهم. وخاصة الخاصة يتسببون في الرزق الحسي والمعنوي، وليس هم مع إرادتهم في واحد منهما، وإنما هم أبدأ مع إرادة مولاهم راتعين أبدأ، حيث دفعتهم إرادة سيدهم في الحسي أو في المعنوي من غير تبرم ولا التفات لغيره، كما قال القائل (١).

أَرَانِي كَالآلَاتِ وَهُوَ مُحَرَكِي أَنَا قَلَمٌ، وَالْإِقْدَارُ أَصَابِعُ

العامة قد حجبوا عن الله بإرادتهم للرزق الحسي، حيث صار الرزق الحسي هو حظ النفوس. صاروا مع حظ نفوسهم لا غير، والخاصة وجدوا الله في طلبهم للرزق المعنوي، لأنه حق الله، لا حظ للنفس فيه، لأجل ذلك لما كانوا لله كان الله لهم. وخاصة الخاصة ليس هم مع إرادتهم في شيء، بل هم بالله في الأحوال كلها لا بنفوسهم. قد انمحت إرادتهم في إرادة الله، فصارت إرادتهم إرادة الله، وفعلهم فعله. وهذا المقام يقال له: التمكين بالتلوين. هـ. قاله شيخ شيوخنا سيدي على الجمل العمراني رحمته الله في كتابه، نفعا الله بهم جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: يعلم مستقرها في العلم، ومستودعها في العمل، أو مستقرها في الحال، ومستودعها في المقام، أو مستقرها في الفناء، ومستودعها في البقاء، أو مستقرها في التلوين ومستودعها في التمكين، أو مستقرها في عالم الأشباح، ومستودعها في عالم الأرواح. وأنشدوا:

كُلُّ شَيْءٍ سَمِعَتْهُ أَوْ تَرَاهُ فَهُوَ لِلْقَبْضَتَيْنِ يُشِيرُ
ضَعُ قَمِيصِي عَنِ الْعَيُونِ تَرَى مَا غَابَ عَنْكَ فَقَدْ أَتَاكَ الْبَشِيرُ

(١) وهو الشيخ عبدالكريم الجيلبي، في العينية.

فالمراد بالقبضتين: الحس والمعنى، وإن كانا في الأصل قبضة واحدة، لكن لما تجلت بالضدين سماها قبضتين. فالحس رداء للمعاني. وسماه هنا قميصاً؛ لأنه يستر كالرداء، فإذا رفع القميص عن عيون البصيرة رأت ما غاب عنها من أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، وهذا معنى قوله: صنع قميصاً عن العيون. إلخ... ورفع حجاب المعنى عن البصيرة هو بشير الولاية وعنوانها. والله تعالى أعلم.

ولما بين كمال علمه ذكر كمال قدرته، فقال:

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض ﴾ وما بينهما وما فيهما ﴿ في ﴾ مقدار ﴿ ستة أيام ﴾ من أيام الدنيا، أو خلق العالم العلوي والسفلي في مقدار ذلك. وجمع السموات دون الأرض؛ لاختلاف العلويات بالأصل والذات دون السفليات. ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ قيل: لم يكن بينهما حائل، وكان موضوعاً على متن الماء. واستدل به على إمكان الخلاء، وعلى أن الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم. وقيل: كان الماء على متن الرياح. والله أعلم بذلك. قاله البيضاوي.

قلت: الخلاء هو الفضاء الخارج عن دائرة الأكوان. وهو عند المتكلمين من جملة الممكنات، ووجه الاستدلال من الآية على إمكانه: أن العرش والماء لما كانا محصورين لزم أن يكون ما خرج عنهما خلاء، وكل ما سوى الله فهو ممكن. وعند الصوفية: هو أسرار الذات الأزلية الجبروتية، كما أن الأكوان هي أنوار الصفات الملكوتية، ولا شيء معه، ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾. ونقل بعض أهل التاريخ: أن الله تعالى خلق بعد العرش ياقوته صفراء، ذكروا من عظمتها وسعتها، ثم نظر إليها، فذابت من هيئته، فصارت ماء، فكان العرش مرتفعاً فوقها، ثم اضطرب ذلك الماء، فعلقه زيدة، خلق منها الأرض، ثم ارتفع من الماء دخان خلق منه السموات (١). هـ.

خلق ذلك ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أي: ليختبركم اختباراً تقوم به الحجة عليكم، ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ بالزهد في هذا العالم الفاني، وتعلق الهمم بالعالم الباقي قال البيضاوي: أي: يعاملكم معاملة المبتلى لأحوالكم، كيف تعملون؟ فإن جملة ذلك أسباب ومواد لوجودكم ومعاشكم، وما تحتاج إليه أعمالكم، ودلائل

(١) كلام أهل التاريخ لإبرهان عليه، والأصح: أن يرجع في هذا - إن أمكن معرفته - إلى علماء الطبيعة.. وإلا فإن الله تعالى يقول: ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ﴾ الآية ٥١ من سورة الكهف.

وأمارات تستدلون بها وتستنبطون منها. ثم قال: فالمراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح. ولذلك قال ﷺ: «أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله». والمعنى: أكمل علماً وعملاً. هـ.

قال المحشى: ويتجه كون المعنى: أيكم أكثر شكراً لله على تمهيد تلك المنافع والمصالح. والشكر يشمل الطاعات القلبية والبدنية. ويحتمل أنه كآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١). وأن بقاء الدنيا وخلقها إنما هو للتكليف، فإذا لم يبق في الأرض من يعبد الله انقضت الدنيا، وجاءت الساعة، كما تقتضيه الأحاديث الصحاح (٢) والمتبادر ما قدمناه، وحاصله: أنه خلق الأشياء من أجل ابن آدم، ولتدله على خالقه فيجنى بها ثمار معرفته تعالى، ويعترف بشكره، وإفراد عبادته. وقد جاء: «خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلى».

قلت: فيكون المعنى: هو الذي أظهر الوجود من عرشه إلى فرشه، ليختبركم أيكم أحسن عملاً بالاشتغال بالله، والعكوف في حضرته دون الوقوف مع ظاهر الكون، والاشتغال بحسه، مع كونه خلق من أجله. ثم قال: وقوله تعالى: (ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت...) الآية، هو: تنبيه على أن إنكار الكفار للبعث بعد إقرارهم بأن الله تعالى خالق العالم، الذي هو أعظم من البعث، تناقض منهم؛ لأن إقرارهم بقدرته على الأكبر، ثم إنكارهم لما هو أيسر تناقض هـ. أي: ولئن ذكرت لهم البعث بعد الموت لقالوا ما هذا إلا سحر ظاهر. أي: ما البعث أو القول به، أو القرآن المتضمن لذكره إلا كالسحر في الخديعة أو البطلان. وقرأ حمزة ساحر أي: القائل بهذا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في صحيح البخاري قال ﷺ: «كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» الحديث. فأخبر ﷺ أن الحق جل جلاله كان في أزله لا شيء معه، ثم أظهر الأشياء من نوره بنوره لنوره، فهو الآن على ما كان عليه. وعن أبي رزين: قلنا: يا رسول الله! أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عمام مافوقه هواء، وما تحته هواء، وخلق عرشه على الماء» (٣) والعماء هو: الخفاء، قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ (٤)، أي: خفيت. ويقال للسحاب عماء؛ لأنه يخفى ما فيه، وقال الششتري: في المقاليد (٥): كان في عمي، ما فوقه هواء وما تحته هواء. هي الوحدة المصنعة للصعدية، البحر الطامس (٦) الذي هو الأزل والأبد، فلم يكن موجود غير الوجود الذي هو هو. هـ.

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

(٢) ومنها قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله». أخرجه مسلم (كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، (كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة هود)، وحسنه. وأخرجه ابن ماجه (المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية). قلت: وهذا من حديث الصفات. نؤمن به ونكل علمه إلى الله تعالى.

(٤) من الآية: ٦٦ من سورة القصص.

(٥) يقال: طريق طامس، أي: بعد لامسك فيه.

(٦) اسمه كاملاً: المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية.

والحاصل: أن الحق جل جلاله كان في سابق أزله ذاتاً مقدسة، لطيفة خفية عن العقول، نورانيه متصفة بصفات الكمال، ليس معها رسوم ولا أشكال، ثم أظهر الحق تعالى قبضة من نوره حسية معنوية؛ إذ لا ظهور للمعنى إلا بالحس، فقال لها: كوني محمداً، فمن جهة حسها محصورة، ومن جهة معناها لا نهاية لها، متصلة ببحر المعاني الأزلي، الذي برزت منه، وما نسبتها من ذلك البحر من جهة حسها إلا كخردلة في الهواء. وقد أشار ابن الفارض إلى وصف هذه الخمرة الأزلية - وهو تفسير للعناء المذكور قبل - فقال:

صفاء ولا ماء، ولطف ولا هواً ونور ولا نار، وروح ولا جسم
تقدم كل الكائنات حديتها قديماً ولا شكلاً هناك، ولا رسم
وقامت بها الأشياء ثم لحكمة بها احتجبت عن كل من لا له فهم

فالأشكال والرسوم متفرعة من تلك القبضة المحمدية، والقبضة متدفقة من بحر الجبروت الذي لا نهاية له، فهي منه حقيقة، وما ظهر تحديدها إلا من جهة حسها. فهي كتلجة في بحر، ماؤها الباطني متصل في البحر، وظاهرها محدود محصور. فالأشكال كلها غريقة في بحر الجبروت، ولذلك قال صاحب العينية^(١):

هو العرش والكرسي والمنظر البهي هو السدرة التي إليها المرجع

وقال أيضاً:

هو الموجد الأشياء وهو وجودها وعين ذوات الكل وهو الجوامع
فأوصافه والاسم والأثر الذي هو الكون عين الذات والله جامع

فالأكوان ثابتة بإثباته، محوطة بأحدية ذاته، فالحق تعالى كما كان لا شيء معه، فهو الآن كما كان. إذ التغير في حقه تعالى محال، ولا يعلم هذه الأسرار إلا من صحب أهل الأسرار، وحسب من لم يصحبهم التسليم. كما رمزوا وأشاروا إليه:

وإن لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: ليظهر منكم من يقف مع الأكوان، ومن ينفذ إلى شهود المكون. وهو الذي حسن عمله، وارتفعت همته. ولئن قلت أيها العامي: إنكم تحيون بالمعرفة من بعد موت قلوبكم بالجهل والغفلة إن صحبتهموني، ليقولن أهل الإنكار: إن هذا إلا سحر مبين.

(١) غفر الله له. ولولا الأمانة العلمية لحذفت هذه الأبيات.

ثم خوفهم بالعذاب الذي استعجلوه، فقال:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۚ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ﴿٨﴾
قلت: (يوم): معمول لخبر ليس، وهو دليل جواز تقديمه إن كان ظرفاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب ﴾ الموعود في الدنيا، أو في الآخرة، ﴿ إلى أمة ﴾ أى: أوقات معدودة قلائل، ﴿ ليقولن ﴾ ؛ استهزاء: ﴿ ما يحبسهُ ﴾ ؟ أى: ما يمنعه من الوقوع الآن؟ ﴿ ألا يوم يأتيهم ﴾ وينزل بهم كيوم بدر، أو يوم القيامة ﴿ ليس مصروفاً عنهم ﴾ ليس مدفوعاً عنهم حين ينزل بهم، ﴿ وحاق ﴾ ؛ نزل وأحاط ﴿ بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ ، وضع الماضى موضع الاستقبال ؛ تحقيقاً للوقوع، ومبالغة فى التهديد.

الإشارة: إمهال العاصي ليس بإهمال له؛ فإن الله تعالى يمهل ولا يهمل. فإمهاله إما استدراج، أو انتظار لتوبته، فليبادر العبد بالتوبة قبل الفوات، وبالعمل الصالح قبل الممات. فما أبعد ما فات، وما أقرب ما هوأت، وبالله التوفيق.

ومما وقع به الاختبار: الوقوف مع النعم دون شهود المنعم، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۚ ﴾ ﴿٩﴾
﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۚ ﴾ ﴿١٠﴾
إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

قلت: (ولئن): شرط وقسم، ذكر جواب القسم، واستغنى به عن جواب الشرط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾ أى: أعطيناه نعمة يجد لذتها. ﴿ ثم نزعناها منه ﴾ أى: سلبنا تلك النعمة منه ﴿ إنه ليكفور ﴾ ؛ فتوط، حيث قل رجاءه من فضل الله؛ لقلة صبره، وعدم ثقته بربه، ﴿ كفور ﴾ ؛ مبالغ فى كفران ما سلف له من النعم، كأنه لم ير نعمة قط. ﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ﴾ ؛ كصحة بعد سقم، وغنى بعد فقر، أو علم بعد جهل، ﴿ ليقولن ذهب السيئات ﴾ . أى: المصائب التى مستنى، ﴿ عنى ﴾ ، ونسى مقام الشكر. ﴿ إنه لفرح ﴾ أى: بطر متعزز بها، ﴿ فخور ﴾ على الناس، متكبر بها، مشغول بذلك عن شكرها، والقيام بحقها. قال البيضاوى: وفى لفظ الإذافة والمس تلبيه على أن ما يجده الإنسان فى الدنيا من النعم

والمحن كالأنموذج لما يجده في الآخرة، وأنه يقع في الكفر والبطر بأدنى شيء؛ لأن الذوق: إدراك المطعم، والعس مبدأ الوصول إليه. هـ.

﴿إلا الذين صبروا﴾ على الضراء؛ إيماناً بالله، واستسلاماً لقضائه، ﴿وعملوا الصالحات﴾ شكراً لآلائه، سابقها ولاحقها، ﴿أولئك لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، ﴿وأجر كبير﴾ أقله الجنة، وغايته النظرة. والاستثناء من الإنسان؛ لأن المراد به الجنس. ومن حمله على الكافر. لسبق ذكرهم. جعله منقطعاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد أن يكون شاكراً للنعم، صابراً عند النقم، واقفاً مع المنعم دون النعم. إن ذهبت من يده نعمة رَجَى رجوعها، وإن أصابته نعمة انتظر انصرافها. والحاصل: أنه يكون عبداً لله في جميع الحالات.

حكى أن سيدنا موسى عليه السلام قال: يارب دلني على عمل إذا عملته رضيت علي. قال: إنك لا تطيق ذلك، فخر موسى ساجداً متضرعاً، فقال: يا ابن عمران؛ إن رضاي في رضاك بقضائي. هـ. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أول شيء كتبه الله في اللوح المحفوظ: أنا الله لا إله إلا أنا، محمد رسولى، فمن استسلم لقضائي، وصبر على بلائى، وشكر نعمائى، كتبته صديقاً، وبعثته مع الصديقين، ومن لم يستسلم لقضائي، ولم يصبر على بلائى، ولم يشكر نعمائى، فليتخذ ربا سوائى. هـ. وروى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ثلاث من رزقهن رزق خير الدنيا والآخرة: الرضا بالقضاء، والصبر على الأذى، والدعاء في الرخاء. هـ.

من جملة الأذى: التكذيب والإنكار، كما أبان ذلك بقوله تعالى لنبيه - عليه الصلاة والسلام -:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ ۖ إِيَّاكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بَعْشَرَ سُورِ مِثْلِهِ ۖ مُفْتَرِيَاتٍ ۖ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُم فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أُنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ﴾، فلا تبلغه وهو ما فيه تشديد على المشركين، مخافة ردهم واستهزائهم به. ولا يلزم من توقع الشيء وقوعه. فالعصمة مانعة من ذلك. فالرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يترك شيئاً من الوحي إلا بلغه، ولكن الحق تعالى شجعه وحرصه على التبليغ في المستقبل. ولو قيل بالإنكار.

ثم قال له: ﴿ وضائق به صدرك ﴾؛ أى: ولعله يعرض لك فى بعض الأحيان ضيق فى صدرك، فلا تتلوه عليهم مخافة ﴿ أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز ﴾ ينفقه للاستتباع كالمملوك، أو يستغنى به عن طلب المعاش، ﴿ أو جاء معه ملك ﴾ يشهد له، والقصد تسليته ﷺ عن قولهم، حتى يبلغ الرسالة ولا يبالي بهم. وإنما قال: ﴿ ضائق ﴾؛ ليدل على اتساع صدره ﷺ، وقلة ضيقه فى الحال. ﴿ إنما أنت نذير ﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك، ولا عليك، ردوا أو اقترحوا، فلا يضيق صدرك بذلك. ﴿ والله على كل شيء وكيل ﴾ فتوكل عليه، فإنه عالم بحالهم ومجازيهم على أقوالهم وأفعالهم.

﴿ أم ﴾؛ بل ﴿ يقولون افتراه ﴾ أى: ما يوحى إليه، ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ فأتوا بعشر سور مثله ﴾ فى البيان وحسن النظم. تحداهم أولاً بعشر سور، فلما عجزوا سهل الأمر عليهم وتحداهم بسورة. وتوحيد المثل باعتبار كل واحد. ﴿ مفتريات ﴾؛ مختلقات من عند أنفسكم، إن صح أنى اختلافته من عند نفسى؛ فإنكم عرب فصحاء مثلى. وادعوا من استطعتم من دون الله ﴿ للمعانة على المعارضة ﴾، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أنه مفترى. ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم ﴾؛ فإن عجزوا عن الإتيان، ﴿ فاعلموا ﴾ أيها الرسول والمؤمنون ﴿ أنما أنزل بعلم الله ﴾؛ بإذنه، أو بما لا يعلمه إلا الله من الغيوب. والمعنى: دوموا على إيمانكم، وزيدوا يقيناً فيه.

قال البيضاوي: وجمع الضمير؛ إما لتعظيم الرسول ﷺ، أو لأن المؤمنين كانوا يتحدونهم، فكان أمر الرسول عليه الصلاة والسلام - متناولاً لهم من حيث إنه يجب اتباعه عليهم فى كل أمر إلا ما خصه الدليل. أو للتنبيه على أن التحدى مما يوجب رسوخ إيمانهم وقوة يقينهم. ولذلك رتب عليه قوله: ﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ﴾؛ ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله، لأنه العالم والقادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره. ﴿ وأن لا إله إلا هو ﴾؛ لظهور عجز آلهتهم. ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾؟ ثابتون على الإسلام، راسخون مخلصون فيه، إذا تحقق عندكم إعجازه مطلقاً.

ويجوز أن يكون الكل خطاباً للمشركين، والضمير فى ﴿ يستجيبوا ﴾ لمن استطعتم، أى: فإن لم يستجيبوا لكم، أى: من استعنتم به على المعارضة لعجزهم، وقد عرفت من أنفسكم القصور عن المعارضة، ﴿ فاعلموا ﴾ أنه نظم لا يعلمه إلا الله وأنه منزل من عنده، وأن ما دعاكم إليه من التوحيد حق، فهل أنتم داخلون فى الإسلام بعد قيام الحجة القاطعة؟ وفى مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ؛ لما فيه من معنى الطلب، والتنبيه على قيام الموجب، وزوال العذر. هـ. وقال فى الوجيز: فإن لم يستجيبوا لكم؛ من تدعون إلى المعاونة، ولا تهياً لكم المعارضة، فقد قامت عليكم الحجة، ﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ﴾ أى: أنزل والله عالم بإنزاله، وعالم أنه من عنده، ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾؟ استفهام، معناه الأمر، كقوله: ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ (١). هـ.

(١) من الآية ٩١ من سورة المائدة.

الإشارة: ينبغي لأهل الوعظ والتذكير أن يعمموا الناس في التذكير، ولا يفرقوا بين أهل الصدق، وأهل التكدير. بل ينصحوا العباد كلهم، ولا يتركوا تذكيرهم، مخافة الرد عليهم، ولا تضيق صدورهم بما يسمعون منهم، اقتداء بنبيهم ﷺ، وقد قال لقمان لابنه حين أمره بالتذكير: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ (١)، فإن طلبوا من المذكر الدليل فليقل: إنما أنا نذير، والله على كل شيء وكيل. فإن قالوا: هذا الذي تذكر كلنا نعرفه، فليقل: فأتوا بسورة من مثله، أو بعشر سور من مثله. والله تعالى أعلم.

ولا ينفع الوعظ والإنذار إن كانت همته كلها مصروفة للدنيا، كما قال تعالى:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥)

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قلت: «ما صنعوا فيها»: الضمير يعود على الدنيا، والظرف يتعلق بصنعوا. أو يعود على الآخرة، ويتعلق الظرف بحبط، أي: حبط في الآخرة ما صنعوا من الأعمال في الدنيا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بعمله ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾، فكان إحسانه وبره رياء وسمعة، ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا، من الصحة والرئاسة، وسعة الأرزاق، وينالون ما قصدوا من حمد الناس، وإحسانهم وبرهم، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون شيئا من أجورهم، فيحتمل: أن تكون الآية نزلت في أهل الرياء من المؤمنين الذين يراؤون بأعمالهم؛ كما ورد في حديث الغازي والغنى القارئ المرآتين، وأنهم أول من تُسعر بهم جهنم. ويحتمل أن تكون نزلت في الكفار، وهو أليق بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾؛ لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة، وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة. ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي: في الدنيا، فكل ما صنعوا في الدنيا من الإحسان حبط يوم القيامة؛ لأنهم لم يريدوا به وجه الله. والعمدة في انتظار ثواب الأعمال هو الإخلاص، ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنه لم تتوفر فيه شروط الصحة التي من جملتها الإخلاص.

الإشارة: في الحديث: «مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ: فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُسِمَ لَهُ. وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ: جَمَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ صَاغِرَةٌ» (٢).

(١) الآية: ١٧ من سورة لقمان.

(٢) أخرجه الترمذي في [صفة القيامة، باب ٣٠] من حديث أنس بن مالك. وابن ماجه: [الزهد، باب الهم بالدنيا] من حديث زيد بن ثابت.

قلت : ومن كان الله همه كفاه هم الدارين . فطالب الدنيا أسير، وطالب الآخرة أجير، وطالب الحق أمير. فارفع همتك أيها العبد عن الدار القانية، وعلق قلبك بالدار الباقية، ثم ارفعها إلى شهود الذات العالية، ولا تكن ممن قصر همته على هذه الدار فتكن ممن ليس له في الآخرة إلا النار. وحصن أعمالك بالإخلاص، وإياك وملاحظة الناس؛ فتبوا بالخيبة والإفلاس، وبالله التوفيق.

ثم ذكر ضد من تقدم، فقال:

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قلت : (أفمن كان) : مبتدأ، والخبر محذوف، أي: كمن كان يريد الدنيا وزينتها.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ أفمن كان على بينة ﴾ ، طريقة واضحة ﴿ من ربه ﴾ وهو النبي ﷺ والمؤمنون، كمن ليس كذلك، ممن همه الدنيا؟! والمراد بالبينه: ما أدرك صحته العقل والذوق، أي: على برهان واضح من ربه، وهو الدليل العقلي؛ والأمر الجلي. أو برهان من الله يدل على الحق والصواب فيما يأتيه ويذره، ﴿ ويتلوه ﴾ ؛ ويتبع ذلك البرهان - الذي هو دليل العقل، ﴿ شاهد منه ﴾ أي: من الله يشهد بصحته، وهو: القرآن، لأنه مصباح البصيرة والقلب؛ فهو يشهد بصحة ما أدركه العقل من البرهان.

﴿ ومن قبله ﴾ أي: من قبل القرآن، ﴿ كتاب موسى ﴾ يعني: التوراة، فإنها أيضا متلوة شاهدة بما عليه الرسول ومن تبعه من البينة الواضحة. أو البينة: القرآن، والشاهد: جبريل عليه السلام، أو علي - كرم الله وجهه -، أو الإنجيل. وهو حسن، لقوله: ﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ ؛ فإن التوراة قبل الإنجيل. قال ابن عطية: وهنا اعتراض؛ وهو أن الضمير في «قبله»، عائد على القرآن، فلم لم يذكر الإنجيل - وهو قبله - بينه وبين كتاب موسى؟ فالانفصال عنه: أنه خص التوراة بالذكر؛ لأن الملتين متفقتان على أنها^(١) من عند الله، والإنجيل قد خالف فيها. فكان الاستشهاد بما تقوم به الحجة على الكتابين أولى. وهذا كقول الجن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾^(٢). وقول النجاشي: «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، . هـ. وإذا فسرنا الشاهد بالإنجيل سقط الاعتراض.

(١) في ابن عطية: مجتمعتان أنهما.

(٢) من الآية ٣٠ من سورة الأحقاف.

ثم وصف التوراة بقوله: ﴿إماماً﴾ . أى: مؤتمناً به فى الدين، لأجله، ﴿ورحمة﴾ على المنزل عليهم. ﴿أولئك﴾ أى: من كان على بينة من ربه، ﴿يؤمنون به﴾ أى: بالقرآن، ﴿ومن يكفر به من الأحزاب﴾: كأهل مكة، ومن تحزب منهم على رسول الله ﷺ، ﴿فالنار موعده﴾ يدخلها لا محالة، ﴿فلا تك فى مرية﴾ شك ﴿منه﴾ أى: من ذلك الموعد، أو القرآن، ﴿إنه الحق من ربك﴾ الثابت وقوعه، ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ ؛ لقلة نظرهم، وإخلال فكرتهم.

الإشارة: لا يكون العبد على بينة من ربه حتى يتحقق فيه أمران، أولهما: القوة النصوح، والثانى: الزهد التام. فإذا تحقق فيه الأمران كان على بينة من ربه. وهى درجات؛ أولها: بينة ناشئة عن صحيح النظر والاعتبار، وهى لقوم نظروا فى الحجج والبراهين العقلية والدلائل السمعية، فأدركوا وجود الحق من طريق الإيمان بالغيب، وهم: أهل الدليل والبرهان. وثانيها: بينة ناشئة عن الرياضات والمجاهدات والاعتزال فى الخلوات، فخرقت لهم العوائد الحسية فرأوا كرامات وخوارق عادات، فأدركوا وجود الحق على وجه التحقيق والبيان، مع رقة الحجاب والوقوف بالباب. وهم: العباد، والزهاد، والصالحون من أهل الجد والاجتهاد. وثالثها: بينة ناشئة عن الذوق والوجدان، والمكاشفة والعيان، وهى لقوم دخلوا فى تربية المشايخ، فتأدبوا وتهذبوا، وشربوا خمرة غيبتهم عن حسهم ورسمهم؛ فغابوا عن الأكوان بشهود المكون. فهم يستدلون بالله على غيره. قدسوا الحق أن يحتاج الى دليل، وهؤلاء هم الأفراد وخواص العباد، واليهم أشار الشاعر بقوله:

الطُّرُقُ شَتَّى وَطَرِيقُ الْحَقِّ مُقْفَرَةٌ وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الْحَقِّ أَفْرَادُ
لَا يَعْرِفُونَ وَلَا تُدْرَى مَسَالِكُهُمْ فَهُمْ عَلَى مَهَلٍ يَمْشُونَ قُصَادُ
وَالنَّاسُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ فَجُلُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ رُقَادُ

وقال فى القوت: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ أى: من شهد مقام الله - عز وجل - بالبيان، فقام له بشهادة الإيقان، فليس هذا كمن زين له سوء عمله، واتبع هواه، فأثره على طاعة مولاه. بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيدته، مستقيم على محبة معبوده. هـ. وقال الورنجي: تقدير الآية على وجه الاستفهام: أفمن كان على بينة من ربه؛ كمن هو فى الضلالة والجهالة؟ أفمن كان على معرفة من ربه، وولاية وسلامة وكرامة، وكل عارف إذا شاهد الحق سبحانه بقلبه وروحه، وعقله وسره، فأدرك فيض أنوار جماله، وقربه، يؤثر ذلك فى هيكله حتى يبرز من وجهه نور الله الساطع، ويراه كل صاحب نظر، قال تعالى: ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ ، والبينة: بصيرة المعرفة، والشاهد: بروز نور المشاهدة منه. وأيضاً: البينة: كلام المعرفة. والشاهد: الكتاب والسنة. ثم قال عن الجنيد: البينة: حقيقة يؤيدها ظاهر العلم. هـ.

والحاصل: أن البينة أمر باطنى، وهى: المعرفة، إما بالبرهان، أو بالعيان، والشاهد الذى يتلو هو العلم الظاهر، فيتفق ما أدركه العقل أو الذوق مع ما أفاده اللقل، فتتفق الحقيقة مع الشريعة. كل فى محله، الباطن منور بالحقائق، والظاهر مؤيد بالشرائع. وهذا غاية المطلوب والمرغوب. رزقنا الله من ذلك الحظ الأوفر بمئه وكرمه.

ثم ذكر وعيد من كذب بها فقال:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَأَجْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَحِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قلت: (مثلا): تمييز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن أظلم ﴾ أى: لا أحد أظلم ﴿ من افترى على الله كذباً ﴾؛ بأن أسند إليه ما لم يقله، وكذب بما أنزله، أو نسب لله ما لا يليق بجلاله. ﴿ أولئك يعرضون على ربهم ﴾ يوم القيامة، بأن يحبسوا فى الموقف، وتعرض عليهم أعمالهم على رؤوس الأشهاد، ﴿ ويقول الأشهاد ﴾ من الملائكة والنبیین، أو كل من شهد الموقف: ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ وهو تهويل عظيم لما يحيق بهم حينئذ، لظلمهم بالكذب على الله، ورد الناس عن طريق الله.

﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ﴾؛ عن دينه، ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾؛ يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب. أو يبغون أهلها أن يعوجوا عنها بالردة والكفر، أو يطلبون اعوجاجها بالطعن فيها. ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أى: والحال أنهم كافرون بالبعث. وتكرير الضمير؛ لتأكيد كفرهم واختصاصهم به.

﴿ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ﴾ أى: ما كانوا ليعجزوا الله في الدنيا أن يعاقبهم. بل هو قادر على ذلك، وأخرهم ليوم الموعود، ليكون أشد وأدوم. ﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ يمنعونهم من العقاب، ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ بسبب ما اتصفوا به، كما ذكره بقوله: ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾؛ لتصاممهم عن الحق، وبغضهم أهله. ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ حين اشتروا عبادة الأصنام بعبادة الله، ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ من أن الأصنام تشفع لهم، أو خسروا بما بدلوا وضاع عنهم ما أملوا، فلم يبق لهم سوى الحسرة والندامة. ﴿ لا جرم ﴾ لا شك، أو لا بد ﴿ أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾: فلا أحد أكثر خسراناً منهم؛ حيث حرّموا النعيم المخلد، واستبدلوه بالعذاب المؤبد.

ثم ذكر ضدهم فقال: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا ﴾، أى: اطمأنوا أو خشعوا، أو تابوا ﴿ إلى ربهم. أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾؛ دائمون.

﴿ مثل الفريقين ﴾ المتقدمين؛ فريق الكافر، وفريق المؤمن: ﴿ كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾، فمثل الكافر كمن جمع بين العمى والصمم، ومثل المؤمن كمن جمع بين السمع والبصر. فالواو لعطف الصفات، ويجوز أن يكون شبه الكافر بمن هو أعمى فقط، وبمن هو أصم فقط، والمؤمن بضدهما، فهو تمثيل للكافرين بمثاليين، قاله ابن جزى. وقال البيضاوى: يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى؛ لتعاميه عن آيات الله، وبالأصم لتصاممه عن استماع كلام الله، وتأبيه عن تدبره معانيه. وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير؛ لأن أمره بالصد، فيكون كل منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين. أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بالجامع بين ضديهما، والعاطف لعطف الصفة على الصفة، كقوله: فالأيب الصابح فالغانم^(١) فهذا من بيان اللف والطباق. هـ. ﴿ هل يستريان ﴾: هل يستوى الفريقان؟ ﴿ مثلاً ﴾؛ أى: من جهة التمثيل، بل لا استواء بينهما، ﴿ أفلا تذكرون ﴾، تتعظون بضرب الأمثال فترجعون عن غيكم.

الإشارة: كل من ترمى على مراتب الرجال، أو ادعى مقاماً من المقامات وهو لم يدركه، يريد بذلك إمالة وجوه الناس إليه، يفضح يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، ويقال له: ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم... ﴾ الآية. فكل آية في الكفار تجر ذيلها على عصاة المؤمنين. وقد تقدم أمارات من كان عل بنية من ربه، فمن ادعى مقاماً من تلك المقامات وهو يعلم أنه لم يصله نادت عليه الآية.

(١) فى الأصول : (القائم والصالح والأديب). والمثبت هو الذى فى البيضاوى. والشاهد فيه عطف صفات موصوف واحد بالفاء.

ثم شرع في ذكر قصص الأنبياء - عليهم السلام - تسليةً للنبيه ﷺ وتتميماً لقوله: (فلعلك تارك)، (وضائق). فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قلت: من قرأ: إني؛ بالكسر، فعلى إرادة القول، ومن قرأ بالفتح، فعلى إسقاط الخافض، أي: بأنى، و (بأدى الرأي): ظرف لـ (اتبعتك)، على حذف مضاف أي: وقت حدوث أول رأيهم. وهو من البدء أي: الحدث، أو من البدء أي: الظهور. أي: اتبعوك في ظاهر الرأي دون التعمق في النظر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ فقال لهم: ﴿ إني لكم ﴾ ، أو بأنى لكم ﴿ نذير مبين ﴾ أي: بين ظاهر، أو أبين لكم موجبات العذاب، ووجه الخلاص منه، قائلاً: ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ ، ولا تعبدوا معه غيره، ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ ؛ مؤلم، وهو في الحقيقة صفة للعذاب، ووصف به زمانه على طريقة [جدّ جدّه، ونهاره صائم]؛ للمبالغة.

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلاً ﴾ ؛ لا مزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة، ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ ؛ أخساؤنا وسقّاطنا؛ جمع أرذل. ﴿ بأدى الرأي ﴾ ؛ من أول الرأي من غير تفكر ولا تدبر، أي: اتبعك هؤلاء بأدى الرأي من غير ترو. أو ظاهراً رأيهم خفيفاً عقلمهم. وإنما استرذلوهم، لأجل فقرهم، جهلاً منهم، واعتقاداً أن الشرف هو المال والجاه. وليس الأمر كذلك. بل الشرف إنما هو بالإيمان والطاعة، ومعرفة الحق. وقيل: إنهم كانوا حاكّة وحجامين. وقيل: أراذل في أفعالهم، لقوله: ﴿ وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ (١). ثم قالوا: ﴿ وما نرى لكم ﴾ أي: لك ولمتابعيك ﴿ علينا من فضل ﴾ يؤهلكم للنبوة، واستحقاق المتابعة. ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ ؛ أنت في دعوى النبوة، وهم في دعوى العلم بصدقك. فغلب المخاطب على الغائبين .

(١) الآية ١١٢ من سورة الشعراء.

الإشارة : تكذيب الصادقين سنة ماضية، وأتباع الخصوص مؤسومون بالذلة والقلّة، وهم أتباع الرسل والأولياء، وهم أيضاً جلّ أهل الجنة، لأن المصطفى ﷺ قال: «أهل الجنة كلّ ضعيفٍ مُستضعفٍ» (١) وقالت الجنة: مآلي لا يدخلني إلا سقط الناس؟ فقال لها الحق تعالى: «أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء» حسبما في الصحيح.

ثم أجابهم بقوله:

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَالَيْتُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْ مَكْمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ (٢٨)

قلت : «أنزل مكموها» : يصح في الضمير الثاني الوصل والفصل؛ لتقدم الأخص.

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ قال ﴾ نوح لقومه : ﴿ يا قوم أرايتم ﴾ : أخبروني، ﴿ إن كنت علي بينة من ربي ﴾ : علي طريقة واضحة من عند ربي، أو حجة واضحة شاهدة بصحة دعواي، ﴿ وآتاني رحمة من عنده ﴾ النبوة، ﴿ فعُميت ﴾ : خفيت ﴿ عليكم ﴾ فلم تهتدوا إليها، ﴿ أنزل مكموها ﴾ : أنكرهم على الاهتداء بها ﴿ وأنتم لها كارهون ﴾ لا تختارونها ولا تتأملون فيها. ولم يؤمر بالجهاد، بل تركهم حتى نزل بهم العذاب.

الإشارة : طريقة أهل التذكير - الذين هم علي بينة من ربهم - : أنهم يذكرون الناس، ولا يكرهون أحداً على الدخول في طريقهم، إذا عميت عليهم. والله تعالى أعلم.

ثم قال:

﴿ وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ (٢٩) وَيَقَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣٠)

يقول الحق جلّ جلاله، حاكياً عن نوح عليه السلام : ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه ﴾ : على التبليغ المفهوم من السياق، ﴿ مالا ﴾ : جعلاً أنتفع به، ﴿ إن أجرى إلا على الله ﴾ : فإنه المأمول منه. ثم طلبوا منه طرد الضعفاء ليجالسوه، فقال لهم : ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ﴾ فيخاصمونني إن طردتهم، أو: إنهم ملاقوه

(١) أخرجه ابن ماجه في (الزهد، باب من لا يؤبه له) من حديث معاذ بن جبل.

فيفوزون بقربه، فكيف أطردهم؟ ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ لقاء ربكم، أو بأقدارهم، أو تسفهون عليهم فتدعوهم أراذل، أو قوماً جهالاً استحکم فيكم الجهل وشختم فيه، فلا ينفع فيكم الوعظ والتذكير. ﴿وياقوم من ينصرني من الله﴾ : من يدفع انتقامه عني ﴿إن طردتهم﴾ وهم بتلك الصفة الكاملة من الإيمان والخوف منه؟ ﴿أفلا تذكرون﴾ فتعلموا أن التماس طردهم، وتوقيف الإيمان عليه ليس بصواب.

الإشارة: قال القشيري: قوله تعالى: ﴿لا أسألكم عليه مالا﴾، فيه تنبيه للعلماء - الذين هم ورثة الأنبياء أن يتأدبوا بأنبيائهم، وألا يطلبوا من الناس شيئاً في بث علومهم، ولا يرتفقوا منهم بتعليمهم، والتذكير لهم، وما ارتفق من المستمعين في بث فائدة يذكر بها من الدين، ويعظ بها المسلمين فلا يبارك الله فيما يسمعون به عن الله، ولا ينتفعون به، ويحصلون به على سخط من الله هـ (١).

قلت: هذا إن كان له تشوف وتطلع بذلك، بحيث لو لم يعط لم يعلم، أو لم يذكر. وأما إن كان يعلم ويذكر الله، ثم يتصدق عليه الله، فلا بأس به إن شاء الله. وما زالت الأشياخ والأولياء يقبضون زيارات الفقراء، وكل من يأتيهم، ويذكرونهم ويعرفونهم بالله، لأن ذلك ربح للمعطي وتقريب له. وما ربح الناس إلا من فلسهم ونفسهم؛ بذلوا لله، فأغناهم الله. وقد تقدم عند قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾... (٢) بعض الكلام على هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

ولما قالوا له: لو كنت نبي الله، لأغناك الله عن التكسب، ولأعلمك بما يفعل أتباعك؛ فإنهم ما اتبعوك إلا في الظاهر دون الباطن، قال لهم:

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

يقول الحق جل جلاله: قال نوح لقومه: ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ حتى أنفق منها متى شئت، فأستغني عن مباشرة الأسباب، بل ما أنا إلا بشر، أو لا أدعي ما ليس لي فتتكروا قولي، أي: لا أفوه لكم، ولا أتعاطي غير ما ألهمني الله له، فلست أقول: عندي خزائن الله، أي: القوة التي توجد بها الأشياء بعد عدمها. أو: عندي خزائن الله التي ينزل منها الأشياء، كالريح والمياه ونحوها، كما قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ (٣) فتبرأ ﷺ من هذه الدعوى.

(١) بالمعنى. (٢) من الآية: ١٠٣ من سورة التوبة.

(٣) من الآية ٢١ من سورة الحجر.

ثم قال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي: ولا أقول: إني أعلم الغيب، فأعلم من أصحابي ما يسترونه على في نفوسهم، فسبيلي قبول ما ظهر منهم. أو: لا أعلم أنهم اتبعوني في بادي الرأي من غير بصيرة وعقد قلب ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مُلْكٌ﴾ حتى تقولوا: ما نراك إلا بشراً مثلنا. ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: تحتقرهم. من زريت على الرجل: قصرت به. قلبت تاؤه دالاً؛ لتجانس الزاي للتاء^(١)، والمراد بهم ضعفاء المؤمنين، أي: لا أقول في شأن من احتقرتموه، لفقرهم: ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾؛ فَإِنْ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ فِي الدُّنْيَا. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من خير أو غيره. ﴿إِنِّي إِذَا﴾ أي: إن قلت شيئاً من ذلك، ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

قال البيضاوي: وإسناده إلى الأعين؛ للمبالغة، والتنبيه على أنهم استردلوهم بادي الرأي من غير روية، مما عاينوه من رثالة حالهم وقلة منازلهم، دون تأمل في معانيهم وكمالاتهم. وقال أيضاً: وإنما استردلوهم لفقرهم؛ لأنهم لما لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا كان الأخط^(٢) بها أشرف عندهم، والمحروم منها أرذل. هـ.

الإشارة: لا يشترط في وجود الخصوصية ظهور الكرامة؛ فقد تظهر الكرامة على من لم تكمل له الاستقامة، فلا يشترط فيه الاطلاع على خزائن الغيوب، وإنما يشترط فيه التطهير من نقائص العيوب، لا يشترط فيه الإنفاق من الغيب، وإنما يشترط فيه الثقة بما ضمن له في الغيب. والله تعالى أعلم.

ثم استعجلوا العذاب، كما قال تعالى:

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ^(٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٣٤)

قلت: «إن أردت»: شرط حذف جوابه؛ لتقدم ما يدل عليه، وكذا (إن كان الله يريد أن يغويكم)، والتقدير: إن كان الله يريد أن يغويكم لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم. أي: فكذلك. فهو من تعليق الشرط، كقولك: إن دخلت الدار، إن كلمت زيدا، فأنت طالق، فلا تطلق إلا بهما، ثم استأنف: (هو ربكم).

يقول الحق جل جلاله: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا﴾: خاصمتنا ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾: خصامنا ومخاطبتنا، ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في الدعوى والوعيد، فإن مناظرتك

(١) لأن الزاي مجهورة والتاء مهموسة، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها.

(٢) في الأصول: (الاحظ لها). والمثبت هو الذي في تفسير البيضاوي.

ووعظك لا يؤثر فينا. ﴿ قَالَ ﴾ نوح ﷺ: ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ دوني ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ عاجلاً أو آجلاً، ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ بدفع العذاب عنكم، أو الهرب منه حتى تعجزوا القدرة الإلهية، ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ﴾، وأراد الله ﴿ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾، فإن النصيح مع سابق الشقاء عنت. وهذا جواب لما أوهموا من أن جداله كلام لا طائل تحته، وهو دليل على أن إرادة الله تعالى يصح تعلقها بالإغواء، وأن خلاف مراد الله تعالى محال. ولذلك قيل: مراد الله من خلقه ما هم عليه. ثم قال: ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾؛ خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته. ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

الإشارة: ينبغي لأهل الوعظ، والتذكير أن لا يملوا - ولو أكثروا - إذا قابلهم الناس بالبعد والإنكار، وليقولوا: ولا ينفعكم نصحننا إن أردنا أن ننصحكم ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ... ﴾ الآية.

ولما كان المقصود من القصة تسلية رسوله ﷺ خاطبه في أثائها بقوله:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾؛ أي: كفار قريش: هذا الذي يقرؤه محمد علينا، ويقصه من خبر من قبلنا ﴿ افتراه ﴾ من عنده. ﴿ قُلْ ﴾ لهم: ﴿ إِنْ افْتَرَيْتُهُ ﴾؛ تقديرًا ﴿ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي ﴾؛ أي: وباله على دونكم، ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾؛ مما ترتكبون من الإجماع بتكذيبكم وكفركم.

الإشارة: ينبغي لمن قوبل بالتكذيب والإنكار أن يكتفى بعلم الله، ويقول لمن كذبه ما قال نبيه ﷺ لمن كذبه: (إن افتريته فعلى إجرامي...) الآية. وفي الحكم: متى ألمك عدم إقبال الناس عليك، أو توجههم بالذم إليك، فارجع إلى علم الله فيك، فإن كان لا يقنعك علمه فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم...

قال الشيخ زروق رحمه الله: وذلك لأن عدم قناعتك بعلمه يصيبك في قلبك ودينك، وأذاهم يصيبك في عرضك وبدنك ودنياك، وأيضاً: إذاهم يردك إليه، فهو فائدتك، وعدم القناعة بعلمه يردك إليهم، فهي مصيبة توجب ثلاثاً، هي علامة عدم القناعة بعلمه: أولها: التصنع والمراعاة، الثاني: طلب رضاهم بما أمكن في جميع الحالات. الثالث: إظهار علمه وعمله وحاله، ليعلموا برتبته.

والقناعة بعلمه علامتها ثلاث: أولها: قصد الإخلاص في كل، بحيث لا يبالي أين رآه الخلق، وكيف رأوه. الثاني: طلب رضاه بالعمل بطاعته، وترك ما لا يرضيه، رضوا بذلك أو سخطوا. الثالث: الإكتفاء بعلمه فيما يجرى عليه من حكمه وحكمته، قال إبراهيم التيمي رحمه الله لبعض أصحابه: ما يقول الناس في؟ فقال:

يقولون إنه مرأى، فقال: الآن طاب العمل. قال بشر الحافي: اكتفى - والله - بعلم الله. فلم يحب أن يدخل مع علم الله غيره، وقال أيضاً: سكون النفس لقبول المدح لها أشد عليها من المعاصي. وقال أحمد بن أبي الحواري رحمته الله: من أحب أن يعرف بشيء من الخير، أو يذكر به، فقد أشرك مع الله في عبادته؛ لأن من عمل على المحبة لا يحب أن يرى عمله غير محبوبه.

وقال الشيخ أبو الحسن رحمته الله: لا تنشر علمك، ليصدقك الناس، وانشر علمك ليصدقك الله. وإن كان لام العلة موجوداً، فعلة تكون بينك وبين الله من حيث أمرك، خير لك من علة تكون بينك وبين الناس، من حيث نهاك. ولعل تترك إلى الله خير لك من علة تقطعك عن الله. هـ. المراد منه.

ثم تم قصة نوح عليه السلام، فقال:

﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِرَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْءَ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٦) وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِرَ مِنْ قَوْمِكَ ﴾ بعد هذا ﴿ إِلَّا مَنْ قَدْءَ آمَنَ ﴾ قبل، وكان هذا الوحي بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى. فكان الرجل منهم يأتيه بابه، ويقول: يا بني لا تصدق هذا الشيخ، فهكذا عهد إلى أبي وجدى. فلما نزل الوحي وأيس من إيمانهم دعا عليهم، وقال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (١). قال له تعالى: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾: تحزن وتغتم ﴿ بما كانوا يفعلون ﴾ من التكذيب والإيذاء، أفتطه أولاً من إيمانهم، ونهاه أن يغتم لأجلهم.

ثم أمره بصنع السفينة، فقال: ﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾؛ بحفظنا ورعايتنا، أو بمرأى منا ومسمع غير محتاج إلى آلة حفظ وحرس، ﴿ وَوَحِّينَا ﴾ إليك، كيف تصنعها، روى أنه لما جهل صنعها أوحى الله إليه: أن اصنعها على مثال جوج الطائر. وروى أيضاً: أنها كانت مربعة الشكل، طويلة في السماء، ضيقة الأعلى، وأن المراد منها إنما كان الحفظ، لا سرعة المشى. والأول أرجح. أعنى: على صورة ظهر الطائر. قال في الأساس: عملت سفينة نوح عليه السلام

(١) من الآية ٢٦ من سورة نوح.

من ساج، وهو خشب أسود، رزان، لا تكاد الأرض تبليه، يجلب من الهند هـ. وفي رواية أخرى: صنعها نوح عليه السلام، وجبريل يصف له، فكان أسفل السفن وأعلاها كالسقف، وداخلها كالبيت، ولها أبواب في جوانبها هـ.

ثم إن نوحاً عليه السلام لما تحقق هلاك قومه، رق عليهم، فهم أن يراجع الله في شأنهم، فقال له تعالى: ﴿ولا تخاطبني﴾؛ ولا تراجعني ﴿في الذين ظلموا﴾، ولا تدع باستدفاع العذاب عنهم؛ ﴿إنهم مغرقون﴾: محكوم عليهم بالغرق لا محالة. فلا سبيل إلى كفه.

﴿ويصنع الفلك﴾، حكى ما وقع بصيغة الحال؛ استحضاراً لتلك الحال العجيبة، ﴿وكلما مر عليه ملاً﴾: جماعة ﴿من قومه سخرُوا منه﴾: استهزءوا به، لأنه كان يعمل السفينة في برية بعيدة من الماء. أو أن عزته تنفي صنعته، فكانوا يضحكون منه، ويقولون له: صرت نجاراً بعد أن كنت نبياً. ﴿قال﴾ لهم: ﴿إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾، فنسخر منكم حين يأخذكم في الدنيا الغرق، وفي الآخرة الحرق. ﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾، وهو: الغرق، والحرق بعده، ﴿ويحل﴾ أي: ينزل ﴿عليه عذاب مقيم﴾: دائم، وهو الناريوم القيامة.

الإشارة: إذا تحقق الولي بإعراض الخلق عنه، وأيس منهم أن يتبعوه. فلا يحزن، ولا يغتم منهم، ففي الله غنى عن كل شيء، وليس يغنى عنه شيء. وفي إعراض الخلق راحة لقلب الولي ولبدنه، فإذا سخرُوا منه فليقل في نفسه: إن تسخروا منا اليوم، فنسخر منكم حين تحقق الحقائق، فيرتفع المقربون، وينسفل الباطلون، وكان شيخاً شاكراً سيدى على العمرانى رحمه الله كثيراً ما يقول: ليت القيامة قامت، حتى يظهر الرجال من غيرهم. أو ما هذا معناه.

ثم ذكر مبدأ الطوفان، فقال:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

قلت: حتى: غاية لقوله: (ويصنع الفلك)، أو ابتدائية. و(اثنين) مفعول باحمل، و(أهلك): عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿حتى إذا جاء أمرنا﴾ بغرقهم، أو أمرنا للأرض بالفوران وللسموات بالإرسال، ﴿وفار التنور﴾: نبع الماء منه وارتفع كالقدر تغور. والتنور: تنور الخبز، ابتداءً منه النبوع، على خرق العادة، أرادت ابتداءً أن تسجره ففار الماء في النار، روى أنه كان تنور آدم، خلص إلى نوح، فكان يوقد فيه، وقيل: كان في الكوفة في موضع مسجدها. وقيل: في الهند، وقيل: التنور: وجه الأرض^(١). قاله ابن عباس.

(١) ورجح الطبري القول الأول؛ لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب.

فلما فار بالماء ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ في السفينة، ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ من كل نوع من الحيوان؛ ذكراً وأنثى - روى أن نوحاً عليه السلام وقف على باب السفينة، وحشر إليه الوحوش، فكان الذكر يقع في يمينه، والأنثى في شماله، وهو يدخل في السفينة. وآخر ما دخل الحمار، فتمسك الشيطان بذنبه؛ فزجره نوح فلم ينق، فدخل معه، فجلس عند مؤخر السفينة. وروى أن نوحاً عليه السلام آذاه نتن الزيل والعذرة، فأوحى الله إليه: أن امسح على ذنب الفيل، ففعل فخرج من أنفه خنزير وخنزيرة، فكفياه أمر ذلك الأذى. وروى أن الفأر أذى الناس، فأوحى الله إليه: أن امسح على جبهة الأسد ففعل، فعطس فخرج منه هر وهرّة. فكفياه أمر الفأر^(١). انظر ابن عطية.

﴿و﴾ احمل أيضاً ﴿أَهْلَكَ﴾ أى: امرأتك وبنيك ونساءهم، ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أنه من المفرقين يريد: ابنه كنعان وأمه وأعلة، فإنهما كانا كافرين. ﴿و﴾ احمل ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بك. قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، قيل: كانوا تسعة وسبعين: زوجته المسلمة، وبنوه الثلاثة: حام وسام ويافث، ونساؤهم، وإثنان وسبعون رجلاً وامرأة من غيرهم. وفي بعض الآثار: أن النبي ﷺ قال: «سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش»^(٢). قاله ابن عطية. وسيأتى خلافه في سورة الصافات. وهو الراجح. وقال البيضاوى: روى أن نوحاً عليه السلام اتخذ السفينة فى سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين، وسمكها ثلاثين. وجعل لها ثلاثة بطون. فحمل فى أسفلها الدواب والوحش، وفى وسطها الإنس، وفى أعلاها الطير. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: حتى إذا جاء أمرنا بكمال الطهارة من العيوب، وفار تنور القلب بعلم الغيوب، وجرت سفينة الفكرة فى بحار التوحيد، وأسرار التفريد، قلنا: احمل فيها من كل زوجين اثنين؛ علم الشريعة والحقيقة، وعلم الحكمة والقدرة، وعلم الحس والمعنى، وعلم الأشباح والأرواح، وعلم الملك والملوك. وتحمل من آمن بتمسك بها من أهل المحبة والوداد، إلا من سبق عليه القول بالمكث فى مقام البعاد، وتحمل من آمن بخصوصيتها من العباد، فتقر به من مسلك التوفيق والتسديد، حين يمن الحق تعالى عليها بالقرب من أهل المحبة والوداد. وبالله التوفيق.

ثم أمرهم بالركوب فى السفينة، فقال:

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤١) وهى
تَجْرَى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِىْ أَرْكَبَ مَعَنَا
وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَأُوْىِٕ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ
أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

(١) هذه الأخبار ذكرها الطبرى وغيره، وهى من الإسرائيليات التى ينبغى تنقية كتب التفسير منها.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٥/٩ والترمذى وحسنه فى (المناقب، باب فضل العرب) والحاكم فى المستدرک (٥٤٦/٢) وصححه ووافقه الذهبى، عن سمرة بن جندب - رضى الله عنه.

قلت : (مَجْرِيها ومرساها) : مشتقان من الجرى والإرسال، أى: الثبوت، وهما إما ظرفان زمانيان، أو مكانيان، وإما مصدران، والعامل فيهما: ما فى (بسم الله) من معنى الفعل. وإعراب «بسم الله»: إما حال مقدرة من الضمير فى «اركبوا»، أى: اركبوا متبركين بسم الله، أو قائلين: بسم الله، وقت إجرائها وإرسالها. أو (مجرأها ومرساها): مبتدأ، و(بسم الله): خبر. فيوقف على (فيها) ؛ أى: إجرائها وإرسالها حاصل بسم الله.

يقول الحق جل جلاله : ﴿وقال﴾ نوح لمن كان معه: ﴿اركبوا﴾ فى السفينة وسيروا فيها. روى أنهم ركبوا أول يوم من رجب، وقيل: يوم العاشر منه، واستوت على الجوى يوم عاشوراء، ﴿بسم الله مَجْرِيها ومرساها﴾ أى: متبركين بسم الله وقت إجرائها، أو قائلين بسم الله وقت إجرائها وإرسالها، روى: أنه ﷺ كان إذا أراد أن يجرى السفينة قال: بسم الله، فتجرى، وإن أراد أن يوقفها قال: بسم الله، فتوقف. ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾، قلولا مغفرته لما فرط منكم، ورحمته إياكم، لما أنجاكم. فركبوا مسلمين وساروا .

﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾، والموج: ما يرتفع من الماء عند اضطرابه، أى: كل موجة من الطوفان كالجبال فى تراكمها وارتفاعها، وما قيل من أن الماء أطبق ما بين السماء والأرض، وكانت السفينة تجرى فى جوفه، لم يثبت. وكيف يكون الموج كالجبال؟ والمشهور أنه علا شوامخ الجبال، خمسة عشر ذراعاً، وإن صح ذلك فلعل ارتفاع الموج كالجبال كان قبل التطبيق.

﴿ونادى نوح ابنه﴾، كان كنعان. وقيل: كان لغير رشدة، وهو خطأ؛ لأن الأنبياء عصمت من أن تزنى أزواجهم. والمراد بالخيانة فى قوله: ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾ (١) . فى الدين. ﴿وكان فى معزل﴾؛ فى ناحية، عزل نفسه فيها عن أبيه، أو عن دينه، فقال له أبوه: ﴿يأبني اركب معنا﴾ فى السفينة، ﴿ولا تكن مع الكافرين﴾ فى الدين، أو فى الاعتزال عنا، وكان يظنه مؤمناً، لإخفاء كفره. ﴿قال سأوي إلى جبل يعصمني﴾؛ يمنعنى من الماء، ﴿فلا أغرق﴾، ﴿قال لا عصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ أى: إلا الراحم، وهو الله، فلا عصم إلا أرحم الراحمين. أو: ﴿لا عصم﴾؛ لا ذو عصمة إلا من رحم الله، فلا معصوم إلا من رحمه الله. فالاستثناء حينئذ متصل. أو: لا عصم اليوم من أمر الله لكن من رحمه الله فهو المعصوم. أو: لا ذو عصمة لكن الراحم يعصم من شاء، والاستثناء منقطع.

﴿وحال بينهما الموج﴾؛ بين نوح وابنه، ﴿فكان من المغرقين﴾؛ فصار من المهلكين بالماء. روى أنه صنع بيتاً من زجاج، وحمل معه طعامه وشرابه، وصعد على وجه الماء فسلط الله عليه البول حتى غرق فى بوله (٢). والله تعالى أعلم بشأنه.

(١) من الآية : ١٠ من سورة التحريم.

(٢) الآية صريحة فى أن الولد أراد أن يأوى إلى جبل يعصمه من الماء .. فمادنا ينفع الزجاج هنا. وما ذكره الشيخ المفسر لا دليل عليه.

الإشارة: إذا دخل العارف في بحر الفناء، وغاب عن حسه ورسمه، واتصل معناه ببحر معاني الأسرار، جرت سفينة فكرته في بحر الذات وأنوار الصفات، فقال لأصحابه: اركبوا فيها، بسم الله مجريها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم، حيث غطى وصفكم بوصفه، ونعتكم بنعته. فوصلكم بما منه إليه، لا بما منكم إليه. فصارت سفن الأفكار تجرى بهم في موج كالجبال، وهي تيار بحر الذات. فالخمرة الأزلية الخفية الصافية بحر لا ساحل له، وما ظهر من أنوار الصفات أمواجه. فأنوار الآثار هي أمواج البحار، وما عظم من أمواجه يسمى التيار، ولذلك قيل: العارفون يغرقون في بحر الذات، وتيار الصفات، فتراهم إذا غرقوا في بحر الأسرار وتيار الأنوار، وساروا فيها بمدد أسرارهم، تلاطمت عليهم أمواجه. وهي تجرى بهم في موج كالجبال، فلا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، فأواه إلى جبل السنة المحمدية. فكان من الناجين.

وآخرون حال بينهم الموج، فكانوا من المغرقين، فالتبس الأمر عليهم، فقالوا بالحلول والاتحاد، أو نفى الحكمة والأحكام. وهذا في حق من ركب بلا رئيس ماهر، وإلا رده إلى سفينة النجاة، وهي: التمسك بالشرعية المحمدية في الظاهر، والتحقق بالحقيقة الأصلية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر انتهاء الطوفان، فقال:

﴿وَقِيلَ يَتَّارِضْ أْبْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى

الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قلت: (بعداً): منصوب على المصدر، أي: أبعدوا بعداً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقيل﴾ أي: قال الله: ﴿يا أرض ابلعي ماءك﴾ الذي خرج منك، فانفتحت أفواهها، فرجع إليها ما خرج منها، ﴿وياسماء أقلعي﴾: أمسكى عن الأمطار. روى أنها أمطرت من كل موضع، فبقي ما نزل منها بحاراً على وجه الأرض.

قال البيضاوي: نوديا بما ينادى به أولو العلم، وأمر بما يؤمرون به، تمثيلاً لكمال قدرته، وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما، بالأمر المطاع، الذي يأمر المنقاد لحكمه، المبادر إلى امتثال أمره، مهابة من عظمت، وخشية من أنيم عقابه. والبلع: النشف، والإقلاع: الإمساك. هـ.

﴿وغيض الماء﴾: نقص ولم ينشف ما خرج منها، ﴿وقضى الأمر﴾: وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين، وإنجاء المؤمنين، ﴿واستوت﴾: استقرت السفينة ﴿على الجودي﴾: جبل الموصل. وقيل: بالشام. وتقدم أنه

نزل يوم عاشوراء، فصامه شكراً. وبقي سنة أشهر على الماء. ﴿وقيل بُعداً للقوم الظالمين﴾ ؛ هلاكاً لهم. يقال: بعد، إذا بعد بُعداً بعيداً، بحيث لا يرجى عوده، ثم استعير للهلاك. وخص بدعاء السوء.

والآية - كما ترى - في غاية الفصاحة؛ لفخامة لفظها وحسن نظمها، والدلالة على كنه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال. وإيراد الأخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل، وأنه متعين في نفسه، مستغن عن ذكره، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره؛ للعلم به، فإن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار. قاله البيضاوي.

فإن قلت: قد عم الغرق الدنيا كلها، مع أن دعوة نوح ﷺ لم تكن عامة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (١)؟ فالجواب: أن الكفر قد كان عم الموجودين في ذلك الزمان، مع تمكنهم من النظر والاستدلال على الصانع وتوحيده، ومع قدرتهم على الإتيان إلى نوح في أمر الشرائع، فقصرنا في الجهتين. وأيضاً: لم تكن الأرض كلها معمورة بالناس، فكل من كان موجوداً سمع بدعوة نوح فجحدها. والله تعالى أعلم. وانظر ابن عطية عند قوله: ﴿واصنع الفلك﴾. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا توالى على القلب الواردات الإلهية السماوية، والأحوال النفسانية المزعجة، خيف على العقل الاختطاف والاصطلام، فقيل يا أرض النفس ابلعي ماءك واسكني، ويا سماء الواردات ألقني، وغيض الماء، أي: نقص هيجان الحال، وقضى الأمر بالاعتدال، واستوت سفينة الفكرة على جبل العقل، فحاز الشرف والكمال؛ لكونه برزخاً بين بحرین، يعطى الحقيقة حقها والشرعية حقها، فيعطى كل ذي حق حقه، ويوفى كل ذي قسط قسطه. وقيل: بُعداً لمن تخلف عن هذا المقام، وظلم نفسه بإلقائها في سجن الهوى وغيهب الظلام. والله تعالى أعلم.

ولما غرق كنعان مع من غرق، استفهم نوح ﷺ ربه عن الوعد الذي وعده بإنجاء أهله، كما قال تعالى:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾ (٤٥) قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ (٤٧)

(١) من الآية: ١٥ من سورة الاسراء.

قلت : (وإن وعدك) : عطف على (إن ابني) . و (أنت أحكم) : حال من الكاف . و (إنى أعظك) : مفعول من أجله ، أى : كراهية أن تكون من الجاهلين .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ونادى نوح ربه ﴾ بعد تعميم الغرق ، أى : أراد النداء بدليل عطف قوله : ﴿ فقال رب إن ابني من أهلي ﴾ ، فإنه هو النداء ، أو تكون فصيحة ؛ جواباً عن مقدر ، كأن قائلًا قال : ماذا قال فى ندائه ؟ فقال : إن ابني من أهلى وقد وعدتني أن تنجينى وأهلى ، ﴿ وإن وعدك الحق ﴾ لا يتطرقه الخلف ، فما باله غرق ؟ ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ ؛ لأنك أعلمهم وأعدلهم ، فلم أعرف وجه حكمك عليه بالغرق . أو لأنك أكثر حكمة من ذوى الحكم ، فلم أفهم حكمة غرقه .

﴿ قال ﴾ تعالى : ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾ ؛ لأنه خالفك فى الدين ، ولا ولاية بين الكافر والمؤمن ، ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ أى : ذو عمل فاسد . جعل ذاته نفس العمل ؛ مبالغة . وقرأ الكسائى ويعقوب : (عمل) بلفظ الماضى . أى : عمل عملاً فاسداً ، استحق به البعد عنك . أو : إنه - أى سؤالك - عمل غير صالح . ويقوى هذا قراءة ابن مسعود : إنه عمل غير صالح أن تسألنى ما ليس لك به علم . وقرأ الجماعة : ﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم ﴾ أصواب هو أم لا ، حتى تقف على كنهه . وإنما سمي نداءه سؤالاً ؛ لتضمنه معنى السؤال ، بذكر الوعد واستنجاه واستفسار المانع .

ثم وعظه بقوله : ﴿ إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ أى : إنى أعظك ؛ كراهية أن تكون من الجاهلين ، الذين يسألون ما لا يوافق القدر . وقد استثنيت به بقولى : ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ . وليس فيه وصفه بالجهل ، بل وعظه لئلا يقع فيه ، والحامل له على السؤال ، مع أنه استثنى له ؛ غلبة الشفقة على الولد ، مع كونه لم يتحقق أنه ممن سبق عليه القول .

﴿ قال ﴾ نوح : يا ﴿ رب إنى أعوذ بك أن أسألك ﴾ فى المستقبل ﴿ ما ليس لي به علم ﴾ ؛ ما لا علم لى بصحته . ﴿ وإلا تغفر لى ﴾ ما فرط منى من السؤال ، ﴿ وترحمنى ﴾ بالتوبة ؛ تفضلاً وإحساناً ، وبالتوفيق والعصمة فى المستقبل ، ﴿ أكن من الخاسرين ﴾ بسوء أدبى معك .

الإشارة : قال الورتجى : أدب نبيه نوحاً ﷺ بأن لا يسأل إلا ما وافق القدر . وكل دعاء لم يوافق مراده تعالى فى سابق علمه لم يؤثر فى مراد الداعى . وقوله : (إنه عمل غير صالح) أى : ليس عمله على موافقة السنة ، ثم وعظه ، وقال : (إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) ، الجاهل : من جهل قدر الله ، أى : أنزهك عن سوء الأدب فى السؤال ، على غير قاعدة مرادك . هـ . وقال فى الحكم : « ليس الشأن وجوب الطلب ، إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب » .

ثم أمره بالنزول إلى الأرض من السفينة، فقال:

﴿ قِيلَ يَنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقَابَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤٩)

قلت: «تلك»: مبتدأ، و«من أنباء»: خبر، و«نوحينا»: خبر ثان، و«ما كنت تعلمها»: خبر ثالث، أو حال من الهاء، أى: حال كونها مجهولة عندك وعند قومك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ﴾ من السفينة إلى عمارة الأرض ﴿بِسَلَامٍ مِنَّا﴾، أى: متبأساً بسلامة من المكاره، من جهة حفظنا ورعايتنا. أو مسماً عليك، ﴿وبركات عليك﴾؛ وزيادات فى نسلك حتى تصير آدمياً ثانياً. فالبركة هى: الخير الدامى. أو: مباركاً عليك، ﴿وعلى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ أى: هم الذين معك، أو ناشئة ممن معك، فقد تشعبت الأمم ممن معه من ذريته. والمراد: المؤمنون، بدليل قوله: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ فى الدنيا، ونوسع عليهم فيها، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى الآخرة، وهم الكفار ممن نشأ من ذريته. وقيل: هم قوم هود وصالح ولوط وشعيب، والعذاب: ما نزل بهم فى الدنيا.

﴿تِلْكَ﴾: القصة، أو خبر نوح عليه السلام، هى ﴿من أنباء الغيب﴾ أى: بعض أخبار الغيب ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾، لا طريق إلى معرفتها إلا الوحي، ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ الوقت لولا إخبارنا إليك بها، فهى من دلائل نبوتك؛ لأنك لم تغب عنهم، ولم تخالط غيرهم، فتعين أنه من عند الله. فإن كذبوك ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ وأنت أعظمهم. فالعاقبة لك فى الدنيا بالنصر والعز، وفى الآخرة بالرفيق الأعلى. أو فاصبر على مشاق التبليغ مع إيذاية قومك، كما صبر نوح عليه السلام. إن العاقبة للمتقين بالنصر فى الدنيا، والجنة فى الآخرة.

الإشارة: يقال للمريد إذا تمكن من الفناء، وارتفعت فكرته عن عالم الأكوان: اهبط إلى مقام البقاء؛ لتقوم بأداب العبودية بعد مشاهدة عظمة الربوبية، انزل إلى سماء الحقوق، أو أرض الحظوظ بالإذن والتمكين، والرسوخ فى اليقين، لا بقصد متابعة الشهوة والمتعة. اهبط بسلام منّا، أى: بسلامة من الرجوع أو الشقاء، وبركات عليك وعلى من تبعك. ولذلك قيل: من رجع إلى البقاء أمن من الشقاء. وأمم قد ضلوا عن متابعتك، ستمتعهم فى الدنيا بمتابعة الهوى، ثم يمسهم منّا عذاب الحجاب وسوء الحساب. تلك الواردات الإلهية نوحينا إليك، ما كنت تعلمها أيها العارف من قبل هذا، أنت ولا من تبعك، فاصبر؛ فإن الجمال مقرون بالجلال، والعاقبة للمتقين. والله تعالى أعلم.

﴿ قال ﴾ هود عليه السلام: ﴿إني أشهد الله ﴾ على براءتي من شرككم، ﴿ واشهدوا أنني برىء مما تشركون من دونه فكيدوني ﴾ أى: اقصدوا كيدى وهلاكى، ﴿ جميعاً ﴾، أنتم وشركاؤكم، ﴿ ثم لا تنظرون ﴾؛ لا تؤخزون ساعة. وهذا من جملة معجزاته، فإن مواجهة الواحد الجم الغفير من الجبابرة، والفتاك العطاش إلى إراقة دمه، بهذا الكلام، ليس إلا لتيقنه بالله، ومنعهم من إضراره ليس إلا لعصمته إياه. ولذلك عقبه بقوله: ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ﴾، فهو تقرير له. والمعنى: أنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لم تضرونى؛ فإنى متوكل على الله، واثق بكلاءته، وهو مالكى ومالككم، لا يحيق بى ما لم يردده، ولا تقدرن على ما لم يقدره.

ثم برهن عليه بقوله: ﴿ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها ﴾: إلا وهو مالك لها، قادرٌ عليها، يصرفها على ما يريد بها. والأخذ بالنواصي تمثيلٌ لذلك. قاله البيضاوى. وقال ابن جزى: أى: هى فى قبضته وتحت قهره، وهذه الجملة تعليل لقوة توكله على الله، وعدم مبالاته بالخلق. هـ. ﴿إن ربي علي صراطٍ مستقيم ﴾ أى: إنه على الحق والعدل، ولا يضيع عنده معتصم ولا يفوته ظالم. وقال فى القوت: أخبر عن عدله فى محله، وقيام حكمته، وأنه وإن كان آخذاً بنواصي العباد فى الخير والشر، والنفع والضرب؛ لاقتداره، فإن ذلك مستقيم فى عدله، وصواب من حكمه. هـ.

﴿فإن تولوا ﴾ أى: فإن تتولوا وتعرضوا عما جئكم به، ﴿ فقد أبلغتكم ما أرسلتُ به إليكم ﴾. أى: فقد أدبت ما على من الإبلاغ، فلا تفريط منى، ولا عذر لكم؛ فقد جاءكم النذير، وقامت الحجة عليكم، وما بقى إلا هلاككم. ﴿ ويستخلف ربي قوماً غيركم ﴾ يسكتون دياركم، ويعمرون بلادكم، فإن عتوا وطفخوا سلك بهم مسلككم، ﴿ ولا تضرونه ﴾ بتوليكم عن الإيمان به، ﴿ شيئاً ﴾ من الضرر. أو لا تضرونه شيئاً إذا أهلككم واستخلف غيركم، ﴿ إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾؛ رقيب، فلا يخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مجازاتكم. أو حافظ مستول عليه، فلا يمكن أن يضره شيء. قاله البيضاوى.

الإشارة: ما يقال للأولياء إلا ما قيل للرسول، فإذا توجه العبد إلى مولاه، وسقط على من هو أهل للتربية، وترك ما كان عليه قبل من الانتساب إلى غيره، وخرق عوائد نفسه، أو أصابه شيء من المكاره، قال الناس: ما اعتراه إلا بعض الصالحين بسوء، فيقول لهم: إني أشهد الله، واشهدوا أنني برىء مما تشركون من دونه. فإن أجمعوا على إضراره أو قتله قال لهم: فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون.

﴿إني توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها ﴾، وأنتم دواب مقهورون تحت قبضة الحق، ﴿ إن ربي على صراطٍ مستقيم ﴾؛ لا ينتقم إلا من أهل الانتقام، «من عاد لى ولياً فقد آذنته بالحرب»، فإن ذكرهم بالله ودلهم على الطريق، فكذبوه وأعرضوا عنه، قال: عسى أن يذهب بكم، ويستخلف قوماً غيركم، يكونون متوجهين إليه أكثر منكم، ولا تضرونه شيئاً. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نزول العذاب الذي وعدهم به، فقال:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ
الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۖ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

قلت: إنما قال هنا وفي قصة شعيب: (ولما)، بالواو، وفي قصة صالح ولوط: (فلما)، بالفاء؛ لأن قصة صالح ولوط ذكرهما بعد الوعيد، في الفاء التي تقتضي التسبب، كما تقول: وعدته فلما جاء الوعيد كان.. الخ، بخلاف قصة هود وشعيب لم يتقدم ذلك فيهما، فعطف بالواو. قاله الزمخشري.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولما جاء أمرنا﴾: عذابنا، أو أمرنا بالعذاب، ﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾، وكانوا أربعة آلاف، ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾، وهو ريح السموم، وكانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أديبارهم فتقطع أمعاءهم. والتكرير؛ لبيان ما نجاهم منه، وإعلاماً بأنه عذاب غليظ، وتعديداً للنعمة في نجاتهم. ويحتمل أن يريد بالنجاة الأولى: من عذاب الدنيا، وهو الريح الذي نزل بقومهم، وبالنجاة الثانية: عذاب الآخرة، وهو العذاب الغليظ، ولذلك عطفه على النجاة الأولى التي أراد بها النجاة من الريح.

﴿وتلك عادٌ﴾؛ الإشارة إلى القبيلة، أو إلى قبورهم وآثارهم؛ تهويلاً وتهديداً، ﴿جحدوا بآيات ربهم﴾؛ كفروا بها، ﴿وعصوا رسله﴾، والجمع إما لأن من عصى رسولاً فكأنما عصى الكل؛ لأنهم متفقون في الدعوة، مع أنهم أمروا بطاعة كل رسول. وإما على إرادة الجنس، كقولك: فلان يركب الخيل، وإن لم يركب إلا فرساً واحداً. ﴿واتبعوا أمر كل جبارٍ عنيد﴾ يعني: كبراءهم الطاغين، والعنيد: الطاغى، والمعنى: عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم، وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرددهم، ﴿واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة﴾ أى: جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين؛ في الدنيا أهلكتهم، وفي الآخرة أحرقتهم.

﴿ألا إن عاداً كفروا ربهم﴾؛ جحدوه، أو كفروا نعمه. وفيه تشنيع لكفرهم وتهويل لأمرهم، بالإتيان بحرف التنبيه، وتكرار اسم عاد؛ ﴿ألا بعداً لعاد﴾ أى: هلاكاً لهم، دعا عليهم بالهلاك بعد أن هلكوا؛ للدلالة على أنهم كانوا مستحقين له، مستوجبين لما نزل بهم؛ بسبب ما حكى عنهم. وإنما كرر «ألا»، وأعاد ذكرهم؛ تفضيلاً لأمرهم، وحثاً على الاعتبار بحالهم. ثم بيّنهم بقوله: ﴿قوم هود﴾. فهو عطف بيان لعاد، وفائدته: تمييزهم عن عاد الثانية، التي هي عاد إرم، والإيماء إلى [استحقاقهم للبعد] (١) بما جرى بينهم وبينه. قاله البيضاوى.

(١) في الأصول: [استحقاقهم له]. والمثبت هو الذي في تفسير البيضاوى.

الإشارة : من أراد سلامة الدارين والظفر بقرة العين ، فليتمسك بالإيمان بالله ، وبكل رسول أتى من عند الله ، وليتبع من يدعو إلى الله . وهم أهل المحبة والوداد ، السالكون مناهج الرشاد والسداد . وليتجنب كل جبار عنيد ، وهو : كل من يحول بينك وبين الله ، ويغفلك عن ذكر الله . وقوله تعالى : (ألا بُعداً لعاد) وأخواتها ، فيها تخويف لأهل القرب والوصال .

قال في الإحياء : ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ، ليست لغيرهم ، وبعض مخاوفهم أشد من بعض ، فأولها : خوف الإعراض ، وأشد منه : خوف الحجاب ، وأشد منه : خوف الإبعاد ، وهذا المعنى من سورة هود هو الذي شيب سيد المحبين ، أنه سمع : (ألا بُعداً لعاد) ، (ألا بُعداً لمدين) ، وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه ، وتنعم به . ثم قال : ثم خوف الوقوف وسلب المزيد ، فإننا قدّمنا : أن درجات القرب لا نهاية لها . هـ .

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام فقال :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (٦١) ﴿ قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدَ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ (٦٢) ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ (٦٣) ﴿

قلت : قال الشطيبي : صالح : هو ابن عبيد بن عابر بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وثمرود هم أولاد ثمود بن عوص بن عاد بن إرم بن سام بن نوح . هـ . وفيه نظر ؛ فقد ذكر البيضاوي في سورة الأعراف أن بين صالح ونوح تسعة أجداد ، فانظره .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ و ﴾ أرسلنا ﴿ إلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ هو أنشأكم من الأرض ﴿ كونكم من الأرض ؛ لأنه خلق آدم منها ، والنطف التي هي مواد نسله أصلها منها ، ﴿ واستعمركم ﴿ ؛ عمركم ﴿ فيها ﴾ وجعلكم تعمرونها بعد من مضى قبلكم ، ثم تتركونها لغيركم . أو استبقاكم فيها مدة أعماركم ، ثم ترحلون عنها . ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربي قريب ﴿ من كل شيء ، ﴿ مجيب ﴿ لمن دعاه .

﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾ أى: كنا نرجو أن ننتفع بك؛ لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد، فتكون لنا سيداً، أو مستشاراً فى الأمور، وأن توافقنا على ديننا، فلما سمعنا هذا القول منك انقطع رجائنا منك؛ ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ قبلنا لتصرفنا عن ديننا، ﴿ وإنا لفي شك مما تدعونا إليه ﴾ من التوحيد، والتبرى من الأوثان، ﴿ مرئب ﴾: موقع فى الريبة؛ مبالغة فى الشك، ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة ﴾؛ طريقة واضحة ﴿ من ربي ﴾ وبصيرة نافذة منه، ﴿ وآتاني منه رحمة ﴾: نبوة، ﴿ فمن ينصرنى من الله ﴾؛ من يمنعنى من عذابه ﴿ إن عصيته ﴾ وأطعتم فى ترك التبليغ، وموافقكم فى الدين الفاسد، ﴿ فما تزيدوننى ﴾ باستتباعكم ﴿ غير تخسير ﴾ بتارك ما منحنى الله به، والتعرض لغضبه، أو فما تزيدوننى بما تقولون لى غير تخسير لكم؛ لأنه يجركم إلى الخسران. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من وجهه الحق تعالى يدعو إلى الله فإنما يدعو إلى خصلتين: أفراد الحق بنعوت الألوهية، والقيام بوظائف العبودية؛ شكراً لنعمة الإيجاد، وتوالتى الإمداد. فقول صالح عليه السلام: (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)، هذا أفراد الحق بالربوبية، وقوله: (هو أنشأكم من الأرض)، هذه نعمة الإيجاد. وقوله: (واستعمركم فيها) هى: نعمة الإمداد، وقوله: (فاستغفروه ثم توبوا إليه)، هو القيام بوظائف العبودية؛ شكراً لتلك النعمتين. وفى قوله: (إن ربي قريب مجيب): ترهيب وترغيب.

وقوله تعالى: (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا): يؤخذ من الآية: أن شعاع الخصوصية، وأثارها، تظهر على العبد قبل شروق أنوارها، وهو جار فى خصوص النبوة والولاية، فلا تظهر على العبد فى الغالب حتى يتقدمها آثار وأنوار، من مجاهدة أو أنس، أو اضطراب أو انكسار، أو عرق طيب. والله تعالى أعلم. وكل من واجهه منهم تكذيب أو إنكار يقول: (أرأيتم إن كنت على بينة من ربي...) الآية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر معجزة الناقة، فقال:

﴿ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرْوَهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَجْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثَمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدَ لِثْمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

قلت : « آية » : نصبت على الحال ، والعامل فيها : معنى الإشارة . و (لكم) : حال منها ، تقدمت عليها لتكثيرها .
و (من خزي يومئذ) - حذف المعطوف ، أى : ونجيناهم من خزي يومئذ ، ومن قرأ بكسر الميم أعربه ، ومن قرأ بالفتح
بناه ؛ لاكتساب المضاف البناء من المضاف إليه . قاله البيضاوى . وقال فى الألفية :

وابن ، أو أعرب ما كاذ قد أجريا واختربنا مثلو فعل بنيا
وقبل فعل معرب أو مبتدأ أعرب ، ومن بنى قلن يقددا

وتمود : اسم قبيلة ، يصح فيه الصرف باعتبار الحى أو الأب الأكبر ، وعدمه باعتبار القبيلة . وقد جاء بالوجهين
فى هذه الآية .

يقول الحق جل جلاله : قال صالح لقومه بعد ظهور آية الناقة ، وقد تقدم فى الأعراف قصتها : ﴿ هذه ناقة
الله لكم آية ﴾ تدل على صدقى ، ﴿ فذرّوها تأكل فى أرض الله ﴾ ؛ أى : ترعى نباتها وتشرب ماءها ،
﴿ ولا تمسوها بسوء ، فياخذكم عذاب قريب ﴾ : عاجل ، لا يتأخر عن مسكم لها بالسوء إلا ثلاثة أيام .
﴿ فعقروها ﴾ وقسموا لحمها ؛ ﴿ فقال ﴾ لهم : ﴿ تمتعوا ﴾ : عيشوا ﴿ فى داركم ﴾ ؛ منازلكم ﴿ ثلاثة أيام ﴾ ؛
الأربعاء والخميس والجمعة . وقيل : عقروها يوم الأربعاء ، وتأخروا الخميس والجمعة والسبت ، وهلكوا يوم الأحد .
﴿ ذلك وعد غير مكذوب ﴾ فيه ، بل هو حق .

﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ : عذابنا ، أو أمرنا بهلاكهم ، ﴿ نجينا صالحاً والذين آمنوا معه ﴾ ، قيل : كانوا ألفين
وثمانمائة رجل وامرأة . وقيل : أربعة آلاف ، وقال كعب : كان قوم صالح أربعة عشر ألفاً ، سوى النساء والذرية ، ولقد
كان قوم عاد مثلهم ست مرات . انظر القرطبى . قلت : وقول كعب : كان قوم صالح ... إلخ ، لعله يعنى الجميع : من
آمن ومن لم يؤمن ، فأمن ألفان وثمانمائة ، وهلك الباقي . وكذا هود ، أسلم أربعة آلاف ، وهلك الباقي .

قال تعالى : فنجيناهم ﴿ صالحاً ﴾ ومن معه ﴿ برحمة منا ﴾ ، ونجيناهم ﴿ من خزي يومئذ ﴾ وهو : هلاكهم
بالصيحة ، أو من هوان يوم القيامة ، ﴿ إن ربك هو القوي العزيز ﴾ ؛ القادر على كل شىء ، الغالب عليه ، ﴿ وأخذ
الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾ ؛ باركين على ركبهم ، ميتين ، ﴿ كأن لم يغنوا ﴾ : يعيشوا ،
أو يقيموا ﴿ فيها ﴾ ساعة ، ﴿ ألا إن تمود كفروا ربهم ﴾ ؛ جحدوه ، ﴿ ألا بعداً لثمود ﴾ ؛ هلاكاً وسحقاً لهم .

الإشارة : ما رأينا أحداً ربح من ولى وهو يطلب منه إظهار الكرامة ، بل إذا أراد الله أن يوصل عبداً إليه كشف
له عن سر خصوصيته ، بلا توقف على كرامة . وقد يظهرها الله له بلا طلب ؛ تأييداً له ، وزيادة فى إيقانه ، فإن
طلب الكرامة ، وظهرت له ، ثم أعرض عن ، فلا أحد أبعد منه . قال تعالى ، فى حق من رأى المعجزة ثم أعرض :
(ألا بعداً لثمود) . وبالله التوفيق .

ثم ذكر قصة لوط، مع ما تقدمها من بشارة إبراهيم عليه السلام، فقال:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرًا لَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتُوبَلَىٰ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

قلت: «سلاماً»: منصوب على المصدر، أى: سلمنا سلاماً. ويجوز نصبه بقالوا؛ لتضمنه معنى ذكروا. (قال سلام): إما خبر، أى: أمرنا سلام، أو جواب سلام، وإما مبتدأ، أى: عليكم سلام. وكسر السين: لغة. وإنما رفع جوابه ليدل على ثبوت سلامه؛ فيكون قد حياهم بأحسن مما حيوه به. (فما لبث أن جاء): «ما»: نافية وهأن جاء: فاعل «لبث». ونكر وأنكر بمعنى واحد. والإيجاس: الإدراك أو الإضممار. (ومن وراء إسحاق يعقوب): من قرأ بالنصب فبفعل دل عليه الكلام، أى: ووهبنا لها يعقوب. ومن رفعه فمبتدأ، أى: ويعقوب مولود من بعده. و(شيخاً): حال، والعامل فيه: الإشارة، أى: أشير إليه شيخاً. و(أهل البيت): نصب على المدح والاختصاص، أو على النداء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ ﴾، وهم الملائكة، قيل: ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقيل: تسعة، جاءوه ﴿ بِالْبُشْرَى ﴾؛ بالولد. فلما دخلوا عليه ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ أى: سلمنا عليك سلاماً، أو ذكروا سلاماً، ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ أى: عليكم سلام، ﴿ فَمَا لَبِثَ ﴾ أى: أبداً، ﴿ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ ﴾؛ مشوى بالرضف، أى: بالحجر المحمى. وقيل: حنيز بمعنى يقطر ودكه^(١). كقوله: ﴿ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾^(٢)، فامتنعوا من أكله، ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾؛ لا يمدون إليه أيديهم، ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ أى: أنكر ذلك منهم، ﴿ وَأَوْجَسَ ﴾: أدرك، أو أضمر ﴿ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أى: خوفاً، خاف أن يريدوا به مكروهاً؛ لامتناعهم من طعامه، وكان من عادتهم إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه، وإلا خافوه.

والظاهر أنه أحس بأنهم ملائكة ونكرهم؛ لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه فأمنوه، وقالوا: ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا ﴾ ملائكة ﴿ أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ لنعذبهم، وإنما لم نأكل طعامك؛ لأننا لا نأكل الطعام. ﴿ وَأَمْرًا لَهُ قَائِمَةٌ ﴾ من وراء ستر تسمع محاورتهم، أو على رؤوسهم للخدمة، ﴿ فَضَحِكْتُمْ ﴾ سروراً بزوال الخيفة، أو بهلاك

(١) الودك: دسم اللحم.

(٢) من الآية ٢٦ من سورة الذاريات.

أهل الفساد، أو بإصابة رأيها، فإنها كانت تقول لإبراهيم: اضمع إليك لوطاً، فإننى لأعلم أن العذاب نازل بهؤلاء القوم. وقيل: معنى ضحكت: حاضت. يقال: ضحكت الشجرة: إذا سال صمغها. وقيل: ضحكت سروراً بالولد الذى بشرت به. فيكون فى الكلام تقديم وتأخير، أى: فبشرناها فضحكت، وهو ضعيف.

قال تعالى: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ ولد ولدها. وتوجيه البشارة إليها؛ لأنه من نسلها، ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد، ﴿قالت يا ويلتا﴾؛ يا عجباً، وأصله فى الشر، فأطلق على كل أمر فظيع. وقرئ بالياء على الأصل، أى: يا ويلتى ﴿أألد وأنا عجوز﴾ ابنة تسعين، أو تسع وتسعين ﴿وهذا بعلى﴾: زوجى، وأصله: القائم بالأمر، ﴿شيخاً﴾؛ ابن مائة أو مائة وعشرين سنة، ﴿إن هذا لشيء عجيب﴾ يتعجب منه؛ لكونه نشأ الولد من هرمين.

وهو استغراب من حيث العادة، لا من حيث القدرة، ولذلك قالوا: ﴿أتعجبين من أمر الله﴾؛ منكبين عليها، فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة، ومهبط الوحي ومظهر المعجزات. وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع، ولذلك قالوا: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أى: بيت إبراهيم، فلا تستغرب ما يظهر منهم من خوارق العادات، لا سيما من نشأت وشابت فى ملاحظة الآيات، ﴿إنه﴾ تعالى ﴿حميد﴾؛ فاعل ما يستوجب به الحمد، أو محمود على كل حال، ﴿مجيد﴾؛ كثير الخير والإحسان. أو ممجد بمعنى العلو والشرف التام. قال ابن عطية هنا: إن فى الآية دليلاً على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق. وفيه نظر^(١). وسيأتى فى سورة الصافات ما هو الحق، إن شاء الله تعالى.

الإشارة: من شأن أهل الكرم والامتنان: المبادرة إلى من أتاها بالبر والإحسان؛ إما بقوت الأرواح، أو بقوت الأشباح. من أتاها لقوت الأرواح بادره بإمداد الروح من اليقين والمعرفة، ومن أتاها لقوت الأشباح بادره بالطعام والشراب، كلاً ما يليق به، ومن شأن الضيف اللبيب المبادرة إلى أكل ما قدم إليه، من غير اختيار، إلا لمانع شرعى أو عادى. ومن شأن أهل التحقيق والتصديق ألا يتعجبوا مما يظهر من القدرة من الخوارق؛ إذ القدرة صالحة لكل شيء، حاكمة على كل شيء، هى تحكم على العادة، لا العادة تحكم عليها. وهذا شأن الصديقين؛ لا يتعجبون من شيء؛ ولا يستغربون شيئاً، ولذلك توجه الإنكار إلى سارة من الملائكة، ولم يتوجه إلى مريم؛ حيث سألت؛ استفهاماً، ولم تتعجب، ووصفت بالصدقية دون سارة. والله تعالى أعلم.

ولما تحقق إبراهيم عليه السلام بهلاك قوم لوط أسف عليهم، كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ ٧٤ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ

مُنِيبٌ﴾ ٧٥ ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنِيبُونَ أَلَا تَتَذَكَّرُ﴾ ٧٦ ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبُتَّةٰ أُولَئِكَ الْكَاذِبُونَ

(١) راجع ، مع تقريرنا بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

قلت : «لما» : حرف وجود لوجود، تفتقر للشرط والجواب . فشرطها : «ذهب» ، وجوابها : محذوف ، أى : جعل يجادلنا . والتأوه : التفجع والتأسف ، ومنه قول الشاعر .

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه آمة الرجل الحزين^(١)

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروح ﴾ ، وهو ما أوجس في نفسه من الخيفة ، ﴿ وجاءته البشري ﴾ بدل الروح ، جعل ﴿ يجادلنا ﴾ أى : يخاصم رسلنا ﴿ في ﴾ شأن ﴿ قوم لوط ﴾ ، ويدافع عنهم ، قال : ﴿ إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها ﴾^(٢) ، ﴿ إن إبراهيم حلیم ﴾ ، غير عجول من الانتقام إلى من أساء إليه ، ﴿ أوأه ﴾ ؛ كثير التأوه والتأسف على الناس ، ﴿ منيب ﴾ ؛ راجع إلى الله . والمقصود من ذلك : بيان الحامل له على المجادلة ، وهى : رقة قلبه وفرط ترحمه ؛ قال تعالى على لسان الملائكة : ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ ، الجدل ؛ ﴿ إنه قد جاء أمر ربك ﴾ بهلاكهم ، ونفذ قضاؤه الأزلى فيهم ، ولا مرد لما قضى ، ﴿ وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ ؛ غير مصروف بجدال ولا دعاء ، ولا غير ذلك .

الإشارة : قال الورتجبي : قوله تعالى : (إن إبراهيم لحليم أوأه) ؛ حليم بأنه كان لا يدعو على قومه ، بل قال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ ﴾^(٣) . وتأوه زفرة قلبه من الشوق إلى جمال ربه ، هكذا وصف العاشقين . ثم قال : ومجادلته كمال الانبساط ، ولم يكن جهلاً ، ولكن كان مشفقاً ، باراً كريماً ، رأى مكانة نفسه فى محل الخلّة والاصطفائية القديمة ، وهو تعالى يحب غضب العارفين ، وتغير المحبين ، ومجادلة الصديقين ، وانبساط العاشقين حتى يحثهم على ذلك .

وفى الحديث المروى عن النبي ﷺ قال : «لما أسرى بى رأيت رجلاً فى الحضرة يتذمر ، فقلت لجبريل : من هذا ؟ فقال : أخوك موسى يتذمر على ربه . أى : يجترئ عليه انبساطاً . فقلت : وهل يليق له ذلك ؟ فقال : يعرفه ؛ فيتحمل عنه » . ثم قال : ولا يجوز الانبساط إلا لمن كان على وصفهم . هـ . قال فى الصحاح : يتذمر على فلان : إذا تنكر له وأوعده . قاله المحشى .

والحاصل أن إبراهيم عليه السلام حملته الشفقة والرحمة ، حتى صدر ، منه ما صدر مع خلته واصطفائيته ، فالشفقة والرحمة من شأن الصالحين والعارفين المقربين ، غير أن العارفين بالله مع مراد مولا هم ، يشفقون على عباد الله ، مالم يتعين مراد الله ، فالله أرحم بعباده من غيره . ولذلك قال لخليله ، لما تعين قضاؤه : ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ .

(١) عزاه القرطبي فى تفسيره إلى المثقب العبدى .

(٢) من الآية : ٣٢ من سورة العنكبوت .

(٣) من الآية : ٣٦ من سورة إبراهيم .

فالشفقة التي تؤدي إلى معارضة القدر لا تليق بأهل الأقدار، وفي الحكم ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله، ولهذا قالوا: الشفقة لا تليق بالأولياء.

قال جعفر الصادق - رحمه الله -: ست خصال لا تحسن بسة رجال: لا يحسن الطمع في العلماء، ولا العجلة في الأمراء، ولا الشح في الأغنياء، ولا الكبر في الفقراء، ولا الشفقة في المشايخ، ولا اللوم في ذوى الأحساب. وقلنا: الشفقة لا تليق بالأولياء، يعنى إذا تعين مراد الله، أو إذا ظهرت المصلحة في عدمها، كأمر الشيخ المريد بما نموت به نفسه، فإذا كان الشيخ يحن على الفقراء في هذا المعنى لا تكمل تربيته. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هلاك لوط، فقال:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومِرْ هَتُولَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنُعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكُ مِنْهُمْ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

قلت: 'سوء': مبنى للمفعول، 'سوى': نقلت حركة الواو إلى السين بعد ذهاب حركتها، ثم قلبت الواو ياء. و(ذرعا): تمييز محول عن الفاعل، أى: ضاق ذرعه، وهو كناية عن شدة الانقباض عن مدافعة الأمر المكروه، وعجزه عن مقاومته. و(لو أن لى بكم قوة): إما للتمنى فلا جواب له، أو محذوف، أى: لدفعت.

وفى (أسر) لغتان: قطع الهمزة، من الإسرائ، ووصلها من السرى، وقرئ بهما معاً، و(إلا امرأتك) بالرفع؛ بدل من (أحد)، وبالنصب؛ منصوب بالاستثناء من (فأسر بأهلك). ومنشأ القراءتين: هل أخرجها معه، فالتفتت أم لا؟ فمن رفع ذهب إلى أنه أخرجها. ومن نصب ذهب إلى أنه لم يسر بها، وهما روايتان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولما جاءت رسلنا﴾، وهم الملائكة المتقدمون، ﴿لوطاً سيء بهم﴾ ساءه مجيئهم؛ لأنهم أتوه في صورة غلمان حسان الوجوه، فظن أنهم بشر، فخاف عليهم من قومه أن يقصدوهم للفاحشة، ولا يقدر على مدافعهم، ﴿وضاق بهم ذرعاً﴾ أى: ضاق صدره بهم، ﴿وقال هذا يومٌ عَصِيبٌ﴾: شديد، من عصبه: إذا شده، وروى أن الله تعالى قال لهم: لا تهلكوا قومه حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله، قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله أنها شر قرية في الأرض عملاً. قال ذلك أربع مرات. فدخلوا منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرتهم، ﴿وجاءه قومه يهرعون﴾؛ يسرعون ﴿إليه﴾ كأنهم يدفعون إليه دفعا، لطلب الفاحشة من أضيافه. ﴿ومن قبل﴾ ذلك الوقت ﴿كانوا يعملون السيئات﴾؛ الفواحش، كالتواطئة وغيرها، مستمرين عليها مجاهرين بها، حتى لم يستحيوا، وجاءوا يهرعون إليها.

﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي﴾ تزوجوهن، وكانوا يطلبونهن قبل، فلا يجيبهم لخبثهم، وعدم كفاءتهم، لا لحرمة المسلمات على الكفار، فإنه شرع طارئ؛ قال ابن جزى: وإنما قال لهم ذلك؛ ليقى أضيافه ببنايته. قيل: إن اسم بناته، الواحدة: ريثا، والأخرى: غوثا. هـ. ولم يذكر الثالثة، فعرضهن عليهم^(١)، وقال: ﴿هن أطهر لكم﴾؛ أحل لكم، أو أقل فحشا، كقولك: المينة أطيب من المغصوب، ﴿فاتقوا الله﴾ بترك الفواحش، ﴿ولا تخزون﴾؛ لا تفضحوني ﴿في ضيفي﴾؛ في شأنهم، فإن افتضاح ضيف الرجل خزي له. ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾؛ عاقل يهتدى إلى الحق ويرعوى عن القبيح.

﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾؛ من حاجة، ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ وهو إتيان الذكران، ﴿قال لو أن لى﴾؛ ليت لى ﴿بكم قوة﴾؛ طاقة على دفعكم بنفسى، ﴿أو آوى إلى ركن شديد﴾؛ أو ألجأ إلى أصحاب أو عشيرة يحموننى منكم، شبه ما يتمتع بهم بركن الجبل فى شدته، قال ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أَخِي لُوطاً لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»^(٢) يعنى: الله تعالى.

(١) قال مجاهد وغيره: إن المراد ببنايته ﷺ نساء أمته، وأضافهم إليه؛ لأن كل نبي أب لأمته.

(٢) أخرجه البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب: «ولوطاً إذ قال لقومه أنأتون الفاحشة وأنتم تبصرون»).

رُوى أنه أغلق بابه دون أضيافه، وأخذ يجادلهم من وراء الباب، فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب، ﴿قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ﴾ : لَنْ يَصْلُوا إِلَى إِصْرَارِكَ بِإِصْرَارِنَا، فَهَوْنٌ عَلَيْكَ وَدَعْنَا وَايَاهُمْ. فخلّاهم، فلما دخلوا ضرب. جبريل عليه السلام بجناحيه وجوهمهم، فطمس أعينهم، وأعماهم، فخرجوا يقولون: النجاء؛ النجاء في بيت لوط سحرة، فقالت الملائكة للوط عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ : سِرْ بِهِمْ ﴿بِقَطْعِ مِنَ اللَّيْلِ﴾ : بِطَائِفَةٍ مِنْهُ، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ : لَا يَتَخَلَفْ، أَوْ لَا يَنْظُرْ إِلَى وَرَائِهِ؛ لِئَلَّا يَرَى مَا يَهْوِلُهُ. والنهي في المعنى يتوجه إلى لوط، وإن كان في اللفظ مسنداً إلى أحد.

﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾، اسمها: واهلة. أى: فلا تسر بها، أو: ولا ينظر أحد منكم إلى ورائه إلا امرأتك؛ فإنها تنظر. رُوى أنها خرجت معه، فلما سمعت صوت العذاب التفتت وقالت: يا قوماء، فادركها حجر فقتلها، ولذلك قال: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ من العذاب، ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمْ﴾ وقت ﴿الصُّبْحِ﴾ في نزول العذاب بهم، فاستبطأ لوط وقت الصبح، وقال: هلا عذبوا الآن؟ فقالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ : عذابنا، أو أمرنا به، ﴿جَعَلْنَا﴾ مدائنهم ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾، رُوى أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائنهم، ورفعها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب، وصياح الديكة، ثم قلبها بهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ : على المدائن، أى: أهلها، أو على ما حولها. رُوى أنه من كان منهم خارج المدائن أصابته الحجارة من السماء، وأما من كان في المدائن، فهلك لما قلبت. فأرسلنا عليهم ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ : من طين طبخ بالنار، أو من طين متحجر كقوله: ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾^(١)، وأصلها: سنجين^(٢)؛ ثم عرب، وقيل: إنه من أسجله إذا أرسله، أى: من مثل الشيء المرسل، وقيل: أصله من سجين، أى: جهنم، ثم أبدلت نونه لاماً، ﴿مَنْضُودٍ﴾ : مضموم بعضه فوق بعض، معداً لعذابهم، أو متتابع يتبع بعضه بعضاً في الإرسال، كقطر الأمطار.

﴿مُسَوَّمَةٍ﴾ أى: معلمة للعذاب، وقيل: معلمة ببياض وحمرة، أو بسيما تتميز به عن حجارة الأرض، أو باسم من يرمى به؛ فكل حجارة كان فيها اسم من ترمى به، وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾، أى: في خزائن علمه وقدرته، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾، بل هي قريبة من كل ظالم.

قال ابن جزى: الضمير للحجارة، والمراد بالظالمين: كفار قريش، فهذا تهديد لهم، أى: ليس الرمي بالحجارة ببعيد منهم؛ لأجل كفرهم، وقيل: الضمير للمدائن، أى: ليست مدائنهم ببعيد منهم؛ أفلا يعتبرون بها. كقوله:

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الذاريات.

(٣) في البيضاوى: «سَنَكُ كُلٌّ».

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا ﴾ (١) . وقيل: الظالمين على العموم . هـ . وقال البيضاوي: وعنه - عليه الصلاة والسلام: «أَنَّهُ سَأَلَ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: يَعْنِي: ظَالِمِي أُمَّتِكَ، مَا مِنْ ظَالِمٍ مِنْهُمْ؛ إِلَّا وَهُوَ مُعْرَضٌ لِحَجَرٍ يُسْقَطُ عَلَيْهِ مِنْ سَاعَةٍ إِلَى سَاعَةٍ» (٢) . هـ .

الإشارة: الاعتناء بشأن الأضياف، وحفظ حرمتهم: من شأن الكرام، والاستخفاف بحقهم، والتجاسر عليهم، من فعل اللثام . وفي الحديث: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ» . والإسراع إلى الفواحش من علامة الهلاك، لا يلهيها اللواط والسفاح . والإيواء إلى الله والاعتصام به من علامة الفلاح، والبعد عن ساحة أهل الفساد من شيم أهل الصلاح، وكل من اشتغل بالظلم والفساد فالرعى بالحجارة إليه بالمرصاد .

ثم ذكر قصة شعيب، فقال:

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ
وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ مُّجِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَتَقَوْمِ أَزِفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ
وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾

قلت: «مفسدين»: حال مؤكدة لمعنى عاملها، وهو: «لا تعثوا» . وفائدة ذكره: إخراج ما يقصد به الإصلاح، كما فطه الخضر عليه السلام .

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين أخاهم شعيباً﴾، أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام أو أهل مدين، وهي بلدة، فسميت باسمه، ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ وحده، ﴿مالكم من إله غيره، ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾، وكانوا مطففين . أمرهم أولاً بالتوحيد؛ فإنه رأس الأمر، ثم نهاهم عما اعتادوه من: البخس المنافي للعدل، المخل بحكمة المعاوضة، ثم قال لهم: ﴿إني أراكم بخير﴾؛ بسعة كرخص الأسعار، وكثرة الأرزاق، فينبغي أن تشكروا عليها، وتتعفوا بها عن البخس، لا أن تنقصوا الناس حقوقهم، أو بسعة ونعمة، فلا

(١) من الآية: ٤٠ من سورة الفرقان .

(٢) عزاه في الفتح السماوي (٧٢١/٢) للعلابي مرفوعاً، بغير إسناد .

تزيلوها بما أنتم عليه؛ فإن من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٌ ﴾ ؛ يوم القيامة، فإنه محيط بكل ظالم، أو عذاب الاستئصال في الدنيا، ووصف اليوم بالإحاطة، وهي صفة العذاب؛ لاشتماله عليه.

﴿ وَيَاقُومُ أَوفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ ؛ بالعدل من غير زيادة ولا نقصان. صرح بالأمر بالاستيفاء بعد النهي عن ضده؛ مبالغة، وتنبهاً على أنهم لا يكفيهم الكف عن تعدد التطفيف، بل يلزمهم السعى في الإيفاء ولو بالزيادة، حيث لا يتأتى دونها، وقد تكون الزيادة محظورة، ولذلك أمرهم بالعدل في قوله: (بالقسط)، بلا زيادة ولا نقصان .

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ لا تنقصوهم حقهم، وهو تعميم بعد تخصيص، فإنه أعم من أن يكون في الميزان والمكيال وفي غيره، وكذا قوله: ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ ﴾ ؛ فإن العثو - وهو الفساد - يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد. وقيل: المراد بالبخس: المكس، كأخذ العشور في المعاملات، والعثو: السرقة وقطع الطريق والغارة، وأكد بقوله: ﴿ مَفْسِدِينَ ﴾ وفائدته: إخراج ما يقصد به الإصلاح، كما فعل الخضر عليه السلام، وقيل: معناه: مفسدين أمر دينكم ومصالح آخرتكم. قاله البيضاوي.

﴿ بِقِيَّتِ اللَّهِ ﴾ ؛ أى: ما أبقاء لكم من الحلال بعد التنزه عن الحرام، ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما تجمعون بالتطفيف، ﴿ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ فإن الإيمان يقتضى الاكتفاء بالحلال عن الحرام. أو إن كنتم مؤمنين فالبقية خير لكم، فإن خيريتها تظهر باعتبار الثواب والنجاة من العذاب، وذلك مشروط بالإيمان، أو: إن كنتم مصدقين لى فى قولى لكم. وقيل: البقية: الطاعة، كقوله: ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ ^(١). وقرىء، «تقية الله»؛ بالتاء المثناة، وهي تقواه التى تكف عن المعاصى، ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ ؛ أحفظ عليكم أعمالكم، وأجازيكم عليها، إنما أنا نذير وناصح مبلغ، وقد أعذرت حين أنذرت. أو: أحفظكم عن القبائح وأمنعكم منها. أو: لست بحافظ عليكم نعم الله إن سلبت عنكم بسوء صنيعكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كما أمر الحق تعالى بالوفاء فى الموازين أمر بالوفاء فى الأعمال والأحوال والمقامات. ولذلك قيل للجنيد فى النوم: [أفضل ما يتقرب به إلى الله عمل خفى، بميزان وفي]، فالوفاء فى الأعمال: إتقانها فى الظاهر، باستيفاء شروطها وآدابها، وإخلاصها فى الباطن مع حضور القلب فيها. والوفاء فى الأحوال: ألا تخرج عن قواعد الشريعة، بأن لا تكون محرمة ولا مكروهة، وأن يقصد بها موت النفوس وحياة الأرواح، والوفاء فى المقام: ألا ينتقل عن مقام إلى غيره حتى يتحقق بالمقام الذى أنزل فيه. وفيه خلاف بين الصوفية: هل يصح الانتقال عن مقام قبل التحقق به، ثم يحققه فى المقام الذى بعده، أم لا ؟ .

(١) من الآية: ٤٦ من سورة الكهف.

والمقامات التي ينزل فيها المرید: القوة، والخوف، والرجاء، والورع، والزهد، والتوكل، والصبر، والرضى، والتسليم، والمحبة، والمراقبة، والمشاهدة بالفناء ثم البقاء، أو الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان. فلا ينتقل من مقام إلى ما بعده حتى يحقق المقام الذي هو فيه، ذوقاً وحالاً. وقيل: يجوز أن ينتقل إلى ما بعده إذا كان ذا قريحة فتحقق له ما قبله. والله تعالى أعلم. وطريق الشاذلية مختصرة، تطوى عن المرید هذه المقامات، فينزل في أول قدم في مقام الإحسان، شعر أم لا، ثم يحصل الفناء ثم البقاء، إن وجد شيخاً كاملاً تربي على يد شيخ كامل، وإلا فلا.

وقول الجديد رحمته : (عمل خفي)، اعلم أن الخفاء على ثلاثة أقسام: خفاء عوام الصالحين، وهو: إخفاء الأعمال عن الناس مخافة الرياء. وخفاء المریدين، وهو: الإخفاء عن ملاحظة الخلق ومراقبتهم، ولو كانوا بين أظهرهم، فإخفاؤهم قلبي لا قلابي. وخفاء العارفين الواصلين، وهو: الإخفاء عن رؤية النفس، فهم يغيبون عن أنفسهم ووجودهم، في حال أعمالهم، فليس لهم عن نفوسهم إخبار، ولا مع غير الله قرار. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ما أجابه به قومه فقال:

﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾

قلت: «تأمرك أن تترك»، على حذف مضاف، أي: تأمرك بتكليف أن تترك؛ لأن الرجل لا يؤمر بفعل غيره. و(أن نفعل): عطف على (ما)؛ أي: أو نترك فعلنا في أموالنا ما نشاء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قَالُوا يَا شَعِيبُ أَصْلَوَاتِكَ ﴾ التي تكثر منها هي التي ﴿ تأمرك ﴾ أن تأمرنا ﴿ أن نترك ما يعبد آباؤنا ﴾ من الأصنام، وندخل معك في دينك المحدث، أجابوا به ما أمرهم به من التوحيد بقوله: ﴿ مالكم من إله غيره ﴾، على وجه التهكم والاستهزاء بصلواته. وكان كثير الصلاة، ولذلك جمعوها وخصوها بالذكر. وقرأ الأخوان وحفص بالإفراد المراد به الجنس.

ثم أجابوه عن نهيمهم عن التطفيف وأمرهم بالإيفاء، فقالوا: ﴿ أو ﴾ نترك ﴿ أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ من البخس وغيره؟ وقيل: كانوا يقطعون الدراهم والدنانير، فنهاهم عن ذلك.. ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾، تهكموا به وقصدوا وصفه بضده، من خفة العقل والسفه؛ لأن العاقل عندهم هو الحريص على جمع الدنيا وتوفيرها، وهو الحمق عند العقلاء، أو إنك موسوم بالحلم والرشد؛ فلا ينبغي لك أن تنهانا عن تنمية أموالنا والتصرف فيها. والله تعالى أعلم.

الإشارة : الإنكار على من أمر بالخروج عن العوائد والتقاليد من الدنيا من طبع أهل الكفر والجهل، وكذلك رمية بالحق والسفه . فلا تجد الناس اليوم يعظمون إلا من أقرهم على توفير دنياهم ورئاستهم، والتكاثر منها، وأما من زهدهم فيها وأمرهم بالقناعة، فإنهم يرفضونه، ويحرقونه . وهذا طبع من طبع الأمم الخالية، الجاهلة بالله، وبما أمر به، وفي الحديث: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ، شَبْرًا بِشْبَرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جَحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ» . وبالله التوفيق .

ثم ذكر موعظة شعيب لقومه، فقال:

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

قلت : جواب «إن كنت» : محذوف، أى : فهل ينبغي أن أخون فى وحيه وأخالفه فى أمره .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قال ﴾ شعيب لقومه : ﴿ يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ﴾ ، وهى النبوة والعلم والحكمة، ﴿ ورزقني منه ﴾ : من عنده، وبإعانتة، بلا كد فى تحصيله، ﴿ رزقا حسنا ﴾ : حلالا، إشارة إلى ما آتاه من المال الحلال . فهل يسع لى بعد هذا الإنعام، الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية، أن أخون فى وحيه، وأخالفه فى أمره ونهيه، حتى لا أنهاكم عن عبادة الأوثان، والكف عن العصيان، والأنبياء لا يبعثون إلا بذلك، وهذا منه اعتذار لما أنكروا عليه من الأمر بالخروج عن عوائدهم، وترك ما ألفوه من دينهم الفاسد، أى : كيف أترك ما أمرني به ربي من تبليغ وحيه، وأنا على بينة منه، وقد أغداني الله عنكم وعن غيركم . ولذلك قال إثره : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ أى : وما أريد أن أتى ما أنهاكم عنه ؛ لأستبد به دونكم، فتتهمونى إن أردت الاستبداد به . يقال : خالفنى فلان إلى كذا : إذا قصده وأنت مول عنه، وخالفنى عنه : إذا ولى عنه وأنت قاصده . ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ﴾ أى : ما أريد إلا أن أصلحكم بأمرى لكم بالمعروف، ونهى لكم عن المنكر جهد استطاعتى .

قال البيضاوى : ولهذه الأجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن، وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعى فى كل ما يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة : أهمها وأعلاها : حق الله تعالى . وثانيها : حق النفس، وثالثها : حق الناس . هـ .

قلت: فحق الله: كونه على بينة من ربه، وحق النفس: تمكينه من الرزق الحسن. وحق الناس: نصحتهم من غير طمع، ولاحظ.

ثم قال: ﴿وما توفيقى إلا بالله﴾؛ وما توفيقى لإجابة الحق، والصواب، إلا بهدايته ومعونته، ﴿عليه توكلت﴾؛ فإنه القادر على كل شيء، وما عداه عاجز بل معدوم، ساقط عن درجة الاعتبار. وفيه إشارة إلى محض التوحيد، الذى هو أقصى مراتب العلم بالله. ﴿وإليه أنيب﴾؛ أرجع فى جميع أمورى. ﴿ويا قوم لا يجرمنكم﴾: لا يكسبنكم ﴿شقاقي﴾: معاداتى، ﴿أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح﴾ من الغرق، ﴿أو قوم هود﴾ من الريح، ﴿أو قوم صالح﴾ من الصيحة، والمعنى: لا تخالفونى فيجركم ذلك إلى الهلاك كما هلك الأمم قبلكم، ﴿وما قوم لوط منكم بعيد﴾؛ زماناً ولا مكاناً، فإن لم تعتبروا بمن قبلكم، فاعتبروا بهم؛ إذ هم ليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمساوى، فلا يبعد عنكم ما أصابهم. وإنما أقرد «بعيد»؛ لأن المراد: وما إهلاكهم، أو وما هم بشيء بعيد.

﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ عما أنتم عليه؛ ﴿إن ربي رحيم﴾؛ عظيم الرحمة للتائبين، ﴿ودود﴾؛ متودد إليهم، فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل البليغ المودة بمن يوده، وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار. قاله البيضاوى.

الإشارة: قد تضمنت خطبة شعيب ﷺ ست خصال، من اجتمعت فيه فاز بسعادة الدارين:

الأولى: فتح البصيرة، ونفوذ العزيمة، وتنوير القلب بمعرفة الله، حتى يكون على بينة من ربه.

الثانية: تيسير الرزق الحلال، من غير تعب ولا مشقة، يستعين به على طاعة ربه، ويقوم به بمؤنة أمره.

الثالثة: السعى فى إصلاح عباد الله وإرشادهم، ودعائهم إلى الله من غير طمع ولا حرف، ويكون حاله يصح مقالته، فلا يترك ما أمر به، ولا يفعل ما نهى عنه.

الرابعة: الاعتماد على الله والرجوع إليه فى توفيقه وتسديده، وفى أمر دنياه ودينه، بحيث لا يرجو إلا الله، ولا يخاف إلا منه.

الخامسة: الحذر والتحذير من مخالفة ما جاءت به الرسل من عند الله، والتمسك بما أمروا به من طاعة الله، والاعتبار بمن هلك قبله ممن خالف أمر الله.

السادسة: تحقيق التوبة والانكسار، والاكتثار من الذكر والاستغفار. فذلك سبب المودة من الكريم الغفار. ولأجل هذه الخطبة سُمى شعيب خطيب الأنبياء. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هود عليه السلام، فقال:

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قلت: «أخاهم»: عطف على نوح في قوله: (ولقد أرسلنا نوحاً)، و(هوداً): بدل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى﴾ قبيلة ﴿عاد﴾ أخاهم هوداً، قال يا قوم اعبدوا الله وحده، ﴿مالكم من إله غيره﴾ يستحق أن يعبد، ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾ على الله، باتخاذ الأوثان آلهة. ﴿يا قوم لا أسألكم عليه﴾: على التبليغ ﴿أجراً﴾ حتى يثقل عليكم، أو تتهموني لأجله، ﴿إن أجرى إلا على الذي فطرني﴾؛ خلقتني. بهذا خاطب كل رسول قومه؛ إزاحةً للتهمة، وتمحيصاً للنصيحة، فإنها لا تنجع مادامت مشوية بالمطامع. ﴿أفلا تعقلون﴾: أفلا تستعملون عقولكم؛ فتعرفوا المحق من المبطل، والصواب من الخطأ.

﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ من الشرك، ﴿ثم توبوا إليه﴾، ثم ارجعوا إليه بطاعته فيما أمر ونهى. أو: ثم توبوا من المعاصي؛ لأن التوبة من الذنوب لا تصح إلا بعد الإيمان، والتطهير من الشرك، ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ أى: كثير الدر، أى النزول، ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾: يضاعف قوتكم، ويزدكم فيها. وإنما دعاهم إلى الله، ووعدهم بكثرة المطر وزيادة القوة؛ لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات. وقيل: حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام نسايتهم ثلاثين سنة؛ فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بالأمطار وتضاعف القوة بالتنازل. قاله البيضاوي.

وقال ابن جزري: وفي الآية دليل على أن التوبة والاستغفار سبب لنزول المطر. روى: أن عاداً كان المطر قد حبس عنهم ثلاث سنين، فأمرهم بالتوبة والاستغفار، ووعدهم على ذلك بالمطر. هـ. ﴿ولا تتولوا﴾: ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه، ﴿مجرمين﴾؛ مصرين على إجرامكم.

الإشارة: في تكرير القصص والأخبار وعظ وتذكير لأهل الاعتبار، وزيادة إيقان لأهل الاستبصار، وتهديد وتخويف لأهل الإصرار، وحث على المبادأة إلى التوبة والاستغفار. قوله تعالى: (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه)، أى: استغفروا ربكم من الشرك الخفى، ثم توبوا إليه من النظر إلى وجودكم، ورؤية أعمالكم، يرسل سحب

الواردات الإلهية والعلوم الإلهامية على قلوبكم وأسراركم، مدراراً، ويزدكم قوة في شهود الذات إلى قوتكم في شهود الصفات، ولا تقولوا عن شهوده بشهود أثره، مجرمين معدودين في زمرة المجرمين المصيرين على الكبائر، وهم لا يشعرون.

وقال الورتجبي: استغفروا من النظر إلى غيري، وتوبوا إلى من نفوسكم، ورؤية طاعتكم وأعواضها، يرسل سماء القدم على قلوبكم مدرار أنوار تجليها، ويزدكم، أي: يزد قوة أرواحكم في طيرانها. انظر تمامه.

ثم ذكر ما أجابه به قومه، فقال:

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنْ تَوَلَّيْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٥٧﴾ ﴾

قلت: (إن نقول إلا اعتراك): الاستثناء مفرغ، واعتراك: مقول لقول محذوف، أي: ما نقول إلا قولنا اعتراك، (ما من دابة): ماء، نافية، ومن، صلة ودابة، مبتدأ مجرور بمن الزائدة، وجملة (إلا هو آخذ): خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾؛ بمعجزة واضحة تدل على صدق دعواك، وهذا كذب منهم وجحود؛ لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات. وفي الحديث: «ما من نبي إلا أوتي من المعجزات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة» (١). كما في الصحيح. ويحتمل أن يريدوا: ما جئتنا بآية تنظر إلى الإيمان بك، وإن كان قد أتاهم بآية نظرية. ولم يذكر في القرآن معجزة معينة لهُود عليه السلام، مع الاعتقاد أنه لم يخل من معجزة؛ لما في الحديث.

ثم قالوا: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا ﴾؛ بتاركى عبادتهم ﴿ عَنْ قَوْلِكَ ﴾ أي: بسبب قولك، أو صادرين عن قولك، ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أبداً، وهو إقناط له عن الإجابة والتصديق. ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ ﴾؛ أصابك ﴿ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾؛ بجنون؛ لما سببتها، ونهيت عن عبادتها، ولذلك صرت تهذو وتتكلم بالخرافات.

(١) أخرجه البخاري في (الاعتصام، باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم) ومسلم في (الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم ذكر جواب قومه، فقال:

﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾

قلت: «سوف تعلمون»: ذكره هنا بغير فاء، وفي الأنعام بالفاء (١)؛ لأن الكلام في سورة الأنعام مع الأمة المحمدية، فأتى بالفاء لمطلق السببية، وهنا مع قوم شعيب عليه السلام، فحذفها؛ لأنه أبلغ في التهويل. فكان الجملة بيانية لجواب سائل قال: فما يكون بعد ذلك؟ فقال: سوف تعلمون... الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قَالُوا يَا شَعِيبُ مَا نَفَقَهُ ﴾؛ ما نفهم ﴿ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ من أمر التوحيد، وترك التبخيس، وما ذكرت من الدليل عليها؛ وذلك لانهماكهم في الهوى، وقصور عقولهم، وعدم تفكيرهم. وقيل: قالوا ذلك استهانة بكلامه، أو لأنهم لم يلقوا إليه أذهانهم لشدة نفرتهم. ثم قالوا: ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾؛ لا قوة لك تمتنع بها منا إن أردنا بك سوءاً، أو: نراك ناحل البدن، أو: ضرير البصر. وضعفه ابن عطية (٢). ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ أى: قومك، الذين هم بأقون على ملتنا، وكونهم في عزة عندنا، ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾: لقتلناك بالحجارة. أو بأصعب وجه، ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾؛ فتمنعنا عزتك من رجمك.

قال البيضاوي: وهذا ديدن السفية المحجوج، يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد. وفي إيلاء ضميره حرف النفي تنبيه على أن الكلام فيه لا في ثبوت العزة، وأن المانع لهم من إيذائه عزة قومه. ولذلك قال: ﴿ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ ﴾، وجعلتموه كالمنسى المنبوذ وراء الظهر، بإشراككم به، والإهانة لرسوله. وهو يحتمل الإنكار والتوبيخ والرد والتكذيب. والظهرى: منسوب إلى الظهر، والكسر من تغيير البناء. هـ. قال ابن جزى: فإن قيل: إنما وقع الكلام فيه وفي رهطه، بأنهم هم الأعزة دونه، فكيف طابق جوابه كلامهم؟ فالجواب: أن تهاونهم به، وهو رسول الله، تهاون بالله. فلذلك قال: ﴿ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾. هـ.

(١) في قوله تعالى: (قَالَ يَنْقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) الآية: ١٣٥.
(٢) قال ابن عطية: وهذا ضعيف، لأنقوم عليه حجة بضعف بصره أو بدنه، والظاهر من قولهم: ضعيفاً، أنه ضعيف الانتصار والقدرة.

﴿إِنْ رُبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء منها، فيجازى عليها بتمامها. ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتَتِكُمْ﴾: على حالتكم من تمكنتكم في الدنيا، وعزتكم فيها، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على حالي، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من يأتيه عذاب يخزيه، يهيئه في الدنيا والآخرة، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من هو كاذب ﴿مَنْ مِّنكُمْ﴾ وارتقبوا؛ وانتظروا ما أقول لكم، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: مرتقب لذلك. وهو فعيل بمعنى فاعل، كالصریح والرفيع. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا يفقه المواعظ والتذكير إلا أهل الإيمان والتنوير. وأما القلب القاسي بالكفر والمعاصي فلا يسمع إلا ما تسمعه البهائم من الناعق والراعى. فيقدر ما يرق القلب يتأثر بالمواعظ، ويقدر ما يغلظ باتباع الحظوظ والهوى؛ يغيب عن تدبير المواعظ. وسبب تنوير القلب ورقته: قربه من الله، وتعظيمه لحرمات الله، وتعظيم من جاء من عند الله من أنبيائه ورسله، وورثتهم القائمين بحجته، كالأولياء والعلماء الأتقياء. وسبب ظلمة القلب وقساوته: بعده من الله، وإهانته لحرمات الله، واتخاذة أمره ظهرياً، وجعل ذكره نسياً منسياً. وبالله التوفيق.

ثم ذكر هلاك قوم شعيب، فقال:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ أَلَا بُعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولما جاء أمرنا﴾: عذابنا لقوم شعيب، ﴿نجَّينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾، لا بعمل استحقوا به ذلك؛ إذ كل من عنده، ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾ قيل: صاح بهم جبريل فهلكوا، ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾: ميتين. وأصل الجثوم: اللزوم في المكان. ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ كأن لم يقيموا فيها ساعة، ﴿ألا بعداً للمدين كما بعدت ثمود﴾، شبههم بهم؛ لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة، غير أن صيحة ثمود كانت من فوق، وصيحة مدين كانت من تحت، على ما قيل، ويدل عليه: التعبير عنهما بالرجفة في آية أخرى^(١)، والرجفة في الغالب إنما تكون من ناحية الأرض. وفي البيضاوي خلاف هذا، وهو غير جيد.

قال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أمتين: أصحاب الأيكة، وأصحاب مدين، فأهلك أصحاب الأيكة بالظلة، على ما يأتي، وأما أهل مدين فصاح بهم جبريل صيحة؛ فهلكوا أجمعين. قيل: وآمن بشعيب من الفلتين: تسعمائة إنسان. وكان أهل الأيكة أهل غيطة وشجر، وكان شجرهم الدوم^(٢) - وهو شجر المقل.

(١) كما في قوله تعالى: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾. الأعراف ٧٨، ٩١.

(٢) الدوم: شجر يشبه النخلة.

الإشارة: سبب النجاة من الهلاك في الدارين: توحيد الله، وتعظيم من جاء من عند الله. وسبب الهلاك: الإشراك بالله، وإهانة من عظمه الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر رسالة موسى ﷺ بعد شعيب؛ لأنه من تلامذته، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾؛ بمعجزاتنا الدالة على صدقه، ﴿ وسلطان مبین ﴾؛ وتسلط ظاهر على فرعون، أو برهان بين على نبوته. قال البيضاوي: والفرق بينهما: أن الآية تعم الأمانة والدليل القاطع، والسلطان يخص بالقاطع، والمبين يخص بما فيه جلاء. هـ. أرسلناه ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾؛ جماعته، ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ أى: اتبعوا أمره بالكفر بموسى، أو: فما اتبعوا موسى الهادى إلى الحق، المزيد بالمعجزات القاهرة الباهرة، واتبعوا طريقة فرعون المنهمك في الضلالة والطغيان، الداعى إلى ما لا يخفى فساده على من له أدنى مسكة من العقل؛ لفرط جهالتهم، وعدم استبصارهم، ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ أى: ليس أمره برشد وصواب، وإنما هو غي وضلال.

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ إلى النار، كما يتقدمهم في الدنيا إلى الضلال، ﴿ فأوردهم ﴾: أدخلهم ﴿ النار ﴾ ذكره بلفظ الماضي؛ مبالغة في تحققه، ونزل النار لهم منزلة الماء، فسمى إتيانها موردا. ثم قال: ﴿ وبئس المورد المورود ﴾ أى: بئس المورد الذى وردوه، فإن المورد إنما يراد لتبريد الأكباد، وتسكين العطش، والنار بضد ذلك. والآية كالدليل على قوله: ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾؛ فإن من هذا عاقبته لم يكن فى أمره رشد، أو تفسير له، على أن المراد بالرشيد: ما يكون مأمون العاقبة حميدها. قاله البيضاوي. ﴿ وأتبعوا في هذه لعنة يوم القيامة ﴾ أى: تتبعهم اللعنة في الدارين ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾: بئس العون المعان، أو العطاء المعطى. فالرفد: العطاء، والإرفاد: المعونة، ومنه: رفادة قريش، أى: معونتهم للفقراء في الحج بالطعام. والمخصوص بالذم محذوف، أى: رفدهم، وهو اللعنة في الدارين.

الإشارة: إذا أردت أن تعرف قدر الرجل في مرتبة الخصوصية؛ فاسأل عن إمامه الذى يقتدى به، فإن كان من أهل الخصوصية فصاحبه من الخصوص، إن دامت صحبته معه، وإن كان من العموم فصاحبه من العموم.

والمراد بالخصوصية: تحقيق مقام الفناء، ودخول بلاد المعانى. فكل من لم يحصل مقام الفناء، ولم يشهد إلا المحسوسات فهو من العوام، ولو بلغ من العلم والعمل ما بلغ، ولو رأى من الكرامات أمثال الجبال. فمن صاحب مثل هذا الذى لم يفن عن نفسه، ولم يخرج عن دائرة حسه، لم يخرج من العمومية؛ لأن نفسه فرعونية. قال تعالى: ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾، وفى الخبر: «المرء على دين خليله» وقال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قريبه فكل قرين بالمقارن يقتدى^(١)

والله تعالى أعلم.

ثم وعظ نبيه بما جرى على الأمم المتقدمة آنفاً، فقال:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ ١٠٠ ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ ﴾ ١٠١ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ١٠٢ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ ١٠٣ ﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴾ ١٠٤ ﴿

قلت: (ذلك): مبتدأ. (من أنباء): خبر، (ونقصه): خبر ثان. وجملة: (منها قائم وحصيد): استئنافية لا حالية؛ لعدم الرابط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ذلك ﴾ النبأ الذى أخبرناك به فى هذه السورة، هو ﴿ من أنباء القرى ﴾ الماضية المهلكة، ﴿ نقصه عليك ﴾، ونخبرك به؛ تهديداً لأمتك وتسلياً لك. ﴿ منها ﴾ ما هو ﴿ قائم ﴾ البناء باقى الأثر، ﴿ و ﴾ منها ﴿ حصيد ﴾ أى: محصود عافى الأثر، كالزراع المحصود. أو: منها ما هو ساكن بقوم آخرين، قائم العمارة بغير من هلك، ومنها ما هو دارس عفى أثره، واندرست أطلاله.

قال تعالى: ﴿ وما ظلمناهم ﴾ يهلكنا إياهم، ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بأن عرضوها له؛ بارتكابهم ما يوجب هلاكهم، فعبدوا معى غيرى، ﴿ فما أغنت عنهم ﴾: ما نفعتهم، ولا قدرت أن تدفع عنهم العذاب، ﴿ آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء ﴾ من ذلك العذاب، ﴿ لما جاء أمر ربك ﴾؛ حين جاءهم عذابه

(١) البيت منسوب إلى عدى بن زيد. انظر: نهاية الأرب ٦٥/٣ والعقد الفريد ٣١١/٢.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ أى: مثل ذلك الأخذ الربيل أخذ ربك ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ فلا يمهلهما، وقد يمهلهما ثم يأخذها. فكل ظالم معرض لذلك. وفي الحديث عنه ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ». ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ...﴾ الآية. فالآية تعم قرى المؤمنين؛ حيث عبر بظالمة دون كافرة. قاله ابن عطية. ﴿إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾؛ وجيع عظيم، غير مرجو الخلاص منه، وهو مبالغة فى التهديد والتحذير.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ الذى نسرده عليك من قصص الأمم الدارسة، ﴿لَايَةٌ﴾؛ لعبرة ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ فيعتبر به ويتعظ؛ لعلمه بأن ما حاق بهم أنموذج مما أعد الله للمجرمين فى الآخرة. وأما من أنكر الآخرة فلا ينفعه هذا الوعظ والتذكير؛ لفساد قلبه، وموت روحه.

﴿ذَلِكَ﴾ أى: يوم القيامة الذى وقع التخويف به، ﴿يَوْمَ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾: محشورون إليه أينما كانوا. وعبر باسم المفعول دون الفعل؛ للدلالة على الثبوت والاستقرار، ليكون أبلغ؛ لأن «مجموع» أبلغ من «يجمع». ﴿وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ أى: تشهده أهل السموات وأهل الأرض؛ لفصل القضاء، ويحضره الأولون والآخرون، لاقتضاء الثواب والعقاب. فالיום مشهود فيه،. فحذف الظرف اتساعاً. ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ﴾ أى: إلا لانتهاى مدة معدودة فى علم الله، لا يتقدم ولا يتأخر عنها، قد اختص الله تعالى بها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: التفكير والاعتبار من أفضل عبادة الأبرار؛ لأنه يزهد فى الدنيا الفانية، ويشوق إلى الدار الباقية، ويرقق القلب، ويستدعى مخافة الرب، فلينظر الإنسان بعين الاعتبار فى الأمم الخالية، والقرون الماضية، والأماكن الدارسة؛ كيف رحل أهلها عن الدنيا أحوج ما كانوا إليها، وتركوها أحب ما كانت إليهم؟ وفى بعض الخطب الوعظية: أين الفراعين المتكبرة، وأين جنودها المعسكرات؟ أين الأكاسير المنكسرة؟ وأين كنوزها المقنطرات؟ أين ملوك قيصر والروم؟ وأين قصورها المشيدات؟ أين ملوك عدن، أهل الملابس والحيجان^(١)؟ وأين ملوك اليمن، أهل العمائم والتيجان؟ قد دارت عليهم - والله - الأقدار الدائرات، وجرت عليهم برياحها العاصفات، وأسكنتهم تحت أطباق الرجام^(٢) المنكرات، وصيرت أجسامهم طعمة للديدان والحشرات، وأيئت منهم الزوجات، وأيئمت منهم البنين والبنات. أفضوا إلى ما قدموا، وانقادوا قهراً إلى القضاء وسلموا. فلا ما كانوا أملوا أدركوا، ولا إلى ما فاتهم من العمل الصالح رجعوا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر شأن ذلك اليوم المشهود، فقال:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ النَّفْسُ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنْهُمْ

النَّارُ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلْدِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ

(١) الحيجان: جمع غير قياسى للمحجن، وهو: عصا مَعْقَفَة الرأس كالصولجان.

(٢) أى: الحجارة.

فَعَالٌ لِّمَآ يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

قلت: (يوم يأتي): العامل في الظرف: «لا تكلم»، أو: اذكر، مضمراً. والضمير في «يأتي»: يعود على اليوم. وقال الزمخشري: يعود على «الله»؛ لعود الضمير عليه في قوله: (إلا بإذنه)، وضمير «منهم» على أهل الموقف المفهوم من قوله: (لا تكلم نفس).

يقول الحق جل جلاله: ﴿يوم يأتي﴾ ذلك اليوم المشهود، وهو: يوم الجزاء ﴿لا تكلم﴾ لا تكلم ﴿نفس﴾ بما يرفع وينجي في جواب أو شفاعاة ﴿إلا بإذنه﴾ تعالى، وهذا كقوله: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن﴾^(١)، وهذا في موقف، وقوله: ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾^(٢)، في موقف آخر. والمأذون فيه هي الجوابات الحقية، أو الشفاعات المرضية، والممنوع منه هي الأعذار الباطلة.

ثم قسم أهل الموقف، فقال: ﴿فمنهم شقي﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد؛ لكفره وعصيانته. ﴿و﴾ منهم ﴿سعيد﴾ وجبت له الجنة بمقتضى الوعد؛ لإيمانه وطاعته. ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق﴾، الزفير: إخراج النفس، والشهيق: رده. ويستعملان في أول النهيق وآخره. أو الزفير: صوت المحزون، والشهيق: صوت الباكي. أو الزفير من الحلق، والشهيق من الصدر. والمراد بهما: الدلالة على شدة الكرب والغم، وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه، وانحصرت فيه روحه، أو تشبيه حالهم بأصوات الحمير. قاله البيضاوي.

﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ أي: سموات النار وأرضها. وهي دائمة أبداً، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾^(٣)، أو يكون عبارة عن التأييد: كقول العرب: ما لاح كوكب وما ناح الحمام، وشبه ذلك بما يقصد به الدوام، وهذا أصح.

وقوله: ﴿إلا ما شاء ربك﴾، للناس هنا كلام واختلاف. وأحسن ما قيل فيه؛ ما ذكره البقاعي، قال: والذي ظهر لي - والله أعلم - أنه لما تكرر الجزم بالخلود في الدارين، وأن الشرك لا يغفر، والإيمان موجب للجنة، فكان

(١) من الآية: ٣٨ من سورة النبا.

(٢) الآيتان: ٣٥ - ٣٦ من سورة المرسلات.

(٣) من الآية: ٤٨ من سورة إبراهيم.

ربما يُظن أنه لا يمكن غير ذلك، كما ظنه المعتزلة، لاسيما إذا تأمل القطع في مثل قوله: ﴿إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِشَيْءٍ عَذَابًا فَلَا يَصُدُّهُ عَنْهُ شَيْءٌ سِوَاهُ اللَّهِ﴾ (١)، مع تقييد غيره بالمشيئة في قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (١)، جاء هذا الاستثناء معلما أن الأمر فيه إلى الله كغيره من الأمور، له أن يفعل في كلها ما يشاء، وإن جُزم القول فيه، لكنه لا يقع غير ما أخبر به، وهذا كما تقول: اسكن هذه الدار عمرك إلا ما شاء زيد، وقد لا يشاء زيد شيئا. فكما أن التعليق بدوام السموات والأرض غير مراد الظاهر، كذلك الاستثناء، فلا يشاء الله قطع الخلود لأحد من الفريقين، وسوقه هكذا أدل على القدرة وأعظم في تقليد المنة. هـ.

وقال الجلال السيوطي، في البدور السافرة في أمور الآخرة: اعلم أن للعلماء في هذا الاستثناء أقوالا، أشبهها بالصواب: أنه ليس باستثناء، وإنما «إلا» بمعنى «سوى»، كما تقول: لي عليك ألف درهم إلا ألفان، التي لي عليك، أي: سوى الألفين، والمعنى: خالدين فيها قدر مدة السموات والأرض في الدنيا سوى ما شاء ربك من الزيادة عليها، فلا ينتهي له. وذلك عبارة عن الخلود. والنكتة في تقديم ذكر مدة السموات والأرض: التقريب إلى الأذهان بذكر المعهود أولا، ثم أرففه بما لا إحاطة للدهر به. والجرى على عادة العرب في قولهم في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده: لا أتيك مادامت السموات والأرض. هـ. ومثله لابن عطية. قال: ويؤيد هذا التأويل قوله بعد: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ﴾ أي: غير مقطوع، وهذا قول الفراء، فإنه يقدر الاستثناء المنقطع بسوى، وسيبويه ولكن. هـ. وقال الورتجبي: قال ابن عطاء: (إلا ما شاء ربك) من الزوائد لأهل الجنة من الثواب. ومن الزوائد لأهل النار من العقاب. هـ. (إن ربك فعال لما يريد) من غير حجر ولا اعتراض.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ كما تقدم. ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ﴾: غير مقطوع، وهو تصريح بأن الثواب غير مقطوع، وتنبيه على أن المراد من الاستثناء تعليم الأدب فقط. والله تعالى أعلم.

الإشارة: السعادة على قسمين: سعادة الظاهر، وسعادة الباطن. والشقاوة كذلك. أما سعادة الظاهر ففي الدنيا بالراحة من التعب، وفي الآخرة بالنجاة من العذاب. وأما سعادة الباطن ففي الدنيا براحة القلب من كد الهموم والأحزان، باليقين والاطمئنان، في حضرة الشهود والعيان، وفي الآخرة بدوام النظر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وشقاوة الظاهر باتصال الكد والتعب. وشقاوة الباطن بالبعد عن الله، وافتراقه عن حضرة مولاه.

قال في نواذر الأصول: الشقاوة: فراق العبد من الله، والسعادة اندساسه إليه. هـ. وقال الشيخ أبو الحسن رحمته الله في حزيه الكبير: والسعيد من أغنيته عن السؤال منك، والشقي حقا من حرمة مع كثرة السؤال لك.

(١) الآية: ٤٨ من سورة النساء.

قال شيخ شيوخنا - سيدي عبد الرحمن الفاسي - في حاشيته عليه: ومدار السعادة: الجمع على الله والغيبة عن سواه، فيفنى العبد عن وجوده، ويبقى بربه، فيشغله استغراقه في شهوده عن الشعور بتغيريته، وينمحي عنه أمل شيء يرجي، أو خوف شيء يتقي، فليس له عن سوى الحق إخبار، ولا مع غيره قرار. وعندما حل بهذه الحضرة، وظفر بقرة عينه، وحياة روحه، وسر حياته، لا يتصور منه سؤل، ولا فوات مأمول. وأنت مع الأكوان مالم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك، «اشتأقت الجنة إلى عليٍّ وعمارٍ وسلمانٍ وصهيبٍ وبلالٍ» كما في الأثر. نعم، إن رد إليه تصور منه الدعاء على وجه العبودية، وأداء الأمر وإظهار الفاقة، لا على وجه الاقتضاء والسببية. «جل حكم الأزل أن ينضاف إلى الأسباب والعلل».

ثم قال: وعلى ما تقرر في السعادة، فالشقاوة: احتجاب العبد بوجوده عن شهوده، فلا ينفك عن أمل، ولا عن خوف عطب. فيستحثه الطبع للسؤال جلباً أو دفعا. وهو في ذلك في شقاء، سواء أعطى أو منع؛ لفقده قرة عينه وراحة قلبه، لأسره في طبعه، ومكابدة أمره وهله. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (١). فلم يستثن من كد الطبع ومكابدته غير أهل الصلاة الدائمة، وهم أهل الوجهة لله، المواجهين بعناية الله، المتحققين بذكر الله. وقد ورد: «هُمْ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ» فضلا عنهم. وعلى الجملة: فالمراد بالسعادة والشقاوة في كلامه - أي: الشاذلي - الباطنة لا الظاهرة، والقلبية لا القلبية. وإن كان قد تطلق على ذلك أيضا، لكن لكل مقام مقال. وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (٢).

قال في نوارد الأصول: تابع القرآن قد أجبر من شقاء العيش في الدنيا؛ لراحة قلبه من غموم الدنيا وظلماتها، وسيره في الأمور بقلبه في راحة؛ لأنه منشرج الصدر واسع، وبدنه في راحة؛ لأنه ميسر عليه أمور الدنيا، تهيأ له في يسر؛ لضمان الله، واكتفاه له. وكذا يجار في الآخرة من شقاء العيش في سجون النيران. أعاذنا الله من ذلك. هـ.

ثم حذر من الشرك، الذي هو سبب الخلود في النار، فقال:

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا

لَمَوْفُونَ بِنَصِيحِهِمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

(١) الآيات: ١٩ - ٢٢ من سورة المعارج.

(٢) من الآية ١٢٣ من سورة طه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَلَا تَكُ يَا مُحَمَّدُ ﴿فِي مَرِيَةٍ﴾. فِي شَكِّ ﴿مَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ الْمُشْرِكُونَ، أَيْ: لَا تَشْكُ فِي فُسَادِ مَا هُمْ فِيهِ، بَعْدَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ مِنْ حَالِ النَّاسِ، وَتَبْيِينَ مَا لِأَهْلِ السَّعَادَةِ الْمَوْحِدِينَ، مِمَّا لِأَهْلِ الشَّقَاءِ الْمُشْرِكِينَ، ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾، وَهُوَ تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ، أَيْ: مَا يَعْبُدُونَ عِبَادَةً إِلَّا كَعِبَادَةِ آبَائِهِمْ. أَوْ مَا يَعْبُدُونَ شَيْئاً إِلَّا مِثْلَ مَا عْبَدَ آبَاؤُهُمْ مِنَ الْأَوْثَانِ؛ تَقْلِيداً مِنْ غَيْرِ بَرَهَانٍ، وَقَدْ بَلَّغْتَ مَا لِحَقِّ آبَائِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فَسَيُلْحَقُهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ؛ لِاتِّفَاقِهِمْ فِي سَبَبِ الْهَلَاكِ. ﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَ بِمَا نَصِيبُهُمْ﴾ حَظَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، كَأَبَائِهِمْ، ﴿غَيْرِ مَنْقُوصٍ﴾ مِنْ نَصِيبِهِمْ شَيْءٌ. فَالْتَوْفِيقُ لَا تَقْتَضِي التَّمَامَ. تَقُولُ: وَفِيهِ حَقٌّ، وَتُرِيدُ وَفَاءَ بَعْضِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الإشارة: فَلَا تَكُنْ أَيْهَا الْعَارِفُ فِي مَرِيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ الْعَوَامُ، مِنْ جَمْعِ الدُّنْيَا، وَالتَّكَاثُرِ مِنْهَا، وَصَرَفِ الْهَمَّةِ إِلَى تَحْصِيلِهَا، وَاسْتِعْمَالِ الْفِكْرِ فِي أَسْبَابِ جَمْعِهَا، وَانْهَمَاكِ النَّفْسَ فِي حَظْوْظِهَا وَشَهَوَاتِهَا. مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ، مِمَّنْ سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ الذَّمِيمَ، وَإِنَّا لَمُوفُونَ بِمَا نَصِيبُهُمْ غَيْرِ مَنْقُوصٍ، بِانْحِطَاطِ دَرَجَتِهِمْ عَنْ دَرَجَةِ الْمُقَرَّبِينَ. قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: دَارُ الدُّنْيَا كَأَحْلَامِ الْمَنَامِ، وَسُرُورُهَا كَظُلِّ الْغَمَامِ، وَأَحْدَاثُهَا كَصَوَائِبِ السَّهَامِ، وَشَهَوَاتُهَا: كَمَشْرِبِ الشَّمَامِ، وَفَتْنَتُهَا كَأَمْوَاجِ الطَّوَامِ. هـ.

ولما ذكر رسالة موسى عليه السلام، وشأن فرعون ووبال من تبعه، ذكر نزول التوراة عليه، فقال:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ كُلًّا لَمَّا لِيُوفِيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

قلت: (وَإِنْ كُلًّا لَمَّا لِيُوفِيْنَهُمْ): إِنْ: مَخْفَقَةٌ عَامِلَةٌ، وَالتَّنْوِينُ فِي (كُلًّا) عَوْضٌ عَنِ الْمُضَافِ. وَهَاءُ: مُوصُولَةٌ، وَاللَّامُ: لَامُ الْابْتِدَاءِ، وَ(لِيُوفِيْنَهُمْ): جَوَابٌ لِقَسَمِ مُحْذُوفٍ، وَجُمْلَةُ الْقَسَمِ وَجَوَابُهُ: صَلَءٌ هَاءُ، أَيْ: وَإِنْ كُلَّ الْفَرِيقَيْنِ لِلَّذِينَ، وَاللَّهُ، لِيُوفِيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ. وَمَنْ قَرَأَ: «لَمَّا»؛ بِالتَّشْدِيدِ، فَعَلَى أَنْ (إِنْ) نَافِيَةٌ، وَهَاءُ بِمَعْنَى إِلَّا، وَقِيلَ: غَيْرَ هَذَا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾: التَّوْرَةَ، ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾: فَأَمَّنَ بِهِ قَوْمٌ وَكَفَرُ بِهِ قَوْمٌ، كَمَا اخْتَلَفَ هَؤُلَاءُ فِي الْقُرْآنِ، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾: وَهِيَ: كَلِمَةُ الْإِنْظَارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: بِإِنْزَالِ مَا يَسْتَحِقُّهُ الْمُبْطِلُ مِنَ الْهَلَاكِ، وَنَجَاةِ الْمُحَقِّ. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾: أَيْ: قَوْمُ مُوسَى، أَوْ كِفَارِ قَوْمِكَ، ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾: أَيْ: التَّوْرَةَ، أَوْ مِنَ الْقُرْآنِ، ﴿مُرِيبٍ﴾: مَوْعٍ فِي الرِّيْبَةِ. ﴿وَإِنْ كُلًّا﴾: مِنْ

الفريقين المختلفين، المؤمنين والكافرين، للذين ﴿لِيُوفِيَنَّهُمْ رَبُّكَ﴾ جزاء أعمالهم، ولا يهمل منه شيئاً. ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فلا يفوته شيء منه وإن خفى.

الإشارة: الاختلاف على الأنبياء والأولياء سنة ماضية. ولولا أن الله سبحانه حكم في سابق علمه أنه لا يفصح الضمائر إلا يوم تبلى السرائر، لفصح أسرار البطالين، وأظهر منار الذاكرين من السائرين أو الواصلين. لكنه سبحانه أخر ذلك بحكمته وحلمه، إلى يوم الدين. والله تعالى أعلم.

ثم بين أصل الأعمال وأفضلها، وهى الاستقامة، فقال:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٢) وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النِّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴿

قلت: (ومن تاب) : عطف على فاعل (استقم)؛ للفصل، (فتمسكم) : جواب النهي. ويقال: ركن يركن: كعلم يعلم، وركن يركن: كدخل يدخل. و (ثم لا تنصرون) : مستأنف لا معطوف، و(طرفى) : منصوب على الظرفية. و(زلفا) : جمع زلفة، كقربة، أزلفه: قربه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فاستقم﴾ يا محمد ﴿كما أمرت﴾، ﴿و﴾ ﴿ليستقم﴾ من تاب معك ﴿من الكفر وآمن بك﴾. وهى شاملة للاستقامة فى العقائد؛ كالتوسط بين التشبيه والتعطيل، بحيث يبقى العقل مصوناً من الطرفين، وفى الأعمال؛ من تبليغ الوحى، وبيان الشرائع كما أنزل، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط ولا إفراط. وهى فى غاية العسر. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «شيبتنى هود»^(١). قاله البيضاوى.

قال المحشى الفامى: واللائق أن إشفاقه - عليه الصلاة والسلام - من أجل أمته لا من أجل نفسه؛ لأجل عصمته، وإنما أشفق عليهم لتوعد اللعين لهم بقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢). هـ. قلت: ولا يبعد

(١) الحديث كاملاً: «شيبتنى هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت». أخرجه الترمذى وحسنه فى (كتاب التفسير - سورة الواقعة) والحاكم فى المستدرک (٣٤٣/٢) وصححه ووافقه الذهبى، وأخرجه البيهقى فى الدلائل (٣٥٧/١) واليغوى فى شرح السنة (٣٧٢/١٤) وفى التفسير، كلهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) من الآية: ١٦ من سورة الأعراف.

أن يكون أشفق - عليه الصلاة والسلام - من صعوبة استقامته التي تليق به، فبقدر ما يعلو المقام يطلب بزيادة الأدب، وبقدر ما يشتد القرب يتوجه العتاب. ولذلك كان الحق تعالى يعاتبه على ما لا يعاتب عليه غيره. وقد قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد تقدم كلام الإحياء في قوله: ﴿أَلَا بَعْدَ لَعَادٍ﴾ (١).

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾؛ ولا تخرجوا عما حد لكم، ﴿إِنَّهٗ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فيجازيكم على التقير والقطمير، وهو تهديد لمن لم يستقم، وتعليل للأمر والنهي. ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: لا تميلوا إليهم أدنى ميل، فإن الركون: هو الميل اليسير، كالتزوي بزيتهم، وتعظيم ذكركم، وصحبته من غير تذكيرهم ووعظهم. ﴿فَتَمْسَكُكُمْ النَّارُ﴾؛ لركونهم إليهم. قال الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملاً (٢). هـ. وقال سفيان: في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك. هـ. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا لظَالِمٍ بِالْبَقَاءِ - أَيْ: بَأْنَ قَالَ: بَارَكَ اللَّهُ فِي عَمْرِكَ - فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصِيَ اللَّهَ فِي أَرْضِهِ» (٣) وسئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا. فقيل له: يموت؟ فقال: دعاه يموت. هـ. وهذا إغراق، ولعله في الكافر المحارب، والله أعلم.

قال البيضاوي: وإذا كان الركون إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً موجباً للدار، فما ظنك بالركون إلى الظالمين الموسومين بالظلم، ثم بالميل إليهم، ثم بالظلم نفسه، والانهماك فيه. ولعل الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه. وخطاب الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بها؛ للثبوت على الاستقامة التي هي العدل؛ فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط أو تفريط، ظلم على نفسه أو غيره، بل ظلم في نفسه. هـ.

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾؛ من أنصار يمنعون العذاب عنكم، ﴿ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ﴾: ثم لا ينصركم الله إن سبق في حكمه أنه يعذبكم.

ولما كان الركون إلى الظلم، أو إلى من تلبس به فتنة، وهي تكفرها الصلاة، كما في الحديث (٤)، أمر بها إثره، فقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ غدوة وعشية، ﴿وَزُلْفَىٰ مِنَ اللَّيْلِ﴾؛ ساعات منه قريبة من النهار. والمراد بالصلاة الأمور بها: الصلوات الخمس. فالطرف الأول: الصبح، والطرف الثاني: الظهر والعصر، والزلف من الليل: المغرب، والعشاء، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾؛ يكفرنها قال ابن عطية: لفظ الآية عام في

(١) راجع إشارة الآيات: ٥٨ - ٦٠ من سورة نفسها.

(٢) المراد بالعامل هنا: الحاكم أو الوالي.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغنى: لم أجده مرفوعاً، وإنما أورده ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت، من قول الحسن البصري.

(٤) سيذكر الشيخ الحديث بعد قليل.

الحسنات خاص في السيئات؛ لقوله ﷺ: «ما اجتنبت الكبائر»، ثم قال: وروى أن رسول الله ﷺ قال: «الجمعة إلى الجمعة كفارة، والصلوات الخمس، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر»^(١) انظر تمامه في الحاشية.

قال ابن جزى: روى أن رجلاً قبل امرأة، أقلت: هو نيهان التمار، فذكر ذلك للنبي ﷺ وصلى معه الصلاة، فنزلت الآية، فقال ﷺ: «أين السائل؟» فقال: ها أنا ذا، فقال: «قد غفر الله لك بصلاتك معنا». فقال الرجل: ألي خاصة، أو للمسلمين عامة؟ فقال: «للمسلمين عامة»^(٢). والآية على هذا مدنية. وقيل: إن الآية كانت قبل ذلك، وذكرها النبي ﷺ للرجل مستدلاً بها. والآية على هذا مكية كسائر السورة، وإنما تذهب الحسنات - عند الجمهور - الصغائر إذا اجتنبت الكبائر. هـ. قلت: وقيل: تكفر مطلقاً؛ اجتنبت الكبائر أم لا، وهو الظاهر، لأنه إذا حصل اجتناب الكبائر كفرت بلا سبب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ...﴾^(٣) الآية. وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما اجتنبت الكبائر». معناه: أن الصلوات والجمعة مكفرة لما عدا الكبائر.

والحاصل: أن من اجتنب الكبائر كفرت عنه الصغائر بلا سبب؛ لنص الآية. ومن ارتكب الكبائر والصغائر وصلى، كفرت الصغائر دون الكبائر، وبهذا تتفق الآية مع الحديث. والله تعالى أعلم.

قال ابن عطية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى...﴾^(٤) الآية: الشهادة ماحية لكل ذنب إلا لمظالم العباد. وقد روى: «أن الله يتحمل عن الشهيد مظالم العباد، ويجازيهم عنه»، ختم الله لنا بالحسنى. انتهى.

﴿ذلك﴾ أى: ما تقدم من وعظ ووعد ووعد، وأمر الاستقامة، أو القرآن كله، ﴿ذكرى للذاكرين﴾: عظة للمتقين. وخص الذاكرين؛ لمزيد انتفاعهم بالوعظ، لصقالة قلوبهم. وفي الخبر: «لكل شيء مصقلة، ومصقلة القلوب ذكر الله». ﴿واصبر﴾ على مشاق الاستقامة، ودوامها ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ وهم: أهل الاستقامة ظاهراً وباطناً.

الإشارة: الاستقامة على ثلاثة أقسام: استقامة الجوارح، واستقامة القلوب، واستقامة الأرواح والأسرار. أما استقامة الجوارح فتحصل بكمال التقوى، وتحقيق المتابعة للسنة المحمدية. وأما استقامة القلوب

(١) أخرجه مسلم في: (الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة.. مكفرات) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه بنحوه البخاري في (التفسير، سورة هود) ومسلم في (التوبة، باب قوله: إن الحسنات يذهبن السيئات) من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه. أما قول المفسر: (هو نيهان التمار) فقد جاء في سياق آخر، للعلبي في تفسيره، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٢٠٧/٨: وهذا إن ثبت حمل على واقعة أخرى، لما بين السياق من المغايرة.

(٣) من الآية: ٣١ من سورة النساء.

(٤) من الآية: ١١١ من سورة التوبة.

فتحصل بتطهيرها من سائر العيوب، كالكبر والعجب، والرياء، والسمعة، والحقد والحسد، وحب الجاه والعال، وما يتفرع عن ذلك من العداوة والبغضاء، وترك الثقة بمجىء الرزق، وخوف سقوط المنزل، من قلوب الخلق، والشح والبخل، وطول الأمل، والأشر والبطر، والغل والمباهاة، والتصنع والمداينة، والقسوة والفظاظة والغلظة، والغفلة والجفاء، والطيش، والعجلة، والحمية، وضيق الصدر، وقلة الرحمة. إلى غير ذلك من أنواع الرذائل.

فإذا تطهر القلب من هذه العيوب اتصف بأضدادها من الكمالات: كالتواضع لله، والخشوع بين يديه، والتعظيم لأمره، والحفظ لحدوده، والتذلل لربوبيته، والإخلاص في عبوديته، والرضى بقضائه، ورؤية المنة له في منعه وعطائه. ويتصف فيما بين خلقه بالرافة والرحمة، واللين والرفق، وسعة الصدر والحلم، والاحتمال والصيانة، والنزاهة والأمانة، والثقة والتأني، والوقار، والسخاء والجود، والحياء، والبشاشة والنصيحة. إلى غير ذلك من الكمالات.

وأما استقامة الأرواح والأسرار، فتحصل بعدم الوقوف مع شيء سوى الله تعالى، وعدم الالتفات إلى غيره حالا كان أو مقاما أو كرامة، أو غير ذلك: كما قال الششتري رحمته الله:

فلا تلتفت في السَّير غيراً، وكلُّ ما	سوى الله غير، فاتخذ ذكره حصناً
وكلُّ مقام لا تقم فيه إنه	حجاب، فجذ السَّير واستجد العونا
ومهما ترى كلُّ المراتب تجلسي	عليك فحل عنها، فعن مثلها حلنا
وقل: ليس لي في غير ذاتك مطلبٌ	فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنا

وقوله تعالى: (ولا تركزوا إلى الذين ظلموا): هو نهى عن صحبة الغافلين والميل إليهم. قال بعض الصوفية: قلت لبعض الأبدال: كيف الطريق إلى التحقيق، والوصول إلى الحق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق؛ فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لا بد لي، قال: لا تسمع كلامهم؛ فإن كلامهم قسوة، قلت: لا بد لي، قال: لا تعاملهم؛ لأن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة، قلت: أنا بين أظهرهم لا بد لي من معاملتهم؟ قال: لا تسكن إليهم؛ فإن السكن إليهم هلكة. قلت: هذا لعله يكون؟ قال: يا هذا؛ أنتظر إلى اللاعبين، وتسمع كلام الجاهلين، وتعامل البطالين، وتسكن إلى الهلكى، وتريد أن تجد حلاوة الطاعة، وقلبك مع غير الله عز وجل!! هيهات! هذا ما لا يكون أبداً. هـ. ونقل الورتجبي عن جعفر الصادق: ولا تركزوا إلى نفوسكم فإنها ظلمة. هـ.

ثم ذكر سبب هلاك الأمم الماضية، وهو فشو الظلم، وعدم تغيير المنكر، فقال:

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (١١٦)

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (١١٧)

قلت: (لولا)، تحضيضية، ويقترن بها هنا معنى التفجع والتأسف، كقوله: ﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ ﴾ (١)، وإلا قليلاً: منقطع، ولا يصح اتصاله، إلا إذا جعل استثناء من النفي اللازم للتحضيض. أى: ما كان فى القرون الماضية أولو بقية إلا قليل. يقال: فلان من بقية القوم، أى: خيارهم، وإنما قيل فيه «بقية»؛ لأن الشرائع والدول تقوى أولاً ثم تضعف. فمن ثبت فى وقت الضعف على ما كان فى أوله، فهو بقية الصدر الأول. قاله ابن عطية. وقوله: «بظلم»: حال من «ربك»؛ أى: ما كان ربك ليهلك القرى ظالماً لهم، أو متعلق بيهلك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَلَوْلَا ﴾ : فهلا ﴿ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ : كقوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكرهم، ﴿ أُولُوا بَقِيَّةٍ ﴾ من الرأى، والعقل ينكرون عليهم، أى: فهلا وجد فيهم من فيه بقية من العقل والحزم والثبوت، ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، لكن قليلاً ممن أنجينا منهم كانوا كذلك، فأنكروا على أهل الفساد، واعتزلوهم فى دينهم؛ فأنجيناهم. وفى هذا تحريض على النهى عن المنكر والأمر بالمعروف، وأنه سبب النجاة فى الدارين. ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ﴾ : ما أنعموا فيه من الشهوات، واهتموا بتحصيل أسبابها، وأعرضوا عما وراء ذلك، ﴿ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ كافرين. قال البيضاوى: كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم الماضية، وهو: فشو الظلم فيهم، واتباع الهوى، وترك النهى عن المنكرات مع الكفر. هـ.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾ أى: متلبساً بظلم، ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ ، فيعذبهم بلا جرم، أى: ما كان ليعذبهم ظالماً لهم بلا سبب. أو ما كان ليهلك القرى بشرك وأهلها مصلحون فيما بينهم، لا يضمنون إلى شركهم فساداً وبغياً، وذلك لفرط رحمته ومسامحته فى حقوقه. ومن ذلك قدم الفقهاء، عند تراحم الحقوق، حقوق العباد. وقال بعضهم: [الذنوب ثلاثة: ذنب لا يغفره الله، وهو الشرك. وذنب لا يعبأ الله به، وهو ما كان بينه وبين عباده، وذنب لا يتركه الله، وهو حقوق عباده]. وقالوا: قد يبقى الملك مع الشرك ولا يبقى مع الظلم.

الإشارة: أولو البقية الذين ينهون عن الفساد فى الأرض هم: أهل التور المخزون المستودع فى قلوبهم من نور الحق، إذا قابلوا منكراً دمعوه بالحال أو المقال، وإذا قابلوا فساداً أصلحوه، وإذا قابلوا فتنة أطفأوها. وإذا قابلوا بدعة

(١) من الآية: ٣٠ من سورة يس.

أحمدوها. وإذا واجهوا ضالا أرشده، أو غافلا ذكره، أو طالبا للوصول وصلوه، يمشون فى الأرض بالنصيحة، لا يخافون فى الله لومة لائم. أولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

قال رسول الله ﷺ: «والذى نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم: إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحبون الله إلى عبادته، ويحبون عباد الله إلى الله، ويمشون فى الأرض بالنصيحة» أما كونهم يحبون الله إلى عبادته؛ فلأنهم يذكرون لهم آلاءه وإحسانه وبره. والنفس تحب بالطبع من أحسن إليها. وأما كونهم يحبون عباد الله إلى الله؛ فلأنهم يردونهم عن غيهم وحظوظهم، التى تبعدهم عن ربهم. فإذا رجعوا إليه أحبهم.

وسئل ذو النون المصرى رحمته الله عن وصف الأبدال، فقال: سألت عن دياجى الظلام؛ لأكشف لك عنهم، هم قوم ذكروا الله بقلوبهم، تعظيماً لربهم؛ لمعرفتهم بجلاله، فهم حجج الله تعالى على خلقه، ألبسهم الله - تعالى - النور الساطع من محبته، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواسلته، وأقامهم مقام الأبطال لإرادته، وأفرغ عليهم من مخافته، وطهر أبدانهم بمراقبته، وطيبهم بطيب أهل معاملته، وكساهم حلالاً من نسج مودته، ووضع على رؤوسهم تيجان مبرته، ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب، فهى متعلقة بمواسلته، فهممهم إليه تائرة، وأعينهم بالغيب ناظرة، قد أقامهم على باب النظر من رؤيته، وأجلسهم على كراسى أطباء أهل معرفته، ثم قال لهم: إن أتاكم عليل من فقدى فداؤه، أو مريض من فراقى فعالجوه، أو خائف منى فانصروه، أو آمن منى فحذروه، أو راغب فى مواسلتى فمئوه، أو راحل نحوى فزودوه، أو جبان فى متاجرتى فشجعوه، أو آيس من فضلى فرجوه، أو راج لإحسانى فبشروه، أو حسن الظن بى فباسطوه، أو محب لى فواصلوه، أو معظم لقدرتى فعظموه، أو مسيء بعد إحسانى فعاتبوه، أو مسترشد فأرشدوه. هـ.

وهذا بقدر الله ومشيلته، كما قال تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۖ﴾

قلت: الاستثناء من ضمير «يزالون».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾، متفقين على الإيمان، أو الكفران، لكن مقتضى الحكمة وجود الاختلاف؛ ليظهر مقتضيات الاسماء فى عالم الشهادة؛ فاسمه: الرحيم والكريم يقتضى وجود من يستحق الكرم والرحمة، وهم: أهل الإيمان. واسمه: المنتقم والقهار يقتضى وجود من يستحق الانتقام

والقهرية، وهم أهل الكفر والعصيان. قال البيضاوي: وفيه دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة، وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كل أحد، وأن ما أراد يجب وقوعه. هـ.

﴿ولا يزالون مختلفين﴾؛ بعضهم على الحق، وهم أهل الرحمة والكرم، وبعضهم على الباطل، وهم أهل القهرية والانتقام. أو مختلفين في الأديان والملل والمذاهب، ﴿إلا من رحم ربك﴾؛ إلا ناساً هداهم الله من فضله، فاتفقوا على ما هو أصل الدين والعمدة فيه، كالتوحيد والإيمان بجميع الرسل وما جاءوا به، وهم المؤمنون.

وقوله: ﴿ولذلك خلقهم﴾؛ إن كان الضمير للناس، فالإشارة إلى الاختلاف، واللام للعاقبة، أى: ولنكون عاقبتهم الاختلاف خلقهم، وإن كان الضمير يعود على «من»، فالإشارة إلى الرحمة، أى: إلا من رحم ربك وللرحمة خلقه. ﴿وتمت كلمة ربك﴾ الأزلية على ما سبق له الشقاء، أى: نفذ قضاؤه ووعدته في أهل الشقاء، أو هى قوله للملائكة: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾؛ أى: من أهل العصيان منهما، لا من جميعهما.

الإشارة: الاختلاف بين الناس حكم أزلى، لا محيد عنه. وقد وقع بين أهل الحق وبين أهل الباطل. فقد اختلفت هذه الأمة في الأصول والفروع. أما الأصول فأهل توحيد الدليل وقع بينهم تخالف في صفات الحق، كالمعتزلة والقدرية والجهمية والجبرية مع أهل السنة. وأما الفروع فالاختلاف بينهم شهير. فقد كان في أول الاسلام اثنا عشر مذهباً، ولا تجد عالماً من علم الفروع إلا وبين أهله اختلاف، إلا أهل التوحيد الخاص، وهم: المحققون من الصوفية، فكلهم متفقون في الأذواق والوجدان، وإن اختلفت طرقهم، وكيفية سيرهم. فهم متفقون في النهايات، التى هى معرفة الشهود والعيان، على طريق الذوق والوجدان، وفى ذلك يقول ابن البنا - رحمه الله -:

مذاهبُ الناس على اختلاف ومذهبُ القوم على اختلاف

وأما قول من قال: [ما زالت الصوفية بخير ما اختلفوا، فإذا اتفقوا فلا خير فيهم]، فالمراد بالاختلاف: تغيير بعضهم على بعض، عند ظهور نقص أو عيب أو ذنب. فإذا اتفقوا وسكت بعضهم عن بعض فلا خير فيهم. وقوله عليه الصلاة والسلام: «خلاف أمتى رحمة». المراد: الاختلاف في الفروع كاختلاف المذاهب؛ ففي ذلك رخصة لأهل الاضطرار؛ لأن من قلد عالماً لقي الله سالماً. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة سرد قصص الأنبياء، فقال:

قلت: «وَكَلَّا، مفعول، نقص، و «ما» مفعول، نقص، و «كلا»: مصدر. أى: ونقص

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ

الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

عليك كلاً من الاقتصاص ما نثبت به فؤادك .

يقول الحق جل جلاله : وكل نبأ ﴿ نقص عليك ﴾ من أخبار الرسل، ونخبرك به ﴿ ما نثبت به فؤادك ﴾ ، ليزيدك يقيناً وطمأنينة وثباتاً بما تسمع من أخبارهم، وما جرى لهم مع قومهم، وما لقوا من الأذى منهم، فتتسلى بهم، وتثبت على أداء الرسالة، واحتمال أذى الكفار. ﴿ وجاءك في هذه ﴾ السورة، أو الأنبياء المقتصة عليك، ﴿ الحق ﴾ أى: ما هو حق، ﴿ وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ ، فيتحملون، ويصبرون لما يواجههم من الأذى والإنكار. الإشارة: ذكر أحوال الصالحين، وسيرهم وكراماتهم؛ جند من جنود القلب، وذكر أشعارهم ومواجيدهم جند من جنود الروح، وقد ورد: أن عند ذكرهم تنزل الرحمة، أى: رحمة القلوب باليقين والطمأنينة. والله تعالى أعلم. ثم أمره بتهديد من خالفه، فقال:

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ۖ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ۖ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ۖ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۖ ﴿١٢٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وكل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم ﴾ : حالكم ﴿ إنا عاملون ﴾ على حالنا، ﴿ وانتظروا ﴾ وقوع ما نزل بمن قبلكم ممن خالف رسوله؛ فإنه نازل بكم، ﴿ إنا منتظرون ﴾ ما وعدنا ربنا من النصر والعز.

﴿ ولله غيب السموات والأرض ﴾ لا يعلمه غيره؛ فلا يعلم غيب العواقب، ووقت وقوع المواعد إلا هو. ﴿ وإليه يرجع الأمر كله ﴾ فيرجع لا محالة أمرهم وأمرك إليه، ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾؛ فإنه كافيك أمرهم وأمر غيرهم. وفي تقديم العبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع التوكل العابد دون البطال. ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ أنت وهم، فيجازى كلاً ما يستحقه. أو عما يعمل الكافرون، فيمهلهم ولا يهملهم.

الإشارة: (فاعبده وتوكل عليه): يقول تعالى: يا عبدى؛ قم بخدمتى أقم لك بقسمتى، قف ببابى وانتسب لجنايى؛ أكفك شئونك، وتكن من أحبائى. أأدعوك لدارى، وأمنعك من وجود إررارى، أأكلفك بخدمتى، ولا أقوم لك بقسمتى، فتق بى كفيلاً، واتخذنى وكيلاً، أعطك عطاء جزيلاً، وأمنحك فخراً جليلاً. قال القشيري: ويقال: إن التوكل: سكون القلب بضمان الرب. ويقال: سكون الجأش فى طلب المعاش، ويقال: الاكتفاء بوعده عند عدم نقده، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد. وسيأتى تمامه فى سورة الفرقان، إن شاء الله. وبالله التوفيق. وهو الهادى إلى سواء الطريق. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.



سُورَةُ يُوسُفَ

مكية . وهي مائة وإحدى عشرة آية . وكأنها تتميم لما ذكر قبلها من قصص الأنبياء، فهي من جملة ما يثبت به الفؤاد، ويقع به التسلية، مما يواجه به العبد من الأنكاد . وإنما أفردت بالسورة، لمزيد شرح وطول .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّيْلَكَ ءَايَتْ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

قلت : (قرآنًا) : حال، و(عربيا) : نعت له . و(لعلمكم) : يتعلق بأنزلناه أو بعربيا . و (أحسن) : مفعول (نقص) ، و(بما أوحينا) : مصدرية، ويجوز أن يكون (هذا القرآن) : مفعول (نقص) ، و(أحسن القصص) : مصدر .

يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المجتبي، والمحبوب المنتقى، ﴿ تلك ﴾ الآيات التي تنلى عليك هي ﴿ آيات الكتاب ﴾ المنزل عليك من حضرة قدسنا، ﴿ المبين ﴾ أي : الظاهر صدقه، الشهير شأنه . أو الظاهر أمره في الإعجاز والبلاغة، الواضح معانيه في الفصاحة، والبراعة . أو المبين للأحكام الظاهرة والباطنة . أو البين لمن تدبره أنه عند الله . أو المبين لمن سأل تَعَنُّتًا من أبحار اليهود سؤَالَهُمْ ؛ إذ روى أنهم قالوا لكبراء المشركين : سلوا محمدا : لم انتقل يعقوب من الشام ؟ وعن قصة يوسف . فنزلت السورة .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ أي : الكتاب، ﴿ قرآنًا ﴾ أي : مقروءًا، أو مجموعًا، ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ بلغة العرب ﴿ لعلمكم تعقلون ﴾ أي : أنزلناه بلغتكم كي تفهموه وتستعملوا عقولكم في معانيه ؛ فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ممن لم يتعلم القصص، ولم يخالط من يعلم ذلك، معجز ؛ إذ لا يتصور إلا بالإحياء .

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ ؛ أحسن الاقتصاص ؛ لأنه اقتص على أبدع الأساليب، أو أحسن ما يقص ؛ لاشتماله على العجائب والحكم والآيات والعبر، ﴿ بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ مشتملا على هذه السورة التي فيها قصة يوسف، التي هي من أبدع القصص، ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ عن هذه

القصة، لم تخطر ببالك، ولم تفرع سمعك. قال البيضاوي: وهو تعليل لكونه موحى، وإن هذه: مخفية، واللام هي الفارقة. هـ.

الإشارة: ما نزل القرآن بلسان عربى مبين إلا لتعقل عظمة ربنا ونعرفه، وذلك لا يكون إلا بعد استعمال العقول الصافية، والأفكار المنورة، فى الغوص على درر معانيه. فحينئذ تطلع على أنوار التوحيد وأسرار التفريد، وعلى أنوار الصفات، وأسرار الذات، وعلى توحيد الأفعال وتوحيد الصفات وتوحيد الذات. قال تعالى: ﴿ما فرطنا فى الكتاب من شيء﴾ (١)، لكن لا يحيط بهذا إلا أهل التجريد، الذين صفت عقولهم من الأكدار، وتظهرت من الأغيار، وملئت بالمعارف والأسرار. قال تعالى: ﴿لِيَذَّبُوا آيَاتِهِ وَلِيَذَّكَّرُوا وَلِيَأْتُوا الْآثَابَ﴾ (٢). وهم: أهل العقول الصافية المتفرغة من شواغل الحس. والله تعالى أعلم.

ثم شرع فى ذكر القصة، فقال:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾
 ﴿١﴾ قَالَ يَبْنَىٰ لَكَ نَقْصُصٌ رُّءُ يَا كَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ
 عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ
 عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣﴾

قلت: (إذ قال): معمول لا ذكر، أو بدل من (أحسن القصص)؛ إن جعل مفعولاً، بدل اشتمال، و(يا أبت): أصله: يا أبى، عوض من الياء تاء التانيث؛ لتناسبهما فى الزيادة، ولذلك قلبت فى الوقف هاء، فى قراءة ابن كثير وأبى عمر ويعقوب. وإنما أعاد العامل فى رأيتهم؛ لطول الكلام، وجمع الشمس والقمر والكواكب جمع العقلاء؛ لوصفهم بصفاتهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إذ قال يوسف لأبيه﴾ يعقوب بن اسحق بن ابراهيم: ﴿يا أبتِ إِنِّي رَأَيْتُ﴾ فى النوم ﴿أحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. وقد ذكر البيضاوي حديثاً فى تفسير هذه الكواكب فانظره. قيل: إن يوسف عليه السلام كان نائماً فى حجر أبيه، فنظر فيه، وقال فى نفسه: أترى هذا الوجه

(١) من الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة ص.

أحسن أم الشمس أم القمر؟ فإذا بيوسف قد انتبه من نومه، وقال: ﴿يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا...﴾ الخ، فلما قص الرؤيا على أبيه بكى، فقال يوسف: لم تبكى يا أبتى؟ قال: يا بني لم يسجد مخلوق لمخلوق إلا عند المحنة، والبلاء، ألا ترى الملائكة لما أسجدهم الله لآدم، كيف ابتلى بالخروج من الجنة؟ ثم قال له: يا بني؛ الشمس والقمر أنا وخالتيك. وكانت أمه قد ماتت. والإحدى عشر كوكبا إخوتك. هـ.

﴿قال يا بني﴾، وهو تصغير ابن، صغر للشفقة أو لصغر السن، وكان ابن ثنتي عشرة سنة، ﴿لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا﴾؛ فيحتالوا لإهلاكك حيلة. فهم يعقوب عليه السلام من رؤياه أن الله يصطفيه لرسالته، ويفوقه على إخوته، فخاف عليه حسدهم. ومن خاف من شيء سلط عليه.

والرؤيا تختص بالنوم، والرؤية، بالناء بالبصر. قال البيضاوي: وهي انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، والمصادفة منها إنما يكون باتصال النفس بالملكوت؛ لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ. انظر تمامه فيه. وأخرج الحاكم في المستدرك، والطبراني في الأوسط، عن ابن عمر قال: لقي عمر علياً - رضي الله عنهما - فقال: يا أبا الحسن، الرجل يرى الرؤيا فمنها ما يصدق، ومنها ما يكذب، قال: نعم. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد ولا أمة ينام فيمتلئ نوما إلا عرج بروحه إلى السماء. فالتى لا تستيقظ إلا عند العرش فتلك الرؤيا التى تصدق، والتى تستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التى تكذب»^(١). هـ. فمنها ما تكون واضحة المعنى لا تحتاج إلى تعبير، ومنها ما تكون خفية تحتاج إلى تعبير. والمعبر يحتاج إلى علم وفراصة وزيادة إلهام، فعلم التعبير علم مستقل، قد أعطى الله منه ليوسف عليه السلام حظاً وافراً.

ولما قال يعقوب لابنه: ﴿لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا﴾ قال: يا أبت، الأنبياء لا يكيدون، قال له: ﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾؛ ظاهر العداوة؛ لأجل ما فعل بآدم وحواء، فلا يألوا جهداً في تسويلهم، وإثارة الحسد فيهم، حتى يحملهم على الكيد. قيل: لم يسمع كلام يوسف في رؤياه إلا خالته - أم شععون - فقالت لإخوته: التعب عليكم، والإقبال على يوسف. فحركهم ذلك حتى فعلوا ما فعلوا. وقيل: أخبرتك بذلك ولدها شععون، فأخبر شععون إخوته؛ فخلوا به وقالوا له: إنك لم تكذب قط. فأخبرنا بما رأيت في نومك، فأبى. فأقسموا عليه، فأخبرهم. فوقعوا فيما فعلوا به.

ثم قال له: ﴿وكذلك﴾ أى: وكما اجتباك لهذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس، ﴿يجتبيك ربك﴾ للنبوّة والملك، أو لأمور عظام، ﴿ويعلمك﴾ أى: وهو يعلمك ﴿من تأويل الأحاديث﴾؛ من تعبير

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٣٩٦ و ٣٩٧).

الرؤيا؛ لأنها أحاديث الملك إن كانت صادقة، وأحاديث الشيطان إن كانت كاذبة. أو يعلمك من تأويل غوامض علوم كتب الله، وسنن الأنبياء وحكم الحكماء. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة، أو بأن يجمع لك بين نعمة الدنيا، ونعمة الآخرة، ﴿وعلى آل يعقوب﴾ يريد: سائر بنيهم. ولعله استدلل على نبوتهم بضوء الكواكب، ﴿كما أتمها على أبويك من قبل﴾؛ من قبلك، أو من قبل هذا الوقت. فأنتمها على إبراهيم بالرسالة والخلة والإنجاء من النار، وإسحاق بالرسالة والإنقاذ من الذبح^(١)، وهم: ﴿إبراهيم وإسحاق﴾، فهما عطف بيان لأبويك، ﴿إن ربك عليم﴾ بمن يستحق الاجتباء، ﴿حكيم﴾ لا يخلو فعله من حكمة، نعمة كانت أو نقمة.

الإشارة: البداية مجلاة النهاية، يوسف عليه السلام نزلت له أعلام النهاية في أول البداية. وكذلك كل من سبق له شيء من العناية، لابد تظهر أعلامه في أول البداية؛ «من أشرقت بدايته أشرقت نهايته». من كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته.

وأوصاف النهاية تأتي على ضد أوصاف البداية؛ فكمال العز في النهاية لا يأتي إلا بعد كمال الذل في البداية. وتأمل قول الشاعر:

تَذَلُّ لِمَنْ تَهْوَى لِتَكْسِبَ عِزَّةً فَكَمْ عِزَّةٌ قَدْ نَالَهَا الْمَرْءُ بِالذُّلِّ

وتأمل قضية سيدنا يوسف عليه السلام؛ ما نال العز والملك حتى تحقق بالذل، والملك وكمال الغنى في النهاية لا يأتي إلا بعد كمال الفقر في البداية، وكمال العلم لا يأتي إلا بعد إظهار كمال الجهل، وكمال القوة لا يأتي إلا بعد كمال الضعف.. وهكذا جعل الله تعالى بحكمته الأشياء كامنة في أضدادها؛ «تحقق بأوصافك بمدك بأوصافه». فالاجتباء يكون بعد الابتلاء، وإتمام الدعم يكون بعد تقديم النقم، وذلك لتكون أحلى وأشهى، فيعرف قدرها ويتحقق منه شكرها، وهذا السر في تقديم أهوال يوم القيامة على دخول الجنة؛ ليقع نعيمها في النفس كل موقع. ولا فرق بين جنة الزخارف، وجنة المعارف. (حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ). والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ﴾ ٧ ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ٨ ﴿

(١) الثابت أن الذبيح هو سيدنا إسماعيل عليه السلام. راجع التعليق على تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

قلت: (يوسف): عجمي، وفي سينه ثلاث لغات: الضم - وهو الأشهر - والفتح، والكسر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته﴾ أي: في قصصهم ﴿آيات﴾؛ دلائل قدرة الله وحكمته، وعلامة نبوتك، حيث أخبرت بها من غير تعلم. ففي تلك آيات ﴿للسائلين﴾ أي: لمن سأل عن قصصهم. والمراد بإخوته: علاقته العشرة، والعلات: أبناء أمهات لأب واحد، فكانوا إخوته لأبيه، وهم: يهوذا، وروبول، وشمعون، ولاوي، وريالون، ويشجر، ودنية من بنت خالته ليا، تزوجها يعقوب أولاً، فلما توفيت تزوج راحيل، فولدت له بنيامين، ويوسف. وقيل: جمع بينهما، ولم يكن الجمع حينئذ محرماً. وأربعة آخرون من سريتين، وهم: دان، وتفتالي، وجاد، وأشر.

﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه﴾ بنيامين، وخص بالإضافة؛ لأنه شقيقه، ﴿أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة﴾ أي: والحال أنا جماعة أقوياء، فنحن أحق بالمحبة؛ لأنهما لا كفاءة فيهما. والعصبة: العشرة ففوق. ﴿إن أبانا لفي ضلال﴾؛ خطأ ﴿مبين﴾؛ ظاهر؛ لتفضيل المفضل. روى أنه كان أحب إليه؛ لما كان يرى فيه من مخايل الخير، وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة، بحيث لم يصبر عنه، فتداهى حسدهم حتى حملهم على التعرض لقتله. وهكذا شأن الحسد يبلغ بصاحبه أمراً عظيماً.

الإشارة: كان يعقوب عليه السلام لا يفارق يوسف ليلاً ولا نهاراً. وهكذا شأن المحبين. وأنشدوا:

وَلِي كَبِدٌ يَسْرِي إِلَيْهِمْ سَلَامُهُ	بَجَمْرٍ تَلْظِي، وَالْفَوَادُ ضِرَامُهُ
وَأَجْفَانُ عَيْنٍ لَا تَمَلُّ مِنَ الْبُكَاءِ	وَصَبُّ تَشْكِيٍّ لِلْحَبِيبِ غَرَامُهُ
فَأَنْتُمْ سُرُورِي، أَنْتُمْ غَايَةُ الْمُنَى	وَقَلْبِي إِلَيْكُمْ وَالْغَرَامُ زِمَامُهُ
فَوَاللَّهِ مَا أَحْبَبْتُ مَا عِشْتُ غَيْرَكُمْ	لَأَنْ اشْتِيَاقِي لَا يَحِلُّ اكْتِنَامُهُ هـ.

قال الجنيد، رحمه الله: رأيت غلاماً حسن الوجه يعنف كهلاً حسناً، فقلت: يا غلام، لم تفعل هذا؟ قال: لأنه يدعى أنه يهواني، ومنذ ثلاث ما رآني، قال: فوقعت مغشياً علي، فلما أفقت ما قدرت على النهوض، فقيل لي في ذلك، فقلت: ينبغي للمحب ألا يفارق باب محبوه على أي حال. وأنشدوا:

لَا زِمَ الْبَابَ إِنْ عَشِقْتَ الْجَمَالَ	وَاهْجُرِ النَّوْمَ إِنْ أَرَدْتَ الْوَصَالَ
وَأَجْعَلِ الرُّوحَ مِنْكَ أَوَّلَ نَقْدٍ	لِحَبِيبٍ أَنْوَارُهُ تَتَلَلَا

قلت : فالحبيب غيور؛ لا يحب أن يرى في قلب حبيبه غيره . فإذا رأى فيه شيئاً أخرجه منه ، وفرق بينه وبينه ؛
غيرةً منه واعتناء به ، وهو السر في افتراق يوسف من أبيه . والله تعالى أعلم .

ثم تعرضوا ليوسف ، فقالوا :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾
﴿ ٩ ﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿ ١٠ ﴾

يقول الحق جل جلاله : قال إخوة يوسف لما حركهم الحسد : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ ؛ قيل : إنما قاله شمعون ودان ، ورضى به الآخرون ، ﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ ؛ أى : فى أرض بعيدة يأكله السباع ، أو يلتقطه أحد ، فإن فعلتم ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ أى : يصف إليكم وجه أبيكم ؛ فيقبل بكلية عليكم ، ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ، ولا ينازعكم فى محبته أحد ، ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ؛ من بعد يوسف ، أو الفراغ من أمره ، أو قتله ، أو طرحه ، ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ تائبين إلى الله عما جنيتم ، مع محبة أبيكم . أو صالحين فى أمور دنياكم ، فإنها تنتظم لكم بخلو وجه أبيكم لكم ، ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ هو يهوذا ، وكان أحسنهم فيه رأياً ، وقيل : روبيل : ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ ؛ فإن القتل عظيم ، ﴿ وَالْقُوَّةُ فِي غَيْبَةِ (١) الْجُبِّ ﴾ : فى قعره ، سمى به لغيبته عن أعين الناظرين . ومن قرأ بالجمع ، فكان بتلك الجب غيابات ، ﴿ يَلْتَقِطُهُ ﴾ : يأخذه ﴿ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ أى : الذين يسرون فى الأرض ، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ ما يفرق بينه وبين أبيه ولا بد ، أو كنتم فاعلين بمشورتى .

الإشارة : إن أردت أن يخلو لك وجه قلبك فيخلو لك وجه حبيبك ، حتى تشاهده عياناً وتعرفه إيقاناً ، فاقتل كل ما يميل إليه قلبك ويعشقه من الهوى ، واطرح عن عين بصيرتك رؤية السوى ، ترى من أنوار وجهه وأسرار محاسنه ، ما تبتهج به القلوب والأسرار ، وتتذره فى رياض محاسنه البصائر والأبصار ، وأنشدوا :

إِنْ تَلَّشَى الْكَوْنُ عَنْ عَيْنٍ كَشَفَى شَاهَدَ الْقَلْبُ غَيْبَهُ فِي بَيَانٍ
فَاطْرَحَ الْكَوْنُ عَنْ عِيَانِكَ وَامْحَ نَقْطَةَ الْغَيْنِ إِنْ أَرَدْتَ تَرَانِي

(١) قرأ الجمهور « غيبة » بالإفراد هنا وفى الموضع التالى فى الآية (١٨) وقرأ نافع « غيابات » بالجمع فى الموضوعين ، وقد سار المفسر هنا على قراءة الجمهور ، وسار فى الموضع التالى على قراءة نافع .

ثم احتالوا على أبيهم في إرسال يوسف معهم، كما قال تعالى:

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِيحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَمَنْظُرُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قلت: (تأمننا): اجتمع نونان، فيجوز الإدغام، وبه قرأ أبو جعفر، وقرأ الجماعة بالإشمام. وقوله: (يرتع ويلعب): جواب الأمر، فمن قرأ بكسر العين فجزمه بحذف الياء، وهو من رعى الإبل، ومن قرأ بالإسكان فهو من الرتع، وهي الإقامة في الخصب والتنعم، والتاء على هذا أصلية. ووزن الفعل: يفعل، ووزنه على الأول يفتعل، قال ابن عطية: فيرتع على قراءة نافع من رعى الإبل، أى: يتدرب في رعى الإبل وحفظ المال. قال أبو علي: وقراءة ابن كثير: (نرتع) بالنون (ويلعب) بالياء، فنزعاها حسن؛ لإسناد النظر في المال والرعاية إليهم، واللعب إلى يوسف لصباه، وقرأ أبو عمر وابن عامر: (نرتع ونلعب)؛ بالنون فيهما، وإسكان العين والياء، من الرتوع، وهو: الإقامة في الخصب والمرعى في أكل وشرب، وقرأ عاصم والأخوان: (يرتع ويلعب) بإسناد ذلك كله إلى يوسف. هـ. قلت: وكذا قرأ نافع، غير أنه يكسر العين وهم يسكنون.

(ونحن عصبه): حال، والرابط الواو، والعصبه: الجماعة من العشرة إلى فوق.

يقول الحق جل جلاله: قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ أى: لم تخافنا عليه؟ ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِيحُونَ ﴾ نشفق عليه، ونريد له الخير. أرادوا أن يستنزلوه عن رأيه في حفظه منهم لما تنسم من حسدهم. قلت: قد نصحوه في الحقيقة حيث تسببوا في ملكه وعزه، روى أنهم لما قالوا له: (مالك...) إلخ، اهتزت أركانه، واصفر لونه، واصطكت أسنانه، وتحركت جوانبه، كأنه علم بما في قلوبهم بالفراسة. ثم قالوا: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ ﴾: يتسع في أكل الفواكه ونحوها. أو يتعلم الرعاية، ﴿ وَيَلْعَبْ ﴾ بالاستباق والانتضال، ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أن يناله مكروه.

﴿ قَالَ ﴾ يعقوب: ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ لشدة مفارقتة على، وقلة صبرى عنه، ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾: لاشتغالكم بالرتع واللعب، أو لقلة اهتمامكم به، وإنما خاف عليه من الذئب؛

لأن الأرض كانت مذابة، وقيل: رأى فى المنام أن الذئاب أهدقت بيوسف فكان يخافه، وإنما كان تأويلها: إحداق إخوته به حين أرادوا قتله. ﴿قَالُوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾ : جماعة، ﴿إنا إذا لخاسرون﴾ : مغبونون من القوة والحزم، أو مستحقون بأن يدعى عليهم بالخسارة.

الإشارة : لم يسمح يعقوب عليه السلام بفراق حبيبه ساعة، وكذلك العبد لا ينبغي أن يغفل عن سيده لحظة؛ لأن الغفلة فراق، والذكر انجماع، والعبد لا صبر له عن سيده. وأنشدوا:

فلأبكين على الفراق كما بكى سفا لفرقة يوسف يعقوبُ
ولأدعُونَكَ فى الظلام كما دعا عند البلية ربه أيوبُ
وأنشدوا أيضاً فى ذم الغفلة:

غفَلتَ عَنِ الْأَيَّامِ يَا أَخِي فانتَبِهْ وشمر فإن الموت لا شك واقعُ
على أي شيء هو حزنك قائم جنود المنايا تأتيك فانهض وسارعُ

قيل : إن بعض الصالحين رأى أستاذه فى المنام، فقال له : يا أستاذ، أى الحسرات عندكم أعظم ؟ قال : حسرة الغافلين . وأنشدوا:

تيقظ إلى التذكّار فالعمر قد مضى وحتى متى ذا السكر من غفلة الهوى

ورأى ذو النون المصرى بعض الصالحين فى المنام، فقال له : ما فعل الله بك ؟ قال : أوقفنى بين يديه، وقال : يامدعى، ادعيت محبتى ثم غفلت عنى . وأنشدوا:

تغافلت عن فهم الحقيقة بالهوى فلا أدنّ تُصْنِى ولا عين تذرِفُ
ضعفت ولكن فى أمانيك قوة فيا تابع الذات كم تتخلفُ

ورأى عبد الله بن مسلمة والده فى النوم، فقال له : يا أبت، كيف ترى حالك ؟ فقال له : يا ولدى عشنا غافلين . وأنشدوا :

غفلت وحادى الموت يحدوك للبلأ وجسمك يا مغرور أصبح معتلا
وحتى متى يا صاح بابك مغلق أذاك نذير الموت والعمر قد ولى

قيل : ما أصاب يعقوب ما أصابه في ولده إلا من أجل خوفه عليه، وغفلته عن استبداعه ربه، ولو استودعه ربه لحفظه، لكن لا ينفع حذر من قدر. (وكان أمر الله قدراً مقدوراً).

ثم ذكر انصرافهم بيوسف، وما كان من شأنه، فقال:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ، وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ ﴾ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿ ١٦ ﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَتَرَكَنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿ ١٧ ﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿ ١٨ ﴾

قلت : (لما) حرف وجود لوجود، يطلب الشرط والجواب، وجوابها هنا محذوف، أى: فعلوا به ما فعلوا. وقيل: جوابها : (أجمعوا)، وقيل: (أوحينا)؛ على زيادة الواو فيهما. وجملة: (وهم لا يشعرون): حال من (تنبئهم)، فيكون خطاباً ليوسف عليه السلام، أو من (أوحينا)؛ أى: وهم لا يشعرون حين أوحينا إليه. فيكون حينئذ الخطاب لسيدنا محمد ﷺ، و(صبر جميل): مبتدأ، والخبر محذوف، أى: مثل. أو: خبر عن مبتدأ، أى: أمرى صبر جميل. و(على قميصه): فى موضع نصب على الظرف، أى: فوق قميصه. أو: حال من الدم؛ إن جوز تقديمها على المجرور.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فلما ذهبوا ﴾ بيوسف معهم ﴿ وأجمعوا ﴾ أى: عزموا ﴿ أن يجعلوه فى غيابات (١) الجب ﴾، وهو بئر بأرض الأردن، أو بين مصر ومدين، أو على ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب.

قال الفراء: كان حفرة شداد بن عاد. فانظره. قال السدى: ذهبوا بيوسف وبه عليهم كرامة، فلما برزوا فى البرية أظهروا له العداوة، وجعل أخوه يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يرى منهم رحمة، فضربوه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح: يا أباها يا يعقوب، لو تعلم ما صنع بابنك بنو الإماء. هـ. وكان إخوته سبعة من خالته الحرة، والباقيون من سريتين له، كما تقدم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان يعقوب عليه السلام ينظر إلى يوسف عليه السلام حتى غاب عنه، وعن نظره، فلما علموا أنهم غيبوه عنه، وضعوه فى الأرض وجروه عليها، ولطموا خده، فجرد شمعون سكينه وأراد ذبحه، فتعلق بذيل

(١) راجع التعليق على تفسير الآية ٩٠، من نفس السورة.

روبيل وضربه، وكذلك جميع إخوته؛ إذا لجأ لواحد منهم طرده، فضحك عند ذلك يوسف عليه السلام، فقال له يهوذا: ليس هذا موضع الضحك يا يوسف، فقال: من تعزز بغير الله ذل، ظننت أنه لا يصيبني وأنا بينكم مكروه لما رأيته من قوتكم وشدتكم، فسلطكم الله على بشؤم تلك الفكرة؛ حتى لا يكون التوكل إلا عليه والتعزز إلا به. هـ. بالمعنى.

وقال الفراء: كانت زينب بنت يعقوب عليه السلام - أخت يوسف - وكانت رأت في منامها كأن يوسف وضع بين الذئاب وهم ينهشون، فانتبهت فازعة، ومضت إلى أبيها باكية، فقالت يا أبت، أين أخى يوسف؟ قال: أسلمته إلى إخوته، فمضت خلفه حتى لحقت به، فأمسكته، وتعلقت بذيله، وقالت: لا أفارقك اليوم يا أخى أبدا، فقال لها إخوتها: يا زينب، أرسليه من يدك، فقالت: لا أفعل ذلك أبدا؛ لأنى لا أطيق فراق أخى، فقالوا: بالعشى نرده إليك ويأتيك. ثم أقبل يوسف عليه السلام يقبل رأسها ويديها، ويقول لها: يا أختاه دعيني أسير مع إخوتي أرتع وألعب، فذهب، وجلست تشيعه بعينها، ودموعها تتناثر مما رأت؛ خوفاً عليه. هـ.

فلما غابوا به عنها فعلوا به ما تقدم، وهموا بقتله، فقال لهم يهوذا: أما عاهدتمونى ألا تقتلوه؛ فأثروا به إلى البئر فدلوه فيها فتعلق بشفيرها، فربطوا يده، ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم، ويحتالوا به على أبيهم، فقال: يا إخوتاه ردوا على قميصي أتواري به، فقالوا: ادعُ الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر يلبسوك ويؤنسوك. فلما بلغ نصفها ألقوه، وكان فيها ماء، فسقط، ثم آوى إلى صخرة كانت فيها فقام عليها يبكي، فجاءه جبريل بالوحي، كما قال: ﴿وأوحينا إليه...﴾ الخ. وكان ابن سبع عشرة سنة، وقيل: كان مراهقا. وقال ابن عطية: كان ابن سبع سنين، أوحى إليه فى صغره كما أوحى إلى يحيى وعيسى - عليهما السلام..

وفى القصص: أن إبراهيم عليه السلام، حين ألقى فى النار، جرد من ثيابه، فأناه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحق، وإسحق إلى يعقوب، فجعله فى تميمة علقها على يوسف، فأخرجه جبريل وألبسه يوسف.

ثم قال له فيما أوحى إليه: ﴿لتبئنه﴾ أى: لتحدثنهم ﴿بأمرهم هذا﴾؛ بما فعلوا بك، ﴿وهم لا يشعرون﴾ أنك يوسف، لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم، وطول العهد المغير للحال والهيئات. وذلك إشارة إلى ما قال لهم بمصر، حين دخلوا عليه معترين، فعرفهم وهم له منكرون، إلى أن قال لهم: ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾ (١) وفى رواية: أوحى إليه: يا يوسف لا تحزن على ما أصابك، فإنك تصل إلى ملك كبير، ويقف إخوتك بين يديك. بشره بما يؤول إليه أمره، إيناساً وتطبيباً لقلبه. وقيل: ﴿وهم لا يشعرون﴾ متصل بقوله: ﴿وأوحينا﴾ أى: أنساه بالوحي وهم لا يشعرون ذلك.

(١) الآية ٨٩ من سورة يوسف.

﴿وجاءوا أباهم عشاء﴾ آخر النهار، وقرئ ﴿عُشَى﴾ بضم العين والقصر، جمع أعشى، أى: عُشى من البكاء. فجاءوا إليه ﴿يَكُونُ﴾ أى: متباكين. روى أنه لما سمع بكاءهم فزع وقال: يا بنى، أين يوسف؟ فقالوا: ﴿يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾؛ أى: نتسابق بأقدامنا فى العدو، أو الرمى ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا﴾: بمصدق لنا، ﴿ولو كنا صادقين﴾؛ لسوء ظنك، وفرط محبتك ليوسف.

﴿وجاءوا على قميصه﴾: فوق قميصه ﴿بدم كذب﴾، أى: ذى كذب بمعنى مكذوب فيه؛ لأنهم ذبحوا جدياً، ولطخوا قميصه بدمه. روى أنه لما سمع بخبر يوسف صاح ودعا بقميصه فأخذه، وألقاه على وجهه، وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص، وقال: ما رأيت كاليوم ذنباً أحلم من هذا! أكل ابلى ولم يمزق عليه قميصه.

وفى رواية أخرى: أنه لما رأى صحة القميص ضحك، فقالوا له: الضحك والبكاء من فعل المجانين! فقال: أما بكائى فعلى يوسف لما رأيت الدم، وأما ضحكى، فإنى لما رأيت صحة القميص رجوت أن الحديث غير صحيح، ولذلك ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ أى: سهلت لكم، وهونت فى أعينكم أمراً عظيماً حتى أقدمتم عليه. وقيل: لما سمع مقالهم غشى عليه إلى الصباح، وهم يكون بأجمعهم، ويقولون بينهم: بئس ما فعلناه بيوسف ووالده، وأى عذر لنا عند الله. فلما أفاق نظر إلى أولاده وقال: هكذا يا أولادى كان ظنى فيكم، بئس ما فعلتم، وبئس ماسولت لكم أنفسكم ﴿فصبر جميل﴾ أى: فأمرى صبرى جميل. وفى الحديث: «الصبر الجميل الذى لا شكوى فيه إلى الخلق» (١). ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ أى: على احتمال ما تصفونه من هلاك ابنى يوسف. وهذه الجريمة كانت قبل استنبائهم، إن صح أنهم تنبأوا. وقد تقدم فى سورة البقرة الخلاف فى نبوة الأسباط فراجع (٢).

الإشارة: فى هذه الآية رجاء كبير لأهل العصيان، وبشارة وتأنيس لمن أراد مقام الإحسان، بعد الإساءة والغفلة والنسيان، وذلك أن هؤلاء السادات فعلوا بيوسف عليه السلام ما فعلوا، فلما تابوا بعد هذا الفعل العظيم اجتباهم الحق تعالى، وتاب عليهم، وقربهم حتى صاروا أنبياء، على حد قول بعض العلماء. ولذلك قيل: لكم من خصوص خرجوا من اللصوص، وكم من عابد ناسك خرج من ظالم فاتك. وفى الحكم: «من استغرب أن ينقذه الله من

(١) أخرجه ابن جرير فى التفسير (١٢/١٦٦) عن حبان بن أبى جيلة، مرسلًا.

(٢) راجع تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

شهوته، وأن يخرج من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الالهية، وكان الله على كل شيء مقتدرا». وللشافعي رضي الله عنه :

فَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَامًا
تَعَاطَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُكَ بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا

وهذا إنما يكون بالتوبة النصوح، والنهوض التام، والمجاهدة الكبيرة، كما فعل إبراهيم بن أدهم، والفضيل ابن عياض، والشيخ أبو يعزى، وغيرهم ممن كانوا لصوصاً فصاروا خصوصاً. قال النبي ﷺ : « مَنْ لَمْ يَغْلِبْ نَفْسَهُ وَهَوَاهُ فَلَيْسَ لَهُ حَظٌّ فِي عَقْبَاهُ ». وأنشدوا:

جَنِينًا عَلَى النَّفْسِ الَّتِي لَكَ رُشْدُهَا بِطَبْعِ الْهَوَى فِيهَا وَتَبِيهِ مِنَ الْحِجَا
جَزَى اللَّهُ خَيْرًا مَنْ أَعَدَّ لِذَاتِهِ دَوَاءَ التَّقَى فَاسْتَعْمَلَ الْخَوْفَ وَالرَّجَا
جَبَانَ وَتَرَجُّوْا أَنْ تُلْقَبَ فَارِسًا مَتَى شَابَهُ الْعَصَبُ الْيَمَانِيُّ دُمَلَجَا

وفيها أيضا: تنويه بمقام الصابرين وعاقبة المتقين، فإن يعقوب عليه السلام، لما استعمل الصبر الجميل، جمع الله شمله بولده مع ما أعد له من الثواب الجزيل. ويوسف عليه السلام، لما صبر على ما أصابه من المحن؛ عوضه العز الدائم بترادف المنن. وفي الخبر: « أعلى الدرجات درجات الصابرين ». لكل عمل ثواب محدود، وثواب الصبرين غير محدود ولا معدود. قيل: إن الله تعالى أعطى لكل صابر قصراً في الجنة مسيرة الشمس أربعين يوماً، من درة بيضاء معلقة في الهواء، ليس تحته دعامة، ولا فوقه علاقة، وله أربعة آلاف باب، يدخل من كل باب سبعون ألف ملك، يسلمون على صاحبه ولا ترجع النوبة إليهم أبداً. هـ.

ثم ذكر خروج يوسف من البئر، وبيعه، ودخوله مصر، فقال:

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرى هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ
مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لَا مِرَاتِيهِ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى
أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ

الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

قلت: (بضاعة): حال من المفعول، أى: وأخفوه مبضعا به للتجارة. و(لنعلمه): عطف على محذوف، أى: مكانه فى الأرض ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه.. إلخ. و(دراهم): بديل من (ثمن). قال الهروى: الأشد: من خمسة عشر إلى أربعين سنة. وهو جمع شدة، مثل: نعمة وأنعم، وهى: القوة والجلادة فى البدن والعقل. هـ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وجاءت سيارة﴾؛ رفقة تسير من مدين إلى مصر، فنزلوا قريبا من الجب، وكان ذلك بعد ثلاث من إلقائه فيه. ﴿فأرسلوا واردهم﴾ الذى يرد الماء، ويستقى لهم، وهو: مالك بن زعر الخزاعى، ﴿فأدلى دلوه﴾ أرسلها فى الجب ليملاها، فتعلق بها يوسف، فلما رآه ﴿قال يا بشرى هذا غلام﴾؛ نادى البشرى، بشارة لنفسه، أو لقومه، كأنه قال: تعال هذا أوانك. وقيل: اسم لصاحبه، ناداه ليعينه على إخراجهِ فأخرجوه، ﴿وأسروه﴾ أى: أخفاه الوارد، وأصحابه عن الرفقة، وقالوا: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه بمصر، حال كونه ﴿بضاعة﴾؛ أى: متاعا مبضعا به للتجارة، أى: يباع ويتجر بثمنه. ﴿والله عليم بما يعملون﴾ لم يخف عليه أسرارهم.

﴿وشروه﴾ أى: باعه السيارة من الرفقة، أو إخوته، فيكون الضمير راجع لهم. روى أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بالطعام، فأتاه يومئذ فلم يجده فيها، وأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا: هذا غلامنا فاشتروه، وسكت يوسف خوفاً من أن يقتلوه. أو اشتروه من إخوته؛ لأن شرى قد يستعمل بمعنى اشترى. فاشتراه الرفقة منهم ﴿بثمن بخس﴾؛ أى: مبخوس، لزيفه أو نقصانه، ﴿دراهم معدودة﴾ قليلة، فإنهم يزنون ما بلغ الأوقية، ويعدون ما دونها. قيل: كان عشرين درهماً. وقيل: اثنين وعشرين. روى أن الذى اشتراه منهم مالك بن زعر المتقدم، وكان صعلوكا، فسأل يوسف أن يدعو له فدعا له فصار غنياً. روى أنه قال لهم: بكم تبيعونه؟ فقالوا له: إن اشتريته بعيوبه بعناه لك. فقال: وما عيوبه؟ فقالوا: سارق كذاب، يرى الرؤيا الكاذبة. فقال لهم: بكم تبيعونه لى مع عيوبه؟ ويوسف عليه السلام ينظر إليهم ولا يتكلم، وهو يقول فى نفسه: ما أظنه يقوم بثمنى؛ لأنهم يطلبون أموالاً كثيرة. قال لهم مالك: معى دراهم قليلة تعد ولا توزن، فقالوا له: هاتها. فاشتراه منهم بتلك الدراهم المعدودة. قال ابن عباس: كانت سبعة عشر درهماً، جعل له ذلك جزاء لما قوم نفسه، وظن أنهم يطلبون فيه الأموال. هـ. ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾: الراغبين عنه. يحتمل أن يكون الضمير لإخوته، وزهدهم فيه ظاهر. أو يكون للرفقة، فإن كانوا

بائعين فزهدهم فيه لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به خائف من انتزاعه، وإن كانوا مبتاعين فلأنهم اعتقدوا أنه آبق.

قال الفراء: لما اشتراه منهم مالك، قال لهم: اكتبوا لي كتابا بخطكم بأنكم بعتم مني هذا الغلام بكذا وكذا، فكتبوا له ذلك، فلما أراد الرحيل قالوا له: اربطه لئلا يهرب، فلما هم بربطه قال له يوسف: خلني أودع ساداتي؛ فلعلني لألقاهم بعد هذا اليوم. فقال له مالك: ما أكرمك من معلوك، حيث يفعل بك هذا وأنت تتقرب منهم. فقال له يوسف: كل أحد يفعل ما يليق به، فقال له: دونك، فقصدتهم وهم قيام صفاً واحداً، فلما دنا منهم بكوا وبكى يوسف عليه السلام، ثم قالوا: والله لقد ندمنا يا يوسف على ما فعلنا، ولولا الخشية من والدنا لرددناك. هـ. ثم ذهبوا به إلى مصر فباعوه، فاشتراه العزيز الذي كان على خزائن مصر. واسمه: «قطفير»، وكان الملك يومئذ ريان بن الوليد العلقمي، وقد آمن بيوسف، ومات في حياته.

﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته﴾ راعيل، أوزليخا، ﴿أكرمي مثواه﴾؛ اجعلي مقامه عندنا كريماً، والمعنى: أحسنى تعهده، ﴿عسى أن ينفعنا﴾ في ضياعنا وأموالنا، نستظهر به في مصالحنا، ﴿أو نتخذه ولداً﴾ أي: نتبناه، وكان عقيماً، أما تفرس فيه من الرشد. ولذلك قيل: (أفرس الناس عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت: ﴿يا أبت استأجره﴾ (١)، وأبو بكر حين استخلف عمر) (٢).

قال البيضاوي: روى أنه اشتراه العزيز وهو ابن تسع عشرة سنة، ولبيت في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره الريان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة. واختلف فيما اشتراه به من جعل شراء غير الأول، فقيل: عشرون ديناراً، وزوجاً نعل، وثوبان أبيضان. وقيل: ملؤه - أي وزنه - فضة، وقيل: ذهباً. هـ. وقيل: مسكاً وحريراً.

﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ أي: وكما مكنا محبته في قلب العزيز، أو كما مكناه في منزله، أو كما أنجيت، وعطفنا عليه العزيز، مكناه في الأرض، ليتصرف فيها بالعدل، ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾؛ أي: من تأويل كتب الله المتقدمة، أو من تأويل الأحكام الحادثة بين الناس ليحكم فيها بالعدل، أو من تعبیر المنامات، ليستعد لها قبل حلولها. أي: كان القصد في إنجائه وتمكينه: إقامة العدل، وتيسير أمور الناس، وليعلم معاني كتب الله وأحكامه فينفذها، ﴿والله غالب على أمره﴾: لا يردده شيء، ولا ينازعه فيما يريد جبار ولا عنيد، أو: غالب

(١) من الآية ٢٦ من سورة القصص.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٤٦/٢) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، عن ابن مسعود وكذلك أخرجه الطبرانی في الكبير (١٨٥/٨ ح ٨٨٢٩).

على أمر يوسف، فيدبر أمره بالحفظ والرعاية، والنصر والعز في عاقبة أمره، خلاف ما أراد به إخوته، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن الأمر كله بيده، أو لا يفهمون لطائف صنعه، وخفايا لطفه.

﴿ولما بلغ أشده﴾ ؛ منتهى اشتداد جسمه، وكمال عقله. وتقدم تفسير الهروي له، وحده. وقيل: ما بين الثلاثين والأربعين، ﴿آتيناه حكماً﴾ : حكمة، وهي النبوة. أو العلم المؤيد بالعمل. أو حكماً بين الناس بالعدل. ﴿وعلماً﴾ يعني: علم تأويل الأحاديث، أو علماً بأسرار الربوبية، وكيفية آداب العبودية. ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ إذا كمل عقلهم، وتوفر آدابهم، وكمل تهذيبهم، آتيناهم الحكمة وكمال المعرفة. وفيه تنبيه على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاء على إحسانه وإتقانه عمله في عنفوان شبابه.

الإشارة: من ظن انفكاك لطف الله عن قدره؛ فذلك لقصور نظره، لاسيما لطفه بالمتوجهين إليه، أو العارفين به الواصلين لحضرته. فكل ما ينزل بهم فإنما هو أقدار جارية، وأمداد سارية، وأنوار بهية، والطفاف خفية، تسبق لهم الأنوار قبل نزول الأقدار، فلا تحوم حول قلوبهم الأكدار، ولا تغير قلوبهم رؤية الأغيار، عند نزول شدائد الأقدار، يحفظ عليهم أسرار التوحيد، وينزل عليهم أنوار التأييد، عند نزول القضاء الشديد، والبلاء العتيد. ولابن الفارض رحمته الله:

أَحْبَائِي أَنْتُمْ، أَحْسَنَ الدُّهْرِ أَمْ أَسَا فَكُونُوا كَمَا شِئْتُمْ أَنَا ذَلِكَ الْخِل

وقال صاحب العينية:

تَلَدُّ لِي الْآلَامُ إِذْ كُنْتُ مُسَقِمِي وَإِنْ تَخْتَبِرْنِي فَهِيَ عِنْدِي صَنَائِعُ
تَحْكُمُ بِمَا تَهْوَاهُ فِيْ فَإِنِّي فَقِيرٌ لِّسُلْطَانِ الْمَحَبَّةِ طَائِعُ

وقد جرت عادة الله تعالى أن يعقب الجلال بالجمال، والمحن بالمدن، والذل بالعز، والفقر بالغنى، فبقدر ما تشتد المحن تأتي بعدها مواهب المدن، وبقدر ما ينزل من الجلال يأتي بعده الجمال. سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. لا أراد لما قضى، ولا معقب لما به حكم وأمضى.

قال تعالى: ﴿والله غالبٌ على أمره﴾ : قال بعض المفسرين: هذه الآية هي قطب هذه السورة، ثم قال: أراد آدم البقاء في الجنة، وما أراد الله ذلك، فكان الأمر مراد الله. وأراد إبليس أن يكون رأس البررة الكرام، وأراد الله أن يكون إمام الكفرة اللثام، فكان الأمر كما أراد الله. وأراد النمرود هلاك إبراهيم عليه السلام، ولم يردده الله، فكان الأمر كما

أراد الله . وأراد فرعون هلاك موسى عليه السلام ، فأهلكه الله ، ونجى موسى . وأراد داود أن يكون الملك لولده ميشا ، وأراد الله أن يكون لسليمان عليه السلام ، فكان كما أراد الله . وأراد أبو جهل هلاك سيدنا محمد عليه السلام ونبوة الوليد بن المغيرة ، فأهلك الله أبا جهل والوليد ونبأ محمداً عليه السلام . وأراد المنذر بن عاد البقاء في الدنيا ، فأهلكه الله وخرب ملكه . وأراد إرم العاتى ، الذى بنى ذات العماد ، يحاكى بها الجنة ، أن يسكنها خالداً فيها ، فكذبه الله ، وحال بينه وبينها ، وغيبها عنه ، حتى مات بحسرتها . هـ .

ثم ذكر مراودة زليخا ليوسف ، وما كان من شأنهما ، فقال :

﴿ وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۖ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۖ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوْءَ ۚ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْأَمْحَصِينَ ﴾ (٢٤) وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ۖ وَالْأَفْيَاسِيْدَ هَا لَدَا الْبَابِ ۖ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢٥) قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٧) فَلَمَّارَةً قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ۖ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ۚ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (٢٩) ﴿

قلت : المراودة : المطالبة ، من راد يرود : إذا جاء وذهب لطلب الشيء ، ومنه الرائد . و (هيت) : اسم فعل معناه : تعال ، أو أقبل ، مبني على الفتح كآين ، واللام للتبيين ، كالتى فى : سقيا لك ، وقرأ ابن كثير : بالضم ؛ تشبيهاً بحيث ، ونافع وابن عامر بالفتح ، وهى لغة فيه . وقرئ : همت ، بالهمز ؛ كجئت ، من هاء يهـ : إذا تهيأ . و (معاذ الله) : مصدر لمحذوف ، أى : أعوذ بالله معاذاً . و (إنه) : ضمير الشأن . و (لولا) : حرف امتناع ، وجوابها محذوف ، أى : لخالطها ، ولا يجوز أن يكون (وهم بها) جوابها ؛ لأن حكمها حكم الشرط ، فلا يتقدم عليها جوابها . قاله البيضاوى .

قلت : وبهذا يُرد على من وقف على (همت به) ، كالهبطى ومن تبعه، إلا أن يُحمل على أنه ابتداء كلام مع حذف الجواب. واستحسنه البعض؛ ليكون هم يوسف خارجاً عن القسم، (وكذلك) : فى موضع المصدر، أى: ثبثناه مثل ذلك التثبيت لنصرف.. الخ، و(المخلصين) بالفتح: اسم مفعول من: أخلصه الله. وبالكسر: اسم فاعل بمعنى: أخلص دينه لله.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وراودته ﴾ للفاحشة، أى: تمحلت وطلبت منه أن يوافقها ﴿ التى هو فى بيتها ﴾ ؛ وهى زليخا. وترك التصريح بها؛ استهجاناً. فراودته عن نفسه، ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ ، قيل: كانوا سبعة. والتشديد للتكثير، أو للمبالغة فى الإيثاق، ﴿ وقالت هيت لك ﴾ أى: أقبل وبادر، أو تهيات لك. روى أنها تزينت بأحسن ما عندها، وقالت: تعال يا يوسف، ﴿ قال معاذ الله ﴾ ؛ أى: أعوذ بالله معاذاً، ﴿ إنه ﴾ أى: الشأن، ﴿ ربي أحسن مثواي ﴾ ؛ سيدى أحسن إقامتى وتربيتى، إذ قال لك أكرمى مثواي، فما جزاؤه أن أخونه فى أهله، أو أنه تعالى ربي أحسن منزلى؛ بأن عطف على قلب سيدى، ولطف بى فى أمورى، فلا أعصيه، ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ ؛ المجاوزون الإحسان إلى الإساءة، أو الزناة؛ فإن الزنى ظلم على الزانى والمزنى بأهله.

﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ ، قال ابن جزى: أكثر الناس الكلام فى هذه الآية، حتى ألفوا فيها التأليف، فمنهم مفرط ومفرط؛ وذلك أن منهم من جعل هم المرأة وهم يوسف من حيث الفعل الذى أرادته. وذكروا من ذلك روايات من جلوسه بين رجليها، وحله للتكة، وغير ذلك مما لا ينبغي أن يقال به؛ لضعف نقله ولنزاهة الأنبياء عن مثله، ومنهم من قال: همت به لتضرره على امتناعه، وهم بها ليقتلها أو يضربها؛ ليدفعها. وهذا بعيد يردده قوله: ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ . ثم قال: والصواب - إن شاء الله -: أنها همت به من حيث مرادها، وهم بها كذلك، لكنه لم يعزم على ذلك، ولم يبلغ إلى حد ماذكر من حل التكة، بل كان همه خطرة خطرت على قلبه، ولم يتابعها، ولكنه بادر إلى التوبة والإقلاع عن تلك الخطرة، حتى محاها من قلبه، لما رأى برهان ربه. ولا يقدح هذا فى عصمة الأنبياء؛ لأن الهم بالذنب ليس بذنب، ولا نقص فى ذلك؛ لأن من هم بذنب ثم تركه كتب له حسنة. هـ.

قلت : وكلامه حسن؛ لأن الخطرات لا طاقة للبشر على تركها، وبمجاهدة مخالفتها فضل البشر على جنس الملائكة، وقال البيضاوى: والمراد بهم: ميل الطبع، ومنازعة الشهوة، لا القصد الاختيارى، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف، بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل، لمن يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم أو مشارفته، كقوله: قتلته لو لم أخف الله. هـ. ومثله فى تفسير الفخر، وأنه مال إليها بمقتضى الطبع، ومنع منه بصارف العصمة، كالصائم يشتاق الماء البارد، ويمتنع منه صومه. ومثله أيضاً فى لطائف المنن: همت به هم إرادة، وهم

بها هم ميل لا هم إرادة. قال المحشى الفاسى: وفيه نظراً لأن ذلك لا يتصور فى النفوس المطمئنة. وإنما ذلك شأن أرباب التلوين والمجاهدة، دون أهل التمكين والمشاهدة، وخصوصاً الأنبياء؛ إذ صارت نفوسهم مشاكلة للروح، مندرجة فيها، ولذلك صارت مطمئنة، وميلها حينئذ إنما يكون للطاعة، وأما غير الطاعة، فهي بمنزلة القدر والنتن تشتمل منه، ولا يتصور بحال ميلها إليه. ثم أطال الكلام فى ذلك.

قلت: أما تفسير الهم بالميل فلا يليق بالنفس المطمئنة. وأما تفسيره بالخاطر فيتصور فى المطمئنة وغيرها. وإنما سماه الله تعالى همّاً فى حق يوسف عليه السلام؛ لأن الأنبياء - عليهم السلام - لعلو منصبهم، وشدة قربهم من الحضرة، يشدد عليهم فى مطالبة الأدب، فيجعل الخاطر فى حقهم همّاً، وظناً. كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ (١) فيمن خفف الذال، أو كما قال تعالى فى حق يونس عليه السلام: ﴿فَظَنَّ أَن لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (٢)؛ على أحد التفسير. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ لخالطها. والبرهان الذى رأى: قيل: ناداه جبريل: يا يوسف تكون فى ديوان الأنبياء، وتفعل فعل السفهاء. وقيل: رأى يعقوب عاصناً على أنامله، يقول: إياك يا يوسف والفاحشة. وقيل: تفكر فى قبح الزنى فاستبصر. وقيل: رأى زليخا غطت وجه صنمها حياءً منه، فقال: أنا أولى أن أستحي من ربي. ﴿كَذَلِكَ﴾ أى: مثل ذلك التثبيت ثبتناه؛ ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾؛ خيانة السيد، ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾، الزنى؛ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصناهم لحضرتنا. أو من الذين أخلصوا وجهتهم إلينا.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أى: تسابقا إلى الباب، وابتدرا إليه، وذلك أن يوسف عليه السلام فر منها؛ ليخرج حين رأى البرهان، وأسرعت وراءه لئلا تمنعه الخروج، ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أى: شقت قميصه من خلف لما اجتذبت لشره. والقُدُّ: الشق طولاً، والقَطُّ: الشق عرضاً، ﴿وَأَلْفَا سَيِّدَهَا﴾: وصادفا زوجها ﴿لدى الباب﴾؛ وفيه إطلاق السيد على الزوج، وإنما أفرد الباب هنا، وجمعه فى قوله: ﴿وغلقت الأبواب﴾ لأن المراد هنا الباب البرانى الذى هو المخرج من الدار. ﴿قَالَتْ﴾ لزوجها: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾؟ قالت: إيهاماً أنها فرت منه؛ تبرئة لساحتها عند زوجها، وإغراء له عليه؛ انتقاماً لنفسها لما امتنع منها. ﴿قَالَ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾: طالبتنى بالمواقعة بها. قال ذلك تبرئة لساحتها، ولو لم تكذب عليه ماقاله.

(١) من الآية: ١١٠ من سورة يوسف.

(٢) من الآية / ٨٧ من سورة الأنبياء.

﴿ وشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾، قيل: ابن عمها. وقيل: ابن خالها صبيًا في المهد. وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف. وكونه لم يتكلم قط، ثم تكلم كرامة ليوسف ﷺ، وعن النبي ﷺ: « تكلم في المهد أربعة: ابنُ مَاشِطَةَ ابنةِ فِرْعَوْنَ، وشَاهدُ يُوْسُفَ، وصَاحبُ جُرَيْجٍ، وعِيسَى ». وذكر مسلم في صحيحه - في قصة الأخدود -: « أن امرأة أتت بها لتطرح في النار، ومعها صبي يرضع، فقال لها: يا أمة، أصبري، لا تجزعي. فإنك على الحق... » (١) وعدَّ بعضهم عشرة تكلموا في المهد، فذكر إبراهيم ﷺ، ويحيى ابن زكريا، ومريم، ونبينا محمد ﷺ، وطفلا في زمنه ﷺ، وهو: مبارك اليمامة، وقد نظمهم السيوطي، وزاد واحداً، فقال:

تَكَلَّمَ فِي الْمَهْدِ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ	ويحيى وعيسى والخليل ومريم
وصَبَى جُرَيْجٌ ثُمَّ شَاهدَ يُوْسُفَ	وطِفْلٌ لَدَى الْأَخْدُودِ يَرْوِيهِ مُسْلِمٌ
وطِفْلٌ عَلَيْهِ مَرْبَا أُمَةٍ التَّى	يُقَالُ لَهَا تَزْنِي وَلَا تَتَكَلَّمُ
ومَاشِطَةُ فِي عَهْدِ فِرْعَوْنَ طِفْلُهَا	وَفِي زَمَنِ الْهَادِي الْمُبَارَكِ تُخْتَمُ

وذكر ابن وهب عن أبي لهيعة قال: بلغني أن المولود فيما تقدم كان يولد في الليل، فيصبح يمشي مع أمه. هـ. وضعف ابن عطية كون شاهد يوسف صبيًا بالحديث: « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة »، وبأنه لو كان الشاهد صبيًا لكان الدليل نفس كلامه، دون أن يحتاج إلى الاستدلال بالقميص. هـ. وقد يجاب بأن الحصر باعتبار بنى إسرائيل، مع أن الوحي يتزايد شيئاً فشيئاً، فأخبر بثلاثة، ثم أخبر بآخرين، وبأن الاستدلال وقع بهما تحقيقاً للقضية.

ثم ذكر الحق تعالى ما قاله الشاهد، فقال: ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قَبْلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾؛ لأنه يدل على أنها قدت قميصه من قدامه بالدفع عن نفسها. أو لأنه أسرع خلفها فعثر بذيله فانقذ جيبه. ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾؛ لأنها جذبت به إلى نفسها حين فر منها. والجملة الشرطية محكية بالقول، أي: قال: إن كان... إلخ. وتسميتها شهادة؛ لأنها أدت مؤداها. والجمع بين «إن» و«كان»؛ على تأويل: إن يعلم أنه كان، ونحوه، ونظيره: قولك: إن أحسنت إليك من قبل. فإن معناه: إن تمنن على بإحسانك أمتن عليك بإحساني. ومعناه: إن ظهر أنه كان قميصه.. إلخ.

(١) أخرجه مسلم في (الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود...) من حديث صهيب رضي الله عنه.

﴿ فَلَمَّا رَأَى ﴾ زوجها قميص يوسف ﴿ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ ﴾ أى: قَوْلُكَ: ﴿ مَا جِزَاء ... ﴾ الخ. ﴿ مِنْ كَيْدٍ كُنَّ ﴾ ؛ من حيلتك. والخطاب لها ولأمثالها ولسائر النساء، ﴿ إِنْ كَيْدُ كُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ؛ لأن كيد النساء أَلُطْفُ وأَعْلَقُ بالقلب، وأشدُّ تأثيراً من النفس والشيطان؛ لأنهن يواجهن به الرجال، والنفس والشيطان يوسوسان مسارقة. ثم التفت العزيز إلى يوسف وقال: ﴿ يَوْسُفُ ﴾ أى: يا يوسف. وحذف النداء؛ إشارة إلى تقريبه وملاطفته، ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ الأمر واكتمه، ولا تذكره، ﴿ وَاسْتَغْفِرْ ﴾ يازليخا ﴿ لَذَنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ ؛ من القوم المذنبين، من خطأ؛ إذا أذنب متعمداً. والتذكير للتغليب. قاله البيضاوى.

الإشارة: إذا أراد الله أن يصفى عبده بخصوصية النبوة أو الولاية، كلاًه بعين الرعاية، وجذبه إليه بسابق العناية؛ فإذا امتحنه أيده بعصمته، وسابق حفظه ورعايته. ولا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية؛ فالشهوة في البشر أمر طبيعي، وبمجاهدتها ظهر شرفه. لكن النفس المطمئنة لا تحتاج في دفعها إلى كبير مجاهدة.

والنفس اللوامة لا بد في دفعها من المكابدة والمجاهدة؛ فالهواجم والخواطر ترد على القلوب كلها، لكن النفس المطمئنة لها قوة على دفعها، وقد تتصرف فيها بامضاء ما قدره الله الواحد القهار عليها. ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ . وذلك كمال في حقهم لا نقصان؛ إذ بذلك تتميز قهرية الربوبية من ضعف العبودية، فما ظهرت كمالات الربوبية إلا بظهور نقائص العبودية. أما الإصرار على العيوب فلا يوجد مع الخصوصية مطلقاً، وأما هجومها على العبد من غير إصرار فيكون مع وجود خصوصية النبوة والولاية، وقد تقع بها الزيادة إن صاحبها الانكسار والإنابة. وفي الحكم: «ربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول». والله تعالى أعلم.

واعلم أن ما امتحن به الصديق عليه السلام مع العصمة، قد وقع مثله كثيراً في هذه الأمة المحمدية مع الحفاظ والامتناع؛ ذكر الرصاع في كتاب التحفة: أن بعض الطلبة كان ساكناً في مدرسة فاس، فخرجت امرأة ذات يوم إلى الحمام بابتنتها، فتلفت البنت وبقيت كذلك إلى الليل، فرأت باباً خلفه ضوء، فأنت إليه، فوجدت فيه رجلاً ينظر في كتاب، فقالت: إن لم يكن الخير عند هذا فلا يكون عند أحد. فقرعت الباب، فخرج الرجل فذكرت له قصتها، وأنها خافت على نفسها. فرأى أنه تعين عليه حفظها، فأدخلها وجعل حصيراً بينه وبينها، وبقي كذلك ينظر في كتابه، فإذا بالشيطان زين له عمله، فحفظه الله ببركة العلم، فأخذ المصباح، وجعل يحرك أصابعه واحداً بعد واحد حتى أحرقها، والبنت تنظر إليه وتتعجب، ثم خرج ينظر إلى الليل فوجده مازال، فأحرق أصابع اليد الأخرى، ثم لاح الضوء، فقال: اخرجي، فخرجت إلى دارها سالمة، فذكرت القضية لوالديها، فأتى أبوها إلى مجلس العلم، وذكر القصة للشيخ، فقال للحاضرين: أخرجوا أيديكم وأمنوا على دعائي لهذا الرجل، فأخرجوا أيديهم، وبقي رجل، فعلم الشيخ أنه صاحب القضية، فدأه، فأخبره، فذكر أنه زوجه الأب منها. هـ. مختصراً.

فمن ترك شيئاً لله عوضه الله مثله، أو أحسن منه . وكذلك فعل الحق تعالى بيوسف عليه السلام قد زوجه زليخا على ما يأتى إن شاء الله .

وحدثني شيخ شيخى مولاي العريى رحمته الله، أنه وقف على حكايات تناسب هذا؛ وهو أن رجلاً صالحاً تعلق قلبه بابنة الملك، فلما رأى نفسه أنه لا يقدر على تزوجها تَلَطَّفَ حتى دخل عليها فى قبتها ليلاً، فوجدها نائمة على فراشها ملقًى على وجهها رداؤها، وشمعة تشعل عند رأسها، وأخرى عند رجلها، وطعام موضوع عندها . فكشف عن وجهها فرأى من الجمال ما أبهر عقله؛ فجعل يتردد فى نفسه، ويخاصمها على فعل الفاحشة، فبينما هو كذلك إذ أبصر لوحاً فوق رأسها مكتوباً فيه ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ (١) ، فتأبى الله تعالى عليه، وزجر نفسه عن هواها، فوضع يده فى ذلك الطعام ليأكل منه، وترك فيه أثراً، فلما أفاقت البنت رأت أثر اليد فى الطعام، فسألت أهل الدار، فكلهم قالوا: ما دخل عليك أحد منا، فتيقنت أن رجلاً دخل عليها، وكان يخطبها كثيراً ممن له الرئاسة والجاه، فخافت على نفسها من أن يطرقها أحد منهم فيغضبها، فقالت لأبيها: لا بد أن تزوجنى، فقال فى نفسه: والله لا أزوجه إلا لرجل صالح، فخرج مختفياً إلى المدرسة، فأتى بعض الناس، فقال: سمعت هذا برجل صالح، فأردت أن أزوره؛ فأشار إلى ذلك الرجل الذى دخل على بنته ثم سأل ثانياً، وثالثاً، فكلهم أشار إليه، فأتى إليه فقال له: إن لى بنتاً جميلة خطبها منى كثير من الناس، فأردت أن أزوجه، فجهزها بما يليق بها، وزوجه إياه . هـ .

وذكر ابن عريون: أن رجلاً كان بالقيروان من العلماء الأتقياء، يقال له شقران، وكان جميل الصورة، فهوته امرأة، فأرسلت إلى عجوز، وأسرت إليها أمره على أن توصله إليها، فأنتت إليه العجوز، وقالت: عندي ابنة مريضة، وأردت أن توصى، وعسى أن تصل إليها وتدعو لها، فلبس ثيابه، ومشى معها إلى أن وصلت إلى الدار فأدخلته، فوجد صبية جميلة، فقالت له: هَلَمْ، فقال: إني أخاف الله رب العالمين . فقالت له العجوز: هيهات يا شقران، والله لئن لم تفعل لأصيحن، وأقول: إنك دخلت علينا وعارضتنا، فقال لها: إن كان ولا بد فدعيني حتى أدخل الحجرة، فقالت له: أفعل ما بدا لك، فدخل الحجرة، فقال: اللهم إنها ما هوت منى إلا صورتي فغيرها، فخرج من الحجرة، وقد ظهر عليه الجذام . فلما رآته، قالت: اخرج، فخرج سالماً . وهذه الحكاية مشهورة ببلاد القيروان . هـ .

قلت : وقد نزل بنا فى حال شبابنا كثير مما يشبه هذا، فحفظنا الله بمنه وكرمه وحسن رعايته . فله المدة والحمد، لا أحصى ثناء عليه .

(١) من الآية ٢ من سورة الطلاق .

ولما شاع خبر زليخا مع يوسف عليه السلام، عاب عليها بعض النسوة، كما قال تعالى:

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَاوِءًا أَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَيِّئًا وَقَالَتْ خْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

قلت: (نسوة): اسم جمع لامرأة. وتأنيثه غير حقيقى، ولذلك جرد فعله من التاء. (فى المدينة) متعلق بقال، أى: أشعن الخبر فى المدينة، أو: صفة لنسوة، فيتعلق بالاستقرار. و(حبا): تمييز. و(حاش لله): قال أبو على الفارسى: هى هنا فعل، والدليل على ذلك من وجهين، أحدهما: أنها دخلت على لام الجر، ولا يدخل حرف على حرف. والآخر: أنها حذف منها الألف، على قراءة الجماعة، والحروف لا يحذف منها شىء. وقرأها أبو عمرو بالألف على الأصل، والفاعل بحاش ضمير يوسف، أى: بعد يوسف عن الفاحشة لخوف الله.

وقال الزمخشري: حاش: وضع موضع المصدر، كأنه قال: تنزيهاً لله. وحذف منه التنوين؛ مراعاة لأصله من الحرفية. وقال البيضاوى: هو حرف يفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء، فوضع موضع التنزيه. واللام للبيان، كما فى قولك: سقيالك. هـ. و(ليكونن): نون التوكيد الخفيفة كتبت بالألف؛ لشبهها بالتنوين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾: مصر، وكانوا خمسا: زوجة الحاجب، والساقى، والخباز، والسجان، وصاحب الدواب. قلن: ﴿ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا ﴾: خادمها ﴿ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أى: تطلب موافقة غلامها إياها، ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾: قد دخل شغاف قلبها حبه، وهو غلافه، ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾: فى خطأ عن الرشدين ظاهراً. ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾: باغتيابهن. وسماهن مكرًا؛ لأنهن أخفينه كما يخفى الماكر مكره. وقيل: كانت استكتمتهن سرها فأفشينه. فلما بلغها إفشاؤه ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ تدعوهن. قيل:

دعت أربعين امرأة فيهن الخمس. ﴿واعتدت﴾ : أعدت ﴿لهن متكأ﴾ : ما يتكئن عليه من الوسائد ونحوها. وقيل: المتكأ: طعام ، فإنهم كانوا يتكئون للطعام عند أكله، وقرئ في الشاذ: «متكأ»، بسكون التاء وتنوين الكاف، وهو الأترج. ﴿وآتت كل واحدة منهن سكيناً﴾ : ليقطعن به. وهذا يدل على أن الطعام كان مما يقطع بالسكاكين كالأترج. وقيل: كان لحماً.

﴿وقالت اخرج عليهن﴾ ، فأسعفها؛ لأنه كان مملوك زوجها، فخرج عليهن، ﴿فلما رأيته أكبرته﴾ : عظم شأنه وجماله الباهر، وعن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت يوسف ليلة المعراج كأنقمر ليلة البدر»، وقيل: كان يرى تلالؤ وجهه على الجدران. ﴿وقطعن أيديهن﴾ : جرحنها بالسكين؛ لفرط الدهشة. اشتغلن بالنظر إليه، وبهتت من جماله حتى قطعن أيديهن، وهن لا يشعرن، كما يقطع الطعام. ﴿وقلن حاش لله﴾ : تنزيهاً له عن صفات العجز عن أن يخلق مثله. أوتدريها له أن يجعل هذا بشرا. اعتقدوا أن الكمال خاص بالملائكة، وكونه في البشر في حيز المحال، أو تعجباً من قدرته على خلق مثله. ﴿ما هذا بشراً﴾ : لأن هذا الجمال غير معهود للبشر. ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ : على الله؛ لأن الجمع بين الجمال الرائق، والكمال الفائق، والعصمة البالغة، من خواص الملائكة.

﴿قالت﴾ : لهن: ﴿فذلكن الذي لمتنى فيه﴾ : توبيحاً لهن على اللوم، أي: فهو ذلك الغلام الكنعاني، الذي لمتنى في الافتتان به قبل أن تدرونها. ولو كنتم رأيته لعذرتمني، ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ : فامتنع طلباً للعصمة. أقرت لهن حين عرفت أنهن يعذرنها؛ كي يعاونها على إلانة عريكته، ﴿ولئن لم يفعل ما أمره﴾ : به ﴿لنسجنن وليكونا من الصاغرين﴾ : الأذلاء، وهو من صغر، بالكسر، يصغر صغاراً. فقلن له: أطع مولاتك.

﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾ : من فعل الفاحشة؛ بالنظر إلى العاقبة. وإن كان مما يشتهي النفس. لكن رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً. قيل: إنما ابتلى بالسجن لقوله هذا، وإنما كان اللائق به أن يسأل الله العافية، فالاختيار لنفسه أوقعه في السجن، ولو ترك الاختيار لكان معصوماً من غير امتحان بالسجن، كما كان معصوماً وقت المراودة، ﴿وإلا تصرف عني﴾ : وإن لم تصرف عني ﴿كيدهن﴾ : من تحبيب ذلك إلي، وتحسينه عندي بالتثبيت على العصمة، ﴿أصب إليهن﴾ : أمل إلى جانبهن بطبعي ومقتضى شهوتي، ﴿وأكن من الجاهلين﴾ : من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه. فإن الحكيم لا يفعل ما هو قبيح. أو من الذين لا يعملون بما يعلمون، فإنهم جهال، وكلامه هذا: تضرع إلى الله تعالى، واستغاثة به.

﴿ فاستجاب له ربه ﴾ : أجاب دعاءه الذي تضمنه كلامه ، ﴿ فصرف عنه كيدهن ﴾ حيث ثبتته على العصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن ، وأثرها على اللذة الفانية ؛ ﴿ إنه هو السميع ﴾ لدعاء الملتجئين إليه ، ﴿ العليم ﴾ بإخلاصهم أو بما يصلح بهم .

الإشارة : الحب إذا كان على ظاهر القلب ، ولم يخرق شغافه ، كان العبد مع دنياه ، وآخرته ، بين ذكر ، وغفلة . فإذا دخل سويداء القلب ، وخرق شغافه نسي العبد دنياه وأخراه ، وغاب عن نفسه وهواه ، وضل في محبة مولاه . ولذلك قيل لعاشقة يوسف : (إنا لنراها في ضلال مبين) أى : فى استغراق فى المحبة حتى ضل عنها ما دون محبوبها . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ (١) أى : وجدك ضالاً فى محبته ، فهداك إلى حضرة مشاهدته ومقام قربه ، فكان قاب قوسين أو أدنى . وعلامة دخول المحبة شغاف القلب أربعة أشياء : الاستيحاش ، والإيناس ، وذكر الحبيب مع الأنفاس ، وحضوره مع الخواطر والوسواس . وأنشدوا :

تَاللَّهِ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ	إِلَّا وَذَكَرُكَ مَقْرُونًا بِأَنْفَاسِي
وَلَا جَلَسْتُ إِلَى قَوْمٍ أَحْسَدْتُهُمْ	إِلَّا وَأَنْتَ حَدِيثِي بَيْنَ جُلَاسِي
وَلَا شَرِبْتُ لَذِيزَ الْمَاءِ مِنْ ظَمَأٍ	إِلَّا رَأَيْتُ خَيْسَالًا مِنْكَ فِي الْكَاسِ
إِنْ كَانَ لِلنَّاسِ وَسْوَاسٌ يَوْسُوسُهُمْ	فَأَنْتَ وَاللَّهِ وَسْوَاسِي وَخَنْئَاسِي
لَوْلَا نَسِيسِي بِذِكْرَاكُمُ أَفِيقُ بِهِ	لَكُنْتُ مُحْتَرِقًا مِنْ حَرِّ أَنْفَاسِي

وقال آخر :

خَيَالُكَ فِي وَهْمِي ، وَذِكْرُكَ فِي فَهْمِي وَمَثْوَاكَ فِي قَلْبِي ، فَأَيْنَ تَغِيبُ ؟

قوله تعالى : (فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن) الآية : أدهشتهم طلعة يوسف ، وجماله الباهر . وزليخا لما استمرت معه لم تفعل شيئاً من ذلك . كذلك المريد إذا استشرف على أنوار الحضرة وجمالها ، أدهشته وحيرته ، فلولا التأييد الإلهي ما أطاقها ، فإذا صبر على صدماتها واستمر مع تجليات أنوارها ذهب دهشه ، واطمأن قلبه بشهود محبوبه من وراء أردية العز والكبرياء ، وهذه هي الطمأنينة الكبرى والسعادة العظمى .

وقوله تعالى : (قال رب السجن أحب إلي) ، هكذا ينبغي للعبد أن يكون ؛ يختار ما يبقى على ما يفنى ؛ قرب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً ، ورب صبر ساعة أورثت نعيماً جزيلاً . وبالله التوفيق .

(١) الآية ٧ من سورة الضحى .

ثم ذكر سجن يوسف، وما يتبعه من إخراجه، وتمليكه وتمكينه، فقال:

﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُذُنَهُ حَتَّىٰ حِينَ ۖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۚ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۖ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ۚ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۖ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۖ ﴿٣٨﴾ ۝

قلت: (ليسجنه): مفسر للفاعل، أي: ظهر لهم سجنه؛ إذ الجملة لا تكون فاعلاً على المشهور، وجوزه بعضهم مستدلاً بالآية. وقيل: محذوف، أي: بدا لهم رأى ليسجنه. وقال الإمام القصار، الفاعل هو القسم المفهوم من اللام الموطلة له، أي: بدا لهم قسمهم ليسجنه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ ۖ ﴾ أي: ظهر للعزير وأهله، ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ ﴾ الدالة على براءة يوسف؛ كشهادة الصبي، وَقَدْ الْقَمِيصَ، وقطع الأيدي، واستعصامه منهن، فظهر لهم سجنه. وأقسموا ﴿ لَيْسَ جُذُنُهُ حَتَّىٰ حِينَ ۖ ﴾: حتى يظهر ما يكون منه؛ ليظن الناس أنها مُحِقَّةٌ فيما ادعت عليه. فخدعت زوجها حتى وافقها على سجنه. وروى أنه لما أدخل السجن تدمت زليخا على سجنه، وعيل صبرها على فراقه، فأرسلت إلى السجان ليطلقه، فأبى، فلبث فيه سبع سنين.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ ﴾ أي: فسجنوه واتفق أنه دخل معه في ذلك اليوم رجلان آخران، من عبيد الملك: ساقيه وخبازه، اتَّهِمَا أَنَّهُمَا أَرَادَا أَنْ يَسْمَاهُ، ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا ۖ ﴾ وهو الساقى: ﴿ إِنِّي أَرَانِي ۖ ﴾ في المنام ﴿ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ ﴾ أي: عنبا. وسماه خمرًا: باعتبار ما يؤول إليه. روى أنه قال: رأيت كأن الملك دعاني وردني إلى قصره، فبينما أنا أدور في القصر، وإذا بثلاثة عناقيد من العنب، فعصرتها، وحملت ذلك إلى الملك لأسقيه له.

﴿وقال الآخر﴾ وهو الخباز: ﴿إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تاكل﴾: تنهش ﴿الطير منه﴾، قال: رأيت كأن العزيز دعاني، وأخرجني من السجن، ودفع لي طيفورة عليها خبز، فوضعتها على رأسي، والطير تأكل منه. ﴿نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾؛ من الذين يحسنون تأويل الرؤيا. وإنما قالوا له ذلك؛ لأنهما رأياه في السجن يعظ الناس ويعبر رؤياهم، أو من المحسنين إلى أهل السجن، كان عليهما إذا رأى محتاجاً طلب له، وإذا رأى مضيقاً وسع عليه؛ فقالا له: فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه.

﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ في النوم، ﴿إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾ تأويله في الدنيا. أو: لا يأتيكما طعام ترزقانه في اليقظة؛ لتأكلاه إلا أخبرتكما به، ما هو؟ وما لونه؟ وما صفته؟ وكم هو؟ قبل أن يأتيكما، إخباراً بالغيب، فيأتيهما كذلك؛ معجزة. وصف نفسه بكثرة العلم والمكاشفة؛ ليكون وسيلة إلى دعائهما إلى التوحيد.

ثم قال لهما: ﴿ذلكما مما علمني ربى﴾ بالوحي والإلهام. وليس ذلك من قبيل التكهين أو التنجيم. روى أنهما قالوا له: من أين لك هذا العلم، وأنت لست بكاهن ولا منجم؟ فقال لهما: ﴿ذلكما مما علمني ربى إني تركت ملة﴾؛ طريقة ﴿قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أى: علمني ذلك لأنى تركت ملة أهل الكفر، ﴿واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب﴾، وإنما قال ذلك؛ تمهيداً للدعوة، وإظهاراً أنه من بيت النبوة؛ لتقوى رغبتهما فى الاستماع إليه، والثوق به. ﴿ما كان لنا﴾: ما صح لنا معشر الأنبياء ﴿أن نشرك بالله من شىء﴾ أى شريك كان، ﴿ذلك﴾ التوحيد ﴿من فضل الله علينا﴾ بالوحي ﴿وعلى الناس﴾ ببعثنا إليهم، وإرشادنا إياهم وتثبيتهم عليه، ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ هذا الفضل؛ فيعرضون عنه. أو من فضل الله علينا بالوحي والإلهام، وعلى الناس بنصب الدلائل وإنزال الآيات. ولكن أكثرهم لا ينظرون إليها، ولا يستدلون بها، فيوحدون خالقها، فهم كمن كفر النعمة ولم يشكرها.

الإشارة: جرت عادة الحق - تعالى - فى خلقه أنه لا يأتى الامتكان إلا بعد الامتحان، ولا يأتى السلوان إلا بعد الأشجان، ولا يأتى العز إلا بعد الدل، ولا يأتى الوجد إلا بعد الفقد. فبقدر ما يضيق على البشرية تتسع ميادين الروحانية، ويقدر ما تسجن النفس وتحبس عن هواها، تتسع الروح فى مشاهدة مولاها.

وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ﴾: إشارة إلى أن امتحانه بالسجن كان لتكميل حقيقته وشريعته، فمن رأى أنه يحمل الطعام فإشارة إلى حمل لواء الشريعة، ومن رأى أنه يعصر خمراً فإشارة إلى تحقيق خمرة الحقيقة، فيكون من أهل مقام الإحسان، ولذلك قال: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، ثم ذكر نتيجة مقام الإحسان - وهو التوحيد الخاص - فقال: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. وذكر أن ذلك ناله من باب الكرم لا من باب العمل، فقال: ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾. والله تعالى أعلم.

ثم دعاهم إلى التوحيد، فقال:

﴿يَصْصَحِي السَّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٠﴾

قلت: الإضافة في (صاحبى السجن): على معنى (فى)؛ كقولك:

يَا سَارِقَ اللَّيْلَةِ أَهْلَ الدَّارِ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنَ﴾ أى: ياساكنيه، أو يا صاحبى فيه؛ ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾: متعددون، ﴿خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد فى الألوهية، ﴿الْقَهَّارُ﴾: الغالب على أمره، لا يقاومه غيره، ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أنتم ومن على دينكم من أهل مصر، ﴿مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ﴾ أى: ما تعبدون إلا مسميات أسماء من الحجارة والخشب، سميتموها آلهة من غير حجة تدل على استحقاقها للعبادة، والمعنى: سميتم آلهة مالا يستحق الألوهية، ثم عبدتموها. ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾ أى: بعبادتها ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾: من حجة ولا برهان. ﴿إِنْ الْحُكْمُ﴾ فى أمر العباداة ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ لأنه المستحق لها دون غيره، من حيث إنه الواجب لذاته، الموجد للكل، هو المالك لأمره، ﴿أَمَرَ﴾ على لسان أنبيائه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ولا تعبدوا معه سواه ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ القويم الذى لا عوج فيه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ دلائل توحيده، فيتخبطون فى جهالتهم. قال البيضاوى: وهذا من التدرج فى الدعوة وإلزام الحجة؛ بين لهم أولاً: رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة،

ويعبدونها لا تستحق الألوهية، ثم دل على ما هو الحق القويم، والدين المستقيم، الذي لا يقتضى العقل غيره، ولا يرتضى العلم دونه. هـ.

الإشارة: كل من لم يجمع قلبه على مولاه، واتبع حظوظه وهواه، فله أرباب متفرقون بقدر ما يميل إليه قلبه من هذا العرض الفانى. قال ابن عطية: وقد ابتلى بأرباب متفرقين من يخدم أبناء الدنيا ويؤملهم. هـ. وفى الحديث: «خَابَ مَنْ رَجَى غَيْرَ اللَّهِ وَضَلَّ سَعْيُهُ، وَطَابَ وَقْتُ مَنْ وَثَّقَ بِاللَّهِ». والله در القائل:

حَرَامٌ عَلَى مَنْ وَحَدَ اللَّهُ رَبَّهُ	وَأَفْرَدَهُ أَنْ يَجْتَدِيَ أَحَدًا رِفْدًا
فِيَا صَاحِبِي قِفْ بِي عَلَى الْحَقِّ وَقِفْهُ	مُوتُ بِهَا وَجِدًا وَأَحْيَا بِهَا وَجِدًا
وَحَلِّ مَلُوكِ الْأَرْضِ تَجْهَدُ جُهْدَهَا	فَذَا الْمَلِكُ مُلْكٌ لَا يُبَاعُ وَلَا يُهْدَى

ثم فسر لهما الرؤيا، فقال:

﴿يَصْحَبِي السَّجَنُ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ. قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ. فَلَيْتَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٤٢)

قلت: (منهما): يتعلق بظن، والظن يحتمل أن يكون بمعنى اليقين؛ لأن قوله: (قضى الأمر) يقتضى ذلك، أو يبقى على بابه.

يقول الحق جل جلاله: قال يوسف: ﴿يا صاحبي السجن﴾ المستفتيان عن الرؤيا، ﴿أما أحدكما﴾ وهو الساقى، ﴿فيسقى ربه خمرًا﴾ كما كان يسقيه قبل، ويعود إلى ما كان عليه، ﴿وأما الآخر فيُصلبُ فتأكلُ الطير من رأسه﴾، فقالا: كذبنا ما رأينا شيئاً، فقال: ﴿قضى الأمر الذى فيه تستفتيان﴾، سبق به القضاء فى الأزل، وهو ما يؤول إليه أمركما، ولذلك وحده ولم يقل: قضى أمركما. روى أنه لما دعاهما إلى التوحيد أسلم الساقى وأبى الخباز، فأخرج بعد ثلاث وصلب.

﴿وقال للذى ظن أنه ناج منهما﴾ يوسف، أى: تيقن، أو غلب على ظنه أنه ناج منهما، إما عن وحي، على الأول، أو باجتهاد بسبب الرؤيا: ﴿اذكرنى عند ربك﴾؛ عند سيدك، وهو الملك، وقل له: غلام سجن ظُلماً،

لعله يُخلصني. قال ابن عطية: يحتمل أن يذكره بعلمه ومكانته، ويحتمل أن يذكره بمظلمته وما امتحن به بغير حق. أو يذكره بهما. هـ. وقال الورتجبي: يحتمل أن قوله: ﴿اذكرني عند ربك﴾: عَرَفَ له طريقتي مع الله حتى يعرفني أني رسول الله، ويطيعني في طاعة الله، وينجو بذلك من عذابه، ويصل إلى ثوابه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وليوحد الله تعالى، ويتخلص من كيد الشيطان، وما معه من الإنسان. هـ.

﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ أي: فأنسى الساقى أن يذكر يوسف لربه. أو أنسى يوسف ذكر الله حتى استغاث بغيره، فأدبه، ﴿فلبث في السجن﴾، وفي الحديث عنه عليه السلام: «رَحِمَ اللَّهُ أَخِي يُوسُفَ، لَوْ لَمْ يَقُلْ: اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ، لَمَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ سَبْعًا بَعْدَ الْخَمْسِ».

روى أن جبريل عليه السلام أتاه بعد المقالة، فقال له: مَنْ أخرجك من الجُبِّ، وخلصك من القتل، وعصمك من الفاحشة؟ فقال: الله. فقال: كيف تعتصم بغيره، وتثق بال مخلوق، وترفع قصتك إليه، وتترك ربك؟ قال: يا جبريل؛ كلمات جرت على لساني، وأنا تائب لا أعود لمثلها. هـ. والاستعانة بالمخلوق، وإن كانت جائزة شرعاً، لكنها لا تليق بمقام الأقوياء. ﴿فلبث في السجن بضْعَ سنين﴾ البضع: من الثلاث إلى التسع. روى أن يوسف عليه السلام سجن خمس سنين أولاً، ثم سجن بعد المقالة سبع سنين.

الإشارة: النسيان والغفلة التي لا تثبت في القلب، والخواطر التي ترد وتذهب من أوصاف البشرية التي لا تنافي الخصوصية، إذ لا انفكاك للعبد عنها. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (١) فالطيف لا يلجوه منه أحد؛ لأنه من جملة أوصاف العبودية التي بها تعرف كمالات الربوبية. وقد قال تعالى في حق سيد العارفين: ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ (٢)؛ فالعصمة التي تجب للأنبياء إنما هي مما يوجب نقصاً أو غصاً من مرتبتهم. وهذه الأمور إنما توجب كمالات؛ لأنها بها يتحقق كمال العبودية التي هي شرف العبد. فافهم وسلم، ولا تنتقد، فإن هذه الأمور لا يفهمها إلا العارفون بالله، دون غيرهم من أهل العلم الظاهر.

وقال الورتجبي: إن يوسف عليه السلام لم يعلم وقت إيمان الملك، ولم يأت وقت دخوله في الإسلام، فأنساه الشيطان ذكر ربه، في سابق حكمه، على تقدير وقت إيمان الملك، فلَبِثَ في السجن إلى وقت إيمان الملك، فنسيان يوسف: احتجابه عن النظر إلى قدره السابق. هـ.

(١) من الآية ٢٠١ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٢٠٠ من سورة الأعراف.

ثم ذكر سبب خروجه من السجن، فقال:

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (٤٣) قَالُوا أَضْغَنْتُ أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَكُونُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قلت: يقال: عبرت الرؤيا - بالتخفيف - عبارة، وهو أفصح من عبرت - بالتشديد - تعبيراً. واللام للبيان، أو لتقوية العامل؛ لضعف الفعل بتأخيره عن مفعوله. والأصل: تعبرون الرؤيا. وأصل (ادكر): اذكر، فقلبت التاء دالا مهملة، وأدغمت المعجمة فيها فبقيت دالا. وإليه أشار ابن مالك بقوله:

فِي ادَانِ وَازْدَدَ وَادْكِرُ دَالَا بَقِي (١)

و(دأبا) حال، أي: دائبين، أو مصدر بإضمار فعله، أي: تدأبون دأبا. وفيه لغتان: السكون، والفتح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾؛ وهو ملك مصر الذي كان العزيز وزيراً له، واسمه: «ريان بن الوليد». وقيل: «مصعب بن الريان»، وكان من الفراعنة - روى أن يوسف عليه السلام لما لبث في السجن سبع سنين سجد، وقال: إلهي، خلصني من السجن. فكلما دعا يوسف أمنت الملائكة، فاتفق في الليلة التي دعا فيها يوسف أن رأى الملك تلك الرؤيا التي ذكرها بقوله: ﴿ إِنِّي أَرَى ﴾ في المنام ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾ خرجن من نهر يابس، وسبع بقرات عجاف - مهازيل - خرجن بأثرهن فابتلعت المهازيل السمان، ﴿ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ ﴾ قد انعقد حبها، ﴿ وَ ﴾ سبعا ﴿ أُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ قد أدركت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها. فلما رأى

(١) صدر البيت: (طائنا افتعال رد إثر مطبق). انظر باب الإبدال.

ذلك انتبه مرعوباً، وجمع ندماءه، ودعا المفسرين، فقال: ﴿يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي﴾؛ اعبروها، ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ أى: إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا.

﴿قالوا﴾: هذه ﴿أضغاث أحلام﴾؛ تخاليطها، جمع ضَغَثَ، وأصله: ما جمع من أخلاط النبات وحُزْمٍ، فاستعير للرؤيا الكاذبة. وإنما جمعوا ﴿أحلام﴾؛ للمبالغة في وصف الحلم بالكذب. ثم قالوا: ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾، والمعنى: ليس لها تأويل عندنا؛ لأنها أكاذيب الشيطان، وإنما التأويل للمنومات الصادقة.

﴿وقال الذى نجا منهما﴾ من صاحبي السجن، وهو الساقى، وكان حاضراً ﴿وادَّكَّرَ بعد أمة﴾ أى: وتذكر بعد جماعة من السنين، وهى سبع سنين، ﴿أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون﴾ إلى من عنده علمها، أو إلى السجن. روى أنه لما سمع مقالة الملك بكى، فقال الملك: مالك تبكى؟ قال: أيها الملك؛ إن رؤياك هذه لا يعبرها إلا الغلام العبرانى الذى فى السجن، فتغير وجه الملك، وقال: إني نسيته، وما ذكرته منذ سبع سنين، ما خطر لى ببال. فقال الساقى: وأنا مثلك، فقال له الملك: وما يدريك أنه يعبر الرؤيا؟ فحدثه بأمره، وأمر الساقى فقال له: امض إليه وسله، فقال: إني والله أستحي منه؛ لأنه أوصانى ونسيت، فقال له: لاتستح منه؛ لأنه يرى الخير والشر من موله فلا يلومك. فأتاه.

فقال: ﴿يوسف﴾ أى: يا يوسف، ﴿أيها الصديق﴾: المبالغ فى الصدق. وإنما وصفه بالصديق لما جرب من أحواله، وما رأى من مناقبه، مع ما سمع من تعبير رؤياه ورؤيا صاحبه، ﴿أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾ أى: أفتنى فى رؤيا ذلك واعبرها لى، ﴿لعلى أرجع إلى الناس﴾ أى: أعود إلى الملك ومن عنده، أو إلى أهل البلاد؛ إذ قيل: إن السجن كان خارج البلاد. ﴿لعلهم يعلمون﴾ تأويلها. أو يعلمون فضلك ومكانتك. وإنما لم يجزم بعلمهم؛ لأنه ربما اخترم دونه، أو لعلهم لا يفهمون ما يقول لهم.

﴿قال﴾ فى تعبيرها: ﴿تزرعون سبع سنين دأباً﴾ أى: على عادتكم المستمرة من الخصب والرخاء. ﴿فما حصدتم فذروهُ﴾: اتركوه ﴿فى سنبله﴾: لئلا تأكله السوس، وهى نصيحة خارجة عن عبارة الرؤيا، ﴿إلا قليلاً مما تأكلون﴾ فى تلك السنين، أى: لا تدرسوا منه إلا ما تحتاجون إلى أكله خاصة، وذلك أن أرض مصر لا يبقى فيها الطعام عامين. فعلمهم حيلة يبقى بها السنين المخصبة إلى السنين المجذبة، وهو أن يتركوه فى سنبله غير مدرّس؛ فإن الحبة إذا بقيت فى غشائها حفظت بإذن الله.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ﴾ أى: ذات شدة وجوع ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أى: يأكل أهلهن ما ادخرتم لأجلهن. أسند الأكل إلى السنين مجازاً؛ تطبيقاً بين المعبر والمعبر به، ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ أى: مما تخرننون وتخبطون للزراعة والبذر. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أى: يغيثهم الله بالفرج من القحط، أو يغاث بالمطر، لكن مصر إنما تسقى من النيل. ﴿وَفِيهِ﴾ أيضاً ﴿يَعْصِرُونَ﴾ العنب والزيتون؛ لكثرة الثمار. أو يعصرون الصروع لحلب اللبن؛ لأجل الخصب. وهذه بشارة بشرهم بها بعد أن أول البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة. والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، وابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع فى السنين المخصبة فى السنين المجدبة. ولعله علم ما فى السنة الثامنة من الخصب والرخاء بالوحى، أو بأن انتهاء الجذب لا يكون إلا بالخصب، وبأن سنة الله الجارية أن يوسع على عباده بعد ما ضيق عليهم، لقوله ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (١). والله تعالى أعلم.

الإشارة: الروح فى أصل نشأتها علامة دأركة، تكشف بالأمور قبل وقوعها، إذا غابت عن إحساسها الذى حجبها عن ذلك العلم، ولو كانت من كافر إذا غابت عن حسها بنوم، أو اصطلام عقل. فمن طهرها من دنس الشرك بالتوحيد، وغيبها عن شواغل الحس بالتفرغ والتجريد، رجعت إلى أصلها، وفاضت عليها العلوم التى كانت لها قبل التركيب فى هذا القلب الحسى، علماً وكشفاً. ولا شىء أنفع لها فى الرجوع من السهر والجوع. وفى الجوع أسرار كثيرة حسية، ومعنوية، وبسببه جمع الله شمل يوسف بأبيه وإخوته. وبه أيضاً ملك الله يوسف ونصره ومكنه فى الأرض حتى ملك مصر وأهلها. ولذلك قال نبينا - عليه الصلاة والسلام -: «اللهم أعننى عليهم - أى على قريش - بِسَبْعِ كَسْبَعِ يَوْسُفَ» (٢).

وذكر الغزالي فى الإحياء، فى أسرار الجوع، أربعين خصلة. وفى بعض الآثار: (أن الله تعالى عذب النفس بأنواع من العذاب، ومع كل عذاب يقول لها: من أنا؟ فتقول هى: ومن أنا؟ حتى عذبها بالجوع، فقالت: أنت ربي سبحانه الواحد القهار). والممدوح منه؛ هو المتوسط دون إفراط ولا تفريط، كما قال البوصيرى:

وَأَخْشَ الدُّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرُّ مِنَ الْقُحْمِ

وبالله التوفيق.

(١) الآية ٥ من سورة الشرح.

(٢) أخرجه البخارى فى أكثر من موضع، منها: (كتاب التفسير - سورة الروم).

ثم ذكر خروجه من السجن وتمكينه من الملك، فقال:

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ
النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رُودَتْهُنَّ يُوسُفُ
عَنْ نَفْسِهِ ۖ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكَفَّ حَصْحَصَ
الْحَقُّ أَنَا رُودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ۖ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ ۖ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا
مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۚ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ
فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾
وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ۝ ﴾

يقول الله : ولما جاء الرسول من عند يوسف بالتعبير، وسمعه الملك، تعجب منه، واستعظم علمه وعقله . لا ينبغي لمثل هذا أن يسجن، ﴿ ائتوني به، فلما جاءه الرسول ﴾ ليخرجه، ﴿ قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ : ما شأنهن حتى قطعن أيديهن، وهل رأين متى ميلا إليهن. وإنما تأني في الخروج، وقدم سؤال النسوة، والفحص عن حاله؛ ليظهر براءة ساحته، وليعلم الملك أنه سجن ظلماً، فلا يقدر الحاسد أن يتوسل به إلى تقبيح أمره. وفيه دليل على أنه ينبغي أن يتقى مواضع التهم، ويجتهد في نفيها، وفي الحديث: « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَقِفَنَّ مَوَاقِفَ التُّهَمِ ».

وفيه دليل على حلمه وصبره، وعدم اهتباله بضيق السجن؛ إذ لم يجب الداعي ساعة دُعي بعد طول سجنه. ومن هذا المعنى تواضع معه نبينا ﷺ حيث قال: «لَوْ لَبِثْتُ فِي السُّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ» (١). ولم يذكر امرأة العزيز كرمًا، ومراعاةً للأدب، ورعيًا لذمام زوجها، وسترًا لها. بل ذكر النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

(١) أخرجه البخاري في (تفسير يوسف - باب فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك...) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي بكَيدِهِمْ عَلِيمٌ﴾ حين قلن لى: أطع مولاتك. وفي عبارته تعظيم لكيدهن، والاستشهاد عليه بعلم الله، وبرأته مما قذف به، والوعيد لهن على كيدهن. ثم جمع الملك النسوة، وكُن سَتًا أو سَبْعًا، مات مدهن ثلاث ويوسف في السجن، وبقي أربع ومعهن امرأة العزيز. و﴿قال﴾ لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾، ما شأنكن ﴿إِذْ رَاودْتُنَّ﴾ أى: حين راودتن ﴿يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾، وأسند المراودة إلى جميعهن؛ لأن الملك لم يتحقق أن امرأة العزيز هي التي راودته وحدها. ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾، تنزيهاً لله أن يعجز عن خلق عفيف مثله، أو تنزيهاً ليوسف أن يعصيه؛ لأجل خوف الله. وهذه تبرئة ليوسف ولهن، أو لهن فقط. وتكون تبرئة يوسف في قولهن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾: من ذنب.

﴿قالت امرأة العزيز الآن حَصْحَصَ الحق﴾ أى: تبين ووضح، أو ثبت واستقر، ﴿أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ في قوله: ﴿راودتنى عن نفسي﴾ فلما رجع إليه الرسول، وذكر ما قالته النسوة، وما أقرت به امرأة العزيز، قال: ﴿ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب﴾ أى: فعلت ذلك التثبت والتأني في الخروج ليعلم العزيز أنى لم أخنه في زوجته ﴿بالغيب﴾ في حال غيبته، أو بظهر الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة، بل تعففت عنها. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي خَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أى: لا ينفذه ولا يسدده. أو لا يهدي الخائنين لكيدهم. وأوقع الفعل على الكيد؛ مبالغة. وفيه تعريض بامرأة العزيز في خيانتها زوجها، وتوكيد لأمانته.

روى عن ابن عباس أنه لما قال: ﴿لم أخنه بالغيب﴾ قال له جبريل عليه السلام: ولا حين هممت. فقال: ﴿وما أبرئ نفسي﴾ لا أنزهها في عموم الأحوال، أو لا أزكيها على الدوام. قاله تواضعاً وإظهاراً للعبودية، وتنبيهاً على أنه لم يرد بذلك تزكية نفسه، ولا العجب بحاله، بل إظهاراً لنعمة العصمة والتوفيق.

ثم قال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ بحيث إنها مائلة بالطبع إلى الشهوات، فتهم بها، وتستعمل القوى والجوارح في نيلها في كل الأوقات. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾: إلا وقت رحمة ربي بالعصمة والحفظ، أو: إلا ما رحم الله من النفوس فيعصمها من ذلك. وقيل: الاستثناء منقطع، أى: لكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، يغفر ما همت به النفوس، ويرحم من يشاء بالعصمة. أو يغفر للمستغفر ذنبه المعترف على نفسه، ويرحمه بالتقريب بعد تعرضه للإبعاد.

وقيل: إن قوله تعالى: ﴿ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب﴾ إلى هنا، هو من كلام زليخا. والأول أرجح (١).

(١) ورجح الحافظ ابن كثير القول الثاني، وقال: إنه الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة.

﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ أى: أبعثه خاصتى وخلاصتى، أو أبعثه خالصا لنفسي. قال أولاً: ﴿ ائتوني به ﴾ فقط، فلما تبين له حاله وظهر كماله، قال: ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ روى أنه لما أراد أن يخرج أرسل إليه بخلعة يأتى فيها، وكان بين السجن والبلد: أربعة فراسخ، فقال يوسف: لا أخرج من السجن حتى لا يبقى فيه أحد، فأمر الملك بخروج جميع من فيه. فلما خرج من السجن اغتسل وتأنف، وليس ثياباً جديداً، فلما دخل على الملك، قال: اللهم إني أسألك من خير، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره. ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟ فقال: لسان آبائي. وكان الملك يعرف سبعين لساناً، فكلمه بها، فأجابه بجميعها، فتعجب منه، فقال: أحب أن أسمع رؤياي، فحكاه، ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها، فأجلسه على السرير، وفوض إليه أمره. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ أى: فلما أتوا به وكلمه وشاهد منه الرشد والدهاء، ﴿ قال إنك اليوم ﴾ عندنا ﴿ مكين ﴾ أى: فى مكانة ومنزلة، ﴿ أمين ﴾: مؤتمن على كل شيء، ثم فوض إليه أمر المملكة.

وقيل: توفى قطفير. أى: العزيز. فلنصبه منصبه، وزوجه من زليخا بعد أن شاخت، وافترقت، فدعا الله تعالى فرد عليها جمالها وشبابها، فوجدها عذراء، وولد منها إفرائيم وميشا. ثم قال له الملك: ما ترى نصنع فى هذه السنين المخصبة؟

﴿ قال اجعلنى على خزانى الأرض ﴾ أى: أرض مصر ألى أمرها. والخزائن: كل ما يخزن فيه طعام ومال وغيرهما. ﴿ إني حفيظ ﴾ لها ممن لا يستحقها، ﴿ عليم ﴾ بوجوه التصرف فيها. قال البيضاوى: ولعله عليه السلام لما رأى أنه يستعمله فى أمره لا محالة، أثر ما تعم فوائده وعوائده، وفيه دليل على جواز طلب التولية، وإظهار أنه مستعد لها، والتولى من يد الكافر، إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به. وعن مجاهد: أن الملك أسلم على يديه هـ. قلت: وقد تقدم عن الورتجى ما يدل عليه.

وقال ابن عطية: وطلب يوسف للعمل إنما هو حسبة منه عليه السلام؛ لرغبته أن يقع العدل، ونحو هذا هو دخول أبى بكر رضي الله عنه فى الخلافة، مع نهيه المستشار له من الأنصار عن أن يتأمر على اثنين. فجائز للفاضل أن يعمل ويطلب العمل إذا رأى ألا عوض منه هـ. وفى «الاكتفاء فى أخبار الخلفاء»: أن عمر أراد أبا هريرة على العمل، فامتنع، فقال له: أوليس يوسف خيراً منك، وقد طلب العمل؟ فقال: يوسف نبي بن نبي، وأنا ابن أميمة، فأنا أخاف ثلاثاً واثنين: أن أقول بغير علم، وأقضى بغير عدل، وأن يضرب ظهري، ويشتم عرضي، ويؤخذ مالى هـ.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ أى: ومثل ذلك الصنع الجميل الذى صنعنا بيوسف مكانه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾؛ أرض مصر، ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾: ينزل من بلادها حيث يريد هو، أو ينزل منها حيث نريد^(١)، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ فى الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِينَ﴾، بل نوفى أجورهم عاجلاً وأجلاً. ويوسف أنصلمهم فى زمانه، فمكّنه الله من أرض مصر، حتى ملكها بأجمعها؛ وذلك أنه لما فوض إليه الملك اجتهد فى جمع الطعام وتكثير الزراعات، حتى دخلت السنوات المجدية، وعم القحط مصر والشام، ونواحيهما، وتوجه الناس إليه، فباعهم فى السنة الأولى بالدراهم والدنانير حتى لم يبق لهم منها شيء، ثم فى السنة الثانية بالحلى والحل، ثم فى السنة الثالثة بأمّعة البيوت، ثم فى الرابعة بالدواب، ثم فى الخامسة بالرباع والعقار، ثم فى السادسة بأولادهم، ثم فى السابعة برقابهم حتى استرقهم جميعاً، ثم عرض الأمر على الملك فقال: الراى راىك. فأعتقهم ورد إليهم أموالهم.

قال تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك والفواحش، فهو أحق بالربة وأولى بالانطبة. وقال ابن جزى فى قوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءُ﴾: الرحمة هنا المراد بها الدنيا، وكذلك الأجر فى قوله: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِينَ﴾؛ بدليل قوله بعد ذلك: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ فأخبر تعالى أن رحمته فى الدنيا يصيب بها من يشاء من مؤمن وكافر، وطائع وعاص، وأن المحسنيين لابد من أجرهم فى الدنيا. فالأول فى المشينة، والثانى واقع لا محالة. ثم أخبر أن أجر الآخرة خير من ذلك كله ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، وفيه إشارة إلى أن يوسف عليه السلام جمع الله له بين الدنيا والآخرة هـ.

الإشارة: فى الآية ثلاث فوائد: الأولى: مدح التانى فى الأمور، ولو كانت جلالية؛ لأنه يدل على كمال العقل والرزانة، وطمانينة القلب. وذم العجلة؛ لأنها من خفة العقل والطيش، وعدم الصبر والاحتمال. يؤخذ ذلك من تانى يوسف عليه السلام فى السجن بعد طول مدته. وفى الحديث: «التانى من الله، والعجلة من الشيطان»^(٢).

الثانية: عدم تزكية النفس، ودوام اتهامها، ولو بلغت من التصفية ما بلغت. وقد تقدم فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾^(٣)، وقال بعض الصوفية: وكيف يصح لعافل أن يزكى نفسه والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يقول: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، والنفوس ثلاثة: أمارة، ولوامة، ومطمئنة. وزاد بعضهم: اللهم من قوله تعالى: ﴿فَالْهَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٤)..

(١) هذا المعنى على قراءة (نشاء) باللون، وبها قرأ ابن كثير، انظر الإتحاف (١٤٩/٢).

(٢) أخرجه الترمذى فى (كتاب البر والصلة)، باب ما جاء فى التانى والعجلة) بلفظ «الأناء»، من حيث سهل بن سعيد الساعدي، وأخرجه -

بلفظ المفسر، البيهقى فى: شعب الإيمان، من حديث أنس. وضعف السيوطى حديث البيهقى. انظر الجامع الصغير (ح/ ٣٣٩٠)

(٣) من الآية ٧٠ من سورة الأنعام. (٤) الآية: ٨ من سورة الشمس.

الثالثة : تسليّة أهل البلاء، إذا صحبهم الإحسان والتقوى، وشارتهم بالعز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والصر والتمكين فى الأرض بعد الاستضعاف والهوان، يؤخذ ذلك من قوله: ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ . وفى ذلك يقول الشاعر:

وَكُلُّ عَبْدٍ أَرَادَ اللَّهُ عِزَّتَهُ فَهُوَ الْعَزِيزُ، وَعِزُّ اللَّهِ يَغْشَاهُ
قَدْ لَاحَ عِزُّ لَهُ فِي الْأَرْضِ مَتَشَرُّ فَهُوَ الْحَبِيبُ لِمَنْ نَادَاهُ لِبَاهُ
يَا حُسْنَهُ وَمَتَى قَدْ طَالَ مَطْلَبُهُ تَاجُ الْبَرِيَّةِ وَالرَّحْمَنِ صَفَاهُ .

ولما أصاب أرض كنعان ما أصاب سائر البلاد، وسمع يعقوب عليه السلام بأن ملك مصر يبيع الطعام، أرسل بنيه - غير بنيامين - إلى مصر للميرة، كما قال تعالى:

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ٥٨ ﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِى بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىْ أُوْفِى الْكِيلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ٥٩ فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ٦٠ قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ٦١ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٦٢ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وجاء إخوة يوسف ﴾ إلى مصر للميرة، ﴿ فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾، إنما أنكروه؛ لبعد العهد ولتغير سنه، ولأنهم فارقوه فى من الحداثة، ولتوهمهم أنه هلك، أو لقلّة تأملهم فى حاله؛ لشدة هيبتهم إياه، أو لأنه كان ملثماً. روى أنهم دخلوا عليه فى قصر ملكه وهو فى هيئة عظيمة من الملك، والتاج على رأسه، فقال لهم بعد أن عرفهم: من أنتم، وما أمركم، وما جاء بكم إلى بلادى، ولعلكم عيون؟ فقالوا: معاذ الله، نحن بنوا أب واحد، وهو شيخ صديق، نبي من الأنبياء، اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثنى عشر، فذهب أحدنا إلى البرية، فهلك. فقال: فكم أنتم هاهنا؟ قالوا: عشرة. قال: فأين الحادى عشر؟ قالوا: عند أبيه يتسلى به عن الهالك، قال: فمن يشهد لكم؟ قالوا: لا يعرفنا هاهنا من يشهد لنا. قال: فدعوا عندى بعضكم رهينة، وانتوني بأخ لكم من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترعوا؛ فأصاب شمعون. وهذا معنى قوله: ﴿ ولما جهّزهم بجهازهم ﴾ أعطاهم ما اشتروا منه من الطعام، وأوفر ركايبهم، ﴿ قال اتنوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ وهو: بنيامين

- بكسر الباء - على وزن إسرائيل، قاله في القاموس . وقيل : كان يوسف عليه السلام يعطى لكل نفس حملاً ، ولا يزيد عليه ، فسألوه حملاً زائداً لأخيهم من أبيهم ؛ فأعطاهم ، وشرط عليهم أن يأتوا به ؛ ليعلم صدقهم . ثم قال لهم : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ للأضياف . قال لهم ذلك ؛ ترغيباً في رجوعهم ، وقد كان أحسن ضيافتهم غاية الإحسان .

رَوَى أَنَّهُ عليه السلام نادى صاحب المائدة ، وقال له : لا تنزل هؤلاء بدار الغرباء ، ولا بدار الأضياف ، ولكن أدخلهم دارى ، وانصب لهم مائدة كما تنصبها لى ، واحفظهم وأكرمهم . فسأله عنهم ، فلم يجب ، فبسط لهم الفرش والوسائد ، فلما جن الليل أمر أن توضع بين أيديهم الموائد ، والشماع ، والمجامر ، وهم ينظرون من كوة إلى دار الأضياف ، وقد بلغ بهم الجهد ، فكانوا يعطونهم قرصة شعير لكل أحد من الغرباء ، وهم يرون ما بين أيديهم من الإكرام والطعام ، وقد بلغ الحمل من الطعام ألفاً ومائتى دينار . فقال بعضهم لبعض : إن هذا الملك أكرمنا بكرامة ما أكرم بها أحداً من الغرباء ! فقال شمعون : لعل الملك سمع بذكر آبائنا فأكرمنا لأجلهم . وقال آخر : لعله أكرم فقرنا وفاقتنا . ويوسف عليه السلام ينظر إليهم من كوة ويسمع كلامهم ، ويبكى . ثم قال لولده ميثا : أشدد وسطك بالمنطقة واخدم هؤلاء القوم ، فقال له : من هم يا أبت ؟ فقال : هم أعمامك يابنى ، قال : يا أبت هؤلاء الذين باعوك ؟ قال : نعم ، باعونى حتى صرت ملك مصر ، ماتقول يابنى ، أحسنوا أم أساءوا ؟ قال : بل أحسنوا ، فما أقول لهم ؟ قال : لا تكلمهم ، ولا تفش لهم سراً حتى يأذن الله بذلك ، فبقوا فى الضيافة ثلاثاً أو أكثر ، ثم جهزهم ، وأرسلهم ، وشرط عليهم أن يأتوا بأخيه بنيامين .

قال لهم : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون ﴾ . أى : لا تدخلوا ديارى ولا تقربوا ساحتى ، ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أى : سنجهد فى طلبه منه ، ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ ذلك ، لا نتوانى فيه ، ﴿ وَقَالَ لَفَتَيْتَهُ ﴾ ؛ لغلمان الكياليين ، وقرأ الأخوان وحفص : ﴿ لَفَتَيَانَهُ ﴾ ، بجمع الكثرة : ﴿ اجْعَلُوا بَضَاعَتَهُمْ ﴾ أى : ثمنهم الذى اشتروا به ، ﴿ فِي رَحَالِهِمْ ﴾ ؛ فى أوعيتهم . فأمر أن يجعل بضاعة كل واحد فى رحله ، وكانت نعلا وأدماء . وإنما فعل ذلك يوسف تكريماً وتفضلاً عليهم ، وترفعاً أن يأخذ ثمن الطعام منهم ، وخوفاً من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به إليه .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ أى : لعلهم يعرفون هذه اليد والكرامة فى رد البضاعة إليهم ، فيرجعون إلينا . فليس الضمير للبضاعة ؛ لأن ميز البضاعة لا يعبر عنه بلعل ، وإنما المعنى : لعلهم يعرفون لها يداً وتكرمة ، ويرون حقها ﴿ إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ، أى : لعل معرفتهم بهذه الكرامة تدعوهم إلى الرجوع . وقصد بذلك

استمالتهم والإحسان إليهم . أو: لعلمهم يعرفون البضاعة، ولا يستحلون متاعنا فيرجعون به إلينا، وضعف هذا ابن عطية، فقال: وقيل: قصد يوسف برد البضاعة أن يتخرجوا من أخذ الطعام بلا ثمن فيرجعوا لدفع الثمن. وهذا ضعيف من وجوه. ثم قال: ولسرورهم بالبضاعة، وقولهم: ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾، يكشف أن يوسف لم يقصد هذا، وإنما قصد أن يستميلهم ويصلهم كما تقدم.

الإشارة: قوله: ﴿فعرّفهم وهم له منكرون﴾، كذلك أهل الخصوصية من أهل مقام الإحسان، يعرفون مقامات أهل الإيمان ومراتبهم، وأهل مقام الإيمان ينكرونهم ولا يعرفون مقامهم، كما قال القائل:

تَرَكَنَا الْبُحُورَ انْزُخِرَاتٍ وَرَأَيْنَا فَمِنْ أَيْنَ يَدْرِي النَّاسُ أَيْنَ تَوَجَّهْنَا؟

فكلما علا بالولي المقام خفى عن الأنام، ولا يعرف مراتب الرجال إلا من دخل معهم، وشرب مشربهم، وإلا فهو جاهل بهم. وقوله تعالى: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾: كذلك الحق - جل جلاله - يقول لعبده: انتلني بقلبك، فإن لم تأتني به فلا أقبل طاعتك، ولا تقرب إلى حضرتي. قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَعْمَالِكُمْ؛ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَنِيَّاتِكُمْ». أو كما قال - عليه الصلاة والسلام -..

وقوله تعالى: ﴿سنراود عنه أباه﴾: كذلك ينبغي للعبد أن يحتال على قلبه حتى يرده إلى ربه؛ وذلك بقطع العلائق، والفرار من الشواغل والعوائق، حتى تشرق عليه أنوار الحقائق.

وقوله تعالى: ﴿اجعلوا بضاعتهم في رحالهم﴾... الآية. كذلك ينبغي للواعظ والمذكر أن يبشر الناس، ويلمي بضاعتهم، وهو: الإيمان والمحبة لله ومعرفته، ويجعلها في قلوبهم بحسن وعظه، ونور حاله، فيكون ممن ينهض الناس حاله، ويدل على الله مقاله. ولا يقنط الناس ويفلسهم من الإيمان والمحبة، بل ينبغي أن يجمع بين التبشير والتحذير، والترغيب والترهيب، ويغلب جانب الترغيب بذكر إحسان الله وآلائه.. لعلمهم يعرفون ذلك إذا انقلبوا إلى أسبابهم، لعلمهم يرجعون إلى الله في غالب أحوالهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر رجوعهم من مصر إلى أبيهم، فقال:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَنَحْفِظُوكَ ۖ﴾ (٦٣) قَالَ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ

مِنْ قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا بَنَاءَ مَا نَبِغِي ۚ هَذِهِ بِضْعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۚ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴿

قلت : (نكتل) : أصله : نَكْتَلُ، بوزن نفتعل، من الكيل، قلبت الياء ألفاً، لتحرك ما قبلها، ثم حذفت للساكنين. (حفظاً) : تمييز، ومن قرأ بالألف فحال، كقوله : لله دره فارساً. أو تمييز، وهو أرجح. و(ما نبغي) : استفهامية، أو نافية. و(نمير أهلنا) : عطف على محذوف، أى : ردت فنستظهر بها ونمير.... إلخ. قال فى القاموس : مار يميز؛ بالكسر : جلب الطعام. هـ. و (إلا أن يحاط) : استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أى : لتأتلنى به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل ﴾ أى : حكم بمنعه بعد هذا، إن لم نذهب بأخيना بنيامين، ﴿ فأرسل معنا أخانا نكتل ﴾ أى : نرفع المانع من الكيل، ونكتل ما نحتاج إليه. وقرأ الأخوان بالياء : ﴿ يكتل ﴾ لنفسه، فنضم اكتياله إلى اكتيالنا، ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ من أن يناله مكروه. ﴿ قال هل آمنكم عليه ﴾ أى : ما آمنكم عليه ﴿ إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾، وقد قلتم فى يوسف : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾، ﴿ فالله خير حفظاً ﴾ (١)؛ فأتق به، وأفوض أمرى إليه، ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾، فأرجو أن يرحمنى بحفظه، ولا يجمع على مصيبتين.

﴿ ولما فتحوأ متاعهم ﴾ : أوعيتهم، ﴿ وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى ﴾ أى : ما نطلب، فهل من مزيد على هذه الكرامة، أكرمنا وأحسن مثوانا، وباع منا، ورد علينا متاعنا، ولا نطلب وراء ذلك إحساناً. أو : ما نتعدى فى القول، ولا نزيد على ما حكينا لك من إحسانه. أو : ما نبغى على أخينا، ولا نكذب على الملك. ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾، هو توضيح وبيان لقولهم : ﴿ ما نبغى ﴾، أى : ردت إلينا فنلقوى بها. ﴿ ونمير

(١) قراءة حمزة والكسائي وحفص : حافظاً، بالألف، وقرأ الآخرون : حفظاً؛ بغير الألف، على المصدر، انظر الإنحاف (٢/ ١٥٠).

أَهْلًا ﴿٦١﴾ : نسوق لهم الميرة - وهو: الطعام حين نرجع إلى الملك، ﴿٦٢﴾ ونحفظ أخانا ﴿٦٣﴾ من المكارة في ذهابنا وإيابنا.. ﴿٦٤﴾ ونزداد كيلَ بعير ﴿٦٥﴾ بزيادة حمل بعير أخينا، إذ كان يوسف عليه السلام لا يعطى إلا كيل بعير لكل واحد.

﴿٦٦﴾ ذلك كيل يسير ﴿٦٧﴾ أى: ذلك الطعام الذى أتينا به شيء قليل لا يكفيننا حتى نرجع ويزيدنا كيل أخينا. أو ذلك الحمل الذى يزيدنا لبعير أخينا - كيل قليل عنده، يسهل عليه لا يتعاضمه، فلا يمنعنا منه. كأنهم استقلوا ما كيل لهم، فأرادوا أن يضاعفوه بالرجوع إلى الملك، ويزدادوا إليه ما يكال لأخيهم. وقيل: إنه من كلام يعقوب عليه السلام، والمعنى: أن حمل بعير شيء قليل لا يخطر أمثله بالولد.

﴿٦٨﴾ قال لن أرسله معكم ﴿٦٩﴾ ؛ لأنى رأيت منكم ما رأيت، ﴿٧٠﴾ حتى تؤتوا موثقاً من الله ﴿٧١﴾ ؛ حتى تعطونى ما أثق به من عهد الله، وتحلفوا لى الأيمان الموثقة ﴿٧٢﴾ لتأتنى به ﴿٧٣﴾ فى كل حال، ﴿٧٤﴾ إلا أن يحاط بكم ﴿٧٥﴾ ؛ إلا أن تغلبوا، ولا تطيقوا الإتيان به. أو: إلا أن تهلكوا جميعاً ويحيط الموت بكم ﴿٧٦﴾ فلما آتوه موثقهم ﴿٧٧﴾ ؛ عهدهم وحلفوا له، ﴿٧٨﴾ قال ﴿٧٩﴾ أبوهم : ﴿٨٠﴾ الله على ما نقول ﴿٨١﴾ من طلب الموثق وإتيان الولد ﴿٨٢﴾ وكيل ﴿٨٣﴾ أى: مطلع رقيب، لا يغيب عنه شيء.

ثم وصاهم ﴿٨٤﴾ وقال ﴿٨٥﴾ لهم: ﴿٨٦﴾ يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ﴿٨٧﴾ . وكانت فى ذلك العهد خمساً: باب الشام، وباب المغرب، وباب اليمن، وباب الروم، وباب طيلون. فقال لهم: ليدخل كل أخوين من باب، خاف عليهم العين؛ لأنهم أهل جمال وأبهة، مشتهرين فى مصر بالقربة والكرامة، فإذا دخلوا كبكبة واحدة أصابتهم العين. ولعله لم يوصهم بذلك فى المرة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين حينئذ، وللنفس آثار من العين، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «العين حق، تدخل الرجل القبر والجمل القدر» (١).

وكان عليه الصلاة والسلام يتعوذ منها، بقوله: «اللهم إنى أعوذ بك من كل نفس هامة، وعين لامة» (٢). ويؤخذ من الآية والحديث: التحصن منها قياماً برسم الحكمة. والأمر كله بيد الله. ولذلك قال يعقوب عليه السلام: ﴿٨٨﴾ وما أغنى عنكم من الله من شيء ﴿٨٩﴾ مما قضى عليكم بما أشرت به عليكم، والمعنى: أن ذلك لا يدفع من قدر الله شيئاً، فإن الحذر لا يمنع القدر، ﴿٩٠﴾ إن الحكم إلا لله ﴿٩١﴾ فما حكم به عليكم لا تردده حيلة، ﴿٩٢﴾ عليه توكلت وعليه فليستوكل المتوكلون ﴿٩٣﴾ أى: ما وثقت إلا به، ولا ينبغي أن يثق أحد إلا به. وإنما كرر حرف الجر؛ زيادة فى الاختصاص؛ ترغيباً فى التوكل على الله والتوثق به.

(١) قال فى كشف الخفاء: (ح ١٧٩٧) رواه أبو نعيم عن جابر مرفوعاً، وحديث «العين حق» بدون الزيادة، متفق عليه. مكث أخرجه البخارى فى (الطب، باب العين حق) ومسلم فى (السلام، باب الطب والمرضى) من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه.

(٢) أخرجه البخارى فى (كتاب الأنبياء، باب ١٠) من حديث ابن عباس، قال: كان النبى ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول... وذكر الحديث.

الإشارة: روى أن إخوة يوسف لما رجعوا عنه صاروا لا ينزلون منزلاً إلا أقبل عليهم أهل ذلك المنزل بالكرامات والضيافات، فقال شمعون: لما قدمنا إلى مصر ما التفت إلينا أحد، فلما رجعنا صار الناس كلهم يكرمونا؟ فقال يهوذا: الآن أثر الملك عليكم، ونور حضرته قد لاح عليكم. هـ. قلت: وكذلك من قصد حضرة العارفين لا يرجع إلا محفوفاً بالأنوار، معموراً بالأسرار، مقصوداً بالكرامة والإبرار.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْ مَعَنَا أَخَانًا...﴾ إلخ، قال الأستاذ القشيري: المحبة غيور؛ لما كان ليعقوب نسلٌ عن يوسف برؤية بنيامين، أبت المحبة إلا أن تظهر سلطانها بالكمال، فغارت على بنيامين أن ينظر إليه يعقوب بعين يوسف. هـ. قلت: وكذلك الحق تعالى غيور أن يرى في قلب حبيبه شيئاً غيره، فإذا رأى ذلك أزاله عنه، وفرق بينه وبين ذلك الشيء، حتى لا يحب شيئاً سوى محبوبه. هذا مما يجده أهل الأذواق في قلوبهم.

وقوله تعالى في وصية يعقوب: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾، فيه إشارة إلى أن الدخول على الله لا يكون من باب واحد بحيث يلتزم المريد حالة واحدة وطريقة واحدة؛ كالعزلة فقط، أو الخلطة فقط، أو الصمت على الدوام، أو ذكر الاسم على الدوام. بل لابد من التلويح قبل التمكين ويعدّه؛ فالعزلة على الدوام: مقام الضعف، والخلطة من غير عزلة بطالة. بل لا يكون عارفاً حتى يعرف الله، ويكون قلبه معه في العزلة والخلطة، والصمت والكلام، والقبض والبسط، والفقد والوجد، ويترقى من ذكر الاسم إلى الفكرة والنظرة، كما هو مقرر عند أهل الفن.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، فيه تهيج على مقام التوكل، وحث على الثقة بالله في جميع الأمور. وفي ذلك يقول الشاعر:

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ حَاجَةٍ وَثِقْ بِاللَّهِ، دَبَّرَ الْخَلْقَ أَجْمَعُ

وَضَعْ عَنْكَ هَمَّ الرِّزْقِ؛ فَالرَّبُّ ضَامِنٌ وَكَفَّ عَنِ الْكَوْنَيْنِ وَالْخَلْقَ أَرْبَعُ

قوله: «والخلق أربع»: أراد العالم العلوي والسفلي، والدنيا والآخرة. وكلها أكوان مخلوقة يجب كف البصر والبصيرة عن الميل إليها، والوقوف معها. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر رجوعهم إلى مصر، واتصال يوسف بأخيه، وإمساكه عنده إلى أن اتصل بأبيه، فقال:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَيْتَ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا
 أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ
 السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا
 عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ
 وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا
 سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ
 فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ
 اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ
 الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴿

قلت : (ما كان) : جواب واما، و(إلا حاجة) : استثناء منقطع . و(جزاؤه) : مبتدأ، و(من) : شرطية أو موصولة،
 وخبرها : (فهو جزاؤه)، والجملة : خبر (جزاء) الأول، أو (جزاؤه) : مبتدأ، و(من) : خبر، على حذف مضاف، أي :
 جزاؤه أخذ من وجد في رحله، وتم الكلام، و(فهو جزاؤه) : جملة مستقلة تقريرية لما قبلها.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾ أي : من أبواب متفرقة في البلد ، ﴿ ما
 كان يغني عنهم ﴾ أي : ما أغنى عنهم رأى يعقوب واتباعهم له ﴿ من الله من شيء ﴾ مما قضى عليهم، فاتهموا
 بالسرقة وظهرت عليهم، فأخذ بديامين الذي كان الخوف عليه، وتضاعفت المصيبة على يعقوب، ﴿ إلا
 حاجة ﴾ : لكن حاجة ﴿ في نفس يعقوب ﴾ يعنى : شفقتة عليهم، وتحزره من أن يعانون، ﴿ قضائها ﴾ : أظهرها
 ووصى بها. ﴿ وإنه لدو علم لما علمناه ﴾ بالوحي ونصب الدليل. ولذلك قال : ﴿ وما أغنى عنكم من الله من
 شيء ﴾ ؛ فلم يغتر بتدبيره، ففيه تنزيه ليعقوب عن الوقوف مع الأسباب والعوائد، ورفع إيهام وقوفه مع عالم
 الحكمة. ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ سر القدر، وأنه لا ينفع منه الحذر.

قال ابن عطية : قوله : ﴿ ما كان يغني عنهم من الله من شيء ﴾ ، معناه : مادراً عنهم قدراً ؛ لأنه لو قضى أن
 تصيبهم عين لأصابتهم، مفترقين أو مجتمعين . وإنما طمع يعقوب ﷺ أن تصادف وصيته القدر في سلامتهم .

ثم أثنى الله - عز وجل - على يعقوب بأنه لقن مما علمه الله من هذا المعنى، واندرج غيره في ذلك العموم، وقال: إن أكثر الناس ليس كذلك هـ.

﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ﴾ أى: ضم إليه بنيامين على الطعام، أو فى المنزل. روى أنه أضافهم، فأجلسهم اثنين اثنين، فبقى بنيامين وحيداً فبكى، وقال: لو كان يوسف حياً لجلس معى، فأجلسه معه على مائدته، ثم قال: لينزل كل اثنين بيتاً، وهذا لا ثانى له فيكون معى، فبات عنده وقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد إذاً مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، ﴿ قال إني أنا أخوك ﴾ وعرفه بنفسه، ﴿ فلا تبس ﴾ لا تحزن ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ فى حقنا من الأذى، أو: لا تحزن بما يعمل فتيانى، ولا تبالى بما تراه فى تحيلى فى أخذك.

﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية ﴾، التى هى الصواع، ﴿ فى رحل أخيه ﴾، وهى إناء يشرب بها الملك، ويأكل فيها، وكان من فضة، وقيل: من ذهب. وقيل: كان صاعاً يكال به. وقصد بجعله فى رحل أخيه أن يحتال على إمساكه معه؛ إذ كان شرع يعقوب أن من سرق استعبده المسروق منه. ﴿ ثم أذن مؤذن ﴾ بعد أن انصرفوا: ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾، والخطاب لإخوة يوسف، وإنما استحل رميهم بالسرقة مع علمه بأنهم أبرياء؛ لما فى ذلك من المصلحة فى المال، ويوحى لا محالة، وإرادة من الله تعالى عنهم بذلك، يقويه قوله تعالى: ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾، ويمكن من أن يكون فيه تورية، وفيها مندوحة عن الكذب، أى: إنكم لسارقون يوسف من أبيه، حين باعوه.

﴿ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ﴾ أى: أى شىء ضاع منكم؟ والفقد: غيبة الشىء عن الحس. ﴿ قالوا نفقد صواع الملك ﴾ الذى يكيل به، أو يشرب فيه، ﴿ ولمن جاء به حمل بعير ﴾ من الطعام، ﴿ وأنا به زعيم ﴾ كفىل أوديه إلى من رده. وفيه دليل على جواز الجعل، وضمان الجعل قبل تمام العمل. قاله البيضاوى.

﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ﴾ فيما مضى، استشهدوا بعلمهم بديانتهم على براءة أنفسهم؛ لما عرفوا منهم من الديانة والأمانة فى دخولهم أرضهم، حتى كانوا يجعلون الأكمة فى أفواه إبلهم؛ لئلا تنال زرع الناس، ﴿ قالوا فما جزاؤه ﴾ أى: السارق، ﴿ إن كنتم كاذبين ﴾ فى ادعاء البراءة. ﴿ قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ﴾؛ يحبس فى سرقته، ويسترق للمسروق منه، وهذا كان قصد يوسف عليه السلام، وهى كانت شريعة يعقوب، وكانت أيضاً شريعتنا فى أول الإسلام ثم نسخ بالقطع. ثم قالوا: ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ بالسرقة.

﴿ فَبَدَأَ ﴾ المؤذن أو يوسف؛ لأنهم رُدُّوا إلى مصر، أى: بدأ فى التفتيش، ﴿ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ﴾ بنيامين، تقيّة للتهمة، ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا ﴾ أى: السقاية، أو الصواع؛ لأنه يُذكر ويؤنث، ﴿ مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ ﴾ ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى: مثل ذلك الكيد ﴿ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ أى: علمناه الحيلة بالوحى فى أخذ أخيه، ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ ملك مصر؛ لأن دينه كان الضرب وتغريم ضعف ما أخذ دون الاسترقاق. ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك. أو: لكن أخذه بمشيئة الله وإرادته. ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ بالعلم والعمل، كما رفعنا درجته، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ أرفع درجة منه.

قال البيضاوى: واحتج به من زعم أنه تعالى عالم بذاته؛ إذ لو كان ذا علم لكان فوقه من هو أعلم منه - أى: لدخوله تعالى فى عموم الآية - والجواب: أن المراد كل ذى علم من الخلق؛ لأن الكلام فيهم، ولأن العليم هو الله تعالى. ومعناه: الذى له العلم البالغ، ولأنه لا فرق بينه وبين قولنا: فوق كل العلماء عليم، وهو مخصوص. هـ.

قلت: وقد ورد ثبوت العلم له تعالى فى آيات وأحاديث. كقوله تعالى: ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ (١)، و ﴿ أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ (٢) «وَأَنَّى عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ عَلَمٌ» (٣) إلى غير ذلك مما هو صريح فى الرد عليهم.

الإشارة: يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُوهُمْ ﴾: امتثال أمر الأب فيما يأمر وينهى. ولا فرق بين أب البشرية وأب الروحانية - وهو الشيخ -، فامتثال أمره واجب على المريد، ولو كان فيه حنف أنفه، وأمره مقدم على أمر الأب كما تقدم فى سورة النساء. وقد قالوا: أركان التصوف ثلاثة: الاجتماع، والاستماع، والاتباع. وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ... ﴾ إلخ: فيه الجمع بين مراعاة القدرة والحكمة، فالقدرة تقتضى التفويض؛ إذ لا فعل لغير الله، والحكمة تقتضى الحذر، واستعمال الأسباب؛ لأن الحكمة رداء للقدرة. فالكمال هو الجمع بينهما؛ سترًا لأسرار الربوبية، فالباطن ينظر لتصريف القدرة، والظاهر يستعمل أستاذ الحكمة.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ... ﴾ الآية. هذا من فعل أهل التصريف بالله، المأخوذين عنهم، لا يدخل تحت قواعد الشرع؛ لأن فاعله مفعول به، أو ناظر بنور الله إلى غيب مشيئة الله، كأفعال

(١) من الآية ١٦٦ من سورة النساء.

(٢) من الآية ١٤ من سورة هود.

(٣) جزء من حديث موسى الخضر وأخرجه البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر)، من حديث ابن عباس رضى الله عنه.

الخصر عليه السلام. قال الورتجبي: إن الله سبحانه إذا خص نبياً، أو ولياً ألبسه صفاته بتدريج الحال؛ ففي كل حالة له يكسوه نوراً من صفته، فمن جملة صفاته: كيد الأزل ومكر الأبد، فكسى علم كيده قلب يوسف، حتى كاد برؤية كيد الله الأزلي، فعرفه فيه أسرار لطف صناعته، وعلم حقائق أفعاله وقدرته. هـ.

وقوله: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾: أى: بالعلم بالله؛ كالكشف عن أسرار ذاته وأنوار صفاته، والتخلق بمعاني أسمائه، والتحقق بمقامات اليقين، ومنازل السائرين. وهذه درجات المقربين، وليس فوقها إلا درجة الأنبياء والمرسلين. أو بالعلم بأحكام الله وشرائعه؛ كالعلم بأحكام العبادات والعادات، وسائر المعاملات. وهذه درجات عامة أهل اليمين من العلماء الأتقياء والصالحين، ومنتهى درجاتهم هي ابتداء درجات العارفين المقربين، ثم الأنبياء والمرسلين. ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾، ومنتهى العلم إلى الله العظيم.

ثم ذكر جوابهم، فقال:

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَأَلَّهِ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧) قَالُوا يَتَّيْنَاهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَىكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَلَمُومٌ﴾ (٧٩)

قلت: معنى الشرط والجواب: إن ثبت أن بنيامين يسرق فقد سرق أخ له، أى: سرقة كسرقة أخيه، و(مكاناً) تمييز.

يقول الحق جل جلاله: قال إخوة يوسف، لما ظهرت السرقة عليهم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ بنيامين ﴿فقد سرق أخ له﴾ أخوه يوسف ﴿من قبل﴾، فهذا الأمر إنما صدر من ابني راحيل، لا منّا، قصدوا بذلك رفع المضرة عن أنفسهم، ورموا بها يوسف وشقيقه، وهذه السرقة التي رموه بها؛ قيل: كانت ورثت عمته من أبيها منطقة، وكانت تخص يوسف وتحبه، فلما شب، أراد يعقوب انتزاعه منها، فشدت المنطقة على وسطه، ثم أظهرت ضياعها، ففتش عليها، فوجدت مشدودة على وسطه، فصارت أحق به في حكمهم، وقيل: كان لجدّه من أمه صنم من ذهب، فسرقه وكسره، وألقاه في الجيف. وقيل: كان في البيت عناق أو دجاجة فأعطاهما السائل (١).

(١) لم يرد نص ثابت عن النبي ﷺ في تعيين المراد بالسرقة التي وصفوه بها، فأنه أعلم بالذي كان.

﴿ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ أى: أخفى هذه الإجابة، ولم يكذبهم فيها. أو: الحزارة التى وجد فى نفسه من قولهم: «فقد سرق أخ له من قبل»؛ أى: أسر كراهية مقالته. أو: المقالة التى يفسرها قوله: ﴿ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا ﴾؛ أى: قال فى نفسه خفية: أنتم شر مكاناً، أى: أنتم أقيح منزلة فى السرقة بسرقتكم أخاكم، أو بسوء صليحكم بما فعلتم معي. ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾، وقد علم سبحانه أن الأمر ليس كما يصفون، فهو إشارة إلى كذبهم فيما نسبوا إليه من السرقة.

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ فى السن، أو القدر، ذكروا حاله؛ استعطافاً له، وكانوا أعلموه بشدة محبة أبيه فيه، ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾؛ فإن أباه تكلان، أى: حزين على أخيه الهالك، يستأنس به، ﴿ إِنْ نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ إلينا، فأتهم إحسانك، أو من المتعودين الإحسان فلا تغير إحسانك. ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدهُ ﴾ فإن أخذ غيره ظلم، فلا أخذ أحداً مكانه؛ ﴿ إِنْ أَرَادُوا لُظْمُونَ ﴾ فى مذهبكم؛ لأن الله أمرنا باسترقاق السارق؛ فاسترقاق غيره ظلم.

الإشارة: النفس الأماره من شأنها الانتصار، ودفع النقائص عنها والعار. والنفس مطمئنة من شأنها الاكتفاء بعلم الله، والرضا بما يجرى به القضاء من عند الله، فإذا اختلجها شيء من الانتصار أسرته، ولم تخرجه إلى حالة الإظهار.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمته الله: آداب الفقير المتجرد أربعة أشياء: الحرمة للأكابر، والرحمة للأصاغر، والانتصاف من نفسه، وعدم الانتصار لها. هـ. فالفقير إذا انتصر لنفسه فقد نقض العهد مع ربه، فيجب عليه التوبة. وقالوا: [الصوفى دمه هدر، وعرضه وماله مباح]. يعنى: أنه لا ينتصر لنفسه، فكل من آذاه لا يخاف من جانبه؛ فكانه مباح، مع كونه حراماً بالشرعية، بل هو أشد حرمة من غيره. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِى أَوْ يَخُصَّكُمْ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يٰبَنَاتِ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْبَةَ الَّتِي

كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

قلت: (نجياً): حال، أى: انفردوا عن الناس مناجين. وإنما أفردته؛ لأنه مصدر، أو بزنه. (من قبل ما): يحتمل أن تكون مزيدة ومصدرية مرفوعة بالابتداء، أى: تفريطكم فى يوسف واقع من قبل هذا. قاله ابن جزى. وفيه نظر؛ فإن الظرف المقطوع لا يقع خبراً، أو منصوبة بالعطف على مفعول (تعلموا)، أى: لم تعلموا أخذ ميثاق أبيكم، وتفريطكم فى يوسف قبل هذا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما استياسوا﴾؛ أى: يسوا ﴿منه﴾ من يوسف أن يجيبهم إلى ما دعوه إليه من أخذ أحدهم مكان أخيهم، ﴿خلصوا﴾ أى: تخلصوا من الناس، وانفردوا عنهم ﴿نجياً﴾ متناجين، يناجى بعضهم بعضاً: كيف وقع للصاع؟ وكيف يتخلصون من عهد أبيهم؟ ثم فسر تلك المناجاة: ﴿قال كبيرهم﴾ فى السن، وهو روبيل، أو فى الرأى، وهو شمعون، وقيل يهوذا: ﴿ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾؛ عهداً وثيقاً، وحلفت له لتأتين بابه إلا أن يحاط بكم؟ فكيف تصنعون معه، ﴿ومن قبل﴾ هذا ﴿فرطتم فى يوسف﴾ واعتذرتُم بالأعداء الكاذبة؟ ﴿فلن أبرح الأرض﴾؛ فلن أفارق أرض مصر ﴿حتى يأذن لى أبى﴾ فى الرجوع، ﴿أو يحكم الله لى﴾: أو يقضى لى بالخروج منها، أو بتخليص أخى منهم قهراً، ﴿وهو خير الحاكمين﴾؛ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.

روى أنهم كلموا العزيز فى إطلاقه، فقال روبيل، وقيل: يهوذا: أيها الملك، لتترك أخانا أو لأصيح صيحة تنزع منها الحوامل، ووقف شعر جسده؛ فخرجت من ثيابه، فقال يوسف لابنه الصغير، واسمه نائل: قم إلى جنبه ومسه، فمسه، وكان بنو يعقوب إذا غضب أحدهم لا يسكن غضبه إلا إذا مسه أحد من آل يعقوب، فلما مسه ولد يوسف عيسى سكن غضبه، فقال: من هذا؟ إن فى هذا البلد لبذراً من بذر يعقوب.

وقيل: إنهم هموا بالقتال، وقال يهوذا لإخوته: تفرقوا فى أسواق مصر، وأنا أصيح صيحة نشق مراريهم، فإذا سمعتم صوتى، فاخربوا يمينا وشمالاً، فلما غضب، وأراد أن يصيح، مسه ولد يوسف فسكن، فلما لم يسمعوا صوته أتوا إليه فوجدوه قد سكن غضبه، فقال: إن هنا بذراً من آل يعقوب.

ثم قال لهم: ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق﴾ على ما شهدنا من ظاهر الأمر، ﴿وما شهدنا إلا بما علمنا﴾ بأن رأينا الصاع استخرج من وعائه. ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ أى: ما كنا

لباطن الأمر حافظين، فلا ندري أسرق، أو أحد دسه في وعائه؟ أو ما كنا حين أعطيناك العهد حافظين للغيب، عالمين بالقدر المغيب، وأنت تصاب به كما أصبت بأخيه. ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ ؛ وهي القرية التي لحقهم فيها المنادي، أي: أرسل إليهم واسألهم عن القصة إن اتهمتنا. ﴿و﴾ سل أيضا ﴿العر﴾ : أهل العير، ﴿التي أقبلنا فيها﴾ ، والعر: جماعة الإبل. ﴿وإنا لصادقون﴾ فيما أخبرناك به. هذا تمام وصية كبيرهم. فلما رجعوا إلى أبيهم، وقالوا له ما قال لهم كبيرهم..

﴿قال﴾ لهم أبوهم: ﴿بل سَوَّيْتُ لَكُم أَنفُسَكُمُ أُمْرًا﴾ أي: زينت لكم أمراً فصنعتوه، وإلا فمن أين يدري الملك أن السارق يؤخذ في السرقة، إذ ليست بشريعته، ﴿فصبر جميل﴾ أي: فأمرى صبر جميل، ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ ؛ بيوسف وبنيامين، وأخيهما الذي بقى بمصر؛ ﴿إنه هو العليم﴾ بحالي وحالهم، ﴿الحكيم﴾ في تدبيره. روى أن عزرائيل دخل ذات يوم على يعقوب - عليهما السلام - فقال له يعقوب: جئت لقبض روحى، أو لقبض روح أحد من أولادى وأهلى؟ قال: إنما جئت زائراً، فقال له: أقسمت عليك بالله إلا ما أخبرتنى، هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا، بل هو حى سَوَّى، وهو ملك وله خزائن، وجنود وعبيد، وعن قريب يجمع الله شملك به..هـ.

الإشارة: فلما استيأس القلب من الدنيا، والرجوع إليها، وقطع يأسه من حظوظها وهواها، خلصت له المناجاة، وصفت له أنوار المشاهدات، وأنواع المكالمات، والقلب هو كبير الأعضاء وملكها، فيقول لها: ألم تعلموا أن الله قد أخذ عليكم موثقاً ألا تعصوه ولا تخالفوه، ومن قبل هذا، وهو زمان البطالة، قد فرطتم في عبادته، فلن أبرح أرض العبودية حتى يأذن لى فى العروج إلى سماء شهود عظمة الربوبية، أو يحكم لى بالوصال، وهو خير الحاكمين. فإن وقعت من الجوارح هفوة فيقال لها: ارجعوا إلى أبيكم - وهو القلب - فقولوا: إن ابنك سرق، أى: تعدى وأخذ ما ليس له من الهوى فيما ظهر لنا، وما شهدنا إلا بما علمنا، فرب معصية فى الظاهر طاعة فى الباطن، واسأل البشرية التى كنا فيها والخواطر التى أقبلنا على المعصية فيها، فيقول القلب: بل زينت لكم أنفسكم أمر الهوى، فدواؤكم الصبر الجميل، والتوبة للعظيم الجليل، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً، فنصرفهم فى طاعة الله ومرضاته. والله تعالى أعلم بأسرار حكم كتابه، فعلم الإشارة يقبل مثل هذا وأكثر. وإياك والانتقاد؛ فقد قالوا فى باب الإشارة أرق من هذا وأغرب. وبالله التوفيق.

ثم قال تعالى:

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ٨٤ ﴾
 ﴿ ٨٤ ﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿ ٨٥ ﴾
 قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنْتِي وَحُزِنِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿ ٨٦ ﴾ يَبْنِي أَذْهَبُوا
 فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِ شَيْءٌ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
 الْكَافِرُونَ ﴿ ٨٧ ﴾

قلت : يا أسفى، ويا ويلتى، ويا حسرتى، مما عوض فيه الألف عن ياء المتكلم. والأسف: أشد الحزن. وقيل: شدة الحسرة. و(كظيم): إما بمعنى مفعول، كقوله: (وهو مكظوم)؛ أى: فهو مملوء غيظاً على أولاده، ممسك له فى قلبه، تقول: كظم السقاء؛ إذا شد على ماله. أو بمعنى فاعل؛ كقوله: ﴿ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ (١)؛ من كظم البعير جرته؛ إذا ردها فى جوفه. و(تفتأ): من النواقص اللزوم للنفى، وحذفه هنا لعدم الإلباس؛ لأنه لو كان مثبتاً لأكّد باللام والنون. والحرص: المريض المشرف على الهلاك، وهو فى الأصل مصدر، ولذلك لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع. والبت: أشد الحزن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وتولى ﴾ يعقوب عن أولاده، أى: أعرض ﴿ عنهم ﴾ لما لم يصدقهم، كراهةً إما صادق منهم، ورجع إلى تأسفه ﴿ وقال يا أسفا ﴾ أى: بإشدة حزنى ﴿ على يوسف ﴾. وإنما تأسف على يوسف دون أخويه لأن محبته كانت أشد؛ لإفراط محبته فيه، ولأن مصيبتيه سبقت عليهما. ﴿ وابيضت عيناه ﴾ من كثرة البكاء ﴿ من الحزن ﴾، كأن العبرة محقت سوادها، وقيل: ضعف بصره، وقيل: عمى. وقد روى أنه: حزن يعقوب حزن سبعين نكلى، وأعطى أجر مائة شهيد، وما ساء ظنه بالله قط.

وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع. ولعل أمثال ذلك لا يدخل تحت التكليف، فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد، وقد بكى رسول الله ﷺ وقال: «القلب يحزن، والعين تدمع، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنّا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون».

﴿ فهو كظيم ﴾ أى: مملوء غيظاً على أولاده؛ لما فعلوا. أو كاظم غيظه، ماسك له، لم يظهر منه شيئاً، ولم يشك لأحد.

(١) من الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.

﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَرُ ۚ لَا تَزَالُ تَذْكَرُ يَوْسُفَ ۚ تَفْجَعًا عَلَيْهِ ۚ ﴾ حتى تكون حَرْضًا ﴿ : مشرفا على الهلاك، ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ : من الميتين ﴿ قال إنما أشكو بثي ﴾ أى : شدة همي ﴿ وحزني ﴾ الذى لا صبر عليه، ﴿ إلى الله ﴾ لا إلى أحد منكم ولا غيركم؛ فخلّونى وشكّائتى، فلست ممن يجزع ويضجر؛ فيستحق التعنيف، وإنما أشكو إلى الله، ولا تعنيف فيه؛ لأن فيه إظهار الفقر، والعجز بين يديه، وهو محمود. ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أى : أعلم من لطف الله ورأفته ورحمته، ما يوجب حسن ظنى وقوة رجائى، وأنه لا يخيب دعائى، ما لا تعلمون. أو : أعلم من طريق الوحي من حياة يوسف ما لا تعلمون؛ لأنه رأى ملك الموت فأخبره بحياته، كما تقدم. وقيل : علم من رؤيا يوسف أنه لا يموت حتى تخر له إخرته سجداً.

﴿ يَا بَنِي إِدْرِيسَ ۖ اذْهَبَا إِلَى الْآرْضِ فَتَحَسَّسَا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ ۚ ﴾ أى : تعرفوا من خبرهما، وتفحصوا عن حالهما. والتحسس : طلب الشيء بالحواس. وإنما لم يذكر الولد الثالث؛ لأنه بقى هناك اختياراً، وفى ذكر يوسف دليل على أنه كان عالماً بحياته. ﴿ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ ۚ ﴾ لا تقنطوا من فرجه وتنقيسه، أو من رحمته، وقرئ بضم الراء، أى : من رحمته التى يحيى بها العباد، أى : ولا تياسوا من حى معه روح الله؛ فكل من بقى روحه برجى، أى : ويوسف عندى، فمن معه روح الله فلا تياسوا من رجوعه. ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى : الشأن ﴿ لَا يَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ بالله وصفاته؛ لأن العارف لا يقطع من رحمته فى شيء من الأحوال. وإنما جعل اليأس من صفة الكافر؛ لأن سببه تكذيب بالربوبية، أو جهل بصفة الله وقدرته، والجهل بالصفة جهل بالموصوف، فالإياس من رحمة الله كفر.

وأما حديث الرجل الذى قال : (إذا مت فاحرقونى، ثم اأثرونى فى البحر والبر فى يوم رائج، فلئن قدر الله على ليعذبنى عذاباً ما عذبه أحد من الناس)، حسبما فى الصحيح^(١)، فليس فيه اليأس ولا تعجيز القدرة، لكن لما غلبه الخوف المفرط لم يتأمل ولم يضبط حاله؛ إما لحقه من الخوف وغمره من الدهش والفضيحة، دون عقد ولا إصرار على نفى الرحمة واليأس منها. ويدل على ذلك قوله : (لما قال له الرب - تعالى - : ما حملك على هذا؟ قال : مخافتك، فغفر له). ولم يقل اليأس من رحمتك. انظر المحشى الفاسى.

الإشارة : لم يتأسف يعقوب عليه السلام على فقد صورة يوسف الحسية، إنما تأسف على فقد ما كان يشاهد فيه من جمال الحق وبهائه، فى تجلى يوسف وحسن طلعه البهية، وفى ذلك يقول ابن الفارض :

عَيْنِي لِغَيْرِ جَمَالِكُمْ لَا تَنْظُرُ وَسَوَاكُمْ فِي خَاطِرِي لَا يَخْطُرُ

(١) أخرج قصة هذا الرجل البخارى فى (الرقاق، باب الخوف من الله) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

فلما فقد ذلك التجلى الجمالى حزن عليه، وإلا فالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أولى بالغنى بالله عما سواه .
فإذا حصل للقلب الغنى بالله لم يتأسف على شيء، ولم يحزن على شيء؛ لأنه حاز كل شيء، ولم يفته شيء .
«ماذا فقد من وجده، وما الذى وجد من فقده» . والله در القائل:

أَنَا الْفَقِيرُ إِلَيْكُمْ وَالْغَنَى بِكُمْ وَلَيْسَ لِي بَعْدَكُمْ حِرْصٌ عَلَى أَحَدٍ

وهذا أمر محقق، مذوق عند العارفين؛ أهل الغنى بالله . وقوله: (إنما أشكو بلى وحزنى إلى الله): فيه رفع الهممة عن الخلق، والاكتفاء بالملك الحق، وعدم الشكوى فيما ينزل إلى الخلق .. وهو ركن من أركان طريق التصوف، بل هو عين التصوف . وبالله التوفيق .

ثم ذهبوا إلى مصر كما أمرهم أبوه، قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ ۖ فَآوَىٰ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ۝٨٩﴾ قَالُوا أَءِذَا نَكَرْنَاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مِنْ يَتَّىٰ وَيَصِيرُ فَإِنَّكَ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ قَالُوا تَأَلَّوْا لِلَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ۝٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝٩٢﴾

قلت: (من يتقى ويصبر): من قرأ بالياء: أجرى الموصول مجرى الشرط؛ لعمومه وإبهامه، فعطف على صلته

بالجزم، ومنه قول الشاعر:

كَذَلِكَ الَّذِي يَبْغَى عَلَى النَّاسِ ظَالِمًا تُصِيبُهُ عَلَى رَغَمِ عَرَاقِبٍ مَا صَنَعَ

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فلما دخلوا عليه ﴾ على يوسف حين رجعوا إليه مرة ثالثة، ﴿ قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ﴾ شدة الجوع، ﴿ وجئنا ﴾ إليك ﴿ ببضاعة مزجاة ﴾: رديئة، أو قليلة، أو ناقصة، تدفع

وترد، من أزجيته، دفعته. ومنه: ﴿يُزْجِي سَحَابًا﴾ (١) قيل: كانت دراهم زيوفاً وقيل: الصنوبر وحب الخضراء. وقيل: سويق المقل أي: الدوم. وقيل: عروضا. ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾: أتممه لنا، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بالمسامحة، وقبول المزجاة، أو بالزيادة على ثمننا. وهذا يقتضى أن الصدقة كانت حلالاً على الأنبياء قبل نبينا ﷺ، وهو خلاف المشهور. أو برد أخينا، ﴿إِنْ اللَّهُ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أحسن الجزاء. والتصدق: التفضل مطلقاً، ومنه قوله ﷺ في القصر: «هَذِهِ صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِهَا، فَأَقْبِلُوا صَدَقَتَهُ» (٢).

رُوى أن يعقوب عليه السلام لما أرسلهم المرة الثالثة ليتحسسوا أخبار يوسف وأخيه، أرسل معهم كتاباً ونصه: بسم الله الرحمن الرحيم، من يعقوب الحزين إلى عزيز مصر، ولو عرفت اسمك لذكرتك في كتابي هذا، يا من اعتز بعز الله، فإله يعز من يشاء ويذل من يشاء، وإنى أيها العزيز قد اشماز قلبي، وقطع الحزن أوصالى، وإنى ناه إلى الإقراح، دائم البكاء والصياح، وإنى من نطفة آباء كرام، فكيف يتولد اللصوص منى وأنا من الخصوص! وقد أخبرت أنك وضعت الصاع بالليل فى رحل ولدى الأصغر، وإنى حزين عليه كما كنت حزينا على أخيه الفقيد، حزناً دائماً سرمداً شديداً. وإن كنت أفجعتنى فى الآخر، فإن قلبى لا محالة طائر. ثم ختمه بالسلام.

فلما دفعوه ليوسف قرأه، وبكى بكاء شديداً، ثم دفعه لأخيه بنيامين فقرأه وبكى أيضاً. ثم نزل عن سريره، ثم دفع لهم الكتاب الذى كانوا كتبوه لمالك بن زعر لما باعوه بخطوط شهادتهم، كان أخذه من مالك حين باعه. فلما قرأوه تغيرت ألوانهم وتضعضت أركانهم، وبهتوا، فقال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾؛ من إيذاء يوسف، وتفريقه من أبيه، ومضرة أخيه من بعده، فإنهم كانوا يذلونه ويشتمون، أى: هل علمتم قبحة فتنتم منه؟ قاله نصحاً وتحريضاً لهم على التوبة. ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ أى: فعلتم ذلك حين كنتم جاهلين قبح ذلك. وإنما سماهم جاهلين؛ لأن فعلهم حينئذ فعل الجاهل، أو لأنهم حينئذ كانوا صبياناً طياشين، فعرفوه حينئذ على ظن، فقالوا: ﴿أَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾؟ بالاستفهام التقريرى. وقرأ ابن كثير على الإيجاب. قيل: عرفوه بذوائبه وشمائله حين نزل إليهم وكلمهم. وقيل: تبسم فعرفوه بثناياه. وقيل: رفع التاج عن رأسه فعرفوه بشامة كانت فى رأسه بيضاء، وكانت لسارة ويعقوب مثلها.

﴿قَالَ لَهُمْ﴾: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ من أبى وأمى. ذكره تعريفاً لنفسه به، وتفخيماً لشأنه، وإدخالاً له فى المنة بقوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالسلامة والكرامة والعز، ﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَّى﴾ الله ﴿وَيَصْبِرُ﴾ على بلواه، وعلى طاعته وتقواه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ﴾، وضع المحسنين موضع المضممر؛ تنبيهاً على أن المحسن جمع بين الصبر والتقوى. فمن اتقى الله وصبر فهو محسن..

(١) من الآية ٤٣ من سورة النور.

(٢) أخرجه مسلم فى (صلاة المسافرين، باب صلاة المسافرين وقصرها) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا ﴾ بحسن الصورة وكمال السيرة، أو فضلك علينا رغماً على أنفسنا، ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ أى: والحال أن شأنا أننا كنا مذنبين فيما فعلنا معك. ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ لا عتاب عليكم اليوم ﴿ أَيْ: لَا عَقُوبَةَ عَلَيْكُمْ فِي هَذَا الْيَوْمِ. ثُمَّ دَعَا لَهُمْ فَقَالَ: ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾، فيوقف على اليوم. وقيل: يتعلق بيغفر، فيوقف على ما قبله، وهو بعيد؛ لأنه تحكم على الله، وإنما يصلح أن يكون دعاء، إذ هو الذى يليق بأداب الأنبياء، فكأنه أسقط حق نفسه بقوله: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ ﴾، ثم دعا الله أن يغفر لهم الله حقه. قاله ابن جزى، وصدر به البيضاوى. وبه تعلم ضعف وقف الهبطى. ثم قال فى تمام دعائه: ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾؛ فإنه يغفر الصغائر والكبائر، ويتفضل على التائب.

قال البيضاوى: ومن كرم يوسف عليه السلام أنهم لما عرفوه أرسلوا له، وقالوا: إنك تدعوننا بالبكرة والعشى إلى الطعام، ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك، فقال لهم: إن أهل مصر كانوا ينظرون إلى بالعين الأولى، ويقولون: سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهما ما بلغ، ولقد شرفت بكم، وعظمت فى أعينهم حيث إنكم إخوتى، وإنى من حفدة إبراهيم عليه السلام. هـ.

الإشارة: من رام الدخول إلى حضرة الكريم الغفار، فليدخل من باب الذل والانكسار. وفى الحكم: «ما طلب لك شيء مثل الاضطراب، ولا أسرع بالمواهب مثل الذلة والافتقار». فإذا قرعت الباب، ورمت الدخول مع الأحباب، فقل بلسان التضرع والانكسار: يأيها العزيز الغفار مسنا الضر، وهو البعد والغفلة، وجئنا ببضاعة مزجاة؛ عمل مدخول، وقلب معلول، فأوف لنا ما أملناه من الجزاء المأمول، وتفضل علينا بالقبول والوصول، وقل: اليوم نغفر لكم ونغطي مساوءكم، ونوصلكم بما منى إليكم من الإحسان، لا بما منكم إلينا من الطاعة والإذعان. هؤلاء إخوة يوسف لما أظهروا فافتهم، واستقلوا بضاعتهم، وأحضروا شكائهم، سمح لهم وقربهم، وكشف لهم عن وجهه الجميل، ومنحهم العطاء الجزيل، فما ظنك بالرب العظيم الجليل، الذى هو أرحم الراحمين، ومحل أمل القاصدين.

ثم أمرهم بالرجوع إلى أبيهم، والإتيان به ويمن معه من أولادهم، فقال:

﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْنَدُونَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ قَدِيمٍ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى

وَجْهَهُ. فَازْتَدَّ بِصِيرٍ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا
يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

قلت : جواب (لولا) : محذوف، أى : لولا أن تفقدون لقلت إنه قريب، أو لصدقتمنى.

يقول الحق جل جلاله : قال يوسف لإخوته لما عرفوه، وأزال ما بينه وبينهم من الوحشة، وقد أخذ قميصه : ﴿ اذهبوا بقميصي هذا ﴾، روى أن هذا القميص كان لإبراهيم الذى لبسه حين كان فى النار، وقيل : ألبسه له جبريل حين خرج من النار، وكان من ثياب الجنة، ثم كان لإسحاق ثم ليعقوب، ثم كان دفعه ليوسف، فكان عدده فى حفاظ من قصب، وكان فى عنقه فى الحب، وأمره جبريل بإرساله، وقال : إن فيه ريح الجنة، لا يلقى على مبتلى إلا عوفى. قال ابن عطية : وهذا كله يحتاج إلى سدد، والظاهر : أنه قميص يوسف الذى هو منه بمنزلة قميص كل أحد. وبهذا تتبين الغرابة فى أن وجد يعقوب ريحه من بعد، ولو كان من قميص الجنة لما كان فى ذلك غرابة، ويجده كل أحد هـ.

قلت : وما قاله لا ينهض ؛ لأن ما ظهر من الجنة إلى دار الدنيا لا يبقى على حاله دائماً ؛ لأنه من أسرار الغيب، بل لا يجده إلا أهل الذوق من أهل القرب، كنور الحجر الأسود، وغيره مما نزل من الجنة. والله تعالى أعلم.

ثم قال لهم اذهبوا به : ﴿ فآلقوه على وجه أبى يأت بصيراً ﴾ أى : يرجع بصيراً، علم ذلك بوحي، أو تجربة من القميص، ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ ؛ نسائكم وذاريكم وأموالكم.

﴿ ولما فصلت العير ﴾ من مصر، وخرجت من عمارتها، ﴿ قال أبوه ﴾ لمن حضره : ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ ؛ أوجده الله، ريح ما عبق من قميصه حين أقبل إليه به يهوذا من ثمانين فرسخاً ؛ لأن يعقوب كان إذ ذاك ببيت المقدس، ويوسف بمصر، ﴿ لولا أن تفندون ﴾ ؛ تنسبونى إلى الفند، وهو : نقصان عقل يحدث من هرم. ولذلك لا يقال عجوز مفندة ؛ لأن نقصان عقلها ذاتى. أى : لولا أن تحمقونى لقلت إنه قريب، أو لصدقتمنى فى ذلك، أو لولا أن تلومونى، وتردوا على قولى لقلت إنه ريح يوسف. ﴿ قالوا ﴾ أى : الحاضرون : ﴿ تالله إنك لفى ضلالك القديم ﴾ أى : إنك لفى خطئك القديم بالإفراط فى محبة يوسف، وإكثار ذكره، وتوقع لقائه.

﴿ فلما أن جاءَ البشير ﴾ أي: المبشر، وهو: يهوذا. روى أنه قال: كنتُ أحزنُّهُ بِحَمَلِ قَمِيصِهِ الْمَلَطَّخِ بِالدَّمِ إِلَيْهِ، اليومَ أفرحُه بِحَمَلِ هَذَا إِلَيْهِ. وفي رواية عنه قال: إني ذهبتُ إِلَيْهِ بِقَمِيصِ التَّرْحَةِ، فدعوني أذهبُ إِلَيْهِ بِقَمِيصِ الفَرَحَةِ. فلما وصلَ إِلَيْهِ ﴿ ألقاهُ على وجهه ﴾؛ طرحَ البشيرُ القَمِيصَ على وجهِ يعقوبَ، أو: ألقاهُ يعقوبُ بنفسه على وجهه، ﴿ فارتدَّ بصيراً ﴾ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَبِرِكَاتِ القَمِيصِ. ﴿ قال ألم أقل لكم إني أعلمُ من الله ما لا تعلمون ﴾ من حياة يوسف، وإنزال الفرج.

﴿ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾، وقد اعترفنا بذنوبنا، وسألنا المغفرة. ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربِّي إنه هو الغفور الرحيم ﴾، أخره إلى السُّحَرِ، أو إلى صلاة الليل، أو إلى ليلة الجمعة، تحريماً لوقت الإجابة، أو إلى أن يتحلل لهم من يوسف، فإن عفو المظلوم شرط في المغفرة، ويؤيده ما روى أنه لما اجتمع به، وتحلل منه، استقبل يعقوبُ القبلة قائماً يدعو، ويوسفُ خلفه يؤمن، وقاموا خلفهما أذلةً خاشعين، حتى نزل جبريل وقال: إن الله قد أجاب دعوتك في أولادك، وعقد موافقتهم بعدك على النبوة. وهو، إن صح، دليل نبوتهم، وأن ما صدر منهم كان قبل نبوتهم، قاله البيضاوي.

الإشارة: اعلم أن الحق - جل جلاله - جعل للبشرية عَيْنَيْنِ حَسِينَيْنِ، تبصر بهما الحسيات، وجعل للقلب عَيْنَيْنِ معنويَيْنِ يرى بهما المعاني. فالأول: يسمى البصر، والثاني: البصيرة. فأحد عيني القلب تبصر أنوار الشريعة، والأخرى تبصر أسرار الحقيقة. وقد يغشى القلب ظلمة الكفر، فتغطيها معاً، وهو: عمى البصيرة. وقد يغشاه ظلمة المعاصي، واتباع الحظوظ والهوى، فتعمى عين الحقيقة، وتضعف عين الشريعة، ودواؤهما: إلقاء قَمِيصِ المعرفة على وجه عين الحقيقة، وجلباب العصمة على عين الشريعة، فيرجع القلب بصيراً. ولا بد من صحبة شيخ عارف يعطيه هذا القميص، ويقول: اذهبوا بقَمِيصِي هذا فألقوه على وجه بصيرتكم، تأتي بصيرة عارفة، فإذا قرب منها هذا القميص هبَّ عليها نسيم الوصال، وهاج عليها الوجدُ والحالُ. وأنشدت بلسان المقال:

سَوِيْدَاءُ قَلْبِي أَصْبَحَتْ حَرَمًا لَكُمْ	تَطَوَّفُ بِهَا الْأَسْرَارُ مِنْ عَالَمِ اللَّطْفِ
وَسَائِلُ مَا بَيْنَ الْمُحِبِّينَ أَصْبَحَتْ	تَجِلُّ عَنِ التَّعْرِيفِ وَالرَّسْمِ وَالْعُرْفِ
رَسَائِلُ جَاءَتْنَا بِرُؤْيَا جَنَابِكُمْ	عَوَارِفُ عُرْفِ فَاقَ كُلُّ شَذَا عَرَفِ

ثم ذكر دخول يعقوب مصر، وجمع شمله بيوسف - عليهما السلام -، فقال:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩ ۝ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتُونِي هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَزَّغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝١٠٠ ۝﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ﴾ . قبل هذا الكلام محذوفات، وهى: فرحل يعقوب بأهله حتى بلغوا إليه، ولما دخلوا على يوسف.... الخ.

رُوى أن يوسف عليه السلام وجه إليه راحل وأموالاً ليتجهز إليه بمن معه، وأرسل إليه مائة وثمانين كسوة من رفيع الثياب والعمائم لإخوته، وقميصان مذهبان للإناث، فلما وصلت إلى يعقوب لبس، وألبس أولاده، وركبوا المراكب، وخرجوا من أرض كنعان يريدون مصر، فلما قربوا، أمر يوسف عليه السلام العساكر أن تخرج معه للقائهم، فأول من لقيهم ثلاثون ألف فارس، كلهم يسجدون بين يدي يعقوب، وهو يتعجب من عظم تلك الأجناد، ويضحك من نصر الله تعالى، وعزه لابنه. ثم لقيهم البغال، والجواري لنساء إخوته وأولادهم. ثم لقيهم أربعون ألف شيخ من الوزراء والكبراء. ثم استقبلهم يوسف عليه السلام مترجلاً ماشياً على قدميه، متواضعاً لأبيه، فى مائة ألف، كلهم على أرجلهم، معهم الملك «ريان»، ثم سلم يوسف عليه السلام والملك على أبيه، ثم أقبلا يبكيان، وبكى إخوته وضع الناس بالبكاء، ثم ضم إليه أبويه، وقيل: أباه وخالته، ﴿ وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين ﴾، ثم حمل يعقوب عليه السلام فى هودج من الذهب، ويوسف عليه السلام، وإخوته يمشون بين يديه مترجلين حتى دخلوا مصر، ثم أتوا إلى قصر مملكته.

قال ابن عباس: فجلس يوسف عليه السلام على سريرته، وأبوه عن يمينه، وخالته عن شماله، وإخوته بين يديه، فخرؤا له سجداً؛ لأنها كانت عادتهم فى ذلك الزمان - يعنى تحييتهم على الملوك - رُوى أنهم قالوا فى سجودهم: سبحان مؤلف الشتات بعد الإياس، سبحان كاشف الضر بعد البأس. فقال يوسف لأبيه: ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل... ﴾ الخ - هكذا ذكر القصة صاحب الزهر الأنيق فى قصة يوسف الصديق. وهذا معنى قوله: ﴿ فلما دخلوا على يوسف ﴾ بلده ومملكته ﴿ آوى إليه أبويه ﴾؛ أى: اعتنقهما، وسلم عليهما، وضمهما إليه. قيل: الأبوين حقيقة. وقيل: أباه وخالته. ونزل الخالة منزلة الأم تكزىل العم منزلة الأب فى

قوله: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ (١) .

﴿وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ من القحط وأصداف المكاره . والمشيمة متعلقة بالدخول المكيف بتلك الهيئة لا بالأمن . وقال ابن جزى: راجعة إلى الأمن . قال البيضاوي: وكان أولاد يعقوب الذين دخلوا مصر اثنين وسبعين رجلاً، وامرأة، وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وتسعين رجلاً سوى الذرية، والهرمي . هـ .

﴿ورفع أبويه على العرش﴾ ، أى: حين دخلوا قصر مملكته، ﴿وخروا له سُجْداً﴾ ؛ تحية وتكرمة؛ فإن السجود كان عندهم يجرى مجرى التحية . وقيل: معناه: خروا لأجله سجداً لله؛ شكراً . وقول البيضاوي: الرفع مؤخر عن الخور، فيه نظر؛ لما تقدم عن صاحب الزهر الأنيق، ولا داعى إلى الخروج عن الظاهر إلا بنص صريح .

قال ابن عطية: واختلف في هذا السجود؛ فقليل: كان المعهود عندنا من وضع الوجه بالأرض، وقيل: بل دور ذلك؛ كالركوع البالغ ونحوه، مما كان سيرة تحيتهم للملوك في ذلك الزمان . وأجمع المفسرون أن ذلك السجود كيفما كان، إنما كان تحية لا عبادة .

قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة . ثم قال: قال أبو عمر الشيباني: تقدم يوسف يعقوب عليه السلام فى المشى فى بعض تلك المراتن، فهبط جبريل فقال: أنتقدم أباك؟ إن عقوبتك لذلك ألا يخرج من نسلك نبى . هـ . قال المحشى القاسى: وما أظن لهذا صحة، وقد كان من ذرية يوشع بن نون عليه السلام، ويوسف المذكور فى سورة الطول (٢) على قول . وفى البيضاوي: وكان عمر يوسف مائتا وعشرين سنة، وقد ولد له من راعيل: إفرائيم وميشا، وهو جد يوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب . هـ . قلت: المذكور فى قصة أيوب أن زوجه رحمة إنما كانت ابنة إفرائيم بن يوشع لابنته .

ثم قال: ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل﴾ ؛ التى رأيتها أيام الصبا، وهى: رؤيا أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون لى، ﴿قد جعلها ربى حقاً﴾ : صدقاً . وكان بين رؤياه وبين صدق تأويلها ثمانون عاماً، وقيل أربعون، وهو الأصح . ﴿وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن﴾ ، ولم يذكر الجب؛ لئلا يخجل إخوته، ولأن خرج من الجب إلى الرق، ومن السجن إلى الملك، فالنعمة هنا أوضح . ﴿وجاء بكم من البدو﴾ : من البادية لأنهم كانوا أصحاب المواشى وأهل البدو، فعد عليهم من النعم انتقالهم للحاضرة؛ لأنها محل الراحة . ﴿من بعد أن نزع الشيطان بينى وبين إخوتى﴾ : أفسد بيننا وحرش، من نزع الدابة إذا نخسها . ﴿إن ربى لطيف لما يشاء﴾

(١) من الآية ١٣٣ من سورة البقرة . (٢) أى سورة غافر من الآية ٣٤ .

أى: لطيف التدبير لما يشاء من الأمور؛ إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته، ويتسهل دونها، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾
بوجوه المصالح والتدابير، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى يفعل كل شيء فى وقته، على وجه تقتضيه الحكمة.

رُوى أن يوسف عليه السلام طاف بأبيه - عليهما السلام - فى خزائنه، فلما أدخله خزانة القراطيس، قال: يا بنى،
ما أغفلك، عندك هذه القراطيس وما كتبت لى على ثمانى مراحل، قال: أمرنى جبريل، قال: أو ما تسأله؟ قال:
أنت أبسط منى، سله، فقال جبريل: أمرنى ربي بذلك؛ لقولك: (إني أخاف أن يأكله الذئب)، فهلا خفتنى. هـ.
قاله البيضاوى. وزاد فى القوت: لِمَ خفت عليه الذئب ولم ترجئى؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته، ولم تنظر إلى
حفظى له؟ فهذا على معنى قول يوسف عليه السلام للساقى: (اذكرنى عند ربك)، فهذا مما يعتب على الخصوص من
خفى سكونهم، ولمح نظرهم إلى ما سوى الله عز وجل. هـ.

الإشارة: ما أحلى الوصال، بعد الفراق، وما أذ شهود الحبيب على الإشتياق، فبقدر طول البين يعظم قدر
الوصول، وبقدر حمل مشاق الطلب يظفر بالمأمول. فجذأىها العبد فى طلب مولاه، وغب فى سيرك إليه عن
حظوظك وهواك، تنظر بالوصل الدائم فى عزك وعلاك، وتتصل بكل ما كنت تأمله من مطالبك ومناك. وأنشدوا:

وَأِنْ أَمْرٌ أَمْسَى بِقُرْبِكَ نَازِلًا فَأَهْلًا بِهِ، حَازَ الْفَضَائِلَ كُلَّهَا
وَأَبْسَتْهُ حُلَى الْمَحَاسِنِ فَانْتَسَى حُلَّ الرِّضَا فَازدَادَ قُرْبًا مَا انْتَهَى

وبالله التوفيق.

ثم إن يوسف عليه السلام لما تمكن من الملك الفانى، اشتاق إلى الملك الباقي، فقال:

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١٠١)
قلت: (فاطر): نعت المئادى، أو مئادى بنفسه.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ أى: من بعض الملك، وهو
ملك مصر، ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾؛ الكتب المتقدمة، أو تأويل الرؤيا. ومن: للتبعيض فيهما؛ إذ لم
يعط ملك الدنيا كلها، ولا أحاط بالعلم كله. ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: مبدعهما ومنشئهما، ﴿أَنْتَ وَلِيِّ فِي﴾

الدنيا والآخرة ﴿: أنت ناصرى ومتولى أمرى فى الدارين، ﴿توفى مسلماً﴾: اقبضى مسلماً، ﴿والحقنى بالصالحين﴾ من آبائى، أو جماعة الصالحين فى الرتبة والكرامة، أو بالصالحين لحضرة قدسك.

روى أن يعقوب عليه السلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة، ثم توفى، فنقله يوسف عليه السلام إلى الشام ليُدفن مع أبويه. هكذا ذكر بعض المفسرين. وقال فى الزهر الأنيق: بقى يعقوب عليه السلام بمصر أربعين سنة فى أطيب وقت، وأكمل عافية، ثم أوحى الله إلى جبريل: أن انزل إلى يعقوب، وقل له: يرحل إلى الأرض المقدسة، عند قبور آبائه، يجاورهم حتى ألحقه بهم. فنادى يعقوب عليه السلام يوسف وأولاده، وقال لهم: قد أمرنى ربى بمجاورة أبى؛ ليقبض روحى هناك، ثم ودّعهم، وخرج إلى الأرض المقدسة، فزار قبور آبائه فبكى، فرأى فى المنام إبراهيم على كرسى، وإسماعيل عن يمينه، وإسحق عن يساره، وهم يقولون: الحق بنا يا يعقوب، فانتبه، ثم قام فوجد قبراً محفوراً تخرج منه رائحة المسك، فقال: لمن هذا؟ قال له ملك عنده: هو لمن يتمنى سكناه، فقال: أنا، فقبض روحه ملك الموت، ثم نزل جبريل وميكائيل - عليهما السلام - وكفناه، وصليا عليه، ودفناه.

قال كعب الأحبار: توفى يعقوب وهو ابن مائتى سنة، ولما وصل نعيه يوسف بكى، وبكى معه إخوته. هـ. قلت: ظاهره أنهم لم يحضروا موته، وهو خلاف قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ (١)، إلا أن يؤول بمعنى: قرب، فتكون وصيته وقعت حين أراد الرجوع إلى الشام، وهو خلاف الظاهر.

ثم إن يوسف ناقت نفسه إلى الملك المخلد، فتملى الموت، فقال: ﴿رب قد آتيتنى من الملك...﴾ إلخ. روى أنه عاش بعد قوله هذا مدة، ثم ماتت زليخا، ولم يتزوج بعدها، وعاش بعدها أربعين يوماً، ثم اشتاق إلى اللقاء واللقاء بآبائه، فتوفاه الله طيباً طاهراً، فتخاصم أهل مصر فى مدفنه، حتى هموا بالقتال، فرأوا أن يجعلوه فى صندوق من مرمر - أى: رخام - فيدفنوه فى النيل بحيث يمر عليه الماء، ثم يصل إلى مصر؛ ليكونوا شرعاً فيه. وفى رواية: أنهم دفنوه على ضفة النيل؛ فخصبت وجذبت الأخرى؛ فنقلوه للأخرى؛ فخصبت وجذبت الأولى، فجعلوه فى صندوق، ودفنوه فى النيل؛ فاخضرت الجهتان، ثم نقله موسى عليه السلام إلى مدفن آبائه. وكان عمره: مائة وعشرين سنة، وقد تقدم ذكر أولاده الثلاثة: إفرائيم، وميشا، ورحمة امرأة أيوب، وتقدم البحث فيها، وذكر فى الزهر الأنيق أنه ولد له من زليخا عشرة أولاد، فانظره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا كان العبد فى زيادة من الأعمال، وفى الترقى إلى مقامات الكمال، فلا بأس أن يتمنى البقاء فى هذه الدار؛ لزيادة الزاد إلى دار القرار، وإذا كان فى نقصان من الأعمال، أو خاف النقصان بعد الكمال، فلا بأس بطلب الرحيل والانتقال؛ كما طلبه الصديق عليه السلام بعد الملك التام. وكما فعل عمر رضى الله عنه حين انتشرت

(١) الآية ١٣٤ من سورة البقرة.

رعيته، وخاف التقصير في سيرته. وقد تقدم في سورة البقرة تفصيل ذلك، ولقد أحسن الشاعر في التحذير، من الاغترار بزخرف هذه الدار، فقال:

هُوَ الْحِمَامُ فَلَا تُبْعِدْ زِيَارَتَهُ وَلَا تَقُلْ: لَيْتَنِي مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ
يَأْوِيحَ مَنْ غَرَّهُ دَهْرٌ فَسُرِبَهُ لَمْ يَخْلُصِ الصَّفْوُ إِلَّا شَيْبَ الْكَدَرِ
أَنْظُرْ لِمَنْ بَادَ تَنْظُرُ آيَةٍ عَجَبًا وَعِبْرَةً لِأُولَى الْأَبْصَارِ وَالْبَصَرِ
بَادُوا فَعَادُوا حَدِيثًا، إِنَّ ذَا عَجَبٍ مَا أَوْضَحَ الرُّشْدَ لَوْلَا غَفْلَةُ النَّظَرِ
تَنَافَسَ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ الْمَقَامَ بِهَا كَالْمَحِّ بِالْبَصَرِ
فَخَلَّ عَنْ زَمَنٍ تَخْشَى عَوَاقِبَهُ إِنَّ الزَّمَانَ إِذَا فَكَّرْتَ ذُو غَيْرِ
وَأَعْمَلْ لِأَخْرَاكَ لَا تَبْخُلْ بِمَكْرَمَةٍ وَمَهْدِ الْعُذْرَ؛ لَيْسَ الْعَيْنُ كَالْأَثَرِ

ثم نبه الحق تعالى أن الإخبار بقصة يوسف عليه السلام من أعلام النبوة لدينا ﷺ فقال:

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ۝ ١٠٢ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ ١٠٣ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝ ١٠٤ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝ ١٠٥ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ۝ ١٠٦ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَتَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ١٠٧ ﴾

قلت: (ذلك): مبتدأ، و(من أنباء الغيب): خبر. و(نوحيه): حال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ذلك ﴾ أي: خبر يوسف وقصته، هو ﴿ من أنباء ﴾ أخبار ﴿ الغيب ﴾ التي لم يكن لك بها علم، وإنما علمته بالوحي الذي ﴿ نوحيه إليك ﴾ فأخبرتهم به. ﴿ وما كنت لديهم ﴾ أي: وما حضرت عندهم، ﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾: حين عزموا أمرهم على أن يجعلوه في غيابة الجب، ﴿ وهم يَمْكُرُونَ ﴾ به، وبأبيه؛ ليرسله معهم. ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحداً من الأحبار

فتعلمت ذلك منه، فتحققوا أنه وحى من عند الله، ولكن جحدوا؛ ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت﴾ على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات لهم، ﴿بمؤمنين﴾؛ لعنادهم وتصميمهم على الكفر، ﴿وما تسألهم عليه﴾ على تبليغ هذا النبأ، أو القرآن، ﴿من أجر﴾؛ كما يفعله حملة الأخبار من الأخبار. ﴿إن هو إلا ذكر﴾: عظة من الله، ﴿للعالمين﴾ من الجن والإنس.

﴿وكأين﴾: كثيراً ﴿من آية في السموات والأرض﴾ الدالة على وجود صانعها وتوحيده، وكمال قدرته وتماح حكمته، ﴿يمرون عليها﴾ ويشاهدونها، ﴿وهم عنها معرضون﴾: لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون. ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله﴾ أى: وما يصدق أكثرهم بوجود الله فى إقرارهم بوجوده، وخالفته للأشياء، وأنه الرزاق المميت، ﴿إلا وهم مشركون﴾ بعبادة الأصنام، أو باتخاذ الأخبار والرهبان أرباباً، أو بنسبة التبنى إليه، أو بالوقوف مع الأسباب، أو غير ذلك من أنواع الشرك الجلى والخفى. قيل: نزلت فى مشركى مكة، وكانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً تملكه وما ملك. وقيل: فى أهل الكتاب. ﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية﴾: عقوبة تغشاهم وتشعلهم، ﴿من عذاب الله﴾ المرسل على الأمم المتقدمة، ﴿أو تأتيهم الساعة بغتة﴾: فجأة، ﴿وهم لا يشعرون﴾ بإتيانها، غير مستعدين لها.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾: مثله يقال لأهل الوعظ والتذكير، الداعين إلى مقام الخصوصية، وما أكثر الناس ولو حرصت على هدايتهم، بمهتدين إلى مقام الخصوصية؛ لأن أهل الخصوصية أفراد قليلون فى كل زمان؛ قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (١). وتقدم فى سورة هود (٢) ما يتعلق بقوله: ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾.

وقوله تعالى: ﴿وكأين من آية...﴾ الخ، فيه ذم الغفلة، والإعراض عن التفكير والاعتبار؛ فإن الحق - جل جلاله - ما أظهر هذه الكائنات إلا ليعرف بها، وتظهر فيها أسرار ذاته، وأنوار صفاته. قال فى لطائف المتن: فما نصبت الكائنات لتراها، ولكن لترى فيها مولاها؛ فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها؛ تراها من حيث ظهوره فيها، ولا تراها من حيث كونيتها. قال (٣): ولنا فى هذا المعنى:

ما أثبت لك المعالم إلا لتراها بعين من لا يراها
فأرق عنها رقى من ليس يرضى حالة دون أن يرى مولاها هـ.

(٢) عند إشارة الآية ٢٩.

(١) من الآية ١٣ من سورة سبأ.

(٣) أى: الشيخ السكندرى صاحب لطائف المتن

وقوله تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ : لا ينجو من الشرك الخفى إلا أهل التوحيد الخاص، وهم الذين غابوا عن الأكوان جملةً بشهود المكون، قد سقط من نظرهم وجود الأغيار، وتطهرت سرائرهم من لوث الأكدار، ولم يبق في مشهدهم إلا الواحد القهار، فلم يعتمدوا على الوسائط والأسباب، برؤية مسبب الأسباب، ولم يركنوا إلى العناثر والأصحاب، فإن التفتوا إلى غيره، غفلةً، أدبهم، وردهم إلى حضنرته. هذا شأنهم معه أبداً. جعلنا الله منهم، وخرطنا في سلكهم. آمين.

ثم أوضح طريقهم، فقال:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا

مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

قلت: (أدعو): حال من الياء، و(على بصيرة): حال ثان، و(أنا ومن اتبعني): الضمير. تأكيد للمستكن في (أدعو)، أو في (على بصيرة)، أو مبتدأ خبره: (على بصيرة)، مقدم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿هذه سبيلي﴾: طريقى الذى جلت به من عند ربي، وهى الدعوة إلى التوحيد، والتأهب ليوم المعاد. ثم فسرهما بقوله: ﴿أدعو إلى الله﴾، أو حال كونى داعياً إلى الله؛ أى: إلى توحيده ومعرفته والأدب معه، ﴿على بصيرة﴾: حجة واضحة، وبينة من ربي، لا عن تقليد أو عصى. أدعو إلى الله ﴿أنا ومن اتبعني﴾، فمن كان على قنمى فهو يدعو أيضاً إلى الله على بصيرة وبينة من ربه، ﴿وسبحان الله﴾: وأنزله عن الشركاء والأنداد، ﴿وما أنا من المشركين﴾ به شركاً جلياً ولا خفياً، بل مخلصاً موحداً.

الإشارة: لا يصلح العبد أن يكون داعياً إلى الله حتى يكون على بصيرة من ربه، بحيث لا يبقى فيه تقليد بحت، ولا يختلجه شك ولا وهم. والدعاة إلى الله على ثلاث مراتب: فمنهم من يدعو على بصيرة الإسلام؛ وهم الدعاة إلى معرفة أحكام الله وشرائعه، ومنهم من يدعو على بصيرة الإيمان، وهم الدعاة إلى معرفة صفات الله تعالى وكمالاته، ومعرفة ما يجب له تعالى وما يستحيل وما يجوز على طريق البرهان الواضح. ومنهم من يدعو إلى الله على بصيرة الإحسان، وهم الدعاة إلى معرفة الذات العلية على نعت الشهود والعيان، من طريق الذوق والوجدان، وهم العارفون بالله، أهل النور الخرق، بحيث كل من واجههم خرق النور إلى باطنه. وهذه الدعوة الحقيقية والبصيرة النافذة، وأهل هذا المقام هم أهل التربية النبوية، فدعوة هؤلاء أكثر نفعا، وألح تأثيراً، فى زمن يسير؛ يهدى الله على أيديهم الجمم الغفير.

قال في نواذر الأصول : الداعي إلى الله على بصيرة - أى معاينة - هو الذى قلبه عند الله ، وعلى بصيرة فى الطريق ، ومحل القلوب فى تلك المراتب ؛ ناطقا بالله ، عن الله ، فلذلك يلج آذان المستمعين ، مع الكسوة التى تخرق كل حجاب ، وهو نور الله ، لأنه خرج من قلب مشحون بالنور ، فخرق كل حجاب قد تراكم على قلوب المخلطين ، فخلصها إلى نور التوحيد فأناورها ؛ بمنزلة جمرة وصلت النفخة إليها ، فالتهمت نارا ، فأضاءت البيت . وهذا سبيل الناطق عن الله . ثم قال : وكيف يجوز الدعاء إلى الله لمن ليس عند الله ، وهو لله ، وإنما قلبه عند نفسه ونفسه ، مشغول بنهمته وشهواته وأحواله ، وإنما هذا لمن تفرغ من نفسه ، واشتغل بالله . هـ .

ثم رد على من زعم من الكفار أن الرسول من البشر ، فقال :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَمْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾

قلت : (يوحى) : نعت لرجال ، وكذا (من أهل القرى) : نعت ثان ، و(حتى) : غاية لمحذوف ، أى : وما أرسلنا إلا رجلاً يوحى إليهم فأودوا مثلك ، ونام عليهم ، حتى إذا استياسوا جاءهم نصرنا .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ يامحمد ﴿ إلا رجالاً ﴾ ؛ بشرأ لا ملائكة ، وهو رد لقولهم : ﴿ لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴾ (١) ، وقيل : معناه : نفى استنباء النساء . وصفة أولئك الرجال : ﴿ يوحى إليهم ﴾ (٢) كما أوحى إليك ، فتميزوا بالوحى عن غيرهم ، وهم ﴿ من أهل القرى ﴾ . وهم المدن والأمصار ، والمداشر (٣) الكبار ؛ لأنهم أحلم وأعلم ، بخلاف أهل العمود فإنهم أهل جفاء وجهالة . قال الحسن : (لم يبعث الله نبياً من أهل البادية ، ولا من النساء ، ولا من الجن) .

قال ابن عطية : والتبدي مكرهه إلا فى الفتن ، وحين يفر بالدين ، لحديث : «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها سفف الجبال...» (٤) الحديث . وفى ذلك أذن رسول الله ﷺ لسلمة بن الأكوع (٥) . هـ .

(١) من الآية ١٤ من سورة فصلت . (٢) قرأ حفص (نوحى) بنون العظمة . (٣) المداشر : القرى .

(٤) أخرجه البخارى فى (كتاب الإيمان ، باب من للدين الفرار من الفتن) من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٥) أخرج البخارى فى (الفتن ، باب التعرب فى الفتنة) ، عن سلمة بن الأكوع : (أنه دخل على الحاج ، فقال : يا ابن الأكوع ، ارتددت على عقبيك ؟ قال : لا ، ولكن رسول الله ﷺ أذن لى فى البدو) .

قلت: والفتنة تتلوع بتلوع المقامات؛ ففتنة أهل الظاهر: تعذر إقامة الشريعة لكثرة الهرج والفتن، وفتنة أهل الباطن: تعذر جمع القلب بالله؛ لكثرة الحس، وتعرض الشواغل والعلائق. فمن وجد ذلك في الحواضر فلينتقل إلى البوادي، إن وجد من يعينه على الدين. والغالب أن الحواضر في هذا الزمان يغلب فيها العوائد والشهوات، وتعتري فيها الشواغل والشواغب، بخلاف البادية. فإذا كان عليه الصلاة والسلام أذن لسلامة: خوف فتنة الظاهر، فأولى خوف فتنة الباطن؛ لأنه إذا فسد القلب فسد الجسد كله.

ثم قال ابن عطية: وقال عليه السلام: «لا تعرب في الإسلام»^(١). وقال: «من بدأ جفا»^(٢). وعن معاذ بن جبل أنه قال: (الشيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم؛ يأخذ الشاة القاصية؛ فأياكم والشعاب، وعليكم بالمساجد، والجماعات، والعمامة)^(٣).

ثم قال: ويعترض هذا ببدا يعقوب، وينفصل عن ذلك بوجهين: أحدهما: أن ذلك البدو لم يكن في أهل العمود، بل بتقرر في منازل وربوع، والثاني: إنما جعله بدواً بالإضافة إلى مصر، كما هي بدأت الحواضر الصغار بدواً بالإضافة إلى الحواضر الكبار هـ.

قلت: فالتعرب الملهى عنه هو اعتزال الرجل وحده في جبل أو شعب، وأما إن تقرر في جماعة يقيمون الدين، ويجتمعون عليه، فليس بتعرب ولا بدو. ويدل عليه جواب ابن عطية الأول عن يعقوب عليه السلام. والحاصل: أن أهل القلوب يفتشون على مصالح قلوبهم، فأينما وجدوها فهي حاضرتهم. وقد ظهر في البوادي أكابر من الأولياء، ربما لم يظهروا في الحواضر. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿أفلم يسيروا﴾ أي: كفار مكة، ﴿في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ من المكذبين لرسولهم: كيف هلكوا وتركوا آثارهم يشاهدونها خراباً دارسة، فيحذروا تكذيبك؛ ليؤمنوا ويتأهبوا للدار الآخرة؛ ﴿ولدار الآخرة﴾ أي: ودار الحياة الآخرة ﴿خير للذين اتقوا﴾ الشرك والمعاصي، ﴿أفلا يعقلون﴾، وتستعملون عقولكم لتعلموا أنها خير. أو: أفلا يعقلون الذين يسرون في الأرض ليعلموا أن الدنيا فانية، والدار الآخرة خير؛ لأنها باقية.

(١) ورد: «لا تعرب بعد الهجرة»، أخرجه، مطولاً، عبد الرزاق في المصنف، (باب: لا رضاع بعد للقطام، ٤٦٤/٧ ح ١٣٨٩٩)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه..

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٧١/٢)، وأبو داود في (الصيد، باب اتباع الصيد) والترمذي في (الفتن، باب مكلى البادية) والنسائي في (الصيد، باب اتباع الصيد) من حديث أبي هريرة، وصححه الترمذي.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢٣٣/٥) من حديث معاذ بن جبل.

فإن أبيتم وكذبتم نبيكم فقد كذب من قبلكم رسلهم، وآذوهم، وتأخر نصرهم؛ ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ من النصر، أو من إيمان قومهم؛ لانهمأكهم في الكفر، وتماديهم من غير وازع، ﴿وظنوا﴾ أي: تيقنوا ﴿أنهم قد كذبوا﴾ (١) أي: أن قومهم كذبوهم فيسوا من إيمانهم. أو: وظنوا أن من آمن بهم قد كذبوهم؛ لطول البلاء وتأخر النصر. وأما قراءة (كُذِّبُوا)؛ بالتخفيف؛ فمعناه: وظنوا أنهم قد كذب عليهم في وعد النصر.. وأنكرت عائشة - رضي الله عنها - هذه الرواية، وقالت: معاذ الله؛ لم تكن الرسل تظن بريها ذلك. كما في البخاري (٢).

وقد يجاب بأن ذلك كانت خواطر وهواجس من وسواس النفس، يمر ولا يثبت، وهو من طبع البشر، لا يدخل تحت التكليف. وسماه ظناً؛ مبالغة في طلب المراقبة، كما تقدم في قوله: ﴿ولقد همت به وهم بها﴾. وقال ابن جزى، على هذه القراءة: الضميران يعودان على المرسل إليهم، أي: ظن الأتباع أن الرسل قد كذبوا عليهم في دعوى الرسالة، أو في مجيء النصر لما اشتد عليهم البلاء، وتأخر عنهم النصر.

فلما يسوا ﴿جاءهم نصرنا فنُجِّي من نشاء﴾ نجاته، وهو: النبي والمؤمنون. وإنما لم يعينهم؛ للدلالة على أنهم الذين يستأهلون نجاتهم بالمشيئة القديمة، لا يشاركهم فيها غيرهم، ﴿ولا يردُّ بأسنا عن القوم المجرمين﴾ إذا نزل بهم. وفيه بيان المستثنين بالمشيئة، كأنه قال: ولا نشاء نجاه المجرمين.

الإشارة: قد وجد كثير من الأولياء بالمدن والحوضر، وكثير منهم في القرى والمدن. وفضل الله يؤتيه من يشاء، لا يختص بمكان ولا زمان، غير أن جلهم جمعوا بين علم المدن وتفرغ البوادي، يعنى: جمعوا بين شريعة المدن وحقيقة البوادي؛ لأن أهل المدن شريعتهم قوية، وحقيقتهم ضعيفة. والبوادي بالعكس؛ لكثرة العلائق في المدن وخفتها في البوادي، والحقيقة تحتاج إلى تفرغ كبير وتفكر كثير، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ بالتخفيف، معناه: أنهم لم يقفوا مع ظاهر الوعد؛ لسعة علمهم؛ لأن ذلك الوعد قد يكون في علم الغيب متوقفاً على شروط خفية لا يعلمها ذلك النبي أو الولي، ليتحقق انفراده تعالى بالعلم الحقيقي، والقهرية الغالبة. فلذلك كان العارفون لا يزول اضطرابهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم.

وقال الورتجبي: إنهم استغرقوا في قلزوم (٣) الأزلية، وغابوا تحت بحار الديمومية، ولم يروا الحق من كمال استغراقهم في الحق. فلما لم يروه ناداهم لسان غيرة قهر القدم: أين أنتم؟ غبتم عنه وعن الحقيقة، فتطلع أنوار الحقيقة عليهم، وأخذ لطفها عن شبكات امتحان القهر. وهذا دأب الحق مع الأنبياء والأولياء حتى لا يسكنوا إلى ما وجدوا منه، بل يفتنوا به عن كل ماله إليهم. هـ.

(١) قرأ كُذِّبُوا بالتخفيف، عاصم وحمرزة والكسائي وأبو جعفر، وقرأ الباقون كُذِّبُوا بالتشديد. انظر القراءة وتوجيهها في الإتحاف (١٥/٢) والبحر المحييط (٣٤٧/٥).

(٢) أي: بحر.

(٣) كتاب التفسير، باب سورة يوسف.

قال المحشي الفاسي: وحاصل ما أشار إليه: أن قراءة التخفيف تشير إلى أخذهم عن الوقوف مع الوعد، والسكون إليه، غيبة في الحق عن مقتضى وعده، لا تكذيباً لوعده، بل ذلك أحوال غالبية آخذة عن الصفة، غيبة في الموصوف. وهذا حال الصوفي كما يعرف ذلك أهله. وهو صحيح في نفسه ولكنه بعيد عن مرمى الآية؛ فإن صاحب الغيبة لا يوصف بظن خلاف الوعد، وإن كان غائباً عنه. وأقرب منه ما ذكره الترمذي الحكيم: من أن ظن ذلك كان لظن فقد شرط في الموعود أوجب عدم القطع لوقوع الوعد. والله أعلم.

وقد قال في الحكم: «لا يشككك في الوعد عدم وقوع الموعود، وإن تعين زمله». يعني أنه قد يتخلف لفقد شرط؛ كما في قضية الجرو الذي تخلف جبريل من أجله. أو لعدم تحقيق الوقت؛ لأن تعيينه كان من قبل أنفسهم من غير وحى، فلما تأخر ظلوا ذلك بأنفسهم. والله تعالى أعلم. هـ.

والحاصل: أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لما تأخر عنهم النصر هجس في أنفسهم تخلف الوعد؛ خوفاً أن يكون متوقفاً على شرط لم يعلموه، أو جعلوا له وقتاً فهموه من أمارات، فلما تأخر عنه ظلوا أنه قد تخلف. وأما قضية الجرو الذي أشار إليها: فكان جبريل عليه السلام وعد نبينا ﷺ أن يأتيه في وقت مخصوص، فدخل جرو البيت، فلم يزل في ذلك الوقت، فلما نزل بعد ذلك، قال: «إنما تخلفنا عن الوقت؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كذب» (١). كما في الصحيح.

ثم قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١١)

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقد كان في قصصهم﴾ أي: في قصص الأنبياء وأممهم، أو في قصة يوسف وإخوته، ﴿عبرة لأولي الأبواب﴾: لنوى العقول الصافية الخالصة من شوائب الإلف والعادة، ومن الركون إلى الحس؛ لأن الإخبار بهم على يد نبي أمي آية واضحة لمن تفكر بقلب خالص. ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾ أي: ما كان القرآن حديثاً مفترى، ﴿ولكن﴾ كان ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ من الكتب الإلهية، ﴿وتفصيل كل شيء﴾ يحتاج إليه في الدارين؛ إذ ما من أمر ديني إلا وله مستند من القرآن بوسط، أو بغير وسط. ﴿وهدى﴾ من الضلال، ﴿ورحمة﴾ ينال بها خير الدارين، ﴿لقوم يؤمنون﴾: يصدقون به، ويتدبرون في معانيه.

(١) أخرجه البخاري في (كتاب اللباس / باب: لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة).

الإشارة: تفكر الاعتبار يشد عروة الإيمان، وفكرة الاستبصار تشد عروة الإحسان. قال في الحكم: «الفكرة فكرتان: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان. فالأولى: لأهل التفكير والاعتبار، والثانية: لأهل الشهود والاستبصار». ومرجع الاعتبار إلى خمسة أمور:

الأول: التفكير في سرعة انصرام الدنيا وانقراضها، وذهاب أهلها. قرناً فقرناً، وجيلاً فجيلاً. فيوجب ذلك الزهد في الدنيا، والإعراض عن زخارفها الغرارة، والتأهب للدار الباقية.

الثاني: التفكير في الدار الباقية، ودوام نعيمها، أو عذابها. وذلك مرتب على السعي في هذه الدار، فيوجب ذلك انتهاز الفرصة في الأعمال، واغتنام الأوقات والساعات قبل الفوات.

الثالث: التفكير في النعم التي أنعم الحق - تعالى - بها على الإنسان؛ إما ظاهرة؛ كالعافية في البدن، والرزق الحلال، وما يتبع ذلك مما لا يحصى؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (١). وإما باطنة: كنعمة الإسلام والإيمان، وصحيح العرفان، والاستقامة في الدين، ولا سيما إن رزقه الله من يأخذ بيده من شيخ عارف. فهذه نعمة عظيمة قل من يسقط عليها. فيوجب له ذلك الشكر الذي هو أعلى المقامات، ومتكفل بالزيادات، قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (٢).. ولا يعرف العبد ما عليه من النعم إلا بالتفكير في أضعافها، والنظر إلى أهل البلاء.

الرابع: التفكير في عيوبه ومساوئه، لعله يسعى في تطهيرها، أو يشتغل بها عن عيوب غيره.

الخامس: التفكير فيما أظهر الله تعالى من أنواع المكونات، وضروب المصنوعات؛ فيعرف بذلك جلالة الصانع، وعظيم قدرته، وإحاطة علمه، وحكمته. فإن اتصل بشيخ عارف غيبه عنها بشهود مكوناتها.

وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.



(١) من الآية ٣٤ من سورة إبراهيم..

(٢) من الآية ٧ من سورة إبراهيم.

فهرس المجلد الثاني

٢	تفسير سورة المائدة
٩٥	تفسير سورة الأنعام
١٩٥	تفسير سورة الأعراف
٣٠٣	تفسير سورة الأنفال
٣٥٥	تفسير سورة التوبة
٤٤٧	تفسير سورة يونس
٥٠٧	تفسير سورة هود
٥٧١	تفسير سورة يوسف

* * *

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٢٨٨٦

I.S.B.N 977 - 01 - 6070 - 9

الجزء الثالث في تفسير القرآن المجيد

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة
١١٦١ هـ - ١٢٢٤ هـ

تحقيق وتعليق
أحمد عبدالله القرشي رسلان

المجلد الثالث
من أول سورة الرعد حتى آخر سورة المؤمنون

طبع على نفقة د. حسن عباس زكي
القاهرة ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

تفسير ابن عجيبة
«البحر المديد»

حقوق الطبع محفوظة
للدكتور/ حسن عباس زكى



سُورَةُ الرَّعْدِ

مكية إلى قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ، والباقي مدني، وقيل: مدنية كلها. وآيها : خمس وأربعون. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ ، مع قوله ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ ؛ فإنه كالدليل على كونه غير مفترى.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْمَرْءُ ...﴾

قيل : معناه: أنا أعلم، الله أعلم وأرى. وقيل: مختصرة من لفظ المرسل، على عادة رمز المحبين. أو إشارة إلى العوالم الأربعة: فالألف لوحدة الجبروت، واللام لتدفق أنوار الملكوت، والميم لحس عالم الملك، والراء لسريان أمداد الرحمت.

قال تعالى: ﴿... تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾

قلت : «تلك»: مبتدأ، و«آيات»: خبر، و«الذي أنزل»: مبتدأ، و«الحق»: خبر، والجملة الثانية كالحجة على الجملة الأولى.

يقول الحق جل جلاله : أيها المرسل المعظم، والحبیب المفخم، ﴿تِلْكَ﴾ الآيات التي تتلوها على الناس هي ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ المنزل من حضرة قدسنا. ﴿و﴾ الكتاب أي: القرآن ﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ هو ﴿الحق﴾ الذي لا ريب فيه، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ؛ لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه.

الإشارة : لو صفت القلوب من الأكدار، وملئت بالمعارف والأنوار؛ لفهمت أسرار الكتاب، وجواهر معانيه، ولأدركت معرفة الحق من كلامه؛ لأن الكلام صفة المتكلم، ولكن أكثر الناس اشتغلوا بمناجاة الهوى، فصرفوا عن فهم الكلام، وفاتهم معرفة المتكلم، ولذلك لم يكتف الحق تعالى بآيات الكتاب حتى ذكر دلائل توحيده وكمال قدرته، فقال:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأُمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

قلت: «الله»: مبتدأ، و«الذي رَفَعَ»: خبره، ويجوز أن يكون الموصول صفة، والخبر: «يُدبر الأمر»، و«عمد»: اسم جمع عمود، وقياس جمعه: عمد، كرسول ورسول، وشهاب وشهب، وليس جمعاً خلافاً لأبي عبيد. قاله ابن عطية. وقال البيضاوي: جمع عماد، كإهاب وأهب. وجملة: «ترونها»: إما حال، أو استئنافية؛ فالضمير للسموات، وإما صفة لعمد فالضمير لها، أي: ليس لها عمد مرئية، فيقتضى بالمفهوم أن لها عمداً لا ترى. وقيل: إن عمدها جبل قاف المحيط بالدنيا. والجمهور: أنه لا عمد لها البتة. فالمراد نفي العمدة، ونفي رؤيتها. قاله ابن جزي.

يقول الحق جل جلاله مستدلاً على وجوده، وكمال قدرته: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ فوقكم كالسقف المرفوع ﴿بغير عمد﴾: أساطين، بل بقدرة أزلية، ﴿ترونها﴾ مرفوعة فوقكم. أو بغير عمد مرئية، بل بعمد خفية، وهي: أسرار الذات العلية؛ إذ لا فاعل سواه. ﴿ثم استوى على العرش﴾ استواء استيلاء وإحاطة، حتى صار العرش غيباً في إحاطة قهريته وأسرار ذاته. وقد كانت العرب تجعل لملوكها سريراً يجلسون عليه لتدبير المملكة، فخطبنا الحق تعالى بقدر ما نفهم^(١)، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿وسخر الشمس والقمر﴾؛ لأن هذا من تدبير ملكه، أي: ذللهما لما أراد منهما، كالحركة المستمرة على حد من السرعة؛ ليلتفع بهما عباده في معاشهم ومعالم دينهم. ﴿كلٌّ منهما﴾ يجرى لأجل مسمى: لمدة معينة تتم فيها أدواره، أو لغاية مضرورية ينقطع فيها سيرهما؛ وهي يوم القيامة حين تكور الشمس والقمر. ﴿يُدبر الأمر﴾: أمر ملكه من الإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة، وغير ذلك، ﴿يفصل الآيات﴾: ينزلها، ويبين معانيها مفصلة، أو يحدث الدلائل واحداً بعد واحد؛ ﴿لعلكم بقاء ربكم توقنون﴾: لكي تتفكروا فيها، وتتحققوا كمال قدرته، فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها قادر على الإعادة والجزاء.

الإشارة: الله الذي رفع سموات الأرواح، وزينها بنجوم العلم وقمر التوحيد، وأشرق عليها شمس العرفان وأسرار التفريد، ثم استوى بأسرار ذاته وأنوار صفاته على العرش، وهو قلب العارف؛ لأنه سرير المعرفة، ومحل بيت الرب، وسخر شمس المعرفة وقمر التوحيد، يجريان بالترقي إلى محل التمكين، وهو الأجل المسمى لهما، يدبر أمر السير والترقي، ويفصل دلائل الطريق الموصلة إلى عين التحقيق؛ لعلكم بالوصال إلى ربكم توقنون، حين يكون ذوقاً وكشفاً. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر العالم السفلي، فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِجَاجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ

(١) سئل الإمام مالك، عن الاستواء على العرش، فقال: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب..)، وإذا كان علم حقيقة الصفات فرع عن علم حقيقة الذات المقدسة، وإذا كنا لانحيط بالله علماً، فإننا لن نحيط بصفات الله علماً، كذلك، فنقول: آمداً به، كل عدد ربنا.

أَعْتَبْ زَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ
فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

قلت: «رواسي»: جمع راسية، من رسى الشيء: ثبت، و«جئات من أعتاب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان» من خَفَضَ عطف على «أعتاب»، ومن رفع عطف على «جئات». و«صنوان»: نعت تابع، و«غير»: عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذي مد الأرض﴾؛ بسطها طولاً وعرضاً؛ لتثبت عليها الأقدام وتتقلب عليها الحيوان والأنام، ﴿وجعل فيها رواسي﴾: جبلاً ثوابت لتستقر وتثبت، فلا تميد كالسفينة، ﴿وجعل فيها أنهاراً﴾ مطردة دائمة الجرى، من غير نفاد ولا فتور. ضمها إلى الجبال؛ لأنها أسباب لتولدها في العادة. ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي: وجعل فيها صنفين اثنين من كل الثمرات؛ فكل ثمرة فيها صنفان؛ أحمر وأسود، أو حلو وحامض، قال ابن جزى: فإن قيل: تقتضى الآية أنه تعالى خلق من كل ثمرة صنفين، وقد خلق من الثمرات أصنافاً كثيرة؟ فالجواب: أن ذلك زيادة في الاعتبار، وأعظم في الدلالة على القدرة بذكر الاثنين؛ لأن دلالة غيرهما من باب أولى. هـ.

﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ﴾، أي: يجعل الليل غشاءً على النهار ولباساً له، فيصير الجو مظلماً بعدما كان مُضيئاً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾؛ دلائل وجوده وباهر قدرته ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها؛ فإن وجودها وتخصيصها في هذا الشكل العجيب، دليل على وجود صانع حكيم، دبر أمرها، وهياً أسبابها.

﴿وفي الأرض قطع متجاورت﴾؛ قريب بعضها من بعض، مع اختلاف أوصافها، بعضها طيبة وبعضها سبخة، وبعضها رخوة وبعضها صلبة، وبعضها يصلح للزرع دون الشجر، وبعضها بالعكس، وبعضها معادن مختلفة. ولولا تخصيص قادر مخصص لتلك الأفعال، على وجه دون وجه، لم يكن الحكم كذلك؛ لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية، وما يلزمها ويعرض لها بتوسط ما يعرض من الأسباب السماوية، من حيث إنها متضامنة متشاركة في السبب والأوضاع. قاله البيضاوي. ﴿وجئات من أعتاب وزرع ونخيل﴾؛ أي: وفي الأرض أيضاً بساتين فيها أنواع من الأعتاب والزرع، والنخيل، من صفة تلك النخيل: ﴿صِنَوَانٌ﴾ أي: نخلات كثيرة متفرعة من أصل واحد، ﴿وغير صنوان﴾ أي: غير متفرعة، بل كل نخلة منفردة بأصل واحد، ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾. ونُفِضَ بعضها على بعض في الأكل ﴿أي: في الثمر المأكول؛ قدراً وشكلاً، وطعماً، ورائحةً ولوناً،

مع اتفاق الماء الذي تُسقى به . وذلك مما يدل أيضاً على الصانع القادر الحكيم، فإن إيجادها، مع اختلاف الأصول والأسباب، لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار. وفيه رد على الطبايعيين. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: يستعملون عقولهم بالتفكير والاعتبار، فيدركون عظمة الواحد القهار.

الإشارة: ذَكَرَ أَوَّلَ سَمَاءِ الْأَرْوَاحِ، وما يناسبها من أنوار التوحيد وأسرار التفريد، وذكر هنا أرض النفوس، وما يلائمها من جبال العقول وأنهار العلوم، فقال: وهو الذي مد أرض النفوس، وجعل فيها جبالاً من العقول الشامخة، حتى أدركت الصانع، وتحققت بوجوده ووحدانيته، بالدلائل الواضحة، والبراهين القطعية. وأنبع منها أنهاراً من العلوم الرسمية، والرفائق الوعظية. وجعل فيها من كل صنف؛ من ثمار ما جدت بمجاهدتها صنفين اثنين: قبضاً وبسطاً، منعاً ووجداً، ذلاً وعزاً، فقراً وغنى، يَغْشِيَانَهَا غِشَاءَ اللَّيْلِ لِلنَّهَارِ؛ فإذا كان ليل القبض غشيه نهار البسط، فيزيله، وإذا كان المنع، غشيه الوجد، وإذا كان الذل غشيه العز، وإذا كان الفقر غشيه الغنى، وهكذا. ودوام حال من قضايها المحال.

وفى أرض النفوس أيضاً قطع متجاورة، مع اختلاف ألوانها وطبائعها، وعلومها ومعارفها، ومواجهها وألسنتها. وفيها أيضاً جنات المعارف - إن اتصلت بطبيب عارف - من أعناب الحقائق الناشئة عن خمرة الأزل، وزرع الشرائع الناشئة عن الكسب والتحصيل، وتخييل الأذواق والوجدان، صلوان وغير صلوان - يعنى من تعتريه الأحوال، ومن لا تعتريه لكمال رسوخه، تُسقى بخمرة واحدة، وهى الخمرة الأزلية، على أيدي الوسائط، أو بلا وسائط، وهو نادر. ونفضل بعضها على بعض فى الأذواق والوجدان؛ فتتري العارفين بعضهم قطب فى الأحوال، وبعضهم قطب فى المقامات؛ كان الجديد ﴿يُفَوِّضُ﴾ قطباً فى العلوم، وكذا الشاذلى والجيلانى والغزالى، وأمثالهم. وكان الشيخ أبوزيد قطباً فى الأحوال، وكان سهل التستري قطباً فى المقامات. والأولياء كلهم لا يخرجون عن هذا التقسيم، كل واحد وما يغلب عليه، مع مشاركته لغيره فى الثلاث^(١). والله تعالى أعلم.

ولما ذكر دلائل قدرته ذكر وعيد من أعرض عنها حتى أنكر البعث، فقال:

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ نَأْتِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(١) هذه الإشارة ينبى أن تتضمن توجيهاً: لدراسة الكون دراسة علمية؛ والاستفادة فى ذلك فى إعمار الأرض، وإنقاذ المسلمين من التخلف العلمى والحضارى، ومن التبعية لحضارة الغرب المادية؛ فانظر إلى قوله تعالى: (يتفكرون)، (يعقلون) ومنطوقهما، أعنى: الأرض، والرواسى، والأنهار، والنبات، والرى.. وغير ذلك، كيف غفلنا نحن المسلمين عن التفكير، والتعقل فى هذه الموضوعات؟ وما العلم الطبيعى إلا مبلى على هذا الأصل، فله الأمر من قبل ومن بعد.

قلت : «فَعَجِبْ» : خبر، و«قُولِهِمْ» : مبتدأ، و«أَنذَا كُنَّا...» الخ - محكى به . واختلف القراء هنا، وفي مواضع من القرآن، فمنهم من قرأ بالاستفهام في الأول دون الثاني، ومنهم بالعكس، ومنهم من قرأ بالاستفهام فيهما . فمن قرأ بالاستفهام في الأول دون الثاني فإنما القصد هو الثاني؛ لأنهم إنما أنكروا كون الإنسان يصير تراباً ثم يبعث، وأما كونهم يصيرون تراباً فلا إنكار عندهم فيه . ومن قرأ بالاستفهام في الثاني فعلي الأصل، ومن قرأ بالاستفهام فيهما فزيادة تأكيد . والعامل في «إذا» محذوف، دل عليه : «لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» أي : أنجدد إذا.... الخ .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ ﴾ يامحمد من إنكارهم البعث ﴿ فَعَجِبْ قَوْلُهُمْ ﴾ أي : فقولهم حقيق بأن يتعجب منه، فإن من قدر على إنشاء ما قص عليك من عجائب السماوات والأرض، وأنواع الثمار على اختلاف أصنافها وألوانها، كانت الإعادة أيسر شيء عليه، فالآيات المعدودة كما هي دالة على وجود المبدأ، فهي دالة على إمكان الإعادة، لأنها دالة على كمال قدرته تعالى . ثم فسر قولهم في الإنكار : قالوا : ﴿ أَأَنذَا كُنَّا تَرَابًا أَفَلَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي : أنجدد إذا متنا، وكنا تراباً، ﴿ أَوَلَيْكَ ﴾ القائلون ذلك، أو المنكرون البعث، ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ ؛ لأنهم كفروا بصفة القدرة، ﴿ وَأَوَلَيْكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أي : مقيدون بالضلال، قد أحاط بهم الشقاء، لا يرجى خلاصهم، أو : يغفلون يوم القيامة . ﴿ وَأَوَلَيْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ لا ينفكون عنها . وتوسط ضمير الفصل ؛ لتخصيص الخلود بالكفار، ففيه رد على المعتزلة . والله تعالى أعلم .

الإشارة : إنكار بعث الأرواح من غفلاتها وجهلها، وإنكار بعث الأشباح بعد موتها، يتعجب من الأول كما يتعجب من الثاني ؛ فالقدرة سالحة، فمن قدر على بعث الأشباح بعد موتها الحسى قدر على بعث الأرواح بعد موتها المعنوى . «من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يخرج من وجود غفله، فقد استعجز قدرة الإلهية ؛ «وكان الله على كل شيء مقتدراً» . وقد أحيا الله أرواحاً كثيرة كانت ميتة بالجهل والمعاصي، فصارت عارفة بالله، من خواص أولياء الله من كانوا لموصفاً فصاروا خصوصاً، ومنهم من كانوا كفاراً، فصاروا أبراراً . وبالله التوفيق .

ثم استمر بهم الإنكار حتى استعجلوا ممن أوعدهم بذلك العذاب، فقال تعالى :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

قلت : «المثلات» : جمع مثلة، كسمة، وهي العقوبة العظيمة، التي تجعل الإنسان مثلاً لمن بعده . وفيها لغات وقراءات شاذة . و«على ظلمهم» : حال، والعامل فيه : المغفرة .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أي : بالنقمة قبل العافية، طلبوا نزول العذاب الذي أوعدهم به ؛ استهزاء، ﴿ وَقَدْ خَلَتْ ﴾ : مضت ﴿ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ ﴾ : عقوبات أمثالهم من

المكذبين، أو المصيبات الدواهي، حتى صاروا مثلاً لمن بعدهم. فمالهم لم يعتبروا، ولم يخافوا حلول مثلها عليهم؟ ﴿وَإِنْ رِبْكَ لَدُوٌّ مَغْفِرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ﴾ أى: مع ظلمهم أنفسهم بالكفر والمعاصي، فسترهم وأمهلهم فى الدنيا. فالمغفرة هنا لغوية، وقيل: يغفر لهم بالتوبة. وقيل: بلا قيد التوبة، بل بمجرد الحلم. قال البيضاوى: وفيه جواز العفو قبل التوبة، فإن التائب ليس على ظلمه، ومن منع ذلك خص الظلم بالصغائر المكفرة باجتناب الكبائر. هـ. ﴿وَإِنْ رِبْكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن يريد تعذيبه، أو للكفار. وعن النبى ﷺ أنه قال: «لَوْلَا عَفْوُ اللَّهِ وَتَجَاوُزُهُ مَا هُنَا أَحَدُ الْعِيشِ، وَلَوْلَا وَعِيدُهُ وَعِقَابُهُ لَانْكَلَ كُلُّ أَحَدٍ» (١). قاله البيضاوى.

الإشارة: ترى بعض المستهزئين بالأولياء يؤذيه بلسانه، أو بغيره، ويقول: إن كان بيده ما يفعل يفعله بهى، والله تعالى يقول: «مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ». ولكن الحق تعالى يمهل ولا يهمل؛ «وَإِنْ رِبْكَ لَدُوٌّ مَغْفِرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ وَإِنْ رِبْكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ».

ثم طلبوا المعجزة، كما قال تعالى:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾
 اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨
 عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝١٠ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۝١١...﴾

قلت: «وسارب»: عطف على جملة «من هو» أى: ومن هو سارب، ليكمل التقسيم أربعة: من أسر، ومن جهر به، ومن استخفى، ومن سرب؛ أى: برز. انظر ابن جزى. و«المتعال»: منقوص، يجوز فى الوقف عليه حذف الياء وإثباتها، وكذلك: هادٍ، وواقٍ، وشبهه، غير أن الراجح فى المعرف بالإنثبات، وفى المنون: الحذف. قال ابن مالك:

وَحَذَفُ يَ الْمُنْقُوصِ ذِي التَّنْوِينِ مَا لَمْ يُنْصَبْ أَوَّلَى مِنْ ثُبُوتِ فَاعِلْمَا
 وَغَيْرُ ذِي التَّنْوِينِ بِالْعَكْسِ، وَفِي نَحْوِ مَرٍ: لَزُومِ رَدِّ الْيَا اقْتِصَافِي

وأثبتها ابن كثير فى الجميع، ووافقه يعقوب فى المعرف بال، وحذفها غيره مطلقاً.

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٢١٤٥) عن سعيد بن المسيب، مرسلًا، وزاد فى الفتح السماوى (٧٣٨/٢) عزوه للطبرى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويقول الذين كفروا﴾ من أهل مكة: ﴿لولا﴾: ﴿هلا﴾ أنزل عليه آية ﴿أى: معجزة واضحة﴾ من ربه ﴿كما أوتى موسى وعيسى. ولم يعتدوا بالآيات المنزلة عليه؛ كانشقاق القمر وانقياد الشجر، وتسليم الحجر، وأعظمها: القرآن العظيم. وذلك عناد منهم. قال تعالى: ﴿إنما أنت مُنذِرٌ﴾؛ مرسل إليهم لتنذرهم كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما تصح به نبوتك من جنس المعجزات، لا مما يُقترح عليك. ﴿ولكل قوم هادٍ﴾؛ رسول يهديهم إلى الحق والصواب، مخصوص بمعجزات من جنس ما هو الغالب عليهم؛ ففي زمن موسى عليه السلام كان الغالب عليهم السحر، فأوتى بالعصا تنقلب حية؛ ليبطل سحرهم، وفي زمن عيسى عليه السلام كان الغالب عليهم الطب، فأوتى إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى الذى يعجزون عن مثله، وفي زمن نبينا محمد ﷺ كان الغالب عليهم البلاغة والفصاحة، بها كانوا يتباهون ويتناضلون، فأوتى القرآن العظيم، أعجز ببلاغته البلاء والفصحاء. أو: ولكل قوم هاد، يقدر على هدايتهم، وهو الله تعالى، أى: إنما عليك الإنذار، والله هو الهادى لمن يشاء، أو: ولكل قوم واعظ ومذكر من نبي أو ولي. روى أنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «أَنَا الْمُنذِرُ، وَأَنْتَ يَا عَلِيُّ الْهَادِي» (١).

ثم أردف ذلك ما يدل على كمال علمه وقدرته، وشمول فضائه وقدره؛ تنبيهاً على أنه تعالى قادر على إنزال ما اقترحوه، وإنما لم ينزله؛ لعلمه بأن اقتراحهم كان عناداً لا استرشاداً. أو أن وقت الإنزال لم يحضر، فقال: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ هل هو ذكر أو أنثى، أو تام أو ناقص، أو حسن أو قبيح (٢). وهو من الخمس التى اختص بها. ﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾ أى: ما تنقص فى الجثة بمرض الجنين أو إسقاطه، وما تزداد بنمو الجنين إلى أمده أو أكثر. قال البيضاوى: مدة الحمل عندنا أربع سنين، وخمس عند مالك، وستان عند أبى حنيفة. روى أن الضحاك ولد لستين، وهرم بن حيان لأربع سنين. وأعلى عدده لا حد له. (٣). قلت: يعنى مع تحققه - وقيل: المراد نقصان دم الحيض وزيادته. هـ. ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾: بقدر محدود، ووقت مخصوص، لا يجاوزه ولا ينقص عنه، فالحق - تعالى - قد خص كل حادث بوقت مخصوص معين، وهياً له أسباباً تسوقه إليه على ما تقتضيه حكمته.

- (١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٠٨/١٣) عن ابن عباس. وانظر تفسير ابن كثير (٥٠٢/٢) والأوسى (٨/١٣).
(٢) هذا النوع الذى ذكره الشيخ المفسر، من المعرفة، ليس هو النوع الذى اختص الله نفسه بعلمه - وهو يعلمه أيضاً - فإن هذا العلم ممكن للإنسان، بل قد علمه فعلاً عن طريق الأشعة وغيرها. والأساس فى فهم الآية قوله تعالى فى الآية «ما»، وهى التى تدل على الماهية. فقوله تعالى: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ أى: يعلم ماهيته وحقيقته، هل يكون شخصاً مؤمناً أو كافراً، سعيداً أو شقيماً فى الدنيا والآخرة، يعلم كنهه وهويته ومعتقده، واتجاهاته وميوله، وفكره وعمله، ونيته ومصيره، علماً كلياً وتفصيلاً، وهو ما يستحيل على العقل البشرى أن يعلمه، فالله هو المختص وحده بعلم ذلك كله، فضلاً على علمه: هل هو ذكر أو أنثى.. الخ ما يعلمه الإنسان بأدوات العلم التجريبي.
(٣) ما قاله الإمام البيضاوى عن مدة الحمل يرجع فيه إلى أهل الطب المختصين، «فاسألوا أهل الذكر»، وقد قال أهل الاختصاص: إن الجنين إذا ظل فى الرحم أكثر من مدته، فإن الرحم قد انفجر. الخ ما قالوا.

﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أى: الغائب عن الحس، والظاهر فيه ﴿الكبير﴾: العظيم الشأن، الذى يصغر كل شىء دين عظمته وكبريائه، ﴿المتعال﴾: المستعلى عن سمة الحوادث، أو: المستعلى بقدرته على كل شىء. ﴿سواء منكم من أسر القول﴾ فى نفسه ﴿ومن جهر به﴾ لغيره، ﴿ومن هو مستخف بالليل﴾: طالب للخفاء مستتراً بظلمة الليل، ﴿و﴾ من هو ﴿سارب بالنهار﴾ أى: بارز فيه. فقد أحاط الله بذلك، علماً وسمعاً وبصراً. فالآية مقررة لما قبلها من كمال علمه وشموله.

﴿له معقبات﴾ أى: لمن أسر أو جهر، أو استخفى أو برز، ﴿معقبات﴾: ملائكة تعقب فى حفظه، أى: يعقب بعضها بعضاً، اثنان بالليل واثنان بالنهار، أو: لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونها. أو: جماعة من الملائكة وكلهم الله بحفظ آدمى، يعقب بعضهم بعضاً، وهو مناسب لقوله: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ أى: يحرسونه من الآفات التى تنزل من أمر الله وإرادته. أو: يحفظونه من عقوبة الله وغضبه. إذا أذنب ذنباً أهلهه واستغفروا له. أو: يراقبون أحواله من أجل أمر الله، إذ أمرهم الله بذلك، أو يكون صفة للمعقبات، أى: له معقبات من أجل أمر الله، حيث أمرهم بحفظه. وقيل: الضمير فى ﴿له﴾: يعود إلى النبى ﷺ، المتقدم فى قوله: ﴿إنما أنت منذر﴾، فتكون نزلت فيمن أراد غدر النبى ﷺ سراً، على ما يأتى فى الآية الآتية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تقدم مراراً حال من طلب الكرامة من الأولياء، وأنه جاهل بهم، ولا يعرفهم مادام يلتبس الكرامة منهم. وأى كرامة أعظم من الاستقامة، والمعرفة بالله، على نعت الشهود والعيان؟. وقوله تعالى: ﴿ولكل قوم هاد﴾ أى: ولكل عصر عارف بالله، يهدى الناس إلى حضرة الله، وهم ورثة الهادى الأعظم والنبى الأفخم، نبينا - عليه الصلاة والسلام - أولهم سيدنا على - كرم الله وجهه؛ للحديث المتقدم، لأنه أول من أظهر علم التصوف وأفشاه، ثم أخذه عنه الحسن البصرى وهذبه، ثم حبيب العجمى، ثم داود الطائى، ثم معروف الكرخى، ثم سرى السقطى، ثم إمام الطريقة: أبو القاسم الجنيد، ثم انتشر فى الأرض، فلكل عصر رجال يحملون لواء الحقيقة، ويهدون الناس إلى لباب الشريعة. وهم العارفون بالله. قال رسول الله ﷺ: «يَبْعَثُ اللَّهُ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَمْرَ دِينِهَا» (١) أى: يجدد الطريقة بعد دروسها، ويحيى الحقيقة بعد خمود أنوارها، ويظهر الشريعة بعد خفاء أعلامها. وقد يكون واحداً ومتعددًا. وقد بعث الله فى رأس هذه المائة الثالثة عشر، أربعة، أحيا الله بهم الحقيقة، وأظهر بهم أنوار الشريعة، يمشون فى الأرض بالنصيحة، ويهدون الناس إلى رب العالمين، والله ولى المتقين، وشهرتهم تغنى عن تعيينهم، وتقدم اثنان فى العقود.

(١) أخرجه ابن داود فى (الملاحم، باب ما يذكر فى قرن المائة) من حديث أبى هريرة، وصححه السيوطى فى الجامع الصغير (ح ١٨٤٥).

وقوله تعالى: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾: ما تحمل كل نفس من العلوم، وما تحمل كل روح من الأسرار. وما تغيض الأرحام، أي: القلوب، فقد تنقص أنوارها بمباشرة الأغيار، وقد تزداد بالتفرغ أو صحبة العارفين الكبار. وكل شيء عنده بمقدار، فالفتح له وقت معلوم، وحد محدود، والمراتب والمقامات مقسومة محدودة في الأزل، كل أحد يأخذ ما قسم له. وقوله تعالى: ﴿سواء ملكم من أسر القول...﴾ إلخ، فيه تحقيق المراقبة وتشديد المحاسبة على الخواطر والقلوب. والله تعالى أعلم.

وإذا كان العبد على هداية من ربه أو نعمة، فلا نزول عنه إلا من جهته، كما قال تعالى:

﴿... إِنْ أَرَادَ اللَّهُ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ۚ﴾ (١١) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)﴾

قلت: ﴿وإذا﴾: ظرف، والعامل فيه: مادل عليه الجواب، أي: لا يرد ما قضى إذا أراد إنفاذه. و﴿خوفًا وطمعًا﴾: منصوبان على العلة بتقدير المضاف، أي: إرادة الخوف والطمع؛ ليتحد الفاعل. أو بتأويل: يجعلكم ترون البرق خوفًا وطمعًا. و﴿الثقال﴾: نعت للسحاب، وجمعه؛ لأن السحاب جلس بمعنى الجمع. وجملة: ﴿وهم يجادلون﴾: إما استئنافية، أو حال من الموصول. و﴿المحال﴾: المكر والخديعة. من محل بفلان إذا كاده وعرضه للهلاك، ومنه تمحل: إذا تكلف استعمال الحيلة، فالميم أصلية، ووزنه: فعال، وقيل: مشتق من الحيلة، فالميم زائدة، ووزنه: مفعَل، وأصله: محيل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنْ أَرَادَ اللَّهُ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ﴾ من النعم والعافية إلى النعمة والبلية ﴿حَتَّى يَغَيِّرُوا﴾ هم ﴿مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من الطاعة وترك المعصية، إلى ارتكاب الذنوب. فلا يملب النعم عن قوم إلا بارتكاب ذنب، ولو من البعض إذا سكت الكل. ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي: فلا راد له ولا معقب لحكمه، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ أي: ليس لهم من يلي أمرهم، ويدفع عنهم السوء الذي قضاه الله عليهم، وأراد نزوله بهم؛ لأن وقوع خلاف مراد الله تعالى محال.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفًا مما ينشأ عن البرق من الصواعق والأمور الهائلة، وطمعًا في نزول الغيث الذي يكون معه غالبًا، ﴿وَيُنَشِئُ﴾ أي: يخلق ﴿السَّحَابَ﴾؛ الغيم المسحب، ﴿الثِّقَالَ﴾:

المثقل بالمطر الحاملة له، ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ أى: ملتبساً بحمده، يقول: سبحان الله وبحمده. أو: يدل الرعد بنفسه على وحدانيته تعالى وكمال قدرته، ملتبساً بالدلالة على كمال فضله، ونزول رحمته. وعن ابن عباس رضي الله عنه: سئل النبي ﷺ عن الرعد؛ فقال: «مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، لَهُ مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ السَّحَابَ» (١).

﴿ وَ ﴾ تسبح أيضا ﴿ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ أى: من خوفه وإجلاله، ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾؛ نار تنزل من السماء وقت ضرب الرعد، ﴿ فَيَصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ فيهلكه، ﴿ وَهُمْ يَجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾ أى: الكفار، حيث يكذبون رسوله فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة، والتفرد بالالوهية، وبعث الناس وحشرهم للمجازاة، ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ أى: شديد المكر بأعدائه، الذين أرادوا أن يمكروا بنبيه - عليه الصلاة والسلام -.

رُوى أن عامر بن الطفيل وأريد بن ربيعة وفدا على رسول الله ﷺ قاصدين لقتله، فأخذ عامر بالمجادلة مع سيدنا رسول الله ﷺ ليشغله، ودار أريد من خلفه؛ ليضربه بالسيف، فتنبه له الرسول - عليه الصلاة والسلام - وقال: «اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمَا بِمَا شِئْتَ»، فأرسل الله على أريد صاعقة فقتلته، ورُمي عامر بغدة، فمات في بيت امرأة سُلَويّة، فكان يقول: غُدَّةٌ كَغُدَّةِ البعير، وموت في بيت امرأة سُلَويّة! فنزلت الآية من أولها (٢)، وهو قوله: «له معقبات...» إلخ، على قول.

الإشارة: من جريان حكمته تعالى في خلقه أنه لا يسلب النعم عنهم إلا بسوء أدب منهم، كل على قدر مقامه، فالنعم الظاهرة يسلبها بترك الطاعة الظاهرة، أو بالمخالفة الظاهرة، والنعم الباطنة يسلبها بترك المراقبة الباطنة أو المشاهدة الباطنة. فكل مقام حقوق وآداب؛ فمن أخلَّ بحقوق مقام نقص له منه، إلا أن يتوب. وقد يسىء الأدب فتؤخر العقوبة عنه، فيظن أنه لم يسلب. ولو لم يكن إلا ترك المزيد. وقد يبعد، وهو لا يشعر، ولو لم يكن إلا وتركه وما يريد. كما في الحكم: «إن الله لا يغير ما في القلوب من أنوار الشهود والعيان، حتى يغيروا ما بأنفسهم من حسن الأدب بسوء الأدب». وهذا ما لم يتحقق له مقام المحبوبة والتمكن مع الله في المعرفة. وإلا فالرعاية والعناية محفوفة بقلبه، فقد يبلغ الولي إلى مقام يقال له: أفعَل ما شئت فقد غفرت لك، كما وقع لأهل بدر، وراجع ما تقدم عند قوله: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٣) وقد يغير الله قلب عبده اختباراً له، فيسلبه حلاوة المعاملة أو المعرفة، فإن هو اضطرب وتضرع ردَّ له حاله، وإن لم يضطرب ولم يفزع إلى الله لم يرد له شيئاً. واليه الإشارة بقوله: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ... ﴾ الآية.

(١) أخرجه في سياق طويل، أحمد في المسند (٢/ ٢٧٤) والترمذي في (تفسير سورة الرعد)، وقال: حسن غريب.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٢/ ١٢٦) عن ابن عباس رضي الله عنه في سياق أطول من هذا. وهو ضعيف لرجوع السدي والكلبي في السند.

(٣) الآية ٨٢ من سورة الأنعام.

هو الذى يريكم برق لمعان أنوار المشاهدة، عند الاستشراف على الحضرة القدسية، خوفاً من الرجوع؛ لعدم إضاءة ذلك النور، وطمعاً فى الوصول إلى التمكن، فلا يزال تترادف عليه البروق حتى يستمر ذلك كبرق متصل، وهى أنوار المواجهة. وينشئ سحاب الواردات ثقلاً بالعلوم والأسرار، ويرسل الصواعق تصعق وجود الحس عن أسرار المعانى، فيصيب بها من يشاء ممن سبقت له العناية. وأهل الإنكار والتكذيب بطريق الخصوص يجادلون فى الله بتكذيب أوليائه وإنكار هذه الأنوار، وهو شديد المحال، فيمكر بهم ويتركهم فى مقام البعد، وهم لا يشعرون.

ومن جملة التغيير الذى يسلب النعم ويوجب النقم: الركون إلى غير الله بالدعاء وغيره، كما قال تعالى:

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝١٤ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝١٥﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾؛ لأنه الذى يحق أن يدعى فيجيب، دون غيره؛ فإنما له الدعاء الباطل؛ لأنه يدعى فلا يسمع ولا يجيب. أو: له دعوة الحق، وهى كلمة التوحيد؛ لا إله إلا الله، فمن دعا إليها فقد دعا إلى الحق. والأول أرجح؛ لمناسبة قوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ﴾، أى: والأصنام الذين يدعونهم من دونه لا يستجيبون لهم بشيء مما طلبوا، أو: والمشركون الذين يدعون أصناماً من دون الله لا يستجيبون لهم بشيء، فحذف المفعول؛ للدلالة عليه، فلا يستجيبون لهم ﴿ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ ﴾؛ إلا استجابة كاستجابة من بسط كفيه إلى الماء يشير إليه، ﴿ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾؛ أى: يطلب منه أن يصعد إليه ويبلغ فاه ﴿ وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ ﴾ أى: ليس الماء ببالغ فاه؛ لأنه جماد لا يشعر بدعائه، ولا يقدر على إجابته من حيث هو، شبه إجابة الأصنام لمن عبدتهم بإجابة الماء لمن بسط إليه كفه، وأشار إليه بالإقبال إلى فيه، ولا يبلغ فاه أبداً؛ لأنه جماد لا يسمع ولا يعقل، وكذلك الأصنام لا تسمع ولا تجيب من بسط إليها يده ليطالب منها؛ لأنها خشب وأحجار. ﴿ وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ للأصنام ﴿ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ وخسران وضياح.

ثم ذكر الحقيق بالعبادة والطلب، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ يحتمل أن يكون السجود حقيقة، فالملائكة والمؤمنون يسجدون طوعاً فى الشدة والرخاء، والكفار يسجدون كرهاً فى الشدة والضرورة. أو يكون مجازاً؛ وهو: انقيادهم لما أراد منهم، شاءوا أو كرهوا. ﴿ وَ ﴾ تسجد أيضاً ﴿ ظِلَالُهُمْ ﴾ بانقيادها لله تعالى فى طولها وقصرها، وميلها من جانب إلى جانب، ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾، أى: طرفى النهار. وخص هذان الوقتان - وإن كان سجودهما دائماً -؛ لأن الظلال إنما تعظم وتكبر فيهما. وقال الواحدى: كل شخص مؤمن أو كافر ظله يسجد لله تعالى، ونحن لا نقف على كيفية ذلك. هـ.

وقال القشيري: ذلك سجود شهادة، لا سجود عبادة، فإن امتنع من إقامة الشهادة قوم قالة فقد شهد كل جزء منهم من حيث البرهان والدلالة، فكل مخلوق من عين وأثر، حجر ومدر أو غير ذلك؛ فمن حيث البرهان لله ساجد، ومن حيث البيان للواحد شاهد. هـ.

وقال أبو حيان: عن الفراء: الظل في الأصل مصدر، ثم أطلق على الخيال الذي يظهر للجرم طوله بسبب انخفاض الشمس، وقصره بسبب ارتفاعها، فهو متقاد لله تعالى في طوله وقصره وميله من جانب. ثم قال: والحاصل أنها جارية على مقتضى إرادته تعالى ومشيلته، من الامتداد والتقلص، والقيء والزوال. هـ.

وقيل: لا يعلم تسبيح الجماد والنبات والحيوان البهيمي وسجودها؛ إلا من كاشفه الله تعالى بحقيقة ذلك من نبي أو ملك أو صديق. وأما حمدها لله تعالى وتسبيحها بلسان الحال فيعلمه العلماء. قاله المحشي الفاسي.

الإشارة: كل من تعلق في نوائبه بغير الله، أو ركن في حوائجه إلى غير مولاه، فهو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وليس بواصل إليه، ولا ببالغ قصده ومناه، بل دعاؤه في تلف وخسران، وجزاؤه الخيبة والحرمان. فالواجب على العبد أن يقصر حوائجه على مولاه، وينقاد إليه بكليته في حال الطوع والإكراه. إما أن ينقاد إليه بالإحسان، أو بسلاسل الامتحان. «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يَسْأَلُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ» (١).

ثم ذكر الحقيق بالدعوة، والعبادة، فقال:

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَرُ﴾ (١٦)

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد للمشركين: ﴿من رب السموات والأرض﴾ أي: خالقهما، ومدبر أمرهما، ﴿قل﴾ لهم: هو ﴿الله﴾ لا خالق سواه، ولا مدبر غيره، أجاب عنهم بذلك، إذ لا جواب لهم سواه؛ لأنهم يقرون به، ولكنهم يشركون به. فأبطل ذلك بقوله: ﴿قل أفأتخذتم من دونه أولياء﴾؛ أصناماً جامدة تتولونها بالمحبة والنصرة والدفع، وهم جوامد ﴿لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا﴾ أي: لا يقدرُونَ أن يجلبوا لأنفسهم نفعا، ولا يدفعون عنهم ضرا، فكيف يقدرُونَ أن ينفعوا غيرهم ممن عبدتهم، أو يدفعون عنه ضرا؟! وهو دليل على ضلالهم وفساد رأيهم، في اتخاذهم الأصنام أولياء، رجاء أن يشفعوا لهم.

(١) هذا لفظ حديث صحيح أخرجه البخاري في (كتاب الجهاد، باب الأسارى في السلاسل) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصير ﴾ أى: الكافر الجاهل، الذى عميت بصيرته بالجهل والشرك، والمؤمن الموحّد الذى انفتحت بصيرته بالإيمان والعلم. أو المعبود الغافل عن عبادة من عبده، والعالم بأسرار عباده. ﴿ أم هل تستوي الظلمات والنور ﴾؛ الكفر والإيمان، أو الجهل والعلم. ﴿ أم ﴾: بل ﴿ جعلوا لله شركاء ﴾ من صفتهم، ﴿ خلقوا كخلقه، فتشابه ﴾؛ التّيس ﴿ الخلق عليهم ﴾ فلم يدروا ما خلق الله مما خلق أصنامهم، وهذا كله داخل فى الإنكار. والمعنى: هل خلق شركاؤهم خلقاً كخلق الله، فالتّيس الخلق عليهم، فلم يميزوا خلق الله من خلق أصنامهم، حتى ظنوا أنها تستحق أن تُعبد مع الله، أو يطلب منها حوائج دون الله؟!

ثم أبطل ذلك بقوله: ﴿ قل الله خالق كل شيء ﴾، قال البيضاوى: والمعنى أنهم ما اتخذوا له شركاء خالقين مثله حتى يتشابه الخلق عليهم، فيقولوا: هؤلاء خلقوا كما خلق الله، واستحقوا العبادة كما استحقها، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرّون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً عما يقدر عليه الخالق. هـ. ﴿ قل الله خالق كل شيء ﴾؛ لا خالق غيره فيشاركه فى العبادة. جعل الخلق موجب العبادة، ولزم استحقاقها، ثم نفاه عما سواه؛ ليتحقّق انفراده بالربوبية والقهرية كما أفاده قوله: ﴿ وهو الواحد ﴾ فى الألوهية، ﴿ القهار ﴾ بتصرف أحكام الربوبية. هـ.

الإشارة: إذا علم العبد أن ربه قائم بأمر خلقه، مدبر لشأن ملكه، من عرشه إلى فرشه، جعل حوائجه كلها وفقاً عليه، وانحاش بكليته إليه، ورفع همته عن خلقه، إذ ليس بيدهم ضر ولا نفع، ولا جلب ولا دفع، بل هم عاجزون عن إصلاح أنفسهم، فكيف يقدرّون أن ينفعوا غيرهم؟ وفى الحكيم العطائية: « لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك، فكيف يرفع إلى غيره ما كان هو له واضعاً، من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه: فكيف يستطيع أن يكون لها من غيره رافعاً ». وقال بعض العارفين من المُكاشفين - رضى الله عنهم -: قيل لى فى نوم كاليقظة، أو يقظة كالنوم: لا تُبدِينَ فاقةً فأضاعفها عليك؛ مكافأة لسوء أدبك، وخروجك عن حد عبوديتك. إنما ابتليتك بالفاقة لتفرّج بها إلى، وتضرع بها لدى، وتتوكل فيها على. سبكتك بالفاقة لتصير ذهباً خالصاً، فلا تزيغن بعد السبك، وسمتك بالفاقة وحكمت لنفسى بالغنى، فإن وصلتها بى وصلتكَ بالغنى، وإن وصلتها بغيرى قطعت عنك مواد معونتي، وحسنت أسبابك من أسبابى، طرداً لك عن بابى. فمن وكلته إلى ملك، ومن وكلته إليه هلك. هـ.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمته الله: آيست من نفع نفسى لنفسى، فكيف لا آيس من نفع غيرى لها، ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى؟ هـ. فالْبصير من اعتمد فى أموره على مولاه، والأعمى من ركن فى حوائجه إلى سواه. فأنوار التفويض والتسليم لا تستوى مع ظلمات الشرك والتدبير؛ ﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ﴾. وبالله التوفيق.

ثم ضرب مثلاً لنور العلم مع ظلمات الجهل، فقال:

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ هَذَا كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: «جفاء»: حال. و«الحسنى»: مبتدأ، و«للذين»: خبر مقدم. و«الذين لم يستجيبوا»: مبتدأ، و«لو أن»: خبر، أو (للذين): متعلق بـيضرب، و«الحسنى»: نعت لمصدر محذوف، و«الذين»: معطوف على «الذين» الأولى، أى: يضرب الأمثال للذين استجابوا الاستجابة الحسنى وللذين لم يستجيبوا، ثم استأنف قوله: لو أن... إلخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى: السحاب، أو ناحية السماء، ﴿ مَاءً ﴾؛ مطراً، ﴿ فَسَالَتْ ﴾ به ﴿ أَوْدِيَةٌ ﴾: أنهار، جمع واد، وهو الموضع الذى يسيل الماء فيه بكثرة، فانتسع واستعمل للماء الجارى فيه. ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ أى: بقدر صغرها وكبرها، كل يسيل على قدره، أو بقدر ما قسم فى قسمة الله تعالى، وعلم أنه نافع غير ضار، ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا ﴾ أى: رفعه على وجه الماء، وهو ما يحمله السيل من غذاء ونحوه، أو ما يطفو على الماء من غليانه، ﴿ رَابِيًا ﴾: عالياً على وجه الماء، ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾ (١) من ذهب وفضة، وحديد ورصاص ونحاس، وغيره، ﴿ ابْتِغَاءً ﴾ أى: لطلب ﴿ حِلْيَةٍ ﴾ كالذهب والفضة، ﴿ أَوْ مَتَاعٍ ﴾ كالحديد والنحاس يصنع منه ما يتمتع به؛ من الأواني وآلات الحرب والحرث. والمقصود بذلك: بيان منافعها، فكل واحد منهما له ﴿ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ أى: مثل زيد الماء، وهو خبثه الذى تخرجه النار عند سبكه.

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾؛ فمثل الحق - وهو العلم بالله وبأحكامه - كمثل الأمطار الغزيرة، ومثل القلوب التى سكن فيها، وجرت حكمه على ألسنة أهلها؛ كالأودية والأنهار والخلجان، كل يحمل منه على قدره، وسعة صدره. ومثل الباطل الذى دمه وذهب به؛ كالزبد وخبث الحديد والنحاس، أو الذهب والفضة. وسيأتى فى الإشارة تكميله إن شاء الله. وروى مثل هذا عن ابن عباس. وإنكار ابن عطية له جمود، وتذكر حديث البخارى:

(١) قرأ حمزة والكسائى وحفص (بوقدون) بالياء. على أن الضمير للناس. وقرأ الباقون بالناء على الخطاب.. انظر الإنشاف (١٦٢/٢).

«مثل ما بعثني الله به من الهدى...» الحديث (١)، فإنه يشهد لذلك التأويل. وتقدم له بنفسه في قوله: ﴿أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ (٢) ما يشير إلى تفسير أهل الإشارة والرموز. وراجع ما تقدم لنا في خطبة الكتاب يظهر لك الحق والصواب.

قال البيضاوي: **مَثَلُ الْحَقِّ** في إفادته وثباته، بالماء الذي ينزل من السماء، فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة، فتتفع به أنواع المنافع، ويمكث في الأرض، فيثبت بعضه في منابعه، ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والآبار، وبالفلز الذي ينتفع به في صوغ الحلي، واتخاذ الأمتعة المختلفة، ويدوم ذلك مدة متطاولة. والباطل، في قلة نفعه وسرعة ذهابه، بزبدتهما، وبين ذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيُذْهِبُ جَفَاءً﴾، أي: مَرَمِيًا به، من جفاه: رمى به وأبعده، أي: يرمى به السيل والفلز المذاب. هـ. ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ كالماء، وخالص الذهب أو الحديد، ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ لينتفع به أهلها. ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ لإيضاح المشكلات المعنوية، بالمحسوسات المرئية.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ بالإيمان والطاعة، ﴿الْحَسَنَى﴾ أي: المثوبة الحسنى، أو الجنة. ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ من الكفرة ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ من هول ذلك المطلق. أو: يضرب الأمثال للذين استجابوا الاستجابة الحسنى، وللذين لم يستجيبوا له. ثم بين مثال غير المستجيبين بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ...﴾ إلخ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾؛ أقبحه وأشدّه، وهو أن يناقش فيه، بأن يحاسب العبد على كل ذنب، ولا يغفر منه شيء، ﴿وَمَا وَاهُمْ﴾: مرجعهم ﴿جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾؛ الفراش والمستقر، والمخصوص محذوف، أي: هذا.

الإشارة: قد اشتملت الآية على ثلاثة أمثلة: مثال للعلم النافع، ومثال للعمل الخالص، وللحال الصافي. فمثل الحق تعالى العلم النافع بالمطر النازل من السماء، فإنه تحيا به الأرض، وتجرى به الأودية والعيون والآبار، ويحبس في الخلجان والقصور لنفع الناس، وتتطهر به الأرض من الخبث؛ لأنه ترمى به السيول فيذهب جفاء، كذلك العلم النافع تحيا به النفوس بعد الموت بالجهل والشك، وتحيا به الأرواح بعد موتها بالغفلة والحجاب، وتمتلئ به القلوب على قدر وسعها وسعتها، وعلى قدر ما قسم لهم من علم اليقين، أو عين اليقين، أو حق اليقين، وتتطهر به النفوس من البدع وسائر المعاصي.

(١) لفظ الحديث كاملاً: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصابت أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء فلغغ الله الناس، فشرّبوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه الله به، فعلم وعلم. ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به، أخرجه البخاري في (العلم، باب في من علم وعلم) ومسلم في (الفضائل، باب بيان ما بعث الله به من الهدى والعلم) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) من الآية ٤٠ من سورة يوسف.

ومثل العمل الخالص الذي تصفى من الرياء والعجب وسائر العلل، بالحديد المصفى من خبثه؛ لتصنع منه السيوف والآلات، أو النحاس المصفى لتصنع منه الأواني، وغيرها مما ينفع به الناس.

ومثل الحال الصافي من العلل بالذهب المصفى، أو الفضة، إذا صفيت وذهب خبثها؛ ليصنع بهما الحلى والحلل؛ ليتزين بها أهلها، فأشار إلى المثال الأول - وهو العلم - بقوله: ﴿أنزل من السماء ماء﴾ إلخ. وأشار إلى الحال بقوله: ﴿وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية﴾، وأشار إلى العمل بقوله: ﴿أو متاع زبد مثله﴾. وقدم الحال، لشرفه، ومثله بالذهب والفضة؛ لزيادة الرغبة فيه؛ لأنه ثمرة العمل، ومرجعه إلى الوجدان والأذواق، وهو عزيز لا يجده إلا المقربون.

والحاصل: أن المراتب أربعة: العلم، والعمل، والحال، والمقام. وإنما لم يضرب الحق تعالى مثلاً للمقام؛ لأن النزول فيه لا يكون إلا بعد التصفية، فليس فيه علة، يحتاج إلى التصفية منها. فمقامات اليقين كلها يجرى فيها العلم، والعمل، والحال، والمقام. فالتوبة مثلاً: يتعلق العلم بمعرفة حقيقتها، وفضليتها، ثم يسعى في العمل بالمجاهدة والرياضة حتى يذهب زبده وخبثه، حتى يذوق حلاوة الاستقامة مع بقية الخوف من السقوط، وهذا هو الحال، ثم تطمئن النفس، وترسخ التوبة النصوح، وهذا هو المقام. وكذلك الصبر، يتعلق به العلم أولاً ثم يسعى في مرارة استعماله حتى يذوق حلاوة الشدة والفاقة ثم يرسخ فيه، وهكذا يجرى في المقامات كلها.. وهي اثنا عشر مقاماً: التوبة، والخوف، والرجاء، والورع، والزهد، والصبر، والشكر، والرضى، والتسليم، والمحبة، والمراقبة، والمشاهدة. وهي: بروج شمس المعرفة، وقمر التوحيد. وكذلك معرفة الشهود والعيان: يتعلق العلم أولاً بأسرار التوحيد، ثم يعمل في خرق عوائد نفسه حتى تموت، فيشرق عليها أنوار التوحيد، غير أنها تظهر وتخفى، ثم يصير الشهود مقاماً، رسوخاً وبمكيناً.

وقد أشار في الحكم إلى بعض هذا فقال: «حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال، وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال». وكل واحد من الثلاثة يحتاج إلى تصفية حتى يذهب زبده وخبثه؛ فتصفية العلم بالإخلاص والتحقيق، فيذهب عنه قصد الرئاسة والجاه، أو التوصل إلى الدنيا، ويذهب به الشكوك والأوهام؛ فهذا زبده. وتصفية العمل بالإخلاص في أوله، والإتقان والحضور في وسطه، والكتمان في آخره، فيذهب عنه الرياء والعجب به، والتوصل به إلى حظ نفساني. وتصفية الحال بصحة القصد وإفراد الوجهة، وإذا هاج عليه الوارد ملك نفسه وأمسكها، فيذهب به قصد الظهور، وطلب المراتب الدنيوية والكرامات الحسية، التي هي من حظ النفس وتشتيت القلب، إن لم يفرد وجهته لله، وانحلال عزمه وخمود نوره، إن لم يمسك نفسه عند هواجس الحال. فهذا زيد الحال الذي يذهب عنه بمجاهدة النفس، ويمكث في أرض القلوب صفاء اليقين والمعرفة وخالص العمل في مقام العبودية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حال من عرف هذا العلم النازل، وحال من أنكره، فقال:

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَزْوَاجُ الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾

قلت: «أولئك..» الخ: جملة خبر الموصولات، إن رفعت بالابتداء، وإن جعلت صفات لأولى الأبواب: فاستئناف بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات. و«جنات»: بدل من «عقبي الدار». و«من صلح»: عطف على الواو بفصل المفعول، و«سلام عليكم»: محكي بحال محذوفة، أي: قائلين سلام عليكم، وحذف الحال - إذا كان قولاً - كثير مطرد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك﴾ هو ﴿الحق﴾ فيستجيب له، ويلقاه له ﴿كمن هو أعمى﴾ عى القلب، لا يستجيب ولا يستبصر؟ أنكر الحق - جل جلاله - على من اشتبه عليه الحق من الباطل، بعدما ضرب المثل، فإن الأمور المعنوية، إذا ضرب لها الأمثال المحسوسة، صارت في غاية الوضوح لاتخفى إلا على الخفافشة، الذين انطمس نور قلوبهم بالكفر أو المعاصي. ولذلك قال: ﴿إنما يتذكر أولوا الأبواب﴾؛ ذرو العقول الصافية والقلوب المنورة، التي تطهرت من كدر العوائد والشهوات، ولم تركز إلى المألوفات والمحسوسات.

ثم وصفهم بقوله: ﴿الذين يوفون بعهد الله﴾؛ ما عقده على نفوسهم من معرفة عظمة الربوبية والقيام بوظائف العبودية، حين قالوا: ﴿بلى﴾ (١). ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾؛ ما أوثقوه على نفوسهم، وتحملوه من المواثيق التي بينهم وبين الله، وبينهم وبين عباد الله. وهو تعميم بعد تخصيص؛ تأكيداً على الوفاء بالعهود. ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ من الرحم، وموالات المؤمنين، وحضور مجالس الصالحين، والعلماء العاملين، والافتداء بقولهم والاهتداء بهديهم. ﴿ويخشون ربهم﴾: غضبه وعذابه، أو إبعاده وطرده، ﴿ويخافون سوء الحساب﴾: مناقشته، فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

(١) في قوله تعالى: (وإذا أخذ ربك من بنى آدم..) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على مشاق الطاعة وترك المخالفة، أو على ما تكرهه النفوس، ويخالفه الهوى. فعلوا ذلك ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾؛ طلباً لرضاه، أو لرؤية وجهه وشهود ذاته، لا فخراً ورياء، وطلباً لحظ نفساني. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، بحيث حافظوا على شروطها وأركانها، وحضور السرف فيها، ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الأموال فرضاً ونفلاً، ﴿سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾؛ إن تحقق الإخلاص، وإلا تعين الإسرار. أو سراً لمن لا يعرف بالمال، وجهراً لمن يعرف به؛ لئلا يتهم، أو ليقتدى به. ﴿وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أى: يدفعون الخصلة السيئة بالخصلة الحسنة، فيجازون الإساءة بالإحسان؛ امثالاً لقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ (١)، أو: يدفعون الشرك بقول: لا إله إلا الله، أو يفعلون الحسنات فيدرون بها السيئات، كقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (٢). قيل: نزلت في الأنصار. وهى عامة.

ثم ذكر جزاءهم، فقال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ أى: عاقبة دار الدنيا وما يؤول إليه أهلها. وهى: الجنة التى فسرها بقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أى: إقامة، ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ مخلصين فيها. والعَدْنُ: الإقامة، وقيل: هى بطنان الجنة، أى: مداخلها لا ريضها، فيدخلونها ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أى: يلحق بهم مَنْ صَلَحَ مِنْ أَهْلِهِمْ، وإن لم يبلغ فى العمل مبلغهم، تبعاً لهم وتعظيماً لشأنهم، أو بشفاعتهم لهم. وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة، وأن الموصوفين بتلك الصفات يقرب بعضهم من بعض - لما بينهم من القرابة والوصلة فى دخول الجنة؛ زيادة فى أنسهم، لكن يقع التفاوت فى الدرجات والتعيم والقرب، على قدر اجتهادهم فى التحقق بتلك الصفات، والدءوب عليها. والتقيد بالصلاح يدل على أن مجرد الانتساب لا ينفع من غير عمل.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب المنازل، أو من أبواب الفتوح والتحف، قائلين: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ بشارة بدوام السلامة، هذا ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، أو سلامة لكم بسبب صبركم. ﴿فَنِعْمَ عَقَبَى الدَّارِ﴾ التى سكنوها ورحلوا عنها دارهم هذه.

الإشارة: أفمن تصفّت مرآة قلبه من الأكدار والأغيار، حتى أبصرت أقطار العلوم والأسرار النازلة من سماء الملكوت على النبى المختار، فتصلع منها حتى امتلأ منها قلبه وسره، ونبع بأنهار العلوم لسانه وفكره، كمن هو أعمى القلب والبصيرة، فلم يرفع بذلك رأساً؟ إنما ينتفع بتلك العلوم أولوا القلوب الصافية التى ذهب خبثها، فصفت علومها وأعمالها وأحوالها من زبد المساوىء والعيوب، الذين دخلوا تحت تربية المشايخ، فأوفوا بعهودهم، وواصلوهم،

(١) من الآية ٩٦ من سورة المؤمنون.

(٢) من الآية ١١٤ من سورة هود.

وخافوا ربهم أن يبعدهم من حضرتهم، أو يناقشهم الحساب؛ فحاسبوا أنفسهم على الأنفاس والأوقات، وصبروا على دوام المجاهدات، حتى أفضوا إلى فضاء المشاهدات، وأقاموا صلاة القلوب - وهي العكوف في حضرة الغيوب - وأنفقوا مما رزقهم من سعة العلوم ومخازن الفهوم، ويقابلون الإساءة بالإحسان؛ لأنهم أهل مقام الإحسان. أولئك لهم عقبى الدار؛ وهي العكوف في حضرة الكريم الغفار، تدخل على أبواب قلوبهم المواهب والأسرار، تقول بلسان الحال: سلام عليكم بما صبرتم في مجاهدتكم، فنعم عقبى الدار.

ثم شفع بضدّهم، فقال:

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٢٥﴾ **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ۝٢٦**

يقول الحق جل جلاله: ﴿والذين ينقضون عهد الله...﴾ الذى أخذه عليهم فى عالم الذر، حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (١)، ثم كفروا به بعد بعث الرسل المنبهين عليه. أو ينقضون العهود فيما بينهم وبين عباد الله، إن أعطوا ذلك من أنفسهم، ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ من الأرحام، أو ممن يدل على الله من الأنبياء، والعلماء الأتقياء؛ فإن الله أمر بوصلهم، ﴿ويُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالظلم والمعاصي، وتهيج الفتن، ﴿أولئك لهم اللعنة﴾: البعد والطرده من رحمة الله، ﴿ولهم سوء الدار﴾: سوء عاقبة الدار، وهو العذاب والهوان، حيث اغتروا فى الدنيا بسعة الأرزاق، وظنوا أن ذلك من علامة إقبال الحق.

ولم يدروا أن الله ﴿يسطُ الرزق لمن يشاء﴾، ولو كان من أهل الشقاء، ﴿ويقدر﴾؛ يضيقه على من يشاء، ولو كان من أهل السعادة والعناية، ﴿وفرحوا بالحياة الدنيا﴾ واطمأنوا بها، وقنعوا بنعيمها الفانى، ﴿وما الحياة الدنيا﴾ فى جنب الآخرة ﴿إلا متاعٌ﴾؛ إلا متعة لا تدوم، كعجالة الراكب وزاد الراعى. وفى الحديث عنه ﷺ: «مَالِي وَلِلدُّنْيَا، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَائِبِ سَافِرٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ عَنْهَا وَتَرَكَهَا» (٢). والمعنى: أنهم أشروا بما نالوا من الدنيا، ولم يصرفوها فيما يستوجبون به نعيم الآخرة، واغترروا بما هو فى جنبه نزر قليل النفع، سريع الزوال. قاله البيضاوى.

(١) من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣٠١/١) والحاكم (٣٠٩/٤) وصححه ووافقه الذهبى من حديث ابن عباس رضى الله عنه، قال: دخل عمر على رسول الله ﷺ وهو على حصير، قد أثر فى جنبه، فقال: يانبى الله لو اتخذت فراشا أوثر من هذا؟ فقال: مالى وللدنيا... الحديث.

الإشارة: لا شيء أفسد على المرید من نقض عهود المشايخ، والرجوع عن صحبتهم؛ فإنه لما دخل في حماهم انقبض عنه الشيطان والدنيا والهوى، وأسفوا عليه، فإذا رجع إليهم، واتصلوا به، فعلوا به ما لم يفعلوا بغيره؛ كمن هرب من عدوه ثم اتصل به. وتنسحب عليه الآية من قوله: «والذين ينقضون عهد الله» إلى قوله: «أولئك لهم اللعنة»؛ أى: البعد عن الحضرة، (ولهم سوء الدار) وهو: غم الحجاب والبقاء من وراء الباب. فإذا رجعت إليه الدنيا يقال له: (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر)؛ فلا تغتر ولا تفرح بالعرض الفانى، فما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع قليل، ثم التحسر الويل.

ثم أجاب عن طلب المعجزة ليؤمن، فقال:

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا اللَّهُ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنَاصِبُ ﴾

مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من أهل مكة: ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ﴾ ظاهرة ﴿ من ربه ﴾ كما أنزلت على من قبله فنؤمن حينئذ؟ ﴿ قُل ﴾ لهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ بعد ظهور الآيات والمعجزات. وليس الإيمان والهداية بيد العبد فى الحقيقة. ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَنَابَ ﴾ أى: من أقبل ورجع عن عناده من غير احتياج إلى معجزة. قال البيضاوى: وهو جواب، يجرى مجرى التعجب من قولهم، كأنه قال: قل لهم ما أعظم عنادكم! ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ ممن كان على صفتكم، فلا سبيل إلى اهتدائه، وإن نزلت كل آية، ويهذى إليه من أناب لما جئت به، بل بأدنى منه من الآيات. هـ.

الإشارة: تقدم مراراً أن من سبقت له من الله عناية الخصوصية، لم يتوقف على ظهور آية. ومن لم يسبق له شيء فى الخصوصية لا ينفع فيه ألف آية. فالله تعالى يضل من يشاء عن دخول حضرته، ولو رأى من أولياء زمانه ما رأى، ويهذى إلى حضرته من أناب، ورجع بلا سبب. وبالله التوفيق.

ثم وصف أهل الإنابة، فقال:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَتَى ﴿٢٩﴾

قلت: الموصول: بدل ممن أناب، أو خبر عن مضمرة، أى: هم. والموصول الثانى بدل ثان، أو مبتدأ، وجملة «طوبى»: خبر، وهى فعلى، من الطيب، كبشرى من البشارة، قلبت ياؤها واواً؛ لضم ما قبلها، ومعناها: أصبت خيراً وطيباً. وقيل: شجرة فى الجنة. وسوغ الابتداء بها: ما فيها من معنى الدعاء.

يقول الحق جل جلاله ، فى وصف من سبقت له الهداية واتصف بالإجابة: هم ﴿الذين آمنوا﴾ بالله ورسوله إيماناً تمكّن من قلوبهم، واطمأنت إليه نفوسهم؛ فإذا حركتهم الخواطر والهواجم، أو فتن الزمان وأهواله ﴿تطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ ، وترتاح بذكر الله؛ أنساً به، واعتماداً عليه ورجاء منه، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، أو بذكر آلائه ودلائله الدالة على وجوده ووحدانيته، أو بكلامه القرآن، الذى هو أقوى المعجزات، قاله البيضاوى. وقال فى القوت: معنى تطمئن بذكر الله: تهش وتستأنس به. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى بعد كلام: والحاصل أن المراد من الطمأنينة: السكون إلى المذكور، والأنس به، ووجود الروح والفرح والانشراح، والغنى به. هـ.

قال تعالى: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ لا بغيره، فلا تسكن إلا إليه، ولا تعتمد إلا عليه؛ فإن سكنت إلى غيره ذهب نورها، وعظم قلقها. ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم﴾ أى: لهم عيش طيب وحياة طيبة. أو الجنة، أو شجرة فيها، ﴿وحسن مآب﴾ أى: مرجع يرجعون إليه بعد الموت.

الإشارة: الطمأنينة على قسمين: طمأنينة إيمان، وطمأنينة شهود وعيان. قوم اطمأنوا إلى غائب موجود، وقوم إلى آخر مشهود. قوم اطمأنوا بوجود الله من طريق الإيمان على نعت الدليل والبرهان، وقوم اطمأنوا بشهود الله من طريق العيان على نعت الذوق والوجدان. وهذه ثمرة الإكثار من ذكر الله.

قال الشيخ الشاذلى رحمته: حقيقة الذكر: ما اطمأن بمعناه القلب، وتجلّى فى حقائق سحب أنوار سمائه الرب. هـ. وقال الورتجى: إن كان الإيمان من حيث الاعتقاد، فطمأنينة القلب بالذكر، وإن كان من حيث المشاهدة فطمأنينة القلوب بالله وكشف وجوده. هـ. فطمأنينة الإيمان لأهل التفكير والاعتبار من عامة أهل اليمين. وطمأنينة العيان لأهل الشهود والاستبصار من خاصة المقربين. أهل الأولى يستدلون بالأشياء على الله، وأهل الثانية يستدلون بالله على الأشياء؛ فلا يرون إلا مظهر الأشياء. وشتان بين من يستدل به أو يستدل عليه؛ المستدل به عرف الحق لأهله، وأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه. وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه! ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه؟! كما فى الحكم.

وقال فى المناجاة: «إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟! أليكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك؟!». .

وقال الشيخ أبو الحسن رحمته الله : «كيف يُعرف بالمعارف من به عُرِفَت المعارف؟! أم كيف يُعرف بشيء من سبق وجوده كُلُّ شيء؟ أي: وظهر بكل شيء.. وفي ذلك يقول الشاعر:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْغِي عَلَيْكَ شَهَادَةً وَأَنْتَ الَّذِي أَشْهَدْتَهُ كُلُّ شَاهِدٍ

وقال آخر:

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَمَا نَخْفَى عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى أَكْمِهِ لَا يُبْصِرُ الْقَمَرَا
لَكِنْ بَطْنَتْ بِمَا أَظْهَرْتَ مُحْتَجِبَا وَكَيْفَ يُبْصِرُ مَنْ بِالْعِزَّةِ اسْتَتَرَا

وأهل طمأنينة الإيمان على قسمين؛ باعتبار القرب والبعد: فمنهم من يطمئن بوجود الحق على نعت القرب والأنس، وهم أهل المراقبة من الزهاد والصالحين، والعلماء العابدين المجتهدين، وهم متفاوتون في القرب على قدر نفعهم من الشواغل والعلائق، وعلى قدر التخلية والتحلية. ومنهم من يطمئن إليه على نعت البعد من قلبه، وهم أهل الشواغل والشواغب، والعلائق والعوائق. وعلامة القرب: وجود حلاوة المعاملة، كلذيق المناجاة، والأنس به في الخلوات، ووجود حلاوة القرآن والتدبر في معانيه، حتى لا يشبع منه في كل أوان. وعلامة البعد: فقد الحلاوة المذكورة، وعدم الأنس به في الخلوة، وفقد حلاوة القرآن، ولو كان من أعظم علماء اللسان.

وأهل طمأنينة الشهود على قسمين أيضاً: فمنهم من تشرق عليه الأنوار، وتحيط به الأسرار، فيغرق في الأنوار وتطمس عنه الآثار، فيسكر ويغيب عن الأثر في شهود المؤثر، ويسمى عندهم هذا المقام: مقام الفناء. ومنهم من يصحو من سكرته، ويفيق من صعقته، فيشهد المؤثر، لا يحجبه جمعه عن فرقه، ولا يفرقه عن جمعه، ولا يضره فناؤه عن بقاءه، ولا بقاءه عن فناؤه، يعطى كل ذي حق حقه، ويوفى كل ذي قسط قسطه، وهو مقام البقاء، ولا يصح وجوده إلا بعد وجود ما قبله، فلا بقاء إلا بعد الفناء، ولا صحو إلا بعد السكر. ومن ترامي على هذا المقام - أعني مقام البقاء - من غير تحقيق مقام السكر والفناء فهو لم يبرح عن مقام أهل الحجاب.

واعلم أن طمأنينة الإيمان تزيد وتنقص، وطمأنينة العيان، إن حصلت، تزيد ولا تنقص. فمواد أسباب زيادة طمأنينة الإيمان أشياء متعددة، فمنهم من تزيد طمأنينته بالتفكير والاعتبار، إما في عجائب المصنوعات وضروب المخلوقات، فيطمئن إلى صانع عظيم القدرة باهر الحكمة. وإما بالنظر في معجزات الرسول ﷺ، وباهر علمه، وعجائب حكمه وأسراره، وإخباره بالأمور الغيبية السابقة والآتية، مع كونه نبياً أمياً. فإذا تحقق بمعرفة الرسول فقد

تحقق بمعرفة الله، واطمأن به؛ لأنه الواسطة العظمى، بين الله وبين عباده. ومنهم من تزيد طمأنينته بموالاته الطاعات وتكثير القربات، كالذكر وغيره. ومنهم من تزيد طمأنينته بزيارة الأولياء أحياء أو ميتين. ومادة الأحياء أكثر، ونور طمأنينتهم أبهر، لاسيما العارفين، وفي الأثر: تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين.

وأما طمأنينة أهل الشهود: فزيادتها باعتبار زيادة الكشف وحلاوة الشهود، والترقى في العلوم والأسرار، والاتساع في المقامات إلى مالا نهاية له، في هذه الدار الفانية وفي الدار الباقية، ففي كل نفس يجدد لهم كشوفات وترقيات ومواهب وتحف، على قدر توجههم وتحققهم. حققنا الله بمقامهم، وأتحفنا بما أتحفهم. آمين.

ولابد في تحصيل طمأنينة الشهود من صحبة شيخ عارف طبيب ماهر، يقدح عين البصيرة حتى تنفتح؛ فما حجب الناس عن شهود الحق إلا طمس البصيرة، فإذا اتصل بشيخ عارف كحل عين بصيرته أولاً بإثمد علم اليقين، فيدرك شعاع نور الحق قريباً منه، ثم يكحل عينه ثانياً بإثمد عين اليقين، فيدرك عدمه لوجود الحق، أي: يغيب عن حسه بشهود معناه القائم به. ثم يكحل عينه بإثمد حق اليقين؛ فيدرك وجود الحق - بلا واسطة قدرة وحكمة، معنى وحساً، لا يتحجب بأحدهما عن الآخر. وإلى هذا أشار في الحكم بقوله: «شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق، لا عدمك ولا وجودك. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما كان عليه».

وأهل طمأنينة الشهود هم خاصة ورثة الرسول - عليه الصلاة والسلام - الذي أشار إليه بقوله:

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

قلت: «كذلك»: مفعول مطلق بأرسلناك، أي: مثل ذلك الإرسال المتقدم أرسلناك. وقال ابن جزى: الكاف تتعلق بالمعنى الذي في قوله: ﴿يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾. هـ. أي: كما أن الإضلال والهداية بيده كذلك اختصاصك بالرسالة إلى أمة... إلخ، وجملة: «وهم يكفرون»: حال من ضمير «عليهم» أي: لتتلوا عليهم في حال كفرهم لعلمهم يؤمنون. و«متاب»: مفعول، من التوبة.

يقول الحق جل جلاله: قد أرسلنا قبلك رسلاً فأنذروا وبشروا قومهم، ﴿كذلك أرسلناك﴾ أي: مثل ذلك الإرسال أرسلناك في أمة، أو كما هدينا من أناب إلينا اختصاصك برسالتنا، ﴿في أمة قد خلت﴾؛ مضت ﴿من قبلها﴾ أي: تقدمها ﴿أمم﴾ أرسل إليهم رسلك إلى هذه الأمة الأمية، ﴿لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك﴾: لتقرأ عليهم الكتاب، الذي أوحينا إليك، والحالة أنهم ﴿يكفرون بالرحمن﴾ أي: بالبالغ

الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته، ووسعت كل شيء رحمته، فلم يشكروا ما أنعم به عليهم، وخصوصاً إرسالك إليهم، وإنزال القرآن عليهم، الذي هو مناط المنافع الدينية والدنيوية. قيل: نزلت في أبي جهل، وقيل: في قريش حين قالوا: لا نعرف الرحمن، والمعنى: أرسلناك إليهم رحمة لتقلو عليهم ما هو مناط الرحمة، ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾.، والحال: أنهم يكفرون ببلوغ الرحمة. ﴿قل هو ربي﴾ أي: الرحمن خالقى ومتولى أمرى، ﴿لا إله إلا هو﴾؛ لا مستحق للعبادة غيره، ﴿عليه توكلت﴾ فى أمورى، ومن جملتها نصرى عليكم. ﴿والله متاب﴾؛ مرجعى فى أمورى كلها، لا أرجع إلى أحد غيره، ولا أتعلق بشيء سواه.

الإشارة: قد بعث الله فى كل عصر عارفاً بالله يحيى به الدين، ويعرف الطريق إلى رب العالمين؛ فالأرض لا تخلو ممن يقوم بالحجة، غير أنهم تارة يخفون؛ لفساد الزمان، وتارة يظهرون؛ رحمة للأنام. فإذا وقع الإنكار عليهم، أو استغرب وجودهم، يقال لهم: كذلك أرسلنا فى كل أمة نذيراً، وداعياً، فأرسالكم أنتم وإظهاركم ليس ببدع، لتعلموا الناس ما أوحى إليكم من طريق الإلهام؛ فإظهاركم رحمة، وهم يكفرون هذه النعمة. فاعتمدوا على الرحمن، وثقوا بالواحد المنان، وارجعوا إليه فى كل حال وشأن. فمن توكل عليه كفاه، ومن التجأ إليه حماه. ثم رجع إلى تنميم الجواب عن قول الكفار: (لولا أنزل عليه آية من ربه)، فقال:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سِيرَتْ بِهٖ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهٖ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهٖ الْمَوْتِىُّ بَلِّغَ لِلَّهِ الْأَمْرَ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِشَ الَّذِينَ أَمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

قلت: جواب ﴿لو﴾: محذوف، أى: لم يؤمنوا؛ لسابق الشقاء، أو: لكان هذا القرآن، وسيأتى بيانه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو أن قرآناً﴾ أنزل عليك، من صفته: ﴿سیرت به الجبال﴾ أى: زعزعت عن مقارها، ﴿أو قطعت به الأرض﴾: تصدعت وتشققت من خشية الله عند قراءته، أو: تشققت فجعلت أنهاراً وعيوناً، ﴿أو كلم به الموتى﴾؛ فتجيب من قبورها جهرأ، لما آمنوا؛ لعنادهم وغلبة الحسد عليهم. فهذا كقوله تعالى: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا﴾ (١)،

(١) من الآية ١١١ من سورة الأنعام.

أو: ولو أن قرأنا بهذه الصفة: من تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى، لكان هذا القرآن؛ لأنه الغاية في الإعجاز، والنهاية في التذكير والإنذار، والأول أرجح؛ لمناسبة ما قبله وما بعده.

روى أن قريشاً قالوا: يا محمد، إن سرك أن نتبعك فسير بقرآنك الجبال عن مكة، حتى تتسع لنا فنتخذها بساتين وقطائع. أو سخر لنا به الريح لنركبها، فتتجر بها إلى الشام. أو ابعت لنا قصي بن كلاب فإنه كان شيخ صدق، أو غيره من آبائنا، فيكلمونا فيك، ويشهدوا لك بما تقول. فنزلت الآية.

﴿بل لله الأمر جميعاً﴾؛ ليس لى منه شيء، فهو القادر على الإتيان بما اقترحتموه من الآيات، إلا أن الإرادة لم تتعلق بذلك؛ لأنه علم أنه لا ينجع فيكم شيء من ذلك؛ لفرط عنادكم، فإذا رأيتموها قلتهم: ﴿إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾^(١). وبين ذلك قوله: ﴿أفلم يأس الذين آمنوا﴾ من إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم، وفرط عنادهم، علماً منهم ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾، أو: ﴿أفلم يأس﴾ أى: يعلم ﴿الذين آمنوا﴾ أن الهداية بيد الله، ومشيتته، فلو شاء لهدى الناس جميعاً. وكون «يأس» بمعنى «علم»؛ لغة هوازن؛ فقد علموا بما أعلمهم أن الله لا يهدى من يضل. وقد قرأ على وابن عباس وجماعة: «أفلم يتبين الذين آمنوا» وهو يقوى تفسير «يأس» يعلم.

قال البيضاوى: وإنما استعمل اليأس بمعنى العلم، لأنه مسبب عن العلم، فإن الميلوس منه لا يكون إلا معلوماً. ولذلك علقه بقوله: ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾؛ فإن معناه نفى هدى بعض الناس؛ لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم، وهو - على الأول - يتعلق بمحذوف تقديره: أفلم يأس الذين آمنوا من إيمانهم؛ علماً منهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً. أو: بآمنوا، على حذف الجار، أى: بأن الله... الخ. هـ.

﴿ولا يزال الذين كفروا﴾ من قريش والعرب، ﴿تصيبهم بما صنعوا﴾ من الكفر والمعاصي، ﴿قارعة﴾: داهية تفرعهم؛ تقلقهم، وتصيبهم فى أنفسهم وأولادهم وأموالهم. أو غزوات المسلمين إليهم، إما أن تنزل بهم ﴿أو تحل قريباً من دارهم﴾ فيفزعون منها وتتطاير إليهم شررها. وقيل: نزلت فى كفار مكة، فإنهم لا يزالون مصابيين بما صنعوا برسول الله ﷺ، كان لا يزال يبعث سرايا، فتغير حواليلهم وتختطف أموالهم. وعلى هذا يجوز أن يكون ضمير ﴿تحل﴾ خطاباً للرسول ﷺ أى: تحل بجيشك قريباً من دارهم، ﴿حتى يأتى وعد الله﴾ بالموت أو بالبعث أو فتح مكة. ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾؛ لامتناع الخلف فى وعده تعالى.

(١) كما جاء فى الآية ١٥ من سورة الحجر.

الإشارة: لو أن عارفاً بالله سير الجبال عن أماكنها، وفجر الأرض عيوناً، وكلمه الموتى لما آمن بخصوصيته إلا من سبقت له عناية الخصوصية، فلو شاء الله لهدى الناس إلى معرفته جميعاً. لكن الحكمة اقتضت وجود الخلاف، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^(١)، فمن لم يهتد إلى معرفتهم لا يزال تطرفه قوارع الشكوك والأوهام، وخواطر السوء، أو تحل قريباً من قلبه، إن لم تتمكن فيه، حتى يأتي وعد الله بحضور موته، فقد يتداركه اللطف والرعاية، وقد يتسع الخرق عليه فيموت على الشك، والعياذ بالله، بخلاف من صحب أهل الطمأنينة واليقين، لا يموت إلا على اليقين؛ لأن همة الشيوخ قد حُلقت عليه، والعناية قد حفت به، والله ولي المتقين.

قال الشيخ أبو الحسن رحمته الله: (والله لا يكون الشيخ شيخاً حتى تكون يده مع الفقير أينما ذهب)، والمراد باليد: الهمة والحفظ. ووقت الموت أولى بالحضور، وقد شاهدنا ذلك من إخواننا ممن حضره الموت منهم، أخبر أنه يرى شيخه حاضراً معه. فله الحمة والمنة.

ثم سلى رسول الله ﷺ من إذاية قومه، فقال:

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾^(٢)

يقول الحق جل جلاله، في تسلية رسوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فأوذوا وأهينوا، ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أمهلتهم في دعة ورغد عيش، مدة من الزمان، ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾ بالهلاك والاستئصال، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؟ أى: عقابى إياهم، وهو تهويل لما نزل بهم، وتخويف لغيرهم من المستهزئين بالرسول ﷺ والمقترحين عليه الآيات.

الإشارة: الاستهزاء بأهل الخصوصية في بدايتهم سنة ماضية، ويتسلون بمن سلف من خصوص الأنبياء والأولياء. وماهدد به الكفار يهدد به أهل الإنكار. وبالله التوفيق.

ثم وبخهم على الشرك وأوعدهم عليه، فقال:

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبُ سَمُوهُمْ أَمْ يَتَّبِعُونَهُمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾^(٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾^(٤)

(١) من الآية ١١٨ من سورة هود.

قلت : «أفمن» مع صلته : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أى : أفمن هو رقيب على كل شيء أحق أن يعبد أم غيره .
أو كمن ليس كذلك ؟!!

يقول الحق جل جلاله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ ﴾ ؛ أى : حفيظ رقيب على عمل كل نفس ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ من خير أو شر ، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ، ولا يفوت عنده شيء من جزائهم ، أحق أن يعبد أم غيره ؟ . أو كمن ليس كذلك ممن هو جماد لا يسمع ، ولا يعقل !! ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ بعد هذا البيان التام ، ﴿ قُلْ ﴾ لهم : ﴿ سَمُوهُمْ ﴾ أى : اذكروا أسماءهم ، فلا تجدون إلا أسماء إناث ؛ كالكالات والعزى ومناة ، أو أسماء أحجار وخشب ؛ فبأى وجه تستحق أن تعبد ، وتشرك مع الله فى ألوهيته ؟ .

﴿ أَمْ تُبْعَثُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ بل أتخبرونه بما لا يعلم وجوده فى الأرض ، وهذا تهكم بهم ، كأنهم علموا استحقاق الأصنام العبادة ، ولم يعلمها الحق تعالى ، وهو محال . والمعنى : أن الله لا يعلم لنفسه شركاء وإذا لم يعلمهم فليسوا بشيء ، فكيف تفترون الكذب فى عبادتهم ؟ ﴿ أَمْ ﴾ تسمونهم شركاء ، ﴿ بظاهر من القول ﴾ ، من غير حقيقة واعتبار معنى ، كتسمية الخبث مسكاً ، والبول عطراً .

﴿ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ أى : انخداعهم وغرورهم حتى توهموا الباطل حقاً ، أو مكرهم بالإسلام وكيدهم لأهله ، ﴿ وَصَدُّوا (١) عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى : وصدوا الناس عن طريق الحق ، حيث منعوهم من الإسلام . ومن قرأ بضم الصاد مبنياً للمفعول فمعناه : صدَّهم الشيطان عن طريق الحق وضلوا عنه . ﴿ وَمَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى : من يخذله الله فليس له من يوفقه غيره . ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالقتل والأسر ، وسائر ما يصيبهم من المصائب ، ﴿ وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ ؛ لشدته ودوامه ، ﴿ وَمَالَهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : من عذابه ﴿ مِنْ وَاقٍ ﴾ يقيهم ويعصمهم منه .

الإشارة : كل من تحقق أن الله قائم عليه استحيا منه أن يسئ الأدب بين يديه ، يقول الله تعالى فى بعض الأخبار : «إِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنِّى لَا أُرَاكُمْ ، فَالْخُلْ فِي إِيْمَانِكُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنِّى أُرَاكُمْ فَلَمْ جَعَلْتُمُونِى أَهْوَنَ النَّاطِرِينَ إِلَيْكُمْ ؟» . وكل من وقف مع الأسباب واعتمد عليها ، أو طمع فى الخلق وركن إليهم ، فقد جعل لله شركاء ، فيقال له : سم هؤلاء تجدهم خلقاً عاجزين ، لا قدرة لهم على شيء ، ولا ينفعوك بشيء إلا ما قسم الله لك فى الأزل . بل زين لصعفاء اليقين مكرهم ، حتى انخدعوا وافتتنوا برؤية الأسباب ، أى : كفروا كفراً دون كفر ؛ بأن شكوا فى

(١) قرأ عاصم وحمة والكسائي ، بضم الصاد ، على البناء للمفعول ، وقرأ الباقر بالفتح على البناء للفاعل .. انظر الإتحاف (١٦٢/٢) .

الرزق، والشك في الرزق شك في الرزاق، وصدوا عن طريق اليقين، والغنى برب العالمين، لهم عذاب في الحياة الدنيا بالذل والحرص والحرمان.

قال بعض العارفين: لو قيل للطمع: من أبوك؟ لقال: الشك في المقدور، ولو قيل له: ما حرفتك؟ لقال: الذل والهوان، ولو قيل له: ما غايتك؟ لقال: الحرمان. وفي الحكيم: «ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع». وقال الشاعر:

العبد حرٌّ ما قنعَ والحرُّ عبدٌ ما طمعَ

ولعذاب الآخرة أشق؛ حيث يسقط بضعف يقينه عن درجة المقربين على سبيل الدوام، ومآلهم من الله من واق يقيهم من غم الحجاب، وعدم اللحوق بالأحباب الذين ترقوا إلى القرب من الحبيب. والله تعالى أعلم.

ثم وصف الجنة؛ تشويقاً وترغيباً في سلوك طريقها وهو الإيمان، فقال:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾

قلت: «مثل الجنة»: مبتدأ. قال سيبويه: الخبر محذوف، أي: فيما يتلى عليكم صفة الجنة. وقال الفراء: الخبر هو: «تجري... إلخ، وعلى قول سيبويه يكون «تجري»: حالاً من العائد المحذوف، أي: التي وعدها المتقون حال كونها تجري... إلخ. والمراد بالمثل هنا: الصفة، لا ضرب المثل. و«ظللها»: مبتدأ حذف خبره، وظلها كذلك. والأكل بضم الهمزة: المأكول، ويجوز فيه ضم الكاف واسكانها، وأما الأكل بالفتح فمصدر.

يقول الحق جل جلاله: صفة الجنة التي وعدها المتقون هي غرف وقصور تجري من تحتها الأنهار من ماء وخنجر وعسل ولبن، «أكلها دائم»؛ ما يؤكل من ثمارها وأنواع أطعمتها لا ينقطع، «وظللها» دائم، لا ينسخ بالشمس كظلال الدنيا، «تلك» الجنة الموصوفة بهذه الأوصاف هي «عقبي الذين اتقوا» الشرك والمعاصي، هي مآلهم وعاقبة استقرارهم، «وعقبي الكافرين النار» لا محيد عنها، هي مآلهم وإليها رجوعهم. وفي ترتيب العقبيين إطماع للمتقين، وإقنات للكافرين.

الإشارة: مثل جنة المعارف التي وعدها المتقون لكل ما يشغل عن الله هي حضرة مقدسة، يتنعم فيها أسرار العارفين، تجري من تحت قلوبهم أنهار العلوم والحكم، لذتها وقوت الأرواح فيها دائم، وهي الفكرة في ميادين أنوار

التوحيد، وجولان الروح في فضاء أسرار التفريد. وظل روحها وريحانها دائم، وهو: سكون القلب إلى الله، وفرح الروح بشهود الله. وإليه أشار ابن الفارض بقوله، رحمه الله، في وصف خمرتها:

وَأِنْ خَطَرَتْ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِ امْرِئٍ أَقَامَتْ بِهِ الْأَفْرَاحُ وَارْتَحَلَ لَهُمُ

تلك عقبى الذين اتقوا السوء، وعقبى المنكرين لوجود أهل هذه الجنة نار القطيعة والبعد. أعادنا الله من ذلك.

ثم ذكر حال الفريقين: أهل الفرح بالله، وأهل الإنكار على أحوال الله، فقال:

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَهُهُ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلِئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

قلت: «حكما»: حال من ضمير «أنزلناه».

يقول الحق جل جلاله، في حق من سبقت له السعادة: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾؛ كعبد الله بن سلام ومخيريق وأصحابهما، ومن أسلم من النصارى، وهم: ثمانون رجلا: أربعون بنجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون من الحبشة. أو: كل من آمن من أهل الكتاب، فإنهم كانوا ﴿يَفْرَحُونَ﴾ بما يوافق كتبهم. ثم ذكر ضدهم فقال: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ أى: ومن كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة والشحناء؛ ككعب بن الأشرف وأصحابه من اليهود، والعاقب والسيد وأشياعهما من النصارى، ﴿مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾، وهو ما يخالف شرائعهم التى نسخت به، أو ما يوافق ما حرفوا منها.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾، وهو جواب للمنكرين، أى: قل لهم: إنما أمرت فيما أنزل إلى أن أعبد الله وأوحده، وهو العمدة في الأديان كلها، فلا سبيل لكم إلى إنكاره. وأما إنكاركم ما يخالف شرائعكم فليس ببدع مخالفة الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام؛ لأنها تابعة للمصالح والعوائد، وتتجدد بتجددها. ﴿ادْعُوا﴾ لا إلى غيره، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ أى: وإليه مرجعى بالبعث لا إلى غيره. وهذا هو القدر المتفق عليه من الشرائع، وهو الأمر بعبادة الله وحده، والدعاء إليه، واعتقاد المآب إليه، وهو الرجوع بالبعث يوم القيامة؛ فلا يخالف ما قبله من الشرائع، فلا معنى للإنكار حينئذ.

﴿وكذلك أنزلناه﴾ أى: ومثل هذا الإنزال المشتمل على أصول الدين المجمع عليها، ﴿أنزلناه حكماً عربياً﴾ أى: يحكم فى القضايا والوقائع، بما تقتضيه الحكمة، مترجماً بلسان العرب؛ ليسهل عليهم فهمه وحفظه. ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ التى يدعونك إليها؛ كتقرير دينهم، والصلاة إلى قبلتهم بعدما حوّلت عنها، ﴿بعد ما جاءك من العلم﴾ بنسخ ذلك، ﴿مالك من الله من ولى﴾ ينصرك، ﴿ولا واق﴾ يفيك عتابه. وهو حسم لأطماعهم، وتهيج للمؤمنين على الثبات فى دينهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: الفرع بما أنزل من عند الله هو مقدمات الفرع بالله، فإذا رفعت أكنة الغفلة عن القلب تلذذ بسماع الخطاب من وراء الباب، وذلك أمارة القرب. وهذا مقام أهل المراقبة من المحبين. فإذا جدّ فى السير رفعت عنه الحجب والأستار، وواجهته الأنوار والأسرار، فيكشف بأسرار الذات وأنوار الصفات، فيتلذذ بشهود المتكلم، فيسمع حينئذ الكلام من المتكلم به بلا واسطة. وهذا مقام أهل الشهود من المحبين المقربين. (ومن الأحزاب)، وهم أهل الرئاسة والجاه، من ينكر وجود بعض هذه المقامات؛ تعصباً وحمية. أو ينسبها لنفسه غلطاً وجهلاً، فيقول له من تحقق بهذا المقام: إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به، إليه أدعو وإليه مآب. ويغيب عنه بالاشتغال بالله، وبالبدعاء إليه. فإن غفل واشتغل به، أو ركن إلى قوله، قيل له: ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم؛ مالك من الله من ولى ولا واق.

ولما قالت اليهود - لعنهم الله - لو كان محمد رسولاً لما أولع بالنساء، ردّ الله عليهم بقوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك﴾ يا محمد، ﴿وجعلنا لهم أزواجاً﴾ كثيرة: كداود عليه السلام؛ كان له مائة امرأة، وابنه كان له ألف، على ما قيل، وغيرهما من الأنبياء والرسل. ﴿وجعلنا لهم منهن ذرية﴾، وأنت يا محمد منهم؛ فليس ببديع أن يكون الرسول بشراً، يتزوج النساء، ويحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر، إلا أنه لا يشغله ذلك عن أداء الرسالة، ونصيحة الأمة، وإظهار شريعة الدين، والقيام بحقوق رب العالمين. ولما أجابهم بشبهتهم قالوا: أظهر لنا معجزة كما كانت لهم، كالعصا وقلق البحر، وإحياء الموتى؟ فأنزل الله ﴿وما كان لرسول﴾؛ ما صح له ولم يكن فى وسعه ﴿أن يأتى بآية﴾ تفترح عليه، ويظهرها ﴿إلا بإذن الله﴾ وإرادته؛ فإنه القادر على ذلك. ﴿لكل أجل﴾ من آجال بنى آدم وغيرهم، ﴿كتاب﴾ يكتب فيه وقت موته، وانتقاله من الدنيا.

﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من ديوان الأحياء، فيكتب في الأموات، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ من لا يموت. قيل: إن هذا الكتاب يكتب ليلة القدر، أو ليلة النصف من شعبان، ويجمع بينهما بأن الكتابة تقع ليلة النصف، وإبرازه للملائكة ليلة القدر، ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أى: الأصل المنسوخ منه كتب الآجال، وهو اللوح المحفوظ، أو العلم القديم. وهذا التفسير يناسب اقتراح الآيات؛ لأنهم إذا أُجيبوا بظهور الآية ولم يؤمنوا، عوجلوا بالهلاك، وذلك له كتاب محدود. قال الورتجى: بين الحق - سبحانه - أن أوان إتيان الآية بأجل معلوم فى وقت معروف، بقوله: «لكل أجل كتاب» أى: لكل مقدور فى الأزل فى قضية مرادة وقت معلوم فى علم الله، لا يأتى إلا فى وقته هـ.

أو: ﴿لكل أجل﴾ أى: عصر وزمان، ﴿كتاب﴾ فيه شريعة مخصوصة على ما يقتضيه استصلاحهم. ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾: ينسخ ما يستصوب نسخه من الشرائع، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما تقتضى الحكمة عدم نسخه. ﴿وعنده أم الكتاب﴾ وهو: اللوح المحفوظ؛ فإنه جامع للكائنات. وهذا يترتب على قوله: ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾، وهو ما لا يوافق شريعته. قال سيدى عبد الرحمن الفاسى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ما يستصوب نسخه، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما تقتضيه حكمته، فلا ينكر مخالفته للشرائع فى بعض الأحكام مع موافقته للحكم، وهو الأصول الثابتة فى أصول الشرائع، ولذا قال: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أى: لا يبدل. هـ. وقريب منه للبيضاوى.

وقيل: إن المحو والإثبات عام فى جميع الأشياء. قال ابن جزى: وهذا ترده القاعدة المتقررة بأن القضاء والقدر لا يتبدل، وعلم الله لا يتغير. هـ. قلت: أما القضاء المبرم وهو: علم الله القديم الذى استأثر الله به، فلا شك أنه لا يتبدل ولا يتغير، وأما القضاء الذى يبرز إلى علم الخلائق من الملائكة وغيرهم، فيقع فيه المحو والإثبات، وذلك أن الحق تعالى قد يطلعهم على بعض الأقضية، وهى عنده متوقفة على أسباب وشروط، يخفيها عنهم بقهريته، ليظهر اختصاصه بالعلم الحقيقى، فإذا أراد الملائكة أن ينفذوا ذلك الأمر محاه الله تعالى، وأثبت ما عنده فى علم غيبه، وهو أم الكتاب، حتى قال بعضهم: إن اللوح الحفوظ له جهتان: جهة تلى عالم الغيب، وفيه القضاء المبرم، وجهة تلى عالم الشهادة، وفيه القضاء الذى يرد ويمحى؛ لأنه قد تكتب فيه أمور، وهى متوقفة على شروط وأسباب فى علم الغيب، لم تظهر فى هذه الجهة التى تلى عالم الشهادة، فيقع فيها المحو والإثبات، وبهذا يندفع إشكالات كقوله فى الحديث: «لا يردُّ القضاء إلا الدعاء»، وصلة الرحم تزيد فى العمر» (١).

(١) أخرجه بنحوه الترمذى، فى (كتاب القدر، باب: ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء)، من حيث سلمان. وأخرج البخارى فى (الأدب، باب: من بسط له فى الرزق) من حديث أبى هريرة قال ﷺ: «من سره أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره، فليصل رحمه».

وقول ابن مسعود، وعمر- رضى الله عنهما :- اللهم إن كنت كتبتنا فى ديوان الشقاء فامحنا، واكتبنا فى ديوان السعادة، فإنك تمحو ماتشاء وتثبت. هـ. أى: إن كنت أظهرت شقاوتنا فامحها، وأظهر سعادتنا، فإنك تمحو ماتشاء. إلخ. وفى ابن عطية ما يشير إلى هذا، قال: وأصوب ما يفسر به أم الكتاب، أنه كتاب الأمور المجزومة التى سبق القضاء فيها بما هو كائن، وسبق ألا تبدل، ويبقى المحو والتثبيت فى الأمور التى سبق فى القضاء أن تبدل وتمحى وتثبت. قال نحوه قتادة . هـ.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك...﴾ الآية، قد أثبت تعالى لأهل خصوصية النبوة والرسالة الأزواج والذرية، وكان ذلك كمالاً فى حقهم. وكذلك أهل خصوصية الولاية، تكون لهم أزواج وذرية، ولا يقدح فى مرتبتهم، بل يزيد فيها، وذلك بشرط أن يقع ذلك بعد التمكين، أو يكون فى صحبة شيخ عارف كامل عند أمره ونهيه، يكون فعل ذلك بإذنه، فإذا كان هذا الشرط فإن الزوج يزيد صاحبه تمكيناً من اليقين.

قال الورعجبى فى هذه الآية: أعلم تعالى، بهذه الآية، الجهال أنه إذا شرف ولياً أو صديقاً بولايته ومعرفته لم يضر به مباشرة أحكام البشرية من الأهل والولد، ولم يكن بسط الدنيا له قدحاً فى ولايته . هـ.

وقال الغزالى فى الإحياء، فى الترغيب فى النكاح: قال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾، فذكر ذلك فى معرض الامتنان وإظهار الفضل، ومدح أوليائه بسؤال ذلك فى الدعاء، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ (١) الآية، ويقال: إن الله تعالى لم يذكر فى كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين. وقالوا: إن يحيى عليه السلام قد تزوج فلم يجمع. قيل: إنما فعل ذلك لنيل الفضل وإقامة السنة، وقيل: لغض البصر. وأما عيسى عليه السلام فإنه سينكح إذا نزل الأرض، ويولد له.

وأما الأخبار فقولہ ﷺ: «النكاح سننى، فمن أحب فطرته فليستن بسننى». وقال أيضا ﷺ: «تناكحوا تكاثروا، فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة، حتى السقط». وقال أيضا: «من رغب عن سننى فليس منى، وإن من سننى النكاح، فمن أحببى فليستن بسننى». وقال ﷺ: «من ترك الزوج مخافة العيلة فليس مدأ». وقال ﷺ: «من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله».

(١) من الآية ٧٤ من سورة الفرقان.

ثم قال^(١) : وقال ابن عباس لابنه : لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج . وكان ابن مسعود يقول : لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج ، لا ألقى الله عزياً . وكان معاذ رضي الله عنه مطعوناً وهو يقول : زوجوني ، لا ألقى الله عزياً . وكان ماتت له زوجتان بالطاعون . وكان عمرٌ أكثر النكاح ، ويقول : لا أتزوج إلا للولد . وكان لعلي رضي الله عنه أربع نسوة ، وسبع عشرة سرية ، وهو أزهد الصحابة . فدل أن تزوج النساء لا يدل على الرغبة في الدنيا .

قال سفيان : كثرة النساء ليس من الدنيا . واستدل بقضية علي رضي الله عنه قال : وكان أزهد الصحابة . وروى أن بشر الحافي رُئي في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : رفعت إلى منازل في الجنة فأشرفت على مقامات الأنبياء ، ولم أبلغ منازل المتأهلين . وفي رواية : قال لي : ما كنت أحب أن تلقاني عزياً ، قال الرائي : فقلت له : ما فعل أبو نصير التمار ؟ قال : رفع فوقى بسبعين درجة ؛ بصبره على بنياته وعياله . وقد قيل : فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد ، وركعة من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب . هـ . كلام الغزالي باختصار .

وقوله تعالى : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ ، من جملة ما يقع فيه المحو والإثبات الواردات الإلهية التي ترد على القلوب من تجليات الغيوب ؛ فإن القلب إذا تطهر من الأكدار ، وصفا من الأغيار ، كان كل ما يتجلى فيه من الغيوب فهو حق ، إلا أنه ينسخ بعضها بعضاً ؛ فقد يخبر الولي بأمر ، يكون ، أو لا يكون على حسب ما تجلى في قلبه ، ثم يمحو الله ذلك ، ويثبت في قلبه خلافه . أو يظهر في الوجود خلاف ما أخبر ، وليس بكذب في حقه ، ولكن الحق تعالى يظهر لخلقه أموراً من مقدوراته ، متوقفاً وجودها على أسباب وشروط أخفاها الحق تعالى عن خلقه ، ليظهر عجزهم عن إحاطة علمه . فالنسخ إنما يقع في فعله لا في أصل علمه .

قال الأستاذ القشيري : المشيئة لا تتعلق إلا بالحدوث ، والمحو والإثبات لا يكون إلا من أوصاف الحدوث ، فصفت ذات الحق - سبحانه - ؛ من كلامه وعلمه ، لا يدخل تحت المحو والإثبات ، إنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله . هـ . وقال سهل رضي الله عنه : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ الأسباب ، «وعنده أم الكتاب» ؛ القضاء المبرم . هـ . وقال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن الفاسي : «العلم الأول الثابت الذي لا يطرأ عليه تغيير ولا تبديل ، ولا يقبل النسخ والتحريف . ومطالعته : بالفناء عن الحقيقة الخلقية ، والبقاء بالأنوار الصمدانية ، والأنفاس الرحمانية . قال في القوت : والمحبة من أشرف المقامات ، ليس فوقها إلا مقام الخلّة ، وهو مقام في المعرفة الخاصة ، وهي : تخلل أسرار الغيب ، فيطلع على مشاهدة المحبوب ، بأن يعطى إحاطة بشيء من علمه بمشيئته ، على مشيئته

(١) أى : الإمام الغزالي ، رحمه الله تعالى .

التي لا تتقلب، وعلمه القديم الذي لا يتغير. وفي هذا المقام: الإشراف على بحار الغيوب، وسرائر ما كان في القديم، وعواقب ما يدب. ومنه: مكاشفة العبد بحاله، وإشهاده من المحبة مقامه، والإشراف على مقامات العباد في المال، والاطلاع عليهم في تقلبهم في الأبد؛ حالا ومآلا . هـ.

قلت: هذا الاطلاع إنما هو إجمالي لا تفصيلي، وقد يقع فيه المحر والإثبات؛ لأنه من جملة المعلومات التي دخلت عالم التكوين، التي يقع فيها التبديل والتغيير.

ثم قال صاحب القوت: وقد قال أحسن القائلين: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾^(١)، والاستثناء واقع على إعطاء الإحاطة بشيء من شهادة علمه، بنور ثاقب من وصفه، وشعاع لائح من سبحاته، إذا شاء، وذلك إذا أخرجت النفس من الروح، فكان روحانياً، خروج الليل من النهار. هـ.

ثم تمّ الجواب عن اقتراحهم الآيات، فقال:

﴿وَإِنْ مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾^(٤٠)
 أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ^(٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَ عِلْمُ الْكُفَرِ
 لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ^(٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي
 وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ^(٤٣) ﴿

قلت: «وإما»: شرطية، اتصلت ما الزائدة بأن الشرطية؛ للتأكيد، والجواب: «فإنما... إلخ، أو: فلا تحتفل فإنما... إلخ، و«لا معقب»: في موضع الحال، أي: يحكم نافذاً حكمه، كقوله: جاء زيد لا سلاح معه، أي: حاسراً. و«من عنده»: عطف على «بالله».

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب الذي استعجلوه، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن ترى ذلك، فلا تحتفل بشأنهم، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ للرسالة لا غير، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾: المجازاة. والمعنى: كيفما دار الحال در معه، أريناك بعض ما أوعدناهم في حياتك، أو توفيئك قبله، فلا تهتم بإعراضهم، ولا تستعجل بعذابهم؛ فإننا فاعلون ذلك لا محالة، وهذا طلائعه، فقد فتحنا عليك كثيراً من بلادهم ونقصناها عليهم.

(١) من الآية: ٢٥٥ من سورة البقرة.

﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي: أرض الكفرة، ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتحه على المسلمين منها، فيخافوا أن نَمَكَّنَكَ من أرضهم، وتنزل بساحتهم، منصوراً عليهم، فإذا نزلت بساحتهم، ولم يخضعوا لك، فساء صباح المنذرين. وقيل: الأرض جنس، ونقصها بموت الناس، وهلاك الثمرات، وخراب البلاد، وشبه ذلك. وذلك مقدمات العذاب الذي حَكَمَ به عليهم، ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾: لا راد له. والمعقب: الذي يعقب الشيء بالإبطال، ومنه قيل لصاحب الدين: معقب؛ لأنه يعقب غريمه للاقتضاء، والمعنى: أنه حكم للإسلام بالإقبال، وعلى الكفرة بالإدبار، وذلك كائن لا يمكن تغييره. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيحاسبهم عما قليل في الآخرة، بعدما عذبهم بالقتل والإجلاء في الدنيا.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بأنبيائهم، وبمن تبعهم، ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، إذ لا يؤبه بمكر دون مكره، فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره. سَمَّى العقوبة باسم الذنب؛ للمشاكله، «يعلم ما تكسب كل نفس» فينفذ جزاءها. ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ (١) أي: جنس الكافر، بدليل قراءة: «الكفار»، ﴿لِمَنْ﴾ هي ﴿عُقُوبِي الدَّارِ﴾ أي: لمن تكون العقوبة في الدارين، دار الفناء ودار البقاء، هل لأهل الإسلام المعد لهم دار السلام؟ أو للكفار المعد لهم دار البوار؟ قال البيضاوي: وهذا كالتفسير لمكر الله بهم، واللام تدل على أن المراد بالعقوبة العقوبة المحمودة، مع ما في الإضافة إلى الدار كما عرفت . هـ.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من رؤساء اليهود: ﴿لَسْتُ مَرْسَلًا﴾، ولم نجد لك ذكراً في كتابنا، ولا ما يشهد لك عندنا. قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿كُفِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ فإنه أظهر من الأدلة على رسالتي ما يغني عن شاهد يشهد عليها منكم، ولا من غيركم. ﴿و﴾ يشهد لي أيضاً: ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ الأول؛ العلم الحقيقي، كعبد الله بن سلام، ومن أسلم من اليهود والنصارى الذين علموا صفته ﷺ من التوراة والإنجيل، وعلماء المؤمنين الذين عندهم علم القرآن، وما احتوى عليه من النظم المعجز، والعلوم الغيبية الدالة على نبوته ﷺ. أو علم اللوح المحفوظ، وهو الله، أي: كفى بالله الذي لا يستحق العبادة غيره، وبمن لا يعلم ما في اللوح المحفوظ إلا هو، شهيداً بيننا، ويؤيده قراءة من قرأ: «وَمِنْ عِنْدِهِ» بكسر الميم. وعلم الكتاب، على الأول: مرفوع بالظرف؛ فإنه معتمد على الموصول. ويجوز أن يكون مبتدأ، والظرف خبره. وهو متعين على الثاني. قاله البيضاوي.

الإشارة: قد قال تعالى في الحديث القدسي: «مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَ بِالْحَرْبِ». وجرت عادة الله تعالى أن ينتقم لأوليائه، ويغار عليهم، ولو بعد حين، فإذا أودى أحدهم، واستعجل ذلك يقول له الحق تعالى ما قال لنبيه ﷺ: ﴿فَإِنَّمَا تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينُكَ﴾ قبل ذلك، فليس الأمر بيدك، فإنما عليك بلاغ ما جاء به

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمة والكسائي الكفار. جمع تكسير. وقرأ الباقرن - (الكافر) على الأفراد... انظر الإتحاف (١٦٣/٢).

نبيك؛ من نصح العباد، وإرشادهم إلى معالم دينهم، وتصفية بواطنهم، وعلينا الحساب؛ فنجازي من أقبل ومن أدبر. ومن جملة الانتقام: حبس الأمطار، ونقص الثمار، وتخريب البلاد، وكثرة موت العباد، فتنقص الأرض من أطرافها. أفلم يعتبروا بذلك، ويقصروا عن مكرهم بأولياء الله؟.

وقد مكر الذين من قبلهم بأولياء زمانهم، فلم يغنوا شيئاً، فمكر الله بهم، وخذلهم عن طاعته، وسيعلم أهل الإنكار لمن تكون عاقبة الدار. ويقول الذين كفروا بخصوصية ولي من أولياء الله: لست ولياً. فيقول لهم: كفى بالله شهيداً بيني وبينكم، ومن عنده علم الخصوصية، وهم: السادات الصوفية، فلا يعرف الولي إلا ولي مثله، ولا يعرف أهل الخصوصية إلا من له الخصوصية. وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.



سُورَةُ اِبْرَاهِيمَ

مكية . وهى إحدى وخمسون آية . ومناسبتها لما قبلها : قوله : ﴿ قل كفى بالله شهيدا ﴾ (١) ، مع قوله : ﴿ كتاب أنزلناه ﴾ ؛ فإنه تصريح بالشهادة له . أو : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ ، على تفسيره بالقرآن ، مع قوله : ﴿ كتاب أنزلناه إليك ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ... ﴿

الألف : آؤه ، واللام : لطفه ، والراء : رحمته . فكأنه يقول : بآلائنا ولطفنا ورحمتنا أنزلنا إليك كتابنا ، ولذلك رتب عليه قوله :

﴿ ... كَتَبْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ① اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ② الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلٰلٍ بَعِيدٍ ③ ﴾

قلت : (كتاب) : خبر ، أى : هذا كتاب ، و (بإذن) : متعلق بتخرج ، أو حال من فاعله ، أو مفعوله . و (إلى صراط) : بدل من (النور) . (الله الذى) ؛ من رفعه فعلى الابتداء ، والموصول خبره ، أو خبر عن محذوف ، ومن خفضه فبدل من (العزیز) ، و (الذين يستحبون) : صفة للكافرين أو نصب ، أو رفع على الذم .

يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المحبوب ، هذا ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس ﴾ بدعائك إياهم إلى العمل به ، ﴿ من الظلمات إلى النور ﴾ ؛ من ظلمات الضلال والجهل إلى نور الهداية والعلم ، ﴿ بإذن ربهم ﴾ ؛ بتوفيقه وهدايته وتسهيله ، ﴿ إلى صراط العزيز الحميد ﴾ أى : لتخرجهم إلى نور العلم الذى هو سلوك طريق العزيز الحميد ، التى توصل إلى رضوانه ومعرفته . وفى ذكر الوصفين إشارة إلى أنه لا يذل سالكه ، ولا يخيب سائله ، بل تحمد عاقبته .

ثم ذكر الموصوف بهما بقوله : ﴿ الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ أى : الموصوف بالعزة والحمد هو الله الذى استقر له ما فى السموات وما فى الأرض ملكاً وعبيداً . ثم ذكر وعيد من كفر بكتابه أو به ،

(١) من الآية ٤٣ سورة الرعد .

فقال: ﴿وويل للكافرين﴾ بكتابه، ولم يخرجوا به من ظلمات كفرهم، ﴿من عذاب شديد﴾، والويل: كلمة عذاب يقال لمن استحق الهلاك، أى: هلاك لهم من أجل عذاب شديد يلحقهم. وقيل: واد فى جهنم.

ثم ذكر وجه استحقاقهم العذاب بقوله: ﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا﴾؛ يختارونها ﴿على الآخرة﴾، فإن من أحب شيئاً اختاره وطلبه، ﴿ويصدون﴾ الناس ﴿عن سبيل الله﴾؛ بتعويقهم عن الإيمان، ﴿ويغونها عوجاً﴾ أى: ويبغون لها زيفاً، وتكويها عن الحق، ليتوصلوا للقدح فيها، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير، ﴿أولئك فى ضلال بعيد﴾ أى: فى تلف بعيد عن الحق، بحيث ضلوا عن الحق، وبعدوا عنه بمراحل. والبعد فى الحقيقة: للضلال، ووصف به فعله؛ للمبالغة.

الإشارة: قد أخرج ﷺ أمته من ظلمات عديدة إلى أنوار متعددة، أولها: ظلمة الكفر والشرك إلى نور الإيمان والإسلام، ثم من ظلمة الجهل والتقليد إلى نور العلم والتحقيق، ثم من ظلمة الذنوب والمعاصي إلى نور التوبة والاستقامة، ثم من ظلمة الغفلة والبطالة إلى نور اليقظة والمجاهدة، ثم من ظلمة الحظوظ والشهوات إلى نور الزهد والعفة، ثم من ظلمة رؤية الأسباب، والوقوف مع العوائد، إلى نور شهود المسبب، وخرق العوائد، ثم من ظلمة الوقوف مع الكرامات وحلاوة الطاعات إلى نور شهود المعبود، ثم من ظلمة الوقوف مع حس الأكوان الظاهرة إلى شهود أسرار المعانى الباطنة، فيغيب عن الأكوان بشهود المكون. وهذا آخر ظلمة تبقى فى النفس، فتصير حينئذ روحاً، وسراً من أسرار الله، ويصير صاحبها روحانياً ربانياً عارفاً بالله، ولا يبقى حينئذ إلا الترقى فى شهود الأسرار أبداً سرمداً. وهذا محل القطبانية والتهيؤ للتربية النبوية، ويصير ولياً محمدياً، يخرج الناس من هذه الظلمات إلى هذه الأنوار.

وأما من لم يبلغ هذا المقام، فإنما له الإخراج من أحد هذه الأشياء؛ فالغزاة والمجاهدون يخرجون من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، والعلماء يخرجون من ظلمة الجهل إلى نور العلم، والعباد والزهاد يخرجون من صحبهم من الذنوب إلى التوبة والاستقامة. وأما ما بقى من الظلمات فلا يخرج منها إلا الربانيون الروحانيون، أهل التربية النبوية، بإذن ربهم، يدلهم على صراط العزيز الحميد، الموصل إلى العز المديد. وويل لمن أنكر هؤلاء، واشتغل بمقابلة حظوظه وهواه، واستحب حياة دنياه على أخراه، أولئك فى ضلال عن حضرة الحق بعيد. وبالله التوفيق.

ولما كان الإخراج من هذه الظلمات لا يكون إلا بالمقال والحال، بعث الله الرسل، وورثتهم من الأولياء الداعين إلى الله بلسان قومهم، كما قال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿٤﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وما أرسلنا من رسول ﴾ قبلك ﴿ إلا بلسان قومه ﴾ ، وأنت بعثناك بلسان قومك . وإنما قال : بلسان قومه ، ولم يقل بلسان أمته ؛ لأن الأمة قد تكون أوسع من قومه ، كما في حق نبينا - عليه الصلاة والسلام - فقد بعث إلى العرب والعجم ، والجن والإنس ، فقومه الذين يفهمون عنه : يُترجمون إلى من لا يفهم ، فتقوم الحجة عليهم . وكذلك إعجاز القرآن يدركه أهل الفصاحة والبلاغة ، فإذا وقع العجز عن معارضته منهم قامت الحجة على غيرهم ، كما قامت الحجة في معجزة موسى ﷺ بعجز السحرة ، وفي معجزة عيسى بعجز الأطباء .

ثم بين الحكمة ، في كون الداعي لا يكون إلا بلسان قومه ، بقوله : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ما أمروا به ؛ فيفهمونه عنه بسرعة ، ثم ينقلونه ويترجمونه لغيرهم ، فتقوم الحجة عليهم . ولذلك أمر النبي ﷺ بإنذار عشيرته أولاً ، فإذا فهموا عنه بلغوا إلى غيرهم . قال البيضاوي : ولو نزل على من بعث إلى أمم مختلفة كتب على ألسنتهم استقل ذلك بدوع من الإعجاز ، لكن أدى إلى اختلاف الكلمة وإضاعة فضل الاجتهاد في تعلم الألفاظ ومعانيها ، والعلوم المتشعبة منها ، وما في إتعاب القرائح وكد النفس من القرب المقتضية لجزيل الثواب . هـ .

فالرسل - عليهم الصلاة والسلام - إنما عليهم البيان بلسانهم ، والهداية بيد ربهم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ إضلاله ، فيخذله عن الإيمان ، ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ بالتوفيق له ، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره ، فلا يغلب على مشيئته ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في صنعه ، فلا يضل ولا يهدي إلا لحكمة أرادها . والله تعالى أعلم .

الإشارة : ما بعث الله ولياً داعياً إلا بلسان قومه ، وقد يخرق له العادة ، فيطلعه على جميع اللغات ، كما قال المرسى ﷺ : من بلغ هذا المقام لا يخفى عليه شيء . وذلك من باب الكرامة ؛ كما كان ﷺ يخاطب كل قوم بلغتهم ؛ معجزة له ﷺ ؛ فقد اتسع علمه - عليه الصلاة والسلام - فأحاط بحقائق الأشياء وأسمائها ومفهوماتها ، وأصول اللغة وفروعها ، فعلم ما علمه سيدنا آدم ﷺ ، أو أكثر ، وإلى ذلك أشار القطب ابن مشيش في تصليته المشهورة بقوله : « وتزلزلت علوم آدم فأعجز الخلائق » . وقال البوصيري في همزيته :

لَكَ ذَاتُ الْعُلُومِ مِنْ عَالِمِ الْغَيْبِ بِ وَمِنْهَا لَأَدَمَ الْأَسْمَاءُ

ولما كان علاج موسى ﷺ في إخراج أمته من الظلمات إلى النور ، قريباً من علاج نبينا - عليه الصلاة والسلام - ذكره بإثره ، كما فعل في سورة طه ، فقال :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ ﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ مِنْكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ ﴾
 وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨ ﴾

قلت : (أن أخرج) : إما تفسيرية لا محل لها، أى: وقلنا: أن أخرج؛ لأن فى الإرسال معنى القول، أو على إسقاط الخافض، أى: بأن أخرج؛ فإن صيغ الأفعال سواء فى الدلالة على المصدر، فيصح أن توصل بها «أن»، الناصبة.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ ؛ كاليد والعصا، وسائر معجزاته التسع، وقلنا له : ﴿ أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ ﴾ ؛ بنى إسرائيل، وفرعون وملأه؛ ﴿ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ ؛ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، أما فرعون وملؤه فظاهر، وأما بنو إسرائيل فقد كان فرعون قَتَنَ جُلَّهُم، وأضلهم مع القبط، فكانوا أشياء متفرقين، لم يبق لهم دين. فإن قلت: إذا كان موسى ﷺ مبعوثاً إلى القبط، فلمَ لم يرجع إليهم بعد خروجه عنهم إلى الشام؟ فالجواب: أنه لما بلغهم الرسالة قامت الحجة عليهم، فيجب عليهم أن يهاجروا إليه للدين.

ثم أمره بالتذكير فقال: ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ﴾ : بوقائعه التى وقعت على الأمم الدارجة قبلهم، وأيام العرب: حروبها. أو ذكّرهم بنعم الله وآلائه، وبنقمه وبلائه؛ فالأيام تطلق على المعنيين. ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ فى بلائه، ﴿ شَكُورٍ ﴾ لنعمائه. وإنما خصه؛ لأنه إذا سمع ما نزل على من قبله من البلاء، وأفيض عليهم من النعماء، اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر. وقيل: المراد لكل مؤمن، وإنما عبر عنهم بذلك؛ تنبيهاً على أن الصبر والشكر عنوان الإيمان. قاله البيضاوى.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ ﴾ : حين أنجاكم ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ : رهطه، ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ : يولونكم ﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ : أقبحه، يستعبدونكم ويكلفونكم مشاق الأعمال، ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾

أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴿٥﴾، قال البيضاوي: المراد بالعذاب هنا غير المراد به في سورتي البقرة والأعراف؛ لأنه هناك مفسر بالتذبيح والقتل، ومعطوف عليه هنا، فهو هنا إما جنس العذاب، أو استعبادهم واستعمالهم بالأعمال الشاقة. هـ. ﴿٦﴾ وفي ذلكم ﴿٧﴾ الامتحان ﴿٨﴾ بلاء ﴿٩﴾ أي: ابتلاء ﴿١٠﴾ من ربكم عظيم ﴿١١﴾؛ اختبركم به حتى أنقذكم منه، ليعظم شكركم، أو: في ذلك الإنجاء بلاء، أي: نعمة واختبار عظيم، لينظر كيف تعملون في شكر هذه النعمة.

ولذلك قال لهم موسى عليه السلام: ﴿١٢﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴿١٣﴾ أي: آذن، بمعنى أعلم، كتوعّد وأوعد، غير أن تأذن أبلغ من آذن؛ لما في تفعل من التكلف والمبالغة، أي: أعلمكم، وقال: والله ﴿١٤﴾ لئن شكرتم ﴿١٥﴾ يا بني إسرائيل ما أنعمتُ به عليكم من الإنجاء وغيره، بالإيمان والعمل الصالح، وبالإقرار باللسان، وأفراد النعمة للمنع بالجنان، ﴿١٦﴾ لأزيدنكم ﴿١٧﴾ نعمة على نعمة. وهذا الخطاب، وإن كان لبني إسرائيل، يعم جميع الخلق، والزيادة إما من خير الدنيا، أو ثواب الآخرة. وشكر الخواص يكون على السراء والضراء؛ فتكون الزيادة في الضراء، إما في الثواب أو في التقريب. ثم ذكر ضده فقال: ﴿١٨﴾ ولئن كفرتم ﴿١٩﴾ ما أنعمتُ به عليكم، وقابلتموه بالكفر والعصيان، ﴿٢٠﴾ إن عذابي لشديد ﴿٢١﴾؛ فأعذبكم به على كفركم. قال البيضاوي: ومن عادة أكرم الأكرمين أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد. هـ. فصرح بوصول الزيادة إليهم، ولم يقل: أعذبكم عذاباً شديداً، بل عظم عذابه في الجملة.

﴿٢٢﴾ وقال موسى ﴿٢٣﴾، في شأن من لم يشكر: ﴿٢٤﴾ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴿٢٥﴾ مِنَ الثَّقَلَيْنِ، ﴿٢٦﴾ فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ ﴿٢٧﴾ عَنْ شُكْرِكُمْ، ﴿٢٨﴾ حميد ﴿٢٩﴾: محمود على أسنة خلقه، من الملائكة وغيرهم. فكل ذرة من المخلوقات ناطقة بحمده؛ حالاً أو مقالاً، فهو غني أيضاً عن حمدكم، فما ضررتم بالكفر إلا أنفسكم؛ حيث حرمتموها مزيد الإنعام، وعرضتموها لشديد الانتقام. وبالله التوفيق.

الإشارة: ذكر الحق تعالى في هذه الآية مقامين من مقامات اليقين: الصبر والشكر، ومدح من تخلق بهما واستعملهما في محلّهما، فيركب أيهما توجه إليه منهما، ويسير بهما إلى ربه. فالصبر عنوان الظفر، وأجره لا ينحصر، والشكر ضامن للزيادة، قال بعض العارفين: (لم يضمن الحق تعالى الزيادة في مقام من المقامات إلا الشكر)، فدل أنه أفضل المقامات وأحسن الطاعات، من حيث إنه متضمن للفرح بالله، وموجب لمحبة الله. ولا شك أن مقام الشكر أعلى من مقام الصبر؛ لأن الشاكر يرى المنن في طي المحن، فيتلقى المهالك بوجه ضاحك؛ لأنه لا يكون شاكراً حقيقة حتى يشكر في السراء والضراء، ولا يشكر في الضراء حتى يراها سراء، باعتبار ما يواجه به في حال الضراء من الفتوحات القلبية، والمواهب اللدنية، فتقلب النعمة نعمة. بخلاف مقام الصبر، صاحبه يتجرع مرارة الصبر؛ لأنه لم يترق إلى شهود المبلى في حال بلائه، ولو ترقى إلى شهوده للذّت لديه البلاء، كما قال صاحب العينية:

تَلَدُّ لِي الْأَلَامُ إِذْ كُنْتُ مُسْقِئِي وَإِنْ تَخَبَّرْنِي فَهِيَ عِنْدِي صَنَائِعُ

لكن هذه الأحوال تختلف على العبد باعتبار القوة والضعف؛ فتارة تجده قوياً يلقى المهالك بوجه ضاحك، وتارة تصادفه الأقدار ضعيفاً؛ فلا يبقى معه إلا الصبر وتجرع مرارة البلاء، والعياذ بالله. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمته في كتاب القصد: «رأيت كائناً مع النبيين والصديقين، فأردت الكون معهم، ثم قلت: اللهم اسلك بي سبيلهم مع العافية مما ابتليتهم، فإنهم أقوى ونحن أضعف منهم، فقيل لي: قل: وما قدرت من شيء فأيدنا كما أيدتهم».

ثم ذكرهم بمن سلف قبلهم، فقال:

﴿الَّذِينَ كُفِّرْنَا بَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَهُمْ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾

قلت: (شك): فاعل بالمجرور، و(فاطر): نعت له.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن نبيه موسى عليه السلام في تذكير قومه، أو من كلامه؛ تذكيراً لهذه الأمة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: ما جرى عليهم حين عصوا أنبياءهم؛ ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم شعيب، وأمم كثيرة ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ لكثرة عددهم، واندراس آثارهم. ولذلك قال ابن مسعود: كذب النسابون. ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ بالمعجزات الواضحات، ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ ليعضوا عليها؛ غيظاً مما جاءت به الرسل، كقوله: ﴿عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ (١). أو: وضعوها عليها؛ تعجباً منهم، أو: استهزاء بهم، كمن غلب عليه الضحك، أو إسكاتاً للأنبياء، وأمرأ لهم بإطباق الأفواه، أو: ردوها في أفواه الأنبياء، يمنعونهم من التكلم، أو: ردوا أيديهم، أي: نعم الأنبياء عليهم، وهي: مراعاتهم والشرائع التي أتوهم بها من عند الله، ردوها في أفواه الأنبياء حيث كذبوها، ولم يعملوا بها، كما تقول لمن لم يمثل أمرك: ترك كلامي في فمي وذهب. ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ على زعمكم، ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا

(١) من الآية ١١٩ من سورة آل عمران.

تدعوننا إليه ﴿ من التوحيد والإيمان ﴾ ﴿ مُرِيبٌ ﴾ : مُوقِعٌ في الريبة، أو: ذى ريبة، وهو: قلق النفس بحديث لا تظمن إلى شيء.

فأجابتهم الرسل عن دعواهم الشك في الربوبية، ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللّهِ شَكٌّ ﴾ : أفى وجوده شك، أو في ألوهيته، أو في وحدانيته شك؟ قال البيضاوى: أدخلت همزة الإنكار على الظرف؛ لأن الكلام في المشكوك فيه، لا في الشك، أى: إنما ندعوكم إلى الله، وهو لا يحتمل الشك؛ لكثرة الأدلة، وظهور دلالتها عليه. هـ. وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى: خالقهما ومبدعهما على هذا الشكل الغريب، والإتقان العجيب؛ إذ لا يصدر إلا من إله عظيم القدرة، باهر الحكمة، واحد فى ملكه؛ ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (١)، وهو ﴿ يدعوكم ﴾ إلى الإيمان والتوحيد، ببعثه إيانا، والتصديق بنا، ﴿ ليغفر لكم من ذنوبكم ﴾ إن آمنتم، أى: يغفر لكم بعض ذنوبكم، وهو ما تقدم قبل الإسلام، ويبقى ما يذنب بعده فى المشيئة، أو: ما بينكم وبينه دون المظالم.

والجمهور: أنه يغفر للكافر ما سلف مطلقاً، وقيل: «من»: زائدة، على غير مذهب سيوريه. قال البيضاوى: وجبى بمن، فى خطاب الكفرة، دون المؤمنين فى جميع القرآن؛ تفرقة بين الخطابين، ولعل المعنى فيه أن المغفرة، حيث جاءت فى خطاب الكفار، مرتبة على الإيمان، وحيث جاءت فى خطاب المؤمنين مشفوعة بالطاعة، والتجنب عن المعاصي، ونحو ذلك؛ فيتناول الخروج عن المظالم. هـ. ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ : إلى وقت سماه الله، وجعله آخر أعماركم. وقال الزمخشري تبعاً للمعتزلة: يؤخركم إن آمنتم إلى آجالكم، وإن لم تؤمنوا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت، وهذا على قولهم بالأجلين. وأهل السنة يأبون هذا؛ فإن الأجل عندهم واحد محتوم، والله تعالى أعلم.

الإشارة: التفكير والاعتبار أفضل عبادة الأبرار، وفى الحديث: «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة». فيتفكر العبد فيما سلف قبله من القرون العاضية والأمم الخالية، كيف رحلوا عن ديارهم المشيدة، وفروشهم الممهدة، واستبدلوها بضيق القبور، وافتراش القراب تحت الجنوب، وجاءهم الموت وهم غافلون، وتجرعوا كأسها وهم كارهون، فلا ما كانوا أملوا أدركوا، ولا إلى ما فاتهم رجعوا، قدموا على ما قدموا، وندموا على ما خلفوا، ولم ينفع الندم وقد جف القلم. فيوجب هذا التفكير الانحياش إلى الله، والمصارعة إلى طاعة الله، والزهد فى هذه الدار الفانية، والتأهب للسفر إلى الدار الباقية؛ فيفوز فوزاً عظيماً. وفى تكذيب الصادقين تسلياً للعارفين، وللمتوجهين من المريدين، إذا قوبلوا بالإيذاء والتكذيب، وبالله التوفيق.

(١) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

ثم ذكر ما أجاب به الكفار رسلهم، فقال:

﴿... قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَ عَلَىٰ مَا أَذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢﴾

يقول الحق جل جلاله: وقال الذين كفروا لرسولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ لا فضل لكم علينا، فلم تختصون بالنبوة دوننا، ولو شاء الله أن يبعث رسلاً إلى البشر لأرسلهم من جنس أفضل، كالملائكة، أو: ما أنتم إلا بشر، والبشر لا يكون رسولاً. قال ابن جزى: يحتمل أن يكون استبعاداً لتفضيل بعض البشر على بعض بالنبوة، أو يكون إحالة لنبوة البشر، والأول أظهر؛ لطلبهم البرهان بقولهم: ﴿فأتونا بسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، ولقول الرسل: ﴿ولكن الله يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. هـ. ثم قالوا للرسل: ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام بهذه الدعوى، ﴿فأتونا بسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾: ببرهان بين يدل على فضلكم، واستحقاقكم لهذه المرتبة التي هي مرتبة النبوة. كأنهم لم يعتبروا ما جاءوا به من البينات والحجج، فاقترحوا عليهم آية أخرى؛ تعنتاً ولجاجاً.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ﴾: ما نحن ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بالنبوة والرسالة، فمن علينا بذلك، وإن كنا بشرًا مثلكم، سلموا لهم مشاركتهم في الجسد، وجعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل الله ومنه عليهم. وفيه دليل على أن النبوة مواهب عطائية لا كسبية. ثم أجابوهم عما اقترحوا بقولهم: ﴿وما كان لنا أن نأتىكم بسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، فليس لنا الإتيان بآيات، ولا في قدرتنا أن نأتىكم بما اقترحتموه، وإنما هو أمر متعلق بمشيئة الله، يخص من يشاء بها، على ما تقتضيه حكمته وسابق إرادته.

﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾، فليتوكل نحن عليه، في الصبر على معاناتكم ومعاداتكم. عموماً الأمر بذكر المؤمنين؛ للإشعار بأن الإيمان موجب للتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً، ألا ترى قولهم: ﴿وما لنا أَلَّا نتوكل على الله﴾ أى: أى عذر لنا في ترك التوكل على الله؟ ﴿وقد هدانا سُبُلَنَا﴾ أى: طرقنا التي نعرفه بها، فنوحده، ونعلم أن الأمور كلها بيده، ﴿ولنصبرنَّ على ما آذيتُمونا﴾: على أذاكم حتى يحكم الله بيننا، وهو جواب عن قسم محذوف، أكدوا به توكلهم، وعدم مبالاتهم بما يجرى من الكفار عليهم. ﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ أى: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم، المسبب عن إيمانهم. قاله البيضاوى تبعاً للزمخشري.

قال ابن جزى: إن قيل: لم كرر الأمر بالتوكل؟ فالجواب عندي: أن قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ راجع إلى ما تقدم من طلب الكفار: ﴿فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أى: حجة ظاهرة، فتوكل الرسل فى ورود ذلك إلى الله. وأما قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فهو راجع إلى قولهم: (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا) أى: نتوكل على الله فى دفع أذاكم. هـ. وهو حسن، لكن التعبير بالمتوكلين يقتضى أن التوكل حاصل، والمطلوب الدوام عليه، وقد يقال: إنما عبر ثانياً بلفظ المتوكلين؛ كراهية إعادة اللفظ بعينه، أى: من كان متوكلاً على الله فإنه الحقيق بذلك. وقال فى القوت: أى: ليتوكل عليه فى كل شيء من توكل عليه فى شيء. وهذا أحسن وجوهه. قال فى الحاشية: والوجه الآخر: وعليه فليتوكل، فى توكله من تَوَكَّلَ عليه فى الأشياء؛ لأن الوكيل فى كل شيء واحد، فينبغى أن يكون التوكل فى كل شيء واحد. هـ.

الإشارة: سر الخصوصية مستور بأوصاف البشرية، ولا فرق بين خصوصية النبوة، والولاية. سترها الحق تعالى غيراً عليها أن يعرفها من لا يعرف قدرها؛ فلا يطلع عليها إلا من سبقت له من الله العناية، وهبت عليه ريح الهداية. وفى الحكم: «سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية، وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العبودية». وقال أيضاً: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه». قال فى لطائف المنن: فأولياء الله أهل كهف الإيواء، فقليل من يعرفهم، ولقد سمعت شيخنا أبا العباس المرسى رحمته الله يقول: معرفة الولي أصعب من معرفة الله؛ فإن الله معروف بكماله وجماله، وحتى متى تعرف مخلوقاً مثلك، يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب؟ قال فيه: وإذا أراد الله أن يعرفك بولي من أوليائه طوى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته. هـ.

قلت: ومعنى: «طوى عنك وجود بشريته»، هو: عدم الوقوف مع أوصافها اللازمة للنقائص، بل تنفذ منها إلى شهود خصوصيته، التى هى محل الكمالات. فأوصاف البشرية الذاتية للبشر لا تزول عن الولي، ولا عن النبي كالأكل والشرب، والنوم والنكاح، والضعف والفقر، وغير ذلك من نعوت البشر؛ لأنها فى حقهم رداء وصوان لستر خصوصيتهم؛ صيانة لها أن تتبدل بالإظهار، وينادى عليها بلسان الاشتهار، ولذلك اختفوا عن كثير من الخلق. وإلى هذا أشار فى الحكم بقوله: «لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم البشرية».

وقال صاحب كتاب (أنوار القلوب): لله سبحانه عباد ضن بهم عن العامة، وأظهرهم للخاصة، فلا يعرفهم إلا شكل، أو محب لهم، والله عباد ضن بهم عن الخاصة والعامة، والله عباد يظهرهم فى البداية ويسترهم فى النهاية، والله عباد يسترهم فى البداية ويظهرهم فى النهاية، والله عباد لا يظهر حقيقة ما بينه وبينهم إلى الحفظة فمن سواهم، حتى يلقوه بما أودعهم منه فى قلوبهم، وهم شهداء الملكوت الأعلى، والصفح^(١) الأيمن من العرش؛ الذين

(١) الصفح: الجنب.

يتولى الله قبض أرواحهم بيده، فتطيب أجسادهم به، فلا يعدوا عليها الثرى، حتى يُبعثوا بها مشرقاً بنور البقاء الأبد مع الباقي الأحد عز وجل. هـ .

وقال أبويزيد رحمه الله : أولياء الله تعالى عرائس، ولا يرى العرائس إلا من كان محرماً لهم، وأما غيرهم فلا. وهم مخبأون عنده في حجاب الأنس، لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة. هـ . وجميع ما أجاب به الأنبياء قومهم يجيب به الأولياء من أنكر عليهم، من قوله: (إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا)، من التعلق بالأسباب والانهماك في الحظوظ، ومتابعة الهوى، وحب الدنيا، ومن قولهم: (فأتونا بسلطان مبين) إلى تمام ما أجابوا به. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر تخويف الكفار للرسول بإخراجهم من الديار، فقال:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلرُّسُلِ هُمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَآيِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ مِّنْ وَرَآيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾

قلت: (واستفتحوا): معطوف على (أوحى)؛ إن كان الضمير للرسول، واستئناف إن كان للكفار. و(يسقى): معطوف على محذوف، أى: يلقى فيها ويسقى، و(صديد): عطف بيان لماء، و(يتجرعه): صفة لماء، أو حال من ضمير (يسقى).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم ﴾؛ تخويفاً لهم: والله ﴿ لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ﴾، حلفوا ليكون أحد الأمرين؛ إما إخراج الرسل من ديارهم، أو عودهم إلى ملتهم، والعود هنا بمعنى الصيرورة؛ لأنهم لم يكونوا على ملتهم، كما تقدم في قصة شعيب عليه السلام. ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول، ولمن آمن معه، فغلب الجماعة على الواحد، وقال الذين كفروا في كل عصر لكل رسول أتاها: لنخرجنك، أو لتعودن في ملتنا. ﴿ فأوحى إليهم ربهم ﴾ أى: إلى رسولهم، مجتمعين أو مفترقين. على القولين. وقال في إيحائه: والله ﴿ لنهلكن الظالمين ﴾ فتخلى بلادهم، ﴿ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾ أى: أرضهم وديارهم،

لقله: ﴿ وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَظْعِفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ (١). ﴿ ذَلِكَ ﴾ الميراث والإسكان ﴿ لِمَن خَافَ مَقَامِي ﴾ أى: قيامه للحساب بين يدي فى القيامة، أو قيامى على عبادى، وحفظى لأعمالهم، وإطلاعى على سرهم وعلاانيتهم. أو خاف عظمة ذاتى وجلالى، ﴿ وخاف وعيد ﴾ أى: وعيدى بالعذاب، أو عذابى الموعود للكفار.

﴿ واستفتحوا ﴾ أى: استفتح الرسل: طلبوا من الله الفتح على أعدائهم، أو القضاء بينهم وبين أعاديهم، كقله: ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ (٢)؛ واستفتح الكفرة واستنصروا على غلبة الرسل، على نحو قول أبى جهل فى غزوة بدر: اللهم، أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف، فأحنه الغداة، أى: أهلكه. أو: استفتح الفريقان معاً، فكل واحد منهما سأل الله أن يهلك المبطل وينصر المحق. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن: بكسر التاء؛ على الأمر للرسل بطلب الفتح. ﴿ وخاب ﴾: خسر ﴿ كل جبار ﴾: متكبر على الله، ﴿ عنيد ﴾: معاند للحق ولمن جاء به. وهذا هو الفتح الذى فتح لهم، وهو: خيبة المتكبرين وفلاح المؤمنين.

ثم ذكر مآل خيبتهم بقله: ﴿ من ورائه جهنم ﴾ أى: أمامه وبين يديه، فإنه مرصدها، واقف على شفيرها فى الدنيا، مبعوث إليها بعد الموت فيلقى فيها، ﴿ ويسقى من ماءٍ صديد ﴾، وهو مايسيل من جلود الكفار من القيح والدم. ﴿ يتجرعه ﴾: يتكلف جرعه، أى: زهوقه فى حلقه. روى: «أن الكافر يؤتى بالشرية منه فيتكرهها، فإذا أدنيت منه شوت وجهه، وسقطت فيها فروة رأسه، فإذا شربها قطعت أمعاءه» (٣). فيتجرعه ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ أى: لا يقارب أن يسيغه، أى: يبتلعه بصعوبة فكيف يسيغه، بل يكلف به ويطول عذابه ثم يبتلعه؛ لأن نفى «كاد»، يقتضى الوقوع. والسوغ: جواز الشراب على الحلق بسهولة، وهذا بخلافه. ﴿ ويأتيه الموت ﴾ أى: أسباب الموت ﴿ من كل مكان ﴾؛ من أجل الشدائد التى تحيط به من جميع الجهات. أو: من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وإبهام رجليه. ﴿ وما هو بميت ﴾ فيستريح، ﴿ ومن ورائه ﴾: من بين يديه ﴿ عذابٌ غليظ ﴾ أى: يستقبل فى كل وقت عذاباً أشد مما هو عليه، وقيل: هو الخلود فى النار، وقيل: حبس الأنفاس فى الأجساد. قاله الفضيل بن عياض. وقيل: قوله: ﴿ واستفتحوا ﴾: كلام منقطع عن قصة الرسل، بل نزل فى أهل مكة حين استفتحوا بطلب المطر فى السنة التى أخذتهم بدعوة الرسول ﷺ، فخبب الله رجاءهم ولم يسقمهم، وأوعدهم أن يسقيهم - بدلاً من سقيهم المطر - صديد أهل النار. قال معناه البيضاوى.

(١) من الآية ١٣٧ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٨٩ من سورة الأعراف.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٢٦٥/٥) والترمذى فى (أبواب صفة جهنم، باب ما جاء فى صفة شراب أهل النار) والحاكم فى المستدرک (٣٥١/٢) وصححه ووافقه الذهبى، عن أبى أمامة مرفوعاً.

الإشارة : ما خُوفت الكفارُ به رسلهم خُوفت به العوامُ فقراءهم وأولياءهم ، قال التجيبي ، في الإنالة ، لما تكلم على خفاء الأولياء ، قال : ومعلوم أن العصمة لم تثبت إلا للنبيين والرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأن غيرهم يصيب ويخطئ ، ويذنب ويتوب ، لكن لما سَطُرَت مناقب الرجال ، وكراماتهم ، ولم تذكر سيئاتهم ، وطال العهد بهم ، ظن أكثر الخلق أن ليس لهم سيئات ، وقد كان لهم في أزمانهم المحب والمُبغض ، والمسلم والمنتقد . ثم قال : فمن يرضى يقول أحسن ما يعلم ، ومن يسخط يقول أقبح ما يعلم ، وقد رأى أولئك في أزمانهم من الأذى والتنقص ، وإساءة الظن بهم ما كان يقصر عنه صبر غيرهم ، وقد أخرج أبو يزيد البسطامي من بسطام مراراً ، ورفع الشبلى والخواص والنورى للسلطان ، وتستر الجنيد بالفقه حين ضيق على الفقراء ، وقُبض على الحلاج ، وضرب ، ومثل به ، على أنه ساحر زنديق . هـ - المراد منه .

قلت : وقد وقع بنا في مدينة تطوان أيام التجريد أمثال هذا ، فقد خُوفنا بالضرب مراراً ، وسُجِنَا وأُخرجنا من زاويتنا ، وقال لنا محتسبهم : والله لنخرجكم من مدينتنا ، ونركبكم في سفينة إلى بر النصارى ، فقلت له : حباً وكرامة ، ولعلنا نذكرهم الله حتى يسلموا ، ولما وصل الخبر بهذه المقالة إلى شيخنا ، كتب لنا بهذه الآية : « وقال الذين كفروا لرسولهم الخ . وكل آية في الكفار تجر ذيلها على من تشبه بهم ، وإن كان مسلماً . وبالله التوفيق .

ثم ضرب مثلاً لعمل الكفار ، فقال :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ۚ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَٰلُ الْبَعِيدُ ۝١٨﴾

قلت : (مثل) : مبتدأ ، والخبر محذوف عند سيبويه ، أى : فيما يتلى عليكم مثلهم . وقال الفراء : الخبر ما بعده ، وهو جملة : (أعمالهم كرماد) ، أو (أعمالهم) : بدل ، والخبر : (كرماد) ، وعلى قول سيبويه تكون جملة : (أعمالهم) : مستأنفة لبيان مثلهم .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ مَثَلُ ﴾ أعمال ﴿ الذين كفروا بربهم ﴾ ؛ في عدم الانتفاع بها وذهابها : ﴿ كرماد اشتدت به الريح ﴾ في الهوى بسرعة ﴿ في يوم عاصف ﴾ : شديد ريحه . والعصف : اشتداد الريح . وصف به زمانه ؛ للمبالغة ، كقولهم : نهاره صائم ، وليله قائم . شبه صنائعهم ؛ من الصدقة ، وصلة الرحم ، وإغاثة الملهوف ، وعشق الرقاب ، ونحو ذلك من مكارمهم ؛ في حبوطها - لبنائها على غير أساس من الإيمان بالله ، والتوجه بها إليه - بغبار طارت به الريح العاصفة ﴿ في يوم عاصف ﴾ لا يقدرُونَ ﴿ يوم القيامة ﴾ مما كسبوا ﴿ من أعمالهم ﴾ على شيء ، من الانتفاع بها ؛ لحبوطها ، وتلاشيها ، فلا يقدرُونَ منها على شيء ، ولا يجدون ثوابها ،

وحيل بينهم وبين النفع، كما حالت الرياح بينك وبين ما تتسفه، فهو كما قيل: فذلّة التمثيل. ﴿ذلك﴾؛ إشارة إلى ضلالهم مع حساباتهم أنهم محسنون، ﴿هو الضلال البعيد﴾ أى: هو الغاية فى البعد عن طريق الحق.

الإشارة: العمل الذى يثبت لصاحبه هو الذى يصحبه الإخلاص فى أوله، والإسرار فى آخره، والتبرى فيه من الحول والقوة، وفى الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْإِبْقَاءَ عَلَى الْعَمَلِ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَلِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الْعَمَلَ فَيُكْتَبُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ، مَعْمُولٌ بِهِ فِي السِّرِّ، يَضَعُفُ أَجْرُهُ بِسَبْعِينَ ضِعْفًا، فَلَا يَزَالُ بِهِ الشَّيْطَانُ حَتَّى يَذْكُرَهُ لِلنَّاسِ وَيُعْلِنُهُ، فَيُكْتَبُ عَلَانِيَتُهُ، وَيَمْحَى تَضَعِيفُ أَجْرِهِ كُلُّهُ، ثُمَّ لَا يَزَالُ بِهِ الشَّيْطَانُ حَتَّى يَذْكُرَهُ لِلنَّاسِ وَيُحِبُّ أَنْ يُحْمَدَ عَلَيْهِ، فَيَمْحَى مِنَ الْعِلَانِيَةِ وَيُكْتَبُ رِيَاءٌ، فَاتَّقَى اللَّهُ أَمْرُؤَ صَانِ دِينِهِ، وَإِنَّ الرِّيَاءَ شَرُّكَ». رواه البيهقي (١).

وبهذا تظهر فضيلة عمل القلوب، كعبادة التفكير والاعتبار، أو الشهود والاستبصار، أو نية صالحة وهدى صالح، أو زهد فى القلب، وورع وصبر، وشكر وحلم، وغير ذلك من أعمال القلوب، التى لا يطلع عليها ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، بل يتولى جزاءه أكرم الأكرمين. ولذلك قيل: ذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح. وقال عليه الصلاة والسلام: «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة» ولهذا أمر به - أى: بالتفكير - بعد ضرب المثل للعمل الظاهر، فقال:

﴿الَّذِينَ تَرَأَتْهُمُ اللَّائِي يَخْلُقُ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم تر﴾ يا محمد، أو أيها السامع، ﴿أن الله خلق السماوات والأرض بالحق﴾؛ لتدل على الحق، أو بالوجه الذى يحق أن تخلق لأجله، وهو التعريف بخالقها، ويقدرته الباهرة التى تقدر على الإيجاد والإعدام، ولذلك قال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أى: إِنْ يَشَأْ يَهِدِمُكُمْ وَيَسْتَبْدِلُ مَكَانَكُمْ خَلْقًا آخَرَ. فَإِنَّ مِنْ قَدْرِ عَلَى إِجَادِ صُورِهِمْ، وَمَا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ مَادَّتِهِمْ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَبْدِلَهُمْ بِخَلْقٍ آخَرَ؛ ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أى: بمتعذر، أو ممتنع؛ لأن قدرته عامة التعلق، لا تختص بمقدور دون آخر، ومن كان هذا شأنه كان حقيقاً بأن يفرد بالعبادة والقصد؛ رجاء لثوابه، وخوفاً من عقابه يوم الجزاء، الذى أشار إليه بقوله: «ويرزوا لله...» إلخ.

(١) فى شعب الإيمان (باب فى إخلاص العمل لله وترك الرياء ح ٦٨١٣، ح ٦٨٦٤) من حديث أبى الدرداء، مرة بلفظ (إِنْ الْإِبْقَاءَ) ومرة بلفظ (إِنْ الْإِتْقَاءَ).

الإشارة : ألم تر أن الله خلق سماوات الأرواح، لشهود الحق في مقام التعريف، وأرض النفوس لعبادة الحق في مقام التكليف. الأرواح مستقرها سماء الحقائق، والأشباح مقرها أرض الشرائع. عالم الأرواح محل التعريف، وعالم الأشباح محله التكليف. والأرواح لا تنفك عن الأشباح في الصورة الخلقية، غير أنها تعرج عنها بالتصفية والذكر، حتى تترقى إلى عالم الأرواح، فلا تشهد إلا الأرواح في محل الأشباح؛ وهذا من أعظم أسرار الربوبية، التي يطلع عليها العارفون بالله، فإذا أطلعهم الله على هذا المقام؛ كُشفوا بأسرار الذات العلية، وبالعالم الأرواح الذي هو مظهر أرواح الأنبياء والرسل، فلا يغيبون عن الله ساعة، ولا عن رسول الله ﷺ، ولا عن مقام أرواح الأنبياء والأولياء. وفي هذا المقام قال الشيخ أبو العباس المرسى رحمته الله : لى ثلاثون سنة، ما غاب عني الحق طرفة عين. وقال أيضاً: لو غاب عني رسول الله ﷺ ساعة ما عددت نفسي من المسلمين. وقال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل العمراني رحمته الله : مما من الله به علي أنى ما ذكرت رسول الله ﷺ ولا خطر على قلبي إلا وجدتني بين يديه... الخ كلامه. نفعنا الله بهم

وأهل هذا المقام موجودون في كل زمان، فإن القادر في زمانهم هو القادر في زماننا، وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ...﴾ الآية، إشارة إلى هذا، أى: إن يشأ يذهبكم عن شهود أنفسكم، ويأت بخلق جديد، تُشاهدون به أسرار ربكم، وما ذلك على الله بعزيز. قال أبو المواهب التونسي رحمته الله : حقيقة الفناء محو واضمحلال، وذهاب عنك وزوال. هـ. فيبرزون من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، كما قال تعالى:

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنْكُمْ عَذَابَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَا لَكُمُ سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرٌ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ (٢١)

قلت: (تبعاً): جمع تابع، أو مصدر نُعت به؛ للمبالغة على حذف مضاف، أى: كنا لكم ذا تبع، و(من عذاب الله من شيء): من، الأولى؛ للبيان، والثانية زائدة، هذا المختار. و(محيص): إما مصدر، أو اسم مكان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾ أى: لأمر الله ﴿جَمِيعًا﴾، فيبرزون من قبورهم يوم القيامة حفاة عراة، لفصل القضاء، أو: برزوا لله على ظنهم؛ فإنهم كانوا يرتكبون الفواحش خفية، ويظنون أنها تخفى على الله، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم. وإنما عبر بالماضى؛ لتحقيق وقوعه. فيقول حينئذ ﴿الضعفاء﴾ وهم: الأتباع، لضعف رأيهم عندهم، ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم الرؤساء الذين استتبعوهم وغوهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ

تَبَعًا ﴿٢٢﴾ فِي الْكُفْرِ، وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْ نَصَحِهِمْ، ﴿٢٣﴾ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴿٢٤﴾ أَى: فَهَلْ أَنْتُمْ دَافِعُونَ عَنَّا شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ؟

﴿٢٥﴾ قَالُوا ﴿٢٦﴾ أَى: رُؤُوسَاهُمْ، فِي جَوَابِهِمْ وَاعْتِزَالِهِمْ: ﴿٢٧﴾ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ ﴿٢٨﴾ أَى: لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لِلْإِيمَانِ، وَوَقَفْنَا إِلَيْهِ لَهْدَيْنَاكُمْ، وَلَكِنْ ضَلَلْنَا فَأَضَلَّ لَنَاكُمْ، أَى: اخْتَرْنَا لَكُمْ مَا اخْتَرْنَا لَأَنْفُسِنَا، وَلَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَطَرِيقَ النِّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ لَهْدَيْنَاكُمْ وَأَغْنِيَاهُ عَنْكُمْ، لَكِنْ سَدُّ دُونَنَا طَرِيقَ الْخَلَاصِ، ﴿٢٩﴾ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبْرُنَا ﴿٣٠﴾ أَى: مُسْتَوٍ عَلَيْنَا الْجَزَعُ وَالصَّبْرُ، ﴿٣١﴾ مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٢﴾: مِنْ مَهْرَبٍ وَمَلْجَى، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿٣٣﴾ سَوَاءٌ عَلَيْنَا . . . ﴿٣٤﴾ إِلَخ، مِنْ كَلَامِ الْفَرِيقَيْنِ مَعًا، وَيُؤَيِّدُهُ مَا رُوي أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: تَعَالَوْا نَجْزِعْ، فَيَجْزِعُونَ خَمْسَمِائَةَ عَامٍ، فَلَا يَنْفَعُهُمْ، فَيَقُولُونَ: تَعَالَوْا نَصْبِرْ، فَيَصْبِرُونَ كَذَلِكَ، ثُمَّ يَقُولُونَ: ﴿٣٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾. نَسْأَلُ اللَّهَ الْعِصْمَةَ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

الإشارة: إِذَا تَرَقَّى الْعَارِفُونَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِمْ، عَنْ عَالَمِ الْأَشْبَاحِ إِلَى عَالَمِ الْأَرْوَاحِ، وَبَرَزُوا لِشُهُودِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَعِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَنَزَّهُوا فِي حَضْرَةِ الْأَسْرَارِ، وَرَفَعُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الْمُقَرَّبِينَ الْأَبْرَارِ، بَقِيَ ضَعْفَاءُ الْيَقِينِ؛ الَّذِينَ تَعَوَّقُوا عَنْ صُحْبَتِهِمْ، فِي غَمِّ الْحِجَابِ، وَتَعَبِ الْحَسِّ وَالْخَوَاطِرِ، مُسْجُونِينَ فِي سِجْنِ الْأَكْوَانِ، فَيَقُولُونَ لِمَنْ عَوَّقَهُمْ عَنْ صُحْبَةِ الْعَارِفِينَ مِنْ أَهْلِ الرَّئِيسَةِ وَالْجَاهِ: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا، فَهَلْ تَمْنَعُونَ شَيْئًا مِمَّا نَحْنُ فِيهِ مِنْ غَمِّ الْحِجَابِ، وَسُقُوطِ الدَّرَجَةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَصَحْبَتُهُمْ لَهْدَيْنَاكُمْ. فَإِذَا نَظَرُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى ارْتِفَاعِ دَرَجَاتِهِمْ ضُجُورًا، وَفَزَعُوا عَلَى مَا فَاتَهُمْ، فَلَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ؛ فَمَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ عَنْ تَخَلُّفِهِمْ عَنْ مَقَامِ الْمُقَرَّبِينَ. رُوي أَنَّ أَهْلَ عَلِيٍّ إِذَا أَشْرَفُوا عَلَى الْأَسْفَلِينَ تَشْرِقُ مَنَازِلُهُمْ مِنْ أَنْوَارِ وُجُوهِهِمْ. وَسَيَأْتِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - الْحَدِيثُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿٣٧﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴿٣٨﴾ (١).

ثم ذكر خطبة الشيطان على أهل النار، فقال:

﴿٣٩﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَ أَقْضِيَ الْأَمْرُ إِلَيَّ اللَّهُ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٠﴾

قلت: (إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ): الاستثناء منقطع، ويجوز الاتصال، و(بما أشركتمون): مصدرية، أو موصولة إسمية، و(من قبل): يتعلق بأشركتمون، وعلى الثاني: بكفرت.

(١) الآية ١٧ من سورة السجدة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ ﴾ ، أى: إبليس الأقدم ﴿ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أى: أمر الحساب، وفرغ منه، ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. روى أنه يُنصب له منبر من نار، فيقوم خطيباً فى النار على أهل النار، يعنى على الأشقياء من الثقلين، فيقول فى خطبته: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ ، أى: وعداً حقاً أنجزه لكم، وهو وعد البعث والجزاء، ﴿ وَوَعَدْتُكُمْ ﴾ وعد الباطل، وهو: ألا بعث ولا حساب، وإن كان واقعاً شئ من ذلك فالأصنام تشفع لكم، ﴿ فَأَخَلَفْتُكُمْ ﴾ ، أى: فظهر خلاف ما وعدتكم، جعل تبين خلف وعده كالإخلاف منه؛ مجازاً. ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ ؛ من تسلط، فألجئكم إلى الكفر والمعاصي، ﴿ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ ﴾ ؛ إلا دعائى إياكم إليها بتسويل وتزيين، ﴿ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ ، وهو ليس من جنس التسلط، لكنه تهكم بهم، على طريقة قوله: تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ^(١).

ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً، أى: ما تسلطت عليكم بالقهر، لكن دعوتكم فأسرعتم إجابتي، ﴿ فَلَا تُلْوَ مُنَى ﴾ ؛ فإن من اشتهر بالعداوة لا يلام على أمثال ذلك، ﴿ وَلَوْ مَوَّأَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ؛ حيث أطمعتمونى حين دعوتكم، ولم تطيعوا ربيكم لما دعاكم. ولا حجة للمعتزلة فى الآية على أن العبد يخلق أفعاله؛ لأن كسب العبد مقدر فى ظاهر الأمر، لقيام عالم الحكمة، وهو رداء لعالم القدرة، فالقدرة تبرز، والحكمة تستر، وهو ما يظهر من اختيار العبد، ولا اختيار له فى الحقيقة؛ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾^(٢)، ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾^(٣).

ثم قال لهم: ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ : بمعيتكم من العذاب، ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ﴾ : بمعيتى، ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، أى: إني كفرت اليوم بإشراككم إياى من قبل هذا اليوم فى دار الدنيا، بمعنى: تبرأت منه واستنكرته، كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْ كُكُمْ ﴾^(٤). أو: إني كفرت بالله الذى أشركتمونى معه فى طاعته من قبل، حين امتنعت من السجود. والأول أظهر.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . ويحتمل أن يكون من تنمة خطبة الشيطان، قال البيضاوى: وفى حكاية أمثال ذلك لطف للسامعين، وإيقاظ لهم، حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم. هـ.

الإشارة: ينبغى لك أيها العبد الصالح الناصح لنفسه أن تصغى بسمع قلبك إلى هذه المقالة، التى تصدر من الشيطان عند قوات الأوان، فتبادر إلى خلاص نفسك مادمت فى قيد حياتك، قبل حلول رمسك^(٥)، قبل أن تنزل

(١) عَجَزُ بَيْتٍ أُولَهُ: وخيل قد دلفت، لها نَجِيعُ.

(٢) من الآية ٣٠ من سورة الإنسان، ومن الآية ٢٩ من سورة الفكور.

(٤) من الآية ١٤ من سورة فاطر.

(٥) أى: دخول القبر.

بك القدم، حيث لا ينفعك الدم، فتحاسب نفسك، وتتدبر في عواقب أمرك، وتصحح عقائد توحيدك، وتعمل جهدك في طاعة ربك، وتجتنب مواقع غرور الشيطان، وتعتمد على فضل الكريم المنان، وتجعل الموت نصب عينيك، وما هو مستقبل تجعله حاصلًا، وما هو متوقع تجعله واقعًا؛ فكل ما هو آت قريب، (إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) (١). وفي الحكم: «لو أشرق نور اليقين في قلبك لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا وكسفة الفناء ظاهرة عليها». وبالله التوفيق.

ثم شفع بأصناد من غرهم الشيطان، فقال:

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (٢٣)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أى: أدخلهم الله على أيدي الملائكة ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، فيدخلونها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ بأمره، فيأذن للملائكة أن تدخلهم حين يقضى بينهم. ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أى: تحييتهم الملائكة، أو الخدام، حين يتلقونهم يسلمون عليهم، ويهنئونهم، على ما فى الحديث.

الإشارة: فى ذكر هذه الآية بعد خطبة الشيطان تنبيه على وجه الخلاص منه، حتى لا يكون من أهل خطبته، وهو تصحيح الإيمان وتقوية مواده، وهو ما ذكرنا قبل فى مواد طمأنينة أهل الإيمان. وإن أسعده الله بصحبة عارف رُفاه إلى شهود العيان، فلا يكون للشيطان ولا لغيره عليه سلطان، لتحقيق عبوديته، وارتقائه إلى شهود عظمة ربوبيته؛ قال تعالى: ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (٢)، وهم الذين رسخت فى قلوبهم شجرة الإيمان، وارتفعت أغصانها إلى الرحمن، الذى أشار إليها بقوله:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٤) ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٥) ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾

(١) من الآية ١٣٤ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ٤٢ من سورة الحجر.

﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ
اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

قلت : (كلمة طيبة) : يجوز أن يكون مفعولاً بمحذوف، أى : جعل كلمة، وتكون الجملة تفسيرية لضرب المثل، وأن تكون (كلمة) : بدلاً من (مثلاً)، و(شجرة) : صفة لها، أو خبراً عن مضمرة، أى : هى شجرة.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ألم تر﴾ يا محمد، أو أيها السامع، ﴿كيف ضرب الله مثلاً﴾ لأهل لا إله إلا الله، وهم : أهل التوحيد، الذين رسخ التوحيد فى قلوبهم، وعبروا عنه بالسنتهم. فمثال الكلمة الطيبة التى نطقوا بها، ورسخ معناها فى قلوبهم؛ ﴿كشجرة طيبة﴾ : كالنخلة مثلاً، ﴿أصلها ثابت﴾ فى الأرض، غائص بعروقه فيها، ﴿وفرعها فى السماء﴾ ؛ أى : أعلاها. أو يريد الجنس، أى : فروعها وأفنانها فى السماء، ﴿تؤتى أكلها﴾ : تعطى ما يؤكل من ثمرها ﴿كل حين﴾ وقته الله لإثمارها، فقل : سنة، وبه قال ابن عباس وجماعة من المفسرين وانفقهاء، واستدلوا بها على من حلف لا يكلم أخاه حيناً لزمه سنة، وعن ابن عباس أيضاً والضحاك وغيرهما : ﴿كل حين﴾ ؛ أى : غدوة وعشية، ومتى أريد جناها. قلت : وهذا هو الظاهر.

واختلف فى هذه الشجرة الطيبة، التى ضرب الله بها المثل لكلمة الإخلاص، فقل : غير معينة، وقيل : النخلة، وبه قال الجمهور. قال الشطيبى : وقيل : جوزة الهند، فإنها ثابتة الأصل، متصلة النفع، يكون طعمها أولاً لبناً، ثم عسلاً، ثم تنعقد طعاماً، ويصنع بلبنها ما يصنع بلبن المواشى، ثم يكون كالخل، ثم كالخمر، ثم كالزيت، كل هذا قبل عقد الطعم، وأما النخلة فهى : ستة أشهر طلع رخص، وستة أشهر رطب طيب، فنفعه متصل. وقال أبو حنيفة : إنه ببلاد اليمن نوع من التمر، يقال له : الباهين، يطعم السنة كلها. هـ. قلت : وقد ذكر ابن مقشب جوزة الهند، ووصفها كما قال الشطيبى، وقوله : فى النخلة ستة أشهر.. إلخ، فيه نظر، وصوابه : ثلاثة، فإن المعاينة تردده.

والمشبه بهذه الشجرة : المؤمن الكامل الدائم نفعه، المتصل علمه، أوقاته معمورة بذكر الله، أو تذكير عباد الله، وحركاته وسكناته فى طاعة الله، حيث أراد بها وجه الله، فكل حين وساعة يصعد منه عمل إلى الله.

ثم قال تعالى : ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ ؛ لأن فى ضربها زيادة إيضاح وإفهام وتذكير؛ فإنه تصوير للمعانى وتقريبها من الحس، لتفهم سريعاً.

ثم ذكر ضدها فقال : ﴿ومثل كلمة خبيثة﴾ ؛ كلمة الكفر (كشجرة) كمثل شجرة ؛ ﴿خبيثة﴾ ، كالحنظلة مثلاً، ﴿اجتشت﴾ : استوصلت، وأخذت جثتها، وقُلعت بالكلية (من فوق الأرض)، أى : قطعت من فوق الأرض؛ لأن عروقها قريبة منه، ﴿ما لها من قرار﴾ : استقرار. وهذا فى مقابلة قوله : ﴿أصلها ثابت﴾ . قال البيضاوى :

واختلف في الكلمة والشجرة؛ ففسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد - أي: (لا إله إلا الله)، ودعوة الإسلام والقرآن، والكلمة الخبيثة بالإشراك بالله تعالى، والدعاء إلى الكفر، وتكذيب الحق. ولعل المراد بهما ما يعم ذلك، فالكلمة الطيبة: ما أعرب عن حق، أو دعا إلى صلاح، والكلمة الخبيثة: ما كان على خلاف ذلك. وفسرت الشجرة الطيبة بالنخلة، وروى ذلك مرفوعاً، وشجرة في الجنة، والخبيثة بالحنظلة، ولعل المراد بهما أيضاً ما يعم ذلك. هـ.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ وهو: لا إله إلا الله، أو كل ما يثبت في القلب، ويتمكن فيه من الحق، بالحجة الواضحة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مدة حياتهم، فلا يزولون إذا افتتنوا في حياتهم، أو عند موتهم، وهي حسن الخاتمة، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ عند السؤال، فلا يتلعثمون إذا سُئلوا عن معتقدتهم في القبر، وعند الموقف، فلا تدهشهم أهوال القيامة. روى أنه ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثُمَّ تَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيَجْلِسَانِهِ فِي قَبْرِهِ، وَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ، وَمَا دِينُكَ، وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فيقول: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ. فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي. فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ (١). قلت: والقدرة صالحة لهذا كله. قال الغزالي: هو أشبه شيء بحال النائم.

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والتقليد، فلا يهتدون إلى الحق، ولا يثبتون في مواقف الفتن. ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾؛ من تثبيت بعض، وإضلال آخرين، من غير اعتراض عليه ولا تعقيب لحكمه.

الإشارة: الكلمة الطيبة، هي كلمة التوحيد، والشجرة الطيبة هي شجرة الإيمان، وأصلها هو: التوحيد الثابت في القلب، وفروعها: الفرائض والواجبات، وأغصانها: السنن المؤكدة، وأوراقها: المندوبات والمستحبات، وأزهارها: الأحوال والمقامات، وأذواقها: الوجدان وحلاوة المعاملات، وانتهاء طيب أثمارها: العلوم وكشف أسرار الذات، الذي هو مقام الإحسان، وهي معرفة الشهود والعيان. فمن لم يبلغ هذا المقام لم يجن ثمرة شجرة إيمانه. ومن نقص شيئاً من هذه الفروع نقص بقدرها من شجرة إيمانه، إما من فروعها، أو من أغصانها، أو من ورقها، أو من حلاوة أذواقها، أو من عرف أزهارها، أو من طيب ثمرتها. ومعلوم أن الشجرة إذا نبتت بنفسها في الخلاء، ولم تلقح كانت ذكارة، تورق ولا تثمر، فهي شجرة إيمان من لا شيخ له يصلح للتربية، فإن الفروع والأوراق كثيرة، والثمار ضعيفة، أي ربح هاج عليها أسقطها. وراجع ما تقدم في إشارة قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (٢). وبالله التوفيق.

(١) أخرجه بنحوه مطولاً أبو داود في (السنن، باب المسألة في القبر) والحاكم في المستدرک (٣٧/١) وصححه من حديث البراء بن عازب. وأصل الحديث في الصحيحين. (٢) من الآية ٣٥ من سورة المائدة.

ثم ذكر وبال من أنكر هذه النعمة - أعنى نعمة الإيمان - فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ الْقَرَارَ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۖ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يا محمد ﴿ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا ﴾ شكر ﴿ نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾؛ بأن وضعوا الكفر مكان الشكر، أو: بدلوا نفس النعمة كُفْرًا؛ فإنهم لما كفروا سلبت منهم، فصاروا تاركين لها محصلين للكفر مكانها؛ كأهل مكة، خلقهم الله من نسل إسماعيل عليه السلام، وأسكنهم حرمة، وجعلهم خدام بيته، ووسّع عليهم أبواب رزقه، وعطف عليهم قلوب خلقه، وتم شرفهم ببعثة نبيه محمد ﷺ، فكفروا ذلك، فقحطوا، وجاعوا حتى أكلوا الميتة، وأسروا وقتلوا يوم بدر، وصاروا كذلك مسلوبى النعمة، موصوفين بالكفر، وعن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنهما -: أنها نزلت فى الأفجرين من قريش: بنى المغيرة، وبنى أمية؛ فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتّعوا إلى حين. ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ ﴾: من أطاعهم فى الكفر والتبديل، أى: أنزلوهم ﴿ دَارَ الْبَوَارِ ﴾: دار الهلاك، بحملهم على الكفر معهم. ثم فسرها بقوله: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾: يحترقون فيها، ﴿ وَيَنْسَوْنَ الْقَرَارَ ﴾: وينس المستقر جهنم.

ثم بين كفرهم، فقال: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾: أشباهاً وأمثالا، يعبدونها معه، ﴿ لِيُضِلُّوا ^(١) عَنْ سَبِيلِهِ ﴾؛ عن طريق التوحيد، أى: ليكون عاقبتهم الضلال أو الإضلال، على القراءتين، أى: ليضلوا فى أنفسهم، أو ليضلوا غيرهم. وليس الضلال أو الإضلال كان غرضهم فى اتخاذ الأنداد، ولكن لما كان نتيجه وعاقبته جعل كالفرض. ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا ﴾ بشهواتكم الدنيوية، فإنها فانية، أو بعبادتكم الأوثان، فإنها من قبيل الهوى، والأمر للتهديد. وفى التهديد بصيغة الأمر إيذان بأن المهدد عليه كالمطلوب؛ لإفضائه إلى المهدد به، وأن الأمرين كائنان لامحالة، فلا بد من وقوع تمتعهم، ولا بد من إفضائهم إلى النار. ولذلك علقه بقوله: ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾، وأن المخاطب، لانهماكه فيه، كالمأمور به من أمر مطاع. قاله البيضاوى.

الإشارة : ظهور أهل التربية فى زمان الغفلة والجهل نعمة عظيمة، لكن لا يعرفها إلا من سقط عليها، ومن أنكرها، وسد بابها، وعوق الناس عن الدخول فى طريقها، فقد بدل نعمة الله كُفْرًا، وأحل الناس - من تبعه - دار

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: بفتح الياء، وقرأ الباقون بضمها، من أضل. انظر: الإنحاف (٢/١٦٩).

البوار، وهى: الإقبال على الدنيا، والانهماك فى الغفلة، وخراب الباطن من نور اليقين، وكثرة الخواطر والوساوس، والحرص والجزع والهلع، وغير ذلك من أمراض القلوب. وأى عذاب للمؤمن أشد من هذا فى الدنيا؟ ويسقط فى الآخرة عن درجة المقربين، ومن لم يصحب أهل التوحيد الخالص لا يخلو من عبادة أنداد وأشباه؛ بمحبته لهم والركون إليهم. ومن أحب شيئاً فهو عبد له. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمته الله ذات يوم: إنا لا نحب إلا الله، ولا نحب معه شيئاً سواه. فقال له بعض الحاضرين: قال جدك رسول الله ﷺ: «النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها». فقال له الشيخ: إنا لا نرى الإحسان إلا من الله، ولا نرى معه غيره. هـ. بالمعنى.

ثم ذكر ضد أهل الشرك، فقال:

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ (٣١)

قلت: (يقيموا): جواب شرط مقدر، يتضمنه قوله: (قل)، تقديره: إن تقل لهم أقيموا يقيموا، ومعمول القول، على هذا، محذوف. وفيه تنبيه على أنهم لفرط مطاوعتهم للرسول - عليه الصلاة والسلام -، بحيث لا ينفك فعلهم عن أمره، وأنه كالسبب الموجب له، أى: مهما قلت أقاموا وأنفقوا. وقيل: جزم بإضمار لام الأمر. ولا يصح أن يكون جواب الأمر من غير حذف؛ لأن أمر المواجهة لا يجاب بلفظ الغيبة. انظر البيضاوى. وقال ابن عطية: إلا إن ضمن (قل) معنى: بلغ أو أد، فيصح أن يكون (يقيموا): جواب أمره. و(سراً وعلانية): حالان، أو ظرفان، ومن قرأ: لا بيع، بالبناء^(١) فقد بنى إلا، مع اسمها بناء التركيب، ومن قرأ بالرفع فقد أهملها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾، خصهم بالإضافة إليه؛ تشريفاً لهم، وتنبيهاً بقدرهم، وتنبيهاً على أنهم الذين قاموا بحقوق العبودية. قل لهم يا محمد: ﴿ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ التى من حوان الإيمان، بإتقان شروطها وأركانها وآدابها، ﴿ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ من الأموال، فرضاً ونفلاً، ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أى: مسرين ومعلنين، أو فى سر وعلانية، والأحب: إعلان الواجب، وإخفاء المتطوع به، إلا فى محل الاقتداء لأهل الإخلاص. ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ ﴾ فيبتاع المقصر ما يندارك به تقصيره، أو ما يفدى به نفسه، ﴿ وَلَا خِلَالٌ ﴾: ولا مخاللة ومودة تنفع فى ذلك اليوم، حتى ينفع الخليل خليله، وإنما ينفع العمل الصالح، كالإنفاق لوجه الله، وإقام الصلاة، وغير ذلك.

الإشارة: قد مدح الله هاتين الخصلتين: الصلاة والإنفاق، وأمر بهما فى مواضع من القرآن؛ لأنهما عنوان الصدق، أحدهما: عمل بدنى، والآخر: عمل مالى. أما الصلاة فإنها طهارة للقلوب، واستفتاح لباب الغيوب، وهى

(١) قرأ ابن كثير وابن عمرو ويعقوب لا بيع فيه ولا خلال، وقرأ الباقون لا بيع فيه ولا خلال، راجع الإتلاف (١٦٩/٢).

محل المناجاة، ومعدن المصافاة، تتسع فيها ميادين الأسرار، وتشرق فيها شوارق الأنوار، كما في الحكيم. وفي بعض الأخبار: (إن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجب بينه وبينه، وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبیه إلى الهواء، يصلون بصلاته، ويؤمنون على دعائه، وإن المصلي لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد: لو يعلم المناجي من ينجي ما انفتل^(١)). وإن أبواب السماء لتفتح للمصلي. وإن الله تعالى يباهي ملائكته بصغوف المصلين). وفي التوراة: يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يديّ مصلياً باكياً، فأنا الذي اقتربت من قلبك، وبالنسبة رأيت نوري. هـ. فكانوا يرون أن تلك المراقبة والبكاء، وتلك الفتوح التي يجدها المصلي في قلبه من دنو الرب من القلب.

وأما الصدقة فإنها برهان على إيمان صاحبها، وفي الحديث: «الصدقة برهان»، فهي تدل على خروج حب الدنيا من القلب، وعلى اتصاف صاحبها بمنقبة السخاء، التي هي أفضل الخصال، وفي الحديث: «السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، ولجاهل سخي أحب إلى الله من عالم بخيل».

ثم ذكرهم بالنعيم، ليقيدوها بالشكر قبل أن تسلب منهم، كما سلبت ممن ذكر قبل، فقال:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشِّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ التَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

قلت: (الله): مبتدأ، و(الذي): وما بعده: خبر، و(رزقاً لكم): مفعول أخرج، و(من الشمرات): بيان له، حال، ويجوز العكس، ويجوز أن يراد بالرزق: المصدر، فينصب على العلة أو المصدر؛ لأن (أخرج) فيها معنى رزق، و(دائبين): حال، والدعوى: الدوام على عمل واحد، و(من كل ما سألتموه): يحتمل أن تكون «ما» مصدرية، أو موصولة، أو موصوفة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ من أجلكم، السماء تظلكم، والأرض تقلكم، ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشِّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾، تعيشون به وتتفكهون منه. ويشمل الملبوس،

(١) أي: ما انصرف.

كالقطن ، والكتان ، وشبه ذلك ﴿ وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ﴾ : بمشيئته وقدرته ، إلى حيث توجههم مع أسباب حكمته ، تغطية لقدرته ، وهو ما يتوقف عليه جريها وإرساؤها ، من الجبال والقلاع ، ﴿ وسخر لكم الأنهار ﴾ مطردة لانتفاعكم بالسفن والشرب ، وسائر منافعها ، فجعلها معدة لانتفاعكم وتصرفكم . وقيل : تسخير هذه الأشياء : تعليم كيفية اتخاذها والانتفاع بها .

﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ : متماديين في الطلوع والغروب ، يدأبان في سيرهما وإنارتها ، وإصلاح ما يصلحانه من المكنونات ، بقدره خالقهما ، ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ يتعاقبان لسكناتكم ومعاشكم . ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ أى : وآتاكم بعض جميع ما سألتموه ، وهو ما يليق بكم ، وما سبق لكم في مشيئته وعلمه . قال البيضاوى : ولعل المراد بما سألتموه : ما كان حقيقاً بأن يسأل ؛ لاحتياج الناس إليه ، سئل أو لم يسأل . هـ . وقرأ الضحاك وابن عباس : « من كل » ؛ بالتثنية ، أى : وآتاكم من كل شيء احتجتم إليه ، وسألتموه بلسان الحال . ويجوز على هذا أن تكون « ما » نافية ، فى موضع الحال ، أى : وآتاكم من كل شيء غير سائليه .

﴿ وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها ﴾ : لا تحصروها ، ولا تطبقوا عد أنواعها ، فضلاً عن أفرادها ، فإنها غير متناهية ؛ فمنها ظاهرة ، ومنها باطنة ، كالهداية والمعرفة . قال طلق بن حبيب : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، ونعمه أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا توابين ، وأمسوا توابين . هـ . وقال أبو الدرداء : من لم ير نعمة الله إلا فى مطعمه ومشربه ، فقد قل علمه ، وحضر عذابه . هـ . ﴿ إن الإنسان لظلوم ﴾ ؛ بظلم النعمة لما غفل عن شكرها ، أو بظلم نفسه لما عرضها للحرمان ، بارتكاب المعاصي ، ﴿ كفار ﴾ : شديد الكفران ، وقيل : ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع ، كفار فى النعمة يجمع ويمنع . قاله البيضاوى .

الإشارة : الله الذى أنزل من سماء الملكوت علوماً وأسراراً ، تحيا به القلوب والأرواح ، فأخرج به من أرض النفوس ثمرة اليقين والطمأنينة ، رزقاً لأرواحكم . وسخر لكم فلك الفكرة تجرى فى بحر التوحيد ، وفضاء التفريد بأمره . وسخر لكم أنهار العلوم ، منها ما هو علم الرسوم لإصلاح الظواهر ، ومنها ما هو علم الحقائق لإصلاح الضمائر . وسخر لكم شمس العرفان وقمر الإيمان ، دائبين ، يستضيء بقمر التوحيد فى السير إلى معرفة أنوار الصفات ، ويشمس العرفان إلى أسرار الذات . وسخر لكم ليل القبض لتسكنوا فيه ، ونهار البسط لتتنشروا فى اقتباس العلوم ، وربما أفادك فى ليل القبض ما لم تستفده فى نهار البسط ؛ (لا تدرون أيهم أقرب نفعاً) . وآتاكم من كل ما سألتموه حين كمل تهذيبكم ، وصح وصلكم ، فيكون أمركم بأمر الله . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ؛ إذ نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد لا حد لهما فى هذه الدار وفى تلك الدار ، وفى كل نفس يمدهم بمدد جديد ، ومع هذا كله يغفل العبد عن هذه النعم !! إن الإنسان لظلوم كفار . وشكرها : نسبتها لمعطيها ، وحمد الله عليها . وفى الحكم : « لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك ؛ فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك » .

قال سهل بن عبد الله رحمته الله : ما من نعمة إلا والحمد أفضل منها، والنعمة التي ألهم بها الحمد أفضل من الأولى؛ لأن الشكر يستوجب المزيد. وفي أخبار داود عليه السلام أنه قال: إلهي، ابن آدم ليس فيه شعرة إلا وتحتها نعمة، وفوقها نعمة، فمن أين يكافئها؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، إنني أعطيت الكثير وأرضيت باليسير، وإن شكر ذلك أن تعلم أن ما بك من نعمة فمني. هـ.

ومن جملة النعم التي يجب الشكر عليها - وهي التي بدلها الكفار كفراً - عمارة بيت الله الحرام، ودعاء إبراهيم عليه السلام، الذي أشار إليه الحق تعالى بقوله:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۚ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۚ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۚ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا نَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۚ ﴾

قلت: قال هنا: ﴿اجعل هذا البلد﴾ بالتعريف، وقال في سورة البقرة: ﴿بلداً﴾ ^(١) بالتنكير، قال البيضاوي: الفرق بينهما أن المسؤول في الأول - أي: في التعريف - إزالة الخوف وتصديره أمناً، وفي الثاني جعله من البلاد الآمنة. هـ. وفرق السهيلي: بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة حين نزول آية إبراهيم؛ لأنها مكة؛ فلذلك قال فيه: «البلد»؛ بلام التعريف التي للحضور، بخلاف آية البقرة، فإنما هي مدنية، ولم تكن مكة حاضرة حين نزولها، فلم يعرفها بلام تعريف الحضور. هـ. قال ابن جزي: وفيه نظر؛ لأن ذلك كان حكاية عن إبراهيم عليه السلام، ولا فرق بين كونه بالمدينة أو بمكة. هـ.

قلت: لا نظر فيه؛ لأن الحق تعالى لم يحك لنا قصص الأنبياء بألفاظهم، وإنما ترجم عنها بلسان عربي، فينزل على رعاية مقتضى الحال. ولذلك اختلفت الألفاظ في قصص الأنبياء؛ لأن كل قصة تنزل على ما يقتضيه المقام والحال، من تعريف وتنكير، واختصار وإطناب. وقد ذكر أبو السعود في سورة الأعراف ما يؤيد هذا، فانظره. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال إبراهيمُ رب اجعل هذا البلد﴾ يعني: مكة، ﴿آمناً﴾ لمن فيها من أغدره الناس عليها، أو من الخسف والعذاب، أو من الطاعون والوباء، ﴿واجنُبْنِي﴾ أي: امنعني

(١) في الآية ١١٦.

واعصمى، ﴿وَبَنِي﴾ من بعدى، من ﴿أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أى: اجعلنا منهم فى جانب بعيد. قال البيضاوى: وفيه دليل على أن العصمة للأنبياء بتوفيق الله وحفظه إياهم، وهو بظاهره لا يتناول أحفاده وجميع ذريته، وزعم ابن عيينة أن أولاد إسماعيل لم يعبدوا الصنم، محتجاً به، وإنما كانت لهم حجارة يدورون بها، ويسمونها الدوار، ويقولون: البيت حجر، وحيثما نصبت حجراً فهو بمنزلته. هـ. قال ابن جزى: ﴿وَبَنِي﴾ يعنى: من صلبه، وفيهم أجيب دعوته، وأما أعقاب بنيه فعبدوا الأصنام. هـ. وقد قال فى الإحياء: على إبراهيم عليه السلام، بالأصنام، الذهب والفضة، بمعنى: حبهما والاعتزاز بهما، والركون إليهما. قال عليه الصلاة والسلام: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالذَّرْهَمِ...» الحديث؛ لأن رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الألوهية فى شيء من الحجارة. هـ.

قلت: الظاهر أن يبقى اللفظ على ظاهره، فى حقه وفى حق بنيه. أما فى حقه فلسعة علمه وعدم وقوفه مع ظاهر الوعد، كما هو شأن الأكابر، لا يزول اضطرابهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم، وهذا كقوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تَشْرَكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي شَيْئاً﴾ (١). وتقدم هذا المعنى مراراً. وأما فى حق بنيه فإنما قصد العموم فى نسله، لكن لم يجب إلا فيما كان من صلبه؛ فإن دعاء الأنبياء - عليهم السلام - لا يجب أن يكون كله مجاباً، فقد يجابون فى أشياء، ويمنعون من أشياء. وقد سأل نبينا ﷺ لأمتيه أشياء، فأجيب فى البعض، ومنع البعض. كما فى الحديث (٢).

ثم قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَلْنَ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ﴾ أى: إن الأصنام أتلفت كثيراً من الخلق عن طريق الحق، فلذلك سألت منك العصمة، واستعذت بك من إضلالهن، وإسناد الإضلال إليهن باعتبار السببية، كقوله: «ووغرتهم الحياة الدنيا» (٣). ﴿فَمَنْ تَبِعَنِى﴾ على دينى ﴿فَإِنَّهُ مِنِّى﴾؛ لا ينفك عنى فى أمر الدين، ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، تقدر أن تغفر له ابتداء، أو بعد التوفيق للتوبة. وفيه دليل على أن كل ذنب فله أن يغفره، حتى الشرك، إلا أن الوعيد فرق بينه وبين غيره. قاله البيضاوى. قال ابن جزى: ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾؛ يريد: بغير الكفر، أو عصاه بالكفر ثم تاب منه، فهو الذى يصح أن يدعى له بالمغفرة، ولكنه ذكر اللفظ بالعموم؛ لما كان فيه - عليه السلام - من التخلق بالرحمة للخلق، وحسن الخلق. هـ.

﴿رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى﴾ أى: بعض ذريتى، وهو: إسماعيل عليه السلام، أو: أسكنت ذرية من ذريتى، وهو إسماعيل ومن ولد منه؛ فإن إسماعيل متضمن لإسكانهم، ﴿بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زُرْعٍ﴾ يعنى: وادى مكة، لأنها حجرية

(١) من الآية ٨٠ من سورة الأنعام.

(٢) قال ﷺ: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثلاثين، وملعني واحدة. سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألت أن لا يهلك أمتي بالفرق فأعطانيها، وسألت أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها، أخرجه مسلم فى (كتاب الفتن وأثرها الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض) من حديث عامر بن سعد عن أبيه.

(٣) من الآية ٧٠ من سورة الأنعام.

لا تنبت، والوادي: ما بين الجبلين، وإن لم يكن فيه ماء. ولم يقل: ولا ماء، ولعله علم بوحى أنه سيكون فيه الماء، ﴿عند بيتك المحرم﴾ الذى حرّمه على الجبابرة من التعرض له والتهاون به، أو: لم يزل محترماً تهابه الجبابرة، أو منع منه الطوفان، فلم يستأصله ويمح أثره. وهذا الدعاء وقع منه أول ما قدم، ولم يكن موجوداً، فلعله قال ذلك باعتبار ما كان، أى: عند أثر بيتك المحرم، أو باعتبار ما يؤول إليه من بنائه وعمارته واحترامه.

وقصة إنزاله ولده بمكة: أن هاجر كانت مملوكة لسارة، وهبها لها جبار من الجبابرة؛ وذلك أن إبراهيم عليه السلام دخل مدينة، وكان فيها جبار يغصب النساء الجميلات، فأخذها، وأدخلها بيتاً، فلما دخل عليها دعت عليه، فسقط، ثم قالت: يارب إن مات قتلوني فيه، فقام. فلما دنا منها، دعت عليه، فسقط، فقال فى الثالثة: ما هذه إلا شيطانة، أخرجوها عني، وأعطوها هاجر، فعصمها الله منه، وأخدمها هاجر، ثم وهبتها لإبراهيم، فوطئها فحملت بإسماعيل، فلما ولدته غارت منها، فتعب إبراهيم معها، ثم ناشدته سارة أن يخرجها من عندها، فركب البراق، وخرج بها تحمل ولدها حتى أنزلها مكة، تحت دوحة، قريباً من موضع زمزم. فلما ولى تبعته، وهى تقول: لمن تتركنا فى هذه البلاد، وليس بها أنيس؟ ثم قالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذا لا يضيعنا. فرجعت تأكل من مزود، ثم تركها لها، وتشرب من قرية ماء، فلما فرغ الماء نشف اللبن، وجعل الولد يتخبط من العطش، فجعلت تطوف من الصفا، وكان جبلاً صغيراً قريباً منها، وتذهب إلى المروة، وتسعى بينهما، لعلها ترى أحداً، فلما بلغت سبعة أطواف وسمعت صوتاً فى الهواء، فقالت: أغث إن كان معك غياث، فتبدى جبريل بين يديها حتى وصل إلى موضع زمزم، فهمز بعقبه ففار الماء، فلما رآته دهشت، وخافت عليه يذهب؛ فجعلت تحوطه، وتقول: زم زم، فأنحصر الماء. قال ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركته، كان عيناً معيناً»^(١). فشربت، ودر لبنها.

ثم إن جرهم رأوا طيوراً تحوم، فقالوا: لا طيور إلا على الماء. فقصدوا الموضع، فوجدوها مع ابنها، وعندها عين، فقالوا لها: أتشركيننا فى مائك، وتشركك فى ألباننا؟ ففعلت. وفى حديث البخارى: «قالوا لها: أتحبين أن نسكن معك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم فى الماء». فرحلوا إليها، وسكنوا معها، ثم زوجوا ولدها منهم. وحديث إتيان إبراهيم يتعاهد ابنه، وبنائهما الكعبة، مذكور فى البخارى^(٢) والسير.

ثم قال: ﴿ربنا لقيموا الصلاة﴾ أى: ما أسكنتهم بهذا الوادى البلقع^(٣) من كل مرتفق ومرتزق، إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم. وتكرير النداء وتوسيطه، للإشعار بأنها المقصودة بالذات من إسكانهم ثمة. والمقصود من الدعاء: توفيقهم لها، وقيل: اللام للأمر، وكأنه طلب منهم الإقامة، وسأل من الله أن يوفقهم لها. ﴿فاجعل أفئدة

(١) أخرجه البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب: تزفون: النسلان فى المشى) من حديث ابن عباس - رضى الله عنه.
(٢) فى الموضع السابق ذكره.
(٣) البلقع: هى الأرض القفر التى لا شئ بها: انظر: اللسان (بلقع ١/ ٣٤٨).

من الناس ﴿ أى : اجعل أفئدة من بعض الناس ، ﴿ تهوى إليهم ﴾ أى : تسرع إليهم شوقاً ومحبة ، ومن : للتبعيض ، ولذلك قيل : لو قال : أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم ، ولحجت اليهود والنصارى . وقيل : للبيان ؛ أى : أفئدة ناس . ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ مع كونهم بواد لا نبات فيه ، ﴿ لعلهم يشكرون ﴾ تلك النعمة ، فأجاب دعوته ، فجعله حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شئ ، حتى إنه يوجد فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية ، فى يوم واحد .

﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ﴾ أى : تعلم سرنا ، كما تعلم علانيتنا ، والمعنى : إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ، وأرحم منا بأنفسنا ، فلا حاجة لنا إلى الطلب ، لكننا ندعوك إظهاراً لعبوديتك ، وافتقاراً إلى رحمتك ، واستجلاً لتل ما عندك . قاله البيضاوى . أى : فيكون مناسباً لحاله فى قوله : « علمه بحالى يغنى عن سؤالى » . وقيل : ما نخفى من وجد الفرقة ، وما نعلن من التضرع إليك والتوكل عليك . وتكرير النداء ؛ للمبالغة فى التضرع واللجوء إلى الله تعالى . ﴿ وما يخفى على الله من شئ فى الأرض ولا فى السماء ﴾ ؛ لأن علمه أحاط بكل معلوم . ومن : للاستغراق .

الإشارة : ينبغى للعبد أن يكون إبراهيمياً ، فيدعو بهذا الدعاء على طريق الإشارة ، فيقول : رب اجعل هذا القلب آمناً من الخواطر والوساوس ، واجنبني وبنى ، أى : بعذنى ومن تعلق بى ، أن نعبد الأصنام ، التى هى الدنانير والدرهم ، وكل ما يعشق من دون الله ، (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) فتلقوا فى حبها والحرص عليها ، فلا فكرة لهم إلا فيهما ، ولا شغل لهم إلا جمعهما ، فمن تبعنى فى الزهد فيهما ، والغنى بك عنهما ، فإنه منى ، ومن عصانى ، واشتغل بمحبتهما وجمعهما ، (فإنك غفور رحيم) .

وقوله : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذي زرع ﴾ فيه : تعليم اليقين لمن طلب تربية اليقين . قال الورعجبى : فيه إشارة إلى تربية أهله بحقائق التوكل والرضا والتسليم ، ونعم التربية ذلك ، فأعلمنا بسنته القائمة الحنيفية السمحة السهلة ، الخليلية الحبيبية ، الأحمدية المصطفوية . صلوات الله عليهما . أن العارف الصادق ينبغى له ألا يكون معوله على الأملاك والأسباب . فى حياته وبعد وفاته . لتربية عياله ، فإنه تعالى حسبه ، وزاد فى تربيتهم بأن يؤدبهم بإقامة الصلاة ، إظهاراً للعبودية ، وإخلاصاً فى المعرفة ، وطلباً للمشاهدة ، ومناجاة فى القرية بقوله : « ربنا ليقيموا الصلاة » . إلخ .

وقال القشيري : أخبر عن صدق توكله وتفويضه ، أى : أسكنت قوماً من ذريتى بوادٍ غير ذي زرع ، عند بيتك المحرم . وإنما رد الرفق لهم فى الجوار فقال : « عند بيتك المحرم » ، ثم قال : « ليقيموا الصلاة » . أى : أسكنتهم لإقامة

حَقُّكَ، لا لَطَلَبَ حَظوظهم. ويقال: اكتفى بأن يكونوا في ظلال عنايته عن أن يكونوا في ظلال نعيمهم. ثم قال: قوله: «بوادٍ غير ذي زرع» أي: أسكنتهم هذا الوادي، ولا متعلق من الأغيار لقلوبهم، ولا متناول لأفكارهم وأسرارهم، فهم مطروحون ببابك، مقيمون بحضرتك، جارٍ فيهم حكمك، إن راعيتهم كفيتهم، وكانوا أعز خلق الله، وإن أقصيتهم وأويقتهم كانوا أضعف وأذل خلقك. هـ.

وقوله تعالى: «فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم»: قال القشيري: ليشغلوا بعبادتك، فأفرد قوماً يقومون لهم بكفائتهم، وارزقهم من الثمرات، فإن من قام بحق الله قام الله بحقه. فاستجاب الله دعاءه فيهم، فصارت القلوب من أهل كل بر وبحر كالمجبولة على محبة ذلك البيت، ومحبة أولئك المصلين من سكانه. وقال الورتجبي: سأل أن يجعلهم مرادى جلاله وجماله، ويجعلهم آية الصادقين والعاشقين، بقوله: (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم)، تميل بوصف الإرادة والمحبة لك، والافتداء بهم في إقامة سنتك، وألبسهم لباس أنوارك، وألق في قلوب خلقك محبتهم بمحبتك. هـ. ومعنى قوله: مرادى جلاله وجماله: أي: مظهراً لجلاله وجماله، يعشقهم البر والفاجر، والكامل والناقص، فقد ظهر فيهم الجلال والجمال. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية كلام إبراهيم عليه السلام فقال:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

قلت: (لسميع الدعاء): من إضافة أمثلة المبالغة إلى مفعوله، أي: لسميع دعاء من دعاء. و(من ذريتي): عطف على مفعول «اجعل»، أي: اجعلني وبعض ذريتي مقيمين للصلاة.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن خليله عليه السلام: ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر ﴾ أي: مع كبر سني عن الولد، ﴿ إسماعيل وإسحاق ﴾، روى أنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة، وإسحاق لمائة وثنتي عشرة سنة، وقيل: غير ذلك. وإنما ذكر كبر سنه؛ ليكون أعظم في إظهار النعمة، وإظهاراً لما فيه من الآية، ولذلك قال: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ أي: يجيب من دعاء، من قولك: سمع الملك كلامي، إذا اعتنى به. وفيه إشعار بأنه تقدم منه سؤال الولد، فسمع منه، وأجابه حين وقع اليأس منه، ليكون من أجل النعم وأجلها.

ثم طلب الاستقامة له ولولده بقوله: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ أى: مُتَقَنًا لَهَا، مواظبًا عليها، ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ فاجعل من يقيمها. والتبعيض؛ لعلمه بالروحى أن من ولده من لا يقيمها، أو باستقرار عاداته فى الأمم الماضية أن منهم من يكون كفاراً. ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ أى: استجب، أو تقبل عبادتى. ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾، وكان هذا الدعاء قبل النهى، أو قبل تحقق موتهما على الكفر، أو يريد آدم وحواء. ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ أى: يَثْبُت ويتحقق وجوده، مستعار من القيام على الرجل، كقولهم: قامت الحرب على ساق. أو يقوم إليه أهله، فحذف المضاف، أى: يقوم أهل الحساب إليه، وأسند إليه قيامهم؛ مجازاً.

الإشارة: إتيان النسل البشرى، أو الروحانى، من أجل النعم وأكملها على العبد. وفى الحديث: «إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صدقة جارية، أو علم بثه فى صدور الرجال، أو ولد صالح يدعو له بعد موته». والولد الروحانى أتم؛ لتحقيق استقامته فى الغالب. وطلب ذلك محمود كما فعل الخليل وزكريا، وغيرهما، وقد مدح الله من فعل ذلك بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ (١). وقرة عين فى الذرية: أن يكونوا على الاستقامة فى الدين، وسلوك منهاج الصالحين. وكل ما أتوا به من الطاعة والإحسان فللوالدين حظ ونصيب من ذلك، ولا فرق بين الولد الروحانى والبشرى، وفى ذلك يقول الشاعر (٢):

والمَرْءُ فى ميزانه أَتْبَاعُهُ فاقْدُرْ إِذْنُ قَدَرِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

والله تعالى أعلم.

ثم تم قوله: (يوم يقوم الحساب) بذكر أهواله، فقال:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعَوَتِكَ وَنَسِيعِ الرُّسُلِ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿ (٤٥)

(١) من آية ٧٤ من سورة الفرقان. (٢) وهو الإمام البوصيرى. انظر ديوانه/ ١٢٢. وفيه: فاقدر إذن فضل النبى محمد ﷺ.

قلت: (يوم يأتيهم) : مفعول ثانٍ لأنذر، ولا يصح أن يكون ظرفاً. و(نُجِبَ دعوتك)؛ جواب الأمر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ أَيُّهَا السَّامِعُ، أَنَّ اللَّهَ غَافِلٌ عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، أو أيها الرسول، بمعنى: دُم على ما أنت عليه من أن الله مطلع على أفعالهم، لا تخفى عليه خافية، غير غافل عنهم. وهو وعيد بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة. وقيل: إنه تسلية للمظلوم؛ وتهديد للظالم؛ فالحق تعالى يمهّل ولا يهمل. ﴿إِنَّمَا يُؤْخِرُهُمْ﴾، أي: يؤخر عذابهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، أي: تحد فيه النظر، من غير أن تطرف؛ من هول ما ترى.

﴿مُهْطِعِينَ﴾: مسرعين إلى الداعي؛ مذلة واستكانة، كإسراع الأسير والخائف ونحوه. أو مقبلين بأبصارهم، لا يطفرون؛ هيبة وخوفاً، ﴿مُقْنَعِي رُؤُوسِهِمْ﴾: رافعيها إلى السماء كرفع الإبل رأسها عند رعيها أعالي الشجر. وذلك من شدة الهول، أو من أجل الغل الذي في عنقه، كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ (١). وقال الحسن في هذه الآية: وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد. هـ. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾، بل تقف أعينهم شاخصة لا تطرف، أو: لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم، ﴿وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾: خلاء، محترقة، فارغة من الفهم، لا نعى شيئاً؛ لفرط الحيرة والدهشة. ومنه يُقال للأحمق وللجبان: قلبه هواء، أي: لا رأى فيه ولا قوة. وقيل: خالية من الخير، خاوية من الحق.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ يامحمد، أي: خوفهم هذا اليوم، وهو: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾، يعني يوم القيامة، أو يوم الموت؛ فإنه أول مطلع عذابهم، ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالشرك والتكذيب: ﴿رَبَّنَا أَخْرِنا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: أخر العذاب عنا، وردنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى أجل قريب، ﴿نُجِبَ دَعْوَتَكَ﴾ حيلئذ ﴿وَتَتَّبِعِ الرِّسْلَ﴾، ونظيره: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَآكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢). قال تعالى لهم: ﴿أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أنكم باقون في الدنيا، ﴿مَالَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ عنها بالموت ولا بغيره، ولعلمهم أقسموا بطراً وغروراً. أو دل عليه حالهم؛ حيث بنوا مشيداً، وأملوا بعيداً. أو أقسموا أنهم لا ينقلون إلى دار أخرى، وأنهم إذا ماتوا لا يزالون عن تلك الحالة، ولا ينقلون إلى دار الجزاء، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتٍ﴾ (٣).

﴿وَسَكُنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي، من الأمم السالفة كعاد وثمود، ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ بما تشاهدون من آثارهم الدارسة، وديارهم الخرية، وما تواتر عندكم من أخبارهم،

(١) الآية ٨ من سورة يس.

(٢) الآية ١٠ من سورة المنافقون.

(٣) الآية ٣٨ من سورة النحل.

﴿ وَ ﴾ قد ﴿ ضربنا لكم الأمثال ﴾ من أحوالهم، أى: بيّنا لكم أنكم مثلهم فى الكفر واستحقاق العذاب، أو بيّنا لكم صفات ما فعلوا، وما فعل بهم، التى هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة.

الإشارة: كما أمهل سبحانه الظالمين إلى دار الشدائد والأهوال، أمهل عباده الصالحين إلى دار الكرامة والنوال؛ لأن هذه الدار لاتسع ما أراد أن يعطيهم من الخيرات؛ لأنها ضيقة الزمان والمكان، فقد أجلّ مقدارهم أن يجازيهم فى دار لا بقاء لها، وتلك الدار باقية لا نفاذ لها، ففيها يتمحض الجمال والجلال، فبقدر ما ينزل على أهل الجلال من الأهوال ينزل على أهل الجمال من الكرامة والنوال. وتأمل ما تمناه أهل الجلال حين نزلت بهم الأهوال من قولهم: (رينا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتتبع الرسل)، ثم بادر إلى إجابة الداعى، واتباع الرسول الهادى، فى كل ما جاء به من الأوامر والنواهي، واعتبر بمساكن الذين ظلموا أنفسهم، كيف فعل بهم الزمان؟ وكيف غرتهم الأمانى وخدعهم الشيطان، حتى أسكنهم دار النذل والهوان؟ فشد يدك على الطاعة والإحسان، والشكر لله على الهداية لنعمة الإسلام والإيمان، وعلق قلبك بمقام الإحسان؛ فإن الله يرزق العبد على قدر نيته. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما فعل بأهل المكر والخدلان، فقال:

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالِ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرُوا أَلَّا يَلْبَسَ ﴾ ﴿٥٢﴾

قلت: (وإن كان مكرهم)؛ إن، نافية، واللام للجحود، ومن قرأ «النزول»؛ بفتح اللام، فإن مخففة، واللام فارقة؛ (يوم تبدل)؛ بدل من (يوم يأتيهم)، أو ظرف للانتقام، أو مقدر بذكر، أو (بمخلف وعده). ولا يجوز أن ينتصب بمخلف؛ لأن ما قبل «إن»، لا يعمل فيما بعدها، و(السموات)؛ عطف على (الأرض)، أى: وتبدل السماوات.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقد مكروا ﴾ بك يا محمد ﴿ مكرهم ﴾ الكلى، واستفرغوا جهدهم فى إبطال الحق وتقرير الباطل، ﴿ وعند الله مكرهم ﴾ أى: مكتوب عنده فعلهم، فيجازيهم عليه. أو عند الله ما يمكرهم به

جزاء لمكرهم، وإبطالاً له، ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ في العظم والشدة ﴿لَتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ الثوابت لو زالت؛ تقديرًا، أو ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، أي: الشرائع والنبوات الثابتة كالجبال الرواسي. والمعنى على هذا تحقير مكرهم؛ لأنه لا تزول منه تلك الجبال الثابتة الراسخة، أو: وإن مكرهم لتزول منه الجبال من شدته، ولكن الله عصم ووقى. وقيل: الآية متصلة بما قبلها، أي: وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم، ومكروا مكرهم في إبطال الحق.

﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مَخْلُفًا وَعْدَهُ رُسُلُهُ﴾، يعنى: وعد النصر على الأعداء. وقدم المفعول الثاني، والأصل: مخلف رسله وعده، فقدم الوعد؛ ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً على الإطلاق، ثم قال: ﴿رُسُلُهُ﴾؛ ليعلم أنه إذا لم يخلف وعد أحد من الناس، فكيف يخلف وعد رسله وخيرة خلقه؟! فقدم الوعد أولاً بقصد الإطلاق، ثم ذكر الرسل لقصد التخصيص. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: غالب لا يماكر، قادر لا يدافع، ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ لأوليائه من أعدائه.

يظهر ذلك ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾، أو اذكر ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾، فتبدل أرض الدنيا يوم القيامة بأرض بيضاء عفراء^(١)، كقرصة النقي^(٢)، كما في الصحيح^(٣). ﴿وَتُبَدَّلُ السَّمَاوَاتُ﴾ بأن تنشق وتطوى كطى السجل للكتب، ويبقى العرش بارزاً، وهو سماوات الجنة.

قال البيضاوي: والتبديل يكون في الذات، كقوله: بدلت الدراهم بالدنانير، وعليه قوله: ﴿بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾^(٤)، وفي الصفة، كقوله: بدلت الحلقة خاتماً، إذا أذبتها وغيّرت شكلها. وعليه قوله: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾^(٥). والآية تحتملها، فعن علي رضي الله عنه: تبدل أرضاً من فضة وسماوات من ذهب، وعن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: هي تلك الأرض، وإنما تغير صفاتها، ويدل عليه ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ فَتَنْبَسُطُ، وَتَمَدُّ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعَكَاطِيِّ؛ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً»^(٦).

قال ابن عطية: وأكثر المفسرين على أن التبديل يكون بأرض بيضاء عفراء، لم يعص الله فيها، ولا سفك فيها دم، وليس فيها معلم لأحد. وروى أن النبي ﷺ قال: «الْمُؤْمِنُ فِي وَقْتِ التَّبْدِيلِ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ». وروى عنه ﷺ أنه قال: «النَّاسُ، وَقْتُ التَّبْدِيلِ، عَلَى الصِّرَاطِ»^(٧). وروى أنه قال: «النَّاسُ حِينَئِذٍ أَضْيَافُ اللَّهِ؛ فَلَا يُعْجِزُهُمْ مَا

(١) العفرة: بياض ليس بالناصع.. انظر النهاية (عفر).

(٢) قرصة النقي: الدقيق النقي من الغش والنخال انظر فتح الباري (٢٨٣/١١).

(٣) قال عطاء: (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها علم لأحد، أخرج البخاري في (الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة). ومسلم في (صفات المنافقين، باب في البعث والنشور) من حديث سهل بن سعد الساعدي.

(٤) من الآية ٥٦ من سورة النساء.

(٥) من الآية ٧٠ من سورة الفرقان.

(٦) جزء من حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة.

(٧) أخرج مسلم في (صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور) من حديث السيدة عائشة - رضي الله عنها.

(٨) أخرج بنحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٢٥٣/٧) من حديث أبي أيوب الأنصاري. وانظر تفسير ابن كثير (٥٤٤/٢).

وفى سراج المريدين لابن العربي: أن الله خلق الأرض مختلفة محدودة؛ ويخلقها يوم القيامة مستوية، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، متماثلة بيضاء كخبرة النقى، كما فى الصحيح، وأما تبديل السموات فليس فى كیفيتها حديث، وإنما هو مجهول. وفى حديث مسلم: «أين يكون الناس يوم تبدل الأرض؟ قال: هم على الصراط». قال: يحتمل أنه الصراط المعروف، ويحتمل أنه اسم لموضع غيره، تستقر الأقدام عليه، وكأنه الأظهر؛ للحديث الآخر. وقد سأله عائشة - رضى الله عنها - أين يكون الناس يوم تبدل الأرض؟ قال ﷺ: «هم فى الظلّة دون الجسر» (١). والجسر: الصراط. هـ.

أما تبديل الأرض: فظاهر الآيات أنها قبل البعث والحشر، فلا يقع البعث والحشر، إلا على الأرض المبدلة؛ كقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ﴾ (٢). وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ (٣) .. ثم قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ (٤). وقوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (٥)، ثم قال: ﴿إِذَا رَجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ (٦)، إلى غير ذلك من الآيات. والأرواح حينئذ أضياف الله، أو فى ظل العرش، أو دون الجسر، حيث يعلم الله. وأما تبديل السماوات فظاهر الأخبار أنه وقت وقوف الناس فى المحشر، حيث تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة تنزيلاً. والله تعالى أعلم.

﴿وبرزوا لله الواحد القهار﴾، أى: وبرزوا من أجدانهم؛ لمحاسبة الواحد القهار، أو لمجازاته. وتوصيفه بالوصفين؛ للدلالة على أنه فى غاية الصعوبة، كقوله: ﴿لَمَنَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٧)، وأن الأمر إذا كان لواحد غلاب لا يغالب فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار، ﴿وترى المجرمين يومئذ مقرنين﴾: قرن بعضهم إلى بعض ﴿فى الأصفاد﴾: فى القيود، أو الأغلال، كل واحد قرن مع صاحبه، على حسب مشاركتهم فى العقائد والأعمال، كقوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (٨). أو قرنوا مع الشياطين، أو مع ما اكتسبوا من العقائد الزائفة والأهوية الفاسدة، أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال. فقوله: ﴿فى الأصفاد﴾: متعلق بمقرنين، أو حال من ضميره. والصفد: القيد أو الغل.

﴿سرابيلهم﴾: قمصانهم، والسريال: القميص، ﴿من قطران﴾، وهو الذى تهأ به الإبل، أى: تدهن به. وللنار فيه اشتعال شديد، فلذلك جعل قميص أهل النار. قال البيضاوى: وهو أسود ملتن، تشتعل فيه النار بسرعة،

(١) أخرجه مسلم مطولاً فى (الحبض، باب بيان صفة منى الرجل والمرأة) من حديث ثوبان، مولى رسول الله ﷺ.

(٢) من الآية ٤٧ من سورة الكهف.

(٣) الآيتان ١٠٥-١٠٦ من سورة طه.

(٤) من الآية ١٠٨ من سورة طه.

(٥) الآية الأولى من سورة الواقعة.

(٦) الآية ١٦ من سورة غافر.

(٧) الآية ٧ من سورة التكوين.

(٨) الآية ٤٠ من سورة الواقعة.

يُطلى به جلود أهل النار، حتى يكون طلاؤه لهم كالقميص، ليجتمع عليهم لذع القطران ووحشة لونه وفتن ريحه، مع إسراع النار في جلودهم. على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين. هـ.

﴿وتغشى وجوههم النار﴾، أى: تكسوها وتأكلمها؛ لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق، ولم يخضعوا بها إلى الخالق، كما تطلع على أفئدتهم؛ لأنها فارغة من المعرفة والنور، مملوءة بالجهالات والظلمة. ونظيره قوله: ﴿أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾^(٢).

فعل ذلك بهم؛ ﴿ليجزى الله كل نفس ما كسبت﴾ من الإجمام، أو ما كسبت مطلقاً؛ لأنه إذا بين أن المجرمين معاقبون لإجرامهم؛ علم أن المطيعين يثابون لطاعتهم. ويتعين ذلك إذا علق اللام ببرزوا. ﴿إن الله سريع الحساب﴾، فيحاسب الناس في ساعة واحدة؛ لأنه لا يشغله حساب عن حساب، فكل شخص يظهر له أنه واقف بين يديه، يحاسب في وقت حساب الآخر؛ لأن ذلك وقت خرق العوائد.

﴿هذا﴾ القرآن، أو ما فيه من الوعظ والتذكير، أو ما وصفه من قوله: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً...﴾^(٣) إلخ، ﴿بلاغ للناس﴾؛ أى: كفاية لهم عن غيره في الوعظ وبيان الأحكام، يقال: أعطيته من المال ما فيه بلاغ له، أى: كفاية. أو بلاغ؛ أى: تبليغ لهم، كقوله: ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾^(٤)، ﴿وما على الرسول إلا البلاغ﴾^(٥)، وقوله: ﴿ولينذروا به﴾: عطف على محذوف، أى: لينصحوها به، ولينذروا به، أو متعلق بمحذوف، أى: ولينذروا به أنزلناه، ﴿وليعلموا أنما هو إله واحد﴾ بالنظر والتأمل فيما فيه من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى، أو المنبهة على ما يدل عليه. ﴿وليدذكرك﴾ أى: ليتعظ به ﴿أولوا الألباب﴾ أى: القلوب الصافية بالتدبر في أسرار معانيه وعجائب علومه وحكمه، فيرتدعوا عما يرددهم، ويتذرعوا بما يحظيهم. واعلم أنه سبحانه ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد، هي الغاية والحكمة في إنزال الكتاب: تكميل الرسل للناس، واستكمالهم القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد، وإصلاح القوة العملية التي هي التدرع بكمال التقوى. جعلنا الله من الفائزين بغايتها. قال معناه البيضاوى.

الإشارة: قد مكر أهل الغفلة بالأولياء، قديماً وحديثاً، واحتالوا على إطفاء نورهم، فأبى الله إلا نصرهم وعزهم؛ (إن الله عزيز ذو انتقام) فينتقم لهم وينصرهم. ووقت نصرهم هو حين يتحقق فناؤهم عن الرسوم والأشكال، فتبدل الأرض عندهم غير الأرض والسموات؛ فتقلب كلها نوراً مجموعاً ببحر الأنوار، وبمحيطات أفلاك الأسرار،

(١) من الآية ٢٤ من سورة الزمر.

(٣) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم.

(٥) الآية ٥٤ من سورة النور.

(٢) من الآية ٤٨ من سورة القمر.

(٤) من الآية ٤٨ من سورة الشورى.

فتذهب ظلمة الأكوان بتجلى نور المكون، ﴿الله نور السماوات والأرض﴾^(١). ويرزوا من سجن الأكوان لشهود الواحد القهار.

وقال الورتجبي: يريد أن أرض الظاهر وسماء الظاهر تبدل من هذه الأوصاف، وظلمة الخليقة، إلا أنها منورة بنور جلال الحق عليها، وأنها صارت مشرق عيان الحق للخلق حين بدا سطوات عزته، بوصف الجبارية والقهارية بقوله: ﴿وأشرق الأرض بنور ربها﴾^(٢) وهناك يأخى يدخل الوجود تحت أذيال العدم؛ من استيلاء قهر أنوار القدم، قال: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾^(٣). قيل: فأين الأشياء إذ ذاك؟ قال: عادت إلى مصادرها. وقال: متى كانوا شيئاً حتى صاروا لا شيء؟ لأنهم أقل من الهباء في الهواء في جنب الحق. هـ.

وترى المجرمين، وهم الغافلون، مقرنين في قيود الأوهام، والشكوك، مسجونين في محيطات الأكوان، سراويلهم ظلمة الغفلة، تغشى وجوههم نار القطيعة، لا تظهر عليها بهجة المحبين، ولا أسرار العارفين. فعل ذلك بهم؛ ليظهر فضيلة المجتهدين. هذا بلاغ للناس، وليُنذروا به وبال الغفلة والحجاب، وليتحقق أولوا الأبواب أن الوجود إنما هو للواحد القهار. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.



(١) من الآية ٣٥ من سورة النور.

(٢) من الآية ٦٩ من سورة الزمر.

(٣) من الآية ٨٨ من سورة القصص.

سُورَةُ الْحَجَرِ

مكية . وهى تسع وتسعون آية . ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴾ (١) ، مع قوله جل جلاله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ ؛ فهى تتميم لعنوان القرآن ، وتفسير له .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرِّتْلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ (١) رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴾ (٣) ﴿

قلت : رب : حرف جر ، تدل على التقليل غالباً . وفيها ثمانى لغات : التخفيف ، والتثقيب مع ضم الراء وفتحها بالياء ، ودونها . وتدخل عليها (ما) فتكفها عن العمل ، ويجوز دخولها حينئذ على الفعل ، ويكون ماضياً ، أو منزلاً منزله فى تحقيق وقوعه ، وقد تدخل على الجملة الإسمية ؛ كقول الشاعر :

رَبِّمَا الْجَامِلُ الْمُوَبَّلُ فِيهِمْ وَعَنَاجِيحُ بَيْنَهُنَّ الْمَهَارُ

وجملة : (إلا ولها) : صفة لقريه ، والأصل ألا يدخلها الواو ، كقوله : ﴿ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ (٢) ، لكن لما شابهت صورة الحال دخلت عليها ؛ تأكيداً لوصفها بالموصوف .

يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المعظم ، ﴿ تِلْكَ ﴾ الآيات التى تتلوها هى ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ الذى أنزلناه إليك ، ﴿ وَ ﴾ آيات ﴿ قرآن ﴾ عربى ﴿ مبين ﴾ ؛ واضح البيان ، مبيناً للرشد والصواب ، فمن تمسك به وآمن بما فيه كان من المسلمين الناجين ، ومن تنكب عنه وكفر به كان من الكافرين الهالكين ، وسيندم حين لا ينفع الندم ، كما قال تعالى : ﴿ رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ : متمسكين بما فيه حتى يكونوا من الناجين . وهذا التمنى قيل : يكون عند الموت ، وقيل : فى القيامة ، وقيل : إذا خرج العصاة من النار ، وهذا أرجح ؛ لحديث فى ذلك (٣) . ومعنى التقليل فيه : أنه تدهشهم أهوال يوم القيامة ، فإن حانت منهم إفاقة فى بعض الأوقات تمنوا أن لو كانوا مسلمين .

(٢) من الآية ٢٠٨ من سورة الشعراء .

(١) من الآية ٥٢ من سورة إبراهيم .

(٣) عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : « إذا اجتمع أهل النار فى النار ، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة ، قال الكفار لمن فى النار من أهل القبلة : أستم مسلمين ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا فى النار ؟ قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا -

قال تعالى: ﴿ذَرِهِمْ﴾ : دعهم اليوم ﴿يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بدنياهم، ﴿وَيُلْهَبُهُمُ الْأَمَلُ﴾ : ويشغلهم توثقهم بطول الأعمار، واستقامة الأحوال، عن الاستعداد للمعاد، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءهم. والأمر للتهديد، والغرض: حصول الإياس من إيمانهم، والإيذان بأنهم من أهل الخذلان، وأن نصحبهم بعد هذا تعب بلا فائدة. وفيه إلزام الحجة لهم. وفيه التحذير عن إثثار التمتع، وما يؤدي إليه طول الأمل من الهلاك عاجلاً وآجلاً، ولذلك قال تعالى بعد: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ أي: أجل مقدر كتب في اللوح المحفوظ، ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا﴾ : أي: أجل هلاكها، ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ساعة. وتذكير الضمير في «يستأخرون» : للحمل على المعنى، لأن الأمة واقعة على الناس. والله تعالى أعلم.

الإشارة : انظر هذا التهديد العظيم، والخطر الجسيم لمن تمتع بدنياه، وعكف على حظوظه وهواه: (ذرههم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون). والله در القائل:

تَفَكَّرْتُ فِي الدُّنْيَا فِي شَهَوَاتِهَا وَلَدَائِهَا حَتَّى أَطَلْتُ التَّفَكُّرَ
وَكَيْفَ يَلِدُ الْعَيْشُ مَنْ هُوَ سَالِكٌ سَبِيلَ الْمَذَايَا رَائِحًا أَوْ مُبَكَّرًا
فَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي نَعِيمِهَا لَحُرٍّ مُقَلٍّ كَانَ أَوْ مُكْثَرًا

ثم أجاب من اقترح الآيات، فقال:

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ٦ ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ٧ ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ ٨ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ٩

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا﴾ : أي: كفار قريش: ﴿يا أيها الذين نزل عليه الذكر﴾ : في زعمه، أو قالوه تهكمًا، ﴿إنك مجنون﴾ : أي: إنك لتقول قول المجانين، حين تدعى أنه ينزل عليك الذكر، أي: القرآن. ﴿لو ما﴾ : هلا ﴿تأتينا بالملائكة﴾ : ليصدقوك فيما تدعى، أو يعضدوك على الدعوى، أو للعقاب على تكذيبنا، ﴿إن كنت من الصادقين﴾ : في دعواك، قال تعالى: ﴿ما نزل الملائكة﴾ : لعذابهم أو لغيره ﴿إلا بالحق﴾ : من الوحي، والمصالح التي يريد بها الله، لا باقتراح مقترح، أو اختيار كافر، أو: إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق، أي: بالوجه

بها، فيغضب الله تعالى لهم، بغضل رحمته، فيأمر بكل من كان من أهل القبلة في النار فيخرجون منها، فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين». أخرجه ابن جرير في التفسير، وابن أبي عاصم في السنة (٤٠٥/١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٢٥٥/٧) والحاكم في المستدرک (٤٤٢/٢) وصححه.

الذى قدره فى الأزل، واقتضته الحكمة الإلهية، وهو أنه لا تنزل إلا باستئصال العذاب، وقد سبق فى العلم القديم أن من ذريتهم من سبقت كلمتنا له بالإيمان، أو يراد بالحق: العذاب، ويؤيده قوله: ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مِنْظَرِينَ﴾؛ أى: ولو نزلت الملائكة لعوجلوا، وما كانوا، إذا نزلت، مؤخرين عن العذاب ساعة.

ثم رد إنكارهم نزول الذكر واستهزاءهم، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾؛ أى: القرآن، وأكد به بأن وضمير الفصل، وحفظه بعد نزوله، كما قال: ﴿وَإِنَّا لَهُ حَافِظُونَ﴾ من التحريف، والزيادة والنقص، بأن جعلناه معجزاً، مباحين لكلام البشر، لا يخفى تغيير نظمه على أهل اللسان. قال القشيري: نزل التوراة، ووكل حفظها إلى بنى إسرائيل، بما استحفظوا من كتاب الله، فحرفوا وبدلوا، وأنزل القرآن، وأخبر أنه حافظه، فلا جرم أنه كتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ويقال: إنه أخبر أنه حافظ القرآن، وإنما يحفظه بقرائه، فقلوب القراء هي خزائن كتابه؛ وهو لا يضيع حفظة كتابه، فإن فى ذلك تضييع كتابه. هـ.

وقال ابن عطية على قوله: ﴿ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾^(١): ذهبت جماعة من العلماء إلى أنهم بدلوا ألفاظاً من تلقائهم، وأن ذلك ممكن فى التوراة؛ لأنهم استحفظوها، وغير ممكن فى القرآن؛ لأن الله تعالى ضمن حفظه. هـ.

الإشارة: كل ما جاء فى القرآن من الإنكار على الرسل على أيدي الكفرة وتنقيصهم، والاستهزاء بهم، ففيه تسلية لمن بعدهم من الأولياء. وكذلك ما ذكره الحق تعالى من مقالات أهل الجهل فى جانبه؛ كقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾^(٣)، إلى غير ذلك من مقالات أهل الجهل، فكان الحق تعالى يقول: لو سلم أحد من الناس، لسلمت أنا وأنبيائي، الذين هم خاصة خلقى، فليكن بى وبرسلى أسوة لمن أودى من أوليائي. وبالله التوفيق.

ثم تم تلك التسلية، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

(٢) من الآية ١٨١ من سورة آل عمران.

(١) من الآية ٧٥ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٦٤ من سورة المائدة.

يقول الحق جل جلاله في تسلية رسوله - عليه الصلاة والسلام - : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك ﴿ رسلاً في شيع ﴾ : فرق ﴿ الأولين ﴾ أى : القرون الماضين ، جمع شيعة ، وهى : الفرقة المتفقة على طريق واحد ، وتنشيع لمذهب أو رجل ، من شاعه إذا تبعه ، أى : نبأنا رجالاً فيهم ، وجعلناهم رسلاً إليهم ، فكذبوهم واستهزؤوا بهم ، فكانوا : ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ كما يفعل بك هؤلاء المجرمون .

﴿ كذلك نسلك ﴾ أى : ندخل الاستهزاء ﴿ في قلوب المجرمين ﴾ . والسلك : إدخال الشيء فى الشيء كالخيط فى المخيط ، وفيه دليل على أنه تعالى يخلق الباطل فى قلوبهم . وإذا سلك فى قلوبهم التكذيب ﴿ لا يؤمنون به ﴾ أبداً . أو : نسلكه ، أى : القرآن ؛ مستهزئاً به ، أى : مثل ذلك السلك نسلك الذكر فى قلوب المجرمين ؛ مكذباً غير مؤمن به ، ثم هددهم على عدم الإيمان به ، فقال : ﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ أى : تقدمت طريقتهم على هذه الحالة من الكفر والاستهزاء ، حتى هلكوا بسبب ذلك ، أو مضت سنته فى الأولين بإهلاك من كذب الرسل منهم ، فيكون وعيداً لأهل مكة .

﴿ ولو فتحنا عليهم ﴾ أى : على هؤلاء المقترحين المعاندين من كفار قريش ، ﴿ باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ﴾ : يصعدون إليها ، ويرون عجائبها طول نهارهم ، لكذبوا ، أو فظلت الملائكة يعرجون فيها وهم يشاهدونهم لقالوا ؛ من شدة عنادهم وتشكيكهم فى الحق : ﴿ إنما سكرت ﴾ : حيرت ﴿ أبصارنا ﴾ ، فرأينا الأمر على غير حقيقته ؛ من أجل السكر الذى أصابنا بالسحر .

ويحتمل أن يكون مشتقاً من السكر بفتح السين ، وهو السد ، أى : سدت أبصارنا ، ومنعنا من الرؤية الحقيقية . ﴿ بل نحن قوم مسحورون ﴾ ؛ سحرنا محمد ، كما قالوا عند ظهور غيره من الآيات . قال البيضاوى : وفى كلمتى الحصر والإضراب دلالة على جزمهم بأن ما يرونه لا حقيقة له ، بل هو باطل خيل ما خيل لهم بنوع من السحر . هـ . وذلك من فرط عنادهم ، وشقاوتهم . والعياذ بالله .

الإشارة : هذا كله من قبيل التسلية لأهل الخصوصية ، إذا قوبلوا بالإنكار والاستهزاء ، فيرجعون إلى الله ، والاكتفاء بعلمه ، والاشتغال بالله عنه . وقد قال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رحمته : عداوة العدو حقاً هى اشتغالك بمحبة الحبيب ، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو نال مراده منك ، وفاتتلك محبة الحبيب . وقال الولي الصالح سيدى أبو القاسم الخصاصى رحمته لبعض تلامذته : لا تشغل قط بمن يؤذيك ، واشتغل بالله يردك عنك ، فإنه هو الذى حركه عليك ، ليختبر دعواك فى الصدق . وقد غلط فى هذا الأمر خلق كثير اشتغلوا بإيذاء من آذاهم ، فدام الأذى مع الإثم ، ولو أنهم رجعوا إلى الله لردهم عنهم ، وكفاهم أمرهم . هـ .

ثم دلهم على المعجزة الحقيقية ، التي تدلهم على التوحيد الذي فيه نجاتهم ، فقال :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُمْ رَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً ﴾ ؛ اثنتى عشر برجاً ، وهى : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت ، والبرج عبارة عن قطعة فى الفلك تقطعها الشمس فى شهر ؛ فتقطع البروج كلها فى سنة ، سنة يمانية ، وستة شمالية ، وهى مختلفة الهيئات والخواص ، على ما دل عليه الرصد والتجربة . وكل ذلك بقدرة المدبر الحكيم . قال تعالى : ﴿ وزيناها ﴾ بالأشكال والهيئات البهية ﴿ للنَّاظرين ﴾ المعتبرين ؛ ليستدلوا بها على قدرة مبدعها ، وتوحيد صانعها . ﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ : مرجوم ، فلا يقدر أن يصعد إليها ليسترق السمع منها ، أو يوسوس أهلها ، أو يتصرف فى أمرها ، أو يطلع على أحوالها .

﴿ إلا من استرق السمع ﴾ أى : حفظناها من الشياطين ، إلا من استرق منها . والاستراق : الاختلاس ، روى أنهم يركبون بعضهم بعضاً حتى يصلوا إلى السماء ، فيسمعون أخبار السماء من الغيب ، فيخطف الجن الكلمة قبل الرمى فيلقونها إلى الكهنة ، ويخلط معها مائة كذبة ، كما فى الصحيح . وروى عن ابن عباس : أنهم كانوا لا يحجبون عن السماوات ، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد محمد ﷺ منعوا من كلها بالشهب . وقيل : الاستثناء منقطع ، أى : ولكن من استرق السمع ، ﴿ فأتبعه ﴾ لحقه ﴿ شهاب مبين ﴾ ؛ ظاهر للمبصرين . والشهاب : شعلة نار يقتبسها الملك من النجم ، ثم يضرب به المسترق ، وقيل : النجوم هى التى تضرب بنفسها ، فإذا أصابت الشيطان قتلته أو خبلته فيصير غولاً .

ثم ذكر معجزة الأرض فقال : ﴿ والأرض مددناها ﴾ : بسطناها ، ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ ؛ جبلاً ثوابت ، ﴿ وأنبتنا فيها ﴾ ؛ فى الأرض ، أو فيها وفى الجبال ﴿ من كل شىء موزون ﴾ ؛ مقدر بمقدار معين تقتضيه

حكمته. فالوزن مجاز، أو ما يوزن حقيقة كالعشب النافعة، أو كالذهب والفضة وسائر الأطعمة. ﴿وجعلنا لكم فيها معاش﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس، ﴿و﴾ ﴿خلقنا لكم﴾ من لستم له برازقين ﴿من الولدان والخدمة والممالك، وسائر ما تظنون أنكم ترزقونهم ظناً كاذباً؛ فإن الله يرزقكم وإياهم.

قال البيضاوي: وفذلكة الآية: الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار معين، مختلفة الأجزاء في الوضع، محدثة فيها أنواع النباتات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة، مع جواز ألا تكون كذلك؛ على كمال قدرته، وتناهي حكمته، والتفرد في ألوهيته، والامتنان على العباد بما أنعم في ذلك ليوحدوه ويعبدوه. ثم بالغ في ذلك فقال: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ أي: وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه، فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره، أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد. هـ. قال ابن جزى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾؛ قيل: المطر، واللفظ أعم من ذلك، والخزائن: المواضع الخازنة، وظاهر هذا أن الأشياء موجودة قد خلقت. هـ. ﴿وما ننزله﴾ أي: نبرزه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ﴿إلا بقدر معلوم﴾: بمقدار محدود في وقت معلوم اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة، لا يزيد ولا ينقص على ما سبق به العلم.

﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾: حوامل للماء في أوعية السحاب، يقال: لقحت الناقة والشجرة إذا حملت، فهي لاقحة، وألقحت الريح الشجر فهي ملقحة. ولواقح: جمع لاقحة، أي: حاملة، أو جمع ملقحة على حذف الميم الزائدة، فهي على هذا ملقحة للسحاب أو الشجر، ونظيره: الطوائح، بمعنى المطيحات في قوله:

وَمُخْتَبِطٌ مِّمَّا تَطِيحُ الطَّوَائِحُ^(١)

والرياح أربعة: صبا، ودبور، وجنوب، وشمال. والعرب تسمى الجنوب الحامل واللاقحة، وتسمى الشمال الحائل والعقيم. وفي البخاري ص ١٠٠: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدُّبُورِ»^(٢). وروى أبو هريرة ص ١٠٠، عنه ص ١٠٠ أنه قال: «الريح الجنوب من الجنة، وهي اللواقح التي ذكر الله، وفيها منافع للناس»^(٣). وفي حديث: «الريح من نفس الرحمن»^(٤). والإضافة هنا إضافة خلق إلى خالق، كما قال: ﴿من روحى﴾^(٥). ومعنى نفس الرحمن، أي:

(١) عجز بيت صدره: (لبيك يزيد ضارع لخصومة). وينسب البيت لأكثر من واحد، والمختبط: طالب العرف المحتاج، تطيح: تذهب وتهلك، والطوائح: جمع المطيحة، بمعنى السنين أو الجوائح. انظر حاشية الشهاب (٢٨٩/٥).

(٢) أخرجه البخاري؛ (كتاب الاستسقاء، باب إذا هبت الريح) من حديث ابن عباس - ص ١٠٠.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره. ووزاد السيوطي، في الدر المنثور (١٧٩/٤)، عزوه لابن أبي الدنيا في كتاب السحاب، وأبى الشيخ في العظمة، وأنديلمى في المسند، وابن مردويه، من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه أبو داود في (الأدب، باب: ما يقول إذا هاجت الريح)، عن أبي هريرة، مرفوعاً، بلفظ: (الريح من روح الله)؛ مطولاً.

(٥) من الآية ٢٩ من سورة الحجر.

من تنفيسه وإزالة الكرب والشدائد، فمن التنفيس بالريح: النصر بالصبا، وذر الأرزاق بها، وجلب الأمطار، وغير ذلك مما يكثر عده. قاله ابن عطية.

والمختار في تفسير اللواقع: أنها حاملة للماء، بدليل قوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أى: جعلناه لكم سقياً. يقال: سقى وأسقى بمعنى واحد عند الجمهور. ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾: بممسكين له فى الجبال، والغدران، والعيون، والآبار، فتخرجونه متى شئتم، بل ذلك من شأن المدبر الحكيم، فإن طبيعة الماء تقتضى الغور، فوقوفه دون حد لا بد له من مسبب مخصص، وجريه بلا انتهاء لا يكون إلا بقدره السميع العليم، الذى لا تنتهى قدرته. أو: ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾: بقادرين متمكنين من إخراجه وقت الاحتياج إليه. نفى عنهم ما أثبتته لنفسه بقوله: ﴿عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ أى: نحى من نريد إحياءه بإيجاد الحياة فيه، ونميت من نريد إماتته بإزالة الحياة منه. وقد أول الحياة بما يعم الحيوان والنبات. وتكرير الضمير؛ للدلالة على الحصر. ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾: الباقون إذا مات الخلائق كلهم.

﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ أى: علمنا من تقدم؛ ولادة، ومن تأخر، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد، أو من تقدم إلى الإسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة، ومن تأخر، لا يخفى علينا شيء من أحوالكم. وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته، فإن ما يدل على كمال قدرته دليل على كمال علمه. قيل: رغب رسول الله ﷺ فى الصف الأول، فازدحموا عليه، فنزلت، وقيل: إن امرأة حسناء كانت تصلى خلف رسول الله ﷺ، فتقدم بعض القوم؛ لئلا ينظر إليها، وتأخر بعض؛ ليبصرها، فنزلت^(١). قاله البيضاوى.

﴿وَإِنْ رِبْكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ لا محالة للجزاء، كأن هذا هو الغرض من ذكر العلم بالمتقدمين والمتأخرين؛ لأنه إذا أحاط بهم علماً لم تصعب عليه إعادتهم وحشرهم. ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ باهر الحكمة، ﴿عَلِيمٌ﴾ واسع العلم والإحاطة بكل معلوم. قال البيضاوى: وفى توسيط الضمير - يعنى فى قوله: ﴿هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾؛ للدلالة على أنه القادر والمتولى لحشرهم لا غيره، وتصدير الجملة بأن؛ لتحقيق الوعيد والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم. هـ.

الإشارة: ولقد جعلنا فى سماء قلوب العارفين بروجاً، وهى المقامات التى ينزلون فيها بشموس عرفانهم، وهى: التوبة، والخوف، والرجاء، والورع، والزهد، والصبر، والشكر، والرضى، والتسليم، والمحبة، والمراقبة،

والمشاهدة. وزيناها للناظرين؛ أى: السائرين حتى يقطعوها جملة محمولين بعناية الجذب، حتى يحلّو لهم ما كان مُراً على غيرهم، وحفظنا سماء قلوبهم من طوارق الشيطان، إلا ما كان طيفاً خيالياً لا يثبت، بل يتبعه شهاب الذكر فيحرقه، وأرض النفوس مددناها لقيام رسم العبودية، وظهور عالم الحكمة وآثار القدرة، وألقينا فيها جبال العقول الرواسي، لتعرف الرب من المربوب الذى اقتضته الحكمة. وأنبتنا فيها من العلوم الرسمية والعقلية، ما قدر لها فى العلم المكنون، وجعلنا لكم فيها من علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين ما تنفقت به قلوبكم، ونعيش به أرواحكم وأسراركم، وتعولون به من لستم له برازقين من المریدين السائرین.

سئل سهل رحمته عن القوت، فقال: هو الحى الذى لا يموت، فقيل: إنما سألناك عن القوام. فقال: القوام هو العلم، فقيل: سألناك عن الغذاء، فقال: الغذاء هو الذكر، فقيل: سألناك عن طعام الجسد، فقال: مالك وللجسد، دع من تولاه أولاً يتولاه آخرًا، إذا دخلت عليه علة رده إلى صانعه، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردها إلى صانعها حتى يصلحها. وأنشدوا:

يَا خَادِمَ الْجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ وَتَطْلُبُ الرِّيحَ مِمَّا فِيهِ خُسْرَانُ
عليك بالنفس فاستكمل فضيلتها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

واستكمال فضيلة النفس هو تركيتها وتحليتها حتى تشرق عليها أنوار العرفان، وتخرج من سجن الأكوان. وبالله التوفيق. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الأرزاق المعنوية والحسية، أو العلوم الدنية، والفتوحات القدسية، ﴿إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾؛ فمن توجه بكلية إلينا فتحنا له خزائن غيبنا، وأطلعناه على مكنون سرنا شيئاً فشيئاً، ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾. وقال الورتجبي: علم الإشارة فى الآية: دعوة العباد إلى حقائق التوكل، وهى: قطع الأسباب، والإعراض عن الأغيار، قيل: كان الجنيد رحمته إذا قرأ هذه الآية: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾، قال: فأين تذهبون؟ وقال حمدون: قطع أطماع عبده عن سواه بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾، فمن رفع بعد هذا حاجته إلى غيره، فهو لجهله ولؤمه. هـ.

وأرسلنا رياح الهداية نوائح، تلقح الطمأنينة والمعرفة فى قلوب المتوجهين، وتلقح اليقين والتوفيق فى قلوب الصالحين، وتلقح الإيمان والهداية فى قلوب المؤمنين، فأنزلنا من سماء الغيب ماء العلم اللدنى، فأسقيناكموه على أيدي وسائط الشيوخ، أو بلا واسطة، وما أنتم له بخازنين، بل يفيض على قلوبكم عند غلبة الحال، أو لهداية مريد، أو عند الاحتياج إليه عند استفتاح القلوب، وإنا لنحن نحى قلوباً بالمعرفة واليقين، ونميت قلوباً بالجهل والكفر، ونحن الوارثون؛ لبقاء أنوارنا على الأبد. ولقد علمنا المستقدمين منكم إلى حضرة قدسنا بالاستعداد، وإعطاء الكلية

من نفسه، ولقد علمنا المستأخرين عنها بسبب ضعف همته، وإن ربك هو يحشرهم؛ فيُقرب قوماً لسبقهم، ويبعد آخرين لتأخرهم. إنه حكيم عليم.

ثم ذكر أول نشأة الثقلين، ليدل بها على الحشر والإعادة، فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ

السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

قلت: قال في الصحاح: الحمأ المسنون: المنتن المتغير. وسنة الوجه: صورته، ثم قال: والمسنون: المصور، وقد سَنَنْتُهُ أسْنُهُ سَنًا إذا صورته، والمسنون: المملس. وفي القاموس: الحمأ المسنون: المنتن، ورجل مسنون الوجه: مملسه، حسنه، سهله. أو في وجهه وأنفه طول. وسنن الطين: عمله فخاراً. هـ. وفي ابن عطية: هو من سنتت السكين والحجر: إذا أحكمت تلميسه. انظر بقية كلامه. وموضع ﴿من حمأ﴾: نعت لصلصال، أى: كائن من حمأ. و(الجان): منصوب بمحذوف يفسره ما بعده.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾؛ أى: أصله، وهو آدم، ﴿من صلصال﴾ أى: طين يابس يصلصل. أى: يصوت إذا نقر فيه وهو غير مطبوخ، فإذا طبخ فهو فخار، ﴿من حمأ﴾: من طين أسود ﴿مسنون﴾: متغير منتن، من سنتت الحجر على الحجر إذا حككته به؛ فإن ما يسيل بينهما يكون منتناً، ويسمى سنيئاً. أو مسنون: مصور، أو مصبوب ليتصور، كالجواهر المذابة تصب في القوالب، من السن، وهو الصب، كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف، فيبس حتى إذا نقر يصلصل، ثم غير ذلك طوراً بعد طور حتى سواه ونفخ فيه من روحه.

﴿والجان﴾ وهو: إبليس الأول، ومنه تناسلت الجن، ﴿خلقناه من قبل﴾ أى: من قبل خلق الإنسان، ﴿من نار السَّمُومِ﴾: من نار الحر الشديد النافذ في المسام، ولا يمتنع خلق الحياة في الأجرام البسيطة، كما لم يمتنع خلقها في الجواهر المجردة، فضلاً عن الأجساد المولفة، التى الغالب فيها الجزء النارى، فإنها أقبل منها لها من التى الغالب فيها الجزء الأرضى. وقوله: ﴿من نار﴾: لاعتبار الغائب، كقوله: ﴿خلقكم من تراب﴾^(١). ومساق الآية كما هو للدلالة على قدرة الله تعالى، وبيان بدء خلق الثقلين، فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التى يتوقف عليها إمكان الحشر، وهو قبول المواد للجمع والإحياء. قاله البيضاوى.

(١) من الآية ١١ من سورة فاطر.

الإشارة : اعلم أن الخمرة الأزلية، حين تجلت في مرآى جمالها، تلونت في تجليها، فتجلت نورانية ونارية، ومائية وترابية، وسماوية وهوائية، إلى غير ذلك من ألوان تجلياتها، فكانت الملائكة من النور، والجن من النار، والآدمي من التراب، إلا أن الآدمي فيه روح نورانية سماوية، فاجتمع فيه الضدان: النور والظلمة؛ فشرف قدره في الجملة، فاستحق الخلافة، فإذا غلبت روحانيته على جسمانيته فضل على جميع التجليات، وما مثاله إلا كالمرأة التي خلفها الطلاء، فينطبع فيه الوجود بأسره، إذا صقلت مرآة قلبه، فتكون معرفته بالحق أجلى وأنصح من معرفة غيره؛ لأن المرأة التي خلفها الطلاء يتجلى فيها ما يقابلها أكثر من غيرها. وأيضاً بشرية الآدمي كالياقوتة السوداء إذا صقلت كانت أعظم اليواقيت. وسيأتى بقية الكلام عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (١) إن شاء الله.

ثم ذكر تشريف آدم الملائكة بالسجود له، فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

قلت : (وإذ قال) : ظرف لا ذكر، وقوله : (فقعوا) : أمر، من وقع، يقع، قَعُ ، فهو مما حذفت فاؤه . وقوله : ﴿فسجد﴾ معطوف على محذوف، أى : فخلقه، وأمر الملائكة فسجدوا.

(١) من الآية ٧٠ من سورة الإسراء.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ و ﴾ اذكر يا محمد ﴿ إذ قال ربك للملائكة ﴾ ، قبل خلق آدم : ﴿ إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ﴾ ، وصفه لهم بذلك ليظهر صدق من يمثل أمره ، قال تعالى : ﴿ فإذا سويته ﴾ : عدلت خلقته وهيأتها لنفخ الروح فيها ، ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ ؛ حين جرى آثاره في تجاويف أعضائه فحيى ، وأصل النفخ : إجراء الروح في تجويف جسد آخر . ولما كان الروح يتعلق أولاً بالبخار اللطيف المنبعث من القلب ، وتفيض عليه القوة الحيوانية فيسرى في تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن ، جعل تعلقه بالبدن نفخاً . قاله البيضاوى . وأضاف الروح إلى نفسه إضافة ملك إلى مالك ، أى : من الروح الذى هو لى ، وخلق من خلقى .

فإذا نفخت فيه ﴿ فقعدوا ﴾ : فاسقطوا ﴿ له ساجدين ﴾ . فسجد الملائكة ﴿ حين أكمل خلقته ﴾ ، وأمرهم بالسجود ، وقيل : اكتفى بالأمر الأول ، ﴿ كلهم أجمعون ﴾ ، أكد بتأكيدين للمبالغة في التعميم ومنع التخصيص ، ﴿ إلا إبليس أبى ﴾ : امتنع ﴿ أن يكون مع الساجدين ﴾ ، قال البيضاوى : إن جعل الاستثناء منقطعاً اتصل به قوله : ﴿ أبى ﴾ ؛ أى : لكن إبليس أبى أن يسجد^(١) ، وإن جعل متصلاً كان قوله ﴿ أبى ﴾ : استئنافاً ، على أنه جواب سائل قال : هلا سجد ؟ فقال : أبى . الخ . قلت : والأحسن : أن يقدر السؤال بعد قوله : ﴿ إلا إبليس أبى ﴾ أى : وما شأنه ؟ فقال : أبى أن يكون مع الساجدين .

قال تعالى : ﴿ يا إبليس مالك ﴾ ؛ أى شئ عرض لك ، ﴿ ألا تكون مع الساجدين ﴾ لآدم ؟ ﴿ قال لم أكن لأسجد ﴾ أى : لا يصح منى ، بل ينافى حالى أن أسجد ﴿ لبشر ﴾ جسمانى كئيف ، وأنا روحانى لطيف ، وقد ﴿ خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾ ، وهو أخس العناصر ، وخلقتنى من نار وهى أشرفها . استنقص آدم من جهة الأصل ، وغفل عن الكمالات التى خصه الله بها ، منها : أنه خلقه بيديه بلا واسطة ، أى : بيد القدرة والحكمة ، بخلاف غيره ، ومنها : أنه خصه بالعلوم التى لم توجد عند غيره من الملائكة ، ومنها : أنه نفخ فيه من روحه المضافة إلى نفسه ، ومنها : أنه جعله خليفة فى أرضه ... إلى غير ذلك من الخواص التى تشرف بها فاستحق السجود .

(١) وهذا هو الصحيح ؛ فإبليس ، بنص الآية السابقة عن خلق الجان ، قد خلق من نار السموم ، فهذا نص فى اختلاف خلقته ، وخلقته عن الملائكة ، فهو جنس آخر غير الملائكة التى خلقها الله من نور ، ولا يعصون الله ما أمرهم ، فهذان دليلان قطعيان فى الثبوت والدلالة ، على أن إبليس ليس ، ولم يكن من الملائكة ، لا خلقاً ولا خلقاً ، فالاستثناء منقطع .

قال له تعالى لَمَّا امْتَنَّعَ وَاسْتَكْبَرَ: ﴿فَاخْرَجُ مِنْهَا﴾ أى: من السماء، أو من الجنة، أو من زمرة الملائكة، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾: مطرود من الخير والكرامة؛ فَإِنَّ مَنْ يُطْرَدُ يُرْجَمُ بالحجر، أو شيطان يَرجم بالشَّهَب، فهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته، أى: ليس الشرف بالأصل، إنما الشرف بالطاعة والقرب. ﴿وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ﴾: الطرد والإبعاد ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾: يوم الجزاء، ثم يتصل باللعن الدائم. وقيل: إنما حد اللعن لأنه أبعد غاية يضربها الناس، أو لأنه يعذب فيه بما ينسى اللعن، فيصير كأنه زال عنه ذلك اللعن.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾: أخرنى ﴿إِلَى يَوْمٍ يُعْثُونَ﴾، أراد أن يجد فسحة في الإغواء، ونجاة من الموت، إذ لا موت بعد وقت البعث، فأجابه إلى الأول دون الثانى، ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾: المعين فيه أجلك عند الله، وانقراض الناس كلهم، وهو النفخة الأولى عند الجمهور.

وهذه المخاطبة، وإن لم تكن بواسطة، لا تدل على منصب إبليس؛ لأن خطاب الله له على سبيل الإهانة والإذلال. قاله البيضاوى. وجزم ابن العربى، فى سراج المريدين، بأن كلام الحق تعالى إنما كان بواسطة، قال: لأن الله لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس، فكيف يكلم من تولى إضلالهم. هـ. وتردد المازرى فى ذلك وقال: لا قاطع فى ذلك، وإنما فيه ظواهر، والظواهر لاتفيد اليقين. ثم قال: وأما قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾: فيحتمل أن يكون بواسطة أو غيرها، نقول العرب: كلمت فلاناً مشافهة، بالكلام، وتارة بالبعث. هـ. قلت: الظاهر أنه كلمه بلا واسطة من وراء حجاب، كلام عتاب وإهانة، كما يوبخ الكفار يوم القيامة، مع أن الوسطة محذوفة عند المحققين، وإن وجدت، صورة.

ثم قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أى: بسبب إغوائك لى، ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، وقيل: الباء للقسم، أى: بقدرتك على إغوائى، لأزينن لهم المعاصى والكفر فى الدنيا، التى هى دار الغرور. قال ابن عطية: قوله: ﴿رَبِّ﴾: مع كفره، يخرج على أنه يقر بالربوبية والخلق، وهذا لا يدفع فى صدر كفره. وقال، على قوله: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ﴾: ليس هذا موضع كفره عند الحذاق؛ لأن إيجابته إنما هى معصية فقط، أى: وإنما كفره لا اعتراضه لأمر الحق واستكباره. وأما قوله وتعليله فإنما يقتضى أن آدم مفضول، وقد أمره أن يسجد لمن هو أفضل منه، فرأى أن ذلك جور، فقاى وأخطأ، وجهل أن الفضائل إنما هى حيث جعلها الله تعالى المالك للجميع. هـ. مختصراً. وقال المازرى: أما كفر إبليس فمقطوع به؛ لقوله: ﴿اسْتَكَبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(١) ثم قال: ويؤكد قوله: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ...﴾ الآية^(٢)، وغير ذلك من ظواهر ما يدل على كفره.

(١) من آية ٣٤ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٨٥ من سورة (ص).

وأما: هل حدث هذا الكفر بعد إيمان سابق، أو لم يزل كافراً منذ كان؟ فهذا لا يحصله إلا نص قرآن، أو خبر متواتر، أو إجماع أمة، وهى المحصلة للعلم، وهذه الثلاثة مفقودة هنا. هـ. قلت: والظاهر أن كفره لم يظهر إلا بعد الأمر بالسجود لآدم، وإنما سبق به العلم القديم، وكان قد أظهر الإيمان والعبادة والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أى: لأحملتهم على الغواية أجمعين، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾؛ الذين أخلصتهم لطاعتك، وطهرتهم من الشهوات، فلا يعمل فيهم كيدى. ومن قرأ بالكسر فمعناه: الذين أخلصوا دينهم لله، وتحصنوا بالإخلاص فى سائر أعمالهم. ﴿قَالَ﴾ تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، الإشارة إلى نجاة المخلصين، أو إلى العبادة والإخلاص، أى: هذا الطريق الذى سلكه أهل الإخلاص فى عبوديتهم هو طريق وارد على، وموصل إلى جوارى، لا سبيل لك على أهله؛ لأنه مستقيم لا عوج فيه. وقيل: الإشارة إلى انقسام الناس إلى غاو ومخلص، أى: هذا أمر إلى مصيره، والنظر فيه لى، على أن أراعيه وأبينه، مستقيم لا انحراف فيه. وقرأ الضحاك ومجاهد والنخعي، وغيرهم: «على»؛ بكسر اللام والتنوين، من العلو والشرف، والإشارة حينئذ إلى الإخلاص، أى: هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت يا غوائك أهله يا إبليس.

الإشارة: إنما يصعب الخضوع للجنس أو لمن دونه، فى حق من يغلب حسه على معناه، وفرقه على جمعه، وأما من غلب معناه على حسه، حتى رأى الأشياء الحسية أو اتى حاملة للمعاني، أى: لمعاني أسرار الربوبية، بل رآها أنواراً بارزة من بحر الجبروت، لم يصعب عليه الخضوع لشيء من الأشياء؛ لأنه يراها قائمة بالله، ولا وجود لها مع الله، فلا يخضع حينئذ إلا لله، فالملائكة - عليهم السلام - نفذت بصيرتهم، قرأوا آدم عليه السلام قبله للحضرة القدسية، فغلب عليهم شهود المعاني دون الوقوف مع الأوانى، فخضعوا لآدم صورة، والله حقيقة. وإبليس وقف مع الحس، وحجب بالفرق عن الجمع، فلم ير إلا حس آدم دون معناه، فامتنع عن السجود. وفى الحكم العطائية: «فمن رأى الكون، ولم يشهد الحق فيه، أو عنده، أو قبله، أو بعده، أو معه، فقد أعوزه وجود الأنوار، وحجبت عنه شمس المعارف بسحب الآثار». ولهذا المعنى صعب الخضوع للأشباح؛ لغلبة الفرق على الناس، إلا من سبقت له العناية، فإنه يخضع مع الفرق؛ محبة لله، حتى يفتح الله عليه فى مقام الجمع، فيخضع لله وحده. والتوفيق لهذا، والسير على منهاجه - أعنى الخضوع لمن يوصل إلى الله - هو الصراط الذى أشار إليه الحق تعالى بقوله: (هذا صراط على مستقيم). والله تعالى أعلم.

ثم ذكر من لا تسلط للشيطان عليه، فقال:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤٢) وَإِنَّ

جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ
 الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَذْخُلُوها بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ
 غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

قلت: (إلا من اتبعك): يحتمل أن يكون منقطعاً، ويريد بالعباد: الخصوص من أهل الإيمان والإخلاص، أى: إن عبادى المخلصين لا تسلط لك عليهم، لكن من اتبعك من الغاوين فهو من حزبك. ويحتمل الاتصال، ويريد بالعباد جميع الناس، أى: إن عبادى كلهم ليس لك عليهم سلطان، إلا من اتبعك من أهل الغواية، فإنك تتسلط عليه بالوسوسة والتزيين والتحريض فقط، فيتبعك؛ لقوله يوم القيامة: ﴿وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى﴾ (١). وعلى الإتصال يكون المستثنى منه أكثر من المستثنى، وإلا تناقض مع قوله: «لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين». قال أبو المعالى: كون المستثنى أكثر من المستثنى منه ليس معروفاً فى كلام العرب. انظر ابن عطية والبيضاوى .

و«منهم»: حال من جزء مقدم، أى: لكل باب جزء حاصلٌ منهم مقسوم، أو من المستكن فى الطرف لا من مقسوم؛ لأن الصفة لا تعمل فيما تقدم موصوفها. و«إخواناً»: حال من الضمير المضاف إليه؛ لأنه جزء ما أضيف إليه، والعامل فيه: الاستقرار، أو معنى الإضافة، وكذا: «على سرر متقابلين»، ويجوز أن يكونا صفتين لإخوان، أو حالين من ضميره .

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ المتحققين بالعبودية لى، المخلصين فى أعمالهم، ﴿ليس لك﴾ يا إبليس ﴿عليهم سلطان﴾ أى: غلبة وتسلط بالغواية والإضلال، ﴿إلا من اتبعك من الغاوين﴾ الذين سبقَتْ لهم الغواية، وتنكبَتْهم العناية. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾: لموضع إبعاد الغاوين أو المتبعين لك ﴿أجمعين﴾، ﴿لها سبعة أبواب﴾ يدخلون فيها لكثرتهم، أو طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى المتابعة، وفى كل طبقة باب يسلك منه إليها، فأعلاها: جهنم، وهى للمذنبين من الموحدين، ثم لظى لليهود، ثم الحطمة للنصارى، ثم السعير للصابئين، ثم سقر للمجوس، ثم الجحيم للمشركين، وكبيرهم أبو جهل، ثم الهاوية، وهى الدرك الأسفل، للمنافقين،

(١) من الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

وعبر في الآية عن النار؛ جملة، بجهنم؛ إذ هي أشهر منازلها وأولها، وهو موضع العصاة الذين لا يخلدون، ولهذا روي أن جهنم تخرب وتبلى، يعنى: حين يخرج العصاة منها. وقيل: أبواب الطبقات السبع كلها من جهنم، ثم ينزل من كل باب إلى طبقته التي تفضي إليه. قاله ابن عطية.

قال البيضاوي: ولعل تخصيص العدد بالسبعة، لانهصار مجامع المهلكات في الركون إلى المحسوسات، ومتابعة القوة الشهوية والغضبية. هـ. فالقوة الشهوية محلها ست وهي: السمع والبصر والشم واللسان والبطن والفرج. والقوة الغضبية في البطش باليد والرجل، فالمعاصي المهلكات كلها من هذه السبع، وملكها القلب، إذا صلح صلت، وإذا فسد فسدت. كما في الحديث. ثم قال البيضاوي: أو لأن أهلها فرق سبع. هـ. يعنى: الفرق التي تقدمت للطبقات، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ أى: من الأتباع ﴿جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ أفرد له، لا يدخل إلا منه، ولا يسكن إلا في طبقته. وقد تقدم أهل كل طبقة، من عصاة الموحدين إلى المنافقين.

ثم شفع بضدّهم، على عادته سبحانه وتعالى في كتابه، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ للكفر والفواحش، أو لمتابعة إبليس، ﴿فِي جَنَاتٍ وَعَيْونَ﴾، لكل واحد جنة وعين، أو لكل واحد جنات وعيون، يقال لهم عند دخولهم: ﴿ادْخُلُوهَا﴾، وقرأ رويس عن يعقوب: ﴿ادْخُلُوهَا﴾؛ بضم الهمزة وكسر الخاء، على البناء للمفعول، فلا يكسر حينئذ التنوين، أى: تقول الملائكة لهم: ادخلوها، أو قد أدخلهم الله إياها. ﴿بِسَلَامٍ﴾ أى: سالمين من المكاه والآلام، أو مسلماً عليكم بالتحية والإكرام، ﴿آمِينَ﴾ من الآفة والزوال.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ أى: من حقد وعدارة كانت في الدنيا، وعن علي عليه السلام: (أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم)، أو من التحاسد على درجات ومراتب القرب.

قلت: أما التحاسد على مراتب القرب فلا يكون؛ لاستغناء كل أحد بما لديه، وأما التأسف والندم على فوات ذلك بالتفريط في الدنيا فيحصل، ففي الحديث: «لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ لَهُمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهَا»^(١). ولا يحصل التحسر حتى يرى ما فاته باعتبار وقوفه. قال ابن عطية: ذكر هنا نزع الغل من قلوب أهل الجنة، ولم يذكر له موطناً، وجاء في بعض الحديث أن ذلك على الصراط، وجاء في بعضها: أن ذلك على أبواب الجنة، وفي بعضها: أن الغل يبقى على أبوابها كمعاطن الإبل. ثم قال: وجاء في بعض الأحاديث: أن نزع الغل إنما يكون بعد استقرارهم في الجنة. والذي يقال في هذا: أن الله ينزعه في موطن من قوم وفي موطن من آخرين. هـ.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (باب في محبة الله عز وجل ٥١٢) من حديث معاذ بن جبل، وعزاه السيوطي في الجامع الصغير (٤٧١/٢) للطبراني والبيهقي في الشعب، ورمز له بالحسن.

قلت: والذي جاء في الأحاديث الواردة في أخبار الآخرة: أن أهل الجنة، إذا قربوا منها وجدوا على بابها عيينين، فيغتسلون في إحداهما، فتقلب أجسادهم على صورة آدم ﷺ، ثم يشربون من الأخرى فتطهر قلوبهم من الغل والحسد، وسائر الأمراض، وهو المشراب الطهور. قال القشيري في قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (١): يقال: يطهرهم من محبة الأغيار، ويقال: يطهرهم من الغل والغش والدعوى... الخ ما يأتي إن شاء الله تعالى. والله تعالى أعلم، وسترى وتعلم.

ثم قال تعالى: ﴿إِخواناً﴾، أي: لما نزعنا ما في صدورهم من الغل صاروا إخواناً متوددين، لا تباغض بينهم ولا تحاسد، ﴿على سررٍ متقابلين﴾؛ يقابل بعضهم بعضاً على الأسرة، لا ينظر أحد في فناء صاحبه. وقال شيخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي: المتجه أن المقابلة معنوية، وهي عدم إضرار الغل والإعراض، سواء اتفق ذلك حساً أم لا، ومن أضمر لأخيه غلاً فليس بمقابل، ولو كان وجهه إلى وجهه، بل ذلك أخلاق نفاق، ولذلك شواهد بذمه لا بمدحه. هـ. ﴿لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب، ﴿وما هم منها بمخرجين﴾، لأن تمام النعمة لا يكون إلا بالخلود والدوام فيها. أكرمنا الله بتمام نعمته، ودوام النظر إلى وجهه. آمين.

الإشارة: لا ينقطع عن العبد تسلط الشيطان حتى يدخل مقام الشهود والعيان، حين يكون عبداً خالصاً لله، حراً مما سواه، وذلك حين ينخرط في سلك القوم، ويحول عنه لوث الحدوث والعدم، فيفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل، وذلك بتحقيق مقام الفناء، ثم الرجوع إلى مقام البقاء. قال الشيخ أبو المواهب ربه: من رجع إلى البقاء أمن من الشقاء؛ وذلك أن العبد حين يتصل بنور الله، ويصير نوراً من أنواره، يحترق به الباطل ويدمغ، فلا سبيل للأغيار عليه. ولذلك قال بعضهم: نحن قوم لا نعرف الشيطان، فقال له القائل: فكيف، وهو مذكور في كتاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (٢). فقال: نحن قوم اشتغلنا بمحبة الحبيب، فكفانا عداوة العدو. وحين يتحقق العبد بهذا المقام ينخرط في سلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ. ونزعنا ما في صدورهم من غل...﴾ الآية، وهذا لا ينال إلا بالخضوع لأهل النور، حتى يوصلوه إلى نور النور، فيصير قطعة من نور، غريقاً في بحر النور. ومع هذا لا ينقطع عنه الخوف والرجاء، لقوله تعالى:

﴿ نَبِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝ ﴾

(١) من الآية ٢١ من سورة الإنسان.

(٢) من الآية ٦ من سورة فاطر.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ نَبِيٍّ ﴾ : أخبر، ﴿ عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾ لمن آمن بي، وصدق رسله، ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ لمن كفر بي، وجحد رسله، أو بعضهم. قال البيضاوي : هي فذلّة ما سبق من الوعد والوعيد، وتقرير له، وفي ذكر المغفرة دليل على أنه لم يرد بالمتقين متقى الذنوب بأسرها، كبيرها وصغيرها، وفي توصيف ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيب - أي : لم يقل وأنا المعذب المؤلم - ترجيح الوعد. هـ.

وذكر ابن عطية أن سبب نزولها: أن رسول الله ﷺ جاء إلى جماعة من أصحابه، عند باب بنى شيبّة في الحرم، فوجدهم يضحكون، فزجرهم ووعظهم، ثم ولى، فجاءه جبريل عن الله، فقال: يا محمد أتقنّ عبادي؟ وتلى عليه الآية، فرجع بها رسول الله ﷺ إليهم وأعلمهم (١). هـ. ثم قال: ولو لم يكن هذا السبب لكان ما قبلها يقتضيها؛ إذ تقدم ذكر ما في النار وذكر ما في الجنة، فأكد تعالى تنبيه الناس بهذه الآية. هـ.

قيل : وهذه الآية أبلغ ما في القرآن في إثارة الخوف والرجاء، من الآي التي لا تشبهها في الإجمال؛ لما فيها من التصريح، ثم الرجاء فيها أغلب؛ لأجل التقديم، مع ذكره في آية الرجاء، لصفاته العلية وأسمائه الحسنی، وذلك يؤذن بالتهم به وترجيحه، وهو مذهب الصوفية في حال الحياة والممات.

الإشارة : الخوف والرجاء يتعاقبان على الإنسان، فتارة يغلب عليه الخوف، وتارة يغلب عليه الرجاء. هذا قبل الوصول، وأما بعد الوصول فالغالب عليهم الاعتدال، قال في التنبيه: أما العارفون الموحدون فإنهم على بساط القرب والمشاهدة، ناظرون إلى ربهم، فانون عن أنفسهم، فإذا وقعوا في ذلة، أو أصابتهم غفلة، شهدوا تصريف الحق تعالى لهم، وجريان قضائه عليهم. كما أنهم إذا صدرت منهم طاعة، أو لاح منهم لائح من يقظة، لم يشهدوا في ذلك أنفسهم، ولم يروا فيها حولهم ولا قوتهم؛ لأن السابق إلى قلوبهم ذكر ربهم، فأنفسهم مطمئنة تحت جريان أقداره، وقلوبهم ساكنة بما لاح لهم من أنواره، ولا فرق عندهم بين الحالين؛ لأنهم غرقى في بحار التوحيد، قد استوى خوفهم ورجاؤهم، فلا ينقص من خوفهم ما يجنبونه من العصيان، ولا يزيد في رجائهم ما يأتون من الإحسان. هـ. قلت: بل طرق الرجاء عندهم أرجح، كما تقدم؛ لأن الرجاء ناشئ عن غلبة المحبة، وهي غالبية. والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه بنحوه الطبري في تفسيره (١٤ / ١٠٢) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، وذكره الواحدى في أسباب النزول (٢٨٣) بدون سند.

ثم ذكر قصة إبراهيم مع أضيافه؛ لاشتمالها على الرحمة، وهى البشارة بالولد، وعلى النعمة، وهى الإعلام بتعذيب قوم لوط، فقال:

﴿ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۖ ﴿٥١﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۖ ﴿٥٢﴾ قَالَ أَبَشْرُتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا يُبَشِّرُونَ ۖ ﴿٥٣﴾ قَالُوا بِشْرَنَّاكَ بِالْحَقِّ فَلَاتَكُنْ مِنَ الْقَنِيطِينَ ۖ ﴿٥٤﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۖ ﴿٥٥﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۖ ﴿٥٦﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۖ ﴿٥٧﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ ﴿٥٨﴾ إِلَّا أَمْرًا تَقْدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنْ الْغَيْبِ ۖ ﴿٥٩﴾ ۝ ﴿٦٠﴾ ۝ ﴾

قلت : «سلاماً» : مفعول بمحذوف، أى: سلمنا سلاماً، أو نسلم عليكم سلاماً. والضيف يطلق على الواحد والجماعة، والمراد هنا: جماعة من الملائكة. (وَنُبَشِّرُونَ) : قرئ بشد النون؛ بإدغام نون الرفع فى نون الوقاية، وبالتخفيف؛ بحذف إحدى النونين، وبالفتح، على أنها نون الرفع. (وَيَقْنَطُ) : بالفتح والكسر، يقال: قنط كضرب وعلم.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَنَبِّئُهُمْ ﴾ أى: وأخبر عبادى ﴿ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ حين بشروه بالولد، وأعلموه بعذاب قوم لوط، لعلمهم يعتبرون فيرجون رحمته ويخافون عذابه. أو: ونبئهم أن من اعتمد منهم على كفره وغوايته، فالعذاب لاحق به فى الدنيا، كحال قوم لوط. ثم ذكر قصتهم من أولها فقال: ﴿ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾، وذلك حين ﴿ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾، وهم أربعة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ أى: نسلم عليكم سلاماً، قال: سلام، ثم أتاهم بعجل حنيد، فلما قرىبه إليهم، قالوا: إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن، فقال إبراهيم: إن له ثمناً، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حق لهذا أن يتخذ ربه خليلاً، فلما رأى أنهم لا يأكلون فزع منهم. ومن طريق آخر: أن جبريل مسح بجناحه العجل، فقام يدرج حتى لحق بأمه فى الدار. هـ. هكذا ذكر القصة المحشى الفاسى عن ابن حجر.

فلما أحس إبراهيم ﷺ بالخوف منهم ﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ : خائفون؛ إما لامتناعهم من أكل طعامه، أو لأنهم دخلوا بغير إذن، أو فى غير وقت الدخول. والوجل: اضطراب النفس لتوقع مكروه. ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ :

لا تخف، ثم عللوا نهيه عن الخوف فقالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾ وهو إسحاق، لقوله: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ (١)، ﴿عَلِيمٍ﴾ إذا بلغ أوان العلم. ﴿قَالَ أَبَشِّرْتُنِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي: أبشرتموني بالولد مع أنني قد كبر سني، وكان حينئذ من مائة سنة وأكثر، ﴿فَبِمَ تَبَشِّرُونَ﴾؟ أي: فبأي أعجوبة تبشرون؟ أو فبأي شيء تبشرون؟ فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شيء. قال ذلك على وجه التعجب من ولادته في كبره.

﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾: باليقين الثابت الذي لا محالة في وقوعه، فلا تستبعده، ولا تشك فيه، ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾: من الآيسين، فإن الله تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين، فكيف من شيخ فان وعجوز عاقرة. وكان استعجاب إبراهيم باعتبار العادة دون القدرة؛ ولذلك ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾ أي: لا ييأس من رحمة ربه ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾: المخطئون طريق المعرفة، فلا يعرفون سعة رحمته تعالى، وكمال قدرته. قال القشيري: أي: من الذي يقنط من رحمة الله إلا من كان ضالاً، فكيف أخطأ ظنكم بي، فتوهمتم أنني أقنط من رحمة ربي؟ هـ. وفيه دليل على تحريم القنوط؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٢).

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: ما شأنكم الذي أرسلتم لأجله سوى البشارة؟ ولعله علم أن كمال المقصود ليس هو البشارة فقط، لأنهم كانوا عدداً، والبشارة لا تحتاج إلى عدد، ولذلك اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم. أو لأنهم بشروه في تضاعيف الحال؛ لإزالة الوجع، ولو كانت تمام المقصود لا بتدروهم بها. ثم أجابوه: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾؛ يعني: قوم لوط؛ لأن شأنهم الإجرام بفعل الفاحشة، ﴿إِلَّا آلَ لُوطَ﴾ أي: لكن آل لوط لم نرسل إلى عذابهم؛ إذ ليسوا مجرمين. أو أرسلنا إلى قوم أجرموا كلهم، إلا آل لوط، لنهلك المجرمين وننجي آل لوط، ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّا لَنَجِّيهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ من العذاب الذي يهلك به قوم لوط.

قال ابن جزى: قوله: ﴿إِلَّا آلَ لُوطَ﴾: يحتمل أن يكون استثناء من قومه، فيكون منقطعاً؛ لوصف القوم بالإجرام، ولم يكن آل لوط مجرمين. ويحتمل أن يكون استثناء من الضمير في ﴿مُجْرِمِينَ﴾؛ فيكون متصلاً، كأنه قال: إلى قوم أجرموا كلهم إلا آل لوط فلم يجرموا، وقوله: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾: استثناء من آل لوط، فهو استثناء من استثناء. قيل: وفيه دليل على أن الأزواج من الآل؛ لأنه استثنى امرأته من آله. وقال الزمخشري: إنما هو

(١) من الآية ٧١ من سورة هود.

(٢) من الآية ٨٧ من سورة يوسف.

استثناء من الضمير المجرور في قوله: ﴿إنا لمنجوههم﴾، وذلك هو الذي يقتضيه المعنى. هـ. أى: إنا لمنجوههم من العذاب ﴿إلا امرأته قدّرنا إنها لمن الغابرين﴾؛ الباقين في العذاب مع الكفرة؛ لتهلك معهم، وقرأ أبو بكر عن عاصم: «قدّرنا» بالتخفيف، وهما لغتان، يقال: قدّر الله كذا وقدره. قال البيضاوي: وإنما علق، والتعليق من خواص أفعال القلوب؛ لتضمنه معنى العلم، ويجوز أن يكون (قدّرنا): أجرى مجرى قلنا؛ لأن التقدير بمعنى القضاء قول، وأصله: جعل الشيء على مقدار غيره، وإسناد التقدير إلى أنفسهم، وهو فعل الله تعالى؛ لما لهم من القرب والاختصاص. هـ.

قلت: وفيه إشارة إلى حذف الوسائط، كما هو توحيد المحققين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية، فالوجل والخوف والفرح والحزن والتعجب والاستعظام للأشياء الغريبة، كل ذلك من وصف البشر، يقع من الخصوص وغيرهم، لكن فرق بين خاطر وساكن؛ فالخصوص تهجم عليهم ولا تثبت، بخلاف العموم.

ويؤخذ من الآية: أن صحبة الخصوص لا تنفع إلا مع الاعتقاد والتعظيم، فإن امرأة نبي الله لوط كانت متصلة به حساً، ومصاحبة له، ولم ينفعها ذلك، حيث لم يكن لها فيه اعتقاد ولا تعظيم. وكذلك صحبة الأولياء: لا تنفع إلا مع الصدق والتعظيم. وقول ابن عطاء الله: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه». ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه: «مقيد بوصول التعظيم والاعتقاد، والاستماع والاتباع». والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هلاك قوم لوط، فقال:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنُوكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَةٍ يَمْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾

فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾
وَلِئِنَّهَا لَلسَّبِيلِ مَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

قلت: «وقضينا إليه ذلك الأمر»، القضاء هنا بمعنى القدر السابق، وضمّنه معنى أوحينا، فعاده بالي، و(أن دابر): بدل من الأمر، وفي ذلك تفخيم الأمر وتعظيم له، و«مُصْبِحِينَ»: حال من «هؤلاء»، أو من ضمير مقطوع، وجمعه؛ للحمل على المعنى؛ لأن دابر بمعنى دوابر، أى: قطعنا دوابرهم حال كونهم داخلين فى وقت الصباح. و«العمرى»: مبتدأ، والخبر محذوف، أى: قسمى، قال ابن عزيز: عمر وعمر واحد، ولا يقال فى القسم إلا مفتوحاً، وإنما فتح فى القسم فقط؛ لكثرة الاستعمال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما جاء آل لوط المرسلون﴾، وهم أضياف إبراهيم، فلما دخلوا عليه ولم يعرفهم، ﴿قال إنكم قوم منكرون﴾ لا نعرفكم. أو تنكركم نفسى؛ مخافة أن تطرقونى بشيء، ﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ أى: ما جئناك بما تنكرنا لأجله، بل جئناك بما يسرك، وهو: قطع الفاحشة من بلدك، وإتيان العذاب لعدوك الذى توعدناهم، فكانوا يمترون فيه ويشكون فى إتيانه، ﴿وأتيانك بالحق﴾؛ باليقين الثابت، وهو إتيان العذاب لا محالة، ﴿وإننا لصادقون﴾ فيما أخبرناك به.

﴿فأسر بأهلك﴾: فذهب بهم ﴿بقطع من الليل﴾ أى: فاخرج بهم فى طائفة من الليل، قيل: آخره، ﴿واتبع أديبارهم﴾ أى: كن خلفهم فى ساقبتهم، حتى لا يبقى منهم أحد، أو: أمره بالتأخر عنهم؛ ليكونوا قدامه، فلا يشتغل قلبه بهم لو كانوا خلفه؛ لخوفه عليهم، أى: ليسرع بهم، ويطلع على أحوالهم. ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ خلفه، لينظر ما وراءه، فيرى من الهول ما لا يطيقه، أو: ولا ينصرف أحد منكم، ولا يتخلف لغرض فيصيبه ما أصابهم. وقيل: نهوا عن الالتفات ليوطنوا أنفسهم على الهجرة. ﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ أى: إلى حيث أمركم الله، وهو الشام أو مصر، وقال بعضهم: ما من نبي هلك إلا لحق بمكة، وجاور بها حتى مات.

﴿وقضينا﴾: أوحينا ﴿إليه ذلك الأمر﴾، وهو هلاك قومه، ذكره مبهماً ثم فسر به بقوله: ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع﴾ وهو كناية عن استئصالهم، والمعنى: أنهم يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد، حال كونهم وقت العذاب ﴿مُصْبِحِينَ﴾: داخلين فى الصباح.

﴿وجاء أهل المدينة﴾، وهى سدوم، ﴿يستبشرون﴾ بأضياف لوط؛ طمعاً فيهم فى فعل الفاحشة، والظاهر: أن هذا المجيء إليه، وما جرى له معهم من المحاوراة، كان قبل الإعلام بهلاكهم، كما تقدم فى هود. وانظر ابن عطية. فلما جاءوه يراودونه عن ضيفه ﴿قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون﴾؛ بهتك حرمة ضيفى، فإن

من فُضِحَ ضيفه فقد فُضِحَ هو، ومن أَسَىء إلى ضيفه فقد أَسَىء إليه، ﴿وَ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ركوب الفاحشة، ﴿وَلَا تُخْزُون﴾ : ولا تهينوني بإهانتهم. والخزى هو الهوان، أو: ولا تخلون فيهم، من الخزية وهو الحياء .

﴿قَالُوا أَوْ لِمَ نُنْهَكُ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ : عن أن تجير منهم أحداً، أو تحول بيننا وبينهم، وكانوا يتعرضون لكل أحد، وكان لوط عليه السلام يمنعهم ويزجرهم عنه بقدر وسعه. وذكر السدي: أنهم إنما كانوا يفعلون الفاحشة بالغرياء، ولا يفعلونها بعضهم ببعض، فكانوا يتعرضون الطرق. هـ. أو: أَوْ لِمَ نُنْهَكُ عَنِ ضِيَاةِ الْعَالَمِينَ وَإِنزَالِهِمْ؟ ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ تَزَوَّجُوهُنَّ إِيَّاكُمْ، وَقَدْ كَانَ يَمْنَعُهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ؛ لِكُفْرِهِمْ، فَأَرَادَ أَنْ يَبْقَى أَضْيَافَهُ بَعْنٍ. ولعله لم يكن حراماً في شريعته. أو يريد بالبنات نساء القوم؛ فإن نبي كل أمة بمنزلة أبيهم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ قضاء الوطر، أو: ما أقول لكم من التزويج، فأبوا، ولجوا في عملهم.

قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ : لحياتك يا محمد، أقسم بحياته - عليه الصلاة والسلام - لشرف منزلته عنده. قال ابن عباس - رضي الله عنهما : «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾» قال القرطبي: وإذا أقسم الله بحياة نبيه فإنما أراد التصريح لنا أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته. وقد قال الإمام أحمد فيمن أقسم بالنبي ﷺ: ينعقد به يمينه، وتجب الكفارة بالحدث، واحتج بكون النبي ﷺ أحد ركني الشهادة. قال ابن خزيمة مناد: هذا إذا استدل من جوز الحلف به عليه الصلاة والسلام، بأن أيمان المسلمين جرت من عهده ﷺ حتى إن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا جاء صاحبه قال له: احلف لي بما حوى هذا القبر، ويحق ساكن هذا القبر، يعنى النبي ﷺ. هـ (١).

قلت: ومذهب مالك أنه لا ينعقد يمين بغير الله، وصفاته، وأسمائه. وقيل: إن قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ : هو من قول الملائكة للوط، أو لحياتك يا لوط، ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ : أى: لفى غوايتهم، أو شدة غلغلتهم التي أزال عقولهم وتمييزهم بين الخطأ والصواب، يتحيرون. والغلبة: شهوة الوقاع. والعمه: الحيرة، أى: إنهم لفى عماهم يتحيرون، فكيف يسمعون نصيح من نصيحهم؟ والصمائر لقوم لوط، وقيل: لقريش، والجملة: اعتراض.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ ، يعنى: صيحة هائلة مهلكة. قال ابن عطية: هذه الصيحة صيحة الرجعة، وليست كصيحة ثمود. هـ. وقيل: صاح بهم جبريل فأهلكتهم الصيحة، ﴿مُشْرِقِينَ﴾ : داخلين في وقت شروق الشمس؛ فابتدئ هلاكهم بعد الفجر مصبحين، واستوفى هلاكهم مشرقين. ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا﴾ : أى: عالى المدينة، أو قراها، ﴿سَافِلَهَا﴾ ، فصارت متقلبة بهم .

(١) مَلْخَصًا.

رَوَى أَن جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اقْتَلَعَ الْمَدِينَةَ بِجَنَاحِيهِ وَرَفَعَهَا، حَتَّى سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ صَرَخَ الدِّيكَةِ وَنَبَاحَ الْكَلَابِ، ثُمَّ قَلَبَهَا وَأَرْسَلَ الْكَلَّ، فَمَنْ كَانَ دَاخِلَ الْمَدِينَةِ أَوْ الْقَرْيَةِ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ خَارِجًا عَنْهَا أُرْسِلَتْ عَلَيْهِ الْحِجَارَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ﴾: مِنْ طِينٍ مَتَحَجَّرَ مَطْبُوحٌ بِالنَّارِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ هُودٍ (١) مَزِيدٌ بَيَانٌ لِهَذَا. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: الْمُتَفَكِّرِينَ الْمُعْتَبِرِينَ الْمُتَفَرِّسِينَ فِي الْأُمُورِ، الَّذِينَ يَتَتَبَعُونَ فِي نَظَرِهِمْ حَتَّى يَعْرِفُوا حَقِيقَةَ الشَّيْءِ بِسَمْتِهِ، ﴿وَإِنهَا﴾ أَى: الْمَدِينَةُ أَوْ الْقَرْيَةُ، ﴿لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ﴾: لَفَى طَرِيقٌ ثَابِتٌ يَسْلُكُهُ النَّاسُ، وَيَمْرُونَ بِهِ، وَيُرُونَ أَثَرَهَا. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾: لَعِبْرَةٌ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؛ فَإِنَّهُمْ هُمُ الْمُهْتَدُونَ لِلتَّفَكُّرِ وَالْإِعْتِبَارِ، دُونَ مَنْ غَلِبَتْ عَلَيْهِ الْغَفْلَةُ وَالْإِغْتِرَارُ، كَحَالِ الْكَفَّارِ وَالْفَجَّارِ. وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الإشارة: ما بعث الله داعياً يدعو إليه إلا وكان أول ما يدعوهم إليه، بعد الإيمان، الخروج من العوائد والحظوظ النفسانية، وما هلك من هلك من الأمم إلا بانبقاء معها، وعدم الخروج عنها، وما نجى من نجى إلا بالخروج عنها. وكذلك في طريق الخصوصية: ما بعث الله ولياً مريباً إلا وكان أول ما يأمر: بخرق العوائد؛ لاكتساب الفوائد، فلا طريق لخصوصية الولاية إلا منها. وفي الحكم: كيف تخرق لك العوائد، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد. فمن تربى في الرئاسة والجاه فلا مطمع له في الخصوصية حتى يبدلها بالخمول والذل، وكذلك من تعود جمع الدنيا واحتكارها، فلا بد من الزهد فيها والخروج عنها، وكذلك سائر العوائد النفسانية، والحظوظ الجسمانية، فمن جاور قوماً منهمكين فيها، ولم يجد من يساعده على خرقها، فليهاجر منها، ويقال له: فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم، ولا يلتفت منكم أحد إلى الرجوع، إلا بعد الرسوخ والتمكين في معرفة الحق تعالى، وليمض حيث يجد من ينهض معه إلى الله في نقل عوائدها وعوائقها.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاء أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: هذه عادة أهل الغفلة، إن جاءهم من يجدون فيه موافقة هواهم، هرعوا إليه مستبشرين، وإن جاء من ينصحهم ويأمرهم بالخروج عن أهوائهم أدبروا عنه، ومقتوه، وربما أخرجوه من بلدهم، قال تعالى في أمثالهم: (لعمرك إنهم نفى سكرتهم يعمهون)، وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة شعيب عليه السلام، فقال:

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ (٧٨) ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (٧٩)

قلت: إن: مخففة، واللام فارقة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾، وهم قوم شعيب، كانوا يسكنون غيضة، وهى الأيكة. والشجر الملفف، قيل: كانت من الدوح، وقيل: من السدر، فكانوا يسكنون فيها، ويرتفقون بها

(١) راجع تفسير الآيات ٨١ - ٨٣.

في معاشهم، فبعث الله لهم شعيباً عليه السلام فكفروا به، فسلط الله عليهم الحر سبعة أيام، ثم رأوا سحابة فخرجوا فاستظلوا تحتها، فاضطربت عليهم ناراً، فاحترقوا. قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالهلاك بالحر، ﴿وَإِنَّهُمَا﴾، يعنى: سدوم مدينة قوم لوط، والأبيكة قرية شعيب. وقيل: الأبيكة ومدين؛ لأن شعيباً عليه السلام كان مبعوثاً إليهما، وكان ذكر أحدهما مغل عن الآخر، ﴿لِيَأْمُرَ مِيقَ﴾: لطريق واضح يسلك منه إلى الشام، فيعتبر كل من وقف بآثارهم. والإمام: ما يؤتم به، ويوصل إلى المقصود من طريق أو غيره. وقيل: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أى: لوط وشعيب، على طريق من الشرع واضح. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما أهلك الله قوماً إلا كانوا عبرة لمن بعدهم، فالعاقل يبحث عن سبب هلاكهم، فيعمل جهده في التحرز منه، وانغافل منهمك في غفلته، لا يلقى لذلك بالاً، حتى يأتيه ما يوعد. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام، فقال:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ ٨٠ ﴿وَأَيَّنَّهُمْ﴾ ٨١ ﴿أَيَّتِنَا فَأَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ٨٢ ﴿وَكَانُوا يُنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ ٨٣ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ ٨٤ ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ٨٥

قلت: (بيوتاً): مفعول (ينحِتُونَ)، بمعنى يتخذون، أو يصنعون. و(آمنين): حال من فاعل (ينحِتُونَ).

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾؛ هم قوم ثمود، والحجر: واديهما الذي يسكنونه، وهو بين المدينة والشام. كذبوا صالحاً عليه السلام، ومن كذب واحداً من الرسل فكأنما كذب الجميع؛ لأنهم جاءوا بأمر منق عليه، وهو التوحيد، أو يراد به الجنس، كما تقول: فلان يركب الخيل، وإنما يركب فرساً واحداً، أو يراد به صالح ومن معه من المؤمنين؛ لموافقهم له فيما يدعو إليه. ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾ يعنى: الناقة، وما كان فيها من العجائب، كسقيها وشربها ودرها، أو ما نزل على نبيهم من الكتب، أو ما نصب لهم من الأدلة. ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾: لم ينظروا فيها، ولم يعتنوا بأمرها.

﴿وَكَانُوا يُنْحِتُونَ﴾: يصنعون، والنحت: النقر بالمعاول في الحجر والعود وشبهه، فكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً يسكنونها آمنين من الانهدام، ونقب اللصوص، وتخريب الأعداء؛ لوثوقها. أو من العذاب؛ لفرط غفلتهم، أو حسبانهم أن الجبال تحميهم منه. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾: داخلين في وقت الصباح، ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من بناء البيوت الوثيقة، واستكثار الأموال والعدد.

الإشارة: من علامة الغفلة عن الله: الإنكار على أولياء الله، والإعراض عما خصهم الله تعالى به من الآيات وخوارق العادات، كالعلوم الدنيوية والمواهب القدسية، وكمال المعرفة، والرسوخ في اليقين، وشهود رب العالمين، مع الاشتغال بعمارة هذه الدار، ونسيان دار القرار؛ كأنه آمن من الموت؛ من شدة الاغترار. وسبب ذلك: عدم التفكير والاعتبار. ولذلك قال تعالى بإثر قصص من أهلكهم من الأمم الغافلة:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝٨٦ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما ﴾ من الكائنات ﴿ إلا بالحق ﴾ أى: إلا خلقاً ملتبساً بالحق، وهو الدلالة على كمال قدرتنا وباهر حكمتنا، فمن كمال القدرة: إهلاك أهل الفساد، ودفع شرورهم وإبطال فسادهم، ومن باهر حكمته أنه لم يهلكهم إلا بسبب عتوهم وفسادهم. فالحكمة رداء للقدرة، القدرة تبرز، والحكمة تستر، فإظهار الكائنات يدل على كمال القدرة، وترتيبها على أسباب وشروط يدل على باهر الحكمة. ومن مقتضيات الحكمة: ترتيب الجزاء على العمل، بحيث لا يهمل عملاً، فأهل الإكرام يترتب إكرامهم وإنعامهم على عملهم الصالح، واعتقادهم الصحيح، وما قاسوه من المجاهدة والمكابدة. وأهل الانتقام يترتب الانتقام منهم على عملهم الفاسد، واعتقادهم الباطل، وعلى ما قالوا في الدنيا، التي هي مزرعة الآخرة، من الدعة والحظوظ الفانية، ولذلك رتب عليه قوله:

﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ فيجازى فيها من يستحق الإكرام، ويعاقب من يستحق الانتقام، وينتقم لك فيها ممن يكذبونك، ﴿ فاصفح ﴾ اليوم ﴿ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ ولا تعجل بالانتقام، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم. وكان هذا قبل الأمر بالقنال. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ ﴾ الذى خلقك وخلقهم، ويده أمرهم، ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بحالك وبحالهم، فهو الحقيق بأن تتكل عليه حتى يحكم بينك وبينهم. أو: هو الخلاق لأشباحكم وأرواحكم، العليم بما هو الأصلح لكم فى الوقت، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح. والخلاق أبلغ من الخالق باعتبار اللغة، وأفعال الله تعالى كلها عظيمة كثيرة.

الإشارة: ما نصبت لك الكائنات لتراها بعين الفرق، بل لترى فيها مولاها بعين الجمع. وما جعل لك هذه الدار لتتخذها دار القرار، وإنما جعلها قنطرة ومعبراً لدار القرار. إنما جعل لك الدنيا الفانية مزرعة للدار الباقية. وإن الساعة لآتية، فاصبر فى هذه الدار اللمحة اليسيرة على شدائد الزمان، وجفوة الإخوان، واصفح الصفح الجميل،

حتى ترد النعيم الباقي، والجزاء الجزيل. وتخلق بأخلاق الحليم الكريم، إن ربك هو الخلاق العليم، فلا قدرة لك على شيء إلا بقدره السميع العليم.

ثم أمر نبيه بالغنى بالله وبكلامه، عن التطلع إلى زهرة الدنيا، والمراد: الأمر بدوامه على ما كان عليه، فقال:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَاهِ
أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾
كَمَا أَنزَلْنَاهُ عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهٗمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ
الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ
أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنَ السَّجْدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ
يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

قلت : السبع المثاني : هي الفاتحة عند الجمهور، و(من المثاني) : للبيان، وعطف القرآن عليها من عطف العام على الخاص. و(أنزلنا) : نعت لمفعول النذير، أي : أنا النذير عذاباً مثل العذاب الذي أنزل على المقتسمين. وقيل : صفة لمصدر محذوف يدل عليه : (ولقد آتيناك) ؛ فإنه بمعنى أنزلنا إليك إنزالاً مثل ما أنزلنا على المقتسمين، وهم، على هذا، أهل الكتاب، و(عِضِينَ) : جمع عضة. وأصله : عِضْوَةٌ، من عَضَوْتُ الشيءَ : فَرَّقْتُهُ، حُذِفَتْ لَامُهُ، وعوض منها هاء التانيث، فجمع على عِضِينَ، كعِزَّةٍ وعِزِينَ. وقيل : أصله : عضة ؛ من عضهته : رميته بالبهتان، قال في الصحاح : عضهته عضها : رماه بالبهتان. وقد أعضهته، أي : جنت بالبهتان. فهما قولان في أصل عضة. هل هو واوى أو هائي. والموصول مع صلته نعت للمقتسمين.

يقول الحق جل جلاله، لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي ﴾، وهي فاتحة الكتاب ؛ لأنها سبع آيات، وتثنى - أي : تكرر - في كل صلاة، فالمثاني من التثنية، وقيل : من الثناء ؛ لأن فيها الثناء على الله تعالى، وقيل : السبع المثاني هي السبع الطوال، وهي البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال مع براءة. ولذلك تركت البسملة بينهما. وكونها مثاني ؛ لتثنية قصصها، أو ألفاظها، وقيل : هي الحواميم السبع. ﴿ وَ ﴾ آتيناك ﴿ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾، ففيه الغنية والكفاية عن كل شيء.

﴿ لَا تَمْدَنْ عَيْنِكَ ﴾ : لا تطمح ببصرك طموح راغب ﴿ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ أى : أصنافاً من الكفار، من زهرة الحياة الدنيا، فإنه مستحق بالإضافة إلى ما أوتيته . وفى حديث أبى بكر : « من أوتى القرآن، فرأى أن أحداً أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى، فقد صغر عظيمًا وعظم صغيراً. » (١) قال ابن جزى : أى : لا تنظر إلى ما متعناهم به فى الدنيا، ومعنى الآية : تزهيد فى الدنيا، كأنه يقول : قد آتيناك السبع المثاني والقرآن العظيم؛ فلا تنظر إلى الدنيا، فإن الذى أعطيناك أعظم منها . هـ .

وروى أنه ﷺ وافى مع أصحابه أذرعاً، فرأى سبع قوافل ليهود بنى قريظة والنضير، فيها أنواع البر، والطيب والجواهر، وسائر الأمتعة، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقرينا بها، ولأنفقناها فى سبيل الله، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « قد أعطيتكم سبع آيات هى خير من هذه السبع القوافل » . (٢) .

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ : لا تتأسف على كفرهم؛ حيث أنذرتهم فلم ينزجروا ولم يؤمنوا . أو : حيث متعناهم بالدنيا فلم ينتفعوا بها، ولم يصرفوها فى مرضاة الله، ﴿ واخفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ : أى : تواضع وألن جانبك للمؤمنين، وارفق بهم . والجناح، هنا، استعارة . ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ : البين الإنذار، أنذرتكم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا، وفى الحديث : « أنا النذير، والموت مغير، والقيامة الموعد » . أو كما قال عليه الصلاة والسلام، وفى حديث آخر : « أنا النذير العريان » . وكانت العرب، إذا رأى أحدهم جيشاً يقصدهم، تجرد من ثيابه، ثم أنذر قومه ليصدقوه، أى : قل : إني أنذرتكم أن ينزل بكم عذابه .

﴿ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ ، أى : مثل العذاب الذى أنزل على المقتسمين، وهم أهل الكتاب، الذين آمنوا ببعض الكتب وكفروا ببعض، فاققسموا قسمين . والعذاب الذى نزل بهم هو الذل والهوان وضرب الجزية، أو تسليط عدوهم عليهم . وقيل : هم كفار قريش؛ اقتسموا أبواب مكة فى الموسم، فوقف كل واحد منهم على باب، وكانوا اثني عشر رجلاً، لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام، يقول أحدهم : هو ساحر، والآخر : هو شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر . وقيل : هم الرهط الذين اقتسموا، أى : تقاسموا ليبيتوا صالحاً، فأسقط الله عليهم الغار الذى كمنوا فيه، فشدخهم .

أو : آتيناك القرآن، وأنزلناه عليك كما أنزلنا التوراة على المقتسمين، وهم اليهود، ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ أى : أجزاء متفرقة، وقالوا فيه أقوالاً مختلفة، فقالوا : عناداً وكفراً؛ بعضه موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه

(١) قال الولي العراقي : لم أقف عليه، وقال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف : لم أجده من حديث أبى بكر .

وأخرجه ابن عدى فى الكامل (٢/٧٨٧)، ولفظه : (من تعلم القرآن وظن أن أحداً...) فذكره من حديث ابن مسعود مرفوعاً.. وراجع الفتح السماوى (٢/٧٥٠) .

(٢) قال المناوى فى الفتح السماوى : لم أقف عليه . وذكره الواحدي فى الأسباب (٢٨٣) عن الحسين بن الفضل : مرسلاً .

باطل مخالف لهما . وإذا قلنا المقتسمين : هم كفار قريش ، حيث اقتسموا أبواب مكة ، فقد جعلوا القرآن عضين ؛ أجزاء متفرقة ، فقد قسموه إلى شعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين ، أو جعلوه بهتاناً متعددًا ، على تفسير العضة بالبهت . وفي الحديث : « لعن رسول الله ﷺ العاضة والمستعضة » (١) أى : الباهة ، والمستبهة : الطالبة له .

قال تعالى فى وعيد المقتسمين : ﴿ فوريك لنساءلهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ من التقسيم والتكذيب ، أو عن كل ما عملوه من الكفر والمعاصي ، وفى البخارى : « لنساءلهم عن لا إله إلا الله » . فإن قيل : كيف يجمع بين هذا وبين قوله : ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ ؟ (٢) فالجواب : أن السؤال المثبت هو على وجه الحساب والتوبيخ ، والسؤال المنفى هو على وجه الاستفهام المحض ؛ لأن الله تعالى يعلم الأعمال ، فلا يحتاج إلى سؤال . وقيل : فى القيامة مواطن وخوارق ، فموطن يقع فيه السؤال ، وموطن يذهب بهم إلى النار بغير سؤال .

قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ : فاجهر ، وصرح به ، وأنفذه ، من صدع بالحجة : إذا تكلم بها جهاراً . أو : فرق ، بما تؤمر به ، بين الحق والباطل ، وأصله : الشق والإبانة ، و « ما » : مصدرية ، أو موصولة ، والعائد محذوف ، أى : بما تؤمر به من الشرائع . ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ فلا تلتفت إلى ما يقولون ، ولا بمنعك ذلك من تبليغ الوحى والصدع به وإظهاره .

﴿ إنا كفيناك المستهزين ﴾ بك ، وبما أنزلنا إليك ؛ بأن أهلكنا كل واحد منهم بمصيبة تخصه ، من غير سعى من النبى ﷺ فى ذلك . وكانوا خمسة من أشراف قريش : الوليد بن المغيرة ، والعاصى بن وائل ، وعدى بن قيس ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن يغوث ، كانوا يبالغون فى إيذاء النبى ﷺ ، والاستهزاء به ، فقال جبريل للنبي ﷺ : « أمرت بأن أكفيكمهم » فأوماً إلى ساق الوليد فمرّ بنبال فتعلق بثوبه سهم ، فلم ينعطف لأخذه ، تعظماً ، فأصاب عرقاً فى عقبه فمات . وقيل : خدش بأسفل رجله فمات من تلك الخدشة . وأوماً إلى أخمص العاص ؛ فدخلت فيها شوكة ، فانتفخت حتى صارت كالرحى ، فمات . وأشار إلى أنف الحارث فامتخط قيحاً فمات . وأوماً إلى الأسود ابن عبد يغوث ، وهو قاعد فى أصل شجرة ، فجعل ينطح رأسه بالشجرة ، ويضرب وجهه بالشوك حتى مات . وقيل : استسقى بطنه فمات ، ولعله جمع بينهما . وأوماً إلى عيني الأسود بن المطلب فعمي . وفى السيرة ، بدل عدى بن قيس ، الحارث بن الطلائة ، وأن جبريل أشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله (٣) .

(١) عزاه فى الفتح السماوى (٧٥٢/٢) لابن عدى فى الكامل من حديث ابن عباس ، وفى إسناده ضعف .

وقوله : العاضة والمستعضة : أى : الساحرة والمستسحرة ... انظر النهاية (٢٥٥/٣) .

(٢) الآية ٣٩ من سورة الرحمن .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، كما فى المجمع (٤٦/٧) ، وأبو نعيم فى الدلائل ، (باب قوله : فاصدع بما تؤمر ٣١٦/٢) والبيهقى فى الدلائل (باب المستهزون وأسماءهم) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

وقيل: هم الذين قُتلوا ببدر؛ كأبى جهل، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأمّية بن خلف، وعقبة بن أبى معيط. والأول أرجح؛ لأن الله تعالى كفاه أمرهم بمكة قبل الهجرة، إلا أن يكون عبر بالماضى عن المستقبل؛ لتحقيقه، أى: إنا سنكفيك المستهزئين ﴿الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر﴾ يعبدونه من دون الله ﴿فسوف يعلمون﴾ عاقبة أمرهم فى الدارين.

ثم سئى نبيه عن أذاهم فقال: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ فى جانبنا؛ من الشرك والطعن فى القرآن، والاستهزاء بك، فلا نعبأ بهم، ولا تلتفت إليهم. ﴿فسبح بحمد ربك﴾ أى: فنزه أنت ذاتنا وصفتنا، مكان مقاتلتهم فينا؛ فإن مثلك منزها لا غير، ﴿وكن من الساجدين﴾ أى: المصلين، أو: فافزع إلى الله فيما نابك وضاق منه صدرك بالتسبيح والتحميد. ﴿وكن من الساجدين﴾: من المصلين، يكفك، ويكشف الغم عنك، وعنه ﷺ: «أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»^(١)، أو: فنزله عما يقولون، حامداً له على أن هداك للحق، وكن من الساجدين له شكراً.

﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ أى: الموت، فإنه متيقن لحاقه، وليس اليقين من أسماء الموت، وإنما العلم به يقين، لا يمتري فيه، فسمى يقيناً؛ تجوزاً. أو: لما كان يحصل اليقين بعده بما كان غيباً سمي يقيناً. والمعنى: فاعبده مادمت حياً، ولا تخل بالعبادة لحظة. وفى بعض الأحاديث عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «إن الله لم يوح إلى أن أجمع المال، وأكون من التاجرين، وإنما أوحى إلى أن: سبح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»^(٢). أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

الإشارة: يقال للعابد، أو الزاهد: ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم، تتمتع بحلاوته، وبالتهجد بتلاوته، ففيه كفايتك وغناك، فلا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أصنافاً من أهل الدنيا، الراغبين فيها، المشتغلين بها عن عبادة خالقها. قيل: لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «إياكم والنظر فى أبناء الدنيا، فإنه يقسى القلب ويورث حب الدنيا، ولا تكثرُوا الجلوس مع أهل الثروة، فتميلوا لزينه الدنيا؛ فوالله لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرة ماء». وقال ﷺ: «من تواضع لغنى لأجل غناه اقترب من النار مميرة سنة، وذهب ثلثا دينه». هذا إن تواضع بجسمه فقط، فإن تواضع بجسمه وقلبه ذهب دينه كله.

ويقال للعارف: ولقد آتيناك شهود المعانى، وغيبناك عن حس الأوائى، حتى شهدت المتكلم بالسبع المثاني، فسمعت القرآن من منزله دون واسطة. وذلك بالفناء، عن الوسائط، فى شهود المتوسط، حتى يفنى عن نفسه فى حال قراءته.

(١) أخرجه بنحوه أبو داود فى (الصلاة، باب وقت قيام النبى ﷺ الليل) عن حذيفة، وأخرجه الإمام أحمد (٣٨٨/٥) فى قصة الخندق مطولاً.

(٢) أخرجه ابن عدى فى الكامل (١٨٩٧/٥) والواحدى: فى الوسيط (٥٤/٣) والبيهقى فى تفسيره (٣٩٧/٤) عن جبير بن نفيل، مرسلًا..

ويقال له: لا تمدن عينيك إلى شهود الحس، ولا إلى ما متعنا به أصنافاً من أهل الحس، الواقفين مع شهود الحس؛ فإن ذلك يحجبك عن شهود المعاني القائمة بالأواني، بل المفنية للأواني عند سطوع المعاني. ولا تحزن عليهم حيث رأيته منهمكين في الحس؛ فإن قيام عالم الحكمة لا يكون إلا بوجود أهل الحس، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين بخصوصيتك، وقل: إني أنا النذير المبين من الاشتغال بالبطالة، والغفلة، حتى ينزل بأهلها ما نزل على المقتسمين، الذين جعلوا القرآن عِصِينَ؛ أجزاء متفرقة؛ فما كان فيه مما يدل على التسهيل لجواز جمع الدنيا واحتكارها والاشتغال بها أخذوا به، وما كان فيه مما يدل على الزهد فيها، والانقطاع إلى الله عنها، والتجريد عن أسبابها، رفضوه. فوركب لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون.

فاصدع، أيها العارف الواعظ، بما تؤمر؛ من الأمر بالزهد، والانقطاع إلى الله، ولرفض كل ما يشغل عن الله، ولا تراقب أحداً في ذات الله، وأعرض عن المشركين، الذين أشركوا في محبة الله سواء، وشهدوا الأكوان موجودة مع الله، وهي ثابتة بإثباته، ممحوه بأحدية ذاته، فلا وجود لها في الحقيقة مع الله. فإن استهزؤوا بك، وصغروا أمرك، فسيكفيهم الله. فاشتغل بالله عنهم، فلا يضيق صدرك بما فيه يخوضون، (فسبح بحمد ربك) أي: نزهه عن شهود السوى معه، حامداً الله على ما أولاك من نعمة توحيدة، (وكن من الساجدين) لله شكراً، وقياماً برسم العبودية، أو: كن من الساجدين بقلبك في حضرة القدس، حتى يأتيك اليقين^(١).

وفي الورتجبي، في قوله: (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك)، قال: واسى الحق حبيبه بما سمع من أعدائه، وقال له: أنت بمرأى منا، يضيق صدرك؛ من لطافتك، بما يقول الجاهلون بنا في حقنا، مما لا يليق بتنزيهنا، فنزه أنت صفتنا مكان مقاتلهم فينا، فإن مثلك منزها لا غير، وكن من الساجدين حتى ترانا بوصف ما علمت منا، وتخرج من ضيق الصدر بما تشاهد من جمالنا، فإذا كنت تعانينا سقط عنك ضيق صدرك من جهة مقاتلهم. هـ.

وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.



(١) اليقين - هنا - هو الموت. أي: اعبد ربك إلى آخر لحظة من عمرك.

سُورَةُ الْحَجِّ

مكية، إلا قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ...﴾ الآية، نزلت في غزوة أحد، وهي مائة وثمان وعشرون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (١)؛ وهو الموت وما بعده من البعث والحساب، وهو أمر الله الذي أشار إليه بقوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١)

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: البعث والحساب. وعبر بالماضي؛ لتحقيق وقوعه، أو: ثبت أمره وقضائه، وقد جف القلم بما يكون، لا عن سؤال واستعجال، وتدبير من الخلق، ولو كان كذلك لنافى انفراد تدبير ملكه، ولذلك نزه نفسه بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. أو: إهلاك الله إياهم يوم بدر، وكانوا يستعجلون ما أوعدهم الرسول من قيام الساعة، وإهلاكهم ونصره عليهم، استهزاء وتكذيباً؛ ولذلك قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، والمعنى: أن الأمر الموعود به بمنزلة الماضي، لتحقيق وقوعه من حيث إنه واجب الوقوع؛ فلا تستعجلوا وقوعه، فإنه لا خير لكم فيه، ولا خلاص لكم منه.

وروي لما نزل قوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾، وثب رسول الله ﷺ قائماً، ورفع الناس رؤوسهم، فلما قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، سكن. وكان المشركون يقولون: إن صح ما يقول محمد من قيام الساعة، فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه وجل عن أن يكون له شريك، فيدفع ما أراد بهم. هـ.

وقرأ الأخوان بالخطاب، على وفق قوله: (فلا تستعجلوه)، والباقون بالغيب، على تلوين الخطاب، أو على أن الخطاب للمؤمنين، أي: أتي أمر الله أيها المؤمنون فلا تستعجلوه، سبحانه وتعالى عما يشركه به المشركون. أو: لهم ولغيرهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا أشرق نور اليقين في صميم القلوب تحقق وقوع ما وعد الله به من أمر الغيوب، فصار الماضي آتياً، والمستقبل واقعاً. وفي الحكم: «لو أشرق نور اليقين في قلبك، لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها، ولرأيت الدنيا وكسفة القناء ظاهرة عليها». وكذلك المقادير المستقبلية والمواعيد الغيبية، كلها عند أهل اليقين محققة الوقوع، واجبة الحصول، ينتظرون وقوعها في مواقيتها، شيئاً فشيئاً، ويتلقونها بالمعرفة والأدب؛ فإن كانت جلالية فبالرضى والتسليم، وإن كانت جمالية فبالحمد والشكر، هكذا نظرهم دائماً إلى ما يبرز من عنصر القدرة، ليس لهم (١) من الآية الأخيرة من سورة الحجر.

وقت دون ما هم فيه، ولا أمل دون ما أقامهم الحق تعالى فيه، ليس لهم عن أنفسهم إخبار، ولا مع غير الله قرار، ولا يستعجلون ما تأخر وقوعه من أقداره، ولا يشركون مع الله في تدبيره واختياره. قد هجم عليهم اليقين، فهم، في عموم أوقاتهم، مستغرقون في شهود المحبب، غائبون عن كل مرغوب ومطلوب، سوى شهود وجه المحبوب، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه. آمين.

وسبب وجود هذا في قلوبهم حياة روحهم بالإيمان التام، والمعرفة الكاملة، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

فَاتَّقُونَ ﴿٢﴾﴾

قلت: (أن أنذروا): مفسرة، بمعنى أى؛ لأن الوحي فيه معنى القول. أو مصدرية في موضع الجر، بدلا من الروح، أو النصب بنزع الخافض، أو مخففة من الثقيلة. وقوله: (لا إله إلا أنا): جرى على المعنى، ولم يجر على اللفظ، وإلا لقال: لا إله إلا الله. انظر ابن عطية. قال المحشي الفاسي: وسر ذلك هنا: التصريح بالمقصود، وأن الإله الواحد هو المتكلم لا غيره، كما قيل في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾ (١)، أى: ولم يقل: فإياه فارهبوا، بل نقل الكلام من الغيبة إلى التكلم؛ مبالغة في الترهيب، وتصريحا بالمقصود، كأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد، فإياه فارهبون لا غير. هـ.

قلت: وكأنه قال هنا: ينزل الملائكة بالوحي أن أعلموا أنه لا يعبد إلا إله واحد، وأنا ذلك الواحد.

يقول الحق جل جلاله، تحقيقاً لما وعدهم به، وأن ذلك الوعد، مع دنوه وقربه بالوحي، فلا خلف فيه، فقال: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ أى: جبريل، جمعه؛ تعظيماً، أو: لأنه قد ينزل معه غيره من الملائكة، فيحضرون الوحي؛ حُرُسا له. أو: لأنه قد ينزل بالوحي غيره من الملائكة، كما في صحيح مسلم: «إن سورة الحمد نزل بها ملك لم ينزل إلى الأرض قبل ذلك» (٢). وقال عليه الصلاة والسلام: «إن إسرافيل وكُلَّ بِي فِي ثَلَاثِ سَنِينَ، فَكَانَ يَأْتِينِي بِالْكَلِمَةِ وَالْكَلِمَتَيْنِ، ثُمَّ كَانَ جِبْرِيلُ يَأْتِينِي بِالْقُرْآنِ فِي كُلِّ وَقْتٍ». وروى أن خالد بن سنان كان نبياً، وكان يأتيه بالوحي مالك خازن النار، وكان بعد عيسى عليه السلام، ولم يبق في النبوة إلا عشرين يوماً، ثم مات، فلقصر مدته لم يعد نبياً، بعد عيسى ونبينا محمد ﷺ، وإنما كانت فترة خمسمائة عام. وذكر ابن العربي أن ذا القرنين كان ينزل عليه ملك، يقال له: رفائيل، فكان يلقي إليه الوحي، ويطوى له الأرض. هكذا نقل الشطبي عنه في اللباب، فانظره.

(١) من الآية ٥١ من سورة النحل.

(٢) أخرجه بطوله مسلم في (صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿بالروح﴾ أى: بالوحي، أو القرآن؛ فإنه سبب حياة القلوب والأرواح الميتة بالجهل والحجاب، أو سبب حياة الدين بعد موته واندراسه بالكفر؛ فإن الوحي يقوم فى الدين مقام الروح من الجسد. ينزل ذلك ﴿من أمره﴾ أى: من أجل أمره وبيان شأنه، أو بأمره وإذنه، ﴿على من يشاء من عباده﴾ أن يصطفيه للرسالة، قائلاً لهم: ﴿أن أُنذروا﴾: خوفوا أهل الشرك، أو أعلموا عبادى ﴿أنه﴾ أى: الأمر والشأن، ﴿لا إله إلا أنا فاتقون﴾؛ بترك الكفر والمعاصى، أى: اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية، بأن توحدوه، وتطيعوه فيما أمر به.

قال البيضاوى: والآية تدل على أن نزول الوحي بواسطة الملائكة، وأن حاصله: التنبيه على التوحيد، الذى هو القوة العلمية، والأمر بالتقوى الذى هو أقصى كمالات القوة العملية. وأن النبوة عطائية - أى: لا كسبية -، والآيات التى بعدها دليل على وحدانيته، من حيث إنها تدل على أنه تعالى هو الموجد لأصول العالم وفروعه، على وفق الحكمة والمصلحة، ولو كان له شريك لقدّر على ذلك، فيلزم التمانع. هـ.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿بالروح﴾: قال الورتجى: الروح: الوحي الإلهي، سماه بالروح؛ لأنه كلامه صدر من ذاته، وهو حياة قلوب الصديقين من المكملين والمحدثين، وهو سبب حياة قلوب المؤمنين، يحييهم بعلمه من موت الجهالة. هـ.

وقال القشيري فى قوله: ﴿على من يشاء من عباده﴾: على الأنبياء بالوحي والرسالة، وعلى أسرار أرباب التوحيد، وهم المحدثون بالتعريف والعلم. فالتعريف للأولياء من حيث الإلهام والخواطر، أى: الواردات. وإنزال الملائكة على قلوبهم غير ممنوع، ولكنهم لا يؤمرون أن يتكلموا بذلك، ولا يحملون الرسالة إلى الخلق. هـ.

قلت: وكأنه ينظر إلى قوله - عليه الصلاة والسلام -: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»، فهم يشاركون الأنبياء فى الوحي الإلهامى، ولا يبلغون ذلك إلا لمن صدقهم وتبعهم فى طريقهم. والله تعالى أعلم.

ثم عرف بنفسه، بما أظهر من تجلياته العلوية والسفلية، فقال:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٢ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ٣ ﴿وَالْأَنعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ٤ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ٥ ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا شِقَ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ٦ ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٧ ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٨

قلت : (والأنعام) : منصوب بمحذوف، يفسره : (خَلَقَهَا) ، أو معطوف على «الإنسان» ، و(خلقها لكم) : بيان لما خُلِقَتْ لأجله ، وما بعده تفصيل له . و(منها تأكلون) : إنما قَدِمَ المفعول للمحافظة على رؤوس الآي ، أو : لأن الأكل منها هو المعتمد عليه في المعاش ، وأما الأكل من غيرها من سائر الحيوانات المأكولات فعلى سبيل التدارى والتفكه . قاله البيضاوي . قلت : ولعله ، عند مالك ، للاختصاص ، أي : منها تأكلون لا من غيرها ؛ إذ لا يؤكل عدده غيرها من البهائم الإنسية .

وقوله : (لكم) : يحتمل أن يتعلق بما قبلها أو بما بعدها ، ويختلف الوقف باختلاف ذلك . (إلا بشق) : فيه لغتان : الكسر والفتح ، بمعنى التعب والكلفة ، وقيل : المفتوح مصدر شَقَّ الأمر عليه ، أي : صَعَبَ ، والمكسور بمعنى : النصف ، كأنه ذهب نصف قُوَّتِهِ بالتعب . (والخيل) : عطف على «الأنعام» . و(زينة) : مفعول من أجله ، عطف على موضع «لتركبوها» : أي : للركوب والزينة ، أو مفعول مطلق ، أي : لتتزينوا بها زينة .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ : أوجدهما ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي : ملتبساً بالحق ؛ لتدل على وحدانية الحق ، وكمال قدرته وباهر حكمته ، حيث أوجدهما على مقدار مخصوص ، وشكل بديع ، وأوضاع مختلفة ، وهيات متعددة . أو : خلقهما بقضائه وتدبيره الحق ، لا بمشاركة وتدبير أحد معه ، ولا بمعاونة شريك ولا ظهير ، ولذلك نزه نفسه بقوله : ﴿ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ، كما نزه نفسه ، ابتداءً ، لَمَّا نَفَى الاستعجال ؛ لأنه من تدبير الخلق أيضاً والصدور عن رأيهم ، وفي معناه : تنزيل الوحي على ما يشاء ، لا على ما يشاء غيره ؛ لانفراده أيضاً في ملكه . وفي إبرازه ذلك ، على ما يخالف آراء الخلق ، أدل دليل على وحدانيته في ملكه ، وإنما وضع كل شيء ودبره ؛ دلالة على وحدانيته وهدايته لخلقه إليه .

ثم شفع بخلق الإنسان فقال : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ أي : جنسه ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ : من ماء مهين يخرج من مكان مهين ، ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ : مجادل ، كثير الجدل والخصام ، مبين لحجته ، أو : خصيم : مكافح لخالفه ، قائل : (من يحيى العظام وهي رميم) . روى أن أبا بن خلف أتى النبي ﷺ بِعَظْمٍ رَمِيمٍ ، فقال : يا محمد ، أترى الله يحيى هذا بعد ما قد رم؟ فقال : نعم . فنزلت . فعلى الأول : تكون الآية عامة لكل إنسان ، وعلى الثاني : خاصة بالكافر . والأول أظهر .

ولما ذكر نعمة الإيجاد ذكر نعمة الإمداد ، فقال : ﴿ وَالْأَنْعَامَ ﴾ وهي : الإبل والبقر والغنم ، ﴿ خَلَقَهَا ﴾ : أوجدها ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ : ما يدفأ به فيبقى البرد ، يعني : ما يتخذ من جلود الأنعام وأصوافها من الثياب ، ﴿ وَ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾

فيها أيضا ﴿منافع﴾ آخر؛ كنسلها وظهورها. وإنما عبّر بالمنافع؛ ليتناول عوضها. ﴿ومنها تأكلون﴾ أى: تأكلون ما يؤكل منها؛ من اللحوم والشحوم والألبان. ﴿ولكم فيها جمال﴾ أى: زينة وبهجة ﴿حين تريحون﴾؛ تريحونها من مراعيها إلى مراعيها بالعشى، ﴿وحين تسرحون﴾؛ تخرجونها إلى المرعى بالغداة؛ فإن الأفنية والمشارع والطرق تنزّين بها فى الذهاب والرواح، ويجل أهلها فى أعين الناظرين إليها. وقدم الإراحة؛ لأن الجمال فيها أظهر؛ لأنها تقبل ملأى البطون، حاملة الصروع، ثم تأوى إلى الحظائر حاضرة لأهلها.

﴿وتحمل أثقالكم﴾: أحمالكم عليها من الأمتعة وغيرها ﴿إلى بلد﴾ بعيد، ﴿لم تكونوا بالغية﴾ عليها، فضلاً عن أن تحملوها على ظهوركم، ﴿إلا بشقّ الأنفس﴾؛ إلا بكلفة ومشقة فديحة، أو: إلا بذهاب شقها، أى: نصف قوتها من التعب. ﴿إن ربكم لرؤوف رحيم﴾؛ حيث رحمكم بخلقها وذللها للحمل، والركوب عليها، وأنعم عليكم بالأكل من لحومها وألبانها.

﴿و﴾ خلق لكم ﴿الخيول والبغال والحمير لتركبوها﴾، ﴿و﴾ تنزّلونها بها ﴿زينة﴾، أو للركوب والزينة. قال البيضاوى: وتغيير النظم. أى: حيث لم يقل: وللزينة.؛ لأن الزينة بفعل الخالق، والركوب من فعل المخلوق. أى: باعتبار الحكمة.، ولأن المقصود خلقها للركوب، وأما التنزّل بها فحاصل بالعرض. وقرئ بغير وار، فيحتمل أن يكون علة لركوبها، أو مصدراً فى موضع الحال من الضمير، أى: متزّلين، أو متزّلين بها. واستدل به على حرمة لحومها، ولا دليل فيه؛ إذ لا يلزم من تعليل الفعل بما يقصد منه، غالباً، ألا يقصد منه غيره أصلاً، ويدل عليه أن الآية مكّية. وعامة المفسرين والمحدثين أن الحمر الأهلية حرمت عام خيبر. هـ. ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ مما لا يحيط البشر بعلمها؛ من عجائب المخلوقات، وضروب المصنوعات، مما يؤكل ومما لا يؤكل، وما خلق فى الجنة والنار، مما لا يخطر على قلب بشر.

﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ أى: وعلى الله بيان السبيل القصد، أى: الطريق الموصل إلى المقصود. أو: على الله تقويم طريق الهدى؛ بنصب الأدلة وبعث الرسل، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، أى: السبيل القصد، أى: القاصد المستقيم الموصل إلى المطلوب؛ كأنه يقصد الوجه الذى يقصده السالك لا يميل عنه. والمراد من السبيل: الجنس، ولذلك أضاف إليه القصد، وقال: ﴿ومنها جائر﴾ عن القصد، أو عن الله، كطريق اليهود والنصارى وغيرهم. والسبيل بمعنى الطريق، يذكر ويؤنث، وأنث هنا. وتغيير الأسلوب. أى: حيث لم يقل: قصد السبيل والجائر.؛ لأنه ليس بحق على الله أن يبين طريق الضلالة، ولأن المقصود، بالأصالة، بيان سبيله، وتقسيم السبيل إلى القصد والجائر إنما جاء بالعرض. ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ أى: ولو شاء هدايتكم أجمعين لهداكم إلى قصد السبيل، هداية مستلزمة للاهتداء. قاله البيضاوى.

الإشارة : هذه العوالم من العرش إلى الفرش كلها نصبت للآدمي، وخلقت من أجله، السماوات تظله، والأرض تَقْلُه، والحيوانات تخدمه وتنفعه، يتصرف فيها؛ خليفة عن الله في ملكه. فالواجب عليه شكر هذه النعم، وألا يقف معها، ويشغل بها عن خدمة خالقها. يقول الحق تعالى، في بعض كلامه بلسان الحال أو المقال: «يا ابن آدم، خلقت الأشياء من أجلك، وخلقتك من أجلّي، فلا تشغل بما خلق لأجلك عما خلقت لأجله». والواجب عليه أيضاً من طريق الخصوص: ألا يقف مع حس أجرامها، دون التفوذ إلى أسرار معاني خالقها ومظهرها؛ لئلا يبقى مسجوناً بمحيطاته، محصوراً في هيكل ذاته، بل ينفذ إلى فضاء شهود بحر المعاني، المحيط بالأواني، والمغنى لها، بصحبة شيخ كامل، يخرج من سجن الأكوان إلى فضاء شهود المكون. وبالله التوفيق.

وقوله: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ : اعلم أن الحق - جل جلاله - بين طريق الوصول إلى نعيمه الحسي والفوز برضوانه، وطريق الوصول إلى حضرة قدسه ومحل شهوده وعبادته، وأرسل الرسل ببيان الطريقين. فوكل ببيان الأولى العلماء، ووكل ببيان الثانية الأولياء. فالعلماء قاموا ببيان الشرائع الموصلة إلى نعيم الأشباح، والأولياء العارفون قاموا ببيان الحقائق الموصلة إلى نعيم الأرواح، وهو النعيم الأكبر؛ قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (١). فالرضوان على قسمين: قوم نالهم الرضوان من طريق الخطاب مع سدل الحجاب، وهم أهل الشرائع، وقوم نالهم الرضوان بمكافحة الخطاب ورفع الحجاب، وهم أهل الحقائق، وهم المقربون، نفعا الله بهم، وخرطنا في سلكهم. آمين.

ثم ذكر بقية التجليات، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِمَّنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِنَاسٍ لَّيْسَ بَيْنَهُنَّ حِمَا طَرِيقًا وَتَسْتَخْرِجُوهَا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَنَى فِي

(١) من الآية ٧٢ من سورة التوبة.

الْأَرْضِ رَوَّاسٍ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتْ
وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

قلت : (لكم منه شراب) : يحتمل أن يتعلق بأنزل، أو يكون في موضع خبر (شراب)، أو صفة لماء؛ (وماخر) : جمع ماخرة، يقال : مخرت السفينة الماء مخرأً: شقته، وقيل : المخر : صوت جري الفلك في البحر من هبوب الريح. وقيل : معناه : تجييء وتذهب بريح واحدة. و(لتبتغوا) : عطف على «لتأكلوا»، و(أن تميد) : مفعول من أجله، أى : كراهة أن تميد بكم. و(أنهاراً وسُبُلًا) : مفعول بمحذوف، أى : وخلق أو جعل أنهاراً، وقيل : معطوف على «رواسي»؛ لأن ألقى، فيه معنى الجعل، و(علامات) : عطف على (أنهاراً وسبلاً)، أو نصب على المصدر، أى : ألقى ذلك؛ لعلمكم تعتبرون، وعلامات دالة على وحدانيته.

يقول الحق جل جلاله : ﴿هو الذى أنزل من السماء﴾ أى : السحاب، أو جانب السماء، ﴿ماء﴾ : مطراً ﴿لكم منه شراب﴾ تشربونه بلا واسطة، أو بواسطة العيون والأنهار والآبار؛ لأنه يحبس فيها، ثم يشرب منها، لقوله : ﴿فَسَلَكَ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ (١)، وقوله : ﴿فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ (٢)، ﴿ومنه شجر﴾ أى : ومنه يكون شجر، يعنى : الشجر الذى ترعاه المواشى، وقيل : كل ما نبت على الأرض فهو شجر، ﴿فيه تسمون﴾ : ترعون مواشيكم، من أسام الماشية : رعاها، وأصلها : السومة، التى هى العلامة؛ لأنها تؤثر بالرعى علامات.

﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ﴾، وقرأ أبو بكر بالنون؛ على التثنية، ﴿والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات﴾ أى : ومن بعض كل الثمرات؛ إذ لم ينبت فى الأرض كل ما يمكن من الثمار. قال البيضاوى : ولعل تقديم ما يمام فيه على ما يؤكل منه؛ لأنه سيصير غذاءً حيوانياً هو أشرف الأغذية - يعنى اللحم -، ومن هذا : تقديم الزرع، والتصريح بالأجناس الثلاثة وتربيها. هـ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فيستدلون على وجود الصانع وباهر قدرته، فإن من تأمل الحبة تقع فى الأرض يابسة، ويصل إليها نداوة تنفذ فيها، فينشق أعلاها، ويخرج منه ساق الشجر، وينشق أسفلها فيخرج منه عروقه، ثم ينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار، والأكمام والثمار، ويشتمل كل منها على أجسام مختلفة الأشكال والطبائع، مع اتحاد المواد، علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار، مقدس عن منازعة الأضداد والأنداد، ولعل وصل الآية به؛ لذلك. قاله البيضاوى باختصار.

(١) من الآية ٢١ من سورة الزمر.

(٢) من الآية ١٨ من سورة المؤمنون.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ ﴾^(١)؛ بأن هيأها لمنافعكم، ﴿ مسخرات بأسره ﴾، أى: مذللات لما يريد منها، وهو حال من الجميع، أى: نفعمكم بها حال كونها مسخرات لله، منقادة لحكمه، أو لما خلقن له، ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ أى: لأهل العقول السليمة الصافية من ظلمة الغفلة والشهوات، وإنما جمع هنا، دون ما قبله وما بعده؛ لأن الأولى راجعة إلى إنزال المطر، وهو متحد، والثالثة راجعة إلى ما ذرأ في الأرض، وهو متحد في الجنس والهيئة، بخلاف العوالم العلوية، فإنها مختلفة في الجنس والهيئة. وقال البيضاوى: جمع الآية وذكر العقل؛ لأنها تتضمن أنواعاً من الدلالة ظاهرة لذوى العقول السليمة، غير مُحَوَّجَةٍ إلى استيفاء فكر، كأحوال النبات. هـ.

﴿ وما ذرأ ﴾ أى: وسخر لكم ما ذرأ، فهو عطف على الليل، أى: سخر لكم ما خلق لكم في الأرض من حيوانات ونبات، ﴿ مختلفاً ألوانه ﴾؛ أبيض وأسود، أحمر وأصفر، مع اتحاد المادة، فالماء واحد والزهر ألوان، ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾؛ يتذكرون أن اختلافها في الألوان والطبائع، والهيئات والمناظر، ليس إلا بصنع صانع حكيم.

﴿ وهو الذى سَخَّرَ البحر ﴾: ذلله بحيث هيأه للتمكن من الانتفاع به؛ بالركوب فيه، والاصطياد، والغوص، ﴿ لتأكلوا منه لحماً طرياً ﴾ هو السمك، ووصفة بالطراوة؛ لأنه أرطب اللحوم، فيسرع إليه الفساد، فيسارع إلى أكله طرياً، ولإظهار قدرته في خلقه؛ عذباً طرياً في ماء زُعَاق^(٢) أجاج، واحتج به مالك على أن من حلف ألا يأكل لحماً حنث بأكل السمك، وأجيب بأن مبنى الأيمان على العرف، وهو لا يفهم منه عند الإطلاق؛ ألا ترى أن الله سمى الكافر دابة، ولا يحنث من حلف ألا يركب دابة بركوبه. قاله البيضاوى. ويجاب بالاحتياط للحنث؛ فالحنث يقع بأدنى شيء، بخلاف البر، لا يقع إلا بآثم الأشياء.

﴿ وتستخرجوا منه حلية ﴾؛ كاللؤلؤ والمرجان، ﴿ تلبسونها ﴾؛ يلبسها نساؤكم، وأسند اللباس إليهم؛ لأن لباس النساء تزين للرجال^(٣)، فكأنه مقصود لهم، ﴿ وترى الفلك ﴾: السفن ﴿ مواخر فيه ﴾؛ جوارى فيه تمخر الماء، أى: تشقه، أو تصوت من هبوب الرياح، ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾: من سعة رزقه؛ بركوبه للتجارة، أو: وترى الفلك جوارى فيه؛ لتركبوها، ولتبتغوا من سعة رزقه. قال ابن عطية: فيه إباحة ركوب البحر للتجارة وطلب الأرباح. هـ. ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أى: تعرفون نعم الله فتقوموا بشكرها. ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر؛ لأنه أقوى في باب الإنعام؛ من حيث جعل الممالك سبباً للانتفاع، وتحصيل المعاش. قاله البيضاوى.

(١) قرأ حفص وابن عامر: (والنجوم مسخرات)؛ بالرفع على الابتداء، وقرأ الباقون بالنصب.. انظر الإتحاف (١٨١/٢).

(٢) الزُعَاق من الماء: المر الغليظ، لا يطاق شربه... انظر: لسان العرب (زعق).

(٣) هذا في المنزل، وللأزواج فقط، وأما ما سوى ذلك فهو - أى: اللباس - للتستر والاحتشام، تعبداً لله، وطاعة لأمره، وليضرين بخمرهن على جيوبهن... الآية.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾؛ جبلاً رواسى أرست الأرض؛ كراهة ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾؛ تميل وتضطرب؛ لأن الأرض قبل أن تُخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة، وكان من حقها أن تتحرك كالسفينة على البحر، فلما خلقت الجبال تقارمت جوانبها؛ بثقلها نحو المركز، فصارت كالأوتاد التي تمنعها عن الحركة. وقيل: لما خلق الله الأرض جعلت تمور. أي: تتحرك. فقالت الملائكة: ما يستقر أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أُرْسِيَتْ بالجبال. ﴿وَأَنْهَاراً﴾ أي: وجعل فيها أنهاراً تطرد؛ لسقى الناس والبهائم، وسائر المنافع، وذكره بعد الجبال؛ لأن الغالب انفجارها منها، ﴿وَسُبُلًا﴾ أي: وجعل فيها طرقاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لمقاصدكم، أو لمعرفة ربيكم، بالنظر في دلالة هذه المصنوعات المتقدمة، على صانعها.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ علامات ﴿مَعَالِمَ يَسْتَدِلُّ بِهَا السَّابِلَةُ عَلَى مَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ﴾ من الجبال، والمناهل، والرياح، وغير ذلك، ﴿وَبالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى الطرق بالليل، في البراري والبحار، والمراد بالنجم: الجنس، بدليل قراءة: «وبالنجم»؛ بضم نين؛ على الجمع. وقيل: المراد: الثريا، والفرقدان وبنات نعش^(١)، والجذى. والضمير لقريش؛ لأنهم كانوا كثيري الأسفار للتجارة، مشهورين بالاهتداء في مسائرهم بالنجوم، وإخراج الكلام عن سنن الخطاب، وتقديم النجم، وإقحام الضمير؛ للتخصيص، كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً، هؤلاء خصوصاً يهتدون، يعنى: قريشاً، فالاعتبار بذلك، والشكر عليهم ألزم لهم وأوجب عليهم. هـ. وأصله للزمخشرى.

الإشارة: هو الذى أنزل من سماء الغيوب ماء، أي: علماً لدنياً تحيا به القلوب، وتكظهر به النفوس من أدناس العيوب. لكم منه شراب، أي: خمرة تحيا بها الأرواح، وتغيب عن حضرة الأشباح، ويخرج منه على الجوارح أشجار العمل، تثمر بالأذواق، فيه تسيمون، أي: في أذواق العمل ترعون بنفوسكم وقلوبكم، ثم ترحلون عنه إلى حلاوة شهود ربيكم، فمن وقف مع حلاوة العمل، أو المقامات أو الكرامات، بقى محجوباً عن ربه، وعليه نبه صاحب البردة بقوله:

وَرَاعِهَا، وَهِيَ فِي الْأَعْمَالِ سَائِمَةٌ وَإِنْ هِيَ اسْتَحَلَّتِ الْمَرْعَى فَلَا تَسِمُ

وقال في الحكم: ربما وقفت القلوب مع الأنوار، كما حُجِبَتِ النفوس بكثائف الأغيار..

وقال المشتري:

وَقَدْ تَحَجَّبَ الْأَنْوَارُ لِلْعَبْدِ مِثْلَ مَا تَبَعْدُ^(٢) مِنْ إِظْلَامِ نَفْسٍ حَوَتْ ضِغْنًا .

(١) الفرقدان: نجمان في السماء لا يفرقان، انظر اللسان (فرقد). وبنات نعش: سبعة كواكب، تشاهد جهة القطب الشمالي. انظر (المعجم الوسيط/نعش).

(٢) في ديوان المشتري: تفيد.

يُنْبِتُ بِذَلِكَ الْعِلْمَ طَعَامَ نَفُوسِكُمْ مِنْ قُوَّةِ الشَّرِيعَةِ، وَمَصْبَاحَ قُلُوبِكُمْ مِنْ عَمَلِ الطَّرِيقَةِ، وَثَمَرَةَ الْأَعْمَالِ فِي عَوَالِمِ الْحَقِيقَةِ، وَفَوَاكِهَ الْعُلُومِ مِنْ مَخَازِنِ الْفُهُومِ. وَسَخَّرَ لَكُمْ لَيْلَ الْقَبْضِ، وَنَهَارَ الْبَسْطِ؛ لِتَسْكُنُوا فِيهِ؛ لِمَا خَصَّكُمْ فِيهِ مِنْ مَقَامِ التَّسْلِيمِ وَالرِّضَا، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ؛ مِنْ فَيْضِ الْعُلُومِ وَكُشْفِ الْغَطَاءِ، فَتَشْرِقَ حَيْلُكُمْ شَمْسَ الْعِرْفَانِ، وَيَسْتَلِيرَ قَمَرَ الْإِيمَانِ، وَتَطْلُعَ نَجُومُ الْعِلْمِ، كُلُّ مَسْخَرٍ فِي مَحَلِّهِ، لَا يَسْتَدِرُّ أَحَدٌ بِنُورِ غَيْرِهِ، وَهَذَا مَقَامُ أَهْلِ التَّمَكُّينِ، يَسْتَعْمَلُونَ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَحَلِّهِ. وَمَا ذَارَ لَكُمْ فِي أَرْضِ نَفُوسِكُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ وَأَحْوَالِ الْعِبُودِيَّةِ، مَثَلُونَةً بِاعْتِبَارِ الْأَزْمَنَةِ وَالْأَمَكْنَةِ، وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ بَحْرَ الْمَعَانِي؛ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا؛ عِلْمًا جَدِيدًا لَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ جَوَاهِرَ وَيَاقِيتَ مِنَ الْحِكْمِ، تَلْبَسُونَهَا وَتَنْزِينِ قُلُوبِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ بِهَا.

وَتَرَى الْفَلَكَ، أَيْ: سَفْنَ الْفِكْرَةِ، فِيهِ مَوَاحِرُ عَائِمَةٍ فِي بَحْرِ الْوَحْدَةِ، بَيْنَ أَنْوَارِ الْمَلَكُوتِ وَأَسْرَارِ الْجَبَرُوتِ؛ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَهِيَ مَعْرِفَةُ الْحَقِّ بِذَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، فَتَقْبِدُوا هَذِهِ النِّعَمَ الْجَسَامِ؛ لِئَلَّا تَزُولَ. وَالْقَى فِي أَرْضِ الْبَشَرِيَّةِ جِبَالَ الْعُقُولِ؛ لِئَلَّا يَلْعَبَ بِهَا رِيحُ الْهَوَى، وَأُجْرَى عَلَيْهَا أَنْهَارُ مِنَ الْعُلُومِ حِينَ انْزَجَرَتْ عَنْ هَوَاهَا، وَجَعَلَ لَهَا طَرَفًا تَهْتَدِي بِهَا إِلَى مَعْرِفَةِ رَبِّهَا، فَتَهْتَدِيَ أَوَّلًا إِلَى نَجْمِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ إِلَى قَمَرِ تَوْحِيدِ الْبَرَهَانِ، ثُمَّ إِلَى شُهُودِ شَمْسِ الْعِرْفَانِ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

ولما ذكر دلائل التوحيد، أنكر على من أشرك بعد هذا البيان، فقال:

﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ ١٧ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ ١٨ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝ ١٩ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ ٢٠ أَمْوتُ غَيْرِ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝ ٢١ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۖ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝ ٢٢ لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ ۝ ٢٣ ﴾

قلت: (وما يشعرون أيان يبعثون)، الضمير الأول للأصنام، والثاني للكفار الذين عبدوهم، وقيل: للأصنام فيهما، وقيل: للكفار فيهما، و(لا جرم): إما أن يكون بمعنى لا شك، أو لا بد، أو تكون (لا)، نفيًا لما تقدم. و(جرم): فعل، بمعنى وجب، أو حق، و(أن الله): فاعل بجرم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ ﴾ كل شيء، ويقدر على كل شيء، ﴿ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ شيئًا، ولا يقدر على شيء، بل هو أعجز من كل شيء؟ وهو إنكار على من أشرك مع الله غيره، بعد إقامة الدلائل

المتكاثرة على كمال قدرته، وباهر حكمته، بذكر ما تقدم من أنواع المخلوقات وبدائع المصنوعات، وكان حق الكلام: أفمن لا يخلق كمن يخلق، لكنه عكس؛ تنبيهاً على أنهم، بالإشراك بالله، جعلوه من جنس المخلوقات العجزة، شبيهاً بها. والمراد بمن لا يخلق، كل ما عبد من دون الله، وغلب أولى العلم منهم، فعبر بمن، أو يريد الأصنام، وأجراها مجرى أولى العلم؛ لأنهم سموها آلهة، ومن حق الإله أن يعلم، أو للمشكلة بينه وبين من يخلق. ﴿أفلا تذكرون﴾؛ فتعرفوا فساد ذلك؛ فإنه لظهوره كالحاصل للعقل الذي يحضر عنده بأدنى تذكروا والتفات.

ولما ذكر أنواعاً من المخلوقات على وجه الاستدلال على وحدانيته - وفي ضمنها: تعداد النعم على خلقه - أعقبها بقوله: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ أي: لا تطبقوا عددها، فضلاً أن تطبقوا القيام بشكرها. ثم أعقبها بقوله: ﴿إن الله لغفور رحيم﴾؛ تنبيهاً على أن العبد في محل التقصير، لولا أن الله يغفر له نقصه في أداء شكر نعمه، ويرحمه ببقائها مع نقصه في شكرها.

﴿والله يعلم ما تُسرُّون وما تُعلنون﴾ من عقائدكم وأعمالكم، وهو وعيد لمن كفر النعم وأشرك مع الله غيره، سراً أو علانية، ثم قال تعالى: ﴿والذين تدعون﴾ (١) أي: والأصنام الذين تعبدونهم ﴿من دون الله لا يخلقون شيئاً﴾؛ لظهور عجزهم. لما نفى المشاركة بين من يخلق ومن لا يخلق، بين أنها لا تخلق شيئاً؛ ليتحقق نفي الألوهية عنها؛ ضرورة. ثم علل عجزها، وعدم استحقاقها للألوهية بقوله: ﴿وهم يُخلَقون﴾ أي: وهم مخلوقون مفتقرون في وجودهم إلى التخليق، والإله لا بد أن يكون واجب الوجود.

وهم، أيضاً، ﴿أمواتٌ غير أحياء﴾ أي: لم تكن لهم حياة قط، ولا تكون، وذلك أغرق في موتها ممن تقدمت له حياة، ثم مات. والإله ينبغي أن يكون حياً بالذات لا يعتريه الممات. ﴿وما يشعرون أياًن يُعشون﴾ أي: لا يعلمون وقت بعثهم، أو بعث عبدهم، فكيف يكون لهم وقت يجازون فيه من عبدهم، والإله ينبغي أن يكون عالماً بالغيوب، قادراً على الجزاء لمن عبده؟ وفيه تنبيه على أن البعث من توابع التكليف. قاله البيضاوي.

قال ابن جزي: نفى عن الأصنام صفة الربوبية، وأثبت لهم أصدادها؛ وهي أنهم مخلوقون غير خالقين، وغير أحياء، وغير عالمين وقت البعث، فلما قام البرهان على بطلان ربوبيتهم، أثبت الربوبية لله وحده، فقال: ﴿إلهكم إله واحد﴾ هـ. وهو تصريح بما أقام عليه الحجج والبراهين بما تقدم.

(١) قرأ عاصم ويعقوب: «يدعون»؛ بالياء. على الالتفات. وقرأ الباقون: «تدعون» بناء الخطاب انظر الإتحاف (١٨٢/٢).

ثم ذكر سبب إصرارهم على الكفر - وهو إنكار البعث والتكبر - فقال: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: فالمنكرون للبعث قلوبهم منكرة لوحيدانيته تعالى، وهم مستكبرون عن اتباع الرسل فيما جاءوا به، والخضوع لهم؛ لأن المؤمن بالآخرة يكون طالباً للدلائل، متأملاً فيما يسمع، فينتفع به، خاضعاً للحق، متبعاً لمن جاء به، بخلاف الكافر، يكون حاله بالعكس؛ منهكاً في الغفلة، متبعاً للهوى، ينكر بقلبه ما لا يعرف إلا بالبرهان^(١)، اتباعاً للأسلاف، وتقليداً لهم، وركوناً إلى المألوف.

قال تعالى: تهديداً لمن هذا وصفه: ﴿لَا جَرَمَ لَهُ﴾: لا بد، أو لا شك، أو حق ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، فيجازيهم عليه؛ ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ مطلقاً، فضلاً عن الذين استكبروا عن توحيدِهِ واتباع رسوله. ومفهومه: أنه يحب المتواضعين الخاضعين للحق، ولمن جاء به، وهم المؤمنون. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تضمنت الآية ثلاث خصال من خصال أهل التوحيد: الأولى: رفع الهمّة عن الخلق، وتعلقها بالخالق في جميع المطالب والمآرب؛ إذ لا يترك العبد من هو خالق كل شيء، قادر على كل شيء، دائم لا يموت، ويتعلق بعبد عاجز ضعيف، لا يقدر على نفع نفسه، فكيف ينفع غيره؟ (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون)، (والذين تدعون من دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرِ أَحْيَاءٍ) . وأنشدوا في هذا المعنى:

حَرَامٌ عَلَى مَنْ وَحَّدَ اللَّهُ رِيَّهٗ وَأَفْرَدَهُ أَنْ يَحْتَضِيَ أَحَدًا رِفْدًا
فِيَا صَاحِبِي قَفْ بِي عَلَى الْحَقِّ وَقْفَةً أَمُوتُ بِهَا وَجَدًا، وَأَحْيَا بِهَا وَجَدًا
وَقُلْ لِمُلُوكِ الْأَرْضِ تَجْهَدُ جَهْدَهَا فَذَا الْمُلُوكُ مُلُوكٌ لَا يُبَاعُ وَلَا يُهْدَى

والخصلة الثانية: تذكر البعث وما بعده، وتقريبه وجعله نصب العين؛ إذ بذلك يحصل الزهد في هذه الدار الفانية، والاستعداد والتأهب للدار الباقية، وبه تلين القلوب، وتحقق بعلم الغيوب، وبه يحصل الخضوع للحق، والتعظيم لمن جاء به. بخلاف من أنكره، أو استبعده، قال تعالى: (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ).

(١) هذا من سمات المؤمنين، وليس الكافرين، فالكافرون: لا برهان لهم؛ (لا برهان له به..)، (قل هاتوا برهانكم..). .. (قل هل عندكم من علم..). (لولا يأتون عليهم بسلطان). ويرحم الله أسلافنا، علمونا ذلك، فنقلنا عنهم هذه القاعدة: (إن كنت ناقلًا - فالصحة، وإن كنت مدعيًا: فالدليل)، والله - تقدس ونعالي - أمرنا ألا نتبع إلا ما قام عليه الدليل، (ولا نقف ما ليس لك له علم)، والعلم هو ما قام عليه البرهان الجلي.

الخصلة الثالثة : التواضع والخضوع لله، ولمن دعا إلى الله، وهو سبب المحبة من الله، ورفع الدرجات عند الله؛ قال ﷺ: « مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ ». وقال أيضاً: « مَنْ تَوَاضَعَ دُونَ قَدْرِهِ، رَفَعَهُ اللَّهُ فَوْقَ قَدْرِهِ ». بخلاف المتكبر؛ فإنه معقود عند الله، مطرود عن باب الله؛ قال تعالى: (إنه لا يحب المستكبرين). وفي الحديث: « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبَرٍ » (١)، أو كما قال ﷺ، والتكبر: بطر الحق وغمط الناس، أي: جحد الحق، واحتقار الناس. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وصف المتكبرين، ووبال تكبرهم، فقال:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالَُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۚ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ۚ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۚ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ عَالَمٍ ۚ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَفِّقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ۚ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئِنْ شِئْتُمْ لَتَكْذِبْنَ ۚ ﴾

قلت: (ماذا)، يجوز أن يكون اسماً واحداً مركباً منصوباً بـ (أنزل)، وأن تكون (ما): استفهامية في موضع رفع بالابتداء، و(ذا): بمعنى «الذي»: خبر، وفي أنزل ضمير محذوف، أي: ما الذي أنزله ربكم؟ واللام في (ليحملوا): لام العاقبة والصيرورة، أي: قالوا: هو أساطير الأولين؛ فأوجب ذلك أن يحملوا أوزارهم وأوزار غيرهم، وقيل: لام الأمر، و(بغير علم): حال من المفعول في (يضلونهم)، أو من الفاعل، و(تشاقون): من قرأه بالكسر؛ فالمفعول: ضمير المتكلم، وهو الله تعالى، ومن قرأه بالفتح؛ فالمفعول محذوف، أي: تشاقون المؤمنين من أجلهم. و(ظالمى أنفسهم): حال من ضمير المفعول في: «تتوفاهم».

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها)، من حديث ابن مسعود - رضى الله عنه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: كفار قريش: ﴿مَاذَا أُنْزِلَ رَبِّكُمْ﴾ على رسوله محمد - عليه الصلاة والسلام - ؟ ﴿قَالُوا﴾: هو ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مأسطره الأولون وكتبوه من الخرافات. وكان النضر بن الحارث قد اتخذ كتب التواريخ، ويقول: إنما يحدث محمد بأساطير الأولين، وحديثي أجمل من حديثه. والقائل لهم هم المقتسمون، وتسميته، حينئذ، منزلاً؛ إما على وجه التهكم، أو على الفرض والتقدير، أي: على تقدير أنه منزل، فهو أساطير لا تحقيق فيه. ويحتمل أن يكون القائل لهم المؤمنين، فلا يحتاج إلى تأويل.

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: قالوا ذلك؛ ليضلوا الناس، فكان عاقبتهم أن حملوا أوزار ضلالهم كاملة، ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾: وبعض أوزار ضلال من كانوا يضلونهم - وهو حصة التسبب في الوقوع في الضلال - حال كونهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضلّال. وفيه دليل على أن الجاهل في العقائد غير معذور؛ إذ كان يجب عليه أن يبحث عن الحق وأهله، وينظر في دلائله وحججه (١).

قال البيضاوي: (بغير علم): حال من المفعول؛ أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضلّال، وفائدتها: الدلالة على أن جهلهم لا يعذرهم؛ إذ كان عليهم أن يبحثوا بين الحق والمبطل. هـ. وقال المحشي: ففيه ذم تقليد المبطل، وأن مقلده غير معذور، بخلاف تقليد الحق الذي قام بشاهد صدقه المعجزة، أو غير ذلك، كدليل العقل والنقل فيما تعتبر دلالته. هـ. قلت: ويجوز أن يكون حالاً من الفاعل، أي: يضلون في حال خلوه من العلم، فقد جمعوا بين الضلال والإضلال.

قال تعالى في شأن أهل الإضلال: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾، أي: بس شيئاً يزرونه فعلهم هذا.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: دبّروا أموراً ليذكروا بها الرسل، ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: قصد ما دبّروه من أصله، فهدمه، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، وصار ما دبّروه، وينوء من المكر، سبب هلاكهم، ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ لا يحتسبون ولا يتوقعون، وهو على سبيل التمثيل. وقال ابن عباس وغيره: المراد به نمرود بن كنعان، بنى الصرح ببابل، سمكه خمسة آلاف ذراع؛ ليرصد أمر السماء، فبعث الله ريحاً فهدمته، فخر عليه وعلى قومه، فهلكوا، وقيل: إن جبريل عليه السلام هدمه، فألقى أعلاه في البحر، وانجفع (٢) من أسفله.

(١) ما ذكر الشيخ هو كلام المعتزلة - عموماً - أما كلام أهل السنة - فيما يختص بمن ثبت له عقد الإسلام - فهو إعداره بالجهل، وتبليغه الحجة حتى يتبين له الحق بياناً لا يغيب على مثله، وحتى يعرف الحق ويميزه، كما يميز الشمس.. فإن أصر على فعل الشرك أو الكفر بعد هذا فهو كافر، لا عذر له، يقول الشوكاني تعليقا على حديث سجود معاذ للنبي ﷺ: «وفي هذا الحديث دليل على أن من سجد - جاهلاً - لغير الله، لم يكفر، وقال في السيل الجرار: «فلا بد من شرح الصدر بالكفر، فلا اعتبار بما يقع من طواريء عقائد الشرك، لا سيما مع الجهل بمخالفتها لعقائد الإسلام، إلى غير ذلك مما قرره ابن العربي، والقاسمي، وابن القيم وغيرهم، في هذه المسائل. فتأملها؛ لأنها خطيرة جداً، فعدم إحكام هذه الأصول يوقعنا في جحيم تكفير جهلة المسلمين. والأمر لله.

(٢) يقال: جعفه جعفاً؛ قلبه وقلمه. فانجفع. انظر اللسان: (جعف).

﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ : يذللهم ويعذبهم بالنار، ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ﴾ ، أضافها إلى نفسه؛ استهزاء، أو حكاية لإضافتهم إياها إليه في الدنيا؛ زيادة في توبيخهم، أى: أين الشركاء ﴿ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ ﴾ : تعادون المؤمنين في شأنهم، أو تشاققوننى في شأنهم؛ فإن مشاققة المؤمنين كمشاققته، أو تحاربون وتخارجون، فتكونون فى شق والحق فى شق، ﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ ؛ وهم الأنبياء والعلماء الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد، فيشاققونهم ويتكبرون عليهم، أو الملائكة: ﴿ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ ﴾ : الذلة والعذاب ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . وفائدة قولهم ذلك لهم: إظهار الشماتة وزيادة الإهانة، وحكايته، ليكون لطفاً لمن سمعه من المؤمنين، فيزيد حذراً وحزماً فى الطاعة، وقال الواحدى: إن الخزي اليوم والسوء عليهم لا علينا. هـ. أى: فيقولونه؛ اعترافاً واستبشاراً بإنجاز ما وعدهم الله، كما قالوا: الحمد لله الذى هدانا لهذه الهداية.

ثم وصفهم بقوله: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ : تقبض أرواحهم ﴿ ظَالِمَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ : بأن عرضوها للعذاب المخلد، ﴿ فَالْقُوا السَّلَامَ ﴾ : أى: استسلموا، وألقوا القياد من أنفسهم، حين عاينوا الموت، قائلين: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ : من كفر وعدوان، يحتمل أن يكون قولهم ذلك قصدوا به الكذب؛ اعتصاماً به، كقولهم: ﴿ وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مِنْ شُرَكَائِكَ ﴾ (١)، أو يكونوا أخبروا على حساب اعتقادهم فى أنفسهم، فلم يقصدوا الكذب، ولكنه كذب فى نفس الأمر. قال الحسن: هى مواطن، فمرة يقرون على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ (٢)، ومرة يجحدون كهذه الآية، فتجيبهم الملائكة بقولهم: ﴿ بَلَى ﴾ : قد كنتم تعملون السوء والعدوان، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فهو يجازيكم عليه. وقيل: إن قوله: ﴿ فَالْقُوا السَّلَامَ ﴾ إلى آخر الآية، راجع إلى شرح حالهم يوم القيامة، فيتصل فى المعنى بقوله عز وجل: ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ ﴾ إلخ، فيكون الرأد عليهم بقوله: ﴿ بَلَى ﴾ ، هو الله تعالى، أو: أولوا العلم، ويقوى هذا قوله بعده: ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ لأن دخولها لا يكون إلا بعد البعث والحساب، لا بعد الموت؛ إذ لا يكون بعد الموت إلا العرض عليها غدواً وعشيا، والمراد بدخول أبوابها، أى: التى تفضى إلى طبقاتها، التى هى بعضها على بعض، وأبوابها كذلك، كل صنف يدخل من بابه المعد له، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا فَلْيَسْ مَثْوًى ﴾ : أى: مقام المتكبرين هـ جهنم.

الإشارة: وإذا قيل لأهل الغفلة والإنكار: ماذا أنزل ربكم، على قلوب أولياء زمانكم؛ من المواهب وأسرار الخصوصية؟ قالوا: أساطير الأولين، ثم عوقوا الناس عن الدخول فى طريقهم؛ لتطهير قلوبهم، فيحملوا أوزارهم

(١) كما حكى عنهم الله تعالى فى الآية ٢٣ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ١٣٠ من سورة الأنعام.

كاملة يوم القيامة؛ حيث ماتوا مصرين على الكبائر وهم لا يشعرون. ويحملون من أوزار الذين يضلونهم عن طريق الخصوص بغير علم، بل جهلاً وعناداً وحسداً، ألا ساء ما يزررون.

قلت : الذي أتلف العوام عن الدين ثلاثة أصناف: علماء السوء، وفقراء السوء - وهم أهل الزوايا والنسبة -، وقرءاء السوء؛ لأن هؤلاء هم المقتدى بهم، والمنظور إليهم، فإذا رأوهم أقبلوا على الدنيا، وقصروا في الدين، تبعوهم على ذلك؛ فضلوا معهم، فقد ضلوا وأضلوا، وإذا أنكروا على أولياء الله، ومكروا بهم، اقتدوا بهم في ذلك، فيتولى الله حفظ أوليائه، ويهدم مكرهم؛ قال تعالى: (فأتى الله بنيانهم من القواعد) .. الآية، فإذا كان يوم القيامة أبعدهم عن حضرته، وأسكنهم مع عوام خلقه. فإذا أنكروا ما فعلوا في الدنيا، يقال لهم: (بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون)، فيخلدون في عذاب القطيعة والحجاب، فبئس مثوى المتكبرين. والله تعالى أعلم .

ثم ذكر أصدادهم، فقال:

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تُوَفَّقَهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قلت : (خيراً) : منصوب بفعل محذوف، أى: أنزل خيراً، فهو مطابق للسؤال؛ لأن المؤمنين معترفون بالإنزال، بخلاف قوله: (أساطير الأولين)؛ فهو مرفوع على الخبر؛ لأنهم لا يقرون بالإنزال، فلا يصح تقدير فعله. وإنما عدلوا بالجواب عن السؤال؛ لإنكارهم له، وقالوا: هو أساطير الأولين ولم ينزله الله. و(للذين) : خير، و(حسنه) : مبتدأ، والجملة: بدل من (خيراً)، أو تفسير الخير الذي قالوه، والظاهر أنه استئناف من كلام الحق. (جنات عدن) : يحتمل أن يكون هو المخصوص بالمدح، فيكون مبتدأ، وخبره فيما قبله، أو خبر ابتداء مضمرة، أو مبتدأ، وخبره: (يدخلونها)، أو محذوف، أى: لهم جنات عدن. و(طيبين) : حال من مفعول «توفاهم».

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الشُّرَكَ، وهم المؤمنون: ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾، أى: أنزل خيراً، مفرين بالإنزال، غير مترددين فيه ولا متلعثمين عنه، على خلاف الكفرة؛ لما ذكر الحق تعالى مقالة الكفار الذين قالوا: أساطير الأولين، عادل ذلك بذكر مقالة المؤمنين من أصحاب النبي ﷺ، وأوجب لكل فريق ما يستحق من العقاب أو الثواب، روى أن العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بأخبار النبي ﷺ، فإذا جاء الوفد، وسأل المقتسمين من الكفار، قالوا له: أساطير الأولين، وإذا سأل المؤمنين: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: خيراً. فنزلت الآية في شأن الفريقين.

ثم ذكر جزاء المؤمنين فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ بالإيمان والطاعة، ﴿حَسَنَةٌ﴾ أى: حالة حسنة؛ من النصر، والعز، والتمكين فى البلاد، مع الهداية للمعرفة والاسترشاد. ﴿وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أى: ولثواب الآخرة خير مما قدم لهم فى الدنيا؛ لدوامه، وصفائه، وعظيم شأنه، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً، يُثَابُ عَلَيْهَا الرِّزْقُ فِي الدُّنْيَا، وَيُجَازَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ»^(١). ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة، حذفت، لتقدم ذكرها، أو هى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ على الأبد، ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من أنواع المشتبهات؛ حسية ومعنوية، وفى تقديم الظرف فى قوله: (فيها)؛ تنبيه على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريد إلا فى الجنة. قاله البيضاوى.

﴿كَذَلِكَ يَجْزَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين قالوا خيراً وفعلوا خيراً، وأحسنوا فى دار الدنيا حتى ماتوا على الإحسان، كما قال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾: طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي؛ لأنه فى مقابلة ظالمى أنفسهم، وقيل: فرحين؛ لبشارة الملائكة إياهم بالجنة، أو طيبين بقبض أرواحهم؛ لتوجه نفوسهم بالكلية إلى الحضرة القدسية. قاله البيضاوى. وقال ابن عطية: (طيبين): عبارة عن صلاح حالهم، واستعدادهم للموت. وهذا بخلاف ما قال فى الكفرة: (ظالمى أنفسهم)، والطيب لا خبث معه، ومنه قوله تعالى: ﴿طَبِّئْهُمْ فَأَدْخُلُوها﴾^(٢). هـ.

وقال الترمذى الحكيم: (طيبين) أى: مستعدين للقاء، يسلم عليهم، ويقال لهم: ادخلوا الجنة بلا هول ولا حساب، بخلاف غير المستعد للقاء، فإنما يسلم عليه، ويقال له: ادخل الجنة بعد أهوال القبر وأهوال القيامة. هـ. وهذا معنى قوله: ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ لا يلحقكم بعد مكروه. وهذا لأجل الاستعداد كما تقدم. ثم نقول لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بعد بعثكم، أو بأرواحكم فى عالم البرزخ، إن كانوا من الشهداء أو الصديقين، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فى دار الدنيا.

فإن قلت: كيف التوفيق بين الآية وبين الحديث: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعِزَّنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ»؟ فالجواب: أن الهداية لصالح العمل، والتوفيق له، هو برحمة الله أيضاً، فالعمل الصالح رحمة من رحمة الله، فما دخل أحد الجنة إلا برحمته، فرجعت الآية إلى الحديث. ومقصد الحديث: نفى وجوب ذلك على الله تعالى بالعقل، كما ذهب إليه فريق من المعتزلة. وهنا جواب آخر صوفى؛ وهو الجمع بين الحقيقة والشرعية، فنسبة العمل إلى العبد شريعة، ونفيه عنه، بإجراء الله ذلك عليه، حقيقة. فالآية سلكت مسلك الشريعة فى

(١) أخرجه مسلم بنحوه فى (صفات المنافقين وأحكامهم، باب: جزاء المؤمن بحسناته فى الدنيا والآخرة). من حديث أنس بن مالك روى.

(٢) من الآية ٧٣ من سورة الزمر.

نسبة العمل للعبد؛ فضلاً ونعمة؛ «من تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك». والحديث سلك مسلك الحقيقة؛ لأن الدين كله دائر بين حقيقة وشريعة، فإذا شرع القرآن حقيقته السنة، وإذا شرعت السنة حقيقتها القرآن. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وقيل للذين اتقوا التقوى الكاملة: ماذا أنزل ريكهم من المقادير؟ قانوا: خيراً، فكل ما ينزل بهم من قدر الله وقضائه، جلالياً كان أو جمالياً، جعلوه خيراً، وتلقوه بالرضا والتسليم. يقولون: إذا كنت أنت المبتلى، فافعل ما شئت، لا يتضعضعون ولا يسأمون، ولا يشكون لأحد سوى محبوبهم؛ لأن الشكوى تنافي دعوى المحبة، كما قال الشاعر:

إِنْ شَكَّوتَ الْهَوَىٰ فَمَا أَنْتَ مِنْهَا أَحْمِلِ الصَّدَّ وَالْجَفَا يَا مُعْنَا
تَدْعِي مَذْهَبَ الْهَوَىٰ ثُمَّ تَشْكُو أَيْنَ دَعْوَاكَ فِي الْهَوَىٰ، قُلْ لِي: أَيْنَا؟
لَوْ جَدْنَاكَ صَابِرًا لِهَوَانَا لَأَعْطَيْنَاكَ كُلَّ مَا تَمْنَى.

وإنما قالوا، في كل ما ينزل بهم: خيراً، أو جعلوه لطفاً وبراً؛ لما يجدون في قلوبهم، بسببه، من المزيد والألطف، والتقريب وطى مسافة النفس، ما لا يجدونه في كثير من الصلاة والصيام سنين؛ لأن الصلاة والصيام من أعمال الجوارح، وما يحصل في القلب من الرضا والتسليم، وحلاوة القرب من الحبيب، من أعمال القلوب، وذرة منها خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح^(١).

وفي الخبر: «إذا أحب الله عبد ابتلاه، فإن صبر اجتبه، وإن رضي اصطفاه». وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»^(٢)، وفي البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «ما يصيب المؤمن من وصب، ولا نصب، ولا سقم، ولا حزن، حتى الهم يومه، إلا كفر له من سيئاته»^(٣)، وقال أيضاً: ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه، إلا حط به عنه سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»^(٤). وروى عن عيسى عليه السلام أنه كان يقول: لا يكون عالماً من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله؛ لما يرجو بذلك من كفارة خطاياهم. هـ. فتحصل أن ما ينزل بالمؤمن كله خير، فإذا سئل: ماذا أنزل ريكهم؟ قال: خيراً.

(١) ليس هذا مفيداً لتقليل شأن الصلاة والصوم.. إلخ، وإنما يريدك الشيخ أن يجعل عمل القلب مع عمل الجارحة.

(٢) رواه مسلم في (الزهد، باب المؤمن أمره كله خير)، عن صهيب رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في (المرض، باب ما جاء في كفارة المرض)، ومسلم في (البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في (المرض، باب قول المريض: إني وجع)، ومسلم في (البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض.. من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه).

ثم قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾؛ أى: بالرضا عنى فى جميع الأحوال، والاشتغال بذكرى فى كل حال، لهم فى الدنيا ﴿حسنة﴾: حلاوة المعرفة، ودوام المشاهدة، ﴿ولدار الآخرة خير﴾؛ لصفاء المشاهدة فيها، واتصالها بلا كدر؛ إذ ليس فيها من شواغل الحس ما يكدرها، بخلاف الدنيا؛ لأن أحكام البشرية لا ينفك الطبع عنها، كغلبة النوم، وتشويش المرض وغيره، بخلاف الجنة، ليس فيها شىء من الكدر، ولذلك مدحها بقوله: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ لكل ما يشغل عن الله؛ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، طاهرين، مطهرين من شوائب الحس، وذنس العيوب، طيبة نفوسهم بحب اللقاء، قد طيبوا أشباحهم بحسن المعاملة، وقلوبهم بحسن المراقبة، وأرواحهم بتحقيق المشاهدة. تقول لهم الملائكة الكرام: سلام عليكم، ادخلوا جنة المعارف إثر موتكم، وجنة الزخارف إثر بعثكم؛ بما كنتم تعملون من تطهير أجسامكم من الزلات، وتطهير قلوبكم من الغفلات، وتطهير أرواحكم من الفترات. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد أضدادهم، الذين قالوا فيما أنزل لهم: (أساطير الأولين)، فقال:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٦) إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ﴾ (٣٧)

يقول الحق جل جلاله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾؛ أى: ما ينظر هؤلاء الكفرة، الذين قالوا فيما أنزل الله من الوحي: هو أساطير الأولين، ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾؛ نقبض أرواحهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾؛ قيام الساعة، أو العذاب المستأصل لهم فى الدنيا، ﴿كَذَلِكَ﴾؛ أى: مثل ذلك التكذيب والشرك، ﴿فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، فأصابهم ما أصابهم، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾؛ يهلكهم، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ لكفرهم ومعاصيهم، المؤدية إلى عذابهم.

﴿ فَأَصَابَهُمْ ﴾ جزاء ﴿ سيئات ما عملوا ﴾ من الكفر والمعاصي، وهو العذاب، ﴿ وحق ﴾ أى: وأحاط ﴿ بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴾ أى: نزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به. والحق لا يكون إلا فى الشر.

﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾؛ كالبخائر والسوائب والحوامى. قالوا ذلك على وجه المجادلة والمخاصمة، والاحتجاج على صحة فعلهم، أى: إن فعلنا هو بمشيئة الله، فهو صواب، ولو شاء الله ألا نفعله ما فعلناه. والجواب: أن الاحتجاج بالقدر لا يصح فى دار التكليف، وقد بعث الله الرسل بالنهى عن الشرك، وتحريم ما أحل الله، ونحن مكلفون باتباع الشريعة، لا بالنظر إلى فعل الحقيقة من غير شريعة؛ فإنه زندقة؛ فالشريعة رداء الحقيقة، فمن خرق رداء الشريعة، وتمسك بالحقيقة وحدها، فقد استحق العقاب، ولذلك قال تعالى: ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾؛ فأشركوا بالله، وحرّموا ما أحل الله، وردوا رسله. ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ أى: الإبلّغ الموضح للحق؛ فمن تمسك بما جاءوا به فهو على صواب، ومن أعرض عنه فهو على ضلال، ولا ينفعه تمسكه بالحقيقة من غير اتباع الشريعة. والحقيقة هى أنه لا يقع فى ملكه إلا ما يريد، طاعة كان أو معصية، كفرة أو إيماناً، لكن الأمر غير تابع للإرادة، ونحن مكلفون باتباع الأمر فقط.

ثم بين أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية فى الأمم الماضية، جعلها سبباً لهدى من أراد اهتدائه، وزيادة الضلال لمن أراد إضلاله، كالغذاء الصالح، فإنه ينفع المزاج السوى - أى: المعتدل - ويقويه، ويضر المزاج المنحرف ويعيبه، فقال: ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ﴾. قائلًا: ﴿ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾؛ أى: يأمر بعبادة الله وحده واجتناب ما سواه، ﴿ فمنهم من هدى الله ﴾؛ وفقهم للإيمان وأرشدهم إليه، ﴿ ومنهم من حققت عليه الضلالة ﴾؛ فلم يوفقهم، ولم يرد إرشادهم؛ فليس كل من تمسك بشيء وأمهل فيه يدل أنه على صواب، كما ظن المشركون، بل النظر إلى ما جاءت به الرسل من الشرائع، وكلها متفقة على وجوب التوحيد وإبطال الشرك.

ثم أمرهم بالنظر والاعتبار بحال من أشرك وكذب الرسل، فقال: ﴿ فسيروا فى الأرض ﴾. يا معشر قريش، ﴿ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾؛ كعاد وثمود وغيرهم، لعلمكم تعتبرون.

ثم نهى نبيه عن الحرص عليهم فقال: ﴿ إن تحرص ﴾. يا محمد ﴿ على هدايتهم فإن الله لا يهدي من يضل ﴾. أى: من يريد إضلاله وقضى بشقائه؛ وهو الذى حققت عليه الضلالة، وقرأ غير الكوفيين بالبناء للمفعول (١)، وهو أبلغ، أى: فإن الله لا يهدي من يضلّه، أى: لا يهدي غير الله من يريد الله إضلاله. ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾؛ ليس لهم من ينصرهم؛ يدفع العذاب عنهم.

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: يهدى؛ بفتح الياء وكسر الدال، على البناء للفاعل، أى: لا يهدى الله من يضلّه. وقرأ الباقر: يهدى. بضم الياء وفتح الدال، على البناء للمفعول، يعنى: من أضله الله فلا هادى له. انظر الإتحاف (١٨٤/٢) والبحر المحيط (٥/٢٧).

الإشارة : هل ينظر من عكف على دنياه، وأكب على متابعة حظوظه وهواه، إلا أن تنزل الملائكة لقبض روحه، فيندم حيث لا ينفع الندم، وقد زلت به القدم، فيتمنى ساعة تزداد في عمره فلا يجدها، أو يأتي أمر ربك بأمر يحول بينه وبين العمل الصالح؛ كمرض مزمن، أو فتنة مضلة. كذلك فعل من قبله، اغتر بدنياه حتى اختطف لأخراه. وما ظلمهم الله، بل بعث الرسل وأخلفهم بأهل الوعظ والتذكير، فحادوا عنهم، فأصابهم جزاء سينات ما عملوا من الغفلة والبطالة، وحق بهم ما كانوا به يستهزئون، من وبال التقصير، وفوات مقام أهل الجد والتشمير.

وقال الذين أشركوا في محبة الله سواء؛ من الحظوظ وزهرة الدنيا؛ لو شاء الله ما فعلنا ذلك، محتجين بالقدر، مع الإقامة على البطالة والخذلان. كذلك فعل من قبلهم من أهل الغفلة، فهل على الرسل وخلفائهم إلا البلاغ المبين؟ فقد حذروا من متابعة الدنيا، وبلغوا أن الله غيور لا يحب من أشرك معه غيره في محبته، فقد بعث في كل أمة وعصر نذيراً، يأمر بعبادة الله وحده، واجتناب كل ما سواه؛ فمنهم من هداه الله، فاختره لحضرته، فلم يحب سواه. ومنهم من حقت عليه الضلالة عن مقام الخصوص، فبقى في مقام البعد؛ مكذباً بطريق الخصوص. فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين؛ كان عاقبتهم الحرمان ولزوم الخذلان. ويقال للعارف المذكر لمثل هؤلاء: (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل) .. الآية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مقالة أخرى لأهل الشرك، وهو إنكار البعث، فقال:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِبَيِّنٍ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

قلت : (وأقسموا) : عطف على (وقال الذين أشركوا) ؛ إيذاناً بأنهم، كما أنكروا التوحيد، أنكروا البعث، مقسمين عليه؛ زيادة في القطع على فسادهم، فرد الله عليهم بأبلغ رد، فقال: (بلى). قاله البيضاوي. وتقدم الكلام على «بلى»، في البقرة والأعراف^(١)، و (وعداً) : مصدر مؤكد لنفسه، وهو ما دل عليه «بلى» : فإن «يبعث» وعد، أي: بلى، وعدهم ذلك وعداً حقاً، ونصب ابن عامر، فيكون عطفاً على «نقول»، أو جواباً للأمر.

يقول الحق جل جلاله : ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ أي: المشركون، ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: أبلغها وأوكدتها، ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾، فرد الله عليهم بأبلغ رد، فقال: ﴿بلى﴾ يبعثهم؛ ﴿وعداً عليه﴾ إنجازه

(١) راجع تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة، والآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

﴿ حَقًّا ﴾ ، لا يخلف ؛ لامتناع الخلف في وعده ، أو : لأن البعث مقتضى حكمته ؛ لتنزيه فعله عن العيب ، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أنهم يبعثون ، إما لعدم علمهم بأنه من موجبات الحكمة ، التي جرت عادته بمراعاتها ، وإما لقصور نظرهم باعتبار المألوف ، ووقوفهم مع العوائد ، فتوهموا امتناعه ، وقالوا : ﴿ أنذا كنا تراباً أننا لفي خلقٍ جديد ﴾ (١) ، ولم ينظروا إلى قدرة الله التي لا يعجزها شيء .

ثم بين حكمه البعث ، فقال : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُم ﴾ أي : يبعثهم ؛ ليبين لهم ﴿ الذي يختلفون فيه ﴾ ؛ وهو الحق من الباطل ؛ فإن الناس مختلفون في أديانهم ومذاهبهم ؛ فيبعثهم الله ؛ ليبين لهم الحق فيما اختلفوا فيه ، فيظهر من كان على الحق ممن كان على الباطل ، ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ فيما كانوا يزعمون ؛ من عدم البعث ، وتمسكهم بالحق ، وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث ، المقتضى له من حيث الحكمة ، وهو التمييز بين الحق والباطل ، والمحق والمبطل .

ثم بين كمال قدرته الموجبة للبعث وغيره فقال : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ، فأمره بين الكاف والنون ، فإذا كان إيجاد الأشياء من عدم بلفظ « كن » ، فأولى إعادتها . وكون أمره بين الكاف والنون كناية عن السرعة ، وإلا فلا يحتاج إلى لفظ « كن » . بل مهما أراد شيئاً ، أظهره ؛ أقرب من لحظ العيون ، وإنما جاءت العبارة على قدر ما تفهم العقول ، وعلى هذا فلا يحتاج إلى ما نَعَسَفَهُ ابن عطية وغيره ؛ من كون القول في الأزل ، وإظهاره فيما لا يزال - يعني : في وقت إظهاره - ؛ فإن الكلام إنما خرج مخرج الاستعارة أو المجاز ، فلا يتوقف إيجاد الأشياء على « كن » . والله تعالى أعلم .

الإشارة : ترى بعض الجهال يقسمون بالله جهد أيمانهم : أن الله لا يفتح على فلان ، لما يرون فيه من الجهل والغباوة ، أو من الطغيان والمعاصي ، فلا يبعث الله روحه بإحيائها بعد موتها ، وتلفها في عالم الحس ، مع أن القدرة صالحة ؛ قال في الحكم : « من استغرب أن ينقذه الله من شهوته ، وأن يخرج من رجود غفلته ، فقد استعجز انقدرة إلهية ، وكان الله على كل شيء مقتدراً » . فإن سبقت له العناية بقل الحق تعالى في شأنه : بلى ، يبعثه ، ويحيي روحه بالمعرفة واليقين . وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن قدرته عامة . فكم من جاهل غبي يخرج منه عالم ولي ، وكم من خصوص خرجوا من اللصوص ، والله يختص برحمته من يشاء . يبعثهم ؛ ليبين لهم الذي يختلفون فيه ؛ من نفوذ قدرته تعالى وعموم تعلقها ، وليعلم الذين كفروا بطريق الخصوص أنهم كانوا كاذبين فيما زعموا ؛ (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كُنْ فَيَكُونُ) .

(١) من الآية ٥ من سورة الرعد .

ثم ذكر الطريق الموصلة إلى إحياء الأرواح، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

قلت: (الذين صبروا): نعت للذين هاجروا، أو على تقدير: (هم)، أو نصب على المدح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿والذين هاجروا في الله﴾ أى: طلب رضا الله، أو: فى نصر دينه، أو: طلب معرفته، ﴿من بعد ما ظلموا﴾؛ من بعد ما ظلمهم الكفار بالإيذاء والتضييق، وهم: رسول الله ﷺ وأصحابه المهاجرون. ظلمهم قريش وضيقوا عليهم، فهاجر بعضهم إلى الحبشة، وبعضهم إلى المدينة. قال ابن عطية: الجمهور أنها نزلت فى الذين هاجروا إلى أرض الحبشة؛ لأن الآية مكية، وهجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية هـ. قلت: والمختار: العموم، ويكون من جملة الإخبار بما سيقع، أو: هم المحبوسون المعذبون بمكة، بعد هجرة رسول الله ﷺ؛ وهم بلال، وصهيب، وعمار، وخباب، وأبو جندل بن سهيل^(١)، أو: كل من هاجر من بلده؛ لإقامة دينه.

﴿لنبوئهم فى الدنيا حسنة﴾ أى: لننزلهم فى الدنيا بقعة حسنة، وهى المدينة، أو منزلة حسنة، وهى العز والتمكين فى البلاد، وكل أمل بلغه المهاجرون، أو حياة حسنة، وهى الاستقامة والمعرفة. ﴿ولأجر الآخرة أكبر﴾ مما يعجل لهم فى الدنيا؛ من سعة الأموال، وتعظيم الشأن والحال، وهو النعيم الدائم. وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان، إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء من قسم الغنائم، يقول له: (خذ، بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله فى الدنيا، وما ادخر لك فى الآخرة أفضل)^(٢). والضمير فى قوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾: تكفار قريش، أى: لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم. أو للمهاجرين، أى: لو علموا أن أجر الآخرة خير مما عجل لهم لزادوا فى اجتهادهم وصبرهم.

ثم وصفهم بالصبر والتوكل فقال: ﴿الذين صبروا﴾ على الشدائد، كأذى الكفرة، ومفارقة الوطن، ونزول الفاقة، ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ فيما نزل بهم، منقطعين إلى الله، مفوضين إليه الأمر كله، فأواهم إليه، وكفاهم كل مؤونة، ورزقهم من حيث لا يحتسبون.

الإشارة: والذين هاجروا حظوظهم وهواهم، وكل ما نهى الله عنه؛ ابتغاء مرضات الله، أو فارقوا أوطانهم

(٢) ذكره البغوى فى تفسيره (٢٠/٥).

(١) فى الأصول: وأبو جندل وسهيل.

وديارهم في طلب معرفة الله، كما فعل كثير من الصوفية، فقل أن تجد ولياً إلا وهاجر من بلده؛ لإقامة دينه وجبر قلبه، وإفراغ سره لربه، من بعد ما ظلموا بإيذاء الخلق - كما هو سنة الله في خواصه - لنبوئهم في الدنيا حسنة، وهي معرفة الشهود والعيان في الباطن، واستقامة الدين والعافية في الظاهر. هذا في الدنيا، ولأجر الآخرة أكبر وأكبر؛ إذ فيه مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. الذين صبروا على مجاهدة النفوس، وحط الرءوس، ودفع الفلوس، أو على ضروب انقافات، ونزول البليات، وركوب الأهوال والآفات، إذ لا يأتي الجمال إلا بعد الجلال، ولا تأتي الحلاوة إلا بعد المرارة.

لَا تَحْسَبِ الْمُجِدَّ تَمْراً أَنْتَ آكَلُهُ لَنْ تَبْلُغَ الْمُجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَ (١)

وعلى ربهم يتوكلون، أي: مفوضين في أمورهم كلها لله، ليس لهم مع الله اختيار، ولا لهم عن أنفسهم إخبار، بل هم كالमित بين يدي الغاسل. حققنا الله من هذا المقام بالحظ الأوفر.. آمين.

ولابد من الوسطة في الوصول إلى هذا، إما رسول أو خليفته، كما قال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَلاً نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ ٤٤ ﴾

قلت: (بالبينات): يتعلق بأرسلنا الذي في أول الآية، على التقديم والتأخير، أي: وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات، فاسألوا أهل الذكر، أو بأرسلنا؛ مضمراً، وكأنه جواب سائل قال: بم أرسلوا به؟ فقال: بالبينات، أو: صفة لرجال، أي: رجالاً ملتبسين بالبينات، أو: بيوحى. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله، في الرد على قريش، حيث قالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يا محمد ﴿ إِلَّا رَجَلاً ﴾ بشراً، ﴿ يُوْحِي إِلَيْهِمْ ﴾ (٢) كما يوحي إليك. فليس يبدع أن يكون الرسول بشراً، بل جرت السنة الإلهية بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشراً يوحي إليه على السنة الملائكة؛ إذ لا يطيق كل البشر رؤية الملائكة ولا التلقى منهم. فإن شككتم ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾: أهل الكتاب، أو علماءهم الأحبار، أي: الذين ثم يسلموا، لأنهم لا يتهمون في شهادتهم، من حيث إنهم مدافعون في صدر ملة محمد ﷺ، وأنتم إلى

(١) من قصيدة لأبي الطيب أحمد بن الحسين، المعروف بالمتنبي.

(٢) قرأ الجمهور: (يوحى) بالياء وفتح الحاء، وقرأ حفص (نوحى) بالنون وكسر الحاء.. انظر الإتحاف (٢/١٨٤).

تصديق من لم يؤمن من أهل الكتاب أقرب من تصديقكم المؤمنين منهم، فاسألوهم؛ ليخبروكم: هل كانت الرسل ملائكة أو بشرًا، ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قال البيضاوي: وفي الآية دليل على أنه تعالى لم يرسل امرأة ولا ملكاً للدعوة العامة. وأما قوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا﴾ (١)؛ فمعناه: رسلاً إلى الأنبياء. وقيل: لم يبعثوا إلى الأنبياء إلا ممثلين بصورة الرجال. ورد بما روى أنه عليه ﷺ رأى جبريل عليه السلام على صورته التي هو عليها مرتين. وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم. هـ. ومفهوم قوله: «الدعوة العامة»: أن الدعوة الخاصة؛ كالأنبياء - عليهم السلام -، فإن الله يبعث إليهم الملك ليعلمهم أمر دينهم.

ثم قال تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ أى: أرسلناهم بالمعجزات والكتب. ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أى: القرآن؛ لأنه تذكير ووعظ، ﴿لِتَبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الأحكام، مما أمروا به ونهوا عنه، ومما تشابه عليهم منه. والتبيين أعم من أن ينص على المقصود، أو يرشد إلى ما يدل عليه، كالقياس ودليل العقل. قاله البيضاوي. قال ابن جزى: يحتمل أن يريد: لتبين القرآن بسردك نصه وتعليمه، أو لتبين معانيه بتفسير مشكله، فيدخل في هذا ما سنقه السنة من الشريعة. هـ. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فى عجائبه وأسراره، فيخوضون بسفن أفكارهم فى تيار بحر معانيه وأنواره، فينتبهون للحقائق والشرائع.

الإشارة: كما لم يبعث الله فى الدعوة العامة - وهى دعوة الرسالة - إلا رجالاً من البشر، كذلك لم يبعث الله فى الدعوة الخاصة - وهى دعوة الولاية إلى سر الخصوصية - إلا رجالاً من البشر أحياء، يربون التربية النبوية العرفية، فلا يصلح للتربية النساء؛ لقلة عقلهن (٢)، ولا الجن؛ لانحرافه عن الاعتدال الذى فى البشر، ولا الميت؛ لعدم وجود بشريته؛ فإن بشرية الحى تمد البشرية، والروحانية تمد الروحانية. فلا تنهذب البشرية إلا بشهود بشرية الشيخ، ولا تصفى الروحانية إلا بالقرب من روحانية الشيخ. ولذلك قالوا: الندى الميتة لا ترضع. وقولنا: «التربية العرفية»؛ أعنى: بالصحبة العرفية، وأما التربية الغيبية، على وجه خرق العادة، كطيران الشيخ إلى المريد، أو المريد إلى الشيخ، فلا نجد صاحب هذه التربية إلا منحرفاً لإحدى الجهتين، إما إلى الحقيقة أو إلى الشريعة، بخلاف التربية العرفية، فلا يكون صاحبها، فى الغالب، إلا معتدلاً كاملاً.

(١) من الآية الأولى من سورة فاطر.

(٢) هذا رأى الشيخ المفسر، لكن تاريخ المسلمين لا يمنع من هذا، وسير الصالحات الزاهدات تبرهن على عكس ذلك، إقرأ مثلاً كتاب ذكر النسوة التعبدات الصوفيات، لأبى عبد الرحمن السلمى، ونزاجم الصالحات فى سير أعلام النبلاء، وفى حلية الأولياء وفى صفة الصفوة. وعلى أية حال: من يقوم بتربية الأولاد فى بيوت المسلمين الصالحين؛ ورب امرأة صالحة تربي رجلاً، بل رجلاً.

وقوله تعالى: (فاسألوا أهل الذكر)؛ هم العارفون بالله، فإذا أشكل علينا أمر من أمر القلوب؛ كأسرار التوحيد، وأمر الخواطر، رجعنا إليهم؛ لأنهم أهل الذوق والكشف، يجيبون سائلهم بالهمة والحال، حتى يقلعوا عروق ما أشكل على السائل، إن أتاها متعطشاً لهفاناً، وكذا ما أشكل في أمر الدنيا، من فعل تريد أن تفعله أو تتركه، فينبغي الرجوع إليهم؛ لأنهم ينظرون بنور الله، فلا ينطقهم الله إلا بما هو حق سبق به القدر. وأما أمور الدين، فإن كان له علم بالشريعة الظاهرة فالرجوع إليه، وإن لم يكن له علم بالظاهر، فالعلماء قانمون بهذا الأمر.

وقوله تعالى: (إن كنتم لا تعلمون)؛ يفهم منه أن من كان من أهل الفهم عن الله، يأخذ العلم عن الله بالهام أو تجل حقيقى، فلا يحتاج إلى سؤالهم، حيث صفت مرآة قلبه، وقد يكون الولي ذاكرًا، باعتبار قوم، وغير ذاكر، باعتبار آخرين، الذين هم أنهض منه حالاً، وأصوب مقالاً. والله تعالى أعلم.

ثم هدد أهل المكر بأهل الخصوصية، فقال:

﴿ أَفَأَمِّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٤٥) ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (٤٦) ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤٧)

قلت: (مكروا السيئات): صفة لمحذوف، أى: المكرات السيئات، والتخوف، قيل: معناه: التنقص، وهو أن تنقصهم شيئاً فشيئاً. روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه توقف في معناها، فقال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا، فقام شيخ من هذيل، فقال: هذه لغتنا، التخوف: التنقص. فقال: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ فقال: نعم. قال شاعرنا أبو كثير يصف ناقته:

تَخَوُّفَ الرَّحْلِ مِنْهَا تَأْمَكًا قَرْدًا كَمَا تَخَوُّفَ عُودِ النَّبْعَةِ السَّفَنُ (١)

فقال عمر: عليكم بديوانكم؛ لا تصلوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية؛ فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم. هـ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَفَأَمِّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا ﴾ المكرات السيئات برسول الله ﷺ وبالمؤمنين، حيث قصدوا رد دينه، وصدوا الناس عن طريقه، ﴿ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾ كما خسف بقارون، ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى: بغتة من حيث لا يظنون، كما فعل بقوم لوط، ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَخَوُّفٍ ﴾

(١) اختلف في نسبة البيت، فشيخ الزمخشري في تفسيره لزهير، وأبو حيان لأبي كثير الهذلي، ونسبه ابن منظور لابن مقبل، مرة، ولدى الرمة، أخرى، وقوله: تأمكاً قرداً، أى: سناماً مرتفعاً، والنبعة: واحدة النبع، وهو من شجر الجبال، والسفن: المبرد.

تقلبهم ﴿٤٨﴾ : في متاجرهم ومسايرهم في طلب معاشهم، ﴿٤٩﴾ فما هم بمعجزين ﴿٥٠﴾ : بفائتين قدرتنا حتى نعجز عن أخذهم، ﴿٥١﴾ أو يأخذهم على تخوف ﴿٥٢﴾ : على تنقص، بأن ينقص أموالهم وأنفسهم، شيئاً فشيئاً، حتى يهلكوا جميعاً، من غير أن يهلكهم جملة واحدة. وعليه يترتب قوله: ﴿٥٣﴾ فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴿٥٤﴾ حيث لم يهلكهم دفعة واحدة، أو: على تخوف: على مخافة بأن يهلك قوماً قبلهم، فيتخوفوا، فيأتيهم العذاب وهم متخفون. وهو قسيم قوله: (وهم لا يشعرون)، وقوله: ﴿٥٥﴾ فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴿٥٦﴾ أى: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما خوف به أهل المكر بالأنبياء والرسل، يخوف به أهل المكر بالأولياء والمنتسبين، وقد تقدم هذا مراراً.

ثم أمر بالتفكر والاعتبار؛ لأنه سبب النجاة من الاغترار، فقال:

﴿٥٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفِيوْا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦٠﴾

قلت: الاستفهام للإنكار، و(من شيء): بيان لـ «ما». والضمير في (ظلاله) يعود على (ما)، أو على (شيء). و(سجداً): حال من الظلال، وكذا جملة: (وهم داخرون)، وجمعه بالواو؛ لأنه من صفة العقلاء. وقال الزمخشري: هما حالان من الضمير في (ظلاله)؛ إذ هو بمعنى الجمع؛ لأنه يعود على قوله: (من شيء)، فعلى الأول يكون السجود من صفة الظلال، وعلى الثاني يكون من صفة الأجرام. و(من دابة): يحتمل أن يكون بياناً لـ (ما في السموات وما في الأرض) معاً؛ لأن كل حيوان يصح أن يوصف بأنه يدب، ويحتمل أن يكون بياناً لـ (ما في الأرض) خاصة، فعلى الأولى: يكون عطف الملائكة عليه، من عطف الخاص على العام؛ تشریفاً لهم، وعلى الثاني: من عطف المبين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿٦١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا : أى: أهل المكر والخدع بالرسل والمؤمنين، ﴿٦٢﴾ إلى ما خلق الله من شيء ﴿٦٣﴾ : من الأجرام والأشكال؛ كالجبال والأشجار والبحار؛ ليظهر لهم كمال قدرته وقهره، فيخافوا سطوته وبطشه، حتى لا يمكروا بخواصه. حال كون ما خلق من الأجرام ﴿٦٤﴾ يتفياؤا ﴿٦٥﴾ : أى: يميل ﴿٦٦﴾ ظلاله عن اليمين والشمائل ﴿٦٧﴾ : أى: يرجع الظل من جانب إلى جانب، أى: يميل عن الأيمان والשמائل، وذلك أن الظل من وقت

طلوع الشمس إلى الزوال يكون إلى جهة، ومن الزوال إلى الغروب يكون إلى جهة أخرى. ثم يمتد الظل ويعم بالليل إلى طلوع الشمس. والتفويض: من الفيء، وهو: الظل الذي يرجع بعكس ما كان غدوة. وقال رؤبة بن العجاج: يقال بعد الزوال: ظل وفيء، ولا يقال قبله إلا ظل. ففي لفظ «يتفياً»، هنا، تجوز.

وقال في سلوة الأحزان: فاء الظل: معناه: رجع بعكس ما كان من بكرة إلى الزوال؛ وذلك أن الشمس من وقت طلوعها إلى الزوال، إنما هي في نسخ الظل العام قبل طلوعها، فإذا زالت، ابتدأ رجوع الظل العام، ولا يزال ينمو حتى تغيب الشمس فيعم. والظل الممدود في الجنة لم يذكر الله تعالى فيها فيءاً؛ لأنه لا مذهب له، ولا تكون الفيء إلا بعد ذهاب الظل، ولا ذهاب لظل الجنة، فلا يتعقل له فيء. هـ. واستعمال اليمين والشمال، في غير الإنسان، تجوز؛ فإنهما في الحقيقة خاص بالإنسان. هـ.

حال كون تلك الأجرام، أو الظلال ﴿سُجِّدُوا لِلَّهِ﴾، قيل: حقيقة. قال الضحاك: إذا زالت الشمس سجد كل شيء قبل القبلة، من نبات أو شجر، ولذلك كان الصالحون يستحبون الصلاة في ذلك الوقت. وقال مجاهد: إنما تسجد الظلال، لا الأشخاص. وقيل: هو عبارة عن الخضوع والطاعة، وميلان الظلال ودورانها بالسجود، كما يقال للمشير برأسه نحو الأرض، على جهة الخضوع: ساجداً، ثم استشهد لذلك. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي: والمتجّه: أنه خضوع وطاعة للمشيلة وانقياد، لا حقيقة؛ لأنه لا يقال فيه، كذلك: أو لم يروا، وإنما يرى الانقياد. وخص الظل؛ لأنه مشهود ذلك فيه، ولو حاول صاحبه عدمه أو ضده، لم يستطع، بخلاف الأفعال الاختيارية، فإن الجبر فيها غير محسوس، فظهر سر الإشارة للظلال. والله أعلم. هـ.

قال البيضاوي: المراد من السجود: الاستسلام، سواء كان بالطبع أو الاختيار، يقال: سجدت النخلة، إذا مالت لكثرة الحمل، وسجد البعير، إذا طأطأ رأسه ليركب. أو ﴿سُجِّدُوا﴾: حال من الظلال ﴿وهم داخرون﴾: حال من الضمير، والمعنى: ترجع الظلال، بارتفاع الشمس وانحدارها، بتقدير الله تعالى، من جانب إلى جانب، منقادة إلى ما قُدر لها من التفويض، أو واقعة على الأرض، ملتصقة بها، على هيئة الساجد، والأجرام في أنفسها أيضاً داخرة، أي: صاغرة منقادة لأفعال الله. هـ.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ينقاد لإرادته، وتأثير قدرته؛ طبعاً، ولتكاليفه وأمره؛ طوعاً؛ ليصح إسناده إلى عامة أهل السموات والأرض. وقوله: ﴿من دابة﴾: بيان لهما؛ لأن الدبيب هو الحركة الجسمانية، سواء كان في أرض أو سماء، ﴿والملائكة﴾: عطف على المبين به، عطف خاص على عام،

أو عطف المجردات على الجسمانيات، وبه احتج من قال: إن الملائكة أرواح مجردة. قاله البيضاوى. قلت: وهو خلاف الجمهور. بل الملائكة: أجسام لطيفة نورانية متحيزة، لها مادة نورانية وتشكيل مخصوص، غير أن الله تعالى أعطاهما قوة التشكيل؛ لأنها قريبة من أسرار المعانى الأزلية. وعبر الحق تعالى بـ «ماء»؛ ليشمل العقلاء وغيرهم.

ثم قال تعالى فى وصف الملائكة: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾؛ هو تقرير، وبيان؛ لنفى الاستكبار عنهم، أى: يخافون عظمة ربهم من فوقهم؛ إذ هم محاطون بأفلاك أسرار الجبروت، مقهورون تحت القدرة والمشيئة، أو: يخافون عذاب ربهم أن يرسل عليهم من فوقهم، أو: يخافون ربهم وهو من فوقهم بالنقهر والغلبة. والجملة: حال من الضمير فى (يستكبرون)، أو بيان له وتقرير؛ لأن من خاف ربه لم يستكبر عن عبادته، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ من الطاعة وتدبير الأمور التى أمرهم بتدبيرها. وفيه دليل على أن الملائكة مكفون مدارون بين الخوف والرجاء. قاله البيضاوى.

الإشارة: كل ما دخل تحت عالم التكوين لزمته العبودية، وأحاطت به القهرية، فلا بد من الخضوع لأحكام الواحد القهار، تكليفية كانت أو تعريفية، فمن لم ينقد لها بملاطفة الإحسان، قيد بسلاسل الامتحان. وبهذا امتاز الخصوص من العموم، فالخصوص علموا أن سلسلة الأقدار فى عنقهم، تجرهم إلى مراد ربهم، فاستسلموا لها، وانقادوا، وخضعوا، وتأدبوا لها، فاستحقوا التقريب والاصطفائية. والعموم جهلوا هذه السلسلة، أو علموها، ولم يقدرُوا على الاستسلام لها؛ فاستحقوا البعد من حضرة الحق؛ إذ لا يدخلها إلا أهل التهذيب والتأديب. وبالله التوفيق.

ثم نهى عن الشرك الجلى والخفى، فقال:

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِى فَارْهَبُونَ﴾ ٥١ ﴿وَلَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ ٥٢ ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ ٥٣ ﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ٥٤ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٥٥ ﴿

قلت: (إلهين اثنين)، إلهين: مفعول أول، واثنين: تأكيد، والثانى: محذوف، أى: معبودين لكم، وفائدة التأكيد: التنبيه على أن المقصود هو النهى عن الاثنينية؛ تنبيهاً على أن الاثنينية تنافى الألوهية، كما ذكر الواحد فى قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾؛ إثبات الوجدانية دون الإلهية. قاله البيضاوى. وعبارة صاحب المطول: لفظ إلهين حامل لمعنى الجنسية. أعنى: الإلهية. ومعنى العدد. أعنى: الاثنينية. وكذا لفظ «الله»، حامل لمعنى الجنسية والوحدة،

والغرض المسوق له الكلام في الأول: النهي عن اتخاذ الاثنين من الإله؛ لا إثبات جنسه، فوصف الإلهين بأثنين وإله بواحد؛ إيضاحاً لهذا الغرض وتفسيراً له. هـ. ويحتمل أن يكون «اثنين» مفعولاً أولاً، وإلهين، مفعولاً ثانياً.

وقوله: (فإياي): مفعول بفعل محذوف، أي: ارهبوا، ولا يعمل فيه (ارهبون)؛ لأنه أخذ مفعوله، وهو: ياء المتكلم، ر(واصباً): حال من (الدين). و(ما بكم): إما شرطية، أو موصولة متضمنة معنى الشرط؛ باعتبار الإخبار دون الحصول؛ فإن استقرار النعمة بهم يكون سبباً للإخبار بأنها من الله، لا سبباً لحصولها منه؛ لأن جواب الشرط يكون مسبباً عن فعله، واستقرار النعمة بهم ليس سبباً في حصولها من الله، وإنما هو سبب في الإخبار بأنها من الله. فتأمل. وأصله للبيضاوي، والجملة: يحتمل أن تكون استئنافية، أو حالية، فيتصل الكلام بما قبله، أي: كيف تتقون غير الله، والحال أن ما بكم من نعمة فمنه وحده؟ واللام في (ليكفروا): لام الأمر على وجه التهديد، كقوله بعد: (فتمتعوا)، فعلى هذا يبتدأ بها، وقيل: هي لام العاقبة، فعلى هذا توصل بما قبلها؛ لأنها في الأصل لام كي، وهو بعيد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين﴾، بأن تعبدوا الله تعالى، وتعبدوا معه الأصنام، ﴿إنما هو إله واحد﴾ لا شريك له ولا ظهير، ولا معين ولا وزير، ﴿فإياي فارهبون﴾، عدل من الغيبة إلى التكلم؛ مبالغة في الترهيب، وتصريحاً بالمقصود، كأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد، فإياي فارهبون، لا غيري، ﴿وله ما في السموات والأرض﴾؛ خلقاً وملكاً وعبيداً، ﴿وله الدين﴾ أي: الطاعة والانقياد ﴿واصباً﴾: لازماً، أو: واجباً وثابتاً؛ لما تقرر أنه الإله وحده، والحقيق بأن يرهب منه، فلا يدان لأحد إلا هو. وقيل: ﴿وله الدين﴾ أي: الجزاء ﴿واصباً﴾ أي: دائماً، فلا ينقطع ثوابه لمن آمن، ولا عقابه لمن كفر. ﴿أفغير الله تتقون﴾ مع أنه ليس بيد غيره نفع ولا ضرر!

كما قال: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ أي: وأي شيء اتصل بكم من نعمة فهو من الله وحده، ﴿ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ أي: فلا تتضرعون عند الشدة إلا إليه، ولا تستغيثون إلا به. والجوار: رفع الصوت في الدعاء والاستغاثة، ﴿ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يريهم يشركون﴾ وهم: كفاركم، ففي وقت الشدة ينسون أصنامهم، وفي الرخاء يرجعون إليها. فعلوا ذلك؛ ﴿ليكفروا بما آتاهم﴾ من نعمة انكشف عنهم، كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة، أو يكون تهديداً، أي: ليكفروا ما شاءوا فسوف يعلمون، كقوله: ﴿فتمتعوا﴾ بكفركم ﴿فسوف تعلمون﴾ عاقبة أمركم.

الإشارة : قال في التنوير: أبى المحققون أن يشهدوا غير الله ؛ لما حققهم به من شهود القيومية ، وإحاطة الديمومية . هـ . فمن فتح الله بصيرته ، لم يشهد مع الحق سواه ؛ إذ الأكوان ثابتة بإثباته ، محوطة بأحدى ذاته ، فما حجبك عن الحق وجود موجود معه ؛ إذ لا شيء معه ، وإنما حجبك توهم موجود معه . . فمن غاب عن ثنوية نفسه غاب عن ثنوية الأكوان ، ووقع على عين الشهود والعيان . فما ظهر في الوجود إلا أسرار ذاته وأنوار صفاته . وبالله التوفيق .

ثم ذكر جهالة أهل الشرك وسفاهة رأيهم ، فقال :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي
الْتُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

قلت : الضمير في (يجعلون) للكفار ، وفي (يعملون) لهم ، أو للأصنام . و(لهم ما يشتهون) : يجوز أن يكون (ما يشتهون) مبتدأ ، وخبره : (لهم) ، وأن يكون مفعولاً بفعل مضمر ، أى : ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون ، وأن يكون معطوفاً على البنات ، وهذا منعه البصريون ؛ لانحداد الفاعل والمفعول ، وهو الواو ، وضمير لهم في الغيبة ، فلا يقال : زيد ضربه ، وإنما يقال : ضرب نفسه ، ولا يقال : أنا ضربتني ، ويجوز ذلك في أفعال القلوب . وقال البيضاوى : ولا يبعد نجويزه في المعطوف ، كما في الآية .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ ﴾ أى : كفار العرب ﴿ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إلهيتهم ببهتان ولا حجة ، وهم الأصنام . أو : لما لا علم لهم من الجمادات التى يعبدونها ، ﴿ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ من الزرع والأنعام ، بقولهم : هذا لله وهذا لشركائنا ، ﴿ تَاللَّهِ لَتَسْأَلَنَّ ﴾ : سؤال توبيخ وعتاب ﴿ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ من أنها آلهة بالنقرب إليها ، أو عما كنتم تفترون على الله من أنه أمركم بذلك .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ﴾ : من قولهم : الملائكة بنات الله ، وكانت خزاعة وكنانة يقولون ذلك . ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ : تنزيهاً له عن ذلك ، ﴿ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أى : ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون ، وهم البنون ، والمعنى : أنهم يجعلون لله البنات التى يكرهونها . وهو منزلة عن الولد . . ويختارون لأنفسهم ما يشتهون من الذكور . ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ﴾

أى: أخبر بولادتها عنده، ﴿ظِلٌّ﴾ أى: صار ﴿وَجْهَهُ مُسْوِداً﴾: متغيراً تغير مغتم؛ من الكآبة والحياء من الناس، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: ممتلئ غيظاً، ﴿يَتَوَارَى﴾: يختفى ﴿مِنَ الْقَوْمِ﴾ أى: من قومه؛ حياء منهم، ﴿مِنْ سَوْءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾؛ من قُبْحِ المبشر به، متفكراً فى نفسه، ﴿أَيْمَسُكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ أى: يتركه، عنده، على ذل وهوان، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أى: يخفيه فيه ويئده، وهى: الموءودة، وتذكير الضمير؛ للفظ ماء، ﴿أَلَا سَاءَ﴾: بئس ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا؛ حيث نسبوا لله تعالى البنات، التى هى عندهم بهذا المحل.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّىِّ﴾ أى: صفة السوء، وهى: الحاجة إلى الولد المنادية بالموت، واستبقاء الذكور؛ استظهاراً بهم، وكراهة البنات وأدهن خشية الإملاق، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ أى: الصفة العليا، وهو الوجوب الذاتى والغنى المطلق، والجود الفائق، والنزاهة عن صفات المخلوقين، والوحدانية فى الذات والصفات والأفعال. وقال الأزهري: المثل الأعلى، أى: التوحيد والخلق والأمر، ونفى كل إله سواه. وترجم عن هذا كله بقول: لا إله إلا الله. هـ. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فى ملكه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى صنعه، أى: المنفرد بكمال القدرة والحكمة، فالقدرة مظهرة للأشياء فى أوقاتها، والحكمة تسترها برداء أسبابها وشروطها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى لأهل التوحيد الكامل أن ينتزهوا عن شبهة الشرك فى أعمالهم وأموالهم، فلا يشركون فيما رزقهم الله، من الأموال، أحداً من المخلوقين، يجعلون لهم نصيباً فى أموالهم، على قصد الحفظ، أو إصلاح النجاج، كما تفعله العامة مع الصالحين، فإن ذلك مما يقدر فى صفاء التوحيد؛ إذ لا فاعل سواه. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ...﴾ الآية، فيه ذم وتهديد لمن يكره البنات، وينقبض من زيادتهن؛ لأن فيه نزعة من فعل الجاهلية، بل ينبغى إظهار البسط والبرور بهن أكثر من الذكور، ولا شك أن النفقة عليهن أكثر ثواباً من الذكور، وفى الحديث: «مَنْ ابْتُلِيَ بِهَذِهِ الْبَنَاتِ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّارِ». (١) إلى غير ذلك من أحاديث كثيرة تُرغب فى الإحسان إليهن. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة إمهاله تعالى للكفار، فقال:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَشْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٦١﴾

(١) أخرجه البخارى فى (الزكاة)، باب اتقوا النار ولو بشق تمره، ومسلم فى (البر والصلة)، باب فضل الإحسان إلى البنات عن السيدة عائشة - رضى الله عنها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ أى: بكفرهم ومعاصيهم الصادرة من بعضهم، ﴿مَاتَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أى: على الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾: نسيمة تدب عليها، بشؤم ظلمهم. وعن ابن مسعود: (كَادَ الْجَعْلُ^(١)) يهلك فى جحره بذنب ابن آدم). وقيل: لو هلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء، ﴿وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سماه لأعمارهم، أو لعذابهم، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليه، بل يهلكون، أو يُعَذِّبُونَ حينئذ لا محالة، فالحكمة فى إمهال أهل الكفر والمعاصى؛ لئلا يعم العذاب، كقوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(٢)، و(لعل الله تعالى يخرج من أصلابهم من يوحى الله). والله تعالى أعلم.

الإشارة: إن الله يهيم أن ينزل إلى أهل الأرض عذاباً؛ لما يرى فيهم من كثرة الظلم والفجور، فإذا رأى خلق الذكر ومجالس العلم رفع عنهم العذاب. وفى بعض الأخبار: «لَوْ لَا شُيُوخٌ رُكِعَ، وَصِبْيَانٌ رُضِعَ، وَبَهَائِمٌ رُئِعَ، لَصَبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابُ صَبًّا»^(٣).

ثم ذكر وعيد الكفار، فقال:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جُرْمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾^(٤)

قلت: (أن لهم الحسنى): بدل من (الكذب)، ومن قرأ (مفراطون)؛ بالكسر، فاسم فاعل من الإفراط، وهو: تجاوز الحد، ومن قرأها بالفتح؛ فاسم مفعول، من أفرط فى طلب الماء، إذا قدمه. ومن قرأ بالتشديد؛ فمن التفريط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم من البنات، والشركاء فى الرئاسة وأراذل الأموال، ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ﴾ مع ذلك، وهو ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ عند الله، وهى الجنة. وهذا كقوله: ﴿وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾^(٥). قال تعالى: ﴿لَا جُرْمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أى: لاشك، أو حقا أن لهم النار، ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾؛ مقدّمون إليها، أو متركون فيها، أو مفراطون فى المعاصى والظلم، متجاوزون الحد فى ذلك، أو مفراطون فى الطاعة؛ من التفريط.

(١) الجعل: حيوان كالخنفساء... انظر: النهاية (جعل، ٢٧٧/١).

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

(٣) أخرجه البيهقي فى الكبرى (صلاة الاستسقاء، باب استحباب الخروج بالضعفاء والصبيان ٣/٢٤٥) والطبرانى فى الأوسط (ح)

٦٥٣٩)، وابن عدى فى الكامل (٤/١٦٢٢) عن مالك بن عبيدة الديلي، عن أبيه، عن جده.

(٤) من الآية ٥٠ من سورة فصلت.

الإشارة: الواجب في حق الأدب أن ما كان من الكمالات ينسب إلى الله تعالى، كائنًا ما كان، وما كان من النقائص ينسب إلى العبد، وإن كان، في الإيجاد والاختراع، كل من عند الله، وهو بهذا الاعتبار في غاية الحسن.

كما قال صاحب العينية رحمته:

وَكُلُّ قَبِيحٍ إِنْ نَسَبْتَ لِحُسْنِهِ أَتَتْكَ مَعَانِي الْحُسْنِ فِيهِ تَسَارِعُ
يُكْمَلُ نَقْصَانُ الْقَبِيحِ جَمَالُهُ فَمَا تَمَّ نَقْصَانٌ وَلَا تَمَّ بَاشِعُ

ثم سألني نبيه رحمته بقوله:

﴿ تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ أَعْمَلَهُمْ فَهَوُوا وَلِيَهِمْ
الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قلت: (وهدى ورحمة): معطوفتان على «لتبين»، وانتصبنا على المفعولية من أجله، أي: لأجل البيان والهدى والرحمة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ رسلاً ﴿ إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ يا محمد، ﴿ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ أَعْمَلَهُمْ ﴾ السوء، فأروها حسنة، فأصروا على قبائحها، وكذبوا الرسل، فصبروا حتى نصرُوا. فأصبر كما صبروا، حتى تنصر كما انتصروا. فكان عاقبة من اتبع الشيطان الهلاك والوقوع في العذاب، ﴿ فَهَوُوا وَلِيَهِمْ ﴾ أي: متولى أمورهم ﴿ الْيَوْمَ ﴾ في الدنيا، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة، أو: فهو وليهم يوم القيامة، على أنه حكاية حال آتية، أي: لا ولي لهم غيره في ذلك اليوم، وهو عاجز عن نصر نفسه، فكيف ينصر غيره؟ ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾: القرآن ﴿ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ للناس ﴿ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾: من التوحيد، والقدر، وأحوال المعاد، وأحكام الأفعال، ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ به، فإنهم المنتفعون بإنزاله.

الإشارة: كل من وقف دون الوصول إلى مشاهدة الحق، فهو مزين له في عمله، مستدرج به وهو لا يشعر، وحظه يوم القيامة الندم والأسف. وفي ذلك يقول أبو المواهب^(١):

مَنْ فَاتَهُ مِنْكَ وَصَلٌ حَظَّهُ النَّدَمُ وَمَنْ تَكُنْ هَمُّهُ تَسْمُو بِهِ الِهْمُ

(١) الفونسي، صاحب «قوانين حكم الإشراق».

وَنَظَرٌ فِي سِوَى مَعْنَاكَ حَقٌّ لَهُ يَقْتَصِرُ مِنْ جَفْنِهِ بِالْذَّمِّ وَهُوَ دَمٌ
وَالسَّمْعُ إِنْ جَالَ فِيهِ مَنْ يُحَدِّثُهُ سِوَى حَدِيثِكَ أَمْسَى وَقَرَدُ الصَّمَمِ

فهذه علامات الوصول إلى الحق، بحيث ترتفع همته إلى حضرة الحق، وبصرف نظره في معاني أسرار التوحيد، وسمعه فيما يقرب إلى صريح التفريد، ومن لم يبلغ هذا المقام، لم ينقطع عنه تزيين الشيطان، فيزين له عمله، فيقف معه . وبالله التوفيق .

ثم ذكر دلائل توحيده وباهر قدرته، وفي معرفتهما معرفة ذاته، فقال:

﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (٦٥)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واللّه أنزل من السماء ماءً : مطراً ﴾ فأحيا به الأرض بعد موتها : أنبت فيها أنواع النبات بعد يبسها، فكانت هامة غبراء، غير منبتة، شبيهة بالميت، فصارت، بعد إنزال المطر، مخضرة مهتزة رابية شبيهة بالحي . ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ سماع تدبر وإنصاف؛ فإن هذه الآية ظاهرة، تدرك بأدنى تنبيه وسماع، غير محتاجة إلى كثرة تفكر واعتبار.

الإشارة: واللّه أنزل من سماء الغيوب ماء العلوم النافعة، فأحيا به أرض النفوس الميتة بالغفلة والجهل، فصارت مبتهجة بأنوار التوحيد وأسرار التفريد، وفي ذلك يقول الشاعر:

وَضِيَاءٌ وَبَهْجَةٌ وَسُرُورٌ	إِنْ عَرَفْنَا ذِي الْجَلَالِ لِعِزٍّ
وَعَلَيْهِمْ مِنَ الْمَحَبَّةِ نُورٌ	وَعَلَى الْعَارِفِينَ أَيْضًا بَهَاءٌ
هُوَ، وَاللَّهُ، دَهْرُهُ، مَسْرُورٌ	فَهَنِينًا لِمَنْ عَرَفَكَ، إِلَهِي

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال:

﴿ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِيُفَكِّرُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَاخًا لِصَاسَايَغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَخَذُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٦٧)

قلت: سقى وأسقى: لغتان، على المشهور. والضمير في (بطونه): للأنعام، وذكره باعتبار ما ذكر (١)، كقوله: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمِنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ (٢)، أو: باعتبار الجنس، وعدّه سيبويه في المفردات المبنية على: أفعال،

(١) أي: مما في بطون ما ذكرناه.

(٢) الآيةان: ١١ - ١٢ من سورة عبس.

كأخلاق وأكباش، فهو، عنده، اسم جمع، كقوم ورهط، فلفظه مفرد ومعناه جمع، فذكره هنا؛ مراعاة للفظه، وأنه، في سورة المؤمنين؛ مراعاة لمعناه. ومن قال: إنه جمع «نعم»، جعل الضمير للبعض؛ فإن اللبن لبعضها دون جميعها.

و(من) في قوله: «مما»؛ للتبعيض، و«من بين فرث»؛ لابتداء الغاية، و(من ثمرات)؛ يتعلق بمحذوف، أى: ونسقيكم من ثمرات النخيل، يدل عليه (نسقيكم) الأول. و(تتخذون)؛ استئناف لبيان الإسقاء، أو يكون (ثمرات)؛ عطفاً على (مما فى بطونه)، أو يتعلق (من ثمرات) بتتخذون، أى: تتخذون من ثمرات النخيل سكرًا. وكرر (منه) للتأكيد، أو يكون (تتخذون)؛ صفة لمحذوف، أى: شئء تتخذون منه سكرًا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنْ لَكُمْ مِنْهَا نَاسٌ﴾ أىها الناس، ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ وهى: الإبل والبقر والغنم، ﴿لَعِبْرَةً﴾ ظاهرة تدل على كمال قدرته، وعجائب حكمته، وهى أنا ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أى: بعض ما استقر فى بطونه من الغذاء، ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ﴾ وهو ما فى الكرش من القدر، ﴿وَدَمٍ﴾ وهو ما تولد من لباب الغذاء، ﴿لَبْنًا خَالِصًا﴾ من روائح الفرث، صافياً من لون الدم. والمعنى: أن الله يخلق اللبن متوسطاً بين الفرث والدم يكتفان، ومع ذلك فلا يغير له لوناً ولا طعماً ولا رائحة. وعن ابن عباس: (إن البهيمة إذا اعتلفت، وانطبخ العلف فى كرشها، كان أسفل فرثاً، وأوسطه لبناً، وأعلى دماً). ثم وصفه بقوله: ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ سهل المرور فى حلقهم، حتى قيل: لم يغص أحد قط من اللبن. وروى ذلك عن النبي ﷺ (١).

﴿وَنُسْقِيكُمْ﴾ أيضاً، ﴿مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ أى: من عصيرهما. ثم بين كيفية الإسقاء فقال: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ أى: مما ذكر ﴿سَكْرًا﴾ يعنى: الخمر، سميت بالمصدر، ونزل قبل تحريم الخمر، فهى منسوخة بالتحريم. وقيل: هى على وجه المنة بالمنفعة التى فى الخمر، ولا تعرض فيها لتحليل الخمر ولا تحريم، وهذا هو الصحيح. وفى دعوى النسخ نظر؛ لأن النسخ إنما يكون فى الأحكام المشروعة المقررة، وهنا ليس كذلك، إنما فيه امتنان واعتبار فقط. ﴿وَتَتَّخِذُونَ مِنْ ثَمَرَاتِهَا رِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتمر، والزبيب، والدبس - وهو ما يسيل من الرطب -، والخل، والرُّبُّ (٢)، وقيل: السكر؛ المائع من هاتين الشجرتين؛ كالخل، والرُّب، والرزق الحسن: العنب والتمر. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّعَالِمٍ﴾ دالة على كمال قدرته تعالى، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم بالتأمل، والنظر فى الآيات.

(١) روى ذلك بلفظ: «ما شرب أحد لبناً فيشرق»، عزاه السيوطى، فى الدر (٢٨/٤)، لابن مردويه عن يحيى بن أبى كيشة عن أبيه عن جده؛ مرفوعاً.

(٢) الرُّب: ما يطبخ من التمر... انظر: النهاية (رب ١٨١/٢).

الإشارة : كما استخرج الحق، جل جلاله، من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائعاً للشاربين، استخرج مذهب أهل السنة، القائلين بالكسب، من بين مذهب الجبرية ومذهب المعتزلة، بين قوم أفرطوا، وقوم فرطوا. واستخرج أيضاً مذهب الصوفية - أعني : المحققين منهم - من بين الواقفين مع ظاهر الشريعة والمتمسكين بمجرد الحقيقة، بين قوم تفسقوا وقوم تزندقوا، بين قوم وقفوا مع عالم الحكمة، وقوم وقفوا مع شهود القدرة من غير حكمة، وهو، إن لم يكن عن غلبة سكر، كُفْر. واستخرج، أيضاً، مذهب أهل التربية من بين سلوك محض وجذب محض، فأهل السلوك المحض محجوبون عن الله، وأهل الجذب المحض غائبون عن طريق الله، وأهل التربية برزخ بين بحرین، الجذب فى بواطنهم، والسلوك على ظواهرهم. ولا يعرف هذا إلا من شرب مشربهم، قد أخذوا من ثمرات نخيل الشرائع وأعناب الحقائق، سكرًا فى قلوبهم، بشهود محبوبهم، ورزقًا حسنًا؛ معرفة فى أسرارهم، وعبودية فى ظواهرهم، فصاروا جامعين بين جذب الحقائق وسلوك الشرائع، كل واحد فى محله. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال:

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

قلت : (أن اتخذى) : مفسرة للوحى الذى أوحى إلى النحل، أو مصدرية، أى : بأن اتخذى . و (من) : للتبعية فى الثلاثة مواضع، (ثم كلى) : عطف على (اتخذى) . و (من) : للتبعية؛ لأنها لا تأكل من جميع الشجر، وقيل : من كل الثمرات التى تشتهيها، فتكون للبيان . و (ذللاً) : حال من السبل، أو من الضمير فى (اسلكى) .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ أى : ألهمها، وقذف فى قلوبها ذلك. والوحى على ثلاثة أقسام: وحى إلهام، ووحى منام، ووحى أحكام. وقال الراغب: أصل الوحى: الإشارة السريعة، إما بالكلام؛ رمزاً، وإما بصوت مجرد عن التركيب، أو بإشارة ببعض الجوارح، والكناية. ويقال للكلمة الإلهية التى تلقى إلى الأنبياء: وحى، وذلك أضرب؛ إما برسول مشاهد، وإما بسماع كلام من غير معاناة، كسماع موسى كلام الله، وإما بإلقاء فى الروح، وإما بإلهام، نحو: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ ﴾ (١)، وإما تسخير، كقوله: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾، أو بمنام، كقوله ﷺ: «انقطع الوحى، وبقي المبشرات: رؤيا المؤمن» (٢).

(١) من الآية ٧ من سورة القصص.

(٢) أخرجه البخارى فى (التعبير، باب المبشرات)، بلفظ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه».

ثم بين ما أوحى إليها فقال: ﴿أَنْ اتَّخِذِي﴾، أو بأن اتخذي ﴿مِنَ الْجِبَالِ بَيْوتًا﴾ تأوين إليها، كالكهوف ونحوها، ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ بَيْوتًا﴾ كالأجباح^(١) ونحوها، ﴿وَمَا يَعْرَشُونَ﴾ أى: يهينون، أو يبنون لك الناس من الأماكن، وإلا لم تأو إليها. وذكرها بحرف التبعيض؛ لأنها لا تبنى فى كل جبل، وكل شجر، وكل ما يعرش؛ من كرم أو سقف، ولا فى كل مكان منها. وإنما سمي ما تبنيه، لتعسل فيه، بيتًا؛ تشبيهاً ببناء الإنسان؛ لما فيه من حسن الصنعة وصحة القسمة، التى لا يقوى عليها حدّاق المهندسين إلا بالآلات وأنظار دقيقة. ولعل ذكره: للتنبيه على ذلك. قاله البيضاوى. قلت: وليس للنحل فعل فى الحقيقة، وإنما هو صنع العليم الحكيم فى مظاهر النحل.

ثم قال لها: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ التى تشتهيها، حلوها ومرها. قيل: إنها ترعى من جميع النوار إلا الدفلة^(٢). ﴿فَاسْأَلْكِ﴾ أى: ادخلي ﴿سَبِيلَ رَبِّكَ﴾؛ طرقه فى طلب المرعى، أو: فاسلكي؛ راجعة إلى بيوتك، سبل ربك، لا تتوعر عليك ولا تلتبس. وأضافها إليه؛ لأنها خلقه وملّكه. ﴿ذُلًّا﴾: مطيعة منقادة لما يرد منك، أو اسلكي طريقه؛ مذلة مسخرة لك، فلا تعسر عليك وإن توعرت، ولا تضل عن العود منها وإن بعدت. قال مجاهد: لم يتوعر على النحل قط طريق.

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ﴾ وهو العسل، عدل عن خطاب النحل إلى خطاب الناس؛ لأنه محل الإنعام عليهم، والمقصود من خلق النحل وإلهامه؛ لأجلهم. وسماه شراباً؛ لأنه مما يشرب. وظاهر الآية أن العسل يخرج من بطون النحل، وهو ظاهر كلام سيدنا على بن أبى طالب عليه السلام فى تحقيره للعسل، قال: (أشرف لباس ابن آدم فيها نفثة دود، وأشرف شراب فيها رجيع نحلة - أو قىء نحلة -، وأشرف لذة فيها مبال فى مبال). وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل. قاله ابن عطية. قلت: والذى ألفناه، ممن يتعاطاهم، أنه يخرج من دبرهم.

وقوله: ﴿مَخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أى: أبيض، وأحمر، وأسود، وأصفر، بحسب اختلاف سن النحل، ومراعيها. وقد يختلف طعمه ورائحته باختلاف مرعاه. ومنه قول عائشة للنبي - عليه الصلاة والسلام: (جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعَرْفُطُ)^(٣) وهو نبت منن الرائحة، شبيه رائحته برائحة المغافير^(٤).

ثم قال تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾؛ إما بنفسه، كما فى الأمراض البلغمية، أو مع غيره، كما فى سائر الأمراض، إذ قلما ما يكون معجون إلا والعسل جزء منه. قاله البيضاوى. قال السيوطى: قيل: لبعضها، كما دل

(١) الجبج: هي مواضع النحل فى الجبل، وفيها تعسل، وفيل: الأجباح: حجارة الجبل.. انظر اللسان - جبج.

(٢) الدفلة: نبت مر، أخضر، حسن المنظر انظر.. اللسان (دخل، ١٣٩٧/٢).

(٣) جاء ذلك فى حديث شرب النبي ﷺ العسل. وأخرجه البخارى فى (الطلاق، باب لم تحرم ما أحل الله لك). والعرفط - بالضم - : شجر الطلح، وله صمغ كزيب الرائحة، فإذا أكلته النحلة حصل فى عسلها من ريحه. انظر النهاية (عرفط).

(٤) المغافير: جمع مغفور ومغفار، وهو صمغ حلو، له رائحة كزيبية، يسيل من شجر العرفط، يؤكل، أو يوضع فى ثوب، ثم ينصح بالماء، فيشرب. انظر اللسان (غفرة ٣٢٧٥/٥).

عليه تنكير شفاء، أو لكلها بضميمة إلى غيره - أقول: وبدونها، بنية - وقد أمر به ﷺ من استطلق بطنه، رواه الشيخان. هـ. قال ابن جزى: لأن أكثر الأدوية مستعملة من العسل؛ كالمعاجن، والأشربة النافعة من الأمراض. وكان ابن عمر يتداوى به من كل شيء، فكأنه أخذه من العموم. وعلى ذلك يدل الحديث عن النبي ﷺ: «أن رجلاً جاء إليه فقال: أخى يشتكى بطنه، فقال: اسقه عسلاً، فذهب ثم رجع، فقال: قد سقيته فما نفع، قال: فاذهب فاسقه عسلاً، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك، فسقاه، فشفاه الله عز وجل» (١).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: فإن من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر، علم، قطعاً، أنه لا بد له من قادر مدبر حكيم، يلهمها ذلك ويحملها عليه، وهو الحق تعالى.

الإشارة: إنما كان العسل فيه شفاء للناس؛ لأن النحل ترعى من جميع العشب، فتأخذ خواص منافعها. وكذلك العارف الكامل يأخذ النصيب من كل شيء، ويعرف الله في كل شيء، فإذا كان بهذه المنزلة، كان فيه شفاء للقلوب، كل من صحبه، بصدق ومحبة، شفاه الله، وكل من رآه، بتعظيم وصدق، أحياه الله. وقد قالوا في صفة العارف: هو الذي يأخذ النصيب من كل شيء، ولا يأخذ النصيب منه شيئاً، يصفو به كدر كل شيء، ولا يكدر صفوه شيء، قد شغله واحد عن كل شيء، ولم يشغله عن الواحد شيء.. إلى غير ذلك من نعونه. وقال الورتجبي: قال أبو بكر الوراق: النحلة لما تبعت الأمر، وسلكت سبيلها على ما أمرت به، جعل لعابها شفاء للناس، كذلك المؤمن، إذا اتبع الأمر، وحفظ السر، وأقبل على مولاه، جعل رؤيته وكلامه ومجالسته شفاء للخلق، ومن نظر إليه اعتبر، ومن سمع كلامه انعط، ومن جالسه سعد. هـ.

ثم ذكر دلالة أخرى على قدرته، وهي الإحياء والإماتة، فقال:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ

اللَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والله خلقكم﴾: أظهركم إلى عالم الشهادة، ﴿ثم يتوفاكم﴾: يردكم إلى عالم الغيب عند انتهاء آجالكم، ﴿ومنكم من يُردُّ إلى أَرْدَلِ الْعُمْرِ﴾ أي: أخسه، يعني: الهرم والخرف، الذي يشابه الطفولية في نقصان القوة والعقل. وقيل: هو خمس وتسعون سنة، وقيل: خمس وسبعون سنة، والتحقيق: أن ذلك لا ينضبط بسن. ﴿لكي لا يعلم بعد علم شيئاً﴾: ليصير إلى حالة شبيهة بحالة الطفولية، في نقصان العقل والنسيان وسوء الفهم. وليس المراد نفي العلم بالكلية، بل عبارة عن قلة العلم؛ لغلبة النسيان. وقيل: المعنى: لئلا يعلم زيادة على علمه شيئاً. قال عكرمة: (من قرأ القرآن لم يصر بهذه المنزلة).

(١) أخرجه البخاري في (الطب، باب الدواء بالعسل)، ومسلم في (السلام، باب التداوى بسقى العسل) عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه.

قلت : جاء فى بعض الأحاديث ما يقتضى تخصيص القارئ للقرآن بالمتبع له ، وأنه الذى يمتع الله بعقله حتى يموت ، وهو الذى يشهد له الحس ، أى : الوجود فى الخارج ، بالصدق ، لوجود الخرف فى كثير ممن يحفظه .
قاله فى الحاشية .

﴿ إن الله عليم قدير ﴾ أى : عليم بمقادير الأشياء وأوقاتها ، قدير على إيجاد الأشياء وإعدامها ، عند انتهاء آجالها ، فميت الشاب النشط عند تمام أجله ، ويبقى الهرم الفانى إلى انقضاء أجله . قال البيضاوى : وفيه تنبيه على أن تفاوت أعمار الناس ليس إلا بتقدير قادر حكيم ، ركب أبنيهم ، وعدل أمزجتهم ، على قدر معلوم ، ولو كان ذلك بمقتضى الطبائع لم يقع التفاوت إلى هذا المبلغ . هـ .

الإشارة : الخلق والتوفى هو من جملة الظهور والبطون ، عند أهل التوحيد الخاص ، والرد إلى أرذل العمر لا يلحق العارفين بالله . وقد قيل ، فى استثناء قوله : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ (١) من الرد إلى أسفل سافلين : إن الصالح لا يدركه الخرف وإن أدركه الهرم . وذلك دليل على سعادته ، وعدم تشويه صورته فى الآخرة ، والله تعالى قادر على وقاية أوليائه مما يشين به أعداءه عاجلاً . وفى الحديث : إذا قرأ الرجل القرآن ، واحتشى من أحاديث رسول الله ﷺ - أى : امتلاً - وكانت هناك غزيرة - يعنى : فقه نفس ومعرفة - ، كان خليفة من خلفاء الأنبياء ، (٢) .

ثم سفه رأى من أشرك بعد هذه الدلائل ، فقال :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ﴾ ، فمنكم غنى ومنكم فقير ، ومنكم ملوك مستغنون عن غيرهم ، ومنكم ممالك محتاجون إلى غيرهم ، ﴿ فما الذين فضلوا ﴾ ؛ وهم الموالى ، أى : السادات ، ﴿ برادى رزقهم ﴾ : بمعطى رزقهم ﴿ على ما ملكت أيمانهم ﴾ : على ممالكهم ، أى : ليس الموالى بجاعلى مازقناهم من الأموال وغيرها ، شركة بينهم وبين ممالكهم ، ﴿ فهم ﴾ أى : الممالك ﴿ فيه سواء ﴾ مع

(١) من الآية ٦ من سورة البلد .

(٢) عزاه السيوطى فى الجامع الصغير (٧٩٤) للرافعى فى تاريخه ، عن أبى أمامة ، وضعفه . وانظر : فيض القدير ، للمناوى (٤١٦/١) .

ساداتهم. وهو احتجاج على وحدانيته تعالى، وإنكار ورد على المشركين، فكأنه يقول: أنتم لا تسوون بين أنفسكم وبين ممالككم في الرزق، ولا تجعلونهم شركاء لكم، بل تأنفون من ذلك، فكيف تجعلون عبيدي شركاء لي في الوهيتي ١٩ وهذا كقوله: ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ (١). ويحتمل أن يكون ذمًا وعتابًا لمن لا يحسن إلى مملوكه، حتى يرد ما رزقه الله عليه، كما في الحديث: «أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون» (٢).

﴿ أفبئعمة الله يجهدون ﴾، حيث يجعلون له شركاء، فإنه يقتضى أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله عليهم، ويجحدوا أنه من عند الله، أو حيث أنكروا هذه الحجج، بعد ما أنعم الله عليهم بإيضاحها، أو حيث بخسوا ممالكهم مما يجب لهم من الإنفاق. على التفسير الثاني.

الإشارة: والله فضل بعضكم على بعض في أرزاق العلوم، والأسرار والمواهب، فمنكم غنى بالله، ومنكم فقير منه في قلبه، ومنكم عالم به ومنكم جاهل، ومنكم قوى اليقين ومنكم ضعيف، فما الذين فضلوا بالعلوم الدنية والأسرار الربانية برادى تلك العلوم على الجهلة وضعفاء اليقين، بأن يطلعوهم على أسرار الربوبية قبل استحقاقها. فإن ذلك بخس بحقها. حتى يرونهم أهلاً لها؛ بأن يبذلوا لهم أنفسهم وأموالهم، ويملكون لهم رقابهم يتصرفون فيها تصرف المالك في مملوكه، فحينئذ يشاركونهم فيما منحهم الله من أرزاق العلوم وأسرار الفهوم، وقد قيل: لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.

وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

سَأَكْتُمُ عِلْمِي عَنْ ذَوِي الْجَهْلِ طَاقَتِي	وَلَا أَنْثُرُ الدَّرَّ النَّفِيسَ عَلَى الْبَهْمِ
فَإِنْ قَدَّرَ اللَّهُ الْكَرِيمُ بِلُطْفِهِ	وَلَا قِيَّتُ أَهْلًا لِلْعُلُومِ وَالْحِكْمِ
بَذَلْتُ عُلُومِي وَاسْتَفَدْتُ عُلُومَهُمْ	وَالْأَفْخَزُونَ لَدَى وَمَكْتَنَتُمْ
فَمَنْ مَنَعَ الْجَهَالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ	وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمَ

ثم ذكرهم بالنعم التي لا قدرة لأحد عليها، فقال:

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٢)

(١) من الآية ٢٨ من سورة الروم.

(٢) أخرجه مسلم في (الزهد، باب حديث جابر الطويل)، من حديث أبي اليسر.

قلت : الحفدة : جمع حافد، وهو الخديم المسرع في الخدمة، والحفد في اللغة : الخدمة، ومنه في القنوت : «واليك نسعى ونحفد»، أى : نسرع في خدمتك. وسموا أولاد الأولاد حفدة؛ لأنهم يسرعون في خدمة جدهم، حين كبر ولزم الدار، وقيل : هم البنات؛ لأنهن يخدمن الدار.

يقول الحق جل جلاله : ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ ؛ حيث خلق حواء من ضلع آدم، وسائر النساء من نطفة الرجال، والنساء خلقهن لكم، لتتأنسوا بهن، ولتتمتعوا بهن في الحلال، وليكون أولادكم مثلكم. ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين﴾ من صلبكم ﴿وحفدة﴾ ؛ أولاد أولادكم أو بناتكم؛ فإن البنات يخدمن في البيوت أشد الخدمة، أو الأصهار من قبل النساء، أو الخدم، ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ ؛ من اللذائذ والمشتهيات؛ كأنواع الثمار والحبوب والفواكه، والحيوان؛ أكلاً وركوباً وزينة، أو الحلالات، ومن : للتبعيض؛ فإن طيبات الدنيا أنموذج من نعيم الآخرة. ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ وهو أن الأصنام تنفعهم؛ لأن الأصنام باطلة لا حقيقة لوجودها، وإضافة النفع لها: كفر بنعمة الله، ولذلك قال: ﴿وبنعمة الله هم يكفرون﴾ ؛ حيث أضافوها إلى أصنامهم، أو حيث حرّموا منها ما أحله الله لهم كالبحائر والسوانب. والله تعالى أعلم.

الإشارة : والله جعل لكم من أنفسكم المطهرة أصنافاً من العلوم الدنية. قال أبو سليمان الداراني : (إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام، جالت في الملكوت، ثم عادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة، من غير أن يؤدي إليها عالم علماً). وجعل لكم من تلك العلوم بنين روحانيين، وهو التلامذة، يحملون تلك العلوم، وحفدة : من ينقل ذلك عنهم إلى يوم القيامة، ورزقكم من الطيبات، وهى حلاوة المعرفة عند العارفين، وحلاوة الطاعات عند المجتهدين. أفبالباطل - وهو ما سوى الله - يؤمنون، فيقفون مع الوسائط والأسباب، ويغيبون عن مسبب الأسباب، وبنعمة الله - التى هى شهود الحق بلا وسائط - هم يكفرون.

ثم عاب على من وقف مع غير الله، فقال:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ
﴿٧٣﴾ فَلَا تَضُرُّهُمُ أَلِهَآءُ مِّثَالُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قلت : ﴿رِزْقًا﴾ : مفعول بيمالك، فيحتمل أن يكون مصدراً، أو اسماً لما يرزق، فإن كان مصدراً، فشيداً مفعول به؛ لأن المصدر ينصب المفعول، وإن كان اسماً، فشيداً بدل منه. وجمع الضمير فى «يستطيعون»، وأفرده فى «يمالك»؛ لأن (ما) مفردة؛ لفظاً، واقعة على الآلهة، فراعى أولاً اللفظ، وفى الثانى المعنى .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ويعبدون من دون الله﴾ أى: غيره ﴿ما لا يملك لهم رزقاً من السموات﴾ ؛ بالمطر ﴿والأرض﴾ ؛ بالنبات، فلا يرزقونهم من ذلك ﴿شيئاً ولا يستطيعون﴾ : لا يقدرّون على شيء من ذلك؛ لعجزهم، وهم الأصنام، ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ ؛ لا تجعلوا له أشباهاً تشركونهم به، أو تقيسونهم عليه، فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال، ﴿إن الله يعلم﴾ ألا مثل له، أو فساد ما يقولون عليه من القياس، ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ ذلك، ولو علمتموه لما تجرأتم عليه، فهو تعليل للنهي، أى: إنه يعلم كنه الأشياء، وأنتم لا تعلمون، فدعوا رأيكم، وقفوا عندما ما حد لكم.

الإشارة: كل من ركن إلى شيء دون الحق تعالى، أو اعتمد عليه فى إيصال المنافع أو دفع المضار، تصدق عليه الآية، وتجرب ذيلها عليه، فلا تجعلوا لله أمثالاً تعتمدون عليهم وتركون إليهم، فالله يعلم من هو أولى بالاعتماد عليه والركون إليه، وأنتم لا تعلمون ذلك، أو تعلمون ولا تعملون، ولقد قال من علم ذلك وتحقق به:

حَرَامٌ عَلَى مَنْ وَحَّدَ اللَّهَ رَبَّهُ وَأَفْرَدَهُ أَنْ يَجْعِدَى أَحَدًا رِفْدًا
فِيَا صَاحِبِي، قَفْ بِي عَلَى الْحَقِّ وَقْفَةً أَمُوتْ بِهَا وَجَدًا، وَأُحْيَا بِهَا وَجَدًا
وَقُلْ لِمُلُوكِ الْأَرْضِ تَجَهَّدْ فَذَا الْمَلِكُ مُلْكٌ لَا يَبَاعُ وَلَا يُهْدَى

قال سهل رحمته الله: «ما من قلب ولا نفس إلا والله مطلع عليه فى ساعات الليل والنهار، فأیما نفس أو قلب رأى فيه حاجة إلى غيره، سلط عليه إبليس». وقال الأستاذ أبو على الدقاق رحمته الله: من علامة المعرفة: ألا تسأل حوائجك، قلت أو كثرت، إلا من الله سبحانه، مثل موسى عليه السلام؛ اشتاق إلى الرؤية، فقال: رب أرني أنظر إليك، واحتاج مرة إلى رغيغ، فقال: رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير. هـ. وقال فى التنوير: اعلم، رحمك الله، أن رفع الهمة عن المخلوقين، وعدم التعرض لهم، أزين لهم من الحلى للعروس، وهم أخرج إليه من الماء لحياة النفوس... إلخ كلامه رحمته الله.

ثم ضرب مثلاً لنفسه، ولمن يعبد معه، فقال:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ آثَارِ رِزْقِ أَحْسَنًا
فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾
وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى
مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

قلت : «عبدًا» : بدل من «مَثَلًا» ، و«من» : نكرة موصوفة ، أى : عبدًا مملوكًا ، وحرًا رزقناه منا رزقًا حسنًا ، وقيل : موصولة . و«سرا وجهراً» : على إسقاط الخافض ، وجمع الضمير فى «يستون» ، لأنه للجلسين ، و«رجلين» : بدل من : «مَثَلًا» .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ لضعف العبودية ، وعظمة الربوبية ، ثم بيّنه فقال : ﴿ عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ ، وهذا مثال للعبد ، ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ ﴾ أى : وحرًا رزقناه ﴿ مِنْ رِزْقٍ حَسَنٍ ﴾ ، فهو يتصرف فيه كيف يشاء ، ﴿ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ ، وهذا : مثال للرب تبارك وتعالى ، مَثَلٌ مَا يَشْرِكُ بِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ بِالْمَمْلُوكِ الْعَاجِزِ عَنِ التَّصَرُّفِ رَأْسًا ، وَمَثَلٌ لِنَفْسِهِ بِالْحَرِّ الْمَالِكِ الَّذِى لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ ، فَهُوَ يَتَصَرَّفُ فِيهِ وَيُنْفِقُ مِنْهُ كَيْفَ شَاءَ .

وقيل : هو تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق . وتقيد العبد بالمملوك ؛ للتمييز من الحر ؛ فإنه أيضا عبد لله . وسلب القدرة عن المكاتب والمأذون فى التصرف ، فإن الأصنام إنما تشبه العبد القن^(١) الذى لا شوب حرية فيه ، بل هى أعجز منه بكثير ، فكيف تضاهى الواحد القهار ، الذى لا يعجزه مقدور ؟ ولذلك قال : ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ ؟ أى : العبيد العجزة ، والمتصرف بالإطلاق . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على بيان الحق ووضوحه ؛ لأنها نعمة جليلة يجب الشكر عليها ، أو الحمد كله لله لا يستحقه غيره ، فضلًا عن العبادة ؛ لأنه مولى النعم كلها . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : لا علم لهم : فيضيّفون النعم إلى غيره ويعبدونه لأجلها ، أو لا يعلمون ما يصيرون إليه من العذاب فيشركون به .

ثم ضرب الله مَثَلًا آخر فقال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ ، ثم بيّنه بقوله : ﴿ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ ؛ ولد أخرس ، لَا يَفْهَم وَلَا يُفْهَم ، ﴿ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ من الصنائع والتدابير ؛ لنقصان عقله ، ﴿ وَهُوَ كَلٌّ ﴾ أى : ثقيل عيال ﴿ عَلَى مَوْلَاهُ ﴾ الذى يلى أمره ، ﴿ أَيْنَمَا يُوجَّهْ ﴾ : يرسله فى حاجة أو أمر ﴿ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ ؛ بنجح وكفاية مهم . وهذا مثال للأصنام . ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ ﴾ أى : الأبكم المذكور ، ﴿ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ ؛ ومن هو منطيق متكلم بحوائجه ، ذو كفاية ورشد ، ينفع الناس ويحثهم على العدل الشامل لمجامع الفضائل ، ﴿ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى : وهو فى نفسه على طريق مستقيم ، لا يتوجه إلى مطلب إلا ويحصله بأقرب سعى ؟

وهذا مثال للحق تعالى ، فضرب هذا المثل لإبطال المشاركة بينه وبين الأصنام ، وقيل : للكافر والمؤمن . والأصوب : كون المثلين معًا فى الله مع الأصنام ؛ لتكون الآية من معنى ما قبلها وما بعدها فى تبين أمر الله ، والرد على أمر الأصنام . والله تعالى أعلم

(١) العبد القن : الذى مَلَكَ هو وأبواه ، ويقابله : عبد المملكة ، الذى مَلَكَ هو دون أبويه . انظر : النهاية (قن) .

الإشارة: الحق تعالى موصوف بكمالات الربوبية، منعوت بعظمة الألوهية، وعبيده موسومون بنقائص العبودية، وقهرية الملكية. فمن أراد أن يمدد الله في باطنه بكمالات الربوبية؛ من قوة وعلم، وغنى وعز، ونصر وملك، فليتحقق في ظاهره بنقائص العبودية؛ من ذل، وفقر، وضعف، وعجز، وجهل. فبقدر ما تجعل في ظاهره من نقائص العبودية يمدك في باطنك بكمالات الربوبية؛ (تحقق بوصفك يمدك بوصفه)، والتحقق بالوصف إنما يكون ظاهراً بين خلقه، لا منفرداً وحده؛ إذ ليس فيه كبير مجاهدة؛ إذ كل الناس يقدرون عليه، وإنما التحقق بالوصف - الذي هو ضامن للمدد الإلهي - هو الذي يظهر بين الأقران. وبالله التوفيق.

ثم بين كمال علمه وقدرته، بعد أن ذكر كمالات ذاته، فقال:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾

قلت: أمهات: جمع أم، زيدت فيه الهاء؛ فرقاً بين من يعقل ومن لا يعقل، قاله ابن جزى. والذي لغيره حتى ابن عطية: إنما زيدت؛ للمبالغة والتأكيد. وقرئ بضم الهمزة، وبكسرهما؛ إتباعاً للكسرة قبلها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: يعلم ما غاب فيهما، كان محسوساً أو غير محسوس؛ قد اختص به علمه، لا يعلمه غيره. ثم برهن على كمال قدرته فقال: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ أى: قيام القيامة، فى سرعتة وسهولته، ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾؛ كرد البصر من أعلى الحدقة إلى أسفلها، ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾: أو أمرها أقرب منه؛ بأن يكون فى زمان نصف تلك الحركة، بل أقل؛ لأن الحق تعالى يحيى الخلائق دفعة واحدة، فى أقل من رمشة عين، و«أو» للتخيير، أو بمعنى بل. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فيقدر على أن يحيى الخلائق دفعة، كما قدر أن يوجدهم بالتدريج.

ثم دل على قدرته فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾؛ جهالاً، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ أى: الأسماع ﴿وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أى: القلوب، فتكتسبون، بما تدركون من المحسوسات، العلوم البديهية، ثم تتمكنون من العلوم النظرية بالتفكير والاعتبار، ثم تدركون معرفة الخالق ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، أظهركم أولاً من العدم، ثم أمدمكم ثانياً بضروب النعم، طوراً بعد طور، حتى قدمتم عليه.

وقدّم في جميع القرآن نعمة السمع على البصر؛ لأنه أنفع للقلب من البصر، وأشد تأثيراً فيه، وأعم نفعاً منه في الدين؛ إذ لو كانت الناس كلهم صمماً، ثم بُعثت الرسل، فمن أين يدخل عليهم الإيمان والعلم؟ وكيف يدركون آداب العبودية وأحكام الشرائع؟ إذ الإشارة تتعذر في كثير من الأحكام. وإنما أفردته، وجمع الأبصار والأفئدة؛ لأن متعلق السمع جنس واحد، وهى الأصوات، بخلاف متعلق البصر، فإنه يتعلق بالأجرام والألوان، والأنوار والظلمات، وسائر المحسوسات، وكذلك متعلق القلوب؛ معانى ومحسوسات، فكانت دائرة متعلقهما أوسع مع متعلق السمع. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما غاب في سماوات الأرواح من علوم أسرار الربوبية، وفي أرض النفوس من علوم أحكام العبودية، هو في خزائن الله، يفتح منهما ما شاء على من يشاء؛ إذ أمره تعالى بين الكاف والنون. وما أمر الساعة، التى يفتح الله فيها الفتح على عبده، بأن يميتة عن نفسه، ثم يحييه بشهود طلعة ذاته، إلا كلمح البصر أو هو أقرب. لكن حكمته اقتضت الترتيب والتدرج، فيُخرجه إلى هذا العالم جاهلاً، ثم يفتح سمعه للتعلم والوعظ، وبصره للنظر والاعتبار، وقلبه للشهود والاستبصار، حتى يصير عالماً عارفاً بربه، من الشاكرين الذين يعبدون الله، شكراً وقياماً برسم العبودية. وبالله التوفيق.

ثم حضّ على التفكير، الذى هو سبب المعرفة وشبكة العلوم، فقال:

﴿الْمَيْرُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاوَمِتَعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قلت: «مسخرات»: حال من «الطيور»، و«سكناء»: مصدر وصف به، أى: شيئاً سكناً، أو: فعل؛ بمعنى مفعول.

و«أثاناً»: مفعول بمحذوف، أى: وجعل من أوبارها أثاناً.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ ، وفي قراءة : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا ﴾ ^(١) ؛ بتوجيه الخطاب لعامة الناس ، ﴿ إلى الطير مسخرات ﴾ : مذلات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية ، ﴿ في جو السماء ﴾ ؛ في الهواء المتباعد من الأرض . ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ فيه ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ؛ فإن ثقل جسدها يقتضى سقوطها ، ولا علاقة فوقها ولا دعامة تحتها تمسكها ، ﴿ إِنَّ فِي ﴾ تسخيرها ﴿ ذَلِكَ ﴾ لها ﴿ لآيات ﴾ ؛ لعبراً ودلالة على قدرته تعالى ؛ إذ لا فاعل سواه ؛ فإن إمساك الطيران في الهواء هو على خلاف طباعها ، لولا أن القدرة تحملها ، ففيه آيات ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ ؛ لأنهم هم المنتفعون بها .

﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ : موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم ، كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر . ومن اللبيان ، أى : جعل لكم سكناً ، أى : موضعاً تسكنونه ، وهو بيوتكم ، ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا ﴾ ، هى القباب المتخذة من الأدم ، ويجوز أن يتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر ، فإنها ، من حيث إنها نابتة على جلودها ، كأنها من جلودها ، ﴿ تستخفونها ﴾ أى : تجدونها خفيفة ، يخف عليكم حملها وثقلها ﴿ يوم ظعنكم ﴾ أى : سفركم ، وفيه لغتان : الفتح والسكون ^(٢) ، ﴿ ويوم إقامتكم ﴾ : حضوركم ، أو نزولكم ، ﴿ وجعل ﴾ من أصوافها ﴿ أى : الغنم ، ﴿ وأوبارها ﴾ أى : الإبل ، ﴿ وأشعارها ﴾ أى : المعز ، ﴿ أثاثاً ﴾ : متاعاً لبيوتكم ، كالسبط والأكسية ، ﴿ ومتاعاً ﴾ تمتعون به ﴿ إلى حين ﴾ ؛ إلى مدة من الزمان ، فإنها ، لصلابتها ، تبقى مدة مديدة ، أو : إلى مماتكم ، أو : إلى أن تقضوا منها أوطاركم ، أو : إلى أن تبلى .

﴿ والله جعل لكم مما خلق ﴾ من الشجر والجبال والأبنية ، وغيرها ، ﴿ ظلالاً ﴾ تتقون بها حر الشمس ، ﴿ وجعل لكم من الجبال أكنانا ﴾ ؛ جمع : كن ، ما تكونون ، أى : تستترون به من الحر والبرد ، كالكهوف والغيران والبيوت المجوفة فيها ، ﴿ وجعل لكم سراويل ﴾ جمع : سريال ؛ ثياباً من الصوف والكتان والقطن وغيرها ، ﴿ تقيكم الحر ﴾ والبرد ، وخص الحر بالذكر ، اكتفاء بأحد الضدين ، أو لأن وقاية الحر كانت أهم عندهم . ﴿ وسراويل تقيكم بأسكم ﴾ : حريكم ، كالطعن والضرب . وهى : الدروع ، وتسمى : الجواشن ، جمع جوشن ، وهو الدرع ، ﴿ كذلك ﴾ ؛ كإتمام هذه النعم ؛ بخلق هذه الأشياء المتقدمة ، ﴿ يتم نعمته عليكم ﴾ فى الدنيا ؛ بخلق ما تحتاجون إليه ، ﴿ لعلكم ﴾ يا أهل مكة ﴿ تسلمون ﴾ أى : تنظرون فى نعمه ، فتؤمنون به ، أو تنقادون لحكمه . وفى قراءة : بفتح التاء ، أى : تسلمون من العذاب بالإيمان ، أو تنظرون فيها ، فتوحدون ، وتسلمون من الشرك ، أو من الجراح ؛ بلبس الدروع .

(١) وهى قراءة ابن عامر وحمزة ويعقوب . وقرأ الباقون : (يروا) ؛ بالغيب لقوله « يعبدون » . انظر الإتحاف (١٨٧ / ٢) .

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بإسكان العين ، والباقون بفتحها .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ : أعرضوا، ولم يقبلوا منك، أو لم يسلموا. ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ﴾ : يا محمد ﴿ الْبَلَاغُ الْمُبِين ﴾ أى: الإبلان البين، فلا يضرك إعراضهم حيث بلغتهم.

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ أى: يَقْرُونَ بأنها من عنده، ﴿ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ بإشراكهم وعبادتهم غير المنعم بها، ويقولهم: إنها بشفاعاة آلهتنا، أو بسبب كذا، أو بإعراضهم عن حقوقها. وقيل: نعمة الله: نبوة نبينا محمد ﷺ، عرفوها بالمعجزات، ثم أنكروها؛ عناداً. ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ : الجاحدون؛ عناداً. وذكر الأكثر؛ إما لأن بعضهم لم يعرف الحق؛ لنقصان عقله، أو لتفريطه فى النظر، أو لم تقم عليه الحجة؛ لأنه لم يبلغ حد التكليف، أو كان فيهم من داخله الإسلام، ومن أسلم بعد ذلك. وإما لأنه أقام الأكثر مقام الكل، كقوله: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١). قال بعضه البيضاوى .

الإشارة: قال الورتجى: بين الحق تعالى قدرته فى إمساكه أطياف الأرواح فى هواء الملكوت وسماء الجبروت، حتى ترفرفت بأجنحة العرفان والإيقان، على سرادق مجده وبساط كبريائه، مسخرات بأنوار جذبه، ما يمسكن إلا الله، بكشف جماله لها، أمسكها به عن قهر سلطانه وسبحات جلاله، حتى لا تقنى - أى: تتلاشى - فى بهائه . هـ .

والله جعل لكم من بيوتكم سكناً - وهى العبودية -، تسكنون فيها وتأوون إليها، بعد طيران الفكرة فى جو أنوار الملكوت، وميادين أسرار الجبروت. أو الحضرة تسكن فيها قلوبكم، فتصير معشش أرواحكم، إليها تأوون، وفيها تسكنون. وجعل لكم منازل تنزلون فيها عند السير إلى حضرة ربكم، وهى المقامات التى يقطعها المريد، ينزل فيها ويرتحل عنها. وجعل لكم من أودية الأكوان وألوانها واختلاف أصنافها، تمتعاً بشهود أنوار مكنونها فيها، إلى انطوائها وظهور أضدادها بقيام الساعة، فتظهر القدرة وتبطن الحكمة، ويظهر المعنى ويبطن الحس.

والله جعل لكم مما خلق من الأكوان ظلالاً، والظلال لا وجود لها من ذاتها، فكذلك الأكوان لا وجود لها مع الحق، وإنما هى ظلال. والظلال ليست بموجودة ولا مفقودة. وجعل لكم من جبال العقل أكناناً، تستترون بنوره من جذب الاصطلام؛ بمواجهة أنوار الحضرة. وجعل لكم سراويل الشرائع تقيكم حر الحقيقة، وسراويل الحقائق تقيكم بأس سهام الأقدار، فإن من عرف الله؛ حقيقة؛ هان عليه ما يواجه به من المكاره. وفى هذا المعنى أنشد بعضهم:

نَلْبِسُ عَمَامَ مِنَ الْمَاءِ	وَنُشِيسُهَا شَدَّ مَائِلُ
وَنَلْبِسُ مِنَ الشُّلُجِ بَرْنُسُ	إِذَا حِمَتِ الْقَوَائِلُ
وَنُشِيعِلُ مِنَ الرِّيحِ قَنْدِيلُ	وَمِنِ الضُّبَابِ فَتَائِلُ (٢)

(١) من الآية ٧٥ من سورة النحل.

(٢) هذا شعر عامى، أو زجل، وهو جيد المعنى، ويعبر عن همة عالية عند قائله. وقوله: إذا حمت القوائل، يعنى: إذا اشتد الحر فى أوقات الظهيرة. وبقيّة الزجل واضح المعنى.

والمراد بعمامة الماء: كناية عن الحقيقة؛ لأنها كالماء لحياة النفوس. وميل شدها: كناية عن قوتها، وتكبيرها؛ على الشريعة. والمراد ببرنس الثلج: برد التشريع، فإذا قويت الحقيقة، وخاف من الاحتراق، نزل إلى برد التشريع. والمراد بالريح: هبوب نسيم الواردات الإلهية، يشعل منها فتدبل الفكرة - التي هي سراج القلب -، فإذا ذهبت فلا إضاءة له، وهذه حالة السائر، وأما الواصل فقد سكن النور في قلبه، فلا يحتاج إلى سراج غيره تعالى. وفي ذلك يقول الشاعر:

كُلُّ بَيْتٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى سُرُجٍ
وَجْهَكَ الْمَحْمُودُ حُجَّتَنَا يَوْمَ يَأْتِي النَّاسَ بِالْحُجَجِ

والمراد بالضباب: وجود السوى، فإنه يحترق عند اشتعال الفكرة. والله تعالى أعلم. وباقي الآية ظاهر إشارته. ثم ذكر وعيد من أعرض عن هذه النعم، التي هي دلائل قدرته، فقال:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ ٨٤ وَإِذْ أَرَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذْ أَرَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ رَدَّتْهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

قلت: «تبياناً»: حال من الكتاب، وهو مصدر، قال في القاموس: والتبيان: مصدر شاذ. وفي ابن عطية: والتبيان: اسم، لا مصدر. والمصادر في مثله مفتوحة، كالترداد والتكرار. هـ. وقال في الصحاح: لم يجئ على الكسر إلا هذا، والتلقاء. هـ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نبعث من كل أمة﴾ من الأمم ﴿شاهدا﴾ أي: رسولا يشهد لها أو عليها، بالإيمان أو بالكفر، وهو يوم القيامة، ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ في الاعتذار؛ إذ لا عذر لهم.

(١) في باب أحوالهم عند الخروج من الدنيا، حكى القسيري في الرسالة، عن أبي محمد الهروي، أنه قال: ومكنت عند الشبلى، الليلة التي مات فيها، فكان يقول - طول ليلة - هذين البيتين:

كل بيت أنت ساكنة غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج

أول: في الرجوع إلى الدنيا. وعبر بثم؛ لزيادة ما يحق بهم من شدة المنع من الاعتذار، مع ما فيه من الإقنات الكلي. ﴿ولا هم يستعتبون﴾ : لا يطلب منهم العتبي، أي: الرجوع إلى ما يرضى الله. والمعنى: أنهم لا يؤذن لهم في الاعتذار عما فرطوا فيه مما يرضى الله، ولا يطلب منهم الرجوع إلى تحصيله. ﴿وإذا رأى الذين ظلموا﴾ : كفروا ﴿العذاب﴾ : جهنم ﴿فلا يخفف عنهم﴾ : العذاب ﴿ولا هم ينظرون﴾ : يمهلون عنه إذا رآه .

﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾ : أولئهم التي دعوا شركاء الله، أو الشياطين الذين شاركهم في الكفر؛ بالحمل عليه، ﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك﴾ : أي: نعبدهم ونطيعهم من دونك. وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك. ﴿فألقوا إليهم القول﴾ : قالوا لهم: ﴿إنكم لكاذبون﴾ : أي: أجابوا بالكذب في أنهم شركاء الله، أو أنهم عبدوهم حقيقة، وإنما عبدوا أهواءهم؛ كقوله: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ (١)، وقوله: ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ (٢)، أو لأنهم، لما كانوا غير راضين بعبادتهم، فكان عبادتهم لم تكن لهم. ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ : أي: الاستسلام، أي: استسلموا لحكمه (يومئذ)، بعد أن تكبروا عنه في الدنيا، ولا ينفع يومئذ، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ : أي: غاب وضاع وبطل ﴿ما كانوا يفترون﴾ : من أن آلهتهم تنصرهم وتشفع لهم.

﴿الذين كفروا وصدوا﴾ : الناس ﴿عن سبيل الله﴾ : بالمنع من الإسلام، والحمل على الكفر، ﴿زدناهم عذاباً﴾ : بصددهم، ﴿فوق العذاب﴾ : المستحق بكفرهم. قال ابن مسعود: عقارب، أنيابها كالنخل الطوال، تلسعهم. وعن عبيد بن عمير: عقارب كالبنغال الدثم. أي: السود جداً، والأدلم: الشديد السواد. وذلك العذاب ﴿بما كانوا يفسدون﴾ : أي: بكونهم مفسدين؛ بصددهم عما فيه صلاح العالم.

﴿و﴾ : اذكر أيضاً: ﴿يوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم﴾ : يعني: نبيهم؛ فإن نبي كل أمة بعث مذهباً. ﴿وجئنا بك﴾ : يا محمد ﴿شهيذاً على هؤلاء﴾ : على أمتك، أو على هؤلاء الشهداء، ﴿ونزلنا عليك الكتاب﴾ : القرآن ﴿تبياناً﴾ : بياناً بليغاً ﴿لكل شيء﴾ : من أمور الدين على التفصيل، أو الإجمال؛ بالإحالة على السلة أو القياس. ﴿وهدي﴾ : من الضلالة، ﴿ورحمة﴾ : بنور الهداية لجميع الخلق. وإنما حرم المحروم؛ لتفريطه، ﴿وبشري﴾ : بالجنة، وغيرها، ﴿للمسلمين﴾ : الموحدين خاصة. وبالله التوفيق.

الإشارة: قد بعث الله في كل دهر وعصر شهيداً يشهد على أهله، ويكون حجة عليهم يوم القيامة، وهم صنفان: صنف يشهد على من فرط في أحكام الشريعة، وهم: العلماء الأتقياء، وصنف يشهد على من فرط في (١) من الآية ٨٢ من سورة مريم. (٢) من الآية ٣ من سورة القصص.

أسرار الحقيقة، وهم: الأولياء الكبراء، أعلى: العارفين بالله، فمن فرط في شيء ملهما قامت عليه الحجة؛ فإذا اعتذر لا ينفعه، وإذا طلب الرجوع لا يجده، وإذا أحاط به عذاب الحجاب لا ينفك عنه. وكل من أحب شيئاً من دون الله، تبرأ منه يوم القيامة، وكل من أنكر الخصوصية على أولياء زمانه، وصد الناس عنه؛ تضاعف عذابه، وكثف حجاب يوم القيامة. والله تعالى أعلم

ولما ذكر أن القرآن فيه تبيان كل شيء، ذكر آية تضمنت أصول الأحكام، فيها تبيان كل شيء؛ إجمالاً، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أى: التوحيد، أو الإنصاف، أو فعل الفرائض، ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾، وهو: فعل المندوبات. وذلك في حقوق الله تعالى، وفي حق عباده، أو العدل في الأحكام، كل واحد فيما ولى فيه؛ كلكم راع، والإحسان إلى عباد الله برهم وفأجرهم. قال ابن عطية: العدل: هو فعل كل مفروض؛ من عقائد وشرائع، وسير مع الناس في أداء الأمانات، وترك الظلم، والإنصاف، وإعطاء الحق. والإحسان هو: فعل كل مندوب إليه.

وقال البيضاوي: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾: بالتوسط في الأمور؛ اعتقاداً، كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك، والقول بالكسب، المتوسط بين محض الجبر والقدر، وعملاً، كالتعبد بأداء الواجبات، المتوسط بين البطالة والترهب، وخلقاً، كالجود المتوسط بين البخل والتبذير، والإحسان: إحسان الطاعات، وهو إما بحسب الكمية، كالتطوع بالنوافل، أو بحسب الكيفية، كما قال - عليه الصلاة والسلام: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾: وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه، وهو تخصيص بعد تعميم؛ للمبالغة.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾: عن الإفراط في متابعة القوة الشهوية، كالزنى؛ فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشدعها، ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾: ما ينكر على متعاطيه في إثارة القوة الغضبية، ﴿وَالْبَغْيِ﴾: الاستعلاء والاستيلاء على الناس، والتجبر عليهم، فإنها الشيطنة التي هي مقتضى القوة الوهمية، ولا يوجد من الإنسان شراً إلا وهو مندرج في هذه الأقسام، صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هي أجمع آية في القرآن للخير والشر». وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون، فلو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء، وهدى ورحمة للعالمين، ولعل إيرادها عقب قوله: «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء»؛ للتنبيه عليه. هـ.

وفي القوت: هي قطب القرآن. هـ. وعن عثمان بن مظعون: أنه قال: لما نزلت هذه الآية؛ قرأتها على أبي طالب، فعجب، وقال: آل غالب، اتبعوه تفلحوا، فوالله إن الله أرسله ليأمر بكمارم الأخلاق. هـ. قال ابن عطية:

﴿وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى﴾: لفظ يقتضى صلة الرحم، ويعم جميع إسداء الخير إلى القرابة، وتركه مبهمًا أبلغ؛ لأن كل من وصل في ذلك إلى غاية - وإن علت - يرى أنه مقصر، وهذا المعنى المأمور به في جانب ذي القربى داخل تحت العدل والإحسان، لكنه تعالى خصه بالذكر؛ اهتماماً به وحضاً عليه. هـ.

﴿يَعْظُمُكُمْ﴾ بما ذكر من التمييز بين الأمر والنهي، والخير والشر، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: تتعظون فتنهضون إلى ما أمرتكم به وندبتكم إليه، وتتكفوا عما نهيتكم عنه وحذرتكم منه.

الإشارة: (إن الله يأمر بالعدل)؛ بالتوسط في الأمور كلها، كالتوسط في السير والمجاهدة؛ فإن الإسراف يوقع في الملل، قال - عليه الصلاة والسلام -: «لا يكن أحدكم كالمنبت؛ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى». وقال ﷺ أيضاً: «إن الله لا يعمل حتى تملوا». والله ما رأيت أحداً أسرف في الأحوال فوصل إلى ما قصد، إلا التادر، وخير الأمور أوسطها. ويأمر بالإحسان، وهو: مقام الشهود والعيان. (وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى)؛ قرابة الدين، وهم: الإخوان في الله، ما يستحقونه من النصح والإرشاد، (وينهى عن الفحشاء)؛ الركون لغير الله، (والمنكر)؛ التكبر على عباد الله، (والبغى)؛ ظلم أحد من خلق الله، من القيل إلى الذرة.

وقال في الإحياء: بين التبذير والإفترار المذمومين وسط، وهو المحمود المأمور به، والواجب منه شيان: واجب بالشرع، وواجب بالمروءة. والسخى هو الذى لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل، كالذى يمنع أداء الزكاة، ويمنع أهله وعياله النفقة، أو يؤديها لا بطيب نفسه، بل بتكلف ومشقة. وكالذى يتيمم الخبيث من ماله، ولا يعطى من أطيبه وأوسطه، فهذا كله بخل. وأما واجب المروءة فهو: ترك المضايفة والاستقصاء في المحقرات، وذلك يختلف؛ فيستقبح من الغنى ما لا يستقبح من الفقير، ويستقبح من الرجل مع أقاربه ما لا يستقبح مع الأجانب، وكذلك الجار والمماليك والضييف. هـ.

وقال الورعجي: إن الله تعالى دعا عباده إلى الاتصاف بصفته، منها: العدل والإحسان والشفقة والرحمة، والقدس، والطهارة عما لا يليق به. فهو العادل والمحسن، والرحمن الرحيم، غير ظالم جائر، وهو منزه عن جميع العلل، فمن كسى أنوار هذه الصفات، بنعت الذوق والمباشرة، واستحلى تربيتها يخرج عادلاً محسناً، رؤوفاً رحيماً، طاهراً مطهراً، صادقاً مصداقاً، ولياً، حبيباً محبوباً، مريداً مراداً، مراعى محفوظاً، يعدل بنفسه فيدفعها عن الشك والشرك، ورؤية الغير وطلب العوض في العبودية، يأخذ منها الإنصاف بينها وبين عباد الله، ويحسن إلى من أساء إليه، ويعبد الله بوصف الرؤية وشهود غيبه، ويراعى ذوى القرابة، في المعرفة والمحبة؛ من المريدين والصادقين، ويرحم الجاهل من المسلمين، وينهى نفسه عن مباشرة فواحش الأنانية، ومباشرة الهوى والشهوة،

ويدفعها عن الظلم؛ باستكباره عن العبودية، ويأمرها بإذعانها عند تراب أقدام أولياء الله؛ لتكون مطمئنة في عبودية الحق، ذاكرة لسلطان ربوبيته، وقهر جبروته وملكوته وإحاطته بكل ذرة، وفناء الخليقة في حقيقته. هـ.
ومن مكارم الأخلاق الداخلة تحت العدل: الوفاء بالعهد، كما قال تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ٩١ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ٩٢ ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ٩٣ ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَاقُمْ بَعْدَ ثبوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ٩٤ ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ٩٥ ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ٩٦ ﴿

قلت: ﴿وقد جعلتم﴾: حال، و﴿أنكاثا﴾: حال من الغزل، وهو: جمع نكث - بالكسر - بمعنى منكوث، أى: منقوض. و﴿أن تكون﴾: مفعول من أجله، و﴿تتخذون﴾: جملة حالية من ضمير «تكونوا».

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأوفوا بعهد الله﴾: كالبيعة للرسول - عليه الصلاة والسلام - وللأمراء، والأيمان، والنذور، وغيرها، ﴿إذا عاهدتم﴾: الله على شيء من ذلك، ﴿ولا تنقضوا الأيمان﴾: أيمان البيعة، أو مطلق الأيمان، ﴿بعد توكيدها﴾: بعد توثيقها بذكر الله، أو صفته، أو أسمائه، ﴿وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً﴾: شاهداً ورقيباً، بتلك البيعة؛ فإن الكفيل مراعى لحال المكفول رقيب عليه، ﴿إن الله يعلم ما تفعلون﴾: فى نقض الأيمان والعهود. وهو تهديد لمن ينقض العهد، وهذا فى الأيمان التى فى الوفاء بها خير، وأما ما كان تركه أولى فيكفر عن يمينه، وليفعل الذى هو خير، كما فى الحديث.

﴿ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها﴾: أفسدته ﴿من بعد قوة﴾: أى: إبرام وإحكام؛ ﴿أنكاثا﴾: أى: طاقات، أى: صيرته طاقات كما كان قبل الغزل، بحيث حلت إحكامه وإبرامه، حتى صار كما كان، والمراد:

تشبيهه الدافض بمن هذا شأنه، وقيل: هي «ريطة بنت سعد القرشية»؛ فإنها كانت خرقاء - أى: حمقاء - تغزل طول يومها ثم تنقضه، فكانت العرب تضرب بها المثل لمن قال ولم يوف، أو حلف ولم يبر في يمينه. ﴿تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم﴾ أى: لا تكونوا متشبهين بامرأة خرقاء، متخذين أيمانكم مفسدة ودخلاً بينكم. وأصل الدخل: ما يدخل الشيء، ولم يكن منه، يقال: فيه الدخل والدغل، وهو قصد الخديعة.

تفعلون ذلك النقض؛ لأجل ﴿أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾: بأن تكون جماعة أزيد عدداً وأوفر مالاً، من جماعة أخرى، فتتقضون عهد الأولى لأجل الثانية؛ لكثرتها. نزلت في العرب، كانت القبيلة منهم تحالف الأخرى، فإذا جاءها قبيلة أقوى منها، غدرت الأولى، وحالفت الثانية. وقيل: الإشارة بالأربى هنا إلى كفار قريش؛ إذ كانوا حينئذ أكثر من المسلمين، فحذر من بايع على الإسلام أن ينقضه لما يرى من قوة كفار قريش.

﴿إنما يلوكم﴾: يختبركم ﴿الله به﴾؛ بما أمر من الوفاء بالعهد؛ لينظر المطيع منكم والعاصي. أو: بكون أمة هي أربى، لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله، أم تغتروا بكثرة قريش وشوكتهم، وقلة المؤمنين وضعفهم؟ ﴿وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ في الدنيا؛ حين يجازيكم على أعمالكم بالثواب والعقاب. ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾؛ أهل دين واحد متفقين على الإسلام، ﴿ولكن يضل من يشاء﴾ بعده، ﴿ويهدى من يشاء﴾ بفضله، ﴿ولتسألن يوم القيامة﴾: سؤال تبيكيت ومجازاة، ﴿عما كنتم تعملون﴾ في الدنيا؛ لتجازوا عليه.

﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم﴾، كرره؛ تأكيداً؛ مبالغة في قبح المنهى عنه من نقض العهود، ﴿فتزل قدم﴾ عن محجة الإسلام ﴿بعد ثبوتها﴾: استقامتها عليه، والمراد: أقدامهم، وإنما وحد ونكر؛ للدلالة على أن زل قدم واحد عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟ ﴿وتذوقوا السوء﴾: العذاب في الدنيا ﴿بما صدقتم عن سبيل الله﴾ أى: بصدقكم عن الوفاء بعهد الله، أو بصدقكم غيركم عنه؛ فإن من نقض البيعة، وارتد، جعل ذلك سنة لغيره، ﴿ولكم عذاب عظيم﴾ في الآخرة.

﴿ولا تشتروا بعهد الله﴾ أى: لا تستبدلوا عهد الله وبيعة رسوله ﷺ بأخذكم ﴿ثمناً قليلاً﴾: عرضاً يسيراً من الدنيا، بأن تنقضوا العهد لأجله. قيل: هو ما كانت قريش يعدونه لضعفاء المسلمين، ويشترطون لهم على الارتداد، ﴿إنما عند الله﴾ من النصر والعز، وأخذ الغنائم في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة، ﴿هو خير لكم﴾ مما يعدونكم، ﴿إن كنتم تعلمون﴾ ذلك فلا تنقضوا، أو إن كنتم من أهل العلم والتمييز.

﴿ ما عندكم ﴾ من أَعْرَاضِ الدُّنْيَا ﴿ يَنْقُذُ ﴾ ؛ يَنْقُضِي وَيَقْنِي ، ﴿ وما عند الله ﴾ من خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ ، وَجَزِيلِ نِعْمَتِهِ ﴿ باق ﴾ لا يَفْنَى ، وَهُوَ تَعْلِيلٌ لِلدَّهَى عَنْ نَقْضِ الْعَهْدِ ؛ طَمَعًا فِي الْعَرَضِ الْفَانِي ، ﴿ وَلِيَجْزِيَنَّ (١) الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ عَلَى الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ ، أَوْ عَلَى الْفَاقَاتِ وَأَذَى الْكُفَارِ ، أَوْ مَشَاقِ التَّكَالُيفِ ، ﴿ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بِمَا يَرْجَحُ فَعْلُهُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، كَالْوَاجِبَاتِ وَالْمَنْدُوبَاتِ ، أَوْ بِجِزَاءِ أَحْسَنَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ . وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

الإشارة : الوفاء بالعهد ، والوقوف مع الحدود ، من شأن الصالحين الأبرار ، كالعباد والزهاد ، والعلماء الأخيار . وأما أهل الفناء والبقاء من العارفين : فلا يقفون مع شيء ، ولا يعقدون على شيء ، هم مع ما يبرز من عند مولاهم في كل وقت وحين ، ليس لهم عن أنفسهم إخبار ، ولا مع غير الله قرار . يتلونون مع المقادير كيفما تلونت ، وذلك من شدة قريتهم وفنائهم في ذات مولاهم . قال تعالى : ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (٢) ، فهم يتلونون مع الشئون البارزة من السر المكنون ؛ فمن عقد معهم عقداً ، أو أخذ منهم عهداً ، فلا يعول على شيء من ذلك ؛ إذ ليست أنفسهم بيدهم ، بل هي بيد مولاهم . وليس ذلك نقصاً في حقهم ، بل هو كمال (٣) ؛ لأنه يدل على تغلغلهم في التوحيد حتى هدم عزائمهم ، ونقض تدبيرهم واختيارهم . ولا يذوق هذا إلا من دخل معهم ، وإلا فحسبه التسليم ، وطرح الميزان عنهم ، إن أراد الانتفاع بهم . والله تعالى أعلم .

وهذه الحالة التي أقامهم الحق تعالى فيها هي الحياة الطيبة ، التي أشار إليها الحق تعالى بقوله :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٧)

يقول الحق جل جلاله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ ؛ بَأَن صَحْبِهِ الْإِخْلَاصَ ، وَتَوَفَّرَتْ فِيهِ شُرُوطُ الْقَبُولِ ، ﴿ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ؛ إِذَا لَاعْتَدَادَ بِأَعْمَالِ الْكُفَرَةِ فِي اسْتِحْقَاقِ الثَّوَابِ ، وَإِنَّمَا الْمَتَوَقَّعُ عَلَيْهَا تَحْقِيقُ الْعِقَابِ ، ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ﴾ فِي الدُّنْيَا ، بِالْقَنَاعَةِ وَالْكَفَايَةِ مَعَ التَّوْفِيقِ وَالْهُدَايَةِ . قَالَ الْبَيْضاوِيُّ : يَعِيشُ عَيْشًا طَيِّبًا ، فَإِنَّهُ ، إِنْ كَانَ مُوسِرًا ، فَظَاهِرٌ ، وَإِنْ كَانَ مُعْسِرًا يَطِيبُ عَيْشَهُ بِالْقَنَاعَةِ ، وَالرِّضَا بِالْقِسْمَةِ ، وَتَوَقُّعِ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ ، بِخِلَافِ الْكَافِرِ ، فَإِنَّهُ ، إِنْ كَانَ مُعْسِرًا ، فَظَاهِرٌ ، وَإِنْ كَانَ مُوسِرًا لَمْ يَدْعِهِ الْحِرْصُ وَخُوفُ الْفَوَاتِ أَنْ يَهْنَأَ بِعَيْشِهِ ، وَقِيلَ : فِي الْآخِرَةِ ، أَيْ : فِي الْجَنَّةِ . هـ . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ مِنْ الطَّاعَةِ ، فَيَجَازِيَهُمْ عَلَى الْحَسَنِ بِجِزَاءِ الْأَحْسَنِ . وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وأبو جعفر : (ولنجزيهم) ؛ بالنون ، وقرأ الباقون بالياء على الغيب .

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الرحمن .

(٣) العارف الحق هو الذي يلتزم أمر الله ويجتنب مناهيه ، وهو شاهد بقلبه مولاه ، فإن عما سواه .

الإشارة: الحياة الطيبة إنما تتحقق بكمالها عند أهل التجريد؛ حيث انقطعت عنهم الشواغل في الظاهر، والعلائق في الباطن، فاطمأنت قلوبهم بالله، وسكنت أرواحهم في حضرة الله، وتحققت أسرارهم بشهود الله، فدام سرورهم، واتصل حبورهم بحلاوة معرفة محبوبهم، وهذه نتيجة شرب الخمرة الأزلية، كما قال ابن الفارض في مدحها:

وإنْ خَطَرَتْ يوماً على خاطرٍ امرئٍ أقامتْ به الأفراحُ، وارتحلَ الهمُّ

هذا في الخطور، فما بالك بالسكون ودوام الحضور؟ وقال أيضاً في شأنها:

فما سَكَنْتُ والهمُّ يوماً، بموضعٍ كذلك لا يسكنُ مع النغمِ الغمُّ

وإنما تحقق لهم هذا الأمر العظيم؛ لرسوخ قدمهم في مقام الإحسان، وسكونهم في جنة العرفان، فهبَّ عليهم نسيم الرضا والرضوان، وترقت أرواحهم إلى مقام الروح والريحان، فقلوبهم بحار زاخرة لا تكدرها الدلاء، وأرواحهم أنوار ساطعة لا يؤثر فيها ليل القبض والابتلاء، وأسرارهم بأنوار المواجهة مشرقة، فدام سرورها بكل ما يبرز من عنصر القضاء. والحاصل: أن أهل هذا المقام عندهم من الإكسير والقوة ما يقبلون به الأعيان، فيقبلون الشريات خيريات، والمعاصي طاعات، والإساءة إحساناً، والجلال جمالاً.. وهكذا، فأنى تغير قلوب هؤلاء الأكدار؟ وأنى تنزل بساحتهم الأغيار، وهم في حضرة الكريم الغفار؟ نفعا الله بذكرهم، وخرطنا في سلكهم، آمين.

ومن جملة الحياة الطيبة: التمتع بحلاوة القرآن، ولا يتحقق ذلك إلا بالبعد والحفظ من خوض الشيطان، ولذلك أمر بالتعوذ منه عند قراءته، فقال:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ٩٨ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿ ٩٩ ﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿ ١٠٠ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾؛ أردت قراءته، كقوله: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ (١)، ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ أى: فسل الله أن يعيذك من وسواسة؛ لللا يوسوسك في القراءة، فيحرملك حلاوة التلاوة؛ فإنه عدو لا يحب لابن آدم الريح أبداً، والجمهور على أنه مستحب عند التلاوة، وعن عطاء: أنه واجب. ومذهب مالك: أنه لا يتعوذ في الصلاة. وعند الشافعي وأبي حنيفة: يتعوذ في كل ركعة؛ تمسكاً بظاهر

(١) من الآية ٦ من سورة المائدة.

الآية؛ لأن الحكم المرتب على شرط يتكرر بتكرره، وأخذ مالك بعمل أهل المدينة في ترك التعوذ في الصلاة. وهو تابع للقراءة في السر والجهر، وعن ابن مسعود: قرأتُ على النبي ﷺ فقالت: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال: «قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» (١).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ أي: تسلط وولاية ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: لا تسلط له على أولياء الله المؤمنين به، والمتوكلين عليه، فإنهم لا يطيعون أمره، ولا يصغون إلى وساوسه، إلا فيما يحتقر، على ندور وغفلة. ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ أي: تسلطه ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾: يحبونه ويطيعونه، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ﴾ أي: بالله، أو: بسبب الشيطان، ﴿مَشْرُكُونَ﴾؛ حيث حملهم على الشرك فأطاعوه.

الإشارة: الاستعاذة الحقيقية من الشيطان هي: الغيبة عنه في ذكر الله أو شهوده، فلا ينجح في دفع الشيطان إلا الفرار منه إلى الرحمن. قال تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (٢). فإن الشيطان كالكلب، كلما اشتغلت بدفعه قوى نبهه عليك، فإما أن يخرق الثياب، أو يقطع الإهاب، فإذا رفعت أمره إلى مولاه كفه عنك. وقد قال شيخ شيوخنا سيدي على الجمل ﷺ: عداوة العدر حقاً هو اشتغالك بمحبة الحبيب حقاً، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدر، فانتك محبة الحبيب، ونال مراده منك. هـ.

فالعاقل هو الذي يشتغل بذكر الله باللسان، ثم بالقلب، ثم بالروح، ثم بالسر، فحينئذ يذوب الشيطان ولا يبقى له أثر قط، أو يذعن له ويسلم شيطانه، فإنما حركه عليك؛ ليوحشك إليه. وفي الحكم: «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عن ناصيتك بيده». فإذا تعلقت بالقوى المتين، هرب عنك الشيطان اللعين. وسيأتى مزيد كلام إن شاء الله عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ...﴾ (٣) الآية. وبالله التوفيق.

ومن أقبح وموسة الشيطان: الطعن في القرآن، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

(١) عزاه المناوي في الفتح السماوي (٧٥٨/٢) للنعلبي.

(٢) من الآية ٥٠ من سورة الذاريات.

(٣) من الآية ٦ من سورة فاطر.

قلت : «والله أعلم بما يُنزل» : معترض بين الشرط، وهو : «إذا» وجوابه، وهو : «قالوا» ؛ لتوبيخ الكفار، والتنبيه على فساد سندهم . و«هدى وبشرى» : عطف على : «ليثبت» .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾ ؛ بأن نسخنا الأولى ؛ لفظاً أو حكماً، وجعلنا الثانية مكانها ، ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ ﴾ من المصالح، فلعل ما يكون في وقت، يصير مفسدة بعده، فينسخه، وما لا يكون مصلحة حينئذ، يكون مصلحة الآن، فيثبت مكانه . فإذا نسخ، لهذه المصلحة، ﴿ قَالُوا ﴾ أى : الكفرة : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ : كذاب متقول على الله، تأمر بشيء ثم يبدو لك فتلهى عنه، قال تعالى : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ حكمة النسخ ولا حقيقة القرآن، ولا يميزون الخطأ من الصواب .

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ يعنى : جبريل . والقدس : الطهر والتنزيه ؛ لأنه روح منزه عن لوث البشرية . نزله ﴿ من ربك ﴾ ملتبساً ﴿ بالحق ﴾ : بالحكمة الباهرة، أو مع الحق فى أمره ونهيه وإخباره، أو أنزله حقاً، ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ على الإيمان ؛ لأنه كلام الله، ولأنهم إذا سمعوا الناسخ والمنسوخ، وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح، رسخت عقائدهم، واطمأنت قلوبهم . ﴿ وَأَنزَلَهُ ﴾ هدى وبشرى للمسلمين ﴿ المنقادين لأحكامه ﴾ أى : نزله ؛ تثبيتاً وهداية وبشارة للمسلمين .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ يعنون : غلاماً نصرانياً اسمه : جبر، وقيل : يعيش . قيل : كانوا غلامين، اسم أحدهما : جبر، والآخر يسار، وكانا يصنعان السيوف، ويقرآن التوراة والإنجيل، فكان النبي ﷺ يجلس إليهما، ويدعوهما إلى الإسلام، فقالت قريش : هذان هما اللذان يعلمان محمداً ما يقول . قال تعالى فى الرد عليهم : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي ﴾ أى : لغة الرجل الذى يميلون قولهم عن الاستقامة إليه، وينسبون إليه تعليم القرآن، أعجمى، ﴿ وهذا ﴾ القرآن ﴿ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ ؛ ذو بيان وفصاحة . قال البيضاوى : والجملتان مستأنفتان ؛ لإبطال طعنهم، وتقريره يحتمل وجهين ؛ أحدهما : أن ما سمعه منه كلام أعجمى لا يفهمه هو ولا أنتم، والقرآن عربى تفهمونه بأدنى تأمل، فكيف يكون، - أى : القرآن - ما تلقفه منه ؟ وثانيهما : هب أنه تلقف منه المعنى باستماع كلامه، لكن لم يتلقف منه اللفظ ؛ لأن ذلك أعجمى وهذا عربى، والقرآن، كما هو معجز باعتبار المعنى، معجز باعتبار اللفظ، مع أن العلوم الكثيرة التى فى القرآن لا يمكن تعلمها إلا بملازمة معلم فائق فى تلك العلوم مدة متطاولة، فكيف يعلم جميع ذلك من غلام سوقى، سمع منه، بعض أوقات، كلمات عجمية، لعله لم يعرف معناها ؟! فطعنهم فى القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكة دليل على غاية عجزهم . هـ .

الإشارة : كما وقع النسخ فى وحى أحكام، يقع فى وحى إلهام ؛ فقد يتجلى فى قلب الولى شيء من الأخبار الغيبية، أو يأمر بشيء يليق، فى الوقت، بالتربية، ثم يخبر أو يأمر بخلافه ؛ لوقوع النسخ أو المحو، فيظن من لا معرفة له بطريق الولاية أنه كذب، فيطعن أو يشك، فيكون ذلك قدحاً فى بصيرته، وإخماداً لنور سريره، إن كان داخلاً تحت تربيته . والله تعالى أعلم .

ثم ذكر وبال من طعن في كلام الله، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي
الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَنْ كَفَرَ
بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ
صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ
الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتِمْ وَأَبْصَرَتِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾
لَا جُرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

قلت: «من كفر»: شرطية مبتدأ، وكذلك «من شرح»: جواب عن الأولى والثانية؛ لأنهما
بمعنى واحد، ويكون جواباً للثانية، وجواب الأولى: محذوف يدل عليه جواب الثانية. وقيل: «من كفر»: بدل من
«الذين لا يؤمنون»، أو من المبتدأ في قوله: ﴿أولئك هم الكاذبون﴾، أو من الخبر. و«إلا من أكره»: استئناف
من قوله: «من كفر».

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لَا يُصَدِّقُونَ ﴿بآيات الله﴾، ويقولون: هي من عند
غيره، ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إلى سبيل النجاة، أو إلى اتباع الحق، أو إلى الجنة. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في
الآخرة. وهذا في قوم علم أنهم لا يؤمنون، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١).
وقال ابن عطية: في الآية تقديم وتأخير، والمعنى: إن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بالله. ولكنه قدم وأخر؛ تهماً
بتقبيح أفعالهم. هـ.

قال البيضاوي: هددهم على كفرهم، بعد ما أمارط شبهتهم، ورد طعنهم فيه، ثم قلب الأمر عليهم، فقال:
﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؛ لأنهم لا يخافون عذاباً يردعهم عنه، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَاذِبُونَ﴾ على الحقيقة، أو الكاملون في الكذب؛ لأن تكذيب آيات الله، والطعن فيها، بهذه الخرافات أعظم
الكذب. وأولئك الذين عادتهم الكذب لا يصرفهم عنه دين ولا مروءة. أو الكاذبون في قولهم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾،
﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾. هـ. والكلام كله مع كفار قريش.

(١) من الآية ٩٦ من سورة يونس.

ثم ذكر حكم من ارتد عن الإيمان؛ طوعاً أو كرهاً، فقال: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾ فعليهم غضب من الله، ﴿إلا من أكره﴾ على التلطف بالكفر، أو على الافتراء على الله، ﴿وقلبه مطمئن بالإيمان﴾؛ لم تتغير عقيدته، ﴿ولكن من شرح بالكفر صدراً﴾ أى: فتحه ووسعه، فاعتقده، وطابت به نفسه، ﴿فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾؛ إذ لا أعظم من جرمه.

روى أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه - وهما يأسر وسمية - على الارتداد، فربطوا سمية بين بعيرين، وطعنها بحرية في قلبها، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال، فماتت - رحمة الله عليها - وقتلوا يأسراً زوجها، وهما أول قتيلين في الإسلام. وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا؛ مكرهاً، فقيل: يا رسول الله؛ إن عماراً كفر، فقال: «كلاً، إن عماراً ملئ إيماناً من قرنيه إلى قدميه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه». فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه، ويقول: «مالك، إن عادوا لك فعد لهم بما قلت» (١).

وهو دليل على جواز التكلم بالكفر عند الإكراه. وإن كان الأفضل أن يجتنب عنه، إغرازاً للدين، كما فعل أبواه. لما روى أن مسليمة أخذ رجلين، فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ فقال: رسول الله. وقال: ماتقول في؟ فقال: أنت أيضاً، فخلى سبيله، وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ فقال: رسول الله، فقال: ما تقول في؟ فقال: أنا أصم، فأعاد عليه ثلاثاً، فأعاد جوابه، فقتله، فبلغ رسول الله ﷺ. فقال: أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الآخر فقد صدع بالحق، فهنيئاً له (٢). هـ. قاله البيضاوى.

قال ابن جزى: وهذا الحكم فيمن أكره على النطق بالكفر، وأما الإكراه على فعل وهو كفر، كالسجود للصنم، فاختلف؛ هل يجوز الإجابة إليه أو لا؟ فأجازه الجمهور، ومنعه قوم. وكذلك قال مالك: لا يلزم المكره يمين، ولا طلاق، ولا عتاق، ولا شيء فيما بينه وبين الله، ويلزمه ما كان من حقوق الناس، ولا تجوز له الإجابة إليه؛ كالإكراه على قتل أحد أو أخذ ماله. هـ. وذكر ابن عطية أنواعاً من الأمور المكره بها، فذكر عن مالك: أن القيد إكراه، والسجن إكراه، والوعيد المخوف إكراه، وإن لم يقع، إذا تحقق ظلم ذلك المتعدى، وإنفاذه فيما يتوعد به. ثم ذكر خلافاً في الحنث في حق من حلف؛ للدرء عن ماله، لظالم، بخلاف الدرء عن النفس والبدن، فإنه لا يحنث، قولاً واحداً، إلا إذا تبرع باليمين، ففي لزومه خلاف. وانظر المختصر في الطلاق.

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (٢٢٨) عن ابن عباس. وأخرجه بنحوه الحاكم فى المستدرک (٣٥٧/٢) من حديث محمد بن عمار بن ياسر، وصححه، ورافقه الذهبى. وانظر تفسير الطبرى (١٨٠/١٤).

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٢٥٠/٤) لابن أبى شيبة عن الحسن؛ مرسلًا.

ثم علل نزول العذاب بهم، فقال: ﴿ذلك﴾ الوعيد ﴿بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾ أى: بسبب أنهم آثروها عليها، ﴿وأن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾، الذين سبق لهم الشقاء، فلا يهديهم إلى ما يوجب ثبات الإيمان في قلوبهم، ولا يعصمهم من الزيغ. ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم﴾؛ فعابت عن إدراك الحق والتدبر فيه، ﴿وأولئك هم الغافلون﴾ الكاملون في الغفلة، حتى أغفلتهم الحائنة الزائفة عن التأمل في العواقب. ﴿لا جرم﴾: لا شك ﴿أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾؛ حيث ضيعوا أعمارهم، وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلد. قاله البيضاوى.

الإشارة: من سبق له البعاد لا ينفعه الكد والاجتهاد، ومن سبقت له العناية لا تضره الجناية. ففي التحقيق: ما ثم إلا سابقة التوفيق. فمن كان في عداد المريدين السالكين، ثم أكره على الرجوع إلى طريق الغافلين، «فمن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»، أى: بالتصديق بطريق الخصوص، وهو مصمم على الرجوع إليها؛ فلا بأس عليه أن ينطق بلسانه، ما يرى أنه رجع إليهم. فإذا وجد فسحة فر بدينه. وكذلك إذا أخذه ضعف أو فشل وقت القهرية، ثم أنهضته العناية، ففر إلى الله، التحق بأولياء الله، وأما من شرح صدره بالرجوع عن طريق القوم، وطال مقامه مع العوام، فلا يفلح أبداً في طريق الخصوص، والتحق بأقبح العوام، إلا إن بقى في قلبه شيء من محبة الشيوخ والفقراء، فلعله يحشر معهم، ودرجته مع العوام.

قال القشيري: إذا علم الله صدق عبده بقلبه، وإخلاصه في عقده، ثم لحقته ضرورة في حاله، خفف عنه حكمه، ورفع عنه عناءه، فإذا تلفظ بكلمة الكفر؛ مكرهاً، وهو بالتوحيد محقق، عذر فيما بينه وبين ربه. وكذلك الذين عقدوا بقلوبهم، وتجردوا لسلوك طريق الله، ثم اعترضت لهم أسباب، فاتفقت لهم أعذار، فنفذ ما يوجبه الحال، وكان لهم ببعض الأسباب اشتغال، أو إلى شيء من العلوم رجوع، لم يقدح ذلك في حجة إرادتهم، ولا يعد ذلك منهم شكاً وفسخاً لعهودهم، ولا تنتفى عنهم سمة الفينة إلى الله. هـ. قلت: هذا إن بقوا في صحبة الشيوخ، ملازمين لهم، أو واصلين إليهم، وأما إن تركوا الصحبة، أو الوصول، فلا شك في رجوعهم إلى العمومية.

ثم قال في قوله: ﴿ولكن من شرح بالكفر صدراً﴾: من رجع باختياره، ووضع قدماً في غير طريق الله، بحكم هواه، فقد نقض عهد إرادته لله، وفسخ عقد قصده إلى الله، وهو مستوجب الحجة، إلى أن تتداركه الرحمة. هـ. قال شيخ شيوخنا، سيدى عبد الرحمن الفاسى، ما نصه: وفي مكاتبة لشيخنا العارف أبى المحاسن يوسف بن محمد: فإن اختلفت الأشكال، وتراكمت الفتن والأهوال، وتصدعت الأحوال، ربما ظهر على العارف وصف لم يكن معهوداً، وأمر لم يكن بالذات مقصوداً، فيكون معه قصور في جانب الحق، لا في جانب الحقيقة، فلا يضر، إن رجع في ذلك لمولاه؛ فراراً، وإلى ربه؛ اضطراً. «ففرأ إلى الله». هـ.

ثم رغب في التوبة، فقال:

﴿ ثُمَّ إِنْ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا
وَصَبَرُوا إِنْ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قلت: «إن» الثانية: تأكيد، والخبر للأول.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا﴾ من دار الكفر إلى المدينة ﴿من بعد ما فُتِنُوا﴾ أي: عذبوا على الإسلام؛ كعمار بن ياسر، وأشباهه؛ من المعذبين على الإسلام. هذا على قراءة الضم. وقرأ ابن عامر: «فتنوا»؛ بفتح التاء، أي: فتنوا المسلمين وعذبوهم، فتكون فيمن عذب المسلمين، ثم أسلم وهاجر وجاهد، كعمار ابن الحضرمي، أكره مولاة جبراً حتى ارتد، ثم أسلم وهاجراً ثم جاهد، وصبراً على الجهاد وما أصابهم من المشاق، ﴿إن ربك من بعدها﴾؛ من بعد الهجرة والجهاد والصبر، ﴿لغفور رحيم﴾ أي: لغفور لما مضى قبل، رحيم؛ يجازيهم على ما صنعوا بعد.

الإشارة: من نزلت به قهرية، أو حصلت له فترة، حتى رجع عن طريق القوم، ثم تاب وهاجر من موطن حظوظه وهواه، وجاهد نفسه في ترك شواغل دنياه، واستعمل السير إلى من كان يدلّه على الله؛ «إن ربك من بعدها لغفور رحيم»؛ يغفر له ما مضى من فترته، ويلحقه بأصحابه وأبناء جنسه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر يوم الجزاء لمن صبر وهاجر، أو الخسران لمن جحد وكفر، فقال:

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

قلت: «يوم»: منصوب باذكر، أو بغفور رحيم.

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾؛ عن ذاتها، وتسعى في خلاصها، لا يهتمها شأن غيرها؛ ﴿يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه﴾^(١)، ﴿وتؤفى كل نفس﴾ جزاء ﴿ما عملت﴾ على التمام، ﴿وهم لا يظلمون﴾: لا ينقصون من أجورهم مثقال ذرة.

الإشارة: النفس التي تجادل عن نفسها، وتؤفى ما عملت من خير أو شر، إنما هي النفس الأمارّة أو اللوامة. وأما النفس المطمئنة بالله، الفانية في شهود ذات الله، لا ترى وجوداً مع الله؛ فلا يتوجه عليها عتاب، ولا يترتب عليها حساب؛ إذ لم يبق لها فعل تحاسب عليه. وعلى تقدير وجوده فقد حاسبت قبل أن تحاسب، بل هي في عداد

(١) الآيات: ٢٤ - ٢٦ من سورة عبس.

السبعين ألفاً، الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وهم المتوكلون. أو تقول: هي في عداد من يلقي الله بالله، فليس لها شيء سوى الله، فحجته، يوم تجادل النفوس، هو الله. كما قال الشاعر:

وجهك المحمود حجتنا يوم يأتي الناس بالدجج

وبالله التوفيق.

ثم ضرب مثلاً لمن كفر النعم، فقال:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ ١١٢ ﴿ وَظَالِمُونَ ﴾ ١١٣ ﴿

قلت: «قرية»: بدل من: «مثلاً».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وضرب الله مثلاً ﴾، ثم فسرهُ بقوله: ﴿ قرية ﴾: مكة، وقيل: غيرها. ﴿ كانت آمنة ﴾ من الغارات، لا تهأج، ﴿ مطمئنة ﴾ لا تحتاج إلى الانتقال عند الضيق أو الخوف، ﴿ يأتيها رزقها ﴾: أقواتها ﴿ رغداً ﴾: راسعاً ﴿ من كل مكان ﴾ من نواحيها، ﴿ فكفرت بأنعم الله ﴾: بطرت بها، أو بنبي الله، سيدنا محمد ﷺ، ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾، استعار الذوق لإدراك أثر الضرر، واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، أما الإذاقة فقد كثر استعمالها في البلايا حتى صارت كالحقيقة، وأما اللباس فقد يستعيرونها لما يشتمل على الشيء ويستتره؛ يقول الشاعر:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً غلقت لضحكته رقاب المال

فقد استعار الرداء للمعروف، فإنه يصون عرض صاحبه صون الرداء؛ لما يلقي عليه، والمعنى: أنهم لما كفروا النعم أنزل الله بهم النقم، فأحاط بهم الخوف والجوع إحاطة الثوب بمن يستتر به، فإن كانت مكة، فالخوف من سرايا النبي ﷺ وغاراته عليهم، وإن كان غيرها، فمن كل عدو، وذلك بسبب ما كانوا يصنعون من الكفر والتكذيب.

﴿ ولقد جاءهم رسول منهم ﴾، يعنى: محمداً ﷺ، والضمير لأهل مكة. عاد إلى ذكرهم بعد ذكر مثلهم. ﴿ فكذبوه فأخذهم العذاب ﴾: للجوع والقحط، ووقعه بدر، ﴿ وهم ظالمون ﴾: ملتبسون بالظلم، غير تائبين منه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ضرب الله مثلاً؛ قلباً كان آمناً مطمئناً بالله، تأتيه أرزاق العلوم والمواهب من كل مكان، فكفر نعمة الشيخ، وخرج من يده قبل كماله، فأذاقه الله لباس الفقر بعد الغنى بالله، والخوف من الخلق، وفوات الرزق، بعد اليقين؛ بسبب ما صنع من سوء الأدب وإنكار الوسطة، ولو خرج إلى من هو أعلى منه؛ لأن من بان فضله عليك وجبت خدمته عليك، ومن رزق من باب لزمه. وهذا أمر مجرب عند أهل الذوق بالعيان، وليس الخبر كالعيان، هذا إن كان أهلاً للتربية، مأذوناً له فيها، جامعاً بين الحقيقة والشرعية، وإلا انتقل عنه إلى من هو أهل لها. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالشكر، الذي هو قيد النعم، فقال:

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ١١٤ ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ١١٥ ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ ١١٦ ﴿ مَتَّعْتُ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ١١٧ ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ١١٨ ﴿

قلت: «الكذب»: مفعول بتقولوا، و «هذا حلال وهذا حرام»: بدل منه، أى: لا تقولوا الكذب، وهو قولكم: «هذا حلال وهذا حرام»، و«ما» فى قوله: «لما تصف»؛ موصولة، ويجوز أن ينتصب الكذب بـ «تصف»، ويكون «ما» مصدرية. ويكون قوله: «هذا حلال وهذا حرام» معمولاً لتقولوا، أى: لا تقولوا: هذا كذا وهذا كذا؛ لأجل وصف ألسنتكم الكذب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾، أمرهم بأكل ما أحل لهم، وشكر ما أنعم عليهم، بعد ما زجرهم عن الكفر، وهددهم عليه، بما ذكر من التمثيل والعذاب الذى حل بهم؛ صداً لهم عن صنيع الجاهلية ومذاهبها الفاسدة. قاله البيضاوى. ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾؛ لتدوم لكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فلا تنسبوا نعمه إلى غيره، كشفاة الأصنام وغيرها. ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾، فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم، تقدم تفسيرها فى البقرة

والمائدة^(١) . قال البيضاوي: أمرهم بتناول ما أحل لهم، وعدد عليهم محرماته، ليعلم أن ما عداها حل لهم. ثم أكد ذلك بالنهاي عن التحريم والتحليل بأهوائهم بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ لما لم يحله الله ولم يحرمه، كما قالوا: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّدُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا...﴾^(٢) الآية هـ. تقولون ذلك؛ ﴿لتفتروا على الله الكذب﴾ بنسبة ذلك إليه. ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أبداً؛ لأنهم تعجلوا فلاح الدنيا بتحصيل أهوائهم، فحرموا فلاح الآخرة، ولذلك قال: ﴿متع قليل﴾ أي: لهم تمتع في الدنيا قليل، يفنى ويزول. ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في الآخرة.

﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل﴾ في سورة الأنعام بقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ...﴾^(٣) الآية، ﴿وما ظلمناهم﴾ بالتحريم، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾؛ حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه. ذكر الحق تعالى ما حرم على المسلمين، وما حرم على اليهود؛ ليعلم أن تحريم ما عدا ذلك افتراء على الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقول الحق - جل جلاله -، لمن بقى على العهد؛ من شكر النعم؛ بالإقرار بفضل الواسطة: ﴿فكلوا مما رزقكم الله﴾ من قوت اليقين وفواكه العلوم، ﴿واشكروا نعمة الله﴾ إن كنتم تخصصونه بالعبادة وإفراد الوجهة. إنما حرم عليكم ما يشغلكم عنه، كحيفة الدنيا والتهارج عليها، ونجاسة الغفلة، وما يورث القساوة والبلادة، وقلة الغيرة على الحق، وما قبض من غير يد الله، أو ما قصد به غير وجه الله، إلا وقت الضرورة فإنها تبيح المحذور. والله تعالى أعلم.

ثم حض على التوبة لمن وقع في شيء من هذا، فقال:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١١٩)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء﴾ كالشرك، والافتراء على الله، وغير ذلك، ﴿بجهالة﴾ أي: ملتبسين في حال العمل بجهالة، كالجهل بالله وبعقابه، وعدم التدبر في عواقبه؛ لغلبة الشهوة عليه، ﴿ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ عملهم، ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي: التوبة، أو الجهالة، ﴿لغفور﴾ لذلك السوء، ﴿رحيم﴾ بهم؛ يثيبهم على الإنابة.

(١) راجع تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة، والآية ٣ من سورة المائدة.

(٢) من الآية ١٣٩ من سورة الأنعام.

(٣) من الآية ١٣٦ من سورة الأنعام.

الإشارة: كل من أساء الأدب، ثم تاب وأناب، التحق بالأحباب. قال بعضهم: «كل سوء أدب يثمر أدباً فهو أدب». والتوبة تتبع المقامات؛ فتوبة العوام: من الهفوات، وتوبة الخواص: من الغفلات، وتوبة خواص الخواص: من الفترات عن شهود الحضرات. وبالله التوفيق.

ولما رغب في الشكر ذكر أنه من ملة خليله إبراهيم عليه السلام، ودين حبيبه - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم -؛ تحريصاً عليه، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجْتَبَنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ أى: إماماً قدوة؛ قال تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (١)، قال ابن مسعود: «الأمة: معلم الناس الخير»، أو أمة وحده، اجتمع فيه ما افترق في غيره، فكان وحده أمة من الأمم؛ لكمال واستجماعه لخصال الكمال التي لا تكاد تجتمع إلا في أشخاص كثيرة، كقول الشاعر:

وَلَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَكْرَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ (٢)

وهو رئيس الموحدين، وقدوة المحققين، جادل فرق المشركين، وأبطل مذاهبهم الزائفة بالحجج الدامغة. ولذلك عقب ذكره بتزييف مذاهب المشركين. أو: لأنه كان وحده مؤمناً وسائر الناس كفاراً. قاله البيضاوى. وكان ﴿ قَانِتًا لِلَّهِ ﴾؛ مطيعاً قائماً بأوامره، ﴿ حَنِيفًا ﴾؛ مائلاً عن الباطل، ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، وأنتم يا معشر قريش تزعمون أنكم على دينه، وأنتم مشركون.

وكان ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ﴾، لا يخل بشكر قليل منها ولا كثير. ولذلك ذكرها بلفظ جمع القلة، ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾: اختاره للنبوة والرسالة والخلة. ﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾؛ التي توصل إلى حضرة النعيم، ودعا إليها، ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾؛ بأن حببناه إلى كافة الخلق، ورزقناه الثناء الحسن فى الملل كلها، حتى إن أرباب

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

(٢) البيت للحسن بن هانىء، هو لمعروف بأبى نواس.

الملك والجبابرة يتولونه ويثنون عليه . ورزقناه أولاداً طيبة ، وعمراً طويلاً في الطاعة والمعرفة ، ومالاً حلالاً . ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لحضرتنا ، المقربين عندنا ، اللذين لهم الدرجات العلا ؛ كما سأل ذلك بقوله : ﴿ وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١) .

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ؛ دينه ومنهاجه في التوحيد ، والدعوة إليه بالرفق ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، كل واحد بحسب فهمه . وكان ﴿ حَنِيفاً ﴾ ؛ مائلاً عما سوى الله ، ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، بل كان قدوة الموحدين . كرره ؛ رداً على اليهود والنصارى والمشركين في زعمهم أنهم على دينه مع إشراكهم . والله تعالى أعلم .

الإشارة : كل من تمسك بطاعة الله ظاهراً ، أو مال عما سوى الله باطناً ، وشكر الله دائماً ، ودعا الناس إلى هذا الأمر العظيم : كان ولياً إبراهيمياً ، محمدياً ، خليلاً حبيباً ، مقرباً ، قد اجتباه الحق تعالى إلى حضرته ، وهده إلى صراط مستقيم ، وعاش في الدنيا سعيداً ، ومات شهيداً ، وألحق بالصالحين . جعلنا الله منهم بمنه وكرمه .

ولما أدعت اليهود أنها على ملة إبراهيم دون غيرها ، رد الله عليهم بأن السبت ليس من ملته ، فقال :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١٢٤)

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ ﴾ أى : فرض تعظيمه وإفراده للعبادة ، ﴿ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ على نبيهم ، وهم : اليهود ؛ أمرهم موسى ﷺ أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة ، فأبوا وقالوا : نريد يوم السبت ؛ لأنه تعالى فرغ فيه من خلق السموات والأرض ، فألزمهم الله السبت ، وشدد عليهم فيه . وقيل : لما أمرهم بيوم الجمعة ، قبل بعضهم ، وأبى أكثرهم ، فاختلفوا فيه . وقيل : اختلفهم : هو أن منهم من حرم الصيد فيه ، ومنهم من أحله ، فعاقبهم الله بالمسخ . والتقدير على هذا : إنما جعل وبال السبت - وهو المسخ ، (على الذين اختلفوا) ؛ فأحلوا فيه الصيد تارة ، وحرّموه أخرى ، أو أحله بعضهم ، وحرّمه بعضهم ، وذكرهم هنا ؛ تهديداً للمشركين ، كذكر القرية التي كفرت بأنعم الله ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ؛ فيجازى كل فريق بما يستحقه ، فيثيب المطيع ، ويعاقب العاصي .

الإشارة : الاختلاف على الأكابر ؛ كالشيوخ والعلماء ، والتقدم بين أيديهم بالرأى والكلام ، من أقبح المساوئ ، وسو الأدب يوجب لصاحبه العطب ؛ كالقطع عن الله ، والبعد من ساحة حضرته . قال بعضهم : إذا جالست الكبراء ؛ فدع ما تعلم لما لا تعلم ؛ لتفوز بالسر المكنون . والله تعالى أعلم .

(١) من الآية ٨٣ من سورة الشعراء .

ثم أمر نبيه بالدعوة إلى الله، فقال:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٢٥)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ادْعُ ﴾ يا محمد الناس ﴿ إلى سبيل ربك ﴾؛ إلى طريقه الموصل إليه، وهو: الإسلام والإيمان، والإحسان؛ لمن قدر عليه، ﴿ بالحكمة ﴾؛ بسياسة النبوة، أو بالمقالة المحكمة، وهو الدليل الموضح للحق المزيج للشبهة، ﴿ والموعظة الحسنة ﴾؛ مواعظ القرآن ورقائقه، أو الخطابات المقنعة والعبر النافعة، ﴿ وجادلهم ﴾ أى: جادل معانديهم ﴿ بالتي هي أحسن ﴾؛ بالطرق التي هي أحسن طرق المجادلة؛ من الرفق واللين، وإيثار الوجه الأيسر، والمقدمات التي هي أشهر؛ فإن ذلك أنفع فى تليين لهابهم، وتبيين شغبهم، فالأولى: لدعوة خواص الأمة الطالبين للحق. والثانية: لدعوة عوامهم، والثالثة: لدعوة معانديهم.

قال ابن جزى: الحكمة هي: الكلام الذى يظهر جوابه، والموعظة: هي: الترغيب والترهيب. والجدال هو: الرد على الخصم. وهذه الأشياء الثلاثة يسميها أهل العلوم العقلية بالبرهان والخطابة والجدل، وهذه الآية تقتضى مهادنة نسخت بالسيف. وقيل: إن الدعاء بهذه الطريقة، من التلطف والرفق، غير منسوخ، وإنما السيف لمن لا تنفعه هذه الموعظة من الكفار، وأما العصاة فهي فى حقهم محكمة إلى يوم القيامة باتفاق. هـ.

﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ أى: إنما عليك البلاغ والدعوة. وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فليس من شأنك، بل الله أعلم بالضالين والمهتدين، وهو المجازى للجميع. الإشارة: الدعاء بالحكمة هو الدعاء بالهمة والحال، يكون من أهل الحق والتحقيق؛ لأهل الصدق والتصديق. والدعاء بالموعظة الحسنة هو الدعاء بالمقال من طريق الترغيب والتشويق، يكون لأهل التردد فى سلوك الطريق. والدعاء بالمجادلة الحسنة هو الدعاء بالوعظ والتذكير. وذكر بيان الطريق، وفضيلة علم التحقيق، يكون لأهل الإنكار؛ إن وصلوا إلى أهل التحقيق. والحاصل: أن الدعاء بالحكمة: لأهل المحبة والتصديق. والدعاء بالموعظة: لأهل التردد فى الطريق. والدعاء بالمجادلة: لأهل الإنكار؛ حتى يعرفوا الحق من الباطل. وإن شئت قلت: الدعاء بالحكمة هو للعارفين الكبار، والدعاء بالموعظة الحسنة هو لأهل الوعظ والتذكير من الصالحين الأبرار، والدعاء بالمجادلة الحسنة هو للعلماء الأخيار. وقد تجتمع فى واحد؛ إن جمع بين الظاهر والباطن. والله تعالى أعلم.

ولما أمره بالدعوة العامة أمره بالصبر العام؛ لأن الدعوة لا تنفك عن الأذى، فيحتاج صاحبها إلى صبر كبير، فقال:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُفٍّ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ من آذاكم ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ أى: إن صنع بكم صنع سوء فافعلوا مثله، ولا تزيدوا عليه. والعقوبة، فى الحقيقة، إنما هى فى الثانية. وسميت الأولى عقوبة؛ لمشكلة اللفظ. وقال الجمهور: إن الآية نزلت فى شأن حمزة بن عبدالمطلب، لما بقر المشركون بطنه يوم أحد، قال النبى ﷺ: «لئن أظفرنى الله بهم لأمثلن بسبعين منهم». فنزلت الآية (١)، فكفر النبى ﷺ عن يمينه، وترك ما أراد من المثلة. ولا خلاف أن المثلة حرام، وقد وردت أحاديث بذلك. ومقتضى هذا: أن الآية مدنية. ويحتمل أن تكون الآية عامة، ويكون ذكرهم حمزة على وجه المثال. وتكون، على هذا، مكية كسائر السورة.

واختلف العلماء فيمن ظلمه رجل فى مال، ثم ائتمن عليه، هل يجوز خيانتة، فى القدر الذى ظلمه فيه؟ فأجاز ذلك قوم؛ لظاهر الآية، وملعه مالك؛ لقوله ﷺ: «أَدِّ الْأَمَانَةَ لِمَنْ أُنْتَمَلَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ» (٢). قاله ابن جزى. ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ﴾، ولم تعاقبوا من أساء إليكم، ﴿لَهُوَ﴾ أى: الصبر ﴿خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾؛ فإن العقوبة مباحة، والصبر أفضل من الانتقام، ويحتمل أن يريد بالصابرين هنا العموم، أو يريد المخاطبين، كأنه قال: فهو خير لكم.

ثم صرح بالأمر لرسوله به؛ لأنه أولى الناس به؛ لزيادة علمه بالله، فقال: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾؛ إلا بتوفيقه وتثبيتته. روى أنه ﷺ قال لأصحابه: «أما أنا فأصبر كما أمرت، فماذا تصنعون؟» قالوا: نصبر كما ندبنا. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾؛ على الكافرين؛ حيث لم يؤمنوا؛ حرصاً عليهم. أو على المؤمنين؛ لأجل ما فعل بهم. ﴿وَلَا تَكُفٍّ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أى: لا يضيق صدرك بمكرهم، ولا تهتم بشأنهم، فأنا ناصرك عليهم. والضيق - بفتح الضاد مخففاً - من ضيق؛ كميت وميت. وقرئ بالكسر، وهو مصدر. ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين، معاً، لصاق.

(١) أخرجه الواحدى فى أسباب النزول (ص ٢٩١) عن ابن عباس. وأخرجه البزار (كشف الأستار، ٣٢٧/٢) فى سياق أطول، عن أبى هريرة، وراجع طبقات ابن سعد (١٢/٣ - ١٣) وتفسير ابن كثير (٥٩٢/٢).

(٢) أخرجه أبو داود فى (البيوع والإجارات، باب فى الرجل يأخذ حقه من تحت يده)، والترمذى فى (البيوع، ح ١٢٦٤) عن أبى هريرة ربه.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الكفر والمعاصي، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم، فهو معهم بالولاية والنصر والرعاية والحفظ. أو مع الذين اتقوا الله بتعظيم أمره. والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه. أو مع الذين اتقوا ما يقطعهم عن الله، والذين هم محسنون بشهود الله كما قال النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه». فهو معهم بالمحبة والوداد؛ فإذا أحببته كنت له. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من شأن الصوفية: الأخذ بالعزائم، والتمسك بالأحسن في كل شيء، ممثلين لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (١). ولذلك قالوا: الصوفي: دمه هدر، وماله مباح؛ لأنه لا ينتصر لنفسه، بل يدفع بالتي هي أحسن السيلة. فالصبر دأبهم، والرضى والتسليم خلقهم.

وحقيقة الصبر هي: حبس القلب على حكم الرب، من غير جزع ولا شكوى. ومواطنه أربعة: الطاعة، والمعصية، والنعمة، والبلية. فالصبر على الطاعة: بالمبادرة إليها، وعن المعصية: بتركها، وعلى النعمة: بشكرها، وأداء حق الله فيها، وعلى البلية: بالرضى وعدم الشكوى بها.

وأقسام الصبر ستة: صبر في الله، وصبر لله، وصبر مع الله، وصبر بالله، وصبر على الله، وصبر عن الله. أما الصبر في الله: فهو الصبر في طلب الوصول إلى الله، بارتكاب مشاق المجاهدات والرياضات. وهو صبر الطالبين والسائرين. وأما الصبر لله: فهو الصبر على مشاق الطاعات وترك المنهيات ونزول البليات، يكون ذلك ابتغاء مرضاة الله، لا لطلب أجر ولا نيل حظ. وهو صبر المخلصين. وأما الصبر مع الله: فهو الصبر على حضور القلب مع الله، على سبيل الدوام؛ مراقبة أو مشاهدة. فالأول: صبر المحبين، والثاني: صبر المحبوبين.

وأما الصبر بالله: فهو الصبر على ما ينزل به من المقادير، لكنه بالله لا بنفسه، وهو صبر أهل الفناء من العارفين المجذوبين السالكين. وأما الصبر على الله: فهو الصبر على كتمان أسرار الربوبية عن غير أهلها، أو الصبر على دوام شهود الله. وأما الصبر عن الله: فهو الصبر على الوقوف بالباب عند جفاء الأحباب، فإذا كان العبد في مقام القرب واجداً لحلاوة الأنس، مشاهداً لأسرار المعاني، ثم فقد ذلك من قلبه، وأحس بالبعد والطرده والعياذ بالله. فليصبر، وليلزم الباب حتى يمن الكريم الوهاب، ولا يتزلزل، ولا يتضعض، ولا يبرح عن مكانه، مبتهلاً، داعياً إلى الله، راجياً كرم مولاه، فإذا استعمل هذا فقد استعمل الصبر؛ قياماً بأدب العبودية. وهو أشد الصبر وأصعبه، لا يطيقه إلا العارفون المتمكنون، الذين كملت عبوديتهم، فكانوا عبيداً لله في جميع الحالات، قريبهم أو أبعدهم.

رَوَى أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ عَلَى الشَّيْخِ رَبِّهِ، فَقَالَ: أَيُّ صَبْرٍ أَشَدَّ عَلَى الصَّابِرِ؟ فَتَنَالَ لَهُ الشَّيْخُ: الصَّبْرُ فِي اللَّهِ، قَالَ:

(١) من الآية ١٨ من سورة الزمر.

لا، قال: الصبر لله، قال: لا، قال: الصبر مع الله، قال: لا، فقال له: وأي شيء هو؟ فقال: الصبر عن الله. فصاح الشبلي صيحة عظيمة، كادت تنلف فيها روحه. هـ. لأن الحبيب لا يصبر عن حبيبه. لكن إذا جفا الحبيب لا يمكن إلا الصبر والوقوف بالباب، كما قال الشاعر:

إِنْ شَكَّوْتَ الْهَوَى، فَمَا أَنْتَ مِنْهُ أَحْمِلِ الصَّدَّ وَالْجَفَاءَ يَا مُعْنَا

وقال رجل لأبي محمد الحريري رحمته الله: كنت على بساط الأنس، وفتح على طريق البسط، فزلت زلة، فحجبت عن مقامي، فكيف السبيل إليه؟ دلني على الوصول إلى ما كنت عليه. فبكى أبو محمد وقال: يا أخي، الكل في قهر هذه الخطة، لكنني أنشدك أبياتا لبعضهم، فأنشأ يقول:

قف بالديار؛ فهذه آثارهم تبكي الأحبة؛ حسرة وتشوقا
كم قد وقفتُ بربعها مستخبرا عن أهله ما أو سائلا، أو مشفقا
فأجابني داعي الهوى في رسمها فارقتُ من تهوى؛ فعز الملتقى

ومن هذا المعنى قضية الرجل الذي بقي في الحرم أربعين سنة يقول: لبيك. فيقول له الهاتف: لا لبيك ولا سعدبك، وحجك مردود عليك. فقل له في ذلك، فقال: هذه بابه، وهل ثم باب أخرى أقصده منها؟ فقبله الحق تعالى، ولبى دعوته. وكذلك قضية الرجل الذي قيل له، من قبل الوحي: إنك من أهل النار؛ فزاد في العبادة والاجتهاد. فهذا كله يصدق عليه الصبر عن الله. لكن لا يفهم كماله إلا من كملت معرفته، وتحقق بمقام الفناء، فحينئذ قد يسهل عليه أمره؛ لكمال عبوديته، كما قال القائل:

وَكُنْتُ قَدِيمًا أَطْلُبُ الْوَصْلَ مِنْهُمْ فَلَمَّا أَتَانِي الْعِلْمُ وَارْتَفَعَ الْجَهْلُ
تَيَقَّنْتُ أَنَّ الْعَبْدَ لَا طَلَبَ لَهُ فَإِنْ قَرَّبُوا: فَضْلٌ، وَإِنْ بَعُدُوا: عَذْلُ
وَإِنْ أَظْهَرُوا لَمْ يُظْهِرُوا غَيْرَ وَصْفِهِمْ وَإِنْ سَتَرُوا فَالْسُتْرُ مِنْ أَجْلِهِمْ يَحُلُو

وأما من لم تكمل معرفته، فقد ينكره ويذمه، كالعباد والزهاد والعشاق، فإنهم لا يطيقونه، فإما أن يختل عقولهم، أو يرجعون إلى الانهماك في البطالة. والله تعالى أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.



سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

مكية، إلا قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ...﴾ الآيات الثمان. وهي: مائة وعشر آيات. وكان وجه المناسبة لما قبله قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾^(١)، إشارة إلى أن من اتقى الله، وحصل مقام الإحسان، أسرى بروحه إلى عالم الملكوت وأسرار الجبروت. وافتتح السورة بالتنزيه، لئلا يفهم الجاهل أنه - عليه الصلاة والسلام - عرج به للقاء الحق تعالى في جهة مخصوصة، فنزه الحق تعالى نفسه، في افتتاح سورة الإسراء؛ دفعاً لهذا الإيهام، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢)

قلت: «سبحان»: مصدر غير متصرف، منصوب بفعل واجب الحذف، أي: أسبح سبحان. وهو بمعنى التسبيح، أي: التنزيه، وقد يستعمل علماً له، فيقطع عن الإضافة ويمنع الصرف، كقول الشاعر:

قَدْ أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ سُبْحَانَ مَنْ عُلْقَمَةُ الْفَاخِرِ^(٣)

و «ليلاً»: منصوب على الظرفية لأسرى. وفائدة ذكره، مع أن السرى هو السير بالليل، ليفيد التقليل، ولذلك نكره، كأنه قال: أسرى بعبدته مسيرة أربعين ليلة في بعض الليل، وذلك أبلغ في المعجزة. ويقال: أسرى وسرى، رباعياً وثلاثياً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ وهو: نبينا محمد ﷺ، أي: تنزيهاً له عن الأماكن والحدود والجهات، إذ هو أقرب من كل شيء إلى كل شيء. وإنما وقع الإسراء برسوله - عليه الصلاة والسلام - ليقتبس أهل العالم العلوي، كما اقتبس منه أهل العالم السفلي، فأسرى به ﴿لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بعينه؛ لما روى أنه - عليه الصلاة والسلام - قال: «بَيْنَمَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْحِجْرِ، عِنْدَ الْبَيْتِ، بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقُظَانِ، إِذْ أَتَانِي جِبْرِيلُ بِالْبَرَقِ»^(٣).

(١) من الآية ١٢٨ من سورة النحل.

(٢) البيت للأعشى. انظر ديوانه، ص ٩٣، ولسان العرب (سبح).

(٣) أخرجه بطوله البخاري في مواضع، منها: (مناقب الأنصار، باب المعراج)، ومسلم في (الإيمان، باب الإسراء)، من حديث أنس ابن مالك عن مالك بن صعصعة.

أو: من الحرم؛ لما روى أنه كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء، فأُسْرِىَ به، وسماه مسجداً؛ لأن الحرم كله مسجد. قاله البيضاوي. قلت: والظاهر أنه وقع مرتين: مرة بجسده من البيت، ومرة بروحه من بيت أم هانئ. والله تعالى أعلم بما كان.

قال في المستخرج من تفسير الغزنوني وغيره: قيل: كان رؤيا صادقة، وقيل: أُسْرِىَ بروحه، وهو خلاف القرآن، وإن أسند إلى عائشة - رضي الله عنها -، والجمهور على ما رواه عامة الصحابة، دخل كلام بعضهم في بعض، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتاني جبريل عليه السلام، وإذا دابة فوق الحمار ودون البغل، خطوها مد بصرها، فمر بي بين السماء والأرض إلى بيت المقدس، فنشِرَ لي رَهْط من الأنبياء، فصليت بهم. وإذا أنا بالمعراج، وهو أحسن ما رأيت، فعرج بي، فرأيت في سماء الدنيا رجلاً أعظم الناس وجهاً وهيكلًا، فقيل: هذا أبوك آدم، وفي السماء الثانية شابين، فقيل: هما يحيى وعيسى، وفي الثالثة رجلاً أفضل الناس حسناً، فقيل: أخوك يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم - صلوات الله على جميعهم. فانتهيت إلى سِدْرَةِ المنتهى، فَغَشِيَتْهَا ملائكة، كأنهم جراد من ذهب، فرأيت جبريل عليه السلام يتضاءل كأنه صَعْوَةٌ - أَيْ: عصفور - فتخلف، وقال: وما منا إلا له مقام معلوم، فجاوزت سبعين حجاباً، ثم احتملني الرفرف إلى العرش، فنوديت: حيّ ربك. فقلت: لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» (١). فلما أخبر بما رأى كذّبه أهل مكة، ولو كان في النوم ما أنكره المشركون. وقيل: كانا معراجين، بمكة والمدينة، في النوم واليقظة. هـ.

قلت: وقوع المعراج بالمدينة غريب. قال المهدوي: مرتبة الإسراء بالجسم إلى تلك الحضرات العلية خاصة بنبينا، لم يكن لغيره من الأنبياء. وعده السيوطي من الخصائص. قال ابن جزى: وحجة الجمهور: أنه لو كان مناماً، لم تُنكره قريش، ولم يكن في ذلك ما يكذب، ألا ترى أن أم هانئ قالت له - عليه الصلاة والسلام: (لا تخبر بذلك أحداً). وحجة من قال إنه كان مناماً: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ (٢)، وإنما يقال: الرؤيا، في المنام، ويقال، فيما يرى بالعين: رؤية، وقوله، في آخر حديث الإسراء: «فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام». ثم قال: وقد يجمع بينهما بأنه وقع مرتين (٣). هـ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ هو: بيت المقدس؛ لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد، ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ بركات الدين والدنيا؛ لأنه مهبط الوحي ومتعبد الأنبياء، ومحفوف بالأنهار والأشجار والثمار. أسرينا

(١) أخرج حديث الإسراء والمعراج، برواياته المتعددة، وطرقه؛ البخاري في (الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء)، (بدء الخلق، باب ذكر الملائكة)، و(مناقب الأنصار، باب المعراج). ومسلم في (الإيمان، باب الإسراء).

(٢) من الآية ٦٠ من سورة الإسراء.

(٣) وهذا هو الصواب.

به؛ ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على عجائب قدرتنا، ونكشف له عن أسرار ذاتنا، فأطلعنا الله على عجائب الملكوت، وأراه سداً الجبروت. روى عكرمة عن ابن عباس: أنه قال: قد رأى محمد ربه، قلت: أليس الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(١)، قال: ويحك، ذلك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره، وقد رأى ربه مرتين. هـ. قلت: معنى كلامه: أنه إذا تجلى بنوره الأصلي، من غير واسطة، لا يمكن إدراكه، وأما إذا تجلى بواسطة المظهر فإنه يمكن إدراكه، والحاصل: أن الحق تعالى إنما يتجلى على قدر الرائي، لا على قدره؛ إذ لا يطيقه أحد. وسيأتى، فى الإشارة، بقية الكلام عليه، إن شاء الله. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أى: السميع لأقوال حبيبه فى حال مناجاته، البصير بأحواله، فيكرمه ويقره على حسب ذلك.

الإشارة: قال بعض الصوفية: إنما قال تعالى: ﴿بَعْدَهُ﴾، ولم يقل: بنبيه: ولا برسوله؛ ليدل على أن كل من كملت عبوديته كان له نصيب من الإسراء. غير أن الإسراء بالجسد مخصوص به - عليه الصلاة والسلام -، وأما الإسراء بالروح فيقع للأولياء؛ على قدر تصفية الروح، وغيبتها عن هذا العالم الحسى، فتعرج أفكارهم وأرواحهم إلى ما وراء العرش، وتخوض فى بحار الجبروت، وأنوار الملكوت، كل على قدر تخليته وتخليته. وإنما خص الإسراء بالليل؛ لكونه محل فراغ المناجاة والمواصلات، ولذلك رتب بعده مقاماً محموداً على التهجد بالليل فى هذه السورة. قاله المحشى.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى﴾، قال الورتجى: أى: تنزه عن إشارة الجهات والأماكن فى الفوقية، وما يتوهم الخلق؛ من أنه إذ أُوصِلَ عبده إلى وراء الورا، أنه كان فى مكان، أى: لا تكوهموا برفع عبده إلى ملكوت السموات، أنه رفع إلى مكان، أو هو فى مكان، فإن الأكوان والمكان أقل من خردلة فى وادى قدرته، أى: فى بحر عظمتة؛ ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «الكون فى يمين الرحمن أقل من خردلة». والعندية والفوقية منه، ونزه نفسه عن أوهام المشبهات، حيث توهموا أنه أسرى به إلى المكان، أى: سبحان من تنزه عن هذه التهمة. هـ. وقال القشيري: أرسله الحق تعالى؛ ليتعلم أهل الأرض منه العبادة، ثم رقاها إلى السماء ليتعلم منه الملائكة - عليهم السلام - آداب العبادة، قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾^(٢)، وما التفت يميناً ولا شمالاً، ما طمع فى مقام، ولا فى إكرام، تحرر عن كل طلب وأرب، تلك الليلة. هـ.

(١) من الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ١٧ من سورة النجم.

قلت: ولذلك أكرمهم الله تعالى بالرؤية، التي منع منها نبيه موسى ﷺ، حيث وقع منه الطلب، ربما دلهم الأدب على ترك الطلب، وقال المرتجبي: أسرى به عن رؤية فعله وآياته، إلى رؤية صفاته، ومن رؤية صفاته إلى رؤية ذاته، وأشهده مشاهد جماله، فرأى الحق بالحق، وصار هنالك موصوفاً بوصف الحق، فكان صورته روحه، وروحه عقله، وعقله قلبه، وقلبه سره، فرأى الحق بجميع وجوده، لأن وجوده قان بجميعه، فصار عيناً من عيون الحق، فرأى الحق بجميع العيون، وسمع خطابه بجميع الأسماع، وعرف الحق بجميع القلوب. هـ.

وقال، في قوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾: سبب بداية المعراج بالذهاب إلى المسجد الأقصى، لأن هناك الآية الكبرى؛ من بركة أنوار تجليه لأرواح الأنبياء وأشباههم، وهناك بقره طور سيناء، وطور زيتا، والمصيصة، ومقام إبراهيم وموسى وعيسى، وفي تلك الجبال مواضع كشف الحق، ولذلك قال: (باركنا حوله)، انظر تمامه.

ولما كان لسيدنا موسى ﷺ مزيد كلام ومراجعة مع نبينا عليه الصلاة والسلام. في قضية الإسراء، ذكره بإثره، فقال:

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي
وَكَيلاً ۚ ذُرِّيَّةَ مَن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝﴾

قلت: (ذرية): منادى، أى: يا ذرية من حملنا مع نوح، والمراد: بنى إسرائيل. وفي ندائهم بذلك: تلتطف وتذكير باللعن، وقيل: مفعول أول بتتخذوا، أى: لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دونى وكيلاً، فتكون كقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۝﴾ (١).

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أى: التوراة ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، وقلنا: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيلاً﴾ تفوضون إليه أموركم، وتطيعونه فيما يأمركم. بل فوضوا أموركم إلى الله، واقصدوا بطاعتكم وجه الله، يا ﴿ذُرِّيَّةَ مَن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، فاذكروا نعمة الإنجاء من الغرق، وحمل أسلافكم فى سفينة نوح، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾؛ يحمد الله ويشكره فى جميع حالاته. وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره، وحث للذرية على الاقتداء به. والله تعالى أعلم.

الإشارة: المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب هو، أفراد الوجهة إلى الحق، ورفع الهمة عن الخلق، حتى لا يبقى الركون إلا إليه، ولا الاعتماد إلا عليه، وهو مقتضى التوحيد. قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝﴾ (٢). وبالله التوفيق.

(١) من الآية ٨٠ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ٩ من سورة المزمل.

ثم ذكر ما أحدث بنو إسرائيل، وما جرى عليهم في القضاء السابق، فقال :-

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُنَا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلُنَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۖ ﴿٤﴾
فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ
وَعْدًا مَفْعُولًا ۖ ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ
أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا
وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلَوُا تَتْبِيرًا ۖ ﴿٧﴾
عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۖ ﴿٨﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل ﴾ أى: أخبرناهم وأوحينا إليهم ﴿ فى الكتاب ﴾؛ التوراة،
وقلنا: والله ﴿ لتفسدن فى الأرض مرتين ﴾ الخ. أو: قضينا عليهم ﴿ فى الكتاب ﴾؛ اللوح المحفوظ، ﴿ لتفسدن
فى الأرض مرتين ﴾ أى: إفسادتين، أولاهما: مخالفة أحكام التوراة وقتل أشعياء، وقيل: أرمياء. وثانيتهما: قتل
زكريا ويحيى، وقصد قتل عيسى عليه السلام، ﴿ ولتعلمن علوا كبيرا ﴾؛ ولتستكبرن عن طاعة الله، أو لتظلمن الناس
وتستعلون عليهم علوا كبيرا.

﴿ فإذا جاء وعد ﴾؛ عقاب ﴿ أولاهما ﴾ أى: أول مرتى الإفساد؛ بأن أفسدوا فى الأرض المرة الأولى ﴿ بعثنا عليكم
عبادا لنا ﴾؛ بختنصر وجنوده ﴿ أولى بأس شديد ﴾؛ ذوى قوة ويطش فى الحرب شديد، ﴿ فجاسوا ﴾؛ فترددوا لطلبكم
﴿ خلال الديار ﴾؛ وسطه؛ للقتل أو الغارة، فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم، وحرقوا التوراة، وخربوا المسجد. وفى التذكرة
للقرطبي: أنه سَلَطَ عليهم فى المرة الأولى بختنصر، فسباهم، ونقل ذخائر بيت المقدس على سبعين ألف عجلة، ويقوا فى
يده مائة سنة. ثم رحمهم الله تعالى وأنقذهم من يده، على يد ملك من ملوك فارس، ثم عصوا، فسلط عليهم ملك الروم
فيصر. هـ. قال تعالى: ﴿ وكان وعدا مفعولا ﴾ أى: وكان وعد عقابهم وعدا مقضيا لا بد أن يفعل.

﴿ ثم رددنا لكم الكرة ﴾ أى: الدولة والغلبة ﴿ عليهم ﴾ أى: على الذين بعثوا عليكم، فرجع الملك إلى بنى
إسرائيل، واستلقدوا أسراهم، فقيل: على يد بهمن بن اسفنديار؛ ملك فارس، فاستلقدوهم، ورد أسراهم إلى الشام،
وملك دانيال عليهم، فاستولوا على من كان فيها من أتباع بختنصر، وقيل: على يد داود عليه السلام حين قتل جالوت.
قال تعالى: ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ أى: عددا مما كنتم. والنفير: من ينفر مع
الرجل من قومه، وقيل: جمع نفر، وهم: المجتمعون للذهاب إلى الغزو.

ثم قال تعالى لهم: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ بِفِعْلِ الطَّاعَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، ﴿أَحْسَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ﴾؛ لَأَنْ ثَوَابَهُ لَهَا، ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾؛ فَإِنْ وِبَالَهَا عَلَيْهَا. وَذَكَرَ بِاللَّامِ لِلزَّيْجِ. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أَي: وَعْدُ تَقْوِيَةِ الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ، بَأَنْ أَفْسَدُوا فِي الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ، بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا آخَرِينَ، أَوْلَى بِأَسْ شَدِيدٍ ﴿لَيْسُوا وَجُوهَكُمْ﴾، يَجْعَلُوهَا تَظْهَرُ فِيهَا آثَارُ السُّوءِ وَالشَّرِّ، كَالْكَآبَةِ وَالْحَزَنِ، كَقَوْلِهِ: ﴿سَيِّئَتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (١) ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾؛ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوا﴾؛ وَلِيُهْلَكُوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ عَلَيْهِ ﴿تَبِيرًا﴾؛ إِهْلَاكًا، أَوْ مَدَّةَ عُلُومِهِمْ. قَالَ الْبَيْضاوِيُّ: وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَلَّطَ عَلَيْهِمُ الْفَرَسَ مَرَّةً أُخْرَى، فَغَزَاهُمْ مَلِكُ بَابِلَ، اسْمُهُ «حَرْدُون»، وَقِيلَ: «حَرْدُوس»، قِيلَ: دَخَلَ صَاحِبُ الْجَيْشِ مَذْبَحَ قَرَابِيدِهِمْ، فَوَجَدَ دَمًا يَغْلَى، فَسَأَلَ عَنْهُ، فَقَالُوا: دَمُ قَرِيانٍ لَمْ يَقْبَلْ مِنَّا. فَقَالَ: مَا صَدَقْتُمُونِي، فَقَتَلَ عَلَيْهِ أَلُوفًا مِنْهُمْ، فَلَمْ يَهْدَأَ الدَّمُ. ثُمَّ قَالَ: إِنْ لَمْ تَصْدَقُونِي مَا تَرَكْتُ مِنْكُمْ أَحَدًا، فَقَالُوا: دَمُ يَحْيَى، فَقَالَ: لِمِثْلِ هَذَا يَنْتَقِمُ مِنْكُمْ رِيكُم، ثُمَّ قَالَ: يَا يَحْيَى، قَدْ عَلِمَ رَبِّي وَرِيكَ مَا أَصَابَ قَوْمَكَ، فَاهْدَأْ بِإِذْنِ اللَّهِ، قَبْلَ أَلَّا أَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدًا، فَهْدَأْ. هـ.

وَقَالَ السَّهْلِيُّ فِي كِتَابِ «التَّعْرِيفِ وَالْإِعْلَامِ»: الْمَبْعُوثُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى هُمُ أَهْلُ بَابِلَ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ عَلَيْهِمْ «بِخْتَنْصَر»، حِينَ كَذَّبُوا أَرْمِيَاءَ وَجَرَحُوهُ وَحَبَسُوهُ. وَأَمَّا فِي الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ: فَقَدْ اخْتَلَفَ قِيَمَن كَانَ الْمَبْعُوثُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ بِسَبَبِ قَتْلِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا. فَقِيلَ: بِبِخْتَنْصَر، وَهَذَا لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّ قَتْلَ يَحْيَى كَانَ بَعْدَ رَفْعِ عِيسَى، وَبِخْتَنْصَر كَانَ قَبْلَ عِيسَى بِزَمَانٍ طَوِيلٍ. هـ. وَقَوْلُ الْجَلَالِ السِّيُوطِيِّ: وَقَدْ أَفْسَدُوا فِي الْأُولَى بِقَتْلِ زَكَرِيَّا، فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ جَالُوتَ وَجُنُودَهُ، وَلَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي أَنَّ دَاوُدَ تَأَخَّرَ عَنْ زَكَرِيَّا، وَهُوَ بَاطِلٌ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم﴾ بَعْدَ الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ وَيَجْبِرُ كَسْرَكُمْ، ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ إِلَى عَقُوبَتِكُمْ، وَقَدْ عَادُوا بِتَكْذِيبِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَصْدَ قَتْلِهِ، فَعَادَ إِلَيْهِمْ بِتَسْلِيْطِهِ عَلَيْهِمْ، فَقَتَلَ مِنْ بَنِي قَرِيْظَةَ سَبْعِمِائَةَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، وَسَبَى ذُرَارِيَهُمْ، وَبَاعَهُمْ فِي الْأَسْوَاقِ، وَأَجْلَى بَنِي النَّضِيرِ، وَضَرَبَ الْجَزِيَّةَ عَلَى الْبَاقِيْنَ. هَذَا فِي الدُّنْيَا، ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ﴾ مِنْهُمْ وَمَنْ غَيْرِهِمْ ﴿حَصِيرًا﴾؛ مُحْبَسًا، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا، أَبَدَ الْآبَادِ. وَقِيلَ: بِسَاطًا كَبَسَطَ الْحَصِيرَ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ (٢). وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الإشارة: قَدْ قَضَى الْحَقُّ جُلَّ جَلَالِهِ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ، فَمَا مِنْ نَفْسٍ تُبَدِّيه إِلَّا وَلَهُ قَدْرٌ فِيكَ يُمَضِّيهِ. فَالْوَاجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ ابْنَ وَقْتِهِ، إِذَا أَصْبَحَ نَظَرَ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِ. فَاسْرَارُ الْقَدْرِ قَدْ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهَا،

(١) مِنَ الْآيَةِ ٢٧ مِنْ سُورَةِ الْمَلِكِ.

(٢) مِنَ الْآيَةِ ٤١١ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ.

وأبهم على عباده أمرها، فلو ظهرت لبطل سر التكليف. ولذلك لما سُئِلَ عنه سيدنا علي - كرم الله وجهه - قال للسائل: (بحر عميق لا تطيقه)، فأعاد عليه السؤال، فقال: (طريق مظلم لا تسلكه)؛ لأنه لا يفهم سر القضاء والقدر، إلا من دخل مقام الفناء والبقاء، وفرق بين القدرة والحكمة، وبين العبودية والربوبية، فإذا تحقق العارف بالوحدة، علم أن الحق تعالى أظهر من خلقه مظاهر أعدهم للإكرام، وأظهر خلقاً أعدهم للانتقام، وأبهم الأمر عليهم، ثم خلق فيهم كسباً واختياراً فيما يظهر لهم، وكلفهم؛ لتقوم الحجة عليهم، وتظهر صورة العدل فيهم. ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾. فالقدرة تُبرز ما سبق في الأزل، والحكمة تستر أسرار القدر. لكن جعل للسعادة علامات كالإيمان، والهداية للإيمان، وللشقاوة علامات كالخذلان والكفران. نعوذ بالله من سوء القضاء وحرمان الرضا. آمين.

ومن علامة السعادة: التمسك بما جاء به القرآن العظيم، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾

قلت: «وَأَنَّ الَّذِينَ»: إما عطف على «أَنَّ، الأولى، أو على «ويبشر، يا ضمار يخبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الطريق التي ﴿هي أَقْوَمُ﴾ الطرق وأعد لها، ﴿ويُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وهو: الخلود في النعيم المقيم، وزيادة النظر إلى وجهه الكريم. ﴿و﴾ يخبر ﴿أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أو: ويبشر المؤمنين ببشارتين: ثوابهم، وعقاب أعدائهم.

الإشارة: لا شك أن القرآن يهدي إلى طريق الحق؛ إما إلى طريق توصل إلى نعم جنانه، أو إلى طريق توصل إلى شهوده ودوام رضوانه، فالأولى طريق الشرائع والأحكام، والثانية طريق الحقائق والإلهام، لكن لا يدرك هذا من القرآن إلا من صفت مرآة قلبه بالمجاهدة والذكر الدائم، ولذلك أمر شيوخ التربية المريد بالاشتغال بالذكر المجرد، حتى يشرق قلبه بأنوار المعارف، ويرجع من الفناء إلى البقاء، ثم بعد ذلك يمر بالتلاوة، ليذوق حلاوة القرآن، ويتمتع بأنواره وأسراره، وقد أنكر بعض من لا معرفة له بطريق التربية على الفقراء هذا الأمر - أعنى: ترك التلاوة في بدايتهم -؛ محتجاً بهذه الآية، ولا دليل فيها عليهم؛ لأن كون القرآن يهدي للتي هي أقوم يعنى: التمسك والتدبر في معانيه، ولا يصح ذلك على الكمال إلا بعد تصفية القلوب، كما هو مجرب، ولا ينكر هذا إلا من لا ذوق له في علوم القوم، وربما يذكر وجود التربية من أصلها، ويسد الباب في وجوه الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فإذا اتصل العبد بأهل هذا الطريق، ثم تأخر الفتح عنه، فلا يقنط ولا يستعجل، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝١١ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ۚ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا ۝١٢ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ ﴾

قلت: (دعاه): مفعول مطلق. والإضافة في قوله: (آية الليل) و (آية النهار): بيانية، أي: فمحونا الآية التي هي الليل، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة. وإذا أريد بالآيتين الشمس والقمر؛ تكون للتخصيص، أي: وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين، أو: وجعلنا الليل والنهار ذوي آيتين.. الخ، و (كل شيء): منصوب بفعل مضمر، يفسره ما بعده، وكذا: (وكل إنسان) و (يلقاه منشوراً): صفتان لكتاب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ ﴾ على نفسه وولده وماله ﴿ بِالشَّرِّ ﴾ عند الغضب والقنط. ﴿ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾؛ مثل دعائه بالخير. وهو ذم له يدل على عدم صبره، وربما وافق وقت الإجابة فيهلاك، ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾؛ يسارع إلى كل ما يخطر بباله، لا ينظر عاقبته. ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر، وبالدعاء استعجاله بالعذاب؛ استهزاء، كقول النضر بن الحارث: اللهم انصر خير الحزبين؛ ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَ مِنَ السَّمَاءِ.. ﴾ الآية (١). وقيل: المراد بالإنسان: آدم ﷺ، فإنه لما انتهى الروح إلى سرته ذهب ليقوم، فسقط، وهو بعيد. فإذا نزلت بالإنسان قهرية فلا يقنط ولا يستعجل، فإن وقت الفرج محدود، فالليل والنهار مطيتان، يقران كل بعيد، ويأتیان كل جديد، ويأتیان بكل موعود.

ولذا قال تعالى إثره: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ دالتين على كمال قدرتنا، وباهر حكمتنا، يتعاقبان على الإنسان، يقران له كل بعيد، ويأتیان له بكل موعود. ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ أي: فمحونا الآية التي هي الليل، بأن جعلناها مظلمة، لتسكنوا فيه، ﴿ وَجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ أي: مضيئة مشرقة لتبتغوا؛ من فضله، أو: وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين، وهما: الشمس والقمر، ﴿ فمحونا آية الليل ﴾، وهو القمر؛ بأن جعلناه أطلس، لا نور فيه من ذاته، بل نوره مستمد من نور الشمس، ﴿ وَجعلنا آية النهار ﴾، وهي الشمس ﴿ مبصرة ﴾ للناس، أو مبصرة فيها بالضوء الذاتي، ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾؛ لتطلبوا في بياض النهار أسباب معاشكم، ﴿ ولتعلموا ﴾؛

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

باختلافهما وبحركتهما ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ ؛ وحساب الأوقات من الأشهر والأيام، في معاملتكم وتصرفاتكم، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ تفتقرون إليه في أمر الدين والدنيا ﴿فَصَلَّاهُ تَفْصِيلاً﴾ ؛ ببناء تبييناً لا لبس فيه، أو: وكل شيء يظهر في الوجود، فصلَّاه وقدرناه في اللوح المحفوظ تفصيلاً، فلا يظهر في عالم الشهادة إلا ما فصل في عالم الغيب.

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ﴾ أى: حفظه وما قدر له من خير وشر، فهو لازم ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ ؛ لا ينفك عنه. ويقال لكل ما لازم الإنسان: قد لازم عنقه. وإنما قيل للحظ المقدر في الأزل من الخير والشر: طائر؛ لقول العرب: جرى لفلان الطائر بكذا من الخير والشر، على طريق القال والطيرة، فخاطبهم الله بما يستعملون، وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطائر هو ملزم لأعناقهم، لا محيد لهم عنه، كالسلسلة اللازمة للعنق، يجربها إلى ما يرد منه. ومثله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (١)، وقال مجاهد: ما من مولود يولد إلا في عنقه ورقة، مكتوب فيها شقى أو سعيد. أو: وكل إنسان ألزمناه عمله؛ يحمله في عنقه، ﴿وَنُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً﴾ مكتوب فيه عمله، وهو صحيفته. ﴿يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾، ويقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾؛ محاسباً، لا تحاسبك إلا نفسك، أو: رفيقاً وشهيداً على عملك، أو: لا يعد عليك أعمالك إلا نفسك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للإنسان أن يكون داعياً بلسانه، مفوضاً لله في قلبه، لا يعقد على شيء من الحظوظ والمآرب، فقد يدعو بالخير في زعمه، وهو شر في نفس الأمر في حقه، وقد يدعو بالشر وهو خير. وقد تأتيه المضار من حيث يرتقب المسار، وقد تأتيه المسار من حيث يخاف الضرر؛ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. فالتأني والسكون من علامة العقل، والشرعة والعجلة من علامة الحمق. فما كان من قسمتك لابد يأتيك في وقته المقدر له، وما ليس من قسمتك لا يأتيك، ولو حرصت كل الحرص. فكل شيء سبق تفصيله وتقديره، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلوم إلا نفسه، كما قال تعالى:

﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ
وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ۚ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ
عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۚ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ
خَبِيرًا بَصِيرًا ۚ﴾ (١٧)

(١) من الآية ١٣١ من سورة الأعراف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿من اهتدى﴾ وآمن بالله وبما جاءت به الرسل ﴿فإنما يهتدى لنفسه﴾؛ لأن ثواب اهتدائه له، لا يُنَجِّي اهتداؤه غيره، ﴿ومن ضل﴾ عن طريق الله ﴿فإنما يضلُّ عليها﴾؛ لأن إثم إضلاله على نفسه، لا يضرب به غيره في الآخرة، ﴿ولا تزر﴾ أى: لا تحمل نفس ﴿وازره﴾؛ أئمة ﴿وزر﴾ نفس ﴿أخرى﴾ أى: ذنوب نفس أخرى، بل إنما تحمل وزرها، إلا من كان إماماً في الضلالة، فيحمل وزره ووزر من تبعه، على ما يأتى في آية أخرى: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (١).

ومن كمال عدله تعالى: أنه لا يُعَذِّبُ حتى يُنذِرَ ويُعذرَ على السنة الرسل، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين﴾ أحداً في الدنيا ولا في الآخرة ﴿حتى نبعث رسولا﴾ يبين الحجج، ويمهد الشرائع، ويلزمهم الحجة.

وفيه دليل على أن لا حكم قبل الشرع، بل الأمر موقوف إلى وروده، فمن بلغته دعوته، وخالف أمره، واستكبر عن اتباعه، عذبناه بما يستحقه. وهذا أمر قد تحقق بإرسال آدم ﷺ ومن بعده من الأنبياء الكرام - عليهم السلام - في جميع الأمم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ (٢)، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٣)، فإن دعوتهم إلى الله قد انتشرت، وعمت الأقطار، واشتهرت، انظر إلى قول قريش الذين لم يأتهم نبي بعد إسماعيل ﷺ: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ (٤)؛ فإنه يفهم منه أنهم سمعوه في الملة الأولى، فمن بلغته دعوة أحد منهم، بوجه من الوجوه، فقصر، فهو كافر مستحق للعذاب. فلا تغتر بقول كثير من الناس بدجاة أهل الفترة، مع إخبار النبي ﷺ أن آباءهم، الذين مضوا في الجاهلية، في النار، وأن ما يدحرج من الجعل (٥) خير منهم، إلى غير ذلك من الأخبار. قاله البقاعي.

وقال الإمام أبو عبد الله الحلي - أحد أجلاء الشافعية، وعظماء أئمة الاسلام - في أول منهاجه، في باب: «من لم تبلغه الدعوة»: وإنما قلنا: إن من كان منهم عاقلاً مميزاً إذا رأى ونظر، إلا أنه لا يعتقد ديناً فهو كافر؛ لأنه، وإن لم يكن سمع دعوة نبينا محمد ﷺ، فلا شك أنه سمع دعوة أحد من الأنبياء قبله، على كثرتهم وتطاول أزمان دعوتهم، ووفور مدد الذين آمنوا واتبعوهم، والذين كفروا بهم وخالفوهم، فإن الخبر قد يبلغ على لسان المخالف، كما

(١) من الآية ١٢ من سورة العنكبوت.

(٢) من الآية ٢٦ من سورة الدحل.

(٣) من الآية ٢٤ من سورة فاطر.

(٤) من الآية ٧ من سورة ص.

(٥) الجعل: حيوان معروف كالخفساء ... انظر: النهاية في غريب الحديث (جعل).

يبلغ على لسان الموافق، وإذا سمع أية دعوة كانت إلى الله تعالى، فترك أن يستدل بعقله، كان معرضاً عن الدعوة فكفر، والله أعلم. وإن أمكن أن يكون لم يسمع قط بدين، ولا بدعوة نبي، ولا عرف أن في العالم من يثبت إلهاً، وما نرى أن ذلك يكون، فأمره على الاختلاف، يعنى: عند من يوجب الإيمان بمجرد العقل، ومن لا يوجب إلا بانضمام النقل. هـ.

وقال الزركشى، فى آخر باب النيات، من شرحه على المنهاج: وقد أشار الشافعي إلى عسر تصور عدم بلوغ الدعوة، حيث قال: وما أظن أحداً إلا بلغته الدعوة، إلا أن يكون قوم من وراء النهر. وقال الدميري: وقال الشافعي: ولم يبق أحد لم تبلغه الدعوة. انتهى؛ على نقل شيخ شيوخنا سيدى عبدالرحمن القاسى رحمته الله.

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ أى: تعلقت إرادتنا بإهلاكها؛ لإنفاذ قضائنا السابق، ودنا وقت إهلاكها، ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾؛ منعميها، بمعنى رؤسائها؛ بالطاعة على لسان رسول بعثناه إليهم، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده، فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة، لقوله: ﴿ فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾؛ خرجوا عن أمرنا. وقيل: أمرناهم: ألهمناهم الفسق وحملناهم عليه، أو: جعلنا لهم أسباب حملهم على الفسق؛ بأن صببنا عليهم من النعم ما أبطرتهم، وأفضى بهم إلى الفسق، ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾؛ وجب عليها كلمة العذاب السابق بحلولة، أو بظهور معاصيهم. ﴿ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾؛ أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريبها. ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ أى: كثيراً أهلكنا ﴿ مِنْ الْقُرُونِ ﴾ أى: الأمم ﴿ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾؛ كعاد وثمود وأصحاب الأيكة، ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾؛ عالماً ببواطنها وظواهرها، فيعاقب عليها أو يعفو. وبالله التوفيق.

الإشارة: من اهتدى إلى حضرة قدسنا فإنما يهتدى لينعم نفسه بأسرار قدسنا، ومن ضل عنها فإنما يضل عليها؛ حيث حرمها لذيق المعرفة. فإن كان فى رفقة السائرين، ثم غلبه القضاء، فلا يتعدى وبال رجوعه إلى غيره، بل ما كان يصل إليه من المدد يرجع إلى أصحابه، وما كنا معذبين أحداً؛ بإسدال الحجاب بيننا وبينه، حتى نبعث من يُعرف بنا، ويكشف الحجاب بيننا وبين من يريد حضرتنا. والمراد بالحجاب: حجاب الوهم؛ بإثبات حس الكائنات، فلو انتهك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان، ولو أشرق نور الإيقان لغطى وجود الأكران. وإذا أردنا أن نتلف قلوباً أمرنا أربابها بالتنعم بالحظوظ والشهوات، فخرجوا عن طريق المجاهدة والرياضة، فحق عليها القول بغم الحجاب، فدمرناها تدميراً، أى: تركناها تجول فى أودية الخواطر والشكوك، فتلفت وهلكت، نعوذ بالله من شر الفتن ودرك المحن.

وسببُ الهلاك هو حب الدنيا، كما قال تعالى:

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝١٩ كَلَّا نُمَدِّدُ هُوْلَاءَ وَهَوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝٢١ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝٢٢ ﴾

قلت: (لمن نريد): بدل من ضمير (له)؛ بدل بعض من كل. و (كلًا): مفعول (نمد)، و (هؤلاء): بدل منه. و (كيف): حال، و (درجات) و (تفضيلاً): تمييز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ من كان يريد ﴾ بعمله الدنيا ﴿ العاجلة ﴾، مقصوداً عليها همه، ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ التعجيل له. قيد المعجل والمعجل له بالمشيئة والإرادة؛ لأنه لا يجد كل متمن ما يتمناه، ولا كل واحد جميع ما يهواه. قاله البيضاوي. ﴿ ثم جعلنا له ﴾ في الآخرة ﴿ جهنم يصلها ﴾؛ يدخلها ويحترق بها، حال كونه ﴿ مذمومًا مدحورًا ﴾؛ مطروداً من رحمة الله. والآية في الكفار، وقيل: في المنافقين، الذين يغزون مع المسلمين لقصد الغنائم. والأصح: أنها تعم كل من اتصف بهذا الوصف.

﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ﴾؛ عمل لها عملها اللائق بها، وهو: الإتيان بما أمر به، والانتهاز عما نهى عنه، لا التقرب بما يخرعون بأرائهم. وفائدة اللام في قوله: ﴿ لها ﴾: اعتبار الدية والإخلاص. والحال أن العامل ﴿ مؤمن ﴾ إيماناً صحيحاً لا شرك معه ولا تكذيب، فإنه العمد، ﴿ فأولئك ﴾ الجامعون للشروط الثلاثة ﴿ كان سعيهم مشكوراً ﴾ عند الله، مقبولاً مثاباً عليه؛ فإن شكر الله هو الثواب على الطاعة.

﴿ كلاً نمدُّ ﴾ أى: كل واحد من الفريقين نمد بالعطاء مرة بعد أخرى، ﴿ هؤلاء ﴾ المرادين للدنيا، ﴿ هؤلاء ﴾ المرادين للآخرة، نمد كلاً ﴿ من عطاء ربك ﴾ في الدنيا، ﴿ وما كان عطاء ربك ﴾ فيها ﴿ محظوراً ﴾؛ ممنوعاً من أحد، لا يمنعه في الدنيا مؤمن ولا كافر، تفضلاً منه تعالى. ﴿ أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ في الرزق والجاه، ﴿ وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً ﴾ من الدنيا، فينبغي الاعتناء بها دونها، والتفاوت في الآخرة حاصل للفريقين، فكما تفاوتت الدرجات في الجنة تفاوتت الدرجات في النار.

وسبب التفاوت: زيادة اليقين، والترقي في أسرار التوحيد لأهل الإيمان، أو الانهماك في الكفر والشرك لأهل الكفران. ولذلك قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ تعبدته. والخطاب لكل سامع، أو للرسول ﷺ، والمراد أمته، ﴿فَقَعْدَ﴾؛ فتصير حينئذ ﴿مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾؛ جامعاً على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين، والخذلان من الله. ومفهومه: أن الموحد يكون ممدوحاً منصوراً في الدارين.

الإشارة: قال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَفَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُسِمَ لَهُ. وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ صَاحِرَةٌ» (١)، واعلم أن الناس على قسمين؛ قوم أقامهم الحق لخدمته، وهم: العباد والزهاد، وقوم اختصهم بمحبته، وهم: العارفين بالله؛ أهل الفناء والبقاء، قال تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدِّدُ هَؤُلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عِطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ مُحْظُورًا. انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ في الكرامات والأنوار، وفي المعارف والأسرار. وفضل العارفين على غيرهم كفضل الشمس على سائر الكواكب، هذا في الدنيا، «وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً»، يقع ذلك بالترقي في معارج أسرار التوحيد، ويتفاوت اليقين في معرفة رب العالمين. وقال القشيري في تفسير الآية: منهم من لا يغيب عن الحضرة لحظة، ثم يجتمعون في الرؤية، ويتفاوتون في النصيب لكل. وليس كل أحد يراه بالعين الذي يراه به صاحبه. وأنشدوا:

لَوْ يَسْمَعُونَ - كَمَا سَمِعْتُ - حَدِيثَهَا خَسِرُوا لِعِزَّةِ رُكْعَاءِ وَسُجُودِهَا (٢)

وقال الورعجي: فضل العابدين بعضهم على بعض في الدنيا بالطاعات، وفضل العارفين بعضهم على بعض بالمعارف والمشاهدات، فالعباد في الآخرة في درجات الجنان متفاوتون، والعارفون في درجات وصال الرحمن متفاوتون. وقال القشيري أيضاً: من كانت مشاهدته اليوم على الدوام، كانت رؤيته غداً على الدوام، ومن لا فلا. هـ. وقد تقدم تفاوت الناس في الرؤية بأبسط من هذا، عند قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ (٣). والله تعالى أعلم.

ثم بين السعي للآخرة، فقال:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ وَأَخْفِضْ

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٨٣/٥)، وابن ماجه في (كتاب الزهد، باب الهم في الدنيا) من حديث زيد بن ثابت، وأخرجه الترمذي في (القيامة، باب ٣٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) البيت لكثير عزة. انظر ديوانه (٤٤٢)، وتزيين الأسواق (٤١/١).
(٣) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.

لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي
نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴿

قلت: (قضى)، هنا، بمعنى حكم وأوجب وأمر، لا بمعنى القضاء؛ إذ لو كان كذلك لما عبد غير الله. وفي مصحف ابن مسعود: «ووصى ربك ألا تعبدوا». و(أن): مفسرة، أو مصدرية، أى: بأن لا تعبدوا، و(إما): إن الشرطية دخلت عليها «ما، المؤكدة». و(فلا تقل): جوابها. وتوحيد ضمير الخطاب فى (عندك)، وفيما سبق - مع أن ما سبق ضمير الجمع -؛ للاحتراز عن التباس المراد، فإن المقصود نهى كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما. ولو قبل الجمع بالجمع، أو بالتثنية، لم يحصل هذا المرام.

و«أف»: اسم فعل، معناها: قول مكروه، يقال عند الضجر ونحوه. قال الهروى: أى: لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم، ويقال لكل ما يضجر منه ويستثقل: أف له. وقال فى القاموس: أف، يؤف، ويَف: تأفف من كَرَبٍ أو ضَجَر. وأف: كلمة تكره، وأف تأففاً، وتأفف، قالها (١)، ولغتها أريعون، ثم ذكرها. وحركتها للبناء، وتنوينها للتذكير.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقضى ربك﴾؛ أمر أمراً مقطوعاً به، ب﴿ألا تعبدوا إلا إياه﴾؛ لأن غاية التعظيم لا يكون إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإنعام، وهو الله وحده، ﴿و﴾ أحسنوا ﴿بالوالدين إحساناً﴾؛ لأنهما السبب الظاهر فى وجود العبد، وبهما قامت نعمة الإمداد من التربية والحفظ فى مظاهر الحكمة، وإلا فما ثم إلا تربية الحق تعالى، ظهرت فى مظاهر الوالدين، لكن أمر بشكر الواسطة؛ «من لم يشكر الناس لم يشكر الله».

ثم أمر ببرهما، فقال: ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ أى: مهما بلغ زمن الكبر، وهما عندك فى كفالتك، هما أو أحدهما، ﴿فلا تقل لهما أف﴾ أى: فلا تضجر فيما يستقذر منهما ويستثقل من مؤنتهما، ولا تنطق بأدنى كلمة توجعهما، فأحرى ألا يقول لهما ما فوق ذلك. فالنهى عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء؛ قياساً بطريق الأحرى. وقال فى الإحياء: الأف: وسخ الظفر، والتف: وسخ الأذن، أى: لا تصفهما بما تحت الظفر من الوسخ، فأحرى غيره، وقيل: لا تتأذى بهما كما يتأذى بما تحت الظفر. هـ.

«ولا تنهرهما﴾؛ ولا تزجرهما عما لا يعجبك بإغلاظ، فإن كان لإرشاد ديني فبإرفق ولين. ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾؛ جميلاً ليناً لا غلظ فيه، ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾؛ ألن لهما جانبك الذليل، وتذلل لهما وتواضع. استعار للذل جناحاً، وأضافه إليه؛ مبالغة؛ فإن الطير إذا تذلل أرخى جناحه إلى الأرض، كذلك الولد، ينبغي أن يخضع لأبويه، ويلين جانبه، ويتذلل لهما غاية جهده. وذلك ﴿من الرحمة﴾ أى: من إفراط الرحمة

(١) أى: قال كلمة «أف».

لهما والرفقة والشفقة عليهما. ﴿وقل رب أرحمهما﴾ أى: وادع الله أن يرحمهما برحمته الباقية، ولا تكف برحمتك الفانية، وإن كانا كافرين؛ لأن من الرحمة أن يهديهما للإسلام، فقل: اللهم ارحمهما ﴿كما ربياني صغيراً﴾ أى: رحمة مثل رحمتها على وتربيتها وإرشادها لى فى صغرى، وفاء بعهدك للراحمين. فالكاف فى محل نصب؛ على أنه نعت لمصدر محذوف، أى: رحمة مثل تربيتها، أو مثل رحمتها لى، على أن التربية رحمة. ويجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معاً، وقد ذكر أحدهما فى أحد الجانبين والآخر فى الآخر، كما يلوح له التعرض لعنوان الربوبية، كأنه قيل: رب ارحمهما، وربهما كما ربياني صغيراً. ويجوز أن يكون الكاف للتعليل، كقوله: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ (١).

ولقد بالغ الحق تعالى فى التوصية بالوالدين؛ حيث شفع الإحسان إليهما بتوحيده سبحانه، ونظمهما فى سلك القضاء بعبادته، ثم ضيق فى برهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضرر، وخنمها بأن جعل رحمته التى وسعت كل شىء مشبهة بتربيتهما. وعن النبى ﷺ أنه قال: «رِضَا اللَّهِ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطُهُ فِي سَخَطِهِمَا» (٢). وروى: أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: «إِنْ أَبَوَى بَلَّغَا مِنَ الْكِبَرِ إِلَى أَنْتَى أَلِيٍّ مَدَّيْنِ مَا وَلِيَّا مَنِيٍّ فِي الصَّغَرِ، فَهَلْ قَضَيْتَهُمَا حَقَّهُمَا؟ قَالَ: «لَا؛ فَإِنَّهُمَا كَانَا يَفْعَلَانِ ذَلِكَ وَهُمَا يَحْبَانِ بَقَاءَكَ، وَأَنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ وَأَنْتَ تَرِيدُ مَوْتَهُمَا». وَرَوَى أَنْ شَيْخًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنْ ابْنِي هَذَا لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ، وَلَا يَنْفِقُ عَلَيَّ مِنْ مَالِهِ شَيْئًا، فَنَزَلَ جَبْرِيلُ وَقَالَ: إِنْ هَذَا الشَّيْخُ أَنْشَأَ فِي ابْنِهِ أَبْيَاتًا، مَا قُرِعَ سَمْعٌ بِمِثْلِهَا، فَاسْتَنْشَدَهَا، فَانْشَدَهَا الشَّيْخُ، فَقَالَ:

غَسَدَوْتُكَ مَوْلُودًا، وَمُنْتُكَ بِأَفْعًا،	تَعَلُّ بِمَا أَجْرِي عَلَيْكَ، وَتَنْهَلُ
إِذَا لَيْلَةٌ ضَافَتْكَ بِالسُّقْمِ لَمْ أَبْتَ؛	لِسُقْمِكَ، إِلَّا بِأَكْبِيَا أَتَمَلُّ
كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالذِي	طَرِقتَ بِهِ دُونِي، وَعَيْنِي تَهْمَلُ
فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي	إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَوْمَلُ
جَعَلْتَ جَزَائِي غُلْظَةً وَفَطَاظَةً	كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُتَعَمُّ الْمُتَفَضِّلُ
فَلَيْتَكَ، إِذْ لَمْ تَرَعْ حَقَّ أَبَوَيَّ،	فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ (٣)

(١) من الآية ١٩٨ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الترمذى فى (البر، باب الفضل فى رضا الوالدين)، وابن حبان (الإحسان - البر والصلة ح ٤٣٠)، وصححه الحاكم فى المستدرک (١٥٢/٤) من حديث عبدالله بن عمرو.

(٣) أخرجه يحوه البيهقى فى الدلائل (٣٠٤/٦)، والطبرانى فى الأوسط عن جابر بن عبدالله. وفى آخره: فأخذ النبى ﷺ بتلابيب ابنه وقال: «أنت ومالك لأبيك».

ومن تمام برهما: زيارتهما بعد موتهما، والدعاء لهما، والتصدق عليهما، ففي الحديث: «إنما الميت في قبره كالغريق، ينتظر دعوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديقه، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها». وروى مالك في الموطأ عن سعيد بن المسيب أنه قال: (كان يقال: إن الرجل ليرفع بدعاء ولده من بعده، وأشار بيده نحو السماء)، وهو مرفوع إلى النبي ﷺ: من طريق أبي هريرة قال: «إن الله ليرفع العبد الدرجة، فيقول: يارب، أني لى بها؟! فيقول: باستغفار ابنك لك»^(١)، وسأل رجل النبي ﷺ: هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به، بعد موتهما؟ فقال: «نعم.. الصلاة عليهما - أى: الترحم والاستغفار لهما -، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الترحم التى لاتوصل إلا بهما، وإكرام صديقهما»^(٢).

قال تعالى: ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نَفْسِكُمْ﴾ من قصد البر إليهما، واعتقاد ما يجب لهما من التوفير، وكأنه تهديد على أن يضمرا لهما كراهة واستئقالا، ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾؛ قاصدين للصالح، أو طائعين لله، ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾: التوابين، أو الرجّاعين إلى طاعته، ﴿غَفُورًا﴾ لما فرط منهم عند حرج الصدر؛ من إذابة ظاهرة أو باطنة، أو تقصير في حقهما. ويجوز أن يكون عاماً لكل تائب، ويندرج فيه الجانى على أبويه اندراجاً أولياً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل ما أوحى الله تعالى به فى حق والدى البشرية، يجرى مثله فى والد الروحانية، وهو الشيخ، ويزيد؛ لأنه أوكد منه؛ لأن أب البشرية كان السبب فى خروجه إلى دار الدنيا، معرضاً للعطب أو السلامة، وأب الروحانية كان سبباً فى خروجه من ظلمة الجهل إلى نور العلم والوصلة، وهما السبب فى التخليد فى النعيم الذى لا يفنى ولا يبيد. وقد تقدم فى سورة النساء تمام هذه الإشارة^(٣). والله تعالى أعلم.

ثم أمر بالإحسان إلى القرابة؛ لقربهما من الوالدين، تعظيماً لهما، فقال:

﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذُرْ بَذِيرًا﴾^(٢٦) **إِنَّ الْمُبْذِرِينَ**
كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا^(٢٧) **وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن**
رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا^(٢٨) **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا**
كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا^(٢٩) **إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ**
خَبِيرًا بَصِيرًا^(٣٠)

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥٠٩/٢)، وابن ماجه فى (الأدب، باب بر الوالدين) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) أخرجه أبوداود فى (الأدب، باب فى بر الوالدين) وابن ماجه فى (الأدب، باب يصل من كان أبوك يصل) والحاكم فى المستدرک (٣٠٦٦/٢)، وصححه ووافقه الذهبى من حديث مالك بن ربيعة الساعدى الأنصارى.
(٣) راجع إشارة الآية ٣٦ من سورة النساء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ أي: أعط ذَا القرية حقه؛ من البر، وصلة الرحم، وحسن المعاشرة. وقال أبو حنيفة: إذا كانوا محاييج فقراء: أن ينفق عليهم. وقيل: الخطاب للرسول ﷺ أن يؤتي قرابته من بيت المال، ﴿و﴾ آتِ الْمَسْكِينِ حَقَّهُ ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾؛ الغريب، من برهما والإحسان إليهما، ﴿وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾؛ بصرف المال فيما لا ينبغي، وإنفاقه على وجه السرف. قال ابن عزيز: التبذير في النفقة: الإسراف فيها، وتفريقها في غير ما أحل الله. هـ. وأصل التبذير: التفريق. روى عن النبي ﷺ أنه قال لسعد، وهو يتوضأ: «مَا هَذَا السَّرْفُ؟ فَقَالَ: أَوْ فِي الْوُضُوءِ سَرْفٌ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ» (١).

﴿إِنَّ الْمُبْذَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: أمثالهم في الشر؛ فإن التضييع والإتلاف شر. أو: على طريقته، أو: أصدقاؤهم وأتباعهم؛ لأنهم يطيعونهم في الإسراف، روى أنهم كانوا ينحرون الإبل ويتياسرون عليها - أي: يتقامرون - من الميسر، وهو القمار. ويُبذرون أموالهم في السمعة، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، وأمرهم بالإنفاق في القربات. ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾؛ مبالغاً في الكفر، فيدبغى ألا يطاع.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ﴾ أي: وإن أعرضت عما ذكر من ذوى القربى والمسكين وابن السبيل؛ حياء من الرد، حيث لم تجد ما تعطيه، ﴿فَبْتَغَاءَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: لطلب رزق تلتظره يأتيك لتعطيهم منه، ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِيسُورًا﴾؛ فقل لهم قولاً ليناً سهلاً، بأن تعدهم بالعطاء عند مجئ الرزق، وكان ﷺ إذا سأله أحد، ولم يجد ما يعطيه، أعرض عنه، حياء منه. فأمر بحسن القول مع ذلك، مثل: رزقنا الله وإياكم، والله يغنيكم من فضله، وشبه ذلك.

ثم أمره بالتوسط في العطاء، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تمسكها عن الإنفاق كل الإمساك، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، وهو استعارة لغاية الجود، فهي الحق تعالى عن الطرفين، وأمر بالتوسط فيهما، كقوله: ﴿إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا...﴾ (٢) الآية. ﴿فَتَقَعْدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ أي: فتصير، إذا أسرفت، ملوماً عند الله وعند الناس؛ بالإسراف وسوء التبذير، محسوراً: منقطعاً بك، لا شيء عندك. وهو من قولهم: حسر السفر بالبعير: إذا أتعبه، ولم يبق له قوة. وعن جابر رضي الله عنه: بينا رسول الله ﷺ جالساً، أتاه صبي،

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/٢٢١)، وابن ماجه في (الطهارة، باب ماجاء في القصد في الوضوء) من حديث عبدالله بن عمرو.

(٢) من الآية ٦٧ من سورة الفرقان.

فقال له: إن أمي تستكسبك الدرع الذي عليك، فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه، وقعد عرياناً، وأذن بلال، وانتظره للصلاة، فلم يخرج، فأنزل الله: ﴿ولا تجعل يدك...﴾ الآية (١).

ثم سلّاه بقوله: ﴿إن ربك يسطر الرزق﴾؛ يوسعه ﴿لمن يشاء ويقدر﴾؛ يضيقه على من يشاء. فكل ما يصيبك من الضيق فإنما هو لمصلحة باطنية، ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾؛ يعلم سرهم وعلايتهم، فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم؛ فيرزقهم على حسب مصالحهم، ويضيق عليهم على قدر صبرهم. والحاصل: أنه يعطى كل واحد ما يصلح به، والله أعلم.

الإشارة: أمر الحق - جل جلاله - رسوله ﷺ، وخلفاءه ممن كان على قدمه، أن يعطوا حق الواردين عليهم من قرابة الدين والنسب، والمساكين والغرباء، من البر والإحسان حساً ومعنى؛ كتعظيم ملاقاته، وإرشادهم إلى ما ينفع بواطنهم، والإنفاق عليهم، من أحسن ما يجد، حساً ومعنى، وخصوصاً الإخوان في الله. فكل ما ينفق عليهم فهو قليل في حقهم، ولا يعد سرفاً، ولو أنفق ملء الأرض ذهباً. قال في القوت: دعا إبراهيم بن أدهم الثوري وأصحابه إلى طعام، فأكثر منه، فقال له سفيان: يا أبا إسحاق؛ أما تخاف أن يكون هذا سرفاً؟ فقال إبراهيم: ليس في الطعام سرف. هـ. قلت: هذا إن قدمه إلى الإخوان الذاكرين الله؛ قاصداً وجه الله، وأما إن قدمه؛ مفاخرة ومباهاة دخله السرف. قاله في الحاشية الفاسية، ومثله في تفسير القشيري، وأنه لا سرف فيما كان الله، ولو أنفق ما أنفق. بخلاف ما كان لدواعي النفس ولو فلساً. هـ. وأما الخروج عن المال كله فمذموم، إلا من قوى يقينه، كالصديق، ومن كان على قدمه. وكذلك الاستقراض على الله، واشتراؤه بالدين من غير مادة معلومة، إن كان قوى اليقين، وجرب معاملته مع الحق، فلا بأس بفعل ذلك؛ والأفليكف؛ لئلا يتعرض لإتلاف أموال الناس فيتلغه الله. وبالله التوفيق.

ولما أمر بما يقربنا إليه نهى عما يبعدنا عنه، فقال:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْتَحِنَ نَرْزُقَهُمْ وَإِنَّا كَرِهْنَا إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٢٦﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَّسْئُولًا ﴿٢٩﴾ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِذَا عَمِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٠﴾﴾

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٩٠/٥)، والواحدى في أسباب النزول ص (٩٤). وقال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف: لم أجد.

قلت: (خشية): مفعول من أجله؛ لأن الخشية قلبية، بخلاف الإملاق، فإنه حسي؛ فَجَرَّ بَمِنْ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ (١) وهذه الآية في أغنياء العرب، الذين كانوا يخشون وقوع الفقر، وما في «الأنعام» نزلت في فقرائهم، الذين كان الفقر واقعاً بهم، ولذلك قَدِمَ هناك كاف الخطاب، وأخره هنا، فتأمل. و«خطأ» يقال: خطئ خطأ، كأثم إثماً. وقرأ ابن عامر: «خطأ»، بفتحين، فهو إما اسم مصدر أخطأ، أو لغة في خطئ، كمثل ومثل، وحذر وحذر. وقرأ ابن كثير: «خطاء»؛ بالمد، إما لغة، أو مصدر خاطأ. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ مخافة الغافة المستقبل، وقد كانوا يقتلون البنات. وهو الواد مخافة الفقر، فداهم عن ذلك، وضمن لهم أرزاقهم، فقال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، إن قتلهم كان خطأ؛ ﴿إِنَّمَا﴾ ﴿كَبِيرًا﴾؛ لما فيه من قطع التناسل وانقطاع النوع وإيلام الروح. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾، نهى عن مقاربتة بالمقدمات. كالعزم، والنظر وشبهه، فأحرى مباشرته، ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ أي: فعله ظاهراً فحشها وقبحها، ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾؛ قبح طريقاً طريقه، وهو غصب الأبضاع؛ لما فيه من اختلاط الأنساب وهتك محارم الناس، وتهيج الفتن.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنى بعد إحصان، وقتل مؤمن معصوم؛ عمداً، كما في الحديث (٢). ويلحق بها أشياء في معناها: كالحرابة، وترك الصلاة، ومنع الزكاة. ﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا﴾ أي: غير مستوجب للقتل ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ﴾ أي: الذي يلي أمره بعد وفاته، وهو الوارث، ﴿سُلْطَانًا﴾؛ تسلطاً بالمؤاخذه بمقتضى القتل بأخذ الدية، أو القصاص، وقوله: «مظلوماً» يدل على أن القتل عمد؛ لأن الخطأ لا يسمى ظلماً. أو: جعلنا له حجة غالبة، ﴿فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾؛ بأن يقتل من لا يحق قتله، أو بالمثل، أو قتل غير القاتل، ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الولي ﴿كَانَ مُنْصَوِّراً﴾؛ حيث وجب القصاص له، وأمر الولاية بمعونته. أو: إنه، أي: المقتول، كان منصوراً في الدنيا؛ بثبوت القصاص ممن قتله، وفي الآخرة بالثواب.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ فضلاً عن أن تتصرفوا فيه ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ إلا بالطريقة التي هي أحسن، كالحفظ والتنمية، ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾؛ حتى يتم رشده، ثم يدفع له، فإن دفعه لمن يتصرف فيه بالمصلحة فلا بأس، ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ إذا عاهدتم الله أو الناس، ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي: مطلوباً الوفاء

(١) في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ...﴾ الآية ١٥١.

(٢) أخرجه البخاري في (الديات، باب قول الله تعالى: «أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ...» الخ)، ومسلم في (القسامة، باب ما يباح به دم المسلم) عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

به، فيطلب من المعاهد ألا يضيعه، أو: مسئولا عنه، فيُسأل عنه الناكث ويُعاتب عليه، أو: يُسأل العهد نفسه لم نُكثت، تَبَكِيَةً لِلنَّاكثِ، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ ولا تبخسوا فيه، ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾؛ بالميزان السوى. والقسطاس: لغة رومية، ولا يقدح ذلك في عربية القرآن؛ لأن غير العربى، إذا استعملته العرب، فأجرته مجرى كلامهم فى الإعراب والتعريف والتنكير، صار عربياً. قاله البيضاوى. ﴿ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾ أى: أحسن عاقبة ومآلاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ولا تقتلوا ما أنتجته الأفكار الصافية من العلوم؛ بإهمال القلوب فى طلب رزق الأشباح، خشية لحوق الفقر، فإن الله ضامن لرزق الأشباح والأرواح. ولا تميلوا إلى الحظوظ، التى تُخرجكم عن حضرة الحق؛ فإن ذلك من أفتح الفواحش. ولا تقتلوا النفس بتوالى الغفلة والجهل، التى حرم الله قتلها وإهمالها، وأمر بإحيائها بالذكر والعلم، ومن قتل بذلك مظلوماً؛ بحيث غلبته نفسه، ولم تساعد الأقدار، فقد جعلنا لعقله سلطاناً، أى: تسلطاً عليها؛ بمجاهدتها وقتلها وردّها إلى مولاهما، فلا يسرف فى قتلها، بل بسياسة وحيلة، كما قال القائل:

واَحْتَلَّ عَلَى النَّفْسِ قَرِيبٌ حِيلَةٌ أَنْفَعُ فِي النُّصْرَةِ مِنْ قَبِيلَةٍ

إنه كان منصوراً، إن انتصر بمولاه، وأوى بها إلى شيخ كامل، قد فرغ من تأديب نفسه وهواه. وقد تقدم باقى الإشارة فى سورة الأنعام (١) وغيرها. وبالله التوفيق.

ثم قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۖ﴾
 وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ
 عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۚ آخَرَ فَتُلْقَى
 فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفُكُمْ رَبُّكُمُ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا
 عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

(١) راجع إشارة الآيتين: ١٥١ - ١٥٢ من سورة الأنعام.

قلت: فقا الشيء يقفوه: تبعه. والضمير في «عنه»: يجوز أن يعود لمصدر «لا تقف»، أو لصاحب السمع والبصر. وقيل: إن «مسئولاً» مسند إلى «عنه» كقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (١)، والمعنى: يسأل صاحبه عنه، وهو خطأ؛ لأن الفاعل وما يقوم مقامه لا يتقدم. قاله البيضاوي.

قال ابن جزى: الإشارة في «أولئك»: إلى السمع والبصر والفؤاد، وإنما عاملها معاملة العقلاء في الإشارة بأولئك؛ لأنها حواس لها إدراك، والضمير في «عنه»: يعود على «كل»، ويتعلق «عنه» بمسئولاً. هـ. وضمير الغائب يعود على المصدر المفهوم من «مسئولاً». و(مرحاً): مصدر في موضع الحال. و(مكروهاً): نعت لسيئة، أو بدل منها، أو خبر ثان لكان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾؛ تتبع ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، فلا تقل ما لا تحقيق لك به؛ من ذم الناس ورميهم بالغيب. فإذا قلت: سمعت كذا، أو رأيت كذا، أو تحقق عندي كذا، مما فيه نقص لأحد، فإنك تسأل يوم القيامة عن سند ذلك وتحقيقه. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾. قال البيضاوي: ولا تتبع ما لم يتعلق علمك به؛ تقليداً، أو رجماً بالغيب. واحتج به من منع اتباع الظن، وجوابه: أن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند، سواء كان قطعياً أو ظنياً؛ إذ استعماله بهذا المعنى شائع. وقيل: إنه مخصوص بالعقائد. وقيل: بالرمي وشهادة الزور، ويؤيده قوله ﷺ: «مَنْ قَفَا مُؤْمِناً بِمَا لَيْسَ فِيهِ، حَبَسَهُ اللَّهُ فِي رَدْغَةِ الْخَبَالِ» (٢)، حتى يأتي بالمخرج» (٣). ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أي: كل هذا الأعضاء الثلاثة ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾؛ كل واحد منها مسئول عن نفسه، يعلى: عما فعل به صاحبه. هـ مختصراً.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ أي: ذا مرح، وهو: التكبر والاختيال، ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾؛ لن تجعل فيها خرقاً؛ لشدة وطأتك ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طَوْلاً﴾؛ تتطاول عليها؛ عزاً وعلواً، وهو تهكم بالمختال، وتعليل للنهي، أي: إذا كنت لا تقدر على هذا، فلا يناسبك إلا التواضع والذل بين يدي خالقك، ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ المذكور، من قوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ إلى هنا، وهي: خمس وعشرون خصلة، قال ابن عباس: (إنها المكتوبة في ألواح موسى)، فكل ما ذكر ﴿كَانَ سَيِّئَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ (٤) أي: خصلة قبيحة ﴿مَكْرُوهاً﴾ أي: مذموماً مبغوضاً. والمراد بما ذكر: من المنهيات دون المأمورات.

(١) من الآية ٧ من سورة الفاتحة.

(٢) قال ابن الأثير: ردة الخبال، جاء في الحديث أنها عصاة أهل النار... انظر النهاية (خبل - ردغ).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٧٠/٢) وأبو داود في (الأقضية، باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها)، من حديث ابن عمر، بلفظ: «مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللَّهُ رَدْغَةَ الْخَبَالِ، حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ».

(٤) قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف «سيئه»، بضم الهمز والهاء مضافاً للمذكر الغائب. اسم كان، وقرأ الباقون «سيئة»، بفتح الهمزة ونصب تاء التانيث مع التثنية على التوحيد خبر كان... انظر الإتحاف (١٩٧/٢) والبحر المحيط (٣٥/٦).

﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴾ ؛ التي هي علم الشرائع، أو معرفة الحق لذاته، والعلم للعمل به .
 ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ ، كرره، للتنبية على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه، وأنه رأس الحكمة وملاكها،
 ومن عديمه لم تنفعه علومه وحكمه، ولو جمع أساطير الحكماء، ولو بلغت عنان السماء . والخطاب للرسول ﷺ،
 والمراد: غيره ممن يتصور منه ذلك . ورتب عليه، أولاً: ما هو عاقبة الشرك في الدنيا، وهو: الذم والخذلان، وثانياً:
 ما هو نتيجته في العقبى . فقال: ﴿ فتلقى في جهنم ملوماً ﴾ ؛ تلوم نفسك، وتلومك الملائكة والناس، ﴿ مدحوراً ﴾ ؛
 مطروداً من رحمة الله .

ثم قبّح رأيهم في الشرك، فقال: ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين ﴾ ، وهو خطاب لمن قال: الملائكة بنات الله .
 والهمزة للإنكار، أى: أفخصكم ربكم بأفضل الأولاد، وهم البنون ، ﴿ واتخذ من الملائكة إناثاً ﴾ ؛ بنات لنفسه،
 ﴿ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾ أى: عظيم الذكر والشناعة، لا يُقدَّرُ قدره في إيجاب العقوبة؛ لخرمه لقضايا
 العقول، بحيث لا يجترئ عليه أحد؛ حيث تجعلونه تعالى من قبيل الأجسام المتجانسة السريعة الزوال، ثم تضيفون
 إليه ما تكرهونه، وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين، ثم جعلتم الملائكة، الذين هم أشرف الخلق، أدونهم، تعالى الله عن
 قولكم علواً كبيراً .

الإشارة: ينبغي للإنسان الكامل أن يكون في أموره كلها على بيته من ربه، فيحكم على ظاهره الشريعة
 المحمدية، وعلى باطنه الحقيقة القدسية، فإذا تجلى في باطنه شيء من الواردات أو الخواطر فليعرضه على الكتاب
 والسنة، فإن قبلاه أظهره وفعله، وإلا رده وكتمه، كان ذلك الأمر قولياً أو فعلياً، أو تركاً أو عقداً؛ فقد انعقد الإجماع
 على أنه لا يحل لامرئ مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ ولا تقف ما ليس
 لك به علم ﴾ ، فإن لم يجد نصاً في الكتاب أو السنة فليستفت قلبه، إن صفا من خوض الحس، وإن لم يصف
 فليرجع إلى أهل الصفاء، وهم أهل الذكر . قال تعالى: ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ (١)، ولا يستفت أهل
 الظنون، وهم أهل الظاهر، قال تعالى: ﴿ إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ (٢) .

وقال القشيري في تفسير الآية هذا: ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ أى: جانب محاذاة الظنون، وما لم يطلعك
 الله عليه، فلا تتكلف الوقوف عليه من غير برهان . فإذا أشكل عليك شيء في حكم الوقت، فارجع إلى الله،

(١) من الآية ٤٣ من سورة النحل، ومن الآية ٧ من سورة الأنبياء .

(٢) من الآية ٣٦ من سورة يونس .

فَإِنْ لَاحَ لِقَلْبِكَ وَجْهٌ مِنَ التَّحْقِيقِ فَكُنْ مَعَ مَا أُرِيدُ، وَإِنْ بَقِيَ الْحَالُ عَلَى حَدِّ اللَّتَابِاسِ فَكُلِّ عِلْمَهُ إِلَى اللَّهِ، وَقِفْ حَيْثُمَا وَقِفْتَ. ويقال: الفرق بين من قام بالعلم، ومن قام بالحق: أن العلماء يعرفون الشيء أولاً، ثم يعملون بعلمهم، وأصحاب الحقائق يجزى، بحكم التصريف عليهم، شيء، ولا علم لهم به على التفصيل، وبعد ذلك يكشف لهم وجهه، فربما يجزى على لسانهم شيء لا يدرون وجهه، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهان ما قالوه من شواهد العلم؛ إذ يتحقق ذلك بجريان الحال في ثانی الوقت. انتهى. قلت: وإلى هذا المعنى أشار في الحكم العطائية بقوله: "الحقائق ترد في حال التجلي مُجَمَّلةً، وبعد الوعي يكون البيان، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾".

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾، ورد في بعض الأخبار، في صفة مشي الصوفية: أنهم يذهبون على أقدامهم دبيب النمل، متواضعين خاشعين، ليس فيه إسراع مغل بالمرودة، ولا اختيال مغل بالتواضع. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بالرجوع إلى كتابه، فقال:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد صرّفنا﴾؛ بيّنا ﴿في هذا القرآن﴾ من الأمثال والعبر، والوعد والوعيد؛ ﴿ليذكروا﴾؛ ليتعظوا به، ﴿وما يزيدهم﴾ ذلك ﴿إلا نفوراً﴾ عن الحق وعناداً له.

الإشارة: من شأن القلوب الصافية: إذا سمعت كلام الحبيب فرحت واهتزت، أو خشعت واقشعرت من هيبة المتكلم، كل على ما يليق بمقامه، ومن شأن القلوب الخبيثة المكدره: نفورها من كلام الحق؛ إذ الباطل لا يقاوم الحق، ولا يطيق مواجهته. والله تعالى أعلم.

ثم أبطل مذاهب أهل الشرك، فقال:

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُشْعَ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿لو كان معه﴾ في الوجود ﴿آلهة﴾ تستحق أن تُعبد، ﴿كما يقولون﴾ (١) أيها المشركون، أو كما يقول المشركون أيها الرسول، ﴿إذا لا بُشْعاً﴾؛ لطلبوا

(١) قرأ حفص وابن كثير: (يقولون) بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء،، انظر الإتحاف (١٩٩/٢).

﴿إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾؛ طريقاً يقاتلونه. وهذا جواب عن مقالتهم الشنعاء. والمعنى: لطلبوا إلى من هو ملك الملك طريقاً بالمعاداة، كما تفعل الملوك بعضهم مع بعض. وهذا كقوله: ﴿إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (١). وقيل: لا بتفوقا إليه سبيلاً بالتقرب إليه والطاعة؛ لعلمهم بقدرته، وتحقيقهم بعجزهم، كقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ (٢). ثم نزه نفسه عن ذلك فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾؛ تنزيهاً له ﴿وتعالى﴾؛ ترفعاً ﴿عما يقولون﴾ من الشركاء، ﴿علوا﴾؛ تعالياً ﴿كبيراً﴾ لا غاية وراءه. كيف لا؛ وهو تعالى في أقصى غاية الوجودا وهو الوجوب الذاتي، وما يقولونه؛ من أن له تعالى شركاء وأولاداً، في أبعد مراتب العدم، أعنى: الامتناع؛ لأنه من خواص المحدثات الفانية.

﴿يَسْبَحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ﴾ (٣) أى: تنزهه، ﴿والأرضُ ومن فيهن﴾ كلها تدل على تنزيهه عن الشريك والولد، ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾؛ ينزهه عما هو من لوازم الإمكان، وتوابع الحدوث، بلسان الحال، حيث تدل بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم، الواجب لذاته. قاله البيضاوي. وظاهره: أن تسبيح الأشياء حالي لا مقالي، والراجح أنه مقالي. ثم مع كونه مقالياً لا يختص بقول مخصوص، كما قال الجلال السيوطي، أى: نقول: سبحان الله وبحمده. بل كل أحد يسبح بما يناسب حاله. وإلى هذا يرشد كلام أهل الكشف، حتى ذكر الحاتمي: أن من لم يسمعها مختلفغة التسبيح لم يسمعها، وإنما سمع الحالة الغالبة عليه. وورد في الحديث: «ما اصطيد حوت في البحر، ولا طائر يطير، إلا بما ضيع من تسبيح الله تعالى» (٤). وفي الحديث أيضاً: «ما تطلع الشمس فبقي خلق من خلق الله، إلا يسبح الله بحمده، إلا ما كان من الشيطان وأعتى بنى آدم».

ومذهب أهل السنة: عدم اشتراط البنية للعلم والحياة، فيصح الخشوع من الجماد، والخشية لله والتسبيح منه له. وقد قال ابن حجر على حديث حنين الجذع: فيه دلالة على أن الجمادات قد يخلق الله لها إدراكاً كالحيوان، بل كأشرف الحيوان، وفيه تأييد لمن يحمل قوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ على ظاهره. هـ.

وقال ابن عطية: اختلف أهل العلم في هذا التسبيح؛ فقالت فرقة: هو تجوز، ومعناه: أن كل شيء تبدو فيه صفة الصانع الدالة عليه، فتدعو رؤية ذلك إلى التسبيح من المعتبر. وقالت فرقة: قوله: «من شيء»؛ لفظه عموم،

(١) من الآية ٩١ من سورة المؤمنون.

(٢) من الآية ٥٧ من سورة الإسراء.

(٣) قرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي وحفص ويعقوب: (تسبح) بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء، انظر: الاتحاف ١٩٩/٢.

(٤) عزاه السيوطي في الدر (٢٣٣/٤) لأبي الشيخ عن مرثد بن أبي مرثد.

(٥) ذكره السيوطي بنحوه في الدر (٢٣٢/٤) وعزاه لابن مردويه، عن عمرو بن عبسة، عن النبي ﷺ.

ومعناه الخصوص في كل حي ونام، وليس ذلك في الجمادات الميتة. فمن هذا قول عكرمة: الشجرة تُسبح، والاسطوانة لا تُسبح. قال يزيد الرقاشي للحسن - وهما في طعام، وقد قَدِمَ الخوان -: أيسبح هذا الخوان يا أبا سعيد؟ فقال: قد كان يُسبح مدة. يريد أن الشجرة، في زمان نموها واغتنائها، تُسبح. وقد صارت خواناً أو نحوه، أى: صارت جماداً. وقالت فرقة: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيء، على العموم، يُسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهه، ولو كان التسبيح ما قاله الآخرون؛ من أنه أثر الصنعة، لكان أمراً مفهوماً، والآية تنطق بأنه لا يفقه، وينفصل عنه؛ بأن يريد بقوله: ﴿ لا تفقهون ﴾: الكفار والغفلة، أى: أنهم يعرضون عن الاعتبار؛ فلا يفقهون حكمة الله في الأشياء. هـ.

قال شيخ شيوخنا؛ سيدى عبد الرحمن العارف: وربما يدل للعموم تسبيح الحصى في يده - عليه الصلاة والسلام -، وكذا حنين الجذع ومحبة أحد، وكذا تسبيح الطعام. وأما التخصيص بالناميات؛ من نبات غير يابس، وحجر متصل بموضعه، فهو خصوص تسبيح بالاستعداد إلى الحياة، ولا ينتفى مطلق الاستعداد؛ لأن الجماد يستمد الوجود وبقائه من الله، فهو عام، وقد قال تعالى: ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ (١)، وتدبر حنين الجذع. هـ. وسيأتى في الإشارة بقية كلام عليه، وقال البيضاوى أيضاً في قوله: ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ أيها المشركون؛ لإخلالكم بالنظر الصحيح الذى به يفهم التسبيح. ويجوز أن يحمل التسبيح على المشترك من اللفظ والدلالة؛ لإسناده إلى ما يتصور منه اللفظ، وإلى ما لا يتصور منه، وعليهما، أى: ويحمل - عند من جوز إطلاق اللفظ على معنیه. هـ.

﴿ إنه كان حليماً ﴾؛ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، مع ما أنتم عليه من موجباتها؛ من الإعراض عن النظر في الدلائل الواضحة، الدالة على التوحيد، والانهماك في الكفر والإشراك، ﴿ غفوراً ﴾ لمن تاب منكم. وبالله التوفيق.

الإشارة: كل ما دخل عالم التكوين من العرش إلى الفرش، أو ما قُدر وجوده من غيرهما؛ كله قائم بين حس ومعنى، بين عبودية وربوبية، بين قدرة وحكمة. فالحس محل العبودية، فيه تظهر قهريّة الربوبية، والمعنى هو أسرار الربوبية القائمة بالأشياء، فالأشياء كلها تنادى بلسان معناها، وتقول: سبحانه ما أعظم شأنه، ولكن لا يفقه هذا التسبيح إلا من خاض بحار التوحيد، وغاص في أسرار التفريد.

فالأشياء ثابتة بإثباته، محوّة بأحدية ذاته، قائمة من حيث حسها، محوّة من حيث معناها، ولا وجود للحس من ذاته، وإنما هو رداء لكبرياء ذاته. وفي الحديث، في وصف أهل الجنة: « وليس بينهم وبين أن ينظروا إلى الرحمن إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن ». فمن خرق حجاب الوهم، وفنى عن دائرة الحس في دار

(١) من الآية ١٠ من سورة سبأ.

الدنيا، لم يحتجب الحق تعالى عنه في الدارين طرفة عين. فتحصل أن الأشياء كلها تسبح من جهة معناها بلسان المقال، ومن جهة حسها بلسان الحال، وتسبيحها كما ذكرنا. ولا يذوق هذا إلا من صحب العارفين الكبار، حتى يخرجوه عن دائرة حس الأكوان إلى شهود المكون. وحسب من لم يصحبهم التسليم، كما قال القائل:

إِذَا لَمْ تَرَ الْهِلَالَ فَسَلِّمْ لَأَناسٍ رَأَوْهُ بِالْأَبْصَارِ

والله تعالى أعلم.

وسبب عدم فقه تسبيح الأشياء: غفلة القلوب، وطبع الأكنة عليها، كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدُّهُمْ وَلَوْ أَعْلَىٰ أَدْبَرِهِمْ نُفُورًا ۝٤٦ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٤٧ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨ وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفًا آءِذَا نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾

قلت: (أن يفقهوه): مفعول من أجله، أى: كراهة أن يفقهوه، و(نفورا): مصدر فى موضع الحال. والضمير فى (به): يعود على «ما»، أى: نحن أعلم بالأمر الذى يستمعون به من الاستهزاء والسخرية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ الناطق بالتلذيه والتسبيح، ودعوتهم إلى العمل بما فيه؛ من التوحيد، ورفض الشرك، وغير ذلك من الشرائع، ﴿جعلنا﴾ بقدرتنا ومشيتنا المبنية على دواعى الحكم الخفية ﴿بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾، خص الآخرة بالذكر من بين سائر ما كفروا به؛ دلالة على أنها معظم ما أمروا بالإيمان به، وتمهيداً لما سينقل عنهم من إنكار البعث، أى: جعلنا بينك وبينهم ﴿حجاباً﴾ يمنعهم عن فهمه والتدبر فيه، ﴿مستوراً﴾ عن الحس، خفياً، معنوياً، وهو اللان الذى يسبح على قلوبهم من الكفر، والانهماك فى الغفلة. أو: ذا ستر، كقوله: ﴿وَعَدُهُ مَاتِيًا﴾ (١)، أى: آتياً، فهو سائر لقلوبهم عن الفهم والتدبر.

(١) من الآية ٦١ من سورة مريم.

نفى عنهم فقه الآيات، بعد ما نفى عنهم فقه الدلالات المنصوبة في الأشياء؛ بياناً لكونهم مطبوعين على الضلالة، كما صرح به في قوله: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾؛ أغطيةً تكنها، وتحول بينها وبين إدراك الحق وقبوله. فعلنا ذلك بهم؛ كراهة ﴿أن يفقهوه﴾، ﴿و﴾ جعلنا ﴿في آذانهم وقراً﴾؛ ثقلاً وصمماً يمنعهم من استماعه. ولما كان القرآن معجزاً من حيث اللفظ والمعنى، أثبت لمنكره ما يمنع عن فهم المعنى وإدراك اللفظ. قاله البيضاوي.

﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده﴾ أي: واحداً غير مشفوع به آلهتهم، ﴿ولمَّا على أدبارهم نفوراً﴾؛ هرباً من استماع التوحيد، والمعنى: وإذا ذكرت في القرآن وحدانية الله تعالى، فر المشركون عن ذلك؛ لما في ذلك من رفض آلهتهم وذمها. قال تعالى: ﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾ أي: بالأمر الذي يستمعون به؛ من الاستهزاء، وكانوا يستمعون القرآن على وجه الاستهزاء، ﴿وإذا هم نجوى﴾ أي: ونحن أعلم بغرضهم، حين هم جماعة ذات نجوى، يتناجون بينهم ويخفون ذلك. ثم فسر نجواهم بقوله: ﴿إذا يقول الظالمون﴾، وضع الظالمين موضع الضمير؛ للدلالة على أن تناجيهم بقولهم هذا محض ظلم، أي: إذ يقولون: ﴿إن تبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾؛ مجنوناً قد سحر حتى زال عقله.

﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾، مثلك بالساحر، والشاعر، والكاهن، والمجنون، ﴿فضلوا﴾ عن الحق في جميع ذلك، ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ إلى الهدى، أو إلى الطعن فيما جلت به بوجه؛ فهم يتهافون، ويخطبون، كالمتحير في أمره لا يدري ما يفعل. ونزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه من الكفار.

﴿وقالوا أنذا كنا عظاماً ورفاتاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾، أنكروا البعث، واستبعدوا أن يجعلهم خلقاً جديداً، بعد فنائهم وجعلهم تراباً. والرفات: الذي بلي، حتى صار غباراً وفتاتاً. و«أنذا»: ظرف، والعامل فيه: ما دل عليه قوله: (لمبعوثون)، لا نفسه؛ لأن ما بعد «إن»، والهمزة، لا يعمل فيما قبله، أي: أنبعث إذا كنا عظاماً.. الخ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تقدم في سورة «الأنعام» (١) تفسير الأكنة التي تمنع من فهم القرآن والتدبر فيه، والتي تمنع من الشهود والعيان، فراجع، إن شئت. وفي الآية تسلية لمن أودى من الصوفية فرمى بالسحر أو غيره. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه بالجواب عما أنكروه من البعث، فقال:

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجِيْبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

(١) راجع إشارة الآية ٢٥ من سورة الأنعام.

قلت: (قريباً) : خبر كان، أو ظرف له؛ على أن كان، تامة، أى: عسى أن يقع فى زمن قريب. و(أن يكون): إما: اسم «عسى» وهى تامة، أو خبرها، والاسم مضمّر، أى: عسى أن يكون البعث قريباً، أو: عسى أن يقع فى زمن قريب. و(يوم يدعوكم) : منصوب بمحذوف؛ اذكروا يوم يدعوكم. أو: بدل من «قريب»؛ على أنه ظرف. انظر أبا السعود، و(بحمده) : حال من ضمير (تستجيبيون)، أى: منقادين له، حامدين له؛ لما فعل بكم.

يقول الحق جلا جلاله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمن أنكر البعث: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً، أَوْ خَلْقاً﴾ آخر ﴿مِمَّا يَكْبُرُ﴾ أى: يعظم ﴿فى صدوركم﴾ عن قبول الحياة، فإنكم مبعوثون ومعادون لا محالة، أى: لو كنتم حجارة أو حديداً، أو شيئاً أكبر عندكم من ذلك، وأبعد من الحياة، لقدرنا على بعثكم؛ إذ القدرة صالحة لكل ممكن. ومعنى الأمر هنا: التقدير، وليس للتعجيز، كما قال بعضهم. انظر ابن جزى، ﴿فسيقولون من يعيدنا﴾ إلى الحياة مرة أخرى، مع ما بيننا وبين الإعادة، من مثل هذه المباعدة؟ ﴿قل الذى فطركم أول مرة﴾ ولم تكونوا شيئاً؛ لأن القادر على البدء قادر على الإعادة، بل هى أهون، ﴿فسيُنْفِضُونَ﴾؛ يحركون ﴿إليك رؤوسهم﴾؛ تعجباً واستهزاء، ﴿ويقولون﴾؛ استهزاء: ﴿متى هو﴾ أى: البعث، ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾، فإن كل ما هو آت قريب.

واذكروا ﴿يوم يدعوكم﴾؛ يناديكم من القبور على لسان إسرافيل، ﴿فتستجيبيون﴾ أى: فتبعثون من القبور ﴿بحمده﴾؛ بأمره، أو ملتبسين بحمده، حامدين له على كمال قدرته، عند مشاهدة آثارها، ومعينة أحكامها، كما قيل: إنهم يقومون ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، ﴿وتظنون إن لبثتم﴾؛ ما لبثتم فى الدنيا ﴿إلا قليلاً﴾؛ لما ترون من الهول، أو تستقصرون مدة لبثكم فى القبور، كالذى مر على قرية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من كان قلبه أقسى من الحجارة والحديد، واستغرب أن يُنقذه الله من شهوته، وأن يخرج من وجود جهالته وغفلته، فقل لهم: كونوا حجارة أو حديداً، أو خلقاً أكبر من ذلك، فإن الله قادر على أن يحيى قلوبكم بمعرفته، وليُنقذها بعد القساوة، بسبب شرب خمرة. فسيقولون: من يعيدنا إلى هذه الحالة؟ قل: الذى فطركم على توحيدة أول مرة، حين أقررتم بربوبيته، يوم أخذ الميثاق. فسيُنْفِضُونَ إِيَّكُمْ رؤوسهم؛ تعجباً واستغراباً، ويقولون: متى هو هذا الفتح؟ قل: عسى أن يكون قريباً؛ يوم يدعوكم إلى حضرته بشوق مقلق، أو خوف مزعج، بواسطة شيخ عارف، أو بغير واسطة، فتستجيبيون بحمده ومنته، وتظنون إن لبثتم فى أيام الغفلة إلا قليلاً؛ فتلين قلوبكم، وتطمئن نفوسكم، وتنشرح صدوركم، وتحسن أخلاقكم، فلا تخاطبون العباد إلا بالتي هى أحسن، كما قال تعالى:

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ
 عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ ٥٣ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَاءُ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَاءُ يُعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
 وَكِيلًا ﴿ ٥٤ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا
 دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ ٥٥ ﴿

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي ﴾ المؤمنين: ﴿ يَقُولُوا ﴾ للمشركين الكلمة ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾
 ولا تخشونهم، ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾؛ يهيج بينهم الجدال والشر، فلعل المخاشنة لهم تفضي إلى العناد
 وازدياد الفساد. وكان هذا بمكة، قبل الأمر بالقتال، ثم نسخ (١). وقيل: في الخطاب من المؤمنين بعضهم لبعض،
 أمرهم أن يقولوا، فيما بينهم، كلاماً ليناً حسناً. ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾ العداوة والبغضاء؛ ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ
 كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾؛ ظاهر العداوة.

يقولون لهم في المخاطبة الحسنة: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَاءُ يَرْحَمَكُم ﴾ بالتوبة والإيمان، ﴿ أَوْ إِنْ يَشَاءُ
 يُعَذِّبُكُمْ ﴾ بالموت على الكفر. وهذا تفسير للكلمة التي هي أحسن، وما بينهما اعتراض، أي: قولوا هذه الكلمة
 ونحوها، ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار؛ فإنه يثير الشر، مع أن ختام أمرهم غيب. ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
 وَكِيلًا ﴾؛ موكولاً إليك أمرهم، فتجبرهم على الإيمان، وإنما أَرْسَلْنَاكَ مبشراً ونذيراً، فدارهم، ومر أصحابك
 باحتمال الأذى منهم. روى أن المشركين أفرطوا في إيذائهم؛ فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وقيل: شتم رجل
 عمر بن الخطاب، فهم به، فأمره الله بالعفو.

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وبأحوالهم، فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء. وهو رد
 لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبى طالب نبياً، وأن يكون العروة الجياح أصحابه. ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى
 بَعْضٍ ﴾ بالفضائل النفسانية، والتفرغ من العلائق الجسمانية، لا بكثرة الأموال والأتباع، حتى يستبعدوا نبوة سيدنا
 محمد ﷺ لقلّة ماله، وضعف أصحابه؛ فإن سيدنا داود عليه السلام كان مثله في قلّة ماله وأتباعه، ثم قواه بالملك
 والنبوة. ولذا قال: ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾؛ وقيل: هو إشارة إلى تفصيل نبينا محمد ﷺ؛ فإنه مذكور في الزبور، وهو
 أنه خاتم الأنبياء، وأمه خير الأمم، وأنهم يرثون الأرض بالفتح عليهم؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ
 بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (٢). والله تعالى أعلم.

(١) دعوى النسخ هنا، لإبرهان عليها، ولا مجال لها؛ فالأخلاق لا تنسخ.

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء.

الإشارة: من أوصاف الصوفية - رضى الله عنهم - أنهم هينون لينون كلفةٍ حرير، لا ينطقون إلا بالكلام الحسن، ولا يفعلون إلا ما هو حسن، ويفرحون ولا يحزنون، وينبسطون ولا يتقبضون. من رأوه مقبوضاً بسطوه، ومن رأوه حزيناً فرحوه، ومن رأوه جاهلاً أرشده بالتى هى أحسن. وهم متفاوتون فى هذا الأمر، مفضل بعضهم على بعض فى الأخلاق والولاية، فكل من زاد فى الأخلاق الحسنة زاد تفضيله عند الله. وفى الحديث: «إن الرجل ليدرك بحسن الخلق، درجة الصائم النهار، القائم الليل»^(١). وبالله التوفيق.

ثم رجع إلى الكلام مع المشركين والرد عليهم، فقال :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ دُونِي ۖ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۚ ﴾^(٥٦)
 أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ
 عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝

قلت: (أولئك): مبتدأ، و(الذين يدعون): صفته، و(يبتغون): خبره. وضمير «يدعون»: للكفار، وفى «يبتغون»: للآلهة المعبودين. وقيل: الضمير فى «يدعون» و«يبتغون»: للأنبياء المذكورين قبل فى قوله: «فضلنا بعض النبيين على بعض»، والوسيلة: ما يتوسل به ويتقرب إلى الله، و(أيهم): بدل من فاعل (يبتغون)، و«أى»: موصولة، أى: يبتغى من هو أقرب إليه تعالى - الوسيلة، فكيف بمن دونه؟ أو ضمن معنى يبتغون: يحرصون، أى: يحرصون أيهم يكون إليه تعالى أقرب؟

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قُلْ ﴾ لهم: ﴿ ادعوا الذين زعمتم ﴾ أنهم آلهة تعبدونهم ﴿ من دونه ﴾ كالملائكة والمسيح وعزير، أو كالأصنام والأوثان، ﴿ فلا يملكون ﴾؛ لا يستطيعون ﴿ كشف الضر عنكم ﴾، كالمرض والفقر والقحط، ﴿ ولا تحويلاً ﴾ لذلك عنكم إلى غيركم، قال تعالى: ﴿ أولئك الذين يدعون ﴾ أنهم آلهة، هم فى غاية الافتقار إلى الله والتوسل إليه، كلهم ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ أى: التقرب بالطاعة، ويحرصون ﴿ أيهم أقرب ﴾ إلى الله من غيره، فكيف يكونون آلهة؟ أو: أولئك الذين يدعونهم آلهة، يطلبون إلى ربهم الوسيلة

(١) أخرجه، بنحوه، أحمد فى المسند (١٣٣/٦) وأبو داود فى (الأدب، باب فى حسن الخلق) عن عائشة رضى الله عنها، وأخرجه الحاكم فى المستدرک (٦٠/١) عن أبى هريرة، وصححه، روافقه الذهبى.

بالطاعة، يطلبها أيهم أقرب، أى: الذى هو أقرب، فكيف بغير الأقرب؟ ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾ كسائر العباد، فكيف يزعمون أنهم آلهة؟ ﴿إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾؛ مخوفاً، أى: حقيقة بأن يحذره كل أحد، حتى الرسل والملائكة. أعاننا الله من جميعه. آمين.

الإشارة: كل ما دخل عالم التكوين لزمته القهرية والعبودية، فهو عاجز عن إصلاح نفسه، فكيف يصلح غيره؟ ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، فكيف يدفع عن غيره؟ فارفع همك، أيها العبد، إلى مولاك، وأنزل حوائجك كلها به دون أحد سواه، فكل ما سواه مفتقر إليه، والفقير المضطر لا ينفع نفسه، فكيف ينفع غيره؟ والله يتولى هداك.

ثم بين قهره تعالى، فقال:

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإن من قرية﴾ أى: أهلها، ﴿إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة﴾؛ بالموت والاستئصال، ﴿أو معذبوها عذاباً شديداً﴾؛ بالقتل وغيره، ﴿كان ذلك في الكتاب﴾؛ فى اللوح المحفوظ ﴿مسطوراً﴾؛ مكتوباً. وقال فى المستخرج: وإن من قرية إلا نحن مهلكوها؛ الصالحة بالإفناء، والطارحة بالبلاء، أو معذبوها بالسيف؛ إذا ظهر فيهم الزنى والربا. هـ. قال ابن جزى: روى أن هلاك مكة بالحبشة، والمدينة بالجوع، والكوفة بالترك، والأندلس بالخيول. ثم قال: وأما هلاك قرطبة وأشبيلية وطليطلة وغيرها، فبأخذ الروم لها. هـ. قلت: قد استولى العدو على الأندلس كلها فهو خرابها. أعاد الله عمارتها بالإسلام. آمين.

وقال فى حسن المحاضرة: وأخرج الحاكم فى المستدرک عن كعب قال: الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية - والجزيرة أرض بالبصرة، وموضع باليمامة، لا جزيرة الأندلس - ثم قال: ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب الجزيرة: والكوفة آمنة من الخراب حتى تخرب مصر، ولا تكون الملحمة حتى تخرب الكوفة، ولا تفتح مدينة الكفر حتى تكون الملحمة، ولا يخرج الدجال حتى تفتح مدينة الكفر. قال: وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس، وأورده القرطبى فى التذكرة من حديث حذيفة مرفوعاً: يبدو الخراب فى أطراف الأرض، حتى تخرب مصر، ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب البصرة، وخراب البصرة من العراق، وخراب مصر من جفاف النيل، وخراب مكة من الحبشة، وخراب المدينة من الجوع، وخراب اليمن من الجراد، وخراب الأبلّة من الحصار، وخراب فارس من الصعاليك، وخراب الترك من الديلم، وخراب الديلم من الأرمن، وخراب الأرمن من الخرز، وخراب

الخرز من الترك، وخراب الترك من الصواعق، وخراب السند من الهند، وخراب الهند من الصين، وخراب الصين من الرمل، وخراب الحبشة من الرجفة، وخراب العراق من القحط. هـ .

قلت: وسكت عن المغرب، ولعله المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله» (١). زاد في رواية: وهم أهل المغرب، ورجحه صاحب المدخل (٢)، قال: لأنهم متمسكون بالسنة أكثر من المشرق (٣). والله تعالى أعلم بغيبه.

الإشارة: القرية محل تقرر السر، وهو القلب، فإما أن يهلكه الله بالتلف والضللال، وإما أن يعذبه عذاباً شديداً؛ بالمجاهدات والمكابدات، ثم ينعمه نعيماً كبيراً بالمجاهدات والمكابدات. كان ذلك في الكتاب مسطوراً، فريق في الجنة وفريق في السعير.

ثم أجاب عن تأخر الآيات بعد اقتراحها، فقال:

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾
قلت: (أن نرسل): مفعول منعنا، و(إلا أن كذب): فاعل .

يقول الحق جل جلاله: وما صرفنا عن إرسال الآيات التي اقترحتها قريش بقولهم: اجعل لنا الصفا ذهباً، إلا تكذيب الأولين بها، فهلكوا، وهم أمثالهم في الطبع، كعاد وثمرود، وأنها لو أرسلت لكذبوها، فهلكوا أمثالهم، كما مضت به سنتنا، وقد قضينا في أولنا ألا نستأصلهم؛ لأن فيهم من يؤمن، أو يلد من يؤمن.

ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فقال: ﴿وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ﴾ بسبب سؤالهم، ﴿مُبْصِرَةً﴾؛ بينة ذات إيصار، أو بصائر واضحة الدلالة، يدركها كل من يبصرها. ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾؛ فكفروا بها، أو: فظلموا أنفسهم بسبب عقرها، فهلكوا، ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ﴾ المقترحة ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ من نزول العذاب المستأصل، فإن لم يخافوا نزل بهم، أو: وما نرسل بالآيات غير المقترحة، كالمعجزات وآيات القرآن، إلا تخويفاً بعذاب الآخرة؛ فإن أمر من بعث إليهم مؤخر إلى يوم القيامة. قاله البيضاوي .

(١) أخرجه البخاري في (المناقب. باب ٢٨) ومسلم في (الإمارة، باب قوله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، من حديث معاوية رضى الله عنه).

(٢) هو ابن الحاج العبدري صاحب المدخل إلى الشرع الشريف.

(٣) في تعيين هذه الطائفة يقول الإمام النووي: يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء محدثون، ومنهم زهاد، وأمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض. هـ.

قال في الحاشية: ومقتضى حديث الكسوف، وقوله فيه: «ذلك يُخوف بهما عباده»: أن التخويف لا يختص بالخوارق، بل يعم غيرها، مما هو معتاد نفيه، ويأتى غيباً. وفي الوجيز: (بالآيات) أى: العبر والدلالات. وفي الورتجى: الآيات هي: الشباب والكهولة والشيبة، وتقلب الأحوال بك، لعلك تعتبر بحال، أو تتعظ بوقت. هـ.

الإشارة: إمساك الكرامات عن المرید السائر أو الولي: رحمة واعتناء به، فاعله؛ حين تظهر له، يقف معها ويستحسن حاله، أو يزكى نفسه ويرفع عنها عصا التأديب، فيقف عن السير، ويحرم الوصول إلى غاية الكمال، وفي الحكم: «ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها، إلا نادته هواتف الحقيقة: الذي تطلب أمامك». وقال الششتري رحمه الله:

ومهما ترى كل المراتب تجتلى عليك، فحل عنها، فعن مثلها حلنا
وقل: ليس لي في غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى، ولا طرفة تجلى

ولما نزه تعالى نفسه في أول السورة عن الجهة، التي توهمها قضية الإسراء، صرح هنا بأنه محيط بكل مكان وزمان، لا يختص بمكان دون مكان، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ ﴿٦٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ فيما أوحينا إليك ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ علماً وقدره، وأسراراً وأنواراً، كما يليق بجلاله وتجليه، فلا يختص بمكان ولا زمان، بل هو مظهر الزمان والمكان، وقد كان ولا زمان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان، ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك﴾ في قضية الإسراء، قال ابن عباس: «هي رؤيا عين، حيث رأى أنوار جبروته في أعلى عليين، وشاهد أسرار ذاته أريناك ذلك في ذلك المكان ﴿إلا فتنة للناس﴾؛ اختباراً لهم، من يصدق بذلك ولا يكيف، ومن يجحد من الكفرة. ومن يقف مع ظاهره، فيقع في التجسيم والتحيز، ومن تنهضه السابقة إلى التعشق؛ فيجاهد نفسه حتى تعرج روحه إلى عالم الملكوت، فتكاشف بإحاطة أسرار الذات بكل شيء.

وإنما خص الحق تعالى إحاطته بالناس، مع أنه محيط بكل شيء، كما في الآية الأخرى: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ (١)؛ لأنهم المقصودون بالذات من هذا العالم، وما خلق إلا لأجلهم. فاكتفى بالإحاطة بهم عن إحاطته بكل شيء.

(١) من الآية ٥٤ من سورة فصلت.

ثم قال تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ وهي: شجرة الزقوم، أي: ما جعلناها إلا فتنه للناس. وذلك أن قريشاً لما سمعوا أن في جهنم شجرة الزقوم، سخروا من ذلك، فافتتنوا بها، حيث أنكروها، وكفروا بالقرآن، وقالوا: كيف تكون شجرة في النار، والنار تحرق الشجر؟! وقفوا مع الإلف والعادة، ولم ينفذوا إلى عموم تعلق القدرة. ومن قدر على حفظ وير السمندل^(١) منها، وهو يمشي فيها، قدر على أن يخلق في النار شجرة، ولم تحرقها. وقال أبو جهل: ما أعرف الزقوم إلا التمر بالزبد. فإن قيل: أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟ فالجواب: أن المراد لعنة أكلها، وقيل: إن اللعنة هنا بمعنى الإبعاد، وهي في أصل الجحيم.

قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بأنواع التخويف، أو بالزقوم، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾؛ عتواً مجاززاً للحد.

الإشارة: الأكوام ثابتة بإثباته، محوكة بأحدية ذاته. فإذا انمحت الأكوام ثبتت وحدة المكون. وكان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما كان عليه، من قامت به الأشياء، وهو وجودها ونور ذاتها، ومحيط بها، كيف تحصره، أو تحيزه، أو تحول بينه وبين موجوداته؟ قيل لسيدنا علي - كرم الله وجهه -: يا ابن عم رسول الله ﷺ: أين كان ربنا قبل خلق الأشياء؟ فتغير وجهه، وسكت، ثم قال: قولكم: أين؟ يقتضى المكان، وكان الله ولا زمان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان. هـ.

وقال الشيخ الشاذلي: (قيل لي: يا علي؛ بي قل، وعلى دل، وأنا الكل). وفي الحديث: «لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ، بِيَدِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ»، ولا يفهم هذا على التحقيق إلا أهل الذوق، بصحبة أهل الذوق. وإلا فسلم تسلم، واعتقد التنزيه وبطلان التشبيه. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم بين عداوة إبليس المتقدمة في قوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَظَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾

(١) السمندل: طائر، إذا انقطع نسله، وهريم، ألقى نفسه في الجمر، فيعود إلى شبابه. وقيل: هو دابة، يدخل النار فلا تحرقه.. انظر اللسان (سمندل ٣/٢١٠٥)

قلت: (طينا): منصوب على إسقاط الخافض، أو: حال من الراجع إلى الموصول، و(أرايتك): الكاف للخطاب، لا موضع لها. وتقدم الكلام عليه في سورة الأنعام^(١). و(هذا): مفعول «أرايت»، و(جزاء): مصدر، والعامل فيه: «جزاءكم»، فإن المصدر ينصب بمثله أو فعله أو وصفه، وقيل: حال موطلة لقوله: «موفورا».

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿﴾ إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ﴿﴾ امتنع، و﴿﴾ قال أأسجد لمن خلقت طيناً ﴿﴾ أي: من طين؛ فهو أصله من الطين، وأنا أصلى من النار، فكيف أسجد له وأنا خير منه؟! ثم ﴿﴾ قال ﴿﴾ إبليس: ﴿﴾ أرايتك هذا الذي كرمته علي ﴿﴾ أي: أخبرني عن هذا الذي كرمته علي؛ بأمرى بالسجود له، لم كرمته علي؟ ﴿﴾ لئن أخرتن ﴿﴾ أي: والله لئن أخرتن ﴿﴾ إلى يوم القيامة لأحتكن ﴿﴾؛ لأستأصلن؛ من احتكت السنة أموالهم؛ أي: استأصلتها. أي: لأهلكن ﴿﴾ ذريته ﴿﴾؛ بالإغواء والإضلال، ﴿﴾ إلا قليلاً ﴿﴾؛ أو: لأميلنهم وأقودنهم، مأخوذ من تحنيك الدابة، وهو أن يشد على حنكها بحبل فتتقاد. أي: لأقودنهم إلى عصيانك، إلا قليلاً، فلا أقدر أن أقاوم شكيمتهم؛ لما سبق لهم من العناية.

قال ابن عطية: وحكم إبليس على ذرية آدم بهذا الحكم؛ من حيث رأى الخلقة مجوفةً مختلفة الأجزاء، وما اقترن بها من الشهوات والعوارض؛ كالغضب ونحوه، ثم استثنى القليل؛ لعلمه أنه لا بد أن يكون في ذريته من يصلب في طاعة الله. هـ. قلت: إنما يحتاج إلى هذا: من وقف مع ظاهر الحكمة في عالم الحس، وأما من نفذ إلى شهود القدرة في عالم المعاني: فلا.

﴿﴾ قال ﴿﴾ تعالى: ﴿﴾ اذهب ﴿﴾؛ امض لما قصدته، وهو: طرد وتخليه لما بينه وبين ما سولت له نفسه. ﴿﴾ فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم ﴿﴾؛ التفت إلى الخطاب، وكان الأصل أن يقال: جزاؤهم، بضمير الغيبة؛ ليرجع إلى «من تبعك»، لكنه غلب المخاطب؛ ليدخل إبليس معهم، فتجاوزن على ما فعلتم ﴿﴾ جزاء موفورا ﴿﴾؛ وافراً مكملًا، لا نقص فيه. ﴿﴾ واستفزز ﴿﴾؛ استخفف، أو اخدع ﴿﴾ من استطعت منهم ﴿﴾ أن تستفز ﴿﴾ بصوتك ﴿﴾؛ بدعائك إلى الفساد، ﴿﴾ وأجلب عليهم ﴿﴾ أي: صبح عليهم، من الجلبة، وهي: الصياح، ﴿﴾ بخيلك ورجلك ﴿﴾؛ أي: بأعوانك؛ من راكب وراجل، قيل: هو مجاز، أي: أفل بهم جهدك. وقيل: إن له من الشياطين خيلاً ورجالاً. وقيل: المراد: بيان الركابين في طلب المعاصي، والماشين إليها بأرجلهم. ﴿﴾ وشاركهم في الأموال ﴿﴾؛ بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام، والتصرف فيها على ما لا ينبغي، كإنفاقها في المعاصي، ﴿﴾ والأولاد ﴿﴾؛ بالحث على التوصل إلى الولد بالسبب الحرام، كالزنى وشبهه من فساد الأنكحة، وكتسمية الولد عبد شمس وعبد الحارث وعبد العزى.

(١) راجع تفسير الآية ٤٠ من سورة الأنعام.

وقال في الإحياء: قال يونس بن زيد: بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن، ثم ينشأون معهم. قال ابن عطية: وما أدخله النقاش؛ من وطء الجن، وأنه يحبل المرأة من الإنس، فضعيف كله. هـ. قال في الحاشية: وضعفه ظاهر، والآية مشيرة لرده؛ لأنها إنما أثبتت المشاركة في الولد، لا في الإيلاء، فإنه لم يرد، ولو قيل به لكان ذريعة لفساد كبير، وكان شبهة يذراً بها الحد، ولا قائل بذلك. وانظر الثعالبي الجزائري؛ فقد ذكر حكاية في المشاركة في الوطء عمن اتفق له ذلك، فأنه أعلم. وأما عكس ذلك؛ إيلاء الإنسى الجنية، فأمر لا يحيله العقل، وقد جاء الخبر به في أمر بلقيس^(١). قاله المحشى الفاسى.

﴿وَعَدُهُمْ﴾ بأن لا بعث ولا حساب، أو المواعد الباطلة؛ كشقاعة الآلهة، والاتكال على كرامة الآباء، وتأخير التوبة، وطول الأمل، ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ وباطلاً. والغرور: تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب. قاله البيضاوى.

الإشارة: ينبغى لك أيها الإنسان أن تكون مضاداً للشيطان، فإذا امتنع من الخضوع لآدم فاحضن أنت لأولاد آدم؛ بالتواضع واللين، وإذا كان هو مجتهداً فى إغواء بنى آدم بما يقدر عليه، فاجتهد أنت فى نصحتهم وإرشادهم، وتعليمهم ووعظهم وتذكيرهم، بقدر ما يمكنك، واستعمل السير إليهم بخيلك ورجلك، حتى تنقذهم من غروره وكيده. وإذا كان هو يدلهم على الشرك الجلى والخفى، فى أموالهم وأولادهم، فدلهم أنت على التوحيد، والإخلاص، فى اعتقادهم وأعمالهم وأموالهم. وإذا كان يعدهم بالمواعد الكاذبة، فعدهم أنت بالمواعد الصادقة؛ كحسن الظن بالله، إن صحبه العمل بما يرضيه. فإن فعلت هذا كنت من عباد الله الذين ليس له عليهم سلطان، كما أشار إليهم بقوله:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ ٦٥ رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَاتِبٌ بِكُمْ رَحِيمًا ٦٦ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ٦٧ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وُكُيلًا ٦٨ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وُكُيلًا ٦٩ تَبِعَا ٦٩ ﴿﴾

قلت: (أفأمنتم): الهمزة للتوبيخ، والفاء للعطف على محذوف، أى: أنجوت من البحر فأمنتم.

(١) قصة سيدنا سليمان من أكثر القصص امتلاء بالإسرائيليات، فعليك بما هو فى القرآن، وما صح من حديث رسولنا الكريم ﷺ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ المخلصين، الذين يتوكلون علىّ في جميع أمورهم، ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أى: تسلط وقدره على إغوائهم؛ حيث التجأوا إلىّ، واتخذوني وكيلاً؛ ﴿وَكُفَىٰ بَرَبِكَ وَكِيلًا﴾؛ حافظاً لمن توكل عليه، فيحفظهم منك ومن أتباعك.

ثم ذكر ما يثبت على التعلق به، والتوكل عليه في جميع الأحوال الدينية والدنيوية، فقال: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي﴾؛ يجرى ﴿لَكُمْ الْفَلَكَ﴾ ويسيرها ﴿فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالتجارة والريح، وجلب أنواع الأمتعة التي لا تكون عندهم، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ في تسخيرها لكم؛ حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه في سيرها، وسهل عليكم ما يعسر من أسباب معاشكم ومعادكم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ يعنى: خوف الغرق، ﴿ضَلَّ﴾؛ غاب عنكم ﴿مَنْ تَدْعُونَ﴾؛ من تعبدون من الآلهة. أو: من تستغيثون به في حوادثكم، ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وحده، فإنكم حينئذ لا يخطر ببالكم سواه، ولا تدعون، لكشفه، إلا إياه، فكيف تعبدون غيره، وأنتم لا تجدون في تلك الشدة إلا إياه؟ ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ من الغرق ﴿إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن التوحيد، أو عن شكر النعمة، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ بالنعم، جحوداً لها، إلا القليل، وهو كالتعليل للإعراض.

﴿أَفَأَمِنْتُمْ﴾ أى: أنجوت من البحر، وأمنتم ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾؛ بأن يقلبه عليكم وأنتم عليه، أو يخسف بكم في جوفه، كما فعل بقارون، ﴿أَوْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أى: ريحاً حاصباً، يرميكم بحصباء كقوم لوط، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾؛ حافظاً لكم منه، فإنه لا راد لفعله. ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾؛ بأن يخلق فيكم دواعي تحملكم إلى أن ترجعوا لتركبوا فيه؛ ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ أى: ريحاً شديدة، لا تمر بشيء إلا قصفته، أى: كسرتة، ﴿فَيُغْرِقَكُمْ﴾؛ وعن يعقوب: «فتغرقكم»؛ على إسناده إلى ضمير الريح. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: بنون التكلم في الخمسة. يفعل ذلك بكم ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾؛ بكفركم، أى: بسبب إشراككم، أو كفرانكم نعمة الإنجاء، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾؛ مطالباً باتباعنا بشاركم، كقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (١)، أو: لا تجدوا نصيراً ينصركم منه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: العباد الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، هم الذين أضافهم إلى نفسه؛ بأن اصطفاهم لحضرة قدسه، وشغلهم بذكره وأنسه، لم يركنوا إلى شيء سواه، ولم يلتجئوا إلا إلى حماه. فلا جرم أنه يحفظهم برعايته، ويكلوهم بسابق عنايته. فظواهرهم قائمة بآداب العبودية، وبواطنهم مستغرقة في شهود عظمة الربوبية. فلما قاموا بخدمة الرحمن، حال بينهم وبين كيد الشيطان، وقال لهم: ربكم الذي يزجي لكم فلك الفكرة في بحر الرعدة؛ لتبتغوا

(١) الآية ١٥ من سورة الشمن.

الوصول إلى حضرة الأحدية، إنه كان بكم رحيماً. ثم إذا غلب عليكم بحر الحقيقة، وغرقتم في تيار الذات، غاب عنكم كل ما سواه، وطلبتم منه الرجوع إلى بر الشريعة، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم عن شهود السوى، وجحدتم وجوده، لكن القلوب بيد الرحمن، يُقلبها كيف شاء؛ فلا يأمن العارف من المكر، ولو بلغ ما بلغ، ولذلك قال: أقأمتم أن يخسف بكم جانب البر؛ فتغرقون في الحس، وتشتغلون بعبادة الحس، أو يرسل عليكم حاصباً: واراداً قهَّارياً، يُخرجكم عن حد الاعتدال، أم أمتم أن يعيدكم في بحر الحقيقة، تارة أخرى، بعد الرجوع للبقاء، فيرسل عليكم وارداً قهَّارياً يخرجكم عن حد الاعتدال، ويحطكم عن ذروة الكمال، ثم لا تجدوا لكم علينا به نبيعا. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر كرامة بنى آدم، وتفضيلهم؛ ردّاً لقول الشيطان «أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ»، فقال :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ قاطبة، برهم وفاجرهم، أى: كرمناهم بالصورة الحسنة، والقامة المعتدلة، والتميز بالعقل، والإفهام بالكلام، والإشارة والخط، والتهدى إلى أسباب المعاش والمعاد، والتسلط على ما فى الأرض، والتمتع به، والتمكن من الصناعات، وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة. ومن جملة: ما ذكره ابن عباس رضي الله عنه؛ من أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه، إلا الإنسان يرفعه إليه بيده، وأما القرد فيده بمنزلة رجله؛ لأنه يطأ بها القاذورات؛ فسقطت حرمتها.

﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ ﴾ أى: بنى آدم، ﴿ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾؛ على الدواب والسفن؛ فيمشون محمولين فى البر والبحر. يقال: حملته حملاً؛ إذا جعلت له ما يركب. ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾؛ من فنون النعم، وضروب المستلذات مما يحصل بصنعهم وبغير صنعهم، ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ ﴾ بالعلوم والإدراكات، مما ركبنا فيهم ﴿ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا ﴾ وهم: من عدا الملائكة - عليهم السلام -.. ﴿ تَفْضِيلًا ﴾ عظيمًا، فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ولا يكفروها، ويستعملوا قواهم فى تحصيل العقائد الحقيّة، ويرفضوا ما هم عليه من الشرك، الذى لا يقبله أحد ممن له أدنى تمييز، فضلاً عن فضل على من عدا الملائكة الأعلى، والمستثنى جنس الملائكة، أو الخواص منهم، ولا يلزم من عدم تفضيل الجنس؛ عدم تفضيل جنس بنى آدم على الملائكة، عدم تفضيل بعض أجزائه؛ كالأنبياء والرسل، فإنهم أفضل من خواص الملائكة، وخواص الملائكة - كالمقربين مثلاً - أفضل من خواص بنى آدم، كالأولياء، والأولياء أفضل من عوام الملائكة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد كرم الله هذا الآدمي، وشرفه على خلقه؛ بخصائص جعلها فيه، منها: أنه جعله نسخة من الوجود، فيه ما في الوجود، وزيادة، قد انطوت فيه العوالم بأسرها، من عرشها إلى فرشها، وإلى هذا المعنى أشار ابن البناء، في مباحثه، حيث قال:

يا سابقاً في موكب الإبداع	ولا حيقاً في جيش الاختراع
اعقل فأنت نسخة الوجود	لله ما أعلاك من موجود
أليس فيك العرش والكرسي	والعالم العلوي والسفلي
ما الكون إلا رجل كبير	وأنت كون مثله صغير

وقال آخر:

إذا كنت كُرسياً، وعرشاً، وجنة،	وناراً، وأفلاكاً تدور، وأملاكاً
وكنت من السر المصون حقيقة	وأدركت هذا بالحقيقة إدراكاً
فقيم التاني في الحضيض؛ تثبطاً	مقيماً مع الأمري، أما أن إسراكاً؟!

ومنها: أنه جعله خليفة في ملكه، وجعل الوجود بأسره خادماً له، ومنافعاً به، الأرض تقيه، والسماء تظله، والجهات تكتفه، والحيوانات تخدمه، والملائكة تستغفر له، إلى غير ذلك مما لا يعلمه الخلق. قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ (١).

ومنها: أن جعل ذاته مشتملة على الضدين: النور والظلمة، الكثافة واللطفة، الروحانية والبشرية، الحس والمعنى، القدرة والحكمة، العبودية وأسرار الربوبية، إلى غير ذلك. ولذلك خصه بحمل الأمانة.

ومنها: أنه جعله قلب الوجود، هو المنظور إليه من هذا العالم، وهو المقصود الأعظم من إيجاد هذا الكون، فهو المنعم دون غيره، إن أطاع الله، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ (٢)، فنعيم الجنان خاص بهذا الإنسان، أو: من التحق به من مؤمنى الجان. وقال الورتجبي: كرامة الله تعالى لبني آدم سابقة

(١) من الآية ١٣ من سورة الجاثية.

(٢) من الآية ٧٥ من سورة الزمر.

على كون الخلق جميعاً؛ لأنها من صفاته، واختياره، ومشيئته الأولية. أوجد الخلق برحمته، وخلق آدم وذريته بكرامته، الخلق كلهم في حيز الرحمة، وآدم وذريته في حيز الكرامة. الرحمة للعموم، والكرامة للخصوص. خلق الكل لآدم وذريته، وخلق آدم وذريته لنفسه، ولذلك قال: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (١)، جعل آدم خليفته، وجعل ذريته خلفاء أبيهم، الملائكة والجن في خدمتهم، والأمر والنهي والخطاب معهم، والكتاب أنزل إليهم، والجنة والنار والسموات والأرض والشمس والقمر والنجوم، وجميع الآيات، خلق لهم. والخلق كلهم طُفيل لهم، ألا ترى الله يقول لحبيبه ﷺ: «لولاك ما خلقت الكون»؟ ولهم كرامة الظاهر، وهي: تسوية خلقهم، وظرافة صورهم، وحسن نظرتهم، وجمال وجوههم، حيث خلق فيها السمع والأبصار والألسنة، واستواء القامة، وحسن المشي، والبطش، وإسماع الكلام، والتكلم باللسان، والنظر بالبصر، وجميع ذلك ميراث فطرة آدم، التي صدرت من حسن اصطناع صورته. الذي قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (٢)، فنور وجوههم من معادن نور الصفة، وأنوار الصفات نور آدم وذريته، فتكون نوراً من حيث الصفات والهيئات، والحسن والجمال، متصفون متخلقون بالصفات الأزلية، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «خلق آدم على صورته»؛ من حيث التخلق لا من حيث التشبيه. انظر تمامه. والحاصل أنه فضلهم بالخلق والخلق، وذلك يجمع محاسن الصورة الظاهرة والباطنة هـ. قاله المحشى الفاسى.

ثم ذكر محل ظهور كرامة بنى آدم، وهو يوم القيامة، فقال:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

قلت: يجوز في (أعمى) - الثانى -: أن يكون وصفاً كالأول، وأن يكون من أفعال التفضيل، وهو أرجح؛ لعطف «وأضل» عليه، الذى هو للتفضيل. وقال سيبويه: لا يجوز أن يقال: هو أعمى من كذا، وإنما يقال: هو أشد عمى، لكن إنما يمتنع ذلك فى عمى البصر، لا فى عمى القلب. قاله ابن جزى.

يقول الحق جل جلاله: «وانكر» يوم ندعو كل أناس بإمامهم؛ بنبيهم. فيقال: يا أمة فلان، يا أمة فلان، احضروا للحساب. أو: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا صاحب الخير ويا صاحب الشر، فهو مناسب لقوله: (فمن أوتى...) إلخ.

(١) من الآية ٤١ من سورة طه.

(٢) من الآية ٧٥ من سورة ص.

وقال محمد بن كعب القرظي: بأسماء أمهاتهم، فيكون جمع «أم»، كخف وخفاف، لكن في الحديث: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم»^(١)، ولعل ما قاله القرظي مخصوص بأولاد الزنا. وفي البيضاوي: قيل: بأسمائهم، والحكمة في ذلك: إجلال عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين، وألا يفتضح أولاد الزنى. هـ.

وقال أبو الحسن الصغير: قيل لأبي عمران: هل يدعى الناس بأسمائهم يوم القيامة أو بأبائهم؟ قال: قد جاء في ذلك شيء أنهم يدعون بأسمائهم فلا يفتضحوا. وفي البخاري - باب يدعى الناس بأبائهم، وساق حديث ابن عمر: «يُنصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ ابْنِ فُلَانٍ»^(٢)، فظاهر الحديث أنهم يدعون بأبائهم، وهو الراجح، إلا فيمن لا أب له. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي: فمن أوتى صحيفة أعماله، يومئذ، من أولئك المدعويين بيمينه؛ إظهاراً لخطر الكتاب، وتشريفاً لصاحبه، وتبشيراً له من أول الأمر، ﴿فَأُولَئِكَ يَقرَأُونَ كِتَابَهُمْ﴾ المؤتى لهم. والإشارة إلى «من»: باعتبار معناها؛ لأنها واقعة على الجمع؛ إيذاناً بأنهم حزب مجتمعون على شأن جليل، وإشعاراً بأن قراءتهم لكتبهم يكون على وجه الاجتماع، لا على وجه الانفراد؛ كما في حال الدنيا. وأتى بإشارة البعيد؛ إشعاراً برفع درجاتهم، أي: أولئك المختصون بتلك الكرامة، التي يُشعَرُ بها الإيتاء المذكور، يقرأون كتابهم ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾؛ ولا ينقصون من أجور أعمالهم المرسومة في صحيفتهم أدنى شيء، فإن الفتيل - وهو: قشر النواة - مثل في القلة والحقارة.

ثم ذكر أهل الأخذ بالشمال فقال: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ﴾ الدنيا، التي فعلَ بهم ما فعل من فنون التكريم والتفضيل، ﴿أَعْمَى﴾؛ فاقداً البصيرة، لا يهتدى إلى رشده، ولا يعرف ما أوليائه من نعمة التكرمة والتفضيل، فضلاً عن شكرها والقيام بحقوقها، ولا يستعمل ما أودعنا فيه؛ من العقل والقوى، فيما خلق له من العلوم والمعارف، ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ كذلك، لا يهتدى إلى ما ينجيه مما يرديه؛ لأن الدجاة من العذاب والتنعم بأنواع النعم الأخروية مرتب على العمل في الدنيا، ومعرفة الحق، ومن عمى عنه في الدنيا فهو في الآخرة أشد عمى عما ينجيه، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ عنه؛ لزوال الاستعداد الممكن لسلوك طريق النجاة. وهذا بعينه هو الذي أخذ كتابه

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٩٤/٥)، وأبو داود في (الأدب، باب في تغيير الأسماء) عن أبي الدرداء، وصححه الهيثمي في المجمع (٦٩/٣).

(٢) أخرجه البخاري في (كتاب الأدب، باب يدعى الناس بأبائهم).

بشماله، بدلالة ما سبق من القبيل المقابل، ولعل العدول عن التصريح به إلى ذكره بهذا العنوان؛ للإشعار بالعلة الموجبة له، فإن العمى عن الحق والضلال هو السبب في الأخذ بالشمال، وهذا كقوله في الواقعة: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ (١)، بعد قوله: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٢). والله تعالى أعلم.

الإشارة: يدعو الحق تعالى، يوم القيامة، الأمم إلى الحساب بأنبيائها ورسُلها، ثم يدعُوهم، ثانياً، للكرامة بأشياخها وأئمتها التي كانت تدعوهم إلى الحق على الهدى المحمدي. فيقال: يا أصحاب فلان، يا أصحاب فلان، اذهبوا إلى الجنة، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. وهذا في حق أهل الحق والتحقيق، الدالين على سلوك الشريعة، والتمسك بأنوار الحقيقة؛ ذوقاً وكشفاً، فكل من تبعهم، وسلك منهاجهم، كان من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وهم: أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وأما من لم يكن من حزيهم، ولم يدخل تحت تربيتهم، فإن استعمل عقله وقواه فيما ينجيهِ يوم القيامة؛ كان من الذين يؤتون كتابهم بيمينهم، ولا يظلمون فتيلًا. ومن أهمل عقله واستعمل قواه في البطالة والهوى، كان من القبيل الذي عاش في الدنيا أعمى، ويكون في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، والعياذ بالله.

ثم ذكر نوعاً من هذا القبيل، الذي أعمى الله بصيرته، فقال:

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ۖ﴾ (٧٣) ﴿وَلَوْ لَا أَنْ تُبَشِّرَكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۖ﴾ (٧٤) ﴿إِذَا لَأَذَقَنَّكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۖ﴾ (٧٥) ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ (٧٦) ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۖ﴾ (٧٧)

قلت: «وان»: مخففة من الثقيلة في الموضعين، واسمها: ضمير الشأن، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، أي: إن الشأن قاربوا أن يفتنوك. (وسنة): مفعول مطلق، أي: سن الله ذلك سنة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنْ كَادُوا﴾ أي: كفار العرب، ﴿لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾؛ من أمرنا ونهينا، ووعدنا ووعيدنا، ﴿لَتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾؛ لنقول ما لم أقل لك، مما اقترحوا عليك. نزلت في ثقيف،

(١) الآية ٩٢ من سورة الواقعة

(٢) الآية ٩٠ من نفس السورة.

إذ قالوا للنبي ﷺ: لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصلاً نفتخر بها على العرب: لانعشر، ولا نحضر، ولا نحني في صلاتنا، وكل رباً لنا فهو لنا، وكل رباً علينا فهو موضوع، وأن تمتعنا باللات سنة، وأن تحرم وأدينا كما حرمت مكة، فإذا قالت العرب: لم فعلت؟ قل: الله أمرني بذلك. فأبى عليهم رسول الله ﷺ (١)، وخيب سعيهم. فالآية، على هذا، مدنية. وقيل: في قريش، قالوا للنبي ﷺ: لا نمكك من استلام الحجر، حتى تلم بالهتنا، وتمسها بيدك (٢). وقيل: قالوا: أقبل بعض أمرنا، نقبل بعض أمرك، والآية، حينئذ، مكية كجميع السورة.

﴿ وإذا لا تخذوك خليلاً ﴾ أى: لو فعلت ما أرادوا منك لصرت لهم ولياً رقيباً، ولخرجت من رلايتي، ﴿ ولولا أن ثبتناك ﴾ على ما أنت عليه من الحق؛ بعصمتنا لك، ﴿ لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴾ من الركون، الذى هو أدنى ميل، أى: لولا أن عصمتناك، لقاربت أن تميل إليهم؛ لقوة خدعهم، وشدة احتيالهم. لكن عصمتنا منعك من المقاربة. وهو صريح فى أنه - عليه الصلاة والسلام - ما هم بإجابتهم، مع قوة الداعى إليها، ولا قارب ذلك. وهو دليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه. قاله البيضاوى. وفيه رد على ابن عطية، حيث قال: قيل: إنه هم بموافقتهم، لكن كان ذلك خطرة، والصواب: عدم ذلك؛ لأن التثبيت والعصمة مانع من ذلك.

وقد أجاد القشيري فى ذلك، ونصه: ضررنا عليك سرادقات العصمة، وآويناك فى كنف الرعاية، وحفظناك عن خطر اتباع هواك، فالزَّلُّ منك محال، والافتراء فى نعتك غير موهوم، ولو جنحت لحظة إلى جانب الخلاف لتضاعفت عليك شدائد البلاء؛ لكمال قدرِك وعلو شأنك؛ فإن كل من هو أعلى درجة فذنبه - لو حصل - أشد تأثيراً. ﴿ ولولا أن ثبتناك ... ﴾ الآية: لو وكلناك ونفسك، ورفعنا عنك ظل العصمة، لقاربت الإمام بشيء مما لا يجوز من مخالفة أمرنا، ولكننا أفردناك بالحفظ، بما لا تنقاصر عنك آثاره، ولا تغرب عن ساحتك أنواره. ﴿ إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾، هبوط الأكابر على قدر صعودهم . هـ.

﴿ إذا ﴾ أى: لو قاربت أن تركن إليهم أدنى ركون ﴿ لأذقناك ضعف ﴾ عذاب ﴿ الحياة ﴾، ﴿ وضعف ﴾ عذاب ﴿ الممات ﴾، أى: مثلى ما يُعَذَّبُ غيرك فى الدنيا والآخرة؛ لأن خطأ الخطير أخطر. وكأن أصل الكلام: عذاباً ضعفاً فى الحياة، وعذاباً ضعفاً فى الممات، أى: مضاعفاً، ثم حذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، ثم أضيفت

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف: لم أجده، وذكره الثعلبى عن ابن عباس من غير سند. وذكره الواحدى فى الأسباب (ص ٢٩٧) بدون سند أيضاً.

(٢) أخرجه الطبرى (١٥/١٣٠) عن سعيد بن جببر، بسند ضعيف.

إضافة موصوفها. وقيل: الضعف من أسماء العذاب. وقيل: المراد بضعف الحياة: عذاب الآخرة؛ لأن حياته دائمة، وبضعف الممات: عذاب القبر. ﴿ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ يدفع عنك العذاب.

﴿وإن كادوا﴾ أى: كاد أهل مكة ﴿ليستفزونك﴾؛ ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم ﴿من الأرض﴾ التى أنت فيها. وهى: أرض مكة، ﴿ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً﴾؛ إلا زمناً قليلاً. وقد كان كذلك، فإنهم أهلكوا ببدر بعد هجرته ﷺ، وقيل: نزلت فى اليهود؛ فإنهم حسدوا مقام النبى ﷺ بالمدينة، فقالوا: الشام مقام الأنبياء، فإن كنت نبياً فالحق بها حتى نؤمن بك. فوقع ذلك فى قلبه ﷺ، فخرج مرحلة، فنزلت (١)، فرجع ﷺ، ثم قتل منهم بنى قريظة، وأجلى بنى النضير بقليل، ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا﴾ أى: عادته تعالى: أن يهلك من أخرجت رسلهم من بين أظهرهم، فقد سن ذلك فى خلقه، وأضافها إلى الرسل؛ لأنها سنت لأجلهم. ﴿ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾ أى: تغييراً وتبديلاً.

الإشارة: من شأن العارف الكامل أن يأخذ بالعزائم، ويأمر بما يقتل النفوس، ويوصل إلى حضرة القدوس، وهو كل ما يثقل على النفوس، فإن أتاه من يفتنه ويرده إلى الهوى، حفظته العناية، واكتنفته الرعاية، فيقال له: وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك؛ وحى إلهام، لتفتري علينا غيره، فتأمر بالنزول إلى الرخص والتأويلات، وإذا لا تخذوك خليلاً. ولولا أن ثبتناك بالحفظ والرعاية، لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً، وهى: خواطر تخطر ولا تثبت. إذا لأذقناك ضعف الحياة، وهو: الذل والحرص والطمع. وضعف الممات، وهو: السقوط عن مقام المقربين، أهل الروح والريحان. وإن كادوا ليستفزونك من أرض العبودية، ليخرجوك منها إلى إظهار الحرية، من العز والجاه، وإذا لا يلبثون خلافك ممن اتبعك إلا قليلاً؛ لأن من رجع إلى مباشرة الدنيا والحس قل مدده، فيقل انتفاعه، فلا يتبعه إلا القليل. هذه سنة الله فى أوليائه، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

ثم أمر بمراسم الشريعة، التى هى عنوان العناية، فقال:

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٧٩)

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٢٣٤١/٧) والبيهقى فى الدلائل (باب ما روى فى سبب خروج النبى ﷺ إلى تبوك عن عبدالرحمن بن غنم، وضعف الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٥٣/٣) هذا القول؛ لأن هذه الآية مكية. وسكنى المدينة بعد ذلك.

قلت: الدلوك: الميل، واشتقاقه من الدُّلْك؛ لأن من نظر إليها حيلَظ ذلك عيْده. واللام للتأقبت بمعنى: عند. و(قرآن): عطف على (الصلاة)، أو منصوب بفعل مضمر، أى: اقرأ قرآن الفجر، أو على الإغراء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أقم الصلاة لدلوك﴾ أى: عند زوال ﴿الشمس﴾، وهو إشارة إلى إقامة الصلوات الخمس، فدلوك الشمس: زوالها؛ وهو إشارة إلى الظهر والعصر، وغسق الليل: ظلمته، وهو إشارة إلى المغرب والعشاء، ﴿وقرآن الفجر﴾؛ صلاة الصبح، وإنما عبّر عن صلاة الصبح بقرآن الفجر؛ لأن القرآن يُقرأ فيها أكثر من غيرها؛ لأنها تُصلى بسورتين طويلتين، ثم مدحها بقوله: ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾؛ تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، أو: يشهده الجم الغفير من المصلين، أو فيه شواهد القدرة؛ من تبدل الظلمة بالضياء، والنوم، الذى هو آخر الموت، بالانتباه.

ثم أمر بقيام الليل فقال: ﴿ومن الليل﴾ أى: بعض الليل ﴿فتهجد به﴾ أى: اترك الهجود، الذى هو النوم فيه، للصلاة بالقرآن، ﴿نافلة لك﴾ أى: فريضة زائدة لك على الصلوات الخمس، أو فريضة زائدة لك؛ لاختصاص وجوبها بك، أو نافلة زائدة لك على الفرائض؛ غير واجبة. وكأنه، لما أمر بالفرائض، أمر بعدها بالنوافل. وتطوعه - عليه الصلاة والسلام؛ لزيادة الدرجات، لا لجبر خال أو تكفير ذنب؛ لأنه مغفور له ما تقدم وما تأخر. ومن: للتبعيض، والضمير فى «به»: للقرآن. والتهجد: السهر، وهو: ترك الهجود، أى: النوم. فالتفعل هنا للإزالة؛ كالتأثم والتحرج، لإزالة الإثم والحرَج.

ثم ذكر ثوابه فى حقه - عليه الصلاة والسلام - فقال: ﴿عسى أن يعثبك ربك مقاماً محموداً﴾ عندك وعند جميع الناس، وهى: الشفاعة العظمى. وفيه تهيؤ لمشقة قيام الليل. روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المقام المحمود هو المقام الذى أشفع فيه لأمتي^(١)». وقال ابن عباس رضي الله عنه: مقاماً محموداً يحمد فيه الأولون والآخرون، ويشرف فيه على جميع الخلائق، يسأل فيعطى، ويشفع فيشفع. وعن حذيفة: يجمع الناس فى سعيد واحد، فلا تتكلم فيه نفس إلا بإذنه، فأول مدعو محمد ﷺ، فيقول: «لبيك وسعديك. والشر ليس إليك، والمهدى من هديت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانه رب البيت». ثم يأذن له فى الشفاعة. والله تعالى أعلم.

وقال ابن العربى المعافى فى أحكامه: وأختلف فى وجه كون قيام الليل سبباً للمقام المحمود على قولين، فقيل: إن البارئ تعالى يجعل ما يشاء من فضله سبباً لفضله، من غير معرفة منا بوجه الحكمة. وقيل: إن قيام الليل فيه

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٤٤١/٢)، والترمذى رحسته فى (التفسير، سورة الإسراء)، والبيهقى فى الدلائل (٤٨٤/٥)، وأصل الحديث عند البخارى ومسلم.

الخلوة به تعالى، والمناجاة معه دون الناس، فيعطى الخلوة به والمناجاة في القيامة، فيكون مقاماً محموداً، ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم. وأجلهم فيه؛ درجة: نبينا محمد ﷺ، فيعطى من المحامد ما لم يعط قبل، ويشفع فيشفع هـ. قال شيخ شيوخنا سيدي عبدالرحمن الفاسي: وقد يقال: إن ذلك مرتب على قوله: (أقم الصلاة..) الآية، ولا يخص بقيام الليل، والصلاة، مطلقاً مفاتحةً للدخول على الله ومناجاةً له، ولذلك جاء في حديث الشفاعة افتتاحه بأن «يخر ساجداً حامداً، فيؤذن حينئذ بالشفاعة». ومن تواضع رفعه الله هـ.

الإشارة: قوم اعتنوا بإقامة صلاة الجوارح، وهم: الصالحون الأبرار، وقوم اعتنوا بإقامة صلاة القلوب، التي هي الصلاة الدائمة، وهم العارفون الكبار، وقوم اعتنوا بسهر الليل في الركوع والسجود، وهم العباد والزهاد والصالحون، أولوا الجد والاجتهاد. وقوم اعتنوا بسهره في فكرة العيان والشهود، وهم المقربون عند الملك الودود. الأولون يوفون أجرهم على التمام بالحرور والولدان، والآخرون يكشف لهم الحجاب ويتمتعون بالنظر على الدوام، الأولون محبوبون، والآخرون محبوبون، الأولون يشفعون في أقاربهم ومن تعلق بهم، والآخرون قد يشفع واحد منهم في أهل عصره. وما ذلك على الله بعزيز.

ولما أمره بالقيام بوظائف العبودية، أمره بالتعلق في أموره كلها بالربوبية، فقال:

﴿ وَقُلْ رَبِّ ادْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾ ﴿ ٨٠ ﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوْقًا ﴿ ٨١ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقل﴾ يا محمد: ﴿رب ادخلي﴾ في الأمور كلها ﴿مدخل صدق﴾؛ بأن أدخل فيها بك لا بنفسى، ﴿وأخرجني﴾ منها ﴿مخرج صدق﴾ كذلك، مصحوباً بالفهم عنك، والإن منك في إدخالى وإخراجى. وقيل: أدخلنى قبرى مدخل صدق راضياً مرضياً، وأخرجنى منه عند البعث مخرج صدق، أى: إخراجاً مرضياً ملقى بالكرامة. فيكون تلقيناً للدعاء بما وعده من البعث، المقرون بالإقامة للمقام المحمود، التى لا كرامة فوقها. وقيل: المراد: إدخال المدينة، والإخراج من مكة. وقيل: إدخاله - عليه الصلاة والسلام - مكة؛ ظاهراً عليها، وإخراجه منها؛ آمناً من المشركين. وقيل: إدخاله الغار، وإخراجه منه سالماً. وقيل: إدخاله فيما حملة من أعباء الرسالة، وإخراجه منه مؤدياً حقه. وقيل: إدخاله فى كل ما يلانمه من مكان أو أمر، وإخراجه منه بالحفظ والرعاية، بحيث يدخل بالله ويخرج بالله. وهو الراجح كما قدمناه.

﴿واجعل لى من لدنك﴾ أى: من مستبطن أمورك، ﴿سلطاناً نصيراً﴾ أى: حجة ظاهرة، تتصرنى على من يخالفنى ويعادينى، أو: عزاً ناصراً للإسلام، مظهراً له على الكفر. فأجيبته دعوته - عليه الصلاة والسلام -

بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١)، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (٢)، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾ (٣) الآية، ويقول: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ...﴾ (٤) الآية. وذلك حين يظهر الحق، ويذهب الباطل، كما قال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي: الإسلام أو الوحي، ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾؛ ذهب، وهلك الكفر والشرك، وتسويات الشيطان؛ ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ﴾ كائنا ما كان زهوقاً أي: شأنه أن يكون مضمحلاً غير ثابت. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَحَوْلَ الْبَيْتِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَمًا، فَجَعَلَ يَطْعَنُ بِمُخَصَّرَةٍ (٥) كَانَتْ بِيَدِهِ فِي عَيْنِ كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَقُولُ: جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، فَيَنْكَبُ لَوَجْهِهِ، حَتَّى أَلْقَى جَمِيعَهَا، وَيَقِي صَلَمَ خُرَاعَةٍ فَوْقَ الْكَعْبَةِ، وَكَانَ مِنْ صَفَرٍ (٦) فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، أَرْمِ بِهِ؛ فَصَدَّ إِلَيْهِ، وَرَمَى بِهِ، فَكَسَرَهُ (٧). هـ.

الإشارة: إذا تمكن العارفون من شهود حضرة القدس ومحل الأنس، وصارت معشش قلوبهم؛ كان نزولهم إلى سماء الحقوق وأرض الحظوظ بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين. فلم ينزلوا إلى سماء الحقوق بسوء الأدب والغفلة، ولا إلى أرض الحظوظ بالشهوة والمتعة، بل دخلوا في ذلك بالله والله، ومن الله وإلى الله، كما في الحكم. ثم قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾؛ ليكون نظري إلى حولك وقوتك إذا أدخلتني، وانقيادي إليك إذا أخرجتني. ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ ينصرني ولا ينصر علي، ينصرني على شهود نفسي، حتى أغيب عنها وعن متعتها وهواها، ويفنيني عن دائرة حسي، حتى تتسع علي دائرة المعاني عندي، وأفضي إلى فضاء الشهود والعيان، فحينئذ يزهد الباطل، وهو ما سوى الله، ويجيء الحق، وهو وجود الحق وحده، فأقول حينئذ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، وإنما أثبتته الوهم والجهل، وإلا فلا ثبوت له؛ ابتداء وانتهاء.

وثبوت الوهم والجهل في القلب: مرض من الأمراض، وشفأؤه في التمسك بما جاء به القرآن العظيم، كما قال

تعالى:

﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٨٢﴾

(١) من الآية ٥٦ من سورة المائدة. (٢) من الآية ٢٣ من سورة التوبة. (٣) من الآية ٥٥ من سورة النور.

(٤) الآيتان: ١٧١ - ١٧٢ من سورة الصافات.

(٥) المخصرة: ما يختصره الإنسان بيده، فيمسكه؛ من عصاً ونحوها... انظر: مختار الصحاح، (خصر). (٦) أي: من نحاس.

(٧) أخرجه البخاري في (التفسير، سورة الإسراء)، ومسلم في (الجهاد، باب فتح مكة).

قلت: (من): للبيان، قدمت على المبين؛ اعتناء، فالقرآن كله شفاء. وقيل: للتبويض، والمعنى: أن منه ما يشفى من المرض الحسى، كالفاتحة وآية الشفاء، ومن المرض المعنوى، كآيات كثيرة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ لما فى الصدور، ومن سقام الريب والجهل، وأدواء الأوهام والشكوك، ﴿ورحمة للمؤمنين﴾ به، العالمين بما احتوى عليه من عجائب الأسرار وغرائب العلوم، المستعملين أفكارهم وقرائحهم فى الغوص على درره وبقايتة، أى: ونزل ما هو تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم، ورفع الأوهام والشكوك عنهم، كالدواء الشافى للمرض، وعن النبى ﷺ: «من لم يستشف بالقرآن لا شفاء الله» (١). ﴿ولا يزيد الظالمين﴾؛ الكافرين المكذبين، الواضعين الأشياء فى غير محلها، مع كونه فى نفسه شفاء من الأسقام، ﴿إلا خساراً﴾؛ إلا هلاكاً بكفرهم وتكذيبهم به. ولا يفسر الخسران هنا بالنقصان؛ فإن ما بهم من داء الكفر والضلال حقيق بأن يعبر عنه بالهلاك، لا بالنقصان المنبئ عن حصول بعض مبادئ الإسلام، فهم فى الزيادة فى مراتب الهلاك، من حيث إنهم، كلما جددوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة ازدادوا بذلك هلاكاً.

وفيه إيماء إلى أن ما بالمؤمنين من الشبهة والشكوك المعترية لهم فى أثناء الاهتداء والاسترشاد، بمنزلة الأمراض، وما بالكفرة؛ من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك، وإسناد زيادة الخسران إلى القرآن، مع أنهم هم المزدادون فى ذلك بسوء صنيعهم؛ باعتبار كونه سبباً لذلك، حيث كذبوا به، وفيه تعجيب من أمره؛ حيث جعله مدار الشفاء والهلاك. قاله أبو السعود.

الإشارة: لا يحصل الاستشفاء بالقرآن إلا بعد التصفية والتطهير للقلب، بالتخلية والتحلية، على يد شيخ كامل، عارف بأدواء النفوس، حتى يتفرغ القلب من الأغيار والأكدار، ويذهب عنه وساوس النفوس وخواطر القلوب؛ ليتفرغ لسماع القرآن والتدبر فى معانيه. وأما إن كان القلب محشواً بصور الأكوان، مصروفاً إلى الخواطر والأغيار، لا يذوق له حلاوة، ولا يدرك ما يقول، فلا يهتدى لما فيه من الشفاء، إذ لا يستشفى بالقرآن إلا من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ولأجل ذلك كان من شأن شيوخ التربية أن يأمرؤا المرید بالذكر المجرد، حتى تشرق عليه أنواره، وتذهب به عنه أغياره. وحينئذ يأمره بتلاوة القرآن؛ ليدوق حلاوته، فإذا كمل تطهيره، تمتع بحلاوة شهود المتكلم، فيسمعه من الحق بلا واسطة، وهو المراد بالرحمة المذكورة بعد الشفاء. والله تعالى أعلم.

وإذا أدرك العبد هذه النعمة العظمى، وجب عليه دوام الشكر، كما نبه عليه تعالى بذكر ضدها، فقال:

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسِ إِمَانَهُ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرْكَانَ يَتُوسَّ ۖ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ (٨٤)

(١) عزاه فى الكنز (٢٨١١٠٦) للدارقطنى فى الأفراد، عن أبى هريرة ربه .

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ ؛ بالصحة والعافية والنعمة، ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكرنا، فضلاً عن القيام بالشكر، ﴿وَنَأَى﴾ أى: تباعد ﴿بجانبه﴾ ؛ لوى عطفه ويعد بنفسه. فالنأى بالجانب: أن يلوى عن الشيء عطفه ويوليه عرض وجهه، فهو تأكيد للإعراض. أو عبارة عن التكبر؛ لأنه من ديدن المستكبرين، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ ؛ من فقر، أو مرض، أو نازلة من النوازل، ﴿كَانَ يَأْسُ﴾ ؛ شديد اليأس من روحنا وفرجنا. وفى إسناد المس إلى الشر، بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة؛ إيذان بأن الخير مراد بالذات، والشر ليس كذلك. وهذا الوصف المذكور هنا هو وصف للإنسان باعتبار بعض أفرادهم ممن هو على هذا الوصف، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُوْ دُعَاءٍ غَرِيضٍ﴾^(١)، ونظائره؛ فإن ذلك فى نوع آخر من جنس الإنسان. وقيل: أريد به الوليد بن المغيرة.

قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أى: كل واحد منكم وممن هو على خلافكم ﴿يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ ؛ على طريقته التى تشاكل حاله من الهدى والضلالة، ﴿فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أى: فربكم، الذى يراكم على هذه الأحوال والطرق، أعلم بمن هو أسدّ طريقاً وأبين منهاجاً. وقد فسرت الشاكلة أيضاً بالطبيعة والعادة والدين والنية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى للمؤمن المشفق على نفسه أن يمعن النظر فى كلام سيده، فإذا وجده مدحاً قومياً بعمل، يادر إلى فعله، أو بوصف، يادر إلى التخلق به، وإذا وجده ذم قومياً، بسبب عمل، تباعد عنه جهده، أو بوصف تطهر منه بالكلية. وقد ذم الحق تعالى هنا من بطر بالنعمة وغفل عن القيام بشكرها، ومن جزع عند المصيبة وأيس من ذهابها، فليكن المؤمن على عكس هذا، فإذا أصابته مصيبة أو بلية تضرع إلى مولاه، ورجى فضله ونواله، وإذا أصابته نعمة دنيوية أو دينية أكثر من شكرها، وشهد المنعم بها فى أخذها وصرفها، ولا سيما نعمة الإيمان والمعرفة، وتصفية الروح من غيش الحس والوهم، حتى ترجع لأصلها، الذى هو سر من أسرار الله، الذى أشار إليه بقوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويسألونك عن الروح﴾ أى: عن حقيقة الروح، الذى هو مدير البدن الإنسانى، ومبدأ حياته. روى أن اليهود قالوا لقريش: سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذى القرنين، وعن الروح،

(١) من الآية ٥١ من سورة فصلت.

فإن أجاب عنها كلها أو سكت فليس بدبى، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي. فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح، وهو مبهم في التوراة، فقال: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾، أظهر في مقام الإضمار؛ إظهاراً لكمال الاعتناء بشرفه، أى: هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية، التى لا يكاد يحوم حولها عقل البشر. ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ لا يمكن تعلقه بأمثال هذه الأسرار.

رؤى أنه ﷺ لما قال لهم ذلك، قالوا: نحن مختصون بهذا الخطاب، قال عليه الصلاة والسلام: «بل نحن وأنتم». فقالوا: ما أعجب شأنك، ساعة تقول: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(١)، وتارة تقول هذا، فنزلت: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾^(٢) الآية. ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...﴾^(٣) الآية. وهذا من ركافة عقولهم؛ فإن من الحكمة الإنسانية أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقة البشرية، بل ما نيظ به المعاش والمعاد، وذلك بالإضافة إلى ما لا نهاية له من متعلقات علمه سبحانه، قليل ينال به خير: كثير فى نفسه.

وقال ابن حجر: أخرج الطبرانى عن ابن عباس أنهم قالوا: أخبرنا عن الروح، وكيف تعذب الروح فى الجسد؛ وإنما الروح من الله؟ هـ. قلت: يجاب بأنها لما برزت لعالم الشهادة لحقتها العبودية، وأحاطت به القهرية. وقال القشيري: أرادوا أن يغالطوه فيما به يجيب، فأمره أن ينطق بأمر يفصح عن أقسام الروح، لأن ما يطلق عليه لفظ «الروح» يدخل تحت قوله: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾، ثم قال: وفى الجملة: الروح مخلوقة، والحق أجرى العادة بأن يخلق الحياة للعبد، ما دام الروح فى جسده، والروح لطيفة تقرب للكثافة فى طهارتها ولطافتها. وهى مخلوقة قبل الأجساد بألوف من السنين. وقيل: إن أدركها التكليف، كان للروح صفاء التسبيح، وضياء المواصل، ويمن التعريف بالحق. هـ. وقيل: المراد بالروح: خلق عظيم روحانى من أعظم الملائكة، وقيل: جبريل عليه السلام، وقيل: القرآن. ومعنى (من أمر ربي)؛ من وحيه وكلامه، لا من كلام البشر. والله تعالى أعلم بمراده.

الإشارة: قد أكثر الناس الكلام فى شأن الروح، فرأى بعضهم أن الإمساك عنها أولى؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يجب عنها. وبين الحق تعالى أنها من أمر الله وسر من أسرارهِ. ورأى بعضهم أن النهى لم يرد عن الخوض فيها صريحاً، فتكلم على قدر فهمه. فقال بعضهم: حقيقة الروح: جسم لطيف مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأرطب، وقال صاحب (الرموز فى فتح الكلوز) على حديث: «من عرف نفسه عرف ربه»: قد ظهر

(١) من الآية ٢٦٩ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٠٩ من سورة الكهف.

(٣) من الآية ٢٧ من سورة لقمان، وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافى الشافى للثعلبى فى التفسير، بغير سند ولا راو.

لى من سر هذا الحديث ما يجب كشفه ويستحسن وصفه، وهو: أن الله، سبحانه، وضع هذا الروح فى هذه الجثة الجثمانية، لطيفة لاهوتية، فى كيفية ناسوتية، دالة على وحدانيته تعالى وربانيته، ووجه الاستدلال من عشرة أوجه: الأول: أن هذا الهيكل الإنسانى لمّا كان مفتقراً إلى محرك ومدبر، وهذا الروح هو الذى يدبره ويحركه، علمنا أن هذا العالم لا بد له من محرك ومدبر. الثانى: لمّا كان مدبر الجسد واحداً علمنا أن مدبر هذا العالم واحد لا شريك له فى تدبيره وتقديره. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (١)، الثالث: لمّا كان لا يتحرك هذا الجسم إلا بتحريك الروح وإرادته؛ علمنا أنه لا يتحرك بخير أو شر إلا بتحريك الله وقدرته وإرادته. الرابع: لمّا كان لا يتحرك فى الجسد شيء إلا بعلم الروح وشعورها، لا يخفى على الروح من حركة الجسد شيء، علمنا أنه تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء. الخامس: لمّا كان هذا الجسد لم يكن فيه شيء أقرب إلى الروح من شيء؛ علمنا أنه تعالى قريب إلى كل شيء، ليس شيء أقرب إليه من شيء، ولا شيء أبعد إليه من شيء، لا بمعنى قرب المسافة؛ لأنه منزّه عن ذلك. السادس: لمّا كان الروح موجوداً قبل الجسد، ويكون موجوداً بعد عدمه؛ علمنا أنه تعالى موجود قبل خلقه، ويكون موجوداً بعد عدمهم، ما زال، ولا يزال، وتقدس عن الزوال. السابع: لمّا كان الروح فى الجسد لا تعرف له كيفية؛ علمنا أنه تعالى مقدس عن الكيفية. الثامن: لمّا كان الروح فى الجسد لا تعرف له كيفية ولا أيديّة، بل الروح موجود فى سائر الجسد، ما خلا منه شيء فى الجسد. كذلك الحق سبحانه موجود فى كل مكان، وتنزه عن المكان والزمان. التاسع: لمّا كان الروح فى الجسد لا يحس ولا يجس ولا يمس، علمنا أنه تعالى منزّه عن الحس والجس والمس. العاشر: لمّا كان الروح فى الجسد لا يدرك بالبصر، ولا يمثل بالصور، علمنا أنه تعالى لا تدركه الأبصار، ولا يمثل بالصور والآثار، ولا يشبه بالشموس والأقمار، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٢). هـ. وحديث «من عرف نفسه... الخ»، قال النوى: غير ثابت، وقال السمعاني: هو من كلام يحيى ابن معاذ الرازى. والله تعالى أعلم.

وسئل أبو سعيد الخراز عن الروح، أمخلوقة هي؟ قال: نعم. ولولا ذلك لما أقرت بالربوبية حتى قالت: «بلى». قلت: لما انفصلت عن الأصل كستها أودية العبودية، فأقرت بالربوبية. وقال الورتجبي: الروح: شعاع الحقيقة، يختلف آثارها فى الأجساد. قال: ومن خاصيتها أنها تعيل إلى كل حسن ومستحسن، وكل صوت طيب، وكل رائحة طيبة؛ لحسن جوهرها وروح وجودها، ظاهرها غيب الله، وباطنها سر الله، مصورة بصورة آدم، فإذا أراد الله

(١) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

(٢) من الآية ١١ من سورة الشورى.

خلق آدمى أحضر روحه، فصور صورته بصورة الروح؛ فلذلك قال عليه الصلاة والسلام؛ إشارة وإيهاما: «خلق الله آدم على صورته». هـ. قلت: يعنى: أن إظهار الروح من بحر الجبروت، فى التجلى الأول، كان على صورة آدم، ثم خلق آدم على صورة الروح الأعظم، وهو التجلى الأول من بحر المعانى، فكانت أول التجليات من ذات الرحمن، فقال فى حديث آخر: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن». والله تعالى أعلم. وقيل: الصوت الطيب روحانى، ولتساكله مع الروح، صار يهيج الروح ويحثها للرجوع لأصلها، إذا كان صاحبها له ذوق سليم، يسمع من صوت طيب كريم. سمع أبو يزيد نغمة، فقال: أجد النغم نداء منه تعالى. وقيل: إن الروح لم تدخل فى جسد آدم إلا بالسمع، فصارت لا تخرج من سجنه إلا بالسمع. والله تعالى أعلم.

ثم بين قوله: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾، فقال:

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۖ
إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۖ﴾ ^(٨٧) قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا
بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۖ﴾ ^(٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا
الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۖ﴾ ^(٨٩)

قلت: قال ابن جزى: هذه الآية متصلة المعنى بقوله: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ أى: فى قدرتنا أن نذهب بالذى أوحينا إليك، فلا يبقى عندكم شيء من العلم. هـ. ((إلا رحمة)): يحتمل أن يكون متصلاً، أى: لا تجد من يتوكل برده إلا رحمة ربك. أو منقطعاً، أى: لو شئنا لذهبنا بالقرآن، لكن رحمة من ربك تمسكه من الذهاب، و(لا يأتون): جواب القسم؛ الدال عليه اللام الموطنة، وسد مسد جواب الشرط. ولولا اللام لكان جواباً للشرط، ولم يجزم؛ لكون الشرط ماضياً، كقول زهير:

فإن أتاه خليل يوم مسألة
يقول لا غائب ما لى ولا حرم ^(١)

و((إلا كفورا)): استثناء مفرغ منصوب بأبى؛ لأنه فى معنى النفى، أى: ما رضى أكثرهم إلا الكفر به.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك﴾ أى: بالقرآن الذى هو منبع العلوم التى أوتيتموها، ومقتبس الأنوار، فلا يبقى عندكم من العلم إلا قليلاً. والمراد بالإذهاب: المحو من المصاحف

(١) انظر ديوانه / ٩١.

والصدور. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: (أول ما تفقدون من دينكم: الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، وليصلين قوم ولادين لهم. وإن هذا القرآن تصبحون يوماً وما فيكم منه شيء. فقال رجل: كيف ذلك، وقد أثبتناه في قلوبنا، ودوناه في مصاحفنا، وعلمناه أبناءنا، وأبناؤنا يعلمه أبناءهم؟ فقال: يسرى عليه، ليلاً، فيصبح الناس منه فقراء، ترفع المصاحف، وينزع ما في القلوب) (١). ﴿ثم﴾ إن رفعا ﴿لا تجد لك به﴾ أي: القرآن ﴿علينا وكيلاً﴾ أي: من يتوكل علينا استرداده مسطوراً محفوظاً، ﴿إلا رحمة من ربك﴾؛ فإنها إن تأتت لعلها تسترده، أو: لكن رحمة من ربك أمسكتها فلم يذهب. ﴿إن فضله كان عليك كبيراً﴾، كإرسالك للناس كافة، وإنزال الكتاب عليك، وإنعامه في حفظك، وغير ذلك مما لا يحصى.

ثم نوه بقدر الكتاب الذي أنزله فقال: ﴿قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُ﴾، وانفقوا ﴿على أن يأتوا بمثل هذا القرآن﴾ المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجائلة في البلاغة، وحسن النظم، وكمال المعنى، ﴿لا يأتون بمثله﴾ أبداً؛ لما تضمنه من العلوم الإلهية، والبراهين الواضحة، والمعاني العجيبة، التي لم يكن لأحد بها علم، ثم جاءت فيه على الكمال، ولذلك عجزوا عن معارضته. وقال أكثر الناس: إنما عجزوا عنه؛ لفصاحته، وبراعته، وحسن نظمه. ووجوه إعجازه كثيرة. وإنما خص الثقلين بالذكر؛ لأن المنكر كونه من عند الله منهما، لا لأن غيرهما قادر على المعارضة. وإنما أظهر في محل الإضمار، ولم يقل: لا يأتون به؛ لئلا يتوهم أن له مثلاً معينا، وإذناً بأن المراد نفى الإتيان بمثل ما، أي: لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات البديعة، وفيهم العرب العاربة، أرياب البراعة والبيان. فلا يقدرون على الإتيان بمثله ﴿ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ أي: ولو تظاهروا وتعاونوا على الإتيان بمثله ما قدروا. وهو عطف على مقدر، أي: لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيراً لبعض، ولو كان.. الخ. ومحل النصب على الحالية، أي: لا يأتون بمثله على كل حال مفروض، ولو على هذه الحالة.

ثم قال تعالى: ﴿ولقد صرّفنا﴾ أي: كررنا ورددنا على أنحاء مختلفة، نوجب زيادة تقرير وبيان، ووكادة رسوخ واطمئنان، ﴿للناس في هذا القرآن﴾ المنعوت بما ذكر من النعوت الفاضلة، ﴿من كل مثلاً﴾؛ من كل معنى بديع، هو، في الحسن والغرابة واستجلاب الأنفس، كالمثل؛ ليتلقوه بالقبول، أو بيّناً لهم كل شيء محتاجون إليه من العلوم النافعة، والبراهين القاطعة، والحجج الواضحة. وهذا يدل على أن إعجاز القرآن هو بما فيه من

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (باب في الأمانات../٥٢٧٣) ببعض الاختصار، موقوفاً.

المعاني والعلوم، ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾؛ إلا جحوداً وامتناعاً من قبوله. وفيه من المبالغة ما ليس في نفى مطلق الإيمان؛ لأن فيه دلالة على أنهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفور والجحود، وأنهم بالغوا في عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الإباء. وبالله التوفيق.

الإشارة: كما وقع التخويف بإذهاب خصوصية النبوة والرسالة، يقع التخويف بإذهاب خصوصية الولاية والمعرفة العيانية، فإن القلوب بيد الله، يقلبها كيف يشاء. والخصوصية أمانة مودعة في القلوب، فإذا شاء رفعها رفعها، ولذلك كان العارف لا يزول اضطرابه. وما زالت الأكابر يخافون من السلب بعد العطاء، ويشدون أيديهم على الأدب؛ لأن سوء الأدب هو سبب رفع الخصوصية، والعياذ بالله.

قال القشيري: سنة الحق مع خيار خواصه؛ أن يديم هم شهود افتقارهم إليه؛ ليكونوا في جميع الأحوال متقادين بجريان حكمه، ثم قال: والمراد والمقصود: إدامة تفرد سر حبيبه به، دون غيره. هـ. وأما سلب الأولياء بعضهم لبعض فلا يكون في خصوصية المعرفة بعد التمكين؛ إذ لا مانع لما أعطى الكريم، وإنما يكون في خصوصية التصريف وسر الأسماء، إذا كان أحدهما متمكناً فيه، وقابل من لم يتمكن، قد ينجذب إلى القوى يانن الله، وقد يزال منه إذا طغى به. والله تعالى أعلم.

ثم أظهر الحق تعالى جحودهم وعثرهم، فقال:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۚ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالَهُ الْمَلَائِكَةُ فَيَلَّا ۚ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ نُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۚ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝﴾

قلت: من قرأ «كسفاً»؛ بالتحريك: فهو جمع. ومن قرأ بالسكون: فمفرد. و(قبيلاً): حال من «الله». وحذف حال الملائكة؛ لدلالة الأول عليه. و(أن يؤمنوا): مفعول ثانٍ لمنع. و(إلا أن قالوا): فاعل «منع».

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا﴾ أي: كفار قريش، عند ظهور عجزهم، ووضوح مغلوبيتهم بالإعجاز التنزيلي، وغيره من المعجزات الباهرة، معطلين بما لا يمكن في العادة وجوده، ولا تقتضي الحكمة وقوعه، من الأمور الخارقة للعادة، كما هو بين المبهوت المحجوج، قالوا للبي - عليه الصلاة والسلام - في جمع من أشراقهم: إن مكة قليلة الماء، ففجر لنا فيها عيناً من ماء، وهو معنى قوله تعالى: ﴿لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض﴾؛ أرض مكة ﴿ينبوعاً﴾؛ عيناً لا ينشف ماؤها. وينبوع: يفعول، من نبع الماء إذا خرج.

﴿أو تكون لك جنة﴾ أي: بستان يستر أشجاره ما تحتها من العرصة، ﴿من نخيل وعنب فتفجر الأنهار﴾ أي: تجريها بقوة، ﴿خلالها﴾؛ في وسطها ﴿تفجيراً﴾ كثيراً، والمراد: إما إجراء الأنهار خلالها عند سقيها، أو إدامة إجرائها، كما ينبىء عنه «الفاء»، ﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً﴾ (١)؛ قطعاً متعددة، أو قطعاً واحداً، و(كما زعمت): يعنون بذلك قوله تعالى: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ (٢)، ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ أي: مقابلاً؛ نعاينه جهراً، أو ضامناً وكفياً يشهد بصحة ما تدعيه، ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ أي: ذهب. وقرئ به. وأصل الزخرفة: الزينة، ﴿أو ترقى في السماء﴾ أي: في معارجها؛ فحذف المضاف. ﴿ولن تؤمن لرقيق﴾ أي: لأجل رقيق فيها وحده ﴿حتى تنزل﴾ منها ﴿علينا كتاباً﴾ فيه تصديقك، ﴿نقرؤه﴾ نحن، من غير أن يتلقى من قبلك. وعن ابن عباس رضي الله عنه: قال عبدالله بن أمية لرسول ﷺ - وكان ابن عمته -: لن أؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر، حتى تأتيها، وتأتي معك بصك منشور، معه أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول. هـ. ثم أسلم عبدالله بعد ذلك. ولم يقصدوا بتلك الاقتراحات الباطلة إلا العناد واللجاج. ولو أنهم أوتوا أضعاف ما اقترحوا من الآيات، ما زادهم ذلك إلا مكابرة. وإلا فقد كان يكفيهم بعض ما شهدوا من المعجزات، التي تخر لها صم الجبال.

قال تعالى للبيه عليه الصلاة والسلام -: ﴿قل﴾؛ تعجباً من شدة شكيمتهم. وفي رواية «قال»: ﴿سبحان ربي﴾؛ تنزيهاً له من أن يتحكم عليه أو يشاركه أحد في قدرته. أو تنزيهاً لساحته - سبحانه - عما لا يليق بها، من مثل هذه الاقتراحات الشنيعة، التي تكاد السموات يتفطرن منها، أو عن طلب ذلك، تنبيهاً على بطلان ما قالوه، ﴿هل كنت إلا بشراً﴾ لا ملكاً، حتى يتصور مني الرقى في السماء ونحوه، ﴿رسولاً﴾؛ مأموراً من قبل ربي

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم: (كسفاً) بفتح السين، أي: قطعاً، جمع كسفة، وقرأ الباقر: بسكون السين؛ على التوحيد، جمع كسفة؛ كسفرة وسدر. انظر: شرح الهداية (٢/٣٩٠)، والإتحاف (٢/٢٠٥).

(٢) من الآية ٩ من سورة سبأ.

بتبليغ الرسالة، كسائر الرسل. وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله على أيديهم، حسبما يلائم حال قومهم، ولم يكن أمر الآيات إليهم، ولا لهم أن يتحكموا على ربهم بشيء منها.

﴿وما منع الناس﴾ أي: الذين حكيت أباطيلهم، ﴿أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى﴾ أي: الوحي، وهو ظرف لمنع، أو يؤمنوا، أي: وما منعهم وقت مجيئ الوحي المقرون بالمعجزات المستدعية للإيمان، أن يؤمنوا بالقرآن وينبئوك، ﴿إلا أن قالوا﴾ أي: إلا قولهم: ﴿أبعث الله بشراً رسولاً﴾، منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر. وليس المراد أن هذا القول صدر من بعضهم؛ فمنع بعضاً آخر منهم، بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل، المستتبّع بهذا القول منهم. وإنما عبّر عنه بالقول؛ إيداناً بأنه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير روية، ولا مصداق له في الخارج. وقصر المانع من الإيمان فيما ذكر، مع أن لهم موانع شتى، إما لأنه معظمها، أو لأنه المانع بحسب الحال، أعنى: عند سماع الجواب بقوله تعالى: ﴿هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾، إذ هو الذي يتشبثون به حينئذ، من غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهية.

﴿قل﴾ لهم من قبلنا، تثبيتاً للحكمة، وتحقيقاً للحق المزيج للريب: ﴿لو كان﴾ أي: لو وجد واستقر ﴿في الأرض﴾؛ بدل البشر ﴿ملائكة يمشون مطمئنين﴾ قارين ساكنين فيها، ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ يهديهم إلى الحق؛ لتمكنهم من الاجتماع به والتلقى منه. وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة مع الملائكة؛ لأنها منوطة بالتناسب والتجانس، فبعث الملائكة إليهم مناقض للحكمة التي يدور عليها أمر التكوين والتشريع. وإنما يبعث الملك إلى الخواص، المختصين بالنفوس الزكية، المؤيدة بالقوة القدسية، فيتلقون منهم ويبلغون إلى البشر.

﴿قل كفى بالله﴾ وحده ﴿شهيداً﴾ على أنى أدبت ما على من مواجب الرسالة، وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد. فهو شهيد ﴿بيني وبينكم﴾، وكفى به شهيداً، ولم يقل: بيننا؛ تحقيقاً للمفارقة، وإبانة للمباينة، ﴿إنه كان بعباده﴾ من الرسل والمرسل إليهم، ﴿خبيراً بصيراً﴾؛ محيطاً بظواهر أعمالهم وبواطنها، فيجازيهم على ذلك. وهو تعليل للكفاية. وفيه تمليّة للرسول - عليه الصلاة والسلام - وتهديد للكفار، والله تعالى أعلم.

الإشارة: طلب الكرامات من الأولياء جهل بطريق الولاية، وسوء الظن بهم، إذ لا يشترط في تحقيق الولاية ظهور الكرامة، وأى كرامة أعظم من كشف الحجاب بينهم وبين محبوبهم، حتى عاينوه وشاهدوه حقاً، وارتفعت عنهم الشكوك والأوهام، وصار شهود الحق عندهم ضرورياً، ووجود السوى محالاً ضرورياً، فلا كرامة أعظم من

هذه؟ وكلامنا مع العارفين، وأما الصالحون والعباد والزهاد فهم محتاجون إلى الكرامة؛ ليزداد إيقانهم، وتطمئن نفوسهم؛ إذ لم يرتفع عنهم الحجاب، ولم تنقش عنهم سحابة الأثر.

والهداية بيد الله، كما قال تعالى:

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ. وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا. وَأَوْرَثْنَا مَا وَرَثَهُمْ جَهَنَّمَ كُلًّا. مَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا: أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾

قلت: (على وجوههم) : حال من ضمير «نحشرهم»، و(عُمِيًّا.. الخ: حال أيضاً من ضمير «وجوههم»، و(أوراهاهم) : استئناف، وكذا: (كلما.. الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ ﴾ إلى الحق الذي جاء من قبله على أيدي الرسل، ﴿ فهو المهتد ﴾ إليه، وإلى ما يؤدي إليه من اللواب، أو فهو المهتدى إلى كل مطلوب، ﴿ ومن يضل ﴾ أى: يخلق فيه الضلال، كهؤلاء المعاندين، ﴿ فلن تجد لهم أولياء من دونه ﴾ ينصرونهم من عذابه، أو يهدونهم إلى طريقه، ويوصلونهم إلى مطالبهم الدنيوية والأخروية. ووجد الضمير أولاً فى قوله: (فهو المهتد): مراعاة للفظ «من»، وجمع ثانياً فى (لهم)؛ مراعاة لمعناها؛ تلويحاً بوحدة طريق الحق، وتعدد طرق الضلال.

﴿ ونحشرهم ﴾، فيه التفات من الغيبة إلى التكلم؛ إيداناً بكمال الاعتناء بأمر الحشر، أى: ونسوقهم ﴿ يوم القيامة على وجوههم ﴾ أى: كابين عليها؛ سحبا، كقوله: ﴿ يوم يسحبون فى النار على وجوههم ﴾ (١)، أو: مشياً إلى المحشر بعد القيام، فقد روى أنه قيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «الذى أمشاهم على أقدامهم قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَمْشِيَهُمْ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ» (٢). حال كونهم ﴿ عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾؛ لا يبصرون ما يقرأ أعينهم، ولا ينطقون بما يقبل منهم، ولا يسمعون ما يلد سامعهم، لما كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر، ولا ينطقون بالحق ولا يستمعونه. ويجوز أن يحشروا، بعد الحساب، من الموقف إلى النار، مؤوفي (٣) القوى والحواس. وأن يحشروا كذلك، ثم تعاد إليهم قواهم وحواسهم، فإن إدراكاتهم بهذه المشاعر فى بعض المواطن مما لا ريب فيه.

(١) من الآية ٤٨ من سورة القمر.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٣٥٥٤/٢)، والترمذى وحسنه فى (ال تفسير - سورة الإسراء) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) مؤوفى: صيغة جمع مضافة، من الآفة، وهى العامة. وإيف الزرع: أصابته آفة، فهو مؤوف؛ على وزن: معوف. انظر مختار الصحاح (أوف).

﴿ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ هي مسكنهم ، ﴿ كَلِمَا خَبَتْ ﴾ ؛ خمدت ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ ؛ توقداً ، أى : كلما سكن لهبها ، وأكلت جلودهم ولحومهم ، ولم يبق فيهم ما تتعلق به النار وتحرقه ، زدناهم توقداً ؛ بأن بدلناهم جلوداً غيرها فعادت ملتهبة ومسكرة . ولعل ذلك عقوبة على إنكارهم البعث مرة بعد مرة ، ليرَوْها عياناً ، حيث لم يعطوها برهاناً ، كما يُفصح عنه قوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى : ذلك العذاب ﴿ جزاؤهم بأنهم ﴾ ؛ بسبب أنهم ﴿ كفروا بآياتنا ﴾ العقلية والنقلية ، الدالة على وقوع الإعادة دلالة واضحة . ﴿ وقالوا ﴾ ؛ منكرين البعث أشد الإنكار : ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أى : أنوجدُ خلقاً جديداً بعد أن صرنا تراباً ؟ وه خلقاً ؛ إما مصدر مؤكد من غير لفظه ، أى : لمبعوثون مبعثاً جديداً ، أو حال ، أى : مخلوقين مستأنفين .

الإشارة : من يهده الله إلى صريح المعرفة وسر الخصوصية فهو المهتد إليها ، يهديه أولاً إلى صحبة أهلها ، فإذا تربى وتهذب أشرفت عليه أنوارها . ومن يضلله عنها ، فلا ينظر ولا يهتدى إلى صحبة أهلها ، فيحشر يوم القيامة محجوباً عن الله ، كما عاش محجوباً . يموت المرء على ما عاش عليه ، ويبعث على ما مات عليه ، لا يبصر أسرار الذات في مظاهر النعيم ، ولا ينطق بالمكالمة مع الرحمن الرحيم ، ولا يسمع مكالمة الحق مع المقربين ؛ وذلك بسبب إنكاره لأهل التربية في زمانه ، وقال : لا يمكن أن يبعث الله من يحيى الأرواح الميتة بالجهل ؛ بالمعرفة الكاملة . وفيه إنكار لعموم القدرة الأزلية ، وتحجير على الحق . والله تعالى أعلم .

ثم ذكر دلائل عموم قدرته ، فقال :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّارْتِيَابٍ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا ۖ ﴿١١﴾ قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ۖ ﴿١٢﴾ ﴾

قلت : (وجعل) : عطف على « قادر » ؛ لأنه في قوة قدر ، أو استئناف . (لو أنتم) : الضمير : فاعل بفعل يفسره ما بعده ، كقول حاتم :

لَوْ نَأَتْ سِوَارٍ لَطَمَنَتْنِي (١) .

وفائدة ذلك الحذف والتفسير ؛ للدلالة على الاختصاص والمبالغة . وقيل في إعرابه غير هذا .

(١) مثل لحاتم الطائي ، انظر ديوانه (٢٦) .

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: أو لم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ من غير مادة، مع عظيمها، ﴿قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ في الصَّغَرِ وَالْحَقَارَةِ. على أن المثل مقحم، أي: على أن يخلقهم خلقاً جديداً؛ فإنهم ليسوا أشد خلقاً منهم، ولا إعادة بأصعب من الإبداء، ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ﴾ أي: لموتهم وبعثهم ﴿أَجَلاً﴾ محققاً ﴿لَارِيبَ فِيهِ﴾ وهو: القيامة. ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً﴾؛ إلا جحوداً، وضع الظاهر موضع الضمير؛ تسجيلاً عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيه.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾؛ خزائن رزقه وسائر نعمه التي أفاضها على كافة الموجودات، ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ﴾؛ لبخلتم، ﴿خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾؛ مخافة النفاق بالإنفاق، إذ ليس في الدنيا أحد إلا وهو يختار النفع لنفسه، ولو أثر غيره بشيء فإنما يؤثره لغرض يفوقه، فهو إذا بخل بالإضافة إلى جود الله سبحانه، إلا من تخلق بخلق الرحمن؛ من الأنبياء وأكابر الصوفية. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً﴾؛ مبالغاً في البخل؛ لأن مبنى أمره على الحاجة والضرورة بما يحتاج إليه، وملاحظة العوض فيما يبذل. يعنى: أن طبع الإنسان ومنتهى نظره: أن الأشياء تنتهي وتنفى، وهو لو ملك خزائن رحمة الله لأمسك خشية الفقر، وكذلك يظن أن قدرة الله تقف دون البعث، والأمر ليس كذلك، بل قدرته لا تنتهي، فهو يخترع من الخلق ما يشاء، ويخترع من الأرزاق ما يريد، فلا يخاف نفاد خزائن رحمته. وبهذا النظر تتصل الآية بما قبلها. انظر ابن عطية.

قلت: ويمكن أن تتصل في المعنى بقوله: (أبعث الله بشراً رسولا)، فكان الحق تعالى يقول لهم: لو كانت بيدكم خزائن رحمته، لخصصتم بالنبوة من تريدون، لكن ليست بيدكم، ولو كانت بيدكم؛ تقديراً، لأمسكتم خشية الإنفاق؛ لأن طبع الإنسان البخل وخوف الفقر، فهو كقوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ (١)، بعد قوله: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ (٢). والله تعالى أعلم.

الإشارة: الحق تعالى قادر على أن يخلق ألف عالم في لحظة، وأن يفنى ألف عالم في لحظة، فلا يعجزه شيء من الممكنات. وكما قدر أن يحيي الإنسان بعد موته الحسى؛ هو قادر على أن يحييه بعد موته المعنوي بالجهل والغفلة، على حسب ما سبق له في المشيئة، وجعل لذلك أجلاً لاريب فيه، فلا يجحد هذا إلا من كان ظالماً كفوراً. قل لمن يخصص الولاية بنفسه، أو بأسلافه، وينكر أن يفتح الله على قوم كانوا جهالاً: لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسككم الخصوصية عندكم؛ خشية أن ينفد ما عندكم، وكان الإنسان قتوراً، لا يحب الخير إلا لنفسه.

(١) الآية ٩ من سورة ص.

(٢) الآية ٤ من سورة ص.

ثم سأل رسوله ﷺ عما اقترحوا عليه من الآيات، تشغيباً وعناداً، بما جرى لموسى عليه السلام مع قومه، بعد ظهور الآيات، فلم تنفعهم شيئاً، فقال:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَّ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُثَبَّرًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

قلت: قال في الأساس: ثبته الله: أهله هلاكاً دائماً، لا ينتعش بعده، ومن ثم يدعو أهل النار: واثبورا. وما تترك عن حاجتك: ما تبطك عنها. وهذا مثبّر فلانة: لمكان ولادتها، حيث يثبرها النفاس. وفي القاموس: الثبر: الحبس والمنع، كالثبير والصرف عن الأمر وعن الحبيب، واللعن والطرود. والثبور: الهلاك والويل والإهلاك. هـ. (إذا جاءهم): إما متعلق بآياتنا، أو بقلنا محذوف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾؛ واضحات الدلالة على نبوته، وصحة ما جاء به من عند الله. وهى: العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطوفان، والسنون، ونقص الثمرات. وقيل: انفجار الماء من الحجر، ونفق الطور، وانفلاق البحر، بدل الثلاث. وفيه نظر؛ فإن هذه الثلاث لم تكن لفرعون، وإنما كانت بعد خروج سيدنا موسى عليه السلام. وعن صفوان بن عسال: أن يهودياً سأل النبي ﷺ عنها فقال: «أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَسْحَرُوا، وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلَا تَمْشُوا بِبِرْيءٍ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ، وَلَا تَقْذِفُوا الْمُحْصَنَةَ، وَلَا تَقْرُوا مِنَ الزَّحْفِ، وَعَلَيْكُمْ، خَاصَّةً الْيَهُودُ، أَلَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ». فقبل اليهودي يده ورجله. عليه الصلاة والسلام (١).

قلت: ولعل الحق تعالى أظهر لهم تسعاً، وكلفهم بتسع، شكراً لما أظهر لهم، فأخبر - عليه الصلاة والسلام - السائل عما كلفهم به؛ لأنه أهم، وسكت عما أظهر لهم؛ لأنه معلوم. وإنما قبل السائل يده؛ لموافقته لما في التوراة، وقد علم أنه ما علمه رسول الله ﷺ إلا بالوحي، وقوله عليه الصلاة والسلام: «وعليكم، خاصة اليهود، ألا تعدوا»، حكم مستأنف زائد على الجواب، ولذلك غير فيه سياق الكلام.

(١) أخرجه الترمذي في (الاستئذان، باب ما جاء في قبلة اليد والرجل)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في (تحريم الدم، باب السحر)، والإمام أحمد (٢٣٩/٤) والحاكم وصححه في (الإيمان ٩/١).

قال تعالى: ﴿فسل^(١) بنى إسرائيل﴾ أى: سل، يا محمد، بنى إسرائيل المعاصرين لك عما ذكرنا من قصة موسى؛ لتزداد يقينا وطمأنينة، أو: ليظهر صدقك لعامة الناس، أو: قلنا لموسى: سل بنى إسرائيل من فرعون، أى: اطلبهم منه؛ ليرسلهم معك، أو سل بنى إسرائيل أن يعضدوك ويكونوا معك. ويؤيد هذا: قراءة رسول الله ﷺ «فسأل»؛ على صيغة الماضى، بغير همز، وهى لغة قريش. ﴿إذ جاءهم﴾ أى: آتينا موسى تسع آيات حين جاءهم بالرسالة، أو قلنا له: سل بنى إسرائيل حين جاءهم بالوحي. ﴿فقال له فرعون﴾ حين أظهر له ما آتينا من الآيات، وبلغه ما أرسل به: ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ أى: سحرت فتخبط عقلك.

﴿قال﴾ له موسى: ﴿لقد علمت﴾ يا فرعون، ﴿ما أنزل هؤلاء﴾ الآيات التى ظهرت على يدي ﴿إلا رب السموات والأرض﴾؛ خالقهما ومدبرهما، ولا يقدر عليها غيره، حال كونها ﴿بصائر﴾؛ بينات تبصرك صدقى، ولكنك تعاند وتكابر، وقد استيقنتها أنفسكم، فجددتم؛ ظمأً وعلواً، ﴿وإني لأظنك يا فرعون مشهوراً﴾ أى: مهلكاً مقطوعاً دابرك، أو مغلوباً مقهوراً، أو مصروفاً عن الخير. قابل موسى ﷺ قول فرعون: ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ بقوله: ﴿وإني لأظنك يا فرعون مشهوراً﴾؛ وشتان ما بين الظنين؛ ظن فرعون إفك مبين، وظن موسى حق اليقين؛ لأنه بوحى من رب العالمين، أو من تظاهر أماراته.

﴿فأراد فرعون أن يستفزهم﴾ أى: يستخفهم ويزعجهم ﴿من الأرض﴾؛ أرض مصر، ﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً﴾؛ فعكسنا عليه علمه ومكره، فاستفزناه وقومه من بلده بالإغراق. ﴿وقلنا من بعده﴾ من بعد إغراقه ﴿بنى إسرائيل اسكنوا الأرض﴾ التى أراد أن يستفزكم هو منها. أو أرض الشام. وهو الأظهر، إذ لم يصح أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر بالسكنى. وانظر عند قوله: ﴿وَأَوْثَقْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٢) ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ أى: الحياة الآخرة، أو الدار الآخرة، أى: قيام الآخرة، ﴿جئنا بكم لفيفاً﴾؛ مختلطين إياكم وإياهم، ثم نحكم بيلكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم. واللفيف: الجماعات من قبائل شتى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا ينفع فى أهل الحسد والعناد ظهور معجزة ولا آية، ولا يتوقف عليها من سبقت له العناية، لكنها تزيد تأييداً، وطمأنينة لأهل اليقين، وتزيد نفوراً وعناداً، لأهل الحسد من المعاندين. وبالله التوفيق.

(١) قرأ ابن كثير والكسائي: «فسل»؛ بنقل حركة الهمزة إلى السين. وقرأ الباقون: (فأسأل). انظر الإتحاف ٢/٢٠٦.
(١) الآية ٥٩ من سورة الشعراء.

ولما ذكر آية موسى عليه السلام ذكر آية نبينا محمد ﷺ وهو القرآن، فقال:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ١٠٥ ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ ١٠٦ ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ١٠٧ ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ ١٠٨ ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ١٠٩ ﴿

قلت: تقديم المفعول، وهو (بالحق): يؤذن بالحصر. و(قرآنًا): مفعول بمحذوف يفسره ما بعده.

يقول الحق جل جلاله في شأن القرآن: ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ أي: ما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحق، المقتضى لإنزاله، وما نزل إلا بالحق الذي اشتمل عليه من الأمر والنهي، والمعنى: أنزلناه حقاً مشتملاً على الحق. أو: ما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً من تخطيط الشياطين. ولعل المراد: عدم اعتراء البطلان له أولاً وآخراً. ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً﴾ للمطيعين بالثواب، ﴿ونذيراً﴾ للعاصين بالعقاب، وهو تحقيق لحقية بعثه - عليه الصلاة والسلام - إثر تحقيق حقية إنزال القرآن. ﴿وقرآنًا فرقناه﴾ أي: أنزلناه مفرداً منجماً في عشرين سنة، أو ثلاث وعشرين. قال القشيري: فرق القرآن؛ ليهون حفظه، ويكثر تردد الرسول عليه من ربه، وليكون نزوله في كل وقت، وفي كل حادثة وواقعة؛ دليلاً على أنه ليس مما أعانه عليه غيره. هـ. ﴿لتقرأه على الناس على مكث﴾ على مهل وتؤدة وتثبت؛ فإنه أيسر للحفظ، وأعون على الفهم، ﴿ونزلناه تنزيلاً﴾ على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، والحوادث الواقعة.

﴿قل﴾ للذين كفروا: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾، فإن إيمانكم لا يزيدكم كمالاً، وامتناعكم منه لا يزيده نقصاناً. أو: أمرٌ باحتقارهم وعدم الاكتراث بهم، كأنه يقول: سواء آمنتم به أو لم تؤمنوا؛ لأنكم لستم بحجة، وإنما الحجة لأهل العلم، وهم: المؤمنون من أهل الكتاب، الذين أشار إليهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: العلماء الذين قرأوا الكتب السالفة من قبل تنزيله، وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة، وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل، ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: يسقطون على وجوههم ﴿سُجَّدًا﴾؛ تعظيماً لأمر الله، أو شكراً لإنجازه ما وعد في تلك الكتب؛ من نعتك، وإظهارك، وإنزال القرآن عليك. والأذقان: جمع ذقن، وهو: أسفل الوجه حيث اللحية. وخصها بالذكر؛ لأنها أول ما تلقى في الأرض من وجه الساجد. والجملة: تعليل لما قبلها من قوله: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾؛ من عدم المبالاة. والمعنى: إن لم تؤمنوا

فقد آمن من هو أعلى منكم وأحسن إيماناً منكم. ويجوز أن يكون تعليلاً لقُلْ، على سبيل التسلية للرسول - عليه الصلاة والسلام، كأنه يقول: تسلّ بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة، ولا تكثر بإيمانهم وإعراضهم.

﴿ويقولون﴾ في سجودهم: ﴿سبحان ربنا﴾ عن خلف وعده؛ ﴿إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ أى: إن الأمر والشأن كان وعد ربنا مفعولاً لا محالة، ﴿ويخرون للأذقان﴾ كرره؛ لاختلاف السبب، فإن الأول: لتعظيم الله وشكر إنجاز وعده. والثاني: لما أثر فيهم من مواعظ القرآن، ﴿يسكون﴾: حال، أى: حال كونهم باكين من خشية الله، ﴿يزيدهم﴾ القرآن ﴿خشوعاً﴾، كما يزيدهم علماً بالله تعالى.

الإشارة: وبالحق أنزلناه، أى بالتعريف بأسرار الربوبية، وبالحق نزل؛ لتعليم آداب العبودية. أو: بالحق أنزلناه، يعنى: علم الحقيقة، وبالحق نزل علم الشريعة والطريقة. وما أرسلناك إلا مبشراً لأهل الإخلاص بالوصول والاختصاص، ونذيراً لأهل الخوض بالطرد والبعد. وقرأنا فرقناه، لتقرأه نياية عنا، كى يسمعه منا بلا واسطة، عند فناء الرسوم والأشكال، ونزلناه، للتعريف بنا تنزيلاً، قل آمنوا به؛ لتدخلوا حضرتنا، أو لا تؤمنوا، فإن أهل العلم بنا قائمون بحقه، خاشعون عند تلاوته، متلعمون بشهودنا عند سماعه منا. وبالله التوفيق.

ولما كان القرآن مشتملاً على أسماء كثيرة من أسماء الله الحسنى، وكان عليه الصلاة والسلام يقول فى دعائه: يا الله، يارحمن، قالوا: إنه يدهانا عن عبادة إلهين، وهو يدعو إليها آخر. وقالت اليهود: إنك لتقل نكر الرحمن، وقد أكثر الله تعالى ذكره فى التوراة، فأنزل الله رداً على الفريقين:

﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى...﴾

قلت: «أى»: شرطية، و(ما): زائدة؛ تأكيداً لما فى «أياً» من الإبهام، وتقدير المضاف: أى الأسماء تدعو به فأنت مصيب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد للمؤمنين: ﴿ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾؛ نادوه بأيهما شئتم، أو سموه بأيهما أردتم. والمراد: إما التسمية بين اللفظين؛ فإنهما عبارتان عن ذات واحد، وإن اختلف الاعتبار، والتوحيد إنما هو للذات، الذى هو المعبود بالحق، وإما أنهما بيان فى حسن الإطلاق والوصول إلى المقصود، فلذلك قال: ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا﴾؛ أى اسم تدعوا به نصب، ﴿فله الأسماء الحسنى﴾ فيكون الجواب محذوفاً، دل عليه الكلام. وقيل: التقدير أياً ما تدعوه فهو حسن، فوضع موضعه: ﴿فله الأسماء الحسنى﴾؛ للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه؛ إذ حسن جميع الأسماء يستدعى حسن ذبلك الاسمين، وكونها حسنى؛ لدلائلها على صفات الكمال من الجلال والجمال؛ إذ كلها راجعة إلى حسن ذاتها، وكمالها؛ جمالاً وجلالاً.

قال في شرح المواقف: ورد في الصحيحين: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» (١)، وليس فيها تعيين تلك الأسماء. لكن الترمذى والبيهقى عيّناها. وهى الطريقة المشهورة، ورواية الترمذى: «الله الذى لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ المصور، الغفار القهار، الوهاب الرزاق، الفتاح العليم، القابض الباسط، الخافض الرافع، المعز المذل، السميع البصير، الحكيم العدل، اللطيف الخبير، الحليم العظيم، الغفور الشكور، العلى الكبير، الحفيظ المقيت، الحسيب الجليل، الكريم الرقيب، المجيب، الواسع الحكيم، الودود المجيد، الباعث الشهيد، الحق الوكيل، القوى المتين، الولى الحميد، المحصى المبدئ المعيد، المحيى المميت، الحى القيوم، الواجد الماجد، الواحد، الأحد، الصمد، القادر المقتدر، المقدم المؤخر، الأول الآخر، الظاهر الباطن، الوالى المتعالى، البر التواب، المنتقم العفو الرؤوف، مالك الملك ذو الجلال والإكرام، المقسط الجامع، الغنى المغنى المانع، الصار النافع، النور الهادى، البديع الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور» (٢).

وقد ورد التوقيف بغيرها، أما فى القرآن؛ فكالمولى، والنصير والغالب، والقاهر والقريب، والرب والأعلى، والناصر والأكرم، وأحسن الخالقين، وأرحم الراحمين، وذى الطول، وذى القوة، وذى المعارج، وغير ذلك. وأما فى الحديث، فكالمنان، والحنان، وقد ورد فى رواية ابن ماجه (٣) أسماء ليست فى الراوية المشهورة؛ كالقائم، والقديم، والوتر، والشديد، والكافى، وغيرها.

وإحصاؤها: إما حفظها؛ لأنه إنما يحصل بتكرار مجموعها وتعدادها مراراً، وإما ضبطها؛ حصراً وعلماً وإيماناً وقياماً بحقوقها، وإما تعلقاً وتخلقاً وتحققاً. وقد ذكرنا فى شرح الفاتحة الكبير كيفية التعلق والتخلق والتحقيق بها. وفى ابن حجر: أن أسماء الله مائة، استأثر الله بواحد، وهو الاسم الأعظم، فلم يُطلع عليه أحد، فكأنه قيل: مائة لكن واحد منها عند الله. وقال غيره: ليس الاسم الذى يكمل المائة مخفياً، بل هو الجلالة. وممن جزم بذلك البيهقى، فقال: الأسماء الحسنى مائة، على عدد درجات الجنة، والذى يكمل المائة: «الله»، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (٤). فالتسعة والتسعون لله؛ فهى زائدة عليه وبه تكمل المائة. هـ.

(١) أخرجه البخارى (الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحد)، ومسلم فى (الذكر، باب فى أسماء الله تعالى..). من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه الترمذى فى (الدعوات، باب ٨٣). وأخرج البيهقى روايته فى (السنن الكبرى، كتاب الإيمان، باب أسماء الله عز وجل ثناؤه) من حديث أبى هريرة.
(٣) أخرجه فى (الدعاء، باب أسماء الله عز وجل).
(٤) من الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.

قلت: ولعله ذكر اسماً آخر يكمل التسعة والتسعين. وإلا فهو مذكور في الرواية المتقدمة من التسعة والتسعين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن)، قال الورتجبي: إن الله سبحانه دعا عباده إلى معرفة الاسمين الخاصين، اللذين فيهما أسرار جميع الأسماء والصفات والذات، والدعوت والأفعال؛ فإله اسمه، وهو اسم عين جمع الجمع، والرحمن اسم عين الجمع؛ فالرحمن مندرج تحت اسمه: «الله»؛ لأنه عين الكل، وإذا قلت: الله؛ ذكرت عين الكل. ثم قال: وإذا قال «الله»؛ يفنى الكل، وإذا قال: «الرحمن»؛ يبقى الكل، من حيث الاتصاف والاتحاد، فالاتصاف بالرحمانية يكون، والاتحاد بالالوهية يكون. ثم قال: عن الأستاذ: من عظيم نعمه سبحانه على أوليائه: أنه ينزههم بأسرارهم في رياض ذكره؛ بتعداد أسمائه الحسنى، فيتنقلون من روضة إلى روضة، ومن مأنس إلى مأنس، ويقال: الأغنياء تنزههم في بساتينهم، وتنزههم في مذابت رياحينهم. والفقراء تنزههم في مشاهد تسبيحهم، ويستروحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جلاله وجماله. هـ. قلت: والعارفون تنزههم في مشاهدة أسرار محبوبهم، وما يكشف لهم من روض جماله وجلاله. وبالله التوفيق.

ثم أمره بإخفاء قراءته عن المشركين؛ لئلا يسبوا القرآن ومن جاء به، فقال:

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرَةً تَكْبِيرًا ۝﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تجهر﴾ بقراءة صلاتك، بحيث تُسمع المشركين، فإن ذلك يحملهم على السب واللغو فيها، ﴿ولا تُخَافُتْ﴾ أي: تُسر ﴿بها﴾؛ حتى لا تُسمع من خلفك من المؤمنين، ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾؛ واطلب بين المخافة والإجهار طريقاً قصداً، فإن خير الأمور أوسطها. والتعبير عن ذلك بالسبيل باعتبار أنه طريق يتوجه إليه المتوجهون، ويؤمه المقتدون ليوصلهم إلى المطلوب. روى أن أبا بكر رضي الله عنه كان يخفت، ويقول: أناجي ربِّي، وقد علم حاجتي. وعمر رضي الله عنه كان يجهر، ويقول: أطرُد الشيطان وأوقِظ الوسنان. فلما نزلت، أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يجهر قليلاً، وعمر أن يخفّض قليلاً (١).

وقيل: المعنى: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ كلها، ﴿ولا تُخَافُتْ بها﴾ بأسرها، ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾؛ بالمخافة نهاراً والجهر ليلاً. وقيل: (بصلاتك)؛ بدعائك. وذهب قوم إلى أنها منسوخة؛ لزوال علة السب واللغو؛

(١) أخرجه بدحوه أبو داود في (الطهوع، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل)، والترمذي في (المواقيت، باب ما جاء في قراءة الليل) عن أبي قتادة.

بإظهار الدين وإخفاء الشرك وبطلانه؛ فالحمد لله على ذلك كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مدلج؛ حيث قالوا: عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله، والملائكة بنات الله. تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكُوتِ﴾؛ في الألوهية؛ كما تقول الثنوية القائلون بتعدد الآلهة. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ أى: لم يكن له ناصر ينصره (من الدُّل) أى: لم يذل فيحتاج إلى ولي يُوَالِيه؛ ليدفع ذلك عنه. وفي التعرض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة؛ إيذان بأن المستحق للحمد من هذه نعوته، دون غيره؛ إذ بذلك يتم الكمال، وما عداه ناقص حقير، ولذلك عطف عليه: ﴿وَكَبُرَ تَكْبِيرًا عَظِيمًا﴾، وفيه تنبيه على أن العبد وإن بالغ في التنزيه والتمجيد، واجتهد في العبادة والتحميد، ينبغي أن يعترف بالقصور عن حقه في ذلك. روى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أفصح الغلام من بنى عبدالمطلب علمه هذه الآية: (وقل الحمد لله...) الخ^(١). والله تعالى أعلم.

الإشارة: الإجهار بالذكر والقراءة والدعاء، مباح لأهل البدايات، لمن وجد قلبه في ذلك، وأما النهي الذي في الآية فممنسوخ؛ لأن الصحابة، حين هاجروا من مكة، رفعوا أصواتهم بالقراءة والتكبير. لكن المداومة عليه من شأن أهل البعد عن الحضرة، وأما أهل القرب فالغالب عليهم السكوت أو المخافتة؛ قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾^(٢). وأما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام لأبى بكر رضي الله عنه بالإجهار قليلاً، وعمر بالخفض قليلاً؛ فإخراج لهم عن مرادهم؛ تربية لهم. وختم السورة بآية العز؛ إشارة إلى أن من أسرى بروحه، أو بجسده إلى الملأ الأعلى كان عاقبته العز والرفعة في الدارين.



(١) أخرجه ابن المنى في عمل اليوم والليلة (باب ما يلحق النصبى إذا أفصح بالكلام)، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

(٢) من الآية ١٠٨ من سورة طه.

سُورَةُ الْكَهْفِ

مكية. وهي مائة وإحدى عشرة آية، أو خمس عشرة. ووجه المناسبة لما قبلها: أنه لما أمر نبيه ﷺ بالحمد لله على كمال تليذيه، أخبر أنه يستحق ذلك لإنعامه بأجل النعم، وهو إنزال الكتاب العزيز، الذي هو سبب الهداية الموصلة إلى النعيم المقيم. أو تكون تنميماً لقوله: ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ...﴾ (١) الخ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لِمُعْجَزٍ ﴿١﴾ قِيَمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾

قلت: (قِيَمًا): حال من الكتاب، والعامل فيه: «أنزل»، ومنه الزمخشري؛ للفصل بين الحال وذی الحال، واختار أن العامل فيه مضمَر، تقديره: جعله قِيَمًا، ولينذر: يتعلق بأنزل، أو بقِيَمًا. والفاعل: ضمير الكتاب، أو النبي ﷺ، وبأْسًا: مفعول ثان، وحذف الأول، أي: لينذر الناس بأسًا، كما حذف الثاني من قوله: (ولينذر للذين قالوا...) الخ؛ لدلالة هذا عليه، و(من علم) مبتدأ مجرور بحرف زائد، أو فاعل بالمجرور؛ لاعتماده على النفي، وكلمة: تمييز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الحمد لله﴾ أي: اللناء الجميل حاصل لله، والمراد: الإعلام بذلك؛ للإيمان به، أو اللناء على نفسه، أو هما معاً. ثم ذكر وجه استحقاقه له، فقال: ﴿الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ أي: الكتاب الكامل المعروف بذلك من بين سائر الكتب، الحقيقي باختصاص اسم الكتاب، وهو جميع القرآن. رتب استحقاق الحمد على إنزاله؛ تنبيهاً على أنه أعظم نعمائه، وذلك لأنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد، والداعي إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد.

وفي التعبير عن الرسول ﷺ بالعبد، مضافاً إلى ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه ﷺ إلى معارج العبادة وكمال العبودية أقصى غاية الكمال، حيث كان قانياً عن حظوظه، قائماً بحقوقه، خالصاً في عبوديته لربه.

(١) الآية ١٠٦ من سورة الإسراء.

﴿ ولم يجعل له ﴾ أى: للكتاب ﴿ عَوْجاً ﴾؛ شيناً من العوج، باختلاف في اللفظ، وتناقض في المعنى، وانحراف في الدعوة. قال القشيري: صانه عن التناقض والتعارض، فهو كتاب عزيز من رب عزيز، ينزل على عبد عزيز. ﴿ قِيماً ﴾: مستقيماً متناهياً في الاستقامة، معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط، فهو تأكيد لما دل عليه نفى العوج، مع إفادته كون ذلك من صفاته الذاتية، حسبما تنبئ عنه الصيغة. أو قِيماً بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد، على ما ينبئ عنه ما بعده من الإنذار والتبشير، فيكون وصفاً له بالتكامل، بعد وصفه بالكمال، أو: قِيماً على ما قبله من الكتب السماوية، وشاهداً بصحتها ومهيماً عليها. ﴿ لينذر ﴾: ليخوف الله تعالى به، أو الكتاب، والأول أولى؛ لتناسب المعطوفين بعده، أى: أنزل الكتاب لينذر بما فيه الذين كفروا ﴿ بأساً ﴾: عذاباً ﴿ شديداً من لدنه ﴾ أى: صادراً من عنده، نازلاً من قبله، في مقابلة كفرهم وتكذيبهم.

﴿ ويُسِّر ﴾ - بالتشديد والتخفيف، ﴿ المؤمنين ﴾: المصدقين به، ﴿ الذين يعملون ﴾ أى: الأعمال ﴿ الصالحات ﴾ التى تَنْبُتُ فى تضاعيفه ﴿ أن لهم ﴾ أى: بأن لهم فى مقابلة إيمانهم وأعمالهم ﴿ أجراً حسناً ﴾، هو الجنة وما فيها من المثوبات الحسنى، ﴿ ما كثر فيه ﴾ أى: فى ذلك الأجر ﴿ أبداً ﴾ على سبيل الخلود. والتعبير بالمضارع فى الصلة - أعلى: الذين يعملون -؛ للإشعار بتجدد الأعمال الصالحات واستمرارها، وإجراء الموصول على الموصوف بالإيمان؛ إيماءً بأن مدار قبول الأعمال هو الإيمان.

وتقديم الإنذار على التبشير؛ لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه، مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية. وتكرير الإنذار بقوله تعالى: ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾: متعلق بفرقة خاصة، ممن عمه الإنذار السابق، من مستحقى البأس الشديد؛ للإيدان بكمال فظاعة حالهم، لغاية شناعة كفرهم وضلالهم، أى: وينذر، من بين سائر الكفرة، هؤلاء المتفوهين بمثل هذه القولة العظيمة، وهم كفار العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، واليهود القائلون: عزيز ابن الله، والنصارى القائلون: المسيح ابن الله.

﴿ ما لهم به من علم ﴾ أى: مالهم باتخاذ الولد شيء من علم أصلاً؛ لضلالتهم واضلالهم، ﴿ ولا لأبائهم ﴾ الذين قلدوهم، فتأهوا جميعاً فى تيه الجهالة والضلالة، أو: ما لهم علم بما قالوا، أصواب أم خطأ، بل إنما قالوه؛ رميةً بقولٍ عن عمى وجهالة، من غير فكر ولا روية، كقوله تعالى: ﴿ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (١). أو: ما لهم علم بحقيقة ما قالوا، ويعظم رتبته فى الشناعة، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا، تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ (٢)، وهو الأنسب لقوله ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ أى: عظمت مقالتهم هذه فى الكفر والافتراء؛ لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجباب كبريائه؛ لما فيه من التشبيه والتشريك، وإيهام احتياجه تعالى إلى ولد يعينه ويخلفه. فما أقبحها مقالة ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ أى: ينفهمون

(١) الآية ١٠٠ من سورة الأنعام.

(٢) الآيات : ٨٨ - ٩٠ من سورة مريم.

بها من غير حقيقة ولا تحقيق لمعناها، ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ : ما يقولون في ذلك إلا قولاً كذباً، لا يكاد يدخل فيه إمكان الصدق أصلاً.

الإشارة: من كملت عبوديته لله، وصار حراً مما سواه، بحيث تحرر من رق الأكوان، وأفضى إلى مقام الشهود والعيان، أنزل الله على قلبه علم التحقيق، وسلك به منهج أهل التوفيق، منهجاً قيماً، لا إفراط فيه ولا تفريط، محفوظاً في باطله من الزيف والإلحاد، وفي ظاهره من الفساد والعناد، قد تولى الله أمره وأخذه عنه، فهو على بينة من ربه فيما يأخذ وينذر. فإن أذن له في التذكير وقع في مسامع الخلق عبارته، وجلبت إليهم إشارته، فبشّر وأنذر، ورغب وحذر، يبشّر أهل التوحيد والتزوية بدعيم الجنان، وبالنظر إلى وجه الرحمن، وينذر أهل الشرك بعذاب النيران، وبالنذل والهوان، نعوذ بالله من موارد الفتن.

ولما كانت قريش تتفوه بشيء من هذه الكلمات، التي شنع الله على من تفوه بها، وكان عليه الصلاة والسلام يتأسف من ذلك، خفف عنه ذلك، وأمره بالتصلي عنهم، فقال:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾
إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا
صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

قلت: (أسفا): مفعول من أجله لباخع، أو حال، أي: متأسفاً، وجواب «إن»: محذوف، أي: إن لم يؤمنوا فلعلك باخع نفسك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلعلك﴾ بامحمد ﴿باخع﴾: مهلك ﴿نفسك﴾ وقاتلها بالغم والأسف على تخلف قومك عن الإيمان وفراقهم عنك، ﴿على آثارهم﴾ إذا تولوا عنك، عندما تدعوهم إلى الله. شبهه، لأجل ما تداخله من الوجد على توليتهم، بمن فارقه أعزته، وهو يتحسر على آثارهم، ويبخع نفسه وجداً عليهم. ﴿إن لم يؤمنوا بهذا الحديث﴾ أي: القرآن الذي عبّر عنه في صدر السورة بالكتاب، صدر ذلك منك ﴿أسفا﴾ أي: بفرط الحزن والتأسف عليهم.

ثم علل وجه إدبارهم عن الإيمان، وهو اغترارهم بزهرة الدنيا، فقال: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض﴾: من الأشجار والأزهار والثمار، وما اشتملت عليه من المعادن، وأنواع الملابس والمطاعم، والمراكب والمناكب، ﴿زينة﴾ لها ﴿أي: مبهجة لها، يستمتع بها الناظرون، وينتفعون بها مأكلًا وملبسًا، ونظرًا واعتبارًا، حتى إن الحيات والمقارب؛ من حيث تذكيرها بعذاب الآخرة، من قبيل المنافع، بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالة على الصانع، وكذلك الأزواج والأولاد، بل هم من أعظم زينتها، داخلون تحت الابتلاء. جعلنا ذلك ﴿لنبلوهم﴾:

لنختبرهم، حتى يظهر ذلك للعيان، ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أيهم أزهد فيها، وأقبلهم على الله بالعمل الصالح؛ إذ لا عمل أحسن من الزهد في الدنيا؛ إذ هو سبب للتفرغ لأنواع العبادة، بدنية وقلبية.

قال أبو السعود: وحسن العمل: الزهد فيها، وعدم الاكتراث بها، والقناعة باليسير منها، وصرفها على ما ينبغي، والتأمل في شأنها، وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها، والتمتع بها حسبما أنشأ الشرع، وأداء حقوقها، والشكر على نعمها، لا جعلها وسيلة إلى الشهوات، والأغراض الفاسدة، كما يفعله الكفرة وأهل الأهواء.. انظر بقية كلامه.

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾؛ عند تنهاى الدنيا، ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أى: تراباً يابساً، لا نبات فيه، بعدما كان يتعجب من بهجته النظار، ويتشرف بمشاهدته الأبصار، فلا يغتر بما يذهب ويفنى إلا من لا عقل له، فلا تستغرب إدبارهم، إذ لا عقل لهم.

ويحتمل أن يكون تسليةً للنبى ﷺ؛ من حيث إنه أرشده إلى شهود تدبير الحق، فيسلو، بذلك، عن إعراضهم؛ لغيبته في المصور المدبر عن الصور، وعن الزينة في المزين، فالكون مظهر الصفات ومرآتها، ويغيب في الذات - التى هى معدنها - بإفناء الظاهر، وإفناء الأفعال، كما نبّه عليه بقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ...﴾ الخ.

الإشارة: الخصوصية - من حيث هى - لها بداية ونهاية، فمن شأن أهل بدايتها: الحرص على الخير لهم ولعباد الله، فيتمنون أن الناس كلهم خصوصاً أو صالحون، فإذا رأوا الناس أعرضوا عنها تأسفوا عليهم، وإذا أقبلوا عليهم فرحوا من أجلهم، زيادة في الهداية لعباد الله، فإذا تمكثوا منها ورسخت أقدامهم فيها، وحصل لهم الفناء الأكبر، لم يحرصوا على شيء، ولم يتأسفوا من فوات شيء، لهم ولغيرهم. وقد يتوجه العتاب لهم على الحرص في بدايتهم؛ تكميلاً لهم، وترقية إلى المقام الأكمل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ...﴾ الخ، هو حكمة تخلف الناس عن الخصوصية، حتى يتميز الطالب لها من المعرض عنها، فمن أقبل على زينة الدنيا وزهرتها، فانتبه الخصوصية، وبقي من عوام الناس، ومن أعرض عنها وعن بهجتها، وتوجه بقلبه إلى الله، كان من المخصوصين بها، المقربين عند الله.

وهذا هو أحسن الأعمال التى اختبر الله به عباده بقوله: ﴿لَلْبُلُوْهُمُ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وفى الحديث: «الدنيا مال من لا مال له، لها يجمع من لا عقل له. وعليها يعادى من لا علم عنده» (١). وفى الزهد والترغيب أحاديث كثيرة مفردة بالتأليف، وبالله التوفيق.

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٧١/٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (باب فى الزهد / ١٠٦٣٧) عن السيدة عائشة - رضى الله عنها، بدون العبارة الأخيرة.

ثم شرع في قصة أهل الكهف المقصودة بالذات، فقال

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ①
إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ②
فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ③ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ
الْحِزْبِ خَيْرٌ ④ لِمَا لَبِثُوا أَمْدًا ⑤ ﴾

قلت : (أم) : منقطعة مقدرة ببل، التي هي للانتقال من حديث إلى حديث، لا للإبطال، والهمزة : للاستفهام عند الجمهور، ومعنى «بل»، فقط، عند غيرهم، و(عجبا) : خبر كان، و(من آياتنا) : حال منه، و(إذ أوى) : ظرف لعجبا، لا لحسبت، أو مفعول اذكر، أي : اذكر هذا الوقت العجيب، وهو حين التجأ الفتية إلى الكهف، و(لنا) و(من أمرنا) : يتعلق بـ (هييء)، و(أي الحزبين) : مطلق لتعلم عن المفعولين؛ لما فيه من معنى الاستفهام، وهو مبتدأ، وأحصى : خبره، وهو فعل ماضٍ، و(أمدًا) : مفعوله.

و(لما لبثوا) : حال منه، أو مفعول «أحصى»، واللام زائدة، و(ما) : موصولة، و(أمدًا) : تمييز، وقيل : (أحصى) : اسم تفضيل، من الإحصاء بحذف الزوائد، و(أمدًا) : منصوب بفعل دل عليه أحصى، أي : يحصى كقوله :

وَأَضْرَبَ مَدًا بِالسُّيُوفِ الْقَوَانِسَا ①

لأن اسم التفضيل لا ينصب المفعول به، إجماعاً، ويجوز أن يكون تمييزاً بعد اسم التفضيل.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ أي : ظننت يا محمد، والمراد : حسابان أمته ﴿ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ ﴾، وهو الغار الواسع في الجبل، واختلف في موضعه؛ فقيل : بقرب فلسطين، وقيل : بالأندلس بمقربة من لوشة في جهة غرناطة. وذكر ابن عطية أنه دخل كهفهم، وفيه موتى، ومعهم كلبهم، وعليهم مسجد، وقريب منه بناء يقال له الرقيم، قد بقي موضع جدرانته، وفي تلك الجهة آثار يقال لها : مدينة «دقيوس»، والله أعلم. وقال ابن جزى : ومما يبعد ذلك ما روى أن معاوية مر عليهم، وأراد الدخول إليهم ولم يدخل، هيبة، ومعاوية لم يدخل الأندلس قط، وأيضاً : فإن الموتى في لوشة يراهم الناس، ولا يدرك أحد الرعب الذي ذكر الله في أهل الكهف. هـ.

(١) هذا عجز صدره : أكر وأحمى للحقيقة منهم ... وهو للعباس بن مرداس ... وقوله : القوانيسا : جمع قونس، وهو أعلى بيضة الرأس. انظر : اللسان (قنص ٣٧٥١/٥)، والمعنى لابن هشام (٧٠٩/٢).

والمشهور: أن الرقيم هو اللوح المكتوب فيه أسماءهم وأنسابهم، وكان جعل ذلك الكتاب في خزانة الملك، وهو لوح من رصاص أو حجر، أمر بكتب أسمائهم فيه لما شكا قومهم فقدهم. وقيل: اسم كلهم.

أى: أظننت أنهم ﴿كانوا﴾ فى قصتهم ﴿من﴾ بين ﴿آياتنا عجباً﴾ أى: كانوا عجباً دون باقى آياتنا، ليس الأمر كذلك. والمعنى: أن قصتهم، وإن كانت خارقة للعادة، ليست بعجيبة، بالنسبة إلى سائر الآيات التى من تعاجيبها ما ذكر من خلق الله تعالى على الأرض، من الأجناس والأنواع الفائتة الحصر من مادة واحدة، بل هى عندها كالنزر الحقير. وقال القشيري: أزال موضع الأعجوبة من أوصافهم، بما أضاف إلى نفسه بقوله: (من آياتنا)، وَلَقَدْ الْعَادَةِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ غَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ وَلَا مُبْتَدَعٍ. هـ.

ثم ذكر أول قصتهم، فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ : جمع فتى، وهو الشاب الكامل، أى: اذكر حين النجاء الفتية إلى الكهف، هاريين بدينهم، خائفين على إيمانهم من كفار قومهم، ورأسهم «دقيانوس»، على ما يأتى فى قصتهم. ﴿فَقَالُوا﴾ : حين دخلوا الغار: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ : من مستبطن أمورك وخزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن أعين العادات، ﴿رَحْمَةً﴾ خاصة تستوجب الرفق والأمن من الأعداء، ﴿وَهَيِّئْ﴾ : أصلح ﴿لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذى نحن عليه من مفارقة الكفار ومهاجرتهم، ﴿رَشْداً﴾ : هداية نصير بها راشدين مهتدين، أو: اجعل أمرنا كله رشداً وصواباً، كقولك: لقيت منك أسداً، فتكون من باب التجريد، أو: إصابة للطريق الموصول إلى المطلوب، وأصل التهيلة: إحداث هيئة الشيء.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أى: أنمناهم، شبه الإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها، وتخصيص الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها فى الحجب عن الشعور عند النوم؛ لأنها تحتاج إلى الحجب أكثر، إذ هى الطريقة للتيقظ غالباً. والفاء فى (فضربنا): مثلها فى قوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ (١)، بعد قوله: ﴿إِذْ نَادَى﴾، فإن الضرب المذكور، وما ترتب عليه من التقلب ذات اليمين وذات الشمال، والبعث، وغير ذلك، إيتاء رحمة لدنيّة خفية عن أبصار المستمسكين بالأسباب العادية؛ استجابة لدعوتهم، أى: فاستجبنا لهم وأنمناهم، ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أى: ذوات عدد، أو تعدد عدداً، أو معدودة، ووصف السنين بذلك: إمّا للتكثير، وهو الأنسب بكمال القدرة، أو التقليل، وهو الأليق بمقام إنكار كون القصة عجباً من سائر الآيات العجيبة؛ فإن مدة لبثهم كبعض يوم عنده تعالى.

(١) من الآية ٩٠ من سورة الأنبياء.

﴿ثم بعثناهم﴾؛ أيقظناهم من تلك الدومة الشبيهة بالموت، ﴿لنعلم﴾ علم مشاهدة، أى: ليتعلق علمنا تعلقاً حالياً كتعلقه أولاً تعلقاً استقبالياً، ﴿أى الحزبين﴾: الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم المذكور فى قوله: ﴿قالوا لبثنا يوماً...﴾ الخ، ﴿أحصى﴾ أى: أضبط ﴿لما لبثوا﴾: لللبث، ﴿أمدأ﴾ أى: غاية، فيظهر بذلك عجزهم، ويفرضوا ذلك إلى العليم الخبير، ويتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، من حفظ أبدانهم وأديانهم، فيزدادوا يقيناً بكمال قدرته وعلمه، وليتيقنوا به أمر البعث، ويكون ذلك لطفاً بمؤمنى زمانهم، وآية بيّنة لكفارهم، وعبرة لمن يأتى بعدهم، فهذه حكم إيقاظهم بعد نومهم، والله عليم حكيم.

الإشارة: عادته تعالى فيمن انقطع إليه بكنيته، وأوى إلى كهف رعايته، وأيس من رفق مخلوقاته، أن يكلاه بعين عنايته، ويرعاه بحفظ رعايته، ويغيب سمع قلبه عن صوت الأكدار، ويصون عين بصيرته عن رؤية الأغيار، حين انحاشوا إلى حمى رحمته المانع، وتظللوا تحت ظل رشده الواسع. وبالله التوفيق.

ثم نعم قصتهم، فقال:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى
 (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّوَلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْذَى إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرٍ مَّرْفَقًا (١٦)﴾

قلت: (بالحق): إما صفة لمصدر محذوف، أو حال من ضمير «نقص»، أو من «نبأهم»، أو صفة له، على رأى من يرى حذف الموصول مع بعض صلته، أى: نقص قصصاً ملتبساً بالحق، أو نقصه ملتبساً بالحق، أو نقص نبأهم ملتبساً بالحق، أو نبأهم الذى هو ملتبس بالحق. و«إذ قاموا»: ظرف لربطنا، «وشططاً»: صفة لمحذوف، أى: قولاً شططاً، أى: ذا شطط، وصف به؛ للمبالغة. و«هؤلاء»: مبتدأ، وفى اسم الإشارة: تحقير لهم، و«قومنا»: عطف بيان له. و«اتخذوا»: خبر، و«ما يعبدون»: موصول، عطف على الضمير المنصوب، أو مصدرية، أى: وإذا

اعتزلتموهم ومعبوديتهم إلا الله، أو عبادتهم إلا عبادة الله، وعلى التقديرين: فالاستثناء متصل على تقدير أنهم كانوا مشركين يعبدون الله والأصنام. ومنقطع؛ على تقدير تمحضهم بعبادة الأوثان، ويجوز أن تكون (ما) نافية؛ على أنه إخبار من الله - تعالى - عن الفتية بالتوحيد، معترض بين «إذا» وجوابه العامل فيها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿نحن نقصُ عليك نبأهم﴾ ، والنبأ: الخبر الذي له شأن وخطر، قصصاً ملتبساً ﴿بالحق﴾ : بالصدق الذي لا يطرقة كذب ولا ريبة.

وخبرهم، حسبما ذكر محمد بن إسحاق: أنه قد مرج أهل الإنجيل، وظهرت فيهم الخطايا، وطمغت ملوكهم، فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وكان من بالغ في ذلك وعنا عتواً كبيراً: «دقيانوس»؛ فإنه غلا فيه غلواً كبيراً، فجاس خلال الديار والبلاد؛ بالعبث والفساد، وقتل من خالفه ممن تمسك بدين المسيح، وكان يتتبع الناس فيخبرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فمن رغب في الحياة الدنيا الدنية: تبعه وصنع ما يصنع، ومن أثر عليها الحياة الأبدية: قتله وقطع آرابه^(١)، وعلقها بسور المدينة وأبوابها. فلما رأى الفتية ذلك، وكانوا عظماء مدينتهم، وكانوا بنى الملوك، قاموا فتضرعوا إلى الله تعالى، واشتغلوا بالصلاة والدعاء، فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أعوان الجبار، فأحضروهم بين يديه، فقال لهم ما قال، فخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فقالوا: إن لنا إلهاً ملأ السموات والأرض عظمة وجبروتاً، لن ندعو من دونه أحداً، ولن نُقر بما تدعوننا إليه أبداً، فاقض ما أنت قاض، فأمر بلزع ما عليهم من الثياب الفاخرة، وأخرجهم من عنده. زاد في رواية: وضمنهم أهلهم، وخرج إلى مدينة (نينوى)؛ لبعض شأنه، وأمهلهم إلى رجوعه؛ ليتأملوا في أمرهم، والأ فعل بهم ما فعل بسائر المسلمين.

فأجمعت الفتية على الفرار والالتجاء إلى الكهف الحصين، فأخذ كلٌ منهم من بيت أبيه شيئاً، فتصدقوا ببعضه، وتزودوا بالباقي، فأووا إلى الكهف. وفي رواية: أنهم مروا بكلب فتبعهم، على ما يأتي في شأنه، فجعلوا يصلون في ذلك الكهف آناء الليل وأطراف النهار، ويبتهلون إلى الله - سبحانه - بالأتين والجوار، فقوضوا أمر نفقتهم إلى «يمليخا»، فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحسان، ويلبس ثياب المساكين، ويدخل المدينة ويشترى ما يهمهم، ويتحسس ما فيها من الأخبار، ويعود إلى أصحابه، فلبثوا على ذلك إلى أن قدم الجبار المدينة فطلبهم، وأحضر آباءهم، فاعتذروا بأنهم عصوهم ونهبوا أموالهم، وبذروها في الأسواق، وفروا إلى الجبل.

فلما رأى «يمليخا» ما رأى من الشر رجع إلى أصحابه وهو يبكي، ومعه قليل من الزاد، فأخبرهم بما شهد من الهول، ففزعوا إلى الله - عز وجل - وخروا له سجداً، ثم رفعوا رؤوسهم وجلسوا يتحدثون في أمرهم، فبينما هم كذلك

(١) أي أعضائه. واحده: إربب .. انظر اللسان (أرب ١/٥٥).

إذ ضرب الله على آذانهم فناموا، ونفقتهم عند رؤوسهم. فخرج دقيانوس، في طلبهم بخيئه ورجله، فوجدهم قد دخلوا الكهف، فأمر بإخراجهم فلم يطق أحد منهم أن يدخله، فلما ضاق بهم ذرعاً، قال قائل منهم: أليس لو كنت قدرت عليهم قتلهم؟ قال: بلى. قال: فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعاً وعطشاً، ففعل فكان شأنهم ما قص الله تعالى، إذ قال:

﴿إنهم فتية﴾، استئناف بياني، كأن سائلاً سأل عن حالهم، فقال: إنهم فتية شبان كاملون في الفتوة ﴿آمنوا بر ربهم﴾، فيه التفات إلى ذكر الربوبية التي اقتضت تربيتهم وحفظهم، ﴿وزدناهم هدى﴾؛ بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه، وأظهرنا لهم من مكنونات محاسننا ما أثروا به القناء على البقاء. وفيه التفات إلى التكلم؛ لزيادة الاعتناء بشأنهم، ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أي: قلوبناهم، حتى اقتحمروا مضايق الصبر على هجر الأهل والأوطان، والنعيم والإخوان، واجترأوا على الصدع بالحق من غير خوف ولا حذر، والرد على دقيانوس الجبار؛ ﴿إذ قاموا﴾ أي: انتصبوا لإظهار شعار الدين، قال مجاهد: خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد. فقال أكبرهم: إني لأجد في نفسي شيئاً، إن ربي هو رب السموات والأرض، فقالوا: نحن أيضاً كذلك، فقاموا جميعاً ﴿فقالوا ربنا رب السموات والأرض﴾، وعزموا على التصميم بذلك. وقيل: قاموا بين يدي الجبار من غير مبالاة به، حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام، فحينئذ يكون ما سيأتي من قوله تعالى: (هؤلاء...) إلخ: منقطعاً صادراً عنهم، بعد خروجهم من علده.

ثم قالوا: ﴿لن ندعو من دونه إلهاً﴾، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، ولم يقلوا: رباً؛ للتصميم على الرد على المخالفين، حيث كانوا يسمون أصنامهم آلهة، وللإشعار بأن مدار العبودية على وصف الألوهية. ﴿لقد قلنا إذا شططاً﴾: قولاً ذا شطط، وهو الجور والتعدي، أي: لقد جُرنا وأفرطنا في الكفر، وقلنا قولاً خارجاً عن حد المعقول، إن دعونا إلهاً غير الله جزمًا.

﴿هؤلاء قومنا﴾ قد اتخذوا من دونه آلهة، فيه معنى الإنكار، ﴿لولا﴾: هلا ﴿ياتون عليهم﴾: على ألوهيتهم ﴿بسلطان بين﴾: بحجة ظاهرة، ﴿فمن أظلم﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿من افترى على الله كذباً﴾ بنسبة الشريك إليه؛ فإنه أظلم من كل ظالم.

﴿وإذا اعتزلتموهم﴾ أي: فارقتموهم ﴿و﴾ فارقتم ﴿ما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف﴾: فالتجئوا إليه، والمعنى: وإذا اعتزلتموهم اعتزالياً اعتقادياً فاعتزلوهم اعتزالياً جسمانياً، ﴿ينشر لكم ربكم﴾: يبسط لكم ويوسع عليكم ﴿من رحمته﴾ في الدارين، ﴿ويهيئ لكم من أمركم﴾ الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين، ﴿مرفقاً﴾: ما ترتفقون به، أي: تتنفعون، وجزمهم بذلك؛ للصوع بقيتهم، وقوة وثوقهم بفضل الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة : قد وصف الله - تعالى - أهل الكهف بخمسة أوصاف هي من شعار الصوفية؛ الإيمان، الذي هو الأساس، وزيادة الاهتداء بتربية الإيقان إلى الوصول إلى صريح العرفان، وربط القلب في حضرة الرب، والقيام في إظهار الحق أو لداعي الوجد، والصدع بالحق من غير مبالاة بأحد من الخلق.

وقال المرتجبي في قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ : أى: زدناهم نوراً من جمالي، فاهتدوا به طرق معارف ذاتي وصفاتي، وذلك الدور لهم على مزيد الوضوح إلى الأبد؛ لأن نوري لا نهاية له. وقال عند قوله: ﴿إِذْ قَامُوا﴾ : قد استدلل بهذه الآية بعض المشايخ على حركة الواصلين في وقت السماع والذكر؛ لأن القلوب إذا كانت مربوطة بالملكوت ومحل القدس حركتها أنواع الأذكار وما يرد عليها من فنون السماع. والأصل قوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ ، نعم هذا المعنى إذا كان القيام قياماً بالصورة، أى: الحسية في القيام الحسي، وإذا كان القيام من جهة الحفظ والرعاية، والربط من جهة النقل من محل التلويح إلى محل التمكن، فالاستدلال بها في السكون في الوجد أحسن، إذا كان الربط بمعنى التسكين والقيام بمعنى الاستقامة. هـ.

قلت : الحاصل: أنا إذا حملنا القيام على الحسي ففيه دليل لأهل البداية على القيام في الذكر والسماع. وإذا حملناه على القيام المطوي، وهو النهوض في الشيء، أو الاستقامة عليه كان فيه دلالة لأهل النهاية على السكون وعدم التحرك، وكأنه يشير إلى قضية الجديد في بدايته ونهايته. والله تعالى أعلم.

وقال ابن لب: قد اشتهر الخلاف بين العلماء في القيام لذكر الله - تعالى - وقد أبحاثه الصوفية، وفعلته ودامت عليه، واستفادوه من كتاب الله تعالى من قوله - عز وجل - في أصحاب الكهف: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، وإن كانت الآية لها محامل أخر سوى هذا. هـ. قلت: وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ (١): صريح في الجواز.

وقال في القوت : وقد روينا أنه ﷺ مرّ برجل يظهر التأوه والوجد، فقال من كان معه: أترأه يارسول الله مرثياً؟ فقال: «لا، بل أواه منيب» (٢)، وقال لآخر: أظهر صوته بالآية: «أَسْمِعِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا تَسْمَعْ»، فأنكر عليه بما شهد فيه، ولم ينكر على أبي موسى قوله: (لو علمت أنك تسمع لحبّرتك لك تحبيراً)؛ لأنه ذونية في الخير وحسن قصد به، ولذا كل من كان له حسن قصد، ونية خير، في إظهار عمل، فليس من السمة والرياء في شيء؛ لتجرده من الآفة الدنيوية، وهي الطمع والمدح. هـ.

(١) من الآية ١٥١ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد في المسند (١٥٩/٤)، والطبراني في الكبير (٢٩٥/١٧)، عن عقبة بن عامر، وحسنه الهيثمي في المجمع (٣٧٢/٩).

ثم ذكر حالهم في الكهف، فقال:

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا ۝١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيَةً ظَالِمًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ۝١٨﴾

قلت: (تزاور) أصله: تزاور، فأدغمت التاء في الزاي. وقرأ الكوفيون بحذفها، وابن عامر ويعقوب: «تزوّر»، كتمرد، كلها من الزور بمعنى الميل، و(ذات اليمين): ظرف بمعنى الجهة. وجعلة: (وهم في فجوة): حال، و(ذراعيه): مفعول «باسط»، لأنه حكاية حال، أي: يبسط، و(فراراً): مصدر؛ لأنه عبارة عن معنى التولية، أو حال، أي: لوليت فراراً، و«رغباً»: مفعول ثان لمليت، أو تمييز.

يقول الحق جل جلاله، في بيان حالهم بعدما أروا إلى الكهف: ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور﴾ أي: تنتحى وتميل ﴿عن كهفهم﴾ الذي أروا إليه، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب. وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية تحقيقاً، بل الإنباء بكون الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم ﴿ذات اليمين﴾ أي: جهة ذات يمين الكهف، عند الداخل إلى قعره، ﴿وإذا غربت﴾ أي: وتراها إذا غربت ﴿تقرضهم﴾ أي: تقطعهم وتتعدى عنهم ﴿ذات الشمال﴾ أي: جهته وجانبه الذي يلي المشرق. وكان ذلك بتصرف الله تعالى على ملهاج خرق العادة؛ كرامة لهم. وقيل: كان باب الكهف شمالياً يستقبل بنات نعش^(١)، ﴿وهم في فجوة منه﴾: في موضع واسع منه، وذلك موقع لإصابة الشمس، ومع ذلك ينحيا الله عنهم.

﴿ذلك من آيات الله﴾ أي: ما صنع الله بهم من ميل الشمس عنهم عند طلوعها وغروبها، من آيات الله العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته، وفضيلة التوحيد وكرامة أهله عنده سبحانه. قال بعضهم: هذا قبل سد دقيانوس باب الكهف، قلت: كان قبل السد وبعد هدم السد؛ لأنه هُدم بعد، فما قام أهل الكهف حتى وجده مهدماً. وظاهر الآية يرجح من قال: إنه من باب خرق العادة.

(١) بنات نعش: سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي.. انظر المعجم الوسيط (نعش).

﴿من يَهْدِ الله فهو المهتد﴾ الذى أصاب الفلاح . والمراد: إما اللئاء عليهم، والشهادة بإصابة المطلوب، والإخبار بتحقيق ما أمثوه من نشر الرحمة وتهيئة المرافق، أو التنبية على أن أمثال هذه الآية كثيرة، ولكن المنتفع بها هو مَنْ وفقه الله وهداه للاستبصار بها، ﴿ومن يضل﴾ أى: يخلق فيه الضلال؛ بصرف اختياره إليه، ﴿فلن تجد له﴾ ، ولو بالغت فى التتبع والاستقصاء، ﴿ولياً﴾ : ناصراً ﴿مرشداً﴾ ، يهديه إلى ما ذكر من الفلاح. والجملة معترضة بين أجزاء القصة.

ثم قال: ﴿وتحسبهم﴾ بالفتح والكسر، أى: تظنهم ﴿أيقاظاً﴾ ، لانتفاع أعينهم، أو لكثرة تقلبهم، وهو جمع «يقظ»؛ بضم القاف وكسرهما، ﴿وهم رقود﴾ أى: نيام، ﴿ونقلبهم﴾ فى رقودهم ﴿ذات اليمين﴾ أى: جهة تلى أيمنهم، ﴿وذات الشمال﴾ أى: جهة تلى شمائلهم؛ لكى لا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم. قال ابن عباس رضي الله عنه: لو لم يتقلبوا لأكلتهم الأرض. قيل: كانوا يتقلبون مرتين فى السنة. وقيل: مرة يوم عاشوراء. وقيل: فى تسع سنين.

﴿وكلبهم باسط ذراعيه﴾ ، حكاية حال ماضية أى: ييسط ذراعيه، وهو من المرفق إلى رأس الأصابع. ﴿بالوصيد﴾ أى: بموضع من الكهف، وقيل: بالفناء من الكهف، وقيل: العتبة. وهذا الكلب، قيل: هو كلب مروا به فتبعهم، فطردوه مراراً، فلم يرجع، فأنطقه الله، فقال: يا أولياء الله لا تخشوا إصابتى؛ فإنى أحب أحبائى الله، فناموا حتى أحرسكم. وقيل: هو كلب راع مروا به فتبعهم^(١) على دينهم، ومر معه كلبه، ويزيده قراءة: (وَكَالِبُهُمْ) أى: وصاحب كلبهم، وقيل: هو كلب صيد لهم أو زرع، واختلف فى لونه؛ قيل أحمر، وقيل: أصفر، وقيل: أصهب^(٢).

﴿لو اطلعت عليهم﴾ أى: لو عاينتهم وشاهدتهم. والاطلاع: الإشراف على الشئ بالمعاينة والمشاهدة، ﴿لو لیت منهم فراراً﴾ : هرباً بما شاهدت منهم، ﴿ولمكنت منهم رعباً﴾ ، أى: خوفاً يملأ الصدور برعبه، لما ألبسهم الله من الرهبة، أو لعظم أجرامهم وانفتاح أعينهم، وكانت مفتحة كالمستيقظ الذى يريد أن يتكلم. وعن معاوية: أنه غزا الروم فمر بالكهف، فقال: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال ابن عباس رضي الله عنه: ليس لك ذلك؛ قد منع الله تعالى من هو خير منك، حيث قال: ﴿لو اطلعت عليهم...﴾ الآية، فلم يسمع، وقال: ما أنتهى حتى أعلم علمهم، فبعث ناساً، وقال: اذهبوا فانظروا، ففعلوا، فلما دخلوا بعث الله ريحاً فأحرقتهم. هـ^(٣).

الإشارة: للصوفية - رضى الله عنهم - تشبه قوى بأهل الكهف، فى الانقطاع إلى الله، والتجرد عن كل ما سواه، والانحياش إلى الله، والفرار من كل ما يشغل عن الله، والنماس الرحمة الخاصة من الله، وطلب التهيئة لكل رشد

(١) أى الراعى.
(٢) الأصهب: الأشقر. وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٧٦/٣): واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها، ولا دليل ولا حاجة إليها، بل هى مما ينهى عنه، فإن مستلذها رجم بالغيب.
(٣) عزاء المناوى فى الفتح السماوى (٧٩٢/٢) لابن أبى حاتم، وعبد بن حميد، وابن أبى شيبه، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وقال الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف: وإسناده صحيح.

وصواب، ولهذا المعنى ختم الشيخ القطب ابن مشيش تصليته المشهورة بما دعوا به، حين أروا إلى كهف الإيواء؛ تشبهاً بهم في مطلق الانقطاع والفرار من مواطن الحس. ولذلك لما تشبهوا بهم حفظهم الله - أي: الصوفية - ممن رام أناهم، وغيبهم عن حس أنفسهم، وأشهدهم عجائب لطفه وقدرته، ومن تمام التشبيه بهم: أنك قل أن تجد فرقة تسافر منهم إلا ويتبعهم كلب يكون معهم، حتى شهدت ذلك في جل أسفارنا مع الفقراء؛ تحقيقاً لكمال التشبيه. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بعثهم من نومهم، فقال:

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكذلك ﴾ أي: وكما أنعمناهم وحفظنا أجسادهم من البلاء والتحلل، وكان ذلك آية دالة على كمال قدرتنا، ﴿ بعثناهم ﴾ من النوم ﴿ ليتساءلوا بينهم ﴾ أي: ليسأل بعضهم بعضاً، فيترتب عليه مافصل من الحكم البالغة، أو: ليتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، فيزدادوا يقيناً على كمال قدرة الله، ويستبصروا أمر البعث، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم.

﴿ قال قائل منهم ﴾ هو رئيسهم، واسمه: مكسيميا، ﴿ كم لبثتم ﴾ في مقامكم؟ لعله قال ذلك؛ لما رأى من مخالفة حالهم، لما هو المعتاد في الجملة، ﴿ قالوا ﴾ أي: بعضهم: ﴿ لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾، قيل: إنما قالوا ذلك؛ لأنهم دخلوا الكهف غدوة، وكان انتباههم آخر النهار، فقالوا: ﴿ لبثنا يوماً ﴾، فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعد قالوا: ﴿ أو بعض يوم ﴾، وكان ذلك إخباراً عن ظن غالب، فلم يعزوا إلى الكذب.

﴿ قالوا ﴾ أي: بعض آخر منهم، بما سنج له من الأدلة، ولما رأى من طول أظافرهم وشعورهم: ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ أي: أنتم لا تعلمون مدة لبثكم، وإنما يعلمها الله - سبحانه -، وهذا رد منهم على الأولين بأجمل ما يكون من حسن الأدب، ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم ﴾ (١) هذه إلى المدينة، أعرضوا عن البحث عن المدة، وأقبلوا على

(١) قرأ أبو عمرو وحمة وأبو بكر: بورقكم - ساكنة الراء - والباقرن بكسرهما. راجع الإتحاف ٢/٢١٢.

ما يهم في الوقت، والورق: الفضة، مضروبة أو غير مضروبة، ووصفها باسم الإشارة يقتضى أنها كانت معينة ليشتري بها قوت ذلك اليوم، وحملها دليل على أن التزود لا ينافي التوكل، وقد كان نبينا ﷺ يتزود لغار حراء ليتعبد فيه. ثم قالوا: ﴿فليُنظر أيها﴾ أي: أي أهلها ﴿أزكى طعاماً﴾ أي: أحل وأطيب، أو أكثر وأرخص، ﴿فليأتكم برزق منه﴾ أي: من ذلك الأزكى طعاماً، ﴿وليتلطف﴾ : وليتكلف اللطف في دخول المدينة وشراء الطعام، لئلا يعرف، ﴿ولا يشعرن بكم أحداً﴾ : ولا يخبر بكم ولا بمكانكم أحداً من أهل المدينة، أو: لا يفعل ما يؤدى إلى ذلك.

ثم علل النهى بقوله: ﴿إنهم إن يظهروا عليكم﴾ : يطلعوا عليكم، أو يظفروا بكم، والضمير: للأهل المقدر في أيها، أي: إن أهل المدينة إن يظفروا بكم ﴿يرجموكم﴾ إن ثبتتم على ما أنتم عليه، ﴿أو يعيدوكم في ملتهم﴾ أي: يصيروكم إليها ويدخلوكم فيها؛ كرهاً، كقوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾^(١)، وقيل: كانوا على ملتهم ثم خالفوهم للحق. ﴿ولن تفلحوا إذا﴾ : إن دخلتم فيها، ولو بالكره والجبر، ﴿أبداً﴾ ، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وفيه من التشديد والتحذير ما لا يخفى.

الإشارة: وكذلك بعثنا من توجه إلينا من نوم الغفلة والجهالة ليتساءلوا بينهم؛ ليتعرفوا ما أنعم الله به عليهم من اليقظة والنجاة من البطالة، فإذا انتبهوا من نوم الغفلة، استصغروا أيام البطالة؛ لأن أيام الغفلة قليلة أمدادها، وإن كثرت أمدادها، وفي الحكم: «رب عمر اتسعت آماده، وقلت أمداده»، بخلاف زمان اليقظة، فإنه كثيرة أمداده، وإن قلت آماده، فهو طويل؛ معنى، وإن قل؛ حساً، ولذلك قال في الحكم أيضاً: «رب عمر قليلة آماده، كثيرة أمداده». وقال أيضاً: «من بورك له في عمره: أدرك في يسير من الزمان من من الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة».

فإن ترقفوا على قوت أشباحهم التمسوا أطيبه وأزكاه وأحله، فإن أكل الحلال ينور القلوب وينشط الأعضاء للطاعة، وتلطفوا في أخذه من غير مزاحمة ولا حرص ولا تعب، فإن أطلعهم الله على سره المكنون من أسرار ذاته بالغوا في إخفائه، حتى لا يشعر به أحد من خلقه، غير من هو أهل له؛ لأنهم، إن أظهره لغيرهم، رجموه أو أعادوهم إلى ملتهم، بأن يقهروهم إلى الرجوع عن طريق القوم، ولن يفلحوا إذا أبداً. وبالله التوفيق.

(١) من الآية ١٣ من سورة إبراهيم.

ثم ذكر اطلاع قوم أهل الكهف عليهم، فقال:

﴿ وَكَذَلِكَ أَغَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ... ﴾

قلت: «إذ يتنازعون»: ظرف لقوله: (أغثرنا)، لا ليعلموا، أي: أغثرنا هم عليهم حين يتنازعون بينهم... إلخ، و(رجماً): حال، أي: راجمين بالغيب، أو مفعول مطلق، أي: يرجمون رجماً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي: وكما أنماهم وبعثناهم لازدياد يقينهم ﴿ أَغَثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾: أطلعنا الناس عليهم ﴿ لِيَعْلَمُوا ﴾ أي: ليعلم القوم الذين كانوا في ذلك الوقت ﴿ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ أي: وعده بالبعث والثواب والعقاب ﴿ حَقٌّ ﴾ صادق لا خلف فيه، أو: ثابت لا مرد له؛ لأن نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث، ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ ﴾ أي: القيامة، التي هي عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعاً؛ للحساب والجزاء، ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾: لا شك في قيامها، فإن من شاهد أنه جل وعلا توفى نفوسهم وأمسكها ثلاثمائة سنة وأكثر، حافظاً لأبدانها من التحلل والفساد، ثم أرسلها كما كانت، لا يبقى معه ريب، ولا يختلج شك، في أن وعده تعالى حق، وأنه يبعث من في القبور، ويجازيهم بأعمالهم.

وكان ذلك الإغثار ﴿ إِذْ يَتَنَزَّعُونَ ﴾: حين كانوا يتنازعون ﴿ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ ﴾، في أمر البعث مختلفين فيه؛ ففرقة أقرت، وفرقة جحدت، وقائل يقول: تبعث الأرواح فقط، وآخر يقول: تبعث جميع الأجسام بالأرواح، قيل: كان ملك المدينة حينئذ رجلاً صالحاً، ملكها ثمانياً وعشرين سنة، ثم اختلف أهل مملكته في البعث كما تقدم، فدخل الملك بيته وغلق الباب، ولبس مسحاً وجلس على رماد، وسأل ربه أن يظهر الحق، فألقى الله - عز وجل - في نفس رجل من ذلك البلد الذي فيه الكهف، أن يهدم بنيان فم الكهف، فهدم ماسد به «دقيانوس» باب الكهف؛ ليتخذ حظيرة لغنمه، فعند ذلك بعثهم الله - تعالى - فجري بينهم من التقاول ما جرى.

رُوي أن المبعوث لما دخل المدينة؛ ليشتري الطعام، أخرج دراهمه، وكانت على ضرب (دقيانوس)، فاتهموه أنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، فقص عليه القصة، فقال بعضهم: إن آباءنا أخبرونا أن فتية فروا بدينهم من

(دقيانوس)، فلعلهم هؤلاء، فانطلق الملك وأهل المدينة؛ من مسلم وكافر، فدخلوا عليهم وكلموهم، ثم قالت الفتية للملك: نودعك الله ونعيذك به من الإنس والجن، ثم رجعوا إلى مضاجعهم، فماتوا، فألقى الملك عليهم ثيابه، وجعل لكل منهم تابوتاً من ذهب، فرأهم في المنام كارهين للذهب، فجعلها من الساج، وبنى على باب الكهف مسجداً. وقيل: لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانكم حتى أدخل أولاً؛ للأنبياء، فدخل، فعمي عليهم المدخل، فبنوا ثمة مسجداً.

وقيل: امتنزع فيه: أمر الفتية قبل بعثهم، أي: أعتزنا عليهم حين يتذكرون بينهم أمرهم، وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الأحوال والأهوال، ويتلقون ذلك من الأساطير وأفواه الرجال. وعلى التقديرين: فالغناء في قوله: ﴿فقالوا ابنوا﴾ فصيحة، أي: أعتزنا عليهم فرأوا ما رأوا، ثم ماتوا، فقال بعضهم: ﴿ابنوا عليهم﴾: على باب كهفهم ﴿بنينا﴾؛ للأنبياء، ففعلوا ذلك؛ صنفاً بمقامهم ومحافظة عليهم.

ثم قالوا: ﴿ربهم أعلم بهم﴾، كأنهم لما عجزوا عن إدراك حقيقة حالهم؛ من حيث النسبة، ومن حيث العدد، ومن حيث بُعد اللبث في الكهف، قالوا ذلك؛ تفويضاً إلى علام الغيوب. أو: يكون من كلامه سبحانه؛ رداً لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين، ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم﴾، وهو الملك والمسلمون، وكانوا غالبين في ذلك الوقت: ﴿لنتخذن عليهم مسجداً﴾، فذكر في القصة أنه جعل على باب الكهف مسجداً يصلى فيه.

ثم وقع الخوض في عهد نبينا - عليه الصلاة والسلام - بين نصارى نجران حين قدموا المدينة، فجرى بينهم ذكر أهل الكهف وبين المسلمين في عددهم، كما قال تعالى: ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم﴾، وهو قول اليعقوبية من النصارى، وكبيرهم السيد، وقيل: قالته اليهود، ﴿ويقولون خمسة سادسهم كلبهم﴾، هو قول النسطورية منهم، وكبيرهم العاقب، ﴿رجماً بالغيب﴾: رمياً بالخبر من غير اطلاع على حقيقة الأمر، أو ظناً بالغيب من غير تحقيق، ﴿ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾، وهو ما يقوله المسلمون بطريق التلقى من هذا الوحي، وعدم نظمه في سلك الرجم بالغيب، وتغيير سبكه؛ بزيادة الواو المفيدة لزيادة تأكيد النسبة فيما بين طرفيها، يقضى بصحته.

قال تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد؛ تحقيقاً للحق، ورداً على الأولين: ﴿ربى أعلم بعدتهم﴾ أي: ربي أقوى علماً بعدتهم، ﴿ما يعلمهم﴾ أي: ما يعلم عددهم ﴿إلا قليل﴾ من الناس، قد وفقهم الله تعالى للاطلاع عليهم بالدلائل أو بالإلهام. قال ابن عباس رضي الله عنه: «أنا من ذلك القليل»، قال: حين وقعت الواو انقطعت العدة، وأيضاً حين سكت عنه تعالى ولم يقل: رجماً بالغيب، علم أنه حق. وعن علي - كرم الله وجهه -: أنهم سبعة، أسماؤهم: يملخا، وهو الذي ذهب بورقهم، ومكسيلمينيا، وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومشليبا، وفي رواية الطبري: ومجسسيا بدله، وهؤلاء أصحاب يمين الملك، وكان عن يساره: مرنوش ودبرنوش وجشاذنوس، وكان يستشير هؤلاء الستة

في أمره، والسابع: الراعى الذى تبعهم حين هربوا من دقيانوس، واسمه: كفشططيوش^(١). وذكر ابن عطية عن الطبرى غير هؤلاء، وكلهم عجميون، قال: والسند فى معرفتهم واه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: عادة الحق تعالى فى أوليائه أن يُخْفِيَهُمْ أولاً عن أعين الناس، رحمةً بهم؛ إذ لو أظهرهم فى البدايات؛ لفتنهم ورددوهم إلى ما كانوا عليه، حتى إذا تخلصوا من البقايا، وتمكنوا من معرفة الحق وشهوده، أعثر عليهم من أراد سعادته ووصوله إلى حضرته؛ ليعلموا أن وعد الله بإبقاء العدد الذين يحفظ الله بهم نظام العالم فى كل زمان حق، وأن خراب العالم بانقراضهم، وقيام الساعة لا ريب فيه. وفى الآية تلميح على ذم الخوض بما لا علم للعبد به، ومدح من رد العلم إلى الله فى كل شيء. والله تعالى أعلم.

ثم نهى نبيه عن المجادلة بعد وضوح الحق، فقال:

﴿... فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِيْ شَيْءٌ إِنْى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُكَ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ٢٤ وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا ٢٥ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ٢٦﴾

قلت: (إلا أن يشاء): استثناء مفرغ من النهى، أى: لا تقولن فى حال من الأحوال، إلا حال ملابسة بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد، وهو أن تقول: إن شاء الله، أو: فى وقت من الأوقات، إلا وقت إن شاء الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أى: لا تجادل ﴿فِيهِمْ﴾؛ فى شأن أهل الكهف ﴿إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ قدر ما تعرض له الوحي من وصفهم، من غير زيادة عليه، مع تفويض العلم إلى الله، فلا تصرح بجهلهم، ولا تفضح خطأهم، فإنه يخل بمكارم الأخلاق، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ﴾: فى شأنهم ﴿مِنْهُمْ﴾؛ من الخائضين ﴿أَحَدًا﴾؛ فإن فيما أوحى إليك لمدوحة عن ذلك، مع أنهم لا علم لهم بذلك.

(١) فى النطق بهذه الأسماء اختلاف كثير، وقال الحافظ ابن كثير: فى تسميتهم بهذه الأسماء، واسم كلبهم، نظر فى صحته، والله أعلم، فإن غالب ذلك متلقى عن أهل الكتاب. وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أى: سهلاً هيناً، فإن الأمر فى معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة. انظر تفسير ابن كثير ٧٨/٣.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ أَيْ: لِأَجْلِ شَيْءٍ تَعَزَمُ عَلَيْهِ: ﴾ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ ﴿ الشَّيْءِ ﴾ ﴿ غَدًا ﴾ : فيما يستقبل من الزمان مطلقاً، فيصدق بالغد وما بعده؛ لأنه نزل حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين. فسأله ﷺ فقال: «غداً أخبركم»، ولم يستثن، فأبطأ عليه الوحي، حتى شق عليه، وكذبت قريش، ثم نزلت السورة بعد أربعة عشر يوماً، أو قريباً منها^(١)، على ما ذكره أهل السير، أي: لا تقلّ إنني فاعل شيئاً في حال من الأحوال إلا متلبساً بمشيئته على الوجه المعتاد، وهو أن تقول: إن شاء الله، أو في وقت من الأوقات، إن شاء الله أن تقوله، بمعنى: أن يأذن لك فيه، فإن النسيان بمشيئته تعالى.

﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ ﴾ بقولك: إلا أن يشاء الله؛ مستدرِكاً له، ﴿ إِذَا نَسِيتَ ﴾ : إذا فرط منك نسيان ثم ذكرته. وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولو بعد سنة ما لم يحدث. ولذلك جُوز تأخير الاستثناء. وعامة الفقهاء على خلافه، إذ لو صح ذلك لما تقرر طلاق ولا عتاق، ولم يعلم صدق ولا كذب، وقال القرطبي: هذا في تدارك الترك والتخلص من الإثم، وأما الاستثناء المغير للحكم فلا يكون إلا متصلاً به، ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربك؛ بالتسبيح والاستغفار؛ إذا نسيت الاستثناء؛ مبالغة في الحث عليه، أو: اذكر ربك إذا اعتراك نسيان؛ لتستدرك ما فات، وحمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها. وسيأتى في الإشارة بقية الكلام عليها.

﴿ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي ﴾ : يوفّقني ﴿ لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا ﴾ أي: لنبأ أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف، من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي، ﴿ رَشَدًا ﴾ أي: إرشاداً للناس ودلالة على ذلك. وقد فعل عز وجل ذلك؛ حيث آناه من البينات ما هو أعظم وأبين لقصص الأنبياء، المتباعدة أيامهم، والإخبار بالغيوب والحوادث النازلة في الأعمار المستقبلية إلى قيام الساعة. أو: لأقرب رشداً وأدنى خيراً من المنسى، أي: عسى أن يدلني على ما هو أصح لي من الذي نسيته؛ إذ يجوز أن يكون نسيانه خيراً له من ذكره؛ إذ فيه إظهار قهره تعالى، وغناه عن خلقه، وعدم مبالاته بإدبار من أدبر وإقبال من أقبل، أو: الطريق الأقرب من هذا الذي هدى إليه أهل الكهف؛ رشداً وصواباً، وقد فعل ذلك حيث هداه إلى الدين القيم الذي أظهره على الأديان كلها، ولو كره المشركون.

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ﴾ : أحياء، مضروباً على آذانهم، ﴿ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴾ ، روى عن علي - كرم الله وجهه - أنه قال: عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية، والله تعالى ذكر السنة القمرية، والتفاوت بينهما في كل مائة ثلاث سنين، فيكون ثلاث مائة سنة وتسع سنين. هـ. ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ أي: الزمان

(١) عزاه السيوطي في الدر (٣٩٤/٤) لابن المنذر عن مجاهد، في سياق طويل، وأخرج الطبري (١٩١/١٥) نحوه في سياق طويل، عن ابن عباس.

الذى لبثوا فيه. ﴿لَهُ غِيبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: ما غاب فيهما، وخفى من أحوال أهلها، ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعَ﴾ أى: ما أسمع وما أبصره. دل بصيغة التعجب على أن سمعه تعالى وبصره خارج عما عليه إدراك المدركين؛ لأنه تعالى لا يحجبه شيء، ولا يحول دونه حائل، ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيف والكثيف، والصغير والكبير، والخفى والجلّى. والتعجب فى حقه تعالى مجاز؛ لأنه إنما يكون مما خفى سببه، ولأنه دهشة وروعة تلحق المتعجب عند معاينة مالم يعتدّه، وهو تعالى منزّه عن ذلك، فيؤوّل بأنه مبالغة فى إحاطة سمعه وبصره بكل شيء، كما تقدم.

﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أى: ما لأهل السموات والأرض من دونه تعالى من ولي؛ يتولى أمورهم وينصرهم إلا هو سبحانه، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ﴾: فى قضائه فى علم الغيب ﴿أَحَدًا﴾ منهم، ولا يجعل له فيه مدخلا، وقرئ بالخطاب لكل أحد، أى: ولا تشرك أيها السامع فى حكمه وتدبيره أحدا من خلقه، فإنه لا فعل له ولا تدبير. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تضمنت إشارة الآية خمس خصال من خصال الصوفية:

الأولى: ترك المراء والجدال، إلا ما كان على وجه المذاكرة والمناظرة فى استخراج الحق أو تحقيقه، من غير ملاججة ولا مخاصمة، فى سهولة وليونة وسلامة القلوب.

الثانية: استفتاء القلوب فيما يعرض من الأمور؛ قال عليه السلام: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، وَإِنْ أَفْثَاكَ الْمُفْتُونَ وَأَفْثَوَكَ، قَالَ بَرِ مَا لَطَمَانَ الْقَلْبِ وَسَكَنَ إِلَيْهِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ وَتَرَدَّدَ» (١)، والمراد بالقلوب التى تُسْتَفْتَى. القلوب الصافية المنورة بذكر الله، الزاهدة فيما سوى الله، فإنها إذا كانت بهذه الصفة لا يتجلى فيها إلا الحق، ولا تسكن إلا إلى الحق، بخلاف القلوب المخوضّة بحب الدنيا والهوى، فلا تفتى إلا بما يوافق هواها.

الثالثة: التفويض إلى مشيئة الله وتدبيره، والرضا بما يبرز به القضاء، بحيث لا يعقد على شيء، ولا يجزم بفعل شيء، إلا ملتبساً بمشيئة الله، فينظر ما يفعل الله، فالعاقل إذا أصبح نظر ما يفعل الله به، والجاهل إذا أصبح نظر ما يفعل بنفسه، كما قال صاحب الحكم.

الرابعة: الاشتغال بالذكر والفكر، حتى يغيب عما سوى المذكور؛ قال تعالى: (وَاذْكُرْ رِيكَ إِذَا نَسِيتَ) أى: إذا نسيت ما سواه، حينئذ تكون ذاكرة حقيقة، فالذكر الحقيقي: هو الذى يغيب صاحبه عن شهود نفسه ورسمه وحسه، حتى يكون الحق تعالى هو المتكلم على لسانه؛ لشدة غيبته فيه، وهذا أمر مشاهد لمن عثر على شيخ التربية والتزم صحبته.

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند (٢٢٤/٤)، وابن عساكر فى تاريخ دمشق (تهذيب ٢/٢١٢) عن وابصة. وصححه محقق المسند. وزاد فى كشف الخفاء (١٢٤/٢) عز الحديث لأبى يعلى وأبى نعيم.

الخامسة: التماس الترقى والزيادة في الاهتداء واليقين، فكل مقام يدركه ينبغي أن يطلب مقاماً أعلى منه، ولا نهاية لعلمه تعالى ولا لعظمته، (وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً)، وبالله التوفيق.

ثم أمره بتلاوة كتابه الذي هو أصل كل رشد وصواب، وأقرب هداية لذوى الألباب، فقال تعالى:

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ

مُلْتَحِداً ﴿٢٧﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك﴾ أى: اسرده على ما نزل، ولا تسمع لقولهم: ﴿أنت بقرآن غير هذا﴾ (١)، أو اتبع أحكامه، ﴿لا مبدل لكلماته﴾: لا قادر على تبديله غيره، أو: لا مغير لما وعد بكلماته للمخالفين له، ﴿ولن تجد﴾ أبداً ﴿من دونه ملتحداً﴾ أى: ملجأ، تعدل إليه عند إمام ملمة، أو: لن تجد، إن بدلت، تقديرأ، وخالفت ما أنزل إليك، ملتحداً: ملجأ تميل إليه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: القرآن شفاء لكل داء فمن نزلت به شدة حسية أو معنوية، دنيوية أو دينية، ففزع إليه بالتلاوة أو الصلاة به، رأى فرجاً، وقريباً، فالالتجاء إلى كلام الله هو الالتجاء إلى الله، فإن الحق تعالى يتجلى في كلامه للقلوب على قدر صفائها، وأما من التجأ إلى غير الله فقد خاب رجاؤه وبطل سعيه؛ قال تعالى: (ولن تجد من دونه ملتحداً) تميل إليه فيأورك. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بصحبة الفقراء، الذين يعينونه على تلاوة كتابه ونصر دينه والتمسك به، فقال:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُمْ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴿٢٨﴾﴾

قلت: (ولا تعد): نهى مجزوم بحذف الواو، و(عيناك): فاعل، و(تريد): حال من الكاف، أو من فاعل (تعد).

يقول الحق جل جلاله: ﴿واصبر نفسك﴾ أى: احبسها ﴿مع الذين يدعون ربهم﴾ أى: يعبدونه ﴿بالغداة والعشي﴾، قيل: الصلوات الخمس، فالغداة: الصبح، والعشي: الظهر وما بعده، وقيل: الصبح والعصر،

(١) من الآية ١٥ من سورة يونس.

قلت: والأظهر أنها الصلاة التي كانوا يصلونها قبل فرض الصلاة، وهي ركعتان بالغداة والعشي. قال ابن عطية: ويدخل في الآية مَنْ يدعو في غير صلاة، ومن يجمع لمذاكرة علم، وقد روى عبدالله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «لَذِكْرُ اللَّهِ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ أَفْضَلُ مِنْ حَطْمِ السُّيُوفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمِنْ إِعْطَاءِ الْمَالِ سَعًا» (١).

وقيل: (يدعون ربهم) في جميع الأوقات، وفي طرفي النهار، والمراد بهم فقراء المؤمنين، كعمار وصهيب وخباب وبلال، روى أن رؤساء الكفرة من قريش قالوا لرسول الله ﷺ: لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك وصحبناك، وقالوا: إن ريع جبأهم تؤذينا، فنزلت الآية (٢). روى أنه ﷺ لما نزلت خرج إليهم وجلس بينهم، وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمي من أمرت أن أصبر نفسي معه» (٣). وقيل: نزلت في بيان أهل الصفة، وكانوا نحو سبعمائة، فتكون الآية مدنية.

ثم وصفهم بالإخلاص، فقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: معرفة ذاته، لاجنة ولا نجاة من نار، ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تجاوزهم بنظرك إلى غيرهم، من عداة: إذا جازته، وفي الرجز: ولا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوى الهيئات والزينة، ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء وأصحاب الدنيا.

﴿وَلَا تُطِعْ﴾ في تحية الفقراء عن مجلسك ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي: جعلناه غافلاً عن الذكر وعن الاستعداد له، كأولئك الذين يدعونك إلى طرد الفقراء عن مجلسك، فإنهم غافلون عن ذكرنا، على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء في مجامع الأوقات، وفيه تنبيه على أن الباعث على ذلك الدعاء غفلة قلبية عن جناب الله - سبحانه - حتى خفى عليه أن الشرف إنما هو بتحية القلب بالفضائل، لا بتحية الجسد بالملابس والمأكلة. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ما تهواه نفسه، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ ضياعاً وهلاكاً، وهو من التفريط والتضييع، أو من الإفراط والإسراف، فإن الغفلة عن ذكر الله - تعالى - تؤدي إلى اتباع الهوى المؤدى إلى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية حث على صحبة الفقراء والمكث معهم، وفي صحبتهم أسرار كبيرة ومواهب غزيرة، إذ بصحبتهم يكتسب الفقير آداب الطريق، وبصحبتهم يقع التهذيب والتأديب، حتى يتأهل لحضرة التقريب،

(١) عزاه في كنز العمال (٤٢٩/١ ح ١٨٥٠) لابن شاهين في الدرغيب في الذكر عن ابن عمر. وأخرجه، بدون العبارة الأخيرة، الديلمي في الفردوس (٤٥٤/٣ ح ٥٤٠٢) عن أنس.. وحطم السيوف، أي: كسرها.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (باب في الزهد وقصر الأمل) عن سلمان، وزاد السيوطي عزوه في الدر (٣٩٦/٤) لابن مردويه، وأبى نعيم في الحلية.

(٣) أخرجه الطبري (٢٣٥/١٥) عن قتادة، وأخرجه البيهقي في الموضع السابق ذكره، ضمن الرواية ذاتها عن سلمان.

وبصحبته تدوم حياة الطريق، ويصل العبد إلى معالم التحقيق، وفي ذلك يقول الشيخ أبو مدين رحمته الله:

مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا صُحْبَةُ الْفُقَرَاءِ هُمْ السَّلَاطِينُ وَالسَّادَاتُ وَالْأُمَرَاءُ
فَاصْحَابُهُمْ وَقَادِبُ فِي مَجَالِسِهِمْ وَخَلَّ حَظُّكَ مَهْمَا خَلَّفُوكَ وَرَأَى

إلى آخر كلامه .

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ قال القشيري: لم يقل: واصبر قلبك؛ لأن قلبه كان مع الحق تعالى، فأمره بصحبة الفقراء جهراً بجهر، واستخلص قلبه لنفسه سرّاً بسر. هـ. قال الورتجبي: اصبر نفسك مع هؤلاء الفقراء، العاشقين لجمال، المشتاقين إلى جلال، الذين هم في جميع الأوقات يسألون متى لقاء وجهي الكريم، ويريدون أن يطيروا بجناح المحبة إلى عالم وصلّى، حتى يكونوا متسللين بصحبتك عن مقام الوصال، وفي رؤيتهم لك رؤية ذلك الجمال. هـ.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، بين أن دعاءهم وسؤالهم إنما هو رؤيته ولقاؤه، شوقاً إليه ومحبة فيه، من غير تعلق بغيره، أو شغل بسواه، بل همتهم الله لا غيره، والألماً صدق قصر إرادتهم عليه. قال في الإحياء: من يعمل اتقاء من النار خوفاً، أو رغبة في الجنة رجاء، فهو من جملة النيات الصحيحة؛ لأنه ميل إلى الموعد في الآخرة، وإن كان نازلاً بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله، لا لأمرٍ سواه. ثم قال: وقول رويم: الإخلاص: ألا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين، هو إشارة لإخلاص الصديقين، وهو الإخلاص المطلق، وغيره إخلاص بالإضافة إلى حظوظ العاجلة. هـ. من الحاشية.

ثم أمره بالصدع بالحق، فقال:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ
نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ
الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿٢٩﴾

قلت: «الحق»: خبر، أي: هذا الذي أوحى إلى الحق.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقل﴾ يا محمد لأولئك الغافلين المتبعين أهواءهم، أو: لمن جاءك من الناس: هذا الذي جئتكم به من عند ربي هو ﴿الحق من ربكم﴾ أي: من جهة ربكم، لا من جهتي، حتى يتصور فيه التبديل، أو يمكن التردد في اتباعه. ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، وهو تهديد، أي: فمن شاء أن يؤمن فليؤمن كسائر المؤمنين، ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعليل، ومن شاء أن يكفر فليفعل، وفيه مع التهديد الاستغناء عن متابعتهم، وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم.

ثم أوعدهم على الكفر، فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أى: هيأنا للكافرين بالحق، بعد ما جاء من الله سبحانه، والتعبير عنهم بالظالمين؛ للتنبيه على أن اختيارهم الكفر ظلم وتجاوز عن الحد، ووضع الشيء في غير محله، أى: هيأنا لهم ﴿نَارًا﴾ عظيمة ﴿أَحَاطَ بِهِمْ﴾ أى: محيط بهم ﴿سُرَادِقُهَا﴾ أى: سورها المحيط بها، والتعبير بالماضى؛ لتحقيق وقوعه، والسرادق: ما يحيط بالشيء، كالجدار ونحوه. قيل: هو حائط من نار، وقيل: دخانها. ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا﴾ من العطش ﴿يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمِهلِ﴾: كمذاب الحديد والرصاص في الحرارة. وقيل: كزديء الزيت في اللون، ﴿يَشْوَى الوجوه﴾ إذا قدم ليشرب؛ بحرارته. عن النبي ﷺ أنه قال: «هو كعكر الزيت، فإذا قُرِبَ مِنَ الكافر سَقَطَتْ فَرْوَةٌ وَجْهَهُ فِيهِ، فَإِذَا شَرِبَهُ تَقَطَّعَتْ أَمْعَاؤُهُ» (١).

﴿بَسَّ الشَّرَابُ﴾ ذلك، ﴿وَسَاءَتْ﴾ النار ﴿مَرْتَفَقًا﴾: متكأ، وأصل الارتفاق: نصب المرفق تحت الخد ليتكى عليه، وأنى ذلك في النار، وإنما هو لمقابلة قوله في المؤمنين: ﴿وَرَحَسَتْ مَرْتَفَقًا﴾.

الإشارة: ينبغي للواعظ، أو المذكر، أو العالم، ألا يحرص على الناس، بل يستغنى بالله في أموره كلها، وإنما يبين الحق من الباطل، ويقول: هذا الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن يشاء فليكفر. هذا إذا كان لعامة الناس، وأما إن كان لخاصتهم؛ كأهل الرئاسة والجاه، فاختلف فيه؛ فقال بعضهم: يسلك هذا المنهاج، يبين الحق ولا يبالى، محتجاً بالآية، قال: نحن أمة محمدية، قال تعالى له: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ الآية، وقال بعضهم: ينبغي أن يلين لهم القول؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٢)، وهو الأليق بطريق السياسة، فمن أعرض عن الوعظ، وبقي على ظلمه، فالآية نجر ذيلها عليه. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾
أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ
ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مَرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

(١) أخرجه، من العبارة الأخيرة، أحمد في المسند (٧٠/٣)، والترمذي في (صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار)، والبخاري في تفسيره (١٦٨/٥)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٢) الآية ٤٤ من سورة طه.

قلت : جملة : (إنا لا نضيع) : خبر إين، والعائد محذوف، أى : أحسن عملاً، أو : وقع الظاهر موقعه؛ فإن من أحسن عملاً فى الحقيقة هو الذى آمن وعمل صالحاً. و«أولئك» : استئناف؛ لبيان الأجر، أو : خبر إين، وما بينهما اعتراض، أو خبر بعد خبر. و(من أساور) : ابتدائية، و(من ذهب) : بيانية، و(أساور) : جمع أسورة، أو أسوار جمع سوار، فهو جمع الجمع.

يقول الحق جل جلاله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى : اختاروا الإيمان، من قوله : (فمن شاء فليؤمن)، وكأنه فى المعنى عطف على قوله : (أعندنا للظالمين)، أى : والذين آمنوا هيأنا لهم كذا وكذا، ولعل تغيير سبكه : للإيدان بكمال تنافى مآلى الفريقين، أى : إن الذين آمنوا بالحق الذى أوحى إليك ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصالحات﴾، حسبما بين فيما أوحى إليك، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، وأتقنه على ما تقتضيه الشريعة.

﴿أولئك﴾ : المنعوتون بهذه الدعوات الجليلة ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ عِدْنُ تَجْرَى﴾ من تحت قصورهم ﴿الأنهار﴾ ؛ من ماء ولبن وخمر وعسل، ﴿يُحَلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أى : كل واحد يحلّى بسوارين من ذهب. وكانت الأساور عند العرب من زينة الملوك، ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾، وخصت الخضرة بثيابهم؛ لأنها أحسن الألوان وأكثرها طراوة. وتلك الثياب ﴿مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، السندس : ما رق من الديباج، والإستبرق : ما غلظ منه، جمع اللوعين؛ للدلالة على أن فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين، ﴿مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة، وهو السرير فى الحجال، أى : متكئين على الأسرة المزينة بالمستور الرفيعة، كحال العرائس المتلعمين. ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ ذلك، ﴿وَحَسَنَتْ مَرْفَقًا﴾ : متكأ. والآية عامة وإن نزلت فى خصوص الصحابة رضى الله عنهم، وأما تنافى على منهاجهم. آمين.

الإشارة : إن الذين آمنوا إيمان الخصوص، وعملوا الأعمال التى تقرب إلى حضرة القدوس؛ وهى تحمل ما يثقل على النفوس، أولئك لهم جنات المعارف، تجرى من تحت قلوبهم أنهار العلوم والمواهب، يحلّون فيها بمقامات اليقين، ويلبسون ثياب العز والنصر والتمكين، متكئين على سرر الهدى والسرور، قد انقضت عنهم أيام المحن والشرور، جعلنا الله فيهم بعمته وكرمه.

ثم ضرب مثلاً لمن اغتر بدنياه، ولمن زهد فيها وأقبل على مولاه، فقال :

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا

بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

وَدَخَلَ جَنَّتَهُمْ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۚ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ ۚ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهَا وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّيْسَ أَنتَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِنَّ تَكْرِنًا أَقْلَ مِنْكَ مَا لَا وَلدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيط بِشَمْرِهٖ فَاصْبِرْ يُّقَلِّبْ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴿

قلت : «رجلين» : بدل من «مثلا» ، وجملة «جعلنا ...» بتمامها : بيان للتمثيل ، أو صفة لرجلين ، و«ما شاء الله» : خبر ، أى : هذا ما شاء الله ، أو الأمر ما شاء الله ، أو مبتدأ حذف الخبر ، أى : الذى شاء الله كائن ، أو شرطية ، والجواب محذوف ، أى : أى شيء شاء الله كان ، و(هنالك) : ظرف مقدم ، و(الولاية) : مبتدأ ، والظرف : إشارة إلى الآخرة ، وهذا أحسن .

يقول الحق جل جلاله : ﴿واضرب لهم﴾ أى : للفريقين ؛ فريق المؤمنين والكافرين المتقدمين ، ﴿مثلاً﴾ ؛ من حيث عصيان الكافر ، مع تقلبه فى النعيم ، وطاعة المؤمن ، مع مكابذته مشاق الفقر ، وما كان مآلهما ، لا من حيث ما ذكر من أن للكافر فى الآخرة كذا وللمؤمن كذا ، أى : واضرب لهم حالى ﴿رجلين﴾ مقدرين أو محققين ، هما أخوان من بنى إسرائيل ، أو شريكان : كافر ، واسمه قُطْرُوس ، ومؤمن ، اسمه يهوذا ، اقتسما ثمانية آلاف دينار ، أو ورثاها من أبيهما ، فاشترى الكافر بنصيبه ضياعاً وعقاراً ، وصرف المؤمن نصيبه إلى وجوه البر .

روى : أن الكافر اشترى أرضاً بألف دينار ، فقال صاحبه المؤمن : اللهم إن فلانا اشترى أرضاً بألف ، وإنى اشترى منك أرضاً فى الجنة بألف ، فتصدق بألف دينار ، ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار ، فقال المؤمن : اللهم إن صاحبنى بنى داراً بألف ، وإنى اشترى منك داراً فى الجنة بألف ، فتصدق بألف دينار ، ثم إن صاحبه تزوج

امراً بألف دينار، فقال: اللهم، إن فلاناً تزوج بألف دينار، وإنى أخطب منك من نساء الجنة بألف، فتصدق بألف دينار، ثم إن صاحبه اشترى خادماً ومتاعاً بألف دينار، فقال: اللهم إن فلاناً اشترى خادماً ومتاعاً بألف، وإنى أشتري منك خادماً ومتاعاً من الجنة بألف، فتصدق بألف دينار، ثم أصابته حاجة، فقال: لعل صاحبي يداوئني معروفه، فأتاه، فقال: ما فعل مالك؟ فأخبره قصته، فقال: أو إنك لمن المصدقين بهذا؟ والله لا أعطيك شيئاً، فلما توفيا آل أمرهما إلى ما ذكر الله في سورة الصافات بقوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ، يَقُولُ أَتُنْكَلُ لِمَنْ الْمُصَدِّقِينَ...﴾ (١) الآية.

وبين حالهما في الدنيا بقوله: ﴿جعلنا لأحدهما﴾ وهو الكافر، ﴿جنتين﴾: بستانين ﴿من أعناب﴾: من كروم متنوعة، ﴿وحففناهما بنخل﴾ أي: جعلنا النخل محيطاً بهما محفوظاً بها كرومهما، ﴿وجعلنا بينهما﴾: وسطهما ﴿زروعاً﴾؛ ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه، متواصل العمارة، على الهيئة الرائقة، والوضع الأنيق. ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها﴾: ثمرها وبلغ مبلغاً صالحاً للأكل، ﴿ولم تظلم منه شيئاً﴾ أي: لم تنقص من أكلها شيئاً في كل سنة، بخلاف سائر البساتين، فإن الثمار غالباً تكثر في عام وتقل في عام، ﴿وفجرنا خلالها﴾: فيما بين كل من الجنتين ﴿نَهراً﴾ على حدة، وقرى بالسكون. والنهر: الماء الكثير، وكان لكل بستان نهر؛ ليدوم شربها ويدوم بهاؤها.

ولعل تأخير تفجير النهر عن ذكر إيتاء الأكل، مع أن الترتيب الخارجى العكس؛ للإيذان باستقلال كل من إيتاء الأكل وتفجير النهر في تكميل محاسن الجنتين، كما في قصة البقرة ونحوها، ولو عكس لأوهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها مرتب على بعض.

﴿وكان له ثمر﴾ أي: وكان لصاحب الجنتين أنواع من المال غير الجنتين، من ثمر ماله: إذا كثر. قال ابن عباس: الثمر: جميع المال؛ من الذهب، والفضة، والحيوان، وغير ذلك. وقال مجاهد: هو الذهب والفضة خاصة. ﴿فقال لصاحبه﴾ المؤمن، أخيه أو شريكه، ﴿وهو يحاوره﴾: يراجعه في الكلام، من حار إذا رجع، وذلك أنه سأله عن ماله فيما أنفق، فقال: قدمته بين يدي، لأقدم عليه، فقال له: ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾: حشماً وأعواناً وأولاداً ذكوراً؛ لأنهم الذين ينفرون معه.

﴿ودخل جنته﴾: بستانه الذي تقدم وصفه، وإنما وحده؛ إما لعدم تعلق الغرض بتعددده، أو لاتصال أحدهما بالآخر، أو لأن الدخول يكون في واحدٍ واحد. فدخله ﴿وهو ظالم لنفسه﴾؛ ضار لها بعجبه وكفره، ﴿قال﴾ حين دخوله: ﴿ما أظن أن تبدي هذه﴾ الجنة، أي: تقلى ﴿أبداً﴾؛ لطول أمده وتمادى غفلته، وإنكاراً لفناء الدنيا

(١) الآيتان ٥٠ - ٥١ من سورة الصافات. وانظر تفسير البغوى ١٧٠/٥، وزاد المسير ١٣٨/٥.

وقيام الساعة، ولذلك قال: ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أي: كائنة فيما سيأتي، ﴿ولئن رددت إلى ربي﴾ بالبعث عند قيامها، كما تقول، ﴿لأجدن﴾ حينئذ ﴿خيراً منها﴾: من الجنتين ﴿مُقلَباً﴾ أي: مرجعاً وعاقبة، أي: كما أعطاني هذا في الدنيا سيعطيني أفضل منه في الآخرة، ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة: اعتقاد أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه في الدنيا؛ لاستحقاقه لذاته، وكرامته عليه، ولم يدِرْ أن ذلك استدراج.

﴿قال له صاحبه﴾: أخوه المسلم ﴿وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك﴾ أي: أصلك ﴿من تراب﴾، فإن خلق آدم ﷺ من تراب متضمن لخلق أولاده منه؛ إذ لم تكن فطرته مقصورة على نفسه، بل كانت أنموذجاً منظوياً على فطرة سائر أفراد الجنس، انطواءً مجانساً مستتبعا لجريان آثارها على الكل، فكان خلقه ﷺ من تراب خلقاً للكل منه، ﴿ثم من نطفة﴾ هي مادتك القرية، ﴿ثم سواك رجلاً﴾ أي: عدلك وكمالك إنساناً ذكراً، أو صيرك رجلاً، وفي التعبير بالموصل مع صلته: تلويح بدليل البعث، الذي نطق به قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما البعث فإننا خلقناكم من تراب﴾ (١).

قال البيضاوي: جعل كفره بالبعث كفراً بالله؛ لأنه منشأ الشك في كمال قدرة الله، ولذلك رتب الإنكار على خلقه إياه من التراب، فإن من قدر على إبداء خلقه منه قدر أن يعيده منه. هـ.

ثم قال أخوه المسلم: ﴿لكننا﴾ أصله: لكن أنا، وقرئ به، فحذفت الهمزة، فالتقت النونان فوقع الإدغام، ﴿هو الله ربِّي﴾، وهو: ضمير الشأن، مبتدأ، خبره: «هو الله ربِّي»، وتلك الجملة: خبر «أنا»، والعائد مذهبها: الضمير، وقرئ بإثبات «أنا» في الوصل والوقف، وفي الوقف خاصة، ومدار الاستدراك قوله تعالى: «أكفرت»، كأنه قال: أنت كافر، لكني مؤمن موحد، ﴿ولا أشرك بربي أحداً﴾، وفيه تنبيه على أن كفره كان بالإشراك. قاله أبو السعود.

قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي: والذي يظهر من قوله: «ولولا إذ دخلت... الآية»، ومن قوله: «ياليتني لم أشرك... الآية»، أنه إشراك بالله في عدم صرف المشيئة إليه، ودعوى الاستقلال بنفسه دونه، وقد قال وهب بن منبه: (قرأت في تسعين كتاباً من كتب الله أن من وكل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر)، ثم شكه في البعث تكذيب بوعد الله، وهو كفر صراح. هـ.

﴿ولولا إذ دخلت جنتك﴾: بستانك، ﴿قلت ما شاء الله﴾ أي: هلاً قلت عند دخولها: ﴿ما شاء الله﴾ أي: الأمر ما شاء الله، أو ما شاء الله يكون، والمراد: تحضيضه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى، إن شاء أبقاها، وإن شاء أخفاها، ﴿لا قوة إلا بالله﴾ أي: لا قوة لي على عمارتها وتدبير أمرها إلا بمعونة الله وإقداره.

(١) من الآية ٥ من سورة الحج.

قال النبي ﷺ: «مَنْ رَأَى شَيْئًا فَاَعْجَبَهُ فَقَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ» (١). وقال لأبي هريرة: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كُتُوبِ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، إِنْ قَالَهَا الْعَبْدُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ» (٢). وقال لعبدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُتُوبِ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» (٣).

ثم قال له أخوه المسلم: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ في الدنيا، وفيه تقوية لمن قسر الفقر بالولد، ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي﴾ في الآخرة أو في الدنيا ﴿خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ والمعنى: إِنْ تَرَنِ أَفْقَرُ مِنْكَ فَأَنَا أَتَوَقَّعُ مِنْ صُنْعِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقْلِبَ مَا بِي وَيَكُنْ مِنْ الْفَقْرِ وَالْغَلِي، فيرزقني جنة خيراً من جنتك، ويسليك؛ لكفرك نعمته، ويخرب جنتك، ﴿وَيُرْسِلْ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾: عذاباً ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ يذهبها، من بردٍ أو صاعقة، وهو جمع: حُسْبَانَةٌ، وهي: المرامي من هذه الأنواع المذكورة، وتطلق أيضاً، في اللغة، على سهام تُرمى دفعة واحدة، ﴿فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي: أرضاً ملساء، يزلق عليها؛ لاستئصال ما عليها من النبات والشجر والبناء، ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَاءُهَا﴾ أي: النهر الذي خلالها ﴿غُورًا﴾: غائراً ذاهباً في الأرض، وزلقاً، و«غوراً»: مصدران، عبّر بهما عن الوصف؛ مبالغة. ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ أي: لن تستطيع أبداً للماء الغائر طلباً، بحيث لا يبقى له أثر يطلبه به، فضلاً عن وجدانه ورده.

﴿وَأُحِيطَ بِشَمَرِهِ﴾ أي: هلك أشجاره المثمرة، وأمواله المعهودة، وأصله: من إحاطة العدو، وهو عطف على مُقَدَّر، كأنه قيل: فوق بعض ما وقع من المحذور، وأهلك أمواله، روى أن الله تعالى أرسل عليها ناراً فأحرقتها وغار ماؤها. ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ﴾ ظهراً لبطن، أو يضرب يديه واحدة على أخرى، يصفق بهما، وهو كناية عن الندم، كأنه قال: فأصبح يندم ﴿عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ أي: في عمارتها من الأموال. وجعل تخصيص الندم بها دون ما هلك الآن من الجنة؛ لأنه إنما يكون على الأفعال الاختيارية. انظر أبا السعود.

﴿وهي﴾ أي: الجنة ﴿خَاوِيَةٌ﴾: ساقطة ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: دعائمها المصنوعة للكرور، فسقطت العروش أولاً ثم سقطت الكسور عليها. وتخصيص حالها بالذكر، دون الزرع والنخل، إما لأنها العمدة وهما من متمماتها، وإما لأن ذكر هلاكها مغل عن ذكر هلاك الباقي؛ لأنها حيث هلكت، وهي مشددة بعروشها فهلاك

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (ج ٢٠٦) من حديث أنس، والبيهقي في شعب الإيمان (باب في تعدد نعم الله عز وجل، ج ٤٣٧٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٩٨/٢) عن أبي هريرة رضى الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في (المغازي، باب غزوة خيبر)، ومسلم في (الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر) من حديث أبي موسى الأشعري.

ماعداهما أولى، وإما لأن الإنفاق في عمارتها أكثر. ﴿ويقول﴾ أي: يقلب وهو يقول: ﴿ياليتني لم أشرك بربي أحداً﴾، كأنه تذكر موعظة أخيه، وعلم أنه إنما أتى من قبل شريكه، فتمنى أن لم يكن مشركاً فلم يصبه ما أصابه.

﴿ولم تكن له فئة﴾: جماعة ﴿ينصرونه﴾: يقدرّون على نصره؛ بدفع الهلاك عن أمواله، ﴿من دون الله﴾، فإنه القادر على ذلك وحده، ﴿وما كان منتصراً﴾ أي: وما كان في نفسه ممنوعاً بقوته من انتقامه سبحانه منه.

﴿هنالك﴾؛ في ذلك المقام، وفي تلك الحال ﴿الولاية لله الحق﴾ أي: النصر له وحده، لا يقدر عليها أحد غيره، وقرئ: ﴿الحق﴾؛ بالكسر، صفة لله، وبالرفع، نعت للولاية. ويحتمل أن يكون: ﴿هنالك﴾ ظرفاً لمنتصراً، أي: وما كان ممتنعاً من انتقام الله منه في ذلك الوقت، ففيه تنبيه على أن قوله: ﴿ياليتني لم أشرك﴾: كان عن اضطرار وجزع مما دهاه، فلذلك لم ينفعه، كقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا﴾ (١). وحينئذ استأنف تعالى الإخبار عن كمال حفظه لأوليائه فقال: ﴿الولاية لله الحق﴾ أي: الحفظ والرعاية والنصرة إنما هي من الله لأوليائه في الدنيا والآخرة، لا يخذلهم في حال من الأحوال، بل يتولى سياستهم ونصرهم وهدايتهم، كما هو شأن من اعتز بالله، دون من اعتز بغيره، فقوله: ﴿ولم تكن له فئة﴾: رد لقوله: ﴿وأعز نفراً﴾؛ أي: بل النصر لله لأوليائه، دون من تولى غيره.

والحاصل: أن من تولى الله فعاقبته النصره، ومن تولى غيره فعاقبته الخذلان. والعياذ بالله. ويحتمل أن يكون قد تم الكلام على القصة، ثم أعاد الكلام إلى ما قبل القصة، فقال: ﴿هنالك﴾ عند ذلك، يعني: يوم القيامة ﴿الولاية لله الحق﴾؛ يتولون الله ويؤمنون به، ويتبرأون مما كانوا يعبدون، ﴿هو خير ثواباً﴾ أي: خير من يرجي ثوابه، ﴿وخير عقباً﴾ أي: عاقبة لأوليائه. والعقب: العاقبة، يقال: عاقبة كذا وعقباه وعقبه، أي: آخره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد ضرب الله مثلاً لمن عكف على هواه، وقصر همهته على زخارف دنياه، ولمن توجه بهيمته إلى مولاده، وقدم دنياه لأخراه، فكان عاقبة الأول: الندم والخسران؛ وعاقبة الثاني: الهنا والرضوان، أول من وقف مع علمه واعتمد عليه، ولمن تبرأ من حوله وقوته في طلب الوصول إليه.

قال في لطائف المدن: لا تدخل جنة علمك وعملك، وما أعطيت من نور وفتح فتقول كما قال من خذل، فأخبر الله عنه بقوله: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً...﴾ الآية. ولكن ادخلها كما بين

(١) من الآية ٨٥ من سورة غافر.

لك، وقل كما رضى لك: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾، وافهم بهذا قوله ﷺ: «لا حول ولا قوة إلا بالله كثر من كنوز الجنة»^(١). وفى رواية أخرى: «كنز من كنوز تحت العرش». فالترجمة: (٢) ظاهر الكنز، والمكنوز فيها: صدق التبرى من الحول والقرّة، والرجوع إلى حول الله وقوته. ثم ضرب مثلاً فى سرعة ذهابها وفنائها، فقال:

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

قلت: ﴿كماء﴾: خبر عن مضمر، أى: هى كماء، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً لاضرِب، على أنه بمعنى اصير.

يقول الحق جل جلاله: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا﴾ أى: واذكر لهم ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها، وسرعة انقراضها وفنائها؛ لئلا يطمئنوا إليها ويغفلوا عن الآخرة، هى ﴿كماء أنزلناه من السماء﴾ وهو المطر، ﴿فاختلط به﴾ أى: بسببه ﴿نبات الأرض﴾ بحيث النف وخالط بعضه بعضاً؛ من كثرت وتكاثفه، ثم مرت مدة قليلة ﴿فأصبح هشيماً﴾ أى: مهشوماً مكسوراً، ﴿تذروه الرياح﴾ أى: تفرقه وتطيره، كأن لم يَغْنْ بالأمس، ﴿وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾: قادراً، ومن جملة الأشياء: الإقناء والإنشاء.

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ أى: مما تذروه رياح الأقدار، ويلحقه الفناء والبوار، ويدخل فى الزينة: الجاه، وجميع ما فيه للنفس حظ؛ فإنه يفنى ويبعد، ثم ذكر ما لا يفنى فقال: ﴿والباقيات الصالحات﴾؛ وهى أعمال الخير بأسرها، أو: الصلوات الخمس، أو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، زاد بعضهم: ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. قال عليه الصلاة والسلام: «هى من كنز الجنة، وصفايا الكلام، وهن الباقيات الصالحات، يأتين يوم القيامة مقدمات ومعقبات»^(٣).

(١) أخرجه البخارى فى (الدعوات، باب الدعاء إذا علا عتبة)، ومسلم فى (الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر)، من حديث أبى موسى الأشعرى. بلفظ: «ألا ألك على كنز من كنوز الجنة؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله».

(٢) أى: اللفظ والكلام المنطوق به.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٢٢٠/٤ ح ٤٠٤٧) بلفظ: «قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنهن يأتين يوم القيامة مستقدمات ومنجيات ومجبات، وهن الباقيات الصالحات»، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

أو: الهمم العالية والنيات الصالحة؛ إذ بها ترفع الأعمال وتقبل. أو: كل ما أريد به وجه الله، وسميت باقية؛ لبقاء ثوابها عند فناء كل ما تطمح إليه النفس من حظوظ الدنيا وزينتها الفانية.

قال في الإحياء: كل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا، كالجمال والجاه مما ينقضى على القرب، وكل ما لا يقطع الموت فهو الباقيات الصالحات، كالعلم والحرية؛ لبقائهما؛ كمالاً فيه، ووسيلة إلى القرب من الله تعالى، أما الحرية من الشهوات فتقطع عن غير الله، وتجرده عن سواه، وأما العلم الحقيقي فيفرد به الله ويجمعه عليه. هـ.

وهي، أي: الباقيات الصالحات ﴿خيرٌ عند ربك﴾ أي: في الآخرة ﴿ثواباً﴾ أي: عائدة تعود على صاحبها، بخلاف ما شأنه الفناء من المال والبنين؛ فإنه يفنى ويبعد. وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (١). وقوله: ﴿عند ربك﴾: بيان لما يظهر فيه خيريتها، لا لأفضليتها من المال والبنين مع مشاركتها لها في الخيرية؛ إذ لا مشاركة لهما في الخيرية في الآخرة. ثم قال تعالى: ﴿وَحَيْرٌ أَمَلٌ﴾ أي: ما يؤمله الإنسان ويرجوه عند الله تعالى؛ حيث ينال صاحبها في الآخرة كل ما كان يؤمله في الدنيا، وأما ما مرّ من المال والبنين فليس لصاحبه فيه أمل يناله. وتكرير «خير»؛ للإشعار باختلاف حيثيتي الخيرية والمبالغة فيه.

الإشارة: قد تقدم، مراراً، التحذير من الوقوف مع بهجة الدنيا وزخارفها الغرارة؛ لسرعة ذهابها وانقراضها. روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا هريرة تريد أن أريك الدنيا؟ قلت: نعم، فأخذ بيدي، وانطلق، حتى وقف بي على مزيلة، رؤوس آدميين ملقاة، وبقايا عظام نخرة، وخرق بالية قد تمزقت وتلوثت بنجاسات آدميين، فقال: يا أبا هريرة؛ هذه رؤوس آدميين التي تراها، كانت مثل رؤوسكم، مملوءة من الحرص والاجتهاد على جمع الدنيا، وكانوا يرجون من طول الأعمار ما ترجون، وكانوا يجدون في جمع المال وعمارة الدنيا كما تجدون، فاليوم قد تعرت عظامهم، وتلاشت أجسامهم كما ترى، وهذه الخرق كانت أثوابهم التي كانوا يتزينون بها، وقت التجميل وقت الرعونة والتزين، فاليوم قد ألقنها الرياح في الدجاسات، وهذه عظام دوابهم التي كانوا يطوفون أقطار الأرض على ظهورها، وهذه الدجاسات كانت أطعمتهم اللذيذة التي كانوا يحتالون في تحصيلها، وينهبها بعضهم من بعض، قد ألقوها عنهم بهذه الفضيحة التي لا يقربها أحد؛ من نفلها، فهذه جملة أحوال الدنيا كما تشاهد وترى، فمن أراد أن يبكي على الدنيا فليبك، فإنها موضع البكاء. قال أبو هريرة رضي الله عنه: فبكى جماعة الحاضرين، (٢).

(١) من الآية ٩٦ من سورة النحل

(٢) لم أقف على حديث بهذا السياق.

ثم ذكر ما يكون بعد فناء الدنيا التي تقدم مثالها من أهوال الحشر والحساب، فقال:

﴿ وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ ﴿٤٧﴾
وَعَرَّضْنَاهُمْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ
مَوْعِدًا ۖ ﴿٤٨﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّتُنَا مَا لِ
هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا
وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۖ ﴿٤٩﴾ ﴾

قلت: «ويوم»: معمول لمحذوف، أى: واذكر، أو عطف على قوله: «عند ربك»، أى: والباقيات الصالحات خير عند ربك ويوم القيامة، و(حشرناهم): عطف على (نسير)؛ للدلالة على تحقق الحشر المتفرع على البعث الذي ينكره المشركون، وعليه يدور أمر الجزاء، وكذا الكلام فيما عطف عليه؛ منفياً وموجباً، وقيل: هو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز؛ ليعاينوا تلك الأهوال، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك. و(نغادر): نترك، يقال: غادره وأغدره: إذا تركه، ومنه: الغدير؛ لما يتركه السيل في الأرض من الماء، و(صفاً): حال، أى: مصطفين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نسيرُ الجبال﴾ أى: حين نقلعها من أماكنها ونسيرها في الجو، على هيلتها، كما ينبى عنه قوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدةً وهي تمرُّ مر السحاب﴾ (١) أو: نسير أجزائها بعد أن نجعلها هباءً منثوراً، والمراد من ذكره: تحذير الغافلين مما فيه من الأهوال، وقرئ: «تسير»؛ بالبناء للمفعول؛ جرياً على سنن الكبرياء، وإيضاحاً بالاستغناء عن الإسناد إلى الفاعل؛ لظهور تعينه، ثم قال: ﴿وترى الأرض﴾ أى: جميع جوانبها، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل من يسمع، ﴿بارزة﴾: ظاهرة، ليس عليها جبل ولا غيره. بل تكون ﴿قاعاً صَفْصَفاً، لا ترى فيها عرجاً ولا أمتاً﴾ (٢). ﴿وحشرناهم﴾: جمعناهم إلى الموقف من كل حذب، مؤمنين وكافرين، ﴿فلم نغادر﴾ أى: لم نترك ﴿منهم أحداً﴾.

﴿وعرضوا على ربك﴾، شبهت حالتهم بحال جندٍ عرض على السلطان، ليأمر فيهم بما يأمر. وفي الالتفات إلى الغيبة، وبناء الفعل للمفعول، مع التعرض لعنوان الربوبية، والإضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام - من

(١) الآية ٨٨ من سورة النمل.

(٢) الآيتان ١٠٧ - ١٠٨ من سورة طه.

تربية المهابة، والجرى على سنن الكبراء، وإظهار اللطف به ﷺ ما لا يخفى. قاله أبو السعود. ﴿صَفًّا﴾ أى: مصطفين غير متفرقين ولا مختلطين، كل أمة صف، وفى الحديث الصحيح: «يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، صَفَوًا، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ وَيَنْفِذُهُمُ الْبَصَرَ...»^(١) الحديث بطوله. وفى حديث آخر: «أهل الجنة، يوم القيامة، مائة وعشرون صفًا، أنتم منها ثمانون صفًا»^(٢).

يقال لهم - أى: للكفرة منهم: ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾، وتركتم ما خلقناكم وما أعطيناكم من الأموال وراء ظهوركم. أو: حفاة عراة غرلاً، كما فى الحديث.

وهذه المخاطبة، بهذا التقرير، إنما هى للكفار المنكرين للبعث، وأما المؤمنون المقرون بالبعث فلا تتوجه إليهم هذه المخاطبة، ويدل عليه ما بعده من قوله: ﴿بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً﴾ أى: زعمتم فى الدنيا أنه، أى: الأمر والشأن، لن نجعل لكم وقتاً يتنجز فيه ما وعدته من البعث وما يتبعه. وهو إضراب وانتقال من كلام، إلى كلام، كلاهما؛ للتوبيخ والتقرير.

﴿ووضع الكتاب﴾ أى: كتاب كل أحد، إما فى يمينه أو شماله، وهو عطف على: (عرضوا)، داخل تحت الأمور الهائلة التى أريد بذكرها تذكير وقتها، وأورد فيه ما أورد فى أمثاله من صيغة الماضى؛ لتحقيق وقوعه، وإثارة الأفراد؛ للاكتفاء بالجنس، والمراد: صحائف أعمال العباد. ووضعها إما فى أيدى أصحابها يميناً وشمالاً، أو فى الميزان. ﴿فترى المجرمين﴾ قاطبة، المنكرون للبعث وغيرهم، ﴿مشفقين﴾: خائفين ﴿مما فيه﴾ من الجرائم والذنوب، ﴿ويقولون﴾: عدد وقوفهم على ما فى تضاعيفه؛ فقيراً أو قطميراً: ﴿يا ويلتنا﴾ أى: ينادون بتهلكتهم التى هلكتها من بين التهلكات، ومستدعين لها؛ ليهلكوا، ولا يروى تلك الأهوال، أى: يا ويلتنا احضرى؛ فهذا أوان حضورك، يقولون: ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر﴾: لا يترك ﴿صغيرة ولا كبيرة﴾ من ذنوبنا ﴿إلا أحصاها﴾ أى: حواها وضبطها، وجملة «لا يغادر»: حال محققة؛ لما فى الاستفهام من التعجب، أو استثنائية مبنية على سؤال مقدر، كأنه قيل: ما شأنه حتى يتعجب منه؟ فقال: لا يغادر سيئة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ﴿ووجدوا ما عملوا﴾ فى الدنيا من السيئات، أو جزاء ما عملوا ﴿حاضراً﴾: مسطوراً عتيداً، ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾، فيكتب ما لم يعمل من السيئات، أو يزيد فى عقابه المستحق له. والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه بطوله البخارى فى (تفسير سورة الإسراء، باب قوله تعالى: ﴿فترى المجرمين﴾) (ذرية من حملنا مع نوح...)، ومسلم فى (الإيمان، باب أننى أهل الجنة منزلة فيها)، عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٤٥٣/١)، والبراز (كشف الأستار/٣٥٣٤) عن ابن مسعود.

الإشارة: ويوم نسير جبال الحس، أو الوهم، عن بساط المعاني، وترى أرض العظمة بارزة ظاهرة لا تخفى على أحد، إلا على أكمه لا يبصر القمر في حال كماله، وحشرناهم إلى الحضرة القدسية، فلم تغادر منهم، أى: ممن ذهب عنه الحس والوهم، أحداً، وعرضوا على ربك؛ لشهود أنوار جماله وجلاله، صفاء، للقيام بين يديه، فيقول لهم: لقد جئتمونا من باب التجريد، كما خلقناكم أول مرة، مُطَهَّرِينَ من الدنس الحسى، غائبين عن العلائق والعوائق، وكنتم تزعمون أن هذا اللقاء لا يكون في الدنيا، وإنما مواعده الجنة، ومن مات عن شهود حسه، وعن حظوظه، حصل له الشهود واللقاء قبل الموت الحسى، ووضع الكتاب في حق أهل الحجاب، فترى المجرمين من أهل الذنوب مشفقين مما فيه، ووجود العبد: ذنب لا يقاس به ذنب، فنصب الموازين، ومناقشة الحساب؛ إنما هو لأهل الحجاب، وأما العارفون الفانون عن أنفسهم، الباقون برهبهم، لم يبق لهم ما يحاسبون عليه؛ إذ لا يشهدون لهم فعلاً، ولا يرون لأحد قوة ولا حولاً. والله تعالى أعلم.

ولما كان سبب العذاب ووجود الحجاب هو التكبر على رب الأرباب، ذكر وباله باثر الحشر والحساب، أو تقول: لما ذكر قصة الرجلين ذكر قبح صنيع من افتخر بنفسه، وأنه شبيه بإبليس، وكل من افتخر واستكف عن الانتظام في سلك فقراء المؤمنين كان داخلًا في حزيه. وقال الواحدى: ثم أمر الله تعالى نبيه أن يذكر لهؤلاء المتكبرين عن مجالسة الفقراء قصة إبليس وما ورثه الكبر، فقال:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتَ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ۝ ٥١ ﴾

قلت: (إلا إبليس): استثناء منقطع، إذا قلنا: إن إبليس لم يكن من الملائكة، وإذا قلنا: إنه منهم يكون متصلاً، ويكون معنى كان: صار، أى: إلا إبليس صار من الجن لما امتنع من السجود، أو بأن الملائكة كان منهم قوم يقال لهم الجن، وهم الذين خلقوا من النار. وجملة (كان من الجن): استثنائية سيقت مساق التعليل، كأنه قيل: ما له لم يسجد؟ فقيل: كان أصله جنياً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ أى: وقت قولنا لهم: ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ سجود تحية وتكريم، ﴿ فسجدوا ﴾ جميعاً؛ امتثالاً للأمر، ﴿ إلا إبليس ﴾ أبى واستكبر؛ لأنه ﴿ كان من الجن ﴾،

وكان رئيسهم في الأرض، فلما أفسدوا أرسل الله عليهم جنداً من الملائكة، فغزوه، فهربوا في أقطار الأرض، وأخذ إبليس أسيراً، فعرجوا به إلى السماء، فأسلم وتعبد في أقطار السموات، فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع ونزع لأصله، ﴿ففسق﴾ أي: خرج ﴿عن أمر ربه﴾ أي: عن طاعته، أو صار فاسقاً كافراً بسبب أمر الله تعالى؛ إذ لولا ذلك لما أبى، والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق؛ لبيان كمال قبح ما فعله.

قال تعالى: ﴿أفستخذونه وذريته﴾ أي: أولاده، أو أتباعه، وهم الشياطين، جعلوا ذرية؛ مجازاً. وقال قتادة: إنهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم. وقيل: يدخل ذنبه في دبره فيبيض فتتفلق البيضة عن جماعة من الشياطين. والهمزة للإنكار والتعجب، والفاء للتعقيب، أي: أعقب علمكم بصدور تلك القبائح منه، تتخذونه وذريته ﴿أولياء﴾؛ أحياء ﴿من دوني﴾؛ فتستبدلونهم، وتطيعونهم بدل طاعتي، والحال أنهم، أي: إبليس وذريته ﴿لكم عدو﴾ أي: أعداء. وأفرد؛ تشبيهاً له بالمصدر، كالقبول والولوع، ﴿بئس للظالمين﴾ : الواضعين للشيء في غير محله، ﴿بدلاً﴾ استبدلوه من الله تعالى، وهو إبليس وذريته. وفي الالتفات إلى الغيبة، مع وضع الظاهر موضع الضمير، من الإيذان بكمال السخط، والإشارة إلى أن ما فعلوه ظلم قبيح، ما لا يخفى.

﴿ما أشهدتهم﴾ أي: ما أحضرت إبليس وذريته، أو: جميع الكفار ﴿خلق السموات والأرض﴾، حيث خلقتهما قبل خلقهم، ﴿ولا خلق أنفسهم﴾ : ولا أشهدت بعضهم خلق بعض، كقوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ (١). قاله البيضاوي.

قلت: الظاهر إبقاء الأنفس على ظاهرها، أي: ما أحضرتهم خلق أنفسهم، أي: ما كانوا حاضرين حين خلقت أنفسهم، بل هم محدثون في غاية العجز والجهل، فكيف تتخذونهم أولياء من دوني؟ وفي الآية رد على المنجمين الذين يخوضون في أسرار غيب السموات بالتخمين، وعلى الطبائعيين من الأطباء ومن سواهم، من كل متخوض في هذه الأشياء، وعلى الكهان وكل من يتطلع على الغيب بطريق الحدس، والمصدقين لهم. انظر ابن عطية.

قال تعالى: ﴿وما كنت متخذ المضلّين﴾ من الشياطين ﴿عضداً﴾ أي: أعواناً في شأن الخلق، أو في شأن من شؤوني، حتى تتخذوهم أولياء وتُشركوهم في عبادتي، وكان الأصل أن يقول: وما كنت متخذهم، فوقع المظهر موقع الضمير؛ ذماً لهم، وتسجيلاً عليهم بالإضلال، وتأكيذاً لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء، وفيه تهكم بهم وإيذان بكمال ركاكة عقولهم وسخافة آرائهم؛ حيث لا يفهمون هذا الأمر الجلي الذي لا يكاد يشبهه على أبلد الصبيان، فيحتاجون إلى التصريح به. انظر أبا السعود.

(١) من الآية ٢٩ من سورة النساء.

الإشارة : في الآية تنفير من الاستكبار والترفع على عباد الله تشبيهاً ببليس، وحث على التواضع والخضوع لله في خلقه وتجلياته كيفما كانت، وفيها أيضاً الحض على أفراد الوجهة والمحبة لله، والتبري من كل ما سواه مما يشغل عن الله، وفيها أيضاً: النهي عن التطلع إلى ما لم يرد به من أسرار القدر نص صريح في كتاب الله ولا في سنة رسول الله من أسرار القدر، وفيها أيضاً: النهي عن الاستعانة بأعداء الله في أي شأن كان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وبال من اتخذ ولياً غير الله، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا
مَصْرَفًا ﴿٥٣﴾ ﴾

قلت : «موبقاً» : اسم مكان، أو مصدر، من : وَبَقَ وِبْقًا، كَرِثَ وِثْيًا، وَوَبَقَ وِبْقًا، كَفَرَحَ فَرَحًا.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يومَ يَقُولُ ﴾ الحق تعالى للكفار؛ توبيخاً وتعجيزاً لهم : ﴿ نادُوا
شركائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أنهم شفعاؤكم؛ ليشفعوا لكم، والمراد بهم كل ما عبد من دون الله، أو إبليس وذريقه،
﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أى : نادوهم للإغاثة، ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ : فلم يغيثوهم، ﴿ وجعلنا بينهم ﴾ أى : بين الداعين
والمدعويين ﴿ مَّوْبِقًا ﴾ أى : مهلكاً يهلكون فيه جميعاً، وهو النار، وقيل : العداوة، وهى نوع من الهلاك، لقول عمر
رضي الله عنه : « لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً » (١). وقيل : المراد بالبين : الوصل، أى : وجعلنا وصلهم فى الدنيا هلاكاً
فى الآخرة، كقوله : ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ (٢)، وقيل : المراد بالشركاء : الملائكة، وعزير، وعيسى - عليهم السلام -،
ويراد حينئذ بالموبق : البرزخ البعيد، أى : وجعلنا بينهم وبين من عبدوهم برزخاً بعيداً؛ لأنهم فى قعر جهنم، وهم
فى أعلى عليين.

﴿ ورأى المجرمون النار ﴾، وضع المظهر موضع المضمَر؛ تصريحاً بإجرامهم، وذمّاً لهم، أى : ورأوا النار
﴿ فظنوا ﴾ أى : أيقنوا ﴿ أنهم مُّوَاقِعُوهَا ﴾، مخالطوها وواقعون فيها، ﴿ ولم يجدوا عنها مَصْرَفًا ﴾ أى : انصرافاً
ومعدلاً ينصرفون إليه، نسأل الله السلامة من مواقع الهلاك.

(١) قال المناوى فى الفتح السماوى ٢/٧٩٦ : « لم أفق عليه، ومعنى المثل : لا يكن حبك حباً مفرطاً يؤدى إلى الروع والهيام، وبغضك
بغضاً مفرطاً يجر إلى التلف. »

(٢) من الآية ٩٤ من سورة الأنعام.

الإشارة : من اتخذ الله ولياً، بموالاته طاعته وإفراد محبته، كان الله له ولياً ونصيراً عند احتياجه وفاقته، ومجيباً له عند دعائه واستغاثته، ومن اتخذ ولياً غير الله خاب ظنه ومناه، فإذا استغاث به جعل بينه وبين المستغيث به موقفاً ويرزخاً بعيداً، ومن والى أولياء الله فإنما والى الله، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (١). وبالله التوفيق.

ثم ذكر كفرهم بالقرآن، مع كونه آية واضحة للعيان، فقال:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْئاً جَدَلًا ۖ وَمَنْعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ أُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۖ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۖ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۖ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا ۖ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۖ﴾

قلت : «جدلاً» : تمييز، و«ربك» : مبتدأ، و«الغفور» : خبره، و«ذو الرحمة» : خبر بعد خبر، وقيل : الخبر : (لو يؤاخذهم)، و«الغفور ذو الرحمة» : صفتان للمبتدأ، وإيراد المغفرة على جهة المبالغة دون الرحمة؛ للتنبيه على كثرة الذنوب، وأيضاً : المغفرة ترك المواخذه، وهي غير متناهية، والرحمة فعل، وهو متناهى، وتقديم الوصف الأول؛ لأن التخلية قبل التحلية، و«المهلك» : بضم الميم وفتح اللام : اسم مصدر، من أهلك، فالمصدر، على هذا، مضاف للمفعول؛ لأن الفعل متعد، وقرئ بفتح الميم، من هلك، فالمصدر، على هذا، مضاف للفاعل.

يقول الحق جل جلاله : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أى : كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظر العجيب، ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ﴾ ؛ لمصلحتهم ومنفعتهم، ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ؛ من كل خبر يحتاجون إليه، أو : من كل مثل

(١) من الآية ١٠ من سورة الفتح.

مضروب يعتبرون به، ومن جملته ما مر من مثل الرجلين، ومثل الحياة الدنيا. أو: من كل نوع من أنواع المعاني البديعة الداعية إلى الإيمان، التي هي، في الغرابة والحسن واستجلاب القلوب، كالمثل المضروب، ليتلقوه بالقبول، فلم يفعلوا. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ﴾ بحسب جبلته ﴿أَكْثَرُ شَيْءٍ جِدَلًا﴾ أى: أكثر الأشياء، التي يتأتى منها الجدل، جدلاً، وهو هنا شدة الخصومة بالباطل، والمعنى: أن جدله أكثر من جدل كل مجادل، وفيها ثم الجدل. وسببها: مجادلة النضر بن الحارث كما قيل، وهى عامة.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ أى: أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم، من ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ بالله تعالى، ويتركوا ما هم فيه من الإشراك، ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ أى: حين جاءهم القرآن الهادى إلى الإيمان، بسبب ما فيه من فنون العلوم وأنواع الإعجاز، فيؤمنوا، ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ عما فرط منهم من أنواع الذنوب، التي من جملتها: مجادلتهم للحق بالباطل، ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: ما منعهم إلا إتيان سنة الأولين، وهو نزول العذاب المستأصل أو انتظاره، فيكون على حذف مضاف، أى: انتظار سنة الأولين، وهو الهلاك. قال ابن جزى: معناها أن المانع للناس من الإيمان والاستغفار هو القضاء عليهم بأن تأتيتهم سنة الأمم المتقدمة، وهى الإهلاك فى الدنيا، أو تأتيتهم العذاب أى: عذاب الآخرة. هـ. قلت: والظاهر أن معنى الآية: ما منعهم من الإيمان إلا انتظار آية يرونها عياناً، كعادة الأمم الماضية، فيهلكوا كما هى سنة الله فى خلقه، أو: عذاب ينزل بهم جهراً، وهو معنى قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أى: مقابلة وعياناً.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الأمم ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أى: مبشرين للمؤمنين بالثواب، ومنذرين للكافرين بالعقاب، دون إظهار الآيات واقتراح المعجزات، ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ ؛ باقتراح الآيات؛ كالسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها. يفعلون ذلك ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أى: بالجدال ﴿الْحَقَّ﴾، أى: يزيلونه عن مركزه ويبطلونه، من إحاض القدم وهو إزلاقها. وجدالهم: قولهم لرسولهم عليهم السلام: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ (١)، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ (٢)، ونحوها. ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ التي تخرلها صم الجبال، وهو القرآن، ﴿وَمَا أَنْذَرُوا﴾ أى: وإنذارى لهم، أو: الذى أنذروا به من العذاب والعقاب، ﴿هَزُوءًا﴾ ؛ مهزوءاً به، أو محل استهزاء.

(١) الآية ١٥ من سورة يس.

(٢) الآية ٢٤ من سورة المؤمنون.

﴿ومن أظلم ممن ذكرَ بآياتِ ربه﴾ وهو القرآن العظيم، ﴿فأعرضَ عنها﴾؛ فلم يتدبرها ولم يؤمن بها، أى: لأحد أظلم منه؛ لأنه أظلم من كل ظالم؛ حيث ضم إلى المجادلة التكذيب والإعراض، ﴿ونسى ما قدمت يداه﴾ من الكفر والمعاصي، ولم يتفكر فى عاقبتها، ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة﴾: أغطية كثيرة تمنعهم من التدبر فى الآيات، وهو تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم، فعل ذلك بهم كراهة ﴿أن يفقهوه﴾، أو: منعناهم أن يفقهوا على كنهه. ﴿و﴾ جعلنا ﴿فى آذانهم وقراً﴾ أى: ثِقلاً يمنعهم من استماعه، ﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا﴾ أى: فلن يكون منهم اعتناء ألبتة مدة التكليف؛ للطبع المتقدم على قلوبهم، وهذا فى قوم مخصوصين سبق لهم الشقاء.

وه إذاً: : حرف جزاء وجواب، وهو، هنا، عن سؤال من النبى ﷺ المدلول عليه بكمال عنايته بإسلامهم، كأنه قال ﷺ: مالى لا أدعوهم؟ فقال: إن تدعهم... الخ. وجمع الضمير الراجع إلى الموصول فى هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه، كما أن أفرادها فى المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار اللفظ.

﴿وربك الغفور﴾: البليغ المغفرة ﴿ذو الرحمة﴾ الموصوف بها، ﴿لو يؤاخذهم بما كسبوا﴾ من المعاصي، التى من جملتها: ما حكى عنهم من مجادلته بالباطل، وإعراضهم عن آيات ربه، وعدم مبالاةهم بما اجترحوا من الموبقات، ﴿لعجل لهم العذاب﴾ قبل يوم القيامة؛ لاستجلاب أعمالهم لذلك، والمراد: إسهال قريش، مع إفراطهم فى عداوة رسول الله ﷺ، ﴿بل لهم موعد﴾ وهو يوم القيامة، أو يوم بدر، والمعطوف عليه ببل: محذوف، أى: لكنهم ليسوا بمؤاخذين، ﴿بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً﴾ أى: ملجأً يلتجئون إليه، أو منجىً ينجون به، يقال: وآل: أى: نجا، وآل إليه: أى: التجأ إليه.

﴿وتلك القرى﴾: أى: قرى عاد وثمود وأضرابها، أى: وأهل تلك القرى ﴿أهلكناهم﴾ بالعذاب ﴿لما ظلموا﴾ أى: وقت ظلمهم، كما فعلت قريش بما حكى عنهم، ﴿وجعلنا لهلكم﴾ أى: عينا لهلاكهم ﴿موعداً﴾ أى: وقتاً معيناً، لا محيد لهم عن ذلك، فلتعتبر قريش بذلك ولا تغتر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد صرف الله فى كتابة العزيز كل ما يحتاج إليه العباد، من علم الظاهر والباطن، لكن خوض القلوب فيما لا يعنى، وكثرة مجادلتها بالباطل، سرقها عن فهم أسرار الكتاب واستخراج غوامضه. فمن صفت مرآة قلبه أدرك ذلك منه. وتصفيته بصحبة أهل الصفاء، وهم العارفون بالله، ولا تخلو الأرض منهم حتى يأتى أمر الله، وما منع الناس من الإيمان بهم وتصديقهم إلا انتظارهم ظهور كرامتهم، ونزول العذاب على من آذاهم، وهو جهل بطريق الولاية؛ لأنهم رحمة للعباد، أرسلهم الحق تعالى فى كل زمان، يذكرون الناس بالتحذير والتبشير، وبملاطفة الوعظ والتذكير، فاتخذهم الناس وما ذكروا به هزواً ولعباً، حيث حادوا عن تذكيرهم، ونفروا عن

صحبتهم، فلا أحد أظلم ممن ذُكِّرَ بالله وآياته، فأعرض واستكبر ونسى ما قدمت يداه من المعاصي والأوزار، سبب ذلك: جعل الأكنة على القلوب، وسفح رَأْيِ المعاصي والذنوب، فلا يفقهون وعظماً ولا تذكيراً، ولا يستعمون تحذيراً ولا تبشيراً، وإن تدعهم إلى الهدى والرجوع عن طريق الردى، فلن يهتدوا إذا أبداً؛ لما سبق لهم في سابق القضاء، قلولا مغفرته العامة، ورحمته التامة، لعجل لهم العذاب، لكن له وقت معلوم، وأجل محتوم، لا محيد عنه إذا جاء، ولا ملجأ منه ولا منجاة. نسأل الله العصمة بمنه وكرمه.

ولما ذكر الحق جل جلاله قصة أهل الكهف، وكان وقع فيها عتاب للرسول - عليه الصلاة والسلام - حيث لم يستثن بتأخير الوحي، ويقول: «ولا تقولن لشيء... الخ»، ذكر هنا قصة موسى مع الخضر - عليهما السلام - وكان سببها عتاب الحق لموسى ﷺ؛ حيث لم يرد العلم إليه، حين قال له القائل: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ فقال: لا، فذكر الحق تعالى قصتهما؛ تسلياً لقلوبنا عليه الصلاة والسلام بمشاركة العتاب، فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أْبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾

قلت: «لا أبرح»: ناقصة، وخبرها: محذوف: اعتماداً على قرينة الحال؛ إذ كان ذلك عن التوجه إلى السفر، أى: لا أبرح أسير في سفرى هذا، ويجوز أن تكون تامة، من زال يزول، أى: لا أفارق ما أنا بصددته حتى أبلغ... الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال موسى لفتاه﴾ يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف ﷺ، وكان ابن أخته، سُمي فتاه؛ إذ كان يخدمه ويتبعه ويتعلم منه العلم. والفتى فى لغة العرب: الشاب، ولما كانت الخدمة أكثر ما تكون من الفتیان، قيل للخادم: فتى، ويقال للتلميذ: فتى، وإن كان شيخاً، إذا كان فى خدمة شيخه، فقال موسى ﷺ: ﴿لا أبرح﴾: لا أزال أسير فى طلب هذا الرجل، يعنى: الخضر ﷺ، ﴿حتى أبلغ مَجْمَعَ البحرين﴾، وهو ملتقى بحر فارس والروم مما يلى المشرق، وهذا مذهب الأكثر. وقال ابن جزى: مجمع البحرين: عند «طنجة»، حيث يتجمع البحر المحيط والبحر الخارج منه، وهو بحر الأندلس. قلت: وهو قول كعب بن محمد القرظى. ﴿أو أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أى: زمناً طويلاً أتيقن معه فوات الطلب. والحقب: الدهر، أو ثمانون سنة، أو سبعون.

وسبب هذا السفر: أن موسى ﷺ لما ظهر على مصر، بعد هلاك القبط، أمره الله تعالى أن يذكر قومه هذه النعمة، فقام فيهم خطيباً بخطبة بليغة، رقت بها القلوب، وذرفت منها العيون، فقالوا له: من أعلم الناس؟ فقال: أنا. وفى رواية: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ فقال: لا. فعتب الله عليه؛ إذ لم يرد العلم إليه عز وجل، فأوحى الله إليه: أعلم

منك عبدٌ لى بمجمع البحرين، وهو الخضر^(١)، وكان قبل موسى عليه السلام، وكان فى مقدمة ذى القرنين، فبقى إلى زمن موسى عليه السلام، وسيأتى ذكر التعريف به فى محله، إن شاء الله.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: إن موسى عليه السلام سأل ربه: أى عبادك أحب إليك؟ قال: الذى يذكرنى ولا يسانى، قال: فأى عبادك أقضى؟ قال: الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى، قال: فأى عبادك أعلم؟ قال: الذى يستقى علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى، أو ترده عن ردى، قال: يا رب إن كان فى عبادك من هو أعلم منى فدلى عليه؟ قال: أعلم منك الخضر، قال: أين أطلبه؟ قال: على ساحل البحر عند الصخرة^(٢). قال: يارب، كيف لى به؟ قال: خذ حوتاً فى مكتل، فحيثما فقدته فهو هناك، فأخذ حوتاً مشوياً، فجعله فى مكتل، فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرنى، وذهبا يمشيان إلى أن اتصلا بالخضر، على ما يأتى تمامه، إن شاء الله تعالى. وحديث الخطبة هو الذى فى صحيح البخارى^(٣) وغيره. والله تعالى أعلم أى ذلك كان.

الإشارة: قصة سيدنا موسى مع الخضر - عليهما السلام - هى السبب فى ظهور التمييز بين أهل الظاهر وأهل الباطن، فأهل الظاهر قائمون بإصلاح الظواهر، وأهل الباطن قائمون بتحقيق البواطن. أهل الظاهر مغتربون من بحر الشرائع، وأهل الباطن مغتربون من بحر الحقائق. قيل: هو المراد بمجمع البحرين، حيث اجتمع سيدنا موسى، الذى هو بحر الشرائع، والخضر عليه السلام، الذى هو بحر الحقائق، ولا يفهم أن سيدنا موسى عليه السلام خال من بحر الحقائق، بل كان جامعاً كاملاً، وإنما أراد الحق تعالى أن ينزله إلى كمال الشرف، بالتواضع فى طلب زيادة العلم؛ تأديباً له وتربية، حيث ادعى القوة فى نسبته العلم إلى نفسه، وفى الحكيم: «منعك أن تدعى ما ليس لك مما للمخلوقين، أفبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين؟».

وهذه عادة الله تعالى مع خواص أحبائه، إذا أظهروا شيئاً من القوة، أو خرجوا عن حد العبودية، ولو أنملة، أدبهم بأصغر منهم علماً وحالاً؛ عناية بهم، وتشريعاً لهم؛ لئلا يقفوا دون ذروة الكمال، كقضية الشاذلى مع المرأة التى قالت له: تمن على ريك بجوع ثمانين يوماً، وأنا لى تسعة أشهر ما ذقت شيئاً. وكقضية الجليل والسري فى جماعة من الصوفية، حيث تكلموا فى المحبة، وفاض كل واحد على قدر اتساع بحره فيها، فقامت امرأة بالباب، عليها جبة صوف، فردت على كل واحد ما قال، حيث أظهروا قوة علمهم، فأدبهم بامرأة.

ويؤخذ من طلب موسى الخضر - عليهما السلام - والسفر إليه: الترغيب فى العلم، ولا سيما علم الباطن، فطلبه أمر مؤكد. قال الغزالي رضى الله عنه: هو فرض عين؛ إذ لا يخلو أحد من عيب أو اصرار على ذنب، إلا الأنبياء - عليهم السلام - وقد قال الشاذلى رضى الله عنه: من لم يغفل فى علمنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر. وبالله التوفيق.

(١) أخرج حديث موسى والخضر، البخارى فى مواضع منها: (العلم، باب ما نكر فى ذهاب موسى عليه السلام فى البحر إلى خضر)، و(أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر)، و(التفسير، سورة الكهف)، ومسلم فى (الفضائل، باب من فضائل الخضر).

(٢) أخرجه الطبرى فى التفسير (٢٧٧/١٥) وعزاه السيوطى فى الدر (٤٢٣/٤) لابن المنذر، وابن أبى حاتم فى التفسير.

(٣) أخرج البخارى حديث الخطبة فى (تفسير سورة الكهف، باب «فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما»)، عن أبى بن كعب.

ثم ذكر بقية القصة، فقال:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۖ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاءٌ لَّكَ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۖ ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۖ ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ ءَثَارِهِمَا قَصَصًا ۖ ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَإِيَّتَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۖ ﴿٦٥﴾ ﴾

قلت: «بينهما»: ظرف مضاف إليه؛ اتساعاً، أو بمعنى الوصل، و«سرباً»: مفعول ثان لاتخذ، و«إذ أويئنا»: متعلق بمحذوف، أي: أخبرني ما دهاني حين أويت إلى الصخرة حتى لم أخبرك بأمر الحوت، فإنني نسيت أن أذكر لك أمره. و«أن أذكره»: بدل من الهاء في (أنسانيه)؛ بدل اشتمال؛ للمبالغة، و«عجباً»: مفعول ثان لاتخذ، وقيل: إن الكلام قد تم عند قوله: (في البحر)، ثم ابتدأ التعجب فقال: (عجباً) أي: أعجب عجباً، وهو بعيد. قاله ابن جزي. قلت: وهذا البعيد هو الذي ارتكب الهبطي. و(قصصاً): مصدر، أي: يقصان قصصاً.

يقول الحق جل جلاله: ثم إن موسى ويوشع - عليهما السلام - حملاً حوثاً مشوياً وخبزاً، وسارا يلتزمان الخضر، ﴿ فلما بلغا مَجْمَعَ بينهما ﴾؛ بين البحرين، أو مجمع وصل بعضهما ببعض، وجدا صخرة هناك، وعندها عين الحياة، لا يصيب ذلك الماء شيئاً إلا حيي بإذن الله، وكانا وصلاً إليها ليلاً، فناما، فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده اضطرب في المِكتَل، ودخل البحر، وقد كانا أكلاً منه، وكان ذلك بعد استيقاظ يوشع، وقيل: توضأ عليه السلام من تلك العين، فانتضح الماء على الحوت، فحيى ودخل البحر، فاستيقظ موسى، وذهبا، و﴿ نسيَا حُوتَهُمَا ﴾ أي: نسيا تفقد أمره وما يكون منه، أو نسي يوشع أن يعلمه، وموسى عليه السلام أن يأمر فيه بشيء، ﴿ فاتخذ ﴾ الحوت ﴿ سبيله ﴾ أي: طريقه ﴿ في البحر سرباً ﴾؛ مسلماً كالطاق، قيل: أمسك الله جرية الماء على الحوت فجعد، حتى صار كالطاق في الماء؛ معجزة لموسى أو الخضر - عليهما السلام.

﴿ فلما جاوزا ﴾ مجمع البحرين، الذي جعل موعداً للملاقاة، وسارا بقية ليلتهما ويومهما إلى الظهر، وجد موسى عليه السلام حرَّ الجوع، ف﴿ قال لفتاه آتينا غداءنا ﴾ أي: ما نتغذى به، وهو الحوت، كما ينبئ عنه الجواب، ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾: تعباً وإعياء. قيل: لم ينصب موسى ولم يجع قبل ذلك، ويدل عليه الإتيان بالإشارة، وجملة (لقد لقينا): تعليل للأمر بإيذاء الغداء، إما باعتبار أن النصب إنما يعترى بسبب الضعف الناشئ عن الجوع، وإما باعتبار ما في أثناء التغذي من استراحة ما.

﴿ قال ﴾ فتاه عليه السلام : «أرأيتَ إذ أومنا إلى الصخرة ﴿ أي : التجأنا إليها ونمنا عندها ، ﴿ فإني نسيتُ الحوت ﴾ أي : أخبرني ما دهاني حتى لم أذكر لك أمر الحوت ، فإني نسيتُ أن أذكر لك أمره ، ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليه السلام مما اعتراه من النسيان ، مع كون ما شاهده من العظام التي لا تكاد تنسى ، ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان ﴾ بوسوسته الشاغلة له عن ذلك ، ﴿ أن أذكره ﴾ ، ونسبته للشيطان ؛ هضمًا لنفسه ، واستعمال الأدب في نسبة النقائص إلى الشيطان ، وإن كان الكل من عند الله . وهذه الحالة ، وإن كانت غريبة لا يعهد نسيانها ، لكنه قد تعودَ بمشاهدة أمثالها من الخوارق مع موسى عليه السلام ، وألفها قبل اهتمامه بالمحافظة عليها ، أو لاستغراقه وانجذاب سره إلى جناب القدس ، حتى غاب عن الإخبار بها .

قلت : والظاهر أن نسيانه كان أمرًا إلهيًا قهريًا بلا سبب ، وحكمته ما لقي من النصب ؛ لتعظم حلاوة العلم الذي يأخذه عن الخضر عليه السلام ، فإن المساق بعد التعب أذ من المساق بغير تعب ، ولذلك : «حفت الجنة بالمكاره» .

ثم قال : ﴿ واتخذ ﴾ الحوت ﴿ سبيله في البحر عَجَبًا ﴾ ، فيه حذف ، أي : فحیی الحوت ، واضطرب ، ووقع في البحر ، واتخذ سبيله فيه سبيلًا عَجَبًا ، أو اتخاذًا عَجَبًا يُتعجب منه ، وهو كون مسلكه كالطاق ، ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام : ﴿ ذلك ما كنا نبغ ﴾ أي : ذلك الذي ذكرت من أمر الحوت هو الذي كنا نطلبه ؛ لكونه أمانة للفوز بالمرام ، ﴿ فارتدَّا ﴾ أي : رجعا ﴿ على ﴾ طريقهما الذي جاءا منه ، يَقْصَان . يتبعان ﴿ آثارهما قَصَصًا ﴾ ، حتى أتيا الصخرة ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ﴾ ، التكرير ؛ للتفخيم والإضافة ؛ للتعظيم ، وهو الخضر عليه السلام عند الجمهور ، واسمه : بلياً بن ملكان يُعَصِّوا ، والخضر لقب له ؛ لأنه جلس على فروة بيضاء فاهتزت تحته خضراء ، كما في حديث أبي هريرة عنه - صلى الله عليه وسلم (١) .

وقال مجاهد : سمي خضرًا ؛ لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله ، ثم قال : وهو ابن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وكان أبوه ملكا . هـ . وفي الحديث أن النبي ﷺ ذكر قصة الخضر ، فقال : كان ابن ملك من الملوك ، فأراد أبوه أن يستخلفه من بعده ، فأبى وهرب ، ولحق بجزائر البحر ، فلم يقدر عليه . قيل : إنه شرب من عين الحياة ؛ فمتع بطول الحياة .

رَوَى أن موسى عليه السلام حين انتهى إلى الصخرة رأى الخضر عليه السلام على طنْقَسَةٍ - أي : بساط - على وجه الماء ، فسلم عليه . وعنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : انتهى موسى إلى الخضر ، وهو نائم مُسَجًى عليه ثوب ، فسلم عليه فاستوى جالساً ، وقال : عليك السلام يا نبي بني إسرائيل ، فقال موسى : من أخبرك أني نبي بني إسرائيل ؟ قال : الذي أدراك بي ، وذلك على .

(١) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء ، باب حديث الخضر مع موسى) .

قال تعالى في حق الخضر: ﴿آتيناه رحمةً من عندنا﴾، هي الوحي والنبوة، كما يشعر به تكرير الرحمة، وإضافتها إلى جباب الكبرياء، وقيل: هي سر الخصوصية، وهي الولاية. ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾ خاصاً، لا يكتله كنهه، ولا يقدر قدره، وهو علم الغيوب، أو أسرار الحقيقة، أو علم الذات والصفات، علماً حقيقياً. فالخضر عليه السلام قيل: إنه نبي، بدليل قوله فيما يأتي: ﴿وما فعلته عن أمري﴾، وقيل: ولي، واختلف: هل مات، أو هو حي؟ وجمهور الأولياء: أنه حي، وقد لقيه كثير من الصالحاء والأولياء، حتى تواتر عنهم حياته^(١). والله تعالى أعلم.

الإشارة: إنما صار الحوت دليلاً لسيدنا موسى عليه السلام بعد موته وخروجه عن إلفه، ثم حيى حياة خصوصية لما أنفق عليه من عين الحياة، كذلك العارف لا يكون دالاً على الله، وإماماً يقتدى به حتى يموت عن شهود حسه، ويخرق عوائد نفسه، ويفنى عن بشريته، ويبقى بربه، حينئذ تحيا روحه بشهود عظمة ربه، ويصير إماماً ودليلاً موصلاً إليه، ويظهر منه خرق العوائد، كما ظهر من الحوت، حيث أمسك عن الماء الجرية فصار كالطاق، وذلك اقتدار، وإلى ذلك تشير أحوال الخضر، فكان الحوت مظهراً لحاله في تلك القصة. قاله في الحاشية بمعناه.

وقال قبل ذلك في قوله: ﴿واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾: أى اتخذ الحوت، وجوز كون فاعل (اتخذ): موسى، أى: اتخذ موسى سبيل الحوت في البحر عجباً وخرق عادة؛ بأن مشى على الماء في طريق الحوت، حتى وجد الخضر على كبد البحر. ثم قال: وعلى الجملة: فالقضية تشير من جهة الخضر: للاقتدار وإسقاط الأسباب، ومن جهة موسى: لإثبات الأسباب؛ حكمة، وحالة الاقتدار أشرف، وصاحب الحكمة أكمل ونفعه عام، بخلاف الآخر، فإن نفعه خاص. هـ.

وقوله تعالى: ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾، العلم اللدنى: هو الذى يفيض على القلب من غير اكتساب ولا تعلم، قال عليه الصلاة والسلام: «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم». وذلك بعد تطهير القلب من النقائص والردائل، وتفرغه من العلائق والشواغل، فإذا كمل تطهير القلب، وانجذب إلى حضرة الرب، فاضت عليه العلوم اللدنية، والأسرار الربانية، منها ما تفهمها العقول وتدخل تحت دائرة النقول، ومنها ما لا تفهمها العقول ولا تحيط بها النقول، بل تسلم لأربابها، من غير أن يقتدى بهم في أمرها، ومنها ما تفيض عليهم في جانب علم الغيوب؛ كمواقع القدر وحوادث الكائنات المستقبلية، ومنها ما تفيض عليهم في علوم الشرائع وأسرار الأحكام، ومنها في أسرار الحروف وخواص الأشياء، إلى غير ذلك من علوم الله تعالى. وبالله التوفيق.

(١) بين أهل العلم خلاف في شأن الخضر، هل هو نبي أم لا؟ وهل هو حي أم لا؟... راجع في ذلك تفسير: ابن كثير (٩٩/٣)، وفتح الباري (٤٣٤/٦)، والمعالم الصوفية في قصة سيدنا موسى والخضر، للأستاذ الدكتور جودة المهدي، في حولية كلية أصول الدين بطنطا، العدد الأول، ١٩٨٧م.

ثم نعم قصتهما بعد التقائهما، فقال:

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ۖ ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۖ ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۖ ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۖ ﴿٧٠﴾ ﴾

قلت: «رُشْدًا»: مفعول ثانى لعلمت، أو: علة لأتبعك، أو: مصدر بإضمار فعله، أو: حال من كاف «أتبعك»، أو: على إسقاط الخافض، أى: من الرشد، وفيه لغتان: ضم الراء وسكون الشين، وفتحهما، وهو: إصابة الخير، و«خُبْرًا»: تمييز محول عن الفاعل، أى: لم يحط به خبرك. ولا أعصى: عطف على: «صابرًا».

يقول الحق جل جلاله: ولما اتصل موسى بالخضر - عليهما السلام - استأذنه فى صحبتته ليتعلم منه، ملاطفة وأدباً وتواضعاً، وكذلك ينبغى لمن يريد التعلم من المشايخ: أن يتأدب ويتواضع معهم. ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ۖ ﴾ أى: مما علمك الله من العلم الذى يدل على الرشد وإصابة الصواب، لعلى أرشد به فى دينى. ولا ينافى كونه نبياً ذا شريعة أن يتعلم من غيره من أسرار العلوم الخفية؛ إذ لا نهاية لعلمه تعالى، وقد قال له تعالى فيما تقدم: أعلم الناس من يبتغى علم غيره إلى علمه. روى أنهما لما التقيا جلسا يتحدثان، فجاءت خطافة أو عصفور فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين، فقال الخضر: يا موسى خطر ببالك أنك أعلم أهل الأرض؟ ما علمك وعلمى وعلم الأولين والآخرين فى جنب علم الله إلا أقل من الماء الذى حمله هذا العصفور.

ولما سأله صُحْبَتَهُ ﴿ قَالَ ﴾ له: ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾؛ لأنك رسول مكلف بحفظ ظواهر الشرائع، وأنا أطلعنى الله تعالى على أمور خفية، لا تتمالك أن تصبر عندها؛ لمخالفة ظاهرها للشريعة. وفى صحيح البخارى: «قال له الخضر: يا موسى، إني على علم من علم الله عِلْمِيهِ، لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله عِلْمَكَ الله، لا أعلمه» (١).

ثم علل عدم صبره بقوله: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾؟ لأنى أتولى أموراً خفية لا خبر لك بها، وصاحب الشريعة لا يسلم لصاحب الحقيقة العارية من الشريعة، ﴿ قَالَ ﴾ له موسى ﷺ: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن

(١) جاء ذلك فى رواية البخارى، التى أخرجها فى (العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل: أى الناس أعلم) من حديث أبى بن كعب.

شاء الله صابراً ﴿ معك، غير مُعترض عليك. وتوسيط الاستثناء بين مفعولى الوجدان لكمال الاعتناء بالتيمن، ولئلا يتوهم تعلقه بالصبر، ﴿ ولا أعصى لك أمراً ﴾، هو داخل فى الاستثناء، أى: ستجدنى إن شاء الله صابراً وغير عاص.

وقال القشيري: وعد من نفسه شيئين: الصبر، والأ يعصيه فيما يأمره به. فأما الصبر فقرنه بالمشيئة، حتى وجده صابراً، فلم يقبض على يدي الخضر فيما كان منه من الفعل. والثاني قال: ﴿ ولا أعصى لك أمراً ﴾، فأطلق ولم يستثن، فعصى، حيث قال له الخضر: ﴿ فلا تسألنى عن شيء ﴾، فكان يسأله، فبالاستثناء لم يخالف، وبالإطلاق خالف. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبدالرحمن الفاسي: وفيه نظر؛ للحديث الصحيح: «يرحم الله موسى، لو صبر...» مع أن قوله: ﴿ ولا أعصى... ﴾، الخ، غير خارج عن الاستثناء، كما تقدم، وإن احتمل خروجه، والظاهر: أن الاستثناء، كالدعاء، إنما ينفع إذا صادف القدر، وهو هنا لم يصادف، مع أنه هنا عارضه علم الخضر بكونه لم يصبر من قوله: ﴿ لن تستطيع معى صبراً ﴾، وقد أراد الله نفوذ علم الخضر. هـ.

وقال ابن البنا: أن العهد إنما هو على قدر الاستطاعة، وإن الوفاء بالملتزم إنما يكون فيما لا يخالف الشرع، فإطاعة لمخلوق فى معصية الخالق؛ لأن موسى ﷺ لم يلتزم إلا ذلك. ولما رأى ما هو محرم تكلم.. فافهم. هـ. ثم شرط عليه التسليم لما يرى، فقال: ﴿ فإن اتبعنى فلا تسألنى عن شيء ﴾ تشاهده من أفعالى، فهمته أم لا، أى: لا تفتحنى بالسؤال عن حكمته، فضلاً عن مناقشته واعتراضه، ﴿ حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾؛ حتى أبتدى بيانه لك وحكمته، وفيه إيذان بأن ما يصدر منه له حكمة خفية، وعاقبة صالحة. وهذا من أدب المتعلم مع العالم، والتابع مع المتبوع، أنه لا يعترض على شيخه بل يسأل؛ مسترشداً بملاطفة وأدب، وهذا فى العلم الظاهر. وميأتى فى الإشارة ما يتعلق بعلم الباطن.

الإشارة: قد أخذ الصوفية - رضى الله عنهم - آداب المريد مع الشيخ من قضية الخضر مع موسى - عليهما السلام -؛ فطريقتهم مبنية على السكوت والتسليم، حتى لو قال لشيخه: لم؟ لم يفلح أبداً، سواء رأى من شيخه منكراً أو غيره، ولعله اختبار له فى صدقه، أو اطلاع على باطن الأمر فيه، فأحوالهم خضرية، فالمرید الصادق يسلم لشيخه فى كل ما يرى، ويمتثل أمره فى كل شيء، فهم وجه الشريعة فيه أم لا، هذا فى علم الباطن، وأما علم الظاهر فمبنى على البحث والتفتيش، مع ملاطفة وتعظيم.

قال الورتجبي: امتحن الحق تعالى موسى ﷺ بصحبة الخضر؛ لاستقامة الطريقة ولتقويم السنة فى متابعة المشايخ، ويكون أسوة للمريدين والقاصدين فى خدمتهم أشياخ الطريقة. هـ. قال القشيري فى قوله: ﴿ فلا تسألن عن شيء ﴾: قال: ليس للمريد أن يقول لشيخه: لم، ولا للمتعلم أن يقول لأستاذه، ولا للعالم أن يقول للمفتي فيما يفتي ويحكم: لم. هـ.

وقال ابن البنا في تفسيره: يؤخذ من هذه القصة: ترك الاعتراض على أولياء الله إذا ظهر منهم شيء مخالف للظاهر؛ لأنهم فيه على دليل غير ظاهر لغيرهم، اللهم إلا أن يدعوك إلى اتباعه، فلا تتبعه إلا عن دليل، ويسلم له في حاله، ولا تعترض عليه، ولا يمنعك ذلك من طلب العلم والتعلم منه، وإن كنت لا تعمل بعمله؛ لأنه لا يجب عليك تقليده إلا عن دليل، فلا تعمل مثل عمله، وأنت ترى أنه مخالف لك في ظنك، ولا علم لك بحقيقة باطن الأمر، فلا تقف ما ليس لك به علم. والله الموفق والمرشد. هـ.

قلت: ما ذكره إنما هو في حق من لم يدخل تحت تربيته، فإنما هو طالب علم أو تبرك، وأما من التزم صحبتته على طريق التربية فلا يتأخر عن امتثال ما أمره به، كيفما كان، نعم، إن لم ينبغ التوقف والتأني في الاقتداء به.

وقال في القوت في قوله: «فلا تسألن عن شيء»: الشيء في هذا الموضع وصف مخصوص من وصف الربوبية من العلم، الذي علمه الخضر عليه السلام من لدنه، لا يصلح أن يسأل عنه، من معنى صفات التوحيد ونعوت الوجدانية، لا يوكل إلى العقول، بل يخص به المراد المحمول. هـ.

قال المحشي الفاسي: وهو - أي: المحمول - ما يرشق فيهم من وصف الحق وقدرته، فيتصرفون، وهم في الحقيقة مصرفون، وهؤلاء هم أهل القبضة، الذين علمهم سر الحقيقة، فلهم قدرة للفوز شعاعها فيهم، فتتكون لهم الأشياء، وتنفعل لحملهم سر الحقيقة وظهورها لهم وفيهم، وهم كما قال: مرادون محمولون، فما جرى عليهم: قدر «وما رميت...» الآية. هـ.

ثم ذكر ما أراه من الخوارق، فقال:

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَٰذَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنْبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَ أَهْلُهَا فَأَبْرَأَ أَنْ يَضِيقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾

قلت : ضمن ركوب السفينة معنى الدخول فيها، فعدها بغي، وقد تركه على أصله في قوله : ﴿لَتَرْكَبُوها وَزِينَةً﴾ (١).

يقول الحق جل جلاله : ﴿فانطلقا﴾ أى : موسى والخضر، وسكت عن الخادم؛ لكونه تبعاً، وقيل : إن يوشع لم يصحبهما، بل رجع، فصارا يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهم سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نول، فلما لججوا البحر أخذ الخضر قاساً فخرق السفينة، فقلع لوحاً أو لوحين مما يلى الماء، فحشاها موسى بثوبه، و﴿قال أخرجتها لتغرق أهلها﴾ أو : ليغرق أهلها (٢)، ﴿لقد جئت﴾ أى : أتيت وفعلت، ﴿شيئاً إمرأ﴾ أى : عظيماً هائلاً، يقال : أمر الأمر : عظم، ﴿قال﴾ الخضر : ﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ ؛ تذكيراً لما قاله له من قبل، وإنكاراً لعدم الوفاء بالعهد، ﴿قال﴾ موسى ﷺ : ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾ أى : بنسياني، أو بالذي نسيته، وهو وصيته بأن لا يسأله عن حكمة ما صدر عنه من الأفعال الخفية الأسباب قبل بيانه، أراد : نسي وصيته، ولا مواخذه على الناسي، وفي الحديث : «كانت الأولى من موسى نسياناً». أو : أراد بالنسيان الترك، أى : لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة. ﴿ولا ترهقني﴾ أى : لا تُغشيني ولا تُحَمِّلني ﴿من أمري﴾ ، وهو اتباعك، ﴿عسراً﴾ أى : لا تعسر عليّ في متابعتك، بل يسرها عليّ؛ بالإغضاء والمسامحة.

﴿فانطلقا﴾ أى : فقبل عذره؛ فخرجا من السفينة فانطلقا ﴿حتى إذا لقيا غلاماً فقتله﴾ قيل : كان يلعب مع الغلمان فقتل عنقه، وقيل : ضرب رأسه بحجر، وقيل : ذبحه، والأول أصح؛ لوروده في الصحيح، روى أن اسم الغلام جيسور، بالجيم، وقيل : بالحاء المهملة، فإن قلت : لم قال «خرقها» ؛ بغير فاء، وقال «فقتله» بالفاء؟ فالجواب : أن «خرقها» : جواب الشرط، و«قتله» : من جملة الشرط، معطوفاً عليه، والجزاء هو قوله : (قال أقتلت)، فإن قلت : لم خولف بينهما؟ فالجواب : أن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقب القتل لقاء الغلام. هـ. وأصله للزمخشري. وقال البيضاوي : ولعل تغيير النظم بأن جعل خرقها جزاء، واعتراض موسى ﷺ مستأنفاً في الأولى، وفي الثانية «فقتله» من جملة الشرط، واعتراضه جزاء؛ لأن القتل أقبح، والاعتراض عليه أدخل، فكان جديراً بأن يجعل عمدة الكلام، ولذلك وصله بقوله : «لقد جئت شيئاً نكراً» أى : منكراً. هـ. وناقشه أبو السعود بما يطول ذكره.

(١) من الآية ٨ من سورة النحل.

(٢) بفتح الياء والراء، على الغيب، وأهلها : بالرفع على الفاعلية، وهي قراماة حمزة والكسائي، وقرأ الباقر بنضم الناء وكسر الراء، مخففة مع سكون الغين؛ على الخطاب، وأهلها بالنصب على المفعولية.. انظر الإتحاف (٢/٢٢١).

﴿ قال ﴾ موسى ﷺ في اعتراضه: ﴿ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً ﴾ (١): طاهرة من الذنوب، وقرئ بغير ألف؛ مبالغة، ﴿ بغير نفس ﴾ أي: بغير قتل نفس محرمة، فيكون قصاصاً. وتخصيص نفى هذا القبيح بالذكر من بين سائر القبيحات من الكفر بعد الإيمان، والزنا بعد إحصان؛ لأنه أقرب إلى الوقوع؛ نظراً لحال الغلام. ﴿ لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ أي: منكراً، قيل: أنكر من الأول، إذ لا يمكن تداركه، كما يمكن تدارك الأول؛ بالسد ونحوه. وقيل: الإمر، أعظم؛ لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة.

﴿ قال ﴾ له الخضر ﷺ: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾، زاد «لك»؛ لزيادة تأكيد المكافحة؛ بالعتاب على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر، لما تكرر منه الإنكار، ولم يرعَ بالتذكير، حتى زاد في النكير في المرة الثانية بذكر المنكر. ﴿ قال ﴾ موسى ﷺ: ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾؛ بعد هذه المرة ﴿ فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ إِنْ سَأَلْتُ صُحْبَتَكَ، وقرأ يعقوب: «فلا تصحبني»؛ رباعياً، أي: لا تجعلني صاحباً لك، ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ أي: قد أعذرت ووجدت من قبلي عذراً في مفارقتي، حيث خالفتك ثلاث مرات. وعن النبي ﷺ: «يرحم الله أخى موسى، استحيا، فقال ذلك، لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب» (٢). وفي البخاري: «وددنا لو صبر موسى، حتى يقص الله علينا من أمرهما» (٣).

﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾، هي أنطاكية، وقيل: أيلة، وقيل الأبله، وهي أبعد أرض الله من السماء، وقيل: برقة، وقال أبو هريرة وغيره: هي بالأندلس. ويذكر أنها الجزيرة الخضراء. قلت: وهي التي تسمى اليوم طريفة، وأصلها بالظاء المشالة. وذلك على قول أن مجمع البحرين عند طنجة وسبتة. وعن النبي ﷺ: «كانوا أهل قرية للامأ». وقال قتادة: شر القرى التي لا يضاف فيها الضيف، ولا يعرف لابن السبيل حقه.

ثم وصف القرية بقوله: ﴿ استطعما أهلها ﴾ أي: طلبا منهم طعاماً، ولم يقل: استطعماهم، على أن يكون صفة لأهل؛ لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم، فإن الإباء من الضيافة، مع كونهم أهلها قاطنين بها، أشنع وأقبح.

روى أنهما طافا بالقرية يطلبان الطعام، فلم يطعموهما. واستضافاهم ﴿ فَأَبَوا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ بالتشديد، وقرئ بالتخفيف. يقال: ضافه: إذا كان له ضيفاً، أضافه وضيَّفه: أنزله ضيفاً. وأصل الإضافة: الميل، من: ضاف السهم

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر: «زأكية»، بألف بعد الزاي، وتخفيف الياء، اسم فاعل من «زكا»، وقرأ الباقون: «زكية»، بتشديد الياء من غير ألف... انظر الإنحاف ٢/ ٢٢١.

(٢) أخرجه، بنحوه، أبو داود في (الحروف والقراءات ح ٢٩٨٤)، وأصل الحديث في صحيح مسلم في (الفضائل، باب من فضائل الخضر) .. في سياق طويل.

(٣) أخرجه البخاري في (التفسير، سورة الكهف).

عن الغرض: مال، ونظيره: زاره، من الأزورار، أي: الميل. فبينما هما يمشيان، ﴿فوجداهما جداراً﴾، قال وهب: كان طوله مائة ذراع، ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ أي: يسقط، استعار الإرادة للمشارفة؛ للدلالة على المبالغة في ذلك، والانقضاء: الإسراع في السقوط، وهو انفعال، من القرض، يقال: قرضته فانقض، ومنه: انقضاء الطير والكوكب؛ لسقوطه بسرعة. وقرئ: أن ينقاض، من انقضت السن؛ إذا سقطت طولاً. ﴿فأقامه﴾ قيل: مسحه بيده فقام، وقيل: نقصه وبناه، وهو بعيد. ﴿قال﴾ له موسى: ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ نتعشى به، وهو تحريض له على أخذ الجعل، أو تعريض بأنه فضول، وكأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة كان اشتغاله بذلك في ذلك الوقت مما لا يعنى، فلم يتمالك الصبر عليه.

قال ابن التين: إن الثالثة كانت نسياناً؛ لأنه يبعد الإنكار لأمر مشروع، وهو الإحسان لمن أساء. هـ. وفيه نظر؛ فقد قال القشيري في تفسير الآية: لم يقل موسى: إنك ألممت بمحذور، ولكن قال: لو شئت، أي: فإن لم تأخذ بسببك فهلا أخذت بسببنا، فكان أخذ الأجر خيراً من الترك، ولئن وجب حقهم فلم أخلت بحقنا؟ ويقال: إن سفره ذلك كان سفر تاديب، فرد إلى تحمل المشقة، والأفهورنسى، حيث سقى لبنات شعيب، وكان ما أصابه من التعب والجوع أكثر، ولكنه كان في ذلك الوقت محمولاً، وفي هذا الوقت متحملاً. هـ.

قلت: لأن الحق تعالى أراد تأديبه فلم يحمل عنه، فكان سالكاً محضاً، وفي وقت السقى: كان مجنوباً محمولاً عنه.

ثم قال القشيري: وكما أن موسى كان يحب صحبة الخضر؛ لما له فيه من غرض استزادة من العلم، كان الخضر يحب ترك صحبته؛ إيثاراً للخلوة بالله عنه. هـ. قاله في الحاشية الفاسية.

الإشارة: يؤخذ من خرق السفينة أن المرید لا تفيض عليه العلوم الدنية والأسرار الربانية حتى يخرق عوائد نفسه، ويعيب سفينة وجوده، بتخريب ظاهره، حتى لا يقبله أحد^(١)، ولا يقبل عليه أحد، فبذلك يخلو بقلبه ويستقيم على ذكر ربه، وأما مادام ظاهره متزيناً بلباس العوائد، فلا يطمع في ورود المواهب والفوائد.

ويؤخذ من قتل الغلام: أنه لا بد من قتل الهوى، وكل ما فيه حظ للنفس والشيطان، والطريق في ذلك أن تنظر ما يثقل على النفس فتحملة لها، وما يخف عليها فتججزها عنه، حتى لا يثقل عليها شيء من الحق. ويؤخذ من إقامة الجدار رسم الشرائع؛ قياماً بأداب العبودية، وصوناً لكناز أسرار الربوبية. ويؤخذ منه أيضاً: الإحسان لمن أساء إليه، فإن أهل القرية أساءوا؛ بترك ضيافة الخضر، فقابلهم بالإحسان؛ حيث أقام جدارهم. والله تعالى أعلم.

(١) في هذا الكلام نظر.

ثم ذكر افتراقهما، وبيان الحكمة في تلك الخوارق التي فعل، فقال:

﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۖ ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۖ ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا كَانَتْ لَهُمَا ذَكَوَةٌ وَأَقْرَبَ رَحْمًا ۖ ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۖ ﴿٨٢﴾ ۝

قلت: «هذا»، الإشارة إما إلى نفس الفراق، كقولك: هذا أخوك، أو إلى الوقت الحاضر، أي: هذا وقت الفراق. أو إلى السؤال الثالث. و(بينى): ظرف مضاف إليه المصدر؛ مجازاً، وقرئ بالنصب، على الأصل، و«غصباً»: مصدر نوعي ليأخذ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قَالَ ﴾ الخضر عليه السلام: ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ فلا تصحبنى بعد هذا، ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أي: سأخبرك بالخبر الباطن، فيما لم تستطع عليه صبراً؛ لكونه منكراً في الظاهر، فالتأويل: رجوع الشيء إلى مآله، والمراد هنا: المال والعاقبة، وهو خلاص السفينة من اليد العادية، وخلاص أبوي الغلام من شره، مع الفوز بالبذل الأحسن، واستخراج اليتيمين للكنز، وفي جعل صلة الموصول عدم استطاعته، ولم يقل: «بتأويل ما رأيت»، نوع تعريض به، وعتابه عليه السلام.

ثم جعل يفسر له، فقال: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ ﴾ التي خرقتها، ﴿ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينٍ ﴾: ضُعفاء، لا يقدرُونَ على مدافعة الظلمة، فسماهم مساكين؛ لذلهم وضعفهم، ومنه قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَحْيِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمَرَةِ الْمَسَاكِينِ» (١). فلم يرد مسكنة الفقر، وإنما أراد التواضع والخضوع، أي: احشُرني مخبئاً متواضعاً، غير جبار ولا متكبر، وقيل: كانت السفينة لعشرة إخوة: خمسة زَمَنَى (١)، وخمسة ﴿ يَعْمَلُونَ فِي

(١) أخرجه للترمذي في (الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم)، وابن ماجه (في الزهد، باب مجالسة الفقراء).

البحر ﴿٧٨﴾ . وإسناد العمل إلى الكل، حيثلذ، بطريق التغليب، ولأن عمل الوكيل بمنزلة الموكل. ﴿٧٩﴾ فأردت أن أعيبها ﴿٨٠﴾ : أ جعلها ذات عيب، ﴿٨١﴾ وكان وراءهم ملك ﴿٨٢﴾ أى : أمامهم، وقرئ به، أو خلفهم، وكان رجوعهم عليه لامحالة، وكان اسمه : جلندى بن كركر، وقيل : هدد بن بدد، قال ابن عطية : وهذا كله غير ثابت، يعنى : تسمية الملك. ﴿٨٣﴾ يأخذ كل سفينة صالحة، وقرئ به، ﴿٨٤﴾ غصبا ﴿٨٥﴾ من أصحابها.

وكان حق النظم أن يتأخر بيان إرادة التعيب عن خوف الغصب، فيقول : فكانت لمساكين، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة، فأردت أن أعيبها؛ لأن إرادة التعيب مسبب عن خوف الغصب، وإنما قدم للاعتناء بشأنها؛ إذ هي المحتاجة إلى التأويل، ولأن فى التأخير فصلاً بين السفينة وضميرها، مع توهم رجوعه إلى الأقرب. قال البيضاوى : ومبنى ذلك - أى : التعيب وخوف الغصب - على أنه متى تعارض ضرران يجب حمل أهونهما بدفع أعظمهما، وهو أصل مهمل، غير أن الشرائع فى تفاصيله مختلفة. هـ.

﴿٨٦﴾ وأما الغلام الذى قتلته، ﴿٨٧﴾ فكان أبواه مؤمنين ﴿٨٨﴾ وقد طبع هو كافراً، وإنما لم يصرح بكفره؛ لعدم الحاجة إليه؛ لظهوره من قوله : ﴿٨٩﴾ فخشي أن يرهقهما ﴿٩٠﴾ : فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين ﴿٩١﴾ طغياناً ﴿٩٢﴾ عليهما ﴿٩٣﴾ وكفراً ﴿٩٤﴾ بنعمتهما؛ لعقوبه وسوء صليعه، فيلحقهما شراً، أو لشدة محبتهما له فيحملهما على طاعته، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، فيجتمع فى بيت واحد مؤمنان وطاغ كافراً، فلعله يميلهما إلى رأيه فيرتدا. وإنما خشى الخضر عليه السلام منه ذلك؛ لأن الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعاه على عاقبة أمره، وقرئ : فخاف ربك، أى : كره سبحانه كراهية من خاف سوء عاقبة الأمر. ويجوز أن يكون القراءة المشهورة من قول الله سبحانه على الحكاية، أى فكرهنا أن يرهقهما طغياناً وكفراً؛ ﴿٩٥﴾ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه ﴿٩٦﴾ : بأن يرزقهما بدله ولداً ﴿٩٧﴾ خيراً منه زكاة ﴿٩٨﴾ : طهارة من الذنوب والأخلاق الردية، ﴿٩٩﴾ وأقرب رَحْماً ﴿١٠٠﴾ أى : رحمة وعطفاً، وفى التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليهما ما لا يخفى؛ من الدلالة على وصول الخير إليهما، فلذلك قيل : ولدت لهما جارية، تزوجها نبي من الأنبياء فولدت نبياً، هدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم، وقيل : ولدت سبعين نبياً، وقيل : أبدلهما ابناً مؤمناً مثلهما.

﴿١٠١﴾ وأما الجدار الذى أقيمت ﴿١٠٢﴾ فكان لعلامين يتيمين فى المدينة ﴿١٠٣﴾ أى : القرية المذكورة فيما سبق، ولعل التعبير عنها بالمدينة؛ لإظهار نوع اعتداد بها، باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالح، قيل : اسم اليتيمين : أصرم وصريم. ﴿١٠٤﴾ وكان تحته كنز لهما ﴿١٠٥﴾ من فضة وذهب، كما فى الحديث (٢)، والزم على كنزهما إنما هو لمن لم يؤد زكاته، مع أن هذه شريعة أخرى. قال ابن عباس : (كان لوحاً من ذهب، مكتوب فيه : عجبت لمن يؤمن

(١) أى : مرضى بمرض مزمن.

(٢) أخرجه الترمذى فى (تفسير سورة الكهف)، والحاكم فى المستدرک (٢/٣٦٩)، عن أبى الدرداء مرفوعاً.

بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف ينعب؟ وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا الله، محمد رسول الله^(١). وقيل: كانت صحفا فيها علم مدفون.

﴿وكان أبوهما صالحاً﴾، فيه تنبيه على أن سعيه في ذلك كان لصلاح أبيهما، وفيه دليل على أن الله تعالى يحفظ أوليائه في ذريتهم، قيل: كان بهنهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة أجداد. قال محمد بن المنكدر: (إن الله تعالى ليحفظ بالرجل الصالح ولده، وولد ولده، ومسريته التي هو فيها، والدويرات التي حولها، فلا يزالون في حفظ الله وستره). وكان سعيد بن المسيب يقول لولده: إني لأزيد في صلاتي من أجلك، رجاء أن أحفظ فيك، ويظهر هذه الآية. وفي الحديث: «ما أحسن أحد الخلافة في ماله إلا أحسن الله الخلافة في تركته»^(٢). ويؤخذ من الآية: القيام بحق أولاد الصالحين؛ إذ قام الخضر عليه السلام بذلك.

﴿فأراد ربك﴾ أي: مالك ومدير أمرك. وفي إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام، دون ضميرهما، تنبيه له عليه السلام على تحتم كمال الانقياد، والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما برز من القدرة في الأمور المذكورة وغيرها. أراد ﴿أن يبلغا أشدهما﴾: حلمهما وكمال رأيهما، ﴿ويستخرجا كنزهما﴾ من تحت الجدار، ولولا أنني أقمته لانقض، وخرج الكنز من تحته، قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته، وضاع بالكلية؛ ﴿رحمة من ربك﴾ مصدر في موضع الحال، أي: يستخرجا كنزهما مرحومين به من الله تعالى. أو: يتعلق بمضمر، أي: فعلت ما فعلت من الأمور التي شأنتها، ﴿رحمة من ربك﴾، بمن فعل له أو به. وقد استعمل الخضر عليه السلام غاية الأدب في هذه المخاطبة؛ فنسب ما كان عيباً لنفسه، وما كان ممزجاً له والله تعالى؛ فإن القتل بلا سبب ظاهره عيب، وإيداله بخير منه خير، فأتى بضمير المشاركة، وما كان كمالاً محضاً، وهو إقامة الجدار، نسبة لله تعالى.

ثم قال: ﴿وما فعلته﴾ أي: ما رأيت من الخوارق ﴿عن أمري﴾ أي: عن رأيي واجتهادي، بل يوحى إليّ ملكي، أو إلهامي، على اختلاف في نبوته أو ولايته، ﴿ذلك﴾ أي: ما تقدم ذكره من التأويلات، ﴿تأويل﴾ أي: مآل وعاقبة ﴿مالم تستطع عليه صبراً﴾ أي: تفسير مالم تستطع عليه صبراً، فحذف التاء تخفيفاً، وهو فذلك لما تقدم، وفي جعل الصلة غير ما مر تكرير للتأكيد عليه وتشديد للعتاب. قيل: كل ما أنكر سيدنا موسى

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٦/١٦). وانظر تفسير ابن كثير (٩٩/٣).

(٢) عزاه في كنز العمال (١٦٠٧١) لابن المبارك، عن ابن شهاب، مرسلاً. وذكره مرفوعاً: ابن عدي في الكامل (٢٢٩١/٦) عن ابن عمر، وضعفه.

ﷺ على الخضر قد جرى له مثله، ففي هذه الأمثلة حجة عليه، وذلك أنه لما أنكر خرق السفينة، نودي: يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت مطروح في اليم؟ فلما أنكر قتل الغلام قيل له: أين إنكارك من وكرك القبطى وقضائك عليه؟ فلما أنكر إقامة الجدار، نودي: أين هذا من رفعك الحجر لبنيات شعيب دون أجر؟ والله تعالى أعلم.

روى أنه قال له: لو صبرت لأتيت بك على ألفى عجيبة، كلها مما رأيت. ولما أراد موسى ﷺ أن يفارقه، قال له: أوصنى، قال: لا تطلب العلم لتحدث به، واطلبه لتعمل به. هـ.

وفى رواية: قال له: أجعل همك في معادك، ولا تخض فيما لا يعنك، ولا تأمن الخوف، ولا تيأس الأمن، وتدبر الأمور في علانيتك، ولا تذر الإحسان في قدرتك. فقال له: زدنى يا ولى الله، فقال: يا موسى إياك واللجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تُعير أحداً بخطيئة بعد الدم، وإياك على خطيئتك يا ابن عمران، وإياك والإعجاب بنفسك، والتفريط فيما بقى من عمرك، فقال له موسى: قد أبلغت في الوصية، أتم الله عليك نعمته، وغمرك في رحمته، وكلاك من عدوه. فقال الخضر: آمين. فأوصنى أنت يا نبى الله، فقال له موسى: إياك والغضب إلا في الله، ولا ترضى عن أحد إلا في الله، ولا تحب لدنيا ولا تبغض لدنيا، فإنك تخرج من الإيمان وتدخل في الكفر، فقال له الخضر: قد أبلغت في الوصية يا ابن عمران، أعانك الله على طاعته، وأراك السرور في أمرك، وحببك إلى خلقه، وأوسع عليك من فضله، قال موسى: آمين.

تنبيهه: قد تقدم أن الجمهور على حياة الخضر ﷺ. وسبب تعميره أنه كان على مقدمة ذى القرنين، فلما دخل الظلمات أصاب الخضر عين الحياة، فنزل فاغتسل منها، وشرب من مائها، فأخطأ ذو القرنين الطريق، فعاد، فلم يصادفها، قالوا: والياس أيضاً في الحياة، يلتقيان في كل سنة بالموسم، واحتج من قال بموت الخضر بقوله - عليه الصلاة والسلام، كما في الصحيح، بعد صلاة العشاء: «أَرَأَيْتُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّهُ عَلَى رَأْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ» (١)، ويجاب بأن الخضر ﷺ كان في ذلك الوقت في السحاب، أو يخصص الحديث به؛ كما يخص بابليس ومن عمر من غيره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الاعتراض على المشايخ موجب للبعد عنهم، والبعد عنهم موجب للبعد عن الله، فلا وصول إلى الله إلا بالوصول إليهم مع التعظيم والاحترام؛ «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه»؛ كما في الحكم. فالواجب على المريد، إذا كان بين يدي الشيخ، السكوت

(١) أخرجه البخارى في (العلم، باب السمر في العلم)، ومسلم في (فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ: لا تأتى مائة سنة وعلى الأرض نفس منقوسة اليوم)، من حديث ابن عمر - رضى الله عنه.

والتسليم والاحترام والتعظيم، إلا أن يأمره بالكلام، فيتكلم بآداب ووقار وخفض صوت، فإذا رأى منه شيئاً يخالف ظاهر الشريعة فليسلم له، ويطلب تأويله، فإن الشريعة واسعة، لها ظاهر وباطن، فقلعه اطلع على مالم يفهمه المرید.

وكذلك الفقراء لا ينكر عليهم إلا ما كان محرماً مجعاً على تحريمه، ولا تأويل فيه، كالزنا بالمعينة أو اللواط، وأما ما اختلف فيه، ولو خارج المذهب، فلا ينكر عليه، وكذلك ما فيه تأويل. هذا إن صحت عدالته، فقد قالوا: إن صحت عدالة المرء فليترك وما فعل. وتأمل قضية شيخ شيوخنا سيدي عبدالرحمن المجذوب في مسألة الثور الذي أمر الفقراء بذبحه، فلما ذبحوه تبين أنه كان صدقة عليه، وكذلك غيره من أرباب الأحوال، يلمس لهم أحسن المخرج، فإن أحوالهم خضرية، وما رأينا أحداً أولع بالإنكار فأفلح أبداً. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة ذي القرنين، الذي وقع السؤال عنه مع الروح وأهل الكهف، فقال:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٢﴾ إِنَّا مَكْنَالُهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٣﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٥﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ﴿٨٦﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٧﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويسألونك﴾ أي: اليهود، سأله على وجه الامتحان، أو قریش، بتلقيهم. والتعبير بالمضارع؛ للدلالة على استمرارهم على ذلك إلى ورود الجواب، والمراد: ذو القرنين الأكبر، وكان على عهد إبراهيم عليه السلام، ويقال: إنه الذي قضى لإبراهيم حين تحاكم إليه في بدر السبع بالشام، واسمه تبرس، وقيل: هرديس^(١)، وأما ذو القرنين الأصغر، بالقرب من زمن عيسى عليه السلام، واسمه الإسكندر، وهو صاحب أرسطو الفيلسوف، وقيل: المراد به هنا الأصغر، واقتصر عليه المحلّ.

قال الإمام الرازي: والأول أظهر؛ لأن من بلغ ملكه من السعة والقوة إلى الغاية التي نطق بها التنزيل إنما هو الأكبر، كما شهدت به كتب التاريخ. قلت: كلاهما بلغا الغاية القصوى، وملكا المشارق والمغارب، أما ذو القرنين الأكبر، فقيل: إنه كان ملكاً عادلاً صالحاً، ملك الأقاليم، وقهر أهلها من الملوك، ودانت له البلاد، وإنه كان داعياً

(١) ليس في هذا الشأن خبر عن الرسول الأعظم ﷺ.

إلى الله تعالى، سائراً في الخلق بالمعونة التامة والسلطان المؤيد المنصور، وكان الخضر على مقدمة جيشه، بمنزلة المستشار الذي هو من الملك بمنزلة الوزير. وقيل: كان ابن خالته. وذكر الأزرقي وغيره أنه أسلم على يد إبراهيم عليه السلام، فطاف معه بالكعبة مع إسماعيل. وروى أنه حج ماشياً، فلما سمع إبراهيم عليه السلام بقدمه تلقاه ودعا له، وأوصاه بوصايا. ويقال: إنه أتى بفرس ليركب، فقال: لا أركب في بلد فيه الخليل، فعند ذلك سخر له السحاب، وطوى له الأسفار، فكانت السحاب تحمله وعساكيره وجميع آلاتهم، إذا أرادوا غزو قوم. وسئل عنه على رضي الله عنه: أكان نبياً أو ملكاً - بالفتح؟ فقال: لم يكن نبياً ولا ملكاً، ولكن كان عبداً أحب الله فأحبه الله، وناصح الله فناصره، فسخر له السحاب، ومد له الأسباب^(١).

وقال مجاهد: ملك الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان وذو القرنين، والكافران: نمرود ويختنصر. هـ.

وأما ذو القرنين الأصغر، وهو الإسكندر اليوناني، فروى أنه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن كان طوائف، ثم قصد ملوك العرب وقهرهم، ثم مضى حتى أتى البحر الأخضر، ثم عاد إلى مصر، فبنى الإسكندرية وسماها باسمه، ثم دخل الشام وقصد بنى إسرائيل، وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه، ثم انعطف إلى أرمينية وباب الأبواب، ودان له العراقيون والقبط والبربر، واستولى على ملوك الفرس، وقصد السند وفتحه، وبنى مدينة سرنديب وغيرها، ثم قصد الصين، وغزا الأمم البعيدة، ورجع إلى العراق ومرض ومات.

روى أن أهل النجوم: قالوا له: إنك تموت على أرض من حديد، وتحت سماء من خشب، فبلغ بابل، ورعف، وسقط عن دابته، فبسطت له دروع من حديد، فنام عليها، فأذته الشمس، فأظلمه بترس من خشب، فنظر، فقال: هذه أرض من حديد وسماء من خشب، فمات، وهو ابن ألف وستمائة سنة، وقيل: ثلاثة آلاف، قال ابن كثير: وهو غريب. قلت: والذي لابن عساكر: أنه عاش ستاً وثلاثين سنة، وأنه كان بعد داود وسليمان - عليهما السلام - ثم قال ابن عساكر بعد كلام: وإنما بينا هذا؛ لأن كثيراً من الناس يعتقدون أنهما واحد، وأن المذكور في القرآن العظيم هو المتأخر، فيقع بذلك خطأ كبير. كيف لا، والأول كان عبداً صالحاً مؤمناً، ملكاً عادلاً، وزيره الخضر عليه السلام، وقد قيل: إنه كان نبياً، وأما الثاني فقد كان كافراً، وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف، وقد كان بينهما من الزمان أكثر من ألفي سنة، فأين هذا من ذلك؟ هـ فتأمله مع ما ذكر في الباب من تعزيته أمه، مما يدل على إسلامه، قال فيه: لما علم ذو القرنين أن الموت استعجله، دعا بكاتبه، فقال له: أكتب تعزيتي لأمي، بسم الله

(١) انظر تفسير الطبري ٨/١٦، والبيهقي ١٩٧/٥.

الرحمن الرحيم، من الإسكندر ابن قيصر، رفيق أهل الأرض بجسده وأهل السماء بروحه، إلى أمي رومية ذات الصفا، التي لم تتمتع بثمرتها في دار الفناء، وعما قريب تجاوره في دار البقاء، يا أماء؛ أسألك بوجدك لي وودي لك، هل رأيت لحي قراراً في الدار الدنيا؟ وانظري إلى الشجر والنبات يخضر ويبتهج، ثم يهشم ويتناثر، كأن لم يغن بالأمس، وإنني قد قرأت في بعض الكتب فيما أنزل الله: يادنياي ارحلي بأهلك، فإنك لست لهم بدار، إنما الدنيا واهبة الموت، مورثة الأحزان، مفرقة الأحباب، مخربة العمران، وكل مخلوق في دار الأغيار ليس له قرار. انظر بقية كلامه فيه. ولا يلزم من صحبته أرسطاطاليس أن يكون على دينه. والله تعالى أعلم.

واختلف في ذي القرنين المذكور في القرآن: هل كان نبياً أو ملكاً. بفتح اللام. أو ملكاً. بالكسر. وهو الصحيح، واختلف في وجه تسميته بذي القرنين؛ فقيل: كان في رأسه أو تاجه ما يشبه القرنين، وقيل: لأنه كان له ذؤابتان، وقيل: لأنه دعا الناس إلى الله عز وجل، فضرب بقرنه الأيمن، ثم دعا إلى الله فضرب بقرنه الأيسر، وقيل: لأنه رأى في منامه أنه صعد الفلك فأخذ بقرني الشمس، وقيل: لأنه انقرض في عهده قرنان، وقيل: لأنه سخر له النور والظلمة، فإذا سرى يهديه النور من أمامه، وتحوطه الظلمة من ورائه. هـ.

ثم ذكر الحق تعالى الجواب، فقال: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ أي: سأذكر لكم ﴿مِنْ ذِكْرٍ﴾ أي: خبراً مذكوراً، أو قرآناً يخبركم بشأنه، والسين؛ للتأكيد، والدلالة على التحقق المناسب لمقام تأييده ﷺ، وتصديقه بإنجاز وعده، للدلالة على أن التلاوة ستقع في المستقبل؛ لأن هذه الآية نزلت موصولة بما قبلها، حين سأله ﷺ عنه، وعن الروح، وعن أهل الكهف، فقال: غداً أخبركم، فتأخر الوحي كما تقدم، ثم نزلت السورة مفصلة.

ثم شرع في تلاوة ذلك الذكر، فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مكنا له فيها قوة يتصرف فيها كيف يشاء، بتيسير الأسباب وقوة الاقتدار، حيث سخر له السحاب، ومد له في الأسباب، ووسط له النور، فكان الليل والنهار عليه سواء، وسهل له السير في الأرض، وذللت له طرقها، ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أرادته من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه ﴿سَبِيلاً﴾ أي: طريقاً يوصله إليه؛ من علم، أو قدرة، أو آلة، فأراد الوصول إلى الغرب ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيلاً﴾ : طريقاً يوصله إليه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي: منتهى الأرض من جهة المغرب، بحيث لا يتمكن أحد من مجاوزته، ووقف على حافة البحر المحيط الغربي، الذي فيه الجزائر المسماة بالخالدات، التي هي مبدأ الأطوال على أحد القولين. ﴿وَجَدَهَا﴾ أي: الشمس، ﴿تَغْرِبُ فِي عَيْنِ حَمِيَّةٍ﴾ أي: ذات حمأ، وهو الطين الأسود،

وقرى: حامية، أى: حارة، روى أن معاوية رضي الله عنه قرأ حامية، وعنده ابن عباس، فقال ابن عباس: حمئة، فقال معاوية لعبد الله بن عمرو بن العاص: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين، ثم وجه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: فى ماء وطين، كذا نجده فى الترة، فوافق قول ابن عباس رضي الله عنه.

وليس بينهما تناف، الجواز كون العين جامعة بين الوصفين، وأما رجوع معاوية إلى قول ابن عباس بما سمعه من كعب الأحبار، مع أن قراءته أيضاً متواترة، فلكون قراءة ابن عباس قطعية فى مدلولها، وقراءته محتملة، ولعله لما بلغ ساحل البحر المحيط رأها كذلك، إذ ليس فى مطمح نظره غير الماء، كما يلوح به قوله تعالى: «وجدتها تغرب»، ولم يقل: كانت تغرب؛ فإن الشمس فى السماء لا تغرب فى الأرض.

﴿ووجد عندها﴾ أى: تلك العين ﴿قوما﴾؛ قيل: كان لباسهم جلود الوحش، وطعامهم ما لفظه البحر، وكانوا كفاراً، فخيرهم الله تعالى بين أن يعذبهم بالقتل، وأن يدعوهم إلى الإيمان، فقال: ﴿قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب﴾ بالقتل من أول الأمر، ﴿وإما أن تتخذ فيهم حسناً﴾؛ أمراً ذا حسن، وذلك بالدعوة إلى الإسلام والإرشاد إلى الشرائع، واستدل بهذا على نبوته، ومن لم يقل بها قال: كان بواسطة نبي كان معه فى ذلك العصر، أو إلهاماً، بعد أن كان التخيير موافقاً لشريعة ذلك النبي، ﴿قال﴾ ذو القرنين، لمن كان عنده: مختاراً للشق الأخير، وهو الدعاء إلى الإسلام: ﴿أما من ظلم﴾ فى نفسه، وأصر على الكفران، ولم يقبل الإيمان ﴿فسوف نعذبه﴾ بالقتل. وعن قتادة: أنه كان يطبخ من كفر فى القدر (١)، ﴿ثم يرد إلى ربه﴾ فى الآخرة ﴿نعذبه﴾ فيها ﴿عذاباً نكراً﴾؛ منكرأ فظيعاً، لم يعهد مثله، وهو عذاب النار. وفيه دلالة ظاهرة على أن الخطاب لم يكن بطريق الوحي إليه، أى: حيث لم يقل: «ثم يرد إليك»، وأن مقاولته كانت مع النبي، أو مع من عنده من أهل مشورته.

﴿وأما من آمن﴾ بموجب دعوته ﴿وعمل﴾ عملاً ﴿صالحاً﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿فله﴾ فى الدارين ﴿جزاء الحسن﴾ (٢)، أى: المثوبة الحسنى، أو الفعلة الحسنى جزاء، على قراءة النصب، على أنه مصدر مؤكد للجمله، قُدم عليه المبتدأ؛ اعتناءً، أو حال، أو تمييز. ﴿وسنقول له من أمرنا﴾ أى: مما نأمر به ﴿يسراً﴾: سهلاً ميسراً، غير شاق عليه. والله تعالى أعلم.

(١) لا يصح نسبة هذا - إطلاقاً - لذي القرنين - رحمه الله.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب: «جزاء»؛ بفتح الهمزة؛ متونة، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: بالرفع؛ من غير تنوين، على الابتداء، والخبر: الظرف قبله، والحسنى مضاف إليها... انظر: شرح الهداية (٤٠٢/٢)، والإتحاف (٢٢٤/٢).

الإشارة : ذو القرنين لما أقبل بكلية على مولاه، ودعا إلى الله، ونصح لله، مكّنه الله تعالى من الأرض، ويسر له أموره، حتى قطع مشارقها ومغاربها، وكذلك من انقطع إلى الله، ورفع همهته إلى مولاه، وأرشد الخلق إلى الله، تكون همهته قاطعة، يقول للشيء كن فيكون، بقدرة الله وقدره. وسخر له الكون بأسره، يكون عند أمره ونهيه «أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك». يقول الله تعالى، في بعض كلامه: «يا عبدي كن لي كما أريد، أكن لك كما تريد».

قال القشيري: ذو القرنين مكّن له في الأرض جهراً، فكانت تطوى له إذا قطع أحوازها، وسُهل له أن يندرج في مشارقها ومغاربها، ويحضر أقطارها ومناكبها، ومن كان في محل الإعانة من الأولياء، فالحق سبحانه يُمكنه في المملكة، ليحصل عند همهته ما أراد من حصول طعام أو شراب، أو غيره من قطع مسافة، أو استتار عن أبصار، وتصديق مأمول، وتحقيق سؤال، وإجابة دعاء، وكشف بلاء، وفوق ذلك تمكيده من تحقيق همه له في أمره، ثم فوق ذلك في التمكين في أن يحضر بهمته قوماً بما شاءوا، ويمنع قوماً عما شاءوا، فلهم من الحق تحقيق أمل، إذا تصرفوا في المملكة بإرادات في سوانح وحادثات، وفوق هذا التمكين في المملكة إيصال قوم إلى منازل ومحال، فالله يحقق فيهم همته هـ. قلت: وفوق ذلك كله تمكيدهم من شهود ذاته، في كل وقت وحين، حتى لو طلبوا الحجاب لم يجابوا، ولو كلفوا أن يروا غيره لم يستطيعوا، وهؤلاء هم الذين لهم التمكين في الإيصال إلى منازل السائرين ومحال الواصلين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر سير ذي القرنين إلى جهة المشرق، فقال:

﴿ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۚ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۙ ﴾

قلت: «مَطْلِع» فيه لغتان: الكسر والفتح، و«كَذَٰلِكَ»: خبر عن مضمّر، أي: أمر ذي القرنين كما وصفنا لك، أو صفة مصدر محذوف لوجد، أو «نجعل» أي: وجداً أو جعلاً كذلك، أو صفة لقوم، أي: على قوم مثل ذلك القبيل، الذي تغرب عليهم الشمس في الكفر والحكم، أو صفة لستر، أي: سترًا مثل ستركم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ثُمَّ اتَّبَعَ ۙ ذُو الْقَرْنَيْنِ ۙ سَبَبًا ۙ ﴾ : طريقاً راجعاً من مغرب الشمس، موصلاً إلى مشرقها، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ۙ ﴾ أي: الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولاً من معمورة الأرض، قيل: بلغه في اثنتي عشرة سنة، وقيل: في أقل من ذلك.

﴿وجدها تطلع على قوم﴾ عراة ﴿لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ من اللباس والبليان، قيل: هم الزنج، وفي الباب: قيل: إنهم بنو كليب، وقيل: إن بنى كليب طائفة منهم، وهم قوم بآخر صين الصين، على صور بنى آدم، إلا أنهم لهم أذناب كأذناب الكلاب، ووجوه كوجوه الكلاب، وأكثر قوتهم الحوت، ومن مات منهم أكلوه، وملأوا موضع دماغه مسكاً وعذيراً، وحبسوه عندهم؛ تبركاً بأبائهم وأبنائهم. ثم قال: وليس لهم لباس إلا الجلود على عورتهم. هـ.

وعن كعب: أن أرضهم لا تمسك الأبنية، وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب أو البحر، فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معاشهم، يتراعون فيها كما ترعى البهائم. قال رجل من سمرقند: خرجت حتى جاوزت الصين، فقالوا لي: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فاستأجرت رجلاً حتى بلغتهم، فإذا أحدهم يفرش أذنه، ويلبس الأخرى، وكان صاحبي يحسن لسانهم، فسألهم فقالوا: جئتنا ننظر كيف تطلع الشمس. قال: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيلة الصلصلة، فغشى على، ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن، فلما طلعت الشمس على الماء، إذا هي فوق الماء كهيلة الزيت، فأدخلونا سرياً لهم، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر يصطادون السمك فيطرحونه في الشمس فينضج^(١). هـ. وعن مجاهد: من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض. هـ.

وقوله تعالى: ﴿كذلك﴾ أى: أمر ذى القرنين كما وصفنا، فى رفعة المحل وبسط الملك، أو أمره فيهم كأمره فى أهل مغرب الشمس، من التخيير والاختيار، أو وجد قوماً عند مطلع الشمس كذلك، وحكم فيهم، بحكم أولئك. أو: (لم نجعل لهم) ستراً مثل ستركم من اللباس والأكدان والجبال. قال الحسن: كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، ولا تحمل البناء، فإذا طلعت الشمس هربوا إلى البحر. هـ. قال تعالى: ﴿وقد أحطنا بما لديه﴾ من الأسباب والعُدَد، وما صدر عنه وما لاقاه ﴿خبراً﴾: علماً تعلق بظواهره وخفايا أمره، يعنى: أن ذلك بلغ من الكثرة بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير.

الإشارة: كان ذو القرنين فى الظاهر يلمس مطلع الشمس الحسية، وفى الباطن يلمس مطلع الشمس المعنوية، وهى شمس القلوب، التى تكشف أستار الغيوب، ثم أتبع سبباً يوصل إلى شمس العيان، فوجدها تطلع على قلوب أهل العرفان، لم يجعل لهم من دونها ستراً على الدوام، لما أتخفهم به من غاية الوصال والإكرام، حتى قال قائلهم: لو حجب عنى الحق تعالى طرفة عين ما أعددت نفسى من المسلمين، وكذلك رسول الله ﷺ، أو تقول: وجدها تطلع على أهل التجريد، الخائضين فى بحار التوحيد، وأسرار التفريد، وفيهم قال المجذوب رحمه الله:

أَقَارِئِينَ عِلْمَ التَّوْحِيدِ هَذَا الْبُحُورِ إِلَى تَنْبِي
هَذَا مَقَامُ أَهْلِ التَّجْرِيدِ الْوَاقِفِينَ مَعَ رَبِّى

(١) قال الألوسى معقباً: (وأنت تعلم أن مثل هذه الحكايات لا ينبغي أن يلتفت إليها ويعول عليها، وما هى إلا أخبار عن هيان بن بيان، تحكيها للعجائز لمصغار الصبيان). انظر روح المعانى (٣٦/١٦).

قد تجردوا من لباس الزينة والافتخار، ولبسوا لباس المسكنة والافتقار، فعوضهم الله تعالى في قلوبهم لباس الغنى والعز والافتقار، صبروا قليلاً، واستراحوا زمناً طويلاً، تذلّلوا قليلاً، وعزّوا عزاً طويلاً، جعلنا الله منهم بركة وكرمه .
ثم أخذ ذو القرنين من الجنوب إلى الشمال، كما قال تعالى :

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۖ ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۖ ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۖ ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۖ ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۖ ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطِغْرَءُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۖ ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۖ ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَعْنَاهُمْ مَجْعًا ۖ ﴿٩٩﴾ وَعَرْضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۖ ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۖ ﴿١٠١﴾ ﴾

قلت : «بين السدين» : مفعول، لا ظرف، لأنه يستعمل متصرفاً.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ ﴾ ذو القرنين ﴿ سَبَبًا ﴾ : طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب، سالكا من الجنوب إلى الشمال، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ : بين الجبلين، اللذين سَدَّ ما بينهما، وهو منقطع أرض الترك، مما يلي المشرق، لا جبال أرمينية وأذربيجان، كما توهم، وفيه لغتان: الضم والفتح، وقيل: ما كان من فعل الله فهو مضموم، وما كان من عمل الخلق فهو مفتوح. ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا ﴾ أى: من ورائهما: مما يلي بر الترك، ﴿ قَوْمًا ﴾ : أمة من الناس ﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ ﴾ : يفهمون ﴿ قَوْلًا ﴾ : لغرابة لغتهم، وقلة فطنتهم، وقرئ بالضم: رباعياً، أى: لا يفصحون بكلامهم، واختلف فيهم، قيل: هم جيل من الترك؛ قال السدي: الترك سُرَّة من يأجوج ومأجوج، خرجت، فضرب ذو القرنين السد، فبقيت خارجه. قلت: ولعلمهم طلبوا منه ذلك، حين اعتزلوا قومهم، ثم قال: فجميع الترك منهم. وعن قتادة: أنهم، - أى: يأجوج ومأجوج - اثنتان وعشرون قبيلة،

سد ذو القرنين على إحدى وعشرين، وبقيت واحدة، فسُموا الترك؛ لأنهم تركوا خارجين. قال أهل التاريخ: أولاد نوح عليه السلام ثلاثة: سام وحام ويافث، فسام أبو العرب والعجم والروم، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة، ويافث أبو الترك والخرز والصقالبة ويأجوج ومأجوج. هـ.

وقرئ بالهمز فيهما؛ لأنه من أجيج النار، أى: صنورها وشررها، شُبِّهوا به فى كثرتهم وشدتهم، وهو غير منصرف؛ للعجمة والعلمية.

﴿ قالوا يا ذا القرنين ﴾، إما أن يكون قالوه بواسطة ترجمان، أو يكون فهم كلامهم، فيكون من جملة ما آتاه الله تعالى من الأسباب، فقالوا له: ﴿ إن يأجوج ومأجوج ﴾^(١)، قد تقدم أنهم من أولاد يافث. وما يقال: إنهم من نطفة احتلام آدم لم يصح، واختلف فى صفاتهم، فقيل: فى غاية صغر الجثة وقصر القامة، لا يزيد قدمهم على شبر، وقيل: فى نهاية عظم الجسم وطول القامة، تبلغ قدودهم نحو مائة وعشرين ذراعاً، وفيهم من عرضه كذلك.

قال عبد الله بن مسعود: سألت النبی ﷺ عن يأجوج ومأجوج، فقال: «هم أمم، كل أمة أربع مائة ألف، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه، كلهم قد حمل السلاح»، قيل: يا رسول الله صفهم لنا، قال: «هم ثلاثة أصناف: صنف منهم أمثال الأرز - وهو شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع - وصنف عرضه وطوله سواء، عشرون ومائة ذراع، وصنف يفرش أذنه ويلتحف بالأخرى، لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مُقَدَّمَتُهُمْ بالشام، وسَاقَتُهُمْ بخراسان، يشربون أنهار المشرق، وبحيرة طبرية». (٢).

فقالوا له: ﴿ إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ﴾ أى: فى أرضنا، بالقتل، والتخريب، وإتلاف الزرع، قيل: كانوا يخرجون أيام الربيع، فلا يتركون أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه، وكانوا يأكلون الناس أيضاً. ﴿ فهل نجعل لك خرجاً ﴾ أى: جُعلاً من أموالنا ﴿ على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ﴾؛ بالفتح وبالضم، أى: حاجزاً يمنعهم منا؟

﴿ قال ما مكنى ﴾ - بالفك وبالإدغام - أى: ما مكنى ﴿ فيه ربي ﴾، وجعلنى فيه مكيناً قادراً من الملك والمال وسائر الأسباب، ﴿ خير ﴾ من جعلكم، فلا حاجة لى به، ﴿ فأعينونى بقوة ﴾ الأبدان وعمل الأيدي، كصناع يحسنون البناء والعمل، وآلات لا بد منها فى البناء، ﴿ أجعل بينكم وبينهم ردماً ﴾ أى: حاجزاً حصيناً، وبرزخاً مكيناً، وهو أكبر من السد وأوثق، يقال: ثوب مُردم؛ إذا كان ذا رقاع فوق رقاع، وهذا إسعاف لهم فوق ما يرجون.

(١) هذه قراءة الجماعة؛ (بدون همز)، وقرأ عاصم بالهمز.. انظر إتحاف فضلاء البشر (٢/٢٢٥).

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٤/٤٥٠) لابن أبى حاتم، وابن مردويه وابن عدى، وابن عساكر، وابن النجار، وفيه أن السائل هو حذيفة.

﴿آتُونِي زَبَرَ الْحَدِيدِ﴾ : جمع زبرة، وهي القطعة الكبيرة، وهذا لا ينافي رد خراجهم؛ لأن الأمور الإبتاء بالثمن أو المناولة، كما ينبئ عنه قراءة: «آتوني»، برصل الهمزة، أي: جيلوني بزبر الحديد، على حذف الباء، ولأن إبتاء الآلة من قبيل الإعانة بالقوة، دون الخراج على العمل.

قال القشيري: استعان بهم في الذي احتاج إليه منهم، ولم يأخذ منهم عمالة؛ لما رأى أن من الواجب عليه حق الحماية على حسب المكنة. هـ.

ولعل تخصيص الأمر بالإتيان بها دون سائر الآلات؛ من الفحم والحطب وغيرهما؛ لأن الحاجة إليها أمس؛ لأنها الركن في السد، ووجودها أعز. قيل: حفر الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب، والبنيان من زبر الحديد، وجعل بينهما الفحم والحطب، حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما، وكان بينهما مائة فرسخ، وذلك قوله تعالى: ﴿حتى إذا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾، وقرئ بضمهما^(١)، أي: مازال يبلى شيئاً فشيئاً حتى إذا جعل ما بين ناصيتي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في السمك. قيل: كان ارتفاعه: مائتي ذراع، وعرضه: خمسون ذراعاً. وقرئ (سوى)؛ بالتشديد، من التسوية.

فلما سوى بين الجبلين بالبناء، ﴿قال﴾ للعملة: ﴿انفخوا﴾ النيران في الحديد المبني، ففعلوا ﴿حتى إذا جعله﴾ أي: المنفوخ فيه ﴿ناراً﴾ أي: كالنار في الحرارة والهيئة. وإسناد الجبل إلى ذي القرنين، مع أنه من فعل العملة؛ للتنبيه على أنه العمدة في ذلك، وهم بمنزلة الآلة. ﴿قال﴾ للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة وغيرها: ﴿آتوني أفرغ عليه قطراً﴾ أي: آتوني نحاساً مذاباً أفرغه عليه، وإسناد الإفراغ إلى نفسه، لما تقدم.

﴿فما استطاعوا﴾ أي: استطاعوا ﴿أن يظهروه﴾ أي: يعلوه بالصعود لارتفاعه، والفاء فصيحة، أي: ففعلوا ما أمرهم به من إبتاء القطر، فأفرغوه عليه، فاختلف والتصق بعضه ببعض، فصار جبلاً صلباً، فجاء بأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه أو ينتقبوه ﴿فما استطاعوا أن يظهروه﴾؛ لارتفاعه وملاسته، ﴿وما استطاعوا له نقباً﴾؛ لصلابته، وهذه معجزة له؛ لأن تلك الزبر الكبيرة إذا أثرت فيها حرارة النار لا يقدر أحد أن يجول حولها، فضلاً عن إفراغ القطر عليها، فكأنه تعالى صرف النار عن أبدان المباشرين للأعمال. والله على كل شيء قدير.

﴿قال﴾ ذو القرنين، لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم: ﴿هذا﴾ أي: السد، أو تمكينه منه، ﴿رحمة﴾ عظيمة ﴿من ربى﴾ على كافة العباد، لا سيما على مجاوريه، وفيه إيدان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق، بل هو إحسان إلهي محض، وإن ظهر بمباشرتي. والتعرض لوصف الربوبية؛ لتربية معنى الرحمة.

(١) أي: الصاد والدال في «الصدفين». وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، ويعقوب. وقرأ أبو بكر: بضم الصاد وإسكان الدال، وقرأ الباقر بفتحهما.. انظر الإتحاف (٢/ ٢٢٧).

﴿ فاذا جاء وعد ربى ﴾ : وقت وعده بخروج يأجوج ومأجوج، أو بقيام الساعة؛ بأن شارف قيامها، ﴿ جعله ﴾ أى: السد المذكور، مع متانته ورصانته، ﴿ دكاء ﴾ : مدكوكاً مبسوطاً مستوياً بالأرض، وفيه بيان عظمة قدرته تعالى، بعد بيان سعة رحمته، ﴿ وكان وعد ربى حقاً ﴾ : كائناً لا محالة.

روى عنه ﷺ أنه قال: « إن يأجوج ومأجوج يحفرون السد، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذى عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعيده الله كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذى عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله، فيعودون إليه، وهو على هيئته كما تركوه، فيحفرونه فيخرجون على الناس» (١). وسيأتى فى الأنبياء تمام قصة خروجهم، إن شاء الله، وهذا آخر كلام ذى القرنين.

قال تعالى: ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ ﴾ : يوم مجىء الوعد، ويخرجون، ﴿ يروج فى بعض ﴾ : يزدحمون فى البلاد، أو: يمج بعض الخلق فى بعض، فيضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم، حيارى من شدة الهول. روى أنهم يأتون البحر فيشربونه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر وما ظفروا به، ممن لم يتحصن منهم من الناس، ولا يقدر على دخول مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله عليهم مرضاً فى رقابهم، فيموتون مرة واحدة، فيرسل الله طيراً فترميهم فى البحر، ثم يرسل مطراً تغسل الأرض منهم، ثم توضع فيها البركة، وهذا بعد خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام، ثم تنقرض الدنيا، كما قال تعالى:

﴿ ونفخ فى الصور ﴾ : لقيام الساعة، ﴿ فجمعناهم جمعاً ﴾ ، وسكت الحق تعالى عن النفخة الأولى؛ اكتفاء بذكرها فى موضع آخر، أى: جمعنا الخلائق بعدما تفرقت أوصالهم، وتمزقت أجسادهم، فى صعيد واحد؛ للحساب والجزاء، جمعاً عجيباً لا يكتنه كنهه، ﴿ وعرضنا جهنم ﴾ : أظهرناها وأبرزناها ﴿ يومئذ ﴾ : أى: يوم إذ جمعنا الخلائق كافة، ﴿ للكافرين ﴾ منهم، بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً، ﴿ عرضاً ﴾ فظيماً هائلاً لا يقدر قدره، وخص العرض بهم، وإن كان بمرأى من أهل الموقف قاطبة؛ لأن ذلك لأجلهم.

ثم ذكر وصفهم بقوله: ﴿ الذين كانت أعينهم ﴾ وهم فى الدنيا ﴿ فى غطاء ﴾ كثيف وغشاوة غليظة ﴿ عن ذكرى ﴾ : عن سماع القرآن وتدبره، أو: عن ذكرى بالتوحيد والتمجيد، أو كانت أعين بصائرهم فى غطاء عن ذكرى على وجه يليق بشأنى، ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ : أى: وكانوا مع ذلك؛ لفرط تصاميمهم عن الحق وكمال عداوتهم للرسول ﷺ، لا يستطيعون استماعاً منه لذكرى وكلامى، الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية، كما أن الأول تصوير لتعاميمهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار.

(١) أخرجه بلحوه، مطولاً، أحمد فى المسند (٥١٠/٢)، والترمذى فى (ال تفسير)، وابن ماجه فى (الفتن، باب فتنة الرجال)، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

الإشارة: السياحة في أقطار الأرض مطلوبة عند الصوفية في بداية المريد، أقلها سبع سنين، وقال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رحمته الله: أقلها أربع عشرة سنة. وفيها فوائد، منها: زيارة الإخوان، والمذاكرة معهم، وهي ركن في الطريق، ومنها: نفع عباد الله، إن كان أهلاً لتذكيرهم، (فلأن يهدي الله به رجلاً واحداً خير له مما طلعت عليه الشمس). ومنها: تأسيس باطله وتشحيذ معرفته، ففي كل يوم يلقي تجلياً جديداً، وتلويداً غريباً، يحتاج معه إلى معرفة كبيرة وصبر جديد، فالمرید كالماء، إذا طال مكثه في مكانه أنتن وتغير، وإذا جرى عذب وصفى. ومنها: أنه قد يلقي في سياحته من يريح منه، أو يزيد به إلى ربه.

رُوى أن ذا القرنين بينما هو يسير في سياحته إذ رُفع إلى أمة صالحة، يهدون بالحق وبه يعدلون، يقسمون بالسوية، ويحكمون بالعدل، وقبورهم بأبواب بيوتهم، وليست لبيوتهم أبواب، وليس عليهم أمراء، وليس بينهم قضاة، ولا يختلفون ولا يتنازعون، ولا يقتتلون، ولا يضحكون ولا يحزنون، ولا تُصيبهم الآفات التي تُصيب الناس، أطول الناس أعماراً، وليس فيهم مسكين ولا فظ ولا غليظ، فعجب منهم، وقال: خبروني بأمركم، فلم أرفى مشارق الأرض ومغاريها مثلكم، فما بال قبوركم على أبواب بيوتكم؟ قالوا: لئلا ننسى الموت؛ لئلمنعنا ذلك من طلب الدنيا، قال: فما بال بيوتكم لا أبواب لها؟ قالوا: ليس فيها متهم، ولا فينا إلا أمين مؤتمن. قال: فما بالكم ليس فيكم حكام؟ قالوا: لا نختصم، قال: فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟ قالوا: لا نتكاثر. قال: فما بالكم ليس فيكم ملوك؟ قالوا: لا نفتخر، قال: فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون؟ قالوا: من ألفة قلوبنا وصلاح ذات بيننا، قال: فما بال طريقتكم واحدة وكلمتكم مستقيمة؟ قالوا: من أجل أننا لا نتكاذب، ولا نتخادع، ولا يغتاب بعضنا بعضاً. قال: أخبروني من أين تشابهت قلوبكم واعتدلت سيرتكم؟ قالوا: صلحت صدورنا فنزرع منها الغل والحسد، قال: فما بالكم ليس فيكم فقير ولا مسكين؟ قالوا: من قبل أنا نقسم بيننا بالسوية. قال: فما بالكم ليس فيكم فظ ولا غليظ؟ قالوا: من قبل الذلة والتواضع، قال: فما جعلكم أطول الناس أعماراً؟ قالوا: من قبل أنا لا نتعاطى إلا الحق ونحكم بالسوية. قال: فما بالكم لا تضحكون؟ قالوا: لا نخفل عن الاستغفار. قال: فما بالكم لا تحزنون؟ قالوا: من قبل أنا وطلنا أنفسنا للبلاء. فقال: فما بالكم لا تصيبكم الآفات كما تصيب الناس؟ قالوا: لأننا لا نتوكل على غير الله، قال: هل وجدتم آباءكم هكذا؟ قالوا: نعم، وجدنا آبائنا يرحمون مساكينهم، ويواسون فقراءهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويحلمون عمن جهل عليهم، ويصلون أرحامهم، ويؤدون أماناتهم، ويحفظون وقت صلاتهم، ويوفون بعهدهم، ويصدقون في مواعدهم، فأصلح الله تعالى بذلك أمرهم وحفظهم، ما كانوا أحياء، وكان حقاً علينا أن نخلفهم في تركتهم. فقال ذو القرنين: لو كنت مقيماً لأقمت فيكم، ولكن لم أؤمر بالمقام. هـ. ذكره الثعلبي.

وقال في القوت: قوله تعالى، في صفة أعدائه المحجوبين: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾: دليل الخطاب في تدبر معناه أن أوليائه المستجيبين له سامعون منه مكاشفون بذكره، ناظرون إلى غيبه، قال تعالى في ضده: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ﴾ (١)، وقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ...﴾ (٢) الآية. هـ.

وسبب غطاء القلوب عن الاستماع والاستبصار هو اتباع الهوى ومحبة غير المولى، فلذلك أنكره الحق تعالى على الكفار بقوله:

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ

نُزُلًا ۝١٠٢﴾

قلت: «أن يتخذوا»: سد مسد المفعولين، أو حذف الثاني، أى: أَحَسِبُوا اتَّخَذَهُمْ نَافِعَهُمْ وَ«نُزُلًا»: حال من جهنم. يقول الحق جل جلاله؛ منكراً على الكفار المتقدمين: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين أعرضوا عن ذكرى، وكانت أعينهم في غطاء عن رؤية دلائل توحيدى، ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ كالملائكة والمسيح وعزير، أو الشياطين؛ لأنهم عباد، ﴿مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ أى: معبودين من دونى، يُؤَلِّونَهُم بِالْعِبَادَةِ، أن ذلك ينفعهم، أو: ألا نعذبهم على ذلك، بل نعذبهم على ذلك، ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾؛ بِسَرِّنا وَهَيَّاْنَا ﴿جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ أى: شيئاً يتمتعون به أول ورودهم القيامة. والنزل: ما يقدم للنزول أى: الضيف، وعدل عن الإضممار؛ ذمًا لهم على كفرهم، وإشعاراً بأن ذلك الإعتاد بسبب كفرهم، وعبر بالاعتاد؛ تهكمًا بهم، وتخطئة لهم، حيث كان اتخاذهم أوليائه من قبيل العتاد، وإعداد الزاد ليوم المعاد، فكأنه قيل: إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ، مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والدُّخْرِ، جهنم؛ عدة لهم. وفي ذكر النزل: إيماء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أنموذج له، وتستحقق دونه، وقيل: النزل: موضع النزول، أى: أَعْتَدْنَا هَا لَهُمْ مَنْزِلًا يَقِيمُونَ فِيهِ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما أحببت شيئاً إلا وكنت له عبداً، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً، فأفرد قلبك لله، وأخرج منه كل ما سواه، فحينئذ تكون عبداً لله، حراً مما سواه، فكل ما سوى الله باطل، وظل أفل، فكن إبراهيمياً، حيث قال: ﴿لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (٣)، فارفع أيها العبد همتك عن الخلق، وعلقها بالملك الحق، فلا تحب إلا الله، ولا تطلب شيئاً

(١) من الآية ٢٠ من سورة هود.

(٢) الآية ٢٤ من سورة هود.

(٣) من الآية ٧٦ من سورة الأنعام.

سواه، كائناً ما كان، من جنس الأشخاص، أو من جنس الأحوال أو المقامات أو الكرامات؛ لئلا تنخرط في سلك من اتخذ من دون الله أولياء، فتكون كاذباً في العبودية.

روى عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمته الله أنه قال: قرأت الفاتحة، فقلت: الحمد لله رب العالمين. فقال لي الهاتف من قبل الله تعالى: صدقت، فقلت: الرحمن الرحيم، فقال: صدقت. فقلت: مالك يوم الدين، فقال: صدقت. فلما قلت: إياك نعبد، قال كذبت؛ لأنك تعبد الكرامات، قال: ثم أدبني، وتبت لله تعالى. ذكره ابن الصباغ مطولاً. قلت: ولعله قبل ملاقة الشيخ، ولذلك عاتبه بقوله: يا أبا الحسن عوض ما تقول: «سخر لي خلقك»، قل: يارب كن لي، أرايت إن كان لك أيفوتك شيء؟ نفعا الله بجمعهم.

وهذا الغلط يقع للمتوجهين ولغيرهم، يظنون أنهم يحسنون صنعا، وهم يسيئون، كما قال تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝١٠٥ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝١٠٦ ﴾

قلت: «أعمالاً»: تمييز، و«في الحياة»: متعلق بسعيهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ يا محمد: ﴿ هل ننبئكم ﴾ يا معشر الكفرة ﴿ بالأخسرين أعمالاً ﴾ أي: بالذين خسروا من جهة أعمالهم؛ كصدقة، وعتق، وصلة رحم، وإغاثة ملهوف، حيث عملوها في حال كفرهم فلم تقبل منهم، وهم: ﴿ الذين ضل سعيهم ﴾ أي: بطل بالكلية ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ أي: بطل ما سعوا فيه في الحياة الدنيا وعملوه، ﴿ وهم يحسبون ﴾: يظنون ﴿ أنهم يحسنون صنعا ﴾ أي: يأتون بها على الوجه الأكمل، وقد تركوا شرط صحتها وكمالها، وهو الإيمان، واختلف في المراد بهم، فقيل: مشركو العرب، وقيل: أهل الكتابين، ويدخل في الأعمال ما عملوه في الأحكام المنسوخة المتعلقة بالعبادات. وقيل: الرهبان الذين يحبسون أنفسهم في الصوامع ويحملونها على الرياضات الشاقة.

والمختار: العموم في كل من عمل عملاً فاسداً، يظن أنه صحيح من الكفرة، بدليل قوله: ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ﴾: بدلائل التوحيد، عقلاً ونقلاً، ﴿ ولقائه ﴾: البعث وما يتبعه من أمور الآخرة، ﴿ فحبطت ﴾ لذلك ﴿ أعمالهم ﴾ المعهودة حبوطاً كلياً، ﴿ فلا نقيم لهم ﴾ أي: لأولئك الموصوفين بحبوط

الأعمال، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنَّا﴾ أى: فذهبتهم، ولا تجعل لهم مقداراً واعتباراً؛ لأن مدار التكريم: الأعمال الصالحة، وقد حبطت بالمرّة؛ قال ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ السَّمِينِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا يَزَنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ؛ أَقْرَأُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَلَا نَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنَّا﴾» (١). أو: لا نضع لأجل وزن أعمالهم ميزاناً؛ لأن الكفر أحبطها. أو: لا نقيم لهم وزناً نافعاً. قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: يأتي أناس بأعمالهم يوم القيامة، هي عندهم في العظم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لا تزن شيئاً، فذلك قوله: ﴿فَلَا نَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنَّا﴾.

ثم بين مآل كفرهم بعد أن بين مآل أعمالهم، فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ الصنف الذين حبطت أعمالهم ﴿جزاؤهم جهنم﴾، أو الأمر ذلك، ثم استأنف بقوله: ﴿جزاؤهم جهنم بما كفروا﴾ أى: بسبب كفرهم المتضمن لسائر القبائح، التي من جملتها ما تضمنه قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ الدالة على توحيدى أو كلامى، أو معجزاتى، ﴿وَرَسُولِي هُزُؤًا﴾ أى: مهزواً بهم، فلم يقتنعوا بمجرد الكفر، بل ارتكبوا ما هو أعظم، وهو الاستهزاء بالآيات والرسول. عائداً بالله من ذلك.

الإشارة: كل آية في الكفار تجر ذيلها على الغافلين، فكل من قنع بدون عبادة فكرة الشهود والعيان، ينسحب عليه من طريق الباطن أنه ضل سعيه، وهو يحسب أنه يحسن صنْعاً، فلا يقام له يوم القيامة وزن رفيع، فتنسحب الآية على طوائف، منها: من عبد الله لطلب المذلة عند الناس، وهذا عين الرياء؛ روى عن عثمان أنه قال على المنبر: (الرياء سبعون باباً، أهونها مثل نكاح الرجل أمه). ومنها: من عبد الله لطلب العوض والجزاء عند الخواص، ومنها: من عبد الله لطلب الكرامات وظهور الآيات، ومنها: من عبد الله بالجوارح الظاهرة، وحجب عن الجوارح الباطنة، وهى عبادة القلوب، فإن الذرة تعدل أمثال الجبال من عبادة الجوارح، ومنها: من وقف مع الاشتغال بعلم الرسوم، وغفل عن علم القلوب، وهو بطالة وغفلة عند المحققين، ومنها: من قنع بعبادة القلوب، كالتفكير والاعتبار، وغفل عن عبادة الأسرار، كفكرة الشهود والاستبصار، والحاصل: أن كل من وقف دون الشهود والعيان فهو بطلال، وإن كان لا يشعر، وإنما ينكشف له هذا الأمر عند الموت وبعده، وسيأتى عند قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٢)، زيادة بيان على هذا إن شاء الله. فقد يكون الشيء عبادة عند قوم وبطالة عند آخرين؛ حسنات الأبرار سيئات المقربين. ولا يفهم هذا إلا من ترقى عن عبادة الجوارح إلى عبادة القلوب والأسرار. وبالله التوفيق.

(١) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الكهف)، ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفة القيامة والجنة والنار)، عن أبى هريرة رضي الله عنه
(٢) الآية ٤٧ من سورة الزمر.

ثم ذكر ضد من تقدم من الكفرة، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بآيات ربهم ولقائه، ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾، كانت لهم ﴿﴾؛ فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده، ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾، وهى أعلى الجنان. وعن كعب: أنه ليس فى الجنة أعلى من جنة الفردوس، وفيها الأمور بالمعروف والناهون عن المنكر، أى: أهل الوعظ والتذكير من العارفين. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «فى الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعلاها الفردوس، ومنها تفجر أنهار الجنة، فوقها عرش الرحمن، فإذا سألتهم الله فسألوه الفردوس» (١).

وقال أيضا ﷺ: «جنان الفردوس أربع: جنتان من فضة، أبديتهما وأبديتهما، وجنتان من ذهب، أبديتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه» (٢)، وقال قتادة: الفردوس: روضة الجنة. وقال أبو أمامة: هى سرّة الجنة. وقال مجاهد: الفردوس: البستان بالرومية. وقال الضحاك: هى الجنة الملتفة الأشجار.

كانت لهم ﴿نُزُلًا﴾ أى: مقدمة لهم عند ورودهم عليه، على حذف مضاف، أى: كانت لهم ثمار جنة الفردوس نُزُلًا، أو جعلنا نفس الجنة نُزُلًا؛ مبالغة فى الإكرام، وفيه إيدان بأن ما أعد الله لهم على ما نطق به الوحي على لسان النبوة بقوله: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». هو بمنزلة النزل بالنسبة إلى الضيافة وما بعدها، وإن جعل النزل بمعنى المنزل؛ فظاهر. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ أى: لا يطلبون تحولا عنها؛ إذ لا يتصور أن يكون شيء أعز عندهم، وأرفع منها، حتى تنزع إليه أنفسهم، أو تطمح نحوه أبصارهم. ونعيمهم مجدد بتجدد أنفاسهم، لا نفاد له ولا نهاية؛ لأنه مكون بكلمة «كن»، وهى لا تنتهى.

(١) أخرجه، بحوه، البخارى فى (كتاب التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء)؛ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الرحمن، باب ومن دونهما جنتان)، ومسلم فى (الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى)، من حديث عبدالله بن قيس.

قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ ﴿مَدَادًا﴾، وَهُوَ مَا تَمَدُّ بِهِ الدَّوَاءُ مِنَ الْحَبْرِ، ﴿لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ وَهِيَ مَا يَقُولُهُ سُبْحَانَهُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، مِنَ اللَّطْفِ وَالْإِكْرَامِ، مِمَّا لَا تَكْيُفُهُ الْأَوْهَامُ، وَلَا تَحِيْطُ بِهِ الْأَفْكَارُ، قُلُوكَ كَانَتْ الْبَحَارُ مَدَادًا وَالْأَشْجَارُ أَقْلَامًا لِلنَّفْدَتِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ، ﴿قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾؛ لِأَنَّ الْبَحَارَ مَتْنَاهِيَّةً، وَكَلِمَاتُ اللَّهِ غَيْرُ مَتْنَاهِيَّةٍ. ثُمَّ أَكَّدهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ أَي: لَنَفَدَ الْبَحْرُ مِنْ غَيْرِ نَفَادِ كَلِمَاتِهِ تَعَالَى، هَذَا لَوْ لَمْ يَجِئْ بِمِثْلِهِ مَدَدًا، بَلْ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴿مَدَدًا﴾؛ عَوْنًا وَزِيَادَةً؛ لِأَنَّ مَا دَخَلَ عَالَمَ التَّكْوِينِ كُلَّهُ مَتْنَاهُ.

﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يَتَنَاهَى كَلَامِي، وَيَنْقُضِي أَجْلِي، وَإِنَّمَا خُصِّصْتُ عَنْكُمْ بِالْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ؛ ﴿يُوحِي إِلَيَّ﴾ مِنْ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْخَلْقِ، وَلَا فِي سَائِرِ أَحْكَامِ الْإِلَوهِيَّةِ، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾: يَتَوَقَّعُهُ وَيَنْتَظِرُهُ، أَوْ يَخَافُهُ، فَالرَّجَاءُ: تَوَقُّعُ وَصُولِ الْخَيْرِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَمَنْ جَعَلَ الرَّجَاءَ عَلَى بَابِهِ، فَالْمَعْنَى: يَرْجُو حَسَنَ لِقَاءِ رَبِّهِ وَأَنْ يَلْقَاهُ لِقَاءَ رَضَى وَقَبُولٍ. وَمَنْ حَمَلَهُ عَلَى مَعْنَى الْخَوْفِ، فَالْمَعْنَى: يَخَافُ سُوءَ لِقَائِهِ. قَالَ الْقَشِيرِيُّ: حَمَلُهُ عَلَى ظَاهِرِهِ أَوَّلَى؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَاطِبَةً يَرْجُونَ لِقَاءَ اللَّهِ، فَالْعَارِفُونَ بِاللَّهِ يَرْجُونَ لِقَاءَهُ وَالنَّظَرُ إِلَيْهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ يَرْجُونَ لِقَاءَهُ وَكَرَامَتَهُ بِالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ. هـ بِالْمَعْنَى.

والتعبير بالمضارع في (يرجو)؛ للدلالة على أن اللائق بحال المؤمنين: الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء، أي: فمن استمر على رجاء لقاء كرامة الله ورضوانه ﴿فليعمل﴾؛ لتحقيق تلك الطلبة العزيزة ﴿عَمَلًا صَالِحًا﴾، وهو الذي توفرت شروط صحته وقبوله، ومدارها على الإتيان؛ ظاهرًا، والإخلاص؛ باطنًا. وقال سهل: العمل الصالح: المقيد بالسنة، وقيل: هو اعتقاد جواز الرؤية وانتظار وقتها. ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ إشراكًا جليًّا، كما فعل الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا؛ حيث كفروا بآيات ربهم ولقائه، أو إشراكًا خفيًّا، كما يفعله أهل الرياء، ومن يطلب به عوضًا أو ثناءً حسنًا.

قال شهر بن حوشب: جاء رجل إلى عبادة بن الصامت، فقال: أرأيت رجلًا يصلي يبتغي وجه الله، ويحب أن يُحمد عليه، ويتصدق يبتغي وجه الله ويحب أن يُحمد عليه، ويحج كذلك؟ قال عبادة: ليس له شيء، إن الله تعالى يقول: «أَنَا خَيْرُ شَرِيكَ، فَمَنْ كَانَ لَهُ شَرِيكَ فَهُوَ لَهُ». وَرَوَى أَنْ جُنْدُبَ بْنَ زُهَيْرٍ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنِّي لَأَعْمَلُ الْعَمَلَ لِلَّهِ تَعَالَى، فَإِذَا أَطْلَعَ عَلَيْهِ سَرْنِي، فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَكَ أَجْرَانِ: أَجْرُ السَّرِّ، وَأَجْرُ الْعَلَانِيَةِ» (١)

(١) أخرجه الترمذي في (الزهد، باب عمل السر)، وابن ماجه في (الزهد، باب اللناء الحسن)، عن أبي هريرة بدون ذكر جندب ابن زهير.

وذلك إذا قصد أن يُقْتَدَى به، وكان مُخلصاً في عمله. وعنه ﷺ أنه قال: «اتقوا الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء» (١).

وقال ﷺ: لما نزلت هذه الآية -: «إن أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفى، وإياكم وشرك السرائر، فإنَّ الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء»، فشق ذلك على القوم، فقال النبي ﷺ: «ألا أدلكم على ما يذهب الله عنكم صغير الشرك وكبيره؟ قالوا: بلى، قال: قولوا: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك من كل ما لا أعلم».

وعنه ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرَأَ آخِرَ سُورَةِ الْكَهْفِ - يعنى: «إِن الَّذِينَ آمَنُوا ...» إلى آخره - كَانَتْ لَهُ نُورًا مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ، وَمَنْ قَرَأَهَا كُلَّهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ» (٢). وعنه ﷺ: «مَنْ قَرَأَ عِنْدَ مَضْجَعِهِ: «قُلْ إِنَّمَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ...» الْخ، كَانَ لَهُ مِنْ مَضْجَعِهِ نُورًا يَتَلَّأْ إِلَى مَكَّةَ، حَشَوُ ذَلِكَ النَّورَ مَلَائِكَةٌ يَصْلُحُونَ حَتَّى يَقُومَ، وَإِنْ كَانَ بِمَكَّةَ كَانَ لَهُ نُورًا إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ». قلت: ومما جَرَّبَ أَنْ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ؛ (إِن الَّذِينَ آمَنُوا...) الْخ، وَنَوَى أَنْ يَقُومَ فِي أَى سَاعَةٍ شَاءَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُوقِظُهُ بِقُدْرَتِهِ. وانظر التعليق.

الإشارة: إن الذين آمنوا إيمان الخصوص، وعملوا عمل الخصوص - وهو العمل الذى يقرب إلى الحضرة - كانت لهم جنة المعارف نزلاً، خالدين فيها لا يبيغون عنها حولاً؛ لأنَّ مَنْ تَمَكَّنَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ لَا يُعْزَلُ عَنْهَا، بِفَضْلِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

مَذُّ تَجَمَّعَتْ مَا خَشِيتُ افْتِرَاقًا فَأَنَا الْيَوْمَ وَأَصِلُ مَجْمُوعُ

ثم يترقون في معارج التوحيد، وأسرار التفريد، أبداً سرمداً، لا نهاية؛ لأن ترقيتهم بكلمة القدرة الأزلية، وهى كلمة التكوين، التى لا تنفذ؛ (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي...) الآية. هذا مع كون وصف البشرية لا يزول عنهم، فلا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية. قل: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى وحي إلهام، ويلقى فى روعى إنما إلهكم إله واحد، لا ثانى له فى ذاته ولا فى أفعاله، فمن كان يرجو لقاء ربه فى الدنيا لقاء الشهود والعيان، ولقاء الوصول إلى صريح العرفان؛ فليعمل عملاً صالحاً، الذى لا حظ فيه للنفس؛ عاجلاً ولا آجلاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، فلا يقصد بعبادته إلا تعظيم الربوبية، والقيام بوظائف العبودية، والله تعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم*.



(١) أخرجه أحمد فى المسند (٤٢٨/٥)، والبخارى فى شرح السنة (٣٢٤/١٤).

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٤٣٩/٣)، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (باب ما يستحب أن يقرأ فى اليوم والليلة) من حديث معاذ. قال الحافظ ابن حجر: وفى إسناده ابن لهيعة.

* فى آخر نسخة د. حسن عباس: انتهى الجزء الثانى من تفسير القرآن المجيد، للعلامة الأديب، فريد عصره، ووحيد دهره، سيدى أحمد بن عجيبة الشريف، غفر الله له، ولكاتبه، وللمسلمين أجمعين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.. آمين.

1. The first part of the text discusses the importance of maintaining accurate records of all transactions and activities related to the business. It emphasizes the need for transparency and accountability in financial reporting.

2. The second part of the text focuses on the role of the management team in ensuring the success of the business. It highlights the importance of strategic planning and effective communication between different departments.

3. The third part of the text addresses the challenges faced by the business in the current market environment. It discusses the impact of economic fluctuations and the need for innovative solutions to maintain competitiveness.

4. The fourth part of the text provides a detailed analysis of the company's financial performance over the past year. It includes key metrics such as revenue, profit, and cash flow, along with a comparison to industry benchmarks.

5. The fifth part of the text outlines the company's future goals and objectives for the upcoming year. It discusses the strategies and initiatives that will be implemented to achieve these goals and drive sustainable growth.

سُورَةُ قَهْرٍ

مكية - وهي ثمان وتسعون آية. والمقصود من السورة الرد على النصارى في إشراكهم عيسى عليه السلام لله تعالى في ألوهيته، فهي كالانتميم لقوله: ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١).

قال تعالى: **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ كَهَيْعَصَ**

قيل: هي مختصرة من أسماء الله تعالى، فالكاف من كافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من يمين، والعين من عليم أو عزيز، والصاد من صادق. قاله الهروي عن ابن جبير.

قال أبو الهيثم: جعل الياء من يمين، من قولك: يَمَنُ الله الإنسانَ يَمَنُهُ يَمَنًا فهو مَيْمُونٌ. هـ. ولذا ورد الدعاء بها، فقد روى عن عليٍّ - كرم الله وجهه - أنه كان يقول: (يا كهيعص؛ أعوذ بك من الذنوب التي تُوجب النقم، وأعوذ بك من الذنوب التي تغير النعم، وأعوذ بك من الذنوب التي تهتك العصم، وأعوذ بك من الذنوب التي تحبس غيث السماء، وأعوذ بك من الذنوب التي تُدِيلُ الأعداء، انصُرنا على من ظلمنا) (٢). كان يقدم هذه الكلمات بين يدي كل شدة. فيحتمل أن يكون توسل بالأسماء المختصرة من هذه الحروف، أو تكون الجملة، عنده، اسماً واحداً من أسماء الله تعالى، وقيل: هو اسم الله الأعظم. ويحتمل أن يشير بهذه الرموز إلى معاملته تعالى مع أحبائه، فالكاف كفايته لهم، والهاء هدايته إياهم إلى طريق الوصول إلى حضرته، والياء يَمَنُهُ وبركته عليهم وعلى من تعلق بهم، والعين عنايته بهم في سابق علمه، والصاد صدقه فيما وعدهم به من الإتحاف والإكرام. والله تعالى أعلم.

وقيل: هي مختصرة من أسماء الرسول - عليه الصلاة والسلام - أي: يا كافي، يا هادي، يا ميمون، يا عين العيون، أنت صادق مصدق. وعن ماضى بن سلطان تلميذ أبي الحسن الشاذلي - رضى الله عنهما -: [أنه رأى في منامه أنه اختلف مع بعض الفقهاء في تفسير قوله: (كهيعص - حم - عسق)، فقلت: هي أسرار بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ، وكأنه قال: «كاف»؛ أنت كهف الوجود، الذي يؤم إليه كل موجود، «هاه»؛ هبنا لك الملك، وهبنا لك الملكوت، «يع»؛ يا عين العيون، «ص»؛ صفات الله (من يطع الرسول فقد أطاع الله)، «حاء»؛ حببناك، «ميم».

(١) من الآية ١١٠ من سورة الكهف.

(٢) أخرجه بنحوه الإمام أحمد في المسند (١١٢ / ١).

مَلَكُنَاكَ، عَيْنُ، عِلْمُنَاكَ، سَيْنُ؛ سَارْرُنَاكَ، قَافُ؛ قَرِينَاكَ. فنأزعونى فى ذلك ولم يقبلوه، فقلت: نسير إلى النبى ﷺ ليفصل بيننا، فسرنا إليه، فلقينا رسول الله ﷺ، فقال لنا: الذى قال محمد بن سلطان هو الحق. وكأنه يشير إلى أنها صفات أفعال.

قال تعالى:

﴿ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُ زَكِرِيَّا ۚ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۖ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۖ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۖ ۝٦﴾

قلت: (ذكر): خبر عن مضمرة، أى: هذا ذكر، والإشارة للمتلو فى هذه السورة؛ لأنه باعتبار كونه على جناح الذكر فى حكم الحاضر الشاهد. وقيل: مبتدأ حذف خبره، أى: فيما يتلى عليك ذكر رحمت ربك. وقيل: خبر عن (كهيعص)، إذا قلنا؛ هى اسم للسورة، أى: المسمى بهذه الحروف ذكر رحمة ربك، و(عبده): مفعول لرحمة ربك، على أنها مفعول لما أضيف إليها، أو لذكر، على أنه مصدر أضيف إلى فاعله على الاتساع. ومعنى «ذكر الرحمة»: بلوغها إليه، و(زكريا): بدل منه، أو عطف بيان، و(إذ نادى): ظرف لرحمة، وقيل: لذكر، على أنه مضاف إلى فاعله، وقيل: بدل اشتمال من زكريا، كما فى قوله: ﴿وَإِذْ كُنتَ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمُ إِذِ انْتَبَذَتْ...﴾ (١)، و(منى): حال من العظم، أى: كائناً منى، و(شيئاً): تمييز.

يقول الحق جل جلاله: هذا الذى نتلوه عليك فى هذه السورة هو ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُ زَكِرِيَّا﴾. قال الثعلبي: لفيه تقديم وتأخير. أى: ذكر ربك عبده زكريا برحمته، ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ وهو فى محرابه فى طلب الولد ﴿نِدَاءً خَفِيًّا﴾: سراً من قومه، أو فى جوف الليل، أو مخلصاً فيه لم يطلع عليه إلا الله. ولقد راعى ﷺ حسن الأدب فى إخفاء دعائه، فإنه أَدْخَلَ فى الإخلاص وأبعد من الرياء، وأقرب إلى الخلاص من كلام الناس، حيث طلب الولد فى غير إبانة ومن غائلة مواليه الذين كان يخافهم.

﴿قَالَ﴾ فى دعائه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أى: ضعف بدنى وذهبت قوتى. وإسناد الوهن إلى العظم؛ لأنه عماد البدن ودعامة الجسد، فإذا أصابه الضعف والرخاوة أصاب كله، وإفراده للقصد إلى الجنس المنبئ عن شمول الوهن إلى كل فرد من أفراد. ووهن بدنه ﷺ: لكبر سنه، قيل: كان ابن سبعين، أو خمساً وسبعين، وقيل: مائة، وقيل: أكثر.

(١) الآية ١٦ من السورة نفسها.

﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ أى: ابيض شمطاً. شبه عيسى الشيب من جهة البياض والإنارة بشواظ النار، وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعالها، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى محل الشعر ومنبته وهو الرأس، وأخرجه مخرج التمييز، ففيه من فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لا يخفى، حيث كان الأصل: واشتعل شيب رأسى، فأسند الاشتعال إلى الرأس؛ لإفادة شموله لكها، فإن وزانه: اشتعل بيته ناراً بالنسبة إلى اشتعلت النار فى بيته، ولزيادة تقريره بالإجمال أولاً، والتفصيل ثانياً، ولمزيد تفخيمه بالتكثير من جهة التكثير.

ثم قال: ﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أى: لم أكن بدعائى إياك خائباً فى وقت من أوقات هذا العمر الطويل، بل كنت كلما دعوتك استجبت لى. توسل إلى الله بسابق حسن عوائده فيه، لعله يشفع له ذلك بمثله، إثر تمهيد ما يستدعى ويستجلب الرأفة من كبر السن وضعف الحال. والتعرض فى الموضعين لوصف الربوبية لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة فى التضرع، ولذلك قيل: من أراد أن يستجاب له فليدع الله بما يناسبه من أسمائه وصفاته.

ثم قال: ﴿وإنى خفت الموالى﴾ أى: الأقارب، وهم: بنو عمه، وكانوا أشرار بنى إسرائيل، فخاف ألا يحسنوا خلافته فى أمته، فسأل الله تعالى ولداً صالحاً يأمنه على أمته. وقوله: ﴿من ورائى﴾ متعلق بمحذوف، أى: جور الموالى، أو مما فى الموالى من معنى الولاية، أى: خفت أن يلوا الأمر من ورائى، وكانت امرأتى عاقراً: لا تلد من حين شبابها، ﴿فهب لى من لدنك﴾ أى: أعطنى من محض فضلك الواسع، وقدرتك الباهرة، بطريق الاختراع، لا بواسطة الأسباب العادية؛ لأن التعبير بـلدى بدل على شدة الاتصال والالتصاق، ﴿ولياً﴾: ولداً من صلبى، يلى الأمر من بعدى.

والفاء: لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن ما ذكره عيسى من كبر السن وعقر المرأة موجب لانقطاع رجائه عن الولد بتوسط الأسباب، فاستوهبه على الوجه الخارق للعادة، ولا يقدح فى ذلك أن يكون هناك داع آخر إلى الإقبال على الدعاء المذكور، من مشاهدته للخوارق الظاهرة عند مريم، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿هنا لك دعا زكرياً ربه﴾^(١). وعدم ذكره هنا اكتفاء بما تقدم، فإن الاكتفاء بما ذكر فى موطن عما ترك فى موطن آخر من النكتة التنزيلية. وقوله: ﴿يرثنى﴾: صفة لولياً، وقرئ بالجزم هو وما عطف عليه جواباً للدعاء، أى: يرثنى من حيث العلم والدين والنبوة، فإن الأنبياء - عليهم السلام - لا يورثون من جهة المال. قال: ﴿نحن معاشر الأنبياء لا نورث﴾^(٢). وقيل: يرثنى فى الحبورة، وكان عيسى حبراً.

(١) من الآية ٣٨ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٤٦٣/٢).

﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ النبوة والملك والمال . قيل : هو يعقوب بن إسحاق . وقال الكلبي ومقاتل : هو يعقوب ابن ماثان ، أخو عمران بن ماثان ، أبي مريم ، وكانت زوجة زكريا أخت أم مريم ، وماثان من نسل سليمان عليه السلام ، فكان آل يعقوب أخوال يحيى . قال الكلبي : كان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وملوكهم ، وكان زكريا رئيس الأحبار يومئذ ، فأراد أن يرث ولده حبورته ، ويرث من بني ماثان ملكهم . هـ .

﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أى : مرضياً ، فعيل بمعنى مفعول ، أى : ترضى عنه فيكون مرضياً لك ، ويحتمل أن يكون مبالغة من الفاعل ، أى : راضياً بتقديرك وأحكامك التعريفية والتكليفية . والله تعالى أعلم .

الإشارة : طلب الوارث الروحاني - وهو وارث العلم والحال - جائز ليبقى الانتفاع به بعد موته . وقيل : السكوت والاكتفاء بالله أولى ، ففي الحديث : «يَرْحَمُ اللَّهُ أَخَانَا زَكْرِيَّا، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ يَرْتُهُ» (١) . وقوله تعالى : «نداء خفياً» . الإخفاء عند الصوفية أولى في الدعاء والذكر وسائر الأعمال ، إلا لأهل الاقتداء من الكلمة ، فهم بحسب ما يبرز في الوقت .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ . فيه قياس الباقي على الماضي ، فالذى أحسن في الماضي يحسن في الباقي ، فهذا أحد الأسباب في تقوية حسن الظن بالله ؛ وأعظم منه من حسن الظن بالله ؛ لما هو متصف به تعالى من كمال القدرة والكرم ، والجود والرفقة والرحمة ، فإن الأول ملاحظ للتجربة ، والثاني ناظر لعين المنة . قال في الحكم : «إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه ، حسن ظنك به لوجود معاملته معك ، فهل عودك إلا حسناً ؟ وهل أسدى إليك إلا منناً ؟» .

ثم ذكر إجابته لزكريا عليه السلام ، فقال :

﴿يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلا تَكَلِّمَ النَّاسَ تِلْكَ لَيْلٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/٢) ، وابن جرير (٤٨/١٦) عن قتادة .

قُلْتُ: «عَتِيَّاهُ: مصدر، من عَتَا يَعْتُو، وأصله: عَتَوُ، فاستثقل نوالى الضمعتين والواوين، فكسرت القاء، فقلبت الأولى ياء؛ لسكونها وانكسار ما قبلها، ثم قُلْتُ الثانية أيضاً؛ لاجتماع الواو والياء، وسبق إحداهما بالسكون. (قال كذلك): خبر، أى: الأمر كذلك، فيوقف عليه، ثم يقول: (قال ربك)، أو مصدر لقال الثانية، أى: مثل ذاك القول قال ربك. و(سويًا): حال من فاعل (تكلم).

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا زَكَرِيَّا﴾، كلمه بواسطة الملك: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ ونجيب دعوتك ﴿بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾؛ لأنه حيى به عقم أمه. أجاب ندائه فى الجملة، لا من كل وجه، بل على حسب المشيئة، فإنه طلب ولداً يرثه، فأجيب فى الولد دون الإرث؛ فإن الجمهور على أن يحيى مات قبل موت أبيه - عليهما السلام - وقيل: بقى بعده برهة، فلا إشكال حينئذ. وفى تعيين اسمه تأكيد للوعد وتشريف له، وفى تخصيصه به - كما قال تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أى: شريكاً فى الاسم، حيث لم يتسم به أحد قبله - مزيد تشريف وتفخيم له ﷺ؛ فإن التسمية بالأسماء البديعة الممتازة عن أسماء الناس تنويه بالمسمى لا محالة^(١). وقيل: (سَمِيًّا): شبيهاً فى الفضل والكمال، كما قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٢) فإنه ﷺ لم يكن قبله أحد مثله فى بعض أوصافه، لأنه لم يهم بمعصية قط، وأنه ولد لشيخ فأن، وعجوز عاقر، وأنه كان حصوراً، ولم تكن هذه الخصال لغيره.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أى: من أين وكيف يحدث لى غلام، ﴿وَكَاثِرٌ عَاقِرٌ﴾: عقيمة، ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عَتِيًّا﴾: يبساً فى الأعضاء والمفاصل، ونحولاً فى البدن، لكبره، وكان سنه إذ ذاك مائة وعشرين، وامراته ثمان وتسعين. وتقدم الخلاف فيه. وإنما قاله ﷺ مع سبق دعائه وقوة يقينه، لاسيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة فى آل عمران؛ استعظاماً لقدرة الله تعالى، وتعجبياً منها، واعتداداً بنعمته تعالى عليه فى ذلك، بإظهار أنه من محض فضل الله وكرمه، مع كونه فى نفسه من الأمور المستحيلة عادة. وقيل: كان دهشاً من ثمره الفرح، وقيل: كان ذلك منه استفهاماً عن كيفية حدوثه. وقيل: بل كان ذلك بطريق الاستبعاد، حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة، وكان قد نسي دعاءه، وهو بعيد.

﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ أى: الأمر كما ذكر من كبر السن وعقم المرأة، لكن هو على قدرتنا هين، ولذلك قال: ﴿قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾، أو مثل ذلك القول البديع قال ربك، ثم فسره بقوله: ﴿هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾، أو «مثل، مقحمة، أى: ذلك قال ربك. والإشارة إلى مصدره، الذى هو عبارة عن إيجاد الولد السابق، أو كذلك قضى ربك.

(١) وجه الفضيلة: أن الله تعالى تولى تسميته، ولم بكل ذلك إلى أبيه، فسماه باسم لم يسبق إليه... راجع: زاد المسير (٥/٢١٠).

(٢) من الآية ٦٥ من سورة مريم.

ثم قال: ﴿هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتِكُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ أي: وقد أوجدت أصلك، آدم، من العدم، ثم نشأت أنت من صلبه، ولم تكن شيئاً، فإن نشأة آدم عليه السلام وتصويره منطوية على نشأة أولاده، ولذلك قال في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ (١) الآية. انظر تفسير أبي السعود.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة تدلني على تحقق المسئول، وبلوغ المأمول، وهو حمل المرأة بذلك الولد، لأن تلقى تلك النعمة العظيمة بالشكر حين حدوثها، ولا أؤخر الشكر إلى وقت ظهورها، وينبغي أن يكون سؤاله الآية بعد البشارة ببره من الزمان؛ لما يروى أن (يحيى كان أكبر من عيسى - عليهما السلام - بستة أشهر، أو بثلاث سنين)، ولا ريب في أن دعاء زكريا عليه السلام كان في صغر مريم، لقوله تعالى: ﴿هَئِذَا دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ (٢)، وهي إنما ولدت عيسى عليه السلام وهي بنت عشر سنين، أو ثلاث عشرة سنة، أو يكون تأخر ظهور الآية إلى قرب بلوغ مريم - عليها السلام.

﴿قَالَ﴾ له تعالى: ﴿آيَتِكَ أَلَّا تَكْلُمَ النَّاسَ﴾ أي: أن لا تقدر على أن تكلم الناس مع القدرة على الذكر، ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ بأيامهن، للتصريح بها في آل عمران (٣)، حال كونك ﴿سَوِيًّا﴾ أي: سوي الخلق سليم الجوارح، مابك شائبة بكم ولا خرس، وإنما منعت بطريق الاضطرار مع كمال الأعضاء. وحكمة منعه؛ لينحصر كلامه في الشكر والذكر في تلك الأيام.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾: من المصلى، وكان مغلقاً عليه، فالمحراب مكان التعبد، أو من الغرفة، وكانوا من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب، ليدخلوا ويصلوا، إذ خرج عليهم متغيراً لونه، فأنكروه، وقالوا له: مالك؟ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أوماً إليهم، وقيل: كتب في الأرض: ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ أي: صلوا ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: صلاة الفجر وصلاة العصر، ولعلها كانت صلاتهم. أو: نزهوا ربكم طرفي النهار، ولعله أمر أن يسبح فيها شكراً، ويأمر قومه بذلك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إجابة الدعاء مشروطة بالاضطرار، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (٤) وفي الحكم: «ما طلب لك شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب مثل الذلة والافتقار». فإذا اضطررت إلى مولاك، فلا محالة يجيب دعائك، لكن فيما يريد لا فيما تريد، وفي الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد. فلا تيأس ولا تستعجل (والله يعلم وأنتم لا تعلمون). فإذا رأيت مولاك أجابك فيما سألته، فاجعل كلامك كله في شكره وذكره، واستفرغ أوقاتك، إلا من شهود إحسانه وبره. وبالله التوفيق.

(٢) من الآية ٣٨ من سورة آل عمران.

(٤) من الآية ٦٢ من سورة النمل.

(١) الآية ١١ من سورة الأعراف. (٣) في قوله تعالى: ﴿قَالَ آيَتِكَ أَلَّا تَكْلُمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ الآية ٤١.

ثم ذكر وصيته ليحيى عليه السلام ونعوته، فقال:

﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾

قلت: «صبيًا»: حال من مفعول «آتينا»، و«حنانًا» و«زكاة»: عطف على «الحكم». و«من لدنا»: متعلق بمحذوف، صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية، أى: وآتيناه الحكم وتحننًا عظيمًا واقعًا من جنابنا، أوشقة في قلبه ورحمة على أبويه وغيرهما. قال ابن عباس: (ما أدري ما حنانًا إلا أن يكون تعطف رحمة الله على عباده). ومنه قولهم: «حنانيك»، مثل سعديك، وأصله: من حنين الناقة على ولدها، و(برًا): عطف على «تقيًا».

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا يحيى﴾ أى: قلنا يا يحيى، وهذا استئناف طوى قبله جمل كثيرة، مما يدل على ولادته ونشأته، حتى أوحى إليه، ثم قال له: ﴿يا يحيى خذ الكتاب﴾ أى: التوراة، وقيل: كتاب خص به، فدللت الآية على رسالته. وفي تفسير ابن عرفة: أن يحيى رسول كعيسى. هـ. وقوله: ﴿بقوة﴾ أى: بجد واجتهاد، وقيل: بالعمل به، ﴿وآتينا الحكم صبيًّا﴾، قال ابن عباس: (الحكم هنا النبوة، استنبأه وهو ابن ثلاث سنين)، قلت: كون الصبي نبياً جائز عقلاً، واقع عند الجمهور، وأما بعثه رسولاً فجائز عقلاً، وظاهر كلام الفخر^(١) هنا أنه واقع، وأن يحيى وعيسى بعثاً صغيرين. وقال ابن مرزوق في شرح البخارى ما نصه: (الأعم: بعث الأنبياء بعد الأربعين)؛ لأنه بلوغ الأشد، وقيل: أرسل يحيى وعيسى - عليهما السلام - صبيين. وقال ابن العربي: يجوز، ولم يقع.

وقول عيسى عليه السلام: (إني عبد الله) إخبار عما وجب في المستقبل، لا عما حصل. واستشكل جواز بعث الصبي بأنه تكليف، وشرطه: البلوغ، إن كانت الشرائع فيه سواء. انظر المحشى الفاسى. قلت: والذي يظهر أن يحيى وعيسى - عليهما السلام - تنبأ صغيرين، وأرسلا بعد البلوغ. والله تعالى أعلم. وقيل: الحكم: الحكمة وفهم التوراة والفقه في الدين. روى أنه دعاه الصبيان إلى اللعب، فقال: ما للعب خلقت.

﴿و﴾ آتيناه ﴿حناناً﴾ أى: تحننًا عظيمًا ﴿من لدنا﴾: من جناب قدسنا، أو تحننًا من الناس عليه. قال عوف: الحنان المحبب، ﴿وزكاة﴾: طهارة من العيوب والذنوب، أو صدقة تصدقنا به على أبويه، أو: وفقناه للتصدق على الناس. ﴿وكان تقيًا﴾: مطيعاً لله، متجنباً للمعاصي، ﴿وبراً بوالديه﴾: لطيفاً بهما محسناً إليهما،

(١) أى الفخر الرازى فى تفسيره.

﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾ ؛ متكبراً عاقاً، فالجبار: هو المتكبر، لأنه يجبر الناس على أخلاقه. وقيل: من لا يقبل النصيحة، أو عاصياً الله تعالى. ﴿وسلامٌ عليه﴾ أى: سلامة من الله تعالى عليه، ﴿يوم ولد﴾ من أن يناله الشيطان بما ينال بنى آدم، ﴿ويوم يموت﴾ من عذاب القبر، ﴿ويوم يُبعث حياً﴾ من هول القيامة وعذاب النار.

رُوى أن يحيى وعيسى - عليهما السلام - التقيا، فقال له يحيى: استغفر لى، فأنت خير منى، فقال له عيسى: أنت خير منى، أنا سلمت على نفسى وأنت سلم الله عليك.

الإشارة: أخذ الكتاب بالقوة - وهو الجد والاجتهاد فى قراءته - هو أن يكون متجرداً لتلاوته، منصرف الهمة إليه عن غيره، فلا يصدق على العبد أن يأخذ كتاب ربه بقوة، حتى يكون هكذا عند تلاوته. قال الورنجي: ﴿خذ الكتاب بقوة﴾ أى: خذ كتابنا بنا لابل، والكتاب كلام الحق الأزلى، أى: خذ الكتاب الأزلى بالقوة الأزلية. هـ. ومعناه أن يكون التالى فانياً عن نفسه، متكلماً بربه، ويسمعه من ربه، فهذا حال المقربين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة مريم - عليها السلام - فقال:

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُبْغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً ﴿٢١﴾ لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَاتَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢٢﴾﴾

قلت: (إذ انتبذت): بدل اشتمال من مريم، على أن المراد بها نبؤها، فإن الظرف مشتمل على ما فيها، وقيل: بدل الكل، على أن المراد بالظرف ما وقع فيه. وقيل: «إذ» ظرف لنبا المقدر، أى: اذكر نبا مريم حين انتبذت؛ لأن الذكر لا يتعلق بالأعيان، لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبأها عند انتبازها فقط، بل كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستثناء داخل فى حيز الظرف متم للنبا. و(مكاناً): مفعول بانتبذت، باعتبار ما فيه من معنى الإتيان، أى: اعتزلت وأنت مكاناً شرقياً، أو ظرف له، أى: اعتزلت فى مكان شرقى. و(بشراً): حال. وجواب (إن كنت): محذوف، أى: إن كنت تقياً فبأنى عائدة بالرحمن منك. و(بغياً) أصله: بغوي، على وزن فعول،

فأدغمت الواو - بعد قلبها ياء - فى الياء، وكسرت الغين للياء^(١)، و(لنجله): متعلق بمحذوف، أى: ولنجله آية فعلنا ذلك، أو معطوف على محذوف، أى: لنبين لهم كمال قدرتنا ولنجله.. الخ. أو على جملة: (هو على هين)؛ لأنها فى معنى العلة، أى: كذلك قال ربك؛ لقدرتنا على ذلك؛ ولنجله.. الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿واذكر﴾ يا محمد ﴿فى الكتاب﴾: القرآن، والمراد هذه السورة الكريمة؛ لأنها هى التى صدرت بذكر زكريا، واستتبع بذكر قصة مريم؛ لما بينهما من الاشتباك. أى: اذكر فى الكتاب نبأ ﴿مريم إذ انتبذت﴾؛ حين اعتزلت ﴿من أهلها﴾ وأنت ﴿مكناً شرقياً﴾ من بيت المقدس، أو من دارها لتتخلى فيه للعبادة، ولذلك اتخذت النصرى المشرق قبلة. وقيل: قعدت فى مشربة لتغتسل من الحيض، محتجبة بشيء يسترها، وذلك قوله تعالى: ﴿فاتخذت من دونهم حجاباً﴾، وكان موضعها المسجد، فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها، وإذا طهرت عادت إلى المسجد. فبينما هى تغتسل من الحيض، محتجبةً دونهم، أتاها جبريل ﷺ فى صورة آدمى، شاب أمرد، وضياء الوجه.

قال تعالى: ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾: جبريل ﷺ، عبر عنه بذلك؛ توفية للمقام حقه. وقرىء بفتح الراء؛ لكونه سبباً لما فيه روح العباد، يعنى اتباعه والاهتداء به، الذى هو عدة المقربين فى قوله: ﴿فأما إن كان من المقربين، فروح وريحان﴾^(٢). ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾: سوى الخلق، كامل البنية، لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شيئاً، وقيل: تمثل لها فى صورة شاب ترب^(٣) لها، اسمه يوسف، من خدم بيت المقدس، وإنما تمثل لها فى تلك الصورة الجميلة لتستأنس به، وتتلقى منه ما يلقي إليها من كلامه تعالى؛ إذ لو ظهر لها على صورة الملكية، لفرت منه ولم تستطع مقاومته.

وأما ما قيل من أن ذلك لتهيج شهوتها، فتتحدّر نطفتها إلى رحمها، فغلط فاحش، ينحو إلى مذهب الفلاسفة، ولعلها نزعة مسروقة من مطالعة كتبهم، يكذبه قوله تعالى: ﴿قالت إني أعود بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾، فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها ميل إليه، فضلاً عن ما ذكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة. نعم يمكن أن يكون ظهر على ذلك الحسن الفائق والجمال اللائق؛ لابتلائها واختبار عفتها، ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه. وذكر عنوان الرحمانية؛ للمبالغة فى العياذ به تعالى، واستجلاب آثار الرحمة الخاصة، التى هى العصمة مما دهمها. قاله أبو السعود. وقولها: ﴿إني كنت تقياً﴾ أى: تتقى الله فتبألى بالاستعاذة به.

(١) أى لمناسة الياء.

(٢) الآيات ٨٨ - ٨٩ من سورة الواقعة.

(٣) أى: فى مثل منها: فالترب: اللدة والسق... انظر: اللسان (ترب ٤٢٥/١)

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ ﴾ أى: لست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر، وإنما أنا رسول من استعذت برحمانيته؛ ﴿ لَأَهْبَ لَكَ غُلَامًا ﴾ أى: لأكون سبباً فى هبة الغلام، أو: ليهب لك ربك غلاماً - فى قراءة الياء - . والتعرض لعنوان الريوبية مع الإضافة إلى ضميرها؛ لتشريفها وتسليتها، والإشعار بعلية الحكم؛ فإن هبة الغلام لها من أحكام تربيتها. وقوله: ﴿ زَكِيًّا ﴾ أى: طاهراً من العيوب صالحاً، أو تذكرو أحواله وتنمو فى الخير، من سن الطفولية إلى الكبر.

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ كما وصفت، ﴿ وَ ﴾ الحال أنه ﴿ لَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ بالنكاح، ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾؛ زانية فاجرة تبتغى الرجال؟ ﴿ قَالَ ﴾ لها الملك: ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى: الأمر كما قلت لك ﴿ قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ ﴾ أى: هبة الغلام من غير أن يمسسك بشر هين سهل على قدرتنا، وإن كان مستحيلاً عادة؛ لأننى لا أحتاج إلى الأسباب والوسائط، بل أمرنا بين الكاف والنون، ﴿ وَ ﴾ إنما فعلنا ذلك ﴿ لَنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ يستدلون به على كمال قدرتنا، والالتفات إلى نون العظمة؛ لإظهار كمال الجلالة، ﴿ وَ ﴾ لنجعله ﴿ رَحْمَةً ﴾ عظيمة كائنة ﴿ مِنَّا ﴾ عليهم، ليهتدوا بهدايته، ويرشدوا بإرشاده. ﴿ وَكَانَ ﴾ ذلك ﴿ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ فى الأزل، قد تعلق به قضاء الله وقدره، وسطر فى اللوح المحفوظ، فلا بد من جريانه عليك، أو: كان أمراً حقيقياً بأن يقضى ويفعل؛ لتضمنه حكماً بالغة وأسراراً عجيبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا تظهر النتائج والأسرار إلا بعد الانتباز عن الفجار، وعن كل ما يشغل القلب عن التذكار، أو عن الشهود والاستبصار، فإذا اعتزل مكاناً شرفياً، أى: قريباً من شروق الأنوار والأسرار، بحيث يكون قريباً من أهل الأنوار، أو بإذنهم، أرسل الله إليه روحاً قدسياً، وهو وارد ربانى تحيا به روحه وسره وقلبه وقلبه، فيهب له علماً لدنيا، وسراً ربانياً، يكون آية لمن بعده، ورحمة لمن اقتدى به وتبعه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حملها وودلاتها وما كان من شأنها مع قومها، فقال:

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ ﴿ ٢٢ ﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴿ ٢٣ ﴾ فَادْبَحَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿ ٢٤ ﴾ وَهَزَى إِلَيْكِ جِذْعُ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿ ٢٥ ﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا

﴿٢٦﴾ فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ
أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءٌ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا
﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي
بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبِرَأْسِ بُولَدِي وَلَمْ يُجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ
عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

قلت: (رطباً): تمييز، فيمن أثبت التاءين^(١)، أو حذف إحداهما، ومفعول به، فيمن قرأ بقاء واحدة مع كسر القاف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فحملته﴾ بأن نفخ جبريل في درعها، فدخلت النفخة في جوفها. قيل: إن جبريل عليه السلام رفع درعها فنفخ في جيبه، وقيل: نفخ عن بعد، فوصل الريح إليها فحملت في الحال، وقيل: إن النفخة كانت في فيها، وكانت مدة حملها سبعة أشهر، وقيل: ثمانية. ولم يعش ولد من ثمانية. وفي ابن عطية: تظاهرت الروايات أنها ولدت لثمانية أشهر، ولذلك لا يعيش ابن ثمانية أشهر؛ حفظاً لخاصية عيسى، فتكون معجزة له. هـ. وقيل: تسعة أشهر. وقيل: ثلاث ساعات، حملته في ساعة، وصور في ساعة، ووضعته في ساعة حين زالت الشمس. وقيل: ساعة، ما هو إلا أن حملت فوضعت، وسنها حينئذ ثلاث عشرة سنة، وقيل: عشر سنين، وقد حاضت حيضتين.

﴿فانتبذت به﴾ أى: فاعتزلت ملتبسة به حين أحست بقرب وضعها، ﴿مكائناً قصياً﴾: بعيداً من أهلها وراء الجبل، وقيل: أقصى الدار. ﴿فأجاءها الخاض﴾: فألجأها المخاض. وقرئ بكسر الميم. وكلاهما مصدر، محضت المرأة: إذا تحرك الولد في بطنها للخروج، ﴿إلى جذع النخلة﴾ لتستتر به، أو لتعتمد عليه عند الولادة، وهو ما بين العرق والغصن. وكانت نخلة يابسة، لا رأس لها ولا قعدة، قد جيء بها لبناء بيت، وكان الوقت شتاء، والتعريف في النخلة إما للجنس أو للعهد، إذ لم يكن ثم غيرها، ولعله تعالى ألهمها ذلك ليربها من آياتها ما يسكن روعتها، وليطعمها الرطب، الذي هو من طعام النفساء الموافق لها.

﴿قالت﴾ حين أخذها وجع المطلق: ﴿يا ليتني مت﴾^(٢) بكسر الميم، من مات يمات، وبالضم، من مات

(١) في قوله تعالى: (نأفط).

(٢) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف: «مت» بكسر الميم، والباقيون بالضم.

يموت، ﴿ قبل هذا ﴾ الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت، وإنما قالت، مع أنها كانت تعلم ما جرى لها مع جبريل عليه السلام من الوعد الكريم؛ استحياء من الناس، وخوفاً من لائمهم، أو جرياً على سنن الصالحين عند اشتداد الأمر، كما روى عن عمر بن الخطاب أنه أخذ تبنة من الأرض، فقال: «ليقتني هذه التبنة ولم أكن شيئاً». وقال بلال: (ليت بلالاً لم تلده أمه). ثم قالت: ﴿ وكنت نسيّاً ﴾ (١) أى: شيئاً تافهاً شأنه أن ينسى ولا يعتد به، ﴿ منسياً ﴾ لا يخطر ببال أحد من الناس. وقرئ بفتح النون، وهما لغتان؛ نسي ونسى، كالوتر والوتر. وقيل: بالكسر: اسم ما ينسى، وبالفتح: مصدر. ﴿ فناداهما ﴾ أى: جبريل عليه السلام ﴿ من تحتها ﴾، قيل: إنه كان يقبل الولد من تحتها، أى: من مكان أسفل منها. وقيل: من تحت النخلة، وقيل: ناداهما عيسى عليه السلام، ويرجحه قراءة من قرأ بفتح الميم، أى: فخطبها الذى تحتها: ﴿ أن لا تحزنى ﴾، أو: بالآ تحزنى، على أن «أن» مفسرة، أو مصدرية، حذف عنها الجار. ﴿ قد جعل ربك تحتك ﴾ أى: بمكان أسفل منك ﴿ سرياً ﴾ أى: نهراً صغيراً، حسبما روى مرفوعاً. (٢) قال ابن عباس رضى الله عنهما: (إن جبريل عليه السلام ضرب برجله الأرض، فظهرت عين ماء عذب، فجرى جدولاً). وقيل: فعله عيسى، أى: ضرب برجله فجرى، وقيل: كان هناك نهر يابس - أجرى الله تعالى فيه الماء، كما فعل مثله بالنخلة، فإنها كانت يابسة لا رأس لها، فأخرج لها رأساً وخصاً وتمراً. وقيل: كان هناك نهر ماء. والأول أظهر؛ لأنه الموافق لبيان إظهار الخوارق، والمتبادر من النظم الكريم.

وقيل: (سرياً) أى: سيداً نبيلاً رفيع الشأن جليلاً، وهو عيسى عليه السلام، والتنوين حينئذٍ للتفخيم. والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى. والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها؛ لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية.

ثم قال: ﴿ وهزى إليك ﴾ أى: حركى النخلة إليك، أى: جاذبة لها إلى جهتك. فهز الشئ: تحريكه إلى الجهات المتقابلة تحريكاً عنيفاً، والمراد هنا ما كان بطريق الجذب والدفع. والباء فى قوله: ﴿ بجذع النخلة ﴾: صلة للتأكيد، لقول العرب: هز الشئ وهز به، أو للإصاق. فإذا هزرت النخلة ﴿ تساقط ﴾ (٣) أى: تتساقط. وقرئ: تساقط، وتسقط، أى: النخلة عليك إسقاطاً متواتراً بحسب تواتر الهز ﴿ رطباً جنيّاً ﴾ أى: طرياً، وهو ما قطع قبل يسه. فعيل بمعنى مفعول، أى: مجنياً صالحاً للاجتناء. ﴿ فكلى ﴾ من ذلك الرطب

(١) قرأ حفص وحمزة بفتح النون، والباقيون بكسرها.. انظر الإنحاف (٢/٢٣٥).

(٢) أخرج المرفوع الطبرانى فى المعجم الصغير (١/٢٤٤) من حديث البراء بن عازب، وأخرجه فى الكبير (١٢/٣٤٦ ح ١٣٣٠٣) من حديث ابن عمر.

(٣) هذه قراءة نافع، وابن كثير، وأبى عمرو، وابن عمرو، والكسائي. وقرأ حفص «تساقط» بضم التاء وتخفيف السين وكسر القاف. وقرأ حمزة «تساقط» بفتح التاء والقاف وتخفيف السين، والأصل: تساقط. انظر: التبصرة/٢٥٦، والإنحاف (٢/٢٣٥).

﴿واشربى﴾ من ذلك السرى، ﴿وقرى عينا﴾؛ وطبى نفساً وارفضى عنك ما أحزنك وأهمك، فإنه تعالى قد نزه ساحتك عن التهم، بما يفصح به لسان ولدك من التبرئة. أو: وقرى عينا بحفظ الله ورعايته فى أمورك كلها. وقرة العين: برودتها، مأخوذ من القر، وهو البرد؛ لأن دمع الفرح بارد، ودمع الحزن سخن، ولذلك يقال: قرة العين للمحبوب، وسخنة العين للمكروه.

﴿فإما ترين من البشر أحداً﴾ آدمياً كائناً من كان ﴿فقولى﴾ له إن استنطقك أو لامك: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ أى: صمتاً، وقرىء كذلك، وكان صيامهم السكوت، فكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الطعام. وذكر ابن العربى فى الأحوذى: أن نبينا - عليه الصلاة والسلام - اختص بإباحة الكلام لأمتة فى الصوم، وكان محرماً على من قبلنا، عكس الصلاة. هـ. قالت: ﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ أى: بعد أن أخبرتكم بنذرى، وإنما أكلم الملائكة أو أناجى ربى. وقيل: أمرت بأن تُخبر عن نذرها بالإشارة. قال الفراء: العرب تسمى كل ما وصل إلى الإنسان كلاماً، ما لم يؤكد بالمصدر، فإذا أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام. هـ. وإنما أمرت بذلك ونذرت؛ لكرهه مجادلة السفهاء ومقاولتهم، وللاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام؛ فإنه نص قاطع فى قطع الطعن.

﴿فأتت به قومها﴾ عندما طهرت من نفاسها، ﴿تحمله﴾ أى: حاملة له. قال الكلبي: احتمل يوسف النجار. وكان ابن عمها - مريم وابنها عيسى، فأدخلهما غاراً أربعين يوماً، حتى نعتت من نفاسها، ثم جاءت به تحمله بعد أربعين يوماً، وكلمها عيسى فى الطريق، فقال: يا أمه، أبشرى، فإنى عبد الله ومسيحه. فلما رآها أهلها، بكوا وحزنوا، وكانوا قوماً صالحين. ﴿قالوا يا مريم لقد جئت﴾ أى: فعلت ﴿شيئاً فرياً﴾: عظيماً بديعاً منكراً، من فرى الجلد: قطعه. قال أبو عبيدة: (كل فائق من عجب أو عمل فهو فرى). قال النبى ﷺ: فى حق عمر رضي الله عنه: «فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه» (١) أى: يعمل عمله.

﴿يا أخت هارون﴾، عنوا هارون أخا موسى؛ لأنها كانت من نسله، أى: كانت من أعقاب من كان معه فى طبقة الأخوة، وكان بينها وبينه ألف سنة. أو يا أخت هارون فى الصلاح والنسك، وكان رجلاً صالحاً فى زمانهم اسمه هارون، فشبهوها به. ذكر لما مات تبع جنازته أربعون ألفاً، كلهم يسمى هارون من بنى إسرائيل. وقيل: إن هارون الذى شبهوها به كان أفسق بنى إسرائيل، فشتعوها بتشبيهها به. ﴿ما كان أبوك﴾ عمران ﴿امراً سوءاً﴾

(١) أخرجه البخارى فى مواضع، منها: (فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه) عن عبد الله بن عمر، وأخرجه مسلم فى (فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه) عن أبى هريرة، ولفظ الحديث كاملاً كما فى البخارى: قال ﷺ: «أريت فى المنام أنى أنزع بذئى على بكرة على قلب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً، والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب، فاستحالت غرباً، فلم أر عبقرياً يفري فريه، حتى روى الناس وضربوا بعطن».

وما كانت أمك بغياً ﴿٢٢﴾ ، فمن أين لك هذا الولد من غير زوج ؟. هذا تقرير لكون ما جاءت به فرياً منكراً، أو تنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش الفواحش .

﴿ فأشارت إليه ﴾ أى: إلى عيسى أن كلموه، ولم تكلمهم وفاء بنذرهما، وإشارتها إليه من باب الإدلال، رجوعاً لقوله لها: (وقرى عيناً)، ولا تفر عينها إلا بالوفاء بما وعدت به؛ من العناية بأمرها والكفاية لشأنها، وذلك يقتضى انفرادها بالله وغناها به، فتدل بالإشارة. وكان ذلك طوعاً يدها، وتذكر قضية جريج. قاله فى الحاشية. ﴿ قالوا ﴾ منكرين لجوابها: ﴿ كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ﴾، ولم يعهد فيما سلف صبى يكلمه عاقل. وه كان، هنا: نامة. وه صبياً: حال. وقيل: زائدة، أى: من هو فى المهد.

﴿ قال ﴾ عيسى عليه السلام: ﴿ إني عبد الله ﴾، أنطقه الله تعالى بذلك، تحقيقاً للحق، ورداً على من يزعم ربوبيته. قيل كان المستنطق لعيسى زكريا - عليهما السلام - وعن السدى: (لما أشارت إليه، غضبوا، وقالوا: لسخريتها بنا أشد علينا مما فعلت). روى أنه عليه السلام كان يرضع، فلما سمع ذلك ترك الرضاع، وأقبل عليهم بوجهه، وانكأ على يساره، وأشار بسبابته، فقال ما قال. وقيل: كلمهم بذلك، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان.

ثم قال فى كلامه: ﴿ آتاني الكتاب ﴾: الإنجيل: ﴿ وجعلنى ﴾ مع ذلك ﴿ نبياً، وجعلنى مباركاً ﴾: نفاعاً للناس، معلماً للخير ﴿ أينما كنت ﴾ أى: حيثما كنت، ﴿ وأوصانى بالصلاة ﴾: أمرنى بها أمراً مؤكداً، ﴿ والزكاة ﴾: زكاة الأموال، أو بتطهير النفس من الرزائل ﴿ مادمت حياً ﴾ فى الدنيا. ﴿ وجعلنى ﴾ براً بوالدتى ﴿ فهو عطف على ﴾ مباركاً ﴿ . وقرئ بالكسر، على أنه مصدر وصف به مبالغة، وعبر بالفعل الماضى فى الأفعال الثلاثة؛ إما باعتبار ما سبق فى القضاء المحتوم، أو بجعل ما سيقع واقعاً لتحقيقه. ثم قال: ﴿ ولم يجعلنى جباراً شقياً ﴾ عند الله تعالى، بل متواضعاً ليناً، سعيداً مقرباً، فكان يقول: سلونى، فإن قلبى لين، وإنى فى نفسى صغير، لما أعطاه الله من التواضع.

ثم قال: ﴿ والسلام على يوم ولدتُ ويوم أموتُ ويوم أبعثُ حياً ﴾، كما تقدم على يحيى. وفيه تعريض بمن خالفه، فإن إثبات جنس السلام لنفسه تعريض بإثبات ضده لأضداده، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ (١)؛ فإنه تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى.

فهذا آخر كلام عيسى عليه السلام، وهو أحد من تكلم فى المهد، وقد تقدم ذكرهم فى سورة يوسف نظماً ونثراً، وكلهم معروفون، غير أن ماشطة ابنة فرعون لم تشتهر حكايتها. وسأذكرها كما ذكرها الثعلبى. قال: قال ابن عباس: (لما أسرى بالنبي ﷺ مرت به ريح طيبة فقال: يا جبريل ما هذه الرائحة؟ قال: رائحة ماشطة بنت فرعون، كانت

(١) الآية ٤٧ من سورة طه.

تمشطها، فوق المشط من يدها، فقالت: بسم الله، فقالت ابنته: أبى؟ فقالت: لا، بل ربي وربك ورب أبيك. فقالت: أخبر بذلك أبى؟ قالت: نعم، فأخبرته فدعاها، وقال: من ربك؟ قالت: ربي وربك في السماء، فأمر فرعون ببقرة - آية عظيمة من نحاس - فأحميت، ودعاها بولدها، فقالت: إن لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي فتدفنهما جميعاً، قال: وذلك لك علينا من الحق، سأفعل ذلك لك، فأمر بأولادها واحداً واحداً، حتى إذا كان آخر ولدها، وكان صبياً مرضعاً، قال: اصبري يا أمه.. فألقاها في البقرة مع ولدها^(١). هـ.

الإشارة: يؤخذ من الآية أمور صوفية، منها: أن الإنسان يباح له أن يستتر في الأمور التي تهتك عرضه، ويهرب إلى مكان يمان فيه عرضه، إلا أن يكون في مقام الرياضة والمجاهدة، فإنه يتعاطى ما تموت به نفسه، ومنها: أنه لا بأس أن يلجأ الإنسان إلى ما يخفف آلامه ويسهل شدته، ولا ينافي توكله. ومنها: أن لا بأس أن يتمنى الموت إذا خاف ذهاب دينه أو عرضه، أو فتنة تحول بينه وبين قلبه. ويؤخذ أيضاً من الآية: أن فزع القلب عند الصدمة الأولى لا ينافي الصبر والرضا؛ لأنه من طبع البشر، وإنما ينافيه تماديه على الجزع.

ومنها: أن تحريك الأسباب الشرعية لا ينافي التوكل، لقوله تعالى: (وهزى إليك). لكن إذا كانت خفيفة مصحوبة بإقامة الدين، غير معتمد عليها بقلبه، فإن كان متجرداً فلا يرجع إليها حتى يكمل يقينه، ويتمكن في معرفة الحق تعالى. وقد كانت في بدايتها تأتي إليها الأرزاق بغير سبب كما في سورة آل عمران^(٢)، وفي نهايتها قال لها: (وهزى إليك). قال الشيخ أبو العباس المرسى رحمته الله: كانت في بدايتها متعرجاً إليها بخرق العادات وسقوط الأسباب، فلما تكمل يقينها رجعت إلى الأسباب، والحالة الثانية أتم من الحالة الأولى، وأما من قال: إن حبها أولاً كان لله وحده، فلما ولدت انقسم حبها، فهو تأويل لا يرضى ولا ينبغي أن يلتفت إليه، لأنها صديقة، والصديق والصديقة لا ينتقلان من حالة إلى أخرى أكمل منها.

ومنها: أن الإنسان لا بأس أن يوجب على نفسه عبادة، إذا كان يتحصن بها من الناس، أو من نفسه، كالصوم أو الصمت^(٣) أو غيرهما، مما يحجزه عن العوام، أو عن الانتصار للنفس.

وقوله تعالى: (والسلام على يوم ولدت...) الآية: قال: المرتجبي: سلام يحيى سلام تخصيص الربوبية على العبودية. ثم قال: وسلام عيسى من عين الجمع، سلام فيه مزية ظهور الربوبية في معدن العبودية. وأرفع المقامين سلام الحق على سيد المرسلين كفاحاً في وصاله وكشف جماله، ولو سلم عليه بلسانه كان بلسان الحدث، ولا يبلغ رتبة سلامه بوصف قدمه. هـ.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٠٩/١) مرفوعاً. والحديث في مجمع الزوائد (٦٥/١) وعزاه لأحمد والبيهقي والطبراني في الكبير والأوسط.

(٢) في قوله تعالى: «كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله..» الآية ٣٧.

(٣) قلت: ما قاله جازز في الصوم، وغير جازز في الصمت؛ لما ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الذي نذر الصوم والصمت أن يتم صومه، وأن يتكلم. فاعلمه؛ فإنه دقيق.

ثم شرع في الرد على النصارى، وعلى من أشرك معه غيره، فقال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

قلت: ﴿وإن الله﴾: عطف على قوله: (إني عبد الله) فيمن كسر، وعلى حذف اللام فيمن فتح، أى: ولأن الله ربي وربكم. وقال الواحدى وأبو محمد مكى: عطف على قوله: (بالصلاة) أى: أوصانى بالصلاة وبأن الله... الخ: وقال المحلى: بالفتح، بتقدير اذكر، وبالكسر بتقدير «قل». و(قول الحق): مصدر مؤكد لقال، فيمن نصب، وخبر عن مضمر، فيمن رفع، أى: هو، أو هذا. و(إذا قضى): بدل من (يوم الحسرة)، أو ظرف للحسرة. و(هم فى غفلة وهم لا يؤمنون): جملتان حاليتان من الضمير المستقر فى الظرف فى قوله: (فى ضلال مبين) أى: مستقرين فى الضلال وهم فى تينك الحالتين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ذلك﴾ المنعوت بتلك النعوت الجليلة، والأوصاف الحميدة هو ﴿عيسى ابن مريم﴾. لا ما يصفه النصارى به من وصف الألوهية، فهو تكذيب لهم على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهانى، حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه به. وأتى بإشارة البعيدة للدلالة على علو رتبته وبعد منزلته، وامتيازته بذلك المناقب الحميدة عن غيره، ونزوله منزلة المشاهد المحسوس.

هذا ﴿قول الحق﴾، أو قال عيسى ﴿قول الحق﴾ الذى لا ريب فيه، وأنه عبد الله ورسوله، ﴿الذى فيه يمترون﴾ أى: يشكون أو يتنازعون، فيقول اليهود: ساحر كذاب، ويقول النصارى: إله، أو ابن الله. ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾ أى: ما صح، أو ما استقام له أن يتخذ ولداً، ﴿سبحانه﴾ وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، فهو تنزيه عما بهتوه، ونطقوا به من البهتان، وكيف يصح أن يتخذ الله ولداً، وهو يحتاج إلى أسباب ومعالجة، وأمره تعالى أسرع من لحظ العيون، ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾.

ثم قال لهم عيسى عليه السلام: ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾، فهو من تمام ما نطق به فى المهد، وما بينهما اعتراض، للمبادرة للرد على من غلط فيه، أى: فإنى عبد، وإن الله ربي وربكم فاعبدوه وحده ولا تشركوا معه غيره، ﴿هذا﴾ الذى ذكرت لكم من التوحيد ﴿صراط مستقيم﴾ لا يضل سالكه ولا يزيغ متبعه.

قال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ ، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، تنبيهاً على سوء صنيعهم، بجعلهم ما يوجب الاتفاق منشأ للاختلاف، فإن ما حكى من مقالات عيسى عليه السلام، مع كونها نصوصاً قاطعة في كونه عبده تعالى ورسوله، قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والإفراط، وفرق النصارى، فقالت النسطورية: هو ابن الله، وقالت اليعقوبية: هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء، وقالت الملقانية: هو ثالث ثلاثة. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم: المختلفون فيه بأنواع الضلالات. وأظهر الموصول في موضع الإضمار؛ إيذاناً بكفرهم جميعاً، وإشعاراً بعِلَّةِ الحكم، ﴿مَنْ مَشْهَدٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أى: ويل لهم من شهود يوم عظيم الهول والحساب والجزاء، وهو يوم القيامة، أو: من وقت شهوده أو مكانه، أو من شهادة اليوم عليهم، وهو أن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء - عليهم السلام - وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، بالكفر والفسوق.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصُرْ﴾ أى: ما أسمعهم وما أبصرهم، تعجب من حدة سمعهم وأبصارهم يومئذ. والمعنى: أن أسمعهم وأبصارهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ للحساب والجزاء جدير أن يتعجب منها، بعد أن كانوا في الدنيا صما عمياً. أو: ما أسمعهم وأطوعهم لما أبصروا من الهدى، ولكن لا ينفعهم يومئذ مع ضلالهم عنه اليوم، فقد سمعوا وأبصروا، حين لم ينفعهم ذلك. قال الكلبي: لا أحد يوم القيامة أسمع منهم ولا أبصر، حين يقول الله لعيسى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (١). هـ. ويحتمل أن يكون أمر تهديد لا تعجب، أى: أسمعهم وأبصرهم مواعيد ذلك اليوم، وما يحقق بهم فيه، فالجار والمجرور، على الأول، فى موضع رفع، وعلى الثانى: نصب. ﴿لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أى: فى الدنيا، ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أى: لا يدرك غايته، حيث غفلوا عن الاستماع والنظر بالكلية. ووضع الظالمين موضع الضمير؛ للإيذان بأنهم فى ذلك ظالمون لأنفسهم حيث تركوا النظر.

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يوم يتحسر الناس قاطبة، أما المسىء فعلى إساءته، وأما المحسن فعلى قلة إحسانه، ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أى: فرغ من يوم الحساب، وتميز الفريقان، إلى الجنة وإلى النار.

روى أن النبى ﷺ سئل عن ذلك، فقال: «حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح، فيذبح، والفريقان ينظرون، فينادى: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، وأهل النار غمماً إلى غمهم، ثم قرأ ﷺ: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾، وأشار بيده إلى الدنيا» (٢) قال مقاتل: (لولا ما قضى الله من تعميرهم فيها، وخلودهم؛ لماتوا حسرة حين رأوا ذلك). ﴿وَهُمْ﴾ فى

(١) الآية ١١٦ من سورة المائدة.

(٢) أخرجه البخارى فى (التفسير، باب: «وأنذرهم يوم الحسرة»). ومسئم فى (الجنة وصفة نعيمها، باب: النار يدخلها الجبارون)، من حديث أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه ..

هذا اليوم ﴿ في غفلة ﴾ عما يراد بهم في الآخرة، ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ بهذا؛ لا غترارهم ببهجة الدنيا، فلا بد أن تنهد دعائهم، وتمحى بهجتها، ويفنى كل ما عليها، قال تعالى: ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ﴾ لا ينبغي لأحد غيرنا أن يكون له عليها وعليكم ملك ولا تصرف، أو: إنا نحن نتوفى الأرض ومن عليها، بالإفناء والإهلاك، توفى الوارث لإرثه، ﴿ وإلينا يرجعون ﴾ ؛ يردون إلى الجزاء، لا إلى غيرنا، استقلالاً أو اشتراكاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد المعنى بشأن نفسه أن يحصن عقائده بالدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، على وفاق أهل السنة، ثم يجتهد في صحبة أهل العرفان، أهل الذوق والوجدان، حتى يطلعوه على مقام الإحسان، مقام أهل الشهود والعيان. فإذا فرط في هذا، لحقه الندم والحسرة، في يوم لا ينفع فيه ذلك. فكل من تخلف عن مقام الذوق والوجدان؛ فهو ظالم لنفسه باخس لها، يلحقه شيء من الخسران، ولا بد أن تبقى فيه بقية من الضلال، حيث فرط عن اللحوق بطريق الرجال، قال تعالى: (لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين).

(وأنذرهم يوم الحسرة) أى: يوم يرفع المقربون ويسقط المدعون. فأهل الذوق والوجدان حصل لهم اللقاء في هذه الدار، ثم استمر لهم في دار القرار. روى أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي رحمته قال يوماً بين يدي أستاذه: (اللهم اغفر لي يوم لقائك). فقال له شيخه - القطب ابن مشيش - رضى الله عنهما: هو أقرب إليك من ليك ونهارك، ولكن الظلم أوجب الضلال، وسبق القضاء حكم بالزوال عن درجة الأنس ومنازل الوصال، وللظالم يوم لا يرتاب فيه ولا يخاتل، والسابق قد وصل في الحال، أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين. هـ. كلامه رحمته.

ثم استتبع بذكر قصص الأنبياء، تنمة للرد على أهل الشرك، بأن الملل كلها متفقة على إبطاله، وقدم الخليل؛ لأنه إمام أهل التوحيد، فقال:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۖ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۖ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۖ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۖ ﴾

قلت: (إذ قال): بدل اشتمال من (إبراهيم)، وما بينهما: اعتراض، أو متعلق بكان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿واذكر في الكتاب﴾؛ القرآن أو السورة، ﴿إبراهيم﴾ أي: أتل على الناس نبأه وبلغه إياهم، كقوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (١)؛ لأنهم ينتسبون إليه ﷺ، فلعلهم باستماع قصته يقلعون عما هم عليه من الشرك والعصيان. ﴿إنه كان صديقاً﴾؛ ملازماً للصدق في كل ما يأتي ويذر، أو كثير التصديق؛ لكثرة ما صدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله، فالصديق مبالغة في الصدق، يقال: كل من صدق بتوحيد الله وأنبيائه وفرائضه، وعمل بما صدق به فهو صديق، وبذلك سُمي أبو بكر الصديق، وسيأتي في الإشارة تحقيقه عند الصوفية، إن شاء الله.

والجملة: استئناف مسوق لتعليل موجب الأمر؛ فإن وصفه ﷺ بذلك من دواعي ذكره، وكان أيضاً ﴿نبياً﴾، أي: كان جامعاً بين الصديقية والنبوة، إذ كل نبي صديق، ولا عكس. ولم يقل: نبياً صديقاً؛ لئلا يتوهم تخصيص الصديقية بالنبوة.

﴿إذ قال لأبيه﴾ أرز، متلطفاً في الدعوة مستميلاً له: ﴿يا أبت﴾، التاء بدل من ياء الإضافة، أي: يا أباي، ﴿لم تعبد ما لا يسمع﴾ ثناءك عليه حين تعبد، ولا جوارك إليه حين تدعوه، ﴿ولا يبصر﴾ خضوعك وخشوعك بين يديه، أو: لا يسمع ولا يبصر شيئاً من المسموعات والمبصرات، فيدخل في ذلك ما ذكر دخولاً أولياً، ﴿ولا يغني عنك شيئاً﴾ أي: لا يقدر أن ينفعك بشيء في طلب نفع أو دفع ضرر.

انظر؛ لقد سلك ﷺ في دعوته وموعظته أحسن منهاج وأقوم سبيل، واحتج عليه بأبدع احتجاج، بحسن أدب، وخلق جميل، لكن وقع ذلك لسائر ركب متن المكابرة والعناد، وانتكبت بالكلية عن محجة الصواب والرشاد، أي: فإن من كان بهذه النقائص يأبى من له عقل التمييز من الركون إليه، فضلاً عن عبادته التي هي أقصى غاية التعظيم، فإنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء النام والإنعام العام، الخالق الرازق، المحيي المميت، المثيب المعاقب، والشيء لو كان مميزاً سمياً بصيراً قادراً على النفع والضرر، لكنه ممكن، لاستنكف العقل السليم عن عبادته، فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر، ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر.

ثم دعاه إلى اتباعه؛ لأنه على المنهاج القويم، مُصدراً للدعوة بما مر من الاستعطاف والاستمالة، حيث قال: ﴿يا أبت إنني قد جاءني من العلم ما لم يأتك﴾، لم يسم أباه بالجهل المفرط، وإن كان في أقصاه، ولا نفسه بالعلم الفائق، وإن كان في أعلاه، بل أبرز نفسه في صورة رفيق له، أعرف بأحوال ما سلكاه من الطريق،

(١) من الآية ٦٩ من سورة الشعراء.

فاستماله برفق، حيث قال: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أى: مستقيماً موثقاً إلى أسمى المطالب، منجياً من الضلال المؤدى إلى مهاوى الردى والمعاطب.

ثم تَبَطَّه عما كان عليه من عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾، فإن عبادتك للأصنام عبادة له، إذ هو الذى يُسَوِّلُهَا لك ويغريك عليها، ثم علل نهيه فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾، فهو تعليل لموجب النهى، وتأكيد له ببيان أنه مستعص على ربك، الذى أنعم عليك بفنون النعم، وسينتقم منه فكيف تعبده؟.

والإظهار فى موضع الإضمار؛ لزيادة التقرير، والاقتصار على ذكر عصيانه بترك السجود من بين سائر جنائياته؛ لأنه ملاكها، أو لأنه نتيجة معاداته لآدم وذريته، فتذكيره به داع لأبيه إلى الاحتراز عن مولاته وطاعته. والتعرض لعنوان الرحمانية؛ لإظهار كمال شناعة عصيانه.

وقوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه من عبادة الشيطان، وهو افتترانه معه فى الهوان الفظيع. (و(من الرحمن): صفة لعذاب، أى: عذاب واقع من الرحمن، وإظهار (الرحمن)؛ للإشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب، كما فى قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (١)، ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أى: فإذا قرنت معه فى العذاب تكون قريباً له فى اللعن المخلد. فهذه موعظة الخليل لأبيه، وقد استعمل معه الأدب من خمسة أوجه:

الأول: ندائه: بياأبت، ولم يقل ياآزر، أو ياأبى.

الثانى: قوله: (مالا يسمع...) الخ، ولم يقل: لم تعبد الخشب والحجر.

الثالث: قوله: (إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك)، ولم يقل له: أنك جاهل ضال.

الرابع: قوله: (إنى أخاف)، حيث عبر له بالخوف ولم يجزم له بالعذاب.

الخامس: فى قوله: (أن يمسك)، حيث عبر بالمس ولم يعبر باللحوق أو النزول. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد جمع الحق تبارك وتعالى لخليله مقام الصديقية والنبوة مع الرسالة والخلة، وقدم الصديقية لتقدمها فى الوجود فى حال الترقى، فالصديقية تلى مرتبة النبوة، كما تقدم فى سورة النساء. فالصديق عند الصوفية هو الذى يعظم صدقه وتصديقه، فيصدق بوجود الحق ويمواعده، حتى يكون ذلك نصب عينيه، من غير تردد ولا تلجلج، ولا توقف على أية ولا دليل. ثم يبذل مهجته وماله فى مرضاة مولاه، كما فعل الخليل، حيث قدم

(١) الآية ٦ من سورة الانفطار.

بدنه للديران وطعامه للضيغان وولده للقربان. وكما فعل الصديق، حيث واسى النبي ﷺ بنفسه في الغار، وخرج عن ماله خمس مرار. وكما فعل الغزالي حيث قدم نفسه للخراب، حين اتصل بالشيخ وخرج عن ماله وجاهه في طلب مولاه. ولذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رَحِمَهُ اللهُ: في حقه: «إنا لنشهد له بالصديقية العظمى»، وناهيك بمن شهد له الشاذلي بالصديقية.

ومن أوصاف الصديق أنه لا يتعجب من شيء من خوارق العادة، مما تبرزه القدرة الأزلية، ولا يتعظم شيئاً ولا يستغربه، ولذلك وصف الحق تعالى مريم بالصديقية دون سارة، حيث تعجبت، وقالت: ﴿أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾^(١)؛ وأما مريم فإنما سألت عن وجه ذلك، هل يكون بنكاح أم لا، والله تعالى أعلم.

وفي الآية إشارة إلى حسن الملاطفة في الوعظ والتذكير، لا سيما لمن كان معظماً كالوالدين، أو كبيراً في نفسه. فينبغي لمن يذكره أن يأخذه بملاطفة وسياسة، فيقر له المقام الذي أقامه الله تعالى فيه، ثم يذكره بما يناسبه في ذلك المقام، ويشوقه إلى مقام أحسن منه، وأما إن أنكر له مقامه من أول مرة، فإنه يفر عنه ولم يستمع إلى وعظه، كما هو مجرب. وبالله التوفيق.

ثم ذكر جواب أبيه له، فقال:

﴿ قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا بَرَهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ۖ
قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۖ
دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۖ ﴾

قلت: هذا استئناف بياني، مبني على سؤال نشأ عن صدر الكلام، كأنه قيل: فماذا قال أبوه عندما سمع هذه النصائح الواجبة القبول؟ فقال مصراً على عناده: أراغب... الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قَالَ ﴾ له أبوه في جوابه: ﴿ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي ﴾ أي: أمعرض ومنصرف أنت عنها فوجه الإنكار إلى نفس الرغبة، مع ضرب من التعجب، كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل، فضلاً عن ترغيب الغير عنها، ثم هده فقال: ﴿ لئن لم تنته ﴾ عن وعظك ﴿ لأرجمَنَّكَ ﴾ بالحجارة، أي: والله لئن لم تنته عما أنت عليه من النهي عن عبادتها لأرجمَنَّكَ بالحجر، وقيل باللسان، ﴿ واهجرني ﴾ أي: واتركني ﴿ مَلِيًّا ﴾ أي: زمناً طويلاً، أو ما دام الأبد، ويسمى الليل والنهار ملوان، وهو عطف على محذوف، أي: احذرني واهجرني.

(١) الآية ٧٢ من سورة هود.

﴿ قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ مَنِي ، لَا أَصِيبُكَ بِمَكْرُوهِ ، وَهُوَ تَوَدِيعٌ وَمُنَارِكَةٌ عَلَى طَرِيقِ مَقَابِلَةِ السَّيْلَةِ بِالْحَسَنَةِ ، أَيْ : لَا أَشَافُكَ بِمَا يُؤْذِيكَ ، وَلَكِنْ ﴾ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ أَيْ : أَسْتَدْعِيهِ أَنْ يَغْفِرَ لَكَ . وَقَدْ وَفَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : ﴿ وَاعْفُ رَأْيِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (١) . أَوْ : بَأَنْ يُوَفِّقَكَ لِلتَّوْبَةِ وَيَهْدِيكَ لِلْإِيمَانِ . وَالِاسْتِغْفَارُ بِهَذَا الْمَعْنَى لِلْكَافِرِ قَبْلَ تَبَيُّنِ أَنَّهُ يَمُوتُ عَلَى الْكُفْرِ مِمَّا لَا رَبَّ فِي جَوَازِهِ ، وَإِنَّمَا الْمَحْظُورُ اسْتَدْعَاءُ الْمَغْفِرَةِ مَعَ بَيَانِ شِقَاقِهِ بِالْوَحْيِ ، وَأَمَّا الْاسْتِغْفَارُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ فَالْعَقْلُ لَا يَحِيلُهُ . وَلِذَلِكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ : « لَا أَزَالُ أَسْتَغْفِرُ لَكَ مَا لَمْ أَتِهِ عَنْكَ » . ثُمَّ نَهَاهُ عَنْهُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي التَّوْبَةِ . فَالْنَّهْيُ مِنْ طَرِيقِ السَّمْعِ ، وَلَا اشْتِبَاهُ أَنَّ هَذَا الْوَعْدَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ ، وَكَذَا قَوْلُهُ : ﴿ لَا أَسْتَغْفِرُ لَكَ ﴾ (٢) وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاعْفُ رَأْيِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (٣) إِنَّمَا كَانَ قَبْلَ انْقِطَاعِ رَجَائِهِ مِنْ إِيْمَانِهِ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ (٤) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ أَيْ : بَلِيغًا فِي الْبِرِّ وَالْأَلْفَافِ ، رَحِيمًا بِي فِي أُمُورِي ، قَدْ عَوَّدَنِي الْإِجَابَةَ . أَوْ عَالِمًا بِي بِسُجُوبِ لِي إِنْ دَعَوْتُهُ ، وَفِي الْقَامُوسِ : حَفِي كَرَضِي ، حَفَاوَةٌ . ثُمَّ قَالَ : وَاحْتِفًا : بِالْغِ فِي إِكْرَامِهِ وَأُظْهِرَ السُّرُورَ وَالْفَرَحَ بِهِ ، وَأَكْثَرَ السُّؤَالَ عَنْ أَحْوَالِهِ ، فَهُوَ حَافٍ وَحَفِي . هـ .

﴿ وَأَعْتَزَلُكُمْ ﴾ أَيْ : أَتْبَاعُكَ عَنْكَ وَعَنْ قَوْمِكَ ، ﴿ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ بِالْمُهَاجَرَةِ بِدِينِي ، حَيْثُ لَمْ تَوَثِّرْ فِيكُمْ نَصَائِحِي ، ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾ : أَعْبُدْهُ وَحْدَهُ ، أَوْ أَدْعُوهُ بِطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ لَكَ - أَيْ قَبْلَ النَّهْيِ - أَوْ : أَدْعُوهُ بِطَلَبِ الْمَوْلَدِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٥) ، ﴿ عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدَعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ أَيْ : عَسَىٰ أَلَا أَشْقَى بِعِبَادَتِهِ ، أَوْ : لَا أَخِيبُ فِي طَلْبِهِ ، كَمَا شَقِيتُمْ أَنْتُمْ فِي عِبَادَةِ آلِهَتِكُمْ وَخَبْتُمْ . فَفِيهِ تَعْرِيزٌ بِهِمْ ، وَفِي تَصْدِيرِ الْكَلَامِ بَعْسَى مِنْ إِظْهَارِ التَّوَاضُّعِ وَحَسَنِ الْأَدَبِ ، وَالنَّذِيرِ عَلَى أَنَّ الْإِجَابَةَ مِنْ طَرِيقِ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ ، لَا مِنْ طَرِيقِ الْوَجُوبِ ، وَأَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْخَاتِمَةِ وَالسَّعَادَةَ ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْغُيُوبِ الْمُخْتَصَّةِ بِالْعَلِيمِ الْخَبِيرِ مَا لَا يَخْفَى .

الإشارة : انظر كيف رفض آزر من رغب عن آلهته ، وإن كان أقرب الناس إليه ، فكيف بك أيها المؤمن ألا ترفض من يرغب عن إلهك ويعبد معه غيره ، أو يجحد نبيه ورسوله ، بل الواجب عليك أن ترفض كل ما يشغلك عنه ، غيره منك على محبوبك ، وإذا نظرت بعين الحقيقة لم تجد غيره إلا على الحق ، إذ ليس في الوجود إلا الحق ، وكل ما سواه باطل على التحقيق .

(٣) من الآية ٨٦ من سورة الشعراء .

(٢) في الآية ٤ من سورة الممتحنة .

(١) الآية ٨٦ من سورة الشعراء .

(٥) الآية ١٠٠ من سورة الصافات .

(٤) الآية ١١٤ من سورة التوبة .

فمن اعتزل كل ما سوى الله، وأفرد وجهته إلى مولاه، لم يشق في مطلبه ومسعاه، بل يطلعه الله على أسرار ذاته، وأنوار صفاته، حتى لا يرى في الوجود إلا الواحد الأحد الفرد الصمد. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نتيجة الانفراد عن يصد عن الله، فقال:

﴿ فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝١٩ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٢٠ ﴾

قلت: (وكلاً): مفعول أول لجعلنا، (علياً): حال من اللسان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فلما اعتزلهم ﴾ أى: اعتزل إبراهيم قومه ﴿ وما يعبدون من دون الله ﴾ بأن خرج من «كوثر» بأرض العراق، مهاجراً إلى الشام واستقر بها، ﴿ وهبنا له إسحاق ﴾ ولده ﴿ ويعقوب ﴾ حفيده، بعد أن وهب له إسماعيل من أمته هاجر، التى وهبت لزوج سارة، ثم وهبت له، فولد له منها إسماعيل، ولما حملت هاجر بإسماعيل غارت منها سارة، فخرج بها مع ولدها إسماعيل حتى أنزلهما مكة، فكان سبب عمارتهما. ثم حملت سارة بإسحاق، ثم نشأ عنه يعقوب، وإنما خصمها بالذكر لأنهما كانا معه فى بلده، وإسحاق كان متصلاً به يسعى معه فى مآربه، فكانت النعمة بهما أعظم.

ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله هاهنا لبيان كمال عظم النعمة التى أعطاها الله تعالى إياه، فى مقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقارب، فإنهما شجرة الأنبياء، لهما أولاد وأحفاد، لكل واحد منهم شأن خطير وعدد كثير. ﴿ وكلاً جعلنا نبياً ﴾ أى: وكل واحد منهما أو منهم جعلناه نبياً ورسولاً.

﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا ﴾ هى النبوة، وذكرها بعد ذكر جعلهم أنبياء؛ للإيدان بأنها من باب الرحمة والفضل. وقيل: الرحمة: المال والأولاد، وما بسط لهم من سعة الرزق، وقيل: إنزال الكتاب، والأظهر أنها عامة لكل خير دينى ودنيوى. ﴿ وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾: رفيعاً فى أهل الأديان، فكل أهل دين يتلونهم، ويثنون عليهم، ويفتخرون بهم؛ استجابة لدعوته بقوله: ﴿ وأجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾ (١).

والمراد باللسان: ما يوجد به الكلام فى لسان العرب ولغتهم، وإضافته إلى الصدق، ووصفه بالعلو؛ للدلالة على أنهم أحقاء لما يثنون عليهم، وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الأعصار، وتبدل الدول، وتحول المال والنحل. والله تعالى أعلم.

(١) الآية ٨٤ من سورة الشعراء.

الإشارة: كل من اعتزل عن الخلق وانفرد بالملك الحق، طلباً في الوصول إلى مشاهدة الحق، لا بد أن تفيض عليه المواهب القدسية والأسرار الوهبية والعلوم اللدنية، وهي نتائج فكرة القلوب الصافية، وفي الحكم: «مانع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة». قال الجنيد رحمته الله: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمته الله: (ثمار العزلة: الظفر بمواهب المنة، وهي أربعة: كشف الغطاء، وتنزل الرحمة، وتحقق المحبة، ولسان الصدق في الكلمة، قال الله تعالى: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له...﴾ الآية). وقال بعض الحكماء: من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا، فهلك كما هلكوا.

وقال بعض الصوفية: قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله: كيف الطريق إلى التحقيق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق، فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لا بد لي، قال: لا تسمع كلامهم، فإن كلامهم قسوة، قلت: لا بد لي، قال: لا تعاملهم، فإن معاملتهم خسران ووحشة، قلت: أنا بين أظهرهم، لا بد لي من معاملتهم، قال: لا تسكن إليهم، فإن السكون إليهم هلكة، قلت: هذا لعله يكون، قال: يا هذا أنتظر إلى اللاعبين، وتسمع كلام الجاهلين، وتعامل البطالين، وتسكن إلى الهلكى، وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع الله؟! هيهات.. هذا لا يكون أبداً، ثم غاب عني.

وقال القشيري رحمته الله: فأرباب المجاهدات، إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الردية لم ينظروا إلى المستحسنات - أى: من الدنيا - . قال: وهذا أصل كبير لهم في المجاهدات في أحوال الرياضة. هـ. وقال في «القوت»: ولا يكون المريد صادقاً حتى يجد في الخلوة من الحلاوة والنشاط والقوة ما لا يجده في العلانية، وحتى يكون أنسه في الوحدة، وروحه في الخلوة، وأحسن أعماله في السر. هـ.

قلت: العزلة عن الخلق والفرار منهم شرط في بداية المريد، فإذا تمكن من الشهود، وأنس قلبه بالملك الودود، واتصل بحلاوة المعانى، ينبغي له أن يختلط بالخلق ويربى فكرته؛ لأنهم حينئذ يزيدون في معرفته ويتسع بهم؛ لأنه يراهم حينئذ أنواراً من تجليات الحق، ونواراً يرعى فيهم، فيجتنى حلاوة الشهود، وفي ذلك يقول شيخ شيوخنا المجذوب:

الْخَلْقُ نَوَارٌ وَأَنَا رَعِيْتُ فِيهِمْ هُمُ الْحَجَابُ الْأَكْبَرُ وَالْمَدْخَلُ فِيهِمْ

وفي مقطعات الششتري:

عين الزحسام هم الوصول لحينا.

وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة موسى ﷺ، فقال:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

قلت: «نجياً»: حال من أحد الضميرين في (ناديناه) أو (قريناه)، وهو أحسن. وهارون: عطف بيان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿واذكر في الكتاب موسى﴾، قدم ذكره على ذكر اسماعيل لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب؛ لأنه من نسله، ﴿إنه كان مخلصاً﴾^(١): موحداً، أخلص عبادته من الشرك والرياء، وأسلم وجهه لله تعالى، وأخلص نفسه عما سواه. وقرئ بالفتح، على أن الله تعالى أخلصه من الدنس. قال القشيري أي: خالصاً لله، لم يكن لغيره بوجه. ثم قال: ولم يغض في الله على شيء. هـ.

﴿وكان رسولا نبياً﴾ أرسله الله تعالى إلى الخلق فأنبأهم عنه، ولذلك قدم رسولا مع كونه أخص وأعلى، ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن﴾، الطور: جبل بين مصر ومدين، أي: ناديناه من ناحيته اليمنى، وهي التي تلى يمين موسى ﷺ، فكانت الشجرة في جانب الجبل عن يمين موسى، أو من أيمن، أي: من جانبه الميمن، ومعنى ندائه منه: أنه سمع الكلام من تلك الناحية، ﴿وقربناه نجياً﴾ أي: مناجياً لنا نكلمه بلا واسطة، فالتقريب: تقريب تكرمه وتشريف، مثل حاله ﷺ بحال من قربه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبتة. وقيل: (نجياً) من النجو، وهو العلو والارتفاع، أي: رفعناه من سماء إلى سماء، حتى سمع صريف القلم يكتب له في الألواح.

﴿ووهبنا له من رحمتنا﴾ أي: من أجل رحمتنا ورافقتنا به، أو من بعض رحمتنا ﴿أخاه هارون﴾، أي: وهبنا له مؤازرة أخيه ومعاضدته، إجابة لدعوته: ﴿وَجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي﴾^(٢) لا نفسه؛ لأنه كان أكبر منه، وجد قبله، حال كونه ﴿نبياً﴾: رسولا مشركاً معه في الرسالة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كما وصف الحق تعالى خليله بالصديقية وصف كلمه بالإخلاص، وكلاهما شرط في حصول سر الخصوصية، سواء كانت خصوصية النبوة أو الولاية، فمن لا تصديق عنده لا سير له، ومن لا إخلاص له لا وصول له. وحقيقة الإخلاص: إخراج الخلق من معاملة الحق، وهي ثلاث طبقات: سفلى، ووسطى، وعليا.

(١) قرأ عاصم وحمة والكسائي وخلف (مخلصاً) بفتح اللام.

(٢) الآيتان ٢ - ٣ من سورة طه.

فالسفلى: أن يفعل العبادة لله تعالى، طالباً لعوض دنيوى، كسعة الأرزاق، وحفظ الأموال والبدن، فهذا إخلاص العوام، وإنما كان إخلاصاً لأنهم لم يلاحظوا مخلوقاً فى عملهم.

والوسطى: أن يعبد الله مخلصاً، طالباً لعوض أخرى، كالحور والقصور.

والعليا: أن يفعل العبادة قياماً برسم العبودية، وأدباً مع عظمة الربوبية، غير ملتفت لجنة ولا نار، ولا دنيا ولا آخرة، مع تعظيم نعيم الجنان، لأنه محل اتصال الرؤية؛ كما قال ابن الفارض رحمته:

ليس شوقى من الجنان نعيماً غير أنى أريدها لأراك

فإذا تحقق للعبد مقام الإخلاص الكامل، صار مقرباً نجياً فى محل المشاهدة والمكالمة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نبيه إسماعيل عليه السلام فقال:

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿واذكر فى الكتاب إسماعيل﴾، فصل ذكره عن أبيه وأخيه؛ لإبراز كمال الاعتناء بأمره، لإيراده مستقلاً بترجمته، ﴿إنه كان صادق الوعد﴾، هذا تعليل لموجب الأمر بذكره. وإيراده عليه السلام بهذا الوصف؛ لكمال شهرته به.

روى أنه واعد رجلاً أن يلقاه فى موضع، فجاء إسماعيل، وانتظر الرجل يومه وليلته - وقيل: ثلاثة أيام - فلما كان فى اليوم الآخر، جاء الرجل، فقال له إسماعيل: مازلت هنا من أمس. وقال الكلبى: انتظره سنة، وهو بعيد. قال ابن عطية: وقد فعل مثل هذا نبينا عليه السلام قبل مبعثه، ذكره النقاش وأخرجه الترمذى وغيره، وذلك فى مباحة وتجارة^(١) هـ. وقال القشيرى: وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه، فصبر على ذلك، إلى أن ظهر الفداء، وصدق الوعد دلالة حفظ العهد هـ.

وقال ابن عطاء: وعد لأبيه من نفسه الصبر، فوفى به، فى قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢) هـ. وهذا مبنى على أنه الذبيح، وسيأتى تحقيق المسألة إن شاء الله^(٣).

(١) أخرج أبو داود فى (الأدب، باب فى العدة) عن عبد الله بن أبى الحساء، قال: بايعت النبى ﷺ ببيع قبل أن يبعث، وبقيت له بقية، فوعده أن آتية بها فى مكانه، فأنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت فإذا هو فى مكانه، فقال: «يافتى، لقد شقت على، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك».

(٢) الآية ١٠٢ من سورة الصافات.

(٣) سبق التعليق على هذه المسألة عند تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

﴿وكان رسولا نبيا﴾ أى: رسولا لجزءهم ومن زالاهم، مخبرا لهم بغييب الوحي، وكان أولاده على شريعته، حتى غيرها عمرو بن لحي الخزاعي، فأدخل الأصنام مكة. فمازالت تُعبد حتى محاها نبينا محمد ﷺ بشريعته المطهرة.

﴿وكان﴾ إسماعيل ﴿يأمر أهله بالصلاة والزكاة﴾، قدم الأهل اشتغالا بالأهم، وهو أن يقبل بالتكميل على نفسه، ومن هو أقرب الناس إليه، قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١)، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾^(٢)، ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^(٣)، وقصد إلى تكميل الكل بتكميلهم؛ لأنهم قدوة يؤتسى بهم. وقيل: أهله: أمته؛ لأن الأنبياء - عليهم السلام - آباء الأمم. ﴿وكان عند ربه مرضيا﴾؛ لاتصافه بالنعوت الجليلة التي من جعلتها ما ذكر من الخصال الحميدة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد وصف الحق - جل جلاله - نبيه إسماعيل بثلاث خصال، بها كان عند ربه مرضيا، فمن اتصف بها كان مرضيا مقربا: الوفاء بالوعد، والصدق في الحديث؛ لأنه مستلزم له، وأمر الناس بالخير. أما الوفاء بالعهد فهو من شيم الأبرار، قد مدح الله تعالى أهله، ورغب فيه وأمر به، قال تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾^(٤). وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾^(٥)، فإخلاف الوعد من علامة النفاق، قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» وخلف الوعد إنما يضر إذا كان نيته ذلك عند عقده، أو فرط فيه، وأما إن كان نيته الوفاء، ثم غلبته المقادير، فلا يضر، لا سيما في حق أهل الفناء، فإنهم لا حكم لهم على أنفسهم في عقد ولا حل، بل هم مفعول بهم، زمامهم بيد غيرهم، كل ساعة ينظرون ما يفعل الله بهم، فمثل هؤلاء لا ميزان عليهم في عقد ولا حل. فمثلهم مع الحق كمثل الأطفال المحجر عليهم في التصرف، ولذلك قالوا: (الصرفية أطفال في تربية الحق تعالى). فإياك أن تطعن على أولياء الله إذا رأيت منهم شيئا من ذلك، والتمس أحسن المخرج، وهو ما ذكرته لك، فإنه عن تجربة وذوق. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر نبيه إدريس عليه السلام، فقال:

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾^(٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا^(٥٧) ﴿

(١) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.

(٢) الآية ٦ من سورة التحريم.

(٣) الآية ٩١ من سورة النحل.

(٢) الآية ١٠٢ من سورة طه.

(٤) الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

يقول الحق جل جلاله : ﴿واذكر في الكتاب إدريس﴾ وهو سبط شيث، وجد أبي نوح، فإنه نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ، وهو إدريس عليه السلام، واشتقاقه من الدرس؛ لكثرة دراسته لما أوحى إليه، وكثرة ذكره لله تعالى.

رُوي أنه كان خياطاً فكان لا يدخل الإبرة ولا يخرجها إلا بذكر الله. ورُوي أنه جاء إليه الشيطان يفتنه بفسق، فقال له: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في هذه الفسقة؟ فقال له عليه السلام: (الله قادر على أن يدخل الدنيا كلها في سم هذه الإبرة، ونخس عينه) ذكره السنوسي في شرح مقرؤه. قال ابن وهب: إنه دعا قومه إلى لا إله إلا الله، فامتنعوا فهلكوا. وفي حديث أبي ذر: أنه رسول، وجمع بينه وبين حديث الشفاعة، وقولهم لنوح: إنك أول رسول، بأن تكون رسالته لقومه خاصة، كهود وصالح، وكذا آدم وشيث، فإنه أرسل لبنيه لتعليم الشرائع والإيمان، ولم يكونوا كفاراً، وخلفه في ذلك شيث، قال المحشي الفاسي: والأظهر عندي في نوح أنه أول رسول من أهل العزم، لا مطلقاً.

قال ابن عطية: والأشهر أن إدريس عليه السلام لم يرسل، وإنما هو نبي فقط، وذهب إلى ذلك ابن بطال، ليسلم من المعارضة، وهي مدفوعة بما ذكرنا. هـ. فالمشهور أن إدريس رسول إلى قومه. رُوي أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة، وأنه أول من خط بالقلم، ونظر في علم النجوم والحساب، وخاط الثياب. قيل: وهو أول نبي بُعث إلى أهل الأرض.

قال تعالى في وصفه: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ : خبران لكان، والثاني مخصص للأول؛ إذ ليس كل صديق نبي. ﴿ورفعناه مكانا عليا﴾، هو شرف النبوة والزلفى عند الله تعالى. وقيل: علو الرتبة بالذكر الجميل في الدنيا، كما قال تعالى في حق نبيينا: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (١)، وقيل: الجنة، وقيل: السماء الرابعة، وهو الصحيح.

رُوي عن كعب وغيره في سبب رفعه أنه مشى ذات يوم في حاجته، فأصابه وهج الشمس وحرها، فقال: يارب أنا مشيت يوماً، فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد، اللهم خفف عنه من ثقلها، واحمل عنه حرها، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف، فقال: يارب كلفتنى بحمل الشمس، فما الذى قضيت فيه؟ فقال: إن عبدى إدريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته، قال: يارب اجعل بينى وبينه خلّة، فأذن له، حتى أتى إدريس، فقال له إدريس: أخبرتك أنك أكرم الملائكة عند ملك الموت، فاشفع لى ليؤخر

(١) الآية ٤ من سورة الشرح.

أجلى، لأزداد شكراً وعبادة، فقال له الملك: لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها، فقال: قد علمت ذلك، ولكنه أطيب لنفسى، قال: نعم، ثم حمّله ملك الشمس على جناحه فرفعه إلى السماء^(١). روى أنه مات هناك وردت إليه روحه بعد ساعة، فهو في السماء الرابعة حتى. وهذه قصص الله أعلم بصحتها. وبالله التوفيق.

الإشارة: ارتفاع المكان والشأن يكون على قدر صفاء الجنان، والإقبال على الكريم المنان، فبقدر التوجه والإقبال يكون الارتفاع والوصال.

بِقَدْرِ الْكَدِ تَكْسِبُ الْمَعَالِي وَمَنْ رَامَ الْعُلَا سَهَرَ اللَّيَالِي

أَتَبْغِي الْعِزَّ ثُمَّ تَنَامُ لَيْلًا يَغُوصُ الْبَحْرُ مِنْ طَلَبِ اللَّالِي

قال بعضهم: من عامل الله على بساط الأنس: رفع، لا محالة، إلى حضرة القدس. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مدحهم في الجملة، فقال:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝٥٨﴾

قلت: أولئك: مبتدأ، والذين: خبره، أو الذين: صفته، وإذا تلى: خبره. والإشارة إلى المذكورين في السورة، وما فيه من معنى البعد؛ للإشعار بعلو رتبهم وبعد منزلتهم في الفضل، و(من النبيين): بيان للموصول، و(من ذرية): بدل منه بإعادة الجار، و(سجداً وبكياً): حالان من الواو، و(بكياً): جمع باك، كمساجد وسجود، وأصله: بكوى، فاجتمع الواو والياء، وسبق إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت في الياء، وحركت الكاف بالكسر المجانس للياء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أولئك﴾ المذكورون في السورة الكريمة هم ﴿الذين أنعم الله عليهم﴾ بفنون النعم الدينية والدنيوية، ﴿من النبيين من ذرية آدم﴾، وهو إدريس عليه السلام ونوح، ﴿وممن حملنا مع نوح﴾ أي: ومن ذرية من حملناهم في السفينة، وهو إبراهيم؛ لأنه من ذرية سام بن نوح، ﴿ومن ذرية إبراهيم﴾، وهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب، وقوله: ﴿وإسرائيل﴾ أي: ومن ذرية إسرائيل، وهو يعقوب، وكان منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية. ﴿وممن هدينا﴾ أي: ومن جملة من هديناهم إلى الحق واجتبيناهم إلى النبوة من غير هؤلاء.

(١) عَقَّبَ ابن كثير على هذه الرواية وأمثالها بأن فيها غرابة وتكارة، وهي من أخبار كعب الأحبار من الإسرائيليات.

﴿إِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا بُكِيًّا﴾ ، هذا استئناف؛ لبيان خشيتهم من الله تعالى وإخباتهم له، مع مالهم من علو الرتبة وسمو الطبقة في شرف النسب، وكمال النفس والزلفى من الله عز وجل، أى: إذا تلى عليهم، آيات الرحمن، إما عند نزولها عليهم، أو بسماعها من غيرهم، لحديث: «أحب أن أسمع من غيرى». ثم بكى ﷺ عند قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (١) فكان الأنبياء عليهم السلام مثله، إذا تلى عليهم آيات الرحمن خروا ساجدين وباكين. عن النبي ﷺ قال: «اتْلُوا الْقُرْآنَ وَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا» (٢). وعن عمر رضى الله عنه أنه قرأ سورة مريم، فسجد فيها، فقال: (هذا السجود، فأين البكاء) ؟

قال بعضهم: ينبغي أن يدعو الساجد فى سجوده بما يليق بآيتها، فهاهنا يقول: اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم، المهيدين الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك. وفى الإسراء يقول: اللهم اجعلنى من الخاضعين لوجهك، المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك، وهكذا. والذى ورد فى الخبر: يقول: «سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا أَجْرًا، وَضَعْ عَلَىٰ بِهَا وَزْرًا، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذَخْرًا، وَتَقَبَّلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ». والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد أثنى الله تعالى على هؤلاء السادات المنعم عليهم بكونهم إذا سمعوا كلام الحبيب خضعوا ورفقت قلوبهم، وهو أول درجة المحبة، وفوقه الفرح بكلام الحبيب من مكان قريب، وفوقه الفرح بشهود المتكلم، وهنا ينقطع البكاء؛ لدخول صاحب هذا المقام جنة المعارف، وليس فى الجنة بكاء.

وأيضاً: من شأن القلب فى أول أمره الرطوبة، يتأثر بالواردات والأحوال، فإذا استمر عليها اشتد وصلب بحيث لا يؤثر فيه شيء من الواردات الإلهية. وفى هذا المعنى قال أبو بكر رضى الله عنه، حين رأى قوماً يبكون عند سماع القرآن: (كذلك كنا ثم قست القلوب) (٣)، فعبّر عن تمكنه بالقسوة، تواضعاً واستتاراً، وإنما أثنى على هؤلاء السادات بهذه الخصلة؛ لأنها سلم لما فوقها. والله تعالى أعلم.

(١) الآية ٤١ من سورة النساء، والحديث: أخرجه البخارى فى (التفسير - سورة النساء)، ومسلم فى (الصلاة، باب: فضل استماع القرآن) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه.

(٢) الحديث أخرجه بنحوه ابن ماجه فى (إقامة الصلاة، باب فى حسن الصوت بالقرآن) من حديث سعد بن أبى وقاص.

(٣) قال الحافظ أبو نعيم: ... عن أبى صالح: لما قدم أهل اليمن - زمان أبى بكر - وسمعوا القرآن، جعلوا يبكون، قال: فقال أبو بكر: (هكذا كنا، ثم قست القلوب). قال الشيخ أبو نعيم رحمه الله: «ومعنى قوله: قست القلوب: قويت، واطمأنت بمعرفة الله تعالى. أ.هـ. الحلية، ج ١، ص ٣٣ - ٣٤ ويحتمل أن يكون المعنى: أنهم كانوا أرقاء القلوب بمشاهدتهم لحضرة النبى صلى الله عليه وسلم.. ثم طال الأمد.. فقست القلوب.. وهذا منه تواضع، رضى الله عنه.

ثم ذكر أضدادهم، فقال:

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝٦٠ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدٌ مَأْتِيًّا ۝٦١ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝٦٢ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣ ﴾

قلت: (جنات عدن): بدل من الجنة، بدل بعض؛ لاشتغالها عليها، وما بينهما اعتراض، أو نصب على المدح. و(الإسلاماً): منقطع، أى: لكن يسمعون سلاماً، ويجوز اتصاله، على أن المراد بالسلام الدعاء بالسلامة، فإن أهل الجنة أغنياء عنه، فهو داخل فى اللغو. و(بالغيب): حال من عائد الموصول، أى: وعدها، أو من العباد، و(مأتياً): أصله مأتوى، فأبدل وأدغم كما تقدم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فخلف من بعدهم ﴾ أى: جاء بعد أولئك الأكابر، ﴿ خلف ﴾ أى: عقب سوء، يقال لعقب الخير خلف، بفتح اللام، ولعقب الشر خلف، بسكون اللام، أى: فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء، ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ أى: تركوها وأخروها عن وقتها، ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾: من شرب الخمر، واستحلل نكاح الأخت، من الأب، والانهماك فى فنون المعاصي، وعن على رضي الله عنه: هم من بنى المشيد، وركب المنضود، ولبس المشهور. قلت: ولعل المنضود: السرج المرصعة بالجواهر والذهب. وقال مجاهد: هذا عند اقتراب الساعة، وذهاب صالح أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ينزرو بعضهم على بعض فى السكك والأزقة. هـ. ﴿ فسوف يلقون غيًّا ﴾: شراً، فكل شر عند العرب غيٌّ، وكل خير رشاد. قال ابن عباس: الغيُّ: واد فى جهنم، وإن أودية جهنم لتستعبد من حره، أعد للزاني المصر، ولشارب الخمر المدمن، ولأهل الرياء والعقوق والنور، ولمن أدخلت على زوجها ولداً من غيره. هـ.

﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾، هذا يدل على أن الآية فى الكفار. ﴿ فأولئك ﴾ المنعوتون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، ﴿ يدخلون الجنة ﴾ بموجب الوعد المحتوم، أو يدخلهم الله الجنة، ﴿ ولا يظلمون شيئاً ﴾: لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً، وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لا يضرهم، ولا ينقص أجورهم، إذا صححوا المعاملة مع ربهم.

﴿جنات عدن﴾ أى: إقامة، لإقامة داخلها فيها على الأبد، ﴿التي وعد الرحمن عباده بالغيب﴾ أى: ملتبسين بالغيب عنها لم يروها، وإنما آمنوا بها بمجرد الإخبار، أو ملتبسة بالغيب، أى: غائبة عنهم غير حاضرة. والتعرض لعنوان الرحمانية؛ للإيدان بأن وعده وإنجازه لكمال سعة رحمته تعالى، ﴿إنه كان وعده مأتياً﴾؛ يأتيه من وعده لا محالة، وقيل: هو مفعول بمعنى فاعل، أى: آتياً لا محالة، وقيل: مأتياً: منجزاً، من أتى إليه إحساناً، أى: فعله.

﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ أى: فضول كلام لا طائل تحته، وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها. وفيه تنبيه على أن اللغو ينبغي للعبد أن يجتنبه في هذه الدار ما أمكنه. وفي الحديث: «مَنْ حَسَنَ إِسْلَامَ الْمَرْءِ تَرَكَهُ مَا لَا يَغْنِيهِ» (١). وهو عام في الكلام وغيره. ﴿إلا سلاماً﴾، أى: لا يسمعون لغواً، لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم، أو تسليم بعضهم على بعض، ﴿ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشيا﴾ أى: على قدرهما في الدنيا، إذ ليس في الجنة نهار ولا ليل، بل ضوء ونور أبداً. قال القرطبي: ليلهم إرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، أى: ونهارهم رفع الحجب وفتح الأبواب.

قال القشيري: الآية ضرب مثل لما عهد في الدنيا لأهل اليسار، والقصد: أنهم أغنياء مياسير في كل وقت. هـ. وسيأتى عند قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ (٢) كيفية أرزاقهم.

قال تعالى: ﴿تلك الجنة﴾: مبتدأ وخبر، جىء بهذه الجملة؛ لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها، وما في اسم الإشارة من معنى البعد؛ للإيدان ببعد منزلتها وعلو رتبته، أى: تلك الجنة التى وصفت بتلك الأوصاف العظيمة هى ﴿التي نُورِثُ﴾ أى: نورثها ﴿مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ لله بطاعته واجتناب معاصيه، أى: نديمها عليهم بتقواهم، ونمتعهم بها، كما يبقى عند الوارث مال مورثه يتمتع به، والورثة أقوى ما يستعمل في التملك والاستحقاق من الألفاظ؛ من حيث إنها لا يعقبها فسخ ولا استرجاع ولا إبطال. وقيل: يرث المتقون من الجنة المساكن التى كانت لأهل النار، لو آمنوا وأطاعوا، زيادة في كرامتهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف...﴾ الآية تنسحب على من كان أسلافه صالحين، فتنكب عن طريقهم، فضيغ الدين، وتكبر على ضعفاء المسلمين، وأتبع الحظوظ والشهوات، وتعاطى الأمور العلويات، فإن ضم إلى ذلك الافتخار بأسلافه، أو بالجاه والمال، كان أغرق في الغي والضلال، يصدق عليه قول القائل:

إن عاهدوك على الإحسان أو وعدوا خانوا العهود ولكن بعد ما حلفوا
بل يفخرون بأجداد لهم سلفت نعم الجدود، ولكن بئس ما خلفوا

(١) أخرجه الترمذى في (الزهد باب ١١)، وابن ماجه في (الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة) عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) الآية ٧١ من سورة الزخرف.

إلا من تاب ورجع إلى ما كان عليه أسلافه، من العلم النافع والعمل الصالح، والتواضع للصالح والطالح، فيرافقهم في جنة الزخارف أو المعارف، التي وعد الرحمن عباده المخصوصين بالغيب، ثم صارت عندهم شهادة، إنه كان وعده مأثياً، لا يسمعون فيها لغواً؛ لأن الحضرة مقدسة عن اللغو، (إلا سلاماً)؛ لسلامة صدورهم، ولهم رزقهم فيها من العلوم والأسرار والمواهب، في كل ساعة وحين، لا يرث هذه الجنة إلا من اتقى ما سوى الله، وانقطع بكليته إلى مولاه. وبالله التوفيق.

ولما أبطأ الوحي عن النبي ﷺ قال: «يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» فنزل^(١):

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَآبِينَ أَيَدِينَا وَمَا خَلَفْنَا وَمَآبِينَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا
رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾

قلت: وجه المناسبة لما قبله - والله أعلم -: أن الحق جل جلاله لما سرد قصص الأنبياء وما نشأ بعدهم، وكان جبريل هو صاحب وحيهم الذي ينزل به عليهم، ذكر هنا أن نزوله ليس باختياره، فقال: «وما ننتزل... الخ».

يقول الحق جل جلاله، حاكياً لقول جبريل ﷺ: ﴿وما ننتزل﴾ عليك يا محمد ﴿إلا بأمر ربك﴾، وذلك حين أبطأ الوحي عنه ﷺ، لما سئل عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح، فلم يدر كيف يجيب، ورجا أن يوحى إليه فيه، فأبطأ عليه أربعين يوماً. قاله عكرمة. وقال مجاهد: ثنتي عشرة ليلة، أو خمس عشرة. فشق على النبي ﷺ مشقة شديدة. وقال: يا جبريل قد اشقت إليك، فقال جبريل: إني كنت أشوق، ولكني عبد مأمور، إذا بعثت نزلت، وإذا حبست احتبست، فأنزل الله هذه الآية وسورة الضحى^(٢)، والنزل: النزول على مهل، وقد يطلق على مطلق النزول، والمعنى: وما ننتزل وقتاً غيباً وقتاً^(٣) إلا بأمر الله تعالى، على ما تقتضيه حكمته.

وقيل: هو إخبار عن أهل الجنة أنهم يقولون عند دخولها مخاطبين بعضهم لبعض بطريق التبعج والابتهاج، أى: ما ننتزل هذه الجنان إلا بأمر الله تعالى ولطفه، وهو مالك الأمور كلها، سالفها ومترقبها وحاضرها، فما وجدناه وما نجده هو من لطفه وفضله. هـ. قلت: ولا يخفى حينئذ مناسبة.

ثم قال: ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾ أى: وما نحن فيه من الأماكن والأزمنة، فلا نتقل من مكان إلى مكان، ولا ننزل في زمان دون زمان، إلا بأمره ومشيئته، وعن مقاتل: ﴿له ما بين أيدينا﴾ من

(١) أخرجه البخاري في (التفسير - سورة مريم) وفي (التوحيد، باب «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين») من حديث ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠٣/١٦)، وعزه ابن حجر في الكافي الشافى لأبى نعيم في الدلائل.

(٣) غيب بمعنى بعد، ومنه قولهم: غيب سلام.

أمر الدنيا، ﴿وما خلفنا﴾ من أمر الآخرة، ﴿وما بين ذلك﴾ مما بين النفختين، وهو أربعين سنة. أو ما بين أيدينا بعد الموت، وما خلفنا قبل أن يخلقنا، وما بين ذلك مدة حياتنا، أى: له علم ذلك كله، ﴿وما كان ربك نسياً﴾: تاركاً لك ومهماً شأنك، أو: ذاهلاً عنك حتى ينسى أمر الوحي إليك؛ لأنه مُحال، يعنى: أن عدم نزول جبريل لم يكن إلا لعدم الأمر به؛ لحكمة بالغة فيه، ولم يكن تركه تعالى لك إهمالاً وتوديعاً، كما زعمت الكفرة. وفي إعادة اسم الرب المضاف إلى ضميره ﷺ من تشريفه والإشعار بعلية الحكم ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿ربُّ السموات والأرض وما بينهما﴾ بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى؛ فإن من بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما كيف يتصور أن يحوم حول ساحته الغفلة والنسيان. والفاء في قوله: ﴿فاعبده واصطبر لعبادته﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، من كونه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما. أو من كونه تعالى غير تارك له ﷺ، أو غير ناسٍ لأعمال العاملين، والمعنى على الأول: فحين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية الكاملة فاعبده، أو حين عرفته تعالى لا ينساك، أو: ينسى أعمال العاملين فأقبل على عبادته واصطبر على مشاقها، ولا تحزن بإبطاء الوحي وهزء الكفرة، فإنه يراقبك ويلطف بك في الدنيا والآخرة، ﴿هل تعلم له سميّاً﴾ أى: شبيهاً ونظيراً، أو هل تعلم أحداً تسمى بهذا الاسم غير الله تعالى، والتسمية تقتضى التسوية بين المتشابهين، ولا مثل له، لا موجوداً ولا موهوماً، مع أن المشركين مع غلوهم في المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة أصلاً، ولم يتجاسر أحد أن يسمى بهذا الاسم، ولو تجاسر أحدٌ لهلك.

وقيل: إن أحداً من الجبابرة أراد أن يسمى ولده بهذا الاسم، فحسف به وبذلك البلدة. ذكره القشيري في التحبير. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما قاله جبريل ﷺ من كونه لا ينزل إلا بأمر ربه ليس خاصاً به؛ بل كل أحد لا حركة له ولا سكون إلا بالله وبمشيئته، فلا يصدر عن أحد من عبده قول ولا فعل، ولا حركة ولا سكون، إلا وقد سبق في علمه وقضائه كيف يكون، فلا انتقال ولا نزول إلا بقدر سابق وتحريك لاحق؛ «ما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه». وقال الشاعر:

مشيئتها خطي كتبت علينا ومن كتبت عليه خطي مشاها

ومن قسمت مقيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

فراحة الإنسان أن يكون ابن وقته، كل قت ينظر ما يفعل الله به، فبهذا ينجو من التعب، ويتحقق له الأدب. وبالله التوفيق.

ثم ردّ على من أنكر البعث، بعد أن ردّ على من اعتقد الشرك، وبهما كفرت العرب، فقال:

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَذَا مَاتْتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ ٦٦ ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ ٦٧ ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ ٦٨ ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا ﴾ ٦٩ ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ ٧٠ ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ ٧١ ﴿ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ ٧٢ ﴿

قلت : (أنذا) : ظرف، والعامل فيه محذوف، أى : أخرج إذا مت، لا المتأخر عن اللام؛ لأنه لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، إلا أن يرخص فى الظروف. واللام فى، لَسَوْفَ، ليست للتأكيد، فإنه مُنْكَرٌ، وكيف يحقق ما ينكر، وإنما كلامه حكاية لكلام النبى ﷺ، كأنه الذى قال : والله إن الإنسان إذا مات لسوف يخرج حيا، فأنكر الكافر ذلك وحكى قوله، فنزلت الآية على ذلك، قاله الجرجاني : (والشياطين) : عطف على ضمير المنصوب، أو مفعول معه. و(جثيًّا) : حال من ضمير (لنحضرنهم) البارز، أى : لنحضرنهم جاثين، جمع جاث، من جثى إذا قعد على ركبتيه، وأصله : جثو، بواوين، فاستثقل اجتماعهما بعد ضمتين، فكسرت الناء تخفيفاً، وانقلبت الواو الأولى ياء؛ لانكسار ما قبلها، فاجتمعت واو وياء، وسبقت إحداهما بسكون، فنقلبت الواو ياء، وأدغمت الأولى فى الثانية، ومن قرأ بكسر الجيم : فعلى الإتياع.

و(أَيُّهُمْ) : مبنى على الضم عند سيبويه، لأنه موصول، فحقه البناء كسائر الموصولات، لكنه أعرب فى بعض التراكيب للزوم الإضافة، فإذا حذف صدر صِلَتِهِ زاد نقصه فقوى شبه الحرف فيه، وهو منصوب المحل بلتنزعن، وقرئ منصوباً على الإعراب، ومرفوعاً عند الخليل وغيره بالابتداء، وخبره : «أشد»، والجملة محكية، والتقدير : لننزعن من كل شيعه الذين يقال لهم أيهم أشد... الخ. وقال يونس : علق عنها الفعل وارتفعت بالابتداء، و(عتيًّا) و(صليًّا) أصلهما : عتوى وصلوى، من عتى وصى، بالكسر والفتح، فاعلاً بما تقدم.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ ﴾ أى : جنس الإنسان، والمراد الكفرة، وإسناد القول إلى الكل لوجود القول فيما بينهم، وإن لم يقله الجميع، كما يقال : بنو فلان قتلوا فلاناً، وإنما القاتل واحد، وقيل : القائل : أبى بن خلف، فإنه أخذ عظاماً بالية، ففتتها، وقال : يزعم محمد أنا نبئت بعد ما نموت ونصير إلى هذا الحال، فنزلت. أى : يقول بطريق الإنكار والاستبعاد : ﴿ أَئِنذَا مَا مِتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ أى : أبعث من الأرض بعد ما مت وأخرج حيا؟ قال تعالى : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ ﴾، من الذكر الذى يراد به التفكير، ولذلك قرئ بالتشديد من

التذكير. والإظهارُ في موضع الإضمار؛ لزيادة التقرير والإشعار بأن الإنسانية من دواعي التفكير فيما جرى عليها من شؤون التكوين، فإذا ترك التفكير التحق بالبهائم، فهلاً يذكر أصله!، وهو ﴿أنا خلقناه من قبل﴾ أي: من قبل الحالة التي فيها، وهي حالة حياته، ﴿ولم يك شيئاً﴾ أي: والحال أنه لم يك شيئاً أصلاً، وحيث خلقناه وهو في تلك الحال فلأن نبعث الجمع بتفرقاته أولى وأظهر؛ لأن إعادة أسهل من البدء.

قال تعالى: ﴿فوربك لنحشرنهم﴾ أي: لنجمعنهم بالسوق إلى المحشر بعدما أخرجتهم من الأرض. وإقسامه سبحانه بربوبيته مضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام؛ لتحقيق الأمر، والإشعار بعليته، وتفخيم شأنه، ورفع منزلته ﷺ، وفيه إثبات البعث بالطريق البرهاني على أبلغ وجه وأكده، كأنه أمر واضح غنى عن التصريح به، وإنما المحتاج إلى البيان ما بعد ذلك من الأهوال، أي: حيث ذكر الحشر وما بعده. ولم يصرح بنفس البعث؛ لتحقيق وضوحه، وإنما قال: ﴿فوربك لنحشرنهم﴾ أي: نجمعهم ﴿والشياطين﴾ المغوين لهم، إلى المحشر، وقيل: إن الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين التي كانت تغويهم، كل منهم مع شيطانه في سلسلة، ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾: باركين على ركبهم؛ لما يدهمهم من هول المطلع، والجثو: جلسة الذليل الخائف.

والآية كما ترى، صريحة في الكفرة، فهم الذين يساقون من الموقف إلى شاطئ جهنم، جثاة؛ إهانة بهم، أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من شدة الخوف. وأما قوله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾^(١) فهي عامة للناس في حال الموقف قبل التوصل إلى الثواب والعقاب، فإن أهل الموقف جاثون على الركب، كما هو المعتاد في مقام التفاؤل والخصام، قلت: ولعل هذا فيمن يناقش الحساب، وأما غيرهم فيلقى عليهم سحابة كنفه، ثم يقرّهم بذنوبهم ويسترهم، كما في الحديث.

﴿ثم لنزغن من كل شيعة﴾ أي: من كل أمة تشيعت ديناً من الأديان، ﴿أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾ أي: من كان منهم أعصى وأعتى، فيطرحهم فيها. قال ابن عباس: أي: أيهم أشد جرأة، وقال مجاهد: فجوراً وكذباً، وقال مقاتل: علواً، أو غلواً في الكفر، أو كبراً، وقال الكلبي: قاندهم ورأسهم، أي: فيبدأ بالأكابر فالأكابر بالعذاب، ثم الذي يليهم جرماً. وفي ذكر الأشدية تنبيه على أنه تعالى يعفو عن بعض أهل العصيان من غير الكفرة، إذا قلنا بعموم الآية، وأما إذا خصصناها بالكفرة، فالأشدية باعتبار التقديم للعذاب.

قال تعالى: ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾ أي: أولى بصليها وأحق بدخولها، وهم المنتزعون الذين هم أشدهم عتواً، أو رؤوسهم، فإن عذابهم مضاعف لضلالهم وإضلالهم.

(١) الآية ٢٨ من سورة الجاثية .

﴿وإن منكم إلا واردوها﴾ ، فيه التفتات لإظهار مزيد الاعتناء، وقرئ: «وإن منهم» . ويحتمل أن يكون الخطاب لجميع الخلق، أى: وإن منكم أيها الناس ﴿إلا واردوها﴾ أى: واصلها وحاضرها، يمر بها المؤمنون وهي خامدة، وتنهار بغيرهم. وعن جابر أنه ﷺ سئل عن ذلك فقال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَيْسَ قَدْ وَعَدْنَا رَبَّنَا أَنْ نَرِدَ النَّارَ؟ فَيَقَالُ لَهُمْ: قَدْ وَرَدْتُمُوهَا وَهِيَ خَامِدَةٌ». وأما قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ فالمراد به الإبعاد عن عذابها، وقيل: ورودها: الجواز على الصراط بالمرور عليها.

وعن ابن مسعود: الضمير في (واردها) للقيامة، وحينئذ فلا يعارض: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ (١)، ولا ما جاء فيمن يدخل الجنة بغير حساب، ولا مرور على الصراط، فضلاً عن الدخول فيها، على أنه اختلف في الورد، فقيل: الدخول وتكون برداً وسلاماً على المؤمن. وقيل: المرور كما تقدم، وقيل: الإشراف عليها والاطلاع. قال القشيري: كل يرد النار، ولكن لا ضير منها ولا إحساس لأحد إلا بمقدار ما عليه من السيئات، والزلا، فأشدهم فيها انهماكاً: أشدهم فيها بالنار اشتعلاً واحترقاً، وأما برىء الساحة، نقي الجانب بعيد الذنوب، فكما في الخبر: «إن النار عند مرورهم ريوه كريوة اللبن - أى: جامدة كجمود اللبن حين يسخن - فيدخلونها ولا يحسون بها، فإذا عبروها قالوا: أليس قد وعدنا جهنم على الطريق؟ فيقال لهم: عبرتم وما شعرتم» . هـ.

﴿كان على ربك حتماً مقضياً﴾ أى: كان ورودهم إياها أمراً محتوماً أوجبه الله تعالى على ذاته، وقضى أنه لابد من وقوعه. وقيل: أقسم عليه، ويشهد له: «إلا تحلة القسم» (٢).

﴿ثم ننجى الذين اتقوا﴾ الكفر والمعاصي، بأن تكون النار عليهم برداً وسلاماً، على تفسير الورد بالدخول، وعن جابر أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الْوَرْدُ الدُّخُولُ، لَا يَبْقَى بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَرْدًا وَسَلَامًا، كَمَا كَانَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، حَتَّى إِنَّ لِلنَّارِ ضَجِيجًا مِنْ بَرْدِهِمْ» (٣). وإن فسرنا الورد بالمرور، فنجاتهم بالمرور عليها والسلامة من الوقوع فيها، ﴿ونذر الظالمين فيها جثياً﴾: باركين على ركبهم، قال ابن زيد: الجثى شر الجلوس، لا يجلس الرجل جائئاً إلا عند كرب ينزل به . هـ.

(١) من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

(٢) يقصد حديث: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار، إلا تحلة القسم» أخرجه البخاري في (الإيمان والنذر، باب قول الله تعالى: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم») ومسلم في (البر والصلة، باب: فضل من يمرت له ولد فيحتسبه).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣٢٩/٣) والحاكم في المستدرک (الأهوال ٥٨٧/٤)، والبيهقي في الشعب (٣٣٦/١)، من حديث جابر ابن عبدالله. والحديث: صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (٥٥/٧): رواه أحمد، ورجاله ثقات.

الإشارة: من أراد كرامة الآخرة فَلْيُرَبِّ يَقِينِهِ فِيهَا، حتى تكون نصب عينيه، فإنه يرد على الله كريماً. ومن أراد السلامة من أهوالها فليخفف من أوساخها وأشغالها، ويلزم طاعة الله واتباع الرسول ﷺ. ومن أراد سرعة المرور على الصراط فليزِم اليوم اتباع الصراط المستقيم، فبقدر ما يستقيم عليها تستقيم أقدامه على الصراط، وبقدر ما يزل عنها يزل عن الصراط.

قال في الإحياء، لما تكلم على العدل في الكيل والوزن، قال بعد كلامه: وكل مكلف فهو صاحب موازين في أفعاله وأقواله وخطراته، فالويل له إن عدل عن العدل، ومال عن الاستقامة، ولولا تعذر هذا واستحالته لما ورد قوله تعالى: (وإن منكم إلا واردها..) الآية، فلا ينفك عبدٌ ليس معصوماً عن الميل عن الاستقامة، إلا أن درجات الميل تتفاوت تفاوتاً عظيماً، فبذلك تتفاوت مدة إقامتهم في النار إلى أوان الخلاص، حتى لا يبقى بعضهم إلا بقدر تحلة القسم، ويبقى بعضهم ألفاً وألوف سنين، نسأل الله تعالى أن يقرنا من الاستقامة والعدل، فإن الاستداد على متن الصراط المستقيم من غير ميل عنه غير مطموح فيه؛ فإنه أدق من الشعرة، وأحد من السيف، ولولاه لكان المستقيم عليه لا يقدر على جواز الصراط الممدود على متن النار، الذي من صفته أنه أدق من الشعر، وأحد من السيف، وبقدر الاستقامة على الصراط المستقيم يخف مرور العبد يوم القيامة على الصراط. هـ.

وقال الترمذي الحكيم: يجوز الأولياء والصديقون وهم لا يشعرون بالنار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوْنَ﴾ (١)، وإنما بعدوا عنها لأن النور احتملهم واحتوشهم، فهم يمضون في النار، حتى إذا خرجوا منها قال بعضهم لبعض: أليس قد وعدنا النار، فذكره^١ تقدم. ثم قال: فأما ضجة النار فمن بردهم، وذلك أن الرحمة باردة تطفئ غضب الرب، فبالرحمة نالوا النور، حتى أشرق في قلوبهم وصدورهم، فكان نوره في قلوبهم، والرحمة مظلة عليهم، فخدمت النار من بردهم عندما لقوها، فضجت من أجل أنها خلقت منتقمة، فخافت أن تضعف عن الانتقام. ولذلك روى أنها تقول: «جَزُ يَا مُؤْمِنٌ فَقَدْ أَطْفَأَ نُورَكَ لَهْبِي». (٢) هـ.

وقال الورعجي: إذا كان جمال الحق مصحوبهم، فلا بأس بالوقوف في النيران، فإن هناك أهل الجنان.

إذا نزلت سلمى بوادِ فَمَاوْهَا زَلَالٌ وَسَلْسَالٌ، وسيحانها وِرْدُ. هـ.

وقال جعفر الصادق: لولا مقارنة النفوس ما دخل أحد النار، فلما فارقتهم نفوسهم أوردتهم النار بأجمعهم، فمن كان أشد إعراساً عن خبث النفس كان أسرع نجاة من النار، ألا ترى الله يقول: (ثم ننجى الذين اتقوا). هـ. قلت.

(١) من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٢٩/٩)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٩٤/٥)، والطبراني في الكبير، وابن عدي في الكامل، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وفي سننه: سليم بن منصور بن عمار، وهو ضعيف، انظر: مجمع الزوائد (٣٦٠/١٠)، وكشف الخفاء (٣٧٢/١ - ٣٧٤).

وقد تقدم أن من لأحساب عليهم - وهم المقربون - يمرون على الصراط ولا يحسون به، وهم الذين يمرون عليه كالطير أو كالبرق، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه، وبجاه خير الخلق مولانا محمد نبيه وحبه، آمين.

ثم ذكر أحوال من سقط في جهنم ويبقى فيها جثياً، فقال:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۚ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْثَا وَرِيًّا ۚ﴾

قلت: «هم أحسن»: صفة لكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: على الكفرة ﴿آيَاتُنَا﴾ الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامة مآلهم، والناطقة بحسن عاقبة المؤمنين، حال كونها ﴿بينات﴾: واضحات في نفسها، أو بينات الإعجاز، أو بينات المعاني، ﴿قال الذين كفروا﴾ أي: قالوا، ووضع الموصول موضع الضمير؛ للتنبية على أنهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادين له، أو: قال الذين تمردوا في الكفر والعتو؛ وهم النصرة بن الحارث وأتباعه، قالوا ﴿للذين آمنوا﴾، اللام للتبليغ، أي: قالوا مبلغين الكلام لهم، وقيل: لام الأجل، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ (١) أي: لأجلهم وفي حقهم، والأول أولى؛ لأن الكلام هنا كان معهم بدليل قوله: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: المؤمنين والكفار، ﴿خير﴾ كأنهم قالوا: أينما ﴿خيرٌ مقاماً﴾ أي: مكاناً: نحن أو أنتم، وقرئ بالضم، أي: موضع إقامة ومنزل، ﴿وأحسن ندياً﴾: مجلساً ومجتمعاً، أو: أينما خير منزلاً ومسكناً، وأحسن مجلساً؟.

يُروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنونها، ويتزينون بالزينة الفاخرة، ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين، يريدون بذلك أن خيريتهم، حالاً، وأحسنيتهم، مقالاً، مما لا يقبل الإنكار، وأن ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزلفاهم عنده، وأن الحال التي عليها المؤمنون، من الضرورة والفاقة ورثاة الحال؛ لقصور حظهم عند الله. وما هذا القياس العقيم والرأي السقيم إلا لكونهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، وذلك مبلغهم من العلم، فرد عليهم بقوله: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرنٍ هم أحسن أثاثاً﴾: مالا ومتاعاً ﴿ورءياً﴾: منظرأ، أي: كثيراً من القرون التي كانوا أفضل منهم، فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية، كعاد وثمرود وأضرابهم العاتية قبل هؤلاء،

(١) الآية ١١ من سورة الأحقاف.

أهلكناهم بفنون العذاب، ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا، لما فعلنا بهم ما فعلنا، وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى، كأنه قيل: فلينتظر هؤلاء أيضاً مثل ذلك.

وهـ أثناء: تمييز، وهو متاع البيت، أو ما جد منه، و«رءياً»: كذلك، فعل من الرؤية بمعنى المنظر، قال ابن عزيز: «رءيا» بهمزة ساكنة: ما رأيت عليه من شارة حسنة وهيئة، وبغير همز: يجوز أن يكون على معنى الأول^(١)، ويجوز أن يكون من الرى. أى: منظرهم مرتو من النعمة. ورءياً، بالزاي المعجمة، فى قراءة ابن عباس، يعنى هيئة ومنظراً. هـ.

الإشارة: رفعة القدر والمقام لا تكون بالتظاهر بمفاخر اللباس والطعام، ولا بحسن الهيئة ومنظر الأجسام، وإنما يكون باحتذاء القلوب بمعرفة الله، وتمكين اليقين من القلوب، وإطلاعها على أسرار الغيوب، مع القيام بوظائف العبودية، أدباً مع عظمة الربوبية، ونسيان النفوس والاشتغال عنها بالعكوف فى حضرة القدوس، فأهل القلوب لا يعبأون بظواهر الأشباح، وإنما يعتنون بحياة الأرواح.

كَمَلْ حَقِيقَتَكَ الَّتِي لَمْ تَكْمَلِ والجسم دعه فى الحضيض الأسفل

فقوت قلوبهم التواجد والأذكار، وحياة أرواحهم العلوم والأسرار، وأنشدوا:

بالقوت إحياء الجسم، وذكره تحيياً به الأبواب والأرواح

هو عيشهم ووجودهم وحياتهم حقاً وروح نفوسهم والراح.

وأما من عظم جهله، وكثف حجابيه، فإنما ينظر إلى بهجة الظواهر وتزيينها بأنواع المفاخر، أو إلى من عظم جاهه وكثرت أتباعه، وهذه نزعة جاهلية، حيث قالوا حين ينلى عليهم الوعظ والتذكير: (أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندباً)، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (٢). وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى مدد الفريقين؛ أهل الضلال وأهل الإيمان، فقال:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

(١) أى: هو مهموز الأصل، أى: منظراً، من الرؤية، سهلت همزته بإبدالها ياء، ثم أدغمت الياء فى الياء.

(٢) الآية ٧ من سورة الروم.

قلت : « ويزيد » : عطف على « فليمدد » : لأنه في معنى الخبر، أى : من كان في الضلالة يمدّه الله فيها، ويزيد في هداية الذين اهتدوا مدداً لهدايتهم، أو عطف على « فسيعلمون »، وجمع الضمير في (رأوا) وما بعدها؛ باعتبار معنى (من)، وأفرد أولاً باعتبار لفظها.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد : ﴿ مَنْ كَانَ ﴾ مستقراً ﴿ فِي الضَّلَالَةِ ﴾ مغموراً في الجهل والغفلة عن عواقب الأمور، مشغلاً بالخطوط الفانية، ﴿ فليمدد له الرحمن مدداً ﴾ أى : يمد له بطول العمر وتيسير الخطوط، إما استدراجاً، كما نطق به قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ (١)، أو قطعاً للمعاذير كما نطق به قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ ﴾ (٢)، أو : (فليمدد له) : يدعه في ضلاله، ويمهله في كفره وطفيانه، كقوله تعالى : ﴿ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٣). والتعرض لعنوان الرحمانية؛ لبيان أن أفعالهم من مقتضيات الرحمة مع استحقاقهم تعجيل الهلاك.

وكانه جل جلاله لما بين عاقبة الأمم المهلكة، مع ما كان لهم من التمتع بفنون الخطوط العاجلة، أمر رسوله ﷺ أن يجيب هؤلاء المفتخرين بما لهم من الخطوط بمآل أمر الفريقين، وهو استدراج أهل الضلالة ثم أخذهم، وزيادة هداية أهل الإيمان ثم إكرامهم، كما بين ذلك بقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾، فهو غاية للحد الممتد، أى : نمد لهم في الحياة وفنون الخطوط حتى ينزل بهم ما يوعدون؛ ﴿ إِمَّا الْعَذَابَ ﴾ الدنيوى بالقتل، والأسر، وغلبة أهل الإيمان عليهم، ﴿ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾، وهو يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزي والهوان، وإما هنا : لمنع الخلو، لا لمنع الجمع؛ فإن العذاب الأخرى لا ينفك عنهم بحال.

﴿ فسيعلمون ﴾ حينئذ ﴿ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا ﴾ من الفريقين، بأن يشاهدوا الأمر على عكس ما كانوا يقدرون، فيعلمون أنهم شر مكاناً، لا خير مقاماً، ﴿ وَ ﴾ يعلمون أنهم ﴿ أضعفُ جنداً ﴾ أى : جماعة وأنصاراً، لا أحسن ندياً، كما كانوا يدعونه، وليس المراد أن لهم يوم القيامة جنداً سيضعف، وما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وإنما ذكر ذلك رداً لما كانوا يزعمون أن لهم أعواناً وأنصاراً، يفتخرون بهم في الأندية والمحاقل، فرد ذلك بأنه باطل وظل آفل، ليس تحته طائل.

ثم ذكر فريق أهل الإيمان فقال : ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ﴾ أى : كما يمد لأهل الضلالة؛ زيادة في ضلالهم، كذلك يزداد في هداية أهل الهداية؛ ثواباً على طاعتهم؛ لأن كلا يجزى بوصفه، فلا تزال الهداية تنمو في

(١) من الآية ١٧٨ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ١١٠ من سورة الأنعام.

(٣) من الآية ٢٧ من سورة فاطر.

قلوبهم حتى يردوا موارد الكرم، أما في الدنيا فبكشف الحجاب وانقشاع السحاب حتى يشاهدوا رب الأرباب، فما كانوا يؤمنون به غيباً صار عياناً، وأما في الآخرة فبنعيم الحور والقصور، ورؤية الحليم الغفور.

فقد بين الحق تعالى حال المهتدين إثر بيان حال الضالين، وأن إمهال الكافر وتمتيعه بالحظوظ ليس لفضله، وأن منع المؤمن من تلك الحظوظ ليس لنقصه، بل قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا الفانية، وقوم ادخرت لهم طيباتهم للحياة الباقية، قال تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾؛ كأنواع الطاعات، ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾؛ لبقاء فوائدها ودوام عوائدها.. وقد تقدم تفسيرها^(١).

والتعرض لعنوان الربوبية والإضافة إلى ضميره ﷻ لتشريفه، أي: فهي أفضل ﴿ثَوَاباً﴾ أي: عائدة مما يتمتع به الكفرة من النعم الفانية، التي يفتخرون بها؛ لأن مآلها الحسرة السرمدية والعذاب الأليم، ومآل الباقيات الصالحات النعيم المقيم في دار الدوام، كما أشير إليه بقوله: ﴿وَخَيْرٌ مَرْدَأً﴾ أي: مرجعاً وعاقبة، وتكرير الخير لمزيد الاعتناء بشأن الخيرية وتأكيد لها في التفضيل، مع أن ما للكفرة بمعزل من أن يكون له خيرية في العاقبة، ففيه نوع تهكم بهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الحق - جل جلاله - يرزق العبد على قدر نيته، ويمده على قدر همته، فمن حانت همته في الحظوظ العاجلة والشهوات الفانية، أمدّه الله فيها، ومتعه بها ما شاء، على حسب القسمة، ثم أعقبه الندم والحسرة، ومن كانت همته الآخرة، أمدّه سبحانه في الأعمال التي توصله إلى نعيمها، كصلاة وصيام وصدقة وتدرّس علم، وأذاقه من حلاوتها ما يهون عليه مرارتها، ثم أعقبه النعيم الدائم من القصور والحور، وأنواع الطيبات، مما تشتهي النفس وتلد الأعين.

ومن كانت همته الله - أي: الوصول إلى حضرته دون شيء سواه - أمدّه الله في الأعمال التي توصله إليه، وهي أعمال القلوب؛ من التخلية والتحلية، كالتخلية من الرزائل والتحلية بالفضائل، وكقطع المقامات بأنواع المجاهدات، ورأس ذلك أن يوصله إلى شيخ كامل جامع بين الحقيقة والشرعية، بين الجذب والسلوك، قد سلك الطريق على شيخ كامل، فإذا وصله إليه وكشف له عن سر خصوصيته فليستبشر بحصول المطلب وبلوغ الأمل. وبالله التوفيق.

ثم ذكر بعض من مدّ له في الضلالة وخصه بزيادة ضلّالته، فقال:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرْنَا بِنَا وَقَالَ لَا أُوتِيَكَ مَا لَا وُلْدًا ۖ أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۖ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۖ﴾

(١) راجع تفسير الآية ٤٦ من سورة الكهف.

يقول الحق جل جلاله في حق العاص بن وائل: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾: القرآن المشتمل على البعث والحساب، قال خباب بن الأرت: كان لي على العاص بن وائل دين، فاقتضيتُهُ، فقال: لا، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال العاص: فإذا متُّ ثم تبعث، جلدتني وسيكون لي ثم مالٌ وولدٌ، فأعطيك، لأنكم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة - استهزاء واستخفافاً - وفي رواية البخاري: «كنت قيناً»^(١) في الجاهلية، فصنعت للعاصي سيفاً فجئت أنقأضاه...»^(٢) فذكر الحديث. فالهمزة للتعجب من حاله، للإيدان بأنها من الغرابة والشناعة بحيث يقضى منها العجب، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي: أنظرت فرأيت الذي كفر بآياتنا الباهرة التي من حقها أن يؤمن بها كل من شاهدها.

﴿وقال﴾ مستهزئاً بها، مصدراً باليمين الفاجرة: والله ﴿لَأُوتِينَ﴾ في الآخرة ﴿مالاً وولداً﴾ أي: انظر إلى حاله فتعجب من حالته البديعة وجرأته الشنيعة، ﴿أطلع الغيب﴾ أي: أبلغ من عظمة الشأن إلى أن يرتقى إلى علم الغيب، الذي استأثر به العليم الخبير، حتى ادعى أن يوتي في الآخرة مالاً وولداً، وأقسم عليه، ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ بذلك، فإنه لا يتوصل إلى العلم بذلك إلا بأحد هذين الطريقين، وهذا رد لكلمته الشنعاء، وإظهار لبطلانها إثر ما أشير إلى التعجب منها.

والتعرض لعنوان الرحمانية للإشعار بعظمة الرحمة للإيتاء، فإن الرحمة تقتضي الإعطاء على الدوام. والعهد: قيل: كلمة الشهادة، أو العمل الصالح، فإن وعده تعالى بالثواب عليها كالعهد، قال القشيري: ﴿أطلع الغيب﴾ فقال بتعريف له منا، ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أي: ليس الأمر كذلك. ثم قال: ودليل الخطاب يقتضي أن المؤمن إذا أمل من الله شيئاً جميلاً، فأنه تعالى يحققه له؛ لأنه على عهد مع الله تعالى، والله لا يخلف الميعاد. هـ. ثم أبطل ما أمله الكافر فقال: ﴿كلا﴾ أي: انزجر عن هذه المقالة الشنيعة، فهو ردع له عن التفوه بطلب العظمة، وتنبيه على خطئه، قال تعالى: ﴿سنكتب ما يقول﴾ أي: سنظهر ما كتبنا عليه، فهو كقول الشاعر:

إِذَا مَا انْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْنِي لَيْمَةً

أي: تبين أنني لم تلدني لئيمة، أو: سنحفظ عليه ما يقول فنجازيه عليه في الآخرة، أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة في الحال ويجازي عليها في المال، فإن نفس الكتابة لم تتأخر عن القول لقوله تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾^(٣) قال ابن جزي: إنما جعله مستقبلاً؛ لأنه إنما يظهر الجزاء والعقاب في المستقبل. هـ.

(١) القين: الحداد والصانع، والجمع أقيان وقيون. انظر اللسان (٢٧٩٨/٥).

(٢) أخرجه البخاري في (النبوع، باب ذكر القين والحداد)، وفي (تفسير سورة مريم)، ومسلم في (صفات المنافقين وأحكامهم، باب ٤).

(٣) الآية ١٨ من سورة ق.

قلت: والظاهر إنما أبرزه بصورة المستقبل، تنبيهاً على عدم نسخه، وأنه ماض نافذ. قاله في الحاشية.

﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾، مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والأولاد، أى: نطول له من العذاب ونمد له فيه ما يستحقه، أو نزيد فى مضاعفة عذابه، لكفره وافترائه على الله سبحانه، واستهزائه بآياته العظام، ولذلك أكدته بالمصدر، دلالة على فرط الغضب والسخط.

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾، قال مكي: حرف الجر محذوف، أى: نرث منه ما يقول. هـ. والظاهر أن (ما): بدل من الضمير، وهو الهاء، أى: نرث ما يقول وما يدعيه لنفسه اليوم من المال والولد. وفيه إيذان بأنه ليس لما يقول مصداق موجود سوى القول، أى: ننزع منه ما آتيناه، ﴿وَيَاتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له فى الدنيا، فضلاً أن يؤتى ثمّة مالا وولداً زائداً. وقال القشيري: فرداً بلا حجة على قوله وقسمه: (لأوتين مالا وولداً)، وذلك منه استهزاء ومحض كفر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يفهم من الآية أن الانسان إذا آمن بآيات الله وعمل بما أمره الله يكون له عهد عند الله، فإذا تمنى شيئاً أو مناد غيره لا يخيبه الله، ويتفاوت الناس فى العهد عند الله، على قدر تفاوتهم فى طاعته ومعرفته، وسيأتى فى قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (١) زيادة بيانه. والله تعالى أعلم.

ثم رد على أهل الضلالة مازعموا، من نفع الأصنام لهم، فقال:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ (٨٣) ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ (٨٤)

يقول الحق جل جلاله: واتخذ المشركون الأصنام ﴿آلهة﴾ يعبدونها من دون الله ﴿ليكونوا لهم عزاً﴾ يوم القيامة، ووصلة عنده يشفعون لهم، ﴿كلا﴾ لا يكون ذلك أبداً، فهو ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل، وإنكار لوقوع ما علّقوا به أطماعهم، ﴿سيكفرون بعبادتهم﴾ أى: تجحد الآلهة عبادتهم لها، بأن ينطقهم الله تعالى ونقول ما عبدتمونا، أو: سيكفر الكفرة بعبادتهم لها حين شاهدوا سوء عاقبة عبادتهم لها، كقوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ (٢) ﴿ويكونون عليهم ضداً﴾ أى: تكون الآلهة، التى كانوا يرجون أن تكون لهم عزاً، ضدّاً للعز،

(١) الآية ٨٧ من هذه السورة.

(٢) من الآية ٢٣ من سورة الأنعام.

أى: ذلاً وهواناً ؛ لأنهم تعززوا بمخلوق بسخط الخالق، وقد قال ﷺ: «من طلب رضا المخلوق بمعصية الخالق عاد حامده من الناس ذاماً»^(١). وتكون عوناً عليهم، وآلة لعذابهم، حيث تجعل وقود النار وحصب جهنم، أو تكون الكفرة ضدّاً وأعداء للآلهة، كافرين بها، بعد أن كانوا يُحبونها كحب الله، ويعبدونها من دون الله، وتوحيد الضد؛ لتوحيد المعنى الذى عليه تدور مضاداتهم، فإنهم بذلك كشيء واحد، كقوله عليه الصلاة والسلام: «وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ»^(٢).

وسبب عبادتهم للأصنام تزيين الشيطان، وفاء بقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٣) كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى: سلطهم عليهم ومكنهم من إغوائهم، بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ﴾^(٤) الآية.

وهذا تعجيب لرسوله ﷺ مما نطقت به الآيات الكريمة عن هؤلاء الكفرة، العتاة المردة، من فنون القبايح من الأقاويل والأفاعيل، والتمادى فى الغى، والانهماك فى الضلال، والتصميم على الكفر، من غير صارف يلويهم، ولا عاطف يثنيهم، وإجماعهم على مدافعة الحق بعد اتضاحه، وتنبيه على أن جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم، لا أن له مسوغاً فى الجملة، أى: ألم تر ما فعلت الشياطين بالكفرة حتى صدر منهم ما صدر من تلك القبايح والعظائم، وليس المراد تعجيبه ﷺ من مطلق إرسال الشياطين عليهم، كما يوهمه تقليل الرؤية، بل عما صدر عنهم من حيث إنها من آثار إغواء الشياطين، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿تَوَزَّهُمْ أَزْأ﴾ أى: تغريهم وتهيجهم على المعاصى تهيجاً شديداً، بأنواع الوسوس والتسويلات. فالأز والاستفزاز أخوان، معناهما: شدة الانزعاج، وجملة (توزهم) : حال مقدرة من الشياطين، أو استئناف وقع جواباً عن صدر الكلام، كأنه قيل: ماذا تفعل بهم الشياطين؟ قال: (توزهم أزأ).

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يهلكوا حسبما تقتضى جنایاتهم ويبعدوا عن آخرهم، وتطهر الأرض من فسادهم، ﴿إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَاباً﴾ أى: لا تستعجل بهلاكهم، فإنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس قلائل نعدّها عدّاً، ثم نأخذهم أخذاً. والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البزار (كشف الأستار ٢١٨/٤) من حديث السيدة عائشة. وقال البيهقي فى المجمع: (٢٢٨/١٠) : رواه البزار من طريق قطبة بن العلاء عن أبيه، وكلاهما ضعيف . وورد معنى الحديث عند الترمذى، ولفظه: «من التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه، وأسخط الناس عليه».

(٢) طرف من حديث أخرجه أحمد فى المسند (١٢٢/١) وأبو داود فى: (الديات، باب أيقاد المسلم بالكافر) ، والنسائى فى (القسامة، باب القود بين الأحرار والعبيد) من حديث سيدنا على .

(٣) من الآية ٣٩ من سورة الحجر.

(٤) من الآية ٦٤ من سورة الإسراء ٤٣ .

الإشارة: كل من اتخذ شيئاً يتعزز به من دون الله وطاعته انقلب عليه ذلاً وهواناً، ولذلك قيل: «من تعزز بمخلوق مات عزه». فإن أردت عزاً لا يفنى فلا تتعزز بعز يفنى، وهو التعزز بالمال أو الجاه، أو غير ذلك مما يفنى، وسيأتى عند قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ (١). ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) زيادة بيان. وكما أرسل الحق تعالى الشياطين على الكافرين تزعجهم إلى المعاصي أرسل الملائكة والواردات الإلهية إلى المؤمنين تنهضهم إلى طاعة الله، وتزعجهم إلى السير لمعرفة الله. فالملائكة تحرك العبد إلى الطاعة، والواردات تزعجه إلى الحضرة، تخرجه عن عوائده وتدمغ له من علانقه، وعوائقه، حتى ينفرد لحضرة الحق: وفي الحكم: «الوارد يأتي من حضرة قهار، لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلا دمه؛ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق». وقال أيضاً: «متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد لديك؛ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها».

وقال القشيري على قوله: (تؤزهم أزا): أى: تزعجهم إزعاجاً، فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وظلمة، وخاطر الحق يكون بروح وسكون، وهذه إحدى الفوارق بينهما. هـ. قلت: ومن الفوارق أيضاً: أن خاطر الحق لا يأمر إلا بالخير مع برودة وانسراح في القلب وسكون وأناة.. وفي الحديث «العجلة من الشيطان، والأناة من الرحمن» (٣). هـ. بخلاف خاطر الشيطان؛ فإنه لا يأمر إلا بالشر، وقد يأمر بالخير إذا كان يجرب به إلى الشر، وعلامته أن يكون فيه ظلمة ودخن وعجلة ويطش، وقد استوفى الكلام عليهم في النصيحة الكافية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مال فريق الإيمان وفريق الضلال، فقال:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۖ ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ۖ ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ ﴿٨٧﴾﴾

قلت: (يوم نحشر)؛ إما ظرف لفعل مؤخر؛ للإشعار بضيق العبارة عن حصره؛ لكمال جماله أو فظاعته، والتقدير: يوم نحشر المتقين إلى الرحمن، ونسوق المجرمين، نفعل بالفريقين مالا يفى به نطاق المقال، أو ظرف لا ذكر، و(وفداً) و(ورداً): حالان.

(١) من الآية ١٠ من سورة فاطر.

(٢) من الآية ٨ من سورة المنافقون.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠٤/١٠) بتقديم وتأخير، من حديث أنس بن مالك، وعزاه في مجمع الزوائد لأبي يعلى عن أنس، وقال: ورجاله رجال الصحيح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ : نجمعهم ﴿إِلَى الرَّحْمَنِ﴾ أى: إلى ربهم يغمرهم برحمته الواسعة، ﴿وَقَدْ﴾ : وافدين عليه، كما يفد الوفود على الملوك، منتظرين لكرامتهم وإنعامهم. وعن على كرم الله وجهه: (لما نزلت هذه الآية، قلت: يا رسول الله، إني قد رأيت الملوك ووفودهم، فلم أر وفداً إلا راكباً، فما وفد الله؟ قال: «يا على؛ إذا حان المنصرف من بين يدي الله، تلقى الملائكة المؤمنين بنوق بيض، رجالها وأزمتها الذهب، على كل مركب حلة لا تساويها الدنيا، فيلبس كل مؤمن حلة، ثم يستوون على مراكبهم، فتتهوى بهم النوق حتى تنتهى بهم إلى الجنة، فتتلقاهم الملائكة ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طَبْتُمْ فادخلوها خالدين﴾» .

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ كما تساق البهائم ﴿إِلَى جَهَنَّمَ وَرِداً﴾ : عطاشاً، فإن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش، أو كالدواب التى ترد الماء، أى: يوم نحشر الفريقين نفعل ما نفعل مما لا يفي به نطاق العبارة، لما يقع فيه من الدواهي الطامة، أو الكرائم العامة، أو: اذكر يوم نحشر الفريقين، على طريق الترغيب والترهيب.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ : استئناف مبين لما فيه من الأمور الدالة على هوله، وضمير الواو: إما لجميع العباد المدلول عليهم بذكر الفريقين لانحصارهم فيها، أو إلى المتقين فقط، أو إلى المجرمين.

(و) (من اتخذ): منصوب على الاستثناء، أو بدل من الواو، أى: لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم إلا من استعد له بالتحلى بالإيمان والتقوى، ففيه ترغيب للعباد فى تحصيل الإيمان والتقوى، المؤدى إلى نيل هذه الرتبة العليا. أو لا يملك المنقون الشفاعة إلا شفاعته من اتخذ العهد بالإسلام والعمل الصالح، أو لا يملك المجرمون أن يشفع لهم إلا من كان منهم مسلماً، فيشفع فى مثله. فمن، على هذا الثالث، بدل من الواو فقط. والأول أحسن؛ لعمومه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه : سمعت النبي ﷺ يقول: «أما يعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساءً عهداً عند الله، يقول كل صباح ومساءً: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا، بأننى أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فلا تكلنى إلى نفسى، فإنك إن تكلنى إلى نفسى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير، وإنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لى عندك عهداً توفينى به يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. فإذا قال ذلك طبع عليه طابع ووضع تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين لهم عهد عند الله عهد فيدخلون الجنة». هـ.

الإشارة: ورود العباد على الله يوم القيامة يكون على قدر ورودهم إليه اليوم فى الدنيا، فيقدر التوجه إليه اليوم تعظم كرامة وروده فى الآخرة، فمن ورد على الله تعالى من باب الطاعة الظاهرة حملته صور الطاعات إلى الآخرة، ومن ورد من باب الطاعات القلبية حملته الأنوار إلى الفردوس العالية، ومن ورد من باب الطاعات

السرية - كالفكرة والنظرة في مقام المشاهدة - حمله الحق إلى الحضرة القدسية، فيكون في مقعد صدق عند مليك مقتدر. قال شيخ شيوخوا، سيدى عبدالرحمن العارف في قوله تعالى: (وفداً): قيل: ركبناً على نجائب طاعتهم، وهم مختلفون، فمن راكب على صور الطاعات، ومن راكب على نجائب الهمم، ومن راكب على نجائب الأنوار، ومن محمول يحمله الحق في عقباه، كما يحمله اليوم في دنياه، وليس محمول الحق كمحمول الخلق. هـ.

وقوله تعالى: (لا يملكون الشفاعة...) الآية، اعلم أن العهد الذى تكون به انشفاعة يوم القيامة هو الطاعة وتربية اليقين والمعرفة، فتقع الشفاعة لأهل الطاعات على قدر طاعتهم وإخلاصهم، وتقع لأهل اليقين على قدر يقينهم، وهم أعظم من أهل المقام الأول، وتقع لأهل المعرفة على قدر عرفانهم، وهم أعظم من القسمين، حتى إن منهم من يشفع فى أهل عصره كلهم، وقد سمعت من شيخنا الفقيه، شيخ الجماعة سيدى التاودى بن سودة، أن بعض الأولياء قال عند موته: يارب شفعننى فى أهل زمانى، فقال له الحق تعالى - من جهة الهاتف - : لم يبلغ قدرك هذا، فقال: يارب إن كان ذلك من جهة عملى واجتهادى فلعمري إنه لم يبلغ ذلك، وإن كان من جهة كرمك وجودك فوعزتك وجلالك لهو أعظم من هذا، فقال له: إني شفعتك فى أهل عصرك. هـ. بالمعنى. فمن رجع إلى كرم الله وجوده، ودخل من هذا الباب، وجد الإجابة أقرب إليه من كل شىء. وبالله التوفيق.

ثم كرر الرد على أهل الشرك والضلال وشنع عليهم، فقال:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۚ ﴾ ٨٨ ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۚ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ ﴾ ٩٢ ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۚ ﴾ ٩٤ ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۚ ﴾ ٩٥

قلت: «هَذَا»: مصدر مؤكد لمحذوف، هو حال من الجبال، أى: تهد هذا، وأن دعوا: على حذف اللام، أى: لأن دعوا، وفيه احتمالات أخر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ ﴾ هذه المقالة صدرت من اليهود والنصارى، ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله، لعن الله جميعهم، فسبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، فحكى جنابيتهم إثر جنابة عبدة الأصنام، وعطف القصة على القصة لاشتراكهم فى الضلالة، قال تعالى فى شأنهم: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۚ ﴾ أى: فعلتم أمراً منكراً شديداً، لا يقادر قدره، فهو رد لمقالتهم الباطلة، وتهويل لأمرها بطريق الالتفات

المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب، المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيل عليهم بغاية الوقاحة والجهل. و(جاء) يستعمل بمعنى فعل، فيتعدى تعديته، والإد - بكسر الهمزة وفتحها، وقرأ بهما في الشاذ: العظيم المنكر، الإد: الشدة، قيل: الأد: في كلام العرب: أعظم الدواهي.

ثم وصفه وبين هوله فقال: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾: يتشققن مرة بعد أخرى، من عظم ذلك الأمر وشدة هوله، وهو أبلغ من «ينفطرن» كما قرئ به، ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ أي: وتكاد تنشق وتذهب، ﴿وَتَخْرُ الْجِبَالُ﴾ أي: تسقط وتنهدم ﴿هَذَا﴾ بحيث لا يبقى لها أثر. والمعنى: أن هول تلك الكلمة الشنعاء وعظمتها، بحيث لو تصورت بصورة محسوسة، لم يطق سمعها تلك الأجرام العظام، ولتفتنت من شدة قبحها، أو: إن فظاعتها واستجلاب الغضب والسخط بها بحيث لولا حلمه تعالى، لخر العالم وتبددت قوائمه، غضباً على من تفوه بها. قال محمد بن كعب: كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة، يعني: لأن ما ذكر أوصاف الساعة.

وذلك ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلِذَا﴾ أي: تكاد تنفطر السموات وتنشق الأرض، وتنهدم الجبال؛ لأجل أن دعوا، أي: نسبوا أو سموا للرحمن ولذا، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلِذَا﴾ أي: قالوا اتخذ الرحمن ولذا، أو دعوا له ولذا، والحال أنه مما لا يليق به تعالى اتخاذ الولد؛ لاستحالة عليه تعالى. ووضع الرحمن موضع الضمير؛ للإشعار بعلية الحكم؛ لأن كل ما سواه تعالى منعم عليه برحمته، أونعمة من أثر الرحمة، فكيف يتصور أن يجانس من هو مبدأ النعم ومولى أصولها وفروعها، حتى يتوهم أن يتخذه ولداً، وقد صرح به قوله عز قائلًا: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما منهم من أحد من الملائكة أو الثقلين ﴿إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾؛ مملوكاً لله في الحال بالانقياد وقهرية العبودية. ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ﴾ أي: حصرهم وأحاط بهم، بحيث لا يخرج أحد من حيطة علمه، وقبضة قدرته وقهريته، ما وجد منهم وما سيوجد، وما يقدر وجوده لو وجد، كل ذلك في علمه وقضائه وقدره وتديره، لا خروج لشيء عنه، وفي ذلك تصوير لقيام ربوبيته على كل شيء، وأنه عالم بكل شيء، جملة وتفصيلاً، ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ أي: وكل واحد منهم يأتي يوم القيامة فرداً من الأموال والأنصار والأتباع، متفرداً بعمله، فإذا كان شأنه تعالى وشأنهم كذلك فأنى يتوهم احتمال أن يتخذ شيئاً منهم ولداً؟!.

وفي الحديث القدسي: «قال الله تعالى: كذبتني عبدي، ولم يكن له ذلك، وشتمني عبدي ولم يكن له ذلك، أما تكذيبه إياي؛ فأن يقول: من يعيدنا كما بدأنا؟ وأما شتمه إياي؛ فأن يقول: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد»^(١). وهو في البخاري. وفي صيغة اسم الفاعل في قوله: «آتيه» من الدلالة على إتيانهم كذلك ألبتة ما ليس في صيغة المضارع لو قيل يأتيه. والله تعالى أعلم.

(١) الحديث أخرجه البخاري (في تفسير سورة الإخلاص) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الإشارة: إذا علمت أيها المؤمن أن الحق جل جلاله يغضب هذا الغضب الكلى على من أشرك مع الله، أو اعتقد فيه ما ليس هو عليه من التنزيه وكمال الكمال، فيدبغى لك أن تخلص مشرب توحيدك من الشرك الجلى والخفى، علماً وعقداً وحالاً وذوقاً، حتى لا يبقى فى قلبك محبة لشيء من الأشياء ولا خوف من شيء، ولا تعلق بشيء، ولا تكون لشيء، إلا لمولاك، وحيلت يصفى مشرب توحيدك، وتكون عبداً لله خالصاً حراً مما سواه، ومهما بقى فيك شيء من محبة الهوى نقص توحيدك بقدره، ولم تصل إليه مادمت تميل إلى شيء سواه. وفى ذلك يقول الششتري رحمته الله:

إِنْ تُرِدْ وَصَلْنَا فَمَوْتِكَ شَرْطٌ لَا يَنَالُ الْوَصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلُهُ

فكن عبداً لله حقيقة، وانخرط فى سلك قوله: ﴿إِنْ كُلٌّ مِنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾. فحينئذ تكون حراً مما سواه، ويملكك الوجود بأسره، يكون عند أمرك ونهيك. وفى ذلك يقول القائل:

دَعَوْنِي لِمَلِكِهِمْ فَلَمَّا أَجَبْتَهُمْ قَالُوا دَعَوْنَاكَ لِلْمَلِكِ لَا لِلْمَلِكِ

وإذا فتحت عين القدرة وعين الحكمة وضعت كل شيء فى محله، فتتنزه بعين القدرة فى رياض الملكوت وبحار الجبروت، وتنزه بعين الحكمة فى بهجة الملك وأسرار الحكمة. فعين القدرة تقول: كل من فى السموات والأرض نور من أنوار الرحمن، وسر من أسرار ذاته، وعين الحكمة تقول: كل من فى السموات والأرض عبد مملوك تحت قهريته ذاته، فاعرف الضدين، وأنزل كل واحد فى محله، تكن عارفاً بالله، فإن أردت أن تعرفه بضد واحد بقيت جاهلاً به. فالحكمة تثبت العبودية صورة؛ صوتاً لكفى الربوبية، والقدرة تغيبك عنها بشهود أسرار الربوبية، وفى الحكم: «سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية، وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العبودية».

فالعبودية لازمة من حيث العبد، والغيبية عنها واجبة من حيث الرب، فإثبات العبودية، حكمة، فرق، والغيبية عنها فى شهود أنوار الربوبية: جمع، فالعارف مجموع فى فرقه، مفروق فى جمعه.

ولما ذكر قبائح الكفرة أتبعه بذكر محاسن المؤمنين، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝٩٦﴾

قلت: لما استحققر الكفرة أحوال المؤمنين حتى قالوا: ﴿أينا خير مقاماً وأحسن ندياً﴾، أخبر الله تعالى المؤمنين وبشرهم أنهم سيعزهم ويلقى مودتهم فى قلوب عباده.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ ۝٩٦﴾ فى قلوب الناس مودة وعطفاً، حتى يحبهم كل من سمع بهم، فيحبهم ويحببهم إلى عباده من أهل السموات والأرض، أى: سيحدث

لهم في القلوب مودةً من غير تعرض لأسبابها، سوى ما لهم من الإيمان والعمل الصالح، أو ﴿وَدَاً﴾ فيما بينهم، فيتحابون ويتواددون ويحبهم الله .

قال القشيري: يجعل في قلوبهم ودًا لله، وهو نتيجة أعمالهم الخالصة، وفي الخبر: «لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى يحبني وأحبه» . والتعرض لعنوان الرحمانية؛ لما أن الموعد من آثارها، وأن مودتهم رحمة بهم ومن أحبهم . وعن النبي ﷺ أنه قال لعلي رضي الله عنه: «قل اللهم اجعل لي عندك عهداً، واجعل لي في صدور المؤمنين مودةً» فنزلت الآية (١) . وفي حديث البخاري وغيره: «إذا أحب الله عبداً قال لجبريل: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله قد أحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يضع له المحبة في الأرض» (٢) .

وقال قتادة: (سيجعل لهم الرحمن ودًا) قال: أي والله ودًا في قلوب أهل الإيمان . وإن هرم بن حيان يقول: ما أقبل عبدٌ بقلبه على الله إلا أقبل الله بقلوب أهل الإيمان إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم . قلت: ولفظ الحديث: «ما أقبل عبدٌ بقلبه على الله عز وجل إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه بالود والرحمة، وكان الله إليه بكل خير أسرع» (٣) . نقله في الترغيب . وفي حديث آخر: «يعطي المؤمن ودًا في صدور الأبرار، ومهابة في صدور الفجار» . فتوَدَّ الناس للعبد دليل على قبوله عند مولاه . أنتم شهداء الله في أرضه . وفي بعض الآثار: «لا يموت العبد الصالح حتى يملأ مسامعه مما يحب، ولا يموت الفاجر حتى يملأ مسامعه مما يكره» . بالمعنى .

وأتى الحق جل لجلاله بالسين؛ لأن السورة مكية، وكانوا إذ ذلك معقوتين عند الكفرة، فوعدهم ذلك، ثم أنجزه لهم حين جاء الإسلام، فعزوا وانتصروا، وتعشقت إليهم قلوب الخلق من كل جانب، كما هو مسطر في تواريخهم . وقيل: الموعد في القيامة، حين تعرض حسناتهم على رؤوس الأشهاد كأنها أنوار الشمس الضاحية (٤)، ولعل أفراد هذا بالوعد من بين ما لهم من الكرامات السلية؛ لأن الكفرة سيقع بينهم يومئذ تقاطع وتباغض وتضاد . والله تعالى أعلم .

(١) عزاه في المنثور (٥١٢/٤) لابن مردويه والديلمي، عن البراء .

(٢) أخرجه البخاري في (بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة)، ومسلم في (البر والصلة، باب إذا أحب الله عبداً) من حديث أبي هريرة .

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٨٦/٥ ح ٥٠٢٥) بزيادة في أوله، من حديث أبي الدرداء، وقال الهيثمي في المجمع:

(١٠/٢٤٧): رواه الطبراني في الكبير والأوسط . وفيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب، وهو كذاب .

(٤) التعبير بالاستقبال بالنسبة إلى الله تحقيق، كالماضى، والحاضر، فليس عند الله زمن كما هو عندنا . والأحسن في تأويل الآية أن نجعل السين حرف تأكيد . والله أعلم .

الإشارة: سُنَّةُ اللَّهِ تعالى في أوليائه، في حال بدايتهم، أن يُسلط عليهم الخلق، وينزل عليهم الخمول والذل بين عباده، حتى يمقتهم أقرب الناس إليهم، رحمة بهم واعتناء بقلوبهم؛ لئلا تسكن إلى غيره. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمته الله: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا.. إلخ. فإذا تطهروا من البقايا وكملت فيهم المزايا، وتمكنوا من معرفة الحق، أعزهم وألقى مودتهم في قلوب عباده، هذا دأبه معهم في الغالب، وقد يحكم على بعضهم بالخمول حتى يلقاه على ذلك، ولا يكون ذلك نقصاً في حقه بل كمالاً، وهم شهداء الملكوت، لم يأخذوا من أجرهم شيئاً. والله تعالى أعلم.

ولما ختم السورة الكريمة، أمر نبيه ﷺ بتبليغها، فقال:

﴿ فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَنُهُ بِلِسَانِكَ لَنُبَشِّرَنَّهُ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ۝١٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝١٨ ﴾

قلت: الفاء لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم، كأنه قيل - بعد إحياء السورة الكريمة: بلغ هذا المنزل عليك، وبشر به، وأنذر؛ فإنما يسرناه.. إلخ. قاله أبو السعود.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسْرِنَاهُ ﴾ أي: القرآن ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ بأن أنزلناه على لسانك، والباء بمعنى «على»، وقيل: ضمن التيسير معنى الإنزال، أي: يسرنا القرآن وأنزلناه بلغتك ﴿ لَنُبَشِّرَنَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي: الساترين إلى التقوى بامتنال ما فيه من الأمر والنهي، ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ ﴾ أي: تخوف به ﴿ قَوْمًا لَّدَا ﴾ لا يؤمنون به، لجاجاً وعناداً، واللد: جمع لد، وهو الشديد الخصومة، اللجوج المعاند.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ﴾ أي: كثيراً من القرون الماضية أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين، فهو وعد لرسول الله ﷺ بالنصر على الكفرة ووعيد لهم بالهلاك، وحث له ﷺ على الإنذار، أي: دم على إنذارك لهم، فسيهلكون كما أهلكنا من قبلهم من القرون، ﴿ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ أي: هل تشعر بأحد منهم، وترى له من باقية ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ أي: صوتاً خفياً، هيهات قد انقطع دابرهم وهدأت أصواتهم، وخربت قصورهم وديارهم، وكذلك نفع بغيرهم، والمعنى: أهلكناهم بالكلية، واستأصلناهم بحيث لا يرى منهم أحد، ولا يسمع لهم صوت خفى ولا جلى. وجملة: (هل تحس) استئناف مقرر لمضمون ما قبله، وأصل الرِّكْز: الخفاء، ومنه: ركز الرمح؛ إذا غيب طرفه في الأرض، والركاز: المال المدفون المخفى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما أنزل الله القرآن وسهله على عباده إلا ليقع به الوعظ والتذكير، فأمر الله رسوله في حياته بالبشارة والإنذار به، وبقي الأمر لخلفائه، فالواجب على العلماء والأولياء أن يتصدوا للوعظ والتذكير، ولا يكفي عنه تعليم رسوم الشريعة، فإن الوعظ إنما هو التخويف والتبشير، كما قال تعالى: ﴿ لَنُبَشِّرَنَّهُ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴾.

لكن لا يتصدى للوعظ إلا من له نور يمشي به في الناس، فيسبقه نور قلبه إلى القلوب المستمعة، فيقع كلامهم في قلوب السامعين. قال في الحكم: «تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحينما صار التلويز وصل التعبير». هذا النور هو نور المعرفة الذي هي مقام الفناء، ويشترط فيه أيضا: أن يكون مأذونا له في الكلام من شيخ كامل، أو وحى إلهامى حقيقى، فحينئذ يقع كلامه في مسامع الخلق. وفي الحكم: «من أذن له في التعبير حسنت في مسامع الخلق عبارته، وجلبت إليهم إشارته».

وقال أيضا: «ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار، إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار». وفي أمثال هؤلاء المتصددين للوعظ والتذكير ورد الخبر القدسي: «إِنْ أَوْدَ الْأَوْدَاءُ إِلَى مَنْ يُحِبُّنِي إِلَى عِبَادِي، وَيُحِبُّ عِبَادِي إِلَيَّ، يَمْشُونَ فِي الْأَرْضِ بِالنَّصِيحَةِ» .. جعلنا الله من خواصهم بمنه وكرمه آمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلم تسليمًا.



سُورَةُ طه

مكية . وهي مائة وخمسة وثلاثون آية . ووجه مناسبتها لما قبلها قوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَسِرَّنَاهُ بِلسَانِكَ ﴾ (١) مع قوله : ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ ، كأنه يقول : فإنما سهلناه عليك لترتاح به لا لتتعب . ثم افتتحها برموز بينه وبين حبيبه ، فقال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ طه ﴾ ﴿ ١ ﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿ ٢ ﴾ إِلَّا نَذْكُرُهُ
لِمَنْ يَخْشَى ﴿ ٣ ﴾ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿ ٤ ﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿ ٥ ﴾
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿ ٦ ﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ
بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿ ٧ ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿ ٨ ﴾ ﴿

قلت : عن ابن عباس أن « طه » من أسماء الله تعالى ، وقيل : معناه : طوبى لمن هدى ، وقيل : ياطاهر يا هادى ، فالطاء تشير إلى طهارته ﷺ وتطهيره من دنس الحس ، والهاء تشير إلى هدايته في نفسه ، وهدايته غيره إلى حضرة القدس .

وروى عنه ﷺ أنه قال : « لى عشرة أسماء .. » فذكر أن منها « طه ويس » ، وقيل : معناه : طأ الأرض بقدمك ؛ لأنه كان يرفع رجلاً في الصلاة ويضع أخرى في طول تهجده ، فأبدل الهمزة ألفاً ، والضمير للأرض ، ورد بأنه لو كان كذلك لكتبت بالألف ، فإن الكتابة بصورة الحرف مع التلظظ بخلافه من خصائص حروف المعجم . وقيل : معناه : يارجل . وهو مروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم ، وهو عندهم على اللغة النبطية ، أو السريانية (٢) . قيل : من جعل معنى « طه » يارجل ، لم يقف على طه ، وكذا من جعله اسماً للنبي ﷺ ؛ لأن النداء تنبيه على ما بعده ، ومن جعلها افتتاحاً ، أو على وجه من الوجوه المذكورة في البقرة ، وقف عليها ، إلا في قول من جعلها قسماً ، فإنه لا يقف عليها ؛ لأن قوله : (ما أنزلنا ...) الخ جواب قسم .

(١) من الآية ٩٧ من سورة مريم . (٢) انظر تفسير البغوى (٢٦٢/٥) ، وزاد المسير (٢٦٩/٥) .

قلت: المتبادر من سبب نزولها ومن قوله: (ما أنزلنا): إما القسم أو النداء، فالقسم على أن ذلك من أسماء الله، والنداء على كون ذلك بمعنى يارجل، أو من أسمائه ﷺ. وأما غير ذلك فبعيد، إلا أن يكون ما بعد ذلك استثناءً بعد الوقف على «طه». قاله في الحاشية.

و (إلا تذكرة): مفعول لأجله. والاستثناء منقطع، أي: ما أنزلناه لتتعب به، لكن أنزلناه للتذكرة والوعظ، و(تنزيلاً): مصدر مؤكد لمضمر مستأنف مقرر لما قبله، أي: أنزل تنزيلاً، والأصح: أنه بدل من اللفظ بفعله الناصب له، فلا يجمع بينه وبين المبدل منه، وفيه معنى التأكيد لما قبله، أو هو نص في معناه، وإنما تلون الكلام بالالتفات، أو منصوب على المدح والاختصاص، أو مفعول بيخشي، أو حال من «القرآن»، و(الرحمن): رفع على المدح، وقد عرفت أن المرفوع مدحاً، في حكم الصفة الجارية على ما قبلها، وإن لم يكن تابعاً له في الإعراب، ولذلك ألزموا حذف المبتدأ؛ ليكون في صورة متعلقٍ من متعلقاته. وقرئ بالجر؛ صفة للموصول، وما قيل من أن الموصولات لا توصف إلا بالذي وحده فمذهب كوفي، أو (الرحمن): مبتدأ، و (على العرش): خبره. و«على»: متعلقة باستوى، قدمت للفواصل. و (إن تجهر): شرط، والجواب محذوف دل عليه (فإنه...) الخ، أي: فالله غني عن جهرك، فإنه... الخ.

يقول الحق جل جلاله: تسلياً لرسوله ﷺ، أو ترويحاً له من التعب: يا محمد ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ أي: لتتعب نفسك بالمجاهدة في العبادة.

روى أنه ﷺ كان يقوم بالليل حتى تورمت قدماه، فقال له جبريل عليه السلام: «أبق على نفسك، فإن لها عليك حقاً». أي: ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك^(١) وحملها على الرياضات الشاقة، والشدائد الفادحة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة. أو: ما أنزلناه لتتعب نفسك في تبليغه بمكابدة الشدائد في مقاومة العتاة ومحاوراة الطغاة، وفرط التأسف على كفرهم والتحسر على إيمانهم، كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، بل للتبليغ، وقد فعلت. وإطلاق الشقاء في هذا المعنى شائع، ومنه قولهم: أشقى من راض مهر، وقيل: إن أبا جهل والنضر بن الحارث قالا لرسول ﷺ: إنك شقى، حيث تركت دين آباءك، وما نزل عليك هذا القرآن إلا لتشقى، فردَّ الله ذلك عليهم. والأول أظهر، والعموم أحسن، فإنه نفى عنه جميع الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾ أي: ما أنزلناه لتتعب، لكن أنزلناه تذكرة وموعظة لمن يخشى الله - عز وجل -؛ ليتأثر بالإنذار، لركة قلبه ولين عريكته، أو لمن علم الله أنه يخشى بالتخويف، وتخصيصها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ؛ لأنهم المنتفعون بها.

(١) أي: إجهاد نفسك.

(٢) الآية ٣ من سورة الشعراء.

﴿تنزيلاً﴾ أى: أنزل تنزيلاً، أو حال كونه القرآن تنزيلاً، أى: منزلاً ﴿من خلق الأرض والسموات العلى﴾، ونسبة التنزيل إلى الموصول بعد نسبته إلى نون العظمة بقوله: (ما أنزلنا)؛ لبيان فخامته تعالى بحسب الأفعال والصفات، إثر بيانها بحسب الذات بطريق الإبهام، ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير. وتخصيص خلقهما بالذكر؛ لتضادهما. وتقديم الأرض لكونه أقرب إلى الحس، ووصف السموات بالعلى، وهو جمع «عليا»؛ لتأكيد الفخامة مع ما فيه من مراعاة الفواصل. وكل ذلك إلى قوله: (له الأسماء الحسنى)، مسوق لتعظيم المنزل - عز وجل - المستتبع بتعظيم المنزل عليه، الداعى إلى تربية المهابة وإدخال الروعة، المؤدية إلى استئزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان، واستمالتهم إلى الخشية، المفضية إلى التذكير والإيمان.

ثم قال تعالى: ﴿الرحمن﴾ أى: هو الرحمن، ووصف تعالى بالرحمانية إثر وصفه بالخالقية؛ للإيدان بأن ربوبيته تعالى، وقيامه بالأشياء، من طريق الرحمة والإحسان، لا بالإيجاب، وفيه إشارة إلى أن تنزيله القرآن أيضاً من رحمته - تعالى -، كما ينبى عنه قوله عز من قائل: ﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (١). أو: (الرحمن على العرش استوى): مبتدأ وخبر، وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذى من شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند مخاطب؛ للإيدان بأن ذلك أمر بين لا خفاء فيه، غنى عن الإخبار صريحاً. والاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان، يقال: استوى فلان على سرير الملك؛ مراداً به ملك الملك والتصرف، وإن لم يقعد على سرير أصلاً، والمراد: تعلق قدرته وقهره في جميع الكائنات بالتدبير والتصرف التام.

وسئل أحمد بن حنبل عن الاستواء، فقال: استواء من غلب وقهر، لا استواء كما يتوهم البشر. وسئل عنه مالك والشافعى - رضى الله عنهما - فقالا: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والإيمان به واجب، والسؤال عن هذا بدعة وضلالة، آمنوا بلا تشبيه، وصدقوا بلا تمثيل، وأمسكوا عن الخوض فى هذا كل الإمساك.

وقال الجنيد رحمته الله: خلق الله العرش فوق سبع سموات، وجعله قبلة لدعاء المخلوقات، وقابله بقلب عبده المؤمن، ليكون محلاً للتجليات والتنزلات والمخاطبات. هـ. وقد تقدم الكلام عليها فى الأعراف مستوفياً (٢).

﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾، سواء كان ذلك بالجزئية مدهما أو بالحلول فيهما، ﴿وما بينهما﴾ من الموجودات الكائنة فى الجو دائماً، كالهواء والسحاب، أو أكثرى؛ كالطير، أى: له ذلك وحده دون غيره، لا شركة ولا استقلالاً، كل ما ذكر هو له؛ ملكاً وتصرفاً، وإحياء وإماتة، وإيجاداً واعداماً، ﴿وما تحت الثرى﴾: وما وراء التراب المتصل بالهوى السفلى. وعن محمد بن كعب: أنه ما تحت الأرضين السبع. وعن السدى: أن

(١) الآيتان: ١ - ٢ من سورة الرحمن.
(٢) راجع تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

الذى هو الصخرة التى عليها الأرض السابعة، وذكره مع دخوله تحت مافى الأرض؛ لزيادة التقرير. ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ﴾ أى: وإن تجهر بذكره تعالى - أو دعائه، فاعلم أنه تعالى غنى عن جهرك؛ ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أى: ما أسررتَه إلى غيرك، وشيئاً أخفى من ذلك، وهو ما أخطرته ببالك، من غير أن تدفوه به أصلاً. أو: السر: ما أسررتَه فى نفسك، وأخفى منه: ما ستسره فى المستقبل. وهو إما نهى عن الحركة، كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ (١) وإما إرشاد للعباد إلى أن الجهر ليس لإسماعه تعالى؛ بل لغرض آخر من تأنيس النفس بالذكر وتثبيتته فيها، ومنعها من الاشتغال بغيره، وقطع الوسوسة عنها، وهضمها بالتضرع والجوار. هذا والغرض من الآية: بيان إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء، إثر بيان سعة سلطانه وشمول قدرته بجميع الكائنات.

ثم بين الموصوف بتلك الكمالات، فقال: ﴿اللَّهُ﴾ أى: ما ذكر من صفات الكمال، موصوفها الله المعبود بالحق، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: لا معبود بحق إلا هو، ولا مستحق للعبادة إلا هو. وهو تصريح بما تضمنه ما قبله من اختصاص الألوهية به سبحانه، فإن ما أسد إليه تعالى من خلق جميع الموجودات، ومن الرحمانية والمالكية للكل، والعلم الشامل، يقتضى اختصاصه تعالى بالألوهية والربوبية، وقوله تعالى: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ بيان لكون ما ذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماءه تعالى وصفاته، من غير تعدد فى ذاته تعالى؛ فالأسماء والصفات كثيرة، والمسمى والموصوف واحد. (والحسنى): تأنيث الأحسن، فعلى، يوصف به الواحد المؤنث، والجمع المذكر والمؤنث، كـ ﴿مَا رَبُّ أُخْرَى﴾ (٢)، و﴿آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (٣). والله تعالى أعلم.

الإشارة: من تأمل القرآن العظيم، وما جاء به الرسول - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - وجده يدل على ما يفضى إلى الراحة دون التعب، وإلى السعادة العظمى دون الشقاء، لكن لا يتوصل إلى الراحة إلا بعد التعب، ولا يفضى العبد إلى السعادة الكبرى إلا بعد الطلب، فإذا اجتهد العبد فى طلب ربه، وكله إلى شيخ ينقله من عمل الجوارح إلى عمل القلوب، فإذا وصل العمل إلى القلب استراحت الجوارح، وأفضى حينئذ إلى روح وريحان، وجنة ورضوان، أعنى جنة العرفان. ولذلك قال الشيخ أبو الحسن: ليس شيخك من يدلك على تعبك، إنما شيخك من يريحك من تعبك، كما فى لطائف المنن.

وقال شيخنا القطب ابن مشيش: وقد سئل عن قوله ﷺ: «يَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا» فقال: دلوهم على الله، ولا تدلوهم على غيره، فإن من دلك على الدنيا فقد غشك، ومن دلك على العمل فقد أتعبك، ومن دلك على الله فقد

(١) من الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ١٨ من سورة طه.

(٣) من الآية ٢٣ من سورة طه.

نصحك. هـ. فإذا ذلك على الله غيبك عن وجود نفسك بشهود ربك، وهي السعادة العظمى، كما تقدم في سورة هود. فمن اتخذ شيخاً ثم لم ينقله من مقام التعب، ولم يرحله من مقام إلى مقام، فاعلم أنه غير صالح للتربية.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذَكُّرَ لِمَن يَخْشَى﴾، قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن العارف: قيل: أنزل الله القرآن لتذكير سابق الوصال؛ لأن الأرواح لما دخلت الأشباح اكتسبت خشية ووحشة وفرقة عن معادنها، فأنزل الله القرآن تأنيساً؛ لأن المحب يأنس بكتاب حبيبته وكلامه. وقال جعفر الصادق: أنزل الله القرآن موعظة للخائفين، ورحمة للمؤمنين، وأنساً للمحبين. وأيضاً: القرآن يذكر عظمة الله الموجبة خشيته، فهو مذهب للغفلة. ثم قال: وفي الشهود الحاصل بالتذكير رفع المشقة، ووجدان الراحة بالطاعة، لكونه يصير محمولاً، وقد قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١)، أى: لشهودى فيها، وفي ذلك قرة عين، وراحة، وأنس، وتشابه حال المصلى بحال موسى، بجامع اللجوى، فلذلك ذكر في سياقه. والله أعلم. هـ.

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، تفسيرها هو الذى قصد ابن عطاء الله فى الحكيم بقوله: «يا من استوى برحمانيته على عرشه، فصار العرش غيباً فى رحمانيته، كما صارت العوالم غيباً فى عرشه، محقت الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار». وأنت خبير بأن الرحمانية وصف لازم للذات، والصفة لا تفارق الموصوف، فإذا استوت الرحمانية على العرش وغمرته؛ فقد استوت عليه أسرار الذات وغمرته، وهى أفلاك الأنوار التى أحاطت بالعرش والآثار، ومحت كل شىء، حتى لم يبق إلا الذى ليس كمثله شىء، وليس معه شىء، وهو السميع البصير. وما نسبة حس الآثار بالنسبة إلى أفلاك الأسرار التى استوت عليه إلا كالهباء فى الهواء. والله تعالى أعلم وأعظم.

ثم ذكر قصص موسى عليه السلام، وتسليته لرسوله ﷺ، وعما لقي من التعب فى تبليغ الوحي، فقال:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۚ فَلَمَّا أَنَّهُ نُودِيَ بِمُوسَى ۖ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ۖ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۚ ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۚ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ۖ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۚ ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ۖ﴾

(١) من الآية ١٤ من سورة طه.

أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
فَتَرَدَى ﴿١٦﴾

قلت: قال القشيري: أجرى الله [سنته] (١) في كتابه أن يذكر قصة موسى في أكثر المواضع التي يذكر فيها حديث نبينا - عليه الصلاة والسلام - يتبعه بذكر موسى، تنبيهاً على علو شأنه، لأنه كما أن التخصيص بالذكر يدل على شرف المذكور، فالتكرير في التفصيل يوجب التفضيل في الوصف؛ لأن القضية الواحدة إذا أعيدت مراراً كثيرة كانت في باب البلاغة أتم، ولا سيما في كل مرة فائدة زائدة. هـ.

قلت: ولعل وجه تناسقهما في الذكر قرب المنزلة، ومشاركة الصفة، وذلك باعتبار المعالجة وهداية الأمة، فإن أمة موسى ﷺ كانت انتشرت فلم يقع لنبي هداية على يديه لقومه مثله، إلا للنبينا - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - فإن أمته انتشرت وشاعت مسير الشمس والقمر، وفي حديث البخاري ما يدل على هذا، حين عرضت عليه الأمم ﷺ مرة، فرأى أمة موسى ﷺ كثيرة، ثم رأى أمة قد سدت الأفق. فانظر لفظه فيه (٢).

وقال أبو السعود: المناسبة إنما هي تقرير أمر التوحيد الذي إليه انتهى مساق الحديث، وبيان أنه مستمر فيما بين الأنبياء، كابرأ عن كابر، وقد خطب به موسى ﷺ، حيث قيل له: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾، وبه ختم عليه السلام مقاله، حيث قال: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (٣)، ثم رد مناسبة التسلية بأن مساق النظم الكريم إنما هو لصرفه عليه السلام عن افتتاح المشاق. فانظره.

و (هل): لفظة استفهام، والمراد به التشويق لما يخبره به، أو التنبيه. و (إذ رأى): ظرف للحديث؛ لأن فيه معنى الفعل، أو لمضمر مؤخر، أي: حين رأى كان كيت وكيت، أو: لا ذكر، أي: اذكر وقت رؤيته.. الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ أي: قصته في معالجة فرعون، فإننا سنذكرها لك تسلية وتقريراً لأمر التوحيد، ﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ تلمع في الوادي، وذلك أنه عليه السلام استأنس شعيباً ﷺ في

(١) ما بين المعكوفتين زيادة ليست في الأصول.

(٢) قال ابن عباس رضى الله عنهما: خرج علينا النبي ﷺ يوماً، فقال: عرضت على الأمم، فجعل يمر النبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد، ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق، فرجوت أن تكون أمتي. فقيل: هذا موسى وقومه. ثم قيل لي: انظر، رأيت سواداً كثيراً سد الأفق، فقيل لي: انظر هكذا، رأيت سواداً كثيراً سد الأفق، فقيل: هؤلاء أمتك، ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب... الحديث أخرجه البخاري في (الطب، باب من لم يرق)

(٣) من الآية ٩٨ من سورة طه.

الخروج إلى أمه وأخيه، فخرج بأهله، وأخذ على غير الطريق، مخافةً من ملوك الشام، فلما وافى وادى طوى، وهو بالجانب الغربى من الطور، ولد له ولد فى ليلة مظلمة شاتية مثلجة، وكانت ليلة الجمعة، وقد ضل عن الطريق، وتفرقت ماشيته، ولا ماء عنده، ففدح النار فلم تور المقدحة.

فبينما هو فى ذلك ﴿إذ رأى ناراً﴾ على يسار الطريق من جانب الطور، ﴿فقال لأهله امكثوا﴾ أى: أقيموا مكانكم. أمرهم ﷺ بذلك؛ لئلا يتبعوه، كما هو المعتاد من النساء. والخطاب للمرأة والخادم والولد، وقيل: لها وحدها، والجمع للتعظيم، ﴿إني آنست﴾ أى: أبصرت ﴿ناراً﴾، وقيل: الإناس خاص بإبصار ما يؤنس به. ﴿لعلى آتيكم منها بقبس﴾ أى: بشعلة مقتبسة من معظم النار، وهو المراد بالجدوة فى سورة القصص (١)، وبالشهاب القبس، (٢) ﴿أو أجد على النار هدى﴾؛ هادياً يدلنى إلى الطريق، فهو مصدر بمعنى الفاعل، و (أر) فى الموضعين: لمنع الخلو، لا لمنع الجمع؛ إذ يمكن أن يقبس من النار ويجد هادياً. ومعنى الاستعلاء فى قوله: ﴿على النار﴾؛ لأن أهلها يستعلون عليها عند الاصطلاء، ولما كان الإيذاء بها غير محقق، صدر الجملة بكلمة الترجى.

﴿فلما أتاها﴾ أى: النار التى آنسها. قال ابن عباس رضى الله عنهما: رأى شجرة خضراء، حفت بها، من أسفلها إلى أعلاها، ناراً بيضاء، تَلْقَدُ كأضوء ما يكون، فوقف متعجباً من شدة ضوئها، روى أن الشجرة كانت عوسجة، وقيل: سَمَرَةً (٣) .. بينما هو ينظر، ﴿نودى﴾ فقيل: ﴿يا موسى إني أنا ربك﴾، أو بآنى أنا ربك، وتكرير الضمير؛ لتأكيد الدلالة، وتحقيق المعرفة وإمالة الشبهة. يروى أنه لما نودى ياموسى، قال ﷺ: من المتكلم؟ فقال الله عز وجل: (أنا ربك)، فوسوس إليه الخاطر: لعلك تسمع كلام شيطان، قال: فلما قال: (إنى أنا)، عرفت أنه كلام الله عز وجل. قيل: إنه سمعه من جميع الجهات بجميع الأعضاء.

ثم قال له: ﴿فاخلع نعليك﴾؛ لأنه أليق بحسن الأدب، ومنه أخذ الصوفية - رضى الله عنهم - خلع نعالهم بين يدى المشايخ والأكابر، وقيل: ليباشر الوادى المقدس بقدميه، ومنه يؤخذ تعظيم المساجد، بخلعها ولو طاهرة، وقيل: إن نعليه كانتا من جلد حمار غير مدبوغ. وقيل: النعلين: الكونين، أى: فرغ قلبك من الكونين إن أردت دخول حضرتنا. وقوله تعالى: ﴿إنك بالواد المقدس﴾: تعليل لوجوب الخلع، وبيان لسبب ورود الأمر بذلك. روى أنه ﷺ خلعهما وألقاهما وراء الوادى، وه طوى؛ بدل من الوادى، وهو اسم له. وقرأ منونا؛ لتأوله بالمكان، وغير المنون؛ لتأوله بالبقعة.

(١) فى قوله: ﴿لعلى آتيكم منها بخبر أو جدوة من النار لعلكم تصطلون﴾، من الآية ٢٩ من سورة القصص.

(٢) فى قوله: ﴿سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون﴾، من الآية ٧ من سورة النمل.

(٣) انظر تفسير الطبرى (١٦/١٤٣)، والبغوى (٤/٢٦٥).

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ أي: اصطفيتك للنبوّة والرسالة، وقرأ حمزة: (وَأَنَا اخْتَرْنَاكَ) بدون العظمة، ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ أي: للذي يُوحى إليك، أو لوحيدنا إليك، وهو: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾، فالجملة بدل من «ما»، ﴿فَاعْبُدْنِي﴾؛ أفردني بالعبادة والخضوع، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن اختصاص الألوهية به سبحانه من موجبات تخصيص العبادة به تعالى. ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾: لتذكرني فيها؛ لاشتغالها على الأذكار، وأفردت بالذكر، مع اندراجها في الأمر بالعبادة؛ لفضلها على سائر العبادات؛ لما نيّطت به من ذكر المعبود، وشغل القلب واللسان بذكره، فإن الذكر كما ينبغي لا يتحقق إلا في ضمن العبادة.

أو «لذكرى»: لإخلاص ذكرى وابتغاء وجهي، بحيث لا ترائي بها غيري. وقيل: لذكرى إياها، وأمرى بها في الكتب، أو لأن أذكرك فيها بالمدح والثناء، وقيل: لأوقات ذكرى، وهي مواقيت الصلوات، وقيل: لذكر صلاتي إذا نسيتها، لما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ، أُنْسِيَهَا، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾» (١).

قال بعضهم: [أصول العمل ثلاثة] (٢): أقوال وأفعال وأحوال، فأفضل الأقوال: لا إله إلا الله، وأفضل الأفعال: الصلاة لله أو بالله، وأفضل الأحوال: الطمأنينة بشهود الله.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾: كائنة لا محالة، وهو تعليل لوجوب العبادة وإقامة الصلاة، وإنما عبّر بالإتيان؛ تحقيقاً لحصولها، بإبرازها في معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين. ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ أي: لا أظهرها، بأن أقول: آتية فقط، فلا تأتي إلا بغتة، أو أكاد أظهرها بإيقاعها، من أخفائها، إذا أظهره، فأخفي - على هذا - من الأضداد. وردّه ابن عطية، فإن الذي بمعنى الظهور هو: «خفي»؛ الثلاثي، لا «أخفي». وقال الزمخشري: قد جاء في بعض اللغات: أخفي بمعنى خفي، أي: ظهر، فلا اعتراض.

ونقل الثعلبي عن ابن عباس وأكثر المفسرين أن المعنى: أكاد أخفيها عن نفسي، فكيف عن غيري؟ وكذلك هو في مصحف أبي، وفي مصحف عبد الله: فكيف يعلمها مخلوق، وفي بعض القراءات: وكيف أظهرها لكم؟ قال قطرب: فإن قيل: كيف يخفي الله تعالى عن نفسه، وهو خلق الأشياء؟ قلنا: إن الله تعالى كلم العرب بكلامهم الذي يعرفونه. انظر بقية كلامه.

(١) أخرجه يحموه: البخاري في (مواقيت الصلاة، باب من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها)، ومسلم في (المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة، واستحباب تعجيل قضائها)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) ما بين المعكوفتين: مثبته في المخطوطة الأم، وغير موجود في غيرها.

وظهور علاماتها لا يزيل إخفاءها. قال ابن عرفة في تفسيره: وإذا ظهرت عند وقوع الأشرار لم ينسلخ عنها معنى الخفاء المتقدم، غاية الأمر أنها بذكر الأشرار وسط بين الإخفاء والإظهار، فتكون مقاربة لكل واحد منهما. هـ.

وقوله تعالى: ﴿لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ متعلق بآتية، أو بأخفيها - على معنى: أظهرها، لتُجْزَى كل نفس بسعيها، أى: بعملها خيراً كان أو شراً. ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ أى: عن ذكر الساعة ومراقبتها والاستعداد لها ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ حتى تكسل عن التزود لها. والنهي - وإن كان بحسب الظاهر متوجهاً للكافر عن صد موسى عليه السلام - لكنه في الحقيقة نهى له عليه السلام عن الانصداد عنها، على أبلغ وجه، فإن النهي عن أسباب الشيء المؤدية إليه نهى عنه بالطريق البرهاني، كقوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ (١)، أى: لا تتبع في الصد عنها من لا يؤمن بها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أى: ما تهواه نفسه من اللذات الفانية، ﴿فَتَرَدَّى﴾: فتهلك؛ فإن الإغفال عنها، وعن تحصيل ما ينجي من أهوالها، مستتبع للهلاك لا محالة. وبالله التوفيق.

الإشارة: وهل أتاك أيها العارف حديث موسى، كيف سار إلى نور الحبيب، ومناجاة القريب، إذ رأى ناراً في مرأى العين، وهو نور تجلّى الحبيب بلا بين، فقال لأهله ومن تعلق به: امكثوا، أقيموا في مقام الطلب، واصبروا وصابروا ورابطوا على قلوبكم، في نيل المطلب، إني آنست ناراً، وهو نور وجه الحبيب في مرأى تجلياته، وهذا مقام الفناء، لعل آتيكم منها بقبس، تقتبسون منه أنواراً لقلوبكم واسراركم. أو أجد على النار هدى يهديني إلى مقام البقاء والتمكين، فلما أتاها، وتمكن من شهودها، نودي يا موسى: إني أنا ربك، فلا نار ولا أثر، وإنما وجه الحبيب قد تجلّى وظهر، في مرأى الأثر، فاخلع نعليك، أى: اخرج عن الكونين إن أردت شهود حضرة المكون، كما قال القائل:

واخلع النعلين، إن جئت إلى ذلك الحي، ففيه قدسنا

وعن الكونين كن منخلعاً وأزل ما بيننا من بيننا

إنك بالواد المقدس، أى: بحر حضرة القدس ومحل الأنس، قد طويت عنك الأكوان، وأبصرت نور الشهود والعيان، وأنا اخترتك لحضرتي، واصطفيتك لمناجاتي، فاستمع لما يوحى إليك مني، فأنا الله لا إله إلا أنا وحدي، فإذا تمكنت من شهودي، فانزل لمقام العبودية؛ شكراً، وأقم الصلاة لذكري، إن الساعة آتية لا محالة، فأكرم مثواك، وأجل منصبك، وأرفعك مع المقربين، فلا يصدنك عن مقام الشهود أهل العناد والجحود، فتسقط عن مقام القرب والأنس، وتصير في جوار أهل حجاب الحس، ولعل هذا المنزع هو الذي انتحى ابن الفارض، حيث قال في كلام له:

(١) من الآية ٨٩ من سورة هود.

أَنسَمْتُ فِي الْحَيِّ نَاراً	لَيْلًا فَبَشَّرتُ أَهْلِي
قُلْتُ: امْكُثُوا، فَلَعَلِّي	أَجِدُ هُدًى، لَعَلِّي
دَنَوْتُ مِنْهَا فَكَانَتْ	نَارَ التَّكَلُّمِ قَبْلِي
نُودِيَتْ مِنْهَا كَفَاحاً:	رُدُّوا لِي إِلَى وَصْلِي
حَتَّى إِذَا مَا تَدَانِي الـ	مِيقَاتُ فِي جَمْعِ شَمْلِي
صَارَتْ جِبَالِي دَكَا	مِنْ هَيْبَةِ الْمُتَجَلِّي
وَلَا حَ سِرٌّ خَفِي	يَذْرِيهِ مَنْ كَانَ مِثْلِي
فَالْمَوْتُ فِيهِ حَيَاتِي	وَفِي حَيَاتِي قَتْلِي
وَصِرْتُ مُوسَى زَمَانِي	مَذْ صَارَ بَعْضِي كُلِّي

قوله: «صارت جبالى دكا»، أى: جبال وجوده، فحصل الزوال من هيبة نور المتجلى، وهو الكبير المتعال. وهذا إنما يكون بعد موت النفس وقهرها، فإنها حينئذ تحيا بشهود ربها، حياة لا موت بعدها. وقوله: «مذ صار بعضى كلّى»، يعنى: إنما حصلت له المناجاة والقرب الحقيقى حين فتيت دائرة حسه، فاتصل جزء معناه بكل المعلى المحيط به، وهو بحر المعانى المفتى للأوانى. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مكالمته مع كلمه ﷺ، فقال:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا
وَأَهْشُرُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مِثَارِبٌ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَّى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ
حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ
إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةٌ أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾

قلت: (وما): استفهامية، مبتدأ، و (تلك): خبر، أو بالعكس، فما: خبر، وتلك: مبتدأ، وهو أوفق بالجواب.
(بيمينك): متعلق بالاستقرار؛ حالاً، أى: وما تلك، قارة أو مأخوذة بيمينك، والعامل معنى الإشارة. وقيل: (تلك):
موصولة، أى: وما التى هى بيمينك، والاستفهام هنا: إيقاظ وتنبيه له ﷺ على مما سيبدو له من العجائب،
وتكرير النداء؛ لزيادة التأنيس والتنبيه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾، إنما سألته؛ ليريه عظيم ما يفعل بها؛ من قلبها حية، فمعنى السؤال: تقريره على أنها عصي، ليتبين له الفرق بين حالها قبل قلبها وبعده، وقيل: إنما سألته ليؤنسه وينبسط معه، فأجابه بقوله: ﴿هي عصاي﴾، نسبها لنفسه تحقيقاً لوجه كونها بيمينه، روى أنها كانت عصا آدم عليه السلام، فأعطاهم له شعيب، حين قدمه لرعى غنمه، على ما يأتي في سورة القصص. وكان في رأسها شعبتان، وفي أسفلها سنان، واسمها نبعة، في قول مقاتل (١).

﴿أتوكأ عليها﴾ أي: أعتمد عليها إذا مشيت، وعند الإعياء، والوقوف على رأس قطيع الغنم، ﴿وأهش﴾ أي: أخبط ﴿بها﴾ الورق من الشجر؛ ليسقط ﴿على غنمي﴾ فتأكله. وقرئ بالسين، وهو زجر الغنم، تقول العرب: هس هس، في زجرها، وعداه بعل؛ لتضمنه معنى الإقبال والتوجه. ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ أي: حاجات أخرى من هذا الباب. قال ابن عباس: كان موسى عليه السلام يحمل عليها زاده وسقاه، فجعلت تأتيه وتخرسه، ويضرب بها الأرض فتخرج ما يأكل يومه، ويركز بها فيخرج الماء، فإذا رفعها ذهب، وكان يرد بها عن غنمه ونعمه الهوام بأن الله، وإذا ظهر له عدو حاربت وناضلت عنه، وإذا أراد الاستسقاء من البئر أدلأها، فطالت على طول البئر وصارت شعباتها كالدلو فيستقي بها، وكان يظهر على شعبتيها كالشمعتين بالليل فيستضي بها، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فتغصنت غصن تلك الشجرة وأورقت وأثمرت. فهذه المآرب (٢).

وكانه عليه السلام فهم أن المقصود من السؤال بيان حقيقتها، وتفصيل منافعها بطريق الاستقصاء، فلذلك أطلب في كلامه، فلما بدت منها خوارق بديعة علم أنها آية باهرة ومعجزات قاهرة، وأيضاً: الإطباب في مناجاة الأحباب محمود.

﴿قال﴾ له تعالى: ﴿ألقها يا موسى﴾ لترى من شأنها ما لم يخطر ببالك، قيل: إنما أمر باللقائها؛ قطعاً للسكون إليها، لما كان فيها من المآرب، وبالغ الحق تعالى في ذلك بقلبها حية، حتى خاف منها، وحين قطعه عنها، وأخرجها من قلبه، بالفرار منها ردها إليه بقوله: ﴿خذها ولا تخف﴾؛ ﴿فألقاها﴾ على الأرض ﴿فإذا هي حية تسعى﴾، روى أنه عليه السلام ألقاها فانقلبت حية صفراء، في غلظ العصا، ثم انتفخت وعظمت، فلذلك شبهت بالجان تارة، وبالثعبان مرة أخرى، وعبر عنها هنا بالاسم العام للجانين، وقيل: انقلبت من أول الأمر ثعباناً، وهو أليق بالمقام، كما يفصح عنه قوله عز وجل: ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾ (٣)، وإنما سميت بالجان في الجلادة وسرعة المشي، لا في صغر الجثة. وقيل: الجان عبارة عن ابتداء حالها، والثعبان عن انتهائه.

(١) انظر تفسير البغوي (٢٦٨/٥).

(٢) قال الحافظ ابن كثير عن هذه المآرب: الظاهر أنها - أي: العصا - لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استلكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعباناً، فما كان يفر منها هارباً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية، انظر: تفسير ابن كثير (١٤٥/٣).

(٣) من الآية ١٠٧ من سورة الأعراف

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ خُذْهَا ﴾ ياموسى، ﴿ وَلَا تَخَفْ ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: انْقَلَبَتْ ثَعْبَانًا ذَكَرًا، يَبْتَغِ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّخْرِ وَالشَّجَرِ، فَلَمَّا رَأَاهُ كَذَلِكَ خَافَ وَنَفَرَ، وَلَحِقَهُ مَا يَلْحَقُ الْبَشَرَ عِنْدَ مَشَاهِدَةِ الْأَهْوَالِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ، إِذْ لَا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الْخُصُوصِيَّةِ عَدَمُ وَصْفِ الْبَشَرِيَّةِ. ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ أى: سَنُعِيدُهَا، بَعْدَ الْأَخْذِ، إِلَى حَالَتِهَا الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا عَصَا، قِيلَ: بَلَغَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ ذَلِكَ مِنَ الثِّقَةِ وَعَدَمِ الْخَوْفِ إِلَى حَيْثُ كَانَ يَدْخُلُ يَدَهُ فِي فَمِهَا، وَيَأْخُذُ بِلَحْيَتَيْهَا. فَلَمَّا أَخَذَهَا عَادَتْ عَصَا، وَحِكْمَةُ قَلْبِهَا وَأَخَذَهَا هَذَا؛ لِيَكُونَ مَعَهَا عَلَى ثِقَةٍ عِنْدَ مَخَاصِمَةِ فِرْعَوْنَ، وَطَمَأْنِينَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، فَلَا يَعْتَرِيهِ شَائِبَةٌ دَهْشٍ وَلَا تَزَلْزَلٌ. وَالسَّيْرَةُ: فَعْلَةٌ مِنَ السَّيْرِ، يَجُوزُ بِهَا إِلَى الطَّرِيقَةِ وَالْهَيْئَةِ، وَانْتِصَابِهَا عَلَى نَزْعِ الْخَافِضِ.

ثُمَّ أَرَاهُ مَعْجَزَةً أُخْرَى، فَقَالَ: ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ أى: ادْخُلْهَا تَحْتَ عَضْدِكَ، فَجَنَاحُ الْإِنْسَانِ: جَنْبَاهُ، مُسْتَعَارٌ مِنْ جَنَاحِ الطَّيْرِ، ﴿ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ ﴾: جَوَابُ الْأَمْرِ، أى: إِنْ ادْخَلْتَهَا تَخْرُجُ بَيْضَاءَ شِعَاعِيَّةً، ﴿ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ﴾ أى: حَالُ كَوْنِهَا كَائِنَةٌ مِنْ غَيْرِ عَيْبٍ بِهَا؛ كَبُرْصٍ وَنَحْوِهِ. رَوَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ أَدَمَ اللَّوْنِ، فَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ مَدْرَعَتِهِ بَيْضَاءَ، لَهَا شِعَاعُ كَشْعَاعِ الشَّمْسِ، تَضِيءُ حَالُ كَوْنِهَا ﴿ آيَةً أُخْرَى ﴾ أى: مَعْجَزَةٌ أُخْرَى غَيْرَ الْعَصَا، ﴿ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ أى: فَعَلْنَا مَا فَعَلْنَا، لِنُرِيكَ بَعْضَ آيَاتِنَا الْعَظْمَى، أَوْ: لِنُرِيكَ الْكُبْرَى مِنْ آيَاتِنَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «كَانَتْ يَدُ مُوسَى أَكْبَرَ آيَاتِهِ». وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الإشارة: يُقَالُ لِلْفَقِيرِ: وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ أَيُّهَا الْفَقِيرُ؟ فيقول: هِيَ دُنْيَايَ أَعْتَمِدُ عَلَيْهَا فِي مَعَاشِي وَقِيَامِ أُمُورِي، وَأَنْفَقَ مِنْهَا عَلَى عِيَالِي، وَلِي فِيهَا حَوَائِجُ أُخْرَى؛ مِنَ الزَّيْنَةِ وَالتَّصَدُّقِ وَفِعْلِ الْخَيْرِ، فيقالُ لَهُ: أَلْقَهَا مِنْ يَدِكَ أَيُّهَا الْفَقِيرُ، وَأَخْرِجْ عَنْهَا، أَوْ أَخْرِجْهَا مِنْ قَلْبِكَ إِنْ تَيْسَّرَ ذَلِكَ مَعَ الْغِيْبَةِ عَنْهَا، فَأَلْقَاهَا وَخَرَجَ عَنْهَا، فَيَلْقِيَهَا، فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ كَانَتْ تَلْدَغُهُ وَتَسْعَى فِي هَلَاكِهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ. فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنَ الْيَقِينِ، وَحَصَلَ عَلَى غَايَةِ التَّمَكُّنِ، قِيلَ لَهُ: خُذْهَا وَلَا تَخَفْ مِنْهَا، حَيْثُ رَفَضَتْ الْأَسْبَابَ، وَعَرَفَتْ مُسَبِّبَ الْأَسْبَابِ، فَاسْتَوَى عِنْدَكَ وَجُودُهَا وَعَدَمُهَا، وَمَنْعُهَا وَإِعْطَاؤُهَا، سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى، تَأْخُذُ مِنْهَا مَأْرِيكَ، وَتَخْدُمُكَ وَلَا تَخْدُمُهَا. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «يَا دُنْيَايَ، اخْدُمِي مِنْ خِدْمَتِي، وَأَتَّبِعِي مِنْ خِدْمَتِكَ» (١).

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي حَدِيثٍ آخَرَ مَرْفُوعًا: «تَمَرَّرِي عَلَى أَوْلِيَائِي وَلَا تَحْلُولِيهِمْ فَتَفْتَنَهُمْ عَنِّي» (٢) فَالْمُرَادُ بِالْمَرَارَةِ: مَا يَصِيبُهُمْ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالْأَمْرَاضِ وَتَعَبِ الْأَسْفَارِ، وَإِذَاءِ الْفَجَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَقَدْ يَلْحَقُهُمُ الْفَقْرُ الظَّاهِرُ شَرْفًا لَهُمْ، لِقَوْلِهِ ﷺ: «الْفَقْرُ فَخْرِي وَبِهِ أَفْتَخِرُ» (٣)، أَوْ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنْ صَحَّ». وَقَالَ شَيْخُنَا الْبُوزِيدِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

(١) أَخْرَجَهُ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي تَارِيخِهِ (٤٤/٨) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي الْفَوَائِدِ (ص/٢٣٨): «وَفِي إِسْنَادِهِ الْحَسَنُ بْنُ دَارْدٍ وَالحَدِيثُ مَوْضُوعٌ». وَالحَدِيثُ فِي الْإِتِّحَافِ السَّنِيَّةِ (٢٥٧) لِلدَّيْلَمِيِّ مُخْتَصَرًا.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَبِ (ح/٩٨٠٠) بِنَحْوِهِ وَمَطْوَلًا عَنْ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ، وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ: لَمْ نَكْتُبْهُ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ، وَفِيهِ مُجَاهِلٌ. وَالحَدِيثُ فِي الْإِتِّحَافَاتِ (٢٥٨) لِلدَّيْلَمِيِّ.

(٣) قَالَ الْقَارِي فِي الْأَسْرَارِ الْمَرْفُوعَةِ (ص/٢٥٥، ح/٣٢٠) «قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: «مَوْضُوعٌ لَا أَصْلَ لَهُ».

الحديث الأول: في الصالحين المتوجهين من أهل الظاهر، والثاني - يعني تمرى... الخ - في الأولياء العارفين من أهل الباطن. هـ. ويقال له أيضاً - إن تجرد وألقى الدنيا من يده وقلبه: انضم يد فكرتك إلى قلبك، تخرج بيضاء نورانية صافية، لا تخليط فيها ولا نقص، هي آية أخرى، بعد آية التجريد والصبر على مشاقه.

وقال في اللباب: اليد: يد الفكر، والجيب: جيب الفهم، وخروجها بيضاء بالعرفان. هـ. قال الورتجبي: أرى الله موسى من يده أكبر آية، وذلك أنه ألبس أنوار يد قدرته يد موسى، فكان يد موسى يد قدرة الله، من حيث التخلق والاتصاف، كما في حديث: «كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً». هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ابتداء رسالة موسى عليه السلام، فقال:

﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۖ (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ۖ (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۖ (٢٩) هَارُونَ أَخِي ۖ (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۖ (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۖ (٣٢) كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا ۖ (٣٣) وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۖ (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَاصِرًا ۖ (٣٥) ﴾

قلت: (هارون): مفعول أول، و(وزيراً): مفعول ثان، قُدِّم؛ اعتناء بشأن الوزارة، و(لى): صلة، لاجعل، أو متعلق بمحذوف؛ حال من (وزيراً)؛ لأنه صفة له في الأصل. و(من أهلي): إما صفة وزيراً، أو صلة لاجعل، وقيل: إن (لى وزيراً): مفعولاً لاجعل، و(هارون): عطف بيان لوزير. و(أخى) في الوجهين: بدل من هارون، أو عطف بيان آخر.

يقول الحق جل جلاله، للبيه موسى عليه السلام: ﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ بما رأيته من الآيات الكبرى، وادعه إلى عبادتي وحدي، وحذره من نقمتي، ﴿ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أى: جاوز الحد في التكبر والعتو والتجبر، حتى تجاسر على دعوى الربوبية. ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام مستعيناً بربه عز وجل: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ أى: وسعه حتى لا يضيق بحمل أعباء الرسالة، ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ أى: سهله حتى لا يصعب على شيء أقصده. والجملة استئنافية بيانية، كأن سائلاً قال: فماذا قال عليه السلام، حين أمر بهذا الأمر الخطير والخطب العسير؟ فقيل: قال رب اشرح لى صدرى... الخ.

كأنه، لما أمر بهذا الخطاب الجليل، تضرع إلى ربه الجليل، وأظهر عجزه وضعفه، وسأل ربه تعالى أن يوسع صدره، ويفسح قلبه، ويجعله عليمًا بشؤون الناس وأحوالهم، حليماً صبوراً عنهم، ليلتقى ما عسى أن يرد عليه من

الشدائد والمكاره، بجميل الصبر وحسن الثبات، فيلقاها بصدر فسيح، وجأش رابط، وأن يسهل عليه مع ذلك أمره، الذي هو أجل الأمور وأعظمها، وأصعب الخطوب وأهولها، بتيسير الأسباب ورفع الموانع. وفي زيادة كلمة (لى)، مع انتظام الكلام بدونها، تأكيد لطلب الشرح والتيسير؛ بإبهام المشروح والميسر أولاً، ثم تفسيرهما ثانياً، وفي تقديمهما وتكريرهما: إظهار مزيد اعتناء بشأن كل من المطلوبين، وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما.

ثم قال: ﴿وَاحْلُلْ﴾ أى: امشط وافسح ﴿عَقْدَةَ مِنْ لِسَانِي﴾، روى أنه كان فى لسانه رتة من أثر جمرة أدخلها فاه فى صغره. وذلك أنه كان فى حجر فرعون ذات يوم، فلطمه ورتف لحيته، فقال فرعون لآسية امرأته: هذا عدو لى، فقالت آسية: على رسلك، إنه صبى لا يفرق بين الجمر والياقوت، ثم جاءت بطستين فى أحدهما الجمر، وفى الآخر الياقوت، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار، حتى رفع جمرة ووضعها على لسانه، فبقيت له رتة فى لسانه، واختلف فى زوال العقدة بكما لها؛ فمن قال به تمسك بقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾، ومن لم يقل به احتج بقول: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يَبِينُ﴾ (٢).

وأجاب عن الأول: بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية، بل حل عقدة تمنع الإفهام، فخفف بعضها لدعائه، لا جميعها، ولذلك نكرها ووصفها بقوله: ﴿مِنْ لِسَانِي﴾ أى: عقدة كائنة من عقد لسانى ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ أى: إن تحل عقدة لسانى يفقهوا قولى.

﴿وَاجْعَلْ لِي وَزيراً﴾ أى: معيناً ومقوياً ﴿مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي﴾؛ ليعيننى على تحمل ما كلفتنى به من أعباء التبليغ. ﴿أَشْدَدَ بِهِ أَزْرَى﴾ أى: ق به ظهري، ﴿وَأَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي﴾؛ واجعله شريكاً لى فى أمر الرسالة، حتى نتعاون على أدائها كما ينبغي، ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً﴾، هو غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة، من قوله: (واجعل لى وزيراً...) الخ، ولا شك أن الاجتماع على العبادة والذكر سبب فى دوامهما وتكثيرهما. وفى الحديث: «يد الله مع الجماعة» (٣)، ولذلك ورد الترغيب فى الاجتماع على الذكر: والجمع فى الصلاة؛ ليقوى الضعيف بالقوى، والكسلان بالنشيط، وقيل: المراد بكثرة التسبيح والذكر ما يكون منها فى تضاعيف أداء الرسالة ودعوة المردة العتاة، لأنه هو الذى يختلف فى حالتي التعدد والانفراد، فإن كلاً منهما يصدر منه، بتأييد الآخر، من إظهار الحق، مالا يصدر منه حال الانفراد. والأول أظهر.

و«كثيراً»: وصف لمصدر أو زمن محذوف، أى: ننزهك عما لا يليق بجلالك وجمالك، تنزيهاً كثيراً، أو زمناً كثيراً، ومن جملة ذلك: ما يدعيه فرعون الطاغية، وتقبله منه الفئة الباغية من ادعاء الشرك فى الألوهية.

(١) من الآية ٣٤ من سورة القصص. (٢) من الآية ٥٢ من سورة الزخرف.

(٣) أخرجه الترمذى فى (الفتن، باب ما جاء فى لزوم الجماعة)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الترمذى: حديث حسن.

﴿ وَنَذْكُرْكَ ﴾ ؛ بأن نصفك بما يليق بك من صفات الكمال، ذكراً ﴿ كثيراً ﴾، إنك كنت بنا بصيراً ﴿ أى: عالماً بأحوالنا، وبأن ما دعوناك به مما يصلحنا ويقوينا على ما كلفتنا من أداء الرسالة، و (بنا): متعلق ببصيرا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فإذا انخلت أيها الفقير عن الكونين، وألقيت عصاك بوادي البين، فاذهب إلى فرعون نفسك ووجود حسك، إنه طغى عليك، حيث حجبك عن شهود ربك، فلا حجاب بينك وبين ربك، إلا حجاب نفسك، ووقوفك مع شهود حسك، فهو أكبر الفراعين في حقك، فاهدم وجوده، وأغرق في بحر الحقيقة شهوده، وذلك بالغيبة عنه في شهود مولاه، فإذا تعسر الأمر عليك فاستعن بمولاك، وقل: اللهم اشرح لي صدري، ووسع لمعرفتك، ويسر لي أمري في السير إلى حضرة قدسك، واحلل عقدة الكون من قلبي ولساني، حتى لا أعقد إلا على محبتك، ولا أتكلم إلا بذكرك وشكرك، كما قال الشاعر:

فإن تكلمت لم أنطق بغيركم وإن صمت فأنتم عقد إضماري.

واجعل لي وزيراً من أهلي، وهو شيخى، أشدد به أزرى، وأشركه في أمري، حتى يتوجه بكلية همته إلى سري، كي تنزهك تنزيهاً كثيراً، بحيث لا نرى معك غيرك، ونذكرك كثيراً، بحيث لا نفتر عنذكرك بالقلب أو الروح أو السر، إنك كنت بنا بصيراً. قال الورتجبي: قوله تعالى: (اذهب إلى فرعون.. الخ، لما علم موسى مراد الحق منه بمكابدة الأعداء، والرجوع من المشاهدة إلى المجاهدة، سأل من الحق شرح الصدر، وإطلاق اللسان، وتيسير الأمر، ليطبق احتمال صحبة الأضداد ومكابدتهم. ثم قال: فطلب قوة الإلهية وتمكيناً قادرياً بقوله: (رب اشرح لي صدري)، عرف مكان مباشرة العبودية أنها حق الله، وحق الله في العبودية مقام امتحان، وفي الامتحان حجاب عن مشاهدة الأصل، فخاف من ذلك، وسأل شرح الصدر، أى: إذا كنت في غين الشريعة عن مشاهدة غيب الحقيقة، اشرح صدري بنور وقائع المكاشفة، حتى لا أكون محجوباً بها عنك. ألا ترى إلى سيد الأنبياء والأولياء صلوات الله عليه، كيف أخبر عن ذلك الغين، وشكى من صحبة الأضداد في أداء الرسالة، بقوله: «إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم سبعين مرة» هـ. وفيه مقال (١)، إذ هو غين أنوار لا غين أغيار، فتأمله. والله تعالى أعلم.

ثم أجاب الحق جل جلاله سؤاله، فقال:

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾ (٣٦) ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ (٣٧)

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ

(١) بل فيه مقالات، فالشريعة يستحيل أن تكون غيباً، والله تعالى يقول فيها «ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها» ويقول: «وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا..». ويقول: «وكذلك جعلناه نوراً» فشريعتنا روح ونور.

يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لَهٗ وَالْقَيِّتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٦﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ
فَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا
فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوِسِي ﴿٣٧﴾
وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٣٨﴾

قلت: (مرة): منصوب على الظرفية الزمانية، وأصله: فعلة، من المرور، اسم للمرور الواحد، ثم شاع في كل فرد واحد من أفراد أمثاله، ويقرب منها الكرة والرجعة. و (إذ): ظرف لمثلاً، و (أن أقدفيه): مفسرة، أو مصدرية، و (يأخذه): جواب، أن أقدفيه، و (لتصنع): متعلق بالقيت، عطف على علة مضمرة، أي: ليتعطف عليك ولتربي على حفظي ورعايتي. و (إذ تمشي): ظرف (لتصنع) على أن المراد وقت مشيها إلى بيت فرعون، وما يترتب عليه من القول والرجع إلى أمه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ الله تعالى لموسى ﴿عليه السلام﴾: ﴿قد أوتيت سؤالك﴾ أي: أعطيت مسؤولك، وبلغنا لك مأمورك في كل ما طلبت منا. والإبقاء، هنا، عبارة عن تعلق الإرادة بوقوع تلك المطالب وحصولها، وإن كان وقوع بعضها مستقبلاً، ولذلك قال: ﴿سنشدُّ عضدك بأخيك﴾ (١)، وإعادة اللداء في قوله: ﴿ياموسى﴾ تشريراً له بتوجيه الخطاب بعد تشريفه بإجابة المطلب.

ثم ذكره بنعمة أخرى قد سلفت، فقال: ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾ قبل أن يكون منك لنا طلب، فكيف لا نجيبك بعد الطلب؟ وتلك المنة: ﴿إذ أوحينا إلى أمك﴾ حين تحيرت في أمرك، وخافت عليك من عدوك، فأوحينا إليها وحى منام أو إلهام أو بملك كريم - عليهما السلام - فقلنا لها: ﴿أن أقدفيه في التابوت﴾ أي: ضعيه فيه، وأغلقى عليه حتى لا يصل الماء إليه، ﴿فاقدفيه في اليم﴾ أي: ألقه في البحر بتابوته، ﴿فليلقه اليم بالساحل﴾ أي: فسيرميه البحر بالساحل، ولما كان اللقاء البحر له بالساحل أمراً واجب الوقوع؛ لتعلق الإرادة الربانية به، جعل البحر كأنه مأمور بالقاءه، ذو تمييز، مطيع، فإن يلقه ﴿يأخذه عدو لي وعدو له﴾ وهو فرعون. ولا تخافى عليه؛ ﴿إننا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ (٢). وتكرير عداوته والتصريح بها؛ للإشعار بأن عداوته له، مع تحققها، لا تنصره، بل تؤدي إلى محبته، لأن الأمر بما فيه الهلاك؛ من القذف في البحر، ووقوعه في يد العدو، مشعر بأن هناك ألطافاً خفية، ومنناً كامنةً مدرجة تحت قهر صورى.

(١) من الآية ٣٥ من سورة القصص.

(٢) كما جاء في الآية ٧ من سورة القصص.

وليس المراد بالساحل نفس الشاطئ، بل ما يقابل الوسط، وهو ما يلي الساحل من البحر، حيث يجرى ماؤه إلى نهر فرعون، لما روي أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً، ووضعت فيه، ثم قيرته (١) وألقته في اليم. وقيل: كان التابوت من البردي، صنعه أمه. وقال مقاتل: صنعه لها رجل مؤمن اسمه حزقييل، ثم طلقه بالقار. أي: الزفت. وألقته في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهركبير، فدفعه الماء إليه، فأتى به إلى بركة في البستان، وكان فرعون جالساً ثم مع آسية بنت مزاحم، فأمر به فأخرج، فإذا فيه صبي أصبح الناس وجهاً، فأحبه فرعون حباً شديداً لا يكاد يتمالك الصبر عنه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾، قال ابن عباس: أحبه وحببه إلى خلقه. وقال قتادة: ملاحه كانت في عيني موسى، ما رآه أحد إلا عشقه، أي: وألقيت عليك محبة عظيمة كائنة مني، قد زرعت في القلوب، بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك، ولذلك أحبك عدو الله وأهله، وذلك ليتعطف عليك.

﴿وَلَتَصْنَعِ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ أي: ولترى بالحنو والشفقة، وتغذي بمرأى مني، مصحوباً برعايتي وحفظي، في أحسن تربية ونشأة. وكان ابتداء ذلك: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ تتبع تابوتك، فلما أخرجت التمسوا لك المراضع، ﴿فَتَقُولُ﴾ لفرعون وآسية، حين رأتهما يطبلان له مربية يقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدياً. وصيغة المضارع في الفعلين؛ لحكاية الحال الماضية، والأصل: إذ مشيت فقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾؟ يضمه إلى نفسه ويربيه، وذلك إنما يكون بقبول ثديها. روي أنه فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاماً في الليل لا يرتضى ثدي امرأة، واضطروا إلى تتبع النساء، فخرجت أخته مريم لتتعرف خبره، فجاءت متكررة، فقالت ما قالت، وقالوا: نعم، فجاءت بأمه فقبل ثديها.

قال تعالى: ﴿فَرَجَعْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّكَ﴾؛ وفاء بعهدها، ﴿كَي تَقْرَأَ عَلَيْهَا﴾ بلفائك، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: ولا يطرأ عليها حزن بفراقك بعد ذلك، ﴿وَقَتْلْتَ﴾ بعد ذلك ﴿نَفْسًا﴾، وهي نفس القبطي الذي استغاثه الإسرائيلي عليه. قال كعب: كان إذ ذاك ابن ثنتي عشرة سنة، ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي: غم قتله، خوفاً من عقاب الله تعالى بالمغفرة، ومن اقتصاص فرعون، بوحينا إليك بالمهاجرة، ﴿وَفَتَّنَاكَ فِتْنًا﴾ أي: ابتليتك ابتلاءً عظيماً، وخلصناك مرة بعد أخرى، حتى صلحت للنبوة والرسالة، وهو تحمل ما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن، ومفارقة الأحباب، والمشى راجلاً، وفقد الزاد، بعد ماخلصه من الذبح، ثم من البحر، ثم من القصاص بالقتل. وسئل عنها ابن عباس، فقال: خلصناك من محنة بعد محنة، ولد في عام كان يقتل فيه الغلمان، فهذه فتنة، وألقته

(١) أي: دهنته بالقار.

أمه في البحر، وهم فرعون بقتله، وقتل قبطياً، وأجر نفسه عشر سنين، وصل الطريق، وتفرقت غنمه في ليلة مظلمة، فكل واحدة من هذه فتنة هـ. لكن الذي يقتضيه النظم الكريم أن لا تعد إجارته نفسه وما بعدها من الفتون؛ لأن المراد: ما وقع له قبل وصوله إلى مدين، بدليل قوله تعالى: ﴿فلبثت سنين في أهل مدين﴾، إذ لا ريب أن الإجارة وما بعدها كانت بعد وصوله إلى مدين، أي: لبثت عشر سنين في أهل مدين.

وقال وهب: لبث عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة، عشراً منها في مهر امرأته صفراء بنت شعيب، وثمانى عشرة أقام عنده حتى ولد له. وأشار باللبث في مدين، دون الوصول إليها، إلى ما أصابه في تضاعيفها، من فنون الشدائد والمكاره، التي كل واحدة منها فتنة. و «مدين»: بلدة شعيب عليه السلام، على ثمانى بمراحل من مصر، ولم تبلغها مملكة فرعون، خوفاً على نفسه من هيبة النبوة أن يصيبه ما أصاب من خالفه.

﴿ثم جئت﴾ إلى المكان الذي أنست فيه النار، ورأيت فيه الخوارق، وخصصت فيه بالرسالة، ﴿على قدر﴾ قدرته لك في الأزل، ووقت عينته لك، لأكلمك وأرسلك فيه إلى فرعون، فما جئت إلا على ذلك القدر، غير متقدم ولا متأخر، وقيل: على مقدار من الزمان، يوحى فيه إلى الأنبياء، وهو رأس أربعين سنة. ﴿واصطنعتك لنفسى﴾ أى: اختصصتك بالرسالة والمحبة والمناجاة، وهو تذكير لقوله: ﴿وأنا اخترتك﴾، وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون مؤيداً بأخيه، حسبما طلب، بعد تذكيره المدن السالفة، زيادة في وثوقه عليه السلام بحصول نظائره من اللاحقة، والعدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى: ﴿وفتاك﴾ إلى تاء المتكلم؛ لمناسبتها للنفس؛ فإنها أدخل في تحقيق الاصطناع والاستخلاص، والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال قد أوتيت سؤلك أيها الفقير، حيث وصلناك إلى من يأخذ بيدك، ويرشدك إلى ربك ويربيك. ولقد مننا عليك مرة أخرى، حيث أنشأناك بين أبوين مسلمين، فقدفناك في تابوت الإسلام، ثم في نهر الإيمان، ثم رميناك في بحر العرفان، وألقينا عليك محبة منا، فأحببتنا وأحببتنا، وألقينا محبتك في قلوب عبادنا، فتربيت في حفظنا ورعايتنا، فلما فارقت الأوطان وهجرت الإخوان، في طلب تحقيق العرفان، رددناك إليهم بعد التمكين، لتنهضهم إلى الله، فتقر أعينهم بطاعة رب العالمين، وقتلت نفساً كانت تحجبك عن ربك، فنجيناك من غم الحجاب، وأخرجناك من سجن الأكوان، إلى فضاء الشهود والعيان، وفتناك بمجاهدة نفسك فتوناً عظيماً، فتنة الفقر، ثم فتنة الذل، ثم فتنة هجر الأوطان، حتى تخلصت من حبس الأكوان، وجئت إلينا على قدر قدرناه لك، ووقت عيناك لفتحك، فاصطنعتك لنفسى، واجتبيتك لحضرتى بسابق عنايتى، من غير حول منك ولا قوة، فعنايتنا فيك سابقة، فأين كنت حين واجهتك عنايتنا، وقابلتك رعايتنا؟ لم يكن في أزلنا إخلاص أعمال، ولا وجود أحوال، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال ووجود النوال، كما في الحكم. وأنشدوا:

فَلَا عَمَلٌ مِّنِي إِلَيْكَ اكْتَسَبْتَهُ سَوَى مَحْضٍ فَضْلٍ لَا بَشَىءٌ يُعَلَّلُ

وقال آخر:

بَلَقَ نَائِصِ الْأَمْوَالِ وَالْأَرْيَاحِ	قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُ أَنْ وَصْلَكَ يَشْتَرِي
تُقْنِي عَلَيْنَهُ كَرَائِمِ الْأَرْيَاحِ	وَوَظَنْتُ جَهْلًا أَنْ حُبَّكَ هَيِّنٌ
تَخْتَارُهُ بَلَطَائِفِ الْإِمْنَانِ	حَتَّى رَأَيْتُكَ تَجْتَبِي وَتَخْصُ مِنْ
فَلَوَيْتُ رَأْسِي تَحْتَ طَى جَنَاحِ	فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَا تُنَالُ بِحِيلَةٍ
أَبْدًا وَفِيهِ تَوَطُّسُنِي وَرَوَّاحِ	وَجَعَلْتُ فِي عَشِّ الْغَرَامِ إِقَامَتِي

ثم أرسلهما الحق تعالى إلى فرعون، فقال:

﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نُبَيِّنُ فِي ذِكْرِي ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ ﴿٤٣﴾
 فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ ﴿٤٥﴾
 قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى ﴾ ﴿٤٦﴾ فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا
 بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ
 أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ ﴿٤٨﴾

يقول الحق جل جلاله لسيدنا موسى عليه السلام: ﴿ اذهب أنت وأخوك ﴾ أي: ليذهب معك أخوك ﴿ بآياتي ﴾ : بمعجزاتي التي أريتكمها، من اليد والعصا، فإنهما وإن كانتا اثنتين، لكن في كل واحدة منهما آيات، فإن في انقلاب العصا حيواناً: آية، وكونها ثعباناً عظيماً: آية، وسرعة حركته، مع عظم جرمه: آية، وكذلك اليد؛ فإن بياضها في نفسه آية، وشعاعها آية، ثم رجوعها إلى حالتها الأولى آية. والباء للمضاحبة، أي: اذهبا مصحوبين بمعجزاتنا، مستمسكين بها، ﴿ وَلَا تَبَيِّنْ ﴾ : لا تفترا ولا تقصرا ﴿ فِي ذِكْرِي ﴾ : عند تبليغ رسالتي، ولا يشغلكما معاناة التبليغ عن ذكرى، بما يليق بحالكما؛ من ذكر لسان أو تفكر أو شهود، فلا تغيبا عن مشاهدتي باشتغالكما بأمرى، حتى لا تكونا فاترين في عيني.

﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ : تجبر وعلا. ولم يكن هارون حاضراً وقت هذا الوحى، وإنما جمعتهما؛ تغليباً. روى أنه أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى - عليهما السلام، وقيل: سمع بإقباله فلتقاه.

﴿ فقولاً له قولاً لنا ﴾ ؛ لأن تليين القول مما يكسر ثورة عناد العتاة، ويلين عريكة الطغاة. قال ابن عباس: أى: لا تعنفا فى قولكما. وقيل: القول اللين: ﴿ هل لك إلى أن تزكى .. ﴾ الخ، ويعارضه قوله بعد: ﴿ فقولاً لنا رسولاً ربك ﴾ وقيل: كنياه، وكان له ثلاثة كنى: أبو العباس، وأبو الوليد، وأبو مرة. وقيل: عداه على قبول الإيمان شباباً لا يهرم، ومُلكاً لا ينزع منه إلا بالموت، وتبقى عليه لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى الموت. وقيل: اللطافة فى القول؛ فإنه رباك وأحسن تربيتك، وله عليك حق الأبوة، ﴿ لعله يتذكر ﴾ بما بلغتاه من ذكر، ويرغب فيما رغبتهما فيه، ﴿ أويخشى ﴾ عقابى.

ومحل الجملة: النصب على الحال من ضمير التثنية، أى: فقولاً له قولاً لنا، راجيين تذكركه، أى: باسراً وعظه مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر علمه ولا يخيب سعيه. وفائدة هذا الإبهام: الحث على المبالغة فى وعظه. هذا جواب سيويه عن الإشكال، وهو أنه تعالى علم أنه لا يؤمن، وقال: ﴿ لعله يتذكر ﴾، فصرف الرجاء إلى موسى وهارون، أى: اذهبا على رجائكما. وقال الوراق: قد تذكر حين أجمه الغرق. وقال الزجاج: خاطبهم بما يعقلون. قلت: كونه تعالى علم أنه لا يؤمن هو من أسرار القدر الذى لا يكشف فى هذه الدار، وهو من أسرار الحقيقة، وإنما بعثت الرسل بإظهار الشرائع، فخاطبهم الحق تعالى بما يناسب التبليغ فى عالم الحكمة، والله تعالى أعلم. وجدوى إرسالهما إليه، مع العلم بإحالته، إلزام الحجة وقطع المعذرة.

﴿ قالاً ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا ﴾ أى: يعجل علينا بالعقوبة، ولا يصبر إلى تمام الدعوة وإظهار المعجزة. وهو من « فرط » إذا تقدم، ومنه: الفارط، للوليد الذى مات صغيراً. وقرئ بضم الياء، من « أفرط » إذا حمّله على العجلة، أى: نخاف أن يحمله حامل من الاستكبار والخوف على الملك أو غيرهما، على المعاجلة والعقاب، ﴿ أو أن يطغى ﴾؛ يزداد طغياناً، كأن يقول فى شأنك ما لا ينبغي، لكمال جرأته وقساوته، وإظهار أن؛ لإظهار كمال الاعتناء بالأمر، والإشعار بتحقيق الخوف من كل منهما، وهذا القول يحتمل أن يكون قاله موسى ودخل هارون بالتبع، إيداناً بأصالة موسى ﷺ فى كل قول وفعل، وتبعية هارون ﷺ، أو يكون هارون قال ذلك بعد تلاقيهما، فحكى الله قولهما عند نزول الآية، كما فى قوله تعالى: ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ (١)، فإن هذا الخطاب قد حكى لنا بصيغة الجمع، مع أن كلا من المخاطبين لم يخاطب إلا بطريق الانفراد؛ لاستحالة جمعهم فى الوجود، فكيف باجتماعهم فى الخطاب؟.

(١) من الآية ٥١ من سورة «المؤمنون».

﴿ قال ﴾ تعالى لهما: ﴿ لا تخافا ﴾، وهو استئناف بياني، كأن قائلًا قال: فماذا قال لهما ربهما عند تضرعهما إليه؟ فقيل: قال: لا تخافا ما توهمتما من الأمرين، ﴿ إنني معكما ﴾ بحفظي ورعايتي ونصري ومعونتي، ﴿ أسمع وأرى ﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، فأفعل في كل حال ما يليق بها؛ من دفع ضرر وشر، وجلب نفع وخير.

﴿ فأتياه ﴾، أمر بإتيانه، الذي هو عبارة عن الوصول إليه، بعد ما أمر بالذهاب إليه، فلا تكرار، ﴿ فقولاً ﴾ له: ﴿ إنا رسول ربك ﴾ إليك، أمر بذلك من أول الأمر، ليعرف الطاغية شأنهما، ويبني جوابه على ذلك، ﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل ﴾ أى: أطلقهم من الأسر والقهر، وأخرجهم من تحت يدك العادية. وليس المراد إرسالهم معه إلى الشام، بدليل قوله: ﴿ ولا تعذبهم ﴾ بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب، فإنهم كانوا تحت مملكة القبط، يستخدمونهم في الأعمال الصعبة، من الحفر ونقل الأحجار، وضرب اللبن والطين، وبناء المدائن، وغير ذلك من الأعمال الشاقة، ويقتلون ذكور أولادهم عاماً دون عام، فكانت رسالة موسى إلى فرعون بالإيمان بالله وحده، وتسريح بني إسرائيل. روى أنه لما رغبه في الإيمان بذكر ما أعد الله لأهله من الخلود في الجنة والملك الدائم، أعجبه، فقال: حتى أستشير هامان، وكان غائباً، فقدم، فأخبره، فقال هامان: قد كنت أرى لك عقلاً، بينما أنت رب تصير مربوباً، وبينما أنت تعبد تصير تعبد غيرك، فغلبه على رأيه.

فقال له موسى: ﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾، قال فرعون: وما هي؟ فأدخل يده في جيب قميصه ثم أخرجها بيضاء، لها شعاع كشعاع الشمس، فعجب منها، ولم يره العصا إلا بعد ذلك، يوم الزينة. قاله الثعلبي. قلت: والذي يظهر من سورة الشعراء (١) - بل هو صريح فيها - أنه أراد العصا واليد. وإنما أفردت في اللفظ، هنا؛ لأن المراد اثبات الحجة بصحة الرسالة، لا تعدد الآية، وكذلك قوله تعالى: ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (٢)، ﴿ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾ (٣)، وأما قوله تعالى: ﴿ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٤)؛ فالظاهر أن المراد بها آية من الآيات.

ثم قال له: ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ أى: وسلام الله وملائكته والمؤمنين المقتضى سلامة الدارين، على من اتبع الهدى، بتصديق آيات الله تعالى الهادية إلى الحق، دون من اتبع الغي والهوى، وفيه من الترغيب،

(١) في قوله تعالى: ﴿ قال أولو جئتك بشيء مبين. قال فأت بها إن كنت من الصادقين. فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾. الشعراء: ٣٠ - ٣٣.

(٢) من الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

(٣) من الآية ٣٠ من سورة الشعراء.

(٤) من الآية ١٠٦ من سورة الأعراف.

في اتباعها على اللطف وجه، مالا يخفى. ﴿إنا قد أوحى إلينا﴾ من جهة ربنا، ﴿أن العذاب﴾ الدنيوى والأخروى ﴿على من كذب﴾ بآيات الله ﴿وتولى﴾ أى: أعرض عن قبولها، وفيه من التلطف فى الوعيد حيث لم يصرح بحلول العذاب به مالا مزيد عليه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى لأهل العلم ولأهل الوعظ والتذكير أن يتعاونوا على نشر العلم ووعظ العباد، ويتوجهوا إليهم فى أقطار البلاد، فإن ذلك فرض كفاية على أهل العلم، ولا يشغلهم نشر العلم عن ذكر الله، ولا تذكير العباد عن شهود الله، كما قال الله تعالى: ﴿ولاتنبا فى ذكرى﴾ أى: ولا تغفلا عن شهودى وقت إرشاد عبادى، فإن توجهوا إلى الجبابرة والفراعنة فلينبأوا لهم المقال، وليدعواهم إلى أسهل الخلال، فإن ذلك أدعى إلى الامتثال، خلافاً لمن قال هذه ملة موسوية، وأما الملة المحمدية فقال تعالى فيها: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (١)، فإن بيان الحق لا ينافى أن يكون بملاطفة وإحسان، فإن خاف الواعظ من صولة المتجبر فإن الله معه، يحفظه ويرعاه، ويسمعه ويراه، فإن لم يسمع لقوله ولم يتعظ لوعظه، فقد بلغ ما عليه، وليقل بلسان الحال أو المقال: (والسلام على من اتبع الهدى). وبالله التوفيق.

ثم ذكر جواب فرعون، فقال:

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَاسْلَكْ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴿٥٤﴾﴾
مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

قلت: (خلقه): يحتمل أن يكون اسماً بمعنى المخلوق، فيكون مفعولاً أولاً، و (كل شيء): مفعولاً ثانياً، أو يكون مصدرأ بمعنى الخلق، فيكون مفعولاً ثانياً، أى: أعطى كل شيء خلقته وصورته التى هو عليها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ فرعون فى جواب موسى، لما أناه مع أخيه وبلغا الرسالة، وقالاه ما أمرهما به ربهما، وإنما حذفه للإيجاز، وللإشعار بأنهما لما أمرا بذلك سارعا إلى الامتثال من غير تلعث، أو بأن

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.

ذلك من الظهور بحيث لا حاجة إلى التصريح به، فقال لهما فرعون: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ ؟ لم يصف الرب إلى نفسه ؛لغاية عثوه وطفغيانه، بل أضافه إليهما، وفي الشعراء: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١)، والجمع بينهما تعدد الدعوة، ففي كل مرة حكى لنا ما قال. وتخصيص النداء بموسى، مع توجيه الخطاب إليهما؛ لأنه الأصل في الرسالة، وهارون وزيره.

﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ مجيباً له: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ أي: ربنا هو الذي أعطى كل شيء خلقه، أي: مخلوقاته؛ مما يحتاجون إليه ويرتفقون به في قوام أبدانهم ومعايشهم، أو أعطى كل شيء خلقه وصورته التي يختص بها، ولم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان. ولكن خلق كل شيء فقدره تقديراً. أو أعطى كل شيء فعله وتصرفه، فاليد للبطش، والرجل للمشي، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع، أو أعطى كل شيء شكله من جنسه، للإنسان زوجة، وللبعير ناقة، وللفرس رمكة، وللحمار أتاناً. ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ إلى طريق الانتفاع والارتقاء، بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله، فألهمه الرضاع والأكل والشرب والجماع، وطلب الرعى وتوقى المهلاك، وكيف يأتي الذكر الأنثى.

ولما كان الخلق - الذي هو عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام - مقدماً على الهداية، التي هي عبارة عن إيداع القوى المحركة والمدركة في تلك الأجسام، عطف بلم المفيدة للتراخي. ولقد ساق ﷺ جوابه على نمط رائع، وأسلوب لائق؛ حيث بين أنه تعالى عالم قادر بالذات، خالق لجميع الكائنات، ملعم عليهم بجميع النعم السابغات، هادٍ لهم إلى طرق المرتفات.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ أي: ما حالها بعد الموت، وما فعل الله بها؟ فقال له موسى: هذا غيب لا يعلمه إلا الله، وهو معنى قوله: «علمها عند ربي»، أو ما حال القرون الماضية والأمم الخالية، وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة؟ فأجابه ﷺ بأن العلم بأحوالهم مفصلة مما لا ملامسة له بمنصب الرسالة، وإنما علمها عند الله عز وجل. وكان عدو الله، لما خاف أن يبهت، ويفتضح، ويظهر للناس حجة موسى ﷺ، أراد أن يصرفه ﷺ إلى مالا يعنى، من ذكر الحكايات التي لامسها لها بمنصب الرسالة؛ فلذلك أعرض عنه، و﴿قَالَ﴾ علمها عند ربي، وهذا أحسن من الأول؛ لأنه لو كان سؤاله عن أحوالها بعد الموت لأمكن أن يقول له: من اتبع الهدى منهم فقد سلم وتنعم، ومن تولى فقد عذب وتآلم، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿وَالسَّالَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾. وقيل: فما بالها لم تبعث كما يزعم موسى، أو: ما بالها لم تكن على دينك، أو: ما بالها كذبت ولم يصيبها عذاب، وكلها بعيدة.

(١) الآية ٢٣ من سورة الشعراء.

قلت: والذي يظهر أن الطاغية فهم قوله تعالى: ﴿ثم هدى﴾ أي: إلى الإيمان، فاعترض بقوله: فما بال القرون الأولى لم تؤمن حتى هلك؟ فأجابه موسى عليه السلام بقوله: ﴿علمها عند ربى﴾، فهو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى. وقوله: ﴿فى كتاب﴾ أي: اللوح المحفوظ، فقد أثبتت فيه بتفاصيلها، ويجوز أن يكون ذلك عبارة عن تمكنه وتقريره فى علم الله - عز وجل - تمكن من است حفظ الشيء، وقيدته بالكتابة، كما يلوح به قوله تعالى: ﴿لا يضل ربى﴾ أي: لا يخطئ ابتداء، ﴿ولا ينسى﴾ فيتذكر. وفيه تنبيه على أن كتابته فى اللوح المحفوظ ليس لحاجته إليه فى العلم به ابتداء أو بقاء. وإظهار (ربى) فى موضع الإضمار، للتلذذ بذكره، وللإشعار بعلية الحكم؛ فإن الربوبية مما تقتضى عدم الضلال والنسيان.

ولقد أجاب عليه عن السؤال بجواب عبقرى بديع، حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها، مع أنه لم يخرج عما كان بصدد من بيان شئونه تعالى، ووصف الحق تعالى بأوصاف لا يمكن عدو الله أن يتصف بشيء منها، لا حقيقة ولا مجازاً، ولو قال له: هو الخالق الرازق، وشبه ذلك، لأمكن أن يغالط ويدعى ذلك لنفسه.

ثم تخلص إليه؛ حيث قال، بطريق الحكاية عن الله عز وجل، أو من كلامه عليه السلام: ﴿الذى جعل لكم الأرض مهاداً﴾ (١) أي: كالمهد تتمهدونها بالسكن والقرار، أي: جعل كل موضع منها مهذاً لكل واحد منكم. ﴿وسلك لكم فيها سبلاً﴾ أي: طرقاً تتوصلون بها من قطر إلى قطر، لتقصوا منها مآربكم، وتتفكروا بمراقفها ومنافعها، ووسطها بين الجبال والأودية لتعرف أمارات سبلها. ﴿ وأنزل من السماء ماء﴾ هو المطر، ﴿فأخرجنا به﴾، يحتمل أن يكون من كلام الله، وما قبله من كلام موسى، أو كله من كلام الله تعالى، حكاه موسى عليه السلام، وإنما التفت إلى التكلم؛ للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة، والإيدان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن، أي: فأخرجنا بذلك الماء ﴿أزواجاً﴾: أصنافاً، سميت أزواجاً؛ لازدواجها، واقتران بعضها ببعض، كائنة ﴿من نبات شتى﴾: متفرقة، جمع شتيت: أي: متفرقة، وهو، فى الأصل، مصدر، يستوى فيه الواحد والجمع، يعنى: أنها مختلفة فى الشكل واللون والطعم والرائحة والنفع، وبعضها صالح للناس على اختلاف صلاحها لهم، وبعضها للبهائم.

ومن تمام نعمته تعالى أن أرزاق عباده، لما كان تحصيلها بعمل الأنعام، جعل علفها مما يفضل عن حاجتهم، ولا يليق بكونه طعاماً لهم، وهو معنى قوله: ﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾، والجملة: حال، على إرادة القول، أي: أخرجنا منها أصناف النبات، قائلين: كلوا وارعوا أنعامكم، آذنين فى ذلك لكم.

(١) قرأ عاصم وحمره والكسائي: (مهذاً). وقرأ باقى السبعة: «مهاداً»: انظر الإنشاف (٢/٢٤٧).

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور، من شئونه تعالى، وأفعاله وأنعامه، ﴿لآيَاتٍ﴾ جليلة واضحة الدلالة على عظيم شأنه تعالى، في ذاته وصفاته وأفعاله، وعلى صحة نبوة موسى وهارون - عليهما السلام، ﴿لأولى النُّهي﴾ أي: العقول الصافية، جمع «نهيّة»، سمى بها العقل، لنهييه عن اتباع الباطل، وارتكاب القبيح، أي: لذوى العقول الناهية عن الأباطيل، التي من جعلتها ما يدعيه الطاغية وما يقبله منه الفلة الباغية. وتخصيص كونها آيات لهم، مع أنها آية للعالمين؛ لأنهم المنتفعون بها.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: من الأرض الممهدة لكم، خلقناكم بخلق أبيكم آدم ﷺ، وأنتم في ضمته، إذ لم تكن فطرته مقصورة على نفسه ﷺ، بل كانت أنموذجاً منطوياً على فطرة سائر أفراد الجنس، انطواء إجمالياً، فكان خلقه ﷺ منها خلقاً لكل منها، وقيل: خلقت أبدانكم من النطفة المتولدة من الأغذية المتولدة من الأرض. وقال عطاء: إن الملك الموكل بالرحم ينطلق، فيأخذ من تراب المكان الذي يُدفن فيه العبد، فيذره على النطفة، فتخلق من التراب ومن النطفة هـ.

﴿وفيهما نُعيدكم﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء، والكلام على الأشباح دون الأرواح، فإنها، بعد السؤال، تصعد إلى السماء، كما يأتي عند قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ...﴾ (١) الآية. ولم يقل: وإليها نُعيدكم؛ إشارة إلى استقرار العبد فيها، ﴿ومنها نُخرجكم تارة أخرى﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة، المختلطة بالتراب، على الهيئة السابقة، ورد الأرواح إليها. وكون هذا الإخراج تارة أخرى: باعتبار أن خلقهم من الأرض إخراج لهم منها، وإن لم يكن على التارة الثانية. والتارة في الأصل: اسم للتور، وهو الجريان، فالتارة واحدة منه، ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتحدة، كما مر في المرة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه، مما سبق لهم في أزل، ثم هدى إلى الأسباب الموصلة إليه، فمنهم من كان حظه في الأزل قوت الأشباح، هداه إلى أسبابها، وهم أهل مقام البعد، ومنهم من كان حظه قوت القلوب، فهداه إلى أسبابها من المجاهدة في الطاعات وأنواع القربات، وهم أنواع:

فمنهم من شغلهم بتدريس العلوم وتدقيق الفهوم، وتحرير المسائل وتمهيد النوازل، وهداهم إلى أسباب ذلك، وهم حملة الشريعة، إن صحت نيتهم وثبت إخلاصهم. ومنهم من شغلهم بتوالي الطاعات وتعمير الأوقات، وهداهم إلى أسبابها، وقواهم على مشاقها، وهم العباد والزهاد. ومنهم من شغلهم بإطعام الطعام والرفق بالأنام، وتعمير الزوايا وقبول الهدايا، وهداهم إلى أسباب عمارتها والقيام بها، وهم الصالحون. ومنهم: من كان حظه قوت الأرواح، وهم المريدون السائرون، أهل الرياضة والتصفية، والتخلية والتحلية، والتزهيب والتدريب، وهداهم إلى أسبابها، ووصلهم

(١) الآية ٨٨ من سورة الواقعة.

إلى شيخ كامل يُبَيِّدُها وَيَسْلُكُها، وهم في ذلك مقامات متفاوتة، على حسب صدقهم وجددهم، ومنهم من كان حظه قوت الأسرار، وهم العارفون الكبار، السابقون المقربون، أهل الفناء والبقاء، أهل الرسوخ والتمكين، فهداهم إلى ما أمكوا، ووصلهم إلى ما طلبوا. نفعا الله بهم، وخرطنا في سلكهم. آمين.

وقوله: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى...﴾ الآية، فيه زجر للمريد عن الاشتغال بالحكايات الماضية، لأن في ذلك شغلاً عن الله، إلا ما كان فيه زيادة إلى الله، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهَادًا﴾ أي: جعل أرض النفوس مهاداً للقيام برسم العبودية، وسلك فيها سبلاً توصل إلى مشاهدة الربوبية، لمن سلكها بالرياضة والمجاهدة، وأنزل من سماء الملكوت ماء الواردات الإلهية، تحيا به الأرواح، فتخرج أصنافاً من العلوم والحكم شتى، كلوا برعى القلوب في نوار تجلياتها، وارعوا لقوت أشباحكم من ثمار حسياتها، إن في ذلك لآيات لأولئى النهى. (منها خلقناكم): من أرض نفوسكم أخرجناكم، بشهود عظمة الربوبية، وفيها نُعيدكم؛ للقيام برسم العبودية، ومنها نُخرجكم؛ لتكونوا لله، لا لشيء دونه. أو منها خلقناكم، أي: أخرجناكم من شهود ظلمتها إلى نور خالقها، بالفناء عنها، وفيها نُعيدكم بالرجوع إلى الأثر في مقام البقاء، (ومنها نُخرجكم تارة أخرى)؛ بعقد الحرية في مقام البقاء، فتكونوا عبيداً شُكراً. وبالله التوفيق.

ثم إن فرعون لم تنفعه هذه الموعظة، ولا ما رأى من الآيات الباهرة، حتى طلب المعارضة، كما أبان ذلك الحق سبحانه بقوله:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

قلت: (موعداً): مصدر، مفعول أول لـ (اجعل). و(مكاناً): مفعول بفعل محذوف، أي: تعدنا مكاناً سوى، لا بموعداً لأنه وصف، ويجوز نصبه على إسقاط الخافض، و(يوم الزينة): على حذف مضاف، أي: مكان يوم الزينة، و(أن يحشر): عطف على يوم، أو الزينة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ أي: فرعون، ﴿آيَاتِنَا﴾، حين قال له: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ، وَنَرَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١﴾، وعبر بالجمع، مع

(١) الآيات: ٣١ - ٣٣ من سورة الشعراء.

كونهما اثنتين، باعتبار ما في تضاعيفهما من الخوارق، التي كل واحدة منها آية. وقد رأى فرعون من هاتين الآيتين أموراً دواهي، فإنه روى أنه ﷺ، لما ألقى العصا، انقلبت ثعباناً أشعر، فاغراً فاه، بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل على الأرض، والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون، فهرب وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً من قومه، فصاح فرعون: يا موسى أنشدك الذي أرسلك إلا أخذته، فأخذه، فعاد عصاً. وروى أنها، لما انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل، ثم انحطت مقبلة نحو فرعون، وجعلت تقول: يا موسى مرني بما شئت، ويقول فرعون: أنشدك .. الخ. ونزع يده من جيبه، فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً خارجاً عن العادة. ففي تضاعيف كل من الآيتين آيات جمة، لكنها لما كانت غير مذكورة بالصراحة، أكدت بقوله تعالى: ﴿كلها﴾، كأنه قيل: أريناه آياتنا بجميع مستتبعاتها وتفاصيلها، قصداً إلى بيان أنه لم يبق له في ذلك عذر.

وقيل: أريناه آياتنا التسع، وهو بعيد؛ لأنها إنما ظهرت على يده ﷺ بعد ما غلبت السحرة على مهل، في نحو من عشرين سنة، والكلام هنا قبل المعارضة، اللهم إلا أن يكون الحق تعالى أخبرنا أنه أراه الآيات التسع كلها، فأبى عن الإيمان، ثم رجع إلى إتمام القصة.

وأبعد منه: من عد في الآيات ما جعل لإهلاكهم، لا لإرشادهم إلى الإيمان؛ من فلق البحر، وما ظهر بعد مهلكه من الآيات الظاهرة لبني إسرائيل؛ من نثق الجبل والحجر، وغير ذلك، وكذلك من عد منها الآيات الظاهرة على يد الأنبياء - عليهم السلام -؛ حيث حكاها موسى ﷺ لفرعون، بناء على أن حكايته إياها له في حكم إظهارها بين يديه؛ لاستحالة الكذب عليه، فإن حكايته إياها لفرعون مما لم يجر ذكره هنا، فكل هذا بعيد من سياق النظم الكريم.

قال تعالى: ﴿فكذب﴾ فرعون موسى، ﴿وأبى﴾ الإيمان والطاعة، مع ما شاهد على يده من الشواهد الناطقة بصدقه. جحوداً وعناداً؛ لعنوه واستكباره، وقيل: كذب بالآيات جميعاً، وأبى أن يقبل شيئاً منها.

﴿قال أجتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى﴾، هذا استئناف مبين لكيفية تكذيبه وإيائه. والمعنى إما على حقيقته، أو بمعنى الإقبال على الأمر والتصدي له، أي: أجتنا من مكانك الذي كنت فيه ترعى الغنم؛ لتخرجنا من أرضنا؟ أو: أقبلت إلينا؛ لتخرجنا من مصر؛ بما أظهرت لنا من السحر، فإن ذلك مما لا يصدر عن عاقل؛ لكونه من باب محاولة المحال، وإنما قاله؛ تحريضاً لقومه على مقت موسى والبعد عنه، بإظهار أن مراده ﷺ إخراج القبط من وطنهم، وحياسة أموالهم، وإهلاكهم بالكلية، حتى لا يعيل أحد إليه، (والله غالب على أمره). وسمى ما أظهره ﷺ من المعجزة الباهرة سحراً، ثم ادعى أنه يعارضه، حيث قال: ﴿فلنأتينك بسحر مثله﴾ أي: وإذا كان الأمر كذلك، فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك، ﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً﴾ أي: وعداً ﴿لا نخلفه﴾ أي: لا نخلف ذلك الوعد، ولا نجاوزه ﴿نحن ولا أنت﴾، بل نجتمع فيه وقت ذلك الموعد،

وانما فوض اللعين أمر الوعد إلى موسى عليه السلام؛ للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب ودخول الرعب إليه، وإظهار الجلادة، بإظهار أنه متمكن من تهيلة أسباب المعارضة، طال الأمر أو قصر، كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه السلام، وتوسيط كلمة «النفى» بينهما؛ للإيدان بمسارحته إلى عدم الاختلاف.

وقوله تعالى: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أى: يكون ذلك الوعد - أى: وعد الاجتماع - فى مكان مستوٍ، تستوى مسافته بيننا وبينك، عدلاً، لا ظلم على أحد فى الإتيان إليه، منا ومنك، وفيه لغتان: ضم السين وكسرها.

﴿قال﴾ لهم موسى عليه السلام: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ أى: مكان الزينة؛ لأن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه فى ذلك اليوم، وهو يوم عيد لهم، فى كل عام يتزينون ويجمعون فيه، وقيل: يوم النيروز، وقيل: يوم عاشوراء، وقيل: يوم سوق لهم. ﴿وَأَن يَحْشُرَ النَّاسُ ضَحًى﴾ أى: موعدهم يوم الزينة، وحشر الناس ضحى، أو يوم حشر الناس فى وقت الضحى، يجمعون نهراً جهاراً، أراد عليه السلام أن يكون أبلغ فى إظهار الحجة وإدحاض الباطل، بكونه على رؤوس الأشهاد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من سبق له البعد عن الرحمن، لا ينفع فيه خوارق معجزات، ولا قاطع برهان ودليل، أبعد التكبر والطغيان، ودفع الحق بالباطل. نعوذ بالله من موارد الخذلان.

ثم ذكر جمعهم، وما كان من شأنهم، فقال:

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ ٦٠ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ ٦١ ﴿فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بِئِنَّهُمْ وَأَسْرُوا النِّجْوَىٰ﴾ ٦٢ ﴿قَالُوا إِن هَٰذَا لَسَاحِرٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَ أَكْمَرَ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ مَآوِيذَ هَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّىٰ﴾ ٦٣ ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعَلَىٰ﴾ ٦٤ ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنٍ أَلْقَىٰ﴾ ٦٥ ﴿قَالَ بَلِ الْقَوَائِدُ أَجِبَاهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَىٰ﴾ ٦٦ ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَىٰ﴾ ٦٧ ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ ٦٨ ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ ٦٩ ﴿

قلت: (إن هذان لساحران): مَنْ خَفَّفَ (إن): جعلها نافية، أو مخففة، واللام فارقة. وَمَنْ ثَقَّلَهَا وقرأها: (هذان): بالألف، فقليل: على لغة بلحارث بن كعب وخثعم وكنانة، فإنهم يَلْزِمُونَ الألف؛ رفعا ونصباً وجرا، ويُعَرِّبُونَهَا تقديراً، وقيل: اسمها: ضمير الشأن، أى: إنه الأمر والشأن هذان لهما ساحران. وقيل: (إن، بمعنى «نعم»، لا تعمل، وما بعدها: جملة من مبتدأ وخبر. وقالت عائشة - رضى الله عنها -: إنه خطأ من الكتاب، مثل قوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ (١)، ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ (٢)، فى المائدة، ويرده تواتر القراءة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ أى: انصرف عن المجلس، ورجع إلى وطنه، ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أى: حيله وسحرته؛ ليكيد به موسى ﷺ، ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ الموعد، ومعه ما جمعه من كيده وسحرته، وسيأتى عددهم.

﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى﴾، حيث اجتمعوا من طريق النصيحة: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أى: أَلْزَمَكُمْ اللهُ الويل، إن افترىتم على الله الكذب، ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يشارك أحد معه، كما تعتقدون فى فرعون، أو بأن تحيلوا الباطل حقاً، ﴿فَيَسْحَكِمْ﴾ أى: يستأصلكم، بسببه، ﴿بِعَذَابٍ﴾ لا يَقْدَرُ قدره، وقرئ رباعياً وثلاثياً، يقال: سحت وأسحت. فالثلاثى: لغة أهل الحجاز، والرباعى: لغة بنى تميم ونجد. ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ وخسر ﴿مَنْ افْتَرَى﴾ على الله، كائناً من كان، بأى وجه كان، فيدخل الافتراء الملهى عنه دخولاً أولياً، أو: قد خاب فرعون المفتري على الله، فلا تكونوا مثله فى الخيبة.

﴿فَتَنَازَعُوا﴾ أى: السحرة، حين سمعوا كلامه ﷺ، ﴿أَمْرَهُمْ﴾ أى: فى أمرهم الذى أريد منهم؛ من مغالبتة ﷺ، وتشاوروا وتناظروا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فى كيفية المعارضة، وتشاجروا، ورددوا القول فى ذلك، ﴿وَأَسْرَوْا النَجْوَى﴾ أى: من موسى ﷺ؛ لئلا يقف عليه فيدافعه، ونجواهم على هذا هو قوله: ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَمَوْسَىٰ وَهَارُونَ﴾، ﴿لِسَاحِرَانِ﴾ عظيمان ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ﴾؛ مصر، بالاستيلاء عليها ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ الذى أظهره قبل، ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾ أى: بمذهبكم، الذى هو أفضل المذاهب وأمثلها، بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما.

قال ابن عطية: والأظهر، فى الطريقة هنا، أنه السيرة والمملكة. والمثلى: تأنيث الأمل، أى: الفاضلة الحسنة. هـ. وقيل: الطريقة هنا: اسم لوجوه القوم وأشرفهم، لأنهم قدوة لغيرهم، والمعنى: يريدان أن يصرفا وجوه الناس وأشرفهم إليهما، ويبطلان ما أنتم عليه. وقال قتادة: (طريقتهما المثلى يومئذ: بنو إسرائيل، كانوا أكثر القوم

(١) من الآية ١٦٢ من سورة النساء.

(٢) من الآية ٦٩ من سورة المائدة. وللأوسى - رحمه الله - كلام طيب فى هذه القضية، راجعه فى تفسيره (٢٢٤/١٦).

عدداً وأموالاً، فقال فرعون: إنما يريدان أن يذهبا به لأنفسهما). ولا شك أن حمل الإخراج على إخراج بنى إسرائيل من بينهم، مع بقاء قوم فرعون على حالهم آمنين في ديارهم: بعيد، مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله.

وقوله تعالى: ﴿فاجمعوا كيدكم﴾: تصريح بالمطلوب، أى: إذا كان الأمر كما ذكر، من كونهما ساحرين يريدان إخراجكم من بلادكم، فاجمعوا كيدكم، أى: اجعلوه مجمعاً عليه، بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم، وارموه عن قوس واحدة. وقرأ أبو عمرو: (فاجمعوا)، من الجمع، أى: فاجمعوا أدوات سحركم ورتبوها كما ينبغي، ﴿ثم ائتوا صفاً﴾ أى: مصطفين، أمروا بذلك؛ لأنه أهيب في صدور الرائيين، وأدخل في استجلاب الرهبة من المشاهدين. قيل: كانوا سبعين ألفاً، مع كل واحد منهم حبل وعصا، وأقبلوا عليه إقبالة واحدة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين ساحراً؛ إثنان من القبط، والباقي من بنى إسرائيل، وقيل: تسعمائة؛ ثلاثمائة من الفرس، وثلاثمائة من الروم، وثلاثمائة من الإسكندرية، وقيل: خمسة عشر ألفاً. والله تعالى أعلم. ولعل الموعد كان مكاناً متسعاً، خاطبهم موسى ﷺ بما ذكر في قطره من أقطاره، وتنازعوا أمرهم في قطر آخر، ثم أمروا أن يأتوا وسطه على الوجه المذكور.

ثم قالوا في آخر نجواهم: ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾؛ فاز بالمطلوب من غلب، يريدون بما وعدهم فرعون من الأجر والتقريب، أو بالرياسة والجاه والذكر الحسن في الناس. وقيل: كان نجواهم أن قالوا - حين سمعوا مقاله موسى ﷺ: ما هذا بقول ساحر، وقيل: كان ذلك أن قالوا: إن غلبنا موسى اتبعناه، وقيل: قالوا فيها: إن كان ساحراً غلبناه، وإن كان من السماء فله أمر. فيكون إسرارهم حينئذ من فرعون، ويحمل قولهم: ﴿إن هذان لساحران...﴾ الخ، على أنهم اختلفوا فيما بينهم على الأقاويل المذكورة، ثم أعرضوا عن ذلك بعد التنازع والتناظر، واستقرت آراؤهم على المغالبة والمعارضة. والله تعالى أعلم بما كان.

ثم طلبوا المعارضة، فقالوا: ﴿ياموسى إما أن تلقى﴾ ما تلقىه أولاً، ﴿وإما أن نكون أول من ألقى﴾ ما تلقىه. خيروه ﷺ فيما ذكر؛ مراعاة للأدب، لما رأوا عليه من مخايل الخير، وإظهاراً للجلادة، ﴿قال بل ألقوا﴾ أنتم أولاً، مقابلة لأدبهم بأحسن منه، فبِت القول بالقائهم أولاً، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم، ومساعدة لما أوهموا من الميل إلى البدء، وليستفرغوا أقصى جهدهم وسعيهم، ثم يظهر الله سبحانه سلطانه، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه، كما تعود من ربه.

فألقوا ما عندهم، ﴿فإذا حيالهم وعصيتهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ أى: ففوجيء موسى، وتخيل سعى حيالهم وعصيتهم من سحرهم، وذلك أنهم كانوا لطحوها بالزئبق، فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت، فخيّل إليه أنها تتحرك. قلت: هكذا ذكر كثير من المفسرين. والذي يظهر أن تحريكها إنما كان

من تخييل السحر الذي يقلب الأعيان في مرأى العين، كما يفعله أهل الشعوذة، وهو علم معروف من علوم السحر، ويدل على ذلك ما ورد أنها انقلبت حيات تعشى على بطونها، تقصد موسى ﷺ، فكيف يفعل الزئبق هذا؟ قال ابن جزى: استدل بعضهم بهذه الآية أن السحر تخييل لا حقيقة له. هـ.

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً ﴾ أى: خوفاً، ﴿ موسى ﴾ أى: أضمر في نفسه بعض خوف، من جهة الطبع البشرى المجبول على النفرة من الحيات، والاحتراز من ضررها. وقال مقاتل: إنما خاف موسى، إذ صنع القوم مثل صنيعه، بأن يشكوا فيه، فلا يتبعوه، ويشك فيه من تابعه. ﴿ قلنا لا تخف ﴾ ما توهمت، ﴿ إنك أنت الأعلى ﴾، الغالب عليهم، والجملة: تعليل للهيبة عن الخوف، وتقرير لغلبته، على أبلغ وجه، كما يعرب عنه الاستئناف، وحرف التحقيق، وتأکید الضمير، وتعريف الخبر، ولفظ العلو.

ثم قال له: ﴿ وألق ما في يمينك ﴾ أى: عصاك، وإنما أبهمت؛ تفخيماً لشأنها، وإيذاناً بأنها ليست من جنس العصا المعهودة، بل خارجة عن حدود أفراد الجنس، مبهمة الكنه، مستتبعة لآثار غريبة، وأما حمل الإبهام على التحقير، بمعنى: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيتهم، وألق العويد الذي في يدك، فإنه بقدرة الله تعالى يتلقفها مع وحدته وكثرتها، وصغره وكبرها، فيأباه ظهور حالها، وما وقع منها فيما مر من تعظيم شأنها.

وقوله تعالى: ﴿ تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا ﴾: جواب الأمر، من لقفه، إذا ابتلعه والنقمة بسرعة، أى: تبتلع، وتلتقم بسرعة، ما صنعوا من الحبال والعصى، التي تخيل إليك، والجملة الأمرية معطوفة على النهي عن الخوف، موجبة لبيان كيفية غلبته ﷺ وعلوه، وإدحاض الخوف عنه، فإن ابتلاع عصاه لأباطيلهم، التي منها أوجس في نفسه ما أوجس، مما يقلع مادته بالكلية. وهذا، كما ترى، صريح في أن خوفه ﷺ لم يكن - كما قال مقاتل - من خوف شك الناس وعدم اتباعه له ﷺ، ولا لعله بما يزيله من الوعد بالنصر الذي يوجب اتباعه. فتأمل. قاله أبو السعود. وفيه نظر بأن قوله: ﴿ تلقف ما صنعوا ﴾ صريح في عدم الالتباس؛ إذ لا يدبغى التباس مع ابتلاع عصاه لعصيتهم، فتأمل. ﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ﴾ أى: إن الذي صنعوه كيد ساحر وحيله. وقرأ أهل الكوفة: (سحر)؛ بكسر السين، فالإضافة للبيان، كما في «علم فقه»، أو: كيد ذي سحر، أو يسمى الساحر سحراً؛ مبالغة. والجملة تعليل لقوله: (تلقف) أى: تبتلعه؛ لأنه كيد ساحر، ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ أى: حيث وجد، وأين أقبل، وهو من تمام التعليل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقال للفقير، المتوجه إلى الله تعالى، من قبل الحق: إما أن تلقى الدنيا من يدك، وإما أن تكون أول من ألقاها عنك، أى: إما أن تتركها اختياراً، أو تزول عنك اضطراراً؛ لأن عادته تعالى، مع المتوجه الصادق، أن يدفع عنه كل ما يشغله من أمور الدنيا. فيقول - إن كان صادق القلب -: بل ألقها، ولا حاجة لي بها، فألقاها الحق تعالى،

وأخرجها من يده، عناية به، فإذا أشغالها وعلائقها كانت تسعى في هلاكه وخراب قلبه وتضييع عمره، فأوجس في نفسه خيفة من العيلة ولحوق الفاقة، قلنا: لا تخف، حيث توجهت إلى مولاك، فإن الله يرزق بغير حساب وبلا أسباب، وألق ما في يمين قلبك من اليقين، تلقف ما صنعوا، أي: ما صنعت بك خواطر السوء والشيطان، لأنه يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء، وإنما صنعوا ذلك؛ تخويفاً وتمويهاً، لا حقيقة له، كما يفعل الساحر، (ولا يفلح الساحر حيث أتى).

ثم ذكر إسلام السحرة، وما كان من شأنهم، فقال:

﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ ٧٠ قَالَ آمَنْتُمْ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قِطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ آيُنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَابْقَى ٧١ ﴿

قلت: (في جذوع النخل)، قال المحلى: أي: عليها، وهو مذهب كوفى، وأما مذهب البصريين فيقولون: ليست في، بمعنى «على»، ولكن شبه المصلوب، لتمكنه في الجذع، بالحال في الشيء، وهو من الاستعارة التعبيرية. (من خلاف): في موضع الحال، أي: مختلفات.

يقول الحق جل جلاله: فلما ألقى موسى عصاه انقلبت حية عظيمة، فابتلعت تلك الحبال والعصى، ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر، وإنما هي آية من آيات الله. روى أن رئيسهم قال: كنا نغلب أعين الناس، وكانت الآلات تبقى علينا، فلو كان هذا سحراً، فأين ما ألقينا من الآلات؟ فاستدلوا بما رأوا على صحة رسالة موسى. فالتقاهم ما شاهدوه على وجوههم، فتابوا وآمنوا، وأتوا بما هو غاية الخضوع، قيل: لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار، والثواب والعقاب. وعن عكرمة: لما خروا سجداً، أراهم الله تعالى، في سجودهم، منازلهم في الجنة. ولا ينافيه قولهم: ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾، لأن كون تلك المنازل منازلهم هو السبب في صدور هذا القول منهم.

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾، قدموا هارون؛ إما لكبر سنه، أو للمبالغة في الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون، حيث كان ربي موسى عليه السلام في صغره، فلو قدموا موسى لربما توهم اللعين وقومه، من أول الأمر، أن مرادهم فرعون، فأزاحوا تلك الخطرة من أول مرة. ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ ﴾ أي: لموسى، واللام؛ لتضمن الفعل معنى الانقياد والخضوع، أي: أذعنتم له ﴿ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ ﴾ أي: من غير أن آذن لكم، ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي: موسى ﴿ لَكَبِيرُكُمْ ﴾ أي: أستاذكم وأعلمكم في فنكم، ﴿ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾، فتواطأتم على ما فعلتم. وهذه منه شبهة واهية؛ أين كان موسى عليه السلام، وأين كان السحرة، حتى علمهم؟ ولكن صدر منه هذا خوفاً على الناس أن يتبعوا موسى عليه السلام، ويقتدوا بالسحرة، فأوهم عليهم، مع ما سبق في علم الله من ضلالتهم.

ثم أقبل على السحرة بالوعيد، فقال: ﴿فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أى: فوالله لأقطعن أيديكم ﴿وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ أى: اليد اليمنى والرجل اليسرى. وتعيين تلك الحال؛ للإيدان بتحقيق هذا الأمر وإيقاعه لا محالة، فتعيين تلك الحالة المعهودة من باب السياسة، أو لأنها معهودة لمن خرج عن حكم طاعته. ﴿وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جَذْوَعِ النَّخْلِ﴾ أى: عليها، وإتيان كلمة «فى»؛ للدلالة على إبقائهم عليها زمناً مديداً، تشبيهاً فى استمرارهم عليها باستقرار الظرف فى المظروف المشتمل عليه، وقيل: هو أول من صلب. ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَا﴾، يريد نفسه أو موسى ﷺ، حيث خافوا من عصاه فأسلموا، فهم اللعين أن إيمانهم لم يكن للمعجزة، إنما كان خوفاً، حيث رأوا عصاه ابتلعت حبالهم وعصيتهم، أو يريد (أنا) أى: أنا أو رب موسى وهارون، الذى آمنتم به، ﴿أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ أى: أدم. قالوا: لم يثبت فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به، ولم يثبت فى الأخبار، لكن روى عن ابن عباس، وغيره، أنه أنفذه. وروى أن امرأة فرعون كانت تسأل: من غلب؟ فيقال لها: موسى، فقالت: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون يهددها، وقال: انظروا أعظم صخرة، فإن استقرت على قولها فألقوها عليها، فلما ألقوها رفعت بصرها إلى السماء فأريت بيتها فى الجنة، فمضت على قولها، وانتزعت روحها منها، وألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه. قاله الثعلبى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من سبقت له العناية، لا تضره الجنائية. هؤلاء السحرة جاءوا يحادون الله ورسوله، فأضحوا أولياء الله. روى أن موسى ﷺ لما قال لهم: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾، سمع هاتفاً يقول: ألقوا يا أولياء الله، فتحير موسى ﷺ، وأرجس فى نفسه خيفة، وقال: كيف أعارض أولياء الله، فلما ألقى عصاه ظهرت ولايتهم. فكم من لصوص خرج منهم الخصوص. ففى أمثال هؤلاء نقرية لرجاء أهل الجنائية، إذا طلبوا من الله سرَّ العناية، وإدراك مقام الولاية، ولذلك ابتداء القشيري فى رسالته بذكر من تقدم له جنيات من الأولياء، كالفضيل، وابن ادهم، وأضرابهم. رضى الله عن جميعهم..

ثم ذكر ثبوت السحرة على الإيمان، وعدم مبالاتهم بتهديد فرعون، فقال:

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٢) إِنَاءَ أَمْنَابِرِنَا لِیَغْفِرَ لَنَا خَطِیْنَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَیْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ جَحْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)

قلت : (هذه الحياة الدنيا) : نصب على إسقاط الخافض، اتساعاً، لا نصب على الظرفية؛ لأن الظرف المختص لا ينتصب على الظرفية، على المشهور، و(الذى فطرنا) : عطف على (ما جاءنا)، أو قسم حذف جوابه، أى: وحق الذى فطرنا لا نؤثرك.. إلخ.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن السحرة، لما خوفهم فرعون: ﴿قالوا﴾ غير مكترئين بوعيده: ﴿لن نؤثرك﴾ أى: لن نختارك، باتباعك ﴿على ما جاءنا﴾ من الله تعالى على يد موسى ﷺ ﴿من البينات﴾ أى: المعجزات الظاهرة؛ لأن ما ظهر من العصا كان مشتملاً على معجزات جمعة، كما تقدم. ﴿والذى فطرنا﴾: خلقنا وخلق سائر المخلوقات، أى: لن نختارك على ما ظهر لنا من دلائل صحة نبوة موسى، ولا على الذى خلقنا، حتى نتبعك ونترك الحق، وكان ما شاهدوه آية حسية، وهذه آية عقلية. وإيراده بعنوان فاطرته تعالى؛ للإشعار بعلية الحكم، فإن خالقيته تعالى لهم ولفرعون - وهو من جملة مخلوقاته - مما يوجب عدم إثارة له عليه سبحانه، أو: وحق الذى فطرنا لا نؤثرك على ما جاءنا، ﴿فاقض ما أنت قاض﴾ أى: فاصنع ماأنت صانعه، أو: فاحكم ما أنت حاكمه. وهو جواب لقوله: (لأقطعن أيديكم..) إلخ. ﴿إنما تقضى هذه الحياة الدنيا﴾ أى: إنما تصنع ما تهواه، أو تحكم ما تراه فى هذه الحياة الدنيا الفانية، ولا رغبة لنا فى البقاء فيها، رغبة فى سكنى الدار الدائمة، بسبب موتنا على الإيمان.

﴿إنا آتينا برئنا ليغفر لنا خطايانا﴾ التى اقترفنا، من الكفر والمعاصي، ولا يؤاخذنا بها فى الآخرة، فلا نغتر بتلك الحياة الفانية، حتى نتأثر بما أوعدتنا به من القطع والصلب، ﴿و﴾ يغفر لنا أيضاً ﴿ما أكرهتنا عليه من السحر﴾ الذى عملناه فى معارضة موسى ﷺ، بإكراهك وحشرك لنا من المدائن القاصية، وخصوه بالذكر، مع اندراجهم فى خطاياهم؛ إظهاراً لغاية نفرتهم عنه، ورغبة فى مغفرته، وفى ذكره الإكراه: نوع اعتذار؛ لاستجلاب المغفرة، وقيل: أرادوا الإكراه على تعلم السحر، لما روى أن رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين؛ إثنان منهم من القبط، والباقي من بنى إسرائيل، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر، وقيل: إنه أكرههم على المعارضة، حيث روى أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً، ففعل، فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر، فإن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلا أن يعارضوه. لكن يأباه تصديهم للمعارضة بالرغبة والنشاط، كما يعرب عنه قولهم: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا...﴾ (١) إلخ، وقولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (٢)، إلا أن يقال: لما رأوا جده طمعوا وطلبوا الأجر. ﴿والله خير وأبقى﴾ أى: وثواب الله خير من إيثار الدنيا الفانية، وأبقى فى الدار الباقية، أو: والله فى ذاته خير، وجزاؤه أبقى، نعيماً كان أو عذاباً.

(١) من الآية ١١٣ من سورة الأعراف. (٢) من الآية ٤٤ من سورة الشعراء.

ثم عللوا خيريته وبقائه فقالوا: ﴿إنه من يأت ربه مجرمًا﴾ بأن يموت على الكفر والمعاصي، ﴿فإن له جهنم لا يموت فيها﴾ فيستريح وينتهي عذابه، وهذا تحقيق لقوله: (وأبقى)، ﴿ولا يحيا﴾ حياة ينتفع بها، وضمير (إنه): للشأن، وفيه تنبيه على فخامة مضمون الجملة؛ لأن مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغلية عن ذكره، مع ما فيه من زيادة التقرير، فإن الضمير لا يفهم منه أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر، فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه، فيتمكن، عند وروده، فضل تمكن، كأنه قيل الشأن الخطير هذا.

﴿ومن يأت مؤمناً﴾ به تعالى، وما جاء من عنده من المعجزات، التي من جملتها ما شهدناه، حال كونه ﴿قد عمل الصالحات﴾ أى: الأعمال الصالحات، وهى كل ما استقام شرعاً وخلص عقداً، ﴿فأولئك﴾ أى: من يأت مؤمناً.. الخ. وجمع الإشارة؛ باعتبار معنى «من»، كما أن الأفراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها، وما فيه من معنى البعد؛ للإشعار بعلو درجعتهم وبعد منزلتهم، أى: فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات، ﴿لهم﴾ بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحات ﴿الدرجات العلى﴾ أى: المنازل الرفيعة، وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار الإيمان المجرد عن العمل فى استنباع الثواب؛ لأن ما نيط بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى، لا بالثواب مطلقاً.

ثم فسر تلك الدرجات، فقال: ﴿جنات عدن﴾ أى: إقامة على الخلود، حال كونها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ خالدون فيها وذلك جزاء من تركى، ﴿الإشارة إلى ما أنتج لهم من الفوز بالدرجات العلى. والبعد فى الإشارة؛ للتفخيم، أى: ما تقدم من الفوز بالدرجات العلى هو جزاء من تطهر من دنس الكفر والمعاصي، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة، وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقي. وتقدم ذكر حال المجرم، للمسارة إلى بيان أشدية عذابه ودوامه، رداً على ما ادعاه فرعون بقوله: ﴿أينا أشد عذاباً وأبقى﴾، هذا وقد قيل: إن قوله: ﴿إنه من يأت...﴾ الخ، ابتداء كلام من الله عز وجل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فى الآية تحريض للفقراء أهل النسبة وأرباب الأحوال، على الثبوت فى طريق السلوك، وعدم الرجوع عنها، حين يكثر عليهم الإنكار والتهديد، والتخويف بأنواع العذاب، فلا يكثرثون بذلك ولا يتضعضون، وليقولوا كما قال سحرة فرعون: (لن نؤثرَكَ على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا، فاقض ما أنت قاض، إنما نقضى هذه الحياة الدنيا...) الآية. وقد جرى هذا على كثير من الصوفية، أودوا على النسبة، فمنهم من قُتل، ومنهم من طُوف، ومنهم من أُجلى عن وطنه، إلى غير ذلك مما جرى عليهم، ومع ذلك لم يرجعوا عما هم عليه، حتى وصلوا إلى حضرته تعالى وذاقوا. وما رجع من رجع إلا من الطريق، وأما من وصل فلا يرجع أبداً، ولو قُطع إرباً إرباً. والله ولي المتقين.

106

﴿كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (١) أى: كالجبل العظيم من الماء، وكانوا يعرون به، وكلهم بنو أعمام، لا يرى بعضهم بعضاً، فقالوا: قد غرق إخواننا، فأوحى الله إلى أطواد الماء: أن اشتبكى، وصارت شبابك، يرى بعضهم بعضاً، ويسمع بعضهم كلام بعض، فلما أتى فرعون الساحل، وجد البحر منفلقاً، فقال: سحر موسى البحر، فقالوا: إن كنت رباً فادخل كما دخل، فجاء جبريل على رمكة وديق، أى: تحب الفحل، وكان فرعون على حصان، فافتحم جبريل بالرمكة الماء، فلم يتمالك حصان فرعون، فافتحم البحر على إثره، ودخل القبط كلهم، فلما لججوا، أوحى الله تعالى إلى البحر أن أغرقهم، فعلاهم البحر وأغرقهم.

فعبّر موسى ﷺ بمن معه من الأسباط سالمين، وأما فرعون وجنوده ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أى: علاهم منه وغمرهم من الأمر الهائل، الذى لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه. قال القشيري: فغرقوا بجملتهم، وآمن فرعون لما ظهر له البأس، فلم ينفعه إقراره، وكان ينفعه لو لم يكن إصراره، وقد أدركته الشقاوة التى سبقت له من التقدير. هـ. وقال الكواشي: (وغشيهم) من الغضب والغرق، وغير ذلك، مالا يعلم حقيقته إلا الله تعالى. هـ. فإبهام الصلة؛ للتهويل والتفخيم، وقيل: (غشيهم من اليم) ما سمعت قصته فى غير هذه السورة، وليس بشيء؛ فإن مدار الإبهام على التهويل والتفخيم، بحيث يخرج عن حدود الفهم والوصف، لا سماع قصته فقط.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ﴾ أى: أتلهم وسلك بهم مسلكاً أدى بهم إلى الخيبة والخسران، حيث ماتوا على الكفر، وأوصلهم إلى العذاب الهائل الدنيوى، المتصل بالعذاب الدائم الأخرى، ﴿وَمَا هَدَى﴾ أى: ما أرشدهم قط إلى طريق توصلهم إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية. وهو تقرير لإضلاله وتأكيد له، وفيه نوع تهكم به فى قوله: ﴿وَمَا أَهْدَيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٢)، فإن نفى الهداية عن شخص مشعر بكونه ممن يتصور منه الهداية فى الجملة، وذلك إنما يتصور فى حقه بطريق التهكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: انظر عاقبة من شدَّ يده على دينه، وصبر على شدائد زمانه، كيف خرقت له العوائد، وجاءه العز والنصر فأنساه تلك الشدائد، وأهلك الله من كان يؤذيه من الأعداء، وسلك به سبيل النجاة والهدى، وهذه عادة الله مع أوليائه، يشدد عليهم أولاً بضروب البلايا والمحن، ثم يعقبهم العز والنصر وضروب المدن، ولذلك ذكر الله بنى إسرائيل بما أنعم عليهم بعد البحر، فقال:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنَجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوىَ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

(١) من الآية ٦٣ من سورة الشعراء.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة غافر.

يقول الحق جل جلاله لبني إسرائيل، بعد ما أنجاهم من الغرق، وأفاض عليهم من فتون الدعم الدنيوية والدينية: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾؛ فرعون وقومه، حيث كانوا ﴿يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ (١)، ﴿وَوَعَدْنَاكَم جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: واعدناكم بواسطة نبيكم، إتيان جانب الطور، الجانب الأيمن منه للمناجاة وإنزال التوراة. وهل هو الطور الذي أبصر فيه النار ووقعت فيه الرسالة، أو غيره؟ خلاف. ونسبة المواعدة إليهم مع كونه لموسى ﷺ خاصة، أو له وللسبعين المختارين، نظر إلى ملاستها إياهم، وسراية منفعتها إليهم، وإعطاء لمقام الامتثال حقه. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ (٢)؛ حيث نسب الخلق والتصوير للمخاطبين، مع أن المخلوق كذلك هو آدم ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْكُتُبَ﴾ حين تهتم ﴿الْمَنَ وَالسَّلَوى﴾ أي: الترنجيبين والطير السمانى، حيث كان ينزل عليهم المن وهم فى التيه، مثل الثلج، من الفجر إلى الطلوع، لكل إنسان صالح، ويبعث الجذب عليهم السمانى، فيذبج الرجل منه ما يكفيه. قلنا لهم: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: من لذائذه، أو حلاله. وفى البدء بنعمة الإنجاء ثم بالنعمة الدينية ثم بالنعمة الدنيوية من حسن الترتيب مالا يخفى. ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي: فيما رزقناكم بالإخلاص بشكره، والتعدي لما حد لكم فيه، كالترفة والبطر والتمنع من المستحق. وقال القشيري: مجاوزة الحلال إلى الحرام، أو بالزيادة على الكفاف ومالاً بد منه، فأزاد على سد الرمق، أو بالأكل على الغفلة والنسيان. هـ. وقيل: لا تدخروا، فادخروا فتعودوا، وقيل: لا تنفقوه فى المعصية، ﴿فِيَحْلِلْ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ بفعل شئ من ذلك، أي: ينزل ويجب، من حل الدين؛ إذا وجب. ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ أي: تردى وهلك، أو وقع فى المهاوى.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ أي: كثير الغفران ﴿لِمَن تَابَ﴾ عن الشرك والمعاصي، التى من جملتها الطغيان فيما ذكر، ﴿وَأَمَنَ﴾ بما يجب الإيمان به، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: عملاً صالحاً مستقيماً عند الشرع، وفيه ترغيب وحث لمن وقع فى زلة أو طغيان على التوبة والإيمان، ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي: استقام على الهدى ودام عليها حتى مات. وفيه إشارة إلى أن من لم يستمر عليها بمعزل عن الغفران. قال الكواشى: (ثم اهتدى) أي: علم أن ذلك بتوفيق من الله تعالى. هـ.

الإشارة: إذا ذهب عن العبد أيام المحن، وجاءت له أيام المنن، فينبغى له أن يتذكر ما سلف له من المحن، وينظر ما هو فيه الآن من المنن، ليزداد شكراً وتواضعاً، فتزداد نعمه، وتتواتر عليه الخيرات. وأما إن نسي أيام

(١) من الآية ٤٩ من سورة البقرة. (٢) من الآية ١١ من سورة الأعراف.

المحن، ولم يشكر ما هو فيه من المكن، فحقيق أن تزول عنه، ويرجع إلى ما كان عليه. وتذكر حديث الأبرص والأقرع والأعمى، حسبما في الصحيح^(١). فإن الأبرص والأقرع، حين شفاهما الله وأغناهما، أنكرا ما كانا عليه، فرجعا إلى ما كانا عليه، والأعمى حين أقر بما كان عليه، وشكر الحال الذي حال إليه، دامت نعمته وكثر خيره. فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود. فيقال لأهل النعم، إن قاموا بشكرها: كلوا من طيبات ما رزقناكم، ولا تطنخوا فيه، بأن تصرفوه في غير محله، أو تمنعوه عن مستحقه، ﴿ فيحل عليكم غضبي... ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ وإني لغفار لمن تاب... ﴾ إلخ، قال القشيري: «وإني لغفار لمن تاب» من الزلة «وآمن» فلم ير أعماله من نفسه، بل جميع الحوادث من الحق، «وعمل صالحاً» فلم يخل بالفرائض، «ثم اهتدى» للسنة والجماعة. وقال أيضاً: ثم اهتدى بنا إلينا هـ.

قال الورتجبي: التائب: المنقطع إلى الله، والمؤمن: العارف بالله، والعمل الصالح: تركه ما دون الله، فإذا كان كذلك، فاهتدى بالله إلى الله، ويكون منموراً برحمة الله، ومعصوماً بعصمة الله هـ.

ثم ذكر فتنة بنى إسرائيل بالعجل، بعد ذهاب موسى إلى المناجاة، فقال:

﴿ وَمَا أَعَجَّلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴾ ٨٣ قَالَ هُمْ أَوْلَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ٨٤ قَالَ فَإِنَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ٨٥ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّ أَحْسَنَ أَفْطَالٍ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ٨٦ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدْ فَتَنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجْلاً جَسَداً لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ٨٨ ﴾

يقول الحق جل جلاله لموسى عليه السلام، لما ذهب إلى الطور، لموافاة الميقات، للعهد الذي عهد إليه، واختار سبعين من بنى إسرائيل، يحضرون معه؛ لأخذ التوراة بأمره تعالى، فلما دنا من الجبل حمله الشوق، فاستعجل إلى الجبل، وترك قومه أسفله، فقال له الحق جل جلاله: ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى ﴾ أى: ما حملك على

(١) أخرج حديث الثلاثة البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع بنى إسرائيل)، ومسلم في (الزهد، ح ٢٩٦٤) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

العجلة، وأى شيء أعجلك منفرداً عن قومك، وقد أمرتك باستصحابهم، ولعل في إفرادك عنهم عدم اعتناء بهم؟ فأجاب ﷺ بقوله: ﴿هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي﴾ أى: هم هؤلاء قريباً مني، فهم معي، وإنما سبقتهم بخطأ يسيرة، ظننت أنها لا تخل بالمعية، ولا تقدح في الاستصحاب، فإن ذلك مما لا يعتد به فيما بين الرفقة.

قال الكواشي: ولما كان سؤال الرب تعالى لموسى يقتضى شيئين: أحدهما: إنكار العجلة، والثاني: السؤال عن السبب والحامل عليها، كان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر وتهديد العلة في نفس ما أنكر عليه، فاعتل أن قال: إن ما وجد مني تقدم يسير، لا يعتد بمثله في العادة لقربه، كما يتقدم الوفد رئيسهم ومتقدمهم، ثم عقبه بجواب السؤال فقال: ﴿عَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾؛ لتزاد على رضا؛ لمسارعتي إلى الامتثال لأمرك، واعتنائى بالوفاء بعهدك؛ لأنه ظن أن إسراعه إليه أبلغ في رضاه. وفي هذا دليل على جواز الاجتهاد للأنبياء - عليهم السلام - والمعنى: لتعلم أنى أحبك ولا قرار لى مع غيرك. هـ.

وقال القشيري: (هم أولاء على أثرى)؛ ما خلفتهم لتضييعي إياهم، ولكن عجلت إليك رب لترضى. قال: يا موسى، رضائى فى أن تكون معهم، ولا تتقدمهم ولا تسبقهم، وكوثك مع الضعفاء، الذين استصحبتهم فى حصول رضائى، أبلغ من تقدمك عليهم. هـ.

﴿قال له تعالى: ﴿فإنا قد فتنا قومك من بعدك﴾ أى: ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم. روى أنهم أقاموا على ما وصاهم به موسى ﷺ عشرين ليلة، بعد ذهابه، فحسبوا مع أيامها أربعين، وقالوا: قد أكملنا العدة، وليس من موسى عين ولا أثر، وكان وعدهم أن يغيب عنهم أربعين يوماً، واستخلف هارون على من بقى منهم، وكانوا ستمائة ألف، فافتتنوا بعبادة العجل كلهم، ما نجا منهم إلا اثنا عشر ألفاً. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾، حيث كان هو السبب فى فتنتهم، فقال لهم: إنما أخلف موسى ﷺ ميعادكم؛ لما معكم من حلى القوم، فهو حرام عليكم، فكان من أمر العجل ما يأتى تفسيره إن شاء الله. فأخبره تعالى بهذه الفتنة عند قدومه ﷺ، قبل وقوعها، إما باعتبار تحققها فى علمه تعالى، وإما باعتبار التعبير عن المتوقع بالواقع، كما فى قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ (١)، أو لأن السامري كان قد عزم على إيقاع الفتنة عند ذهاب موسى ﷺ، وتصدى لها بترتيب مبادئها، فكانت الفتنة واقعة عند الإخبار بها.

والسامري منسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل، يقال لها: سامرة، وقيل: كان رجلاً من كرمان. وقال ابن عباس: كان من قرية يعبدون البقر، فدخل فى بنى إسرائيل وأظهر الإسلام، وفى قلبه ما فيه من حب عبادة البقر، فابتلى الله به بنى إسرائيل، واسمه: موسى بن ظفر.

(١) من الآية ٤٤ من سورة الأعراف.

﴿ فرجع موسى إلى قومه ﴾ بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة، لا عقب الإخبار بالفتنة، كما يتوهم من قوله تعالى: ﴿ غضبان أسفا ﴾، فإن كون الرجوع بعد الأربعين أمر مقرر مشهور، يرفع كون الرجوع عقب الفتنة. والأسف: أشد الغضب، وقيل: أسفا: حزينا جزعا على ضلال قومه. ﴿ قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ﴾؛ بأن يعطيكم التوراة فيها ما فيها من النور والهدى، ﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ أى: مدة مفارقتي إياكم. والهمزة للإنكار، والمعطوف محذوف، أى: أوعدكم ذلك فطال زمان الإنجاز، فأخطأتم بسببه، ﴿ أم أردتم أن يحل عليكم غضب ﴾ شديد كائن ﴿ من ربكم ﴾ أى: من مالك أمركم، ﴿ فأخلفتم موعدى ﴾ أى: وعدى إياكم بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من الميعات، أو وعدكم إياي بأن تثبتوا على ما أمرتكم به، على إضافة المصدر إلى فاعله أو مفعوله، والفاء، لترتيب ما بعدها، كأنه قيل: أنسيتم الوعد بطول العهد فأخلفتمونى خطأ ﴿ أم أردتم ﴾ حلول الغضب عليكم فأخلفتموه؛ عمداً. ؟

﴿ قالوا ما أخلفنا موعدك ﴾ أى: وعدنا إياك بالثبات على ما أمرتنا به، ﴿ بملكنا ﴾ أى: بسلطاننا وقدرتنا، ونحن نملك أمرنا بوفيه لغتان: فتح الميم وكسرها. يعنون: لو خيلنا وأمرنا، ولم يسؤل لنا السامري ما سوله، ما أخلفنا، ولكن غلبنا على أمرنا، واستغوانا السامري مع مساعدة الأحوال.

وقال القشيري: أى: لم نكن فى ابتداء حالنا قاصدين إلى ما حصل منا، ولا عالمين بما آلت إليه عاقبة أمرنا، وإن الذى حملنا عليه حلى القبط، صاغ السامري منه العجل، قال الأمر إلى ما بلغ من الشر، وكذلك الحرام لا يخلو شؤمه من الفتنة والشر. هـ.

وقوله تعالى: ﴿ ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم ﴾، استدراك عما سبق، واعتذار ببيان منشأ الخطأ، أى: حملنا أحمالا من حلى القبط، التى استعرناها منهم، حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس. وقيل: كانوا استعاروها لعيد كان لهم، ثم لم يردوها إليهم، مخافة أن يقفوا على أمرهم. وقيل: لما رمى البحر أجساد القبط، وكان غالب ثيابهم الذهب والفضة، التقطها بنو إسرائيل، فهى زينة القوم التى صيغ منها العجل، ولعل تسميتها أوزارا؛ لأنها تبعات وآثام، حيث لم تحل الغنائم لهم.

﴿ فقدفناها ﴾ أى: فى النار رجاء الخلاص من عقوبتها، أو قدفناها إلى السامري وألقاها فى النار، ﴿ فكذلك ألقى السامري ﴾ ما كان معه منها كما ألقيناه، أو ألقى ما كان معه من تراب حافر فرس جبريل، كان قد صره فى عمامته، وكان ألقى إليه الشيطان: أنه ما خالط شيئا إلا حبي، فألقاه فى فمه فصار يخور.

روى: أنه قال لهم: إنما تأخر موسى عنكم، لما معكم من الأوزار، فالرأى أن نحفر حفرة ويسجر فيها نار، ونقدف فيها كل ما معنا، ففعلوا، ﴿ فأخرج لهم ﴾ من ذلك الحلى المذاب ﴿ عجلا ﴾ أى: صورة عجل

﴿جَسَداً﴾ أى: جثة ذات لحم ودم، أو جسداً من ذهب لا روح فيه، ﴿له خوار﴾ أى: صوت عجل، ﴿فقالوا﴾ أى: السامري ومن افتنن به: ﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسى﴾ أى: غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور. فقلوه تعالى: (فأخرج لهم...) الخ.. هو من كلام الله تعالى، حكاية لنتيجة فتنة السامري، قولاً وفعلاً، قصداً إلى زيادة تقريرها، وتمهيداً للإنكار عليهم، وليس من كلام المعتذرين، والإ لقال: فأخرج لنا.. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى لرئيس القوم، إذا كان فى سفر، أن يكون وسطهم، أو سائقاً لهم، ولا يتقدمهم أو يستعجل لأمر عنهم، فإن القانى كله من الله، والعجلة كلها من الشيطان، والخير كله فى الاجتماع مع الضعفاء والمساكين، حتى يكون كأحدهم، فإن فارقهم، لأمر مهم، فليستخلف عليهم من يثق به فى دينه، وليكن اعتماده فى ذلك على ربه، ونظره كله إلى رعايته وحفظه. قال الكواشى: عن ابن عطاء: أوحى الله تعالى إلى موسى ﷺ: أتدرى من أين أتيت؟ - يعنى فى فتنة قومه - قال: لا يارب، قال: حين قلت لهارون: اخلفنى فى قومي، أين كنت أنا حين اعتمدت على هارون؟ هـ.

فكل فتنة أو ضلال يصيب الفقراء، فإنما ذلك من عدم الاجتماع مع أهل الفن، أو قلة الاستماع لهم، فإن أصابتهم فتنة الأسباب، والركون إلى شىء من الدنيا فى غيبة الشيخ، فليرجع إليهم غضبان أسفاً، وليقل لهم: ألم يعدكم ريكم وعداً حسداً، وهو الفتح الكبير لو صبرتم على السير والتجريد، أفضال عليكم العهد، فقد كانت الرجال تمكث فى خدمة الأشياخ العشرين والثلاثين سنة، أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ريكم، بالإبعاد وإسْدال الحجاب، حيث خالفتم عهود أشياخكم، فإن اعتذروا فليقبل عذرهم، وإن ركنوا إلى عبادة شىء من عجل الدنيا فليخرجه من أيديهم، وليقل: وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً، لتحرقنه ثم لتدسقنه فى اليم نسفاً. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الإنكار على عبدة العجل، فقال:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ٨٩ ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ ٩٠ ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ ٩١ ﴿قَالَ يٰهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ٩٢ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيَ﴾ ٩٣ ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ ٩٤ ﴿

قلت: (ألا يرجع): «أن، محققة، لأن الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين، ومن قرأ بالنصب جعل الرؤية بصرية.

يقول الحق جل جلاله، منكرأ على عبدة العجل ومقبحاً لرأيهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أى: أفلا يتفكر هؤلاء الضالون المضلون فيعلمون ﴿أن﴾ الأمر والشأن: ﴿لا يرجع إليهم﴾ العجل كلاماً، ولا يرد عليها جواباً، وإنما هو جماد لا روح فيه؟ فكيف يتوهمونه أنه إله؟ وتعليق الإبصار بما ذكر مع كونه عدمياً؛ للتنبية على كمال ظهوره، المستدعى لمزيد تشنيعهم وتركيب عقولهم. ﴿و﴾ هو أيضاً ﴿لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً﴾ أى: أفلا يرون أيضاً أن العجل لا يقدر أن يدفع عنهم ضرراً، أو يجلب لهم نفعاً؟ أو لا يقدر على أن يضرهم إن لم يعبدوه، أو ينفعهم إن عبدوه.

﴿ولقد قال لهم هارون من قبل﴾ أى: والله لقد نصحهم هارون ونبههم على الحق، من قبل رجوع موسى ﷺ إليهم، وقال لهم: ﴿يا قوم إنما فتنتم به﴾ أى: وقعتم فى الفتنة بالعجل أو ضللتكم به، والمعنى: إنما فعل بكم الفتنة، لا الإرشاد إلى الحق، ﴿وإن ربكم الرحمن﴾ وحده، لا العجل، أرشدكم إلى الحق بعد أن زجرهم عن الباطل. والتعرض لعنوان الرحمانية؛ للاعتناء باستمالتهم إلى الحق المفضى إلى الرحمة الشاملة، أى: إن ربكم الذى يستحق أن يعبد هو الرحمن لا غير. ﴿فاتبعونى﴾ على الثبات على الدين، ﴿وأطيعوا أمرى﴾ من ترك عبادة ما علمتم شأنه.

﴿قالوا﴾ فى جواب هارون ﷺ: ﴿لن نبرح عليه عاكفين﴾ أى: لن نزال على عبادة العجل مقيمين ﴿حتى يرجع إلينا موسى﴾، جعلوا رجوعه ﷺ غاية لعكوفهم على عبادة العجل، لكن لا على طريق الوعد بتركها عند رجوعه، بل بطريق التعلل والتسويق، وقد دسوا تحت ذلك أنه ﷺ لا يرجع بشيء مبين لإبطالها، تعويلاً على مقالة السامري.

رؤى أنهم، لما قالوا ذلك، اعتزلهم هارون ﷺ فى اثنتى عشر ألفاً ممن لم يعبد العجل، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة^(١)، وكانوا يرقصون حول العجل، قال للسبعين الذين كانوا معه: هذا صوت الفتنة، فلما وصل إليهم قال لهم ما قال من قوله: (ألم يعدكم....) الخ. وسمع منهم ما قالوا من قولهم: (ما أخلفنا...) الخ. فلما رأى هارون أخذ شعره بيمينه، ولحيته بشماله، غضباً، ﴿قال يا هارون﴾، وإنما جرده من الوار؛ لأنه استلخاف بيانى، كأنه قيل: ماذا قال موسى لهارون حين سمع جوابهم له؟ وهل رضى بسكوته بعدما شهد منهم ما شهد؟ فقيل: ﴿قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا﴾ بعبادة العجل، وبلغوا من المكابرة إلى أن شافهوك بتلك المقالة الشنعاء، ﴿ألا تتبعن﴾ أى: أن تتبعنى. على أن «لا» مزيدة، أى: أى شيء منعك، حين رأيت ضلالهم، من أن

(١) فى الأصول: والجلبة.

تتبعنى فيما أمرتك، وتعمل بوصيتى فتقاتلهم بمن معك؟ قال ابن عطية: والتحقيق: أن لا، غير مزيدة، ويُقدر فعل، أى: ما منعك مجانبتهم وسؤل لك ألا تتبعن. هـ. قلت: وفيه نظر؛ لأن مجانبه هارون عليه السلام للقوم كانت حاصلة، وإنما أنكر عليه عدم مقاتلتهم، أو عدم لحوقه ليخبره، فتأمل. هـ. وقيل: المعنى: ما حملك على ألا تتبعن، فإن المنع من الشيء مستلزم للحمل على مقابله، وقيل: ما منعك أن تلحقنى وتخبرنى بضلالهم، فتكون مفارقتك زجراً لهم، وهذا أظهر.

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه، فإن قوله: (اخلفنى فى قومى) متضمن للأمر بهما حتماً، فإن الخلافة لا تتحقق إلا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلف لو كان حاضراً، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف، أى: أخالفتنى فعصيت أمرى.

﴿قال يا ابن أم﴾، خص الأم بالذكر؛ استعطافاً لحقها، وترقيقاً لقلبه، لا لما قيل من أنه كان أخاه لأمه، فإن الجمهور على أنهما شقيقان. قال له: ﴿لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى﴾ أى: بشعر رأسى. وقد كان عليه السلام أخذ بهما كما تقدم، من شدة غيظه وفرط غضبه لله، وكان حديداً متصلباً فى كل شيء، فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل، حتى فعل ما فعل. ثم اعتذر له أخوه بقوله: ﴿إني خشيت﴾ إن قاتلت بعضهم ببعض وتفرقوا، ﴿أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل﴾ برأيتك، مع كونهم أبناء رجل واحد، كما ينبئ عنه ذكرهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه. وأراد عليه السلام بالتفريق ما يستتبعه القتال من التفريق: الذى لا يرى بعده اجتماع، فخشيت أن تقول: فرقت بينهم، ﴿ولم ترقب قولى﴾ أى: قوله: (اخلفنى فى قومى وأصلح.. الخ، يعنى: إني رأيت أن الأصلح هو فى حفظ الدماء والمداواة معهم، إلى أن ترجع إليهم، فلذلك استأنيتك؛ لتكون أنت المتدارك للأمر بما رأيت، لاسيما وقد كانوا فى غاية القوة، ونحن على القلة والضعف، كما يعرب عنه قوله: ﴿إنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي﴾ (١). والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من اعتمد على غير الله، أو مال بمحبته إلى ما سوى الله، فهو فى حقه عجل بنى إسرائيل، فيقال له: كيف تركن إليه وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً، وإنما فتنت به عن السير إلى ربك، وانطمست به حضرة قدسك، فربك الرحمن الكريم المنان، فاتبع ما أمرك به من الطاعات، وكن عبداً له فى جميع الحالات، تكن خالصاً لله، حرّاً مما سواه. وبالله التوفيق.

(١) من الآية ١٥٠ من سورة الأعراف.

ثم وجه العتاب إلى السامري، فقال:

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِيرِي ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۝٩٦ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ ۖ وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝٩٨ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قال ﴾ موسى ﷺ في توبيخ السامري: ﴿ فما خطبك يا سامري ﴾ أي: ماشأنك، وما مطلوبك فيما فعلت من فتنة القوم؟ خاطبه بذلك؛ ليظهر للناس بطلان كيدته باعترافه، وليفعل به وبما صنع من العقاب ما يكون نكالا للمفتونين به، ولمن خلفهم من الأمم من بعده، ﴿ قال ﴾ السامري في جوابه: ﴿ بصرت بما لم يبصروا به ﴾ أي: علمت ما لم يعلمه القوم، وفطنت لما لم يفطنوا به، أو رأيت ما لم يروه، وهذا أنسب، وقد كان رأى جبريل ﷺ، جاء راكباً فرساً، وكان كلما رفع الفرس يده أو رجله عن الطريق اليبس، اخضر ما تحت قدمه بالنبات، فعرف أن له شأنًا، فأخذ من موطنه شيئاً من التراب. وذلك قوله تعالى: ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ أي: أثر فرس الرسول، وهو جبريل، الذي أرسل إليك ليذهب بك إلى الطور.

وقال في الباب: كان السامري من المقربين لموسى ﷺ، فرأى جبريل راكباً على فرس، وقد دخل البحر فانطلق، فأخذ من أثره، ولم ير ذلك إلا من كان مع موسى هـ. وقال قتادة: كان السامري عظيماً في بني إسرائيل، من قبيلة يقال لها: سامرة، ولكن عدو الله نافق، بعدما قطع البحر مع بني إسرائيل، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة، وهم يعكفون على أصنام لهم، وكانوا يعبدون البقر، ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ (١). فاغتنمها السامري فاتخذ العجل هـ.

وقال الكواشي: وإنما عرف السامري جبريل من بين سائر الناس؛ لأن أمه ولدته في السنة التي يقتل فيها الغلمان، فوضعت في كهف؛ حذراً عليه، فبعث الله تعالى جبريل؛ ليربيه لما قضى على يديه من الفتنة هـ. ووضعه ابن عطية. قلت: ولعل تضعيفه من جهة النقل، وأما القدرة فهي صالحة ليقضى الله أمراً كان مفعولاً.

(١) من الآية ١٢٨ من سورة الأعراف.

ثم قال: فأخذت تلك القبضنة ﴿فبذتها﴾ في فم تلك الصورة المذابة من الحلى، فصارت تخور، ﴿وكذلك سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾؛ أى: زيلت. والإشارة: نعت لمصدر محذوف، أى: سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي تسويلاً كائناً مثل ذلك التسويل البديع.

وحاصل جوابه: أن ما فعله إنما صدر منه بمحض اتباع هوى النفس الأمارة وإغوائها، لا لشيء آخر من البرهان العقلى أو الإلهام الإلهى، فعند ذلك ﴿قال﴾ له موسى ﷺ: ﴿فاذهب﴾ أى: اخرج من بين الناس، ﴿فإن لك في الحياة﴾ أى: في مدة حياتك، ﴿أن تقول لا مساس﴾ والمعنى: أن لك في مدة حياتك أن تفارقهم مفارقة كلية، لا بحسب الاختيار، بل بحسب الاضطرار الملجئ إليه، وذلك أنه تعالى رماه بداء عقام^(١)، لا يكاد يمسه أحد، أو يمسه أحد، إلا حم من ساعته حمى شديدة، فتحامى الناس وتحاموه، وكان يصيح بأقصى طوقه: لا مساس. وقيل: إن موسى ﷺ نجاه من قومه، وأمر بنى إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه. قال الحسن: (جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ولا يماسوه. جعل ذلك له ولمن كان منه إلى يوم القيامة). فكان الله تعالى شدد عليه المحنة، وجعل ذلك عقوبة له في الدنيا. ويقال: ابتلى بالوسواس، وأصل الوسواس من ذلك الوقت. وقال قتادة: بقاءه اليوم يقولون ذلك: لا مساس. ويقال: إن موسى هم بقتل السامري، فقال الله تعالى له: لا تقتله؛ فإنه سخي. ولعل الحكمة في عقابه بهذه العقوبة: أن مخالطته للناس نشأت من هذه الفتنة، فعوقب بالطرد والبعد عنهم.

ثم قال له الله: ﴿وإن لك موعداً﴾ أى: في الآخرة، ﴿لن تخلفه﴾ أى: لن يخلفك الله ذلك الوعد، بل يجزه لك ألبنة، بعد ما عاقبك في الدنيا. أو لن تجاوزه ولن تخطئه، بل لا بد لك من ملاقاته. ﴿وانظر إلى إلهك﴾ العجل، ﴿الذي ظلت عليه عاكفاً﴾؛ مقيماً على عبادته، ﴿لنحرقنه﴾ أى: والله لنحرقنه بالنار، وقيل بالمبرد، مبالغة في الحرق، ويعضده قراءة: لنحرقنه، ﴿ثم لنسفننه﴾ أى: لنذرينه بالريح ﴿في اليم﴾؛ فى البحر، رماداً، أو مبروداً كأنه هباء، ﴿نسفاً﴾ بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر، وقد فعل ﷺ ذلك كله حينئذ، كما يشهد بذلك الأمر بالنظر، وإنما لم يصرح به؛ تنبيهاً على كمال ظهوره، واستحالة الخلف فى وعده المؤكد باليمين.

ثم نبه على الحق فقال: ﴿إنما إلهكم الله﴾ أى: إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله. والجملة: استئنافية مسوقة لتحقيق الحق، إثر إبطال الباطل، بتلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكل، ثم وصفه بقوله: ﴿الذى لا إله إلا هو﴾ وحده، من غير أن يشاركه فى الألوهية شيء من الأشياء، ﴿وسع كل شيء علماً﴾ أى: وسع علمه كل ما من شأنه أن يعلم. وجملة: (وسع): بدل من الصلة، أى: إنما إلهكم: الذى وسع كل شيء علماً لا غيره كائناً

(١) العقام: الداء الذى لا يبرأ منه.

ماكان، فيدخل فيه العجل دخولاً أولاً. وهذا ختم كلام موسى ﷺ، بتقرير أمر التوحيد، كما كان افتتاح الوحي إليه به بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾. والله تعالى أعلم.

الإشارة: انظر أثر حافر فرس جبريل: كيف حييت به الأشباح، فكيف لا تحيا بتقبيل أثر وطء العارفين بالله، أو بتقبيل أقدامهم، بل كل من خضع لهم وقبل أقدامهم حييت روحه، وشعشت أنواره، وتحقق عرفانه، كما هو معلوم؛ لأن الخضوع لأولياء الله إنما هو خضوع لله؛ لأنهم يدلون على الله، ويبعدون عن كل ماسواه. وانظر السامري؛ حين خضع لغير الله بمجرد هواه كيف طرد وأبعد، حتى صار مثلاً في الناس. فقالت الصوفية: ينبغي للفقير أن يفر من أبناء جلسه، ويكون كالسامري، إذا رأى أحداً قال: لا مساس، وأنشدوا:

وَحَفَّ أَبْنَاءَ جِلْسِكَ، وَاخْشَ مِنْهُمْ كَمَا تَخْشَى الضَّرَاغِمَ وَالسُّنْبَنَاتِ
وَخَالَطَهُمْ، وَزَايَلَهُمْ؛ حِذَاراً وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ إِذَا لُمِسْتَ

والسنبات: كل حيوان جرىء، وقيل: اسم للنمر

ويقال، لمن ركن إلى شيء دون الله تعالى؛ من علم، أو عمل، أو حال، أو مقام، أو فني في مخلوق: (وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لتحرقته ثم لتنسفته في اليم نسفاً). وفي بعض الأثر: يقول الله: «يا عبدي، لا تركزن لشيء دوني، فإن ركنت إلى علم جهلك فيه، وإن ركنت إلى عمل رددناه عليك، وإن ركنت إلى حال وقفتك معه، وإن ركنت إلى معرفة نكرناها عليك. فأى حيلة لك أيها العبد، فكن لنا عبداً أكن لك رباً». أو كما قال. وإليه الإشارة بقوله: (إنما إلهكم الله...) الآية.

ثم ذكر نبيه ﷺ بنعمة إطلاعه على هذه القصص البديعة، فقال:

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ...﴾

قلت: محل الكاف: نصب على أنه نعت لمصدر محذوف، أي: نقص عليك قصاً مثل ذلك القص المار. وما في الإشارة من معنى البعد؛ للإيدان بعلو درجته - عليه الصلاة والسلام - وبعد منزلته في الفضل. (ومن أنباء): في محل النصب، إما على أنه مفعول (نقص)؛ باعتبار معناه، أي: نقص عليك بعض أنباء، وإما على أنه متعلق بمحذوف؛ صفة للمفعول، أي: نقص عليك خبراً كائناً من أخبار ما قد سبق.

يقول الحق جل جلاله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك القصص البديع الذي سمعته ﴿نقص عليك من أنباء ما قد سبق﴾ أي: من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية؛ ليكون تبصرة لك، وزيادة في علمك، وتذكيراً لغيرك، وعبرة لمن يقف عليه ممن يأتي بعدك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: حكايات الصالحين وسير العارفين جند من جنود القلب، فيها تنشيط لمن يريد اللحق بهم، وتشويق لمقاماتهم، وتسليه لمن يصاب في ذات الله بمثل ما أصابهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد من أعرض عن القرآن المشتمل على هذه الأنباء الحسان، فقال:

﴿... وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ ﴿١٠٠﴾ خَلِيدٍ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۖ ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۖ ﴿١٠٢﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۖ ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۖ ﴿١٠٤﴾ وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ ﴿١٠٦﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا جِوَارٌ إِلَّا أَمْثًا ۖ ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۖ ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۖ ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۖ ﴿١١٠﴾ عِلْمًا ۖ﴾

قلت: (من أعرض): شرطية أو موصولة، وعلى كل فهي صفة لذكر، (وخالدين): حال من فاعل (يحمل)، أو الجمع، باعتبار معنى «من»، و (حِمْلًا): تمييز، تفسير لضمير (سَاءَ)، والمخصوص محذوف، أي: ساء حملًا وزرهم، و (يوم يُنفخ): بدل من (يوم القيامة)، أو منصوب بذكر. و (يتخافتون): استئناف مبين لحالهم يومئذ، أو حال أخرى من (المجرمين). و (قاعًا): حال من ضمير (يذرها)، أو مفعول ثانٍ ليزر. و (صفصفاً): حال ثانية، أو بدل من المفعول الثاني، وجملة: (لا ترى): استئناف مبين لما سبق من القاع الصفصف، أو حال أخرى، و (يومئذ): ظرف ليتبعون، أو بدل من (يوم القيامة).

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾؛ خصوص عنديتنا ﴿ذِكْرًا﴾ عظيمًا وقرآنًا كريمًا، جامعاً لكل كمال، مخبراً بعجائب القصص والأمثال. ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: عن ذلك الذكر العظيم الشأن، المستتبع لسعادة الدارين، بأن لم يؤمن به، ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ أي: عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائر ذنونه. وتسميتها وزراً؛ لتشبيهها في ثقلها على المعاقب، وصعوبة احتمالها، بالحمل الذي يُثقل الحامل ويلقُض ظهره، وقيل: يُجسَّم، ويجعل على ظهره في طريق الحشر، والأول أنسب لقوله:

﴿ خالدين فيه ﴾ أى: فى ذلك الوزر، وهو العذاب، أو فى ذلك الحمل الثقيل؛ لاستمراره فيه بعد دخول النار،
﴿ وساء لهم يوم القيامة حملاً ﴾ أى: بئس حملهم هذا يوم القيامة، وإعادة يوم القيامة؛ لزيادة التهويل.

﴿ يوم يُنفَخُ فى الصور ﴾ أى: ذلك اليوم هو يوم يُنفَخُ فى الصور، أو: اذكر يوم ينفخ فى الصور نفخة البعث،
﴿ ونَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى: المشركين ﴿ يومئذ ﴾ أى: يوم ينفخ فى الصور، وأعاده، تهويلاً، حال كونهم
﴿ زُرْقًا ﴾ أى: زرق العيون. وإنما جعلوا كذلك؛ لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب، وكانت تشاءم
بزرقة العين، كما قال الشاعر:

لَقَدْ زَرِقْتَ عَيْنَاكَ يَا أَبْنُ مَكْعَبٍ أَلَا كُلُّ ضَبِيٍّ مِنَ اللُّؤْمِ أَزْرَقُ.

وقيل زرقاً، أى: عمياً؛ لأن حدقة العين تزرق من شدة العمى. وقيل: عطاشاً؛ لأن سواد العين يتغير من شدة
العطش ويزرق.

﴿ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى: يخفضون أصواتهم ويخفونها؛ لِمَا علا صدورهم من الرعب والهول. يقول فى تلك
المخافة بعضهم لبعض: ﴿ إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ أى: ما لبثتم فى الدنيا إلا عشر ليال؛ استقصاراً لمدة لبثهم فيها،
لزوالها، أو لتأسفهم عليها، لما شهدوا الشدائد والأهوال، أو فى القبر، وهو الأنسب بحالهم، فإنهم، حيث يشاهدون
البعث الذى كانوا ينكرونه فى الدنيا ويعدونه من قبيل المحال لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك؛ اعترافاً به، وتحقيقاً
لسرعة وقوعه، كأنهم قالوا: قد بعثتم وما لبثتم فى القبر إلا مدة يسيرة. وقيل: ما بين النفختين، وهو أربعون سنة.
روى أنه يرفع العذاب عن الكفار فى تلك المدة، فيستقصرون تلك المدة إذا عاينوا أهوال يوم القيامة، لأنهم فى
طول مدتهم فى عذاب القبر لا يعقون.

قال تعالى: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾، وهو مدة لبثهم، أو نحن عالمون اليوم بما يقولون فى ذلك الوقت قبل
وقوعه، ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أى: أعدلهم رأياً وأوفاهم عقلاً: ﴿ إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾، ونسبة هذا القول إلى
أمثلهم: استرجاع منه تعالى، لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق، بل لكونه أدل على شدة الهول.

﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ أى: عن مآل أمرها، وقد سأل عنها رجل من ثقيف، وقيل: مشركو مكة، على
طريق الاستهزاء، ﴿ فقل ﴾ لهم: ﴿ يَنْسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ أى: يجعلها كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها،
أو يقلعها ويطحرحها فى البحار كالهباء المنثور، ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أى: يترك ماكان تحتها من الأرض ﴿ قَاعًا

صفصفاً ﴿ أئى: أرضاً مستوية؛ لأن الجبال إذا سُويت، وجُعِلَ سطحها مساوياً لسائر أجزاء الأرض، فقد جعل الكل سطحاً واحداً. فالضمير فى (يذرهما) إما للجبال، باعتبار أجزائها السافلة، الباقية بعد النسف، وهى مقارها ومراكزها، وإما للأرض، المدلول عليها بقريضة الحال؛ لأنها الباقية بعد نسف الجبال.

والقاع والقيعة: ما استوى من الأرض وصلب، وقيل: السهل، وقيل: ما لا نبات فيه. والصفصف: الأرض المستوية الملساء، فإن أجزاءها صف واحد من كل جهة، ﴿ لا ترى فيها ﴾ أئى: فى الأرض الذى نسفت جبالها ﴿ عوجاً ﴾ أئى: اعوجاجاً وانخافضاً، ﴿ ولا أمتاً ﴾؛ نقوً وارتفاعاً. قال ابن عباس: العوج: الأودية، والأمت: الروابى. وقال مجاهد: العوج: الانخفاض، والأمت: الارتفاع؛ والمعنى: أنك، إن تأملت بالمقاييس الهندسية، وجدتْها مستوية الجهات. والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية.

﴿ يومئذ ﴾ أئى: يوم إذ نسفت الجبال، ﴿ يتبعون الداعى ﴾ أئى: يتبع الناس داعى الله تعالى إلى المحشر، وهو إسرأفيل عليه السلام، يدعو الناس بعد النفخة الثانية، قائماً على صخرة بيت المقدس: أيها الناس هلموا إلى ربكم، بعد أن يدعوهم إلى الخروج من قبورهم، قائلاً: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتمزقة، واللحوم المتفرقة؛ قوموا إلى العرض والحساب، فيقبلون من كل جانب منتشرين، كأنهم جراد منتشر، لا يدرون أين يذهبون، فينادى حينئذ من الصخرة للجمع للحساب. هذا ما تدل عليه الأحاديث والأخبار.

وقوله تعالى: ﴿ لا عوجَ له ﴾ أئى: لا يعوجُ له مدعو ولا يعدل عنه، فلا يزيغ عنه، بل كلهم يقصدون صوته، من مشارق الأرض ومغاربها وجوانبها. والتقدير: لا عوج للصوت عن أحد، بل يصل إليه أينما كان، ويتوجه إليه حيث كان، ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ أئى: خضعت وسكنت لهيبته ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ أئى: صوتاً خفياً. والهمس: صوت وطء الأقدام فى نقلها إلى المحشر، أئى: انقطعت أصوات اللسان، فلا تسمع إلا همس الأقدام فى مشيها إلى المحشر، من شدة الهيبة والخوف.

﴿ يومئذ لا تنفعُ الشفاعة ﴾ أئى: يوم إذ يقع ما ذكر من الأمور الهائلة لا تنفع شفاعة أحد، ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ فى الشفاعة، كالأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء، ﴿ ورضى له قولاً ﴾ أئى: ورضى قوله فى المشفوع له بحيث يقبل شفاعته. وقيل: (ورضى له قولاً) فى الدنيا، وهو: لا إله إلا الله، مخلصاً من قلبه.. أو: إلا من أذن له الرحمن أن يشفع فيه، ورضى لأجله قولاً من الشافع. وهذا أليق بمقام التهويل. وأما من عداه فلا تنفع، وإن وقعت؛ لقوله تعالى: ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ (١).

(١) الآية ٤٨ من سورة المدثر.

﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾ أى: ما تقدمهم من الأحوال، أو من أمر الدنيا، ﴿ وما خلفهم ﴾: وما بعدهم مما يستقبلونه، أو من أمر الآخرة، ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ أى: لا تحيط علومهم بذاته المقدسة، بحيث يدركون كنه الربوبية، أو: لا تحيط علومهم بمعلوماته تعالى. قال القشيري: الكناية (١) فى قوله: (به)، يحتمل أن تعود إلى (ما بين أيديهم وما خلفهم)، ويحتمل أن تعود إلى الحق - سبحانه - وهو طريقة السلف، يقولون: يعلم الحق ولا يحيط به العلم، كما قالوا: إنه يرى ولا يدرك. هـ.

الإشارة: وقد أتيناك من لدنا ذكراً، أى: قرآنًا يجمع القلوب على الله، ويدل على مشاهدة الله. من أعرض عنه - أى: عن الله - ولم يتوجه إليه بكلية، فإنه يحمل وزراً، يثقله عن الترقى إلى مقام العارفين، فيبقى مخلداً فى حضيض الغافلين، وذلك فى يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فيكرم المتقين، ويهين المجرمين، حيث يزول عنهم ما كانوا فيه من الدعة والسعة، كأنهم ما لبثوا فيه غير ساعة.

ويسألونك، أيها العارف، عن جبال العقل، حين تطلع على نور قمره شمس العرفان، فقل ينسفها ربي نسفاً، فيذر أرض النفس، حين استولت عليها أسرار المعاني، قاعاً صنفصفاً، لاتصالها بفضاء المعاني، حين ذهبت أغيار الأواني، لاترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً. وإنما ترى وجوداً متصلاً، وبحراً طامساً، ليس فيه بُعد ولا قرب، ولا علو ولا سفلى، وفى ذلك يقول الشاعر:

من أبصر الخلق كالسراب فقد ترقى عن الحجاب
إلى وجود تراه رتقاً بلا ابتعاد ولا اقتراب
ولم يشاهد به سواه هناك يهدى إلى الصواب
فلا خطاب به إليه ولا مشير إلى الخطاب

والمراد بالخلق: جميع الكائنات، فلا خطاب من العبد إلى ربه، لمحو العبد من شدة القرب، ولم تبق له إشارة ولا عبارة. وفى الحكيم: «ما العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له؛ لفدائه فى وجوده، وانطوائه فى شهوده». وقالوا: من عرف الله كل لسانه، وإليه الإشارة بقوله: «وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً». وهذا بعد اتباع الداعى إلى الله وصحبته، من غير عوج عنه، ولا خروج عن رأيه، حتى يقول له: ها أنت وربك. فحينئذ تحصل الهيبة والتعظيم، فلا يقدر أحد أن يرفع صوته، وهو فى حضرة الملك الكريم، وهذا شأن الصوفية، كلامهم كله تخافت وتسارر؛ لغلبة الهيبة عليهم.

(١) أى: الضمير.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ أي: في دخول الحضرة، (إلا من أذن له الرحمن) في التربية والترقية، (ورضى له قولاً)، وهو ذكر الله، بأمر به من أراد شفاعته فيه، حتى تستولى عليه أنوار الذكر، فيدخل مع الأحباب، ويجلس على بساط الاقتراب، فحينئذ يحصل له العلم بالله، على نعت الذوق والوجدان، وشهود العيان، لا على نعت الدليل والبرهان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ إشارة إلى عدم الإحاطة بكنهه الربوبية لمن دخل الحضرة، فلو حصل لهم الإحاطة بالكنه لم يبق لهم ترقٍ، وكيف؟ وهم يترقون في أسرار الذات وأنوار الصفات دائماً سرمداً، في هذه الدار وفي تلك الدار، ففي كل ساعة يتجدد لهم من لذيذ المشاهدات وأنوار المكاشفات، ماتعجز عنه العقول، وتكَلُّ عنه طروس النقول. نعم يحصل لهم العلم الضروري بالذات العلية، ويشاهدون ما تجلى من أسرارها وأنوارها، وتسرح فكرتهم في بحر الأولية والآخرية، والظاهرية والباطنية، والعظمة الفوقية وما تحت الثرى، ويخوضون في بحار الأحدية، ويتفكرون في قاموس كنه الربوبية، فلا خوف ولا ملل، من غير إحاطة، كما تقدم. والله تعالى أعلم.

فإذا رجعوا إلى مشاهدة الرسوم خضعت وجوههم للحق القيوم، كما قال تعالى:

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (١١١) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (١١٢)

قلت: (وقد خاب.. الخ: استئناف، تعليل ما لأجله عننت وجوههم، أو اعتراض، كأنه قيل: خابوا وخسروا، أو حال من الوجوه، و(من): عبارة عنها، مغنية عن ضميرها، أي: خضعت الوجوه، والحال أنها خابت حين حملت ظلماً. وقيل: (الوجوه) على العموم، فالمعنى حينئذ: وقد خاب من حمل منهم ظلماً، ومن قرأ: «فلا يخف»، فعلى النهي، وهو جواب، ومن قرأ بالرفع: فعلى الخبر، أي: فهو لا يخاف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أي: ذلت وخضعت خضوع العناة، أي: الأسارى في يد الملك القهار، ومنه قيل للأسير: «عان»، أي: خاضع ذليل، وفي ذلك يقول أمية بن أبي الصلت:

مَلِكٌ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيَّمٌ لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتَسْجُدُ

ولعلها وجوه المجرمين، كقوله تعالى: ﴿سَيَتُ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (١)، ويؤيده وصله بقوله: ﴿وقد خاب من حمل ظلماً﴾ أي: وعننت الوجوه؛ لأنها قد خابت وخسرت حين حملت ظلماً.

(١) من الآية ٢٧ من سورة الملك.

قال ابن عباس رضي الله عنه: (خسر من أشرك بالله ولم يتب)، فإنما تذل وجوه من أشرك بالله، وأما أهل التوحيد فأشار إليهم بقوله: (ومن يعمل من الصالحات...) الخ، فهو قسيم لقوله: (وقد خاب من حمل ظلماً)، لا لقوله: (وعنت الوجوه).

وإذا حملنا (عنت) على مطلق الخضوع أو السجود كان عاماً؛ لأن الخلائق كلها تخضع لله في ذلك الوقت. ثم فصلهم: فمن حمل ظلماً فقد خاب وخسر، ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ أي: بعضها، ﴿وهو مؤمن﴾، فالإيمان شرط في صحة الطاعات وقبول الحسنات، ﴿فلا يخاف ظلماً﴾ أي: منع ثواب قد استحقه بموجب الوعد، أو زيادة عقاب على موجب سيئاته، ﴿ولا هضمًا﴾ أي: كسراً ونقصاً من ثواب حسناته، وأصل الهضم: النقص والكسر؛ يقال: هضمت لك من حقك، أي: حططت، وهضمت الطعام: حططته إلى أسفل المعدة، وامرأة هضيمة الكشح: أي: ضامرة البطن، فالحق تعالى إنما تعرض لنفي الظلم والهضم عن عامل الصالحات؛ لأن نفي ذلك إنما يكون مع العمل، ففيه يتوهم الهضم والنقص، وأما بدونه فلا.. نعم، الإيمان المجرد نافع على مذهب أهل السنة، لكن صاحبه على خطر في نفوذ الوعيد، ولو غفر له، فإنه ناقص عن درجة عامل الصالحات، كما علم شرعاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا سرحت الفكرة وجالت في أقطار الملكوت وأسرار الجبروت، وتحققت بعدم الإحاطة، رجعت إلى عش العبودية، وخضعت للحق القيوم، وقد خاب وخسر من لم يبلغ إلى هذا المقام، حين حمل ظلماً بالميل إلى الشيء من السوء، بغلبة الطبع والهوى، وأما من نهض إلى مولاه، واشتغل بالأعمال التي تقربه إلى حضرته، فلا يخاف ظلماً ولا هضمًا؛ فإن الله يرفع العبد على قدر همته، وينعمه على قدر طاعته. وبهذا جاء الوحي والتنزيل، كما قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝﴾

قلت: (وكذلك): عطف على قوله: (كذلك نقص)، وذلك: إشارة إلى إنزال ما سبق من الآيات المتضمنة للوعيد، المنبئة عما سيقع من أهوال يوم القيامة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وكذلك﴾ أى: ومثل ذلك الإنزال المتقدم، ﴿أنزلناه﴾ أى: القرآن كله، وإضمماره، من غير سببية ذكره؛ للإيدان بنباهة شأنه، وكونه مركزاً فى العقول، حاضراً فى الأذهان، حال كونه: ﴿قرآناً عربياً﴾؛ ليفهمه العرب، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز، الدال على كونه خارجاً عن طوق البشر، نازلاً من عند خلاق القوى والقدر. ﴿وصرفنا فيه من الوعيد﴾ أى: كررنا فيه بعض الوعيد، أو من جنس الوعيد، ﴿لعلهم يتقون﴾ أى: كي يتقوا الكفر والمعاصى بالفعل، ﴿أو يحدث لهم ذكراً﴾؛ اتعاضاً واعتباراً يؤديهم إلى الاتقاء، ﴿فتعالى الله﴾ أى: تعظم شأنه عما يصفه الكفرة، وتهاون العصاة، الذين لم يحدث فيهم القرآن زجراً ولا وعظاً، أى: ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأفعاله، ﴿الملك﴾ لها، النافذ أمره ونهي، الحقيق بأن يرجى وعده، ويخشى وعيده، ﴿الحق﴾ فى ألوهيته لذاته، أو الثابت الذى لا يمكن عدمه، أزلاً وأبداً.

﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه﴾ أى: وإذا كنا أنزلنا عليك قرآناً عربياً، وصرفنا فيه من الوعيد، فأمهّل عدد نزوله، حتى يقرأه عليك الملك، ولا تعجل به قبل أن يتم وحيه، ويفرغ من قراءته عليك. كان ﷺ، إذا ألقى جبريل عليه الوحي، يتبعه عدد تلفظ كل حرف وكل كلمة، لكمال اعتدائه بالتلقى والحفظ، فنهى عن ذلك؛ لأنه ربما يشغله التلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها، ولأن المراد من الألفاظ فهم المعانى المتضمنة للعلوم التى لا حصر لها، ولذلك أمره باستفاضة العلم واستزادته منه فقال: ﴿وقل رب زدنى علماً﴾ أى: وقل فى نفسك، أو بلسانك: رب زدنى علماً، والمراد: سل الله عز وجل زيادة العلم به وبأحكامه؛ إذ لا نهاية لعلومه كما لا نهاية لذاته، فإنه الموصول إلى مطلبك دون الاستعجال. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً، يعرب عن كمال ظهور ذاته وأنوار صفاته، وصرفنا فيه من الوعيد، لمن تخلف عن شهوده، بعد كمال ظهوره، لعلهم يتقون ما يحجبهم عن رؤيته، أو يحدث لهم ذكراً، أى: شوقاً يزعجهم إلى النهوض إلى حضرته، والوصول إليه، فتعالى الله الملك الحق أن يتصل بشيء، أو يتصل به شيء (١)، وإنما الوصول إليه: العلم بإحاطته ووحدة ذاته.

ولا تعجل، أيها العارف، بالقرآن الذى ينزل على قلبك من وحي الإلهام، من قبل أن يقضى إليك وحيه، فإن الورادات الإلهية تأتى مجملة، وبعد الوعى يكون البيان، (فإذا قرآنه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه)، ولكن استزد من ربك العلوم اللدنية والكشوفات الإلهية، أى: لا يكن همك استعجال الوردات أو بقاءها، وليكن همك استزادة العلوم ومعرفة رآهبها، فإن العلوم وسائل لمعرفة المعلوم، والوصول للحي القيوم. وبالله التوفيق.

(١) رجم الله الشيخ ابن عجيبة، وأثابه على هذه الكلمة العظيمة. ولنا أن نفهم منها نفى الحلول والاتحاد، الذى هو مذهب أهل الزيغ والإلحاد.

ثم بين تصرف الوعيد على ارتكاب العصيان وبيان منتهى، وهو عداوة الشيطان فقال: (ولقد.. الخ.. أو تقول: لما نهاه عن العجلة لأجل خوف النسيان، قال له: قد نسي أبوك آدم، فالنسيان من طبع الإنسان، فقال:

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝١١٥ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ۝١١٦ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۝١١٩ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّبِعُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۝١٢١﴾

قلت: يقال: عهد إليه الملك، وأرعد إليه، وتقدم إليه: إذا أمره ووصاه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ الله ﴿لقد عهدنا﴾ وتقدمنا ﴿إلى آدم﴾ من غرور الشيطان وعداوته، ووصيائه ألا يغتر به، ﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك﴾، فلا تغتر بنصحه، ﴿فنسى﴾ ذلك العهد ولم يحتفل به، حتى غفل عنه، واغتر بإظهار نصحه، حتى أكل من الشجرة، متأولاً أن النهي للتنزيه، أو عن عين الشجرة، لا عن جنسها، فأكل من غيرها، ﴿ولم نجد له عزمًا﴾ أي: ثبات قدم، وحزمًا في الأمور، إذ لو كان كذلك لما غره الشيطان بوسوسته، وقد كان ذلك منه عليه السلام في بدء أمره، قبل أن يجرب الأمور؛ ويتولى حارها وقارها، ويذوق شريها وأريها^(١). وعن النبي صلى الله عليه وآله: «لو وزنت أحلام بني آدم - أي: عقولهم - بحلم آدم، لرجح حلمه»^(٢).

وقيل: (ولم نجد له عزمًا) على الذنب، فإنه أخطأ، أو تأول، ولم يتعمد، وأما قوله: (وعصى...)؛ فلعو شأنه وقربه عد عصيانه في حقه، «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

ثم شرع في بيان المعهود، وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه، فقال: ﴿وإذ قلنا﴾ أي: واذكر وقت قولنا ﴿للملائكة اسجدوا لآدم﴾، وتعليق الذكر بالوقت، مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث؛ للمبالغة في إيجاب ذكرها، فإن الوقت مشتمل على تفاصيل الأمور الواقعة فيه، فالأمر بذكره أمر بذكر تفاصيل ما وقع فيه

(١) الشرى: الحنظل، والأرى: العسل.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢١١/١٦)، وسعيد بن منصور، وابن عساكر، وابن المنذر، كما عناه لهم السيوطي في الدر المنثور (٥٥٣/٤) عن أبي أمامة الباهلي، موقوفاً.

بالطريق البرهاني، أي: اذكر ما وقع في ذلك الوقت منا ومنه، حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه، فقد أمرنا الملائكة بالسجود ﴿فسجدوا﴾ كلهم ﴿إلا إبليس أبى﴾ السجود واستكبر، أو فعل الإباء وأظهره.

﴿فقلنا﴾ عقب ذلك، اعتداء بنصحه، وهو العهد الذي عهدناه إليه: ﴿يا آدم إن هذا﴾ الذي رأيته فعل ما فعل ﴿عدو لك ولزوجك﴾؛ حيث لم يرض بالسجود لك، ﴿فلا يخرجنكما من الجنة﴾ أي: لا يكونن سبباً لإخراجكما من الجنة، والمراد: نهيهما عن الاغترار به، ﴿فتشقى﴾: جواب النهي، أي: فتنعب بما ينالكما من شدائد الدنيا، من الجوع والعطش، والفقر والضر، وتعب الأبدان في تحصيل المعاش واللباس، فيكون عيشك من كد يمينك. قال ابن جبير: (أهبط إلى آدم ثور أحمر، فكان يحرق عليه، ويمسح العرق عن جبينه، فهو شقاؤه). ولم يقل: فتشقى؛ لأنه غلب الذكر؛ لأن تبعه أكثر، مع مراعاة الفواصل.

قال تعالى له: ﴿إن لك﴾ يا آدم ﴿أن لا تجوع فيها ولا تعرى﴾ من فقد اللباس، ﴿وأنت لا تظمأ﴾: لا تعطش ﴿فيها، ولا تضحى﴾؛ تبرز للشمس فيؤذيك حرها، إذ ليس في الجنة شمس ولا زهرير. والعدول عن التصريح له بما في الجنة من فنون النعم من المأكول والمشرب، والتمتع بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية - مع أن فيها من الترغيب في البقاء فيها ما لا يخفى - إلى ما ذكر من نفى نقائصها، التي هي الجوع والعطش والعرى والضحى؛ لتنفير تلك الأمور المنكرة؛ ليبالغ في التحامى عن السبب المؤدى إليها، على أن الترغيب قد حصل له بما أباح له من التمتع بجميع ما فيها، سوى ما استثنى من الشجرة، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما﴾ (١)، وقد طوى ذكرها هنا؛ اكتفاءً بما في موضع آخر، واقتصر هناك على ما ذكر من الترغيب المتضمن للترهيب، ونفى الجوع وما بعده عن أهل الجنة لأنهم لا يعوزون طعاماً ولا شرباً ولا كناً، بل كلما تمتعوا بشيء مما ذكر، أتبعهم بأمثاله أو أفضل منه، من غير أن ينتهوا إلى حد الضرورة.

قال تعالى: ﴿فوسوس إليه الشيطان﴾ أي: أنهى إليه وسوسته، أو أسرها إليه، ﴿قال﴾ فيها: ﴿يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد﴾؟ أي: شجرة من أكل منها خلد، ولم يمت أصلاً، سواء كان على حاله، أو بأن يكون ملكاً، ﴿و﴾ أدلك على ﴿ملك لا يبلى﴾ أي: لا يفنى ولا يزول، ولا يختل بوجه من الوجوه، ﴿فاكلا منها فبدت لهما سواتهما﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: عريا عن النور الذي كان الله تعالى ألبسهما، حتى بدت فروجهما. ﴿وطفقا يخصفان﴾؛ يرقعان ﴿عليهما من ورق الجنة﴾، وقد تقدم في الأعراف (٢).

(١) من الآية ٣٥ من سورة البقرة.

(٢) راجع تفسير الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

الإشارة: ولقد عهدنا إلى آدم ألا ينسانا، وألا يغيب عن شهودنا بُمُتعة جنتنا، فنسى شهودنا، ومال إلى زخارف جنتنا، فأنزلناه إلى أرض العبودية، حتى يتطهر من البقايا، وتكمل فيه المزايا، فحينئذ نسكنه في جوارنا، ونكشف له عن حضرة جمالنا، على سبيل الخلود في دارنا.

قال جعفر الصادق: عهدنا إلى آدم ألا ينسانا، فنسى واشتغل بالجنة، فابتلى بارتكاب النهي، وذلك أنه ألهاه النعيم عن المنعم، فوقع من النعمة في البلية، فأخرج من النعيم والجنة؛ ليعلم أن النعيم هو مجاورة المنعم، لا الالتذاذ بالأكل والشرب. فلا ينبغي لأحد أن ينظر إلى ما سواه، نسأل الله تعالى أن يمدنا وإياك بالتوفيق والعناية. هـ. قال بعض الحكماء: إنما نسي آدم العهد؛ لأنه لما خلقت له زوجته أوقع الله في قلبه الأنس بها، وابتلاه بشهوات النفس فيها، فرأى في وجهها شجرة الحسن بادية، وشهوة الوقاع عليه غالبة. هـ. أي: فترك النظر إلى جمال المعاني، واشتغل بحس الأواني، فأفضى به إلى ترك الأدب، ولزمه التعب، فليحذر المرید جهده من الميل إلى الحظوظ، وليكن على حذر من الغفلة حين تناولها، والعصمة من الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾، قال الحاتمي: أي: على انتهاك الحرمة، بل وقع بمطالعة قدر سابق، أنساه ما توجه على التركيب من خطاب الحجر. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي: وبما أشار إليه من مطالعة القدر يتضح لك قوله ﷺ: «فحج آدم موسى»^(١)، وليس ذلك لغيره إن لم يكن مجبوراً ومأخوذاً عنه، وهذا القدر هو الفارق بين ما يجري من المخالفة على الولي وغيره. وقد نبه على ذلك الجليل بقوله: (وكان أمر الله قدراً مقدوراً)، فأشار لغلبة القدر وقهره، من غير وجود عزم من العبد. هـ. قلت: احتجاج آدم وموسى - عليهما السلام - لم يكن في عالم الأشباح، الذي هو محل التشريع، إنما كان في عالم الأرواح، الذي هو محل التحقيق، فالنظر في ذلك العالم الروحاني، إنما هو لسر الحقيقة، وهو ألا نسبة لأحد في فعل ولا ترك، فمن احتج بهذا غلب، بخلاف عالم الأشباح، لا يصح الاحتجاج بالقدر؛ لأن فيه خرق رداء الشريعة. فتأمل.

وقال في التنوير: اعلم أن أكل آدم من الشجرة لم يكن عناداً ولا خلافاً، فإما أن يكون نسي الأمر، فتعاطى الأكل وهو غير ذاك، وهو قول بعضهم، ونحمل عليه قوله سبحانه: (فَنَسِيَ)، وإن كان تناوله، ذاكراً للأمر، فهو إنما تناول لأنه قيل له: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ...﴾^(٢) الآية، فلحبه في الله، وشغفه به، أحب ما يؤديه إلى الخلود في جواره والبقاء عنده، أو ما يؤديه إلى الملكة؛ لأن آدم ﷺ عاين قرب الملائكة من الله،

(١) أخرجه البخاري في (القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله)، ومسلم في (القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام) عن أبي هريرة. واللفظ: «حاج موسى آدم، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأسفيتهم؟ قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وكلامه، أتؤمنني على أمر كتبه الله على قلب أن يخلقني؟ فحج آدم موسى».

(٢) من الآية ٢٠ من سورة الأعراف.

فأحب أن يأكل من الشجرة؛ ليتناول الملكية، التي هي في ظنه أفضل، لاسيما وقد قال سبحانه: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (١)، قال آدم ﷺ: (ما ظننت أن أحداً يحلف بالله كاذباً)، فكان كما قال الله سبحانه: ﴿فَدَلَاهُمَا بَغْوَرٍ﴾ هـ.

وسئل ابن عطاء عن قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ؟﴾ فقال: قال آدم ﷺ: يارب لم أدبني، وإنما أكلت من الشجرة طمعاً في الخلود في جوارك؟ فقال الله: يا آدم طلبت الخلود من الشجرة لا مني، والخلود بيدي وملكى، فأشركت بي، وأنت لا تعلم، ولكن نبهتك بالخروج من الجنة حتى لا تنساني في وقت من الأوقات هـ. والحاصل: أنه إما أن يحمل النسيان على حقيقته، ويكون معه وقوع الأكل بمطالعة القدر وقبضة الجبر، ولا يعارضه: «مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة»؛ لأنه اتفق ذلك صورة وظاهراً، مع شهود الجبر باطناً، وإما أن يحمل النسيان على الترك، بتأويل أن النهي ليس على التحتم، فتركه لما أمل من جوار الحق وقربه في الأكل، فقدمه؛ لأنه أرجح عنده. قاله المحشى.

وقوله تعالى: ﴿فَوَسَّوْا إِلَيْهِ الشَّيْطَانَ...﴾ الآية، يؤخذ منه سد باب التأويلات والرخص في الأمر الممنوع شرعاً، فإن أبيع بعضه ومنع البعض فلا توسعة، فلأن تترك مباحاً خيراً من أن تقع في محرم، وقد كان السلف يتركون مائة جزء من المباح، خوفاً من الوقوع في المحرم. والله الهادي إلى سواء الطريق.

ثم قال تعالى:

﴿... وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ قَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ۝١٢٦ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ۝١٢٧﴾

(١) الآية ٢١ من سورة الأعراف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وعصى آدم ربه﴾ بما ذكر من أكل الشجرة ﴿فغوى﴾ أى: ضل عن مطلوبه، الذى هو الخلود، بل ترتب عليه نقيضه، فكان تأميل ذلك باطلاً فاسداً؛ لأنه خلاف القدر، أو عن الرشد، حيث اغتر بقول العدو. وقال الكواشى: فعل فعلاً لم يكن له فعله، أو أخطأ طريق الحق، حيث طلب الخلد بأكل المنهى عنه، فخاب ولم ينل مراده. هـ. وفى وصفه ﷺ بالعصيان والغواية، مع صغر زلته، تعظيم لها، وزجر بليغ لأولاده عن أمثالها.

﴿ثم اجتبه ربه﴾، أى: اصطفاه وقرّبه إليه، بالحمل على التوبة والتوفيق لها. وفى التعرض لعنوان الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره، مزيد تشريف له ﷺ، يعنى: آدم. ﴿فتاب عليه﴾ أى: قبل توبته حين تاب هو وزوجته، قائلين: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا...﴾ (١) الآية. ﴿وهدى﴾ أى: هداه إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب العصمة. وإفراد آدم ﷺ بقبول توبته واجتبائه؛ لأصالته فى الأمور، واستلزام قبول توبته لقبول توبتها. ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ (٢).

﴿قال اهبطا منها جميعاً﴾، وهو استئناف بياني، كأن سائلاً قال: فما قال تعالى بعد قبول توبته؟ ف قيل: قال له ولزوجته: (اهبطا منها) أى: انزلا من الجنة إلى الأرض، حال كونكم ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ أى: متعادين فى أمر المعاش، كما عليه الناس من التجاذب والتحارب والاختلاف فى الدين. والجمع؛ لأنهما أصل الذرية ومنشأ الأولاد. وفى اللباب: ولما أهبطوا إلى الأرض ألقى آدم يده تحت خده، وبكى مائة سنة، وألقى حواء يدها على رأسها، وجعلت تصيح وتصرخ، فبقيت سنة فى النساء. ولم يزل آدم يبكى حتى صار بخديه أخايد من كثرة الدموع، وجرى من عينيه على الأرض جدولان، يجريان إلى قيام الساعة. وأهبط آدم على ورقة من ورق الجنة، كان يتستر بها، وفى يده قبضة من ريحان الجنة، فلما اشتغل بالبكاء أدارتها الرياح فى أرض الهدى، فصار أكثر نباتها طيباً. انظر بقية كلامه.

﴿فإما يأتينكم منى هدى﴾ أى: هداية من رسول وكتاب يهدى إلى الوصول إلى، أى: سيأتينكم منى رسل وكتاب. والخطاب لهما بما اشتملا عليه من ذريتهما. ﴿فمن اتبع هداى﴾ بأن آمن بالرسول وما جاء به من عند الله ﴿فلا يضل﴾ فى الدنيا ﴿ولا يشقى﴾ فى الآخرة. ووضع الظاهر موضع المضمرة يعنى: من اتبع هداى، مع الإضافة إلى ضميره تعالى؛ لتشريفه والمبالغة فى إيجاب اتباعه. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: (من قرأ الفرقان، واتبع ما فيه، هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿فمن اتبع هداى﴾ (٣)؛ أى: كتابى ورسولى، ﴿فلا يضل﴾ فى الدنيا، ﴿ولا يشقى﴾ فى الآخرة.) وفى لفظ آخر: (أجار الله

(١) من الآية ٢٣ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٣٤ من سورة النساء.

(٣) أخرجه الطبرى فى التفسير (٢٥٥/١٦) موقوفاً، وعزاه السيوطى فى الدر (٥٥٦/٤) لابن أبى شيبه والطبرانى وأبى نعيم فى الحلية وابن مردويه، مرفوعاً.

تابع القرآن أن يصل في الدنيا ويشقى في الآخرة). قال ابن عرفة: والعطف بالفاء في قوله: (فإما.. الخ، إشارة إلى أن العداوة سبب في أن يبعث لهم الرسل يهدونهم إلى طريق الحق، فضلاً منه تعالى، ولذلك أتى «إيان»، دون «إذ»، المقتضية للتحقيق الموهوم للوجوب. فانظره.

﴿ومن أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾؛ عن القرآن، أو عن الهدى الذاكِر لي والداعِي إليّ، ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا﴾: ضيقاً، مصدر وصف به، ولذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث، يقال: منزل ضنك وعيشة ضنك. وقرئ: «ضنكى، كسرى». وإنما كان عيشُهُ ضيقاً؛ لأن مجامع همته، ومطامح نظره مقصورة على أغراض الدنيا، وهو متهالك على ازديادها، وخائف من انتقاصها، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة، فإن نور الإيمان يوجب له القناعة، التي هي رأس الغنى وسبب الراحة، فيحيا حياة طيبة. وقيل: هو عذاب القبر. وروى ذلك عن النبي ﷺ. قال أبو سعيد الخدري: «يُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حتى تختلف أضلاعه، ويسلط عليه تسعة وتسعون تنينا...» الحديث، وقيل: الصبر على الزقوم والضريع والغسلين.

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾: فاقْد البصر كقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾ (٢). لا أعمى عن الحجة كما قيل. ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ في الدنيا؟ ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَىٰ مِثْلَ ذَلِكَ فَعَلْتَ أَنْتَ؛ أَتَىٰ أَتَىٰ آيَاتُنَا﴾ أي: حججنا النيرة على أيدي رسلنا ﴿فَنَسِيَهَا﴾ أي: عميت عنها، وتركتها ترك المنسى الذي لا يذكر قط، ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾: تُتْرَك في العمى والعذاب، جزاء وفاقاً. وحشره أعمى لا يدل على دوامه، بل يزيله عنه فيرى أهوال الموقف ومقعده، وكذلك الصمم والبكم يزيلهما الله تعالى عنهم. ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ (٣)، فيوم القيامة ألوان. ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الموافق للجذابات. ﴿نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ وتعدى؛ بالانهماك في الشهوات، ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾، بل كذب بها وأعرض عنها، ﴿وَلْعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ على الإطلاق، أو عذاب النار، ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ من ضنك العيش، أو منه ومن الحشر أعمى، عائداً بالله من جميع ذلك.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾، اعلم أن العصيان الحقيقي هو عصيان القلوب، كالتكبر على عباد الله وتحقير شيء من خلق الله، وكالاعتراض على مقادير الله، وعدم الرضا بأحكام الله. قال بعض الصوفية: (أذنبتُ ذنباً فأنا أبكى منه أربعين سنة، قيل: وما هو؟ قال: قلت لشيء كان: ليته لم يكن). وأما معصية

(١) من الآية ٩٧ من سورة الإسراء.

(٢) من الآية ٣٨ من سورة مريم.

الجوراح، إن لم يكن معها إصرار، فقد تُوجب القرب من الكريم الغفار؛ «معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خيراً من طاعة أورثت عزاً واستكباراً»، وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول. وتأمل معصية إبليس حيث كانت من القلب أورثت طرداً وإبعاداً، ومخالفة آدم؛ حيث كانت بالجوراح أورثت قرباً واجتباءً.

والحاصل: أن كل ما يردُّ العبد إلى مولاه، ويحقق له العبودية والانكسار، فهو شرف له وكمال، وكل ما يقوى وجود النفس ورفعتها فهو نقص وإبعاد، كائناً ما كان، فالعصمة والحِفظَةُ إنما هي من المعاصي القلبية، أو من الإصرار، وأما معاصي الجوراح فيجرى على العبد ما كتب، ولا تنقصه، بل تكمله، كما تقدم. فالتنزيه إنما يكون من النقائص، وهي التي تُوجب البعد عن الحق، لا مما يؤدي إلى الكمال، وبهذا تفهم أن ما وقع من الأنبياء - عليهم السلام - مما صورته المعصية، ليس بنقص، إنما هو كمال. وكذا ما يصدر من الأولياء، على سبيل الهفوة، فتأمله، ولا تبادر بالاعتراض، حتى تصحب الرجال، فيعلموك النقص من الكمال.

قال الواسطي: العصيان لا يؤثر في الاجتباتية، وقوله: «وعصى» أي: أظهر خلافاً، ثم أدركته الاجتباتية، فأزالت عنه مذمة العصيان، ألا ترى كيف أظهر عذره بقوله: «فنسى ولم نجد له عزماً». هـ. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمته الله: (نعمت المعصية أورثت الخلافة).

واعلم أن آدم عليه السلام قد أهبط إلى الأرض قبل أن يخلق، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (١)؛ فقد استخلفه قبل أن يخلقه، لكن حكمته اقتضت وجود الأسباب، فكان أكله سبباً في نزوله للخلافة والرسالة وعمارة الأرض، فهو نزول حساً، ورفعة معنى، وكذلك زلة العارف تنزله لشرف العبودية، فيرتفع قدره عند الله.

وقوله تعالى: (بعضكم لبعض عدو)، هذا فيمن غلبت عليه الطينية الإمشاجية، وأما من غلبت عليه الروحانية فهم إخوان متحابون، أخلاء متقون، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٢).

وقوله تعالى: (فإما يأتينكم مني هدى) أي: داع يدعو إلى، ويهدي إلى معرفتي ودخول حضرتي، فمن تبعهم دخل تحت تربيتهم، فلا يضل ولا يشقى، بل يهتدي ويسعد السعادة العظمى. ومن أعرض عن ذكرهم ووعظهم، وتكذب عن صحبتهم، فإن له معيشة ضنكاً، مصحوبة بالحرص والطمع، والجزع والهلع، ونحشره يوم القيامة أعمى عن شهود ذاتنا، فلا يرى إلا الأكوان الحسية، والزخارف الحسية دون أسرار الذات القدسية. قال رب لم حشرتني أعمى عن شهود أسرار المعاني، عند رؤية الأواني، وقد كنت بصيراً في الدنيا ببصر الحس؟ قال: كذلك أتتك آياتنا، وهم الأولياء العارفون، فنسيتها، ولم تحتفل بشأنها، وكذلك اليوم تنسى؛ لأن المرء يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه.

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزخرف.

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة.

قال الورتجبي: ونحشره يوم القيامة أعمى، يعنى: جاهلاً بوجود الحق، كما كان جاهلاً فى الدنيا، كما قال على - كرم الله وجهه -: من لم يعرف الله فى الدنيا لا يعرفه فى الآخرة. وقيل: عن رؤية أوليائه وأصفيائه. هـ. وقال القشيري: فى الخبر: «مَنْ كَانَ بِحَالَةِ نَقَى اللَّهِ بِهَا» (١). فَمَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَعْمَى الْقَلْبِ، يُحْشَرُ عَلَى حَالَتِهِ، يَعِيشُ عَلَى مَا جَهِلَ، وَيُحْشَرُ عَلَى مَا جَهِلَ، وَلِذَلِكَ يَقُولُونَ: (مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدُنَا) ؟ إِلَى أَنْ تُصِيرَ مَعَارِفُهُمْ ضَرُورِيَّةً، كَمَا يَتْرَكُونَ التَّدَبُّرَ فِي آيَاتِهِ يَتْرَكُونَ غَدَاً فِي الْعُقُوبَةِ مِنْ غَيْرِ رَحْمَةٍ عَلَى ضَعْفِ حَالَاتِهِمْ. هـ.

وكذلك نجزي من أسرف بالعكوف على شهواته، واغتنام أوقات لذاته، حتى انقضت أيام عمره فى البطالة، نجزيه غم الحجاب والبعد عن حضرة الأحباب، حيث لم يصدق بوجود آيات ربه؛ وهم الدعاة إلى الله. ولعذاب حجاب الآخرة أشد وأبقى؛ لدوامه واتصاله، نعوذ بالله من غم الحجاب وسوء الحساب، والتخلف عن حضرة الأحباب. وبالله التوفيق.

ثم حض على الاعتبار فى هذه الدار، فقال:

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِينَهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ۝ ١٢٨ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ۝ ١٢٩ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝ ١٣٠ ﴾

قلت: (أفلم): الهمزة للإنكار التوبيخي، والفاء للعطف على محذوف، أى: أغفلوا فلم يهد لهم. وعدى الهداية باللام لتضمنها معنى التبیین، والفاعل مضمون (كم أهلكتنا) ،أى: أفلم يبين لهم مآل أمرهم كثرة إهلاكنا للقرون الأولى؟ وقيل: الفاعل ضمير عائد إلى الله. و (كم.. الخ: معلق للفعل سد مسد مفعوله. أى: أفلم يبين الله لهم كثرة إهلاك القرون من قبلهم؟ والأوجه: أن لا يلاحظ له مفعول، كأنه قيل: أفلم يفعل الله لهم الهداية، ثم قيل بطريق الالتفات: كم أهلكتنا.. الخ؛ بيانا لتلك الهداية. و (من القرون): فى محل نصب، نعت لمفعول محذوف، أى: قرناً كائناً من القرون.

(١) يزيد هذا قوله - صلى الله عليه وسلم: «من مات على شيء بعثه الله عليه». أخرجه أحمد فى المسند (٣/٣١٤)، والحاكم فى المستدرک (٤/٣١٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

وجملة (يمشون): حال من القرون، أي: أهلكناهم وهم في حال أمن وثقل في ديارهم، أو من الضمير في «لهم»، مؤكد للإنكار، والعامل: «يهد»، والمعنى: أفلم يهد لهم إهلاكنا للقرون السالفة، كقوم نوح ولوط وأصحاب الأيكة، حال كونهم، أي: قريش - ماشين في مساكنهم إذا سافروا إلى الشام، و (أجل مسمى): عطف على (كلمة)، أو استئناف، أي: وأجل مسمى حاصل لهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: أو لم يبين لهم عاقبة أمرهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي: كثرة إهلاكنا للقرون السالفة قبلهم، وهم ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ إذا سافروا إلى الشام، كأصحاب الحجر، وثمود، وفرعون، وقوم لوط، مشاهدين لآثار ديارهم خاربة، مع علمهم بما جرى عليهم، بسبب تكذيبهم، فإن ذلك مما يوجب أن يهتدوا إلى الحق، فيعتبروا، لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك، أو: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ كثرة إهلاكنا للقرون السالفة قبلهم، حال كونهم آمنين، «يمشون» في ديارهم ويتقلبون في رباعهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (١).

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ الإهلاك الفظيع ﴿لآيَاتٍ﴾ كثيرة عظيمة واضحة الهداية، دالة على الحق ﴿لأُولَى النَّهْيِ﴾؛ لذوى العقول الناهية عن القبائح، التي من أقبحها ما يتعاطاه كفار مكة من الكفر بآيات الله، والتعamy عنها، وغير ذلك من فنون المعاصي.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾، وهو تأخير العذاب عن هذه الأمة إلى الآخرة؛ لحكمة، لعجلنا لهم الهلاك كما عجلنا لتلك القرون المهلكة، التي يمرون عليها ولا يعتبرون، فأصروا على الكفر والعصيان، فلولا تلك العدة بتأخير العذاب ﴿لَكَانَ لِرَأْمًا﴾ أي: لكان عقاب جنایاتهم لازماً لهؤلاء الكفرة، بحيث لا يتأخرون عن جنایاتهم ساعة، لزوم ما أنزل بأولئك الغابرين، وفي التعرض لعنوان الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام - تلويح بأن ذلك التأخير تشريف له ﷺ، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ (٢) واللزام: مصدر لازم، وصف به؛ للمبالغة، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: لولا كلمة سبقت بتأخيرهم، وأجل مسمى لأعمارهم أو عذابهم، وهو يوم القيامة، أو يوم بدرٍ، لما تأخر عذابهم أصلاً. وإنما فصله عما عطف عليه، للمسارعة إلى بيان جواب «لولا»، وللإشعار باستقلال كل منهما بنفى لزوم العذاب المعجل، ومراعاة فواصل الآية الكريمة.

(١) كما جاء في الآية ٧٨ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ أي: إذا كان الأمر على ما ذكرنا؛ من أن تأخير عذابهم ليس بإهمال، بل إهمال، وأنه لازم لهم البتة. فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر؛ فإن علمه ﷺ بأنهم هالكون لا محالة مما يسليه ويحملة على الصبر، أو اصبر على ما يقولون، واشتغل بالله عنهم، ولا تلتفت إلى هلاكهم ولا بقائهم، فإله أنرى بهم. ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي: نزهه عما ينسبون إليه، ما لا يليق بشأنه الرفيع، حامداً له على ما خصك به من الهدى، معترفاً بأنه مولى النعم كلها.

قال الورتجبي: سماع الأذى يُوجب المشقة، فأزال عنه ما كان قد لحقه من سماع ما يقولونه بقوله: (وسبح بحمد ربك) أي: إن كان سماع ما يقولون يُوحشك، فتسبيحنا بروحك. هـ. أو: صلّ وأنت حامد لربك، الذي يبلغك إلى كمال هدايتك، ويرجع هذا قوله: ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾، فإن توقيت التنزيه غير معهود، فإن المراد بقبل طلوع الشمس: صلاة الفجر، وقبل غروبها: صلاة الظهر والعصر، وقيل: العصر فقط.

﴿ وَمِنْ آثَاءِ اللَّيْلِ ﴾ أي: ساعاته ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أي: صلّ، والمراد به المغرب والعشاء، وآناء: جمع إني، بالكسر والقصر، أو آناء، بالفتح والمد. وتقديم المجرور في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آثَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ ﴾؛ لاختصاصها بمزيد الفضل، فإن القلب فيها أجمع، والنفس إلى الاستراحة أميل، فتكون العبادة فيها أشق، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ (١). ﴿ وَ ﴾ سبّح أيضاً، ﴿ أَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ وهو تكرير لصلاتي الفجر والمغرب؛ إيداناً باختصاصهما بمزيد مزية. وجمع (أطراف) بحسب اللفظ مع أمن اللبس، أو يراد بأطراف النهار: الفجر والمغرب والظهر؛ لأنها (٢) نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الثاني، أو يريد التطوع في أجزاء النهار.

قلت: وإذا حملناه على التنزيه - وهو أن يقول: سبحان الله، أو: لا إله إلا الله، أو كل ما يدل على تنزيه الحق - يكون تخصيص هذه الأوقات بالذكر؛ لشرفها. فقد وردت أحاديث في الترغيب في ذكر الله أول النهار وآخره، وآناء الليل حين ينتبه من نومه، بحيث يكون كلما تيقظ من نومه سبّح الله وهلله وكبره، قبل أن يعود إلى نومه. وهكذا كان أهل اليقظة من السلف الصالح. وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ أي: بما يعطيك من الثواب الجزيل، بالتسبيح في هذه الأوقات. أو ترضى بالشفاعة في جميع الخلائق، فتقر عينك حينئذ. وفي صحيح البخاري: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

(١) الآية ٦ من سورة المزمل. (٢) أي: صلاة الظهر.

غروبها فافعلوا، ثم تلا هذه الآية: «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» (١) ففيه ترجيح من فسرهما بالصلاة، وفيه إشارة إلى أن الصلاة ذكر وإقبال على الله وانقطاع إليه، وذلك مزرعة المشاهدة والرؤية في الآخرة. وقد جاء في أهل الجنة: «أنهم يرون ربهم بكرة وعشيا»، هذا في حق العموم، وأما خصوص الخصوص، ففي كل ساعة ولحظة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أفلم يهد لأهل الإيمان والاعتبار، وأهل الشهود والاستبصار، كم أهلكنا قبلهم من القرون الخالية، والأمم الماضية، فهم يمشون في مساكنهم الدارسة، ويشاهدون آثارهم الدائرة، كيف رحلوا عنها وتركوها، واستبدلوا ما كانوا فيه من سعة القصور بضيق القبور، وما كانوا عليه من الفرش الممهدة بافتراش التراب وتغطية اللحد الممددة، فيعتبروا ويتأهبوا للحق بهم، فقد كانوا مثلهم أو أشد منهم، قد نما ذكرهم، وعلا قدرهم، وخسف بعد الكمال بدرهم. فكانهم ما كانوا، وعن قريب مضوا وبانوا، وأفضوا إلى ما قدموا، وانقادوا؛ قهراً، إلى القضاء وسلموا، ففي ذلك عبر وآيات لأولى النهى. لكن القلوب القاسية لا ينفع فيها وعظ ولا تذكير، فلولا كلمة الرحمة والحلم بتأخير العذاب، وأجل مسمى لأعمارهم؛ لعجل لهم العقاب.

فاصبر، أيها المتوجه إلى الله، المنفرد بطاعة مولاه، على ما يقولون، مما يكدر القلوب، واشتغل بذكر ربك وتنزيهه، مع الطلوع والغروب وآناء الليل والنهار، حتى تغيب في حضرة علام الغيوب، لعلك ترضى بمشاهدة المحبوب. وبالله التوفيق.

ولما كان محصل الاعتبار هو صرف الهمة عن هذه الدار، أمر به نبيه ﷺ ومن كان على قدمه، فقال:

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَاهُ ۖ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ ۚ
وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۖ ﴾ (١٣١) وَأَمْرَأَهُكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ
وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿ ١٣٢ ﴾

قلت: (زهرة): مفعول بمحذوف، يدل عليه (متعنا) أي: أعطينا، أو على الذم، وفيه لغتان: سكون الهاء وفتحها.

(١) أخرجه بلحوه البخاري (كتاب مراقبات الصلاة، باب فضل صلاة العصر)، ومسلم (كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر) من حديث جرير بن عبدالله. ووقع عند مسلم أن الذي قرأ الآية هو جرير، راوى الحديث.

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَمْدَنْ عَيْنِكَ﴾ أى: لا تطلّ نظرهما، بطريق الرغبة والميل ﴿إِلَى مَا مَتَعْنَاهُ﴾ من زخارف الدنيا ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أى: أصنافاً من الكفرة، والمعنى: لا تنظر إلى ما أعطيناه أصناف الكفرة من زخارف الدنيا الغرارة، ولا تستحسن ذلك، فإنه فأن، وهو من ﴿زهرة الحياة الدنيا﴾ أى: بهجتها، ثم يغنى ويبيد، كشأن الزهر، فإنه فائق المنظر، سريع الذبول والذهاب.

متعناهم بذلك، وأعطيناهم الأموال والعز في الدنيا؛ ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أى: لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم، هل يقومون بشكره فيؤمنوا بك، ويصرفوه في الجهاد معك، وينفقوه على من آمن معك.. أم لا؟ أو لنعذبهم في الآخرة بسببه، فلا تهتم بذلك. ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أى: ما ادخر لك في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾، أو: ورزقك في الدنيا من الكفاف مع الهدى، خير مما منحهم في الدنيا، لأنه مأمون الغائلة؛ بخلاف ما منحوه، فعاقبته الحساب والعقاب. ﴿وَأَبْقَى﴾؛ فإنه لا ينقطع نفسه أو أثره، بخلاف زهرة الدنيا، فإنها فانية منقطعة.

فالواجب: الاشتغال بما يدوم ثوابه، ولذلك قال له ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾، أمره بأن يأمر أهل بيته، أو التابعين له من أمته، بالصلاة، بعد ما أمر هو بقوله: (وسبح بحمد ربك) على ما مر؛ ليتعاونوا على الاستعانة على الخصوصية، ولا يهتموا بأمر المعيشة، ولا يلتفتوا لغنى أرباب الثروة. ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾؛ وتكف الصبر على مداومتها، غير ملتفت لأمر المعاش، ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أى: لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك، ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإياهم، ففرغ قلبك لمشاهدة أسرارنا، ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ المحموده ﴿لِلتَّقْوَى﴾ أى: لأهل التقوى. روى أنه ﷺ كان إذا أصاب أهله ضر أو خصاصة أمرهم بالصلاة، وتلا هذه الآية (١). والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما خوطب به نبينا ﷺ خوطب به خاصة أمته، فلا تمدن عينيك، أيها الفقير، إلى ما متع به أهل الدنيا، من زهرتها وبهجتها، بل ارفع همك عن النظر إليها، واستنكف عن استحسان ما شيدوا وزخرفوا، فإن ذلك حمق وغرور. كان عروة بن الزبير رضى الله عنه إذا رأى أبناء السلاطين وشاراتهم دخل داره وتلا: (ولا تمدن عينيك) ... الآية. وكان يحيى بن معاذ الرازي يقول لعلماء زمانه: يا علماء السوء؛ دياركم هامانية، ومراكبكم قارونية، وملابسكم فرعونية، فأين السنة المحمدية؟

ولا تشتغل بطلب رزق، فرزق ربك - وهو ما يبرز لك في وقتك من عين المنة، من غير سبب ولا خدمة - خير وأبقى، أما كونه خيراً؛ فلما يصحبه من اليقين والفرح بالله وزيادة المعرفة، وأما كونه أبقي؛ لأن خزائنه لا تنفد،

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (باب في الصبر، ح ٩٧٠)، وأبو نعيم في الحلية (١٧٦/٨) من حديث عبدالله بن سلام. وعزه الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٧/٧) للطبراني في الأوسط، من حديث ابن سلام، وقال: رجاله ثقات.

مع بقاء أثره في القلب من ازدياد اليقين، والتعلق برب العالمين. (وأمر أهلك بالصلاة) واصطبر أنت عليها، فإن رزقنا يأتيك لا محالة، في الوقت الذي نريده، (لا نسألك رزقاً) لك ولا لأهلك، (نحن نرزقك)، لكن رزق المتقين، لا رزق المترفين، (والعاقبة للتقوى). وبالله التوفيق.

ثم ذكر بعض أقاويل الكفرة، التي أمر عليه الصلاة والسلام بالصبر عليها. أو تقول: ثم رد على من طلب المعجزة، بعد هذا البيان التام، فقال:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِّن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا ﴾ أى: كفار مكة: ﴿ لولا ﴾: هلا ﴿ يأتينا بآية من ربه ﴾ تدل على صدقه، أو بآية مما اقترحوها؛ من تفجير الأرض وتسيير الجبال، ولم يعدوا ما شهدوا من المعجزات التي تخر لها الجبال من قبيل الآيات؛ مكابرة وعداداً. قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ أى: أَوَلَمْ يَأْتِهِم القرآن الذي فيه بيان ما في الصحف الأولى؛ التوراة والإنجيل والزيور، وسائر الكتب السماوية؛ لاشتماله على ما فيها، وزيادة علوم وأسرار. وهذا رد من جهته تعالى لمقاتلتهم، وتكذيب لهم فيما دسوا تحتها، من إنكار إتيان الآية، بإتيان القرآن الكريم، الذي هو أبهر الآيات، وأسنى المعجزات، وأعظمها، وأبقاها؛ لأن حقيقة المعجزة: اختصاص مدعى النبوة بنوع من الأمور الخارقة للعادة، أى أمر كان، ولا ريب في أن العلم أجل الأمور وأعلاها؛ إذ هو أصل الأعمال، ولقد ظهر، مع حيازته لعلوم الأولين والآخرين، على يد أمي، لم يمارس شيئاً من العلوم، ولم يدارس أحداً من أهلها أصلاً، فأى معجزة تراد بعد وروده؟ وأى آية ترام مع وجوده؟! وفي إيراد عنوان كونه بيينة لما في الصحف الأولى، أى: شاهداً بحقيقة ما فيها من العقائد والأحكام، التي أجمعت عليها كافة الرسل، مالا يخفى من تنويه شأنه وإنارة برهانه، ومزيد تقرير وتحقيق لإتيانه. وقال بعض أهل المعانى: أَوَلَمْ يَأْتِهِم بَيَانٌ مَّا فِي الْكُتُبِ الْأُولَى، من أنباء الأمم الذين أهلكناهم، لما سألوا الآيات، فأتتهم، فكفروا بها، كيف عجلنا لهم الهلاك؟ فما يؤمن هؤلاء، إن أتتهم البيينة، أن يكون حالهم كأولئك.

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ بعذاب ﴾ مستأصل، ﴿ من قَبْلِهِ ﴾ أى: من قبل إتيان البينة، وهو نزول القرآن ومجىء محمد ﷺ، ﴿ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أُرْسِلَتْ إِلَيْنَا رَسُولٌ ﴾ يدعونا مع كتاب يهدينا، ﴿ فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ التى جاءنا بها، ﴿ من قَبْلِ أَنْ نُنْذِلَ ﴾ بالعذاب فى الدنيا، ﴿ وَنُخْزِي ﴾ بدخول النار يوم القيامة، ولكننا لم نهلكهم قَبْلَ إتيانها، فانقطعت حجتهم، فإذا كان يوم القيامة ﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (١).

﴿ قُلْ ﴾ لأولئك الكفرة المتمردين: ﴿ كُلُّ ﴾ أى: كل واحد منكم ومنا، ﴿ متربصٌ ﴾: منتظر ما يؤول إليه أمرنا وأمركم، (فتربصوا)؛ فانتظروا. أو كُلُّ منتظر دوائر الزمان، ولمن يكون النصر، ﴿ فتربصوا فستعلمون ﴾ عن قريب ﴿ من أصحاب الصراطِ السُّوِىِّ ﴾ أى: المستقيم، أو السواء، أى: الوسط الجيد، ﴿ ومن اهتدى ﴾ من الضلالة، هل نحن أو أنتم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا يشترط فى الولي العارف بالله، الداعى إلى الله، إظهار الآيات، ويكفى، برهاناً عليهم، كونهم على بينة من ربهم، وهداية الخلق على أيديهم، وما أظهروه من علم أسرار التوحيد، ومن فنون علم الطريق، مع كون بعضهم أميين، لم يتقدم له مدارس علم قط، كما شهدناهم، بعلمهم الله فى كل عصر، يُعرفون بالله، ويدلون على أسرار ذاته وأنوار صفاته، على سبيل العيان، لتقوم الحجة على العباد، فإذا بُعثوا يوم القيامة جاهلين بالله محجوبين عن شهود ذاته، متخلفين عن مقام المقربين، يقولون: لولا أرسلت إلينا رسولاً يُعرفنا بك، فنتبع آياتك حتى نصل إليك، من قَبْلِ أَنْ نُنْذِلَ بالانحطاط عن درجة المقربين، أو نخزي بإسْدال الحجاب. يقول الحق تعالى: قَدْ بَعَثْنَاهُمْ، فَأَنْكَرْتُمُوهُمْ، فإذا اغتروا اليوم، واحتجوا بقول من قال: انقطعت التربية، فقل: كُلُّ متربص فتربصوا، فستعلمون من أصحاب الصراطِ السُّوِىِّ ومن اهتدى. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليماً.



(١) من الآية ٩ من سورة الملك.

سُورَةُ الْاَنْبِيَاءِ

مكية . وهي مائة واثننا عشرة آية . ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مِنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ﴾ (١) ؛ لَأَن عِلْمَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَظْهَرُ ، حَقِيقَةً ، يَوْمَ الْحِسَابِ الَّذِي صَدَّرَ بِهِ السُّورَةَ ، فَقَالَ تَعَالَى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ (١)
 مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَصْتَمَوْهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ ... ﴿٣﴾

قلت : (وهم) : مبتدأ ، و(في غفلة) : خبر ، و(معرضون) : خبر بعد خبر ، والجملة : حال من الناس . و(من ذكر) : فاعل بيأتى . و(من) : صلة ، و(من ربهم) : صفة لذكر ، أى : حاصل من ربهم ، أو متعلق ببيأتهم ، أو صفة لذكر ، وجملة (استمعوه) : حال من مفعول «يأتهم» ، بإضمار (قد) أو بدونه ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال . و(هم يلعبون) : حال أيضاً من فاعل «استمعوه» ، و(لا هية) : حال من واو «يلعبون» ، و(قلوبهم) : فاعل بلا هية .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ أى : قَرَّبَ قِيَامَ السَّاعَةِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ حِسَابِهِمْ . قال ابن عباس : «المراد بالناس : المشركون» ، وهو الذى يَفْصَحُ عَنْهُ مَا بَعْدَهُ ، وَلَمْ يَقُلْ تَعَالَى : «اقْتَرَبَ حِسَابُ النَّاسِ» ، بَلْ قَدَّمَ لَامَ الْجَرِّ عَلَى الْفَاعِلِ ؛ لِلْمَسَارَعَةِ إِلَى إِدْخَالِ الرُّوعَةِ ، فَإِنَّ نِسْبَةَ الْإِقْتِرَابِ إِلَيْهِمْ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ مِمَّا يَسُوؤُهُمْ وَيُورِثُهُمْ رَهْبَةً وَانْزِعَاجاً ، كَمَا أَنَّ تَقْدِيمَ اللَّامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ ؛ (٢) لَتَعْجِيلِ الْمَسْرَةِ ؛ لِأَن كَوْنَ الْخَلْقِ لِأَجْلِ الْمُخَاطَبِينَ مِمَّا يَسْرُهُمْ وَيَزِيدُهُمْ رَغْبَةً وَشَوْقاً إِلَيْهِ تَعَالَى .

وفى إسناد الاقتراب إلى الحساب المنبئ عن التوجه نحوهم ، مع صحة إسناد الاقتراب إليهم بأن يتوجهوا نحوه ، من تفخيم شأنه ، وتهويل أمره ، مالا يخفى ، لما فيه من تصويره بشيء مقبل عليهم ، لا يزال يطلبهم حتى يصيبهم لامحالة . ومعنى اقترابه : دنوه منهم شيئاً فشيئاً حتى يلحقهم ؛ لَأَن كُلَّ آتٍ قَرِيبٍ ، أَيْ : دَنَا حِسَابُ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ الْمَوْجِبَةِ لِلْعِقَابِ .

﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ تامة منه ، ساهون بالمرّة عنه ، غير ذاكرين له ، لا أنهم غير مبالين به ، مع اعترافهم بإتيانه ، بل هم منكرون له ، كافرون به ، ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ عن الآيات والنذر المنبهة لهم عن سلة الغفلة . ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ ﴾

(١) من الآية ١٣٥ من سورة طه .

(٢) من الآية ٢٩ من سورة البقرة .

أى: من طائفة نازلة من القرآن، تذكر ذلك الحساب، وتنبيههم عن الغفلة عنه، كائن أو نازل ﴿من ربهم﴾، أو ذاك ومذكر من ناحية ربهم. وفي إضافته إليه سبحانه دلالة على شرفه، وكمال شناعة ما فعلوه من الإعراض عنه، وفي التعبير بعنوان الربوبية تشنيع لكمال عتوهم، ومن صفة ذلك الذكر ﴿مُحَدَّث﴾ تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة، بمعنى أنه نزل شيئاً فشيئاً، أو قريب عهد بالنزول، فمعاني القرآن قديمة، وإظهاره بهذه الحروف والأصوات حادث. وقال ابن راهويه: قديم من رب العزة، محدث إلى أهل الأرض.

فما ينزل عليهم شيء من القرآن يذكرهم ويعظمهم ﴿إلا استمعوه وهم يلعبون﴾؛ لا يتعظون به، ولا يتدبرون في معانيه، ﴿لا هية قلوبهم﴾؛ ساهية، معرضة عن التفكير والتدبر في معانيه. وتقدير الآية: ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث، في حال من الأحوال، إلا حال استماعهم إياه كانوا لاعبين مستهزئين به، لا هين عنه، حال كون قلوبهم لا هية عنه؛ لتناهي غفلتهم وفراط إعراضهم عن النظر والتفكير في عواقب الأمور. والله تعالى أعلم.

الإشارة: حمل الآية على العموم هو الظاهر عند الصوفية. وقد ورد عن رجل من الصحابة أنه كان يبلى، فلقى بعض الصحابة فقال: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال له: «أقرب للناس حسابهم»، فنفض التراب، وقال: والله لا بنيت. هـ. أى: أقرب للناس حسابهم على النقيير والقطمير، وهم في غفلة عن التأهب والاستعداد، معرضون عن اتخاذ الزاد، ما يأتيهم من ذكر من ربهم، يعظمهم ويوقظهم، إلا استمعوه بأذانهم، وهم يلعبون ساهون عنه بقلوبهم؛ لحشوها بالوساوس الشيطانية والعلائق النفسانية. لا هية قلوبهم عن التفكير والاعتبار والتدبر والاستبصار.

قال القشيري: ويقال: الغفلة على قسمين؛ غافل عن حساب؛ لا ستغراقه في دنياه، وغافل عن حساب؛ لاستهلاكه في مولاه، فالغفلة الأولى سمة الهجر، والثانية صفة الوصل، فالأولون لا يستفيقون من غفلتهم إلا في عسكر الموتى، وهؤلاء لا يرجعون عن غيبتهم أبداً أبداً؛ لفنائهم في وجود الحق. هـ. قلت: القسمة ثلاثية: قوم غفلوا عن حسابهم؛ لاشتغالهم بحظوظهم وهواهم، وهم: الغافلون الجاهلون، وقوم ذكروا حسابهم، وجعلوه نصب أعينهم، وتأهبوا له، وهم: الصالحون والعباد والزهاد، وقوم غفلوا عنه، وغابوا عنه؛ لاستغراقهم في شهود مولاها، وهم: العارفون المقربون. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

ثم ذكر المنهمكين في الغفلة، فقال:

﴿... وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ (٢) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١) بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ بَلْ أَفْتَرَنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنَسْ بَيَاتِهِ كَمَا أَرْسَلْنَا أَوَّلُونَ (٥) مَا أَمْنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦)

قلت: «الذين ظلموا»: بدل من الواو، مُنبئ عن كونهم موصوفين بالظلم فيما أسروا به. وقال الكلبي: فيه تقديم وتأخير، أراد الذين ظلموا أسروا النجوى. فيكون «الذين»: مبتداء وأسروا: خبر مقدم.

وقال قطرب: على لغة بعض العرب، يقولون: أكلوني البراغيث، وهى بلغة بلحارث وغيرهم. وقال الفراء: بدل من الناس، أى: اقترب للناس وهم الذين ظلموا. (هل هذا..). إلخ: بدل من النجوى، أو مفعول بقول مضمّر، كأنه قيل: ماذا قالوا فى نجواهم؟ فقيل: قالوا: هل هذا.. إلخ (أنتم تبصرون): حال من واو «تأتون»، مقررّة للإنكار، مؤكدة للاستبعاد. و(من قرية): فاعل آمنت، ومن: صلة للعموم. و(أهلكناها): صفة لقرية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأَسْرُوا النجوى﴾: أخفوا تناجيهم بحيث لم يشعر أحد بما قالوا، وهم ﴿الذين ظلموا﴾ بالكفر والطغيان، قائلين فى تلك النجوى الشنيعة: ﴿هل هذا﴾ أى: ما هذا الرجل الذى يزعم أنه رسول ﴿إلا بشرٌ مثلكم﴾ أى: من جنسكم، وما أتى به سحر، ﴿أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾ أى: تعلمون ذلك فتأتونه، وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول، وأنتم تعاینون أنه سحر؟ قالوا ذلك، بناء على ما ارتكز فى اعتقادهم الزائغ، أن الرسول لا يكون إلا ملكاً، وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق هو من قبيل السحر، وغاب عنهم أن إرسال البشر إلى البشر هو الذى تقتضيه الحكمة التشريعية. قاتلهم الله أنى يؤفكون. وإذا أسروا ذلك ولم يعلنوه؛ لأنه كان على طريق توثيق العهد؛ خفية، وتمهيداً لمقدمات المكر والكيد فى هدم أمر النبوة، وإطفاء نور الدين. «والله متم نوره ولو كره الكافرون».

ثم فضح الله سرهم ونجواهم بقوله: ﴿قل^(١) ربى يعلم القول فى السماء والأرض﴾ أى: قل يا محمد: ربى يعلم القول، سراً كان أو جهراً، سواء كان فى السماء أو الأرض، فلا يخفى عليه ما تناجيتم به، فيفضحكم به ويجازيكم عليه. وقرأ أكثر أهل الكوفة: (قال)؛ على الخبر، وهو حكاية من جهته تعالى لما قاله - ﷺ - بعد ما أوحى إليه أحوالهم وأقوالهم؛ بياناً لظهور أمرهم وانكشاف سرهم، وإيثار القول المشتمل على السر والجهر؛ للإيدان بأن علمه تعالى بالسر والجهر على وتيرة واحدة، لاتفاوت بينهما بالجلاء والخفاء، كما فى علوم الخلق.

﴿وهو السميعُ العليم﴾ أى: المبالغ فى العلم بالمسموعات والمعلومات، التى من جملة ما أسروه من النجوى، فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم. ﴿بل قالوا أضغاثُ أحلام﴾، هو إضراب من جهته تعالى، وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية قول آخر مضطرب فى مضارب البطلان، أى: لم يقتصروا على أن يقولوا فى حقه - عليه الصلاة والسلام - : هل هذا إلا بشر، وفى حق ما ظهر على يديه من القرآن الكريم: إنه السحر، بل قالوا: هو تخاليط

(١) قرأ حمزة والكسائى وحفص: «قال ربى». وقرأ الباقون: «قل، على الأمر. انظر الإتحاف (٢/٢٦١).

أحلام وأباطيلها، فهو أشبه شيء بالهذيان، ثم أضربوا عنه، وقالوا: ﴿بل افتراء﴾ من تلقاء نفسه، من غير أن يكون له أصل أو شبهة أصل. ثم قالوا: ﴿بل هو شاعر﴾، وما أتى به شعر يُخيل إلى السامع، لا حقيقة لها. وهكذا شأن المبطل المحجوج، متحير، لا يزال يتردد بين باطل وأبطل، ويتذبذب بين فاسد وأفسد.

فالإضراب الأول، كما ترى، من جهته تعالى، والثاني والثالث من قبلهم. وقد قيل: الكل من قبلهم، حيث أضربوا عن قولهم: هو سحر، إلى أنه تخاليط أحلام، ثم إلى أنه كلام مفترى، ثم إلى أنه قول شاعر، وهو بعيد؛ لأنه لو كان كذلك لقال: قالوا: بل أضغاث أحلام... الخ.

ثم قالوا: ﴿فليأتنا بآية﴾؛ وهو جواب عن شرط محذوف، يفصح عنه السياق، كأنه قيل: وإن لم يكن كما قلنا، بل كان رسولاً من الله تعالى، فليأتنا بمعجزة ظاهرة ﴿كما أرسل الأولون﴾ أي: مثل الآية التي أرسل بها الأولون؛ كاليد، والعصا، والناقة وشبه ذلك. فالكاف: صفة لمصدر محذوف، أي: إتياناً مثل إتيان الأولين.

قال تعالى: ﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها﴾ أي: أهلكنا أهلها، ﴿أفهم﴾ أي: هؤلاء المقترحون عليك الآيات، ﴿يؤمنون﴾ أي: قد اقترحت الأمم السالفة الآيات على رسلها، فأعطوا ما اقترحوا، فلم يؤمنوا، فأهلكناهم، فكيف يؤمن هؤلاء، وهم أعتى منهم؟ فالهمزة: لإنكار الوقوع، والفاء: للعطف على مقدر، فأفادت إنكار وقوع إيمانهم. والمعنى: لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات، أهم لم يؤمنوا، فهؤلاء يؤمنون، لو أجيبوا إلى ما سألوا وأعطوا ما اقترحوه، مع كونهم أعتى منهم وأطغى؟ فهم في اقتراح الآيات كالباحث على حثفه فطلبه، وفي ترك إجابتهم إبقاء عليهم، كيف لا، ولو أعطوا ما اقترحوا، مع عدم إيمانهم قطعاً، لوجب استئصالهم، بجريان سنة الله تعالى في الأمم السالفة أن المقترحين، إذا أعطوا ما اقترحوا، فلم يؤمنوا، نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة، وقد سبقت كلمة الحق منه تعالى أن هؤلاء لا يعذبون بعذاب الاستئصال، فلذلك لم يظهر لهم ما اقترحوا من الآيات. والله تعالى أعلم.

الإشارة: العلماء بالله، الداعون إلى الله، هم ورثة الأنبياء والرسل، فما قيل في الأصل قد قيل في الفرع، فكل عصر يوجد من ينكر على خواص ذلك العصر، ويرميهم بالسحر والجنون. والافتراء على الله سنة ماضية. غير أن أولياء هذه الأمة على قدم نبيهم، رحمة للعالمين، فمن آذاهم لا يعاجل بالعقوبة في الغالب، وقد تكون باطنية، كفسوة القلوب، والخذلان، والشكوك، والأوهام. وهذا الوصف في العارفين الكاملة، وأما الزهاد والعباد والصالحون: فمن آذاهم عوجل بالعقوبة في الغالب؛ لنقص كمالهم، وعدم اتساع دائرة معرفتهم. وبالله التوفيق.

ثم ردّ على من أنكر رسالة البشر، فقال:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله في جواب قول الكفرة: ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ (١) بعد تقديم الجواب عن قولهم: ﴿ فليأتنا بآية ﴾؛ لأنهم قالوه بطريق التعجيز، فلا بد من المسارعة إلى رده، كما تقدم مراراً في الكتاب العزيز، كقوله ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ .. ﴾ (٢) الآية، ﴿ مَا نَنْزِلُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الآية (٣). إلى غير ذلك، فقال جل جلاله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ ﴾ في الأمم السالفة ﴿ إِلَّا رِجَالًا ﴾؛ بشراً من جنس القوم الذين أرسلوا إليهم؛ لأن مقتضى الحكمة أن يرسل البشر إلى البشر، والملك إلى الملك، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (٤) فإن عامة البشر لا تطيق المفاوضة مع الملك؛ لتوقفها على التناسب بين المفاوض والمستفيض؛ فبعث لكل جنس ما يناسبه؛ للحكمة التي يدور عليها فلك التكوين والنشريع، والذي تقتضيه الحكمة الإلهية أن يبعث الملك إلى خواص البشر المختصين بالنفوس الزكية، المؤيدين بالقوة القدسية، المتعلقين بالعالم الروحاني والجسماني، ليتلقوا من جانب العالم الروحاني، ويلقوا إلى العالم الجسماني، فبعث رجالاً من البشر يوحي إليهم على أيدي الملائكة أو بلا واسطة.

والمعنى: وما أرسلنا إلى الأمم، قبل إرسالك إلى أمتك، إلا رجالاً مخصوصين من أفراد الجنس، متأهلين للاصطفاء والإرسال، ﴿ نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾، بواسطة الملك، ما يوحي من الشرائع والأحكام، وغيرهما من القصص والأخبار، كما يوحي إليك من غير فرق بينهما، ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي: فاسألوا، أيها الجهلة، أهل العلم؛ كأهل الكتب الواقفين على أحوال الرسل السالفة - عليهم الصلاة والسلام - لنزول شبهتكم إن كنتم لا علم لكم بذلك. أمروا بذلك؛ لأن إخبار الجم الغفير يوجب العلم الضروري، لاسيما وهم كانوا يشايعون المشركين عداوته ﷺ، ويشاورونهم في أمورهم، فإذا أخبروهم أن الرسل إنما كانوا بشراً، ولم يكونوا ملائكة، حصل لهم العلم بالحق، وقامت الحجة عليهم.

(١) من الآية ٢ من سورة الأنبياء

(٢) من الآية ٢٣ من سورة هود.

(٣) الآية ٨ من سورة الحجر.

(٤) الآية ٩٥ من سورة الإسراء.

وتوجيه الخطاب إلى الكفرة في السؤال، بعد توجيهه إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - في الإرسال؛ لأنه الحقيق بالخطاب في أمثال تلك العلوم والحقائق الأنيفة، وأما الوقوف عليها باستخبار من الغير فهو من وظائف العوام. ثم بين كون الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أسوة لأفراد الجنس في أحكام البشرية، فقال: ﴿وما جعلناهم جسداً﴾ أى: أجساداً، فالإفراد لإرادة الجنس، أو ذوى جسد، ﴿لا يأكلون الطعام﴾ أى: وما جعلناهم أجساداً صمدانيين، أغنياء عن الطعام والشراب، بل محتاجين إلى ذلك؛ لتحقيق العبودية التى اقتضت شرفهم. ﴿وما كانوا خالدين﴾؛ لأن كل من يفتقر إلى الغذاء لابد يتحلل بدنه بسرعة، حسبما جرت العادة الإلهية، والمراد بالخلود: المكث المديد، كما هو شأن الملائكة أو الأبدية. وهم معتقدون أنهم كانوا يموتون. والمعنى: بل جعلناهم أجساداً مفتقرة صائرة إلى الموت عند انقضاء آجالهم، لا ملائكة ولا أجساداً صمدانية.

﴿ثم صدقناهم الوعد﴾ بالنصر وإهلاك أعدائهم، وهو عطف على ما يفهم من وحيه تعالى إليهم، كأنه قيل: أوحينا إليهم ما أوحينا، ثم صدقناهم فى الوعد، الذى وعدناهم فى تضاعيف الوحي، بإهلاك أعدائهم، ﴿فأنجيناهم ومن نشاء﴾ من المؤمنين وغيرهم، ممن تستدعى الحكمة إبقاءه، كمن سيؤمن هو أو بعض فروع، وهو السر فى حماية العرب من عذاب الاستئصال. أو يخص هذا العموم بغير نبي الرحمة ﷺ؛ فإن أمته لا تستأصل، وإن بقى فيها من يكفر بالله؛ لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحى الله تعالى. ﴿وأهلكنا المسرفين﴾ أى: المجاوزين الحد فى الكفر والمعاصى.

ولما ذكر برهان حقيقة الرسول - عليه الصلاة والسلام - ذكر حقيقة القرآن المنزل عليه، الذى ذكر فى صدر السورة إعراض الناس عما يأتيهم من آياته، فقال: ﴿لقد أنزلنا إليكم﴾، صدره بالقسم؛ إظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه، وإيداناً بكون المخاطبين فى أقصى مراتب التنكير، أى: والله لقد أنزلنا إليكم، يا معشر قريش، ﴿كتاباً﴾ عظيم الشأن نير البرهان. فالتنكير للتفخيم، أى: كتاباً جليل القدر ﴿فيه ذكر لكم﴾ أى: شرفكم وحسن صيتكم، كقوله تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ (١)، أو فيه تذكيركم وموعظتكم، أو ما تحتاجون إليه فى أمر دينكم ودنياكم، أو ما تطلبون به حسن الذكر والثناء من مكارم الأخلاق، ﴿أفلا تعقلون﴾ فتتدبروا فى معانيه حتى تدركوا حقيقته. فالهمزة للإنكار التوبيخى. وفيه حث لهم على التدبر فى أمر الكتاب، والتأمل فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر، التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة، والمعطوف: محذوف، أى: أعميت بصائركم فلا تعقلون؟ والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ٤٤ من سورة الزخرف.

الإشارة: ثبوت الخصوصية لا ينافي وصف البشرية، فنسبة أهل الخصوصية من البشر كالإيواقيت بين الحجر. ولا فرق بين خصوصية النبوة والولاية في الاتصاف بأوصاف البشرية، التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية، وتتميز خصوصية النبوة من الولاية بوحى الأحكام، وتتميز خصوصية الولاية من العمومية بالتطهير من الرذائل والتحلّى بالفضائل، وبالغيبية عن رؤية الأكوان، بإشراق شمس العرفان، وذلك بالفناء عن الأثر بشهود المؤثر، ثم بالبقاء بشهود الأثر؛ حكمة، مع الغيبة عنه، قدرة، ولا يعرف هذا إلا أهل الذكر الحقيقي، فلا يعرف مقام الأولياء إلا من دخل معهم، ولا يسأل عنهم إلا أمثالهم؛ (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون). فلا يشترط في الولي استغناؤه عن الطعام والشراب؛ إذ لم يكن للأنبياء، فكيف بالأولياء؟ ولا استغناؤه عن النساء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (١)، نعم؛ صاحب الخصوصية مالك لنفسه من غلبة الشهوة عليه، ينزل إلى أرض الحظوظ بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه. وتقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ في سورة النحل (٢). وبالله التوفيق.

ثم بين ما أجمل في قوله: (وأهلكنا المسرفين)، فقال:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١١) ﴿فَلَمَّا أَحْسُوا أَسَاسَنَا إِذَا هُمْ مِنهَا يَرْكُضُونَ﴾ (١٢) ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْئَلُونَ﴾ (١٣) ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (١٤) ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ (١٥)

قلت: كم: خبرية مفيدة للتكثير، ومحلها نصب، مفعول بقصمنا، و(من قرية): تمييز، و(كانت..): الخ: صفة لقرية. يقول الحق جل جلاله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أى: كثيراً أهلكنا من أهل قرية ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ بآيات الله تعالى، كافرين بها. وفي لفظ القصم: الذي هو عبارة عن الكسر؛ بإبانة أجزاء المكسور وإزالتها بالكلية. من الدلالة على قوة الغضب والسخط ما لا يخفى. ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أى: أحدثنا ﴿بَعْدَهَا﴾ أى: بعد إهلاكها ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ليسوا منهم نسباً ولادياً، ففيه تنبيه على استئصالهم وقطع دابرهم بالكلية. ﴿فَلَمَّا أَحْسُوا أَسَاسَنَا﴾ أى: أدركوا عذابنا الشديد إدراك المشاهد المحسوس ﴿إِذَا هُمْ مِنهَا﴾ أى: من القرية ﴿يَرْكُضُونَ﴾: يهربون مدبرين راكضين دوابهم. فقيل لهم، بلسان الحال أو المقال من الملك، أو ممن حضرهم من المؤمنين،

(١) من الآية ٣٨ من سورة الرعد.

(٢) الآية ٤٣ من سورة النحل.

بطريق الاستهزاء والتوبيخ: ﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ من النعم والتلذذ ﴿ وَ ﴾ إلى ﴿ مَسَاكِينِكُمْ ﴾ التي كنتم تفتخرون بها، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴾ ؛ تُقصدون للسؤال، إذ كانوا أغنياء، أو للتشاور والتدبر في المهمات والدوازل، أو تُسألون الفداء فَتَفْتَدُوا من العذاب، أو تُسألون عن قتل نبيكم وفيهم قتلتموه .

قيل: نزلت في أهل حاضوراء قرية باليمن، وكان أهلها العرب، فبعث الله إليهم نبياً فكذبره وقتلوه، فسلط الله تعالى عليهم بُخْتَنَصْرُ، فقتلهم وسباهم، فلما انهزموا وهربوا قالت لهم الملائكة: لا تركضوا، وارجعوا إلى مساكنكم وأموالكم؛ استهزاء بهم، وأتبعهم بُخْتَنَصْرُ، فأخذتهم السيوف، ونادى مناد من السماء: يَا ثَارَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، فلما رأوا ذلك أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم، فقالوا: ﴿ يَا وَيْلَنَا ﴾ ؛ يَا هَلَاكُنَا؛ ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ مستوجبين العذاب. وهذا اعتراف منهم وندم حين لم ينفعهم ذلك .

﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ أى: فما زالوا يرددون تلك الكلمة، ويدعون بها ، ويقولون: يَا وَيْلَنَا، ﴿ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً ﴾ أى: مثل الحصيد، وهو المحصود من الزرع والنبات، فهو فعيل بمعنى مفعول، فلذلك لم يجمع، كجريح وقتيل. وجعلناهم ﴿ خَامِدِينَ ﴾ ؛ ميتين، من خمدت النار إذا طفئت. وهو، مع حصيداً، فى حيز المفعول الثانى لجعل، كقولك: جعلته حلوأ حامضاً، والمعنى: جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود، أو حال من الضمير المنصوب فى جعلناهم، ولفظ الآية يَقْتَضِي العموم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وكم من قرية من قرى القلوب قصصنا أهلها، أى: ما فيها من الشكوك والأوهام، كانت ظالمة بتلك الخواطر، فأخرجناهم منها، وأنشأنا بعدها أنواراً وأسراراً وعلوماً آخرين. فلما أحصوا بأسنا بورود الواردات الإلهية عليها، التى تأتى من حضرة القهار، إذا هم منها يركضون؛ لأن الواردات الإلهية تأتى من حضرة القهار، لأجل ذلك لا تصادم شيئاً من الظلمات إلا دمجته، فيقال لتلك الظلمات، التى هى الشكوك والأوهام: لا تركضوا، ولكن ارجعوا أنواراً، وانقلبوا وارداتٍ وأسراراً، وتنعموا فى محاكم بشهود الحق، لعلمكم تُسألون، أى: تُسْتَفْتَوْنَ فى الأمور، لأن القلب إذا صفا من الأكدار استفتى فى العلوم، وفى الأمور التى تعرض، قالوا بلسان الحال - أى تلك الظلمات -: يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ؛ بحجب صاحبنا عن الله، فما زالت تلك دعواهم حتى صاروا خامدين، هامدين، ساكنين تحت مجارى الأقدار، مطمئنين بالله الواحد القهار، وهذه إشارة دقيقة، لا يفهمها إلا دقيق الفهم غزير العلم. وبالله التوفيق.

ثم بين أن إهلاك تلك القرى الظالمة كان لحكمة بليغة ومصلحة بديعة، ولم يكن عبثاً؛ لأنه تعالى منزّه عن اللعب فى خلقه، فقال:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آيَةً لَا تَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: (لاعبين): حال من فاعل خلق، وإن كناه: شرط حذف جوابه، أى: إن كنا فاعلين اتخذناه من لدنا، وقيل: نافية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقات التى لا تُحصى أجناسها، ولا تُعد أفرادها، ولا تُحصر أنواعها وآحادها، على هذا النمط البديع والأسلوب الغريب، ﴿ لَاعِبِينَ ﴾؛ خالية عن الحكم والمصالح، بل لحكم بدیعة ومصالح عديدة، دينية تقضى بسعادة الأبد أو بشقاوته، ودنيوية لا تُعد ولا تُحصى، وهذا كقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ (١)، فالمراد من الآية: إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم، وإبداع بنى آدم، مؤسس على قواعد الحكم البالغة، المستتبعة للغايات الجليلة، وتدبیه على أن ماحكى من العذاب الهائل، والعقاب النازل بأهل القرى، من مقتضيات تلك الحكم، ومتفرع عليها حسبما اقتضته أعمالهم. وإنما فعل ذلك؛ عدلاً منه، ومجازاة على أعمالهم، وأن المخاطبين المتقدمين - وهم قريش - على آثارهم؛ لأن لهم ذنباً مثل ذنوبهم. وإنما عبر عن نفى الحكمة باللعب، حيث قال: ﴿ لَاعِبِينَ ﴾؛ لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالي عن الحكمة، بتصويره بصورة مالا يرتاب أحد فى استحالة صدوره منه سبحانه، وهو اللهب واللعب، بل إنما خلقناهما، وما بينهما؛ لتكون مبدأ الوجود الإنسانى وسبباً لمعاشه، ودليلاً يقوده إلى تحصيل معرفتنا، التى هى الغاية القصوى والسعادة العظمى.

ثم قرر انتفاء اللعب واللهو عنه، فقال: ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آيَةً ﴾ أى: ما يلهى به ويلعب، ﴿ لَا تَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ أى: من أنفسنا؛ لعلنا بحقائق الأشياء، واستغنائنا عن جلب المصالح ودرء المفسدات. والمعنى: لو أردنا أن نخلق شيئاً، لا لتحصيل مصلحة لكم، ولا لدرء مفسدة عنكم، لفعلنا ذلك فى أنفسنا؛ بأن نخلق عرالم ومظاهر عارية عن الحكمة والمصلحة؛ لأننا أحق منكم بالاستغناء عما يجلب المصلحة ويدرأ المفسدة، لكن من عادتنا ربط الأسباب بمسبباتها، وأنا لم نخلق شيئاً عبثاً، بل خلقنا كل نوع من النبات والحيوانات والجمادات؛ لمصلحة ومنفعة، علمها، من علمها وجهلها من جهلها، فحصل من هذا نفى التحسين والتقبيح؛ عقلاً، بهذه الشرطية، وإثباته سمعاً.

(١) من الآية ٢٧ من سورة ص.

أو: «لاتخذناه من لدنا» مما يليق بشأننا من المجردات، لا من الأجسام المرفوعة والأجرام الموضوعة، كعادة الجبابرة؛ من رفع العروش وتحسينها، وتمهيد الفرش وتزيينها، لأغراض عراض، لكن يستحيل إرادتنا لذلك؛ لمنافاته للحكمة الإلهية المنزهة عن الأغراض. هـ. من أبي السعود، وأصله للزمخشري. وفيه تكلف.

وسأل طاوس ومجاهد الحسن عن هذه الآية؟ فقال: اللهو: المرأة. وقال ابن عباس: «الولد». ومعنى (لاتخذناه من لدنا): بحيث لا يطلعون عليه، وما اتخذنا نساءً وولداً من أهل الأرض. نزلت في الذين قالوا: اتخذ الله ولداً. وتكون الآية، حينئذٍ تنميماً لما قبلها، أي: ليس اللعب واللهو من شأننا، إذ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا. قال شيخ شيوخنا، سيدى عبدالرحمن الفاسي: حمل الآية على الزوجة غير مفيد، إلا أن يراد بذلك مجرد الرحمة والشفقة، مما يمكن عقلاً، فيصح دخول النفي الشرعي عليه. انظر ابن عرفة، فقد جوز، عقلاً، اتخاذه على معنى الرحمة. وكذا ابن عطية في آية الزمر^(١). ومنع ذلك القشيري. قلت: وكأنه لما يشير إليه قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(٢) فإن القهر لا يناسب التبنى بوجه، وقد يقال: إنه مانع سمعى شرعى، لا عقلى، فلا يخالف ما قاله ابن عرفة ولا ابن عطية. وفيه نظر؛ لأنه يؤدي إلى تعطيل اسمه القهار ونحوه، وهو محال، والله أعلم هـ.

قلت: قد حمل النسفي الآية على الولد، فقال: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ أي: ولداً، أو امرأة، رد على من قال عيسى ابنه، ومريم صاحبه، ﴿لا اتخذناه من لدنا﴾ من الولدان أو الحور، ﴿إن كنا فاعلين﴾ أي: إن كنا ممن يفعل ذلك، ولنا ممن يفعله لاستحالته في حقنا هـ. قلت: والذي تكلف الحمل الأول رأى أن حمله على الولد يقتضى جواز الاتخاذ عقلاً؛ وإنما منعه عدم الإرادة. وأجاب ابن عرفة: بأن يحمل الاتخاذ على معنى الرحمة، لا على حقيقة البنوة. قلت: من خاض بحار التوحيد الخاص وحاز مقام الجمع، لا يترقب في مثل هذا؛ إذ تجليات الحق لا تنحصر، لكن لم يوجد منها، ولم تتعلق إرادته إلا بما هو كمال في حقه تعالى في باب القدرة، وأما باب الحكمة، فهي رداء لمحل النقائص، فافهم، واصحب أهل الجمع حتى يفهموك ما ذكرت لك، والسلام.

ثم قال تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل﴾ أي: نرمي بالحق، الذى هو الجد، على الباطل، الذى من جملته اللهو، وهو إضراب عن اتخاذ الولد؛ بل عن إرادته، كأنه قيل: لكننا لا نريده، بل شأننا أن نقذف بالحق على الباطل ﴿فيدمغه﴾: فيمحقه بالكلية، كما فعلنا بأهل القرى المحكية وأمثالهم. وقد استعير، لإيراد الحق على الباطل، القذف، الذى هو الرمي الشديد، وللباطل الدماغ، الذى هو تشتيت الدماغ وتزهيق الروح، فكأن الباطل حيوان له دماغ، فإذا تشتت دماغه مات واضمحل، ﴿فإذا هو زاهق﴾ أي: فإذا الباطل ذاهب بالكلية، متلاش عن أصله. وفي (إذا) الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال السرعة في الذهاب والبطلان ما لا يخفى.

(١) في قوله تعالى: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً﴾ لاصطفى مما يخلق ما يشاء... الآية.

(٢) من الآية ٤ من سورة الزمر.

ثم ردّ على أهل الباطل فقال: ﴿ولكم الويلُ مما تصفون﴾ أي: وقد استقر لكم الويل والهلاك؛ من أجل ماتصفونه، سبحانه، بما لا يليق بشأنه الجليل، من الولد والزوجة، وغير ذلك مما هو باطل. وهو وعيد لقريش ومن دان دينهم، بأن لهم أيضاً مثل ما لأولئك القرى المتقدمة من الهلاك، إن لم ينزجروا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما نصبت لك الكائنات لتراها كائنات، بل لتراها أنواراً وتجليات، الأكوان ثابتة بإثباته، محوكة بأحدية ذاته، فالغير والسوى عند أهل الحق باطل، والباطل لا يثبت مع الحق. قال تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق). قال القشيري: ندخلُ نهارَ التحقيق على ليالي الأوهام، أي: فتمحى، وتبقى شمس الأحدية ساطعة. هـ. وبالله التوفيق.

ثم قرر وحدانيته تعالى في ملكه وملكوته، فقال:

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ. وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةَ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبِّحْنَا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلَهِةَ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وله من في السموات والأرض﴾ أي: له جميع المخلوقات، خلقاً وملكاً، وتدبيراً وتصرفاً، وإحياء وإماتة، وتعذيباً وإثابة، من غير أن يكون لأحد في ذلك دخل، لا استقلالاً ولا استتباعاً، ولا فرق بين أهل العالم العلوي والسفلي، ﴿ومن عنده﴾ وهم الملائكة - عليهم السلام - عبّر عنهم بذلك إثر ما عبّر عنهم بمن في السموات؛ تنزيلاً لهم - لكرامتهم عليه، وزلفاهم عنده - منزلة المقربين عند الملك، وهو مبتدأ وخبره: ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ أي: لا يتعظمون عنها، ولا يعدون أنفسهم كبراء، ﴿ولا يستحسرون﴾ أي: لا يكلون ولا يعيون، ﴿يسبحون الليل والنهار﴾ أي: ينزهونه في جميع الأوقات، ويعظمونه ويمجدونه دائماً. وهو استئناف بياني، كأنه قيل: ماذا يصنعون في عبادتهم، أو كيف يعبدون؟ فقال: يسبحون ... الخ. ﴿لا يفترون﴾ أي: لا يتخلل تسييحهم فترة أصلاً، ولا شغل آخر.

ولما برهن على وحدانيته تعالى في ملكه بأنه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة، وأنهم قاطبة تحت ملكه وقهره، وأن عباده مذعنون لطاعته، ومثابرون على عبادته، ومنزهون له عن كل مالا يليق بشأنه، أنكر على من أشرك معه بعد هذا البيان، فقال: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾ يعبدونها ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أى: اتخذوها من جنس الأرض، أحجاراً وخشباً، ﴿هُمْ يَنْشُرُونَ﴾ أى: يبعثون الموتى. وهذا هو الذى يدور عليه الإنكار والتجهيل والتشنيع، لانفس الاتخاذ، فإنه واقع لا محالة، أى: بل اتخذوا آلهة من الأرض، هم مع حقارتهم، ينشرون الموتى، كلا.. فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك، وهم، وإن لم يقولوا بذلك صريحاً، لكنهم حيث ادعوا لها الألوهية، فكأنهم ادعوا لها الإنشمار، ضرورة؛ لأنه من خصائص الإلهية، ومعنى التخصيص فى تقديم الضمير فى: ﴿هُمْ يَنْشُرُونَ﴾: التنبيه على كمال مباينة حالهم للإنشمار، الموجبة لمزيد الإنكار، كما فى قوله تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ (١). وفى قوله تعالى: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٢)، فإن تقديم الجار والمجرور؛ للتنبيه على كمال مباينة أمره تعالى لأن يشك فيه ويستهزأ به.

ثم أبطل الاشتراك فى الألوهية، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ﴾ أى: لو كان فى السماوات والأرض آلهة غير الله، كما هو اعتقادهم الباطل، ﴿لَفَسَدَتَا﴾ أى: لفسد نظامهما بما فيهما، لوجود التمانع، كعادة الملوك، أو لبطلنا بما فيهما، ولم يوجد شيء منهما؛ للزوم العجز لهما، بيان ذلك: أن الألوهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق، تغييراً وبديلاً، وإيجاداً وإعداماً، وإحياء وإماتة، فبقاؤهما على ما هما عليه من غير فساد، إما بتأثير كل منهما، وهو محال؛ لاستحالة وقوع الأثر الواحد بين مؤثرين، وإما بتأثير واحد منهما، فالباقى بمعزل عن الإلهية، والمسألة مقررة فى علم الكلام.

و(إلا): صفة لآلهة، كما يوصف بغير، ولما كانت حرفاً، ظهر إعرابها فى اسم الجلالة، ولا يصح رفعه على البدل؛ لعدم وجود النفى. ثم قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أى: فسبحوا سبحان الله اللائق به، ونزهوه عما لا يليق به من الأمور، التى من جملتها: أن يكون له شريك فى الألوهية. وإيراد الجلالة فى موضع الإضمار، حيث لم يقل فسبحانه؛ للإشعار بعلية الحكم، فإن الألوهية مناط لجميع صفات كماله، التى من جملتها: تنزهه تعالى عما لا يليق به، ولتربية المهابة وإدخال الروعة. ثم وصفه بقوله: ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾، وخصه بالذكر، مع كونه رب كل شيء؛ لعظم شأنه؛ لأن الأكوان فى جوفه كلا شيء، أى: تنزيهاً له عما يصفونه عن أن يكون من دونه آلهة.

ثم بين قوة عظمته وعز سلطانه القاهر، فقال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ أى: لا يمكن لأحد من مخلوقاته أن يناقشه أو يسأله عما يفعل؛ هيبة وإجلالاً، ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أى: وعباده يسألون عما يفعلون، نقيراً وقطعيراً؛ لأنهم مملوكون له تعالى، مستعبدون، ففيه وعيد للكفرة، فالآية تتميم لقوله: (لاعبين)، بل خلقنا الأشياء كلها

(١) من الآية ١٠ من سورة إبراهيم.

(٢) من الآية ٦٥ من سورة التوبة.

لحكمة، فمنها ما أدركتم حكمته، ومنها ما غاب عنكم، فكلوا أمره إلى الله، ولا تسألوه عما يفعل، فإنه لا يسأل عن فعله، وأنتم تسألون.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾، هو إضراب وانتقال من إظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة؛ بإظهار خلوها من خصائص الألوهية، التي من جملتها إنباش الموتى، وإقامة البرهان القاطع على استحالة تعدد الإله، إلى إظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة، مع عرائها عن تلك الخصائص، وتبكيتهم بالجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة. والهمزة: لإنكار ما اتخذوه واستقباحه، أي: بل اتخذوا من دونه. أي: متجاوزين إياه تعالى، مع ظهور شؤونه الجليلة الموجبة لتفرده بالألوهية - آلهة، مع ظهور خلوهم عن خصوص الإلهية بالكلية.

﴿قُلْ﴾ لهم، بطريق التبكيث: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ما تدعون، من جهة العقل والنقل؛ فإنه لا صحة لقول لا دليل عليه في الأمور الدينية، لاسيما في هذا الأمر الخطير، فإن بهتوا فقل لهم: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ أي: بهذا نطق الكتب السماوية قاطبة، وشهدت به سنة الرسل المتقدمة كافة. فهذا الوحي الوارد في شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ﴿ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ﴾ من أمتي، أي: عظمتهم، ﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ من الأمم السالفة، أي: بهذا أمرنا ربنا ورعظنا، وبه أمر من قبلنا، يعني: انفراده سبحانه بالألوهية واختصاصه بها.

وقيل: المعنى: هذا كتاب أنزل على أمتي، وهذا كتاب أنزل على أمم الأنبياء - عليهم السلام - قبلي، فانظروا: هل في واحد منها غير الأمر بالتوحيد والنهي عن الإشراك، ففيه تبكيث لهم. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: لا يفهمونه، ولا يميزون بينه وبين الباطل، فهو إضراب وانتقال من تبكيتهم بمطالبة البرهان، إلى بيان أنه لا ينفع فيهم المحاجة؛ لجهلهم وعنادهم، ولذلك قال: ﴿فَهُمْ مَعْرُضُونَ﴾ أي: فهم؛ لأجل جهلهم وعتوهم مستمرون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول، لا يزعجون عما هم عليه من الغي والضلال، وإن كررت عليهم البينات والحجج. أو معرضون عما ألقى عليهم من البراهين العقلية والنقلية؛ لانهم اكتم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوْحَىٰ (١) إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، هذا مقرر لما قبله؛ من كون التوحيد مما نطق به الكتب الإلهية، وأجمعت عليه الرسل - عليهم السلام - قاطبة. وصيغة المضارع في (يُوْحَىٰ)؛ لحكاية الحال الماضية؛ استحضاراً لصورة الوحي العجيبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته)، العندية، هنا، عندية اصطفاء وتقريب، وهذه صفة العارفين المقربين، لا يستكبرون عن عبادته، بل خاضعون لجلاله وقهره على الدوام، ولا يستحسرون:

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص: (نوحى)؛ بالنون وكسر الحاء، على التعظيم، وقرأ الآخرون - بالياء وفتح الحاء، (انظر: الإتحاف ٢٦٢/٢).

لا يملكون منها ولا يشبعون، غير أنهم يتلونون فيها؛ من عبادة الجوارح إلى عبادة القلوب؛ كالتفكير والاعتبار، إلى عبادة الأرواح؛ كالشهود والاستبصار، إلى عبادة الأسرار؛ كالعكوف في حضرة الكريم الغفار، ينزهون الله تعالى في جميع الأوقات، لا يفترون عن تسبيحه بالمقال أو الحال.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً...﴾ الخ، تصدق على من مال بقلبه إلى محبة الأكوان، أو ركن إلى الحظوظ والشهوات، وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، أعلم أن ثلاثة أشياء إذا تعدد مدبرها فسد نظامها؛ أولها: الألوهية، فلو تعددت لفسد نظام العالم، وثانيها: السلطنة، إذا تعددت في قطر واحد فسدت الرعية، وثالثها: الشيخوخة، إذا تعددت على مرید واحد فسدت تربيته، كالطبيب إذا تعدد على مريض واحد فسد علاجه. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ قال الكواشي: يعني: لا يسأل عن فعله وحكمه؛ لأنه الرب، وهم يسألون؛ لأنهم عبيده. وبعض الناس يقول: هذه آية الدبوس^(١). قلت: وقد تقلب السين زايًا، ومعناها: أن كل ماتحكم به القدرة: يجب حنو الرأس له، من غير تردد ولا سؤال. ثم قال: ولو نظر النظر الصحيح لرآها أنصف آية في كتاب الله تعالى؛ وذلك لأنه جمع فيها بين صفة الربوبية وصفة العبودية. هـ.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ يعني: أن التوحيد مما أجمعت عليه الرسل والكتب السماوية. والفناء فيه على ثلاثة أقسام: فناء في توحيد الأفعال، وهو ألا يرى الفعل إلا من الله، ويغيب عن الوسائط والأسباب، وفناء في توحيد الصفات، وهو أن يرى ألا قادر ولا سميع ولا بصير ولا متكلم إلا الله، وفناء في توحيد الذات، وهو أن يرى ألا موجود إلا الله، ذوقاً ووجداً وعقداً. كما قال صاحب العينية:

هُوَ الْمَوْجِدُ الْأَشْيَاءِ، وَهُوَ وَجُودُهَا وَعَيْنُ ذَوَاتِ الْكُلِّ، وَهُوَ الْجَوَامِعُ^(٢)

وقد أشار بعضهم إلى هذه الفناءات، فقال:

فِيْفَنِي، ثُمَّ يَفَنِي، ثُمَّ يَفَنِي، فَكَانَ فَنَاسُوهَ عَيْنِ الْبَقَاءِ

وهنا - أي: في مقام الفناء والبقاء - انتهت أقدام الساترين، ورسخت أسرار العارفين، مع ترقيات وكشوفات أبد الآبدين، جعلنا الله من حزبهم. آمين.

(١) هكذا في الأصول.

(٢) المراد: أن الحق تعالى قيوم الأشياء ومفيضها من العدم، والمتجلى عليها بمراده منها، إذ أنها في ذاتها فانية من قبل ومن بعد؛ لأنه لا قيومية لها من ذاتها. هذا هو المعنى الذي ينبغي أن يفهم من خلال هذا البيت وأشباهه.

ثم أنكر على من ادعى الولد له، فقال:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ
وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ
مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ، فَلِذَاكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ
نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، حكى الله تعالى جناية أخرى لبعض المشركين،
جاء بها؛ لبيان بطلانها. والقائل بهذه المقالة حى من خزاعة، وقيل: قريش وجهينة وبنو سلمة وبنو مليح،
يقولون: الملائكة بنات الله، وأمهاتهم سرورات الجن، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. والتعرض لعنوان الرحمانية
المنبئة عن كون جميع ماسواه مربوباً له تعالى، نعمة أو منعماً عليه؛ لإبراز كمال شناعة مقاتلتهم الباطلة،
﴿سبحانه﴾ أى: تنزه تنزيهاً يليق بكمال ذاته، وتقدس عن الصاحبة والولد، ﴿بل﴾ هم ﴿عباد﴾ لله تعالى،
وبل، إبطال لما قالوا، أى: ليست الملائكة كما قالوا، ﴿بل عباد مكرمون﴾؛ مقربون عنده، ﴿لا يسبقونه﴾
أى: لا يتقدمونه ﴿بالقول﴾، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به. وهذه صفة أخرى لهم، منبهة على كمال طاعتهم
وانقيادهم لأمره تعالى، أى: لا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به. وأصله: لا يسبق قولهم قوله، ثم أسند
السبق إليهم؛ لمزيد تلذذهم عن ذلك، ﴿وهم بأمره يعملون﴾ أى: لا يعملون إلا ما أمرهم به، وهو بيان لتبعيتهم
له تعالى فى الأفعال، إثر بيان تبعيتهم له فى الأقوال، فإن نفى سبقيتهم له تعالى بالقول: عبارة عن تبعيتهم له
تعالى فيه، كأنه قيل: هم بأمره يقولون وبأمره يعملون، لا بغير أمره أصلاً.

﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أى: ما عملوا وما هم عاملون، وقيل: ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد
خلقهم. وهو تقرير لتحقيق عبوديتهم؛ لأنهم إذا كانوا مقهورين تحت علمه تعالى وإحاطته انتفت عنهم أوصاف
الربوبية المكتسبة من مجانسة البنوة، ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ أن يشفع له، مهابة منه تعالى. قال
ابن عباس: هم أهل لا إله إلا الله، ﴿وهم من خشيته﴾ عز وجل ﴿مشفقون﴾: خائفون مرتعدون. قال
بعضهم: أصل الخشية: الخوف مع التعظيم، ولذلك خص بها العلماء، وأصل الإشفاق: الخوف مع الاعتناء، فعند
تعديته بمن: يكون معنى الخوف فيه أظهر، وعند تعديته بعلی: ينعكس الأمر؛ فيكون معنى الإشفاق فيه أظهر.

﴿ومن يقل منهم﴾ أى: من الملائكة؛ إذ الكلام فيهم، ﴿إني إله من دونه﴾ أى: متجاوزاً إياه تعالى،
﴿فذلك﴾ الذى فرض أنه قال ذلك فرض المحال، ﴿نجزيه جهنم﴾ كسائر المجرمين، ولا ينفى هذا عنهم

ما ذكر قبل من صفاتهم السنية وأفعالهم المرضية؛ لأنه فرض تقدير، وفيه من الدلالة على قوة ملكوته تعالى، وعزة جبروته، واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم في حقهم ما توهمه أولئك الكفرة، ما لا يخفى، ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي الظالمين، الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها، ويتعدون أطوارهم.

قال الكواشي: هذا القول وارد على سبيل التهديد والوعيد الشديد على ارتكاب الشرك، كقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١). هـ. فالقصد: تفضيع أمر الشرك، وأنه لو صدر ممن صدر لأحبط عمله، وكان جزاء صاحبه جهنم، ومثل ذلك الجزاء نجزي الظالمين، وهم الكافرون، والحاصل: أنه على سبيل الفرض، مع علمه تعالى أنه لا يكون من الملائكة، فهو من إخباره عما لا يكون كيف يكون؛ لعلمه بما لا يكون، مما جاز أن يكون، كيف يكون. هـ. من الحاشية الفاسية ببعض اختصار.

فالكاف من «كذلك»: في محل مصدر تشبيهي، مؤكد لمضمون ما قبله. والقصر، المستفاد من التقديم للمصدر، معتبر بالنسبة إلى النقصان دون الزيادة، أي: لا جزاء أنقص منه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أنوار الملكوت متدفقة من بحر أسرار الجبروت، من غير تفريع، ولا تولد، ولا علاج، ولا امتزاج، بل: كن فيكون، لكن حكمته تعالى اقتضت ترتيب الأشياء وتفرع بعضها من بعض، ليبقى السر مصوناً والكنز مدفوناً. فأسرار الذات العلية منزهة عن اتخاذ الصاحبة والولد، بل القدرة تبرز الأشياء بلا علاج ولا أسباب، والحكمة تسترها بوجود العلاج والأسباب. فكل ما ظهر في عالم التكوين قد عمته قهريّة العبودية، وانتفت عنه نسبة البُوة لأسرار الربوبية، فأهل الملأ الأعلى عباد مكرمون، مقدسون من دنس الحس، مستغرقون في هيمان القرب والأنس، وأهل الملأ الأسفل مختلفون، فمن غلب عقله على شهوته، ومعناه على حسه، وروحانيته على بشريته، فهو كالملائكة أو أفضل. ومن غلبت شهوته على عقله، وحسه على معناه، وبشريته على روحانيته، كان كالبهائم أو أضل. ومن التحق بالملأ الأعلى، من الأولياء المقربين، انسحب عليه ما مدحهم به تعالى من قوله: (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْطُرُونَ)، ومن قوله: (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ)، بأن يدبروا معه شيئاً قبل ظهور تدبيره، وهم بطاعته يعملون، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهم من خشية هيبتة مشفقون، (ومن يقل منهم إني إله من دونه)؛ بأن يدعى شيئاً من أوصاف الربوبية، كالكبرياء، والعظمة على عباده، فذلك نجزيه جهنم، وهي نار القطيعة، كذلك نجزي الظالمين. وفي الحكم: «منعك أن تدعى ما ليس لك مما للمخلوقين، أفبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين؟».

(١) من الآية ٨٨ من سورة الأنعام.

ثم برهن على وحدانيته، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قلت: «فجاء»: حال من «سُبل»، وأصله: وصف له، فلما تقدم أعرب حالاً. وقيل «سُبلًا»: بدل من «فجاء». وفي إتيانه: إيدان أن تلك الفجاء نافذة؛ لأن الفج قد يكون نافذاً وقد لا. قاله المحشي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ رؤية اعتبار ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: جماعة السموات وجماعة الأرض ﴿كَانَتَا﴾، ولذلك لم يقل كُنْ، ﴿رَتْقًا﴾ أي: ملتصقة ببعضها ببعض. والرتق: الضم والالتصاق. وهو مصدر بمعنى المفعول، أي: كانتا مرتفعتين، أي: ملتصقتين، ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾؛ فشققناهما، فالفتق ضد الرتق. قال ابن عباس (رضي الله عنه): «كانتا شيئاً واحداً متصلتين، ففصل الله بينهما، فرفع السماء إلى حيث هي، وأقر الأرض». وفي رواية عنه: أرسل ريحاً فتوسطتهما ففتقتهما. وقال السدي: (كانت السموات مؤلفة طبقة واحدة، ففتقها، فجعلها سبع سموات، وكذلك الأرض، كانت طبقة واحدة، ففتقها، فجعلها سبع أرضين).

فإن قيل: متى رأوهما رتقاً حتى جاء تقريرهم بذلك؟ قلنا: مصب الكلام والتقرير هو فتق السموات ورفعها، وهو مشاهد بالأبصار، وهم متمكنون من النظر والاعتبار، فيعلمون أن لها مدبراً حكيماً، فنقها ورفعها، وهو الحق جل جلاله، وذكر الرتق زيادة لإخبار، فكأنه قال: ألم يروا إلى فتق السموات ورفعها؟ وقال الكواشي: لما كان القرآن معجزاً، كان ورود برتقها كالشاهد المرئي، أو: لما كان تلاصق السموات والأرضين، وما بينهما، وتباينهما، جائزاً عقلاً، وجب تخصيص التلاصق من التباين، وليس ذلك إلا الله تعالى. هـ.

وقيل: كانت السموات صلبة لا تقطر، والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالأمطار، والأرض بالنبات. وروى هذا عن ابن عباس أيضاً، وعليه أكثر المفسرين، وعلم الكفرة الرتق والفتق، بهذا المعنى، مما لا خفاء فيه. والرؤية على الأول رؤية علم، وعلى الثاني رؤية عين.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: خلقنا من الماء كل حيوان، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ (١)، وذلك لأنه من أعظم مواده، أو لفرط احتياجه إليه، وحبه له، وعدم صبره عنه، وانفعاذه به، ويدخل (١) من الآية ٤٥ من سورة النور.

فى ذلك: النبات؛ مجازاً دون الملائكة، قال فيه للحقيقة والماهية، إلا أنه صرفه عن ذلك إلى العهد الذهنى قرينةً الجعل، كما فى آية: ﴿فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ﴾ (١)، فإن القرينة تخلص ذلك للبعضية وإرادة الأشخاص. وقيل: المراد به: المني، قال فيه، حينئذ، للعهد الذهنى فقط. قال القشيري: كلُّ مخلوقٍ حيٍّ فمن الماء خلقه، فإن أصل الحيوان الذى يحصل بالتناسل النطفة، وهى من جملة الماء. هـ. ونقدم أن الملائكة لا تناسل فيها. ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وحده، وهو إنكار لعدم إيمانهم، مع ظهور ما يوجب حتماً من الآيات الآفاقية والأنفسية، الدالة على تفرده تعالى بالألوهية.

﴿وجعلنا فى الأرض رواسي﴾ أى: جبلاً ثابتة، من رسا الشيء؛ إذا ثبت ورسخ، ﴿أن تميد بهم﴾ أى: كراهية أن تتحرك وتضطرب بهم، أو لتلا تميد بهم - بحذف اللام، ودلاً، لعدم الإلباس. ﴿وجعلنا فيها﴾ أى: فى الأرض، وتكرير الجعل؛ لاختلاف المجعولين، ولتوفية مقام الامتنان حقه، أو فى الرواسي؛ لأنها المحتاجة إلى الطرق، ﴿فجاءا﴾: جمع فج، وهو الطريق الواسع، نفذ أم لا، أى: جعلنا فى الأرض مسالك واسعة، وسبلاً نافذة. فالسبل هى الفجاج مع قيد النفوذ. فإن قيل: أى فرق بين هذا وبين قوله: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سَبَلاً فُجَّاجاً﴾ (٢)؟ فالجواب: أنه هنا بين أنه خلقها على هذه الصفة، وهناك بين أنه جعل فيها طرقاً واسعة، وليس فيه بيان أنه خلقها كذلك، فما هنا تفسير لما هناك. انظر النسخ.

وقوله تعالى: ﴿لعلهم يهتدون﴾ أى: إلى البلاد المقصودة بتلك السبل، أو إلى مصالحهم ومهماتهم. ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ من السقوط، كقوله: ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٣)، أو من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم، أو من استراق السمع بالشهب، كما قال: ﴿وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ (٤). ﴿وهم﴾ أى: الكفار ﴿عن آياتها﴾ أى: عن الأدلة التى فيها، كالشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك مما فيها من العجائب الدالة على وحدانيته تعالى وقدرته وحكمته، التى بعضها محسوس، وبعضها معلوم بالبحث فى علمى الطبيعة والهيئة، ﴿معرضون﴾ لا يتدبرون فيها، فيقفون على ما هم عليه من الكفر والضلال، فيؤمنون.

﴿وهو الذى خلق الليل﴾ لتسكنوا فيه، ﴿والنهار﴾ لتتصرفوا فيه، ﴿والشمس﴾ لتكون سراج النهار، ﴿والقمر﴾ ليكون سراج الليل، وهذا بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون. وقوله: ﴿كل﴾ أى: كلهم، والمراد: جنس الطوالع، ﴿فى فلك يسبحون﴾ أى: يسرون سير العائم فى الماء. عن ابن عباس رضي الله عنه: الفلك السماء، وقيل: موج مكفوف تحت السماء، يجرى فيه الشمس والقمر والنجوم. وجمهور أهل الهيئة أن الفلك:

(١) من الآية ١٧ من سورة يوسف.

(٢) من الآية ٢٠ من سورة نوح.

(٣) من الآية ٦٥ من سورة الحج.

(٤) الآية ٧ من سورة الصافات.

جسم مستدير، وأنهن تسعة، وهل هي السموات السبع، فيكون الكرسي ثامناً، والعرش تاسعاً، أو غيرهن، فتكون تحت السموات أو فوقها؟ قولان لهم. والمراد هنا: الجنس، كقولك: كسأهم الأمير حلة، أى: حلة حلة، وجعل الضمير واو العقلاء؛ لأن السباحة حالهم.

قال فى المستخرج من كتاب الغزنونى: «كل، أى: كل واحد من الشمس والقمر وسائر السيارة، وإن لم تذكرن؛ لأنه جمع قوله: (يَسْبَحُونَ) والمعنى: يجرّون كالسباح، أو يدورون، والسيارة تجرى فى الفلك على عكس جرى الفلك، ولها تسعة أفلاك، فالقمر فى الفلك الأدنى، ثم عطارد، ثم الزهرة، ثم الشمس، ثم المريخ، ثم المشتري، ثم زحل، والثامن: فلك البروج، والتاسع: الفلك الأعظم. هـ. وقال فى سورة يس: خص الشمس والقمر هنا، وفى سورة الأنبياء؛ لأن سيرهما أبداً على عكس دور الفلك، وسيّر الخمسة قد يكون موافقاً لسيره عند رجوعها. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أو لم ير الذين كفروا بوجود التربية أن سموات الأرواح وأرض النفوس كانتا رتقاً صلبة، ميتة بالجهل، ففتقناهما بالعلوم وأسرار التوحيد؟ والمعنى: أن بعض الأرواح والنفوس تكون ميتة صلبة، فإذا صحبت أهل التربية، انفتقت بالعلوم والأسرار، فهذا شاهد بوجود أهل التربية، ومن قال بانقطاعها فقوله مردود بالمشاهدة. وجعلنا من ماء الغيب - وهى الخمرة الأزلية - كل شيء حى، أفلا يؤمنون بوجود هذا الماء عند أربابه؟ وجعلنا فى أرض النفوس جبلاً من العقول؛ لئلا تميل إلى الهوى فتموت، وجعلنا فيها طرقاتاً يسلك منها إلى الحضرة، وهى كيفية الرياضة وأنواع المجاهدة، وهى طرق كثيرة، والمقصد واحد، وهو الوصول إلى الفناء والبقاء، التى هى معرفة الحق بالعيان، وهو قوله تعالى: (لعلهم يهتدون) إلى الوصول إلى حضرتنا.

وجعلنا السماء، أى: سماء القلوب الصافية، سقفاً محفوظاً من الخواطر والوساوس والشكوك والأوهام والشياطين، قال بعضهم: (إذا كان الحق تعالى قد حفظ السماء بالشهب من الشياطين، فقلوب أوليائه أولى بالحفظ). وهم عن آياتها، أى: عن دلائل حفظها وصيانتها معرضون؛ لانهماكهم فى الغفلة. وهو الذى خلق ليل القبض ونهار البسط وشمس العرفان وقمر توحيد الدليل والبرهان، كل فى موضعه، لا يتعدى أحد على صاحبه، ولكل واحد سير معلوم وأدب محتوم. وبالله التوفيق.

ولما قامت الحجة على الكفرة بما ذكر من الآيات والدلائل القاطعة، وانقطعوا، قالوا: ننتظر به ريب المنون، فنستريح منه، فأنزل الله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلْبَشَرِ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله لنبيه - عليه الصلاة والسلام -: ﴿ وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد ﴾ أى: البقاء الدائم؛ لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية والتشريعية، ﴿ أفإن مت ﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿ فهم الخالدون ﴾ بعدك؟ نزلت حين قالوا: نترصب به رب المنون، فنفى عنه الشماتة بموته، فإن الشماتة بالموت مما لا ينبغي أن يصدر من عاقل، أى: قضى الله ألا يخلد فى الدنيا بشراً، فإن مت - يا محمد - أبقى هؤلاء الكفرة؟ كلا، ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ أى: ذائقة مرارة مفارقتها جسدها، فتستوى أنت وهم فيها، فلا تتصور الشماتة بأمر عام.

﴿ ونبلوكم ﴾، الخطاب: إما للناس كافة بطريق التلويح، أو للكفرة بطريق الالتفات، وسمى ابتلاء، وإن كان عالماً بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم؛ لأنه فى صورة الاختبار، أى: نختبركم ﴿ بالشر والخير ﴾، أى: بالفقر والغنى، أو بالضر والنفع، أو بالعطاء والمنع، أو بالذل والعز، أو بالبلاء والعافية، ﴿ فتنة ﴾؛ اختباراً، هل تصبرون وتشكرون، أو تجزعون وتكفرون. وهفتنة: مصدر مؤكد لنبلوكم، من غير لفظه. ﴿ وإلينا ترجعون ﴾ لا إلى غيرنا، فنجازيكم على حسب ما يؤخذ منكم؛ من الصبر والشكر، أو الجزع والكفران. وفيه إيماء إلى أن المقصود من هذه الدنيا: الابتلاء والتعرض للثواب والعقاب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا بد لهذا الوجود بما فيه أن تنهد دعائمه، وتسلب كرائمه، ولا بد من الانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار التعب إلى دار الهناء، ومن دار العمل إلى دار الجزاء. فالعاقل من أعرض بكليته عن هذه الدار، وصرف وجهته إلى دار القرار، فاشتغل بالتزود للرحيل، وبالتأهب للمسير، فلا مطمع للخلود فى هذه الدار، وقد رحل منها الأنبياء والصالحون والأبرار، وتأمل قول الشاعر:

صبراً فى مجال الموت صبراً فما نيل الخلود بمستطاع

وقوله تعالى: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾، أعلم أن تخالف الآثار وتنقلات الأطوار على العبد من أفضل المن عليه، إن صحبته اليقظة، فيرجع إلى الله تعالى فى كل حال تنزل به، إن أصابته ضراء رجع إلى الله بالصبر والرضا، وإن أصابته سراء رجع إليه بالحمد والشكر، فيكون دائماً فى السير والترقى، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ أى: بهما. فالرجوع إلى الله فى السراء والضراء من أركان الطريق، والرجوع إلى الله فى الضراء بالصبر والرضا، وفى السراء بالحمد والشكر، ورؤية ذلك من الله بلا واسطة. وفى الحديث عنه ﷺ: «من ابتلى فصبر، وأعطى ف شكر، وظلم فغفر أو ظلم فاستغفر»، ثم سكت - عليه الصلاة والسلام - فقالوا: ماله يا رسول الله؟ قال: «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» (١). وقال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له» (٢).

(١) عزاه فى الجامع الصغير (ج ٨٢٨١)، للطبرانى والبيهقى، عن سخرية، وحسنه.

(٢) أخرجه مسلم فى (الزهد، باب: المؤمن أمره كله خير)، عن صهيب رضى الله عنه.

والرجوع إلى الله في الصراء أصعب، والسير به أقوى؛ لما فيه من التصفية والتطهير من أوصاف البشرية، ولذلك قدمه الحق تعالى. وفي الحديث: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ، فَإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ، وَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ». وفي الخبر عن الله تعالى: «الفقر سجنى، والمرض قيدي، أحبس بذلك من أحببت من عبادى». وبه يحصل على عمل القلوب؛ الذى هو الصبر والرضا والزهد والتوكل، وغير ذلك من المقامات، وذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، ومن أعمال القلوب يفضى إلى أعمال الأرواح والأسرار، كفكرة الشهود والاستبصار. وفكرة ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة، بل من ألف سنة، كما قال الشاعر:

كُلُّ وَقْتٍ مِنْ حَبِيبِي فَسُدُّهُ كَأَلْفِ حِجَّةٍ

لأن المقصود من الطاعات وأنواع العبادات: هو الوصول إلى مشاهدة الحق ومعرفته، فالفكرة والنظرة لأجزاء لها إلا زيادة كشف الذات وأنوار الصفات، منحنا الله من ذلك، الحظ الأوفر. آمين.

ومن جملة الشر الذى ابتلى الله به عباده: إذابة الخلق، كما قال لنبيه - عليه الصلاة والسلام - :

﴿وَإِذَا رَأَوْا كُفْرًا أَوْ إِتَّخَذُوا إِلَٰهًا غَيْرَ الَّذِي يَذْكُرُ ۖ فَهُمْ يُبْذَلُونَ﴾ (٣٦) ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّا فَاعِلُونَ مَا وَعَدُوكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٧) ﴿وَلَا تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ ۚ أَصْغَىٰ لَهُمْ لَوْلَا رَأَوْنَ ظُهُورَ الَّذِينَ هُمُ يُحْذَرُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٩)

قلت: (أهذا الذى): مقول لحال محذوفة، أى: قائلين: أهذا الذى، وحذف الحال، إذا كان قولاً، مطرد. (وهم بذكر الرحمن): حال، و(بل تأتيهم): عطف على (لا يكفون) أى: لا يكفونها، بل تأتيهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا كُفْرًا أَوْ إِتَّخَذُوا إِلَٰهًا غَيْرَ الَّذِي يَذْكُرُ﴾ أى: المشركون ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَ﴾ أى: ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُزُوءًا﴾ مهزوءاً بك؛ على معنى قصر معاملتهم معه - عليه الصلاة والسلام - على اتخاذهم إياه هزواً، كأنه قيل: ما يفعلون بك إلا اتخاذك هزواً. نزلت فى أبى جهل - لعنه الله -، مر به النبي ﷺ، فضحك وقال: هذا نبي بنى عبد مناف^(١). قال القشيري: (لو شاهدوه على ما هو عليه من أوصاف التخصيص، وما رفاه الله من المنزلة،

(١) عزاه السيوطى فى الدر (٥٧٣/٤) لابن أبى حاتم عن السدى.

لظلوا له خاضعين، ولكنهم حُجِبُوا عن معانيه وسريره، وعابثوا فيه جسمه وصورته). فاستهزءوا بما لم يُحِيطُوا بعلمه، حَال كونهم يقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ﴾ أَيْ: يَعِيبُ ﴿آلِهَتَكُمْ﴾، فالذكر يكون بخير وبضده، فَإِنْ كَانَ الذَّاكِرُ صَدِيقًا لِلْمَذْكُورِ فَهُوَ ثَنَاءٌ. وَإِنْ كَانَ عَدُوًّا فَهُوَ ذَمٌّ. ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ﴾ أَيْ: يَذْكُرُ اللَّهَ وَمَا يَجِبُ أَنْ يَذْكُرَ بِهِ مِنَ الْوَحْدَانِيَّةِ، ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾؛ لَا يَصْدُقُونَ بِهِ أَصْلًا، فَهُمْ أَحَقُّ بِالْهَزْءِ وَالسَّخِرَةِ مِنْكَ؛ لِأَنَّكَ مُحَقٌّ وَهُمْ مُبْطَلُونَ. وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَعِيبُونَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ - أَنْ يَذْكُرَ آلِهَتَهُمْ، الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، بِالسَّوَاءِ، وَالْحَالُ: أَنَّهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ، الْمُنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ، الَّتِي هِيَ مِنْ مَقْتَضِيَّاتِ رَحْمَانِيَّتِهِ، كَافِرُونَ، لَا يَذْكُرُونَهُ بِمَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَأَوْصَافِ الْكَمَالِ، أَوْ: بِمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ الرَّحْمَنَ، ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾؛ جَاحِدُونَ، فَهُمْ أَحْقَاءُ بِالنَّعِيبِ وَالْإِنْكَارِ. وَكَرَّرَ لَفْظَ «هُمْ» لِلتَّأْكِيدِ، أَوْ لِأَنَّ الصَّلَاةَ حَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَبَرِ، فَأَعِيدَ الْمَبْتَدَأُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، الْعَجَلُ وَالْعَجَلَةُ مُصْدَرَانِ، وَهُوَ تَقْدِيمُ الشَّيْءِ عَلَى وَقْتِهِ. وَالْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ: الْجِنْسُ، جُعِلَ لِفَرْطِ اسْتِعْجَالِهِ، وَقَلَّةِ صَبْرِهِ، كَأَنَّهُ خُلِقَ مِنَ الْعَجَلَةِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِمَنْ يَكْثُرُ مِنْهُ الشَّيْءُ: خُلِقَ مِنْهُ، تَقُولُ لِمَنْ يَكْثُرُ مِنْهُ الْكَرَمُ: خُلِقَ مِنَ الْكَرَمِ. وَمِنْ عَجَلَتِهِ: مُبَادَرَتِهِ إِلَى الْكُفْرِ وَاسْتِعْجَالِهِ بِالْوَعِيدِ. رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ، حِينَ اسْتَعْجَلَ الْعَذَابَ بِقَوْلِهِ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا مَطَرُ النَّارِ﴾ (١)، كَأَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ بِبَدْعٍ مِنْهُ أَنْ يَسْتَعْجَلَ، فَإِنَّهُ مُجْبُولٌ عَلَى ذَلِكَ، وَطَبْعُهُ، وَسَجِيَّتُهُ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِنْسَانِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ حِينَ بَلَغَ الرُّوحَ صَدْرُهُ أَرَادَ أَنْ يَقُومَ. وَرُوِيَ: أَنَّهُ لَمَّا دَخَلَ الرُّوحُ فِي عَيْنَيْهِ نَظَرَ إِلَى ثَمَارِ الْجَنَّةِ، وَلَمَّا وَصَلَ جَوْفَهُ اشْتَهَى الطَّعَامَ، فَكَانَتِ الْعَجَلَةُ مِنْ سَجِيَّتِهِ، وَسَرَتْ فِي أَوْلَادِهِ. وَإِنَّمَا مَنَعَ الْإِنْسَانَ مِنَ اسْتِعْجَالِ وَهُوَ مَطْبُوعٌ عَلَيْهِ، لِتِكْمَلِ بَعْدَ النِّقْصِ، كَمَا أَمَرَهُ بِقَطْعِ الشَّهْوَةِ وَقَدْ رَكَّبَهَا فِيهِ؛ لِأَنَّهُ أَعْطَاهُ الْقُدْرَةَ الَّتِي يَسْتَطِيعُ بِهَا قَمْعَ الشَّهْوَةِ وَتَرَكَ الْعَجَلَةَ. قَالَ الْقَشِيرِيُّ: الْعَجَلَةُ مَذْمُومَةٌ، وَالْمَسَارَعَةُ مَحْمُودَةٌ. وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ الْمَسَارَعَةَ: الْبِدَارُ إِلَى الشَّيْءِ فِي أَوَّلِ وَقْتِهِ، وَالْعَجَلَةُ: اسْتِقْبَالُهُ قَبْلَ وَقْتِهِ، وَالْعَجَلَةُ سَمَةٌ وَسُوسَةٌ الشَّيْطَانِ، وَالْمَسَارَعَةُ قَضِيَّةُ التَّوْفِيقِ هـ.

وَقَالَ الْوَرْتَجِيُّ: خُلِقُوا مِنَ الْعَجَلَةِ، وَزَجَرَهُمْ عَنِ التَّعَجُّلِ؛ إِظْهَارًا لِقَهَارِيَّتِهِ عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ، وَعَجَزِهِمْ عَنِ الْخُرُوجِ عَنْ مَلِكِهِ وَسُلْطَانِهِ. وَحَقِيقَةُ الْعَجَلَةِ مَتَوْلَدَةٌ مِنَ الْجَهْلِ بِالْمَقَادِيرِ السَّابِقَةِ هـ. قُلْتُ: مَا زَالَتِ الطَّمَأْنِينَةُ وَالرَّزَانَةُ مِنْ شَأْنِ الْعَارِفِينَ، وَبِهَا عُرِفُوا، وَالْعَجَلُ وَالْقَلَقُ مِنْ شَأْنِ الْجَاهِلِينَ، وَبِهَا وَصَفُوا.

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

وقيل: العَجَل الطين، بلغة حمير، ولا مناسبة له هنا.

قال تعالى، صارفاً للخطاب عن الرسول إلى المستعجلين: ﴿سأوريكم آياتي﴾: نَقَمَاتِي، كعذاب النار وغيره، ﴿فلا تستعجلون﴾ بالإتيان بها، وهو نهى عما جُبلت عليه نفوسهم؛ ليقهروها عن مرادها من الاستعجال.

﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾: إتيان العذاب، أو القيامة، ﴿إن كنتم صادقين﴾ في وعدكم بأنه يأتينا، قالوه استعجالاً بطريق الاستهزاء والإنكار، لا طلباً لتعيين وقته، والخطاب للنبى ﷺ والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة عن مجيء الساعة. قال تعالى: ﴿لو يعلم الذين كفروا﴾، هذا استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه، وفظاعة ما فيه من العذاب، وأنهم يستعجلونه لجهلهم بشأنه. وقوله تعالى: ﴿حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون﴾: مفعول «يعلم»، وهو عبارة عن الوقت الموعود، الذى كانوا يستعجلونه. وقوله: ﴿لو يعلم الذين كفروا﴾ أى: حين يرون ويعلمون حقيقة الحال، وهو معاينة العذاب. وجواب «لو»: محذوف، أى: لو يعلمون الوقت الذى يستعجلونه بقولهم: متى هذا الوعد؟ وهو الوقت الذى تحيط بهم النار من ورائهم وقدامهم، فلا يقدرّون على دفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم، لما كانوا بهذه الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم به هو الذى هوّنه عندهم.

﴿بل تأتيهم بغتة﴾ أى: بل تأتيهم النار أو الساعة فجأة، ﴿فتبهِتُهُمْ﴾: فتَحَيَّرَهُمْ أو تَغْلِبَهُمْ، ﴿فلا يستطيعون ردّها﴾، فلا يقدرّون على دفعها عنهم، أى: النار أو الساعة، ﴿ولا هم ينظرون﴾: يَمْهَلُونَ؛ ليستريحوا طرفة عين.

ثم سلى رسوله عن استهزائهم، فقال: ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق﴾: نزل أو أحاط أو حلّ ﴿بالذين سخروا منهم﴾ أى: من أولئك الرسل - عليهم السلام - جزاء ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾، وهو العذاب الدائم. نسأل الله العافية.

الإشارة: كل من خرق عوائد نفسه، وخرج عن عوائد الناس، أو أمر بالخروج عن العوائد، رفضه الناس واتخذوه هزواً، سنة الله التى قد خلت من قبل، لم يأت أحد بذلك إلا عودى، فإن ظهر عليه أثر الخصوصية؛ من علم لدنى، أو هداية خلق على يده، استعجلوه بإظهار الكرامة، كما هو شأن الإنسان، خلق من عَجَل، فيقول: سأوريكم آياتي، فإن الأمر إذا كان مؤسساً على الحق لا بد أن تظهر أنواره وأسراره، فلو يعلم الذين كفروا بطريق الخصوص، حين ترهقهم الحسرة، وتحيط بهم الندامة، إذا رأوا أهل الصفاء يسرحون فى أعلى عليين حيث شاءوا، وجوهم كالشموس الصاحية، لبادروا إلى الانقياد لهم، وتقبيل التراب تحت أقدامهم، ولكلهم اليوم فى غفلة ساهون.

ويقال لمن أنكر عليه أهل زمانه طريق التجريد وخرق العوائد: ولقد استهزئ بمن كان قبلك ممن سلك هذه الطريق، فأوذوا، وضربوا، وأخرجوا من بلادهم، فحاق بالذين سخرؤا منهم ما كانوا به يستهزؤون، إما في الدنيا أو في الآخرة.

فإذا نزل بأسه فلا حافظ منه إلا الرحمن، كما قال تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾
 ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّْا يُصْحَبُونَ
 ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَاهُم بَلَاءً وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿من يكلؤكم﴾: يحفظكم ﴿بالليل والنهار من﴾ بأس ﴿الرحمن﴾ الذي تستحقونه، إذا نزل بكم ليلاً أو نهاراً. قال الواسطي: من يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن أن يظهر عليكم ما سبق فيكم؟ وقال ابن عطاء: من يكلؤكم من أمر الرحمن سوى الرحمن، وهل يقدر أحد على الكلاء سواه؟. وتقديم الليل؛ لأن الدواهي فيه أكثر وقوعاً وأشد وقعاً. وفي التعرض لعنوان الرحمانية إيذان بأن كلاءهم ليس إلا برحمته العامة. ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ أي: بل هم معرضون عن ذكره، ولا يخطر ببالهم، فضلاً أن يخافوا بأسه، حتى إذا رزقوا الكلاء عرفوا من الكاليء، وصلحوا للسؤال عنه.

والمعنى: أنه أمر رسوله - عليه الصلاة والسلام - بسؤالهم عن الكاليء، ثم أضرب عنه، وبين أنهم لا يصلحون لذلك، لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم. هكذا للزمخشري ومن تبعه. وقال ابن جزى: والمعنى: أنه تهديد وإقامة حجة عليهم؛ لأنهم لو أجابوا عن هذا السؤال لاعترفوا بأنه ليس لهم مانع ولا حافظ غيره تعالى - يعني لما جربوه في أحوال محنتهم - ثم قال: وجاء قوله: (بل هم عن ذكر ربهم معرضون)، بمعنى أنهم، إذا سئلوا ذلك السؤال، لم يجيبوا عنه، لأنهم تقوم عليهم الحجة إن أجابوا، ولكنهم معرضون عن ذكر الله. هـ. أي: معرضون عن أن يقولوا: كالتنا الله عتواً وعناداً. وهو معنى قوله: (بل هم عن ذكر ربهم معرضون)، كأنه قال: لو سئلوا، لم يجدوا جواباً، إلا أن يقولوا: هو الله، لكنهم معرضون عن ذكره؛ مكابرة. قلت: وما قاله ابن جزى أحسن مما قاله الزمخشري ومن تبعه، وأقرب.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾، هذا انتقال من بيان جهلهم بحفظه تعالى، أو إعراضهم عن ذكره، إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم. والمعنى: ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تجاوز منعنا وحفظنا، فهم يعولون عليها واثقون بحفظها؟ وفي توجيه الإنكار والنفي إلى وجود الآلهة بما ذكر من المنع، لا إلى نفس الصفة،

بأن يقال: أم تمنعهم آلهتهم.. إلخ، من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود، فضلاً عن رتبة المنع، مالا يخفى. ثم قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرَ أنفسهم ولا هم منا يُصَحِّبُونَ﴾ أى: يجارون. والصاحب: المجير الوافى، يعنى: أن الأصنام لا تجير نفسها، ولا نجيرهم نحن، أو لا يصحبهم نصر من جهتنا، فهم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم، ولا يصحبون بالنصر والتأييد من جهتنا، فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم؟.

﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر﴾، إضراب عما توهموه من منع آلهتهم وحفظها لهم، أى: ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنما هو منا، لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا، وما كلاًناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعاً لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً، كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وظنوا أنهم دائمون على ذلك، وهو أمل كاذب. ﴿أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها﴾ أى: ألا ينظرون فيرون أنا نأتى أرض الكفرة فننقصها من أطرافها؛ بإدخالها فى أيدي المسلمين، فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا. وهو تمثيل وتصوير لما يخبره الله من ديارهم على أيدي المسلمين، ويضيفها إلى دار الإسلام. وفى التعبير بنأتى: إشارة إلى أن الله تعالى يجريه على أيدي المسلمين، وأن عساكرهم كانت تأتيهم لغزوهم غالبية عليهم، ناقصة من أطراف أرضهم. ﴿أفهم الغالبون﴾ على رسول الله ﷺ والمؤمنين، أى: أفكفار مكة يغلبون بعد أن نقصنا من أطراف أرضهم؟ أى: ليس كذلك، بل يغلبهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه الكرام، وقد تحقق ذلك وأنجز الله وعده، والله غالب على أمره.

الإشارة: قل من يكلو قلوبكم وأسراركم من الرحمن، أن يذهب بما أودع فيها من المعارف وأنوار الإحسان؟ فلا أحد يحفظها إلا من رحمها بما أودع فيها، ولهذا كان العارفون لا يزول اضطرابهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم، لا يعتمدون على عمل ولا حال، ولا على علم ولا مقال، وفى الحكم: «إلهي، حكمك النافذ، ومشيتك القاهرة، لم يتركاً لذي حال حالاً، ولا لذي مقال مقالا». وقال أيضاً: «إلهي كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها، هدم اعتمادى عليها عدلك، بل أقالنى منها فضلك». وكثير من الناس غافلون عن هذا المعنى، بل هم عن ذكر ربهم معرضون.

قال الورتجبي: قوله تعالى: (قل من يكلوكم...) الآية، أخبر عن كمال إحاطته بكل مخلوق، وتنزيهه عن العجلة بمؤاخذتهم، كأنه يقول: أنا بذاتى تعاليت، أدفع بلطفى القديم عنكم قهرى القديم، ولولا فضلى السابق وعنايتى القديمة بالرحمة عليكم، من يدفعه بالعلة الحدثانية؟ وهذا من كمال لطفى عليكم، وأنتم بعد معرضون عنى يا أهل الجفا، وذلك قوله: (بل هم عن ذكر ربهم معرضون). هـ بلفظه مع تصحيف فى النسخة.

وقوله تعالى: (بل متعنا هؤلاء...) الآية، تمتيع العبد بطول الحياة، إن كان ذلك في طاعة الله، وازدياد في معرفته، فهو من النعم العظيمة. وفي الحديث: «خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ»^(١). لكن عند الصوفية: أنه لا ينبغي للمريد أن ينظر إلى ما مضى من عمره في طريق القوم، فقد كان بعض الشيوخ يقول: لا يكن أحدكم عبد الدهور وعبد العدد. قال الشيخ أبو العباس المرسى رحمته الله: معنى كلامه: أنه لا ينبغي للفقير أن يعد كم له في طريق القوم، ليقول: أنا لى كذا وكذا من السنين في طريق القوم. هـ بالمعنى. ولعل علة النهي؛ لتلا يري للأيام تأثيراً في الفتح، فقد قالوا: هي لمن صدق لا لمن سبق.

وقوله تعالى: (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) قال القشيري: فيه إشارة إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين، وتطاول العمر، فإن آخر الأمر^(٢) كما قيل:

أَخِرُ الْأُمْرِ مَا تَرَى: الْقَبْرُ وَاللُّحْدُ وَالْثَرَى

وكما قيل:

طَوَى الْعَصْرَانِ^(٣) مَا نَشَرَاهُ مِنِّي فَأَبْلَى جِدَّتِي نَشْرَ وَطِي

أُرَانِسِي كُلَّ يَوْمٍ فِي انْتِقَاصٍ وَلَا يَبْقَى مَعَ النِّقْصَانِ شَيْءٌ^(٤)

وكانه فسر الأرض بأرض النفوس من باب الإشارة. والله تعالى أعلم.

ولما بين الحق تعالى غاية هول ما يستعجله المستعجلون، ونهاية سوء حالهم، عند إتيانه، ونعى عليهم جهلهم بذلك، وإعراضهم عند ذكر ربهم، الذى يكلوهم من طوارق الليل والنهار، أمر نبيه - عليه الصلاة والسلام - بأن يخبرهم أن ما ينذرهم به، مما يستعجلونه، إنما هو بالوحى، لا من عنده، فقال:

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾^(١٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ^(١٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ^(١٧)

(١) أخرجه الترمذى (ح ٢٣٢٩) عن عبد الله بن بسر، وحسنه، بلفظ: «خير الناس من طال عمره وحسن عمله».

(٢) فى الأصول: إلى آخر الأمد.

(٣) فى الأصول: «العمران ما نشاء»، والمثبت: من لطائف الإشارات... والعصران: الغداة والعشى، أو الليل والنهار. انظر: اللسان (عصر ٤/٢٩٦٨).

(٤) نسب البيهقان إلى محمد بن يعقوب بن إسماعيل، انظر: الوافى بالرفيات (٥/٢٢٢)، كما نسب إلى أبى بكر بن أبى الدنيا، كما فى تاريخ بغداد (١٤/٣١١).

قلت: من قرأ: «يَسْمَعُ، بفتح الياء، فالصَّم: فاعل، والدعاء: مفعول، ومن قرأ بضم التاء، رباعى؛ فالصم: مفعول أول، والدعاء: مفعول ثان. ومن قرأ: «مَثْقَالَ»؛ بضم اللام، فكان تامة، وبالنصب: خبر كان، أى: وإن كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا أَنذَرُكُمْ﴾ وأخوفكم من العذاب الذى تستعجلونه، أو بالساعة الموعودة، ﴿بِالْوَحْيِ﴾ القرآنى الصادق، الناطق بإتيانه، وقطاعة شأنه، أى: إنما شأنى أن أنذركم بالإخبار به، لا بإتيانه؛ فإنه مخالف للحكمة الإلهية؛ إذ الإيمان برهانى لا عيانى، فإذا أنذرتهم فلا يسمع إنذارك إلا من سبقت له العناية، دون من سبق له الشقاء، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُ الدُّعَاءَ﴾ أى: الإنذار، أو لا تسمع أنت الصم الدعاء ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾؛ يخوفون، واللام فى ﴿الصم﴾ للعهد، وهو إشارة إلى هؤلاء المنذرين، والأصل: ولا يسمعون إنذارك إذا يندرون، فوضع الظاهر موضع المضممر؛ إشارة إلى تصاممهم وسد أسماعهم إذا أنذروا، وتسجيلاً عليهم بذلك. وفى التعبير بالدعاء، دون الكلام فى الإنذار، إشارة إلى تنامى صممهم فى حال الإنذار، فإن الدعاء من شأنه أن يكون بأصوات عالية مكررة مقارنة لهيئة دالة عليه، فإذا لم يسمعوا، مع هذه الحالة، يكون صممهم فى غاية لا غاية وراءها.

﴿وَلَمَّا مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ أى: دفعة يسيرة ﴿مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أى: كائنة منه، ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، وهذا بيان لسرعة تأثيرهم من مجيء نفس العذاب، إثر بيان عدم تأثيرهم من مجرد الإخبار به، لانهماكهم فى الغفلة، أى: والله لأن أصابهم أدنى شيء من هذا العذاب الذى يندرون به، لذلوا، ودعوا بالويل على أنفسهم، وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصامموا وأعرضوا. وقد بولغ فى الكلام، حيث عبر بالمس والنفح؛ لأن النفح يدل على القلة، فأصل النفح: هبوب رائحة الشيء، يقال: نفحه بعطية، إذا أعطاه شيئاً يسيراً، مع أن بناءها للمرة مؤكد لقلتها.

ثم بين ما يقع عند إتيان ما أنذروه، فقال: ﴿وَنُضِعَ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ أى: نقيم الموازين العادلة التى توزن بها الأعمال، وهو جمع ميزان، وهو ما يوزن به الشيء ليعرف كميته. وعن الحسن: «هو ميزان له كفتان ولسان»، وإنما جمع الموازين؛ لتعظيم شأنها، والوزن لصحائف الأعمال فى قول، وقيل: وضع الميزان كناية عن تحقيق العدل، والجزاء على حسب الأعمال. وإفراد القسط؛ لأنه مصدر وصف به؛ للمبالغة، كأنها فى نفسها قسط، أو على حذف مضاف، أى: ذوات القسط. وقوله: ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أى: لأهل يوم القيامة، أى: لأجلهم، أو فى يوم القيامة، ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ من الظلم، ولا تنقص حقاً من حقوقها، بل يؤتى كل ذى حق حقه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ أى: وإن كان الشيء أو العمل مثقال حبة من خردل، ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾: أحضرناها وجازينا عليها، وأنت ضمير المثقال؛ لإضافته إلى حبة، ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾، إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا، أو عالمين حافظين، لأن من حسب شيئاً علمه وحفظه، قاله ابن عباس - رضى الله عنهما.

الإشارة: كان ﷺ يُنذر الناس ويذكرهم بالوحي التنزيلى، وبقي خلفاؤه يذكرون بالوحي الإلهامى، موافقاً للتنزيلى، ولا يسمع وعظهم ويحضر مجالسهم إلا من سبقت له سابقة العناية، وأما من انتكبت عنه العناية تنكب مجالسهم، وتصامم عن وعظهم وتذكيرهم، ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما يندرون، ولا يندمون إلا حين تنزل بهم الأهوال، ولا ينفع الندم وقد جف القلم، وذلك حين توضع موازين الأعمال، فتثقل أعمال المخلصين، وتخف أعمال المخطئين، ولا توضع الموازين إلا لأهل النفوس الموجودة، وأما من غاب عن نفسه فى شهود محبوبه، لفنائه فى شهوده، وانطوائه فى وجوده، فلا ينصب له ميزان؛ إذ لا يشهد لنفسه حساً ولا فعلاً ولا تركاً، وإنما الفعل كله للواحد القهار. ويكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، جعلنا الله من خواصهم بمنه وكرمه. آمين.

ثم شرع فى تفصيل ما أجمل فى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ (١)، فقال:

﴿ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾
الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ
أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين ﴾، هذه الأوصاف كلها للنوراة، فهى فرقان بين الحق والباطل، وضياء يستضاء به، ويتوصل به إلى سبيل النجاة، وذكراً، أى: شرفاً، أو وعظاً وتذكيراً. وتوكيده بالقسم؛ لإظهار كمال الاعتناء به، أى: والله لقد آتيناها وحياً ساطعاً وكتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل، وضياء يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية، وذكراً ينتفع به الناس، أو شرفاً لمن عمل به، وتخصيص المتقين بالذكر؛ لأنهم المستضيئون بأنواره، المغتنمون لمغانم آثاره، أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع والأحكام، ودخلت الواو فى الصفات، كقوله تعالى: ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا ﴾ (٢)، وتقول: مررت بزيد الكريم والعالم والصالح.

(٢) من الآية ٣٩ من سورة آل عمران.

(١) الآيات: ٧ - ٩.

ثم وصف المتقين أو مدحهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، حال كونهم ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أى: يخافون عذابه تعالى، وهو غائب عنهم غير مشاهد لهم، ففيه تعريض بالكفرة، حيث لا يتأثرون بالإنذار ما لم يشاهدوا ما أنذروه. أو يخافون الله فى الخلاء كما يخافونه بين الناس، أو يخافونه بمجرد الإيمان به غير مشاهدين له، ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مَشْفِقُونَ﴾ أى: خائفون معتنون بالتأهب لها. وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر، بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق، للإيدان بكرنها أعظم المخوقات، وللتخصيص على الاتصاف بضد ما اتصف به الكفرة الغافلون عنها، وإيثار الجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه لهم.

﴿وهذا﴾ أى: القرآن الكريم، أشير إليه بهذا؛ إيداناً بغاية وضوح أمره، ﴿ذِكْرٌ﴾ يتذكر به من تذكر، وصفه ببعض أوصاف التوراة؛ لموافقته له فى الإنزال، ولما مرّ فى صدر السورة من قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ...﴾ (١) إلخ، ﴿مباركٌ﴾؛ كثير الخير، غزير النفع، يتبرك به على الدوام. قال القشيري: وصفه بالبركة هو إخبار عن ثباته، من قولهم: برك البعير، وبرك الطائر على الماء، أى: دأوم. وهذا الكتاب دائم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو دال على كلامه القديم، فلا انتهاء له، كما لا ابتداء له ولا انتهاء لكلامه. هـ. ﴿أنزلناه﴾ على محمد ﷺ، وهو صفة ثانية للكتاب ﴿أفأنتم له منكرون﴾؛ استفهام توبيخى، أى: جاحدون أنه منزل من عند الله، والمعنى: أبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة، فى الإنزال والإحياء، أنتم منكرون؛ لكونه منزلاً من عندنا؛ فإن ذلك، بعد ملاحظة التوراة، مما لا مساغ له أصلاً. وبالله التوفيق.

الإشارة: كل ما وصف به التوراة وصف به كتابنا العزيز، قال تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ (٢) وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مَبِينًا﴾ (٣)، وقال هنا: ﴿وهذا ذكر مبارك﴾، فزاده البركة؛ لعموم خيره ودوام نفعه، وخصوصاً للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب: قال القشيري: والخشية بالغيب: إطراق السريرة فى أول الحضور، باستشعار الوجل من جريان سوء الأدب، والحذر من أن يبدو من الغيب بغتات التقدير، مما يوجب حجة العبد. هـ.

ثم ذكر بقية المشاهير من الرسل، وبدأ بإبراهيم؛ لموافقة شريعتنا له، ولكونه أصل الجل منهم، فقال:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدًا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ

(١) الآية: ٢.

(٢) من الآية الأولى من سورة الفرقان.

(٣) من الآية ١٧٤ من سورة النساء.

وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٢﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾

قلت: «إذ قال»: ظرف لآتياء، أو لرُشدَه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿٥١﴾ ولقد آتينا إبراهيم رُشدَه ﴿٥٢﴾ أى: الرشد اللائق به وبأمثاله من كبراء الرسل، وهو الاهتداء الكامل، المستند إلى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحي، مع الاقتدار على إصلاح الأمة وإرشادها بسياسة النبوة والوحي الإلهي، ﴿٥٣﴾ من قبل ﴿٥٢﴾ أى: من قبل إتياء موسى وهارون التوراة، وتقديم ذكرهما، لما بين التوراة والقرآن من الشبه التام. وقيل: من قبل إنزال القرآن، أو من قبل استنبائه، أو من قبل بلوغه، ﴿٥٤﴾ وكنا به عالمين ﴿٥٥﴾ أى: بأنه أهل لما آتينا، أو عالمين برُشدَه، وما خصصناه به من الهداية الخاصة. ﴿٥٦﴾ إذ قال لأبيه وقومه ﴿٥٧﴾ آتيناك ذلك حين قال لأبيه، أو اذكر وقت قوله لهم: ﴿٥٨﴾ ما هذه التماثيل ﴿٥٩﴾ أى: الأصنام المصورة على صورة السباع والطيور والإنسان، وفيه تجاهل بهم؛ تحقيراً لها، مع علمه بتعظيمهم لها؛ توبيخاً لهم على إجلالها مع كونها خشباً وأحجاراً لا تنفع ولا تضر، ﴿٦٠﴾ التي أنتم لها عاكفون ﴿٦١﴾ أى: لأجل عبادتها مقيمون، فلما عجزوا عن الدليل قالوا وجدنا آباءنا لها عاكفين ﴿٦٢﴾ فقلناهم، فأبطله ﷺ، على طريقة التوكيد بالقسم، فقال: ﴿٦٣﴾ لقد كنتم أنتم وأباؤكم ﴿٦٤﴾ الذين سنؤا لكم هذه السُّنة الباطلة، ﴿٦٥﴾ في ضلال مبين ﴿٦٦﴾: ظاهر بين، بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء، أى: والله لقد كنتم مستقرين في ضلال عظيم ظاهر؛ لعدم استناده إلى دليل، فالتقليد إنما يجوز فيما يحتمل الحقيقة في الجملة، لا فيما اتضح بطلانه، سيما في أمر التوحيد.

﴿٦٧﴾ قالوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ ﴿٦٨﴾ أى: بالجد، ﴿٦٩﴾ أم أنت من اللاعبين ﴿٧٠﴾، فتقول ما تقول على الملاعبة والمزاح. والمعنى: أجاد أنت، أم لاعب فيما تقول؟ قالوا ذلك؛ استعظاماً منهم لإنكاره، واستبعاداً لكون ما هم عليه ضلال، وتعجبياً من تضليله إياهم.

ثم أضرب عنهم؛ مخبراً بأنه جاد فيما قال، غير لاعب، بإقامة البرهان على بطلان ما ادعوه فقال: ﴿٧١﴾ بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ﴿٧٢﴾، لا التماثيل التي صورتم. وقيل: هو إضراب عما بنوا عليه مقاتلهم؛ من اعتقاد كونها أرباباً لهم، كما يفصح عنه قولهم: ﴿٧٣﴾ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧٤﴾ (١)، كأنه قال: ليس الأمر كذلك، بل ربكم رب السموات والأرض الذي خلقهن وأنشأهن، فالضمير للسموات والأرض، وصفه تعالى بإيجادهن، إثر وصفه تعالى بربوبيته لهن؛ تحقيقاً للحق، وتنبيهاً على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من

(١) من الآية ٧١ من سورة الشعراء.

الربوبية، أى: أنشأهن بما فيهن من المخلوقات، التى من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه، من غير مثال يحتذيه، ولا قانون ينتحيه. وقيل: الضمير للتمائيل، وهو أدخل فى تضليلهم، وأظهر فى إلزام الحجة عليهم؛ لما فيه من التصريح المغنى عن التأمل فى كون ما يعبدونه من المخلوقات، والأول أقرب.

ثم قال ﷺ: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ﴾ الذى ذكرت: من كون ربكم رب السماوات والأرض، دون ماعداء، كائناً ما كان، ﴿من الشاهدين﴾ أى: العالمين به على سبيل الحقيقة، المبرهنيين عليه، فإن الشاهد على الشيء: من تحققه وبرهن عليه، كأنه قال: وأنا أعلم ذلك، وأتحققه، وأبرهن عليه، والله تعالى أعلم.

الإشارة: زخارف الدنيا وبهجتها، من تشييد بناء، وتزويق سقف وحيطان، وإنشاء غروس وبساتين، وجمع أموال، وتربية جاهد، كلها تماثيل لاحقيقة لها، فانية لا دوام لها. فمن عكف عليها، وأولع بخدمتها وجمعها وتحصيلها، كان عبداً لها، فينبغى لذى الرشد والعقل الوافر، الذى تحرر منها، أن ينكر عليهم، ويقول لهم: ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون، فإن قالوا: وجدنا آباءنا يفعلون هذا، وعلماءنا مثلاً، فليقل لهم: لقد كنتم وآباؤكم وعلماءكم فى ضلال مبين، عما كان عليه الأنبياء والأولياء والسلف الصالح. فإن قالوا: أجاد أنت أم لا؟ فليقل: بل ربكم الذى ينبغى أن يفرد بالمحبة والخدمة، هو رب السماوات والأرض، لا ما أنتم عليه من محبة الدنيا وبهجتها، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

ثم ذكر كسره للأصنام، وما ترتب عليه، فقال:

﴿وَتَأْتِيهِمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْيَنَ ۖ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۖ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذِهِ أَلَيْسَ إِلَٰهِنَا أَنَّهُ لِمَنِ الظَّالِمِينَ ۖ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۖ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۖ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذِهِ أَلَيْسَ إِلَٰهِنَا إِبْرَاهِيمُ ۖ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ۖ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ۖ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ۖ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۖ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۖ ﴿٦٧﴾﴾

قلت: (من فعل): استفهام، وقيل: موصولة، و(إنه): خبرها، أى: الذى فعل هذا معدود من الظلمة، و(يذكرهم): إما مفعول ثان لسمع؛ لتعلقه بالذات، على قول، أو صفة لفتى. و(يقال): صفة أخرى لفتى. وإبراهيم: نائب فاعل يقال.

يقول الحق جل جلاله حاكياً عن خليله ﷺ: ﴿وَتَاللَّهِ لَا كِيدَ أَصْنَامُكُمْ﴾ أى: لأمكنَ بها، وأجتهَد في كسرها، وفيه إيدان بصعوبة الانتهاز، وتوقفه على الحيل والسياسة، وذلك الكيد ﴿بعد أن تولُّوا مُدبرين﴾؛ بعد ذهابكم عنها إلى عبيدكم. قال مجاهد: إنما قاله سراً، ولم يسمعه إلا رجلٌ فأفشاء عليه، وقال: سمعت فتى يذكرهم. وقال السدى: كان لهم في كل سنة مجمعٌ وعيد، فإذا رجعوا من عيدهم دخلوا على أصنامهم فسجدوا لها، وقال أبو إبراهيم: يا إبراهيم، لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك، فخرج إلى بعض الطريق، وقال: إني سقيم، أشتكى رجلى. فلما مضوا نادى في آخرهم - وقد بقى ضعفاء الناس -: ﴿تَاللَّهِ لَا كِيدَ أَصْنَامُكُمْ بعد أن تولُّوا مُدبرين﴾ فسمعوه، ثم دخل بيت الأصنام، فوجد طعاماً كانوا يضعونه عندها للبركة، فإذا رجعوا أكلوه، فقال: ﴿إِنَّمَا تَأْكُلُونَ﴾؟ استهزاءً بها، فلم يجبه أحد، فقال: ما لكم لا تنطقون ﴿فَرَاغَ﴾؛ مال ﴿عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ (١).

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أى: قطعاً، جمع جذيد. وفيه لغتان: الكسر؛ كخفيف وخفاف، والضم؛ كحطيم وحطام. روى أنها كانت سبعين صنماً مصطفة. وثُمَّ صنم عظيم مستقبل الباب، وكان من ذهب، وفي عينيه جوهرتان تضئان بالليل، فكسر الكل بفأس كان بيده، ولم يبق إلا الكبير، علق الفأس في عنقه، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ أى: للأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَٰهٌ﴾ أى: إلى إبراهيم ﷺ ﴿يَرْجِعُونَ﴾؛ فيحاجهم بما سيأتى فيغلبهم، أو إلى دينه؛ إذا قامت الحجة عليهم. وقيل: إلى الكبير يسألونه عن الكاسر؛ لأن من شأن الكبير أن يرجع إليه في الملمات. وقيل: إلى الله تعالى وتوحيده، عند تحققهم بعجز آلهتهم عن دفع ما يصيبهم وعن الإضرار بمن كسرهم.

فلما رجعوا من عيدهم، ورأوا ما صنَّعَ بآلهتهم، ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾، على طريق الإنكار والتوبيخ، ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: لشديد الظلم؛ لجرأته على الآلهة، التى هى عندهم فى غاية التوقير والتعظيم. أو لَمِنَ الظالمين حيث عرَّض نفسه للهلكة، ﴿قَالُوا﴾ أى: بعض منهم، وهو من سمع مقالته: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أى: يعيبهم، ففعله فعل ذلك بها، ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أى: يقال له هذا الاسم. ﴿قَالُوا﴾ أى: السائلون: ﴿فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أى: بمرأى منهم، بحيث يكون نصب أعينهم، لا يكاد يخفى على أحد، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بما سمع منه، أو بما فعله، كأنهم كرهوا عقابه بلا بينة، أو يحضرون عقوبتنا له.

فلما أحضروه ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾؟ واختصر إحضاره؛ للتنبيه على أن إتيانهم به، ومسارعتهم إلى ذلك، أمر محقق غنى عن البيان ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﷺ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، غار أن

(١) كما جاء فى الآية ٩٣ من سورة الصافات.

يُعبدوا معه، مشيراً إلى الذي لم يكسره . وعن الكسائي: أنه يقف على (بل فعله) أى: فعله من فعله، ثم ابتدأ: كبيرهم هذا يخبركم فسلوه... إلخ، والأكثر: أنه لا وقف، والفاعل: كبيرهم . وهذا: بدل، أو وصف، ونسب الفعل إلى كبيرهم، وقصده تقريره لنفسه وإسناده لها، على أسلوب تعريضى؛ تبيكيتاً لهم، والزاماً للحجة عليهم، لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح علموا عجز كبيرهم، وأنه لا يصلح للألوهية، وهذا كما لو كتبت كتاباً بخط أنيق، وأنت شهير بحسن الخط، ومعك صاحب أُمى، فقال لك قائل: أنت كتبت هذا؟ فنقول: بل كتبه هذا، وهو يعلم أنه أُمى لا يحسن الكتابة، فهو تقرير لإثبات الكتابة لك على أبلغ وجه.

قال الكواشى: ومن الجائز أن يكون أذن الله تعالى له فى ذلك كما أذن ليوسف حين نادى على إخوته: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ (١)، ولم يكونوا سارقين؛ لما فى ذلك من المصلحة؛ لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح، وسألوا، علموا أن كبيرهم لم يفعل شيئاً، وأنه عاجز عن النطق، فضلاً عن الفعل، فلا يجوز أن يُعبد، ولا يستحق العبادة إلا القادر الفعال . هـ .

وقيل: أسند الفعل إلى كبيرهم؛ لأنه الحامل له على كسرها، حيث رآه يُعظم أكثر منها، ويُعبد من دون الله، فاشتد غضبه حتى كسرها، وهو بعيد؛ إذ لو كان كذلك لكسره أولاً، فتحصل أنه ﷺ إنما قصد التعريض بعبادتهم، لا الإخبار المحض، حتى يكون كذباً. فإن قلت: قد ورد فى الحديث أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات (٢) ؟ فالجواب: أن معنى ذلك: أنه قال قولاً ظاهره الكذب، وإن كان القصد به معنى آخر. قاله ابن جزى.

ثم قال لهم: ﴿فاسألوهم﴾ عن حالهم، ﴿إن كانوا ينطقون﴾ فتجيبكم بمن كسره، وأنتم تعلمون عجزهم عنه، ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أى: رجعوا إلى عقولهم، وتفكروا بقلوبهم، وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإخبار بمن كسره، فكيف يستحق أن يكون معبوداً؟ ﴿فقالوا﴾ أى: قال بعضهم لبعض: ﴿إنكم أنتم الظالمون﴾ على الحقيقة، حيث عبدتم من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع؛ لأن من لا يدفع عن رأسه الفأس، فكيف يدفع عن عابده البأس! فأنتم الظالمون بعبادتها؛ لا من ظلمتموه بقولكم: (إنه لمن الظالمين) . أو: أنتم الظالمون لا من كسرها، ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾، وردوا إلى أسفل سافلين، أجرى الحق على لسانهم فى القول الأول، ثم أدركتهم الشقاوة، أى: انقلبوا إلى المجادلة، بعدما استقاموا بالمراجعة، شبه عودهم

(١) من الآية ٧٠ من سورة يوسف.

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: «واتخذ الله إبراهيم خليلاً»). ومسلم فى «الفضائل، باب من فضائل إبراهيم، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه، قائلين: ﴿لقد علمت﴾ يا إبراهيم ﴿ما هؤلاء ينطقون﴾ ، فكيف تأمرنا بسؤالها ٩.

﴿قال﴾ ؛ مبكتاً لهم وتوبيخاً: ﴿أفتعبدون من دون الله﴾ أى: متجاوزين عبادته تعالى إلى ﴿ما لا ينفعكم شيئاً﴾ من النفع، ﴿ولا يضرُّكم﴾ إن لم تعبدوه، فإن العلم بالحالة المعنوية للألوهية مما يوجب اجتناب عبادته، ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ ، أف: اسم صوت تدل على التضجر، تضجر عيسى من إصرارهم على الباطل، بعد انقطاع عذرهم ووضوح الحق، فأف بهم وبأصنامهم، أى: لكم ولأصنامكم هذا التأفف، ﴿أفلا تعقلون﴾ أن من هذا وصفه لا يستحق أن يكون إلهاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من أراد أن يكون إبراهيمياً حقيقياً فليكسر أصنام نفسه، وهى ما كانت تهواه وتميل إليه من الحظوظ النفسانية والشهوات الجسمانية، حتى تنقلب حقاً ربانية، فحينئذ يريه الحق ملكوت السموات والأرض، ويكون من الموقنين. وأم الشهوات: حب الدنيا، ورأسها: حب الرئاسة والجاه، وأكبر الأصنام: وجودك الحسى، فلا حجاب أعظم منه، ولذلك قيل:

وَجُودُكَ ذَنْبٌ لَا يَقَاسُ بِهِ ذَنْبٌ

فإن غبت عنه، وكسرتة، غابت عنك جميع العوالم الحسية، وشهدت أسرار المعانى القدسية، فشهدت أسرار الذات وأنوار الصفات، وإلى هذا المعنى أشار ابن العريف رحمته الله بقوله :

بَدَا لَكَ سِرٌّ طَالَ عَنْكَ اكْتِنَامُهُ	وَلَا حَ صَبَاحَ كُنْتَ أَنْتَ ظَلَامُهُ
فَأَنْتَ حِجَابُ الْقَلْبِ عَنْ سِرِّ غَيْبِهِ	وَلَوْلَاكَ لَمْ يُطْبَسَعْ عَلَيْهِ خِتَامُهُ
فَإِنْ غَبْتَ عَنْهُ حَسَلُ فِيهِ، وَطَنَبَتْ	عَلَى مُوَكَّبِ الْكَشْفِ الْمَصُونِ خِيَامُهُ
وَجَاءَ حَدِيثٌ لَا يَمَلُّ سَمَاعُهُ	شَهَى إِلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ
إِذَا سَمِعَتْهُ النَّفْسُ طَابَ نَعِيمُهَا	وَزَالَ عَنِ الْقَلْبِ الْمَعْنَى غَرَامُهُ

فالغيبة عن وجود العبد فناء، والرجوع إليه لوظائف العبودية بقاء، وإليه الإشارة بقوله تعالى: (إلا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون) أى: إلا كبير الأصنام، وهو وجودك الوهمى، فلا ينبغي الغيبة عنه بالكلية حتى يترك وظائف العبودية والقيام بحقوق البشرية، فإن هذا اصطلام، بل ينبغي ملاحظته، لعله يقع الرجوع إليه فى مقام البقاء، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة تحريقه وإنجائه، فقال:

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ ﴾ أى: قال بعضهم لبعض، لما عجزوا عن المحاجة، وضافت عليهم الحيل، وعييت بهم العلل، وهذا ديدن المبطل المحجوج، إذا قرعت شبهه بالحجة القاطعة واقتضح، لم يبق له حينئذ إلا المناصبة والمعاداة، فناصروا إبراهيم عليه السلام، وقالوا حرقوه بالنار؛ لأنه أشد العقوبات، وانصروا آلهتكم ﴿ بالانتقام لها ﴾ إن كنتم فاعلين ﴿ للنصر، أى: إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً، فاخترأوا له أهول المعاقبات، وهو الإحراق، وإلا فقد فرطتم فى نصرتها، والذي أشار بالإحراق نمرود، أو رجل من أكراد فارس، اسمه هيزن، وقيل: هدير، خسفت به الأرض، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة (١).

روى أنهم، لما أجمعوا على حرقه عليه السلام، بنوا له حظيرة بكوثى - قرية من قرى الأنباط بالعراق - فجمعوا صلاب الحطب من أصناف الخشب، مدة أربعين يوماً، وقيل: شهراً، حتى إن المرأة تنذر: لئن أصابت حاجتها لتحطب في نار إبراهيم. ثم أوقدوا ناراً عظيمة، لا يكاد يحوم حولها أحد، حتى إن كانت الطير لتمر بها، وهى فى أقصى الجو فتحترق من شدة وهجها، ولم يقدر أحد أن يقربها، فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السلام فيها، فأتى إبليس وعلمهم علم المنجنيق، فعملوه. وقيل: صنعه لهم رجل من الأكراد، فخسف الله تعالى به فى الأرض مثل الآخر، ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام، فوضعوه فيه مغلولاً مقيداً مجرداً، فصاحت السماء والأرض ومن فيها من الملائكة: يا ربنا، إبراهيم، ليس فى الأرض أحد يعبدك غيره، يحرق فيك، فأذن لنا فى نصرته، فقال لهم: إن استغاث بواحد منكم فأغيثوه، فرموا به فيها من مكان شاسع، فقال له جبريل عليه السلام، وهو فى الهواء: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. قال: فسل ربك. فقال: حسبى من سؤالى علمه بحالى (٢)، فرفع همته عن الخلق، واكتفى بالواحد الحق، فجعل الله الخطيرة روضة. وهذا معنى قوله: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى: كوني ذات برد وسلام، أى: ابردى برداً غير ضار.

(١) أخرجه الطبرى (٤٣/١٧) عن شعيب الجبائى.

(٢) انظر تفسير الطبرى (٤٤/١٧) والبغوى (٣٢٧/٥) وابن كثير (١٨٤/٣). والوارد فى ابن كثير: «أما إليك: فلا، وأما إلى الله، فبلى».

قال ابن عباس: لو لم يقل «وسلاماً» لمات إبراهيم من بردها، ولم تبق يومئذ نار إلا طففت، ظلت أن الخطاب توجه لها، فما انتفع أحد من أهل الأرض يومئذ بنار، ولم تبق دابة إلا أتت تطفئ عنه النار، إلا الوزغ^(١). فلذلك أمر نبينا ﷺ بقتلها^(٢)، وسماها فويسقا^(٣). قال السدي: فأخذت الملائكة بضبعي إبراهيم وأقعدوه على الأرض، فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس. قال كعب: ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه^(٤). ويرى أنه ﷺ مكث فيها سبعة أيام، وقيل: أربعين، وقيل: خمسين، والأول أقرب.

قال إبراهيم ﷺ: ما كنت أياماً قط أنعم مني من الأيام التي كنت فيها. قال ابن بسار: بعث الله تعالى ملك الظل فقعد إلى جنبه يؤنسه، قالوا: بعث الله بقميص من حرير الجنة. قلت: وقد تقدم ذكره في سورة يوسف^(٥). وأتاه جبريل فقال: إن ربك يقول: أما علمت أن النار لا تضر أحبائي، فنظر نمرود من صرحه، فأشرف عليه، فرآه جالساً في روضة مونة، ومعه جليس على أحسن ما يكون من الهيئة، والنار محيطة به، فنادى: يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم، قال: فاخرج، فقام يمشي فخرج منها، فاستقبله نمرود وعظمه. وقال: من الرجل الذي رأيته معك؟ قال ذلك ملك الظل، أرسله ربي ليؤنسنى، فقال: إني مقرب إلى إلهك قريباً لما رأيته من قدرته وعزته فيما صنع بك. فقال ﷺ: لا يقبل الله منك مادمت على دينك هذا، حتى تفارقه إلى ديني، قال: لا أستطيع ترك ملكي، ولكن سأذبح له أربعة آلاف بقرة، فذبحها، وكف عن إبراهيم^(٦) ﷺ.

قال شعيب الجبائي: ألقى إبراهيم في النار وهو ابن ست عشرة سنة، وذبح إسحاق^(٧) وهو ابن سبع سنين، وولده سارة وهي بنت تسعين سنة، ولما علمت ما أراد من ذبحه بقيت يومين وماتت في الثالث^(٨).. وهذا كما ترى من أكبر المعجزات، فإن انقلاب النار هواء طيباً، وإن لم يكن بدعاً من قدرة الله، لكنه من أكبر الخوارق، واختلف في كيفية برودتها؛ فقيل: إن الله تعالى أزال ما فيها من الحر والإحراق، وقيل: دفع الله عن جسم إبراهيم حرها وإحراقها مع ترك ذلك فيها، والله على كل شيء قدير.

(١) قال في النهاية: الوزغ: جمع وزغة وهي التي يقال لها: سام أبرص، انظر النهاية (وزغ)، والأثر أخرجه الطبري.
(٢) جاء فيما أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: «واتخذ الله إبراهيم خليلاً»)، ومسلم في (السلام، باب استحباب قتل الوزغ) عن أم شريك.
(٣) أخرجه مسلم في الموضع السابق ذكره، عن السيدة عائشة وابن عامر بن سعد عن أبيه.
(٤) أخرجه الطبري (٤٤/١٧) عن كعب.
(٥) راجع تفسير الآية ٩٦ من سورة يوسف.
(٦) ذكره البغوي في تفسيره (٣٢٩/٥) وصاحب زاد المسير (٣٦٧/٥).
(٧) أخرجه الطبري (٤٥/١٧).
(٨) راجع: التعليق على تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ ، مكرراً عظيماً في الإضرار، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ أي: أخسر من كل خاسر، حيث جاء سعيهم في إطفاء نور الحق برهاناً قاطعاً على أنه ﷺ على الحق، وهم على الباطل، وموجباً لارتفاع درجته واستحقاقهم للهلاك، فأرسل الله على نمرود وقومه البعوض، فأكلت لحومهم وشربت دماءهم، ودخلت بعوضة في دماغ نمرود فأهلكته بعد المحنة الشديدة، وبالله التوفيق.

الإشارة: أجرى الله تعالى عادته في المتوجه الصادق، إذا أراد الوصول إلى حضرته، أن يبتلي به قبل أن يمكنه، ويمتحنه قبل أن يصفاه، لأن محبته تعالى مقرونة بالبلاء، والداخل على الله منكور، والراجع إلى الناس مبرور. فإذا رمى الولي في منجنيق الابتلاء، وألقى في نار الجلال، وتعرضت له الأكوان: ألك حاجة؟ فيقول: إن كان مؤيداً: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى، فإذا قيل له: سله، فيقول: علمه بحالي يغني عن سؤالي. فلا جرم أن الله تعالى يقول لنار الجلال: كوني برداً وسلاماً على وليي، فينقلب حرها برداً وسلاماً، فلا يرى أياماً أحلى من تلك الأيام التي ابتلى فيها. وهذا أمر مجرب مدق، وأما إن التفت إلى التعلق بغير الله تعالى، فإن البلاء يشدد عليه، أو يخرج من دائرة الولاية، والعياذ بالله. فالولي هو الذي يقلب الأعيان بهمته، وبالنور الذي في قلبه، حسية كانت أو معنوية، فيقلب الخوف أمناً، والحزن سروراً، والقبض بسطاً، والفاقة غنى، وهكذا.. فحينئذ تنفعل له الأشياء وتطيعه، وتخرق له العوائد، حتى لو ألقى في النار الحسية تبردت. قال الورتجبي: كان الخليل منوراً بنور الله، وكان فعل النار من فعل الله، فقلب نور الصفة على نور الفعل، ولو بقيت النار حتى وصل إليها الخليل لصارت مضمحلة، فعلم الحق ذلك، فقال لها: (كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) حتى تبقى لظهور معجزته وبيان كرامته . هـ. ومصدق ما ذكره: قول النار يوم للقيامة للمؤمن: جز فقد أطفأ نورك لهبي^(١)، كما ورد. والله أعلم

ثم ذكر هجرة إبراهيم إلى الشام، فقال:

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾

قلت: إلى الأرض،: يتعلق بحال محذوفة، ينساق إليها الكلام، أي: ذاهباً بهما إلى الأرض.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ونجيناه﴾ أي: إبراهيم ﴿ولوطاً﴾ ابن أخيه هاران، ذاهباً بهما من العراق إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين، وهي أرض الشام. وبركاته العامة: أن أكثر الأنبياء بعثوا فيها، فانتشرت في العالمين شرائعهم، التي هي مبادئ الخيرات الدينية والدنيوية، وهي أرض المحشر، فيها يجمع الناس،

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٩٤/٥) وأبو نعيم في الحلية (٣٢٩/٩)، عن يعلى بن مديحه، وقال في مجمع الزوائد (٣٦٠/١٠): رواه الطبراني، وفيه سليم بن منصور بن عمار، وهو ضعيف.

وفيها ينزل عيسى عليه السلام، وقال أبي بن كعب: ما من ماء عذب إلا وأصله من تحت صخرة بيت المقدس، وهي أرض خصب، يعيش فيها الفقير والغنى.

قال ابن اسحاق: خرج إبراهيم من كوثي من أرض العراق، وخرج معه لوط وسارة، فنزل حران، ثم خرج منها إلى مصر، ثم خرج منها إلى الشام، فنزل السبع من أرض فلسطين بزوجه سارة، بنت عمه هاران الأكبر، ونزل لوط عليه السلام بالموتكفة، وبينهما مسيرة يوم وليلة، وكلاهما من الشام.

﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ أي: وهبنا له إسحاق ولدًا من صلبه، وزاد يعقوب، ولد ولد، نافلة؛ لأنه سأل ولدًا بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١) فأعطيه، وأعطى يعقوب نافلة، زائدًا على ما سأل؛ لأنه أعطى من غير سؤال، فكأنه تبرعًا. قال ابن جزي: واختار بعضهم - على هذا - الوقف على «إسحاق» لبيان المعنى، وهذا ضعيف؛ لأنه معطوف على كل قول. هـ. وقيل: (نافلة) يرجع لهما معًا، أي: أعطيناه ولدًا وولد ولد، عطية، فيكون حالًا منهما معًا، قيل: هو مصدر، كالعاقبة من غير لفظ الفعل، الذي هو (وهبنا) وقيل: اسم، ﴿وَكُلًّا﴾ أي: كل واحد من هؤلاء الأربعة، ﴿جعلنا صالحين﴾؛ بأن وفقناهم لمصالح الظاهر والباطن، حتى استحقوا الخصوصية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الهجرة سنة من سنن الأنبياء والأولياء، فكل من لم يجد في بلده من يعينه على دينه، يجب عليه الانتقال إلى بلد يجد فيها ذلك. وكذلك المرید إذا لم يجد قلبه في محل؛ لكثرة عوائده وشواغله، بحيث يشوش عليه قلبه، فلينتقل إلى بلد تقل فيها العلائق والشواغل، إن وجد فيها من يحرك معهم فنه، كان بادية أو حاضرة. والغالب أن الحاضرة تكثر فيها العوائد والحظوظ والشهوات، فلا يدخلها المرید حتى يتقوى ويملك نفسه، يأخذ النصيب من كل شيء، ولا ينقص من نصيبه شيء، وقد تقدم هذا مرارًا. وبالله التوفيق.

ثم مدحهم بالإمامة والاهتداء، فقال:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ
الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَكَ عِبْدِينَ﴾ (٧٣)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وجعلناهم﴾ أي: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ﴿أئمة﴾ يقتدى بهم في أمور الدين؛ إجابة لدعوته بقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ (٢) أي: فاجعل أئمة، ﴿يهدون﴾ الخلق إلى الحق، ﴿بأمرنا﴾

(١) الآية ١٠٠ من سورة الصافات.

(٢) كما جاء في الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

لهم بذلك، وإرسالنا إياهم حتى صاروا مكملين، أو يهدون الخلق بإرادتنا ومشيتنا. ﴿ وَأَوْحِينَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ وهى جميع الأعمال الصالحة، أى: أمرناهم أن يفعلوا جميع الخيرات، ليتم كمالهم بانضمام العمل الصالح إلى العلم، وأصله: أن يفعلوا الخيرات، ثم فعل الخيرات، ﴿ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ﴾، وهو من عطف الخاص على العام؛ دلالة على فضله وشرفه، وأصله: وإقامة الصلاة، فحذفت التاء المعوضة من إحدى الألفين؛ لقيام المضاف إليه مقامها. ﴿ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾: قانتين مطيعين، لا يخطر ببالهم غير عبادتنا ومشاهدتنا. وأنتم يا معشر العرب والعجم من ذريتهم، فاتبعوهم فى ذلك. وبالله التوفيق.

الإشارة: إنما يعظم جاه العبد عند الله بثلاثة أمور: انحياسه بقلبه إلى الله، ومسارعته إلى ما فيه رضا الله، وإرشاد العباد إلى الله، بدعائهم إلى الله بالحال والمقال، فبقدر ما يقع من هداية الخلق على يديه يعلو مقامه عند الله، إن حصلت المعرفة بالله، وبهذا تعرف شرف مرتبة مشيخة الصوفية، الدالين على الله، الداعين إلى حضرة الله، إن تكلموا وقع كلامهم فى قلوب الخلق، فيرجعون إلى الله من ساعتهم، مجالسهم كلها وعظ وتذكير، حالهم ينهض إلى الله، ومقالهم يدل على الله، وفى ساعة واحدة يتوب على يديهم من الخلق ما لا يتوب على يد العالم فى سنين؛ وذلك لإنهاض الحال والمقال، فلا جرم أنهم أعز الخلق إلى الله، وأعظمهم قدراً عند الله.

قال السهروردى فى العوارف: ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذى نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم، إن أحب عباد الله إلى الله الذين يُحِبُّونَ الله إلى عباده، وَيُحِبُّونَ عباد الله إلى الله، ويمشون فى الأرض بالنصيحة». وهذا الذى ذكر رسول الله ﷺ هو رتبة المشيخة والدعوة؛ فإن الشيخ يُحِبُّ الله إلى عباده حقيقة، ويحبب عباد الله إلى الله.

فأما كونه يُحِبُّ عباد الله إلى الله؛ لأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله ﷺ فى أفعاله وأخلاقه. ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (١)، ووجه كونه يُحِبُّ الله إلى عباده؛ لأنه يسلك بالمريد طريق التزكية، وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب، ودخل فيها نور العظمة الإلهية، ولاح فيها جمال التوحيد، وذلك ميراث التزكية، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (٢)، وفلاحها: الظفر بمعرفة الله، فإذا عرفه، قطعاً، أحبه وفنى فيه. فرتبة المشيخة من أعلى الرتب؛ لأنها خلافة النبوة فى الدعوة إلى الله.

(١) من الآية ٣١ من سورة آل عمران. (٢) من الآية ٩ من سورة الشمس.

ثم قال: فعلى المشايخ وقار الله، وبهم يتأدب المرید ظاهراً وباطناً، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (١)، فالمشايخ، لما اهتدوا، أهلوا للاقتداء بهم، وجعلوا أئمة للمتقين، قال رسول الله ﷺ، حاكياً عن الله عز وجل: «إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بى، جعلت همته ولذته فى ذكرى، فإذا جعلت همته ولذته فى ذكرى، أحببى وأحببته، ورفعت الحجاب فيما بينى وبينه، لا يسهو إذا سها الناس، أولئك كلامهم كلام الأنبياء، أولئك الأبطال حقاً، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذاباً، ذكرتهم فصرفت بهم عنهم» (٢). انتهى كلامه ﷺ.

ومن كلام ذى النون المصرى - لما تكلم على الأبدال - قال: فهممهم إليه ثائرة، وأعينهم إليه بالغيب ناظرة، قد أقامهم على باب النظر من رؤيته، وأجلسهم على كراسى أطباء أهل معرفته، ثم قال لهم: إن أتاكم عليل من فقدى فداووه، أو مريض من فراقى فعالجوه، أو خائف منى فانصروه، أو آمن منى فحذروه، أو راغب فى مواصلى فمنوه، أو راحل نحوى فزودوه، أو جبان فى متاجرتى فشجعوه، أو آيس من فضلى فرجوه، أو راج لإحسانى فبشروه، أو حسن الظن بى فباسطوه، أو معظم لقدرى فعظموه، أو مسيء بعد إحسانى فعاتبوه، أو مسترشد فأرشدوه. هـ. وهذه صفة مشايخ القرية على ما شهدناهم، وما شهدنا إلا بما علمنا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نبيه لوطاً ونوحاً - عليهما السلام - فقال :

﴿وَلُوطًا أَيْدِيَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسِيقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا
إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قلت: «ولوطاً»: إما مفعول بمحذوف يفسره قوله: «أتيناه، أى: وآتيناه لوطاً، أو: باذكر. ونوحاً»: مفعول باذكر.
يقول الحق جل جلاله: ﴿ولوطاً آتيناه حكماً﴾ أى: حكمة، أو نبوة، أو فضلاً بين الخصوم بالحق،
﴿وعلماً﴾ بنا وما ينبغى علمه للأنبياء - عليهم السلام - من علم السياسة، ﴿ونجينا من القرية التي كانت
تعمل الخبائث﴾: اللواط، وقذف العارة بالخصى، وغيرها، وصفت بصفة أهلها، وأسندت إليها على حذف

(١) من الآية ٩٠ من سورة الأنعام.

(٢) عزاه فى كنز العمال (١٨٧٢/١) لأبى نعيم فى الحلية، عن الحسن، مرسلًا.

مضاف، أى: من أهل القرية، بدليل قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسَقِينَ﴾ : خارجين عن طاعة الله ورسوله. ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أى: فى أهل رحمتنا، أو جنتنا، ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين صلحت ظواهرهم وبراظنهم، فنجيناه؛ جزاء على صلاحه، كما أهكنا قريته؛ عقاباً على فسادهم.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ﴾ أى: نادى، ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أى: دعا الله تعالى على قومه بالهلاك، أى: اذكر نبأه الواقع وقت دعائه، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ هؤلاء المذكورين، ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه الذى من جملته قوله: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرُ﴾ (١)، ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ المؤمنين به، من ولده وقومه، ﴿مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، وهو الطوفان وتكذيب أهل الطغيان. وأصل الكرب: الغم الشديد، ﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾ نصراً مستتبعا للانتقام، ﴿مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾ أى: منعاه من إزائتهم، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾، تعليل لما قبله، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم؛ لأن الإصرار على تكذيب الحق، والانهماك فى الشر والفساد، مما يوجب الإهلاك العام. والله تعالى أعلم.

الإشارة: نبى الله لوط عليه السلام لما هاجر من أرض الظلمة إلى الأرض المقدسة، أعطاه الله العلم والحكمة. فكل من هاجر من وطن الغفلة إلى محل الذكر واليقظة، وهجر ما نهى الله عنه عوضه الله علماً بلا تعلم، وأجرى على لسانه ينابيع الحكمة. قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: إذا اعتقدت النفس على ترك الآثام، جالت فى الملكوت، وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة، من غير أن يؤدي إليها عالمٌ علماً. ومصادقه الحديث: «من عمل بما يعلم، ورثه الله علم ما لم يعلم».

ولما أجهد نفسه فى تغيير الملكر نجاه الله من أذاهم وما لحق بهم، وكذلك نبيه نوح عليه السلام؛ لما دعا قومه إلى الله، وأجهد نفسه فى نصحتهم، نجاه الله من شرهم، وجعل النسل من ذريته، فكان آدم الأصغر. وهذه عادة الله تعالى فى خواصه، يكثر فروعهم، ويجعل البركة فى تركتهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر داود وسليمان - عليهما السلام - فقال:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانُ وَكَلَّا أَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا

(١) من الآية ١٠ من سورة القمر.

مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالِ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٨﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ
لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَسَلِيمَنَ الرِّيحُ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ
الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨٠﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُّونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ
عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨١﴾

قلت: (وداود): عطف على (نوحا)، أو معمول لاذكر، و(إذ يحكمان): ظرف للمضاف المقدر، أى: اذكر
خبرهما، و(إذ نفشت): ظرف للحكم. (ففهمنها): عطف على (يحكمان)؛ فإنه فى حكم الماضى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر خبر ﴿داود وسليمان إذ يحكمان﴾ أى: وقت حكمهما
﴿فى الحرث﴾ أى: فى الزرع، أو فى الكرم المتدلى عناقيد، والحرث يطلق عليهما، ﴿إذ نفشت﴾: دخلت
﴿فيه غنم القوم﴾ فأفسدته ليلاً، فالنفش: الرعى بالليل، والهمل بالنهار، وهما الرعى بلا راع. ﴿وكنا
لحكمهم﴾ أى: لهما وللمتحاكمين إليهما، أو على أن أقل الجمع اثنان، ﴿شاهدين﴾، كان ذلك بعلمنا ومراى
منا، لم يغب عنا شيء منه، ﴿ففهمنها﴾ أى: الحكومة، أو الفتوى، ﴿سليمان﴾، وفيه دليل على أن الصواب
كان مع سليمان.

وقصتهما على ما قال ابن عباس وغيره: أن رجلين دخلا على داود عليه السلام، أحدهما: صاحب حرث، والآخر
صاحب غنم، فقال صاحب الزرع: إن هذا نفشت غنمه ليلاً، فوقعت فى حرثى، فلم تبق منه شيئاً، فقال له داود:
اذهب فإن الغنم لك، ولعله استوت قيمتهما. أى: قيمة الغنم كانت على قدر النقصان فى الحرث. فخرج الرجلان
على سليمان، وهو بالباب، وكان ابن إحدى عشرة سنة، فأخبراه بما حكم به أبوه، فدخل عليه، فقال: يا نبي الله؛
لو حكمت بغير هذا لكان أرفق بالفريقين، قال: وما هو؟ قال: يأخذ صاحب الغنم الأرض ليصلحها، حتى يعود
زرعها كما كان، ويأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بألبانها وصوفها ونسلها، فإذا كمل الزرع، ردت الغنم إلى
صاحبها، والأرض بزرعها إلى ربها، فقال داود: وفقت يا بنى، وقضى بينهما بذلك.

والذى يظهر: أن حكمهما - عليهما السلام - كان باجتهاد، ففيه دليل على أن الأنبياء يجتهدون فيما لم ينزل
فيه وحى، فإن قول سليمان عليه السلام: (هذا أرفق)، وقوله: (أرى أن تدفع... الخ)، صريح فى أنه ليس بطريق الوحى،
والا لبت القول بذلك، ولعله وجه حكم داود عليه السلام قياس ذلك على جناية العبد، فإن العبد فيما جنى. وإذا قلنا: كان
بوحي، يكون حكم سليمان ناسخاً لحكم داود عليه السلام.

وأما حُكْمُ إفساد المواشى للزرع فى شرعنا: فقال مالك والشافعى: يضمن أرباب المواشى ما أفسدت بالليل دون النهار؛ للحديث الوارد فى ذلك^(١)، على تفصيل فى مذهب مالك فيما أفسدت بالنهار. وقال أبو حنيفة: لا يضمن ما أفسدت بالليل ولا بالنهار؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: - «العَجَمَاءُ جُرْحُهَا جِبَارٌ»^(٢)، ما لم يكن معها سائق أو قائد، فيضمن عنده.

قال تعالى: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أى: كل واحد منهما آتيناه حكماً، أى: نبوة، وعِلْماً: معرفة بمواجب الحكم، لا سليمان وحده. وفيه دليل على أن خطأ المجتهد لا يقدر فى علمه ولا يرفع عنه صفة الاجتهاد.

ثم بين ما اختص به كل واحد منهما من المعجزات، فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا﴾ أى: ذللنا ﴿مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾، حال كونها ﴿يُسَبِّحُنَّ﴾ أى: مسبحات؛ ينزهن الله تعالى بلسان المقال، كما سَبَّحَ الحِصَا فى كف نبينا عليه الصلاة والسلام. ﴿وَسَخَّرْنَا لَهُ الطَّيْرَ﴾؛ كانت تسبح معه. وقَدَّم الجبال على الطير؛ لأن تسخيرها وتسبيحها أغرب وأدخل فى الإعجاز؛ لأنها جماد. قال الكواشى: كان داود إذا سَبَّحَ سَبَّحَ معه الجبال والطير، وكان يفهم تسبيح الحجر والشجر، وكان إذا فتر من التسبيح، يسمعه الله تعالى تسبيح الجبال والطير؛ لينشط فى التسبيح ويشتاق إليه. وروى أنه كان إذا سار سارت الجبال معه مسبحة، قال قتادة: «يسبحن»، أى: يصلين معه إذا صلى، وهذا غير ممتنع فى قدرة الله تعالى. وفى الأثر: «كان داود يمر، وصَفَّاحُ الرُّوحَاءِ تُجاوِبه، والطير تساعده». ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ بالأنبياء أمثال هذا وأكثر، فليس ذلك ببدع منا ولا صعب على قدرتنا.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ﴾ أى: صنعة الدروع. واللُبُوسُ لغة فى اللباس، والمراد: الدرع، ﴿لَكُمْ﴾ أى: نافع لكم، ﴿لِيُحَصِّنَكُمْ﴾^(٣) أى: اللبوس، أو داود. وقرئ بالتأنيث، أى: الصدعة، أو اللبوس بتأويل الدرع. وقرئ بنون العظمة، أى: الله تعالى، وهو بدل اشتغال من «لكم». وقوله: ﴿مَنْ بِأَسْكُمْ﴾ أى: من حرب عدوكم، أو من وقع السلاح فيكم، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ الله على ذلك؟ وهو استفهام بمعنى الأمر؛ للمبالغة والتفريع.

ثم ذكر ما اختص به سليمان عليه السلام فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ أى: وسخرنا له الريح. وإيراد اللام هنا، دون الأولى؛ للدلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت، فإن تسخير ما سخر لسليمان عليه السلام كان بطريق الانقياد الكلى والامتثال لأمره ونهيه، بخلاف تسخير الجبال، لم يكن بهذه المثابة، بل بطريق التبعية والاقتداء. حال كون الريح

(١) عن البراء بن عازب: «كانت له ناقة ضارية، فدخلت حائطاً، فأفسدت فيه، فكلم رسول الله ﷺ، فقضى بأن حفظ الحوائط بالنهار على أهلها، وأن حفظ الماشية بالليل على أهلها، وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل، أخرجه أبو داود فى (البيوع، باب المواشى تفسد زرع القوم) وابن ماجه فى (الأحكام، باب الحكم فيما أفسدت المواشى).

(٢) أخرجه البخارى فى (الزكاة: باب فى الركاز الخمس)، ومسلم فى (الحدود، باب جرح العجماء) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص «لتحصنكم» بالتاء، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالنون، وقرأ الآخرون «ليحصنكم» بالياء. انظر

الإتحاف (٢/٢٦٦).

﴿عاصفة﴾ شديدة الهبوب، من حيث إنها كانت تقطع مسافة بعيدة في مدة يسيرة، وكانت رخاء في نفسها، طيبة، وقيل: كانت رخاء قارة، وعاصفة أخرى، على حسب ما أراد منها. أو رخاء في ذهابه وعاصفة في رجوعه؛ لأن عادة المسافرين: الإسراع في الرجوع، أو عاصفة إذا رفعت البساط ورخاء إذا جرت به.

﴿تجري بأمره﴾؛ بمشيئة سليمان، ﴿إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ بكثرة الأنهار والأشجار والثمار، وهي الشام. وكان منزله بها، وتحمله إلى نواحيها. قال وهب: كان سليمان إذا خرج من منزله عكفت عليه الطير، وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سرير، وكان غزاء؛ لا يقصر عن الغزو، فإذا أراد غزواً أمر فضرب له بخشب، ثم ينصب له على الخشب، ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب، فإذا حمل معه ما يريد أمر العاصف فدخلت تحت الخشب فاحتملته، فإذا استقلت، أمر الرخاء فمرت به شهراً في روحته وشهراً في غدوته، إلى حيث أراد. هـ. ﴿وكنّا بكل شيء عالمين﴾ أي: أحاط علمنا بكل شيء، فنجرى الأشياء على ما سبق به علمنا، واقتضته حكمتنا.

﴿ومن الشياطين﴾، قيل: لما ذكر تسخير الريح - وهي شفاقة لا تعقل - ذكر ما هو شفاف يعقل، وهم الشياطين، مع سرعة الحركة في الكل، أي: وسخرنا له من الشياطين ﴿من يغوصون﴾ في البحار، ويستخرجون ﴿له﴾ من نفائسه، كالدر والياقوت، ﴿ويعملون عملاً دون ذلك﴾ أي: غير ما ذكر؛ من بناء المدن والقصور والمحاريب والتماثيل والقصور الراسيات، وقيل: الحمام، والتورة، والطاحون، والقوارير، والصابون، مما استخرجوه له، ﴿وكنّا لهم حافظين﴾ أن يزيغوا عن أمره، أو يبدلوا، أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه، على ما هو مقتضى جبلتهم. وقال الزجاج: كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا، وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوه بالنهار. وقيل: وكل بهم جمعاً من الملائكة، وجمعاً من مؤمنى الجن. روى أن المسخر له ﷺ: كفارهم، لا مؤمنهم؛ لقوله تعالى: (ومن الشياطين). والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: (ففهمناها سليمان)، قال الورتجبي: بين، سبحانه، أن الفضل متعلق بفضله، لا يتعلق بالصغر والكبر والشيخوخة والاكتمال والتعلم، إنما الفهم تعريف الله أحكام ربوبيته بنور هدايته، وإبراز لطائف علومه الغيبية، فحيث يظهر ذلك فهناك مواضع الفهم من العلوم، فهو سبحانه من على سليمان بعلمه، ولم يمن عليه بشيء خارج عن نفسه؛ من الملك، والحدثان أفضل من العلم؛ فإن العلم صفة من صفاته تعالى، فلمّا جعله متصفاً بصفاته من عليه بجلال كبريائه هـ. وقال في قوله: ﴿وكلّا آتينا حكماً وعلماً﴾: حكماً؛ معرفة بالربوبية، وعلماً بالعبودية هـ.

وقوله تعالى: (وسخرنا مع داود الجبال....) إلخ. (ولسليمان الريح...) الآية، لما كانا - عليهما السلام - مع المَكُونِ كانت الأكوان معهما، أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك، وذكر في القوت: أن سليمان عليه السلام لبس ذات يوم قميصاً رفيعاً جديداً، ثم ركب البساط، وحملته الريح، فبينما هو يسير إذ نظر إلى عطفه نظرة، فأنزلته الريح، فقال: لم أنزلتني ولم أمرك! فقالت: نطبعك إذا أطعت الله، ونعصيك إذا عصيته. فاستغفر وحملته. هـ بالمعنى. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أيوب عليه السلام، فقال :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(٨٣)
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا
وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر خبر ﴿ أيوب ﴾ عليه السلام ﴿ إذ نادى ربه ﴾ : دعاء: ﴿ أني ﴾ أي: بأنني ﴿ مسني الضر ﴾ وهو بالضم: ما يصيب النفس من مرض وهزال، وبالفتح: الضرر في كل شيء، ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾، تطف في السؤال؛ حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب؛ من كمال أدبه، فكانه قال: أنت أهل أن ترحم، وأيوب أهل أن يرحم، فأرحمه، واكشف عنه ضرره الذي مسه. عن أنس: أنه أخبر عن ضعفه حين لم يقدر على النهوض إلى الصلاة، ولم يشتك، وكيف يشكو، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ ﴾^(١).

وقيل: إنما اشتكى إليه؛ تليذاً بالجوى، لا تضراً بالشكوى، والشكاية إليه غاية في القرب، كما أن الشكاية منه غاية في البعد، وسيأتي في الإشارة تكميله، إن شاء الله. روى أن أيوب عليه السلام، كان من الروم، وهو أيوب بن أموص ابن تارح بن رعويل بن عيص بن إسحاق. وكانت أمه من ولد لوط عليه السلام اصطفاه الله للنبوة والرسالة، ووسط عليه الدنيا؛ فكان له ثلاثة آلاف بعير، وسبعة آلاف شاة، وخمسمائة فدان، يتبعها خمسمائة عبد، لكل عبد امرأة وولد، وكان له سبعة بنين، وسبع بنات. قاله الدسقي.

زاد الثعلبي: وكانت له المشيئة من أرض الشام كلها، وكان له فيها من صدف المال ما لم يكن لأحد؛ من الخيل والبقر والغنم والحمر وغيره، وكان براً تقياً رحيماً بالمساكين، يكفل الأراامل والأيتام، ويكرم الضيف، ويبلغ

(١) من الآية ٤٤ من سورة ص.

ابن السبيل، شاكرًا لأنعم الله، لا يصيب منه إبليس ما يصيب من أهل الغنى من الغفلة والغرّة، وكان معه ثلاثة قد آمنوا به: رجل من اليمن واثنان من بلده، كهولًا. قال وهب: فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة عليه في السماء فحسده، فقال: إلهي، عبدك أيوب أنعمت عليه فشكرك، وعافيتك فحمدك، ولم تجربته بشدة ولا بلاء، فلو تجربته بالبلاء ليكفرن بك ويتعمتك، فقال له تعالى: انطلق، فقد سلطتك على ماله، فجمع عفاريتَه وأخبرهم، فقال عفریت من الجن: أُعطيْتُ من القوة ما إذا تحولت إحصاراً من نار أحرقت كل شيء أتى عليه، فقال له إبليس: دونك الإبل ورعاتها، فجاءها حتى وثبت في مراعيها، فأثار من تحت الأرض إحصاراً من نار فأحرقها وأحرق رعاءها. فلما فرغ منها تمثل إبليس براعيها، وجلس على قعودٍ منها، فأثاء، وقال: يا أيوب، إن ربك الذي عبدته قد أحرق إبلك ورعاءها، فقال أيوب: هو ماله، أعارني، يفعل فيه ما يشاء، فرجع إبليس خاسئًا، حين حمد أيوب ربه، فقال عفریت آخر: عندي من القوة ما إذا صبحت لم يسمع صوتي ذو روح إلا خرجت روحه، قال له إبليس: انت الغنم ورعاءها، فأتى، فصاح، فصارت أمواتًا ورعاتها، ثم خرج إبليس متمثلًا بقهرمان^(١) الرعاة، فقال له كمقالته في الإبل، فأجابه أيوب بمثل ما أجابه فيها، فرجع خاسئًا، فقال عفریت آخر: عندي من القوة ما إذا تحولت ريحًا عاصفًا نسفت كل شيء أتيت عليه، قال إبليس: فأت الفدادين والحرث، فجاءها، فهبت ريح عاصفة فنسفت كل شيء، حتى كأنه لم يكن ثم شيء، فخرج إبليس متمثلًا بقهرمان الحرث، فقال له مثل قوله الأول، وردّ عليه مثل رده، حتى أتى على جميع ماله، وأيوب يحمد الله تعالى.

فقال إبليس: إلهي! إن أيوب يقول: إنك ما متعت إلا بنفسه وولده، فهل تسلطني على ولده، فإنها الفتنة؟ قال الله تعالى: قد سلطتك على ولده، فجاء إبليس فقلب عليهم القصر منكمين، وانطلق إلى أيوب متمثلًا بالمعلم الذي يعلمهم الحكمة، وهو جريح، فقال: يا أيوب! لو رأيت بديك كيف عذبوا؟ ونكسوا على رؤوسهم، وسال دماغهم من أنوفهم، فلم يزل من قوله حتى رق أيوب وبكى، وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه، فصعد إبليس مسرورًا، ثم ذهب أيوب، فلما أبصر ذلك استغفر، وصعد قرناؤه من الملائكة، بتوبته فبادروا إلى الله تعالى، وهو أعلم، فوقف إبليس خاسئًا، فقال: إلهي! إنما هون أيوب خطر المال والولد، فهل أنت مسلط على جسده؟ فإني لك زعيم إن سلطني على جسده ليكفرن بك، قال الله تعالى: قد سلطتك على جسده، ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله، فجاءه إبليس فوجده ساجدًا، فجاء من قبل الأرض، فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده، فوهل، وخرج من قرنه إلى قدمه تآليل مثل آليات الغنم، ووقعت به حكة لا يملكها، فحك بأظفاره، ثم بالمسوح الخشن، ثم بالحجارة، حتى نغل لحمه، وتغير، ونش، وتدود، فأخرجه أهل القرية، وجعلوه على كناسة، وجعلوا له عريشًا، ورفضه الخلق كلهم، إلا رحمة، امرأته بنت إفرائيم بن يوسف عليه السلام، فقامت عليه بما يصلحه.

(١) القهرمان: هو المسيطر الحفيظ على من تحت يديه، وهو فارسي معرب.. انظر اللسان (قهرم).

روى أنس أن النبي ﷺ قال : « إن أيوب نبي الله لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد^(١) ». الحديث، وقال كعب: سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وما قاله - عليه الصلاة والسلام - إن ثبت، هو الصحيح. وقال الحسن: مكث أيوب مطروداً على كناسة، فى مزيلة بنى إسرائيل سبع سنين وشهراً، يختلف فيه الدود. ويمكن الجمع بين الأقوال بأن الشدة كانت سبعاً والباقى مقدمات لها.

روى أن امرأته قالت له يوماً: لو دعوت الله عز وجل؟ فقال لها: كم كانت مدة الرخاء؟ قالت: ثمانين سنة. فقال: إنى أستحيى من الله أن أدعوه وما بلغت مدة ثلاثى مدة رخائى. هـ. وروى أن الدود أكل جميع جسده حتى بقى عظماً نخرة، وهو مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله وحمده وشكره، فصرخ إبليس صرخة، وقال: أعيانى هذا العبد الذى سألت ربى أن يسلطنى عليه، فقالت له العفاريت: أرايت آدم حين أخرجته من الجنة، ما أتبعه إلا من قبل امرأته، فتمثل لها بصورة رجل طيب، وفى رواية الحسن: فى هيئة ليست كهية بنى آدم، فى أحسن صورة، فقال لها: أين بعلك يا أمة الله؟ فقالت: هو ذاك، يحك فروجه، ويتردد الدود فى جسده، فقال لها: أنا إله الأرض الذى صنعت بصاحبك ما صنعت؛ لأنه عبد إله السماء وتركنى، فلو سجد لى سجدة واحدة لرددت لكما ما كان لكما.

وقال وهب: قال لها: لو أكل طعاماً ولم يسم عليه لعوفى من البلاء، فأخبرت أيوب، فقال: أذاك عدو الله ليفتنك عن دينك، ثم أقسم، إن عافاه الله، ليضربنها مائة ضربة. ثم حلف لا يأكل لها طعاماً، فبقى مهملاً لا يأتى إليه أحد، وقال عند ذلك: (مسلى الضر) من طمع إبليس فى سجودى له، (وأنت أرحم الراحمين)، فقيل له: (اركض برجلك) فركض، فنبعت عين ماء، فاغتسل منها، فلم يبق من دائه شيء، وسقطت الدود من جسده، وعاد شبابه وجماله. ثم ضرب برجله فنبعت عين أخرى، فشرب منها، فلم يبق فى جوفه داء إلا خرج، وكانت امرأته «رحمة» حين حلف، تركته مدة، ثم ندمت وعادت، فوجدته فى أحسن هيئة، فلم تعرفه، فقالت له: أين الرجل المبتلى الذى كان هنا؟ قال: أنا هو، شفانى الله، ثم عرفته بضحكه، فتعانقا، ثم أمره الله تعالى أن يأخذ جماعة من القضببان فيضربها ضربة واحدة ليبر فى يمينه. هـ^(٢).

(١) أخرجه فى حديث طويل ابن حبان (بترتيب ابن بلبان ٢٨٩٨/٧)، وابن أبى حاتم فى التفسير (٢٤٥٩/٨)، والبزار (كشف الأستار/٢٣٥٧)، وقال الهيثمى (٢٠٨/٨): رواه أبو يعلى، والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح.
(٢) جل ما ذكره الشيخ المفسر من روايات فى قصة أيوب أخرجه الطبرى فى تفسيره (٦٥/١٧) وما بعدها، وذكره البغوى وغيره فى تفاسيرهم. وهذا مما يجب تنزيه الأنبياء عنه. وقد رد العلماء المحققون هذه الأخبار، وقال الدكتور أبو شهبة فى كتابه (الإسرائيليات والموضوعات): «والذى يجب أن نعتقد أن أيوب عليه السلام ابتلى، ولكن بلاءه لم يصل إلى حد هذه الأكاذيب. فأيوب عليه السلام أكرم على الله من أن يلقى على مزيلة، وأن يصاب بمرض ينفر الناس من دعوته ويقرزهم منه.. إلخ كلامه. انظر: كتاب الإسرائيليات والموضوعات. فهو كتاب نفيس».

قلت: تسلط الشيطان على بشرية الأنبياء الظاهرة: جائز وواقع. وأما الأمراض المنفرة، فإن كانت بعد التبليغ وتقرير الشرائع، فجائز عند بعضهم، وهو الصواب، جمعاً بين ما ثبت في الأخبار عن السلف وبين الدلائل العقلية في تنزيه الأنبياء - عليهم السلام -، لأن العلة هي تنفير الخلق عنهم، وبعد التبليغ فلا يضر، وقد ورد أن شعيباً عليه السلام عمى في آخر عمره، وكذلك يعقوب، وكان بعد تبليغ الرسالة، فلم يضر.

ثم قال تعالى في حق أيوب عليه السلام: ﴿فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرٍّ﴾؛ إنعاماً عليه، فلما قام من مرضه جعل يلتفت فلا يرى شيئاً مما كان له من الأهل، والمال، ثم أحيا الله أولاده بأعيانهم، ورزقه مثلهم، ورد عليه ماله، بأن أخلف له مثله، وذلك قوله تعالى: ﴿وآتينا أهله ومثلهم معهم﴾ وقيل: كان ذلك بأن ولد له ضعف ما كان له. وقال عكرمة: آتينا أهله في الآخرة، ومثلهم معهم في الدنيا، والأول هو ظاهر الآية، ردهم الله تعالى بأعيانهم؛ إظهاراً لكمال قدرته تعالى.

ثم قال ﴿رحمة من عندنا﴾: مفعول من أجله، أي: آتينا ما ذكر لرحمتنا أيوب، ﴿وذكرى للعابدين﴾ أي: وتذكرة لغيره من العابدين؛ ليصبروا كما صبر، ويثابوا كما أثيب، أو لرحمتنا العابدين، الذين من جملتهم أيوب، وذكرنا إياهم بالإحسان، وعدم نسياننا لهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما ينزل بالمؤمن من الأوجاع والأسقام والشدائد والنوائب، في النفس، أو في الأهل، كله رحمة، عظيمة، ومنة جسيمة، ويقاس عليه: مفارقة الأحباب والأوطان ومشاق الأسفار والمتاعب البدنية، ويسمى عند الصوفية: التعرفات الجلالية؛ لأن الله تعالى يتعرف إليهم بها؛ ليعرفوه عياناً، ولذلك تجدهم يفرحون بها، وينبسطون عند ورودها؛ لما يتنسّمون فيها، ويجدون بعدها، من مزيد الاقتراب وكشف الحجاب، وطى مسافة البعد بينهم وبين رب الأرباب، فهم يؤثرونها على الأعمال الظاهرة؛ لما يتحققون بها من وجود الأعمال الباطنية؛ كالصبر والزهد والرضا والتسليم، وما ينشأ عنها، عند ترفيق البشرية، من تحفيز الفكرة والظن، وغير ذلك من أعمال القلوب.

وفي الحكم: إذا فتح لك وجهة من التعرف، فلا تبالى معها إن قلّ عملك؛ فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك منها، ألم تعلم أن التعرف هو موردك عليك، والأعمال أنت مهديها إليه، وأين ما تهديه إليه مما هو موردك عليك؟ قال الشيخ ابن عباد رحمه الله: معرفة الله تعالى هي غاية المطالب، ونهاية الأمانى والمآرب، فإذا واجه الله عبده ببعض أسبابها، وفتح له باب التعرف له منها، فذلك من النعم الجزيلة عليه، فينبغى ألا يكثر بما يفوته بسبب ذلك من أعمال البر، وما يترتب عليها من جزيل الأجر، وليعلم أنه سلك به مسلك الخاصة المقربين،

المؤدى إلى حقائق التوحيد واليقين، من غير اكتساب من العبد ولا تعمُّلٍ، والأعمال التى من شأنها أن يتلبس بها هى باكتسابه وتعمله، وقد لا يسلم من دخول الآفات عليها، والمطالبة بوجود الإخلاص فيها، وقد لا يحصل له ما أمَّكَّه من الثواب عند مناقشة الحساب، وأين أحدهما من الآخر؟.

ومثاله: ما يصاب به الإنسان من البلايا والشدائد التى تُنْقِصُ عليه لذات الدنيا، وتمنعه من كثير من أعمال البر، فإنَّ مراد العبد أن يستمر بقاؤه فى الدنيا، طيبَ العيش ناعمَ البال، ويكون حاله فى طلب سعادة الآخرة حال المترفين؛ فلا تسخر نفسه إلا بالأعمال الظاهرة، التى لا كثير مؤنةٍ عليه فيها ولا مشقة، ولا تقطع عنه لذة، ولا يفوته شهوة، ومراد الله منه أن يطهره من أخلاقه اللئيمة، ويحول بينه وبين صفاته الذميمة، ويخرجه من أسر وجوده إلى متسع شهوده، ولا سبيل إلى الوصول إلى هذا المقام على غاية الكمال والتعام، إلا بما يضادُّ مراده، ويشوش عليه معنائه، وتكون حاله حينئذ المعاملة بالباطن، ولا مناسبة بينها وبين الأعمال الظاهرة، فإذا فهم هذا علم أن اختيار الله له، ومراده منه، خير من اختياره لنفسه ومراده لها.

وقد روى أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: «إني إذا أنزلت بعبدى بلائى، فدعاني، فمأطنته بالإجابة، فشكاني، قلت: عبدى كيف أرحمك من شيء به أرحمك؟» وفى حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدى المؤمن فلم يشكنى إلى عواده، أنشطته من عقالى، وبدلته لعماً خيراً من لحمه، ودعاً خيراً من دمه، ويستأنف العمل»^(١).

ثم نقل عن أبى العباس ابن العريف رضي الله عنه قال: كان رجل بالمغرب يدعى أبا الخيار، وقد عمَّ جسده الجذام، ورائحة المسك توجد منه على مسافة بعيدة، لقيه بعض الناس، فقال له: يا سيدى كأن الله تعالى لم يجد للبلاء محلاً من أعدائه حتى أنزله بكم، وأنتم خاصة أوليائه!! فقال لى: اسكت، لا تقل ذلك؛ لأننا لما أشرفنا على خزائن العطاء، لم نجد عند الله أشرف ولا أقرب من البلاء، فسألناه إياه^(٢)، وكيف بك لو رأيت سيد الزهاد، وقطب العباد، وإمام الأولياء والأوتاد، فى غار بأرض طرطوس وجبالها، ولحمه يتناثر، وجلده يسيل قيحاً وصديداً، وقد أحاط به الذباب والذمل، فإذا كان الليل لم يقنع بذكر الله وشكره على ما أعطاه من الرحمة، حتى يشد نفسه بالحديد، ويستقبل القبلة عامةً ليله حتى يطلع الفجر. هـ.

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (للجناز، بال ما ينبغي لكل مسلم أن يستشعره من الصبر..)، والحاكم فى المستدرک (الجنائز ٣٤٩/١) عن أبى هريرة، وصححه الحاكم، وأقره الذهبى.

(٢) أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدواوى. وقال: «اسألوا الله العافية».

وقد تكلم الصوفية في قول أيوب عليه السلام: «مسنى الضر»؛ هل شكى ضرر جسمه، أو ضرر قلبه من جهة دينه؟ قال بعضهم: قيل: إنه أراد الدهوض إلى الصلاة فلم يستطع، فقال: (مسنى الضر)، وقيل: إنه أكل الدود جميع جسده، حتى بقى عظاماً، فلما قصد الدود قلبه ولسانه غار على قلبه؛ لأنه موضع المعرفة والتوحيد، واللبوة والولاية، وأسرار الله تعالى، وخاف انقطاع الذكر، فقال: (مسنى الضر)، وقيل: خاف تبدد همه وتفرق قلبه، وليس في العقوبة شيء أشد من تبدد الهم، فتارة يقول: لعلى ببلاتى معاقب، وتارة يقول: بضرى مستدرج، فلما خاف تشتت خاطره عليه، قال: (مسنى الضر). هـ.

قلت: هذا المقام لا يليق بالأنبياء، وإنما يجوز على غيرهم؛ إذ الأولياء يترقون عن هذا المقام فكيف بالأنبياء! وقال بعضهم: قال: مسنى الضر من شماتة الأعداء، واقتصر عليه ابن جزى، وفيه شيء؛ إذ كثير من الأولياء سقط الناس من عينهم، فلا يبالون بخيرهم ولا شرهم، ولا مدحهم ولا ذمهم، فكيف بالأنبياء - عليهم السلام - ١٢

وقال القشيري: كان ذلك منه إظهاراً للعجز، لا اعتراضاً، فلا ينافي الصبر، مع ما فيه من التنفيس عن الضعفاء من الأمة، ليكون أسوة. ويقال: إن جبريل أمره بذلك، وقال له: إن الله يغضب إن لم يسأل، وسيان عنده البلاء والعافية، فسأله العافية. ويقال: إن أيوب كان مكاشفاً بالحقيقة، مأخوذاً عنه، وكان لا يحس بالبلاء، فستر عليه، فردّه إليه، فقال: مسنى الضر، وقيل: أدخل على أيوب تلك الحالة، فاستخرج منه تلك المقالة؛ ليظهر عليه سمة العبودية (١). هـ.

وقال الورتجبي: سئل الجنيد عن قوله: (مسنى الضر)، فقال عرفه فافقه السؤال، ليمنّ عليه بكرم النوال، وفي الحديث المروى عن النبي ﷺ: أنه جاء إليه رجل فسأله عن قول أيوب «مسنى الضر»، فبكى - عليه الصلاة والسلام - وقال: والذي بعثني بالحق نبياً ما شكى فقراً نزل من ربه، ولكن كان في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات، فلما كان في بعض الساعات وثب ليصلي، فلم يستطع الدهوض، فقال: (مسنى الضر) الخ. ثم قال عليه الصلاة والسلام -: أكل الدود عامة جسد حتى بقى عظاماً نخرة (٢)، فكادت الشمس تطلع من قبله وتخرج من دبره، وما بقى إلا قلبه ولسانه، وكان قلبه لا يخلو من ذكر الله، ولسانه لا يخلو من ثنائه على ربه، فلما أحب الله له الفرج، بعث إليه الدودتين؛ إحداهما إلى لسانه والأخرى إلى قلبه، فقال: يا رب ما بقى إلا هاتان الجارحتان، أذكرك بهما، فأقبلت هاتان الدودتان إليهما ليشتغلاني عنك ويطلعاني على سرى، مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين. هـ.

وفي قوله تعالى: (رحمة من عندنا وذكرى للعابدين): تسلية لمن أصيب بشيء من هذه التعريفات الجلالية، وقد تقدم في أول الإشارة الكلام على هذا. والله تعالى أعلم.

(١) باختصار. (٢) لم أقف عليه.

ثم ذكر ما بقي من مشاهير الأنبياء، فقال :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ انكر ﴿إسماعيل﴾ بن إبراهيم، وكان أكبر من إسحاق، ﴿وإدريس﴾ واسمه: أخدوخ بن شيث بن آدم. قاله النسفي ﴿وذا الكفل﴾ وهو إلياس، أو زكريا، أو يوشع بن نون، قلت: كونه زكريا بعيد؛ لأنه سيذكره بخصوصه بعد. وسمى ذا الكفل؛ لأنه ذو حظ من الله، والكفل: الحظ. أو تكفل بضعف عمل أنبياء زمانه، أو بصيام النهار وقيام الليل. وقال أبو موسى الأشعري: إن ذا الكفل لم يكن نبياً، ولكنه كان عبداً صالحاً، تكفل بعمل رجل صالح عند موته، وكان يصلي لله تعالى، في كل يوم، مائة صلاة، فأحسن الله عليه الثناء. هـ. وقال عمر بن عبد الله بن الحارث: إن نبياً من الأنبياء قال: من تكفل لي أن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب؟ فقال شاب: أنا، فمات ذلك النبي، فجلس ذلك الشاب يقضى بين الناس، فجاءه الشيطان في صورة إنسان؛ ليغضبه وهو صائم، فضرب الباب ضرباً شديداً، فقال: من هذا؟ فقال: رجل له حاجة، فأرسل له رجلاً، فلم يرض، ثم أرسل معه آخر، فلم يرض، فخرج إليه فأخذ بيده فانطلق معه إلى السوق، ثم خلاه وذهب، فسمى ذا الكفل. هـ.

﴿كل من الصابرين﴾ أي: كل واحد من هؤلاء موصوف بالصبر التام على مشاق التكليف وشدائد اللوب، ﴿وأدخلناهم في رحمتنا﴾؛ في النبوة، أو في الآخرة، ﴿إنهم من الصالحين﴾ أي: الكاملين في الصلاح الذي لا تحوم حوله شائبة الفساد، وهم الأنبياء، فإن صلاحهم معصوم من كدر الفساد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد مدح الله هؤلاء السادات بخصلتين، من تحقق بهما: التحقق بهم، وانخرط في سلوكهم: الصبر على مشاق الطاعة، وعلى ترك المعصية، وفي حال البلية. والصلاح، وهو: إصلاح الظاهر بالشرعية، وإصلاح الباطن بنور الحقيقة. فمن تحقق بهاتين الخصلتين كان من المقربين مع النبيين والصديقين. وبالله التوفيق.

ثم ذكر يونس عليه السلام، فقال:

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَكَادِي فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذْ ذَكَرْنَاكَ إِذْ ذَا النُّونِ﴾ أي: صاحب الحوت، وهو يونس عليه السلام، ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ أي: مراغماً لقومه، فاراً عنهم، وغضب من طول دعوته إياهم، وشدة شكيمتهم، وتماذى إصرارهم، فخرج مهاجراً عنهم، قبل أن يؤمر، وقيل: وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم؛ لأجل توبتهم، ولم يشعر بها، فظن أنه كذبهم، فغضب من ذلك، فهو من باب المغالبة للمبالغة؛ أو لأنه غضب لما رأى منهم من الإصرار، وغضبوا لمغافرتهم إياهم، وكان من حقه عليه السلام أن يصبر وينتظر الإذن الخاص من الله تعالى، فلما استعجل ابتلى ببطن الحوت، وقال ابن عباس: قال جبريل ليونس عليه السلام: انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم، قال: ألتمس دابة، قال: الأمر أعجل من ذلك، فانطلق إلى السفينة فركبها، فاحتبست السفينة فساهموا فسهم، فجاءه الحوت يبصب بذيذه، فنودي الحوت: إنا لم نجعل يونس لك رزقاً، إنما جعلناه لك حرزاً، فالتقمه، ومر به على الأبله، ثم على دجلة، ثم مر به حتى ألقاه بلينوى . هـ.

وقال وهب بن منبه رحمه الله: إن يونس كان عبداً صالحاً ضيق الخلق، (٢) فلما حمل أثقال النبوة تفسخ منها تفسخ الربع (١) تحت الحمل الثقيل، فقذفها وخرج هارباً عنها، ولذلك أخرجه الله من أولى العزم، قال لنبيه عليه السلام: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (٣) وقال: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ (٤) أي: لا تلق أمرى كما ألقاه . هـ. وأما قول الحسن: مغاضباً لربه، فلا يليق بمقام الأنبياء - عليهم السلام - إلا أن يحمل على أن خروجه بلا إذن كأنه مغاضب . والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿فَظَنُّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: لن نصيق عليه، أو لن نقدر عليه بالعقوبة، فهو من القدر، ويؤيده قراءة من شدد، وعن ابن عباس رحمه الله قال: دخلت يوماً على معاوية، فقال: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة، ففرقت فيها، فلا أرى لنفسى خلاصاً إلا بك، قال: وما هي؟ فقرأ الآية... فقال: أو يظن نبي الله ألا يقدر عليه؟ قال: هذا من القدر لا من القدرة . هـ.

وقيل: إنه على حذف الاستفهام. أي: أظن أن لن نقدر عليه، وقيل: هو تمثيل لحاله بحال من ظن أن لن يقدر عليه، أي: تعامل معاملة من ظن أن لن نقدر عليه؛ حيث استعجل الفرار. قلت: لإعلاء مقامه كثرت مطالبته بالأدب، فحين خرج من غير إذن خاص؛ عدّ خروجه كأنه ظن ألا تنفذ فيه القدرة، وتمسك عليه السلام بالإذن العام، وهو الهجرة من دار الكفر، وهو لا يكفى في حق أمثاله، فعوقب بالسجن في بطن الحوت.

(١) الربع: ولد الناقة أول ما يحمل عليه. (٢) هذا لا يصح أن يوصف به سيدنا يونس، الذي قال فيه سيدنا محمد: «لا يلينى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى».

(٣) من الآية ٣٥ من سورة الأحقاف.

(٤) من الآية ٤٨ من سورة القلم. وانظر تفسير الطبري (١٧/٧٧)، والبغوي (٥/٣٥٠).

﴿فنادى في الظلمات﴾ أى: فى الظلمة الشديدة المتكاثفة كقوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ...﴾ (١)، أو فى ظلمة بطن الحوت والبحر والليل: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ أى: بأنه لا إله إلا أنت، أو تفسيرية، أى: قال لا إله إلا أنت، ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أى: أنزهك تنزيهاً لا يتقاً بك من أن يعجزك شيء، أو: تنزيهاً لك عما ظلمتُ فيك، ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسى؛ بخروجى عن قومى قبل أن تأذن لى، أو من الظالمين لأنفسهم بتعريضها للهلكة، وعن الحسن: ما نجاه، والله، إلا إقراره على نفسه بالظلم.

﴿فاستجبنا له﴾ أى: أجبنا دعاءه الذى دعا فى ضمن الاعتراف بالذنب على الطف وجه وأحسنه. عن رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَكْرُوبٍ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ» (٢). ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾: الذلة والوحشة والوحدة، وذلك بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات، وقيل: بعد ثلاثة أيام، ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: مثل ذلك الإنجاء الكامل تُنْجِى المؤمنين من غمومهم، إذا دعوا الله، مخلصين فى دعائهم. وعنه ﷺ أنه قال: «اسم الله الذى إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أُعْطِيَ: دعوة يونس بن متى، قيل: يا رسول الله، اليونس خاصة؟ قال: بل هى عامة لكل مؤمن، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. وهنا قراءات فى ﴿نُنْجِي﴾، مذكورة فى كتب القراءات، تركتها لطول الكلام فيها.

الإشارة: من تحققت له سابقة العناية لا تبعده الجناية، ولا تُخرجه عن دائرة الولاية، بل يؤدب فى الدنيا بالابتلاء فى بدنه أو ماله، على قدر الجناية وعلو المقام، ثم يرد إلى مقامه. وها هنا حكايات للصوفية - رضى الله عنهم - من هذا النوع، مِنْهَا: حكاية خير النساج رضي الله عنه، قيل له: أكان النسج صنعتك؟ قال: لا، ولكن كنت عاهدت الله واعتقدت ألا آكل الرطب، فغلبت نفسى واشتريت رطلاً منه، فجلست لأأكله، فإذا رجل وقف على، وخفقتى، وقال: يا عبد سوء، أتهرب من مولاك - وكان له عبد اسمه: خير، أبق منه، ألقى الله شبهه على - فحملتني إلى حانوته، وقال: اعمل عملك، أمرنى بعمل الكرياس - وهو القطن - فدليت رجلى لأنسجه، فكأنى كنت أعمله سنين، فبقيت معه أشهراً، فقامت ليلة إلى صلاة الغداة، وقلت: إلهى لا أعود، فأصبحت، فإذا الشبه قد زال عني، وعدت إلى صورتى التى كنت عليها، فأطلقت، فثبت على هذا الاسم، فكان سببه اتباع شهوتى.

ومنها قضية أبى الخير العسقلانى رضي الله عنه قال: اشتبهت السمك سنين، ثم ظهر له من وجهه حلال، فلما مد يده ليأكل، أخذت شوكة من عظامه إصبعه، فذهبت فى ذلك، فقال: إلهى هذا لمن مد يده لشهوة من حلال، فكيف

(٤) من الآية ١٧ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الترمذى فى (الدعوة باب ٨٢)، وأبو يعلى (٦٥/٢)، والحاكم فى المستدرک (٥٠٥/١)، وصححه روافقه الذهبى، من حديث سعد بن أبى وقاص. وأخرجه أحمد فى قصة (١٢٠/١).

بمن مد يده لشهوة من حرام. ومنها: قضية إبراهيم الخواص عليه السلام قال: كنت جائعاً في الطريق، فوافيت الرى - اسم بلدة - فخطر ببالي أن لى بها معارف، فإذا دخلتها أضافوني وأطعموني، فلما دخلت البلد رأيت فيها منكراً احتجت أن آمر فيه بالمعروف، فأخذوني وضربوني، فقلت في نفسي: من أين أصابنى هذا، على جوعى؟ فتوديت فى سرى: إنك سكنت إلى معارفك بقلبك، ولم تسكن إلى خالقك.

وأمثال هذا كثير بأهل الخصوصية، يؤدبون على أقل شيء من سوء الأدب؛ لشدة قريهم، ثم يردون إلى مقامهم. ومن هذا النوع قصة سيدنا يونس عليه السلام؛ حيث خرج من غير إذن خاص، فأدبه، ثم رده إلى النبوة والرسالة، وقد كنت سمعت من بعض الأشياخ أن أيوب عليه السلام إنما أصيب فى ماله، لأنه كان بجوار ماله كافر، فكان يداريه؛ لأجل ماله، فأصيب فيه وفى بدنه؛ تأديباً وتكميلاً له. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر زكريا عليه السلام فقال:

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ انكر خبر ﴿ زكريا إذ نادى ربه ﴾ فى طلب الولد، وقال: ﴿ رب لا تذرني فرداً ﴾؛ وحيداً بلا ولد يرثى، ثم رد أمره إليه؛ مستسماً، فقال: ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾، فحسبى أنت، وإن لم ترزقنى وارثاً فلا أبالى؛ فإنك خير وارث، ﴿ فاستجبنا له ﴾ دعاءه، ﴿ ووهبنا له يحيى ﴾ ولداً ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ أى: أصلحناها للولادة بعد عقمها، أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خلقها. وكانت قبل سيرة الخلق، ﴿ إنهم ﴾ أى: ما تقدم من الأنبياء، ﴿ كانوا يسارعون فى الخيرات ﴾ أى: إنما استحقوا الإجابة إلى مطالبهم، وأسعفناهم فيما أملوا؛ لمبادرتهم أبواب الخير، ومسارعتهم إلى تحصيلها، مع ثباتهم واستقرارهم فى أصل الخير كله، وهو السر فى إتيان: ﴿ فى ﴾، دون: ﴿ إلى ﴾، المشعرة بخلاف المقصود؛ من كونهم خارجين عن أصل الخيرات، متوجهين إليها، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (١).

﴿ و ﴾ كانوا ﴿ يدعوننا رغباً ورهَباً ﴾؛ طمعاً وخوفاً، وهما مصدران فى موضع الحال، أو المفعول له، أى: راغبين فى الثواب أو الإجابة، وراهبين من العقاب أو الخيبة، أو للرغبة والرهبة، ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾:

(١) من الآية ١٢٣ من سورة آل عمران.

متواضعين خائفين، أى: إنما نالوا هذه المراتب العلية، واستحقوا هذه الخصوصية؛ لاتصافهم بهذه الأوصاف الحميدة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الغالب فى وراثته الخصوصية الحقيقية أن تكون لغير ورثة النسب، وأما الخصوصية المجازية، التى هى مقام الصلاح أو العلم، فقد تكون لورثة النسب، وتكون لغيرهم. والخصوصية الحقيقية هى مقام الفناء والبقاء، والتأهل للتربية النبوية، ولا بأس بطلب وارث هذه الخصوصية، لئلا ينقطع النفع بها. وقد قيل، فى قول الشيخ ابن مشيش رحمته الله: اسمع نداءى بما سمعت به نداء عبدك زكريا، إنه أشار إلى طلب الوارث الروحانى. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: «إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات»، فيه إشارة إلى بيان سبب حصول الخصوصية؛ لأن بابها هو المسارعة إلى عمل الخيرات وأنواع الطاعات، وأوكدها ثلاثة: دوام ذكر الله، وحسن الظن بالله، وعباد الله. وفى الحديث: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير: حسن الظن بالله، وحسن الظن بعباد الله». وقوله: «وידعوننا رغبا ورهبا»، هذه حالة الطالبين المسترشدين المتعطشين إلى الله، يدعونه رغبا فى الوصول، ورهبا من الانقطاع والرجوع، وقد تكون للواصلين؛ رغبا فى زيادة الترقى، ورهبا من الوقوف أو الإبعاد. وقال بعضهم: الرغبة والرهبة حاصلتان لكل مؤمن، إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطا، وهو كفر، ولو لم تكن رهبة لكان أمنا، والأمن كفر. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر مريم وابنها - عليهما السلام - فقال:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا
وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿التي أحصنت فرجها﴾ على الإطلاق من الحلال والحرام، والتعبير عنها بالموصول؛ لتفخيم شأنها، وتنزيها عما زعموه فى حقها. ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ أى: أجرينا روح عيسى فيه وهو فى بطنها، أو نفخنا فى درع جيبها من ناحية روحنا، وهو جبريل عليه السلام، فأحدثنا بذلك النفخ عيسى عليه السلام، وإضافة الروح إليه تعالى؛ لتشريف عيسى عليه السلام، ﴿وجعلناها وابنها﴾ أى: قضيتهما، أو حالهما، ﴿آية للعالمين﴾، فإن من تأمل حالهما تحقق بكمال قدرته تعالى. وإنما لم يقل آيتين، كما قال: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ (١)، لأن مجموعهما آية واحدة، وهى ولادتها إياه من غير فعل. وقيل: التقدير: وجعلناها آية وابنها كذلك، فأية مفعول المعطوف عليه، فحذف أحدهما لدلالة الآخر عليه. والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ١٢ من سورة الإسراء.

الإشارة: مَنْ حَصَلَ التَّقْوَى فِي صَغَرِهِ، كَانَ آيَةً فِي كِبَرِهِ. تقول العامة: الثور الحراث في الربك بيان، وتقول الصوفية: البداية مجللة النهاية. وقالت الحكماء: الصغر يخدم على الكبر. وبالله التوفيق.

ثم ذكر اتفاقهم في التوحيد، فقال:

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۖ ﴾
 وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلَهٍ إِلَّا رَجَعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ
 وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ ﴿٩٤﴾

قلت: «أمة»: حال من «أمتكم»، أي: متحدة أو متفقة، والعامل فيه ومعنى الإشارة، والإشارة إلى طريق الأنبياء المذكورين قبل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ الطريق والسيرة التي سلكها الأنبياء المذكورون، واتفقوا عليها، وهو التوحيد، هي ﴿ أُمَّتُكُمْ ﴾ أي: ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها، ولا تخرجوا عنها، حال كونها ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾، غير مختلفة فيما بين الأنبياء - عليهم السلام - وإن اختلفت شرائعهم. وفي الحديث: «الأنبياء أبناء علات»، أمهاتهم شتى، وأبوهم واحد» والعات: الصنائر، أي: شرائعهم مختلفة، وأبوهم واحد، وهو التوحيد. قال القشيري: ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ أي: ربيكم؛ اختياراً، فاعبدوني؛ شكراً وافتخاراً. هـ. والخطاب للناس كافة.

﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ ﴾، أصل الكلام: وتقطعتم في أمر دينكم وتفرقتم. إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة، على طريقة الالتفات؛ لينعى عليهم ما أفسدوه في الدين. والمعنى: فجعلوا أمر دينهم فيما ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ قطعاً، وصاروا أحزاباً متفرقة، كأنه ينهى إلى أهل التوحيد قبائح أفعالهم، ويقول: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله، الذي أجمعت عليه كافة الأديان؟ ثم توعدهم بقوله: ﴿ كُلُّ إِلَهٍ إِلَّا رَجَعُونَ ﴾ أي: كل واحد، من الفرق المتقطعة، راجع إلينا بالبعث، فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم.

ثم فصل الجزء فقال: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ ﴾ شيئاً ﴿ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ بالله ورسله وبما يجب الإيمان به. قال القشيري: (وهو مؤمن، أي: في المال بأن يخدم له به)، وكأنه يشير إلى الخاتمة؛ لأن من لم يخدم له بالإيمان لا ثواب لأعماله، والعباد بالله، ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ أي: لا حرمان لثواب عمله، بل سعيه مشكور مقبول، فالكفران مثل في حرمان الثواب، كما أن الشكر مثل في إعطائه، وعبر عن ذلك بالكفران، الذي هو ستر النعمة

وجحدها؛ لبيان كمال تلذذه تعالى عنه. وعبر عن العمل بالسعي؛ لإظهار الاعتداد به، ﴿وإنَّا له﴾ أى: لسعيه ﴿كاتبون﴾؛ مثبتون فى صحائف أعمالهم، نأمر الحفظة بذلك، لا نغادر من ذلك شيئاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الصوفية - رضى الله عنهم -، فى حال سيرهم إلى الحضرة وسلوكهم فى طريق التربية، مختلفون بحسب الأزمنة والأمكنة والأشخاص. وفى حال نهايتهم - وهو الوصول إلى حضرة الشهود والعيان، وإشراق شمس العرفان، الذى هو مقام الإحسان، ويعبرون عنه بالفناء والبقاء، وهو التوحيد الخاص - منفقون، وفى ذلك يقول القائل:

عبارتنا شتى، وحسبك واحد وكلُّ إلى ذاك الجمال يُشير

لأن ما كان ذوقاً ووجداناً لا يختلف، بل يجده كل من له ذوق سليم. نعم تتفاوت أذواقهم على حسب مشاربهم، ومشاربهم على حسب إعطائهم نفوسهم وبيعها لله، وتتفاوت أيضاً بحسب التخلية والتفرغ، وبحسب الجد والاجتهاد، وكلهم على بصيرة من الله وبينه من ربهم. نفعنا الله بذكرهم، وخرطنا فى سلكهم، آمين.

ثم تم قوله: ﴿كلُّ إلينا راجعون﴾، فقال:

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ٩٥ ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ٩٦ ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُواِ يَتَوَيْلَنَآ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ٩٧ ﴿

قلت: «حرام»: مبتدأ، وفيه لفتان: حرام وحرم، كحلال وحل. وأنهم... إلخ: خبر، أو فاعل سد مسده، على مذهب الكوفيين والأخفش. والجملة: تقرير لقوله: ﴿كلُّ إلينا راجعون﴾، ولا، نافية، أى: ممتنع على قرية أهلكتها عدم رجوعهم إلينا بالبعث، بل كل إلينا راجعون. وقيل: «لا، زائدة، والتقدير: ممتنع رجوع قرية أردنا إهلاكها عن غيهم، فإنهم»: على هذا: فاعل بحرام. قاله القصار. وحتى: ابتدائية، غاية لما يدل عليه ما قبلها، أى: يستمرون على ما هم عليه من الهلاك، حتى إذا قامت القيامة يرجعون إلينا، ويقولون: يا ويلنا. وقال أبو البقاء: «حتى»: متعلقة فى المعنى بحرام، أى: يستقر الامتناع، أى: هذا الوقت. وهـ فإذا هي: جواب إذا، وفى الأزهرى: وقد يجمع بين الفاء وإذا الفجائية، تأكيداً، خلافاً لمن منع ذلك. قال تعالى: ﴿فإذا هي شاخصة﴾، فإنه لو قيل: إذا هي، أو فهي شاخصة لصح. هـ. وقيل: «يا ويلنا»: على حذف القول، أى: إذا فتحت قالوا: يا ويلهم. وهـ اقترب: عطف على «فتحت».

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَحَرَامٌ﴾ أى: ممتنع ﴿على﴾ أهل ﴿قرية﴾ أهلكناها ﴿؛ قدرنا هلاكها، أو حكمنا بإهلاكها؛ لعنهم، ﴿أنهم إلينا لا يرجعون﴾ بالبعث والحشر، بل لا بد من بعثهم وحشرهم وجزائهم على أعمالهم. وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع للكل؛ لقوله: ﴿كُلُّ إلينا راجعون﴾؛ لأنهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم. وقيل: المعنى: وممتنع على قرية، أردنا إهلاكها، رجوعهم إلى التوبة، أو ممتنع على قرية، أهلكناها بالفعل، رجوعهم إلى الدنيا. وفيه رد على مذهب القائلين بالرجعة من الروافض وأهل التناسخ، على أن لا صلة. وقرئ بالكسر^(١)، على أنه تعليل لما قبله، فحرام، على هذا، خبر عن مبتدأ محذوف، أى: ذلك العمل الصالح حرام على قرية أردنا إهلاكها؛ لأنهم لا يرجعون عن غيهم.

وقال الزجاج: المعنى: وحرام على قرية، أردنا إهلاكها، أن يتقبل منهم عمل؛ لأنهم لا يرجعون، أى: لا يتوبون، ويجوز حمل المفتوحة على هذا بحذف اللام، ويستمررون على ما هم عليه من الهلاك، أو: فليستمر امتناعهم من الرجوع.

﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج﴾ ونفخ فى الصور، وقامت القيامة، فيرجعون، ولا ينفعهم الرجوع. ويأجوج ومأجوج قبيلتان، يقال: الناس عشرة أجزاء، تسعة منها يأجوج ومأجوج. والمراد بفتحها: فتح سدها، على حذف مضاف؛ أى: حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج، ﴿وهم﴾ أى: يأجوج ومأجوج، وقيل: الناس بعد البعث، ﴿من كل حدب﴾ أى: نشز ومرتفع من الأرض، ﴿ينسلون﴾: يسرعون، وأصل النسل: مقاربة الخطو مع الإسراع. ويدل على عود الضمير ليأجوج ومأجوج: قوله - عليه الصلاة والسلام -: «ويفتح ردم يأجوج ومأجوج، فيخرجون على الناس، كما قال الله تعالى: ﴿من كل حدب ينسلون...﴾» الحديث^(٢)، ويؤيد إعادته على الناس قراءة مجاهد: «من كل جدث»؛ بالجيم، وهو القبر.

ثم قال تعالى: ﴿واقترب الوعد الحق﴾ أى: ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب، ﴿فإذا هي شاخصة﴾ أى: فإذا القصة أو الشأن، وهو ﴿أبصار الذين كفروا﴾ شاخصة، أى: مرتفعة الأجفان، لا تكاد تطرق من شدة الهول، حال كونهم يقولون: ﴿يا ولينا﴾؛ يهلكتنا، هذا أوانك، فاحضرى، ﴿قد كُنَّا فى غفلة﴾ تامة ﴿من هذا﴾ الذى دهمنا؛ من البعث، والرجوع إليه تعالى، للجزاء، ولم نعلم، حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر، أنه حق، ﴿بل كنا ظالمين﴾ بتلك الآيات والنذر، مكذبين بها، أو ظالمين أنفسنا؛ بتعريضها للعذاب

(١) فى قوله: «إنهم».

(٢) أخرجه، مطولاً، مسلم، فى (الفتن، وأشراف الساعة، باب ذكر الدجال)، من حديث النواس بن سمعان.

المخلد. وهو إضراب عما قبله، من وصف أنفسهم بالغفلة، أى: لم تكن غافلين عنه، حيث نبهنا عليه بالآيات والندى، بل كنا ظالمين بتكذيبهم، والله تعالى أعلم.

تذييل: روى حذيفة أن النبي ﷺ قال: «أول الآية: الدجال، ونزول عيسى، ونار تخرج من قرن عدن، تسوق الناس إلى المحشر - أى الشام - تقيل معهم إذا قالوا، والدخان، والدابة، ثم يأجوج ومأجوج» (١). قلت: وبعد موت يأجوج ومأجوج، تبقى مدة عيسى عليه السلام، فى أمة ورغد عيش. قيل: سبع سنين، وقيل: أربعون. ثم يقبض عيسى، ويدفن فى روضته عليه السلام، ثم تهب ريح تقبض المؤمنين، فلا يبقى من يقول الله الله، قيل: مائة سنة، وقيل: أقل، ثم تخرب الكعبة، ثم ينفخ فى الصور للصق، واقترب الوعد الحق. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الحضرة محرمة على قلب خراب، أهلكه الله بالوساوس والخواطر، وفتحت عليه من الشواغل والشواغب والخواطر يأجوج ومأجوج، فأفسدته وخربته وجعلته مزيلة للشياطين. فحرام عليه رجوعه إلى الحضرة حتى يتطهر من هذه الوسواس والخواطر، ومن الشواغل والعلائق. قال بعض الصوفية: (حضرة القدوس محرمة على أهل النفوس). فإذا اقترب وعد الحق، وهو أجل موته، قال: يا ويلنا إنا كنا عن هذا غافلين، لم نتأهب للقاء رب العالمين، حتى لقيته بقلب سقيم. والعياذ بالله.

ثم ذكر مآل الكفرة إذا وقع الوعد الحق، فقال:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءِ إِلَٰهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّكُمْ﴾، يا كفار قريش ومن دان دينكم، ﴿وما تعبدون من دون الله﴾ من الأصنام والشياطين؛ لأنهم، لطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم، فى حكم عبادتهم، ويدخل فيه الشمس والقمر والنجوم، وكل ما عبد من دون الله ممن لا يعقل، للحديث الوارد فى دخولهم النار، تبكيتاً لمن عبدتهم؛ لأنهم لا

(١) أخرجه مسلم فى (الفتن، باب الآيات التى تكون قبل قيام الساعة). من حديث حذيفة بن أسيد. ولفظه كاملاً: «إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسف بالشرق وخسف بالمغرب، وخسف فى جزيرة العرب، والدخان، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس».

يتضررون بالنار. وأما من يعقل فلا يدخل؛ حيث عبر بما. وقيل: يدخل، ثم استثناء بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ...﴾، فكل من عبد شيئاً من دون الله فهو معه، ﴿حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ أى: حطبتها، وقرئ بالطاء، أى: وقودها ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أى: فيها داخلون.

﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَهِ﴾ كما زعمتم ﴿مَا وَرَدُوهَا﴾؛ ما دخلوا النار، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى: وكل من العابد والمعبود في النار خالدون. ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أى: للكفار في النار أنينٌ وبكاءٌ وعويل، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ شيئاً؛ لأن في سماع بعضهم بعضاً نوع أنس. قال ابن مسعود رضي الله عنه: يجعلون في توابيت من نار، ثم جعلت التوابيت في توابيت أخر لها مسامير من نار، فلا يسمعون شيئاً.

رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَنَادِيدُ قُرَيْشٍ فِي الْحَطِيمِ، وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُونَ صَنَمًا، فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، فَعَرَضَ لَهُ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، فَكَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَقْحَمَهُ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ: ﴿إِنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ...﴾ الآيات الثلاث. ثم أقبلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبْعَرِيِّ فَرَأَاهُمْ يَتَسَاهَمُونَ، فَقَالَ: فِيمَ خَوْضِكُمْ؟ فَأَخْفَى الْوَلِيدُ مَا قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ بَعْضُهُمْ بِمَا قَالَهُ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ ابْنُ الزَّبْعَرِيِّ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَنْتَ قُلْتَ: ﴿إِنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: قَدْ خَصِمْتُكَ، وَرَبَّ الْكَعْبَةِ، أَلَيْسَتْ الْيَهُودُ تَعْبُدُ عُزَيْرًا، وَالنَّصَارَى تَعْبُدُ الْمَسِيحَ، وَيَتَوَلَّيْحُ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ هُمْ يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ الَّتِي أَمَرْتَهُمْ بِهَذَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ...﴾» (١).

قُلْتُ: كل من عبد شيئاً من دون الله فإنما عبد في الحقيقة الشيطان؛ لأنه أمر به وزينه له، ويدل على ذلك أنهم يتبرؤون يوم القيامة، حين تتحقق الحقائق، من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَقُولُ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾، قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ (٢) مع قوله تعالى: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ (٣). والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه بنحوه الواحدى فى الأسباب (٤١٣). والطبرانى فى الكبير (١٥٣/١٢ ح ١٢٧٣٩)، عن ابن عباس وأخرجه، مختصراً،

الطبرى (٩٧/١٧)، والحاكم فى (التفسير ٣٨٥/٢) وصححه، ووافقه الذهبى.

(٢) الآيتان: ١٧ - ١٨ من سورة الفرقان. (٣) من الآية ٢٨ من سورة العنكبوت.

الإشارة: من أحب شيئاً حُشِرَ معه، من أحب أولياء الله حُشِرَ معهم، ومن أحب الصالحين حُشِرَ معهم، ومن أحب الفجار حُشِرَ معهم، ومن أحب الدنيا بُعِثَ معها، ثم بعث إلى النار، وهكذا.. المرء مع من أحب.

ثم استثنى بذكر حال أهل السعادة، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَاقَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أى: الخصلة الحسنى، أو المشيئة الحسنى، وهى السعادة، أو التوفيق للطاعة، أو البُشرى بالثواب، ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا﴾: عن جهنم ﴿مُبْعَدُونَ﴾؛ لأنهم فى الجنة، وشتان ما بينهما. قال القشيري: لم يقل متباعدون؛ ليعلم العابدون أن المدار على التقدير وسبق الحكم من الله، لا على تباعد العبد وتقربه. هـ. وكأنه يشير لقوله: «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي»^(١)، أى: بأعمالهم.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أى: صوتها الذى يحس، وحركة تلهبها، وهذه مبالغة فى الإبعاد، أى: لا يقربوها حتى لا يسمعوا صوتها أو صوت من فيها. قال الكواشى: لا يسمعون صوت النار وحركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم من الجنة. هـ. وقال ابن عطية: وذلك بعد دخولهم الجنة؛ لأن الحديث يقتضى أن فى الموقف تزفر جهنم زفرة لا يبقى نبي ولا ملك إلا خرواً على ركبتيه. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن القاسى: محمل الحديث، إن صح فى حق الأنبياء والأكابر، على شهود الجلال والإجلال لله تعالى، ولذلك يقولون: «نفسى نفسى»، لا من خوف النار. هـ.

قلت: أما كون الناس يصعقون يوم القيامة، فيكون المصطفى أول من يفيق، فثبت فى الصحيح، أما سبب الصعقة فقد ورد فى غير البخارى: «أنه يؤتى بجهنم، ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، ثم تزفر زفرة، فلا يبقى نبي ولا ملك إلا خرواً»^(٢)... الحديث، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ

(١) بعض حديث، أخرجه الإمام أحمد فى المسند (١٨٦/٤) والحاكم فى المستدرک (٣١/١)، وابن حبان (١٨٠٦ موارد)، عن عبد الرحمن بن قتادة السلمى. والحديث، صححه الحاكم، ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه، بدون العبارة الأخيرة، مسلم فى (الجنة وصفه نعيمها، باب فى شدة حر نار جهنم..). من حديث ابن مسعود رضى الله عنه.

بِجَهَنَّمَ ﴿١﴾ والأنبياء - عليهم السلام - بَشَرٌ عبيد، قَدْ نَعَمَهُم القهرية، ولا تَقْدَحُ في منصبهم، وليس صَعَقَهُم خوفاً، لكن غلبة ودهشاً، كما صَعَقَ موسى ﷺ عند الرؤية، ونبينا - عليه الصلاة والسلام - حين تجلّى له جبريل على صورته. والله أعلم. وقال جعفر الصادق: وكيف يسمعون حسيستها، والدار تخدم بمطالعتهم، وتتلأشى برؤيتهم؟ ثم ذكر حديث قول النار للمؤمن: جز.. إلخ

ويدل على أن هذه الحالة إنما هي بعد دخولهم الجنة، قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ﴾ من النعيم ﴿خَالِدُونَ﴾: دائمون، والشهوة: طلب النفس للذة. وهو بيان لفوزهم بالمطالب، إثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب، أي: دائمون في غاية التمتع، ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾، وهو القيام من القبور عند صيحة البعث، بدليل قوله: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾. قال ابن عباس: «تتلقاهم الملائكة بالرحمة، عند خروجهم من القبور»، قائلين: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بالكرامة والثواب، والنعيم المقيم فيه، أي: بعد دخولكم الجنة.

وقال الحسن: الفرع الأكبر: الانصراف إلى النار. وعن الضحاك: حين يُطَبَّقُ على أهل النار. وقيل: حين نفخة الصعق، وقيل: حين يُذْبَحُ الموت. قلت: من سبقت له الحسنى ينجو من جميعها. وقيل: تتلقاهم الملائكة على أبواب الجنة، مهتئين لهم قائلين: (هذا يومكم الذي كنتم توعدون) في الدنيا، ويُبَشِّرُونَ بما فيه من فنون المثوبات على الإيمان والطاعات. وهذا، كما ترى، صريح في أن المراد بالذين سبقت لهم الحسنى: كافة المؤمنين الموصوفين بالإيمان والأعمال الصالحة، لا من ذكر؛ من المسيح، وعُزَيْر، والملائكة، كما قيل. قاله أبو السعود، قلت: وقد يجاب بأنها نزلت في شأنهم وتعم غيرهم؛ لأن سبب النزول لا يخصص. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال الجنيد رَحِمَهُ اللهُ: «إن الذين سبقت لهم منا الحسنى» أي: سبقت لهم منا العناية في البداية، فظهرت لهم الولاية في النهاية. هـ. (أولئك عنها) أي: عن نار القطيعة، وهي أغيار الدنيا، مُبْعَدُونَ، لا يسمعون حسيستها، ولا ما يقع فيها من الهرج والفتن، لغيبتهم عنها بالكلية في الشغل بالله تعالى، فهم فيما اشتتهت أنفسهم؛ من لذة الشهود، والقرب من الملك الودود، خالدون دائمون، لا يحزنهم الفرع الأكبر في الدنيا والآخرة، وتتلقاهم الملائكة بالبُشْرَى بالوصول، هذا يومكم الذي كنتم توعدون، وهو يوم ملاقة الحبيب والعكوف في حضرة القريب، عند مالك مقتدر. منحنا الله من ذلك الحظ الأوفر بمَنه وكرمه.

(١) من الآية ٢٣ من سورة الفجر.

ثم ذكر أوصاف ذلك اليوم، فقال:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾

قلت: «يوم»: ظرف لا ذكر، أو لقوله: «لا يحزنهم الفزع»، أو لتلقاها. والسجل: الصحيفة، والكتاب: مصدر، وكما بدأنا: منصوب بمضمر، يفسره ما بعده، وما: موصولة.

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾؛ وذلك يوم الحشر والناس في الموقف، فتجمع وتكور وتطوى ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾؛ الصحيفة ﴿لِلْكُتُبِ﴾ أي: لأجل الكتابة فيها؛ لأن الكاتب يطوى الصحيفة على اثنين؛ ليكتب فيها. فاللام للتعليل، أو بمعنى «على»، أي: كطى الصحيفة على الكتابة التي فيها، لتصان، وقرأ أبو جعفر: «تطوى»؛ بالبناء للمفعول. وذلك بمحو رسومها وتكرير نجومها وشمسها وقمرها. وأصل الطي: الدرج، الذي هو ضد النشر. وقرأ الأخوان وحفص: (للكتب) بالجمع، أي: للمكتوبات، أي: كطى الصحيفة؛ لأجل المعاني الكثيرة التي تكتب فيها، أو كطيها عليها؛ لتصان. فالكتاب أصله مصدر، كالبناء، ثم يوقع على المكتوب. وقيل: السجل: ملك يطوى كتب ابن آدم، إذا رفعت إليه، فالكتاب، على هذا، اسم للصحيفة المكتوب فيها، والطي مضاف إلى الفاعل، وعلى الأول: إلى المفعول.

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ أي: نعيد ما خلقنا حين نبعثهم، كما بدأناهم أول مرة، فالتنوين في «خلق» مثله في قولك: أول رجل جاءني، تريد أول الرجال. والتقدير: كما بدأنا أول الخلائق، نعيدهم حفاة عراة غرلاً. قال ﷺ: «إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَفَاةَ عَرَاةَ غُرْلًا. وَأَوَّلُ مَنْ يَكْسَى إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ» (١)، أي: لأنه جرد في ذات الله، فقالت عائشة - رضي الله عنها -: «أسوءتاه! فلا يحتشم الناس بعضهم من بعض؟ فقال: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» (٢). ثم قرأ - عليه الصلاة والسلام -: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ».

(١) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: «واتخذ الله إبراهيم خليلاً») ومسلم في (الجنة وصفه نعيمها، باب فناء الدنيا)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هذا ليس من الحديث السابق. بل هو حديث آخر، أخرجه مسلم في الموضع السابق، عن السيدة عائشة، بلفظ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَفَاةَ عَرَاةَ غُرْلًا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ! أَمْرٌ أَشَدَّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ».

كما بدأناه من الماء نعيده كيوم ولدته أمه. قلت: قد استدلل بعضهم، بظاهر الآية والحديث، أن أهل الجنة ليس لهم أسنان، ولا دليل فيه؛ لأن المقصود من الآية: الاستدلال على كمال قدرته تعالى، وعلى البعث الذي تنكره الكفرة، لا بيان الهيئته، وعدم وجودها نقصان، ولا نقص في الجنة.

ثم أكد الإعادة بقوله: ﴿وَعَدْنَا عَلَيْنَا﴾ أي: نعيده وعداً، فهو مصدر مؤكد لغير فعله؛ بل لما في «نعيده» من معنى العدة، أي: وعدنا ذلك وعداً واجباً علينا إنجازاً؛ لأننا لا نخلف الميعاد، ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ لما ذكرنا لا محالة، فاستعدوا له، وقدموا صالح الأعمال للخلاص من هذه الأهوال. وبالله التوفيق.

الإشارة: إذا أشرقت على القلب شمسُ العرفان، انطوت عن مشهده وجودُ الأكوان، وأفضى إلى فضاء العيان، فلا سماء تظله ولا أرض تحمله، وفي ذلك يقول الششتري رحمته الله:

لقد تجلى ما كان مخبىً والكون كل طويت طى

وهذا غاية من سبقت له من الله الحسنى، فأشرقت عليه أنوار التوجه في البداية، وأنوار المواجهة في النهاية، فزاحت عنه الأكوان، وفاضت عليه بحار أسرار العرفان، فصار يتصرف بهمته في الوجود بأسره، كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾
 إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَاكِدِينَ ﴿١٠٦﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ كتاب داود عليه السلام، ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾: التوراة، أو اللوح المحفوظ، ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ أي: جنس الأرض، يعنى: مشارقها ومغاربها، ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ وهم أمة نبينا محمد صلى الله عليه وآله، ففي الآية ثناء عليهم وبشارة لهم، وإخبار بظهور غيب تحقق ظهوره في الوجود؛ من فتح الله على هذه الأمة مشارق الأرض ومغاربها، كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾^(١). وقال القشيري: على قوله: «عبادى الصالحون»: هم أمة محمد - عليه الصلاة والسلام - وهم بجملتهم قوم صالحون لنعمته، وهم المطيعون، وآخرون صالحون لرحمته وهم العاصون. هـ.

قال في الحاشية الفاسية: والظاهر أن حديث: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»، مفسر للآية، وموافق لوعددها. قيل: وهذه الطائفة مُفَرَّقَةٌ من أنواع المؤمنين، ممن فيه عائدة على الدين ونفع له؛ من شجعان مقاتلين، وفقهاء ومحدثين، وزهاد وصالحين، وناهين وأميرين

(١) من الآية ٥٥ من سورة النور.

بالمعروف هـ. قلت: وعارفين متمكنين، علماء بالله ربانيين. ثم قال: وغير ذلك من أنواع أهل الحسنى، ولا يلزم اجتماعهم، بل يكونون متفرقين فى أقطار. هـ. قلت: وفيه نظر؛ لأن مراد الآية الأمة كلها، كما قال القشيري، ومراد الحديث بعضها، فلا يليق أن يكون تفسيراً لها، وهى أعم منه. وقيل: المراد بالأرض: أرض الشام، وقيل: أرض الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ أى: ما ذكر فى السورة الكريمة من الأخبار والمواعظ البالغة، والوعد والوعيد، والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد وصحة النبوة، ﴿لِبَلَاغٍ﴾ أى: كفاية، أو سبب بلوغ إلى البغية، من رضوان الله تعالى، ومحبتة، وجزيل ثوابه، فمن تبع القرآن وعمل به، وصل إلى ما يرجو من الثواب العظيم، فالقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر، فهو بلاغ وزاد ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أى: لقوم همتهم العبادة دون العادة. وبالله التوفيق.

الإشارة: قد أورث الله أرضه وبلاده لأهل التوجه إلى الله، والإقبال عليه. فوراثة كل أحد على قدر توجهه وإقباله على مولاه. والمراد بالوراثة: التصرف بالهمة ونفوذ الكلمة فى صلاح الدين وهداية المخلوقين، وهم على قسمين: قسم يتصرف فى ظواهر الخلق بإصلاح ظواهرهم، وهم العلماء الأتقياء، فهم يبلغون الشرائع والأحكام، لإصلاح نظام الإسلام، وقد تقدم تفصيلهم فى سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ...﴾ (١) إلخ، وقسم يتصرفون فى بواطنهم؛ وهم أهل التصرف العارفون بالله، على اختلاف مراتبهم؛ من غوث وأقطاب وأوتاد، وأبدال، ونجباء، ونقباء، وصالحين، وشيوخ مربين، فهم يعالجون بواطن الناس بالتربية بالهمة والحال والمقال، حتى يتطهر من أصحابهم من الرذائل، ويتحلى بأنواع الفضائل، فيتأهل لحضرة القدس ومحل الأنس. وهؤلاء حازوا الوراثة النبوية كلها، كما قال ابن البنا فى مباحثه:

تَبِعَهُ الْعَالِمُ فِي الْأَسْوَالِ وَالْعَابِدُ الزَّاهِدُ فِي الْأَفْعَالِ

وَبِهِمَا الصَّوْفِيُّ فِي السَّبَاقِ لَكِنَّهُ قَدْ زَادَ بِالْأَخْلَاقِ .

ثم ختم ذكر الأنبياء - عليهم السلام - بذكر سيد الوجود، وعين الرحمة، ومنبع الكرم والجود، وهو نبينا - عليه الصلاة والسلام - فقال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقْرَبُ أَمِ بَعِيدٌ

(١) الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

مَا تُوْعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يُعَلِّمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرَى
لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

قلت : «رحمة»: مفعول لأجله، أو حال.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وما أرسلناك ﴾ يا محمد ﴿ إلا رحمة للعالمين ﴾ أى: ما أرسلناك بما ذكر من الشرائع والأحكام، وغير ذلك؛ مما هو مناط سعادة الدارين، لعله من العال، إلا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة. أو ما أرسلناك فى حال من الأحوال، إلا حال كونك رحمة لهم، فإن ما بُعثت به سبب لسعادة الدارين، ومنشأ لانتظام مصالحهم فى النشاطين، ومن لم يضرب له فى هذه المغانم بسهم فإنما أوتى من قبل نفسه، حيث فرط فى اتباعه، وقيل: إنه رحمة حتى فى حق الكفار فى الدنيا؛ بتأخير عذاب الاستئصال، والأمن من المسخ والخسف والغرق، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ (١).

﴿ قل إنما يوحى إليّ أنما إليكم إله واحد ﴾ أى: ما يوحى إليّ إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد؛ لأنه المقصود الأصل من البعثة، وأما ما عداه فإنما هو من الأحكام المتفرعة عليه، لا يصح بدونه. و«إنما» الأولى: لقصر الحكم على الشيء، كقولك: إنما يقوم زيد، والثانية: لقصر الشيء على الحكم، كقولك: إنما زيد قائم، أى: إنما يوحى إليّ وحدى أنما إليكم واحد. ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ أى: مخلصون العبادة لله وحده، أو منقادون لما أمركم به من الإسلام؟ والاستفهام بمعنى الأمر، أى: أسلموا. ﴿ فإن تولوا ﴾ عن الإسلام، ولم يلتفتوا إلى ما يوجبه من استماع الوحي، ﴿ فقل آذنتكم ﴾ أى: أعلمتكم ما أمرت به، أو بمحاربتى لكم ومخالفتى لدينكم، لتكونوا ﴿ على سواء ﴾، أو كائنين على سواء فى الإعلام به، لم أطوه عن أحد منكم، أو مستويين أنا وأنتم فى العلم بما أعلمتكم به من الشرائع، لم أظهر بعضكم على شيء كتمته عن غيره. وفيه دليل بطلان مذهب الباطنية. قيل: وهذه من فصاحة القرآن وبلاغته.

﴿ وإن أدري ﴾ أى: ما أدري ﴿ أقرب أم بعيد ما تُوعَدُونَ ﴾ من البعث والحساب متى يكون؛ لأن الله تعالى لم يُطلعنى عليه، ولكن أنبأنى أنه آت لا محالة، وكل آت قريب. ولذلك قال: ﴿ وَأَقْتَرِبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ (٢)، أو: لا أدري متى يحل بكم العذاب، أو ما تُوعَدُونَ من إظهار المسلمين وظهور الدين، ﴿ إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾ أى: إنه عالم بكل شيء، يعلم ما تجهرون به؛ من الطعن فى الإسلام وتكذيب الآيات، وما تكتمونه فى صدوركم من الأحقاد للمسلمين، فيجازيكم عليه نقيراً وقطميراً. ﴿ وإن أدري

(١) الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

(٢) من الآية ٩٧ من سورة الأنبياء.

لعله فتنة لكم ﴿ أي: ما أدرى لعل تأخير العذاب عنكم في الدنيا امتحان لكم؛ لينظر كيف تعملون، أو استدراج لكم، وزيادة في إفتتانكم، ﴿ ومتاعٌ إلى حين ﴾ أي: تمتع لكم إلى حين موتكم؛ ليكون حجة عليكم، أو إلى أجل مقدر تقتضيه المشيئة المبديّة على الحكم البالغة.

﴿ قل (١) ربّ احكم بالحق ﴾ أي: اقض بيننا وبين كفار مكة بالعدل، المقتضى لتعجيل العذاب. فهو كقول شعيب عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ (٢)، أو بما يحقّ عليهم من العذاب، واشددّ عليهم، كقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ طَائِفَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ» (٣)، وقد استجيب دعاؤه - عليه الصلاة والسلام -، حيث عذبوا ببدر أيّ تعذيب. وقرأ الكسائي وحفص: ﴿ قال ﴾ ؛ حكاية لدعائه ﷺ. ثم استعان بالله على إبطال ما كانوا يؤملون من النصرة لهم، وتكذيبهم في ذلك، فقال: ﴿ وربنا الرحمن ﴾ ؛ كثير الرحمة على عباده، ﴿ المستعان على ما تصفون ﴾ من كون الغلبة لكم. كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه، وكانوا يطمعون أن تكون الشوكة والغلبة لهم، فكذب الله ظنونهم، وخيب آمالهم، وغير أحوالهم، ونصر رسوله ﷺ عليهم، وخذلهم؛ لكفرهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: قال الشيخ أبو العباس المرسى رحمته الله: الأنبياء - عليهم السلام - خلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ هو عين الرحمة، قال تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ هـ. وقال أيضا: الأنبياء - عليهم السلام - لأممهم صدقة، ونبينا ﷺ لنا هدية. قال ﷺ: «وأنا النعمة المهداة»، فالصدقة للفقراء، والهدية للكبراء. ثم إن غاية الرحمة: الوصول إلى التوحيد الخاص؛ لأنه سبب الزلفى من الله والاختصاص، ولذلك أمره به، بعد أن جعله رحمة، فقال: ﴿ قل إنما يوحى إليّ أنما إلهمك إله واحد... ﴾ إلخ. فمن أعرض عنه فقد أوزن بالبعد والطرده. ولعل تأخير العقوبة عنه، في الدنيا، استدراج ومتاع إلى حين.

ثم إن الصارف عن الدخول إلى التوحيد الخاص - وهو توحيد العيان -: القواطع الأربع: النفس، والشيطان، والدنيا، والهوى. زاد بعضهم: الناس - أي: عوام الناس، فإذا حكم الله بين العبد وبين هذه القواطع، وصل إلى صريح المعرفة. ﴿ قل ربّ احكم بالحق ﴾؛ أي: احكم بيني وبين عدوى بحكمك الحق، حتى تدفعه عنى وتدمغه، ﴿ وربنا الرحمن المستعان ﴾ به ﴿ على ما تصفون ﴾ من التعويق والتشغيب. والله المستعان، وعليه أتوكل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.



(١) قرأ حفص (قال) بصيغة الماضي - وقرأ الباقون (قل). انظر الإتحاف (٢/٢٦٨).

(٢) من الآية ٨٩ من سورة الأعراف.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري في (الدعوات، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة)، ومسلم في (المساجد، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

سُورَةُ الْحَجِّ

مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة، وهى: «هذان خصمان...» إلى: «صراط الحميد». وهى ثمان وسبعون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ (١) من قيام الساعة، وهى التى خُوف بها فى قوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورِبَكُمُ إِتْ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَفْ عَظِيمٌ﴾
 ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾

قلت : زلزلة : مصدر مضاف إلى فاعله على المجاز، أو إلى الظرف، وهي الساعة . و(يوم) : منصوب بتذهل .

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ ، الخطاب عام لجميع المكلفين ممن وجد عند النزول، وينخرط في سلوكهم من سيوجد إلى يوم القيامة. ولفظ «الناس» يشمل الذكور والإناث. والمأمور به مطلق التقوى، الذي هو امتثال الأوامر واجتناب النواهي ظاهراً وباطناً، والتعرض لعنوان الربوبية، مع إضافتها لضمير المخاطبين؛ لتأكيد الأمر، وتأكيد إيجاب الامتثال به؛ لأن الربوبية دائمة، والعبودية واجبة بدوامها، أي: احذروا عقوبة مالك أموركم ومربيكم.

ثم علل وجوب التقوى بذكر بعض عقوبته الهائلة عند قيام الساعة، فقال: ﴿إِنْ زُلْزِلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، فإن ملاحظة عظمها وهولها وفظاعة ما هي من مبادئه ومقدماته، مما يوجب مزيد اعتناء بملابسة التقوى والتدرع بها. والزلزلة: التحريك الشديد والإزعاج العنيف، بطريق التكرير، بحيث تزيل الأشياء من مقارها، وتخرجها عن مراكزها، وهي الزلزلة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ الآية (٢). واختلف في هذه الزلزلة وما ذكر بعدها، هل هي قيام الساعة عند نفخة الصعق، أو بعدها عند الحشر؟ فقال الحسن عليه السلام: إنها تكون يوم القيامة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: زلزلة الساعة: قيامها. وعن علقمة والشعبي: أنها قبل طلوع الشمس من مغربها، فإضافتها إلى الساعة؛ لكونها من أشراتها. قال الكواشي: وهذه الزلزلة تكون قبل قيام الساعة

(١) من الآية ١٠٩ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية الأولى من سورة الزلزلة.

من أشراتها. قالوا: ومن أشرط الساعة، قبل قيامها، ست آيات: بينما الناس في أسواقهم، إذ ذهب ضوء الشمس، ثم تناثرت النجوم، ثم وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت الأرض، ففزع الإنس والجن، وماج بعض في بعض؛ خوفاً ودهشاً، فقالت الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فذهبوا، فرأوا البحار تاجج ناراً، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض إلى الأرض السابعة، ثم جاءتهم الرياح فماتوا. هـ. وانظر ابن عطية. قاله المحشي. والتحقيق: ما قدمناه عند قوله: ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾^(١)، وأن الرياح إنما تقبض أرواح المؤمنين، وهذه الزلزلة إنما تقع عند نفخة الصعق. والله تعالى أعلم. وفي التعبير بـ(شيء عظيم) إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها، والعبارة ضيقة، لا تحيط بها إلا على وجه الإبهام

ثم هول شأنها، فقال: ﴿يوم ترونها﴾ أي: الزلزلة، وتُشاهدون هول مطلعها، ﴿تذهل كل مرضعة﴾ أي: مباشرة للإرضاع، ﴿عما أرضعت﴾ أي: تغفل وتغيب، من شدة الدهش عما هي بصدد إرضاعه من طفلها، الذي ألقته ثديها. فالمرضعة، بالتاء، هي المباشرة الإرضاع بالفعل، والمرضع - بلا تاء - لمن شأنها ترضع، ولو لم تباشِر الإرضاع. والتعبير عنه «بما»، دون «من»؛ لتأكيد الذهول، كأنها من شدة الهول لا تدري من هو بخصوصه، وقيل: «ما» مصدرية، أي: تذهل عن إرضاعها. والأول أدل على شدة الهول وكمال الانزعاج.

﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾ أي: تلقى جنينها من غير تمام، كما أن المرضعة تذهل عن ولدها قبل الفطام. وهذا على قول من يقول: إنها قبل نفخة الصعق ظاهر، وأما على من يقول، إنها بعد قيام الساعة، فقد قيل: إنه تمثيل؛ لتحويل الأمر وشدة. ﴿وترى الناس سُكَّارٍ﴾ أي: وترى أيها الناظر الناس سُكَّارٍ، على التشبيه، من شدة الهول، كأنهم سُكَّارٍ لما شاهدوا بساط العزة وسلطنة القهرية، حتى قال كلُّ نبي: نفسي نفسي. ﴿وما هم بسُكَّارٍ﴾ على التحقيق، ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾، فخوف عذابه هو الذي أذهل عقولهم، وطير تمييزهم، وردهم في حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه. وعن الحسن: وترى الناس سُكَّارٍ من الخوف، وما هم بسُكَّارٍ من الشراب. وقرئ: (سُكْرَى)؛ كعطشى. والمعنى واحد، غير أن فعلى يختص بما فيه آفة، كجرحى وقتلى ومرضى. والله تعالى أعلم

الإشارة: يا أيها الناس اتقوا ربكم وتوجهوا إليه بكليتكم، حتى تُشرق على قلوبكم أنوار ربكم، فتزلزل أرض نفوسكم، وتذك جبال عقولكم، عند سطوع شمس العرفان، والاستشراق على مقام الإحسان. إن زلزلة الساعة، التي تشرف فيها على أسرار الذات، شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، لو كانت أنثى،

(١) الآية ٩٧ من سورة الأنبياء.

وتضع كل ذات حمل حملها كذلك، أو تضع كل ذات حمل أثقالها؛ بالغيبة في ربه، وترى الناس سكارى من خمر المحبة، وما هم بمسكارى من شراب الدوالي^(١)، لكن من خمر الكبير المتعالى، كما قال الششتري في الخمرة الأزلية - بعد كلام:

لَا شَرَابَ الدَّوَالِي؛ إِنَّهَا أَرْضِيَّةٌ خَمْرُهَا دُونُ خَمْرِي، خَمْرَتِي أَرْزِيَّةٌ.

ولكن عذاب الله - الذى قدمه قبل دخول جنته المعنوية وحفت به، وهى جنه المعارف - شديد، ولكنه يحلو فى جانب ما ينال بعده، كما قال الشاعر:

وَالنَّفْسُ عَزَّتْ، وَلَكِنْ فَيْكَ أَبْذَلُهَا وَالذُّلُّ مَرٌّ، وَلَكِنْ فِى رِضَاكَ حَلَا
يَا مَنْ عَذَابِي عَذَبٌ فِى مُحَبَّتِهِ لَا أَشْتَكِي مِنْكَ لَاصِدًا وَلَا مَلًّا.

ثم ذكر حال من أنكرها،^(٢) ولم يتأهب للقائها، فقال:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ ٣ ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ٤ ﴿

قلت: (ومن الناس): خبر، و(من يجادل): مبتدأ، و(بغير علم): حال من ضمير 'يجادل'، و(أنه): نائب فاعل (كتب)، أى: كتب عليه إضلال من تولاه، و(فأنه): من فتح: عنده خبر عن مبتدأ مضمرة، أى: فشأنه أن يضلّه، والجملة جواب 'من'، إن جعلتها شرطية، وخبر، إن جعلتها موصولة متضمنة لمعنى الشرط، ومن كسر: فخير، أو جواب 'من'.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن الناس من يجادل﴾ ويخاصم ﴿فى الله﴾ أى: فى شأنه، ويقول مالا يليق بجلال كبريائه وكمال قدرته، ملابساً ﴿بغير علم﴾، بل بجهل عظيم حمله على ما فعل. نزلت فى النضر ابن الحارث، وكان جدلاً، يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا بعث بعد الموت، والله غير قادر على إحياء من بلى وصار رميماً^(٣). وهى عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين، وكل من يخاصم فى الدين بالهوى. ﴿ويتبع﴾ فى ذلك ﴿كل شيطان مرید﴾؛ عاتٍ متمرد، مستمر فى الشر. قال الزجاج: المرید والمراد: المرتفع الأملس، أى: الذى لا يتعلق به شىء من الخير، والمراد: إما رؤساء الكفرة الذين يدعونهم إلى الكفر، وإما إبليس وجنوده.

(١) أى: العطب. وراجع التعليق على إشارة الآية ٢١٩ من سورة البقرة. (٢) أى: الساعة.

(٣) ذكره البغوى فى تفسيره (٣٦٥/٥).

ثم وصف الشيطان المريد بقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ أى: قضى على ذلك الشيطان ﴿ أنه ﴾ أى: الأمر والشأن ﴿ من تولاه ﴾ أى: اتخذه ولياً وتبعه، ﴿ فإنه ﴾ أى: الشيطان ﴿ يضلُّه ﴾ عن سواء السبيل، ﴿ ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ أى: النار. والعياذ بالله.

الإشارة: ومن الناس من تنكبت عنه سابقة الخصوصية، فجعل يجادل فى طريق الله، وينكر على المتوجهين إلى الله، إذا خرقوا عوائد أنفسهم، وسد الباب فى وجوه عباد الله، فيقول: انقطعت التربية النبوية، وذلك منه بلا علم تحقيق ولا حجة ولا برهان، وإنما يتبع فى ذلك كل شيطان مريد، سؤل له ذلك وتبعه فيه. كتب عليه أنه من تولاه، وتبعه فى ذلك، فإنه يضلُّه عن طريق الخصوص، الذين فازوا بمشاهدة المحبوب، ويهديه إلى عذاب السعير، وهو غم الحجاب والحصر فى سجن الأكوان، وفى أسر نفسه وهيكَل ذاته، عائداً بالله من ذلك.

ثم برهن على قيام الساعة، التى خوف منها، ورد من يجادل فيها، فقال:

﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث ﴿ أى: إن شككنم فى أمر البعث، فمزيل ريبكم أن تنظروا فى بدء خلقكم، وقد كنتم فى الابتداء تراباً وماء، وليس سبب إنكاركم البعث إلا هذا، وهو صيرورة الخلق تراباً وماء، فكما بدأكم منه يعيدكم منه، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أى: أباكم ﴿ من تراب، ثم ﴾ خلقناكم ﴿ من نطفة ثم من علقة ﴾ أى: قطعة دم جامدة، ﴿ ثم من مضغة ﴾ أى: لحمة صغيرة، بقدر ما يمضغ، ﴿ مخلقة ﴾ أى: مصورة الخلقة، ﴿ وغير مخلقة ﴾ أى: لم يتبين خلقها وصورتها بعد.

والمراد: تفصيل حال المضغة؛ من كونها أولاً مضغة، لم يظهر فيها شيء من الأعضاء، ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً. وكان مقتضى الترتيب أن يقدم غيرالمخلقة على المخلقة، وإنما أخرت عنها؛ لأنها عدم الملكة، والملكة أشرف من عدم.

وانما فعلنا ذلك؛ ﴿لُبَّيْنَكُمْ﴾، بهذا التدرج، كمال قدرتنا وحكمتنا؛ لأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً، وقدر على أن يجعل النطفة علقةً، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً، قدر على إعادة ما بدأ، بل هو أهون في القياس ﴿وَنُقِرُّ﴾ أي: نثبت ﴿في الأرحام ما نشاء﴾ ثبوته ﴿إلى أجل مسمى﴾: وقت الولادة، ومالم نشأ ثبوته أسقطته الأرحام. ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من الرحم ﴿طفلاً﴾، أي: حال كونكم أطفالاً. والإفراد باعتبار كل واحد منهم، أو بإرادة الجنس، ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ أي: ثم نربيكم؛ لتبلغوا كمال عقلكم وقوتكم. والأشد: من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل له واحد. ووقته: قيل: ثلاثون سنة، وقيل: أربعون.

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى﴾ قبل بلوغ الأشد أو بعده، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾ أي: أخسه، وهو الهرم والخرف، ﴿لَكَيْلَا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي: لكيلا يعلم شيئاً من بعد ما كان يعلمه من العلوم، مبالغة في انتقاص علمه، وانتكاس حاله، أي: ليعود إلى: ما كان عليه في أوان الطفولية، من ضعف البنية، وسخافة العقل، وقلة الفهم، فينسى ما علمه، وينكر ما عرفه، ويعجز عما قدر عليه. قال ابن عباس: من قرأ القرآن، وعمل به، لا يلحقه أَرْدَلُ الْعُمُرِ. ثم ذكر دليلاً آخر على البعث، فقال: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾: ميتة يابسة، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾: تحركت بالنبات ﴿وَرَبَّتْ﴾: انتفخت ﴿وَأَنْبَتُ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾: صنف ﴿بِهَيْجٍ﴾: حسن رائق يسر ناظره.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: ذلك الذي ذكرنا؛ من خلق بني آدم، وإحياء الأرض، مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحكم، حاصل بهذا، وهو أن الله هو الحق، أي: الثابت الوجود. هكذا للزمخشري ومن تبعه، وقال ابن جزى: والظاهر: أن الباء ليست سببية، كما قال الزمخشري، وهو أيضاً مقتضى تفسير ابن عطية، وإنما يُقدر لها فعل يتعلق به ويقتضيه المعنى، وذلك أن يكون التقدير: ذلك الذي تقدم من خلق الإنسان والنبات، شاهد بأن الله هو الحق، وبأنه يحيى الموتى، وبأن الساعة آتية، فيصح عطف ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾ على ما قبله، بهذا التقدير، وتكون هذه الأشياء المذكورة، بعد قوله: (ذلك)، مما استدل عليه بخلقة الإنسان والنبات. هـ.

قال المحشى الفاسى: ويرد عليه: أن تقديره عاملاً خاصاً يمنع حذفه، وإنما يحذف إذا كان كوناً مطلقاً، فلا يقال: زيد في الدار، وتريد ضاحكاً مثلاً، إلا أن يقال في الآية: دل عليه السياق، فكأنه مذكور. وعند الكواشى:

ليعلموا بأن الله هو الحق. وقال القرطبي: قوله: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾، لما ذكر افتقار الموجودات إليه، وتسخيرها على وفق اقتداره واختياره، قال بعد ذلك: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾، نبه بهذا على أن كل ما سواه، وإن كان موجوداً؛ فإنه لاحقيقة له من نفسه؛ لأنه مسخر ومُصَرَّفٌ، والحق الحقيقي هو الموجود المطلق، الغنى المطلق، وإن وجود كل موجود من وجوب وجوده، ولهذا قال في آخر السورة: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ (١)، والحق هو الوجود الثابت، الذي لا يزول ولا يتغير، وهو الله تعالى. ثم قال عن الزجاج: (ذلك) في موضع رفع، أي: الأمر ما وُصِفَ لكم وبين؛ لأن الله تعالى هو الحق، ويجوز كونه في موضع نصب، أي: فعل ذلك بأن الله هو الحق، قادر على ما أراد. هـ.

وذلك أيضاً شاهد بأنه ﴿يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ كما أحيا الأرض، مرة بعد أخرى، ﴿وأنه على كل شيء قدير﴾ أي: مبالغ في القدرة، وإلا لما أوجد هذه الموجودات الفاتنة الحصر. وتخصيص إحياء الموتى بالذكر، مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها؛ للتصريح بمافيه النزاع، وللطعن في نحور المنكرين. ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾: قادمة عليكم، ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، وإيثار اسم الفاعل على الفعل؛ للدلالة على تحقق إتيانها وتقريره اليقينية. ومعنى نفى الريب عنها: أنها، في ظهور أمرها ووضوح دلائلها، بحيث ليس فيها مظنة الريب، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾؛ لأنه تعالى حكم بذلك ووعد به، وهو لا يخلف الميعاد، والتعبير بـ «من في القبور»: خرج مخرج الغالب، وإلا فهو يبعث كل من يموت. والله تعالى أعلم وأحكم.

الإشارة: يا أيها الناس المنكرون لوجود التربية النبوية، وظهور أهل الخصوصية في زمانهم، الذين يحيى الله الأرواح الميتة، بالجهل والغفلة، على أيديهم؛ إن كنتم في ريب من هذا البعث فانظروا إلى أصل نشأتكم وتنقلات أطواركم، فمن فعل ذلك وقدر عليه، قدر أن يحيى النفوس الميتة بالغفلة في كل زمان. وفي الحكم: «من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يخرج من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الإلهية، وكان الله على كل شيء مقتدراً». وجرت عادته أنه لا يحييها في الغالب إلا على أيدي أهل الخصوصية. وترى أرض النفوس هامة ميتة بالغفلة، فإذا أنزلنا عليها ماء الحياة، وهي الواردات الإلهية، وأسقينها الخمرة القدسية، اهتزت فرحاً بالله، وريت، وارتفعت بالعلم بالله، وأنبئت من أصناف العلوم والحكم، ما تبهج منه العقول، ذلك شاهد بوحداانية الحق، وأن ما سواه باطل. وبالله التوفيق.

(١) من الآية ٦٢ من سورة الحج.

ثم ذكر نوعاً آخر من أهل الإنكار والجدل، فقال:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ۝ ثَانِي ۝ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۝﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن الناس من يجادل في الله﴾ أي: في شأنه، فيصفه بغير ما هو أهله، وهو أبو جهل، كما قال ابن عباس رضي الله عنه، وقيل: هو من يتصدى لإضلال الناس، كائناً من كان. حال كونه ﴿بغير علم﴾، بل بجهل وهوى. والمراد بالعلم: الضروري، كما أن المراد بالهدى في قوله: ﴿ولا هدى﴾: هو الاستدلال والنظر الصحيح، الهادي إلى المعرفة. ﴿ولا كتاب منير﴾ أي: وحى يستند إليه، والحجة إنما تقوم بأحد هذه الثلاثة، أي: يجادل في شأنه تعالى، من غير تمسك بمقدمة ضرورية، ولا بحجة نظرية، ولا ببرهان سمعي.

حال كونه ﴿ثاني عطفه﴾ أي: لاوياً عنقه عن طاعة الله؛ كبراً وعتواً، أو عاطفاً بجانبه، وطاويماً كشحه^(١)، معرضاً متكبراً، فتنى العطف كناية عن التكبر. وقرأ الحسن بفتح العين، أي: مانعاً تعطفه على المساكين؛ قسوة. فعل ذلك الجدل ﴿ليضل عن سبيل الله﴾ أي: ليضل الناس عن سبيل الله؛ فإن غرضه بالمجادلة إضلال المؤمنين، أو جميع الناس، وقرأ المكي وأبو عمر: بفتح الياء، أي: ليصير ضالاً عن سبيل الله. وجعل ضلاله غاية لجداله، من حيث إن المراد به الضلال المبين، الذي لا هداية بعده، مع تمكنه منها قبل ذلك، أي: ليرسخ في الضلالة أي رسوخ، ﴿له في الدنيا خزي﴾: هوان ونذل، وهو القتل يوم بدر، وهو بيان نتيجة ما سلكه من الطريقة، أي: يثبت له، بسبب ما فعل، خزي وصغار، وهو ما أصابه ببدر، ﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾ أي: النار المحرقة.

﴿ذلك﴾ أي: ما ذكر من العذاب الدنيوي والأخروي. وما في الإشارة من البعد؛ للإيدان بكونه في الغاية القاصية من الهول والفظاعة، أي: ذلك العذاب الهائل ﴿بما قدمت يداك﴾ أي: بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي. وإسناده إلى يديه؛ لأن الاكتساب في الغالب بهما. والالتفات؛ لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد. أو يقال له يوم القيامة: ﴿ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾، فلا يأخذ أحداً بغير ذنب ولا بذنب غيره. وهو خبر عن مضمرة، أي: والأمر أن الله ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب، وأما عطفه على «بما» فغير شديد، ولفظ المبالغة؛ لاقتراحه بلفظ الجمع في العبيد، ولأن قليل الظلم منه، مع علمه بقبحه واستغنائاه عنه، كالكثير منا. قاله النسفي.

(١) الكشع: الخصر.

وقيل: «ظلام»: بمعنى: ذى ظلم، فتكون الصيغة للنسب. والتعبير عن ذلك بنفى الظلم، مع أن تعذيبهم بغير ذنب، ليس بظلم قطعاً، على ما تقرر في مذهب أهل السنة، فضلاً عن كونه ظلماً بالغاً؛ لأن الحق تعالى إنما يظهر لنا كمال العدل، وغاية التنزيه، وإن كان في نفس الأمر جائز أن يعذب عباده بلا ذنب، ولا يسمى ظلماً؛ لأنه تصرف في ملكه، لكنه تعالى لم يظهر لنا في عالم الشهادة إلا كمال العدل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من يخاصم في طريق القوم، وينفيها عن أهلها، إما أن يكون تقليداً، وهو ما تقدم، أو يكون تكبراً وعتواً، بحيث لم يرض أن يحط رأسه لهم، وهو ما أشير إليه هنا. ولا شك أن المتكبر لابد أن يلحقه ذل، ولو عند الموت. ويوم القيامة يحشر صاغراً كالذر، كما في الحديث. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حال المذبذبين، بعد ذكر حال المجادلين المصممين، فقال:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

قلت: (لمن ضره): قال ابن عطية: جرى فيه إشكال؛ وهو دخول اللام على «من»، وهو في الظاهر مفعول، واللام لا تدخل على المفعول. وأجيب بثلاثة أوجه؛ أحدها: أن اللام متقدمة على موضعها، والأصل أن يقال: يدعو من لضره أقرب، فموضعها الدخول على المبتدأ، وثانيها: أن «يدعو» تأكيد ليدعو الأول، وتم الكلام عنده، ثم ابتداء قوله: (لمن ضره)، فمن مبتدأ، وخبره: (لبئس المولى). قلت: وإياه اعتمد الهبطي في وقفه، وثالثها: أن معنى «يدعو»: يقول يوم القيامة هذا الكلام، إذا رأى مضره الأصنام، فدخلت اللام على مبتدأ في أول الكلام. هـ.

قلت: والأقرب ما قاله الزجاج، وهو: أن مفعول (يدعو) محذوف، ويكون ضميراً يعود على الضلال، وجملة: (يدعو): حال، والمعنى: ذلك هو الضلال البعيد يدعوه، أى: حال كونه مدعوا له، ويكون قوله: (لمن ضره) مستأنفاً مبتدأ، خبره: «لبئس المولى». نقله المحشى. وحكم المحلى بزيادة اللام.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أى: على طرف من الدين لا ثبات له فيه، كالذى ينحرف إلى طرف الجيش، فإن أحس بظفر قر، وإلا فر. وفي البخارى عن ابن عباس: «كان الرجل

يَقْدُمُ الْمَدِينَةَ، فَإِنْ وَلَدَتْ امْرَأَتُهُ غُلَامًا وَنُتِجَتْ خَيْلُهُ، قَالَ: هَذَا دِينٌ صَالِحٌ، وَإِنْ لَمْ تَلِدْ امْرَأَتُهُ، وَلَمْ تَنْتِجْ خَيْلُهُ، قَالَ: هَذَا الدِّينُ سُوءٌ»^(١). وَكَأَنَّ الْحَقَّ تَعَالَى سَلَكَ فِي الْآيَةِ مَسْلَكَ التَّدْلِي، بِدَأْ بِالْكَافِرِ الْمَصْمُومِ، يَجَادِلُ جَدَالًا مُجْمَلًا، يَتَّبِعُ فِيهِ كُلُّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ. وَالثَّانِي: مَقْلَدُ مُجَادِلٍ، مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَلَا بَرَهَانٍ، وَالثَّلَاثُ: كَافِرٌ أَسْلَمَ إِسْلَامًا ضَعِيفًا. ثُمَّ قَابِلُ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ بِضَدِّهِمْ، بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا...» الْآيَةَ

ثُمَّ كَمَّلَ حَالَ الْمَذْبُذِبِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ أَيُ: دُنْيَوِيٌّ؛ مِنَ الصَّحَّةِ فِي الْبَدَنِ، وَالسَّعَةِ فِي الْمَعِيشَةِ، ﴿أَطْمَأْنَنَ بِهِ﴾ أَيُ: ثَبَّتَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ظَاهِرًا، لَا أَنَّهُ أَطْمَأْنَنَ بِهِ أَطْمَأْنَنَانِ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ لَا يَلْوِيهِمْ عَنْهُ صَارْفٌ، وَلَا يَنْتِيهِمْ عَنْهُ عَاطِفٌ. ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾: بَلَاءٌ فِي جَسَدِهِ، وَضَيْقٌ فِي مَعِيشَتِهِ، أَوْ شَيْءٌ يَفْتَنُّ بِهِ، مِنْ مَكْرُوهِ يَعْتَرِيهِ فِي بَدَنِهِ أَوْ أَهْلِهِ أَوْ مَالِهِ، ﴿وَانْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أَيُ: ارْتَدَّ وَرَجَعَ إِلَى الْكُفْرِ، كَأَنَّهُ تَنَكَّسَ بِوَجْهِهِ إِلَى أَسْفَلٍ. أَوْ انْقَلَبَ عَلَى جِهَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا. وَتَقَدَّمَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَعَارِبٍ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، مَهَاجِرِينَ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا صَحَّ بَدَنُهُ وَنُتِجَتْ فَرْسُهُ مَهْرًا سَرِيًّا، وَوُلِدَتْ امْرَأَتُهُ غُلَامًا سَوِيًّا، وَكَثُرَ مَالُهُ وَمَاشِيَتُهُ، قَالَ: مَا أَصَبْتُ، مَذْ دَخَلْتُ فِي دِينِي هَذَا، إِلَّا خَيْرًا، وَأَطْمَأْنَنَ، وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ خِلَافَهُ، قَالَ: مَا أَصَبْتُ إِلَّا شَرًّا، وَانْقَلَبَ عَنْ دِينِهِ. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ يَهُودِيًّا أَسْلَمَ فَأَصَابَتْهُ مَصَائِبٌ، وَتَشَاءَمَ بِالْإِسْلَامِ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَقْلَنِي، فَقَالَ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُقَالُ»، فَتَنَزَّلَتْ^(٢).

﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾: فَقَدَهُمَا، وَضَعِيْعُهُمَا؛ بِذَهَابِ عَصْمَتِهِ، وَحَبُوطِ عَمَلِهِ بِالْإِرْتِدَادِ. وَقَرَأَ يَعْقُوبُ: خَاسِرٌ، عَلَى الْحَالِ. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾: الْوَاضِحُ، الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ أَنَّهُ لَا خُسْرَانَ مِثْلَهُ.

ثُمَّ بَيَّنَّ وَجْهَ خُسْرَانِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَدْعُو﴾ أَيُ: يَعْبُدُ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُ: مُتَجَاوِزًا عَنْهُ تَعَالَى، ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ إِذَا لَمْ يَعْبُدْهُ، ﴿وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ إِذَا عَبَدَهُ. ﴿ذَلِكَ﴾ الدَّعَاءُ ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أَيُ: التَّلَفُ الْبَعِيدُ عَنِ الْحَقِّ.

﴿يَدْعُو﴾ أَيُ: يَعْبُدُ ﴿لِمَنْ ضَرُّهُ﴾ أَيُ: الصَّنَمِ الْجَامِدِ الَّذِي ضَرَرُهُ ﴿أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾. وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «يَدْعُو مِنْ ضَرِّهِ»، بِحَذْفِ اللَّامِ. أَوْ: ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ يَدْعُوهُ هَذَا الْمَذْبُذِبُ الْمُنْقَلَبُ عَلَى وَجْهِهِ. قَالَ ابْنُ جَزَى: وَهَذَا إِشْكَالٌ: وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ الْأَصْنَامَ بِأَنَّهُ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، ثُمَّ وَصَفَهَا بِأَنَّ ضَرَرَهَا أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهَا، فَتَنَفَى الضَّرُّ ثُمَّ أَثْبَتَهُ؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ الضَّرَّ الْمُنْفَى أَوَّلًا يُرَادُ بِهِ مَا يَكُونُ مِنْ فَعْلِهَا، وَهِيَ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا، وَالضَّرُّ الثَّانِي، الَّذِي أَثْبَتَهُ لَهَا، يُرَادُ بِهِ مَا يَكُونُ بِسَبَبِهَا مِنَ الْعَذَابِ وَغَيْرِهِ. هـ. ﴿لِبَسِ الْمَوْلَى﴾ أَيُ: الْفَاصِرِ، ﴿وَلِبَسِ الْعَشِيرِ﴾ أَيُ: الصَّاحِبِ. أَوْ: يَدْعُو وَيَصْرُخُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ يَرَى اسْتَضْرَارَهُ بِالْأَصْنَامِ، وَلَا يَرَى لَهَا أَثَرَ الشَّفَاعَةِ، وَيَقُولُ لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ: لِبَسِ الْمَوْلَى هُوَ وَلِبَسِ الْعَشِيرِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي (التفسير، سورة الحج) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي الْأَسْبَابِ (٣١٧)، بِدُونِ إِسْنَادٍ، عَنْ عَطِيَّةِ الْعَوْفِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ.

الإشارة: ومن الناس من يعبد الله على حرف؛ على طرف من الدين، غير متمكن فيه، فإنه أصابه خير، وهو ماتسّر به النفس من أنواع الجمال، اطمأن به، وإن أصابته فتنة، وهو ما يؤلم النفس وينغص عليها مرادها وشهوتها من أنواع الجلال، انقلب على وجهه. أو: ومن الناس من يعبد الله على طمع في الجزاء الدنيوي أو الآخروي، فإن أصابه خير فرح واطمأن به، وإن أصابته فتنة سخط وقنط وانقلب على وجهه. أو: ومن الناس من يعبد الله ويسير إليه على حرف، أي: حالة واحدة، فإن أصابه خير؛ كقوة ونشاط وورود حال؛ اطمأن به وفرح، وإن أصابته فتنة؛ كضعف وكسل وذهاب حال، انقلب على وجهه، ورجع إلى العمومية، أو وقف عن السير، خسر الدنيا والآخرة. خسران الدنيا: ما يفوته من عز الله ونصره لأوليائه، وحلاوة برد الرضا والتسليم، ولذيق مشاهدته. وخسران الآخرة: ما يفوته من درجة المقربين، ودوام شهود رب العالمين. فالواجب على العبد أن يكون عبداً لله في جميع الحالات، لا يختار لنفسه حالاً على حال، ولا يقف مع مقام ولا حال، بل يتبع رياح القضاء، ويدور معها حيث دارت، ويسير إلى الله في الضعف والقوة.

قال بعضهم: سيروا إلى الله عرجى ومكاسير. وفي الحكم: «إلهي؛ قد علمت، باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار، أن مرادك مني أن تتعرف إليّ في كل شيء، حتى لا أجهلك في شيء». وقال أيضاً: «لا تطلبين بقاء الواردات، بعد أن بسطت أنوارها، وأودعت أسرارها، فلك في الله غنى عن كل شيء، وليس يغنيك عنه شيء». فكن عبد المحوّل، ولا تكن عبد الحال، فالحال تحوّل وتتغير، والله تعالى لا يحول ولا يزول، فكن عبداً لله، ولا تكن عبداً لغيره.

لِكُلِّ شَيْءٍ، إِنْ فَارَقْتَهُ، عِوَضٌ وَلَيْسَ لِلَّهِ، إِنْ فَارَقْتَ مِنْ عِوَضٍ

ثم شفع الحق تعالى بضد ما ذكره قبل، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (١١)

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وتمكنوا من الإيمان، وعبدوا الله وحده في جميع الحالات، ولم يعبدوه على حرف، ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت قصورها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ الأربعة. وهذا بيان حال المؤمنين العابدين له تعالى في جميع الحالات، وأن الله تفضل عليهم، بما لا غاية وراءه، إثر بيان سوء حال الكفرة، من المجاهرين والمذبذبين، وأن معبودهم لا ينفعهم،

بل يضرهم مضرة عظيمة. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من الأفعال المتقنة، المبنية على الحكم البالغة الرائقة، التي من جملتها: إثابة من آمن به، وصدق رسوله، وعبدته على كل حال، وعقاب من أشرك به، وكذب رسول الله، أو عبده على حرف. وبالله التوفيق.

الإشارة: إن الله يدخل الذين آمنوا، واطمأنوا به، وعبدوه في جميع الحالات، وقاموا بعمل العبودية في كل الأوقات، جنات المعارف، تجري من تحتها أنهار العلوم والحكم، إن الله يفعل ما يريد؛ فيقرب هذا، ويبعد هذا، بلا سبب؛ **جَلَّ حُكْمُ الْأَزَلِ أَنْ يُضَافَ إِلَى الْعَلَلِ**. وبالله التوفيق.

ولما كان نفوذ هذا الوعيد في المشركين، وإنجاز وعد المؤمنين؛ تصديقاً لرسوله ﷺ، ونصرة له، ذكر حال من غاظه ذلك وكرهه، فقال:

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: لا تظنوا أن الله غير ناصر لرسوله ﷺ؛ بل هو ناصر له في الدنيا والآخرة لامحالة، فمن كان ﴿يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، ويغيظه ذلك من أعياده وحساده، ويفعل ما يدفع ذلك؛ من الخدع والمكائد، فليبالغ في استفراغ المجهود، وليجاوز كل حد معهود، فعاقبة أمره أن يختنق خنقاً من ضلال مساعيه، وعدم إنتاج مقدماته ومبادئه. ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أى: فليمدد حبلاً إلى سقف بيته، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أى: ليختنق، من قطع؛ إذا اختنق؛ لأنه يقطع نفسه بحبس مجاريه. أو: ليقطع من الأرض، بعد ربط الحبل في العنق وربطه في السقف.

﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ﴾ أى: فليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك؛ هل يذهب نصر الله الذي يغيظه بسبب فعله، وسمى فعله كيداً، على سبيل الاستهزاء؛ لأنه لم يكذب به محسوده، إنما كاد به نفسه. والمراد: ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه، فتحصّل أن الضمير في (ينصره) يعود على النبي ﷺ، وإن لم يتقدم ذكره صراحة، لكنه معهود؛ إذ الوحي إنما ينزل عليه. وقيل: يعود على «من»، والمعنى على هذا: من ظن - بسبب ضيق صدره، وكثرة غمه - أن لن ينصره الله، فليختنق وليمت بغيظه، فإنه لا يقدر على غير ذلك، فموجب الاختناق، على هذا، القنوط والسخط من القضاء، وسوء الظن بالله تعالى، حتى يلس من نصره.

قال ابن جزى: وهذا القول أرجح من الأول؛ لوجهين: أحدهما: أن هذا القول مناسب لمن يعبد الله على حرف؛ لأنه، إذا أصابته فتنة، انقلب وقنط، حتى ظن أن لن ينصره الله. ويؤيده من فسر (أن لن ينصره الله) أى: لن يرزقه؛ إذ لا خير فى حياة تخلو من عون الله عز وجل، فيكون الكلام، على هذا، متصلاً بما قبله. ويؤيده أيضاً: قوله تعالى، قبله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أى: الأمور بيد الله، فلا ينبغي لأحد أن يسخط من قضاء الله، ولا ينقلب إذا أصابته فتنة، والوجه الثانى: أن الضمير فى «ينصره»، على هذا، يعود على ما تقدم ذكره، دون الأول. هـ. وانظر ابن عطية والكواشى، ففيهما ما يدفع درك ابن جزى، ورده للأول، بما فى سبب الآية ونزولها من المناسبة.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ﴾ أى: ومثل ذلك الإنزال البديع، المنطوى على الحكم البالغة، أنزلناه، أى: القرآن الكريم كله، حال كونه ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾: واضحات الدلالة على معانيها الرائقة، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾ به من يريد ﴿هُدَايَتَهُ؛ ابْتِدَاءً، أَوْ يُثَبِّتَهُ عَلَى الْهُدَى دَوَامًا، وَمَحَلَّ «أَنَّ» : إِمَّا الْجَارَ، أَيْ: وَلَأنَّ اللَّهَ يَهْدِي، أَوْ الرَّفْعَ، أَيْ: وَالْأَمْرَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مِنْ يُرِيدُ.

الإشارة: من غلبته نفسه، وملكته أسرته فى يدها؛ فدراؤه: الفرع إلى الله، والاضطرار إليه آناء الليل والنهار، والمنهاج الواضح فى علاجها وقهرها: هو الفرع إلى أولياء الله، العارفين به، الذين سلكوا طريق التربية على يد شيخ كامل، فإذا ظفر بهم، فليزِم صحبتهم، وليتبع طريقهم، وليسارع إلى فعل كل ما يشيرون به إليه، من غير تردد ولا توقف، فيهم معناه، شرعاً، أم لا، فلا شك أن الله ينصره ويؤيده، ويظفر بنفسه فى أسرع مدة. وليس الخبر كالعيان، وجرب.. ففى التجريب علم الحقائق، وكذلك من ابتلى بالوسواس وخواطر السوء فى أمر التوحيد، فليفرغ إليهم، حتى يقلعوا من قلبه عروق الشكوك والأوهام، وتذهب عنه الأمراض والأسقام، بإشراق شمس العرفان على قلبه، ويفضى إلى طريق الذوق والوجدان، وغير هذا عناء وتعب، ولو فرض أنه يسكن عنه ذلك، فلا يذهب عنه بالكلية، فربما يهيج عليه فى وقت الضعف عند الموت، فلا يستطيع دفعه، فيلقى الله بقلب سقيم. والعياذ بالله.

فإن قلت: هذا الذى دللتى عليه عزيز غريب، فقد دللتى على عناء مغرب؟ قلت: والله، إن حسنت الظن بالله وعباد الله، واضطرت إليه اضطرار الظمآن إلى الماء، لوجدته أقرب إليك من كل شيء. والله، لقد وجدناهم وظفرنا بهم، على مناهج الجنيد وأضرابه، يغنون بالنظر، ويسرون بالمرید حتى يقول له: ها أنت وريك. والمنة لله. فمن ترك ما قلنا له، وآيس من الدواء، وظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة، فليمت غيظاً وقنطاً، فلا يضر إلا نفسه؛ لأن الله يهدى من يريد، فيوفقه للدواء، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مآل من آمن بالقرآن، الذى هو آيات بينات، ومآل من أعرض عنه، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

قلت : إن ﴿ الله يفصل ﴾ : خبر «إن» الأولى .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ بما ذكر من الآيات البينات ، أو بكل ما يجب الإيمان به .
 فيدخل ما ذكر دخولاً أولياً . أى : آمنوا بذلك ، بهداية الله وإرادته ، ﴿ والذين هادوا والصابئين ﴾ ، وهم قوم من
 النصارى ، اعتزلوهم ، ولبسوا المسوح ، وقيل : أخذوا من دين النصارى شيئاً ، ومن دين اليهود شيئاً ، وهم القائلون بأن
 للعالم أصليين : نوراً وظلمة ، ويعتقدون تأثير النجوم . ﴿ والمجوس ﴾ وهم الذين يعبدون النار ، ويقولون : إن الخير من
 النور ، والشر من الظلمة ، ﴿ والذين أشركوا ﴾ ، وهم عبدة الأصنام ؛ من العرب وغيرهم ، فهذه ستة أديان ، خمسة
 للشيطان ، وواحد للرحمن . ﴿ إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ ؛ فى الأحوال والأماكن ، فلا يجازيهم جزاء
 واحداً ، ولا يجمعهم فى موطن واحد . أو يحكم بين المؤمنين ، وبين الفرق الخمسة المتفقة على ملة الكفر ، بإظهار
 المحق من المبطل ، فيكرم المحق ويهين المبطل ، ﴿ إن الله على كل شيء شهيد ﴾ أى : عالم بكل شيء ، مراقب
 لأحواله ، حافظ له ، مطلع على سره وعقده . ومن قضية الإحاطة بتفاصيل كل فرد من أفراد الفرق المذكورة :
 إجراء جزائه اللائق عليه ، وهو أبلغ وعيد . والله تعالى أعلم .

الإشارة : كما يفصل الله يوم القيامة بين الملل المستقيمة والفاسدة ؛ يفصل أيضاً بين أرباب القلوب المستقيمة
 الصحيحة المعمورة بنور الله ، وبين أرباب القلوب السقيمة الخارية من النور ، المعمورة بالظلمة من الوسواس
 والخواطر ، فيرفع الأولين مع المقربين الصديقين ، ويسقط الآخرين فى أسفل سافلين ، أو مع عامة أهل اليمين .
 وبالله التوفيق ،

ثم برهن على كونه شهيداً على الأشياء ؛ بسجودها له ، وخضوعها من هيئته ، فقال :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
 وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ
 يَنْهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝١٨﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ألم تر ﴾ ، أيها السامع ، أو من يتأتى منه الرؤية ، أى : رؤية علم واستبصار ، أو :
 يا محمد ، علماً يقوم مقام العيان ، ﴿ أن الله يسجد له ﴾ أى : يقفاد إليه انقياداً تاماً ﴿ من فى السموات ﴾ من
 الملائكة ، ﴿ ومن فى الأرض ﴾ من الإنس والجن والملائكة . ويحتمل أن تكون « من » : عامة للعالم وغيره ،

فَيَدْخُلُ كُلُّ مَا فِي السَّمَوَاتِ مِنْ عَجَائِبِ الْمَصْنُوعَاتِ، وَكُلِّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ. وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾، مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ؛ لِاسْتِبْعَادِ ذَلِكَ مِنْهَا عَادَةً.. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ السُّجُودُ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُ ذَلِكَ، كَمَا لَا نَفْقَهُ تَسْبِيحَهُمْ.

وَنَقْلُ الْكَوَاشِي عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ: (مَا فِي السَّمَاءِ نَجْمٌ، وَلَا شَمْسٌ، وَلَا قَمَرٌ، إِلَّا يَقَعُ سَاجِدًا حِينَ تَغِيْبُ، ثُمَّ لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يُؤْذَنَ لَهُ). وَذَكَرَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: «أَنَّ الشَّمْسَ لَا تَطْلُعُ حَتَّى تَسْجُدَ وَتَسْتَأْذِنَ»^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: (سُجُودُ الْجِبَالِ وَالشَّجَرِ وَالدَّوَابِّ: تَحَوُّلُ ظِلَالِهَا). أَوْ سُجُودُهَا: طَاعَتُهَا؛ فَإِنَّهُ مَا مِنْ جَمَادٍ إِلَّا وَهُوَ مُطِيعٌ لِلَّهِ تَعَالَى، خَاشِعٌ، يُسَبِّحُ لَهُ. شَبَّهَ طَاعَتَهَا لَهُ وَانْقِيَادَهَا لِأَمْرِهِ بِسُجُودِ الْمَكْلُوفِ الَّذِي كُلُّ خَضُوعٍ دُونَهُ.

﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ يَسْجُدُ لِلَّهِ تَعَالَى سُجُودَ طَاعَةٍ وَعِبَادَةٍ، ﴿وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾؛ حَيْثُ امْتَنَعَ مِنْ هَذَا السُّجُودِ، الَّذِي هُوَ سُجُودُ عِبَادَةٍ؛ لِكُفْرِهِ وَعَتْوِهِ. قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: قَوْلُهُ: «وَكَثِيرٌ»: يَحْتَمِلُ كَوْنَهُ مُبْتَدَأً، وَيَكُونُ فِي الْآيَةِ حَذْفُ الْمُقَابِلِ، أَيْ: وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِثْلَابٌ، وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ. فَلَا يَرُدُّ سَوْالُ الزَّمَخْشَرِيِّ. هـ. وَقَدَّرَهُ غَيْرُهُ: وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَسْجُدُونَ، وَكَثِيرٌ بِأَبَى السُّجُودِ؛ فَحَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ. وَقِيلَ: وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ بِإِنْكَارِهِ النَّبُوَّةَ، وَإِنْ سَجَدَ لِلصَّانِعِ؛ كَالْفَلَاسِفَةِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. هـ.

﴿وَمَنْ يَهِنْ اللَّهُ﴾؛ بِأَنْ صَرَفَتْهُ الشَّقَاوَةُ عَنِ الْانْقِيَادِ لِأَمْرِهِ الشَّرْعِيِّ، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرَمٍ﴾ بِالسَّعَادَةِ، أَوْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، بَلْ يَذِلُّ وَيُهَانُ، ﴿إِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ فِي مُلْكِهِ؛ يُكْرِمُ مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ، وَيُهِينُ مَنْ يَشَاءُ بِعَدْلِهِ، لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ. اللَّهُمَّ أَكْرِمْنَا بِطَاعَتِكَ وَمَحَبَّتِكَ، وَاجْعَلْنَا مُنْقَادِينَ لِأَمْرِكَ وَحُكْمِكَ، وَنَعْمًا بِحِلَاوَةِ شَهَادَتِكَ وَمَعْرِفَتِكَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. هَكَذَا يُدْعَى فِي هَذِهِ السَّجْدَةِ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

الإِشَارَةُ: قَدْ تَجَلَّى الْحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ بِأَسْرَارِ ذَاتِهِ لِبَاطِنِ الْأَشْيَاءِ، وَبِأَنْوَارِ صِفَاتِهِ لظَاهِرِهَا، فَتَعَرَّفَ لِكُلِّ شَيْءٍ بِأَسْرَارِ ذَاتِهِ وَأَنْوَارِ صِفَاتِهِ، فَعَرَفَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَلِذَلِكَ سَجَدَ لَهُ وَسَبَّحَ بِحَمْدِهِ. وَفِي الْحِكْمِ: «أَنْتَ الَّذِي تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ، فَمَا جَهْلَكَ شَيْءٌ». فَظَوَاهِرُ الْأَوَانِي سَاجِدَةٌ لِأَسْرَارِ الْمَعَانِي، وَخَاضِعَةٌ لِلْكَبِيرِ الْمُتَعَالَى، وَلَا يَفْقَهُ هَذَا إِلَّا مَنْ خَاضَ بَحْرَ الْمَعَانِي، وَلَمْ يَقِفْ مَعَ حَسِّ الْأَوَانِي، وَلَمْ يَمْتَنِعْ مِنَ الْانْقِيَادِ وَالْخُضُوعِ لِجَلَالِ الْحَقِّ وَكِبَرِيَّاتِهِ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، إِلَّا مَنْ أَهَانَهُ اللَّهُ مِنْ عَصَاةِ بَنِي آدَمَ. وَمَنْ يَهِنْ اللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرَمٍ، إِنْ اللَّهُ يَقَعْلُ مَا يَشَاءُ.

(١) أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي (التَّوْحِيدِ بَاب: وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)، وَمُسْلِمٌ فِي (الْإِيمَانِ، بَاب: الزَّمَنُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ فِيهِ الْإِيمَانُ)، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ، فَلَمَّا غَابَتِ الشَّمْسُ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ! تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهَا تَذْهَبُ، وَتَسْتَأْذِنُ فِي السُّجُودِ، فَيُؤْذَنُ لَهَا... الْحَدِيثُ.

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ
مِنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ
مَقَمِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ
الْحَرْقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾
وَهُدُوًّا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُمْ فِيهَا مُقَامُونَ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ أى: مختصمان ﴿اِخْتَصَمَا﴾ أى: فريق المؤمنين والكافرين. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (راجع إلى أهل الأديان المذكورة)؛ فالمؤمنون خصمٌ، وسائر الخمسة خصمٌ، تخاصموا ﴿فِي رَبِّهِمْ﴾ أى: فى شأنه تعالى، أو فى دينه، أو فى ذاته وصفاته. والكل من شؤونه تعالى، فكل فريق يصحح اعتقاده، ويبطل اعتقاد خصمه. وقيل: تخاصمت اليهود والمؤمنون؛ فقالت اليهود: نحن أحق بالله وأقدم منكم كتاباً، ونبيّنا قبل نبيّكم. وقال المؤمنون: نحن أحق بالله منكم، آمنا بنبيّنا ونبيّكم، وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبيّنا، ثم كفرتم به؛ حسداً^(١). وكان أبو ذر يُقسمُ أنها نزلتْ فى ستة نفر من قريش، تبارزوا يوم بدر؛ حمزة وعليّ، وعبيدة بن الحارث، مع عتبة، وشيبة ابنى ربيعة، والوليد^(٢). وقال على رضي الله عنه: إني لأولُ من يجثو بين يدي الله يوم القيامة؛ للخصومة^(٣). هـ.

(٣) أخرجه البخارى فى الموضوعين السابق ذكرهما، وفى التفسير، عن قيس بن عباد، عن سيدنا على - كرم الله وجهه - .

ثم بين الفصل بينهم، المذكور في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، فقال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما أنزل على محمد ﷺ، ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ أى: فصلت وقُدرت على مقادير جثثهم، تشتمل عليهم، كما تقطع الثياب للبوس. وعبر بالماضى؛ لتحقيق وقوعه. ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ أى: الماء الحار. عن ابن عباس رضي الله عنه: «لو سقطت منه نقطة على الجبال الدنيا لأذابتها». ﴿يَصْهَرُ﴾: يذاب ﴿بِهِ﴾ أى: بالحميم، ﴿مَا فِي بَطُونِهِمْ﴾ من الأمعاء والأحشاء، ﴿وَالْجُلُودُ﴾ تذاب أيضاً، فيؤثر في الظاهر والباطن، كلما نضجت جلودهم بدلت. وتقديم ما في الباطن؛ للإيدان بأن تأثيرها في الباطن أقوى من تأثيرها في الظاهر، مع أن ملاستها على العكس.

﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ أى: ولتعذيب الكفرة، أو لأجلهم، مقامع: جمع مقمعة، وهى آلة القمع، أى: سيّاط من حديد، يضربون بها. ﴿كَلِمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أى: أشرفوا على الخروج من النار، ودنوا منه، حسبما روى: أنها تضربهم بلهبها فتدفعهم، حتى إذا كانوا بأعلاها ضربوا بالمقامع، فهووا فيها سبعين خريفاً. وقوله: ﴿مِنْ غَمٍّ﴾: بدل اشتغال من ضمير (منها)؛ بإعادة الجار، والعائد: محذوف، أى: كلما أرادوا أن يخرجوا من غم شديد من غمومها ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أى: فى قعرها، بأن ردوا من أعاليها إلى أسافلها، من غير أن يخرجوا منها، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ: ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أى: الغليظ من النار، العظيم الإحراق.

ثم ذكر جزاء الخصم الآخر، وهم أهل الحق، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وغير الأسلوب فيه، بإسناد الإدخال إلى الله عز وجل، وتصدير الجملة بحرف التأكيد؛ إيذاناً بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة، وإظهاراً لمزيد العناية بحال المؤمنين، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من التحلية، وهو التزين، أى: تحليهم الملائكة بأمره تعالى ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ أى: بعض أساور: جمع سوار، ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ للبيان، أى: يلبسون أساور مصنوعة من ذهب، ﴿وَلَوْلُؤَا﴾، من جرّه: عطفه على «ذهب»، أو «أساور»، ومن نصبه: فعلى محل «من أساور»، أى: ويحلّون لؤلؤاً، أو بفعل محذوف، أى: ويؤتون لؤلؤاً. ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: أبريسم، وغير الأسلوب، فلم يقل: ويلبسون حريراً؛ لأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غني عن البيان، إذ لا يمكن عراؤهم عنه، وإنما المحتاج للبيان: أى لباس هو، بخلاف الأساور واللؤلؤ، فإنها ليست من اللوازم الضرورية، فجعل بيان حليتهم بها مقصوداً بالذات. انظر أبا السعود.

﴿وَهُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، وهو كلمة التوحيد: لا إله إلا الله أو: الحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، بدليل قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ (١). ﴿وَهُدُّوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أى: المحمود، وهو الإسلام. أو:

(١) من الآية ١٠ من سورة فاطر.

أَلْهَمَهُمُ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ أَنْ يَقُولُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدَهُ، وَهَدَانَهُمْ فِيهَا إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ. وَقِيلَ: إِلَى طَرِيقِ الْوَصُولِ إِلَى اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الإشارة: قد اختصم أهل الظاهر مع أهل الباطن في شأن الربوبية، فقال أهل الظاهر: الحق تعالى لا يرى في دار الدنيا، ولا تمكن معرفته، إلا من جهة الدليل والبرهان، على طريق الإيمان بالغيب. وقال أهل الباطن من أكابر الصوفية: الحق تعالى يرى في هذه الدار، كما يرى في تلك الدار، من طريق العرفان، على نعت الشهود والعيان، لكن ذلك بعد موت النفوس وحط الرؤوس لأهل التربية النبوية، فلا يزال يحاذيه ويسير به، حتى يقول: ها أنت وريك، فحينئذ تشرق عليه شمس العرفان، فتغطي عنه وجود حس الأكوان، فلا يرى حينئذ إلا المكون، حتى لو كلف أن يرى غيره لم يستطع؛ إذ لا غير معه حتى يشهده.

وقال بعضهم: (مُحَالٌ أَنْ تَشْهَدَهُ، وَتَشْهَدَ مَعَهُ سَوَاءً). وفي مناجاة الحكم العطائية: «إلهي، كيف يُسَدَّلُ عَلَيْكَ بما هو في وجوده مفقود إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غُيِّبَتْ، حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟!». وقال الشيخ أبو الحسن (رحمته): (أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان). وهذه الطريق هي طريق التربية، لا تنقطع أبداً، فمن كفر بها وجحدتها قطعت له ثياب من نار القطيعة، فيبقى مسجوناً بمرادقات محيطاته، محصوراً في هيكل ذاته، لا يرى إلا ظلمة الأكوان، يُصب من فوق رأسه، إلى قلبه، حرُّ التدبير والاختيار، وكلما أراد أن يخرج من سجن الأكوان وغم الحجاب ردت حيرة الدهش، وهيبة الكبرياء والعظمة والإجلال؛ لأن فكرته مسجونة تحت أطباق الكائنات، مقيدة بعلائق العوائد والشواغل والشهوات. ويقال له: ذق عذاب الحريق، وهو حرمانك من شهود التحقيق.

إن الله يدخل الذين آمنوا بطريق الخصوص، جنات المعارف، تجري من تحتها أنهار العلوم، يحلون فيها بأنواع المحاسن والفضائل، ويتطهرون من جميع المساوئ والردائل، وهدوا إلى الطيب من القول، وهو الذكر الدائم بالقلب الهائم، والمخاطبة اللينة من القلوب الصافية، وهدوا إلى طريق التربية والترقية، حتى وصلوا إلى شهود الحبيب، الحامد المحمود، القريب المجيب. حققنا الله بمقامهم بمنه وكرمه.

ثم شرع في المقصود من السورة، وهو أحكام الحج، وبدأ بتعظيم البيت؛ تشويقاً وترغيباً في حجه، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفُ فِيهِ وَالْبَاءُ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظْلَمِ نُدْقُهُ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ
وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾

قلت: خبر «إن»: محذوف، يدل عليه ما بعده، أى: الذين كفروا نذيقهم من عذاب أليم؛ لأنه إذا كان المَلْحَدُ فى الحرم مُعَذَّباً فالجامع بين الكفر والصد أرلَى. ومن رفع «سواء» جعله خبراً مقدماً. و«العاكف»: مبتدأ. ومن نصبه: جعله مفعول «جعل»، و«العاكف» فاعل به.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أى: واستمروا على الصد، ولذلك حَسُنَ عطفه على الماضى، ﴿و﴾ يصدون أيضاً عن ﴿المسجد الحرام﴾ والدخول فيه، كأهل مكة مع المسلمين، ﴿الذى جعلناه للناس﴾ أى: مقاماً ومسكناً للناس، كائناً من كان، لا فرق فيه بين مكى وآفاقى، وضعيف وقوى، حاضر وباد. فإن أريد بالمسجد الحرام «مكة»، ففيه دليل على أن دور مكة لا تُباع، وأن الناس فيها سواء، فيجوز للقادم أن ينزل منها حيث شاء، وليس لأحد فيها ملك. وبه قال أبو حنيفة. وقال مالك وغيره: ليست الدور فيها كالمسجد، بل هى مَمْلُكَةٌ. وإن أريد به البيت كان نصاً فى إباحته لجميع المؤمنين. وهو مجمع عليه.

﴿سواء العاكف فيه﴾ أى: مستور المقيم فيه ﴿والباد﴾، أى: المسافر من أهل البادية، ﴿ومن يرد فيه﴾ أى: فى المسجد، إحداث شىء ﴿بالحاد﴾ أى: بسبب ميل عن القصد، ﴿بظلم﴾، وهما حالان مترادفان، أى: ومن يرد فيه إحداث شىء؛ مائلاً عن الحق، ظالماً فيه، ﴿نذيقه من عذاب أليم﴾ فى الآخرة. وكل من ارتكب فيه ذنباً فهو كذلك.

﴿و﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذْ بَوَّأْنَا﴾: حين هيأنا ﴿لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ وعيناه له، حتى بناه فى مكانه مسامتاً للبيت المعمور، حيث كان بناه آدم عليه السلام، وقد كان رُفِعَ إلى السماء الرابعة، أيام الطوفان، وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم الله إبراهيم مكانه، بريح أرسلها، يقال لها: الخجوح، فكست مكان البيت، وقيل: سحابة على قدر البيت، وقيل: كلمته، وقالت له: ابنِ على قدرى. هـ. فبناه على أساسه القديم^(١)، وفى ابن حجر: أنه جعل طوله فى السماء تسعة أذرع، ودوره فى الأرض ثلاثين ذراعاً بذراعه. وأدخل الحجر فى البيت، وكان قبل ذلك لغنم

(١) راجع هذه الأقوال فى تفسير الطبرى (١٧/١٤٣)، والبغوى (٥/٣٧٨).

إسماعيل. وبنى الحجارة بعضها على بعض، أي: بلا تراب، ولم يجعل له سقفا، وحفر له بئرا، عند بابه خزانة للبيت، يلقي ما يهدى له. هـ.

رُوى أن الكعبة الشريفة بُنيت خمس مرات، إحداها: بنتها الملائكة، وكانت من ياقوتة حمراء، ثم رُفعت أيام الطوفان. والثانية: بناها إبراهيم عليه السلام، وقيل: إن جرهم كانت بنتها قبله، ثم هدمت، وبدل عليه: التجاء عاد إليها، حين نزل بهم القحط. فأرسل الله عليهم الريح، وكان ذلك قبل إبراهيم عليه السلام، والثالثة: بنتها قريش، وقد حضرها رسول الله ﷺ قبل النبوة. والرابعة: بناها ابن الزبير، والخامسة: الحجاج.

ثم قال تعالى: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ﴾ أي: وقلنا له: ألا تشرك ﴿بِشَيْءٍ﴾، بل خلص عملك في بنائها وغيره، من شوائب حظ النفس، عاجلاً وأجلاً، لا طمعاً في جزاء، ولا خوفاً من عقوبة، بل محبة وشكراً وعبودية. قال القشيري: أي: لا تلاحظ البيت ولا بنيانك. هـ. وقيل: في الآية طعن على من أشرك من قُطان البيت، أي: هذا الشرط كان على أبيكم فمن بعده وأنتم، فلم تقبلوه، بل أشركتم وصددتم وألحدتم، فاستحققتكم التوبيخ والذم على سلوككم على غير طريق أبيكم.

﴿وَطَهَّرْ بَيْتِي﴾ من الأصنام والأقدار، ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ به ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ للصلاة فيه، أو المقيمين فيه، ﴿وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ﴾ أي: المصلين، جمعاً من راكم وساجد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إن الذين كفروا بطريق الخصوصية، ويصدون الناس عن الدخول فيها، ويعوقونهم عن مسجد الحضرة، الذي جعله للناس محلاً تسكن فيه قلوبهم، وتعشش فيه أرواحهم. فكل من قصده وياع نفسه وقلبه لله، وصله ودخله، وهو محل المشاهدة والمكالمة، والمساررة والمناجاة، محل شهود الحبيب والمسارة مع القريب، محل نزهة الأفكار في فضاء الشهود والاستبصار، فمن عاق عنها نذقه من عذاب أليم. وقوله تعالى: ﴿سِوَاءَ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، قال القشيري: فيه إشارة إلى أن التفاوت إنما يكون في الطريق، وأما بعد الوصول، فلا تفاوت. ثم إذا اجتمعت النفوس، فالموضع الواحد مجمعا، ولكن لكل حال يعرف به (١). هـ. قلت: مقام التوحيد الخاص، وهو الفناء، هو محل الاجتماع، وتفاوت بعد ذلك أذواقهم ومواجيدهم، وازدياد كشوفاتهم وترقياتهم، تفاوتاً بعيداً، على حسب التفرغ والانقطاع، والتأهب والاتباع، حسبما سبقت به القسمة الأزلية.

وقال الورتجبي، على قوله تعالى: (وَإِذْ بَوَّأْنَا...) الآية: هياً لخليله وجميع أحبائه بيته، ودله إلى ما فيه من الكرامات والآيات، وما ألبسه من أنوار حضرة، ليكون وسيلة لعبادته، ومرآة لأنوار آياته. هـ. قلت: الإشارة بالبيت

(١) بالمعنى.

إلى القلب؛ لأنه بيت الرب، أى: هيانا لإبراهيم مكان قلبه؛ لمشاهدة أسرار جبروتنا وأنوار ملكوتنا، ليكون من المؤمنين بشهود ذاتنا، وقلنا له: لا تشرك بنا شيئاً من السوى، ولا ترى معنا غيرنا، وطهر بيتى، الذى هو القلب، من الأغيار والأكدار، ليكون محلاً للطائفين به من الواردات والأنوار، والعاكفين فيه من المشاهدات والأسرار، والركع السجود من القلوب التى تواجهك بالتعظيم والانكسار، فإن قلب العارف كعبة للواردات والأسرار، ومحل حج قلوب الصالحين والأبرار. وفى بعض الأثر: «يادواد؛ طهر لى بيتاً أسكنه، فقال: يارب.. وأى بيت يسكنك؟ فقال: لم يسكنى أرضى ولا سمائى، ووسعنى قلب عبدى المؤمن». وفيه عند أهل الحديث كلام. ووسعه للربوبية بالعلم والمعرفة الخاصة. والله تعالى أعلم.

ولما فرغ إبراهيم ﷺ من بناء البيت، أمره ربه أن يؤذن فى الناس بالحج، كما قال:

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْبَاسِ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ...﴾

قلت: «وعلى كل ضامر»: حال معطوفة على حال، أى: يأتوك حال كونهم رجالاً وركبانا. و(يأتين): صفة لكل ضامر؛ لأنه فى معنى الجمع. وقرأ عبدالله: «يأتون»، صفة لرجال. و(رجال): جمع راجل؛ كقائم وقيام.

يقول الحق جل جلاله لإبراهيم ﷺ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أى: نادِ فيهم ليحجوا. روى: أنه ﷺ صعد أبا قبيس، فقال: يا أيها الناس، حجوا بيت ربكم، فأسمعه الله تعالى الأرواح، فأجاب من قُدر له أن يحج من الأصلاب والأرحام بلببك اللهم لببك. ﴿يأتوك﴾ إن أذنت ﴿رجالاً﴾ أى: مشاة ﴿و﴾ ركبانا ﴿على كل ضامر﴾ أى: بعير مهزول، أتعبه بعد الشقة، فهزله، أو زاد هزاله. وقدم الرجال على الركبان؛ لفضيلة المشاة، كما ورد فى الحديث ﴿يأتين﴾ تلك الضوامر بركبانها، ﴿من كل فج﴾ طريق ﴿عميق﴾؛ بعيد. قال محمد بن

ياسين: قال لى شيخ فى الطواف: من أين أنت؟ فقلت: من خراسان. فقال: كم بينك وبين البيت؟ فقلت: مسيرة شهرين أو ثلاثة. قال: فأنتم جيران البيت. فقلت: وأنت من أين سَعَيْت؟ فقال: من مسيرة خمس سنوات، وخرجت وأنا شاب، فاكتهلت. فقلت: هذه والله هى الطاعة الجميلة، والمحبة الصادقة، فضحك. وقال:

زُرْ مَنْ هَوَيْتَ، وَإِنْ شَعَلَتْ بِكَ الدَّارُ وَحَالَ مِنْ دُونِهِ حُجْبٌ وَأَسْتَارُ
لَا يَمْنَعُكَ بَعْدَ عَنْ زِيَارَتِهِ إِنْ الْمُحِبُّ لِمَنْ يَهْوَاهُ زَوَّارُ

﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ أى: يأتوك ليحضرُوا منافع لهم، دنيوية ودينية، لا توجد فى غير هذه العبادة؛ كالطواف ونظر الكعبة، وتضعيف أمر الصلاة؛ لأن العبادة شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة والصوم، أو بالمال، وقد اشتمل الحج عليهما، مع ما فيه من تحمل الأثقال وركوب الأهوال، وقطع الأسباب وقطيعة الأصحاب، وهجرة البلاد والأوطان، ومفارقة الأهل والولدان. ولذلك ورد أنه يكفر الذنوب كلها، كما فى الحديث: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» (١).

﴿ويذكروا اسم الله﴾ عند ذبح الضحايا والهدايا ﴿فى أيام معلومات﴾، وهى أيام النحر عند مالك، وعند الشافعى: اليوم الأول والثانى والثالث؛ لأن هذه هى أيام الضحايا عنده. ولم يجز ذبحها بالليل؛ لقوله: ﴿فى أيام﴾. وقال أبو حنيفة: الأيام المعلومات: عشر ذى الحجة ويوم النحر، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، وأما الأيام المعدودات، فهى: الثلاثة بعد يوم النحر - فيوم النحر معلوم لا معدود، ورابعه: معدود لا معلوم، واليومان بعده: معلومان ومعدودان. فيذكروا اسم الله ﴿على ما رزقهم﴾ أى: على ذبح ما رزقهم ﴿من بهيمة الأنعام﴾، وهى الإبل والبقر والغنم، ﴿فكُلُوا مِنْهَا﴾؛ من لحومها، والأمر: للإباحة، وإلزاما ما كانت عليه الجاهلية من التحرج.

قال ابن جزى: ويستحب أن يأكل الأقل من الضحايا، ويتصدق بالأكثر. هـ. وقال النسفى: ويجوز الأكل من هدى التطوع والمتعة والقران؛ لأنه دم نساك؛ لأنه أشبه الأضحية، ولا يجوز الأكل من بقية الهدايا. هـ. وهو حنفى، وفى مذهب مالك تفصيل يطول ذكره.

﴿وأطعموا البائس﴾، وهو الذى أصابه البؤس، أى: ضرر الحاجة، وقيل: المتعفف، وقيل: الذى يظهر عليه أثر الجوع، ﴿الفقير﴾: المحتاج الذى أضعفه الإعسار.

(١) أخرجه البخارى فى (الحج، باب فصل الحج المبرور)، ومسلم فى (الحج، باب فى فصل الحج والعمرة ويوم عرفة)، عن أبى هريرة.

﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ أى: ليزيلوا عنهم أدرانهم، قاله نفطويه. وقيل: قضاء التفث: قص الشارب والأظافر، ونتف الإبط، والاستحداد، وسائر خصال الفطرة. وهذا بعد أن يحلوا من الحج؛ التحلل الأصغر بالنحر. ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ أى: ما ينذرونه من البر في الحج وغيره، وقيل: مواجب حجهم من فعل أركانه، ﴿ وَلْيَطُوفُوا ﴾ طواف الإفاضة، الذى هو ركن لا يجبر بالدم، وبه يتم الحج، ويكون ﴿ بالبيت العتيق ﴾: القديم؛ لأنه أول بيت وضع للناس، بناه آدم ثم جدده إبراهيم، أو الكريم، ومنه: عتاق الخيل لكرائمها، أو: لأنه عتق من الغرق، أو من أيدى الجبابرة، فكم من جبار رام هدمه فمنعه الله منه. وقيل: عتيق لم يملكه أحد قط، وهو مطاف أهل الخبراء، كما أن البيت المعمور مطاف أهل السماء.

﴿ ذَلِكَ ﴾ أى: الأمر ذلك، وهذا من فضل الكلام، كما يقدم الكاتب جملة من الكلام، ثم يقول: هذا، وقد كان كذا وكذا وكذا، إذا أراد أن يخرج من كلام إلى كلام آخر، وإن كان له تعلق بما قبله. والكلام هنا متصل بتعظيم حرمة البيت، فقال: ﴿ وَمَنْ يَعْظِمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ ﴾، جمع حرمة، وهو ما لا يحل هتكه من الشريعة، فيدخل ما يتعلق بالحج دخولاً أولاً، وقيل: حرمة الله: البيت الحرام، والمشعر الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام. وقيل: المحافظة على الفرائض والسنن واجتناب المعاصي، ﴿ فهو خير له ﴾ أى: فالتعظيم خير له ثواباً ﴿ عند ربه ﴾، ومعنى التعظيم: العلم بوجوب مراعاتها، والعمل بموجبه، والاهتمام بشأنه، والتأدب معه. والله تعالى أعلم.

الإشارة : قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾، قال القشيري: أى: حوائجهم، ويحققوا عهودهم، ويوفوا نذورهم فيما عقدوه مع الله بقلوبهم، فمن كان عقده التوبة؛ ففواؤه ألا يرجع إلى العصيان، ومن كان عهده اعتناق الطاعة، فشرط وفائه ترك تقصيره، ومن كان عهده ألا يرجع إلى طلب مقام وتطلع إكرام، ففواؤه استقامته على الجملة، التى دخل عليها فى هذه الطريق، ألا يرجع إلى استعجال نصيب واقتضاء حظ. هـ. قلت: ومن كان عقده الوصول إلى حضرة القدس ومحل الأنس، ففواؤه ألا يرجع عن صحبة من سقاه خمرة المحبة، وحمله إلى درجة المعرفة. ثم قال: ومن عاهد الله بقلبه، ثم لا يفي بذلك، فهو من جملة قول الزور. هـ. وهو أيضاً ليس بمعظم لحرمة الله، حيث طلبها ثم تهاون وتركها. والله تعالى أعلم.

ولما كان الإحرام يحرم لحوم الصيد، فربما يتوهم أن اللحوم كلها تجتنب، رفع ذلك الإيهام، فقال:

﴿...وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا
الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ
بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ﴾ أى: أكلها، ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى﴾ أى: سيتلى ﴿عَلَيْكُمْ﴾
منها فى آية المائة (١)، كالميتة والموقودة وأخواتهما. والمعنى: إن الله قد أحل لكم الأنعام إلا ما بين فى كتابه،
فحافظوا على حدوده، ولا تحرموا شيئاً مما أحل لكم، كتحريم البحيرة وما معها، ولا تحلوا ما حرم، كإحلال
المشركين الميتة والموقودة وغيرهما.

ثم نهى عن الأوثان التى كانوا يذبحون لها، فقال: ﴿فاجتنبوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾؛ لأن ذلك من تعظيم
حرمات الله، ومن: للبيان، أى: فاجتنبوا الرِّجْسَ الذى هو الأوثان. والرِّجْسُ: كل ما يستقذر من الخبث، وسمى
الأوثان رجساً على طريقة التشبيه، أى: فكما تنفرون بطباعكم من الرِّجْسِ، فعليكم أن تنفروا عنها. والمراد: النهى
عن عبادتها، أو عن الذبح تقريباً لها. ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾، وهو تعميم بعد تخصيص، فإن عبادة الأوثان
رأس الزور، ويدخل فيه الكذب والبهتان وشهادة الزور. وقيل: المراد شهادة الزور فقط، لما روى أنه - عليه الصلاة
والسلام - قال: «عَدَلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ الْإِشْرَاقَ بِاللَّهِ تَعَالَى» ثلاثاً، وتلى هذه الآية (٢). والزور من الزور، وهو
الانحراف والميل؛ لأن صاحبه ينحرف عن الحق، ولا شك أن الشرك داخل فى الزور؛ لأن المشرك يزعم أن الوثن
تحق له العبادة، وهو باطل وزور.

ثم قال تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾: مائلين عن كل دين زائغ إلى دين الحق، مخلصين لله، ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾
شيئاً من الأشياء، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾، أظهر الاسم الجليل؛ لإظهار كمال قبح الشرك، ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾: سقط

(١) الآية الثالثة.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٣٢١/٤)، وأبو داود فى (الأقضية: باب فى شهادة الزور)، والترمذى فى (الشهادات، باب ما جاء
فى شهادات الزور)، وابن ماجه فى (الأحكام، باب شهادة الزور)، عن خريم بن قانك.

﴿ من السماء ﴾ إلى الأرض؛ لأنه يسقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر. وقيل: هو إشارة إلى ما يكون له حين يصعد بروحه عند الموت، فتطرح من السماء إلى الأرض. قاله ابن البنا. ﴿ فتخطفه الطير ﴾ أى: تتداوله بسرعة، فالخطف والاختطاف: تداول الشيء بسرعة؛ لأن الأهواء المردية كانت توزع أفكاره، ﴿ أو تهوى به الريح ﴾ أى: تسقطه وتقذفه. والتهوى: السقوط. ﴿ في مكان سحيق ﴾: بعيد؛ لأن الشيطان قد طرحه في الضلال والتحير الكبير. والله تعالى أعلم.

الإشارة: جعل الحق تعالى شكر النعم أمرين: طهارة الباطن من شرك الميل إلى السوء، ولسانه من زور الدعوى، وهو الترامي على مراتب الرجال قبل التحقق بها، حذيفاً موحداً، شاكراً لأنعمة يجتبيه ربه، ويهديه إلى صراط مستقيم. ومن يشرك بالله؛ بأن يحب معه غيره، فقد سقط عن درجة القرب والتحقيق، فتخطفه طيور الحظوظ والشهوات، وتهوى به ريح الهوى، فى مكان سحيق. والعياذ بالله.

ثم حض على الاعتناء بشأن الهدايا، فقال:

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ۚ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۚ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْتَهُمُوهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۚ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۚ وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۚ لَنْ نَبَالَ اللَّهُ لَحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ۚ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ذلك ﴾ أى: الأمر ذلك، أو امتثلوا ذلك، ﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ أى: الهدايا، فإنها معالم الدين وشعائره تعالى، كما ينبىء عنه: ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ﴾ وتعظيمها: اعتقاد التقرب بها، وأن يختارها سعيًا حسنًا غالية الأثمان، روى «أنه ﷺ أهدى مائة بدنة، فيها جمل لأبى جهل، فى

أَنفِهِ بُرَّةً مِّنْ ذَهَبٍ^(١)، . وأن عمر رضي الله عنه - أهدى نجيبة طُلبت منه بثلاثمائة دينار^(٢) . وقيل: شعائر الله: مواضع الحج، كعرفة ومنى والمزدلفة . وتعظيمها: إجلالها وتوقيرها، والتقصد إليها . وقيل: الشعائر: أمور الدين على الإطلاق، وتعظيمها: القيام بها ومراعاة آدابها، ﴿فإنها﴾ أي: فإن تعظيمها ﴿من تقوى القلوب﴾ أي: من أفعال ذوى تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات . أو فإن تعظيمها ناشئ من تقوى القلوب؛ لأنها مراكز التقوى .

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ ؛ من الركوب عند الحاجة، ولبنها عند الضرورة، ﴿إلى أجل مسمى﴾ ؛ إلى أن تنحر . ومن قال: شعائر الله: مواضع الحج، فالمنافع: التجارة فيها والأجر، والأجل المسمى: الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة . ثم محلها ﴿منتهية﴾ إلى البيت العتيق ، قال ابن جزى: من قال: إن الشعائر الهدايا، فمحلها موضع نحرها، وهى منى ومكة . وخص البيت بالذكر؛ لأنه أشرف الحرم، وهو المقصود بالهدى . وثم، على هذا، ليست للترتيب فى الزمان؛ لأن محلها قبل نحرها، وإنما هى لترتيب الجمل . ومن قال: إن الشعائر مواضع الحج، فمحلها مأخوذ من إحلال المحرم، أى: آخر ذلك كله: الطواف بالبيت، أى: طواف الإفاضة؛ إذ به يحل المحرم . هـ. أى: محل شعائر الحج كلها تنتهى إلى الطواف بالبيت، طواف الإفاضة . ومثله فى الموطأ .

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ ؛ جماعة مؤمنة قبلكم، ﴿جعلنا منسكاً﴾ أى: مُتَعَبِّداً وقرباناً يتقربون به إلى الله - عز وجل - والمنسك - بالفتح: مصدر، وبالكسر: اسم موضع النسك، أى: لكل جعلنا عبادة يتعبدون بها، أو موضع قربان، يذبحون فيه مناسكهم، ﴿ليذكروا اسم الله﴾ دون غيره، ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ أى: عند نحرها وذبحها، ﴿فإلهكم إله واحد﴾ أى: اذكروا على الذبائح اسم الله وحده؛ فإن إلهكم إله واحد، ﴿فله أسلموا﴾ أى: فإذا كان إلهكم إلهاً واحداً؛ فأخلصوا له التقرب، أو الذكر خاصة، واجعلوه له سالماً، لا تشوبوه بإشراك .

﴿وبشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ ؛ المطمئنين بذكر الله، أو المتواضعين، أو المخلصين، فإن الإخبات من الوظائف الخاصة بهم . والخبت: المطمئن من الأرض . وعن ابن عباس رضي الله عنه : هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا . وقيل: تفسيره ما بعده، وهو قوله: ﴿الذين إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ : خافت منه؛ هيبة؛ لإشراق أشعة جلاله عليها . ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ من مشاق التكليف ومصائب الزمان والنوائب، ﴿والمقيمي الصلاة﴾ فى أوقاتها، ﴿وما رزقناهم ينفقون﴾ فى وجوه الخيرات .

(١) البُرَّة - بضم الموحدة - : الحلقة تجل فى أنف الجمل، وكانوا يتخذونها من نحاس أو غيره، انظر اللسان (برى ١/٢٧٢)، والحديث: أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (باب عدد حجرات النبى ﷺ ٤٥٤/٥) عن جابر رضي الله عنه . وفيه : «من فضة»، بدلاً من ذهب .

(٢) أخرجه أبو دواد فى (المناسك، باب تبديل الهدى) عن سالم عن أبيه .

﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أى: من أعلام دينه، وأضافها إلى نفسه؛ تعظيماً لها، وهى: جمع بدنة، سميت به؛ لعظم بدنها، ويتناول الإبل والبقر والغنم. ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أى: منافع دينية ودنيوية، النفع فى الدنيا، والأجر فى العقبى. ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ بأن تقولوا عند ذبحها: بسم الله، اللهم منك وإليك. حال كونها ﴿صَوَافٍ﴾ أى: قائمات، قد صففن أيديهن وأرجلهن. ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾: سقطت على الأرض، وسكنت حركتها، من وجب الحائط وجبة: سقط، وهى كناية عن الموت. ﴿فَكُلُّوا مِنْهَا﴾ إن شئتم ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾: السائل، من: قنع إليه فتوعاً: إذا خضع، ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾: الذى يعرض ولا يسأل. وقيل: القانع: الراضى بما عنده وبما يعطى من غير سؤال، والمعتَر: المتعرض للسؤال. ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أى: كما أمرناكم بنحرها سخرناها لكم، أى: ذللناها لكم، مع قوتها وعظم أجرامها؛ لتتمكنوا من نحرها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: لكى تشكروا إنعام الله عليكم.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لَحْمُهَا﴾ المتصدق بها، ﴿وَلَادِمَاوُهَا﴾ المهرقة بالنحر، أى: لن يصل إلى الله اللحم والدم، ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾؛ فإنه هو الذى طلب منكم، وعليه يحصل الثواب. والمراد: لن تصلوا إلى رضا الله باللحوم ولا بالدماء، وإنما تصلون إليه بالتقوى، أى: الإخلاص لله، وقصد وجه الله، بما تذبحون وتنحرون من الهدايا. فعبر عن هذا المعنى بلفظ (ينال)؛ مبالغة وتأكيداً، كأنه قال: لن تصل لحومها ولادماؤها إلى الله، وإنما يصل إليه التقوى منكم، وقيل: كان أهل الجاهلية يلطخون الكعبة بدماء قريانهم، فهم المسلمون أن يفعلوا مثل ذلك، فنزلت الآية.

﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أى: البدن، وهو تكرير للتذكير والتعليل، لقوله: ﴿لَتَكْبَرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أى: لتعرفوا عظمة الله، باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره، فتوحدوه بالكبرياء؛ شكراً على هدايته لكم. وقيل: هو التكبير عند الذبح. ﴿وَبَشِّرِ الْحَسَنِينَ﴾: المخلصين فى كل ما يأتون ويذرون فى أمور دينهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: أعظم شعائر الله التى يجب تعظيمها أولياء الله، الدالين على الله، ثم الفقراء المتوجهون إلى الله، ثم العلماء المعلمون أحكام الله، ثم الصالحون المنتسبون إلى الله، ثم عامة المؤمنين الذين هم من جملة عباد الله. ويجب تعظيم من نصبه الله لقيام خطه من الخطط؛ لإصلاح العباد؛ كالسلاطين، ولو لم يعدلوا، والقضاة والقواد، والمقدمين لأمر العامة، فتعظيم هؤلاء كله من تقوى القلوب. ويدخل فى ذلك: الأماكن المعظمة؛ كالمساجد والزوايا، وأما الفقير فيعظم كل ما خلق الله حتى الكلاب، ويتأدب مع كل مخلوق.

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أى: لكم فى هذه التجليات، إن عظمتوها وعرفتم الله فيها، منافع، ترعون من أنوارها وتشربون من خمرة أسرارها، فتزدادوا معرفة وتكميلاً، إلى أجل مسمى، وهو مقام التمكين، فحينئذ تواجهه أنوار المواجهة، فتكون الأنوار له، لا هو للأنوار، لأنه لا شئء دونه، ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (١). ثم محل هذه الأنوار إلى بيت الحضرة، فحينئذ يستغنى بالله عن كل ماسواه. وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ أى: لكل عصر جعلنا تربية مخصوصة، والوصول واحد؛ ولذلك قال: (فإلهكم إله واحد). وقال القشيري: الشرائع مختلفة فيما كان من المعاملات، متفقة فيما كان من جملة المعارف. ثم قال: ذكرهم الله بأنه هو الذى أمرهم ويثيبهم، (فله أسلموا): استسلموا لحكمه، من غير استكراه من داخل القلب ولا من اللفظ. هـ.

وقوله تعالى: (والبدن...) الآية. قال الورتجبي: فيه إشارة إلى ذبح النفس بالمجاهدات، وزمها بالرياضات عن المخالفات، وفناء الوجود للمشاهدات، حتى لا يبقى للعارف فى طريقة حظ من حظوظه، ويبقى لله مفرداً من جميع الخلائق. هـ.

وفى قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾، إشارة إلى أن النفس لا تموت إلا بصحبة من ماتت نفسه، فلا تموت النفس مع صحبة أهل النفوس الحية أبداً. فإذا ماتت وسقطت جنوبها، وظفرتم بها؛ فكلوا من أنوار أسرارها وعلومها؛ لأن النفس، إذا ماتت، حبيبت الروح، وفاضت عليها العلوم اللدنية، فكلوا منها، وأطعموا السائل والمتعرض لنفحاتكم. وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا...﴾ الآية، قال الورتجبي: الإشارة فيه إلى جميع الأعمال الصالحة من العرش إلى الثرى، لا يلحق الحق بحق المراد منه، ولكن يصل إليه قلب جريح من محبته، ذبح بسيف شوقه، مطروح على باب عشقه. قال سهل فى قوله: (ولكن يناله التقوى): هو التبرى والإخلاص. هـ.

قال القشيري: لا عبرة بإظهار الأفعال، سواء كانت بدنية أو مالية صرفاً، أو مما يتعلق بالوجهين، ولكن العبرة بقرائنهما من الإخلاص، فإذا انضاف إلى الجوارح إخلاص القصد، وتجردت عن ملاحظة أصحابها الأغيار، صلحت للقبول، وينال صاحبها القرب، بشهود الحق بنعت التفرد. ثم قال: (لتكبروا الله على ما هداكم) وأرشدكم إلى القيام بحق العبودية على قضية الشرع، (ويشرك المحسنين)، الإحسان، كما فى الخبر: «أن تعبد الله كأنك تراه». وأمارة صحته: سقوط تعب القلب عن صاحبه، فلا يستثقل شيئاً ولا يتبرم بشئ. هـ. قلت: خواطر الاستثقال والتبرم لا تضر؛ لأنه طبع بشرى، وإنما يضر ما سكن فى القلب.

(١) من الآية ٩١ من سورة الأنعام.

وقال في الإحياء: ليس المقصود من إراقة دم القرين الدم واللحم، بل ميل القلب عن حب الدنيا، وبذلها؛ إثارة لوجه الله تعالى، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة، وإن عاق عن العمل عائق. فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها، ولكن يناله التقوى منكم، والتقوى هاهنا عمل القلب، من نية القرية، وإرادة الخير، وإخلاص المقصد لله، وهو المقصود، وعمل الظاهر مؤكد له، ولذلك كانت نية المؤمن أبلغ من عمله؛ فإن الطاعات غذاء القلوب، والمقصود: لذة السعادة بقاء الله تعالى، والتنعم بها، وذلك فرع محبته والأنس به، ولا يكون إلا بذكره، ولا يفرغ إلا بالزهد في الدنيا، وترك شواغلها، والانقطاع عنها. هـ.

ومن كانت هذه صفته كان من المحسنين، الذين يدفع الله عنهم المكاره والعوائق، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ﴿٢٨﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ﴾ يدفع غائلة المشركين ﴿عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عن الذين آمنوا؛ فلا يقدر أن يعوقهم عن شيء من عبادة الله، بل ينصرهم ويؤيدهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (١)، وصيغة المفاعلة: إما للمبالغة، أو للدلالة على تكرير الدفع، فإنها قد تجرد عن وقوع الفعل المتكرر من الجانبين، فيبقى تكرره من جانب واحد، كما في المحارسة، أي: يبالغ في دفع ضرر المشركين وشوكتهم، التي من جعلتها صدهم عن سبيل الله، مبالغة من يغالب فيه، أو يدفعها عنهم مرة بعد أخرى، بحسب تجرد قصد الإضرار بالمسلمين، كما في قوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ (٢). وقرأ المكي والبصري: «يدفع».

ثم علل ذلك الدفع بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أي: لأن الله يبغض كل خوان في أمانة الله تعالى، وهي: أوامره ونواهيه، ومن أعظمها: الإيمان بالله ورسوله. أو في جميع الأمانات، كفور لنعم الله. والمعنى: إن الله يدفع عنهم؛ لأنه يبغض أعداءهم، وهم: الخونة الكفرة، الذين يخونون الله والرسول، ويخونون أماناتهم. وصيغة المبالغة فيها؛ لبيان أنهم كذلك فيهما، لا لتقييد البعض بغاية الجناية؛ فإن الخائن معقوب مطلقاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إن الله يدفع عن أوليائه، والمتوجهين إليه، كل عائق وشاغل، وغائلة كل غائل، الذين حازوا ذروة الإيمان، وقصدوا تحقيق مقام الإحسان. فمن رام صدهم عن ذلك فهو خائن كفور، (إن الله لا يحب كل خوانٍ كفور). (كفور).

(١) من الآية ٥١ من سورة غافر.

(٢) من الآية ٦٤ من سورة المائدة.

ثم أمر بجهاد من صدّهم وعاقهم عن سبيل الله، فقال:

﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْجَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

قلت: (إلا أن يقولوا)، قيل: منقطع. وقال الزمخشري: في محل الجر، بدل من حق هـ. وهو على طريق قول الشاعر:

لَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُفْهِمُ بِهِمْ قَوْلٌ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَابِ

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَذِنَ ﴾ أى: رخص وشرع، أو أذن الله ﴿ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ أى: يُقاتلهم الكفار المشركون، وحذف المأذون فيه؛ لدلالة « يُقاتلون » عليه، أى: فى قتالهم، ﴿ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ﴾ أى: بسبب كونهم مظلومين، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج، فيتظلمون إليه، فيقول لهم رسول الله ﷺ: «اصبروا؛ فإنى لم أومر بالقتال». حتى هاجر، فنزلت هذه الآية (١). وهى أول آية نزلت فى الجهاد، بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية.

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾. وعدّ لهم بالنصر، وتأكيد لما مرّ من العدة الكريمة بالدفع، وتصريح بأن المراد ليس مجرد تخليصهم من يد المشركين، بل بغلبتهم وإظهارهم عليهم. وتأكيده بكلمة التحقيق. واللام؛ لمزيد تحقيق مضمونه، وزيادة توطين نفوس المؤمنين.

ثم وصف الذين أذن لهم، أو فسرهم، أو مدحهم بقوله: ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾، يعنى مكة: ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾؛ بغير ما يوجب إخراجهم ﴿ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ أى: بغير موجب سوى التوحيد، الذى ينبغى أن يكون موجبا للإقرار لا للإخراج. ومثله: ﴿ هَلْ تَقْمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ (٢).

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ ﴾: لولا أن يدفع الله الناس ﴿ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾؛ بتسليط المؤمنين على الكافرين فى كل عصر وزمان، وإقامة الحدود وكف الظالم، ﴿ لَهُدَمَتْ ﴾ أى: لخربت؛ باستيلاء الكفرة على الملل، ﴿ صَوَامِعُ ﴾:

(١) عزاه الواحدى فى الأسباب (٣١٨) والبغوى فى التفسير (٣٨٨/٥) للمفسرين. (٢) من الآية ٥٩ من سورة المائدة.

جمع صومعة - بفتح الميم، وهي: متعبد النصارى والصابئين منهم، ويسمى أيضا الدبر. وسمى بها موضع الأذان في الإسلام: ﴿وَبِيعْ﴾: جمع بيعة - بكسر الباء - : كنائس النصارى، ﴿وَصَلَوَاتُ﴾: كنائس اليهود، سميت بما يقع فيها، وأصلها: صَلَوَاتَا بالعبرانية، ثم عُرِيت، ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ للمسلمين، ﴿يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أى: ذكراً كثيراً، أو وقتاً كثيراً، صفة مадحة للمساجد، خُصت بها؛ دلالة على فضلها وفضل أهلها. وقيل يرجع للأربع، وفيه نظر؛ فإن ذكر الله تعالى في الصوامع والبيع والكنائس قد انقطع بظهور الإسلام، فقَصِدَ بيانه، بعد نسخ شرائعها مما لا يقتضيه المقام، ولا ترتضيه الأفهام. وقدمت الثلاثة على المساجد؛ لتقدمها وجوداً، أو لقربها من التهديم.

﴿وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ أى: وتالله، لينصرن الله من ينصر دينه ونبيه - عليه الصلاة والسلام - وأوليائه. ومن نصره: إشهاره وإظهاره، وتعليمه لمن لا يعلمه، وإعزاز حامل لوائه من العلماء والأولياء. وقد أنجز الله وعده، حيث سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم، وأورثهم أرضهم وديارهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: غالب على كل ما يريد، ومن جملته: نصرهم وإعلاؤهم.

ثم وصف الذين أخرجوا من ديارهم بقوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ قلت: الصواب ما قاله مكي: أنه بدل من: «مَنْ يَنْصُرُهُ»، فى محل نصب. قيل: المراد بهم: الصحابة - رضى الله عنهم -، وقيل: الأمة كلها. وقيل: الخلفاء الأربعة؛ لأنهم هم الذين مكَّنوا فى الأرض بالخلافة، وفعلوا ما وصفهم الله به. وفيه دليل صحة أمر الخلفاء الراشدين؛ لأن الله - عز وجل - أعطاهم التمكين، ونفذ الأمر مع السيرة العادلة. وعن عثمان رضي الله عنه: (هذا، والله، ثناء قبل بلاء)، يعنى: أن الله تعالى أثنى عليهم قبل ظهور الشر من الهرج والفتن فيهم. ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾؛ فإن مرجعها إلى حكمه وتقديره فقط. وفيه تأكيد للوعد بإظهار أوليائه وإعلاء كلمته.

الإشارة: إذا اتصل الإنسان بشيخ التربية فقد أذن له فى جهاد نفسه، إن أراد الوصول إلى حضرة ربه؛ لأنها ظالمة تحول بينه وبين سعادته الأبدية. وإن الله على نصرهم لقدير؛ لأن همة الشيخ تحمله وتنصره بإذن الله. وأما إن لم يتصل بشيخ التربية، فإن مجاهدته لنفسه لا تصيب مقاتلتها؛ لدخولها تحت الرماية، فلا يصيبها ضربه، وأما الشيخ؛ فلأنه يريه مساوئها ويعينه على قتلها.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغِيرَ حَقٍّ﴾؛ هم الذين أمروا بقتل نفوسهم، فإنهم إذا خرقوا عوائد نفوسهم، وخرجوا عن عوائد الناس، رفضوهم وأنكروهم، وربما أخرجوهم من ديارهم، فقل أن تجد ولياً بقى فى وطنه الأول، ومانقموا منهم وأخرجوهم إلا لقصدهم مولاهم، وقولهم: ربنا الله دون شئ سواه، فحيث خرجوا عن

عواندهم وقصدوا مولاہم، أنکروہم وأخرجوہم من أوطانہم، ولولا دفع الناس بعضهم ببعض؛ بأن شفع خيارہم فی شرارہم، لهدمت دعائم الوجود؛ لأن من آذى ولياً فقد آذن بالحرب.

قال القشيري: (ولولا دفع الله الناس)، أى: يتجاوز عن الأصاغر ليقدر الأكابر؛ استبقاء لمنازل العبادة، تلك سنة أجزاها. ثم قال: (الذين إن مكناهم فى الأرض)، أى: لم يشتغلوا فى ذلك بحفظ، ولكن قاموا لأداء حقوقنا. هـ.

ولما بشر نبيہ - عليه الصلاة والسلام - مع المؤمنين، بالدفع والنصر على سائر الملل، سلاه عن تكذيب قومه بقوله:

﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ لِّلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٌ مُّعْتَظَلَةٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ ﴾ يا محمد، أى: أهل مكة، فلا تحزن؛ فلست بأول من كذب، ﴿ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أى: قبل قومك ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ نوحاً، ﴿ وَعَادٌ ﴾ هوداً، ﴿ وَثَمُودٌ ﴾ صالحاً، ﴿ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ إبراهيم، ﴿ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ لوطاً، ﴿ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ﴾ شعيباً، ﴿ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ ﴾ كذبه فرعون والقيط. ولم يقل: وقوم موسى؛ لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه القبط. أو: كأنه لما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم، قال: وكذب موسى، مع وضوح آياته وظهور معجزاته، فما ظنك بغيره؟ ﴿ فَأَمَلَيْتُ لِّلْكَافِرِينَ ﴾: أمهلتهم وأخرت عقوبتهم، ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾: عاقبتهم على كفرهم، أى: أخذت كل فريق من فريق المكذبين، بعد انقضاء مدة إملائه وإمهاله، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى: إنكارى وتغييرى؛ حيث أبدلتهم بالنعم نقماً، وبالحياة هلاكاً، وبالعماره خراباً، فكان ذلك فى غاية ما يكون من الهول والفظاعة.

﴿ فَكَأَيِّنْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ أى: كثيراً من القرى أهلكناها وخريناها بإهلاك أهلها، ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أى: والحال أنها ظالمة بالكفر والمعاصى، ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾: ساقطة على عروشها، من خوى النجم: سقط. والمعنى أنها ساقطة على مقوفها، أى: خربت مقوفها على الأرض، ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف. ويجوز أن يكون على عروشها: خيراً بعد خبر، أى: فهي خالية من السكان، وهى على عروشها، أى: قائمة مشرفة على السقوف الساقطة. ﴿ وَبِئْرٌ مُّعْتَظَلَةٌ ﴾ أى: وكم من بئر متروكة مهملة فى البوادي والحوضر، لا يستسقى منها؛

لهلاك أهلها مع توفير مائها، ﴿وقصر مشيد﴾ : مرفوع البنيان، من شاد البنيان: إذا رفعه، أو مجصص بالشيد، أى: الجص، أى: مبنياً بالشيد والجندل.

وقال الضحاك: كانت هذه البئر المعطلة بحضرموت، فى بلدة يقال لها: حاضوراء، وذلك أن أربعة آلاف ممن آمن بصالح، ونجوا من العذاب، أتوا حضرموت، ومعهم صالح، فلما حضروا ذلك الموضع، مات صالح، فسمى حضرموت؛ لأن صالحاً لما حضره مات، فبنوا حاضوراء، وقعدوا على هذه البئر، فأقاموا دهرًا طويلاً، وتناسلوا حتى كثروا، ثم عبدوا الأصنام وكفروا، فأرسل الله إليهم نبياً يقال له: «حنظلة بن صفوان»، فقتلوه فأهلكهم الله، وعطلت بئرهم وخربت قصورهم (١) هـ.

وحاصل المعنى: وكم قرية أهلكناها، وكم بئر عطلناها عن سقائها، وقصر مشيد أخليناه عن ساكنه، أى، أهلكنا البادية والحاضرة جميعاً، فخلت القصور عن أربابها، والآبار عن روادها. فالأظهر أن البئر والقصر على العموم.

الإشارة: ما سلى به الرسل - عليهم السلام - تسلى به الأولياء - رضوان الله عليهم - فتكذيب أهل الخصوصية سنة ماضية، غير أن مكذبي الرسل يعاجلون بالعقوبة، ومكذبي الأولياء يعاقبون بالبعد والحجاب. وقال القشيري: (وبئر معطلة)، الإشارة إلى العيون المفجرة من بواطنهم، (وقصر مشيد)؛ الإشارة إلى تعطيل أسرارهم عن ساكنيها، من الهيبة والأنس وسائر المواجيد. هـ. قلت: وكأنه فسر القرية بالقلب، وهلاكه: خلاؤه من نور التوحيد، فقلوب الغافلين خاوية على عروش عقولهم، المطموس نورها، وعيون بواطنهم معطلة من الفكرة، وأسرارهم خاوية من نور النظرة. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بالاعتبار بمن سلف من القرون المهلكة والآبار المعطلة، فقال:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾﴾

(١) ذكر البغوى فى التفسير (٣٩٠/٥).

قلت: (أفلم): الفاء عطف على مقدر؛ أى أغفلوا فلم يسيروا فيعتبروا، (فإنها): ضمير القصة، أو مبهم يفسره ما بعده. (ولن يخلف الله وعده): حالية، أى: ينكرون مجيء العذاب الموعود، والحال: أنه تعالى لا يخلف وعده، أو اعتراضية مبينة لما ذكر، و(إن يوماً): استئنافية، إن كانت الأولى حالية، ومعطوفة، إن كانت اعتراضية سبقت لبيان خطأهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فيروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم الدارسة وقصورهم الخالية، وديارهم الخربة، فيعتبروا. وهو حث لهم على السفر ليشاهدوا ذلك. ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ﴾ بسبب ما شاهدوه من مظان الاعتبار ومواطن الاستبصار ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يعقل من التوحيد ونحوه، ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يسمع من الروى أو من أخبار الأمم المهلكة ممن يجاورهم من الناس؛ فإنهم أعرف بحالهم. قال ابن عرفة: لما تضمن الكلام السابق إهلاك الأمم السالفة، وبقيت آثارهم خراباً، عقبه بنم هؤلاء في عدم اتعاضهم بذلك. والسير في الأرض: إما حسي، أو معنوي باعتبار سماع أخبارها من الغير، أو قراءتها في الكتب. فقله: (فتكون لهم قلوب): راجع للسير الحسى، وقوله: (أو آذان) للسير المعنوي. هـ.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ الحسية، ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ﴾ عن التفكير والاعتبار، أى: ليس الخلل في مشاعرهم، ولكن الخلل في عقولهم، باتباع الهوى والانهماك في الغفلة. وذكر الصدور؛ للتأكيد، ونفى توهم التجوز؛ لأن قلب الشيء: لبه، فريما يقال: إن القلب يراد به غير هذا العضو، ولكل إنسان أربع أعين: عيان في رأسه، وعيان في قلبه، وتسمى البصيرة، فإن انفتح ما في القلب، وعمى ما في الرأس؛ فلا يضر، وإن انفتح ما في الرأس وانطمس ما في القلب لم ينفع، والتحق بالبهائم، بل هو أضل.

ثم ذكر علامة عمى القلوب، وهو الاستهزاء بالوعد الحق، فقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ المتوعد به؛ استهزاء وإنكاراً وتعجيزاً، ﴿وَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أى: يستعجلون به، والحال أنه تعالى لا يخلف وعده أبداً، وقد سبق الوعد به، فمن لا يخلف وعده فلا بد من مجيئه، ولو بعد حين. ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أى: كيف يستعجلونك بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنينكم؛ لأن أيام الشدة طوال. وقيل: تطول حقيقة، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «يَدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ، وَذَلِكَ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ» (١).

(١) أخرجه الترمذى فى (الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم)، وابن ماجه فى (الزهد، باب منزلة الفقراء)، من حديث أبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما. وينحوه أخرجه أبو داود فى (العلم، باب فى القصص) من حديث أبى سعيد الخدرى.

﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أُمْلِيتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ أى: كثيراً من أهل قرية كانوا ظالمين مثلكم، قد أمهلتهم حيناً وأمليت لهم، كما أمليت لكم، ثم أخذتهم بالعذاب والنكال بعد طول الإملاء والإمهال. والإملاء هو الإمهال مع إرادة المعاقبة. ﴿وَالِىُّ الْمَصِيرِ﴾ أى: المرجع إلى، فلا يفوتنى شيء من أمر المستعجلين وغيرهم، أو: إلى حكمى مرجع الكل، لا إلى غيرى، لاستقلالاً ولا شركة، فأفعل بهم ما يليق بأعمالهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: عمى القلوب هو انطماس البصيرة، وعلامة انطماسها أمور: إرسال الجوارح فى معاصى الله، والانهماك فى الغفلة عن الله، والوقعة فى أولياء الله، والاجتهاد فى طلب الدنيا مع التقصير فيما طلبه منه الله. وفى الحكم: «اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك». وعلامة فتحها أمور: المسارعة إلى طاعة الله، واستعمال المجهود فى معرفة الله، بصحبة أولياء الله، والإعراض عن الدنيا وأهلها، والأنس بالله، والغيبة عن كل ماسواه. واعلم أن البصر والبصيرة متقابلان فى أصل نشأتهما، فالبصر لا يبصر إلا الأشياء الحسية الحادثة، والبصيرة لا تبصر إلا المعانى الأزلية، فإذا انطمست البصيرة كان العبد مفروقاً عن الله، لا يرى إلا الأكوان الظلمانية الحادثة. وفى ذلك يقول المجذوب رحمته الله:

مَنْ نَظَرَ الْكَوْنَ بِالْكَوْنِ؛ غَرَّهُ: فى عمى البصيرة. ومن نظر الكون بالمكون: صادق، علاج السريرة

وإذا انفتحت البصيرة بالكلية استولى نورها على نور البصر، فانعكس نور البصر إلى البصيرة، فلا يرى العبد إلا أسرار المعانى الأزلية، المغنية للأروانى الحادثة، فيغيب عن رؤية الأكوان بشهود المكون. وعلاج انفتاحها يكون على يد طبيب ماهر عارف بالله، يقدحها له بمرود التوحيد، فلا يزال يعالجها بإثمد توحيد الأفعال، ثم توحيد الصفات، ثم توحيد الذات، حتى تنفتح. فتوحيد الأفعال والصفات يشهد قرب الحق من العبد، وتوحيد الذات يشهد عدمه لوجود الحق، وهو الذى أشار إليه فى الحكم بقوله: «شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق، لاعدمك ولا وجودك. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان». فيرى حينئذ من أسرار الذات وأنوار الصفات ما لا يراه الناظرون، ويشاهد ما لا يشاهده الجاهلون. وفى ذلك يقول الحلاج:

قُلُوبُ الْعَارِفِينَ لَهَا عُيُونٌ	تَرَى مَا لَا يَرَى لِلنَّاطِرِينَ
وَأَجْنَحَةٌ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيَشٍ	إِلَى مَلَكُوتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
وَأَلْسِنَةٌ بِأَسْرَارٍ تُنَاجِي	تَغِيبُ عَنِ الْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ

وقال المرتجى: الجهال يرون الأشياء بأبصار الظواهر، وقلوبهم محجوبة عن رؤية حقائق الأشياء، التي هي تلمع منها أنوار الذات والصفات، وأعماهم الله بغشاوة الغفلة وغطاء الشهوة. هـ.

ثم أمر نبيه بالجواب عن استعجالهم العذاب، فقال:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَأَلْذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾ أى: أنذركم إنذاراً مبيناً بما أوحى إلى من أخبار الأمم المهلكة، من غير أن يكون لى دخل فى الإتيان بما توعدونه من العذاب الذى تستعجلونه.. وإنما لم يقل: نذير ويشير، مع ذكر الفريقين بعده؛ لأن الحديث مسوق إلى المشركين فقط. والمراد بالناس: الذين قيل فيهم: (أفلم يسيروا فى الأرض)، ووصفوا بالاستعجال، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم؛ زيادة فى غيظهم. ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، ﴿ورزق كريم﴾ أى: حسن، وهى الجنة. والكريم من كل نعيم: ما يجمع فضائله ويحوز كمالاته.

﴿والذين سَعَوْا﴾، يقال: سَعَى فى أمر فلان: إذا أفسده بسعيه، أى: أفسدوا ﴿فى آياتنا﴾ أى: القرآن؛ بسعيهم فى إبطاله، ﴿معاجزين﴾ أى: مسابقين. وقرأ المكي والبصري: «معجزين». بالشد، أى: مثبطين الناس عن الإيمان. يقال: عاجزه: سابقه؛ لأن كل واحد منهما يطلب عجز الآخر، والحق به، فإذا غلبه، قيل: أعجزه وعجزه. والمعنى: سَعَوْا فى معانها بالفساد؛ من الطعن فيها، حيث سَمَوْها سحراً وشعراً وأساطير الأولين، مسابقين فى زعمهم وتقديرهم، طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم. ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ أى: ملازموا النار الموقودة. وقيل: هو اسم دركة من دركاتها.

الإشارة: الدعاة إلى الله تعالى إنما شأنهم التحذير والتبشير، ثم ينظرون ما يفعل الله فى ملكه وخلقه، من هداية أو إضلال، وليس من شأنهم طلب ظهور المعجزات، أو الكرامات، ولا الحرص على هداية الخلق بالكد والاجتهاد، إنما شأنهم التذكير، ويردون الأمر إلى الملك القدير، فلا يتأسفون على من تخلف عنهم.

وكان عليه الصلاة والسلام - يحرص على هداية قومه، فلما نهاه الحق تعالى عن ذلك، رجع وتأدب بكمال العبودية، وبه اقتدى خلفاؤه من بعده، فكان ﷺ فى أول أمره يتمنى أن ينزل عليه ما يقارب بينه وبين قومه، لعلهم يتدبرون فيما ينزل عليه فيسلموا، فقرأ يوماً سورة النجم، فألقى فى مسامعهم ما يدل على مدح آلهتهم، فحزن

- عليه الصلاة والسلام - حين نسبوا ذلك له ، فسلاه الله تعالى بقوله :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٢ ﴾
لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٣ ﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٤ ﴾

قال ابن عباس وغيره من المفسرين الأولين - رضى الله عنهم - : لما رأى النبي ﷺ مباحدة قومه وتوليهم ، وشق عليه ذلك تمنى أن يأتيه من الله تعالى ما يقارب بينه وبين قومه ، فجلس يوماً فى جمع لهم ، فنزلت سورة النجم ، فقرأها عليهم ، فلما بلغ : ﴿ أَقْرَأْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ (١) ، ألقى الشيطان على لسانه (٢) : تلك الغرائيق العلى وإن شفاعتهم لترجى هـ . قلت : بلى ، ألقى ذلك فى مسامعهم فقط ، ولم ينطق بذلك - عليه الصلاة والسلام - فلما سمعت ذلك قريش فرحوا ، ثم سجد النبي ﷺ فى آخر السورة ، وسجد المسلمون والمشركون ، إلا الوليد بن المغيرة ، رفع حفنة من التراب وسجد عليه ، فقالت قريش : ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر ، وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ، ويخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، فإذا جعل محمد لها نصيباً فنحن معه ، فلما أمسى أتاه جبريل . فقال يا محمد ؛ ما صنعت فقد تلوت على الناس ما لم آتك به ؟ فحزن النبي ﷺ حزناً شديداً ، فنزلت الآية ؛ تسلياً له عليه الصلاة والسلام .

فقال جل جلاله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ﴾ ، يوحى إليه بشرع ، ويؤمر بالتبليغ ، ﴿ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ يوحى إليه ، ولم يؤمر بالتبليغ ، فالرسول مكلف بغيره ، والنبي مقتصر على نفسه ، أو الرسول : من بعث بشرع جديد ، والنبي : من قرر شريعة سابقة ، ولذلك شبه ﷺ علماء أمته بهم ، فالنبي أعم من الرسول ، وقد سئل - عليه

(١) الآيتان : ١٩ - ٢٠ من سورة النجم .

(٢) النبي ﷺ معصوم من مثل ما جاء فى قصة الغرائيق ، ونسبة هذا إلى سيدنا ابن عباس وغيره - رضى الله عنهما - لا يصح ، وقد رد المحققون من المحدثين والمفسرين ، القصة أصلاً ، ويبدوا زيفها ، ونقدوها سداً ومتناً . يقول القاضى عياض فى الشفاء (٢/ ٧٥٠) : يكفيك فى توهين هذا الحديث أنه لم يخرج أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل . وإنما أولع به وبمثله المفسرون .

للمزيد راجع : تفسير القرطبي (١٢/ ٧٩) الألوسى (١٧/ ١٧٥ - ١٨٤) وكتاب الشفاء للقاضى عياض (٢/ ٧٥٠) والإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير : ص ٣١٤ وما بعدها .

الصلاة والسلام - عن الأنبياء، فقال: «مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، قِيلَ: فَكَمْ الرُّسُلُ مِنْهُمْ؟ قَالَ: ثَلَاثُمِائَةٌ وَثَلَاثَةٌ عَشْرٌ، جَمًّا غَفِيرًا» (١).

﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾؛ هيا في نفسه ما يهواه؛ كهداية قومه ومقاربتهم له، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾؛ في تشبيهه ما يوجب حصول ما تمناه، أو مقاربتة، كما ألقى في مسامع قريش ما يوجب مقاربتهم له - عليه الصلاة والسلام - ثم ينسخ الله ذلك، أو (إذا تمنى)؛ قرأ، كما قال الشاعر:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ تَمَنَّى دَاوُدَ الزُّبُورَ عَلَى رِسْلِ

﴿ألقى الشيطان في أمنيته﴾: في قراءته، حين قرأ سورة النجم بعد قوله: (ومناة الثالثة الأخرى)، تلك الغرائيق العلى، كما تقدم.

قال القشيري: كانت لنبيينا ﷺ سكتات، في خلال قراءته عند قراءة القرآن، عند انقضاء كل آية، فتلفظ الشيطان ببعض الألفاظ، فمن لم يكن له تحصيل توهم أنه من ألفاظ الرسول هـ. وقال ابن البنا: التمنى هو التلاوة التي يتمنى فيها، فيتلو النبي وهو يريد أن يفهم عنه معناها، فيلقى الشيطان في فهم السامعين غير المعنى المراد، وما قال الزمخشري: قرأ تلك الغرائيق العلى، على جهة السهو والغلط، فباطل، لقول الله العظيم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٢)، فهو معصوم من السهو والغلط في تبليغ الوحي هـ.

قلت: فتحصل أنه - عليه الصلاة والسلام - لم ينطق بتلك الكلمات قط، لاسهوا ولا عمدًا، وإنما ألقى في مسامع الكفار ليحصل ما تمناه - عليه الصلاة والسلام - من المقاربة. ويدل على هذا أن من حضر من المسلمين لم يسمعوا من ذلك شيئًا، فإذا تقرر هذا علمت أن ما حكاه السلف الصالح من المفسرين وأهل السير من أصل القصة في سبب نزول الآية صحيح، لكنه يحتاج إلى نظر دقيق وتأويل قريب، فلا تحسن المبادرة بالإنكار والرد عليهم، وهم عدول، لا سيما حبر هذه الأمة، وإنما يحتاج اللبيب إلى التطبيق بين المنقول والمعقول، فإن لم يمكن، قدم المنقول، إن ثبتت صحته، وحكم على العقل بالعجز. هذا مذهب المحققين من الصوفية - رضى الله عنهم - ونسبة الإلقاء إلى الشيطان أدب وتشريع؛ إذ لا فاعل في الحقيقة سواه تعالى.

﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أى: يذهب به ويبطله، أو يرشد إلى ما يزيحه، ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ أى: يثبتها ويحفظها عن لحوق الزيادة من الشيطان، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عليم بما يوحى إلى نبيه، حكيم فى وحيه، لا يدع الباطل يأتيه من بين يديه ولا من خلفه.

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٢٦٥/٥)، والطبرانى فى الكبير (٢٥٩/٨)، عن أبى أمامة، أن أباً ذر سأل رسول الله ﷺ... الحديث، وفيه: «وخمسة عشر»، وأخرجه، بلفظ المفسر، ابن حبان فى (العلم، باب السؤال للفائدة، ح ٩٤ موارد)، والبيهقى فى السنن الكبرى (٤/٩) عن أبى ذر.

(٢) الآيتان : ٣ - ٤ فى سورة النجم.

ثم ذكر حكمة ذلك الإلقاء، فقال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ أى: محنة وابتلاء ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾: شك وشك، ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ﴾: البعيدة من الخير، الخاربة من النور، واليابسة الصلبة، لارحمة فيها ولاشفقة؛ وهم المشركون المكذوبون، فيزدانون به شكاً وظلمة. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ وهم الكفرة المتقدمة، وودنع الظاهر موضع المضمر؛ تسجيلاً عليهم بالظلم، ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أى: عداوة شديدة ومخالفة تامة بعيدة عن الحق.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بالله ﴿أَنَّهُ﴾ أى: القرآن ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أى: النازل من عنده ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: بالقرآن ﴿فَتُخْبِتَ﴾: تطمئن، أو تخشع ﴿لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقياد إليه والإذعان لما فيه، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بالنظر الموصول إلى الحق الصريح، فيتأولوا ما تشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة، ويطلبوا، لما أشكل منه، المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة، حتى لا يلحقهم حيرة ولا تعزيرهم شبهة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا وقع التعبير من جانب الحق فكل واحد من المستمعين يسمع ما يليق بمقامه ويقويه فيه. فأهل الباطل يسمعون ما يليق بباطلهم ويمدهم فيه، وأهل الحق يسمعون ما يليق بحقهم ويرقيهم، فأهل الإيمان يسمعون ما يقوى إيمانهم ويزيدهم يقيناً، وأهل الوصول يسمعون ما يليق بمقامهم ويرقيهم فيه، وهكذا. وتأمل قضية الثلاثة الذين سمعوا قائلاً يقول: ياسعترأ برى. فسمع أحدهم: أسع تر برى، وسمع الآخر: الساعة ترى برى... وسمع الثالث: ما أوسع برى، فالأول: طالب للوصول، فقال له: أسع تر برى، والثاني: سائر مستشرف على الوصول، فقال له: الساعة ترى برى، والثالث: واصل قد اتسع عليه ميدان النعم، فقال له: ما أوسع برى. وكل من قدم على الأولياء فإنما يسمع بحسب ما عنده؛ فمن قدم عليهم بالميزان لا يسمع إلا ما يبعده، ومن قدم بالتصديق والتعظيم لا يسمع ولا يرى إلا ما يقربه من الكمالات والأنوار. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضد الذين أوتوا العلم الذين تحققوا بحقية القرآن، فقال:

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ٥٦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٥٧ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ٥٨ لِيَدْخِلَنَّهُمْ مَّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ٥٩﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية﴾: شك ﴿منه﴾؛ من القرآن، أو الصراط المستقيم، ﴿حتى تأتيهم الساعة بغتة﴾: فجأة، ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾، وهو عذاب يوم القيامة، كأنه قيل: حتى تأتيهم الساعة أو عذابها، فزاد اليوم العقيم؛ لمزيد التهويل. واليوم العقيم: الذي لا يوم بعده، كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيماً. وقيل: اليوم العقيم: يوم بدر، فهو عقيم عن أن يكون للكافرين فيه فرح أو راحة، كالريح العقيم؛ لا تأتي بخير، أو لأنه لا مثل له في عظم أمره؛ لقتال الملائكة فيه، ولكن لا يساعده ما بعده، من قوله: ﴿الملك يومئذ لله﴾ أي: السلطان القاهر، والتصرف التام، يومئذ لله وحده، ولا منازع له فيه، ولا تصرف لأحد معه، لاحقية ولا مجازاً، ولا صورة ولا معنى، كما في الدنيا، فإن للبعض فيه تصرفاً مجازياً صورياً. ﴿يحكم بينهم﴾ أي: بين فريق أهل المرية وأهل الإيمان

ثم بين حكمه فيهم، فقال: ﴿فالذين آمنوا﴾ بالقرآن الكريم ولم يماروا فيه، ﴿وعملوا الصالحات﴾ امتثالاً لما أمر به في تضاعيفه ﴿في جنات النعيم﴾، ﴿والذين كفروا﴾ بالقرآن وشكوا فيه، أو بالبعث والجزاء، ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ الدالة على كمال قدرتنا أو القرآن، ﴿فأولئك لهم عذاب مهين﴾، يهينهم ويخزيهم.

ثم خص قوماً من الفريق الأول بفضيلة، فقال: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله﴾: خرجوا من أوطانهم مجاهدين، ﴿ثم قتلوا﴾ في الجهاد، ﴿أو ماتوا﴾ حتف أنفهم، ﴿ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾، وهو ما لا ينقطع من نعيم الجنان. ومراتب الحسن متفاوتة، فيجوز تفاوت حال المرزوقين، حسب تفاوت أرزاق الجنة. روى أن بعض أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله؛ هؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا، فما لنا معك؟ فنزلت: ﴿والذين هاجروا...﴾ الآية، وقيل: نزلت في طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة، فتبعهم المشركون فقتلهم.

ثم قال تعالى: ﴿وإن الله لهو خير الرازقين﴾، فإنه يرزق بغير حساب، مع أن ما يرزقه لا يقدر عليه غيره، ﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونه﴾، وهو الجنة؛ لأن فيه ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، قيل: لما ذكر الرزق ذكر المسكن، ﴿وإن الله لعليم حلِيم﴾، عليم بأحوال من قضى نحبه مجاهداً، وآمال من مات وهو ينتظره معاهداً، حلِيم بأمهال من قاتلهم معانداً.

الإشارة: من لم يصحب العارفين أهل الرسوخ واليقين، لا يمكن أن تنقطع عنه خواطر الشكوك والأوهام، حتى يلقي الله بقلب سقيم، فيفضي إلى الهوان المقيم. والذين هاجروا في طلب محبوبهم لتكميل يقينهم، ثم قتلوا قبل الوصول، أو ماتوا بعد الوصول، ليرزقنهم الله جميعاً رزقاً حسناً، وهو لذة الشهود والعيان، في مقعد صدق مع

المقربين، (وإن الله لهو خير الرازقين). والمدخل الذي يرضونه: هو القرب الدائم، والشهود المتصل. جعلنا الله من خواصهم بمنه وكرمه.

ولما ذكر ثواب من هاجر وقتل في سبيل الله، أو مات، أخبر أنه لا يدع نصرتهم في الدنيا على من بغى عليهم، فقال:

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ ۗ اللَّهُ إِنَّهُ لَغَفُورٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ۗ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾

قلت: (ذلك): خبر، أى: الأمر ذلك. (من عاقب): شرط سدّ مسد جوابه، أى: من عاقب بمثل ما عوقب به ينصره الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ذلك ﴾ أى: الأمر ذلك، كما أخبرتك في بيان الفريقين، ثم استأنف فقال: ﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾ أى: لم يزد في القصاص على ما فعل به، وسمى الابتداء عقاباً؛ للمشاكلة وللملابسته له، من حيث إنه سبب له وهو مسبب عنه. ﴿ ثم بغى عليه لينصرته الله ﴾ أى: من جازى بمثل ما فعل به من الظلم، ثم ظلم، بعد ذلك، وبغى عليه بعد ذلك، فحق على الله أن ينصره، ﴿ إن الله لغفورٌ ﴾ يمحو آثار الذنوب، ﴿ غفورٌ ﴾ يستر أنواع العيوب.

ومناسبة الوصفين لما قبلهما: أن المعاقب مأمور بالعفو من عند الله، بقوله: ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ (١)، ﴿ وللمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ (٢)، فحين لم يفعل ذلك، وانتصر لنفسه، فكأنه مذنب، فمعنى العفو في حقه أنه لا يلزمه على ترك الفضل شيء، وأنه ضامن لنصره في الكرة الثانية، إذا ترك العفو وانتقم من الباغي عليه، وعرض، مع ذلك، بما كان أولى به من العفو بذكر هاتين الصفتين.

(١) من الآية ٤٠ من سورة الشورى.

(٢) الآية ٤٣ من سورة الشورى.

ثم ذكر دلائل قدرته على النصر وغيره بقوله: ﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى: ذلك النصر للمظلوم بسبب أنه قادر على ما يشاء. ومن آيات قدرته أنه (يُولِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) أى: يُدْخِلُ أَحَدَهُمَا فِي الْآخَرِ، فيدخل الليل في النهار إذا طال النهار، ويدخل النهار في الليل إذا طال الليل، فيزيد في أحدهما ما ينقص من الآخر. أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما، بإدخال أحدهما على الآخر، فلا يخفى عليه ما يجرى فيهما على أيدي عباده من الخير والشر، والبلغى والإنصاف. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون، لا يشغله سمع عن سمع، وإن اختلفت في النهار الأصوات بفنون اللغات، ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يفعلون، فلا يستتر عنه شيء بشيء في الليالي، وإن توالى الظلمات.

﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ﴾ الواجب لذاته، الثابت في نفسه، الواحد في صفاته وأفعاله، فإن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان كونه مبدئاً لكل ما يوجد من الموجودات، عالماً بكل المعلومات. وإذا ثبت أنه الحق فدينه حق، وعبادته حق، ﴿وَأَنْ مَا تَدْعُونَ^(١) مِنْ دُونِهِ﴾ إلهاً ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أى: المعدوم في حد ذاته. أو الباطل ألوهيته، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أى: المتعالى عن مدارك العقول، وعن سمات الحدوث، أو المرتفع على كل شيء بقهره، أو المتعالى عن الأنداد والأشباه، الكبير شأناً وعظمةً وكبرياءً؛ إذ كل شيء يصغر دون كبريائه، فلا شيء أعلى منه شأناً وأكبر سلطاناً؛ لأن له الوجود المطلق. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ومن عاقب نفسه وجاهدها وأدبها في أيام اليقظة، بمثل ما عاقبته وجنت عليه وطمغت في أيام الغفلة، ثم صرعه بعد ذلك وغلبته؛ لينصرنه الله عليها، حتى يغلبها ويملكها، فكلما هاجت عليه هجم عليها، حتى يملكها؛ ذلك بأن الله يُولِّجُ لَيْلَ الْمَعْصِيَةِ فِي نَهَارِ الطَّاعَةِ، وَيُولِّجُ نَهَارَ الطَّاعَةِ فِي لَيْلِ الْمَعْصِيَةِ، أى: يدخل أحدهما على الآخر، فلا يزال العبد يعصى ويطيع حتى يمن عليه بالتوبة النصوح. أو يُولِّجُ لَيْلَ الْمَعْصِيَةِ فِي نَفْسِ الطَّاعَةِ، فتقلب الطاعة معصية، إذا صاحبها علو واستكبار. ويُولِّجُ نَهَارَ الطَّاعَةِ فِي عَيْنِ الْمَعْصِيَةِ، فتقلب طاعة إذا صاحبها ذل وافتقار. ذلك بأن الله هو الحق، وأن ما دونه باطل.

(١) قرأ أبو عمرو، وحمزة والكسائي وحفص ويعقوب، بالياء، على الغيب. وقرأ الباقون بالتاء، على الخطاب.. انظر الإتحاف (٢٧٩/٢)

ثم ذكر دليلاً آخر على قدرته، فقال:

﴿الْمُتَرَاتِبَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ٦٣ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ٦٤ ﴿الْمُتَرَاتِبَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ٦٥ ﴿

قلت: (فتصبح): عطف على «أنزل»، والعطف بالفاء أغنى عن الضمير، وإيثار صيغة الاستقبال؛ للإشعار بتجدد أثر الإنزال، وهو الاخضرار واستمراره، أو لاستحضار صورة الاخضرار، وإنما لم ينصب جواباً للاستفهام؛ لأنه لو نصب لبطل الغرض؛ لأن معناه في الرفع إثبات الاخضرار، فينقلب في النصب إلى نفيه، كما تقول لصاحبك: ألم تر أنني أنعمت عليك فتشكر، إن نصبت نفيته شكره، وشكوت من تفريطه، وإن رفعته أثبت شكره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم تر﴾ يا محمد، أو يا من يسمع، ﴿أن الله أنزل من السماء ماء﴾؛ مطراً ﴿فتصبح الأرض مخضرة﴾ بالنبات، بعدما كانت مسودة يابسة، ﴿إن الله لطيف﴾ بعباده، أو في ذاته لا يدرك، ﴿خبير﴾ بمصالح خلقه ومدافعهم، أو اللطيف المختص بدقائق التدبير، الخبير بكل جليل وحقيق، قليل وكثير. ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾؛ ملكاً وملكاً، قد أحاط بهم؛ قدرة وعلماً، ﴿وإن الله لهو الغنى﴾ عن كل شيء، المفتقر إليه كل شيء، ﴿الحميد﴾: المحمود بنعمته، قبل ثناء من في السموات والأرض عليه، أو المستحق للحمد، أعطى أو لم يعط.

ثم ذكر موجب الحمد من عباده، فقال: ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ من الأنعام؛ لتأكلوا منها، ومن البهائم؛ لتركبوها في البر، ﴿والفلك تجري في البحر بأمره﴾: بقدرته وإذنه، أي: وسخر لكم المراكب حال كونها جارية في البحر بإذنه، ﴿ويُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ أي: يحفظها من السقوط، بأن خلقها على هيئة متداعية إلى الاستمساك، ﴿إلا بإذنه﴾: إلا بمشيئته، وذلك يوم القيامة، وفيه رد لاستمساكها بذاتها؛ فإنها مساوية لسائر الأجسام في الجسمية، فتكون قابلة للميل الهابط قبول غيرها. ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾؛ حيث هيا لهم هذه الأسباب لقيام معاشهم، وفتح لهم أبواب المنافع، ودفع عنهم أنواع المضار، فأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية، فله الحمد وله الشكر.

الإشارة : ألم تر أن الله أنزل من سماء المعاني ماء علم الغيوب، وهو علم أسرار الذات وأنوار الصفات، أعنى: التوحيد الخاص، فإذا نزل على أرض النفوس، اهتزت وريت، واخضرت بالعلوم والمعارف، إن الله لطيف خبير، لطيف؛ لسريان معانيه اللطيفة في كل شيء، خبير ببواطن كل شيء، فمن كوشف بلطيف معانيه وإحاطة علمه في كل شيء، وبكل شيء، حيى قلبه بمعرفة الله، واخضرت أرض نفسه بأنواع العلوم والمعارف. ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض، يكون عند أمركم ونهيكم، وفلك الفكرة تجرى فى بحر التوحيد بأمره، ويمسك سماء الأرواح أن تقع على أرض الحظوظ إلا بإذنه، بعد الرسوخ فى معرفته، والتمكين من الفهم عنه، إن الله بالناس لرؤوف رحيم؛ حيث فتح لهم باب العلوم، وهياً لهم أسباب الفهم، وهى الرياضة والتأديب.

ثم ذكر دليلاً آخر على قدرته، فقال:

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ (٦٦)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وهو الذي أحياكم ﴾ بعد أن كنتم جماداً، عناصر ونطفاً فى الأصلاب والأرحام، حسبما فصل فى صدر السورة، ﴿ ثم يميتكم ﴾ عند مجيئه آجالكم، ﴿ ثم يحييكم ﴾ عند البعث، لإيصال جزائكم، ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ : لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم، ودفع عنه من صنوف النقم، أو لا يعرف نعمة الإيجاد المظهرة للوجود، ولانعمة الإمداد الممدة بعد الوجود، ولا نعمة الإفناء المقربة إلى الموعود، ولانعمة الإحياء الموصلة إلى المقصود، وهو التمتع فى جوار الملك الودود، فله الحمد دائماً وله الشكر.

الإشارة : وهو الذى أحياكم باليقظة بعد الغفلة، وبالعلم بعد الجهل، ثم يميتكم عن حظوظ نفوسكم وهواها، ثم يحييكم بالمعرفة به، حياة لا موت بعدها، فمن لم يعرف هذا فهو كنود.

ولا يمكن الوقوف على هذه النعم والقيام بشكرها، إلا بالتمسك بالشرع والوحي الإلهي، الذى أنزل الله على كل أمة، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٦٧) وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ لكل أمة ﴾ من الأمم الخالية والباقية ﴿ جعلنا ﴾ أى : وضعنا، وعيّننا ﴿ منسكاً ﴾ : شريعة خاصة يتمسكون بها، أى : عيّننا كل شريعة لأمة معينة من الأمم، بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، فكل جيل لهم شرع مخصوص، هم ناسكوه ﴿ : عاملون به، فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى - عليهما السلام - منسكهم النوراة، هم عاملون به لا غيرهم. والثى كانت من مبعث عيسى ﷺ إلى مبعث النبى ﷺ منسكهم الإنجيل، هم ناسكوه وعاملون به. وأما الأمة الموجودة عند مبعث النبى - عليه الصلاة والسلام - ومن بعدهم إلى يوم القيامة؛ فهم أمة واحدة، منسكهم القرآن، ليس إلا.

والفاء فى قوله : ﴿ فلا ينازعنك فى الأمر ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ فإن تعيين كل أمة بشرع مخصوص، يجب اتباعه، يوجب اتباع هؤلاء الموجودين لرسول الله ﷺ وعدم منازعتهم له فى أمر الدين، أى : فلا يجادلنك فى أمر الدين، بل يجب عليهم الاستسلام والانقياد لكل أمر ونهى. أو : فلا تلتفت إلى قولهم، ولا تمكنهم من أن ينازعوك فى الأمر، أى : أمر الدين أو أمر الذبائح. قيل : نزلت حين قال المشركون للمسلمين : ما لكم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله ؟ يعنى : الميتة، فأمر الله بالغيبة عنهم، وعدم الالتفات إلى قولهم. ﴿ وادع إلى ربك ﴾ أى : دم على الدعاء إلى الله، والتمسك بدينه القويم؛ ﴿ إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ : طريق قويم موصل إلى الحق.

﴿ وإن جادلوك ﴾ بعد ظهور الحق؛ مرء وتعتنا، كما يفعله السفهاء، بعد اجتهداك ألا يكون بينك وبينهم تنازع وجدال، ﴿ فقل الله أعلم بما تعملون ﴾ أى : فلا تجادلهم، وادفعهم بهذا القول، والمعنى : إن الله عالم بأعمالكم وما تستحقون عليها من الجزاء، فهو يجازيكم به. وهذا وعيد وإنذار، ولكن برفق ولين، يجيب به العاقل كل متعنت سفيه. قال تعالى : ﴿ الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ من أمر الدين، وهو خطاب من الله تعالى للمؤمنين والكافرين، تسلية لرسول الله ﷺ مما كان يلقى منهم.

﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض ﴾، الاستفهام للتقرير، أى : قد علمت أن الله يعلم كل ما يحدث فى السماء والأرض، ولا يخفى عليه شئ من الأشياء، ومن جملتها : ما تقوله الكفرة وما يعملونه، ﴿ إن ذلك فى كتاب ﴾ : فى اللوح المحفوظ، ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أى : علمه بجميع ذلك عليه يسير، فلا يخفى عليه

معلوم، ولا يعسر عليه مقدور. ﴿ويعبدون من دون الله﴾ أى: متجاوزين إياه، مع ظهور دلائل عظمتهم وقدرته وتوحيده، ﴿مالم ينزل به سلطاناً﴾: حجة وبرهاناً، ﴿وما ليس لهم به علم﴾ أى: وما ليس لهم بجواز عبادته علم؛ من ضرورة أو استدلال، أى: لم يتمسكوا فى عبادتهم لها ببرهان سماوى من جهة الوحي، ولا حملهم عليها دليل عقلى، بل لمجرد التقليد الردى، ﴿وما للظالمين من نصير﴾ أى: وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم العظيم من أحد ينصرهم، أو يصوب مذهبهم، أو يدفع العذاب عنهم، حين يعترهم بسبب ظلمهم. والله تعالى أعلم

الإشارة: كما اختلفت الشرائع باختلاف الملل، اختلفت التربية باختلاف الأشخاص والأعصار، وقد تقدم عند قوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (١). وجعلتها ترجع إلى الهمة والحال، وبهما كانت التربية فى الصدر الأول، فكانت الملاقاة والصحبة تكفى، ويحصل التهذيب والتصفية وكمال المعرفة. وذلك فى زمان الصحابة والتابعين إلى القرن الثالث، لقربهم من النور النبوى. فلما بعد الأمر، وأظلمت القلوب، أحدثوا تربية الاصطلاح، وهو التزى بزي مخصوص، كالمرقعة وحمل السبحة فى العنق، والركوة، وغير ذلك من مسائل التجريد، وترتيب أمور تموت بها النفوس وتعالج بها القلوب، واستعمال أوراد مخصوصة، فكانت التربية حينئذ بالهمة والحال والاصطلاح. وقد تحصل التربية لمن له الهمة والحال بغير اصطلاح، إذا رآه ينجح فيه ذلك، فبقى الأمر كذلك إلى القرن التاسع، فتصدى للتربية بالاصطلاح قوم مدعون، لا همة لهم ولا حال، فقال الحضرمى حسماً لهذه الدعوى: قد انقطعت التربية بالاصطلاح، وما بقى إلا الهمة والحال، فطركم بالكتاب والسنة، أى: بظاهر الكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان، يعنى طريق الأحوال والاصطلاح. ومراده بذلك: قطع التربية بالاصطلاح من غير همة ولا حال. وأما من له الهمة والحال فلا يقصد الحضرمى قطع تربيته بالاصطلاح. والحاصل: أن الحضرمى ما حكم إلا على وقته؛ لما رأى من الفساد الذى دخل فى التربية. وقد وجد بعده رجال مربيون بالاصطلاح مع الهمة والحال. والمراد بالهمة: العلم بالله على نعت الشهود والعيان، وبالحال: إنهاض القلوب عند رؤيته لذكر الله؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام - «خَيْرُكُمْ مَنْ إِذَا رُؤِيَ ذَكَرَ اللَّهَ». ولا بد من إذن خاص من الشيخ، أو من يقوم مقامه، وإلا فلا تنجح تربيته، ولا ينهض حاله. والله تعالى أعلم.

فإن تأملت للتربية بإذن خاص، فلا ينزعك فى الأمر، أى: لا تلفت إلى من ينازعك ويحتج عليك بانقطاع التربية؛ تعنتاً وعناداً. وادع إلى ربك، إنك لعلى هدى مستقيم. قال القشيري: قوله: (وإن جادلوك...) الخ، أى:

(١) من الآية ٤٨ من سورة المائدة.

كُلُّهُمْ إِلَيْنَا، عندما راموا أمر الجدل، ولا تتكل على ما تختاره من الاحتيال، واحذر جنوح قلبك إلى الاستغاثه بالأمثال والأشكال؛ فإنهم قوالب خاوية. وأشباح من رؤية المعاني خالية. هـ. ويوم القيامة يظهر المحق من المبطل، ويقال في شأن من يعبد هواه: (ويعبدون من دون الله...) الآية.

ثم ذكر وصفاً آخر لأهل الإنكار، فقال:

﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيَّنَّتْ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

قلت: (وإذا تلى): عطف على «يعبدون»، وصيغة المضارع؛ للدلالة على الاستمرار التجددى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أى: على المشركين ﴿آيَاتُنَا﴾ القرآنية، حال كونها ﴿بينات﴾: واضحات الدلالة على العقائد الحقية، والأحكام الصادقة، ﴿تعرّف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾ أى: الإنكار بالعبوس والكراهة، فالمُنكر: مصدر بمعنى الإنكار. ﴿يكادون يسطون﴾: يبطشون، والسطو: الرتب والبطش، أى: يثبون على الذين ﴿يتلون عليهم آياتنا﴾؛ من فرط الغيظ والغضب، والتالون هم: النبي ﷺ وأصحابه. ﴿قل﴾ لهم: ﴿أفأنبئكم بشر من ذلكم﴾؛ من غيظكم على التالين و سطوكم عليهم، أو مما أصابكم من الكراهة والضجر، بسبب ما يتلى عليكم، هو ﴿النار وعدّها الله الذين كفروا﴾ مثلكم، ﴿وبشّر المصير﴾ النار، التى ترجعون إليها مخلدين.

الإشارة: من شأن أهل العتو والتكبر أنهم إذا وعظهم الفقراء عنفوا واستنكفوا، ويكادون يسطون عليهم من شدة الغضب، فما قيل لكبراء الكفار يجر ذيله على من تشبه بهم من المؤمنين.

ولما كان دعواهم الشريك لله تعالى جارية فى الغرابة والشهرة مجرى الأمثال السائرة، ضرب لها الحق تعالى مثلاً، فقال:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ؕ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ؕ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ

الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل﴾ أى: يبين لكم حال مستغربة، أو قصة بديعة رائقة حقيقة بأن تسمى مثلاً، وتنتشر فى الأمصار والأعصار، ﴿فاستمعوا له﴾؛ لضرب هذا المثل؛ استماع تدبر وتفكر، وهو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾، وعن يعقوب: بياء الغيبة، أى: إن الذين تدعونهم آلهة وتعبدونهم ﴿من دون الله لن يخلقوا ذباباً﴾ أى: لن يقدروا على خلقه أبداً، مع صغره وحقارته. والى: لتأبيد النفس، فتدل على استحالة، ﴿ولو اجتمعوا له﴾ أى: الذباب. ومحله: نصب على الحال، كأنه قال: لا يقدرون على خلقه مجتمعين له، متعاونين عليه، فكيف إذا كانوا منفردين؟! وهذا أبلغ ما أنزل فى تجهيل قريش، حيث وصفوا بالآلوهية - التى من شأنها الاقتدار على جميع المقدورات، والإحاطة بكل المعلومات - صوراً وتماثيل، يستحيل منها أن تقدر على أضعف ما خلقه الله تعالى وأذله، ولو اجتمعوا له.

﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً﴾ من الطيب وغيره، ﴿لا يستنقذوه منه﴾ أى: هذا الخلق الأرذل الأضعف، لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه، لم يقدروا، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنهم كانوا يطلونها بالعسل والطيب، ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب من الكوى^(١) فيأكله، فتعجز الأصنام عن أخذه. ﴿ضعف الطالب﴾: الصنم يطلب ما سلب منه، ﴿والمطلوب﴾: الذباب بما سلب. وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب فى الضعف، ولو حققت لوجدت الطالب أضعف وأضعف؛ فإن الذباب حيوان والصنم جماد.

﴿ما قدروا الله حق قدره﴾: ما عرفوه حق معرفته، حيث جعلوا هذا الصنم الضعيف شريكاً له، ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ أى: قادر غالب، فكيف يتجه أن يكون العاجز المغلوب شبيهاً له! أو: لقوى ينصر أوليائه، عزيز ينتقم من أعدائه. بعد أن ذكر تعالى أنهم لم يقدروا له قدراً؛ حيث عبدوا معه من هو منسلخ من صفاته، وسموه باسمه مع عجزه. ختم بصفتين منافيتين لصفات آلهتهم؛ وهى القوة والغلبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من تعلق فى حوائجه بغير الله أو ركن بالمحبة إلى شيء سواه، فقد أشرك مع الله أضعف شيء وأقله. فماذا يجدى تعلق العاجز بالعاجز، والضعيف بالضعيف، ضعف الطالب والمطلوب. فما قدر الله حق قدره من تعلق فى أموره بغيره. قال الورتجى: بين سبحانه - بعد ذكر عجز الخلق والخلقة - جلال قدره الذى لا يعرفه غيره، بقوله: (ما قدروا الله حق قدره)، قال: وهذه شكاية عن إشارة الخلق إليه بما هو غير موصوف به، فذكر

(١) الكوى: جمع كوة، ويجمع أيضاً على كواء. وهى الخرق فى الحائط. انظر: اللسان (كوى ٥/٣٩٦٤). والخبر: ذكره البغوى فى تفسيره (٤٠٠/٥).

غيرته؛ إذ أقبلوا إلى غير من هو موصوف بالقوة الأزلية والعزة السرمدية. ألا ترى كيف قال: (إن الله لقوى عزيز)، ثم بين أنه تعالى اصطفى من الملائكة رسلاً، يخبرون عنه ما يتعلق بعجز الخلق عن إدراكه من وصف ذاته وصفاته، بقوله:

﴿ اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
بَصِيرٌ ﴾ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿الله يصطفى﴾: يختار ﴿من الملائكة رسلاً﴾ يرسلهم إلى صفوة خلقه، كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم، ﴿ومن الناس﴾، كإبراهيم وموسى وعيسى ونبيينا محمد ﷺ، يعرفون بجلال الله ومعرفة قدره، حتى يقدره حق قدره باعتبارهم لا باعتبارهم؛ فإن الله تعالى لا يمكن لأحد أن يقدره حق قدره. قال سيد العارفين: «لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك». وقيل: نزلت؛ رداً لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر، وبياناً أن رسل الله على ضربين: ملك وبشر. وقيل: نزلت في قولهم: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ (١). ﴿إن الله سميع بصير﴾ أى: سميع لقولهم، بصير بمن يختاره للرسالة. أو سميع لأقوال الرسل، بصير بأحوال الأمم في الرد والقبول. ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾: ما مضى، ﴿وما خلفهم﴾: ما يأتى، أو ما عملوا وما سيعملونه، أو أمر الدنيا وأمر الآخرة، ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أى: إليه مرجع الأمور كلها، ليس لأحد أن يعترض عليه فى حكمه وتدبيره واختياره من شاء من رسله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: شرب الخمرة، وهى المحبة الحقيقية والمعرفة الكاملة، لا تكون إلا على أيدي الوسائط، والنادر لاحكم له، فالأنبياء وسائطهم الملائكة، والأولياء وسائطهم خلفاء الأنبياء، وهم أهل العلم بالله الذوقى العيانى. وقال الورنجى - إثر ما تقدم عنه -: فالملائكة وسائط الأنبياء، والأنبياء وسائط العموم، والأولياء للأولياء خاصة. هـ. وتوسيط الأنبياء للعموم فى مطلق المحبة، وتعليم ما يقرب إليها، وأما المحبة الحقيقية فهى خاصة بالأولياء للأولياء، كما قال. وبالله التوفيق.

ثم ذكر سببها، وما يقرب إليها، فقال:

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا

(١) من الآية ٨ من سورة ص.

الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

قلت : (ملة أبيكم) : منصوب بمحذوف، أى : اتبعوا ملة إبراهيم.

يقول الحق جل جلاله : ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا﴾ في صلاتكم، وكانوا أول ما أسلموا يصلون بلا ركوع وسجود، فأمرُوا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود، وفيه دليل على أن الأعمال ليست من الإيمان، وأن هذه السجدة للصلاة لا للتلاوة، قاله التنفسي. ﴿واعبدوا ربكم﴾ أى : واقصدوا بعبادتك وجه الله، وأخلصوا فيها، أو هو عطف عام على خاص؛ فإن العبادة أعم. ﴿وافعلوا الخير﴾ كله. قيل : لما كان للذكر مزية على غيره دعا المؤمنين أولاً للصلاة التى هى ذكر خالص؛ لقوله : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(١)، ثم إلى العبادة بغير الصلاة، كالصوم والحج، ثم عم بالحث على سائر الخيرات. وقال ابن عرفة : وافعلوا الخير : راجع للعبادة المتعدية، وما قبله يختص بالقاصرة. قال المحشى : وفيه نظر؛ لشمول العبادة لما هو متعدى النفع، كتعليم العلم، والصدقة، ونحو ذلك، بل أمر أولاً بالصلاة، وهى نوع من العبادة، وثانياً بالعبادة، وهى نوع من فعل الخير، وثالثاً بفعل الخير، وهو أعم من العبادة. فبدأ بخاص ثم عام ثم بأعم. هـ. ﴿لعلكم تفلحون﴾ : كى تفوزوا، أى : افعلوا هذا كله، وأنتم راجعون للفلاح غير مستيقنين، فلا تتكروا على أعمالكم.

﴿وجاهدوا في الله﴾ أى : فى ذات الله ومن أجله ﴿حق جهاده﴾، أمر بالغزو ومجاهدة النفس والهوى، وهو الجهاد الأكبر، ومنه : كلمة حق عند أمير جائر. قال - عليه الصلاة والسلام - : «أعمال البر كلها، إلى جنب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كنفته إلى جنب البحر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى جنب الجهاد فى سبيل الله عز وجل كنفته فى بحر، والجهاد فى سبيل الله عز وجل إلى جنب مجاهدة النفس عن هواها فى اجتناب النهي، كنفته فى جنب بحر لحي». وهذا على معنى الخبر الذى جاء : «جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»^(٢). يعنى : مجاهدة النفس. قاله فى القوت.

(١) من الآية ١٤ من سورة طه.

(٢) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس (تسديد القوس، باب القاف، قدمت من الجهاد الأصغر)، والخطيب البغدادي فى تاريخ بغداد (٥٢٣/١٣) من حديث جابر، بالفاظ مقاربة، وآخره : «وما الجهاد الأكبر؟ قال : مجاهدة العبد هواه». وإسناده ضعيف. راجع الفتح السماوى (٨٥١/٢)، وكشف الخفاء (٥١١/١).

قال النقشيري: حق الجهاد ما يوافق الأمر في القدر والوقت والنوع، فإذا حصل في شيء منه مخالفة فليس حق جهاده. هـ. قلت: موافقة القدر، في جهاد النفس، أن يكون بغير إفراط ولا تفريط، فالإفراط يمل، والتفريط يخل، وموافقة الوقت أن يكون قبل حصول المشاهدة؛ إذ لا تجتمع مجاهدة ومشاهدة في وقت واحد. والنوع أن يجاهدها بما يباح في الشرع، لا بمحرم ولا مكروه. وقال في الحاشية: هو الوفاء بالمشروع مع رفع الحرج، بدليل ما بعده، فهو موافق لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(١)، ومما هو ظاهر في الآية: الذب عن دينه وتغيير المناكر. هـ.

﴿هو اجتباكم﴾: اختاركم لدينه بإظهاره والذب عنه، وهو تأكيد للأمر بالجهاد، أي: وجب عليكم أن تجاهدوا؛ لأن الله اختاركم لإظهار دينه، ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾: ضيق، بل وسع عليكم في جميع ما كلفكم به، من الطهارة، والصلاة والصوم والحج، بالتييم والإيماء، وبالقصر في السفر، والإفطار لعذر، وعدم الاستطاعة في الحج. فاتبعوا ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾؛ فإن ما جاءكم به رسولكم موافق لملته في الجملة، لقوله ﴿جئناكم بالحنيفية السمحة﴾^(٢).

وسماه أباً، وإن لم يكن أباً للأمة كلها؛ لأنه أبو رسول الله ﷺ فكان أباً لأمته؛ لأن أمة الرسول في حكم أولاده. قال ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ»^(٣).

﴿هو سماكم المسلمين﴾ أي: الله، بدليل قراءة أبي: «الله سماكم» أو إبراهيم لقوله: ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾^(٤) من قبل ﴿أي: سماكم من قبل ظهورهم في الكتب السالفة﴾ وفي هذا ﴿أي: القرآن، فقد فضلكم على سائر الأمم، وسماكم بهذا الاسم الأكرم، ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾ أنه قد بلغكم رسالة ربكم، ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾ بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم. وإذا خصكم بهذه الكرامة والأثرة ﴿فأقيموا الصلاة﴾ بواجباتها، ﴿وآتوا الزكاة﴾ لشرائطها، ﴿واعتصموا بالله﴾ أي ثقوا به وتوكلوا عليه، لا بالصلاة والزكاة. أو: ثقوا به في جميع أموركم، ولا تطلبوا الإعانة والنصر إلا منه. ﴿هو مولاكم﴾: مالكم وناصركم ومتولى أموركم، ﴿فنعم المولى﴾؛ حيث لم يمنعكم رزقكم بعصيانكم، ﴿ونعم النصير﴾ أي: الناصر؛ حيث أعانكم على طاعتكم ومجاهدة نفوسكم وأعدائكم.

(١) من الآية ١٦ من سورة التغابن.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٦٦/٥)، والطبراني في الكبير (٢٥٧/٨ رقم ٧٨٦٨) من حديث أبي أمامة بلفظ: «إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة».

(٣) بعض حديث أخرجه أبو داود في (الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة)، والنسائي في (الطهارة، باب النهي عن الاستطابة بالروث)، وابن ماجه في (الطهارة، باب الاستنجاء بالحجارة)، والدارمي في (الطهارة، باب الاستنجاء بالأحجار) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) من الآية ١٢٨ من سورة البقرة.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا تقربوا إلى بأنواع الطاعات وبالمسارعة إلى الخيرات، لعلمكم تفوزون بمعرفة أسرار الذات وأنوار الصفات، وجاهدوا نفوسكم بأنواع المجاهدات، كي أجتبيكم وأنزهكم في أسرار ذاتي، فإني قد اجتبيتكم قبل كونكم في أزل أزلي. وكأنه يشير إلى قوله: «لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به...» الحديث.

والمأمور به من التقرب والمجاهدة قدر الاستطاعة، من غير تشديد ولا تعقيد، لقوله: (وما جعل عليكم في الدين من حرج)؛ لأن مبنى الشرع الكريم على السهولة، فالذى يتوصل إلى رضوانه أو صريح معرفته، لا يشترط أن يستغرق كنه إمكان العبد فيه. «لو كنت لاتصل إليه إلا بعد فناء مساوئك ومحو دعاويك، لم تصل إليه أبداً، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه، ونَعَتَكَ بِنَعْتِهِ، فوصلك بما منه إليك، لا بما منك إليه». كما في الحكم.

وقال الورنجي: (وما جعل..) الآية، أى: إذا شاهدتم مشاهد جمالي سهل عليكم فناؤكم في جلالي، وسهل عليكم بذل مهجكم إليه. ألا ترى كيف قال: (ملة أبيكم إبراهيم)، ومن ملته: الاستسلام والانقياد، وبذل الوجوه بنعت السخاء والكرم، يا أسباط خليلي، رأى أبوك استعداد هذه المراتب الشريفة فيكم، قبل وجودكم بنور النبوة، فسماكم المسلمين، أى: منقادين بين يدي، عارفين بوحدانيتي. وفيما ذكرنا من أوصافكم، حبيبي شاهد عليكم، يعرف هذه الفضائل منكم، وهو بلغكم نشر فضائلي عليكم. ثم قال: اطلبوا الاعتصام مني، استعينوا لأقويكم في طاعتي. ثم قال: (فنعم المولى) حيث لا مولى غيره، (ونعم النصير) حيث لا يخذل من نصره؛ فإن الله عزيز ممتنع من نقائص النقص. قال جعفر في قوله: (حق جهاده): ألا تختار عليه شيئاً، كما لم يختار عليك؛ لقوله: (هو اجتباكم). هـ.

وقوله تعالى: (وتكونوا شهداء على الناس...) الآية، أى: اجتباكم واختاركم وسماكم مسلمين، لتكونوا مرضيين عدولاً، تشهدون على الأمم، كما يشهد محمد ﷺ عليكم ويزكيكم، فهو كقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ...﴾ (١) إلخ. وإذا قد خصكم بهذه الكرامة والأثرة فاعبدوه وثقوا به، ولا تطلبوا الولاية والنصرة إلا منه، فهو خير ولي وناصر، ومن كان الله تعالى مولاه وناصره فقد أفلح وفاز، ولذلك افتتح السورة التي تليها به. وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.



(١) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة.



سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

مكية . وهي مائة وثمانى عشرة آية، قيل: مناسبة افتتاح السورة بالفلاح أنه قال فيما قبلها: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ (١) على سبيل الرجاء، وحققه هنا بشرطه فى الجملة، ثم لما ذكر وراثة المتصف بتلك الأوصاف للفردوس، وذلك يتضمن المعاد، ذكر النشأة الأولى؛ دلالة على صحته، أى: المعاد، ثم لما ذكر ابتداء خلق الإنسان وانتهاء أمره ذكره بنعمه، فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾، «وَأَنْزَلْنَا»، «فَأَنْشَأْنَا».. الآيات، ولما كانت هذه النعم على الإنسان تقتضى منه الشكر بالطاعة والتوحيد للكرم المنان، ثم إن أصنافاً من الكفرة قابلوها بالكفران، فلذلك ذكر قصصهم بعد ذكرها، بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا...﴾ إلخ. فهذا ما تضمنته السورة من الترتيب، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ آتَبَعَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨)
وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴿

يقول الحق جل جلاله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: فازوا بكل مطلوب، ونالوا كل مرغوب، فالفلاح: الفوز بالمعram والنجاة من المكاره والآلام، وقيل: البقاء فى الخير على الأبد، وقد تقتضى ثبوت أمر متوقع، فهى هنا لإفادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت من قبل، وكان المؤمنون يتوقعون مثل هذه البشارة؛ وهى الإخبار بثبوت الفلاح لهم، فخطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه. والإيمان فى اللغة: التصديق بالقلب، والمؤمن: المصدق لما جاء به الشرع، مع الإذعان بالقلب، وإلا.. فكم من كافر صدق بالحق ولم يذعن، تكبراً وعناداً، فكل من نطق بالشهادتين،

(١) من الآية ٧٧ من سورة الحج.

مواطناً لسانه قلبه فهو مؤمن شرعاً، قال عليه الصلاة والسلام : «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ، قَالَ لَهَا: تَكَلِّمِي، فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ - ثلاثاً - أنا حرامٌ على كلِّ بخيلٍ مُرائي» (١)؛ لأنه بالرياء أبطل العبادات الدينية، وليس له أعمال صافية.

ثم وصف أهل الإيمان بست صفات، فقال: ﴿الَّذِينَ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ : خاضعون بالقلب ساكنون بالجوارح، وقيل: الخشوع في الصلاة: جمع الهمة، والإعراض عما سواها، وعلامته: ألا يجاوز بصره مصلاه، وألا يلتفت ولا يعيث. وعن أبي الدرداء: (هو إخلاص المقال، وإعظام المقام، واليقين التام، وجمع الاهتمام). وأضيفت الصلاة إلى المصلين؛ لانتفاع المصلّي بها وحده، وهي عُدَّتْ وذخيرته، وأما المصلّي له فغنى عنها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾، اللغو: كل كلام ساقط، حقه أن يلغى، كالكذب والشتم ونحوهما. والحق أن اللغو: كل ما لا يعنى من الأقوال والأفعال، وصفهم بالحزم والاشتغال بما يعينهم وما يقربهم إلى مولاهم في عامة أوقاتهم، كما ينبئ عنه التعبير بالاسم الدال على الثبوت والاستمرار، بعد وصفه لهم بالخشوع؛ ليجمع لهم بين الفعل والترك، الشاقين على النفس، الذين هما قاعدتا التكليف. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ : مؤدون، والمراد بالزكاة: المصدر، الذي هو الإخراج، لا المخرج. ويجوز أن يراد به العين، وهو الشيء المخرج، على حذف مضاف، أي: لأداء الزكاة فاعلون. وصفهم بذلك، بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة؛ للدلالة على أنهم بلغوا الغاية القصوى من القيام بالطاعة البدنية والمالية، والتجنب عن النقائص، وتوسيط الإعراض عن اللغو بينهما؛ لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة؛ لأن من لزم الصمت والاشتغال بما يعنى عظم خشوعه وأنسه بالله.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ : ممسكون لها، ويشمل فرج الرجل والمرأة، ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾، الظاهر أن «على» بمعنى «عن» أي: إلا عن أزواجهم، فلا يجب حفظها عنهن، ويمكن أن تبقى على بابها، نقول العرب: احفظ على عنان فرسى، أي: أمسكه، ويجوز أن يكون ما بعد الاستثناء حالا، أي: إلا والين على أزواجهم، من قولك: كان زياد على البصرة، أي: والياً عليها، والمعنى: أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال، إلا في حالة تزوجهم أو تسريحهم. أو يتعلق «على» بمحذوف يدل عليه: (غير ملومين)، كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم، أي: يلامون على كل مباشرة إلا على ما أبيح لهم، فإنهم غير ملومين عليه، «أو ما ملكت أيماهم» أي: سراريهم، وعبر عنهن بما؛ لأن المملوك يجري مجرى غير العقلاء، لأنه يباع كما تباع البهائم. وقال في الكشف: وإنما قال «ماء»، ولم يقل «من»؛ لأن الإناث يجري مجرى غير العقلاء (٢). هـ. يعنى: لكونهن ناقصات عقل، كما في الحديث. وفيه احتراز من الذكور بالملك، فلا يباح إتيانهم والتمتع بهم للمالك ولا للمالكة، بإجماع.

(١) ذكره بنحوه الهيثمي في المجمع (٣٩٧/١٠) من حديث ابن عباس - رضى الله عنهما، وقال: رواه الطبراني في الأوسط الكبير، وأحد إسنادى الطبراني في الأوسط جيد.

(٢) في هذا الكلام نظر.

وقوله تعالى: ﴿فإنهم غير ملومين﴾ أى: لا لوم عليهم فى عدم حفظ فروجهم عن نسائهم وإمائهم لا ﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾؛ طلب قضاء شهوته فى غير هذين، ﴿فأولئك هم العادون﴾: الكاملون فى العدوان، وفيه دليل على تحريم المتعة والاستمتاع بالكف لإرادة الشهوة؛ لأن نكاح المتعة فاسد، والمعدوم شرعاً كالمعدوم حساً، ويدل على فساد عدم التوارث فيه بالإجماع، وكان فى أول الإسلام ثم نسخ.

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم﴾ أى: لما يؤتمنون عليه، ويعاهدون عليه من جهة الحق أو الخلق، ﴿راعون﴾: حافظون عليها قائمون بها، والراعى: القائم على الشئ بحفظ وإصلاح، كراعى الغنم. ﴿والذين هم على صلواتهم﴾ المفروضة عليهم ﴿يحافظون﴾: يداومون عليها فى أوقاتها. وأعاد الصلاة؛ لأنها أهم، ولأن الخشوع فيها زائد على المحافظة عليها، ووحدت أولاً؛ ليفاد أن الخشوع فى جنس الصلاة أية صلاة كانت، وجمعت ثانياً؛ ليفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل. قاله النسفى.

﴿أولئك﴾ الجامعون لهذه الأوصاف ﴿هم الوارثون﴾ الأحقاء بأن يسموا وارثين، دون غيرهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها، وقيل: إنهم يرثون من الكفار منازلهم فى الجنة، حيث فوتوها على أنفسهم، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً فى الجنة ومنزلاً فى النار، وفى الحديث: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِنْ مَاتَ وَدَخَلَ الْجَنَّةَ، وَرِثَ أَهْلُ النَّارِ مَنْزِلَهُ، وَإِنْ مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ» (١).

ثم ترجم الوارثين بقوله: ﴿الذين يرثون الفردوس﴾، هو فى لغة الروم والحبشة: البستان الواسع، الجامع لأصناف الثمر، والمراد: أعلى الجنان، استحقوا ذلك بأعمالهم المتقدمة حسبما يقتضيه الوعد الكريم، ﴿هم فيها خالدون﴾، أنث الفردوس بنأويل الجنة، أو لأنه طبقة من طبقاتها، وهى العليا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال القشيري: الفلاح: الفوز بالمطلوب، والظفر بالمقصود. والإيمان: انتسام الحق فى السريرة، ومخامرة التصديق بخلاصة القلب، واستكمال التحقيق من تأمور الفؤاد (٢). والخشوع فى الصلاة: إطراق السر على بساط النجوى، باستكمال نعت الهيبة، والذوبان تحت سلطان الكشف، والانمحاء عند غلبات التجلي. هـ.

قلت: كأنه فسر الفلاح والإيمان والخشوع بغايتهن، فأول الفلاح: الدخول فى حوز الإسلام بحصول الإيمان، وغايته: إشراق شمس العرفان، وأول الإيمان: تصديق القلب بوجود الرب، من طرق الاستدلال والبرهان، وغايته:

(١) أخرجه ابن ماجة فى (الزهد، باب: صفة الجنة)، عن أبى هريرة - رضى الله عنه.

(٢) أى: داخل القلب.

إشراق أسرار الذات على السريرة، فيصير الدليل محل العيان، فتبتَّهَج السريرة بمخامرة الذوق والوجدان، وأول الخشوع: تدبر القلب فيما يقول، وحضوره عندما يفعل، وغايته: غيبته عن فعله في شهود معبوده، فيندحى وجود العبد عند تجلى أنوار الرب، فتكون صلاته شكراً لاقهره، كما قال سيد العارفين عليه السلام: «أفلا أكون عبداً شُخَّراً» .

ولا تتحقق هذه المقامات إلا بالإعراض عن اللغو، وهو كل ما يشغل عن الله، وتركيز النفس ببذلها في مرضاة الله، وإمساك الجوارح عن محارم الله، وحفظ الأنفاس والساعات، التي هي أمانات عند العبد من الله .

قال في القوت: قال بعض العارفين: إن لله - عز وجل - إلى عبده سرّين يسرهما إليه، يوجد ذلك بالهام يلهمه، أحدهما: إذا ولد وخرج من بطن أمه، يقول له: عبدي، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً، واستودعتك عمرك، ائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقاني كما أخرجتك، وسرّ عند خروج روحه، يقول له: عبدي، ماذا صنعت في أمانتي عندك؟ هل حفظتها حتى تلقاني على العهد والرعاية، فألقاك بالوفاء والجزاء؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟ فهذا داخل في قوله عز وجل: (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون)، وفي قوله عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (١)، فعمر العبد أمانة عنده، إن حفظه فقد أدى الأمانة، وإن ضيعه فقد خان، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (٢) . هـ .

ثم ذكر ابتداء خلق الإنسان وأطواره وانتهاء أمره، فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ (١٢) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ (١٣) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٤) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِيتُونَ﴾ (١٥) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (١٦) ﴿

قلت: «خلق»: إن كان بمعنى اخترع وأحدث؛ تعدى إلى واحد، وإن كان بمعنى صير؛ تعدى إلى مفعولين، ومنه: (ثم خلقنا النطفة علقة)، وما بعده .

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾؛ جنس الإنسان، أو آدم، ﴿من سلالة﴾؛ «من»: للابتداء، والسلالة: الخلاصة؛ لأنها تُسل من بين الكدر، وهو ما سُل من الشيء واستخرج منه، فإن (فعالة) اسم لما

(٢) من الآية ٥٨ من سورة الأنفال .

(١) من الآية ٤٠ من سورة البقرة .

يُحصل من الفعل، فتارة يكون مقصوداً منه، كالخلاصة، وتارة غير مقصود، كالقلامة والكناسة، والسلالة من قبيل الأول؛ فإنها مقصودة بالسُّل، وقيل: إنما سمي التراب الذي خلق منه آدم سلالة، لأنه سُلَّ من كل تربة. وقوله: (من طين)، بيان، متعلقة بمحذوف، صفة للسلالة، أي: خلقناه من سلالة كائنة من طين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الجنس، باعتبار أفراد المتغايرة لآدم ﷺ، وجعلنا نسله، على حذف مضاف، إن أريد بالإنسان آدم، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿١﴾ أي: جعلنا نسله ﴿نطفة﴾: ماءً قليلاً ﴿في قرار مكين﴾ أي: في مستقر. وهو الرحم. (مكين): حصين، أو متمكن فيه، وصف الرحم بصفة ما استقر فيه، مثل طريق سائر، أي: مسير فيه.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: دماً جامداً، بأن جعلنا النطفة البيضاء علقة حمراء، (فخلقنا العلقة مضغة) أي: قطعة لحم لا استبانة ولا تمايز فيها، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾ أي: غالبها ومعظمها، أو كلها ﴿عظاماً﴾، بأن صلبناها، وجعلناها عموداً على هيئة وأوضاع مخصوصة، تقتضيها الحكمة، ﴿فَكُسُونَا الْعِظَامَ﴾ المعهودة ﴿لحمًا﴾ بأن أنبتنا عليها اللحم، فصار لها كاللباس، أو كسونا كل عظم من تلك العظام ما يليق به من اللحم، على مقدار لائق به، وهيئة مناسبة. وقرئ بالإفراد فيهما، اكتفاء بالجنس، ويتوحيده الأول فقط، ويتوحيده الثاني فحسب. ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أي: خلقاً مبايناً للخلق الأول، حيث جعله حيواناً، وكان جماداً، وناطقاً وسميعاً وبصيراً، وكان بضد هذه الصفات، ولذلك قال الفقهاء: من غصب بيضة فأفرخت عنده ضمن البيضة، ولم يرد الفرخ؛ لأنه خلق آخر سوى البيضة.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي: فتعالى أمره في قدرته الباهرة، وعلمه الشامل. والالتفات إلى الاسم الجليل؛ لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية، وللإيدان بأن من حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته تعالى أو لاحظته، أن يسارع إلى التكلم به، إجلالاً وإعظاماً لشؤونه تعالى، وقوله: (أحسن الخالقين): بدل من اسم الجلالة، أو نعت، على أن الإضافة محضة؛ ليطابقه في التعريف، أو خبر، أي: هو أحسن الخالقين خلقاً، أي: أحسن المقدرين تقديراً، فحذف التمييز؛ لدلالة الخالقين عليه.

قيل: إن عبد الله بن أبي سرح كان يكتب الوحي للنبي ﷺ، فلما انتهى - عليه الصلاة والسلام - إلى قوله: ﴿خَلَقْنَا آخَرَ﴾، سارع عبد الله إلى النطق بذلك، فنطق بذلك، قبل إملأته، فقال له رسول الله ﷺ: «اكتب، هكذا

(١) الآيتان ٧ - ٨ من سورة السجدة.

أُنزِلَتْ» ، فَشَكَ عَبْدُ اللَّهِ ، فَقَالَ: إِنَّ كَانَ مُحَمَّدٌ يُوحَى إِلَيْهِ ، فَأَنَا يُوحَى إِلَيَّ ، فَارْتَدَّ وَلَحِقَ بِمَكَّةَ كَافِرًا ، ثُمَّ أَسْلَمَ يَوْمَ الْفَتْحِ . وَقِيلَ: الْحِكَايَةُ غَيْرُ صَحِيحَةٍ ؛ لِأَنَّ ارْتِدَادَهُ كَانَ بِالْمَدِينَةِ ، وَالسُّورَةُ مَكِّيَّةٌ (١) .

ثم قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أى: بعد ما ذكر من الأمور العجيبة، حسبما ينبئ عنه ما فى اسم الإشارة من البعد، المشعر بعلو مرتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل، ﴿ لَمَيِّتُونَ ﴾ : لصائرون إلى الموت لا محالة، كما يؤذن به صيغة الصفة، وقرئ «لمايتون»، ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى: عند النفخة، «تبعثون» فى قبوركم للحساب والمجازاة، فإن قلت: لِمَ أَكَّدَ الْأَوَّلُ بَيَانَ وَاللَّامَ ، وَعَبَّرَ بِالاسْمِ دُونَ الثَّانِي ، الَّذِي هُوَ الْبَعْثُ ، وَالْمُتَبَادَرُ لِلْفَهْمِ الْعَكْسُ ؛ لِأَنَّ الْمَوْتَ لَمْ يَنْكُرْ أَحَدٌ ، وَالْبَعْثُ أَنْكَرَهُ الْكَفَّارُ وَالْحَكَمَاءُ ؟ فَالْجَوَابُ كَمَا قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: إِنَّهُ مِنْ حَمَلِ اللَّفْظِ عَلَى غَيْرِ ظَاهِرِهِ ، مِثْلُ:

جَاءَ شَقِيقٌ عَارِضًا رُمَحَهُ إِنَّ بَنِي عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاحُ

فَهُمْ ، لِعَصِيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ ، لَمْ يَعْمَلُوا لِلْمَوْتِ ، فَحَالَهُمْ كَحَالِ الْمُنْكَرِ لَهَا ، وَلَمَّا كَانَتْ دَلَائِلُ الْبَعْثِ ظَاهِرَةً صَارَ كَالْأَمْرِ الثَّابِتِ الَّذِي لَا يُرْتَابُ فِيهِ . هـ .

الإشارة: اعلم أن الروح لها أطوار كأطوار البشرية، من الضعف والقوة شيئاً فشيئاً، باعتبار قوة اليقين والترقى إلى العلم بالله ومشاهدته، فتكون أولاً صغيرة العلم، ضعيفة اليقين، ثم تتربى بقوت القلوب وغذاء الأرواح؛ فقوت القلوب: العمل الظاهر، وقوت الأرواح: العمل الباطن، فلا تزال تتقوت بالعمل الظاهر شيئاً فشيئاً حتى تقوى على كمال غايته، ثم تنتقل إلى قوت العمل الباطن؛ كالذكر القلبى، والتفكر والاعتبار، وجولان القلب فى ميادين الأغيار، ثم دوام حضور القلب مع الحق على سبيل الاستهتار، ثم يفتح لها ميادين الغيوب، ويوسع عليها فضاء الشهود، فيكون قوتها حينئذ رؤية المحبوب، وهو غاية المطلوب، فتبلغ مبلغ الرجال، وتحوز مراتب الكمال، ومن لم يبلغ هذا بقى فى مرتبة الأطفال، ولا يمكن حصول هذا إلا بصحبة طبيب ماهر، يعالجها ويربّيها، وينقلها من طور إلى طور، وإلا بقيت الروح مريضة لا تتقوت إلا بالمحسوسات، وهى لا تشبع ولا تغنى من جوع. وبالله التوفيق.

ولما ذكر ابتداء الإنسان وانتهاءه، ذكره بنعمه، أو نقول: لما ذكر نعمة الإيجاد ذكر نعمة الإمداد، فقال:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ

(١) انظر روح المعانى (١٨ / ١٦) .

مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُم فِيهَا فَوَاقٍ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٧﴾ وَشَجَرَةٍ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لَّلْأَكِلِينَ ﴿١٨﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّشْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴿

قلت: «سیناء»، من فتحها: جعل همزتها للتأنيث، فلم يصرفه؛ للتأنيث والوصف، كحمراء، أولألف التأنيث، لقيامه مقام علتين، ومن كسرهما: لم يصرفه؛ للتعريف والعجمة، وهذا البناء ليس من أبنية التأنيث، وإنما ألفه ألف الإلحاق، كعلباء وجرياء. ونبت وأنبت: لغتان بمعنى واحد، وكذلك سقى وأسقى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾، وهى السموات السبع، جمع طريقة؛ لأنها طرق الملائكة وتقلباتها، وطرق الكواكب، فيها مسيرها، ﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾، أراد بالخلق السموات، كأنه قال: خلقناها وما غفلنا عن حفظها وإمساكها، أو الناس، أى: خلقناها فوقكم؛ لنفتح عليكم منها الأرزاق والبركات، وما كنا غافلين عنكم وعما يصلحكم، أو: خلقناها فوقكم، وما حالت بيننا وبينكم، بل نحن أقرب إليكم من كل شيء، فلا تغفل عن شيء من أمركم، قل أو جل.

﴿وأنزلنا من السماء ماء﴾ هو المطر، وقيل: الأنهار النازلة من الجنة، وهى خمسة: سيحون نهر الهند، وجيحون نهر بلخ، ودجلة والفرات نهر العراق، والنيل نهر مصر، أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة. هـ. وقوله تعالى: ﴿بقدر﴾ أى: بتقدير، يسمون معه من المضرة، ويصلون إلى المنفعة، أو بمقدار ما علمنا بهم من الحاجة، أو: بقدر سابق لا يزيد عليه ولا ينقص، ﴿فأسكناه فى الأرض﴾ أى: جعلناه ثابتاً قاراً فيها، كقوله: ﴿فسلكه ينابيع فى الأرض﴾ (١)، فماء الأرض كله من السماء، ﴿وإنا على ذهاب به﴾ أى: إزالته بالإفساد والتغوير، بحيث يتعذر استنباطه، ﴿لقادرون﴾ كما كنا قادرين على إنزاله، وفى تنكير «ذهاب»: إيماء إلى كثرة طرقه، ومبالغة فى الإيعاد به، ولذلك كان أبلغ من قوله: ﴿قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتىكم بماء معين﴾ (٢).

ثم ذكر نتائجه، فقال: ﴿فأنشأنا لكم به﴾ أى: بذلك الماء ﴿جنات من نخيل وأعناب، لكم فيها﴾ أى: فى الجنات، ﴿فواكه كثيرة﴾ تتفكهون بها سوى النخيل والأعناب، ﴿ومنها تأكلون﴾ أى: من الجنات تأكلون

(١) من الآية ٢١ من سورة الرمر.

(٢) الآية ٣٠ من سورة الملك.

تَغْذِيًّا وَتَفْكِهًا، أَوْ تُرْزَقُونَ وَتَحْصُلُونَ معاشكم، من قولهم: فلان يأكل من حرفته، وهذه الجنة وجوه أرزاقكم منها ترزقون وتتمتعون، ويجوز أن يكون الضميران للنخيل والأعناب، أى: لكم فى ثمرتها أنواع من الفواكه، الرطب والعنب، والتمر والزبيب، والعصير والدبس^(١)، وغير ذلك، وطعاماً تأكلونه،

﴿وَأَنْبَتْنَا بِهِ شَجَرَةً﴾ هى الزيتون ﴿تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾، وهو جبل موسى ﷺ بين مصر وأيلة، وقيل: بفلسطين، ويقال: فيه طور سينين، فإما أن يكون الطور اسم الجبل، وسيناء اسم البقعة أضيف إليها، أو المركب منهما علم له، كما مرىء القيس، وتخصيصها بالخروج منه، مع خروجها من سائر البقع، إما لتعظيمها، أو لأنه المنشأ الأصلي لها؛ لأن أصل الزيتون من الشام، وأول ما نبت فى الطور، ومنه نقل إلى سائر البلاد، ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ﴾ أى: متلبسة بالدهن، أى: ما يدهن به، وهو الزيت، ﴿وَصَبَّغٌ لِلْأَكْلَنِ﴾ أى: إدام لهم، قال مقاتل: جعل الله فى هذه إداماً ودهناً، فالإدام: الزيتون، والدهن: الزيت. وقيل: هى أول شجرة تنبت بعد الطوفان، وخص هذه الأنواع الثلاثة؛ لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأنفعها.

﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾، جمع نعم، وهى الإبل والبقر والغنم، ﴿لَعِبْرَةٌ﴾ تعتبرون بها، وتستدلون بأحوالها على عظم قدرة الله تعالى، وسابغ نعمته، وتشكرونه عليه، ﴿نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بَطُونِهَا﴾ من الألبان سائغة للشاربين، أو مما استقر فى بطونها من العلف؛ فإن اللبن يتكون منه، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾، سوى الألبان، وهى منافع الأصواف والأوبار والأشعار. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أى: من لحومها، ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أى: على الأنعام فى البر، ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ فى البحر ﴿تَحْمِلُونَ﴾ فى أسفاركم ومتاجركم، والمراد بالأنعام فى الحمل الإبل؛ لأنها هى المحمول عليها فى البر، فهى سفائن العرب، كما قال ذو الرمة:

سَفِينَةٌ بَرٌّ تَحْتَ خَدَى زِمَامِهَا

يريد ناقته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ولقد خلقنا فوق قلوبكم سبعة حجب، فمن خرقها أفضى إلى فضاء شهود ذاتنا وأنوار صفاتنا، وهى حجاب المعاصى والذنوب، وحجاب النقائص والعيوب، وحجاب الغفلات، وحجاب العوائد والشهوات، وحجاب الوقوف مع حلاوة المعاملات، وحجاب الوقوف مع الكرامات والمقامات، وحجاب حس الكائنات، فمن خرق هذه الحجب بالتوبة والتزكية واليقظة والعفة والرياضة، والأنس بالله والغيبة عما سواه، ارتفعت عنه الحجب، ووصل

(١) الدبس: عسل الثمر وعصارته.. انظر اللسان (دبس ٢/١٣٢٣).

إلى المحبوب. قال الورتجبي: أوضح سبع طرائق لنا إلى أنوار صفاته السبعة. هـ. وقال القشيري: الحق - سبحانه - لا يستتر من رؤيته مدرك، ولا تخفى عليه من مخلوقاته خافية، وإنما الحجب على أبصار الخلق وبصائرهم، والعادة جارية أنه لا يخلق لنا الإدراك لما وراء الحجب، ولذلك أدخلت الغفلة القلوب، واستولى عليها الذهول، سدت بصائرهم، وغيبت فهمهم، ففوقها حجب ظاهرة وباطنة، ففي الظاهر: السموات حجب تحول بيننا وبين المنازل العالية، وعلى القلوب أغشية وأغطية، كالشهوة والأمنية، والإرادات الشاغلة والغفلة المتراكمة.

ثم ذكر أن طرائق المريدين الفكرة، وطرائق الزاهدين ترك عروق الرغبة. قال: وأما العارفون فربما تظلمهم في بعض أحيانهم وقفة في تضاعيف سيرهم إلى ساحات الحقائق، فيصيرون موقوفين ريثما يتفضل الحق - سبحانه - عليهم بكفاية ذلك، فيجدون نفاذاً، ويدفع عنهم ماعاقهم من الطرائق، وفي جميع ذلك فالحق - سبحانه - غير تارك للعبد ولا غافل عن الخلق. هـ.

وقوله: ﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾ أي: وما كنا غافلين عن إرسال من يخرجهم من تلك الحجب القهرية، بل بعثنا الرسل، وفي أثرهم العارفين الريانيين، يخرجون من تعلق بهم من تلك الطرائق، ويوصلونهم إلى بحر الحقائق. وأنزلنا من سماء الغيوب ماء العلم اللدني، فأسكناه في أرض النفوس والقلوب، بقدر ما سبق لكل قلب منيب، وأنا على ذهاب به من القلوب والصدور لقادرون. ولذلك كان العارفون لا يزول اضطرابهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم، فأنشأنا بذلك العلم في قلوب العارفين جنات المعارف من نخيل الأذواق والوجدان، وأعشاب خمرة العيان، لكم فيها فواكه كثيرة، أي: تمتع كثير بلذة الشهود، ومنها تنقوت أرواحكم وأسراركم، وشجرة المعرفة تخرج من القلوب الصافية، التي هي محل المناجاة، كطور موسى، أي: تنبت فيها ويخرج أغصانها إلى ظاهر الجوارح، تنبت في القلب بدهن الذوق والوجد، وصبغ للآكلين، أي: المريدين الآكلين من تلك الشجرة، فتصبغ قلوبهم بالمعرفة واليقين.

وقوله تعالى: ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾، قال القشيري: الإشارة فيه: أن الكدورات الناجمة المتراكمة لا عبرة بها ولا مبالاة، فإن اللب الخالص السائغ يخرج من أخلاف الإبل والأنعام، من بين ما ينطوي حواياها عليها من الوحشة، ولكنه صاف لم يؤثر فيها بحكم الجوار، والصفاء يوجد أكثره في عين الكدرة؛ إذ الحقيقة لا يتعلق بها حق ولا باطل. ومن أشرف على سر التوحيد تحقق بأن ظهور جميع الحدثن من التقدير، فتسقط عنه كلفة التمييز؛ فالأسرار عند ذلك تصفو، والوقت لصاحبه لا يجفو، (ولكم فيها منافع) لازمة لكم، ومتعدية منكم إلى كل متصل بكم. انتهى على لحن فيه، فتأمل.

ولما دكرهم بالنعم، ذكر من قابلها بالكفران فهلك، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا كُنتُمْ بِهِ عَارِفِينَ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٢٢)

فَقَالَ الْمَلَأُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَتَّبُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخَرَّفُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

قلت : ذكر في الحاشية وجوهاً من المناسبة، فقال : لما استطرد ذكر الفلك ناسب ذكر نوح إثره، لقوله : (اصنع الفلك)، وأيضاً : هو أبو البشر الثاني، فذكر كما ذكر أولاً آدم، في ذكر خلق الإنسان، وأيضاً في ذكر نجات المؤمنين وفلاحهم، فناسب صدر السورة، وهلاك الكافر وهو ضد المؤمن، كما صرح بذلك في قوله في آخرها : (إنه لا يفلح الكافرون)، وفي النجاة في الفلك مناسبة للنعم المقررة قبل ذكره . هـ . (وإن كنا لمبتلين) : «إن» : مخففة، واسمها : ضمير الشأن، واللام فارقة .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ : وتالله لقد أرسلنا ﴿ نوحاً إلى قومه ﴾ ، وقد مر في الأعراف نسبه وكيفية بعثته (١) ، ﴿ فقال ﴾ لقومه حين أرسل إليهم ، متعطفاً عليهم ، ومستميلاً لهم إلى الحق : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ﴾ وحده ؛ إذ العبادة مع الإشراك لا عبرة بها ، فلذلك لم يقيد بها هنا ، وقيد بها في هود ، بقوله : ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ (٢) ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ أي : مالكم في الوجود إله يستحق أن يعبد غيره ، فالرفع على المحل ، والجر على اللفظ . ﴿ أفلا تتقون ﴾ ؛ أفلا تخافون عقوبة الله ، الذي هو ريكم وخالفكم ، إذا عبدتم غيره مما ليس من استحقاق العبادة في شيء ، أو : أفلا تخافون عذابه الذي يستوجب ما أنتم عليه ، كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ (٣) .

(١) راجع تفسير الآية ٥٩ وما بعدها، من سورة الأعراف .

(٢) من الآية ٢٦ من سورة هود .

(٣) الآية ٥٩ من سورة الأعراف .

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ أى: أشرافهم لعوامهم: ﴿ ما هذا إلا بشرٌ مثلكم ﴾ فى الجنس والوصف، يأكل ويشرب مثلكم، من غير فرق بينكم وبينه، ﴿ يريد أن يتفضل عليكم ﴾ أى: يطلب الفضل عليكم، ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم، والعجب منهم أنهم رضوا بالآلوهية والخضوع للحجر، ولم يرضوا بنبوة البشر. ثم قالوا: ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ أى: لو شاء الله إرسال الرسل لأرسل رسلاً من الملائكة. وإنما قال: لأنزل ولم يقل: لأرسل، لأن إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال، فمفعول المشيئة مطلق الإنزال، أى: لو شاء ربنا إنزال شيء من الوحي لأنزل ملائكة يرسلهم إلينا، ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ أى: بمثل هذا الكلام، الذى هو الأمر بعبادة الله وحده، وترك عبادة ماسواه، أو: ما سمعنا بأن البشر يكون رسولا، أو بمثل نوح ﷺ فى دعوى النبوة، ﴿ فى آياتنا الأولى ﴾ أى: الماضين قبل بعثة نوح ﷺ. وإنما قالوا ذلك؛ إما من فرط عنادهم، أو لأنهم كانوا فى فترة متطولة، وقيل: معناه: ما سمعنا به أنه نبي، ﴿ إن هو ﴾ أى: ما هو ﴿ إلا رجل به جنّة ﴾ أى: جنون، أو جن يخلونه، ولذلك يقول ما يقول. ﴿ فتربصوا به حتى حين ﴾ أى: انتظروا واصبروا إلى زمان حتى ينجلي أمره، فإن أفاق من جنونه، وإلا قتلتموه.

﴿ قال رب أنصرنى بما كذبون ﴾، لما أيس من إيمانهم دعا الله بالانتقام منهم، فالجملة استئناف نشأ عن سؤال، كأنه قيل: فماذا قال ﷺ، بعدما سمع هذه الأباطيل؟ فقيل: قال، لما رآهم قد أصروا على الكفر والتكذيب، وتمادوا فى الغواية والضلال، حتى أيس من إيمانهم بالكلية، وقد أوحى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن: ﴿ رب أنصرني ﴾ بإهلاكهم بالمرّة، فهو حكاية إجمالية لقوله: ﴿ لا تدرك على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ (١). ﴿ بما كذبون ﴾ بسبب تكذيبهم إياي، أو ببدل تكذيبهم، كقولك: هذا بذاك، أى: بدل ذاك، والمعنى: أبدلنى من غم تكذيبهم سلوة النصر عليهم.

﴿ فأوحينا إليه ﴾؛ أجبنا دعاءه وأوحينا إليه عند ذلك ﴿ أن اصنع الفلك بأعيننا ﴾ أى: ملتبساً بحفظنا وكلاءتنا، كأن معك حفاظنا يكلؤونك بأعينهم، فلا يتعرض لك أحد، يفسد عمالك، ومنه قولهم: عليه من الله عيون كاللثة، ﴿ ووحينا ﴾ أى: أمرنا وتعليمنا إياك صنعناها. روى: أنه أوحى إليه أن يصنعها مثل جُوجُو الطائر. وفى القاموس جُوجُو - كهذهذ - الصدر. ﴿ فإذا جاء أمرنا ﴾ أى: عذابنا بأمرنا، ﴿ وفار التنور ﴾ أى: فار الماء من تنور الخبز، فخرج سبب الغرق من موضع الحرق؛ ليكون أبلغ فى الإنذار والاعتبار. روى أنه قيل لنوح: إذا رأيت الماء يفور من التنور؛ فاركب أنت وأهلك السفينة، فلما نبع الماء من التنور؛ أخبرته امرأته، فركب، وكان

(١) من الآية ٢٦ من سورة نوح.

التنور تنور آدم، فصار إلى نوح، وكان من حجارة. واختلف في مكانه، فقيل: في مسجد الكوفة عن يمين الداخل، وقيل: بالشام، وقيل: بالهند.

فإذا فار ﴿فاسلك فيها﴾: فأدخل في السفينة ﴿من كل زوجين اثنين﴾؛ من كل أمة اثنين مزدوجين، ذكر وأنثى. قال الحسن: لم يحمل نوح في السفينة إلا ما يلد ويبص، فأما البق والدود والذباب، فلم يحمل منه شيئاً، وإنما يخرج من الطير. هـ. ﴿و﴾ حمل في السفينة ﴿أهلك﴾؛ نساءك وأولادك، أو من آمن معك، ﴿إلا من سبق عليه القول منهم﴾ أى: القول من الله بهلاكه، وهو ابنه وإحدى زوجتيه، وإنما جىء بعلى؛ لكون السابق ضاراً، كما جىء باللام في قوله: ﴿إن الذين سبق لهم منّا الحسن...﴾ (١)، ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ (٢)؛ لكونه نافعاً، ونحوه: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ (٣)، ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ أى: لا تسألني نجاة الذين كفروا، إنهم مقضى عليهم بالإغراق لا محالة؛ لظلمهم بالإشراك والإصرار، ومن هذا شأنه لا يشفع له، وكأنه عليه السلام ندم على الدعاء عليهم، حين تحقق هلاكهم، فهم بمراجعة الحق فيهم؛ شفقة ورحمة، فلهى عن ذلك.

ثم قال له: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك﴾؛ فإذا تمكنتم عليها راكبين ﴿فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾، أمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم على طريق: ﴿فقطّع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ (٤). ولم يقل: فقولوا، وإن كان أهله ومن معه قد استورا معه؛ لأنه نبيهم وإمامهم، فكان قوله قولهم، مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة.

﴿وقل رب أنزلني﴾ في السفينة، أو منها ﴿منزلاً مباركاً﴾ أى: إنزالاً مباركاً، أو موضع إنزال يستتبع خيراً كثيراً، ﴿وأنت خير المنزّلين﴾؛ خير من ينزل في كل خير، أمر عليه السلام بأن يشفع دعاءه بما يطابقه من ثنائه عليه تعالى، توسلاً به إلى إجابة دعائه، فالبركة في السفينة: النجاة فيها، وبعد الخروج منها: كثرة النسل وتتابع الخيرات، ﴿إن في ذلك﴾ فيما فعل بنوح وقومه ﴿لآيات﴾: لعبراً ومواعظ، ﴿وإن كنا﴾ أى: وإن الشأن والقصة كنا ﴿لمبتلين﴾: مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد، أو: مختبرين بهذه الآيات عبادنا، لننظر من يعتبر ويذكر، كقوله: ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾ (٥). والله تعالى أعلم.

(٢) الآية ١٧١ من سورة الصافات.

(٤) الآية ٤٥ من سورة الأنعام.

(١) من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

(٣) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

(٥) الآية ١٥ من سورة القمر.

الإشارة: تقدمت إشارة هذه القصة مراراً بتكررها، وفيها تسليّة لمن أودى من الأولياء بقول قبيح أو فعل ذميم. وقال القشيري في قوله: ﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً﴾: الإنزال المبارك: أن تكون بالله ولله على شهود الله، من غير غفلة عن الله، ولا مخالفة لأمر الله. هـ.

ثم ذكر قصة هود أو صالح، فقال:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هِيَ هِيَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِّیُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُسَاءً فَبَعَدَ اللَّقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم﴾: من بعد قوم نوح ﴿قرناً﴾ أى: قوماً ﴿آخرين﴾ هم عاد قوم هود، حسبما روى عن ابن عباس، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (١)، ومجىء قصة هود على إثر قصة نوح فى الأعراف وهود والشعراء، ونقل ابن عطية عن الطبرى: أن المراد بهم ثمود قوم صالح، قال: والترتيب يقتضى قوم عاد، إلا أنهم لم يهلكوا بالصيحة، بل بالريح. قال فى الحاشية: والظاهر أنهم صالح. كما قاله الطبرى. وحمل الواحدى الصيحة على صيحة العذاب، فيتجه لذلك أنهم عاد قوم هود، وقد تقرر أن ثمود بعد عاد. ثم قال: وفى السيرة: عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. هـ.

(١) من الآية ٦٩ من سورة الأعراف

﴿فأرسلنا فيهم﴾ ، الإرسال يُعَدَّى بإلى، ولم يُعَدَّ بها هنا وفي قوله: ﴿كذلك أرسلناك في أمة﴾ (١)، ﴿وما أرسلنا في قرية﴾ (٢)؛ لأن الأمة والقرية جعلت موضعاً للإرسال، إيداناً بأن المرسل إليهم لم يأتهم من غير مكانهم، بل إنما نشأ بين أظهرهم، كما ينبئ عنه قوله: ﴿رسولاً منهم﴾ أى: من جعلتهم نسباً، وهو: هود أو صالح، فإنهما - عليهما السلام - كانا منهم. قائلًا لهم: ﴿أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ عذابه، الذى يقتضيه ما أنتم عليه من الشرك والمعاصي.

﴿وقال الملأ من قومه﴾ ، ذكر مقال قوم هود، فى جوابه، فى الأعراف وهود بغير «واو»؛ لأنه على تقدير سؤال سائل، قال: فما قال قومه؟ فقل: قالوا: كيت وكيت، وهنا مع الواو؛ لأنه عطف لما قالوه على ما قاله الرسول؛ ومعناه: حكاية قولهم الباطل إثر حكاية قول الرسول الحق، وليس بجواب للنبي متصل بكلامه، وجيء بالفاء فى قصة نوح عليه السلام؛ لأنه جواب لقوله، واقع عقبه، أى: وقال الأشراف من قومه ﴿الذين كفروا﴾، وصفوا بالكفر؛ ذمًا لهم، وتنبيهًا على غلوهم فيه، ﴿وكذبوا بقاء الآخرة﴾ أى: بقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك، أو بمعادهم إلى الحياة الثانية، ﴿وأترفاهم﴾: نعمناهم ﴿فى الحياة الدنيا﴾ بكثرة الأموال والأولاد، أى: قالوا لأتباعهم، مضلين لهم: ﴿ما هذا﴾ النبى ﴿إلا بشر مثلكم﴾ فى الصفة والأحوال، والاحتياج إلى القيام، ولم يقولوا: مثلنا؛ تهويناً لأمره عليه السلام.

ثم فسر المثلية بقوله: ﴿ياكل مما تاكلون منه ويشرب مما تشربون﴾ أى: منه، فحذف؛ لدلالة ما قبله عليه، ﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه، ﴿إنكم إذا لخاسرون﴾ بالانقياد لمثلكم، ومن حمقهم أنهم أبو أتباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم.

﴿أيعدكم أنكم إذا متم﴾ - بالكسر والضم -؛ من مات يمات ويموت، ﴿وكنتم تراباً وعظاماً﴾ نخرة، ﴿أنكم مخرجون﴾، فأنكم الثانية، تأكيد للأولى؛ للفصل بينهما، والتقدير: أيعدكم أنكم مخرجون بالبعث إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً؟ ﴿هيهات هيهات﴾، تكرير؛ لتأكيد البعد، وهو اسم فعل مبنى على الفتح، واقع موقع بعد، فاعلها مضمر، أى: بعد التصديق أو الوقوع ﴿لما توعدون﴾ من العذاب، أو فاعلها: «ما توعدون»، واللام زائدة، أى: بعد ماتعدون من البعث، وقيل: ماتعدون من البعث. وقيل: مبتدأ، وهما اسم للبعد، و(لما توعدون): خبر، أى: بعد بعد لما توعدون، ﴿إن﴾: ما ﴿هى إلا حياتنا الدنيا﴾، والضمير لا يعلم ما يعنى به إلا بما بعده من بيانه، وأصله: إن الحياة إلا حياتنا، وأتى بالضمير؛ حذراً من التكرير، أى: لا حياة إلا هذه الحياة التى نحن فيها، ودنت منا، ﴿نموت ونحيا﴾ أى: يموت بعضنا ويولد بعض، إلى انقراض العصر، ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ بعد

(١) من الآية ٣٠ من سورة الرعد. (٢) من الآية ٩٤ من سورة الأعراف.

الموت، ﴿إِنْ﴾؛ ما ﴿هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدّعيه من الإرسال، وفيما يعدنا من البعث، ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾: بمصدقين بما يقول.

﴿قَالَ﴾ هود، أو صالح - عليهما السلام - بعدما سلك في دعوتهم كل مسلك، متضرعاً إلى الله - عز وجل - : ﴿رَبِّ انصُرْنِي﴾ عليهم ، وانتقم منهم ﴿بِمَا كَذَّبُون﴾ أي: بسبب تكذيبهم إياي وإصرارهم عليه، ﴿قَالَ﴾ تعالى: إجابة لدعائه: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن زمان قليل، زبدت «ما» . بين الجار والمجرور؛ لتأكيد معنى القلة، أو نكرة موصوفة، أي: عن شيء قليل ﴿لِيَصْبِحَنَّ نَادِمِينَ﴾ عما فعلوا من التكذيب، وذلك عند معاينتهم العذاب. ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ﴾، لعلمهم، حين أصابتهم الريح العقيم، أصيبوا في تضاعيفها بصيحة هائلة من صوته. أو يراد بها: صرير الريح وصوته. وقد روى أن شداداً حين أتم بناء إرم، سار إليها بأهله، فلما دنا منها بعث الله عليهم صيحة من السماء، فهلكوا، وقيل: الصيحة: العذاب المصطلم، قال الشاعر:

صَاحَ الزَّمَانُ بِأَلٍ فَدَكِ صَيْحَةً خَرُوا لِشِدَّتِهَا، عَلَى الْأَذْقَانِ

وإذا قلنا: هم قوم صالح، فالصيحة صيحة جبريل عليه السلام، صاح عليهم فدمرهم. وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل من الله، يقال: فلان يقضى بالحق، أي: بالعدل، أو: أخذتهم بالحق، أي: بالأمر الثابت الذي لا دفاع له، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي: كثفاء السيل، وهو ما يحمله من الورق والحشيش، شبههم في دمارهم بالغثاء، وهو ما يرميه السيل، من حيث إنهم مرمي بهم في كل جانب وسهب. ﴿فَبَعْدًا﴾: فهلاكاً، يقال بعد بعداً، أي: هلك هلاكاً، وهو من المصادر المنصوبة بأفعال لا تظهر أفعالها، أي: فسحقاً ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وهو إخبار، أو دعاء، واللام؛ لبيان من دعى عليه بالبعد، كقوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ (١). والله تعالى أعلم.

الإشارة: من عادة الحق - سبحانه -، إذا أكب الناس على دنياهم، واتخذوا إلههم هواهم، بعث من يذكرهم بالله، فيقول لهم: اعبدوا الله، ما لكم من إله غيره، أي: أفردوه بالمحبة، واقصدوه بالوجهة، فما عبد الله من عبد هواه، فيقول المترفون، وهم المنهمكون في الغفلة، المحجوبون بالنعمة عن المنعم، الذين اتسعت دائرة حسهم: ما هذا الذي يعظكم، ويريد أن يخرجكم عن عوائدكم، إلا بشر مثلكم، يأكل مما تأكلون، ويشرب مما تشربون، ومادروا أن وصف البشرية لا ينافي وجود الخصوصية، فإذا تمادوا في غفلتهم، وأيس من هدايتهم، ربما دعا عليهم، فأصبحوا نادمين، حين لا ينفعهم الندم، وذلك عند نزول هواجم الحمام. وبالله التوفيق.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَآجَاءَ أُمَّةٍ رَسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

(١) من الآية ٢٣ من سورة يوسف

قلت: القرن: أهل العصر، سُموا به؛ لقران بعضهم البعض، و(تدرا): حال، فمن قرأه بالآلف فهو كسكرى، وهو من الوتر، واحداً بعد واحد، فالتاء الأولى بدل من الواو، وأصله: وترى، كتراث وتقوى، والآلف للتأنيث، باعتبار أن الرسل جماعة، ومن نَوَّه جعله كأرطى ومعزى، فيقال: أرطى ومعزى، وقيل: مصدر بمعنى فاعل، أى: متتابعين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أى: من بعد قوم هود، ﴿قُرُونًا آخَرِينَ﴾؛ قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم، ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾، «مِنْ»: صلة، أى: ما تتقدم أمة من الأمم المهلكة ﴿أَجَلَهَا﴾ الذى عَيْنَ لهلاكها فى الأزل، ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ساعة. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾، عطف على «أنشأنا»، على معنى أن إرسالهم متراخ عن إنشاء القرون المذكورة، وما بينهما اعتراض، والمعنى: ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين، قد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولاً خاصاً به، والفصل بين الجملتين بالجملة المتعرضة الناطقة بعدم تقدم الأمم أجلها المضروب لهلاكهم؛ للمسارعة إلى بيان هلاكهم على وجه إجمالى.

وقوله: ﴿تَتَرَى﴾ أى: متواترين واحداً بعد واحد، أو متتابعين يتبع بعضهم بعضاً، ﴿كَلِمًا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهَا كَذِبُهُ﴾، الرسول يلبس المرسل والمرسل إليه، والإضافة تكون بالملابسة، فأضافهم أولاً إلى نون العظمة، وهنا إلى المرسل إليهم؛ للإشعار بكمال شناعتهم وضلالتهم، حيث كذبت كل أمة رسولها المعين لها، وعبر عن التبليغ بالمجىء؛ للإيدان بأنهم كذبوه فى الملاقاة الأولى، ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ فى الهلاك، كما تبع بعضهم بعضاً فى الكفر والتكذيب، الذى هو سبب الهلاك، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾؛ أخبار، يسمر بها ويتعجب منها، أى: لم يبق منهم إلا حكايات يعتبر بها المعتبرون، والأحاديث يكون اسم جمع للحديث، ومنه: أحاديث النبى - عليه الصلاة والسلام - ويكون جمعاً للأحدوثة، وهى ما يتحدث به الناس؛ تلهياً وتعجباً، وهو المراد هنا، ﴿فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به وبرسله، اقتصر هنا على عدم إيمانهم، وأما القرون الأولى، فحيث نقل عنهم ما مر من العتو وتجاوز الحد فى الكفر والعدوان، وصفهم بالظلم. والله تعالى أعلم وأحكم.

الإشارة: كل ما حكى الله تعالى عن القرون الماضية والأمم السابقة، فالمراد ترهيب هذه الأمة المحمدية، وإزعاج لها عن أسباب الهلاك، وإنهاض لها إلى العمل الصالح، لتكون أحاديث حسناً بين الأمم، فكل إنسان ينبغي له أن يجتهد فى تحصيل الكمالات العلمية والعملية، ليكون حديثاً حسناً لمن بعده، كما قال القائل:

مَا الْمَرْءُ إِلَّا حَدِيثٌ مِنْ بَعْدِهِ	فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَا
وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضَوْءُهُ	يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَمَا هُوَ سَاطِعُ
وَمَا السَّمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ	وَلَا بُدَّ يَوْمًا (١) أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ

وبالله التوفيق،

(١) فى الأصول: ولا بد من يوم.

ثم ذكر رسالة موسى وهارون - عليهما السلام - فقال:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قلت: «هارون»: بدل من «أخاه».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا﴾ التسع؛ من اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونقص الثمرات، والطاعون. ولا مساع لعدّ فلق البحر منها؛ إذ المراد الآيات التي كذبوها واستكبروا عنها، بدليل ما بعدها. ﴿وسلطان مبين﴾؛ حجة واضحة ملزمة للخصم الإقرار بما دُعي إليه، وهي إما العصا، وإفرادها بالذكر مع اندراجها في الآيات؛ لأنها أبهر آياته ﷺ، وقد تضمنت معجزات شتى؛ من انقلابها ثعباناً، وتلقفها ما أفكته السحرة، كما تقدم. وأما التعرض لانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر؛ بضربها، وحراستها، وصيرورتها شمعة، وشجرة خضراء مثمرة، وذلك ورشاً، وغير ذلك مما ظهر منها في غير مشهد فرعون وقومه، فغير ملائم لمقتضى المقام، وإما ما أتى به من الحجج الباهرة، فيشمل ما تقدم وغيره.

﴿إلى فرعون وملئه﴾ أى: أشراف قومه، خصهم بالذكر؛ ليرتب عليه ما بعده من قوله: ﴿فاستكبروا﴾ عن الانقياد وتمردوا. تكبراً وترفعاً، ﴿وكانوا قوماً عالين﴾: متكبرين، متمردين، ﴿فقالوا﴾، فيما بينهم، على طريق المناصحة: ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾، «مثل» وغيره، يوصف بها الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث، والبشر يطلق على الواحد، كقوله: ﴿بشراً سوياً﴾ (١)، وعلى الجمع، كقوله: ﴿فإمّا ترين من البشر أحداً﴾ (٢)، وأراد به هنا الواحد، فثناه، أى: كيف نؤمن لبشرين مثلنا فى العجز والافتقار، ﴿وقومهم لنا عابدون﴾ أى: خادمون منقادون لنا كالعبيد، وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بهما - عليهما السلام -، وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية، بناء على زعمهم الفاسد، من قياس الرئاسة الدينية على الرئاسة الدنيوية، الدائرة على التقدم فى نيل الحظوظ الدنيوية، من المال والجاه، كدأب قريش، حيث قالوا: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ (٣). ﴿وقالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ (٤). وعلى جهلهم بأن مناط الاصطفاء

(١) من الآية ١٧ من سورة مريم.

(٢) الآية ١١ من سورة الأحقاف.

(٣) من الآية ٢٦ من سورة مريم.

(٤) الآية ٣١ من سورة الزخرف.

لِلرَّسَالَةِ هُوَ السَّبِقُ فِي حَيَازَةِ النُّعُوتِ الْعَلِيَّةِ، وَاحِرَازِ الْكَمَالَاتِ السَّلْبِيَّةِ، جَبِلَّةً أَوْ اكْتِسَابًا، ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أَي: فَنَمَادُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمَا، وَأَصْرُوا، وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا، ﴿فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ بِالْغُرْقِ فِي بَحْرِ الْقَلْزَمِ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ بَعْدَ إِهْلَاكِهِمْ، وَانْجَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مَلِكِهِمْ وَاسْتَرْقَاقِهِمْ، ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾: التَّوْرَةَ، وَلَمَّا نَزَلَتْ لِإِرْشَادِ قَوْمِهِ جَعَلُوا كَأَنَّهُمْ أَوْتَوْهَا، فَقِيلَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إِلَى الْحَقِّ بِالْعَمَلِ بِمَا مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ، وَقِيلَ: عَلَى حَذْفِ مِضَافٍ، أَي: آتَيْنَا قَوْمَ مُوسَى، كَقَوْلِهِ: ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ (١)، أَي: مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الإشارة: كُلُّ مَنْ طُرِدَ وَأُبْعِدَ عَنْ سَاحَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْوَصُولِ إِلَيْهِ، فَإِنَّمَا سَبَبُهُ التَّكْبِيرُ وَالْعُلُو، وَكُلُّ مَنْ قَرُبَ وَوَصَلَ إِلَى اللَّهِ فَإِنَّمَا سَبَبُهُ التَّوَاضُّعُ وَالْحَنُو، وَلِذَلِكَ وَرَدَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» (٢). وَحَقِيقَةُ الْكِبَرِ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ، أَي: إنْكَارُ الْحَقِّ وَاحْتِقَارُ النَّاسِ، وَفِي مَدْحِ التَّوَاضُّعِ وَالْخُمُولِ مَا لَا يَخْفَى. فَمَنْ تَوَاضَّعَ، دُونَ قَدْرِهِ، رَفَعَهُ اللَّهُ فَوْقَ قَدْرِهِ، فَالتَّوَاضُّعُ مَصِيدَةُ الشَّرَفِ، بِهِ يَصْطَادُ وَيُنَالُ، وَمِنْ أَوْصَافِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: «كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضَعَفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ فِي قَسَمِهِ» (٣)، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ. وَكُلُّ مَنْ أَنْكَرَ عَلَى أَهْلِ الْخُصُوصِيَّةِ فَسَبَبُهُ إِمَّا الْحَسَدُ، أَوْ الْجَهْلُ بِأَنَّ الْخُصُوصِيَّةَ لَا تَنَافَى أَوْصَافِ الْبَشَرِيَّةِ، أَوْ قِيَاسِ الرِّئَاسَةِ الْبَاطِلِيَّةِ الدِّينِيَّةِ عَلَى الرِّئَاسَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَاسْقَطَ مِنْ لَارِئَاسَةٍ لَهُ فِي الظَّاهِرِ وَلَاجَاءِ، أَوْ لِعَدَمِ ظُهُورِ الْكِرَامَةِ، وَهِيَ غَيْرُ مَطْلُوبَةٍ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثُمَّ ذَكَرَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ:

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ الْحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ دَالَّةٌ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِنَا؛ بِوِلَادَتِهِ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ بَشَرٍ، وَوَحْدَهَا؛ لِأَنَّ الْأَعْجُوبَةَ فِيهِمَا وَاحِدَةٌ. أَوْ الْمَرَادُ: وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ آيَةً وَأُمَّهُ آيَةً، فَحُذِفَتِ الْأُولَى؛ لِدَلَالَةِ الثَّانِيَةِ عَلَيْهَا، أَي: وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَحْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَبٌ، آيَةً، وَأُمَّهُ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا وَلَدَتْ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ، آيَةً، وَتَقْدِيمُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَصَالَتِهِ فِيمَا ذَكَرَ مِنْ كَوْنِهِ آيَةً، كَمَا أَنَّ تَقْدِيمَ أُمِّهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٤)، لِأَصَالَتِهَا فِيمَا نَسَبَ إِلَيْهَا مِنَ الْإِحْصَانِ وَالنَّفْعِ.

(١) مِنَ الْآيَةِ ٨٣ مِنْ سُورَةِ يُنُسَ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي (الْإِيمَانِ، بَابِ تَحْرِيمِ الْكِبَرِ وَبَيَانِهِ) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (١٤٥/٣) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ. وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ فِي (الزُّهْدِ، بَابِ مَنْ لَا يُؤْيِيهِ بِهِ) مِنْ حَدِيثِ

مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، بَلَفَظَ: «أَلَا أَخْبِرُكُمْ عَنْ مُلُوكِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: رَجُلٌ ضَعِيفٌ مُسْتَضَعَفٌ، ذُو طَمَرَيْنِ، لَا يُؤْيِيهِ، لَوْ أَقْسَمَ

عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ..» (٤) الْآيَةُ ٩١ مِنْ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ.

﴿وَأَوْنَاهُمَا﴾ أى: جعلنا مأويهما ومنزلهما ﴿إلى ربوة﴾ أى: أرض مرتفعة، وهو بيت المقدس؛ فإنها كبد الأرض، وأقرب الأرض إلى السماء، بمعنى أنه يزيد علوها على علو الأرض، فينتقص بعدها عن السماء عن بُعد غيرها منها بثمانية عشر ميلاً، كما جاء، ولعل ذلك سر كونها أرض الحشر، وكون الإسراء وقع منها. قاله المحشى، وقيل: دمشق، وقيل: فلسطين، والرملة. ﴿ذات قرار﴾ أى: مستقر من الأرض، مستوية، منبسطة، سهلة، أو ذات ثمار، يستقر لأجل ثمارها، ساكنوها فيها، ﴿ومعين﴾ أى: ماء معين، ظاهر، جارٍ، فقيل: من معن، إذا جرى، أو مدرك بالعين لظهوره، من عانه، إذا أدركه بعينه، أو من الماعون، وهو النفع؛ لأنه نفاع لظهوره وجريه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كان عيسى عليه السلام منقطعاً عن هذا العالم، متبتلاً زاهداً، لم يتخذ في هذه الدنيا قراراً، ولم يبن فيها مسكناً ولا داراً، فكان آية للعباد والزهاد من الرجال. كما أن أمه كانت آية للنساء العابدات، في التبتل والانقطاع، فأواهما إلى ربوة التقريب والاصطفاء، ذات قرار وتمكين ومصافاة ووفاء، وجعل، جل جلاله، أولياءه على قدم أنبيائه، فمنهم على قدم نوح عليه السلام فى القوة ونفوذ الهمة، مهما دعا على أحد هلك. ومنهم على قدم إبراهيم عليه السلام فى الشفقة والرحمة وعلو الهمة، وتحقيق التوحيد، وإمام أهل التفريد، ومنهم على قدم موسى عليه السلام فى المناجاة والمكالمة والقوة والعزم، ومنهم على قدم عيسى عليه السلام فى الزهد والانقطاع، ومنهم على قدم نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام -؛ وهو الجامع لما افترق فى غيره، وهو قطب الدائرة، نفعنا الله بهم جميعاً.

ولما كان جل الأنبياء بالشام، التى هى ذات قرار وأنعام، أمرهم بالأكل من تلك النعم، والشكر بالعمل الصالح، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَذِهِ ۝٥٢ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۝٥٣ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٤ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٥ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٦ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾

قلت: (وإن هذه): من كسره استأنف، ومن فتحه حذف اللام، أى: فاتقون؛ لأن هذه، أو معطوف على ما قبله: (بما تعملون عليم)، وبأن هذه، أو بتقدير: واعلموا أن هذه. (وزبُرًا): حال من: «أمرهم»، أو من «واو» (تقطعوا)، (ونسارع لهم): خبر «أن»، و«ما»: موصولة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما؛ لأنهم أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة، وإنما المعنى: الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك، ووصى به؛ للإيدان بأن إباحة الطيبات شرع قديم، جرى عليه جميع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ووصوا به، أي: وقلنا لكل رسول: كُلْ من الطيبات واعمل صالحاً. فعبر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسول بصيغة الجمع؛ للإيجاز، وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهبانية من رفض الطيبات ما لا يخفى. قاله أبو السعود. وقيل: خطاب لعيسى عليه السلام؛ لاتصال الآية به، وكان يأكل من غزل أمه، وهو من أطيب الطيبات، وقيل: لنبينا محمد ﷺ؛ لفضله وقيامه مقام الكل، وكان يأكل من الغنائم، وما رزقه الله من غير اختيار على الله، والجمع: للتعظيم فيهما، والطيبات: ما يستطاب ويستأذ من مباحات المأكَل والفواكه، حسبما ينبىء عنه سياق النظم الكريم.

﴿وَاعْمَلُوا﴾ عملاً صالحاً، فإنه المقصود منكم؛ شكراً لما أسدى إليكم، ولا تشتغلوا بالنعم عن طاعة المنعم وشهوده، ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة، ﴿عَلِيمٌ﴾، فأجازيكم عليه، وفيه تهديد للمذكورين، فما بالك بغيرهم ممن ألهمته النعم عن شهود المنعم وشكره؟!

﴿وَأَنْ هَذِهِ أَمْتُكُمْ﴾ (١) أي: ملتكم وشريعتكم التي أنتم عليها ﴿أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: ملة واحدة، متحدة في أصول الشرائع، التي لا تبدل بتبدل الأعصار، وهو التوحيد وما يتبعه من أصول العقائد. ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ من غير أن يكون لي شريك في الربوبية، ﴿فَاتَّقُونِ﴾: فخافوا عتابي في مخالفتكم أمري، أوفى شق العصا، والمخالفة بالإخلال بمواجب ما ذكر من اختصاص الربوبية بي.

والخطاب للرسول والأمم جميعاً، على أن الأمر في حق الرسل للتهيينج، وفي حق الأمم للتحذير. قيل: وجاء هنا: «فاتقون»، الذي هو أبلغ في التخويف والتحذير من قوله في الأنبياء: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ (٢)؛ لأن هذه جاءت عقب إهلاك طوائف كثيرين، وفي الأنبياء، وإن تقدمت أيضاً قصة نوح وما قبلها، فإنه جاء بعدها ما يدل على الإحسان واللفظ التام، في قصة أيوب ويونس وزكريا ومريم، فناسب الأمر بالعبادة لمن هذه صفته.

ثم قال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي: فتفرقوا في أمر دينهم مع اتحادهم، وجعلوه قطعاً متفرقة، وأدياناً مختلفة، ﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: قطعاً - جمع زبور، بمعنى الفرقة، ويؤيده قراءة من قرأ: (زُبُرًا) بفتح الباء، جمع زُبرة؛ كغرفة، أي: قطعاً مختلفة، كُلُّ ينتحل كتاباً، وقيل: جمع زبور، بمعنى كتاب، أي: كل فريق يزعم أن له كتاباً يتمسك به. وعن الحسن: قطعوا كتاب الله قطعاً وحرفوه، والأول أقرب، أي: تفرقوا في أصل الدين فرقاً،

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب «وَأَنْ هَذِهِ أَمْتُكُمْ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ». وقراً عاصم وحمة والكسائي بكسر الهمزة على الاستئناف.. انظر الإتحاف (٢/٢٨٥).

(٢) أي: في قوله تعالى: «إِنْ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ». الآية ٩٢ من سورة الأنبياء.

وتحزبوا أحزاباً، ﴿كل حزب﴾ من أولئك المتحزبين ﴿بما لديهم﴾ من الدين الذي اختاروه، أو من الهوى والرأى، ﴿فرحون﴾: معجبون، يعتقدون أنه الحق.

﴿فذرهم في غمرتهم﴾؛ في جهالتهم وغفلتهم، شبه ما هم فيه من الجهالة بالماء الذي يغمر القامة؛ لأنهم مغمورون فيها، سباحون في بحر الجهالة، والخطاب للرسول ﷺ؛ ايذاناً بأنهم مطبوع على قلوبهم، أى: اتركهم على حالهم ﴿حتى حين﴾: حتى نأمرك فيهم بما شئت من الجهاد أو غيره، أو: إلى أن يقتلوا أو يموتوا على الكفر، أو: إلى وقت حلول العذاب بهم. فهو تهديد وتسلية لرسول الله ﷺ، ونهى عن استعجال عذابهم، وفي التنكير والإبهام مالا يخفى من النهويل.

﴿أيحسبون أنما نمدهم به﴾ أى: نعطيهم إياه ونجعله مدداً لهم، ﴿من مال بنين﴾؛ «من»: بيان، أى: أيظنون أن الذى نمدهم به من الأموال والبنين، ﴿نسارع لهم﴾ بذلك ﴿فى الخيرات، بل لا يشعرون﴾ أنه استدراج، قيل: استدراك لقوله: «أيحسبون» أى: بل هم أشباه البهائم، لا شعور لهم حتى يتأملوا فى ذلك، هل هو استدراج أو مسارعة فى الخيرات؟ وحاصل المعنى: أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجاً لهم إلى المعاصى، وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات، ومعاملة لهم بالثواب، جزاء على حسن صنيعهم.

وهذه الآية حجة على المعتزلة فى مسألة الأصلح؛ لأنهم يقولون: إن الله - تعالى - لا يفعل بأحد من الخلق إلا ما هو أصلح له فى الدين، وقد أخبر أن ذلك لا خير لهم فيه ولا صلاح، والله تعالى أعلم.

الإشارة: تناول الطيبات وما تشتهيه النفس من أنواع الملهيات، مباح فى الشرع قديماً وحديثاً، إن كان من وجه مباح وقارنه الشكر؛ لأن الحق تعالى ما خلق ذلك إلا لعباده؛ ليشكروه ويحمدوه، ويتذكروا بذلك نعيم الجنان، الذى لا يفنى ولا يزول، وما هذا النعيم الدنيوى إلا أنموذج من نعيم الآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (١). هذا باعتبار عامة المسلمين، وأما الخاصة؛ من العباد والزهاد والمريدين السائرين، فهم يجتنبون ما تجتج إليه النفس، ويتعلق به القلب؛ خوفاً من الاشتغال بذلك عن العبادة أو السير؛ لأن القلب إذا توجه لأمر أعرض عن الآخر، فإذا توجه إلى طلب الشهوات أعرض عن الله، وتفرغ عن السير، وتكبل عن الدهوض إلى الحضرة. ولذلك قال فى الحكيم: «كيف يشرق قلب: صور الأكوان منطبعة فى مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته؟ أم كيف يدخل حضرة الله وهولم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟» وقال بعضهم: لدغ الزنابير على الأجسام المقرحة، أيسر من لدغ الشهوات على القلوب المتوجهة. هـ.

(١) من الآية ٣٨ من سورة التوبة.

وأما خاصة الخاصة؛ وهم العارفون المتمكنون، فهم مع مولاها، يأخذون من يده ما يعطيهم؛ لأن قلوبهم قد استغرقتها الأنوار، فلم يبق فيها مسمع للأغيار، قد تهذبت نفوسهم، واطمأنت بالله قلوبهم، فلا تلتفت إلى غير مولاها. وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ...﴾ الخ، الاختلاف، إن كان في التوحيد وما يرجع إليه من أصول العقائد، فهو مذموم، وهو الذي نعه الله على الكفرة المتحزبة، وأما إن كان في الفروع فهو مشروع، كاختلاف الشرائع والمذاهب، ولذلك قال - عليه الصلاة والسلام -: «اختلاف أمتي رحمة»، وقال بعض الصوفية: مازالت الصوفية بخير ما تنافروا، فإن توافقوا فلا خير فيهم. هـ. والمراد بالتنافر - في حقهم - التناصح، وإنكار بعضهم على بعض؛ إذا رأى من أحد عيباً، فإن سكتوا عن بعضهم، وتوافقوا على مساوئ بعضهم بعضاً، فلا خير فيهم، وأما قلوبهم فهي متوافقة مؤتلفة.

وقوله تعالى: ﴿كُلْ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، أما أهل الحق فهم فرحون؛ لسلوكهم على الملهاج المستقيم، المفضى إلى رضوان الله ورحمته، وأما أهل الباطل فزين لهم الشيطان أعمالهم؛ ليتمكنوا من التقرر عليه حتى ينفذ مراد الله فيهم، ولو تحققوا أنهم على باطل لم يمكن قرارهم عليه، فتبطل حكمته وقهريته، وكل من أقامه الحق - تعالى - في حرفة أو خطة، زينها الله - تعالى - في قلبه حتى يقوم بها، وكذلك أهل الأسباب من أرياب الدليل والبرهان، مع أهل التجريد من أهل الشهود والعيان، لو علموا بمقام أهل العيان ما أقاموا في الأسباب، ولتجردوا كلهم، فتبطل الحكمة الإلهية. وكان إبراهيم بن أدهم رحمته الله يقول: (لو يعلم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف): فسبحان من قرب قوماً وأبعد قوماً، (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا). والله تعالى أعلم وأحكم.

ثم ذكر أهل القرب، إثر بيان أهل البعد، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ﴾ ٥٧ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِإِثَابِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ٥٨
 ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ ٥٩ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاَوْ قُلُوبَهُمْ وَجِلَّةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ ٦٠
 ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ ٦١ ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ٦٢ ﴿

قال في الحاشية: لما ذكر تعالى غفلة الكفار ووعيدهم، عقب ذلك بوصف المؤمنين بضد ذلك ويبقيهم بالرجعى، وإشفاقهم من جلال الحق وقهره. هـ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أى: من عذابه خائفون حذرون، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنصوبة والمنزلة، (يؤمنون) بتصديق مدلولها، ويكتب الله كلها، لا يفرقون بين كتبه، كالذين تقطعوا أمرهم بينهم - وهم أهل الكتاب وغيرهم، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ شركاً جلياً ولا خفياً، بخلاف مشركى العرب والعجم.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أى: يعطون ما أعطوا من الزكوات والصدقات. وقرئ: (يأتون ما أتوا) بالقصر، أى: يفعلون من الطاعات، ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾: خائفة ألا تقبل منهم؛ لتقصيرهم؛ بأن لا يقع على الوجه اللائق، فيؤخذوا به ويحرموا ثوابه؛ لأنهم ﴿إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ فيعائتهم، أو من مرجعهم إليه، وهو يعلم ما يحق عليهم، والموصولات الأربعة عبارة عن طائفة واحدة متصفة بما ذكر، فى حيز صلاتها من الأوصاف الأربعة، لا عن طوائف، كل واحدة منها متصفة بواحد من الأوصاف المذكورة، كأنه قيل: إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون، وآيات ربهم يؤمنون... الخ.

وإنما كرر الموصول؛ إيداناً باستقلال كل واحد من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حياها، وتنزيلاً لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها، وخبر «إن»: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ﴾، أشار إليهم بالجمع باعتبار اتصافهم بتلك النعوت، مع أن الموصول واقع على الجمع.

ومعنى البعد؛ للإشعار ببعد رتبهم فى الفضل، أى: أولئك المدعوتون بتلك الدعوت الجليلة يسرعون ﴿فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أى: يرغبون فى الطاعات أشد الرغبة، فيبادرون إليها. أو يسارعون فى نيل الخيرات العاجلة والآجلة الموعودة على الأعمال الصالحات؛ كما فى قوله، تعالى: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ﴾ (١)، وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢)، فقد أثبت لهم ما نفى عن أضدادهم، غير أنه غير الأسلوب، حيث لم يقل: أولئك يسارع لهم فى الخيرات؛ بل أسند المسارعة إليهم؛ إيماءً إلى كمال استحقاقهم نيل الخيرات لمحاسن الأعمال. وإثارة كلمة «فى»، عن كلمة «إلى»؛ إيداناً بأنهم متقلبون فى فنون الخيرات، لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها، كما فى قوله تعالى: ﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية (٣).

(٢) الآية ١٢٢ من سورة النحل.

(١) من الآية ١٤٨ من سورة آل عمران.

(٣) الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

﴿وهم لها﴾ أي: لأجل نيل تلك الخيرات، ﴿سابقون﴾ الناس إلى الطاعات، أو: وهم إياها سابقون، واللام زائدة؛ لتقوية العامل، كقوله: (هم لها عاملون) أي: يذالونها قبل الآخرة، فتعجل لهم في الدنيا، وعن ابن عباس: (هم لها سابقون) أي: سبقت لهم من الله السعادة، فلذلك سارعوا في الخيرات. هـ. فهو إشارة إلى تيسير كل لما خلق له، وأنه يسرهم القدر لما وصفهم به من الخير، كما أن الكفار أمدوا بما يدعوا للغفلة والإعجاب، مما هو استدراج ومكر من حيث لا يشعرون.

قال تعالى: ﴿ولا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي: طاقتها، فهو تحريض على تحصيل ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات؛ ببيان سهولته، وأنه غير خارج عن حد الوسع والطاقة، أي: عادتنا جارية بأن لا نكلف نفساً من النفوس إلا ما في طاقتها، فإن لم يبلغوا في فعل الطاعة مراتب السابقين، فلا عليهم، بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وسعهم.

﴿ولدينا كتاب﴾ أي: صحائف الأعمال التي يرونها عند الحساب، حسبما يعرب عنه قوله: ﴿ينطق بالحق﴾، كقوله: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾^(١) أي: عندنا كتاب أثبت فيه أعمال كل أحد على ما هو عليه، أو أعمال السابقين والمقتصدين جميعاً، وقوله: (بالحق): يتعلق بينطق، أي: يظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه، أو يظهره للسامع، فيظهر هناك جلائل أعمالهم وبقائتها، ويرتب عليها أجزيتها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وقيل: المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، وهو مناسب لتفسير ابن عباس بسبق السعادة، وقوله: ﴿وهم لا يظلمون﴾، بيان لفضله تعالى وعدله في الجزاء، إثر بيان لطفه في التكليف وكتب الأعمال، أي: لا يظلمون في الجزاء؛ بنقص الثواب أو بزيادة عذاب، بل يجزون بقدر أعمالهم التي كلفوها، ونطقت بها صحائف أعمالهم، أو: لا يظلمون بتكليف مالا وسع فيه، أو: لا ينقصون مما سبق لهم في اللوح المحفوظ شيئاً، والله تعالى أعلم.

الإشارة: ذكر في هذه الآية أربعة أوصاف من أوصاف المقربين، أولها: الخوف والإشفاق من الطرد والإبعاد، والثاني: الإيمان الذي لا يبقى معه شك ولا وهم، بما تضمنته الآيات التنزيلية من الوعد والإيعاد، والثالث: التوحيد الذي لا يبقى معه شرك جلي ولا خفي، والرابع: السخاء والكرم، مع رؤية التقصير فيما يعطى. فمن جمع هذه الخصال كان من السابقين في الخيرات، ويسارع لهم في تعجيل الخيرات، وكل ذلك بقدر ما يطيق العبد، مع بذل المجهود في فعل الخيرات.

قال في الحاشية: والمسارة إلى الخيرات إنما هو بقطع الشرور، وأول الشرور: حب الدنيا؛ لأنها مزرعة الشيطان، فمن طلبها وعمرها فهو حرثه وعبدته، وشر من الشيطان من يعين الشيطان على عمارة داره، وما ذلك إلا أنه لم يهتم بأمر معاده ومنقلبه، لما جرى عليه في السابقة من الحكم، ولا كذلك من وصفه بالإشفاق من المؤمنين؛ إجلالاً لربهم، ورجوعاً لحكمه فيهم غيباً، فلا يأمنون مكره بحال، ولا يركنون إلى أعمال، بل عمدتهم

(١) من الآية ٢٩ من سورة الجاثية.

ربهم ورحمته في كل حال . والله أعلم . والحاصل : أنهم مع كونهم بخشون ربهم ويؤمنون بآياته ، ولا يشركون به شيئاً ، ويؤدون طاعته ، يخافون عدم قبوله لهم عند الرجوع إليه ، ولقائهم له ؛ لأنه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وأحكامه لا تغل ، ومن استغرق فيه لم يقف مع وعده . هـ .

قوله : « ومن استغرق فيه لم يقف مع وعده ، أي : لأنه قد يرتب ذلك على شروط أخفاها عنه ، ليدوم خوفه واضطراره ، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره ، وليس خوف العارف من السابقة ولا من الخاتمة ؛ لأنه شغله استغراقه في الحق والغيبة فيه عن الشعور بالسابقة واللاحقة ، إنما خوفه من الإبعاد بعد التقريب ، أو الافتراق بعد الجمع ، وهذا أيضا قبل التمكين ، وإلا فالكريم إذا أعطى لا يرجع . والله تعالى أعلم .

ثم ذكر من اتصف بضد الأوصاف المتقدمة ، فقال :

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ ٦٣ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْثَرُونَ ﴾ ٦٤ ﴿ لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لَكُمْ مِتًّا لَّا تَنْصَرُونَ ﴾ ٦٥ ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِرُ كَيْفَ نُصَوِّرَنَّ ۖ ﴾ ٦٦ ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرَاتٍ يَّهْجُرُونَ ﴾ ٦٧ ﴿

قلت : « بل » : إضراب عما قبله من أوصاف المؤمنين ، وانتقال إلى أضدادهم من الكافرين ، والضمير للكفرة ، و« حتى » : ابتدائية مختصة بالدخول على الجمل .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : الكفرة المستدرج بهم ، وهم لا يشعرون ، ﴿ فِي غَمْرَةٍ ﴾ : في غفلة غامرة لها ، مما عليه هؤلاء الموصوفون بما تقدم من الخشية وما بعده ، أو مما بين في القرآن من أن لديه كتاباً ينطق بالحق ، ويظهر لهم أعمالهم السيئة على رؤوس الأشهاد ، فيفضحون بها ، كما ينبئ عنه ما بعده من قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ٤٠ ٠ ﴾ . ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ أي : ولهم أعمال خبيثة كثيرة ، متجاوزة لذلك الذي وصف به المؤمنون ، من الأعمال الصالحات ، وهي فنون كفرهم ومعاصيهم ، ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ ، وعليها مقيمون ، مستمرين عليها ، حتى يأخذهم الله بالعذاب ، كما قال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ ﴾ أي : منعميهم ﴿ بِالْعَذَابِ ﴾ أي : عذاب الدنيا ، وهو القحط سبع سنين ، حين دعا عليهم النبي ﷺ بقوله : « اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَىٰ مُضَرَ ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف » (١) ، فحفظوا حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام . أو : القتل يوم

(١) أخرجه البخاري في (الأنان ، باب يهوى بالتكبير حين يسجد) ، ومسلم في (المساجد ، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة) ، عن أبي هريرة رضى الله عنه .

بدر. والحق: أنه العذاب الأخرى؛ إذ هو الذي يُفاجأون عنده بالجوار، فيجابون بالرد والإقناط عن النصر، وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جوار، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (١)، فإن المراد به ما جرى عليهم يوم بدر كما يأتي. وأما الجوع فإن أباسفيان، وإن تضرع إلى رسول الله ﷺ، فلم يرد عليه بالإقناط، بل دعا لهم فكشف عنهم. وقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَجَارُونَ﴾ أي: يصرخون؛ استغاثة، والجوار: الصراخ باستغاثة. فيقال لهم: ﴿لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ﴾؛ فإن الجوار غير نافع لكم، ﴿إِنَّكُمْ مَنَا لَا تُنْصَرُونَ﴾ أي: لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم مما دهمكم.

قد كانت آياتي ﴿القرآنية﴾ تتلى عليكم ﴿في الدنيا﴾، فكتم على أعقابكم تنكصون ﴿أي: ترجعون القهقري، وتعرضون عن سماعها أشد الإعراض، فضلاً عن تصديقها والعمل بها، والنكوص: الرجوع القهقري، وهي أقبح المشية؛ لأنه لا يرى ما وراءه، ﴿مستكبرين به﴾، الظاهر أن الضمير للقرآن؛ لتقدم ذكر آياته، والباء بمعنى «عن» أي: متكبرين عن سماعه والإذعان له، أو سببية، أي: فكتم بسبب سماعه مستكبرين عن قبوله، وعن جاء به، أو ضمن مستكبرين معنى مكذبين، وقيل: يعود إلى البيت الحرام، أو الحرم، وأضمر ولم يذكر؛ لأنه يفهم من السياق. والمعنى: أنهم يستكبرون بسبب المسجد الحرام؛ لأنهم أهله وأهل ولايته، وكانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد؛ لأننا أهل الحرم، وقيل: تتعلق الباء بقوله: ﴿سامراً﴾ أي: تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه، وكانوا يجتمعون حول البيت يسمرون، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن والطعن فيه، وفي النبي ﷺ الذي جاء به، و«سامراً» مفرد بمعنى الجمع، وقرئ سماراً، ﴿تهجرون﴾ (٢)، إما من الهجر بالفتح، بمعنى الهذيان، أي: تهذون في شأن القرآن كما يهذو الحالم أو السكران. أو من الترك، أي: تتركونه وتفرون منه، أو تهجرون النبي ﷺ والمؤمنين، أو من «الهجر» بالضم، وهو الفحش، ويؤيده قراءة من قرأ: «تهجرون»، من أهرج في منطقته: إذا أفحش. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من كان قلبه في غمرة حظوظه وهواه، عاكفاً على جمع دنياه، لا يطمع في دخول حضرة مولاه، ولو صلى وصام ألف سنة. قال القشيري: لا يصلح لهذا الشأن إلا من كان فارغاً من الأعمال كلها، لا شغل له في شأن الدنيا والآخرة، فأما من شغل بدنياه، وعلى قلبه حديث من عقباه، فليس له نصيب من حديث مولاه. هـ. وفي الحديث: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصُّحَّةُ وَالْفَرَاغُ» (٣).

(١) الآية ٧٦ من سورة المؤمنون.

(٢) قرأ نافع «تهجرون» بضم التاء وكسر الجيم، وقرأ الباقر بفتح التاء وضم الجيم. انظر الإنحاف (٢/٢٨٦).

(٣) أخرجه البخاري في (الرقاق، باب ما جاء في الرقاق، وأن لا عيش إلا عيش الآخرة) عن ابن عباس رضى الله عنهما.

ثم أمر بالتدبر والنظر، لعله يقع التيقظ، فقال:

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ
لَمْ يَمُنُّوا ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ
اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ
فَهُمْ عَنِ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خُرْجًا فَخَرَجَ رِبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ
لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

قلت: الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على محذوف، أي: أفعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار فلم يتدبروا القرآن، و«أم» : منقطعة، فيها معنى الإضراب والتوبيخ في الجميع.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَفَأَمَّا الَّذِينَ لَا يُدَّبَّرُونَ الْقَوْلَ ﴾ ، يتدبروا القرآن ليعرفوا، بما فيه من إعجاز النظم وصحة المدلول، والإخبار عن المغيبات الماضية والمستقبلية، أنه الحق، فيؤمنوا به، ويذعنوا لمن جاء به، ﴿ أم جاءهم ﴾ ؛ بل أجاءهم من الكتاب ﴿ أم أتت آباءهم الأولين ﴾ ، حتى استبعدوه واستبدعوه، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال، ﴿ أم أم يعرفوا رسالهم ﴾ أي: بل ألم يعرفوه - عليه الصلاة والسلام - بالأمانة والصدق، وحسن الأخلاق، وكمال العلم من غير تعلم ولا مدارسة، وغير ذلك مما حازه من الكمالات اللائقة بالأنبياء قبله، بل عرفوه بذلك ﴿ فهم اه ، يكرون ﴾ بغيا وحسدا.

﴿ أم يه زاون جنة ﴾ ؛ جنون، وليس كذلك؛ لأنهم يعلمون أنه أرجحهم عقلا، وأنقبيهم ذهنا، وأنقدهم رأيا، وأوفرهم رزانا، ولقد شهد له بذلك كل من رآه من الأعداء والأحباب، ﴿ بل جاءهم بالحق ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموه في حق الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وما جاء به من القرآن، بل جاءهم بالحق الأبلغ والصراط المستقيم، ربما خالف أهواءهم، من التوحيد للخالص والدين القيم، ولم يجدوا له مردا ولا مدفعا، فلذلك نسبوه إلى الجنون، ﴿ وأكثرهم المحج ﴾ من حيث هو حق، لا لهذا بعينه، فلذلك أظهر في موضع الإضمار، ﴿ كارهون ﴾ ؛ لما في جبلتهم من الزيع والانحراف للمناسبات للباطل؛ ولذلك كرهوا هذا الحق الأبلغ، وزاغوا عن الطريق الأبهج، وفي التعبير بالأكثر دليل على أن أقلهم ما كان كارها للحق، بل كان تاركا للإيمان به، أنفة واستنكافا من توبيخ قومه، أو لقلّة فطنته وعدم تفكره، كأبي طالب وأضرابه. قال أبو السعود: وأنت خبير بأن التعرض لعدم كراهة بعضهم للحق، مع اتفاق الكل على الكفر به، مما لا يساعده المقام أصلا. هـ. فحمل الأكثر على الكل.

• ولو اتبع الحق أهواءهم ﴿﴾ بأن كان في الواقع آلهة شتى؛ ﴿﴾ لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴿﴾ كما تقدم في قوله: ﴿﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴿﴾ (١)، فالاتباع هنا مجاز، أي: لو جاء الوحي على ما يشتهون لفسدت السموات، فالحق هنا هو المذكور في قوله: (بل جاء هم بالحق وأكثرهم للحق كارهون)، والمعنى: لو كان ما كرهوه من الحق، الذي من جملته ما جاء به ﷺ، موافقاً لأهوائهم الباطلة؛ لفسد نظام العالم، وتخصيص العقلاء بالذكر حيث عبر بمن؛ لأن غيرهم تبع.

• بل أتيناهم بذكرهم ﴿﴾: بشرفهم، وهو القرآن الذي فيه فخرهم وشرفهم، كما قال تعالى: ﴿﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴿﴾ (٢)؛ لأن الرسول منهم، والقرآن لغتهم، أو بتذكيرهم ووعظهم، أو بالذكر الذي كانوا يتمنونونه، ويقولون: (لو أن عندنا ذكراً من الأولين) (٣)، ﴿﴾ فهم عن ذكرهم معرضون ﴿﴾ أي: فهم، بما فعلوا من النكوص، عن فخرهم وشرفهم معرضون، وهذا مما جلبت عليه النفوس الأمارة؛ الإعراض عما فيه خيرها، والرغبة فيما فيه هلاكها، إلا من عصم الله، وفي إسناد الإتيان إلى نون العظمة، بعد إسناده إلى ضميره عليه الصلاة والسلام، من التنويه بشأن النبي ﷺ ما لا يخفى. انظر أبا السعود.

• أم تسألهم خراجاً ﴿﴾، هذا انتقال من توبيخهم بما ذكر من قولهم: (أم يقولون به جنّة)، إلى التوبيخ بوجه آخر، كأنه قال: أم يزعمون أنك تسألهم عن أداء الرسالة ﴿﴾ خراجاً ﴿﴾ أي: جعلاً، فيتهمونك، أو يثقل عليهم فلذلك لا يؤمنون، ﴿﴾ فخراج ربك خير ﴿﴾ أي: رزقه في الدنيا، وثوابه في الآخرة، خير لك من ذلك؛ لدوامه وكثرته، أي: لا تسألهم ذلك؛ فإن ما رزقك الله في الدنيا والعقبى خير لك من ذلك، وفي التعرض لعنوان الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام -، من تعليل الحكم وتشريفه ﷺ ما لا يخفى.

والخراج والخراج واحد، وهو: الأجر المأخوذ على العمل، ويطلق على الغلة والضريبة، كخراج العبد والأرض، وقال النضر بن شميل: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخراج والخرج، فقال: الخراج مالزمك، والخرج ما تبرعت به، وقيل: الخرج أخص من الخراج؛ لأن الخراج يطلق على كل ما يستفيدة المرء من غلة، أو أجرة، أو زكاة، والخرج خاص بالأجرة، وفي الخراج إشعار بالكثرة، فلذلك عبر به في جانبه - تعالى - والمعنى: أم تسألهم، على هدايتك لهم، قليلاً من عطاء الخلق، فالكثير من عطاء الخالق خير، ﴿﴾ وهو خير الرازقين ﴿﴾: أفضل المعطين.

• وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ﴿﴾ تشهد العقول السليمة باستقامته، ليس فيه شائبة اعوجاج، توجب اتهامهم لك بوجه من الوجوه، ولقد ألزمهم الله - تعالى - الحجة، وأزاح عنهم في هذه الآيات، حيث حصر أقسام ما يؤدي إلى الإنكار والاتهام من قوله: ﴿﴾ أم لم يعرفوا رسولهم... ﴿﴾ إلى هنا، وبين انتفاءها، ولم يبق إلا كراهة الحق

(١) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

(٢) من الآية ٤٤ من سورة الزخرف.

(٣) كما حكى القرآن عنهم في الآية ١٦٨ من سورة الصافات.

وعدم الفطنة أو العناد والمكابرة، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ﴾؛ عن طريق الحق ﴿لَنَّاَكِبُونَ﴾ أى: لعادِلون عن هذا الصراط المذكور، وهو الصراط المستقيم، وصفهم بعدم الإيمان بالآخرة، تشجيعاً لهم بما هم عليه من الانهماك فى الدنيا، وزعمهم ألا حياة إلا حياة الدنيا، وإشعاراً بعِلَّةِ الحكم؛ فإن الإيمان بالآخرة وخوف ما فيها من الدواهي من أمور الدعاوى إلى طلب الحق وسلوك سبيله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من أنكر على أهل الخصوصية، ولم يعرف خصوصيتهم؛ فسببه ثلاثة أمور: إما أنه لم يصحبهم ونم يتدبر ما يقولون، ولا ما يأمرون به وينهون عنه، وإنما يرميهم رجماً بالغيب، وإما أنه حسدهم وخاف على جاهه أن ينتقل لغيره، وإما أنهم أتوا بخرق عوائد النفوس التى لم تكن لأبائهم الأولين، فقالوا: (إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون)، وإنما جاءهم بالحق، وأكثرهم للحق كارهون، وكيف تُخرق للعبد العوائد، وهو لم يخرق من نفسه العوائد؟ (ولو اتبع الحق أهواءهم)، بأن كانت التربية على طريق العوائد، والاستمرار معها، لفسد النظام، ولبقى الكون كله ظلمة لجميع الأنام؛ إذ لا يمكن أن يصير الكون نوراً، بظهور الحق فيه، إلا بخرق عوائد النفوس، وإخراجها عن هواها، فحينئذ تخرق له ظلمة الكون، فيفضى إلى شهود المكون، (بل أتيناهم بذكرهم) أى: بشرفهم، بمعرفة الحق على نعت العيان، (وهم عن ذكرهم معرضون)؛ حيث انهمكوا فى عوائدهم، ولم يقبلوا من يخرجهم عنها ويعرفهم بالله لله، من غير خراج ولا طمع.

قال تعالى لنبيه - عليه الصلاة والسلام - : (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ). قال القشيري: أى: إنك لا تطالبهم على تبليغ الرسالة بأجرة، ولا بإعطاء عوض، حتى تكون فى موضع التهمة فيما تأتيهم به من الشريعة، أم لعلك تريد أن يعقدوا لك الرئاسة، ثم قال: والذي لك من الله - سبحانه - من جزيل الثواب، وحسن المآب، يغنيك عن التصدى لنيل ما يكون فى حصوله منهم مطمع. وهذه كانت سنة الأنبياء والمرسلين - عليهم السلام -؛ عملوا لله فلم يطلبوا عليه أجراً من غير الله، والعلماء ورثة الأنبياء فى التنزه من التدنس بالأطماع، والأكل بالدين، فإنه ربا مضر بالإيمان، إن كان العمل لله فالأجر منتظر من الله، وهو موعود من قبل الله. هـ. وراجع ما تقدم فى سورة هود؛ فإنه أوفى من هذا^(١).

وقوله تعالى: (وانك لتدعوهم إلى صراط مستقيم)، هو طريق الوصول إلى شهود الذات الأقدس، من طريق التربية، التى هى مخالفة الهوى والخروج عن العوائد. وقال القشيري: الصراط المستقيم: هو شهود الحق بنعت الانفراد فى جميع الأشياء، والإيجاف^(٢)، والاستسلام لقضايا الإلزام، بمواطأة القلب من غير استكراه الحكم. هـ. وقال الورعجي عن بعضهم: لولا أن الله - تعالى - أمر بمخالفة النفوس ومباينتها، لا تبع الخلق أهواءهم فى شهوات

(١) راجع إشارة الآية ٢٩ من سورة هود.

(٢) فى القشيري: وفى الإيجاد.

النفوس، ولو فعلوا ذلك لضلوا عن طريق العبودية، وتركوا أوامر الله، وأعرضوا عن طاعته، ولزموا المخالفة، ألا ترى الله يقول: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾.

ثم بين سبحانه أن حبيبه - عليه الصلاة والسلام - يدعوهم إلى تلك المشاهدة بقوله: (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) أى: مما أوضحه أنوار جماله وشاهدته، وهى طريق معرفته فى قلوب الصديقين للأرواح القدسية. وتلك الطريقة منتهاها المحبة، وبدايتها الأسوة والمتابعة؛ لقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (١). هـ. قلت: المراد بالمحبة محبة الحق لعبده؛ بدليل الآية التى ذكر. وقال ابن عطاء: إنك لتحملهم على مسالك الوصول، وليس كل أحد يصلح لذلك السلوك، ولا يوفق له إلا أهل الاستقامة، وهم الذين استقاموا مع الله ولم يطلبوا معه سواه، ولم يروا لأنفسهم درجة ولا مقاماً. هـ.

قوله تعالى: ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أى: لا يؤمنون بالحياة الآخرة، وهى حياة النفوس بالمعرفة العيانة، بعد موتها بالجهل والوقوف مع الحس والعوائد، ممن لا يصدق بهذه الحياة، وأنكر وجود من يوصل إليها عن طريق الحق الموصلة إليه، لناكبون، فهم فى الحيرة والتلف تائهون، عائداً بالله من ذلك.

ثم ذكر انهماكهم فى الغفلة؛ لسبق القضاء عليهم، فقال:

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤَافِي طَغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذْأَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو رحمتهم وكشفنا ما بهم من ضرٍّ﴾ كقحط وجدب، ﴿لَلْجُؤَافِي طَغْيَانِهِمْ﴾: لتمدادوا فى طغيانهم: إفراطهم فى الكفر والعتو والاستكبار وعداوة الرسول - عليه الصلاة والسلام - والمؤمنين، ﴿يعمهُون﴾: يترددون عامهين عن الهدى. قال ابن عباس: لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي، ورجع إلى اليمامة، منع الميرة عن أهل مكة، وأخذهم الله تعالى بالسنين حتى أكلوا العلهز (٢)، جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال له: أنشدك الله والرحم، ألسنت تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى، قال: قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع، فنزلت (٣). قال ابن جزى: وفيه نظر؛ فإن الآية مكينة باتفاق، وإنما دعا النبي ﷺ على قريش بعد الهجرة، حسبما ورد فى الحديث. هـ.

(١) قلاية ٣١ من سورة آل عمران

(٢) قال فى النهاية: هى شئ يتخذونه فى سنى المجاعة، يخلطون الدم بأوبار الإبل، ثم يشوونه بالنار ويأكلونه. انظر النهاية (٢٩٣/٣). والقاموس المحيط (٩٠/٢).

(٣) أخرجه البيهقي فى الدلائل (باب سرية نجد)، والنسائي فى الكبرى (التفسير، سورة المؤمنون)، وابن جرير فى التفسير (٤٥/١٨).

قلت: والتحقيق: أن القحط نزل بهم مرتين، أحدهما قبل الهجرة، حين دعا عليهم - ﷺ - بقوله: «اللهم أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسف»، فأخذتهم سنةٌ حصدت كل شيء، حتى أكلوا الميتة والعظام، وكانوا يرون كهيفة الدخان من الجوع، فجاء أبو سفيان فقال: يا محمد، جئت تأمر بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادعُ الله يغثنا، فدعا لهم.. الحديث. وفيه نزل تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (١)، الآية، وقوله هنا: «ولو رحمناهم وكشفنا...» الآية. ومرة أخرى بالمدينة؛ حين استغاثوا به ﷺ وهو يخطب، ولعله هو الذي ذكره ابن عباس في إسلام ثمامة، ولعل قوله: «فنزلت الآية، سهو؛ لأنها نزلت قبل الهجرة، إلا أن تكون الآية مدنية في السورة المكية، وقول ابن جزى: «دعا عليهم بعد الهجرة»، التحقيق: أنه دعا عليهم قبل وبعد. والله أعلم.

والمعنى: لو رحمناهم، وكشفنا ما بهم من القحط والهزال؛ برحمتنا إياهم، ووجدوا الخصب، لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والاستكبار، ولذهب عنهم هذا الخلق والتعلق بك، وهذا كقوله تعالى في الدخان: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (٢)، قيل: المراد بالضر: العذاب الأخرى، فيكون كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ (٣).

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾، وهو ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر، وهو قوله - تعالى - في الدخان: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ (٤). ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا رَبَّهُمْ﴾ بذلك، أي: لم يخضعوا ولم يتذللوا. واستكانوا: افتعل من السكون، والألف زائدة، أو استفعل من الكون، أي: انتقل من كون إلى كون، كاستحال، إذا انتقل من حال إلى حال؛ لأن الخاضع ينتقل من كون إلى كون. ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: وليس من حالهم التضرع إليه تعالى، وعبر بالمضارع، ليدل على الاستمرار، أي: ليس شأنهم التضرع في هذه الحالة وغيرها، أو: فما استكانوا فيما مضى، وما يتضرعون فيما ينزل بهم في المستقبل، والمعنى: نالهم لقد أخذناهم بالعذاب، وقتلناهم بالسيوف، وما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم، فما وجدت، بعد ذلك، منهم استكانة ولا تضرع.

﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، وهو عذاب الآخرة، ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مَبْلُؤُونَ﴾: متحIRON آيسون من كل خير، وهذا هو الصواب من حمل العذاب على عذاب الآخرة، بدليل وصفه بالشدة والإياس. والله تعالى أعلم.

(٢) من الآية ١٥ من سورة الدخان.

(٤) من الآية ١٦ من سورة الدخان.

(١) الآية ١٠ من سورة الدخان.

(٣) من الآية ٢٨ من سورة الأنعام.

الإشارة: أهل الغفلة والبعد لا يرجعون إلى الله في السراء ولا في الضراء؛ لانهماكهم في الغفلة والقساوة، وأهل اليقظة يرجعون إلى الله في السراء والضراء، في السراء بالحمد والشكر، وفي الضراء بالصبر والرضا والتسليم، مع التضرع والابتهال؛ عبودية، والمقتصدون يرجعون إليه - تعالى - في الضراء، ويغفلون عن الشكر في السراء، والأول ظالم لنفسه، والثاني سابق، والثالث مقتصد. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل قدرته - تعالى - وفي ضمنه استدعاؤهم إلى الرجوع إليه تعالى بالشكر، فقال:

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٧٩) ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٨٠) ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ (٨١) ﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أُنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (٨٢) ﴿ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٨٣)

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وهو الذي أنشأ ﴾ : ﴿ لكم السمع والأبصار ﴾ : لتشهدوا بها عجائب مصنوعاته ودلائل قدرته، أو لتتوصلوا إلى شهود آياته الكونية والتنزيلية، ﴿ والأفئدة ﴾ : لتتفكروا بها فيما تشهدونه منها وتعتبروا، وخصها بالذكر؛ لأنه يتعلق بها من المنافع مالا يتعلق بغيرها، وقدم السمع؛ لأن أكثر العلوم إنما تنال به، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي: شكرًا قليلًا غير معتد به تشكرون تلك النعم الجليلة؛ لأن العمدة في الشكر: صرف تلك القوى - التي هي في أنفسها نعم باهرة - إلى ما خلقت له، وأنتم تنتحلون بها ضللاً عظيماً. ﴿ وهو الذي ذرأكم في الأرض ﴾ أي: خلقكم وبتكم فيها بالتناسل، ﴿ وإليه تُحْشَرُونَ ﴾ أي: تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم، فيجازيكم على إحسانكم وإساءتكم .

• وهو الذي يحيي ويميت ﴿، من غير أن يشاركه في ذلك أحد ولا شيء من الأشياء، ﴿ وله اختلاف الليل والنهار ﴾ أي: المؤثر في اختلافهما، ﴿ أفلا تعقلون ﴾ فتعرفون بالنظر والتأمل أن الكل منا، وأن قدرتنا نعم جميع الممكنات، التي من جملتها البعث والحساب، وقرئ « يعقلون » : بالغيب، على الالتفات؛ لحكاية سوء حال المخاضيين، ﴿ بل قالوا ﴾ عطف على مضمرة يقتضيه المقام، أي: فلم يعقلوا ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون ﴾ أي: آباؤهم ومن دان دينهم، ﴿ قالوا أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ﴾، هو تفسير لما أبهم قبله، أي: قالوا: أنبعث بعد هذه الحالة، ﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا ﴾ البعث ﴿ من قبل ﴾ : متعلق بالفعل من حيث إسناده إلى آباؤهم لا إليهم، أي: وعد هذا آباؤنا من قبل، أو حال من آباؤنا، أي: كائنين من قبل، ﴿ إن هذا ﴾ أي:

ما هذا ﴿إلا أساطير الأولين﴾ أى: أكاذيبهم التى سطوروها، وهى جمع أسطورة، كأحدوثه وأعجوبة، أو جمع أسطار، جمع سطر، فيكون جمع الجمع. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ذكر فى الآية خمس نعم، يجب على العبد شكر كل واحدة منها، فشكر نعمة السمع: أن تسمع به ما ينفع، وتكفه عما لا ينفع، وإذا سمعت خيراً أفشيتها، وإذا سمعت شراً دفنته. وشكر نعمة البصر: أن تنظر به فى ملكوت السموات والأرض وما بينهما، فتعرف عظمة الصانع، أو تشاهده وتوحده فيها. وشكر نعمة القلوب: أن تعرف بها علام الغيوب، وتفرده بالوجود فى كل مرغوب ومرهوب. وشكر نعمة الإيجاد: أن تكون له عبداً فى كل حال. وشكر نعمة الإعادة: أن تنأهب للقاءه فى كل لحظة وساعة. (وهو الذى يحيى ويميت)؛ يحيى قلوباً بالمعرفة بعد الجهل، ويميت قلوباً بالغفلة والجهل بعد العلم واليقظة، وذلك بالسلب بعد العطاء، والعياذ بالله. وله اختلاف ليل القبض ونهار البسط على العبد، ثم يخرجهما عنهما؛ ليكون مع الله لأمع شئ سواه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل ما أنكروه من البعث، فقال:

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٤ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ٨٥ ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ٨٦ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ﴾ ٨٧ ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٨ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ ٨٩ ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ٩٠

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد لمن أنكر البعث: ﴿لمن الأرض ومن فيها﴾ من المخلوقات؛ عاقلاً أو غيره، أى: من أوجدها، ودبر أمرها، ﴿إن كنتم تعلمون﴾ شيئاً؟ والجواب محذوف، أى: فأخبرونى؛ فإن ذلك كاف فى الجواب، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾؛ لأنهم مقررون بأنه الخالق، فإن أقروا بذلك ﴿فقل أفلا تذكرون﴾ فتعلمون أن من قدر على خلق السموات والأرض وما فيهن، كيف لا يقدر على إعادة الخلق بعد عدومها؟ فإن الإعادة أهون من البدء. ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم﴾، أعيد الرب؛ تنويعاً لشأن العرش، ورفعاً لمحلته؛ لئلا يكون تبعاً للسموات والأرض، وجوداً وذكراً، ولقد روعى فى الأمر بالسؤال الترقى من الأدنى إلى الأعلى، فإن سألتهم (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ) أى: هى لله، كقولك: من رب هذه الدار؟ فتقول: هى لفلان، وقال الشاعر:

إِذَا قِيلَ: مَنْ رَبُّ الْمَزَالِفِ وَالْقَرَى وَرَبُّ الْجِيَادِ الْجُرْدِ؟ قِيلَ: لَخَالِدٍ

وقال الأخفش: اللام زائدة، أي: هو الله، ويعدمه قرأ أهل البصرة، فيه وفيما بعده، وا تفقوا على إثباته في الأول، ليطابق السؤال، فإن أجابوا بذلك ﴿فقل أفلا تتقون﴾ أي: أتعلمون ذلك، ولا تتقون عذابه في كفركم وجحودكم قدرته على البعث؟

﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ أي: التصرف التام في كل شيء بقهره وسلطانه، فالملكوت، في أصل اللغة، مبالغة في الملك، زيدت الواو والتاء؛ للمبالغة، كالجبروت؛ مبالغة في الجبر، وفي عرف الصوفية، الملكوت: ما بطن من أسرار المعاني القائمة بالأواني، أو نقول: ما غاب في عالم الشهادة من أسرار الذات، فحس الأواني ملك، ومعانيها ملكوت، والجبروت: ما خرج عن دائرة الأكوان من بحر الأسرار، الفائض بأنوار الملكوت، وهذه أسماء لمسمى واحد، وهو بحر الوحدة.

ثم قال تعالى: ﴿وهو يجير﴾ أي: يغيث، يقال: أجرت فلاناً على فلان: إذا أغثته منه، يعني: وهو يغيث من شاء ممن شاء، ﴿ولا يجار عليه﴾: ولا يغيث أحد عليه، أي: لا يمنع أحد أحداً بالنصر عليه. ﴿إن كنتم تعلمون﴾ شيئاً ما، أو تعلمون ذلك، فأجيبوني؟ ﴿سيقولون لله﴾ أي: لله ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، ﴿قل فأنى تسحرون﴾ أي: فمن أين تخدعون وتصرفون عن الرشد، وعن توحيد الله وطاعته؟ فإن من لا يكون مسحوراً مختل العقل لا يكون كذلك، قال تعالى: ﴿بل أتيناكم بالحق﴾ الذي لا محيد عنه؛ من التوحيد والوعد بالبعث، ﴿وإنهم لكاذبون﴾ فيما قالوا من الشرك وإنكار البعث. وبالله التوفيق.

الإشارة: قل: لمن أرض النفوس، وما فيها من الأهوية والحظوظ والعلائق؟ سيقولون: هي لله يتصرف فيها كيف يشاء، فتارة يملكها لعبده، فنكون تحت قهره وسلطانه، فيكون حراً من رق الأشياء، وتارة يملكها بعدله، فيكون تحت قهرها وسلطانها، تتصرف فيه كيف تشاء، ويكون مملوكاً لها، ينخرط في سلك من اتخذ إلهه هواه، قل: من رب سماوات الأرواح وعرش الأسرار والأنوار، وهو القلب الذي هو بيت الرب، قل: سيقولون: لله، يظهرها متى شاء، ويوصلها إلى أصلها كيف شاء، قل: من بيده ملكوت كل شيء، فيتصرف في النفوس والأرواح؛ بالتقريب والتبعيد، وهو يجير من الحظوظ والأهوية من يشاء، ويسلطها على من يشاء، ولا يجار عليه، لا يمتنع من قهره أحد، فأنى تسحرون.

قال القشيري: أولاً قال: (أفلا تذكرون)، ثم قال بعده: (أفلا تتقون)؛ قدّم التذكّر على التقوى؛ لأن بتذكيرهم يصلون إلى المعرفة^(١)، وبعد أن عرفوه، علموا أنه يجب عليهم اتقاء مخالفته، ثم بعد ذلك قال: (فأنى تسحرون)؟ أي: بعد وضوح الحجة، أي شك بقي حتى تنسبوه إلى السحر؟ هـ.

(١) في القشيري: المغفرة.

ثم أبطل دعوى الولد والشريك عليه تعالى، فقال:

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سَبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ما اتخذ الله من ولد ﴾، خلاف ما يقوله النصارى، والعرب التى قالت: الملائكة بنات الله، تعالى عن قولهم علواً كبيراً، ﴿ وما كان معه من إله ﴾ يشاركه فى ألوهيته، كما يقول عبدة الأوثان وغيرهم، ﴿ إذا لذهب كل إله بما خلق ﴾ أى: لو كان معه آلهة، كما يزعمون، لذهب كل واحد منهم بما خلقه واستبد به؛ لىتميز ملكه من ملك الآخر، ووقع بينهم التغالب والتحارب، كما هو الجارى بين الملوك، ﴿ ولعل بعضهم على بعض ﴾: ولغلب بعضهم على بعض، وارتفع عليه، كما ترون حال ملوك الدنيا؛ ممالكهم متميزة وهم متغالبون، وحين لم تروا أثراً لىتمايز الممالك والتغالب؛ فاعلموا أنما هو إله واحد.

قال ابن جزى: وليس هذا البرهان بدليل التمانع، كما فهم ابن عطية وغيره، بل بدليل آخر. وقال فى قوله: (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا): قال كثير من الناس: إنه دليل التمانع الذى أورده المتكلمون، والظاهر من اللفظ أنه استدلال آخر أصح منه. هـ قال النسفى: ولا يقال: إذا، لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، وهو هنا وقع لذهب؛ جزاء وجواباً، ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل؛ لأن الشرط هنا محذوف، تقديره: لو كان معه آلهة كما يزعمون لذهب.. الخ، دل عليه: (وما كان معه من إله)، وهو جواب لمن حاجه من المشركين. هـ.

﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ من الأنثاد والأولاد، ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أى: السر والعلانية، أو ما ظهر من حس الأكوان، وما غاب فيها وعنها، فمن جرّ «عالم»: فبذل من الجلالة، أو صفة له، ومن رفعه؛ فخبير عن مضمّر، أى: هو عالم. ﴿ فتعالى عما يشركون ﴾ من الأصنام وغيرها، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ فإن تفردّه تعالى بالألوهية والعلم المحيط، موجب لتعالى عن أن يكون له شريك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ثلاثة إذا تعددت فسد النظام: الإله، والسلطان، والطبيب؛ فلو تعدد الإله لفسد نظام العالم، ولو تعدد الملك لفسدت الرعية بالهرج والفتن، ولو تعدد الطبيب لفسد العلاج. والطبيب على قسمين: طبيب الأبدان، وطبيب القلوب، وهو شيخ التربية، فإذا تعدد على مرید واحد فسدت تربيته؛ لانقسام محبته واختلاف علاجه، فالمرید، إذا علق قلبه بغير شيخه، لا ينهض نهوض من جمع همته على شيخه، بل لا يجىء منه شيء. والله تعالى أعلم.

قال القشيري: كل أمر نيط بين اثنين انتفى عنه النظام وصحة التربية . هـ . وقال الورتجبي: نزه الحق - سبحانه - ذاته عن مخايل الزنادقة، وكان منزهاً عن أباطيل إشارة المشبهة، وذاته ممتنعة بكمال أحديته، عن زعم القنوية، كيف يجوز أن يكون القدم محل الحوادث؛ إذ القديم المنزه، إذا تجلى بنعت القدم للحدثان، صار معدوماً كالعدم، تعالى الله عن كل وهم وإشارة . هـ .

ولما توعدهم بالعذاب على كفرهم، أمر نبيه - عليه الصلاة والسلام - بالدعاء بالنجاة منه إذا نزل بهم، فقال:

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيَكَ مَا نُعِدُّهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٦﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل رب إمّا ترينى ما يوعدون من العذاب المستأصل فى الدنيا أو عذاب الآخرة، ﴿ رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين ﴾ أى: قريباً لهم فيما هم فيه من العذاب، وفيه إيذان بفضاعة ما وعدوه من العذاب، وأنه يجب أن يستعيذ منه من لا يكاد أن يحيق به، وردّ لإنكارهم إياه واستعجالهم على طريقة الاستهزاء، وقيل: أمر به ﷺ هضماً لنفسه، وقيل: إن شؤم الكفرة قد يحيق بمن وراءهم؛ كقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً ... ﴾ (١) الخ، وروى عن الحسن (أنه - تعالى - أخبر نبيه ﷺ بأن فى أمته نقمة، ولم يطلعه على وقتها، فأمر بهذا الدعاء) ويجوز أن يسأل النبى المعصوم ربه ما علم أنه يفعله، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله؛ إظهاراً للعبودية وتواضعاً لربه . والفاء: جواب «إمّا» الشرطية، أى: إن نزلت بهم النقمة فاجعلنى خارجاً عنهم، وتكرير النداء، وتصدير كل من الشرط والجزاء به - أى: بالدعاء -؛ لإبراز كمال الضراعة والابتهال .

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيَكَ مَا نُعِدُّهُمْ ﴾ من العذاب ﴿ لقادرون ﴾، ولكننا نؤخره؛ لعلمنا بأن بعضهم، أو بعض أعقابهم، سيؤمنون، أو: لأننا لا نعذبهم وأنت فيهم، وقيل: قد أراهم ذلك، وهو ما أصابهم يوم بدر وفتح مكة،

(١) من الآية ٢٥ من سورة الأنفال .

وهو بعيد؛ لأن المبادر أن يكون ما استحقوه من العذاب الموعود عذاباً هائلاً مستأصلاً لا يظهر على يديه ﷺ؛ للحكمة الداعية إليه، وكانوا يضحكون، استهزاءً بهذا الوعد، وإنكاراً له، فقال لنبيه - عليه الصلاة والسلام -: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ أي: ادفع الخصلة السيئة بالخلصة التي هي أحسن، وهو الصفع عنها والإحسان في مقابلتها، لكن بحيث لا يؤدي إلى وهن في الدين وإهانة له. وقيل: السيئة: الشرك، والتي هي أحسن: كلمة التوحيد، وقيل: السيئة: المنكر، والتي هي أحسن: النهي عنه، وقيل: هي منسوخة بآية السيف، وقيل: محكمة؛ إذ المداراة مأمور بها. قال ابن عطية: أمر بمكارم الأخلاق، وما كان منها بهذا المعنى، فهو محكم باق في الأمة أبداً، وما كان بمعنى المواعدة فمنسوخ بآية القتال. هـ.

وهذا التركيب أبلغ من «ادفع بالحسنة السيئة»؛ لما فيه من التنصيص على التفضيل، وتقديم الجار والمجرور على المفعول؛ للاهتمام. ﴿نحن أعلم بما يصفون﴾ من الشرك والولد، أو بما يصفك به، مما أنت على خلافه، من السحر وغيره، فسنبازيهم عليه، وفيه وعيد لهم، وتسلية لرسوله ﷺ، وإرشاد له إلى تفويض أمره إليه تعالى والاكتفاء بعلمه.

﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ أي: وساوسهم المغرية على خلاف ما أمرت من المحاسن، التي من جملتها دفع السيئة بالحسنة، وأصل الهمز: النخس، ومنه: مهماز الرائض، شبه حثهم للناس على المعاصي بهمز الرائض الدواب على الإسراع والوثب. وجمع همزات؛ لتنوع الوسوس وتعدد المضاف إليه، ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾، أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه، والتعوذ من أن يحضروه أصلاً في حال من الأحوال؛ مبالغة في التحذير من ملابتهم، أو أن يحضروه عند التلاوة أو الصلاة، أو عند النزاع؛ تشريعاً. وإعادة الفعل، مع تكرير النداء؛ لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به.

ولا تزال الكفرة تصف الحق بما لا يليق به من الشرك، ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت﴾ أي: لا يزالون مشركين حتى يموتوا، فحتى، هنا، ابتدائية، دخلت على جملة الشرط، وهي متعلقة بـ«يصفون»، وما بينهما اعتراض مؤكد للإغضاء، لكن لا بمعنى أنه العامل فيه؛ لفساد المعنى، بل بمعنى أنه معمول لمحذوف دل عليه ذلك، أي: تنزيهاً له تعالى عما يصفون، ويستمررون على الوصف المذكور، حتى إذا جاء أحداً منهم الموت الذي لا مرد له، وظهرت له أحوال الآخرة، ﴿قال﴾؛ تحسراً على ما فرط فيه من الإيمان والطاعة: ﴿رب ارجعون﴾ أي: ردني إلى الدنيا، والوار؛ لتعظيم المخاطب، كخطاب الملوك، ﴿لعلني أعمل صالحاً فيما تركت﴾ أي: في الإيمان الذي تركته، أو في الموضع الذي تركت فيه الإيمان والطاعة؛ وهو الدنيا؛ لأنه ترك الدنيا وصار إلى العقبى.

قال قتاده: ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا عشيرة، ولكن ليتدارك ما فرط. وعنه، عليه السلام أنه قال: «إِذَا عَايَنَ الْمُؤْمِنُ الْمَلَائِكَةَ قَالُوا لَهُ: نُرْجِعُكَ إِلَى الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: إِلَى دَارِ الْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ؟ بَلْ قُدُومًا إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ، وَتَعَالَى، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَقُولُ: ارْجِعُون لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا...» (١). وقال القرطبي: ليس سؤال الرجعة مختصاً بالكافر، فقد يسألها المؤمن، كما في آخر سورة المنافقين (٢)، ودلت الآية على أن أحداً لا يموت حتى يعرف: أهو من أولياء الله أم من أعداء الله، ولولا ذلك لما سأل الرجعة، فيعلم ذلك قبل نزول الموت وذواقه. هـ. قال المحشي الفاسي: ولعل محمل الحديث في المؤمن الكامل غير المقصر، والآية في غيره. والله أعلم. هـ.

«كَلَّا» أي: لا رجوع له أصلاً، وهو ردع عن طلب الرجعة، واستبعاد لها، ﴿إِنهَا﴾ أي: قوله: (رب ارجعون)، «كَلِمَةٌ» والمراد: طائفة من الكلام، وهو (رب ارجعون...) الخ، ﴿هُوَ قَائِلُهَا﴾، ولا فائدة له فيها، ولا حقيقة لها؛ لعدم حصول مضمونها، أو هو قائلها لا محالة؛ لتسليط الحسرة والندم عليه، فلا يقدر على السكوت عليها، (ومن ورائهم) أي: أمامهم، والضمير للجماعة؛ لأن أحدهم بمعنى كلهم، ﴿بِرِزْخٍ﴾: حائل بينهم وبين الرجعة، ﴿إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾: يوم القيامة، وهو إقناط كلي عن الرجوع إلى الدنيا، لما علم أنه لا رجعة يوم القيامة إلى الدنيا، وإنما الرجوع فيه إلى الحياة الآخوية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما قاله عليه السلام في تضرعه إلى الله تعالى - كما أمره الحق تعالى - بقوله كل عارف ومتيقظ، فيقول: رب إما ترينى ما يوعدُهُ أهل الغفلة والبطالة من التحسر والندم، عند انقراض الدنيا وإقبال الآخرة، فلا تجعلنى فى القوم الظالمين، أى: لا تسلك بى مسلكهم حتى أتوسر معهم، فإذا أودى فى الله - كما هو شأن أهل الخصوصية - يقال له: ادفع بالتي هى أحسن السيئة، وقابل الإساءة بالإحسان، وإياك والانتصار لنفسك، وتعوذ بالله من همزات الشياطين، إن قامت عليك نفسك وأرادت الانتصار، كما هو شأن أهل الغفلة، فى كونهم منهمكين فى الغفلة، مملوكين فى أيدي أنفسهم، مستمرين على ذلك، حتى إذا حضر أجلهم طلبوا من الله الرجعة، هيهات هيهات، (كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون)، وفى الأثر: «ما منكم من أحد إلا وسيندم عند الموت، إن كان محسناً أن لو زاد، وإن كان مسيئاً أن لو تاب». أو كما قال.

ولأجل هذا المعنى شد أهل اليقظة الحُزْمَ، وشمروا عن ذراعهم فى طاعة مولاهم، وعمروا أوقاتهم بما يقربهم إلى محبوبهم، وتنافسوا فى ذلك أى تنافس، وفى ذلك يقول القائل:

(١) أخرجه ابن جرير (٥٢/١٨)، من حديث ابن جريج، مرسلًا.

(٢) فى قوله تعالى، وأنفقوا مما رزقناكم من أن قبل أن يأتى أحكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب... الآية ١٠.

السَّبَاقَ، السَّبَاقَ، قَوْلًا وَفِعْلًا حَذَرَ النَّفْسِ حَسْرَةَ الْمُسْبُوقِ

وكان بعض العباد حفر قبراً في بيته، فإذا صلى العشاء دخل فيه، وقرأ: (قال رب أرجعون لعلّي أعمل صالحاً....) الآية، فيقول لنفسه: ستطلبين الرجعة ولا تمكنين منها، وأنت اليوم متمكنة من الرجوع، قومي إلى خدمة مولاك، قبل أن يحال بينك وبينها، فببيت قائماً يصلي. وهكذا شأن أهل اليقظة؛ يقدمون الندم والجد قبل فوات إبانته. أعاننا الله على اغتنام طاعته، وما يقرينا إلى حضرته. آمين.

ثم ذكر أهوال ذلك اليوم الموعود، فقال:

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١٠١) ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٠٢) ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (١٠٣) ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ (١٠٤) ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَتِنِّي تَتْلَى عَلَيْنَا فَاكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (١٠٥)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ لقيام الساعة، وهي نفخة البعث والنشور، وقيل: فإذا نفخ في الأجساد أرواحها، على أن الصور جمع صورة، ويؤيده القراءة بفتح الواو مع الضم، وبه مع كسر الصاد. ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ تنفعهم، لزوال التراحم والتعاطف بينهم؛ من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة، بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه. قال ابن عباس: (لا يفتخرون بالأنساب والأحساب في الآخرة، كما كانوا يفتخرون في الدنيا، ﴿ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً؛ لا شغل كل منهم بنفسه، ولا يناقضه قوله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١)؛ لأن هذا - أي: سكوتهم - عند ابتداء النفخة الثانية، وذلك بعدها؛ لأن يوم القيامة ألوان، تارة يبهتون ولا يتساءلون، وتارة يفيقون، فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

وقال ابن عباس: إنما على النفخة الأولى، حين يصعق الناس، (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون)، ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (٢)، ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾. نقله الثعلبي.

(١) الآية ٢٧ من سورة الصافات.

(٢) الآية ٦٨ من سورة الزمر.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أى: موزونات حسناته من العقائد الصحيحة والأعمال الصالحة، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ الفائزون بكل مرغوب، الناجون من كل مرهوب، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أى: ومن لم يكن له من العقائد والأعمال ما يوزن - وهم الكفار - لقوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (١)، وتقدم ما فيه. ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: ضيعوها بتضييع زمان استكمالها، وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها، ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾، وهو خبر ثان لأولئك، أو بدل من الصلة، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة، فينصب على رؤوس الأولين والآخرين، ثم ينادى مناد: هذا فلان بن فلان، من كان له حق فليأت إلى حقه، فتفرح المرأة أن يدور لها الحق على ابنها، أو على زوجها، أو على أبيها، أو على أخيها، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَالَوْنَ﴾، ثم يقول الرب تعالى: آت هؤلاء حقوقهم، فيقول: رب، فنيث الدنيا؛ فمن أين آتيهم؟ فيقول للملائكة: خذوا من حسناته فأعطوا كل إنسان بقدر طلبته الخ الحديث (٢)، انظر التفسير.

قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾؛ تحرقها، واللفح كالنفخ، إلا أنه أشد تأثيراً منه، وتخصيص الوجوه بذلك؛ لأنها أشرف الأعضاء. ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ﴾: عابسون من شدة الإحراق، والكلوح: تقلص الشفتين من الإنسان، قال النبي صلى الله عليه وسلم في كالحون: «تَشْوِيهِ النَّارُ فَتَقْلُصُ شَفَتَهُ الْعُلْيَا، حَتَّى تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ، وَتَسْتَخْرِجِي السُّفْلَى حَتَّى تَبْلُغَ سُرَّتَهُ» (٣). فيقال لهم - تعنيفاً وتذكيراً لما به استحقوا ما ابتلوا به: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي﴾ أى: القرآن ﴿تَتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ فى الدنيا ﴿فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ حينئذ، فذوقوا وبال ما كنتم به تكذبون. نسأل الله التوفيق والهداية.

الإشارة: قال الترمذى الحكيم: الأنساب كلها منقطعة إلا من كانت نسبته صحيحة فى عبودية ربه، فإن تلك نسبة لا تنقطع أبداً، وتلك النسبة المفتخر بها، لا نسبة الأجناس من الآباء والأمهات والأولاد. هـ. وقال الورنجي: عند المعاينة والمشاهدة بوجوده ونشر جوده، نسبهم هناك نسب المعرفة والمحبة الأزلية، واصطفائيته القدسية، لا يفتخرون بشيء دونه، من العرش إلى الثرى، ولا يتساءلون؛ شغلاً بما هم فيه. هـ.

ومعنى كلام الشيخين: أن العبد، إذا صحت نسبته إلى مولاه، وانقطع بكليته إليه، ورفض كل ما سواه، اتصلت نسبته، ودامت محبته وأنسه، ومن تعلق بغيره، وتودد إلى ما سواه، انقطع ذلك وانفصل، ومن النسب التي تتصل وتدمر، النسبة إلى أولياء الله، والتحبب إليهم وخدمتهم، وهى فى الحقيقة من نسبة الله تعالى؛ لأنها سبب معرفته

(١) من الآية ١٠٥ من سورة الكهف.

(٢) أخرج رواية ابن عباس، وكذلك، ورواية ابن مسعود، الطبرى فى تفسيره.

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٨٨/٣) لترمذى فى (التفسير - تفسير سورة المؤمنون)، وقال: حسن غريب صحيح، والحاكم (٣٩٥/٢) وصححه، ووافقه الذهبى، عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه.

والتحقق بعبوديته، فهي عينها، فمن انتسب إليهم فقد انتسب إلى الله، ومن أحبهم فإنما أحب الله، فمحببتهم، والاجتماع معهم يؤدي إلى محبة الله ورضوانه، وهم الذين يكونون عن يمين الرحمن، يغشى نورهم الناس يوم القيامة، يغططهم النبيون والشهداء؛ لمنزلتهم عند الله. قال عليه الصلاة والسلام: لما سئل عنهم: «هم رجال من قبائل شتى، يجتمعون على ذكر الله ومحبته» أو كما قال ﷺ كما في الحديث (١). والله تعالى أعلم.

ثم ذكر جواب أهل النار، فقال:

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قُلْ كَمْ لِي شِمْرٌ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا الْيَتَامَىٰ تَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسِئْلِ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لِّي شِمْرٌ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَا كُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قَالُوا ﴾ أي: أهل النار: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا ﴾ أي: ملكتنا ﴿ شِقْوَتُنَا ﴾: شقاوتنا التي اقترناها بسوء اختيارنا، كما ينبي عنه إضافتها إلى أنفسهم، أي: شقينا بأعمالنا السيئة التي عملناها، ولا يصح حمله على الشقاوة الأزلية؛ لأنهم غير مكلفين بصرفها عنهم؛ إذ ليس في اختيارهم. ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ عن الحق، ولذلك فعلنا ما فعلنا من التكذيب، وهذا، كما ترى، اعتراف منهم بأن ما أصابهم إنما أصابهم بسوء صنعهم، وأما ما قيل: من أنه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم من الشقاوة الأزلية، فلا يصح؛ لأن الله تعالى ما كتب عليهم الشقاء حتى علم أنهم يفعلونه باختيارهم، بحسب الظاهر في عالم الحكمة، فيكون اعترافهم إنما هو بما كان في اختيارهم، لا بما كتب عليهم.

ثم قالوا: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ أي: أخرجنا من النار، وردنا إلى الدنيا، فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصي، فإننا متجاوزون الحد في الظلم، ولو كان اعتقادهم أنهم مجبورون على

(١) عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ليبعثن الله أقواماً يوم القيامة، في وجوههم النور، على منابر اللؤلؤ، يغططهم الناس، ليسوا بأنبياء ولا شهداء» قال: فجاء أعرابي على ركبتيه فقال: يا رسول الله، حلهم لنا نعرفهم؟ قال: «هم المتحابون في الله من قبائل شتى، وبلاد شتى، يجتمعون على ذكر الله تعالى، يذكرونه، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٧/١٠) رواه الطبراني وإسناده حسن.

ما صدر عنهم لما سألوا الرجعة إلى الدنيا، ولما وعدوا بالطاعة والإيمان. قال القرطبي: طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت.

ثم يجيبهم الحق تعالى، بعد ألف سنة، بقوله: ﴿ قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا ﴾ أى: اسكتوا فى النار سكوت ذل وهوان، وانزجروا انزجار الكلاب، يقال: خسأت الكلب، إذا زجرته، فخسأ، أى: انزجر. ﴿ وَلَا تُكَلِّمُون ﴾ باستدعاء الإخراج من النار والرجوع إلى الدنيا، أو فى رفع العذاب عنكم؛ فإنه لا يرفع ولا يخفف، روى أنه آخر كلام يتكلمون به، ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير، ويصير لهم عواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون^(١). قيل: ويرده الخطابات الآتية، وقد يجاب: بأنها قبل هذه الكلمة.

ثم علل استحقاقهم لذلك العذاب بقوله: ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى: الأمر والشأن ﴿ كَانَ فَرِيقَ مِّنْ عِبَادِي ﴾ وهم المؤمنون، أو الصحابة، أو أهل الصفة. رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ﴿ يَقُولُونَ ﴾ فى الدنيا: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فاتخذتموهم سخرياً ﴿ أَى: هزواً، وهو مصدر سخر، زبدت فيه ياء النسب؛ للمبالغة، وفيه الضم والكسر. وقال الكوفيون: المكسور بمعنى الهزاء، والمضموم من السخرة، بمعنى الانقياد للخدمة، ولذلك اتفق عليه فى الزخرف^(٢)، أى: اتخذتموهم مهزواً بهم، وتشاغلتم بهم ﴿ حَتَّى أَنْسَوَكُمْ ذِكْرِي ﴾، من فرط اشتغالكم بالاستهزاء بهم، ولم تخافونى فى أوليائى، ﴿ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾، وذلك غاية الاستهزاء.

قال تعالى: ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ ﴾ جزاء على صبرهم على أذاكم، ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ بكل مطلوب دونكم، فأنهم: مفعول « جزيتهم »؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين، وقرأ حمزة بالكسر؛ على الاستئناف؛ تعليلاً للجزاء، وبياناً أنه فى غاية الحسن، ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾، القائل هو الله تعالى، أو الملك، وقرأ المكي وحمزة: « قل »؛ التى بلفظ الأمر للملك، يسألهم: كم لبثوا، ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ التى دعوا الله أن يردهم إليها، ﴿ عِدَّةَ سِنِينَ ﴾، وهو تمييز، أى: كم لبثتم فى الأرض من عدد السنين، ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾، استقصار لمدّة لبثهم فيها بالنسبة إلى خلودهم، ولما هم فيه من عذابها؛ لأن الممتحن يستطيل أيام محنته، ويستقصّر ما مر عليه من أيام الدعة، ﴿ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ ﴾ أى: المتمكنين من العدة؛ فإننا بما دهمنا من العذاب بمعزل من العدة، أو الملائكة العادين لأعمار العباد وأعمالهم.

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى، أو الملك، تصديقاً لهم فى مقالهم: ﴿ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾: ما لبثتم إلا زماناً قليلاً، أو لبثاً قليلاً بالنسبة لما بعده، ﴿ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ شيئاً، أو: لو كنتم من أهل العلم لعلمتم قلة لبثكم فيها، فالجواب محذوف. والله تعالى أعلم.

(١) ذكره البغوى فى تفسيره (٤٣١/٥) عن الحسن.

(٢) فى قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا ۖ ﴾ الآية ٢٢ من سورة الزخرف.

الإشارة: إذا تميز المتحابون في الله، المجتمعون على ذكر الله ومحبته وطلب معرفته، وعرفوا بأنوارهم وأسرارهم، وانحازوا إلى ظل العرش، يوم لا ظل إلا ظله، ورآهم البطالون المنكرون عليهم، وهم في حسرة الحساب، يقولون بلسان الحال أو المقال: (ربنا غلبت علينا شقوتنا)؛ حيث لم نصحب هؤلاء الأولياء، وكنا قوما ضالين، ربنا أخرجنا من هذه الحسرة، وردنا إلى الدنيا، فإن عدنا إلى البطالة والإنكار عليهم فإننا ظالمون، فيقال لهم: اخسلوا فيها؛ فقد فات الإبان، إنه كان فريق من عبادي، وهم المنتسبون من أهل التجريد، المتزبون بزي الصوفية أهل التفريد، يقولون: ربنا آمنا بطريق الحصوصية ودخلنا فيها، فاغفر لنا، أي: غط مساوئنا، وارحمنا رحمة تضمننا إلى حضرتك، وأنت خير الراحمين، فاتخذتموهم سخرياً، وانشغلتم بالوقوع فيهم، حتى أنسوكم ذكرى، وكنتم منهم تضحكون، إني جزيتهم اليوم، بما صبروا، أنهم هم الفائزون بشهود ذاتي، والقرب من أحابي، المنتزهون في كمال جمالي، في درجات المقربين من النبيين والصديقين.

قال القشيري: الحق ينتقم من أعدائه بما يطيب به قلوب أوليائه، وتلك خصمة الحق، فيقول لهم: كان فريق من أوليائي يفسحون بمدحى وإطرائي، فاتخذتموهم سخرياً، فأنا اليوم أجازيهم، وأنتقم ممن كان يناويهم. هـ.

قوله تعالى: ﴿قال كم ليبتكم...﴾ الخ، اعلم أن أيام الدنيا كلها تقصر عند انقضاء عمر العبد، فتعرد كيوم واحد، أو بعض يوم، فإن أفضى إلى الراحة بعد الموت نسي أيام التعب، وغاب عنها، فتصير كأضغاث أحلام، وإن أفضى إلى التعب، نسي أيام الراحة، كأنها طيف منام. قال في الحاشية: الأشياء، وإن كانت كثيرة، فقد تنقص وتقل بالإضافة إلى ما يرجى عليها، كذلك مدة مقامهم تحت الأرض، إن كانوا في الراحة فقد تقل، بالإضافة إلى الراحة التي يلقونها في القيامة، وإن كانت شديدة فقد تتلاشى في جنب رؤية ذلك اليوم؛ لما فيه من أليم تلك العقوبات المتوالية. هـ.

ثم تم توبيخهم يوم القيامة بقوله:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

قلت: (أفحسبتم): المعطوف محذوف، أي: ألم تعلموا شيئاً فحسبتم، و (عبثاً): حال، أو مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ أى: عابثين، أو للعبث من غير حكمة فى خلقكم وإظهاركم حتى أنكرتم البعث، ﴿وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ للحساب والجزاء، بل خلقناكم للتكليف، ثم للرجوع إلينا، فنُنِيب المحسن، ونعاقب المسيء. ﴿فتعالى الله﴾ أن يخلق شيئاً عبثاً، وهو استعظام له تعالى ولشئونه التى يُصَرِّف عليها عباده؛ من البدء والإعادة، والإثابة والعقاب، بموجب الحكمة، أى: ارتفع بذاته، وتنزه عن معاملة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأفعاله، وعن خلو أفعاله عن الحكيم والمصالح والغايات الحميدة.

﴿الملك الحق﴾؛ الذى يحق له الملك على الإطلاق، إيجاداً وإعداماً، وإحياء وإماتة، عذاباً وإثابة، وكل ما سواه مملوك له، مقهور تحت ملكوته، ﴿لا إله إلا هو﴾، فإن كل ما عداه عبده، ﴿ربُّ العرش الكريم﴾، فكيف بما تحته من الموجودات، كائناً ما كان، ووصفه بالكريم: إمّا لأنه منه ينزل الوحي الذى منه القرآن الكريم، والخير والبركة، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين.

﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر﴾، يعبده فرداً أو اشتراكاً، من صفته ﴿لا برهان له به﴾ على صحة عبادته. وفيه تنبيه على أن التدين بما لا دليل عليه باطل، فكيف بما شهدت بديهة العقول بخلافه؟ ﴿فإنما حسابه عند ربه﴾، فهو مجاز له على قدر ما يستحقه، ﴿إنه﴾ أى: الأمر والشأن ﴿لا يفلح الكافرون﴾؛ لا فوز لهم ولا نجاة. بدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين، وختمت بنفى فلاح الكافرين؛ تحريضاً على الإيمان، وعلى ما يوجب بقاءه وتنميته، من التمسك بما جاء به التنزيل، وبما جاء به النبي الجليل، ليقع الفوز بالفلاح الجميل. ثم علمنا سؤال المغفرة والرحمة؛ لأن شؤم المعاصى يؤدى إلى سوء الختام، فقال: ﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾، وفيه إيدان بأنهما من أهم الأمور الدينية، حيث أمر به من قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف بمن عداه؟ نسأل الله - تعالى - المغفرة الشاملة، والرحمة الكاملة، لنا ولإخواننا ولجميع المسلمين... آمين.

روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه مر بمصابٍ مبتلى، فقرأ فى أذنه: (أفحسبتم أنما...) إلخ السورة، فبرئ من حينه. فقال النبي ﷺ: «ماذا قرأت فى أذنه؟» فأخبره، فقال: «والذى نفسى بيده لو أن رجلاً مؤمناً قرأها على جبل لزال» (١).

الإشارة: ما أظهر الله الكائنات إلا ليُعرف بها، ويظهر فيها أسرار ذاته وأنوار صفاته، وفى الأثر القدسي: «كنت كنزاً لم أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق، فتعرفت لهم، فبى عرفونى». وفى إيجاد المخلوقات حكمٌ بليغة وأسرار عجيبة، لا يحصيها إلا من خلقها ودبرها. فمن المخلوقات من خلقهم ليظهر فيهم أثر رحمته وكرمه وإحسانه،

(١) أخرجه البخارى فى تفسيره (٤٣٢/٥)، وأبو نعيم فى الحلية (٢/١)، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (ص ٢٩٨) قال الذهبى فى ميزان الاعتدال (١٧٥/٢) قال العيلى: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال:.... وساق الحديث، فقال أبى: هذا موضوع، هذا حديث الكذابين.

وهم أهل الإيمان والطاعة، ومنهم من خلقهم ليظهر فيهم حلمه وعفوه، وهم أهل العصيان، ومنهم من خلقهم ليظهر فيهم عدله وقهره ونقمة، وهم أهل الكفر والطغيان. وقال الحكيم الترمذى رحمته الله: إن الله خلق الخلق عبداً ليعبدوه، فيثيبهم على العبادات، ويعاقبهم على تركها، فإن عبده فهم اليوم له عبيد، أحرار كرام من رقب الدنيا، ملوك في دار السلام، وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أباق، سقاط، لثام، أعداء في السجون بين أطباق النيران. هـ.

وقال بعضهم: إنما أظهر الله الكون لأجل نبينا ﷺ تشريعاً له، فهو من نوره. قال ابن عباس رضي الله عنه: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: يا عيسى بن مريم؛ آمن بمحمد، ومر أمتك أن يؤمنوا به، فلولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار... الحديث.

قال القشيري: حسابه علي الله في آجله، وعذابه من الله له في عاجله، وهو ما أودع قلبه حتى رضي أن يعبد معه غيره، لقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(١)، كلام حاصل عن غير دليل عقل، ولا شهادة خبر ونقل، فما هو إلا إفك وبهتان، وقول ليس يساعده برهان. هـ. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين*.



(١) من الآية ٣ من سورة الزمر.

(*) في خاتمة المجلد الثاني من النسخة الأم ما يلي: كَمَلَ السَّفَرُ الثَّانِي مِنْ (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد)، ووافق الفراغ من تبييضه عشية يوم الثلاثاء، سابع عشر صفر، عام ثمانية ومائتين وألف، على يد جامعته أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، لطف الله به في الدارين، بمنه وكرمه. وبسيدنا ومولانا محمد، نبيه وحببه ﷺ وعلى آله. وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين. يتلوه الثالث من أول سورة النور. إن شاء الله..

انتهى استخراجها من نسخة من مبييضته بحمد الله - تعالى - على توقيفه لنا وتسديده، عشية يوم الاثنين، آخر يوم من الشهر المذكور، من العام المذكور، على يد كاتبه لشيخه ومؤلفه المذكور، عبد الغفور بن التهامي البزاني، راجياً رضا مؤلفه، والرى من بحره، بمحض الفضل والكرم، والصلاة على النبي الأعظم، والرسول الأفخم، سيدنا محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام.

فهرس المجلد الثالث

٥	تفسير سورة الرعد
٤١	تفسير سورة إبراهيم
٧٧	تفسير سورة الحجر
١٠٧	تفسير سورة النحل
١٧٩	تفسير سورة الإسراء
٢٤٥	تفسير سورة الكهف
٣١٧	تفسير سورة مريم
٣٧١	تفسير سورة طه
٤٤١	تفسير سورة الأنبياء
٥٠٩	تفسير سورة الحج
٥٦١	تفسير سورة المؤمنون

* * *

•
•

**مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب**

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٩/٤٠٦٥

I.S.B.N 977 - 01 - 6099 - 7

البحر المكي في تفسير القرآن المجيد

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة
١١٦١ هـ - ١٢٢٤ هـ

تحقيق وتعليق

أحمد عبد الله القرشي رسلان
المدرس المساعد بقسم التفسير
كلية أصول الدين - طنطا - جامعة الأزهر

المجلد الرابع

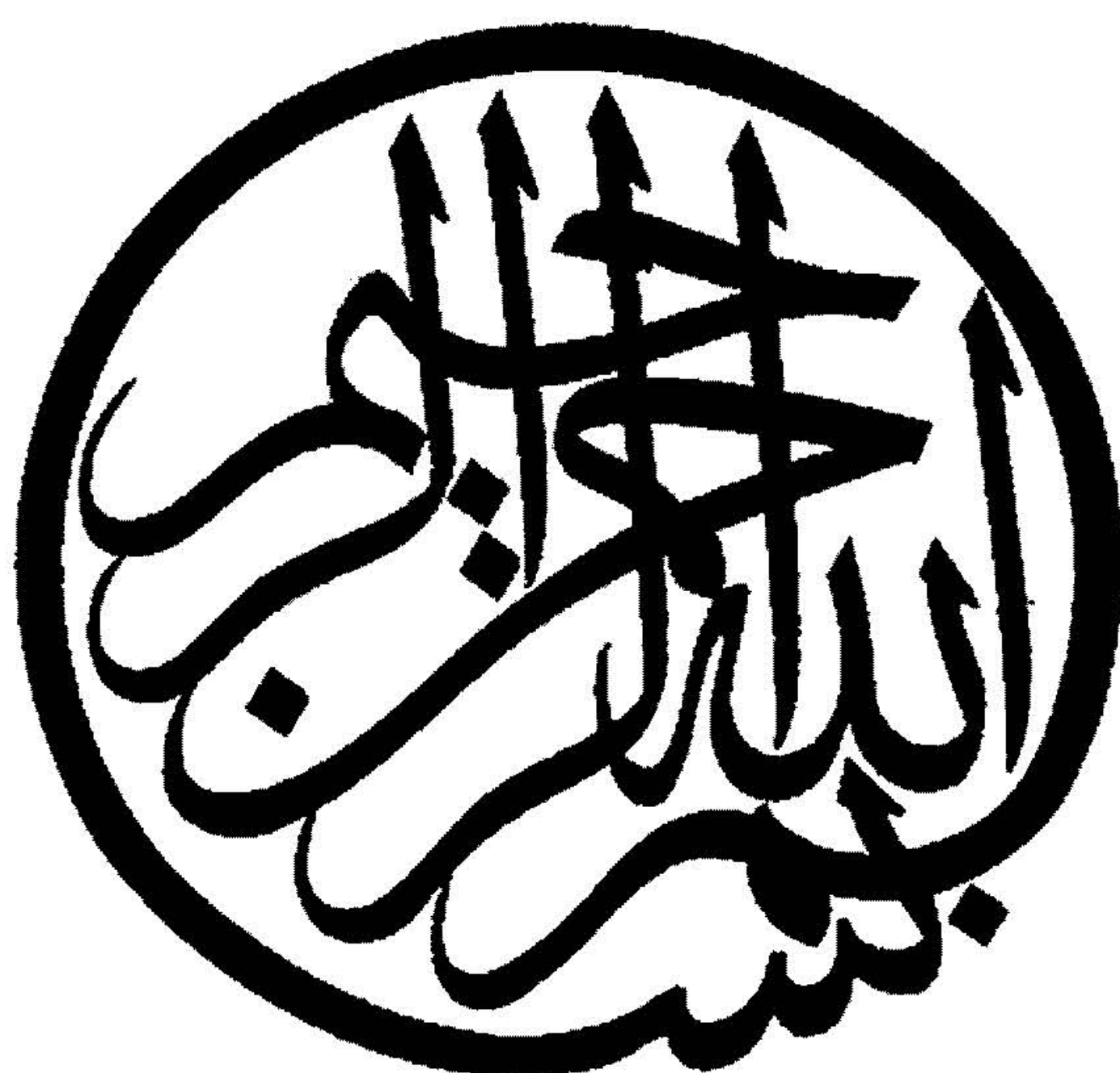
من أول سورة النور حتى آخر سورة الصافات

طبع على نفقة د. من عباس زكي

القاهرة ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

تفسير ابن عجيبة
«البحر المديد»

حقوق الطبع محفوظة
للدكتور حسن عباس زكي



سُورَةُ النُّورِ (*)

مدنية. ووجه المناسبة لما قبلها: أن إقامة الحدود من أثر الرحمة التي ختم بها ما قبلها؛ لأن بإقامة الحدود يقع الزجر عن المعاصي، فتتزل الرحمة والعافية. قال أبو هريرة رضي الله عنه: (إقامة حدٍّ بأرض خير لأهلها من مطر أربعين ليلة) (١).

وقيل: لما ذكر تعالى في مشركي قريش: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ﴾؛ أي: أعمال سيئة ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ (٢)، ثم استطرده بعد ذلك في أحوالهم، كان من أعمالهم السيئة: الزنا، وكان لهم جوارٍ بغايا عليهن، ويأكلون من كسبهن من الزنا، فأنزل الله هذه السورة؛ تغليظاً في أمر الزنا. هـ. وعن عائشة - رضي الله عنها - قال النبي ﷺ: «لا تنزلوا النساء الغرف، ولا تعلموهن الكتابة، وعلموهن سورة النور والفزل» (٣)؛ أي: أحكام السورة؛ لينزجرن عن الزنا.

وسميت سورة النور؛ لقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٤)، وحقيقة النور: ما تنكشف به حقيقة الأشياء على ما هي عليه، فالنور الظاهر الحسي تنكشف به الأشياء الحسية، والنور الباطن تنكشف به الأشياء الباطنية، كمعرفة الذات الأقدس، وما يقرب إليها من آداب العبودية. ومرجعه إلى ثلاثة: نور معرفة أحكام المعاملة، ونور اليقين، ونور المكاشفة. فالأول: نور الإسلام، وهو كنور النجوم، والثاني: نور الإيمان، وهو كنور القمر، والثالث: نور الإحسان، وهو كنور الشمس. ويسمى الأولان: نور التوجه، والثالث: نور المواجهة. وتفاوت هذه الأنوار على قدر التوجه والتفرغ من شواغل الحس، فإذا أشرقت شمس العرفان لم يبق لنور النجوم ولا للقمر أثر؛ لصح وجود الأكوان في محل العيان، فصار الغيب شهادة، والتصديق معاينة، فانطوى الإيمان في وجود العيان.

ولما كانت التقوى أساس الطريق لهذا المقام، الذي هو نور الإيمان، تكلم الحق تعالى في أول السورة على أهم ما يتقى، وهو الزنا وما يؤدي إليه من النظر والاطلاع على عورات النساء، فقال:

(*) أول المجلد الثالث من النسخة الأم.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٣٨١) وأخرجه بنحوه، ابن ماجه في (الحدود باب: إقامة الحدود، ٨٤٨/٢، ح ٢٥٣٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه ابن ماجه في الموضع نفسه (ح ٣٥٣٧) والنسائي (٧٦/٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) من الآية ٦٣ من سورة المؤمنين.

(٣) أخرجه البخاري في تفسيره (٦٨/٦)، والحاكم في المستدرک (٣٩٦/٢) وصححه، وتعقبه الذهبي، فقال: (بل موضوع، وأفته: عبد الوهاب، قال أبو حاتم: كذاب)، وقال الهيثمي في المجمع (٩٣/٤): رواه الطبراني في الأوسط (ح ٥٧١٣)، وفيه محمد بن إبراهيم الشامي. قال الدارقطني: كذاب. (٤) الآية ٣٥ من السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

قلت: «سورة»: خبر، أى: هذه سورة، وأشير لها، مع عدم تقدم ذكره؛ لأنها فى حكم الحاضر المشاهد. وقرئ بالنصب على الاشتغال، وجملة: (أنزلناها)، وما عطف عليه: صفة لسورة، مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة. و(الزانية): مبتدأ، والخبر: (فاجلدوا)، ودخلت الفاء؛ لتضمن المبتدأ معنى الشرط؛ إذ اللام موصولة، أى: والذى زنت والذى زنى فاجلدوا، هذا مذهب المبرد وغيره، والاختيار عند سيويه: الرفع على الابتداء، والخبر: محذوف، أى: فيما فرض عليكم، أر: مما يتلى عليكم: حكم الزانية والزانى، وقدم الزانية؛ لأنها الأصل فى الفعل، والداعية فيها أوفر، ولولا تمكينها منه لم يقع. وقيل: لما كان وجود الزنى فى النساء أكثر، بخلاف السرقة، ففى الرجال أكثر، قدم الحق تعالى الأكثر فيهما.

يقول الحق جل جلاله: هذه ﴿سورة﴾، وهى الجامعة لآيات، بغاتحة لها وخاتمة، مشتقة من سور البلد. من نعت تلك السورة: ﴿أنزلناها﴾ عليك، ﴿وفرضناها﴾ أى: فرضنا الأحكام التى فيها. وأصل الفرض: القطع، أى: جعلناها مقطوعاً بها قطع إيجاب. وقرأ المكي وأبو عمرو: بالتشديد؛ للمبالغة فى الإيجاب وتوكيده، أر: لأن فيها فرائض شتى، أر: لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم.

﴿وأنزلنا فيها﴾ أى: فى تضاعيفها ﴿آيات بينات﴾ أى: دلائل واضحات؛ لوضوح دلالتها على أحكامها لا على معانيها؛ فإنها كسائر السور. وتكرير (أنزلنا)، مع أن جميع الآيات عين السورة؛ لاستقلالها بعنوان رائق دأع إلى تخصيص إنزالها بالذكر؛ إبانة لخطرها، ورفعاً لقدرها، كقوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (١)، بعد قوله: ﴿نَجِّنَا هَرْدًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾. ﴿لعلكم تذكرون﴾ أى: لكى تتعظوا فتعملوا بموجبها عند وقوع الحوادث الداعية إلى إجراء أحكامها. وفيه إيذان بأن حقها أن تكون على بالٍ منهم، بحيث متى مست الحاجة إليها استحضروها.

(١) من الآية ٥٨ من سورة هود.

ثم شرع في تفصيل أحكامها، فقال: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾؛ إذا كانا حُرَّين، بالغين، غير مُحْصَنَيْنِ، وألا تكون المرأة مكرَّهة. وظاهر الآية: عموم المحصن وغيره، ثم نسخ بالسنة المشهورة. وقد رجم - عليه الصلاة والسلام - ماعزاً وغيره. وعن علي رضي الله عنه: جلدتهما بكتاب الله، ورجمتهما بسنة رسول الله ﷺ. وقيل: نسخ بآية منسوخة الثلاث، وهي: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة؛ نكالا من الله والله عزيز حكيم)، ويأباه ما روى عن علي رضي الله عنه. هـ. قاله أبو السعود.

وشرط الإحصان: العقل، والحرية، والإسلام، والبلوغ، والتزوج بنكاح صحيح، ودخول معتبر. وفي التعبير بالجلد، دون الضرب؛ إشارة إلى أنه لا يبالغ إلى أن يصل أثر الضرب إلى اللحم، ولكن يخفف حتى يكون حد ألمه الجلد الظاهر. والخطاب للأئمة؛ لأن إقامة الحدود من الدين، وهو على الكل، إلا أنه لا يمكن الاجتماع، فيقوم الإمام مقامهم، وزاد مالك والشافعي مع الجلد: تغريب عام، أخذاً بالحديث الصحيح (١). وقال أبو حنيفة: إنه منسوخ بالآية.

﴿ولا تأخذكم بهما رأفة﴾ أي: رحمة ورقة. وفيها لغات: السكون، والفتح مع القصر والمد، كالنشأة والنشأة، وقيل: الرأفة في دفع المكروه، والرحمة في إيصال المحبوب. ﴿في دين الله﴾ أي: في طاعته وإقامة حدوده، والمعنى: أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في دين الله، ولا يأخذهم اللين حتى يتركوا حدود الله. ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾، هو من باب التهييج، وإلهاب الغضب لله، ولدينه، فإن الإيمان يقتضي الجد في طاعته، والاجتهاد في إجراء أحكامه. وذكر اليوم الآخر؛ لتذكير ما فيه العقاب في مقابلة المسامحة. وجواب الشرط: مضمرة، أي: إن كنتم تؤمنون بالله فاجلدوا ولا تعطلوا الحد.

قيل لأبي مجلز في هذه الآية: والله إنا للرحمهم إن جلد الرجل أو نُقِطع يده، فقال: إنما ذلك في السلطان، ليس له أن يدعهم رحمة لهم. وجلد ابن عمر جارية، فقال للجلاد: ظهرها ورجليها وأسفلها، وخفف، فقيل له: أين قوله: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة﴾؟ فقال: أقتلها؟، إن الله أمرني أن أضربها وأدبها، ولم يأمرني أن أقتلها. هـ (٢). ويجرد للجلد إلا ما يستر العورة.

﴿وليشهد عذابهما﴾ أي: وليحضر موضع حدِّهما طائفة من المؤمنين؛ زيادة في التنكيل، فإن التفضيح قد ينكل أكثر من التعذيب. قال بعض العلماء: ينبغي أن يقام بين يدي الحكام، ولا يقيمه إلا فضلاء الناس وخيارهم؛ لأنه قيام بقاعدة شرعية، وقربة تعبدية، يجب المحافظة على فعلها، وقدرها، ومحطها، وحالها، بحيث

(١) أخرج البخاري في (الشهادات، باب شهادة القائف والسارق والزاني ح ٢٦٤٩) عن زيد بن خالد: «أن النبي ﷺ أمر فيمن زنى ولم يحصن بجلد مائة وتغريب عام». (٢) أخرجه الطبري (٦٧/١٨).

لا يتعذر شيء من شروطها وحرمتها، فإن دم المسلم وحرمة عظيمة، فيجب مراعاته بكل ما أمكن، فلا يقصر عن الحد، ولا يزداد عليه. ويطلب الاعتدال في السوط، فلا يكون ليناً جداً، ولا يابساً جداً، وكذلك في الضرب، فلا يرفع يده حت يرى إبطه، ولا يخفف فيه جداً، بل يتوسط بحيث يؤلمه ولا يضره.

وتسمية الحدّ عذاباً دليل على أنه عقوبة وكفارة. والطائفة: فرقة، يمكن أن تكون حافة حول الشيء، من الطوف، وهو الإدارة، وأقلها: ثلاثة، وقيل: أربعة إلى أربعين. وعن الحسن: عشرة، والمراد: جمع يحصل به التشهير. والله تعالى أعلم.

الإشارة: التقوى أساس الطريق، وبها يقع السير إلى عين التحقيق. فمن لا تقوى له لا طريق له، ومن لا طريق له لا سير له، ومن لا سير له لا وصول له. وأعظم ما يتقى العبد شهوة الفروج، فهي أعظم الفتن وأقبح المحن، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ما تركتُ بعديّ أضُرَّ على الرجالِ من النساءِ»^(١)، أو كما قال ﷺ. وعن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الناس اتقوا الزنا، فإن فيه ستُّ خصال: ثلاثا في الدنيا، وثلاثا في الآخرة: فأما اللاتي في الدنيا؛ فيذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقصُ العمر، وأما اللاتي في الآخرة؛ فيوجب السفطة وسوء الحساب والخلود في النار»^(٢). والمراد بنقص العمر: قلة بركته، وبالخلود: طول المكث. وفي حديث آخر: «إن أهل النار ليتأذون من نتن فروج الزناة والزواني»^(٣)، وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «إن أعمال أمتي تُعرض على كل جمعة مرتين، فاشتد غضب الله على الزناة»^(٤). وقال وهب بن منبه: (مكتوب في التوراة: الزاني لا يموت حتى يفتقر، والقواد لا يموت حتى يعمى).

وفي بعض الأخبار القدسية: يقول الله عز وجل: أنا الله لا إله إلا أنا، خلقت مكة بيدي، أغنى الحاج ولو بعد حين، وأفقر الزاني ولو بعد حين، هذا وباله في الدنيا والآخرة، وأما في عالم البرزخ؛ فتجعل أرواحهم في تنور من نار، فإذا اشتعلت علّوا مع النار، وإذا خمدت سقطوا إلى أسفلها، هكذا حتى تقوم الساعة، كما في حديث

(١) أخرجه البخاري في (الكناح، باب ما يتقى من شؤم المرأة ح)، ومسلم في (الذكر، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، ٢٠٩٧/٤ ح ٢٧٤٠) عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) عزاه في كنز العمال (٣١٩/٥ ح ١٣٠٢٢) للخرالطي في مساوئ الأخلاق. وأبو نعيم في الحلية (١١١/٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (ح ٥٤٧٥)، عن حذيفة. والحديث ضعفه البيهقي.

(٣) أخرجه بلعمه البزار (كشف الأستار ح ١٥٤٨) عن بريدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وضعفه الهيثمي في المجمع (٢٥٥/٦).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٧٩/٦) عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

البخارى^(١). وقال ابن رشد: ليس بعد الشرك أقبح من الزنا؛ لما فيه من هتك الأعراض واختلاط الأنساب، ومن تاب فإن الله يتوب على من تاب. وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾: قال في الإحياء: في الحديث: «خيار أمتي أحداؤها»^(٢) يعنى: في الدين؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾، فالغيرة على الحرم، والفضب لله وعلى النفس، بكفها عن شهرتها وهراها، محمود، وَقَدْ ذَلِكَ: مذموم. هـ. وبالله التوفيق.

ثم نهى عن نكاح الزواني، فقال:

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

يقول الحق جل جلاله: من شأن ﴿الزاني﴾ الخبيث: أنه لا يرغب إلا في زانية خبيثة من شكله، أو في مشركة، والخبيثة المسافحة لا يرغب فيها إلا من هو من شكلها، من الفسقة أو المشركين. وهذا حكم جار على الغالب المعتاد، جىء به؛ لزجر المؤمنين عن نكاح الزواني، بعد زجرهم عن الزنا بهن؛ إذ الزنا عدل الشرك في القبح، كما أن الإيمان قرين العفاف والتحصن، وهو نظير قوله: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾^(٣).

رُوى أن المهاجرين لما قدموا المدينة، وكان فيهم من ليس له مال ولا أهل، وبالمدينة نساء بغايا مصافحات، يكرين أنفسهن، وهُنَّ أَخْصَبُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، رغب بعض الفقراء في نكاحهن؛ لحسنهن، ولينفقوا عليهم من كسبهن، فاستأذنوا النبي ﷺ فنزلت^(٤)، فنفروهم الله تعالى عنه، وبين أنه من أفعال الزناة وخصائص المشركين، فلا تحوموا حوله؛ لئلا تلتظموا في سلوكهم وتتسموا بسمتهم.

قيل: كان نكاح الزانية محرماً في أول الإسلام، ثم نسخ بقوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾^(٥). وقيل: المراد بالنكاح: الوطء، أى: الزانى لا يزنى إلا بزانية مثله، وهو بعيد، أو باطل.

(١) أخرجه البخارى، مطولاً في (الجنائز، باب ٩٣ ح ١٣٨٦) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (ح ٥٧٩٣) والبيهقي في الشعب (ح ٨٣٠١) من حديث سيدنا علي، بسند ضعيف، وزاد: (والذين إذا غضبوا رجعوا) ..

(٣) الآية ٢٦ من سورة النور.

(٤) عزاء السيوطي في الدر (٢٨/٥) لابن أبي حاتم، عن مقاتل.

(٥) من الآية ٣٢ من سورة النور.

وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ زَنَّا بامرأةَ ثُمَّ تَزَوَّجَهَا. فَقَالَ: «أَوَّلُهُ سِفَاحٌ، وَآخِرُهُ نِكَاحٌ، وَالْحَرَامُ لَا يَحْرَمُ الْحَلَالَ» (١).

ومعنى الجملة الأولى: وصفُ الزانى بكونه غير راغب فى العفاف، ولكن فى الفواجر. ومعنى الثانية: وصف الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء، ولكن الزناة، وهما معنيان مختلفان. وقَدَمَ الزانى هنا، بخلاف ما تقدم فى الجلد؛ لأن تلك الآية سبقت لعقوبتهما على ما جنىا، والمرأة هى المادة التى منها نشأت تلك الجناية، كما تقدم، وأما هنا فمسرقة لذكر النكاح، والرجل أصل فيه.

ثم ذكر الحكم، فقال: ﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: نكاح الزوانى بقصد التكسب، أو: للجمال؛ لما فى ذلك من التشبه بالفساق وحضور مواضع التهمة، والتعرض لسوء المقالة والغيبة والطعن فى النسب، وغير ذلك من المفساد التى لا تكاد تليق بأحد من الأدانى والأراذل، فكيف بالمؤمنين والأفاضل؟، ولذلك عبّر عن التنزيه بالتحريم، مبالغة فى الزجر، وقيل: النفى بمعنى النهى، وقرئ به. والتحريم: إما على حقيقته، ثم نسخ بقوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ...﴾ (٢) الخ، أو: مخصوص بسبب النزول. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الصحبة لها تأثير فى الأصل والفرع، فيحصل الشرف أو السقوط بصحبة أهل الشرف أو الأراذل،

وفى ذلك يقول القائل:

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ، فَمَنْ غَدَا مُضَافاً لِأَرْبَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا
وَأَيَّاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةِ سَاقِطٍ فَتَنْحُطَ قَدْرًا مِنْ عِلَّاكَ وَتَحْقُرَا

فالمرء على دين خليله، ومن تحقق بحالة لا يخلو حاضروه منها، والحكم للغالب، فإن كان النور قوياً غلب الظلمة، وإن كانت الظلمة قوية غلبت النور، وصيرته ظلمة، ولذلك نهى الله تعالى عن نكاح الزوانى، فإنه وإن كان

(١) هذا حديثان، الأول قوله «أوله: سفاح وآخره نكاح، أخرجه عبدالرزاق فى مصنفه (٢٠٢/٧) وابن أبى شيبة فى مصنفه

(٢٤٨/٤) والبيهقى فى الكبرى (١٦٨/٧). موقوفاً على ابن عباس ؓ.

والثانى: قوله: «الحرام لا يحرم الحلال، أخرجه ابن ماجه فى (النكاح، باب لا يحرم الحرام حلال، ٦٤٩/١ ح ٢٠١٥)

والدارقطنى (١٦٩/٧) عن ابن عمر ؓ.

(٢) الآية ٣٢ من سورة النور.

نور الزوج غالباً - إذا كان ذا نور - فإن العرق نزاع، فيسرى ذلك في الفروع، فلا تكاد تجد أولاد أهل الزنا إلا زناة، ولا أولاد أهل العفة إلا أفعاء، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً﴾ (١).

وفي الحديث: «إياكم وخضرَاءَ الدَّمَنِ، قيل: وما خضرَاءُ الدمن يارسول الله؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء» (٢). قال ابن السكيت: شبهها بالبقلة الخضراء في دمنة أرض خبيثة؛ لأن الأصل الخبيث يحن إلى أصله، فتجىء أولادها لأصلها في الغالب. فيجب على اللبيب - إن ساعفته الأقدار - أن يختار لزراعته الأرض الطيبة، وهي الأصل الطيب، لتكون الفروع طيبة. وفي الحديث: «تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ وَلَا تَضَعُوهَا إِلَّا فِي الْأَكْفَاءِ» (٣) هـ وبالله التوفيق.

ثم ذكر حد القذف، فقال:

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

قلت: «ثمانين»: مفعول مطلق، و«جلدة»: تمييز. «إلا الذين تابوا»: إما: استثناء من ضمير «لهم»، فمحله: الجر، أو: من قوله: «الفاسقون»، فمحله: النصب؛ لأنه بعد موجب تام.

يقول الحق جل جلاله، في بيان شأن العفاف، بعد بيان شأن الزواني: ﴿والذين يزمون﴾ أي: يقذفون بالزنا ﴿المحصنات﴾؛ الحرائر العفاف المسلمات المكلفات، بأن يقول: يا زانية، أو: يا محبة، ولا فرق بين التصريح والتعريض، ولا بين النساء والرجال، قاذفاً أو مقذوفاً. والتعبير بالرمي، المتبني عن صلابة الآلة، وإيلام المرمى، ويعدده عن الرامي؛ إيدان بشدة تأثيره فيهن، وكونه رجماً بالغيب. والتعبير بالإحصان يدل على أن رميهن إنما كان بالزنا، لا غير.

(١) من الآية ٥٨ من سورة الأعراف.

(٢) أخرجه الشهاب القضاعي، في مسنده (٩٥٧)، والديلمي (الفردوس ح ١٥٣٧) عن أبي سعيد الخدري. قال العجلوني، في كشف الخفاء

(٢٧٢/١): قال ابن عدي: تفرد به الواقدي، وذكره أبو عبيد في الغريب. ورواه الدارقطني في الأفراد، وقال: لا يصح من وجه.

(٣) أخرجه بلفظ: «تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء»: ابن ماجه في (الكاغ، باب الأكفاء، ٦٣٣/١، ح ١٩٦٨)، والبيهقي في السنن

(١٣٣/٧)، والدارقطني في السنن (٢٩٨/٢)، من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها. وأخرجه بلفظ المفسر: ابن عدي في

الكامل (٦١٤/٢)، والبغدادى في تاريخ بغداد (٢٦٤/١)، وانظر كشف الخفاء (٣٠٢/١).

﴿ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾ يشهدون عليهن بما رموهن به، وفي كلمة «ثم»؛ إشارة إلى جواز تأخير الإتيان بالشهود، كما أن في كلمة «لم»: تحقق الإتيان بهم. وشروط إحصان القذف: الحرية، والعقل، والبلوغ، والإسلام، والعفة عن الزنا، فإن توفرت الشروط ﴿فاجلدوهم﴾ أي: القاذفين ﴿ثمانين جلدة﴾؛ لظهور كذبهم واقترائهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١)، وتخصيص رميهم بهذا الحكم، مع أن رمى المحصنين أيضاً كذلك؛ لخصوص الواقعة، وشيوع الرمي فيهن. والحدود كلها تشطر بالرق، فعلى العبد في الزنا خمسون، وفي القذف أربعون.

﴿ولا تقبلوا لهم﴾ بعد ذلك ﴿شهادة أبداً﴾؛ زجراً لهم؛ لأن رد شهادتهم مؤلم لقلوبهم، كما أن الجلد مؤلم لبدنهم. وقد آذى المقذوف بلسانه، فعوقب بإهدار شهادته، جزاء وفاقاً. والمعنى: ولا تقبلوا منهم شهادة من الشهادات، حال كونها حاصلة لهم عند الرمي، أبداً، مدة حياتهم، فالرد من تنمة الحد، كأنه قيل: فاجلدوهم وردوا شهادتهم، أي: فاجمعوا لهم بين الجلد والرد. ﴿وأولئك هم الفاسقون﴾، كلام مستأنف غير داخل في جزاء الشرط؛ لأنه حكاية حال الرامي عند الله تعالى بعد انقضاء الجزاء، وما في اسم الإشارة من معنى البعد؛ للإيذان ببعد منزلتهم في الشر والفساد، أي: أولئك هم المحكوم عليهم بالفسق، والخروج عن الطاعة، والتجاوز عن الحد، فإنهم المستحقون لإطلاق اسم الفاسق عليهم، دون غيرهم.

﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك﴾ القذف، ﴿وأصلحوا﴾ أحوالهم، فهو استثناء من الفاسقين، بدليل قوله: ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ أي: يغفر ذنوبهم ويرحمهم، ولا ينظمهم في سلك الفاسقين. فعلى هذا لا تقبل شهادته مطلقاً فيما حد فيه وفي غيره؛ لأن رد شهادته وصلت بالأبد، وأما توبته فإنما تنفعه فيما بينه وبين الله، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه، وهو قول ابن عباس وشريح والنخعي. وقيل: الاستثناء راجع لقوله: ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة﴾، فإذا تاب وأصلح قبلت شهادته مطلقاً؛ لأنه زال عنه اسم الفسق، والأبد عبارة عن مدة كونه فاسقاً، فينتهي بالتوبة، وبه قال الشافعي وأصحابه، وهو قول الشعبي ومسروق وابن جبير وعطاء وسليمان بن يسار. وفصل مالك، فقال: لا تجوز فيما حد فيه، ولو تاب، وتجاوز فيما سواه، وكأنه جمع بين القولين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الغض عن مساوي الناس من أفضل القرب، وهو من شيم ذوى الألباب، وبه السلامة من الهلاك والعطب، والتعرض لمساوئهم من أعظم الذنوب، وأقبح العيوب، والله در القائل:

(١) من الآية ١٣ من سورة النور.

إِذَا شَفَعْتَ أَنْ تَحْيَا وَدِينِكَ سَالِمٌ وحفظك موفور وعرضك صيّن
 لِسَانِكَ، لَا تَذْكُرْ بِهِ عَوْرَةَ أَمِيرٍ فَمَعْدَكَ عَوْرَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنٌ
 وَإِنْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ عَيْبًا فَقُلْ لَهَا: أَيْ عَيْنٌ لَا تَنْظُرُ؛ فَلِلنَّاسِ أَعْيُنٌ
 وَعَاشِرٌ بِمَعْرُوفٍ وَجَانِبٌ مَنِ اعْتَدَى وفارق ولكن بالتي هي أحسن (١)

فالمتوجه إلى الله لا يشتغل بغير مولاه، ولا يرى في المملكة سواه، يذكر الله على الأشياء، فتقلب نوراً؛ لحسن ظله بالله، ويلتمس المعاذر لعباد الله؛ لكمال حسن ظله بهم. وبالله التوفيق.

ثم تكلم على من رمى زوجته، وبه يقع اللعان، فقال:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

قلت: (إلا أنفسهم): بدل من (شهداء)، أو صفة له، على أن (إلا) بمعنى غير. و(فشهادة): مبتدأ، والخب محذوف، أي: واجبة، أو: تدرأ عنه العذاب، أو: خبر عن محذوف، أي: فالواجب شهادة أحدهم، و(أن)، في الموضعين: مخففة، ومن شدد؛ فعلى الأصل. و(الخامسة): مبتدأ، و(أن غضب): خبر، وقرأ حفص بالنصب، أي: ويشهد الشهادة الخامسة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿والذين يرمون أزواجهن﴾ أي: يقذفون زوجاتهم بالزنا، ﴿ولم يكن لهم شهداء﴾ أي: لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به ﴿إلا أنفسهم﴾، جعلوا من جملة الشهداء؛ أي: إذاً بعدم قبول قولهم بالمرة، ﴿فشهادة أحدهم﴾ أي: فالواجب شهادة أحدهم ﴿أربع شهادات بالله﴾ يقول: أشهد بالله ﴿إنه لمن الصادقين﴾ فيما رماها به من الزنا. ﴿والخامسة أن لعنة الله عليه﴾ أي: إنه لعنة الله عليه، أي: يقول فيها: لعنة الله عليه ﴿إن كان من الكاذبين﴾ فيما رماها به. فإذا حلف دُرِيَ عنه العذاب، أي: دفع عنه الحد، وإن نكل: حد؛ لثبوتها.

(١) الأبيات بنحوها في ديوان الشافعي ص/ ٨٤ تعليق محمد عفيف الزعبي.

﴿ويدراً عنها العذاب﴾ أى: يدفع عنها الحدَّ ﴿أن تشهد أربع شهادات بالله إنه﴾ أى: الزوج ﴿من الكاذبين﴾ فيما رماها به من الزنا، ﴿والخامسة أن غضب الله عليها إن كان﴾ الزوج ﴿من الصادقين﴾ فيما رماها به من الزنا. وذكر الغضب فى حق النساء؛ تغليظاً؛ لأن النساء؛ يستعملن اللعن كثيراً، كما ورد به الحديث: «يُكَلِّنُ اللَعْنَ» (١)، فربما يجترئن على الإقدام، لكثرة جرى اللعن على ألسنتهن، وسقوط وقعه عن قلوبهن، فذكر الغضب فى جانبهن؛ ليكون ردعاً لهن.

فإذا حلفا معاً فرق بينهما بمجرد التلاعن، عند مالك والشافعى، على سبيل التأبيد، وقال أبو حنيفة: حتى يحكم القاضى بطلقة بائنة؛ فتحل له بنكاح جديد إذا أكذب نفسه وتاب.

رُوى أن آية القذف المتقدمة لما نزلت؛ قرأها النبى ﷺ على المدبر، فقام عاصم بن عدى الأنصارى، فقال: جعلنى الله فداءك، إن وجد رجل مع امرأته رجلاً، فأخبر بما رأى، جلدَ ثمانين، وسماه المسلمون فاسقاً، ولا تقبل شهادته أيضاً، فكيف لنا بالشهداء، ونحن إذا التمسنا الشهداء فرغ الرجل من حاجته، وإن ضربه بالسيف قُتل؟ اللهم افتح، وخرج فاستقبله هلال بن أمية - وقيل: عويمر (٢) - فقال: ما وراءك؟ فقال: الشر، وجدت على امرأتى خولة - وهى بنت عاصم - شريك بن محمّاء - فقال عاصم: والله هذا سؤال ما أسرع ما ابتليت به، فرجعا، فأخبرا رسول الله ﷺ، فكلم خولة: فأنكرت، فنزلت هذه الآية، فتلاعنا فى المسجد، وفرق بينهما، فقال ﷺ: «ارقبوا الولد، إن جاءت به على نعت كذا وكذا، فما أراه إلا كذب عليها، وإن جاءت به على نعت كذا، فما أراه إلا صدق» فجاءت به على النعت المكروه.

قال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم﴾ أى: تفضله عليكم ﴿ورحمته﴾ ونعمته ﴿وأن الله تواب حكيم﴾، وجواب «لولا»: محذوف؛ لتهويله، والإشعار بضيق العبارة عن حصره، كأنه قيل: لولا تفضله تعالى

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى فى (الحيض، باب ترك الحائض الصوم ح ٤٠٣)، ومسلم فى (الإيمان، باب بيان نقص الإيمان، ٨٦/١ - ٨٧، ح ٧٩) من حديث ابن عمر، ولفظه: «يا معشر النساء تصدقن، فإنى أرىكن أكثر أهل النار. فقلن: ويم يا رسول الله؟ قال: تكفرن اللعن وتكفرن العشير... الحديث

(٢) كلاهما جاءت قصته فى الصحيح، وأخرج قصة عويمر البخارى، فى (التفسير، سورة النور، «والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم» ح ٤٠٠) ومسلم فى (أول كتاب اللعان، ١١٢٩/٢ ح ١٤٩٢) من حديث سهل بن سعد الساعدى. وأخرج قصة هلال بن أمية: البخارى أيضاً، فى: (التفسير - سورة النور، باب: «ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين» ح ٤٧٤٧). عن ابن عباس. وأخرجها مسلم فى الموضع السابق ذكره (ح ١٤٩٦) عن أنس بن مالك. وقد جمع العلماء بين هذه الأحاديث: بأن أول من وقع له ذلك هلال، وصادف مجيء عويمر أيضاً، فنزلت فى شأنهما معاً، فى وقت واحد. وقد جنح اللورى وابن حجر الى هذا. انظر فتح البارى (٣٠٤/٨ - ٣٠٥) وراجع أيضاً: تفسير الطبرى (٨٢/١٨ - ٨٤) والبخارى (١٢/٦ - ١٥).

عليكم ورحمته وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة، حكيم في جميع أفعاله وأحكامه، التي من جعلتها: ما شرع لكم من حكم اللعان، لكان ما كان، مما لا يحيط به نطاق العبارة، من حد الزوج مع الفضيحة، أو قتل المرأة، أو غير ذلك من العقوبة. قال القشيري: لبقيتكم في هذه المعضلة ولم تهتدوا إلى الخروج من هذه الحالة المشككة. هـ.

الإشارة: النفس إذا تحقق فناؤها، وكمل تهذيبها، رجعت سرّاً من أسرار الله، فلا يحل رميها بنقص؛ لأن سر الله تعالى منزّه عن النقائص، فإن رماها بشيء فليبادر بالرجوع عنه. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من رمى أزواج النبي - عليه الصلاة والسلام - في قضية الإفك، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾

قلت: (عُصْبَةٌ): خبر «إن»، و(لا تحسبوه): استئناف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾، وهو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفاجئك. والمراد: ما أفك على الصديقة عائشة - رضی الله عنها -، وفي لفظ المجيء إشارة إلى أنهم أظهروه من عدد أنفسهم من غير أن يكون له أصل.

وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرجت قرعتها استصحابها، قالت عائشة - رضی الله عنها -: فأقرع بيننا في غزوة غزاها - قيل: هي غزوة بلى المصطلق، وتسمى أيضاً: غزوة المريسيع، وفيها أيضاً نزل التيمم - فخرج سهمي، فخرجت معي ﷺ بعد نزول آية الحجاب، فحملت في هودج، فسرنا حتى إذا قفلنا ودنونا من المدينة؛ نزلنا منزلاً، ثم نودي بالرحيل، فقمعت ومشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع أظفار^(١) قد انقطع، فرجعت فالتمسته، فحبسني التماسه. وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون، فاحتعلوا هودجي فرحلوه على بعيري، وهم يحسبون أنني فيه؛ لخفتي، فلم يستنكروا خفة الهودج، وذهبوا بالبعير، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجلت منازلهم وليس فيه داع ولا مجيب، فتيمنت منزلي، وظننت أن سيفقدونني ويعودون في طلبي، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني، فتمت، وكان صفوان بن المعطل قد عرس^(٢) من وراء الجيش، فأدلى فأصبح عند منزلي، فلما رآني

(١) الجزع - بالفتح -: الفرز اليماني .. انظر النهاية (جزع ١/٢٦٩).

(٢) العريس: نزول المسافرين آخر الليل نزلةً للوم والاستراحة .. انظر النهاية (عرس ٣/٢٠٦).

عرفني، وكان يراني قبل الحجاب، فاسترجع، فاستيقظت باسترجاعه، فخمزت وجهي بجلبابي، والله ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة، غير استرجاعه، فأناخ راحلته، فوطئ على يدها، فقامت إليها فركبتها، وانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة، وهم نزول، وأفتقدني الناس حين نزلوا، وماج الناس في ذكرى، فبينما الناس كذلك إذ هجمت عليهم، فخاض الناس في حديثي، فهلك من هلك. والحديث بطوله مذكور في الصحيحين^(١) والسير.

وقوله تعالى: ﴿عَصَبَةٌ مِنْكُمْ﴾ أي: جماعة من جلدنكم، والعصبة: من العشرة إلى الأربعين، وكذا العصاية، يقال: اعصوبوا: اجتمعوا. وهم عبدالله بن أبي رأس المنافقين، وزيد بن رفاعه، ومسطح بن أثانة، وحمزة بنت جحش، ومن ساعدتهم. واختلف في حسان بن ثابت، فمن قال: كان منهم، أنشد البيت المروي في شأنهم ممن جلدوا الحد:

لَقَدْ ذَاقَ حَسَّانُ الَّذِي هُوَ أَهْلُهُ وَحِمْنَةُ إِذْ قَالَا هَجِيرًا، وَمَسْطَحُ

ومن برأ حسان من الإفك قال: إنما الرواية في البيت: (لقد ذاق عبدالله ما كان أهله)، والمشهور أن النبي ﷺ لم يحد عبدالله بن أبي، حين حد الرامين لعائشة، تأليفاً له؛ قال البرماوي في حاشيته على البخاري في فوائد حديث الإفك: وفيه ترك الحد لما يخشى من تفريق الكلمة، كما ترك عليه الصلاة والسلام حد ابن سلول. هـ. وقد روى ابن عبد البر أن عائشة برأت حسان من الفرية، وقد أنكر حسان أن يكون قال فيها شيئاً في أبياته، التي من جملتها:

حَصَّانُ رَزَّانٍ مَا تُزَنُّ بِرَيْبَةٍ وَتَصْبَحُ غَرْنِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ^(٢)

إلى أن قال:

فَإِنْ كَانَ مَا بُلِّغْتَ عَنِّي قُلْتُهُ فَلَا رَفَعْتُ سَوْطِي إِلَى أَنَامِلِي

(١) أخرجه البخاري في مواضع كثيرة، منها (المغازي، باب حديث الإفك ح ٤١٤١)، (التفسير- سورة النور، باب «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً» ح ٤٧٥٠)، وأخرجه مسلم في (التوبة، باب في حديث الإفك، ٤/٢١٢٩ - ٢١٣٦، ح ٧٧٠).

(٢) الحصان: المفيفة، والرزان: الرزينة الثابتة التي لا يستخفها الطيش. وتزن: ترمى وتتهم. وغرني: جائعة، والمعنى: لا تغتاب النساء. والغوافل: جمع غافلة، وهي التي غفلت عن الشر. وانظر: ديوان حسان (١٩٠ - ١٩١) والبحر المحيط (٤٠١/٦).

ويجمع بين قوله هنا ذلك، وبين قولها له عند قوله: وَتُصْبِحُ غَرْشِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ: «لكنك لست كذلك»؛ بأنه لم يقل نصاً وتصريحاً، ولكن عرّض وأوماً، فنُسب ذلك إليه. والله أعلم أي ذلك كان.

ثم قال تعالى: ﴿لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾، والخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام -، وأبى بكر، وعائشة، وصفوان؛ نسلية لهم من أول الأمر، ﴿بل هو خيرٌ لكم﴾؛ لاكتسابكم به الثواب العظيم، وظهور كرامتكم على الله عز وجل؛ بإنزال القرآن الذي ينقل إلى يوم الدين في نزاهة ساحتكم وتعظيم شأنكم، وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم، والثناء على من ظن خيراً بكم، مع ما فيه من صدق الرجوع إلى الله، والافتقار إليه، والإيأس مما سواه.

ثم ذكر وبال من وقع فيها بقوله: ﴿لكل امرئٍ منهم﴾ أي: من أولئك العصابة ﴿ما اكتسبَ من الإثم﴾ أي: له من الجزاء بقدر ما خاض فيه، وكان بعضهم ضحك، وبعضهم تكلم، وبعضهم سكت. ﴿والذي تولى كبره﴾ أي: معظمه وجله ﴿منهم﴾ أي: من العصابة، وهو عبدالله بن أبي ﴿له عذابٌ عظيم﴾ في الآخرة، إن كان كافراً، كابن أبي، وفي الدنيا إن كان مؤمناً، وهو الحد وإبطال شهادتهم وتكذيبهم. وقد روى أن مسطح كف بصره، وكذلك حسان، إن ثبت عنه الخوض فيه، والله تعالى أعلم.

الإشارة: كلام الناس في أهل الخصوصية مقاذفٌ لسير سفينتهم، ورياح لها، فكلما قوى كلام الناس في الولي قوى سيره إلى حضرة ربه، حتى تمنى بعضهم أن يكون غابة والناس فيه حطّابة. وفي الحكم: «إنما أجرى الأذى عليهم كي لا تكون ساكناً إليهم، أراد أن يزججك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء».

والحق تعالى غيور على قلوب أصفياته، لا يحب أن تركز إلى غيره، فمهما ركنت إلى شيء شوش ذلك عليه، كقضية سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام مع ابنه حين أمر بذبحه، وكقضية سيدنا يعقوب عليه السلام مع ابنه حين غيبه عنه. وكانت عائشة - رضي الله عنها - قد استولى عليها حبه - عليه الصلاة والسلام -، فكادت أن تحجب بالواسطة عن الموسط، فردّها إليه تعالى بما أنزل بها، تمحيصاً وتخليصاً وتخصيصاً، حتى أفردت الحق تعالى بالشهود، فقالت: بحمد الله، لا بحمد أحد. وكذا شأنه تعالى مع أحبائه؛ يردّهم إليه بما يوقع بهم من المحن والبلايا، حتى لا يكونوا لغيره. وبالله التوفيق (١).

(١) هذه إشارة ممتازة تكتب بماء الرياحين على صفحات القلوب.

ثم ويخ الخائضين في حديث الإفك، فقال:

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾^(١٢)
 ﴿لَوْلَا جَاءَ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾^(١٣)

قلت: قال ابن هشام: وقد يلي حرف التخصيص اسم معلق بفعل، إما بمضمر، نحو: «فهلأ بقرأ نلاعبيها وتلاعبيك» (١) أى: فهلأ تزوجت، أو مؤخرأ نحو: (لولا إذ سمعتموه قلم..) أى: فهلأ قلم إذ سمعتموه.. هـ. وإليه أشار في الخلاصة بقوله:

وَقَدْ يَلِيهَا اسْمٌ بِفِعْلِ مُضْمَرٍ عُلِقَ أَوْ بِظَاهِرٍ مُؤَخَّرٍ

يقول الحق جل جلاله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أى: الإفك ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ بالذين هم منهم؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (٢) أى: هلا ظنوا بإخوانهم خيراً: عفاً وصلاً، وذلك نحو ما يروى عن عمر رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ: (أنا قاطع بكذب المنافقين؛ لأن الله تعالى عصمك عن وقوع الذباب على جلدك، لئلا يقع على الدجاسات فتلطمخ بها، فإذا عصمك من ذلك فكيف لا يعصمك من صحبة من تكون ملطخة بهذه الفاحشة) ١. وقال عثمان رضي الله عنه: (ما أوقع ظلك على الأرض؛ لئلا يضع إنسان قدمه عليه؛ فلما لم يمكن أحداً من وضع القدم على ظلك، فكيف يمكن أحداً من تلويث عرض زوجتك) ٢. وكذا قال على رضي الله عنه: إن جبريل أخبرك أن على نعلك قدراً، وأمرك بإخراج النعل عن رجلك، بسبب ما التصق به من القذر، فكيف لا يأمرك بإخراجها، على تقدير أن تكون ملطخة بشيء من الفواحش؟ قاله النسفي.

وروى أن أبا أيوب الانصاري قال لامرأته: ألا ترين ما يقال في عائشة؟ فقالت: لو كنت بدل صفوان أكننت تخون رسول الله ﷺ؟ فقال: لا، قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله، فعائشة خير مني، وصفوان خير منك. وفي رواية ابن إسحاق: قالت زوجة أبي أيوب لأبي أيوب: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكننت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، فقال: عائشة خير منك، سبحان الله، هذا بهتان عظيم، فنزل: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ...﴾ الآية (٣).

(١) جاء ذلك في حديث سيدنا جابر، وأخرجه البخاري في (النكاح، باب تزويج اليبات ح ٥٠٧٩)، ومسلم في (الرضاع، باب استحباب نكاح البكر، ١٠٨٧/٢، ح ٥٦ في الباب) ولفظ البخاري: (هلا جارية...).

(٢) من الآية ١١ من سورة الحجرات.

(٣) انظر تفسير ابن جرير (٩٦/١٨)، والبيهقي (٢٥/٦)، وأسباب النزول للواحدي، ص (٣٣٣).

وانما عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر، ولم يقل: ظننتم بأنفسكم خيراً، وقلتم؛ ليبالغ في التوبيخ بطريق الالتفات، وليدل التصريح بلفظ الإيمان على أن المؤمن لا يسمى الظن بأحد من المؤمنين.

﴿وقالوا﴾ عند سماع هذه الفرية: ﴿هذا إفكٌ مبين﴾؛ كذب ظاهر لا يليق بمنصب الصديقة بنت الصديق. ﴿لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء﴾؛ هلاً جاء الخائضون بأربعة شهداء على ما قالوا ﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء﴾، ولم يقل: بهم؛ لزيادة التقرير، ﴿فأولئك﴾ الخائضون ﴿عند الله﴾ أي: في حكمه وشرعه ﴿هم الكاذبون﴾؛ الكاملون في الكذب، المستحقون لإطلاق هذا الاسم عليهم دون غيرهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: حسن الظن بعباد الله من أفضل الخصال عند الله، ولا سيما ما فيه حرمة من حرم الله. قال القشيري على الآية: عاتبهم على المبادرة إلى الاعتراض وترك الإعراض عن حرمة بيت نبيهم. ثم قال: وسبيل المؤمن ألا يستصغر في الوفاق طاعة، ولا في الخلاف زنة، فإن تعظيم الأمر بتعظيم الأمر، وإن الله لينتقم لأوليائه ما لا ينتقم لنفسه، ولا سيما ما تعلق به حق الرسول - عليه الصلاة والسلام - فذلك أعظم عند الله، ولذلك بالغ في التوبيخ على ما أقدموا عليه، مما تأذى به الرسول، وقلوب آل الصديق، وقلوب المخلصين من المؤمنين. هـ

ثم قال تعالى:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٤) ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّتِمْ وَتَقُولُونَ بَافْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (١٥) ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ (١٦) ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧) ﴿وَيَسِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٨)

قلت: (لولا) هنا: امتناعية بخلاف المتقدمة؛ فإنها تحضيضية، و(إذ سمعتموه): معمول لقلتم، و(إذ تلقونه): ظرف لمسكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولولا فضل الله عليكم﴾ أيها السامعون ﴿ورحمته في الدنيا﴾؛ من فنون النعم، التي من جملتها: الإمهال والتوبة، ﴿و﴾ في ﴿الآخرة﴾؛ من ضروب الآلاء، التي من جملتها: العفو

والمغفرة، ﴿لَسَكُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِيْمَا أَفْضُتُمْ﴾ أى: بسبب ما خضتُم ﴿فِيهِ﴾ من حديث الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يُسْتَحَقَّرُ دُونَهُ التَّوْبِيخُ وَالْجَلْدُ، يُقَالُ أَفَاضَ فِي الْحَدِيثِ، وَفَاضَ، وَانْدَفَعَ: إِذَا خَاضَ فِيهِ.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ أى: لِمَسْكُمُ الْعَذَابُ الْعَظِيمُ وَقَدْ تَلَقَّيْتُمُوهُ مِنْ الْمُخْتَرَعِينَ لَهُ، يُقَالُ: تَلَقَّى الْقَوْلَ، وَتَلَقَّاهُ، وَتَلَقَّفَهُ، بِمَعْنَى وَاحِدٍ، غَيْرَ أَنَّ التَّلَقَّفَ: فِيهِ مَعْنَى الْخُطْفِ وَالْأَخْذَ بِسُرْعَةٍ، أَيْ: إِذْ تَأْخُذُونَهُ ﴿بِالْسَّتِّكُمْ﴾؛ بِأَنْ يَقُولَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ: هَلْ بَلَغَكَ حَدِيثُ عَائِشَةَ، حَتَّى شَاعَ فِيْمَا بَيْنَكُمْ وَانْتَشَرَ، فَلَمْ يَبْقَ بَيْتٌ وَلَا نَادٍ إِلَّا طَارَ فِيهِ. ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أَيْ: قَوْلًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَقَيِّدْهُ بِالْأَفْوَاهِ، مَعَ أَنَّ الْكَلَامَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْفَمِّ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ الْمَعْلُومَ يَكُونُ فِي الْقَلْبِ، ثُمَّ يَتَرَجَّمُ عَنْهُ اللِّسَانُ، وَهَذَا الْإِفْكُ لَيْسَ إِلَّا قَوْلًا يَدُورُ فِي الْأَفْوَاهِ، مِنْ غَيْرِ تَرْجُمَةٍ عَنْ عِلْمٍ بِهِ فِي الْقَلْبِ. ﴿وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا﴾ أَيْ: وَتَظُنُّونَ أَنَّ خَوْضَكُمْ فِي عَائِشَةَ سَهْلٌ لَا تَبْعَةَ فِيهِ، ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أَيْ: وَالْحَالُ أَنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ كَبِيرٌ، لَا يُقَادَرُ قُدْرُهُ فِي اسْتِجْلَابِ الْعَذَابِ. جَزَعَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَخَافُ ذَنْبًا لَمْ يَكُنْ مَلَى عَلَى بَالٍ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ مِنَ الْمُخْتَرَعِينَ وَالشَّائِعِينَ لَهُ ﴿قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا﴾؛ مَا يُمْكِنُنَا ﴿أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾، وَمَا يُلْبِغُنِي أَنْ يَصْدُرَ عَنَّا، وَتَوْسِيطُ الظُّرُوفِ بَيْنَ الْوَلَا، وَهَقْلَتُمْ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يُبَادِرُوا بِإِنْكَارِ هَذَا الْكَلَامِ فِي أَوَّلِ وَقْتِ سَمْعِهِ، فَلَمَّا تَأَخَّرَ الْإِنْكَارُ وَبُخِّمَ عَلَيْهِ، فَكَانَ ذِكْرُ الْوَقْتِ أَهَمَّ، فَقَدَّمَ، وَالْمَعْنَى: هَلَّا قُلْتُمْ إِذْ سَمِعْتُمْ الْإِفْكَ: مَا يَصِحُّ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا، ﴿سُبْحَانَكَ﴾؛ تَنْزِيهًا لَكَ، وَهُوَ تَعْجَبٌ مِنْ عِظَمِ مَا فَاهُوا بِهِ. وَمَعْنَى التَّعْجَبِ فِي كَلِمَةِ التَّسْبِيحِ: أَنَّ الْأَصْلَ أَنْ يُسَبِّحَ اللَّهُ عِنْدَ رُؤْيَا الْعَجِيبِ مِنْ صَنَائِعِهِ تَعَالَى، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى اسْتَعْمَلَ فِي كُلِّ مَتَّعٍ مِنْهُ. أَوْ: تَنْزِيهًا لَكَ أَنْ يَكُونَ فِي حَرَمِ نَبِيِّكَ فَاجِرَةً، ﴿هَذَا يَهْتَانُ عَظِيمٌ﴾؛ لِعِظَمَةِ الْمُبْهَوْتِ عَلَيْهِ، وَاسْتِحَالَةِ صَدَقِهِ، فَإِنَّ حَقَارَةَ الذُّنُوبِ وَعِظَمَتَهَا بِاعْتِبَارِ مُتَعَلِّقَاتِهَا. وَقَالَ فِيْمَا تَقْدَمُ: ﴿هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (١). وَيجوزُ أَنْ يَكُونُوا أَمْرًا بِهِمَا مَعًا، مِبَالِغَةً فِي التَّبَرُّيِّ.

﴿يَعْظُمُ اللَّهُ﴾ أَيْ: يَنْصَحُكُمْ ﴿أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ أَيْ: كِرَاهَةً أَنْ تَعُودُوا، أَوْ يَزْجُرْكُمْ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِ هَذَا الْحَدِيثِ أَوْ الْقَذْفِ أَوْ الْاسْتِمَاعِ، ﴿أَبَدًا﴾؛ مَدَّةَ حَيَاتِكُمْ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ فَإِنَّ الْإِيمَانَ وَازَعَ عَنْهُ لَا مُحَالَةَ. وَفِيهِ تَهْيِيجٌ وَتَفْرِيعٌ وَتَذْكِيرٌ بِمَا يُوجِبُ تَرْكَ الْعُودِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ الصَّادِقُ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ.

(١) الآية ١٢ من سورة النور.

﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ الدالة على الشرائع ومحاسن الأدب، دلالة واضحة؛ لتتعضوا وتتأدبوا، أى: ينزلها كذلك ظاهرة مبينة، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾؛ عليم بأحوال مخلوقاته، حكيم فى جميع تدابيرهِ وأفعاله، فأتى بصح ما قيل فى حرمة من اصطفاه لرسالته، وبعثه إلى كافة الخلق، ليرشدهم إلى الحق، ويزكيهم ويطهرهم تطهيراً؟ والله تعالى أعلم.

الإشارة: الكلام فى الأولياء سم قاتل؛ لأن الله ينتصر لأوليائه لا محالة، فمنهم من ينتصر لهم فى الدنيا بإنزال البلياء والمحن فى بدنه أو ولده أو ماله، ومنهم من يؤخر عقوبته إلى الآخرة، وهو أقبح. ومنهم من تكون عقوبته دينية قلبية؛ كفسادة القلب وجمود العين، وتعويق عن الطاعة، ووقوع فى ذنب، أو فترة فى همة، أو سلب لذاذة خدمة أو معرفة، وهذه أقبح العقوبة، والعياذ بالله.

ثم أورد من كان يشيع حديث الأفك، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ ﴾؛ يريدون ﴿ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾ أى: تنتشر الخصلة المفردة فى القبح، وهو الرمى بالزنا، أو نفس الزنا، والمراد بشيوعها: شيوع خبرها، أى: يحبون شيوعها ويتصدرون مع ذلك لإشاعتها. وإنما لم يصرح به؛ اكتفاء بذكر المحبة؛ فإنها مستلزمة له لا محالة، وهم: عبدالله بن أبى وأصحابه ومن تبعهم. ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾؛ بالحد والفضيحة والتكذيب. ولقد ضرب ﷺ الحد كل من رمى عائشة. وتقدم الخلاف فى ابن أبى، فقيل: حده، وقيل: تركه؛ استتلافاً له. ﴿ وَ ﴾ لهم العذاب فى ﴿ الْآخِرَةِ ﴾ بالنار وغيرها، إن لم يقربوا. ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ جميع الأمور، التى من جملتها: المحبة المذكورة، ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ما يعلمه تعالى، بل إنما يعلمون ما ظهر من الأقوال والأفعال المحسوسة، فابنوا أمرهم على ما تعلمونه، وعاقبوا فى الدنيا على ما تشاهدونه من الأحوال الظاهرة، والله يتولى السرائر، فيعاقب فى الآخرة على ما تكنه الصدور.

﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته ﴾ ، التكرير؛ لتعظيم العنة بترك المعاجلة؛ للتنبية على كمال عظم الجريمة، ﴿ وأن الله رؤوف رحيم ﴾ عطف على (فضل الله)، أى: لولا فضله ورأفته لعاجلكم بالعقوبة، وإظهار اسم الجليل؛ لتربية المهابة، والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة، وتصديره بحرف التأكيد؛ لأن المراد بيان اتصافه تعالى فى ذاته بالرأفة، التى هى كمال الرحمة، وبالرحيمية التى هى المبالغة فيها على الدوام والاستمرار. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من شأن أهل البعد والإنكار: أنهم إذا سمعوا بحدوث نقص أو عيب فى أهل النسبة وأهل الخصوصية فرحوا، وأحبوا أن تشيع الفاحشة فيهم؛ قصداً لغض مرتبتهم؛ حسداً وعناداً، لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة، ولولا فضل الله ورحمته لعاجلهم بالعقوبة. والله تعالى أعلم وأحكم.

ولما نزلت براءة عائشة - رضى الله عنها - حلف أبوها لا ينفق على مسطح شيئاً؛ غضباً لعائشة، وكان ينفق عليه؛ لقربته، فأنزل الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ أى: لا تسلكوا مسالكه فى كل ما تأتون وتذرون من الأفاعيل، والتى من جعلتها: منع الإحسان إلى من أساء إليكم؛ غضباً وحمية، ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان ﴾، وضع الظاهر موضع المضمَر، حيث لم يقل: ومن يتبعها، أو: ومن يتبع خطواته؛ لزيادة التقرير والمبالغة فى التنفير، ﴿ فإنه ﴾ أى: الشيطان ﴿ يأمر بالفحشاء ﴾؛ كالبخل والشح، وكل ما عظم قبحه، ﴿ والمنكر ﴾؛ كالغضب، والحمية، وكل ما ينكره الشرع؛ لأن شأن الشيطان أن يأمر بهما. فمن اتبع خطواته فقد امتثل أمره.

﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته ﴾ بالهداية والتوفيق لأسباب التطهير والعصمة والحفظ، ﴿ ما زَكَّى منكم ﴾ أى: ما طَهَّرَ من أدناسِ العيوب ولوثِ الفواحش ﴿ من أحدٍ أبداً ﴾؛ إلى ما لا نهاية له، وإذا كان التطهير والعصمة بيد الله فلا تروا لأنفسكم فضلاً عما لم يعصمه الله؛ فإنه مقهور تحت مجارى الأقدار، ﴿ ولكنَّ الله يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾؛ يظهر من يشاء من عباده؛ بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه؛ بالحفظ والرعاية، أو بالتوبة بعد الجنابة، ﴿ والله سميعٌ عليمٌ ﴾؛ سميع لأقوالكم وإن خفيت، ومن جملتها: الحلف على ترك فعل الخير، عليم بنياتكم وإخلاصكم.

وهذا الكلام مقدمة لقوله: ﴿ ولا يَأْتَلِ ﴾، من قولك: أليت: إذا حلفت، أى: لا يَحْلِفُ ﴿ أولوا الفضل منكم ﴾ أى: فى الدين، وكفى به دليلاً على فضل الصديق عليه السلام، «والسَّعة». أى: والسعة فى المال ﴿ أن يُؤْتُوا ﴾ أى: لا يحلف على ألا يعطوا ﴿ أولي القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيلِ الله ﴾؛ كمسطح، فإنه كان ابن خالته، وكان من فقراء المهاجرين. وهذه الأوصاف هى لموصوف واحد، جىء بها، بطريق العطف؛ تنبيهاً على أن كلاً منها علة مستقلة لاستحقاقه الإتياء. وحذف المفعول الثانى؛ لظهوره، أى: على ألا يؤتوهم شيئاً، ﴿ وليعفوا ﴾ عما فرط منهم ﴿ وليصفحوا ﴾ بالإغضاء عنه، فالعفو: التستر، والصفح: الإعراض، أى: وليتجاوزوا عن الجفاء، وليعرضوا عن العقوبة.

﴿ ألا تُحِبُّونَ أن يغفر الله لكم ﴾ ؟ فلتفعلوا ما تحبون أن يفعلَ بكم وبهم، مع كثرة خطاياهم، ﴿ والله غفور رحيم ﴾؛ مبالغ فى المغفرة والرحمة، مع كثرة ذنوب العباد، فتأدبوا بآداب الله، واعفوا، وارحموا. ولما قرأها النبى صلى الله عليه وسلم على أبى بكر رضي الله عنه قال: بل أحب أن يغفر الله لى. ورد إلى مسطح نفقته، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً (١). وبالله التوفيق.

الإشارة: كل ما يصد عن مكارم الأخلاق؛ كالحلم، والصبر، والعفو، والكرم، والإغضاء، وغير ذلك من الكمالات، فهو من خطوات الشيطان، تجب مجانبته، فإن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر؛ كالغضب، والانتصار، والحمية، والحقد، والشح، والبخل، وغير ذلك من المساوئ، ولا طريق إلى الدواء من تلك المساوئ إلا بالرجوع إلى الله والاضطرار له، والتعلق بأذيال فضله وكرمه.

(١) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة النور، باب «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً» ح ٤٧٥٠) وفى مواضع أخرى. وأخرجه مسلم فى (التوبة، باب فى حديث الإفك ٩٢٩/٤ - ٢١٣٦، ح ٢٧٧٠)، كلاهما فى سياق حديث الإفك الطويل.

ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً، فإذا تعلق بالله، واضطر إليه اضطرار الظمان إلى الماء طهره الله وزكاه، إما بلا سبب، أو بأن يلقيه إلى شيخ كامل، يريه ويهذهبه بإذن الله، وهذا هو الكثير، والكل منه وإليه.

قال الورتجبي قوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته...﴾ الخ: بين أن تطهير العباد من الذنوب لا يكون إلا بفضل الله السابق وعنايته الأزلية، كيف يزكى العبد ما يكون عللاً، فالمعلول لا يطهر، والمعلول أفعال الحدثان على كل صنف، ولطف القديم له استحقاق ذهاب العلل بوصوله. قال السيارى: قال الله: ﴿ولولا فضل الله عليكم﴾، ولم يقل: لولا عبادتكم وصلاتكم وجهادكم وحسن قيامكم بأمر الله ما نجا منكم أحد؛ ليعلم أن العبادات، وإن كثرت، فإنها من نتائج الفضل. هـ.

قال فى الحاشية: وظهر لى أن الآية مقدمة لما ندب إليه الصديق بقوله: ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم﴾، ففيه إشارة إلى أن فضله وزكاته فضل من الله عليه، وعناية سابقة، وهى سبب حفظه وتحليه بخليع كوامل الأوصاف، فليشهد ذلك، ولا يأتل على من لم يجد ذلك، حتى وقع فيما وقع من القذف، بل يعذره، ويرى منه الله عليه فى كونه نزهة بعنايته من الوقوع فى مثل ذلك، مع كون المحل قابلاً، ولكن الله خصصه. هـ.

قال الورتجبي على قوله: ﴿ولا يأتل...﴾ الخ: فى الآية بيان وتأديب الله للشيوخ والأكابر ألا يهجروا صاحب العثرات والزلات، من المريدين، ويتخلقوا بخلق الله، حيث يغفر الذنوب العظام ولا يبالي، وأعلمهم ألا يكفوا أعطافهم عنهم. ثم قال: فإن من له استعداد لا يحتجب بعوارض البشرية عن أحكام الطريقة أبداً. هـ.

ثم ذكر وبال القاذفين لعائشة - رضى الله عنها - أو لغيرها، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

قلت: يوم تشهد: ظرف للاستقرار، فى اللهم، أو: معمول لا نكر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾؛ يقدفون ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾؛ العفاف مما رمين به من الفاحشة، ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ عنها على الإطلاق، بحيث لم يخطر ببالهن شيء منها ولا من مقدماتها، أو السليعات

الصدور، النقيات القلوب، اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر؛ لأنهن لم يجربن الأمور، ﴿المؤمنات﴾؛ المتصفات بالإيمان بكل ما يجب الإيمان به، إيماناً حقيقياً لا يخالجه شيء مما يكدره. عن ابن عباس: هن أزواج النبي ﷺ، وقيل: جميع المؤمنات؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقيل: أريدت عائشة وحدها، وإنما جمع؛ لأن من قذف واحدة من أزواج النبي ﷺ فكأنه قذفهن.

ثم ذكر الوعيد، فقال: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة أبداً، ﴿ولهم﴾ مع ذلك ﴿عذابٌ عظيمٌ﴾، هائل لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ؛ لعظم ما اقترفوه من الجناية، إن لم يتوبوا، فيعذبون. ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ أى: بما أفكوا وبهتوا ﴿يومئذ يوفيهُم الله دينهم﴾ أى: يوم تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة يوفيهُم الله جزاءهم ﴿الحق﴾ أى: الثابت الذي يحق أن يثبت لهم لا محالة، أر الذي هم أهله، والحق: صفة لدينهم، أر الله، ونصب على المدح. ﴿ويعلمون﴾ عند ذلك ﴿أن الله هو الحق﴾ الثابت الواجب الوجود ﴿المبين﴾؛ الظاهر البين؛ لارتفاع الشكوك، وحصول العلم الضروري؛ لارتفاع الغطاء بظهور ما كان وعداً غيبياً.

ولم يَغْلَظَ اللهُ تعالى في القرآن في شيء من المعاصي تَغْلِيظَهُ في إفك عائشة - رضى الله عنها - فأوجز في ذلك وأشبع، وفَصَّلَ، وأَجَمَلَ، وأكد، وكرَّرَ، وما ذلك إلا لأمر عظيم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (من أذنب ذنباً وتاب قبلت توبته، إلا من خاض في أمر عائشة - رضى الله عنها) (١)، وهذا منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك، وقد برأ الله تعالى أربعة؛ برأ يوسف بشاهد من أهلها، وموسى عليه السلام من قول اليهود فيه: أنه أدر، بالحجر الذي ذهب بثوبه، ومريم بنطق ولدها، وعائشة بهذه الآي العظام في كتابه المعجز، المتلو على رجود الدهر، بهذه المبالغات. فانظر: كم بينها وبين تبرئة أولئك! وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسوله، والتنبيه على إنافة محله (٢) ﷺ.

وقد رام بعض النصارى الطعن على المسلمين بقضية الإفك، فقال: كيف تبقى زوجة نبيكم مع رجل أجنبي؟ فقال له، من كان يناظره من العلماء: قد برأها من برأ أم نبيكم، فبهت الذي كفر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد مدح الله تعالى أزواج النبي ﷺ بثلاثة أوصاف، هي من أكمل الأوصاف: العفة، والتغافل، وتحقيق الإيمان؛ أما العفة: فهي حفظ القلب من دخول الهوى، والجوارح من معاصي المولى، وأما التغافل: فهو

(٢) أى: علو مقامه وارتفاعه.

(١) عزاه الهيثمي في المجمع (٨٠/٦) للطرائي بأسانيد.

الغيبه عما سوى الله، والتغافل عن مساوي الناس . وفي الحديث: «المؤمن ثلاثة تغافل» . وقال أيضا ﷺ: «المؤمن غر كريم، والمنافق خب لئيم» (١) وأما تحقيق الإيمان فيكون بالتفكر والاعتبار، وبصحبة الصالحين الأبرار، ثم يصير الإيمان ضرورياً بصحبة العارفين الكبار.

قال القشيري: قوله تعالى: ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾: تصير المعارف ضرورية، فيجدون المعافاة في النظر والتذكر، ويستريح القلب من وصفي تردده وتغيره، باستغنائه ببصره عن تبصره . ويقال: لا يشهدون هذا إلا بالحق، فهم قائمون بالحق للحق مع الحق، يبدى لهم أسرار التوحيد وحقائقه، فيكون القائم فيهم والآخذ لهم عنهم، من غير أن يردهم عليهم . هـ . وبالله التوفيق .

ثم برهن على نزاهة أهل البيت النبوي بقوله:

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله: ﴿الخبيثات﴾ من النساء ﴿للخبِيثين﴾ من الرجال، ﴿والخبِيثون﴾ من الرجال ﴿للخبِيثات﴾ من النساء . وهذه قاعدة السنة الإلهية، أن الله تعالى يسوق الأهل للأهل، فمن كان خبيثاً فاسقاً يزوجه الله للخبیثة الفاسقة مثله، ومن كان طيباً عفيفاً رزقه الله طيبة مثله . وهو معنى قوله تعالى: ﴿والطيبات﴾ من النساء ﴿للطيبين﴾ من الرجال ﴿والطيبون﴾ من الرجال، ﴿للطيبات﴾ من النساء، فهذا هو الغالب .

وحيث كان - عليه الصلاة والسلام - أطيّب الأطيبيين، وخيرة الأولين والآخرين، تبين كون الصديقة - رضى الله عنها - من أطيّب الطيبات، واتضح بطلان ما قيل فيها من الخرافات، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿أولئك مبرءون مما يقولون﴾، على أن الإشارة إلى أهل البيت، المنتظمين في سلك الصديقية انتظاماً أولياً، وقيل: إلى رسول الله ﷺ والصديقة وصفوان، وما في اسم الإشارة من معنى البعد، للإيدان بعلو رتبة المشار إليهم، وبُعد منزلتهم في الفضل، أي: أولئك الموصوفون بعلو الشأن: مبرءون مما يقوله أهله الإفاك في حقهم من الأكاذيب الباطلة .

وقيل: (الخبيثات) من القول يقال (للخبِيثين) من الرجال والنساء، أي: لائقة بهم، لا ينبغي أن يقال إلا لهم . (والخبِيثون) من الفريقين أحقّاء بأن يقال في حقهم خبائث القول . (والطيبات) من الكلم (للطيبين) من الفريقين،

(١) أخرجه الترمذي في (البر، باب ما جاء في البخيل، ح ١٩٦٥)، وأبو داود في (الأدب، باب في حُسن العشرة ح ٤٧٩٠)، والبيهقي في السنن (٩٥/١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، بلفظ: «الفاجر»، بدل «المنافق» .

مختصة بهم، وهم أحقاء بأن يقال في شأنهم طيبات الكلم. ﴿أولئك﴾ الطيبون ﴿مبرؤون﴾ مما يقول الخبيثون في حقهم. فعآله تنزيه الصديقة أيضاً. وقيل: الخبيثات من القول لاتصدر إلا من الخبيثين، والطيبات من الكلمات لاتصدر إلا من الطيبين، وهم مبرؤون مما يقوله أهل الخبث، لايقع ذلك منهم ألبتة، ﴿لهم مغفرة﴾ لما لا يخلو عنه البشر من الذنب، ﴿ورزق كريم﴾؛ هو نعيم الجنان.

دخل ابن عباس رضي الله عنه على عائشة - رضى الله عنها - في مرضها، وهي خائفة من القدوم على الله عز وجل، فقال: لا تخافى، فإنك لا تقدمين إلا على مغفرة ورزق كريم، وتلى الآية، فغشى عليها: فرحاً بما تلا. وقالت رضى الله عنها - : (قد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة: نزل جبريل بصورتى فى راحته، حين أمر - عليه الصلاة والسلام - أن يتزوجنى، ويتزوجنى بكرة، وما تزوج بكرة غيرى، وتوفى - عليه الصلاة والسلام - ورأسه فى حجرى، وقبره فى بيتى، وينزل عليه الوحى وأنا فى لحافه، وأنا ابنة خليفته وصديقه، ونزل عذرى من السماء، وخلقت طيبة عند طيب، ووعدت مغفرة ورزقاً كريماً) (١).

الإشارة: الأخلاق الخبيثة؛ مثل الكبر، والعجب، والرياء، والسمعة، والحقد، والحسد، وحب الجاه والمال، للخبيثين، والخبيثون للخبيثات، فهم متصفون بها، وهى لازمة لهم، إلا أن يصحبوا أهل الصفاء والتطهير، فيتطهرون بإذن الله، والأخلاق الطيبات؛ كالتواضع، والإخلاص، وسلامة الصدور، والزهد، والورع، والسخاء، والكرم، وغير ذلك من الأخلاق الطيبة، للطيبين، والرجال الطيبون للأخلاق الطيبات. أولئك مبرؤون مما يقول أهل الإنكار فيهم، لهم مغفرة؛ ستر لعبوبهم، ورزق كريم لأرواحهم؛ من قوت اليقين، وشهود رب العالمين. وبالله التوفيق.

ولما كان سبب الإفك هو تهمة الخلوة، أمر بالاستئذان، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَازْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

(١) هذه المناقب ثابتة بأحاديث صحيحة. انظرها فى جامع الأصول لابن الأثير (١٣٢/٩ - ١٤٣) والدر المنثور للسيوطى (٥٨/٥).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ أى: بيوتاً لستم تملكونها ولا تسكنونها، ﴿ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ﴾؛ تستأذنوا، وقرئ به، والاستئناس: الاستعلام والاستكشاف، استفعال، من أنس الشيء: أبصره، فإن المستأذن مستعلم للحال، مستكشف له، هل يؤذن له أم لا، ويحصل بذكر الله جهرًا، كتسبيحة أو تكبيرة. أو تتحجج، ﴿ وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾، بأن يقول: السلام عليكم، أَدْخُلْ؟ ثلاث مرات، فإذا أذن له، وإلا رجع، فإن تلاقيا، قدم التسليم، وإلا، فالاستئذان. ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى: التسليم ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من أن تدخلوا بغتة، أو من تحية الجاهلية.

كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتاً غير بيته يقول: حَيِّتُمْ صباحاً، حَيِّتُمْ مساءً، فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف. روى أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي؟ قال: نَعَمْ، قال: ليس لها خادم غيري، أَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا كَمَا دَخَلْتُ؟ قال ﷺ: «أَتَحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟» (١). ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أى: أمرتكم به، أو: قيل لكم هذا؛ لكي تتعظوا وتعملوا بموجبه.

﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا ﴾؛ فى البيوت ﴿ أَحَدًا ﴾ ممن يستحق الإذن، من الرجال البالغين، وأما النساء والولدان فوجودهم وعدمهم سواء (٢)، ﴿ فَلَا تَدْخُلُوهَا ﴾، على أن مدلول الآية هو النهى عن دخول البيوت الخالية؛ لما فيه من الاطلاع على ما يعتاد الناس إخفائه، وأما حرمة دخول ما فيه النساء والولدان فمن باب الأولى؛ لما فيه من الاطلاع على الحريم وعورات النساء. فإن لم يؤذن لكم فلا تدخلوا، واصبروا ﴿ حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ من جهة من يملك الإذن، أو: فإن لم تجدوا فيها أحداً من أهلها، ولكم فيها حاجة فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها؛ لأن التصرف فى ملك الغير لا بد أن يكون برضاه.

﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا ﴾ أى: إذا كان فيها قوم، وقالوا: ارجعوا ﴿ فَارْجِعُوا ﴾ ولا تلحوا فى طلب الإذن، ولا تقفوا بالأبواب، ولا تخرقوا الحجاب؛ لأن هذا مما يوجب الكراهية والعداوة، وإذا نهى عن ذلك؛ لأدائه إلى

(١) الحديث أخرجه مالك فى الموطأ (الاستئذان، باب الاستئذان)، وأبو داود فى مراسيله (باب الاستئذان) وابن جرير فى التفسير (١٨/١١١)، عن عطاء بن يسار، مرسلاً؛ وأخرجه ابن أبى شيبه فى المصنف (النكاح ٤/٣٩٨)، عن زيد بن أسلم؛ مرسلاً، أيضاً.

(٢) هذا رأى، غير مسلم به، فالنساء، قطعاً، يدخلن تحت مفهوم «أحد»، وكذلك الولدان المميزون، فكيف نقول: وجودهم وعدمهم سواء؟ ثم إنه من الثابت فى السنة الصحيحة أنه يجوز الدخول على المغيبة [أى: التى زوجها غائب فى سفر أو غزو، أو نحو ذلك]، فيجوز الدخول عليها بشرط وجود رجلين أو ثلاثة فما أكثر، والدخول يحتاج إلى استئناس واستئذان.. الخ. فدل هذا على أن كلام المفسر، هو رأى خاص به، وليس حكماً شرعياً.

الكراهة، وجب الانتهاء عن كل ما أدى إليها، من قرع الباب بعنف، والتصيح بصاحب الدار، وغير ذلك. وعن أبي عبيد: «ما قرعت باباً على عالم قط». فالرجوع ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أى: أطيب لكم وأطهر؛ لما فيه من سلامة الصدور والبعد عن الريبة، والوقوف على الأبواب من دنس الدنائة والردالة. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، فيعلم ما تأتون وما تذرون مما كلفتموه، فيجازيكم عليه. وهو وعيد للمخاطبين.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فى ﴿أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أى: غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة، بل يتمتع بها مَنْ يُضْطَرُّ إليها، من غير أن يتخذها مسكناً؛ كالرُيْطِ، والخانات، والحمامات، وحوانيت التجار. ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ أى: منفعة؛ كاستئذان من الحر والبرد، وإيواء الرجال والسلع، والشراء والبيع، والاعتسال، وغير ذلك، فلا بأس بدخولها بغير استئذان. روى أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يارسول الله، إن الله قد أنزل عليك آية فى الاستئذان، وأنا لاختلِفُ فى تجارتنا إلى هذه الخانات، فلا ندخلها إلا بإذن؟ فنزلت (١). وقيل: هى الخرابات، يُخْبِرُ فيها، ويقضون فيها حاجتهم من البول وغيره، والظاهر: أنها من جملة ما ينتظم فى البيوت، لا أنها المرادة فقط. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل، لفساد أو اطلاع على عورات. والله تعالى أعلم.

الإشارة: التصوف كله آداب، حتى قال بعضهم: اجعل عمالك ملحاً وأدبك دقيقاً. فيتأدبون بالسنة فى حركاتهم وسكناتهم، ودخولهم وخروجهم، فهم أولى بالأدب، فيستأذنون كما أمر الله عند دخول منزلهم؛ برفع صوتهم بذكر الله، أو بالتسبيح، أو بالسلام قبل الدخول. وكذا عند دخول منزل غيرهم، أو منزل بعضهم بعضاً. وأما مع الشيخ: فالأدب هو الصبر حتى يخرج، تأدباً بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ (٢)، فلا يقرعون بابه، ولا يطلبون خروجه إلا لضرورة فادحة.

ولما كان الاستئذان إنما شرع من أجل النظر، أمر بغض البصر، فقال:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ أَبْصَارَهُمْ وَيَحْفَظُونَ أَرْوَاجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النزول، (ص ٢٣٤)، ونسبه للمفسرين. وعزاه الألوسى فى تفسيره (١٣٧/٩) لابن أبى حاتم عن مقاتل. (٩٢ الآية ٥ من سورة الحجرات.

زَيْنَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّبِيعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ... ﴿٣٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل للمؤمنين﴾ ، ويندرج فيهم المستأذنون بعد دخولهم البيوت اندراجاً أولياً، أى: قل لهم: ﴿يغضوا من أبصارهم﴾ ، ومن: للتبعيض، والمراد: غض البصر عما يحرم، والاقتصار على ما يحل. ووجه المرأة وكفاها ليس بعورة، إلا خوف الفتنة، فيحل للرجل الصالح أن يرى وجه الأجنبية بغير شهوة. وفي الموطأ: هل تأكل المرأة مع غير ذي محرم، أو مع غلامها؟ قال مالك: لا بأس بذلك، على وجه ما يعرف للمرأة أن تأكل معه من الرجال، وقد تأكل المرأة مع زوجها ومع غيره ممن يؤاكله. هـ. وقال ابن القطان: فيه إباحة إبداء المرأة وجهها ويديها للأجنبي، إذ لا يتصور الأكل إلا هكذا، وقد أبقاه الباجي على ظاهره، وقال عياض: ليس بواجب أن تستر المرأة وجهها، وإنما ذلك استحباب أو سنة لها، وعلى الرجل غض بصره. ثم قال في الإكمال: ولا خلاف أن فرض ستر الوجه مما اختص به أزواج النبي ﷺ. هـ.

﴿و﴾ قل لهم أيضاً: ﴿يحفظوا فروجهم﴾ ، إلا على أزواجهم، أو ما ملكت إيمانهم، وتقييد الغض بمن التبعية، دون حفظ الفروج؛ لما في النظر من السعة، فيجوز النظر إلى وجه الأجنبية وكفيها وقدميها، وإلى رأس المحارم والصدور والساقين والعضدين. قاله النسفي. قلت: ومذهب مالك: حرمة نظر الساقين والعضدين من المحرم، فإن تعذر التحرر منه، كشغل البنات في الدار، باديات الأرجل، فليتمسك بقول الحنفى، إن لم يقدر على غض بصره. قاله شيخنا الجنوي.

﴿ذلك أذكى لهم﴾ أى: أظهر لهم من دنس الإثم أو الريبة، ﴿إن الله خير بما يصنعون﴾ ، وفيه ترغيب وترهيب، يعنى: أنه خير بأحوالهم وأفعالهم، فكيف يجيلون أبصارهم، وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور!؟ فعليهم، إذا عرفوا ذلك، أن يكونوا منه على حذر.

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ ؛ بالتستر والتصون عن الزنا، فلا تنظر إلى ما لا يحل لهن النظر إليه من عورات الرجال والنساء، وهى من الرجل: ماعدا الوجه والأطراف، ومن النساء: ما بين السرة والركبة، فلا يحل للمرأة أن تنظر إلى الرجل ما سوى الوجه والأطراف، أو بشهوة . وقيل: إن حصل الأمن من الشهوة جاز، وعليه يحمل نظر عائشة إلى الحبشة.

﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ من الزنا والمساحقة . وإنما قدم غض البصر على حفظ الفروج؛ لأن النظر بريد الزنا، ورائد الفجور، فبذر الهوى طموح العين . ﴿ وَلَا يَسْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ ؛ كالحلي، والكحل، والخضاب، والمراد بالزينة: مَوَاصِعُهَا، فلا يحل للمرأة أن تظهر مواضع الزينة، كانت متحليّة بها أم لا، وهى: الرأس، والأذن، والعلق، والصدر، والعضدان، والذراع، والساق . والزينة هى: الإكليل، والقرط، والقلادة، والوشاح، والدمج، والسوار، والخلخال . ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ ؛ إلا ما جرت العادة بإظهارها، وهو الوجه والكفان، إلا لخوف الفتنة، زاد أبو حنيفة: والقدمين، ففى ستر هذه حرج؛ فإن المرأة لاتجد بداً من مزاولة الأشياء بيديها، ومن الحاجة إلى كشف وجهها، خصوصاً فى الشهادة والمحاكمة والنكاح، وتضطر إلى المشى فى الطرقات، وظهور قدميها، ولا سيما الفقيرات منهن . قاله النسفى .

﴿ وَلِيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ أى: وَلِيَضَعْنَ خُمُرَهُنَّ، جمع خمار، وهو ما يستر الرأس، ﴿ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ ، وهو شق القميص من ناحية الصدر، وكانت النساء على عادة الجاهلية يَسْدِلْنَ خُمُرَهُنَّ مِنْ خَلْفِهِنَّ، فتبدو نحورهن وقلائدهن من جيوبهن، وكانت واسعة، يبدو منها صدورهن وما حواليتها، فَأَمِرْنَ بِإِسْدَالِ خُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ؛ ستراً لما يبدو منها . وقد ضمن الضرب معنى الإلقاء والوضع، فعُدَى بعلى .

﴿ وَلَا يُسْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ أى: مواضع الزينة الباطنة؛ كالصدر، والرأس، ونحوهما، كرره: ليستثنى منه ما رخص فيه، وهو قوله: ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ ؛ لأزواجهن، فإنهم المقصودون بالزينة . ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج، ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ ﴾ ، ويدخل فيهم الأجداد، ﴿ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ ؛ فقد صاروا محارم، ﴿ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ ﴾ ، ويدخل فيهم الأحفاد، ﴿ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ ؛ لأنهم صاروا محارم أيضاً، ﴿ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ ﴾ الشقائق،

أو لأب، أو لأم، ﴿أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن﴾ وإن سفلوا، ويدخل سائر المحارم، كالأعمام، والأخوال، وغيرهم؛ لكثرة المخالطة وقلة توقع الفتنة من قبلهم، فإن تحققت؛ حيل بينهم، وعدم ذكر الأعمام والأخوال، لأن الأحوط أن يستترن عنهم؛ حذراً من أن يصفوهم لأبنائهم، ﴿أو نسائهن﴾؛ يعنى جميع المؤمنات؛ فكأنه قال: أو صنفهن؛ ويخرج من ذلك نساء الكفار؛ لئلا يصفنهن إلى الرجال، ﴿أو ما ملكت أيمانهن﴾، يعنى: الإماء المؤمنات أو الكتابيات، وأما العبيد ففيهم ثلاثة أقوال: منع رؤيتهم لسيدتهم، وهو قول الشافعى، والجواز، وهو قول ابن عباس وعائشة، والجواز بشرط أن يكون العبد وغداً^(١)، وهو قول مالك.

قال البيضاوى: روى أنه - عليه الصلاة والسلام - أتى فاطمةً بعبد، وهبته لها، وعليها ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلها، وإذا غطت رجلها لم يبلغ رأسها، فقال - عليه الصلاة والسلام: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلأمك»، فانظر من أخرجه^(٢). واختلف: هل يجوز أن يراها عبد زوجها، وعبد الأجنبى، أم لا؟ على قولين.

﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ أى: الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم، أو لخدمة، أو لشيء يعطاه، كالوكيل والمتصرف. وقال بعضهم: هو الذى يتبعك وهمه بطئه، ويشترط ألا تكون له إربة، أى: حاجة وشهوة إلى النساء؛ كالخصي، والمختن، والشيخ الهرم، والأحمق، فلا تجوز رؤيتهم إلا باجتماع الشرطين: أن يكونوا تابعين، ولا إربة لهم فى النساء. ﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾، أراد بالطفل: الجنس، ولذلك وصفه بالجمع، ويقال فيه: «طفل، ما لم يراهق الحلم». (يظهروا) معناه: يطلعون بالوطء على عورات النساء، من: ظهر على كذا: إذا قوى عليه، فمعناه: الذين لم يطبقوا وطء النساء، أو: لا يدرون ما عورات النساء؟

﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾، كانت المرأة تضرب برجلها الأرض ليسمع قعقة خلخالها، فيعلم أنها ذات خلخال، فلهين عن ذلك؛ إذ سماع صوت الزينة كإظهارها، فيورث ميل الرجال إليهن. ويوهم أن لهن ميلاً إليهم. قال الزجاج: سماع صوت الزينة أشد تحريكاً للشهوة من إيدائها. هـ.

(١) الوغد: الصبي. وخادم القوم، والجمع: أوغاد، ووغدان، ووغدان.. انظر اللسان (وغد).

(٢) أخرجه أبو داود فى (اللباس، باب فى العبد ينظر إلى شعر مولاته، ح ٤١٠٦)، والبيهقى (٩٥/٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿والصالحين﴾ أي: الخيرين، أو: مَنْ يصلح للتزوج، ﴿من عبادكم وإمائكم﴾ أي: من غلمانكم وجواريتكم، والأمر: للدُّب؛ إذ النكاح مندوب إليه، والمخاطبون: ساداتهم. ومذهب الشافعي: أن السيد يُجبر على تزويج عبيده، لهذه الآية، خلافاً لمالك، ومذهب مالك: أن السيد يُجبر عبده على النكاح، خلافاً للشافعي. واعتبار الصلاح في الأرقاء؛ لأن مَنْ لَصَلَحَ له بمعزلٍ من أن يكون خليفاً بأن يَعْتَنِي موله بشأنه، وأيضاً: فالتزويج يحفظ عليه صلاحه الحاصل، وأما عدم اعتبار الصلاح في الأحرار والحرائر؛ لأن الغالب فيهم الصلاح، على أنهم مستبدون بالتصرف في أنفسهم وأموالهم، فإذا عزموا النكاح فلا بد من مساعدة الأولياء لهم.

وقيل: المراد بالصلاح: صلاحهم للتزوج، والقيام بحقوقهم، فإن ضعفوا؛ لم يزوجوا. ونفقة العبد على سيده؛ إن زوجه، أو أذن له، وإلا خير فيه.

ثم قال تعالى: ﴿إن يكونوا فقراء﴾ من المال ﴿يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالكفاية والقناعة، أو باجتماع الرزقين. وفي الحديث: «التمسوا الرزق بالنكاح»^(١)، وقال ابن عجلان: إن رجلاً أتى النبي ﷺ فشكا إليه الحاجة، فقال: «عليك بالباءة»، أي: التزوج. وكذلك قال أبو بكر وعمر وعثمان لمن شكى إليهم العيلة، متمسكين بقوله تعالى: ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم﴾، فبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، حسبما تقتضيه المشيئة والحكمة والمصلحة. فالغنى، للمتزوج، مقيد بالمشيئة، فلا يلزم الخلف بوجود من لم يستغن مع التزوج، وقيل: مقيد بحسن القصد، وهو مغيب. والله تعالى أعلم.

الترغيب في النكاح: قال ﷺ: «تناكحوا تكثرُوا، فإنني أباي بكم الأم حتى بالسقط»^(٢). وقال ﷺ: «من أحب فطرتي فليستن بسنتي، وهي النكاح، فإن الرجل يرفعُ بدعاء ولده من بعده»^(٣). وقال سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (نهى النبي ﷺ عن التبطل). وقال - عليه الصلاة والسلام: «من كان له ما يتزوج به، فلم يتزوج، فليس مدا»^(٤) وقال عليه الصلاة والسلام: «من أدرك له ولد، وعنده ما يزوجه به، فلم يزوجه، فأحدث، فالإثم بينهما». وقال

(١) أخرجه الديلمي (الفردوس ح ٢٨٢) من حديث ابن عباس، وعزاه المناوي في الفتح السماوي (٨٧/٢) للعلبي، بسند فيه لين. وانظر كشف الخفاء (١٧٧/١).

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (١٧٣/٦) عن سعيد بن أبي هلال، مرسلًا، وانظر كشف الخفاء (٣٨٠/١).

(٣) أخرجه - دون العبارة الأخيرة - البيهقي في الكبرى (٧٨/٧) وعبدالرزاق في المصنف (١٦٩/٦) وسعيد بن منصور في السنن (١٣٨/١) عن عبيد بن سعد.

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٥٤٨١ - ٥٤٨٢)، عن أبي نجيح مرسلًا. بلفظ: «من كان مؤمراً لأن ينكح، ثم لم ينكح، فليس مدي». .

أبو هريرة: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد للقيت الله بزوجة، سمعت النبي ﷺ يقول: «شراركم عزابكم، إذا تزوج أحدكم عَجَّ شيطانه: يا ويله عَصَمَ ابنُ آدمَ ثَلثي دينه». وقال ﷺ: «مسكين، مسكين، رجل ليست له امرأة، ومسكينة، مسكينة، امرأة ليست لها زوج، قالوا: يا رسول الله! وإن كانت غنية من المال؟ قال: وإن».

وقال أبو أمامة: (أربعة لعنهم الله من فوق عرشه، وأُمنت عليهم ملائكته: الذي يحصر نفسه عن النساء، فلا يتزوج ولا يتسرى؛ للآل يولد له، والرجل يتشبه بالنساء، والمرأة تتشبه بالرجال، وقد خلقها الله أنثى، ومُضَلَّ المساكين). وقال سهل بن عبد الله: لا يصح الزهد في النساء؛ لأنهن قد حُببن إلى سيد الزاهدين. ووافقه ابن عيينة، فقال: ليس في كثرة النساء دنيا؛ لأن أزهد الصحابة كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان له أربع نسوة ويصنع عشرة سُرَّة. هـ. من القوت.

وقال عطية بن بسر المازني: أتى عكاف بن وداعة الهلالي النبي ﷺ، فقال له: «يا عكاف! ألك زوجة؟ قال: لا، يا رسول الله، ولا أمة؟ قال: لا. قال: وأنت صحيح موسر؟ قال: نعم، والحمد لله. قال: فإنك، إذا، من إخوان الشياطين، إما أن تكون من رهبان النصارى، وإما أن تكون مؤمناً، فاصنع ما بدا لك. فإن من سئنا النكاح، شراركم عزابكم، وأرذال موتاكم عزابكم، ما للشيطان، في سلاح، أبلغ من مُحْتَمِلِ العزبة، ألا إن المتزوجين هم المطهرون المبرؤون من الخنا» (١). انظر الثعلبي.

قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: ليجتهد في العفة عن الزنا وقمع الشهوة من لم يجود الاستطاعة على النكاح؛ من المهر والنفقة، ﴿وَحَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ حتى يقدرهم الله على المهر والنفقة، قال عليه الصلاة والسلام: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم البائة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء» (٢)، فانظر كيف رتب الحق تعالى هذه الأمور؟ أمر،

(١) أخرجه مطولاً أحمد في المسند (١٦٣/٥ - ١٦٤) وعبد الرزاق في المصنف (١٧٢/٦، ح ١٠٣٨٧) والطبراني في الكبير (١٨٥/١٨ ح ١٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في (النكاح، باب قول النبي ﷺ: من استطاع البائة فليتزوج ح ٥٠٦٥)، ومسلم في (النكاح، باب استحباب النكاح لمن طاقت نفسه ١٠١٨/٢، ح ١٤٠٠)، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

الإشارة: غرض البصر عما تكره رؤيته: من أسباب جمع القلب على الله وتربية الإيمان. وفي الحديث: «من غرض بصره عن محارم الله، عوضه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه» (١). وفي إرسال البصر: من تشدّيت القلب، وتفريق الهم، مالا يخفى، وفي ذلك يقول الشاعر:

وَأَنَّكَ، إِنْ أُرْسَلْتَ طَرَفَكَ رَائِدًا لِقَلْبِكَ، يَوْمًا، أَتَعَبَتْكَ الْمَنَاطِرُ
تَرَى، مَالًا كُلَّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، وَلَا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرٌ

فالعباد والزهاد يغمضون بصرهم عن بهجة الدنيا، والعارفون يغمضون بصرهم عن رؤية السوى، فلا يرون إلا تجليات المولى. قال الشبلي: (قل للمؤمنين يغمضوا من أبصارهم) أى: أبصار الرؤوس عن المحارم، وأبصار القلوب عما سوى الله. هـ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعْثِ الْمَلَائِكَةِ بِنَازِلٍ ذَاتِ زِينَةٍ وَسُرَرٍ ذَاتِ زِينَةٍ﴾، قال بعضهم: لا يجوز كل ما يستدعى فتنة للغير؛ من إظهار حال مع الله، مما هو زينة السريرة، فلا يظهر شيئاً من ذلك إلا لأهله، إلا إذا ظهر عليه شيء من غير إظهار منه، ولا قصد غير صالح. هـ. فلا يجوز إظهار العلوم التي يفتن بها الناس؛ من حقائق أسرار التوحيد، ولا من الأحوال التي تذكرها الشريعة، فيوقع الناس في غيبته. وأما قضية لص الحمام (٢)؛ فحال غالبية لا يقتدى بها. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بالتوبة؛ لأن النظر لا يسلم منه أحد في الغالب، فقال:

﴿... وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣١)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون﴾؛ إذ لا يكاد يخلو أحدكم من تفريط، ولأسيما في الكف عن الشهوات، وقيل: توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية، فإنه، وإن جب بالإسلام، لكن يجب الندم عليه، والعزم على الكف عنه، كلما يتذكر، ويخطر بالبال. وفي تكرير الخطاب بقوله: ﴿أيه المؤمنون﴾: تأكيد للإيجاب، وإيدان بأن وصف الإيمان موجب للامتثال، حتماً. قيل: أحوج الناس إلى التوبة من توهم أنه ليس

(١) ورد مما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه، أخرجه أحمد (٢٦٤/٥) عن أبي أمامة رضي الله عنه.

وأخرج الحاكم (٣١٤/٤) عن ابن مسعود مرفوعاً: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، من تركها من مخافتى أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه».

(٢) راجع قصة لص الحمام عند التطبيق على إشارة الآية ٢٦٧ من سورة البقرة. (٣٠١/١)

له حاجة إلى التوبة. وظاهر الآية: أن العصيان لا ينافي الإيمان، فبادروا بالتوبة ﴿لعلكم تفلحون﴾؛ تفوزون بسعادة الدارين. وبالله التوفيق.

الإشارة: التوبة أساس الطريق، ومنها السير إلى عين التحقيق، فمن لا توبة له لا سير له، كمن يبلى على غير أساس. والتوبة يحتاج إليها المبتدئ والمتوسط والمنتهى، فتوبة المبتدئ من المعاصي والذنوب، وتوبة السائر: من الغفلة ولوث العيوب، وتوبة المنتهى: من النظر إلى سوى علام الغيوب.

قال ابن جزري: التوبة واجبة على كل مكلف، بدليل الكتاب والسنة وإجماع الأمة. وفرائضها ثلاثة: الددم على الذنب؛ من حيث عَصِيَ به ذو الجلال، لا من حيث أضر بيدن أو مال. والإقلاع عن الذنب في أول أوقات الإمكان، من غير تأخير ولا توان، والعزم ألا يعود إليها أبداً. ومهما قضى الله عليه بالعود، أحدث عَزْماً مُجَدِّداً. وآدابها ثلاث: الاعتراف بالذنب، مقروناً بالانكسار، والإكثار من التضرع والاستغفار، والإكثار من الحسنات لمحو ما تقدم من الأوزار. ومراتبها سبع: فتوبة الكفار من الكفر، وتوبة المخطئين من الذنوب الكبائر، وتوبة العدول من الصغائر، وتوبة العابدين من الفترات، وتوبة السالكين من عِلَلِ القلوب والآفات، وتوبة أهل الورع من الشبهات، وتوبة أهل المشاهدة من الغفلات. والبواعث على التوبة سبعة: خوف العقاب، ورجاء الثواب، والخجل من الحساب، ومحبة الحبيب، ومراقبة الرقيب، وتعظيم المقام، وشكر الإنعام. هـ.

ثم أمر بالنكاح؛ لأنه أغض للبصر، فقال:

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٢) وَلَيْسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ... ﴿٣٣﴾

قلت: الأيامي: جمع أيم، وأصله: أيام، فقلت الياء؛ لآخر الكلمة، ثم قبلت ألفاً، فصارت أيامي. والأيام: من لآزوج له من الرجال والنساء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأَنْكِحُوا﴾ أي: زوجوا ﴿الأيامي منكم﴾ أي: من لآزوج له من الرجال والنساء، بكرةً كان أو ثيباً. والمعنى: زوجوا من لآزوج له من الأحرار والعرائر. والخطاب للأولياء والحكام، أمرهم بتزويج الأيامي، فافتضى ذلك النهي عن عضلهم. وفي الآية دليل عدم استقلال المرأة بالنكاح، واشتراط الولي فيه، وهو مذهب مالك والشافعي، خلافاً لأبي حنيفة.

يُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ شَيْءًا، يَخَالِطُونَ النَّاسَ بِجَسَمِهِمْ، وَيَبَايِلُونَهُمْ بِسَرِّهِمْ، فَالْدُّنْيَا سَوْقُ تِجَارَتِهِمْ، وَالْمَعْرِفَةُ رَأْسُ بَضَاعَتِهِمْ، وَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا مِيزَانُهُمْ، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى عُنْوَانُهُمْ، وَالْعِلْمُ بِاللَّهِ مَفْزَعُهُمْ وَمَنْجَاهُهُمْ، وَالْقُرْآنُ كِتَابُ الْإِذْنِ مِنْ مَوْلَاهُمْ، وَالْفَهْمُ عَنِ اللَّهِ مَرْجِعُهُمْ وَمَأْوَاهُمْ.

ومثال الثالث، وهو المَكَانِبُ: الصالحون من المؤمنين؛ يعملون على فك رقبتهم من النار، فإذا أدوا ما فرض عليهم؛ حررهم بعد موتهم، وأسكنهم فسيح جناته. ومثال الآبق: هم العصاة والفجار، استمروا على عصيانهم، حتى قدموا على الملك الجبار، فهم تحت حكم المشيئة، إن شاء عفا عنهم، وإن شاء عاقبهم. والله تعالى أعلم.

ولما أمر بتزويج الإمام نهى عن إكراههن على الزنا، فقال:

﴿... وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ٣٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ﴾ أى: إماءكم، يقال للعبد: فتى، وللأمة: فتاة. والجمع: فتيات، ﴿على البغاء﴾ أى: الزنا، وهو خاص بزنا النساء. كان لابن أبي ست جزار: معاذة، ومسيكة، وأميمة، وعمرة، وأروى، وقتيلة، وكان يكرههن، ويضرب عليهن الضرائب لذلك، فشكت ثلثان مهن إلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية (١).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أى: تعففاً، ليس قيداً فى النهي عن الإكراه، بل جرى على سبب النزول، فالإكراه: إنما يتصور مع إرادة التحصن؛ لأن المطيعة لا تسمى مكرهة، ثم خصوص السبب لا يوجب تخصيص الحكم على صورة السبب، فلا يختص النهي عن الإكراه بإرادة التعفف، وكذلك الأمر بالزنا، والإذن فيه لا يباح ولا يجوز شيء من ذلك للسيد، وما يقبض من تلك الناحية سحت ربا. وفيه توبيخ للموالى؛ لأن الإمام إذا رغب فى التحصن؛ فأنتم أولى بذلك، ثم علل الإكراه بقوله: ﴿لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: لتبتغوا بإكراههن على الزنا أجورهن وأولادهن، جىء به؛ تشبيهاً لهم على ما هم عليه من أحمال الوزر الكبير لأجل اللز الحقيق، أى: لا تفعلوا ذلك لطلب المتاع السريع الزوال، الوشيك الاضمحلال.

(١) عزاه المناوى، فى الفتح السمارى (٨٧٤/٢) للطبرى عن مقاتل، وأخرج مسلم فى (التفسير) باب فى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ (٣٠٢٩) عن جابر، قال: إن جارية لعبد الله بن أبى، يقال لها: «مسيكة»، وأخرى يقال لها: «أميمة»، فكان يكرههما على الزنا، فشكتا إلى النبى ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾.

﴿وَمَنْ يُكَرِهَنَّ﴾ ؛ على ما ذكر من البغاء، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم، وفي مصحف ابن مسعود كذلك. وكان الحسن يقول: لهم والله. وقيل: للسيد إذا تاب. واحتياجهن إلى المغفرة المنبئة عن سابقة الإثم؛ إما باعتبار أنهن - وإن كن مكرهات - لا يخلون في تضاعيف الزنا من شائبة مطاوعة ما، بحكم الجبلة البشرية، وإما لغاية تهويل أمر الزنا، وحث المكرهات على التثبت في التجافي عنه، والتشديد في تحذير المكرهين ببيان أنهن حيث كن عرضة للعقوبة، لولا أن تداركهن المغفرة، الرحمة، مع قيام العذر في حقهن، فما بالك بحال من يكرههن في استحقاق العقاب؟

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ ؛ موضحات، أر: واضحات المعنى، والمراد: الآيات التي بيئت في هذه السورة، وأوضحت معاني الأحكام والحدود. وهو كلام مستأنف جيء به في تضاعيف ما ورد من الآيات السابقة واللاحقة؛ لبيان جلالة شأنها، المقتضى للإقبال الكلى على العمل بمضمونها. وصدر بالقسم الذي تعرب عنه اللام؛ لإبراز كمال العناية بشأنها. أى: والله، لقد أنزلنا إليكم، في هذه السورة الكريمة، آيات مبينات لكل ما لكم حاجة إلى بيانه؛ من الحدود وسائر الأحكام، وإستاد البيان إليها: مجازى، أر: آيات واضحات تصدقها الكتب القدسية والعقول السليمة، على أن «مبيّنات» من بين، بمعنى تبين، كقولهم في المثل: «قد بين الصبح لذي عينين»، أى: تبين. ومن قرأها بالبناء للمفعول، فمعناه: قد بين الله فيها الأحكام والحدود.

﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أى: وأنزلنا مثلاً من أمثال من قبلكم، من القصص العجيبة، والأمثال المضروبة لهم في الكتب السابقة، والكلمات الجارية على ألسنة الأنبياء والحكماء، فننظم قصة عائشة - رضى الله عنها - المحاكية لقصة يوسف عليه السلام وقصة مريم، وسائر الأمثال الواردة في السورة الكريمة، انتظاماً واضحاً. وتخصيص الآيات البينات بالسوابق، وحمل المثل على قصة عائشة المحاكية لقصة يوسف ومريم، يأباه تعقيب الكلام بما سيأتى من التمثيلات.

﴿و﴾ ﴿أَنْزَلْنَا﴾ ﴿مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يتعظون بها، وينزجرون عما لا ينبغى من المحرمات والمكروهات وسائر ما يخل بمحاسن الآداب، والمراد: ما وعظ به من الآيات والمثل، مثل قوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ (١)، و﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ...﴾ (٢) الخ، «يعظكم الله أن تعودوا لمثله» (٣).

وتخصيص المتقين؛ لأنهم المنتفعون بها، المغتلبون لآثارها، المقتبسون لأنوارها، ومدار العطف هو التغيرات العنوانى المنزلة منزلة التغيرات الذاتى. وقد خصت الآيات بما بين الأحكام والحدود، والموعظة بما وعظ به من

(٣) الآية: ١٧ من سورة النور.

(٢) الآية: ١٢ من سورة النور.

(١) الآية: ٢ من سورة النور.

أولاً، بما يَعَصِمُ من الفتنة، ويبعد عن مواجهة المعصية، وهو غض البصر، ثم بالنكاح المُحَصِّن للدين، المغنى عن الحرام، ثم بعزف النفس الأمارة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة، عند العجز عن النكاح، إلى أن يقدر عليه.. وبالله التوفيق.

الإشارة: الأرواح والقلوب والنفوس لا يظهر نتائجها حتى يتعقد النكاح بينها وبين شيخ كامل، فإذا انعقدت الصحبة بينها وبين الشيخ، قذف نقطة المعرفة في الروح أو القلب أو النفس، ثم يربوها في مشيئة الهمة، ثم في حصانة الحفظ والرعاية، فيظهر منها نتائج اليقين والعلوم والأسرار والمعارف، وأما إن بقيت أيامي؛ لأزوح لها، فلا مطمع في نتائجها، قال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾، وهى الأرواح، والصالحين من قلوبكم، ونفوسكم، إن يكونوا فقراء؛ من اليقين، والمعرفة بالله، يغنيهم الله من فضله؛ بمعرفته، والله واسع عليم، وليتعفف، عن المناكر، الذين لا يجدون من يأخذ بيدهم، حتى يغنيهم الله من فضله؛ بالسقوط على شيخ كامل؛ فإنه من فضل الله ومنته، لا يسقط عليه إلا من اضطر إليه، وصدق الطلب في الوصول إليه. وبالله التوفيق.

ولما أمر بتزوج العبيد، أمر بمكاتبتهم، فقال:

﴿... وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا
وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ...﴾

قلت: الكتاب هنا: مصدر، بمعنى الكتابة. وهى: مقاطعة العبد على مال منجم، فإذا أداه؛ خرج حراً، وإن عجز، ولو عن نصف درهم، بقى رقيقاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ أى: والمالك الذين يطلبون الكتابة ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ من عبيدكم ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾، والأمر للندب، عند مالك والجمهور، وقال الظاهرية وغيرهم: على الوجوب، وهو ظاهر قول عمر رضي الله عنه لأنس بن مالك، حين سأله مملوكه سيرين الكتابة، فأبى عليه أنس، فقال له عمر: لتكاتبنه، أو لأوجعك بالدرّة (١). وإنما حملة مالك على الندب؛ لأن الكتابة كالبيع، فكما لا يجبر على البيع لا يجبر عليها.

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٣٧٢/٨ ح ١٥٥٧٨)، والطبري (١٢٦/١٨).

واختلف: هل يُجْبَرُ السيدُ عَبْدُهُ عليها، أم لا؟ قولان في المذهب. ونزلت الآية بسبب حُويطِب بن عبد العزى، سأل مولاه أن يكتبه، فأبى عليه (١). وحكمها عام، فأمر الله سادات العبيد أن يكتبوهم إذا طلبوا الكتابة. والكتابة: أن يقول لمملوكه: كاتبتك على كذا، فإن أدى ذلك عتق، ومعناه: كتبت لك على نفسك أن تعتق متى إذا وقيت المال، وكتبت لى على نفسك أن تفى بذلك. وتجاوز حالة، وتسمى: القطاعة، ومنجمة وغير منجمة.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، أي: قدرة على الكسب، وأمانة وديانة، والنَّدْبِيَّةُ متعلقة بهذا الشرط، فالخير هنا: القوة على الأداء بأي وجه كان، وقيل: هو المال الذي يؤدي منه كتابته، من غير أن يسأل أموال الناس، وقيل: الصلاح في الدين.

﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾، هذا أمر بإعانة المكاتب على كتابته، واختلف: مَنْ الْمُخَاطَبُ بذلك؟ فقيل: هو خطاب للناس أجمعين، وقيل: للولاة، والأمر على هذين القولين للدب، وقيل: للسادات المكاتبين، وهو على هذا القول، ندب عند مالك، ووجوب عند الشافعي. فإن كان الأمر للناس، فالمعنى: أن يعطوهم صدقة من أموالهم، وإن كان للولاة: فيعطوهم من الزكوات أو من بيت المال، وإن كان للسادات فيحطوا عنهم من كتابتهم، وقيل: يعطوهم من أموالهم، من غير الكتابة، وعلى القول بالخط من الكتابة اختلف في مقدار ما يحط، فقيل: الربع، وروي ذلك عن رسول الله ﷺ، وقيل: الثلث، وقال مالك: لا حد في ذلك، بل أقل ما يطلق عليه شيء، إلا أن الشافعي يجبره على ذلك، ولا يجبره مالك. وزمان الخط عنه في آخر الكتابة عند مالك، وقيل: في أول نجم. قاله ابن جزي.

الإشارة: العبيد على أربعة أقسام: عَبْدٌ قَنِ مَقْتَنَى للخدمة، وعبد مأذون له في التجارة، وعبد مكاتب، وعبد أبق. فمثال الأول، وهو العبد القن: أهل الخدمة، وهم العباد والزهاد، أقامهم الحق تعالى لخدمته، وقواهم على دوام معاملته، أهل الصيام والقيام، وأهل السياحة والهيام. ومثال الثاني، وهو المأذون له: العارفون بالله، يتصرفون في ملك سيدهم بالله، خلفاء رسول الله ﷺ، يحكمون بحكم الله، يأخذون من الله ويدفعون إلى الله، يأخذون النصيب من كل شيء، ولا يؤخذ من نصيبهم شيء، قد سخر لهم كل شيء، ولم يسخرُوا لشيء، سلطوا على كل شيء، ولم

(١) عزاء السيوطي في الدر المنثور (٥/٨١) لابن السكن في معرفة الصحابة، عن عبدالله بن صبيح، عن أبيه.

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ أى: لهذا النور الباهر ﴿من يشاء﴾ من عباده؛ إما بإلهام أو بواسطة تعليم. وفيه إيذان بأن مناط هذه الهداية إنما هي بمشيئته تعالى، وأن الأسباب لا تأثير لها. ﴿ويضرب الله الأمثال للناس﴾؛ تقريباً لفهم، لأنه إبراز للمعقول في هيئة المحسوس ﴿والله بكل شيء عليم﴾، معقولاً كان أو محسوساً، فيبين الأشياء بما يمكن أن تُعَلَّمَ به. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الكون كله من عرشه إلى فرشهِ قطعة من نور الحق، وسر من أسرار ذاته، مُلْكٌ، وباطنه ملكوت فائض من بحر الجبروت، فالكائنات كلها: الله نُورُها وسُرُّها، وهو القائم بها. ولا يفهم هذا إلا أهل الفناء من العارفين بالله، وحسب من لم يبلغ مقامهم التسليم لما رمزوا إليه، وتحققوه ذوقاً وكشفاً.

ثم ضرب الحق تعالى مثلاً لنوره الفائض من بحر جبروته، فقال: ﴿مثل نوره﴾ الظاهر، الذى تجلى به فى عالم الشهادة، ﴿كمشكاة فيها مصباح﴾ أى: كطاقة انفتحت من بحر اللطافة الكثرية، خرج منها نور كثيف كالصباح، فالكون كله مصباح نور، انفجر من نور النور، ومن ذلك المصباح تفرعت الكائنات، فهي كلها نور فائض من بحر نوره اللطيف، ثم جعل الحق تعالى يصف ذلك المصباح فى توقده وتوجهه بقوله: ﴿المصباح فى زجاجة الزجاج كأنها كوكب درى﴾.. إلخ. فالآية كلها من تنمة التمثيل.

وقوله تعالى: ﴿ولو لم نمسسه نار﴾ قيل: الإشارة فيه إلى استغناء العبد فى تلك الحالة عن الاستمداد إلا من رب العزة، فيستغنى عن الوسائط. وقوله تعالى: ﴿نور على نور﴾ أى: نور ملكوته على نور جبروته، ﴿يهدى الله لنوره﴾ أى: لشهود نوره، أو لمعرفة نوره، ﴿من يشاء﴾ من خواص أحبابه، كأنبيائه وأوليائه، فمن لم يشهد هذا النور، ولم يعرفه، لا خصوصية له؛ يتميز بها عن العوام، فهو من عامة أهل اليمين، ولو كثر علمه وعمله؛ إذ لا عبرة بالعلم والعمل مع الحجاب. وفى الحكم: «الكائن فى الكون، ولم تفتح له ميادين الغيوب، مسجون بمحيطاته، محصور فى هيكل ذاته». والمحجوب برؤية الأكوان من جملة العوام عند أهل العيان، ينسحب عليه معنى المثال الآتى فى ضد هذا بقوله: (أو كظلمات..) إلخ.

وفى الحكم: «الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه، أو عنده، أو قبله أو بعده، فقد أعوزه وجود الأنوار، وحجبت عنه شمس المعارف بسحب الآثار»^(١). فالكون عند أهل العيان كله نور، وعند أهل الحجاب كله ظلمة، وهو محيط بهم، فالظلمة محيطة بهم، وقد ألف الغزالي فى هذه الآية كتابه:

(١) انظر الحكم بتبريب المتقى الهندي (ص ٣٢ حكمة ١٤).

(مشكاة الأنوار)، وكلامه فيه يدرر على أن معنى اسمه تعالى «النور»: يرجع إلى ما ثبتت به الأشياء وظهرت من العدم، ولذلك قال قائلهم:

فَالنُّورُ يُظْهِرُ مَا تَرَى مِنْ صُورَةٍ وَبِهِ ظُهُورُ الْكَائِنَاتِ بِلَا امْتِرَاءٍ

وفى لطائف العدن: الله نور السموات والأرض؛ نور سموات الأرواح بمشاهدته، ونور أرض النفوس بمطالعته وخدمته، وجعل قلوب أوليائه مجللة لذاته ولظهور صفاته، أظهرهم ليظهر فيهم خصوصاً، وهو الظاهر في كل شيء عموماً، ظهر فيهم بأنواره وأسراره، كما ظهر فيهم، وفيما عداهم بقدرته واقتداره. هـ.

ثم ذكر محل ظهور ذلك المصباح، فقال:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

قلت: (في بيوت): يتعلق بمشكاة، أى: كائنة في بيوت، أو توقد، أو يبسبح، أى: يسبح له رجال في بيوت، وفيه تكرير؛ لزيادة التأكيد، نحو: زيد في الدار جالس فيها، أو بمحذوف، أى: سبّحوا في بيوت. (أذن): نعت له.

يقول الحق جل جلاله: وذلك الدور الذي في المشكاة يكون ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾، وهى المساجد والزوايا المعدة لذكر الله والصلاة وتلاوة القرآن. ورفعها: تعظيمها. أى: التى أمر الله بتعظيمها؛ كتطهيرها من الخبث، وتلقيتها من القذى، وتعليق القناديل ونصب الشموع، ويزاد التعظيم فى شهر رمضان. ومن تعظيمها: غلقها فى غير أوقات الصلاة، وقيل المراد برفعها: بناؤها، كقوله تعالى: ﴿ .. بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا .. ﴾ (١)، ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ (٢)، والأول أصح.

﴿ وَأَنْذِنَ أَيْضًا أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾، وهو عام فى جميع الذكّر، مفرداً أو جماعة، ويدخل فيه تلاوة القرآن. ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أى: يصلى له فيها بالغداة: صلاة الفجر، والآصال: صلاة الظهر

(١) من الآيتين: ٢٧ - ٢٨ من سورة النازعات.

(٢) من الآية ١٢٧ من سورة البقرة.

قوله: (ولاتأخذكم..) إلى آخر ما تقدم. وقيل: المراد بالآيات المبيّنات والمثل والموعظة: جميع ما في القرآن المجيد من الأمثال والمواعظ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من أمر بالمعصية ودلّ عليها، أو رضى فعلها، فهو شريك الفاعل في الوزر، أو أعظم. وكل من أمر بالطاعة ودلّ عليها فهو شريك الفاعل في الثواب، أو أعظم. وفي الأثر: «الدّالُّ على الخير كفّاعه» (١).

قال القشيري: حامل العاصي على زلته، والداعي له إلى عثرته، والمعين له على مخالفته، تتضاعف عليه العقوبة، وله من الوزر أكثر من غيره، وعكسه لو كان الأمر في الطاعة والإعانة على العبادة. هـ. ومن هذا القبيل: تعليم العلم لمن تحقق أنه يطلب به رئاسة أو جاهاً، أو توصلاً إلى الدنيا المذمومة، أو علم منه قصداً فاسداً، فإن تحقق ذلك وعلمه، فهو معين له على المعصية، كمن يعطى سيفاً لمن يقطع به الطريق على المسلمين. والله تعالى أعلم.

ثم إن أنوار الشريعة، وهي أحكام المعاملة الظاهرة، تهدي إلى أنوار الطريقة، وهي أحكام المعاملة الباطنة، وأنوار الطريقة تهدي إلى أنوار الحقيقة، وأنوار الحقيقة تُصير الكون كله نوراً، كما قال تعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: منور أهلها [بنور الإسلام والإيمان؛ لأهل الإيمان] (٢)، وبنور الإحسان؛ لأهل الإحسان، فحقيقة النور: هو الذي تنكشف به الأشياء على ما هي عليه، حسية أو معنوية، والمراد هنا: المعنوية؛ بدليل قوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، فإن انكشف به أحكام العبودية، باعتبار المعاملة الظاهرة، يُسمى: نور الإسلام، وإن انكشف به أوصاف الذات العلية وكمالاتها، من طريق البرهان، يُسمى: نور الإيمان، وإن انكشف به حقيقة الذات وأسرارها، من طريق العيان، يُسمى: نور الإحسان. فالأول: يشبه نور النجوم، والثاني: نور القمر، والثالث: نور الشمس، ولذلك تقول الصوفية: نجوم الإسلام، وقمر الإيمان، وشمس العرفان.

(١) أخرجه البزار (كشف الأستار ح ١٥٤) عن ابن مسعود، (ح ١٩٥١) عن أنس، وأخرجه الطبراني في الأوسط (ح ٣٨٤) من حديث سهل بن سعد. وجاء في صحيح مسلم: (من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله). أخرجه مسلم في (الإمارة، باب فضل إعانة الغازي، ١٥٠٦/٣ ح ١٨٩٣) من حديث أبي مسعود البدرى.

(٢) أرى أن تكون العبارة هكذا [بنور الإسلام لأهل الإسلام، وبنور الإيمان لأهل الإيمان].

ثم ضرب المثل لذلك النور، حين يقذفه في قلب المؤمن، فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أى: صفة نوره العجيبة في قلب المؤمن - كما هي قراءة ابن مسعود - ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ أى: كَصِفَةِ مِشْكَاةٍ، وهى الكُوَّةُ فى الجدار غير النافذة؛ لأن المصباح فيها يكون نوره مجموعاً، فيكون أزهر وأنور، ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أى: سراج ضخم ثاقب، ﴿المِصْبَاحُ فِي زَجَاجَةٍ﴾ أى: فى قنديل من زجاج صافٍ أزهر، ﴿الزجاجةُ﴾ من شدة صفائها ﴿كَأَنهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾؛ بضم الدال وتشديد الراء، منسوب إلى الدر؛ لفرط ضيائه وصفائه، وبالكسر والهمز: «أبو عمرو»؛ على أنه يدرأ الظلام بضوئه. وبالضم والهمز: أبو بكر وحمزة، شبهه بأحد الكواكب الدرارى، كالمشتري والزهرة ونحوهما. ﴿تَوْقَدُ﴾ (١) بالتخفيف والتأنيث، أى: الزجاجة، أو ﴿يُوقَدُ﴾ بالتخفيف والغيب، أو: «تَوْقَدُ» بالتشديد، أى: المصباح ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾ أى: من زيت شجرة الزيتون، أى: رويت فتيله من زيت ﴿شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ﴾؛ كثيرة المنافع، أو: لأنها تنبت فى الأرض التى بارك فيها للعالمين، وهى الشام، وقيل: بارك فيها سبعون نبياً، منهم إبراهيم عليه السلام.

﴿زَيْتُونَةٍ﴾: بدل من «شجرة»، من نعتها ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أى: ليست شرقية فقط، لاتصيبها الشمس إلا فى حالة الشرق، ولا غربية، لاتصيبها إلا فى حال الغروب، بل هى شرقية غربية، تصيبها الشمس بالغداة والعشى، فهو أنضراً لها، وأجود لزيتونها. وقيل: ليست من المشرق ولا من المغرب، بل فى الوسط منه، وهو الشام، وأجود الزيتون زيتون الشام.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾؛ هو فى الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضيء بنفسه من غير مَسَّاسٍ نَارٍ أصلاً. ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أى: نور المصباح متضاعف على نور الزيت الصافى، فهذا مثال النور الذى يقذفه الله فى قلب المؤمن؛ فالمشكاة هو الصدر، والمصباح نور الإيمان أو الإسلام أو الإحسان، على ما تقدم، والزجاجة هو القلب الصافى، ولذلك شبهه بالكوكب الدرى، والزيت هو العلم النافع الذى يقوى اليقين. ولذلك وصفه بالصفاء والإنارة. يكاد صاحبه تشرق عليه أنوار الحقائق، ولو لم يمسه علمها. ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أى: نور الإيمان مضاف إلى نور الإسلام، أو نور الإحسان مضاف إلى نور الإيمان والإسلام،

(١) قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، بياء من تحت مضمومة، مع إسكان الواو، وتخفيف القاف، ورفع الدال، على التذكير، مبدئياً للمفعول من «أوقد»، أى: المصباح. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب، بقاء من فوق، وفتح الواو والدال، وتشديد القاف، على وزن «تفعل»، فعلاً ماضياً، فيه ضمير يعود على المصباح. وقرأ أبو بكر، وحمزة، والكسائى، بالياء من فوق، مضمومة، وإسكان الواو، وتخفيف القاف، ورفع الدال، على التأنيث، مضارع «أوقد» مبنى على المفعول. ونائب الفاعل ضمير يعود على «زجاجة». انظر الإتصاف (٢/ ٢٩٨) ج.

كفضاء (بقية)؛ بأرض متبسطة، ﴿يَحْسَبُ الظَّمَانُ﴾؛ يظنه العطشان ﴿ماءٌ حتى إذا جاءه لم يجدْهُ شيئاً﴾ أى: لم يجده كما ظنه ورجاه، بل خاب مطعمه ومسعاه، ﴿ووجدَ اللهَ عنده﴾ أى: وجد جزاء الله، أو حكمه، عند عمله، أو عند جزائه، ﴿فوقاه حسابَه﴾ أى: أعطاه جزاءه كله واقياً، وإنما وحد، بعد تقديم الجمع، حملاً على كل واحد من الكفار.

﴿والله سريعُ الحساب﴾؛ يحاسب العباد فى ساعة؛ لأنه لا يحتاج إلى عد وعقد، ولا يشغله حساب عن حساب، أو قريب حساب؛ لأن كل آت قريب. شبه ما يعمل الكفرة من البر، الذى يعتقد أنه ينفعه يوم القيامة وينجيه من عذاب الله، ثم يخيب فى العاقبة أملاً، ويلقى خلاف ما قدر، بسراب يراه الكافر بالساهرة، وقد غلبه عطش يوم القيامة، فيحسبه ماء، فيأتيه، فلا يجد ما رجاه، يجد زبانية الله، فيأخذونه إلى جهنم، فيسقونه الحميم والفساق. قيل: هم الذين قال الله فيهم: ﴿عاملة ناصبة﴾ (١)، و﴿يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (٢). قيل: نزلت فى عتبة بن ربيعة بن أمية، كان ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح، والتمس الدين، فلما جاء الإسلام كفر. هـ.

ثم ضرب مثلاً لأعمالهم فى الدنيا، فقال: ﴿أو كظلمات﴾، «أرأيت: للتويع، ﴿فى بحرٍ لجي﴾؛ عميق كثير الماء، منسوب إلى اللج، وهو معظم ماء البحر، ﴿يغشاه﴾ أى: يغطى البحر، أو من فيه، أى: يعلوه ويغطيه بالكلية، ﴿موجٌ﴾ هو ما ارتفع من الماء، ﴿من فوقه موجٌ﴾ أى: من فوق الموج موج آخر، ﴿من فوقه سحابٌ﴾؛ من فوق الموج الأعلى سحاب، ﴿ظلمات﴾ أى: هذه ظلمات؛ ظلمة السحاب، وظلمة الأمواج، وظلمة البحر، ﴿بعضها فوق بعض﴾؛ ظلمة الموج على ظلمة البحر، وظلمة الموج على ظلمة الموج الأسفل، وظلمة السحاب على الموج، وهذا أعظم للخوف وأقرب للعطب، لأنه يغطى النجوم التى يهتدى بها ويشتد معه الريح والمطر، وذلك يؤكد التلف، ﴿إذا أخرج يده﴾ أى: الواقع فيه، أو من ابتلى بها، ﴿لم يكدرها﴾؛ مبالغة فى «لم يرها»، أى: لم يقرب أن يراها، فضلاً عن أن يراها. شبه أعمالهم، فى ظلمتها وسوادها؛ لكونها باطلة، وخلوها عن نور الحق، بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب.

قال ابن جزى: لما ذكر حال المؤمنين عقب ذلك بمثالين لأعمال الكفار؛ الأول: يقتضى حال أعمالهم فى الآخرة، وأنها لا تنفعهم، بل يضمحل ثوابها كما يضمحل السراب. والثانى: يقتضى حال أعمالهم فى الدنيا، وأنها فى غاية الفساد والضلال، كالظلمة التى بعضها فوق بعض. ثم قال: وفى وصف هذه الظلمات مبالغة، كما أن فى

(١) الآية ٣ من سورة الفاشية.

(٢) الآية ١٠٤ من سورة الكهف.

وصف النور المذكور قبلها مبالغة . هـ . وقوله : لما ذكر حال المؤمنين ، يعنى بقوله : «رجال لا تلهيهم . . الخ ، الله بقوله : (يهدي الله لنوره من يشاء) ، وقيل : كلا المثالين فى الآخرة ، يخيبون من نفعها ، ويخوضون فى بحر ظلمتها .

﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً ﴾ فى قلبه ، من نور توحيده ومعرفته ، ﴿ فما له من نور ﴾ أى : من لم يشأ الله أن يهديه لنوره : لم يهتد ، وفى الحديث : « خلق الله الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليها من نوره ، فمن أصابه ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، وينبغى للقارىء عند هذه الآية أن يقول : (اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن شمالى نوراً ، ومن فوقى نوراً ، ومن تحتى نوراً ، واجعلنى نوراً ، وأعظم لى نوراً) (١) ، كما فى الحديث فى غير هذا المحل .

الإشارة : كل من لم يتحقق بمقام الإخلاص كانت أعماله كسرابٍ بقيعة ، يحسبه الظمآن ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده ، فوفاه حسابه ، أى : يناقشه فيما أراد بعمله ، وأهل التوحيد الخاص : الوجود كله ، عندهم ، كالسراب ، يحسبه الناظر إليه شيئاً ، حتى إذا جاءه بفكرته لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده وحده ، وفيه يقول الشاعر :

مَنْ أَبْصَرَ الْخَلْقَ كَالسُّرَابِ	فَقَدْ تَرَفَّى عَنِ الْحِجَابِ
إِلَى وَجْهِهِ تَرَاهُ رَتْقاً	بِلَا ابْنِ عَمَادٍ وَلَا اقْتِرَابِ
وَلَمْ تُشَاهِدْ بِهِ سِوَاهُ	هَذَاكَ يَهْدَى إِلَى الصُّوَابِ
فَلَا خِطَابَ بِهِ إِلَيْهِ	وَلَا مُشِيرَ إِلَى الْخِطَابِ

ومثال من عكف على دنياه ، واتخذ إلهه هواه ، كذى ظلمات فى بحر لجى ، وهو بحر الهوى ، يغشاه موج الجهل والمخالفات ، من فوقه موج الحظوظ والشهوات ، من فوقه سحب أثر الكائنات ، أو : يغشاه موج الغفلات ، من فوقه موج العادات ، من فوقه سحب الكائنات ، ظلمات بعضها فوق بعض ؛ من حب الدنيا ، وحب الجاه ، وحب الرئاسة ، إذا أخرج يد فكرته لم يكد يراها .

(١) أخرجه البخارى فى (الدعوات ، باب الدعاء إذا انتبه من الليل ح ٦٣١٦) ، ومسلم فى (صلاة المسافرين ، باب الدعاء فى صلاة الليل ، ١/ ٥٢٥ - ٥٢٦ ، ح ٧٦٣) ، من حديث ابن عباس رضي الله عنه .

والعصر والعشاءين. وإنما وَحَدَّ الْغَدُو؛ لأنَّ صلاته صلاة واحدة، وفي الآصال صلوات، وهو جمع أصيل، وفاعل «يُسَبِّحُ»: رجال. ومن قرأ بفتح الباء (١)، فأستدّه إلى أحد الظروف الثلاثة، أعنى: (له فيها بالغدو). ورجال: مرفوع بمحذوف، دل عليه «يُسَبِّحُ» أى: يسبحه ﴿رجالٌ لا تلهيهم﴾: لا تشغلهم ﴿تجارة﴾ في السفر، ﴿ولا بيع﴾ في الحضر، ﴿عن ذكر الله﴾ باللسان والقلب، وقيل: التجارة: الشراء، أى: لا يشغلهم شراء ولا بيع عن ذكر الله، والجملة: صفة لرجال، مؤكدة لما أفاده التوكيد من الغفامة، مفيدة لكمال تبتليهم إلى الله تعالى، واستغراقهم فيما حكى عنهم من التسبيح من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم.

ونخصيص التجارة بالذكر؛ لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرها، أى: لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة، ولا فرد من أفراد البياعات، وإن كان في غاية الربح. وإفراده بالذكر، مع اندارجه تحت التجارة؛ لأنه ألهى؛ لأن ربحه متيقن ناجز في الغالب، وما عداه مترقع في ثانی الحال.

﴿و﴾ لا يشغلهم ذلك أيضاً عن ﴿إقام الصلاة﴾ أى: إقامتها لمراقبتها من غير تأخير، وأصله: إقامة، فأسقطت التاء المعوضة عن العين الساقطة بالإعلال، وعوض عنها الإضافة، فأقيمت الإضافة مقام التاء، ﴿وإيتاء الزكاة﴾ أى: وعن إيتاء الزكاة، وذكرها، وإن لم يكن مما تفعل في البيوت، لكونها قريبتها لا تفارق إقامة الصلاة في عامة المواضع، مع ما فيه من التنبية على أن محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع في المساجد. والمعنى: لا تجارة لهم حتى تلهيهم، أو يبيعون ويشتررون ويذكرون الله مع ذلك، لا يشغلهم عن ذكر الله شيء، وإذا حضرت الصلاة قاموا إليها مسرعين. ﴿يخافون يوماً﴾ أى: يوم القيامة ﴿تقلب في القلوب﴾ أى: تضطرب وتتغير من الهول والفرع، وتبلغ إلى الحناجر، ﴿و﴾ تتقلب ﴿الأبصار﴾ بالشغوص أو الزرقة. أو تتقلب القلوب إلى الإيمان بعد الكفران، والأبصار إلى العيان بعد النكران، كقوله: ﴿فكشفتنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ (٢).

يفعلون ذلك الاستغراق في التسبيح والذكر، مع الخوف؛ ﴿ليجزئهم الله أحسن ما عملوا﴾ أى: أحسن جزاء أعمالهم، حسبما وعدهم بمقابلة حسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، ﴿ويزيدهم من فضله﴾ أى: يتفضل عليهم بأشياء وعدهم بها، لم تخطر على بال؛ كالنظر إلى وجهه، وزيادة كشف ذاته، فهو كقوله: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ (٣). ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أى: يثيب من يشاء ثواباً لا يدخل تحت حساب الخلق، ومن: واقعة على من ذكرت أوصافهم الجميلة، كأنه قيل: والله يرزقهم بغير حساب، روضه موضع

(١) رويها قراءة ابن عامر وأبو بكر.

(٢) من الآية ٢٢ من سورة ق.

(٣) من الآية ٢٦ من سورة يونس.

ضميرهم؛ للتنبية على أن مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى، لا أعمالهم المحكية، ويحتمل أن يريد بالرزق ما يرزقهم في الدنيا مما يقوم بأمرهم، حين تنبأوا إلى العبادة، يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون، من غير حصْر ولا عُد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: البيوت التي أذن الله أن ترفع هي القلوب، التي هي معدن الأسرار ومحل مصابيح الأنوار، ورفعها: صونها من الأغيار، وتطهيرها من لوث الأكدار، وبعدها من جيفة الدنيا، التي هي مجمع الخبائث والأشرار، ليذكر فيها اسم الله، كثيراً، على نعت الحضور والاستهتار، وإنما يمكن ذلك من أهل التجريد والانقطاع إلى الله، الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب عن حضرة الله، والأبصار عن شهود الله، وذلك بشؤم الغفلة في الدنيا عن الله، والقيام بحقوق الله، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا، في جنة الزخارف، ويزيدهم من فضله التَّنْزَهُ في جنة المعارف. والله يرزق من العلوم والمعارف من يشاء بغير حساب.

ثم ذكر ضد أهل النور، وهم أهل الظلمة، فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدِيرْنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

قلت: «كسراب»: خبر الثاني، وهو: ما يرى في الفلوات من لمعان الشمس وقت الظهيرة، يسرب على وجه الأرض، فيظن أنه ماء يجري. و(بقية): متعلق بمحذوف، صفة لسراب، أي: كائن بأرض قيعه، أي: متبسطة، و(سحاب ظلمات): من جرّها: فبالإضافة (١)، ومن رفعها: فخير، أي: هي ظلمات.

يقول الحق جل جلاله، في بيان أعمال الكفرة وظلمة قلوبهم، بعد بيان حال المؤمنين وأنوار قلوبهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسْرَابٍ﴾ التي هي من أبواب البر، كصلة الرحم، وفك العنة، وسقاية الحاج، وعمارة البيت، وإغاثة الملهوف، وقري الأضياف، ونحوها، مما لُقِّقَ قارنه الإيمان لا ستوجب الثواب، مثاله: ﴿كسراب﴾؛

(١) قرأ البزى (سحاب ظلمات) بالإضافة، وقرأ الجمهور: (سحاب ظلمات) بالتثنية والرفع فيهما. انظر الإتحاف (٢/ ٢٩٩).

وقال بعضهم: الدنيا كلها بحر لجى، والناس مغروقون فيه، إلا من عصم الله، وساحله الموت، فمن لعبت به أمواج الهوى والحظوظ، فليأوى إلى سفينة الزهد والورع، وليتمسك برئيس عارف بأهوال البحر، وهم العارفون بالله، فإنه ينجو من أهوالها، ومن أخطأ هذا غرق في تيارها، ولعبت به أمواج حظوظها وشهواتها، فكان من الهالكين، نسأل الله الحفظ بمنه وكرمه.

ثم ذكر علامات وجود ذلك النور المتقدم في أهل السموات والأرض، فقال:

﴿الْمُتَرَانَّ اللَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفَقَتْ كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم تر﴾ يا محمد، وخصه بالخطاب؛ إيذاناً بأنه ﷺ قد أفاض عليه أعلى مراتب النور وأجلاها، وبين له من أسرار الملكوت أجلها وأخفاها، أى: ألم تنظر بعين بصيرتك، فتعلم علم يقين، ﴿أن الله يُسَبِّحُ لَهُ﴾ أى: ينزهه على الدوام ﴿من في السموات والأرض﴾؛ من العقلاء وغيرهم، تنزيهاً معنوياً، فإن كلا من الموجودات يدل على وجود صانع واجب الوجود، متصف بصفات الكمال، مقدس عن كل ما لا يليق بعلو شأنه. أو: تنزيهاً حسياً بلسان المقال، ولكن لا تفقهون تسبيحهم. وتخصيص التنزيه بالذكر، مع دلالة ما فيهما على اتصافه تعالى بنعوت الكمال أيضاً؛ لأن مساق الكلام تنبيح حال الكفرة في إخلالهم بالتنزيه؛ بجعلهم الجمادات شركاء له ودعوى اتخاذه الولد.

﴿و﴾ يسبحه ﴿الطير﴾ حال كونها ﴿صافات﴾ أى: يصفن أجنحتهن في الهواء، وتخصيصها بالذكر، مع اندراجها في جملة ما في الأرض؛ لعدم استمرار قرارها فيها، واختصاصها بصنع بارع، وهو اصطفاق أجنحتها في الجو، وتمكينها من الحركة كيف تشاء، وإرشادها إلى كيفية استعمالها بالقبض والبسط، ففي ذلك دلالة واضحة على كمال قدرة الصانع المجيد، وغاية حكمة المبدئ المعيد.

﴿كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ﴾ أى: كل واحد من الأشياء المذكورة قد علم الله تعالى صَلَاتَهُ، أى: دعاءه وخضوعه وتسبيحه. أو: كلُّ قَدِّ عِلْمٍ في نفسه ما يصدر عنه من صَلَاةٍ وتسبيح، فالضمير: ما إليه أو لكل. ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة، التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها. ﴿والله عليم بما يفعلون﴾؛ لا يعزب عن علمه شيء.

﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ لا لغيره؛ لأنه الخالق لهما، ولما فيهما من الذوات، وهو المتصرف فيهما إيجاباً وأعداداً، (والى الله المصير) أى: إليه، خاصة، رجوع الكل بالفناء والبعث لا إلى غيره، وإظهار اسم الجلالة فى وضع الإضممار، لتربية المهابة، والإشعار بعلية الحكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما استقر فى السموات السبع والأرضين السبع كله من قبضة النور الأولية، بين حس ومعنى، حسه خاضع لأحكام الربوبية، ومعناه قاهر بسطوات الألوهية، حسه حكمة، ومعناه قدرة، حسه ملك، ومعناه ملكوت، وهذا معنى قوله: ﴿الله نور السموات والأرض﴾، فافهم.

ثم ذكر جزئيات من تلك النور، فقال:

﴿الَّذِينَ تَرَى اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ. وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سُنَّابُ رَقِيهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم تر أن الله يزجي﴾ أى: يسوق، برفق وسهولة، ﴿سحاباً﴾: جمع سحابة، ﴿ثم يؤلف بينه﴾ أى: يضم بعضه إلى بعض، ﴿ثم يجعله ركاماً﴾: متراكماً بعضه فوق بعض، ﴿فترى الودق﴾: المطر، ﴿يخرج من خلاله﴾: من فتوقه ووسطه، جمع خلل، كجبال وجبل، وقيل: مفرد، كحجاب وحجاز.

قال القشيري: ترتفع بقدرته بخارات البحر، فيتصعد، بتسييره وتقديره، إلى الهواء، وهو السحاب، ثم يديره إلى سمت يريد أن ينزل به المطر، ثم ينزل ما فى السحاب من ماء البحر، قطرة قطرة، ويكون الماء، حين حصوله فى بخارات البحر، غير عذب، فيقلبه عذبا، ويسخه السحاب سكباً، فيوصل إلى كل موضع قدراً يكون له مراداً معلوماً، لا بالجهد من المخلوقين يمساك عن المواضع الذى عليه ينزله، ولا بالحيلة يستنزل على المكان الذى لا يُمْطَرُه. هـ. قلت: وهذا أحد الأقوال فى حقيقة المطر، والمشهور عند أهل السنة: أن الله تعالى ينشئ السحاب بقدرته، ويخلق فيه الماء بحكمته، وينزله حيث شاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾، «من، الأولى: لابتداء الغاية، والثانية: بدل من الأولى، والثالثة: لبيان الجنس، أى: يُنَزِّلُ البَرَدَ، وهو الثلج المكور، من السماء، أى: الغمام العلوى، فكل ما علك سماء، من جبال فيها كائنة من البرد، ولا غرابة في أن الله يخلق في السماء جبالَ بَرَدٍ كما خلق في الأرض جبال حجر.

قال ابن جزى: قيل: إن الجبال هنا حقيقة، وإن الله جعل في السماء جبلاً من برد، وقيل: إنه مجاز، كقولك: عند فلان جبال من مال أو علم، أى: هن في الكثرة مثل الجبال. هـ. وأصله لابن عطية. وقال الشيخ أبو زيد الثعالبي: حمل اللفظ على حقيقته أولى، إن لم يمنع من ذلك مانع. هـ. يعنى: ولأمانع هذا، فيحمل على ظاهره، وإن الله خلق جبال بَرَدٍ في السماء. وقال الهرورى عن ابن عرفة - يعنى اللغوى -: سمعت أحمد بن يحيى يقول: فيه قولان: أحدهما: وينزل من السماء بَرَدًا من جبال في السماء من برد، والآخر: وينزل من السماء أمثال الجبال من البرد. ويقال: إنما سمى بَرَدًا؛ لأنه يبرّد وجه الأرض أى: يقشّره. هـ.

قال البيضاوى: إن الأبخرة إذا تصاعدت ولم يتخللها حرارة، فبلغت الطبقة الباردة من الهواء، وقوى البرد هناك، اجتمع وصار سحاباً، فإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد، فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها، نزل ثلجاً، وإلا نزل بَرَدًا، وقد يبرد الهواء بَرَدًا مفرطاً فينقبض، وينعقد سحاباً، وينزل منه المطر أو الثلج. وكل ذلك لا بد وأن يُسندَ إلى إرادة الواجب الحكيم؛ لقيام الدليل على أنها الموجبة لاختصاص الحوادث بمحالتها وأوقاتها، وإليه أشار بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيُصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ﴾ والضمير للبرد. هـ. أى: فيصيب بذلك البرد من يشاء أن يصيبه به، فيناله ما ناله من ضرره في بدنه وماله؛ من زرع أو غيره. ﴿وَيُصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ﴾ أن يصرفه عنه، فينجو من غائلته.

﴿يَكَادُ سَنًا بَرْقُهُ﴾ أى: ضوء برق السحاب، الموصوف بما مر من الإزجاء والتألف. وإضافة البرق إليه، قبل الإخبار بوجوده، فيه إيدان بظهور أمره واستغنائاه عن التصريح به. وقيل: الضمير للسماء، وهو أقرب، أى: يكاد ضوء برق السماء، ويحتمل أن يعود على الله تعالى؛ لتقدم ذكره، أى: يكاد ضوء بَرَقِهِ تعالى ﴿يذهب بالأبصار﴾، أى: يخطفها من فرط الإضاءة، وسرعة ورودها، ولو عند إغماضها. ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أى: يصرفهما بالتعاقب، فيأتى هذا بعد هذا، أو ينقص أحدهما وزيادة الآخر، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد وغيرهما.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾، الإشارة إلى ما فصل آنفاً، أى: إن في إزجاء السحاب، وإنزال الودق، وتقليب الليل والنهار،

﴿لعبرة﴾ ؛ لدلالة واضحة على وجود الصانع القديم، القائم بالأشياء، والمدير لها بقدرته وحكمته، ﴿لأولي الأبصار﴾ ؛ لذوى العقول الصافية. وهذا من تعدد الدلائل على ظهور نوره تعالى فى الكائنات، حيث ذكر تسبيح مَنْ فى السموات والأرض وما يطير بينهما وخضوعهم له، وتسخير السحاب وإنزال الأمطار، وتقلب الليل والنهار، إلى غير ذلك من لوازم الأنوار. والله تعالى أعلم وأحكم.

الإشارة: ألم تر أن الله يُزجى سحاب الواردات الإلهية، تحمل العلوم الدنيوية، ثم يُؤلف بيده حتى يكون قوياً، يُقطع به صاحبه عن حصه، ويغيبه عن أمسه ورسمه، فترى أمطار العلوم الدنيوية، والأسرار الربانية، والفتوحات العرفانية، تخرج من خلاله، أى: من قلب العارف، وهى نتائج الواردات وثمراتها. وفى الحكيم: «لاتزكين وارداً لم تعلم ثمرته، فليس المراد من السحابة الأمطار، وإنما المراد منها وجود الأثمار».

وينزل من سماء الأرواح من جبال عقول، فيها علم الرسوم الظاهرة، فيصيب به من يشاء، ممن أريد لحمل الشرائع والقيام بها، ويصرفه عن يشاء، ممن أريد أن يكون من عامة الناس، أو من خاصتهم. إن هبت عليه رياح الحقائق، فأمطرت على قلبه العلوم الغيبية فأغنته عن العلوم الرسمية، يكاد سنا برفه الساطع لقلوب أوليائه، وهو سطوع أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، فإنها تكون أولاً كالبرق، تلمع وتخفى، ثم يتصل ورودها وشروقها، فتكون متصلة البروق دائمة الشروق، نهار بلا ليل، واتصال بلا انفصال، ووصال بلا انقطاع. وفى ذلك يقول القائل:

طلعت شمس من أحب بليلٍ واستنارت، فما تلاها غروب
إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليس لها مغيب

يقلب الله ليل القبض على نهار البسط، ونهار البسط على ليل القبض، حتى يتصل النهار بالخروج عنهما، ليكون لله، لا لشيء دونه. وبالله التوفيق.

ولما ذكر التجليات العلوية ذكر التجليات السفلية، فقال:

﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والله خلق كل دابة﴾ أى: خلق كل حيوان يدب على وجه الأرض ﴿من ماء﴾ من نوع من الماء مختص بتلك الدابة، وهو جزء مادته عند الأطباء، أو: من ماء مخصوص، وهو النطفة،

ثم خالف بين المخلوقات من تلك النطفة، فمنها أناسي، ومنها بهائم، ومنها هوام وسباع، وهو كقوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ﴾ (١) وهذا دليل على أن لها خالقاً مدبراً، والألم تختلف لاتفاق الأصل، وإنما عرّف الماء في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (٢) ونكره هنا؛ لأن المقصود ثمة أن أجناس الحيوان مخلوقة من جنس الماء، وأنه هو الأصل، وإن تخللت بينه وبينها وسائط، وأما هنا فالمراد نوع منه.

قالوا: إن أول ما خلق الله الماء، فخلق منه النار والريح والطين، فخلق من النار الجن، ومن الريح الملائكة، ومن الطين آدم ودواب الأرض. قاله النسفي. وعلى الثاني: تكون الآية أغلبية؛ لأن من الحيوانات من يتولد من غير نطفة، كالذود والبعض وغيرهما.

ثم فصل أحوالهم بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾؛ كالحية والحوت، وتسمية حركتها مشياً، مع كونها زحفاً، استعارة، كما يقال في الشيء المستمر: قد مشى هذا الأمر على هذا النمط، أو على طريق المشاكلة؛ لذكر الزاحف مع المشين. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالبهائم والوحش. وعدم التعرض لما يمشى على أكثر من أربع؛ كالعنكب ونحوها من الحشرات؛ لعدم الاعتداد بها، لقلتها. وتذكير الضمير في (منهم)؛ لتغليب العقلاء، وكذلك التعبير بكلمة (من). وقدم ما هو أغرق في القدرة، وهو الماشي بغير آلة، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع.

﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر، بسيطاً أو مركباً، على ما يشاء من الصور والأعضاء والهيئات والطبائع والقوى والأفاعيل، مع اتحاد العنصر؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء. وإظهار الاسم الجليل في الموضعين في موضع الإضممار؛ لتفخيم شأن الخلق المذكور، والإيدان بأنه من أحكام الألوهية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أظهر الحق تعالى الأشياء من الماء، وأظهر الماء من نور القبضة، وأظهر القبضة من بحر سر الذات. أو تقول: أظهر الماء من نور الملكوت، وأبرز نور الملكوت من بحر الجبروت، وبحر الجبروت هو بحر أسرار

(١) من الآية ٤ من سورة الرعد.

(٢) من الآية ٣٠ من سورة الأنبياء.

الذات الأزلية، فالكل منه وإليه، ولا شيء معه، فتلوعت أنوار التجليات، وتعددت أسماؤها بتعدد فروعها، والمتجلى واحد، كما قال صاحب العينية:

تَجَلَّى حَبِيبِي فِي مَرَائِي جَمَالِهِ فَنِي كُلِّ مَرْنِي لِلْحَبِيبِ طَلَانِعُ
قَلَمًا تَبَدَّى حُسْنُهُ مُتَنَوِّعًا تَسْمَى بِأَسْمَاءٍ فَهِنَّ مَطَالِعُ.

ولا يفهم هذا إلا من هداه الله لمعرفته، كما قال:

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ٤٦

يقول الحق جل جلاله: ﴿ لقد أنزلنا آياتٍ مُبِينَاتٍ ﴾ لكل ما يليق بيانه من الأحكام الدينية، والأسرار التكوينية. أر: موضحات، أوضحت بها ما يحتاجون إليه من علم الشرائع والأحكام، ﴿ والله يهدي من يشاء ﴾ توفيقه ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ أى: دين قيم يوصل إلى رضوان الله ومعرفته.

الإشارة: لقد أنزلنا من بحر الجبروت أنواراً ساطعة لعالم الملكوت، والله يهدي من يشاء إلى طريق شهود هذه الأنوار. فالطريق المستقيم هي التي توصل إلى حضرة العيان، على نعت الكشف والوجدان، وهي ثلاثة مدارج: المدرج الأول: إتقان الشريعة الظاهرة، وهي تهذيب الظواهر وتأديبها بالسنة والمتابعة. والمدرج الثاني: إتقان الطريقة، وهي تهذيب البواطن وتصفيتها من الرذائل، فإذا تطهر الباطن، وكمل تهذيبه، أشرف على المدرج الثالث، وهو كشف الحقائق العرفانية والأسرار الربانية، فيفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل، فيقع العيان على فقد الأعيان، وتشرق شمس العرفان فتغطي وجود الأكوان. وبالله التوفيق.

ولما ذكر إنزال الآيات ذكر افتراق الناس إلى ثلاث فرق، فرقة آمنت ظاهراً وكفرت باطناً، وهم المنافقون، وفرقة آمنت ظاهراً وباطناً، وهم المخلصون، وفرقة كفرت ظاهراً وباطناً وهم الكافرون، وبدأ بالأولى، فقال:

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْيَقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٤٧ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْيَقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾

يقول الحق جل جلاله في شأن من لم يشأ هدايته إلى صراط مستقيم: ﴿ويقولون﴾ أي: المنافقون ﴿آمنا بالله وبالرسل﴾؛ بالسنتهم، ﴿وأطعنا﴾ الله والرسول في الأمر والنهي، ﴿ثم يتولى﴾ عن قبول حكمه ﴿فريقٌ منهم من بعد ذلك﴾ أي: من بعد ما صدر عنهم من ادعاء الإيمان بالله وبالرسول والطاعة لهما.

قال الحسن: نزلت في المنافقين، الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر. وقيل: نزلت في «بشر» المنافق، خاصم يهودياً، فدعاه إلى كعب بن الأشرف، ودعاه اليهودي إلى النبي ﷺ، فقال بشر: لا، إن محمداً يحيف علينا^(١). - قبح الله سعيه. وقيل: في المغيرة بن وائل، خاصم علياً رضي الله عنه في أرض وماء، فأبى أن يتحاكم إلى رسول الله ﷺ. وأيا ما كان فصيحة الجمع تدل على أن للقائل طائفة يساعدهونه ويشايعونه في تلك المقالة.

ثم حكم عليهم بالكفر، فقال: ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ أي: المخلصين، والإشارة إلى القائلين: آمنا بالله وبالرسل، لا إلى الفريق المتولى منهم فقط، لئلا يلزم نفى الإيمان عنهم فقط، دون من قبلهم، بخلاف العكس، فإن نفى الإيمان عن القائلين يقتضى نفيه عنهم، على أبلغ وجه وآكده، وما فيه من معنى البعد؛ للإشعار ببعد منزلتهم في الكفر والفساد.

﴿وإذا دُعوا إلى الله ورسوله﴾ أي: إلى رسول الله ﷺ؛ لأن حكمه حكم الله، ﴿ليحكم بينهم﴾ أي: ليحكم الرسول بينهم؛ لأنه المباشر للحكم حقيقة، وإن كان ذلك حكم الله في الحقيقة؛ لأنه خليفته. وذكر الله تعالى لتفخيم شأنه عليه، والإيدان بجلالة قدره عنده. فإذا دُعوا إلى التحاكم بينهم ﴿إذا فريقٌ منهم معرضون﴾ أي: فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه ﷺ؛ لكون الحق عليهم، وقد علموا أنه ﷺ يحكم بالحق على من كان.

﴿وإن يكن لهم الحق﴾ على غيرهم ﴿يأتوا إليه﴾؛ إلى الرسول ﴿مذعنين﴾؛ مسرعين في الطاعة، طلباً لحقهم، لا رضاً بحكم رسولهم. قال الزجاج: والإذعان: الإسراع مع الطاعة. والمعنى: أنهم؛ لمعرفتهم أنك لا تحكم إلا بالحق المر والعدل المحض، يمتنعون من المحاكمة إليك، إذا ركبهم الحق، لئلا تلزعه منهم بقضائك عليهم لخصومتهم، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك، ولم يرضوا إلا بحكومتك، لتأخذ لهم ما وجب لهم على خصمهم.

(١) انظر تفسير البغوي (٥٥/٦)، وأسباب النزول للواحدى (ص ٣٣٧).

﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ ؛ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ ، ﴿ أَمْ ارْتَابُوا ﴾ فِي نُبُوته ﷺ ، ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ ﴾ ؛ أَنْ يَجُورَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴿ فَيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِغَيْرِ الْحَقِّ . قَسَمَ الْحَقُّ تَعَالَى الْأَمْرَ فِي صُدُودِ الْمُنَافِقِينَ عَنْ حُكُومَتِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - إِذَا كَانَ الْحَقُّ عَلَيْهِمْ إِلَى ثَلَاثٍ : بِأَنْ يَكُونُوا مَرْضَى الْقُلُوبِ مُنَافِقِينَ ، أَوْ مُرْتَابِينَ فِي أَمْرِ نُبُوته ، أَوْ خَائِفِينَ الْحِيفَ فِي قَضَائِهِ ، ثُمَّ أَبْطَلَ الْكُلَّ بِقَوْلِهِ : ﴿ بَلْ أَوْلَتْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، أَمَّا الْأَوَّلَانِ ؛ فَلَأَنَّهُ لَوْ كَانَ شَيْءٌ مِنْهُمَا لَأَعْرَضُوا عَنْهُ ، عَدَا كَوْنِ الْحَقِّ لَهُمْ ؛ لِتَحَقُّقِ نِفَاقِهِمْ وَارْتِيَابِهِمْ ، وَأَمَّا الثَّالِثُ ؛ فَلَمَعْرِفَتِهِمْ بِأَحْوَالِهِ ﷺ فِي الْأَمَانِ وَالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ ، فَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ أَنَّهُ لَا يَحِيفُ ؛ بَلْ لِأَنَّهُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ ، يَرِيدُونَ أَنْ يَظْلِمُوا مَنْ لَهُ الْحَقُّ عَلَيْهِمْ ، وَيَتَمَّ لَهُمْ جُحُودُهُمْ ، فَيَأْبُونَ لِلْمَحَاكِمَةِ إِلَيْهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لِأَنَّهُ ﷺ يَقْضِي عَلَيْهِمْ بِالْحَقِّ الصَّرِيحِ ، الْمُوَيْدَ بِالرُّوحِيِّ الصَّحِيحِ .

الإشارة: تَرَى فَرِيقًا مِنَ النَّاسِ يَدْعُونَ الْإِيمَانَ وَالطَّاعَةَ وَالْمَحَبَّةَ ، وَنَفُوسُهُمْ غَالِبَةٌ عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا دُعُوا إِلَى مَنْ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا ، بِأَنْ يَأْمُرَهُمْ بِمُجَاهَدَتِهَا أَوْ قَتْلِهَا ؛ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مَعْرُضُونَ ، وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ الْحَقُّ ، بِأَنْ وَجَدُوا مَنْ يَدْلُهُمْ عَلَى الْبَقَاءِ مَعَ عَوَائِدِهَا وَشَهَوَاتِهَا ، يَأْتُوا إِلَيْهِ مَذْعَنِينَ . أَفِي قُلُوبِهِمْ شَكٌّ وَرَهْمٌ ، أَمْ ارْتَابُوا فِي وَجُودِ الطَّبِيبِ ، أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ؟ بِأَنْ يَدْلُهُمْ عَلَى مَنْ يَتَعَبَهُمْ وَلَا يَبْرُنُهُمْ ، حَيْثُ حَسَبُوا الظَّنَّ بِهِ وَالتَّجَارَا إِلَى اللَّهِ ، فَلَا يَدْلُهُمْ إِلَّا عَلَى مَنْ يُوَصِّلُهُمْ إِلَيْهِ ، بَلْ أَوْلَتْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ لِنَفْسِهِمْ ، حَيْثُ حَرَمُوا الرِّصُولَ ، وَتَرَكُوهَا فِي أَوْدِيَةِ الشُّكُوكِ وَالْخَوَاطِرِ تَجُولُ . قَالَ الْوَرْتَجِيُّ : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أَيُّ : دُعُوا إِلَى مُشَاهَدَةِ اللَّهِ بِنِعَتِ الْمَحَبَّةِ وَالْمَعْرِفَةِ ، وَعِبُودِيَّتِهِ بِنِعَتِ الْإِخْلَاصِ ، وَدُعُوا إِلَى رَسُولِهِ بِالْمَتَابَعَةِ وَالْمُوَافَقَةِ فِي الشَّرِيعَةِ وَالطَّرِيقَةِ . هـ .

ثم ذكر الفريق الثاني، وهم المخلصون، فقال:

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قلت: (قول): خبر، كان، مقدم، (أن يقولوا): اسمها؛ مؤخر، وقرأ الحسن: بالرفع؛ على الاسمىة، والأول: أرجح؛ صناعة، والثاني: أظهر؛ دلالة، وأكثر إفادة. انظر أبا السعود.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ﴾ الرسول ﷺ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وبين خصومهم، سواء كانوا منهم أو من غيرهم، ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا﴾ قوله، ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمره، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ الفائزون بكل مطلب، الناجون من كل مهرب. والإشارة إلى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم، وما فيه من البعد، للإشعار بعلو رتبته، وبعد منزلتهم في الفضل، أي: أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجميلة هم الفائزون بكل مطلوب.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، هذا استئناف جيء به لتقرير ما قبله من حسن حال المؤمنين، وترغيب من عداهم في الانتظام في سلوكهم، أي: ومن يطع الله ورسوله، كائناً من كان، فيما أمراً به من الأحكام الشرعية اللازمة والمتعدية، وقيل: من يطع الله في فرائضه، ورسوله في سنته. ﴿وَيَخْشِ اللَّهَ﴾ على ما مضى من ذنوبه، ﴿وَيَتَّقْهُ﴾ فيما يستقبل من عمره، ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الطاعة والخشية، والافتاء، ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم، لا من عداهم.

وعن بعض الملوك: أنه سأل عن آية كافية، فنُقلت عليه هذه الآية. وهي جامعة لأسباب الفوز. قال القرطبي: ذكر أسلم: أن عمر بينما هو قائم في مسجده ﷺ فإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه، وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقال له عمر: ما شأنك؟ قال: أسلمت، قال: ألهذا سبب؟ قال: نعم؛ إني قرأت التوراة والزيور والإنجيل، وكثيراً من كتب الأنبياء، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن، جمع فيها كل ما في الكتب المتقدمة، فعلمت أنه من عند الله، فأسلمت. قال: ما هذه الآية؟ قال قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ﴾ في الفرائض، ﴿وَرَسُولَهُ﴾ في السنن، ﴿وَيَخْشِ اللَّهَ﴾ فيما مضى من عمره، ﴿وَيَتَّقْهُ﴾ فيما بقى، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾؛ والفائز: من نجا من النار وأدخل الجنة، فقال عمر: قال النبي ﷺ: «أُعْطِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ» (١). هـ (٢). والله تعالى أعلم.

الإشارة: إنما كان قول المؤمنين الكاملين، الطالبين الوصول إلى حضرة رب العالمين، إذا دعوا إلى حضرة الله ورسوله؛ ليحكم بينهم وبين نفوسهم التي حجبته حتى يغيروا عنها، أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، ويدخلوا تحت تربية المشايخ، فإذا أمروهم أو نهوهم، قالوا: سمعنا وأطعنا، وأولئك هم المفلحون الفائزون بالوصول إلى الله تعالى. ومن يطع الله في أمره ونهيه، ورسوله في سنته، وما رغب فيه، ويخش الله أن يعاتبه، أو يؤدبه، ويتقاه، أي: يجعل

(١) بعض حديث، أخرجه البخاري في (التعبير، باب رؤيا الليل، ح ٦٩٩٨) ومسلم في (المساجد، ١/٣٧١، ح ٥٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه. ولفظ البخاري: «أُعْطِيَتْ مَفَاتِيحُ الْكَلِمِ».

(٢) انظر تفسير القرطبي (٤٨١٩/٥).

وقاية بينه وبين ما يحجبه أو يبغده عنه، فأولئك هم الفائزون الظافرون بمعرفة الله على نعت الشهود والعيان. وبالله التوفيق.

ثم رجع إلى تنمة القسم الأول، حاكياً بعض جنايتهم، فقال:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

قلت: (جهد): مصدر مؤكد لفعله، الذي هو في حيز النصب على الحال، من فاعل «أقسموا»، ومعنى جهد اليمين: بلوغ غايتها بطريق الاستعارة، من قولهم: جهد نفسه: إذا بلغ أقصى وسعها وطاقاتها. وأصل أقسم جهد اليمين: أقسم بجهد اليمين جهداً، فحذف الفعل وقدم المصدر، فوضع موضع مضافاً إلى المفعول، كقوله: ﴿فَضْرِبَ الرِّقَابَ﴾ (١) وحكم هذا المنصوب حكم الحال، كأنه قال: أقسموا جاهدين أيمانهم. و(طاعة): مبتدأ حذف خبره، أي: طاعة معروفة أولى من تسويفكم، أر: خبر عن محذوف، أي: الذي يطلب منكم طاعة معروفة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ أي: المنافقون ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: بلغوا فيها غاية رسعهم، بأن حلفوا بالله. وعن ابن عباس رضي الله عنه: (من حلف بالله فقد جهد يمينه)، ﴿لئن أمرتهم ليخرجن﴾ أي: قالوا: لئن أمرنا محمد بالخروج للغزو، أو من ديارنا وأموالنا، لخرجننا. وحيث كانت مقاتلتهم هذه كاذبة ويمينهم فاجرة أمر عليه الصلاة والسلام - بردها حيث قيل: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ أي: قل: رداً عليهم، وزجراً عن التفوه بها: لاتحلفوا وأنتم كاذبون، ﴿طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾، تعليل للنهي، أي: لا تقسموا على ما تدعون من الطاعة؛ لأن طاعتكم طاعة نفاقية، معروفة بالنفاق، واقعة باللسان فقط من غير مواطاة للقلب. وإنما عبّر عنها بمعروفة؛ للإيذان بأن كونها نفاقية مشهور معروف لكل أحد. وحملها على الطاعة الحقيقية، على حذف المبتدأ أو الخبر، مما لا يساعد المقام. أنظر أبا السعود.

قال القشيري: طاعة في الوقت أولى من تسويف في الوعد، ولا تعدوا بما هو معلوم أنكم لا تفوا به. هـ. وقال النسفي: طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الفاجرة. أر: الذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب، كطاعة الخالص من المؤمنين، لا أيمان تقسمونها بأفواهكم، وقلوبكم على خلافها. هـ.

(١) من الآية ٥ من سورة سيدنا محمد.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة، التي من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب المؤكدة بالإيمان الفاجرة، وما تضعرونه في قلوبكم من الكفر والنفاق، والعزيمة على مخادعة المؤمنين، وغيرها من فنون الفساد.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، أمر - عليه الصلاة والسلام - بتبليغ ما خاطبهم الله به، وصرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب، وهو أبلغ في تبييتهم، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ - بحذف إحدى التاءين؛ بدليل قوله: ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ من التلقى بالقبول والإذعان. والمعنى: فإن تعرضوا عن الإيمان فما ضررتكم إلا أنفسكم، فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمّله الله تعالى من أداء الرسالة، فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه. وأما أنتم فعليكم ما كلفتم، أي: ما أمرتم به من الطاعة والإذعان، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعقوبته. قال القشيري: قل يا محمد: أطيعوا الله، فإن أجابوا، سعدوا في الدارين، وإنما أحسنوا لأنفسهم. وإن تولوا؛ فما أضروا إلا بأنفسهم، ويكون اللوم في المستقبل عليهم، وسوف يلتقون سوء عواقبهم. هـ.

﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ﴾ فيما أمركم به من الهدى ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الحق، الذي هو المقصد الأصلي المرصّل إلى كل خير، والمنجى من كل شر، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ الموضح لكل ما يحتاج إلى الإيضاح، أر: البينّ الوضوح؛ لكونه مقروناً بالآيات والمعجزات المتواترة. والجملة مقررة لما قبلها من أن غائلة التولى وفائدة الإطاعة مقصورتان عليهم. واللام: إما للجنس المنتظم فيه - عليه الصلاة والسلام - انتظاماً أولياً، أو للعهد، أي: ما على جنس الرسول كائناً من كان، أو ما عليه - عليه الصلاة والسلام - إلا التبليغ الواضح. وبالله التوفيق.

الإشارة: ترى بعض الناس يُقسمون بالله جهد أيمانهم: لكن ظهر شيخ التربية وأمرهم بالخروج عن أموالهم وأنفسهم ليخرجن، فلما ظهر تولوا وأعرضوا، فيقال لهم: فإن تولوا فإنما عليه ما حمّل من الدلالة على الله، والتعريف به، وعليكم ما حمّلتكم من الدخول تحت تربيته، وإن تطيعوه تهتدوا إلى معرفة الله بالعيان، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

ثم وعد أهل الإخلاص بالنصر والتمكين، فقال:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قلت: (ليستخلفنهم): جواب لقسم مضمرة، أو تنزيل وعده تعالى منزلة القسم، و(كما): الكاف: محلها النصب على المصدر التشبيهي، أي: استخلافاً كائناً كاستخلافه من قبلهم. و(ما): مصدرية. و(يعبدونني): حال من الموصول الأول، مقيدة للوعد بالثبات على التوحيد، أو استئناف ببيان مقتضى الاستخلاف، و(لا يشركون): حال من وار (يعبدونني).

يقول الحق جل جلاله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم﴾ أي: كل من اتصف بالإيمان بعد الكفر من أي طائفة كان، وفي أي وقت وجد، لا من آمن من المنافقين فقط، ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة، بحسب ظهور الوعد الكريم. و(من): للبيان. وقيل: للتبويض، ويراد المهاجرون فقط^(١). ﴿وعملوا﴾ مع الإيمان الأعمال ﴿الصالحات﴾، وتوسيط المجرور بين المعطوفين؛ لإظهار أصالة الإيمان وعراقته في استتباع الآثار والأحكام، والإيدان بكونه أول ما يطلب منهم، وأهم ما يجب عليهم.

وأما تأخيره في قوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة﴾^(٢) فإن الضمير للذين آمنوا معه ﷺ؛ فلا ريب أنهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصالحة، مثابون عليها، فلا بد من ورود بيانهم بعد نعتهم الجليلة بكمالها.

ثم ذكر الموعود به، فقال: ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾ أي: ليجعلنهم خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم، والمراد بالأرض: أرض الكفار كلها، لقوله عليه الصلاة والسلام: «ليدخلن هذا الدين ما دخل الليل والنهار»^(٣).

(١) هذا التخصيص والقيصر، لا برهان عليه، صحيح أن المقصود بالآية هم أولاً، المهاجرون والأنصار، ولكن كل من تعمقت فيه الآية، فهو متحقق له التمكين. بإذن الله.. «ولينصرون الله من يلصره...»

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٠٣/٤) والبيهقي في الكبرى (١٨١/٩) والحاكم (٤٣٠/٤) وصححه، ووافقه الذهبي، من حديث تميم الداري، بلفظ: «يلبغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، يعز بعض الله في الإسلام، ويذل به في الكفر».

﴿ كما استخلف الذين من قبلهم ﴾؛ كبنى إسرائيل، استخلفهم الله في مصر والشام، بعد إهلاك فرعون والجبابرة، ومن قبلهم من الأمم المؤمنة التي استخلفهم الله في أرض من أهلكه الله بكفره. كما قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ (١).

﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ ﴾: عطف على «ليستخلفنهم»، داخل معه في سلك الجواب، وتأخير، عنه مع كونه أصل الرغائب الموعودة وأعظمها؛ لأن النفوس إلى الحظوظ العاجلة أميل، فتصدّر المواعيد بها في الاستمالة أدخل، والمعنى: ليجعل دينهم ثابتاً متمكناً مقررّاً لا يتبدل ولا يتغير، ولا تنسخ أحكامه إلى يوم القيامة. ثم وصفه بقوله: ﴿ الذي ارتضى لهم ﴾، وهو دين الإسلام، وصفه بالارتضاء؛ تأليفاً ومزيداً ترغيب فيه وفضل تثبیت عليه. ﴿ وليبدلنهم ﴾ بالتشديد والتخفيف من الإبدال، ﴿ من بعد خوفهم ﴾ من الأعداء ﴿ أمناً ﴾.

نزلت حيث كان أصحاب رسول ﷺ قبل الهجرة عشر سنين، أو أكثر، خائفين، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يُصْبِحُونَ فِي السِّلَاحِ وَيُمْسُونَ فِيهِ، حتى قال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع السلاح، فلما نزلت، قال عليه الصلاة والسلام: «لاتصبرون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم، مُحْتَبِياً، ليس معه حديدة» (٢)، فأنجز الله وعده، فأمنوا، وأظهرهم على جزيرة العرب، وفتح لهم بلاد المشرق والمغرب، ومزقوا ملك الأكاسرة، وملكوا خزائنهم، واستولوا على الدنيا بحذاقيرها. وفيه من الإخبار بالغيب ما لا يخفى. وقيل: الخوف والأمن في الآخرة.

ثم مدحهم بالإخلاص فقال: ﴿ يعبدونني ﴾ وحدي، ﴿ لا يشركون بي شيئاً ﴾ أى: حال كونهم موحدين غير مشركين بشيء من الأشياء، شركاً جلياً ولا خفياً؛ لرسوخ محبتهم، فلا يحبون معه غيره، ﴿ ومن كفر بعد ذلك ﴾ أى: بعد الوعد الكريم، كفران النعمة، أو الرجوع عن الإيمان، كما فعل أهل الردة، ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾؛ الكاملون في الفسق، حيث كفروا تلك النعمة بعد ظهور عزها وأنوارها، قيل: أول من كفر هذه النعمة قتل عثمان رضي الله عنه؛ فاقتتلوا بعد ما كانوا إخواناً.

والآية أوضح دليل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين؛ لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات على

ما ينبغي هم الخلفاء - رضى الله عنهم - .

(١) من الآية ١٣ من سورة إبراهيم.

(٢) أخرجه الطبري (١٨/ ١٥٩ - ١٦٠). وعزاه في الدر المنثور (٥/ ١٠٠) لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية. وانظر أسباب النزول للواحدى (٣٣٨).

ولمّا كان كفر من كفر بعد الوعد إنما كان بمنع الزكاة، قرّنه مع الصلاة في الأمر به فقال: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾؛ فمن فرّق بينهما فقد كفر، وكان من الفاسقين. ﴿وأطيعوا الرسول﴾ فيما دعاكم إليه وأمركم به، ومن جملة ما أمر به: طاعة أمرائه وخلفائه؛ لقوله: «عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى، عصوا عليها بالنواجذ» (١)، فمن امتنع من دفع الزكاة لخليفته - كما فعل أهل الردة - فقد كفر، ومن أداها إليه كما أمره الله فقد استوجب الرحمة، لقوله: ﴿لعلكم ترحمون﴾ أى: لكى ترحموا، فإنها من مستجابات الرحمة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: سنة الله تعالى في خواصه: أن يسلط عليهم في بدايتهم الخلق، فينزل بهم الذل والفقر والخوف من الرجوع عن الطريق، ثم يعزهم، ويمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً، كما قال الشاذلى رحمه الله: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا... الخ كلامه.

قال القشيري: وفي الآية إشارة إلى أئمة الدين، الذين هم أركان السنة (٢) ودعائم الإسلام، الناصحون لعباد الله، الهادون من يسترشد في الله. ثم قال: فأما حفاظ الدين؛ فهم الأئمة والعلماء الناصحون لدين الله، وهم أصناف: قوم هم حفاظ أخبار الرسول ﷺ، وحفاظ القرآن، وهم بمنزلة الخزانة، وقوم هم علماء الأصول، الرادون على أهل العناد، وأصحاب الابتداع، بواضح الأدلة، وهم بطارقة الإسلام وشجعانه، وقوم هم الفقهاء المرجوع إليهم في علوم الشريعة وفي العبادات وكيفية المعاملات، وهم من الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين في الملك، وآخرون هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق، وهم في الدين كخواص الملك وأعيان مجلس السلطان وأرباب الأسرار، الذين لا يبرحون في عالى مجلس السلطان، فالدين معمور بهؤلاء على اختلافهم إلى يوم القيامة. هـ (٣). وتقدم مثله في قوله: ﴿فلولا نفر من كل فرقة...﴾ الخ (٤). والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الفريق الثالث، وهم الكفرة ظاهراً وباطناً، فقال:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أُولَئِكَ إِلَّا نَارُ أُولَئِكَ الْمَصِيرُ﴾

(١) أخرجه - بطوله - أحمد في المسند (١٢٧/٤) وأبو داود في (السنة، باب في لزوم السنة ١٣/٥ - ١٤ ح ٤٦٠٧) والترمذي في (العلم، باب في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٤٣/٥، ح ٢٦٧٦) وابن ماجه في (المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين، ١/١٦ ح ٤٢) من حديث العرياض بن سارية.

قلت: والدواجذ آخر الأضراس، واحدها: ناجذ. وأراد بذلك الجد في لزوم السنة، فعل من أمسك الشيء بين أضراسه، وعض عليها، منعاً له أن يبتزع.

(٢) الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

(٣) بتصرف.

(٤) في القشيري: «الملة».

يقول الحق جل جلاله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾ أى: فائتين الله عن إدراكهم وإهلاكهم، فى قَطْرٍ من أقطار الأرض، بل لا بد من أخذهم، عاجلاً أو آجلاً، والخطاب للرسول ﷺ أو لكل سامع. و«الذين»: مفعول أول، و(معجزين): مفعول ثان. وقرأ حمزة والشامى بالغيب، و(الذين): فاعل، والأول: محذوف، أى: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾. و«مأواهم النار»: معطوف على محذوف، أى: بل هم مُدْرَكُونَ، ﴿وَمَاوَاهِمُ النَّارِ﴾ أى: مسكنهم ومرجعهم، ﴿وَلِبئس المصيرُ﴾ أى: والله لبئس المرجع هى. وفى إيراد النار، بطون كونها مأوى ومصيراً لهم، إثر نفى قوتهم بالهرب فى الأرض كل مهرب، من الجزالة ما لا غاية وراءه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا تحسبن أهل الانتقاد على أولياء الله أنهم فائقون، بل لا بد من غيرة الله عليهم، عاجلاً أو آجلاً، فى الظاهر أو الباطن، ومأواهم نار القطيعة ولبئس المصير. وقال القشيري على هذه الآية: الباطل قد تكون له صولة لكنه يختل، وما لذلك بقاء، ولعل لبثه من عارض الشتاء فى القبط، أى: الحر. هـ (١). والله تعالى أعلم.

ثم نعم الكلام على الاستئذان المتقدم، ووسط بينهما مواضع تحت على الامتثال، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَافُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ويدخل فيه النساء، ﴿لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد والإماء، ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ أى: والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار،

(١) العبارة فى لطائف الإشارات المطبوع: [إن الباطل قد تكون له دولة، ولكنها تخيل، ولذلك بقاء، وأقل لبثاً، من عارض يلبث عن القبط].

﴿ثلاث مرات﴾ في اليوم والليلة، وهي ﴿من قبل صلاة الفجر﴾؛ لأنه وقت القيام من المضاجع، وطرح ما ينام فيه من الثياب، ولبس ثياب اليقظة، وربما يجدهم في هذا الوقت نائمين متجردين، ﴿وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة﴾؛ وهي نصف النهار في القيظ؛ لأنها وقت وضع الثياب للقيولة، ﴿ومن بعد صلاة العشاء﴾؛ لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة، والالتحاف بثياب النوم. هي ﴿ثلاث عورات لكم﴾، ومن نصبه؛ فبدل من ﴿ثلاث مرات﴾ أي: أوقات ثلاث عورات، وسمى كل واحد من هذه الأوقات عورة؛ لأن الإنسان يختل تستره فيها (١)، والعورة: الخلل، ومنه سمي الأعور؛ لاختلال عينه.

رُوي أن غلاماً لأسماء بنت أبي مرثد دخل عليها في وقت كرهته، فنزلت (٢). وقيل: أرسل رسول الله ﷺ مدليج بن عمرو الأنصاري، وكان غلاماً، وقت الظهيرة، ليدعو عمر رضي الله عنه، فدخل عليه وهو نائم قد انكشف عنه ثوبه، فقال عمر رضي الله عنه: لوددت أن الله تعالى نهى عن الدخول في هذه الساعات إلا بإذن، فانطلق إلى النبي ﷺ، فوجده وقد نزلت عليه هذه الآية (٤). والأمر، قيل: للرجوب، وقيل: للندب.

ثم عذرهم في ترك الاستئذان في غير هذه الأوقات، فقال: ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾ أي: لا إثم عليكم ولا على المذكورين من الممالك والغلمان في الدخول بغير استئذان بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث، أي: في الأزمنة التي بين هذه العورات الثلاث.

ثم بين العلة في ترك الاستئذان في هذه الأوقات بقوله: ﴿طوافون﴾ أي: هم ﴿طوافون عليكم﴾ لحاجة البيت والخدمة، ﴿بعضكم على بعض﴾ أي: بعضكم طائف على بعض، أو يطوف على بعض، والجملة: إما بدل مما قبلها، أو بيان، يعني: أنكم محتاجون إلى المخالطة والمداخلة، يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام، فلو جزم الأمر بالاستئذان في كل وقت لأفضى إلى الحرج، وهو مدفوع بالنص، ﴿كذلك بين الله لكم الآيات﴾ أي: كما بين الاستئذان، يبين لكم غيره من الآيات التي تحتاجون إلى بيانها، ﴿والله عليم﴾ بمصالح عباده، ﴿حكيم﴾ فيما دبر وحكم به.

﴿وإذا بلغ الأطفال منكم﴾ أي: الأحرار دون الممالك ﴿الحلم﴾ أي: الاحتلام، وهو البلوغ، وأرادوا الدخول عليكم ﴿فليستأذنوا﴾ في جميع الأوقات. قال القرطبي: لم يقل: ﴿فليستأذنوا﴾، وقال في الأولى:

(١) في الأصول: مستره، والمثبت من تفسير السفي.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/٣٠٣) والواحد في أسباب النزول (ص ٣٣٩) والبغوي في التفسير (٦/٦٠) عن مقاتل، بدران إسناد.

﴿لِيَسْتَأْذِنَكُمْ﴾؛ لأن الأطفال غير مخاطبين ولا متعبدين. هـ. قلت: فالمخاطبون في الأولى هم الأولياء بتعليمهم الاستئذان وإيصائهم به، وهذا صاروا بالغين، فأمرهم بالاستئذان ﴿كما استأذن الذين من قبلهم﴾ أى: الذين بلغوا الحلم من قبلهم، وهم الرجال المذكورون في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ...﴾ (١) الآية. والمعنى: أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن، إلا في العورات الثلاث، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم بلغوا الحلم وجب أن يفتطموا عن تلك العادة، ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات، كالرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن.

والناس عن هذه غافلون. عن ابن عباس رضي الله عنه: ثلاث آيات جحدن الناس: الإذن كله، وقوله: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ (٢)، وقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ...﴾ (٣). وعن سعيد بن جبیر: (يقولون: إنها منسوخة، والله ما هي بمنسوخة) (٤). وعن ابن عباس أيضاً قال: إنما أمروا بها حين لم يكن للبيوت المستر، فلما وجدوا ذلك استغنوا عن الاستئذان. وعن أبي محمد مكي: هذا الأمر إنما كان من الله للمؤمنين؛ إذ كانت البيوت بغير أبواب. قلت: أما باعتبار الأجانب فالأبواب تكفى، وأما باعتبار المماليك والأطفال الذين يلجئون الدار من غير حجر؛ فلا تكفى الأبواب في حقهم، فلا بد من الاستئذان كما في الآية.

﴿كذلك﴾ أى: مثل ذلك البيان العجيب ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم آيَاتِهِ﴾. قال ابنُ عرفة: قال قبل هذه ربمدها: الآيات، وفي هذه: آياته؛ لوجهين، الأول: هذه خاصة بالأطفال، وما قبلها عامة في العبيد والأطفال، فأطلقت الآية، ولم تقيد بالإضافة، وهذه خاصة، فعبر عنها بلفظ خاص. الثاني: أن الخطاب بما هنا للبالغين، فأستد فيه الحكم إلى الله تعالى، تخويفاً لهم وتشديداً عليهم. هـ. والمتبادر أنه تفنن. قاله المحشى الفاسى. ﴿والله عليم حكيم﴾ فيما أمر ودبر.

الإشارة: إنما أمر الله بالاستئذان لئلا يكشف السر إلى غير أهله؛ غيرة منه تعالى على كشف أسرار عباده، وإذا كان غار على كشف سر عبده، فغيرته على كشف أسرار ذاته أولى وأحرى، فيجب كتم أسرار الذات عن غير أهله، وكل من خصه الله بسر وجب كتمه إلا على من هو أهل له، وهو من أعطى نفسه وماله، وباعهما لله تعالى. وكل من أطلع على سر من سرار الله أو قضاء من قضائه، ثم استشرف أن يعلم الناس بذلك فهو كذاب. وفي الحكم: «استشراقك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك». وبالله التوفيق.

(١) الآية ٢٧ من سورة النور. (٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات. (٣) الآية ٨ من سورة النساء. والخبر عزاه ابن كثير في التفسير (٣٠٣/٣) لابن أبي حاتم. (٤) أخرجه الطبري (١٦٣/١٨).

ثم رخص للعجائز في عدم التستر من الرجال، فقال:

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قلت: «القواعد»: جمع قاعد، بغير تاء؛ لأنهما من الصفات المختصة بالنساء، كالطالق والحائض، فلا تحتاج إلى تمييز، وهو مبتدأ، و(اللاتي..) الخ: صفة له، (فليس): خبر، وأدخلت الفاء لما في المبتدأ من معنى الشرط من العموم الذي في الألف واللام. و(يرجون): مبني لا اتصاله بكون النسوة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿والقواعد﴾ أي: العجائز ﴿من النساء اللاتي﴾ قعدن عن الحيض والولادة؛ لكبرهن. قال ابن قتيبة: سمين بذلك لأنهن بعد الكبر يكثرن القعود. ويقرب منه من فسرهُ بالقعود عن التصرف للكبر، والظاهر أن قوله: ﴿لا يرجون نكاحاً﴾: نعت مخصص، إن فسر القعود فيها بالقعود عن الحيض والولادة؛ لأنه قد يكون فيها مع ذلك رغبة للرجال. وقد يجعل كاشفاً؛ إذا فسر القعود باستتار الرجال لهن من عزوف النفس عنهن، فقوله: ﴿لا يرجون نكاحاً﴾ أي: لا يطمعن في رغبة الرجال فيهن، ﴿فليس عليهن جناح﴾ في ﴿أن يضعن ثيابهن﴾ أي: الثياب الظاهرة، كالجلباب الذي فوق الخمار ونحوه.

قال ابن عطية: قرأ ابن مسعود وأبي: «أن يضعن من ثيابهن». والعرب تقول: امرأة واضع، للتي كبرت فوضعت خمارها، قال في الحاشية: والآية صادقة بما إذا دخل أجنبى بعد الاستئذان، وبخروجهن أيضاً، ومن التبرج: لبس ما يصف؛ لكونه رقيقاً، أو: شفافاً. هـ.

ثم قيد الرخصة بقوله: ﴿غير متبرجات بزينة﴾ أي: مظهرات زينة، يريد الزينة الخفية، كالشعر والنحر والساق ونحوه، أي: لا يقصدن بوضعهن التبرج وإظهار محاسنها، ولكن التخفيف. وحقيقة التبرج: تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه، من قولهم: سفينة بارجة: لأغطاء عليها، إلا أنه خص بكشف المرأة زينتها أو محل حسناتها للرجال. ﴿وأن يستعففن﴾ أي: يطلبن العفة عن وضع الثياب، فيستترن ﴿خير لهن﴾ من الانكشاف، ﴿والله سميع عليم﴾ أي: سميع ما يجري بينهن وبين الرجال من المقاول، عليم، فيعلم مقاصدهن وسرائرهن في قصد التخفيف أو التبرج، وفيه من الترهيب ما لا يخفى.

الإشارة: إذا كمل تهذيب الإنسان وإخلاصه، ركمل استغناؤه بربه، فلا بأس أن يظهر من أحواله وعلومه ما يقتدى به ويهتدى، ليعم الانتفاع به. فإن خيف منه تهمة فالاستعفاف والاكتفاء بعلم الله خير له. والله سميع عليم.

ثم أسقط الحرج عن الأعمى في الاستئذان، واستطرد معه غيره، ممن اشترك معه في مطلق العذر، وإن اختلف المرخص فيه، فقال:

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا وَأَوْشَتَاتًا...﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ في الدخول من غير استئذان؛ لأنه لا يتوقع منه نظر لما يكره. وكذلك لا حرج عليه فيما لا قدرة له عليه من الجهاد وغيره، ثم استطرد من شاركه في مطلق العذر فقال: ﴿ولا على الأعرج حرج﴾ فيما لا يقدر عليه من الجهاد وغيره، ﴿ولا على المريض حرج﴾ في ذلك. وقال سعيد بن المسيب: كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم، ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم، فكانوا يتخرجون من ذلك، ويقولون: نخشى أن تكون نفوسهم غير طيبة بذلك، فنزلت الآية، رخصة لهم^(١). وقيل: كانوا يتخرجون من الأكل معهم؛ لأن الأعمى لا يبصر الطيب من الطعام، والأعرج لا يستطيع المزاحمة عليه، والمريض لا يستطيع استيقاؤه^(٢). هـ.

﴿ولا على أنفسكم﴾ أي: لا حرج عليكم ﴿أن تأكلوا من بيوتكم﴾ أي: البيت الذي فيه أهل بيتكم؛ أزواجكم وعيالكم، فإذا كان للزوجة أو للولد هناك شيء منسوب إليهما فلا بأس للرجل بأكله؛ لأن الزوجين صاروا كنفس واحدة، فصار بيت المرأة بيت الزوج. وقيل: المراد ببيوتكم: بيوت أولادكم، فجعل بيوت أولادهم بيوتهم؛ لأن ولد الرجل من كسبه، وماله كماله، لقوله عليه الصلاة والسلام: «أنت ومالك لأبيك»^(٣)، ولذلك لم يذكر الأولاد في الآية؛ لاندراجهم في بيوتكم.

- (١) أخرجه الواحدى في أسباب النزول (ص ٣٤٠) عن سعيد بن المسيب، وعزاه في مجمع الزوائد (٨٣/٧) للبخاري، وابن أبي حاتم وابن مردويه، وابن الدجارج، عن السيدة عائشة - رضي الله عنها. وقال الهيثمي: رجال البخاري رجال الصحيح.
- (٢) أخرجه الطبري (١٦٨/١٨) وذكره الواحدى في أسباب النزول (٣٣٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
- (٣) أخرجه، من حديث جابر، ابن ماجه في (التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، ح ٢٢٩١)، وأخرجه من حديث ابن مسعود، الطبراني في الأوسط (٢٢/١ ح ٥٧)، وأخرجه من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، الإمام أحمد في المسند (٢٠٤/٢)، وأبو داود في (البيوع / ح ٣٥٢٨ - ٣٥٢٩)، وابن ماجه في الموضع السابق ذكره (ح/ ٢٢٩٢).

ولا حرج عليكم أيضاً أن تأكلوا من ﴿بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم﴾ الذكور ﴿أو بيوت أخواتكم﴾ النساء، ﴿أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم﴾؛ لأن الإنس من هؤلاء ثابت؛ دلالة. واختلف العلماء في إباحة الأكل من هذه البيوت المذكورة، فقيل: إنه منسوخ وإنه لا يجوز الأكل من بيت أحد إلا بإذنه، والناسخ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ (١)، وقوله - عليه الصلاة والسلام - : «لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ» (٢). وقيل: محكمة، ومعناها: إذا أذنوا في ذلك، وقيل: ولو بغير إذن، والتحقيق: هو التفصيل: فمن علم منه طيب نفسه وفرحه بذلك؛ بقريضة: حَلَّ أَكْلُ مَالِهِ، وَمَنْ لَا؟ فلا.

﴿أو ما ملككم مَفَاتِحُهُ﴾ قال ابن عباس: هو وكيل الرجل وقِيمُهُ فِي ضَيْعَتِهِ وَمَاشِيَتِهِ، له أن يأكل من ثمرة ضيعته، ويشرب من لبن ماشيته. والمراد بملك المفاتيح: كَوْنُهَا فِي يَدِهِ وَتَحْتَ حَوْزِهِ. وقِيْدُهُ ابن العربي بما إذا لم تكن له أجرة، وإن كانت له أجرة على فعله حَرَمٌ، يعنى: إلا إذا علم طيب نفس صاحبه؛ فيدخل في الصديق. وقيل: أريد به بيت عبده؛ لأن العبد وما في يده لمولاه.

﴿أو صَدِيقِكُمْ﴾ أى: أو بيوت أصدقائكم، والصديق يكون واحداً وجمعاً، وهو من يصدقك في مودته وتصدقك في مودتك، يؤلمه ما يؤلمك ويؤلمك ما يؤلمه، ويسرك ما يسره كذلك. وكان الرجل من السلف يدخل دار صديقه وهو غائب، فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ما شاء، فإذا حضر مولاه أعتقها سروراً بذلك، فأما الآن فقد غلب الشح فلا يأكل إلا بإذن. قاله النسفى (٣).

﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً﴾ : مجتمعين ﴿أو أشتاتاً﴾ : متفرقين، جمع شَتَّ، نزلت في بنى ليث بن عمرو، كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده، فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل، فإذا لم يجد من يؤاكله من الضيفان أكل أكل ضرورية. وقيل: في قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاءوا. وقيل: في قوم تخرجوا من الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل، وزيادة بعضهم على بعض، فخيرهم. وقيل: كان الغنى منهم إذا دخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته، ودعاه إلى طعام، فيقول: إني أخرج أن أكل معك، وأنا غنى وأنت فقير، فأباح لهم ذلك. والله تعالى أعلم.

(١) الآية ١٨٨ من سورة البقرة

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٧٢/٥) في حديث خطبة الرباع الطويل، والبيهقى في الكبرى (١٠٠/٦) عن أبى حرة الرشاشى، عن عمه. وأخرجه الديلمى (الفردوس ح ٧٦٣٥) والدارقطنى (٢٦/٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) انظر تفسير النسفى (٥٢٠/٢).

الإشارة: ليس على من عميت بصيرته، فلم ير إلا الكون حرج في أن يقف مع رخص الشريعة، ويتناول كل ما تشتهيه نفسه، مما أباحت الشريعة، من غير تورع ولا توقف ولا تبصر. وكذلك المريض القلب بالخواطر والأوهام، ومن عرجت فكرته عن شهود الملكوت، فلا بأس لهؤلاء الضعفاء أن يقفوا مع العوائد والأسباب، ويتناولوا كل ما أباحت ظواهر الشريعة، وأما الأقوياء فلا يأخذون إلا ما تحققوا حليته، وفهموا عن الله في أخذه وتركه، لفتح بصيرتهم وشدة تبصرهم.

وقال الورتجبي في قوله: «ليس على الأعمى حرج»: عماء الحقيقي ألا يطيق أن ينظر بطون الأزل والغيب رغيب الغيب. وهذا من قوله - عليه الصلاة والسلام - في وصف جمال الحق سبحانه: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». فجعله معذوراً ألا يدرك حق الحقيقة وحقيقة الحق؛ إذ استحيل الحدث أن يحيط بالقدم أن كان واجباً معرفة الكل من حيث الحقوق لا من حيث التوحيد. هـ. ومراده ببطون الأزل: تجلياته تعالى، البارزة من وسط بحر جبروته الغيبي، وهي المراد بالغيب وغيب الغيب، فالأكوان كلها برزت من بحر الذات الأزلية والكلز الغيبي، لكنها، لما تجلت، كستها رداء الكبرياء، فمن فتحت بصيرته رأى الحق تعالى فيها، أو قبلها، أو معها، ومن عميت بصيرته لم ير إلا حص الأكوان الظلمانية. والله تعالى أعلم.

ومذهب الصوفية في تناول متاع بعضهم بعضاً هو ما قال القائل: «نحن: لا مال مقسوم، ولا سر مكتوم، ففركتهم لا تقسم أبداً». دخل الجديد بيت بعض إخوانه، فوجد زوجته، فقال: هل عندك شيء نطعم به الفقراء؟ فأشارت إلى وعاء فيه تمر، لا يملك غيره، فأفرغه على رأسه، فأكلوا، وأخذوا ما بقي، فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك، فقال: الآن علمت أنه يحبني.

ثم أمر بالسلاسل بعد الاستئذان، فقال:

﴿... فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فإذا دخلتم بيوتا﴾ من البيوت المذكورة أو غيرها بعد الإذن، ﴿فسلموا على أنفسكم﴾ أي: فابدأوا بالسلاسل على أهلها، الذين هم منكم، الذين هم بمنزلة أنفسكم؛ لما بينكم وبينهم من القرابة

الدينية أو النسبية. أو بيوتاً فارغة، أو مسجداً، بأن تقولوا: السلام عليكم، أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، إن كانت خاوية. ﴿تَحِيَّةٌ﴾، مَنْ نَصَبَ فَعَلَى الْمَصْدَرِ لِسَلَامٍ؛ لأنها في معنى تسليماً، ﴿مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى: بأمره مشروعة من لدنه، أو لأنها طلب للسلامة، وهى بيد الله، ﴿مُبَارَكَةٌ﴾: مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامهما، ﴿طَيِّبَةٌ﴾: تطيب بها نفس المستمع. وعن أنس رضي الله عنه أنه - عليه الصلاة والسلام - قال: «من لقيت أحداً من أمتي فسلم عليه، يطلُّ عمرُكَ. وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خيرُ بيتك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين» (١).

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾، تكرير؛ لتأكيد الأحكام المختتمة وتفخيمها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: لكى تعقلوا ما فى تضاعيفها من الشرائع والأحكام، وتعملوا بموجبها، فتفوزوا بسعادة الدارين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: السلام على النفس: هو طلب الأمان لها ومنها، فإذا سلمت النفس من موجبات الغضب من الله، سلم صاحبها منها، قال القشيري: السلام: الأمان، فسبيل المؤمن إذا دخل بيتاً أن يسلم من الله على نفسه، يعنى: بأن يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وأن يطلب السلامة والأمان من الله تعالى، ليسلم نفسه من الإقدام على ما لا يرضى الله، إذ لا يحل لمسلم أن يفتّر لحظة عن الاستجارة بالله، بأن لا يرفع عنه ظل عصمته بإدامة حفظه من الانتصاف بمكروه الشرع. هـ.

ولما تكلم على الاستئذان فى الدخول، تكلم على الاستئذان فى الخروج، إذا كان مع كبير القوم، فقال:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، إنما ذكر الإيمان بالله ورسوله فى حيز الصلة للموصول الواقع خبراً للمبتدأ، مع تضمينه له؛ تقريراً لما قبله، وتمهيداً لما بعده، وإيضاحاً بأن ما بعده حقيق بأن يجعل قريباً للإيمان بهما ومنتظماً فى سلكه.

(١) أخرجه مطرلاً، البيهقى فى شعب الإيمان (ح ٨٧٥٨)، وزاد المداوى عزوه فى الفتح السمارى (٨٧٩/٢) للعلبى والجرجانى فى تاريخ جرجان، ومسلده ضعيف.

﴿ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ : عَطَفَ عَلَى (آمَنُوا) ، دَاخِلٌ فِي حَيْزِ الصَّلَاةِ ، أَيْ : إِنَّمَا الْكَامِلُونَ فِي الْإِيمَانِ : الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ عَنْ صَمِيمِ قُلُوبِهِمْ ، وَأَطَاعُوهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْكَامِ وَالْأَحْوَالِ الْمَطْرُودَةِ الْوُقُوعِ ، وَالْأَحْوَالِ الرَّاقِعَةِ بِحَسَبِ الْإِتِّفَاقِ ، كَمَا إِذَا كَانُوا مَعَهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - عَلَى أَمْرٍ مُهِمٍّ يَجِبُ الْاجْتِمَاعُ فِي شَأْنِهِ ؛ كَالْجُمُعَةِ ، وَالْأَعْيَادِ ، وَالْجِهَادِ ، وَتَدْرِيبِ الْحُرُوبِ ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْأُمُورِ الدَّاعِيَةِ إِلَى الْاجْتِمَاعِ ، ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ ، وَيَأْذِنُ لَهُمْ ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ يَقُومُ بِدُونِهِمْ ، لِيَتَمَيَّزَ الْمَخْلَصُ مِنَ الْمُنَافِقِ ، فَإِنْ دَبَّدَنَهُ التَّسَلُّ لِلْفِرَارِ ، وَلِتَعْظِيمِ الْجُرْمِ ؛ لَمَّا فِي الذَّهَابِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ ﷺ مِنَ الْخِيَانَةِ .

وَلَمَّا أَرَادَ الْحَقُّ تَعَالَى أَنْ يُرِيَهُمْ عِظَمَ الْجَنَائِدِ فِي ذَهَابِ الذَّاهِبِ عَنْ مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِغَيْرِ إِذْنِهِ ، إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ، جَعَلَ تَرْكَ ذَهَابِهِمْ وَالصَّبْرَ مَعَهُ ، حَتَّى يَأْذِنَ لَهُمْ : ثَالِثُ الْإِيمَانِ ، وَجَعَلَ الْإِيمَانَ بِرَسُولِهِ كَالسَّبَبِ لَهُ ، وَالْبَسَاطَ لَذِكْرِهِ ، وَذَلِكَ مَعَ تَصْدِيرِ الْجُمْلَةِ بِـ « إِنَّمَا » ، ثُمَّ عَقَبَهُ بِمَا يَزِيدُهُ تَوْكِيداً وَتَشْدِيداً ؛ حَيْثُ أَعَادَهُ عَلَى أَسْلُوبٍ آخَرَ ، فَقَالَ : ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، فَقَضَى بِأَنَّ الْمُسْتَأْذِنِينَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ خَاصَّةً . وَفِي « أُولَئِكَ » : مِنْ تَفْخِيمِ الْمُسْتَأْذِنِينَ ، مَا لَا يَخْفَى ، ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ ﴾ فِي الْإِنْصِرَافِ ﴿ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ أَيْ : أَمْرِهِمُ الْمُهْمِّ وَخُطْبَتِهِمُ الْعَلَمِ . ﴿ فَأَذَّنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ لَمَّا عَلِمْتَ فِي ذَلِكَ مِنْ مَصْلَحَةٍ وَحِكْمَةٍ .

وَهَذَا بَيَانٌ لِمَا هُوَ وَظِيفَتُهُ ﷺ فِي هَذَا الْبَابِ ، إِثْرُ بَيَانِ مَا هُوَ وَظِيفَةُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّ الْإِذْنَ مِنْهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَيْسَ بِأَمْرٍ مُحْتَوٍّ ، بَلْ هُوَ مَفُوضٌ إِلَى رَأْيِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَفِيهِ مِنْ رَفْعِ شَأْنِهِ ﷺ مَا لَا يَخْفَى . وَالْفَاءُ : لِتَرْتِيبِ مَا بَعْدَهَا عَلَى مَا قَبْلُهَا ، أَيْ : بَعْدَمَا تَحَقَّقَ أَنَّ الْكَامِلِينَ فِي الْإِيمَانِ هُمُ الْمُسْتَأْذِنُونَ .

﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَّنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ ﴾ ، فَإِنَّ الاسْتِئْذَانَ ، وَإِنْ كَانَ لِعَذْرِ ، فَقَدْ لَا يَخْلُو مِنْ شَائِبَةِ تَقْدِيمِ أَمْرِ الدُّنْيَا عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ ، فَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّبْرَ وَتَرْكَ الاسْتِئْذَانَ أَفْضَلُ . ﴿ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ؛ مَبَالِغٌ فِي غَفْرَانِ فَرَطَاتِ الْعِبَادِ ، وَفِي إِفَاضَةِ آثَارِ الرَّحْمَةِ عَلَيْهِمْ .

وَمَا ذَكَرَهُ الْحَقُّ تَعَالَى فِي شَأْنِ الصَّحَابَةِ مَعَ الرَّسُولِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فِي شَأْنِ الاسْتِئْذَانِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ مَعَ أُنْمَتِهِمْ وَمَقْدَمِيهِمْ فِي الْعِلْمِ وَالْدِّينِ ، لَا يَتَفَرَّقُونَ عَنْهُمْ إِلَّا بِإِذْنِ . وَالْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الْخَنْدَقِ ، كَانَ الْمُنَافِقُونَ يَرْجِعُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ ، فَنَزَلَتْ (١) . وَبَقِيَ حُكْمُهَا عَاماً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

(١) عزاء السيوطي في الدر المنثور (٥/١١٠) لابن إسحاق وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، عن عروة ومحمد بن كعب القرظي .

الإشارة: من آداب الفقراء مع شيخهم ألا يتحركوا لأمر إلا بإذنه، أما أهل البدايات فيستأذنون في الجليل والحقير، كقضية الفقير الذي وجد بعض الباقلاء - أي: الفول - في الطريق، فأتى بها إلى الشيخ، فقال: يا سيدى ما نفعل به؟ فقال: اتركه، حتى تفطر عليه، فقال بعض الحاضرين: يستأذك في الباقلاء؟ فقال: لو خالفنى فى أمر؛ لم يفلح أبداً. وأما أهل النهايات الذين عرفوا الطريق، واستشرفوا على عين التحقيق، وحصلوا على مقام الفهم عن الله، فلا يستأذنون إلا فى الأمر المهم؛ كالتزوج، والحج، ونحوهما. وصبره حتى يأمره الشيخ بذلك أولى، فالمرید، بقدر ما يترك تدبيره مع الشيخ، ويتحقق بالتفويض معه قبل الوصول، كذلك يتركه ويتحقق تفويضه مع الله بعد الوصول.

فالأدب مع الشيخ هو الأدب مع الله، لكن لما كان من شأن العبد الجهل بالله وسوء الأدب معه أمره بالتحكيم لغيره من جنسه، فإذا حكم جنسه على نفسه قبل المعرفة حكم الله على نفسه بعد المعرفة. والتحكيم فى غاية الصعوبة على النفس، لا يرضاها إلا من سبقت له الهداية، وجذبتة جواذب العناية، أعنى الدخول تحت الشيخ وتحكيمه على نفسه، حتى لا يتحرك إلا بإذنه، فهذا سبب الوصول إلى مقام الشهود والعيان، فإذا فعل المرید شيئاً من غير استئذان فليتب وليطلب من الشيخ الاستغفار له. وينبغى للشيخ أن يقبل العذر ويسامح ويستغفر له، لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فالخليفة لرسول الله قائم مقامه، ونائب عنه فى رتبة التربية. والله تعالى أعلم.

ثم نهاهم عن التساهل فى ترك الاستئذان، فقال:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ الْآيَاتِ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٦٤ ﴿

يقول الحق جل جلاله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أى: إذا احتاج الرسول ﷺ إلى اجتماعكم لأمر جامع، فدعاكم، فلا تتفرقوا عنه إلا بإذنه، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم

بعضاً، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الراعي؛ لأن أمره - عليه الصلاة والسلام - شأنه ليس كشأنكم. أو: لاتجعلوا دعاء الرسول على أحد، كدعاء بعضكم بعضاً، فإن غضبه عليه ليس كغضبكم؛ لأن غضبه غضب الله، ودعاؤه مستجاب. وهذا يناسب ما قبله من جهة التحذير عن ترك الاستئذان، فإن من رجع بغير استئذان معرض لغضبه - عليه الصلاة والسلام - ودعائه عليه. أو: لاتجعلوا نداءه ﷺ كنداء بعضكم بعضاً؛ كندائه باسمه، ورفع الصوت عليه، وندائه من وراء الحُجرات، ولكن بَلْقَبِهِ المعظم؛ يارسول الله، يانبي الله، مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت.

قال القشيري: أي: عَظَّمُوهُ في الخطاب، واحفظوا حرمة وخدمته بالأدب، وعانقوا طاعته على مراعاة الهيبة والتوقير. هـ. فالإضافة، على الأولين؛ للفاعل، وعلى الثالث؛ للمفعول، لكنه بعيد من المناسبة لما قبله ولما بعده في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ أي: يخرجون قليلاً قليلاً على خفية منكم، ﴿لَوْ أَدَّا﴾ أي: ملاوذين، بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج، أو يلوذ بمن يخرج بالإذن؛ إراءة أنه من أتباعه. أو مصدر، أي: يلوذون لوأذاً. واللواذ: الملاوذة، وهي التعلق بالغير، وهو أن يلوذ هذا بهذا في أمر، أي: يتسللون عن الجماعة؛ خفية، على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض.

ثم هددهم على المخالفة بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: الذين يصدون عن أمره، يقال: خالفه إلى الأمر: إذا ذهب إليه دونه، ومنه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالَفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ﴾ (١)، وخالفه عن الأمر: إذا صد عنه. والضمير: إما لله سبحانه، أو للرسول - عليه الصلاة والسلام -، وهو أنسب؛ لأنه المقصود بالذكر. والمعنى: فليحذر الذين يخالفون عن طاعته ودينه وسنته، ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ محنة في الدنيا؛ كقتل أو زلازل وأهوال، أو تسلط سلطان جائر، أو عدو، أو قسوة قلب، أو كثرة دنيا؛ استدراجاً وفتنة.

قال القشيري: سعادة الدارين في متابعة السنة، وشقاوتيهما في مخالفتها، ومما يصيب من خالفها: سقوط حشمة الدين عن القلب. هـ.

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. والآية تدل على أن الأمر للإيجاب، وكلمة «أو»: لمنع الخلو، دون منع الجمع. وإعادة الفعل صريحاً؛ للاعتناء بالتهديد والتحذير.

(١) من الآية ٨٨ من سورة هود.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الموجودات، خلقاً وملكاً وتصرفاً، وإيجاداً وإعداماً، بدءاً وإعادةً، والآء: تنبيه على أن لا يخالفوا من له ما في السموات والأرض. ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون، من الأحوال والأوضاع، التي من جملتها الموافقة والمخالفة، والإخلاص والنفاق. وأدخل «قد» ليؤكد علمه بما هم عليه، ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد. والمعنى: أن جميع ما استقر في السموات تحت ملكه وسلطانه وإحاطة علمه، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين، وإن اجتهدوا في سترها؟ ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ويعلم يوم يُردون إلى جزائه، وهو يوم القيامة. والخطاب والغيبة في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يجوز أن يكون للمنافقين، على طريق الالتفات، ويجوز أن يكون «ما أنتم عليه» عاماً، و«يرجعون» للمنافقين. ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ﴾ حينئذ ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الأعمال السيئة، التي من جملتها: مخالفة الأمر، ليرتب على ذلك الإنباء ما يليق به من التوبيخ والجزاء.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. روى عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه قرأ سورة النور على المنبر في الموسم، وفسرها على وجه لو سمعته الروم لأسلمت. هـ. وأما ما ورد في فضل السور فموضوع، وقد غلط من ذكره من المفسرين. وبالله التوفيق.

الإشارة: شيوخ التربية خلفاء الرسول ﷺ في القيام بالتربية النبوية، فيجب امتثال كل ما أمروا به، واجتناب كل ما نهوا عنه، فهم معناه أو لم يفهم. فإذا كانوا مجموعين على أمر جامع لم يذهب أحد حتى يستأذن شيخه، ولا يكفي إذن بعض الفقهاء، إلا إن وجهه الشيخ لذلك، فلا يكون دعاء الشيخ كدعاء بعضكم بعضاً في التساهل في مخالفة أمره، أو امتثال أمره. قد يعلم الله الذين يتسللون، فيفرون عنه، لو أدأ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة؛ كتسليط الدنيا عليه فتفتنه وتنسخ حلاوة الشهود من قلبه، أو يصيبهم عذاب أليم، وهو السلب بعد العطاء، والعياذ بالله من الزلل ومواقع الضلال. نسأل الله تعالى أن يثبت قدمنا على المنهاج الحق، وأن يميئتنا على المحبة والتعظيم، ورسوخ القدم في معرفة الرحمن الرحيم. آمين. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، النبي الكريم، وعلى آله وصحبه، وسلم.



سُورَةُ الْفُرْقَانِ

مكية . وهي سبع وسبعون آية . ومناسبتها لما قبلها : ما في خاتمها من تعظيم الرسول - عليه الصلاة والسلام - وما افتتحت به من تعظيمه أيضاً ؛ لكونه نذيراً للعالمين . وناسب قوله في هذه : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ ، قوله فيما قبلها : ﴿ ألا إن لله ما في السموات والأرض ﴾ (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ تبارك ﴾ أى : تكاثر خيره وتزايد ، أو : دام واتصل . وهى كلمة تعظيم لم تستعمل إلا لله ، والمستعمل منها الماضى فقط ، والتفاعل فيها للمبالغة . ومعناها راجع إلى ما يفيض سبحانه على مخلوقاته من فنون الخيرات ، التى من جعلتها : تنزيل القرآن ، المنطوى على جميع الخيرات الدنيوية والدينية ، أى : تعظم ﴿ الذى نزل الفرقان ﴾ أى : القرآن ، مصدر فرق بين اثنين ، إذا فصل بينهما . سمي به القرآن ؛ لفصله بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، أو : لأنه لم ينزل جملة ، ولكن مفروقاً مفصلاً بين أجزائه شيئاً فشيئاً ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ ﴾ (٢) ؟

أنزله ﴿ على عبده ﴾ محمد ﷺ ، وإيراده - عليه الصلاة والسلام - بذلك العنوان ؛ لتبشيره ، والإيذان بكونه فى أقصى مراتب العبودية ، والتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبداً للمرسل ؛ رداً على النصارى . أنزله ﴿ ليكون ﴾ العبد المنزل عليه ، أو الفرقان ﴿ للعالمين ﴾ من الثقلين ، زاد بعضهم : والملائكة ، أرسل إليهم ليتأدبوا بأدبه ، حيث لم يقف مع مقام ولا حال ، ويقتبسوا من أنواره ، وهو حكمة الإسراء ، وقيل : حتى إلى الحيوانات والجمادات ، أمرت بطاعته فيما يأمرها به ، ويتعظيمه - عليه الصلاة والسلام - . وهذا كله داخل فى العالمين ؛ لأن ما سوى الله كله عالم ؛ كما تقدم فى الفاتحة . وعموم الرسالة من خصائصه - عليه الصلاة والسلام - . ﴿ نذيراً ﴾ أى : مخوفاً ، وعدم التعرض للتبشير ؛ لأن الكلام مسوق لأحوال الكفرة ، ولا بشارة لهم .

(١) الآية الأخيرة من سورة النور .

(٢) من الآية ١٠٦ من سورة الإسراء .

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: له، خاصةً، دون غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً. فالقهرية لازمة لهما، المستلزمة للقدرة التامة والتصرف الكلى، إيجاباً وإعداماً، وإحياء وإماتة، وأمرًا ونهيًا، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعم اليهود والنصارى فى عزيز والمسيح - عليهما السلام -، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ كما زعمت الثنوية القائلون بتعدد الآلهة، والرد فى نحورهم.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أى: أحدث كل شيء وحده، لا كما تقول المجوس والثنوية من الدور والظلمة. أى: أظهر كل شيء ﴿فَقَدَرَهُ﴾ أى: فهيأه لما أراد به من الخصائص والأفعال اللائقة به، ﴿تَقْدِيرًا﴾ بديعاً، لا يقادر قدره، ولا يبلغ كنهه؛ كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك، والنظر والتدبير فى أمور المعاش والمعاد، واستنباط الصنائع المتنوعة، والدلائل المختلفة، على وجود الصانع. أو: فقدره للبقاء إلى أبد معلوم. وأياً ما كان، فالجملة تعليل لما قبلها، فإن خلقه تعالى لجميع الأشياء على ذلك الشكل البديع والنظام الرائق، وكل ما سواه تحت قهره وسلطانه، كيف يتوهم أنه ولد لله سبحانه، أو شريك له فى ملكه. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الإشارة: عبّر بالعبودية فى التنزيل والإسراء؛ إشارة إلى أن كل من تحقق بالعبودية الكاملة له حظ من تنزيل الفرقان على قلبه، حتى يفرق بين الحق والباطل، وحظ من الإسراء بروحه إلى عالم الملكوت والجبروت، حتى يعاين عجائب أسرار ربه. وما منع الناس من تنزيل العلوم الدنية على قلوبهم، ومن العروج بروحهم، إلا عدم التحقق بالعبودية الكاملة لربهم، حتى يكونوا مع مراده، لا مع مرادهم، لا يريدون إلا ما أراد، ولا يشتهون إلا ما يقضى، قد تحرروا من رق الأشياء، واتحدت عبديتهم للواحد الأعلى. فإذا كانوا كذلك صاروا خلفاء الأنبياء، يعرج بأرواحهم، ويوحى إلى قلوبهم ما يفرقون به بين الحق والباطل، ليكونوا نذراً لعالمى زمانه؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (١). وبالله التوفيق.

ثم ردّ على أهل الشرك، فقال:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ
لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوَةً وَلَا نُشُورًا﴾ (٣)

(١) الآية ٢٤ من سورة فاطر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واتخذوا ﴾ أى: الكفار المدرجون تحت العالمين المنذرين، اتخذوا لأنفسهم ﴿ من دونه ﴾ تعالى ﴿ آلهة ﴾ أصناماً، يعبدونها ويستعينون بها، وهم ﴿ لا يَخْلُقُونَ شيئاً ﴾ أى: لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء، ﴿ وهم يُخْلَقُونَ ﴾ كسائر المخلوقات. والمعنى: أنهم آثروا على عبادة من هو منفرد بالآلوهية والخلق، والملك والتقدير، عبادة عجزه، لا يقدرون على خلق شيء، وهم مخلوقون ومصورون. ﴿ ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ﴾ أى: لا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها، ولا جلب نفع لها. وهذا بيان لغاية عجزهم وضعفهم؛ فإن بعض المخلوقين ربما يملك دفع ضرر وجلب نفع فى الجملة، وهؤلاء لا يقدرون على شيء البتة، فكيف يملكون نفع من عبدهم، أو ضرر من لم يعبدهم؟

﴿ ولا يملكون موتاً ﴾ أى: إماتة ﴿ ولا حياة ﴾ أى: إحياء ﴿ ولا نشوراً ﴾، بعثاً بعد الموت، أى: لا يقدرون على إماتة حي، ولا نفخ الروح فى ميت، ولا بعث للحساب والعقاب. والإله يجب أن يكون قادراً على جميع ذلك. وفيه إيذان بغاية جهلهم، وسخافة عقولهم، كأنهم غير عارفين بانتفاء ما نفى عن آلهتهم مما ذكر، مفتقرون إلى التصريح لهم بها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من ركن إلى غير الله، أو مال بمحبته إلى شيء سواه، فقد اتخذ من دونه إلهاً يعبد من دون الله. وكل من رفع حاجته إلى غير مولاه، فقد خاب مطلبه ومسعاه؛ لأنه تعلق بعاجز ضعيف، لا يقدر على نفع نفسه، فكيف ينفع غيره؟ وفى الحكم: لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليكم، فكيف ترفع إلى غيره ما كان هو له رافعاً؟ من لا يستطيع أن يرفع حاجته عن نفسه، فكيف يكرن لها عن غيره رافعاً؟.

قال بعض الحكماء: من اعتمد على غير الله فهو فى غرور؛ لأن الغرور ما لا يدوم، ولا يدوم شيء سواه، وهو الدائم القديم، لم يزل ولا يزال، وعطاؤه وفضله دائماً، فلا تعتمد إلا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء، فى كل نفس وحين وأوان وزمان. هـ. وقال وهب بن منبه: أوحى الله تعالى إلى داود: يا داود؛ أما وعزتى وجلالى وعظمتى لا ينتصر بى عبد من عبادى ذن خلقى، أعلم ذلك من نيته، فتكيد السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له منهن فرجاً ومخرجاً. أما وعزتى وجلالى لا يعتصم عبد من عبادى بمخلوق دونى، أعلم ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السموات من يده، وأسخت الأرض من تحته، ولا أبالى فى أى وادٍ هلك. هـ. وبالله التوفيق.

ولما ذكر شأن الفرقان، ذكر من طعن فيه وفيمن نزل عليه، فقال:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ
فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا ﴾ ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِبَ عَلَيْهَا فِي تَمَلَّى

عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذين كفروا﴾ أي: تمردوا في الكفر والطغيان. قيل: هم النضر ابن الحارث، وعبد الله بن أمية، ونوفل بن خويلد، ومن ضاهاهم. وقيل: النضر فقط، والجمع؛ لمشايعة الباقيين له في ذلك. قالوا: ﴿إن هذا﴾؛ ما هذا القرآن ﴿إلا إفك﴾؛ كذب مصروف عن وجهه ﴿افتراه﴾؛ اختلقه واخترعه محمد من عند نفسه، ﴿وأعانه عليه﴾ أي: على اختلاقه ﴿قوم آخرون﴾، يعنون: اليهود، بأن يلقوا إليه أخبار الأمم الدارسة، وهو يعبر عنها بعبارته. وقيل: هم عداس، ويسار (١)، وأبو فكيهة الرومي، كان لهم علم بالتوراة والإنجيل. ويحتمل: وأعانه على إظهاره وإشاعته قوم آخرون، ممن أسلم معه ﷺ.

قال تعالى: ﴿فقد جاءوا﴾، وأتوا ﴿ظلمًا﴾ أو: بظلم، فقد تستعمل (جاء) بمعنى فعل، فتتعدى تعديته، أو بحرف الجر، والتتوين للتفخيم، أي: جاءوا ظلمًا هائلًا عظيمًا؛ حيث جعلوا الحق البين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إفكًا مفترى من قول البشر، وجعلوا العربي الفصيح يتلقى من العجمي الرومي، وهو من جهة نظمه الفائق وطرازه الرائق؛ لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته لعجزوا عن مثل آية من آياته. ومن جهة اشتماله على الحكم العجيبة، المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية، والأمور الغيبية، بحيث لا يناله عقول البشر، ولا تفي بفهمه الفهوم، ولو استعملوا غاية القوى والقدر. ﴿و﴾ أتوا أيضًا ﴿زورًا﴾ أي: كذبًا كثيرًا، لا يبلغ غايته؛ حيث نسبوا إليه ﷺ ما هو بربىء منه.

﴿وقالوا أساطير الأولين﴾ أي: هو أحاديث المتقدمين، وما سطره من خرافاتهم؛ كرسنم وغيره. جمع أسطار، أو: أسطورة، ﴿اكتبها﴾؛ كتبها لنفسه، أو: استكتبها فكتبت له، ﴿فهى تملى عليه﴾ أي: تلقى عليه من كذابه ﴿بكرة﴾: أول النهار ﴿وأصيلًا﴾؛ آخره، فيحفظ ما ينلى عليه ثم يتلوه علينا. انظر هذه الجرأة العظيمة، قاتلهم الله، أنى يؤفكون؟

(١) في الأصول: سيار.

﴿ قل ﴾ يا محمد: ﴿ أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ﴾ أي: يعلم كل سر خفي في السموات والأرض، يعني: أن القرآن، لما اشتمل على علم الغيوب، التي يستحيل عادة أن يعلمها محمد ﷺ من غير تعلم إلهي، دل على أنه من عند علام الغيوب، أي: ليس ذلك مما يُفترى ويخلق، بإعانة قوم، وكتابة آخرين؛ من الأحاديث والأساطير المتقدمة، بل هو أمر سماوي، أنزله الذي لا يعزب عن علمه شيء، أودع فيه فنون الحكم والأحكام، على وجه بديع، لا تحوم حوله الأفهام، حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته، وأخبركم بأمور مغيبات، وأسرار مكتونات، لا يهتدي إليها ولا يوقف عليها إلا بتوقيف العليم الخبير، ثم جعلتموه إفكاً مفترى، واستوجبتم بذلك أن يصب عليكم العذاب صباً، لولا حلمه ورحمته، ﴿ إنه كان غفوراً رحيماً ﴾؛ فأهلكم، ولم يعاجلكم بالعقوبة. وهو تعليل لما هو المشاهد من تأخير العقوبة عنهم، أي: كان أزلاً وأبداً مستمراً على المغفرة والرحمة، فلذلك لم يعاجلكم بالعقوبة على ما تقولون في حقه وفي حق رسوله، مع كمال اقتداره.

ثم ذكر طعنهم فيمن نزل عليه، فقال: ﴿ وقالوا مال هذا الرسول ﴾ وقعت اللام في المصحف مفصولة عن الهاء، وخط المصحف سنة لا يغير. وتسميتهم إياه بالرسول سخرية منهم، كأنهم قالوا: أي شيء لهذا الزاعم أنه رسول؛ يأكل الطعام كما تأكلون، ويمشي في الأسواق لا ابتغاء الأرزاق كما تمشون، أي: إن صح ما يدعيه فما له لم يخالف حالنا؟! ﴿ لولا أنزل إليه ملك ﴾ على صورته ﴿ فيكون معه نذيراً ﴾، وهذا منهم تنزل عن اقتراح كونه ﷺ ملكاً مستغنياً عن المادة الحسية، إلى اقتراح أن يكون معه ملك يصدق، ويكون ردهاً له في الإنذار، ويعبر عنه، ويفسر ما يقوله للعامة.

﴿ أو يلقى إليه كنز ﴾ من السماء، يستغنى به عن طلب المعاش معداً، ﴿ أو تكون له جنة ﴾؛ بستان ﴿ يأكل منها ﴾ كالأغنياء المياسير. والحاصل: أنهم أول مرة ادعوا أن الرسول لا يكون إلا كالملائكة، مستغنياً عن الطعام والشراب، وتعجبوا من كون الرسول بشراً، ثم تنزلوا إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملك يصدق ويعينه على الإنذار، ثم تنزلوا إلى اقتراح أن يكون معه كنز، يستظهر به على نوابه، ثم تنزلوا إلى اقتراح أن يكون رجلاً له بستان يأكل منه، كالمياسير، أو نأكل نحن منه، على قراءة حمزة والكسائي.

قال تعالى: ﴿ وقال الظالمون ﴾ وهم الكفرة القائلون ما تقدم، غير أنه وضع الظاهر موضع المضمّر، تسجيلاً عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيه. وهم كفار قريش، أي: قالوا للمؤمنين: ﴿ إن تبعون ﴾؛ ما تتبعون ﴿ إلا رجلاً مسحوراً ﴾؛ قد سحر فغلب على عقله، ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ أي: انظر كيف قالوا في حقك تلك الأقاويل العجيبة، الخارجة عن العقول، الجارية لغرابيتها، مجرى الأمثال، واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال الشاذة، البعيدة عن الوقوع ١٩ ﴿ فضلوا ﴾ عن طريق الجادة ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾؛ فلا يجدون طريقاً إليه، أو: فلا يجدون سبيلاً إلى القدر في نبوتك، بأن يجدوا قولاً يستقرون عليه، أو: فضلوا عن الحق ضلالاً مبيناً، فلا

يجدون طريقاً موثقاً إليه، فإن من اعتاد استعمال هذه الأباطيل لا يكاد يهتدى إلى استعمال المقدمات الموصلة إلى الرشد والصواب. وبالله التوفيق.

الإشارة: تكذيب الصادقين سنة ماضية، فإن سمع أهل الإنكار منهم علوماً وأسراراً قالوا: ليست من فيضه، إنما نقلها عن غيره، وأعاناه على إظهارها قوم آخرون، قل: أنزلها على قلوبهم الذي يعلم السر في السماوات والأرض، إنه كان غفوراً رحيمًا، حيث ستر وصفهم بوصفه ونعتهم بنعته، فوصلهم بما منه إليهم، لا بما منهم إليه. وقوله تعالى: «مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق»، أنكروا وجود الخصوصية مع وصف البشرية، ولا يلزم من وجود الخصوصية عدم وصف البشرية، كما تقدم مراراً. والله تعالى أعلم.

ثم رد الله تعالى عليهم، فقال:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ۝١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَا أَلْقَاوْهَا مِنْ مَّكَانٍ آخَرَ تَصِيقًا مُّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤ قُلْ أَدْرَأَيْكُمْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا ۝١٥ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُورًا ۝١٦﴾

قلت: (جنات): بدل من خيراً، و(يجعل)، من جزمه عطفه على محل جواب الشرط، ومن رفعه فعلى الاستئناف، أى: وهو يجعل لك قصوراً، ويجوز عطفه على الجواب، لأن الشرط إذا كان ماضياً جاز فى الجواب الرفع والجزم، كما هو مقرر فى محله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ تبارك ﴾ أى: تكاثر وتزايد خيره ﴿ الذى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ ﴾ فى الدنيا ﴿ خيراً ﴾ لك ﴿ من ذلك ﴾ الذى اقترحوه؛ من أن يكون لك جنة تأكل منها؛ بأن يجعل لك مثل ما وعدك فى الجنة، ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾، فإنه خير من جنة واحدة من غير أنهار، كما اقترحوا، ﴿ ويجعل لك

قصوراً ﴿ ١٠ ﴾ وغرفاً في الدنيا، كقصور الآخرة، لكن لم يشأ ذلك؛ لأن الدنيا لا تسع ما يعطيه تعالى لخواص أحبائه في الآخرة؛ لأنها ضيقة الزمان والمكان.

وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الأولين، وهو إنزال الملك وإلقاء الكنز؛ لظهور بطلانها ومنافاتها للحكمة التشريعية، وإنما الذي له وجه في الجملة هو الاقتراح الأخير؛ فإنه غير مناف للحكمة بالكلية، فإن بعض الأنبياء - عليهم السلام - قد أوتوا مع النبوة ملكاً عظيماً، لكنه نادر.

ثم أضرب عن توبيخهم بحكاية جنائياتهم السابقة، وانتقل إلى توبيخهم بحكاية جنائية أخرى، فقَالَ: ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ أي: بل أتوا بأعجب من ذلك كله، وهو تكذيبهم بالساعة. ويحتمل أن يكون متصلاً بما قبله، كأنه قال: بل كذبوا بالساعة، وكيف يلتفتون إلى هذا الجواب، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة، وهم لا يؤمنون بها؟ ثم تخلص إلى وبال من كذب بها، فقال: ﴿ وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ أي: وهبنا للمكذبين بها ناراً شديدة الإسعار، أي: الاشتعال. ووضع الموصول موضع ضمير «هم»، أي: لكل من كذب بها كائناً من كان، ويدخلون هم في زميرهم دخولاً أولياً. ووضع الساعة موضع ضميرها؛ للمبالغة في التشنيع.

﴿ إذا رأتهم ﴾ أي: النار، أي: قابلتهم ﴿ من مكان بعيد ﴾، بأن كانت منهم بمرأى للناظرين في البعد، كقوله ﷺ في شأن المؤمن والكافر: «لا تترأى ناراهما» (١)، أي: لا يتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى. ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ أي: سمعوا صوت غليانها. شبه ذلك بصوت المتغيظ والزفير، وهو صوت من جوفه. ولا يبعد أن يخلق الله فيها الإدراك فتتغيظ وتزفر. وقيل: إن ذلك من زيانتها، نسب إليها، وهو بعيد.

﴿ وإذا ألقوا منها ﴾ من النار ﴿ مكاناً ضيقاً ﴾ أي: في مكان ضيق؛ لأن الكرب يعظم مع الضيق، كما أن الروح يعظم مع السعة، وهو السر في وصف الجنة بأن عرضها السماوات والأرض. وعن ابن عباس وابن عمر - رضي الله عنهما: (تضيق جهنم عليهم، كما يضيق الزج^(٢) على الرمح). وسئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «والذي نفسي بيده إنهم ليُسْتَكْرَهون في النار كما يُسْتَكْرَه الترد في الحائط» - حال كونهم ﴿ مقرنين ﴾ أي: مسلسلين، أي: مقرنين في السلاسل، قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. أو: يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة، وفي أرجلهم الأصفاد. فإذا ألقوا في الضيق، على هذا الوصف، ﴿ دَعُوا هُنَالِكَ ﴾ أي: في ذلك المكان الهائل والحالة الفظيعة، ﴿ ثُبُوراً ﴾ أي: هلاكاً، بأن يقولوا: واثيراه؛ هذا حينك فتعال، فيتمنون الهلاك ليستريحوا، فيقال لهم: ﴿ لا تدعوا اليوم ثُبُوراً واحداً وادعوا ثُبُوراً كثيراً ﴾ أي: لا تدعوا بالهلاك على أنفسكم مرة واحدة،

(١) سبق تخريجه عند تفسير الآية ٥٢ من سورة المائدة.

(٢) الزج: الحديد التي تتركب في أسفل الرمح... اللسان (رجح، ٣/١٨١١).

ودعاءً واحداً، بل ادعوا دعاءً متعددًا بأدعية كثيرة، فإن ما أنتم عليه من العذاب، لغاية شدته وطول مدته، مستوجب لتكرار الدعاء في كل أوان. وهو يدل على فظاعة العذاب وهوله.

وأما ما قيل من أن المعنى: إنكم وقعتُم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً، وإنما هو ثبور كثير، إما لأن العذاب أنواع وألوان، كل نوع منها ثبور؛ لشدته وفظاعته، أو: لأنهم كلما نصجت جلودهم بدلوا غيرها، فلا غاية لها، فلا يلائم المقام. انظر أبا السعود. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أول من يكسى حلة من النار إيليس، فيضعها على حاجبيه، ويسحبها من خلفه، وذريته من بعده، وهو يقول: يا ثبوراه، وهم يجاريونه: يا ثبورهم، حتى يقفوا على النار، فيقال لهم: لا تدعوا ثبوراً واحداً...» (١).

﴿ قل ﴾ لهم يا محمد؛ تقریباً لهم وتهكماً بهم، وتحسراً على ما فاتهم: ﴿ أذلك خير ﴾، والإشارة إلى السعير، باعتبار اتصافها بما فصل من الأحوال الهائلة، وما فيه من معنى البعد؛ لكونها في الغاية القاصية من الهول والفظاعة. أي: قل لهم أذلك الذي ذكر من السعير، التي أعدت لمن كذب بالساعة، وشأنها كيت وكيت؛ خير ﴿ أم جنة الخلد التي وعد المتقون ﴾ أي: وعداها الله المتقين؟ وإنما قال: «أذلك خير»، ولا خير في النار؛ تهكماً بهم، كما تقدم، وإضافة الجنة إلى الخلد؛ للمدح، وقيل: للتمييز عن جنات الدنيا. والمراد بالمتقين: المتصفون بمطلق التقوى، لا بغايتها. ﴿ كانت ﴾ تلك الجنة ﴿ لهم ﴾ في علم الله تعالى، أرفى اللوح، ﴿ جزاء ﴾ على أعمالهم، ﴿ ومصيراً ﴾ يصيرون إليه بعد الموت.

﴿ لهم فيها ما يشاءون ﴾ من فنون الملاذ والمشتهيات، وأنواع النعيم والخيرات، كقوله تعالى: ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾ (٢)، ولعل كل فريق منهم يقنع بما أتيح له من درجات النعيم، ولا تمتد أعتاق همهم إلى ما فوق ذلك من المراتب العالية. فلا يلزم الحرمان، ولا تسارى أهل الجنان. حال كونهم ﴿ خالدين ﴾ لا يفنون، ولا يفنى ما هم فيه، ﴿ كان على ربك وعداً مسؤولاً ﴾ أي: موعوداً حقيقة بأن يسأل ﴿ خالدين ﴾ لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون، أو: مسؤولاً لا يسأله الناس في دعائهم، بقولهم: ﴿ ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ﴾ (٣) أو: تسأله الملائكة بقولهم: ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾ (٤)، وما في «على» من معنى الوجوب، لامتناع الخلف في وعده تعالى، فكأنه أوجبه على نفسه؛ تفضلاً وإحساناً. وفي التعرض لعنوان الربوبية؛ مع الإضافة إلى ضميره ﷻ؛ من تشريفه والإشعار بأنه ﷻ هو أول الفائزين بمغانم هذا الوعد الكريم ما لا يخفى. قاله أبو السعود.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٥٢/٣)، والطبري (١٨٨/١٨)، والحديث صحيحه الهيثمي في المجمع (٣٩٢/١٠).

(٢) من الآية ٧١ من سورة الزخرف. (٣) من الآية ١٩٤ من سورة آل عمران. (٤) من الآية ٨ من سورة غافر.

الإشارة: تبارك الذى إن شاء جعل ذلك خيراً من ذلك، وهى جنة المعارف المعجلة، تجرى من تحتها أنهار العلوم وفيض المواهب، ويجعل لك قصوراً تنزل فيها، ثم ترحل عنها، وهى منازل السائرين ومقامات المقربين، إلى أن تسكن فى محل الشهود والعيان، وهو العكوف فى حضرة الإحسان. بل كذبوا بالساعة، أى: من تنكب عن هذا الخير الجسيم، إنما سببه أنه فعل فعل من يكذب بالساعة؛ من الانهماك فى الدنيا، والاشتغال بها عن زاد الآخرة. وأعتدنا لمن فعل ذلك سعيراً، أى: إحراقاً للقلب بالتعب، والحرص، والجزع، والهلع، والإقبال على الدنيا، إذا قابلتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً غيظاً على طلابها، حيث آثروها على ما فيه رضا مولاهما، وإذا ألقوا فى أشغالها، وضاق عليهم الزمان فى إدراكها، دعوا بالويل والثبور، وذلك عند معاينة أعلام الموت، والرحيل إلى القبور، ولا ينفعهم ذلك. قل: أذلك خيراً أم جنة الخلد؟ وهى جنة المعارف، التى وعد المتقون لكل ما سوى الله، كانت لهم جزاء على مجاهدتهم وصبرهم، ومصيراً يصيرون إليها بأرواحهم وأسرارهم. لهم فيها ما يشاؤون؛ لكونهم حينئذ أمرهم بأمر الله، كان على ربك وعداً مسئولاً، أى: مطلوباً للعارفين والصائرين. وبالله التوفيق.

ثم شرح ما يلقى أهل التكذيب من الهول والفظاعة، فقال:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ (١٧) ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَآبَاءَ هُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ (١٨) ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ (١٩)

قلت: «اتخذ» قد يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾ (١)، وقد يتعدى إلى مفعولين، كقوله: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ (٢)، فقرأ الجمهور: (أَنْ نَتَّخِذَ)؛ بالبناء لفاعل. وقرأ الحسن وأبو جعفر بالبناء للمفعول (٣). فالقراءة الأولى على تعديته لواحد، والثانية على تعديته لاثنتين. فالأول: الضمير فى (نتخذ)، والثانى: (من أولياء). و(من): للتبعيض، أى: ما ينبغى لنا أن نتخذ بعض أولياء من دونك؛ لأن «من» لا تزداد فى المفعول الثانى، بل فى الأول، تقول: ما اتخذت من أحد ولياً، ولا تقول: ما اتخذت أحداً من ولى. وأنكر القراءة أبو عمرو بن العلاء وغيره، وهو محجوج؛ لأن قراءة أبى جعفر من المتواتر.

(١) من الآية ٨ من سورة الأنبياء (٢) من الآية ١٢٥ من سورة النساء. (٣) أى: (نتخذ)؛ بضم النون وفتح الخاء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نحشرهم﴾ (١)، أو: يوم يحشرهم الله جميعاً للبعث والحساب، يكون ما لا تفي به العبارة من الأحوال الفظيعة والأحوال الغريبة، فيحشرهم ﴿وما يعبدون من دون الله﴾ من الملائكة والمسيح وعزير. وعن الكلبي: الأصنام؛ ينطقها الله، وقيل: عام في الجميع. و﴿ما﴾: يتناول العقلاء وغيرهم؛ لأنه أريد به الوصف، كأنه قيل: ومعبودهم. ﴿فيقول﴾ الحق جل جلاله للمعبودين، إثر حشر الكل، تقريراً للعبدة وتبكيئاً: ﴿أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء﴾، بأن دعوتهم إلى عبادتكم، ﴿أم هم ضلوا السبيل﴾ أي: عن السبيل بأنفسهم؛ بإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن الرشد.

وتقديم الضميرين على الفعلين بحيث لم يقل: أضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل؛ لأن السؤال ليس عن نفس الفعل، وإنما هو عن متوليه والمتصدى له، فلا بد من ذكره، وإيلائه حرف الاستفهام؛ ليعلم أنه المستول عنه. وفائدة سؤالهم، مع علمه تعالى بالمستول عنه؛ لأن يجيبوا بما أجابوا به؛ حتى يبيكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم، فتزيد حسرتهم. ﴿قالوا﴾ في الجواب: ﴿سبحانك﴾؛ تعجباً مما قيل، لأنهم إما ملائكة معصومون، أو جمادات لا تنطق ولا قدرة لها على شيء، أو: قصدوا به تنزيهه عن الأنداد، ثم قالوا: ﴿ما كان ينبغي لنا﴾ أي: ما صح وما استقام لنا ﴿أن نتخذ من دونك﴾ أي: متجاوزين إياك، ﴿من أولياء﴾ نعبدهم؛ لما قام بنا من الحالة المذافية له، فأنى يتصور أن نحمل غيرنا على أن يتخذوا غيرك، فضلاً أن يتخذونا أولياء، أو: ما كان يصح لنا أن نتولى أحداً دونك، فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا أن يقولوا دونك حتى يتخذونا أرباباً من دونك، ﴿ولكن متعتهم وآباءهم﴾ بالأموال والأولاد وطول العمر، فاستغرقوا في الشهوات، وانهمكوا فيها ﴿حتى نسوا الذكر﴾ أي: غفلوا عن ذكرك، وعن الإيمان بك، واتباع شرائعك، فجعلوا أسباب الهداية؛ من النعم والعوافي، ذريعة إلى الغواية. ﴿وكانوا﴾، في قضائك وعلمك الأزلي، ﴿قوماً بوراً﴾؛ هالكين، جمع: بائر، كعائذ وعود.

ثم يقال للكفار بطريق الالتفات: ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾، وهو احتجاج من الله تعالى على العبدة؛ مبالغة في تقريرهم وتبكيئهم؛ على تقدير قول مرتب على الجواب، أي: فقال الله جل جلاله عند ذلك للعبدة: فقد كذبكم المعبودون أيها الكفرة، ﴿بما تقولون﴾ أي: في قولكم: هؤلاء أضلونا. والباء بمعنى «في»، وعن قبل: بالياء، والمعنى: فقد كذبوكم بقولهم: (سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء)، والباء حينئذ كقولك: كتبت بالقلم.

(١) قرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب وحفص: «يحشرهم»؛ بالياء، وقرأ الباقون بالذال. انظر الإتحاف (٢/٣٠٦).

﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (١)؛ فَمَا يُمْكِنُونَ ﴿صَرْفًا﴾؛ دَفْعًا لِلْعَذَابِ عَنْكُمْ ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ أَي: فَرْدًا مِنْ أَفْرَادِ النَّصْرِ. وَالْمَعْنَى: فَمَا تَسْتَطِيعُ آلِهَتُكُمْ أَنْ يَصْرِفُوا عَنْكُمْ الْعَذَابَ أَوْ يَنْصُرُوكُمْ. وَعَنْ حِفْصٍ بِالنَّاءِ، أَي: فَمَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْكَافِرَةُ صَرْفًا لِلْعَذَابِ عَنْكُمْ، وَلَا نَصْرًا أَنْفُسَكُمْ.

ثُمَّ خَاطَبَ الْمُكَافِلِينَ عَلَى الْعَمُومِ فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ﴾؛ يَشْرِكُ؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٢)؛ لِأَنَّ الظُّلْمَ: وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وَمَنْ جَعَلَ الْمَخْلُوقَ شَرِيكًا لِخَالْقِهِ فَقَدْ ظَلَمَ ظُلْمًا عَظِيمًا. أَي: وَمَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُكَافِلُونَ، كَذَابُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرَةِ، حَيْثُ رَكِبُوا مَتْنِ الْمَكَابِرَةِ وَالْعِنَادِ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى انْمِلَاجَةِ وَالْفَسَادِ، ﴿نَذْفُهُ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لَا يَقَادِرُ قَدْرُهُ، وَهُوَ الْخُلُودُ فِي النَّارِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

الْإِشَارَةُ: كُلُّ مَنْ عَشَقَ شَيْئًا وَأَحْبَبَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ عَابِدٌ لَهُ، فَرْدًا أَوْ مُتَعَدِّدًا، فَيُحْشَرُ مَعَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ، أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ؟ فَيَتَبَرَّزُونَ مِنْهُمْ، وَيَقُولُونَ: بَلْ مَتَعْتُمْ بِالدُّنْيَا، وَالْأَلْهِيَّتُمْ عَنْ الذِّكْرِ وَالتَّفَكُّرِ وَالْإِعْتِبَارِ، أَوْ عَنْ الشُّهُودِ وَالِاسْتِبْصَارِ، حَتَّى نَسُوا ذِكْرَ اللَّهِ، وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا. وَقَدْ وَرَدَ: (أَنَّ الدُّنْيَا تُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى هَيْئَةِ عَجُوزٍ شَمْطَاءٍ زُرْقَاءَ، فَتَنَادِي: أَيْنَ أَوْلَادِي؟ فَيَجْمَعُونَ لَهَا كُرْهًا، فَتَقْدِمُهُمْ، فَتُورِدُهُمُ النَّارَ). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ﴾ أَي: يَخْرُجُ عَنْ حَدِّ الْإِسْتِقَامَةِ فِي الْعِبَادِيَّةِ، وَشُهُودِ عِظَمَةِ الرَّبُّوبِيَّةِ، نَذْفُهُ عَذَابًا كَبِيرًا، وَهُوَ ضَرْبُ الْحَجَابِ عَلَى سَبِيلِ الدَّوَامِ، إِلَّا وَقْتًُا مُخْصِصًا مَعَ الْعَوَامِ. وَبِاللَّهِ التَّفْرِيقُ.

ثُمَّ أَجَابَ الْحَقُّ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الْكَافِرَةِ: (مَا لَ هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ...) إلخ، فَقَالَ:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾

قُلْتُ: كُسِرَتْ (إِنْ)؛ لِأَجْلِ اللَّامِ فِي الْخَبَرِ. وَالْجُمْلَةُ بَعْدَ (إِلَّا): صِفَةٌ لِمُحْذُوفٍ، أَي: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ أَحَدًا مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَكَلِينَ وَمَاشِينَ، وَإِنَّمَا حُذِفَ؛ اِكْتِفَاءً بِالْجَارِ وَالْمَجْرُورِ، يَعْنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (٣)، أَي: وَمَا مِنَّا أَحَدٌ. وَقِيلَ: هِيَ حَالٌ، وَالتَّقْدِيرُ: إِلَّا وَأَنْهُمْ لَيَأْكُلُونَ.

يَقُولُ الْحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ، فِي جَوَابِ الْمُشْرِكِينَ عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿مَا لَ هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (٤)؛ تَسْلِيَةً لِدَبِيحِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا﴾ وَصِفَتُهُمْ ﴿إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ﴾؛ بِشَرِّ

(١) قَرَأَ حِفْصٌ (فَمَا تَسْتَطِيعُونَ) بِالنَّاءِ مِنْ فَرَقٍ، عَلَى خُطَابِ الْعَابِدِينَ. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالنَّاءِ عَلَى الْغَيْبِ، عَلَى إِسْنَادِهِ إِلَى الْمُجَاهِدِينَ. انْظُرِ الْإِتْعَافَ (٣٠٧/٢).

(٢) مِنَ الْآيَةِ ١٣ مِنْ سُورَةِ لُقْمَانَ. (٣) مِنَ الْآيَةِ ١٦٤ مِنْ سُورَةِ الصَّافَّاتِ. (٤) مِنَ الْآيَةِ ٧ مِنْ سُورَةِ الْفُرْقَانِ.

يَأْكُلُونَ ﴿الطعام﴾ ، مفتقرين إليه في قيام بديتهم، ﴿ويعشون في الأسواق﴾ في طلب حوائجهم، فليس ببذع أن تكون أنت كذلك، ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾ أى: محنة، وهو كالتعليل لما قبله، أى: إنما جعلت الرسل مفتقرين للمادة، وفقراء من المال، يعيشون في الأسواق لطلب المعاش؛ ابتلاء، وفتنة، واختباراً لمن تبعهم، من غير طمع، ولم يعرض عنهم لأجل فقرهم، فقد جعلت بعضكم لبعض فتنة. قال ابن عباس: أى: جعلت بعضكم بلاءً لبعض؛ لتصبروا على ما تسمعون منهم، وترون من خلافهم، وتتبعوا الهدى بغير أن أعطيك عليه الدنيا، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى، فلا يخالفون، لفعلت، ولكن قدرت أن أبلى العباد بكم وأبتليكم بهم (١). هـ.

فالحكمة في فقر الرسل من المال: تحقيق الإخلاص لمن تبعهم، وإظهار المزية لهم؛ حيث تبعوهم بلا حرف. قال النسفي: أو جعلناك فتنة لهم؛ لأنك لو كنت صاحب كنوز وجنات لكانت طاعتهم لأجل الدنيا، أو معزوجة بالدنيا، فإنما بعثناك فقيراً؛ لتكون طاعة من يطيعك خالصة لنا. هـ.

قال في الحاشية: وقد قيل: إن الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد تعالى أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض، على العموم في جميع الناس: مؤمن وكافر، بمعنى: أن كل واحد مُختَبَرٌ بصاحبه، فالغنى ممتحن بالفقر، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه. والفقر ممتحن بالغنى، عليه ألا يحسده، ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق الذى عليه، وتوجه إليه من ذلك؛ لأن الدار دار تكليف بموجبات الصبر، وقد جعل تعالى إمهال الكفار والتوسعة عليهم؛ فتنة للمؤمنين، واختباراً لهم. ولما صبروا نزل فيهم: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (٢). والحاصل: أن الله تعالى دبر خلقه، وخص كل ما شاء، من غنى أو فقر، أو علم أو جهل، أو نبوة أو غيرها. وكذا سائر الخصوصيات؛ ليظهر من يسلم له حكمه وقسمته، ومن ينازعه في ذلك، ومن يؤدى حق ما توجه عليه من ذلك؛ فيكون شاكراً صابراً، ومن لا، وهو أعلم بحكمته في ذلك، ولذلك قال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾. هـ.

وقال مقاتل: نزلت في أبى جهل، والوليد بن عتبة، والعاص، حين رأوا أبا ذر وعماراً وصهيباً، وغيرهم من فقراء المسلمين، قالوا: أنسلم؛ فنكون مثل هؤلاء؟ فنزلت الآية، تخاطب هؤلاء المؤمنين: أتصبرون على هذه الحالة من الشدة والفقر؟ هـ.

قال النسفي: أتصبرون على هذه الفتنة فتؤجروا، أم لا تصبرون فيزداد غمكم؟ حكى أن بعض الصالحين تبرم بضنك عيشه، فخرج ضجراً، فرأى [خصياً في] (٣) مواكب ومراكب، فخطر بباله شيء، فإذا بقارئ يقرأ هذه الآية، فقال: بل نصبر، ربنا. هـ.

(١) انظر تفسير البغوى ٧٧/٦. (٢) من الآية ١١١ من سورة المؤمنون.

(٣) في الأصول المخطوطة [في حصباء]، والمثبت هو الذى فى تفسير النسفى.

قال القشيري: هو استفهام بمعنى الأمر، فمن قارنه التوفيق صبر وشكر، ومن قارنه الخذلان أبى وكفر. هـ.
وقيل: هو الأمر بالإعراض عما جعل في نظره فتنة، كما قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ (١)، فينبغي ألا ينظر
بعض إلى بعض، إلا لمن دونه، كما ورد في الخبر (٢). هـ.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾؛ عالماً بالحكمة فيما يبتلى به، أو: بمن يصبر ويجزع. وقال أبو السعود: هو وعد
كريم لرسول الله ﷺ بالأجر الجزيل؛ لصبره الجميل، مع مزيد تشريف له - عليه الصلاة والسلام -؛ بالالتفات
إلى اسم الرب مضافاً إلى ضميره ﷺ. هـ.

الإشارة: الطريق الجادة التي درج عليها الأنبياء والأولياء هي سلوك طريق الفقر والتخفيف من الدنيا،
إلا قدر الحاجة، بعد التوقف والاضطرار، ابتداءً وانتهاءً، حتى تحققوا بالله. ومنهم من أتته الدنيا بعد التمكين فلم
تضره. والحالة الشريفة: ماسلكها نبينا ﷺ وهو التخفيف منها وإخراجها من اليد، حتى مات ودرعه مرهونة عند
يهودي، في وسق من شعير. وعادته تعالى، فيمن سلك هذا المسلك، أن يدل الغنى في عقبه، فيكونون أغنياء في
الغالب. والله تعالى أعلم.

وما وصف به الحق تعالى رسله؛ من كونهم يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، هو وصف للأولياء أيضاً -
رضى الله عنهم-؛ فيمشون في الأسواق؛ للعبرة والاستبصار في تجليات الواحد القهار، فحيث يحصل الزحام
يعظم الشهود للملك العلام، وفي ذلك يقول الششتري رحمه الله: عين الزحام هو الوصول لحيناً.

وكان شيخ أשיاخنا - سيدى على العمراني - يقول لأصحابه: من أراد أن يذوق فليمش إلى السوق. هـ.
فينبغي للمريد أن يربى فكرته في العزلة والخلطة والخلوة والجلوة، ولا يتقصر على تربيتها في العزلة فقط؛ لئلا
يتغير حاله في حال الخلطة؛ فيبقى ضعيفاً. فالعزلة تكون؛ ابتداءً، قبل دخول بلاد المعاني، فإذا دخل بلاد المعاني
فليختر الخلطة على العزلة، حتى يستوى قلبه في الخلوة والجلوة، فالعزلة عن الناس عزلة الضعفاء؛ والعزلة بين
الناس عزلة الأقوياء. فالمشى في الأسواق والأكل فيها من سنة الفقراء، أهل الأحوال؛ مجاهدةً لنفوسهم، وتربيضاً
لها على إسقاط مراقبة الخلق، والخوف منهم. وقد ورد أن الله تعالى أمر بذلك نبيه ﷺ؛ تشريعاً لأهل الأحوال،
كما ذكره صاحب اللباب عند قوله: «مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق..».

(١) من الآية ١٣١ من سورة طه.

(٢) قال ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى من فضّل عليه في المال والخلق، فليتنظر إلى من هو أسفل منه ممن فضّل عليه». أخرجه البخاري في
(الرقائق، باب لينظر إلى من هو أسفل منه، ح ٤٦٩٠)، ومسلم في (الزهد والرقائق، ٤/٢٢٧٥، ح ٢٩٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن آداب الداخل في السوق: أن يكون ماشياً على رجليه، لا راكباً، كما وصف الله تعالى الرسل - عليهم السلام. وفي قوله تعالى: ﴿وجعلنا بعض فتنة أتصبرون﴾: تسلية لمن يبتلى من الأولياء، وتهوين له على ما يلقاه من شدائد الزمان، وإذابة الإخوان، وجفوة الناس. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مقالة أخرى من أقاويل الكفرة؛ ليبطلها كما أبطل ما قبلها، فقال:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۝ (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا ۝ (٢٢) وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ۝ (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝ (٢٤) ﴾

قلت: (وقال): عطف على: (وقالوا مال هذا الرسول...) إلخ، ووضع الموصول موضع الضمير؛ للتبعية بما في حيز الصلة على أن ما حكى عنهم من الشناعة بحيث لا يصدر ممن يعتقد المصير إلى الله - عز وجل -.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي: لا يتوقعون الرجوع إلينا بالبعث، أو حسابنا المؤدى إلى سوء العذاب، الذي تستوجب مقالاتهم الشنيعة. والحاصل: أنهم ينكرون البعث بالكلية، فأطلق الرجاء على التوقع. وقيل: لا يخافون لقاءنا؛ لأن الرجاء في لغة تهامة: الخوف، قالوا: ﴿لولا﴾؛ هلا ﴿أنزل علينا الملائكة﴾ رسلاً دون البشر، أو: يشهدون بنبوّة محمد ودعوى رسالته، ﴿أو نرى ربنا﴾ جهرة، فيخبرنا برسالته، ويأمرنا باتباعه، وإنما قالوا ذلك؛ عناداً وعتواً.

قال تعالى: ﴿لقد استكبروا في أنفسهم﴾ أي: أضمرُوا الاستكبار، وهو الكفر والعناد في قلوبهم، أو: عظموا في أنفسهم حتى اجتروا على التفوه بمثل هذه العظيمة الشناعة، ﴿وعتوا﴾ أي: تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان ﴿عتواً كبيراً﴾؛ بالغاً أقصى غاياته، أي: إنهم لم يجتروا على هذا القول العظيم؛ إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار، وأقصى العتو، حتى أملوا نيل المشاهدة والمعاينة والمفاوضة التي اختص بها أكابر الرسل وخاصة الأولياء، بعد تطهير النفوس وتصفية القلوب والأرواح. وهذا كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك...﴾ إلى قوله: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ (١). ولم يكتفوا بما رأوا من المعجزات القاهرة؛ فذهبوا في الاقتراح كل مذهب، حتى منتهى أنفسهم الخبيثة أمالي سدت دونها مطامع النفوس القدسية. واللام: جواب قسم محذوف، أي: والله لقد استكبروا.. الآية. وفيه من الدلالة على قبح ما هم عليه، والإشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم، ما لا يخفى.

(١) الآيات: ٩٠ - ٩٢ من سورة الإسراء.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ عند الموت أو البعث. و«يوم»: منصوب بانذكر، أو بما دل عليه: ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾؛ فإنه بمعنى: يُمنعون البشـرى، أو: لا يبشـر المجرمون. انظر البيضاوى. والجملة: استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند مشاهدتهم لما اقترحوه من نزول الملائكة، بعد استعظامه وبيان كونه فى غاية ما يكون من الشناعة. وإنما قيل: يوم يرون، دون أن يقال: يوم تنزل؛ إيداناً، من أول الأمر، بأن رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه، بل على وجه آخر غير معهود. وتكرير (يومئذ)؛ لتأكيد التهويل، مع ما فيه من الإيدان بأن تقديم الظرف للاهتمام، لا لِقَصْرِ نَفْيِ الْبُشْرَى عَلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ فَقَطْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مُخَلٌ بِتَفْظِيعِ حَالِهِمْ. و(للمجرمين): تعيين على أنه مظهر، وُضِعَ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ؛ تَسْجِلاً عَلَيْهِمُ بِالْإِجْرَامِ، مَعَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ.

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ على ما ذكر من الفعل المنفى، أى: لا يبشرون، ويقولون. وهو ينبئ عن كمال فظاعة ما يحيق بهم من الشر، وغاية هول مطلقه، أى: يقولون، عند مشاهدة ملائكة العذاب: حِجْرًا مَحْجُورًا، أى: منعاً ممنوعاً منكم، وهى كلمة تقرؤها العرب عند لقاء عدو هائل، أو هجوم نازلة هائلة، يضعونها موضع الاستعاذة، فكأن المعنى: نسأل الله تعالى أن يمنع ذلك عنا منعاً، ويحجره عنا حجراً. والمعنى: أنهم يطلبون نزول الملائكة - عليهم السلام - ويقترحونه، وهم إذا رأوهم كرهوا لقاءهم أشد كراهة، وفزعوا منهم فزعاً شديداً. وقالوا، عند رؤيتهم، ما كانوا يقولون عند نزول خطب شليح وبأس فظيع.

وقيل: هو قول الملائكة، أى: تقول الملائكة للمجرمين، حين يرونهم: حِجْرًا مَحْجُورًا، أى: حراماً محرماً عليكم البشـرى، أى: جعل الله ذلك حراماً عليكم، إنما البشـرى للمؤمنين. و(الحجر): مصدر، يفتح ويكسر، وقرئ بهما. من حجره؛ إذا منعه. وهو من المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها. ومحجوراً: لتأكيد معنى الحجر، كما قالوا: موت مائت. وانظر ما رُجِّهَ بِهِ وَقَفَّ الْهَيْطَى عَلَى «حِجْرًا»؛ فلعلة الأرجح له.

ثم ذكر مآل أعمالهم، فقال: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ الهباء: شبه غبار يرى فى شعاع الشمس، يطلع من كوة. والقُدوم هنا: مجاز. مثلت حال هؤلاء الكفرة وأعمالهم التى عملوها فى كفرهم، من صلة رحم، وإغاثة ملهوف، وقرى ضيف، وعِثْقٍ، ونحو ذلك، بحال من خالف سلطاناه، فقدم إلى أشيائه، وقصد إلى ما تحت يديه، فأفسدها، ومزقها كل ممزق، ولم يترك لها عينا ولا أثراً، أى: عمدنا إليها وأبطلناها، أى: أظهرنا بطلانها بالكلية، من غير أن يكون هناك قدوم. والمنثور: المفرق، وهو استعارة عن جعله لا يقبل الاجتماع ولا يقع به الانتفاع.

ثم ذكر صندهم، فقال: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً﴾ أى: مكاناً يستقرون فيه، والمستقر: المكان الذى يستقر فيه فى أكثر الأوقات، للتجالس والتحدث، ﴿وأحسن مقيلاً﴾: مكاناً يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم. ولا نوم فى الجنة، ولكنه سعى مكان استرواحهم إلى أزواجهم العور مقيلاً، على طريق التشبيه. وروى أنه يفرغ من الحساب فى نصف ذلك اليوم، فيقيل أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار.

وقال سعيد الصواف: بلغنى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين، حتى يكون ما بين العصر إلى غروب الشمس، إنهم ليقيلون فى رياض الجنة حتى يفرغ من حساب الناس. وقرأ هذه الآية هـ. وأما الكافر فيطول عليه، كما قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (١).

قال أبو السعود: وفى وصفه بزيادة الحسن، مع حصول الخيرية، رمز إلى أنه مزين بفضن الزين والبخارف. والتفضيل المعتبر فيهما: إما لإرادة الزيادة على الإطلاق، أى: هم فى أقصى ما يكون من خيرية المستقر وحسن المقيال، وإما بالإضافة إلى ما للكفرة المتنعمين فى الدنيا، أو إلى ما لهم فى الآخرة، بطريق التهكم بهم، كما مر فى قوله: ﴿أذلك خير..﴾ الآية هـ.

الإشارة: هؤلاء طلبوا الرؤية قبل إبانها وتحصيل شروطها، وهى الإيمان بالله، والإخلاص، والخضوع لمن يدل على الله، وذلل النفس وتصغيرها فى طلب الله. ولذلك قال تعالى فى وصفهم - الذى منعهم من شهوده تعالى: ﴿لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾ أى: ولو صغروا فى أنفسهم، وخضعوا خضوعاً كبيراً؛ لحصل لهم ما طلبوا، ولبشروا بما أملوا، وفى ذلك يقول الشاعر:

تَذَلُّ لِمَنْ تَهْوَى؛ فَلَيْسَ الْهَوَى سَهْلٌ إِذَا رَضِيَ الْمَحْبُوبُ صَحَّ لَكَ الْوَصْلُ
تَذَلُّ لَهُ؛ تَحْظَى بِرُؤْيَا جَمَالِهِ فَفِي وَجْهِ مَنْ تَهْوَى الْفَرَاخُ وَالذَّنْبُ

وقيل لأبى يزيد رحمه الله، حين قام يصلى بالليل: يا أبا يزيد، خزائننا معمورة بالخدمة، انتننا من كوة الذل والافتقار. وقال الشيخ عبد القادر الجيلانى رحمه الله: أتيت الأبواب كلها فوجدت عليها الزحام، فأتيت باب الذل والفقر فوجدته خالياً، فدخلت وقلت: هلموا إلى ربكم. أو كما قال.

وفى قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ..﴾ إلخ، الترغيب فى الإخلاص الموجب لقبول الأعمال، والترهيب من الرياء والعجب، الموجبان لإحباط الأعمال. وفى حديث معاذ عنه رضي الله عنه: «إن الله خلق سبعة أملاك قبل خلق السموات، ووكل كل ملك بباب من أبواب السماء، فتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء الأولى، فيقول الملك: ردوه، واضربوا به وجهه؛ إن صاحبه كان يغتاب الناس، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد إلى

(١) من الآية ٤ من سورة المعارج.

السماء الثانية، فيقول الملك: ردوه؛ إنه كان يفتخر على الناس في مجالسهم، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء الثالثة، فيقول الملك: ردوه؛ إنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء الخامسة، فيقول الملك: ردوه؛ إنه كان يحسد الناس ويقع فيهم، ثم تصعد الحفظة إلى السماء السادسة، فيقول الملك: ردوه؛ إنه كان لا يرحم إنساناً قط، بل كان يشمت بمن وقع في بلاء، أنا ملك الرحمة، أمرني ألا يجاوزني عمله. ثم تصعد الحفظة إلى السماء السابعة، فيقول الملك: ردوه؛ إنه كان يحب الظهور والرفعة عند الناس، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد؛ من صلاة، وذكر، وتفكير، وحسن خلق، فيقفون بين يدي الله، ويشهدون له بالصلاح، فيقول الرب جل جلاله: أنتم الحفظة على عمل عبيدي، وأنا الرقيب على قلبه، إنه لم يردني بهذا العمل، أراد به غيري، فعليه لعنتي، ثم تلعه الملائكة والسموات. انتهى باختصار^(١)، وخرجه المنذري. وتكلم في وضعه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر موطناً آخر لرؤية الملائكة، على نمط ما تقدم، فقال:

﴿ وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَيُنْزَلُ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا ۝٢٥ أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَ مِذِّ الْحَقِّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦ وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يُؤَيَّلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ۝٢٩ ﴾

قلت: (الملك): مبتدأ، و(الحق): صفته. و(لِلرَّحْمَنِ): خبر، و(يومئذ): ظرف للاستقرار.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ انكر ﴿يوم تشقق﴾ أي: تنفتح، فمن قرأ بالتخفيف: حذف إحدى الناءين، وأصله: تشقق. ومن شد: أدغم الناء في الشين، أي: تشق ﴿السماء بالغمم﴾ أي: عن الغمام، فنزل ملائكة السموات في تلك الغمام؛ ليقع الفصل بين الخلائق، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، والملائكة﴾ (٢). قيل: هو غمام أبيض رقيق مثل الضباب، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في نبيهم.

(١) ذكره مطولاً المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٧١ - ٩٣) وقال: (رواه ابن المبارك في الزهد عن رجل، لم يسمه، عن معاذ، ورواه ابن حبان في غير الصحيح، والحاكم، وغيرهما، وروى عن علي وغيره. وبالجمله فأثار الوضع ظاهرة عليه في جميع طرقه وبجميع ألفاظه. والله أعلم) قلت: والحديث ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ١٥٤) بمطاه مطولاً، وعزاه للحاكم في التاريخ.

(٢) من الآية ٦٥ من سورة البقرة.

﴿ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ نَزِيلاً ﴾ عجيباً غير معهود. روى أن السموات تنشق سماءً سماءً، وتنزل ملائكة كل سماء في ذلك الغمام، وفي أيديها صحائف أعمال العباد، فيفصل الله بين خلقه، ولذلك قال: ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ ﴾ للرحمن ﴿ أي: السلطنة القاهرة، والاستيلاء العام، الثابت، الذي لا زوال له أصلاً، هو للرحمن وحده؛ لأن كل ملك يزول يومئذ، ولا يبقى إلا ملكه.

وفائدة التقييد، مع أن الملك لله في الدنيا والآخرة؛ لأن في الدنيا قد تظهر صورة الملك للمخلوق؛ مجازاً، ويكون له تصرف صوري، بخلاف يوم القيامة، ينقطع فيه الدعاوى، ويظهر الملك لله الواحد القهار، ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً ﴾ أي: وكان ذلك اليوم، مع كون الملك للمبالغ في الرحمة، ﴿ عَسِيراً ﴾ أي: صعباً، شديداً على النفوس بالنسبة للكافرين، وأما على المؤمنين فيكون يسيراً، بفضل الله تعالى. وقد جاء في الحديث: أنه يهون يوم القيامة على المؤمنين، حتى يكون أخف عليهم من صلاة مكتوبة، صلّوها في الدنيا. ففي حديث أبي سعيد الخدري حيث قال رسول الله ﷺ: «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»، قلت: يا رسول الله، ما أطول هذا اليوم؟ فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا» (١).

﴿ وَادْكُرْ أَيْضاً ﴾ يوم يعرض الظالم على يديه ﴿؛ ندمًا وتحسراً، فعرض اليد والأنامل: كناية عن شدة الغيظ والحسرة؛ لأنها من روادفها، فتذكر المرادفة ويراد بها المردوف، فيرتفع الكلام بذلك في طبقة الفصاحة، ويجد السامع في نفسه من الروعة ما لا يجد عند اللفظ المكنى عنه.

والمراد بالظالم: إما عَقِبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، وكان خليلاً لأبي بن خلف، وكان عَقِبَةُ يكثر مجالسة النبي ﷺ، فقدم من سفر وصنع طعاماً، فدعا إليه أشراف قومه، ودعا النبي ﷺ، فلما قُرب الطعام، قال النبي ﷺ: «ما أنا بآكل من طعام، حتى تشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله». فقال عَقِبَةُ: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فأكل النبي ﷺ طعامه، وكان أَبِي بْنُ خَلْفٍ غَائِباً، فلما أخبر، قال له: صَبَأَتْ يَا عَقِبَةُ؟ فقال: لا، والله ما صَبَأَتْ، وَلَكِنْ دَخَلَ عَلَى رَجُلٍ فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْ طَعَامِي إِلَّا أَنْ أَشْهَدَ لَهُ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِي وَلَمْ يَطْعَمْ، فَشَهِدْتُ لَهُ، فَطَعَمْ، فقال: ما أنا بالذي أرضى عنك أبداً، حتى تأتية فتَبْرُقَ في وجهي، وتطأ عنقه، فوجدته ﷺ ساجداً، ففعل ذلك، وأخذ رَحِمَ دابته فألقاها بين كتفيه، فقال النبي ﷺ: «لَا أَلْقَاكَ خَارِجاً مِنْ مَكَّةَ إِلَّا عَلَوْتُ

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/٧٥)، وابن حبان (الإحسان، تحقيق الأرنبوط ١٦/٣٢٩ ح ٧٣٣٤)، وأبو يعلى (٢/٢٧٧ ح ١٣٩٠)، وحيثه الهيثمي في المجمع (١٠/٣٣٩).

رَأْسَكَ بِالسَّيْفِ». فَقُتِلَ عَقَبَةُ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا. وَأَمَّا أَبِي فَقُتِلَ النَّبِيُّ ﷺ بيده، يوم أحد، في المبارزة، طعنه في عنقه، فمات بمكة (١).

وعن الضحاك: لما بَصَقَ عَقَبَةُ - بأمر أَبِي - في وجه النبي ﷺ، رَجَعَ بُصَاقُهُ في وجهه، وشوى وجهه وشفتيه، حتى أثار في وجهه وأحرق خديه، فلم يزل في وجهه حتى قُتِلَ، وقُتِلَ على بَدْرٍ بأمره ﷺ بقتله. هـ. وقال الشعبي: كان عَقَبَةُ بن أَبِي معيط خَلِيلًا لِأَبِي بن خلف، فأسلم عَقَبَةُ، فقال أَبِي: وجهي من وجهك حرام، أَنْ تابعت محمدًا، فارتد؛ لرضا صاحبه، فنزلت الآية (٢). هـ.

وإِذَا جَلَسَ الظَّالِمُ، ويدخل عَقَبَةُ فيه دخولاً أوليًا.

﴿يقول ياليتني﴾، الياء لمجرد التلبيه، من غير تعيين المنبه، أو: المنبه محذوف، أي: يا هؤلاء ﴿ليتني اتخذت﴾ في الدنيا ﴿مع الرسول﴾ محمد ﷺ ﴿سبيلًا﴾ أي: طريقًا مُنجيًا من هذه الورطات، وهو طريق الإسلام، ولم أكن ضالًا، أو: طريقًا إلى الجنة، ﴿ياويلتي﴾، بقلب ياء المتكلم ألفًا، كما في صحاري وعذاري. وقرئ بالياء على الأصل، أي: يا هلكتي، تعالى، هذا أوانك، ﴿ليتني لم اتخذ فلانًا خليلًا﴾، فلان: كناية عن الأعلام، فإن أريد بالظالم عَقَبَةُ، فالمعنى: لم اتخذ أبيًا خليلًا، فكنى عن اسمه، وإن أريد به الجنس، فهو كناية عن علم كل من يضلّه، كائنًا من كان، من شياطين الإنس والجن. وقيل: هو كناية عن الشيطان.

ثم قال: ﴿لقد أضلني عن الذكر﴾، عن ذكر الله، أو: القرآن، أو: الإيمان، أو: موعظة الرسول ﷺ، أو: كلمة الشهادة. وتصديره بلام القسم؛ للمبالغة في بيان خطأه، وإظهار ندمه وحسرتة، أي: والله لقد أضلني عن الذكر ﴿بعد إذ جاءني﴾ من الله، وتمكنت منه. ﴿وكان الشيطان للإنسان خذولًا﴾ أي: مبالغًا في الخذلان، حيث يواليه من يوديه إلى الهلاك، ثم يتركه ولا ينفعه، وهو الحامل له على مخاللة المضل ومخالفة الرسول. وقيل: المراد به خليله أَبِي، وسماه شيطانًا؛ لأنه أضله كما يضلّه الشيطان. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية تحريض على محبة الرسول ﷺ وشد اليد على التمسك بسنته، والاهتداء بهديه، واتباع ما جاء به، قبل أن تقول: ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلًا. وفيها أيضًا: الترغيب في صحبة الأبرار، والترهيب من صحبة الفجار، وأنشد بعض الحكماء:

تَجَدَّبَ قَرِينُ السُّوءِ وَأَصْنَرُمُ حِبَالَهُ	فَإِنْ لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحْصِيصًا فَدَارِهِ
وَأَحْبَبُ حَبِيبِ الصَّدْقِ وَأَحْذَرُ مِرَاءَهُ	تَنَلُّ مِنْهُ صَفْوُ الْوَدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ
وَفِي الشَّيْبِ مَا يَنْهَى الْحَلِيمَ عَنِ الصَّبَا	إِذَا اشْتَغَلَتْ نِيرَانُهُ فِي عَذَارِهِ

(١) انظر أسباب النزول للواحدي (٣٤٣ - ٣٤٤)، وتفسير البغوي (٨/٦). وانظر الفتح السامري (٨٨٠/٢).

(٢) ذكر قول الضحاك والشعبي: البغوي في تفسيره (٨١/٦) والواحدي في أسباب النزول (ص/٣٤٤).

وقال آخر:

اصْحَبْ خِيَارَ النَّاسِ حَيْثُ لَقَيْتَهُمْ خَيْرُ الصَّحَابَةِ مَنْ يَكُونُ عَفِيفًا
وَالنَّاسُ مِثْلُ دَرَاهِمٍ مِيزَتْهُمْ هَا فَوَجَدْتُ فِيهَا فِضْلَةً وَزُيُوفًا

وفي حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مِثْلُ الْعِطَارِ، إِنْ لَمْ يُحْذِكْ مِنْ عِطْرِهِ يَعلَقَ بِكَ مِنْ رِيحِهِ. وَمِثْلُ الْجَلِيسِ السُّوءِ مِثْلُ الْكَبِيرِ، إِنْ لَمْ يَحْرِقْ ثِيَابَكَ يَعلَقَ بِكَ مِنْ رِيحِهِ» (١). وقال في الحكم: لا نصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله، فإنهاض الحال هو ذكر الله عند رؤيته، والانحياض إليه بالقلب عند صحبتته. ودلالة المقال على الله هو زجه في الحضرة بلا تعب، بأن يرفع بينه وبين ربه الحجب، ويقول له: ها أنت وريك. وهذه حال الصوفية العارفين بالله، وقد وصفهم بعض العلماء، فقال: الصوفي من لا يعرف في الدارين أحداً غير الله، ولا يشهد مع الله سوى الله، قد سخر له كل شيء، ولم يسخر هو لشيء، يسلط على كل شيء، ولم يسلط عليه شيء، يأخذ التصيب من كل شيء، ولم يأخذ التصيب منه شيء، يصفو به كدر كل شيء، ولا يكدر صفوه شيء، قد أشغله واحد عن كل شيء، وكفاه واحد من كل شيء. هـ.

قال في التنبيه: وبصحبة أمثال هؤلاء يحصل للمريد من المزيد ما لا يحصل له بغيرها؛ من فنون المجاهدات، وأنواع المكابدات، حتى يبلغ بذلك إلى أمر لا يسعه عقل عاقل، ولا يحيط به عالم ناقل. هـ. وفي شأنهم أيضاً قال صاحب العينية رحمته الله:

فَشَمَّرَ وَلَذَّ بِالْأَوَّلِيَاءِ؛ فَإِنَّهُمْ لَهُمْ مِنْ كِتَابِ الْحَقِّ تِلْكَ الْوَقَائِعُ
هُمْ الدُّخْرُ لِلْمَلْهُوفِ، وَالسَّكَنُ لِلرَّجَا، وَمِنْهُمْ يَدَالُ الصَّبُّ مَا هُوَ طَامِعُ
بِهِمْ يَهْتَدِي لِلْعَيْنِ مَنْ ضَلَّ فِي الْعَمَى بِهِمْ يُجْذِبُ الْعُشَّاقُ، وَالرَّيْعُ شَاسِعُ
هُمْ الْقَصْدُ، وَالْمَطْلُوبُ، وَالسُّؤْلُ، وَالْمُنَى وَاسْمُهُمْ لِلصَّبِّ، فِي الْحُبِّ شَافِعُ
هُمْ النَّاسُ، فَالزَّمْ إِنْ عَرَفْتَ جَنَابَهُمْ فَفِيهِمْ لِحْزَنُ الْعَالَمِينَ مَنَافِعُ

وقال الجنيد رحمته الله: إذا أراد الله بالمريد خيراً ألقاه إلى الصوفية، ومنعه صحبة القراء. وقال سهل رحمته الله: احذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين. هـ. وقال حمدون

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/٤٠٤)، وأخرجه، بلفظ مقارب، البخاري في (الذبايح، باب المسك، ح ٥٥٣٤)، ومسلم في (البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، ٢٠٢٦/٤، ح ٢٦٢٨).

القصار عليه السلام: (أصبح الصوفية؛ فإن للقبح عندهم وجوهاً من المعاذير، وليس للحسن عندهم كبير موقع يعظمونك به)؛ إشارة إلى أن العجب بالعمل منفي في صحبتهم. وقال سيدنا علي عليه السلام: شر الأصدقاء: من أحوجك إلى الإدارة، وأجأك إلى الاعتذار. وقال أيضاً: شر الأصدقاء من تكلف له. هـ. وليوسف بن الحسين الداراني عليه السلام:

أحبُّ من الإخْوانِ كُلِّ مُواثي	فِيما غَضِيضِ الطَّرْفِ عَن عَثَرَاتِي
يوافقني في كل أمر أحبُّه	ويحفظني حَيًّا ويَعِدُّ مماتِي
فمن لي بهذا، ليتني قد وجدته	فَقاسَمْتُهُ مَالِي مِنَ الْحَسَنَاتِ

والحاصل من هذا: أن صحبة الصوفية هي التي يحصل بها كمال الانتفاع للصاحب، دون من عداهم من المنسوبين إلى الدين والعلم؛ لأنهم خصوا من حقائق التوحيد والمعرفة بخصائص، لم يساهمهم فيها أحد سواهم. وسريان ذلك من الصاحب إلى المصحوب هو غاية الأمل والمطلوب، فقد قيل: مَنْ تَحَقَّقَ بِحَالَةٍ لَمْ يَخُلْ حَاضِرُهُ مِنْهَا. انتهى من التنبية. وبالله التوفيق.

ولما رأى عليه السلام إعراض قومه عنه، شكى إلى ربه، فقال:

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۖ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝ ٣١ ﴾

قلت: (وقال الرسول): عطف على: (وقال الذين لا يرجون..)، وما بينهما: اعتراض؛ لبيان قبح ما قالوا، وما يحيق بهم في الآخرة من الأهوال والخطوب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الرسول ﴾؛ محمد عليه السلام، وإيراده بعنوان الرسالة؛ للرد في نحورهم، حيث كان ما حكى عنهم قدحا في رسالته عليه السلام، أي: قال، إثر ما شاهد منهم من غاية العتو ونهاية الطغيان، شاكياً إلى ربه - عز وجل - : ﴿ يا ربَّ إِنَّ قَوْمِي ﴾، يعني: قريشاً الذي حكى عنهم ما تقدم من الشنائع، ﴿ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ ﴾، الذي من جملته الآيات الناطقة بما يحيق بهم في الآخرة من فنون العقاب، ﴿ مَهْجُورًا ﴾ أي: متروكاً بالكلية، فلم يؤمنوا به ويرفعوا إليه رأساً، ولم يتأثروا بوعظه ووعيده، وهو من الهجران، وفيه تلويح بأن حق المؤمن أن يكون كثيراً التعاهد للقرآن؛ لئلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم. قال أنس: قال النبي عليه السلام: « مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ

فَعَلَّقَ مُصْحَفًا لَمْ يَتَعَاهَدَهُ، وَلَمْ يَنْظُرْ فِيهِ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقًا بِهِ، يَقُولُ: يَا رَبُّ الْعَالَمِينَ عَبْدُكَ هَذَا اتَّخَذَنِي مَهْجُورًا، أَقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ» (١).

وقيل: هو من هجر؛ إذا هذى، أى: قالوا فيه أقاويل باطلة، كالسحر، ونحوه، أو: بأن هجروا فيه إذا سمعوه، كقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ (٢)؛ أى: مهجوراً فيه.

وفيه من التحذير والتخويف ما لا يخفى، فإن الأنبياء - عليهم السلام - إذا شكروا إلى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب، ولم ينظروا.

ثم أقبل عليه؛ مسلماً، وواعداً لنصره عليهم، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْغَرَمِينَ﴾؛ فتسل بهم، واقتد بمن قبلك من الأنبياء، فمن هنا ساروا. أى: كما جعلنا لك أعداء من المشركين، يقولون ما يقولون، ويفعلون ما يفعلون من الأباطيل، جعلنا لكل نبي من الأنبياء، الذين هم أصحاب الشرائع والدعوة إليها، عدواً من مجرمي قومهم، فاصبر كما صبروا؛ فإن الله ناصر كمن نصرهم. ﴿وَكَفَىٰ بَرِيكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، وهو وعد كريم بالهداية له إلى مطالبه، والنصر على أعدائه، أى: كفالك مالك أمرك ومبلغك إلى غاية الكمال، هادياً إلى ما يوصلك إلى غاية الغايات، التي من جعلتها: تبليغ الكتاب، وإجراء أحكامه إلى يوم القيامة. أو: وكفى بربك هادياً لك إلى طريق قهرهم والانتصار منهم، وناصراً لك عليهم. والعدو: يجوز أن يكون واحداً وجمعاً، والباء: زائدة، و«هادياً ونصيراً»: تمييزان. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من السنة التي أجراها الله تعالى في خواصه: أن يكون جيرانهم وأقاربهم أزهد الناس فيهم، وأقربهم عليهم، وأعدى الناس إليهم. وفي الأثر: «أزهد الناس في العالم جيرانه». فلا يلتفت بالولي، في الغالب، إلا أبعد الناس منه، وقل أن تجد ولياً عمر سوقه في بلده، فالهجرة سنة ماضية، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. وكما جعل لكل نبي عدواً جعل لكل ولي عدواً، فلا بد للولي أن يبقى له من يحركه إلى ربه بالإذابة والتحريش، إما من جيرانه، أو من نسائه وأولاده؛ ليكون سيره بين جلاله وجماله، وكفى بربك هادياً ونصيراً.

ثم ذكر اقتراحهم الخاص بالقرآن، بعد ذكر اقتراحهم الخاص به - عليه الصلاة والسلام - فقال:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۖ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ

(١) عزاء المناوي في الفتح السماوي (٨٨١/٢) للعلبي، من طريق أبي هذبة إبراهيم بن هذبة، عن أنس، قال المناوي: وأبو هذبة كذاب.

(٢) من الآية ٢٦ من سورة فصلت.

تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا
وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذين كفروا﴾ يعنى: قريشاً، وهم القائلون: ﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ (١)، والتعبير عنهم بعنوان الكفر؛ لذهمهم، والإشعار بعلية الحكم، قالوا: ﴿لولا نزل عليه القرآن﴾، نزل هنا بمعنى أنزل، وإلا كان متدافعا؛ لأن التنزيل يقتضى التدرج بصيغته، وهم إنما اقترحوا الإنزال جملة، أى: هلا أنزل القرآن، حال كونه ﴿جملة واحدة﴾ أى: دفعة واحدة فى وقت واحد، كما أنزلت الكتب الثلاثة، وماله أنزل مفرقا فى ستين؟ وبطلان هذه المقالة الحمقاء مما لا يكاد يخفى على أحد؛ فإن الكتب المتقدمة لم يكن شاهد صحتها، ودليل كونها من عند الله، إعجازها، وأما القرآن الكريم، فبينة صحته، ودليل كونه من عند الله، نظم المعجز الباقي على مر الدهور، ولا ريب فى أن ما يدور عليه فلك الإعجاز هو المطابقة لما تقتضيه الأحوال، ومن ضرورة تغييرها وتجديدها تغير ما يطابقها حتماً، على أن له فوائد أخرى، قد أشير إلى بعض منها بقوله: ﴿كذلك أنشئت به فؤادك﴾؛ فإنه استئناف وارد من جهته تعالى؛ لرد مقالته الباطلة، وبيان الحكمة فى التنزيل التدريجى. قاله أبو السعود.

أى: أنزلناه كذلك مفرقا فى عشرين سنة، أو ثلاث وعشرين؛ لتثبت به فؤادك، ونقوى به يقينك، فكلمنا نزل شيء من الوحي قوى القلب، وازداد اليقين، حتى يصير إلى عين اليقين وحق اليقين. قال القشيري: لأنه لو كان دفعة واحدة لم يتكرر نزول جبريل - عليه السلام - بالرسالة فى كل وقت وحين. وكثرة نزوله كان أوجب؛ لسكون قلبه، وكمال روحه، ودوام أنسه، ولأنه كان جبريل يأتيه فى كل وقت بما يقتضيه ذلك الوقت من الكوائن والأمور العادئة، فكان ذلك أبلغ فى كونه معجزة، وكان أبعد من التهم من أن يكون من جهة غيره، وبالإستعانة بمن سواه. حاصل.

وقال القرطبي بعد كلام: وأيضاً: لو أنزل جملة، بما فيه من الفرائض؛ لثقل عليهم، وأيضاً: فى تفريقه تنبيه لهم، مرة بعد مرة، وهو أنفع لهم، وأيضاً: فيه ناسخ ومنسوخ، ولو نزل ذلك جملة لنزل فيه الأمر بالشىء ويتركه، وهو لا يصح. هـ. وقال السبكي: لنقوى، بتفريقه، فؤادك؛ حتى تعيه وتحفظه؛ لأن الملقى إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شىء، وجزءاً عقب جزء، ولو ألقى عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه. أو: لتثبت به فؤادك عن الضجر؛ وذلك بتواتر الوصول وتتابع الرسول؛ لأن قلب المحب يسكن بتواصل كتب المحبوب. هـ.

(١) الآية ٢١ من سورة الفرقان.

﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أى: كذلك فرقناه ورتلناه ترتيلاً بديعاً عجيباً، أى: قدرناه آية بعد آية، ووقفه عقب وقفه، وأمرنا بترتيل قراءته، بقولنا: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (١) أو: فصلناه تفصيلاً، أو: بيّناه تبييناً فيه ترتيل وتثبت.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ ؛ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة، واقتراحاتهم الفاسدة الخارجة عن دائرة العقول، الجارية لذلك مجرى الأمثال، ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ ؛ إلا أتيناك بالجواب الحق الذى لا محيد عنه، الذى ينحى عليه بالإبطال ويحسم مادة القيل والقال، كما مر من الأجوبة الحقية، القالعة لعروق أسئلتهم الشنيعة، الدامغة لها بالكلية. وجئناك بأحسن ﴿تفسيراً﴾ أى: بياناً وتفصيلاً، بمعنى أنه فى غاية ما يكون من الحسن فى حد ذاته، لا أن ما يأتون به حسن، وهذا أحسن منه، وإنما المعنى: لا يسألونك عن شيء غريب إلا جئناك بما يبطله وما يكشف معناه، ويفسره غاية التفسير.

ثم ذكر مآل الكفرة المقترحين لهذه الشبهة، فقال: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وجوههم إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أى: يُحْشَرُونَ كائنين على وجوههم، يسحبون عليها، ويجرون إلى جهنم. وقيل: مقلوبين؛ وجرهم إلى قفاهم، وأرجلهم فوق، ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أى: مكانة ومنزلة، أو: مسكناً ومنزلاً، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ؛ وأخطأ طريقاً.

ونزلت الآية لما قالوا: إن أصحاب محمد شر خلق الله وأضل الناس طريقاً. وقيل: المعنى: إن حاملكم على هذه السؤالات اعتقادكم أن محمداً ضال، ومكانه حقير، ولو نظرتم إلى ما يؤول إليه أمركم، لعلمتم أنكم شر منه مكاناً، وأضل سبيلاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: تثبت القلوب على الإيمان، وتربية اليقين، يكون بصحبة الأبرار ورؤية العارفين الكبار، والترقى فى معارج التوحيد، إلى أن يفضى إلى مقام العيان، يكون بعقد الصحبة مع أهل التربية، وخدمتهم وتعظيمهم، حتى يوصلوه إلى ربه. ومن شأنهم أن الله يدافع عنهم، ويجيب من سألهم تشغيلاً، فيلهمهم الجواب، فضلاً منه، فلا يسألون عن شيء إلا جاءهم بالحق وأحسن تفسيراً، ثم هدد من صغرهم وحقّر شأنهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ...﴾ الآية. والله تعالى أعلم.

ثم ردّ على من طلب إنزال القرآن جملة، بكون كتاب التوراة نزل جملة، ومع ذلك كفروا به، فقال:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

(١) من الآية ٤ من سورة المزمل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾؛ أنزل عليه جملة، ومع ذلك كفروا وكذبوا به، كما قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ (١)، فكذلك هؤلاء، لو نزل جملة، كما اقترحوا، لكفروا وكذبوا كما كذب أولئك. ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾، فأخاه: مفعول أول جعل، و(وزيراً): مفعول ثان، أى: جعلنا معه أخاه مقرباً ومعيناً. والوزير: من يرجع إليه ويتحصن برأيه، من الوزر، وهو العلج. والوزارة لا تنافى النبوة؛ فقد كان يبعث فى الزمن الواحد أنبياء، ويؤمرون أن يوازر بعضهم بعضاً، أو: يكون وزيراً أول مرة ورسولاً ثانياً.

﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: فرعون وقومه. والمراد بالآيات: التسع الظاهرة على يد موسى عليه السلام، ولم يتصف القوم بالتكذيب عند إرسالها إليهم ضرورة؛ لتأخير تكذيب الآيات عن إظهارها المتأخر عن إرسالها، بل إنما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله ﷺ، بياناً لعلة استحقاقهم، لما حكى بعده من التدمير. أى: فذهبوا إليهم فأرياهم آياتنا كلها، فكذبوها تكذيباً مستمراً، ﴿فَدَمَّرْنَا هُمْ﴾ إثر ذلك ﴿تَدْمِيرًا﴾ عجيباً هائلاً، لا يقادر قدره، ولا يدرك كله. فاقصر على حاشيتى القصة؛ اكتفاء بما هو المقصود. انظر أبا السعود.

الإشارة: أعباء الرسالة والولاية لا تحمل ولا تظهر إلا بمعين. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (٢)، ولا بد لصاحب الخصوصية من إخوان يستعين بهم على ذكر الله، ويستظهر بهم على إظهار طريقة الله. فإن وجد ولّى لا إخوان له، ولا أولاد، فلا يكون إلا غالباً عليه القبض، مائلاً لجهة الجذب، فيقل الانتفاع به، ولا تحصل التوسعة للولّى إلا بكثرة الأصحاب والإخوان، يعالجهم ويصبر على جفاهم، حتى يتسع صدره وتتسع معرفته. وبالله التوفيق.

ثم سلى نبيه بما جرى على الأمم قبله، فقال:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣٧) وَعَادًا وَثُمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرًا سَوَاءً أَفْكَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

(١) من الآية ٤٨ من سورة القصص.

(٢) من الآية ٢ من سورة المائدة.

قلت: (وقوم): منصوب بمضمر يدل عليه (دمرناهم)، أى: ودمرنا قوم نوح، و(عاداً وثمروداً): عطف على (قوم نوح).

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ دمرنا أيضاً ﴿قوم نوح﴾، وذلك أنهم ﴿لَمَّا كَذَبُوا الرِّسْلَ﴾؛ نوحاً، ومن قبله شيئاً وإدريس، أو: لأن تكذيبهم لواحد تكذيب للجميع؛ لا تَفَاقَهُمْ على التوحيد والإسلام، ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ بالطوفان، ﴿وجعلناهم﴾ أى: وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿لِلنَّاسِ آيَةً﴾: عبرة يعتبر بها كل من يشاهدها أو يسمعها. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾؛ هياناً ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ أى: لهم. وأظهر في موضع الإضمار؛ للإيذان بتجاوزهم الحد في الظلم، أو لكل ظالم ظلم شرك، فيدخل كل من شاركهم، كقريش وغيرهم، أى: هياناً ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾، أى: النار المؤبدة عليهم.

﴿و﴾ دمرنا أيضاً ﴿عاداً وثمروداً﴾، وقد تقدم في الأعراف^(١)، وهو كيفية تدميرهم. ﴿وأصحاب الرِّسِّ﴾، هم قوم شعيب؛ قال ابن عباس: أصحاب الرس: أصحاب البئر. قال وهب: كانوا أهل بئر، فعودا عليها، وأصحاب مواشى، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم شعيباً، فأذوه، وتمادوا في طغيانهم، فبينما هم حول البئر- والبئر في وسط منازلهم - انهارت بهم وبديارهم، فهلكوا جميعاً. وقال قتادة: الرس: قرية بقلح اليمامة، قتلوا نبيهم فأهلكهم الله. وقيل: هم بقية قوم هود وقوم صالح، وهم أصحاب البئر، التي قال: ﴿وَبَشِّرِ مُعْطَلَةَ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾^(٢).

وقال سعيد بن جبير وغيره: قوم كان لهم نبي، يقال له: حنظلة بن صفوان، وكان بأرضهم جبل، يقال له: فتح، مصعده في السماء ميل، وكانت العنقاء تلتابه، وهى كأعظم ما يكون من الطير، وفيها من كل لون - وسموها العنقاء؛ لطول عنقها - وكانت تنقض على الطير فتأكلها، فجاءت ذات يوم، فانقضت على صبي فذهبت به، - وسميت عنقاء مغرب؛ لأنها تغرب ما تأكله عن أهله، فتأكله - ثم انقضت على جارية قد ترعرعت، فأخذتها فطارت بها، فشكوا إلى نبيهم، فقال: اللهم خذها واقطع نسلها، فأصابتها صاعقة، فاحترقت، فلم ير لها أثر، فصارت مثلاً عند العرب. ثم إنهم قتلوا نبيهم فأهلكهم الله. وقال مقاتل والسدي: هم أصحاب بئر إنطاكية، وتسمى الرس، قتلوا فيها حبيباً النجار، فنُسبوا إليها، وهم الذين ذُكروا في (يس). وقيل: هم أصحاب الأخدود الذين حفروه، والرس في كلام العرب: كل محفور؛ مثل البئر، والقبر، والمعدن، وغير ذلك، وجمعها: رساس. وقال عكرمة: هم قوم رسوا نبيهم في بئر.

(١) راجع تفسير الآيات: ٦٥ - ٧٨ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٤٥ من سورة الحج.

قال النبي ﷺ: «إن أول الناس ممن يدخل الجنة عبد أسود، وذلك أن الله تعالى بعث نبياً إلى قرية، فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود، فحفر أهل القرية بئراً وألقوا فيها نبيهم، وأطبقوا عليها بحجر ضخماً، فكان العبد يحتطب على ظهره، ويأتيه بطعامه، فيعيثه الله تعالى على رفع تلك الصخرة حتى يذليه إليه. فبينما هو يحتطب ذات يوم إذ نام، فضرب على أذنه سبع سنين، ثم جاء بطعامه إلى البئر فلم يجد. وكان قومه قد بدا لهم فاستخرجوه وأمّنوا به، ومات ذلك النبي، فقال - عليه الصلاة والسلام: «إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة» (١)، يعني: من قومه. هـ. وهؤلاء أمّنوا فلا يصح حمل الآية عليها، إلا أن يكونوا أحدثوا شيئاً بعد نبيهم، فدمرهم الله.

وقال جعفر بن محمد عن أبيه: أن أصحاب الرس: السحاقات، قال أنس: قال النبي ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يستكفي الرجال بالرجال، والنساء بالنساء» (٢)، وذلك السحاق، ويقال له أيضاً: المساحقة، وهو حرام بالإجماع. وسبب ظهوره: أن قوماً أحدثوا فاحشة اللواط، حتى استغنوا عن النساء، فبقيت النساء معطلة، فجاءتهن شيطانة في صورة امرأة، وهي الولهات بنت إبليس، فشبهت إلى النساء ركوب بعضهن بعضاً، وعلمتهن كيف يصنعن ذلك، فسلط عليهم صاعقة من أول الليل، وخسفاً من آخر الليل، وصيحة مع الشمس، فلم يبق منهم بقية. هـ.

﴿وَقُرُونًا﴾ أي: دمرنا أهل قرون. والقرن: سبعون سنة، وقيل: أقل، وقيل: أكثر، ﴿بين ذلك﴾ أي: بين ذلك المذكور من الأمم والطوائف، ﴿كثيراً﴾، لا يعلم عددها إلا العليم الخبير، ﴿وكلاً﴾ من الأمم المذكورين قد ضربنا له الأمثال ﴿أي: بينا له القصص العجيبة، الزاجرة عما هم عليه من الكفر والمعاصي، بواسطة الرسل. وقيل: المراد: تبين ما وقع لهم، ووصف ما أدى إليه تكذيبهم لأنبيائهم، من عذاب الله وتدميره إياهم، ليكون عبرة لمن بعدهم، ﴿وكلاً﴾ أي: وكل واحد منهم ﴿تبرنا تبيراً﴾ أي: أهلكنا إهلاكاً عجيباً. والتبير: التفتيت. قال الزجاج: كل شيء كسرتة وفتته فقد تبرته.

ثم بين بعض آثار الأمم المتبرّة، فقال: ﴿ولقد أتوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿على القرية﴾، وهي سدوم، وهي أعظم قرى قوم لوط، وكانت خمساً، أهلك الله أربعاً، وبقيت واحدة، كان أهلها لا يعملون الخبيث، وأما البواقي فأهلكها بالحجارة، وإليه أشار بقوله: ﴿التي أمطرت مطراً سوءاً﴾ أي: أمطر الله عليها الحجارة. والمعنى: والله لقد أتى قريش في متاجرهم إلى الشام على القرية التي أهلكها الله، وبقي آثارها خاربة، ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٤/١٩١) عن محمد بن كعب القرظي، وانظر تفسير ابن كثير (٣/٣١٨).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٨٢/١٠ ح ١٠٥٥٦) مطولاً من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وفيه: يا ابن مسعود إن أعلام الساعة وأشراطها.. الحديث. قال في مجمع الزوائد ٣٢٣/٧. رواه الطبراني في الأوسط. وفيه: سيف بن مسكين، وهو ضعيف.

في مرورهم ورجوعهم، فيتفكرون ويؤمنون، ﴿بل كانوا لا يرجون نُشُوراً﴾ أى: بل كانوا قومًا كفرة بالبعث، لا يخافون ولا يأملون بعثًا، كما يأمله المؤمنون؛ لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم. أو: بل كانوا قومًا كفرة بالبعث، منهمكين في الغفلة، يرون ما نزل بالأمم أمرًا اتفاقيًا، لا بقدره الباقي، فطابع الكفر منعهم من التفكير والاعتبار. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى للمؤمن العاقل، المشفق على نفسه، أن ينظر فيمن هلك من الأمم السالفة، ويتأمل في سبب هلاكهم، فيشد يده على الاحتراز مما استوجبوا به الهلاك، وهو مخالفة الرسل وترك الإيمان؛ فيشد يده على متابعة ما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي، ويرغب فيما رغب فيه، ويهتدى بهديه، ويقتدى بسنته، ويربى إيمانه، ويجعل البعث والنشر والحشر بين عينيه، فهذه طريق النجاة. وينبغى للمريد، إذا رأى فقيرًا سقط من درجة الإرادة ويبست أشجاره، أن يحترز من تلك الزلافة التي زلق فيها، فيبحث عن سبب رجوعه، ويجتنبه جهد استطاعته. ومرجعها إلى ثلاث: خروجه من يد شيخه إلى غيره، وسقوط تعظيم شيخه من قلبه؛ بسبب اعتراض أو غيره، واستعمال كثرة الأحوال، حتى يلحقه الملل. نسأل الله الحفظ من الجميع بمنه وكرمه.

ثم ذكر وبال من لم يعظم الوسطة، فقال:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۖ﴾
 ﴿٤١﴾ **إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**
حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ **أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ**
تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ**
إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ أى: مشركوكمكة ﴿إِنْ﴾ ما ﴿يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أى: مهزوءًا بك، أو محل هزء، حال كونهم قائلين: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾، ورسولا: حال من العائد المحذوف، أى: هذا الذى بعثه الله رسولا، والإشارة؛ للاستحقاق فى اعتقادهم وتسليمهم البعث والرسالة، مع كونهم فى غاية الإنكار لهما؛ على طريق الاستهزاء، وإلا لقالوا: أبعث الله هذا رسولا.

﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أى: ليصرفنا عن عبادتها صرفاً كلياً، والعدول إلى الإضلال؛ لغاية ضلالهم بادعاء أن عبادتها طريق سوى. ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لصرفنا عنها، وهو دليل على مجاهدة الرسول ﷺ فى دعوتهم، وإظهار المعجزات لهم، حتى شارفوا أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا قرط لجاجهم وتقليدهم. قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ الذى يستوجبه كفرهم وعنادهم، ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وأخطأ طريقاً. وفيه ما لا يخفى من الوعيد والتنبيه على أنه تعالى يمهّل ولا يهمل.

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أى: أطاع هواه فيما يذر ويفعل، فصار معبوده هواه، يقول لرسوله ﷺ: هذا الذى لا يرى معبوده إلا هواه، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى وتهديه إليها؟ يروى أن الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد الحجر، فإذا مر بحجر أحسن منه تركه وعبد الثانى. وقال الحسن: هو فى كل متبع هواه. ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾، حفيظاً تحفظه عن متابعة هواه وعبادة ما يهواه. والفاء؛ لترتيب الإنكار على ما قبله، كأنه قيل: أبعدماً شاهدت من غلوه فى طاعة الهوى، وعتره عن اتباع الهدى، تقهره على الإيمان، شاء أو أبى، وإنما عليك التبليغ فقط.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ، «أم: منقطعة، بمعنى بل، أى: بل أظن أن أكثرهم يسمعون ما تكلّم عليهم من الآيات حق السماع، أو يعقلون ما فى تضاعيفها من المواعظ والأحكام؟» ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ أى: ما هم، فى عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات، وانتفاء التأثير بما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات، إلا كالبهائم، التى هى غاية فى الغفلة، ومثل فى الضلالة، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، لأن البهائم تنقاد لصاحبها الذى يعلفها ويتعاهدها، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وتهتدى لمراعيها ومشاربها، وتأوى إلى معاطنها، وهؤلاء لا يتقادرون لخالقهم ورازقهم، ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان، الذى هو أعدى عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذى هو أقبح المضار والمعاطب، ولا يهتدون إلى الحق، الذى هو الشرع الهنى، والمورد العذب الروى، ولأنها، إن تعتقد حقاً مستتباً لاكتساب الخير، لم تعتقد باطلاً مستوجباً لاقتراب الشر، بخلاف هؤلاء؛ حيث مهّدوا قواعد الباطل، وفرعوا أحكام الشرور، ولأن أحكام جهالتها وضلالها مقصورة عليها، لا تتعدى إلى أحد، وجهالة هؤلاء مؤدية إلى ثوران الفساد، وصد الناس عن سنن السداد، وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال، لعدم القوى العقلية، فلا تقصير من قبلها، ولا ذم، وهؤلاء متمكنون من القوى العقلية مضيعون الفطرة الأصلية، مستحقون بذلك أعظم العقاب، وأشد النكال. هـ. وأصله للبيضاوى.

الإشارة: تعظيم الرسول ﷺ وإجلاله وتوقيره من أعظم ما يقرب إلى الله، ويوصل إلى رضوان الله، ويدخل العبد على مولاه؛ لأنه باب الله الأعظم، والواسطة الكبرى بين الله وبين عباده، فمن عظمه ﷺ وبجّله وخدمه أتم الخدمة، أدخله الحضرة، على التوقير والتعظيم والهيبة والإجلال. ومن حاد عن متابعتة فقد أتى البيت من غير بابه؛ كمن دخل حضرة الملك بالنسور، فيستحق القتل والطرْد والبُعد. وإدخاله على الله: دلالة على من يعرفه بالله، وقد يوصله بلا واسطة، لكنه نادر. ومن أهمل هذا الجانب واستصغره طرده الله وأبعده، وانسحب عليه قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾، وكان ممن اتخذ إليه هواه، وكان كالبهائم، أو أضل؛ لأن من اتبع الواسطة كان هواه تابعاً لما جاء من عند الله، وقد قال ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ». وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل توحيده، بعد بيان من غفل عنها وضل، فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٦ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ۝٤٧ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُخْرِجَ بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ۝٤٩ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ أى: ألم تنظر إلى بديع صنع ربك ودلائل قدرته وتوحيده. والتعرض لعنوان الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام -، لتشريفه وتبجيله، وللإيدان بأن ما يعقبه من آثار قدرته ورحمته، ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أى: بسطه حتى عم الأرض، وذلك من حين طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس، فى قول الجمهور؛ لأنه ظل محدود، لا شمس معه ولا ظلمة، فهو شبيه بظل الجنة. وقيل: مد ظل الأشياء الشاخصة أول النهار؛ من شجر، أو مدر، أو إنسان، ثم قبضها وردها إلى المشرق. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أى: دائماً لا يزول ولا تذهب الشمس، أو: لا ينتقص بسيرها. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ

عليه ﴿ أَي: على الظل ﴾ دليلاً ﴿ ، لأنه بالشمس يُعرف الظل، فلولا طلوعها وظهورها ما عرف الظل، ولا ظهر له أثر، فالأشياء تُعرف بأضدادها.

﴿ ثم قبضناه ﴾ أَي: أخذنا ذلك الظل الممدود ﴿ إلينا ﴾ ؛ إلى حيث إرادتنا ﴿ قَبْضاً يسيراً ﴾ أَي: على مهل قليلاً قليلاً، حسب ارتفاع دليله، على حسب مصالح المخلوقات ومراققتها.

﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً ﴾ أَي: جعل الظلام الساتر كاللباس ﴿ والنوم سباتاً ﴾ أَي: راحة لأبدانكم، وقطعاً لأعمالكم. والمبيت: القطع، والنائم مسبوت؛ لأنه انقطع عمله وحركته، وقيل السبات: الموت، والميت مسبوت؛ لأنه مقطوع الحياة، كقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ (١). ويعضده ذكر النشور في مقابلته بقوله: ﴿ وجعل النهار نشوراً ﴾ أَي: ذا نشور، أَي: انبعاث من النوم، كنشور الميت، أو: ينشر فيه الخلق للمعاش.

وهذه الآية، مع دلالتها على قدرته تعالى، فيها إظهار لنعمته تعالى؛ لأن في الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية ودنيوية، وفي النوم واليقظة - المشبهين بالموت والبعث - عبرة للمعتبرين. قال لقمان لابنه: كما تنام فتوقظ، كذلك تموت فتنشور.

﴿ وهو الذي أرسل الرياح ﴾ ، وعن المكي بالإفراد، ﴿ نشراً ﴾ (٢): جمع نشور، أَي: أرسلها للسحاب حتى تسوقها إلى حيث أراد تعالى أن تمطر، ﴿ بين يدي رحمته ﴾ أَي: أرسلها قدام المطر، لأنه ريح، ثم سحاب، ثم مطر. وقرأ عاصم بالباء، أَي: مبشرات بالمطر. ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً ﴾ أَي: مطهراً بالغاً في التطهير، كقوله: ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ (٣) وهو اسم لما يتطهر به، كالوضوء والوقود، لما يتوضأ به ويوقد به. وقيل: طهور في نفسه، مبالغة في الطاهرية، فالطهور في العربية يكون صفة، كما تقول: ماء طهور، واسماً، كما في قوله ﷺ: «التراب طهور، والمؤمن طهور»، وقد يكون مصدرًا بمعنى الطهارة، كقولك: تطهرت طهوراً حسناً، ومنه قوله ﷺ: «لا صلاة إلا بطهور» (٤). ووصفه تعالى الماء بذلك؛ ليكون أبلغ في النعمة، فإن الماء الطهور أنفع وأهناً مما خالطه ما يزيل طهوريته، أَي: أنزلناه كذلك.

﴿ لنُحْيِي بِهِ ﴾ أَي: بالمطر الطهور ﴿ بلدة ميتاً ﴾ بالجذب والقحط، فحييت بالنبات والعشب. والتذكير؛ لأن البلدة بمعنى البلد، والمراد به: القطعة من الأرض عامرة أو غامرة. ﴿ ونُسْقِيهِ ﴾ أَي: ذلك الماء الطهور، عند

(١) من الآية ٦٠ من سورة الأنعام.

(٢) قرأ عاصم: «بشراً، بالباء، وقرأ الياقون، بالنون».. انظر الإتحاف (٣٠٩/٢).

(٣) من الآية ١١ من سورة الأنفال.

(٤) أخرجه بطوله مسلم في (الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة، ١/٢٠٤، ح ٢٢٤) من حديث ابن عمر. رضي الله عنه: (لا تقبل صلاة بغير طهور، الحديث).

جريانه في الأودية، أو اجتماعه في الآبار والحياض، ﴿مما خلقنا أنعاماً وأناساً كثيراً﴾ أي: نسقى ذلك بهائم وناساً كثيراً. والأناسي: جمع أنسي، ككرسي وكراسي. وقيل: جمع إنسان، وأصله: أناسين، وأبدلت التون ياءً، وأدغمت التي قبلها فيها. وقدم إحياء الأرض على سقى الأنعام والأناسي؛ لأن حيائها سبب لحياتهما. وتخصيص الأنعام من بين سائر الحيوان؛ لأن عامة منافع الإنسان متعلقة بها.

﴿ولقد صرفناه﴾ أي: هذا القول، الذي هو إنشاء السحاب وإنزال المطر، على الوجه الذي مر من الغايات الجميلة، في القرآن وغيره من الكتب السماوية، أو: صرفنا المطر عاماً بعد عام وفي بلدة دون أخرى. أو: صرفناه بينهم وإبلاً، وملاً، ورذاذاً وديعة. وقيل: التصريف راجع إلى الريح. وقيل: إلى القرآن المتقدم في قوله: ﴿لولا أنزل عليه القرآن..﴾ (١) ويعضده: ﴿وجاهدكم به﴾ (٢). وقوله: ﴿بينهم﴾ أي: بين الناس جميعاً متقدمين ومتأخرين، ﴿ليذكروا﴾؛ ليتفكروا ويعرفوا قدر النعمة فيه، أو: ليعرفوا بذلك كمال قدرته وسعة رحمته، ﴿فأبى أكثر الناس﴾ ممن سلف وخلف ﴿إلا كفوراً﴾ أي: جحوداً لهذه النعمة وقلة اكتراث بها، وربما نسبوها إلى غير خالقها، فيقولون: مطرنا بدؤنا كذا.

وفي البخاري عنه عليه السلام يقول الله تعالى: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي، كافر بالكواكب. وأما من قال: مطرنا بدؤنا كذا، فهو كافر بي، مؤمن بالكواكب» (٣). فمن نسب الأمطار إلى الأنواء، وجحد أن تكون هي والأنواء من خلق الله، فقد كفر، ومن اعتقد أن الله خالقها، وقد نصب الأنواء أمارات ودلالات عليها، لم يكفر.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس سنة بأمطر من الأخرى، ولكن الله تعالى قسم هذه الأرزاقي، فجعلها في سماء الدنيا، في هذا القطر، ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم. ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي حرل الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى القياقي والبحار» (٤). والله تعالى أعلم.

الإشارة: الكون كله، من جهة حسه الظاهر، ظل آقل، وضباب حائل، لا وجود له من ذاته، وإنما الوجود للمعاني القديمة الأزلية. فنسبة الكائنات، من بحر المعاني الأزلية، كنسبة ظلال الأشجار في البحار، فظلال

(١) الآية ٣٢ من هذه السورة. (٢) الآية ٥٢.

(٣) أخرجه البخاري في (الاستسقاء، باب قول الله تعالى: ﴿وتجطون رزقكم أنكم تكذبون﴾ ح ١٠٣٨) ومسلم في (الإيمان، باب كفر من قال: مطرنا بالأنواء، ح ٨٣/١، ١٢٥)، عن زيد بن خالد الجهني.

(٤) ذكره بلفظه البغوي في تفسيره (٨٩/٦) وعزاه لابن إسحاق، وابن جريج، ومقاتل، وبلغوا به ابن مسعود يرفعه. وأخرج الحاكم في المستدرک (التفسير ٤٠٣/٢)، عن ابن عباس: «ما من عام، أمطر من عام، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما يشاء»، وتلا هذه الآية. يعنى: قوله: ﴿ولقد صرفناه بينهم﴾ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي على شرط الشيخين.

الأشجار في البحار لا تمنع السفن من التسيار، فكذلك ظلال الكائنات لا تمنع سفن الأفكار من الخوض في بحار المعاني الأزلية الجبروتية، بل تخرقها، وتخوض في بحار الأحدية الجبروتية، الأولية والآخرة، والظاهرية والباطنية، والعلوية والسفلية، ولا يحجبها عن الله ظل شيء من الكائنات، وإليه الإشارة بقوله: ألم تر، أيها العارف، إلى ربك كيف مد الظل، أي: مد ظل الكائنات؛ ليعرف بها كنز ربوبيته ويطون غيبه، ثم يرفع ذلك الظل عن عين البصيرة، التي أراد فتحها، فتشاهد بطون الأزل وغيب الغيب، وتصير عارفة بالله. ولو شاء لجعله ساكناً، فيقع به الحجاب، فيحجب العبد بسحب الآثار عن شهود الأنوار. ثم جعلنا شمس العرفان عليه أي: على الأثر، دليلاً، فيستدل بالله على غيره، فلا يرى غيره، ثم قبضناه، أي: ذلك الظل، عن قلب السائر أو العارف، قبضاً يسيراً، فيغيب عنه شيئاً فشيئاً، حتى يفنى عن حسه وحس غيره من الكائنات، فلا يشهد إلا المكون؛ لأن ذلك إنما يكون بالتدرج والتدريب، فإذا تحقق فناؤه رجع إلى شهود الأثر بالله (١)؛ قياماً برسم الحكمة، وأداءً لحق العبودية.

وهو الذي جعل ليل القبض لباساً، أي: سترًا ورداء من الهفوات؛ لأن القبض يغلب فيه السكون، وجانبه مأمون، والنوم - أي: الزوال - سباتاً، أي: راحة من كد التدبير والاختيار، وجعل نهار البسط نشوراً، تلتشر فيه العلوم وتنبسط فيه المعارف، إن قام صاحبه بأدابه، ولا يقوم به إلا القليل؛ لأنه مزلة أقدام، ولذلك قال في الحكم: «ربما أفادك في ليل القبض ما لم تستفده في إشراق نهار البسط، لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً».

وهو الذي أرسل رياح الواردات الإلهية نُشراً بين يدي رحمته، أي: معرفته؛ إذ لا رحمة أعظم منها، وأنزلنا من سماء الغيوب ماءً طهوراً، وهو العلم بالله، الذي تحيا به الأرواح والأسرار، وتطهر به قلوب الأحرار، لنحيا به بلدة ميتة، أي: روحاً ميتة بالجهل والغفلة، ونُسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً؛ لأن ماء المعاني سار في كل الأواني؛ فماء التوحيد سار في الأشياء كلها، جهل هذا من جهله، وعرفه من عرفه. وأكثر الناس جاحدون لهذا. ولذلك قال تعالى: «ولقد صرفناه بينهم»؛ فكل شيء فيه سر من حياة هذا الماء، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً وجحوداً له، ولم ينتفع به إلا خواص أوليائه. وبالله التوفيق.

ثم إن هذا الماء إنما يسقى على أيدي الوسائط. وكان القياس تعددهم كتعدد سحابات الأمطار بتعدد الأقطار، لكن خولف ذلك في حق نبينا ﷺ؛ تشریفاً لقدره، وتعظيماً لأمره، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ
وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾

(١) إذن فهو فناء شهود، وليس فناء وجود. فقلبه، أعزك الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ أي: رسولا يُنذِر أهلها، ولقسمنا النذر بينهم كما قسمنا المطر، فيخف عليك أعباء الدبوة، ولكننا لم نشأ ذلك؛ فحملناك ثقل نذارة جميع القرى، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١)؛ لنستوجب بذلك الدرجة القصوى، وتفضل على سائر الرسل والأنبياء، ﴿فَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداونتهم. وكما آثرتك على جميع الأنبياء فآثر رضاي على جميع الأهواء، وكأنه نهى للرسول ﷺ عن المداراة معهم، والتقصير في الدعوة؛ لئلا تغلبه الشفقة عن مقابلتهم بصريح الحق.

قال القشيري: ﴿فَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: كن قائما بحقنا، من غير أن يكون منك جنوح إلى غيرنا، أو مبالاة بسوانا، فإننا نعصمك بكل وجه، ولا نرفع عنك ظل عنايتنا بحال. هـ.

﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن؛ بأن تقرأ عليهم ما فيه من الزواجر والقوارع والمواعظ، وذكر أحوال الأمم الهالكة، ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾؛ عظيمًا موقعه عند الله؛ لما يتحمل فيه من المشاق، فإن دعوة كل العالمين، على الوجه المذكور، جهاد كبير، أو: (جاهدهم به)؛ بالشدة والعنف؛ من غير مداداة ولا ملاينة، فكبير الجهاد هو ملاسته بالشدة والعنف، كقوله: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (٢). والله تعالى أعلم.

الإشارة: الإنذار والوعظ بالمقال مع الهمة والحال عزيز الوجود، فقل أن يجتمع منهم، في العصر الواحد، ثلاثة أو أربعة في الإقليم الكبير؛ لأن الله تعالى لم يشأ ذلك بحكمته، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾، وكلما قل عددهم، وعظم الانتفاع بهم، عظم قدرهم، فينبغي للمذكر أن يذكر كلاً بما يليق به، فأهل العصيان ينبغي له أن يشدد في الإنذار، ولا يداريهم ولا يداونهم. وأهل الطاعة ينبغي له أن يبشرهم ويسهل الأمر عليهم، وقد قال ﷺ: «يَسِّرُوا وَلَا تَعْسِرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا» (٣)، فيحتاج المذكر إلى فطنة وفراصة، حتى يعطى كل واحد ما يليق به، ويخاطب كل واحد بما يطيقه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دليلاً آخر على كمال قدرته، فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ (٥٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾

(١) من الآية الأولى من سورة الفرقان. (٢) من الآية ٧٣ من سورة التوبة، والآية ٩ من سورة التحريم. (٣) أخرجه البخاري في (كتاب العلم، باب: ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة، ح ٦٩) ومسلم في (الجهاد والسير. باب الأمر بالتيسير وترك التنفير، ١٣٠٩/٣، ح ١٧٣٤) من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه.

وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

قلت: أصل المرج: الخلط والإرسال، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ (١)، وقوله ﷺ: «كيف بك يا عبدالله: أتت في حثالة من الناس، قد مرجت عهودهم وأماناتهم، وصاروا هكذا، وشبك بين أصابعه» (٢). يقال: مرج: دابته وأمرجتها: إذا أرسلتها في المرعى. ومنه قيل للروضة: مرج.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذي مرج البحرين﴾ أي: أرسلهما، وخلأهما متجاورين متلاصقين غير متمازجين. ﴿هذا عذب فرأت﴾ أي: شديد العذوبة، قانع للعيش؛ لعذوبته، أي: برودته، ﴿وهذا ملح أجاج﴾: بليغ الملوحة، أو: هذا عذب لا ملوحة فيه، وهذا ملح لا عذوبة فيه، مع اتحاد جنسهما، ﴿وجعل بينهما برزخاً﴾: حائلاً بقدرته، يفصل بينهما ويمنعهما التمازج؛ لئلا يختلطا، ﴿وحجراً محجوراً﴾ أي: وستراً ممنوعاً عن الأعين، كقوله: ﴿حجاباً مستوراً﴾ (٣)، أي: جعل بينهما حاجزاً خفياً؛ لئلا يقلب أحدهما الآخر، أو: سداً ممنوعاً يمنعهما فلا يبغيان، ولا يفسد الملح العذب، ولو خلأ الله تعالى البحر الملح، ولم يلجمه بقدرته، لفاض على الدنيا، واختلط مع العذب وأفسده.

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال: ﴿وهو الذي خلق من الماء﴾ أي: النطفة ﴿بشراً﴾: إنساناً ﴿فجعله نسباً وصهراً﴾. قسم البشر قسمين: ذوى نسب، أي: ذكوراً، ينسب إليهم، فيقال: فلان ابن فلان. وذوات صهر، أي: إناثاً يصاهر بهن، فهو كقوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (٤). قال ابن جزي: والنسب: أن يجتمع إنسان مع آخر في أب أو أم، قرب ذلك أو بعد. والصهر: هو الاختلاط بالتناكح. هـ. وعن علي رضي الله عنه: النسب ما لا يحل نكاحه، والصهر: ما يحل نكاحه. وعن الضحاك ومقاتل: النسب سبعة، والصهر خمسة، ثم قرأ هذه الآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ (٥). فالسبعة الأولى: نسب، والباقي: صهر. هـ. والأصح أن التسعة نسب، والباقي صهر.

(١) من الآية ٥ من سورة ق.

(٢) أخرجه ابن حبان (الإحسان ٥٧٥/٧ ح ٥٩٢٠) عن أبي هريرة، وأخرجه أحمد في المسند (١٦٢/٢)، وأبو داود في (الملاحم، باب الأمر والنهي، ٥١٣/٤ ح ٤٣٤٢) وابن ماجه في (الفتن، باب التثبت في الفتنة، ١٣٠٧/٢ ح ٣٩٥٧)، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٤) من الآية ٣٩ من سورة القيامة.

(٣) من الآية ٤٥ من سورة الإسراء.

(٥) من الآية ٢٣ من سورة النساء.

﴿وكان ربك قديراً﴾؛ حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً ذا نوعين، ذكراً وأنثى، أو: حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة، وجعله قسمين متقابلين؛ ذكراً وأنثى.

﴿ويعبدون من دون الله﴾، بعد هذا البرهان الواضح على توحيده، ﴿ما لا ينفعهم﴾ إن عبده، ﴿ولا يضرهم﴾ إن تركوه، وهم الأصنام، أو كل من عبد من دون الله؛ إذ المخلوق كله عاجز، ﴿وكان الكافر على ربه﴾، الذي ذكر آثار قدرته ودلائل ربوبيته، ﴿ظهيراً﴾؛ معيناً، يظهر الشيطان ويعينه على الكفر والعصيان. والمعنى: أن الكافر؛ بعبادة الصنم، يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الرحمن. وقال ابن عرفة: أى: مظاهراً لأعداء الله على أولياء الله، فتلك إعانتة. هـ.

الإشارة: مرج البحرين؛ بحر الشريعة وبحر الحقيقة، فبحر الشريعة عذب فرات؛ لأنه سهل المدارك، يناله الخاص والعام، وبحر الحقيقة ملح أجاج؛ لأنه لا يناله إلا من ذاق مرارة فطام النفس من هواها، ومجاهدتها فى ترك مآها، حتى تموت ثم تحيا، فحينئذ تتلذذ بمشاهدة مولاها، وتطيب حياتها فى أخراها ودنياها. فبحر الحقيقة صعب المرام، لا يركبه إلا الشجعان، وفى ذلك يقول صاحب العينية رحمته الله:

وَأَيَّاكَ جَزَعاً (١) لَا يَهْوُوكَ أَمْرُهَا فَمَا نَالَهَا إِلَّا الشَّجَاعُ الْمُقَارِعُ

والبرزخ الذى جعل بينهما: نور العقل، يميز بين محل الشرائع ومحل الحقائق، فيعطى كل ذى حق حقه، ويوفى كل ذى قسط قسطه.

ثم ذكر شأن الوسطة، التى هى سبب لركوب البحرين، فقال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما أرسلناك﴾ يا محمد ﴿إلا مبشراً﴾ للمؤمنين ﴿ونذيراً﴾ للكافرين، ﴿قل ما أسألكم عليه﴾؛ على تبليغ الرسالة ﴿من أجر﴾ من جهنم، فتقولون: إنما يطلب محمد جمع أموالنا، ﴿إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أى: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه طريقاً توصله إليه، بإنفاقه ماله فى سبيل الله، فليفعل وليعطه لغيره. وقيل: الاستثناء متصل، أى: لا أسألكم عليه أجراً، إلا فعل من يريد أن يتقرب إليه

(١) فى العينية: حَزْماً. انظر الديوان (ص ٧٨).

تعالى، ويطلب الزلفى عنده بالإيمان والطاعة، حسبما أدعوكم إليهما. فصور ذلك بصورة الأجر؛ من حيث إنه مقصود الإتيان به، واستثناء منه؛ قطعاً لشائبة الطمع، وإظهاراً لغاية الشفقة عليهم، حيث جعل ذلك، مع كون نفعه عائداً إليهم، عائداً إليه ﷻ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: العلماء بالله خلفاء الرسل، فما أظهرهم الله في كل زمان إلا ليذكروا الناس ويعظوهم، ويبنّوهم وينذروهم، من غير عوض ولا طمع، فإن تعلقت هممتهم بشيء من عرض الدنيا؛ من أيدي الناس، كسف ذلك نورهم، وإن نص نفعهم، قلّ الاهتداء على أيديهم، وقد تقدم هذا مراراً. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه بالتوكل، ليغيب عن خيرهم وشرهم، وعن طلب الأجر منهم، فقال:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَّأَلْ بِهِ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۝٦٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾ في الاستكفاء عن شرورهم، والاعتناء عن أجورهم، أي: ثق به؛ فإنه يكفيك عن الطمع فيمن يموت، فلا تطلب على تبليغك من مخلوق أجراً، فإن الله كافيك. قرأها بعض الصالحين فقال: لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق. ﴿ وسبح ﴾ أي: ونزهه أن يكل إلى غيره من توكل عليه، ﴿ بحمده ﴾ أي: بتوفيقه الذي يوجب الحمد، أو: قل سبحان الله وبحمده، أو: نزهه عن صفات النقصان، مثلياً عليه بنعوت الكمال، طالباً لمزيد الإنعام، ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ أي: كفى الله خبيراً بذنوب عباده، ما ظهر منها وما بطن، يعني: أنه خبير بأحوالهم، كافٍ في جزاء أعمالهم

﴿ الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾ أي: في مدة مقدارها [سنة أيام] (١)؛ إذ لم يكن ليل ولا نهار. وعن مجاهد: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، وإنما خلقها في هذه المدة، وهو قادر على خلقها في لحظة، تعليمًا لخلق الرفق والنثبت. ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ استواء يليق به، ﴿ الرحمن ﴾ أي: هو الرحمن، أو: فاعل استوى، أي: استوى الرحمن برحمانيته على العرش وما احتوى عليه. وراجع ما تقدم في الأعراف. (٢) ﴿ فاسأل

(١) زيادة ليست في الأصول. (٢) راجع: تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف (٢/٢٢٣ - ٢٢٥).

به خبيراً ﴿ أَيْ: سَلَّ عَنْهُ رَجُلًا عَارِفًا خَبِيرًا بِهِ، يُخْبِرُكَ بِرَحْمَانِيَّتِهِ. وَكَانُوا يَنْكُرُونَ اسْمَ الرَّحْمَنِ، وَيَقُولُونَ: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا الَّذِي بِالْإِمَامَةِ، يَعْطُونَ: مَسْلِمَةَ الْكَذَابِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: رَحْمَنُ الْإِمَامَةِ، غُلُوبًا فِيهِ، فَأَمَرَ نَبِيِّهِ أَنْ يُسْأَلَ مَنْ لَهُ خُبْرَةٌ وَعِلْمٌ بِالْكِتَابِ الْمَتَّقِمَةِ عَنْ اسْمِ الرَّحْمَنِ، فَإِنَّهُ مَذْكُورٌ فِي الْكِتَابِ الْمَتَّقِمَةِ.

قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن العارف: والظاهر: أن الخبير هو الله، أَيْ: اسْأَلِ اللَّهَ الْخَبِيرَ بِالْأَشْيَاءِ، الْأَعْلَمَ بِخَفَايَاهَا، وَالتَّقْدِيرَ: فَسَلَّ بِمِثَالِكَ إِيَّاهُ خَبِيرًا. وَإِنَّمَا اسْتَظْهَرْنَا هَذَا الْقَوْلَ؛ لِأَنَّ الْمَأْمُورَ بِالسُّؤَالِ الرَّسُولَ ﷺ، وَتَجَلَّى رَتْبُهُ عَنْ سُؤَالِ غَيْرِ رِبِّهِ. وَالْمُرَادُ: فَسَلَّ اللَّهَ الْخَبِيرَ بِالرَّحْمَنِ وَوَصَفَهُ. انْظُرْ تَمَامَ كَلَامِهِ.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أَيْ: إِذَا قَالَ مُحَمَّدٌ لِلْمَشْرِكِينَ: ﴿ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ ﴾؛ صَلُّوا لَهُ، أَوْ: اخْضَعُوا، ﴿ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ أَيْ: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ فَنَسْجُدُ لَهُ، قَالُوا ذَلِكَ: إِمَّا لِأَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَطْلُقُونَهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ لِأَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ غَيْرُهُ تَعَالَى. ﴿ أُنَسِّجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ أَيْ: لِلَّذِي تَأْمُرُنَا بِالسُّجُودِ لَهُ، أَوْ لِأَمْرِكَ بِالسُّجُودِ لَهُ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِثْلِهِ. وَهُوَ مِنْهُمْ عِنَادٌ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ: ذُو الرَّحْمَةِ الَّتِي لَا غَايَةَ لَهَا؛ لِأَنَّ فَعْلَانًا يَدُلُّ عَلَى الْمُبَالَغَةِ، وَهُمْ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ. ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ أَيْ: زَادَهُمُ الْأَمْرَ بِالسُّجُودِ لِلرَّحْمَنِ تَبَاعُدًا عَنِ الْإِيمَانِ وَنُفُورًا عَنْهُ. وَيَا اللَّهُ التَّوْفِيقُ.

الإشارة: قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى التَّوَكُّلِ فِي مَوَاضِعَ. وَلِلتَّشْيِيرِ هَذَا كَلَامٌ، وَمُلْخَصُهُ بِاخْتِصَارٍ: أَنَّ التَّوَكُّلَ: تَفْرِيطُ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَأَصْلُهُ: عَلِمَ الْعَبْدُ بِأَنَّ الْحَادِثَاتِ كُلَّهَا حَاصِلَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى إِيجَادِ شَيْءٍ أَوْ دَفْعِهِ، فَإِذَا عَرَفَ الْعَبْدُ هَذَا، وَعَلِمَ أَنَّ مَرَادَ اللَّهِ لَا يَرْتَفِعُ وَلَا يَدْفَعُ، حَصَلَ لَهُ التَّوَكُّلُ. وَهَذَا الْقَدْرُ فَرَضٌ، وَهُوَ مِنْ شَرَائِطِ الْإِيمَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فِتْوَاكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١)، وَمَا زَادَ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ: مَنْ سَكُنَ الْقَلْبَ، وَطَمَأْنِنَتْهُ، وَزَوَالَ الْانْزِعَاجَ وَالْاضْطِرَابَ، فَهُوَ مِنْ أَحْوَالِ التَّوَكُّلِ وَمَقَامَاتِهِ.

فَالنَّاسُ فِي الْاِكْتِفَاءِ وَالسُّكُونِ عَلَى أَقْسَامٍ وَدَرَجَاتٍ، فَأَوَّلُ رَتْبَةٍ فِيهِ: أَنْ يَكْتَفَى بِمَا فِي يَدِهِ، وَلَا يَطْلُبُ الزِّيَادَةَ عَلَيْهِ، وَيَسْتَرِيحُ قَلْبُهُ مِنْ طَلَبِ الزِّيَادَةِ. وَتُسَمَّى هَذِهِ الْحَالَةُ: الْقَنَاعَةُ، فَيَقْنَعُ بِالْحَاصِلِ، وَلَا يَسْتَزِيدُ مَا لَيْسَ بِحَاصِلٍ - يَعْنِي: مَعَ وَجُودِ الْأَسْبَابِ - ثُمَّ بَعْدَ هَذَا سَكُونُ الْقَلْبِ فِي حَالِ عَدَمِ الْأَسْبَابِ، وَهُوَ مَقَامُ التَّجْرِيدِ، وَهُمْ مُتَبَايِنُونَ فِي الرَّتْبَةِ: وَاحِدٌ يَكْتَفَى بِوَعْدِهِ؛ لِأَنَّهُ صَدَّقَهُ فِي ضَمَانِهِ، فَسَكُنَ قَلْبُهُ عِنْدَ فَقْدِ الْأَسْبَابِ ثِقَةً مِنْهُ بِوَعْدِهِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنْ التَّوَكَّلَ: سَكُنَ الْقَلْبَ بِضَمَانِ الرَّبِّ، وَيُقَالُ: سَكُنَ الْجَاشُ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ، وَيُقَالُ: الْاِكْتِفَاءُ بِوَعْدِهِ عِنْدَ عَدَمِ نَقْدِهِ.

(١) مِنَ الْآيَةِ ٢٣ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ.

والطف من هذا أن يكتفى بعلم الله، فيشتغل بمولاه، ولا يلتفت إلى إنجاز وعد ولا ضمان، فيكل أمره إلى الله، وهذه حالة التسليم. وفوق هذه: التفويض، وهو أن يكل أمره إليه، ولا يختار حالاً على حال، فيشتغل بمولاه ويغيب عن نفسه وعن كل ما سواه، يعلم أنه مملوك لسيده، والسيّد أولى من العبد بنفسه. فإذا ارتقى عن هذه الحالة وجد الراحة في المنع، ويستعذب ما يستقبله من الردّ، فهي رتبة الرضا، ويحصل له في هذه الحالة، من فوائد الرضا ومطلعه، ما لا يحصل لمن درنه من الحلاوة في وجود المقصود.

وبعد هذا: الموافقة؛ وهو ألا يجد الراحة في المنع ولا في العطاء، وإنما يجد حلاوة نسيم القرب، وزوائد الأنس بنسيان كل أرب. فكما أن حلاوة الطاعات تتصاغر عند برد الرضا - يعذرون ذلك حجاباً - كذلك أهل الأنس بالله يعذرون الوقوف مع حلاوة الرضا والاشتغال بلطائفه نقصاناً وحجاباً. ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة، بما يأخذ العبد عن جملة بالكلية، فيعبر عن هذه الحالة بالخمود، والاستهلاك، والوجود، والاصطلام، والفناء - وهذا هو عين التوحيد الخاص - فعند ذلك: لا أنس، ولا هيبة، ولا لذة، ولا راحة، ولا وحشة، ولا آفة - يعنى: تغيب المقامات بلذاتها وراحتها، عند تحقق الفناء، ثم قال: هذا بيان ترتيبهم، فأما ما درن ذلك؛ فالإخبار عن أحوال المتوكلين، على تباين شرفهم، يختلف على حسب اختلاف حالهم. انتهى بالمعنى.

وقال أيضاً: ويقال: التوكل في الأسباب الدنيوية ينتهي إلى حدّ، وأما التوكل على الله في إصلاح آخرته: فهو أشد غموضاً وأكثر خفاءً، فالواجب، في الأسباب الدنيوية، أن يكون السكون عند طلبها غالباً، والحركة تكون ضرورة، وأما في أمر الآخرة وما يتعلق بالطاعة، فالواجب البدار والجِدُّ والانكماش، والخروج عن أوطان الكسل، وترك الجنوح إلى الفضل. والذي يوصف بالتواني في العبادات والقباطو في تلافى ما ضيعه من إرضاء الخصوم، والقيام بحق الواجبات، ثم يعتقد في نفسه أنه متوكل على الله، فهو متمن معلول الحال، ممكور مستدرج، بل يجب أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه، ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته، ولا يستند إلى سكونه وحركته، ويتبرأ من حوله وقوته، ثم يحسن الظن بربه. ومع حسن ظنه بربه لا ينبغي أن يخلو من مخافته، اللهم إلا أن يغلب على قلبه ما يشغله في الحال؛ من كشوفات الحقائق عن الفكرة في العواقب؛ فإن ذلك - إذا حصل - فالوقت غالب، وهو أحد ما قيل في قولهم: الوقت سيف. هـ.

ثم ذكر من أوصاف الرحمن، الذي نفر المشركون عن الخضوع له، ما يبين عظمته وكبريائه، ونفوذ قدرته المستوجبة للخضوع والانقياد له؛ رداً على امتناع الكفرة منه، فقال:

﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ السَّمَاءَ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا مُنِيرًا ۖ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۚ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿تبارك﴾ أي: تعظم ﴿الذي جعل في السماء بُروجاً﴾ وهي البروج الإثنا عشر: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. وهي منازل الكواكب السبعة السيارة، لكل كوكب بيتان، يقوى حاله فيهما، وللشمس بيت، وللقمر بيت، فالحمل والعقرب بيتا المريخ، والثور والميزان بيتا الزهرة، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد، والسرطان بيت القمر، والأسد بيت الشمس، والقوس والحوت بيتا المشتري، والجدي والدلو بيتا زحل. وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع ليصيب كل واحدة منها ثلاثة بروج، فالحمل والأسد والقوس مثثة نارية، والثور والسنبلة والجدي مثثة أرضية، والجوزاء والميزان والدلو مثثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مثثة مائية. سميت بالبروج التي هي القصور العالية؛ لأنها، لهذه الكواكب، كالمنازل الرفيعة لسكانها. واعتبر بزيادة البحر عند زيادة القمر ونقصه عند نقصه، فإن بيت القمر - وهو السرطان - مائي، وذلك من إمداد الأسماء لا بالطبع. وتذكر: «وبالاسم الذي وضعته على الليل فأظلم..» الخ. قاله في الحاشية.

واشتقاق البروج من التبرج، الذي هو الظهور؛ لظهورها، ولذلك قال الحسن وقتادة ومجاهد: البروج: النجوم الكبار؛ لظهورها.

﴿وجعل فيها سراجاً﴾ أي: الشمس، لقوله تعالى: ﴿وجعل الشمس سراجاً﴾ (١). وقرأ الأخوان: «سراجاً». ويراد: النجوم الكبار والشمس، ﴿وقمراً منيراً﴾ أي: مضيئاً بالليل.

﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة﴾ أي: ذر خلفه؛ يخلف كل واحد منهما الآخر، بأن يقوم مقامه، فيما ينبغي أن يعمل فيه، فمن فاتته عمله في أحدهما قضاه في الآخر. قال قتادة: فأروا الله تعالى من أعمالكم خيراً في هذا الليل والنهار، فإنهما مطيتان تقحمان الناس إلى آجالهم، تقربان كل بعيد، وتبليان كل جديد، وتجيبان بكل موعود. وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: فانتكس الصلاة الليلة، فقال: أدرك ما فاتك من ليلتك في نهارك، فإن الله تعالى جعل الليل والنهار خلفه ﴿لمن أراد أن يذكر﴾ هـ (٢). أي: يتذكر آلاء الله - عز وجل -، ويتفكر في بدائع صنعته، [فيعلم] (٣) أنه لا بد له من صانع حكيم. وقرأ حمزة وخلف: «يذكر» أي: يذكر الله في قضاء ما فاتته في أحدهما، ﴿أو أراد شكوراً﴾ أي: شكر نعمة ربه عليه فيهما، فيجتهد في عمارتهما بالطاعة؛ شكراً. وبالله التوفيق.

الإشارة: تبارك الذي جعل في سماء القلوب أو الأرواح بروجاً؛ منازل ينزلها السائر، ثم يرحل عنها، وهي مقامات اليقين؛ كالخوف، والرجاء، والورع، والزهد، والصبر، والشكر، والرضا، والتسليم، والمحبة، والمراقبة،

(١) الآية ١٦ من سورة نوح.

(٢) أخرج الطبري (٣٠/١٩) عن شقيق.

(٣) في الأصول: [فيهم]. والمثبت: من تفسير البيضاوي وأبي السعود.

والمشاهدة، والمعاناة. وجعل فيها سراجاً، أى: شمس العرفان لأهل الإحسان، وقمرًا مليراً، وهو توحيد البرهان لأهل الإيمان. وهو الذى جعل ليل القبض ونهار البسط خلفاً، يخلف أحدهما الآخر، لمن أراد أن يذكر فى ليل القبض، ويشكر فى نهار البسط. والله تعالى أعلم.

ثم نكر أهل الذِّكْرِ والشُّكْرِ، فقال:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝٦٤ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝٦٧ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ... ۝﴾

قلت: (و) عباد: مبتدأ، (والذين) وما بعده: خبر. وقيل: (أولئك يَجْزِينَ) . و(هونا): حال، أو: صفة، أى: يمشون هينين، أو: مشياً هونا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ أى: خواصه الذين يسجدون ويخضعون للرحمن، ﴿الذين يمشون على الأرض هونا﴾ أى: بسكينة وتواضع ووقار، قال الحسن: يمشون حلماء علماء مثل الأنبياء، لا يؤذون الذر، فى سكون وتواضع وخشوع، وهو ضد المختال الفخور المَرِح، الذى يختال فى مشيه. وقال ابن الحنفية: أصحاب وقار وعفة، لا يسفهون، وإن سفه عليهم حلموا. و(الهون): فى اللغة: الرفق واللين. ومنه قوله ﷺ: «أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا» (١).

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أى: السفهاء بما يكرهون، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾؛ سداً من القول، يسلمون فيه من الإيذاء والإثم والخنا. أو: سلمنا منكم سلاماً، أو: سلموا عليهم سلاماً، دليله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ (٢)، ثم

(١) أخرجه الترمذى فى (البر والصلة)، باب ما جاء فى الاقتصاد فى الحب والبغض ٣١٦/٤، ح (١٩٩٧)، من حديث أبى هريرة، وأخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (باب الاقتصاد فى النفقة، ٢٦٠/٥، ح/٦٥٩٣) عن سيدنا على، موقوفاً.

(٢) من الآية ٥٥ من سورة القصص.

قالوا: «سلام عليكم». قيل: نسختها آية القتال، وفيه نظر؛ فإن الإغضاء عن السفهاء مستحسن شرعاً ومروءة، فلا ينسخ. وكان الحسن إذا تلى الآيتين قال: هذا وصف نهارهم، ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَوُونَ لربهم سُجَّداً وَقِياماً﴾: هذا وصف ليلهم. قال ابن عباس: من صلى لله تعالى ركعتين، أو أكثر، بعد العشاء، فقد بات لله تعالى ساجداً وقائماً. وقيل: هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء، والظاهر: أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾: هلاكاً لازماً. ومنه: الغريم؛ لملازمته غريمه، وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين، وعقبة بذكر دعوتهم هذا؛ إيداناً بأنهم، مع اجتهدادهم، خائفين مبتهلين إلى الله في صرف العذاب عنهم ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾، أى: إن جهنم قُبْحَتْ مستقراً ومقاماً لهم. وساءت: فى حكم «بئست»، وفيها ضمير مبهم يفسره «مستقراً». والمخصوص بالذم: محذوف، أى: ساءت مستقراً ومقاماً هى. وهذا الضمير هو الذى ربط الجملة باسم «إن».

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾: لم يجاوزوا الحد فى النفقة. وعن ابن عباس: لم ينفقوا فى المعاصى. فالإسراف: مجاوزة حد الأمر، لا مجاوزة القدر. وسمع رجلٌ جلاً يقول: لا خير فى الإسراف، فقال: لا إسراف فى الخير. وقال ﷺ: «من منع حقاً فقد قتر، ومن أعطى فى غير حق فقد أسرف». ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾، القتر: الإقتار والتقتير: التضييق. وقرئ بالجميع (١)، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ أى: وكان إنفاقهم بين الإسراف والإقتار قواماً؛ عدلاً بينهما. فالقوام: العدل بين الشيئين. قال أبو عبيدة: لم يزيدوا على المعروف، ولم يخلوا به، لقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ...﴾ (٢) الآية. وقال يزيد بن أبى حبيب فى هذه الآية: أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا لا يأكلون طعاماً للتعم واللذة، ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة. ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع، ويقربهم على عبادة ربهم، ومن الثياب ما يستر عوراتهم، ويكفيهم من الحر والبرد.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهى شيئاً إلا اشتراه فأكله. ومثله فى سنن ابن ماجه؛ مرفوعاً (٣). قال القشيري: الإسراف: أن ينفق فى الهوى ونصيب النفس، ولو فلساً، وأما ما كان لله فليس فيه إسراف، ولو ألقاً. والإقتار: ما كان ادخاراً عن الله، فأما التضييق على النفس؛ منعاً لها عن اتباع الشهوات، ولتعود الاجتزاء باليسير، فليس بالإقتار المذموم. هـ.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ أى: لا يشركون بالله شيئاً، ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بقود، أو رجم، أو شرك، أو سعي فى الأرض بالفساد، ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أى: لا يفعلون من

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: (يقتروا)؛ بضم الياء وكسر التاء؛ من أقتَرَ. وقرأ ابن كثير وأبو عمر ويعقوب: بفتح الياء وكسر التاء، كيحمل، وقرأ الباقون بفتح الياء، وضم التاء، كيقتل... انظر الإتحاف (٣١١/٢). (٢) من الآية ٢٩ من سورة الإسراء. (٣) أخرجه ابن ماجه فى (الأطعمة، باب من السرف أن تأكل كل ما اشتبهت، ١١١٢/٢ ح ٢٣٥٢) من حديث أنس بن مالك، بلفظ: إن من السرف أن تأكل كل ما اشتبهت.

هذه العظائم القبيحة التي جمعهن الكفرة شيئا، حيث كانوا مع إشراكهم به - سبحانه - مداومين على قتل النفوس المحرمة، التي من جملتها المؤودة، مُنْكَبِّينَ على الزنا، لا يراعون عنه أصلاً، فنفى هذه الكبائر عن عباده الصالحين؛ تعريضاً بما كان عليه أعداؤهم؛ من قريش وغيره، كأنه قيل: والذين طهرهم الله مما أنتم عليه. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نداً وهو خَلْقَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يُطْعَمَ مَعَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ». فلزلت الآية تصديقاً لذلك (١).

الإشارة: قد تضمنت الآية أربعة أصناف من الناس على سبيل التدرج؛ الأول: الأولياء العارفين بالله، أهل التربية النبوية، ومن تعلق بهم من أهل التهذيب والتأديب، وإليهم أشار بقوله: ﴿وعباد الرحمن...﴾. الخ، وفيهم قال النبي ﷺ: «رَأَيْتُ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي، مَا خَلَقُوا بَعْدَ، وَسَيَكُونُونَ فِيهَا بَعْدَ الْيَوْمِ، أَحِبَّهُمْ وَيُحِبُّونَنِي، وَيَتَنَاصَحُونَ وَيَتَبَاذَلُونَ، يَمْشُونَ بِنُورِ اللَّهِ فِي النَّاسِ رَوِيْدًا، فِي خَفِيَّةٍ وَتَقَى، يَسْلَمُونَ مِنَ النَّاسِ، وَيَسْلَمُ النَّاسُ مِنْهُمْ بِصَبْرِهِمْ وَحَمْلِهِمْ، قُلُوبُهُمْ بِذَلِكَ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ، وَمَسَاجِدُهُمْ بِصَلَاتِهِمْ يَعْمُرُونَ، يَرْحَمُونَ ضَعِيفَهُمْ، وَيَجْلِسُونَ كَبِيرَهُمْ، وَيَتَوَاسَوْنَ بَيْنَهُمْ، يَعُودُ غَنِيَهُمْ عَلَى فَقِيرِهِمْ، وَقَرِيبُهُمْ عَلَى ضَعِيفِهِمْ، يَعُودُونَ مَرْضَاهُمْ، وَيَشْهَدُونَ جَنَائِزَهُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَرْفِقُونَ بِرَفِيقِهِمْ؟ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: كَلَّا؛ لَا رَفِيقَ لَهُمْ، وَهُمْ خِدَامُ أَنْفُسِهِمْ، هُمْ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَنْ يُوسَعَ عَلَيْهِمْ؛ لِهَوَانِ الدُّنْيَا عِنْدَ رَبِّهِمْ. ثُمَّ تَلَّى النَّبِيُّ ﷺ: ﴿وَعِبَادَ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا...﴾ الآية. رواه أبو هريرة الأسلمي، عنه ﷺ.

الثاني: العباد والزهاد، أهل الجد والاجتهاد، أهل الصيام والقيام، الذين يبیتون لربهم سجداً وقياماً، أقامهم الحق تعالى لخدمته، كما أقام الأولين لمحبتهم ومعرفته. الثالث: الصالحون والأبرار، الذين يعبدون الله طمعاً في الجنة وخوفاً من النار، ومن كان منهم له مال أنفق في سبيل الله، من غير سرف ولا إقتار. الرابع: عامة الموحدين من أهل اليمين، المجتنبون لكبائر الذنوب، المسارعون بالقوبة إلى علام الغيوب. والله تعالى أعلم.

ثم أشار إلى وبال من فعل شيئاً من ذلك ولم يتب، فقال:

﴿... وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلِّدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۖ﴾

(١) أخرجه البخاري في (التفسير - سورة الفرقان، باب «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر» ح ٤٧٦١)، ومسلم في (الإيمان، باب «كفر الشرك أقبح الذنوب» ١/٩٠ ح ١٤١).

قلت: (يُضَاعَفُ) و(يُخْلَدُ): بدل من (يُلْقَى)؛ بدل كل من كل، عند الأزهري؛ لأن لُقِيَ الآثام هي مضاعفة العذاب، وبدل اشتغال، عند المرادى. ومن رفعهما: فعلى الاستئناف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أى: ما ذكر، كما هو دأب الكفرة المذكورين، ﴿يُلْقَ﴾ فى الآخرة ﴿أَثَامًا﴾؛ وهو جزاء الآثام، كالويل والنكال؛ وزناً ومعنى، ﴿يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أضغاثاً كثيرة، كما يضاعف للمؤمنين جزاء أعمالهم كذلك، ﴿وَيُخْلَدُ فِيهِ﴾ أى: فى ذلك العذاب المضاعف، ﴿مِهَانًا﴾؛ ذليلاً حقيراً، جامعاً للعذاب الجسماني والروحاني.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ من الشرك، ﴿وَأَمَّنَ﴾ بمحمد ﷺ، ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ بعد توبته ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أى: يوفقهم للمحاسن بعد القبائح، فيوفقهم للإيمان بعد الشرك، ولقتل الكافر بعد قتل المؤمن، وللعفة بعد الزنا، أر: يحورها بالتوبة، ويثبت مكانها الحسنة. ولم يرد أن السيئة بعينها تصير حسنة، ولكن يحورها ويعوض منها حسنة. وعنه ﷺ أنه قال: «لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ أَنَّهُمْ أَكْثَرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ، قِيلَ: مَنْ؟ قَالَ: الَّذِينَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ، (١). ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ للسيئات، ﴿رَحِيمًا﴾ يُبَدِّلُهَا حَسَنَاتٍ.

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أى: ومن تاب، وحقق التوبة بالعمل الصالح، فإنه بذلك تائب إلى الله متاباً مرضياً مكفراً للخطايا. وسبب نزول الآية: أن ناساً من المشركين قَتَلُوا فَأَكْثَرُوا، وَزَنُوا فَأَكْثَرُوا، ثُمَّ أَتُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: إِن الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ لَوْ تَخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمَلْنَاهُ كَفَّارَةً. فنزلت: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...» إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ...﴾ إلخ (٢). والظاهر أن توبة قاتل النفس بغير حق مقبولة؛ لعموم قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾، وهو قول الجمهور. وقيل: إن هذه منسوخة بآية النساء، وهو ضعيف. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من قنع من نفسه بمجرد الإسلام والإيمان، ولم تنهضه نفسه إلى التشوف لمقام الإحسان، لا بد أن يلحقه الندم وضرب من الهوان، ولو دخل فسيح الجنان؛ لتخلفه عن أهل القرب والوصال، وفى ذلك يقول الشاعر:

مَنْ فَاتَهُ مِنْكَ وَصْلٌ حَظَّهُ النَّدَمُ وَمَنْ تَكُنْ هَمَّهُ تَسْمُورُهُ الْهَمُّ

ثم ذكر نوعاً من الأبرار، فقال:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۖ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخْرِجُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۖ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرک (٢٥٢/٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبى.
(٢) أخرجه بلفظه مسلم فى (الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله، ١/١١٣ ح ١٩٣)، وينعوه أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الفرقان) من حديث سيدنا عبدالله بن عباس رضى الله عنه.

رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾
 أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾
 خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ
 فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ أى: لا يقيمون شهادة الكذب، أو: لا يحضرون محاضر الكذب؛ فإن مشاهدة الباطل مشاركة فيه، أى: يبعدون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين، فلا يقربونها، تَنَزَّاهُ عن مخالطة الشر وأهله. وفي مواضع عيسى - عليه السلام -: إياكم ومجالس الخطائين. ﴿وإذا مروا باللغو﴾ أى: بالفحش وكل ما ينبغي أن يلغى ويُطرح، والمعنى: وإذا مروا بأهل اللغو المشتغلين به ﴿مروا كراما﴾ معرضين عنه، مكرمين أنفسهم عن التلوث به، كقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ (١)، وعن الباقر: إذا ذكروا الفروج كفروا عنها، وقال مقاتل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا عنه وصفحوا. ﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم﴾ أى: قرئ عليهم القرآن، أو: وعظروا بالقرآن، ﴿لم يخرؤا عليها صمًا وعميانا﴾، بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية، مجتئين لها بعيون راعية. وإنما عبّر عنها بنفى الضد؛ تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون.

﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا﴾، «من»: للبيان، كأنه قيل: هب لنا قرّة أعين، ثم بيّنت القرّة وفُسرَت بقوله: ﴿من أزواجنا وذرياتنا﴾ والمعنى: أن يجعلهم الله لهم قرّة أعين؛ بأن يروا منهم من الطاعة والإحسان ما تقر به العين. أو: للابتداء، أى: هب لنا من جهتهم ما تقر به العين، من طاعة أو صلاح. ﴿و﴾ هب لنا أيضاً من ﴿ذرياتنا قرّة أعين﴾؛ بتوفيقهم للطاعة، ومبادرتهم للفضائل والكمالات، فإن المؤمن إذا ساعده أهله في طاعة الله تعالى وشاركوه فيها؛ يسر قلبه، وتقر عينه؛ بما شاهده من مقاربتهم له في الدين، ويكون ذلك سبباً في لحوقهم به في الجنة، حسبما وعد به قوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (٢).

وإنما قال: «أعين»؛ بلفظ القلة، دون عيون؛ لأن المراد أعين المتقين، وهى قليلة بالإضافة إلى أعين غيرهم. والمعنى: أنهم سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجاً وأعقاباً، عمالاً لله، يسرون بمكانهم، وتقر بهم عيونهم، قيل: ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله. وعن ابن عباس: (هو الولد إذا رآه يكتب الفقه).

(١) من الآية ٥٥ من سورة القصص. (٢) من الآية ٢١ من سورة الطور.

﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ أى: أئمة يقتدى بنا فى الدين، فاكتفى بالواحد؛ لدلالته على الجنس، أر: واجعل كل واحد منا إماماً؛ أى: من أولادنا إماماً. والظاهر: أن صدور هذا الدعاء منهم كان بطريق الانفراد؛ إذ يتعذر اجتماعهم فى دعاء واحد. وإنما كانت عبارة كل واحد منهم عدد الدعاء: واجعلنى للمتقين إماماً، غير أنه حكيت عبارة الكل بصيغة المتكلم مع الغير؛ قصداً إلى الإيجاز، كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ (١). وأبقى إماماً على حاله من الانفراد. قيل: وفى الآية دليل على أن الرئاسة فى الدين ينبغي أن تطلب ويرغب فيها، إذا كان القصد نفع عباد الله دون حظ نفسانى.

﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ﴾، جنس، أى: الغرفات، وهى العلالى فى الجنة. ووحده بقصد الجنس. ﴿ بما صبروا ﴾؛ بصبرهم على مشاق الطاعات، وترك الشهوات، وتحمل المجاهدات، وعلى إذابة أهل الإنكار، وارتكاب الذل والافتقار. ﴿ وَيُلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً ﴾ أى: تحييتهم الملائكة، ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات. أو: يحيى بعضهم بعضاً، ويسلمون عليهم، ﴿ خالدين فيها ﴾؛ لا يموتون ولا يخرجون، ﴿ حَسُنْتَ ﴾ أى: الغرفة ﴿ مستقراً ومقاماً ﴾؛ موضع قرار وإقامة، وهى فى مقابلة: «ساعات مستقراً ومقاماً».

﴿ قل ﴾ يا محمد: ﴿ ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ﴾ أى: ما يصنع بكم ربى، وأى فائدة فى خلقكم، لولا دعاؤكم إلى الإسلام والتوحيد، أو: لولا عبادتكم له، أى: إنما خلقكم لعبادته؛ كقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٢)؛ فإنما خلق الإنسان لمعرفة طاعته، وإلا فهو رسائر البهائم سواء. قال المحشى: والظاهر: أنه خطاب لقريش القائلين: ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ أى: لا يحفل بكم ربى لولا تضرعكم واستغاثتكم إياه فى الشدائد. هـ.

رقيل: ما يعبأ: بمغفرة ذنوبكم، ولا هو عنده عظيم، لولا دعاؤكم معه الآلهة والشركاء، كقوله: ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ (٣)، قاله الضحاك. ثم قال: فظاهره: أن «ما»: استفهامية، ويحتمل كونها نافية. انظر بقية كلامه.

وفسر البخارى الدعاء هنا بالإيمان (٤)، أى: ما يبالى بكم ربى لولا إيمانكم المتوقع من بعضكم، ﴿ فقد كذبتكم ﴾ بما جاء به الرسول فتستحقون العقاب، ﴿ فسوف يكون ﴾ العذاب الذى أنتجته تكذيبكم ﴿ لازماً ﴾؛ لازماً لكم؛ لا تتفكرون عنه، حتى يكبكم فى النار. فالفاء فى قوله: ﴿ فقد كذبتكم ﴾ استئناف وتعليل لكونهم لا يعبأ بهم، وإنما أضمر العذاب من غير تقدم ذكر؛ للإيذان بغاية ظهوره وتهويل أمره، وأنه مما لا تنفى العبارة به.

(١) من الآية ٥١ من سورة المؤمنون.

(٢) من الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

(٣) من الآية ١٤٧ من سورة النساء.

(٤) انظر فتح البارى (كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم ١/٦٤).

وعن مجاهد: هو القتل يوم بدر، وأنه نُزِمَ بين القتلى. وفي المشارق: اللزام: الفیصل، وقد كان يوم بدر. هـ.
والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: «وإذا مروا بأهل اللغو»، وهم المتكلمون في حس الأكران، مروا كراماً؛ مكرمين أنفسهم عن الالتفات إلى خوضهم. والذين إذا سمعوا الوعظ والتذكير أنصتوا بقلوبهم وأرواحهم، خلاف ما عليه العامة من التصامم والعمى عنه. «والذين يقولون ربنا..» إلخ، قال القشيري: قرّة الروح: حياتها، وإنما تكون كذلك إذا كان بحق الله قائماً. ويقال: قرّة العين من كان لطاعة الله معانقاً، ولمخالفة أمره مفارقاً. هـ. قلت: قرّة العين تكون في الولد الروحاني، كما تكون في الولد البشري؛ فإن الشيخ إذا رأى تلميذه مُجِدّاً صادقاً في الطلب، حصل له بذلك غاية السرور والطرب، كما هو معلوم عند أرباب الفن. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ وآله وصحبه وسلّم تسليماً.



سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

مكية، إلا قوله: ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾؛ فإنها مدنية. وهي مائتان وسبع وعشرون آية. وفي الحديث: «أعطيت طه والطواسين والحواميم من ألواح موسى» (١) عليه السلام؛ أي: بدلها، كما في حديث آخر. ومما سبقتها لما قبلها: أنه لما ذكر تكذيب قريش وأوعدهم بلزوم العذاب، ذكر تلف رسول الله ﷺ عليهم، حيث لم يؤمنوا حتى استوجبوا ذلك بقوله: ﴿ لعلك باخع نفسك ... ﴾ الآية، ثم سلاه بما ذكر من قصص الأنبياء وتكذيب قومهم وإهلاكهم بأنواع العذاب، ثم افتتح السورة برمز بينه وبين حبيبه، كما هو شأنه حين يريد أن يقص عليه قصص من قبله، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسّم ﴾ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا ٣ مُؤْمِنِينَ ٤ إِنْ نَشَأْ نُذِلَّ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٥ وَمَا يَأْتِيهِمْ ٦ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٧ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا ٨ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٩

يقول الحق جل جلاله: ﴿ طسّم ﴾ أي: ياطاهر، ياسيد، يامحمد، أو: أيها الطاهر السيد المجيد. وقال الراحدي: أقسم تعالى بطوله وسنائه وملكه، والمقسم عليه: «إِنْ نَشَأْ نُذِلَّ... الخ». ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي: ما نسرده عليك في هذه السورة وغيرها من الآيات، هي آيات الكتاب، أي: القرآن المبين، أي: الظاهر إعجازه، وأنه من عند الله، على أنه من أبان، بمعنى بان، أو: المبين للأحكام الشرعية والحكم الربانية، أو: الفاصل بين الحق والباطل. وما في الإشارة من معنى البعد؛ للتنبيه على بُعد منزلة المشار إليه في الفخامة ورقعة القدر.

ثم شرع في تسليته بقوله: ﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ أي: قائل نفسك. قال سهل: تهلك نفسك باتباع المراد في هدايتهم وإيمانهم، وقد سبق مني الحكم بإيمان المؤمنين وكفر الكافرين، فلا تبديل ولا تغيير. والعل: للإشفاق، (١) أخرجه مطولاً، البيهقي في السنن (٩/١٠)، والحاكم في المستدرک (٥٦٨/١) عن معقل بن يسار. وفيه: «عبد الله بن أحمد». قال الذهبي: تركوا حديثه.

أى: أشفق على نفسك أن تقتلها؛ حسرة على ما فاتك من إسلام قومك ﴿أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أى: لعدم إيمانهم بذلك الكتاب المبين، ﴿إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾، هو تعليل لما قبله من النهى عن التحسر؛ ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به المشيئة، فلا وجه للطمع فيه والتألم من فواته، والمفعول محذوف، أى: إن نشأ إيمانهم نازل عليهم من السماء آية ملجئة لهم إلى الإيمان، قاهرة لهم عليه، ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾؛ متقادين. والأصل: فظلوا لها خاضعين، فأقمحت الأعناق؛ لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع، وترك الخبر على حاله من جمع العقلاء. وقيل: لما وصفت الأعناق بصفة العقلاء أجريت مجراهم، كقوله تعالى: ﴿رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (١). وقيل: المراد بالأعناق: الرؤساء ومقدم الجماعة، وقيل: الجماعة، من قولهم: جاءنا علق من الناس، أى: فرج. وقرئ: خاضعة، على الأصل.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾، هذا بيان لشدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب؛ لصرف رسوله ﷺ عن الحرص على إسلامهم، وقطع رجائه فيهم على الجملة، قال القشيري: أى: ما نجدد لهم شرعاً، أو نرسل رسولاً إلا أعرضوا عما دلّ برهانه عليه، وقابلوه بالتكذيب، فلو أنهم أنعموا النظر في آياتهم، لاتضح لهم صدقهم، ولكن المقسوم من الخذلان في سابق الحكم يمنعهم من الإيمان والتصديق. هـ.

والتعرض لعنوان الرحمة؛ لتخليط شناعتهم، وتهويل جنابهم؛ فإن الإعراض عما يأتيهم من جنابه عز وجل على الإطلاق شنيع قبيح، وعما يأتيهم بموجب الرحمة، لمحض منفعتهم، أشنع وأقبح، أى: ما يأتيهم من موعظة من المواضع القرآنية، أو من طائفة نازلة من القرآن تذكّرهم أكمل تذكير، وتنبههم من الغفلة أتم تنبيه، بمقتضى رحمته الواسعة، إلا جددوا إعراضاً عنه؛ على وجه التكذيب والاستهزاء؛ إصراراً على ما كانوا عليه من الكفر والضلال.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ بالذكر الذى يأتيهم تكذيباً مقارناً للاستهزاء، ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ أى: فسيعلمون ﴿أَنْبَاءُ﴾ أى: أخبار ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ﴾، وأنباؤه: ما يحقّ بهم من العقوبات العاجلة والآجلة، عبّر عنها بالأنباء؛ إما لكونها مما أنبأ بها القرآن الكريم، وإما لأنهم، بمشاهدتها، يقفون على حقيقة القرآن الكريم، كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم، باستماع الأنباء. وفيه تهويل؛ لأن الأنباء لا تطلق إلا على خبر خطير له وقع كبير، أى: فسيأتهم لا محالة مصداق ما كانوا يستهزئون به، إما فى الدنيا، كيوم بدر وغيره من مواطن الحتوف، أو يوم القيامة. والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ٤ من سورة يوسف.

الإشارة: طسم، الطاء تشير إلى طهارة سره - عليه الصلاة والسلام -، والسين تشير إلى سيادة قدره، والميم إلى مجادة أمره، وهذا بداية الشرف ونهايته. أو: الطاء تشير إلى التنزيه للقلب، من حيث هو، والتطهير. والسين تشير إلى تحليته بالسر الكبير، والميم تشير إلى تصرفه في الملك والملوك بإذن العلي الكبير. وهذه بداية السير ونهايته، فيكون حينئذ عارفاً بالله، خليفة رسول الله في العودة إلى الله، فإن حرص على هداية الخلق فيقال له: «لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين»، فلو شاء ربك لهدى الناس جميعاً، ولا يزالون مختلفين، «ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين». وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل قدرته على ما ذكر، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

قلت: الهمزة: للإنكار التوبيخي، والواو: للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي: أفعلوا ما فعلوا من الإعراض والتكذيب، ولم ينظروا إلى عجائب الأرض.. إلخ. و (كم): خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: ينظروا ﴿إِلَى﴾ عجائب ﴿الأرض﴾ كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم؛ أي: من كل صنف محمود كثير المنفعة، يأكل منه الناس والأنعام. وتخصيص النبات بالذكر، دون ما عداه من الأصناف؛ لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معاً. ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النبات؛ نافعها وضارها، ويكون وصف الكل بالكرم؛ للتنبيه على أنه تعالى ما أنبت شيئاً إلا وفيه فائدة، إما وحده، أو بانضمامه إلى غيره، كما نطق به قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (١)، فإن الحكيم لا يكاد يفعل فعلاً إلا وفيه حكمة بالغة، وإن غفل عنه الغافلون، ولم يتوصل إلى معرفة كنهه العاقلون. وفائدة الجمع بين كلمتي الكثرة والإحاطة، وهما «كم» و «كل»؛ أن كلمة «كل» تدل على الإحاطة بأزواج النبات؛ على سبيل التفصيل، و «كم» تدل على أن هذا المحاط متكاثراً، مفرط الكثرة، وبه نبه على كمال قدرته.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإنبيات، أو: كل صنف من تلك الأصناف ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة دالة على كمال قدرته، وسعة علمه وحكمته، ونهاية رحمته المرجية للإيمان، الوازنة عن الكفر والطغيان. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثر قومه - عليه الصلاة والسلام - ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ في علم الله تعالى وقضائه، حيث علم أنهم سيصرفون عنه، ولا يتدبرون في هذه الآيات العظام. وقال سيبويه: «كان»: صلة، والمعنى: وما أكثرهم مؤمنين، وهو الأنسب بمقام

(١) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.

عتوهم وغلورهم في المكابرة والعداد، مع تعاضد موجبات الإيمان من جهته تعالى. وأما نسبة كفرهم إلى علمه تعالى وقضائه فريما يقرهم أنهم معذرون فيه بحسب الظاهر؛ لأن التفريق بين القدرة والحكمة، اللتين هما محل التحقيق والتشريع، قد خفى على مهرة العلماء، فضلاً عن غيرهم. فالحكم بزيادة «كان» أقرب؛ كأنه قيل: إن في ذلك لآية باهرة موجبة للإيمان، وما أكثرهم مؤمنين مع ذلك؛ لغاية عتوهم وعدادهم. ونسبة عدم الإيمان إلى أكثرهم؛ لأن منهم من سبق له أنه يؤمن.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾؛ الغالب على كل ما يريد من الأمور، التي من جملتها: الانتقام من هؤلاء، ﴿الرَّحِيمُ﴾؛ المبالغ في الرحمة، ولذلك يمهلهم، ولا يؤاخذهم بغتة بما اجتروا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات. وفي التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام -، من تشريفه والعدة الحقية (١) بالانتقام من الكفرة ما لا يخفى. قاله أبو السعود.

الإشارة: أولم يروا إلى أرض النفوس الطيبة، كم أنبتنا فيها من كل صنف من أصناف العلوم الغريبة، والحكم العجيبة، بعد أن كانت ميتة بالجهل والغفلة، إن في ذلك لآية ظاهرة على وجود الخصوصية فيها، وعلى كمال من عالجها حتى ظهرت عليها. أو: أولم يروا إلى أرض العبودية، كم أنبتنا فيها من أصناف الآداب المرضية، والمقامات اليقينية، والمكاشفات الروحية، إن في ذلك لآية، وما كان أكثرهم مؤمنين بهذه الخصوصية عند أربابها، وإن ربك لهو العزيز الرحيم، يعز من يشاء، ويرحم بها من يشاء. وبالله التوفيق.

ثم شرع في قصص الأنبياء؛ تسلية لرسوله ﷺ، وبدأ بموسى عليه السلام؛ لشدة معالجته لقومه، فقال:

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَآتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ أي: وقت ندائه إياه، وذكر قومك بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم؛ زجراً لهم، وتحذيراً من أن يحيق بهم مثل ما حاق بإخوانهم المكذبين.

(١) في تفسير أبي السعود: «الخفية».

أر: وأنكر حاله لتتسلى به وبما عالج مع قومه، حيث أرسله وقال له: ﴿أَنْ أَنْتِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أر: بأن أنتِ القوم الظالمين بالكفر والمعاصي، أر: باستعباد بنى إسرائيل وذبح أبنائهم. ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾: عطف بيان، تسجيل عليهم بالظلم، ثم فسرهم، وقل لهم: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ الله، ويتركون ما هم عليه من العتو والطغيان. وقرئ بناء الخطاب؛ على طريقة الالتفات، المنبئ عن زيادة الغضب عليهم، كأن ظلمهم أدى إلى مشافهتهم بذلك. وليس هذا نفس ما ناداه به، بل ما فى سورة طه من قوله: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ...﴾ (١) إلخ، واختصره هنا لمقتضى المقام.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿مُتَّخِرًا إِلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ﴾: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكْذِبُونَ﴾ من أول الأمر، ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ بتكذيبهم إياي، ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ بأن تغلبني الحمية على ما أرى من المحال، وأسمع من الجدال، أر: تغلبني عقدة لساني، ﴿فَأَرْسَلْ إِلَى هَارُونَ﴾ أخى، أى: أرسل جبريل إليه، ليكون نبيًا معي، أَتَقْوَى به على تبليغ الرسالة. وكان هارون بمصر حين بعث موسى بجبل الطور. وليس هذا من التعلل والتوقف فى الأمر، وإنما هو استدعاء لما يعينه على الامتثال، وتمهيد عذره.

ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ﴾ أى: تبعة ذنب بقتل القبطى، فحذف المضاف، أر: سعى تبعة الذنب ذنبًا، كما يُسمى جزاء السيئة سيئة. وتسميته ذنبًا بحسب زعمهم. ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ به؛ قصاصاً. وليس هذا تعللاً أيضاً، بل استدفاع للبلية المتوقعة، وخوف من أن يقتل قبل أداء الرسالة، ولذلك وعده بالكلام، والدفع عنه بكلمة الردع، وجمع له الاستجابتين معاً بقوله:

﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا﴾؛ لأنه استدفعه بلاءهم، فوعده بالدفع برده عن الخوف، والتمس منه رسالة أخيه، فأجابه بقوله: «اذهبا»، أى: جعلته رسولاً معك ﴿فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ أى: مع آياتنا، وهى اليد والعصا وغير ذلك، فقله: «فاذهبا»: عطف على مضمر، ينبئ عنه الردع، كأنه قيل: ارتدع ياموسى عما تظن، فاذهب أنت ومن استدعيته مصحوباً بآياتنا، فإنها تدفع ما تخافه.

﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ أى: سامعون ما يقال لك، وما يجرى بينكما وبينه، فنظهر كما عليه. شبه حاله تعالى بحال نبي شوكة قد حضر مجادلة، فسمع ما يجرى بينهم، فيمد أوليائه وينصرهم على أعدائهم؛ مبالغة فى الردع بالإعانة، فاستعير الاستماع، الذى هو الإصغاء للسمع، الذى هو العلم بالحروف والأصوات، وهو تعليل؛ للردع عن الخوف، ومزيد تسلية لهما، بضمان كمال الحفظ والنصر، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٢).

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ليس هذا مجرد تأكيد للأمر بالذهاب؛ لأن معنى هذا: الوصول إلى المرسل إليه، والذهاب: مطلق التوجه، ولم يثن الرسول هنا كما ثناه فى سورة طه (٣)؛ لأن الرسول

(١) الآية ١٢ من سورة طه. (٢) الآية ٤٦ من سورة طه. (٣) فى قوله: «إنا رسولا ربك»، الآية ٤٧.

يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة، فيكون مصدرا، فجعل ثمة بمعنى المرسل فتلى، وجعل هنا بمعنى الرسالة، فسوى في الوصف به الواحد والتثنية والجمع، كما نقول: رجل عدل، ورجلان عدل، ورجال عدل؛ لاتحادهما في شريعة واحدة، كأنهما رسول واحد. قلت: والنكته في أفراد هذا وتثنية الآخر؛ أن الخطاب في سورة طه توجه أول القصة إليهما معا بقوله: ﴿ اذهب أنت وأخوك ﴾ فجرى في آخر القصة على ما افتتحت به، وهذا توجه الخطاب في أولها إلى موسى وحده، بقوله: ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن انت القوم الظالمين ﴾، فجرى على ما افتتح به القصة من الأفراد. والله تعالى أعلم.

﴿ أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾، أن: مفسرة؛ لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول، أى: خل بنى إسرائيل تذهب معنا إلى الشام، وكان مسكنهم بفلسطين منه، قبل انتقالهم مع يعقوب عليه السلام إلى مصر، في زمن يوسف عليه السلام. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من كان أهلا للوعظ والتذكير لا ينبغي أن يتأخر عنه خوف التكذيب ولا خوف الإذابة، فإن الله معه بالحفظ والرعاية. نعم؛ إن طلب المعين فلا بأس، فإن أبهة الجماعة، في حال الإقبال على من يعظمهم، أقوى في إدخال الهيبة والروع في قلوبهم، ونور الجماعة أقوى من نور الواحد. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر جواب فرعون ومجادلته، فقال:

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَنْ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: لما أتى موسى وهارون فرعون ودلّعا الرسالة، ﴿قال﴾ له: ﴿ألم نربك...﴾ إلخ، روى أنهما أتيا بابه فلم يؤذن لهما سنة، حتى قال اليواب: إن هنا إنسانا يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له، لعلنا نضحك منه، فأذن، فدخل، فأدى الرسالة، فعرفه فرعون^(١)، فقال له: ﴿ألم نربك فينا﴾؛ في حجرنا ومنازلنا، ﴿وليداً﴾ أى: طفلاً. عبّر عنه بذلك؛ لقرب عهده بالولادة. وهذه من فرعون معارضة لقول موسى ﷺ: ﴿إنا رسول رب العالمين﴾، بنسبته تربيته إليه وليداً. ولذلك تجاهل بقوله: ﴿وما رب العالمين﴾، وصرح بالجهل بعد ذلك بقوله: ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري...﴾ إلخ، ﴿ولبثت فينا من عمرك سنين﴾ قيل: لبث فيهم ثلاثين سنة، ثم خرج إلى مدين، وأقام به عشر سنين، ثم عاد يدعوهم إلى الله - عز وجل - ثلاثين سنة، ثم بقى بعد الغرق خمسين، وقيل: قتل القبطى وهو ابن ثلثى عشرة سنة، وفرّ منهم على إثر ذلك. والله أعلم.

ثم قال له: ﴿وفعلت فعلتك التي فعلت﴾ يعنى: قتل القبطى، بعدما عدد عليه نعمته؛ من تربيته، وتبليغه مبلغ الرجال، وبخه بما جرى عليه مع خبازه، أى: قتلت صاحبى، ﴿وأنت من الكافرين﴾ بدعمتى، حيث عمدت إلى قتل رجل من خواصى، أو: أنت حينئذ ممن تكفر بهم الآن، أى: كنت على ديننا الذى تسميه كفراً، وهذا افتراء منه عليه؛ لأنه معصوم، وكان يعاشرهم بالتيق، وإلا فأين هو ﷺ من مشاركتهم فى الدين.

﴿قال فعلتها إذا﴾ أى: إذ ذاك ﴿وأنا من الضالين﴾ أى: من المخطئين؛ لأنه لم يعتمد قتله، بل أراد تأديبه، أو: الذاهلين عما يؤدى إليه الوكر. أو: من الضالين عن النبوة، ولم يأت عن الله فى ذلك شيء، فليس على توبيخ فى تلك الحالة. والفرض أن المقتول كافر، فالقتل للكافر لم يكن فيه شرع، وهذا كله لا ينافى النبوة، وكذلك التربية لا تنافى النبوة.

﴿ففررت منكم﴾ إلى ربي، متوجهاً إلى مدين ﴿لما خفتكم﴾ أن تصيبني بمضرة، أو تؤاخذني بما لا أستحقه. ﴿فوهب لى ربي حكماً﴾ أى: حكمة، أو: نبوة وعلماء، فزال عنى الجهل والضلالة، ﴿وجعلنى من المرسلين﴾؛ من جملة رسله، ﴿وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بني إسرائيل﴾ أى: تلك التربية نعمة تمن بها على ظاهراً، وهى فى الحقيقة تعبيدك بنى إسرائيل، وقهرك إياهم، بذبح أبائهم، فإنه السبب فى وقوعى عندك وحصولى فى تربيتك، ولو تركتهم لربانى أبواى. فكان فرعون فى الحقيقة امتن على موسى بتعبيد قومه وإخراجه من حجر أبويه. فقال له موسى ﷺ: أو تلك نعمة تمنها على؛ استعبادك لهم، ليس ذلك بنعمة، ولا لك فيها على منة، وتعبيده: تذليلهم واستخدامهم على الدوام. ووجد الضمير فى «تمنها» و«عبدت»، وجمعها فى «منكم» و«خفتكم»؛ لأن الفرار والخوف كان منه ومن ملائه المؤتمرين به، وأما الامتنان فمنه وحده.

(١) انظر البحر المحيط (١٠/٧).

وحين انقطعت حجة فرعون وروغانه عن ذكر رب العالمين، أخذ يستفهم موسى عن الذي ذكر أنه رسول من عنده؛ مكابرة وتجاهلاً وتعامياً، طلباً للرئاسة، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فرعونُ وما ربُّ العالمين ﴾، أى: أى شيء رب العالمين، الذى ادعيت أنك رسوله، منكراً لأن يكون للعالمين رب غيره، حسبما يعزبُ عنه قوله: ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ (١)، وقوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾ (٢). أو: فما صفته، أو حقيقته؟ ﴿ قال ﴾ موسى: هو ﴿ ربُّ السموات والأرض وما بينهما ﴾ أى: ما بين الجنسين، ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أى: إن كنتم موقنين بالأشياء، محققين لها، علمتم ذلك، أو: إن كنتم موقنين شيئاً من الأشياء، فهذا أولى بالإيقان؛ لظهور دليله وإنارة برهانه.

﴿ قال ﴾ فرعون، عند سماع جوابه ﷺ، خوفاً من تأثيره فى قلوبهم، ﴿ لمن حوله ﴾ من أشرف قومه، وكانوا خمسمائة مسورة بالأسورة: ﴿ ألا تستمعون ﴾، أنا أسأله عن الماهية، وهو يجيبني بالخاصية. ولما كانت ماهية الربوبية لا تدرك ولا تنال حقيقتها، أجابه بما يمكن إدراكه من خواص الماهية.

ثم ﴿ قال ﴾ ﷺ: ﴿ ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين ﴾ أى: هو خالقكم وخالق آبائكم الأولين، أى: وفرعون من جملة المخلوقين فلا يصلح للربوبية، وإنما قال: ﴿ ورب آبائكم ﴾؛ لأن فرعون كان يدعى الربوبية على أهل عصره دون من تقدمهم.

﴿ قال ﴾ فرعون: ﴿ إِن رَّسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُم مَّجْنُونٌ ﴾؛ حيث يزعم أن فى الوجود إلهاً غيرى، أو: حيث لا يطابق جوابه سؤالي؛ لأننى أسأله عن الحقيقة وهو يجيبني بالخاصية، ﴿ قال ﴾ موسى ﷺ: ﴿ ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ فتستدلون بما أقول حتى تعرفوا ربكم. وهذا غاية الإرشاد، حيث عمم أولاً بخلق السموات والأرض وما بينهما، ثم خصص من العام أنفسهم وآباءهم؛ لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه، ومن ولد منه، وما شاهد من أحواله، من وقت ميلاده إلى وفاته، ثم خصص المشرق والمغرب؛ لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها فى الآخر، على تقدير مستقيم وحساب مستو، من أقوى الدلائل على وحدانية الربوبية، ووجوب وجودها. أو: تقول: لما سأله عن ماهية الربوبية؛ جهلاً؛ فأجابه، بالخاصية، ﴿ قال ﴾ ألا تستمعون؟ فعاد موسى إلى مثل قوله، فجنته فرعون، زاعماً أنه حائد عن الجواب، فعاد ثالثاً مبيناً أن الواجب الوجود، الفرد الصمد، لا يدرك بالكُنْه، إنما يعرف بالصفات، وما عرفه بالذات إلا خواص الخواص، فالسؤال عن الذات من أمثاله جهل وحمق. ولذلك قال: ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾، أى: إن كان لكم عقل علمتم أنه لا يمكن أن تعرفوه إلا بهذا الطريق.

(٢) من الآية ٣٨ من سورة القصص.

(١) من الآية ٢٤ من سورة النازعات.

قال ابن جزى: إن قيل: كيف قال أولاً: «إن كنتم موقنين»، ثم قال آخرًا: «إن كنتم تعقلون»؟ فالجواب: أنه لاين أولاً؛ طمعاً في إيمانهم، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله: «إن كنتم تعقلون»، وجعل ذلك في مقابلة قول فرعون: «إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون» هـ.

ولما تجبر فرعون وبهت ﴿قال لئن اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾، أى: لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم فى سجونى، وكان من عادته أن يأخذ من يرى سجنه، فيطرحه فى هوة ذاهبة فى الأرض، بعيدة العمق، فرداً، لا ينظر فيها ولا يسمع، وكان ذلك أشد من القتل. ولو قال: لأسجننك، لم يؤد هذا المعنى، وإن كان أخصر. قاله السبكي.

الإشارة: التربية لها حق يراعى ويجب شكرها، ولا فرق بين تربية البشرية والروحانية. قال القشيري: لم يجحد موسى حق التربية والإحسان إليه ﷺ، ولكن بين أنه إذا أمر الله بشيء وجب اتباع أمره، وإذا كانت تربية المخلوقين توجب حقاً، فتربية الله أولى بأن يعظم العبد قدرها هـ. فكل من أحسن إلى بشرتك بشيء وجب عليك شكره؛ بالإحسان إليه، ولو بالدعاء، وكل من أحسن إلى روحانيتك؛ بالعلم أو بالمعرفة، وجب عليك خدمته وتعظيمه، وإنكار ذلك سبب المقت والطرد، والعياذ بالله.

وقول فرعون: ﴿وما رب العالمين﴾: سؤال عن حقيقة الذات، ومعرفة الكنه متعذرة؛ إذ ليس كمثله شيء، وأقرب ما يجاب به قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (١) فهذه الأسماء الأربعة أحاطت بالذات فى الجملة، ولم تترك منها شيئاً، والإحاطة بالكنه متعذرة، ولو وقعت الإحاطة لم يبق للعارفين ترقى، مع أن ترفيقهم فى كشوفات الذات لا ينقطع أبداً، فى هذه الدار الفانية، وفى تلك الدار الباقية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر معجزة العصا وما يتبعها، فقال:

﴿قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٠) قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

قلت: (لو): هنا، ليست امتناعية، بل إغائية، فلا جواب لها، أى: تفعل بى هذا على كل حال ولو جئتك بشيء

مبين.

(١) من الآية ٣ من سورة الحديد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ موسى ﷺ لفرعون، لما هدده بالسجن: ﴿أولو﴾؛ أتفعل ما ذكرت من سجنى ولو ﴿جئت بك بشئ مبين﴾؛ واضح الدلالة على صدقى، وتوحيد رب العالمين. يريد به المعجزة؛ فإنها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته، وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده. والتعبير عنه بالشئ؛ للتهويل. ﴿قال﴾ فرعون: ﴿فأت به إن كنت من الصادقين﴾ فيما قلت من الإتيان بالشئ الواضح على صدق دعواك، أو: من الصادقين فى دعوى الرسالة.

﴿فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ أى: ظاهر ثعبانيته، لا أنه تخيل بما يشبهه كشأن الشعوذة والسحر. روى أنها ارتفعت فى السماء قدر ميل، ثم انحطت مقبلة على فرعون، تقول: ياموسى؛ مرنى بما شئت، فيقول فرعون: أسألك بالذى أرسلك إلا أخذتها، فأخذها، فعادت عصا. ﴿ونزع يده﴾ أى: أخرجها من تحت إبطه، ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ أى: بياضاً خارجاً عن العادة، بحيث يجتمع النظارة على النظر إليه؛ لخروجه عن العادة.

روى أن فرعون لما أبصر الآية الأولى قال: هل لك غيرها؟ فأخرج يده، وقال لفرعون: ما هذه؟ قال: يدك، فأدخلها تحت إبطه، ثم نزعها، ولها شعاع يكاد يَغشى الأبصار ويسد الأفق. فسبحان القادر على كل شئ.

الإشارة: النفوس الفرعونية هي التي تتوقف في الصدق والإيمان على ظهور المعجزة أو الكرامة، وأما النفوس الزكية فلا تحتاج إلى معجزة ولا كرامة، بل يخلق الله فيها الهداية والتصديق بطريقة الخصوصية، من غير توقف على شئ. وبالله التوفيق.

﴿قال للملأ حوله: إن هذا لسحرج عليم﴾ (٣٤) يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره. فماذا تأمرون؟ ﴿قالوا أرجه وأخاه وأبعث في المدائن حشرين﴾ (٣٥) يأتوك بكل سحار عليم﴾ (٣٦)

قلت: (حوله): ظرف وقع موقع الحال، أى: مستقرين حوله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ فرعون، لما رأى ما بهته وحيره، ﴿للملأ حوله﴾، وهم أشراف قومه: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾؛ فائق فى فن السحر. ثم أعبدى قومه على موسى بقوله: ﴿يريد أن يخرجكم﴾ بما صنع ﴿من أرضكم بسحره فماذا تأمرون﴾؛ تشيرون فى أمره؛ من حبس أو قتل، وهو من المؤامرة، أى: المشاورة، أو: ماذا تأمرون به، من الأمر، لما بهره سلطان المعجزة وحيره، حط نفسه عن ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبيده. فى زعمه. والامتثال لأمرهم، وجعل نفسه مأمورة، أو: إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم، بعد ما كان مستقلاً فى الرأى والتدبير.

﴿ قالوا ﴾ له: ﴿ أرجه وأخاه ﴾ أى: أخر أمرهما، ولا تعجل بقتلهما؛ خوفاً من الفتنة أو: احبسهما، ﴿ وابعث فى المدائن حاشرين ﴾ أى: شرطاً يحشرون السحرة، ﴿ يأتوك ﴾ أى: الحاشرون ﴿ بكل سحارٍ عليم ﴾؛ فائق فى فن السحر. وأتوا بصيغة المبالغة؛ لیسكنوا بعض روعته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: المشاورة فى الأمور المهمة من شأن أهل السياسة والرأى، وفى الحديث: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار» (١)، فالمشاورة من الأمر القديم، وما زالت الأكابر من الأولياء والأمراء يتشاررون فى أمورهم؛ اقتداء برسول الله ﷺ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر جمع السحرة، فقال:

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴾ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقَوَامَ أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿ (٤٣) فَالْقَوَا إِجَابَهُمْ وَعِصِيَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٤٤)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فجُمِعَ السحرة لميقات يوم معلوم ﴾، وهو ما عيّنه موسى ﷺ بقوله: ﴿ موعِدكم يوم الزينة وأن يحشَرَ الناسُ ضحى ﴾ (٢). والميقات: ما وقت به، أى: حد من زمان أو مكان. ومنه: مواقيت الحج. ﴿ وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ﴾ أى: اجتمعوا. وعبر بالاستفهام؛ حثاً على الاجتماع. واستبطاء لهم، والمراد: استعجالهم إليه، ﴿ لعلنا نتبع السحرة ﴾ فى دينهم ﴿ إن كانوا هم الغالبين ﴾ أى: إن غلبوا موسى، ولا نتبع موسى فى دينه، وليس غرضهم اتباع السحرة، وإنما الغرض الكلى ألا يتبعوا موسى، فساقوا كلامهم مساق الكناية؛ حملاً لهم على الاهتمام والجد فى المغالبة؛ لأنهم إذا اتبعوا السحرة لم يكونوا متبعين لموسى، وهو مرادهم، ولأن السحرة إذا سمعوا ذلك حملهم التروس على الجد فى المغالبة.

﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً ﴾ أى: جزاء وافراً ﴿ إن كنا نحن الغالبين ﴾ لموسى؟ ﴿ قال نعم ﴾ لكم ذلك، ﴿ وإنكم ﴾ مع ذلك، ﴿ إذا لمن المقربين ﴾ عندى فى المرتبة والحال، فتكونون أول من

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٦٦٢٧)، والصغير (٧٨/٢)، والشهاب القضاعى فى مسنده (٧٧٤)، من حديث أنس. وانظر كشف الخفاء (١٨٥/٢).
(٢) الآية ٥٩ من سورة طه.

يدخل على، وآخر من يخرج على. ولما كان قوله: «أَتَيْنَ لَنَا لِأَجْرًا»، في معنى جزاء الشرط؛ لدلالته عليه، وكان قوله: «وإنكم إذا»: معطوفاً عليه، دخلت «إذا»؛ قارة في مكانها، الذي تقتضيه من الجواب والجزاء.

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى ﴾ بعد أن قالوا له: ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ (١): ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ من السحر، فسوف ترون عاقبته. ولم يرد به الأمر بالسحر والتمويه، بل الإذن في تقديم ما هم فاعلوه البتة؛ توسلاً به إلى إظهار الحق وإبطال الباطل، ﴿ فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴾، وكانوا سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصا. وقيل: كانت الحبال اثنين وسبعين، وكذا العصي. ﴿ وَقَالُوا ﴾ بعد الإلقاء، لما رأوها تتحرك وتقبل وتدبر: ﴿ بَعْزَةٌ فَرَعُونَ إِنَّا لِلْحَنَ الْغَالِبُونَ ﴾، قالوا ذلك؛ لفرط اعتقادهم في أنفسهم، وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر، أقسموا بعزته وقوته، وهو من أيمان الجاهلية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: السحر على قسمين: سحر القلوب إلى حضرة الحق، وسحر النفوس إلى عالم الخلق، أو: إلى عالم الخيال. فالأول: من شأن العارفين بالله، الداعين إلى الله، فهم يسحرون قلوب من أتى إليهم إلى حضرة القدس، ومحل الأنس، فيقال في شأنهم: فجمع السحرة بقلوبهم، إلى ميقات يوم معلوم، وهو يوم الفتح والتمكين، أو يوم النفحات، عند اتفاق جمعهم في مكان معلوم. وقيل للناس، وهم عوام الناس: هل أنتم مجتمعون لتفريقوا من سكرتكم، وتتيقظوا من نوم غفلتكم، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، ولا شك في غلبتهم ونصرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ (٢).

ثم ذكر إبطال سحرهم، وإسلامهم، فقال:

﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ (٤٥) ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴾ (٤٦) ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٧) ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (٤٨) ﴿ قَالَ آمَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ نَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا تُقِطِعْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَيْكُمُ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤٩) ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ (٥٠) ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥١)

(٢) من الآية ٤٠ من سورة الحج.

(١) الآية ٦٥ من سورة طه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ﴾ من يده، ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أي: تبتلع بسرعة ﴿مَا يَأْكُونُ﴾: ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم، ويزورونه، فيخيّلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى، ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ لما شاهدوا ذلك من غير تلّعم ولا تردد، غير متمالكين لأنفسهم؛ لعلمهم بأن ذلك خارج عن حدود السحر، وأنه أمر إلهي، يدل على تصديق موسى ﷺ. وعبر عن الخور بالإنلقاء بطريق المشاكلة؛ لقوله: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾، فألقى، فلما خروا سجوداً، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال عكرمة: أصبحوا سحرة وأمسا شهداء. هـ. ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾: عطف بيان، أو: بدل من «رب العالمين». فدفع تروهم إرادة فرعون؛ لأنه كان يدعى الربوبية، فأرادوا أن يعزلوه منها. وقيل: إن فرعون لما سمع منهم: «آمنا برب العالمين»، قال: إياي عنيتم؟ قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي: بغير إذن لكم، كما في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ (١)، لا أن الإذن منه ممكن أو متوقع، ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم؛ مكرّاً وحيلة. أراد بذلك التلبيس على قومه؛ لئلا يعتقدوا أنهم آمنوا على بصيرة وظهور حق. ثم هدّدهم بقوله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾، يداً من جهة رجلاً من أخرى، أو: من أجل خلافٍ ظهر منكم، ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قيل: إنه فعل ذلك، وروى عن ابن عباس وغيره، وقيل: إنه لم يقدر على ذلك، لقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ وَمَنْ أَتَّبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ﴾ (٢).

﴿قَالُوا﴾ أي: السحرة: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا ضرر علينا في ذلك، فحذف خبر «لا»، ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا﴾ الذي عرفناه ورأيناه ﴿مُنْقَلِبُونَ﴾ لا إليك، فيكرم مثوانا ويكفر خطايانا، أو: لا ضرر علينا فيما ترعدتنا به؛ إذ لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بالموت، فلأن يكون في ذاته وسبب دينه أولى، قال الورتجبي: لما عاينوا مشاهدة الحق سهل عليهم البلاء، لاسيما أنهم يطمعون أن يصلوا إليه، بلغت الرضا والغفران. هـ. ولذلك قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا﴾ أي: لأن كنا ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من أهل المشهد، أو: من أتباع فرعون.

الإشارة: من شأن خواص الملك ألا يفعلوا شيئاً إلا بإذن من ملكهم، ولذلك أنكر فرعون على السحرة المبادرة إلى الإيمان قبل إننه، وبه أخذت الصوفية الكبار والفقراء مع أشياخهم، فلا يفعلون فعلاً حتى يستأذنوا فيه الحق تعالى والمشايع، وللإذن مركب، لا يفهمه إلا من ذاق سره. وتقدم بقية الإشارة في سورة الأعراف (٣). والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ١٠٩ من سورة الكهف.

(٢) راجع إشارة الآيات ١١٧ - ١٢٦ من سورة الأعراف.

ثم ذكر خروج موسى ﷺ من مصر وتوجهه إلى البحر، فقال:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ۖ ﴾ ٥٢ ﴿ فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي
الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۖ ﴾ ٥٣ ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۖ ﴾ ٥٤ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۖ ﴾ ٥٥ ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ
حَاذِرُونَ ۖ ﴾ ٥٦ ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ ﴾ ٥٧ ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۖ ﴾ ٥٨ ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا
بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ ﴾ ٥٩

قلت: أسرى وسرى: لغتان، وقرئ بهما.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ ﴾ بقطع الهمزة وصلها، أي: سر ﴿ بعبادي ﴾ ليلاً. وسماهم عباده؛ لإيمانهم بتبليهم، وذلك بعد إيمان السحرة بسنين، أقام بين أظهرهم، يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآيات، ثم أمره بالخروج، وقال: ﴿ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ أي: يتبعكم فرعون وجنوده مصبحين، فأسر بمن معك حتى لا يدركوك قبل الوصول إلى البحر، فدخلوا مداخلكم، فأطبقه عليهم فأغرقهم. روى أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوت القبط ولد، فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه. وروى أن الله أوحى إلى موسى: أن اجمع بنى إسرائيل، كل أربعة أبيات في بيت، ثم اذبحوا أولاد الضأن، فاضربوا بدمائها على أبوابكم، فإني سأمر الملائكة فلا تدخل بيتاً فيه دم، وسأمرها فتقتل أبقار القبط، واخبزوا فطيراً؛ فإنه أسرع لكم، ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري. (١) هـ. وحكمة لطخ الدم ليميز بيوت بنى إسرائيل، فلا تقتل الملائكة فيها أحداً. عاملهم على قدر عقولهم، وإلا فالملك لا يخفى عليه ما أمر به.

﴿ فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ ﴾ حين أخبر بمسيرهم ﴿ في المدائن حاشرين ﴾؛ جامعين للعساكر ليتبعهم، فلما اجتمعوا قال: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ ﴾، يريد بنى إسرائيل ﴿ لَشِرْذِمَةٌ ﴾؛ طائفة قليلة ﴿ قليلون ﴾، ذكرهم بالاسم الدال على القلة، ثم جعلهم قليلاً بالوصف، ثم جمع القليل، فبدل على أن كل حزب منهم قليل. أو: أراد بالقلة: الذلة، لا قلة العدد، أي: إنهم؛ لذلتهم، لا يبالى بهم، ولا يتوقع غلبتهم. قال ابن عرفة: شردمة: تقليل لهم باعتبار الكيفية، وقليلون: باعتبار الكمية، وإنما استقل قوم موسى - وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً -؛ لكثرة من معه، فعن الضحاك: كانوا سبعة آلاف ألف، وروى أنه أرسل في أثرهم ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور، مع كل ملك ألف، وخرج فرعون في جمع عظيم، وكانت مقدمته سبعمائة ألف رجل على حصان، وعلى رأسه بيضة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه خرج فرعون في ألف ألف حصان، من سوى الإناث. هـ. (٢).

(١) انظر تفسير الطبري (٧٦/١٩)، والدر المنثور (١٥٨/٥) والبيغزى (١١٣/٦).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣٣٦/٣) بعد ذكره لبعض الأقوال في تعيين عدد الذين خرجوا مع فرعون: والظاهر أن ذلك من مجازات بنى إسرائيل، والله أعلم. والذي أخبر به القرآن هو النافع، ولم يعين عدتهم؛ إذ لا فائدة تخته، لأنهم خرجوا بأجمعهم.

﴿وإنهم لنا لغائظون﴾ أي: فاعلون ما يغيظنا، وتضييق به صدورنا، وهو خروجهم من مصر، وحملهم علينا، وقتلهم أبكارنا، ﴿وإنا لجميع حاذرون﴾ أي: ونحن قوم عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى إطفاء ثأثرته وحسم فساد، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن؛ لئلا يظن العجز. وقرئ: (حذرون) (١)؛ بالمد والقصر، فالأول دال على تجدد الحذر، والثاني على ثبوته.

قال تعالى: ﴿فأخرجناهم﴾ أي: خلقنا فيهم داعية الخروج وحملناهم عليه، ﴿من جنات﴾؛ بساتين ﴿وعيون﴾؛ وأنهار جارية، ﴿وكنوز﴾؛ أموال وافرة من ذهب وفضة، وسماها كنوزاً؛ لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله تعالى شيئاً. ﴿ومقام كريم﴾ أي: منزل رفيع بهي، وعن ابن عباس: المناير.

﴿كذلك﴾ أي: الأمر كذلك، أو: أخرجناهم مثل ذلك الإخراج العجيب، فهو خبر، أو: مصدر تشبيهي لأخرجنا. ﴿وأورثناها بني إسرائيل﴾ أي: ملكناها إياهم، على طريقة تملك مال الموروث للوارث؛ لأنهم ملكوها من حين خروج أربابها عنها قبل أن يقبضوها. وعن الحسن: لما عبروا النهر رجعوا، وأخذوا ديارهم وأموالهم. هـ. قال ابن جزى: لم يذكر في التواريخ ملك بني إسرائيل لمصر، وإنما المعروف أنهم ملكوا الشام، فتأويله على هذا: أورثناهم مثل ذلك بالشام. هـ. قلت: بل التحقيق أنهم ملكوا التصرف في مصر، ووصلت حكومتهم إليها، ولم يرجعوا إليها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا ينتصر نبي ولا ولي إلا بعد أن يهاجر من وطنه؛ سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، والنصرة مقرونة مع الذلة والقلّة؛ «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة». وبالله التوفيق. ثم ذكر معجزة فلق البحر وغرق فرعون، فقال:

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

(١) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي (حاذرون) بألف بعد الحاء. وقرأ الباقون بحذفها. انظر الإتحاف (٣١٦/٢).

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾ أي: فأتبع فرعون وقومه بنى إسرائيل، أي: لحقوا بهم، وقرئ بشد التاء، على الأصل، ﴿مُشْرِقِينَ﴾؛ داخلين في وقت شروق الشمس، أي: طلوعها، ﴿فلما تراءى الجمعان﴾ أي: تقابلا، بحيث يرى كل فريق صاحبه، أي: بنو إسرائيل والقبط، ﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ أي: قرب أن يلحقنا عدونا، وأمامنا البحر، ﴿قال﴾ موسى ﷺ: ﴿ثقة بوعده ربه:﴾ ﴿كلاً﴾ ارتدعوا عن سوء الظن بالله، فلن يدرككم أبدا، ﴿إنَّ معي ربي سيهدين﴾ أي: سيهديني طريق النجاة منهم.

روى أن موسى ﷺ لما انتهى إلى البحر هاجت الريح، والبحر يرمى بموج مثل الجبال، فقال يوشع ﷺ: يا كريم الله، أين أمرت، فقد غشيتا فرعون، والبحر أمامنا؟ قال ﷺ: ها هنا، فحاض يوشع الماء، وضرب موسى بعصاه البحر، فكان ماكان، وقال الذي كان يكتن إيمانه: يا مكرم الله أين أمرت؟ قال: ها هنا. فكبح فرسه بلجامه، ثم أقحمه البحر، فرسب في الماء، وذهب القوم يصنعون مثل ذلك، فلم يقدرُوا، فجعل موسى لا يدرى كيف يصنع؟ فأوحى الله إليه: ﴿أن اضرب بعصاك البحر﴾، فضربه، فانفلق، فإذا الرجل واقف على فرسه، لم يبتل لبده ولا سرجه^(١).

وقال محمد بن حمزة: لما انتهى موسى إلى البحر، دعا، فقال: يا من كان قبل كل شيء، والمكون لكل شيء، والكائن بعد كل شيء، اجعل لنا مخرجاً، فأوحى الله إليه: أن اضرب بعصاك البحر^(٢)، وذلك قوله تعالى: ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر﴾ أي: القلزم، أو النيل، ﴿فانفلق﴾ أي: فضرب فانفلق وانشق، فصار اثني عشر فرقا، على عدد الأسباط. ﴿فكان كل فرق﴾ أي: جزء من الماء ﴿كالطُّود﴾: كالجبل المنطاد في السماء ﴿العظيم﴾، وبين تلك الجبال من الماء مسالك، بأن صار الماء مكفوقاً كالجامد، وما بينها يابس، فدخل كل سبط في شعب منها.

﴿وَأَزَلَّنا﴾ أي: قرَّبنا ﴿ثمَّ الْآخِرِينَ﴾ أي: فرعون وقومه، حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم، ﴿وَأَنجِنا موسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ من الفرق؛ بحفظ البحر على تلك الهيئة، حتى عبروه، ﴿ثمَّ أَغْرَقْنا الْآخِرِينَ﴾؛ بإطباقه عليهم. قال النسفي: وفيه إبطال القول بتأثير الكواكب في الآجال وغيرها من الحوادث، فإنهم اجتمعوا في الهلاك، على اختلاف طوائفهم. روى أن جبريل ﷺ كان بين بنى إسرائيل وبين آل فرعون، فكان يقول لبنى إسرائيل: ليلحق آخركم بأولكم، ويستقبل القبط فيقول: رويدكم، ليلحق آخركم^(٣). هـ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي: في جميع ما فصل؛ مما صدر عن موسى ﷺ، وما ظهر على يديه من المعجزات القاهرة، وفيما فعل فرعون وقومه؛ من الأفعال والأقوال، وما فعل بهم من العذاب والنكال، لعبرة عظيمة، لا تكاد توصف، موجبة لأن يعتبر المعتبرون، ويقيسوا شأن النبي ﷺ بشأن موسى ﷺ، وحال أنفسهم

(١) أخرجه الطبري (٨٠/١٩) عن ابن جريج. وذكره البغوي في تفسيره (١١٥/٦).

(٢) عزاه ابن كثير في تفسيره (٣٣٦/٣) لابن أبي حاتم، عن عبدالله بن سلام.

(٣) عزاه في الدر المنثور (١٦٣/٥ - ٩٦٤) لابن عبدالحكم وعبد بن حميد، عن مجاهد.

174

﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿واتل عليهم﴾ أي: على المشركين ﴿نبا إبراهيم﴾ أي: خبره العظيم الشأن، ولم يأمر في قصص هذه السورة بتلاوة قصة إلا في هذه؛ تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لأمر التوحيد، الذي دلت عليه. ﴿إذ قال﴾ أي: وقت قوله ﴿لأبيه وقومه ما تعبدون﴾ أي: أي شيء تعبدون؟ وإبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة الأصنام، لكنه سألهم؛ ليعلمهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة، ﴿قالوا نعبد أصناماً﴾، وجواب ﴿ما تعبدون﴾: هو قولهم: ﴿أصناماً﴾، لأن السؤال وقع عن المعبود لا عن العبادة، فكان حق الجواب أن يقولوا: أصناماً، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغُرَّةُ﴾ (١)، وكقوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ (٢). لكنهم أطلبوا فيه بإظهار العامل؛ قصداً إلى إبراز ما في نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بعبادتها، ﴿فنظّل لها عاكفين﴾ أي: فنقيم على عبادتها طول النهار. وإنما قالوا: ﴿فنظّل﴾؛ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل. أو: يراد به الدوام.

﴿قال﴾ إبراهيم عليه السلام: ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون﴾ أي: هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم، على حذف مضاف، ﴿أو ينفعونكم﴾ إن عبدتموها، ﴿أو يضرون﴾؛ أو يضرونكم إن تركتم عبادتها؛ إذ لا بد للعبادة من جلب نفع أو دفع ضرر؟ ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ فافتدينا بهم. اعترفوا بأن أصنامهم بمعزل عما ذكر؛ من السمع، والمنفعة، والمضرة بالمرء. واضطروا إلى إظهار أنهم لا سند لهم سوى التقليد الرديء.

﴿قال﴾ إبراهيم: ﴿أفرايتم ما كنتم تعبدون﴾ أي: أنظرتم وأبصرتم وتأملتكم فعلمتم ما كنتم تعبدون ﴿أنتم وآباؤكم الأقدمون﴾ حق الإبصار، أو حق العلم، ﴿فإنهم عدو لي﴾ أي: فاعلموا أنهم أعداء لي، لا أحبهم ولا يحبونني، أو: لو عبدتموهم لكانوا أعداء لي يوم القيامة، كقوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٣)، وقال الفراء: هو من المقلوب، أي: فإنني عدو لهم، والعدو يجيء بمعنى الواحد والجماعة؛ لأنه فعول، كصبور. وفي قوله: ﴿عدو لي﴾، دون لكم؛ زيادة نصيح، لكونه أدعى لهم إلى القبول، ولو قال: فإنهم عدو لكم، لم يكن بتلك المثابة، ولم يقبلوه، ﴿إلا رب العالمين﴾: استثناء منقطع، أي: لكن رب العالمين ليس كذلك، بل هو

(٣) من الآية ٨٢ من سورة مريم.

(٢) من الآية ٢٣ من سورة ميثا.

(١) من الآية ٢١٩ من سورة البقرة.

حبيب لى. وأجاز الزَّجَّاجُ أن يكون متصلاً، على أن الضمير لكل معبود، وكان من آبائهم من عبد الله تعالى، وهم أيضاً كانوا يعبدون الله مع أصنامهم .

ثم وصف الربُّ تعالى بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ بالتكوين فى القرار المكين، ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ وحده إلى كل ما يهمنى ويصلحنى من أمور الدين والدنيا، هداية متصلة بحين الخلق ونفخ الروح، متجددة على الاستمرار، كما ينبئ عنه صيغة المضارع. وعبر بالاستقبال، مع سبق الهداية فى الأزل؛ لأن المراد ما ينشأ عنها، وهو الاهتداء لما هو الأهم والأفضل والأتم الأكمل، أو: والذي خلقنى لأسباب خدمته فهو يهدين إلى آداب خلقه. ولما كان الخلق لا يمكن أن يدعيه أحد لم يؤكد فيه بهو، بخلاف الهداية والإطعام والسقى، فإنه يكون على سبيل المجاز من المخلوقين، ولذلك أكد بهو؛ ليخصه به تعالى.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي﴾ لا غيره، أضاف الإطعام إلى مولى الإنعام؛ لأن الركون إلى الأسباب عادة الأنعام. ﴿وَهُوَ أَيْضاً الَّذِي يُسْقِينِي﴾ أى: يروئى بمائه. وتكرير الموصول فى المواضع الثلاثة؛ للإيذان بأن كل واحدة من تلك الصلوات نعت جليل له تعالى، مستقل فى استيجاب الحكم. ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾: عطف على ﴿يُطْعَمُنِي وَيُسْقِينِي﴾، ونظم معهما فى سلك الصلة بموصول واحد؛ لأن الصحة والمرض من مقبوعات الأكل والشرب فى العادة، غالباً.

وقال فى الحاشية: ثم تكرر بعد نعمة الخلق والهداية ما تدوم به الحياة وتستمر، وهو الغذاء والشراب، ولما كان ذلك مبدئياً على غلبة إحدى الكيفيات على الأخر، بزيادة الغذاء أو نقصانه، فيحدث بعد ذلك مرض، ذكر نعمته بإزالة ما حدث من السقم. هـ. ونسبة المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى، مع أنهما منه تعالى؛ لمرعاة حسن الأدب، كما قال الخضر عليه السلام: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ (١)، ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَلْفَا أَشَدَّهُمَا﴾ (٢).

﴿وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي﴾، ولم يقل: وإذا مت؛ لأن الإماتة والإحياء من خصائصه تعالى. وأيضاً: الموت والإحياء من كمال الكمال؛ لأنه الخروج من سجن الدنيا إلى السرور والهناء، أو: الخروج من دار البلاء والفناء إلى دار الهناء والبقاء. ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي﴾ أى: فى مغفرته لى ﴿خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾، ذكره عليه السلام؛ هضمًا لنفسه، وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصى، ويكونوا على حذر منها، وطلب مغفرته لما يفرط منهم. وقال أبو عثمان: أخرج سؤاله على حد الأدب، لم يحكم على ربه بالمغفرة، ولكنه طمع طمع العبيد فى مواليتهم، وإن لم يكونوا يستحقون عليهم شيئاً؛ إذ العبد لا يستحق على مولاه شيئاً، وما يأتيه يأتيه من فضل مولاه. هـ.

(١) من الآية ٧٩ من سورة الكهف. (٢) من الآية ٨٢ من سورة الكهف.

وقيل: أشار إلى قوله: «إني سقيم» (١) «فعله كبيرهم هذا» (٢) وقوله في سارة: «هي أختي»؛ حذراً من الجبار. وفيه نظر؛ لأنها مع كونها معارضة، لا من قبيل الخطايا المغفورة إلى الاستغفار، إنما صدرت عنه ﷺ بعد هذه المقالة الجارية بينه وبين قومه في أول أمره. وتعلق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، مع كونها إنما تُغفر في الدنيا؛ لأن أثرها إنما يظهر يومئذ، ولأن في ذلك تهويلاً له، وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه، إن لم يغفر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي لك أيها العبد أن تكون إبراهيمياً حنيفياً، فتنبذ جميع الأرباب، وتعادى كل من يشغلك عن محبة الحبيب، من العشائر والأصحاب، وتقول لمن عكف على متابعة هواه، ولزم الحرص على جمع دنياه، هو ومن تقدمه: أفرأيت ما كنتم تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمين، فإنهم عدواً لي إلا رب العالمين، الذي خلقتني لعبوديته، فهو يهدين إلى معرفته، والذي هو يطعمني طعم الإيمان واليقين والإحسان، ويسقيني من شراب خمرة العيان، وإذا مرضت بالذنوب فهو يشفين بالتوبة، أو: وإذا مرضت بشيء من العيوب فهو يشفين بالتطهير منها. أو: إذا مرضت برؤية السوء، فهو يشفين بالغيبة عنه، والذي أطمع أن يطهرني من البقايا، ويجعلني من المقربين يوم الدين. وقال ذو النون رحمته: يطعمني طعام المعرفة، ويسقيني شراب المحبة، ثم قال:

شَرَابُ الْمَحَبَّةِ خَيْرُ الشَّرَابِ وَكُلُّ شَرَابٍ سِوَاهُ سَرَابٌ

وقال الشيخ أبو يزيد البسطامي رحمته: إن لله شراباً، يقال له: شراب المحبة، ادخره لأفاضل عبادته، فإذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طاشوا، وإذا طاشوا طاروا، وإذا طاروا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، فهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر. هـ. قلت: شراب المحبة هو خمرة الفناء والغيبة في الله، بدليل قول ابن الفارض رحمته:

قَلَمَ تَهَوَّنَى مَالَمَ تَكُنْ فِي فَانِيَا وَلَمَ تَفَنَّ مَالَمَ تَجْتَلِ فِيكَ صَوْرَتِي.

وقال الجنيد رحمته: يحشر الناس يوم القيامة عراة، إلا من لبس ثياب التقوى، وجياعاً إلا من أكل طعام المعرفة، وعطاشاً إلا من شرب شراب المحبة. هـ. وقد يستغنى صاحب طعام المعرفة وشراب المحبة عن الطعام والشراب الحسينيين، كما قال رحمته، حين كان يواصل: «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» (٣).

قال أبو بكر الوراق في قوله تعالى: ﴿الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ أي: يطعمني بلا طعام، ويسقيني بلا شراب. قال: ويدل عليه حديث السقاء في عهد النبي ﷺ؛ حيث سمع النبي ﷺ يقرأ ثلاثة أيام: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾، فرمى بقرنتيه، فأناه آت في منامه بقدر من شراب الجنة، فسقاه، قال أنس: فعاش بعد ذلك نيفاً وعشرين سنة، لم يأكل ولم يشرب على شهوة. هـ.

(١) من الآية ٨٩ من سورة الصافات. (٢) من الآية ٦٣ من سورة الأنبياء.

(٣) أخرجه البخاري في (الصوم، باب التنكيل لمن أكثر الوصال، ح ١٩٦٥) ومسلم في (الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم، ٧٧٤/٢، ح ١١٠٣) من حديث أبي هريرة، بدون لفظ «عند ربي» وجاء هذا اللفظ في رواية عند الإمام أحمد في المسند (٢٥٣/٢).

ركان عبد الرحمن بن أبي نعيم لا يأكل في الشهر إلا مرة، فأدخله الحجاج بيتاً، وأغلق عليه بابه، ثم فتحه بعد خمسة عشر يوماً، ولم يشك أنه مات، فوجده قائماً يصلي، فقال: يا فاسق، تصلي بغير وضوء؟ فقال: إنما يحتاج الوضوء من يأكل ويشرب، وأنا على الطهارة التي أدخلتني عليها. هـ. ومكث سفيان الثوري بمكة دهرًا، وكان يسف من السبت إلى السبت كفاً من الرمل. هـ. وهذا من باب الكرامة، فلا يجب طردها، وقد تكون بالرياضة، وطريق المعرفة لا تتوقف على هذا. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر دعاء إبراهيم عليه السلام، فقال:

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ٨٣ ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ٨٤ ﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ ٨٥ ﴿ وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ ٨٦ ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ ٨٧ ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ ٨٨ ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ٨٩

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾ أي: حكمة، أو حكماً بين الناس، أو نبوة؛ لأن النبي ذو حكم بين عباد الله. ﴿ وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ أي: الأنبياء، الذين صلحوا لحمل أعباء النبوة والرسالة، وصلحت سرائرهم للحضرة، ولقد أجابه بقوله: ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾. ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أي: ثناءً حسناً، وذكرًا جميلاً في الأمم التي تجيء بعدى، فأعطى ذلك، فكل أهل دين يتولونه ويثنون عليه، ووضع اللسان موضع القول؛ لأن القول يكون به. أو: واجعلني على طريق قويم، وحال مرضى، يفتدى بي فيهما، ويحمد أثرى بعد موتى، كما قيل:

مَوْتُ التَّقِيِّ حَيَاةٌ لَأَفْنَاءِ لَهَا قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ.

وقد تحقق له جميع ذلك، وخصوصاً في هذه الأمة، حتى إنه مذكور ومقرون في كل صلاة على النبي ﷺ، وقال بعضهم: سأل أن يجعله صالحاً، بحيث إذا أثنى عليه من بعده لم يكن كاذباً. وقيل: سأل الإمامة في التوحيد والدين، وقد أجيب بقوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (١) هـ.

﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أي: اجعلني وارثاً من ورثة جنة النعيم، أي: الباقيين فيها، ﴿ وَأَغْفِرْ لِأَبِي ﴾ أي: اجعله أهلاً للمغفرة، بإعطاء الإسلام؛ ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾: الكافرين، أو: اغفر له على حاله.

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

وكان قبل النهي. ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أى: لا تُهَيِّئْ يوم يبعثون. الضمير للعباد؛ لأنه معلوم، أو: للضالين، أى: لا تخزني في أبى يوم البعث، وهذا من جملة الاستغفار لأبيه، وكان قبل النهي عنه، أى: لا تُهَيِّئْ، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، أى: لا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ، وإن كان مصروفًا في وجوه البر، ولا بنون، وإن كانوا صلحاء متأهلين للشفاعة، ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الكفر والنفاق؛ فإنه يَنْفَعُهُ مَالُهُ المصروف في طاعة الله، ويشفع فيه بنوه، إن تأهلوا للشفاعة، بأن أدبهم ودرجهم إلى اكتساب الكمالات والفضائل.

وقال ابن المسيب: القلب السليم هو قلب المؤمن؛ فإن قلب الكافر والمنافق مريض؛ قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ (١). وقال أبو عثمان: هو القلب الخالي من البدعة، المطمئن على السنة. وقال الحسن بن الفضل: سليم من آفات المال والبنين، والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد استعمل إبراهيم عليه السلام الأدب، الذي هو عمدة الصوفية، حيث قَدَّمَ الثناء قبل الطلب، وهو مأخوذ من ترتيب فاتحة الكتاب. وقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ حُكْمًا﴾: قال القشيري: أى: على نفسى أولاً، فإن من لا حُكْمَ له على نفسه لا حُكْمَ له على غيره، ﴿وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾؛ بالقيام بحقك، دون الرجوع إلى طلب الاستقلال لنفسى دون حقك. هـ.

ومما اصطلحت عليه الصوفية أن الصالحين: من صلحت ظواهرهم، وتطهرت قلوبهم من الأمراض. وفرقهم الأولياء، وهم من كُشِفَ عنهم الحجاب، وأفضوا إلى الشهود والعيان، وفوقهم درجة النبوة والرسالة، فقول الخليل ﴿وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، وكذلك قال الصديق، هو تنزل وتواضع؛ ليعرف جلالة قدر الصالحين، فما بالك بمن فوقهم! فهو كقول نبينا ﷺ: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مَسْكِينًا، وَأَحْشُرْنِي فِي زُمَرَةِ الْمَسَاكِينِ» (٢). أى: اجعل المساكين هم قرابتي، المحذوقين بى فى المحشر، فقد عَرَفَ ﷺ بفضيلة المساكين، وعظم جاههم، بطلبه أن يكونوا فى كفالته، لا أنه فى كفالتهم، وكذلك الخليل والصديق، عَرَفَا بفضيلة الصالحين من أهل الإسلام، لأنهما طلبا اللحق بهم.

وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾؛ كل من أخلص وجهه لله، وتخلصت سريره مما سوى الله، وكان إبراهيميا حنيفياً، جعل الله له لسان صدق فيمن يأتى بعده، وحسن الثناء عليه فى حياته وبعد مماته، لقوله ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ ينادى جِبْرِيلُ

(١) من الآية ١٠ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الترمذى فى (الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، ٤/٤٩٩، ح ٢٣٥٢)، والبيهقى فى الكبرى (١٢/٧) من حديث أنس بن مالك، وأخرجه ابن ماجه فى (الزهد، باب مجالسة الفقراء، ٢/١٣٨١ - ١٣٨٢، ح ٤١٢٦) والحاكم فى المستدرک (٤/٣٢٢)، وصححه، ووافقه الذهبى، من حديث أبى سعيد الخدرى.

في أهل السموات: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض» (١). أو كما قال ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿واغفر لأبي...﴾ الخ. قال القشيري: هذا عند العلماء: إنما قاله قبل يأسه من إيمانه، وعن أهل الإشارة: ذكره في وقت غلبة البسط، وتجاوز ذلك عنه، وليس إجابة العبد واجبة عليه في كل شيء، وأكثر ما فيه: أنه لا يجيبه في ذلك، ثم لهم أسوة في ذكر أمثال هذا الخطاب، وهذا لا يهتدى إليه كل أحد. هـ.

قال المحشي: وينظر لما قاله العلماء، وبه الفتوى، قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ (٢)، وينظر للسان الإشارة شفاعته له يوم القيامة، وتكلمه فيه بقوله: (وَأَيُّ خِزْيٍ أَعْظَمَ مِنْ كَوْنِ أَبِي فِي النَّارِ...) الحديث، وكذا قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣)، وجاء ذلك من استغراقه في بحر الرحمة، على سعة العلم، ومثله استغفار نبينا ﷺ لابن أبي، وصلاته عليه، وانظر الطيبي في آية: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةٌ وَعِلْمٌ﴾ (٤). هـ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، أظهر ما قيل في القلب السليم: أنه السالم من الشكوك والأروهام، والخواطر الردية، ومن الأمراض القلبية، ولا يتحقق له هذا إلا بصحبة شيخ كامل، يخرج من الأوصاف البشرية، إلى الأوصاف الروحانية، ويحققه بالحضرة القدسية، وإلا بقى مريضاً، حتى يلقي الله بقلب سقيم. وفي الإحياء: السعادة منوطة بسلامة القلب من عوارض الدنيا، والجود بالمال من عوارض الدنيا، فشرط القلب أن يكون سليماً بينهما، أي: لا يكون ملتفتاً إلى المال، ولا يكون حريصاً على إمساكه، ولا حريصاً على إنفاقه؛ فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق، كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك. وكان كمال القلب أن يصفر من الوصفين جميعاً. وقال الداراني: القلب السليم هو الذي ليس فيه غير الله تعالى. هـ. وقال الجنيد رحمه الله: السليم في اللغة: اللديغ، فمعناه: كاللديغ من خوف الله تعالى. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر هول ذلك اليوم، فقال:

﴿وَأَزَلِفَتْ أَلْحَنَةُ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ (٩٠) ﴿وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَتِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصَرُونَ (٩٣) فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ

(١) أخرجه البخاري في (الأدب، باب العقّة، المحبة، من الله ح ٦٦٤٠) ومسلم في (البر والصلة، باب إذا أحب الله عبداً حبه إلى

عباده، ٢٠٣٠/٤، ح ٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(٢) من الآية ١١٤ من سورة التوبة. (٣) من الآية ٣٦ من سورة إبراهيم.

(٤) من الآية ٧ من سورة غافر.

﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

قلت: (وأزلت): عطف على (ينفع)، وصيغة الماضي فيها وفيما بعدها؛ لتحقيق الوقوع.

يقول الحق جل جلاله، في شأن اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون: ﴿وأزلت﴾ أي: قريت ﴿الجنة للمتقين﴾، أي: تزلف من موقف السعداء، فينظرون إليها، ﴿وبرزت الجحيم﴾: أظهرت، حتى يكاد يأخذهم لهبها، ﴿لغاوين﴾: للكافرين، ﴿وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم﴾ بنفع العذاب عنكم، ﴿أو ينصرون﴾ بدفعه عن أنفسهم، يوتخون على إشراكهم، فيقال لهم: أين آلهتكم التي عبدتموها، هل ينفعونكم اليوم بنصرتهم لكم؟ أو: هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لها؟ كلا، بل هم وآلهتهم وقود النار، كما قال تعالى:

﴿فكذبوا فيها﴾ أي: ألقوا في الجحيم على وجوههم، مرة بعد أخرى، إلى أن يستقروا في قعرها. وفي القاموس: كبه: قلبه وصرعه، كأكبه وكبكه. هـ. أي: صرعوا؛ منكبين في الجحيم على وجوههم، ﴿هم﴾ أي: آلهتهم ﴿والغاوين﴾ أي: الذين كانوا يعبدونهم.

وفي تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز إلى أنهم مؤخرون عنها في الكيبة؛ ليشاهدوا سوء حالها، فيزدادوا غماً على غم، ﴿وجنود إبليس﴾ أي: يكذبون معهم ﴿أجمعون﴾، وهم شياطينه الذين كانوا يقرونهم ويوسسونهم، ويسؤلون لهم ما هم عليه من عبادة الأصنام، وسائر فنون الكفر والمعاصي، أو: متبعوه من عصاة الجن والإنس؛ ليجتمعوا في العذاب، حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجب.

﴿قالوا﴾ أي: العبداء ﴿وهم فيها يختصمون﴾ أي: قالوا معترفين بخطأهم في انهماكهم في الضلالة؛ متحسرين، والحال: أنهم في الجحيم بصدد الاختصاص مع من معهم من المذكورين، فيجوز أن ينطق الله الأصنام، حتى يصح منها التخاصم والتقاول، ويجوز أن يجرى ذلك بين العصاة والشياطين.

قالوا: ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين﴾ أي: إن الشأن كنا في ضلال واضح، لا خفاء فيه، ﴿إذ نسويكم﴾: نعدلكم ﴿برب العالمين﴾ فنعبدكم معه، أي: تالله لقد كنا في ضلال فاحش وقت تسويتنا إياكم أيها الأصنام، في استحقاق العبادة، برب العالمين، الذي أنتم أدنى مخلوقاته، وأذلهم وأعجزهم، ﴿وما أضلنا إلا المجرمون﴾ أي:

رؤساؤهم، الذين أضلّوهم، وإبليس وجنوده، ومن سنّ الشُّرك. وليس المراد قصر الإضلال على المجرمين دون من عداهم، بل قصر ضلالهم على كونه بسبب إضلالهم، من غير أن يستقلوا به، وهذا كقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَا﴾ (١). وعن السُّدِّي: هم الأولون الذين اقتدوا بهم. وأيا ما كان ففيه التعريض للذين قالوا: ﴿بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾.

ثم قالوا: ﴿فما لنا من شافعين﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء - عليهم السلام - وغيرهم ممن أهلّ للشفاعة. ﴿ولا صديق حميم﴾ كما لهم أصدقاء؛ إذ لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون، وأما الكفار فبينهم التعادي كما يأتي في الآية. أو: ما لنا من شافعين، ولا صديق من الذين كنا نعدّهم شفعاء وأصدقاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن أصدانهم تشفع لهم عند الله، وكان لهم أصدقاء من شياطين الإنس، فلم ينفعهم شيء من ذلك. وجمع الشفعاء ووجد الصديق؛ لكثرة الشفعاء. وأما الصديق، وهو الصادق في وداك، الذي يهيمه ما أهمك، ويسره ما أسرك، فقليل، وسئل حكيم عن الصديق، فقال: (اسم لا معنى له)، أي: لا وجود له، والبركة لا تنقطع.

قال القشيري: في الخبر: يجيء يوم القيامة عبدٌ فيحاسب، فتستوى حسناته وسيئاته، ويحتاج إلى حسنة واحدة يرضى عنه خصومه، فيقول الله سبحانه له: عبدى بقيت لك حسنة، إن كانت أدخلك الجنة، انظر، وتطلب من الناس لعل أحداً يهبها لك. فيأتي الصفيين، فيطلب من أبيه، ثم من أمه، ثم من أصحابه، فلا يجيبه أحدٌ إلا بقوله: أنا اليوم فقيرٌ إلى حسنة واحدة، فيرجع إلى مكانه، فيسأله الحق - سبحانه: ما جئت به؟ فيقول: يارب لم يعطني أحد حسنة، فيقول الله تعالى: عبدى.. ألم يكن لك صديق؟ فينذكر العبد، ويقول: فلان كان صديقاً لى فيك، فيأتيه ويدله الحق عليه، فيكلمه، فيقول: بل لى عبادات كثيرة، فإن قبلها الله منى فقد وهبها لك، فيسرّ ويجيء إلى موضعه، فيخبر بذلك ربه تعالى، فيقول: قد قبلتها منه، ولم أنقص من حقه شيئاً، وقد غفرت لك وله - فهذا معناه. هـ. ونقل القرطبي عن الحسن قال: ما اجتمع ملاً على ذكر الله، فيهم عبد من أهل الجنة، إلا شفّعه الله فيهم، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم فى بعض، وهم عند الله شافعون مشفعون. هـ.

ثم قالوا: ﴿فلو أن لنا كرة﴾ أى: رجعة إلى الدنيا ﴿فكنون من المؤمنين﴾، وجواب ﴿لو﴾ التَّمَنِيَّة: محذوف، أى: لفعلنا كيت وكيت؛ إذ لو، فى مثل هذا، للتمنى، أى: فليت لنا كرة فنكون من المؤمنين.

﴿إن فى ذلك﴾ أى: فيما ذكر من الأنباء العجيبة؛ كقصة إبراهيم مع قومه، وما ترتب على ذلك من الوعد والوعيد، ﴿لآية عظيمة، موجبة للزجر عن عبادة الأصنام، لاسيما لأهل مكة، الذين يدعون أنهم على ملة

(١) من الآية ٦٧ من سورة الأحزاب.

إبراهيم عليه السلام، أو: إن في ذكر نبأه، وتلاوته عليهم، على ما هو عليه، من غير أن تسمعه من أحد، لآية عظيمة دالة على أن ما نزلوه عليهم وحى صادق، نازل من جهته تعالى، موجبة للإيمان به، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى: وما أكثر هؤلاء، الذين تلو عليهم هذه الأنبياء، مؤمنين، بل هم مصرون على ما كانوا عليه من الكفر والضلال. ولا يحسن رجوعه لقوم إبراهيم، على أن «كان» أصلية؛ لأنه لم يؤمن من قومه إلا لوط فقط.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أى: هو القادر على تعجيل العقوبة لقومك، ولكنه يمهلهم بحلمه ورحمته؛ ليؤمن بعض منهم أو من ذريتهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: وأزلت جنة المعارف للمتقين السوى، وبرزت جحيم القطيعة للغارين، المتبعين الهوى. وفي الحكم: «لا يخاف أن تلتبس الطرق عليك، إنما يخاف من غلبة الهوى عليك» وقيل لأهل الهوى: أين ما كنتم تعبدون من دون الله، من الحاملين لكم على البقاء مع الحظوظ والشهوات، هل ينصروكم أو ينتصرون؟ فككبوا فى الحضيض الأسفل، هم والغاؤون لهم، الذين منعوهم من الدخول فى حضرة الأولياء، وجنود إبليس أجمعون. قالوا - وهم فى غم الحجاب ونار القطيعة يختصمون -: تالله إن كنا فى ضلال مبين، إذ نسويكم برب العالمين فى المحبة والميل، وما أضلنا إلا المجرمون، الذين حكموا بقطع التربية على الدوام، وسدوا الباب فى رجوه الرجال، فما لنا من شافعين، ولا صديق حميم، يشفع لنا حتى نلتحق بالمقربين. هيهات لا يكون اللحق بهم إلا بالدخول معهم، فى مقام المجاهدة فى دار الدنيا، ثم يتمنون الرجوع؛ ليصدقوا بهم، وينخرطوا فى سلكهم، فلا يجدون له سبيلا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة نوح عليه السلام، فقال:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنْتَ مِنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي

وَيُنَبِّئُهُم بِفَتْحِهِمْ وَنَجْيِهِمْ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأُنَجِّنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ
الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

قلت: اسم الجمع واسم الجنس يُذكر ويؤنث، كقوم، ورهط، وشجر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، وهو نوح بن لامك. قيل: ولد في زمن آدم عليه السلام، قاله النسفي،
وإنما قال: ﴿المرسلين﴾، والمراد: نوح فقط؛ لأن من كذب واحداً من الرسل فقد كذب الجميع، لاتفاقهم في الدعوة
إلى الإيمان؛ لأن كل رسول يدعو الناس إلى الإيمان بجميع الرسل. وقد يراد بالجمع: الواحد؛ كقولك: فلان يركب
الخيال، ويلبس البرود، وماله إلا فرس واحد ويرد واحد.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾: ظرف للتكذيب، أي: كذبوه وقت قوله لهم ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾؛ نسباً، لا ديناً، وقيل: أخوة
المجانسة، كما في آية: ﴿بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ (١). ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ خالق الأنام، فتتركوا عبادة الأصنام، ﴿إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ آمِينَ﴾، كان مشهوراً بالأمانة عندهم، كحال نبينا ﷺ في قريش، ما كانوا يسمونه إلا محمداً
الأمين. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به وأدعوكم إليه من الإيمان.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما أنا مُتَّصِدٌ له من الدعاء والصح، ﴿مَنْ أَجْرٍ﴾ أصلاً ﴿إِنْ أَجْرِي﴾ فيما
أتولاه ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ لا أطمع في غيره، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾، الفاء؛ لترتيب ما بعدها على
ما قبلها؛ من تنزيهه ﷺ عن الطمع، كما أن نظيرتها السابقة؛ لترتيب ما بعدها على أمانته. والتكرير؛ للتأكيد،
والتنبيه على أن كلا منهما مستقل في إيجاب التقوى والطاعة، فكيف إذا اجتمعا؟ كأنه قال: إذا عرفت رسالتي
وأمانتي فاتقوا الله وأطيعوا.

﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعُكَ﴾ والحالة أنه قد تبعك ﴿الْأَرْذَلُونَ﴾ أي: الأرذلون جاهاً ومالاً، والردالة: الدناءة
والخسة، وإنما استردلوهم؛ لاتصاع نسبهم، وقلة نصيبهم من الدنيا، وقيل: كانوا من أهل الصناعة الدنيئة، قيل:
كانوا حاكّة وأساكفة - جمع إسكاف - وهو الخفاف - أي: الخراز، وقيل: النجار. والصناعة لاتزرى بالديانة، فالغنى
غنى القلوب، والنسب نسب التقوى، والعز عز العلم بالله لاغير، ومرادهم بذلك: أنه لا مزية لك في اتباعهم؛ إذ

(١) الآية ٤ من سورة إبراهيم.

ليس لهم رزانة عقل، ولا إصابة رأى، وقد كان ذلك منهم فى بادى الرأى. وهذا من كمال سخافة عقولهم، وقصر نظرهم على حطام الدنيا حتى اعتقدوا أن الأشرف من جمعها، والأرذل من حرمها. وقد جهلوا بأنها لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأن النعيم هو نعيم الآخرة، والأشرف من فاز به، وسكن فى جوار الله، والأرذل من حرم ذلك.

قال القشيري: ذكر مألقي من قومه، وقوله: «وانتبعك الأرذلون»، وكذلك أتباع الرسل، إنما هم الأضعفون، لكنهم - فى حكم الله - هم المقدمون الأكرمون، قال ﷺ: «نُصِرْتُ بضعفائكم» (١)، إلخ كلامه.

﴿ قَالَ وَمَا عَلَّمِي ﴾ أى: وأى شىء علمي ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الصناعات، إنما أطلب منهم الإيمان. وقيل: إنهم طعنوا فى إيمانهم، وقالوا: لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة، وإنما اتبعوك؛ طمعاً فى العدة والمال، أى: وما وظيفتى إلا اعتبار الظواهر، دون التنقيب على بواطنهم، والشق عن قلوبهم، ﴿ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي ﴾ أى: ما محاسبة أعمالهم والتنقيب عن كيفياتها إلا على ربى؛ فإنه المطلع على السرائر، ﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ بشىء من الأشياء، أو: لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك، ولكنكم كالبهائم أو أضل.

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: ليس من شأنى أن أتبع شهواتكم، فأطرد المؤمنين؛ طمعاً فى إيمانكم، وهو جواب عما أوهمه كلامهم من استدعاء طردهم وتعليق إيمانهم بذلك، حيث جعلوا اتباعهم له مانعاً عنه، ﴿ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ وما على إلا أن أنذركم إنذاراً بيناً؛ بالبرهان القاطع، وأنتم أعلم بشأنكم، أى: وما أنا إلا رسول مبعوث لإنذار المكلفين، سواء كانوا أعزاء أو أراذل، فكيف يمكننى طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء؟ ﴿ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَ يَا نُوحُ ﴾ عما تقول ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾؛ من المقتولين بالحجارة. قالوه فى آخر أمره.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾؛ تمادوا على تكذيبى، وأصرروا عليه، بعد ما دعوتهم هذه الأزمنة المتطاولة، فلم يزدتهم دعائى إلا قراراً، وليس هذا من قبيل الإخبار؛ لأن الله لا يخفى عليه شىء، وإنما هو تضرع وابتهاال، بدليل قوله: ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾؛ أى: احكم بينى وبينهم بما يستحقه كل واحد منا، وهذه حكاية إجمالية، قد فصلت فى سورة نوح ﴿ وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من شرهم، أو من شوم عملهم.

(١) أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب ج ٢٨٩٦)، عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص، بلفظ: «هل تنصرون إلا بضعفائكم»، وأخرجه أحمد فى المسند (١٩٨/٥)، والترمذى فى (الجهاد، باب الاستفتاح بصعاليك المسلمين، ١٧٩/٤، ح ١٧٠٢)، وأبو داود فى (الجهاد، باب فى الانتصار برذل الخيل والضعفة ٧٣/٣، ح ٢٥٩٤)، من حديث أبى الدرداء، بلفظ: «ابغونى فى الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم». قال المنذرى: ومعناه: أن عبادة الضعفاء ودعاءهم أشد إخلاصاً؛ لخلو قلوبهم من التعلق بزخرف الدنيا، وجعلوا همهم واحداً، فأجيب دعاؤهم، وريحت أعمالهم.

﴿ فَأَنجِيَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ حسب دعائه ﴿ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴾ ؛ المملوء بهم وبما لا بد لهم منه . ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ﴾ أى: بعد إنجائهم ﴿ الْبَاقِينَ ﴾ من قومه، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ الممتنع القاهر بإهانة من جحد وأصر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال القشيري: أخبر عن كل واحد من الأنبياء بقوله: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ ؛ ليعلم الكافة أنه من عمل له فلا ينبغي أن يطلب الأجر من غيره، ففي هذا تنبيه للعلماء - الذين هم ورثة الأنبياء - أن يتأدبوا بأدابهم، وألا يطلبوا من الناس شيئاً في بث علومهم، ولا يرتفعون منهم بتعليمهم، والتذكير لهم، ومن ارتفق من المستمعين في بث فائدة يذكرها من الدين، يعط بها المسلمين، فلا بارك الله للمسلمين فيما يسمعون منه، ولا للعلماء أيضاً بركة فيما منهم يأخذون، فيبيعون دينهم بعرض يسير، ثم لا برضكة لهم فيه، إذ لا يتقربون به إلى الله، ولا ينتفعون به، ويحصلون على سخط من الله. هـ.

قلت: أما ما يأخذه العالم من الأحباس فلا يدخل في هذا؛ إذ ليس فيه تكلف من أحد، وكذلك ما يأخذه الراعظ على وجه الزيارة والهدية، من غير استشراف نفس ولا طمع ولا تكلف. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هود عليه السلام، فقال:

﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كَذِبْتَ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وهي قبيلة ، ولذلك أَنْتَ الْفَعْلُ ، وفي الأصل: اسم رجل ، هو أبو القبيلة . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ ﴾ ؛ نسباً ، ﴿ هُودٌ أَلَّا تَتَّقُونَ ﴾ ، إني لكم رسول أمين ﴾ ، وقد مر تفسيره ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في تكذيب الرسول الأمين ، ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ فيما أمركم به وأنهاكم عنه ، ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وتصدير القصص بتكذيب الرسل والأمر بالطاعة ؛ للدلالة على أن مبنى البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحق ، والطاعة فيما يقرب المدعى إلى الثواب ، ويُبَعِّده من العقاب ، وأن الأنبياء - عليهم السلام - مُجْمَعُونَ على ذلك ، وإن اختلفوا في فروع الشرائع ، المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار ، وأنهم منزّهون عن المطامع الدنيئة ، والأغراض الدنيوية بالكلية .

ثم رُبِّهِمْ بقوله: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ : مكان مرتفع ، ومنه: ريع الأرض ؛ لارتفاعها ، وفيه لغتان: كسر الراء وفتحها . ﴿ آيَةٌ ﴾ ؛ علماً للمارة ، كانوا يصعدونه ويسخرون بمن يمر بهم . وقيل: كانوا يسافرون ولا يهتدون إلا بالنجوم ، فبنوا على الطريق أعلاماً ليهتدوا بها ؛ عبثاً ، وقيل: برج حمام ، دليله: ﴿ تَعَبُّونَ ﴾ أي: تلعبون ببنائها ، أو: بمن يمر بهم على الأول ، ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ ، مأخذ الماء ، أو قصوراً مشيدة ، أو حصوناً ، وهو جمع مصنع ، والمصنع: كل ما صنع وأتقن في بنيانه ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي: راجين الخلود في الدنيا ، عاملين عمل من يرجو ذلك ، أو كأنكم تخلدون .

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ ﴾ بسوط أو سيف ، أو أخذتم أحداً لعقوبة ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَارِينَ ﴾ ؛ مسططين ، قاسية قلوبكم ، بلا رافة ولا رقة ، ولا قصد تأديب ، ولا نظراً للعواقب . والجبار الذي يضرب أو يقتل على الغضب . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في البطش ، ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ فيما أدعوكم إليه ؛ فإنه أنفع لكم ، ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ من ألوان النعماء وأصناف الآلاء . ثم فصلها بقوله: ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴾ ؛ فإن التفصيل بعد الإجمال أدخل في القلب . وقرن البنين بالأنعام ؛ لأنهم يعينونهم على حفظها والقيام بها .

﴿ وَجَنَاتٍ ﴾ ؛ بساتين ﴿ وَعَمِيْنٍ ﴾ : أنهار خلال الجنات ، ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إن عصيتموني ، أو: إن لم تقوموا بشكرها ؛ فإن كفران النعم مستتبع للعذاب ، كما أن شكرها مستلزم لزيادتها ، قال تعالى: ﴿ لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَنْ كَفَرْتُمْ إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (١) .

(١) من الآية ٧ من سورة إبراهيم .

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ ؛ فَإِنَّا لَن نَرَعُو عَمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ ، وَلَا نَقْبِلُ كَلَامَكَ ودعوتك، وعظمت أرسكت. ولم يقل: أم لم تعظا لرؤوس الآي. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولِينَ﴾ بضم اللام (١)، أي: ما هذا الذي نحن عليه؛ من ألا بعث ولا حساب، إلا عادة الأولين وطبيعتهم واعتقادهم، أو: ما هذا الذي نحن عليه من الموت والحياة إلا عادة قديمة، لم يزل الناس عليها، ولا شيء بعدها، أو: ما هذا الذي أنكرت علينا؛ من البنيان والبطش، إلا عادة من قبلنا، فنحن نفتدى بهم، وما نعدب على ذلك. ويسكون اللام، أي: ما هذا الذي خوفنا به ﴿إِلَّا خُلُقُ الْأُولِينَ﴾ أي: اختلاقهم وكذبهم، أر: ما خلقنا هذا إلا كخلقهم، نحيا كما حيوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا حساب، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ على ما نحن عليه من الأعمال.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: أصروا على تكذيبه، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بسبب ذلك بريح صرصر، تقدم في الأعراف كيفيته (٢)، ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: قوم هود ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ ؛ ما أسلم معه ثلاثمائة ألف... وأهلك باقيهم. قاله المحشى القاسي. وقيل: وما أكثر قومك بمؤمنين بهذا، على أن «كان»: صلة. ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ؛ العزيز بالانتقام من أعدائه، الرحيم بالانتصار لأوليائه.

الإشارة: أنكر هود عليه السلام على قومه أمرين مذمومين، وهما من صفة أهل البعد عن الله؛ الأول: التناول في البنيان، والزيادة على الحاجة، وهي ما يكن من البرد، ويقى من الحر، من غير تمويه ولا تزويق، والزيادة على الحاجة في البنيان من علامة الرغبة في الدنيا، وهو من شأن الجهال رعاء الشاه، كما في الحديث، وفي خبر آخر: «إذا علا العبد البناء فرق ستة أذرع ناداه ملك: إلى أين يا أفسق الفاسقين؟» (٣).

والثاني: التجبر على عباد الله، والعنف معهم، من غير رحمة ولا رقة، وهو من قسوة القلب، والقلب القاسي بعيد من الله، وفي الخبر عن عيسى عليه السلام: (لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فتفسر قلوبكم؛ فإن القلب القاسي بعيد من الله، ولكن لا تشعرون). وفي الحديث عن نبينا ﷺ: «لا تلتظروا إلى عيوب الناس كأنكم أرياب، وانظروا إلى عيوبكم كأنكم عبيد، فإنما الناس مبنئى ومعافى، فارحموا أهل البلاء وسلوا الله العاقية» (٤). وبالله التوفيق،

(١) قرأ بالضم: نافع، وابن عامر، وعاصم، وحزمة، وقرأ خلق، بفتح الخاء وسكون اللام، ابن كثير وأبو جعفر وأبو عمرو، والكسائي. راجع إتعايف فضلاء البشر (٣١٨/٢).

(٢) راجع تفسير الآية ٧٢ من سورة الأعراف.

(٣) ذكره المذري في الترغيب والترهيب (ح ٢٨٠٣) بلفظ: «إذا رفع الرجل بناءً فوق سبعة أذرع، نودي يا أفسق الفاسقين إلى أين؟ وعزاه لابن أبي الدنيا موقوفاً على عمارة بن عامر. وقال المذري: ورفع بعضهم، ولا يصح. وانظر فتح الباري (٩٢/١١).

(٤) هذا بقية الخبر السابق عن سيدنا عيسى عليه السلام. وأخرجه مالك في الموطأ (٩٨٦/٢)؛ بلاغاً. ولم أقف عليه حديثاً عن سيدنا رسول الله ﷺ.

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام، فقال:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿١٤٢﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا مِّنْ أَمِينٍ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴿١٤٥﴾ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هُضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا مِّنْ أَمِينٍ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ هَا شَرِبَ وَلَكُمْ شَرِبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ ﴾؛ نسبا، ﴿ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الله تعالى، فتوحدونه، ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾؛ مشهور فيكم بالأمانة، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا مِّنْ أَمِينٍ ﴾؛ أي: أطيعوا أن تتركوا فيما هاهنا من النعمة والترف، آمنين من عقاب الله وعذابه، وأنتم على كفركم وشرككم، كلا، والله لنختبرنكم ببعث الرسول، فإن كفرتم عاجلتكم بالعقوبة.

ثم فسر ما هم فيه من النعمة بقوله: ﴿ فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ ﴾ هو داخل فيما قبله، وخصه بالذكر؛ شرفا له. أو: في جنات بلا نخل، ﴿ طَلَعُهَا هُضِيمٌ ﴾، والطلع: علقود التمر في أول نباته، باقيًا في غلافه. والهضيم: اللطيف اللين؛ للطف الثمر، أو: لأن النخل أنثى وطلع الأنثى اللفظ، أو: لنضجه، كأنه: قيل: ونخل قد

أرطب ثمره . قال ابن عباس: إذا أبلع فهو هضم . وقال أيضاً: هضم: طيب، وقال الزجاج: هو الذي رطبه بغير نوى، أو: دان من الأرض، قريب التناول .

﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ أى: تنقبون ﴿من الجبال بيوتاً فارحين﴾؛ حال من الوار، أى: حاذقين، أو: ناشطين، أو: أقوياء، وقيل: أشيرين بطيرين . قيل: كانوا فى زمن الشتاء يسكنون الجبال، وفى زمن الربيع والصيف ينزلون بمواشيهم إلى الريف ومكان الخصب . ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾، ولا تطيعوا أمر المسرفين؛ الكافرين المجاوزين الحد فى الكفر والطغيان، أى: لا تنقادوا لأمرهم، ولا تتبعوا رأيهم، وهم ﴿الذين يفسدون فى الأرض﴾ بالإسراف فى الكفر والمعاصى، ﴿ولا يصلحون﴾ بالإيمان والطاعة . والمعنى: أن فسادهم خالص، لا يشوبه شىء من الصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح .

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾؛ الذين سحرُوا، حتى غلب على عقلم السحر؛ ﴿ما أنت إلا بشر مثنا﴾ فأت بآية إن كنت من الصادقين فى دعوى الرسالة، ﴿قال هذه ناقة﴾، قالها بعدما أخرجها الله تعالى من الصخرة بدعائه ﷺ، ﴿لها شرب﴾؛ نصيب من الماء، فلا تزاحموها فيه، ﴿ولكم شرب يوم معلوم﴾ لا تزاحمكم فيه . روى أنهم قالوا: نريد ناقة عشراء، تخرج من هذه الصخرة، فتلد سقياً . والسقب: ولد الناقة . فقد صالح يتفكر، فقال له جبريل ﷺ: صل ركعتين، وسل ربك الناقة، ففعل، فخرجت الناقة، ونتجت سقياً مثلها فى العظم، وصدرها ستون ذراعاً . أى: طولها . وإذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، وإذا كان يوم شربهم لا تشرب فيه .

﴿ولا تمسوها بسوء﴾؛ بضرب، أو عقر، أو غير ذلك، ﴿فياخذكم عذاب يوم عظيم﴾، وصف اليوم بالعظم؛ لعظم ما يحل فيه، وهو أبلغ من تعظيم العذاب، ﴿فعقروها﴾ عقراً، قداراً، وأسند العقر إلى جميعهم؛ لأنهم راضون به . روى أن عاقرها قال: لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين . وكانوا يدخلون على المرأة فى خدرها، فيقولون: أترضين بعقر الناقة؟ فتقول: نعم، وكذلك صبيانهم، ﴿فأصبحوا نادمين﴾ على عقرها؛ خوفاً من نزول العذاب بهم، لا ندم توبة؛ لأنهم طلبوا صالحاً ليقتلوه لما أيقنوا بالعذاب، وندموا حين لا ينفع الندم، وذلك حين معاينة العذاب .

﴿فأخذهم العذاب﴾ أى: صيحة جبريل، فتقطعت قلوبهم، ﴿فأصبحوا فى ديارهم جاثمين﴾: ميتين، صغيرهم وكبيرهم، ﴿إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ . روى أنه أسلم منهم ألفان وثلاثمائة رجل وامرأة . وقيل: كانوا أربعة آلاف، وقال كعب: كان قوم صالح اثني عشر ألفاً، من سوى النساء والذرية . ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات . قاله القرطبي . قيل: فى نفى الإيمان عن أكثرهم إيماء إلى أنه لو آمن أكثرهم أو:

شطرهم لما أخذوا بالعذاب، وأن قريشاً إنما عصموا من تعجيل العذاب ببركة من آمن منهم. وعلى أن (كان) زائدة يكون الضمير لقريش، كما تقدم. ﴿وإن ربك لهُوَ العزيز الرحيم﴾.

الإشارة: قوله: ﴿أَتَتَّركون فيما هاهنا آمنين﴾؛ أنكر عليهم ركونهم إلى الدنيا وزخارفها الغرارة، وأطمأنهم إليها، وهو غرور وحمق؛ إذ الدنيا كسحابة الصيف، تظل ساعة ثم ترتحل، فالدنيا عرض حائل، وظل آفل، فالكيس من أعرض عنها، وتوجه بكليته إلى مولاه، صبر قليلاً وريح كثيراً، والأحمق من وقع في شبكته، حتى اختطفته مليته، وفي الحديث: «الدُّنْيَا دَارٌ مَنْ لَا دَارَ لَهُ، وَمَالٌ مَنْ لَا مَالَ لَهُ، لَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ، وَعَلَيْهَا يُعَادِي مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ» (١).

ثم ذكر قصة لوط عليه السلام فقال:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمُتْنَاهُ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ...﴾ الخ، وهو ظاهر، ثم قال: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، أراد بالعالمين: الناس، أي: أتطؤون الناس مع كثرة الإناث، أر: أتطؤون أنتم من بين سائر العالمين الذكران، وتختصون بهذه الفاحشة ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم﴾ من الإناث. أر: ما خلق لكم؛ لأجل

(١) تقدم تخريجه عند إشارة الآية ٧ من سورة الكهف.

استمتعكم من الفروج، ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾، فَمِنْ اللَّيَّانِ، إن أريد به ماء: جنس الإناث، وهو الظاهر، وللتبويض، إن أريد بها العضو المباح منهن، تعريضاً بأنهم يفعلون ذلك بنسائهم أيضاً، وفيه دليل تحريم أديار الزوجات والمملوكات، ومن أجاز ذلك قد أخطأ خطأ عظيماً. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أى: متعدون، والعادى: المتعدى فى ظُلْمِهِ، المتجاوز فيه الحد، أى: أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان؛ حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة، التى لم يرتكبها أحد قبلكم، ولو من الحيوانات البهيمية.

﴿قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَ يَا لَوْطُ﴾ عن إنكارك علينا وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من بلدنا، أى: من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا، وطرردناه من بلدنا. ولعلمهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال. ﴿قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾؛ من المبغضين غاية البغض، كأنه يقلى الفؤاد والكبد من شدته. والقلَى: أشد البغض، وهو أبلغ من أن يقول: لعمركم قال، فقوله: فلان من العلماء، أبلغ من قوله: فلان عالم؛ لأنك تشهد بأنه مساهم لهم فى العلم. وفى الآية دليل على قبح معصية اللواط؛ ولذلك أفتى مالك بقتل فاعلها.

ثم قال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ من عقوبة عملهم، ﴿فَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ يعنى: بداته، ومن آمن معه، ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هى امرأته، وكانت راضية بذلك، والراضى بالمعصية فى حكم العاصى، ولو لم يحضر. واستثنائهما من الأهل؛ لأنها داخلة فيه - ولو لم تكن مؤمنة -؛ لا شتراكها فى الأهلية بحق الزواج. بقيت ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾؛ فى الباقيين فى العذاب، وهى صفة لها. والغابر فى اللغة: الباقي، كأنه قيل: إلا عجوزاً غابرة، أى: مقدراً غبورها؛ إذ الغبور لم يكن صفتها وقت نجاتهم.

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أى: أهلكتناهم أشد إهلاك وأفظعه، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أى: مطراً غير معهود. وعن قتادة: أمطر الله على شذاذ القوم، أى: الخارجين عن البلد - حجارة من السماء فأهلكهم، وقلب المدينة بمن فيها. وقيل: لم يرض بالقلب فقط حتى أتبعهم مطراً من حجارة، ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أى: قبح مطر المنذرين مطرهم، فالمخصوص محذوف. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، بل لم يؤمن به إلا بداته وناس قليلون. أو: ماكان أكثر قريش بمؤمنين بهذا، ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب، ﴿الرَّحِيمُ﴾؛ حيث لم يعاجل بالعقوبة لمن استحقها.

الإشارة: من شناعة هذه المعصية حذر الصوفية من مخالطة الشبان، وكذلك النساء. وما أولع فقير بمخالطتهما فأفلح أبداً، إن سلم من الفاحشة أثم بها، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقف مواقف التهم. والنظر إلى محاسن النساء والشبان فتنة، وهى كالعقارب، الصغيرة تلدغ، والكبيرة تلدغ، فالسلامة البعد عن ساحلتهن، إلا على وجه أباحتها الشريعة، كالتعليم أو التذكير، مع غرض البصر، أو حجاب بينه وبينهن، وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة شعيب - عليه السلام - فقال:

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تُنْقُونَ ﴿١٧٧﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ
إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴿١٨١﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨٢﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ
الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٣﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٤﴾
وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى ﴿١٨٥﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٦﴾
وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٧﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ
السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٨﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٩﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٩٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْاَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهي: الغيضة التي تنبت الشجر، والمراد
بها: غيضة بقرب مدين، يسكنها طائفة منهم، وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام، وكان أجدياً منهم، ولذلك قيل:
﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ولم يقل: أخوهم، بخلاف مدين؛ فإنه منهم، ولذلك قال: ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ (١)، وقيل:
الأيكة: الشجر الملتف، وكان شجرهم العقل، وهو الدوم. قال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أمتين؛ أصحاب الأيكة
وأصحاب مدين. فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظلة، وأما أهل مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا. وقرئ:
«لَيْكَةً» (٢)؛ بحذف الهمزة، وإلقاء حركتها على اللام، وإنما كتبت هنا وفي (٣) باللام؛ اتباعاً للفظ.

(١) كما جاء في الآية ٨٥ من سورة الأعراف، والآية ٨٤ من سورة هود، والآية ٣٦ من سورة العنكبوت.
(٢) قرأ نافع، وابن كثير وابن عامر، وأبو جعفر (ليكة) بلام مفتوحة، بلا ألف وصل قبلها، ولا همزة بعدها، وفتح تاء التانيث. وقرأ
الباقرن بهمزة وصل وسكون اللام وبعدها همزة مفتوحة. انظر الإتحاف (٣١٤/٢).
(٣) في قوله تعالى: ﴿ وَنُعَمِّدُ وَقَوْمَ لُوطٍ وَأَصْحَابَ الْاَيْكَةِ ﴾ الآية ١٣ من سورة ص، ص ١.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله، فتوحدوه ولا تطغفوا، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فاتقوا الله وأطيعوا وما أسألكم عليه ﴿أَيُّ: التبليغ﴾ من أجري إن أجري إلا على رب العالمين، أوفوا الكيل ﴿أَيُّ: أتموه﴾ ولا تكونوا من الخسرين ﴿أَيُّ: حقوق الناس بالتطفيف﴾ وزنوا ﴿أشياءكم التي تبيعونها﴾ بالقسطاس المستقيم ﴿السوى: والقسطاس - بضم القاف وكسرهما: الميزان، فإن كان من القسط - وهو العدل، وجعلت العين مكررة - فوزنه: فعلاس، وإلا فهو رباعى، ووزنه: فعلال. وقيل: عجمى.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أى: لا تنقصوا شيئاً من حقوقهم، أى حق كان، يقال: بخسه حقه: إذا انتقصه. وقيل: نهامهم عن نقص الدراهم والدنانير بقطع أطرافها. فالكيل على ثلاثة أقسام: واف، وزائد وناقص. فأمر الحق تعالى بالوافى، ونهى عن الناقص، وسكت عن الزائد، فتركه دليل على أنه إن فعله كان أحسن، وإن تركه فلا عليه. ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَفسِدِينَ﴾ ولا تبالغوا فيها بالإفساد، وذلك نحو قطع الطريق، والغارة، وإهلاك الزروع. وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه، يقال: عتّى كفرح، وعدا يعثر، كنصر.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ و ﴿خَلَقَ الْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ﴾ أى: الخلق الماضين، وهم من تقدمهم من الأمم، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ وما أنت إلا بشر مثلنا، أدخل الواو بين الجملتين هنا؛ لدلالة على أن كلا من التسخير والبشرية مناف للرسالة؛ مبالغة في التكذيب، فتكذيبهم أقبح من ثمود، حيث تركه فدل على معنى واحد، وهو كونه مسحوراً، وقرره بكونه بشراً. ثم قالوا: ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ﴾ إن، مخففة، أى: وإنه، أى: الأمر والشأن لنظنك ﴿لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما تدعيه من النبوة.

ثم استعجلوا العذاب بقولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أى: قطعاً، جمع كسفة، وقرئ بالسكون. أى جزاً منه، والمراد بالسما: إما السحاب، أو: السماء المظلة، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فى دعواك الرسالة، ولم يكن طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب، وإلا لما أخطروه ببالهم فضلاً عن أن يطلبوه.

﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام: ﴿رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصى، وما تستحقونه من العذاب، فينزله عليكم فى وقته المقدر له لا محالة، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أى: فتعادوا على تكذيبه، وأصروا عليه ﴿فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ حسبما اقترحوه. وذلك بأن سلط عليهم الحر سبعة أيام بلياليها، فأخذ بأنفاسهم، فلم ينفعهم ظل ولا ماء ولا شرب، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية، فأظلمت سحابة، وجدوا بها برداً ونسيماً، فاجتمعوا تحتها، فأمرت عليهم ناراً فاحترقوا جميعاً^(١). وقيل: رفع لهم جبل، فاجتمعوا تحته، فوقع عليهم، وهو الظلة. وقيل: لما ساروا إلى

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٩/١١٠) عن ابن عباس عليه السلام. وانظر تفسير ابن كثير (٣/٣٤٦ - ٣٤٧).

السحابة صيح بهم فهلكوا. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أى: فى الشدة والهول، وفضاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية النامة.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قيل: آمن بشعيب من القِسمين - مدين والأيكة - تسعمائة إنسان، أو: وما أكثر قريش بمؤمنين بهذا، ﴿وَإِنْ رِبِّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

هذا آخر القصص السبع التى أوحيت إلى رسول الله ﷺ؛ لصرفه - عليه الصلاة والسلام - عن الحرص على إسلام قومه ودفع تحسر فواته، تحقيقاً لمضمون ما مر فى مطلع السورة الكريمة من قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ...﴾ (١)، إلخ، ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا...﴾ (٢) الآية، فإن كل واحدة من هذه القصص ذكر متجدد النزول، قد أتاهم من جهته تعالى، بموجب رحمته الراسعة. «وما كان أكثرهم مؤمنين» بعد ما سمعوها على التفصيل، قصة بعد قصة، ليتدبروا فيها، ويعتبروا بما فى كل واحدة من الدواعى إلى الإيمان، والنزجر عن الكفر والطغيان، وبأن يتأملوا فى شأن الآيات الكريمة، الناطقة بتلك القصص، على ما هى عليه، مع علمهم بأنه - عليه الصلاة والسلام - لم يسمع شيئاً من ذلك من أحد أصلاً، فلم يفعلوا شيئاً من ذلك، واستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال. وبالله التوفيق.

الإشارة: كما أمر الله تعالى بوفاء المكيال، أمر بالرفاء فى الأعمال، ووفاءها: إتقانها وإخلاصها، وتخليصها من شوائب النقص، فى الظاهر والباطن. وكما أمر بالعدل فى الميزان الحسى بقوله: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾، أمر بالعدل فى الميزان المعنوى، وهو وزن الخواطر بالقسطاس الشرعى، فكل خاطر يخطر بالقلب يريد أن يفعله أو يتكلم به، لا يخرج به، حتى يزنه بميزان الشرع، فإن كان فيه نفع أخرجه كما كان، أو غيره، وإن كان فيه ضرر بادراً إلى محوه من قلبه، قبل أن يصير همماً أو عزمًا، فيعسر رده. وبالله التوفيق.

ثم ذكر شواهد حقية القرآن، فقال:

﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ

(١) الآية ٣ من هذه السورة.

(٢) الآيتان ٥ - ٦.

عَلَّمُوا ابْنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

قلت: «آية»: خبر «كان»، و«أن يعلمه»: اسمها، ومن قرأ «آية»: بالرفع؛ فأية اسمها، و«أن...»: الخ: خبر. أو: «كان»: تامة، و«آية»: فاعل، و«أن يعلمه»: بدل منه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإنه﴾ أى: القرآن المشتمل على القصص المتقدمة، وكأنه تعالى عاد إلى ما افتتح به السورة من إعراض المشركين عما يأتيهم من الذكر، ليتناسب المفتتح والمختتم، أى: وإن القرآن الكريم ﴿لتنزيل رب العالمين﴾ أى: منزل من جهته. ووصفه تعالى بربوبية العالمين؛ للإيدان بأن تنزيله من أحكام ربييته للعالمين ورأفته لكل.

﴿نزل به﴾ أى: أنزله ﴿الروح الأمين﴾ أى: جبريل عليه السلام، لأنه أمين على الوحى الذى فيه روح القلوب، ومن قرأ بالتشديد: فالفاعل هو الله، والروح: مفعول به، أى: جعل الله تعالى الروح الأمين نازلاً به. والباء؛ للتعدية، نزل به ﴿على قلبك﴾، أى: حفظك وفهمك إياه، وأثبتته فى قلبك إثبات ما لا ينسى، كقوله: ﴿سَنَقْرَأُكِ فَلَا تَنْسَى﴾ (١).

﴿لتكون من المنذرين﴾ بما فيه من العقوبات الهائلة والمواعظ الزاجرة، ﴿بلسان عربى﴾؛ بلغة قريش وجزهم، فصيح بليغ، والباء: إما متعلق بمنذرين، أى: لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان؛ وهم هود وصالح وشعيب وإسماعيل - عليهم السلام - أو: بنزل، أى: نزل به بلسان عربى؛ لتنذر به، لأنه لو نزل بلسان أعجمى لتجافوا عنه، ولقالوا: ما نصنع بما لا نفهمه؟ فيتعذر الإنذار به. وهذا أحسن لعمومه؛ أى: لتكون من جملة من أنذر قبلك، كنوح وإبراهيم وموسى، وغيرهم من الرسل، عربيين أو عجميين، وأشد الزواجر تأثيراً فى قلوب المشركين: ما أنذره إبراهيم؛ لانتمائهم إليه، وادعائهم أنهم على ملته.

﴿وإنه﴾ أى: القرآن ﴿لفى زبر الأولين﴾ يعنى: أنه مذكور فى سائر الكتب السماوية. وقيل: ثبت فيها معناه، فإن أحكامه التى لا تحتل النسخ والتبديل، بحسب تبدل الأعصار، من التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات

(١) من الآية ٦ من سورة الأعلى.

والصفات مسطورة فيها، وكذا ما في تضاعيفه من المواعظ والقصص. قال النسفي: وفيه دليل على أن القرآن إذا ترجم عنه بغير العربية بقي قرآنًا، ففيه دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة. هـ. وهو حنفى المذهب، وأما مذهب مالك: فلا.

﴿أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾ أى: أغفلوا ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل رب العالمين حقًا، ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، كعبد الله بن سلام، وغيره، لوجود ذكره في التوراة. قال تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (١). والمعنى: أو لم يكفهم دليلاً على كون القرآن من عند الله علم أخبار بني إسرائيل به، ومعرفتهم له، كما يعرفون أبناءهم؛ لموافقته لما عندهم في كثير من القصص والأخبار، حتى إن سورة يوسف المذكورة في التوراة بمعنى واحد، وترتيب واحد، وما اختلف مع القرآن فيها إلا في كلمة واحدة: «وجاءوا على قميصه بدم كذب»، عندهم في التوراة: وجاءوا على قميصه بدم جدى. وكذا سورة طه: جلها في التوراة. وقد تقدم الحديث: «أوتيت طه والطراسين والحواميم من ألواح موسى» (٢). وقد فسر بعض علماء هذه الأمة القرآن العظيم كله بالكتب المتقدمة، ينقل في كل آية ما يوافقها من الكتب السماوية.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ أى: ولو نزلناه كما هو بنظمه الرائق على بعض من لا يفهم العربية، ولا يقدر على التكلم بها، ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ قراءة صحيحة، خارقة للعادة، ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقرء؛ لفرط عنادهم، وشدة شكيمتهم، قال النسفي: والمعنى: إننا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربى مبين، ففهموه، وعرفوا فصاحته وأنه معجز، وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتاب قبله على البشارة بإنزاله، وصفته في كتبهم، وقد تضمنت معانيه وقصصه، وصح بذلك أنها من عند الله، وليست بأساطير كما زعموا، فلم يؤمنوا به، وسموه شعراً تارة، وسحراً أخرى. ولو نزلناه على بعض الأعاجم، الذى لا يحسن العربية، فضلاً أن يقدر على نظم مثله، ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ هكذا معجزاً، لكفروا به، ولتمحكوا لجحودهم عذراً، وسموه: سحراً. هـ.

والأعجمين: جمع الأعجمى، فإن أفعل، إذا كان للتفضيل، يجمع جمع سلامة إذا لم يكن معناه للتفضيل كأحمر. وأصل الأعجمين: الأعجميين، فحذفت ياءه، وقيل: جمع أعجم، فلا حذف.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ أى: أدخلنا التكذيب والكفر، وهو مدلول قوله: ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾، ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾: الكافرين الذين علمنا منهم اختيار الكفر والإصرار عليه. يعنى: مثل هذا السلك الغريب سلكناه في

(١) من الآية ٥٣ من سورة القصص.

(٢) راجع مصدر تفسير هذه السورة

قلوبهم وقررناه فيها، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه، من التكذيب والإصرار عليه، وهو حجتنا على المعتزلة في خلق أفعال العباد؛ خيرها وشرها.

وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: توضيح وتقرير لما قبله. ويجوز أن يكون حالا، أى: سلكناه فيها غير مؤمنين به، أو: مثل ذلك السلك البديع سلكناه، أى: أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، ففهموا معانيه، وعرفوا فصاحته وبلاغته، وأنه خارج عن القوة البشرية، من حيث النظم المعجز والأخبار الغيبية. وقد انضم إليه اتفاق علماء أهل الكتاب على اتفاقه لما في أيديهم من الكتب السماوية. ومع ذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، ولا يتأثرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان، بل يستمرون على ما هم عليه، ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ الملجئ إلى الإيمان، حين لا ينفعهم الإيمان، ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾؛ فجأة في الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه، ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾؛ مؤخرون ساعة. قالوه تحسراً على ما فات من الإيمان، وتمنياً للإمهال؛ لتلافي ما فرضوه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا تطهر القلب من الأكدار والأغيار، وملئ بالمعارف والأسرار، كان مهبطاً لوحى الإلهام ووحى الإعلام، ومحلاً لتنزل الملائكة الكرام، إذ كل ما أعطى للرسول كان لوارثه الحقيق منه شرب ونصيب؛ ليكون من الراعظين بلسان عربى مبين، يفصح عن جواهر الحقائق، ويواقيت العلوم، وما ينطق به من العلوم يكون موافقاً لما في زبر الأولين، وإن كان أمياً؛ لأن علوم الأذواق لا تختلف. أو لم يكن لهم آية على ولايته أن يعلمه علماء أهل فنه من المحققين.

وقال المرتجى على هذه الآية: أخبر الله سبحانه أن قلب محمد ﷺ محل نزول كلامه الأزلى؛ لأنه مصفى من جميع الحدثان، بتجلي مشاهدة الرحمن، فكان قلبه - عليه الصلاة والسلام - صَدَفَ لَأَلِيَّ خُطَابِ الْحَقِّ، يَسْبَحُ فِي بَحَارِ الْكَرَمِ، فَيَتَلَقَّفُ كَلَامَ الْحَقِّ مِنَ الْحَقِّ بِلَا وَاسْطَةٍ، وَذَلِكَ سِرٌّ عَجِيبٌ وَعِلْمٌ غَرِيبٌ؛ لأنه يجمع كلام الحق وما اتصل به، وكلامه لم ينفصل عنه، وكيف تفارق الصفات الذات، لكن أبقى في قلبه ظاهره وعلمه وسره، فجبريل - عليه السلام - في البين؛ واسطة لجهة الحرمة، وذكر ذلك بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ...﴾؛ لأن القلب معدن الإلهام والوحى والكلام والرؤية والعرفان، به يحفظ الكلام. وفائدة ذلك: الإعلام بسر وجرد الإنسان، وأنه ليس شيء يليق بالخطاب ونزول الأنباء إلا قلبه، وكل قلب مسدود بعوارض البشرية لا يسمع خطاب الحق، ولا يرى جمال الحق. قال أبو بكر بن طاهر: ما أنزله على جبريل جعله محلاً للإنذار، لا التحقيق، والحقيقة هو ما تلقفه من الحق، فلم يخبر عنه، ولم يشرف عليه خلق من الجن والإنس والملائكة؛ لأنه ما أطاق ذلك أحد سواه. وما أنزله جبريل جعله للخلق، فقال: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْذَرِينَ﴾ بما نزل به جبريل على قلبك المتحقق،

فإنك متحقق بما كافحناك به، وخاطبتناك على مقام لو شاهدك فيه جبريل لاحترق هـ. على تصحيف في النسخة. وبالله التوفيق.

ثم هددهم بنزول العذاب، فقال:

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (٢٠٤) ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ (٢٠٥) ﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ ﴾
﴿ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (٢٠٦) ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ (٢٠٧) ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا ﴾
﴿ لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ (٢٠٨) ﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (٢٠٩)

يقول الحق جل جلاله؛ توبيخاً لمن اقترح نزول العذاب، كقولهم: ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اُنْزِلْ عَلَيْنَا عَذَابَ أَلِيمٍ ﴾ (١): ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ مع كونهم لا يطبقونه إذا نزل بهم؟ وتقديم الجار؛ للإيدان بأن مصب الإنكار والتوبيخ هو كون المستعجل به عذابه، مع ما فيه من رعاية الفواصل.

﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ أي: أخبرني. ولما كانت الرؤية من أقوى أسباب الإخبار بالشيء وأشهرها شاع استعمال «أرأيت» في معنى أخبرني. والخطاب لكل من يسمع، أي: أخبرني أيها السامع: ﴿ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ ﴾؛ إن متعنا هؤلاء الكفرة ﴿ سِنِينَ ﴾ متطاولة بطول الأعمار وطيب المعاش، ﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب، ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ ﴾ أي: أي شيء، أو أي إغناء أغنى عنهم ﴿ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ أي: كونهم متمتعين ذلك التمتع المديد، أي شيء أغنى في دفع العذاب، و(ما): مصدرية، أو: ما كانوا يتمتعون به من متاع الحياة الدنيا، على أنها موصولة، حذف عائدها، وأيا ما كان فالاستفهام للإنكار والنفي. وقيل: (ما): نافية، أي: لم يغن عنهم تمتعهم المتطاوّل في دفع العذاب. والأول أرجح.

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ من القرى المهلكة، ﴿ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾؛ قد أنذروا أهلها لتقوم الحجة عليهم، ﴿ ذِكْرَى ﴾ أي: تذكرة، وهو مصدر منذرون؛ لأن أنذر وذكر متقاربان، كأنه قيل: لها مذكرون تذكرة. أو مفعول له، أي: يندرونهم لأجل التذكرة والموعظة، أو خبر، أي: هذه ذكرى، أو يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا؛ مفعولاً له، والمعنى: وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة، بإرسال المنذرين إليهم؛ ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم، فلا يعصون مثل عصيانهم، ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فهلاك قوماً غير ظالمين، أو قبل

(١) من الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

إنذارهم. والتعبير عن ذلك بنفى الظالمية مع أن إهلاكهم قبل الإنذار ليس بظلم؛ إذ لا يجب عليه تعالى شيء - كما تقرر من قاعدة أهل السنة -؛ لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك، وتحقيقاً لكمال عدله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله، في جانب أهل البطالة والغفلة: أفرأيت إن متعناهم سنين بالأموال والنساء والبنين، فاشتغلوا بجمع الأموال والدثور، وبناء الغرف وتشيد القصور، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون من الموت، والرحيل من الأوطان، ومفارقة الأحباب والعشائر والإخوان، أي شيء أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون به، من لذائذ المآكل والمشرب، ومفاخر الملابس والمراكب، هيهات هيهات، قد انقطعت اللذات، وفنيت الشهوات، وما بقي إلا الحسرات، فتأمل أيها العبد فيما مضى من عمرك، فما بقي في يدك منه إلا ما كان في طاعة مولاك، من ذكر، أو تلاوة، أو صلاة، أو صيام، أو علم نافع، أو تعليم، أو فكرة، أو شهود، وما سوى ذلك بطالة وخسران، فالوقت الذي تصرفه في طاعة مولاك ذخائره موجودة، وكنوزه مذكورة، والوقت الذي تصرفه في هوى نفسك ضائع، تجد حسرتة يوم القيامة، ففي الحديث: «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مضت لهم، لم يذكروا الله تعالى فيها» (١) قال يحيى بن معاذ: أشد الناس عذاباً يوم القيامة من اغتر بحياته والتذ بمراءاته، وسكن إلى مألوفاته، والله تعالى يقول: «أفرأيت إن متعناهم سنين...» الآية. وعن ميمون بن مهران: أنه لقي الحسن في الطواف، وكان يتمنى لقاءه، فقال له: عظمي، فلم يزد على تلاوة هذه الآية، فقال: لقد وعظت فأبلغت. وعن عمر ابن عبدالعزيز رضي الله عنه: أنه كان يقرأها عند جلوسه ليحكم بين الناس. هـ. وبالله التوفيق.

ثم نعم قوله: «وانه لتنزّل ربّ العالمين»، بقوله:

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢١٠) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٢١١) ﴿إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾ (٢١٢) ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ (٢١٣)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما تنزلت به﴾؛ بالقرآن، ﴿الشياطين﴾، رداً لما يزعمه الكفرة من أنه من قبيل ما تلقى الشياطين على الكهنة، بعد تحقيق الحق فيه، ببيان أنه نزل به الروح الأمين. ﴿وما ينبغي لهم﴾ أي: وما يصح وما يستقيم لهم ذلك، ﴿وما يستطيعون﴾ إنزاله أصلاً، ﴿إنهم عن السمع﴾ أي: عن استراق السمع من الملائكة ﴿لمعزولون﴾؛ لممتنعون بالشهب، أو: لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة في قبول الاستعداد؛ لفيض أنوار الحق، والانتعاش بأنوار العلوم الربانية والمعارف القدسية؛ لأن نفوس الشياطين خبيثة

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٥١٣) عن معاذ بن جبل، وعزاه السيوطي في الجامع الصغير (ح ٧٧٠١) للطبراني والبيهقي عن معاذ، رجسته.

ظلمانية شريرة، ليست مستعدة إلا لقبول مالا خيراً فيه، من فنون الشرور، فمن أين لهم أن يحرموا حول القرآن الكريم، المنطوى على الحقائق الرائقة الغيبية، التي لا يمكن تلقاها إلا من الملائكة الكرام - عليهم السلام؟.

﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر﴾؛ كما هو شأن الأنفس الخبيثة الشيطانية، ﴿فتكون من المعذبين﴾، تهديد لغيره على سبيل التعريض، وتحريك له على زيادة الإخلاص، وتنبية لسائر المكلفين على أن الإشراك بلغ من القبح والسوء، بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره منه، فكيف بمن عداه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وحي الإلهام الذي ينزل على القلوب الصافية من الأغيار، كوحى الأحكام، ما تنزل به الشياطين، وما ينبغي لهم وما يستطيعون؛ لأنهم ممنوعون من قلوب العارفين؛ لما احتفت به من الأنوار، وما صانها من الأسرار، أعنى أنوار التوحيد وأسرار التفريد. وقال فى لطائف المنن: إذا كان الحق تعالى حرس السماء من الشياطين بالشهب، فقلوب أوليائه أولى بأن يحرسها من الأغيار. هـ. بالمعنى. فلا تدع مع الله إلهاً آخر، وهو ما سوى الله، فتكون من المعذبين بوساوس الشياطين والخواطر والشكوك؛ لأن القلب إذا مال إلى غير الله سلط الله عليه الشيطان، فيكون ذلك القلب جراباً للشيطان، يحشو فيه ما يشاء. والعياذ بالله.

ثم أمر نبيه بالإنذار والتذكير، فقال:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)
فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرِنُّكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) ﴿

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأنذر﴾ يا محمد ﴿عشيرتك الأقربين﴾، إنما خصهم بالذكر؛ لئلا يتكلموا على النسب، فيدعوا ما يجب عليهم، لأن من الواجبات ما لا يشفع فيها، بقوله فى تارك الزكاة وقد استغاث به: «لا أملك لك من الله شيئاً»، وفى الغال كذلك. وقيل: إنما خصهم لنفى التهمة؛ إذ الإنسان يساهل قرابته، وليعلموا أنه لا يغنى عنهم من الله شيئاً؛ إذ النجاة فى اتباعه، لا فى قربه منهم.

ولما نزلت صعد النبي ﷺ الصفا، ونادى الأقرب فالأقرب، وقال: «يا بنى عبد المطلب، يا بنى هاشم، يا بنى عبد مناف، يا عباس - عم النبي ﷺ - يا صفية - عمة النبي ﷺ؛ لا أملك لكم من الله شيئاً» (١). وقال ابن عباس

(١) أخرجه بنحوه البخارى (تفسير سورة الشعراء، باب: وأنذر عشيرتك الأقربين ح ٤٧٧)، ومسلم فى (الإيمان، باب قوله تعالى: «وأنذر عشيرتك الأقربين»، ١/ ١٩٢؛ ح ٣٤٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

صَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّفَا، وَنَادَى: «يَا صَبَاحَاهُ»: فَاجْتَمَعَ النَّاسُ، فَقَالَ ﷺ: «يَا بَنَى عَبْدَ الْمَطْلَبِ، يَا بَنَى فَهْرٍ، إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنْ خَيْلاً بَسَفَحَ هَذَا الْجَبَلَ، تَرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ، صَدَقْتُمُونِي؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ. فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، مَا جَمَعْتُنَا إِلَّا لِهَذَا؟ فَنَزَلَتْ: «تَبَّتْ يُدَا أَبَى لَهَبٍ» (١).

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ أَيْ: وَالْأَنْ جَانِبَكَ وَتَوَاضِعْ، وَأَصْلُهُ: أَنْ الطَّائِرُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْحَطَ لِلْوُقُوعِ كَسَرَ جَنَاحَهُ وَخَفَضَهُ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْهَضَ لِلطَّيْرَانِ رَفَعَ جَنَاحَهُ، فَجَعَلَ خَفَضَ الْجَنَاحِ مَثَلًا فِي التَّوَاضُّعِ وَلَيْنِ الْجَانِبِ. وَيَكُونُ ذَلِكَ التَّوَاضُّعُ ﴿لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مِنْ قَرَابَتِكَ وَغَيْرِهِمْ. ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: أَنْذِرْ قَوْمَكَ؛ فَإِنْ اتَّبَعُوكَ وَأَطَاعُوكَ فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَإِنْ عَصَوْكَ وَلَمْ يَتَّبِعُوكَ فَتَدْبِرْ مِنْهُمْ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ؛ مِنَ الشَّرِكِ وَغَيْرِهِ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أَيْ: عَلَى الَّذِي يَقْهَرُ أَعْدَاءَكَ بِعِزَّتِهِ، وَيَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ بِرَحْمَتِهِ، فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ شَرَّ مَنْ يِعَادِيكَ. ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ لِلتَّهَجُّدِ، ﴿وَيَرَى تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾؛ فِي الْمُصَلِّينَ. أَتَّبِعْ كَوْنَهُ رَحِيمًا بِرَسُولِهِ مَا هُوَ مِنْ أَسْبَابِ الرَّحْمَةِ، وَهُوَ ذَكَرَ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، مِنْ قِيَامِهِ لِلتَّهَجُّدِ، وَتَقَلُّبِهِ فِي تَصَفِّحِ أَحْوَالِ الْمُتَهَجِّدِينَ، لِيَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: وَيَرَاكَ حِينَ تَقُومُ لِلصَّلَاةِ بِالنَّاسِ جَمَاعَةً، وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ: تَصْرِفُهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، بِقِيَامِهِ وَرُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ وَقَعُودِهِ إِذَا أَمَّهُمْ. وَعَنْ مِقَاتِلٍ: أَنَّهُ سَأَلَ أَبَا حَنِيفَةَ: هَلْ تَجِدُ الصَّلَاةَ بِالْجَمَاعَةِ فِي الْقُرْآنِ؟ فَقَالَ: لَا يَحْضُرُنِي، فَقُلْنَا لَهُ هَذِهِ الْآيَةُ. وَقِيلَ: تَقَلُّبُهُ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ. وَرَوَى عَنْهُ ﷺ فِي الْآيَةِ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ نَبِيٍّ إِلَى نَبِيٍّ حَتَّى أَخْرَجْتَكَ نَبِيًّا» (٢).

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لَمَّا تَقُولُ، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِمَا تَدْرِيهِ وَتَعْمَلُهُ. هُوَنَّ عَلَيْهِ مَشَاقَّ الْعِبَادَةِ، حَيْثُ أَخْبَرَهُ بِرُؤْيَاهُ لَهُ، إِذْ لَا مَشَقَّةَ عَلَى مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَعْمَلُ بِمَرَأَى مِنْ مَوْلَاهُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «بِعَيْنِي مَا يَتَحَمَّلُ الْمُتَحَمِّلُونَ مِنْ أَجْلِي». وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الإشارة: يُلَبِّغِي لِمَنْ أَهْلَ لِلْوَعظِ وَالتَّذْكِيرِ أَنْ يَبْدَأَ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبُ، وَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ إِلَّا النَّزْرُ الْقَلِيلُ. فَمَنْ تَبِعَهُ عَلَى مَذْهَبِهِ قَلِيلٌ لَهُ جَانِبُهُ وَلِيَتَوَاضَعَ لَهُ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَاشْتَغَلَ بِهَوَاهُ فَلْيَتَبَرَأْ مِنْ فَعْلِهِ، وَلَا يَنْسَاهُ مَنْ نَصَحَهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: «مِنْكُمْ»، وَهَذَا مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْمَوْضِعِ السَّابِقِ ذَكَرَهُ (ح ٤٧٧٠) وَتَفْسِيرُ سُورَةِ «تَبَّتْ يُدَا أَبَى لَهَبٍ وَتَبَّ»، وَمُسْلِمٌ فِي الْمَوْضِعِ السَّابِقِ ذَكَرَهُ (١٩٣/١ - ١٩٤ ح ٣٥٥).

(٢) انْظُرْ تَفْسِيرَ الطَّبْرِيِّ (١٩٠/١٢٣ - ١٢٤) وَتَفْسِيرَ الْبَغَوِيِّ (٦/١٣٤).

وأن الأخ إذا زل إنما يبغض عمله فقط. وعن بعض الصحابة - وقد قيل له في أخيه، فقال: إنما أبغض عمله، وإلا فهو أخى، وذكر مثل ذلك عن أبى الدرداء. وأن الأخ فى الله لا يبغض لزلته، ولا يتترك لشيء من الأشياء، وإنما يبغض عمله، ووافقه على ذلك سلمان، وتابعهما عمر، وخالف فى ذلك أبو ذر، فقال: إذا وقعت المخالفة، وانقلب عما كان عليه، فأبغضه من حيث أحببته.

قال صاحب القوت: وأبو ذر صاحب شدائد وعزائم، وهذا من عزائمه وشدائده. هـ. وهذا فى المؤمن بدليل قول أبى الدرداء: الأخ فى الله لا يبغض لزلّة. وأما الكافر فصریح آياته: ﴿إِنَّا بِرَأْءِ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (١)، ونحوها. وحديث ابن عمر وتبرئته من نفاة القدر - كما فى مسلم - موجب للبراءة، وليس لكون حكم الأصول أشد من الفروع. وذكر فى الإحياء تأكيد الإعراض عمن يتعدى أذاه لغيره؛ بظلم، أو غصب، أو غيبة، أو نيمية، أو شهادة زور؛ لأن المعصية شديدة فيما يرجع لأذى الخلق. هـ من الحاشية.

قوله تعالى: ﴿فتوكل على العزيز الرحيم﴾، قيل: التوكل: تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره، ويقدر على نفعه وضره، وهو الله وحده، والمتوكل من إذا دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية. وقال الجنيد رحمته الله: التوكل أن تقبل بالكلية على ربك، وتعرض بالكلية عمن دونه؛ فإن حاجتك إنما هى إليه فى الدارين. هـ.

قال القشيري: ﴿وتقلبك فى الساجدين﴾ من أصحابك، ويقال: تقلبك فى أصلاب أبنائك من المسلمين، الذين عرفوا الله، فسجدوا له، دون من لم يعرفه. هـ. وفى القوت: قيل: وتقلبك فى أصلاب الأنبياء - عليهم السلام، يقلبك فى صلب نبي بعد نبي، حتى أخرجك من ذرية إسماعيل، وروينا معنى ذلك عن رسول الله ﷺ، والحاصل: أنه من ذرية الأنبياء والمؤمنين الساجدين فى الجملة، ولا يقتضى كل فرد من الأفراد. هـ.

ثم كمل قوله: ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾، فقال:

﴿هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢٢١) ﴿تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاقٍ أَثِيمٍ﴾ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا أَوْ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

(١) من الآية ٤ من سورة الممتحنة.

قلت: «أى منقلب»: مفعول مطلق لينقلبون، والأصل: ينقلبون أى انقلاب، وليست «أيا»: مفعول «يعلم»؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله. وجملة: «ينقلبون»: معلق عنها العامل، فهي فى محل نصب؛ على قاعدة التعليق، فإنه فى اللفظ دون المحل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿هل أنبئكم﴾ أى: أخبركم أيها المشركون ﴿على من تنزل الشياطين﴾، ودخل حرف الجار على «من» الاستفهامية؛ لأنها ليست للاستفهام بالأصالة. ثم أخبرهم، فقال: ﴿تنزل على كل أفك﴾: كثير الإفك، وهو الكذب، ﴿أثيم﴾: كثير الإثم، وهم الكهنة والمتنبئة، كشق وسطيح ومسيلمة. وحيث كانت حالة رسول الله ﷺ منزهة أن يحوم حولها شيء من ذلك، اتضح استحالة نزلهم عليه ﷺ.

﴿يلقون السمع﴾ وهم الشياطين، كانوا، قبل أن يحجبوا بالرجم، يلقون أسماعهم إلى الملاء الأعلى، فيختطفون بعض ما يتكلمون به، مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم يوحون به إلى أوليائهم. ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ فيما يوحون به إليهم؛ لأنهم يسمعونهم مالم يسمعوا. وفى الحديث: «إنهم يخلطون مع ما سمعوا مائة كذبة» (١)، فلذلك يخطئون ويصيبون، وقيل: يلقون إلى أوليائهم السمع، أى: المسموع من الملائكة. وقيل: الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين، ثم يبلغون ما يسمعون منهم إلى الناس، ﴿وأكثرهم﴾ أى: الأفاكون ﴿كاذبون﴾: مفتررون على الشياطين مالم يوحوا إليهم. والأفاك: الذى يكثر الإفك، ولا يدل على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك، فأراد أن هؤلاء الأفاكين قل من يصدق منهم فيما يحكيه عن الجنة.

ولما ذكر الكهنة ذكر الشعراء وحالهم؛ ليذبه على بعد كلامهم من كلام القرآن، فينتفى كونه كهانة وشعراً، كما قيل فيه، فقال: ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾: مبتدأ وخبر، أى: لا يتبعهم على باطلهم إلا الغاؤون، فإنهم يصغون إلى باطلهم وكذبهم، وتمزيق الأعراض والقروح فى الأنساب، ومدح من لا يستحق المدح، وهجاء من لا يستحق الهجو، ولا يستحسن ذلك منهم ﴿إلا الغاؤون﴾، أى: السفهاء، أو الضالون عن طريق الرشدا، الحائرون فيما يفعلون ويذرون، لا يستمرون على وتيرة واحدة فيما يقولون ويفعلون، بخلاف غيرهم من أهل الرشدا، المهتدون إلى طريق الحق، الثابتين عليه.

(١) أخرجه البخارى فى (الطب، باب الكهانة، ح ٥٧٦٢) وفى (التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق، ح ٧٥٦١)، ومسلم فى (السلام، باب تحريم الكهانة، ٤/ ١٧٥٠، ح ٢٢٢٨)، عن السيدة عائشة، ولفظه: ... تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى، فيقرأها فى أذن وليه، فيخلطون معها مائة كذبة.

﴿ألم تر أنهم﴾ أي: الشعراء ﴿في كل وادٍ﴾ من الكلام ﴿يَهِيمُونَ﴾، أو: في كل فن من الإفك يتحدثون، أو: في كل لغو وباطل يخوضون. والهائم: الذاهب على وجهه لا مقصد له، وهو تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول، وهو استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاؤون وتقرير له، والخطاب لكل من تتأني منه الرؤية، للقصد إلى أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا تختص به رؤية راء دون الآخر، أي: ألم تر أن الشعراء في كل وادٍ من أودية القيل والقال، وفي كل شعب من الوهم والخيال؛ وفي كل مسلك من مسالك النغي والضلال، يهيمون.

﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ من الأفاعيل، غير مباليين بما يستتبعه من اللوم، فكيف يتوهم أن ينتظم في سلوكهم من تزهت ساحته عن أن تحوم حوله شائبة الاتصاف بشيء من الأمور المذكورة، واتصف بمحاسن الصفات الجليلة، والأخلاق الحميدة، مستقراً على الملهاج القويم، مستمراً على الصراط المستقيم، ناطقاً بكل أمر رشيد، داعياً إلى صراط العزيز الحميد، مؤيداً بمعجزة قاهرة، وآيات ظاهرة، مشحونة بفنون من الحكم الباهرة، وصنوف المعارف الزاخرة، مستقل بنظم رائع، أعجز كل منطوقٍ ماهر، وبكت كل مفلقٍ ساحر.

هذا وقد قيل في تنزيهه ﷺ عن أن يكون من الشعراء: أن أتباع الشعراء الغاؤون، وأتباع محمد ﷺ ليسوا كذلك، ولا ريب في أن تعليل عدم كونه ﷺ منهم بكون أتباعه ﷺ غير غاوين مما لا يليق بشأنه العلى. هـ. قاله أبو السعرد.

ثم استثنى الشعراء المؤمنين، فقال: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾؛ كعبد الله بن رواحة، وحسان، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك. ﴿وذكروا الله كثيراً﴾ أي: كان ذكر الله وتلاوة القرآن أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا الشعر قالوا في توحيد الله والثناء عليه، والحكمة والموعظة، والزهد والأدب، ومدح الرسول ﷺ والأولياء.

وأحق الخلق بالهجاء من كذب رسول الله ﷺ وهجاه. وعن كعب بن مالك: أن رسول ﷺ قال: «أهْجُهُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ رَشْقِ النَّبْلِ» (١)، وكان يقول لحسان: «قل، وروح القدس معك» (٢).

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤٥٦/٣، ٤٦٠)، والبيهقي في السنن (٢٣٩/١٠)، وعبد الرزاق في المصنف (كتاب الجامع، باب الشعر والرجز ٢٦٣/١١)، وصححه ابن حبان (مؤلفه: ٤٩٤) ولفظه: أنه قال للنبي ﷺ: إن الله قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال ﷺ: إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكان ما ترمونهم به نضح النبل، وأخرج مسلم في (فضائل الصحابة، باب فضل حسان بن ثابت، ١٩٣٥/٤، ح ٢٤٩٠)، من حديث السيدة عائشة: «هَجُّوا قَرِيشًا؛ فإنه أشد عليهم من رَشْقِ النَّبْلِ».

(٢) أخرجه البخاري في (المغازي، مرجع النبي محمد من الأحزاب، ح ٤١٢٣، ٤١٢٤). ومسلم في (فضائل الصحابة، باب فضائل حسان ابن ثابت ﷺ، ١٩٣٣/٤، ح ٢٤٨٦). من حديث البراء بن عازب. ولفظه: «أهْجُهُمْ، أَوْ هَاجَهُمْ، وَجَبَرِيلُ مَعَكُمْ».

﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ أى: ردوا على المشركين، الذين هجوا النبي ﷺ والمؤمنين. وروى أنه لما نزلت الآية: جاء حسان، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، فيكون، فقالوا: يا رسول الله: أنزل الله تعالى هذه الآية، وهو يعلم أنا شعراء؟ فقال: «اقرأوا ما بعدها: ﴿إلا الذين آمنوا..﴾ هم أنتم وانتصروا، هم أنتم».

ومرَّ عمر رضي الله عنه وحسان رضي الله عنه ينشد الشعر في المسجد، فلحظ إليه، فقال: كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة، فقال: أنشدك بالله، أسمعت النبي ﷺ يقول: «أجب عني، اللهم أيده بروح القدس» قال: اللهم نعم (١).

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ ؛ أى مرجع يرجعون إليه، وهو تهديد شديد، ووعيد أكيد؛ لما فى «سيعلم» من تهويل متعلقه، وفى «الذين ظلموا» من الإطلاق والتعميم. وفى «أى منقلب ينقلبون» من الإيهام والتهويل. وتلاها أبو بكر لعمر رضي الله عنه حين عهد إليه، وكان السلف يتواعظون بها. والمعنى: سيعلم أهل الظلم ماتكون عاقبتهم، حين يقدمون على، وأى منقلب ينقلبون، حين يفدون إلى. اللهم ثبت أقدامنا على المنهاج القويم، حتى نلقاك يا أرحم الراحمين.

الإشارة: هل أنبلكم على قلب من تنزلت الشياطين، وسكنت فيه، تنزل على قلب كل أفاك أثيم، خارب من النور، محشو بالوسواس والخواطر، يلتقن السمع إلى هرج الدنيا وأخبارها، وهو سبب فتنها؛ فإن القلب إذا غاب عن أخبار الدنيا وأهلها، سكن فيه النور وتأنس بالله، وإذا سكن إلى أخبار الدنيا وأهلها سكنت فيه الظلمة، وتأنس بالخلق، وغاب عن الحق. ولذلك قيل: ينبغي للمؤمن أن يكون كالفكرين؛ إذا كان وحده انبسط، وإذا رأى أحداً أدخل رأسه معه. وأكثر ما يسمع من هرج الدنيا كذب، وإليه الإشارة بقوله: «وأكثرهم كاذبون»، ومن جملة ما يفسد القلب: توليه بالشعر، وفى الحديث: «لأن يمتلى جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يمتلى شعراً» (٢). أو كما قال ﷺ، إلا من كان شعره فى توحيد الله، أو فى الطريق، كالزهد فى الدنيا، والترهيب من الركون إليها، والزجر عن الاغترار بزخارفها الغرارة، والافتتان بملاذها الفانية، وغير ذلك، أو فى مدح النبي ﷺ، والمشايخ الموصلين إليه تعالى، بشرط أن يكون الغالب عليه ذكر الله.

(١) أخرجه البخارى فى (الصلاة، باب الشعر فى المسجد ح ٤٥٣) ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب فضائل حسان ١٩٣٢/٤ -

١٩٣٣ ح ٢٤٨٥) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخارى فى (الأدب، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصدّه عن ذكر الله، والعلم، والقرآن ح ٦١٥٥)، ومسلم فى (كتاب الشعر، ١٧٦٩/٤، ح ٢٢٥٧)، من حديث أبى هريرة.

وقوله تعالى: ﴿وَانتصروا من بعدما ظلموا﴾ ، أى: جاروا على نفوسهم بعدما جارت عليهم، وقهروها بعد ما قهرتهم. ﴿وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون﴾ قال ابن عطاء: سيعلم المعرض عنا ما فاته منا . هـ .
 وفى الحكم: «ماذا فقد من وجدك، وما الذى وجد من فقدك؟ لقد خاب من رضى دونك بدلا، ولقد خسر من بغى عنك متحولاً، كيف يُرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان، أم كيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟» (١) وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.



(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى (المناجاة / ٤٢) .

سُورَةُ النَّاسِ

مكية. وهي ثلاث وتسعون آية. وقيل: أقل. ومداستها لما قبلها: قوله: «وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (١) إلى ما قرره من نفى تنزل الشياطين به، مع ما افتتح به السورة، من الإشارة إليه بقوله: «تلك آيات القرآن». ثم افتتح السورة برموز بيته وبين حبيبه، على عادته، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ ﴿٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ طَسَّ ﴾ أى: يا طاهر يا سيد. قال ابن عباس: «هو اسم من أسماء الله تعالى» (٢)، أقسم به أن هذه السورة آياتها القرآن وكتاب مبين. قلت: ولعلها مختصرة من اسمه «اللطيف والسميع». وقيل: إشارة إلى طهارة سر حبيبه. ﴿ تلك آيات القرآن ﴾، الإشارة إلى نفس السورة، وما فى معنى الإشارة من معنى البعد، مع قرب العهد بالمشار إليه، للإيدان ببعد منزلته فى الفضل والشرف، أى: تلك السورة الكريمة التى نتلوها عليك هى آيات القرآن، المعروف بعلوم الشأن. ﴿ و ﴾ آيات ﴿ كتاب ﴾ عظيم الشأن ﴿ مبين ﴾؛ مظهر بما فى تضاعيفه من الحكم، والأحكام، وأحوال الآخرة، أو: مبين: مفرق بين الرشيد والغى، والحلال والحرام، أو: ظاهر الإعجاز، على أنه من: أبان، بمعنى بان، وعطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى، نحو: هذا فعل السخى والجواد.

ونكر الكتاب ليكون أفخم له. وقيل: إنما نكر الكتاب وعرفه فى الحجر (٣)، وعرف القرآن ونكره فى الحجر؛ لأن القرآن والكتاب اسمان علما على المنزل على محمد ﷺ، ووصفان له؛ لأنه يُقرأ ويكتب، فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم، وحيث جاء بلفظ التذكير فهو الوصف. قاله النسفى.

(١) الآية ١٩٢ من سورة الشعراء.

(٢) ذكره البغوى فى تفسيره (١٤٣/٦).

(٣) فى قوله تعالى: «الآن تلك آيات الكتاب وقرآن مبين» الآية الأولى.

وما قيل من أن الكتاب هو اللوح المحفوظ، وإبانتته أنه خُطَّ فيه ما هو كائن، لا يساعده إضافة الآيات إليه. والوصف بالهداية والبشارة في قوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: حال كون تلك الآيات هادية ومبشرة للمؤمنين، فهما منصوبان على الحال، من الآيات، على أنهما مصدران بمعنى الفاعل؛ للمبالغة، كأنهما نفس الهداية والبشارة، والعامل فيها ما فى «تلك» من معنى الإشارة، أو: خبر، أى: هى هدى وبشرى للمؤمنين خاصة؛ إذ لا هداية لغيرهم بها.

﴿الَّذِينَ يقيمُونَ الصلاة﴾؛ يديمون على إقامة فرائضها وسننها، ويحافظون على خشوعها واتقانها، ﴿وَيؤْتُونَ الزكاة﴾ أى: يؤدون زكاة أموالهم، ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ حق الإيقان. إما من جملة الموصول، وإما استئناف، كأنه قيل: هؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة حق الإيقان، لا من عداهم؛ لأن من تحمل مشاق العبادات، إنما يكون لخوف العقاب، ورجاء الثواب، أولاً، ثم عبودية آخرى، لمن كمل إخلاصه.

ثم ذكر ضدهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أى: لا يصدقون بها، وبما فيها من الثواب والعقاب، ﴿زِينًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمُ﴾ الخبيثة، حيث جعلناها مشتبهة للطبع، محبوبة للنفس، حتى رأوها حسنة، كقوله: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ (١)، ﴿فَهُمْ يَعمَهُونَ﴾؛ يترددون فى ضلالتهم. كما يكون حال الضال عن الطريق. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ فى الدنيا بالقتل والأسر يوم بدر، ﴿وهم فى الآخرة هم الأخسرون﴾؛ أشد الناس خسراناً؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من أكرم الناس، شهداء على جميع الأمم يوم القيامة، فخسروا ذلك مع خسران ثواب الله والنظر إليه. عائذاً بالله من جميع ذلك.

الإشارة: طس: طهر سرك أيها الإنسان، لتكون من أهل العيان، طهر سرك من الأغيار لتشاهد سر الأسرار، وحينئذ تدرك أسرار القرآن والكتاب المبين، وتصير هداية وبشارة للمؤمنين. فإن من قرأ القرآن وعمل به فقد أدرج اللبوة بين كتفيه، كما فى الخبر (٢). ثم ذكر من امتلأ قلبه بالأكدار فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ...﴾ إلخ، قال القشيري: أغشيناهم فهم لا يبصرون، وعميًا عليهم المسالك، فهم عن الطريقة المبتلى يصدون. أولئك الذين فى ضلالتهم يعمهون، وفى حيرتهم يترددون. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ هو أن يجد الألم ولا يجد شهود المبتلى (٣)، ولو وجدوه تحمل عنهم ثقله، بخلاف المؤمنين هـ.

(١) من الآية ٨ من سورة فاطر.

(٢) جاء ذلك فيما أخرجه الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي (٥٥٢/١) عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن فقد استدرج اللبوة بين جنبيه، غير أنه لا يوحى إليه..» الحديث.

(٣) فى القشيري: يجد الآلام ولا يجد التملئ.

ثم ذكر الحق تعالى كيفية نزول القرآن، الذي تقدم ذكره، فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿٦﴾

قلت: (تلقى): مبنى للمفعول. والفاعل هو الله؛ لدلالة ما تقدم عليه، من قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. و(لقى): يتعدى إلى واحد، وبالتضعيف إلى اثنين. وكأنه كان غائباً فلقيه، فالمفعول الأول صار نائباً. والقرآن: مفعول ثان، أى: وإنك ليلقيك الله القرآن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَلْقَى الْقُرْآنَ﴾ أى: لتؤتاه بطريق التلقية والتلقين ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أى: من عند أى حكيم وأى عليم، فالتكثير للتفخيم. وفى تفخيمه تفخيم لشأن القرآن. وتنصيب على علو طبقته - عليه الصلاة والسلام - فى معرفته، والإحاطة بما فيه من العلوم والحكم والأسرار، فإن من تلقى العلوم والحكم من الحكيم العليم يكون علماً فى إتقان العلوم والحكم. والجمع بينهما مع دخول العلم فى الحكمة؛ لعموم العلم، ودلالة الحكمة على إتقان الفعل، والإشعار بأن ما فى القرآن من العلوم، منها ما هو حكمة، كالعقائد والشرائع، ومنها ما ليس كذلك، كالقصص والأخبار الغيبية. قاله أبو السعود.

قال ابن عطية: فى الآية رد على كفار قريش فى قولهم: القرآن من تلقاء محمد. وقال القرطبي: الآية تمهيد لما يريد أن يسوق من الأفاضل، وما فى ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه، ومن آثار ذلك: قصة موسى ﴿إِذْ قَالَ لِأَهْلِهِ...﴾ الخ. هـ.

الإشارة: قال أبو بكر بن طاهر: وإنك لتلقى القرآن من الحق حقيقية، وإن كنت تأخذه فى الظاهر عن واسطة جبريل عليه السلام. قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (١) هـ. قلت: العارفون بالله لا يسمعون القرآن إلا من لدن حكيم عليم، بلا واسطة، والواسطة محذوفة فى نظرهم، فهم يسمعون من الله إلى الله، ويقرأون بالله على الله، كما قال القائل: أنا بالله أنطق، ومن الله أسمع. ومما يحقق لك حذف الواسطة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (٢) وسمعت شيخى البرزى رحمه الله، يقول: لا يكون الإنسان من الراسخين فى العلم حتى يقرأ كله وهو مجموع فيه، أى: يقرأ بالله ويسمعه من الله. والله تعالى أعلم.

(١) الآيتان: ١ - ٢ من سورة الرحمن. (٢) الآية ٢٨ من سورة القيامة.

أوقد، أو السين، أو سوف؛ لأن الدعاء يخالف غيره في كثير من الأحكام، أى: أنه، أى: الأمر والشأن ﴿بُورِكَ﴾ أى: قُدُس، أو: جعل فيه البركة والخير، ﴿مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى: من فى مكان النار، وهم الملائكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى: موسى ﷺ، بإنزال الوحي عليه، الذى فيه خير الدنيا والآخرة.

وقال ابن عباس والحسن: (بورك من فى النار أى: قُدُس من فى النار، وهو الله تعالى) (١) أى: نوره وسره، الذى قامت به الأشياء، من باب قيام المعانى بالأوانى، أو: من قيام أسرار الذات بالأشياء، بمعنى أنه نادى موسى منها وسمع كلامه من جهتها، ثم نزه - سبحانه - ذاته المقدسة عن الحلول والاتحاد، فقال: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أى: تنزيهاً له عن الحلول فى شيء، وهو ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثم فسر نداءه، فقال: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ﴾ أى: الأمر والشأن ﴿أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أو: إنه، أى: مكرمك، الله العزيز الحكيم، وهو تمهيد لما أراد أن يظهر على يديه من المعجزات. ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ لتعلم معجزتها، فتأنس بها، وهو عطف على (بورك) أى: نودى أن بورك وأن ألق عصاك. والمعنى: قيل له: بورك من فى النار، وقيل له: ألق عصاك، ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾، تتحرك يمينا وشمالاً، ﴿كَأَنَّهُا جَانٌّ﴾، حية صغيرة ﴿وَلَّى﴾ موسى ﴿مُدْبِرًا﴾ أى: أدبر عنها، وجعلها تلى ظهره، خوفاً من وثوب الحية عليه، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ لم يرجع على عقبه، من: عقب المقاتل: إذا كرز بعد الفر. والخوف من الشيء المكروه أمر طبيعي، لا يتخلف، وليس فى طوق البشر.

قال له تعالى: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ﴾ من غيرى، ثقة بى، أو: لا تخف مطلقاً ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: لا يخاف المرسلون عند خطابى إياهم، فإنهم مستغرقون فى شهود الحق، لا يخطر ببالهم خوف ولا غيره. وأما فى غير أحوال الوحي؛ فهم أشد الناس خوفاً منه سبحانه، أو: لا يخافون من غيرى، لأنهم لدى فى حفظى ورعايتى. ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أى: لكن من ظلم من غيرهم؛ لأن الأنبياء لا يظلمون قط، فهو استثناء منقطع، استدرك به ما عسى يختلج فى العقل، من نفى الخوف عن كلهم، مع أن منهم من فرطت منه صغيرة مما يجوز صدوره عن الأنبياء - عليهم السلام - كما فرط من آدم، وموسى، وداود، وإسماعيل - عليهم السلام - فحسنت الأبرار سيئات المقربين. وقد قصد به التعريض بما وقع من موسى - عليه السلام - من وكزه القبطى. وسماها ظلماً، كقوله ﷺ فى سورة القصص: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ (٢).

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٩/١٣٣).

(٢) من الآية ١٦ من سورة القصص.

قال في الحاشية الفاسية: والظاهر في الاستثناء كونه متصلاً، وأطلق الظلم باعتبار منصب النبوة، واشفاقهم مما لا يشفق منه غيرهم، كما اتفق لموسى في مدافعة القبطى عن الإسرائيلى، مع أن إغاثة المظلوم مشروعة عموماً، ولكن لما لم يؤذن له خصوصاً عد ذلك ظلماً وذنباً. وأما ما سرى من القتل فلم يقصده، وإنما اتفق من غير قصد هـ.

قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حَسَنًا بَعْدَ سَوْءٍ﴾ أى: أتبع زلته حسنة محلها، كالتوبة وشبهها، ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أقبل توبته، وأغفر حوبته، وأرحمه، فأحقق أمليته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: تقدم بعض إشارة الآية في سورة طه^(١). وقوله تعالى: «أَنْ بُورِكَ مِنْ فِى النَّارِ...» تقدم قول ابن عباس وغيره: أن المراد بمن فى النار: نور الحق تعالى. قال بعض العلماء: كانت النار نوره تعالى، وإنما ذكره بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه ناراً، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر هـ. ومنه حديث: «حجابه النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره»^(٢)، أى: حجاب النور الذى تجلى به فى مظاهر خلقه، فالأرانى حجب للمعانى، والمعانى هى أنوار الملكوت، الساترة لأسرار الجبروت، السارية فى الأشياء.

وقال سعيد بن جبیر: (هى النار بعينها)^(٣)، وهى إحدى حجب الله تعالى. ثم استدل بالحديث: «حجابه النار» ومعنى كلامه: أن الله تعالى احتجب فى مظاهر تجلياته، وهى كثيرة، ومن جملة النار، فهى إحدى الحجب التى احتجب الحق تعالى بها، وإليه أشار ابن وفا بقوله:

هو النور المحيط بكل كون

ولا يفهم هذا إلا أهل الفناء فى الذات، العارفين بالله، وحسب من لم يبلغ مقامهم التسليم لما رمزوا إليه، وإلا وقع الإنكار على أولياء الله بالجهل، والعياذ بالله.

(١) راجع للمجلد الثالث، ص/ ٣٧٩ - ٣٨٠.

(٢) بعض حديث رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه وأخرجه مسلم فى (الإيمان، باب فى قوله ﷻ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ، ١/١٦١، ح ١٧٩)، وأحمد فى المسند (٤٠١/٤) بلفظ «حجابه النار، وجاء فى رواية عند مسلم، فى الموضع السابق، وأحمد فى المسند (٤٠٥/٤) وابن ماجه فى (المقدمة، باب فى ما أنكرت الجهمية ٧٠/١ - ٧١ ح ١٩٥ - ١٩٦) بلفظ «حجابه النور» (انظر شرح الحديث فى مسلم بشرح النورى ١٤/٣ - ١٦)

(٣) ذكره البغوى فى تفسيره (١٤٥/٦).

ثم ذكر معجزة اليد، فقال:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١٢) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١٣) ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾ ياموسى ﴿فِي جَيْبِكَ﴾؛ فى جيب قميصك. والجيب: الفتح فى الثوب لرأس الإنسان. قال الثعلبى: إنما أمره بذلك؛ لأنه كان عليه مدرعة صوف، لا كم لها. ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾؛ من غير آفة، كبرص ونحوه، ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ أى: هاتان الآيتان فى جملة تسع آيات، وهى الفلق، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمس، والجذب فى براديهما، والنقصان فى مزارعهما. ومن عدّ اليد والعصا من التسع عدّ الأخيرين واحداً، ولم يعد الفلق؛ لأنه لم يبعث به إلى فرعون. وقوله: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بمحذوف، أى: مرسلأ، أو: ذاهباً إلى فرعون ﴿وَقَوْمِهِ﴾، إنهم كانوا قوماً فاسقين؛ خارجين عن أمر الله، كافرين به.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا﴾؛ معجزاتنا، وظهرت على يد موسى، حال كونها ﴿مُبْصِرَةً﴾؛ بيّنة واضحة، وهى اسم فاعل، أطلق على المفعول، إشعاراً بأنها لفرط ظهورها كأنها تبصر نفسها؛ مبالغة فى وضوحها، وإلا فهى مبصرة لمن ينظر ويتفكر فيها. أو: ذات تبصر؛ لأنها تهدى من يتبصر بها. فلما جاءتهم ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ واضح سحريته.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ أى: كذبوا بها ﴿وَقَدْ﴾ استيقنتها أنفسهم ﴿أى: علمتها علماً يقيناً، فالاستيقان: أبلغ من الإيقان. يعنى: أنهم جحدوا بألسنتهم واستيقنوها فى قلوبهم. ﴿ظُلْمًا﴾: حال من ضمير (جحدوا) أى: ظالمين فى ذلك، ولا ظلم أفحش ممن تيقن أنها آيات من عند الله، وسماها سحراً بيّناً، ﴿وَعُلُوًّا﴾؛ تكبراً وترفعاً عن الإيمان بموسى ﷺ، وهو أيضاً حال، أو: علة، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهو الإغراق فى الدنيا، والإحراق فى الآخرة. نسأل الله العاقبة.

الإشارة: وأدخل يد فكرتك فى جيب قلبك، تخرج ببيضاء شعشعانية، يستولى شعاعها على وجود بشريتك، فتخلص البشرية تحت أنوار المعانى، ثم يستولى على الوجود بأسره، فيصير كله نوراً ملكوتياً جبروتياً، متصلاً

بالنور الأعظم، والبحر الطام، بعد قطع مقامات التوبة، والتقوى، والاستقامة، والإخلاص، والصدق، والطمانينة، والمراقبة والمحبة، والمشاهدة، فيكون حينئذ آية مبصرة واضحة، من آيات الله، يدل على الله، ويدعو إليه على بصيرة منه. فمن جردها انخرط في سلك من قال تعالى في حقه: ﴿وَجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا...﴾ الآية.

ثم ذكر قصة داود وسليمان - عليهما السلام - فقال:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥) **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ** (١٦) ﴿

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ أي: أعطينا كل واحد منهما طائفة خاصة به من علم الشرائع والأحكام، وغير ذلك مما يختص به كل واحد منهما، كصناعة الدروع، ومنطق الطير. أو: علماً لدنيا. ﴿وَقَالَا﴾ أي: كل واحد منهما، شكراً لما أوتيته من العلم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا﴾ بما آتانا من العلم ﴿عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قال النسفي: وهنا محذوف، ليصلح عطف الواو عليه، ولولا تقدير المحذوف لكان الوجه: الفاء، كقولك: أعطيتك فشكر، وتقديره: آتيناهما علماً، فعملاً به، وعرفاً حق النعمة فيه، وقالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ﴾. والكثير المفضل عليه: من لم يؤت علماً، أو: من لم يؤت مثل علمهما. وفيه: أنهما فضلاً على كثير، وفضل عليهما كثير.

وفي الآية دليل على شرف العلم، وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأن من أوتيته فقد أوتي فضلاً على كثير من عباده، وما ساءهم رسول الله ﷺ ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم في الشرف والمنزلة؛ لأنهم القوام بما بُعثوا من أجله. وفيها: أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدا الله تعالى على ما أوتوه، وأن يعتقد العالم أنه إذا فضلك على كثير فقد فضلك عليه مثلهم. وما أحسن قول عمر رضي الله عنه: (كل الناس أقره من عمر). هـ.

والعلماء على قسمين: علماء بالله وعلماء بأحكام الله. فالعلماء بالله هم العارفون به، أهل الشهود والعيان. وهم أهل علم الباطن، أعنى: علم القلوب، والعلماء بأحكام الله هم علماء الشرائع والنوازل. وحيث انتهت درجة العلماء بأحكام الله ابتدئت درجة العلماء بالله. فنهاية علماء الظاهر بداية علماء الباطن؛ لأن علم أهل الظاهر جله ظني،

وعلم أهل الباطن عياني، ذوقى، وليس الخبر كالعيان، مع ما فاقوهم به من المجاهدة، والمكابدة، ومقاساة مخالفة النفوس، وقطع المقامات، حتى ماتوا موتات، ثم حييت أرواحهم، فشاهدوا من الأنوار والأسرار ما تعجز عنه العقول، وتكلّ عنه النقول.

ثم قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾، ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيه، وكانوا تسعة عشر. ووراثته للنبوة: انتقالها إليه بعد أبيه، وإلا فالنبوة لا تورث. ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْ مَنَظِقِ الطَّيْرِ﴾ تشهيراً لنعمة الله، واعترافاً بمكانها، ودعاء للناس إلى تصديقه بذكر المعجزة التى هى علم منطق الطير.

والمنطق: كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف، والمفيد وغير المفيد. وكان سليمان عليه السلام يفهم عنها كما يفهم بعضها بعضاً. يحكى أنه مرّ على بلبل على شجرة، يحرك رأسه، ويميل ذنبه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: الله ونبيه أعلم، قال يقول: إذا أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء. وصاحت فاخنة^(١)، فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا، وصاح طاووس، فقال: يقول: كما تدين تدان، وصاح هدهد، فقال: يقول: من لا يرحم لا يرحم، وصاح صُرْد^(٢) - وهو طائر ضخم الرأس - فقال: يقول: استغفروا الله يا مذنبين، وصاح طيطوى^(٣)، فقال: يقول: كل حى ميت، وكل جديد بال. وصاح خطّاف^(٤)، فقال: يقول: قدّموا خيراً تجدره. وصاح قُمَرى^(٥)، فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى. وصاحت رخمة^(٦)، فقال: إنها تقول سبحان ربي الأعلى ملء أرضه رسائمه.

وفى رواية: هدرت حمامة، فقال: إنها تقول: سبحان ربي الأعلى - مثل الرخمة - وقال: الغراب يدعرو على العُشّار. والحداة تقول: كل شيء هالك إلا وجهه. والقطاة^(٧) تقول: من سكت سلم، والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلين، والنسر يقول: يا ابن آدم؛ عش ما شئت، آخرك الموت. والعقاب^(٨) يقول:

(١) الفاخنة: نوع من الحمام المطوّق، إذا مشى توسع فى مشيه، وباعد بين جناحيه وأبطيه، وتمايل. انظر اللسان (٥/ ٣٣٦٠، مادة/ فخت).

(٢) الصُرْد: طائر أبيض، نصفه أبيض، ونصفه أسود، ضخم الرأس والمنقار، له مخالب يصطاد به العصافير. انظر النهاية (٣/ ٢١ مادة صرد).

(٣) الطيطوى: منرب القطا، وقيل: هو طائر لا يفارق الآجام بكثرة المياه.

(٤) الخطّاف: الصفور، وهو الذى تدعوه العامة: عصفور للجنة. وجمعه: خطاطيف. انظر اللسان (٢/ ١٢٠١).

(٥) القُمَرى: نوع من الحمام، مطوّق، حسن الصوت.

(٦) الرخمة: طائر غزير الريش، أبيض اللون، مبقّع بصواد، له منقار طويل. موصوف بالفخر، والجمع: رخم رخم. انظر اللسان (٣/ ١٦١٧، مادة رخم).

(٧) القطاة: نوع من الحمام، يؤثر للحياة فى الصحراء.

(٨) العقاب: طائر من الجوارح، تسميها العرب بالكاسر، وقيل: العقاب: سيد الطيور، والنسر عريفها، ويكنى النكر: أبا الهيثم. والأنثى: أم للحوار، وهى حادة البصر.

فى البُعد من الناس أنس. والصنفدع تقول: سبحان ربي القدوس. والبازي^(١) يقول: سبحان ربي ويحمده، المذكور فى كل مكان. والدراج^(٢) يقول: الرحمن على العرش استوى. والقنب^(٣) يقول: إلهي؛ العن مبغض آل محمد، عليه الصلاة والسلام^(٤).

وقيل: إن سليمان كان يفهم صوت الحيوانات كلها، وإنما خصّ الطير؛ لأنه معظم جنده.

ثم قال: ﴿وَأوتينا من كل شيء﴾ أى: ما نحتاج إليه. والمراد به كثرة ما أوتى، كما تقول: فلان يقصده كل أحد، ويعلم كل شيء، كناية عن كثرة علمه. ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ﴾ والإحسان من الله تعالى ﴿المبين﴾ أى: الواضح، الذى لا يخفى على أحد، أو: إن هذا الفضل الذى أوتيته هو الفضل المبين. على أنه ﷺ قاله على سبيل الشكر والمحمدة. كما قال رسول الله ﷺ «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ» أى: أقول هذا القول شكرًا، لا فخرًا، والنون فى (علمنا) و(أوتينا) نون الواحد المطاع، وكان حينئذ ملكًا، فكلم أهل طاعته على الحالة التى كان عليها، وليس فيه تكبر ولا فخر؛ لعصمة الأنبياء من ذلك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أشرف العلوم وأعظمها وأعزها العلم بالله، على سبيل الذوق والكشف والوجدان، ولا يكون إلا من طريق التربية على يد شيخ كامل؛ لأنه إذا حصل هذا العلم أغنى عن العلوم كلها، وصغرت فى جانبه، حتى إن صاحب العلم بالله يعد الاشتغال بطلب علم الرسم بطلاة وانحطاطًا، ومثله كمن عنده قناطير من الفضة، ثم وجد جبلاً من الإكسير، فهل يلتفت صاحب الإكسير إلى الفضة أو الفلوس؟ لأن من كانت أوقاته كلها مشاهدة ونظراً لوجه الملك، كيف يلتفت إلى شيء سواه، ولذلك قال الجنيّد رحمه الله: لو نعلم تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم، الذى نتكلم فيه مع أصحابنا، لسعيت إليه. هـ. وقال شيخ شيوخنا، سيدى عبد الرحمن العارف: كنت أعرف أربعة عشر علماً، فلما أدركت علم الحقيقة، سرطت ذلك كله، ولم يبق إلا التفسير والحديث، نتكلم فيه مع أصحابنا. أو قريباً من هذا الكلام. وقال شيخ شيوخنا، سيدى عبد الرحمن المجذوب رحمه الله:

أقارئ علم التوحيد هذا البُحُورُ إِلَى تَنْبِي
هَذَا مَقَامُ أَهْلِ التَّجَرُّدِ الواقفين مع ربي

وهذا أمر بين عند أهل هذا الفن، وقال الورتجى: العلم علمان: علم البيان وعلم العيان. علم البيان ما يكون بالوسائط الشرعية، وعلم العيان مستفاد من الكشوفات الغيبية. ثم قال: فالعلم البيانى معروف بين العموم، والعلم

(١) البازي: ضرب من الصقور، وهو أشد الجوارح تكبراً، وأضيقها خلقاً، ويؤخذ للصيد.

(٢) الدراج: طائر جميل المنظر ملون الريش.

(٣) القنب: ضرب من الطير. انظر اللسان (٥/٣٥١٠، مادة: قنب).

(٤) ذكر نحوه البغوى فى تفسيره (١٤٨/٦) عن كعب. وقال محققه، فى الحاشية: وهذه التفصيلات فى كلام الطير متلفة من أهل الكتاب، كرواية كعب هذه، ولا يتوقف فهم الآية عليها، وليس فيها نص صحيح، مرفوع إلى النبى ﷺ.

العياني مشهور بين الخصوص، لم يطلع عليه إلا نبي أو ولي، لأنه صدر من الحق لأهل شهوده، من المحبين العارفين، والموحدين والصديقين، والأنبياء والمرسلين. انظر بقية كلامه.

وقال أيضاً في قوله: «عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ»: أفهم أن أصوات الطيور والوحوش وحركات الأكوان جميعاً هي خطابات من الله عز وجل للأنبياء والمرسلين، والعارفين والصديقين، يفهمونها من حيث أحوالهم ومقاماتهم. فللأنبياء والمرسلين علم بمناطقها قطعياً. ويمكن أن يقع ذلك بوحى، ولكن أكثر فهم الأنبياء^(١) أنهم يفهمون من أصواتها ما يتعلق بحالهم، بما يقع في قلوبهم من إلهام الله، لا بأنهم يعرفون لغاتهم بعينها. هـ. قلت: وكذلك الأولياء يفهمون عنها ما يليق بمقاماتهم، من ألفاظ، أو أنس، أو إعلام، أو غير ذلك. والله تعالى أعلم.

ولما أراد سليمان الغزو، جمع جنوده، كما قال تعالى:

﴿وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَبَسَّ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

قلت: «قالت نملة»: التاء للوحدة، لا للتأنيث. قال الرضوي: تكون التاء للفرق بين المذكر والمؤنث، وتكون لأحاد الجنس، كنحلة ونحل، وثمره وثمر، وبطة وبط، ونملة ونمل، فيجوز أن تكون النملة مذكراً، والتاء للوحدة، وأنت الفعل باعتبار تأنيث اللفظ. هـ. مختصراً. (لا يحطمنكم): يحتمل أن يكون جواباً للأمر، أو: نهياً بدلاً من الأمر؛ لتقارب المعنى؛ لأن الأمر بالشئ نهى عن ضده. والضد ينشأ عنه الحطم، فلا: ناهية، ومثله الحديث: «قلِّمَسْكَ بِنَصَالِهَا، لَا يَعْتَرِ مُسْلِمًا»^(٢). هـ.

(١) عبارة الورتجبي، كما في عرائس البيان: (ويمكن أن يقع ذلك لولي، ولكن أكثر فهم الأولياء بها...).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في (الفتن، باب قول النبي ﷺ «من حمل علينا السلاح فليس منا» ح ٧٠٧٤) ومسلم في (البر والصلة، باب أمر من مرّ بسلاح، في مسجد أو سوق أو غيرهما من المواضع الجامعة للناس أن يمسه بنصالها ٢٠١٨/٤ - ٢٠١٩، ح ٢٦١٤-٢٦١٥) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ﴾ أى: جُمع له ﴿جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ بمباشرة مخاطبيه، فإنهم رؤساء مملكته، وعظماء دولته، من الثقلين وغيرهم. وتقديم الجن على الإنس للإيذان بكمال قوه ملكه وعزة سلطانه؛ لأن الجن طائفة عاتية، وقبيلة طاغية، ماردة، بعيدة من الحشر والتسخير، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى: يحبس أوائلهم على أواخرهم، أى: يوقف سلاف العسكر^(١) حتى يلحقهم الثوانى، فيكونوا مجتمعين، لا يختلف منهم أحد، وذلك لكثرة العظمة والقهرية.

قال قتادة: فكان لكل صنف منهم وزعة^(٢). أو: لترتيب الصفوف، كما هو المعتاد فى العساكر. والوزع: المنع، ومنه قول الحسن البصرى، حين ولى القضاء: (لا بد للحاكم من وزعة) أى: شرط يمنعون الناس من الظلم. وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر، دون سوق أواخرهم، مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضاً؛ لأن أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم من السير السريع، وهذا إن لم يكن سيرهم بتسيير الريح فى الجو. قال محمد بن كعب: كان عسكر سليمان مائة فرسخ، خمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش. وكان له ألف بيت من قرارير على الخشب، فيها ثلاثمائة منكوحه، وسبعمائة سرية. وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وإبريسم، فرسخاً فى فرسخ، وكان يوضع منبره فى وسطه، وهو من ذهب، فيقعد عليه، وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة، فتقعد الأنبياء - عليهم السلام - على كراسى الذهب، والعلماء على كراسى الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظله الطير بأجنحتها، حتى لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط، فتسير به مسيرة شهر، من الصباح إلى الرواح.

وروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله، ويأمر الرخاء تسيره، فأوحى الله تعالى إليه، وهو يسير بين السماء والأرض: إني زدت فى ملكك أنه لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح فى سمعك. قال وهب: حدثنى أبى: أن سليمان مرّ بحرّاث، فقال: لقد أوتى آل داود ملكاً عظيماً، فالتفت ونزل إلى الحرّاث، فقال: إني سمعت قولك، وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه، لتسبيحة واحدة يقبلها الله منك خير لك مما أوتى آل داود. هـ.

﴿حتى إذا أتوا على واد النمل﴾ أى: فساروا حتى بلغوا وادى النمل، وهو واد بالشام، كثير النمل، قاله مقاتل. أو: بالطائف، قاله كعب. وقيل: هو واد يسكنه الجن، والنمل مراكبهم^(٣). وعدى الفعل بد على، لأن إتيانهم كان من فوق، فأتى بحرف الاستعلاء. ولعلمهم أرادوا أن ينزلوا بأعلى الوادى؛ إذ حيثئذ يخافهم من فى

(١) سلاف العسكر: متقدموهم.

(٢) ذكره البغوى فى التفسير (١٤٩/٦).

(٣) انظر التطبيق الدالى.

الأرض، لا عند سيرهم في الهواء. وجواب (إن) قوله: ﴿قالت نملة﴾، وكأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرّت منهم، فصاحت صيحة، فنبهت بها ما بحضرتها من النمل.

قال كعب: مرّ سليمان عليه السلام بوادي السدير، من أودية الطائف، فأتى على راد النمل، فقالت نملة، وهي تمشي، وكانت عرجاء تتكاسر، مثل الذئب في العظم. قال الضحاك: كان اسم تلك النملة طاحية، وقيل: منذرة، وقيل: جرمي. وقال نوف الحميري: كان نمل رادي سليمان أمثال الذباب^(١). وعن قتادة: أنه دخل الكوفة، فالتف عليه الناس، فقال: سلوني عما شئتم، فسأله أبو حنيفة، وهو شاب، عن نملة سليمان، أكان ذكراً أو أنثى؟ فأفحم، فقال أبو حنيفة: كانت أنثى، فقل له: بم عرفت؟ فقال: قوله تعالى: ﴿قالت نملة﴾ ولو كان ذكراً لقال: قال نملة. هـ. قلت: وهو غير صحيح لما تقدم عن الرضي^(٢).

﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾ لم يقل: ادخلن؛ لأنه لما جعلها قائلة، والنمل مقولاً لهم، كما يكون من العقلاء، أجرى خطابهم مجرى ذوى العقل، ﴿لا يحطمنكم﴾ لا يكسركم. والحطم: الكسر، وهو في الظاهر نهى لسليمان عن الحطم، وفي الحقيقة نهى لهم عن البروز والوقوف على طريقه، نحو: لا أرينك هاهنا، أي: لا تتعرضوا فيكسركم ﴿سليمان وجنوده﴾، وقيل: أراد: لا يحطمنكم جنود سليمان، فجاء بما هو أبلغ. ﴿وهم لا يشعرون﴾ لا يعلمون بمكانكم، أي: لو شعروا ما فعلوا. قالت ذلك على وجه العذر، وإصفة سليمان وجنوده بالعدل، فحمل الريح قولها إلى سليمان على ثلاثة أبعاد.

رؤي أن سليمان قال لها: لم حذرت النمل، أخفت ظلمي؟ أما علمت أني نبي عدل، فلم قلت: ﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾؟ فقالت: أما سمعت قولي: ﴿وهم لا يشعرون﴾، مع أني لم أرد حطم النفوس، وإنما أردت حطم القلوب، خشيت أن يتمنين ما أعطيت، ويشغلن بالنظر إليك عن التسبيح، فقال لها سليمان: عطيني، فقالت: هل علمت لم سمي أبوك داود؟ قال: لا، قالت: لأنه داوي حرجه. هل تدري لم سميت سليمان؟ قال: لا، قالت: لأنك سليم، ما ركنت إلى ما أوتيت، لسلامة صدرك، وأنى لك أن تلحق أباك. ثم قالت: أتدري لم سخر الله لك الريح؟ قال: لا، قالت: أخبرك الله أن الدنيا كلها ريح. قال ابن عباس: ومن هنا نهى النبي ﷺ عن قتل أربعة من الدواب: الهدد، والصرد، والذئبة، والنملة^(٣).

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/٣٥٩): من قال من المفسرين: إن هذا الوادي كان بأرض الشام، أو بغيره، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين، كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها. ثم قال: والغرض: أن سليمان عليه السلام فهم قولها، وتبسم ضاحكاً من ذلك، وهذا أمر عظيم جداً.

(٢) راجع الصفحة قبل السابقة.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/٣٣٢) وأبو دارق في (الأدب، باب في قتل الذر، ٥/٤١٨ ح ٥٢٦٧) وابن ماجه في (الصيّد، باب ما ينهى عن قتله ٢/١٠٧٤ ح ٣٢٢٤) والدارمي في (الأصاحي، باب النهي عن قتل الضفادع والذئبة ٢/١٢١، ح ١٩٩٩) من حديث سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾، معجباً ﴿من قولها﴾ ومن حذرِها، واهتدائها لمصالحها، ونصحها للنمل، وفرحاً بظهور عدله. والتبسم: ابتداء الضحك، وأكثر ضحك الأنبياء التبسم، أى: فتبسم ابتداء، ضاحكاً انتهاء. ﴿وقال رب أوزعنى﴾، الإيزاع فى الأصل: الكف، أى: كُفِّنى عن كل شىء إلا عن شكر نعمتك، ويطلق على الإلهام، أى: ألهمنى ﴿أن أشكر نعمتك التى نعمت عليّ﴾ من الذبوة والملك والعلم، ﴿وعلى والدى﴾؛ لأن الإنعام على الوالدين إنعام على الولد، ﴿و﴾ ألهمنى ﴿أن أعمل صالحاً ترضاه﴾ فى بقية عمرى، ﴿وأدخلنى برحمتك﴾ أى: وأدخلنى الجنة برحمتك، لا بصالح عملى؛ إذ لا يدخل الجنة إلا برحمتك، كما فى الحديث. ﴿فى عبادك الصالحين﴾ أى: فى جملة أنبيائك المرسلين، الذين صلحوا لحضرتك. أو: مع عبادك الصالحين. روى أن النملة أحست بصوت الجنود، ولم تعلم أنهم فى الهواء، فأمر سليمان ﷺ الريح، فوفقت؛ لتلا يذعرن، حتى دخلن مساكنهن، ثم دعا بالدعوة. قاله النسفى.

الإشارة: من أقبل بكليته على مولاه، وأطاعه فى كل شىء، سخرت له الأكوان، وأطاعته فى كل شىء. ومن أعرض عن مولاه أعرض عنه كل شىء، وصعب عليه كل شىء. «أنت مع الأكون مالم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك». فإذا سخرت له الأشياء، وزهد فيها، وأعرض عنها، واختار مقام العبودية، ارتفع قدره، ولم ينقص منه شيئاً، كحال نبينا - عليه الصلاة والسلام - ومن سخرت له الأشياء، ونظر إليها، انتقص قدره، وإن كان كريماً على الله، ولذلك ورد فى الخبر أن سليمان ﷺ: هو آخر من يدخل الجنة من الأنبياء. ذكره فى القوت.

وذكر فيه أيضاً: أن سليمان ﷺ لبس ذات يوم ثياباً رفيعة، ثم ركب على سريريه، فحملته الريح، وسارت به، فنظر إلى عطفه نظرة، فأنزلته إلى الأرض، فقال لها: لم أنزلتنى ولم آمرِك؟ فقالت له: نطيعك إذا أطلعت الله، ونعصيك إذا عصيته. فاستغفر وتاب، فحملته. وهذا مما يعتب على المقربين؛ لكبر مقامهم، فكل نعيم فى الدنيا ينقض فى الآخرة. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ هَذَا مَا كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾
لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوَّلًا أَدْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَكَتَمَتْ

غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيَّاهِينَ ﴿٢٢﴾ إِنِّي
وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا
وَقَوْمَهَا يُسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وتفقد﴾ سليمان ﴿الطير﴾ أى: تعرف أحوال الطير تعرف الملك لمملكته،
حسبما تقتضيه عناية الملك بمملكته، والاهتمام بكل جزء منها، أى: تفقده لمعرفة معرفته بالماء، أى: لغير ذلك على
ما يأتى. فلما تفقده لم ير الهدد فيما بينها. والتفقد: طلب ما غاب عنك. ﴿فقال مالى لا أرى الهدد﴾ أسأتر
ستره؟ ﴿أم كان من الغائبين﴾، و«أم»: بمعنى «بل»، كأنه قال: مالى لا أراه؟ ثم بدا له أنه غائب، فأضرب
عنه، وقال: بل هو من الغائبين.

﴿لأعذبه عذاباً شديداً﴾، قيل: كان عذابه للطير: نطفه ريشه وتشميسه، أى: يجعله مع أضداده فى قفص،
أى: بالتفريق بينه وبين إلفه. وعن بعضهم: أضيق السجون معاشر الأضداد، ومفارقة الأحباب. أى: نطفه، وطرحه
بين يدي النحل تلدغه، أى: النمل تأكله. وحلّ له تعذيب الهدد لينزجر غيره، ولما سخرت له الحيوانات - ولا يتم
التسخير إلا بالتأديب - حلّ له التأديب.

﴿أو لأذبحنه﴾؛ ليعتبر به أبناء جنسه، ﴿أو ليأتيني بسلطان مبين﴾؛ بحجة تبين عذره، والحلف فى
الحقيقة على أحد الأمرين، على تقدير عدم الثالث. قال بعضهم: وسبب طلبته للهدد، لإخلاله بالنوبة التى كان
ينوبها. وقيل: كانت الطير تظله، فأصابته لمعة من الشمس، فنظر، فرأى موضع الهدد خالياً، فتفقده، وقيل:
احتاج إلى الماء، وكان علم ذلك إلى الهدد، فتفقده، فلم يجد، فتوعده.

والسبب فيه: أن سليمان ﷺ لما فرغ من بناء بيت المقدس، عزم على الخروج إلى أرض الحرم، للحج،
فتجهز للمسير، وخرج بجوده - كما تقدم - فبلغ الحرم، وأقام به، وكان يدحر كل يوم بمكة خمسة آلاف ناقة،
ويذبح خمسة آلاف ثور، وعشرين ألف شاة، قرباناً. وقال: إن هذا مكان يخرج منه نبي عزيز، صفته كذا وكذا،
يُعطى النصر على جميع من ناواه، وتبلغ هيئته مسيرة شهر، القريب والبعيد فى الحق عنده سواء، لا تأخذه فى الله

لومة لائم، دينه دين الحنيفية، فطوبى لمن أدركه وآمن به، وبيننا وبين خروجه زهاء ألف عام. ثم قضى نسكه، وخرج نحو اليمن صباحاً، يوم سهيلاً، فوافى صنعاء وقت الزوال، وذلك مسيرة شهر، فرأى أرضاً حسناء، تزهر خضرتها، فأحب النزول بها؛ ليصلى، ويتغذى، فطلبوا الماء فلم يجدوه، وكان الهدهد دليله على الماء، كان يرى الماء من تحت الأرض، كما نرى الماء في الزجاج، فينقر الأرض فتجىء الشياطين يستخرجونه. ويحث فيه القشيري بأن الهدهد متعدد في عسكره، إذا فقدوا واحداً بقي آخر، قال: اللهم إلا أن يكون ذلك الواحد مخصوصاً بمعرفة ذلك، والله أعلم. هـ.

قال سعيد بن جبير: لما ذكر ابن عباس هذا الحديث: قال له نافع بن الأزرق: كيف ينظر الماء تحت الأرض، ولا يبصر الفخ حتى يقع فيه؟ قال ابن عباس: ويحك إذا جاء القدر حال دون البصر. هـ. قلت: ونافع هذا هو رأس الخوارج والمعتزلة.

فلما نزل سليمان، قال الهدهد: إن سليمان قد اشتغل بالنزول، فارتفع نحو السماء، ونظر طول الدنيا وعرضها، ونظر يميناً وشمالاً، فرأى بستاناً لبقيس فيه هدهد. وكان اسم هدهد سليمان «يعفور» واسم هدهد اليمن «عنفير». فقال هدهد اليمن لهدهد سليمان: من أين أقبلت وأين تريد؟ قال: أقبلت من الشام، مع صاحبي سليمان بن داود، قال: ومن سليمان؟ قال: ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحوش والرياح، فمن أين أنت؟ قال من هذه البلد، ملكها امرأة، يقال لها «بلقيس» تحت يديها اثنا عشر ألف قائد، تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل. فانطلق معه، ونظر إلى بلقيس وملكها، ورجع إلى سليمان وقت العصر. وكان سليمان قد فقد وقت الصلاة، فلم يجده، وكان على غير ماء.

قال ابن عباس: فدعا عريف الطير - وهو النسر - فمأله؟ فقال: ما أدري أين هو، فغضب سليمان وقال: (لأعذبه...) الخ، ثم دعا بالعقاب، سيد الطير، فقال: على بالهدهد الساعة، فرقع العقاب نفسه نحو السماء، حتى التزق بالهواء، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدهم، فإذا هو بالهدهد مقبلاً من نحو اليمن، فانقض نحوه، فقال له الهدهد: بحق الحق الذي قواك إلا مارحمتني، فقال: ويلك، إن نبي الله حلف أن يعذبك ويذبحك. ثم تلقته النسور والطير في العسكر، وقالوا له: لقد توعدك نبي الله. قال: أو ما استئذني؟ قالت: بلى، قال: «أو ليأتيني بسلطان مبين». ثم دخل على سليمان، فرفع رأسه، وأرخى ذنبه وجناحيه يجرحهما على الأرض، تواضعاً لله وسليمان، فقال سليمان: أين كنت؟ لأعذبتك... فلما دنا منه أخذ سليمان برأسه، فمده إليه، فقال له الهدهد: يانبي الله؛ اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى، بمنزلة وقوفى بين يديك، فارتعد سليمان وعفا عنه^(١). وقال عكرمة: إنما صُرف سليمان عن ذبح الهدهد لبره بوالديه، كان يلتقط الطعام ثم يزقه لهما.

(١) هذه الأخبار ذكرها البغوي في تفسيره (١٥٤/٦) وغيره من المفسرين. وهي من الأخبار التي لا سند لها.

قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أى: تفقد مكث سليمان حين تفقد الهدد، وأرسل من ورائه غير زمان بعيد، وهو من الظهر إلى العصر - كما تقدم - أو: فمكث الهدد فى غيبته غير بعيد، خوفاً من سليمان، فالضمير إما لسليمان، أو: للهدد، وهو الظاهر، ويرجحه قراءة: (فمكث). وفى «مكث، لغتان: الضم والفتح.

ولما قَدِمَ من غيبته، أحضر بين يديه، على الهيئة المتقدمة، ثم سأله عن غيبته، ﴿فَقَالَ أَحَاطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أى: أدركت علماً لم تُحِطْ به أنت، ألهم الله الهدد فكافح^(١) سليمان بهذا الكلام، مع ما أوتى من فضل النبوة والعلوم الجمة، ابتلاء له ﷺ فى علمه، وتنبيهاً على أن فى أدنى خلقه وأضعفهم من أحاطه الله علماً بما لم يُحِطْ به؛ للتصاغر إليه نفسه، ويصغر فى عينه علمه، فى جانب علم الله، رحمة به ولطفاً فى ترك الإعجاب، الذى هو فتنة العلماء.

ثم قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾ - بالصرف - اسماً للحى، أو: للأب الأكبر، وبعدمه اسماً للقبيلة. ﴿بَنِيَّ يَقِينٍ﴾، والنبأ: الخبر الذى له شأن. وقوله: ﴿مِنْ سَبَإٍ بَنِيَّ﴾ من محاسن الكلام، ويسمى البديع. وقد حسن وبرز لفظاً ومعنى، حيث فسر إيهامه بأبداع تفسير، وأراه أنه كان بصدد إقامة خدمة مهمة. وعبر عما جاء به بالنبأ، الذى هو الخبر الخطير والشأن الكبير، ووصفه بما وصفه به. ﴿إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾؛ هو استئناف لبيان ما جاء به من النبأ، وتفسير له إثر الإجمال. وهى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان. وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها، ورث الملك من أربعين أباً. وقيل: كان أبوها - اسمه الهدداد - ملكاً عظيم الشأن، ملك أرض اليمن كلها، وأبى أن ينزوح منهم، فزوجه امرأة من الجن، يقال لها «ريحانة» فولدت له بلقيس، ولم يكن له ولد غيرها.

قال أبو هريرة: قال النبى ﷺ «كان أحد أبوى بلقيس جنياً»^(٢) فمات أبوها، فاختلف قومه فرقتين، وملكوا أمرهم رجلاً قائماً بسيرته، حتى فجر بحرماً رعيته، فأدركت بلقيس الغيرة، فمرضت عليه نفسها، فنزجته، فسقته الخمر، فسكر، فجزت رأسه، ونصبته على باب دارها فملكوها^(٣).

﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تحتاج إليه الملوك، من العدة والآلة، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾: كبير، قيل: كان ثلاثين ذراعاً فى ثلاثين عرضاً، وقيل: كان ثمانين ذراعاً فى ثمانين، وطوله فى الهواء: ثمانون. وكان من ذهب وفضة، مرصعاً بأنواع الجواهر، وقوائمه من ياقوت أحمر وأخضر، ودر، وزبرجد، وعليه سبعة أبيات، فى كل بيت

(١) كافحه مكافحةً وكفاحاً: واجهه. انظر اللسان (مادة كفح ٢٨٩٧/٥)

(٢) أخرجه الطبرى فى التفسير (١٦٩/١٩) وزاد السيوطى عزوه فى الدر (١٩٨/٥) لأبى الشيخ فى العظمة، وابن عساکر، وقال ابن كثير فى البداية والنهاية (٢١/٢٠): هذا حيث غريب، وفى سله ضعف.

(٣) ذكره البغوى فى تفسيره (١٥٦/٦).

باب مغلق. واستصغر الهدهد حالها إلى حال سليمان، فلذلك عظم عرشها. وقد أخفى الله تعالى ذلك على سليمان؛ لحكمة، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب، ليتحقق ضعف العبودية في جانب علم الربوبية.

وكانت بلقيس مجوسية، فلذلك قال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى: يعبدونها متجاوزين عبادة الله. ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ التى هى عبادة الشمس، ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصي، ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾؛ عن سبيل الرشد والصواب، وهو التوحيد ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه. ولا يبعد من الهدهد التهذى إلى معرفة الله، ووجوب السجود له، وحرمة السجود للشمس، إلهاماً من الله له، كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوانات المعارف اللطيفة، التى لا يكاد العقلاء، الراجحة العقول، يهتدون إليها. وهذا من أسرار الربوبية، التى سرت فى الأشياء، فوحدت الله تعالى، ولهجت بحمده.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ بالتشديد، أى: فصدهم عن السبيل للآل، فحذف الجار، أى: لأجل ألا يسجدوا لله. ويجوز أن تكون لا، مزيدة، أى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا. وقرئ: هلا يسجدون. ومن قرأ بالتخفيف^(١). فالتقدير عنده: ألا يا هؤلاء؛ اسجدوا، فألاً للتنبيه، والمنادى محذوف، فمن شدد لم يقف على «يهتدون»، ومن خفف وقف ثم استأنف: ألا يا هؤلاء اسجدوا ﴿لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ﴾؛ الشئ المخبوء المستور ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قال قتادة: خبء السموات: المطر، وخبء الأرض: النبات. واللفظ أعم من ذلك، ﴿وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾^(٢) عطف على «يخرج»، إشارة إلى أنه تعالى يخرج ما فى العالم الإنسانى من الخفايا، كما يخرج ما فى العالم الكبير من الخبايا.

﴿إِلَّا إِلَهُ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذى هو أول الأجرام وأعظمهما. ووصف الهدهد عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض. وفى الخبر: «إن السموات والأرض فى جانب العرش كحلقة فى قلاة» ووصفه عرش بلقيس تعظيم له بالنسبة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك. هذا آخر كلام الهدهد. ثم دلهم على الماء فحفروا وشربوا، وملأوا الركايا، والله تعالى أعلم.

الإشارة: هدد كل إنسان نفسه، فإذا تفقدها فوجدتها غائبة عن الله، فى أودية الغفلة، هدها بالعذاب الشديد، وذبها بأنواع المخالفة، حتى تأتية بحجة واضحة، تعذر بها، فإن تأت بحجة عذبةا وذبها، بإدخالها فى كل ما تكره ويثقل عليها، فتمكث غير بعيد، فتأتية بالعلوم الدنية، والأسرار الريانية، التى لم يحط بها علماً قبل ذلك، وتجيئه بالخبر اليقين، فى العلم بالله، من عين اليقين، أرحق اليقين، فتخبره عن أحوال عامة أهل الحجاب،

(١) قرأ أبو جعفر، والكسائي: (ألا يسجدوا) بالتخفيف. وقرأ الباقر (ألاً) بالتشديد.

(٢) قرأ حفص، والكسائي: (ما تخفون وما تعلنون) بالناء على الخطاب، وقرأ الآخرون بالياء. انظر الإتحاف (٣٢٦/٢).

فتقول: إني وجدت امرأة تملكهم، وهي نفسها الأمارة، وأرتيت من كل شيء تشتهيته وتهواه، من غير رازع ولا قانع، ولها عرش عظيم، وهو سرير الغفلة والانهماك في حب الدنيا والشهوات. أو: لها تسلط كبير على من ملكته، وجدتها وقومها يسجدون للسوى، ويخضعون للهوى من دون الله، وزين لهم الشيطان ذلك، فصدهم عن طريق الوصول، فهم لا يهتدون إلى الوصول إلى الحضرة أبداً ماداموا كذلك؛ لأن حضرة ملك الملوك محرمة على من هو لنفسه مملوك. ألا يسجدوا بقلوبهم لله وحده، فإنه مطلع على خبايا القلوب والأسرار، وعلى ما يسرون من الإخلاص، وما يُعلنون من الأعمال، التي توجب الاختصاص. وبالله التوفيق.

ولما سمع سليمان كلام الهدد أرسله بكتابه إلى بلقيس، كما قال تعالى:

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٧) ﴿ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٢٨) ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكِ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢٩) ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (٣٠) ﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٣١) ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ (٣٢) ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ (٣٣) ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٤)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قال ﴾ سليمان للهدد: ﴿ سننظر ﴾ أى: نتأمل فيما أخبرت، فنعلم ﴿ أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾، وهو أبلغ من: أكذبت؛ لأنه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً، لا محالة، وإذا كان كاذباً اتهم فيما أخبر به، فلا يوثق به، ثم كتب: من عبد الله، سليمان بن داود، إلى بلقيس ملكة سبأ؛ بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلموا على وأتوني مسلمين. قال منصور: كان سليمان أبلغ الناس في كتابه، وأقلهم كلاماً فيه. ثم قرأ: ﴿ إنه من سليمان... ﴾ الخ، والأنبياء كلهم كذلك، كانت تكتب جملاً، لا يطيلون ولا يكثرون. وقال ابن جريج: لم يزد سليمان على ما قال الله تعالى: ﴿ إنه من سليمان... ﴾ الخ. ثم طيبه بالمسك، وختمه بخاتمه (١)، وقال للهدد: ﴿ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ﴾

(١) ذكره البغوى في التفسير (١٥٨/٦).

أى: إلى بلقيس وقومها؛ لأنه ذكرهم معها فى قوله: «وجدتها وقومها»، وبنى الخطاب على لفظ الجمع لذلك. ﴿ثم تول عنهم﴾ أى: تنح عنهم إلى مكان قريب، بحيث تراهم ولا يرونك، ليكون ما يقولون بمسمع منك، ﴿فانظر ماذا يرجعون﴾ أى: ما الذى يردونه من الجواب، أو: ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول.

فأخذ الهدم الكتاب بمنقاره، ودخل عليها من كوة، فطرح الكتاب على نحرها، وهى راقدة، وتوارى فى الكوة. وقيل: نقرها، فانتبهت فزعة، أو: أتاها والجنود حولها، فوقف ساعة يرفرف فوق رؤوسهم، ثم طرح الكتاب فى حجرها، وكانت قارئة، فلما رأت الخاتم ﴿قالت﴾ لأشرف قومها وهى خائفة: ﴿يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم﴾، وصفته بالكرم لكرم مضمونه؛ إذ هو حق، أو: لأنه من ملك كريم، أو: لكونه مختوماً. قال- عليه الصلاة والسلام -: «كرم الكتاب ختمه»^(١) أو: لكونه مصدراً بالتسمية، أو: لغرابة شأنه، ووصوله إليها على وجه خرق العادة.

ومضمونه والمكتوب فيه: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾، وهذا تبين لما ألقى إليها، كأنها لما قالت: ﴿ألقي إلى كتاب كريم﴾ قيل لها: ممن هو وما هو؟ فقالت: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على﴾، «إن»: مفسرة، أى: لا تترفعوا على ولا تتكبروا، كما يفعل جبابرة الملوك، ﴿وأتوني مسلمين﴾: مؤمنين، أو: متقدين، وليس فيه الأمر بالإسلام. وقيل: إقامة الحجة على رسالته؛ لأن إلقاء الكتاب على تلك الصفة معجزة باهرة.

﴿قالت يا أيها الملأ﴾، كررت حكاية قولها إيذاناً بغاية اعتنائها بما فى حيزه: ﴿أفتونى فى أمرى﴾ أى: أجيبنى فى أمرى، الذى حزبنى وذكرته لكم، وعبرت عن الجواب بالفتوى، الذى هو الجواب عن الحوادث المشككة غالباً؛ تهويلاً للأمر، ورفعاً لمحلهم، بالإشعار بأنهم قادرين على حل المشكلات الملزمة. ثم قالت: ﴿ما كنت قاطعة أمراً﴾ من الأمور المتعلقة بالمملكة ﴿حتى تشهدون﴾ بكسر اللون، ولا يصح الفتح؛ لأنه يحذف للناصب. وأصله: تشهدوننى، فحذفت الأولى للناصب وبقي نون الوقاية، أى: تحضروننى، وتشهدوا أنه على صواب، أى: لا أقطع أمراً إلا بمحضركم. وقيل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، كل واحد على عشرة آلاف.

﴿قالوا﴾ فى جوابها: ﴿نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد﴾ أى: نجدة وشجاعة، فأرادوا بالقوة: قوة الأجساد والآلات، وبالبأس: اللجدة والبلاء فى الحرب. ﴿والأمر إليك﴾ أى: هو موكل إليك ﴿فانظري ماذا تأمرين﴾،

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط (ح ٣٨٧٢) والشهاب القضاعى فى مسنده (ح ٣٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وفى مسنده السدى الصغير، معروك. انظر مجمع الزوائد (٩٩/٨).

فتحن مطيعون إليك، فمرينا بأمرك، نمتثل أمرك، ولا نخالفك. كأنهم أشاروا عليها بالقتال، أو أرادوا: نحن من أبناء الحرب، لا من أبناء الرأي والمشورة، وأنت ذات الرأي والتدبير، فانظري ماذا تأمرين نتبع رأيك.

فلما أحست منهم الميل إلى المحاربة مالت إلى المصالحة، فزيفت رأيهم، حيث ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ على منهاج المقاتلة والحرب، أو عنوة وقهراً ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بتخريب عمارتها، وإتلاف ما فيها من الأموال، ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ بالقتل والأسر والإجلاء، وغير ذلك من فنون الإهانة؛ ليستقيم لهم مكنهم وحدهم. ثم قالت: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أى: وهذه عادتهم المستمرة التى لا تتغير، لأنها كانت فى بيت المملكة قديماً، أباً عن أب، فجريت الأمور، أو: يكون من قول الله تعالى، تصديقاً لقولها، أى: قال الله تعالى: وكذلك شأن الملوك إذا غلبوا وقهروا أفسدوا. وأنشدوا فى هذا المعنى:

إِنَّ الْمُلُوكَ بَلَاءٌ حَيْثُمَا حَكَمُوا	فَلَا يَكُنْ بِكَ فِي أَكْذَابِهِمْ ظَلُمٌ
مَاذَا يُؤْمَلُ مِنْ قَوْمٍ إِذَا غَضِبُوا	جَارُوا عَلَيْكَ وَإِنْ أَرْضَيْتَهُمْ مَلُوا
وَإِنْ صَدَقْتَهُمْ خَالُوكَ تَخْدَعُهُمْ	وَأَسْتَفْزِلُوكَ كَمَا يُسْتَفْزِلُ الْكُلُّ
فَأَسْتَفْزِلْ بِاللَّهِ عَنْ أَبْوَابِهِمْ أَبَدًا	إِنَّ الْوُقُوفَ عَلَى أَبْوَابِهِمْ ذُلٌّ

ففى صحبة الملوك خطر كبير، وتعب عظيم، فمن قوى نوره، حتى يغلب على ظلمتهم، بحيث يتصرف فيهم، ولا يتصرفون فيه، فلا بأس بمعرفتهم، إن كان فيه نفع للناس بالشفاعة والنصيحة، وقد أقيم فى هذا المقام الشيخ أبو الحسن الشاذلى، وشيخ شيخنا مولاي العربى الدرقاوى - رضى الله عنهما - وكان تلميذاهما الشيخ أبو العباس المرسى، وشيخنا سيدى محمد البوزيدى الحسنى - رضى الله عنهما - يفران من صحبتهم، أشد الفرار، وهو أسلم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال صاحب الخصوصية لنفسه: سننظر أصدقك فى الخصوصية أم أنت من الكاذبين، اذهب بما معك من العلم، وذكر به عباد الله، وألقه إليهم، ثم تول عنهم، وانظر ماذا يرجعون، فإن تأثروا بوعظك، وانتقش فيهم قولك، فأنت صادق فى ثبوت الخصوصية لديك؛ لأن أهل العلم بالله إذا تكلموا وقع كلامهم فى قلوب العباد، فحييت به قلوبهم وأرواحهم. ومن لا خصوصية له صدت كلامه الآذان. قالت حين أرادت التذكير: يا أيها الملاء إنى ألقى إلى فى قلبى كتاب كريم، وعلم عظيم، فلا تعلو على وأتوني مسلمين، منقادين لما أمركم به، وقالت - لما تطهرت من الأكدار، وتحررت من الأغيار، وأحدقت بها جنود الأنوار: يا أيها الملاء - تعنى جنود الأنوار - أفتونى فى

أمرى الذى أريد أن أفعله، ما كنت قاطعة أمراً من الأمور، التى تتجلى فى القلب، حتى تشهدون، وتشهدوا أنه رشد وحق، قالوا: نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد، والأمر إليك، حيث تطهرت، فانظري ماذا تأمرين؛ لأن النفس إذا تزكت وتخلصت وجب تصديقها فيما تهتم به، قالت: إن الملوك - أى: الواردات الإلهية التى تأتى من حضرة القهار، إذا دخلوا قرية، أى: قلب نفس، أفسدوا ظاهرها بالتخريب والتعذيب، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، أى: أبدلوا عزها ذلاً، وجاهاها خمولا، وغناها من الدنيا فقرا، وكذلك يفعلون.

وفى الحكم العطائية: «متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد لديك، إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون». فكل وارد نزل بالإنسان ولم يغير عليه عوائده فهو كاذب، قال فى الحكم: «لا تزكين وارداً لم تعلم ثمرته، فليس المراد من السحابة الأمطار، وإنما المراد منها وجود الأثمان». وبالله التوفيق.

ثم أشارت عليهم بإرسال الهدية لسليمان، كما قال تعالى:

﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ٣٥ ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآءُ تَنِينَ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ ٣٦ ﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ٣٧ ﴿

يقول الحق جل جلاله فى حكاية بلقيس - وكانت سيسة، قد سيست رساست، فقالت لقومها: ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ ﴾؛ سليمان وقومه، ﴿ بهدية ﴾ أصانعه بذلك عن ملكى، وأختبره، أملك هو أم نبي؟ ﴿ فَنَظِرَةٌ ﴾؛ فمُنْتَظَرَةٌ ﴿ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾؛ بأى شئ يرجعون، بقبولها أم بردها؛ لأنها عرفت عادة الملوك، وحسن موقع الهدايا عندهم، فإن كان ملكاً قبلها وانصرف. وإن كان نبياً ردها، ولم يقبل منا إلا أن نتبعه على دينه، فبعثت خمسمائة غلام، عليهم ثياب الجوارى وحليهن، راكبين خيلاً، مغشاة بالديباج، محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجوهر، وخمسمائة جارية على رماك^(١) فى زى الغلمان، وألف لبنة من ذهب وفضة، وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت، وحقاً فيه دره عذراء، وخرزة جزعية مثقوبة، معرجة الثقب، وأرسلت رسلاً، وأمرت عليهم المنذر ابن عمرو، وكتبت كتاباً فيه نسخة الهدية. وقالت فيه: إذ كنت نبياً فميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما فى

(١) الرماك: جمع رمكة، وهى أنثى البغال. راجع اللسان (رمك ٣/١٧٣٣).

الحَقُّ، واثقب الدرّة ثقباً مستويّاً، واسلك في الخرزة خيطاً. ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضب فهو ملك، فلا يهولك منظره، وإن رأيته ليتاً لطيفاً فهو نبيّ (١).

فأقبل الهدهد، فأخبر سليمان الخبر كله، فأمر سليمان الجن فضربوا لبّات الذهب والفضة، وفرشوها في الميدان بين يديه، طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطاً، شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر، فربطوها عن يمين الميدان ويساره، على اللبّات. وأمر بأولاد الجن - وهم خلق كثير - فأقيموا عن اليمين واليسار، ثم قعد على سريرته، والكراسي من جانبيه، واصطففت الشياطين صفوفاً فراسخ، والإنس صفوفاً فراسخ، والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك، فلما دنا القوم، ونظروا، بهتوا، ورأوا الدواب تروث على اللبّين، فتقاصرت إليهم أنفسهم، ورموا بما معهم من الهدايا.

ولما وقفوا بين يديه، نظر إليهم سليمان بوجهٍ طلقٍ، فأعطاه كتاب الملكة، فنظر فيه، فقال: أين الحق؟ فأنى به، فحركه، وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه. فقال لهم: إن فيه كذا وكذا. ثم أمر بالأرضة فأخذت شعرة، ونفذت في الدرّة، فجعل رزقها في الشجر. وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها، ونفذت في ثقب الجزعة، فجعل رزقها في الفواكه. ودعا بالماء، وأمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى، ثم تضرب به وجهها، والغلام كما يأخذ الماء يضرب به وجهه فميزهم بذلك. ثم ردّ الهدية.

ذلك قوله تعالى: ﴿فلما جاء سليمان﴾ أي: جاء رسولها المنذر بن عمرو إليه ﴿قال أتمدونن بمالٍ﴾، توبيخ وإنكار لإمدادهم إياه بالمال، مع علو شأنه وسعة سلطانه. والتكثير للتحقير، والخطاب للرسول ومن معه، أو للرسول والمرسل تغليب للحاضر. ﴿فما آتاني الله﴾ من النبوة والملك الذي لا غاية وراءه ﴿خير مما آتاكم﴾ أي: من المال الذي من جملة ما جئتم به، فلا حاجة لي إلى هديتكم، ولا وقع لها عندي، ولعله عليه السلام إنما قال لهم هذه المقالة... الخ بعد ما جرى بينه وبينهم ما حكى من قصة الحق وغيرها، لا أنه عليه السلام خاطبهم بها أول ما جاءوه.

ثم قال لهم: ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾. الهدية: اسم للمهدي، كما أن العطية اسم للمعطى، فتضاف إلى المهدي والمهدي له. والمعنى: أن ما عندي خير مما عندكم، وذلك أن الله تعالى آتاني الدين والمعرفة به، التي هي الغنى الأكبر، والحظ الأوفر، وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه، فكيف يرضى مثلي بأن يمد بمال من قبلكم؟ بل أنتم قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فلذلك تفرحون بما تزدادون ويهدي إليكم؛ لأن ذلك مبلغ هممكم، وحالي خلاف ذلكم، فلا أرضى منكم بشيء، ولا أفرح إلا بالإيمان منكم، وترك ما أنتم عليه من المجوسية. والإضراب راجع إلى معنى ما تقدم، كأنه قيل: أنا لا أفرح بما تدونني به بل أنتم.

(١) قال العلامة ابن كثير، بعد ذكره لهذه الروايات: والله أعلم أكان ذلك أم لا، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات. انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٦٣).

ثم قال للرسول: ﴿ارجع إليهم﴾؛ إلى بلقيس وقومها، وقل لهم: ﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل﴾: لا طاقة ﴿لهم بها﴾. وحقيقة القبل: المقابلة والمقاومة، أى: لا يقدرون أن يقابلوهم، ﴿ولنخرجنهم منها﴾ أى: من سبأ ﴿أذلة وهم صاغرون﴾: أسارى مهانون. فالذل: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك، والصغار: أن يبقوا فى أسر واستعباد. فلما رجع إليها رسولها بالهدايا، وقصّ عليها القصة، قالت: هو نبى، ومالنا به طاقة. ثم تجهزت للقائه، على ما يأتى إن شاء الله.

الإشارة: إذا توجه المرید إلى مولاه، توجهت إليه نفسه بأجنادها، وهى الدنيا، والجاه، والرئاسة، والحظوظ، والشهوات، فتمده أولاً بمالٍ وجاه، تختبره، فإن علت همته، وقويت عزيمته، أعرض عن ذلك وأنكره، وقال: أتمدوننى بمال حقير، وجاه صغير، فما آتانى الله من معرفته والغنى به خير مما آتاكم. ثم يقول للوارد بذلك: ارجع إليهم - أى: للنفس وجنودها - فلنأتينهم بجنود من الأنوار لا قبل لهم بها، ولنخرجنهم منها - أى: قرية القلب - أذلة وهم صاغرون. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم ذكر إتيان عرشها قبل إتيانها، فقال:

﴿قَالَ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ءَمَنَ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِرُوا لَهُا عَرْشَهَا نَنظُرُ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ءَوَيْتَنَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴿

ولما أرادت بلقيس الخروج إلى سليمان، جعلت عرشها في آخر سبعة أبيات، وغلقت الأبواب، وجعلت عليه حُرَاسًا يحفظونه، وبعثت إلى سليمان: إني قادمة إليك؛ لأنظر ما الذي تدعو إليه، وشخصت إليه في اثني عشر ألف قَيْل^(١)، تحت كل قَيْل ألوف، فلما بلغت على رأس فرسخ من سليمان، ﴿قال يا أيها الملأ أئكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾، أراد أن يريها بذلك بعض ما خصه الله تعالى به، من إجراء العجائب على يده، مع إطلاعها على عظيم قدرة الله تعالى، وعلى ما يشهد لنبوة سليمان. أو: أراد أن يأخذه قبل أن تتحصن بالإسلام، فلا يحل له، والأول أليق بمنصب النبوة، أو: أراد أن يختبرها في عقلها، بتغييره، هل تعرفه أو تذكره.

﴿قال عفريت من الجن﴾، وهو العارد الخبيث، واسمه ذكوان، أو: «صخر»؛ ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ أي: من مجلسك إلى الحكومة، وكان يجلس إلى تسع النهار، وقيل: إلى نصفه. ﴿وإني عليه﴾؛ على حمله ﴿لقوى أمين﴾، أتى به على ما هو عليه، لا أغير منه شيئاً ولا أبدله، فقال سليمان عليه السلام، أريد أعجل من هذا، ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾. قيل هو: آصف بن برخيا - وزير سليمان عليه السلام، كان عنده اسم الله الأعظم، الذي إذا سئل به أجاب. قيل هو: يا حي يا قيوم، أو: ياذا الجلال والإكرام، أو: ياإلهنا وإله كل شيء، إلهنا واحداً، لا إله إلا أنت. وليس الشأن معرفة الاسم، إنما الشأن أن يكون عين الاسم، أي: عين مسمى الاسم، حتى يكون أمره بأمر الله. وقيل: هو الخضر، أو: جبريل، أو: ملك بيده كتاب المقادير، أرسله تعالى عند قول العفريت. والأول أشهر^(٢). قال: ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ أي: ترسل طرفك إلى شيء، فقبل أن ترده تبصر العرش بين يديك.

روى: أن آصف قال لسليمان: مدّ عينيك حتى ينتهي طرفك، فمدّ عينيه، فنظر نحو اليمن، فدعا آصف، فنار العرش في مكانه، ثم نبع عند مجلس سليمان، بقدرة الله تعالى، قبل أن يرجع إليه طرفه. ﴿فلما رآه﴾ أي: العرش ﴿مستقراً عنده﴾؛ ثابتاً لديه غير مضطرب، ﴿قال هذا﴾ أي: حصول مرادى، وهو حضور العرش في مدة قليلة، ﴿من فضل ربي﴾ على، وإحسانه إليّ، بلا استحقاق مني، بل هو فضل خالٍ من العوض، ﴿ليبلونى﴾: ليختبرنى ﴿أأشكر﴾ نعمه ﴿أم أكفر﴾، ومن شكر فيأثم يشكر لنفسه؛ لأنه يقيد به محصولها، ويستجلب به مفقودها، ويحط عن ذمته عناء الواجب، ويتخلص من وصمة الكفران. ﴿ومن كفر فإن ربي غنى كريم﴾ أي: ومن كفر بترك الشكر، فإن ربي غنى عن شكره، كريم بترك تعجيل العقوبة إليه. وفي الخبر: «من شكر النعم فقد قيدها بعقالها، ومن لم يشكر فقد تعرض لزلها».

(١) القَيْل: الملك من ملوك اليمن في الجاهلية، دون الملك الأعظم. وجمعه: أقيال وقبول. انظر اللسان (٣٧٩٨/٥)، مادة قيل.

(٢) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٦٢/١٩ - ١٦٣) وتفسير البيهقي (١٦٤/٦).

وقال الواسطي: ما كان متاً من الشكر فهو لنا، وما كان منه من النعمة فهو إلينا، وله المنة والفضل علينا هـ.

﴿ قال ﴾ سليمان ﷺ لأصحابه: ﴿ نكروا لها عرشها ﴾ أى: غيروا هيئته بوجه من الوجوه، ﴿ ننظر أتتهدى ﴾ لمعرفة، أو: للجواب الصواب إذا سئلت عنه، ﴿ أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ إلى معرفة عرشها. أو إلى الجواب الصواب.

﴿ فلما جاءت ﴾ بلقيس سليمان ﷺ، وقد كان العرش بين يديه، ﴿ قيل ﴾ من جهة سليمان، أو بواسطة: ﴿ أهكذا عرشك ﴾ ؟ ولم يقل: أهذا عرشك؛ لئلا يكون تلقيناً، فيفوت ما هو المقصود من اختبار عقلها، وقد قيل لسليمان - لما أراد تزوجها -: إن فى عقلها شيئاً، فاختبرها بذلك. ﴿ قالت ﴾ - لما رآته -: ﴿ كأنه هو ﴾ فأجابت أحسن جواب، فلم تقل: هو هو، ولا: ليس به، وذلك من رجاحة عقلها، حيث لم تقل: هو هو، مع علمها بحقيقة الحال، ولما شبها عليها بقولهم: أهكذا عرشك شبهت عليهم بقولها: ﴿ كأنه هو ﴾ مع أنها علمت بعرشها حقيقة، تلويحاً بما اعتراه بالتذكير من نوع مغايرة فى الصفات مع اتحاد الذات، ومراعاة لحسن الأدب فى محاورته ﷺ.

ولو قالوا: أهذا عرشك؟ لقلت: هو.

ثم قالت: ﴿ وأوتينا العلم ﴾ بقدرة الله تعالى، وبصحة نبوتك ﴿ من قبلها ﴾؛ من قبل هذا الأمر، أى: من قبل هذه المعجزة التى شاهدناها الآن، من أمر الهدد، وبما سمعناه من المنذر من الآيات الدالة على ذلك، ﴿ وكنا مسلمين ﴾؛ منقادين لك من ذلك الوقت، وكأنها ظنت أنه أراد ﷺ اختبار عقلها، وإظهار المعجزة، لقوم به، فأظهرت أنها آمنت به قبل وصولها إليه. أو قال سليمان: ﴿ وأوتينا العلم ﴾ بالله تعالى وبكمال قدرته من قبل هذه الآية، ﴿ وكنا مسلمين ﴾؛ موحدين، أو: ﴿ وأوتينا العلم ﴾ بإسلامها ومجيئها طائعة ﴿ من قبل ﴾ مجيئها، ﴿ وكنا مسلمين ﴾ موحدين.

﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله ﴾، هو من كلام سليمان، أى: وصدها عن العلم بما علمناه - أو: عن التقدم إلى الإسلام - عبادة الشمس وإقامتها بين ظهرائى الكفرة، أو: من كلام تعالى، بيانا لما كان يمنعها من إظهار ما ادعته من الإسلام الآن، أى: صدها عن ذلك عبادتها القديمة للشمس، ﴿ إنها كانت من قوم كافرين ﴾ أى: كانت من قوم راسخين فى الكفر، ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها، وهى بين ظهرائهم، حتى دخلت تحت ملكة سليمان ﷺ، أو: وصدها الله تعالى، أو: سليمان، عما كانت تعبد من دون الله، فحذف الجار وأوصل الفعل.

﴿ قيل لها ادخلي الصرح ﴾ أى: القصر، أو: صحن الدار، ﴿ فلما رآته حسبت لهجة ﴾: ماء عظيماً، ﴿ وكشفت عن ساقبيها ﴾. روى أن سليمان ﷺ أمر قبل قدميها، فبلى له على طريقها قصر من زجاج

أبيض، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه السمك وغيره، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه، وعكف عليه الطير والجن والإنس. وإنما فعل ليزيدها استعظاماً لأمره، وتحقيقاً لنبوته. وقيل: إن الجن كرهوا أن يتزوجها، فتفطنوا إليه بأسرارهم؛ لأنها كانت بنت جنية. وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد، فيجتمع له فطنة الجن والإنس، فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك أشد منه، فقالوا له: إن في عقلها شيئاً، وهي شعراء الساقين، ورجلها كحافر الحمار، فاحتبر عقلها بتذكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ورجلها^(١) فكشفت عنهما، فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً، إلا أنها شعراء، وصرف بصره. ثم قال ﴿لها: ﴿إنه صرح مُرَدٌّ﴾؛ ممس مستو. ومنه: الأمرد، للذي لا شعر في وجهه، ﴿من قوارير﴾؛ من الزجاج، وأراد سليمان تزوجها، فكره شعرها، فعملت له الشياطين النورة، فنكحها سليمان، وأحبها، وأقرها على ملكها، وكان يزورها في الشهر مرة، فيقيم عندها ثلاثة أيام، وولدت له، وانقضى ملكها بانقضاء ملك سليمان ﷺ، فسيحان من لا انقضاء لملكه.

رُوي أنه ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة. هـ.

ثم ذكر إسلامها، فقال: ﴿قالت ربّ إني ظلمت نفسي﴾ بعبادة الشمس، ﴿وأسلمت مع سليمان﴾ تابعة له، مقتدية به، ﴿لله ربّ العالمين﴾. وفيه الالتفات إلى الاسم الجليل، ووصفه بربوبيته للعالمين؛ لإظهار معرفتها بألوهيته تعالى، وتفردّه باستحقاق العبادة، وربوبيته لجميع الموجودين، التي من جملتها: ما كانت تعبد قبل ذلك من الشمس. والله تعالى أعلم.

الإشارة: عرش النفس الذي تستقر عليه هو الدنيا، فمن أحب الدنيا وركن إلى أهلها، فقد أجلس نفسه على عرشها، وصيرها مالكة له، متصرفة فيه بما تحب، ومن أبغض الدنيا وزهد في أهلها، فقد هدم لها عرشها، وصارت خادمة مملوكة له، يتصرف فيها كيف يشاء. فيقول الداعي إلى الله - وهو من أهله الله للتربية - للمريدين: أيكم يأتي بعرشها، ويخرج عنها الله في أول بدايته؟ فمنهم من يأتي بها بعد مدة، ومنهم من يأتي بها أسرع من طرفه، على قدر القوة والعزم والصدق في الطلب، ومن أتى بعرش نفسه، وخرج عنها الله، فهو الذي آتاه الله علماً

(١) الواضح أن سليمان ﷺ أراد ببناء الصرح: أن يريها عظمة ملكه وسلطانه، وأن الله أعطاه من الملك ما لم يعطها، فضلاً عن النبوة، التي هي فوق الملك، وحاشا لسليمان - وهو الذي سأل الله أن يعطيه حكماً، يرافق حكمه، فأوتيته، أن يحتال لينظر إلى ساقها، وهي أجنية. وما نقل من روايات إنما هو من الإسرائيليات المكذوبة، لا يصح القول بها. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: (٣/٣٦٦) معقباً على رواية لابن أبي شيبة، في هذا الشأن: والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب، مما وجد في صحفهم - كروايات كعب روهب - سامحهما الله تعالى، فيما نقلاه إلى هذه الأمة، من أخبار بني إسرائيل، من الأرايد، والفرائب، والعجائب، مما كان، ومما لم يكن، ومما حُرف، وبذل، ونسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك، بما هو أصح منه وأنفع وأرضح، والله الحمد والمنة.

من الكتاب، وعرف مدلوله ومقصوده، لكن من السياسة أن يتدرج المريد في تركها شيئاً فشيئاً، حتى يخرج عنها، أو يغيب عن شغلها بالكلية، وإن كانت بيده. فلما خرجوا عن عرش نفوسهم لله، وتوجهوا إليه، ورأى ذلك منهم، قال: هذا من فضل ربي، حيث وقعت الهداية على يدي، ليبلوني، أشكر أم أكفر.. الآية. قال نكروا لها عرشها، أي: اعرضوا عليها الدنيا، وأروها عرشها التي كانت عليه، متغيراً عن حاله الأولى. لأنه كان معشوقاً لها، والآن صار معقوتاً؛ لغناها بالله. ننظر أتهتدي إليه، وترجع إلى محبته، فيكون علامة على عدم وصولها، أم تكون من الذين لا يهتدون إليه أبداً، فتكون قد تمكنت من الأنس بالله، فلما جاءت وأظهر لها عرشها اختباراً، قيل: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو، وأوتينا العلم بالله من قبل هذه الساعة، وكنا متقادين لمراده، فلن نرجع إلى ماخرجنا عنه لله أبداً. وصدها عن الحضرة ما كانت تعبد من الهوى، من دون محبة الله، إنها كانت من قوم كافرين، منكبين للحضرة، غير عارفين بها. قيل لها حين رحلت عن عرشها: ادخلي دارالحضرة، فلما رأت بحر الوحدة، يتمرج بتيار الصفات، دهشت، وحسبته لجة، يغرق صاحبه في بحر الزندقة، قال لها رئيس البحرية - وهو شيخ التربية: إنه بحر منزّه متصل، لا أول له، ولا آخر له. ليس مثله شيء، ولا معه شيء، محيط بكل شيء، وماح لكل شيء. ثم اعترفت أنها ظالمة لنفسها، مشغولة بهواها، قبل أن تعرف هواه، فلما عرفت غابت عن غيره، واستسلمت وانقادت له. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٥) قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِیرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

قلت: (ولقد أرسلنا) : عطف على (ولقد آتينا داود...) الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ الله ﴿لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم﴾ نسباً ﴿صالحاً، أن اعبدوا الله﴾ أي: بأن اعبدوه وحده، ﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾ أي: ففاجئوا التفرق والاختصاص، ففريق مؤمن به،

وفريق كافر، أو: يختصمون فيه، فكل فريق يقول: الحق معي. وقد فسر هذا الاختصاص قوله تعالى في الأعراف: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١﴾. ﴿قَالَ﴾ ﷺ للفريق الكافر، بعد ما شاهد منهم ما شاهد؛ من نهاية العتو والعدا، حتى استعجلوا العذاب: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾؛ بالعقوبة السيئة ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: التوبة الصالحة، فتؤخرونها إلى حين نزولها، حيث كانوا - من جهلهم وغرابتهم يقولون: إن وقع العذاب تبنا حينئذ، وإلا فنحن على ما كنا عليه. أو: لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالعذاب قبل الرحمة، أو: بالمعصية قبل الطاعة، ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾: هلا تطلبون المغفرة من كفركم بالتوبة والإيمان قبل نزوله، ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ بالإجابة قبل النزول، إذ لا قبول بعده، ﴿قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ﴾؛ تشاء منا بك ﴿وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ من المؤمنين؛ لأنهم قُحِطُوا عند مبعثه؛ لكفرهم، فنسبوه إلى مجيئه. والأصل: تطيرنا. وقرئ به، فأدغمت الداء في الطاء، وزيدت ألف وصل، للسكون.

﴿قَالَ﴾ ﷺ صالح ﷺ: ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: سببكم الذي به ينالكم ما ينالكم من الخير والشر عند الله، وهو قدره وقضاؤه، أو: عملكم مكتوب عند الله، فعله نزل بكم ما نزل، عقوبة لكم وفتنة. ومنه: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ (٢) أي: ألزمناه جزاء عمله، أو: ما قدر له في عنقه، وأصله: أن المسافر كان إذا مر بطائر يزجره، فإن مر إلى جهة اليمين نيمن، وإن مر إلى ناحية الشمال تشاءم، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته، أو: من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة، ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾: تختبرون بتعاقب السراء والضراء، أو: تعذبون، أو: يفتلكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة. قال - عليه الصلاة والسلام -: «لا عدوى ولا طيرة» (٣) وقال أيضا: «إذا تطيرت فلا ترجع» (٤). والله تعالى أعلم.

الإشارة: سير أهل التربية مع أهل زمانهم كسير الأنبياء مع أممهم، إذا بعثهم الله إلى أهل زمانهم اختصموا فيهم، ففريق يصدق وفريق يكذب، فيطلبون الكرامة والبرهان، ويتطيدون بهم ومن تبعهم، إن ظهرت بهم قهريه من عند الله، كما رأينا ذلك كله. وبالله التوفيق.

(١) الآيتان: ٧٥ - ٧٦ من سورة الأعراف. (٢) من الآية ١٣ من سورة الإسراء. (٣) أخرجه البخاري في (الطب، باب الطيرة، ح ٥٧٥٣) ومسلم في (السلام، باب الطيرة والفأل ٤/ ١٧٤٧، ح ٢٢٢٥) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) قال ابن حجر في الفتح (٢٢٤/ ١٠): أخرجه عبدالرزاق عن معمر عن إسماعيل بن أمية عن النبي ﷺ: «ثلاثة لا يسلم منهن أحد: الطيرة، والظن، والحسد، فإذا تطيرت فلا ترجع، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق، وهذا مرسل أو معضل، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة، أخرجه البيهقي في الشعب. هـ.

ثم ذكر اهتمامهم بقتل صالح وهلاكهم، فقال:

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (٤٨)
 قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ
 وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤُهُمْ كَرًّا وَمَكْرَئُهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾
 فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَكَ
 بُيُوتَهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكان في المدينة ﴾؛ مدينة ثمود، وهي الحجر، ﴿ تسعة رهط ﴾ أى: أشخاص، وهو جمع لا واحد له، فلذا جاز تمييز التسعة به، فكأنه قيل: تسعة أنفس، وهو من الثلاثة إلى العشرة، وكان رئيسهم «قدار بن سالف» وهم الذين سعا في عقر الناقة، وكانوا أبناء أشرافهم ومن عتاتهم، ﴿ يفسدون في الأرض ﴾ أى: في المدينة، إفساداً لا يخالطه شيء من الصلاح أصلاً، ﴿ ولا يصلحون ﴾ يعنى: إن شأنهم الإفساد المحض، الذى لا صلاح معه. وعن الحسن: يظلمون الناس، ولا يمنعون الظالمين عن الظلم. وعن ابن عطاء: يتبعون معائب الناس، ولا يسترون عوراتهم.

﴿ قالوا تقاسموا بالله ﴾: استلذاف لبيان بعض فسادهم. و (تقاسموا): إما أمر مقول لقالوا، أى: تحالفوا أمر بعضهم بعضاً بالقسم على قتله. وإما خبر حال، أى: قالوا متقاسمين. ﴿ لنبيته ﴾: لنقلته بياناً، أى: ليلاً، ﴿ وأهله ﴾: ولده ونسائه، ﴿ ثم لنقولن لوليّه ﴾ أى: لولي دمه: ﴿ ما شهدنا مهلك أهله ﴾ أى: ما حضرنا هلاكهم، أو: وقت هلاكهم. أو: مكانه فضلاً أن نتولى إهلاكهم، ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فيما ذكرناه. وهو إما من تمام المقول، أو: حال، أى: نقول ما نقول والحال أنا صادقون فى ذلك؛ لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفاً. ولأننا ما شهدنا مهلك أهله وحده، بل مهلكه ومهلككم جميعاً، كقولك: ما رأيت ثم رجلاً، أى: بل رجلين. ولعل تخرجهم من الكذب فى الإيمان مع كفرهم؛ لما تعودوا من تعجيل العقوبة للكاذب فى القسامة، كما كان أهل الشرك مع البيت الحرام فى الجاهلية. وكان تقاسمهم بعد أن أنذرهم بالعذاب، وبعد قوله: ﴿ تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ﴾ (١).

(١) من الآية ٦٥ من سورة هود.

قال تعالى: ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا﴾ بهذه المواضع، ﴿وَمَكُرْنَا مَكْرًا﴾؛ أهلكناهم إهلاكاً غير معهود، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: من حيث لا يحتسبون، فمكرهم: هو ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السلام وأهله. ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ﴾ أى: فتفكر فى أنه كيف كان عاقبة مكرهم. فسرره بقوله: ﴿أَنَا دَمَرْنَاهُمْ﴾: أهلكناهم بالصيحة ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾ الذين لم يكونوا معهم فى التبييت ﴿أَجْمَعِينَ﴾. روى أنه كان لصالح مسجد فى شِعبٍ يُصَلِّى فيه. فقالوا: زعم صالح يفرع منا إلى ثلاث، وقد رأى علامة ذلك، فدخلن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فخرجوا إلى الشعب، وقالوا: إذا جاء يصلى قتلناه، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم، فبعث الله تعالى صخرة من الهضب التى حيالهم^(١)، فبادروا، فأطبقت الصخرة عليهم فم الشعب، فلم يدر قومهم أين هم، ولم يدروا ما فعل بقومهم، وعذب الله كلاً فى مكانه ونجى صالحاً ومن معه.

وقال ابن عباس: أرسل الله الملائكة ليلاً، فامتلأت بهم دار صالح، فأتى التسعة إلى دار صالح، شاهرين السيوف، فقتلتهم الملائكة بالحجارة يرون الحجارة، ولا يرون رامياً^(٢).. هـ. ويمكن الجمع بأن بعضهم مات تحت الصخرة، وبعضهم أتى إلى دار صالح فقتل.

قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾؛ ساقطة متهدمة، من: خوى النجم: إذا سقط. أو: خالية من السكان، ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾؛ بسبب ظلمهم. ﴿إِنْ فِى ذَلِكَ﴾ أى: فيما ذكر من التدمير العجيب ﴿لَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قدرتنا، فيتعظون.

﴿وَأُنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: صالحاً ومن معه من المؤمنين، ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصى، اتقاء مستمراً، ولذلك نجوا مع صالح. قال مقاتل: لما وقت لهم صالح العذاب إلى ثلاث، خرج أول يوم على أبدانهم مثل الحمص أحمر، ثم اصفر من الغد، ثم اسود من اليوم الثالث. ثم تفقأت، وصاح جبريل فى خلال ذلك، فخمدوا، وكانت القرية المؤمنة الناجية أربعة آلاف، خرج بهم صالح إلى حضرموت، فلما دخلها مات صالح، فسميت حضرموت. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وكان فى مدينة القلب تسع علل، يُفسدون فيها ولا يصلحون، وهى حب الدنيا، وحب الرئاسة، والحسد. والكبر، والحقْد، والعجب، والرياء، والمداينة، والبخل، هم أفسدوا قلوب الناس، وتقاسموا على هلاكها، ومكروا بهم حتى زينو لهم سوء عملهم، ومكر الله بهم، فدفعهم ودمرهم عن قلوب الصالحين، فتلك بيوتهم خاوية منها، أخرجهم منها، بسبب ظلمهم لها.

(٢) انظر تفسير البغوى (١٧٠/٦).

(١) حياله: إزاءه.

وقال القشيري على قوله: ﴿ومكروا مكراً...﴾ الآية: مكر الله: جزاؤهم على مكربهم، بإخفاء ما أراد منهم من العقوبة، ثم إحلالها بهم بغتة هـ. وقال الورتجبي: حقيقة المكر: امتناع سر الأزلية عن مطالعة الخليقة، فإذا كان كذلك من ينجو من مكره، والحدث لا يطلع على سوابق علمه في القدم، فمكره وقهره صفتان من صفاته، لا تفارقان ذاته، وذاته أبدية، انظر تمامه. قلت: ومعنى كلامه: أن مكر الله في الجملة: هو إخفاء السر الأزلي - وهو القضاء والقدر - عن مطالعة الخلق، فلا يدري أحد ما سبق له في العلم القديم، وإذا كان كذلك فلا يدجوا أحد من مكره؛ إذ الحدث لا يطلع على سوابق العلم القديم، إلا من اطلع عليه بوحى، كالأنبياء، أو بنص صريح منهم، كالمبشرين بالجنة، ومع ذلك: العارف لا يقف مع وعد ولا وعيد؛ إذ قد يتوقف على شرط وأسباب خفية، ولذلك قيل: العارف لا يسكن إلى الله. قاله في لطائف المدن، أى: لا يسكن إلى وعد الله ولا وعيده، فلا يزول اضطرابه، ولا يكون مع غير الله قراره.

وقال القشيري - على قوله: ﴿فتلك بيوتهم خاوية...﴾، فى الخبر: ولو كان الظلم بيتاً فى الجنة لسلط الله عليه الخراب، هـ. قلت: فكل من اشتغل بظلم العباد، فعن قريب ترى دياره بلاقع (١)، كما هو مجرب. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة لوط - عليه السلام - فقال:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾
 أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَتْ
 جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُوطِ مِنْ قَرِيْبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَبْطِهُرُونَ ﴿٥٦﴾
 فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ
 مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

قلت: (ولوطاً): عطف على (صالحاً) داخل معه فى القسم، أى: ولقد أرسلنا صالحاً ولوطاً. و(إذ قال): ظرف للإرسال، أو: منصوب باذكر، و(إذ قال): بدل من (لوط).

(١) البلقع: الأرض القفر، التى لا شىء فيها، والخالى من البرية. انظر اللسان (١/٣٤٨، مادة: بلقع)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿لُوطًا﴾، أَوْ: وَاذْكُرْ لُوطًا ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أَي: وقت قوله لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أَي: الفعلة المتناهية في الفحش والسماجة، ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أَي: والحالة أنكم تعلمون علماً يقينياً أنها فاحشة، لم تُسبقوا إليها. والجملة الحالية تفيد تأكيد الإنكار، فَإِنْ تَعَاطَى الْقَبِيحُ مِنَ الْعَالَمِ بِقُبْحِهِ أَقْبَحَ وَأَشْنَعُ، ولذلك ورد في الخبر: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه الله بعلمه» (١). وقال الفخر: لا تصدر المعصية من العالم قط وهو عالم، وحين صدورها منه هو جاهل؛ لأنه رجع المرجوح، وترجى المرجوح جهل، ولذلك قال: «بل أنتم قوم تجهلون». هـ. وفي الحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» (٢). إذ لو صدق باطلاع الحق عليه ما قدر على الزنى، لكنه جهل ذلك. و«تبصرون»، من: بصر القلب. وقيل: يبصر بعضهم بعضاً؛ لأنهم كانوا يرتكبونها في ناديتهم، معلنين بها، لا يستتر بعضهم من بعض، مجاناً وانهماكاً في المعصية، أَوْ: تبصرون آثار العصاة قبلكم، وما نزل بهم.

﴿أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ أَي: للشهوة ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أَي: إن الله تعالى إنما خلق الأنثى للذكر، ولم يخلق الذكر للذكر، ولا الأنثى للأنثى، فهي مضادة لله تعالى في حكمته، فلذلك كانت أشنع المعاصي، ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ تفعلون فعل الجاهلين بقبحها، أَوْ: تجهلون العاقبة. أَوْ: بمعنى السفاهة والمجون، أَي: بل أنتم سفهاء ماجنون. والثناء فيه - مع كونه صفة لقوم؛ لكونهم في حيز الخطاب. وكذا قوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (٣)، غلب الخطاب على الغيبة. قال ابن عرفة: «بل»: للانتقال، والانتقال في باب الذم إنما يكون عن أمر خفيف إلى ما هو أشد منه، وتقرير الأشدية هنا: أن المضروب عنه راجع للقوة الحسية العملية، وهي منقطعة تنقضي بانقضاء ذلك الفعل، والثاني راجع للقوة العلمية، وهي دائمة؛ لأن العلم بالشئ دائم، والعمل به منقطع غير دائم. هـ.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ حين نهاهم عن تلك الفاحشة ودعاهم إلى الله، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ أَي: لوطاً ومتبعيه ﴿مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾، إنهم أناس يتطهرون ﴿يَتَزَهَّوْنَ عَنْ أَفْعَالِنَا﴾ أَوْ: عن القاذورات، ويعدون فعلنا قدراً. وعن ابن عباس: إنه استهزاء، كقوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٤).

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير (١/١٨٢ - ١٨٣) والبيهقي في الشعب (ح ٧٧٧٨)، من حديث أبي هريرة - رضى الله عنه - والحديث منفعه السيوطي في الجامع الصغير (ح ١٠٥٣).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في (المظالم، باب التَّهْبِي بِغَيْرِ إِذْنِ صَاحِبِهَا، ح ٢٤٧٥) ومسلم في (الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ٧٦/١ ح ١٠٠) من حديث أبي هريرة - رضى الله عنه -.

(٣) من الآية ٤٧ من سورة النمل. (٤) الآية ٨٧ من سورة هود.

﴿ فَأُنْجِيَاهُ ﴾ : فخلصناه من العذاب الواقع بالقوم، ﴿ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا ﴾ بالتشديد والتخفيف، أى: قدرنا أنها ﴿ من الغابرين ﴾ ؛ الباقين فى العذاب، ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ غير معهود؛ حجارة مكتوب عليها اسم صاحبها، ﴿ فَسَاءَ ﴾ : قُبْحَ ﴿ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ الذين لم يقبلوا الإنذار. وقد مرَّ كيفية ما جرى بهم غير مرة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما أنكر لوط على قومه إلا غلبة الشهوة على قلوبهم، والانهماك فى غفلتهم، فرجعت إلى معصية القلب، وهى أشد من معصية الجوارح؛ لأن معصية الجوارح إذا صحبتها التوبة والانكسار، عادت طاعة، بخلاف معصية القلوب؛ فإنها تنطمس بها أنوار الغيوب، فلا يزيد صاحبها إلا البعد والطرْد، والعياذ بالله.

ثم أمر رسوله محمداً ﷺ بالتحميد، ثم بالسلام على عباده المرسلين؛ توطئة لما يتلوه من الدلالة على وحدانيته تعالى، وقدرته على كل شيء، وهو تعليم لكل متكلم فى كل أمر ذى بال، بأن يبتدئ فى خطبته بحمد الله، والثناء على رسوله، فقال:

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ۝ ٥٩ ۝ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۚ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلَّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝ ٦٠ ۝ ﴾

يقول الحق جل جلاله لنبيه - عليه الصلاة والسلام -: ﴿ قل الحمد لله ﴾ على ما أنعم به عليك من فنون اللعم، ومن جمعتها: اطلاعك على أسرار علم غيوبه، ﴿ وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ لرسالته. وقال ابن عباس وسفيان: هم أصحاب محمد ﷺ، اصطفاهم بصحبته - عليه الصلاة والسلام - وقال الكلبي: هم أمة محمد ﷺ، اصطفاهم الله لمعرفته وطاعته. ثم قل لهم إلزاماً للحجة: ﴿ آله خيرٌ مَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (١) أى: الله الذى ذكرت شئونه العظيمة خير، أم ما تشركونه معه تعالى من الأصنام؟ ومرجع التردد إلى التعرض بتبكييت الكفرة، وتسفيه آرائهم الركيكة، والتهكم بهم؛ إذ من البين أن ليس فيما أشركوه به تعالى شائبة خير، حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من لا خير إلا خيره، ولا إله غيره.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا قرأها قال: «بِالله خيرٌ، وأبقى، وأجل، وأكرم» (٢).

(١) قرأ عاصم، وأبو عمرو، ويعقوب: «يُشْرِكُونَ، بالياء». وقرأ الباقون: «تُشْرِكُونَ، بالخطاب... انظر الإتحاف (٣٣٢/٢).

(٢) قال الحافظ ابن حجر: كذا ذكره اللطبي بغير إسناد. انظر الكافي الشاف على هامش الكشاف (٣٧٥/٣).

ثم عدد سبحانه الخيرات والمنافع، الدالة على انفراده بالخيرية، فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، «أم» هنا: منقطعة، بخلاف ﴿أَمْ تَشْرِكُونَ﴾ أى: بل أمَّن خلق العالم العلوى والسفلى، وأفاض من كل واحد ما يليق به من الخيرات، خير، أم جماد لا يقدر على شيء؟ فمن: مبتدأ، وخبرها: محذوف مع «أم»، المعادلة للهمزة، كما قررنا.

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾. مطراً ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾، التفت من الغيبة إلى التكلم؛ تأكيداً لمعنى اختصاص الفعل به تعالى، وإيضاحاً بأن إنبات الحقائق المختلفة الأصناف والألوان، والطعوم والأشكال، مع بهجتها، بماء واحد، لا يقدر عليه غيره، أى: فأخرجنا ﴿بِهِ حِدَائِقُ﴾: بساتين، فالحديقة: بستان عليه حائط، من: الإحداق، وهو الإحاطة، ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أى: ذات حُسن ورونق، تبتهج به النظر، ولم يقل: ذات؛ لأن المعنى: جماعة حدائق، كما تقول: النساء ذهبت. ﴿مَا كَانَ لَكُمْ﴾؛ ما صح وما أمكن لكم ﴿أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ فضلاً عن ثمارها وسائر صفاتها البديعة المبهجة، ﴿إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾؟ أى: إله كائن مع الله، الذى ذكرت أفعاله، التى لا يقدر عليها غيره، حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى فى العبادة؟ أو: إله مع الله يفعل ذلك؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾: بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية، والانحراف عن الاستقامة فى كل أمر من الأمور، فلذلك يفعلون ما يفعلون من الإشراك والجرائم، أو: يعدلون به غيره فيشركونه معه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قل الحمد لله، الذى كشف الحجب عن قلوب أوليائه، وسلام على عباده الذين اصطفى لهم لحضرته، الله خير، أى: أشهود الله وحده فى الوجود خير، أم شهود الغير معه؟، فتشركون فى توحيدكم. أمَّن خلق سموات وأرواحكم، وهياًها لشهود الربوبية، وخلق أرض نفوسكم، وهياًها لآداب العبودية، وأنزل لكم من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية، فأنبطنا به فى قلوب العارفين بساتين المعرفة، ذات بهجة ونزهة؟ ما كان لكم، وفى طوقكم، أن تُنْبِتُوا فى قلوبكم شجر المعرفة، ولا ثمار المحبة، إله مع الله يمن عليكم بذلك؟، بل هم قوم يعدلون عن طريق الوصول إلى هذه البساتين البهية؛ لأنها محفوفة بالمكاره النفسية، لا يقدر على سلوكها إلا الشجعان، أهل الهم العلية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نوعاً آخر من دلائل توحيده، فقال:

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنْ لَهُ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: قارة ثابتة، ليستقر عليها الإنسان والدواب، بإظهار بعضها من الماء، ودحوها وتسويتها، حسبما يدرر عليه منافعهم. ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا﴾؛ أواسطها ﴿أَنْهَارًا﴾ جارية ينتفعون بها، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا﴾ أي: جبالاً ثوابت، تمنعها أن تميد بأهلها، ولتتكون فيها المعادن، وينبع من حضيضها المنابع. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: العذب والمالح، أو: خليجي فارس والروم ﴿حَاجِزًا﴾؛ برزخاً مانعاً من المعارضة والمخالطة، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ﴾ في الوجود، أو: في إبداع هذه البدائع؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من الأشياء، ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره.

الإشارة: أم من جعل أرض النفوس قراراً، لتستقر عليها أحكام العبودية، وتتصرف فيها أقدار الربوبية، وجعل خلالها أنهاراً من علوم الشرائع، وما يتعلق بعالم الحكمة من الحكم والأحكام، وجعل لها جبالاً من العقل لتعرف صانعها ومدبرها، وجعل بين بحر الحقيقة والشرعية حاجزاً وبرزخاً، وهو نور العقل؟ فما دام العقل صاحباً مميّزاً بين الحقيقة والشرعية، فيلزمه التكليف، ويعطى كل ذي حق حقه. فإذا سكر وغاب نوره سقط التكليف. وقد تشرق على نور قمر العقل شمسُ العرفان، فتغطيه مع وجود صحره، فيميز بين الحقائق والشرائع، وتكون عباداته أدباً وشكراً. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نوعاً آخر، فقال:

﴿أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَءَلَهُ
مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

قلت: الاضطرار: الافتعال من الضرورة، وهي الحاجة المحوجة إلى اللجأ، يقال: اضطره إلى كذا، واسم الفاعل والمفعول: مضطر، ويختلف التقدير.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، وهو من نزلت به شدة من شدائد الزمان، ألجأته إلى الدعاء والتضرع، كمرض، أو فقر، أو نازلة من نوازل الدهر ونوائبه، أو: المذنب إذا استغفر مبتهلاً، أو: المظلوم إذا دعا، أو: من رفع يديه، ولم ير لنفسه حملة يرجو بها القبول غير التوحيد، وهو منه على خطر، فهذه أنواع المضطر. وإجابة دعوته مفيدة بالحديث: «الدَّاعِي عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ، إِمَّا أَنْ يُعْجَلَ لَهُ مَا طَلَبَ، وَإِمَّا أَنْ

يدخر له أفضل منه، وإما أن يدفع عنه من السوء مثله»^(١). وأيضا: إذا حصل الاضطراب الحقيقي حصلت الإجابة قطعاً، إما بعين المطلوب، أو بما هو أتم منه، وهو الرضا والتأييد. ﴿ويكشفُ السُّوءَ﴾ وهو الذي يعتري الإنسان مما يسره، كضرر أو جور، ﴿ويجعلُكم خُلفاءَ الأرض﴾ أى: خلفاء فيها، تتصرفون فيها كيف شئتم، بالسكنى وغيره، وراثته ممن كان قبلكم من الأمم، قرناً بعد قرن. أو: أراد بالخلافة: الملك والتسلط. ﴿أإله مع الله﴾ الذى يفيض على الخلق هذه النعم الجسام، يمكن أن يعطيكم مثلها؟ ﴿قليلًا ما تذكرون﴾^(٢) أى: تذكراً قليلاً، أو: زماناً قليلاً تتذكرون فيه. و«ما»: مزيدة، لتأكيد معنى القلة، التى أريد بها العدم، أو: ما يجرى مجراه فى الحقارة وعدم الجدى. وتذييل الكلام بنفى عدم التذكر منهم إيذان بأن وجود التذكر مركز في ذهن كل ذكى، وأنه من الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه وتذكره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الاضطراب الحقيقى الذى لا تتخلف الإجابة عنه فى الغالب: هو أن يكون العبد فى حال شدته كالغريق فى البحر وحده، لا يرى لغيائه غير سيده. وقال ذو النون: هو الذى قطع العلائق عما دون الله. وقال سهل بن عبد الله: هو الذى رفع يديه إلى الله تعالى داعياً، ولم تكن له وسيلة من طاعة قدّمها. بل يقدم إساءته بين يديه، ليكون دعاؤه بلا شيء يستحق عليه الإجابة، إلا من محض الكرم.

قال القشيري: يقال للجناية: سراية، فمن كان فى الجناية مختاراً، فليس يسلم له دعوى الاضطراب عند سراية جرمه الذى سلف، وهو فى ذلك مختار، فأكثر الناس أنهم مضطرون، وذلك الاضطراب سراية ما برز منهم فى حال اختيارهم، ومادام العبد يتوهم من نفسه شيئاً من الحول والحيل، ويرى لنفسه شيئاً من الأسباب يعتمد عليه، ويستند إليه، فليس بمضطرب، إلا أن يرى نفسه كالغريق فى البحر، والضال فى المأهة. والمضطرب يرى غيائه بيد سيده، وزمّامه فى قبضته، كالميت فى يد غاسله، ولا يرى لنفسه استحقاقاً فى أن يجاب، بل اعتقاده فى نفسه أنه من أهل السخط، ولا يقرأ اسمه فى ديران السعادة، ولا ينبغي للمضطرب أن يستعين بأحد فى أن يدعو له؛ لأن الله وعدّ الإجابة له؛ لا من يدعو له. وبحث معه المحشى الفاسى فى بعض ألفاظه، فانظره.

قوله تعالى: ﴿ويكشفُ السُّوءَ﴾. أى: ما يسوء القلب ويحجبه عن مولاه، من أكدار وأغيار، وقوله: ﴿ويجعلُكم خُلفاءَ الأرض﴾ أى: تتصرفون فى الوجود بأسره، بهمتكم، إن زال غم الحجاب عنكم، وشاهدتم ريكتم بعين

(١) جاء بلفظ: ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث؛ إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له فى الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلاً. الحديث، أخرجه أحمد فى المسند (١٨/٣) والحاكم (٤٩٣/١) وصححه، ووافقه الذهبى، والبيهقى (كشف الأستار، ج ٣، ٣١٤٣، ٣١٤٤) من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه.
(٢) قرأ حفص، وحمة، والكسائى «تذكرون»، بتخفيف الذال. انظر الإتعاظ (٣٣٢/٢).

بصيرتكم وبصركم؛ لأن نور البصيرة إذا استولى على البصر، بعد فتح البصيرة، غطى نوره، فلا يرى البصر إلا ما تراه البصيرة؛ من أسرار الذات الأزلية القديمة. فمن بلغ هذا المقام كان خليفة الله في أرضه، يملكه الوجود بأسره، وما ذلك على الله بعزيز.

ثم ذكر نوعاً آخر من دلائل توحيده، فقال:

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٣)

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ليلاً، وعلامات في الأرض نهاراً؟. أو: أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ إِلَىٰ سُلُوكِ الطَّرِيقِ الَّتِي تُوصِلُكُمْ إِلَىٰ مَقْصِدِكُمْ، وأنتم في ظلمات الليل، سواء كنتم في البر أو البحر؟ فلا هادي إلى ذلك إلا الله تعالى. ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾، أو بالإنفراد. ﴿نُشْرًا﴾ (١) بالنون - أي: تنشر السحاب إلى الموضع الذي أمر الله بإنزال المطر فيه، أو ﴿بُشْرًا﴾ - بالباء - أي: مبشرة بالمطر، ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؛ قدام المطر، علامة عليه، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ﴾ يفعل ذلك؟ ﴿تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار للإشعار بعلية الحكم، أي: تعالى الله وتنزهه بذاته المنفردة بالألوهية، المقتضية لكون كل المخلوقات مقهوراً تحت قدرته، عن وجود ما يشركونه به تعالى.

الإشارة: أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ إِلَىٰ حُلِّ مَا أَشْكَلُ عَلَيْكُمْ، وأظلمت منه قلوبكم، من علم بر الشرائع. وبحر الحقائق، فيهديكم في الأول إلى كشف الحق والصواب، وفي الثاني إلى كشف الغطاء ورفع الحجاب، أو: في الأول إلى علم البيان، وفي الثاني إلى عين العيان بالذوق والوجدان. أو: في الأول إلى علم اليقين، وفي الثاني إلى عين اليقين وحق اليقين. وَمَنْ يُرْسِلُ رِيحَ الْوَارِدَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، بشارة بين يدي رحمته بالوصول إلى حضرته، وهو التوحيد الخاص. ولذلك ختمه بقوله: ﴿تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من رؤية وجود السوى.

(١) قرأ عاصم «الرياح» بالجمع و«بُشْرًا» بالباء المضمومة مع إسكان الشين، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب، بالجمع، و«نُشْرًا» بضم النون والشين. وقرأ ابن كثير بإفراد الريح، وضم النون والشين من «نُشْرًا». راجع الإنحاف (٢/٣٣٢).

ثم ذكر نوعاً آخر، فقال:

﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَعْلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَآتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

قلت: «من»: إما فاعل بيعلم، و«الغيب»: بدل منه، و«الله»: مفعول، و«إلا الله»: بدل، على لغة تميم، أى: إبدال المنقطع، وإما مفعول بيعلم، والغيب، بدل منه و(الله): فاعل، والاستثناء: مفرغ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾ أى: ينشئ الخلق ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد الموت بالبعث. وإنما قيل لهم: ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ وهم منكرون للإعادة؛ لأنهم أزيحت شبهتهم بالتمكن من المعرفة، والإقرار، فلم يبق لهم عذر في الإنكار. ﴿ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ بالمطر ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ أى: ومن الأرض بالنبات، أى: يرزقكم بأسباب سعاوية وأرضية، قد رتبها على ترتيب بدیع، تقضيه الحكمة التى عليها بنى أمر التكرين، ﴿ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ﴾ يفعل ذلك؟ ﴿ قُلْ هَآتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أى: حجبتكم، عقلية أو نقلية، على إشراككم، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى دعوكم أن مع الله إلهاً آخر.

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾، بعد ما حقق سبحانه انفراده بالالوهية، ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة والرحمة الشاملة، عقب بذكر ما هو من لوازمه، وهو اختصاصه بعلم الغيب، تكميلاً لما قبله، وتمهيداً لما بعده من أمر البعث. قالت عائشة - رضى الله عنها -: (مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْغُرْيَةَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾).

دخل على الحجاج مُنْجَمٌ، فأخذ الحجاج حصياتٍ، قَدَّعَهَا، فقال للمُنْجَمِ: كم فى يدى؟ فحسب، فأصاب، ثم اغتفله الحجاجُ، فأخذ حصيات لم يعدّها، فقال للمُنْجَمِ: كم فى يدى؟ فحسب، فأخطأ، فقال: أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها فى يدك، فقال: ما الفرق بينهما؟ فقال: إن ذلك أحصيته فخرج من حد الغيب، فحسبت فأصبت، وإن هذا لم تعرف عدته، فصار غيباً، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى.

ومن جملة الغيب: قيام الساعة، ولذلك قال: ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى: متى ينتشرون من القبور، مع كونه مما لا بد لهم منه، ومن أهم الأمور عندهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الرزق ثلاثة: رزق الأشباح، ورزق القلوب، ورزق الأرواح، فرزق الأشباح معلوم، ورزق القلوب: اليقين والطمأنينة، ورزق الأرواح: المشاهدة والمكالمة. قل من يرزق قلوبكم وأرواحكم من سماء غيب القدرة وأرض الحكمة؟ فلا رازق سواه، ولا برهان على وجود ما سواه، ولا يعلم الغيب إلا الله. أو: من كان وجوده بالله قد غاب في نور الله، فشهد الغيب بالله. والله تعالى أعلم.

ولما نفى عنهم علم الغيب، والشعور بمآلهم، أضرب عنه، وبين أن ما تنهاى فيه أسباب العلم به، وهو مجيء القيامة، لم يحصل لهم به يقين، فضلاً عن غيره، فقال:

﴿بَلِ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِذَا بَابُ ابْنِنَا الْمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ
وَأَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قلت: قرأ الجمهور: «أدرك» بالمد، وأصله: تدارك، فأدغمت التاء في الدال، ودخلت همزة وصل. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: «أدرك»، وأصله: افتعل، بمعنى تفاعل. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «أدرِك» أفعل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿بَلِ أَدْرَكَ﴾ أى: تدارك وتناهى وتتابع أسباب ﴿عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أى: بالآخرة، أو: فى شأنها، بما ذكرنا لهم من البراهين القطعية، والحجج العقلية، على كمال قدرتنا. ومع ذلك لم يحصل لهم بها يقين، ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾، والمعنى: أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة لا ريب فيها قد حصلت لهم، ومكنوا من معرفته، بما تتابع لهم من الدلائل. ومع ذلك لم يحصل لهم شيء من علمها، بل شكوا. أو: أدرك علمهم، بمعنى: يدركهم فى الآخرة حين يرون الأمر عياناً، ولا ينفعهم ذلك. قاله ابن عباس وغيره. ﴿بَلْ هُمْ﴾ اليوم ﴿فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ لا يبصرون دلالتها، ولا يلتفتون إلى العمل لها. والإضرابات الثلاثة تنزىل لأحوالهم، وتأكيد لجهلهم. وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون بوقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة مع تتابع أسباب علمها، ثم بأنهم يخيطنون فى شك ومرية، ثم بما هو أسوأ حالاً، وهو العصى، وجعل الآخرة مبدأ عما هم ومنشأه، فلذا عداه بـ«من»، دون «عن»، لأن الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذى منعهم عن التفكير والتدبر.

روجه اتصال مضمون هذه الآية - وهو وصف المشركين - بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة بما قبله، وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب، وأن العباد لا علم لهم بشيء بذلك: هو أنه لما ذكر أن

العباد لا يعلمون الغيب، وكان هذا بياناً لعجزهم، ووصفاً لقصور علمهم، وصل به أن عندهم عجزاً أبلغ منه، وهو أنهم يقولون للكائن الذى لا بد من كونه - وهو وقت بعثهم، ومجازاتهم على أعمالهم: لا يكون، مع أن عندهم أسباب معرفة كونه، لا محالة. هـ. قاله النسفى.

﴿وقال الذين كفروا أنذا كنا تراباً وأباؤنا أئنا نخرجون﴾ أى: أُنخرج من القبور أحياء إذا صرنا تراباً وأباؤنا. وتكرير الاستفهام فى «أنذا»، و«أئنا» فى قراءة عاصم، وحمزة؛ وخلف، إنكار بعد انكار، وجحود بعد جحود، ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه. والعامل فى (إذا): ما دلّ عليه ﴿نخرجون﴾ وهو: نُخرج، لا مخرجون، لموانع كثيرة. والضمير فى «أئنا» لهم ولآبائهم.

﴿لقد وعدنا هذا﴾ البعث ﴿نحن وأباؤنا من قبل﴾؛ من قبل محمد ﷺ، قَدَمَ هنا «هذا» على «نحن» رضى المؤمنون (١) قَدَمَ «نحن»: ليدل هذا أن المقصود بالذكر هو البعث وثم المبعوث؛ لأن هذا تكررت أدلة البعث قبل هذا القول كثيراً، فاعتنى به، بخلاف «ثم». ثم قالوا: ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾: ما هذا إلا أحاديثهم وأكاذيبهم. وقد كذبوا، ورب الكعبة.

الإشارة: العلم بالآخرة يقوى بقرّة العلم بالله، فكلما قوى اليقين فى جانب الله قوى اليقين فى جانب ما وعد الله به؛ من الأمور الغيبية، فأهل العلم بالله الحقيقى أمور الآخرة عندهم نصب أعينهم، واقعة فى نظرهم؛ لقوة يقينهم. وانظر إلى قول حارثة رضى الله عنه حين قال له النبى ﷺ: «ما حقيقة إيمانك؟» فقال: يا رسول الله؛ عزفت الدنيا من قلبى، فاستوى عندى ذهبها ومدرها. ثم قال: وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وأهل النار يتعارون فيها، فقال له ﷺ: «قد عرفت فالزم، عبد نور الله قلبه». اللهم نور قلوبنا بأنوار معرفتك الكاملة، حتى نلقاتك على عين اليقين وحق اليقين. آمين.

ثم أمرهم بالاعتبار بمن قبلهم، فقال:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

(١) فى قوله تعالى، حكاية لقول الذين لا يؤمنون بالآخرة: ﴿لقد وعدنا نحن وأباؤنا هذا من قبل﴾ الآية ٨٣.

﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ بسبب تكذيبهم للرسول - عليهم السلام - فيما دعوهم إليه من الإيمان بالله - عز وجل - وحده، واليوم الآخر، الذي ينكرونه، فإن في مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفاية لأولى البصائر. وفي التعبير عن المكذبين بالمجرمين، لطف بالمسلمين، بترك الجرائم، وحث لهم على الفرار منها، كقوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ (١) و﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ (٢).

ثم قال للنبيه ﷺ: ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي: لأجل أنهم لم يتبعوك، ولم يسلموا فيسلموا. ﴿ولا تكن في ضيق﴾ في جرج صدر ﴿مما يمحرون﴾؛ من محرمهم وكيدهم، أي: فإن الله يعصمك من الناس. يقال: ضاق ضيقاً - بالفتح والكسر.

﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ أي: وعد العذاب التي تعدنا، إن كنت من الصادقين في إخبارك بإتيانه على من كذب. والجملة باعتبار شركة المؤمنين في الإخبار بذلك. ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: تبعكم ولحقكم. استعجلوا العذاب، فقل لهم: عسى أن يكون رَدِفَ، أي: قرب لكم بعضه. وهو عذاب يوم بدر، واللام زائدة للتأكيد. أو: ضمن الفعل معنى يتعدى باللام، نحو: دنا لكم، أو: أزف لكم. وعسى ولعل وسوف، في وعد الملوك ووعدهم، يدل على صدق الأمر، وجده، وعلى ذلك جرى وعد الله، ووعيده.

﴿وإن ربك لذو فضل على الناس﴾ أي: إفضال وإنعام على كافة الناس. ومن جملة إنعامه: تأخير العقوبة عن هؤلاء، بعد استعجالهم لها، ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ أي: أكثرهم لا يعرفون حق النعمة، ولا يشكرونها، فيستعجلون بجهلهم وقورع العذاب، كدأب هؤلاء. والله تعالى أعلم.

الإشارة: التفكير والاعتبار من أفضل عبادة الأبرار، ساعة منه أفضل من عبادة سبعين سنة. ومن أجل ما يتفكر فيه الإنسان: ما جرى على أهل الغفلة والبطالة والعصيان، من تجرع كأس الحما، قبل النزع والإقلاع عن الإجرام، فندموا حيث لم ينفع الندم، وقد زلت بهم القدم، فلا ما كانوا أملوا أدركوا، ولا إلى ما فاتهم من الأعمال الصالحات رجعوا. فليعتبر الإنسان بحالتهم، لئلا يجرى عليه ما جرى عليهم، وليبادر بالتوبة إلى ربه، وليشد يده على أوقات عمره، قبل أن تنقضي في البطالة والتقصير، فيمضي عمره سهلاً. والله در القائل:

(١) من الآية ١٤ من سورة الشمس.

(٢) من الآية ٢٥ من سورة نوح.

السَّبَّاقَ السَّبَّاقَ قَوْلًا وَفِعْلًا حَذَرَ النَّفْسَ حَسْرَةَ الْمُسْبِقِ

قال أبو علي الدقاق رحمته الله: روى بعضهم مجتهداً، فقليل له في ذلك، فقال: ومن أولى مني بالجهد، وأنا أطمع أن ألحق الأبرار الكبار من السلف. هـ. ويقال للواعظ أو للعارف، إذا رأى إدبار الناس عن الله، وأقبالهم على الهوى: «ولا تحزن عليهم... الآية».

ثم ذكر سعة علمه وحلمه، فقال:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٤) ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٧٥)

قول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ أي: تخفى ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: يظهر من القول. وليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم عليه، ولكن له وقت مقدر، فيمهلهم إليه. أو: إن ربك ليعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوتك ومكايدهم لك، وهو معاقبهم على ذلك بما يستحقونه، وقرئ بفتح [التاء] (١)، من: كننت الشيء: سترته.

﴿وما من غائبة في السماء والأرض﴾ أي: من خافية فيهما ﴿إلا في كتاب مبين﴾ في اللوح المحفوظ. يسمى الشيء الذي يخفى ويغيب غائبة وخافية. والتاء فيهما كالتاء في العاقبة والعافية. ونظائرهما، وهي أسماء غير صفات. ويجوز أن يكونا صفتين، وتاؤهما للمبالغة، كالرواية. كأنه قال: وما من شيء شديد الغيوبة إلا وقد علمه الله، وأحاط به، وأثبتته في اللوح المحفوظ. ومن جملة ذلك: تعجيل عقوبتهم، ولكن لكل شيء أجل معلوم، لا يتأخر عنه ولا يتقدم. ولولا ذلك لعجل لهم ما استعجلوه. والمبين: الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة. أو: مبين لما فيه من تفاصيل المقدرات. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية حث على مراقبة العبد لمولاه، في سره وعلا نيته، فلا يفعل ما يخل بالأدب مع العليم الخبير، ولا يجول بقلبه فيما يستحي أن يظهره لغيره، إلا أن يكون خاطراً ماراً، لا ثبات له، فلا قدرة للعبد على دفعه. وبالله التوفيق.

(١) في الأصول [الكاف]. قلت: قرأ الجمهور (ما تكن) بضم التاء من: أكن الشيء: أخفاه. وقرأ ابن محيصن وحميد: بفتح التاء وضم الكاف، من: كن الشيء: ستره. انظر الإنشاف (٢/٣٣٤) والبحر المحيط (٧/٩٠).

ثم مدح كتابه المشتمل على جل العلوم الغيبية، فقال:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْضَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾
وإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ
الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تَسْمِعُ
إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْضَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ يبين لهم ﴿أكثر الذي هم فيه
يختلفون﴾ من أمر الدين الذي اشتبه عليهم. ومن جملة ما اختلفوا فيه: المسيح، وتحزبوا فيه أحزاباً، وركبوا متن
العند والغلو في الإفراط والتفريط، ووقع بينهم المناكرة في أشياء، حتى لعن بعضهم بعضاً. وقد نزل القرآن ببيان
ما اختلفوا فيه، لو أنصفوا وأخذوا به، وأسلموا. يريد اليهود والنصارى، وإن كانت الآية خاصة باليهود. ﴿وإنه﴾ -
أى: القرآن ﴿لهدى ورحمة للمؤمنين﴾ على الإطلاق، فيدخل فيهم من آمن من بنى إسرائيل دخولاً أولياً.
﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ أى: بين بنى إسرائيل، أو: بين من آمن بالقرآن ومن كفر به، ﴿بحكمه﴾ أى:
بعده؛ لأنه لا يحكم إلا بالعدل، فسمى المحكوم به حكماً. أو: بحكمته، ويدل عليه قراءة من قرأ «بحكمه»: جمع:
حكمة^(١)؛ لأن أحكامه تعالى كلها حكم بديعة. ﴿وهو العزيز﴾، فلا يرد حكمه وقضاؤه، ﴿العليم﴾ بجميع
الأشياء، ومن جملة ما: من يقضى له ومن يقضى عليه. أو: العزيز في انتقامه من المبطلين، العليم بالفصل بين
المختلفين.

﴿فتوكل على الله﴾، الفاء لترتيب ما قبله من ذكر شئونه - عز وجل - فإنها مرجبة للتوكل عليه، داعية إلى
الأمر به، أى: فتوكل على الله الذى هذا شأنه. وهذه أوصافه، فإنه مرجب لكل أحد أن يتوكل عليه، ويفوض جميع
أموره إليه. أو: فتوكل على الله ولا تبالي بأعداء الدين. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾، تعليل للأمر بالتوكل بأنه الحق
الأبليح، وهو الدين الواضح الذى لا يتطرقه شك ولا ريب.

(١) وهى قراءة جناح بن حبيش، كما ذكر صاحب البحر المحيط (٩١/٧).

وفيه تنبيه على أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله في نصرته. وقد تضمنت الآية من أولها ثناء على القرآن، بنفى ما رموه من كونه أساطير الأولين. ثم وصفه بكونه هدى ورحمة للمؤمنين. ثم توعد الرامين له بحكمه عليهم بما يستحقونه، ثم أمره بالتركل عليه في كفايته أمرهم ومكرهم.

ثم بين سبب طعنهم في القرآن، بأنهم ليس فيهم قابلية الإدراك؛ لكونهم موتى صمًا، لا حياة لهم ولا سمع استبصار، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾، شُبِّهُوا بِالْمَوْتَى لعدم تأثيرهم بما يُتلى عليهم من القوارع والزواجر، ﴿وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدَّعَاءَ﴾ أى: الدعوة إلى أمر من الأمور ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ عنك. وتقييد النفى بالإدبار؛ لتكميل التنبيه وتأکید النفى، فإنهم مع صممهم عن الدعاء إلى الحق معرضون عن الداعى، مولون على أدبارهم. ولا ريب أن الأصم لا يسمع الدعاء، مع كون الداعى بمقابلة صماخه، قريباً منه، فكيف إذا كان خلفه بعيداً منه؟.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ هداية موصلة إلى المطلوب، كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (١)؛ فإن الاهتداء منوط بالبصر فى الحس، وبالبصيرة فى المعنى. ومن فقدتهما لا يتصور منه اهتداء، وعن، متعلق بهادى؛ باعتبار تضمنه معنى الصرف، وإيراد الجملة الإسمية للمبالغة فى نفي الهداية. ﴿إِنْ تَسْمَعْ﴾ أى: ما تسمع سماعاً يجدى السامع وينفعه ﴿إِلَّا مَنْ يَأْتِنَا﴾ أى: من علم الله أنهم يؤمنون بآياته. ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ مخلصون، من قوله: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ (٢) أى: جعله سالماً لله خالصاً. جعلنا الله ممن أسلم بكليته إليه. آمين.

الإشارة: إذا وقع الاختلاف فى الأحكام الظاهرة، وهى ما يتعلق بالجوارح الظاهرة، رُجع فيه إلى الكتاب العزيز، أو السنة المحمدية، أو الإجماع، أو القياس، وإن وقع الاختلاف فى الأمور القلبية، وهى ما يتعلق بالعقائد التوحيدية، من طريق الأذواق أو العلوم، يُرجع فيه إلى أرباب القلوب الصافية، فإنه لا يتجلى فيها إلا ما هو حق وصواب. فلا يمكن قلع عروق الشكوك والأوهام، والوساوس من القلوب المُسوسة، إلا بالرجوع إليهم وصحبهم، ومن جمع بين الظاهر والباطن، رجع إليه فى الأمرين معاً.

ذكر ابن الصباغ أن الشيخ أبا الحسن الشاذلى رحمته الله كان يتأطر جماعة من المعتزلة، ليردهم إلى الحق، فدخل عليه رجل من القراء، يُقال له: أبو مروان، فسلم عليه، فقال له الشيخ: اقرأ علينا آية من كتاب الله، فأجربى الله على

(١) من الآية ٥٦ من سورة القصص.

(٢) من الآية ١١٢ من سورة البقرة.

لسانه، من غير قصد، قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ فتَهَلَّ وجه الشيخ، وقال: ما بعد بيان الله من بيان، فتأبوا واهتدوا إلى الحق، ورجعوا عن مذهبهم، وشفا الله قلوبهم من مرض الاعتزال. فهذا شأن العارفين بالله، جعلهم الله شفاء من كل داء، لكن الأعمى والأصم لا يبصر الداعي، ولا يسمع المنادي. ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى..﴾ الخ: قال الورتجبي: الميت: من ليس له استعداد لقبول المعرفة الحقيقية بغير الدلائل، والأصم: من كان أذن قلبه مسدودة بغواشي القهر، ومن كان بهذه الصفة لا يقبل إلا ما يليق بطبعه وشهوته هـ.

ثم ذكر بعض مقدمات الساعة، التي كانوا يستعجلونها، فقال:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ
النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (٨٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وقع مصداق القول الناطق بمجيء الساعة، بأن قرب إتيانها، وظهرت أشراتها، فأراد بالوقوع: دنوه واقترابه، كقوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ..﴾ (١) روى أن ذلك حين ينقطع الخير، ولا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، ولا يبقى منيب ولا نائب. ووقع: عبارة عن الثبوت واللزم، وهذا بمنزلة: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ (٢) أي: وإذا انتجز وعد عذابهم الذي تضمنه القول الأزلي، وأراد أن ينفذ في الكافرين سابق علمه لهم من العذاب، أخرج لهم دابة من الأرض. وفي الحديث: «إن الدابة، وطلوع الشمس من المغرب، من أول الأشرار» (٣).

فلا ينبغي لهؤلاء الكفرة ترك الإيمان حيث ينفعهم، ويتطلبون وقوع الساعة الموعود بها، التي لا ينفع الإيمان لمن لم يكن آمن، مع ظهور مقدماتها، فضلاً عنها. فإذا وقع الوعد وسمعت الدابة من لم يؤمن بسمة الكفر، وكان ذلك طبعاً وختماً، فلا يقبل منه إيمان، ويقال له: أيها الكافر لم تؤمن بالآيات غيباً، فلا يقبل منك بعد رؤيتها عيناً.

(١) الآية الأولى من سورة النحل. (٢) من الآية ١٩ من سورة الزمر.

(٣) أخرج مسلم في (الفتن، باب خروج الدجال، ٤/ ٢٢٦٠، ح ٢٩٤١) عن عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول الآيات خروجاً: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما كانت قبل صاحبها فالأخرى على إثرها قريباً.

وهذا معنى قوله: ﴿أخرجنا لهم دابةً من الأرض﴾، وهى الجساسة، طولها ستون ذراعاً، لا يدركها طالب، ولا يفوتها هارب، لها أربع قوائم، وزغب، وریش، وجناحان^(١). وقيل: لها رأس ثور، وعين خنزير، وأذن فيل، وقرن أيل، وعنق نعامة، وصدر أسد، ولون نمر، وخاصرة هرة، وذنب كبش، وخف بعير، وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعاً، تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية، فتقول: ﴿أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ أى: بخروجي؛ لأن خروجها من الآيات، وتقول: ألا لعنة الله على الظالمين.

وفى حديث حذيفة رضي الله عنه: «تأتى الدابة المؤمن، فتسلم عليه، وتأتى الكافر فتخطه - أى تسمه - فى وجهه». وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «تخرج الدابة معها خاتم سليمان، وعصا موسى، فتجلوا وجه المؤمن، وتختم أنف الكافر بالخاتم، حتى أن أهل الحراء^(٢) مجتمعون، فيقول: هاها يا مؤمن، ويقول: هاها يا كافر»^(٣). وهى بعد نزول عيسى وطلوع الشمس من مغربها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وإذا وقع القول على قوم بإسفال الحجاب، وإدامة غلق الباب، أخرج لهم جاهل بالله، يكلمهم بادعاء التبرية، فيأخذون عنه، ويقتدون به. قال فى المباحث:

واعلم بأن عصابة الجهال بهائم فى صور الرجال

فالجاهل بالله دابة فى الأرض: أن الناس كانوا بآياتنا الدالة علينا - وهم العلماء بالله، أهل الشهود والعيان - لا يوقنون بوجودهم، ولا يعرفون وجود الخصوصية عندهم. فإذا أراد الله تعب عبده، وإيقاءه فى غم الحجاب، ألقاه إلى شيخ جاهل بالله، أو: إلى ميت يتخذه شيخاً، ويفنى فى محبته، فلا يرجى فلاحه فى طريق الخصوصية، مادام مقيداً به، فإن تركه واقتدى بالعارف الحى، فقد هياه لرفع الحجاب. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قيام الساعة، بعد ذكر بعض أشراطها، فقال:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٢﴾
حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِنَا وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٣﴾﴾

(١) عزاه المصاوى فى الفتح السماوى (٨٩١/٢) للعلبى، من حديث حذيفة.

(٢) الحواء: جماعة بيوت الناس إذا تدانت، والجمع: أحوية. انظر اللسان (١٠٦٣/٢، مادة: حوا).

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢٩٥/٢) والترمذى وحسنه فى (الترغيب، سورة النمل، ٣١٨/٥، ح ٣١٨٧) بلفظ [الخوان] بدل [الحواء]. وأخرجه ابن ماجه فى (الفتن، باب دابة الأرض ١٣٥١/٢ ح ٤٠٦٦). من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَ لَيْسَ كُنُوزًا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

قلت: «ماذا» تأتي على أوجه؛ أحدها: أن تكون «ما» : استفهاماً، و«ذا» : إشارة، نحو: ماذا التواني.

الثاني: أن تكون «ما» : استفهاماً، و«ذا» : موصولة، كقول لبيد:

أَلَا تَسْأَلَانِ الْمَرْءَ مَاذَا يُحَاوِلُ ؟ أَنَحْبُ فَيَقْضَى ، أَمْ ضَلَالٌ وَبَاطِلُ ؟

الثالث: «ماذا» كله: استفهام على التركيب، كقولك: لماذا جئت؟. الرابع: أن تكون «ماذا» كله: اسم جنس

بمعنى شيء، أو: بمعنى «الذي» كقوله: دعنى ماذا علمت؟، وتكون «ذا» زائدة. انظر القاموس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نحشر من كل أمة فرجاً﴾، الفوج: الجماعة الكثيرة.

و«من»: للتبويض، أى: واذكر يوم نجمع من كل أمة من أمم الأنبياء جماعة كثيرة ﴿من يكذب بآياتنا﴾،

«من»: لبيان الفوج، أى: فرجاً مكذبين بآياتنا، المنزلة على أنبيائنا، ﴿فهم يوزعون﴾: يحبس أولهم على

آخرهم، حتى يجتمعوا، حين يساقون إلى موضع الحساب. وهذه عبارة عن كثرة العدد، وتباعد أطرافهم، والمراد

بهذا الحشر: الحشر للعذاب، والتوبيخ والمناقشة، بعد الحشر الكلى، الشامل لكافة الخلق. وعن ابن عباس: (المراد بهذا

الفوج: أبوجهل، والوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة، يساقون بين يدي أهل مكة) وهكذا يحشر قادة سائر الأمم

بين أيديهم إلى النار.

﴿حتى إذا جاءو﴾ إلى موقف السؤال والجواب، والمناقشة والحساب، ﴿قال﴾ أى: الله عز وجل، موبخاً لهم

على التكذيب: ﴿أكذبتهم بآياتي﴾ المنزلة على رسلى، الناطقة بقاء يومكم، ﴿و﴾ الحال أنكم ﴿لم تحيطوا بها

علماً﴾ أى: أكذبتهم بها فى بادئ الرأى، من غير فكر، ولا نظر، يؤدى إلى إحاطة العلم بكنهها، وأنها حقيقة

بالتصديق حتماً. وهذا نص فى أن المراد بالآيات فى الموضعين هى الآيات القرآنية. وقيل: هو عطف على

«كذبتهم»، أى: أجمعتم بين التكذيب وعدم التدبر فيها. ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾؟ حيث لم تنفكروا فيها، فإنكم لم

تخلقوا عبثاً. أو: أى شيء كنتم تعملون، استفهام، على معنى استبعاد الحجج، أى: إن كانت لكم حجة وعمل فهااتوا

ذلك. وخطابهم بهذا تبيكيت لهم. ثم يكبون فى النار، وذلك قوله تعالى: ﴿ووقع القول عليهم﴾ أى: حل بهم

العذاب، الذى هو مدلول القول الناطق بحلوه ونزوله، ﴿بما ظلموا﴾: بسبب ظلمهم، الذى هو تكذيبهم بآيات

الله ﴿فهم لا ينطقون﴾ ؛ لانقطاعهم عن الجواب بالكيفية، وابتلائهم بشغل شاغل من العذاب الأليم، يشغلهم العذاب عن النطق والاعتذار.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث، وما ينشأ بعد ذلك، بقوله: ﴿ألم يروا أننا جعلنا الليل ليسكنوا فيه﴾، الرؤية هنا قلبية، أى: ألم يعلموا أننا جعلنا الليل بما فيه من الإظلام ليستريحوا فيه بالنوم والقرار. ﴿والنهار مبصراً﴾ أى: يبصروا، بما فيه من الإضاءة، طرق القلب فى أمور المعاش. وبولغ فيه، حيث جعل الإبصار الذى هو حال الناس، حالاً له، ووصفاً من أوصافه، بحيث لا يدفك عنها، ولم يسلك فى الليل هذا المسلك؛ لأن تأثير ظلام الليل فى السكون ليس بمثابة تأثير النهار فى الإبصار. قاله أبو السعود... قلت: وقد جعله كذلك فى قوله: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ (١) فانظره.

﴿إِنَّ فى ذلك لآيات﴾ كثيرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ ؛ يصدقون، فيعتبرون، فإن من تأمل فى تعاقب الليل والنهار، واختلافهما على وجوه بديعة، مبنية على حكم رائقة، تحار فى فهمها العقول، وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل، المحاكية للموت، بضياء النهار، المضاهى للحياة، وعاین فى نفسه غلبة النوم، الذى هو يضاهى الموت، وانتباهه منه، الذى هو يضاهى البعث، قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور.

قال لقمان لابنه: يا بني إن كنت تشك فى الموت فلا تدم، فكما أنك تنام قهراً؛ كذلك تموت، وإن كنت تشك فى البعث فلا تنتبه، فكما أنك تنقبه بعد نومك؛ كذلك تبعث بعد موتك هـ. وبالله التوفيق.

الإشارة: يوم نحشر من كل أمة فوجاً ينكر على أهل الخصوصية، ممن يكذب بآياتنا، وهم العارفون بنا، الدالون علينا، المعروفون بنا، فهم يوزعون: يجمعون للعتاب، حتى إذا جاءوا إلينا بقلب سقيم، قال: أكذبتكم بأوليائى، الدالين على حضرتى، بعد التطهير والتهذيب، ولم تحيطوا بهم علماً، منعكم من ذلك حب الرئاسة والجاه، أم ماذا كنتم تعملون؟. ووقع القول عليهم بالبقاء مع عامة أهل الحجاب، فهم لا ينطقون، ولا يجدون اعتذاراً يقبل منهم. ألم يعلموا أنهم يموتون على ما عاشوا عليه، ويبعثون على ماماتوا عليه، فهلاً صحبوا أهل اليقين الكبير، - وهو عين اليقين أر حق اليقين، المستفاد من شهود الذات الأقدس - فيكتسبوا منهم اليقين، حتى يموتوا على اليقين ويبعثوا على اليقين. وبالله التوفيق.

(١) من الآية ٩٦ من سورة الأنعام. وقد سار المفسر على قراءة «جاعل».

ثم ذكر النفخ في الصور، وما يكون بعده من الأهوال، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿ ٨٨ ﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿ ٨٩ ﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ ٩٠ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يوم يُنفخُ في الصور ﴾، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل - عليه السلام - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والأرض، خلق الصور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه، شاخص بصره إلى العرش، حتى يؤمر، قال: قلت: كيف هو؟ قال: عظيم، والذي نفسى بيده إن عظم دارة فيه كعرض السموات والأرض» وفي حديث آخر: «فيه ثقب بعدد كل روح مخلوقة، فيؤمر بالنفخ فيه، فينفخ نفخة، لا يبقى عندها في الحياة أحد، غير من شاء الله تعالى؛ وذلك قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ (١)، ثم يؤمر بأخرى، فينفخ نفخة لا يبقى معها ميت إلا بعث». وفي رواية: «فينفخ نفخة البعث، فتخرج الأرواح، كأنها النحل، فتملأ ما بين السماء والأرض، وتأتى كل روح إلى جسدها، كما تأتى النحل إلى وكراها. وذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (٢)».

قال أبو السعود: والذي يستدعيه النظم الكريم أن المراد بالنفخ هاهنا: النفخة الثانية، وفي الفزع في قوله تعالى: ﴿ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ما يعتري الكل عند البعث والنشور، بمشاهدة الأمور الهائلة، الخارقة للعادات في الأنفس والآفاق، من الرعب والتهيب، الضروريين، الجبيلين في كل نفس. وإيراد صيغة الماضي مع كون المعطوف عليه مضارعاً؛ للدلالة على تحقق وقوعه. وظاهره أن النفخ مرتان فقط، واعتمده القرطبي وغيره، وصحح ابن عطية أنها ثلاث، وروى ذلك عن أبي هريرة: نفخة الفزع؛ وهي فزع حياة الدنيا، وليس بالفزع الأكبر، ونفخة الصعق، ونفخة القيام من القبور.

(١)، (٢) من الآية ٦٨ من سورة الزمر.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أى: ألا يفزع، وهو من ثبت الله قلبه، فإن قلنا: المراد بها النفخة الثانية، فالمستثنى: هم من سبقت لهم الحسنى، بدليل قوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ (١) وإن قلنا: هي نفخة الصعق، فالمستثنى: قيل: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، لكن يموتون بعد صعق الخلق. وقيل: الحور وحمة العرش، وإن قلنا: المراد نفخة الفزع فى الدنيا، فالمستثنى: أرواح الأنبياء والأولياء والشهداء والملائكة.

ثم قال تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنُوفٍ﴾ (٢) بصيغة الماضى، أى: وكل واحد من المبعوثين عند النفخة حضروه فى موقف الحساب، بين يدي الله جل جلاله، والسؤال والجواب. أو: وكل حاضروه، على قراءة اسم الفاعل، وأصله: آتيوه، حال كونهم ﴿داخرين﴾: صاغرين أذلاء.

﴿وترى الجبال﴾ حال الدنيا ﴿تحسبها جامدة﴾؛ واقفة معسكة عن الحركة، من: جمد فى مكانه: إذا لم يبرح. ﴿وهي تمرُّ مرَّ السحاب﴾ أى: مرًا مثل مر السحاب، التى تسيرها الرياح، سيرًا حثيثًا، والمعنى: أنك إذا رأيت الجبال وقت النفخة ظلتها ثابتة فى مكان واحد؛ لعظمها، وهى تسير سيرًا سريعًا، كالسحاب إذا ضربته الرياح، وهكذا الأجرام العظام، إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها. ومثال ذلك: الشمس؛ لعظم جرمها وبُعدها لا تتبين حركتها، مع كونها أسرع من الريح.

والذى فى حديث أبى هريرة: أن تسير الجبال يكون بعد نفخة الفزع وقيل الصعق. ونص الحديث - بعد كلام تقدم: «فيأمر إسرافيل بالنفخة الأولى، فيقول: انفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله، فيأمره فيمدها - أى: النفخة - ويطيها، فيسير الله الجبال، فتمر مر السحاب، فتكون سرابًا، وترتج الأرض بأهلها رجًا، فتكون كالسفينة تضربها الأمواج، وتقلبها الرياح، وهو قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ (٣) الآية، فتמיד الأرض بالناس على ظهرها فتذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، وتطير الشياطين، هاربة من الفزع، حتى تأتى الأقطار هاربة، فتلقاها الملائكة تضرب وجوها وأدبارها، فترجع، ويولى الناس مدبرين، ينادى بعضهم بعضًا، وهو قوله: ﴿يَوْمَ التَّادِ يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ..﴾ الآية (٤) فبينما هم كذلك؛ إذ تصدعت الأرض، من قطر إلى قطر، فرأوا أمرًا عظيمًا، لم يروا مثله. ثم قال: قال النبي ﷺ: «والأموات يومئذ لا يعلمون بشيء من ذلك». قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله فمن استثنى الله من الفزع؟ قال: «أولئك الشهداء».

(١) من الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء.

(٢) قرأ حفص، وحمزة، وخلف: «أنوف»، بقصر الهمزة، وفتح التاء، فعلاً ماضياً، وقرأ الباقرن بالمد وضم التاء «أنوف»، اسم فاعل، مضافاً للضمير .. انظر الإتحاف (٢/٣٣٥).

(٣) الآية السادسة من سورة النازعات.

(٤) من الآية ٣٣ من سورة غافر.

قلت: ومثلهم الأنبياء والأولياء؛ إذ هم أعظم منهم، وأحياء مثلهم. ثم قال عليه الصلاة والسلام: «وانما يصل الفرع إلى الأحياء، وهم أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله فزع ذلك اليوم، وهو عذاب يبعثه الله على شرار خلقه». وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (١) فيمكنون طويلاً، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل، فينفخ نفخة الصعق، فيصعق من في السموات، ومن في الأرض، إلا من شاء الله، فإذا اجتمعوا في البرزخ، جاء ملك الموت إلى الجبار، فيقول: قد مات أهل السموات والأرض، إلا من شئت، فيقول الله تعالى، وهو أعلم: من بقى؟ فيقول: بقيت أنت الحي القيوم، الذي لا تموت، وبقيت حملة العرش، وبقي جبريل وميكائيل، وإسرافيل، وبقيت أنا، فيقول تعالى: فليمت جبريل وميكائيل، فينطق الله العرش، فيقول: أي رب يموت جبريل، وميكائيل؟ فيقول: اسكت، إني كتبت الموت على كل من تحت عرشي، فيموتان. ثم يأتي ملك الموت الجبار، فيقول: أي رب قد مات جبريل وميكائيل، فيقول: وهو أعلم: من بقى؟ بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت حملة العرش، وبقيت إسرافيل، وبقيت أنا. فيقول: ليمت حملة العرش، فيموتون، فيأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل، ثم يقول: ليمت إسرافيل، فيموت، ثم يأتي ملك الموت فيقول: يارب؛ قد مات حملة عرشك، فيقول، وهو أعلم: من بقى؟ فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت أنا، فيقول: أنت خلق من خلقي، خلقتك لما رأيت، فمت، فيموت. فإذا لم يبق إلا الله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فكان آخراً، كما كان أولاً، طوى السماء طوى السجل للكتاب، فيقول: أنا الجبار، ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟﴾ فلا يجيبه أحد، ثم يقول تعالى: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ثم تبدل الأرض غير الأرض، والسموات يبسطها بسطاً، ثم يمدها مدّ الأديم العكاظي، لا ترى فيها عرجاً ولا أمتاً.

ثم قال: ثم ينزل ماء من تحت العرش، كمنى الرجل، ثم يأمر الله السحاب أن تمطر أربعين يوماً، حتى يكون فوقهم اثني عشر ذراعاً، ويأمر الله تعالى الأجساد أن تثبت ككتبات البقل، حتى إذا تكاملت أجسادهم، كما كانت، قال الله تعالى: ليحيى حملة العرش، فيحيون، ثم يقول الله تعالى: ليحيى جبريل وميكائيل وإسرافيل، فيحيون، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل، فيأخذ الصور فيضعه على فيه، ثم يدعوا الله تعالى الأرواح، فيؤتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نوراً، والأخرى ظلمة، فيقبضها، ثم يلقيها في الصور، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث، فتخرج الأرواح، كأنها النحل، وقد ملأت ما بين السماء والأرض، فيقول تعالى: لترجعن كل روح إلى جسدها، فتدخل الأرواح الخياشيم، ثم تمشي في الأجساد، مشى السم في اللديغ، ثم تنشق الأرض عنهم سراعاً، فأنا أول من

(١) الأيتان: ١ - ٢ من سورة الحج

تنشق عنه، فتخرجون منها إلى ركم تتسلون، عراة، حفاة، غرلاً، مهطعين إلى الداعي، فيقول الكافر: هذا يوم عسير. نقله الثعلبي (١).

ثم قال تعالى: ﴿صَنَعَ اللَّهُ﴾، هو مصدر مؤكد لمضمون ما قبله، أى: صَنَعَ اللَّهُ ذَلِكَ صُنْعًا، على أنه عبارة عما ذكر من النفخ فى الصور، وما ترتب عليه جميعاً. قصد به التنبيه على عِظَم شأن تلك الأفاعيل، وتهويل أمرها، والإيذان بأنها ليست بطريق الإخلال بنظم العالم، وإفساد أحوال الكائنات، من غير أن تدعو إليه داعية، بل هى من بدائع صنع الله تعالى، المبنية على أساس الحكمة، المستتعبة للغايات الجليلة، التى لأجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادئ الإبداع، على الوجه المتين، واللهج الرصين، كما يعرب عنه قوله: ﴿الَّذِى أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أى: أحكم خلقه وسواه، على ما تقتضيه الحكمة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾: تعليل لكون ما ذكر صنْعاً محكماً له تعالى؛ لبيان أن علمه بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها، مما يدعو إلى إظهارها وبيان كيفياتها، على ما هى عليه من الحسن والسوء، وترتيب أجزيتها عليها بعد بعثهم وحشرهم.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾: بيان لما أشير إليه بإحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أجزيتها عليها، أى: مَنْ جَاءَ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُوتُوا بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا، باعتبار أنه أضعفها بعشر، أو: باعتبار درامه وانقضائها، وعن ابن عباس رضي الله عنه: «الحسنة: كلمة الشهادة» (٢) ﴿وَهُمْ﴾ أى: الذين جاعوا بالحسنات ﴿مَنْ قُزِعَ يَوْمَئِذٍ﴾ أى: مَنْ قُزِعَ هَائِلٌ، وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب، بعد تمام المحاسبة، وظهور الحسنات والسيئات. وهو المراد فى قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْقُزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ (٣).

وقال ابن جريج: حين يُذْبَح الموت وينادى: يا أهل الجنة؛ خلود لا موت، ويا أهل النار؛ خلود لا موت. فيكون هؤلاء ﴿مَنْ قُزِعَ يَوْمَئِذٍ﴾، أى: يوم إذ ينفخ فى الصور وما بعده ﴿آمِنُونَ﴾ لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل، ولا يلحقهم ضرره أصلاً. وأما الفزع الذى يعتري كل من السموات ومن فى الأرض، غير ما استثناه الله تعالى، فإنما هو التهيب والرعب الحاصل فى ابتداء النفخة، من معاينة فتن الدواهي والأهوال، ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلية، وإن كان آمناً من لحوق الضرر. قال جميعه أبو السعود.

(١) انظر تفسير البغوى (١٨٢/٦).

(٢) انظر تفسير الطبرى (٢٢/٢٠).

(٣) من الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء.

﴿ومن جاء بالسيئة﴾ قيل: هو الشرك. ﴿فكُتِبَ وجُوهُهُم في النار﴾، أى: كُتِبوا فيها على وجوههم منكوسين. ويقال لهم: ﴿هل تُجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ في الدنيا من الشرك والمعاصي. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من أراد أن يكون ممن استثنى الله من الفزع والهول، فليكن قلبه معموراً بالله، ليس فيه غير مولاه، ولا مقصود له في الدارين إلا الله، وظاهره معموراً بطاعة الله، متمسكاً بسنة رسول الله، هواه تابع لما جاء به من عند الله، لا شهوة له إلا ما يقضى عليه مولاه، فبهذا ينخرط في سلك أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين سبقت لهم الحسنات، لا يحزنهم الفزع الأكبر، وهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدين. جعلنا الله من خواصهم، بمنه وكرمه، آمين.

وقوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة...﴾ الآية. كذلك قلوب الراسخين في العلم بالله، لا تؤثر فيهم هواجم الأحوال والواردات الإلهية، بل تهزمهم في الباطن، وظواهرهم ساكنة، كالجبال الراسية، قيل للجديد: قد كنت تتواجد عند السماع، والآن لا يتحرك فيك شيء؟ فتلى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾.

وقوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة﴾ أى: بالخصلة الحسنة، وهي المعرفة «قله خير منها» وهو دوام النظرة والحبرة، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، «ومن جاء بالسيئة» هي الجهل بالله، فينكس وجهه عن مواجهة المقربين. والعياذ بالله.

ولما بلغ الرسول ﷺ ما أمره الله من بيان عواقب الأمور، تبرأ منهم، فقال:

﴿ إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ
وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِ
لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ
فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: قل لكفار قريش، بعد تبين أحوال المبعث، وشرح أحوال القيامة، بما لا مزيد عليه: ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة﴾ أى: مكة، أى: إنما أمرني ربي أن أعبد، واستغرق أوقاتي في مراقبته ومشاهدته، غير مبالي بكم، ضللتكم أم رشدتكم، وما على إلا البلاغ، وقد بلغتكم وأنذرتكم. وتخصيص مكة

بالإضافة لتفخيم شأنها وإجلال مكانها، ﴿الذي حَرَّمَهَا﴾ أى: جعلها حراماً آمناً، يأمن الملتجأ إليها، ولا يختلئ خلاها، ولا يعصده شوكها، ولا ينقر صيدها. والتعرض لبيان تحريمه إياها تشریف لها بعد تشریف، وتعظيم إثر تعظيم، مع ما فيه من الإشعار بعلّة الأمر بعبادة ربها، وأنهم مكفرون بذلك، كما فى قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (١). ومن الإشارة إلى غاية شناعة ما فعلوا فيها، ألا يرى أنهم مع كونها محرمة من أن تنتهك حرمتها، ويلحد فيها يائث، قد استعمروا فيها على تعاطى أفجر الفجور، وأشنع الإلحاد، حيث تركوا عبادة ربها، ونصبوا الأوثان، وعكفوا على عبادتها، قاتلهم الله أنى يؤفكون. قاله أبو السعود.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً، من غير أن يشاركه أحد فى شيء من ذلك، تحقيقاً للحق، وتنبيحاً على أن أفراد مكة بالإضافة لما ذكر من التفخيم والتشريف، مع عموم الربوبية لجميع الموجودات. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين له، الثابتين على ما كنا عليه، من ملة الإسلام والتوحيد. الذين أسلموا وجوههم له تعالى، وانقادوا إليه بالكلية.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ أى: أراظب على تلاوته، لتكشف حقائقه الرائقة، المخزونة فى تضاعيفه، شيئاً فشيئاً. أو: على تلاوته على الناس؛ بطريق تكرير الدعوة، وتثنية الإرشاد، فيكون ذلك تنبيهاً على كفايته فى الهداية والإرشاد، من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى.

﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أى: فمن اهتدى بالإيمان به، والعمل بما فيه من الشرائع والأحكام، فإنما منافع هدايته عائدة إليه، لا إلى غيره. ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بالكفر به، والإعراض عن العمل بما فيه ﴿فَقُلْ﴾ فى حقه: ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ وقد خرجت من عهدة الإنذار، فليس على من وبال ضلالته شيء. قال الصفاقسى: جواب «من»: محذوف، يدل عليه ما قبله، أى: فوبال ضلاله عليه، أو: يكون الجواب: «فقل»، ويقدر ضمير عائد من الجواب إلى الشرط؛ لأنه اسم غير ظرف، أى: من المنذرين له. هـ.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما أفاض على من نعمائه، التى أجلها نعمة النبوة، المستتبعة لفنون النعم الدينية والدنيوية، ووقفنى لتحمل أعبائها، وتبليغ أحكامها إلى كافة الورى، بالآيات البينة والبراهين الثيرة، ﴿سِيرُكُمْ﴾ آياته ﴿قطعاً فى الدنيا، التى وعدكم بها، كخروج الدابة وسائر الأشراف، ﴿فتعرفونها﴾ أى: فتعرفون أنها آيات

(١) الآيتان: ٣ - ٤ من سورة قريش.

الله، حين لا تنفعكم المعرفة، أو: سيضطرركم إلى معرفة آياته، والإقرار بأنها آيات الله حين ظهورها، ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾، بل محيط بعمل المهتدى والضال، غير غافل، فيجازى كلاً بما يستحقه.

وتخصيص الخطاب أولاً به - عليه الصلاة والسلام - وتعميمه ثانياً للكفرة تغليباً، أى: وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم - أيها الكفرة - من السيئات، فيجازى كلاً بعمله. ومن قرأ بالغيب (١) فهو وعيد محض، أى: وما ربك بغافل عن أعمالهم، فسيعذبهم ألبتة، فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم، بل يمهل ولا يمهل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا فرغ الواعظ من وعظه وتذكيره، أو: العالم من تدريسه وتعليمه، أقبل على عبادة ربه، إما عبادة الجوارح الظاهرة، من صلاة وذكر وتلاوة، أو عبادة القلوب، كتفكر واعتبار، أو استخراج علوم وحكم ودرر. وإما عبادة الأرواح، كنظرة وفكرة وشهود واستبصار. وهذه عبادة الفحول من الرجال، فمن اهتدى إليها فلنفسه، ومن ضل عنها فقل إنما أنا من المذترين. والحمد لله رب العالمين - وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.



(١) قرأ حفص، ونافع، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب (تعملون) بناء الخطاب. وقرأ الباقر بالغيب. انظر الإتحاف (٢/٣٣٧).

سُورَةُ الْقَصَصِ

مكية؛ إلا قوله: ﴿إِنْ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ...﴾ الآية (١). وهي ثمان وثمانون آية. ومما سبقتها لما قبلها: قوله: ﴿وَأَنْ أُنْزِلَ الْقُرْآنَ﴾ (٢)، مع قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾؛ فإنه عين القرآن المثلو. وقيل: وجه المناسبة: قوله: ﴿سِيرِكُمْ آيَاتِهِ﴾ (٣)، مع قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾؛ فإن تنزيل الكتاب من أعظم الآيات. وافتتح بالرموز التي يستعملها بينه وبين حبيبه، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَمَ﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ
بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿طَسَمَ﴾، إما مختصرة من أسماء الله تعالى، أقسم على حقيته كتابه، وما يتلى فيه، كأنها مختصرة من طهارته - أي: تنزيهه - وسيادته، ومجده، أو: من أسماء رسوله - وهو الأظهر - أي: أيها الطاهر السيد المجيد ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، إما من بان، أو: أبان، أي: بين خيره وبركته، أو: مبين للحلال والحرام، والوعد والوعيد، والإخلاص والتوحيد، ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: بعض خبرهما العجيب. قال القشيري: كرر الحق قصة موسى؛ تعجيباً بشأنه، وتعظيماً لأمره، ثم زياده في البيان لبلاغة القرآن، ثم أفاد زوائد من الذكر في كل موضع يكرره. هـ.

هذا مع الإشارة إلى نصر المستضعفين، والامتنان عليهم بالظفر والتمكين، ففيه تسلية لنبينا محمد ﷺ، ووعد جميل له ولأمته. وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾: حال من فاعل ﴿نَتْلُو﴾، أو: من مفعولة، أو: صفة لمصدر محذوف، أي: ملتبسين، أو: ملتبساً بالحق، أو: تلاوة ملتبسة بالحق. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لمن سبق في علمنا أنه يؤمن؛ لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم، فهو متعلق بنتلوا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: تقديم هذه الرموز، قبل سرد القصص، إشارة إلى أنه لا ينتفع بها كل الانتفاع حتى يتطهر سره، ويلقى سمعه، وهو شهيد، فحينئذ يكون طاهراً سيداً مجيداً، ينتفع بكل شيء، ويزيد إلى الله بكل شيء. ولذلك خص تلاوة قصص موسى بأهل الإيمان الحقيقي؛ لأنهم هم أهل الاعتبار والاستبصار. والله تعالى أعلم.

(١) الآية ٨ ونزلت بالجحفة بين مكة والمدينة. انظر تفسير ابن كثير (٤٠٢/٣ - ٤٠٣).

(٢) الآية ٩٢ من سورة النمل. (٣) من الآية الأخيرة من سورة النمل.

ثم شرع في بيان شأنهما، فقال:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝ وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُكِنِّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَمَمَّنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ۝ ﴾، وهو استئناف بياني، وكأن قائلًا قال: وكيف كان نبأهما؟ فقال: إنه علا في الأرض، أي: تجبر وطغى في أرض مصر، وجاوز الحد في الظلم والعدوان، أر: علا عن عبادة ربه، وافتخر بنفسه، ونسى العبودية. وفي التعبير بالأرض تبكيت عليه، أي: علا في محل التذلل والانخفاض، ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ۝ ﴾ أي: فرقًا وأصنافًا في الخدمة والتسخير، كل قوم من بني إسرائيل في شغل مفرد. وقيل: ملك القبط واستعبد بني إسرائيل. أو: فرقًا مختلفة، يكرم طائفة ويهين أخرى، فأكرم القبط، وأهان بني إسرائيل. ﴿ يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ ۝ ﴾ وهم بنو إسرائيل، وهو يرشد إلى كون المراد بقوله: ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا ۝ ﴾ لا يخص بني إسرائيل. ﴿ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ ۝ الذكور، ۝ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ ۝ أي: البنات، يتركهم لخدمته.

وسبب ذبحه للأبناء أن كاهنًا قال له: يولد مولود في بني إسرائيل، يذهب ملكك على يده، وفيه دليل على حق فرعون، فإنه إن صدق الكاهن لم ينفعه القتل؛ إذ لا ينفع حذر من قدر، وإن كذب فلا معنى للقتل. وجملة: ﴿ يَسْتَضِعُّ ۝ ﴾: حال من الضمير في ﴿ جعل ۝ ﴾، أو صفة لشيع، أو استئناف. ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝ ﴾، أي: الراسخين في الإفساد، ولذلك اجترأ على تلك العزيمة العظيمة، من قتل المعصومين من أولاد الأنبياء - عليهم السلام.

﴿ وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ ۝ ﴾ أي: نتفضل ﴿ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ ۝ ﴾ على الوجه المذكور بالقتل والتسخير. وهذه الجملة معطوفة على: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ ۝ ﴾، أو: حال من ﴿ يَسْتَضِعُّ ۝ ﴾، أي: يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمُنَّ عليهم، وإرادة الله تعالى كائنة لا محالة، فجعلت كالمقارنة لاستضعافهم، ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً ۝ ﴾ أي: قادة يقتدى بهم في الخير، أو: دعاة إلى الخير، أو: ولاية وملوكًا، ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ ﴾ أي: يرثون فرعون وقومه، ملكهم وكل ما كان لهم.

﴿ وَنُكِنِّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ۝ ﴾؛ أرض مصر والشام، يتصرفون فيها كيف شاءوا، وتكون تحت ملكهم وسلطانهم. وأصل التمكن: أن يجعل له مكانًا يقعد عليه، ثم استعير للتسلط والتصرف في الأمر. ﴿ وَنُرِي فِرْعَوْنَ ۝ ﴾

وهامان وجنودهما منهم ﴿ من بنى إسرائيل، ﴿ ما كانوا يحذرون ﴿ يخافون من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد مولود منهم. والحذر: التوقي من الضرر. ومن قرأ (يرى)؛ بالياء^(١)، ففرعون وما بعده فاعل. وبالله التوفيق.

الإشارة: العلو في الأرض يورث الذل والهوان. والتواضع والاستضعاف يورث العز والسلطان، والعيش في العافية والأمان؛ من تواضع رفعه الله، ومن تكبر قصمه الله. وهذه عادة الله في خلقه، بقدر ما يذل في جانب الله يعزه الله، ويقدر ما يفتقر يغنيه الله، ويقدر ما يفقد يجد الله. قال الشيخ أبو الحسن رحمته الله: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أول نشأة موسى عليه السلام وما جرى في تربيته، فقال:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْقِطْعَةُ ۚ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمُّنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾؛ بالإلهام، أو بالرؤيا، أو بإخبار ملك كما كان لمريم، وليس هذا وحى رسالة، فلا يلزم أن تكون رسولا، واسمها: يوحانة، وقيل: يوخايد بنت يصهر بن لاوي بن يعقوب. وقيل: يارخا. ذكره في الإتيان. وقلنا: ﴿ أن أرضعيه ﴾؛ أن، مفسرة، أي: أرضعيه، أو: مصدرية، بأن أرضعيه ما أمكنتك إغفائه، ﴿ فإذا خفت عليه ﴾ من القتل ﴿ فألقيه في اليم ﴾. البحر، وهرنيل مصر، ﴿ ولا تخافي ﴾ عليه من الفرق والضياح، ﴿ ولا تحزني ﴾ لفراقه، ﴿ إنا رادوه إليك ﴾ برجه لطيف؛ لتربيته، ﴿ وجاعلوه من المرسلين ﴾. وفي هذه الآية: أمران، ونهيان، وخبران، وشارتان.

والفرق بين الخوف والحزن؛ أن الخوف: غم يلحق الإنسان لتوقع مكروه، والحزن: غم يلحق الإنسان لواقع أو ماضى، وهو الآن فراقه والإخطار به. فلهيت عنهما، وبشرت برده وجعله من المرسلين. روى أنه ذبح، في طلب موسى، تسعون ألف وليد. وروى أنها حين ضربها الطلق - وكانت بعض القوايل من الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها، فعالجتها، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عيني، ودخل حبه قلبها، فقالت: ما جئت إلا لأقتل ولدك وأخبر فرعون، ولكن وجدت لابنك حبا ما وجدت مثله، فاحفظيه، فلما خرجت القابلة، جاءت عيون فرعون (١) قرأ حمزة والكسائي (يرى) بياء مفتوحة، و فرعون، بالرفع فاعله، وهامان وجنودهما، بالرفع عطفاً عليه، وقرأ الباقون (نرى)، بالنون مضمومة، و فرعون، بالنصب مفعوله. انظر الإتحاف (٢/ ٣٤٠).

قَلَقَتْهُ فِي خُرْقَةٍ، وَوَضَعَتْهُ فِي تَنُورٍ مَسْجُورٍ، وَلَمْ تَعْلَمْ مَا تَصْنَعُ؛ لَمَّا طَاشَ مِنْ عَقْلِهَا، فَطَلَبُوا فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا، فَخَرَجُوا، وَهِيَ لَا تَدْرِي مَكَانَهُ، فَسَمِعَتْ بِكَاءِهِ مِنَ التَّنُورِ، فَانْطَلَقَتْ إِلَيْهِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ النَّارَ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا. فَلَمَّا أُلْحِ فرعون في طلب الولدان، أوحى الله إليها بإلقائه في اليمِّ، فَأَلْقَتْهُ فِي الْيَمِّ بَعْدَ أَنْ أَرْضَعَتْهُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ.

رُوي أنها لفتته في ثيابه، وجعلت له تابوتًا من خشب، وقيل: من بردى، وسدت عليه بقل، وأسلمته؛ ثقة بالله وانتظاراً لوعده سبحانه. قال ابن مخلص: أَلْقَتْهُ فِي الْبَحْرِ بِالْغَدَاةِ، فَرَدَهُ إِلَيْهَا قَبْلَ الظُّهْرِ. حُكِيَ أَنَّ فرعون كانت له بنتٌ برصاء، أَعْيَتِ الْأَطْبَاءُ، فَقَالَ الْأَطْبَاءُ وَالسَّحَرَةُ: لَا تَبْرَأُ إِلَّا مِنْ قَبْلِ الْبَحْرِ، يُوْخَذُ مِنْهُ شَبْهُ الْإِنْسَانِ، فَيُوْخَذُ مِنْ رِيْقِهِ وَتَلَطَّخَ بِهِ بَرَصُهَا، فَتَبْرَأُ، فَقَعَدَ فرعون على شفير النيل، ومعه آسية امرأته، فإذا بالتابوت يلعب به الموج، فَأَخَذَ لَهُ، فَفَتَحُوهُ، فَلَمْ يَطِيقُوا، فَدَنَّتْ آسية، فرأت في وجه التابوت نوراً لم يره غيرها، لِلَّذِي أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكْرُمَهَا، فَفَتَحَهُ، فإذا الصبى بين عينيهِ نور، وقد جعل الله رزقه في إبهامه، يمصه لبنًا، فأحبت به آسية وفرعون، فلطخت بنت فرعون برصها فبرئت، فقبَلَتْهُ وَضَمَّتْهُ إِلَى صَدْرِهَا. فَقَالَ بَعْضُ الْقَوَادِ مِنْ قَوْمِ فرعون: نَظُنُّ هَذَا الْمَوْلُودَ الَّذِي نَحْذَرُ مِنْهُ، فَهَمْ فرعون بقتله - والله غالب على أمره - فقالت: آسية: ﴿قُرْةٌ عَيْنٍ لِي وَلَكَ...﴾ (الآية (١)).

وهذا معنى قوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فرعون﴾؛ أَخَذَهُ. قَالَ الزَّجَّاجُ: وَكَانَ فرعون من أهل فارس، من إِبْصَطْخَرٍ. وَالِاتِّقَاطُ: وَجْدَانُ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ وَلَا إِرَادَةٍ، وَمِنْهُ: اللَّقْطَةُ، لَمَّا وَجِدَ ضَالًّا. وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أَي: لِيَصِيرَ الْأَمْرُ إِلَى ذَلِكَ، لَا أَنَّهُمْ أَخَذُوهُ لِهَذَا، فَالْإِلَامُ لِلصَّيْرُورَةِ؛ كَقَوْلِهِمْ: لَدَا لِلْمَوْتِ وَابْتَدَا لِلْخُرَابِ. وَقَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ: هِيَ لَا مَكِّي، الَّتِي مَعَهَا التَّعْلِيلُ، كَقَوْلِكَ: جِئْتُ لَتَكْرَمَنِي. وَلَكِنْ مَعْنَى التَّعْلِيلِ فِيهَا وَارِدٌ عَلَى طَرِيقِ الْمَجَازِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَمَّا كَانَ نَتِيجَةَ التَّقَاطُطِ لَهُ، شَبْهُ بِالْدَّاعِي الَّذِي يَفْعَلُ الْفَاعِلُ الْفِعْلَ لِأَجْلِهِ. هـ. وَتَسْمَى بِالِاسْتِعَارَةِ التَّبَعِيَّةِ.

وَفِي «الْحَزَنَ» لَفْتَانٍ؛ الْفَتْحُ وَالضَّمُّ، كَالْعَدَمِ وَالْعَدَمِ.

﴿إِنَّ فرعونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾، أَي: مُذْنِبِينَ، فَعَاقِبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ رَئَى عَدُوَّهُمْ، وَمِنْ هُوَ سَبَبُ هَلَاكِهِمْ عَلَى يَدَيْهِمْ. أَوْ: كَانُوا خَاطِئِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَلَيْسَ خَطُؤُهُمْ فِي تَرْبِيَةِ عَدُوَّهُمْ بِبِدْعٍ مِنْهُمْ.

﴿وَقَالَتْ إِمْرَأَةُ فرعون﴾، لَمَّا هَمَّ فرعون بقتله - لقول القواد: هو الذي نحذر: هو ﴿قُرْةٌ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾، فَقَالَ فرعون: لَكَ، لَا لِي. قَالَ ﷺ: «لَوْ قَالَ مِثْلُ مَا قَالَتْ لِهَدَاهُ اللَّهُ مِثْلَ مَا هَدَاهَا» (٢)، وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ الْفَرَضِ، أَي: لَوْ كَانَ غَيْرَ مَطْبُوعٍ عَلَيْهِ الْكُفْرُ لَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهَا. ثُمَّ قَالَتْ: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، خَاطِبَتُهُ خُطَابَ الْمُلُوكِ، أَوْ خَاطِبَتِ

(١) انظر تفسير الطبري (٣٢/٢٠) والبغوي (١٩٢/٦).

(٢) عزاه المداري في الفتح السماري (٨٩٧/٢) للسانى - في الكبرى في التفسير - من حديث ابن عباس - رضى الله عنه.

القواد. ﴿عسى أن ينفعنا﴾ ؛ فإن فيه مخايل اليمن ودلائل الدفع، وذلك لما عاينت من الدور وبرء البرصاء. ﴿أو نتخذة ولدًا﴾ ؛ أو: نتبناه؛ فإنه أهل لأن يكون ولد الملوك. قال تعالى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ ما يكون من أمره وأمرهم، أو: لا يشعرون أن هلاكهم على يديه، أو: لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء الدفع منه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقال لمن يعالج تربية مريد: أرضعه من لبن علم الغيوب، فإذا خفت عليه الوقوف مع الشرائع (١)، فألقه في اليم؛ في بحر الحقائق، ولا تخف ولا تحزن، إنا رادوه إلى بر الشرائع، ليكون من الكاملين، لأن من غرق في بحر الحقيقة، على يد شيخ كامل، لا بد أن يخرج إلى بر الشريعة، ويسمى البقاء، وهو القيام برسم الشرائع، فالبقاء يطلب الفناء، فمن تحقق بمقام الفناء؛ فلا بد أن يخرج إلى البقاء، كما يخرج من فصل الشتاء إلى الربيع. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾، ما كان التقاط فرعون لموسى إلا للمحبة والفرح، فخرج له عكسه. ومن هذا كان العارفون لا يسكنون إلى شيء، ولا يعتمدون على شيء؛ لأن العبد قد يخرج له الضرر من حيث النفع، وقد يخرج له النفع من حيث يعتقد الضرر، وقد ينتفع على أيدي الأعداء، ويضر على أيدي الأحياء، فليكن العبد سلماً بين يدي سيده، ينظر ما يفعل به. ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

ثم قال تعالى:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْ لَا أَنْ رَبيُّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأصبح﴾ أي: صار ﴿فؤاد أم موسى فارغاً﴾ من كل شيء إلا من ذكر موسى وهمه، أو: فارغاً: خالياً من العقل؛ لما دهمها من الجزع والحيرة، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، ويؤيده قراءة ابن محيصن: «فرعاً»؛ بالزاي بلا ألف، أو: فارغاً من الوحي الذي أوحى إليها أن تلقه في اليم، ناسياً

(١) أي: الوقوف الظاهري، الشكلائي، دون تحقق القلب والنفس بحقائق الإيمان ولوازمه. فهذا هو الذي يخاف منه، مثل وقوف الخوارج، الذين وصفهم الرسول ﷺ بأن إيمانهم لا يجاوز حناجرهم، وأن قراءتهم لا تجاوز تراقيهم، وأن صلاتهم لا تجاوز تراقيهم، أي: أن تعبدتهم وتدينهم هر تدين برأني، شكلائي، لا يلبث من الأعماق، من الكيان الجواني للإنسان.

للعهد أن يرده إليها، لما دهمهما من الوجد، وقال لها الشيطان: يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى وأغرقتك أنت. وبلغها أنه وقع في يد فرعون، فعظم البلاء، ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ﴾: لتبوح به وتظهر شأنه وأنه ولدها.

قيل: لما رأت الأمواج تلعب بالتابوت؛ كادت تصيح وتقول: يا ابناء، وقيل: لما سمعت أن فرعون أخذ التابوت لم تشك أنه يقتله، فكادت تقول: يا ابناء؛ شفقة عليه. وأن، مخففة، أي: إنها كادت لتظهره ﴿لَوْ لَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾. والربط: تقويته؛ بإلهام الصبر والتثبيت، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: من المصدقين بوعدنا، وهو: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ﴾. وجواب لولا: محذوف، أي: لأبدته، أو: فارغاً من الهم، حين سمعت أن فرعون تبناه، إن كادت لتبدي بأنه ولدها؛ لأنها لم تملك نفسها؛ فرحاً وسروراً مما سمعت، لولا أنا ربطنا على قلبها وثبتناه؛ لتكون من المؤمنين الراضين بعهد الله، لا بتبني فرعون. قال يوسف بن الحسن: أمرت أم موسى بشيلين، ونهيت عن شيلين، وبشرت ببشارتين، فلم ينفعها الكل، حتى تولى الله حياطتها، فربط على قلبها.

﴿وَقَالَ لِأَخْتِهِ﴾ مريم: ﴿قُصِّيهِ﴾: اتبعي أثره؛ لتعلمي خبره، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ﴾ أي: أبصرته ﴿عَنْ جَنْبٍ﴾؛ عن بُعد. قال قتادة: جعلت تنظر إليه كأنها لا تريده، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أخته، وأنها تقصه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد، الطالب لمولاه، أن يصبح فارغاً من كل ما سواه، ليس في قلبه سوى حبيبه، فحينئذ يرفع عنه الحجاب، ويدخله مع الأخاب، فعلامة المحبة: جمع الهموم في هم واحد، وهو حب الحبيب، ومشاهدة القريب المجيب، كما قال الشاعر:

كَانَتْ لِقَابِي أَهْوَاءَ مُفَرِّقَةً	فَاسْتَجَمَعَتْ، مَذَرَاتُكَ الْعَيْنُ، أَهْوَائِي
فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسَدَهُ	وَصِرْتُ مَوْلَى الْوَرَى مَذْصِرْتُ مَوْلَائِي
تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ وَدِينَهُمْ	شُغْلًا بِذِكْرِكَ يَا دِينِي وَدُنْيَائِي

فرغ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار. والأغيار: جمع غير، وهو ما سوى الله، فإن تلاشى الغير عن عين العبد؛ شاهد مولاه في غيب ملكوته، وأسرار جبروته، وفي ذلك يقول القائل:

إِنْ تَلَاشَى الْكَوْنُ عَنْ عَيْنِ قَلْبِي	شَاهَدَ السَّرُّ غَيْبَهُ فِي بَيَانٍ
فَاطْرَحَ الْكَوْنُ عَنْ عِيَانِكَ، وَأَمَحَ	نُقْطَةَ الْغَايِبِينَ إِنْ أَرَدْتَ تَرَانِي

فمن شاهد حبيبه كاد أن يبدى به، ويروح بسره؛ فرحاً واغتياباً به، لولا أن الله يربط على قلبه، ليكون من الثابتين الراسخين في العلم به، وإن أبدى سر الحبيب سلط عليه سيف الشريعة، وبالله التوفيق.

ثم ذكر رجوع موسى إلى أمه، فقال:

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

قلت: المراضع: جمع مريض، وهي المرأة التي ترضع، أو: مريض - بالفتح - : موضع الرضاع، وهو الثدي. (لا تحزن): معطوف على (تقر).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ أي: تحريم منع، لا تحريم شرع، أي: منعاه أن يرضع ثدياً غير ثدي أمه. وكان لا يقبل ثدي مرضع حتى أهمهم ذلك. ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي: من قبل قصصها أثره، أو: من قبل أن نرده إلى أمه. ﴿ فَقَالَتْ ﴾ أخته. وقد دخلت داره بين المراضع، ورأته لا يقبل ثدياً؛ ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾؛ أرشدكم ﴿ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ ﴾؛ يحفظون موسى ﴿ لَكُمْ ﴾، وهم له ناصحون؛ لا يقصرون في إرضاعه وتربيته. والنصح: إخلاص العمل من شائبة الفساد. روى أنها لما قالت: ﴿وهم له ناصحون﴾؛ قال هامان: إنها لتعرفه وتعرف أهله، فخذوها حتى نخبر بقصة هذا الغلام، فهو الذي نحذر، فقالت: إنما أردت: وهم للملك ناصحون.

فانطلقت إلى أمها بأمرهم، فجاءت بها، والصبي على يد فرعون يعلله؛ شفقة عليه، وهريكي يطلب الرضاع، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال لها فرعون: ومن أنت منه، فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح، لا أوتى بصبي إلا قبلني. فدفعه إليها، وأجرى عليها مؤنة الرضاع. قيل: ديناراً في اليوم، وذهبت به إلى بيتها، وأنجز الله لها وعده في الرد، فعندها ثبت واستقر في علمها أنه سيكون نبياً. وذلك قوله تعالى: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ بولدها، ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ لفراقه، ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾، أي: وليثبت علمها؛ مشاهدة، كما ثبت؛ علماً.

وأما جزعها وحيرتها؛ فذلك من الطبع البشرى الجبلى، اللازم لضعف البشرية، لا ينجو منه إلا خواص الخواص، وإنما حل لها ما تأخذه من الدينار فى اليوم، كما قال السدى: لأنه مال حربى، لا أنه أجرة إرضاع ولدها.

﴿ولكن أكثرهم﴾ أى: القبط، أو الناس جملة، ﴿لا يعلمون﴾ أن ما وعد الله لا بد من إنجازه، ولو بعد حين، وهو داخل تحت علمها، أى: لتعلم أن وعد الله حق، ولتعلم أن أكثر الناس لا يعلمون فيرتابون فيه. وفيه التعريض بما فرط منها؛ حين سمعت بوقوع موسى فى يد فرعون، فجزعت، وهذا من الطبع البشرى كما تقدم. وأيضاً يجوز أن يكون الوعد منوطاً بشروط وأسباب، قد لا تعرفها، فلذلك لم ينفك خوفها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وحرمانا على الإنسان المراضع، من لبن الخمرة الأزلية، من قبل أن نلقيه بأهلها، فقالت له العناية السابقة: هل أدلك على أهل بيت الحضرة يكفلونك من رعونات البشرية، والهفوات القلبية، وهى الإصرار على المساوى والذنوب، ويرضعونك من لبن الخمرة الأزلية. وهم لك ناصحون، يدلونك على الله ولا يدلونك على غيره. فإن من ذلك على الله فقد نصحك، ومن ذلك على العمل فقد أتعبك، ومن ذلك على الدنيا فقد غشك. فرددناه إلى أمه، وهى الحضرة القدسية، التى خرج منها، بمتابعة شهوته وغفلته، كى تقر عين روحه بمشاهدة حبيبها، ولا تحزن على فوات شيء، إذ لم تفقد شيئاً، حيث وجدت الله تعالى؛ «ماذا فقد من وجدك؟ وما الذى وجد من فقدك؟» (١) ولتعلم أن وعد الله بالفتح على من توجه إليه بالراصة حق، ولكن أكثر أهل الغفلة لا يعلمون.

ثم ذكر سبب خروج موسى من مصر، فقال:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

قلت: «على حين غفلة»: حال، أى: دخل مخفياً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولما بلغ﴾ موسى ﴿أشده﴾ أى: نهاية القوة وتمام العقل، جمع شدة؛ كنعمة وأنعم. وأول ما قيل فى الأشد: بلوغ النكاح، وذلك أوله، وأقصاه: أربع وثلاثون سنة. ﴿واستوى﴾ أى: اعتدل

(١) من مناجاة سيدى ابن عطاء الله السكندرى. انظر الحكم بتبويب المفتى الهندى / ص ٤٢.

عقله وقوته، وهو أربعون سنة، ويُرَى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾: نبوة، أو: حكمة ﴿وعلمًا﴾: فقها في الدين، أو: علمًا بمصالح الدارين. والحاصل: لما تكامل عقله وبصيرته آتيناها حُكْمًا على عبادنا وعلمًا بنا. ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي: كما فعلنا بموسى وأمه؛ لما استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصدقت بوعد الله، فرددنا لها ولدها، وهبنا له الحكمة والنبوة، فكذلك نجزي المحسنين في كل أوان وحين.

قال الزجاج: جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان؛ لأنهما يؤديان إلى الجنة، التي هي جزاء المحسنين، والعالم الحكيم من يعمل بعلمه؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١)، فجعلهم جهالاً، إذ لم يعملوا بالعلم. هـ.

﴿ودخل المدينة﴾ أي: مصر، آتياً من قصر، فرعون، وكان خارجاً، وقال السدي: مدينة منف من أرض مصر، وقال مقاتل: قرية حابيين، على فرسخين من مصر. ﴿على حين غفلة من أهلها﴾، وهو ما بين العشاءين، أو: وقت القائلة، يعني: انتصاف النهار. قال السدي: لما كبر موسى؛ ركب مراكب فرعون، ولبس ملابسة، فكان يدعى موسى بن فرعون، فركب فرعون يوماً وركب موسى خلفه، فأدركه المقييل بقرب مدينة منف، فدخلها نصف النهار، وقد غلقت أسواقها، وليس في طرقها أحد، فرجد موسى رجلين.. إلخ.

قال ابن إسحاق: كان يجتمع إلى موسى طائفة من بنى إسرائيل ويقتدون به، فرأى مفارقة فرعون، وتكلم في ذلك حتى ظهر أمره، فأخافوه، فكان لا يدخل قرية إلا مستخفياً، فدخلها على حين غفلة. وقيل: إن موسى لما شب علا فرعون بالعصى، فقال: هذا عدو لي، فأخرجه من مصر، ولم يدخل عليهم إلى أن كبر وبلغ أشده، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها بخبر موسى، أي: من بعد نسيانهم خبره (٢)، ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾؛ يتضاربان، ﴿هذا من شيعته﴾؛ ممن على دينه من بنى إسرائيل، وقيل: هو السامري. وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، ﴿وهذا من عدوه﴾؛ من مخالفيه من القبط، وهو طباطخ فرعون. واسمه: «فليثور»، وقيل فيهما: «هذا وهذا»، وإن كانا غائبين؛ على جهة الحكاية، أي: إذا نظر إليهما الناظر قال: هذا وهذا.

وقال ابن عباس: لما بلغ موسى أشده كان يحمي بنى إسرائيل من الظلم والسخرة، فبينما هو يمشي نظر رجلين يقتتلان، أحدهما من القبط والآخر من بنى إسرائيل.

(١) من الآية ١٠٢ من سورة البقرة. (٢) أخرج هذه الأقوال الطبري في تفسيره (٢٠/٤٣ - ٤٤).

﴿ فاستغاثه ﴾ ؛ فاستنصره ﴿ الذى من شيعته على الذى من عدوه ﴾ أى : فسأله أن يغيثه الإعانة . ضمن استغاث أعان ، فعدها بـ « على » . روى أنه لما استغاث به ، غضب موسى ، وقال للفرعونى : خله عنك ؟ فقال : إنما أخذه ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك ، ثم قال الفرعونى لموسى : لقد هممت أن أحمله عليك ، ﴿ فوكزه موسى ﴾ ؛ صبره بجمع كفه ، أو : بأطراف أصابعه . قال الفراء الوكز : الدفع بأطراف الأصابع . ﴿ فقضى عليه ﴾ أى : قتله ، ولم يتعمد قتله ، وكان موسى عليه السلام ذا قوة وبطش ، وإنما فعل ذلك الوكز : لأن إغاثة المظلوم والدفع عنه دين فى المال كلها ، وفرض فى جميع الشرائع . وإنما عدّه ذنباً ؛ لأن الأنبياء لا يكفى فى حقهم الإذن العام ، فلذلك ﴿ قال هذا من عمل الشيطان ﴾ أى : القتل الحاصل ، بغير قصد ، من عمل الشيطان ، واستغفر ، وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان ، وسماه ظلماً لنفسه ، واستغفر منه ؛ لأنه كان مستأماً فيهم ، أو : لأنه قتله قبل أن يؤذن له فى القتل . وعن ابن جريح : ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر ، ولأن الخصوص يعظمون محقرات ما فرط منهم . ﴿ إنه ﴾ أى : الشيطان ﴿ عدو مفضل مبین ﴾ ؛ ظاهر العدو .

﴿ قال رب ﴾ أى : يارب ﴿ إني ظلمت نفسي ﴾ بفعل صار قتلاً ﴿ فاغفر لى ﴾ زلتى ، ﴿ فغفر له ﴾ زلته ، ﴿ إنه هو الغفور ﴾ بإقالة الزلل ، ﴿ الرحيم ﴾ بإزالة الخجل ، ﴿ قال رب بما أنعمت على ﴾ أى : بحق إنعامك على بالمغفرة ولم تعاقبنى ﴿ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ أى : لا تجعلنى أعين على خطيئة ، ترسل للعصمة بإنعامه عليه . وقيل : إنه قسم حذف جوابه ، أى : أقسم بإنعامك على بالمغفرة ، إن عصمتنى ، فلن أكون ظهيراً للمجرمين ، وأراد بمظاهرة المجرمين صحبة فرعون ، وانتظامه فى جملة ، وتكثير سواده ، حيث كان يركب معه كالولد مع الوالد .

قال ابن عطية : واحتج أهل الفضل والعلم بهذه الآية فى منع خدمة أهل الجور ، ومعاونتهم فى شيء من أمورهم ، ورأوا أنها تتناول ذلك . هـ . قال الوصافى لعطاء بن أبى رباح : إن لى أخاً يأخذ بقلمه ، وإنما يكتب ما يدخل ويخرج ، وله عيال ، ولو ترك لاحتاج وأذآن . فقال : من الرأس ؟ فقال : خالد بن عبد الله ، قال : أما تقرأ قول العبد الصالح : ﴿ رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ ، فإن الله عز وجل سيعينه . هـ .

الإشارة : خصوصية الولاية كخصوصية النبوة ، لا تعطى ، غالباً ، إلا بعد بلوغ الأشد وكمال قوة العقل ، وحصول الاستواء ، وهو أن يستوى عنده المدح والذم ، والعز والذل ، والمنع والعطاء ، والفقر والغنى ، وتستوى حاله فى القبض والبسط ، والغضب والرضا ، فإذا استوى فى هذه الأمور آتاه الله حكماً وعلماً ، وجزاه جزاء المحسنين ، وكتب شيخ شيخنا إلى بعض تلامذته : أما بعد ، فإن تورعت فى أقوالك وأفعالك ، وتوسعت فى أخلاقك ، حتى

يستوى عندك من يمدحك ويذمك، ويعطيك ويمنعك، ومن يؤذك وينفكك، ومن يشدد عليك ويوسع، فلا أشك في كمالك. هـ.

فإن قلت: لم ذكر الحق، جلّ جلاله، الاستواء في حق سيدنا موسى، ولم يذكره في حق نبيه يوسف - عليهما السلام؟ فالجواب: أن سيدنا يوسف عليه السلام تربى في السجن وفي نار الجلال، وكل محنة تزيد تهذيباً وتدريباً، فما بلغ الأشد حتى وقع له كمال الاستواء، بخلاف سيدنا موسى عليه السلام فإنه تربى في العز والجمال، فاحتاج إلى تربية وتهذيب، بعد كمال الأشد، فلم يحصل له كمال الأدب إلا بعد الاستواء الذي يليق به، فلذلك ذكره في حقه. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى:

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرُوا بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ١٨ ﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَى أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ١٩ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَى ابْنُ الْمَلَأِ يَتِمُرُونَ بِكَ لِتَقْتُلُوهُ فَأَخْرَجَ إِنِّي لَكِ مِنَ النَّاصِحِينَ ٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٢١ ﴾

قلت: جملة (يسعى): حال من (رجل)؛ لأنه وصِفَ بالجار.

يقول الحق جلّ جلاله: ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ موسى ﴿ في المدينة ﴾ أي: مصر ﴿ خائفاً ﴾ على نفسه من قتله؛ قوداً بالقبلى، وهذا الخوف أمر طبيعي لا ينافي الخصوصية، ﴿ يترقب ﴾: ينتظر الأخبار عنه، أو ما يقال فيه، أو يترصد الاستفادة منه. وقال ابن عطاء: خائفاً على نفسه، يترقب نصرة ربه، ﴿ فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ﴾: يستغيثه، مشق من الصراخ؛ لأنه يقع في الغالب عند الاستغاثة. والمعنى: أن الإسرائيليين الذي خلصه موسى استغاث به ثانياً من قبلى آخر، ﴿ قال له موسى ﴾ أي: للإسرائيليين: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أي: خال عن الرشيد، ظاهر الغي، فقد قاتلت بالأمس رجلاً فقتلته بسببك. قال ابن عباس: أتى فرعون، فقيل له: إن بنى إسرائيل قد قتلوا مدا رجلاً، فالقصاص، فقال: ابغوني القاتل والشهود، فبينما هم يطلبون إذ مر موسى من الغد،

فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً آخر، يريد أن يسخره، فاستغاث به الإسرائيلي على الفرعوني، فوافق موسى نادماً على القتل، فقال للإسرائيلي: إنك لغوي مبين^(١).

﴿ فلما أن أرادَ موسى ﴿ أن يبطش بالذى ﴾ ؛ بالقبطى الذى ﴿ هو عدو لهما ﴾ ؛ لموسى وللإسرائيلي ؛ لأنه ليس على ديدهما، أو: لأن القبط كانوا أعداء بنى إسرائيل، أى: فلما مدَّ موسى يده ؛ ليعطش بالفرعوني، خشى الإسرائيلي أن يريده، حين قال: ﴿ إنك لغوي مبين ﴾، فقال: ﴿ يا موسى أتريدُ أن تقتلنى كما قتلتَ نفساً بالأمس ﴾، يعنى: القبطى، ﴿ إن ﴾ ؛ ما ﴿ تريدُ إلا أن تكون جباراً ﴾ ؛ قتالاً بالغضب، ﴿ فى الأرض ﴾ ؛ أرض مصر، ﴿ وما تريدُ أن تكون من المصلحين ﴾ فى كظم الغيظ.

وقيل: القائل: ﴿ يا موسى أتريدُ... ﴾، إلخ، هو القبطى، ولم يعلم أن موسى هو الذى قتل الرجل بالأمس، ولكن لما قصد أن يمنعه من الإسرائيلي استدل على أن الذى قتل صاحب هذا الرجل بالأمس هو موسى، فلما ذكر ذلك شاع فى أفواه الناس أن موسى هو الذى قتل القبطى بالأمس، فأمسك موسى عنه، ثم أخبر فرعون بذلك؛ فأمر بقتل موسى.

﴿ وجاء رجلٌ من أقصى المدينة ﴾ ؛ من آخرها، واسمه: حزقيل بن حبوراء، مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون، ﴿ يسعى ﴾ ؛ يسرع فى مشيه، أو: يمشى على رجله، ﴿ قال ياموسى إن الملائكة يأتون بك ﴾ ، أى: يتشاورون فى قتلك، ويأمر بعضهم بعضاً بذلك. والائتمار: التشاور، ﴿ فأخرج ﴾ من المدينة، ﴿ إني لك من الناصحين ﴾ ، فاللام فى (لك): للبيان، وليس بصلة؛ لأن الصلة لا تتقدم على الموصول، إلا أن يتسامح فى المجرور، ﴿ فخرج منها ﴾ ؛ من مصر ﴿ خائفاً يترقب ﴾ ؛ ينتظر الطلب ويتوقعه، ﴿ قال رب نجنى من القوم الظالمين ﴾ ؛ قوم فرعون. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فى الآية دليل على أن الخوف عند الدواهي الكبار لا ينافى الخصوصية؛ لأنه أمر جليل، لكنه يخف ويهون أمره، وفيها دليل على جواز الفرار من مواطن الهلاك، يفر من الله إلى الله، ولا ينافى التوكل، وقد اختفى ﷺ من الكفار بغار ثور، واختفى الحسن البصرى من الحجاج، عند تلميذه حبيب العجمي. وفيها أيضاً دليل على أن المعصية قد تكون سبباً فى نيل الخصوصية، كأكل آدم من الشجرة، كان سبباً فى نيل الخلافة، وعمرة الأرض، وما نشأ من صلبه من الأنبياء والأولياء وجهابذة العلماء، وكقتل موسى ﷺ نفساً لم يؤمر بقتلها، كان سبباً فى خروجه للتربية عند شعيب ﷺ، وتهيته للنيرة والرسالة والاصطفائية، فكل ما يوجب التواضع والانكسار يورث التقريب عند الملك الغفار، والحاصل: أن من سبقت له العناية، ونال فى الأزل مقام المحبوبة؛

(١) ذكره البغوى فى تفسيره (٦ / ١٩٨).

صارت مساوئه محاسن، ومن سبق له العكس صارت محاسنه مساوئ. اللهم اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت. وفي الحديث: «إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب» (١).

قال في القوت: واعلم أن مسامحة، الله عز وجل لأوليائه - يعني: في هفواتهم - في ثلاث مقامات: أن يقيمه مقام حبيب صديق، لما سبق من قدم صدق، فلا تنقصه الذنوب؛ لأنه حبيب. المقام الثاني: أن يقيمه مقام الحياء منه، بإجلال وتعظيم، فيسمح له، وتصغر ذنوبه؛ للإجلال والمنزلة، ولا يمكن كشف هذا المقام، إلا أنا روينا عن رسول الله ﷺ: أنه ذكر طائفة فقال: «يدفع عنهم مساوئ أعمالهم بمحاسن أعمالهم». المقام الثالث: أن يقيمه مقام الحزن والانكسار، والاعتراف بالذنوب والإكثار، فإذا نظر حزنه وهمه، ورأى اعترافه وغمه، غفر له؛ حياءً منه ورحمة. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر توجه موسى إلى مدين، واتصاله بشعيب - عليهما السلام - فقال:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۖ﴾ (٢٢) ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّجَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۖ﴾ (٢٣) ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٤)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولما توجه﴾ موسى ﴿تلقاء مدين﴾؛ نحوها وجهتها. ومدين: قرية شعيب، سميت بمدين بن إبراهيم، كما سميت المدائن باسم أخيه مدائن، ويقال له أيضاً: «مدان بن إبراهيم»، ولم تكن مدين في سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام، ولعله إنما لم يتسلط عليها؛ لما وصله من خبر إهلاك أهلها لما طغوا على أنبيائهم، فخاف على نفسه. قال ابن عباس: خرج موسى، ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بريه.

﴿قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل﴾ أى: وسطه ونهجه. فلما خرج، عرض له ثلاث طرق، فأخذ في أوسطها، وجاء الطلاب عقبه، فأخذوا في الآخرين. روى أن ملكاً جاءه على فرس بيده عنزة، فانطلق به إلى

(١) أخرجه الديلمى (مسند الفردوس ٧٧/٢ ح ٤٢٣٢) من حديث أنس. ولفظه: «الثائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب، وزاد الزبيدي عزوه في إتحاف السادة المتقين (٦٠٩/٩) لابن النجار في تاريخه.

مدين. وروى أنه خرج بلا زاد ولا درهم، ولا ظهر، ولا حذاء - أى: نعل -، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر، فما بلغ مدين حتى وقع خُفُّ قَدَمِهِ، وخضرة البقل ترى على بطنه (١).

﴿ ولما ورد ﴾؛ وصل ﴿ ماء مدين ﴾؛ بلراً لهم، ﴿ وجد عليه ﴾؛ على جانب البئر ﴿ أمة ﴾؛ جماعة كثيرة ﴿ من الناس ﴾؛ من أناس مختلفين ﴿ يسقون ﴾ مواشيهم، ﴿ ووجد من دونهم ﴾؛ فى مكان أسفل من مكانهم ﴿ امرأتين تذودان ﴾: تطردان غنمهما عن الماء، حتى تصدُر مواشى الناس ثم تسقيان؛ لأن على الماء من هر أقوى منهما، فلا يتمكنان من السقى. أو: لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم. والذود: الطرد والدفع.

﴿ قال ﴾ لهما موسى: ﴿ ما خطبكما ﴾: ما شأنكما لا تسقيان؟ والأصل: ما مخطوبكما، أى: مطلوبكما، فسمى المطلوب خطباً، ﴿ قالتا لا نسقى ﴾ غنمنا ﴿ حتى يصدر الرعاء ﴾، أى: يصرفوا مواشيهم، يقال: أصدر عن الماء وصدر، والمضارع: يصدر ويصدر، والرعاء: جمع راع، كقائم وقيام، والمعنى: لا نستطيع مزاحمة الرجال، فإذا صدروا سقينا مواشينا، ﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾ السن، لا يمكنه سقى الأغنام، وهو شعيب بن نويب بن مدين بن إبراهيم - عليهما السلام - وقيل: هو يثرون، بن أخى شعيب (٢)، وكان شعيب قد مات بعدما كفَّ بصره، ودفن بين المقام وزمزم. والأول أصح وأشهر.

﴿ فسقى لهما ﴾ أى: فسقى غنمهما لأجلهما؛ رغبة فى المعروف وإغاثة الملهوف، روى أنه نعى القوم عن رأس البئر، وسألهم دلوًا، فأعطوه دلوهم، وقالوا: استق به، وكانت لا ينزعها إلا أربعون، فاستقى بها، وصبها فى الحوض، ودعا بالبركة. وقيل: كانت آبارهم مغطاة بحجارة كبار، فعمد إلى بئر، وكان حجرها لا يرفعه إلا جماعة، فرفعه وسقى للمراتين. ووجه مطابقة جوابهما سؤاله: أنه سألهما عن سبب الذود، فقالتا: السبب فى ذلك أنا امرأتان مستورتان ضعيفتان، لا نقدر على مزاحمة الرجال، ونستحى من الاختلاط بهم، فلا بد لنا من تأخير السقى إلى أن يفرغوا. وإنما رضى شعيب ﷺ لابنتيه بسقى الماشية؛ لأن الأمر فى نفسه مباح مع حصول الأمن، وأما المروءة فعادات الناس فيها متباينة، وأحوال العرب فيها خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضار، خصوصاً إذا كانت الضرورة. قاله النسفى. قلت: وقد كنت أعترض على أهل الجبل رعى النساء المواشى حتى تذكرت قضية ابنتى شعيب، لكن السلامة فى زماننا هذا حبس النساء فى الديار؛ لكثرة أهل الفساد.

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٨٣ - ٣٨٤).

(٢) ذكره فى تفسيره (٦/٢٠٠) عن وهب بن منبه.

﴿ثم﴾ لما سقى لهما ﴿تولى إلى الظل﴾؛ ظل شجرة. عن عمرو بن ميمون، عن عبدالله؛ قال: أحبيت ليلتين على جمل لي، حتى صبحت مدين، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى، فإذا هي شجرة خضراء، فأخذ جملي يأكل منها ثم لفظها. هـ (١). وفي الآية دليل على جواز الاستراحة والاستظلال في الدنيا، بخلاف ما يقوله بعض المتكشفة، وسيأتي في الإشارة تمامه إن شاء الله.

ثم بث شكواه لمولاه ﴿فقال رب إني لما أنزلت إني من خير﴾ قليل أو كثير ﴿فقير﴾؛ محتاج. قال ابن عباس: لقد قال ذلك وإن خضراء البقل لتتراءى في بطنه، من الهزال. قيل: لم يذق طعاماً منذ سبعة أيام، وقد لصق بظهره بطنه، وما سأل الله تعالى الأكلة. وفي هذا تنبيه على هوان الدنيا على الله تعالى. وقال ابن عطاء: نظر من العبودية إلى الربوبية، وتكلم بلسان الافتقار، لما ورد على سره من الأنوار. هـ.

الإشارة: ولما توجه القلب تلقاء مدين المآرب، ومنتهى الرغائب - وهي الحضرة القدسية - قال: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل، أي: وسط الطريق التي توصل إليها، وهو شيخ التربية. ولما ورد مناهله، ومحل شربه؛ وجد عليه أمة من الناس يسقون قلوبهم من شراب تلك الخمرة، ويطلبون مثل ما يطلب، فإن كان قوياً في حاله؛ وصل من كان ضعيفاً وسقى له، ثم نزل إلى ظل المعرفة، في نسيم برد الرضا والتسليم، قائلاً، بلسان التضرع، سائلاً من الله المزيد: رب إني لما أنزلت إني من خير الدارين، وعلى الأبد، فقير محتاج إلى مزيد الفضل والكرم.

وقال في لطائف المدن: ﴿ثم تولى إلى الظل﴾؛ قصداً لشكر الله تعالى على ما ناله من النعمة - يعني: نعمة الظل الحسى - وجعله أصلاً في استعمال الطيبات، وتناولها بقصد الشكر، ومثله في التنوير. وفي سنن أبي داود عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان ﷺ يُسْتَعَذَّبُ له الماء من بيوت السُّقْيَا» (٢)، قال ابن قتيبة: هي عين، بينها وبين المدينة يومان. هـ. وكان الشيخ ابن مشيش يقول لأبي الحسن (رضي الله عنه): (يا أبا الحسن، برّد الماء؛ فإن النفس إذا شربت الماء البارد؛ حمدت الله بجميع الجوارح، وإذا شربت الماء الساخن؛ حمدت الله بكرازة).

ثم ذكر اتصاله بشعيب، فقال:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَبَى يَدْعُوكَ لِجَزِيكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَتَّابِتْ أُسْتَجِرُهُ إِنَّكِ خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾

(١) أخرجه ابن جرير (٥٨/٢٠) وذكره ابن كثير (٣/٣٨٤).

(٢) أخرجه أبو داود في (الأثرية، باب في إيكاء الآنية، ح ٣٧٣٥، ٤/١١٩) والحاكم (٤/١٣٨) وبنحوه، أحمد في المسند (٦/١١٠). والسُّقْيَا: منزل بين مكة والمدينة، على يمين من المدينة. انظر: النهاية في غريب الحديث (سقا، ٢/٣٨٢).

قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجْتُ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾
قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

قلت: (تمشى): حال من (إحداهما)، و(على استحياء): حال من ضمير (تمشى)، أي: تمشى مستحيية. و(القصص): مصدر، سُمِّيَ به المقصوص.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فجاءته إحداهما﴾؛ وهى التى تزوجها، وذلك أنه لما سقى لهما رجعا إلى أبيهما بغنمهما بطاناً حَفْلاً، فقال لهما: ما أعجلكما؟ فقالتا له: وجدنا رجلاً صالحاً رحماً؛ فسقى لنا أغنامنا، فقال لإحداهما: أدعيه، فجاءته ﴿تمشى على استحياء﴾ قد سترت وجهها بكفها، واستترت بكم درعها. وهذا دليل على كمال إيمانها وشرف عنصرها؛ لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها، ولم تعلم أيجيبها أم لا؟ فقالت: ﴿إن أبى يدعوك ليجزئك أجر ما سقيت لنا﴾، «ما، مصدرية، أى: أجر سقياك لنا، فتبعها موسى، فألزقت الريح ثوبها بجسدها، فوصفته، فقال لها: امشى خلفى، واتعتى الطريق، فإننا بنى (١) يعقوب، لا ننظر إلى أعجاز النساء.

﴿فلما جاءه وقص عليه القصص﴾، أى: قصته وأحواله مع فرعون، وكيف أراد قتله، ﴿قال﴾ له: ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾؛ فرعون وقومه؛ إذ لا سلطان له على أرضنا - مدين -، أو: قبل الله دعاءك فى قولك: «رب نجنى من القوم الظالمين». وفيه دليل على العمل بخبر الواحد، ولو أنثى، والمشى مع أجنبية على ذلك الاحتياط والتورع. قاله الدسقى. وفيه نظر؛ لعصمة الأنبياء - عليهم السلام -، وأما أخذ الأجر على البر والمعروف؛ فقليل: لا بأس به عند الحاجة، كما كان لموسى عليه السلام، على أنه روى أنه لما قالت له: ﴿ليجزئك﴾؛ كره ذلك. وإنما أجابها لئلا يخيب قصدها؛ لأن للقاصد حرمة.

ولما وضع شعيب الطعام بين يديه؛ امتنع، فقال شعيب: أئتت جائعاً؟ فقال: بلى، ولكن أخاف أن يكون عوضاً مما سقيت لهما، وإنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا، ولا نأخذ على المعروف شيئاً، فقال شعيب: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، فأكل (٢).

(٢) عزاه السيرطى فى الدر (٢٣٨/٥) لابن عساكر، عن أبى حازم.

(١) فى الأصول [بنو].

﴿قالت إحداهما يا أبتِ استأجره﴾، أي: اتخذهُ أجيراً لرعى الغنم. روى أن كبراهما كانت تسمى: «صفراء»، والصغرى: «صفيراء»، وقيل: «صابورة»، وليا. و«صفراء» هي التي ذهبت به، وطلبت إلى أبيها أن يستأجره، وهي التي تزوجها. قاله وهب بن منبه وغيره، فانظره مع ما في الحديث، قال ﷺ: «تزوج صفراهما، وقضى أوفاهما»^(١). ويمكن الجمع بأن يكون زوجه إحداهما ثم نقله إلى الأخرى.

ثم قالت التي طلبت استئجاره: ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾، فقال: ما أعلمك بقوته وأمانته؟ فذكرت نزع الدلو، أو رفع الحجر عن البئر، وأمرها بالمشي خلفه. وفي رواية عند الثعلبي: أما قوته: فإنه عمد إلى صخرة لا يرفعها إلا أربعون رجلاً، فرفعها عن فم البئر. ثم ذكرت أمر الطريق. وقولها: ﴿إن خير من استأجرت...﴾ إلخ: كلام جامع؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان: الكفاية والأمانة، في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك وتم مرادك. وقيل: القوي في دينه، الأمين في جوارحه. وقد استغلت بهذا الكلام، الجارى مجرى المثل، عن أن تقول: استأجره لقوته وأمانته.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب، وصاحب يوسف في قوله: ﴿عسى أن ينفعنا﴾^(٢)، وأبو بكر في استخلافه عمر.

﴿قال﴾ شعيب لموسى - عليهما السلام - : ﴿إني أريد أن أنكحك﴾: أزوجه ﴿إحدى ابنتي هاتين﴾، رقله: ﴿هاتين﴾ يدل على أن له غيرهما. وهذه مواعدة منه، لا عقد، وإلا لقال: أنكحك. ﴿على أن تأجرني﴾ أي: تكون أجيراً لي، من أجرته: إذا كنت له أجيراً ﴿ثمانى حجج﴾: سدين، والحجة: السنة. والتزوج على رعى الزم جائز في شرعنا، على خلاف في مذهبنا. ﴿فإن أقمتم عشراً﴾ أي: عشر حجج ﴿فمن عندك﴾ أي: فذلك تفضل منك، ليس بواجب عليك، أو: فإتمامه من عندك، ولا أحتمه عليك. ﴿وما أريد أن أشق عليك﴾ بالزام أتم الأجلين. من المشقة، ﴿ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ في حسن المعاملة، والوفاء بالعهد، أو مطلقاً. وعلق بالمشقة، مراعاة لحسن الأدب مع الربوبية.

﴿قال﴾ موسى عليه السلام: ﴿ذلك﴾ العهد وعقد الأجرة ﴿بيني وبينك﴾ أي: ذلك الذي قلته، وشارطتني عليه، قائم بيننا جميعاً، لا يخرج واحد منا عنه. ثم قال: ﴿أيما الأجلين قضيت﴾ أي: أي الأجلين؛ قضيت من

(١) أي: تزوج صفيرى البلتين، وقضى أوفى الأجلين، وهو عشر سنوات. وأما الحديث فقد أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٢٨/٢) عن أبي ذر. والجزء الثاني من الحديث أخرجه البخارى بلفظ: «قضى أكلهما وأطيبهما، وانظر تخريجه في الصفحة بعد التالية.

(٢) كما في الآية ٢١ من سورة يوسف.

الأجلين: العشر أو الثمانى، ﴿فلا عدوان على﴾ أى: لا يتعدى على طلب الزيادة عليه، قال المبرد: قد علم أنه لا عدوان عليه فى إتمامهما، ولكن جمعهما ليُجعل الأقل كالأتم فى الوفاء، وكما أن طلب الزيادة على الأتم عدوان فكذلك طلب الزيادة على الأقل. ﴿والله على ما نقول وكيل﴾ أى: رقيب وشهيد.

واختلف العلماء فى وجوب الإشهاد فى النكاح على قولين، أحدهما: أنه لا يُعتقد إلا بشاهدين، وبه قال أبو حنيفة والشافعى، وقال مالك: يُعتقد بدون شهود؛ لأنه عقدٌ معارضة، فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان، والإظهار بالدف والدخان؛ لتمييز من السفاح، ويجب عند الدخول.

رُوى أن شعيباً كانت عنده عصي الأنبياء - عليهم السلام -، فقال لموسى بالليل: أدخل ذلك البيت فخذ عصاً من تلك العصى، فأخذ عصاً هبط بها آدم من الجنة، ولم يزل الأنبياء - عليهم السلام - يتوارثونها، حتى وقعت إلى شعيب، فلما أخذها، قال له شعيب: ردها وخذ غيرها، فما وقع فى يده إلا هى سبع مرات - وفى رواية السدى: أمر ابنته أن تأتية بعصا فجاءته بها، فلما رآها الشيخ قال: آتية بغيرها، فألقته لتأخذ غيرها، فلا تصير فى يدها إلا هى، مراراً، فرفعتها إليه، فعلم أن له شأنًا. ولما أصبح قال له شعيب: إذا بلغتَ مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك، فإن الكلاً، وإن كان بها أكثر، إلا أن فيها تتيئاً، أخشاه عليك وعلى الغنم، فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها، فمشى على أثرها، فإذا عشب ريف لم ير مثله، فنام، فإذا التئنين قد أقبل، فحاربتة العصا حتى قتلته، وعادت إلى جنب موسى دامى، فلما أبصرها دامية، والتئنين مقتولاً؛ ارتاح لذلك. ولما رجع إلى شعيب بالغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن، وأخبره موسى، فرح، وعلم أن لموسى شأنًا، وقال له: إني وهبت لك من نتاج غنمى، هذا العام، كُلْ أَدْرَعْ وَدَرَعَاءَ - أى: كل جدى أبلق، وأنثى بقاء - فأوحى الله تعالى إلى موسى فى المنام: أن اضرب بعصاك الماء الذى تسقى منه الغنم، فضرب، ثم سقى الأغنام، فوضعت كلها بقاء، فسلمها شعيب إليه.

وذكر الإمام اللجائى فى كتابه (قطب العارفين): أن موسى ﷺ انتهى، ذات يوم، بأغنامه إلى واد كثير الذئاب، وكان قد بلغ به التعب، فبقى متحيراً، إن اشتغل بحفظ الغنم عجز عن ذلك؛ لغلبة النوم عليه والتعب، وإن هو طلب الراحة، وثبت الذئاب على الغنم، فرمى السماء بطرفه، وقال: إلهى إنه أحاط علمك، ونفذت إرادتك، وسبق تقديرك، ثم وضع رأسه ونام. فلما استيقظ وجد ذئباً واضعاً عصاه على عاتقه، وهو يرعى الغنم، فتعجب موسى من ذلك، فأوحى الله إليه: يا موسى؛ كن لى كما أريد، أكن لك كما تريد. قال: فهذه إشارة تدل على أن: مَنْ هَرَبَ مِنَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ؛ كَفَاهُ اللَّهُ، عز وجل، مَنْ دُونَهُ. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فجاءته - أي: القلب - إحدى الخصلتين؛ الفداء والبقاء، تمشى على مهل وقدر؛ فإن الوصول إلى المقامات إنما يكون بتدريج، على حسب القدر السابق. قالت إحدى الخصلتين: إن ربي يدعوك إلى حضرته؛ ليجزيك أجر ما سقيت، واستعملت في جانب الوصول إلينا. فلما جاءه، أي: وصل إليه، وتمكن منه، وقص عليه القصص، وهو ما جرى له مع نفسه وجنودها من المجاهدات والمكابدات، قال: لا تخف اليوم، حين وصلت إلينا، نجوت من القوم الظالمين، قالت إحداهما: يا رب استأجره في العبودية؛ شكراً، إن خير من استأجرت القوي الأمين؛ لأن عمله بالله، محفوفاً برعاية الله، قال: إنني أريد أن أعطيك إحدى الخصلتين، إما الإقامة في الفداء المستغرق، أو الرجوع إلى البقاء المستفيق، لتقوم بالأدب، على أن تخدم ثمانى حجج، فإن أتممت عشرًا، لزيادة التمكين، فمن عندك، فأقل خدمة المريد للشيخ ثمانى سنين، ونهايتها نهاية التمكين. قال الورتجبي: لأن شعيباً، عليه السلام رأى بدور النبوة أن موسى عليه السلام يبلغ درجة الكمال في ثمانى حجج، ولا يحتاج إلى التربية بعد ذلك، ورأى أن كمال الكمال في عشر حجج؛ لأنه رأى أن بعد العشرة لا يبقى مقام الإرادة، ويكون بعد ذلك حراً، ولذلك قال: وما أريد أن أشق عليك. هـ.

ثم ذكر رجوع موسى إلى مصر، فقال:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَ إِلَىٰ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَمْ يَعْقِبْ يَمْوِسُ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفُ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٣١﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرَّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٣٢﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾، قال ﷺ: «قضى أبعدهما وأطيبهما» (١)، وفي رواية: «أبرهما وأوقاهما»، ﴿ وسار بأهله ﴾ أي: امرأته، نحو مصر، قال مجاهد: ثم استأذن موسى أن يزور

(١) أخرجه البخاري في (الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد ح ٢٦٨٤)، عن ابن عباس، موقوفاً. وأخرجه البزار (كشف الأستار ٢/٦٣)، والحاكم في (التفسير ٢/٤٠٧)، والطبري (٦٨/٢٠)، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ مرفوعاً. وانظر: الفتح السماوي (٢/٨٩٣ - ٨٩٤).

أهله بمصر، فأذن له، فسار بأهله في البرية، فأرى إلى جانب الطور الغربي الأيمن، في ليلة مظلمة شديدة البرد، وكان أخذ على غير طريق، يخاف ملوك الشام - قلت: ولعلهم كانوا من تحت يد فرعون - فأخذ امرأته الطلق، فقدح زنده، فلم يور، فأنس من جانب الطور نارا. هـ.

وقال ابن عطاء: لما تم أجل المحنة، [ودنت] (١) أيام الزلفة، وظهرت أنوار النبوة، سار بأهله؛ ليشاركوا معه في لطائف صنع ربه. هـ. ﴿آنس﴾ أي: أبصر ﴿من جانب الطور﴾ أي: من الجهة التي تلو الطور ﴿نارا﴾: قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بخبر ﴿عن الطريق﴾ لأنه كان ضل عنها، ﴿أو جذوة من النار﴾ أي: قطعة وشعلة منها، والجذوة - مثالة الجيم: العود الذي احترق بعضه، وجمعه: جذى. ﴿لعلكم تصطلون﴾؛ تستدفئون بها. والاصطلاء على النار سنة المتواضعين. وفي بعض الأخبار: «اصطلوا؛ فإن الجابرة لا يصطلون».

﴿فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الأيمن﴾ بالنسبة إلى موسى، أي: عن يمين موسى، ﴿في البقعة المباركة﴾ بتكليم الله تعالى فيها، ﴿من الشجرة﴾؛ بدل من «شاطئ»؛ بدل اشتمال، أي: من ناحية الشجرة، وهي العناب، أو العوسج (٢)، أو سمرة (٣). وقال وهب: عليقا (٤). ﴿أن يا موسى﴾ أي: يا موسى، أو: إنه ياموسى ﴿إني أنا الله رب العالمين﴾، قال البيضاوي: هذا، وإن خالف ما في «طه» والنمل؛ لفظا، فهو طبقه في المقصود. هـ.

قال جعفر الصادق: أبصر نارا، دلته على الأنوار؛ لأنه رأى الدور على هيئة النار، فلما دنا منها؛ شملته أنوار القدس، وأحاطت به جلابيب الأنس، فخاطبه الله بألطف خطاب، واستدعى منه أحسن جواب، فصار بذلك مكلما شريفا، أعطي ما سأل، وأمن ممن خاف. هـ.

قال القشيري: فكان موسى عند الشجرة، والنداء من الله لا منها، وقد حصل الإجماع أن موسى، تلك الليلة، سمع كلام الله، ولو كان النداء من الشجرة؛ لكانت المتكلمة هي، فلأجل الإجماع قلنا: لم يكن النداء منها، وإلا فنحن نجوز أن يخلق الله نداء في الشجرة. هـ. قلت: وسيأتي في الإشارة ما لأهل التوحيد الخاص، وما قاله - هو مذهب أهل الظاهر.

(١) في الأصول [ودنا]. (٢) شجر من فصيلة الباذنجيات، شائك الأغصان وأحدثه: عوسجة. انظر اللسان (٢٩٣٧/٤). مادة عسج).

(٣) الميمرة: شجرة من العناب، وهي من جيد الخشب، والجمع سمر وسمرات. انظر اللسان (٢٠٩٢/٣). مادة سمر).

(٤) العليق. شجر من شجر الشوك لا يعظم. وإذا نضب فيه شيء لم يكن يتخلص منه من كلرة شوكه. ولذلك سمي عليقا. انظر اللسان (٣٠٧٤/٤). مادة علق).

ثم قال تعالى: ﴿وَأَن أَلْقَ عَصَاكَ﴾، أى: نودى: أن ألق عصاك، فألقاها، فقلبها الله ثعباناً، ﴿فلما رآها تهتزُّ﴾؛ تتحرك ﴿كأنها جانٌّ﴾؛ حية رقيقة. فإن قيل: كيف قال فى موضع: (كأنها جان)، وفى أخرى: ﴿فإذا هى ثعبان مبين﴾ (١)؟ قلت: هى فى أول أمرها جان، وفى آخر أمرها ثعبان؛ لأنها كانت تصير حية على قدر العصا، ثم لا تزال تتلفخ حتى تصير كالثعبان، أو: يريد فى سرعة الجان وخفته، وفى قوة الثعبان. فلما رآها كذلك ﴿ولم يمدبراً ولم يعقب﴾؛ ولم يرجع عقبه. فقيل له: ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾، أى: أمنت من أن ينالك مكروه من الحية.

و﴿اسلك﴾: أدخل ﴿يدك فى جيبك﴾؛ جيب قميصك ﴿تخرج بيضاء﴾ لها شعاع كشعاع الشمس ﴿من غير سوء﴾؛ برص. ﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾، أى: الخوف، فيه لغات: «الرهب»، بفتح الحاء، وبفتحتين، وبالفتح والسكون، وبالضم معه، وبضممتين. والمعنى: وضمم يدك إلى صدرك؛ يذهب ما لحقك من الخوف لأجل الحية، وعن ابن عباس رضي الله عنه: (كل خائف، إذا وضع يده على صدره، ذهب خوفه) (٢). وقيل: المراد بضم يده إلى جناحه تجلده، وضبطه نفسه عند انقلاب العصا حية، حتى لا يضطرب ولا يرهب، استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف؛ نشر جناحيه وأرخاهما.

﴿فذا نك﴾ أى: اليد والعصا، ومن شدد؛ فأحدى النونين عوضاً من المحذوف، ﴿برهانان﴾ أى: حجتان نيرتان. وسميت الحجة برهاناً؛ لأنارتها، من قولهم: بره الشيء: إذا أبيض، والمرأة برهَاء وبرهْرمة: أى: بيضاء. ﴿من ربك إلى فرعون وملئه﴾ أى: أرسلناك إلى فرعون وقومه بهاتين الحجتين، ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾: خارجين عن الحق، كافرين بالله ورسوله.

الإشارة: قد تقدم فى سورة طه، (٣) بعض إشارتها. ويؤخذ من الآية أن تزوج المريد، بعد كمال تربيته، كمال، وأما قبل كماله: فإن كان ياذن شيخه؛ فلا يضره. وربما يتربى له اليقين أكثر من غيره. قوله تعالى: ﴿وسار بأهله﴾؛ قال الورتجبي: أفهم أن مواقيت الأنبياء والأولياء وقت سير الأسرار من بدء الإرادة إلى عالم الأنوار. هـ. وقوله تعالى: ﴿آنست ناراً﴾؛ قال الورتجبي: الحكمة فى ذلك: أن طبع الإنسانية يميل إلى الأشياء المعهودة، لذلك تجلى النور فى النار؛ لاستئناسه بلباس [الاستئناس] (٤)، ولا تخلو النار من الاستئناس، خاصة فى الشتاء، وكان شتاءً، فتجلى الحق بالنور فى لباس النار؛ لأنه كان فى طلب النار، فأخذ الحق مراده، وتجلى من حيث إرادته، وهو سدة الله تعالى. هـ.

(٢) ذكره البغوى فى تفسيره (٢٠٧/٦).

(١) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

(٤) فى الورتجبي: «الاستئناس».

(٣) راجع المجلد الثالث، ص: ٣٨٢ - ٣٨٣.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾؛ أى: نودى منها حقيقة؛ إذ ليس فى الوجود إلا تجليات الحق ومظاهره، فيكلم عباده من حيث شاء منها. قال فى العوارف: الصوفى؛ لتجرده، يشهد التالى كشجرة موسى، حيث أسمع الله خطابه منها، بأننى أنا الله لا إله إلا أنا. هـ. فأهل التوحيد الخاص لا يسمعون إلا من الله، بلا واسطة، قد سقطت الوسائط فى حقهم، حين غرقوا فى بحر شهود الذات، فافهم. وقال فى القوت: كانت الشجرة وجهة موسى ﷺ، كلمه الله عز وجل منها، كما قال بعضهم: إن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ (١)، أى: بالجبل، كان الجبل من جهة الحس حجاباً لموسى، كشفه الله عنه، فتجلى به، كما قال: ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾؛ فكانت الشجرة وجهة له ﷺ، بإيضاح. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر اعتذار موسى، وطلبه الإعانة بأخيه، فقال:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ۖ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۖ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ مُلْكًا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعُكُمْ أَتَّبَعُكُمْ ۚ ۝٣٥﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ موسى - لما كلف بالرسالة إلى فرعون: ﴿ربِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ بها، ﴿وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معي ردءاً﴾؛ أى: عوناً. يقال: ردأته: أعنته. وقرأ نافع: بالتخفيف، ﴿يُصَدِّقُنِي﴾: جواب الأمر، ومن رفعه؛ جعله صفة لردء، أى: ردءاً مصدقاً لى. ومعنى تصديقه: إعانته بزيادة البيان، فى مظان الجدال، إن احتاج إليه؛ ليثبت دعواه، لا أن يقول له: صدقت، ففضل اللسان إنما يحتاج إليه لتقرير البرهان، وأما قوله: صدقت؛ فسحبان وبأقل فيه مستويان. ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ فى دعوى الرسالة.

﴿قال سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أى: ستقويك به؛ إذ اليد تشد بشدة العضد؛ لأنه قوام اليد، فشد العضد كناية عن التقوية؛ لأن العضد، إذا اشتد، قوَّى على محاولة الأمور، أى: ستمعينك بأخيك، ﴿ونجعل لك سلطاناً﴾؛ غلبة وتسلطاً وهيبة فى قلوب الأعداء، ﴿فلا يصلون إليكما، بآياتنا﴾؛ بسبب آياتنا، القاهرة لهم عن التسلط

(٤) من الآية ١٠٧ من سورة الأعراف، ومن الآية ٣٢ من سورة الشعراء.

عليكم، فالباء تتعلق بوصول، أو: بنجعل لكما سلطاناً، أى: تسلطاً بآياتنا، أو: بمحذوف، أى: اذهبا بآياتنا، أو: هو بيان لغالبن، أى: ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾، أى: المنصورون.

الإشارة: إذا اجتمع في زمان نبيان، أو: وليان، لا تجدهما إلا متخالفين في القوة والليونة، أو في السكر والصحو، فكان موسى في غاية القوة، وأخوه في غاية الليونة، وكان موسى عليه السلام في أول الرسالة غالباً عليه الجذب، وأخوه غالباً عليه الصحو، فلذلك استعان به. قال الورتجبي: أفهم أن مقام الفصاحة هو مقام الصحو والتمكين، الذي يقدر صاحبه أن يخبر عن الحق [وأسراره، بعبارة لا تكون بشيعة] (١) في موازين العلم. وهذا حال نبينا محمد ﷺ، حيث قال: «أنا أفصح العرب» (٢)، و«بُعِثْتُ بجوامع الكلم» (٣)، وهذه قدرة قادية اتصف بها العارف المتمكن، الذي بلغ مشاهدة الخاص، ومخاطبة الخاص، وكان موسى عليه السلام في محل السكر في ذلك الوقت، ولم يطق أن يعبر عن حاله كما كان؛ لأن كلامه، لو خرج على وزن حاله، يكون على نعوت الشطح، عظيماً في آذان الخلق، وكلام السكران ربما يفتتن به الخلق، لذلك سأل مقام الصحو والتمكين بقوله: «واحلل عقدة من لساني»؛ لأن كلامه من بحر المكافحة والمواجهة الخاصة، التي كان مخصصاً بها عن أخيه. هـ.

ثم ذكر عناد فرعون وتجبره، قال:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما جاء موسى بآياتنا﴾؛ معجزاتنا التسع ﴿بيِّنات﴾؛ واضحات ﴿قالوا﴾ ما هذا إلا سحرٌ مُفْتَرٍ؛ سحر عمله أنت، ثم تفتريه على الله، أو: سحر موصوف بالافتراء، كسائر أنواع

(١) عبارة الورتجبي [وأسراره بعباده لا يكون شقية].

(٢) قال في اللآلئ: معناه صحيح، ولكن لا أصل له. انظر: كشف الخفاء (١/٢٣٢، ح ٦٠٩).

(٣) بعض حديث أخرجه البخاري في (الجهاد، باب قول النبي ﷺ: نصرت بالرعب مسيرة شهر، ح ٢٩٧٧).

السحر، وليس بمعجزة من عند الله، ﴿وما سمعنا بهذا﴾، يعنى: السحر، أو: ادعاء النبوة، ﴿فى آباءنا الأولين﴾، الجار: حال منصوبة بهذا، أى: ما سمعنا بهذا كائناً فى آباءنا، أى: ما حدثنا بكونه فيهم، ولا موجوداً فى آبائهم.

﴿وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده﴾، فيعلم أنى محق، وأنتم مبطلون. وقرأ ابن كثير: قال، بغير واو؛ جواباً لمقالتهم. ﴿ومن تكون له عاقبة الدار﴾ أى: العاقبة المحمودة، فإن المراد بالدار: الدنيا، وعاقبتها الأصلية هى الجنة؛ لأن الدنيا خلقت معبراً ومجازاً إلى الآخرة، والمقصود منها، بالذات، هو المجازاة على الأعمال فيها من الثواب الدائم، أو العقاب الأليم، ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾؛ لا يفوزون بالهدى فى الدنيا، وحسن العاقبة فى العقبى.

قال النسفى: قل ربى أعلم منكم بحال من أهله الله للفلاح الأعظم؛ حيث جعله نبياً، وبعثه بالهدى، ووعده حسن العقبى، يعنى نفسه، ولو كان كما تزعمون، ساحراً، مفترياً، لما أهله لذلك؛ لأنه غنى حكيم، لا يرسل الكاذبين، ولا ينبئ الساحرين، ولا يفلح عنده الظالمون، وعاقبة الدار هى العاقبة المحمودة؛ لقوله تعالى: ﴿أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن﴾ (١). والمراد بالدار: الدنيا، وعاقبتها: أن تختتم للعبد بالرحمة والرضوان، ويلقى الملائكة بالبشرى والغفران. هـ.

﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى﴾، قصد بنفى علمه بإله غيره نفي وجوده، أى: ما لكم إله غيرى. قاله؛ تجبراً ومكابرة، وإلا فهو مقر بالربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿حاكياً عن موسى عليه السلام﴾: ﴿قَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ (٢)، وروى أنه كان إذا جن الليل، لبس المصوح وتمرغ فى الرماده وقال: يارب إنى كذاب فلا تفضحنى (٣).

ثم أمر ببنيان الصرح زيادة فى الطغيان، بقوله: ﴿فأوقد لى يا هامان على الطين﴾ أى: اطبخ لى الآجر واتخذ. وإنما لم يقل مكان الطين: آجر؛ لأنه أول من عمله، فهو معظمه الصلعة بهذه العبارة، ﴿فاجعل لى صرحاً﴾ أى: قصراً عالياً، ﴿لعلنى أطلع﴾ أى: أصعد. فالطروع والاطلاع: الصعود، ﴿إلى إله موسى﴾، حسب

(١) من الآية ٢٢ من سورة الرعد.

(٢) من الآية ١٠٢ من سورة الإسراء.

(٣) هذا رواية باطلة، فأولاً: لا سند لها، فهى لاتصح، وثانياً: لأنها تناقض سلوك فرعون «إنه كان عالياً من المسرفين» و«من المفسدين» و«طبع الله على قلبه» وانظر إلى السطر التالى من كلام الشيخ ابن عجيبة رحمه الله.

الجاهل أنه في مكان مخصوص، كما كان هو في مكان، ﴿وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ﴾ أي: موسى ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في دعواه أن له إلهًا، وأنه أرسله إلينا رسولاً.

وهذا تناقض من المخذول، فإنه قال أولاً: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، ثم أظهر حاجته إلى هامان، وأثبت لموسى إلهًا، وأخبر أنه غير متيقن بكذبه، وهذا كله تهافت. وكأنه تحصن من عصا موسى فليّس وقال: ﴿لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى﴾. روى أنه لما أمر وزيره هامان ببناء الصرح، جمع هامان العمال، خمسين ألف بناء، سوى الأتباع والأجراء - فبنوا، ورفعوه بحيث لم يبلغه بنيان قط، منذ خلق الله السموات والأرض. أراد الله أن يفتلهم فيه، فصعد فرعون وقومه، ورموا بنشابة نحو السماء، فرجعت مطّخة بالدم، فقال: قَدْ قَتَلْنَا إِلَهَ السَّمَاءِ، فضرب جبريل الصرح بجناحه، فقطعه ثلاث قطع، وقعت قطعة على عسكر فرعون، فقتلت ألف ألف رجل، وقطعة على البحر، وقطعة في الغرب، ولم يبق أحد من عماله إلا هلك (١). هـ.

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ﴾؛ تعاظم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾؛ أرض موسى ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ بغير استحقاق، بل بالباطل، فالاستكبار بالحق هو لله تعالى، وهو المتكبر المعتالي، المبالغ في كبرياء الشأن، كما في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قصصته» (٢)، أو: ألقيته في النار، وكل مستكبر سواء فاستكباره بغير الحق. ﴿وظَنُّوا أَنَّهُمُ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ بالبعث والنشور. وقرأ نافع وحزمة والكسائي: بالبناء للفاعل. والباقي: للمفعول. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأرواح كلها برزت من عالم العز والكبرياء، وهو عالم الجبروت، فلما هبطت إلى عالم الأشباح، وكلفت بالعبودية، وبالخضوع لقهزية الربوبية، شق عليها، ونفرت من التواضع والذل، وبطشت إلى أصلها؛ لأنها من عالم العز، فبعث الله الرسل ومشايخ التربية يدلونها على ما فيه سعادتها، من الذل والتواضع والخضوع للحق، حتى تصل إلى الحق، فمن سبق له الشقاء؛ أنف، وقال: ما هذا إلا سحر مفترى، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين، واستكبر وطغى، فغرق في بحر الردى. ومن سبقت له السعادة؛ تواضع، وذل لعظمة مولاه، فوصله إلى العز الدائم، في حضرة جماله وسناه. ولذلك قيل: للنفس خاصية ما ظهرت إلا على فرعون، حيث قال: أنا ريكم الأعلى. وهذه الخاصية هي أصل نشأتها وبرزها، حيث برزت من عالم الجبروت؛ قال تعالى: (ونفخت فيه من روحي)، ولكن لم يفتح لها الباب إلا من جهة العبودية والذل والافتقار، كما قال الشاعر:

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٢٠٨/٦-٢٠٩). وقال القرطبي (٥١٤٩/٦): والله أعلم بصحة ذلك.
(٢) أخرجه أبو دارود في (اللباس، باب ما جاء في الكبر، ٣٥٠/٤، ح ٤٠٩٠) وابن ماجه في (الزهد، باب البراءة من الكبر، ١٣٩٧/٢، ح ٤١٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «ألقيته في النار، وأخرجه مسلم - من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة في (البر والصلة، باب تحريم الكبر، ٢٠٢٣/٤، ح ٢٦٢٠) بلفظ: «العز إزاره، والكبرياء رداؤه - فمن يذازعني عذبتة».

تَذَلُّ لِمَنْ تَهْوَى؛ لِنَكْسِبِ هِيزَةٍ فَيَكُمُ عِزَّةٌ قَدْ نَالَهَا الْمَرْءُ بِالذُّلِّ
إِذَا كَانَ مَنْ تَهْوَى عَزِيزًا، وَلَمْ تَكُنْ ذَلِيلًا لَهُ، فَأَقْرَبَ السَّلَامَ عَلَى الْوَصْلِ

ولا يرضى المحبوب من المحب إلا الأدب، وهو التذلل والخضوع، كما قال القائل:

أَدَبُ الْعَبْدِ تَذَلُّ وَالْعَبْدُ لَا يَدْعُ الْأَدَبَ
فَإِذَا تَكَامَلَ ذَلِكَ نَالَ الْمَوَدَّةَ، وَأَقْتَرَبَ.

ثم ذكر وبال من تكبر على الله، فقال:

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الظَّالِمِينَ ﴾ (٤٠) ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النُّكْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ
(٤١) وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ (٤٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَأَخَذْنَاهُ ﴾؛ فأخذنا فرعون ﴿ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ ﴾؛ طرحناهم ﴿ فِي الْيَمِّ ﴾؛ في بحر القلزم، كما بيناه غير مرة. وفي الكلام فخامة تدل على عظمة شأن الأخذ، شبههم؛ استحقاقاً لحالهم، واستقلالاً لعددهم، وإن كانوا الجم الغفير، بحصيات أخذهم أخذ بكفه، فطرحهم في البحر. ﴿ فَانْظُرْ ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾، وحذر قومك أن يصيبهم مثل ما أصابهم، فإنهم ظالمون، حيث كفروا وأشركوا، وتحقق أنك منصور عليهم، كما نصر موسى على فرعون.

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾؛ قادة ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾، أي: إلى عمل أهل النار؛ من الكفر، والمعاصي، قال ابن عطاء: نزع عن أسرارهم التوفيق، وأنوار التحقيق، فهم في ظلمات أنفسهم، لا يدلون على سبيل الرشاد. وفيه دلالة على خلق أفعال العباد هـ. ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ بدفع العذاب عنهم، كما يتناصرون اليوم، في دفع الظلم عنهم، ﴿ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾؛ ألزمناهم طرداً وإبعاداً عن الرحمة. وقيل: هو ما يلحقهم من لعن الناس إياهم بعدهم. ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾؛ المطرودين المعذبين، أو المهلكين المشوهين؛ بسواد الوجوه وزرقة العيون. و«يوم»: ظرف للمقبوحين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: عَاقِبَةُ مَنْ تَكْبَرُ فِي دَارِ الْعِبُودِيَّةِ: الذل والهوان، وعاقبة من تواضع، وذل فيها: العز والأمان، وعاقبة من كان إماماً في المساوي والعيوب: البعد والحجاب، ومن كان إماماً في محاسن الخلال وكشف الغيوب:

العز والافتراق. قال القشيري على قوله: ﴿وجعلناهم أئمة﴾ إلخ: كانوا في الدنيا مبعدين عن معرفته، وفي الآخرة مبعدين عن مغفرته، فانقلبوا من طرد إلى طرد، ومن هجر إلى بُعد، ومن فراق إلى احتراق. هـ.

ولما أغرق أهل الظلم والعناد، أنزل الهداية على أهل العناية والوداد، كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ
بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾: التوراة ﴿من بعدما أهلكنا القرون الأولى﴾؛ قوم نوح وهود وصالح ولوط - عليهم السلام -، حال كون الكتاب ﴿بصائر للناس﴾؛ أنواراً لقلوبهم، يتبصرون الحقائق، ويميزون بين الحق والباطل. فالبصيرة: عين القلب، الذي يبصر بها الحق، ويهتدى بها إلى الرشد والسعادة. كما أن البصر عين الرأس التي يبصر بها الحسيات، أي: آتينا التوراة، أنواراً للقلوب التي كانت عمياً لا تستبصر ولا تعرف حقاً من باطل، ﴿وهدى﴾؛ وإرشاداً إلى الشرائع؛ لأنهم كانوا يخطئون في الضلال. ﴿ورحمة﴾ لمن اتبعها؛ لأنهم، إذا عملوا بها، وصلوا إلى نيل الرحمة، ﴿لعلهم يتذكرون﴾، أي: ليكونوا على حال يرجى منهم التذكر والاتعاظ. وبالله التوفيق.

الإشارة: إنما تطيب المنازل؛ إذا خلت من الأجانب والأراذل. وأطيب عيش الأحاب؛ إذا غابت عنهم الرقباء وأهل العتاب، فلما أهلك الله فرعون وجنوده، وأورث بنى إسرائيل ديارهم، ومحي عن جميعها آثارهم، طاب عيشهم، وظهرت سعادتهم، وتمكنوا من إقامة الدين. وكذلك أهل التوجه إلى يوم الدين.

ثم ذكر دلائل نبوته ﷺ، بعد ذكر قصة موسى؛ لاشتراكهما في شدة المعالجة، فقال:

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٤٤﴾
﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا
عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٦﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كنت﴾ يا محمد ﴿بجانب﴾ المكان ﴿الغربي﴾ من الطور، وهو الذي كلم الله فيه موسى، وهو الجانب الأيمن. قال السهيلي: إذا استقبلت القبلة، وأنت بالشام، كان الجبل يمينا منك،

غريباً، غير أنه قال في قصة موسى: ﴿جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ (١)، وصفه بالصفة المشتقة من اليمين والبركة، لتكليمه إياه فيه، وحين نفى عن محمد ﷺ أن يكون بذلك الجانب، قال: ﴿وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾، والغربي هو الأيمن. والعدول عنه، في حالة النفي؛ للاحتراس من توهم نفي اليمين عنه ﷺ، وكيف، وهو ﷺ لم يزل بصفة اليمين وآدم بين الماء والطين! فحسن اللفظ أصل في البلاغة، ومجانبة الاشتراك الموهم: من فصيح بديع الفصاحة. هـ.

أى: وما كنت حاضراً بذلك الموضع، ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾، أى: كلمناه، وقريناه نجياً، وأوحينا إليه بالرسالة إلى فرعون، ﴿وَمَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، أى: من جملة الشاهدين فتخبر بذلك، ولكن أعلمناك من طريق الوحي، بعد أن لم يكن لك بذلك شعور، والمراد: الدلالة على أن إخباره بذلك من قِبَلِ الإخبار بالمغيبات التى لا تعرف إلا بالوحي، ولذلك استدرك عنه بقوله:

﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا﴾ بعد موسى ﴿قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾، أى: طالت أعمارهم، وفترت النبوة، وانقطعت الأخبار، واندرست العلوم، ووقع التحريف في كثير منها، فأرسلناك؛ مُجَدِّدًا لتلك الأخبار، مبيِّناً ما وقع فيها من التحريف، وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء، وأوقفناك على قصة موسى بتمامها، فكأنه قال: وما كنت شاهداً لموسى وما جرى عليه، ولكننا أوحيناك إليك، فأخبرت به، بعد اندراسه.

﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا﴾؛ مقيماً ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، وهم شعيب والمؤمنون به، ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾؛ تقرؤها عليهم، تعلمها منهم، أو: رسولاً إليهم تتلوها عليهم بوحينا، كما تلونها على هؤلاء، يريد: الآيات التى فيها قصة شعيب وقومه، ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ لك، فأخبرناك بها، وعلمناك إياها، فأخبرت هؤلاء بها، ﴿وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى، أن خذ الكتاب بقوة، أو ناجيناه في أيام الميقات، ﴿وَلَكِن﴾ علمناك وأرسلناك ﴿رَحْمَةً﴾ أى: للرحمة ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾، لتتذكر قوماً ﴿جَاهِلِيَةً﴾ ما أتاهم من نذير من قبلك ﴿فِي زَمَانِ الْفِتْرِ﴾ التى بينك وبين عيسى، وهى خمسمائة وخمسون سنة، أو: بينك وبين إسماعيل، على أن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببني إسرائيل وما حوالاهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ لعل من أرسلت إليه يتعظ ويتذكر ما هو فيه من الضلال، فيلزع ويرجع. وبالله التوفيق.

الإشارة: المراد من هذه الآيات: تحقيق نبوته ﷺ ومعرفته الخاصة، وهى سلم، ومعراج إلى معرفة الله تعالى؛ لأنه الواسطة العظمى، فمهما عرفته المعرفة الخاصة عرفت الله تعالى، فمعه ﷺ استمدت العلوم كلها؛ علم

(١) من الآية ٥٢ من سورة مريم، والآية ٨٠ من سورة طه.

الربوبية، من طريق البرهان، وعلمها من طريق العيان، وعلم المعاملة الموصلة إلى الرضا والرضوان، ومعرفة نبوته ﷺ ضرورية لا تحتاج إلى برهان، ويرحم الله القائل:

لَوْلَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ (١) لَكَانَ مَنَظَرُهُ يُنْبِئُكَ بِالْخَبَرِ.

وقد تقدم في الأعراف (٢) اللويه به، وذكر شرفه، وشرف أمته، قبل ظهوره، وإلى الإشارة هنا بقوله: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾، أي: إذ نادينا بأمرك، وأخبرنا بلبوثك، روى عن أبي هريرة؛ أنه نودي يومئذ من السماء: يا أمة محمد، استجبت لكم قبل أن تدعوني، وغفرت لكم قبل أن تسألوني، فحينئذ قال موسى - ﷺ: اللهم اجعلني من أمة محمد. هـ. (٣).

وقال القشيري: أي: لم تكن حاضراً تتعلم ذلك؛ مشاهدة، فليس إلا تعريفنا إياك، وإطلاعنا لك على ذلك. ويقال: إذ نادينا موسى، وخاطبناه، وكلمناه في بابك وباب أمك، وما طلب موسى لأمة جعلناه لأمتك، فكوني لكم: خير لكم من كونكم لكم، فلم تقدح فيكم غيبتكم في الحال، كما أنشدوا:

كُنْ لِي؛ كَمَا كُنْتَ لِي فِي حِينٍ لَمْ أَكُنْ. هـ.

ويقال: لما خاطب موسى وكلمه، سأله موسى، إنه رأى في التوراة أمة صفتهم كذا وكذا، من هم؟ فقال: هم أمة محمد. وذكر لموسى أوصافاً كثيرة، فاشتاق إلى لقائهم، فقال له: ليس اليوم وقت حضورهم، فإن شئت أسمعناك كلامهم، فأراد ذلك، فنادى: يا أمة محمد؛ فأجاب الكل من أصلاب آبائهم، فسمع موسى كلامهم، ثم لم يتركهم كذلك، بل زادهم من الفضائل؛ لأن الغنى؛ إذا دعا فقيراً فأجابه؛ لم يرض أن يذكره من غير إحسانه. هـ. وقال الطبري: معنى قوله: ﴿إذ نادينا﴾ أي: بقوله: ﴿سأكتبها للذين يتقون...﴾ الآية. هـ. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة إرساله. فقال:

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا

(١) في الأصول الو لم تكن له آية مبينة. (٢) عدد تفسير الآيتين: ١٥٦ - ١٥٧.

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (٨١/٢٠).

أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾

قلت: (لولا) الأولى: امتناعية، وجوابها محذوف، أى: ولولا أنهم قائلون؛ إذا عوقبوا على ما قدموا من الشرك، محتجين علينا: (هلا أرسلت إلينا رسولا..). إلخ؛ لما أرسلناك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولولا أن تصيهم مصيبة﴾، أى: عقوبة فى الدنيا والآخرة، ﴿بما﴾؛ بسبب ما ﴿قدمت أيديهم﴾ من الكفر والظلم، ولما كانت أكثر الأعمال إنما تناول بالأيدي، نسب الأعمال إلى الأيدي، وإن كانت من أعمال القلوب؛ تغليباً للأكثر على الأقل، ﴿فيقولوا﴾ عند نزول العذاب: ﴿ربنا لولا﴾؛ هلا ﴿أرسلت إلينا رسولا﴾ يُنذِرنا ﴿فتتبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾، فلولا احتجاجهم بذلك علينا لما أرسلناك، فسبب الإرسال هو قولهم: هلا أرسلت.. إلخ.

ولما كانت العقوبة سبباً للقول جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال، فدخلت الولا، الامتناعية عليها، فرجع المعنى إلى قولك: ولولا قولهم هذا، إذا أصابتهم مصيبة، لما أرسلناك.

﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾؛ القرآن المعجز، أو الرسول ﷺ، ﴿قالوا﴾ أى: كفار مكة؛ اقتراحاً وتعتاً: ﴿لولا﴾؛ هلا ﴿أوتى﴾ من المعجزات ﴿مثل ما أوتى﴾؛ أعطى ﴿موسى﴾ من اليد والعصا، ومن الكتاب المنزل جملة. قال تعالى: ﴿أو لم يكفروا﴾ أى: أبناء جنسهم، ومن مذهبهم على مذهبهم، وعنادهم مثل عنادهم، وهم الكفرة فى زمن موسى عليه السلام، قد كفروا ﴿بما أوتى موسى من قبل﴾؛ من قبل القرآن، ﴿قالوا﴾ فى موسى وهارون: ﴿ساحران (١) تظاهرا﴾: تعارنا، أو: فى موسى ومحمد - عليهما السلام - بإظهار تلك الخوارق، أو بتوافق الكتابين. وقرأ الكوفيون: «سحران»؛ بتقدير مضاف، أى: ذوا سحر، أو: جعلوهما سحرين؛ مبالغة فى وصفهما بالسحر. ﴿وقالوا﴾ أى: كفرة موسى وكفرة محمد ﷺ: ﴿إنا بكل﴾؛ بكل واحد منهما ﴿كافرون﴾.

وقيل: إن أهل مكة، لما كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن؛ فقد كفروا بموسى وبالتوراة، وقالوا فى محمد ﷺ وموسى: ساحران تظاهرا، أو فى التوراة والقرآن: سحران تظاهرا، أو: ذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود (١) قرأ عاصم وحمة والكسالى: «سحران»؛ بكسر السين وسكون الحاء، بلا ألف، وقرأ الباقر: «ساحران»؛ بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء... انظر: الإتحاف (٢/٣٤٤).

يسألونهم عن محمد، فأخبروهم أنه في كتابهم، فرجع الرهط إلى قريش، فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: (١) ﴿ساحران تظاهرا إنا بكل كافرين﴾.

﴿قل﴾ لهم: ﴿فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدي منهما﴾؛ ﴿مما أنزل على موسى، ومما أنزل على﴾، ﴿أتبعه﴾: جواب: فأتوا، ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أنهما ساحران، ﴿فإن لم يستجيبوا لك﴾ دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى، ﴿فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ الزائغة، ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى، ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ أى: لا أحد أضل ممن اتبع في الدين هواه بغير هدى، أى: بغير اتباع شريعة من عند الله. «بغير هدى»: حال، أى: مخذولاً، مُخلّاً بينه وبين هواه، ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾؛ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى والتقليد. وبالله التوفيق.

الإشارة: لولا احتجاج الناس على الله يوم القيامة، حين تصيبهم نقائص عيوبهم، ما بعث الله في كل زمان نذيراً طبيباً، فإذا ظهر وتوجه لتربية الناس، قالوا: لولا أوتى مثل ما أوتى فلان وفلان من كرامات المتقدمين، فيقال لهم: قد كان من قبلكم من الأولياء لهم كرامات، فكذبوهم، وأنكروا عليهم، ورموهم بالسحر والتبذع وغير ذلك، ويقوا مع هوى أنفسهم. ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، أى: بغير تمسك بمن يهديه إلى حضرة الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين إلى معرفته الخاصة.

ثم تكرر حكمة تفريق القرآن، رداً على من قال: «لولا أوتى مثل ما أوتى موسى»؛ من إنزاله جملة، فقال:

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

قلت: يقال: وصلت الشيء: جعلته موصولاً ببعضه ببعض، ويقال: وصلت إليه الكتاب: أبلغته.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد وصلنا لهم﴾ أى: لقريش ولغيرهم، ﴿القول﴾: القرآن، أى: تابعناه موصولاً ببعضه ببعض في المواعظ والزواجر، والدعاء إلى الإسلام. قاله ابن عطية. وقال ابن عرفة اللغوي: أى: أنزلناه شيئاً بعد شيء، ليصل بعضه ببعض، ليكونوا له أوعى. هـ. وتنزيله كذلك؛ ليكون أبلغ في التذكير؛ ولذلك قال: ﴿لعلهم يتذكرون﴾، يعنى: أن القرآن أتاها متتابعاً متواصلًا؛ وعداء، ووعيداً، وقصصاً، وعبراً، ومواعظ؛ ليتذكروا فيفلحوا. وقيل: معنى وصلنا: أبلغنا. وهو أقرب؛ لتبادر الفهم، وفي البخارى: أى: «بيننا وأتممنا» (٢). وهو عن ابن عباس. وقال مجاهد: فصلنا. وقال ابن زيد: وصلنا خير الدنيا بخير الآخرة، حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا.

(٢) ذكره البخارى في (التفسير - سورة القصص، ٣٦٥/٨ فتح).

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٢١٢/٦).

الإشارة : تفريق المواعظ في الأيام، شيئاً فشيئاً، أبلغ وأنفع من سردها كلها في يوم واحد. وفي الحديث: «كان ﷺ يتخولنا بالموعظة، مخافة السامة علينا»^(١)، والتخول: التعاهد شيئاً فشيئاً. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر من آمن به وعرف قدره، فقال:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنزلُ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قلت : (الذين) : مبتدأ، (وهم به) : خبر.

يقول الحق جل جلاله : ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله﴾ : من قبل القرآن ﴿هم به﴾ أي : القرآن ﴿يؤمنون﴾ ، وهم مؤمنو أهل الكتاب، أو : النجاشي وقومه، أو : نصارى نجران، الذين قدموا على رسول الله ﷺ بمكة، وهم عشرون رجلاً، فأمنوا به. قال ابن عطية: ذكر هؤلاء مباهياً بهم قريشاً. هـ. أي : فهم الذين يُقدرون قدر هذا الكتاب المنزل؛ لما معهم من العلم الذي ميزوا به الحق، ولذلك قال : ﴿وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا﴾ ؛ لما عرفوا في كتابهم من نعت النبي ﷺ وكتابه، ﴿إننا كنا من قبله﴾ ؛ من قبل القرآن، أو : من قبل محمد ﷺ، ﴿مسلمين﴾ ؛ كائنين على دين الإسلام، مومنين بمحمد ﷺ. فقله : ﴿إنه﴾ : تعليل للإيمان به؛ لأن كونه حقاً من عند الله حقيق بأن يؤمن به. وقوله : ﴿إننا﴾ : بيان لقوله : ﴿آمنا﴾ ؛ لأنه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد أو بعيد، فأخبروه بأن إيمانهم به متقادم.

﴿أولئك يؤتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ ؛ بصبرهم على الإيمان بالقرآن، والإيمان بالقرآن، أو : بصبرهم على الإيمان بالقرآن، قبل نزوله وبعده، أو : بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب. وفي الحديث : «ثلاثة

(١) أخرجه البخاري في (العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة.. ح ٦٨)، ومسلم في (صفات المنافقين، باب الاقتصاد في الموعظة، ٤/٢١٧٢، ح ٢٨٢١) من حديث سيدنا عبدالله بن مسعود رضى الله عنه.

يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رجل من أهل الكتاب آمن بدبيته، ثم آمن بمحمد ﷺ، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأعتقها و تزوجها، (١).

﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ ؛ يدفعون الخصلة القبيحة بالخصلة الحسنة، يدفعون الأذى بالسلم، والمعصية بالطاعة. ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفَقُونَ﴾ ؛ يتصدقون، أو يزكون، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ ؛ الباطل، أو الشتم من المشركين، ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا﴾ للآغين: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ؛ أمان منا عليكم، لا نقابل لغوكم بمثله، ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ ؛ لا نريد مخالطتهم وصحبتهم، أو: لا نبتغي دين الجاهلين، أو محاورة الجاهلين وجدالهم، أو: لا نريد أن نكون جهالاً.

وفى السير: أن أصحاب النجاشي لما كلمهم جعفر ﷺ فى مجمع النجاشي، بكوا، وقر الإسلام فى قلوبهم، فقدموا على رسول الله ﷺ بمكة، فقرأ عليهم القرآن، فأسلموا، وقالوا: ﴿آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا...﴾ الآية. فلما خرجوا من عنده ﷺ؛ استقبلتهم قريش فسبرهم، وقالوا: ما رأينا قوماً أحق منكم، تركتم دينكم لمجلس ساعة مع هذا الرجل، فقالوا لهم: ﴿سلام عليكم...﴾ إنخ (٢).

الإشارة: مَنْ تَحَمَّلَ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَشَقَّةَ تَحْمِلِ الْعِلْمِ الظَّاهِرِ، ثُمَّ رَكِبَ أَهْوَالَ النَّفْسِ وَمَحَارِبَتِهَا فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ الْبَاطِنِ، فَهُوَ مِمَّنْ يُؤْتَى أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَيُنَالُ عِزَّ الدَّارَيْنِ ضَعِيفِينَ؛ بسبب صبره على العُلمَيْنِ، وارتكاب الذل مرتين، إذا اتصف بما اتصف به أولئك، بحيث يدرأ بالحسنة السيئة، وينفق مما رزقه الله من الحس والمعنى، كالعلوم والمواهب، ويعرض عن اللغو - وهو كل ما يشغل عن شهود الله - ويحلم عن الجاهل، ويرفق بالسائل. وبالله التوفيق.

ولما حرص ﷺ على إسلام عمه، نزل:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

(١) أخرجه البخارى فى (العلم، باب تعليم الرجل أمته وأهله ح ٩٧)، ومسلم فى (الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس، ١/١٣٤، ح ٢٤١) من حديث أبى موسى الأشعرى ﷺ.

(٢) عزاه ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٩٤) لمحمد بن إسحاق فى السيرة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لا تهدي من أحببت﴾ ، أى: لا تقدر أن تدخل فى الإسلام كل من أحببت أن يدخل من قومك وغيرهم، يعنى: أن خاصية الهداية خاصة بالربوبية، وخاصية الربوبية لا تكون لمخلوق، ولو كان أكمل الخلق. ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ ؛ يخلق الهداية فى قلب من يشاء، ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ ؛ بمن يختار هدايته ويقبلها.

قال الزجاج: أجمع المفسرون أنها نزلت فى أبى طالب، وذلك أنه قال عند موته: يا معشر بنى هاشم صدقوا محمداً تفلحوا، فقال ﷺ: «يا عم تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم، وتدعها لنفسك» فقال: ما تريد يا ابن أخى؟ فقال: أريد منك أن تقول: لا إله إلا الله، أشهد لك بها عند الله. فقال: يا ابن أخى؛ أنا قد علمت أنك صادق، ولكن أكره أن يقال جزع عند الموت. هـ. وفى رواية قال: (لولا أن تُعيرنى نساء قريش، ويقتل: إنه حملنى على ذلك الجزع، لأقررتُ بها عينك) (١). وفى لفظ آخر عند البخارى: قال له: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، أحاجُ لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: بل على ملة عبد المطلب، فنزلت الآية (٢).

وفى دليل على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: الهدى هو البيان، وقد هدى الله الناس أجمع، ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم، فدللت الآية على أن وراء البيان ما يسمى هداية؛ وهو خلق الاهتداء، وإعطاء التوفيق والقدرة على الاهتداء. وبالله التوفيق.

الإشارة: الآية ليست خاصة بالنبي ﷺ، بل هى عامة لكل من يريد الهداية لأحد من خاصته، كتب شيخ أشياخنا، سيدى أحمد بن عبد الله، إلى شيخه، سيدى أحمد بن سعيد الهبرى؛ يشكو له ابنه؛ حيث لم يرمه ما تقر به عينه، فكتب إليه: أخبرنى: ما الذى بنيت فيه؟ دع الدار لبانيها، إن شاء هدمها وإن شاء بناها. هـ. وفى الباب - بعد كلام -: قد رضى الله على أقوام فى الأزل، فاستعملهم فى أسباب الرضا من غير سبب، وسخط على أقوام فى الأزل، فاستعملهم فى أسباب السخط بلا سبب. ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ (٣) الآية.

(١) أخرجه مسلم فى (الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، ٥٥/١، ح ٤٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) أخرجه البخارى فى (التفسير - سورة القصص، ح ٤٧٧٢)، ومسلم فى الموضع السابق ذكره (١، ٥٤، ح ٣٩)، من حديث سعيد

ابن المسيب رضى الله عنه. (٣) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

وهذه الآية تخاطب رسول الله ﷺ بقولها: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، والحكم عام في كل أحد، وقد خص رسول الله ﷺ بأتم الفضائل وأعلى الوسائل، حتى لم يسبق لفضيلة، ولم يحتج لوسيلة، وليس له في ذلك نظر، بل سابقة السعادة أيدته، والخصوصية قرّنته، ولو كان له في التقدير نظر ما منع من الشفاعة في عمه أبي طالب، ومن الاستغفار لأبيه. ولو كانت الهداية بيد آدم لهدى قابيل، ولو كانت بيد نوح لهدى ولده كنعان، أو بيد إبراهيم لهدى أباه آزر، أو بيد محمد ﷺ لأنقذ عمه أبا طالب، جذبت العناية سلمان من فارس، وصاحت على بلال من الحبشة، وأبو طالب على الباب ممنوع من الدخول. سبحانه من أعطى ومنع، وضر ونفع. هـ.

ولما دعى ﷺ قومه إلى الإسلام، تعللوا بعلل واهية، كما قال تعالى:

﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمَاءَ آمِنًا يُجَبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قلت: (رزقاً): حال من (الثمرات)؛ لتخصيصه بالإضافة، أو مصدر لتجبي؛ لأن معناه: نرزق، أو: مفعول له.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا﴾ أي: كفار قريش ﴿إن نتبع الهدى﴾ وندخل ﴿معك﴾ في هذا الدين؛ ﴿نتخطف من أرضنا﴾ أي: تخطفنا العرب وتخرجنا من أرضنا. نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل، أتى النبي ﷺ فقال: نحن نعلم أنك على الحق، ولكننا نخاف، إن اتبعناك وخالفنا العرب، وإنما نحن أكلة رأس، أن يتخطفونا من أرضنا، فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾؛ أَوَلَمْ نجعل مكانهم حرماً ذا أمن بحرمة البيت، يأمن فيه قطانه، ومن التجأ إليه من غيرهم؟ فأنى يستقيم أن نعرضهم للتخطف، ونسلبهم الأمن، إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام؟

﴿تُجَبَىٰ (١) إِلَيْهِ﴾، أي: تجمع وتُجلب إليه من كل أوب، ﴿ثمرات كل شيء﴾ أي: كل صنف ونوع. ومعنى الكليلة: الكثرة؛ كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (٢)، ﴿رزقاً من لدننا﴾، ونعمة من عندنا، وإذا كان هذا حالهم، وهم عبدة الأصنام، فكيف إذا أورا إلى كهف الإسلام، وتدرعوا بلباس التوحيد؟

(١) قرأ نافع وأبو جعفر: «تجبي»؛ بالتاء من فوق، وقرأ الباقون: «يجبي». «بالياء من تحت». انظر الإتحاف (٢/٣٤٥).

(٢) من الآية ٢٣ من سورة النمل.

﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي: جهلة، لا يتفطنون ولا يتفكرون حتى يعلموا أنه لا يهملهم من حفظه ورعايته، إن أسلموا. وقيل: يتعلق بقوله: ﴿من لدنا﴾، أي: قليل منهم يتدبرون، فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله، وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك، ولو علموا أنه من عند الله؛ لعلموا أن الخوف والأمن من عند الله، ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به . والله تعالى أعلم.

الإشارة: ترى كثيراً من الناس، ممن أراد الله حرمانه من الخصوصية، يتعلل بهذه العلل الواهية، يقول: إن دخلنا في طريق القوم؛ رفضنا الناس، وأنكر علينا أقاربنا، ونخاف الضيعة على أولادنا. يقول تعالى لهم: أو لم أمكن لأوليائي، المتوجهين إلى حضرة القدس، حرماً آمناً تجبى لأهلها الأرزاق من كل جانب، بلا حرص ولا طمع ولا سبب، ولكن أكثر الناس؛ جهلاً بهذا، وقفوا مع العوائد، فحرموا الفوائد، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم خوفهم بقوله:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ٥٨ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَارِيسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ ٥٩

قلت: كم، منصوب بأهلكنا. والبطر: الطغيان عند النعمة. قال في القاموس: البطر - محركة: النشاط، والأشر، وقلة احتمال النعمة، والدهش، والحيرة، والطغيان بالنعمة، وكراهة الشيء من غير أن يستحق الكراهية، فعلى الكل: كفرح. هـ. و(معيشتها): نصب بحذف الجار واتصال الفعل، أي: في معيشتها. وجعلة (لم تسكن): حال، والعامل فيها: الإشارة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وكم أهلكنا من قرية﴾، أي: كثيراً أهلكنا من أهل قرية، كانت حالهم كحالهم في الأمن والدعة، وخصب العيش، من وصفها ﴿بطرت﴾ في ﴿معيشتها﴾، أي: طغت وتجبرت ولم تشكر، بل قابلتها بالبطر والطغيان. قال القشيري: لم يعرفوا قدر نعمتهم، ولم يشكروا سلامة أموالهم، وانتظام أمورهم، فهاموا في أودية الكفران على وجوههم، وخرؤوا في رهدة الطغيان على أذقانهم، فدمر الله عليهم وخرّب ديارهم.

﴿فتلك مساكنهم﴾ خاوية، أو: فتلك منازلهم باقية الآثار، يشاهدونها في الأسفار؛ كبلاد ثمود، وقرى لوط، وقوم شعيب، وغيرهم، ﴿لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً﴾ من السكنى، أي: لم يسكنها إلا المسافر، أو مار

بالطريق؛ يوماً أو ساعة، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ لتلك المساكن من سكانها، أى: لا يملك التصرف فيها غيرنا. وفيه إشارة لوعده النصر لمتبع الهدى، وأن الوراثة له، لا أنه يتخطف كما قد قيل، بل يقع الهلاك على من لم يشكر نعمة الله، ويتبع هواه، فكيف يخاف من تكون عاقبته الظفر ممن يكون عاقبته الدمار والتبار؟ والحاصل: إنما يلحق الخوف من لم يتبع الهدى، فإنه الذى جرت سنة الله فيه بالهلاك، وأما متبع الهدى؛ فهو آمن والعاقبة له.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾؛ وما كانت عادته ﴿مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ بذنوب ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾، أى: القرية التى هى أصلها ومعظمها؛ لأن أهلها يكونون أفطن وأقبل. ﴿رَسُولاً﴾؛ لإلزام الحجة وقطع المَعذرة، أو: ما كان فى حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى فى الأرض حتى يبعث فى أممها، وهى مكة؛ لأن الأرض دحيت من تحتها. ﴿رَسُولاً﴾ يعنى: محمداً ﷺ، ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾؛ القرآن، ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾، أى: وما أهلكناهم للانتقام، إلا وأهلها مستحقون العذاب بظلمهم، وهو إصرارهم على الكفر والمعاصي، والعناد، بعد الإعذار إليهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وكم خربنا من قلوب وأخيلناها من النور، حيث طغت وتجبرت فى معيشتها، وانشغلت بحفظها وشهواتها، فتلك أماكنها خاوية من النور، لم تسكن بالنور إلا قليلاً، وكنا نحن الوارثين لها، فأعطينا ذلك النور غيرها، وما فعلنا ذلك حتى بعثنا من يذكرها وينذرها، وما كنا مهلكى قلوب ومُتْلِفِيهَا إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ، بإيثار الغفلة والشهوة على اليقظة والعفة. والله تعالى أعلم.

وسبب الهلاك هو حب الدنيا، ولذلك حقر الله تعالى شأنها، حيث قال:

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٠)
 أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 مِنَ الْمُخْضَرِّينَ (٦١) وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) ﴿

قلت: ماء: شرطية، وجملة: (فمتاع.. إلخ: جوابه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من زهرة الدنيا ﴿فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أى: أى شئ أحببتموه من أسباب الدنيا وملاذها فما هو إلا تمتع وزينة، أياماً قلائل، وهى مدة الحياة الفانية، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من النعيم الدائم فى الدار الباقية؛ ثواباً لأعمالكم ﴿خَيْرٌ﴾ من ذلك؛ لأنه لذة خالصة فى بهجة كاملة.

﴿وَأَبْقَى﴾ ؛ لأنه دائم لا يفنى، ﴿أَفَلَا تَعْلَمُونَ﴾ أن الباقي خير من الفاني، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: (إن الله خلق الدنيا، وجعل أهلها ثلاثة أصناف: المؤمن والمنافق والكافر، فالمؤمن ينزود، والمنافق يتربى، والكافر يتمتع. ثم قرأ هذه الآية). وفي الحديث عنه عليه السلام: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى الكافر منها شربة ماء» (١). رواه الترمذي.

ثم قرر ذلك بقوله: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً﴾، وهو الجنة؛ إذ لا شيء أحسن منها، حيث اشتملت على النظر لوجه الله العظيم، ولأنها دائمة، ولذا سميت الحسنى، ﴿فَهُوَ﴾ أى: الوعد الحسن ﴿لَاقِيهِ﴾ ومدركه، لا محالة، لا امتناع الخلف فى وعده تعالى، ﴿كَمَنْ مَتَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الذى هو مشوب بالكدر والمتاعب، مستعقب بالفناء والانقطاع، ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب والعقاب، أو: من الذين أحضروا النار.

والآية نزلت فى المؤمن والكافر، أو: فى رسول ﷺ وأبى جهل (٢). - لعنه الله -، ومعنى الفاء الأولى: أنه لما ذكر التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله عقبه بقوله: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ﴾ أى: أبعد هذا التفاوت الجلى نسوى بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة؟ والفاء الثانية للتسبيب؛ لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد. وهثم: لتراخى حال الإحضار عن حال التمتع. ومن قرأ: هثم هو؛ بالسكون، شبه المنفصل بالمتصل، كما قيل فى عضد - بسكون الضاد -.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ؛ يوم ينادى الله الكفار، نداء توبيخ، ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ ؛ فى زعمهم ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم شركائى، فحذف المفعول؛ لدلالة الكلام عليه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فى الآية تحقير لشأن الدنيا الفانية، وتعظيم لشأن الآخرة الباقية. وقد اتفق على هذا جميع الأنبياء والرسل والحكماء، قديماً وحديثاً، وقد تقدم آنفاً أنها لا تزن عند الله جناح بعوضة، وفى حديث آخر: «ما الدنيا فى جانب الآخرة، إلا كما يدخل أحدكم يده فى البحر ثم يخرجها، فانظر ماذا يعلق به» (٣). بالمعنى. فدعيم الدنيا كله، بالنسبة إلى نعيم الجنان، كبلل الأصبع، الذى دخل فى الماء ثم خرج. مع أن نعيمها مكدر، ممزوج بالأهوال

(١) أخرجه الترمذى فى (الزهد، باب ما جاء فى هوان الدنيا على الله، ٤/٤٨٥ ح ٢٣٢٠)، وابن ماجه فى (الزهد، باب مثل الدنيا، ١٣٧٦/٢ ح ٤١١٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري (٩٧/٢٠) عن مجاهد.

(٣) أخرجه مسلم بلحواه فى (الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا، وبيان الحشر يوم القيامة، ٤/٢١٩٣ ح ٢٨٥٨) من حديث المسترشد أخى بن فهر رضي الله عنه.

والأحزان والمتاعب. وقد كتب علي بن أبي طالب إلى سلمان - رضي الله عنهما -: «إنما مثل الدنيا كمثلي الحية، لين مسها، قاتل سمها، فأعرض عنها، وعما يعجبك منها، لقلة ما يصحبك منها، ودع عنك همومها؛ لما تيقنت من فراقها، وكن أسراً ما تكون منها، أحذر ما تكون منها، فإن صاحبها، كلما اطمأن فيها إلى سرور، أشخص منها إلى مكروه».

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذه الدار دار الثوى، لا دار استواء، ومنزل ترح، لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخائها، ولم يحزن لشقائها - أي: لأنها لا يدومان - ألا وإن الله خلق الدنيا دار بلوى، والآخرة دار عقبي، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سبباً، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عروصاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلى ليجزي، وإنها سريعة الثوى - أي: الهلاك - وشيكة الانقلاب، فاحذروا حلاوة رضاعها، لمرارة قطامها، واهجروا لذيق عاجلها؛ لكريه آجلها، ولا تسعوا في عمران دار قد قضى الله خرابها، ولا تواصلوها وقد أراد الله منكم اجتنابها، فتكونوا لمخطه متعرضين، ولعقوبته مستحقين. هـ. ذكره ابن وداعة الموصلي.

وذكر أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما سكن حب الدنيا قلب عبد إلا القاط منها بثلاث: شغل لا ينفد عناؤه، وفقر لا يدرك غناه، وأمل لا يبال منتهاه، إن الدنيا والآخرة طالبتان ومطلوبتان، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا، حتى يستكمل رزقه، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يأخذ الموت بعنقه، ألا وإن السعيد من اختار باقية يدوم نعيمها، على فانية لا ينفك عذابها، وقدم لما يقدم عليه مما هو الآن في يده، قبل أن يخلفه لمن يسعد بإنفاقه، وقد شقى هر بجمعه واحتكاره».

ثم ذكر مآل من اغتر فيها، قال:

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعِمِيَتْ عَلَيْهِمْ الْأَنْبَاءُ يَوْمَ ذِي قُرَى ﴿٦٦﴾ فَآمَنَ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

قلت: هؤلاء: مبتدأ. والذين: صفته، والعائد: محذوف، وأغويناهم: خبر. والكاف في «كما»: صفة لمصدر محذوف، أي: أغويناهم غياً مثل ما غوينا، ولو أنهم: جوابه محذوف، أي: لما رأوا العذاب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ بالعذاب، وثبت مقتضاه، وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(١)، وهم الشياطين، أو: أئمة الكفر: ورؤساء الكفرة: ﴿ربنا هؤلاء﴾ الكفرة ﴿الذين أغوينا أغويناهم﴾ أي: دعوناهم إلى الشرك وسولناه لهم، قد غووا غياً ﴿كما﴾ مثل ما ﴿غوينا﴾ يقولون: إنا لم نغو إلا باختيارنا، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم؛ لأن إغواءنا لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً، فلا فرق إذن بين غينا وغيهم، وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان، بما وضع فيهم من أدلة العقل، وما بعث إليهم من الرسل، وأنزل إليهم من الكتب، وهذا كقوله: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق...﴾ إلى قوله: ﴿ولمؤموا أنفسكم...﴾^(٢).

ثم قالوا: ﴿تبرأنا إليك﴾ منهم فيما اختاروه من الكفر، ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾، بل كانوا يعبدون أهواءهم، ويطيعون شهواتهم. فتحصّل من كلام هؤلاء الرؤساء أنهم اعترفوا أنهم غرّوا الضعفاء، وتبرّءوا من أن يكونوا آلهتهم، فلا تناقض. انظر ابن جزى. وإخلاء الجملتين من العاطف؛ لكونهما مقررتين للجملّة الأولى.

﴿وقيل﴾ للمشركين: ﴿ادعوا شركاءكم﴾ أي: الأصنام^(٣)؛ لتخلصكم من العذاب، ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾، فلم يجيبوهم؛ لعجزهم عن الإجابة والنصرة. ﴿ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون﴾ لما رأوا ذلك العذاب، وقيل: «لو»؛ للتمنى، أي: تمنوا أنهم كانوا يهتدون.

﴿و﴾ اذكر ﴿يوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ الذى أرسلوا إليكم؟ أي: بماذا أجبتموهم؟ وهو أعلم بهم. حكى، أولاً، ما يوبخهم به؛ من اتخاذهم له شركاء، ثم ما تقرّله الشياطين، أو: أئمة الكفر عند توبيخهم؛ لأنهم إذا ربحوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين، أو الرؤساء، استغفروهم، ثم ما يشبه الشماعة بهم؛ لاستغاثتهم بآلهتهم وعجزهم عن نصرتهم.. ثم ما يبيّنون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل. قال تعالى: ﴿فعميت عليهم الأنبياء يومئذ﴾؛ خفيت عليهم الحجج أو الأخبار. وقيل: خفى عليهم الجواب، فلم يدروا بماذا يجيبون؛ إذ لم يكن عندهم جواب.

(٢) من الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

(١) الآية ١١٩ من سورة هود.

(٣) وكذلك كل ما أشرك مع الله.

قال البيضاوى: وأصله: فعموا عن الأنباء، لكنه عكس؛ مبالغة ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يفيض ويرد عليه من خارج، فإن أخطأه لم يكن له حيلة إلى استحضاره، والمراد بالأنباء: ما أجابوا به الرسل، أو: ما يعملها وغيرها، فإذا كانت الرسل يتلعثمون في الجواب عن مثل ذلك من الهول، ويفوضون إلى علم الله تعالى؛ فما ظنك بالضلال من البهم؟ هـ.

﴿فهم لا يتساءلون﴾؛ لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب؛ لفرط الدهشة، أو: عن العذر والحجة، عسى أن يكون عندهم عذر أو حجة. ﴿فأما من تاب﴾ من الشرك ﴿وآمن﴾ بربه وبمن جاء من عنده، ﴿وعمل صالحاً﴾ أى: جمع بين الإيمان والعمل، ﴿فعسى أن يكون من المفلحين﴾؛ من الفائزين عند الله بالنعيم المقيم. وهـ عسى، من الكرام، تحقيق. وفيه بشارة للمسلمين على الإسلام، وترغيب للكافرين في الإيمان. وبالله التوفيق.

الإشارة: قال الذين حق عليهم القول؛ بالانحطاط عن درجة المقربين، والبقاء مع عامة أهل اليمين، وهم الصادرون الناس عن الدخول في طريق القوم: ربنا هؤلاء الذين أغوينا؛ زيناً لهم البقاء مع الأسباب، والوقوف مع العوائد، أغويناهم كما غوينا، فحيث لم نقر على مقام أهل التجريد، قوينا سوادنا بهم، تبرأنا إليك؛ لأننا لم نقهرهم، ولكن وسوسنا لهم ذلك، ما كانوا إيانا يعبدون، ولكن عبدوا هوى أنفسهم. ثم يقال لهم: ادعوا ما كنتم تعبدونه من حظوظ الدنيا وشهواتها، فدعوهم؛ فلم يستجيبوا لهم، ورأوا عذاب القطيعة، لو أنهم كانوا يهتدون إلى اتباع أهل التربية؛ ما وقعوا في ذلك. ويوم يناديهم فيقول: ماذا أجبتم الداعين، الذين أرسلتهم في كل زمان، يدعون إلى الله، ويرفعون الحجاب بينهم وبين ربهم، فعميت عليهم الأنباء يومئذ، فهم لا يتساءلون عن أحوال المقربين، لغيبتهم عنهم. والله تعالى أعلم.

ثم بين الله تعالى بعض صفاته الحسنی، فقال:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٦٨ ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ٦٩ ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٧٠

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، لا موجب عليه، ولا مانع له، وفيه دلالة على خلق الأفعال. ﴿ويختار﴾ ما يشاء، لا اختيار لأحد مع اختياره. قال البيضاوى: وظاهره: نفى الاختيار عنهم رأساً،

والأمر كذلك عند التحقيق؛ فإن اختيار العبد مخلوق لله، منوط بدواعٍ لا اختيار لهم فيها، وقيل: المراد أنه ليس لأحد أن يختار عليه، فلذلك خلا عن العاطف، يعنى قوله: ﴿ما كان...﴾ الخ، ويؤيده: ما روى أنه نزل في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (١) هـ. ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ أى: ليس لهم أن يختاروا مع الله شيئاً ما، وله الخيرة عليهم. والخيرة: من التخير، تستعمل مصدراً بمعنى التخير، وبمعنى المتخير، ومنه: محمد خيرة الله من خلقه، ولم يدخل العاطف في ﴿ما كان لهم الخيرة﴾؛ لأنه مقرر لما قبله، وقيل: «ما»: موصولة، مفعول بيختار، والراجع إليه: محذوف، أى: ويختار الذى كان لهم منه الخيرة والصلاح. هـ. ويحث فيه النفسى بأن فيه ميلاً إلى الاعتزال، ويجاب: بأن المعتزلة يقولون ذلك على سبيل الإيجاب، ونحن نقوله على سبيل التفضل والإحسان.

﴿سبحان الله﴾، أى: تنزيهاً له عن أن ينازعه أحد، أو يزاحم اختياره اختياراً. ﴿وتعالى عما يشركون﴾، أى: تعاظم عن إشراكهم، أو: عن مشاركة ما يشركون به.

﴿وربك يعلم ما تكن﴾: تضرع صدورهم ﴿من عداوة الرسول - عليه الصلاة والسلام - وحسده، وما يعلنون﴾ من مطاعنهم فيه، وقولهم: هلا اختير عليه غيره في النبوة. ﴿وهو الله﴾ المستأثر بالالوهية المختص بها، ﴿لا إله إلا هو﴾، تقرير له، كقولك: الكعبة قبله، لا قبله إلا هي. ﴿له الحمد فى الأولى﴾ أى: فى الدنيا، ﴿والآخرة﴾؛ لأنه المولى للنعم كلها، عاجلها وآجلها، يحمده المؤمنون فى الدنيا، ويحمدونه فى الآخرة بقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ (٢)، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَّا وَعَدَهُ﴾ (٣)، ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤)، والتحميد تم على وجه التلذذ لا الكلفة. ﴿وله الحكم﴾؛ القضاء بين عباده، ﴿واليه ترجعون﴾ بالبعث والنشور. وبالله التوفيق.

الإشارة: فى الآية تحضيض على ترك التدبير والاختيار، مع تدبير الواحد القهار، وهو أصل كبير عند أهل التصوف، أفرد بالتأليف، وفى الحكم: «أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك؛ لاتقم به أنت عن نفسك». وقال سهل رحمته الله: ذروا التدبير والاختيار، فإنهما يكدران على الناس عيشهم. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمته الله: ذروا التدبير، وإن كان ولا بد من التدبير، فدبروا ألا تدبروا. هـ.

والتدبير المذموم: هو ما فيه للنفس حظ، كتدبير أسباب الدنيا، وماتحصل بها من شهواتها، إذا صحبه عزم أو تكرير، وأما ما كان فيما يقرب إلى الله تعالى فهو النية الصالحة، أو لم يصحبه تصميم؛ بأن كان عزمه محلولاً،

(٢) من الآية ٣٤ من سورة فاطر.

(١) الآية ٣١ من سورة الزخرف، وانظر تفسير البغوى (٢١٨/٦)

(٤) الآية ٧٥ من سورة الزمر

(٣) من الآية ٧٤ من سورة الزمر.

أو علقه بمشيئة الله، أو كان خاطراً غير ساكن، فلا بأس به. قال النقشيري - بعد كلام في وجه اختصاص التدبير بالحق تعالى: لأنه لو لم تلتزم مشيئته واختياره لم يكن بوصف العز؛ لأن من نفى عن مراده لا يكون إلا ذليلاً، والاختيار للحق نعت عز، والاختيار للخلق صفة نقص، ونعت ملام وقصور، فاختيار العبد عليه غير مبارك له؛ لأنه صفة غير مستحق لها، ومن اتصف بما لا يليق به افتضح، قال قائلهم:

ومعان إذا ادعاه سواهم (١) لزمته جناية الصراق

والطينة إذا ادعت صفة للحق أظهرت رعونتها، فما للمختار (٢) والاختيار؟! وما للمملوك والمالك؟! وما للعبيد في دست الملوك؟! قال تعالى: «ما كان لهم الخيرة» هـ. وقال آخر في هذا المعنى:

العبد ذو صنجر، والرب ذو قدر والدهر ذو دول، والرزق مقسوم
والخير أجمع: فيما اختار خالقنا وفي اختيار سواه: اللوم والشوم.

فإذا علمت، أيها العبد، أن الحق تعالى هو الذي يخلق ما يشاء ويختار، لم يبق لك مع الله اختيار، فالحالة التي أقامك فيها هي التي تليق بك، ولذلك قيل: العارف لا يعارض ما حل به، فقراً كان أو غنى (٣). قال اللجائي في

(١) في النقشيري: ومعان إذا ادعاه سواه.... (٢) أي: الذي اختاره الله..

(٣) قلت: هذه منزلة، وهناك منزلة أعلى وأعلى، نفهمها إذا قررنا أصلاً، وهو: أن حكم الله واختياره، ثلاثة أنواع:

الأول: حكم الله الديني، الشرعي، واختياره، ومراده الديني.. وهذا موقفنا منه الخضوع والتسليم، والرضا والقبول، والعمل.

الثاني: حكم الله الكوني، القدر، الذي لا اختيار لنا فيه، كمصيبة الموت، وجائحة في مال، وإذابة ظالم لانقذر عليه، وما أشبه ذلك، وهذا موقفنا منه التسليم، والصبر، وفوقه: الرضا بهذا القضاء، الذي لا اختيار لنا فيه.

الثالث: حكم الله الكوني القدر، واختياره الكوني القدر - الذي لنا فيه قدرة واختيار، كمرض يمكن دفعه بالدواء، وفقر يمكن دفعه بالتكسب وطلب الغنى، وهزيمة يمكن دفعها بالجهاد والكفاح.. الخ، وهذا موقفنا منه: هو المنازعة، والمغالبة، والمدافعة، وانتبه معي لقول سيدنا عبدالقادر الجيلاني - الشيخ القدوة، العارف، قال ما ملخصه: (الناس إذا ذكر القدر أمسكوا، إلا أنا، فقد انفتحت لي فيه روضة [طاققة - نافذة] فنازعت أقدار الحق، بالحق، للحق). فهذا في الدرر الثالث من حكم الله واختياره، ننازعه، بالحق، للحق، والشيخ القدوة، لم يبتدع ذلك، وحاشاه، رحمه الله وقدر روحه - بل هو انتزعه من حديث نبوي شريف، أخرجه أحمد في المسند (٤٢١/٢) والترمذي في (الطلب، باب ٢١، ٤/٣٤٩، ح ٢٠٦٥) وابن ماجه في (الطلب، باب ١، ٢/١١٣٧، ح ٣٤٣٧) من حديث أبي خزيمة قال: سئل النبي ﷺ: أ رأيت [يعني: أخبرنا عن] - رقى نسترق فيها، وأدوية نتداوى بها: أترد من قدر الله؟ قال: «هي من قدر الله» الله أكبر: فقدر المرض، ننازعه بقدر العلاج والدواء، وقدر الفقر المالي ننازعه بقدر الكسب وإصلاح المال، وقدر الهزيمة ننازعه بقدر الجهاد والاستعداد، وقدر التخلف الحضاري ننازعه بقدر الفعالية الحضارية، وقدر انتشار الرياء كالطاعون، والكوليرا - ننازعه بقدر الاحتماء، والتطعيم العام.. الخ، كما فعل سيدنا عمر: مع طاعون الشام، فلم يدخل الشام - عندما سمع بانتشار الطاعون فيها، وكان ذاهباً إليها، فقيل له: أتفر من قدر الله؟! قال: (نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله) فالؤمن العارف يصول بالحق للحق.

كتاب قطب العارفين: الراضى شبه ميت، لا نفس له، يختار لها، فالفقير والغنى حكمان من حكيم واحد، وهو أعلم سبحانه بعبده، وما يصلحون به، فكلهم من يصلح للفقير ولا يصلح للغنى، ومنهم من يصلح للغنى ولا يصلح للفقير، ومنهم من يصلح بالمنع ولا يصلح بالعطاء، ومنهم من يصلح بالعطاء ولا يصلح بالمنع، ومنهم من يصلح بالبلاء ولا يصلح بالصحة، ومنهم من يصلح بالصحة ولا يصلح بالبلاء، ومنهم من يصلح بالوجهين جميعاً، وهى أعلى رتبة يشار إليها فى غاية هذا الشأن، «وربك يخلق ما يشاء ويختار..» الآية، وفى هذه الآية كفاية وتعزية لكل سالك راض عن الله تعالى، لكن لا يعقلها ولا يتلذذ بها إلا مشايخ العارفين. هـ. وبالله التوفيق.

ثم برهن على انفراده بالخلق والاختيار، فقال:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَا تَسْمَعُونَ ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِى الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٧٥)

قلت: (سرمداً): مفعول ثان لجعل، وهو من السرد، أى: التتابع، ومنه قولهم فى الأشهر الحرم: ثلاثة سرد وواحد فرد، والميم زائدة، فوزنه: فَعْمَلٌ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل أرايتم ﴾؛ أخبرونى ﴿ إن جعل الله عليكم الليل سرمداً ﴾؛ دائماً؛ بإسكان الشمس تحت الأرض، أو: بتحريكها حول الأفق الخارج عن كورة الأرض، أو بإخفاء نورها، ﴿ من إله غير الله يأتاكم بضياء ﴾، وحقه: هل إله غير الله، وعبر بـ «من» على زعمهم أن غيره آلهة، أى: هل يقدر أحد على هذا؟ ﴿ أفلا تسمعون ﴾ سماع تدبر واستبصار؟

﴿ قل أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة ﴾ بإسكانها فى وسط السماء، أو: بتحريكها فوق الأفق فقط، ﴿ من إله غير الله يأتكم بليل تسكنون فيه ﴾؛ استراحة من متاعب الأشغال؟ ولم يقل: بنهار

تتصرفون فيه، كما قال: ﴿بَلِيلَ تَسْكُونُ فِيهِ﴾، بل ذكر الضياء، وهو ضوء الشمس؛ لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة، وليس هو التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس هو بتلك المذلة، ومن ثم قرن بالضياء. ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؛ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر، من ذكر منافعه، ووصف فوائده، وقرن بالليل ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه.

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ﴾ تعالى ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾؛ في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالنهار بأنواع المكاسب. وهو من باب اللف والنشر. وقال الزجاج: يجوز أن يكون معناه: لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من الله فيهما، ويكون المعنى: جعل لكم الزمان ليلاً ونهاراً؛ لتسكنوا فيه، ولتبتغوا من فضله، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ولكي تعرفوا نعمة الله في ذلك فتشكروه عليها.

ثم قرعهم على الإشراك، بعد هذا البيان التام، بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، وكرر التوبيخ على الشرك؛ ليؤذن لأشياء أجلب لغضب الله تعالى من الإشراك به، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده. وقال القرطبي: أعاد هذا؛ لاختلاف الحالين، ينادون مرة، فيدعون الأصنام فلا تستجيب لهم، فيظهر كذبهم. ثم ينادون مرة أخرى فيسكنون، وهو توبيخ وزيادة خزي. ثم طرق كون المناداة من الله، أو ممن يأمره بذلك، لقوله: ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ﴾ (١)، ويحتمل: ولا يكلمهم بعد قوله: ﴿اٰخَسَتُوا فِيهَا وَلَا تَكْلِمُوْنَ﴾ (٢) أو: ولا يكلمهم كلام رضا هـ (٣).

﴿وَنَزَعْنَا﴾؛ وأخرجنا ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾، وهو نبيهم، يشهد عليهم بما كانوا عليه؛ لأن الأنبياء شهداء على أممهم، ﴿فَقُلْنَا﴾ للأمم: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول، ﴿فَعَلِمُوا﴾ حينئذ ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية، لا يشاركه فيها غيره، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ غاب غيبة الشيء الضائع ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من ألوهية غير الله وشفاعة أصنامهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: دوام ليل القبض يمحَقُّ البشرية، ودوام نهر البسط يطغى النفس، وتخالفهما على المرید رحمة، وإخراجه عنهما عناية، وفي الحكم: «بسطك كي لا يتركك مع القبض، وقبضك كي لا يتركك مع البسط، وأخرجك عنهما كي لا تكون لشيء دونه». وقال فارس رحمته: القبض أولاً، ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط؛ لأن القبض والبسط يقعان في الوجود، وأما مع الفناء والبقاء فلا هـ.

(١) من الآية ١٧٤ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٠٨ من سورة المؤمنون.

(٣) بنصرف.

ولما قال تعالى: ﴿وما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾؛ ذكر من متعها بها وغرته، فقال:

﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قلت: «قارون»: غير مصروف؛ للعجمة والتعريف، ولو كان «فاعولاً»؛ من قرنت الشيء، لانصرف لخروجه عن العجمة. «إذ قال»: ظرف لبغى، أى: طغى حين رُعِظَ، ولم يقبل ما وعظ به، أو: يتعلق بمقدر، أى: أظهر التفاخر بالمال حين قال له قومه: لا تفرح. وهما: موصولة، وإن مفاتحه: صلته، ولذلك كسرت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ﴾؛ كان إسرائيلياً، ابن عم لموسى وابن خالته، فهو قارون بن بصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب، وموسى بن عمران بن قاهث. وكان يسمى «المنور»؛ لحسن صورته^(١)، وكان آمن بموسى، وكان أحفظ الناس للثروة، ولكنه نافق كما نافق السامري. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، من البغى، أى: الظلم؛ قيل: ملكه فرعون على بنى إسرائيل فظلمهم. أو: من البغى، أى: الكبر، أى: تكبر عليهم بكثرة ماله وولده، وزاد عليهم فى الثياب شبراً، فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده.

﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا﴾ الذى ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾؛ جمع مفتاح، بمعنى المقلد، أى: إن مقاليدہ ﴿لَتَنُوءُ﴾ أى: تثقل ﴿بِالْعُصْبَةِ﴾، الباء للتعدية، يقال: ناء به الحمل: أثقله حتى أماله. والعصبة: الجماعة الكثيرة، وكانت مفاتيح خزائنه وقرستين بغلاً، لكل خزانة مفتاح، ولا يزيد المفتاح على إصبع. وكانت من جلود، أى: مغاليقها. وقيل: معنى تنوء: تنهض بتكلف، ويكون حينئذ فى الكلام قلب؛ إذ العصبة هى التى تنوء بالمفتاح، لا العكس، قيل: وسميت أمواله كنوزاً؛ لأنه كان لا يؤدى زكاتها، وبسبب ذلك عادى موسى أول عداوته.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾؛ لا تبطر بكثرة المال؛ فرح إعجاب؛ لأنه يقود إلى الطغيان. أو: لا تفرح بالدنيا؛ إذ لا يفرح بها إلا من لا عقل له، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾: البطرين المفتخرين بالمال، أو: الفرحين بزخارف الدنيا، من حيث حصول حظوظهم وشهواتهم فيها. قال البيضاوى: الفرح بالدنيا مذموم مطلقاً؛ لأنه نتيجة حبها

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٨ - ٣٩٩).

والرضا بها، والذهول عن ذهابها، فإن العلم بأن ما فيها من اللذة مفارق لامحالة، يوجب التورخي (١) لا محالة، كما قيل:

أَشَدُّ الْغَمِّ عِنْدِي فِي سُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالَ

﴿وابتغ فيما آتاك الله﴾ من المال والثروة ﴿الدار الآخرة﴾؛ بأن تتصدق على الفقراء وتصل الرحم، وتصرفه في أنواع الخير، ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾، وهو أن تأخذ ما يكفيك ويصلحك. وقيل: معناه: واطلب بدنياك آخرتك؛ فإن ذلك حظ المؤمن منها؛ لأنها مزرعة الآخرة، فيها تكتسب الحسنات وترفع الدرجات، أى: لا تنس نصيبك منها أن تقدمه للآخرة، ﴿وأحسن﴾ إلى عباد الله ﴿كما أحسن الله إليك﴾ فيما أنعم به عليك، أو: أحسن بشرك وطاعتك لخالق الأنام، كما أحسن إليك بمساويع الإنعام. ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ بالنظم والبغي وإنفاق المال في المعاصي؛ ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾؛ لا يرضى فعلهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية زجر عن الفرح بالدنيا والافتخار بها، بل الفرح بكل ما يقني: ككُلِّ مذموم. قال في الإحياء: الفرح بالدنيا والتنعم بها سُمُّ قَاتِلٍ، يسرى في العروق، فيخرج من القلب الخوف والحزن، وذكر الموت وأهوال يوم القيامة، وهذا هو موت القلب، والعياذ بالله، فأولو العزم من أرباب القلوب حزنوا لموتاً الدنيا، وعلموا أن النجاة في الحزن الدائم، والتباعد من أسباب الفرح والبطر، فقطعوا النفس عن ملاذها، وعودوا الصبر عن شهواتها، حلالها وحرامها، وعلموا أن حلالها حساب، وهو نوع عذاب، ومن نوقش الحساب عذب، فخلصوا أنفسهم من عذابها، وتوصلوا إلى الحرية والملك في الدنيا والآخرة، بالخلاص من أسر الشهوات ورقها، والأنس بذكر الله تعالى والاشتغال بطاعته. هـ.

وقال يَمُنْ بن رزق: اعلم أني لم أجد شيئاً أبلغ في الزهد في الدنيا من ثبات حزن الآخرة في القلب، وعلامة ثبات حزن الآخرة في القلب: أنس القلب بالوحدة. هـ. قلت: وهذا مذهب العباد والزهاد، وأما العارفون فقد دخلوا جنة المعارف، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، جعلنا الله من خواصهم، بمنه وكرمه.

ثم ذكر جواب قارون، فقال:

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ ۖ مِنَ الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾

(١) في البيضاوي: [الفرح] وهو أنسب بالسياق.. ولعل ما في أعلى تصحيحاً عن: التوقي، أى: الحذر والتحوط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قَالَ قَارُونَ: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ ﴾ أَيْ: الْمَالِ ﴿ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ أَيْ: عَلَى اسْتِحْقَاقٍ مِنِّي، لِمَا فِيَّ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي فَضَّلْتُ بِهِ النَّاسَ، وَهُوَ عِلْمُ التَّوْرَةِ، وَكَانَ أَعْلَمَ النَّاسَ بِهِ بَعْدَ مُوسَى وَهَارُونَ، وَكَانَ مِنَ الْعِبَادِ، ثُمَّ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ. وَذَكَرَ الْقَشِيرِيُّ أَنَّهُ كَانَ مُنْقَطِعاً فِي صَوْمَعَةٍ لِلْعِبَادَةِ، فَصَحْبُهُ إِبْلِيسُ عَلَى الْعِبَادَةِ، وَاسْتَمَرَّ مَعَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، إِلَى أَنْ أُلْقِيَ إِلَيْهِ: إِنْ مَا هُمَا عَلَيْهِ، مِنَ الْإِنْقِطَاعِ عَنِ التَّكْسِبِ، وَكَوْنِ أَمْرِهِمَا عَلَى أَيْدِي النَّاسِ، لَيْسَ بِشَيْءٍ، فَرَدَّهُ إِلَى التَّكْسِبِ بِتَدْرِيجٍ، إِلَى أَنْ اسْتَحْكَمَ فِيهِ حُبُّ الدُّنْيَا وَالْجَمْعُ وَالْمَنْعُ، ثُمَّ تَرَكَهُ هـ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ عِلْمُ الْكِيمْيَاءِ، وَكَانَ يَأْخُذُ الرِّصَاصَ وَالنَّحَاسَ فَيَجْعَلُهُمَا ذَهَباً. أَوْ: الْعِلْمُ بِوُجُوهِ الْمَكَّاسِبِ مِنَ التَّجَارَةِ وَالزَّرَاعَةِ، أَوْ: الْعِلْمُ بِكُنُوزِ يُوسُفَ (١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾، أَيْ: أَوْ لَمْ يَكُنْ فِي عِلْمِهِ، مِنْ جَمَلَةِ الْعِلْمِ الَّذِي عِنْدَهُ، أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ وَأَقْوَى وَأَغْنَى، وَأَكْثَرُ جَمْعاً لِلْمَالِ، أَوْ أَكْثَرُ جَمَاعَةً وَعِدْداً، وَهُوَ تَوْبِيخٌ عَلَى اغْتِرَارِهِ بِقُوَّتِهِ وَكَثْرَةِ مَالِهِ، مَعَ عِلْمِهِ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ قَرَأَهُ فِي التَّوْرَةِ، وَسَمِعَهُ مِنْ حِفَاطِ التَّوَارِيخِ. أَوْ: نَفَى لِعِلْمِهِ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿ أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾؛ قِيلَ لَهُ: أَعِنْدَهُ مِثْلُ ذَلِكَ الْعِلْمِ الَّذِي ادَّعَاهُ، وَرَأَى نَفْسَهُ بِهِ مُسْتَوْجِبَةً لِكُلِّ نِعْمَةٍ، وَلَمْ يَعْلَمْ هَذَا الْعِلْمُ النَّافِعَ، الَّذِي هُوَ الْإِعْتِبَارُ بِمَنْ هَلَكَ قَبْلَهُ، حَتَّى يَقَى نَفْسَهُ مِصَارِعَ الْهَالِكِينَ.

﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾، لَعَلَّمَهُ تَعَالَى بِعَمَلِهِمْ، بَلْ يَدْخُلُهُمُ النَّارُ بَغْتَةً. أَوْ: يَعْتَرِفُونَ بِهَا بِغَيْرِ سَوَالٍ، أَوْ: يَعْرِفُونَ بِسَيِّمَاتِهِمْ فَلَا يُسْأَلُونَ، أَوْ: لَا يُسْأَلُونَ سَوَالِ تَوْبِيخٍ، أَوْ لَا يُسْأَلُ الْمُجْرِمُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ ذُنُوبِ الْمَاضِينَ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: هُوَ كَلَامٌ مُتَّصِلٌ بِمَا قَبْلَهُ، وَالضَّمِيرُ فِي (ذُنُوبِهِمْ)؛ عَائِدٌ عَلَى مَنْ أَهْلَكَ مِنَ الْقُرُونِ، أَيْ: أَهْلَكُوا، وَلَمْ يُسْأَلْ غَيْرُهُمْ بَعْدَهُمْ عَنْ ذُنُوبِهِمْ، بَلْ كُلُّ أَحَدٍ إِنَّمَا يُعَاتَبُ عَلَى مَا يَخْصُهُ هـ. وَإِذَا قُلْنَا هُوَ؛ فِي الْقِيَامَةِ فَقَدْ وَرَدَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى أَنَّهُمْ يُسْأَلُونَ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ مُوَاطِنٌ وَطَوَائِفٌ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الإشارة: إِذَا خَصَّ اللَّهُ عَبْدًا بِخُصُوصِيَّةٍ فَلَا يَنْسِبُهَا لِنَفْسِهِ، أَوْ لِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، أَوْ لِكُسْبِهِ وَمَجَاهِدَتِهِ، بَلْ يَشْهَدُهَا مَنَّةً مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَسَابِقَ عُنَايَةٍ مِنْهُ إِلَيْهِ، قَالَ سَهْلٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا نَظَرَ أَحَدٌ إِلَى نَفْسِهِ فَأَقْلَحَ، وَالسَّعِيدُ مِنْ صَرَفَ بَصَرَهُ عَنْ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَفَتَحَ لَهُ سَبِيلَ رُؤْيَا مَنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِ، فِي جَمِيعِ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ. وَالشَّقِيُّ مَنْ زَيَّنَ لَهُ فِي عَيْنِهِ أَفْعَالَهُ وَأَقْوَالَهُ وَأَحْوَالَهُ، وَلَافْتَحَ لَهُ سَبِيلَ رُؤْيَا مَنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَافْتَخَرَ بِهَا وَادَّعَاهَا لِنَفْسِهِ، فَشَوَّاهُ أَنْ يَهْلِكَ كَمَا خَسَفَ بِقَارُونَ، لَمَّا ادَّعَى لِنَفْسِهِ فَضْلاً هـ.

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٩٩ - ٤٠٠) وتفسير البغوي (٦/٢٢٢).

ثم قال تعالى :

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ ٧٩ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ۝ ٨٠ ﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ۝ ٨١ ﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَانَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۝ ٨٢ ﴾

قلت: (في زينته): حال، (ويُكَانَهُ): مذهب الخليل وسيبويه: أن «وى»: حرف تنبيه منفصلة عن كَان، لكن أُضيفت لكثرة الاستعمال. وقال أبو حاتم وجماعة: «ويك» هي «ويك»؛ حذفت اللام منها؛ لكثرة الاستعمال. وقالت فرقة: «ويكأن»؛ بجملتها: كلمة. قاله الثعلبي، وقال البيضاوي: ويكأن، عند البصريين، مركب من: «وى»؛ للتعجب، و«كأن»، للتشبيه هـ. وقال سيبويه: «وى»: كلمة تنبيه على الخطأ وتندّم، يستعملها النادم لإظهار ندامته.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَخَرَجَ ﴾ قارون ﴿ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾، قال جابر: كانت زينته القرمز، وهو صبيغ أحمر معروف. قيل: إنه خرج في الحمرة والصفرة، وقيل: خرج يوم السبت على بغلة شهباء، عليها الأرجوان، وعليها سرج من ذهب، ومعه أربعة آلاف على زيه، وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر، وعن يمينه ثلاثمائة غلام، وعن يساره ثلاثمائة جارية بيض، عليهن الحلّى والديباج.

﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾، قيل: كانوا مسلمين، وإنما تمناؤا، على سبيل الرغبة في اليسار، كعادة البشر، وقيل: كانوا كفاراً، ويرده قوله: ﴿ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ ۝ ٨٠ ۖ ﴾ إلخ. ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ من المال والجاه، قاله: غبطة. والغابط هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه، من غير أن تزول عنه، والحاسد هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له، دونه. وهو كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۖ ﴾ (١)، وقيل لرسول الله ﷺ: هل تضر الغبطة؟ فقال: «لا..» الحديث (٢). ﴿ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ من الدنيا، والحظ: الجد، وهو البخت والدولة.

(١) من الآية ٣٢ من سورة النساء.

(٢) لفظ الحديث: سأل عنه: هل يضر الغبطة؟ قال: «لا»، إلا كما يضر العضاة الخبط، قال ابن حجر في الكافي: ذكره ثابت السرقسطي في الغريب، هكذا بغير إسناد. انظر الكافي الشاف على هامش الكشف (٤٣٢/٣).

﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾ بالثواب والعقاب وفناء الدنيا، أو: أوتوا العلم بالله، فيؤخذ منه: أن متمنى الدنيا جاهل ولو كان أعلم الناس؛ إذ لا يتمناها إلا المحب لها، وهي رأس الفتنة. فأى علم يبقى مع فتنة الدنيا؟ قالوا في وعظهم لغابطي قارون: ﴿وَيْلَكُمْ﴾؛ هلاكاً لكم، فأصل ويلك: الدعاء بالهلاك، ثم استعمل في الزجر والردع على ترك ما لا يرضى. وقال في التبيان في إعراب القرآن: هو مفعول بفعل محذوف، أى: ألزمتكم الله ويلكم، ﴿ثواب الله﴾ في الآخرة، ﴿خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾ مما أوتى قارون، بل من الدنيا وما فيها، ﴿ولا يلقاها﴾ أى: لا يلقى هذه الكلمة التى تكلم بها العلماء، وهي ثواب الله خير، ﴿إلا الصابرون﴾. أو: لا يلقى هذه القوة والعزيمة في الدين إلا الصابرون على الطاعات وعن الشهوات وزينة الدنيا.

وفى حديث الترمذى: أن رسول الله ﷺ قال: «من ترك اللباس - أى: الفاخر -؛ تواضعاً لله تعالى، وهو يقدر عليه، دعاه الله على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من أى حلل الإيمان شاء يلبسها» (١). وفيه أيضاً عنه عليه الصلاة والسلام: «ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يوارى عورته، وجلف الخبز والماء» (٢). أى: ليس معه إدام.

قال تعالى: ﴿فخسفنا به﴾؛ بقارون ﴿وبداره الأرض﴾، كان قارون يؤذى موسى عليه السلام كل وقت، وهو يداريه؛ للقرابة التى بينهما، حتى نزلت الزكاة، فصالحه: على كل ألف دينار دينار، وعلى كل ألف درهم درهم، فحاسبه فاستكثره، فشحت به نفسه، فجمع بنى إسرائيل، وقال له: قد أطعتم موسى فى كل شىء، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم، فقالوا: أنت كبيرنا فمرنا بما شئت، قال: نجعل لفلانة البغى جعلاً حتى تقذف موسى بنفسها، فيرفضه بنو إسرائيل، فجعل لها ألف دينار، أو: طمست من ذهب، فلما كان يوم عيد قام موسى خطيباً، فقال: من سرق قطعنا يده، ومن افترى جلدناه ثمانين، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة، ومن زنى وله امرأة رجمناه، فقال قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا، قال: فإن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، فأحضرت، فنادى بالذى خلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق، فقالت: جعل لى قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسى، فخر موسى ساجداً يبكى، وقال: اللهم إن كنت رسولك فاغضب لى، فأوحى الله تعالى إليه: مر الأرض بما شئت فيه، فإنها مطيعة لك، فقال: يا بنى إسرائيل: إن الله بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون، فمن كان معه فليلزم

(١) أخرجه الترمذى فى (صفة القيامة، باب ٣٩، ٤/٥٦١ ح ٢٤٨١)، والحاكم فى المستدرک (١/٦١) وصححه، ووافقه الذهبى، من حديث معاذ بن أنس.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (١/٦٢)، والترمذى وصححه فى (الزهد، باب ٣٠، ٤/٤٩٤، ح ٢٣٤١) من حديث سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وقوله ﷺ: «رجلف الخبز، أى: ليس معه إدام. انظر: النهاية فى غريب الحديث (١/٨٧).

مكانه، ومن كان معي فليعتزل، فاعتزلوا جميعاً غير رجلين. ثم قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى الأوساط، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى الأعناق، وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى، ويناشدونه بالله وبالرحم، وموسى لا يلتفت إليهم؛ لشدة غضبه، ثم قال: خذيهم، فانطبقت عليهم. فقال الله تعالى: يا موسى؛ استغاث بك مراراً فلم ترحمه، فوعزتي لو استرحمتني مرة لرحمته (١).

روى أنه يخسف كل يوم قامة، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، فقال بعض بنى إسرائيل: إنما أهلكه ليرث داره وكنوزه، فدعى الله تعالى فخسف بداره وكنوزه، وأوحى الله تعالى إلى موسى: إني لا أعبد الأرض أحداً بعدك أبداً، أى: لا أمرها تطيع أحداً بعدك.

﴿فما كان له من فئة﴾؛ جماعة ﴿ينصرونه من دون الله﴾؛ يمنعونه من عذاب الله، ﴿وما كان من المنتصرين﴾ من عذاب الله، أو: من المنتقمين من موسى.

﴿وأصبح﴾ أى: وصار ﴿الذين تمنوا مكانه﴾ أى: منزلته من الدنيا ﴿بالأمس﴾: متعلق بتمنوا. ولم يرد به اليوم الذى قبل يومك، ولكن الوقت القريب، استعارة. ﴿يقولون ويكأن الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أى: اعجب مما صنع بقارون؛ لأن الله ييسط الرزق لمن يشاء، وهو عنده ممقوت، ﴿ويقدر﴾ أى: يضيقه على من يشاء، وهو عنده محبوب. ﴿لولا أن من الله علينا﴾؛ بصرف ما كنا نتمناه بالأمس، ﴿لخسف بنا﴾ معه، كما فعل بالرجلين، ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ أى: اعجب لعدم فلاح الكافرين. قال الرضى: كأن المخاطب كان يدعى أنهم يفلحون، فقال له: عجباً منك، فسئل: لم تتعجب منه؟ فقال: إنه لا يفلح الكافرون، فحذف حرف الجار. وقال ابن عزيز: ويكأن الله معناه: ألم تر أن الله. واقتصر عليه البخارى (٢). والله تعالى أعلم.

الإشارة: فى الآية ترهيب من التعمق فى زينة الدنيا، والتكاثر بها. ومن تمنى ما لأربابها من غرور زخرفها، وترغيب فى الزهد فيها، وإيثار الفقر على الغنى، والتبذل والتخشن على ملاذ ملابسها ومطاعمها. قال الشيخ العارف؛ سيدى عبدالرحمن بن يوسف اللجائى فى كتابه: اعلم أن الدنيا إذا عظمت وجلت فى قلب عبد، فإن ذلك العبد يعظم قدر من أقبلت عليه الدنيا، ويتمنى أن ينال منها ما نال، فإن كل انسان يعظم ما اشتتهت نفسه.

(١) ذكره البغوى فى تفسيره (٢٢٤/٦) وانظر تفسير ابن كثير (٤١١/٣).

قلت: وهذ الرواية تجعل سبب الخسف بقارون هو غضب سيدنا موسى لنفسه، لكن القرآن الكريم، والأحاديث الصحيحة تبرهن على أن سبب الخسف به هو التكبر على الله تعالى، والتكبر على الناس.

(٢) انظر فتح البارى (كتاب التفسير، سورة القصص، باب. «إنك لا تهدى من أحببت» ٣٦٩/٨).

وهذه صفة عبيد الدنيا، وعبيد أهوائهم. وهي صفة من أسكرته الغفلة، وخرجت عظمة الله عز وجل من قلبه، وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا . . .﴾ الآية. فكل محب للدنيا، مستغرق في حبها، فهو لاحق بالذين تمسوا زينة قارون. وأعلم أن الدنيا إذا رسخت في القلب، واستوطنت، ظهر ذلك على جوارح العبد، بتكالبه عليها، وشدة رغبته فيها، فيسلبه الله تعالى لذة القناعة، ويمدعه مياسة الزاهدين، ويبعده عن روح العارفين؛ فإن القلب إذا لم يقنع - لو ملك الدنيا بحذافيرها - لم يشبع. وقال بعض الحكماء: القناعة هي الغنى الأكبر، ولن تخفى صفة القانعين هـ. ومآل الراغبين في الدنيا هو مآل قارون، من الفناء والذهاب تحت التراب، وأنشدوا:

إِنْ كُنْتَ تَسْمُو إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا	فَانْظُرْ إِلَى مَالِكِ الْأَمْلاكِ قَارُونَ
رَمَّ الْأُمُورَ فَأَعْطَتْهُ مَسْقَاتُهَا	وَسَخَّرَ النَّاسَ بِالتَّشْدِيدِ وَاللَّيْنِ
حَتَّى إِذَا ظَنَّ الْأَشْيَاءَ غَالِبَهُ	وَمَكَّنَتْ قَدَمَاهُ أَيْ تَمْكِينِ
رَاحَتْ عَلَيْهِ الْمَدَايَا رَوْحَةً تَرَكَّتْ	ذَا الْمُلْكِ وَالْعِزِّ تَحْتَ الْمَاءِ وَالطِّينِ

ثم ذكر عاقبة المتواضعين، فقال:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾
 ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

قلت: (تلك): مبتدأ، و(نجعلها): خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿تلك الدار الآخرة﴾ أي: تلك الدار التي سمعت بذكرها، وبلغك خبرها. ومعنى البعد في الإشارة، لبعد منزلتها وعلو قدرها، ﴿نجعلها للذين لا يريدون علوًّا في الأرض﴾ أي: تكبراً وقهراً كحال فرعون، ﴿ولا فساداً﴾: عملاً بالمعاصي، أو: ظلماً على الناس، كحال قارون، أو: قتل النفس، أو: دعاء إلى عبادة غير الله، ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما، أدرك ذلك

بالفعل أم لا . وعن علي عليه السلام : إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها . وعن الفضيل : أنه قرأها، ثم قال : ذهبت الأمانى ها هنا . وعن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أنه كان يرددّها حتى قبض . ﴿ والعاقبة ﴾ المحموده ﴿ للمتقين ﴾ ما لا يرضاه الله ؛ من العلو والفساد وغير ذلك .

﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ ؛ ذاتاً وقدرّاً ووصفاً ، ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ ؛ ما لا يرضاه الله تعالى ، ﴿ فلا يجزى الذين عملوا السيئات ﴾ ، أصله : فلا يجزون ، وضع الظاهر موضع المضمرة ؛ لما في إسناد السيئات إليهم من تقبيح رأيهم وتسفيه أحلامهم ، وزيادة تبغيض السيئات إلى قلوب السامعين ، ﴿ إلا ما كانوا يعملون ﴾ ؛ إلا جزاء عملهم فقط ، ومن فضله العظيم ألا يجزى السيئة إلا مثلها ، ويجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة .

الإشارة : جعل الله الدار الآخرة للمتواضعين ، أهل الذل والانكسار ، والعاقبة المحموده . وهى الوصول إلى الحضرة . للمتقين الشهرة والاستبكار ، وفى الحكم : « ادفن نفسك فى أرض الخمول ؛ فما نبت مما لم يدفن ؛ لا يتم نفعه » . قال فى التنبيه : لاشئ أضرب على المرید من الشهرة وانتشار الصيت ؛ لأن ذلك من أعظم حظوظه ، التى هو مأمور بتركها ، ومجاهدة النفس فيها ، وقد تسمح نفس المرید بترك ما سوى هذا من الحظوظ . هـ .

وكان شيخ شيخنا يقول : نحب المرید أن يكون قدمه أعظم من صيته ، ولا يكون صيته أعظم من قدمه . هـ . وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه : ما صدق الله من أحب الشهرة . وقال بعضهم : طريقتنا هذه لاتصلح إلا بأقوام كنست بأرواحهم المزابل . وقال أيوب رضي الله عنه : ما صدق عبد إلا سره ألا يشعر بمكانه . وقال فى القوت : ومتى ذل العبد نفسه ، واتضع عندها ، فلم يجد لذته طعماً ، ولا لصعته حسماً ، فقد صار الذل والتواضع كونه ، فهذا لا يكره الذم من الخلق ؛ لوجود اللقص فى نفسه ، ولا يحب المدح منهم ؛ لفقد القدر والمنزلة فى نفسه . فصارت الذلة والضعفة صفة لاتفارقه ، لازمة لزوم الزیالة للزیال ، والكساحة للكساح ، هما صنعتان له كسائر الصنائع . وربما فخرؤا بهما لعدم النظر إلى نقصهما . فهذه ولاية عظيمة له من ربه ، قد ولّاه على نفسه ، وملكه عليها ، فقهرها بعزه ، وهذا مقام محبوب ، وبعده المكاشفات بسرائر الغيوب . ثم قال : ومن كان حاله مع الله تعالى الذل طلبه واستحلاه ، كما يطلب المتكبر العز ، ويستحليه إذا وجده ، فإن فارق ذلك الذل ساعة تغیر قلبه لفراق حاله ، كما أن المتعزز إن فارق العز ساعة تكدر عليه عيشه ؛ لأن ذلك عيش نفسه . هـ .

قلت : وهذا مقام من المقامات ، والعارف الكامل لا يتغير قلبه على فقد شئ ؛ إذ لم يفقد شيئاً بعد أن وجد الله ، (ما ذا فقد من وجدك) . والذى ذكره فى القوت هو حال السائرين الصادقين . وبالله التوفيق .

(١) من ملجاة سيدى ابن عملاه الله السكندرى ، انظر الحكم بتريب المتقى الهندى / ٤٢ .

ثم ذكر عاقبة سيد المتقين، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قلت: (ولا يصدنك): مجزوم بحذف النون، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين، حين دخلت نون التوكيد.

يقول الحق جل جلاله، لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي: أوجب عليك تلاوته وتبليغه، والعمل بما فيه، ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ عظيم، وهو المعاد الجسماني؛ لتقوم المقام المحمود، الذي لا يقوم فيه أحد غيرك، مع حضور الأكابر من الرسل وغيرهم. أو: لرادك إلى معادك الأول، وهو مكة، وكان عليه الصلاة والسلام اشتاق إليها؛ لأنها مولده ومولد آبائه، وقد رده إليها يوم الفتح، وإنما نكره؛ لأنه كان في ذلك اليوم معاد له شأن، ومرجع له اعتداد؛ لغلبته - عليه الصلاة والسلام - ونصره، وقهره لأعدائه، ولظهور عز الإسلام وأهله، ونيل الشرك وحزبه.

والسورة مكية، ولكن هذه الآية نزلت بالجحفة، لا بمكة ولا بالمدينة^(١)، وفي الآية وعد بالنصر، وأن العاقبة الحسنة والخير الجسيم للنبي ﷺ لا يختص بالآخرة، بل يكون في الدنيا له ولتبعيه، ولكن بعد الابتلاء والامتحان، كما في صدر السورة الآتية بعدها، وبهذا يقع التناسب بينهما، فإنها كالتعليل لما قبلها.

ولما وعده بالنصر قال له: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي: يعلم من جاء بالحق، يعني: نفسه ﷺ مع ما يستحقه من النصر والثواب، في معاده، ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهم المشركون، مع ما يستحقونه من العقاب في معادهم.

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ﴾؛ يوحى ﴿إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي: القرآن، فكما ألقى إليك الكتاب، وما كنت ترجوه؛ كذلك يردك إلى معادك الأول، من غير أن ترجوه، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾، لكن ألقاه إليك؛ رحمة منه

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤٠٢/٣ - ٤٠٣).

إليك، ويجوز أن يكون استثناء محمولاً على المعنى، كأنه قال: وما أُلقي إليك الكتاب إلا رحمة من ربك، ﴿فلا تكونن ظهيراً﴾ ؛ معينا ﴿للكافرين﴾ على دينهم؛ بمداراتهم والتحمل عنهم، والإجابة إلى طلبتهم.

﴿ولا يصدنك عن آيات الله﴾ أى: لا يمنعك هؤلاء عن العمل بآيات الله وتبليغها وإظهارها، ﴿بعد إذ أنزلت إليك﴾ أى: بعد وقت إنزالها، و﴿إذ﴾: مضاف إليه أسماء الزمان، كقولك: حينئذ ويؤمئذ. ﴿وإدع إلى ربك﴾ ؛ إلى توحيده وعبادته، ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ ؛ نهاء؛ تنفيراً لغيره من الشرك.

﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنه : الخطاب للنبي ﷺ ، والمراد به أهل دينه. قال البيضاوي: وهذا وما قبله تهيج، وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم، ﴿لا إله إلا هو﴾ : استئناف، مقرر لما قبله، ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ أى: ذاته، فالوجه يعبر به عن الذات، أى: كل شيء فان مستهلك معدوم، إلا ذاته المقدسة، فإنها موجودة باقية. وقال أبو العالية: إلا ما أريد به وجه الله، من علم وعمل، فإنه لا يفنى. قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : يجاء بالدنيا يوم القيامة، فيقال: ميزوا ما كان لله تعالى منها، فيميز، ثم يؤمر بسائرهما فيلقى في النار. هـ. وقال الضحاك: كل شيء هالك إلا الله والجنة والنار والعرش.

﴿له الحكم﴾ ؛ القضاء النافذ في خلقه، ﴿وإليه ترجعون﴾ ؛ للجزاء والفصل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أهل الاشتياق يروحون أرواحهم بهذه الآية، فيقولون لها: إن الذي فرض عليك القرآن، أن تعمل به في الدنيا، لرادك إلى معاد جسماني روحاني، فتتصل نصرتك ونظرتك إلى وجه الحبيب، من غير عذول ولا رقيب، على سبيل الاتصال، من غير تكدر ولا انفصال، فإن وقع الإنكار على أهل الخصوصية؛ فيقولون: ﴿ربى أعلم﴾ الآية.. وما كنت ترجو أن تلقى إليك الخصوصية إلا رحمة من ربك، فلا تكونن ظهيراً للكافرين المنكرين لها، معيناً لهم على إذابة من انتسب إليها، ولا يصدنك عن معرفة آيات الله الدالة عليه، بعد إذ أنزلت إليك، أى: لا يمنعك الناس عن صحبة أولياء الله، الدالين عليه، وإدع إلى ربك، أى: إلى معرفة ذاته ووجدانيته، ولا تكونن من المشركين بشهود شيء من السوى، فإن كل شيء هالك، أى: معدم في الماضي والحال والمستقبال، إلا وجهه: إلا ذاته، فلا مرجود معها، وفي ذلك يقول الشاعر:

الله قل، وذو الجود ماحوى	إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فأكل، دون الله، إن حقتة،	عدم على التفصيل والإجمال
وأعلم بأنك، والعوالم كلها،	لؤلة، في محروفي اضمحلال

مَنْ لَا وُجُودَ لِدَاثِهِ مِنْ دَاثِهِ فَوُجُودُهُ، لَوْلَاهُ، عَيْنُ مُحَالٍ
 فَالْعَارِفُونَ فَتَوًّا، وَلَمْ يَشْهَدُوا شَيْئاً سِوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِ
 وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَالِكاً فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالْإِسْتِقْبَالِ.

وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلَّمَ.



سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

مكية، إلا صدرها؛ العشر الآيات، فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة، وإلا قوله: ﴿ومن الناس من يقول آمناً﴾ إلى: ﴿المنافقين﴾ (١)؛ فإنها نزلت في المتخلفين عن الهجرة. وهي كالتعليل لخاتمة ما قبلها؛ من البشارة بالنصر؛ لأنه لا يكون في الغالب إلا بعد الامتحان، كما قال تعالى:

بِشْرٍ مِنَ اللَّهِ وَالْحِزْزِ الْغَلِيظِ

﴿الْم ١﴾ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾

قلت: الحساب: قوة أحد النقيضين على الآخر، كالظن، بخلاف الشك، فهو الوقوف بينهما. والعلم: هو القطع بأحدهما، ولا يصح تعلقهما بمعاني المفردات، ولكن بمضامين الجمل، فلا أقول: حسبت زيدا، وظننت الفرس، بل حسبت زيدا قائماً، والفرس جواداً. والكلام الدال على المضمون، الذي يقتضيه الحساب هنا أن يتركوا مع قوله: ﴿وهم لا يفتنون﴾ أي: أحسبوا تركهم غير مفتونين لأن يقولوا: آمناً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الْم ١﴾ الألف: لوحدة أسرار الجبروت، واللام: لفيضان أنوار الملكوت، والميم: لاتصال المادة بعالم الملك. فكأنه تعالى أقسم بوحدة جبروته وأنوار ملكوته واتصال مادته بملكه وخليقته، أنه لا يدع دعوة مدع إلا ويختبره؛ ليظهر صدقه أو كذبه، وهذا معنى قوله: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ﴾ أي: أظن الناس ﴿أَنْ يَتْرَكُوا﴾ غير مفتونين ومختبرين، ﴿أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾؛ أظنوا أن يدعوا الإيمان ولا يختبرون عليه؛ ليظهر الصادق من الكاذب، بل يمتحنهم الله بمشاق التكليف؛ من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء، ورفض الشهوات، ووظائف الطاعات، وبالفقر، والقحط، وأنواع المصائب في الأموال والأنفس، وإذابة الخلق؛ ليتميز المخلص من المنافق، والثابت في الدين من المضطرب فيه، ولينالوا بالصبر على ذلك عوالي الدرجات، فإن مجرد الإيمان، وإن كان عن خلوص قلب، لا يقتضى غير الخلاص من الخلود في العذاب، وما

(١) الآيات: ٩ - ١١.

ينال العبد من المكاره يسمو به إلى أعلى الدرجات وأعظم المقامات، مع ما في ذلك من تصفية النفس وتهذيبها، لنتهاء لإشراق أنوار مقام الإحسان.

رؤى أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، قد جزعوا من أذى المشركين، وضافت صدورهم من ذلك، وربما استنكر بعضهم أن يمكن الله الكفرة من المؤمنين. فنزلت مسلية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده؛ اختباراً لهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بأنواع المحن؛ فمنهم من كان يوضع المنشار على رأسه، فيفرق فرقتين، وما يصرفه ذلك عن دينه، ومنهم من كان يمشط بأمشاط الحديد، ومنهم من كان يطرح في النار، وما يصده ذلك عن دينه. ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ بذلك الامتحان ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الإيمان باللبات، ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ بالرجوع عنه. ومعنى علمه تعالى به، أي: علم ظهور وتمييز. والمعنى: ولَيُمَيِّزَنَّ الصَّادِقَ مِنْهُمْ مِنَ الْكَاذِبِ، في الدنيا والآخرة. قال ابن عطاء: يتبين صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء، فمن شكر في أيام الرخاء، وصبر في أيام البلاء، فهو من الصادقين، ومن بطر في أيام الدنيا، وجزع في أيام البلاء، فهو من الكاذبين. هـ.

الإشارة: سنة الله تعالى في أوليائه: أن يمتحنهم في البدايات، فإذا تمكنوا من معرفة الله، وكمل تهذيبهم، أعزهم ونصرهم، وأظهرهم لعباده. ومنهم من يتركهم تحت أستار الخمول، حتى يلقوه على ذلك؛ وهم عرائس الملكوت، صن بهم أن يظهرهم لخلقهم. والامتحان يكون على قدر المقام، وفي الحديث: «أشدُّ الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الأئمة فالأهل، ثم يَنْتَلِي الرجلُ على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة، اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابتلى على قدر دينه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة» (١).

وقال ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً في الدنيا: نبي أو صفي». وقال ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الصالحون. لقد كان أحدهم يُبْتَلَى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة يحويها فيلبسها، ويُبْتَلَى بالقمل حتى يقتله، ولأحدهم كان أشدُّ فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء» (٢). من الجامع. والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الدرر في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ٥٢٠/٤، ح ٣٩٨. وابن ماجه في (الفتن، باب الصبر على البلاء، ١٣٣٤/٢، ح ٤٠٢٣)، والإمام أحمد في المسند (١٧٤/١) من حديث مصعب بن سعد، بن أبي وقاص رضى الله عنه.

(٢) أخرجه بنحوه ابن ماجه في الموضع السابق ذكره. (١٣٣٥/٤، ح ٤٠٢٤) وابن أبي الدنيا في (المرض والكفارات / ١)، والماكم (٣٠٧/٤) وصححه، من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه. وقوله ﷺ: «يحويها» في النهاية: التحوية: أن يدير كساء حول سلام البحر، ثم يركبه، والإسم: القوية. انظر النهاية (حوا ١/٤٦٥).

ثم نكر المؤذين لهم، فقال:

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٧)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى: الشرك والمعاصى وإذابة المسلمين، ﴿ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ أى: يفوتونا، بل يلحقهم الجزاء لا محالة. وأم: منقطعة، ومعنى الإضراب فيها: أن هذا الحساب أبطل من الحساب الأول؛ لأن ذلك يظن أنه لا يمتحن لإيمانه، وهذا يظن أنه لا يجازى بمساوئه، وشبهته أضعف، ولذلك عقبه بقوله: ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾، أى: بس ما يحكمون به حكمهم فى صفات الله أنه مسبق، وهو القادر على كل شيء، فالمخصوص محذوف.

ثم نكر العامل على الصبر عند الامتحان، وهو رجاء لقاء الحبيب، فقال: ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ أى: يأمل ثوابه، أو يخاف حسابه، أو ينتظر رؤيته، ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ ﴾ المضروب للغاية ﴿ لَآتٍ ﴾ لا محالة. وفيه تبشير بأن اللقاء حاصل؛ لأنه لأجل آت، وكل آت قريب. وكل غاية لها انقضاء، فليبادر للعمل الصالح الذى يصدق رجاءه ويحقق أمله. ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ لما يقوله عباده، ﴿ بما يفعلونه، فلا يفوته شيء. »

﴿ وَمَنْ جَاهَدَ ﴾ نفسه، بالصبر على مشاق الطاعات، ورفض الشهوات، وإذابة المخلوقات، وحبس النفس على مراقبة الحق فى الأنفاس واللحظات، ﴿ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾؛ لأن منفعة ذلك لها، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ وعن طاعتهم ومجاهدتهم. وإنما أمر ونهى؛ رحمة لهم، ومراعاة لصلاحهم.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى: الشرك والمعاصى؛ بالإيمان والتقوى، ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ ﴾ مع غنا عندهم، ﴿ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى: أحسن جزاء أعمالهم؛ بالفضل والكرم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أم حسب الذين ينفرون على أوليائى، المنتسبين إلى، أن يسبقونا؟ بل لابد أن نعاقبهم فى الدنيا والآخرة، إما فى الظاهر؛ بمصيبة تنزل بهم، أو فى الباطن، وهو أقبح، كقساوة فى قلوبهم، أو: كسل فى بدنهم، أو: شك فى يقينهم، أو: بعد من ربهم، فإن من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب. ثم بشر المتوجهين الذين يؤذون فى جانبهم، بأن لقاءه حاصل لهم إن صبروا، وهو الوصول إلى حضرته، والتنعيم بقربه ومشاهدته، جزاء على صبرهم ومجاهدتهم، وهو الغنى بالإطلاق.

ثم حذر من طاعة من يرد عن التوحيد والإخلاص، فقال:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾

قلت: «وصى»: حكمه حكم أمر، يقال: وصيت زيدا بأن يفعل خيراً، كما تقول: أمرته بأن يفعل خيراً، ومنه: ﴿وَوَصَّيْنَا بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ﴾ (١)، أي: أمرهم بكلمة التوحيد ووصاهم عليها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾؛ أمرناه بإيذاء والديه ﴿حُسْنًا﴾ أي: فعلاً ذا حسناً، أو: ما هو في ذاته حسن؛ لفرط حسنه، كقوله: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ (٢) أو: وصينا الإنسان بتعاهد والديه، وقتلنا له: أحسن بهما حسناً، أو: أولهما حسناً. ﴿وإن جاهدَاكَ﴾ أي: حملاك بالمجاهدة والجد ﴿لتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لا علم لك بالإلهية، والمراد نفى العلم نفى المعلوم، وكأنه قيل: لتُشْرِكَ بِي شَيْئاً لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ إِلَهاً، وقيل: ما ليس لك به حجة؛ لأنها طريق العلم، فهو قوله: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ (٣)، بل هو باطل عقلاً ونقلاً، ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾، من آمن منكم ومن أشرك، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ فأجازيكم حق جزائكم. وفي ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهم على الشرك، وحث على الثبات والاستقامة في الدين. روى أن سعد بن أبي وقاص لما أسلم، نذرت أمه ألا تأكل ولا تشرب حتى يردد، فشكى إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية والتي في لقمان (٤).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ ثبتوا على الإيمان ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي: في جملة الصالحين، والصالح من أبلغ صفة المؤمنين، وهو متمنى الأنبياء، فقال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (٥). وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٦) أو: في مدخل الصالحين، وهو الجنة.

(١) من الآية ١٣٢ من سورة البقرة. (٢) من الآية ٨٣ من سورة البقرة. (٣) من الآية ١١٧ من سورة المؤمنون. (٤) أي: قوله تعالى: ﴿وإن جاهدَاكَ على أن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية ١٥٠، ونزول الآية في شأن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أخرجه مسلم في (فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص، ٤/١٨٧٧ ح ١٧٤٨) وانظر أسباب النزول للواحدي (ص ٣٥٠ - ٣٥١).

(٥) من الآية ١٩ من سورة النمل. (٦) من الآية ١٠١ من سورة يوسف.

الإشارة: قد وصى الله تعالى بطاعة الوالدين في كل شيء، إلا في شأن التوحيد والتخلص من الشرك الجلى والخفى، فإن ظهر شيخ التربية ومنع الوالدان ولدهما من صحبتته، ليتطهر من شركه، فلا يطعهما، وسيأتى فى لقمان دليل ذلك، إن شاء الله. وبالله التوفيق.

ثم ذكر شأن من امتحن فافتضح، فقال:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةً النَّاسِ كَعَذَابِ اللّٰهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۚ وَلَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ۝١١﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ﴾، فيدخل فى جملة المسلمين، ﴿ فإذا أُوذِيَ فى الله ﴾ أى: مسه أذى من الكفرة؛ بأن عذبه على الإيمان، ﴿ جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ أى: جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله، فيصرف عن الإيمان. ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ﴾؛ فتح أو غلبة، ﴿ ليقولن إنا كنا معكم ﴾ أى: متابعين لكم فى دينكم، ثابتين عليه بثباتكم، فأعطونا نصيباً من المغنم. والمراد بهم: المنافقون، أو: قوم ضعف إيمانهم فارتدوا. قال تعالى: ﴿ أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ﴾ أى: هو أعلم بما فى صدور العالمين. ومن ذلك ما فى صدور هؤلاء من النفاق، وما فى صدور المؤمنين من الإخلاص.

الإشارة: منافق أهل الإيمان هو الذى يظهر الإيمان فى البرحاء ويرجع عنه فى الشدة، ومنافق الصوفية هو الذى يظهر الانتساب فى السعة والجمال، فإذا وقع البلاء والاختبار بأهل النسبة خرج عنهم، فإذا أُوذِيَ فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله بالقطيعه والحجاب، ولئن جاء لأهل النسبة نصر وعز، ليقولن: إنا كنا معكم. وقد رأينا كثيراً من هذا النوع، دخلوا فى طريق القوم، فلما قابلتهم نيران التعرف والامتحان؛ رجعوا القهقري، فعند الامتحان يعز المرء أو يهان، وعند الحملة يتميز الجبان من الشجاع.

قال القشيري: المحن تظهر جواهر الرجال، وتدل على قيمتهم وأقدارهم. ثم من كانت محنته من قوأت الدنيا، أو نقص نصيبه فيها، أو بمرت قريب أو فقد حبيب، فحقير قدره، وكثير فى الناس مثله. ومن كانت محنته فى الله والله، فعظيم قدره، وقليل مثله، فى العدد قليل، ولكن فى القدر والخطر جليل. هـ. قلت: معنى كلامه: أن

العامّة يمتحنهم الله ويختبرهم بذهاب حظوظهم وأحبابهم، فإن جزعوا فقدروهم حقير، وإن صبروا فأجرهم كبير، وأما الخاصة فيمتحنهم الله بسبب نسبتهم إلى الله، وإقبالهم عليه، أو الأمر بمعروف أو نهى عن منكر، فيؤذّن في جانب الله، فمنهم من يسجن، ومنهم من يضرب، ومنهم من يجلى من بلده، فهؤلاء قدرهم عند الله كبير. ثم قال: والمؤمن من يكف الأذى، والولى من يتحمل من الناس الأذى، من غير شكوى، ولا إظهار دعوى. هـ.

ولما وقعت الإذابة من الكفار للمسلمين طمعوا فيهم، كما قال تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا مَع أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّالُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ من صناديد قريش، ﴿ للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ﴾ الذى نسلكه، وهو الدخول فى ديننا، ﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ إن كان ذلك خطيئة فى زعمكم. أمروهم باتباع سبيلهم، وهى طريقتهم التى كانوا عليها، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم، فعطف الأمر على الأمر، وأرادوا ليجتمع هذان الأمران فى الحصول. والمعنى: تعليق الحمل بالاتباع، أى: إن تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم. وهذا قول صناديد قريش، كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نبعث نحن ولا أنتم، فإن كان ذلك فإننا نحمل عنكم الإثم.

قال تعالى: ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ﴾ أى: ما هم حاملين شيئاً من أوزارهم، ﴿ إنهم لكاذبون ﴾ فيما ادعوا؛ لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه، كالكاذبين الذين يعدّون الشيء وفى قلوبهم نية الخلف. ﴿ وليحملن أثقالهم ﴾ أى: أثقال أنفسهم بسبب كفرهم، ﴿ وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ أى: أثقالاً آخر غير التى ضمنوا للمؤمنين حملها، وهى أثقال الذين كانوا سبباً فى ضلالهم، كقولهم: ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم ﴾ (١)، ﴿ وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ من الأكاذيب والأباطيل التى أضلوا بها.

الإشارة: كل من عاق الناس عن الدخول فى طريق التصفية والتخليص: تصدّق عليه هذه الآية، فيتقلد بحمل نقائصهم ومساوئهم التى بقيت فيهم، فيحاسب عليها وعلى مساوئ نفسه. والله تعالى أعلم.

(١) الآية ٢٥ من سورة اللحل.

ثم سأل رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ومن أودى معه، بما جرى للأنبياء قبله، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ١٤ ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ١٥

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ الله ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾ يدعوهم إلى الله، وهم يؤذونه بالشتم والضرب حتى نصر، فاصبر كما صبر، فإن العاقبة للمتقين.

روى أنه عاش ألفاً وخمسين سنة، وقيل: إنه ولد في حياة آدم، وآدم يومئذ ابن ألف سنة إلا ستين عاماً. وقيل: إلا أربعين. ذكره الفاسي في الحاشية. والمشهور: أن بينه وبين آدم نحو العشرة آباء. وروى أنه بعث على رأس أربعين، ولبث في قومه تسعمائة وخمسين. وعاش بعد الطوفان ستين (١). وعن وهب: أنه عاش في عمره ألفاً وأربعمئة، وقيل: وستمئة، فقال له ملك الموت: يا أطول الأنبياء عمراً، كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدأر لها بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر. ولم يقل: تسعمائة وخمسين سنة؛ لأنه، لو قيل ذلك، لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره، وهذا التوهم زائل هنا، وكأنه قيل: تسعمائة وخمسين كاملة وإقية العدد. مع أن ما ذكره الحق أسلس وأعذب لفظاً، ولأن القصة سبقت لذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته، وما كابدته من طول المصابرة؛ تسلياً لنبيينا - عليه الصلاة والسلام - فكان ذكر الألف أفخم وأوصل إلى الغرض. وجيء، أولاً؛ بالسنة ثم بالعام؛ لأن تكرار لفظ واحد في كلام واحد حقيق بالاجتناب في البلاغة.

﴿ فأخذهم الطوفان ﴾؛ طوفان الماء، وهو ما طاف وأحاط، بكثرة وغلبة، من سيل، أو ظلام ليل، أو نحوها، ﴿ وهم ظالمون ﴾ أنفسهم بالكفر والشرك، ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾، وكانوا ثمانية وسبعين نفساً، نصفهم ذكور، ونصفهم إناث، أولاد نوح: سام، وحام، ويافث، ونسأؤهم، ومن آمن من غيرهم، ﴿ وجعلناها ﴾ أي: السفينة، أو الحادثة، أو القصة، ﴿ آية ﴾؛ عبرة وعظة ﴿ للعالمين ﴾ يتعظون بها.

الإشارة: كل ما سأل به الأنبياء يملأ به الأولياء، فكل من أودى في الله، أو لحقته شدة من شدائد الزمان، فليعتبر بمن سلف قبله من الأكابر، ويتسلى بهم، ولينظر إلى لطف الله وبره وإحسانه، فإن لطفه لا يتفكك عن قدره. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: العارف هو الذي يغرق (٢) إساءته في إحسان الله إليه، ويغرق (٣) شدائد الزمان في الألفاظ الجارية من الله عليه؛ فاذكروا آلاء الله لعلمكم تغلحون.

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤٠٧/٣). (٢) في نسخة (يعرف) والمثبت من النسخة الأم. (٣)

ثم ذكر قصة إبراهيم، فقال:

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: (إبراهيم): عطف على (نوح)، أو متعلق بآذكر، و(وإذ قال): ظرف زمان لأرسلنا، أو: بدل اشتغال من (إبراهيم)؛ إن نصب بآذكر؛ لأن الأحيان تشتمل على ما فيها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإبراهيم ﴾ أى: وأرسلنا إبراهيم ﴿ إذ قال لقومه ﴾ أى: أرسلناه حين كمل عقله وتم نظره، وبلغ من السن والعلم مبلغاً صالح فيه لأن يعظ قومه، ويأمرهم بالعبادة والتقوى. وقرأ النخعي وأبو حنيفة: بالرفع. أى: ومن المرسلين إبراهيم، قال فى وعظه: ﴿ اعبدوا الله واتقوه، ذلكم خير لكم ﴾ مما أنتم عليه من الكفر، ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾؛ إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم.

﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً ﴾؛ أصناماً ﴿ وتخلقون ﴾: تخلقون وتكذبون، أو تصنعون أصناماً بأيديكم تسمونها آلهة. وقرأ أبو حنيفة والمسلمي: «وتخلقون» بالكسر والشد. من خلق؛ للمبالغة. ﴿ إفكاً ﴾: وقرئ «أفكاً» بفتح الهمزة (١)، وهو مصدر، نحو كذب ولعب. واختلافهم الإفك: تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله.

﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ﴾: لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق، ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ كله؛ فإنه هو الرزاق وحده، لا يرزق غيره. ﴿ واعبدوه واشكروا له ﴾ أى: متوسلين إلى مطالبكم بعبادته، مقيدين لما خصكم به من النعم بشكره، ﴿ إليه ترجعون ﴾، فاستعدوا للقاءه بعبادته والشكر له على أنعمه، ﴿ وإن تكذبوا ﴾ أى: تكذبوني ﴿ فقد كذب أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ رسلهم، ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ الذى يزول معه الشك. والمعنى: وإن تكذبوني فلا تضروني بتكذيبكم؛ فإن الرسل قبلى قد كذبتهم أممهم، وما ضرهم، وإنما ضرروا أنفسهم، حيث حل بهم العذاب. وأما الرسول فقد أدى ما

(١) فى الأصول [بفتح الفاء]. وانظر: البحر المحيط (١٤١/٧). فقد قال أبو حيان: «قرأ ابن الزبير وفنيل بن زرقان. (أفكاً) بفتح الهمزة وكسر الفاء، وهو مصدر مثل الكذب».

عليه حين بلغ البلاغ المبين، الذي لم يبق معه شك، حيث اقترن بآيات الله ومعجزاته. أو: وإن كنت مكذباً فيما بينكم، فلي في سائر الأنبياء أسوة، حيث كذبوا، وعلى الرسول أن يبلغ، وما عليه أن يصدق ولا يكذب.

وهذه الآية من قوله: ﴿وإن تكذبوا﴾ إلى قوله: ﴿فما كان جواب قومه﴾: يحتمل أن تكون من جملة قول إبراهيم عليه السلام لقومه، والمراد بالأمم قبله: قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم، وأن تكون من كلام الله في شأن رسول الله ﷺ، وشأن قريش، معترضة بين أول قصة إبراهيم وآخرها. فإن قلت: الجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت؛ معترضة فيه، فلا نقول: مكة، وزيد قائم، خير بلاد الله؟ قلت: قد وقع الاتصال، وبيانه: أن إيراد قصة إبراهيم عليه السلام إنما هو تسلية لرسول الله ﷺ بأن أباه إبراهيم كان مبتلى بنحو ما ابتلى به؛ من شرك قومه، وعبادتهم الأوثان، فاعترض بقوله: ﴿وإن تكذبوا﴾ يا معشر قريش محمداً، فقد كذب إبراهيم قومه، وكل أمة كذبت نبيها؛ لأن قوله: ﴿فقد كذب أمم من قبلكم﴾ لا بد من تناوله لأمة إبراهيم، وهو كما ترى اعتراض متصل، ثم سائر الآيات بعدها من ترابعها؛ لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله، وهدم الشرك، وتوهين قواعده، وصفة قدرة الله وسلطانه، ووضوح صحته وبرهانه. قاله النسفي.

قال ابن جزى: ﴿وإن تكذبوا﴾ يحتمل أن يكون وعيداً للكفار وتهديداً لهم، أو يراد به تسلية النبي عن تكذيب قومه، بالتأسي بغيره من الأنبياء الذين كذبهم قومهم . هـ .

الإشارة: قوله تعالى: ﴿فابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾: قال سهل رحمه الله: معناه: اطلبوا الرزق في التوكل، لا في الكسب؛ فإن طلبه بالكسب سبيل العوام. وقال ابن عطاء الله: اطلبوا الرزق في الطاعة والإقبال على العيادة. وقال القشيري: وقدم ابتغاء الرزق؛ لتوقف القيام بالعبادة عليه، ثم أمر بالشكر على الكفاية . هـ .

ثم أمرهم بالاعتبار، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۚ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝٢١ وَمَا أَنُتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٢٢
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يُسَوُّوْا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٣﴾

قلت : يقال : بدأ الله الخلق ، وأبداه : بمعنى واحد ، وقد جاءت اللغتان في هذه السورة . وقوله : (يُعِيدُهُ) : عطف على الجملة ، لا على (يبدئ) ؛ لأن رؤية البداءة بالمشاهدة بخلاف الإعادة ، فإنها تُعَلَّمُ بالنظر والاستدلال ، وهم لا يقرونها ؛ لعدم النظر . وقد قيل : إنه يريد إعادة النبات وإبداءه ، وعلى هذا تكون (ثم يعيده) : عطفاً على (يبدئ) .

يقول الحق جل جلاله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي : كفار قريش ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ أي : يظهره من العدم ، أي : قد رأوا ذلك وعلموه ، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بالبعث ؛ للجزاء بالعذاب والثواب .

قال القشيري : الذي دَاخَلَهُمْ فِيهِ الشُّكُّ هو بعث الخلق ، فاحتج عليهم بما أراه من فصول السنة بعد نقضها ، وإعادتها على الوجه الذي كان في العام الماضي . وكما أن ذلك سائغ في قدرته ، كذلك بعث الخلق هـ . ونحوه لابن عطية وغيره . كما هو مشهود في الثمار ، من كونها تبدأ ، فتجنى ، ثم تقلى ، ثم تعيدها مرة أخرى . وكذلك يبدئ خلق الإنسان ، ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً ، وخلق من الولد ولداً آخر ، وكذا سائر الحيوان . وهذا يرشح صحة عطف «يعيد» على «يبدئ» . ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي : الإعادة بعد الإفناء يسيرة على قدرة الله تعالى .

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي : قل يا محمد ، وإن كان من كلام إبراهيم فتقديره : وأوحينا إليه أن قل : سيروا في الأرض ، ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتهم ، واختلاف أحوالهم وألوانهم وطبائعهم ، وتفاوت هياتهم ، لتعرفوا عجائب قدرة الله بالمشاهدة ، ويقوى إيمانكم بالبعث ، وهو قوله : ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أي : البعث ، وهذا دليل على أنهما نشأتان : نشأة الاختراع ونشأة الإعادة ، غير أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء ، والأولى ليست كذلك . والقياس أن يقال : كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة ، وإنما عدل عنه ؛ لأن الكلام معهم وقع في الإعادة ، فلما قررهم في الإبداء ، يأنه من الله ، احتج بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء ، فإذا لم يعجزه الإبداء وجب ألا يعجزه الإعادة ، فكأنه قال : ثم ذلك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشئ النشأة الآخرة ، فالتنبيه على هذا أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ . قاله النسفي .

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ؛ فلا يعجزه شيء . ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بعذله ، ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بفضله ، أو : يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بالخذلان ، ويرحم بالهداية للإيمان ، أو : يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بالحرص ، ويرحم من يشاء بالقناعة ، أو : يُعَذِّبُ بالتدبير والاختيار ، ويرحم بالرضا والتسليم لمجاري الأقدار ، أو : يُعَذِّبُ بالإعراض عنه ، ويرحم

بالإقبال عليه، أو: بالاستقار والتجلى، أو: بالقبض والبسط، أو: بالمجاهدة والمشاهدة، إلى غير ذلك. ﴿وإليه تُقَلَّبُونَ﴾؛ تُردون للحساب والعقاب.

﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أى: بفائتين ربكم إن هربتم من حكمه وقضائه، ﴿في الأرض﴾ الفسيحة، ﴿ولا في السماء﴾ التى هى أفصح منها وأبسط، لو كنتم فيها. ﴿ومالكم من دون الله من ولي﴾ يتولى أموركم، ﴿ولا نصير﴾؛ ولا ناصر يمنعكم من عذابه. ﴿والذين كفروا بآيات الله﴾؛ بدلائله على وحدانيته، أو كتبه، أو معجزاته، ﴿ولقائه﴾؛ وكفروا بلقائه، ﴿أولئك يَسْأُوا من رحمتي﴾؛ جنتى، ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ موجه. وبالله التوفيق.

الإشارة: أو لم ير أهل فكرة الاستبصار كيف يظهر الحق تجلياته من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ثم يبطلها، فيردها لأصلها من اللطافة، ثم ينشئها النشأة الثانية، تكون معانيها أظهر من حسها، وقدرتها أظهر من حكمتها، فليس عند أهل التوحيد الخاص شيء يفنى، وإنما يبطن ما ظهر، ويظهر ما بطن، ولا زائد على أسرار الذات وأنوار الصفات. وهذا أمر لا يدركه إلا أفراد الرجال بصحبة أكابر الرجال، وهو لب العلم، وخالصة طريقة ذكر الله، والتفرغ عن كل ما يشغل عن الله، بعد قتل النفوس وحط الرؤوس وبذل الفلوس. وبالله التوفيق.

ثم ذكر جواب قوم إبراهيم، فقال:

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ وَمَالُكُمْ مِّن نَّصِيرٍ﴾ (٢٥)

قلت: «مودة بينكم»: من نصبها: قلبه وجهان؛ أحدهما: على التعليل، أى: لتوادوا بينكم، والمفعول الثانى محذوف، أى: اتخذتم أوثاناً آلهة. والثانى: على المفعول الثانى لاتخذتم، كقوله: ﴿اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (١). و(ما): كافة، أى: اتخذتم الأوثان سبب المودة، على حذف مضاف، أو: اتخذتموها مودة بينكم. و(بينكم): نصب على

(١) من الآية ٤٣ من سورة الفرقان.

الظرفية؛ نعت لمودة، أى: حاصلة بينكم. ومن رفع: فله وجهان؛ إما خبر إن، و(ما) موصولة، أو: عن مبتدأ محذوف، أى: هى مودة بينكم، و(بينكم): مضاف إليه ما قبله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾؛ قوم إبراهيم حين دعاهم إلى الله ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، قاله بعضهم لبعض، أو: قاله واحد منهم، وكان الباقون راضين، فكانوا جميعاً فى حكم القتالين. فاتفقوا على تحريقه، ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ حين قذفوه فيها؛ بأن جعلها برداً وسلاماً. وتقدم فى الأنبياء تمام القصة.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾؛ فيما فعلوه به وفعلناه ﴿لآيَاتٍ﴾ دالة على عظم قدرته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنهم المنتفعون بالفحص عنها والتأمل فيها. روى أنه لم ينتفع بها فى تلك الأيام أحد لذهاب حرها؛ لأن كل نار سمعت الخطاب فامتثلت.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾؛ أصناماً آلهة ﴿مُودَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: لتوادوا بينكم فى الحياة الدنيا، وتواصلوا؛ لاجتماعكم على عبادتها، واتفاقكم عليها، كما تتفق الناس على مذهب أو طريق، فيكون ذلك سبب تحابهم. أو: إنما اتخذتم الأوثان سبب المودة، أو اتخذتموها مودودة ومحبة بينكم، أو: إن التى اتخذتموها أوثاناً تعبدونها هى مودة بينكم فى الدنيا، ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أى: تتبرأ الأصنام من عابديها؛ كقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (١)، أو: ينكر بعضكم بعضاً، ويقع بينكم التباغض؛ كقوله: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (٢). ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، فتلعن الأتباع الرؤساء؛ ﴿وَمَا وَاكُمُ النَّارُ﴾ أى: ما رى العابد والمعبود والتابع والمتبوع. ﴿وَمَالِكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يحصنونكم منها.

الإشارة: الإنكار على أهل الخصوصية سنة الله فى خلقه، فلا يأنف منها إلا جاهل، والاجتماع على التودد على غير ذكر الله ومحبه وما يقرب إليه، كله يؤدى إلى التباغض والتلاعن يوم القيامة؛ ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، وهم المتحابون فى الله، المجتمعون على ذكر الله والعلم به. والله تعالى أعلم.

﴿فَعَا مَن لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ (٢٧)

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزخرف.

(١) من الآية ٨٢ من سورة مريم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَأَمِّنْ﴾ لإبراهيم، أي: انقاد ﴿له لوطٌ﴾، وكان ابن أخيه، وأول من آمن به حين رأى النار لم تحرقه. ﴿وقال﴾ إبراهيم: ﴿إني مهاجرٌ إلى ربي﴾؛ إلى حيث أمرني ربي بالهجرة، وهو الشام، فخرج من «كوثر»، وهي من سواد الكوفة، إلى حرّان، ثم منها إلى فلسطين^(١)، وهي من برية الشام، ونزل لوط بسدوم، ومن ثم قالوا: لكل نبي هجرة، ولإبراهيم هجرتان. وكان معه، في هجرته، لوط وسارة زوجته.

وقيل: القائل: ﴿إني مهاجرٌ إلى ربي﴾ هو لوط، فأول من هاجر من الأنبياء إبراهيم ولوط. وذكر البيهقي: أن أول من هاجر منا في الإسلام بأهله: عثمان. ورفع الحديث إلى رسول الله ﷺ، وأنه قال: إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط. هـ. يعني: الهجرة إلى الحبشة. وكانت - فيما ذكر الواقدي - سنة خمس من البعثة، وأما الهجرة إلى المدينة، ففي البخاري عن البراء: أول من قدم المدينة من الصحابة مهاجراً، مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، ثم جاء عمار، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ^(٢).

﴿إنه هو العزيز﴾ الذي يمنعني من أعدائي، ﴿الحكيم﴾ الذي لا يأمرني إلا بما هو خير لي.

﴿ووهبنا له إسحاق﴾ ولداً، ﴿ويعقوب﴾ ولدَ ولدٍ، ولم يذكر إسماعيل؛ لشهرته، أو: لأن إسحاق ولد بعد اليأس من عجوز عاقر، فعظمت المنّة به. ﴿وجعلنا في ذريته النبوة﴾ أي: في ذرية إبراهيم، فإنه شجرة الأنبياء، ﴿والكتاب﴾ يريد به الجنس؛ ليتناول التوراة والإنجيل والزيور والفرقان. ﴿وآتيناه أجره في الدنيا﴾ أي: الثناء الحسن، والصلاة عليه آخر الدهر، ومحبة أهل المال له، أو: هو بقاء ضيافته عند قبره، وليس ذلك لغيره، أو: المال الحلال، واللفظ عام. وفيه دليل على أن الله تعالى قد يعجل لأوليائه بعض الأجر في الدنيا، ولا يخل بعلو منصبهم. ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ لحضرتنا، والسكنى في جوارنا. أسكننا الله معهم في فسيح الجنان. آمين.

الإشارة: الهجرة سنة الخواص، وهي على قسمين: هجرة حسية، وهجرة معنوية، فالحسية هي هجرة العبد من وطن تكثر فيه الغفلة والعوائق عن الله، أو الإذابة والإنكار، إلى وطن يجد فيه اليقظة وقلة العوائق. والهجرة المعنوية: هي هجرة القلب من وطن المعصية إلى وطن التوبة، ومن وطن الغفلة إلى وطن اليقظة، ومن وطن الحرص إلى وطن الزهد والقناعة، ومن وطن الحظوظ والشهوات إلى وطن العفة والحرية، ومن وطن الشواغل إلى وطن التفرغ، ومن وطن رؤية الحس إلى رؤية المعاني، وهذه نهاية الهجرة.

(١) انظر تفسير البغوي (٢٣٨/٦).

(٢) أخرجه البخاري في (مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، ح ٣٩٢٥) من حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه.

قال القشيري: لا تصح الهجرة إلى الله إلا بالتبري بالقلب عن غير الله، والهجرة بالنفس يسيرة بالنسبة إلى الهجرة بالقلب، وهي هجرة الخواص، وهي الهجرة عن أوطان التفرقة إلى ساحة الجمع، والجمع بين التعرّيج في أوطان التفرقة والكون في مشاهدة الجمع متناف. هـ. وقال في قوله تعالى: «وإنه في الآخرة لمن الصالحين» أي: للذنوب والقرية والتخصيص بالزلفة. هـ.

ثم ذكر قصة لوط، فقال:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّنَابِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَوْا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِن فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُكُنتُ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَافَكْ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ انكر ﴿لوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة﴾ أي: الفعلة البالغة في القبح، وهي اللواط، ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾: جملة مستأنفة مقررة لفحش تلك الفعلة، كأن قائلها قال: لم كانت فاحشة؟ فقال: لأن أحدا ممن قبلهم لم يقدم عليها، قالوا: لم ينز ذكر على ذكر قبل قوم لوط. ﴿أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل﴾ أي: تتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ المال، كما هو شأن قطاع الطريق، وقيل: اعتراضهم السابلة لقصد الفاحشة، ﴿وتأتون في ناديكم﴾: في مجالسكم الغاصة بأهلها، ولا يقال

للمجلس: ناد، إلا مادام فيه أهله، ﴿المنكر﴾؛ فعلهم الفاحشة بالرجال، أو: المضارطة، أو: السباب والفحش في المزاح، أو: الحذف بالحصى، أو: مضغ العلك، أو الفرقة.

وعن أم هانئ - رضى الله عنها - أنها سألت النبي ﷺ عن قوله: ﴿وتأتون في ناديك المنكر﴾؟ فقال: «كانوا يحذفون من يمر بهم الطريق، ويسخرون منهم» (١). وقال معاوية: قال النبي ﷺ: «إن قوم لوط كانوا يجلسون في مجالسهم، وعند كل رجل قصعة من الحصى، فإذا مر بهم عابر قذفوه، فأبهم أصابه؛ كان أولى به، (٢).

﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ فيما تعدنا من نزول العذاب، أو في دعوى النبوة، المفهومة من التوبيخ، ﴿قال رب انصرني﴾ بإنزال العذاب ﴿على القوم المفسدين﴾ بابتداع الفاحشة وحمل الناس عليها، وسلها لمن بعدهم. وصفهم بذلك؛ مبالغة في استنزال العذاب، وإشعاراً بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب.

﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾، جاءت الملائكة بالبشارة لإبراهيم؛ بالولد، والناقلة إسحاق، ويعقوب، أى: مروا عليه، حين كانوا قاصدين قوم لوط، ﴿قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية﴾؛ سدوم، والإشارة بهذه القرية تشعر بأنها قريبة من موضع إبراهيم ﷺ، قالوا: إنها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم، قاله النسفى. ﴿إن أهلها كانوا ظالمين﴾، تعليل للإهلاك، أى: إن الظلم قد استمر منهم فى الأيام السالفة، وهم عليه مصرون، وهو كفرهم وأنواع معاصيهم. ﴿قال﴾ إبراهيم: ﴿إن فيها لوطاً﴾ أى: أتهلكونهم وفيهم من هو برىء من الظلم، أو: وفيهم نبي بين أظهرهم؟ ﴿قالوا﴾ أى: الملائكة: ﴿نحن أعلم﴾ منك ﴿بمن فيها، لننجين أهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾؛ الباقيين فى العذاب.

ثم أخبر عن مسير الملائكة إلى لوط بعد مفارقتهم إبراهيم، فقال: ﴿ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم﴾ أى: ساءه مجيئهم وغمه، مخافة أن يقصدهم قومه بسوء. وأن: صلة؛ لتأكيد الفعلين، وترتيب أحدهما على الآخر، كأنهما وجداً فى جزء واحد من الزمان، كأنه قيل: لما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ترتيب. ﴿وضاق بهم ذراعاً﴾ أى: ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعاً وطاقته، وقد جعلوا ضيق الذرع والذراع عبارة عن

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٣٤١/٦)، والترمذى وحسنه فى (ال تفسير، سورة العنكبوت، ٣١٩/٥، ح ٣١٩٠)، وصححه الحاكم (٤٠٩/٢)، ووافقه الذهبى. وأخرجه الطبرى (١٤٥/٢٠)، والبخارى فى التفسير (٢٣٩/٦).
(٢) انظر تفسير البخارى (٢٤٠/٦).

فقد الطاقة، كما قالوا: رَحَبَ الذراع، إذا كان مُطِيقاً للأمر، والأصل فيه: أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير، فاستعير للطاقة والقوة وعدمها.

﴿وقالوا﴾، لما رأوا فيه أثر الضجر والخوف: ﴿لا تخف ولا تحزن﴾ على تمكنهم منا، ﴿إنا منجوك وأهلك﴾ أى: وندجى أهلك، فالكاف فى محل الجر، وأهلك: نصب بفعل محذوف، ﴿إلا امرأتك كانت من الغابرين﴾. فى الكلام حذف يدل عليه ما فى هود(١)، أى: لا تخف ولا تحزن من أجلنا، إنهم لن يصلوا إليك ونحن عندك، بل يهلكون جميعاً، وأما أنت؛ فإننا منجوك.. إلخ؛ لأن خوفه إنما كان عليهم لا على نفسه. أو يقدر: إنا منجوك وأهلك بعد هلاكهم. ثم قالوا: ﴿إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً﴾؛ عذاباً ﴿من السماء بما كانوا يفسقون﴾؛ بسبب فسقهم.

﴿ولقد تركنا منها﴾؛ من القرية ﴿آية بينة﴾، هى حكايتها الشائعة، أو آثار منازلهم الخربة، وقيل: الماء الأسود على رجة الأرض، حيث بقيت أنهارهم مسودة، وقيل: الحجارة المسطورة، فإنها بقيت بعدهم آية ﴿لقوم يعقلون﴾؛ يستعملون عقولهم فى الاعتبار والاستبصار. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿وتأتون فى نادىكم المنكر﴾ قال القشيري: من جملة المنكر: تخلية الفساق مع فسقهم، وترك القبض على أيديهم، ومن ذلك: ترك الاحتشام للشيوخ والأكابر..هـ. وقال فى قوله تعالى: ﴿إن فيها لوطاً﴾، لما أخبروه بمقصدهم من إهلاك قوم لوط، تكلم فى شأن لوط، إلى أن قالوا: ﴿لندجينه..﴾ إلخ، فدل ذلك على أن الله تعالى لو أراد إهلاك لوط، ولو كان بريئاً، لم يكن ظالماً، لو كان ذلك قبيحاً لما كان إبراهيم - مع وفر علمه - يشكك عليه، حتى كان يجادل عنه، بل لله أن يعذب من يعذب ويعافى، من يعافى بلا حرج..هـ.

قال شيخ شيوخنا الفاسى فى حاشيته: وما ذكره واضح من حيث العقيدة، وإن كانت الآية، وقول إبراهيم يحتمل أن يكون من نوع قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ (٢). والمعنى الأول معلوم من قوله تعالى: ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه﴾ (٣) الآية..هـ. قلت: ظاهر قوله تعالى: ﴿يجادلنا فى قوم لوط﴾ (٤)؛ أن مجادلتهم كانت عن قومه فقط؛ لغلبة الشفقة عليه، كما هو شأنه، ولذلك

(١) فى قوله تعالى: ﴿قالوا يا لوط إنا نرى لك لن يصلوا إليك..﴾ الآية ٨١.

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الأنفال. (٣) الآية ١٧ من سورة المائدة. (٤) من الآية ٧٤ من سورة هود.

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ ... حتى قال له تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ (١) ﴿لَمَّا تَحْتَمَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، فَنَامَلَهُ.

ثم ذكر قصة شعيب، فقال

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُمُوا عَبْدُوا اللَّهِ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين أخاهم شعيباً، فقال يا قوم اعبدوا الله﴾ وحده، ﴿وارجو اليوم الآخر﴾ أى: خافوه، واعملوا ما ترجون به الثواب فيه، ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾؛ قاصدين الفساد، ﴿فكذبوه فأخذتهم الرجفة﴾؛ الزلزلة الشديدة، أو: الصيحة من جبريل عليه السلام؛ لأن القلوب رجفت بها، ﴿فأصبحوا في دارهم﴾؛ بلادهم وأرضهم، ﴿جاثمين﴾؛ باركين على الركب؛ ميتين.

الإشارة: العبادة مع الغفلة عن العواقب الغيبية المستقبلية، لا جدوى لها، كأنها عادة، وخوف العواقب، من غير استعداد لها، خذلان، والاجتهاد فى العمل، مع ارتقاب العواقب الغيبية، فلاح، من شأن أهل البصائر، كما قال تعالى فى حق من مدحهم من أكابر الرسل: ﴿أُولَئِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (٢).

ثم ذكر قوم هود وصالح وموسى - عليهم السلام - فقال:

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ بَيَّنَّا لَكُم مِّن مَّسْكِنِهِمْ وَزَيَّنَّا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَبَدَّلَهُم مِّنَ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَتُّوهُ وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ

(١) الآيتان: ٧٥ - ٧٦ من سورة هود.

(٢) الآيتان: ٤٥ - ٤٦ من سورة احصا.

وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وعادا وثموداً﴾ أى: اذكر عاداً وثموداً، أو أهلكنا عاداً، وثموداً، يدل عليه ﴿فأخذتهم الرجفة﴾؛ لأنه فى معنى الإهلاك، ﴿وقد تبين لكم﴾ ما وصفنا من إهلاكهم ﴿من مساكنهم﴾ الدارسة. أو تبين لكم بعض مساكنهم الخربة إذا مررت بها خالية. ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ من الكفر والمعاصى، ﴿فصدّهم عن السبيل﴾ عن الطريق الذى أمروا بسلوكه، وهو الإيمان بالله ورسوله. ﴿وكانوا مستبصرين﴾؛ متمكنين من النظر والاستبصار وتمييز الحق من الباطل، ولكنهم لم يفعلوا. أو عارفين الحق من الباطل؛ بظهور دلائله، لكنهم عاندوا، حسداً. يقال: استبصر: إذا عرف الشيء على حقيقته. أو: متيقنين أن العذاب لاحق بهم؛ بإخبار الرسول، لكنهم لجّوا. أو: مستبصرين فى ضلالتهم معجبين بها.

وقال الفراء: عقلاء ذرو بصائر، يعنى: علماء فى أمور الدنيا، كقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (١) الآية. وقال مجاهد: حسبوا أنهم على الحق، وهم على الباطل. هـ.

﴿وقارون وفرعون وهامان﴾، أى: أهلكناهم، ﴿ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين﴾؛ فائتين، بل أدركهم أمر الله فلم يفوتوه. يقال: سبق طالبه: فاتته، ﴿فكلاً أخذنا﴾؛ عاقبناه ﴿بذنبه﴾، فيه رد على من يجوز العقوبة بغير ذنب. قاله النسفى، وهو جائز عقلاً فى حقه تعالى، لكنه لم يقع؛ لإظهار عدله. ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ أى: ريحاً عاصفة فيها حصباء أو: ملكاً رماهم بها.

قال ابن جزى: فيحتمل عندى أنه أراد به المعنيين؛ لأن قوم لوط هلكوا بالحجارة، وعادا هلكوا بالريح. وإن حملناه على المعنى الواحد؛ نقض ذكر الآخر، وقد أجاز كثير من الناس استعمال اللفظ الواحد؛ فى معنيين، ويقوى ذلك أن المقصود عموم أصناف الكفار. هـ.

﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾؛ كمدّين وثمود، ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ كقارون، ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ كقوم نوح، وفرعون وقومه، ﴿وما كان الله ليظلمهم﴾ فيعاقبهم بغير ذنب؛ إذ ليس ذلك من عادته. عز وجل.، وإن جاز فى حقه، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾؛ بالتعرض للعذاب بالكفر والطغيان، وبالله التوفيق.

(١) الآية ٧ من سورة الروم.

الإشارة: الاستبصار في أمور الدنيا، والتحديق في تدبير شؤونها، حمق وبطالة^(١)، وقد رسم به الحق تعالى الكفرة بقوله: ﴿وكانوا مستبصرين﴾، والاستبصار في أمور الله تعالى وما يقرب إليه وما يبعد عنه، والفحص عن ذلك، والتفكر في عواقب الأمور؛ من شأن العقلاء الأكياس، قال ﷺ «ألا وإن من علامات العقل: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور»، وقال أيضاً ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى»^(٢)، وقيل للجنيـد رحمته الله: متى يكون الرجل موصوفاً بالعقل؟ فقال: إذا كان للأمور متميزاً، ولها متصفحاً، وعما يوجبه عليه العقل باحثاً، فيتخير بذلك طلب الذي هو أولى؛ ليعمل به، ويؤثره على ما سواه. ثم قال: فمن كانت هذه صفته ترك العمل بما يغنى وينقضى، وذلك صفة كل ما حوت عليه الدنيا، وكذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل، ويسير حائل، يصده التشاغل به، والعمل له، عن أمور الآخرة، التي يدوم نعيمها ونفعها، ويتأبد سرورها، ويتصل بقاؤها.. الخ كلامه.

وقد ضرب الله مثلاً لمن ركن إلى غير الله، فقال:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِيْتًا وَإِنْ أَوْهَرَ الْبُيُوتِ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

(١) الاستبصار في أمور الدنيا فرض لازم للأمة.. ينبغي أن تتعارن الأمة لإقامته في كل أمر من أمور الدنيا، وشأن من شغلونها، وعلى العاقل - ما لم يكن مغلوباً على عقله - أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه.

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي وحسنه في (صفة القيامة والرفائق، باب ٢٥ ح ١٤٢٣/٢ ح ٤٢٦٠)، وابن ماجه في (الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، ١٤٢٣/٢ ح ٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾؛ أصناماً يعبدونها، أى: مَثَلُ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ الْأَوْثَانِ؛ فى الضعف، وسوء الاختيار، ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾، أى: كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ فِيمَا تَتَّخِذُهُ لِنَفْسِهَا مِنْ بَيْتٍ؛ فإنه لا يدفع الحر والبرد، ولا يقى ما تقى البيوت، فكذلك الأوثان، لا تنفعهم فى الدنيا والآخرة، بل هى أَوْهَى وَأَضْعَفُ، فإن لبَّيت العنكبوت حقيقةً وانتفاعاً عاماً، وأما الأوثان فتضر ولا تنفع، ﴿وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾ أى: أضعفها ﴿لَبَّيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾؛ لا بَيْتٌ أَوْهَنُ مِنْ بَيْتِهِ؛ إذ أضعف شئ يسقطها. عن عليٍّ رضي الله عنه: «طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه يورث الفقر».

والعنكبوت يقع على الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث، ويجمع على عناكيب وعنكيب وعنكيب وعنكيب وأعكب. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لعلموا أن هذا مثلهم، وأن ما تمسكوا به من الدين أرق من بيت العنكبوت. وقال الزجاج: تقدير الآية: مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء، لو كانوا يعلمون، كمثل العنكبوت. وقيل: معنى الآية: مَثَلُ الْمُشْرِكِ يَعْبُدُ الْوُثْنَ، بالقياس إلى المؤمن الذى يعبد الله، مثل عنكبوت تتخذ بيتاً بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً بآجر وجص، أو جص وصخور، فكما أن أوهَن البيوت، إذا استقرأتها بيتاً بيتاً، بيت العنكبوت، كذلك أضعف الأديان، إذا تتبععتها ديناً ديناً، عبادة الأوثان.

وقال الضحاك: ضرب مثلاً لضعف آلهتهم ووهنها، فلو علموا أن عبادة الأوثان، فى عدم الغنى، كما ذكرنا فى المثل، لَمَّا عُبِدُوها، ولكنهم لا يعلمون، بل الله يعلم ضعف ما تعبدون من دونه وعجزه، ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ﴾ (١) من دونه من شئ، أى: يعلم حاله، وصفته، وحقيقته، وعدم صلاحيته لَمَّا تَوَلَّوْهُ مِنْهُ، فما: موصولة، مفعول «يعلم»، وهى تامة، أى: يتعلق علمه بجميع ما يعبدونه من دونه، أى شئ كان. أو ناقصة، والثانى محذوف، أى: يعلمه وهياً وباطلاً. وقيل: استفهامية مغلقة، وأما كونها نافية فضعيف، ومن، الثانية؛ للبيان، ومن قرأ بالخطاب؛ فعلى حذف القول، أى: ويقال للكفرة: إن الله يعلم ما تعبدونه من دونه من جميع الأشياء، أو: أى شئ كان.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذى لا شريك له، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى ترك المعالجة بالعقوبة، وفيه تجهيل لهم، حيث عبدوا جماداً لا علم له ولا قدرة، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شئ، الحكيم الذى لا يفعل إلا لحكمة وتدبير. ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ﴾ الغريبة، أى: هذا المثل ونظائره ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾؛ نَبِّئُهَا لَهُمْ؛ تقريباً لما بعد عن أفهامهم. كان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب: «يدعون» بياء الغيب. وقرأ الباقون بالخطاب. انظر: الإتحاف ٢/ ٣٥١.

ذلك، فلذلك قال تعالى: ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾، أى: بالله وصفاته وأسمائه، ويمواقع كلامه وحكمه، أى: لا يعقل صحتها وحسنها، ولا يفهم حكمتها، إلا هم؛ لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي طرق إلى المعاني المستورة، حتى يبرزها ويصورها للأفهام، كما صور هذا التشبيه الذى بين حال المشرك وحال المؤمن. وعن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية، وقال: «العالم: من عقل عن الله، فعمل بطاعته، واجتنب سخطه»^(١)، ودلت هذه الآية على فضل العلم وأهله.

﴿خلق الله السموات والأرض بالحق﴾ أى: محققاً، لم يخلقها عبثاً، كما لم يضرب الأمثال عبثاً، بل خلقها لحكمة، وهى أن تكون مساكن عباده، وعبرة للمعتبرين منهم، ودلائل على عظم قدرته، بدليل قوله: ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾؛ لأنهم هم المنتفعون بها. وقيل: بالحق: العدل، وقيل: بكلامه وقدرته، وذلك هو الحق الذى خلق به الأشياء. وخص السموات والأرض؛ لأنها المشهودات. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من اعتمد على غير الله، أو مال بالمحبة إلى شيء سواه، كان كمن اعتمد على خيط العنكبوت، فعن قريب يذهب ويفوت، يامن تعلق بمن يموت؛ قد تمسكت بأضعف من خيط العنكبوت.

تنبيه: الأشياء الحسية جعل الله فيها القوى والضعيف، والعزیز والذليل، والفقير والغنى؛ لحكمة، وأما أسرار المعاني القائمة بها؛ فكلها قوية عزيزة غنية، فالأشياء، بهذا الاعتبار - أعنى: النظر لحسها ومعناها - كلها قوية فى ضعفها، عزيزة فى ذلها، غنية فى فقرها. ولذلك تجد الحق تعالى يدفع بأضعف شيء أقوى شيء، وينصر بأذل شيء على أقوى شيء. روى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾؛ شكى العنكبوت إلى الله تعالى، وقال: رب خلقتنى ضعيفاً، ووصفتنى بالإهانة والضعف، فأرحى الله تعالى إليه: انكسر قلبك من قولنا، ونحن عدد المنكسرة قلوبهم من أجلنا، وقد صددنا بنسجك الضعيف صناديد قريش، وأغنيا محمداً عن كل ركن كثيف، فقال: يارب حسبي أن خلقت فى ذلى عزتى، وفى إهانتى قوتى. هـ. ذكره فى الباب.

ثم أمره بالاشتغال بالتلاوة والصلاة؛ تسليّة وغيبة عن آذاه، فقال:

﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾

(١) قال المناوى فى الفتح السماوى (١٩٦/٢): «رواه داود بن المحبر فى كتاب العقل، ومن طريقه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده، والطبرى، والواحدى، والبغوى - فى التفسير (٢٤٣/٦) - من حديث جابر. وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات، وكتاب العقل، لداود، كله موضوع، وانظر أيضاً: تلزيه الشريعة، لابن عراق (٢١٤/١)».

يقول الحق جل جلاله: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾؛ تَلْعَمُ بِشُهُودِ أَسْرَارِ مَعَانِيهِ، وَشُهُودِ الْمُتَكَلِّمِ بِهِ، فَتَغِيبُ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَاسْتِكْشَافاً لِحَقَائِقِهِ، فَإِنَّ الْقَارِئَ الْمُتَأَمِّلَ قَدْ يَنْكَشِفُ لَهُ بِالتَّكْرَارِ مَا لَمْ يَنْكَشِفْ لَهُ أَوَّلَ مَا قَرَعَ سَمْعَهُ. وَقَدْ كَانَ مِنَ السَّلَفِ مَنْ يَبْقَى فِي السُّورَةِ يَكْررها أَيْاماً، وَفِي الْآيَةِ يَرُدُّهَا لَيْلَةً وَأَكْثَرَ، كُلَّمَا رَدَّهَا ظَهَرَ لَهُ مَعَانٍ أُخَر.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أَي: دَمِ عَلَى إِقَامَتِهَا، بِإِتْقَانِهَا؛ فِعْلاً وَحَضُوراً وَخُشُوعاً، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾؛ الْفِعْلَةُ الْقَبِيحَةُ؛ كَالزُّنَى، وَالشُّرْبِ، وَنَحْوَهُمَا، ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾، وَهُوَ مَا يَنْكَرُهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الصَّلَاةَ، إِذَا صَحَبَهَا الْخُشُوعُ وَالْهَيِّبَةُ فِي الْبَاطِنِ، وَالْإِتْقَانُ فِي الظَّاهِرِ، نَهَتْ صَاحِبَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ، لَا مُحَالَةً، وَإِلَّا فَلَا.

رَوَى أَنَّ فِتْيَ مَنْ الْأَنْصَارِ كَانَ يُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ الصَّلَاةَ، وَلَا يَدْعُ شَيْئاً مِنَ الْفَوَاحِشِ إِلَّا رَكِبَهُ، فَوُصِفَ حَالُهُ لَهُ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ صَلَاتَهُ تَنْهَاهُ»، فَلَمْ يَلْبِثْ أَنْ تَابَ. هـ (١).

وَأَمَّا مَنْ كَانَ يُصَلِّيهِمَا فَلَمْ تَنْهَهُ؛ فَهُوَ دَلِيلُ عَدَمِ قَبُولِهَا، فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْداً» (٢) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ. وَقَالَ الْحَسَنُ: مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ قَلَبَتْ بِصَلَاةٍ، وَهِيَ رِيَالٌ عَلَيْهِ. وَقَالَ ابْنُ عَرُوفٍ: إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى؛ إِذَا كُنْتَ فِيهَا فَأَنْتَ فِي مَعْرُوفٍ وَطَاعَةٍ، وَقَدْ حُجِّزْتَكَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ. هـ. فَخَصَّ النَّهْيُ بِكَوْنِهِ مَادَامَ فِيهَا، وَعَلَيْهِ حَمْلُهُ الْمَحَلِّي.

قَالَ الْمُحْشَى: يَعْنِي: أَنَّ مِنْ شَأْنِهَا ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ فَلَا تَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهَا صَلَاةً، كَمَا أَنَّ مِنْ شَأْنِ الْإِيمَانِ التَّوَكُّلَ، وَإِنْ قَدَّرَ أَنْ أَحَدًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتَوَكَّلَ؛ فَلَا يَخْرُجُ ذَلِكَ عَنِ الْإِيمَانِ. وَقِيلَ: الصَّلَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ: مَا تَكُونُ لِمُصَاحِبِهَا نَاهِيَةً عَنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهَ فَالْصَّلَاةُ نَاهِيَةٌ عَلَى مَعْنَى: وَرُودِ الزَّوَاجِرِ عَلَى قَلْبِهِ، وَلَكِنَّهُ أَصْرٌ وَلَمْ يَطْعَ. [وَيُقَالُ: بَلِ الصَّلَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ مَا تَنْهَى صَاحِبَهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، فَإِنْ كَانَ] (٣)، وَإِلَّا فَصُورَةُ الصَّلَاةِ، لَا حَقِيقَتَهَا. انْظُرِ الْقَشِيرَى.

(١) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْكَافِي الشَّافِ (ص ١٢٨): «لَمْ أَجِدْ»، وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٤٤٧/٢)، وَالْبِزَارُ (كَشَفُ الْأَسْتَارِ

٣٤٦/١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ فَلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ، فَقَالَ: إِنَّ صَلَاتَهُ مَسْتَهْأَةٌ).

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي التَّفْسِيرِ (١٥٥/٢٠) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ مُوقُوفاً، وَعَزَاهُ فِي الدَّرِّ الْمَثْبُورِ (٢٧٩/٥) لِلطَّبْرَانِيِّ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعاً. وَانْظُرْ: الْكَافِي الشَّافِ (ص ١٢٧).

(٢) الْمَثْبُوتُ بَيْنَ الْمُعْكَوْفَتَيْنِ مِنْ لَطَائِفِ الْإِشَارَاتِ لِلْقَشِيرَى (٩٩/٣). وَهُوَ مُنْزَوَّرٌ.

وقال ابن عطية: إذا وَقَعَتْ على ما ينبغي؛ من الخشوع، والإخبات لذكر عظمة الله، والوقوف بين يديه، انتهى عن الفحشاء والمنكر، وأما مَنْ كانت صلاته لا ذكر فيها ولا خشوع، فتلك تترك صاحبها بمنزلته حيث كان هـ.

قائدة: ذكر في الباب أن أول من صلى الصبح آدم عليه السلام، لأنه لم يكن رأى ظلمة قط، فلما نزل، وجّه الليل خراً مغشياً، فلما أصبح ورأى النور صلى ركعتين، شكراً. وأول من صلى الظهر إبراهيم، لما فدى ولده، وقد كان نزل به أربعة أهوال، هم الذبح، وهم الولد، وهم والدته، وهم مرضاة الرب، فصلى أربع ركعات؛ شكراً لله تعالى. وأول من صلى العصر سليمان عليه السلام، لما رد الله عليه ملكه. وأول من صلى المغرب عيسى عليه السلام، كفارة عما اعتقد فيه من أنه ثالث ثلاثة. وأول من صلى العشاء يونس عليه السلام، ولعله هذا الوقت الذي نبذ فيه بالعراء. وأول من توصى آدم؛ كفارة لأكله هـ. مختصراً بزيادة بيان. وجمعها الحق تعالى لهذه الأمة المحمدية؛ لتحوز فضائل تلك الشرائع؛ لأنه ﷺ جامع لما افترق في غيره.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، أى: ولذكر الله، على الدوام، أكبر، في النهي عن الفحشاء والمنكر، من الصلاة؛ لأنها في بعض الأوقات. فالجزء الذي في الصلاة ينهى عن الفحشاء الظاهرة، والباقي ينهى عن الفحشاء الباطنة، وهو أعظم، ولأن الانتهاء لا يكون إلا من ذكر الله، مراقب له، وثواب ذلك الذكر أن يذكره الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (١). وَمَنْ ذَكَرَهُ حَفِظَهُ وَرَعَاهُ. أو: لذكر الله أكبر؛ أجراً، من الصلاة، ومن سائر الطاعات، كما في الحديث: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليكم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إيتاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذلك يا رسول الله؟ قال: ذِكْرُ اللَّهِ» (٢). وسئل: أى الأعمال أفضل؟ قال: «أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله» (٣).

قيل: المراد بذكر الله هو الصلاة نفسها، أى: وللصلوات أكبر من سائر الطاعات، وإنما عبّر عنها بذكر الله؛ ليشعر بالتطيل، كأنه قال: والصلاة أكبر؛ لأنها ذكر الله. وعن ابن عباس: ولذكر الله لكم إياكم، برحمته، أكبر من ذكركم إياه بطاعته. وقال ابن عطاء: ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له؛ لأن ذكره بلا علة، وذكركم مشوب بالعلل والأمانى، ولأن ذكره لا يفنى، وذكركم يفنى. أو: لذكر الله أكبر من أن تفهمه أفهامكم وعقولكم. أو: ذكر الله أكبر

(١) الآية ١٥٢ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الترمذي في (الدعوات، باب ٦، ٥/٤٢٨، ح ٣٣٧٧)، وابن ماجه في (الأدب، باب فضل الذكر، ٢/١٢٤٥، ح ٣٧٩٠)، والبيهقي في الشعب (٥١٩)، والحاكم وصححه في المستدرک (١/٤٩٦)، وصححه ورافقه الذهبي، من حديث أبي الدرداء.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٨١٥)، والبراز (كشف الأستار ح ٣٠٥٩)، من حديث معاذ بن جبل، وقال الهيثمي في المجمع: (٧٤/١٠): وإسناده حسن.

من أن تبقى معه معصية. ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ من الخير والطاعة، فيثيبكم أحسن الثواب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر المتعلقين بالجوارح الظاهرة، والذكر ينهى عن الفحشاء والمنكر المتعلقين بالعوامل الباطنة، وهى المساوى التى تحجب العبد عن حضرة الغيوب، فإذا أكثر العبد من ذكر الله، على نعت الحضور والتفرغ من الشواغل، تنور قلبه، وتظهر سره وأبّه، فاتصف بأوصاف الكمال، وزالت عنه جميع العلل، ولذلك جعلته الصوفية معتمد أعمالهم، والتزموه مع مرور أوقاتهم وأنفاسهم، ولم يقتنعوا منه بقليل ولا كثير، بل قاموا فيه بالجد والتشمير، فيذكرون أولاً بلسانهم وقلوبهم، ثم بقلوبهم فقط، ثم بأرواحهم وأسرارهم، فيغيبون حينئذ فى شهود المذكور عن وجودهم وعن ذكرهم، وفى هذا المقام ينقطع ذكر اللسان، ويصير العبد محوياً فى وجود العيان، فتكون عبادتهم كلها فكرة وعبرة، وشهوداً ونظرة، وهو مقام العيان فى منزل الإحسان، فيكون ذكر اللسان عندهم بطلالة^(١)، وفى ذلك يقول الشاعر:

مَا إِن ذَكَرْتُكَ إِلَّا هُمْ يَلْعَنُونِى سِرِّى وَقَلْبِى وَرُوحِى، عَدَدِ ذِكْرَاكَ
حَتَّى كَأَن رَقِيباً مِنْكَ يَهْتَفُ بِى: إِيَّاكَ، وَيَحْكُ، وَالتَّذْكَارَ، إِيَّاكَ
أَمَا تَرَى الْحَقَّ قَدْ لَاحَتْ شَوَاهِدُهُ؟ وَوَأَصَلَ الْكُلِّ، مِنْ مَعْنَاهُ، مَعْنَاكَ؟!

قال القشيري: ويقال: ذكر الله أكبر من أن يبقى معه ذكر مخلوق أو معلوم للعبد، فضلاً أن يبقى معه للفحشاء والمنكر سلطان هـ. وقال فى القوت على هذه الآية: الذكر عند الذاكرين: المشاهدة، فمشاهدة المذكور فى الصلاة أكبر من الصلاة. هذا أحد الوجهين فى الآية. ثم قال: وروى فى معنى الآية؛ عن رسول الله ﷺ أنه قال: إنما فرضت الصلاة، وأمر بالحج والطواف، وأشعرت المناسك، لإقامة ذكر الله - عز وجل -، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(٢)، أى: لتذكرنى فيها. ثم قال: فإذا لم يكن فى قلبك للمذكور، الذى هو المقصود والمبتغى، عظمة ولا هيبة، ولا إجلال مقام، ولا حلالة فهم، فما قيمة ذكرك فإنما صلاتك كعمل من أعمال دنياك. وقد جعل الرسول ﷺ الصلاة قسماً من أقسام الدنيا، إذا كان المصلى على مقام من الهوى، فقال: «حبيب إلى من

(١) لا يكون ذكر اللسان بطلالة. واللبى لله وقال: لا يزال لسانك رطباً بذكر الله .. والله عز وجل يقول: أنا مع عبدي المؤمن ما

تذكرنى وتذكرت بى شفتاه، فكيف يكون هذا بطلالة!! مع تحقق السر بالذكر؟.

(١) من الآية ١٤ من سورة طه.

دنياكم..» (١) ذكر منها الصلاة، فهي دنيا لمن كان همه الدنيا، وهي آخرة لأبناء الآخرة، وهي صلة ومواصلة لأهل الله - عز وجل -، وإنما سميت الصلاة؛ لأنها صلة بين الله وعبيده، ولا تكون المواصلة إلا لتقى، ولا يكون التقى إلا خاشعاً، فعند هذا لا يعظم عليه طول القيام، ولا يكبر عليه الانتهاء عن المنكر، كما قال الله: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر». هـ.

ثم ذكر ما ينتج عن الصلاة الكاملة والذكر الدائم، وهو الخلق الجميل، فوصى به، حيث قال:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ إلا بالصلة التي هي أحسن، أى: اللطف وأرفق، وهي مقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشغبة بالنصح، بأن تدعوه إلى الله تعالى برفق ولين، وتبين له الحجج والآيات، من غير مغالبة ولا قهر. وأصل المجادلة: قتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجج، وأصله: شدة القتل، ومنه قيل للمصقر: أجدل؛ لشدة قتل بدنه وقوة خلقه. والآية؛ قيل: منسوخة بآية السيف (٢)، وقيل: نزلت في أهل الذمة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، فأفرطوا في الاعتداء والعتاد، ولم يقبلوا النصح، ولم ينفع فيهم الرفق، فاستعملوا معهم الغلظة. وقيل: إلا الذين آذوا رسول الله ﷺ، أو: إلا الذين أثبتوا الولد والشريك، وقالوا: يد الله مغلولة. أو معناه: ولا تجادلوا الذين دخلوا في الذمة، للمؤدين للجزية، إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا: فنبذوا الذمة، ومنعوا الجزية، فمجادلتهم بالسيف. والآية تدل على جواز مناظرة الكفرة في الدين، وعلى جواز تعلم علم الكلام،

(٣) أخرج أحمد في المسند (١٢٨/٣، ٢٨٥) والنسائي في سننه (كتاب عشرة النساء ١٦١/٧) والحاكم في المستدرک (النكاح ١٦٠/٢) وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبي، وكذلك أخرج أبو يعلى في مسنده (١٩٩/٦ - ٢٠٠ ح ٣٤٨٢) كلهم من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «حبيب إلى من الدنيا: الطيب والنساء، وجعلت قرّة عيني في الصلاة، قال الحافظ ابن حجر: وليس في شيء من طرقه: لفظ «ثلاث»، انظر الفتح السماوى ٢٧٨/١ وعليه فالرسول لم يجعل الصلاة من أقسام الدنيا بل هي قرّة عينه ﷺ وهذه درجة رفيعة فوق الشيليين اللذين حببا إليه من الدنيا، وهما الطيب والنساء، فهذا الشيطان ليس قرّة عين له ﷺ، لأنهما من الدنيا

(١) قلت: كل ما هو من مكارم الأخلاق، لا يجرى عليه النسخ، فتمسك بهذا الأصل، فحتى لو قاتلنا أهل الكتاب في جهاد شرعى صحيح، بشروطه. فنحن مأمورون بالعمل بهذه الآية حين نجادلهم، إلا من ظلم.. فتعامله بما يستحق حتى يزول ظلمه، فإن جادلناهم فبالتى هي أحسن أيضاً.

الذى به تتحقق المجادلة. قاله النسفى. ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد﴾؛ هذا من حسن المجادلة. قال عليه السلام: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وكتابه ورسوله، فإن كان باطلاً؛ لم تصدقوهم، وإن كان حقاً؛ لم تكذبوهم» (١). ﴿ونحن له مسلمون﴾؛ مطيعون له خاصة، وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

الإشارة: المناظرة بين العلماء، والمذاكرة بين الفقهاء، ينبغي أن تكون برفق ولين عن قلب سليم، بقصد إظهار الحق وتبيين الصواب، أو تنبيه عن الغفلة، أو ترقية في المنزلة، من غير ملاحقة، أو مخاصمة، ولا قصد مغالبة؛ لأن العلم النافع، وذكر الله الحقيقي، يهذب الطبع، ويحسن الأخلاق.

قال فى الحاشية: ثم تذكر حسن رده عليه السلام للقائلين له: السام عليكم، ورفقه، وقوله لعائشة: «مضى عهقتى فاحشا»؟ يتبين لك مناسبة الوصية بحسن المجادلة فى الآية مع ما قبلها، وأن ذلك حال المقيمين للصلاة، والذاكرين الله حقيقة، وأنهم على خلق جميل وحلم وسمت، لا يستفزهم شيء من العوارض؛ لِمَا رَسَخَ فى قلوبهم من نور القرب الذى محى الطبع وفحشه. والله تعالى أعلم. هـ.

ثم ذكر برهان حقيّة القرآن الذى أنزل إلينا، فقال:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَزَبْتَ ابَّاطِلُوت ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْتَثِّ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وكذلك﴾ أى: ومثل ذلك الإنزال البديع ﴿أنزلنا إليك الكتاب﴾ مصدقاً لسائر الكتب السماوية وشاهداً عليها، ﴿فالذين آتيناهم الكتاب﴾؛ التوراة والإنجيل، ﴿يؤمنون به﴾، وهم عبد الله بن سلام ومن آمن معه، وأصحاب النجاشي، أو: من تقدم عهد الرسول عليه السلام من أهل الكتاب، ﴿ومن هؤلاء﴾؛ من أهل مكة، ﴿من يؤمن به﴾، أو: فالذين آتيناهم الكتاب قبلك يؤمنون به قبل ظهوره، ومن هؤلاء

(٢) أخرجه بطحرد الإمام أحمد فى المسند (١٣٦/٤)، وأبو داود فى (العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب ٥٩/٤ - ٦٠ ح ٣٦٤٤)، وابن حبان فى صحيحه (موارد ح ١١٠ ص ٥٨)، والطبرانى فى الكبير (٣٤٩/٢٢)، والبيهقى فى الكبرى (١٠/٢)، عن أبى نضلة الأنصارى. وأصل الحديث فى صحيح البخارى، فى (كتاب الاعتصام، باب قول النبى: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ح ٧٣٦١). من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

الذين أدركوا زمانك من يؤمن به . وإذا قلنا: إنَّ السورة كلها مكية، يكون إخباراً بغيب تحقق وقوعه، ﴿ وما يجحد بآياتنا ﴾، مع ظهورها وزوال الشبهة عنها، ﴿ إلا الكافرون ﴾؛ إلا المتوغلون فى الكفر، المصممون عليه، ككعب بن الأشرف وأضرابه، أو كفار قريش، إذا قلنا: الآية مكية.

﴿ وما كنت تتلوا من قبله ﴾؛ من قبل القرآن ﴿ من كتاب ولا تحطه بيمينك ﴾، بل كنت أمياً، لم تقرأ ولم تكتب، فظهور هذا الكتاب، الجامع لأنواع العلوم الشريفة والأخبار السالفة، على يد أمى؛ لم يُعرف بالقراءة والتعلم، خرق عادة، قاطعة لبغيته. ونكر اليمين؛ لأن الكتابة، غالباً، تكون به، أى: ما كنت قارئاً كتاباً من الكتب، ولا كاتباً ﴿ إذا لارتاب المبطون ﴾ أى: لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا: تعلمه، والتقطه من كتب الأقدمين، وكتبه بيده. أو: يقول أهل الكتاب: الذى نجده فى كتابنا أمى لا يكتب ولا يقرأ، وليس به . وسماهم مبطلين، لإنكارهم للنبوة، أو: لارتبابهم فيها، مع تواتر حججها ودلائلها.

هذا، وكونه ﷺ أمياً كمالاً فى حقه ﷺ، مع كونه أمياً أحاط بعلوم الأولين والآخرين، وأخبر بقصص القرون الخالية والأمم الماضية، من غير مدرسة ولا مطالعة، وهو، مع ذلك، يخبر بما مضى، وما يأتى إلى قيام الساعة، وسرد علم الأولين والآخرين مما لا يعلم القصة الواحدة منها إلا الفاظ من أحبارهم، الذى يقطع عمره فى مدارسته وتعلمه، وهذا كله فى جاهلية جهلاء، بعد فيها العهد بالأنبياء، وبذل الناس، وغيروا فى كتب الله تعالى؛ بالزيادة والنقصان، ففضحهم ﷺ وقر الشرائع الماضية، فهذا كله كاف فى صحة نبوته، فكانت أميته ﷺ وصفاً كمال فى حقه، ومعجزة دالة على نبوته؛ لأنه ﷺ، مع كونه أمياً، ظهر عليه من العلوم الدنية، والأسرار الربانية، ما يعجز عنه العقول، ولا تحيط به النقول، مع إحكامه لسياسة الخلق، ومعالجتهم؛ مع تنوعهم، وتدبير أمر الحروب، وإمامته فى كل علم وحكمة.

وأيضاً: المقصود من القراءة والكتابة: ما ينتج عنهما من العلم؛ لأنهما آلة، فإذا حصلت الثمرة استغنى عنهما. والمشهور أنه ﷺ لم يكتب قط. وقال الباجى وغيره: إنه كتب، لظاهر حديث الحديبية. وقال مجاهد والشعبي: مامات للنبي ﷺ حتى كتب وقرأ. وهذا كله ضعيف.

قال تعالى: ﴿ بل هو ﴾ أى: القرآن ﴿ آيات بينات ﴾ فى صدور الذين أوتوا العلم ﴿ أى: فى صدور العلماء وحفاظه، وهما من خصائص القرآن؛ كون آياته بينات الإعجاز، وكونه محفوظاً فى الصدور، بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن معجزات، ولم تكن تُقرأ إلا بالمصاحف. قال ابن عباس: ﴿ بل هو ﴾ أى: محمد، والعلم بأنه أمى، ﴿ آيات بينات ﴾؛ فى صدور أهل العلم من أهل الكتاب، يجدونه فى كتبهم. هـ^(١). و(بل): للإضراب عن

(١) ذكر الطبرى القولين (٥/٢١ - ٦) ورجع القول الثانى لأن قوله تعالى: ﴿ بل هو آيات بينات ﴾ بين خبرين من إخبار الله عن رسول الله سيدنا محمد ﷺ. فهو بأن يكون خبراً عنه أولى من أن يكون خبراً عن الكتاب.

محذوف، ينساق إليه الكلام، أي: ليس الأمر مما يمكن الارتياح فيه، بل هو آيات وأصحات. (في صدور): متعلق ببيانات، أو: خبر ثان لهو. ﴿وما يجحدُ بآياتنا﴾ الراضحة ﴿إلا الظالمون﴾؛ المتوغلون في الظلم. قال ابن عطية: الظالمون والمبطلون هم كل مُكذِبٍ للنبى ﷺ، ولكن عظم الإشارة بهما إلى قريش لأنهم الأهم. قاله مجاهد. هـ.

الإشارة: كم من ولى يكون أمياً، وتجد عنده من العلوم والحكم والتوحيد ما لا يوجد عند نحارير العلماء. ما اتخذ الله ولياً جاهلاً إلا علمه. ولقد سمعت من شيخنا البوزيدى رحمه الله علوماً وأسراراً، ما رأيتها في كتاب، وكان يتكلم في تفسير آيات من كتاب الله على طريق أهل الإشارة، قل أن تجدها عند غيره، وسمعتة يقول: والله ما جلست بين يدي عالم قط، ولا قرأت شيئاً من العلم الظاهر. قال القشيري: قلوب الخواص من العلماء بالله خزائن الغيب، فيها أودع براهين حقه، وبيانات سره، ودلائل توحيده، وشواهد ربوبيته، فقانون الحقائق في قلوبهم، وكل شيء يطلب من موطنه ومحلّه، فالدر يطلب من الصدف؛ لأنه مسكنه، كذلك المعرفة، ووصف الحق يطلب من قلوب خواصه (١)؛ لأن ذلك قانون معرفته، ومنها ترفع نسخة توحيده. هـ.

ثم رد اقتراحهم للآيات، فقال:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

(١) إنما يرجع إلى وصف الله في قلوب خواصه، لأنهم عرفوا الله بالرجوع إلى رحيه، (الكتاب والسنة) فلا طريق لمعرفة الله، إلا ما أوحاه الله، ابتداءً، وانتهاءً.

ثم أعلم رحمك الله: أن معرفة القراءة والكتابة ليست شرطاً في الولاية، وحفظ كلام الله تعالى، ومعرفة أسرار التوحيد والإيمان، والإسلام.. وهاك مثلاً واحداً: وهو سيدنا حماد بن مسلم الدباس، أستاذ الشيخ القدوة، عارف زمانه، الإمام عبد القادر الجيلاني، وهو حماد بن مسلم بن دنوه، الشيخ القدم، علم المالكيين، أبو عبد الله الدباس، الرحبي - نسبة إلى رحية مالك بن طوق، أنشأ ببغداد، وكان من أولياء الله، أولى الكرامات، انتفع بصحبته خلق، وكان يتكلم على الأحوال، وكتبوا من كلامه نحواً من مئة جزء، وكان أمياً، وكان يتكلم على آفات الأعمال، والإخلاص، والورع، قد جاهد نفسه بأنواع المجاهدات، وزوال أكثر السهون والصنائع، في طلب الجلال، وكان مكاشفاً. فله قال: إذا أحب الله عبداً أكثر همه فيما فرط، وإذا أبغض عبداً أكثر همه فيما قسمه له. وقال: العلم محبة، فإذا طلبته لغير الله، صار حجة.. مات سنة ٥٢٥ هـ. وكان الشيخ عبد القادر من تلامذته: «انظر: شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء: (٥٩٤/١٩ - ٥٩٦) تحقيق وتعليق: شعيب الأرنؤوط، ط ١١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦ م. وراجع أيضاً في هذه القضية: الفتوحات الإلهية للشيخ المفسر/ ٢٠١ - ٢٠٤.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا﴾ أى: كفار قريش: ﴿لولا أنزل عليه آية (١)﴾ من ربه ﴿تدل على صدقه، مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى، ونحو ذلك. وقرأ نافع وابن عامر وحفص: بالجمع؛ آيات، كثيرة، ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾، ينزل منها ما شاء متى شاء، ولست أملك منها شيئاً، ﴿وانما أنا نذير مبين﴾؛ إنما كلفت بالإنذار وإبانتته بما أعطيت من الآيات، وليس من شأنى أن أقول: أنزل على آية كذا دون آية كذا، مع علمى أن المراد من الآيات ثبوت الدلالة على نبوتى، والآيات كلها فى حكم آية واحدة فى ذلك. ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾، أى: أولم يكفهم إنزال آية مغنية عن سائر الآيات، إن كانوا طالبين للحق، غير متعنتين، وهو هذا القرآن الذى تدوم تلاوته عليهم فى كل زمان ومكان، فلا يزال معهم آية ثابتة، لا تزول ولا تنقطع، كما انقطع غيره من الآيات، وفى ذلك يقول البوصيرى:

دامت لدينا ففاقت كل معجزة
من النبیین؛ إذ جاءت ولم تدم

﴿إن فى ذلك﴾ أى: فى هذه الآية الموجودة فى كل زمان إلى آخر الدهر، ﴿لرحمة﴾؛ للنعمة عظيمة، ﴿وذكرى﴾؛ وتذكرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ دون المتعنتين. قال يحيى بن جعدة: إن ناساً من المسلمين أتوا النبى ﷺ بكتب قد كتبوها، فيها بعض ما يقول اليهود، فألقاها، وقال: كفى بها حماقة، أو ضلالة قوم، أن يرغبوا عما جاء به نبيهم، فنزل: ﴿أولم يكفهم...﴾ إلخ (٢).

﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ أى: شاهداً بصدق ما أدعيه من الرسالة وإنزال القرآن على، وتكذيبكم، ﴿يعلم ما فى السموات والأرض﴾، فهو مطلع على أمرى وأمركم، وعالم بحقى رباطكم، فلا يخفى عليه شىء. ﴿والذين آمنوا بالباطل﴾، وهو ما يُعبد من دون الله، ﴿وكفروا بالله﴾ وبآياته منكم ﴿أولئك هم الخاسرون﴾؛ المغبونون فى صفتهم، حيث اشتروا الكفر المؤدى إلى التيران، بالإيمان المؤدى إلى الخلود فى الجنان. روى أن كعب بن الأشرف وأصحابه من اليهود قالوا: من يشهد لك بأنك رسول الله؟ فنزل: ﴿قل كفى...﴾ إلخ.

الإشارة: اقتراح الآيات والكرامات كله جهل وحمق؛ إذ ليس بيد النبى أو الولى شىء من ذلك، وإنما هو مأمور بالوعظ والدلالة على الله، والدعاء إليه، والكرامة لا تدل على كمال صاحبها، ربما رزق الكرامة من لم تكمل له

(١) قرأ ابن كثير، وأبو بكر، وهمزة، والكسائي آية، بالترجيد على إرادة الجنس، وقرأ الباقون بالجمع. انظر الإتحاف (٢/٣٥١).

(٢) أخرجه الدارمى فى (المقدمة، باب من لم ير كتابة الحديث ١/١٣٤، ح ٤٧٨)، وأبو داود فى (المراسيل (باب ما جاء فى العلم)، وابن جرير فى التفسير (٧/٢١) من حديث يحيى بن جعدة، مرسلًا.

الاستقامة^(١)، ليس كل من ثبت تخصيصه كَمُلَ تَخْلِيصَه^(٢). وقد تظهر الكرامات فى البدايات وتخفى فى النهايات، والكرامة العظمى هى الاستقامة وكشف الحجاب بين الله وعبيده حتى يشاهده عياناً، ويذهب عنه الأوهام والشكوك، وأما غير هذا فقد يكون استدراجاً لمن يقف معه. والله تعالى أعلم.

ولمّا لم تظهر آية كما اقترحوا، استعجلوا العذاب، استهزاء، كما قال تعالى:

﴿وَسْتََعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ هَؤُلَاءِ الْعَذَابِ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٣﴾ ﴿يَسْتََعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ٥٤﴾ ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٥﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَيَسْتََعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، كقولهم: أمطر علينا حجارة من السماء، ﴿ولولا أجل مسمى﴾ المضروب لعذاب كل قوم، أو: القيامة، أو: يوم بدر، أو: وقت فنائهم بأجلهم. والمعنى: ولولا أجل قد سمّاه الله وعيّنه فى اللوح المحفوظ، ﴿لجاءهم العذاب﴾ عاجلاً. والحكمة تقتضى تأخيرهم إلى ذلك الأجل المسمى، ﴿وليأتينهم﴾ العذاب فى الأجل المسمى ﴿بغتة﴾: فجأة ﴿وهم لا يشعرون﴾ يأتيناه.

﴿يَسْتََعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أى: لتحيط بهم، أو: هى كالمحيطة بهم، لإحاطة أسبابها بهم من الكفر والمعاصى. واللام للعهد، على وضع الظاهر موضع المصمر؛ للدلالة على موجب الإحاطة، وهو الكفر، أو الجنس، فيدخل المخاطبون دخولاً أولياً. وتكرير استعجالهم؛ لاختلاف ما يترتب على كل واحد، فرتب على الأول حكمة تأخيرهم، وعلى الثانى تهديدهم وزجرهم عنه.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، هذا وقت إحاطتها بهم، أى: تحيط من جميع جوانبهم، كقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾^(٣). ﴿ويقول ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: باشروا جزاء أعمالكم.

الإشارة: ما قيل فى حق من استعجل العذاب من الأنبياء، يقال فى حق من استعجله من الأولياء، بحيث يؤذيه ويقول: ليظهر ما عندهم، فهذا حمق كبير، ولا بد أن يلحقه وبال ذلك، عاجلاً، أو آجلاً، إما ظاهراً

(١) حكمة عطائية. انظر الحكم بقبويب المتقى الهندي (ص ٢٧، حكمة ١٧٨).

(٢) انظر الحكم (ص ٢٦ حكمة ١١١). (٣) من الآية ١٦ من سورة الزمر.

أرباطنا، وقد لا يشعر، وقد يسرى ذلك إلى عقبه؛ فيصيبه ذلك الوبال، كما أصاب أباه، والعياذ بالله من التعرض لأوليائه.

ثم أمر بالهجرة من الأرض التى تكثر فيها الإذابة فى الدين، فقال:

﴿يَعْبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۚ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ۝٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة﴾، فإذا لم يتيسر لكم إقامة دينكم فى بلد، فاخرجوا منها إلى أرض يتهيا لكم فيها استقامة دينكم، والبقاع تتفاوت فى ذلك تفاوتاً كبيراً، والناس مختلفون، فأهل الشرائع يطلبون البقاع التى يتيسر لهم فيها استقامة ظواهرهم، كالمدن والقرى الكبار، التى يكثف فيها العلم وأهله. وأهل الحقائق من الصوفية يطلبون البقاع التى تسلم فيها قلوبهم من العلائق والشواغل، أينما وجدوها عمروها، إن تهيا لهم الاجتماع على ربهم. وعن سهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا ظهرت المعاصى والبدع فى أرض، فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين. وعن رسول الله ﷺ: «من قرأ بدينه من أرض، إلى أرض، وإن كان شبراً، استوجب الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام» (١).

﴿فإياي فاعبدون﴾ أى: فخصونى بالعبادة. وإياى: مفعول لمحذوف، ومفعول «اعبدونى»: الياء المحذوفة، أى: فاعبدوا إياى، فاعبدونى. والفاء: جواب الشرط، محذوف، إذ المعنى: إن أرضي واسعة، فإن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض، فاخلصوا لى فى غيرها.

ثم شجع المهاجرين بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، أى: واجدة مرارته وكربه؛ لأنها إذا تيقنت بالموت؛ سهل عليها مفارقة وطنها. ﴿ثم إلينا ترجعون﴾ بالموت، فتجازون على ما أسلفتم. ومن علم أن هذا عاقبته؛ ينبغي أن يجتهد فى الاستعداد له، فإن لم يتهيا فى أرض فليهاجر منها.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾؛ لننزلنهم ﴿من الجنة غُرَفًا﴾؛ علالي، عالية، وقرأ حمزة والكسائى: ﴿لنثوينهم﴾؛ لنقيمهم، من الثوى، وهو الإقامة، وثوى: غير متعد، فإذا تعدى؛ بزيادة الهمزة، لم

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف: أخرجه اللطفى من مرسل الحسن. انظر الكافى الشاف (٤٦١/٣).

يجاوز مفعولاً واحداً. والوجه فى تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف: إما إجراؤه مجرى «لنزلهم»، أو: بحذف الجار، وإيصال الفعل، أو: شبه الظرف المؤقت، بالمبهم، أى: لنقيمهم فى غرف ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ خالدين فيها نعم أجر العاملين ﴿أجرهم هذا﴾ وهم ﴿الذين صبروا﴾ على مفارقة الأوطان وأذى المشركين، وعلى المحن والمصائب، ومشاق الطاعات، وترك المحرمات، ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾، أى: لم يتوكلوا فى جميع ذلك إلا على الله، فكفاهم شأنهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: كل من لم يأت له جمع قلبه فى بلده؛ فليهاجر منها إلى غيره، وليسمع قول سيده: «يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة»، فإن شق عليه مفارقة الأوطان، فليذكر مفارقتها للعالم فى أقرب زمان. وكان الصديق عليه السلام لما هاجر إلى المدينة، وأصابته الحمى، يتولى بذكر الموت، وينشد:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَذْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وقد أكثر الناس فى الوعظ بالموت وهجومه، نظماً ونثراً، فمن ذلك قول الشاعر:

الْمَوْتُ كَأْسٌ، وَكُلُّ النَّاسِ شَارِبُهُ وَالْقَبْرُ بَابٌ، وَكُلُّ النَّاسِ دَاخِلُهُ

وقال آخر:

اعْلَمْ بِأَنْ سِهَامَ الْمَوْتِ قَاطِعَةٌ بِكُلِّ مُدْرِعٍ فِيهَا وَمُتَرِسٌ
رَكُوبُكَ النِّعْشُ يُنْسِيكَ الرُّكُوبَ إِلَى مَا كُنْتَ تَرْكَبُ مِنْ نَعْلِ وَمِنْ فَرَسٍ
تَرْجُو الدَّجَاةَ، وَلَمْ تَسْلُكْ طَرِيقَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى بَيْسٍ

إلى غير ذلك مما يطول.

ولما أمر بالهجرة؛ خافوا العيلة، فأنزل الله تعالى:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يُوَفِّكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أى : وكم من دابة من دواب الأرض، عاقلة وغير عاقلة، ﴿ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ ؛ لا تطيق أن تحمله؛ لضعفها عن حمله، ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا إِيَّاكُمْ ﴾ أى : لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله، ولا يرزقكم أنتم أيها الأقوياء إلا الله، وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها؛ لأنه لو لم يخلق فيكم قدرة على كسبها؛ لكنتم أعجز من الدواب. وعن الحسن : ﴿ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ : لا تدخره، إنما تصبح خماساً^(١)، فيرزقها الله. وقيل : لا يدخر من الحيوان قوتاً إلا ابن آدم والفأرة والنملة^(٢). ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لقولكم : نخشى الفقر والعيلة إن هاجرنا، ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما فى ضمائركم من خوف فوات الرزق.

ثم ذكر دلائل قدرته على الرزق وغيره فقال : ﴿ وَلئن سألْتَهُمْ ﴾ أى : المشركين وغيرهم ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ على كبيرهما وسعتهما، ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ يجريان فى فلكهما، ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ؛ لا يجدون جواباً إلا هذا، لإقرارهم بوجود الصانع، ﴿ فَأَنى يُؤْفَكُونَ ﴾ ؛ فكيف يصرفون عن توحيد الله؟ مع إقرارهم بهذا كله، إذ لو تعدد الإله لفسد نظام العالم.

﴿ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ هاجر أو أقام فى بلده، ﴿ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ ؛ ويضيق عليه، أقام أو هاجر، فالضمير فى ﴿ لَهُ ﴾ لمن يشاء؛ لأنه مبهم غير معين، ﴿ إِنْ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ؛ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم، فمنهم من يصلحه الفقر، ومنهم من يفسده، ففى الحديث القدسى : « إِنْ مِنْ عِبَادى مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانُهُ إِلَّا الْغِنَى، وَلَوْ أَفْقَرْتَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنْ مِنْ عِبَادى مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانُهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَوْ أَغْنَيْتَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ »^(٣). ذكره النسفى.

﴿ وَلئن سألْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ؛ معترفين بأنه الموجد للكائنات بأسرها، أصولها وفروعها، ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذى هو أضعف الأشياء. ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على إظهار قدرته، حتى ظهرت لجميع الخلق، حتى أقرت بها الجاهلية الجاهلاء. أو : على ما عصمك مما هم عليه، أو : على تصديقك وإظهار حجتك، أو : على إنزاله الماء لإحياء الأرض، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ؛ لا عقول لهم، فلا يتدبرون فيما يربهم من الآيات ويقيم عليهم من الدلالات. والله تعالى أعلم.

(١) خماساً، جياًعاً، جمع خميص.

(٢) قاله سفيان فيما ذكره البغوى فى تفسيره (٥٣/٦).

(٣) أخرجه الديلمى (مسند الفردوس ح ٨٠٩٨، ٨١٠٠) من حديث عمر، وأنس - رضى الله عنهما.

الإشارة: الرزق مضمون بيد من أمره بين الكاف والنون، لا يزيد بحرص قوى، ولا ينقص بعجز ضعيف، بل قد يعكس الأمر، كما قال الشاعر:

كَمْ قَوِيٌّ قَوِيٌّ فِي نَقْلِهِ [تَرَى عَنْهُ أَمْرَ الرُّزْقِ يَنْحَرِفُ] (١)
رُكْمٌ ضَعِيفٌ ضَعِيفٌ فِي تَصْرِفِهِ كَأَنَّهُ مِنْ خَلِيجِ الْبَحْرِ يَغْتَرِفُ

وقد يبسطه الله لأهل الغفلة والبعد، ويقدره لأهل الولاية والقرب، كما قال القائل:

اللَّهُ يَرْزُقُ قَوْمًا لَا خَلَقَ لَهُمْ مِثْلَ الْبَهَائِمِ فِي خَلْقِ التَّصَاوِيرِ
لَوْ كَانَ عَنْ قُوَّةٍ أَوْ عَنْ مُغَالَبَةٍ طَارَ الْبُزَاةُ بِأَرْزَاقِ الْعَصَافِيرِ

وقال عليه الصلاة والسلام - في بعض خطبه - : «أيها الناس، إن الرزق مقسوم، لن يعدو أمرؤ ما كتب له، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب. وإن الأمر محدود، لن يجاوز أحد ما قدر له، فبادروا قبل نفوذ الأجل، وإن الأعمال محصاة، لن يهمل منها صغيرة ولا كبيرة، فأكثرُوا من صالح الأعمال...» الحديث. وقال ﷺ: «لو تركتكم على الله حق توكله، لرزقتكم كما ترزق الطير؛ تغدو خماصاً وتروح بطاناً» (٢).

ثم حقر الدنيا وعظم الآخرة، فقال:

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعب﴾ أى: وما هى؛ لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها، إلا كما يلعب الصبيان ساعة، ثم يتفرقون متعبين بلا فائدة. وفيه ازدراء بالدنيا وتحقير لشأنها، وكيف لا يحقرها وهى لا تزن عنده جناح بعوضة؟ واللهو: ما يُلذذ به الإنسان، فيلهيه ساعة، ثم ينقضى. ﴿وإن الدار الآخرة لهى الحيوان﴾ أى: الحياة الحقيقية؛ لأنها دائمة. والحيوان: مصدر، وقياسه: حييَّان، فقلَّب الباء

(١) فى الأصول الخطية [تَرَى أَمْرَ الرُّزْقِ عَنْهُ يَنْحَرِفُ].

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٣٠/١ - ٥٢) والترمذى فى (الزهد، باب ما جاء فى التوكل على الله، ٤/٤٩٥، ح ٢٣٤٤) وقال: حديث حسن صحيح وابن ماجه فى (الزهد، باب التوكل واليقين، ٢/١٣٩٤، ح ٤١٦٤) والحاكم وصححه (٣١٨/٤) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه.

الثانية وأو. ولم يقل: لهى الحياة؛ لِمَا فى بقاء فَعَلَّانَ من معنى الحركة والاضطراب. وفى المصباح: الحيوان: مبالغة فى الحياة، كما قيل: للموت الكثير: مَوْتَان. هـ. ﴿لو كانوا يعلمون﴾ حقيقة الدارين؛ لِمَا اختاروا اللهو الفانى على الحيوان الباقى.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ﴾، هو مرتب على محذوف، دل عليه ما وصفهم به قَبْلُ، والتقدير: هم على ما هم عليه من الشرك والعناد، وإذا ركبوا فى الفلك ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، أى: كائنين فى صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلا الله، ولا يدعون معه إلهاً آخر، ﴿فلما نجاهم إلى البر﴾، وأمنوا من الغرق، ﴿إذا هم يُشْرِكُونَ﴾، أى: عادوا إلى حال الشرك، ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ من النعمة، ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادمهم عليها. واللام فيهما: إما لام كي، أى: يعودون إلى شركهم؛ ليكونوا به كافرين بنعمة النجاة، قاصدين التمتع بها والتلذذ، لا غير، على خلاف عادة المؤمنين المخلصين، فإنهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم، ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى ترحيده وطاعته، لا إلى التلذذ والتمتع. أو: لام الأمر، على وجه التهديد، كقوله: ﴿مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(١)، ويقويه: قراءة مَنْ سَكَنَ الثانية^(٢)، أى: ليكفروا وليتمتعوا ﴿فسوف يعلمون﴾ تدبيرهم عند تدميرهم.

الإشارة: الدنيا عند أهل الجد والاجتهاد جد، يتوصلون فيها إلى معرفة الحق، ويترقون منها إلى أسرار ومعارف لا يحصرها عقل؛ ولا يحيط بها نقل، لأن فى هذه الدار: عرفه من عرفه، وجَهْلُه من جهله. والترقى عند العارفين فيها أكثر؛ لأنه يسير بين جلاله وجماله، وهناك ليس إلا الجمال، والترقى بين الضدين أعظم، فإذا مات بقى يترقى فى أنوار الجمال على قدر ما أدرك هنا. والله أعلم.

فتحصل أن الدنيا فى حق أهل الغفلة لعب ولهو؛ لأنها شغلتهم وغرتهم بزخارفها عن معرفة الله والوصول إليه، ولذلك حذر منها ﷺ، فقد قال فى بعض خطبه: «أيها الناس، لا تكونوا ممن خدعته العاجلة، وغرته الأمنية، واستهوته الخدعة، فركن إلى دار سريعة الزوال، وشيكة الانتقال؛ إذ لن يبقى من دنياكم هذه فى جنب ما مضى إلا كإناخة راكب، أو درّ حالب، فعلام ترجون؟ وما تنتظرون؟ فكأنكم، والله، بما قد أصبحتم فيه من الدنيا، كأن لم يكن، وما تصيرون إليه من الآخرة، لم يزل، فخذوا فى الأهبة لأزوف النقلة، وأعدوا الزاد لقرب الرحلة، واعلموا أن كل امرئ على ما قَدَّمَ قَادِمٌ، وعلى ما خَلَّفَ نَادِمٌ». وفى حق أهل الجد جدّ وحق؛ لأنها مزرعة للآخرة، ومتجر من أسواق الله، فيها ربحهم وغنيمتهم. وبالله التوفيق.

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.

(٢) قرأ قالون وابن كثير وحزمة والكمائى (وليتمتعوا) بسكون اللام، على أنها للأمر، وقرأ الباقون بكسرها، إما للأمر، أو لام كي، والأصل فى كل الكسر. انظر الإتحاف (٣٥٣/٢) والبحر المحيط (١٥٥/٧).

ثم ذكرهم بما أنعم عليهم، ليذكروا، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّا وَبُخَطَفُ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ
وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ
أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أى: أهل مكة ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا ﴾ بلادهم ﴿ حَرَمًا ﴾ أى: ممنوعاً مصوناً من الهيب، ﴿ آمناً ﴾؛ يأمن كل من دخله، أو آمناً أهله من القتل والسبى، ﴿ وَيُخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ أى: يخطف بعضهم بعضاً، قتلاً وسبياً، إذ كانت العرب حوله فى تغاور وتناهب، ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾؛ أبعد هذه النعمة العظمى يؤمنون بالأصنام ويعبدونها، أو: الشيطان، ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾؛ حيث أشركوا به غيره، أو بمحمد ﷺ؛ إذ هو النعمة المهداة، أو: الإسلام. وتقديم المعمولين؛ للاهتمام، أو للاختصاص.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أى: لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾؛ بأن جعل له شريكاً، ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ ﴾؛ الرسول ﷺ، أو: الكتاب، ﴿ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ أى: لم يتلعثموا فى تكذيبه لما سمعوه، وفى دلاء، المقتضية للاتصال، تسفيه لرأيهم، حيث لم يتوقفوا ولم يتأملوا قط حين جاءهم، بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه. ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى ﴾؛ مقاماً ﴿ لِّلْكَافِرِينَ ﴾، وهو تقرير لمثواتهم فى جهنم، لأن همزة الإنكار، إذا دخلت على النفى، صار إثباتاً، كقوله:

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا (١)

أى: أنتم خير من ركب المطايا، والتقدير: ألا يستوجبون الثوى فيها؟ وقد افتروا مثل هذه العظيمة، كذبوا على الله وكذبوا بالحق الذى جاء من عنده، أو: ألم يصح عندهم أن فى جهنم مثوى للكافرين؟ حين اجتروا مثل هذه الجراءة، بل لهم فيها مثوى وإقامة. وهذه الآية فى مقابلة قوله: ﴿ لِّلْبُوتَنِّهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ (٢). لا سيما فى قراءة اللثاء. والله تعالى أعلم.

(١) هذا شطر بيت.. وبقية: وَأَنذَى الْعَالَمِينَ بِطُونٍ رَّاحَ؟

(٢) من الآية ٥٨ من سورة العنكبوت.

الإشارة: الحرم الآمن، فى هذه الدار، هو التبتل والانقطاع عن الدنيا وأبنائها، والتجريد من أسبابها، فمن دخله أمن ظاهراً وباطناً، ومن هجرها، وترك الناس حوله يتخطفون ويتهارجون عليها، وهو يتفرج عليهم، فالدنيا جيفة والناس كلابها، فإن خالطتهم ناهشوك، وإن تركت لهم جيفتهم سلمت منهم، فمن كذب بهذا فقد كذب بالحق وآمن بالباطل، فلا أحد أظلم منه . وبالله التوفيق .

ثم ذكر مآل أهل الجِد والاجتهاد ممن تبتل وانقطع إلى الله فقال:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والذين جاهدوا فينا﴾، أطلق المجاهدة ولم يقيد بها بمفعول؛ ليتناول من تجب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدين، أى: جاهدوا نفوسهم فى طلبنا، أو فى حقنا، ومن أجلنا، ولوجهنا، خالصاً، ﴿لنهديهم سبلنا﴾ أى: طرق السير إلينا، والوصول إلى حضرتنا، أو لنسهلهم فعل الخير حتى يصلوا إلى جنابنا .

وعن الدارانى: والذين جاهدوا بأن عملوا بما علموا، لنهديهم إلى علم مالم يعلموا . وقال الفضيل: والذين جاهدوا فى طلب العلم، أى: لله، لنهديهم سبل العلم . وقال سهل: والذين جاهدوا فى إقامة السنّة، لنهديهم سبل للجنة . وقال ابن عطاء: جاهدوا فى إرضائنا؛ لنهديهم سبل الوصول إلى محل الرضوان . وقال ابن عباس: جاهدوا فى طاعتنا لنهديهم سبل ثوابنا .

وقال للجنيّد: جاهدوا فى التوبة، لنهديهم سبل الإخلاص، أو: جاهدوا فى خدمتنا؛ لنمنحهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا، ﴿وإن الله لمع الحسنيين﴾ بالنصر والمعونة فى الدنيا، وبالثواب والمغفرة فى العقبى . والله تعالى أعلم .

الإشارة: للمجاهدة، على قدرها تكون المشاهدة، فمن لا مجاهدة له لا مشاهدة له . وبالمجاهدة تميزت الخصوص من العموم، وبها تحقق سير السائرين، فالعموم وقفوا مع موافقة حظوظهم؛ من الجاه والغنى وغيره، والخصوص خالفوا نفوسهم، ورفضوا حظوظهم، وخرقوا عوائدهم، فخرقت لهم العوائد، وانكشفت عنهم الحجب، وشاهدوا المحبوب . فجاهدوا أولاً فى ترك الدنيا، وتحملوا مرارة الفقر، حتى تحققوا بمقام التوكل، ثم جاهدوا فى ترك اللجاء والرئاسة، فتحققوا بالخمول، وهو أساس الإخلاص، ثم جاهدوا فى مخالفة النفس، فحملوها كل ما يثقل

عليها، وأخرجوها من كل ما تهواه ويخف عليها، وارتكبوا في تلك أهوالاً وأحوالاً صعباً، حتى ماتت نفوسهم موتاتٍ، فتحقق بذلك حياة أرواحهم، وأشرفت على البحر الزاخر، بحر التوحيد الخامس، فتابت ظلال الأكلان حين أشرفت شمس العيان، ففنى من لم يكن، وبقي من لم يزل، فدخلوا جنة المعارف، ولم يشتاقوا قط إلى جنة الزخارف؛ لأنها منطوية فيها. ولا بد من صحبة شيخ كامل، قد سلك هذه المسالك، يقيه زمام نفسه، حتى يوصله إلى ربه، وإلا أتعب نفسه بلا فائدة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ تهوين وتسهيل على السائرين أمر نفوسهم ومجاهدتها، إذا علموا أن الله معهم، هان عليهم كل صعب، وقرب كل بعيد. وبالله التوفيق. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.



سُورَةُ الرُّومِ

مكية؛ اتفاقاً، وقيل: إلى قوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ...﴾ (١) الخ. وهي تسع وخمسون، أو ستون، آية. ومناسبتها لما قبلها: أن نتيجة المعية التي نكرها بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ هي النصر والعز الذي بشر به المؤمنين في صدر السورة بقوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ...﴾ الخ. قال تعالى:

بِشْرٍ لِّقَوْمٍ أَلْفَاظٍ مِّنَ الْحَقِّ

﴿الْم ١﴾ غَلِبَتِ الرُّومُ ٢ ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣﴾
 ﴿فِي يَضِيعُ سِنِيَّتْ ٤﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٥
 ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ
 وَعَدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٧ ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ
 هُمْ غَافِلُونَ ٨﴾

يقول الحق جل جلاله: بعد للتسمية: ﴿الْم﴾ أي: أيها المصطفى، أو: المرسل، ﴿غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ أي: غلبت فارس للروم ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أي: في أقرب أرض للعرب؛ لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم، أي: غلبوا في أدنى أرض للعرب منهم، وهي أطراف الشام. أو: أراد أرضهم، على إنابة اللام مناب المضاف إليه، أي: في أدنى أرضهم إلى عدوهم. قال ابن عطية: قرأ الجمهور: «غلبت»؛ بضم الغين. وقالوا: معنى الآية: أنه بلغ أهل مكة أن الملك كسرى هزم جيش الروم بأنزعاع، وهي أدنى أرض الروم إلى مكة، فسر لذلك كفار قريش، فيشر المؤمنين بأن الروم سيغلبون. هـ. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُمْ﴾ أي: الروم ﴿مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ﴾، وقرئ: يسكون اللام؛ كالحلب والحلب، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: وهم من بعد غلبة فارس إياهم ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فارس، وتكون للدولة لهم.

(١) الآية ١٧ من السورة.

وذلك ﴿ فِي بَضْعِ سَنِينَ ﴾ ، وهو ما بين الثلاث إلى العشر. قال النسفى: قيل: احتربت الروم [وفارس] (١)، بين أذرعات وبصرى، فغلبت فارس الروم، والمَلِكُ بفارس، يومئذ، كسرى «أبرويز»، فبلغ الخبر مكة، فشق ذلك على رسول الله ﷺ والمؤمنين؛ لأن فارس مجوس؛ لا كتاب لهم، والروم أهل كتاب، وفرح المشركون [وشتموا] (٢)، وقالوا: أنتم والنصارى أهل الكتاب، ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن نحن عليكم، فنزلت الآية. فقال أبو بكر: والله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين، فقال له أبى بن خلف: كذبت، فناحبه - أبى: قامره - على عشر قلائص من كل واحد منهما، وجعل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رسول الله ﷺ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : «زِدْ فِي الْخَطَرِ وَأَبْعِدْ فِي الْأَجْلِ». فجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين، ومات أبى من جرح رسول الله ﷺ يوم أحد، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، أو: يوم بدر، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبى، فقال عليه الصلاة والسلام - : «تَصَدَّقْ بِهِ» (٣).

وهذه آية بيّنة على صحة نبوته، وأن القرآن من عند الله؛ لأنها إنباء عن علم الغيب. وكان ذلك قبل تحرير القمار، [عن] (٤) قتادة. ومذهب أبى حنيفة ومحمد - رضى الله عنهما - : أن العقود للفاسدة؛ كعقد الربا وغيره، جائز في دار الحرب بين المسلمين والكفار، واحتجاً بهد القصة. هـ. زاد البيضاوى: وأجيب بأنه كان قبل تحرير القمار. هـ. وقرئ: «غلبت»؛ بالفتح، «وسيفلبون» بالضم، ومعناه: أن الروم غلبوا على ريف الشام، وسيغلبهم المسلمون، وقد غزاهم المسلمون في السنة التاسعة من نزولها، وفتحوا بعض بلادهم، وعلى هذا يكون إضافة الغلب إلى الفاعل.

﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَعْزِزْهُ يُعْزِزْهُ وَمَنْ يُدْلِكْهُ يُدْلِكْهُ﴾ أى: من قبل كل شيء، ومن بعد كل شيء. أو: من قبل الغلبة ويعدها، كأنه قيل: من قبل كونهم غالبين - وقبله: هو وقت كونهم مغلوبين - ومن بعد كونهم مغلوبين - وهو وقت كونهم غالبين، يعنى: أن كونهم مغلوبين أولاً، وغالبين آخرًا، ليس إلا بأمر الله وقضائه. ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (٥). ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أى: ويوم تغلب الروم فارس، ويحل ما وعده الله من غلبتهم، ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بنصر الله ﷻ، وتغلب من له كتاب على من لا كتاب له، وغيظ من شمت بهم من أهل مكة.

(١) ما بين المعقوفين ليس فى الأصول، وأثبتته من تفسير النسفى. (٢) فى الأصول: [شتموا]. (٣) أخرجه بنحوه ابن جرير (١٧/٢١ - ١٨) عن عكرمة، وجاءت القصة بسياقات رروايات متعددة. أخرجه أحمد (١/٢٧٦ - ٣٠٤)، والترمذى فى (تفسير سورة الروم، ٣٢١/٥ ح ٣١٩٣ - ٣١٩٤)، وابن جرير (١٦/٢١ - ١٨)، والطبرانى فى الكبير (٢٩/١٢ ح ١٢٣٧٧) والحاكم (٢/٤١٠)، وانظر الدر المنثور (٥/٢٨٩-٢٩٢). (٤) فى الأصول [قال]، والمثبت من تفسير النسفى. (٥) من الآية ١٤٠ من سورة آل عمران.

وقيل: نصر الله: هو إظهار صدق المؤمنين، بما أخبروا به المشركين من غلبة الروم. ﴿ينصر من يشاء﴾
فينصر هؤلاء تارة وهؤلاء أخرى، ﴿وهو العزيز﴾: الغالب على أعدائه ﴿الرحيم﴾: العاطف على أوليائه.

﴿وعَدَ الله﴾ أى: وعد ذلك وعداً، فسينجزه لامحالة، فهو مصدر مؤكد لما قبله؛ لأن قوله: «سيفلبون» وعد، ﴿لا يخلف الله وعده﴾؛ لامتناع الكذب عليه تعالى، فلا بد من نصر الروم على فارس. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ صحة وعده، وأنه لا يخلف، أو: لا يعلمون أن الأمور كلها بيد الله؛ لجهلهم وعدم تفكيرهم. وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا؛ ما يشاهدونه منها ومن التمتع بزخارفها. وفيه دليل أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها: ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها. قال بعض الحكماء: إن كنت من أهل الاستبصار فألق ناظرك عن زخارف هذه الدار، فإنها مجمع الأكدار، ومنبع المضار، وسجن الإبرار، ومجلس الأشرار، الدنيا كالحية، تجمع سموم نوائبها، وتفرغه في صميم قلوب أبنائها. هـ. وباطنها: أنها مجاز إلى الآخرة، يتزودون منها إليها بالأعمال الصالحة وتحقيق المعرفة. وتتكبر (ظاهراً): مفيد أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها. ﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾؛ لا تخطر ببالهم، ولا يتفكرون في أهوالها ونوائبها. فهم، الثانية: مبتدأ، و(غافلون): خبره، والجملة: خبر الأولى، وفيه تنبيه أنهم معدن الغفلة ومقرها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كما تقع الدولة بين الأشباح، تقع بين النفوس والأرواح. فتارة تغلب النفوس بظلماتها على الأرواح، فتحجبها عن الله، وتارة تغلب الأرواح بأنوارها على النفوس، فتستر ظلمة حظوظها، ويرتفع الحجاب بين الله وعبيده. ألم، غلبت أنوار الأرواح بظلمة كثائف النفوس، فى أدنى أرض العبودية، وهم من بعد غلبهم سيغلبون، فتغلب أنوار الأرواح المطهرة، على ظلمة النفوس الظلمانية، وذلك فى بضع سنين، مدة المجاهدة، والبضع: من ثلاث إلى عشر، على قدر الجِد والاجتهاد، وعلى قدر تفارقت النفوس والطبع، فمنهم من يظفر بنفسه فى مدة يسيره، ومنهم من يظفر بعد مدة طويلة. لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون السائرون بنصر الله، حيث نصرهم على نفوسهم، فظفروا بها. ينصر من شاء حيث يشاء، وهو العزيز الرحيم. قال بعضهم: انتهى سير السائرين إلى الظفر بنفوسهم، فإن ظفروا بها وصلوا. هـ.

وقال الورتجى: قوله: «غلبت الروم..» الآية، إشارة إلى أن الأرواح، وإن كانت مغلوبة من النفوس الأماره، وللشياطين الكافرة؛ امتحاناً من الله، وتربية لها بمباشرة القهريات، فإنها تغلب على النفوس، من حين تخرج من مقام الاختيار. انظر تمامه. وقال القشيري: قوله تعالى: «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا»: استغراقهم فى الاشتغال بالدنيا، وانهمما بهم بما متعمعن عن العلم بالآخرة. وقيمة كل امرئ علمه؛ كما فى الأثر عن على ؓ. قال:

وَقِيَمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يَتَّقُهُ
وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ

فأهل الدنيا فى غفلة عن الآخرة، والمشتغلون بعلم الآخرة، هم بوجودها، فى غفلة عن الله . هـ . قلت: وأهل المعرفة بالله لم يشغلهم عنه دنيا ولا آخرة . والله تعالى أعلم

ثم أمر بالتفكر، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكِفِرُونَ ﴾

قلت: «فى أنفسهم»: يحتمل أن يكون ظرفاً، أى: أو لم يحدثوا التفكير فيها، وأن تكون صلة للتفكر، نحو: تفكر فى الأمر: أجال فيه فكره . والأول أظهر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ أى: أو لم يثبتوا التفكير فى أنفسهم، أى: فى قلوبهم الفارغة، فيتفكروا بها فى مصنوعات الله، حتى يعلموا أنها ما خُلِقَتْ عبثاً، والتفكر لا يكون إلا فى القلوب، ولكن زيادة تصوير لحال المتفكرين، كقوله: اعتقده فى قلبك . أو: أو لم يتفكروا فى أنفسهم، التى هى أقرب إليهم من غيرها، وهم أعلم بأحوالها، فيتدبروا ما أودعها الله تعالى، ظاهراً وباطناً، من غرائب الحكمة الدالة على التدبير من الحكيم القديم، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى وقت تجازى فيه، على الإحسان إحساناً، وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا، عند ذلك، أن سائر الخلائق مثلها، وأنه لا بدّ لهم من الانتهاء إلى ذلك الوقت، فيعلموا أن ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى: ما خلقها باطلاً وعبثاً من غير حكمة، ولا لتبقى خالدة، وإنما خلقها مقرونة بالحق، مصحوبة بالحكمة البالغة، وتنتهى إلى أجل مسمى، وهو قيام الساعة، ورقت الحساب، بالثواب والعقاب، فيخرب هذا العالم، ويقوم عالم آخر، لا انتهاء لرجوده .

قال فى الحاشية الفاسية: وبالجمل: فخلق السموات والأرض؛ للدلالة على التوحيد بوجددهما، وعلى الآخرة بفنائهما، وانقضاء أجلهما . ثم قال: والحاصل أن خلقه بمقتضى الحكمة يقتضى جزاء أوليائه، وتعذيب أعدائه . وقد نصب تعالى القلب شاهداً ومنزلاً منزلة الآخرة، والقالب منزلة الدنيا، وكما أن عمل القالب يعود نفعه، إذا فعل الطاعة، على القلب؛ بالتنوير والتقريب لحضرة الربوبية، ويعود ضرره عليه، إذا فعل ضد ذلك، كما يعرفه أهل القلوب، وأنه مزرعة للقلب، ولا بقاء له، وإنما خلق لقضاء ذلك، فكذلك الدنيا مزرعة للآخرة، وإنما خلقت لذلك، كما يعرفه أهل القلوب والبصائر الصافية السالمة، فاعتبر ذلك . هـ .

﴿ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ بالبعث والجزاء ﴿ لَكَافِرُونَ ﴾ : لجاحدون .

الإشارة: قد تقدم الكلام على فضل التفكير فى آل عمران^(١) . وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أى: ما خلق الكائنات إلا بالحق، من الحق إلى الحق، فهى من تجليات الحق، ثابتة بإثباته، محوطة بأحدية ذاته، فالحق عبارة عن عين الذات عند أهل الحق، فافهم .

ثم قال: زيادة فى الأمر بالاعتبار، أو: نقول: لما ذكر علمهم بظاهر الحياة الدنيا، ذكر أن من قبلهم كانوا أعلم بها، ولم ينفعهم مع الكذب، فقال:

﴿ أَوَلَمْ نَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسْتُوا السُّوَاىَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

قلت: من رفع «عاقبة الذين أساءوا»؛ فالسواى: منصوب خبر كان، ومن نصب «عاقبة»؛ فالسواى: مرفوع اسمها، أو: مصدر لأساءوا. انظر البيضاوى . والسواى: تأنيث أسوأ. (أن كذبوا): مفعول من أجله، أو: بدل، على أن معنى (أساءوا): كفروا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ أى: أعمروا ولم يسيدوا ﴿ فى الأرض ﴾ ، ثم قرره بقوله: ﴿ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى: فسينظروا إلى آثار الذين من قبلهم؛ كيف دمرهم الله، وأخلا بلادهم، وبقيت دارسة بعدهم، كعاد وثمود، وغيرهم من الأمم العاتية، والجبابرة الطاغية، ﴿ كانوا أشدَّ منهم قوة ﴾ حتى كان منهم من يقتل الحديد بيده، ﴿ وأثاروا الأرض ﴾ ؛ قلبوا وجهها بالحرارة، واستنباط المياه، واستخراج المعادن، وغير ذلك. ﴿ وعمروها ﴾ أى: عمر المدمرون الأرض ﴿ أكثر مما عمروها ﴾ أى: أهل مكة، فأكثر: صفة لمصدر محذوف. (وما): مصدرية، أى: عمارة هؤلاء، فإنهم أهل واد غير ذى زرع، ولا تبسط لهم فى غيرها. وفيه تهكم بهم؛ من حيث إنهم عمروا الأرض، مفتخرون بالدنيا، مفتخرون بها، وهم أضعف حالاً فيها؛

(١) راجع تفسير الآيات: ١٩١-١٩٤ من سورة آل عمران، ص ٤٥١ - ٤٥٢ من المجلد الأول.

إذ مدار أمرها على التبسط في البلاد، والتسلط على العباد، والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العصرة، وهم ضعفاء مُتْجَارِنَ إلى وادٍ لانفع فيه. قال البيضاوي.

﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾؛ بالمعجزات الواضحات، فلم يؤمنوا؛ فأهلكوا، ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾؛ بأن دمرهم بلا سبب، أو: من غير إعداء، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾؛ حيث ارتكبوا ما أدى إلى تدميرهم. ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا﴾ بالكفر والمعاصي ﴿السَّوْءِ﴾ أي: العقوبة السَّوْءِ، والأصل: ثم كان عاقبتهم، فوضع الظاهر موضع المضمرة؛ للدلالة على ما اقتضى أن تكون تلك عاقبتهم، وهو إساءتهم. والمعنى: أنهم عوقبوا في الدنيا بالدمار، ثم كان عاقبتهم في الآخرة العقوبة التي هي أسوأ العقوبات، وهي النار التي أعدت للكافرين. لأجل ﴿أن كذبوا﴾ أو: بأن كذبوا ﴿بآيات الله﴾ الدالة على صدق رسله، أو: على وحدانيته. ﴿وكانوا بها يستهزؤون﴾؛ حيث قابلوها بالكذب، أو: غفلوا عن التفكير فيها. أو: ثم كان عاقبة الذين ائتمروا بالخطيئة السَّوْءِ أن طبع الله على قلوبهم، حتى كذبوا بالآيات، واستهزؤوا بها. أو: ثم كان عاقبة الذين فعلوا الفعلة السَّوْءِ، وهو أن كذبوا واستهزؤوا، أن يلحقهم ما تعجز عنه نطاق العبارة، فخير كان، على هذا: محذوف: للتهويل. و﴿أن كذبوا﴾: بيان، أو: بدل من السَّوْءِ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: السير إلى الله على أقسام: سيرُ النفوس: بإقامة عبادة الجوارح؛ لطلب الأجور، وسيرُ القلوب: بجولانها في ميادين الأغيار، للتبصر والاعتبار؛ طلباً للحضور، وسيرُ الأرواح: بجولان الفكرة في ميادين الأنوار؛ طلباً لرفع الستور ودرام الحضور، وسيرُ الأسرار: الترقى في أسرار الجبروت، بعد التمكن من شهود أقوار الملكوت على سبيل الدوام. قال القشيري: سيرُ النفوس في أوطان الأرض ومناكبها لأداء العبادات، وسيرُ القلوب بجولان الفكر في جميع المخلوقات، وغايته: الظفر بحقائق العلوم التي توجب ثلج الصدر - ثم تلك العلوم على درجات - وسيرُ الأرواح في ميادين الغيب: بِنَعْتِ خَرَقِ سُرَادِقَاتِ الملكوت. وقصاراه: الوصول إلى ساحل الشهود، واستيلاء سلطان الحقيقة. وسيرُ الأسرار: بالترقى - أي: الغيبة - عن الحِثِّانِ بأسرها، والتحقيق، أولاً، بالصفات، ثم بالخمود، بالكلية، عما سوى الحق. هـ.

وقال في قوله: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السَّوْءِ﴾: من زرع الشوك لم يحصد الوَرْدَ، ومن استنبت الحشيش لم يقطع البهار، ومن سلك سبيل الغي لم يحل بساحة الرشد. هـ.

ثم ذكر شأن البعث الذي هو عاقبة المسىء والمحسن، فقال:

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ

كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿الله يبدأ الخلق﴾؛ ينشئهم، ﴿ثم يعيده﴾؛ يحييهم بعد الموت، ﴿ثم إليه ترجعون﴾؛ للجزاء؛ بالثواب والعقاب. والالتفات إلى الخطاب؛ للمبالغة في إثباته. وقرأ أبو عمرو وسهل وروح بالغيب، على الأصل. ﴿ويوم تقوم الساعة يُنلس﴾؛ يئأس ويتحير ﴿المجرمون﴾؛ المشركون؛ يقال: ناظرته فأبلس، أى: أفحم وأيس من الحجة، أو: يسكتون متحيرين، ﴿ولم يكن لهم من شركائهم﴾ التى عبدوها من دون الله ﴿شفعاء﴾ يشفعون لهم ويجيرونهم من النار، ﴿وكانوا بشركائهم كافرين﴾؛ جاحدين لها، متبرئين من عبادتها، حين أيسوا من نفعها. أو: كانوا فى الدنيا كافرين بسبب عبادتها.

﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ أى: المسلمون الكافرون، بدليل قوله: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة﴾، أى: بستان ذى أزهار وأنهار؛ وهى الجنة. والتكثير؛ لإبهام أمرها وتفخيمه، ﴿يحبرون﴾: يسرون، يقال: حبره، إذا سره سروراً تهلك به وجهه، وظهر فيه أثره.

وجوه المسار كثيرة، فقليل: يكرمون، وقيل: يحلون. وقيل: هو السماع فى الجنة. قاله غير واحد. قال أبو الدرداء: كان عليه الصلاة والسلام يذكر الناس بنعيم الجنان؛ فقل: يارسول الله؛ هل فى الجنة من سماع؟ قال: نعم، إن فى الجنة لدهراً حافتاه الأبنكار من كل بيضاء خمصانة، يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثله قط، فذلك أفضل نعيم أهل الجنة، قال الراوى: فسألت أبا الدرداء: بم يتغنين؟ قال: بالتسبيح إن شاء الله (١). والخمصانة: المرهفة الأعلى، الضخمة الأسفل. هـ. انظر الثعلبى. وذكر غيره أن هذا السماع يكون فى نزهة تكون لأهل الجنة على شاطئ هذا النهر، وقد ذكرناها فى شرحنا الكبير على الفاتحة.

﴿وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة﴾؛ بالبعث ﴿فأولئك فى العذاب محضرون﴾: مقيمون، لا يغيبون عنه. عائذاً بالله من غضبه.

(١) ذكره القرطبى فى التفسير (٥٢٤٣/٦)، وعزاه للثعلبى، من حديث أبى الدرداء، وأخرجه، بخره، البيهقى فى البعث والنشور (٤٢٥) من حديث أبى هريرة موقوفاً.

الإشارة: من اعتمد على غير الله، أو ركن إلى شيء سواه، فهو مجرم عند الخصوص، وذلك الشيء الذى ركن إليه صلح فى حقه، يتبرأ منه يوم القيامة، ويخلص من نفعه، «ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون»: الآية. «ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون»: فريق هم أهل الوصلة، وفريق هم أهل القطعة، فريق فى المنة، وفريق فى المحنة، فريق فى السرور، وفريق فى الثبور، فريق فى الثواب، وفريق فى العقاب، فريق فى الفراق، وفريق فى التلاق. قاله القشيري. وإذا كان الأمر هكذا، فجَدُّ، أيها المؤمن، فى طاعة مولاك، وأكثر من ذكره، صباحاً ومساءً، وليلاً ونهاراً؛ لتتال ذلك الوعد، وتنجو من الوعيد، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قلت: «فسبحان»: مصدر لمحذوف، أى: سبحوا سبحان. و(حين): متعلق بذلك المحذوف، وجملة: (وله الحمد): معترضة بين معطوفات الظروف. و(فى السموات): حال من الحمد، أى: وله، على عباده، الحمد؛ كائناً فى السموات.. الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فسبحان الله ﴾ أى: فسبحوا الله ونزهوه تنزيهاً يليق به فى هذه الأوقات التى تظهر فيها قدرته، وتجدد فيها نعمه، وهى ﴿ حين تُمسون ﴾؛ تدخلون فى المساء، ﴿ وحين تُصبحون ﴾؛ تدخلون فى الصباح. ﴿ وله الحمد فى السموات والأرض ﴾ أى: وله، على المميزين كلهم، من أهل السموات والأرض، أن يحمده، ﴿ وعشيًّا ﴾ أى: وسبحوه عشياً؛ آخر النهار، ﴿ وحين تُظْهِرُونَ ﴾؛ تدخلون فى وقت الظهيرة.

قال البيضاوى: وتخصيص التسبيح بالمساء والصباح؛ لأن آثار العظمة والقدرة فيهما أظهر، وتخصيص الحمد بالعشى - الذى هو آخر النهار، من عشى العين؛ إذا نقص نورها - والظهيرة - التى هى وسطه؛ لأن تجدد النعم فيها أكثر. ويجوز أن يكون ﴿ عَشِيًّا ﴾ معطوفاً على ﴿ حين تُمسون ﴾، وقوله: ﴿ وله الحمد .. الخ. » اعتراضاً. وعن ابن عباس: الآية جامعة للصلوات الخمس، (تُمسون): صلاتا المغرب والعشاء، (تُصبحون): صلاة الفجر، (وعشيًّا): صلاة العصر، (وتُظْهِرُونَ): صلاة الظهر^(١). ولذلك زعم الحسن أنها مدنية؛ لأنه كان يقول:

(١) أخرجه ابن جرير فى التفسير (٢٩/٢١)، والطبرانى فى الكبير (٣٠٤/١٠ ح ١٠٥٩٦)، والحاكم فى المستدرک (٤٠١/٢)، وصححه، ووافقه الذهبى.

كان الواجب عليه بمكة ركعتين، فى أى وقت اتفقت، وإنما فرضت الخمس بالمدينة. والأكثر على أنها فرضت بمكة. هـ.

ثم ذكر وجه استحقاقه للحمد والتنزيه بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾، الطائر من البيضة، والإنسان من النطفة، أو: المؤمن من الكافر، والعالم من الجاهل. ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾، البيضة من الطائر، والنطفة من الإنسان، أو: الكافر من المؤمن، والجاهل من العالم. ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بيبسها، ﴿وَكَذَلِكَ تَخْرُجُونَ﴾، والمعنى: أن الإبداء والإعادة متساويان فى قدرة من هو قادر على إخراج الحى من الميت، وعكسه.

روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾.. إلى الثلاث آيات، وآخر سورة الصافات: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ..﴾ الخ.. دبر كل صلاة، كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء، وقطر الأمطار، وورق الأشجار، وتراب الأرض. فإذا مات؛ أجرى له بكل لفظ عشر حسنات فى قبره» (١) نقله الثعلبى والنسفى. وعنه - عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾.. إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ تَخْرُجُونَ﴾؛ أدرك ما فاتته فى يومه، ومن قاله حِينَ يُمْسِي: أدرك ما فاتته فى ليلته» (٢). رواه أبو داود.

وقال الضحاك: من قال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ..﴾ الخ؛ كان له كعدل مائتى رقبة من ولد إسماعيل. هـ. زاد كعب: ولم يفته خير كان فى يومه، ولا يدركه شر كان فيه. وإن قالها فى المساء؛ فكذلك. وكان إبراهيم الخليل عليه السلام يقرأها ست مرات فى كل يوم وليلة. هـ.

الإشارة: أما وجه الأمر بالتنزيه حين المساء والصباح؛ فلأن المجوس كانوا يسجدون للشمس فى هذين الوقتين؛ تسليماً وتوديعاً، فأمر الحق تعالى المؤمنين أن ينزهوه عمن يستحق العبادة معه، وأما العشى؛ فلأنه وقت غفلة الناس فى جمع حوائجهم، وأما وقت الظهيرة؛ فلأن جهنم تشتعل فيه؛ كما فى الحديث، وأمر بحمده والثناء عليه فى كل وقت؛ لما غمرهم من النعم الظاهرة والباطنة.

قال القشيري: فمن كان صباحه بالله؛ بُورِكَ له فى يومه، ومن كان مساءه بالله؛ بُورِكَ له فى ليلته، وأنشدوا:

وإن صباحاً نلتقى فى مساءه صباحاً على قلب الغريب حبيب (٣)

(١) انظر: تفسير السفى (٦٩٥/٢).

(٢) أخرجه أبو داود فى (الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، ٣١٦/٥، ح ٥٠٧٦)، والطبرانى فى الكبير (٢٣٩/١٢ ح ١٢٩٩١)، وابن السكيت فى عمل اليوم والليلة (ح ٥٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٤٢٨/٣): إسناده جيد.

(٣) البيت: لإبراهيم بن المهدي، يذكر ابنه. انظر الكامل للمبرد (٣١٤/٢)، وفيه: صباح إلى قلبى، الغداة، حبيب.

شأن بين عبد: صباحه مُفْتَحٌ بعبادته، ومساؤه مُخْتَمٌ بطاعته، وبين عبد: صباحه مُفْتَحٌ بمشاهدته، ورواحه مُخْتَمٌ بعزیز رؤيته. قلت: الأول من عامة الأبرار، والثانى من خاصة العارفين الكبار، وبقي مقام الغافلين، وهو: من كان صباحه مُفْتَحٌ بهم نفسه، ومساؤه مُخْتَمٌ برؤية حسه، ثم ذكر احتمال الصلوات الخمس فى الآية، كما تقدم - ثم قال: وأراد الحق من أوليائه أن يجددوا العبودية فى اليوم والليلة خمس مرات، فيقف على بساط المناجاة، ويستدرك ما فاتته بين الصلاتين من صوارف الزلات. هـ.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ يُخْرِجُ الذَّاكِرَ مِنَ الْغَافِلِ، وَالْغَافِلَ مِنَ الذَّاكِرِ، وَالْعَارِفَ مِنَ الْجَاهِلِ، وَالْجَاهِلَ مِنَ الْعَارِفِ، وَيُحْيِي أَرْضَ النَّفْسِ بِالْيَقِظَةِ وَالْمَعْرِفَةِ، بَعْدَ مَوْتِهَا بِالْغَفْلَةِ وَالْجَهْلِ، وَكَذَلِكَ تُخْرِجُونَ مِنَ قُبُورِكُمْ عَلَى مَا مَاتُمْ عَلَيْهِ، مِنْ مَعْرِفَةٍ أَوْ جَهْلِ، مَنْ يَقِظُ أَوْ غَفَلَ، يَمُوتُ الْمَرْءُ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ، وَيَبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثم ذكر دلائل البعث والخروج، فقال:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على قدرته، الشاملة للبعث وغيره، أو: ومن علامات ربوبيته: ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ﴾ أى: أباكم ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾؛ لأن أصل الإنشاء منه، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ أى: ثم فجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين فى الأرض، آدم وذريته. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾؛ لأن حواء خلقت من ضلع آدم، والنساء بعدها خلقت من أصلاب الرجال. أو: من شكل أنفسكم وجنسها، لا من جنس آخر، وذلك لما بين الاثنين - إذ كانا من جنس واحد - من الألفة والمودة والسكون، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر. ويقال سكن إليه: إذا مال إليه. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أى: جعل بينكم التوادد والتراحم بسبب الزواج.

وعن الحسن: المودة كناية عن الجماع، والرحمة هى الولد. وقيل: المودة للشابة الجميلة، والرحمة للعجوز، وقيل: المودة والرحمة من الله، والفرق من الشيطان - أى: البغض من الجانبين. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فيعلمون ما فى ذلك من الحكيم، وأن قوام الدنيا بوجود التناسل.

الإشارة: أصل نشأة البشرية من الطين، وأصل الروح من نور رب العالمين. فإذا غلبت الطينة على الروح جذبتها إلى عالم الطين، فكان همها الطين، وهوت إلى أسفل سافلين، فلا تجد فكرتها وحديثها، فى الغالب، إلا فى عالم الحس، ويكون عملها كله عمل الجوارح، يفتى بفتائها. وإذا غلبت الروح على الطينة؛ وذلك بدخول مقام الفناء، حتى تستولى المعانى على الحسيات. وتنخس البشرية تحت سلطان أنوار الحقيقة، جذبتها إلى عالم الأنوار والأسرار، فلا تجد فكرتها إلا فى أنوار التوحيد وأسرار التفريد، وعملها كله قلبى وسرى، بين فكرة واعتبار، وشهود واستبصار، يبقى مع الروح ببقائها، يجرى عليها بعد موت البشرية، ويبعث معها، كما تقدم فى الحديث: (يموت المرء...) الخ.

قال القشيري: يقال: الأصل ثرية، ولكن العبرة بالتربية لا بالتربة. هـ. قلت: إذ بالتربية تغلب الروح على البشرية، ثم قال: اصطفى الكعبة، فهي خير من الجنة، مع أن الجنة جواهر وبقايت، والكعبة حجر ومدر، أى: كذلك المؤمن الكامل، وإن كان أصله من الطين، فهو أفضل من كثير من العوالم اللطيفة. ثم قال فى قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً..﴾ الآية: ردّ المثل إلى المثل، وربط الشكل بالشكل، وجعل سكون البعض إلى البعض، وذلك للأشباح والصُّور، والأرواح صحبت الأشباح؛ كرهاً لاطوعاً، وأما الأسرار فمُعْتَقَّة، لاتساكن الأطلال، ولا تتدنس بالأغيار. هـ.

قلت: وكأنه يشير إلى أن المودة التى انعقدت بين الزوجين إنما هي نفسية، لاروحانية، ولاسرية؛ إذ الروح والسر لا يتصور منهما ميل إلى غير أسرار الذات العلية؛ إذ محبة الحق جذبتها عن الميل إلى شيء من السوى. واختلف الصوفية: هل تُخل هذه المودة التى بين الزوجين بمحبة الحق، أم لا؟ فقال سهل رحمته الله: لا تنضر الروح؛ لقوله ﷻ: «حبيب إلى من دنياكم ثلاث...» (١) فذكر النساء، إذا كان على وجه الشفقة والرحمة، لا على غلبة الشهوة. وعلامة محبة الشفقة: أنه لا يتغير عند فقدها، ولا يحزن بفواتها. وهذا هو الصحيح. والله تعالى أعلم.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكْمِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ

(١) لفظ «ثلاث»، لم يرد - مطلقاً فى روايات الحديث الصحيحة. قال الحافظ ابن حجر: وليس فى شيء من طرقه لفظ ثلاث، وراجع تخريج هذا الحديث الشريف عند إشارة الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٢) انظر: مجمع الأمثال للميداني ١/١٢٩.

خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنْ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُم مَّخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾

قلت: (يرىكم البرق): فيه وجهان، أحدهما: إضمار «أن»؛ كما في حرف ابن مسعود، والثاني: تنزيل الفعل منزلة المصدر، كما قيل في قولهم، في المثل: «تسمع بالمعدي خير من أن تراه» (٢). أى: إن تسمع، أو: سماعك. و(خوفاً وطمعاً): مفعولان له؛ على حذف مضاف، أى: إرادة خوف، وإرادة طمع، أو: على الحال، أى: خائفين وطامعين. و(إذا دعاكم): شرطية، و(إذا)، الثانية؛ فجائية، نابت عن الفاء. و(من الأرض): يتعلق بدعاكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على باهر قدرته ﴿خلق السموات والأرض﴾. قال القشيري: السموات فى علوها، والأرض فى دنوها، هذه بنجومها وكواكبها، وهذه بأقطارها ومناكبها، هذه بشمسها وقمرها، وهذه بمائها ومدرها، واختلاف لغات أهلها فى الأرض، واختلاف تسبيح الملائكة - عليهم السلام - الذين هم سكان السماء. هـ. ﴿واختلاف ألسنتكم﴾ باختلاف اللغات، وبأجناس النطق وأشكاله، ﴿وألوانكم﴾، كالسواد والبياض وغيرهما، حتى لا تكاد تجد شخصين متوافقين؛ إلا وبينهما نوع تخالف فى اللسان واللون، وباختلاف ذلك وقع التعارف والتمايز، فلو توافقت وتشاكلت لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت المصالح. وفى ذلك آية بيّنة، حيث ولدوا من أب واحد، وهم على كثرتهم متفانون. ﴿إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾؛ بفتح اللام وكسره (١). ويشهد للكسر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ (٢).

قال القشيري: واختصاص كل شيء من هذه ببعض جائزات حكمها؛ شاهد عدل، ودليل صدق، يناجى أفكار المستيقظين، وتنادى على أنفسها: أنها، بأجمعها، بتقدير العزيز العليم. هـ.

﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله﴾، أى: منامكم بالليل، وابتغائكم من فضله بالنهار، أو: منامكم فى الزمانين، وابتغائكم من فضله فيهما، وهو حسن؛ لأنه إذا طال النهار يقع النوم فيه، وإذا طال الليل يقع الابتغاء فيه. ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾؛ سماع تدبر، بأذان واعية. قال القشيري: غلبة النوم لصاحبه من غير اختيار، وانتباهه بلا اكتساب، يدل على موته ثم بعثه، ثم فى حال منامه يرى ما يسره وما يضره يدل على حاله فى قبره. الله أعلم كيف حاله، فى أمره، فيما يلقاه من خيره وشره. هـ. (٣)

(١) قرأ حفص: بكسر اللام قبل الميم، جمع «عالم»، ضد الجاهل، وقرأ الباقر: بفتح اللام؛ جمع «عالم». انظر الإتحاف (٢/٣٥٦).

(٢) من الآية ٤٣ من سورة العنكبوت.

﴿ومن آياته يُريكمُ البرقَ خوفاً وطمعاً﴾ ، أى: خوفاً من الصواعق، وطمعاً فى الغيث، أو: خوفاً للمسافر وطمعاً للحاضر، ﴿ويُنزلُ من السماء ماءً﴾ ؛ مطراً ﴿فيحيي به الأرض بعد موتها، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ : يتفكرون بعقولهم.

﴿ومن آياته أن تقوم السماءُ بغير عمدٍ﴾ والأرضُ ﴿على ماء جمادٍ﴾ بأمره ﴿أى: بإقامته، أو: تدبيره وقدرته.﴾ ثم إذا دعاكم للبعث ﴿دعوةً من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ من قبوركم. وسبك الآية: ومن آياته قيام السماوات والأرض، واستمساكها بغير عمد، ثم إذا دعاكم دعوة واحدة، يأهل القبور، خرجتم بسرعة. وإنما عطف هذا بثم؛ بياناً لعظم ما يكون من ذلك الأمر، وإظهار اقتداره على مثله، وهو أن يقول: يأهل القبور، قوموا، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إقامت تنظر، كقوله: ﴿ثُمَّ نُفِخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (١).

تنبيه: عبّر عن مودة الزوجين بـ"يتفكرون"؛ لأن المودة قلبية، لا تدرك إلا بتفكر القلب، وعبّر عن خلق السماوات والأرض واختلاف الألسن والألوان بالعالمين؛ لأن أمر ذلك يدركه كل أحد، ممن له عقل أو علم، وعبّر عن النوم واليقظة بـ"يسمعون"؛ لأن من كان فى الغفلة لا يسمع أمثال هذه المواعظ، وإنما يسمعها من كان متيقظاً، وعبّر عن إظهار البرق، وإنزال المطر، وإحياء الأرض، بـ"يعقلون"؛ لأن أمر البرق وما معه يبصره كل من له مسكة من عقل سليم، ويعلم أنه من الله بلا واسطة. والله تعالى علم.

الإشارة: ما نصبت هذه الكائنات لآرائها، بل لترى فيها مولاها، فما هذه الأكران الحسية إلا تجليات من تجليات الحق، ومظاهر من مظاهره، وأنوار من أنوار ملكوته، متدفقة من بحر جبروته. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان. لكن لا يعرف هذا إلا العارفون بالله، وأما غيرهم فحسبهم أن يستدلوا على عظمة خالقها، وباهر قدرته وحكمته، فيقوى إيمانهم ويشدد إيقانهم.

قال فى الإحياء: وبحر المعرفة لا ساحل له، والإحاطة بكنهه جلال الله محال، وكلما كثرت المعرفة بالله سبحانه، وبأفعال مملكته، وأسرار مملكته، وقويت، كثر النعيم فى الآخرة وعظم، كما أنه كلما كثر البذر وحسن؛ كثر الزرع وحسن. وقال أيضاً، فى كتاب شرح عجائب القلب: ويكون سعة ملك العبد فى الجنة بحسب سعة معرفته بالله، وبحسب ما يتجلى له من عظمة الله سبحانه، ومن صفاته وأفعاله. هـ.

ومن آياته خلق سماوات أرواحكم، وأرض نفوسكم، لتقوم الأرواح بشهود عظمة الربوبية، والنفوس بأداب العبودية، واختلاف ألسنتكم؛ فبعضها لا تتكلم إلا فى الفرق، وبعضها إلا فى الجمع. وألوانكم؛ بعضها ظهر فيها

(١) من الآية ٦٨ من سورة الزمر.

سيما العارفين، وبهجة المحبين، وبعضها لم يظهر عليها شيء من ذلك. ومن آياته منامكم في ليل الغفلة والبطالة، وَقَتَ غَفْلَتِكُمْ، وابتغائكم من فضله؛ بزيادة معرفته، وَقَتَ يَقْظَتِكُمْ. ومن آياته يُرِيكُمُ البرق، أى: يُلَمِّعُ عليكم أسرار المعاني، ثم تخفى عند الاستشراف على بحر الحقيقة، خوفاً من الاضطلام والرجوع، وطمعاً في الوصول والتمكين. ومن آياته أن تقوم الأشياء به وبأسرار ذاته، ثم إذا دعاكم دعوة من أرض القطيعة إذا أنتم تخرجون، فتخرجون بأرواحكم إلى سماء وصلته وتمكن معرفته. والله تعالى أعلم.

ثم برهن على كمال ملكه وعظمته، فقال:

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وله من في السموات والأرض﴾؛ ملكاً وملكاً، ﴿كل له قانتون﴾ أى: مطيعون، كل لما أراد، لا يستطيع التغير عن ذلك. أو: مُقَرَّرُونَ بالعبودية، أو: قائمون بالشهادة على وحدانيته. ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أى: يُنْشِئُهُمْ ثم يعيدهم للبعث، ﴿وهو﴾ أى: البعث ﴿أهون﴾؛ أيسر ﴿عليه﴾ عندكم؛ لأن الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء، فلم أنكرتم الإعادة، مع إقراركم بأن الإنشاء منه تعالى؟ وقال الزجاج وغيره: أهون بمعنى هين؛ كقوله: ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ (١)، كما قالوا: أكبر، بمعنى كبير. والإعادة في نفسها عظيمة، ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء؛ إذ هو أهون عند الخلق من الإنشاء؛ لأن قيامهم بصيحة واحدة أسهل من كونهم نطفاء، ثم علقاء، ثم مضغاً، إلى تكميل خلقهم. قاله النسفي.

﴿وله المثل الأعلى في السماوات والأرض﴾ أى: الوصف الأعلى، الذي ليس لغيره، وقد عُرف به، ووصف في السموات والأرض، على السنة الخلائق والسنة الدلائل، وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة، وغيرهما من المقدورات، ﴿وهو العزيز﴾ أى: القاهر لكل مقدور، ﴿الحكيم﴾ الذي يجرى كل فعل على قضايا حكمته وعلمه. وعن ابن عباس: المثل الأعلى هو: «تيس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» (٢). وعن مجاهد: هو قول: «لا إله إلا الله». ومعناه: وله الوصف الأرفع، وهو اختصاصه بالألوهية في العالم العلوي والسفلي، ويعضده: ما بعده من ضرب المثل. والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ٣٠ من سورة النساء.

(٢) من الآية ١١ من سورة الشورى.

الإشارة: الأشياء كلها، من عرشها إلى فرشها، حيها وجامدها، قانتة وساجدة لله تعالى، من حيث حسنها الذى هو مقر العبودية، وغلوية عن السجود من حيث معناها؛ لأنها من أسرار الربوبية. فالعبد، من حيث فرقه، عبد خاضع، ومن حيث جمعه: حر مطاع.

قال القشيري: قوله: «وهو أهون عليه» أى: فى ظنكم وتقديركم. وفى الحقيقة السهولة والوعورة على الحق لا تجوز. «وله المثل الأعلى» والصفات العلى فى الوجود بحق القدم، وفى وجوده - أى: للأشياء - بنعت الكرم، وفى القدرة بوصف الشمول، وفى النظرة بوصف الكمال، وفى العلم بعموم التعلق، وفى الحكم بوجود التحقق، وفى المشيئة بوصف البلوغ، وفى القضية بحكم النفوذ، وفى الجبروت بعين العز والجلال، وفى الملكوت بنعت الجد والكمال. هـ. قلت: والحاصل أن المثل الأعلى يرجع إلى كمال ذاته، تعالى، وصفاته وأفعاله.

ثم ضرب مثلاً لقبح الشرك، بعد بيان علو شأنه، فقال:

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنَ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا ﴾ لقبح الشرك وشاعته، منتزعا ﴿ من أنفسكم ﴾ التى هى أقرب شىء إليكم، وهو: ﴿ هل لكم ﴾، معاشر الأحرار، ﴿ مما ملكت أيمانكم ﴾ أى: من عبيدكم ﴿ من شركاء فيما رزقناكم ﴾ من الأموال وغيرها. فمن، الأولى: للابتداء، والثانية: للتبويض، والثالثة: مزيدة؛ لتأكيد الاستفهام الجارى مجرى النفى. والمعنى: هل لكم، من بعض عبيدكم، شرك فيما رزقناكم، أى: هل ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم فيما رزقناكم؟ ﴿ فأنتم فيه سواء ﴾؛ فتكونون أنتم وهم، فيما رزقناكم من الأموال، سواء؛ يتصرفون فيه كتصرفكم، ويحكمون فيه كحكمكم، مع أنهم بشر مثلكم، حال كونكم ﴿ تخافونهم ﴾ أن يستبدوا بالتصرف فيه، ﴿ كخيفتكم أنفسكم ﴾ أى: كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض - فيما هو مشترك بينهم - أن يستبد فيه بالتصرف دونه. أو: تخافونهم أن يقاسموكم تلك الأموال، أو: يرثونها بعدكم، كما تخافون ذلك من بعضكم، فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم، فكيف ترضونه لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد، أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء فى استحقاق العبادة؟

﴿ كذلك ﴾ ، أى : مثل هذا التفصيل البديع ، ﴿ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ ؛ نبينها ؛ لأن التمثيل مما يكشف المعانى ويوضحها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ؛ يتدبرون فى ضرب الأمثال ، ويعرفون حكمها وأسرارها ، فلما لم ينزجروا أضرب عنهم ، فقال : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أنفسهم بالشرك ﴿ أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ، أى : تبعوا أهواءهم ، جاهلين ، ولو كان لهم علم ؛ لرجى أن يزجرهم ، ﴿ فَمَنْ يَهْدِي مِنْ أَضَلِّ اللَّهِ ﴾ ؟ أى : لا هادى له قط ، ﴿ وَمَالِهِمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ يمنعونهم من العذاب ، أو : يحفظونهم من الضلالة ، أو : من الإقامة فيها .

الإشارة : ما قيل فى الشرك الجلى يجرى مثله فى الشرك الخفى ؛ فإن الحق تعالى غيور ، لا يحب العمل المشترك ، ولا القلب المشترك . العمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشترك لا يقبل عليه ، وأنشدوا (١) :

لِي مَحْبُوبٌ إِنَّمَا هُوَ غَيُورٌ
يُطِلُّ فِي الْقَلْبِ كَطَيْسِرٍ حَذُورٌ
ذَا رَأَى شَيْئًا امْتَنَعَ أَنْ يَزُورَ

فكما أنك لا ترضى من عبدك أن يحب غيرك ، ويخضع له ، كذلك الحق تعالى ؛ لا يرضى منك أن تميل لغيره . قال القشيري : قوله : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ : أشد الظلم متابعة الهوى ؛ لأنه قريب من الشرك . قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ (٢) ، ومن اتبع هواه ؛ خالف رضا مولاه ، فهو ، بوضع الشيء فى غير موضعه ، صار ظالماً ، كما أن العاصى ، بوضع المعصية فى موضع الطاعة ، صار ظالماً ، كذلك بمتابعة هواه ، بدلاً عن مرافقة ومتابعة رضا مولاه ، صار فى الظلم متمادياً . هـ .

ثم أمر بالتوحيد الخالص ، المقصود من ضرب المثل ، فقال :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠) ﴿ مُبِينٌ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣١) ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٣٢)

(٢) من الآية ٢٣ من سورة الجاثية .

(١) وهو المشتري ، كما ذكر الشيخ المفسر فى إيقاظ الهمم / ٤٣٧ .

قلت: (حنيفاً): حال من (الدين)، أو: من المأمور، وهو ضمير (أقم)، و(فطرة): منصوب على الإغراء.

يقول الحق جل جلاله، لنبيه ﷺ، أو: لكل سامع: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أى: قوم وجهك له، غير ملتفت عنه؛ يميناً ولا شمالاً. وهو تمثيل لإقباله على الدين بكليته، واستقامته عليه، واهتمامه بأسبابه؛ فإن من اهتم بالشئ توجه إليه بوجهه، وسدد إليه نظره، ﴿حَنِيفاً﴾؛ أى: مائلاً عن كل ما سواه من الأديان، ﴿فَطَرَتْ﴾ الله؛ أى: ألزمت فطرة الله. والفطرة: الخلقة: ألا ترى إلى قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾؟ فالأرواح، حين تركيبها فى الأشباح، كانت قابلة للتوحيد، مهيأة له، بل عالمة به؛ بدليل إقرارها به فى عالم الذر، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر، ومن غوى فإنما غوى منهم بإغواء شياطين الإنس والجن. وفى حديث قدسى: «كُلُّ عِبَادِي خَلَقْتُ حَنِيفاً، فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ، وَأَمَرُوهُمْ أَنْ يَشْرِكُوا بِي غَيْرِي» (١)، وفى الصحيح: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ يَنْصَرَانِهِ أَوْ يُمَجَّسَانِهِ» (٢).

قال الزجاج: معناه: أن الله تعالى فطر الخلق على الإيمان به، على ما جاء فى الحديث: «إن الله عز وجل أخرج من صلب آدم ذريته كالذر، وأشهدهم على أنفسهم بأنه خالقهم، فقالوا: بلى» (٣)، وكل مولود فهو من تلك الذرية التى شهدت بأن الله تعالى ربها وخالقها. هـ. قال ابن عطية: الذى يعتمد عليه فى تفسير هذه اللفظة: أنها الخلقة والهيئة فى نفس الطفل، التى هى مهينة لمعرفة الله والإيمان به، الذى على الإعداد له فطر البشر، لكن تعرض لهم العوارض؛ على حسب ما جرى به القدر، ولا يلزم من الإعداد وجعله على حالة قابلة للتوحيد ألا يساعده القدر، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٤)، أى: خلقهم معدين لذلك، فأمر من ساعده القدر، وصرف عن ذلك من لم يوفق لما خلق له. هـ.

فقوله فى الحديث: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ» أى: على القابلية والصلاحية للتوحيد، ثم منهم من يتمحض لذلك، كما سبق فى القدر، ومنهم من لم يوفق لذلك، بل يخذل ويصرف عنه؛ لما سبق عليه من الشقاء. وقال فى المشارق: أى: يخلق سالماً من الكفر، متهيئاً لقبول الصلاح والهدى، ثم أبواه يحملانه، بعد، على ما سبق له فى الكتاب. هـ. قال ابن عطية: وذكر الأبرين إنما هو مثال للعوارض التى هى كثيرة. ثم قال: وقد فطر الله

(١) أخرجه بدحوه، مطولاً، مسلم فى (الجنة وصفه نعيمها، باب الصفات التى يعرف بها، فى الدنيا، أهل الجنة وأهل النار ٢١٩٧/٤، ح ٢٨٦٥) من حديث عياض المجاشع. ولفظه: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهن عن دينهم». الحديث.

(٢) أخرجه البخارى فى (القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين ح ٦٥٩٩)، ومسلم فى (القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، ٢٠٤٧/٤، ح ٢٦٥٨) بزيادة فى آخره، من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٢٧٢/١) وقال فى مجمع الزوائد (٢٥/٧): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

(٤) الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

الخلق على الاعتراف برؤوبيته، ومن لازم ذلك توحيدده، وإن لم يوفقوا لذلك كلهم، بل وحده بعضهم، وأشرك بعضهم، مع اتفاق الكل على رؤوبيته؛ ضرورة أن الكل يشعر بقاهر له مدبر. قال فى الحاشية: والحاصل: أنه تعالى فطر الكل فى ابتداء النشأة، على الاعتراف برؤوبيته، ولكن كتب منهم السعداء موحددين، وكتب الأشقياء مشركين، مع اعتراف الجميع برؤوبيته، ولم يوفق الأشقياء لكون الرؤوبية تستلزم الوحدانية، فأشركوا، فناقضوا لازم قولهم. هـ.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿التي فطر الناس عليها﴾، أى: خلقهم فى أصل نشأتهم عليها، ﴿لاتبديل لخلق الله﴾ أى: ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة أو تغير. وقال الزجاج: معناه: لاتبديل لدين الله، ويدل عليه قوله: ﴿ذلك الدين القيم﴾ أى: المستقيم، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ حقيقة ذلك. حال كونكم.

﴿منيبين إليه﴾ أى: راجعين إليه، فهو حال من ضمير: الزموا. وقوله: ﴿واتقوه وأقيموا الصلاة﴾: عطف على الزموا. أو: على (فأقم)؛ لأن الأمر له - عليه الصلاة والسلام - أمر لأمرته، فكأنه قال: فأقيموا وجرهمكم، منيبين إليه، ﴿واتقوه﴾ أى: خافوا عقوبته، ﴿وأقيموا الصلاة﴾ أى: اتقوها وأدوها فى وقتها، ﴿ولاتكونوا من المشركين﴾؛ ممن يشرك به غيره فى العبادة.

﴿من الذين فرقوا دينهم﴾: بدل من المشركين؛ بإعادة الجار، أى: لاتكونوا من الذين جعلوا دينهم أدياناً مختلفة باختلاف ما يعبدونه؛ لاختلاف أهوائهم. وقرأ الأخوان: (فارقوا) أى: تركوا دين الإسلام الذى أمروا به، ﴿وكانوا شيعاً﴾ أى: فرقاً، كل فرقة تشايح إمامها الذى أضلها، أى: تشيعه، وتقوى سواده، ﴿كل حزب﴾ منهم ﴿بما لديهم فرحون﴾؛ مسرورون، ظناً بأنه الحق، ثم يبدلهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون. والعياذ بالله.

الإشارة: الفطرة التى فطر الله الأرواح عليها هى معرفة العيان؛ لأنها كلها كانت عارفة بالله؛ لصفاتها ولطافتها، فما عاقها عن تلك المعرفة إلا كثافة الأبدان، والاشتغال بحفظها وهراها، حتى نسيت تلك المعرفة. وفى ذلك يقول ابن البنا فى مباحثه^(١):

لَمْ تَزَلْ كُلُّ نَفْسٍ أَحْيَا	لَأَمَّةٍ دَرَاكَةٌ لِلْأَشْيَا
وَأِنَّمَا تَعُوقُهَا الْأَبْدَانُ	وَالْأَنْفُسُ الذُّرْعُ وَالشَّيْطَانُ
فَكُلُّ مَنْ أَذَاقَهُمْ جِهَادَهُ	أَظْهَرَ لِلْقَاعِ خَرْقَ الْعَادَةِ

(١) انظر الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ص ١١١.

قال بعضهم: إنما حجب الله عنها تلك العلوم؛ غير أن تكشف سر الربوبية؛ فيظهر لغير أهله، قال القشيري: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أى: اخلص قصدك إلى الله، واحفظ عهدك معه، وأفرّد عملك، فى سكّاتك وحركاتك وجميع تصرفاتك، له. ﴿حَنِيفاً﴾ أى: مستقيماً فى دينه، مائلاً عن غيره، معرضاً عن سواه. والزم (فطرة الله التى فطر الناس عليها)، ثم ذكر ما تقدم لنا. ثم قال: ﴿منيبين إليه﴾؛ راجعين إلى الله بالكلية، من غير أن تبقى بقية، متصفين بوفائه، منحرفين بكل وجه عن خلافه، متّقين صغير الإثم وكبيره، وقليله وكثيره، مقيمين الصلاة بأركانها وسننها وآدابها؛ جهراً، متحققين بمراجعة فضلها؛ سراً.

وقال فى قوله تعالى: ﴿من الذين فرّقوا دينهم﴾: أقاموا فى دنياهم فى دار الغفلة، وعناد الجهل والفقر، فركبوا إلى ظنونهم، واستوطنوا مركب أوهامهم، وتعلّوا بسكر غيهم، وظنوا أنهم على شيء، فإذا انكشف ضباب وقتهم، وانقشع سحاب هجرهم، انقلب فرحهم ترحاً، واستيقنوا أنهم كانوا فى ضلالة، ولم يعرجوا إلا فى أوطان الجهالة. هـ.

ثم ذكر حال أهل الغفلة، فقال:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَيَسْتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يُمَاقِدَتِ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قلت: (إذا هم): جواب (إن). و(إذا): الفجائية، تخلف الفاء، لتأخيهما فى التعقيب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾؛ كمرض، وفقر، وشدة، أو غير ذلك، ﴿دَعَا رَبَّهُمْ﴾ منيبين؛ راجعين ﴿إليه﴾ من دعاء غيره. ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾؛ خلاصاً من الشدة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ شركاً جلياً أو خفياً، أى: فاجأ بعضهم الإشراك بربهم الذى عاقبهم، ﴿ليكفروا﴾؛ إما: لام كي، أو: لام الأمر؛ للوعيد والتهديد، أى: أشركوا كي يكفروا ﴿بما آتيناهم﴾ من النعم، التى من جملتها: نجاتهم وخلاصهم من كل شدة، ﴿فتمتعوا﴾ بكفرهم قليلاً؛ أمر تهديد، ﴿فسوف تعلمون﴾ وبال تمتعكم.

﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ ؛ حجة على عبادة أصنامهم ، ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ ، وتكلمه مجاز ، كما نقول : كتابه ناطق بكذا ، وهذا مما نطق به القرآن ، ومعناه : الشهادة ، كأنه قال : يشهد بصحة ما ﴿ كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ ﴾ ، فما : مصدرية ، أى : بصحة كونهم بالله يشركون ، أو : موصولة ، أى : بالأمر الذى بسببه يشركون .

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً ﴾ أى : نعمة ؛ من مطر ، أو : سعة رزق ، أو : صحة ، ﴿ فَرِحُوا بِهَا ﴾ فرح بطر وافتخار وغفلة . ﴿ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيْئَةٌ ﴾ ؛ بلاء ؛ من جذب ، أو ضيق ، أو مرض ، ﴿ بِمَا ﴾ ؛ بسبب ما ﴿ قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من المعاصى ، أى : بشؤمها ، ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ ؛ ييأسون من رحمة الله ، وفرجه بعد عسره . يقال : قَنَطَ يَقْنَطُ ، كفرح يفرح ، وكعلم .

الإشارة : الواجب على المؤمنين أن يتخلقوا بضد ما تخلق به الكافرون ؛ فإذا مسهم ضرر أو شدة ، توجهوا إلى الله ، إما بالتضرع والابتهال ؛ عبودية ، منتظرين ما يفعل الله ، وإما بالصبر ، والرضا ، والسكون تحت مجارى الاقدار . فإذا جاء الفرج والنعمة ؛ شكروا الله وحمدوه ، ونسبوا الفرج إليه وحده ، فإن كان وقع منهم سبب شرعى ؛ لم يلتفتوا إليه قط ؛ إذ لا تأثير له أصلا ، وإنما الفرج عنده لا به ، فلا يقولوا : فلان ولا فلانة ، وإنما الفاعل هو الله الواحد القهار . وهذا الشرك الخفى مما ابتلى به كثير من الناس ، علماء وصالحين ، وخصوصاً منهم من يتعاطى كتب الفلسفة ، كالأطباء وغيرهم ، إذا أصابهم شيء فزعوا ، فإذا فرج عنهم ؛ قالوا : فلان داوانا ، وفلان فرج عنا ، والدواء الفلانى هو شفانى ، فتعالى الله عما يشركون . فليشد العبد يده على التوحيد ، ولا يرى فى الوجود إلا الفرد الصمد ، الفعال لما يريد .

ومن أوصاف أهل الغفلة : أنهم ، إذا أصابتهم نعمة ، فرحوا وافتخروا بها ، وإذا أصابتهم شدة قنطوا وأيسروا من روح الله ، والواجب : ألا يفرح بما هو عارض فان ، ولا ييأس من روح الله عند الشدة ، بل ينتظر من الله الفرج ، فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً . قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. ﴾ (١) الآية . وبالله التوفيق .

ثم برهن على توالى النعم والمحن على العبد ، مادام فى دار الدنيا ، فقال :

(١) الأيتان : ٢٢ - ٢٣ من سورة الحديد .

﴿ أُولَٰمَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٧)
 فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّتَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أى: يضيق على من يشاء، فينبغى للعبد أن يكون راجياً ما عند الله، غير آيس من روح الله؛ إذ دوام حال من قضايا المحال، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾؛ فيستدلون بها على كمال قدرته وحكمته، ولا يقفون مع شيء دونه. قال النسفى: أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه القابض الباسط، فما لهم يقنطون من رحمته؟ وما لهم لا يرجعون إليه، تائبين من معاصيهم، التى عوقبوا بالشدة من أجلها، حتى يعيد عليهم رحمته؟

ولما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم، أتبعه ذكر ما يحب أن يفعل وما يجب أن يترك، يعلى: عند البسط؛ فقال: ﴿فآت ذا القربى﴾؛ أعط قريبك ﴿حقه﴾ من البر والصلة مما بسط عليك. ﴿و﴾ أعط ﴿المسكين وابن السبيل﴾ حقهما؛ من الصدقة الواجبة أو التطوعية، حسبما تقتضيه مكارم الأخلاق. والخطاب لمن بسط عليه، أو: للنبي - عليه الصلاة والسلام، وغيره تبع. ﴿ذلك﴾ أى: إيتاء حقوقهم الواجبة، والتطوعية، ﴿خير للذين يريدون وجه الله﴾ أى: ذاته المقدسة، أى: يقصدون، بمعروفهم، إياه، خالصاً. ﴿وأولئك هم المفلحون﴾؛ الفائزون بكل خير، قد حصلوا، بما بسط لهم، النعيم المقيم.

﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس﴾ أى: وما أعطيتم من مال؛ لتأخذوا من أموال الناس أكثر منه، كَيْفِيَّةً أَوْ كَمِيَّةً، ﴿فلا يربو عند الله﴾؛ ولا يبارك فيه، بل يسحته ويمحقه، ولو بعد حين. وهذه صورة الربا المحرمة؛ إجماعاً، وقيل: وما أعطيتم من هدية؛ لتأخذوا أكثر منها، فلا يربو عند الله، لأنكم لم تقصدوا به وجه الله. وهذه؛ هدية الثواب، جائزة، إلا فى حقه - عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْبِرُ﴾ (١). وقرأ ابن كثير: «أتيتم»؛ بالقصر، بمعنى ما جئتم به من إعطاء ربا. وقرأ نافع (٢): «لتربوا» بالخطاب، أى: لتصيروا [نوى] (٢) ربا، فتزيدوا فى أموالكم.

(٢) فى الأصول [ذا].

(١) الآية ٦ من سورة المدثر.

(٢) وكذا قرأ أبو جعفر ويعقوب. وقرأ الباقر بياء التثنية وفتحها. انظر الإنشاف (٢/٣٥٧).

﴿وما آتيتم من زكاة﴾؛ صدقة، ﴿تريدون وجه الله﴾؛ تبتغون به وجهه؛ خالصاً، لا تطلبون به زيادة، ولا مكافأة، ولا سمعة، ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ أى: ذروا الأضعاف من الحسنات، من سبعمائة فأكثر. ونظير المضعف: المقوى، والموسر، لذى القوة واليسار. والالتفات إلى الخطاب فى (أولئك...) الخ فى غاية الحسن؛ لما فيه من التعظيم، كأنه خاطب الملائكة وخوادم الخلق؛ تعريفاً بحالهم، وتلويهاً بقدرهم، ولأنه يفيد التعميم، كأنه قيل: من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين المقبول عليهم. ولا بد من ضمير يعود إلى «ما» الموصولة، أى: المضعفون به. أو: فمؤتوه أولئك هم المضعفون. وقال الزجاج: أى: فأهلها هم المضعفون، أى: يضاعف لهم الثواب، من عشر إلى سبعمائة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: البسط والقبض يتعاقبان على العبد تعاقب الليل والنهار. فالواجب على العبد: الرجوع إلى الله فى السراء والضراء، فالبسط يشهد فيه المنة من الله، ومقتضى الحق منك الحمد والشكر. والقبض يشهد من الله؛ امتحاناً وتصفية، ومقتضى الحق منك الصبر والرضا، وانتظار الفرج من الله؛ فإن انتظار الفرج، مع الصبر، عبادة. قال القشيري: الإشارة إلى ألا يعلق العبد قلبه إلا بالله؛ لأن ما يسوءهم ليس زواله إلا من الله، وما يسرهم ليس وجوده إلا من الله. فالبسط، الذى يسرهم ويؤنسهم منه، وجوده، والقبض، الذى يسوءهم ويوحشهم منه، حصوله. فالواجب: لزوم [عهوده بالإسرار] (١)، وقطع الأفكار عن الأغيار. هـ.

وقال فى قوله: ﴿فآت ذا القربى حقه﴾: القرابة على قسمين؛ قرابة النسب وقرابة الدين، وهى أمس، وبالمواساة أحق. وإذا كان الرجل مشغلاً بالعبادة، غير متفرغ لطلب المعيشة، فالذى له إيمان بحاله، وإشراف على وقته، يجب عليه أن يقوم بشأنه، بقدر ما يمكنه، مما يكون له عون على طاعته، مما يشوش قلبه، من حديث عياله، فإن كان اشتغال الرجل بشيء من مراعاة القلب فحقه أكد، وتفقدته أوجب، «ذلك خير للذين يريدون وجه الله»، والمريد هو الذى يؤثر حق الله على حظ نفسه. فإيثار الإخوان، لمن يريد وجه الله، أتم من مراعاة حال نفسه، فهمه بالإحسان لذوى القربى والمساكين يتقدم على نظره لنفسه وعيالته، وما يهمه من نصيبه. هـ.

وقال فى قوله: ﴿يريدون وجه الله﴾: لا تستخدم الفقير بما تريد به من رفق، بل أفضل الصدقة على ذى رحم كاشح، أى: قاطع؛ حتى يكون إعطاؤه لله مجرداً عن كل نصيب لك. فهؤلاء هم الذين يتضاعف أجرهم بمجاهدتهم [لنفسهم] (٢)، حيث يخالفونها، وفوزهم بالعرض من قبل الله. ثم الزكاة هى التطهير، فتطهير المال

(١) فى القشيري [عقوة الأسرار].

(٢) فى الأصول [لنفسهم].

معلوم ببيان الشريعة، وزكاة البدن وزكاة القلب، وزكاة السر، كل ذلك يجب القيام به. هـ. قلت: فزكاة البدن: إتعا به فى القيام بوظائف العبودية الظاهرة، وزكاة القلب: تطهيره من الرذائل وتحليته بالفضائل، وزكاة السر: صيانته من الميل إلى شيء من السوء. والله تعالى أعلم.

ثم برهن على وحدانيته، فقال:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ كُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

قلت: (الله): مبتدأ، (الذي خلقكم): خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الله الذي خلقكم﴾؛ أظهركم ﴿ثم رزقكم﴾؛ ما تقوم به أبدانكم، ﴿ثم يميتكم﴾؛ عند انقضاء آجالكم، ﴿ثم يحييكم﴾؛ عند بعثكم؛ ليجازيكم على فعلكم، أى: هو المختص بالخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء. ﴿هل من شركائكم﴾؛ أ- سلامكم ﴿من يفعل من ذلكم من شيء﴾؛ أى: من الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، ﴿من شيء﴾؛ أى: شيئاً من تلك الأفعال؟ فلم يجيبوا، عجزاً، فقال: استبعاداً وتذريهاً: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾. ومن: الأولى، والثانية، والثالثة: زوائد؛ لتأكيد عجز شركائهم، وتجهيل عبدهم.

الإشارة: ذكر الحق تعالى أربعة أشياء متناسقة أنه هو فاعلها، فأقر الناس بثلاثة، وشكوا فى الرزق، وقالوا: لا يكون إلا بالسبب، والسبب إنما هو ستر لسر الربوبية. فإذا تحقق وجوده فى حق العامة ارتفع فى حق الخاصة، فيرزقهم بلا سبب، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (١).

قال القشيري: حين قذفك فى بطن أمك قد كنت غنياً عن الأكل والشراب بقدرته، أو مفتقراً إليه، فأجرى رزقه عليك مع الطمئ، على ما قالوا، وإذا أخرجك من بطن أمك رزقك على الوجه المعهود فى الوقت المعلوم، فيسر لك أسباب الشرب والأكل من لبن الأم، ثم من فنون الطعام، ثم أرزاق القلوب والسرائر؛ من الإيمان والعرفان، وأرزاق التوفيق؛ من الطاعات والعبادات، وأرزاق اللسان؛ من الأذكار، وغير ذلك مما جرى ذكره. ثم

(١) الآيتان: ٢ - ٣ من سورة الطلاق.

يُميتكم» بسقوط شهواتكم، ويُميتكم عن شواهدكم، «ثم يحييكم» بحياة قلوبكم، ثم بأن يحييكم بربكم. ويقال: من الأرزاق ما هو وجود الأرفاق، ومنها ما هو شهود الرزاق. ويقال: لا مُكَنَّةَ لك فى تبديل خَلْقِكَ، فكذلك لا قدرة لك على تغيير رزقك. فالمرسوع عليه: رزقه بفضل ربه، لا [بمناقب] (١) نفسه. والمقتر عليه رزقه بحكم ربه، لا بمعاييب نفسه. هـ وبعضه بالمعنى.

وقد يضيق رزقه على العباد؛ لما يظهر فيهم من الفساد، كما قال تعالى:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١)
﴿مُشْرِكِينَ﴾ (٤٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر﴾، أما الفساد في البر؛ فكالقحط، وقلة الأمطار، وعدم الربيع في الزراعات والرياح في التجارات، ووقوع الموتان في الناس والدواب، ومحق البركات من كل شيء. وأما في البحر؛ فبكثرة الغرق، وانقطاع صيده. ﴿بما﴾؛ وذلك بسبب ما ﴿كسبت أيدي الناس﴾ من الكفر والمعاصي، ولما استقاموا على الطاعة لدفع الله عنهم هذه الآفات. أظهر فيهم ذلك ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ أى: ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا، قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة، عن «قُتِلَ وَيُعْقَبُ»: بنون التكلم. ﴿لعلهم يرجعون﴾ عما هم عليه من المعاصي.

﴿قُلْ﴾ لكفار قومك: ﴿سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾؛ لتعايدوا ما فعلنا بهم بسبب كفرهم ومعاصيهم؛ لأنه ﴿كان أكثرهم مشركين﴾؛ فدمرناهم، وخرينا ديارهم، فانظروا: كيف كان عاقبتهم، لعلكم ترجعون عن غيكم.

الإشارة: قال القشيري: الإشارة في البر إلى النفس، وفي البحر إلى القلب، وفساد البر بأكُلِّ الحرام وارتكاب المحظورات، وفساد البحر من الغفلة والأوصاف الذميمة، مثل سوء العزم، والحسد والحقد، وإرادة الفسوق، وغير ذلك. وعقد الإصرار على المخالفات من أعظم فساد القلب، كما أن العزم على الخيرات، قبل فعلها، من أعظم الخيرات. ومن جملة الفساد: التأويلات بغير حق، والانحطاط إلى الرخص من غير قيام بحق، والإغراق في الدعاوى من غير استحياء. هـ.

(١) فى الأصول [بمناقب] والمثبت من القشيري

قال للورتجبي: إن الله غلب الإنسانية على الكون؛ طاعةً ومعصيةً، فإذا رزق الإنسان الطاعة صلح الأكران ببركتها، وإذا رزق المعصية فسد الحدثان بشؤم معصيته؛ لأن طاعته ومعصيته من توائير^(١) لطفه وقهره، علًا بنعت الاستيلاء على الوجود، فإذا فسادها يؤثر في برّ النفوس وبحار القلوب، ففساد برّ النفوس: فترتها عن العبودية، وفساد بحر القلب: احتجابه عن مشاهدة أنوار الربوبية. هـ.

قلت: وقد يقال: ظهر الفساد في بر الشريعة؛ بذهاب حملتها، ومن يحفظها، ويذب عنها، وفي بحر الحقيقة؛ بقلة صدق من يطلبها، وغربة أهلها، واختفائها حتى اندرست أعلامها، وخفي آثارها، والبركة لا تنقطع. وذلك بسبب ما كسبت أيدي الناس؛ من إثارة الدنيا على الله؛ ليزيقهم وبال القطيعة؛ لعلمهم يرجعون إليه، إما بملاطفة الإحسان، أو بسلاسل الامتحان.

قال في لطائف المنن: سأل بعض العارفين عن أولياء العدد، هل ينقصون؟ فقال: لو نقص منهم واحد؛ ما أرسلت السماء قطرها، ولا أنبتت الأرض نباتها، وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم، ولا بنقص أمدادهم، ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله وقوع اختفائهم، مع وجود بقائهم. فإذا كان أهل الزمان معرضين عن الله، مؤثرين لما سوى الله؛ لا تنجح فيهم الموعظة، ولا تملأهم التذكرة، لم يكونوا أهلاً لظهور أولياء الله تعالى فيهم، ولذلك قالوا: أولياء الله عرائس، ولا يرى العرائس المجرمون. هـ.

قال القشيري: (قل سيرا)؛ بالاعتبار، واطلبوا الحق بنعت الافتكار، وانظروا: كيف كان حال من تقدمكم من الأشكال والأمثال؟ وقيسوا عليها حكمكم في جميع الأحوال، (كان أكثرهم مشركين): كان أكثرهم عدداً، ولكن أقل في التحقيق؛ وزناً وقدرًا. هـ.

ثم أمر بالتأهب ليوم المعاد، وبه يدفع عن الخلق الفساد، فقال:

﴿ فَأَقْرِبْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَذِي صَدْعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(١) هكنا في الأصول، وكنا في الورتجبي. ولطفا: تأثير، جمع تأثير.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أى: قَوْمَهُ وَوَجْهَهُ ﴿لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾؛ البليغ فى الاستقامة، الذى لا يتأتى فيه عوج ولا خلل. وفيه، من البديع، جناس الاشتقاق. والخطاب للنبي ﷺ، وأمرته تبع، أو: لكل سامع. ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾؛ وهو البعث، ﴿لَمْ يَمُوتْ لَهُ﴾ أى: لا يقدر أحد على رده، و﴿مَنْ اللَّهُ﴾: متعلق بياأتى، أى: من قبل أن يأتى من الله يوم لا يردّه أحد، أو بمرده؛ لأنه مصدر، أى: لا مرد له من جهة الله، بعد أن يجىء؛ لتعلق الإرادة به حينئذ. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُ غُورٌ﴾؛ يتصدعون، فأدغم التاء فى الصاد. وفى الصحاح: الصدع: الشق، يقال صدعته فانصدع، أى: انشق. وتصدع القوم: تفرقوا. هـ. أى: يتفرقون؛ فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

ثم أشار إلى غناه عنهم، فقال: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾؛ وبال كفرة، لا يحمله عنه غيره. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ﴾ أى: يسرون لأنفسهم فى قبورهم، أو: فى الجنة ما يسرى لنفسه الذى يمهّد فراشه ويوطئه؛ لتلا يصيبه فى مضجعه ما ينقص عليه مضجعه. وتقديم الظرف فى الموضعين؛ للاختصاص، أى: فلا يجاوز عمل أحد لغيره.

ثم علل ما أمر به من التأهب، فقال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أظهر فى موضع الإضمار، أى: ليجزيهم؛ ليدل على أنه لا ينال هذا الجزاء الجميل إلا المؤمن؛ لصلاح عمله. أثابه ذلك ﴿مَنْ فَضَّلَهُ﴾ أى: بمحض تفضله؛ إذ لا يجب عليه شيء، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، بل يفضيهم ويمقتهم، وفيه إيماء إلى أنه يحب المؤمنين، وهو كذلك، ولا سيما المتوجهين.

الإشارة: أمر الحق تعالى بالتوجه إليه، والتمسك بالطريق التى توصل إليه، قبل قيام الساعة؛ لأن هذه الدار هى مزرعة لتلك الدار، فمن سار إليه هنا وعرفه؛ عرفه فى الآخرة، ومن قعد هنا مع هواه، حتى مات جاهلاً به؛ بعث كذلك، كما هو معلوم. ولا يمكن التوجه والظفر بالطريق الموصلة إليه تعالى إلا بشيخ كامل، سلك الطريق وعرفها. ومن رام الوصول بنفسه، أو بعلمه، أو بعقله؛ انقطع لامحالة. قال القشيري: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾: أخلص قصدك، وصدق عزمك، بالمرافقة للدين القيم، بالاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع. ومن لم يتأدب [بمن] (١) هو إمام وقته، ولم يتلقف الأذكار ممن هو لسان وقته؛ كان خسارته أتم من ربحه، ونقصانه أعم من نفعه. هـ.

(١) فى الأصول الخطية [ممن].

ثم ذكر دلائل القدرة على البعث وغيره، فقال:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

قلت: (وليذيقكم): عطف على (مبشرات)؛ على المعنى، كأنه قيل: لتبشركم وليذيقكم، أو: على محذوف، أى: ليغنيكم وليذيقكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على كمال قدرته: ﴿ أن يرسل الرياح ﴾، وهى الجنوب، والصبأ، والشمال، والدبور، فالثلاث: رياح الرحمة، والدبور: ريح العذاب، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «اللهم اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً» (١). وقال: «نصرت بالصبأ، وأهلك عاد بالدبور» (٢)، وهى الريح العقيم. وقرأ ابن كثير والأخوان: بالإفراد، على إرادة الجنس.

ثم ذكر فوائد إرسالها بقوله: ﴿ مبشرات ﴾ أى: أرسلها بالبشارة بالغيب ﴿ وليذيقكم من رحمته ﴾؛ ولإذابة الرحمة، وهى نزول المطر، وحصول الخصب الذى يتبعه، والروح الذى مع هبوب الرياح، وزكاء الأرض، أى: ريوها وزيادتها بالنبات، وغير ذلك من منافع الرياح والأمطار. قال الحسن: لو أمسك الله عن أهل الأرض الريح ساعة لماتوا غماً.

﴿ ولتجرى الفلك ﴾ فى البحر عند هبوبها ﴿ بأمره ﴾؛ بتدبيره، أو بتكويته، لقوله ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً... ﴾ (٣) الآية. قيل: إنما زاد بأمره؛ لأنها قد تهب غير مؤاتية، فتغرق، وهى عند أمره أيضاً، فهى على حسب أمره، ولأن الإسناد وقع للفلك؛ مجازاً، فأخبر أنه بأمره، ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾، يريد به تجارة البحر، ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ هذه النعم؛ فيزيدكم من فضله.

الإشارة: ومن آيات فتحه على أوليائه: أن يرسل رياح الهداية أولاً، ثم رياح التأييد، ثم رياح الواردات، تحمل هدايا التعرفات، مبشرات بالفتح الكبير، والتمكين فى شهود العلى الكبير، وليذيقكم من رحمته، وهى حلاوة معرفته، ولتجرى سفن الأفكار فى ميادين بحار توحيده، ولتبتغوا من فضله؛ هو الترقى فى الكشوفات والعلوم والأسرار، أبداً سرمداً، ولعلكم تشكرون؛ بالقيام برسوم الشريعة وآداب العبودية.

(١) أخرجه الشافعى فى مسنده (ح ٥٠٢)، وأبو يعلى فى مسنده (٣٤١/٤)، والطبرانى فى الكبير (٢١٤-٢١٣/١١ ح ١١٥٣٢)، وابن عدى فى الكامل (٧٦٣/٢) من حديث ابن عباس. وانظر: مجمع الزوائد (١٣٥/١٠ - ١٣٦).

(٢) أخرجه البخارى فى (الاستسقاء، باب: قول النبى ﷺ «نصرت بالصبأ، ح ١٠٣٥») ومسلم فى (الاستسقاء، باب فى ريح الصبا والدبور، ٦١٧/٢، ح ٩٠٠) من حديث ابن عباس رضى الله عنه. والصبأ: ريح، ومهبها المستوى أن تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار. والدبور: الريح التى تقابل الصبا، وقال النوى: هى الريح الغربية. (٣) الآية ٨٢ من سورة يس.

قال القشيري: يرسل رياح الرجاء على قلوب العباد، فتكنس قلوبهم من غبار الحسد وغشاء النفس، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق، فتحملهم إلى بساط الجهد، وتكرمهم بقوى النشاط. ويرسل رياح البسط على أرواح الأولياء فتطهرها من وحشة القبض، وتشر فيه لذات الوصال، ويرسل رياح التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء، فتطهرها من آثار الأغيار، وتبشرها بدوام الوصال. فذلك ارتياح به، ولكن بعد اجتراح عنك. هـ. أى: بعد نهاب عنك وزوال. والله تعالى أعلم.

ثم سلى نبيه بمن قبله، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قلت: (حقاً): خبر كان، (ونصر): اسمها. أو: (حقاً): خبر كان، واسمها: ضمير الانتقام، فيوقف، عليه، (وعلىنا نصر): مبتدأ وخبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ؛ بالمعجزات البينات الواضحات، فكذبوهم؛ ﴿ فَاَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ بالتدمير، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: وكان نصر المؤمنين، بإنجائهم من العذاب، حقاً واجباً علينا بإنجاز وعدنا؛ إحساناً. أو: وكان الانتقام من المجرمين حقاً لاشك فيه، ثم علينا، من جهة الإحسان، نصر المؤمنين. قال البيضاوى: فيه إشعار بأن الانتقام لهم - أى: من عدوهم - إظهار لكرامتهم، حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم. وعنه رحمته: «مَا مِنْ أَمْرٍ مَسْلُومٍ يَرُدُّ عَنْ عَرَضٍ أَخِيهِ، إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ». ثم تلا الآية (١). أى: «وكان حقاً علينا.. الخ».

الإشارة: هكذا جرت سنة الله تعالى، مع خواصه، أن ينتقم ممن آذاهم، ولو بعد حين. وقد يكون الانتقام باطلاً؛ بنقص الإيمان وقساوة القلب، وهو أقبح. قال القشيري: فانتقمنا من الذين أجرموا، وأخذناهم من حيث لم يحتسبوا، وشوشتنا عليهم ما أملوا، ونقصنا عليهم ما استطابوا وتنعّموا. ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، وطلّهم

(١) أخرجه البغوى فى تفسيره (٢٧٦/٦) وأخرجه بنحوه أحمد فى المسند (٤٥٠/٦)، والترمذى فى (البر والصلة، باب ما جاء فى الذب عن عرض المسلم، ٢٨٨ / ٤ ح ١٩٣١)، وحسنه من حديث أبى الدرداء رضي الله عنه. وأخرجه الطبرانى فى الكبير (٢٤ / ١٧٥ - ١٧٦، ح ٤٤٢) من حديث أسماء بنت يزيد الأنصارية. وانظر الفتح الصماوى (٩٠٥/٢ - ٩٠٨).

أَعْدَاؤُهُمْ بِأَعْقَابِهِمْ، فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى رَقَيْنَاهُمْ فوق رقابهم، وخرَّبْنَا أوطانهم، وهدَمْنَا بديانهم، وأخمدْنَا نيرانهم، وعَطَّلْنَا عليهم ديارهم، ومحَوْنَا، بقهر التدمير، آثارهم، فظَلَّتْ شمسهم كاسفة، ومكيدة قهرنا لهم، بأجمعهم، خاسفة. هـ.

ثم برهن على ذلك، فقال:

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ۖ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ ۖ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَاَنْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ الأربع. وقرأ المكي: بالإنفراد. ﴿فَتُثِيرُ﴾ أى: تزعج ﴿سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾ أى: يجعله منبسطاً، متصلاً بعضه ببعض فى سَمَتِ السماء، كقوله: ﴿وَقَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (١)، أى: جهته. فيسطها فى الجو ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾؛ سائراً أو واقفاً، مطبقاً وغير مطبق، من ناحية الشمال، أو الجنوب، أو للدبور، أو الصبأ، ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾ أى: قطعاً متفرقة. والحاصل: أنه تارة يبسطه متصلاً مطبقاً، وتارة يجعله قطعاً متفرقة، على مشيئته وحكمته. ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾؛ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾؛ وسطه.

﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾؛ بالودق ﴿مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، يريد إصابة بلادهم وأراضيتهم، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ يفرحون بالخصب، ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ المطر ﴿مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾؛ آيسين، وكرر من قبله؛ للتوكيد، وفائدته: الإعلام بسرعة تقلب قلوب الناس من القنوط إلى الاستبشار، أو: على أن عهدهم بالمطر قد تطاول؛ فاستحكم بأسهم، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك.

﴿فَاَنْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أى: المطر ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بالنبات وأنواع الثمار ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ يبسها، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أى: القادر عليه ﴿لَمُحْيِ الْمَوْتَى﴾؛ فكما أحيا الأرض بعد يبسها، يحيى الأجساد بعد رميمها، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذا من جملة مقدراته تعالى.

(١) من الآية ٢٤ من سورة إبراهيم.

الإشارة: الله الذى يرسل رياح الواردات الإلهية، فتززع سحب الآثار عن عين الذات العلية، فتبقى شمس العرفان، ليس دونها سحب، فيبسطه فى سماء القلوب كيف يشاء، فيقع الاحتجاب لبعضها، ويصرفه عن يشاء فيقع التجلى والظهور، ويجعله كسفاً لأهل الاستشراق، فتارة ينجلي عنهم سحب الآثار، فيشاهدون الأنوار، وتارة تغطيهم سحب الآثار، فيشاهدون الأغيار، فترى مطرَ خمرة الفناء تخرج من خلاله، فإذا أصاب به من يشاء من عباده، إذا هم يستبشرون بأنوار معرفته وأسرار ذاته. وقد كانوا قبل ذلك مبلسين، آيسين؛ حين كانت نفوسهم غالبة عليهم. فانظر كيف أحيا أرض قلوبهم بعد موتها بالجهل والغفلة. وهذا مثال من كان منهمكاً ثم سقط على شيخ ذى خمرة أزلية، فسقاه حتى حيي بمعرفة الله.

قال القشيري: الله الذى يرسل رياح عطفه وجوده، مبشرات بجوده ووصله، ثم يمطر جود غيظه على أسرارهم، ويطوى بساط الحشمة عن مناجاة قربه، ويضرب قباب الهيبة بمشاهد كشفه، وينشر عليهم أزهار أنسه، ثم يتجلى لهم بحقائق قدسه، ويسقيهم بيده شراب حبه. وبعد مامحاهم عن أوصافهم؛ أصحابهم، لا بهم، ولكن بنفسه. والعبارات عن ذلك خرس، والإشارات، دونه، طمس.

وقال فى قوله تعالى: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله...﴾ الآية: يحيى الأرض بأزهارها وأنوارها عند مجيء أمطارها، ليخرج زرعها وثمارها، ويحيى النفوس بعد تقريتها، ويرققها للخيرات بعد فترتها، فتعمر أوطان الوفاق بصدق إقدامهم، وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم، وتحيى القلوب، بعد غفلتها، بأنواع المحاضرات، فتعود إلى استدامة الذكر بحسن المراعاة، ويهتدى بأنوار أهلها أهل العصر من أهل الإرادات، ويحيى الأرواح بعد حجبتها بأنوار المشاهدات، فتطلع شمسها من برج السعادة، ويتصل، بمشام أسرار الكافة نسيم ما يفيض عليهم من الزيادات، فلا يبقى صاحب نفس إلا حظي منه بنصيب، ويحيى الأسرار بأنوار المواجهات. وما كان لها إلا وقفة فى بعض الحالات، فتنتفى، بالكلية، آثار الغيرية، ولا يبقى فى الديار ديار، ولا من سكانها آثار، وسطوات الحقائق لا تثبت لها ذرة من صفات الخلائق؛ هنالك الولاية لله الحق.. انتهى المراد منه، مع زيادة بيان.

ثم ذكر الجوائح، وما ينشأ من أهل الغفلة عند ظهورها، فقال:

﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قلت: اجتمع القسم والشرط، فذكر جواب القسم وأغنى عن جواب الشرط. والضمير فى (أراه): يعود على النبات المفهوم مما تقدم من إحياء الأرض، أو: على السحاب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَاللَّهُ لَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ عاصفة على ما نبت فى الأرض من الزروع وسائر الأشجار، الذى هو أثر رحمة الله، ﴿فَرَأَوْهُ﴾ أى: ما نبت فى الأرض، ﴿مُصْفَرًّا﴾ يابساً ﴿لَظَلُّوا﴾ أى: ليظلمون ﴿من بعده﴾ أى: من بعد اصفراره ﴿يكفرون﴾، ويقولون: ما رأينا خيراً قط، فينسون النعم السابقة باللقم اللاحقة. وهذه صفة أهل الغفلة، وأما أهل اليقظة، فيشكرون فى أوقات النعم، ويصبرون ويرضون فى أوقات النقم، وينتظرون الفرح بعد الشدة، واليسر بعد العسر، غير [قَانِطِينَ] (١) ولا ضَجِرِينَ. أو: ولئن أرسلنا ريحاً؛ لتعذيبهم، فرأوا سحابة صفراء، لأنَّ اصفراره علامة على أنه لامطر فيه، لظلموا، أى: للجوا من بعد ذلك على كفرهم وطفيتانهم؛ لانهماكم.

قال البيضاوى: وهذه الآية ناعية على الكفار، لقلة تدبثهم، وعدم تدبرهم، وسرعة تزلزلهم؛ لعدم تفكرهم، وسوء رأيهم، فإن النظر السوى يقتضى أن يتوكلوا على الله، ويلتجئوا إليه؛ بالاستغفار، إذا احتبس القطر عنهم، ولا يئأسوا من رحمته، وأن يبادروا إلى الشكر واستدامة الطاعة، إذا أصابهم برحمته، ولم يبطروا بالاستبشار، وأن يصبروا على بلائه؛ إذا ضرب زروعهم بالاصفرار، ولم يكفروا بنعمه. هـ.

قال النسفى: ذمهم الله تعالى بأنهم، إذا حبس عنهم المطر، قنطوا من رحمته، وضربوا أذقانهم على صدورهم، مبلسين، فإذا أصابهم برحمته، ورزقهم المطر، استبشروا، فإذا أرسل الله ريحاً فضرب زروعهم بالصفار ضجّوا، وكفروا بنعمه، وهم فى جميع هذه الأحوال على صفة مذمومة، وكان عليهم أن يتوكلوا على الله، فقتلوا، وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها، ففرحوا ويطروا، وأن يصبروا على بلائه، فكفروا. هـ.

وهذه حال من مات قلبه، قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ أى: موتى القلوب، وهؤلاء فى حكم الموتى؛ فلا تطمع أن يقبلوا منك، ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ﴾ أى: لا تقدر أن تُسمع من كان كالأصم دعاءك إلى الله، أو: لا يقدر أن يسمعوا منك، ﴿إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ﴾، فإن قلت: الأصم لا يسمع؛ مقبلاً أو مدبراً، فما فائدة التخصيص؟ قلت: هو إذا كان مقبلاً يفهم بالرمز والإشارة، فإذا ولى فلا يفهم، ولا يسمع، فيتعذر إسماعه بالكلية. قاله النسفى.

(١) فى الأصول المخطوطة [قانتين] والمناسب ما أثبتته.

﴿ وما أنت بهادٍ العمى ﴾ أى: عمى القلوب. وقرأ حمزة: «وما أنت تهدي العمى»، ﴿ عن ضلالتهم ﴾ أى: لا تقدر أن تهدي الأعمى عن طريقه إذا ضلَّ عنه، بالإشارة إليه، ﴿ إن ﴾ ما ﴿ تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ منقادون لأوامر الله ونواهيه.

الإشارة: من أصول طريقة التصوف: الرجوع إلى الله فى السراء والضراء، فالرجوع فى السراء: بالحمد والشكر، وفى الضراء: بالرضا والصبر. قال القشيري: ﴿ فإنك لا تسمع الموتى .. ﴾ الخ: من فقد الحياة الأصلية؛ لم يعش بالرقى والتمائم، وإذا كان فى السريرة طرَّش عن سماء الحقائق، فسمع الظواهر لا يفيد إلا تأكيد الحجة، وكما لم يسمع الصم الدعاء، فكذلك لا يمكنه أن يهدي العمى عن ضلالتهم. هـ.

ولما ذكر شيئاً من دلائل الأكران، ذكر شيئاً من دلائل الأنفس، فقال:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾^(٥٤)

قلت: «الله»: مبتدأ، والموصول: خبره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الله ﴾ الذي يستحق أن يعبد وحده هو ﴿ الذي خلقكم من ضعف ﴾ أى: ابتدأكم ضعفاء، وجعل الضعف أساس أمركم، أو: خلقكم من أصل ضعيف، وهو النطفة؛ كقوله: ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ (١)، ﴿ ثم جعل من بعد ضعف قوة ﴾، يعنى: حال الشباب إلى بلوغ الأشد، ﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ﴾، يعنى: حال الشيخوخة والهرم.

وقد ورد فى الشيب ما يسلى عن روعة هجومه، فمن ذلك قوله ﷺ: «من شاب شيبة فى الإسلام؛ كانت له نوراً يوم القيامة» (٢)، ولما رأى إبراهيم عليه السلام الشيب فى لحيته قال: يارب، ما هذا؟ قال: هذا وقار. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «ياداد، إني لأنظر الشيخ الكبير، مساء وصباحاً، فأقول له: عبدى، كبر منك، ورق جلدك، ووهن عظمك، وحن قدمك على، فاستحي منى، فإنى أستحيى أن أعذب شيبةً بالنار». ومن المستملحات،

(١) الآية ٢٠ من سورة المرسلات.

(٢) أخرجه الترمذى فى (فضائل الجهاد، باب ما جاء فى فضل من شاب شيبة فى سبيل الله، ح ١٦٣٥) وأخرجه، مطولاً، النسائى فى (الجهاد، باب من رمى بسهم فى سبيل الله عز وجل ٢٦/٦) من حديث عمرو بن عبسة.

مما يسلى عن روع الشيب، ما أنشد القائل:

لَا يَرُوعُكَ الشَّيْبُ يَا بِنْتَ عَبْدِ اللَّهِ، فَالشَّيْبُ حُلَّةٌ وَوَقَارُ
إِنَّمَا تَحَسُنُ الرِّيَاضُ إِذَا مَا ضَحِكْتُ فِي خِلَالِهَا الْأَزْهَارُ

ثم قال تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ مِنْ ضَعْفٍ، وَقُوَّةٍ، وَشَبَابٍ، وَشَيْبَةٍ، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بِأَحْوَالِهِمْ، ﴿الْقَدِيرُ﴾ عَلَى تَدْبِيرِهِمْ؛ فَيَصِيرُهُمْ إِلَى ذَلِكَ. والترديد فى الأحوال أبين دليل على وجود الصانع العليم القدير. وفى «الضعف»: لغتان؛ الفتح والضم (١). وهو أقوى سنداً فى القراءة، كما روى ابن عمر. قال: قرأتها على رسول الله ﷺ: «مِنْ ضَعْفٍ»، فأقرأنى: «مِنْ ضَعْفٍ» (٢).

الإشارة: إذا كُفَّ الحجاب على الروح، وكثرت همومها، أسرع لها الضعف والهرم، وإذا رُقَّ حجابها، وقلت همومها، قويت ونشطت بعد همومها، ولا شك أن توالى الهموم والأحزان يهرم، وتوالى البسط والفرح ينشط، ويرد الشباب فى غير إبانِهِ، والعارفون: فرحهم بالله دائم، ويسطوهم لازم؛ إذ لا تنزل بساحتهم الهموم والأحزان، وإنما تنزل بمن فقد الشهود والعيان؛ كما قال فى الحكم.

قال القشيري (٣): «خلقكم من ضعف»، أى: ضعف عن حال الخاصة، ثم جعل من بعد ضعف قوة؛ بالوصول إلى شهود الوجود القديم، ثم من بعد قوة ضعفاً؛ بالرجوع إلى المسكنة، أى: فى حال البقاء، قال ﷺ: «اللهم أحينى مسكناً، وأمتلى مسكناً، واحشرنى فى زمرة المساكين» (٤) هـ (٥).

ثم ذكر أهوال البعث، فقال:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾
﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ

(١) قرأ حفص: بالفتح، عن عاصم. وقرأ الباقرن: بضمها، وهو الذى اختاره حفص، لحديث ابن عمر. وعن حفص أنه قال: (ما خالفت عاصماً إلا فى هذا الحرف). وقد صح عنه الفتح والضم. وقال فى النشر: وبالوجهين قرأت له، وبهما أخذ. انظر الإتحاف (٣٥٩/٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥٨/٢ - ٥٩)، وأبو داود فى كتاب (الحروف والقراءات، باب ١، ٢٨٣/٤، ح ٣٩٧٨)، والترمذى فى (القراءات - سورة الروم، ١٧٤/٥، ح ٢٩٣٦) وحسنه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) النقل بالمعنى.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) المسكين هو المتواضع لله باطناً وظاهراً، والخاضع له، الساكن لأمره، المطمئن بربه، وهو المخبت الخاشع لله، وهذا حال قوة الإيمان، فاللهم اجعلنا مساكين لك، أعزة على عدوك.

الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ
وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

قلت: «البثوا»: جواب القسم؛ على المعنى، وإلا لقل: ما لبثنا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويوم تقوم الساعة﴾، أى: القيامة. وسميت بذلك؛ لأنها تقوم آخر ساعة من ساعات الدنيا، ولأنها تقوم فى ساعة واحدة، وصارت علماً لها بالغلبة، كالنجم للثريا، فإذا قامت ﴿يُقسم المجرمون﴾؛ يحلف الكافرون: ﴿ما لبثوا﴾ فى قبورهم، أو: فى الدنيا، ﴿غير ساعة﴾، استقلوا مدة لبثهم فى القبور، أو: الدنيا، لشدة هول المطلع، أو: لطول مقامهم فى أهوالها، أو: ينسون ما لبثوا، أو: يكذبون. ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾، أى: مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون فى الدنيا عن الصدق والتصديق، أو: عن الحق حتى يروا الأشياء على غير ما هى عليه، ويقولون: ما هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان﴾، أى: حصلوا العلم بالله والإيمان بالبعث، وهم الملائكة والأنبياء، والمؤمنون: ﴿لقد لبثتم فى كتاب الله﴾؛ فى علم الله المعبىء فى اللوح، أو: فى حكم الله وقضائه، أو: القرآن، وهو قوله تعالى: «ومن ورائهم برزخ.. إلخ»، أى: لقد مكثتم مدة البرزخ ﴿إلى يوم البعث﴾، ردوا عليهم ما قالوه، وحلفهم عليه، وأطلعهم على حقيقة الأمر، ثم يخبرهم على إنكار البعث بقولهم: ﴿فهذا يوم البعث﴾ الذى كنتم تنكرونه، ﴿ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ فى الدنيا أنه حق؛ لتفريطكم فى طلب الحق، واتباعه. والفاء جواب شرط (١) مقدر، ينساق إليه الكلام، أى: إن كنتم متكربين للبعث؛ فهذا يومه.

﴿فيؤمئذ لاتنفع (٢) الذين ظلموا﴾ كفروا، ﴿معذرتهم﴾: اعتذارهم، والمعذرة: تأنيثها مجازى، فيجوز التذكير والتأنيث، ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أى: لا يقال لهم: أرضوا ربكم بالتوبة، ولا يدعون إلى استرضائه، يقال: استعتبني فلان فأعتبته، أى: استرضاني فأرضيته.

الإشارة: كل من قصر فى هذه الدار، وصرف أيام عمره فى البطالة، يقصر عليه الزمان عند موته، ويرجع عنده كأنه يوم واحد، فحينئذ يستعتب؛ فلا يعتب، ويطلب الرجعى؛ فلا يجاب، فلا تسأل عن حسرته وخسارته، والعياذ بالله، وهذا كله مبين فى القرآن، كما قال تعالى:

(١) الفاء، بذاتها، ليست جواب شرط مقدر، وإنما هى واقعة فى جواب شرط مقدر.

(٢) قرأ عاصم وحمة والكسائي: «ينفع»؛ بالياء. والباقرن: بالناء.. انظر: الإتحاف (٣٠٦/٢)

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أى: بينا لهم فيه من كل مثل، ينبؤهم عن الترحيد والمعاد، وصدق الرسل، وغير ذلك، مما يحتاجون إلى بيانه، ﴿ ولئن جئتهم بآية ﴾ من الآيات الدالة على صدقك، أو: القرآن. ﴿ ليقولنَّ الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾؛ مزورون. وإسناد الإبطال إلى الجميع، مع أن المجيء بالحق واحد؛ مراعاة لمن شايعه معه من المؤمنين، أو: ولقد وصفنا كل صفة، كأنها مثل؛ فى غرابتها، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كقصة المبعوثين يوم القيامة، وما يقولون، وما يقال لهم، وما لا ينفذ من اعتذارهم، ولا يسمع من استعابهم، ولكنهم؛ لقسوة قلوبهم، إذا جئتهم بآية من آيات القرآن، قالوا: نجئنا بزور باطل. ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴾، أى: مثل ذلك الطبع - وهو الختم - يطبع الله على قلوب الجهلة؛ الذين علم الله منهم اختيار الضلال، حتى سموا المحققين مبطلين، وهم أغرق خلق الله فى تلك الصفة.

﴿ فاصبر ﴾ على أذاهم وعداوتهم، ﴿ إن وعد الله ﴾ بنصرتك، وإظهار دين الإسلام على كل دى، ﴿ حق ﴾ لا بد من إنجازه والوفاء به، ﴿ ولا يستخفَّنكَ الذين لا يوقنون ﴾؛ لا يحملنك هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة على الخفة والعجلة فى الرد عليهم، أو: لا يحملنك على الخفة والقلق؛ فزعاً مما يقولون؛ فإنهم ضلال، شاكون، لا يستغرب منهم ذلك. وقرأ يعقوب: بسكون النون؛ على أنه نون التوكيد الخفيفة.

الإشارة: قد بين الله فى القرآن ما يحتاج السائرون إليه، من علم الشريعة والطريقة والحقيقة، لمن خاض بحر معانيه وأسراره. ولئن جئتهم بآية، من غوامض أسرارهم؛ ليقول أهل الجمود: هذا إلحاد وباطل. فاصبر؛ إن وعد الله بالنصر لأوليائه حق، ولا يحملنك على العجلة من لا يقين عنده. وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلّم.



سُورَةُ لُقْمَانَ

مكية، وقيل: إلا قوله: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾؛ لأن الزكاة فرضت بالمدينة، وهو ضعيف؛ لأن الحق تعالى يُخبر بالشئ قبل وقوعه كما تحقق وقوعه. وآياها: أربع وثلاثون، أو ثلاث وثلاثون. ومناسبتها لما قبلها قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ...﴾ (١) مع قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾؛ إذ هو القرآن العظيم. ﴿وَلَكِنْ جَاءَتْهُمْ بَايَةٌ﴾ (٢) وهنا: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ (٣). قيل: وسبب نزولها أن قريشاً سألت عن قصة لقمان مع ابنه، وعن بر والديه، فنزلت. قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

قلت: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾: حالان من الآيات، والعامل: معنى الإشارة. ورفعها حمزة على الخبر لتلك، بعد خبر، أو: خبر عن محذوف، أى: هو، أو: هى هدى. والموصول: نعت للمحسنين؛ تفسير لإحسانهم، و(هم): مبتدأ، و(يوقنون): خبر. وتكرير الضمير؛ للتوكيد، ولما حيل بينه وبين خبره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الْم﴾؛ أيها المصطفى المقرب، ﴿تِلْكَ﴾ الآيات التى تتلوها هى ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أى: ذى الحكمة البالغة، أو: الذى أحكم آياته وأتقنت، أو: المحكم الذى لا ينسخه كتاب. أو: المصون من التغيير والتبديل. حال كونه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾؛ هادياً لظواهرهم بتبيين الشرائع، ورحمة لقلوبهم بتبيين حقائق الإيمان، ولأرواحهم بإظهار حقائق الإحسان. وقد تقدم هذا البيان فى قوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾ (٤) الآية. ولذلك خصه بقوله: ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾، فإنما يكون هدى ورحمة لأهل الإحسان؛ لأنهم هم الذى

(٢) من الآية ٥٨ من سورة الروم.

(٤) من الآية ٩٣ من سورة المائدة.

(١) من الآية ٥٨ من سورة الروم.

(٣) من الآية السابعة من سورة لقمان.

يفرغون على أسرارهم ومعانيهم . وهم ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ ؛ يفتقرونها ، ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ على الوجه المشروع ، ويدفعونها لمن يستحقها ، لأجزاء ولا شكورا ، ولا لجلب نفع أو دفع شر ، ﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ ، كأنها نصب أعينهم . وخص بالذكر هذه الثلاثة ؛ لفضلها ؛ فإن الصلاة عماد الدين ، والزكاة قريبتها ؛ لأن الأولى عبادة بدنية ، والثانية مالية ، والآخرة هي دار الجزاء ، فلولا وقوعها لكان وجود هذا الخلق عبثاً ، وتعالى الله عنه علواً كبيراً .

ثم مدح المتصف بتلك الخصال فقال : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ أي : راكبون على متن الهداية ، متمكنون منها ، ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ ، الفائزون بكل مطلوب .

الإشارة : قال القشيري : ﴿ آلم ﴾ ، الألف إشارة إلى آله ، واللام إلى لطفه ، والميم إلى مجده وسنائه ، فبالآله دفع الجحد عن قلوب أوليائه ، ولطف عطائه أثبت المحبة في أسرار أصفياه ، وبمجده وسنائه هو مستغن عن جميع خلقه بوصف كبريائه . هـ .

ثم وصف كتابه بأنه هاد للسائرين ، رحمة للواصلين ؛ إذ لا تكمل الرحمة إلا بشهود الحبيب ، يكلمك ويناجيك ، وهذه حالة أهل مقام الإحسان . قال القشيري : وشرط المحسن أن يكون محسناً إلى عباد الله : دانيهم وقاصيهم ، مطيعهم وعاصيهم . ثم قال : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ ؛ يأتون بشرائطها في الظاهر - ثم ذكرها - ، وفي الباطن يأتون بشروطها ؛ من طهارة السر عن العلائق ، وسريرة عورة الباطن ، بتنقيته من العيوب ؛ لأن ما كان فيه فانه يراه . فإذا أردت ألا يرى الله عيوبك فاحذرهما حتى لا تكون . والوقوف على مكان طاهر : هو وقوف القلب على الحد الذي أذن فيه ، مما لا يكون فيه دعوى بلا تحقيق ؛ بل رحم الله من وقف عند حده بالمعرفة بالوقت ، فيعلم وقت الدذل والاستكانة ، ويميز بينه وبين وقت السرور واللبس ، ويستقبل القبلة بنفسه ، ويطلق قلبه بالله ، من غير تخصيص بقطر أو مكان ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ ؛ وهم الذين اهتدوا في الدنيا ، وسلموا ونجوا في العقبى . هـ .

ثم شفع بضدهم ، فقال :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۖ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَافٌ فَأَبَشِرْهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ ۖ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ أى: ما يلهى به عما يقرب إلى الله؛ كالأحاديث التى لا أصل لها، والخرافات التى لا حقيقة لها، والمصاحك، وفضول الكلام. قيل: نزلت فى النضر بن الحارث، كان يخرج إلى فارس للتجارة، فيشتري أخبار الأعاجم، ثم يحدث قريشاً بها، ويقول: إن محمداً يحدثكم بأخبار عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم، وأخبار الأكاسرة، فيستمعون حديثه ولا يسمعون القرآن (١). وقيل: كان يشتري القيان، ويحملهن على معاشرته من أراد الإسلام؛ ليصده عنه.

والاشتراء من الشراء، كما تقدم عن النضر، ومن البذل، كقوله: ﴿اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ (٢). استبدلوه واختاروه، أى: يختار حديث الباطل على حديث الحق. وإضافة اللهو إلى الحديث؛ للتبيين بمعنى «من»؛ لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره، فيبين بالحديث، والمراد بالحديث: الحديث المكروه، كما جاء فى الحديث: «الحديث فى المسجد يأكل الحسنات، كما تأكل البهيمة الحشيش» (٣). أو: للتبعيض، كأنه قيل: ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذى فيه اللهو. وقال مجاهد: يعنى: شراء المغنيات والمغنين، أى: يشتري ذات لهو، أو: ذا لهو الحديث. وقال أبو أمامة: قال عليه الصلاة والسلام: «لا يحل تعليم المغنيات، ولا بيعهن، وأثمائهن حرام». وفى مثل هذا نزلت هذه الآية، ثم قال: وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين: أحدهما على هذا المنكب، والآخر على هذا المنكب، فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يسكت» (٤).

قلت: هذا مقيد بشعر الهوى لأهل الهوى، وأما أهل الحق الذين يسمعون من الحق، فلا يتوجه الحديث لهم، وسيأتى فى الإشارة تحقيقه إن شاء الله. ثم قال أبو أمامة رضي الله عنه: «إن الله تعالى بعثنى هدى ورحمة للعالمين، وأمرنى ربي بمحو المعازف والمزامير والأوثان، والصلب وأمر الجاهلية، وحلف ربي بعزته لا يشرب عبد من عبدي جرعة خمر متعمداً إلا سقيته مثلها من الصديد يوم القيامة، مغفوراً له أو معذباً، ولا سقاها غيره إلا فعلت به مثل ذلك، ولا يتركها عبد من مخافتى إلا سقيته من حياض القدس يوم القيامة». انظر الثعلبي.

ثم قال تعالى: ﴿ليضل﴾ (٥) عن سبيل الله ﴿أى: فعل ذلك ليضل هو عن طريق الله ودينه، أو ليضل غيره عنه، أو عن القرآن، ﴿بغير علم﴾ أى: جهلاً منه بما عليه من الوزر. ﴿ويتخذها﴾ أى: السبيل ﴿هزواً﴾ وسخرية. فمن رفع: استأنف، ومن نصب، عطفها على (ليضل) (٦)، ﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾ يهينهم ويخزيهم، ومنه، لإبهامه، يقع على الواحد والجمع، والمراد: النضر ومن تبعه.

- (١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (٢٥٦/٢)، والبهوي فى التفسير (٢٨٣/٦) عن الكلبى ومقاتل.
- (٢) من الآية ١٧٧ من سورة آل عمران. (٣) قال العراقي فى المغنى عن حمل الأمفار (١٨/١): لم أقف له على أصل.
- (٤) أخرجه الإمام أحمد فى المستد (٢٥٢/٥)، والطبرى فى التفسير (٦٠/٢١)، والطبرانى فى الكبير (٢٥١، ٢١٢/٨)، والبيهقى فى السنن (١٥/٦)، والبهوي فى التفسير (٢٨٤/٦)، والواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٥٧) وذكره ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١٩٨/٢) وأخرجه مختصراً الترمذى وضعفه فى (التفسير - سورة لقمان ٣٢٢/٥، ح ٣١٩٥).
- (٥) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ليضل) بفتح الياء. والباقرن بالضم. انظر الإتحاف (٣٦١/٢).
- (٦) قرأ حفص وحزمة والكسائى: «ويتخذها»، بالنصب. قرأ الباقرن: «ويتخذها»، بالرفع. انظر الإتحاف (٣٦٢/٢).

﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ ؛ أَعْرَضَ عَنْ تَدْبِيرِهَا مُتَكَبِّرًا رَافِعًا نَفْسَهُ عَنِ الْإِصْفَاءِ إِلَى الْقُرْآنِ، ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ ؛ كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهَا، وَلَا تُذَكِّرَتْ عَلَى سَمْعِهِ. شَبَّهَ حَالَهُ بِحَالِ مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا قَطُّ، ﴿كَأَن فِي أذُنِهِ وَقرًا﴾ ؛ ثِقَلًا وَصَمًّا، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ؛ أَخْبِرْهُ بِأَنَّ الْعَذَابَ يُوجَعُ لَامِحَالَةٍ. وَذَكَرَ الْبَشَارَةَ عَلَى سَبِيلِ التَّهْكُمِ. وَهَذَا فِي مَقَابِلَةِ مَدْحِ الْمُحْسِنِينَ الْمُقِيمِينَ الْمَزْكِينَ. فَكَمَا قَالَ فِي الْمُحْسِنِينَ: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، قَالَ فِي هَؤُلَاءِ: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، بَعْدَ أَنْ وَصَفَهُم بِالضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ، فِي مَقَابِلَةِ الْمُحْسِنِينَ بِالْهُدَايَةِ وَالْفَلَاحِ. وَاللَّهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

الإشارة: لَهْوُ الْحَدِيثِ هُوَ كُلُّ مَا يَشْغُلُ عَنِ اللَّهِ، وَيَصُدُّ عَنْ حَضْرَةِ اللَّهِ، كَأَنَّهُ مَا كَانَ، سَوَاءٌ كَانَ غَنَاءً أَوْ غَيْرَهُ، وَإِذَا كَانَ الْغَنَاءُ يَهَيِّجُ لِذِكْرِ اللَّهِ، وَيَحْرُكُ الرُّوحَ إِلَى حَضْرَةِ اللَّهِ، كَانَ حَقًّا، وَإِذَا كَانَ يَحْرُكُ إِلَى الْهَوَى النَّفْسَانِي كَانَ بَاطِلًا. وَالْحَاصِلُ: أَنَّ السَّمَاعَ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الطَّرِيقَةِ، بِشُرُوطِهِ الثَّلَاثَةِ: الزَّمَانُ وَالْمَكَانُ وَالْإِخْوَانُ. وَقَدْ أَلْفَ الْغَزَالِيُّ تَأْلِيفًا فِي تَكْفِيرِ مَنْ أَطْلَقَ تَحْرِيمَ السَّمَاعِ. وَقَالَ فِي الْإِحْيَاءِ، فِي جُمْلَةٍ مِنْ احْتِجَ بِهِ الْمُحَرِّمُ لِلْسَّمَاعِ: احْتِجَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾، وَقَدْ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَالنَّخَعِيُّ وَالْحَسَنُ: إِنَّهُ الْغَنَاءُ. وَأَجَابَ مَا حَاصِلُهُ: أَنَّهُ إِنَّمَا يَحْرُمُ إِذَا كَانَ اسْتِبْدَالًا بِالْدِّينِ، وَلَيْسَ كُلُّ غَنَاءٍ بَدَلًا عَنِ الدِّينِ، مُشْتَرَى بِهِ، وَمُضْلًا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَوْ قُرَأَ الْقُرْآنُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَانَ حَرَامًا. كَمَا حَكَى عَنْ بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ؛ أَنَّهُ كَانَ يَوْمَ النَّاسِ وَلَا يَقْرَأُ إِلَّا بِسُورَةِ عَبَسَ، لِمَا فِيهَا مِنَ الْعِتَابِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَهُمْ عَمَرُوا بِقَتْلِهِ. فَالْإِضْلَالُ بِالشَّعْرِ وَالْغَنَاءُ أَوْلَىٰ بِالتَّحْرِيمِ. هـ. وَأَمَّا إِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، فَلَا يَحْرُمُ.

وَقَالَ فِي الْقَوْتِ، فِي كِتَابِ الْمَحَبَّةِ: وَلَمْ يَزَلِ الْحَجَازِيُّونَ، عِنْدَنَا بِمَكَّةَ، يَسْمَعُونَ السَّمَاعَ فِي أَفْضَلِ أَيَّامِ السَّنَةِ، وَهِيَ الْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ، الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادَهُ فِيهَا بِذِكْرِهِ، أَيَّامُ التَّشْرِيقِ، مِنْ وَقْتِ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رِيَّاحٍ، إِلَى وَقْتِنَا هَذَا، مَا أَنْكَرَهُ عَالَمٌ، وَكَانَ لِعَطَاءٍ جَارِيَتَانِ تُلَحَّنَانِ، فَكَانَ إِخْوَانُهُ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْهِمَا، وَلَمْ يَزَلِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مُوَاطِّئِينَ لِأَهْلِ مَكَّةَ عَلَى السَّمَاعِ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا. وَأَدْرَكْنَا أَبَا مَرْوَانَ الْقَاضِيَّ، لَهُ جَوَارٍ يَسْمَعُونَ التَّلْحِينَ، قَدْ أَعْدَدَهُنَّ لِلطَّوَافِينَ. فَكَانَ يَجْمَعُهُنَّ لَهُمْ، وَيَأْمُرُهُنَّ بِالْإِنْشَادِ، وَكَانَ قَاضِيًا. وَسَلَّ شَيْخُنَا أَبُو الْحَسَنِ بْنُ سَالِمٍ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّكَ تَنْكَرُ السَّمَاعَ، وَقَدْ كَانَ الْجَنِيدُ وَسَرِيُّ السَّقَطِيُّ وَذُو النُّونِ يَسْمَعُونَ؟ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْكَرُ السَّمَاعَ وَقَدْ أَجَازَهُ وَسَمِعَهُ مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي. هـ.

وَقَالَ ابْنُ لَيْوَنَ التَّجِيبِيُّ فِي الْإِنَالَةِ: رَوَى عَنْ مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: حَضَرْتُ مَجْلِسَ مَالِكٍ، فَسَأَلَهُ أَبُو مُصْعَبٍ عَنِ السَّمَاعِ، فَقَالَ: مَا أَدْرِي، إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ بِيَلَدِنَا لَا يَنْكُرُونَ ذَلِكَ، وَلَا يَقْعُدُونَ عَنْهُ، وَلَا يَنْكَرُهُ إِلَّا غَبِي

جاهل، أو ناسك عراقي غليظ الطبع. قال التجيبي: وعن أنس؛ كنا عند النبي ﷺ، إذ نزل عليه جبريل، فقال: يا رسول الله فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، وهو نصف يوم، ففرح فقال: أفیکم من ينشدنا؟ فقال بدوي: نعم، يا رسول الله، فقال: هات، هات، فأنشد البدوي يقول:

قَدْ لَسَعَتْ حَيَّةُ الْهَوَى كَبِدِي فَلَا طَبِيبَ لَهُ وَلَا رَاقِي
إِلَّا الْحَبِيبُ الَّذِي شَغِفْتُ بِهِ فَعِنْدَهُ رُقِيَّتِي وَتِرْيَاقِي

فتواجد عليه السلام، وتواجد أصحابه معه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فلما خرجوا، أوى كل واحد إلى مكانه، فقال معاوية: ما أحسن لعبيكم يا رسول الله! فقال: مَهْ، مَهْ، يا معاوية، ليس بكريم من لم يهتز عند ذكر الحبيب، ثم اقتسم رداءه من حضرهم بأربعمائة قطعة. وذكره المقدسي هكذا، والسهورودي في عوارفه، وتكلم الناس في هذا الحديث^(١).

وقد تخلف الحسن البصري ذات يوم عن أصحابه، وسئل عن تخلفه، فقال: كان في جيراننا سماع. وقال الثبلي: السماع ظاهرة فتنة، وباطنة عبرة. فمن عرف الإشارة حل له سماع العبرة، وإلا فقد استدعى الفتنة^(٢). هـ. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَّ عَلَيْهِ..﴾ إلخ، هذا مثال لمن لم يقبل الوعظ؛ لقسوة قلبه، وحكم المشيئة يبعده، فلا يزيده كثرة الوعظ إلا نفورا، فسماعه كلا سماع، ومعالجته عنى وضياح، كما قال القائل:

إِذَا أَنَا عَاتَبْتُ الْمُلُوكَ؛ فَإِنَّمَا أَخْطُ بِأَفْكَالِكَ عَلَى الْمَاءِ أَحْرُفًا

ثم بين فلاح المحسنين، فقال:

(١) هذا الكلام كذب صريح، وإفك قبيح. قال العلامة الألوسي: لا أصل له بإجماع محدثي أهل السنة، وما أراه إلا من وضع الزنادقة. راجع تفسير الألوسي (٧٢/١١)؛ ففيه ما يكفي للرد على هذا الافتراء. وقال الميوطي في الحاوي (٣٣٦/١) ما معناه: إن الحديث باطل، موضوع، باتفاق أهل الحديث.

(٢) اختلفت الآراء حول السماع، فأباحه البعض، وكرهه البعض، وحرّمه البعض. راجع في هذه المسألة: الاعتصام للإمام الشاطبي (٢٢٠/١) اللع للسراج الطوسي (٣٢٨ - ٣٧٤) - حقائق عن التصوف، للشيخ عبدالقادر عيسى ١٩٧ - ٢٠٩.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾، قيل: معكوس، أى: لهم نعيم الجنات، أو: لهم بساتين، أو: ديار النعيم. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: حال من ضمير «لهم»، والعامل: الاستقرار. ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أى: وعدهم ذلك وعداً، وثبت لهم حقاً مهماً، مصدران مؤكدان، الأول لنفسه، والثانى لغيره، إذ قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾؛ فى معنى: وعدهم الله جنات النعيم. «وحقاً»: يدل على معنى الثبات المفهوم من انجاز الوعد. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب، الذى لا يعارض فى حكمه، فينفذ وعده لا محالة. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى لا يفعل إلا ما استدعته حكمته.

الإشارة: إن الذين آمنوا فى البواطن، وحققوا ذلك بالعمل الصالح فى الظواهر، لهم جنات المعارف معجلة، وجنات الزخارف مؤجلة، وعداً حقاً وقولاً صدقاً، فما كمن فى السرائر ظهر فى شهادة الظواهر، وإلا كان دعوى ونفاقاً، والعياذ بالله.

ثم ذكر شواهد قدرته على إنجاز وعده، فقال:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضِ رَواسٍ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾

قلت: «بغير عمد»: يتعلق بحال محذوفه، أى: مُنْسَكَّةٌ أو مرفوعة بغير عمد، و(عمد): اسم جمع على المشهور، وقيل: جمع عماد أو عامد. وجملة (ترونها): إما استئنافية، لأمحل لها، أو صفة لعمد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ ورفعها ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، الضمير: إما للسموات، أى: خلقها، ظاهرة، ترونها، أو لعمد، أى: بغير عمد مرئية، بل بعمد خفية، وهى إمساكها بقدرته تعالى. ﴿وَالْأَرْضِ رَواسٍ﴾ فى الأرض رواسى، أى: جبالاً ثوابت، كراهة ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أى: لتلا تضطرب بكم، ﴿وَبَثَّ﴾: نشر ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾، وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم؛ صنف من أصناف النبات،

﴿كريم﴾ : حسن بهيج، أو كثير المنفعة. وكأنه استدل بذلك على عزته، التى هى كمال القدرة، وحكمته التى هى كمال العلم، فهى مقرررة لقوله: (العزیز الحكيم)

ثم أمر بالتفكر فى هذه المصنوعات؛ استدلالاً على توحيده بقوله: ﴿هذا خلق الله﴾ أى : هذا الذى تُعابونه من جملة مخلوقاته، ﴿فأرونى ماذا خلق الذين من دونه﴾، يعنى: آلهتهم. بكتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلق الله، فأرونى ماذا خلق آلهتكم حتى استرحبوا عندكم العبادة؟ ﴿بل الظالمون فى ضلال مبين﴾، أضرب عن تبكيتهم؛ إلى التسجيل عليهم بالظلم والتورط فى ضلال ليس بعده ضلال.

الإشارة: خلق سموات الأرواح - وهو عالم الملكوت - مرفوعاً غتياً عن الاحتياج إلى شىء، وألقى فى أرض النفوس - وهو عالم الأشباح - من العقول الراسخة، لتلا تميل إلى جهة الانحراف، إما إلى الحقيقة المحضة، أو الشريعة. ونشر فى أرض النفوس دواب الخواطر والوساوس، وأنبأنا فيها من علوم الحكمة والقدرة، من كل صنف بهيج. قال القشيري: «وألقى فى الأرض رواسي»؛ فى الظاهر: الجبال، وفى الحقيقة: الأبدال، الذين هم أوتاد، بهم يقيهم، وبهم يصرف عن قريبيهم وقاصيهم، «وأنزلنا من السماء ماء..»؛ المطر من سماء الظاهر فى رياض الخضرة، ومن سماء الباطن فى رياض أهل الدنوّ والحضرة. هذا خلق الله العزيز فى كبريائه، فأرونى ماذا خلق الذين عبدتم من دونه فى أرضه وسمائه؟ هـ.

ثم ذكر قصة لقمان، الذى وقع السؤال عنه فنزلت السورة، فقال:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝١٢ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾

قلت: (يابنى)؛ فيه ثلاث قراءات؛ كسر الياء، وفتحها؛ مشددة، وإسكانها (١). وقد تتبعنا توجيهاتها فى كتابنا «الدرر النائرة فى توجيه القراءات المتواترة».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾، وهو لقمان بن باهوريا بن أخت أيوب، أو ابن خالته، وقيل: كان من أولاد آزر، وقيل: أخو شداد بن عاد، أعطى شداد القوة، وأعطى لقمان الحكمة، وعاش ألف

(١) قرأ حفص: بفتح الياء.

سنة، وقيل: أكثر، وسيأتى. وأدرك داود عليه السلام، وأخذ منه العلم. وكان يفتى قبل مبعث داود، فلما بُعث قطع الفتوى، فقيل له فى ذلك؟ فقال: ألا أكتفى إذا كُفيت. وقيل: كان خياطاً، وقيل: نجاراً، وقيل: راعياً. وقيل: كان قاضياً فى بنى إسرائيل. وقال عكرمة والشعبى: كان نبياً، والجمهور على أنه كان حكيماً فقط. وقد خیر بين النبوة والحكمة فاختر الحكمة، وهى الإصابة فى القول والعمل. وقيل: تتلمذ لألف نبي وتتلّمذ له ألف نبي. قاله النسفى.

قال ابن عمر: سمعت النبى ﷺ يقول: «لم يكن لقمان نبياً، ولكن كان عبداً كثير التفكير، حسن اليقين، أحب الله فأحبه، فمنّ عليه بالحكمة». كان قائماً فجاءه نداء: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفة فى الأرض، تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت، فقال: إن خيرنى ربي قبلت العافية، وإن عزم على فسمعاً وطاعة، فإنى أعلم إن فعل ذلك بى عصمنى وأعاننى. قالت الملائكة بصوت ولا إبراهيم: لم يا لقمان؟ فقال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها، يغشاه الظلم من كل مكان، إن يُعَن، فالبحرى أن يتجو، وإن أخطأ؛ أخطأ طريق الجنة، ومن يكن فى الدنيا ذليلاً، خير من أن يكون شريفاً، ومن يختار الدنيا على الآخرة؛ تفتت الدنيا، ولا يصيب الآخرة. فعجبت الملائكة من حسن منطقته، فنام نومة فأعطى الحكمة، فانتبه وتكلم بها (١). هـ.

قال مجاهد: كان لقمان عبداً أسود، عظيم الشفتين، مشقق القدمين (٢). زاد فى اللباب: وكانت زوجته من أجمل أهل زمانها. قيل: لم يزل لقمان، من زمن داود، مظهراً للحكمة والزهد، إلى أيام يونس بن متى. وكان قد عمّر عمر سبعة أنسر، فكان آخر نسوره لبذ. روى أنه أخذ نسرأ صغيراً فربّاه، وكان يصرفه فى حوائجه، فعاش ذلك النسر ألف سنة ومات، ثم أخذ نسرأ آخر، فعاش خمسمائة سنة، ثم أخذ آخر، فعاش مثل ذلك، إلى السابع، عاش خمسمائة سنة، واسمه لبذ، فقال له لقمان يوماً: يا لبذ انهض إلى كذا، فأراد النهوض فلم يستطع، وإذا بوتر لقمان قد اختلج، وكان لم يألم قط، فنادى بأهله وعشيرته، وعلم أن أجله قد قرب، وقال: إن أجلى قد حضر بموت هذا النسر، كما أعلمنى ربي، فإذا مت فلا تدفنونى فى الكهوف والمقابر، كما لا تدفنون [٣] الجبابرة، ولكن ادفنوني فى ضريح الأرض، فدفنوه كما أوصاهم، فقال ابن ثعلبة:

رَأَيْتُ الْفَتَى يَتَسَّى مِنَ الْمَوْتِ حَقْفَهُ حَذُوراً لِرَيْبِ الدَّهْرِ، وَالْدَّهْرِ أَكِلُهُ
فَلَوْ عَاشَ مَا عَاشَتْ بِلَقْمَانَ أَنْسَرٌ لَصَرَفَ الْمَنَآيَا، بَعْدَ ذَلِكَ، حَافِلُهُ

(١) عزاه السيوطى فى الدر (٣١١/٥) للحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، عن أبى مسلم الخولانى؛ مرفوعاً.

(٢) أخرجه الطبرى (٦٧/٢١). (٣) فى الأصول (تدفنوا).

قال البيضاوى: والحكمة، فى عرف العلماء: استكمال النفس الإنسانية؛ باقتباس العلوم النظرية، واكتساب المَلَكَةِ التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها. ومن حكمته أنه صحب داود شهوراً، وكان يسرد الدرع، فلم يسأله عنها، فلما أتمها لبسها، فقال: نَعَمْ لبوسُ الحرب أنتِ، فقال: الصمت حكمة وقليل فاعله، وأن داود قال له يوماً: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت فى يَدَيَّ غيرة. وأنه أمر لقمان بأن يذبح شاة ويأتيه بأطيب مضغتين منها، فأتى باللسان والقلب، ثم بعد أيام أمر بأن يأتى بأخبث مضغتين منها، فأتى بهما أيضاً، فسأله عن ذلك، فقال: هما أطيب شيء؛ إذا طابا، وأخبث شيء؛ إذا خبثا. والذى عند الثعلبي: أن الأمر له بإتيان المضغتين سيده، لا داود عليه السلام قيل له: بِمَ نلتَ هذه الحكم، وقد كنت راعياً؟ فقال: بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعينى (١). هـ.

قال عليه السلام: «أول ما روى من حكمة لقمان: أن مولاه أطال الجلوس فى المخرج، فناداه لقمان: إن الجلوس على الحاجة يدخل منه الكبد، ويورث الباسور، ويصعد الحرارة إلى الرأس، فاجلس هيناً، وقم هيناً» (٢) وروى أنه قدم من سفر، فقيل له: مات أبوك، فقال: الحمد لله، ملكتُ أمرى، فقيل له: ماتت امرأتك، فقال: الحمد لله؛ جددَ فراشى، فقيل له: ماتت أختك، فقال: سترت عورتى، فقيل له: مات أخوك، فقال: انقطع ظهري (٣). هـ.

وأن: - فى قوله: «أَن أَشْكُرَ»: مفسرة؛ لأن إيتاء الحكمة فى معنى القول، أى: وقلنا له: اشكر الله على ما أعطاك من الحكمة، وفيه تنبيه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقى هو العمل بهما، وعبادة الله والشكر له، حيث فسر الحكمة بالحث على الشكر. وقيل: لا يكون الرجل حكيماً حتى يكون حليماً فى قوله وفعله ومعاشرته وصحبته.

وقال الجنيد: الشكر: ألا يعصى الله بنعمه. وقال أيضاً: ألا ترى مع الله شريكاً فى نعمه. وقيل: هو الإقرار بالعجز عن الشكر. والحاصل: أن شكر القلب: المعرفة، وشكر اللسان: الحمد، وشكر الأركان: الطاعة. ورؤية العجز فى الكل دليل القبول. ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه﴾؛ لأن منفعته تعود عليه، لأنه بريد المزيد، ﴿ومن كفر فإن الله غنى﴾؛ غير محتاج إلى شكر أحد، ﴿حميد﴾؛ حقيق بأن يُحمد، وإن لم يحمده أحد. ﴿وذكر﴾ إذ قال لقمان لابنه ﴿واسمه: أنعم، أو أشكم، أو ناران، وهو يعظه يابنى﴾، تصغير ابن، لا تشرك بالله؛ ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾؛ لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا منه، ومن لا نعمة منه أصلاً. وبالله التوفيق.

(١) أخرجه الإمام أحمد فى الزهد (ص ٤٩)، والطبرى فى التفسير (٦٧/٢١)، وابن أبى شيبه (٢١٤/١٣).

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٣١١/٥) لابن المذر، عن عكرمة، بدون رفع إلى النبى ﷺ.

(٣) عزاه فى الدر (٣١٧/٥) لعبدالله فى زوائده، عن عبدالله بن دينار.

الإشارة: قال القشيري: الحكمة: الإصابة في [الفعل] (١) والعقد والنطق. ويقال: الحكمة: متابعة الطريق، من حيث توفيق الحق، لا من حيث همة النفس. ويقال: الحكمة: ألا يكون تحت سلطان الهوى. ويقال: هي معرفة قدر نفسك حتى لا تمدّ رجلك خارجاً عن كسائك. ويقال: ألا تستعصى على من تعلم أنك لا تقارمه. وحقيقة الشكر: انفتاح عين القلب لشهود ملاطفات الحق. ويقال: الشكر: تحقّقك بعجزك عن شكره. ويقال: ما به يحصل كمال استلذاذ النعمة. ويقال: هو فضلة تظهر على اللسان من امتلاء القلب من السرور، فينطق بمدح المشكور. ويقال: الشكر: نعت كل غني، كما أن الكفران وصف كل لئيم. ويقال: الشكر: قرع باب الزيادة. هـ. قلت: والأحسن: أنه فرح القلب بإقبال المنعم، فيسرى ذلك في الجوارح.

ثم قال في قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾: الشرك على ضربين: جلى وخفى، فالجلى: عبادة الأصنام، والخفى: حسابان شيء من الحدّثان من الأنام - أى: أن تظن شيئاً مما يحدث في الوجود أنه من الأنام - ويقال: الشرك: إثبات غيب مع شهود العين، ويقال: الشرك ظلم على القلب، والمعاصى ظلم على النفس، فظلم النفس معرض للغفران، وظلم القلب لا سبيل للغفران إليه. هـ.

ثم أمر ببر الوالدين، الذى تقدم السؤال عنه فى سبب نزول السورة، فقال:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

قلت: الجملتان معترضتان بين أجزاء توصية لقمان لابنه. (وهنا): حال من (أمه)، أى: حملته حال كونها ذات وهن، أو من الضمير المنصوب، أى: حملته نطفة، ثم علقه.. الخ، أو مصدر، أى: تهن وهناً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾: أن يبرهما ويطيعهما، ثم ذكر الحامل على البر فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أى: تضعف ضعفاً فوق ضعف، أى: يتزايد ضعفها ويتضاعف؛ لأن الحمل، كلما ازداد وعظم، ازدادت ثقلًا. ﴿وفصاله في عامين﴾ أى: فطامه لتمام عامين. وهذا أيضاً مما يهيج

(١) فى القشيري [العقل].

الولد على بر والديه، فيتذكر مرقده فى بطن أمه، وتعبها معه فى مدة حملها، ثم ما قاست من وجع الطلق عند خروجه، ثم ما عالجته فى أيام رضاعه؛ من تربيته، وغسل ثيابه، وسهر الليل فى بكائه، إلى غير ذلك.

﴿ أن اشكر لي ولوالديك ﴾، هو تفسير لوصيئاً، أو على حذف الجار، أى: وصيئاه بشكرنا ويشكر والديه. وقوله: «حملته أمه.. الخ: اعتراض بين المفسر والمفسر؛ لأنه، لما وصى بالوالدين، ذكر ما تكابده وتعاينه من المشاق فى حمله وفصاله، هذه المدة الطويلة؛ تذكيراً لحقها، مفرداً.

وعن ابن عبيّنة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا للوالدين، فى أدبار الصلوات الخمس، فقد شكرهما. هـ. وقال القشيري: والإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما. ثم قال: فشكر الحق بالتعظيم والتكبير، وشكر الوالدين بالإشفاق والتوقير. هـ.

ثم قال تعالى: ﴿ إلى المصير ﴾ فأحاسبك على شركك، أو كفرك. ﴿ وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم ﴾، أراد بنفى العلم به نفيه من أصله، أى: أن تشرك بى ما ليس بشىء، أو: ما ليس لك به علم باستحقاقه الإشراف مع الله، بل تقليداً لهما، ﴿ فلا تطعهما ﴾ فى ذلك الشرك. ﴿ وصاحبهما فى الدنيا معروفاً ﴾ أى: صاحباً معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم، وهو الخلق الجميل، بحلم، واحتفال، وبر، وصلة. وقد تقدم تفسيره فى الإسراء (١).

﴿ واتبع سبيل من أناب إلى ﴾ أى: اتبع طريق من رجع إلى بالتوحيد والإخلاص، وهو الرسول ﷺ والمؤمنون، ولا تتبع سبيلهما، وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهما فى الدنيا. وقال ابن عطاء: اتبع سبيل من ترى عليه أنوار خدمتى. هـ. ﴿ ثم إلى مرجعكم ﴾ أى: مرجعك ومرجعهما، ﴿ فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾؛ فأجازيك على إيمانك وبرك، وأجازيهما على كفرهما. وأعرض بهاتين الآيتين، على سبيل الاستطراد؛ تأكيداً لما فى وصية لقمان من النهى عن الشرك، يعنى: إنما وصيئاه بوالديه، وأمرناه ألا يطيعهما فى الشرك، وإن جاهدك كل الجهد؛ لقبح الشرك.

وتقدم أن الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص، وأنه مضت لأمه ثلاث ليال لم تطعم فيها شيئاً، فشكى لرسول الله ﷺ، فنزلت (٢)، وقيل: من أناب: أبو بكر؛ لأن سعداً أسلم بدعوته (٣). والله تعالى أعلم.

الإشارة: بر الوالدين واجب، لاسيما فى حق الخصوص، فيطيعهما فى كل شىء، إلا إذا منعاه من صحبة شيخ التربية، الذى يظهر من الشرك الخفى، الذى لا ينجو منه أحد، فإن الآية تشمل بطريق العموم والإشارة، أى: وإن جاهدك على أن تشرك بى متابعة هواك وحظوظك ومحبتهم، فلا تطعهما، وصاحبهما فى الدنيا معروفاً،

(١) راجع تفسير الآيتين: ٢٣ - ٢٤ من سورة الإسراء. (٢) راجع تفسير الآية (٨) من سورة العنكبوت مع حاشية التحقيق.

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٠ - ٢٥٢) وأسباب النزول للواحدي (ص ٣٥٨). وتفسير البغوى (٦/ ٢٨٨).

واتبع سبيل من أناب إلى، هو شيخ التربية فى علم الإشارة. وقد تقدم قول الجديد: أمرنى أبى بشيء، وأمرنى السرى بشيء، فقدمت أمر السرى، قرأيت سراً كبيراً. وكان شيخ شيوخنا الولي الشهير، سيدى يوسف الفاسى، يأتيه شاب من أولاد كبراء فاس، وكان أبوه ينهاه ويذجره عن صحبتته، وربما بلغ لمجلس الشيخ فيؤذيه، فكان الشيخ يقول للشاب: أطع أباك فى كل شيء إلا فى الإتيان إلينا. هـ. وكان بعض المشايخ يقول: ائتونى ولو بسخط الوالدين؛ إذ لا يضره ذلك، حيث قصد إصلاح نفسه ودواءها.

وقال الشيخ السنوسى، فى شرح عقائد الجزائري، ما نصه: وحاصل الأمر فى النفس: أنها شبيهة، فى حالها، بحال الكافر الحرى، الذى يريد أن تكون كلمة الكفر هى العليا، وكلمة التوحيد السفلى، وكذلك النفس؛ تريد أن تكون كلمة باطلها من الدعاوى للحظوظ العاجلة، المشغلة عن إخلاص العبودية لمولانا جل وعلا، وعن القيام بوظائف تكاليفه، على الوجه الذى أمر به، هى العليا، النافذة أمرها ونهيها فى مدن الأجسام وما تعلق بها، بعد أن نزلت ساحة الأبدان، واتصلت اتصالاً عظيماً لا انفكاك له إلا بالموت، فوجب، لذلك، على كل مؤمن يعظم حرمة الله تعالى أن ينهض كل النهوض، بغاية قواه العلمية والعملية، لجهادها وقتالها. وفى مثل هذا القتال الذى نزل العدو فيه بساحة الأبدان، وهو فرض عين على كل مؤمن، يسقط فيه استئذان الأبوين وغيرهما. هـ. فأنت ترى كيف جعل قيام النفس على العبد، وحجابها له عن ربه، كعذر يجب جهاده ولو خالف الوالدين، وهو كذلك؛ إذ طاعة الوالدين لا تكون فى ترك فرض، ولا فى ارتكاب معصية، ومن جملة المعاصى، عند الخواص، رؤية النفس والوقوف معها، وفى ذلك يقول الشاعر:

فَقُلْتُ: وَمَا ذَنْبِي؟ فَقَالَتْ: مُجِيبَةٌ : وَجُودُكَ ذَنْبٌ لَا يُقَاسُ بِهِ ذَنْبٌ

وتطهير النفس فرض عين، ولا طاعة للوالدين فى فرض العين. وقوله تعالى: (وصاحبهما فى الدنيا معروفاً) قال الورتجى: المعروف، هاهنا، أن تعرفهما مكان الخطأ والغلط فى الدين عند جهالتهما بالله. ﴿واتبع سبيل من أناب إلى﴾، نهاء عن متابعة المخطئين، وحثه على متابعة المتبينين. هـ. وبالله التوفيق.

ثم قال لقمان فى وصيته:

﴿يَبْنِيْ اِيْنَهَا اِنْ تَكُ مَثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمٰوٰتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يٰۤاَتِ بِهَا اللّٰهُ اِنَّ اللّٰهَ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِيْ اَقْرَبَ الصَّلٰوَةِ وَاَمْرٌ بِالْمَعْرُوْفِ وَاَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبِرْ عَلٰى مَا اَصَابَكَ اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْاُمُوْرِ ﴿١٧﴾ وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْاَرْضِ مَرَحًا اِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُوْرٍ ﴿١٨﴾ وَاَقْصِدْ فِي مَشِيْكَ وَاَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ اِنْ اَنْكَرَ الْاَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيْرِ ﴿١٩﴾﴾

قلت: الضمير في (إنها): للقصة، ومن قرأ «مَثْقَالَ» بالرفع؛ ففاعلُ كَانَ التامة، ومن قرأ بالنصب؛ فخيرها، والضمير: للخطيئة أو الهيئة. وأنث «المَثْقَالَ»؛ لإضافته إلى الحبة.

يقول الحق جل جلاله: وقال لقمان لابنه، حين قال له: يا أبت: إن عَمَلْتُ بالخطيئة، حين لا يرانى أحد، كيف يعلمها الله؟ فقال: ﴿يَأْنِيَّ إِنَّهَا﴾، أى: القصة أو الخطيئة ﴿إِنْ تَكُ مَثْقَالَ (١) حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أى: إن تلك المعصية؛ في الصغر والحقارة، مَثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ، أو: إن تقع مثال حَبَّةٍ مِنْ المعاصي ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾، أى: فتكن، مع صفرهاة في أخفى مكان، أو فى جبل. وقال ابن عباس: هى صخرة تحت الأرضين السبع، وهى التى يكتب فيها أعمال الفجار، وخضرة الماء منها. هـ. قال السدى: خلق الله تعالى الأرض على حوت، والحوت فى الماء، والماء على ظهر صَفَاةٍ - أى: صخرة - والصفاء على ظهر مَلَكٍ، والملك على صَخْرَةٍ. وهى الصخرة التى ذكر لقمان. ليست فى السماء ولا فى الأرض، والصخرة على الريح (٢). هـ.

أى: إن تقع المعصية فى أخفى مكان ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ يوم القيامة؛ فيحاسب عليها عاملها. ﴿إِنْ اللَّهُ لَطِيفٌ﴾: يتوصل علمه إلى كل خفى، ﴿خَيْرٌ﴾: عالم بكنهه، أو: لطيف باستخراجها خبير بمستقرها. ﴿يَأْنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾: أتقلها، وحافظ عليها؛ تكميلاً لنفسك، ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾؛ تكميلاً لغيرك، ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ فى ذات الله تعالى، إذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر؛ فإن من فعل ذلك تعرض للأذى، أو: على ما أصابك من الشدائد والمحن؛ فإنها تورث المنح والمغن. ﴿إِنْ ذَلِكَ﴾؛ الذى وصيتك به، ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أى: مما عزمه الله من الأمور، أى: قَطَعَهُ قطع إيجاب والزام، أى: أمر به أمراً حتماً. وهو مصدر بمعنى المفعول، أى: من معزومات الأمور، أى: مقطوعاتها ومفروضاتها. وفيه دليل على أن هذه الطاعات كانت مأموراً بها فى سائر الأمم.

﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أى: تمله عليهم، ولا تولهم صَفْحَةً خَدِّكَ، كما يفعله المتكبرون. والتصغير: داء يصيب العير، فيلوى عُنْقَهُ منه. والمعنى: أقبل على الناس بوجهك؛ تواضعاً، ولا تولهم شق وجهك وصفحته؛ تكبراً.

(١) قرأ نافع: «مَثْقَالَ» بالرفع، على أن «تَكُ» تامة. وقرأ الباقون: بالنصب؛ على أن «تَكُ» ناقصة، واسمها ضمير يفهم من سياق الكلام، وتقديره: «هى». انظر: البحر المحيط (١٨٢/٧).

(٢) انظر: تفسير البغوى (٢٨٨/٦ - ٢٨٩)، والبحر المحيط (١٨٧/٧). قلت: كل هذه أقوال لا علاقة لها بالآية، ولا يصح تفسير الآية بها. وعلم الفلك الحديث، وعلم الفضاء، وجميع حقائقه القطعية تبرهن على أن الأرض جرم، وكوكب يسبح فى الفضاء، وليس على حوت ولا على صخرة. والذى نرجحه: أن هذه الأوهام غير صحيحة السند إلى هؤلاء السادة العلماء.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ؛ خِيَلًا؛ متبختراً، فهو مصدر فى موضع الحال، أى: مَرِحًا، أو: تَمَرَحَ مَرِحًا،
أو: لأجل المَرَح، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، علة النهى. والمختال هو المَرِح الذى يمشى خيلاء،
والفخور هو المَصْعَرُ خَذَهُ؛ تكبراً. وتأخير الفخور، مع تقدمه؛ لرؤس الآى.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ ؛ توسط فيه بين الدبيب والإسراع، فلا تدب دبیب المتعاطين، ولا تثب وثوب
الشاطرين، قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ سُرْعَةَ الْمَشْيِ تُذْهِبُ بِهَاءَ الْمُؤْمِنِ» (١). وأما قول عائشة - رضى الله
عنها: (كان إذا مشى أسرع)؛ فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبیب السماوت. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: كانوا
ينهرن عن خَبَبٍ (٢) اليهود ودبيب النصارى، ولكن مشياً بين ذلك. وقيل: «واقصد فى مشيك»: انظر موضع
قدميك، أو: اقصد: تَوَسَّطْ بين العلو والتقصير.

﴿وَاجْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ ؛ وانقص منه، أى: اخفض صوتك. كانت العرب تفخر بمجاهرة الصوت، فلهى
الله عن خلق الجاهلية، فذكره لوصية لقمان، وأنه لو كان شئ يَهَابُ، لرفع صوته لكان الحمار، فجعلهم فى المثل
سواء. وهو قوله: ﴿إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ ؛ أوحشها وأقبحها ﴿لصوت الحمير﴾ ؛ لأن أوله زفير، وآخره شهيق،
كصوت أهل النار. وعن الثورى: صياح كل شئ تسبيح إلا الحمار، فإنه يصيح لرؤية الشيطان، وقد سماه الله
منكراً، وفى تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير؛ تنبيه على أن رفع الصوت فى غاية البشاعة، ويؤيده: ما روى أنه:
عليه الصلاة والسلام - كان يعجبه أن يكون الرجل خفيض الصوت، ويكره أن يكون مجهور الصوت.

وقال بعضهم: رفع الصوت محمود فى مواطن؛ منها: الأذان والتلبية. وقال فى الحاشية الفاسية: بل ينبغى
الاقتصاد فى ذلك، كما قال عمر بن عبدالعزيز: أَدْنُ أَذَانًا سَنِيًّا، وَإِلَّا اعْتَزَلْنَا. هـ. وقال عليه الصلاة والسلام:
«ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنْكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا» (٣). وإنما وُحِدَ صوت الحمير ولم يجمع؛ لأنه لم يرد أن يذكر
صوت كل واحد من هذا الجنس حتى يجمع، بل المراد أن كل جنس من الحيوان له صوت، وأنكر أصوات هذه
الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توحيده.

الإشارة: قد اشتملت وصية لقمان على خصال صوفية، تدل على كمال صاحبها، منها: استحضار مراقبة
الحق ومشاهدته، فى السر والعلانية، فى الجلاء والخفاء. وهو قوله: «يَابْنِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مَثْقَالَ حَبَّةٍ.. الخ. ومنها:
القيام بوظائف العبودية، بدنية ولسانية، وهو قوله: «يَابْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ.. الخ، ويقاس على الأمر بالمعروف والنهى
(١) أخرجه ابن عدى فى الكامل (٨/٥)، وأبونعيم فى الحلية (٢٩٠/١٠)، من حديث أبى هريرة، وانظر: الفتح السماوى (٩١٣/٢ - ٩١٥).
(٢) الخَبَبُ: مَرَبٌّ مِنَ الْعَدْرِ. وقيل: الخَبَبُ: السرعة. انظر: اللسان: (خبب ١٠٨٥/٢).
(٣) بعض حديث أخرجه البخارى فى (الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة، ح ٦٣٨٤)، ومسلم فى (الذكر والدعاء، باب استجاب
خفض الصوت بالذكر ٢٠٧٦/٤ ح ٢٠٧٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه. وقوله «اربعوا، أى: ارفقوا بأنفسكم
واخفضوا أصواتكم.

عن المنكر سائر عبادات اللسان، ومنها: الصبر على النوائب، سواء كانت من جهة الخلق، أو من قهرية الحق، وهو ركن فى الطريق. وتقدم تفصيله فى آخر النحل^(١). ومنها: التواضع والليونة، وهما مصيدة الشرف، ومن شأن أهل السياسة. ومن تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره. وهو قوله: ﴿وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾. ومنها: السكينة والوقار والرزانة، وهى نتيجة عمارة القلب بالهيبة والإجلال. وهو قوله: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾. ومنها: خفض الصوت فى سائر الكلام، وهو من علامة وجدان هيبة الحضرة، والقرب من الحق، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾^(٢)، وهو من أكد الآداب مع الأشياخ والفقراء.

قال القشيري: قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ...﴾، الأمر بالمعروف يكون بالقول، وأبلغه: أن تمنع نفسك عما تنهى عنه، واشتغالك، واتصاف نفسك، بما تأمر به غيرك، ومن لا حكم له على نفسه؛ لا حكم له على غيره. والمعروف الذى يجب الأمر به: ما يوصل العبد إلى مولاه، والمنكر الذى يجب النهى عنه: ما يشغل العبد عن الله. ثم قال: وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾: تنبيه على أن من قام لله بحق امتحن فى الله، فسبيله أن يصبر فى الله، فإن من صبر لله لم يخسر على الله.

ثم قال: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾؛ لا تتكبر عليهم، وطالعهم من حيث النسبة، وتحقق بأنك بمشهد من مولاك. ومن علم أن مولاه ينظر إليه؛ لا يتكبر ولا يتطاول، بل يتخاضع ويتضاءل. قوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ...﴾ الآية، أى: كن فانيًا عن شواهدك، مستطاعًا عن صولاتك، مأخوذًا عن حركاتك وقوتك، مشبهًا بما استولى عليك من كشوفات سرك. وانظر من الذى يسمع صوتك حتى تستفيق من خمارة غفلتك، «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير»: فى الإشارة: أنه الذى يتكلم بلسان المعرفة بغير إذن من الحق. وقالوا: هو الصرفى يتكلم قبل أوانه. هـ. أى: يتكلم على الناس، قبل أن يأذن له شيخه فى التذكير. وبالله التوفيق.

ثم ذكر بالنعم، فقال:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَّرَهُ وَبَاطِنَهُ
وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا
مَّا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

(١) راجع إشارة الآيات: ١٢٦ - ١٢٨ من سورة النحل.

(٢) الآية ١٠٨ من سورة طه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ ، يعنى: الشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، والمطر، وغير ذلك، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ، يعنى: البحار، والأنهار، والأشجار، والثمار، والدواب، والمعادن، وغير ذلك، ﴿وَأَسْبَغَ﴾ : أتم ﴿عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ﴾ ، بالجمع، والإفراء؛ إرادة الجنس. والنعمة: ما يسر به الإنسان ويتلذذ به، حال كونها ﴿ظَاهِرَةً﴾ ؛ ما تدرك بالحس، ﴿وَبَاطِنَةً﴾ ؛ ما تدرك بالعلم والوجدان. فقيل: الظاهرة: السمع، والبصر، واللسان، وسائر الجوارح الظاهرة، والباطنة: القلب، والعقل، والفهم، وما أشبه ذلك. أو: الظاهرة: الصحة، والعافية، والكفاية؛ والباطنة: الإيمان، واليقين، والعلم، والمعرفة بالله، وسيأتى فى الإشارة بقيتها.

رَوَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: دُلْنِي عَلَى أَخْفَى نِعْمَتِكَ عَلَى عِبَادِكَ، فَقَالَ: أَخْفَى نِعْمَتِي عَلَيْهِمُ: النَّفْسُ. هـ. قُلْتُ: إِذْ بِمُجَاهِدَتِهَا تَحْصُلُ السَّعَادَةُ الْعَظِيمَى، وَلَا وَصُولَ إِلَيْهِ إِلَّا بِمُجَاهِدَتِهَا وَالْغَيْبَةِ عَنْهَا. وَفِي هَذَا الْمَعْنَى كَانَ شَيْخُ شَيْخِنَا يَقُولُ: جَزَاها اللَّهُ عَنَّا خَيْرًا؛ مَا رِبحْنَا إِلَّا مِنْهَا. هـ. وَقِيلَ: الظَّاهِرَةُ: تَحْسِينُ الْخَلْقِ، وَالْبَاطِنَةُ: حَسْنُ الْخَلْقِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الظَّاهِرَةُ: مَا سَوَى مِنْ خَلْقِكَ، وَالْبَاطِنَةُ: مَا سَتَرَ مِنْ عِيُوبِكَ.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ بعد هذه النعم المتواترة، أى: فى توحيدِهِ وصفاته ودينه، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفاد من دليل ولا برهان، ﴿وَلَا هُدًى﴾ أى: هداية رسول، ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أنزله الله، بل بمجرد التقليد الردي. نزلت فى النضر بن الحارث. وقد تقدمت فى الحج (١).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ على رسوله؛ من التوحيد، والشرائع، ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا﴾ من عبادة الأصنام. وهو دليل منع التقليد فى الأصول. قاله البيضاوى قُلْتُ: والمشهور أن إيمان المقلد صحيح. وأما من قلّد الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم ينظر، فهو مؤمن، اتفاقاً. قال تعالى: ﴿أَوْ لَوْ أَنِّي دَعَاكُمْ عَلَيْهِمْ، وَلَوْ أَنِّي دَعَاكُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ، يحتمل أن يكون الضمير لهم، أى: أيقلدونهم، ولو كان يدعوهم بذلك التقليد إلى العذاب، أو: لأبائهم، أى: أيتبعون آبائهم، ولو كان الشيطان فى زمانهم يدعوهم إلى عذاب السعير.

الإشارة: الأكران كلها خلقت لك أيها الإنسان، وأنت خلقت للحضرة، فأعرف قدرك، ولا تتعد طورك، واشكر النعم التى أسبغ عليك؛ ظاهرة وباطنة. الظاهرة: استقامة الظواهر فى عمل الشرائع، والباطنة: تصفية البواطن؛ لنتهاياً لأنوار الحقائق، أو: الظاهرة: الممن، والباطنة: المحن. قال القشيري: قد تكلموا فى الظاهرة والباطنة وأكثروا.

(١) راجع تفسير الآية ٨ من سورة الحج (٥١٥/٣).

فالظاهرة: وجود النعمة، والباطنة: شهود المنعم، أو: الظاهرة: الدنيوية، والباطنة: الدينية. أو: الخلق والخلق، أو: نفس بلا زكّة، وقلب بلا غفلة، أو: عطاء ورضى. أو: الظاهرة: فى الأموال ونمائها، والباطنة: فى الأحوال وصفاتها، أو: الظاهرة: النعمة، والباطنة: العصمة، أو: الظاهرة: توفيق الطاعات، والباطنة: قبولها، أو: الظاهرة: صحبة العارفين، والباطنة: حفظ حُرْمَتِهِمْ وتعظيمهم. أو: الظاهرة: الزهد فى الدنيا، والباطنة: الاكتفاء بالله من الدنيا والعقبى. أو: الظاهرة: الزهد، والباطنة: الوجد. أو: الظاهرة: توفيق المجاهدة، والباطنة: تحقيق المشاهدة، أو: الظاهرة: وظائف النفس، والباطنة: لطائف القلب، أو: الظاهرة: اشتغالك بنفسك عن الخلق، والباطنة: اشتغالك بربك عن نفسك، أو: الظاهرة: طلبه، والباطنة: وجوده، أو: الظاهرة: أن تصل إليه، والباطنة: أن تبقى معه. هـ. ببعض المعنى.

ثم قال القشيري: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ...﴾ الآية: لم يخطوا أمثالهم، ولم يهتدوا إلى تحوّل أحوالهم هـ. يعنى: قلّدوا أسلافهم فى الإقامة مع الرسوم والأشكال، والانهماك فى الحظوظ، فعاقبهم ذلك عن السير والوصول. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأما من خالف أمثاله وأشكاله، وانقاد بكليته إلى مولاه، فقد استمسك بالعروة الوثقى، كما قال تعالى:

﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

قلت: قال فى الحاشية: لما ذكر حال الكافر المجادل ذكر حال المسلم، وعدّاه هنا بآلى، وفى قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ (١)، باللام؛ لأنه لما كان المجادل غير معين، ولم يخص له واحداً بعينه، عقّبه بحال من حصل منه مطلق الاستسلام، ومدّحه يتناول مدح من اتصف بأخص الاستسلام. أو: فى الآية الأخرى أتى به خاصاً، لما رتب عليه من الثواب الجزيل بقوله: ﴿فله أجره...﴾ الخ، الذى لم يذكر هنا إلا بعضه، فإن اللام تقتضى الاختصاص والقصد إلى الشيء. وهـ إلى: لا تقتضى ذلك. انظر ابن عرفة.

وقال السبكي: عدّاه هنا بآلى وهناك باللام؛ لأن معناه، مع اللام: أنه جعل وجهه - وهو ذاته ونفسه - سالماً لله، أى: خالصاً له، ومعناه، مع إلى: أنه سلم نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل، إذا دفع إليه. والمراد: التوكل عليه والتفويض إليه. هـ. أى: فهو أبلغ من اللام، ومثله البيضاوى.

(١) الآية ١١٢ من سورة البقرة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: يلقئ إليه بكليته، وينقطع إليه بجميع شراشه، بأن فوض أمره إليه، وأقبل بكليته عليه، ﴿وهو محسن﴾ فى أعماله. قال القشبرى: من أسلم نفسه، وأخلص فى الله قصده، فقد استمسك بالعروة الوثقى. هـ. فالاستسلام قد يكون بغير إخلاص، فلذلك قال: ﴿وهو محسن﴾. قاله المحشى. وقلت: وفيه نظر؛ فإن الحق تعالى إنما عبّر بالإسلام لا بالاستسلام، وإنما المعنى: أسلم وجهه فى الباطن، وهو محسن بالعمل فى الظاهر، ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾، أى: تعلق بأوثق ما يتعلق به؛ فالعروة: ما يستمسك به. والوثقى: تأنيث الأوثق. مكل حال المسلم المتركل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق جبل، فاحتاط لنفسه، بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين، مأمون انقطاعه. قال الهروى: أى: تمسك بالعقد الوثيق. وقال الأزهرى: أصله: من عروة الكلا، وهو: ماله أصل ثابت فى الأرض، من الشيح وغيره من الشجر المستأصل فى الأرض. ضربت مثلاً لكل ما يعتصم به، ويلجأ إليه. هـ.

وهو إشارة لكون التوحيد سبباً وأصلاً، والآخذ به، متصلاً بالله، لا يخشى انقطاعاً ولا هلاكاً، بخلاف الشرك، فإنه على الضد، كما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ...﴾ (١) الآية. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ...﴾ الآية (٢).

﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾ أى: صائرة إليه، فيجازى عليها.

﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾؛ ولم يسلم وجهه لله، ﴿فلا يحزنك كفره﴾؛ فلا يهكم شأنه، فسيفد علينا ونجازيه، ﴿إلىنا مرجعهم فننبئهم بما عملوا﴾، أى: فتعاقبهم على أعمالهم، ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾، أى: عالم بحقائق الصدور، وما فيها، فيجازى على حسبها، فضلاً عما فى الظواهر، ﴿نمتعهم قليلاً﴾، أى: نمتعهم زماناً قليلاً بدنياهم، ﴿ثم نضطرهم﴾؛ نلجئهم إلى عذاب غليظ شديد. شبه إلزامهم التعذيب، وإرهاقهم إليه، باضطرار المضطر إلى شئ. والغلظ: مستعار من الأجرام الغليظة، والمراد: الشدة والثقل على المعذب. عائداً بالله من موجبات غضبه.

الإشارة: ومن يلقئ بكليته إلى مولاه، وغاب عن كل ما سواه، وهو من أهل مقام الإحسان، بأن أشرقت عليه شمس العيان، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها أبداً. ومن أمارات الانقياد: ترك التدبير والاختيار، والرضا والتسليم لكل ما يبرز من عنصر الاقتدار، وترك الشكوى بأحكام الواحد القهار. ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾؛ فيوصل من يشاء برحمته، ويقطع من يشاء بعدله. ومن يجحد طريق الخصوص من أهل زمانه؛ فلا يحزنك، أيها العارف،

(١) الآية ٢٦ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية ٣١ من سورة الحج.

فعله، إلينا إياهم، وعلينا حسابهم، فستمتعهم بحظوظهم، والوقوف مع عوائدهم، زماناً قليلاً، ثم نضطرهم إلى غم الحجاب وسوء الحساب. والعياذ بالله.

ثم برهن على توحيد من يجب الاستسلام له، فقال:

﴿ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٥) ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٢٦) ﴿

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله ﴾؛ لوضح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره، فيضطرون إلى الإقرار بذلك، ﴿ قل الحمد لله ﴾ على إلزامهم والجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدتهم من شرك الأصنام، ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن ذلك يلزمهم إذا نهبوا عليه، ولم ينتهبوا، فالإضراب عن كلام محذوف، أى: فيجب عليهم أن يعبدوا الله وحده، لما اعترفوا، ولكنهم لا يعلمون، ﴿ لله ما في السموات والأرض ﴾ ملكاً وعبيداً، ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾، أى: الغنى عن حمد الحامدين، المستحق للحمد وإن لم يحمده.

الإشارة: قد اتفقت الملل على وجود الصانع. ثم وقفت العقول فى مقام الحيرة والاستدلال، وامتدت الأرواح والأسرار بأعناقها إلى معرفة الذات وشهودها، فمن وجدت عارفاً كاملاً سلك بها الطريق، حتى أوقعها على عين التحقيق، فأشرفت على البحر الزاخر، ففرقت فى بحر الذات وتيار الصفات، ثم رجعت إلى بر الشريعة لتدل غيرها على الوصول. وقل الحمد لله أن وجدت من يعرفك بالله، وأكثر الخلق حائدون عن العلم بالله.

ثم إن العلم بالله وصفاته وأسمائه لانهاية له، كما قال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٧) ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنْفُسٌ وَاحِدَةٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٢٨) ﴿

قلت: (ولو أنما فى الأرض) مذهب الكوفيين وجماعة: أن ما بعد «لو»: فاعل بفعل محذوف، أى: ولو ثبت كون ما فى الأرض.. الخ. ومذهب سيبويه: أنه مبتدأ، أى: ولو كون ما فى الأرض واقع، و(البحر): مبتدأ، و(يمده): خبره، أى: يمد ما ذكر من الأقلام. و(من بعده سبعة أبحر): مبتدأ وخبر. وحذف التمييز، أى: (مداداً)،

يدل عليه (يمده)، أو (سبعة): فاعل (يمده)، أى: يصب فيه سبعة أبحر، والجملة: حال، أى: ولو أن الأشجار أقلام، فى حال كون البحر ممدوداً، ما نفذت.. الخ. وجملة (يمده): خبر (البحر). ومن قرأ بالنصب فعطف على اسم «إن»، وهو (ما).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو أن ما فى الأرض من شجرة ﴿١﴾ من الأشجار ﴿٢﴾ أقلام ﴿٣﴾، والبحر يمد تلك الأقلام، يصب فى ذلك البحر ﴿٤﴾ سبعة أبحر ﴿٥﴾، وتلك الأقلام كلها تكتب كلمات الله الدالة على عظمته وكمالاته، ﴿٦﴾ ما نفذت ﴿٧﴾ كلماته، ونفذت الأقلام، وجفت تلك الأبحر، وهذا كقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّى ﴿١﴾﴾ مع زيادة المبالغة بذكر السبعة أبحر، يقال: مد الدواة وأمدّها: جعل فيها مداداً، فجعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة، والأبحر السبعة مدادها، وفروع الأشجار كلها أقلام تكتب كلماته تعالى، فلو قدر ذلك لتكسرت الأقلام وجفت الأبحر، قبل أن تنفذ كلماته تعالى؛ لأنها تابعة لعلمه، وعلمه لا نهاية له.

وإنما وحد الشجرة؛ لأن المراد تفصيل الشجر وتقصيها؛ شجرة شجرة، حتى ما يبقى من جنس الشجر، ولا واحدة إلا وقد برئت أقلاماً. وأوثر الكلمات، وهى من حيز جمع القلة، على الكلم، الذى هو جمع الكثرة؛ لأن المعنى: أن كلماته لا يفى بها الأقلام؛ فكيف بكلامه الكثير؟

﴿١﴾ إن الله عزيز ﴿٢﴾ لا يعجزه شيء، ﴿٣﴾ حكيم ﴿٤﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته شيء، فلا تنفذ كلماته وحكمته. والآية جواب اليهود، سألوا رسول الله ﷺ، إن قلنا: الآية مدنية، أو: أمروا وقد قرئ أن يسألوه عن قوله: ﴿وَمَا أوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (٢)، فقالوا: هل علينا أم قومك؟ فقال ﷺ: «كلاً قد عنيت»، فقالوا: أليس فيما قد أوتيت أنا قد أوتينا التوراة، فيها علم كل شيء؟ فقال ﷺ: «هى فى علم الله قليل»، فأنزل الله: ﴿ولو أنما...﴾ الخ (٣).

ولما ذكر شأن كلامه وعلمه؛ ذكر شأن قدرته، فقال: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾، أى: إلا كخلق نفس واحدة، وبعث نفس واحدة. فحذف، للعلم به، أى: القليل والكثير فى قدرة الله تعالى سواء، فلا يشغله شأن عن شأن، وقدرته عامة التعلق، تنفذ أسرع من لمح البصر. قال الغزالي فى الإحياء: ومن غريب حكم الآخرة أن الرجل يدعى به إلى الله تعالى، فيحاسب ويؤرخ، وتوزن له حسناته وسيئاته، وهو فى ذلك كله يظن أن الله لم

(١) الآية ١٠٩ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

(٣) أخرجه الطبرى فى التفسير (٨١/٢١) عن ابن عباس. وذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٥٨) بدون إسناد.

يحاسب إلا هو، ولعل آلاف آلاف ألف مثله فى لحظة واحدة. وكل منهم يظن ظنه، لا يرى بعضهم بعضاً، ولا يسمعه، وهو قوله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ هـ. ﴿إن الله سميع﴾ لقول من ينكر البعث من المشركين، ﴿بصير﴾ بأعمالهم، فيجازيهم.

الإشارة: أوصاف البارى سبحانه كلها كاملة، غير محصورة ولا متناهية؛ من علم، وقدرة، وإرادة، وكلام، وغيرها. وأوصاف العبد كلها قصيرة متناهية، وقد يمد الحق عبده بصفة من صفاته التى لا تنتهى (١)، فإذا أمدّه بصفة الكلام تكلم بكلام تعجز عنه العقول، لا يقدر على إمساكه، فلو بقى يتكلم عمره كله ما نفذ كلامه، حتى يسكنه الحق تعالى. وقد كان بعض السادات يقول لأصحابه، حين يتكلم عليهم: إني لأستفيد من نفسى كما تستفيدون أنتم منى، وذلك حين الفيض الإلهى. وإذا أمدّه بصفة القدرة، قدر على كل شيء، وإذا أمدّه بصفة السمع؛ سمع كل شيء، وإذا أمدّه بصفة البصر، أبصر كل موجود.. وهكذا. وهذه الأوصاف كامنة فى العبد من حيث معناه، احتجبت بظهور أصدادها؛ صوفاً لسر الربوبية. والله تعالى أعلم.

ثم برهن على كمال أوصافه، فقال:

﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٣٠) الَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (٣٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار﴾؛ يدخل ظلمة الليل فى ضوء النهار، إذا أقبل الليل، ﴿ويولج النهار فى الليل﴾؛ يدخل ضوء النهار فى ظلمة الليل، إذا أقبل النهار. أو: بإدخال جزء

(١) أى: يمد الله عبده المخلص ببعض أنوار صفة من صفاته، فقد يمدّه بنور من صفة العلم، أو بنور من صفة القدرة، أو بنور من صفة العزة، أو بنور من صفة الكلام.. الخ. أما أن يمدّه بصفة لا متناهية من صفاته اللامتناهية.. فهو أمر غير متصور، فالرب رب، والعبد عبد، والله ليس كمثله شيء.

أحدهما فى الآخر؛ بزيادة الليل أو النهار. ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ لمنافع العباد، ﴿كل﴾ ، أى: كل واحد من الشمس والقمر ﴿يجرى﴾ فى فلكه، ويقطعه، ﴿إلى أجل مسمى﴾ ؛ إلى يوم القيامة، أو: إلى وقت معلوم للشمس، وهو تمام السنة، والقمر إلى آخر الشهر. ﴿وأن الله بما تعملون خبير﴾ ؛ عالم بكنهه، لا يخفى عليه شئ. فدل، بتعاقب الليل والنهار، أو بزيادتهما ونقصانهما، وجرى النيرين فى فلكهما، على تقدير وحساب معلوم، وبإحاطته بجميع أعمال الخلق، على عظيم قدرته، وكمال علمه وحكمته.

﴿ذلك﴾ شاهد ﴿بأن الله هو الحق﴾ ، وما سواه باطل، ﴿وأن ما تدعون﴾ (١) من دونه الباطل ؛ المعدوم فى حد ذاته، لا حقيقة لوجوده. أو: ذلك الذى وصف بما وصف به، من عجائب قدرته وباهر حكمته، التى يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون، فكيف بالجماد الذى يدعونه من دون الله؟ إنما هو بسبب أنه الحق الثابت الإلهية، وأن من دونه باطل ألوهيته، ﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾ ، أى: العلى الشأن، الكبير السلطان.

﴿ألم تر أن الفلك﴾ ؛ السفن ﴿تجري فى البحر بنعمة الله﴾ ؛ بإحسانه ورحمته، أو: بالريح، لأن الريح من نعم الله. أو: ما تحمله السفن من الطعام والأرزاق والمتاع، فالباء، حينئذ، للأرزاق، وهو استشهاد آخر على باهر قدرته، وكمال حكمته، وشمول إنعامه. ﴿ليرىكم من آياته﴾ ؛ من عجائب قدرته فى البحر إذا ركبتموه، ﴿إن فى ذلك لآيات﴾ دالة على وحدانيته وكمال صفاته؛ ﴿لكل صبار﴾ فى بلائه، ﴿شكور﴾ لنعمائه. وهما من صفة المؤمن. فالإيمان نصفان؛ نصف شكر ونصف صبر، فلا يعتبر بعجائب قدرته إلا من كان هكذا.

﴿وإذا غشيهم﴾ ، أى: الكفار، أى: علامهم وغطاهم ﴿موج كالظلل﴾ ، أى: كشيء يظل من جبل، أو سحاب، أو غيرهما، فالموج الكبير يرتفع فيعود كالظلل، جمع ظلة، وهو ما أظلك من جبل أو سقف. فإذا غشيهم ذلك، ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ ، لا يدعون معه غيره، لزوال ما ينازع الفطرة بالقهرية. ﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾ ؛ مقيم على الطريق القصد، باق على الإيمان، الذى هو التوحيد، الذى كان منه فى حال الشدة، لم يعد إلى الكفر، أو: متوسط فى الظلم والكفر، انزجر بعض الانزجار، ولم يغل فى الكفر والعدوان. أو: مقتصد فى الإخلاص الذى كان عليه فى البحر، يعنى: أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط، إلا النادر، ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ أى: بحقيقتها ﴿إلا كل ختار﴾ ؛ غدار. والختار: أقبح الغدر، ﴿كفور﴾ لنعم ربه. وهذه الكلمات متقابلة؛ لفظاً ومعنى، فختار: مقابل صبار، وكفور: مقابل شكور؛ لأن من غدر لم يصبر، ومن كفر لم يشكر. والله تعالى أعلم.

(١) قرأ أبو عمرو وحفص والكسائى ويعقوب: «ما يدعون»؛ بالغيب.. انظر: الإنحاف (٢/٣٢٤).

الإشارة: ألم تر أن الله يُولِّج ليل القبض فى نهار البسط، ونهار البسط فى ليل القبض، فهما يتعاقبان على العبد تعاقب الليل والنهار، فإذا تأدب مع كل واحد منهما؛ زاد بهما معاً، وإلا نقص بهما، فأدأب القبض: الصبر، والرضا، والسكون تحت مجارى الأقدار. وأدأب البسط: الحمد، والشكر، والإمساك عن الفضول فى كل شيء. وسخر شمس العيان وقمر الإيمان، كلٌ يجرى إلى أجل مسمى؛ فقمر الإيمان يجرى إلى طلوع شمس العرفان، وشمس العرفان إلى ما لا نهاية له من الأزمان. ذلك بأن الله هو الحق، وما سواه باطل. فإذا جاء الحق، بطلوع شمس العيان، زهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً. وإنما أثبتته الوهم والجهل. ألم تر أن سفن الأفكار تجرى فى بحار التوحيد، لترى عجائب الأنوار وغرائب الأسرار، من أنوار الملكوت وأسرار الجبروت؟ إن فى ذلك لآياتٍ لكل صَبَّارٍ على مجاهدة النفس، شكورٍ على نعمة الظَّفَرِ بحضرة القدوس.

وإذا غشيهم، فى حال استشرافهم على بحر الحقيقة، موج من أنوار ملكوته، فكادت تدهشهم، تضرعوا والتجأوا إلى سفينة الشريعة، حتى يتمكنوا، فلما نجاهم إلى بر الشريعة، فمنهم مقتصد؛ معتدل بين جذب وسلوك، بين حقيقة وشريعة، ومنهم: غائبٌ عليه السكر والجذب، ومنهم: غائبٌ عليه الصحر والسلوك. وكلهم أولياء الله، ما ينكرهم ويجحدهم إلا كل خنَّار جاحد. قال القشيري: «وإذا غشيهم موج كالظلل»؛ إذا تلاطمت عليهم أمواج بحار التقدير؛ تمدوا أن تلفظهم تلك البحار إلى سواحل السلامة، فإذا جاء الحق بتحقيق مناهم عادوا إلى رأس خطاياهم.

فَكَمْ قَدْ جَهِلْتُمْ، ثُمَّ عُدْنَا بِحِلْمِنَا، أَهْبَاءَنَا: كَمْ تَجْهَلُونَ وَنَحْنُ!

ثم ختم بالوعظ والتذكير، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوجَاؤَ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾

قلت: (بأى أرض)؛ قال فى المصباح: الأفسح: استعمال أى، فى الشرط والاستفهام بلفظ واحد، للمذكر والمؤنث، وعليه قوله تعالى: ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ (١)، وقد تطابق فى التذكير والتأنيث، نحو: أى رجلٍ، وأى وأية امرأة. وفى الشاذ: بأية أرض تموت. هـ.

(١) من الآية ٨١ من سورة غافر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾؛ اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية، بطاعته وترك معصيته. ﴿وَاحْشُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ شيئاً، لا يقضى عنه شيئاً، ولا يدفع عنه شيئاً. والأصل: لا يجزى فيه، فحذف. ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾، وتغيير النظم فى حق الولد، بأن أكده بالجملة الاسمية، وبزيادة لفظ (هو)، وبالتعبير بالمولود؛ للدلالة على حسم أطماعهم فى أن ينفعوا آباءهم الذين ماتوا على الكفر؛ بالشفاعة فى الآخرة. ومعنى التأكيد فى لفظ المولود: أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذى ولد منه لم تقبل منه، فضلاً عن أن يشفع لأجداده؛ لأن الولد يقع على الولد وولد الولد، بخلاف المولود؛ لأنه لما ولد منك. كذا فى الكشف، قلت: وهذا فى حق الكفار، وأما المؤمنون؛ فينفع الولد والده، والوالد ولده بالشفاعة، كما ورد فى قارئ القرآن والعالم، وكل من له جاه عند الله، كما تقدم فى سورة مريم (١).

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ وَعَدَ اللَّهُ﴾ بالبعث والحساب والجزاء، ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن خلفه، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾؛ بزخارفها الغرارة؛ فإن نعمها دانية، ولذاتها فانية، فلا تشغلکم عن التأهب للقاء، بالزهد فيها، والتفرغ لما يرضى الله، من توحيده وطاعته، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ﴾، أى: لا يعرضنكم لخطر الغرة بالله وبحلمه، أو: لا يوقعنكم فى الجهل بالله والغرة به، ﴿الْغُرُورُ﴾ أى: الشيطان، أو: الدنيا، أو: الأمل. وفى الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها»، وتمنى على الله الأمانى» (٢). وفى الحديث أيضاً: «كفى بخشية الله علماً، وبالاغترار به جهلاً».

﴿إِنْ اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى: وقت قيامها، فلا يعلمه غيره، فتأهبوا لها، قبل أن تأتیکم بغتة. ﴿وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾: عطف على ما يقتضيه الظرف من الفعل، أى: إن الله يثبت عنده علم الساعة، وينزل الغيث فى وقته، من غير تقديم ولاتأخير، وفى محله، على ما سبق فى التقدير، ويعلم كم قطرة ينزلها، وفى أى بقعة يمطرها. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾؛ أذكر أم أنثى، أتم أم ناقص، وشقى أو سعيد، وحسن أو قبيح. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير أو شر، ووفاق وشقاق، فريما كانت عازمة على الخير فعملت شراً، أو على شر فعملت خيراً. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أى: أين تموت، فريما أقامت بأرض، وضربت أوتادها، وقالت: لا أبرحها، فترمى بها مرامى القدر حتى تموت بمكان لم يخطر ببالها.

روى أن ملك الموت مر على سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه، فقال الرجل: من هذا؟ فقال: ملك الموت، فقال: كأنه يريدنى، فسأل سليمان أن يحمله الريح ويلقيه ببلاد الهند، ففعل، ثم قال ملك الموت لسليمان: كان دوام نظرى إليه تعجباً منه، لأننى أمرت أن أقبض روحه بالهند، وهو عندك. هـ.

(١) راجع إشارة الآية ٨٧ من سورة مريم.

(٢) سبق تخريج الحديث عند إشارة الآيات: ٣٨ - ٤٠ من سورة العنكبوت.

وجعل العلم لله والدراية للعبد، لما فى الدراية من معنى التكسب والحيلة، فهذه الأمور الخمسة قد اختص الله بعلمها. وأما المنجم الذى يُخبر بوقت الغيث والموت؛ فإنه يقول بالقياس والنظر فى المطالع، وما يدرك بالدليل لا يكون غيباً، على أنه مجرد الظن، والظن غير العلم. وعن ابن عباس: من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب. وجاءه يهودى منجم، فقال: إن شئت أنبأتك أنه يحم ابنك ويموت بعد عشرة أيام، وأنت لا تموت حتى تعمى، وأنا لا يحول على الحول حتى أموت. قال له: أين موتك؟ قال: لا أدري، فقال ابن عباس: صدق الله: «ما تدرى نفس بأى أرض تموت». ورأى المنصور فى منامه ملك الموت، وسأله عن مدة عمره، فأشار بأصابعه الخمس، فعبّرها المعبرون بخمس سنين، وبخمس أشهر، وبخمس أيام. فقال أبو حنيفة رضي الله عنه: هو إشارة إلى هذه الآية، فإن هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا الله. هـ.

وقال شيخ شيوخنا، سيدى عبدالرحمن الفاسى فى حاشيته: قيل: إن الله تعالى يعلم الأشياء بالوسم والرسم، والرسم يتغير، والوسم لا يتغير، فقد أخفى الله تعالى الساعة، ولم يخف أمارتها، كما جاء عن صاحب الشرع. وكذا قد يطلع أولياءه على بعض غيبه، ولكن لا من كل وجوهه، فقد يعلم نزول المطر من غير تعيين وقته واللحظة التى ينزل فيها ومقداره، وبالجمله فعلم ما يكون من الخواص، جملة لا تفصيلي، وجزئى لا كلى، ومقيد لا مطلق، وعرضى لا ذاتى، بخلاف علمه تعالى. هـ.

قال المحلى: روى البخارى؛ عن ابن عمر حديث مفاتيح الغيب خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَ عِلْمِ السَّاعَةِ...﴾ (١) إلى آخر السورة.. ونقل ابن حجر عن ابن أبى جمرة، بعد كلام، ما نصه: والحكمة فى جعلها خمسة: الإشارة إلى حصر العوالم فيها، وفى قوله: ﴿مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾: الإشارة إلى ما يزيد فى الإنسان وما ينقص. وخص الرحم بالذكر، لكون الأكثر يعرفونها بالعادة، ومع ذلك فنفى أن يعرفها أحد بحقيقتها، فغيرها بطريق الأولى. وفى قوله: لا يعلم متى يأتى المطر: إشارة إلى أمور العالم العلوى، وخص المطر مع أن له أسباباً قد تدل بجرى العادة على وقوعه، لكنه من غير تحقيق. وفى قوله: «لا تدرى نفس بأى أرض تموت»: إشارة إلى أمور العالم السفلى، مع أن عادة أكثر الناس أن يموت ببلده، ولكن ليس ذلك حقيقة، وإن مات ببلده لا يعلم بأى بقعة يُدفن فيها، ولو كان هناك مقبرة لأسلافه، بل قبر أعداه هو له.

وفى قوله: «ولا يعلم ما فى غد إلا الله»: إشارة إلى أنواع الزمان، وما فيها من الحوادث، وعبر بلفظ (غد)؛ لكون حقيقته أقرب الأزمنة إليه، وإذا كان مع قربه لا يعلم حقيقة ما يقع فيه، مع إمكان الأمانة والعلامة، فما بعد

(١) أخرج حديث مفاتيح الغيب، البخارى فى (الاستسقاء، باب لا يدرى متى يجىء المطر إلا الله ح ١٠٣٩).

عنه أولى. وفي قوله: «متى تقوم الساعة إلا الله»، إشارة إلى علوم الآخرة، فإن يوم القيامة أولها، وإذا نفى علم الأقرب انتفى علم ما بعد، فجمعت الآية أنواع الغيوب، وأزالت جميع الدعوى الفاسدة. وقد بين في قوله تعالى، في الآية الأخرى، وهي قوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ...﴾ (١) الآية، أن الاطلاع على شيء من هذه الأمور لا يكون إلا بتوقيف. هـ ملخصاً.

والحاصل: أن العوالم التي اختص الله بها خمسة: عالم القيامة وما يقع فيه، والعالم العلوى وما ينشأ منه، وعالم الأرض وما يقع فيه، وعالم الإنسان وما يجرى عليه، وعالم الزمان وما يقع فيه. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ عليم بالغيوب، خبير بما كان وما يكون. وعن الزهري: أكثرُوا من قراءة سورة لقمان؛ فإن فيها أعاجيب هـ.

الإشارة: يا أيها الناس المتوجهون إلى الله، إن رَعَدَ الله بالفتح، لمن أنهض همته إليه، حق، فلا تغرنكم الحياة الدنيا؛ بأشغالها، عن النهوض إليها، ولا يغرنكم بكرم الله الشيطان الغرور، فيغركم بكرم الله، ويصرفكم عن المجاهدة والمكابدة؛ إذ لا طريق إلى الوصول إلا منهما، إن الله عنده علم الساعة التي يفتح على العبد فيها، وينزل غيث الموابب والواردات، ويعلم ما فى أرحام الإرادة، من تربية المعرفة واليقين، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً من زيادة الإيمان ونقصانه، وما تلقاه من المقادير الغيبية، فيجب عليها التفويض والاستسلام، وانتظار ما يفعل الله بها فى كل غدا، وما تدرى نفس بأى أرض من العبودية تموت فيها، إن الله عليم خبير.

قال القشيري: فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ : خوْفهم، تارة، بأفعاله، فيقول: ﴿اتَّقُوا يَوْمًا﴾ (٢)، وتارة بصفاته، فيقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ (٣)، وتارة بذاته، فيقول: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (٤). هـ والله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.



(١) الآيتان ٢٦ - ٢٧ من سورة الجن.

(٢) جاء فى آيات كثيرة، منها الآية ٤٨ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ١٤ من سورة الطلق.

(٤) من الآية ٢٨ من سورة آل عمران.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

مكية، وقيل: إلا قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ (١)، نزلت بالمدينة، وهي ثلاثون آية، أو: تسع وعشرون. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ...﴾ إلى آخر الآيات، فإنها كالاستدلال على قيام الساعة، التي خُوف بها في ختم السورة بعد تقرير الرسالة. وقيل: المناسبة: هي ما بعد هذه من تبیین الرسالة، التي هي مستند ما ذكر قبلها من المعاد ودلائل التوحيد. وعن جابر: أنه ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿الْم﴾ السجدة. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، ويقول: «هما مفضلتان على كل سورة من القرآن بسبعين حسنة، ومن قرأهما كتبت له سبعون حسنة، ومحي عنه سبعون سيئة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ
بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢﴾

قلت: (تنزيل): إما خبر عن (الْم)، إن جعل اسماً للسورة، أو: خبر عن محذوف، أي: هذا تنزيل. أو: مبتدأ، خبره: (لا ريب فيه). وعلى الأول (لا ريب): خبر بعد خبر، و(من رب العالمين): خبر ثالث. أو: خبر عن «تنزيل»، و(لا ريب فيه): معترض. والضمير في (فيه): راجع إلى مضمون الجملة، كأنه قيل: لا ريب في ذلك، أي: كونه منزلاً من رب العالمين، ودام: منقطعة بمعنى: «بل».

يقول الحق جل جلاله: ﴿الْم﴾؛ أيها المصطفى المقرب، هذا الذي تتلوه هو ﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه﴾، لأنه معجز للبشر، ومثله أبعد شيء عن الريب، وهو ﴿من رب العالمين﴾ لا محالة. ﴿أم يقولون افتراه﴾، أي: اختلقه محمد من عنده، وهو إنكار لقولهم، وتعجيب منه؛ لظهور أمره في عجزهم عن الإتيان بسورة منه. قال تعالى: ﴿بل هو الحق﴾ الثابت ﴿من ربك﴾، ولم تفتره، كما زعموا؛ تعنتاً وجهلاً، أنزله عليك ﴿لتنذر قوماً﴾ أي: العرب، ﴿ما أتاهم من نذير من قبلك﴾، بل طالت عليهم الفترة من زمن إسماعيل وعيسى - عليهما السلام - ﴿لعلهم يهتدون﴾ إلى الصواب من الدين. والترجي مصروف إلى رسول الله ﷺ، كما كان ﴿لعله يتذكر﴾ (٢) مصروفاً إلى موسى وهارون.

(١) الآية ١٨. (٢) من الآية ٤٤ من سورة طه.

الإشارة: (آلم) الألف: ألف المحبون قُربى، فلا يصبرون على. اللام: لمع نوري لقلوب السائرين، فزاد شوقهم إلى. الميم: ملك الواصلون ملكى وملكوته، فلا يغيبون على. تنزيل الكتاب، إذا طال أمد لقاء الأحباب، فأعزّ شىء على المحبين كتاب الأحباب. أنزلت على أحابى كتابى، وحملت إليهم بالرسول خطابى، ولا عليهم إن قرع أسماعهم عتابى، فإنهم منى فى أمان من عذابى. ﴿أم يقولون افتراه﴾، إنكار الأعداء على المحبين سُنة لازمة. فإن البس الحق على الأعداء فلا يضركم، ولا عليكم، فلن [صحبة] (١) الحبيب للحبيب ألا ما تكون عند فقد الرقيب. قاله القشيري.

ثم ذكر المقصود بالذات، وهو الاستدلال على البعث، فقال:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مقدار ﴿ستة أيام، ثم استوى على العرش﴾ أى: استولى بقهرية ذاته. وسئل مالك عنه، فقال: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة. هـ. ولم تكلم الصحابة على الاستواء، بل أمسكوا عنه، ولذلك قال مالك: السؤال عنه بدعة. وسيأتى شىء فى الإشارة. ﴿ما لكم من دونه﴾؛ من دون الله ﴿من ولي ولا شفيع﴾ أى: إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً، أى: ناصراً ينصركم، ولا شفيعاً يشفع لكم، ﴿أفلا تتذكرون﴾؛ تتعلمون بمواعظ الله.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أى: أمر الدنيا. وما يكون من شؤونه تعالى فى ملكه، فهو كقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (٢)، أى: يبدیه لا يبتديه. وهو إشارة إلى القضاء التفصيلى، الجزئى، لا الكلى، فإنه كان دفعة. يكون ذلك التدبير ﴿من السماء إلى الأرض﴾، فيدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية، نازلة آثارها إلى الأرض. ﴿فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ من أيام الدنيا.

(١) فى الأصول: محبة، والمثبت هو الذى فى القشيري، وهو المناسب للسياق.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الرحمن.

قال الأقليشي: جاء في حديث: «إن بُعد ما بين السماء والأرض، وما بين سماء إلى سماء، مسيرة خمسمائة سنة». وفي حديث آخر: «إن بين ذلك نيفاً وسبعين سنة»، وإنما وقع الاختلاف في ذلك بالنسبة إلى سير الملائكة. وإن سرعة بعضها أكثر من سرعة بعض. كما يقول القائل: من موضع كذا إلى كذا مسيرة شهر للفارس وشهرين للراجل. وعليه يخرج قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. وقال في آية أخرى: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (١). وهكذا الوجود من علوه إلى سقله، من الملائكة من يقطع في مدة ما، ويقطعه غيره في أكثر منها أو أقل. هـ. وقيل: المعنى: أنه يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة، ثم يعرج إليه ذلك الأمر، فيحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة، أو خمسين ألف سنة. فقد قيل: إن مواقف يوم القيامة خمسون موقفاً، كل موقف ألف سنة. وقد حكى هذا ابن عطية، فقال: يدبر الأمر في مدة الدنيا، ثم يعرج إليه يوم القيامة. ويوم القيامة: مقداره ألف سنة؛ من عدنا. وهو على الكفار قدر خمسين ألف سنة؛ لهوله، حسبما في سورة المعارج. هـ.

قلت: والتحقيق، في الفرق بين الآيتين، أن الحق تعالى، حيث لم يختص بمكان دون مكان، وكانت الأمكنة في حقه تعالى كلها واحدة، وهو موجود معها وفيها بعلمه وأسرار ذاته، كان العروج إنما هو إليه على كل حال، بعدت المسافة أو قربت. لكن لما علق العروج بتدبير الأمور وتنفيذها، قرب المسافة؛ ليعلم العبد أن القضاء نافذ فيه بسرعة. ولما علق عروج الملائكة والروح إلى مطلق الذات المقدسة بعد المسافة؛ زيادة في علو شأنه ورفعة قدره. ركل هذا العروج في دار الدنيا. على قول من علق (في يوم) بتعرج في سورة المعارج. فتأمل.

﴿ذلك عالم الغيب والشهادة﴾، أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات العظام هو عالم ما غاب عن الأبصار من عجائب أسرار عالم الملكوت، وما شوهد في عالم الحس من عجائب عالم الملك. ﴿العزیز﴾؛ الغالب أمره وتدبيره، ﴿الرحيم﴾؛ البالغ لطفه وتيسيره.

الإشارة: اعلم أن الحق تعالى تجلى بهذه الكائنات، قطعة من نور ذاته، على ترتيب وتمهيد. فتجلى بالعرش، ثم بالماء، فكان عرشه على الماء، ثم بالكرسی، ثم بالأرض، ثم بالسموات، ولما أكمل أمر مملكته تجلى بطور صمداني رحمانی من بحر جبروته، استوى به على عرشه؛ لتدبير ملكه، ثم تجلى بآدم على صورة ذلك التجلى. ولذلك قال ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته». وفي رواية: «على صورة الرحمن». وبذلك التجلى يتجلى يوم القيامة لفصل عباده، ولرويته - باعتبار العامة -، وهذا التجلى كله، من جهة معناه، متصل بسائر التجليات،

(١) الآية ٤ من سورة المعارج.

جزئى من جهة تشكيله للمعنى الكلى، والفرق بينه وبين التجليات الظاهرة للحس: أن التجلى المستولى غير مُرتدٍ برداء الحس؛ إذ لا عبردية فيه، ولا قهرية تلحقه. ولأنه لم يظهر للعيان حتى يحتاج إلى رداء، لأن كلزه ما زال مدفوناً، حيث ارتفع فوق تجليات الأكوان. فتأمل، وسَلِّمْ، إن لم تفهم، ولا تبادر بالإنكار حتى تصحب الرجال، فيخوضون بك بحر الأحدية الحقيقية، فتفهم أسرار التوحيد. وبالله التوفيق.

ثم كمل ما بقى من أرصافه، فقال:

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۖ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۚ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۚ وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ۝ ١٠ ﴾

قلت: (الذي): صفة للعزیز، أو: خبر عن مضمحل. ومن قرأ «خلقته»؛ بالفتح (١)؛ فصفة لكل، ومن سكته؛ فبدل منه، أى: أحسن خلق كل شيء.

يقول الحق جل جلاله فى وصف ذاته: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ أى: أبدع خلق كل شيء، أتقنه على وفق حكمته. أر: أتقن كل شيء من مخلوقاته، فجعلهم فى أحسن صورة. ثم ﴿بدأ خلق الإنسان﴾؛ آدم ﴿من طين﴾، ثم جعل نسله ﴿من سلاله﴾ أى: نطفة مسلوقة من سائر البدن، ﴿من ماء﴾ أى: منى، وهو بدل من سلاله، ﴿مهيّن﴾؛ ضعيف حقير. ﴿ثم سواه﴾ أى: سوى صورته فى أحسن تقويم، ﴿ونفخ فيه من روحه﴾، أضافه إلى نفسه، تشريفاً، إشارة إلى أنه خلق عجيب، وأن له شأنًا ومناسبة إلى حضرة الربوبية، ولذلك قيل: من عرف نفسه عرف ربه. وقد تقدم فى سورة الإسراء، فى الكلام على الروح، وجه المعرفة منه (٢). ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ لتسمعوا كلامه، وتبصروا آثار قدرته وعجائب حكمته، وتعقلوا، فتعرفوا صانعكم ومدير أمركم. ﴿قليلًا ما تشكرون﴾ أى: تشكرون شكرًا قليلًا على هذه النعم؛ لقلة التدبر فيها.

(١) قرأ نافع وعاصم وحمره والكسائي: «خلقته»؛ بفتح اللام، فعلاً ماضياً، وقرأ الباقون: بسكونها؛ بدل من «كل»؛ بدل احتمال. انظر: الإنحاف (٢/٣٦٦).

(٢) راجع إشارة الآية ٨٥ من سورة الإسراء. (٣/٢٢٨ - ٢٣٠).

﴿وقالوا﴾ : منكربين للبعث: ﴿أئذا ضللنا في الأرض﴾ ، أى: صرنا تراباً، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض، لا نتميز منه، كما يضل الماء في اللبن. أو: غبنا في الأرض بالدفن فيها، يقال: ضلَّ؛ كضرب، وضلَّ؛ كفرح. وانتصب الظرف في (أذا) بقوله: ﴿أئذا لفي خلق جديد﴾ . أى: أنبعث، ونجدد، إذا ضللنا في الأرض؟. والقائل لهذه المقالة أبى بن خلف، وأسد إليهم؛ لرضاهم بذلك، ﴿بل هم بقاء ربهم كافرون﴾ ، جاحدون. لما ذكر كفرهم بالبعث؛ أضرب عنه إلى ما هو أبلغ، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة، لا بالبعث وحده. وقال المحشى: أى: ليس لهم جحود قدرته تعالى على الإعادة؛ لأنهم يعترفون بقدرته، ولكنهم اعتقدوا ألا حساب عليهم، وأنهم لا يلقون الله تعالى، ولا يصيرون إلى جزائه. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل ما أظهر الحق تعالى: من تجلياته الكونية؛ فهي في غاية الإبداع والاتفاق في أصل نشأتها، كما قال صاحب العينية:

وَكُلُّ قَبِيحٍ، إِنْ نَسَبْتَ لِحُسْنِهِ أَتَكَ مَعَانِي الْحُسْنِ فِيهِ تُسَارِعُ
يُكَمِّلُ نَقْصَانَ الْقَبِيحِ جَمَالَهُ فَمَا تَمَّ نَقْصَانٌ، وَلَا تَمَّ بِأَشْعٍ (١)

وأكملها وأعظمها: خلقه الإنسان، الذي خلق على صورة الرحمن، حيث جعل فيه أوصافه؛ من قدرة، وإرادة، وعلم، وحياة، وسمع، وبصر، وكلام، وهىء لحضرة القدس ومحل الأنس، وسخر له جميع الكائنات، وهىء لحمل الأمانة، إلى غير ذلك مما خص به عبده المؤمن. وأما الكافر فهو في أسفل سافلين. قال الورتجبي: ذكر حسن الأشياء، ولم يذكر هنا حسن الإنسان؛ غيره، لأنه موضع محبته، واختياره الأزلي، كقول القائل:

وكم أبصرت من حُسنٍ، ولكن عليك، من الورى، وقع اختياري

قال الواسطي: الجسم يستحسن المستحسنات، والروح واحدة فردانية، لا تستحسن شيئاً. وقال ابن عطاء في قوله: «ثم سواء...»: قومه بفتون الآداب، ونفخ فيه من روحه الخاص، الذي، به، فضله على سائر الأرواح، لما كان له عنده من محل التمكين، وما كان فيه من تدبير الخلافة، ومشافهة الخطاب. بعد أن قال الورتجبي: -: أخص الخصائص هو ما سقط من حُسن تجلّى ذاته في صورته، كما ذكر بقوله: «ونفخ فيه من روحه». هـ.

ثم ذكر أمر اللقاء الذي أنكره، فقال:

﴿قُلْ يَتُوبُكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١١) وَلَوْ تَرَىٰ
إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو أُرُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا

(١) انظر اللادرات العينية (٧٦ - ٧٧).

إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَهَذَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا يَمَانِسِيَّتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ
وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا
خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾ ؛ يقبض أرواحكم فتموتون ،
﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ ؛ بالبعث للحساب والعقاب . وهذا معنى لقاء الله الذي أنكروه . والتوفى : استيفاء الروح ،
أى : أخذها ، من قولك : توفيت حقى من فلان ، إذا أخذته وأفياً من غير نقصان . وعن مجاهد : زويت الأرض لملك
الموت ، وجعلت مثل الطست ، يتناول منها حيث يشاء (١) . وعن مقاتل والكلبي : بلغنا أن اسم ملك الموت
« عزرائيل » ، وله أربعة أجنحة : جناح بالشرق وجناح بالمغرب ، والخلق بين رجليه ، ورأسه وجسده كما بين السماء
والأرض ، وله الدنيا مثل راحة اليد ، فهو يقبض أنفس الخلائق بمشارك الأرض ومغاريها ، وله أعوان من ملائكة
الرحمة وملائكة العذاب . وعن معاذ بن جبل : أن لملك الموت حربة ، تبلغ ما بين المشرق والمغرب ، وهو يتصفح
وجوه الموتى ، فما من أهل بيت إلا وهو يتصفحهم كل يوم مرتين - وفي حديث آخر ، خمس مرات - فإذا رأى
إنساناً قد انقضى أجله ؛ ضربه بتلك الحربة . وقال : الآن يزار بك عسكر الأموات (٢) .

فإن قيل : ما الجمع بين قوله : ﴿ تَوَفَّيْتُهُ رُسُلَنَا ﴾ (٣) و﴿ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ (٤) و﴿ قل يتوفاكم ملك
الموت ﴾ وقوله : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ ﴾ (٥) ؟ فالجواب : أن توفى الملائكة : القبض والنزع ، وتوفى ملك الموت
الدعاء والأمر ، يدعو الأرواح فتجيبه ، ثم يأمر أعوانه بقبضها ، ثم يذهبون بها إلى عليين . وقبض الحق تعالى : خلق
الموت فيه . والحاصل : أن قبض الملك : المباشرة ، وقبض الحق : الإخراج ؛ حقيقة .

قال الورتجبي : قال الحسن : ملك الموت هو الموكل بأرواح بنى آدم ، وملك الفناء موكل بأرواح البهائم . فانظر
فيه . وأما حديث ملكي الموت والحياة ، فقال العراقي : لم أجد له أصلاً . ويعنى بملك الحياة : كون الأرواح أنفاس ملك
الحياة ؛ كما فى الإحياء . ومذهب أهل السنة قاطبة : أن ملك الموت هو الذى يقبض جميع الأرواح ، من بنى آدم

(٢) ذكره البغوى فى تفسيره (٣٠٢/٦) .

(٤) من الآية ٩٧ من سورة النباء .

(١) أخرجه الطبرى (٩٨/٢١) .

(٣) من الآية ٦١ من سورة الأنعام .

(٥) من الآية ٤٢ من سورة الزمر .

والبهائم وسائر الحيوانات. وبه قال مالك وأشهب. وذهب قوم إلى أن أرواح البهائم وسائر الحيوانات إنما تقبض أرواحها أعوان ملك الموت. وذهب قوم إلى أن الموت في حق غير بنى آدم، إنما هو عدم محض، كيبس الشجر وجفاف الثياب، فلا قبض لأرواحها، وهو أعم من كونها تبعث، أو: لا، بأن تعاد عن عدم، بخلاف المكلف، فإن روحه لا تعدم، خلافاً للملاحدة، فإنهم جعلوا الموت كله عدماً محضاً، كجفاف العود الأخضر، وهو كفر.

هذا وقد اختلف في كون الموت ضد الحياة، فيكون معنى وجودياً، أو هو عدم الحياة، فيكون عدماً، وعلى كلا القولين فالأرواح باقية بعد مفارقة الأبدان، منعمة أو معذبة.

﴿ولو ترى﴾ يا محمد ﴿إذ المجرمون﴾ وهم الذين قالوا: ﴿أئذا ضللنا في الأرض...﴾ إلخ، ودلوه، وإذ، للماضي، وإنما جاز هنا؛ لأن المترقب محقق الوقوع. (ترى)، هنا، تامة، لا مفعول لها، أى: لو وقعت منك رؤية ﴿إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم﴾ أى: وقت كون المجرمين ناكسي رؤوسهم من الذل والحياء والندم، ﴿عند ربهم﴾؛ عند حساب ربهم، قائلين: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ أى: صدقنا الآن وعدك ووعيدك، وأبصرنا ما حدثتنا به الرسل، وسمعنا منك تصديق رسلك، ﴿فارجعنا﴾ إلى الدنيا ﴿نعمل صالحاً﴾ من الإيمان والطاعة، ﴿إنا موقنون﴾ بالبعث والحساب الآن. وجواب (لو): محذوف، أى: لرأيت أمراً فظيماً.

﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ أى: ما تهتدى به إلى الإيمان والطاعة، أى: لو شئنا لأعطيناه في الدنيا، كل نفس ما عندنا من اللطف الذي، لو كان منهم اختيار ذلك، لاهتدوا. لكن لم نعطيهم ذلك اللطف؛ إما علمنا منهم اختيار الكفر وإيثاره. وهو حجة على المعتزلة؛ فإن عندهم: قد شاء الله أن يعطى كل نفس ما به اهتدت، وقد أعطاها، لكنها لم تهتد، وأولوا الآية بمشيئة الجبر، وهو فاسد. قال تعالى: ﴿ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾، أى: ولكن وجب القول مني لأعمرن جهنم من الجنة والناس، الذين علمت منهم أنهم يختارون الكفر والتكذيب. وفي تخصيص الجن والإنس: إشارة إلى أنه عصم الملائكة من عمل يستوجبون به جهنم. وفي الآية ما يقتضى تخصيص أهل النار بالجن والإنس، فيرد ما يذكر أنه كان قبل آدم أمم كفروا، ولا يصح ذلك، إلا أن يكونوا من الجن.

﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أى: باشرُوا وبال ترككم العمل للقاء يومكم هذا، وهو الإيمان به. ﴿إنا نسيناكم﴾: تركناكم في العذاب، ﴿وذوقوا عذاب الخلد﴾ أى: العذاب الدائم الذي لا انقطاع له ﴿بما كنتم تعملون﴾ من الكفر والمعاصي.

ثم ذكر ضدهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾؛ القرآن ﴿الذين إذا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُوا سُجَّدًا﴾؛ سجدوا لله؛ تواضعاً وخشوعاً، وشكروا على ما رزقهم من الإسلام، ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أى: نزهوا الله عما لا يليق به، وأثنوا عليه؛ حامدين له، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان والسجود له. جعلنا الله منهم بمته، آمين.

الإشارة: أهل الفرق من أهل الحجاب، يتوفاهم ملك الموت، وأهل الجمع مع الله من أهل العيان؛ يتولى قبض أرواحهم ذر الجلال الإكرام؛ كما قيل فى الأخفياء من الأولياء؛ الذين اختص الله تعالى بعلمهم - أنه يتولى قبض أرواحهم بيده، فتطيب أجسادهم به، فلا يعدوا عليها الثرى، حتى يبعثوا بها، مشرقة بتور البقاء المجمعول فيهم، بالرجوع إليه من الفناء، فيكون بقلوبهم بقاء الأبد مع الباقي الأحد عز وجل. وقد ورد فى الخبر: «من واطلب على قراءة آية الكرسي، دبر كل صلاة، كان الذى يتولى قبض روحه ذر الجلال الإكرام». يعنى: من تدبر معناها. والمراد بذلك خطفتها بالتجلى، واستغراقها فى الشهود، وغيبتها عن الغير فى ذلك الوقت الهائل، فيغيب عن الوسطة فى شهود المتوسط، مع وجود الوسطة؛ لعموم الآية. والله تعالى أعلم.

قال القشيري: لولا غفلة القلوب لما أحال قبض أرواحهم على ملك الموت؛ لأن ملك الموت لا أثر منه فى أحد، وما يحصل فى التوفى فمن خصائص قدرة الحق، ولكلهم غفلوا عن شهود حقائق الرب، فخطبهم على قدر أفهامهم، وعلق بالأغيار قلوبهم. وكل يخاطبه بما يحتمل على قدر قوته وضعفه. هـ. وقال فى قوله: «ولو ترى إذ للمجرمون... الآية: مَلَكُهُمُ الْمُهَيَّئَةُ رَحْلَهُمُ الْحِجَّةَ، فاعترفوا، حين لا عذر، واعترفوا، حين لا اعتراف. هـ.

قوله تعالى: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدَاهَا...». قال القشيري: لو شاء سهل سبيل الاستدلال، وأدام التوفيق لكل أحد، ولكن تعلقت المشيئة بإغواء قوم، وأردنا أن يكون للدار قطان، كما يكون للجنة سكان، لما علمنا يوم خلقناهما أنه ينزلهما قوم وقوم. فمن المحال أن نريد ارتفاع معلومنا، إذ لو لم يقع، ولم يحصل؛ لم يكن علماً. فإذا لا أكون إلهاً. ومن المحال أن أريد ذلك. ويقال: من يتسلط عليه من يحبه؛ لم يجد فى ملكه ما يكرهه. يا مسكين أفتيت عمرك فى اللكد والعناء، وأمضيت أيامك فى الجهد والرجاء، غيرت صفتك، وأكثرت مجاهدتك، فما تفعل فيما مضى، كيف تبدله؟ وما تصنع فى مشيئتي، وبأى رسع تردّها؟ وأنشدوا:

شكا إليك ما وجَّـدَ من خـانـة فيك الجـأـدَ
حيران، لو شئت، اهتدى ظمآن، لو شئت، رَدَّ. (١). هـ.

(٢) البيتان لأبى هبة الله بن المنجم، كما فى يتيمة الدهر (٣٨٩/٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ...﴾ الآية، خروا سُجْدًا بظواهرهم في التراب، ويسرائرهم؛ بالخضوع لهيبة الكريم الوهاب، فسجود الجبهة وسيلة لسجود القلب، فإذا سجدت الجبهة وتكبر القلب على عباد الله، كانت وسيلة بلا غاية. وبالله التوفيق.

ثم وصف أهل الخضوع، وما أكرمهم به، فقال:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿تَتَجَافَى﴾ أى: ترتفع وتتحنى ﴿جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾؛ عن الفرش ومواضع النوم للصلاة والذكر. قال سهل: وهب لقوم هبة، وهو أن أذن لهم في مناجاته، وجعلهم من أهل وسيلته، ثم مدحهم عليه فقال: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)، ﴿يَدْعُونَ﴾ أى: داعين ﴿رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾، أى: لأجل خوفهم من سخطه، ﴿وَطَمَعًا﴾ فى رحمته، وهم المجتهدون أو المتفكرون فى الليل. وسيأتى فى الإشارة. وعن اللبى عليه السلام فى تفسيرها: «هو قيام العبد من الليل» (١). وعن ابن عطاء: أبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة، وطلبت بساط القرية، وعن أنس: كان أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الأخيرة، فنزلت فيهم (٢). وقال ابن عمر رضي الله عنهما: قال صلى الله عليه وسلم: «من عقب - أى: أحيا - ما بين المغرب والعشاء؛ بنى له فى الجنة قصران مسيرة عام، وفيهما من الشجر ما لو نزلهما أهل المشرق والمغرب لأوسعهم فاكهة. وهى صلاة الأوابين، وغفلة الغافلين. وإن من الدعاء المستجاب الذى لا يرد: الدعاء ما بين المغرب والعشاء» (٣). هـ. وقيل: هم الذين يصلون العتمة، ولا ينامون عنها.

﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ فى طاعة الله، يعنى: أنهم جمعوا بين قيام الليل وسخاوة النفس. ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أى: لا يعلم أحد ما أعد الله لهم من الكرامة، مما تقر به العين من نعيم الأشباح ونييم الأرواح. وقرأ حمزة ويعقوب: «أخفى»؛ على المضارع. ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وعن الحسن: أخفى القوم أعمالهم فى الدنيا؛ فأخفى الله لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وفيه دليل على أن المراد الصلاة فى جوف الليل؛ ليكون الجزاء وفاقاً. قاله النسفى.

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٣٤٨/٥)، والحاكم فى المستدرک (٤١٢/٢)، والطبرى فى تفسيره (١٠٣/٢١)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) عزاه فى كنز العمال (ح ١٩٤٥٠) لابن مردويه، عن ابن عمر.

(٣) أخرجه الطبرى (١٠٠/٢١).

وفي حديث أسماء، عنه عليه السلام أنه قال: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، جَاءَ مُنَادٍ يُنَادِي بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ: سَيَعْلَمُ أَهْلُ الْجَمْعِ، الْيَوْمَ، مَنْ أَوْلَى بِالْكَرَمِ، ثُمَّ يَرْجِعُ فَيُنَادِي: لِيَقُمْ الَّذِينَ كَانَتْ لَا تَلْهِيُهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، فَيَقُومُونَ، وَهُمْ قَلِيلٌ. ثُمَّ يَرْجِعُ فَيُنَادِي: لِيَقُمْ الَّذِينَ كَانُوا يَحْمَدُونَ اللَّهَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، فَيَقُومُونَ، وَهُمْ قَلِيلٌ، يَسْرَحُونَ جَمِيعًا إِلَى الْجَنَّةِ. ثُمَّ يَحَاسِبُ سَائِرَ النَّاسِ» (١). وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال عليه السلام: «يَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَأُوا، إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾» (٢).

وقال في «البدور السافرة»: أخرج الترمذي، عن أبي سعيد الخدري؛ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مَائَةَ دَرَجَةٍ، لَوْ أَنَّ الْعَالَمِينَ اجْتَمَعُوا فِي إِحْدَاهُنَّ لَوَسَّعَتْهُمْ» (٣). هـ. وقال ابن وهب: أخبرني عبد الرحمن بن زياد أنه سمع عتبة بن عبيد، الصببي، يذكر عن حدثه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مَائَةَ دَرَجَةٍ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَوَّلُ دَرَجَةٍ مِنْهَا دُورُهَا وَبَيْتُهَا وَأَبْوَابُهَا وَسُرُّهَا وَمَغَالِيقُهَا، مِنْ فِضَّةٍ، وَالدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: دُورُهَا وَبَيْتُهَا وَسُرُّهَا وَمَغَالِيقُهَا مِنْ ذَهَبٍ، وَالدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: دُورُهَا وَبَيْتُهَا وَأَبْوَابُهَا وَسُرُّهَا وَمَغَالِيقُهَا مِنْ يَاقُوتٍ وَلَوْلُؤٍ وَزَبَرَجَدٍ. وَسَبْعٌ وَتِسْعُونَ دَرَجَةً، لَا يَعْلَمُ مَا هِيَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى» (٤). هـ.

وقيل: المراد بقُرَّةِ الأَعْيُنِ: النظر إلى وجه الله العظيم. قلت: قُرَّةِ عَيْنٍ كُلِّ وَاحِدٍ: مَا كَانَ بَغْيَتَهُ وَهَمَّتَهُ فِي الدُّنْيَا، فَمَنْ كَانَتْ هَمَّتُهُ الْقُصُورَ وَالْحُورَ، أُعْطِيَ مَا تَقَرَّبَ بِهِ عَيْنُهُ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ كَانَتْ بَغْيَتَهُ وَهَمَّتُهُ النَّظْرَةَ، أُعْطِيَ مَا تَقَرَّبَ بِهِ عَيْنُهُ مِنْ ذَلِكَ، عَلَى الدَّوَامِ. قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: شَتَانِ بَيْنَ مَنْ هَمَّتْهُ الْقُصُورَ وَالْحُورَ، وَمَنْ هَمَّتْهُ الْحَضُورُ وَرَفَعُ السُّتُورِ. جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْ خَوَاصِهِمْ. آمِينَ.

الإشارة: قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع الحسية إلى العبادة الحسية، وهم العباد والزهاد من الصالحين، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم؛ من نعيم القصور، والحور، والولدان، وغير ذلك. وقرم تتجافى قلوبهم عن مضاجع نوم الغفلة إلى حال الانتباه واليقظة، وعن مضاجع الرغبة إلى حال العفة والحرية، ثم عن مضاجع الفرق، إلى حال

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/١٦٩ ح ٣٢٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في (بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة ح ٣٢٤٤)، ومسلم في (الجنة وصفة نعيمها، ٤/٢١٧٤ ح ٢٨٢٤).

(٣) أخرجه الترمذي في (صفة الجنة، باب في صفة درجات الجنة، ٤/٥٨٣ ح ٢٥٣٢).

(٤) أخرجه الطبري نحوه في التفسير (٢١/١٠٥) عن أبي اليمان الهذلي، والجزء الأول من الحديث أخرجه البخاري في (الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله ح ٢٧٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مَائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...» الحديث.

الجمع، ثم من الجمع إلى جمع الجمع. فهؤلاء على صلاتهم دائمون، وفي حال نومهم عابدون، وعلى كل حال إلى ربهم سائرون، وفي معاريج بحر عرفانهم سائحون، فلا تعلم نفس ما أخفى لهؤلاء من دوام النظرة، والعكوف في الحضرة، واتصال الحبرة. فعبادة هؤلاء قلبية، سرية، خفية عن الكرام الكاتبين، بين فكرة وشهود، وعبرة واستبصار، الذرة ملها تعدل أمثال الجبال من أعمال الجوارح، وقد ورد: (تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة). هذا تفكر الاعتبار، وأما تفكر الشهود والاستبصار، فكل ساعة، أفضل من ألف سنة، كما قال الشاعر:

كُلُّ وَقْتٍ مِنْ حَبِيبِي قَدْرُهُ كَأَلْفِ حَاجَةٍ

أى: سنة، ومع هذا لا يخلون أوقاتهم من العبادة الحسية، شكراً، وقياماً بأداب العبودية، وهى فى حقهم كمال، كما قال الجديد: عبادة العارفين تاج على الرؤوس. هـ. وفى مثل هؤلاء ورد الخبر: «إن أهل الجنة بينما هم فى نعيمهم، إذ سطع عليهم نور من فوق، أضاءت منه منازلهم، كما تضىء الشمس لأهل الدنيا، فنظروا إلى رجالٍ من فوقهم، أهل عليين يرونهم كما يرى الكوكب الدرى فى أفق السماء، وقد فضّلوا عليهم فى الأنوار والنعم، كما فضل القمر على سائر النجم، فينظرون إليهم، يطيرون على نجب، تسرح بهم فى الهواء، يزورون ذا الجلال الإكرام، فينادون هؤلاء: يا أخواننا، ما أنصفتونا، كنا نصلّى كما تصلّون، ونصوم كما تصومون، فما هذا الذى فضلتونا به؟ فإذا النداء من قبل الله تعالى: كانوا يجوعون حين تشبعون، ويعطشون حين تروون، ويعرون حين تكسون، ويذكرون حين تسكتون، ويبكون حين تضحكون، ويقومون حين تنامون، ويخافون حين تأمنون، فلذلك فضّلوا عليكم اليوم. فذلك قوله تعالى: «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون». هـ.

قال القشيري: (تجافى جلوبهم عن المضاجع)، فى الظاهر، عن الفرائض، قياماً بحق العبادة والجهد والتهجد، وفى الباطن: بتباعد قلوبهم عن مضاجعات الأحوال، ورؤية قدر النفس، وتوهم المقام؛ لأن ذلك بجملته، حجاب عن الحقيقة، وهو للعبد سم قاتل، فلا يساكن أعمالهم، ولا يلاحظون أحوالهم، ويفارقون مآلفهم، ويهجرّون معارفهم. واللّيل زمان الأحياب، قال الله تعالى: ﴿لَتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ (١) يعنى: عن كل شغل وحديث سوى حديث معبودكم ومحبيكم، والنهار زمان أهل الدنيا. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (٢) .. انظر بقية كلامه.

(١) من الآية (٧٣) من سورة القصص.

(٢) من الآية (١١) من سورة النبأ.

ثم بين أن من كان في نور الطاعة والإحسان، ليس كمن كان في ظلمة الكفر والعصيان، فقال.

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أفمن كان مؤمناً﴾ بالله ورسوله ﴿كمن كان فاسقاً﴾؛ خارجاً عن الإيمان، ﴿لا يستوون﴾ أبداً عند الله تعالى. وأفرد، أولاً؛ مراعاة للفظ «من»، وجمع ثانياً مراعاة لمعناها. ثم فصل حالهم بقوله: ﴿أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى﴾ أى: المسكن الحقيقي، وأما الدنيا، فإنها منزل انتقال وارتحال، لا محالة، وقيل: المأوى: جنة من الجدان. قال ابن عطية: سميت جنة المأوى لأن أرواح المؤمنين تأوى إليها. هـ. أى: في الدنيا؛ لأنها في حواصل طير خضر، كما ورد في الشهداء، وأما الصديقون فإنها تشكل على صور أجسادها، تسرح حيث شاءت. ﴿نزلاً بما كانوا يعملون﴾ أى: عطاء معجلاً بأعمالهم. والنزل: ما يقدم للنازل، ثم صار عاماً.

﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ أى: هي ملجأهم ومنزلهم، ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها﴾، فلا خروج منها، ولا موت، ﴿وقيل﴾ لهم: ﴿ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾، هذا دليل على أن المراد بالفاسق: الكافر؛ إذ التكذيب يقابل الإيمان. قال ابن جزى: فإن قيل: لم وصف، هنا، العذاب، وأعاد عليه الضمير، ووصف، في سبأ، النار وأعاد عليها الضمير، فقال: ﴿عَذَابُ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (١)؟ فالجواب من ثلاثة أرجه: الأول: أنه خص العذاب في السجدة بالوصف؛ اعتناء به؛ لما تكرر ذكره في قوله: ﴿لنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر...﴾، الثاني: أنه تقدم في السجدة ذكر النار، فكان الأصل أن يذكرها بعد ذلك بلفظ المضمر، لكنه جعل الظاهر مكان المضمر، فكما لا يوصف المضمر؛ لم يوصف ما قام مقامه، وهو النار، فوصف العذاب، ولم يصف النار، الثالث: وهو الأقوى: أنه امتنع في السجدة وصف النار، فوصف

(١) من الآية ٤٢ من سورة سبأ.

العذاب، وإنما امتنع وصفها؛ لتقدم ذكرها، فإنك إذا ذكرت شيئاً ثم كررت ذكره لم يجز وصفه، كقولك: رأيت رجلاً فأكرمت الرجل. فلا يجوز وصفه لما يرههم أنه غيره. هـ.

الإشارة: أفمن كان مصداقاً بطريق الخصوص، داخلاً فيها، شارباً من خمرتها، كمن كان فاسقاً خارجاً عنها، مشتغلاً بنفسه، غريقاً في هواه، لا يسترون أبداً. أما الذين آمنوا بها، وصدقوا أهلها، ودخلوا في تربيتهم، فلهم جذات المعارف، هي مأواهم ومعشش قلوبهم، إليها يأوون، وفيها يسكنون، وأما الذين فسقوا وخرجوا عن تربيتهم، فمأواهم نار القطيعة، وعذاب الحرص، وغم الحجاب، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها؛ إذ لا خروج منها إلا بصحبة أهلها. وقيل لهم: ذوقوا وبال الإنكار، وحرمان الخصوصية، التي كنتم بها تكذبون.

قال القشيري: هذا ما يلقون يوم القيامة، ثم ذكر ما يعجل لهم في الدنيا، فقال:

﴿ وَلَنَذِيقَنَّهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢١)
﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ (٢٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَنَذِيقَنَّهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ ﴾ أي: عذاب الدنيا؛ من القتل، والأسر في بدر، أو ما ملحوا به من السَّنة، سبع سنين. ﴿ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ أي: قبل عذاب الآخرة، والذي هو الأكبر، وهو الخلود في النار. وعن الداراني: العذاب الأدنى: الخذلان، والعذاب الأكبر: الخلود في النيران. وقيل: الأدنى: عذاب القبر، والأكبر: النار. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾؛ يتوبون عن الكفر.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنْ ذُكِّرَ ﴾ أي: وعظ ﴿ بآيَاتِ رَبِّهِ ﴾؛ القرآن، ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أي: تولى عنها، ولم يتدبر في معناها. واثم؛ للاستبعاد؛ فإن الإعراض عن مثل هذه في ظهورها، وإنارتها، وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى، بعد التذكر بها، مستبعد في العقل، كما نقول لصاحبك: وجدت تلك الفرصة ثم لم تلتزمها -؛ استبعاداً لتركه الانتهاز. ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾، ولم يقل: منه،، تسجيلاً عليه بإعراضه بالإجرام، ولأنه إذا جطه أظلم من كل ظالم، ثم توعد المجرمين، عامة، بالانتقام، دل على إصابة الأظلم أوفر نصيب من الانتقام، ولو قال بالضمير؛ لم يفد هذه الفائدة.

الإشارة: ولنديقن أهل الغفلة والحجاب، من العذاب الأدنى، وهو الحرص والطمع والجزع والهلع، قبل العذاب الأكبر، وهو غم الحجاب وسوء الحساب. قال القشيري: قوم: الأدنى لهم: محن الدنيا، والأكبر: عقوبة العقبى.

وقوم: الأدنى لهم: فترةُ تداخلهم في عبادتهم، والأكبر: قسوةُ تصيبهم في قلوبهم. وقوم: الأدنى لهم: وقفة مع سلوكهم تمسهم، والأكبر: حجة عن مشاهدتهم بسرهم - قلت: الأول في حق العوام، والثاني: في حق الخواص، وهم العباد والزهاد. والثالث: في حق أهل التربية من الواصلين - ثم قال: ويقال: الأدنى: الخذلان في الزلة، والأكبر: الهجران في الوصلة. ويقال: الأدنى: تكدر مشاريبهم، بعد صفوها، والأكبر: تطاول أيام الحجب، من غير تبين آخرها. وأنشدوا:

تَطَاوَلَ بَعْدُنَا، يَا قَوْمُ، حَتَّى لَقَدْ نَسَجَتْ عَلَيْهِ الْعَنْكَبُوتُ (١)

هـ. ببعض المعنى.

أذقناهم ذلك؛ لعلهم يرجعون إلى الله، في الدنيا؛ بالتوبة واليقظة. فإن جاء من يذكرهم بالله؛ من الداعين إلى الله، ثم أعرضوا عنه، فلا أحد أظلم منهم، ولا أعظم جرماً. إنا من المجرمين منتقمون.

ولما قرر الأصول الثلاثة؛ الرسالة، وبدء الخلق، والمعاد، عاد إلى الأصل الذي بدأ به، وهو الرسالة، فقال:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ (٢٣) ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ ﴾ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بآيَاتِنَا يُوْقِنُونَ ﴿٢٤﴾
﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٢٥)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾؛ التوراة ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ ﴾؛ شك من لقائه ﴿ من لقاء موسى الكتاب، أو: من لقائك موسى ليلة المعراج، أو: يوم القيامة، أو: من لقاء موسى ربه في الآخرة، كذا عن النبي ﷺ ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾؛ وجعلنا الكتاب المنزل على موسى ﷺ هدى لقومه، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ ﴾ الناس، ويدعون إلى الله وإلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه، ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ إياهم بذلك، أو بنوفيقنا وهدايتنا لمن أردنا هدايته على أيديهم، ﴿ لِمَا صَبَرُوا ﴾ على مشاق تعليم العلم والعمل به. أو: على طاعة الله وترك معصيته. وقرأ الأخوان: بكسر اللام، أي: لصبرهم عن الدنيا والزهد فيها. وفيه دليل على أن الصبر؛ ثمرته إمامة الناس والتقدم في الخير. ﴿ وَكَانُوا بآيَاتِنَا ﴾؛ التوراة ﴿ يُوْقِنُونَ ﴾؛

(١) في القشيري: تطاول نأيانا يانور حتى كأن نسجت عليه العنكبوت

يعلمون علماً لا يخالجه شك ولا وهم؛ لإمعانهم النظر فيها، أو: هبة من الله تعالى. ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾؛ يقضى ﴿بينهم يوم القيامة﴾ أى: بين الأنبياء وأممهم، أو: بين المؤمنين والمشركون، ﴿فيما كانوا فيه يختلفون﴾ من الدين، فيظه المحق من المبطل.

الإشارة: أئمة الهدى على قسمين: أئمة يهدون إلى شرائع الدين، وأئمة يهدون إلى التعرف بذات رب العالمين، أئمة يهدون إلى معرفة البرهان، وأئمة يهدون إلى معرفة العيان. الأولون: من عامة أهل اليمين، والآخرون: من خاصة المقربين. الأولون صبروا على حبس النفس على ذل التعلم، والآخرون صبروا على حبس النفس على الحضور مع الحق على الدوام. صبروا على مجاهدة النفوس، حتى وردوا حضرة القدس. قال القشيري، فى شأن القسم الثانى: لما صبروا على طلبنا؛ سعّدوا بوجدنا، وتعدّى ما نالوا من أفضالنا إلى متّبعيهم، وانبسط شعاع شمسهم على جميع أهليهم، فهم للخلق هداة، وفى الدين عيون، وللمسترشدين نجوم. هـ.

وفى الإحياء: للإيمان ركنان: أحدهما: اليقين، والآخر: الصبر. والمراد باليقين: المعارف القطعية، الحاصلة بهداية الله عبده إلى أصول الدين، والمراد بالصبر، العمل بمقتضى اليقين؛ إذ النفس تعرف أن المعصية ضارة والطاعة نافعة. ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر. فيكون الصبر نصف الإيمان لهذا الاعتبار. هـ. وقوله تعالى: ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ...﴾، أقال نقشيري: يحكم بينهم، فيبين المقبول من المردود، والمهجور من الموصول، والرضى من الغوى، والعدو من الولي. فكم من بهجة دامت هناك! وكم من مهجة ذابت كذلك. هـ.

ثم ذكرهم بمن سلف قبلهم، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾

قلت: فاعل 'يهدي' هو الله، بدليل قراءة زيد عن يعقوب 'نهد' بالنون، ولا يجوز أن يكون الفاعل 'كم'؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام، فلا يعمل فيه ما قبله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أى: يبين لهم الله تعالى ما يعتبرون به، فينظروا ﴿كم أهلكنا من قبلهم من القرون﴾؛ كعاد، وثمود، وقوم لوط، ﴿يمشون﴾ يعنى: قريشاً، ﴿في مساكنهم﴾ حين

يمرون على ديارهم، ومنازلهم، خاوية، في متاجرهم إلى الشام، ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ﴾ دالة على قدرتنا، وقهرتنا ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ المواعظ، فيتعظون بها؟.

الإشارة: قال القشيري: لم يعتبروا بمنازل أقوام كانوا في حبرة، فصاروا في عبرة، كانوا في سرور، فالوا إلى ثبور، فجميع ديارهم وتراثهم صارت لأغيارهم، وصنوف أموالهم عادت إلى أشكالهم، سكنوا في ظلالهم، ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم، وفي مثلهم قيل:

نعم، كانت على قو م زمانا، ثم فانت،
هكذا النعمة والإحسان قد كانت وكانت. هـ (١)

ثم ذكرهم بآثار قدرته، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مِّنْ مَّنْظُورٍ ﴿٣٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾: المطر ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾: أى: التى جرّز نباتها، أى: قطع، ولم يبقَ منه شيء، إما لعدم الماء، أو لأنه رعى. يقال: جرّزت الجراد الزرع، إذا أسأصلته، وفي القاموس: وأرض جرّز: لا تنبت، أو أكل نباتها، أو لم يصبها مطر. ثم قال: وأرض جارزة: يابسة غليظة، وفيه أربع لغات: جرّز وجرّز وجرّز وجرّز. ولا يقال للتي لا تنبت: كالسباخ: جرّز، بدليل قوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾: أى: بالماء، ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾: أى: الزرع، ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾: كاللبن والورق، ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾: كالحب والتمر، والمراد بالزرع: كل ما يزرع ويستنبت، ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾، فيستدلون به على قدرته على إحياء الموتى؟.

(١) ورد البيان: نعم، كانت على قو م زمانا، ثم فانت،
هكذا النعمة والإحسان قد كانت وكانت.
وانظر: محاضرات الأدباء ص ٢٥٩.

﴿ويقولون متى هذا الفتح﴾ أى: النصر، أو الفصل بالحكومة؛ من قوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا﴾ (١). وكان المسلمون يقولون: إن الله سيفتح لنا على المشركين، أو يفتح بيننا وبينهم، فإذا سمع المشركون، قالوا: متى هذا الفتح؟ أى: فى أى وقت يكون ﴿إن كنتم صادقين﴾ فى أنه كائن؟ .

﴿قل يوم الفتح﴾ أى: يوم القيامة هو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم. أو: يوم نصرهم عليهم. أو: يوم بدر، أو يوم فتح مكة، ﴿لا ينفع الذين كفروا إيمانهم﴾؛ لفوات محله، الذى هو الإيمان بالغيب، ﴿ولا هم ينظرون﴾؛ يمهلون، وهذا الكلام لم ينطبق؛ جواباً عن سؤالهم؛ ظاهراً، ولكن لما كان غرضهم فى السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم، على وجه التكذيب والاستهزاء، أجيبوا على حسب ما عُرِفَ من غرضهم من سؤالهم، فقل لهم: لا تستعجلوا به ولا تستهزئوا، فكأنى بكم وقد حصلتم فى ذلك اليوم وآمنتم، فلم ينفعكم الإيمان، واستنظرتهم عند درك العذاب فلم تمهلوا. ومن فسر به يوم بدر أو بيوم الفتح، فهو يريد المقتولين منهم؛ فإنهم لا ينفعهم إيمانهم فى حال الفعل، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند درك الغرق. ﴿فأعرض عنهم وانتظر﴾ النصر وهلاكهم، ﴿إنهم منتظرون﴾ الغلبة عليكم وهلاككم.

قال عليه الصلاة والسلام: «من قرأ ﴿آل تَزِيلُ﴾ فى بيته، لم يدخل الشيطان به ثلاثة أيام» (٢).

الإشارة: أو لم يروا أنا نسوق الماء الذى تحيا به القلوب على يد المشايخ، إلى القلوب الميتة بالجهل والغفلة، فنخرج به ثمار الهداية إلى الجوارح، تأكل منه، من لذة حلاوته، جوارحهم وقلوبهم، أفلا يبصرون؟. ويقول أهل الإنكار لوجود هذا الماء: متى هذا الفتح، إن كنتم صادقين فى أنه موجود؟ قل: يوم الفتح الكبير - وهو يوم يرفع الله أوليائه فى أعلى عليين - لا ينفع الذين كفروا بالخصوصية، فى دار الدنيا، إيمانهم فى الالتحاق بهم، ولا هم يمهلون حتى يعملوا مثل عملهم، فأعرض عنهم اليوم، واشتغل بالله، وانتظر هذا اليوم، إنهم منتظرون لذلك.

قال القشيري: «أو لم يروا.. الآية. الإشارة فيه: نسقى حدائق [وصلهم]» (٣)، بعد جفاف عودها، فيعود عودها مورقاً بعد ذبوله، حاكياً حاله حال حصوله، (ويقولون متى هذا الفتح..). استبعدوا يوم التلاق، وجحدوه، فأخبرهم

(١) من الآية ٨٩ من سورة الأعراف.

(٢) قال ابن حجر فى الكافى الشاف (ح ١٩٦): «لم أجده». وانظر: الفتح السمارى (٢/٩٢٦).

(٣) فى الأصول المخطوطة (وصفهم) والمثبت هو الذى فى لطائف الإشارات.

أنه ليس لهم إلا الحسرة والمحنة إذا شهدوه . قوله تعالى : « فأعرض عنهم .. » أى : باشتغالك بنا ، وإقبالك علينا ، وانقطاعك إلينا ، وانتظر زوائد وصلنا وعوائد لطفنا ، إنهم منتظرون هواجم مقتنا وخفايا مكرنا . وعن قريب وجدَّ كُلُّ مُنْتَظَرٍ مُحْتَضَرًا هـ . وبالله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد ، عين الوصول إلى التحقيق ، وعلى آله المبيدين سواء الطريق ، وسلم .



سُورَةُ الْأَحْزَابِ

مدنية . وهي ثلاث وسبعون - بتقديم السين - آية . وعن أبي؛ أنه قال: كم تعدون سورة الأحزاب؟ قالوا: ثلاثاً وسبعين، قال: فوالذي يحلف به أبي إن كانت لتعدل سورة البقرة، أو أطول، ولقد قرأنا منها آية الرجم: الشيخ والشيخة، إذا زنيا، فارجموهما البتة؛ نكالا من الله، والله عزيز حكيم^(١). أراد أبي أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن. انظر النسخ. ومناسبتها لما قبلها: أن الفتح إنما يكون مع التقوى، فأمره بها، بعد أمره بانتظار نصره، كأنه قيل: يا أيها النبي اتق الله؛ تر الفتح طوع يدك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها النبي﴾ أي: المشرف؛ حالا، المفخم؛ قدراً، العلى؛ رتبة؛ لأن النبوة مشتقة من النبوة، وهو الارتفاع. أو: يا أيها المخبر عدا، العاؤون على وحيثا، المبلغ خطابنا إلى أحبابنا. وإنما لم يقل: يا محمد، كما قال: يا آدم، يا موسى؛ تشرifa وتنويعاً بفضله، وتصريحه باسمه في قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾^(٢)، ونحوه، ليعلم الناس بأنه رسول الله. ﴿اتق الله﴾ أي: اثبت على تقوى الله، ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾؛ لا تساعدهم على شيء، واحترس منهم؛ فإنهم أعداء الله وللمؤمنين.

رُوي أن أبا سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السلمي، نزلوا المدينة على ابن أبي، رأس المنافقين، بعد أحد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبدالله بن أبي مَرْح، وطُعْمَة بن

(١) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤١٥/٢) وأخرجه الطبراني في الأوسط (ح ٤٣٥٢)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣٤٥/٥) لعبد الرزاق في المصنف، والطيايلى، وسعيد بن منصور، وعبدالله بن أحمد في زوائد المسند، وابن مبيع، والنسائي، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، والدارقطني في الأفراد، وابن مردويه، عن زر، عن أبي.
(٢) كما جاء في الآية ٢٩ من سورة الفتح.

أُبِيرِق، فقالوا للنبي ﷺ، وعنده عمر بن الخطاب: ارفض ذكر آلهتنا؛ اللات، والعزى، ومناة، وقل: إن لها شفاعة وملفعة لمن عبدها، وندعك وربك. فشق على النبي ﷺ قولهم، فقال عمر: الذن لنا، يا رسول الله، فى قتلهم، فقال ﷺ: «إنى قد أعطيتهم الأمان». فقال عمر: اخرجوا فى لعة الله وغضبه، فخرجوا من المدينة، فنزلت (١).

أى: اتق الله فى نقض العهد، ولا تطع الكافرين من أهل مكة، كأبى سفيان وأصحابه، والمنافقين من أهل المدينة، فيما طلبوا، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخبث أعمالهم، ﴿حَكِيمًا﴾ بتأخير الأمر بقتالهم.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ فى الثبات على التقوى، وترك طاعة الكافرين والمنافقين. أو: كل ما يوحى إليك من ربك، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أى: لم يزل عالماً بأعمالهم وأعمالكم. وقيل: إنما جمع؛ لأن المراد بقوله: «اتبع»؛ هو وأصحابه، وقرأ بالغيب: أبو عمرو، أى: بما يعمل الكافرون والمنافقون، من كيدهم لكم ومكرهم. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أَسَدُّ أَمْرِكَ إِلَيْهِ، وَكَلَّهُ إِلَى تَدْبِيرِهِ. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ حافظاً موكولاً إليه كل أمر. وقال الزجاج: لفظه، وإن كان لفظ الخبر؛ فالمعنى: اكتف بالله وكَيْلًا.

الإشارة: أمر بتقوى الله، وبالنغية عما يشغل عن الله، وبالتوكل على الله، فالتقوى أساس الطريق، والنغية عن الشاغل: سبب الوصول إلى عين التحقيق، والتوكل زاد رفيق. قال القشيري بعد كلام: يا أيها المُرَقَّى إلى أعلى المراتب، الْمُتَلَقَّى بِأَسْنَى الْقُرْبِ وَالْمُنَاقِبِ؛ اتق الله أن تلاحظ غيراً معناه، أو تُسَاكِنَ شيئاً دوننا، أو تُثَبِّتَ شيئاً سوانا، «ولا تطع الكافرين»؛ إشفافاً منك عليهم، وطمعاً فى إيمانهم، بموافقتهم فى شيء مما أرادوه منك. والتقوى رقيب على الأولياء، تمنعهم، فى أنفاسهم وسكاناتهم وحركاتهم، أن ينظروا إلى غيره، أو يُقْبِلُوا معه سواء، إلا منصوباً بقدرته، مصرفاً بمشيئته، نافذاً فيه حكم قضوته.

التقوى لجام يمدك عما لا يجوز، زمام يقودك إلى ما تحب، سوط يسوقك إلى ما أمر به، حرز يعصمك من توصل عقابه إليك، عوذة تشفيك من داء الخطايا. التقوى وسيلة إلى ساحة كرمه، ذريعة يتوصل بها إلى عفوه وجوده. «واتبع ما يوحى إليك...»؛ لا تتبدع، واقتد بما نأمرك، ولا تقصد، باختيارك، غير ما نختار لك، ولا تخرج - أى: تقم - فى أوطان الكسل، ولا تنجح إلى ناحية التواني، وكن لنا لا لك، وقم بنا لا بك. «وتوكل»؛ انسلخ عن إهابك لنا، واصدق فى إيابك إلينا، وتشاغلك عن حُسابك معنا، واحذر ذهابك عنا، ولا تقصر فى خطابك معنا. ويقال: التوكل: تَخَلَّقْ، ثم تَخَلَّقْ، ثم تَوَكَّلْ، ثم تَمَلَّقْ؛ تحقق فى العقيدة، وتخلق بإقامة الشريعة، وتوَكَّلْ بالمقسوم من القضية، وتعلق بين يديه بحسن العبودية. ويقال: التوكل: استواء القلب فى العدم والوجود. هـ.

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٦٤)، والبغوى فى تفسيره (٣١٥/٦)، بدون إسناد.

والتقوى محلها القلب، ولا يحصل منتهاها إلا بانفراد القلب إلى مولاه، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ ۚ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا ءَابَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾؛ فيؤمن بأحدهما ويكفر بالآخر، أو: يتقى بأحدهما ويعصى بالآخر، أو: يقبل على الله بأحدهما ويقبل على الدنيا بالآخر، بل ما للعبد إلا قلب واحد، إن أقبل به على الله؛ أدبر عن سواه، وإن أقبل به على الدنيا؛ أدبر عن الله. قيل: الآية مثل للمنافقين، أي: إنه لا يجتمع الكفر والإيمان، وقيل: لا تستقر التقوى ونقض العهد في قلب واحد. وقال ابن عطية: يظهر من الآية، بجملتها، أنها نفى لأشياء كانت العرب تعتقدها في ذلك الوقت، وإعلام بحقيقة الأمر فيها، فمنها: أن العرب كانت تقول: الإنسان له قلب يأمره وقلب ينهيه، وكان تضاد الخواطر يحملها على ذلك.. إلخ كلامه.

قال النسفي: والمعنى: أنه تعالى لم يجعل للإنسان قلبين؛ لأنه لا يخلو: إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب، فأحدهما فضلة؛ غير محتاج إليه، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذلك، فيؤدي إلى اتصاف الجملة بكونه مريداً كارهاً، عالماً ظاناً، موقناً شاكاً، في حالة واحدة. هـ.

وكانت العرب تعتقد أيضاً أن المرأة المظاهر منها: أمّا، فردّ ذلك بقوله: ﴿ وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ﴾ أي: ما جمع الزوجية والأمومة في امرأة واحدة؛ لتضاد أحكامهما؛ لأن الأم مخدومة، والمرأة خادمة.

وكانت تعتقد أن الدعي ابن، فردّ عليهم بقوله: ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ أي: لم يجعل المتبني من أولاد الناس ابناً لمن تبناه؛ لأن البتوة أصالة في النسب، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية، لا غير، ولا يجتمع في شيء واحد أن يكون أصيلاً [و] (١) غير أصيل.

(١) زيادة، ليست في الأصول.

ونزل هذا فى «زيد بن حارثة»، وهو رجل من كلب، سبى صغيراً، فاشتراه حكيم بن حزام، لعمته خديجة، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له، فطلبه أبوه وعمه، وجاءا بفدائه، فخير، فاختر رسول الله ﷺ، فأعتقه ورتبناه. وكانوا يقولون: زيد بن محمد، فلما تزوج النبى ﷺ زينب؛ وكانت تحت زيد - على ما يأتى - قال المنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عنه، فأنزل الله هذه الآية.

وقيل: كان المنافقون يقولون: لمحمد قلبان، قلب معكم، وقلب مع أصحابه^(١). وقيل: كان «أبو معمر» أحفظ العرب، فقيل له: ذو القلبين^(٢)، فأكذب الله قولهم. والتكثير فى رجل، وإدخال «من» الاستغرافية على (قلبين)، وذكر الجوف؛ للتأكيد. و(اللائى): جمع «اللى». وفيها أربع قراءات: «اللاء»؛ بالهمزة مع المد والقصر، وبالتسهيل، وبالياء، بدلاً من الهمز. وأصل «تظاهرون»: تتظاهرون، فأدغم. وقرأ عاصم بالتخفيف؛ من: ظاهر. ومعنى الظهار: أن يقول للزوجة: أنت على كظهر أمى. مأخوذ من الظهر، وتعديته بمن؛ لتضعته معنى «الجنب»؛ لأنه كان طلاقاً فى الجاهلية. وهو فى الإسلام يقتضى الحرمة حتى يكفر، كما يأتى فى المجادلة. والأدعياء: جمع دعى، فقيل: بمعنى مفعول، وهو الذى يدعى ولداً، وجمعه على أفعلاء؛ شاذ؛ لأن باباً ما كان منه بمعنى فاعل؛ كتنقى وأتقيا، وشقى وأشقياء. ولا يكون فى ذلك فى نحو رمي وسمي، على الشذوذ. وكأنه شبهه بفعل بمعنى فاعل، فجَمَعَ جَمْعَهُ.

﴿ذلكم قوائكم بأفواهكم﴾؛ إذ أن قولكم للزوجة: أما، والدعى: هو ابن، قول تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له؛ إذ الإبن يكون بالولادة، وبكذا الأم. ﴿والله يقول الحق﴾؛ ما له حقيقة عينية، مطابقة له ظاهراً وباطناً. ﴿وهو يهدي السبيل﴾؛ سبيل الحق.

ثم بين ذلك الحق، وهدى إلى سبيله، فقال: ﴿أدعوهم لآبائهم﴾؛ انسبهم إليهم. ﴿هو﴾؛ أى: الدعاء، ﴿أقسط﴾؛ أعقل ﴿عند الله﴾. بين أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين فى العدل. وقيل: كان الرجل فى الجاهلية إذا أعجبه ولد الرجل؛ ضمه إليه، وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده، من ميراثه. وكان ينسب إليه، فيقال: فلان بن فلان. ﴿فإن لم تعلموا آباءهم﴾؛ أى: فإن لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم إليهم، ﴿فإخوانكم فى﴾

(١) هذا معنى ما أخرجه الإمام أحمد (٢٦٨/١) والترمذى، وحسنه، فى (التفسير، باب: ومن سورة الأحزاب، ٢٢٤/٥ - ٢٢٥، ح ٣١٩٩) والطبرى (١١٨/٢١) والحاكم (٤١٥/٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما. وصححه الحاكم، وفيه «قابوس بن أبى ظبيان»، قال الذهبى: قابوس، ضعيف.

(٢) ذكره الواحدى فى أسباب النزول / ٣٦٥. بدون إسناد.

الدين ومواليكم ﴿ أى: فهم إخوانكم فى الدين، وأولياؤكم فيه. فقولوا: هذا أخى، وهذا مولاي، ويا أخى، ريامولاي، يريد الأخوة فى الدين والولاية فيه، ﴾ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴿ أى: لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك، مخطئين جاهلين، قبل ورود النهى، أو بعده، نسياناً. ﴾ ولكن ما تعمدت قلوبكم ﴿ أى: ولكن الإثم فيما تعمدتموه بعد النهى. أو: لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم: يا بنى، على سبيل الخطأ، أو: الشفقة، ولكن إذا قلتموه متعمدين على وجه الانتساب. ﴾ وكان الله غفوراً رحيماً ﴿ لا يؤاخذكم بالخطأ، ويقبل التوبة من المتعمد.

(الإشارة: العبد إنما له قلب واحد، إذا أقبل به على مولاه؛ أدبر عن ما سواه، وملاه الله تعالى بأنواع المعارف والأسرار، وأشرقت عليه الأنوار، ودخل حضرة الحليم الغفار، وإذا أقبل به على الدنيا؛ أدبر عن الله، وحشى بالأغيار والأكدار، وأظلمت عليه الأسرار، وطبع فيه صور الكائنات، فحجب عن المكون، وكان مأوى للخواطر والوساوس، فلم يسر عند الله جناح بعوضة. قال القشيري: القلب إذا اشتغل بشيء؛ اشتغل عما سواه، فالمشتغل بما من العدم؛ منفصل عما له القدم، والمتصل بقلبه بمن نعتة القدم؛ مشتغل عما من العدم، والليل والنهار لا يجتمعان، والغيب والخير لا يلتقيان هـ.

وقوله تعالى: ﴿وما جعل أزواجكم...﴾ الآية، يمكن أن تكون الإشارة فيها إلى أن من ظاهر الدنيا، وتباعد عنها؛ لا يحل له أن يرجع، ويتخذها أماء؛ فى المحبة والخدمة. وقوله تعالى: ﴿وما جعل أدياءكم أبناءكم...﴾: تشير إلى أنه لا يحل أن يدعى الفقير حالاً، أو مقاماً، مالم يتحقق به، وليس هو له، أو: ينسب حكمة أو علماً رفيعاً لنفسه، وهو لغيره، «ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله». وقوله: ﴿فإن لم تعلموا آبائهم فأخوانكم فى الدين...﴾: إخوان الدين أولى، وإخوان الطريق أحب وأصفى. قال القشيري: وقربة الدين، فى الشكلية، أولى من قرابة النسب، وأنشدوا:

وَقَالُوا: قَرِيبٌ مِنْ أَبٍ وَعُمُومَةٌ فَقُلْتُ: وَإِخْوَانُ الصُّفَاءِ الْأَقَارِبُ

مَنَاسِبُهُمْ شَكْلًا وَعِلْمًا وَأَلْفَةً وَإِنْ بَاعَدْتُمْ فِي الْأَصُولِ التَّنَاسُبَ (١).

(١) فى القشيري: (وإن باعدتهم فى الأصول المناسب) والبيتان لأبى تمام، يرثى غالب بن السعدى. انظر ديوانه (٤١/٤) ونهاية الأرب (٢٠٢/٥).

ثم ذكر أبوه النبي ﷺ، وأمومة أزواجه لجميع أمته، فقال:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَآئِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿النبيُّ أولى بالمؤمنين﴾ أى: أحق بهم فى كل شىء من أمور الدين والدنيا، وحكمه أنفذ عليهم ﴿من أنفسهم﴾، فإنه لا يأمرهم، ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم، فيجب عليهم أن يبذلوا دونه. ويجعلوها فداء منه. وقال ابن عباس وعطاء: يعنى: (إذا دعاهم النبي ﷺ إلى شىء، ردعتهم أنفسهم إلى شىء، كانت طاعة النبي ﷺ أولى) (١). أو: هو أولى بهم، أى: أرف، وأعطف عليهم، وأنفع لهم، كقوله: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ (٢) وفى الصحيح عنه عليه الصلاة والسلام: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم: «النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم»، فأيما مؤمن هلك، وترك مالا؛ فلورثته ما كانوا، ومن ترك ديناً أو ضيقاً فليأتنى، فإنى أنا مولاه». (٣).

وفى قراءة ابن منظور: النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم. وقال مجاهد: كل نبي أبر أمته، ولذلك صار المؤمنون إخوة؛ لأن النبي ﷺ أبوهم فى الدين، وأزواجه أمهاتهم، فى تحريم نكاحهن ووجوب تعظيمهن، وهن فيما وراء ذلك - كالإرث وغيره - كالأجنبيات، ولهذا لم يتعد التحريم إلى بناتهن.

﴿وأولوا الأرحام﴾ أى: ذوى القربالت ﴿بعضهم أولى ببعض﴾ فى الموارث. وكان المسلمون فى صدر الإسلام يتوارثون بالولاية فى الدين وبالهجرة، لا بالقرابة، ثم نسخ، وجعل التوارث بالقرابة. وذلك ﴿فى كتاب الله﴾ أى: فى حكم الله وقضائه، أو: فى اللوح المحفوظ، أو: فيما فرض الله، فهم أولى بالميراث، ﴿من المؤمنين﴾ بحق الولاية فى الدين، ﴿و﴾ من ﴿المهاجرين﴾ بحق الهجرة. وهذا هو النسخ. قال قتادة: كان المسلمون

(١) انظر تفسير البغرى (٣١٨/٦).

(٢) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.

(٣) أخرجه البخارى فى (الامتقراض، باب الصلاة على ترك ديناً، ح ٢٣٩٩)، ومسلم فى (الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته، ١٢٣٨/٣، ح ١٦١٩)، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

يتوارثون بالهجرة، ولا يرث الأعرابى المسلم من المهاجر شيئاً، فنزلت. وقال الكلبى: آخى النبى ﷺ بين الناس، فكان يواخى بين الرجلين، فإذا مات أحدهما ورثه الآخر، دون عصبته، حتى نزلت: «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله» (١)؛ فى حكمه، «من المؤمنين والمهاجرين». ويجوز أن يكون «من المؤمنين»: بياناً لأولى الأرحام، أى: وأولوا الأرحام، من هؤلاء، بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب، ﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ أى: لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً، وهو أن توصوا لمن أحببتم من هؤلاء بشئ، فيكون له ذلك بالوصية، لا بالميراث؛ فالاستثناء منقطع. وعدى (تفعلوا) يالى؛ لأنه فى معنى تستدوا، والمراد بالأولياء: المؤمنون، والمهاجرون: المتقدمون الذين نسخ ميراثهم. ﴿كان ذلك﴾ أى: التوارث بالأرحام ﴿فى الكتاب مسطوراً﴾ أى: اللوح المحفوظ، أو: القرآن. وقيل: فى التوراة.

الإشارة: متابعته - عليه الصلاة والسلام، والاقتباس من أنواره، والاهتداء بهديه، وإيثار محبته، وأمره على غيره؛ لا ينقطع عن المرید أبداً، بدايةً ونهايةً؛ إذ هو الواسطة العظمى، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأرواحهم وأسرارهم. فكل مدد واصل إلى العبد فهو منه ﷺ، وعلى يده، وكل ما تأمر به الأشياخ من فعل وترك فى تربية المریدين، فهو جزء من الذى جاء به. وهم فى ذلك بحسب النيابة عن النبى ﷺ؛ لأنهم خلفاء عنه. وكل كرامة تظهر فهي معجزة له ﷺ، وكل كشف ومشاهدة فمن نوره ﷺ، قال ابن العربى الحاتمي رضى الله عنه: اعلم أن كل ولى لله تعالى إنما يأخذ ما يأخذ بواسطة روحانية النبى ﷺ، فمنهم من يعرف ذلك، ومنهم من لا يعرفه، ويقول: قال لى الله، وليس إلا تلك الروحانية. هو. وهو موافق لما أشار إليه الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه، حيث قال: الولى إنما يكشف بالمثال، كما يرى مثلاً البدر فى الماء بواسطة، وكذلك الحقائق الغيبية، والأمور الإشهادية مجلوة وظاهرة فى بصيرة النبى ﷺ، وله عياناً لا مثلاً. والولى لقربه منه ومناسبته له؛ لهديه بهديه، ومتابعته له يكشف بمثال ذلك فيه، فظهر الفرق وثبتت مزية النبى ﷺ، وانتفى اللبس بين النبوة والولاية. قاله شيخ شيوخنا سيدى عبدالرحمن العارف.

قال القشيري: ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ الإشارة: تقديم سنته على هواك، والوقوف عند إشارته دون ما يتعلق به منك، وإيثار من تتوسل به نسباً وسبباً على أعزتك ومن والاك، «وأولوا الأرحام..» الآية. ليكن

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤/٦٨).

الأجانب منك على جانب، وتكن صلتك للأقارب وصلة الرحم ليس لمقاربة الدار وتعاقب المزار، وليكن بموافقة القلوب، والمساعدة فى حالتى المكروه والمحبوب.

أرواحنا فى مكان واحد، وإن كانت أشباحنا بشام أو خراسان (١) هـ.

ولما كان كل نبي أباً لأمة، أخذ عليهم العهد فى إرشادهم، ونصحهم، كما ينصح الأب ابنه، فقال:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۖ لَيْسَ لَهُ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ٨ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ أخذنا﴾؛ حين أخذنا ﴿من النبيين ميثاقهم﴾ بتبليغ الرسالة، والدعاء إلى الدين القيم، وإرشاد العباد ونصحهم. قيل: أخذه عليهم فى عالم الذر. قال أبى بن كعب: لما أخرج الله الذرية، كانت الأنبياء فيهم مثل السرج، عليهم الدور، فخصوا بميثاق وأخذ الرسالة والنبوة. وقال القشيري: أخذ الميثاق الأول وقت استخراج الذرية من صلب آدم، عوند بعثة كل رسول، ونبوة كل نبي، أخذ ميثاقه، وذلك على لسان جبريل عليه السلام، ومن اختصه بإسماعه كلامه بلا واسطة ملك - كنبينا ليلة المعراج، وموسى - عليهما السلام - فأخذ الميثاق منهم بلا واسطة، وكان لنبينا - عليه الصلاة والسلام - زيادة حال؛ بأن كان مع سماع الخطاب كشف الرؤية. ثم أخذ الميثاق من العباد بقلوبهم وأسرارهم هـ.

قال فى الحاشية: والذى يظهر: أن أخذ الميثاق منهم مباشرة لا بروحى، وذلك فى الغيب، ولذلك قدم نبينا محمد ﷺ؛ لأنه الدور الأول قبل آدم، ثم انتقل إلى ظهره، وحيثئذ، فأخذ الميثاق هنا غيبى، ولذلك قدمه. وفى قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ...﴾ (٢)؛ فى عالم الظهور، فلذلك قدم نوحاً، وتلى بنبينا؛ لأن نوحاً أول أولى العزم، ونبينا خاتمهم. والله أعلم هـ. والحاصل: أن أخذ الميثاق كان مرتين؛ فى عالم الغيب وفى عالم الشهادة. وهل المراد به هنا الأول أو الثانى؟ قولان.

(١) البيت لأبى تمام، يمدح سليمان بن وهب. انظر ديوان أبى تمام (٣/٣٣٥)، وتاريخ بغداد (١٠/٩٧) وفيهما: أرواحنا فى مكان واحد، وغسدت ... الخ.

(٢) الآية ١٣ من سورة الشورى.

﴿ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم﴾ ، قال النسفى: وقدم رسول الله ﷺ على نوح ومن بعده؛ لأن هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء؛ لأنهم أولو العزم، وأصحاب الشرائع، فلما كان نبينا محمد ﷺ أفضل هؤلاء قدم عليهم، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه هـ. ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ ؛ وثيقاً. وأعاد ذكر الميثاق؛ لانضمام الوصف إليه.

وإنما فعلنا ذلك ﴿ليسأل﴾ الله ﴿الصادقين﴾ أى: الأنبياء ﴿عن صدقهم﴾ ؛ عما قالوه لقومهم، وهل بلغوا ما كلفهم به. وفيه تبيكيت للكفار، كقوله: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١)، أو: ليسأل المصدقين للأنبياء عن تصديقهم؛ هل كان بإخلاص أم لا؟ لأن من قال للصادق: صدقت؛ كان صادقاً فى قوله. أو: ليسأل الأنبياء: ما الذى أجابتهم أمهم؟ وهو كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ (٢)، ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ بالرسول ﴿عذاباً أليماً﴾ ، وهو عطف على «أخذنا»؛ لأن المعنى: أن الله تعالى أخذ على الأنبياء العهد بالدعوة إلى دينه؛ لأجل إثابة المؤمنين، وأعد للكافرين عذاباً أليماً. أو: على ما دل عليه: «ليسأل الصادقين»، كأنه قال: فأثاب المؤمنين، وأعد للكافرين عذاباً أليماً.

الإشارة: كما أخذ الله الميثاق على الأنبياء والرسول؛ أخذ الميثاق على العلماء والأولياء. أما العلماء؛ فعلى تبیین الشرائع وتغيير المفاكر، وألا تأخذهم فى الله لومة لائم، وأما أخذه على الأولياء؛ فعلى تذكير العباد وإرشادهم إلى معرفة الله، وتربية من تعلق بهم، وسياسة الخلق، ودلالهم على الحق، فمن قصر من الفريقين استحق العتاب. قال القشيري: فكل من الأولياء والأكابر حال، على ما يؤهلهم له؛ قال ﷺ: «لقد كان فى الأمم محدثون، وإن يكن فى أمتى فعمر» (٣)، وغير عمر مشارك لعمر فى خواص كثيرة، وذلك سر بينهم وبين ربهم.

ثم قال: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ أَلِصْدَاقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ﴾ ؛ سؤال تشریف لا تعذيف، وإيجاب لا عتاب. والصدق: ألا يكون فى أحوالك شوب، ولا فى اعتقادك ريب، ولا فى عمالك عيب، ويقال: من أمارات الصدق فى المعاملة: وجود الإخلاص من غير ملاحظة، وفى الأحوال: تصفيتها [من غير مداخلة الحجاب] (٤)، وفى القول: سلامته من المعارض، [فيما بينك وبين نفسك] (٥). وفيما بينك وبين الناس: تباعد من التلبس والتدليس، وفيما

(١) الآية ٦ من سورة الأعراف.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخارى فى (فضائل الصحابة، باب: مناقب عمر، ح ٣٦٨٩) ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب: من فضائل عمر ٤/٨١٦٤، ح ٢٣٩٨).

(٤) فى القشيري [من غير مداخلة إعجاب].

(٥) ما بين المعقوفين ليس فى الأصول، وأثبتته من القشيري، وهو ضرورى يقتضيه السياق.

بينك وبين الله: إدامة التبرى من الحول والقوة، ومواصلة الاستقامة، وحفظ العهود معه على الدوام. وفى التوكل: عدم الانزعاج عند الفقد، وزوال البشر [بالوجد] (١)، وفى الأمر بالمعروف: التحرز من تخطل المداينة، قليلها وكثيرها، والأ يترك ذلك لفرع ولا طمع، ولكن تشرب مما تسقى، وتتصف بما تأمر، وتنتهى عما تزجر. ويقال: الصدق: أن يهتدى إليك كل أحد، ويكون عليك، فيما تقول وتضمر، اعتماد. ويقال: الصدق: ألا تجنح إلى التأويلات. انتهى كلام القشيري.

ثم شرع فى غزوة الأحزاب، التى هى المقصودة من السورة، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ يَمَاتَعُ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَ﴾ (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) ﴿

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾، أى: ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب، وهو يوم الخندق، وكان بعد حرب أحد بسنة. ﴿إذ جاءكم جنود﴾ أى: الأحزاب، وهم: قريش، وغطفان، ويهود قريظة والنضير، وهم السبب فى إتيانهم، ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً﴾ أى: الصبأ، قال عليه الصلاة والسلام: «نصرت بالصبأ، وأهلك عاد بالدبور» (٢). قيل: كانت هذه الريح معجزة؛ لأن النبى ﷺ والمسلمين كانوا قريباً منها، ولم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق، وكانوا فى عافية منها. ﴿و﴾ لا شعور لهم بها. وأرسلنا عليهم ﴿جنوداً لم تروها﴾ وهم الملائكة، وكانوا ألفاً، فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور.

وكان سبب غزوة الأحزاب: أن نفرأ من اليهود، منهم ابن أبى الحقيق، وحى بن أخطب، فى نفر من بنى النضير، لما أجلاهم النبى ﷺ من بلدهم، قدموا مكة فحرصوا قريشاً على حرب رسول الله ﷺ، ثم خرجوا إلى غطفان، وأشجع، وفزارة، وقبائل من العرب، يحرضونهم على ذلك، على أن يعطوهم نصف تمر خيبر كل

(١) فى القشيري [بالوجد].

(٢) سبق تخريج الحديث عن تفسير الآية ٤٦ من سورة الروم. فراجع إن شئت، أكرمك الله.

سنة. فخرجت قريش، وقائدها أبو سفيان، وخرجت غطفان، وقائدها عيينة بن حصن، والحارث بن عوف فى مرة، وسعد بن ربيعة^(١) فى أشجع، وعامر بن الطفيل فى هوازن.

فلما سمع النبى ﷺ بهم، ضرب الخندق على المدينة، برأى سلمان. وكان أول مشهد شهده مع رسول الله ﷺ، وهو يومئذ حر. وقال: يا رسول الله: إنا كنا بفارس؛ إذا حُوصرنا: خندقاً علينا، فحفر الخندق، وياشر الحفر معهم بيده ﷺ. فنزلت قريش بمجتمع الأسىال من الجُرف والغابة، فى عشرة آلاف من أحابيشهم. ونزلت غطفان وأهل نجد بذنب نَقَمَى، إلى جانب أحد. فخرج النبى ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع، فى ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هناك عسكره، والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراى والنساء فرفعوا فى الآطام^(٢).

واشتد الخوف، فأقام النبى ﷺ، وأقام المشركون، بضعاَ وعشرين ليلة، ولم يكن حرب غير الرمى بالنبل والحصى. فلما اشتد البلاء بعث النبى ﷺ إلى عيينة بن حصن، والحارث بن عوف، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمن معهما، وكتبوا الكتاب ولم يقع الإِشهاد، فاستشار النبى ﷺ سعد بن معاذ، وسعد بن عباد، فقال سعد بن معاذ: أشىء أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به، أم شىء تُحببه فنصنعه، أم شىء تصنعه لنا؟ قال: «لا، بل شىء أصنعه لكم، أردت أن أكسر عنكم شوكتهم». فقال سعد: يا رسول الله؛ لقد كنا مع القوم على شرك وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة، إلا قرى، أو شراء، أحياناً أكرمنا الله بالإسلام، وأعزنا بك، نعطيهم أموالنا لا نعطيههم إلا السيف. فقال - عليه الصلاة والسلام: «فأنت وذاك»، فمحا سعد ما فى الكتاب، وقال: ليجهدوا علينا^(٣).

ثم إن الله تعالى بعث عليهم ريحاً باردة، فى ليلة شاتية، فأحصرتهم، وأحلت التراب فى وجوههم، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأكفأت القدور، وأطفأت النيران، وجالت الخيل بعضها فى بعض. وأرسل الله تعالى عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة فى جوانب عسكرهم، حتى كان سيد كل خباء يقول: يابنى فلان، هلموا، فإذا اجتمعوا إليه قال: النجاء، النجاء، أوتيتم. فانهزموا من غير قتال.

﴿وكان الله بما تعملون بصيراً﴾، أى: بصيراً بعملكم، من حفر الخندق، ومعاونة النبى ﷺ، والثبات معه، فيجازيكم عليه. وقرأ أبو عمرو: بالغيب، أى: بما يعمل الكفار؛ من البغى، والسعى فى إطفاء نور الله ﷻ إذ

(٢) الآطام: الحصون. جمع أطم. انظر للسان (أطم ١/٩٢).

(١) فى تفسير البغوى [مسعود بن ربيعة].

(٣) انظر: السيرة لابن هشام (٢٢٥/٣).

﴿جاءوكم﴾ هو بدل من: (إذ جاءتكم)، ﴿من فوقكم﴾؛ من أعلى الوادى، من قِبَل المشرق. وهم بنو غطفان. ﴿ومن أسفل منكم﴾؛ من أسفل الوادى من قِبَل المغرب، وهم قريش. ﴿وإذ زاغت الأبصار﴾؛ مالت عن مستوى نظرها؛ حيرةً وشخصاً. أو: مالت إلى عدوها؛ لشدة الخوف، ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾؛ رعباً. والحنجرة: رأس الغلصمة، وهى منتهى الحلقوم، الذى هو مدخل الطعام والشراب. قالوا: إذا انتفخت الرئة، من شدة الفزع والغضب، ربت، وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة. وقيل: هو مثل فى اضطراب القلوب، وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة.

رُوى أن المسلمين قالوا لرسول الله ﷺ: هل من شىء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: «نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا» (١).

﴿وتظنون بالله الظنونا﴾؛ الأنواع من الظن. والمؤمنون أصناف؛ منهم الأقوياء، ومنهم الضعفاء، ومنهم المنافقون. فظن الأقوياء، المخلصون، الثبت القلوب؛ أن ينجز الله وعده فى إعلاء دينه، ويمتحنهم، فخافوا الزلزال وضعف الاحتمال، وأما الآخرون؛ فظنوا ما حكى عنهم، وهم الذين زاغت أبصارهم، وبلغت قلوبهم الحناجر، دون الأقوياء رضى الله عنهم، وقرأ أبو عمرو وحمزة: ﴿الظنون﴾؛ بغير ألف، وهو القياس. وبالألف فيهما: نافع، والشامى، وشعبة؛ إجراء للوصول مجرى الوقف. والمكى، وعلى، وحفص: بالألف فى الوقف. ومثله: «الرسول» (٢) و(السبيل) (٣)، زادوها فى الفاصلة، كما زادوها فى القافية، كقوله:

أَقْلَى اللُّؤْمِ، عَادِلٌ؛ وَالْعِتَابَا، (٤)

وهو فى الإمام: بالألف.

﴿هنالك ابتلي المؤمنون﴾ أى: اختبروا، فظهر المخلص من المنافق، والثابت من المزلزل، ﴿وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾؛ وحردوا، بالخوف، تحريكاً شديداً.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص؛ اذكروا نعمة الله عليكم بالتأييد والنصر، فحين توجهتم إلى، ودخلتم فى طريق ولايتى، رفصتكم الناس، ونكرتكم، ورمتكم عن قوس واحدة، فجاءتكم جنود الخواطر والوساوس

(١) أخرجه أحمد (٣/٣) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

(٢) من الآية ٦٦ من سورة الأحزاب.

(٣) من الآية ٦٧ من سورة الأحزاب. وانظر الحجة لأبى على الفارسى (٥/٤٦٨ - ٤٦٩).

(٤) صدر بيت لجريز، وعجزه: وقولى - إن أصبت - لقد أصاباً. انظر: معانى القرآن للزجاج (٤/٢١٨).

من كل جانب، حتى هممت بالرجوع أو الوقوف. وإذ زاغت الأبصار: مالت عن قصدتها؛ بالاهتمام بالرجوع، وبلغت القلوب الحناجر، ممن كان ضعيف الإرادة واليقين، وتظنون بالله الظنون، فمنهم من يظن الامتكان بعد الامتحان، فيفرحون بالبلاء، ومنهم من يظن أنه عقوبة... إلى غير ذلك، هنالك ابتلى المؤمنون المتوجهون؛ ليظهر الصادق، فى الطلب، من الكاذب فيه، فعند الامتحان يعز المرء أو يهان، ويظهر الخوافون من الشجعان، وزلزلوا زلزالاً شديداً؛ ليتخلصوا ويتمحصوا، كما يتخلص الذهب والفضة من النحاس، ومن عرف ما قصد؛ هان عليه ما ترك.

قال القشيري: «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم...» يعنى: بمقابلتها بالشكر، وتذكر ما سلف من الذى دفع عنك، يهون عليك مقياسه البلاء فى الحال. ويذكرك لما أولاك فى الماضى؛ يقرب من الثقة بوصول ما تؤمله فى الاستقبال. فمن جملة ما ذكرهم قوله: «إذ جاءكم جنود...» الآية: كم بلاء صرفه عن العبد وهو لا يشعر، وكم شغل كلت بصده، فصده عنك ولم تعلم، وكم أمر صرفه، والعبد يضج، وهو - سبحانه - يعلم أن فى تيسيره هلاكه، فيمنعه منه؛ رحمة عليه، والعبد يتهمه ويضيق به صدره! هـ.

ثم ذكر سبحانه نتيجة الابتلاء، فقال:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾
وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأِلُوا أَلِفْتَنَةً لَّا تَوَّهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا سِيرًا ۝١٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض﴾: عطف تفسير؛ إذ هو وصف المنافقين، كقول الشاعر:

إلى الملكِ القرم، وابنِ الهمامِ وليثِ الكتيبةِ فى المزدحمِ

فابن الهمام هو القرم، والقرم - بالراء -: السيد. وقيل: «الذين فى قلوبهم مرض»، هم الذين لا بصيرة بهم فى الدين من المسلمين، كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم، قالوا، عند شدة الخوف: ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا﴾.

رَوَى أَن مُعْتَبَ بْنَ قُشَيْرٍ، الْمُنَافِقَ، حِينَ رَأَى الْأَحْزَابَ قَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَعِدُّنَا فَتَحَ فَارِسَ وَالرُّومَ، وَأَحَدُنَا لَا يَقْدِرُ أَنْ يَتَبَرَّزَ، خَوْفًا، مَا هَذَا إِلَّا وَعْدُ غُرُورٍ.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ ؛ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَأَصْحَابُهُ: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ ، وَهُمْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ (١) أَى: لَا قَرَارَ لَكُمْ هُنَا، وَلَا مَكَانَ تَقِيمُونَ فِيهِ - وَقَرَأْ حَفْصٌ: بِضَمِّ الْمِيمِ - اسْمَ مَكَانٍ، أَوْ مَصْدَرٍ، ﴿فَارْجِعُوا﴾ مِنْ عَسْكَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ هَارِبِينَ، أَوْ: إِلَى الْكُفْرِ، فَيُمْكِنُكُمُ الْمَقَامُ بِهَا، أَوْ: لَا مَقَامَ لَكُمْ عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ، فَارْجِعُوا إِلَى الشَّرْكِ وَأَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ لَتَسْلَمُوا، ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ﴾ أَى: بَنُو حَارِثَةَ، ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾: ذَاتُ عَوْرَةٍ، أَى: خَالِيَةٌ غَيْرُ حَصِينَةٍ، وَهِيَ مِمَّا يَلِى الْعَدُوَّ. وَأَصْلُهَا: الْخَلَلُ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ؛ بِكسر الواو: (عَوْرَةٌ)، يَعْنَى: قَصِيرَةُ الْجُدْرَانِ، فِيهَا خَلَلٌ. تَقُولُ الْعَرَبُ: دَارُ فُلَانٍ عَوْرَةٌ؛ إِذَا لَمْ تَكُنْ حَصِينَةً، وَعَوْرَ الْمَكَانِ: إِذَا بَدَأَ فِيهِ خَلَلٌ يَخَافُ مِنْهُ الْعَدُوُّ وَالسَّارِقُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَوْرَةً: تَخْفِيفَ عَوْرَةٍ.

اعْتَذَرُوا أَنْ بُيُوتَهُمْ عُرْضَةٌ لِلْعَدُوِّ وَالسَّارِقِ؛ لِأَنَّهَا غَيْرُ مُحَصَّنَةٍ، فَاسْتَأْذَنُوا لِيَحْصِنُوهَا ثُمَّ يَرْجِعُوا إِلَيْهِ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾، بَلْ هِيَ حَصِينَةٌ، ﴿إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ مِنَ الْقَتْلِ.

﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مَدِينَتُهُمْ، أَوْ: بُيُوتُهُمْ. مِنْ قَوْلِكَ: دَخَلَتْ عَلَى فُلَانٍ دَارَهُ.﴾ مِنْ أَقْطَارِهَا، مِنْ جَوَانِبِهَا، أَى: وَلَوْ دَخَلَتْ هَذِهِ الْعَسَاكِرُ الْمُتَحْزِمَةُ - الَّتِي يَفِرُونَ؛ خَوْفًا مِنْهَا - مَدِينَتَهُمْ، أَوْ بُيُوتَهُمْ، مِنْ نَوَاحِيهَا كُلِّهَا؛ نَاهِبِينَ سَارِقِينَ، ﴿ثُمَّ سَأَلُوا﴾؛ عِنْدَ ذَلِكَ لِلْفِرْعِ، ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أَى: الرَّدَّةَ وَالرَّجْعَةَ إِلَى الْكُفْرِ وَمُقَاتَلَةَ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ: الْقِتَالَ فِي الْعَصْبِيَّةِ، وَهُوَ أَحْسَنُ؛ لِأَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ، ﴿لَأَتَوْهَا﴾ (٢)؛ لِحَاجَتِهَا وَقَطْعُهَا. وَمَنْ قَرَأَ بِالْمَدِّ فَمَعْنَاهُ: لَأَعْطَوْهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا﴾؛ بِإِجَابَتِهَا وَإِعْطَائِهَا، أَى: مَا احْتَبَسُوا عَنْهَا ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾، أَوْ: مَا لَبِثُوا بِالْمَدِينَةِ، بَعْدَ ارْتِدَادِهِمْ، إِلَّا زَمَانًا يَسِيرًا، ثُمَّ يَهْلِكُهُمُ اللَّهُ؛ لِأَنَّ الْمَدِينَةَ كَالْكَبِيرِ؛ تَنْفَى خَيْثُهَا، وَيَنْصَعُ طَيْبُهَا، وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَتَعَلَّلُونَ بِأَعْوَارِ بُيُوتِهِمْ؛ لِيَفِرُوا عَنْ نَصْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَعَنْ مَصَافَاةِ الْأَحْزَابِ الَّذِينَ مَلَأُوهُمْ رُعْبًا، وَهَؤُلَاءِ الْأَحْزَابُ كَمَا هُمْ؛ لَوْ سَأَلُوهُمْ أَنْ يِقَاتِلُوا؛ فِتْنَةً وَعَصْبِيَّةً؛ لِأَجَابُوهُمْ، وَمَا تَعَلَّلُوا بِشَيْءٍ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِيُضْعِفَ إِيْمَانَهُمْ، وَالْعِيَادَ بِاللَّهِ.

الإشارة: وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ شُيُوخِ التَّيْبَةِ لِأَهْلِ الْفَنَاءِ: لَا مَقَامَ تَقْفُونَ مَعَهُ؛ إِذْ قَدْ قَطَعْتُمُ الْمَقَامَاتِ، حِينَ تَحَقَّقْتُمْ بِمَقَامِ الْفَنَاءِ، فَارْجِعُوا إِلَى الْبَقَاءِ؛ لَتَقُومُوا بِآدَابِ الْعِبُودِيَّةِ، وَتَنْزِلُونَ فِي الْمَقَامَاتِ ثُمَّ تَرْحَلُونَ عَنْهَا، كَمَا

(١) أثبت المفسر - رحمه الله - قراءة (مَقَام) بفتح الميم، وهي قراءة الجمهور. وقراء حفص (مَقَام) بِضَمِّ الْمِيمِ. انظر: العجة للفارسي (٤٧١/٥).

(٢) قرأ نافع وابن كثير: (لَأَتَوْهَا) بالقصر، وقرأ الباقون: بالمد. انظر: الإتحاف (٣٧٢/٢).

تنزل الشمس في بروجها، فكل وقت يبرز فيه ما يقتضى النزول إلى مقامه. فتارة يبرز ما يقتضى التوبة، وتارة ما يقتضى الخوف والهيبة، أى: خوف القطيعة، وتارة ما يقتضى الرجاء والبسط، وتارة ما يقتضى الشكر، وتارة الصبر، وتارة ما يقتضى الرضا والتسليم، وتارة ما يهيج المحبة أو المراقبة أو المشاهدة. وهكذا ينزل في المقامات ويرحل عنها، ولا يقيم فى شيء منها. ويستأذن بعض المريدين فى الرجوع إلى مقامات الإيمان أو الإسلام، أو شيء من أمور البدايات، يقولون: إن بيوت تلك المقامات لم نتقنها، بل فيها عورة وخلل، وما هى بعورة، ما يريدون إلا فراراً من ثقل أعباء الحضرة. ولو دخلت بيوت قلوبهم من أقطارها، ثم سلخوا الرجوع إلى الدنيا لأتوها؛ لأنها قريبة عهد بتركها، وما تلبثوا بها إلا زماناً يسيراً، بل ييغتهم الموت، ويندمون، قل متاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى.

وقد كانوا عاهدوا الله ألا يرجعوا إليها، كما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا دَبْرُوكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۝١٥
 قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦
 قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٧ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل ﴾ أى: قبل غزوة الخندق، وهو يوم أحد. والضمير فى «كانوا»: لبنى حارثة، عاهدوا رسول الله ﷺ يوم أحد، حين فشلوا، ثم تابوا ألا يعودوا لمثله، وقالوا: ﴿ لا يُولُونَ الْأَدْبَارَ ﴾؛ منهزمين أبداً، ﴿ وكان عهد الله مسئولا ﴾ عن الوفاء به، مجازى عليه، أو: مطلوباً مقتضى حتى يوفى به. ﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ﴾، فإنه لا بد لكل شخص من حنق أنفه، أو: قتل فى وقت معين سبق القضاء وجرى به القلم، ﴿ وإذا لا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى: إن حضر أجلكم لم ينفعكم الفرار، وإن لم يحضر، وفررتم، لن تمتعوا فى الدنيا إلا زماناً قليلاً، وهو مدة أعماركم، وهو قليل بالنسبة إلى ما بعد الموت الذى لا انتضاء له.

﴿ قل من ذا الذى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى: يمنعكم مما أراد الله إنزاله بكم؛ ﴿ إن أراد بكم سوءاً ﴾ فى أنفسكم؛ من قتل أو غيره، ﴿ أو أراد بكم رحمة ﴾ أى: أراد بكم إطالة عمر فى عافية وسلامة. أو: من يمنع الله

من أن يرحمكم، إن أراد بكم رحمة، فحذف؛ بعدا واختصاراً، لما فى العصمة من معنى المنع، أو: من ذا الذى يعصمكم؛ إن أراد بكم سوءاً، أو يصيبكم بسوء، إن أراد بكم رحمة، فاختصر الكلام. ﴿ولا يجدون لهم من دون الله ولياً﴾ ينفعهم، ﴿ولا نصيراً﴾ يدفع العذاب عنهم.

الإشارة: ولقد كان عاهد الله؛ من دخل فى طريق القوم، ألا يولى الأديار، ويرجع إلى الدنيا والاشتغال بها حتى يتفتر عن السير، وكان عهد الله مسئولا، فيسأله الحق تعالى عن سبب رجوعه عن الإرادة، ولماذا حرم نفسه من لذية المشاهدة؟ قل - لمن رجع، ولم يقدر على مجاهدة نفسه: لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت لنفوسكم، أو القتل؛ بمجاهدتها وتجميلها بعكس مرادها، وتحميلها ما يثقل عليها، وإذا لا تمتعون إلا قليلاً، ثم ترحلون إلى الله، فى غم الحجاب وسوء الحساب. قل: من ذا الذى يعصمكم من الله، إن أراد بكم سوءاً؟، وهو البعد والطرده، أو: من يمنعكم من رحمته، إن أراد بكم رحمة؟، وهى التقريب إلى حضرته، فلا أحد يعصمكم من إبعاده، ولا أحد يمنعكم من إحسانه؛ إذ لا ولى ولا ناصر سواه. اللهم انصرنا بنصرك المبين، وارحمنا برحمتك الخاصة، حتى تقرّبنا إلى حضرتك، بفضل منك وجودك، يا أرحم الراحمين.

ثم ذكر نعوت أهل البعد، فقال:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨) أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٩)

يقول الحق جل جلاله: ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم﴾ أى: يعلم من يعوق عن نصره رسول الله ﷺ ويمنع، وهم المنافقون والمثبطون للناس عن الخروج إلى الغزو، ﴿والقائلين لإخوانهم﴾ فى الظاهر؛ من ساكنى المدينة من المسلمين: ﴿هلم إلينا﴾؛ تعالوا إلينا، ودعوا محمداً. ولغة أهل الحجاز فى «هلم»: أنهم يسوون فيه بين الواحد والجماعة. وأما بنو تميم فيقولون: هلم يارجل، وهلموا يارجال.. وهكذا. ﴿ولا يأتون البأس﴾؛ الحرب

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ إلا إتياناً قليلاً، أو يحضرون ساعة؛ رياءً، ويقفون قليلاً، مقدار ما يرى شهودهم ثم ينصرفون. ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ﴾؛ جمع شحيح، وهو البخيل، نُصب على الحال من ضمير «يأتون» أى: لا يأتون الحرب؛ بخلاً عليكم بالمعونة أو بالنفقة فى سبيل الله، أو: فى الظفر والغنيمة، أى: عند الظفر وقسم الغنيمة. ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ من قبل العدو، أو: منه ﷺ، ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾؛ فى تلك الحالة، ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ يميناً وشمالاً ﴿كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾؛ كما ينظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت؛ حذراً وخوفاً ولوإذا بك.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ أى: زال ذلك الخوف وأمنوا، وحيزت الغنائم ﴿سَلَقُوكُمْ بِالْأَسْنَةِ حَدَادٍ﴾؛ خاطبوكم مخاطبة شديدة، وآذوكم بالكلام، يقال: خطيب سلق؛ فصيح، ورجل مسلق وسلّاق: مبالغ فى الكلام. يعنى: بسطوا ألسنتهم فيكم، وقت قسم الغنيمة، ويقولون: أعطنا، أعطنا؛ فإننا قد شهدنا معكم، وبمكاننا غلبتم عدوكم. ﴿أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أى: خاطبوكم؛ أشحة على المال والغنيمة. فهو حال من فاعل سلقوكم، فهم أشح القوم عند القسم، وأجنبهم عند الحرب، ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَأْمَنُوا﴾ فى الحقيقة، بل بالألسنة فقط، ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أبطلها، بإضمار الكفر مع ما أظهروا من الأعمال الخبيثة، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإحباط ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾؛ هيناً.

الإشارة: هذه صفة منافقى الصوفية، يدخلون معهم على تذبذب، فإذا رأوا قوماً توجهوا لخرق عوائدهم وتخريب ظواهرهم، أو: أرادوا الخروج عن دنياهم؛ عوقوهم عن ذلك، وثبطوهم، وكذلك إذا توجهوا فى سفر لشقة بعيدة؛ عوقوهم؛ ليستتروا بهم، وقالوا لإخوانهم فى الطريق: هلم إلينا، ولا يأتون مكان حرب أنفسهم إلا قليلاً. أشحة بأنفسهم عليكم، فإذا جاء الخوف، وتجلّى لهم الحق تعالى باسمه الجليل؛ بأن نزلت بالفقراء محنة، رأيتهم ينظرون إليك، تدور أعينهم، نظر المغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف، وجاء النصر والعز؛ سلقوكم بالأسنة حداد، وقالوا: إنا كنا معكم، أولئك لا نصيب لهم مما للقوم من الخصوصية. والله تعالى أعلم.

ثم تم وصفهم، فقال:

﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوَأَنَّ لَهُمُ بَادُونَ
فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٢٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَحْسِبُونَ﴾ أى: هؤلاء المنافقون ﴿الأحزاب﴾، يعنى: قريشاً وغطفان، الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ، أى: اجتمعوا، أنهم ﴿لم يذهبوا﴾ ولم ينصرفوا؛ لشدة جبنهم، مع أنهم انصرفوا. ﴿وإن يأت الأحزاب﴾ كرة ثانية؛ ﴿يودُّوا لو أنهم بادون في الأعراب﴾، والبادون: جمع باد، أى: يتمنى المنافقون - لجبنهم - أنهم خارجون من المدينة إلى البادية، حاصلون بين الأعراب؛ ليأمنوا على أنفسهم، ويعتزلوا مما فيه الخوف من الحرب، ﴿يسألون﴾ كل قادم منهم من جانب المدينة. وقرئ ﴿يسألون﴾ (١)، بالشد. أى: يتساءلون، بعضهم بعضاً ﴿عن أنباءكم﴾؛ عن أخباركم وعما جرى عليكم، ﴿ولو كانوا﴾ أى: هؤلاء المنافقون ﴿فيكم﴾ أى: حاضرون فى عسكريكم، وحضر قتال، ﴿ما قاتلوا إلا قليلاً﴾؛ رياء وسمعة، ولو كان لله؛ لكان كثيراً؛ إذ لا يقل عمل لله.

الإشارة: الجبان يخاف والناس آمنون، والشجاع يأمن والناس خائفون، ولا ينال من طريق القوم شيئاً جبان ولا مستحى ولا متكبر. فمن أوصاف الضعفاء: أنهم، إذا نزلت بالقوم شدة أو محنة - كما امتحن الجنيد وأصحابه - يتمنون أنهم خارجون عنهم، وربما خرجوا بالفعل، وإن ذهبت شوكتهم؛ يحسبون أنهم لم يذهبوا؛ لشدة جزعهم. ومن أوصافهم: أنهم يكثر سؤالهم عن أخبار القوم، والبحث عما جرى بهم؛ خوفاً وجزعاً؛ ولو مضوا معهم لم يغنوا شيئاً. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم من أهل القوة، فقال:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ﴾ (٢١) ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۖ﴾ (٢٢) ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۖ﴾ (٢٣) ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۖ﴾ (٢٤)

(١) وهى قراءة رويس، ورريت عن زيد بن على، وقتادة، وغيرهما. انظر الإتحاف (٣٧٣/٢).

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقد كان لكم في رسول الله﴾؛ محمد ﷺ ﴿أسوة (١) حسنة﴾؛ خصلة حسنة، من حقها أن يؤتسى بها؛ كالثبات في الحرب، ومقاساة الشدائد، ومباشرة القتال. أو: في نفسه قدوة يحسن التأسي به. كما تقول: في البيضة عشرون رطلاً من حديد، أى: هي في نفسها عشرون. وفيه لغتان: الضم والكسر، كالعدوة والعدوة، والرشوة والرشوة. وهى ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ أى: يخاف الله ويخاف اليوم الآخر، أو: لأجل ثواب الله ونعيم اليوم الآخر. وللمن: قيل: بدل من ضمير الكم، وفيه ضعف؛ إذ لا يبدل من ضمير المخاطب إلا ما دل على الإحاطة. وقيل: يتعلق بحسنة، أى: أسوة حسنة كائنة لمن آمن، ﴿وذكر الله كثيراً﴾ أى: في الخوف والرجاء، والشدة والرخاء، فإن المؤتسى بالرسول يكون كذلك.

﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب﴾ قد أقبلوا عليهم؛ ليستأصلوهم، وقد وعدهم الله أن يسلط عليهم المحن، ويزلزلوا حتى يستغيثوا ويستنصروا بقوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم..﴾ إلى قوله: ﴿نصر الله قريب﴾ (٢)، فلما جاء الأحزاب واضطربوا؛ ﴿قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله﴾، وعلموا أن الجنة والنصرة قد وجبت لهم. وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبی ﷺ قال لأصحابه: «إن الأحزاب سائرُونَ إليكم؛ في آخر تسع ليال، أو عشر»، فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد، قالوا ذلك (٣). و«هذا»: إشارة إلى الخطب والبلاء، أى: هذا الخطب الذى وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، ﴿وما زادهم﴾، ما رأوا من اجتماع الأحزاب ومجيئهم، ﴿إلا إيماناً﴾ بالله وبمواعيده، ﴿وتسليماً﴾ لقضائه وأقداره.

﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ أى: صدقوا فيما عاهدوه، فحذف الجار، وأوصل المفعول إلى «ما»؛ وذلك أن رجالاً من الصحابة نذروا أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا، وقاتلوا حتى يستشهدوا، وهم: عثمان بن عفان، وطلحة، وسعيد بن زيد، وحمزة، ومصعب، وأنس بن النضر، وغيرهم. ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾؛ نذره؛ بأن قاتل حتى استشهد؛ كحمزة، ومصعب، وأنس بن النضر. والنحْبُ: النذر، واستعير للموت؛ لأن كل حى من المحدثات لا بد له أن يموت، فكأنه نذر لازم في رقبته، فإذا مات؛ فقد قضى نحبه، أى: نذره. وقال فى الصحاح: النحب: النذر، ثم قال: والنحْبُ: المدة والوقت. يقال: قضى فلان نحبه؛ إذا مات. هـ. فهو

(١) قرأ عاصم (أسوة) بضم الهمزة، حيث كان، وهى لغة قيس وتميم، وقرأ الباقون بكسرها حيث وقعت. وهى لغة الحجاز.

انظر الإتحاف (٣٧٣/٢).

(٢) الآية ٢١٤ من سورة البقرة.

(٣) قال الحافظ ابن حجر، فى الكافى الشاف (ص ١٣٣، رقم ٢٠٨): لم أجده.

لفظ مشترك بين النذر والموت. وصحح ابن عطية أن النحب الذى فى الآية ليس من شرطه الموت. بل معناه: قضى نذره الذى عاهد الله عليه من نصرة الدين، سواء قُتل أو بقى حياً. بدليل قوله - عليه الصلاة والسلام - فى طلحة: «هذا ممن قضى نحبَه» (١) هـ.

﴿ومنهم من ينتظر﴾ أى: الموت على الشهادة؛ كعثمان وطلحة، ﴿وما بدّلوا﴾؛ العهد ﴿تبدلاً﴾؛ ولاغيروه، لا المستشهد، ولا من ينتظر الشهادة. وفيه تعريض بمن بدّل من أهل اللفاق، كقوله تعالى فيما مر: «ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار...» (٢). ﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم﴾؛ بوفائهم بالعهد، ﴿ويُعَذِّبُ المنافقين إن شاء﴾ إذا لم يتوبوا، ﴿أو يتوب عليهم﴾ إن تابوا ﴿إن الله كان غفوراً﴾ بقبول التوبة، ﴿رحيماً﴾ بعفو الحوبة.

الإشارة: قد تقدم ما يتعلق بالافتداء بالرسول - عليه الصلاة والسلام - والاهتداء بهديه، وأنه منهاج الأكابر. وقوله تعالى: «ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب...» الآية. كذلك الأقوياء من هذه الطائفة، إذا رأوا ما يهولهم ويروعهم زادهم ذلك إيماناً وتسليماً، وبقيناً وطمأنينة، وتحققوا بصحة الطريق؛ إذ هو منهاج الساترين والأولياء الصادقين، وسنة الأنبياء والمرسلين. قال تعالى: «أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» (٣) الآية. وتقدم فى إشاراتها ما يتعلق بهذا المعنى.

قال بعضهم: نحن كالنجوم، كلما اشدت الظلمة قوى نورنا. وقال القشيري: كما أن المنافقين اضطربت عقائدهم عند رؤية الأعداء، فالمؤمنون وأهل اليقين زادوا ثقةً، وعلى الأعداء جرأة، ولحكم الله استسلاماً، وفى الله قوة. ثم قال: قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا...﴾ الآية، شكر صديقهم فى المراس، ومدح يقينهم عند شهود الناس، وسماهم رجالاً؛ إثباتاً لهم بالخصوصية فى الرتبة، وتمييزاً لهم من بين أشكالهم بعلو الحالة، فعلمهم من خرج من دنياه على صدقه، ومنهم من ينتظر حكم الله فى الحياة والممات، وحقيقة الصدق: حفظ العهد وترك مجاوزة الحد. ويقال: استواء السر والجهر. ويقال: هو الثبات عندما يكون الأمر جذاً.

(١) أخرجه الترمذى فى (المناقب، مناقب طلحة بن عبيد الله ٦٠٢/٥، ح ٣٧٤٠) وابن ماجه فى (المقدمة: باب فى فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ٤٦/١، ح ١٢٦). من حديث معارية رضي الله عنه.

(٢) الآية ١٥ من سورة الأحزاب.

(٣) الآية الثانية من سورة العنكبوت.

قوله تعالى: ﴿... ليجزى الله الصادقين بصدقهم...﴾ فى الدنيا بالتمكين، والنصرة على العدو، وإعلاء الرتبة، وفى الآخرة بجزيل الثواب، وجميل العآب، والخلود فى النعيم المقيم، والتقدم على الأشكال بالتكريم والتعظيم. وقوله: ﴿ويعذب المنافقين إن شاء﴾ يقال: إذا لم يجزم بعقوبة المنافق، وتعلق القول فيه على الرجاء، فبالحرى ألا يخيب المؤمن فى رجائه. انتهى كلام القشيري.

ثم ذكر رجوع الأحزاب، فقال:

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ
وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُواهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ
صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾
وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: الأحزاب ﴿بَغَيْظِهِمْ﴾؛ ملتبسين بغیظهم، فسر حال كقوله: ﴿تَبَّتْ بِالْذُّمِّ﴾ (١) أى: ردهم غائطين ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾؛ ظفراً، أى: لم يظفروا بالمسلمين. وسماه «خيراً» بزعمهم، وهو أيضاً حال، أى: غير ظافرين، ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بالريح، والملائكة، ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾؛ قادراً غالباً، فقهروهم بقدرته وغلبهم بقهره. ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُواهُمْ﴾: عاونوا الأحزاب وجاءوا بهم ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، يعنى بنى قريظة، أنزلهم ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾؛ من حصونهم. والصيصة: ما يتحصن به قال الهروي: وكل ما يتحصن به فهو صيصة، ويقال لقرون البقر والظبي: صياصى؛ لأنها تتحصن بها، وفى وصف أصحاب الدجال: «شواربهم كالصياصى»، لطولها، وفتلها، فصارت كالقرون هـ.

روى أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ صبيحة الليلة التى انهزم فيها الأحزاب، ورجع المسلمون إلى المدينة - على فرسه الحيزوم، والغبار على وجه الفرس والسرّج، فقال: ما هذا يا جبريل؟ فقال: من متابعة قريش. ثم قال: إن الله يأمرك بالمشير إلى بنى قريظة، وأنا عائد إليهم، فإن الله دأبهم دقّ البيض على الصفا، وهم لكم طعمة.

(١) من الآية ٢٠ من سورة المؤمنون.

وفى رواية: لما رجع - عليه الصلاة والسلام - ودخل مغتسله، جاءه جبريل بعمامة من استبرق، على بغلة، عليها قطيفة من ديباج، فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعت الملائكة السلاح، وما رجعت إلا من طلب القوم، وإن الله يأمرك بالمشير إلى بنى قريظة. فأذن رسول الله ﷺ فى الناس: أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة. فخرج إليهم، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة. فقال رسول الله ﷺ: تنزلون على حكمي؟ فأبوا، فقال: تنزلون على حكم سعد بن معاذ؟ فرضوا به. فقال سعد: نحكم فيهم: أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم ونساءهم. فكبر النبي ﷺ وقال: «لقد حكم فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة» (١).

ثم استنزلهم، وخندق فى سوق المدينة خندقاً، وقدمهم، فضرب أعناقهم. وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة. وقيل: كانوا ستمائة مقاتل، وسبعمائة أسير، فقتل المقاتلة، وقسم الأسارى، وهم الذراري والنساء. وكان على والزبير - رضى الله عنهما - يضريان أعناق بنى قريظة. والنبي ﷺ جالس هناك. والقصة مطولة فى كتب السير (٢).

﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾؛ الخوف. وفيه السكون والضم، ﴿فريقاً تقتلون﴾، وهم الرجال ﴿وتأسرون فريقاً﴾ وهم النساء والذراري. قالت عائشة رضى الله عنها: لم يقتل ﷺ من نساء بنى قريظة امرأة إلا واحدة، قتلها بخلاف بن سويد، كانت شذخت رأسه بحجر من فوق الحصن (٣).

﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم﴾ كالنواشى والنقود والأمتعة. روى أن رسول الله ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، وقال لهم: «إنكم فى منازلكم». ﴿و﴾ أورثكم ﴿أرضاً لم تطوها﴾ بعد، قيل: خيبر، ولم يكونوا نالوها، أو: مكة، أو: فارس والروم، أو: كل أرض لم تفتح إلى يوم القيامة، فمكنتهم الله من ذلك كله، وفتح عليهم مشارق الأرض ومغاريها. ﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾، فيقدر على جميع ذلك.

الإشارة: هذه عادة الله مع خواصه، أن يخوفهم ثم يؤمنهم، ويذلهم ثم يعزهم، ويفقرهم ثم يغنيهم، ويجعل دائرة السوء على من ناوأهم، ويكفيهم أمرهم من غير محاربة ولا قتال، «وكفى الله المؤمنين القتال...» الآية. ثم يكون لهم التصرف فى الوجود بأسره، أمرهم بأمر الله، وحكمهم بحكمه، والله غالب على أمره.

(١) أخرجه الطبرى فى التفسير (١٥٣/٢١). وأخرجه البخارى ومسلم بلفظ: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك»، انظر صحيح البخارى (المغازى، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب. ح ٤١١١٧، ٤١١٩) ومسلم (الجهاد، باب جواز قتال من نقض العهد، ١٣٨٨/٣ - ١٣٨٩، ح ٦٤ - ٦٥ - ٦٦).

وقوله ﷺ: «أرقعة»، يعنى سبع سموات. وكل سماء يقال لها: (رقع). انظر النهاية (رقع). ولسان العرب (١٧٠٥/٣).

(٢) راجع السيرة لابن هشام (٣٣٣/٣ - ٣٤٢).

(٣) أخرجه الطبرى (١٥٣/٢١ - ١٥٤).

ولما نصر الله رسوله، وفرق عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس أموال اليهود وذخائرهم، ففعدن حوله: وقلن: يا رسول الله؛ بنات كسرى وقيصر في الحلى والحلل والإماء والخول^(١) ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق، وآمن قلبه - عليه الصلاة والسلام - لمطالبتهن له بتوسعة الحال، وأن يعاملهن به بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم، فأنزل الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾، وكن تسعاً؛ خمساً من قريش: عائشة بنت الصديق، وحفصة بنت الفاروق، وأم حبيبة بنت سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبي أمية، وصفية بنت حيي الخيبرية، من بنى إسرائيل، من ذرية هارون عليه السلام، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية. أى: فقل لهن ﴿إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أى: التوسعة في الدنيا وكثرة الأموال والحل، ﴿فتعالين﴾ أى: أقبلن بإرادتكن واختياركن. وأصل «تعال» أن يقوله من في المكان المرتفع لمن في المكان الأدنى، ثم كثر استعماله في كل أمر مطلوب. ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أى: أعطكن منعة الطلاق. وتستحب المتعة لكل مطلقة إلا المفوضة قبل الوطء مع أخواتها، كما في كتب الفقه. ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أطلقكن ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ لا ضرر فيه.

وقيل: سبب نزولها: أنهن سأله زيادة النفقة، وقيل: أذنبه بغيرة بعضهن من بعض، فاغتم - عليه الصلاة والسلام - لذلك. وقيل: هجرهن شهراً، فنزلت. وهى آية التخيير. فبدأ بعائشة - رضى الله عنها - وكانت أحبهن إليه، فخيرها، وقرأ عليها القرآن، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، فرؤى الفرخ في وجهه ﷺ، ثم اختارت جميعهن اختيارها. وروى أنه قال لعائشة: «إِنِّي ذَاكِرُ لَكَ أَمْرًا، وَلَا عَلَيْكَ أَلَّا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوِيكَ»، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهَا الْآيَةَ، فَقَالَتْ: أَفِي هَذَا اسْتَأْمَرُ أَبَوِي؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ^(٢).

(١) خَوْلُ الرَّجُلِ: حشمه وأتباعه، وأحدهم: خال، وقد يكون واحداً. وهو مأخوذ من التخويل، أى: التمليك، وقيل: من الرعاية. انظر النهاية (٨٨/٢) واللسان (خول ٢/١٢٩٣).

(٢) أخرجه البخارى في (التفسير، سورة الأحزاب، ح ٤٧٨٥) ومسلم في (الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية ١١٠٣/٢، ح ١٤٧٥) من حديث سيدنا جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

وحكم التخيير في الطلاق: أنه إذا قال لها: اختاري، فقالت: اخترت نفسي، أن تقع تطليقة واحدة بائنة، وإذا اختارت زوجها؛ لم يقع شيء. قاله النسفي. وقال ابن جزى: وإذا اختارت المرأة الطلاق؛ فمذهب مالك: أنه ثلاث، وقيل: طلقة بائنة. وقيل: رجعية. ووصف السراح بالجميل؛ يحتمل أن يريد أنه دون الثلاث، أو: يريد الثلاث، وجماله: حسن المرعى، والثناء، وحفظ العهد. هـ.

﴿وإن كنتم تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن﴾، «من: للبيان، ﴿أجراً عظيماً﴾، فاخترن - رضى الله عنهن - ما هو مناسب لحاله - عليه الصلاة والسلام -، حين خُير بين أن يكون نبياً عبداً، أو نبياً ملكاً، فاخترن أن يكون نبياً عبداً، لا ملكاً. فاخترن العبودية، التي اختارها - عليه الصلاة والسلام -.

الإشارة: ينبغي لمن قلده الله نساء متعددة أن يُخيرهن، اقتداء برسول الله ﷺ؛ إذ لا يخلو من حال الغيرة، فإذا خيّرهن فينبغي أن يغيب عن تشغيبهن، ولم يصغ بأذنه إلى حديثهن، ولا ينبغي أن يغتم من أجل الغيرة، فإنها طبع لازم للبشر، وليقدّر في نفسه: أنه إذا تزوجت زوجته غيره، وهي في عصمته، هل يقدر على ذلك أم لا، فالأمر واحد. والله أعلم.

قال القشيري: لم يرد أن يكون قلب واحد من المؤمنين والمؤمنات منه في شغل، أو يعود إلى واحد منهم أذى، أو تعب من الدنيا، فخير ﷺ بأمر ربه نساءه، ووفق الله عائشة، حتى أخبرت عن صدق قلبها، وكمال دينها وبقينها، وما هو المنتظر من أصلها ونيتها. والباقيات جريّن على منهاجها، ونسجن على منوالها. هـ.

ثم هددهن وبشرن، فقال:

﴿يَنسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿٢٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ ﴿٢١﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَنسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾؛ بسيلة بليغة في القبح ﴿مُبِينَةٍ﴾؛ ظاهر فحشها، من: بين، بمعنى: تبين. وقرأ المكي وشعبة بفتح الياء، وهي عصيانهن رسول الله ﷺ، ونشوزهن. قال في المقدمات: كل فاحشة نُعتت في القرآن بالبينة فهي بالنطق، والتي لم تُنعت بها زنى. هـ. ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي: ضِعفى عذاب غيرهن من النساء؛ لأن الذنب منهن أقبح؛ فإن قبح الذنب يتبع زيادة فضل

المذنب والنعمة عليه، ولذلك قيل: ليست المعصية في القرب كالمعصية في البعد. وليس لأحد من النساء مثل فضل النساء النبي ﷺ، ولذا كان الذم للعاصي العالم أشد منه للعاصي الجاهل؛ لأن المعصية من العالم أقبح، وفي الحديث: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»^(١)؛ لقوة الجرأة في العالم دون غيره. ولهذا أيضاً فضل حدّ الأحرار على العبيد، ولم يرجح الكافر. ﴿وكان ذلك﴾ أي: تضعيف العذاب عليهن ﴿على الله يسيراً﴾؛ هيباً.

﴿ومن يقنت منكن﴾ أي: يدم على الطاعة ﴿لله ورسوله﴾، وتعمل صالحاً نؤتيها أجرها مرتين ﴿أي: مثل ثوابي غيرها، مرة على الطاعة، ومرة على طوبى رضا النبي ﷺ، بالقناعة، وحسن المعاشرة. وقرأ حمزة والكسائي بالغيب﴾^(٢) على لفظ «من»، ﴿وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾؛ جليل القدر، وهو الجنة.

الإشارة: من شأن الملك أن يعاتب الوزراء بما لا يعاتب غيرهم، ويهددهم بما لا يهدد به غيرهم، ويعطيهم من التقريب والكرامة ما لا يعطى غيرهم، فإن هفوا وزلوا عاتبهم، ثم يردهم إلى مقامهم، وربما سمح وأغضى. والغالب: أن الحق تعالى يعجل عتلب خواصه، في الدنيا قبل الآخرة، بمصائب وأهوال، تصفية وتطهيراً، ولا يبعدهم من حضرته بما اقترفوا. قال القشيري: زيادة العقوبة على الجرم من أمارات الفضيلة، كحد الحر والعبد، وتقليل ذلك من أمارات النقص، ولما كانت منزلتهن في الشرف تزيد وتربو على منزلة جميع النساء، تضاعفت عقوبتهن على أجزامهن، وتضاعف ثوابهن على طاعتهن، فقال: ﴿ومن يقنت منكن لله...﴾ وقال: «لستن كأحد من النساء...» الآية هـ. والله تعالى أعلم.

ثم وصاهن بما يليق بجنابهن المعظم، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لَسْتَ مِنْ أَلْسِنَةٍ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّهُنَّ أَتَّقِينَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيْطَمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾^(٣) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(١) رواه الطبراني في الصغير (١/١٨٢) والبيهقي في الشعب (ح ١٧٧٨) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (١/١٨٥): رواه الطبراني في الصغير، وفيه عثمان البرسي، ضعفه أحمد، والنسائي، والدارقطني.
(٢) قرأ حمزة والكسائي «يعمل» ويؤتها، يالياه، وقرأ الباقون «تعمل» ونؤتها. انظر الحجة للفارسي (٥/٤٧٤).

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾
وَأَذْكُرَكُم مَّا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أى: لستن كجماعة من جماعات النساء، أى: إذا تقصيت أمة النساء، جماعة جماعة، لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل، فكما أنه - عليه الصلاة والسلام - ليس كأحد من الرجال، كما قال: «إِنِّي لَسْتُ كَأَحَدِكُمْ...» (١)، كذلك زوجاته التى شرفن به. وأصل «أحد»: وَحْدٌ، بمعنى: واحد، فوضع فى النفى العام، مستويًا فيه المذكر والمؤنث، والواحد وما وراءه، أى: لستن فى الشرف كأحد من النساء، ﴿إِنْ اتَّقَيْتُنَّ﴾ مخالفة الله ورضا رسوله، ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أى: إذا كلمتن الرجال من وراء الحجاب، فلا تجلن بقولكن خاضعًا، أى: لينًا خنفًا مثل قول المربيات، ﴿فِيَطْمَعِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾؛ ريبة، وفجور، وهو جواب النهى، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾؛ حسناً مع كونه خشياً.

﴿وَقُرْنِ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أى: استكن فيه، والزمن بيوتكن من غير خروج. وقرأ نافع وعاصم بالفتح، وهو من: قَرَرَّ يَقَرُّ، لغة فى قر بالمكان، وأصله: اقررن، فحذفت الراء، تخفيفاً، وألقيت فتحتها على ما قبلها. وقيل: من: قار يقار: إذا اجتمع. والباقون بالكسر، من: قر بالمكان يقر - بالكسر، وأصله: اقررن، فنقلت كسرة الراء إلى القاف، وحذفت الراء. وقيل: من: قر يقر وقاراً.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَةِ الْأُولَى﴾ أى: لا تتبخترن فى المشى تبختر أهل الجاهلية، فالتبرج: التبختر فى المشى وإظهار الزينة، أى: ولا تبرجن تبرجاً مثل ﴿تبرج الجاهلية الأولى﴾ أى: القديمة، وهو الزمان الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام، فكانت المرأة تتخذ فيه الدرع من اللؤلؤ، وتعرض نفسها على الرجال، زمان نمرود الجبار، والناس كلهم كفار. أو: ما بين آدم ونوح - عليهما السلام - ثمانمائة سنة. وكان نساؤهم أقبح ما يكون، ورجالهم حسان، فتريده المرأة على نفسها. أو: زمن داود وسليمان - عليهما السلام -، وكان للمرأة قميص من الدّر، غير

(١) بعض حديث شريف، لفظه كاملاً: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَطْعَمُ وَأَسْقَى، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي (الصَّيَامِ، بَابِ الدَّهْيِ عَنِ الرِّسَالِ فِي الصَّوْمِ، ٧٧٤/٢، ح ١١٠٢) مِنْ حَدِيثِ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مخيط الجانبين، فتظهر صورتها فيه. والجاهلية الأخرى: ما بين عيسى ومحمد - عليهما السلام - أو: الجاهلية الأولى: جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى: جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام.

﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾، خصهما بالذكر؛ تفضيلاً لهما؛ لأن من واطب عليهما جرتاه إلى غيرهما. ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر ما أمركن به، ونهاكن عنه.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي: يا أهل البيت، أو: أخص أهل البيت. وفيه دليل على أن نساء من أهل بيته. قال البيضاوي: وتخصيص أهل البيت بفاطمة وعلي وابنيهما، لما روى أنه - عليه الصلاة والسلام - خرج ذات غدوة عليه مرطٌ مرحلٌ (١) من شعر أسود، فجاءت فاطمة، فأدخلها، ثم جاء علي، فأدخله فيه، ثم جاء الحسن والحسين، فأدخلهما فيه، فقال: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت...» (٢) والاحتجاج بذلك على عصمتهم، وكون اجتماعهم حجة، ضعيف؛ لأن التخصيص بهم لا يناسب ما قبل الآية وما بعدها، والحديث يقتضي أنهم من أهل البيت، لا أنه ليس غيرهم. هـ. وإنما قال: «عنكم»؛ لأنه أريد الرجال والنساء. والرجس: كل ما يدنس، من ذنب، أو عيب، أو غير ذلك، وقيل: الشيطان.

﴿وَيُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيراً﴾ من نجاسات الآثام والعيوب، وهو كالتعليل لما قبله، فإنما أمرهن، ونهاهن، ووعظهن؛ لئلا يقارف أهل البيت ما يدنس، من المآثم، وليتصونوا عنها بالقوى. واستعار للذنب الرجس، وللتقوى الطهر؛ لأن عرض المقترف للمستقبحات يتلوث بها كما يتلوث بدنه بالأرجاس وأما من تحصن منها فمعرضه مصون، نقى كالثوب الطاهر. وفيه تنفير لأولى الأبواب عن كل ما يدنس القلوب من الأكدار، وترغيب لهم في كل ما يطهر القلوب والأسرار، من الطاعات والأذكار.

﴿وَإِذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾، القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾، السنة، أو: بيان معاني القرآن، أو: ما يتلى عليكم من الكتاب الجامع بين الأمرين. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً﴾، عالماً بغوامض الأشياء، ﴿خَبيراً﴾، عالماً بحقائقها، أو: هو عالم بأقوالكن وأفعالكن، فاحذرن مخالفة أمره ونهيه، ومعصية رسوله ﷺ.

الإشارة: علق الحق تعالى شرف نساء النبي ﷺ وتفضيلهن على سبعة أمور، ويقاس عليهن غيرهن من سائر النساء، فمن فعل هذه الأمور حاز شرف الدنيا والآخرة. الأول: تقوى الله في السر والعلانية، وهي أساس

(١) المرط: الكساء، جمعه: مرط، انظر: النهاية (مرط ٤/٣١٩). والمرحل: الذي نقل فيه تصاوير رجال الإبل. انظر: النهاية (رحل ٢/٢١٠).

(٢) أخرجه مسلم في (فضائل الصحابة، باب فضل أهل البيت ٤/١٨٨٣، ح ٢٤٢٤) من حديث السيدة عائشة - رضي الله عنها -.

الشرف. الثاني: التحصن مما يُوجب ميل الرجال إليهن؛ من التخنث في الكلام وغيره. الثالث: لزوم البيوت والقرار بها. وقد مدح الله نساء الجنة بذلك فقال: «حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ» (١). الرابع: عدم التبرج، وهو إظهار الزينة حيث يحضر الرجال. الخامس: إقامة الصلاة وإتقانها وإيقاء الصدقة. السادس: طاعة الله ورسوله، ويدخل فيه طاعة الزوج. السابع: لزوم ذكر الله، وتلاوة كتابه لمن تحسن ذلك في بيتها. فمن فعلت من النساء هذه الأمور؛ أذهب الله عنها دنس المعاصي والعيوب، وطهرها تطهيراً، وأبدلها بمحاسن الأخلاق والشيم الكريمة. والله تعالى أعلم.

ولما نزل في نساء النبي ﷺ ما نزل، قال نساء المؤمنين: فما نزل فينا؟ فأنزل الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ
وَالْقَنِاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ
وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ
وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا
عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ أي: الداخلين في الإسلام، المنقادين لأحكام الله قولاً وفعلًا، فالمسلم: هـ: الداخل في السلم بعد الحرب، المنقاد الذي لا يعاند، أو: المفوض أمره إلى الله، المتوكل عليه، من: أسلم وجهه إلى الله، ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ المصدقين بالله ورسوله، وبما يجب أن يصدق به، ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾؛ المداومين على الطاعة، ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ في النيات، والأقوال، والأفعال، ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ على الطاعات وترك السيئات، ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾؛ المتواضعين لله بالقلوب والجوارح، أو: الخائفين، ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ فرضاً ونفلاً، ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ فرضاً ونفلاً. وقيل: من تصدق في أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين، ومن صام البيض من كل شهر، فهو من

(١) الآية ٧٢ من سورة الرحمن.

الصائمين، ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ عما لا يحل، ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾ بقلوبهم وألسنتهم، بالتسبيح، والتهليل، والتكبير، وتلاوة القرآن، وغير ذلك من الأذكار، والاشتغال بالعلم لله، ومطالعة الكتب من الذكر. وحذف كثيراً، في حق الذاكرات لدلالة ما تقدم عليه.

وقال عطاء: من فوض أمره إلى الله فهو داخل في قوله: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾، ومن أقر بأن الله ربه، وأن محمداً رسوله، ولم يخالف قلبه لسانه، فهو من المؤمنين والمؤمنات، ومن أطاع الله في الفرض، والرسول في السنة، فهو داخل في قوله: ﴿والصادقين والصادقات﴾، ومن صلى فلم يعرف من عن يمينه وعن شماله، فهو داخل في قوله: ﴿والخاشعين والخاشعات﴾، ومن صبر على الطاعة وعن المعصية، وعلى الذرية، فهو من ﴿الصابرين والصابرات﴾، ومن تصدق في كل أسبوع بدينار، فهو من المتصدقين والمتصدقات، ومن صام في كل شهر أيام البيض، الثالث عشر وما بعده، فهو من الصائمين والصائمات، ومن حفظ فرجه عما لا يحل؛ فهو من الحافظين فروجهم والحافظات، ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها؛ فهو من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات^(١).

قال ابن عباس: (جاء إسماعيل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال يا محمد: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، عدد ما علم، وزنة ما علم، وملء ما علم. من قالهن كتبت له ست خصال؛ كتب من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، وكان أفضل ممن ذكره في الليل والنهار، وكان له عرش في الجنة، وتحتت عنه ذنوبه، كما تحت ورق الشجر اليباس، وينظر الله إليه، ومن نظر إليه لم يعذبه). وقال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضجعاً. هـ. من الثعلبي.

وسئل ابن الصلاح عن القدر الذي يصير به العبد من الذاكرين الله كثيراً؟ فقال: إذا وازن على الأذكار المأثورة صباحاً ومساءً، وفي الأوقات والأحوال المختلفة، ليلاً ونهاراً، كان من الذاكرين كثيراً. هـ. قلت: وقد تتبع ذلك في تأليف مختصر سميته: «الأنوار السنية في الأذكار النبوية».

هذا وعطف الإناث على الذكور لاختلاف الجنسين. وهو ضروري كقوله: ﴿ثِيَابَ وَأَبْكَاراً﴾^(٢). وعطف الزوجين على الزوجين لتغاير الوصفين، وليس بضروري، ولو قال: ﴿إن المسلمين والمسلمات المؤمنين والمؤمنات﴾، بغير أو لجاز، كقوله: ﴿مسلمات مؤمنات قانتات...﴾ إلخ. وهو من عطف الصفة، ومعناه: إن الجامعين والجامعات

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٣٥٢/٦).

(٢) من الآية ٥ من سورة التحريم.

لهذه الصفات. ﴿أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً﴾ لِمَا اقترفوا من السيئات، ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعتهم. قال البيضاوي: والآية وعد لهم، ولأمثالهم، على الطاعة والتدرع بهذه الخصال. روى أن أزواج النبي ﷺ قلن: ذكر الرجال في القرآن بخير فما فينا خير، فنزلت (١). هـ.

الإشارة: اعلم أن اصطلاح الصوفية أن ما يتعلق بعمل الجوارح الظاهرة يُسمى إسلاماً، وما يتعلق بعمل القلوب الباطنية يُسمى إيماناً، وما يتعلق بعمل الأرواح والأسرار يُسمى إحساناً. قال في البغية: فالإسلام يشتمل على وظائف الظاهر، وهي الغالبة عليه، وذلك من عالم الشهادة، والإيمان يشتمل على وظائف الباطن، وهي الغالبة عليه، وذلك من عالم الغيب، وهي الأعمال الغيبية، ولَمَّا انفتح لها باب من الأعمال الظاهرة للعبادة، وأشرقت عليها من ذلك أنوار، وتعلقت هممتها بعالم الغيب، مالت إلى الوفاء بالأعمال الباطنة، ثم لَمَّا تمكنت في الأعمال الباطنة، واطلعت على عالمها، وأشرقت على طهارتها، وتعلقت هممتها بعالم الملكوت، مالت إلى الوفاء بالأسرار الإحسانية، ومن هناك تدرك غاية طهارتها وتصفيتها، والاطلاع على معارف الحقائق الإلهية. ثم قال: فإذا تبين هذا، فالإسلام له معنى يخصه، وهو انقياد الظاهر بما تكلف به من وظائف الدين، مع ما لا بد منه من التصديق. والإيمان له معنى يخصه، وهو تصديق القلب بجميع ما تضمنه الدين من الأخبار الغيبية، مع ما لا بد منه من شعبه. والإحسان له معنى يخصه، وهو تحسين جميع وظائف الدين الإسلامية والإيمانية، بالإتيان بها على أكمل شروطها، وأتم وظائفها، خالصة من جميع شوائب عللها، سالمة من طوارق آفاتها. هـ.

قلت: ولا يكفي في مقام الإحسان تحسين الوظائف فقط، بل لا بد فيه من كشف حجاب الكائنات، حتى يُفضى إلى شهود المكنون، فيعبد الله على العيان. كما في الحديث: «أن تعبد الله كأنك تراه». فإذا تقرر هذا؛ فالآية مشتملة على تدريب السلوك؛ فأول مقامات المريد: الإسلام، ثم الإيمان، كما في الآية، ثم يكون من القانتين الدوامين على الطاعة، ثم يكون من الصادقين في أقواله، وأفعاله، وأحواله، صادقاً في طلب مولاه، غائباً عن كل ما سواه، ثم من الصابرين على مجاهدة النفس، ومقاساة الأحوال، وقطع المقامات والمفاوز. وقال القشيري: من الصابرين على الخصال الحميدة وعن الخصال الذميمة، وعند جريان مفاجآت القضية هـ. ثم من الخاشعين الخاضعين لهيبة الجلال، مشاهداً لكمال أنوار الجمال. قال القشيري: الخشوع: إطراق المريرة عند بوابه الحقيقة. هـ.

(١) أخرجه، بنحوه، أحمد في المسند (٣٠١/٦) والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي (٤١٦/٢)، والطبراني في الكبير (٢٣/٢٦٣ ح ٥٥٤) و(٢٣/٢٩٤ ح ٦٥٠) من حديث أم سلمة - رضي الله عنها - وأخرج ابن جرير في التفسير (١٠/٢٢) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - وأم سلمة - رضي الله عنها.

ثم يتحقق بأوصاف الكمال؛ كالسخاء والكرم، فيبذل ما عنده في مرضات ربه، فيكون من المتصدقين بأموالهم وأنفسهم، حتى لا يكون لأحد معهم خصومة فيما أخذوا منهم وقالوا فيهم، ثم يصوم عن شهود السوى، ثم يحفظ فرجه عن وقاع الشهوة والهوى، فلا ينزل إلى سماء الحقوق، أو أرض الحظوظ، إلا بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين. ثم يكون من المستهترين بذكر الله، أعنى ذكر الروح والسر، وهو مقام الإحسان، الذي هو محل العيان، فيكون ذاكرًا بالله، مذكورًا في حضرة الله، مشهورًا في ملكوت الله. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

ثم ذكر قضية تزويجه - عليه الصلاة والسلام - زينب، مناسباً للحافظين فروجهم، فقال:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ... ﴿٣٧﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة﴾ أى: ما صح لرجل مؤمن، ولا امرأة مؤمنة، ﴿إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ من الأمور ﴿أن يكون﴾ (١) لهم الخيرة من أمرهم ﴿أى: أن يختاروا من أحدهم شيئاً، بل الواجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه، واختيارهم تلوّاً لاختياره.

نزلت في زينب بنت جحش، وأخيها؛ عبد الله بن جحش. وكانت زينب بنت أميمة بنت عبد المطلب، عمة النبي ﷺ، فخطبها - عليه الصلاة والسلام - لمولاه زيد بن حارثة، فلما خطبها، ظنت أنه يخطبها لنفسه، فرفضت، فلما علمت أنه خطبها لزيد كرهت وأبت، وقالت: أنا أم نساء قريش، وابنة عمك، فلم أكن أرضه لنفسى، وكذلك قال أخوها. وكانت بيضاء جميلة، وكان فيها بذاعة، فأنزل الله الآية (٢)، فأعلمهم أنه لا اختيار لهم على ما قضى الله ورسوله. فلما نزلت الآية إلى قوله: ﴿مبيناً﴾ قالت: رضيت يا رسول الله، وجعلت أمرها بيد النبي ﷺ.

(١) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: (يكون) بالياء من تحت. وقرأ الباقر بن النعمان وقد أثبت المفسر - رحمه الله - قراءة الناء. انظر الإتحاف (٣٧٦/٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (١١/٢٢).

وكذلك أخوها، فأنكحها ﷺ زيدا، فدخل بها، وساق إليها النبي ﷺ عشرة دنانير، وستين درهماً، وملحفة، ودرعاً، وإزاراً، وخمسين مداً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر (١). وقيل نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت من أول من هاجر من النساء، فوهبت نفسها للنبي ﷺ فقبلها، وقال: زوجتها من زيد، فسخطت هي وأخوها، وقالوا: إنما أردنا النبي ﷺ، فنزلت (٢). والأول أصح.

وإنما جمع الضمير في «لهم»، وكان من حقه أن يوحد؛ لأن المذكورين وقعا نكرة في سياق النفي، فعماً كل مؤمن ومؤمنة، فرجع الضمير إلى المعنى، لا إلى اللفظ. والخيرة: ما يتخير، وفيه لغتان: سكون الياء، وفتحها، وتؤنث وتذكر باعتبار الفعل؛ لمجاز تأنيثها.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما اختار وقضى ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مَبِيناً﴾؛ بين الانحراف عن الصواب. فإن كان العصيان عصياناً رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر، وإن كان عصياناً فعل، مع قبول الأمر، واعتقاد الوجوب، فهو ضلال فسق.

ثم إن زينب مكثت عند زيد زماناً، فأتى عليه الصلاة والسلام ذات مرة دار زيد، لحاجة، فأبصرها في درع وخمار، فوقعت في نفسه، وذلك لما سبق في علم الله من كونها له. فقال: «سبحان مقلب القلوب» (٣)، وكانت نفسه قبل ذلك تنفر منها، لا تريدها، فأنصرف، وسمعت زينب بالتسبيحة، فذكرتها لزيد، ففطن، وألقى في نفسه كراهيتها والرغبة عنها في الوقت، وقال: يا رسول الله؛ إنني أريد فراق صاحبتي؟ فقال: «مالك، أراك منها شيء؟»

(١) انظر تفسير البغوي (٣٥٣/٦).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٢/٢٢) وعزاه السيوطي في الدر (٣٨١/٥) لابن أبي حاتم. عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. والحديث معضل.

(٣) قال الحافظ ابن حجر في الكافي (ص ١٣٤ رقم ٢٢٤): (ذكره الثعلبي بغير سند، وأخرج الطبري ١٣/٢٢، معناه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم).

قلت: هذه الرواية، وإن ساقها عدد من المفسرين، إلا أن العلماء المحققين ردوها؛ فالروايات كلها جاءت من طرق ضعيفة، ولا يوجد شيء منها في كتب الحديث المعتمدة، والذي جاء في الصحيح يخالف ذلك. ولا يجوز أن يستند إلى روايات ضعيفة في إثبات خبر فيه نيل من عصمة المعصوم ﷺ. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: (٤٩٠/٣): (ذكر ابن جرير، وابن أبي حاتم، هاهنا، آثاراً عن بعض السلف، أحببنا أن نصرب عنها صفحاً؛ لعدم صحتها، فلا نوردوها).

ثم إن السيدة زينب بن جحش - رضي الله عنها - ابنه عمته، ويعرفها مذ كانت طفلة حتى كبرت، وهو الذي زوجها لمولاه زيد، وكان بإمكانه أن يزوجه قبل أن يزوجه زيدا، فغير معقول - والحال كما ذكر - أن يزوجه لغيره ثم يرغب فيها.

والحق في المسألة ما سيذكره الشيخ ابن عجيبة بعد، نقلاً عن الشيخ عبد الرحمن الفاسي من أن المعنى: وتخفى في نفسك ما طلعت عليه من مفارقة زيد لها، وتزوجك إياها بعده ... الخ كلامه.

لمزيد راجع: الشفاء للقاضي عياض (٨٧٨/٢ - ٨٨٠) روح المعاني للأوسى، (٢٢/٢٤ - ٢٥) الإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد أبي شهية (٣٢٣ - ٣٢٨).

فقال: لا والله، ما رأيت منها إلا خيراً، إلا أنها تتعظم عليّ، لشرفها، وتؤذيني بلسانها، فقال النبي ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله».

وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام الذي هو من أجل النعم ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإعتاق والتبني، فهو متقلب في نعمة الله ونعمة رسوله ﷺ، وهو زيد بن حارثة: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾؛ زينب، ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ فلا تطلقها، وهو نهى تنزيهه، أو: اتق الله، فلا تدمها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج، ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: تخفي في نفسك نكاحها إن طلقها زيد، وقد أبداه الله وأظهره، وقيل: الذي أخفاه في نفسه: تعلق قلبه بها، ومودة مفارقة زيد إياها.

قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي: والصواب أن المعنى: وتخفي في نفسك ما اطلعت عليه؛ من مفارقة زيد لها، وتزوجك إياها بعده، فإن هذا هو الذي أبداه سبحانه وأظهره بعد ذلك. وأما قوله: ﴿وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾، فإنما يعنى به الحياء من الناس في أن يقابلهم بما يسوءهم، وهو إخبار زيد بما أطلعه الله عليه من صيرورة زوجته زينب له، بعد مفارقة زيد لها، لأنه لم يؤمر بإفشاء ذلك، وإلا لبلغ من غير روية ولا حشمة، سالكا في ذلك سنة من خلا قبله من الأنبياء، الذين لا يخشون في التبليغ أحداً إلا الله.

وقال القشيري: أي: تخشى عليهم أن يقعوا في الفتنة في قصة زيد [والفتنة التي يقعون فيها هي ظنهم أنه عليه الصلاة والسلام عشقها، وأمره بطلاقها] وكانت تلك الخشية إشفاقاً منه عليهم، ورحمة لهم ألا يطبقوا سماع هذه الحالة، بأن يخطر ببالهم ما ليس في وسعهم. وأما قوله: «أمسك عليك....» الآية - مع علمه بما يزول إليه الأمر في العاقبة، بما أطلعه الله عليه من فراقه لها - فإقامة للشرعة. هـ. ملخصاً.

وفي الوجيز: «وتخشى الناس» أي: تكره مقالة الناس لو قلت طلقها، فيقال: أمر رجلاً فطلق امرأته ثم تزوجها. وقد نقل في نواذر الأصول عن علي بن الحسين: أن الله أعلم نبيه أنها تكون من أزواجه، فأخفى ذلك. فلما جاء زيد يشكوها؛ قال له: اتق الله، وأمسك عليك زوجك^(١)، قال: فطى بن حسين جاء بها من خزانة العلم، جوهراً من الجواهر، ودرأ من الدرر، وأنه إنما عتب الله عليه في أنه قد أعلمه، ثم قال بعد ذلك لزيد: أمسك..

(١) أخرجه الطبري (١٣/٢٢).

رعاية لما يقال، وتركاً لتدبير الله، مع كونه أحق بالرعاية، وكيف، وفي ذلك تشريع لئلا يكون على المؤمنين حرج وضيق فيما فرض الله له فيما أعلمه. ثم قال: والحاصل أنه - عليه الصلاة والسلام - لم يلم بخطيئة، بدليل أنه لم يؤمر بتوبة ولا استغفار، وإنما أخبره بما أضمر في نفسك، خشية افتتان الغير، والله أحق أن يخشى، بأن يبتهل إليه؛ ليزيل عنهم ما يخشى فيهم.

قال ابن عرفة: الصواب: أن ما أخفاه في نفسه هو: أن الله أخبره أن سيتزوجها. وما قاله ابن عطية لا يحل أن يقال، لأنه تنقيص لم يرد في حديث صحيح. وإنما ذكره المفسرون. هـ. قلت: إنما يكون تنقيصاً إذا كان ذلك الواقع في القلب ثابتاً، وأما إن كان خاطراً ماراً فلا نقص؛ إذ ليس في طرق البشر؛ لأنه من أوصاف العبودية، بل الكمال في دفعه ورده بعد هجومه.

ثم قال ابن عرفة، على قوله: ﴿وتخشى الناس﴾: هو تمهيد لعذره، وإن كان لمجرد أمر الله له بذلك، ولا ينبغي حمله على أنه خاف الناس فقط. بل المراد: عتابه على خلط خوفه من الله بخوفه من الناس، وأمره ألا يخاف إلا من الله فقط، خوفاً غير مشوب بشيء. هـ. قلت: إذا فسرنا الخشية بالحياء لا يحتاج إلى هذا التعسف، مع أن الخوف من الخلق مذموم، وحده أو مع خوف الله، والنبي ﷺ منزه عن ذلك، أي: تستحي من الناس أن يقولوا: نكح امرأة ابنه، وكان - عليه الصلاة والسلام - أشد الناس حياء من العذراء في خدرها. والحياء ممدوح عند الخاص والعام. وأما قوله تعالى: ﴿والله أحق أن تخشاه﴾ فتنبيه على أن الحياء في بعض المواضع تركه أولى، فهو ترقية له، وتربية لوقت آخر. أ: وتخشى أن يفتتن الناس بذلك، والله أرحم بهم من غيره، فالله أحق أن تخشى، فتبتهل إليه في زوال ذلك عنهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية الأولى حث على التفويض وترك الاختيار، مع ما أمر به الواحد القهار. وفي الحكم: «ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهر الله»^(١). فالواجب على العبد أن يكون في الباطن مستسلماً لقهره، وفي الظاهر متمثلاً لأمره، تابعاً لسنة نبيه ﷺ، ولما يوجب رضاه ومحبته. وفي الآية الثانية تنبيه على أن خواص الخواص يعاتبون على ما لا يعاتب عليه الخواص. والخواص، يعاتبون على ما لا يعاتب عليه العوام، فكلمة علا المقام، واشتد القرب، اشتدت المطالبة بالأدب، ووقع العتاب على أدنى ما يخل بشيء من الأدب، على عادة الوزراء مع الملك. وذلك أمر معلوم، مذوق عند أهل القلوب. وبالله التوفيق.

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص ٢٠، حكمة: ١٧)

ثم ذكر تزوجه - عليه الصلاة والسلام - لزيب بعد مفارقة زيد، فقال:

﴿... فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ ادْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۖ ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۖ ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ۖ ﴿٣٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً﴾؛ حاجة، بحيث ملها ولم تبق له فيها حاجة. والوطر: الحاجة، فإذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همة، يقال: قضى منه وطراً، أى: فلما قضى حاجته منها، وطلقها، وانقضت عدتها، ﴿زوجناكها﴾. روى أنها لما اعتدت قال - عليه الصلاة والسلام - لزيد: «ما أجد أحداً أوثق في نفسي منك، أيت زيب فأخطبها لى، قال زيد: فأنتيتها ورئيتها ظهري، إعظاماً لأمر النبي ﷺ، وقلت: يا زيب إن النبي ﷺ يخطبك، ففرحت، وقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربى، فقامت إلى مسجدها، فنزل القرآن: ﴿فلما قضى زيد...﴾ الآية، فتزوجها عليه الصلاة والسلام، ودخل بها حيلئذ، وما أولم على امرأة ما أولم عليها، ذبح شاة، وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار^(١).

وقيل: زوج الله تعالى إياها بلا واسطة عقد، ويؤيده: أنها كانت تقول لسائر أزواج النبي ﷺ: إن الله زوجنى من فوق سبع سموات، وأنتن زوجكن أولياؤكن^(٢). وكانت تقول للنبي ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث، ما من نساءك امرأة تدل عليك بهن: جدى وجدك واحد، وإياى أنكحك الله من السماء، وإن السفير لى جبريل^(٣).

ثم علل تزوجه إياها، فقال: ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم﴾ الذين يتبنونهم ﴿إذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾، قال الحسن: ظنت العرب أن حرمة المتبنى مشتبكة كاشتباك الرحم، فبين الله تعالى الفرق بينهما، وأن حلائل الأدعياء غير محرمة. وليست كحلائل أبناء الصلب. قال البيضاوى: وفيه دليل على أن حكمه

(١) أخرجه، بلحوه، مسلم فى (النكاح، باب: زواج زيب بنت جحش، ونزول العجاب، ١٠٤٨/٢ - ١٠٤٩ ح: ١٤٢٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخارى فى (التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ح ٧٤٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري فى تفسيره (١٤/٢٢) من مرسل الشعبي.

وحكم الأمة واحد، إلا ما خصه الدليل هـ. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ الذى يريد أن يكونه ﴿مَفْعُولاً﴾؛ مكوناً لا محالة، كما كان تزويج زينب.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أى: حل له، أو: قسم له، من قولهم: فرض له فى الديوان كذا، وفروض العساكر، لأرزاقهم. أى: لا حرج على النبى فى ما حل له وأمر به، كتزويج زينب، أو: قسم له من عدد النساء بلا حد، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾: مصدر مؤكد لما قبله من قوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أى: سُنُّ ذَلِكَ سُنَّةٌ فى الأنبياء الماضين، وهو: ألا حرج عليهم فى الإقدام على ما أحل لهم ووسع عليهم فى باب النكاح وغيره. وكانت تحتهم المهنات^(١) والسرارى، وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة، وثلاثمائة سرية. ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أى: فى الأنبياء الذين مضوا من قبله، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أى: قضاء مقضياً، وحكماً مثبتاً مبرماً، لا مرد له.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾، هو صفة له، الذين خلوا من قبل، أو: بدل منه، أو: مدح لهم منصوب، أو: مرفوع، أى: هم الذين، أو: أعنى الذين يبلغون رسالات الله، ﴿وَيَخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾، ونبيينا ﷺ من جملتهم ومن أشرفهم، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ للمخاوف، أو: محاسباً، فينبغى ألا يخشى إلا منه تعالى.

الإشارة: إذا تمكن العبدُ مع مولاه وتحققت محبته فيه، كانت حوائجه مقضية، وهمته كلها نافذة، إذا اهتم بشيء، أو خطر على قلبه شيء، مكَّنه الله منه، وسارع فى قضائه، كما فعل مع حبيبه، حين خطر بباله تزوج زينب، أعلمه أنه زوجه إياها. وأهل مقام الفناء جلهم فى هذا المقام، إذا اهتموا بشيء كان، إذا ساعدتهم المقادير، وإلا فسوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار، ولذلك قال هنا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَقْدُورًا﴾، و﴿كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾. وصفة أهل الهمم القاطعة: أنهم لا يخافون إلا الله، ولا يخشون أحداً سواه، لا يخافون فى الله لومة لائم، نكروهم لله دائم، وقلوبهم فى الحضرة هائم. وبالله التوفيق.

ثم ردَّ على من قال: إنه - عليه الصلاة والسلام - تزوج امرأة ابنه، فقال:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَكَانَ

اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

(١) المهنات: جمع المهيرة، وهى الحرّة، والمهنات: الحرائر، عند السراى. انظر اللسان (مهر ٦/٤٢٨٧).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ أى: لم يكن أباً رجل منكم حقيقة، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده؛ من حرمة الصهر والنكاح، والمراد: من رجالكم البالغين، وأما أولاده؛ القاسم، والطيب، والطاهر، فماتوا قبل أن يكونوا رجالاً، وأما الحسن والحسين، فأحفاد، لا أولاد. ﴿ وَلَكِنْ ﴾ كان ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾، وكل رسول أبو أمته، فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم، ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه، لا فى سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء. وزيد واحد من رجالكم، الذين ليسوا بأولاد حقيقة، فكان حكمهم حكمهم. والتبني من باب الاختصاص والتقريب، لا غير. ﴿ وَ ﴾ كان أيضاً ﷺ ﴿ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ أى: آخرهم الذى ختمهم، أو: ختموا به على قراءة عاصم. بفتح التاء، بمعنى: الطابع، كأنه طبع وختم على مقامات النبوة، كما يختم على الكتاب لئلا يلحقه شيء. فلا نبى بعده. وعيسى ممن نبأ قبله، وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعته ﷺ، كأنه بعض أمته. ومن قرأ بكسر التاء، فمعناه: فاعل الختم، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: «أنا خاتم النبيين فلا نبى بعدى» (١). ويصح أن يكون بمعنى الطابع أيضاً؛ إذ فيه لغات؛ خاتم - بالفتح والكسر - وخاتام، وخيتام. ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾، فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة، وكيف ينبغي شأنه.

الإشارة: كان ﷺ أباً الأرواح حقيقة؛ إذ الوجود كله ممتد من نوره، وأباً الأشباح باعتبار أنه السابق نوره. فأول ما ظهر نوره - عليه الصلاة والسلام -، ومنه امتدت الكائنات، فهو بذرة الوجود. وسيأتى فى قوله: ﴿ قَالُوا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ (٢) تتميم ذلك إن شاء الله. ولم يكن أباً باعتبار تولد الصلب، وهو الذى نفاه الله تعالى عنه.

ثم حض على الذكر؛ إذ هو سبب التهذيب والتأديب، فيزجر صاحبه عن الخوض فيما لا يعنى، فقال:

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۚ (٤١) هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۖ (٤٢) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَءَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۖ (٤٣) ﴾

(١) أخرجه مطولاً أحمد فى المسند (٢٧٨/٥)، وعزاه السيوطى فى الدر (٣٨٦/٥) لابن مردويه، عن ثوبان. وجاء الجزء الأول «أنا خاتم النبيين، فى حديث، مثل: ومثل الأنبياء من قبلى... الحديث، أخرج البخارى فى (المناقب، باب خاتم النبيين، ح ٣٥٣٥) ومسلم فى (الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ١٧٩١/٤) من حديث سيدنا أبى هريرة رضى الله عنه. (٢) الآية ٨١ من سورة الزخرف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ قياماً، وقعوداً، وعلى جنوبكم، قال ابن عباس: (لم يُعذر أحد في ترك ذكر الله - عز وجل - إلا من غلب على عقله) (١). وقال: الذكر الكثير: ألا تنساه أبداً. وروى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «أَكثِرُوا ذِكْرَ اللَّهِ حَتَّى يَقُولُوا مَجْدُونَ» (٢).

والذكر أنواع: تهليل، وتحميد، وتقديس، واستغفار، وتلاوة، وصلاة على النبي ﷺ. وقيل: المراد: ذكر القلوب، فإن الذكر الذي يمكن استدامته، هو ذكر القلب، وهو استدامة الإيمان والتوحيد. وأما ذكر اللسان فإن إدامته كالتمتدّد. قاله القشيري. ﴿وَسَبِّحْوهُ﴾ أي: نزهوه، أو: قولوا: سبحان الله وبحمده، ﴿بَكْرَةً﴾؛ أول النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾؛ آخر النهار. وخصاً بالذكر لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيهما. وعن قتادة: (قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله). أو: الفعلان - أي: (اذكروا) و (سبحوه) - موجهان إلى البكرة والأصيل، كقولك: صم وصل يوم الجمعة. والتسبيح من جملة الذكر، وإنما اختص من بين أنواعه إبانة لفضله؛ لأن معناه: تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات. ويجوز أن يراد بالذكر وإكثاره: تكثير الطاعات والعبادات، فإنها من جملة الذكر، ثم خص من الذكر التسبيح بكرة، وهي صلاة الفجر، وأصيلاً، وهي صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، أو: صلاة الفجر والعشاءين.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾، لما كان من شأن المصلي أن ينعطف في ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره، حنواً عليه، كحنو المرأة على ولدها. ثم كثر، حتى استعمل في الرحمة والترؤف، ومنه قولهم: صلى الله عليك، أي: ترحم عليك وترأف. فإن قلت: صلاة الله غير صلاة الملائكة، فكيف اشتركا في العطف؟ قلت: لاشتراكهما في قدر مشترك، وهو إرادة وصول الخير إليهم، إلا أنه منه تعالى برحمته، ومن الملائكة بالديعاء والإستغفار.

وذكر السدي: أن بنى إسرائيل قالت لموسى عليه السلام: أَيْصَلِي رَبَّنَا؟ فكبر هذا الكلام على موسى عليه السلام، فأوحى الله إليه: أن قل لهم: إني أصلي، وإن صلاتي رحمتي، وقد وسّعت كل شيء (٣). وفي حديث المعراج: «قلت: إلهي؛ لما لحقني استيحاش قبل قدومي عليك، سمعت منادياً ينادي بلغة، تشبه لغة أبي بكر، فقال: قف، إن ربك

(١) أخرجه الطبري (١٧/٢٢).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٦٨/٣، ٧١) والحاكم (٤٩٩/١) وصححه، من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) عزاه في الدر المنثور (٣٨٩/٥) لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن.

يُصَلِّي، فَعَجِبْتَ مِنْ هَاتَيْنِ، هَلْ سَبَقَنِي أَبُو بَكْرٍ إِلَى هَذَا الْمَقَامِ، وَإِنْ رَبِّي لَغَنِيٌّ عَنْ أَنْ يُصَلِّيَ؟ فَقَالَ تَعَالَى: «أَنَا الْغَنِيُّ» عَنْ أَنْ أُصَلِّيَ لِأَحَدٍ، وَإِنَّمَا أَقُولُ: سُبْحَانِي، سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي. اقْرَأْ يَا مُحَمَّدُ: «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ...» الْآيَةَ، فَصَلَاتِي رَحْمَةٌ لَكَ وَلِأُمَّتِكَ. ثُمَّ قَالَ. وَأَمَّا أَمْرُ صَاحِبِكَ، فَخَلَقْتَ خَلْقًا عَلَى صُورَتِهِ، يُنَادِيكَ بِلُغَتِهِ، لِيُزِيلَ عَنْكَ الْاِسْتِحْشَاءَ، لِئَلَّا يُلْحَقَكَ مِنْ عَظِيمِ الْهَيْبَةِ مَا يَقْطَعُكَ عَنْ فَهْمِ مَا يَرَادُ مِنْكَ.

وَالْمُرَادُ بِصَلَاةِ الْمَلَائِكَةِ: قَوْلُهُمْ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. جَعَلُوا - لَكُنْ دَعَائِهِمْ بِالرَّحْمَةِ مُسْتَجَابًا - كَأَنَّهُمْ فَاعِلُونَ الرَّحْمَةَ. وَالْمَعْنَى: هُوَ الَّذِي يَتَرَحَّمُ عَلَيْكُمْ وَيَتَرَأَفُ، حَيْثُ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِإِكْثَارِ ذِكْرِهِ، وَيَأْمُرُ مَلَائِكَتَهُ بِتَرْحُمُونَ عَلَيْكُمْ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لَكُمْ، لِيُقَرِّبَكُمْ، وَيَخْصَكُم بِخَصَائِصٍ لَيْسَتْ لِغَيْرِكُمْ. بِدَلِيلٍ: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ، ثُمَّ مِنْ ظُلُمَاتِ الْمَعَاصِي إِلَى نُورِ الطَّاعَةِ، ثُمَّ مِنْ ظُلُمَاتِ الْغَفْلَةِ إِلَى نُورِ الْيَقَظَةِ، ثُمَّ مِنْ ظُلُمَاتِ الْحِجَابِ إِلَى نُورِ الْعَيَانِ. وَقِيلَ: يُصَلِّي عَلَيْكُمْ: يُشَبِّعُ لَكُمْ الذِّكْرَ الْجَمِيلَ فِي عِبَادِهِ.

﴿وَكَانَ﴾ اللَّهُ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، قَدْ اعْتَنَى بِصَلَاحِ أَمْرِهِمْ، وَإِثَابَةِ أَجْرِهِمْ، وَاسْتَعْمَلَ فِي خِدْمَتِهِمْ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالصَّلَاةِ: الرَّحْمَةُ، حَيْثُ صَرَّحَ بِكَوْنِهِ رَحِيمًا بِهِمْ. قَالَ أَنَسٌ: لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا خَصَّكَ اللَّهُ بِشَرِيفٍ إِلَّا وَقَدْ اشْتَرَكُنَا فِيهِ، فَأَنْزَلَ قَوْلَهُ: «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ...» الْخ (١).

﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أَيْ: تَحِيَّةُ اللَّهِ لَهُمْ، فَهُوَ مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى مَفْعُولِهِ، ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ عِنْدَ الْمَوْتِ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا جَاءَ مَلَكَ الْمَوْتِ لِقَبْضِ رُوحِ الْمُؤْمِنِ، قَالَ: رَبِّكَ يَقْرُتُكَ السَّلَامُ (٢). أَوْ: يَوْمَ الْخُرُوجِ مِنَ الْقَبْرِ، تُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَتُبَشِّرُهُمْ. أَوْ: يَوْمَ يَرَوْنَهُ فِي الْجَنَّةِ، ﴿سَلَامٌ﴾، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا عِبَادِي، هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى بِأَرِينَا وَقَدْ أُعْطِيتْ مَا لَمْ نَعْطَ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. فَيَقُولُ لَهُمْ: أُعْطِيتُكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، أَحَلَّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا» كَمَا فِي الْبُخَارِيِّ (٣). وَفِي رِوَايَةٍ غَيْرِهِ: يَقُولُ تَعَالَى:

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٢٨٩/٥) لعبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد. وذكره البخاري في التفسير (٣٦٠/٦) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) عزاه السيوطي في الدر (٣٩٠/٥) للروزي في الجناز، وابن أبي الدنيا، وأبي الشيخ.

(٣) سبق تفريغ الحديث.

«السلام عليكم، مرحباً بعبادى الذين أرضونى باتباع أمرى» هو إشارة إلى قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ (١).
﴿وَأَعَدُّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾، يعنى الجنة وما فيها.

الإشارة: قال القشيري: قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾. الإشارة فيه: أَحِبُّوا اللَّهَ لقوله - عليه الصلاة والسلام - «مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ» (٢) فَيُحِبُّ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُ، وَلَا يَنْسَى اللَّهَ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ. هـ. قلت: لأن ذكر الله عنوان محبته، ومنار وصلته، وهو الباب الأعظم فى الدخول إلى حضرته، والله در القائل:

الذِّكْرُ عَمْدَةٌ لِكُلِّ سَالِكٍ	تَنَوَّرَتْ بِنُورِهِ الْمَسَالِكُ
هُوَ الْمَطِيَّةُ الَّتِي لَا تَنْتَكِبُ	مَا بَعْدَهَا فِي سُرْعَةِ الْخَطَا نَجِبُ
بِهِ الْقُلُوبُ تَطْمَئِنُّ فِي الْيَقِينِ	مَا بَعْدَهُ عَلَى الْوَصَالِ مِنْ مَعِينِ
بِهِ بُلُوغُ السَّالِكِينَ لِلْمُنَى	بِهِ بَقَاءُ الْمَرْءِ مِنْ بَعْدِ الْفَنَاءِ
بِهِ إِلَيْكَ كُلُّ صَعْبٍ يَسْهَلُ	بِهِ الْبَعِيدُ عَنْ قَرِيبٍ يَحْصُلُ
فَهُوَ أَقْوَى سَبَبٍ لَدَيْكَ	وَكُلُّهُ إِلَيْكَ، لَا عَلَيْكَ
فَكُلُّ طَاعَةٍ أَتَى الْفَتَى بِهَا	هُوَ أُسَاسُهَا، كَذَاكَ سَقْفُهَا
وَوَحْدَهُ يَفُوقُ كُلَّ طَاعَةٍ	كَمَا أَتَى عَنْ صَاحِبِ الشِّفَاعَةِ
كَفَى بِفَضْلِهِ لِدَا الْبَيَانِ	ذَهَابَهُ بِالسَّهْوِ وَالنَّسْيَانِ
إِذَا ذُكِرْتَ مِنْ لَهْ الْغَنَى الْعَظِيمِ	لَدَيْكَ يَصْغُرُ الْفَقِيرُ يَا نَدِيمِ
عَلَيْهِ دُمٌ حَتَّى إِذَا تَجَوَّهَرَا	بَسْمَرُهُ الْفُؤَادَ كُلَّ مَا تَرَى
تَرَى بِهِ الْمَذْكُورَ دُونَ سَتَرِ	وَقَدْ عَلَا الْإِدْرَاكَ دَرَكَ الْفِكْرِ
بِهِ الْحَبِيبُ فِي الْوَرَى تَجَلَّى	بِهِ السُّوَى عَنْ الْحِجَابِ تَوَلَّى
بِهِ تَمَكَّنَ الْمُرِيدُ فِي الْفَنَاءِ	حَتَّى يَصِيرَ قَائِلًا أَنَا أَنَا
بِهِ رَجُوعُهُ إِلَى الْعِبَادَةِ	بِهِ التَّصَرُّفُ الَّذِي فِي الْعِبَادَةِ
تَاللَّهِ لَوْ جِئْتُ بِكُلِّ قَوْلٍ	مَا جِئْتُكُمْ بِمَا لَهُ مِنْ فَضْلٍ هـ.

(١) من الآية ٧٣ من سورة الزمر.

(٢) عزاه السيوطى فى الجامع الصغير (ج ٨٣١٢) للديلمى، فى الفردوس، وضعفه، من حديث السيدة عائشة - رضى الله عنها.

وقال رسول الله ﷺ: «سبق المقرّدون، قيل: من المقرّدون يا رسول الله؟ قال: المستهترون بذكر الله، يضع الذكر عنهم أثقالهم، فيردّون يوم القيامة خفافاً» (١) وسئل ﷺ: أي المجاهدين أعظم أجراً؟ قال: «أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً». قيل: فأى الصالحين أعظم أجراً؟ قال: «أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً». ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة، كل ذلك ورسول الله ﷺ يقول: «أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً». فقال أبو بكر لعمر: يا أبا حفص، ذهب الذاكرون بكل خير، فقال رسول الله ﷺ: «أجل» (٢) رواه أحمد والطبراني.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ...﴾ الآية. قال الورتجبي: صلوات الله: اختياره العبد في الأزل لمعرفة ومحبته، فإذا خصّه بذلك جعل زلاته مغفورة، وجعل خواص ملائكته مستغفرين له، لئلا يحتاج إلى الاستغفار بنفسه عن اشتغاله بالله ومحبته، وبذلك الصلاة يخرجهم من ظلمات الطبع إلى نور المشاهدة، وهذا متولد من اصطفايته الأزلية ورحمته الكافية القدسية. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: قبل وجودهم، حيث أوجدتهم، وهداهم إلى نفسه، بلا سبب ولا علة. ثم قال عن ابن عطاء: أعظم عطية للمؤمن في الجنة: سلام الله عليهم من غير واسطة. هـ.

وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ قال القشيري: التحية إذا قرّنت بالرؤية، واللقاء إذا قرّنت بالتحية، لا يكون إلا بمعنى رؤية البصر، والتحية: خطاب يفتح بها الملوك، أخبر عن علوّ شأنهم، فهذا السلام يدل على علو رتبته. هـ.

ولما أمر بذكره وتنزيهه، ذكر شهادته لرسوله، ليدل على اقترانها في صحة الإيمان وكمال الذكر، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

(١) أخرجه بلفظه الترمذي في: (الدعوات، باب: في العفو والعافية ٥/٥٣٩، ح: ٣٥٩٦)، وينحوه أخرجه مسلم في (الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى ٤/٢٠٦٢، ح: ٢٦٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والمستهترون بذكر الله: المولعون بالذكر: المداومون عليه، لا يبالون ما قيل فيهم، ولا ما فعل بهم.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٤٣٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٧٤): رواه أحمد والطبراني، وفيه: زيان بن فائد، وهو ضعيف، وقد وثق، وكذلك ابن لهيعة، وثقة رجال أحمد ثقات.

قلت: «شاهداً»: حال مقدرة، كمررت برجل معه صقر صائداً به غداً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ على من بُعثت إليهم، على تصديقهم وتكذيبهم، أى: مقبرلاً قولك عند الله، لهم وعليهم، كما يُقبل قول الشاهد العدل فى الحكم، ﴿ومبشراً﴾ للمؤمنين بالنعيم المقيم، ﴿ونذيراً﴾ للكافرين بالعذاب الأليم، ﴿وداعياً إلى الله﴾؛ إلى الإقرار بربوبيته، وتوحيده، وما يجب الإيمان به، من صفاته، ووعده، ووعيده، ﴿بإذنه﴾؛ بأمره، أو: بتيسيره. وقيد به الدعوى إذاناً بأنه أمر صعب، لا يتأتى إلا بمعونة من جناب قدسه، ﴿وسراجاً منيراً﴾ يستضاء به فى ظلمة الجهالة، وتُقبس من نوره أنوار الهداية، قد جلى به الله ظلمات الشرك، واهتدى به الضالون، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير، ويهتدى به. وقيل: المراد به القرآن، فيكون التقدير: وذا سراج. ووصف بالإشارة؛ لأن من السراج من لا يضىء جداً إذا قلَّ سَلِطُهُ، - أى: زيته - ورقَّت فتيلته. أو: شاهداً بوجدانيتنا، ومبشراً برحمتنا، ونذيراً بنقمتنا، وداعياً إلى عبادتنا، وسراجاً تُلير الطريق إلى حضرتنا.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾؛ ثواباً عظيماً، يربو على ثواب سائر الأمم. وفى الحديث: «مَلَأَكُمْ وَمَلَأَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى كَمَنْ اسْتَأْجَرَ عَمَلاً إِلَى آخِرِ الْيَوْمِ، فَعَمَلَتْ الْيَهُودُ إِلَى الظُّهْرِ، ثُمَّ عَجَزُوا، ثُمَّ عَمَلَتْ النَّصَارَى إِلَى الْعَصْرِ، فَعَجَزُوا، ثُمَّ عَمَلَتْ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ، فَاسْتَحَقَّقْتُمْ أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ، فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلاً، وَأَقَلَّ أَجْراً، فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ ظَلَمْتُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئاً؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أَوْتِيهِ مِنْ أَشَاءِ» (١) وفى رواية: «أَنَّهُمْ عَمَلُوا إِلَى الظُّهْرِ، أَوِ الْعَصْرِ، وَقَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا بِأَجْرِكَ، فَبَطَلَ أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ». وهذا فى حق من أدرك الإسلام منهم ولم يؤمن. والحديث فى الصحيح. نقلته بالمعنى.

قال البيضاوى: ولعله معطوف على محذوف، أى: فراقب أمك وبشرهم به.

﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أى: دُم على مخالفتهم، وهو تهيج وتنفير عن حالهم، ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أى: لا تلتفت إليه، ولا تحتفل بشأنه. وهو من إضافة المصدر إلى الفاعل، أى: اجعل إيذائهم إياك فى جانب، وأنت فى جانب، ولا تبال بهم، ولا تخف من إيذائهم. أو: إلى المفعول، أى: دع إيذاءك إياهم مجازاة ومواخذة على كفرهم. ولذلك قيل: إنه منسوخ. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فإنه يكفيكم، ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾؛ موكولاً عليه،

(١) أخرجه البخارى فى (الإجارة، باب الإجارة إلى نصف النهار، ح ٢٢٦٨) من حديث سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنه.

ومفوضاً إليه الأمر في الأحوال كلها، ولعله تعالى لما وصفه بخمسة أوصاف، قابل كلاً منها بخطاب مناسب له، فقابل الشاهد بقوله: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ»؛ لأنه يَكُونُ شَاهِدًا عَلَى النَّاسِ، وَهُمْ يَكُونُونَ شُهَدَاءَ عَلَى تَنَاقُرِ الْأُمَمِ، وَكَهُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ، وَقَابِلُ الْمُبَشِّرِ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ؛ لأنه إذا أَعْرَضَ عَنْهُمْ أَقْبَلَ بِكَائِنَتِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِلْبَشَارَةِ، وَقَابِلُ النَّذِيرِ بِدَعْوَةِ أَذَاهُمْ؛ لأنه إذا تَرَكَ أَذَاهُمْ فِي الْعَاجِلِ، وَالْأَذَى لَهُ، لَا يَدُّ لَهُ مِنْ عِقَابٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ، كَانُوا مُنْذَرِينَ بِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. وَقَابِلُ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِأَمْرِهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ؛ لَأَنَّهُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ يَسِّرْ عَلَيْهِ كُلَّ عَسِيرٍ، فَتَسْهَلِ الدَّعْوَةُ، وَيَتيسَّرَ أَمْرُهَا، وَقَابِلُ السَّراجِ الْمُنِيرِ بِالْإِكْتِفَاءِ بِهِ وَكَيْلًا؛ لَأَنَّهُ مَنْ أَنَارَهُ اللَّهُ وَجَعَلَهُ بُرْهَانًا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ كَانَ حَقِيقًا بِأَنَّهُ يَكْتَفِي بِهِ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الإشارة: قال الورتجبي: إنا أرسلناك بالحقيقة شاهداً، أنت شاهدنا، شاهدناك وشهدت علينا، فألبستك أنوار ربوبيتي، فمن شهدك بالحقيقة فقد شهدنا. قلت: لأن نوره ﷺ أول نور ظهر من نور الحق، فمن شهدته شهد الحق. ثم قال: ومن نظر إليك فقد نظر إلينا. قال ﷺ: «من عرفني فقد عرف الحق، ومن رآني فقد رأى الحق». ثم قال: «وسراجاً منيراً»، أسرجت نورك من نوري، فتدور بنوري عيون عبادي المؤمنين، فيأتون إلى بدورك. ثم أمره بأن يبشر المؤمنين بأنهم يصلون إلى مشاهدته، بلا حجاب ولا عتاب. هـ.

قال القشيري: يَا أَيُّهَا الْمُسْتَشْفَعُ مِنْ قَبْلِنَا؛ إنا أرسلناك شاهداً بوحدانيتنا، ومبشراً، تبشر عبادتنا بنا، وتحذرهم مخالفة أمرنا، وتعلمهم مواضع الخوف منا، وداعياً الخلق إلينا بنا، وسراجاً منيراً يستضيئون بك، وشمساً ينبسط شعاعك على جميع من صدقك وآمن بك، ولا يصل إلينا إلا من أتبعك وخدمك وقدمك، «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» بفضلنا عليهم، ونيلهم طولنا عليهم، وإحساننا إليهم. ومن لم تؤثر فيهم بركة إيمانهم بك؛ فلا قدر لهم عندنا. ولا تطع من أعرضنا عنه وأصلنا، من أهل الكفر والنفاق، وأهل البدع والشقاق، وتوكل على الله؛ بدوام الانقطاع إليه، وكفى بالله وكيلاً. هـ.

ثم ذكر حكم المطلقة قبل الدخول، وأنه لا عدة عليها. مناسب لقوله: «فلما قضى زيد...» الخ، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمِنْ عَوْنٍ وَسَرَحٍ وَمِنْ سَرَاحٍ جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمَنَاتِ﴾ أى: تزوجتموهن. والنكاح فى الأصل: الوطء، من: تناكحت الأشجار: إذا التصق بعضها ببعض. وتسمية العقد نكاحاً مجازاً؛ لملاسته له، من حيث إنه طريق إليه، كتسمية الخمر إثماً؛ لأنها سببه، ولم يرد لفظ النكاح فى كتاب الله إلا فى معنى العقد؛ لأنه لو استعمل فى الوطء لكان تصريحاً به، ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة، والمماسه، والقربان، والتغشى، والإتيان، تعليمًا للأدب والحياء. وفى تخصيص المؤمنات، مع أن الكتابيات تُساوى المؤمنات فى هذا الحكم، إشارة إلى أن الأولى للمؤمن أن ينكح المؤمنة، تخييراً للطفة. والمعنى: إذا تزوجتم النساء ﴿ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾؛ تجامعوهن. والخلوه الصحيحة كالمص، ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ أى: تستوفون عددها، وتعدونها عليهن، من: عدته الدراهم فاعتدها، كقوله: كئنه الطعام فاكتاله. والإسناد إلى الرجال للدلالة على أن العدة تجب على النساء لحق الأزواج، كما يشعر به، «فما لكم». والإتيان بـ «ثم» إزاحة ما عسى أن يتوهم أن تراخى الطلاق [ربما يمكن الإصابة فتجب العدة] (١).

﴿فَمَتَّعُوهُنَّ﴾ بشئ من المال، وهذا فى المفوض لها قبل الفرض، وأما المفروض لها، أوالمسمى صداقها، فتأخذ نصف مهرها، ولا متعة لها على المشهور. ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ أى: لا تمسوهن ضرراً، وأخرجوهن من بيوتكم؛ إذ لا عدة لكم عليهن. قال القشيري: (سراحاً جميلاً) لا تذكرهن بعد الفراق إلا بخير، ولا تستردوا منهن شيئاً، ولا تجمعوا عليهن سوء الحال والإضرار من جهة المال هـ.

الإشارة: أيها المريدون؛ إذا طلقتم نفوسكم، وغبتم عنها بخبرة قوية، من قبل أن تمسوهن بمجاهدة ولا مخالفة، فمتعوهن بالشهود، وسرحوا فكرتها فى ذات المعبود، سراحاً جميلاً، لا حجر فيه ولا حصر، فمن رزقه الله الغيبة عن نفسه، حتى غاب عن حظوظها وهواها، فقد كفاه الله قتالها، فدخل الحضرة بلا مضقة ولا تعب، لكنه نادر، وعلى تقدير وجوده يكون ناقص التربية؛ لأنه يكون كمن طويت له الطرق للحج، فلا يعرفها كما يعرفها من سافر فيها، وكابد مشقتها، وعرف منازلها ومياهاها، وعرها وسهلها، ومخوفها وأمونها، وكلهم أولياء لله تعالى، لكن طريق التربية أن يكون المريد سلك الطريقة، وقاس شدائد نفسه، وعالجها ليعالج غيره بما يعالج نفسه، على يد شيخ عارف بالطريق. وبالله التوفيق.

(١) العبارة كما فى البيضاوى: [وقائدة «ثم» إزاحة ما عسى أن يتوهم تراخى الطلاق ربما يمكن الإصابة، كما يؤثر فى النسب يؤثر فى العدة].

ثم وسع على نبيه فى باب النكاح، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾؛ مهورهن؛ إذ المهر أجر البضع، ولذا قال الكرخي - من الحنفية -: إن النكاح بلفظ الإجارة جائز، والجواب: أن التأبيد من شرط النكاح، والتأقيت من شرط الإجارة، وبينهما منافاة، وإيتاؤها: إعطاؤها عاجلاً، أو فرضها فى المفوض، وتسميته فى المسمى. والمراد بالأزواج المحللة له - عليه الصلاة والسلام -: نساؤه اللاتي فى عصمته حينئذ، كعائشة وغيرها، وكان قد أعطاهن مهورهن، أو: جميع النساء اللاتي يريد أن يتزوجهن، فأباح له جميع النساء. وهذا أوسع.

﴿و﴾ أحللتنا لك ﴿ما ملكت يمينك﴾ من السرارى ﴿مما أفاء الله عليك﴾ من الغنائم، وهى صفية، أعتقها وتزوجها، ﴿وبَنَاتِ عَمِّكَ، وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ، وَبَنَاتِ خَالِكَ، وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾، يعنى قرابتك، التى من جهة أبيك، ومن جهة أمك. وكان له - عليه الصلاة والسلام - أعمام وعمات، أخوة لأبيه، ولم يكن لأمه عليها السلام أخ ولا أخت، فإنما يعطى بخاله وخالته: عشيرة أمه، وهم بنو زهرة، ولذلك كانوا يقولون: نحن أخوال رسول الله ﷺ. فإذا قلنا: المراد بقوله: ﴿أحللتنا لك أزواجك﴾ من كان فى عصمته، فهذا عطف عليهن، وإباحة لأن يتزوج قرابته، زيادة على من كان فى عصمته، وإذا قلنا: المراد: جميع النساء، فهذا تحديد لهن، على وجه التشریف، بعد دخولهن فى العموم. وقوله: ﴿اللّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، قيد فى حلية قرابته - عليه الصلاة والسلام - . قالت أم

هاتئ: خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه، فعذرني، فأنزل الله هذه الآية، فلم أحل له؛ لأنني لم أهاجر معه، كنت من الطلقاء (١).

وومع، هنا: ليست للافتران، بل لوجود الهجرة فقط، كقوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ (٢).

﴿وَأَحَلَّلْنَا بِكُفْرَانِكِ أَنْ تَتَرَفَّيَ فِي مَالِكَ﴾ من غير مهر ولا عقد، فهو منصوب بفعل يُفسره ما قبله، أو: عطف على ما سبقه، ولا يدفعه أن الذي للاستقبال؛ لأن المعنى بالإحلال: الإعلام بالحل، أي: أعلمناك حل امرأة مؤمنة وهبت لنفسها، ولا تطلب مهراً إن اتفق، ولذلك نكحها. واختلف في اتفاق ذلك، والقاتل به ذكر أربعة: ميمونة بنت الحارث، حين جاءها الخاطب، قالت: البعير وما عليه لرسول الله ﷺ، فتزوجها. وزينب بنت خزيمة الأنصارية، أم المساكين، وتوفيت في حياته ﷺ، وأم شريك بنت جابر الأسدية، وقيل: أم شريك العامرية، قيل: إن رسول الله ﷺ تزوجها، ولم يثبت ذلك. ذكره ابن عبد البر. وخولة بنت حكيم السلمية. ذكر البخاري عن عائشة أنها قالت: كانت خولة بنت حكيم من الثلاث وهبن أنفسهن. قال أبو نعيم: تزوجها رسول الله ﷺ ولم يدخل بها. قال السهيلي: فدل أنهن كن غير واحدة. والله أعلم. وقال ابن عباس: هو بيان حكم في المستقبل، ولم يكن عنده أحد منهن بالهبة، فانظره (٣).

وقرأ الحسن بفتح «أن»، على حذف لام التثنية. وقرأ ابن مسعود ﷺ بغير «إن»، أي: وأحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها للذي إن أراد الذي أن يستنكحها، أي: طلب نكاحها والرغبة فيها. وقيل: نكح واستنكح بمعنى واحد. والشرط الثاني تقييد للأول، كأنه قال: أحللنا لك امرأة إن وهبت نفسها، وأنت تريد أن تستنكحها، وإرادته هي: قبول [الهبة] (٤).

جعلنا ذلك خالصاً لك من دون المؤمنين، بل يجب عليهم المهر، تسمية أو فرضاً. وفيه إيدان بأنه مما خص به - عليه الصلاة والسلام - لشرف نبوته، وتقرير لاستحقاقه الكرامة. قال ابن جزى: وانظر كيف رجع من الغيبة إلى الخطاب؛ ليخص المخاطب وحده. وقيل: إن خالصاً، يرجع إلى كل ما تقدم من النساء المباحات له

(١) أخرجه الترمذي في (التفسير - سورة الأحزاب ٣٣١/٥، ح ٣٢١٤)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤٢٠/٢)، والبيهقي في السنن (٥٤/٧) وابن جرير في التفسير (٢٠/٢٢) والطبراني في الكبير (٤٠٥/٢٤ ح ٩٨٥) وقال الترمذي: حسن صحيح.
(٢) من الآية ٤٤ من سورة النمل.
(٣) انظر: تفسير القرطبي (٥٤٤٣/٦) والبحر المحيط (٢٣٣/٧).
(٤) في الأصول: الهدية.

ﷺ؛ لأن سائر المؤمنين قَصَرُوا على أربع نسوة، وأبيح له - عليه الصلاة والسلام - أكثر من ذلك. ومذهب مالك: أن النكاح بلفظ الهبة لا ينعقد، خلافاً لأبي حنيفة هـ. قلت: إن قرنه ذكر الصداق جاز، كما في المختصر.

(وخالصة): مصدر مؤكد، أى: خلّص إجلالها، أو: إحلال ما أحللت لك على القيود المذكورة خلوصاً لك. أو: حال من الضمير في (وهبت)، أو: صفة لمصدر محذوف، أى: هبة خالصة لك.

﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم﴾ أى: ما أوجبنا من المهور على أملاك في زوجاتهم، أو: ما أوجبنا عليهم في أزواجهم من الحقوق، كالنفقة وحسن المعاشرة، أو: ما فرضنا عليهم من الاقتصار على الأربع، أو: ما أوجبنا عليهم من الإشهاد والولى، ﴿وما ملكت أيمانهم﴾ بالشراء وغيره من وجوه الملك، فقد علمنا ما فرضنا عليهم من الإنفاق والرفق، وألا يكلفوهن ما لا طاقة لهن به، مع حلية الوطء، ولو تعددن. وإنما وسعنا عليك في أمر النساء ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾؛ ضيق، وهو راجع لقوله: «خالصة لك من دون المؤمنين». والجملة من قوله: «قد علمنا ما فرضنا..» إلخ: اعتراضية؛ للدلالة على أن الفرق بين المؤمنين في نحو ذلك ليس لمجرد التوسيع عليه، بل لمعان تقتضى التوسيع عليه والتصديق عليهم تارة، والعكس أخرى، كنكاح الكتابية والأمة، فتحترمان عليه ﷺ دون أمته. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ بالتوسعة على عباده، أو: غفوراً لما يعسر التجرد عنه، رحيماً بالتوسعة في مظان الحرج.

الإشارة: قد وسّع الله على خواصه في باب النكاح، وأمدهم في ذلك بالقوة، وأعطاهم من الباءة مالم يحط غيرهم، تشريعاً وترغيباً في هذا الأمر، لإبقاء النسل الطيب، ولما فيه من التوسعة في المعرفة، وحسن الخلق، وتطم السياسة، فدلّ ذلك أن كثرة النساء لا ينافي الزهد، ولا يقدر في كمال المعرفة، بل يزيد فيها. قال الإمام ابن منصور المقدسى، في شرح منازل السائرين - في باب الزهد -: ومتعلق الزهد ستة أشياء، لا يستحق العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها، وهى: المال، والرئاسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله. وليس المراد رفضها عن الملك، فقد كان داود وسليمان - عليهما السلام - من أزهد أهل زمانهما، ولهما من الملك والنساء والملك مالهما. وكان نبينا ﷺ أزهد البشر على الإطلاق، وله تسع نسوة، وكان على بن أبى طالب - كرم الله وجهه، وعبد الرحمن بن عوف، والزيبر، وعثمان - رضوان الله عليهم - من الزهاد، مع مالهم من الأموال - أى: والنساء - فكان لعلى ﷺ أربع حرائر، وسبعة عشر سرية، ولعبد الرحمن بن عوف والزيبر أربع أربع، ولعثمان كذلك. وتزوج المغيرة بن شعبه تسعاً وتسعين امرأة. ثم قال: وكان الحسن بن على - رضى الله عنهما - من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحهن. ثم قال: ومن أحسن ما قيل في الزهد كلام الحسن وغيره، قال: ليس الزهد في الدنيا

بتحريم الحلال، ولا بإضاعة المال، وإنما الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك. انتهى المقصود منه.

ثم رُسِعَ على نبيه في القسمة، فقال:

﴿ تَرْجِي مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ عَيْنَهُنَّ وَلَا يُخْزِبَكَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾

يقول الحق جل جلاله لرسوله ﷺ: ﴿ تَرْجِي مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ أى: تؤخرها في القسمة، ﴿ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ ﴾ أى: تضمها إليك، والمعنى: تترك مضاجعة من تشاء منهن وتضاجع من تشاء، فقد خيره الله في القسمة وعدمها. قال أبو رزين: لما نزلت آية التخيير أشفق أن يطلقن، فقلن: يأنبى الله؛ اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت، ودعنا على حالنا (١)، فكان ممن أرجى منهن: سودة، وجويرية، وصفية، وميمونة، وأم حبيبة، فكان يقيم لهن ما يشاء، وكان ممن أوى إليه عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب، فكان يقسم لهن بالسوية (٢)، لا يفضل بعضهن على بعض. فأوى أربعاً وأرجى خمساً. وقيل: إنه كان ﷺ يسوى بين الجميع في القسم، إلا سودة، فإنها وهبت ليلتها لعائشة، حين هم بطلاقها، وقالت: لا تطلقني حتى أحشر في زمرك وفي نساءك. والجمهور على أنه ﷺ كان يعدل في القسمة بين نسائه، أخذاً منه بأفضل الأخلاق، مع أن الله خيره. وقيل: (تُرجي من تشاء) أى: تطلق من تشاء منهن، ونفسك من تشاء. وقيل: تترك تزوج من شئت من أمتك، وتزوج من شئت.

﴿ وَمِنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ أى: ومن دعوت إلى فراشك، وطلبت صحبتها، ممن عزلت عن نفسك بالإرجاء، فلا ضيق عليك في ذلك، أى: ليس إذا عزلتها من القسمة، أو من العصمة، لم يجز لك ردها إلى نفسك، بل افعل ما شئت، فلا حرج عليك. ﴿ ذَلِكَ ﴾ التفريض إلى مشيئتك ﴿ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ عَيْنَهُنَّ وَلَا يُخْزِبَنَّ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ أى: هو أقرب إلى قرّة أعينهن، وقلة حزنهن، ورضاهن جميعاً؛ لأنه إذا علمن أن هذا الحكم من عند الله اطمأننت نفوسهن، وذهب التغاير، وحصل الرضا، وقرّت العيون.

(١) أخرجه بمعناه الطبري (٢٦/٢٢) عن أبي رزين. وانظر أسباب النزول للواحدي (ص: ٣٧١).

(٢) عزاه العاقل ابن حجر في الكافي (ص ١٣٥ ح ٢٣٢) لابن أبي شيبة، وعبد الرزاق، عن أبي رزين، وهذا مرسل.

قلت: والذي يظهر أن من أرجاه ﷺ من النساء إنما كان بوحى، ومن ضمنه كذلك؛ إذ لا يتصرف إلا بإذن من الله، فإذا علمَ النساءُ أن الإرجاء والإيواء كان بوحى من الله؛ رضين بذلك، وقرت أعينهن، وزال تغايرهن، وأما مطلق التفويض إليه فقط، فلا يقطع الغيرة في العادة، فالإشارة تعود إلى حكم الإرجاء والإيواء فتأمل. وكلهن: تأكيد ضمير «يرضين».

﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾ من أمر النساء، والميل إلى بعضهن، أو: يعلم ما في قلوبكم من الرضا بحكم الله والتفويض إليه، ففيه تهديد لمن لم يرض منهن بما دبر الله، وفوض إلى رسوله، ﴿وكان الله عليماً﴾ بذات الصدور، ﴿حليماً﴾ لا يعاجل بالعقوبة، فهو حقيق بأن يلتقى ويحذر.

الإشارة: إذا تحقق فناء العبد وزواله، وتكملت ولايته، كان مفوضاً إليه في الأمور، يفعل ما يشاء، ويترك ما يشاء، لم يبق عليه تحجير، ولم يتوجه إليه عتاب؛ لأن العبد المملوك إذا تحققت محبة سيده له، كتب له عقد التحرير. وشاهده حديث: «إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب»^(١)، وحديث البخاري: «لعل الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»^(٢). وسببه معلوم.

وفي القوت عن زيد بن أرقم: إن الله عز وجل ليحب العبد، حتى يبلغ من حبه أن يقول له: اصنع ما شئت، فقد غفرت لك. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمته: يبلغ الولي مبلغاً يقال له: أصحابناك السلامة، وأسقطنا عنك الملامة، فاصنع ما شئت. ومصادقه من كتاب الله: قوله تعالى في حق سليمان عليه السلام: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٣). وهذا وإن كان للنبي من أجل العصمة، فلمن كان من الأولياء في مقام الإمامة قسط منه،

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (كتاب المحبة ٤/٣٤٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال العراقي في المغني: ذكره صاحب الفردوس - الديلمي - ولم يخرج له سند. - والحديث أخرجه - مطولاً - القشيري في الرسالة (باب التوبة ٧٦) عن شيخه «ابن فورك» بسنده عن أنس. وزاد الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/٦٠٩) عزو الحديث لابن أبي الدنيا، وابن النجار في تاريخه. قلت: معناه: أنه إذا أحب الله للعبد تاب عليه قبل الموت، فلم يضره الذنوب الماضية، ولو كثرت، كما لا يضر الكفر الماضي قبل الإسلام.

(٢) جزء من حديث، أخرجه بطوله البخاري في (الجهاد، باب الجاسوس، ح ٣٠٠٧) ومسلم في (فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر - رضي الله عنهم ٤/١٩٤١ - ١٩٤٢، ح ٢٤٩٤) عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وسبب الحديث: أن حاطب بن أبي بلتعة، أرسل رسالة مع امرأة إلى قريش، يخبرهم فيه ببعض أمر رسول الله ﷺ، فلما أتت بالرسالة إلى النبي ﷺ، قال: «يا حاطب! ما هذا؟» قال: لا تعجل علي يا رسول الله! إني كنت امرأة ملسقاً في قريش، وكان ممن كان معك من المهاجرين، لهم قرابات بمكة يحمون بها أهلهم، فأحببت إذا فاتني ذلك من النصب فيهم، أن أتخذ فيهم يداً، يحمون بها قرابتي، ولم أقبل كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام. فقال النبي ﷺ: «صدق» فقال عمر: دعني، يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال: «إنه قد شهد بدراً...» الحديث.

(٣) الآية ٣٩ من سورة «ص».

من أجل الحفظ. وقال أيضا ﷺ في بعض أدعيته: وأدرج أسمائي تحت أسمائك، وصفاتي تحت صفاتك، وأفعالي تحت أفعالك، درج السلامة، وإسقاط الملامة، وتنزل الكرامة، وظهور الإمامة هـ.

فإذا اندرجت أسماء العبد وصفاته وأفعاله تحت أسماء الرب، وصفاته، وأفعاله، لم يبق للعبد وجود أصلا، وكان الفعل كله بالله، ومن الله، وإلى الله. وهذا مقام عزيز، لا يناله إلا الأفراد من أهل الفناء في الله، والبقاء بالله، وقد غطي وصفهم بوصفه، ونعتهم بنعته، فغيبهم عن اسمهم ورسمهم، فهم بالله فيما يفعلون ويذرون. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى:

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝٥٢﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أي: من بعد التسع، اللاتي خيرتهن فاخترتك؛ لأن التسع نصاب رسول الله ﷺ، كما أن الأربع نصاب أمته. لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة قصره الله عليهن، وقيل: هي منسوخة كما يأتي. أو: لا يحل لك نساء الأجانب، وإنما لك نساء قرابتك، كبنات عمك، وبنات عماتك، وبنات خالك، وبنات خالاتك، فيحل لك منهن ما شئت، ولو ثلاثمائة، أو أكثر. أو: لا يحل لك النساء من غير المسلمات، كالكتابيات والمشركات. ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ بالطلاق. والمعنى: ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجا، بكلهن أو بعضهن، كرامة لهن، وجزاء على ما اخترن ورضين. فقصر رسوله ﷺ على التسع اللاتي مات عنهن. وقال أبو هريرة وابن زيد: كانت العرب في الجاهلية يتبادلون بالأزواج، يعطي امرأة هذا أياما ويأخذ امرأته، فأنزل الله: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ بأن تعطي بعض أزواجك وتأخذ بعض أزواجهم، ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، فلا بأس أن تبادل بجارياتك. ومن: لتأكيد النفي؛ ليفيد استغراق جنس الأزواج بالتحريم. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي: حسن الأزواج المتبدلة. وقيل: هي أسماء بنت عميس، امرأة جعفر بن أبي طالب، فإنها ممن أعجبه حسنهن.

وعن عائشة وأم سلمة، (ما مات رسول الله ﷺ. حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء) (١)، يعني أن الآية نسخت إما بالسنة، أو بقوله: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾. وترتيب النزول ليس على ترتيب

(١) أخرجه، عن السيدة عائشة، رضي الله عنها، أحمد في المستد (٤١/٤) والترمذي في (التفسير - سورة الأحزاب ٣٣٢/٥، ح ٣٢١٦) وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي في (النكاح، باب ما افترض الله عز وجل على رسوله ﷺ وحرمه على خلقه، ٥٦/٦) والدارمي في (النكاح، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ٢٠٥/٢﴾، ح ٢٢٤١) وصححه الحاكم (٤٣٧/٢) ووافقه الذهبي.

المصحف. ﴿إِلَّا مَا مَلَكَت يَمِينُكَ﴾ ؛ استثناء من النساء؛ لأنه يتناول الأزواج، وقيل: منقطع، أى: لكن ما ملكت يمينك، فيحل لك ما شئت، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَاقِبًا﴾ ؛ حافظاً ومُنتظماً، وهو تكفير عن مجاوزة حدوده. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من نكح أبنكار الحقائق العرفانية ودخل بأسرار العلوم اللدنية، لا يحل له أن ينكح نساء العلوم الرسمية، ولا أن يتبدل بما عنده من المواهب الربانية، بغيرها من العلوم اللسانية، ولو أعجبك حسنها ورونقها. على الفرض والتقدير:؛ إذ التزل إليها بطالة عند المحققين، إلا ما كنت تملكه قبل علم الحقيقة، فلا بأس أن تنزل إلى تعليمه وإفادته، إن توسعت في علم الباطن، وصرت من الأغنياء الكبار، تُففق كيف تشاء، فلا يضرك حينئذ التزل إلى علم الظاهر. وقد كان شيخ شيوخنا سيدى يوسف الفاسى رحمته الله عنده مجلسان؛ مجلس لأهل الظاهر، ومجلس لأهل الباطن. فإن كان فى مجلس الظاهر، وجاء إليه أحد من الفقراء، يقول: اذهب حتى نأتى إلى مجلسكم، وإن كان فى مجلس أهل الباطن، وجاء إليه أحد من أهل الظاهر، قال: اذهب حتى نأتى إليكم. وكان له هذا بعد الرسوخ فى علم الحقيقة. وبالله التوفيق.

ولمّا أوتّم - عليه الصلاة والسلام - على زينب، جلس قوم فى بيته يتحدثون، فأنزل الله تعالى فى شأنهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَعْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ...﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ وكانت تسعاً، ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾ أى: إلا وقت أن يؤذن لكم، أو: لا تدخلوا بكم، فجعلته: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ﴾: فى موضع الحال، أو: الظرف. (غير ناظرين): حال من (لا تدخلوا)، وقع الاستثناء على الوقت والحال، كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت

النبي إلا وقت الإذن، ولا تدخلوها إلا ﴿غير ناظرين﴾ أى: منتظرين ﴿إنشاء﴾ أى: إدراكه ونضجه. قال ابن عزيز: إنشاء: بلوغ وقته، يقال: أنى يأنى، وأن يدين: إذا شهى، بمنزلة: حان يحين. هـ. وقال الهروي: أى: غير ناظرين نضجه وبلوغ وقته، مكسور الهمزة مقصور، فإذا فتحت مددت، فقلت: الإناء، أى غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله.

رُوى أن النبي ﷺ أولَّم على زينب بتمر وسويق، وذبح شاة، وأمر أنساً أن يدعوا الناس، فترادفوا أفواجاً، يأكل كل فوج، فيخرج، ثم يدخل فوج، إلى أن قال: يارسول الله دعوتُ حتى ما أجد أحداً أدعوه. فقال: «ارفعوا طعامكم» وتفرق الناس، وبقي ثلاثة نفر يتحدثون، فأطالوا، فقام رسول الله ﷺ ليخرجوا، فطاف بالحجرات، وسلم عليهن، ودعوهن له، ورجع، فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون. وكان ﷺ شديد الحياء، فتولى، فلما رآوه متولياً خرجوا، فنزلت الآية، وهى آية الحجاب. قال أنس: فضرب بينى وبينه الحجاب^(١).

قال تعالى: ﴿ولكن إذا دُعِيتُم فادخلوا، فإذا طَعِمْتُم فانتشروا﴾: تفرقوا، ﴿ولا مستأنسين لحديث﴾ أى: ولا تدخلوها حال كونكم مستأنسين لحديث، أو: غير ناظرين ولا مستأنسين، فهو منصوب، أو مجرور، عطف على «ناظرين»، نهوا أن يطيلوا الجلوس فى بيته ﷺ مستأنسين بعضهم ببعض، لأجل حديث يتحدثون به، ﴿إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم﴾: من إخراجكم، ﴿والله لا يستحي من الحق﴾، يعنى أن إخراجكم حق، ما ينبغي أن يستحي منه، ولا يترك بيانه، حياءً، أو: لا يأمر بالحياء فى الحق، ولا يشرع ذلك.

﴿وإذا سألوهنَّ﴾ أى: نساء النبي ﷺ، بدلالة البيوت عليهن؛ لأن فيها نساءه، ﴿متاعاً﴾: عارية أو حاجة، ﴿فاسألوهنَّ من وراء حجاب﴾: ستر، ﴿ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهنَّ﴾ من خواطر الشيطان وعوارض الفتن. وكانت النساء قبل هذه الآية يبرزن للرجال، وكان عمر رضي الله عنه يحب ضرب الحجاب عليهن، ويؤذ أن ينزل فيه، وقال: يارسول الله: يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فنزلت^(٢). وقيل: إنه عليه الصلاة والسلام، كان يطعم ومعه بعض أصحابه، فأصابته يد رجل يد عائشة، فكره النبي ﷺ ذلك فنزلت الآية^(٣). والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخارى فى (التفسير، سورة الأحزاب، ح ٤٧٩٣) وفى (الاستئذان)، ومسلم فى (النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ١٠٥٢/٢، ح ٩٥ من كتاب النكاح) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخارى فى (التفسير، باب: واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، ح ٤٤٨٣). عن أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبرى فى التفسير (٢٩/٢٢) والواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٧٤) عن مجاهد، مرسلاً.

الإشارة: العلماء ومشايخ التربية ورثة الأنبياء، فإذا دعوا إلى طعام فلا يدخل أحد حتى يؤذن له، فإذا طعموا قليلتسروا، وإذا سأل أحد حاجته من أهل دار الشيخ؛ فليسأل من وراء الباب، وليتجنب عن مقابلة الباب؛ لئلا يتكشف على عرض شيخه، فيسوء الأدب معه، وهو سبب الخسران.

ثم نهى عن تزوج نساء النبي ﷺ، فقال:

﴿... وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣﴾
 ﴿اللَّهُ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٥٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ أي: ما صح لكم إيذاء رسول الله ﷺ، وهو كفر، ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا﴾: تعظيماً لحرمته ﷺ، ولبقاء عصمته عليهن، ولذلك وجبت نفقتهن بعده، لقوله: «ما بقي بعد نفقة أهلي صدقة». وكذا السكني كما قد علم، وبه قال ابن العربي. وعطف (ولا أن تنكحوا) على (أن تؤذوا) من عطف الخاص على العام؛ إذ تزوج نسائه من أعظم الإيذاء. ﴿إن ذلكم﴾ أي: الإيذاء أو التزوج ﴿كان عند الله﴾ ذنباً ﴿عظيماً﴾.

﴿إن تبدوا شيئاً﴾ من أذى رسول الله ﷺ، أو نكاح أزواجه، ﴿أو تخفوه﴾ في أنفسكم، ﴿فإن الله كان بكل شيء عليماً﴾، فيعاقبكم عليه. روى أن رجلاً من الصحابة قال: لئن قبض النبي ﷺ لأنكحن عائشة، فنزلت، فحرمن^(١). وفيه نزلت: ﴿إن تبدوا شيئاً﴾ أي: من نكاح عائشة، «أو تخفوه...» إلخ. وكان - عليه الصلاة والسلام - ملك قتيبة بنت الأشعث بن قيس، ولم يبن بها، فتزوجها عكرمة بن أبي جهل، بعد ذلك، فهم به أبو بكر، وشق عليه، حتى قال له عمر: يا خليفة رسول الله، ليست من نسائه، ولم يخبرها، ولم يحجبها، وقد برأها الله منه بالردة، حين ارتدت مع قومها، فسكن أبو بكر: وقال الزهري: إن العالية بنت ظبيان، التي طلق النبي ﷺ تزوجت رجلاً ولدت له قبل أن يحرم أزواج النبي ﷺ^(٢).

(١) ذكره الراحي في أسباب النزول (ص ٣٧٤) بدون سند. وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤٠٤/٥) لابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧٣/٧) عن يونس، عن ابن شهاب، بلاغاً.

الإشارة: مذهب الصوفية تشديد الأدب مع الأشياخ، فإذا مات الشيخ، أو طلق امرأة بعد الدخول، فلا يتزوجها أحد من تلامذته أبداً، تعظيماً وأدباً مع الشيخ. وأما تزوج بنت الشيخ فلا بأس، إن قدر على القيام بالأدب معها، والصبر على أذاها، وإلا فالبعد أحسن وأسلم، والله تعالى أعلم.

قال القشيري: قوله تعالى ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئاً...﴾ الآية: حفظ القلب مع الله تعالى، ومراعاة الأمر - بينه وبين الله على الصِّحَّةِ في دوام الأوقات لا يقوى عليه إلا الخواص، من أهل المحصور. هـ.

ثم رخص للأقارب أن يدخلوا على أزواج النبي ﷺ، فقال:

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٥٥﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي أَبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ أن يدخلوا عليهن بلا حجاب. قال ابن عباس: لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب، فنزلت: ﴿لَا جُنَاحَ...﴾ إلخ، أي: لا إثم عليهن في أن لا يحتجبن من هؤلاء. ولم يذكر العم والخال، لأنهما يجريان مجرى الوالدين. وقد جاء تسمية العم أبا في قوله تعالى: ﴿وَنَعْبُدُ إِلَهُكَ يَا أَبَانَا﴾ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق... (١) وإسماعيل عم يعقوب، فسماه أبا. وذكر القاضي إسماعيل، عن الحسن والحسين: أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين. وقال ابن عباس: إن رؤيتهما لهن تعل، أي: لأنهما ولدا البعل. قال القاضي: وأحسب أن الحسن والحسين ذهبا في ذلك إلى أن أبناء البعولة لم يذكروا في الآية. وقال في سورة النور: ﴿وَلَا يَدِينُ زِينَتَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿... أَوْ أَبْنَاءُ بُعُولَتِهِنَّ﴾ (٢)، فذهب ابن عباس إلى ما في سورة النور، وذهب الحسن والحسين إلى ما في هذه السورة. هـ.

(١) الآية ١٣٣ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٣١ من سورة النور.

﴿وَلَا نَسَائِهِنَّ﴾ أى: نساء المؤمنات، فلا حجاب عليهن، ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من العبيد والإماء. وقيل: من الإماء خاصة، وأما العبيد فهم كالأجانب. وهو المشهور، ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ فيما أمرتُن به من الحجاب، وما نزل فيه الوحي من الاستتار، واحتظن في ذلك. ونقل الكلام فيه من الغيبة إلى الخطاب لشدة التهديد، ولذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾؛ عالماً؛ يعلم خطرات القلوب وهواجسها، فيعاتب عليها.

الإشارة: ما قيل في أزواج النبي ﷺ يقال في نساء المشايخ والعلماء، فتحتجب من جميع الخلق، إلا من محارمهن، ولا يمنعهن من إدخال محارمهن عليهن إلا جامد أو جاهل، ولا ينبغي لأحد أن يمنع زوجه من لقاء محرما والدخول عليها إلا لفساد بين. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالصلاة على رسوله ﷺ وحض عليها، بعد أن أمر بتعظيمه واحترامه، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾؛ يعتنون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه. وقال صاحب المغنى: الصواب عندي: أن الصلاة لغة بمعنى واحد، وهو العطف، ثم العطف بالنسبة إلى الله تعالى: الرحمة، وإلى الملائكة: الاستغفار، وإلى الأدميين: دعاء. واختاره السهيلي قبله. والمراد بالرحمة منه تعالى غايته، وهو إفاضة الخير والإحسان، لا رقة القلب، الذي هو معنى الرحمة حقيقة. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ أى: قولوا: اللهم صل على محمد - أو: صلى الله على محمد. ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أى: قولوا: اللهم سلم على محمد، أو: صل وسلم على محمد، أو: انقادوا لأمره وحكمه، انقياداً كلياً.

وعن كعب بن عجرة: قلنا: يا رسول الله، أما السلام عليك، فقد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد» (١). ومعرفتهم السلام من التشهد. والصلاة على غير الأنبياء

(١) أخرجه البخارى في (التفسير - سورة الأحزاب، باب: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ» ح ٤٧٩٧).

بالتبع جائزة. وأما بالاستقلال فمكروه، وهو من شعار الروافض. هـ. قال الكواشي: روى أنه قيل يارسول الله: أرايت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ الآية؟ فقال: هذا من العلم المكنون، ولولا أنكم سألتهموني عنه ما أخبرتكم، إن الله وكل بي ملكين، فلا أذكر عند عبد مسلم، فيصلي على، إلا قال ذاك الملك: غفر الله لك، وقال الله وملائكته جواباً لذيئك الملكين: آمين. ولا أذكر عند عبد مسلم، فلا يصلي على إلا قال ذاك الملك: لا غفر الله لك. وقال الله جواباً لذيئك الملكين: آمين (١). هـ.

والصلاة على النبي ﷺ واجبة. فمنهم من أوجبها عند ذكره كلما ذكر، وعليه الجمهور، وهو الاحتياط للحديث المتقدم. ولقوله ﷺ: «مَنْ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَى دَخَلَ النَّارَ». ومنهم من أوجبها في كل مجلس مرة، وإن تكرر ذكره، كتشميت العاطس وآية السجدة. ومنهم من أوجبها مرة في العمر. قالوا: وكذلك الخلاف في إظهار الشهادتين، وأما ذكرها في الصلاة فليست شرطاً عند أبي حنيفة ومالك، خلافاً للشافعي، والاحتياط: الإكثار منها بغير حصر، ولا يغفل عنها إلا من لا خير فيه. واختلف هل كانت الأمم الماضية متعبدة بالصلاة على أنبيائهم. قال القسطلاني: إنه لم ينقل إلينا ذلك، ولا يلزم من عدم النقل عدم الوقوع. هـ.

الإشارة: اعلم أن الصلاة عليه ﷺ سلم ومعراج الوصول إلى الله؛ لأن تكثير الصلاة عليه ﷺ توجب محبته، ومحبته - عليه الصلاة والسلام - توجب محبة الله تعالى، ومحبته تعالى للعبد تجذبه إلى حضرته، بواسطة وبغيرها. وأيضاً: الرسول ﷺ وزير مقرب، ومن رام دخول حضرة الملوك يخدم الوزير، ويتقرب إليه، حتى يدخله على الملك. فهو ﷺ حجاب الله الأعظم، وبابه الأكرم، فمن رام الدخول من غير بابه طرد وأبعد، وفي ذلك يقول ابن وفا:

وأنت بابُ الله، أيَ أمرئ وفاه من غيرك لا يدخل.

وقال الشيخ الجزولي رَحِمَهُ اللهُ فِي دلائل الخيرات: وهي من أهم المهمات لمن يريد القرب من رب الأرباب. وقال شارحه: ووجه أهميتها من وجوه، منها: ما فيها من التوسل إلى الله سبحانه بحبيبه ومصطفاه. وقد قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (٢)، ولا وسيلة إليه أقرب، ولا أعظم، من رسوله الأكرم ﷺ.

(١) قال الهيثمي في المجمع (٩٣/٧): رواه الطبراني، وفيه الحكم بن عبدالله بن خطاف، وهو كذاب.

(٢) من الآية ٣٥ من سورة المائدة.

ومنها : أن الله تعالى أمر بها، وحصننا عليها، وتشريفاً له وتكريماً، وتفضيلاً لجلاله، ووعد من استعملها حسن المآب، وجزيل الثواب، فهي من أنجح الأعمال، وأرجح الأقوال، وأزكى الأحوال، وأحظى القربات، وأعم البركات. وبها يتوصل إلى رضا الرحمن، وتنال السعادة والرضوان، وتجاب الدعوات، ويرتقى إلى أرفع الدرجات. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى أتريد أن أكون أقرب إليك من كلامك إلى لسانك، ومن رسواس قلبك إلى قلبك، ومن روحك إلى بدنك، ومن نور بصرك إلى عينيك؟ قال: نعم يارب، قال: فأكثر من الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم.

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم محبوب لله عز وجل، عظيم القدر عنده، وقد صلى عليه هو وملائكته، فوجبت محبة المحبوب، والتقرب إلى الله تعالى بمحبته، وتعظيمه، والاشتغال بحقه، والصلاة عليه، والافتداء بصلاته، وصلاة ملائكته عليه. قلت: وهذا التشريف أتم وأعظم من تشريف آدم عليه السلام، بأمر الملائكة بالسجود له؛ لأنه لا يجوز أن يكون الله مع الملائكة في ذلك التشريف. فتشريف يصدر عنه مع ملائكته أبلغ من تشريف تختص به الملائكة.

ومنها : ما ورد في فضلها، ووعدٌ عليها من جزيل الأجر وعظيم القدر، وفوز مستعملها برضا الله، وقضاء حوائج آخرته ودنياء.

ومنها : ما فيها من شكر الواسطة في نعم الله علينا الأمور، بشكره، وما من نعمة الله علينا، سابقة ولا لاحقة؛ من نعمة الإيجاد والإمداد، في الدنيا والآخرة، إلا وهو السبب في وصولها إلينا، وإجرائها علينا، فوجب حقه علينا، ووجب علينا في شكر نعمته ألا نفتر عن الصلاة عليه، مع دخول كل نفس وخروجه.

ومنها : ما فيها من القيام برسم العبودية، بالرجوع لما يقتضى الأصل نفيه، فهو أبلغ في الامتثال، ومن أجل ذلك كانت فضيلة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على كل عمل. والذي يقتضى الأصل نفيه، هو كون العبد يتقرب إلى الله بالاشتغال بحق غيره؛ لأن قولنا: «اللهم صل على محمد» هو الاشتغال بحق محمد صلى الله عليه وسلم، وأصل التعبدات: ألا يتقرب إلى الله تعالى إلا بالاشتغال بحقه. ولكن لما كان الاشتغال بالصلاة على محمد بإذن من الله تعالى، كان الاشتغال بها أبلغ في امتثال الأمر، فهي بمثابة أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم، فكان شرفهم في امتثال أمر الله، وإهانة إبليس في مخالفة أمره سبحانه.

ومنها : ما جرب من تأثيرها، والنفع بها في التنوير ورفع الهممة، حتى قيل: إنها تكفي عن الشيخ في الطريق، وتقوم مقامه، حسبما نقله الشيخ السنوسي، والشيخ زروق، وغيرهما.

ومنها : ما فيها من سير الاعتدال، الجامع لكمال العبد وتكميله، ففي الصلاة على رسول الله ﷺ ذكر الله ورسوله، ولا كذلك عكسه، فلذلك كانت المثابرة على الأذكار والدوام عليها يحصل به الانحراف، وتُكسب نورانية تحرق الأوصاف، وتثير وهجاً وحرارة في الطباع، والصلاة على رسول الله ﷺ تذهب وهج الطباع، وتقوى النفوس؛ لأنها كالماء البارد، فكانت تقوم مقام شيخ التربية. انتهى كلامه.

قلت : والحق الذي لا غبار عليه : أن الصلاة عليه ﷺ، والإكثار منها، تدل صاحبها على من يأخذ بيده، وتوصله إلى شيخ التربية، الذي هو خليفة رسول الله ﷺ، إن كان صادق الطلب، وأما كونها تقوم مقام الشيخ في دخول مقام الفناء والبقاء، حتى تعتدل حقيقته وشريعته فلا؛ إذ لا تنقطع رعونات النفوس إلا بأمر ونه من غيره، يكون عالماً بدسائس النفوس وخدعها، وغاية ما توصل إليه الصلاة على رسول الله ﷺ - إن لم يظفر بالشيخ - الفناء في الصفات، وينال مقام الصلاح الأكبر، ويظهر له كرامات وخوارق، ويكون من أرباب الأحوال، وإن وصل إلى مقام الفناء تكون شريعته أكبر من حقيقته.

هذا ما ذقناه، وشهدناه، وسمعناه من أشياخنا، والطريق التي أدركناهم يستعملونها، وأخذناها منهم، أنهم يأمرن المريد إن رآوه أهلاً للتربية أن يلتزم الاسم المفرد، ويفنى فيه، حتى تنهدم به عوالمه، فإذا تحقق فناؤه وغاب عن نفسه ورسمه، ردوه إلى مقام البقاء، وحينئذ يأمرونه بالصلاة على رسول الله ﷺ، لتكون صلاته عليه كاملة، يصلى على روحه وسره بلا حجاب، ويشاهده في كل ساعة كما يشاهدونه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أهل الغفلة والبعد، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بارتكابهم ما يكرهانه من الكفر والمعاصي والبدع. وقال ابن عباس: هم اليهود والنصارى والمشركون. فقالت اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (١)، ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ (٢)

(١) كما ذكرت الآية ٦٤ من سورة المائدة.

(٢) كما ذكرت الآية ١٨١ من سورة آل عمران

وقالت النصارى: ﴿المسيح ابن الله﴾ (١)، ﴿إن الله ثالث ثلاثة﴾ (٢). وقال المشركون: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه. وقيل: يؤذونه: يلحدون في أسمائه وصفاته. ويؤذون رسول الله، حين شج وجهه، وكسرت رياعيقه، وقيل له: هو ساحر وشاعر ومجنون. أو: بترك سنته ومخالفة شريعته. ويحتمل أن يكون المراد يؤذون رسول الله فقط بالتنقيص، أو بالتعرض لنسائه. وذكر اسم الله للتشريف. ﴿لعنهم الله في الدنيا والآخرة﴾ أى: أبعدهم من رحمته في الدارين ﴿وأعدّ لهم عذاباً مهيناً﴾ يهينهم ويخزيهم في النار.

﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا﴾ ؛ بغير جنابة يستحقون بها الإيذاء، ﴿فقد احتملوا بهتاناً﴾ ؛ كذباً ﴿وإثماً مبيناً﴾ ؛ ظاهراً، وإنما أطلق في إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق، وأما إيذاء المؤمنين فمنه ما يكون بحق، كالحد والتعزير، ومنه باطل. وقيل: نزلت في ناس من المنافقين، كانوا يؤذون علياً عليه السلام، ويسمعونه، وقيل: في زناة المدينة، كانوا يمشون في طرق المدينة، ويتبعون النساء إذا تبرزن بالليل لقضاء حوائجهن، فيغمزون المرأة، فإن سكنت اتبعوها، وإن زجرتهم انتهوا (٣). وعن الفضيل: لا يحل أن تؤذى كلباً أو خنزيراً بغير حق، فكيف بالمؤمنين؟ هـ.

الإشارة: إيذاء الله ورسوله هي إيذاء أوليائه، ونقله الثعلبي عن أهل المعاني، فقال: فأراد الله تعالى المبالغة في النهي عن أذى أوليائه، فجعل أذاهم أذاه هـ. ويؤيده الحديث القدسي: «من أذى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة» (٤)، أو كما سبحانه. وإيذاء المؤمنين كثيرة، تكون باللسان وبغيره، وقد قالوا: البر لا يؤذى الذر. ومن أركان التصوف: كف الأذى، وحمل الجفا، وشهود الصفا، ورمى الدنيا بالقفا. وبالله التوفيق.

ثم أمر بتمييز الحرائر من الإماء في اللباس، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٥٩)

(١) كما ذكرت الآية ٣٠ من سورة التوبة.

(٢) كما ذكرت الآية ٧٣ من سورة المائدة.

(٣) ذكره الراحدي في أسباب النزول (ص ٣٧٧) والبيهقي في التفسير (٣٧٦/٦) عن الضحاك، والسدي، والكلبي.

(٤) أخرجه البخاري في (الرقاق، باب: التواضع، ح ٦٥٠٢). من حديث أبي هريرة بلفظ: «من عصى لى ولياً فقد آذنته بالحرب...» الحديث وأخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٥٦/٦) من حديث السيدة عائشة - رضى الله عنها - بلفظ: «من أذى لى ولياً فقد استحل محاربتى...» الحديث.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ أي: يرخين علي وجوههن من جلابيبهن فيغطين بها وجوههن. والجلباب: كل ما يستر الكل، مثل الملحفة، والمعنى: قل للحرائر يرخين أرديتهن وملاحفهن ويغطين بها وجوههن ورؤوسهن، ليعلم أنهن حرائر فلا يؤذين. ﴿وَذَلِكَ أَدْنَىٰ﴾ أي: أقرب وأجدر، ﴿أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ من الإماماء ﴿فَلَا يُؤْذِينَ﴾، وذلك أن النساء في أول الإسلام كن على زيهن في الجاهلية متبدلات، تبرز المرأة في درج وخمار، لا فصل بين الحرّة والأمة. وكان الفتيان يتعرضون للإماء، إذا خرجن بالليل لقضاء حاجتهن في النخيل والغيضات^(١)، وكن يخرجن مختلطات مع الحرائر، فربما تعرضوا للحرّة، يحسبونها أمة، فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زى الإمام بلباس الجلابيب، وستر الرؤوس والرجوه، فلا يطمع فيهن طامع.

قال ابن عباس رضي الله عنه: أمر الله تعالى نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب، ويبدن عينا واحدة. قلت: وقد مر في سورة النور^(٢) أن الوجه والكفين ليس بعورة، إلا لخوف الفتنة، وأما الإماماء فلا تستقرن شيئا إلا ما بين السرة والركبة، كالرجل. قال أنس: مرت جارية متفتحة بعمر بن الخطاب فعلاها بالدرة، وقال: يالكاع أنت تشبهين بالحرائر، فألق القناع. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهن من التفريط، ﴿رَحِيمًا﴾ بتعليمهن آداب المكارم.

الإشارة: ينبغي للنساء الخواص أن يتميزن من نساء العامة؛ بزيادة الصّون والتحفظ، وقلة الخروج، فإذا لزمهن الخروج، فليخرجن في لباس خشين، بحيث لا يعرفن، أو يخرجن ليلاً. وثبت أن زوجة الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمته الله لم تخرج من دارها إلا خرجتن؛ خرجة حين زفت إلى زوجها، وخرجة إلى المقابر. نفعا الله ببركاتهم. آمين.

ثم هدد المنافقين، حيث كانوا [يؤذون] ^(٣) رسول الله ﷺ والمؤمنين، فقال:

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ^(٦٠) ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدُوا وَقَتِلُوا قَتِيلًا﴾ ^(٦١) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ^(٦٢)

(١) الغيضة: هي الشجر الملتف، وجمعه: غياض وغيضات. انظر اللسان (غيض ٥/٣٢٢٧).

(٢) راجع تفسير الآية ٣١ من سورة النور. (٣) في الأصول الغلطية (يؤذون) ..

قلت: (لنغرينك): جواب القسم المغنى عن جواب الشرط. و(ثم لا يجاورنك): عطف عليه؛ لأنه يصح أن يجاب به القسم؛ لصحة قرأك: لأن لم ينتهوا لا يجاورنك، ولما كان الجلاء عن الوطن أعظم من جميع ما أصيبوا به عطف بثم، لبعده حاله عن حال المعطوف عليه. و(ملعونين): نصب على الشتم أو الحال، والاستثناء دخل على الظرف والحال معاً، أى: لا يجاورنك إلا قليلاً فى اللعنة والبعد، ولا يصح نصبه بأخذوا؛ لأن ما بعد حرف الشرط لا يعمل فيما قبله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لئن لم ينته المنافقون﴾ عن نفاقهم وإيذائهم، ﴿والذين فى قلوبهم مرض﴾؛ فجور، وهم الزناة من قوله: «فيطمع الذى فى قلبه مرض». ﴿والمرجفون فى المدينة﴾، وهم أناس كانوا يرجفون بأخبار السوء فى المدينة، من سرايا رسول الله ﷺ، فيقولون: هزموا وقتلوا، وجرى عليهم كيت وكيت، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين. يقال: رجف بكذا: إذا أخبر به على غير حقيقته؛ لكونه خبراً مزليلاً غير ثابت، من: الرجفة، وهى الزلزلة، ﴿لنغرينك بهم﴾: لنأمرنك بقتالهم واجلائهم، أو ما يضطرهم إلى طلب الجلاء، أو: لنسلطنك عليهم، ﴿ثم لا يجاورونك فيها﴾؛ فى المدينة ﴿إلا﴾ زمناً ﴿قليلاً﴾.

والمعنى: لأن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون عما يلقون من أخبار السوء، لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التى تسوءهم، بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء من المدينة، وألا يسكنوك فيها إلا زمناً قليلاً، ريثما يرتحلون. فسمى ذلك إغراء، وهو التحريش، على سبيل المجاز. حال كونهم ﴿ملعونين﴾ أى: لا يجاورونك إلا ملعونين، مبعدين عن الرحمة ﴿أينما تقفوا﴾؛ وجدوا، ﴿أخذوا وقتلوا﴾ تقتيلاً، والتشديد للتكثير.

﴿سنة الله﴾ أى: سن الله ذلك سنة ﴿فى الذين خلوا من قبل﴾ فى المنافقين الذين كانوا ينافقون الأنبياء من قبل، ويسعون فى وهنهم بالإرجاف ونحوه أن يقتلوا أينما وجدوا، ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أى: لا يبدل الله سنته ولا يقدر أحد أن يبدلها، بل يجريها مجرى واحد فى الأمم كلهم.

قال ابن جزى: تضمنت الآية وعيد هؤلاء الأصناف إن لم ينتهوا، ولم ينفذ الوعيد فيهم. ففى ذلك دليل على بطلان القول بوجوب إنفاذ الوعيد فى الآخرة. وقيل: إنهم انتهوا وستروا أمرهم؛ فكف عنهم إنفاذ الوعيد. هـ.

الإشارة: منافقو الصوفية هم الذين ينتسبون إلى الصوفية، ويدعون محبة القوم، وهم يعترضون على الفقراء، ويرفعون الميزان عليهم، وهم الذين فى قلوبهم مرض، أى: حيرة وضيق من غم الحجاب؛ إذ لو ارتفع عنهم

الحجاب لم يعترضوا على أحد، وهم المرجفون بأهل النسبة، إذا سمعوا شيئاً يسوؤهم أفشوه، وأظهروا الفرح. لأن لم ينتهوا عن ذلك لئلا سلطان الله عليهم من يخرجهم من النسبة بالكلية، ثم لا يبقون فيها إلا قليلاً، ممقوتين عند أهل التحقيق، أينما وجدوا، أخذوا بالفعل أو بالقول فيهم. وقد ألف بعض الفقهاء تأليفاً في الرد على الفقهاء، فسلط الله عليه من أهانه، ووسمه بالبلادة والجمود، ولا زال مهاناً أينما ذكر، والعياد بالله.

ولما ذكر حال المنافقين، ذكر حال المشركين، لاشتراكهم في الكفر، فقال:

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۝٦٦ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ۝٦٧ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ﴾، كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن وقت الساعة، استعجالاً واستهزاءً، واليهود يسألون امتحاناً؛ لأن الله تعالى أخفى وقتها في التوراة وفي كل كتاب، فأمر رسوله ﷺ أن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به، ثم بين لرسوله عليه الصلاة والسلام - أنها قريبة الوقوع، تهديداً للمستعجلين، وإسكاتاً للمتأخرين فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾، لم يطلع عليها ملكاً ولا نبياً. ﴿ وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ أى: شيئاً قريباً، أو: في زمان قريب، فتتصب على الظرفية، ويجوز أن يكون التذكير؛ لأن الساعة في معنى اليوم أو الزمان.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾؛ أبعدهم عن رحمته، ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾؛ ناراً شديدة التسعير، أى: الإيقاد، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾، وهذا يرد مذهب الجهمية في زعمهم أن النار تنفئ، و(خالدين): حال مقدرة من ضمير «لهم». ﴿ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ يحفظهم، ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾؛ تطوف من جهة إلى جهة، كما ترى البضعة (١) من اللحم تدور

(١) البضعة: القطعة. انظر اللسان (بضع، ١/٢٩٦).

فى القَدْرِ إذا غلت. وخصت الوجوه؛ لأنها أكرم موضع على الإنسان من جسده. أو: يكون الوجه كناية عن الجملة. حال كونهم ﴿يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول﴾ فى الدنيا، فنخلص من هذا العذاب، فندموا حيث لم ينفع الندم.

﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءتنا﴾، والمراد: رؤساء الكفر، الذين لقتوهم الكفر، وزينوه لهم. وقرأ ابن عامر ويعقوب «ساداتنا» بالجمع، جمع: سادة، وسادة: جمع سيد، فهو جمع الجمع، ﴿فأضلونا السبيلا﴾ أى: أتلفونا عن طريق الرشd. يقال: ضل السبيل وأضله إياه، وزيادة الألف للإطلاق. ﴿بنا آتاهم ضعفين من العذاب﴾ أى: مثلى ما آتينا منه للضلال والإضلال، ﴿والعنهم لعناً كبيراً﴾ (١) كثير العدد، تكثيراً لأعداد اللاعنين، أو: العنهم المرة بعد المرة. وقرأ عاصم بالباء، أى: لعناً هو أشد اللعن وأعظمه. وهو يدل على تعدد الأجزاء والأفراد.

الإشارة: مذهب العباد والزهاد والصالحين: جعل الساعة نصب أعينهم، لا يغيبون عنها، فهم يجتهدون فى القاهب لها ليلاً ونهاراً. ومذهب العارفين الموحدين: الغيبة عنها، بالاستغراق فى شهود الحق، فلا يشغلهم الحق، دنيا ولا آخرة، ولا جنة ولا نار؛ لما دخلوا جنة المعارف، غابوا عن كل شىء، فانخلعوا عن الكونين بشهود المكون، وجعلوا الوجود وجوداً واحداً؛ إذ المتجلى هنا وثم واحد. وإذا كان كبراء الضلال يضاعف عذابهم، وكان كبراء الهداية يضاعف ثوابهم، يأخذون ثواب الاهتداء والإرشاد، فمن دل على هدى كان له أجره وأجر من اتبعه إلى يوم القيامة، ومن امتدى على يديه أحد جرى عليه أجره، وكان فى ميزانه كل من تبعه كذلك، وفى ذلك يقول القائل:

والمرء فى ميزانه اتباعه فاقدر إذن قدر النبى محمد (٢)

ثم رجع إلى النهى عن إذاية الرسول، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴿٧١﴾﴾

(١) قرأ عاصم «كبراء» بالباء، وقرأ الباقون «كثيراً» بالتاء، من الكثرة. انظر الإتحاف (٢/٣٧٨).

(٢) انظر ديوان البوصيرى (ص ١٢٢)، وفيه:

والمرء فى ميراثه أتباعه فاقدر إذن فضل النبى محمد

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾ من بنى إسرائيل ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ﴾ مما قالوا. وذلك أن بنى إسرائيل كانوا يغتسلون عرايا، ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى عليه السلام يستتر لشدة حيائه، فقالوا: ما يمنع موسى من الاغتسال معنا إلا أنه آدر - والأذرة: انتفاخ الأنثيين - أو: به عيب من برص أو غيره، فذهب يغتسل وحده، فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فلعج في أثره يقول: ثوبى حجر، ثوبى حجر! حتى نظروا إلى سواته، فقالوا: والله ما بموسى من بأس، فقام الحجر من بعد ما نظروا إليه، وأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضرباً، ثلاثاً أو أربعاً (١).

وقيل: كان أذاهم: ادعاءهم عليه قتل أخيه. قال على رضي الله عنه: صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون، فقالت بنو إسرائيل: أنت قتلتَه. وكان أشد لنا حباً، وألين منك، فأذوه بذلك، فأمر تعالى الملائكة فحملته، حتى مرت به على بنى إسرائيل، وتكلمت الملائكة بمماته، حتى تحققت بنو إسرائيل أنه قد مات، فبرأ الله موسى من ذلك، ثم دفنوه. فلم يطلع على قبره إلا الرخم (٢) من الطير، وإن الله جعله أصم أبكم (٣)، وقيل: إنه على سرير فى كهف الجبل. وقيل: إن قارون استأجر امرأة مومسة، لتقذف موسى بنفسها على رأس الملاء، فعصمها الله، وبرأ موسى، وأهلك قارون (٤). وقد تقدم.

﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾؛ ذا جاه ومنزلة رفيعة، مستجاب الدعوة. وقرأ ابن مسعود والأعمش «وَكَانَ عَبْدًا لِلَّهِ وَجِيهاً».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى ارتكاب ما يكرهه، فضلاً عما يؤذى رسوله، ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً﴾؛ صدقاً وصواباً، أو: قاصداً إلى الحق. والسداد: القصد إلى الحق والقول بالعدل. والمراد: نهيم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل فى القول. والحث على أن يسددوا قولهم فى كل باب؛ لأن حفظ اللسان، وسداد القول رأس كل خير، ولذلك قال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: يوفقكم لصالح الأعمال، أو: يقبل طاعتكم، ويشيكم عليها، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أى: يمحوها.

(١) أخرجه البخارى فى (الأنبياء - باب ٢٨ ح ٣٤٠٤) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) الرخم: نوع من الطير معروف، وأحدثه: رخمة، وهو مرصوف بالغدر، وقيل بالقدر. انظر النهاية (٢/٢١٢).

(٣) أخرجه ابن جرير (٥٢/٢٢) والحاكم وصححه ()، وانظر الدر المنثور (٥/٤١٩).

(٤) ذكره البغوى فى التفسير (٦/٣٧٩) عن أبى العالية.

والمعنى: راقبوا الله في حفظ ألسنتكم، وتسديد قولكم، فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم ما هو غاية الطلبة؛ من تقبل حسناتكم، ومن مغفرة سيئاتكم. وهذه الآية مقررّة للتي قبلها، فدلّت تلك على النهي عما يؤذى رسول الله ﷺ، وهذه على الأمر باتقاء الله في حفظ اللسان، ليترادف عليها النهي والأمر، مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام، واتباع الأمر الوعد البليغ بتقوى الله الصارف عن الأذى والداعى إلى تركه.

ثم وعدهم بالفوز العظيم بقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأوامر والنواهي ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، يعيش في الدنيا حميداً، وفي الآخرة سعيداً. جعلنا الله منهم، آمين.

الإشارة: في الآية تسلية لمن أودى من الأولياء بالتأسي بالأنبياء. روى أن موسى عليه السلام قال: يارب احبس على السنة الناس، فقال له: هذا شيء لم أصنعه لنفسى، فكيف أفعله بك. وأوحى تبارك وتعالى إلى عزيز: إن لم تطب نفساً بأن أجعلك علماً في أفواه الماضغين، لم أثبتك عندى من المتواضعين. هـ.

واعلم أن تعظيم الرسول ﷺ هو سبب السعادة والفوز الكبير، وتعظيم أولياء الله وخدمتهم هو سبب الوصول إلى الله العلى الكبير، وتقوى الله أساس الطريق، وحفظ اللسان وتحرى القول السديد هو سبب الوصول إلى عين التحقيق. قال الشيخ زروق رحمه الله في بعض وصاياه - بعد كلام - : ولكن قد تصعب التقوى على النفس؛ لاتساع أمرها، فتوجه لترك العظائم والقواعد المقدور عليها، تُعَنُّ على ما بعدها، وأعظم ذلك معصية: الغيبة قولاً وسمعاً، فإنها خفيفة على النفوس؛ لإلفها، مستسهلة؛ لاعتيادها، مع أنها صاعقة الدين، وآفة المذنبين، من اتقاها أفلح في بقية أمره، ومن وقع فيها خسر فيما وراءها. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...﴾ الآية، فجعل صلاح العمل متوقفاً على سداد القول، وكذلك ورد: أن الجوارح تُصبح تشكى اللسان، وتقول: اتق الله فينا، فإنك إن استقممت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا. فلا تهمل يا أخى لسانك، وخصوصاً في هذه الخصلة، فتورع فيها أكثر ما تورع في مأكلك ومشربك، فإذا فعلت طابت حياتك، وكفيت الشواغب، ظاهراً وباطناً. هـ.

فإذا تحققت بالتقوى، وحصلت لسانك بالقول السديد، كنت أهلاً لحمل الأمانة، كما قال تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ

وَالْمُنْفِقَتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ
اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٢﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال﴾، الأمانة هنا هي التوحيد في الباطن، والقيام بوظائف الدين في الظاهر، من الأوامر والنواهي، فالإيمان أمانة الباطن، والشريعة بأنواعها كلها أمانة الظاهر، فمن قام بهاتين الخصلتين كان أميناً، وإلا كان خائناً. والمعنى: إنا عرضنا هذه الأمانة على هذه الأجرام العظام، ولها الثواب العظيم، إن أحسنت القيام بها، والعقاب الأليم إن خانت، فأبت وأشفقت واستعفت منها، مخافة ألا تقدر عليها، فطلبت السلامة، ولا ثواب ولا عقاب. وهذا معنى قوله: ﴿فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾. فيحتمل أن يكون الإباء بإدراك، خلقه الله فيها، وقيل: أحيائها وأعقلها، كقوله: ﴿أثيباً طوعاً أو كرهاً﴾ (١). ويحتمل أن يكون هذا العرض على أهلها من الملائكة والجن.

وقال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي: وقد يقال: الأمانة هي ما أخذ عليهم من عهد التوحيد في الغيب بعد الإشهاد لربوبيته، وينظر لذلك قوله: ﴿لن يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدی المؤمن﴾. وأما حملها على التكليف فلا يختص بالآدمي؛ لأن الجن أيضاً مكلف، ومناسبة الآية لما قبلها: أن الوفاء بها من جملة التقوى المأمور بها. هـ.

وقيل: لم يقع عرض حقيقة، وإنما المقصود: تعظيم شأن الطاعة، وسماها أمانة من حيث إنها واجبة الأداء. والمعنى: أنها لعظمة شأنها لو عرضت على هذه الأجرام العظام، وكانت ذا شعور وإدراك، لأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان، مع ضعف بدنه، ورخاوة قوته، لا جرم، فإن الراعي لها، والقائم بحقوقها، بخير الدارين. هـ. قاله البيضاوي. والمراد بالإبابة: الاستعفاء، لا الاستكبار، أي: أشفقن منها فعفا عنهن وأعفاهن.

﴿وحملها الإنسان﴾ أي: آدم. قيل: فما تم له يوم من تحملها حتى وقع في أمر الشجرة، وقيل: جنس الإنسان، وهذا يناسب حمل الأمانة على العهد الذي أخذ على الأرواح في عالم الغيب. ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ حيث تعرض لهذا الخطر الكبير، ثم إن قام بها ورعاها حق رعايتها خرج من الظلم والجهل، وكان صالحاً أميناً

(١) الآية ١١ من سورة فصلت.

عدولاً، وإن خانها ولم يقم بها، كان ظلوماً جهولاً، كلٌ على قدر خيانتته وظلمه، فالكفار خانوا أصل الأمانة، وهى الإيمان فكفروا، ومن دونهم خانوا بارتكاب المناهى أو ترك الطاعة، فبعضهم أشد، وبعضهم أهون، وكل واحد عقوبته على قدر خيانتته.

ثم علل عرضها، وهو: لتقوم الحجة على عباده، فقال: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾؛ حيث لم يقوموا بها، وخانوا فيها، فتقوم الحجة عليهم، ولا يظلم ربك أحداً. وقال أبو حيان: اللام للصيرورة والعاقبة. وقال أبو البقاء: اللام متعلق بحملها، وحيلز تكون للعاقبة قطعاً. ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، حيث حملوا الأمانة، إلا أن العبد لا يخلو من تفريط، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَأَقْبُضَ مَا أَمَرَهُ﴾ (١) وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (٢) ولذلك قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾، فالفقران لمن لحقه تفريط وتقصير، والرحمة لمن اجتهد قدر طاقته، كالأولياء وكبار الصالحين.

والحاصل: أن العذاب لمن تحملها أولاً، ولم يقم بحقها ثانياً. والفقران لمن تحملها وقام بحقها، والرحمة لمن تحملها ورعاها حق رعايتها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأمانة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال هى شهود أسرار الربوبية فى الباطن، والقيام بآداب العبودية فى الظاهر، أو تقول: هى إشراق أسرار الحقائق فى الباطن، والقيام بالشرائع فى الظاهر، مع الاعتدال، بحيث لا تغلب الحقائق على الشرائع، ولا الشرائع على الحقائق، فلا يغلب السكرُ على الصحو، ولا الصحو على السكر. وهذا السر خاص بالآدمى؛ لأنه اجتمع فيه الضدان؛ اللطافة والكثافة، النور والظلمة، المعنى والحس، القدرة والحكمة، فهو سماوى أرضى، روحانى بشرى، معنوى وحسى. ولذلك خصه الله تعالى من بين سائر الأكوان بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدِي﴾ (٣) أى: بيد القدرة والحكمة، فكان جامعاً للضدين، ملكياً ملكوتياً، حسه حكمة، ومعناه قدرة. وليست هذه المزية لغيره من الكائنات، فالملائكة والجن معنهم غالب على حسهم، فإذا أشرقت عليهم أنوار الحقائق غلب عليهم السكر والهيمان، والحيوانات والجمادات حسهم غالب على معنهم، فلا يظهر عليهم شئ من الأنوار والأسرار.

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر.

(١) الآية ٢٣ من سورة عبس.

(٣) من الآية ٧٥ من سورة (ص).

وهذا السر الذي خُص به آدمي هو كامن فيه، من حيث هو، كان كافراً أو مؤمناً، كما كَمُنَ الزيد في اللبن، فلا يظهر إلا بعد التريب والضرب والمخض، وإلا بقى فيه كامناً، وكذلك الإنسان، السر فيه كامن، وهو نور الولاية الكبرى، فإذا آمن ووجد الله تعالى، واهتز بذكر الله، وضرب قلبه باسم الجلالة، ظهر سره، إن وجد شيئاً يُخرجه من سجن نفسه وأسر هواه.

وله مثال آخر، وهو أن كمن السر فيه ككمن الحب في الغصون قبل ظهوره، فإذا نزل المطر، وضربت الرياح أغصان الأشجار، أزهرت الأغصان وأثمرت، وإليه أشار في المباحث الأصلية، حيث قال:

وهي من النفوس في كُـمُون	كما يكون الحب في الغصون
حتى إذا أرعدت الرعود	وانسكب الماء ولان العود
وجال في أغصانها الرياح	فـعندها يرتقب اللقاح

ثم قال:

فهذه فواكه المعارف	لم تشر بالتألد أو بالطارف (١)
مانالها ذو العين والفلوس	وإنما تبساع بالنفوس

فلا يظهر هذا السر الكامن في الإنسان إلا بعد إرعاد الرعود فيه، وهي المجاهدة والمكابدة، وقتل النفوس، بخرق عوائدها، وبعد نزول أمطار النفحات الإلهية، والخمرة الأزلية، على يد الأشياخ، الذين أهلهم الله لسقى هذا الماء، وتبول في أغصان عوالمه رياح الواردات، ويتحط مع أهل الفن، حتى يسرى فيه أنوارهم، ويتأدب بآدابهم، فحينئذ ينتظر لقاح السر فيه، ويجنى ثمار معارفه، وإلا بقى السر أبداً كامناً فيه. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق. وصلى الله على سيدنا محمد وآله.



(١) التألد: المال القديم الأصلي، الذي ولد عندك، وطال في ملكك. انظر اللسان (نلد، ١/٤٣٩) والطارف والطريف: الحادث من المال، أي: الذي تجدد ملكه، وهو ضد التألد. انظر (طرف، ٤/٢٦٥٧) وانظر شرح الأبيات في الفتوحات الإلهية (١١٧ - ١٢٦).

سُورَةُ سَبَأٍ

مكية، إلا قوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ...﴾ الآية (١)، فاختلف فيه، مكي أو مدني؟ وهي خمس وخمسون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٢) مع قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وكأنه يشير إلى أنه تعالى غنى عن حمل الأمانة، ومن لم يحملها، فمن حملها فلنفسه، ومن تركها فليها، وإن الله لغنى عن العالمين، ولذلك افتتح بالثناء عليه، فقال:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ
فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿الحمد لله﴾، إن أجرى على المعهود فهو بما حمد به نفسه محمود، وإن أجرى على الاستغراق فله لكل المحامد الاستحقاق. واللام في (لله) للتمليك؛ لأنه خالق ناطق الحمد أصلاً، فكان بملكه مالك للحمد، وللتحميد أهلاً، ﴿الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ خلقاً، وملكاً، وقهراً، فكان حقيقة بأن يُحمد سرّاً وجهراً، ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ كما له الحمد في الدنيا؛ إذ النعم في الدارين هو مولياها والمنعم بها. غير أن الحمد هنا واجب؛ لأن الدنيا دار التكليف. وثم لا؛ لأن الدار دار التعريف، لادار التكليف. وإنما يحمد أهل الجنة سروراً بالنعيم، وتلذذاً بما نالوا من الفوز العظيم، كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ...﴾ (٣) و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ...﴾ (٤) فأشار إلى استحقاقه الحمد في الدنيا بقوله: ﴿الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ وأشار إلى استحقاقه في الآخرة بقوله: ﴿وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم﴾ بتدبير ما في السماوات والأرض، ﴿الخبير﴾ بضمير من يحمده ليوم الجزاء والعرض.

﴿يعلم ما يَلِجُ﴾: ما يدخل ﴿في الأرض﴾ من الأموات والدفائن، ﴿وما يخرج منها﴾ من اللبات وجواهر المعادن، ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الأمطار وأنواع البركات، ﴿وما يعرج﴾؛ يصعد ﴿فيها﴾ من الملائكة والدعوات، ﴿وهو الرحيم﴾ بإنزال ما يحتاجون إليه، ﴿الغفور﴾ بما يجترئون عليه. قاله النسفي.

(٢) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

(٤) من الآية ٣٤ من سورة فاطر.

(١) الآية ٦ من السورة.

(٣) من الآية ٧٤ من سورة الزمر.

الإشارة: المستحق للحمد هو الذي بيده ما في سماءات الأرواح؛ من الكشوفات وأنواع الترقيات، إلى ما لا نهاية له، من عظمة الذات، وبيده ما في أرض النفوس؛ من القيام بالطاعات وآداب العبودية وتحسين الحالات، وما يلحق ذلك من المجاهدات والمكابدات، وبيده ما يتحفظ به في الآخرة، من التعريفات الجمالية، والفتوحات الربانية، والترقي في الكشوفات السرمدية. فله الحمد في هذه العوالم الثلاثة؛ إذ كلها بيده، يخص بها من يشاء من عباده، مع غناه عن الكل، وإحاطته بالكل، ورحمته لكل. يعلم ما يلج في أرض النفوس من الهواجس والخواطر، وما يخرج منها من الصغائر والكبائر، أو من الطاعة والإحسان من ذوى البصائر، وما ينزل من سماء الملكوت من العلوم والأسرار، وما يعرج فيها من الطاعات والأذكار، وهو الرحيم بالتقريب والإقبال، الغفور لمسائر الضمائر والأفعال.

ثم ردّ على من أنكر الآخرة، التي تقدم ذكرها، فقال:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

قلت: (ولا أصغر) و(لا أكبر): عطف على (مقال)، أو: مبتدأ، وخبره: ما بعد الاستثناء. و(ليجزى): متعلق بقوله: (لتأتينكم)، وتجوز ابن جزى تعلقه بيعزب بعيد؛ لأن الإحاطة بعلمه تعالى ذاتية، والذاتى لا يطل، وإنما تطل الأفعال؛ لجوازها، ويصح تعلقه بما تعلق به (في كتاب) أى: أحصى في كتاب مبين للجزاء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: منكرو البعث. والناطق بهذه المقالة أبو سفيان بن حرب، ووافق عليها غيره، وقد أسلم هو. قالوا: ﴿ لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾، وإنما هي أرحام تدفع، وأرض تبلع. قبح الله رأيهم، وأخلى الأرض منهم. ﴿ قُلْ ﴾ لهم: ﴿ بَلَى ﴾، أبطل مقالتهم الفاسدة ببلى، التي للإضراب، وأوجب ما بعدها، أى: ليس الأمر إلا إثباتها، ثم أعيد إيجابه، مؤكداً بما هو الغاية في التوكيد والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل، فقال: ﴿ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾.

ولمّا كان قيام الساعة من الغيوب المستقبلية الحقية أتبعه بقوله: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ﴾ ، وقرأ حمزة والكسائي: «عالم الغيب»، بالمبالغة، يعلم ما غاب في عالم ملكه وملكوته، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ : لا يغيب عن علمه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ : مقدار أصغر نملة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ، ولا أصغر من ذلك ﴿أَيُّ﴾ : من مثقال ذرة ﴿وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ؛ في اللوح المحفوظ، أو في علمه القديم، وكُنِيَ عنه بالكتاب؛ لأن الكتاب يحصى ما فيه.

قال الغزالي، في عقيدة أهل السنة: وأنه تعالى عالم بجميع المعلومات، محيط بما يجري من تخوم الأرض إلى أعلى السماوات، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، يعلم دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذر في جو السماء، ويعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر، وحركات الخواطر، وخفيات السرائر، يعلم قديم أزلي، لم يزل موصوفاً به في أزل الأزل. هـ.

ثم علل إتيان الساعة بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لما اقترفوا من العصيان، وما قصرُوا فيه من مدراج الإيمان، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لما صبروا عليه من مناهج الإحسان. ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ بالإبطال وتعويق الناس عنها، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ﴾ أي: لهم عذاب من أقبح العذاب مؤلم. ورفع «الليم» مكي وحفص ويعقوب، نعت لعذاب، وغيرهم بالجر نعت لرجز. قال قتادة: الرجز: سوء العذاب (١).

الإشارة: بقدر ما يربو الإيمان في القلب يعظم الإيمان بالبعث وما بعده، حتى يكون نصب عين المؤمن، لا يغيب عنه ساعة، فإذا دخل مقام العيان، استغرق في شهود الذات، فغاب عن الدارين، ولم يبق له إلا وجود واحد، يتلون بهيئة الدنيا والآخرة. وفي الحقيقة ما ثمَّ إلا واحد أحد، الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن كما كان، ويكون في المآل كما هو الآن. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم، فقال:

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾

(١) أخرجه الطبري (٦١/٢٢).

قلت: (ويرى): مرفوع، استئناف، أو منصوب، عطف على (ليجزى). و(الحق): مفعول ثان ليرى الطمية. والمفعول الأول: (الذي أنزل) وهو ضمير فصل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة، ومن شايعهم من علماء الأمة ومن ضاهاهم، أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، أي: يطمون ﴿الذي أنزل إليك من ربك﴾؛ يعنى القرآن ﴿هو الحق﴾، لا يرتابون في حقيقته؛ لما انطوى عليه من الإعجاز، وبموافقته للكتب السالفة، على يد من تحققت أميته. أو: ليجزى المؤمنين، وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق، علماً لا يزداد عليه في الإيقان، لكونه محل العيان، كما علموه في الدنيا من طريق البرهان. ﴿ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾، وهو دين الله، من التوحيد، وما يتبعه من الاستقامة.

الإشارة: أول ما يرتفع الحجاب عن العبد بينه وبين كلام سيده، فيسمع كلامه منه، لكن من وراء رداء الكبرياء، وهو رداء الحس والوهم، فيجد حلاوة الكلام ويتمتع بتلاوته، فيلزمه الخشوع والبكاء والرفقة عد تلاوته. قال جعفر الصادق: «لقد تجلى الحق تعالى في كلامه ولكن لا تشعرون». ثم يرتفع الحجاب بينه وبين الحق تعالى، فيسمع كلامه بلا واسطة ولا حجاب، فتغيب حلاوة الكلام في حلاوة شهود المتكلم، فينقلب البكاء سروراً، والقبض بسطاً. وعن هذا المعنى عبّر الصديق عند رؤيته قوماً يكونون عند التلاوة، فقال: «كذلك كنا ولكن قست القلوب» (١) فعبر عن حال التمكن والتصلب بالقسوة؛ لأن القلب قبل تمكن صاحبه يكون سريع التأثر للواردات، فإذا تمكن واشتد لم يتأثر بشيء. وصراط العزيز الحميد هو طريق السلوك إلى حضرة ملك الملوك. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مقالة أخرى للكفرة، فقال:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَهْلَ نَدْلِكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّنْكُمْ لَنِفَىٰ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۖ﴾ (٧) أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۖ﴾ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَاشِئَانَحْشَفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾

(١) راجع التطبيق على إشارة الآية ٥٨ من سورة مريم.

قلت: (إذا): العامل فيه محذوف، دلّ عليه: «لقي خلق جديد». (مُزَقَّ): مصدر، أى: تجددون إذا مزقتم كل تمزيق، (جديد): فعيل بمعنى فاعل، عند البصريين. تقول: جدّ الثوب فهو جديد، أو بمعنى مفعول، كقتيل، من جد النساج الثوب: قطعه. ولا يجوز فتح (إنكم) للام فى خبره. (أفترى): الهمزة للاستفهام، وحذفت همزة الوصل للاستغناء عنها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذين كفروا﴾ من منكرى البعث: ﴿هل ندلكم على رجل﴾، يعنون محمداً ﷺ، وإنما نكروه - مع أنه كان مشهوراً علماً فى قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم - تجاهلاً به وبأمره. وباب التجاهل فى البلاغة معلوم، دال على سحرها، ﴿يُبشِّكُم إذا مُزِقَّتُم كلُّ مُزَقٍّ إنكم لفي خلقٍ جديدٍ﴾ أى: يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب، إنكم تبعثون وتنشئون خلقاً جديداً، بعد أن تكونوا رفاناً وتراباً، وتمزق أجسادكم بالبلى، كل تمزيق، وتفرقون كل تفرق، ﴿أفترى على الله كذباً﴾ أى: أهو مفتر على الله كذباً فيما ينسب إليه من ذلك؟ ﴿أم به جنّة﴾: جنون توهمه ذلك، وتلقيه على لسانه. واستدلّت المعتزلة بالآية على أن بين الصدق والكذب واسطة، وهو كل خبر لا يكون عن بصيرة بالمخبر عنه، وأجيب: بأن الافتراء أخص من الكذب، لاختصاص الافتراء بالتعمد، والكذب أعم. وكأنه قيل: أتعمد الكذب أو لم يتعمد بل به جنون.

قال تعالى: ﴿بل الذي لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ أى: ليس محمد من الافتراء والجنون فى شيء، وهو منزّه عنهما، بل هؤلاء الكفرة، المنكرون للبعث، راقعون فى عذاب النار، وفيما يؤديهم إليه من الضلال البعيد عن الحق، بحيث لا يرجى لهم الخلاص منه، وهم لا يشعرون بذلك، وذلك أحق بالجنون. جعل وقوعهم فى العذاب رسيلاً لوقوعهم فى الضلال، مبالغة فى اسحقاقهم له، كأنهما كائنان فى وقت واحد؛ لأن الضلال، لما كان العذاب من لوازمه، جعلاً كأنهما مقترنان. ووصف الضلال بالبعيد من الإسناد المجازى؛ لأن البعيد فى صفة الضلال إذا بعد عن الجادة.

﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ أى: أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض، وأنهما أيما كانوا، وحيثما ساروا، وجدوهما أمامهم وخلفهم، محيطتان بهم، لا يقدر أن ينفذوا من أقطارهما، وأن يخرجوا عما هم فيه، من ملكوت الله، ولم يخافوا أن يخسف الله بهم فى الأرض، أو يسقط عليهم ﴿كسفاً﴾؛ قطعة، أو قطعاً من السماء بتكذيبهم الآيات، وكفرهم بما جاء به الرسول، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة.

وقرأ حمزة والكسائي «يخسف»، ويسقط، بالياء^(١)؛ لعود الضمير على (الله) فى قوله: «أفترى على الله»، وقرأ حفص: «كسفاً» بالتحريك، جمعاً. ﴿إن فى ذلك لآية﴾؛ إن فى النظر إلى السماء والأرض والتفكر فيهما،

(١) وكذا قوله: (يشأ). وقرأ الباقون ينون العظمة فى الثلاثة. انظر الإتحاف (٢/ ٣٨٢).

وما يدلان عليه من كمال قدرته تعالى لدلالة ظاهرة على البعث والإنشاء من بعد التفريق، ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾؛ راجع بقلبه إلى ربه، مطيع له تعالى، إذ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله، فيعتبر، ويعلم أن من قدر على إنشاء هذه الأجرام العظام، قادر على إحياء الأموات وبعثها، وحسابها وعقابها.

الإشارة: يقول شيوخ التربية: بقدر ما يمزق الظاهر بالتخريب والإهمال؛ يحيى الباطن ويعمر بنور الله، ويقدر ما يعمر الظاهر يخرب الباطن، فيقع الإنكار عليهم، ويقول الجهلة: هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم في الظاهر كل ممزق، يجدد الإيمان والإحسان في بواطنكم، أفترى على الله كذباً أم به جنة؟ بل الذي لا يؤمنون بالنشأة الآخرة - وهي حياة الروح بمعرفة الله - في عذاب الحجاب والضلال، عن معرفة العيان بعيد، ماداموا على ذلك الاعتقاد، ثم يهددون بما يهدد به منكرو البعث. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر تعالى نعمته على داود وسليمان، احتجاجاً على ما منح محمد - عليه الصلاة والسلام - من الرسالة والروح، رداً لقولهم: «أفترى على الله كذباً»، ودلالة على قدرته تعالى على البعث وغيره، فقال:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّالَةَ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾
 أَنْ أَعْمَلَ سَبِيحًا وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَبْحًا إِنْ يَمَأْتَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: (يا جبال): بدل من (فضلاً)، أو بقدر: وقلنا: (والطير): عطف على محل الجبال، ومن رفعه فطلى لفظه.
 يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ أي: مزية خُصَّ بها على سائر الأنبياء، وهو ما جمع له من النبوة، والملك، والصوت الحسن، والآنسة الحديد، وتعلم صنعة الزرد، وغير ذلك مما خُصَّ به، أو: فضلاً على سائر الناس بما ذكر، وقلنا: ﴿ يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾؛ رَجَعِي معه التسبيح. ومعنى تسبيح الجبال معه: أن الله تعالى يخلق فيها تسبيحاً، فيسمع منها كما يسمع من المسبح، معجزة لداود عليه السلام، فكان إذا تَخَلَّلَ الجبال وسبح؛ جاوبته الجبال بالتسبيح، نحر ما سَبَّحَ به. وهو من التأريب، أي: الترجيع، وقيل: من الإياب بمعنى الرجوع، أي: أرجعي معه بالتسبيح. ﴿ وَالطَّيْرَ ﴾ أي: أوبى معه، أو: وسخرنا له الطير تَوْبَ معه. قال وهب: فكان داود إذا نادى باللياحاة على نفسه، من أجل زلته، أجابته الجبال بصداها، وشكفت الطير عليه من فوقه، فصدى الجبال الذي يسمعه الناس منها هو من ذلك البرم (١).

(١) انظر تفسير البغوي (٢/٣٨٨).

قال القشيري: يُقال أوحى الله إلى داود ﷺ: كانت تلك الزلزلة مباركة عليك، فقال: يارب! وكيف تكون الزلزلة مباركة؟ فقال: كُنتَ تجيء بأقذار المطيعين، والآن تجيء بانكسار المذنبين، ياد داود أنين المذنبين أحب إليّ من صراخ العابدين. هـ. مختصراً. وفي هذا اللفظ من قوله: «يا جبال أوبي معه» من الفخامة ما لا يخفى، حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء الذين إذا أمرهم بالطاعة أطاعوا، وإذا دعاهم أجابوا، إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد إلا وهو منقادٌ لقدرة الله تعالى ومشيلته. ولو قال: آتينا داود منا فضلاً تأويب الجبال معه والطير؛ لم يكن فيه هذه الفخامة.

﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ أي: جعلناه له ليناً، كالطين المعجون، يصرفه بيده كيف يشاء، من غير نار ولا ضرب بمطرقة، قيل: سبب لئنه له: أنه لما ملك بنى إسرائيل، وكان من عادته أن يخرج متكرراً، ويسأل كل من لقيه: ما يقول الناس في داود؟ فيثنون خيراً، فلقى ملكاً في صورة آدمي، فسأله، فقال: نعم الرجل، لولا خصلة فيه: يأكل ويطعم عياله من بيت المال، فتنبه، وسأل الله تعالى أن يسبب له سبباً يغيثه عن بيت المال، فألان له الحديد مثل الشمع، وعلمه صنعة الدروع، وهو أول من اتخذها. وكانت قبل ذلك صفائح (١).

ويقال: كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف، فيأكل ويطعم عياله، ويتصدق على الفقراء والمساكين. وقيل: كان يلين له ولمن اشتغل معه له، قلت: ذكر ابن حجر في شرح الهمزية أن نبينا ﷺ كان إذا وطئ على صخرة أثر فيها قدمه، وهذا أبلغ من إلانة الحديد؛ لأن لين الحجارة لا يعرف بنار، ولا بغيرها، بخلاف الحديد. هـ. وقيل: لأن لين الحديد في يد داود ﷺ لما أولى من شدة القوة.

وأمرناه ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ﴾ أي: دروعاً واسعة ثامة، من: السبرغ، بمعنى الإطالة، ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ لا تجعل المسامير دقاقاً فيخلق، ولا غلاظاً فتتكسر الحلق، أو تؤذي لابسها. والتقدير: التوسط في الشيء، والسرد: صنعة الدروع، ومنه قيل لصانعه: السراد والزراد. ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحاً﴾ شكراً لما أسدى إليكم. والضمير لداود وأهله. والعمل الصالح: ما يصلح للقبول؛ لإخلاصه وإتقانه، ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم عليه.

الإشارة: الفضل الذي أوتيته داود ﷺ هو كشف الحجاب بينه وبين الكون، فلما شهد المكون، كانت الأكوان معه. أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك. ولا يلزم من كونها معه في المعنى، بحيث تتعشق له وتهواه، أي: تنقاد كلها له في الحس، بل ينقاد إليه منها ما يحتاج إليه، حسبما تقتضيه الحكمة، وتسبق به المشيئة، فسوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار. وقوله تعالى: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ في الظاهر: الحديد

(١) ذكر البغوي (٣٨٨/٦) وابن كثير (٥٢٧/٣).

الحسى، وفي الباطن: القلوب الصلبة كالحديد، فتلين لوعظه بالإيمان والمعرفة. وكذا في حق كل عارف تلين لوعظه القلوب، وتقشع من كلامه الجلود. وهو أعظم نفعاً من لين الحديد الحسى. ويقال له: أن اعمل سابقات، أى: دروعاً تامة، يتحصن بها من الشيطان والهوى، وهو ذكر الله، يستعمله ويأمر به، ذكراً متوسطاً، من غير إفراط ممل، ولا تفريط مخل. فإذا انتعش الناس على يده كبر قدره عند ربه، فيؤمر بالشكر، وهو قوله: ﴿واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير﴾. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر سليمان عليه السلام، فقال:

﴿وَلِسْلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَاهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَ مِنْ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴿١٣﴾﴾

قلت: (الريح): مفعول بمحذوف، أى: وسخرنا له الريح، ومن رفعه؛ فمبتدأ تقدم خبره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ سخرنا ﴿لسليمان الريح﴾، وهى الصبا، ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ أى: جريها بالغد مسيرة شهر، إلى نصف النهار، وجريها بالعشى كذلك. فتسير فى يوم واحد مسيرة شهرين. وكان يغدو من دمشق، مكان داره، فيقيل باصطخر فارس، وبينهما مسيرة شهر، ويروح من اصطخر فيبيت بكابل، وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع. وقيل: كان يتغذى بالرى، ويتعشى بسمرقند. وعن الحسن: لما عقر سليمان الخيل، غضباً لله تعالى، أبدله الله خيراً منها الريح، تجرى بأمره حيث شاء، غدوها شهر ورواحها شهر. هـ (١).

قال ابن زيد: كان لسليمان مركب من خشب، وكان فيه ألف ركن، فى كل ركن ألف بيت معه، فيه الجن والإنس، تحت كل ركن ألف شيطان، يرفعون ذلك المركب، فإذا ارتفع أنت الريح الرخاء فتسير به وبهم. قلت: وقد تقدم أن العاصفة هى التى ترفعه، والرخاء تسير به، وهو أصح. ثم قال: فتقيل عند قوم، وتمسى عند قوم، وبينهما شهر، فلا يدرى القوم إلا وقد أظلمهم، معه الجيوش.

(١) عزاء فى الدر المنثور (٤٢٧/٥) لعبد الرزاق، وابن أبى شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، عن الحسن.

وَيُرَوَّى أَنَّ سُلَيْمَانَ سَارَ مِنْ أَرْضِ الْعِرَاقِ، فَقَالَ بِمَدِينَةٍ مَرُّو، وَصَلَّى الْعَصْرَ بِمَدِينَةٍ بَلَخَ، تَحْمِلُهُ الرِّيحُ، وَتَظِلُّهُ الطَّيْرُ، ثُمَّ سَارَ مِنْ بَلَخَ مُتَخِلِّلاً بِلَادَ التُّرْكِ، ثُمَّ سَارَ بِهِ إِلَى أَرْضِ الصِّينِ، ثُمَّ عَطَفَ يُمْنَةً عَلَى مَطْلَعِ الشَّمْسِ، عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، حَتَّى أَتَى أَرْضَ فَارِسَ، فَتَزَلَّهَا أَيَّاماً، وَغَدَا مِنْهَا فَقَالَ بِكَسْكَرَ، ثُمَّ رَاحَ إِلَى الْيَمَنِ، وَكَانَ مُسْتَقَرُّهُ بِهَا بِمَدِينَةٍ تَدْمُرُ، وَقَدْ كَانَ أَمْرُ الشَّيَاطِينِ قَبْلَ شَخْوصِهِ مِنَ الشَّامِ إِلَى الْعِرَاقِ، فَبَنَوْهَا لَهُ بِالْصَّفَاحِ، وَالْعُمْدِ، وَالرَّخَامِ الْأَبْيَضِ وَالْأَصْفَرِ. هـ.

قلت: وذكر أبو السعود في سورة «ص»، أنه غزا بلاد المغرب الأندلسي وطلنجة وغيرهما، والله تعالى أعلم. ووجدت هذه الأبيات منقورة في صخرة بأرض كسرك، أنشأها بعض أصحاب سليمان عليه السلام:

وَنَحْنُ وَلَا حَوْلَ سِوَى حَوْلِ رَبِّنَا	نَدْرُوحُ إِلَى الْأَوْطَانِ مِنْ أَرْضِ كَسْكَرَ
إِذْ نَحْنُ رُحْنَا كَانَ رَبُّنَا رَوَّاحِنَا	مَسِيرَةَ شَهْرِ وَالْغَدُو لآخر
أُنَاسٌ أَعَزَّ اللَّهُ طَوْعاً نَفُوسَهُمْ	بَلَصَّرَ ابْنَ دَاوُدَ النَّبِيَّ الْمُطَهَّرَ
لَهُمْ فِي مَعَالِي الدِّينِ فَضْلٌ وَرَفْعَةٌ	وَإِنْ نُسَبُّوا يَوْمًا فَمِنْ خَيْرٍ مَعَشَرَ
مَتَى يَرْكَبُ الرِّيحَ الْمُطِيعَةَ أَسْرَعَتْ	مُبَادِرَةً عَنْ شَهْرَهَا لَمْ تَقْصُرْ
تُظِلُّهُمْ طَيْرٌ صُفُوفٌ عَلَيْهِمْ	مَتَى رَفَرَفَتْ مِنْ فَوْقِهِمْ لَمْ تُتَفَرَّ (١)

قال القشيري: وفي القصة أنه لاحظ يوماً ملكه، فمال الرِّيحُ، فقال له: استوي، فقال له مادمت أنت مستقياً بقلبك كنت مستقياً لك، فحيث ملت ملت. هـ.

ثم قال: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي: معدن النحاس. والقطر: النحاس، وهو الصُّفْرُ، ولكنه أذابه له، وكان يسيل في الشهر ثلاثة أيام، كما يسيل الماء. وكان قبل سليمان لا يذوب. قال ابن عباس: كانت تسيل له باليمن عين من نحاس، يصنع منها ما أحب. وقيل: القطر: النحاس والحديد، وما جرى مجرى ذلك، كان يسيل له منه عيون. وقيل: لأنه له كما ألان الحديد لأبيه، وإنما ينتفع الناس اليوم بما أجرى الله تعالى لسليمان، كما قيل.

﴿وَسَخَّرْنَا لَهُ﴾ من الجن من يعمل بين يديه ﴿ما يشاء﴾ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: بأمر ربه، ﴿وَمِنْ يَزْغُ مِنْهُمْ﴾ عن أمرنا ﴿أي: ومن يعدل منهم عن أمرنا الذي أمرنا به من طاعة سليمان﴾ ﴿نُذِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾: عذاب الآخرة. وقيل: كان معه ملك بيده سوط من نار، فمن زاغ عن طاعة سليمان ضربه بذلك ضربة أحرقته.

(١) انظر الأبيات في: تفسير القرطبي (٥٥٠٤/٦ - ٥٥٠٥) والبحر المحيط (٢٥٤/٧).

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ﴾ أى: مساجد، أو مساكن وقصور، والمحراب: مقدم كل مسجد ومجلس وبيت. ﴿وَقِمَاتِيلَ﴾: صور الملائكة والأنبياء، على ما اعتادوا من العبادات، ليرأها الناس، فيعبدوا نحر عبادتهم. صنعوا له ذلك فى المساجد، ليجتهد الناس فى العبادة. أو: صور السباع والطيور، روى أنهم عملوا له أسدين فى أسفل كرسيه، ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما. وكان التصوير مباحاً. ﴿وَجِفَانٍ﴾: وصحاف، جمع: جفنة، وهى القصعة، ﴿كَالْجَوَابِ﴾: جمع جابية، وهى الحياض الكبار. قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل، يأكلون بين يديه، ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾: ثابتات على الأثافي، لا تنزل، لعظمها، ولا تعطل؛ لداوم طبخها. وقيل: كان قوائمها من الجبال، يصعد إليها بالسلالم، وقيل: باقية باليمن.

وقلنا: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أى: اعملوا بطاعة الله، واجهدوا أنفسكم فى عبادته، شكراً لما أولاكم من نعمه. قال ثابت: كان داود جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتى ساعة من ساعات الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى. هـ (١).

وقال سعيد بن المسيب: لما فرغ سليمان من بيت المقدس انغلقت أبوابه، فعالجها، فلم تنفتح، حتى قال: بصلوات آل داود إلا فتحت الأبواب، ففتحت، وفرغ له سليمان عشرة آلاف من قراء بنى إسرائيل؛ خمسة آلاف بالليل، وخمسة آلاف بالنهار، فلا تأتى ساعة من ليل ولا نهار إلا والله عز وجل يعبد فيها. هـ. وعن الفضيل: (اعملوا آل داود) أى: ارحموا أهل البلاء، وسلوا ربكم العاقية.

(و) (شكراً): مفعول له، أو حال، أى: شاكرين، أو مصدر، أى: اشكروا شكراً؛ لأن «اعملوا» فيه معنى اشكروا، من حيث إن العمل للنعم شكر، أو: مفعول به، أى: إننا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم شكراً.

﴿وَقَلِيلٍ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ﴾، يحتمل أن يكون من تمام الخطاب لداود عليه السلام، أو خطاب للبيناء ﷺ. والشكور: القائم بحق الشكر، الباذل وسعه فيه، قد شغل به بقلبه ولسانه وجوارحه فى أكثر أوقاته، اعتقاداً واعترافاً وكدحاً. وعن ابن عباس: هو من يشكر على أحواله كلها. وقيل: من شكر على الشكر، ومن يرى عجزه عن الشكر. قال البيضاوى: لأن توفيقه للشكر نعمة، فتقتضى شكراً آخر، لا إلى نهاية، ولذلك قيل: الشكور من يرى عجزه عن الشكر. هـ.

الإشارة: وسخرنا لسليمان ربح الهداية، تهب بين يديه، يهتدى به مسيرة شهر وأكثر، وأسلنا لوعظه وتذكيره العيون الجامدة، فقطرت بالدموع خشوعاً وخضوعاً. وكل من أقبل على الله بكلية سخرت له الكائنات، جنبها وإنسها، يتصرف بهمته فيها. فحينئذ يقال له ما قيل لآل داود: اعملوا آل داود شكراً. قال الجديد: الشكر: بذل المجهود بين يدي المعبود. وقال أيضاً: الشكر ألا يعصى الله بنعمه.

(١) عزاء السيوطى فى الدر (٤٣٠/٥) لابن أبى شيبة، وأحمد، فى الزهد، وابن أبى حاتم، والبيهقى فى الشعب، عن ثابت البناني.

والشكر على ثلاثة أوجه: شكر بالقلب، وشكر باللسان، وشكر بسائر الأركان. فشكر القلب: أن يعتقد أن النعم كلها من الله، وشكر اللسان: الثناء على الله وكثرة المدح له، وشكر الجوارح: أن يعمل العمل الصالح. وسئل أبو حازم: ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيراً أعلنته، وإذا رأيت بهما شراً سترته، قيل: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيراً وعيته، وإذا سمعت بهما شراً دفنته، قيل: فما شكر اليدين؟ قال: ألا تأخذ بهما ماليس لك، ولا تمنع حقاً هو لله فيهما، قيل: فما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله صبراً، وأعلاه علماً، قيل: فما شكر الفرج؟ قال: كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُجُورِهِمْ حَافِظُونَ﴾ الآية (١)، قيل: فما شكر الرجلين؟ قال: إن رأيت شيئاً غبطته استعملتهما، وإن رأيت شيئاً مقته كففتهما. هـ.

والناس في الشكر درجات: عوام، وخواص، وخواص الخواص. فدرجة العوام: الشكر على النعم، ودرجة الخواص: الشكر على النعم والنعم، وعلى كل حال، ودرجة خواص الخواص: أن يغيب عن النعم بمشاهدة المنعم. قال رجل لإبراهيم بن أدهم: إن الفقراء إذا أعطوا شكروا، وإذا منعوا صبروا، فقال: هذه أخلاق الكلاب عندنا، ولكن الفقراء إذا منعوا شكروا، وإذا أعطوا أثروا. هـ.

وهذان الآخران يصدق عليهما قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، وخصه القشيري بالقسم الثالث، فقال: فكان الشاكر يشكر على البذل، والشكور على المنع، فكيف بالبذل؟ ثم قال: ويقال في ﴿قَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾: قليل من يأخذ النعمة ملى، فلا يحملها على الأسباب، فيشكر الوسائط ولا يشكرني. وفي الحكم: من لم يشكر الدعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها. فالشكر قيد الموجود، وصيد المفقود. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر موت سليمان عليه السلام، فقال:

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ
فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْكَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾؛ على سليمان ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ ﴾ أي: الجن وآل داود ﴿ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾ أي: الأرض، وهي دويبة تأكل الخشب، ويقال: لها، سُرْفَةٌ والقادح. والأرض هنا مصدر: أَرْضَتِ الخشبة، بالبناء للمفعول، أرضاً: أكلتها الأرضة. فأضيفت إلى فعلها وهو الأرض، أي: الأكل.

(١) الآية ٥ من سورة المؤمنون.

﴿ تَأْكُل مِّنْسَاتَهُ ﴾، أى: عصاه، سميت منسأة؛ لأنها تنسى، أى: تطرح ويُرْمى بها. وفيها لغتان؛ الهمز وعدمه، فقرأ نافع وأبو عمرو بترك الهمز، وعليه قول الشاعر:

إِذَا دَبَبْتُ عَلَى الْمِنْسَاءِ مِنْ كِبَرٍ فَقَدْ تَبَاعَدَ عَنْكَ اللَّهُ وَالْغَزَلُ

وقرأ غيرهما بالهمز، وهو أشهر.

﴿ فلما خر ﴾؛ سقط سليمان ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجَنُّ ﴾ أى: تحققت وعلمت علماً يقيناً، بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم، ﴿ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا ﴾ بعد موت سليمان ﴿ في العذاب المهين ﴾؛ فى العمل الشاق له، لظلمهم حياته، فلو كانوا يعلمون الغيب كما زعموا لعلموا موته.

وذلك أن داود عليه السلام أسس بيت المقدس، فى موضع فسطاط موسى عليه السلام، فمات قبل أن يتمه، فوصى به إلى سليمان، فأمر الشياطين بإتمامه. فلما بقى من عمره سنة، سأل الله تعالى أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا، ولتبطل دعواهم علم الغيب. وكان عمر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة. وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة. فبقى فى ملكه أربعين سنة، وأبتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضين من ملكه. قال الثعلبى: فبنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر، وعمره بأساطين المها الصافى، وسقفه بأنواع الجواهر، وفضض سقوفه وحيطانه باللآلى، وسائر أنواع الجواهر، وسط أرضه بالواح الفيروزج، فلم يكن فى الأرض أبهى ولا أنور من ذلك المسجد. كان يضئ فى الظلمة كالقمر ليلة البدر^(١). ومن أعاجيب ما أتخذ فى بيت القدس، أن بنى بيتاً وطين حائطه بالخنصرة، وصقله، فإذا دخله الورع البار استبان فيه خياله أبيض، وإذا دخله الفاجر استبان فيه خياله أسود، فارتدع كثير من الناس عن الفجور.

قال عليه السلام: «لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً، فأعطاه اثنتين، وأن أرجو أنى يكون قد أعطاه الثالثة، سأله حكماً يصادف حكمه، فأعطاه إياه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسأله ألا يأتى أحد هذا البيت يصلى فيه ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك»^(٢) هـ.

فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان عليه السلام حتى خربه بخت نصر، وأخذ ما كان فيه من الذهب والفضة والبراقيت، وحمله إلى دار مملكته من العراق.

ثم قال^(٣): قال المفسرون: كان سليمان ينفرد فى بيت المقدس السنة والسنين، والشهر والشهرين، يدخل فيه طعامه وشرابه، فدخله فى المرة التى مات فيها. وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت فى بيت

(١) انظر تفسير البغوى (٣٩٠/٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه فى (الإقامة، باب ما جاء فى الصلاة فى مسجد المقدس ١/٤٥٢، ح ١٤٠٨) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) أى الثعلبى.

المقدس شجرة، فيسألها: ما اسمك؟ فتقول الشجرة: اسمي كذا، فيأمر بها فنقطع، فإن كانت لغرس غرسها، وإن كانت لدواء كتبت. فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروبة، قال لها: ولأي شيء نبت؟ قالت: لخراب هذا المسجد، فقال: ما كان الله ليخريه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاكى، وهلاك بيت المقدس، فنزعها وغرسها في حائط، ثم قال: اللهم أعم عن الجن موتى، حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب. وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون أشياء من علم الغيب، ثم دخل المحراب، وقام يصلي على عصاه، فمات (١).

وقيل: إن سليمان قال لأصحابه ذات يوم: قد آتاني الله ما ترون، وما مرّ على يوم في ملكي بحيث صفا لي من الكدر، وقد أحببت أن يكون لي يوم واحد يصفو لي من الكدر، فدخل قصره من الغد، وأمر بخلق أبوابه، ومنع الناس من الدخول عليه، ورفع الأخبار إليه. ثم اتكأ على عصاه ينظر في ممالكه، إذ نظر إلى شاب حسن الوجه، عليه ثياب بيض، قد خرج عليه من جوانب قصره، فقال: السلام عليك يا سليمان، فقال: عليك السلام، كيف دخلت قصرى؟ فقال: أنا الذي لا يحجبني حاجب، ولا يدفعني بواب، ولا أهاب الملوك، ولا أقبل الرشا، وما كنت لأدخل هذا القصر من غير إذن. فقال سليمان: فمن إذن لك في دخوله؟ قال: ربه، فارتعد سليمان، وعلم أنه ملك الموت، فقال: يا ملك الموت هذا اليوم الذي أردت أن يصفو لي، قال: يا سليمان ذلك اليوم لم يخلق في أيام الدنيا، فقبض روحه وهو متكئ على عصاه. هـ.

وفي رواية: أنه دعا الشياطين، فبنوا له صرحاً من قوارير، ليس له باب، فقام يصلي، واتكأ على عصاه، فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه (٢). والله تعالى أعلم أي ذلك كان. وبقي سليمان ميتاً، وهو قائم على عصاه سنة، حتى أكلت الأرضة عصاه. ولم يعلموا منذ كم مات، فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت منها يوماً وليلة، ثم حسبوا على ذلك اللحم، فوجدوه قد مات منذ سنة. سبحان الحي الذي لا يموت، ولا يلقي ملكه.

الإشارة: كل دولة في الدنيا تحول، وكل عز فيها عن قريب يزول، فالعاقل من صرف دولته في طاعته مولاه، وبذل جهده في محبته ورضاه، فإن كانت قسمته في الأغنياء كان من الشاكرين، وإن كانت في الفقراء كان من الصابرين، والفقير الصابر أحظى من الغنى الشاكر، ولذلك ورد أن سليمان عليه السلام آخر من يدخل الجنة من

(١) انظر: تفسير الطبري (٧٥/٢٢) وتفسير ابن كثير (٥٢٩/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٧٥/٢٢ - ٧٦) عن ابن زيد.

الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وعبدالرحمن بن عوف آخر من يدخلها من الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين. والغنى الشاكر هو الذى يعطى ولا يبالي، ويتواضع للكبير والصغير، والوجيه والحقير، والفقير الصابر هو الذى يغتبط بفقره، ويكتمه عن غيره. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حال من لم يشكر النعم، فقال:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ
بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ
بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

قلت: (لسبأ) فيه الصرف، بتأويل الحى، وعدمه، بتأويل القبيلة. و(مسكنهم)، من قرأ بالإنفراد وفتح الكاف على القياس فى الإسم والمصدر، كمدخل، ومن كسره قلغة، والسماع فى المصدر كمسجد. و(جنتان): بدل من (آية) أو: خبر عن مضمرة، أى: هى جنتان. و(أكل خَمْطٍ) (١)، فمن أضافه فإضافة الشئ إلى جنسه، كثوب خز، ومن نونه قطعه عن الإضافة، وجعله عطف بيان. أو صفة، بتأويل خَمْطٍ ببشيع.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾، سئل ٢٢٢٢ أرجلا كان أو امرأة، أو أرضاً أو جبلاً أو ودايا، فقال ٢٢٢٢: «هو رجل من العرب، ولد عشرة من الولد، فتيا من ستة، وتشاءم أربعة: فالذين تيامنوا كثرة، فكندة، والأشعريون، والأزد، ومذجع، وأنمار، وحمير، فقال رجل: من أنمار يا رسول الله؟ قال: منهم خُفْعَمٌ وَجَبِيلَةٌ. والذى تشاءموا: عاملة، وجذام، ولخم، وغسان» (٢).

قلت: وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان. واختلف فى قحطان، فقيل: هو ابن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وقيل: هو أخو هود ٢٢٢٢. وقيل: هو هود، بنفسه، وإن هوداً هو ابن عبد الله بن رياح، لا ابن عابر، على الأصح. فهو على هذا القول ابن أرم بن سام. وقيل: قحطان من ولد إسماعيل، فهو ابن أيمن بن

(١) قرأ نافع، وابن كثير: «أكل، بسكون الكاف، وبالتنوين، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمة، والكسائي، وأبو جعفر: بضم الكاف مع التنوين. وقرأ أبو عمرو: ويعقوب بضم الكاف من غير تنوين. انظر الإتحاف (٢/٢٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود فى (الحروف والقراءات ٤/٢٨٨ ح ٣٩٨٨) مختصراً، والترمذى فى (التفسير، باب ومن سورة سبأ ٥/٣٣٦ - ٣٣٧ ح ٣٢٢٢)، وقال: «حديث حسن غريب، والحاكم (٢/٢٢٤) عن فروة بن مسيك المرادى.

قيذر بن إسماعيل. وقيل: هو ابنُ الهَمَيْسَع ابنُ أَيْمَن. وبأَيْمَن سميت اليمن، وقيل: لأنها عن يمين الكعبة. هذا والعربُ كلها يجمعها أصلان: عدنان وقحطان، فلا عري في الأرض إلا وهو ينتهي إلى أحدهما، فيقال: عدنانى أو قحطانى.

ومن جعل العرب كلها من ولد إسماعيل مرَّ على أن قحطان من ذرية إسماعيل، كما تقدم، واختلف في خزاعة، فقيل: قحطانية، وقيل: عدنانية، وأن جدَّهم عمرو بن لحي، وأما الأوس والخزرج فهما من ذرية سبأ، نزلت يثرب، بعد سيل العرم، كما يأتى.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ (١) أى: فى بلادهم، أو أرضهم، التى كانوا مقيمين فيها باليمن، ﴿آيَةً﴾ دالة على وحدانيَّة تعالى، وباهر قدرته، وإحسانه، ووجوب شكر نعمه، وهى: ﴿جَنَّاتٍ﴾ أى: جماعة من البساتين، ﴿عَنْ يَمِينٍ﴾ واديهم، ﴿وَشِمَالٍ﴾ وعن شماله. وكل واحدة من الجماعتين فى تقاربها وتضافها كأنها جنة واحدة، كما يكون بساتين البلاد العامرة. قيل: كان الناس يتعاطون ذلك على جنبتي الوادى، مسيرة أربعين يوماً، وكلها تُسقى من ذلك الوادى؛ لارتفاع سده. أو: أراد بستانين، لكل رجل بستان عن يمين داره، وبستان عن شماله. ومعنى كونهما آية: أن أهلها لما أعرضوا عن شكر النعم سلبهم الله النعمة، ليعتبروا ويتعظوا، فلا يعودوا لما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم، فلما أثمرت البساتين؛ قلنا لهم - على لسان الرسل المبعوثين إليهم، أو بلسان الحال، أو هم أحقَّاء بأن يقال لهم ذلك: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ بالإيمان والعمل الصالح، ﴿بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أى: هذه البلدة التى فيها رزقكم بلدة طيبة، ﴿وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ أى: وربكم الذى رزقكم ومطلب شكركم ربُّ غفور لمن شكره.

قال ابن عباس: كانت سبأ على ثلاثة فراسخ من صنعاء، وكانت أخصب البلاد، فتخرج المرأة على رأسها المكتل، وتسير بين تلك الشجر، فيمتلئ المِكتَل مما يتساقط فيه من الشجر (٢) ولقد كان الرجل يخرج لزيارة أقاربه، وعلى رأسه مكتل، أو قُفَّة، أو طبق فارغ، فلا يصل إلى حيث يريد إلا والطبق قد امتلأ فاكهة، مما تسقطه الرياح، دون أن يمد يده إلى شيء من ثمرها. ومن طيبها: أنها لم تُر فى بلادهم بعوضة قط، ولا ذباب، ولا برغوث، ولا عقرب، ولا حية. وإذا جاءهم الركب فى ثيابهم القفل والدواب؛ ماتت الدواب والقمل؛ لطيب هواها.

(١) قرأ حمزة، وحفص: (مسكنهم) بسكون السين وفتح الكاف، بلا ألف على الأفراد. وقرأ الكسائي بالترديد وكسر الكاف. وقرأ الباقون «مسكنهم» بفتح السين وألف وكسر الكاف على الجمع. وقد سار الشيخ المفسر على قراءة الجمع. انظر الإتحاف (٢/٣٨٤).
(٢) أخرجه الطبري (٧٧/٢٢) عن قتادة.

﴿فَاعْرَضُوا﴾ عن الشكر، بتكذيب أنبيائهم، وكفر نعمة الله عليهم. وقالوا: ما نعرف الله علينا من نعمة، عائذاً بالله. قال وهب: بعث الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبياً، يدعونهم إلى الله تعالى، فكذبوهم (١)، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سِيلَ الْعَرَمِ﴾ أى: سيل الأمر العرم، أى: الصعب. من: عرم الرجل فهو عارم، وعَرم: إذا شَرِسَ خلقه وصعب، أى: أرسلنا عليهم سيلاً شديداً، مَزَقَ سدهم، وغرق بساتينهم. قيل: جمع عرمة، وهى السد الذى يمسك الماء إلى وقت حاجته.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان هذا السد يسقى جنتها، وينته بلقيس؛ لأنها لما ملكت جعل قومها يقتتلون على ماء مواشيهم، فنهتهم، فأبوا، فنزلت عن ملكها، فلما كثر الشر بينهم أرادوها أن ترجع إلى ملكها، فأبت، فقالوا: لترجعي أو لنقتلنك، فجاءت، وأمرت بواديهم فسُدَّ أعلاه بالعرم، وهو المسناة - بلغة حمير - فسدت ما بين الجبلين بالصخر والنار، وجعلت له أبواباً ثلاثة، بعضها فوق بعض، وبنيت من دونه بركة عظيمة، وجعلت فيها اثني عشر مخرجاً، على عدة أنهارهم. فلما جاء المطر اجتمع ماء الصخر وأودية اليمن، فاحتبس السيل من وراء السد، ففتحت الباب الأعلى، وجرى ماؤه في البركة، وألقت البقر فيها، فخرج بعض البقر أسرع من بعض، فلم تزل تضيق تلك الأنهار، وترسل البقر في الماء، حتى خرجت جميعاً معاً، فكانت تقسمه بينهم على ذلك، حتى كان من شأنها وشأن سليمان ماكان. فكانوا يسقون من الباب الأعلى، ثم من الثاني، ثم من الأسفل، فلا ينفد حتى يثوب الماء من السنة المقبلة. فلما كفروا وطغوا، سلط الله عليهم جرذاً، يسمى الخلد - وهو الفأر - فنقبه من أسفله، فغرق الماء جنتهم، وخرَّب أرضهم. هـ (٢).

قال وهب: وكانوا يزعمون أنهم يجدون في علمهم وكهانتهم أنه يُخرَّب سدهم فأرة، فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا عندها هراً، فلما حان ما أراد الله بهم، أقبلت فأرة حمراء، إلى بعض تلك الهَرَر، فساورتها - أى: حاربتها، حتى استأخرت عنها - أى: عن تلك الفرجة - الهرة، فدخلت في الفرجة التي كات عندها، ونقبت السد، حتى أوهنته للسيل، وهم لا يدرون، فلما جاء السيل دخل في تلك الخلل، حتى بلغ السد، فخربه، وفاض على أموالهم، فغرقتها، ودفن بيوتهم، ومزقوا، حتى صاروا مثلاً عند العرب، فقالوا: تفرقوا أيادي سبأ. هـ (٣).

﴿وبدلناهم بجنتيهم﴾ المذكورتين ﴿جنتين﴾ أخريين. وتسمية المبدلتين جنتين للمشكلة وازدواج الكلام، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ (٤). ﴿ذَوَاتِي أَكُلُ خَمَطٍ﴾ الأكل: الثمر المأكول، يخفف ويثقل. والخمط، قال ابن عباس: شجر الأراك (٥)، وقال أبو عبيد: كل شجر مؤذ مشوك. وقال الزجاج: كل شجر مر. هـ. وفي القاموس:

(٢) ذكره الطبري (٧٩/٢٢) والبغوي (٣٩٤/٦).

(٤) الآية ٤٠ من سورة الشورى.

(١) أخرجه الطبري (٧٨/٢٢).

(٣) أخرجه الطبري (٨٠/٢٢) بنحوه، عن وهب.

(٥) أخرجه الطبري (٨١/٢٢).

الخط: الحامض المر من كل شيء، وكل نبت أخذ طعماً من مرارة وحموضة، وشجر كالسدر، وشجر قاتل، أو كل شجر لا شوك له. هـ. وقرأ البصريان بالإضافة، من إضافة الشيء إلى جنسه، كثوب خز؛ لأن المراد بالأكل المأكول، أى: ذواتي ثمر شجر بشيع. والباقون: بالثنيين، عطف بيان، أو صفة، بتأويل خط بشيع، أى: مأكول بشيع. ﴿وَأَثْلٌ﴾؛ هو شجر يشبه الطرفاء، أعظم منه، وأجود عوداً. ﴿وشيء من سدر قليل﴾. والحاصل أن الله تعالى أهلك أشجارهم المثمرة، وأثبت مكانها الطرفاء والسدر. وإنما قال: السدر، لأنه أكرم ما بدلوا به؛ لأنه يكون في الجنان.

﴿ذلك جزيناهم بما كفروا﴾ أى: جزيناهم ذلك بكفرهم، فذلك مفعول مطلق بجزينا، ﴿وهل يُجَازَى﴾ (١) هذا الجزاء الكلى ﴿إلا الكفور﴾ أى: لا يجازى بمثل هذا الجزاء إلا من كفر النعمة ولم يشكرها، أو: كفر بالله، أو هل يعاقب؛ لأن الجزاء وإن كان عاماً يستعمل في معنى المعاقبة، [وفى معنى الإثابة] (٢) لكن المراد الخاص، وهو المعاقبة. قال الواحدي: وذلك لأن المؤمن يكفر عنه سيئاته، والكافر يجازى بكل سوء عمله. قلت: بل الظاهر المجازاة الدنيوية بسلب النعم، ولا تسلب إلا للكفور، دون الشكور. قاله في الحاشية.

وعن الضحاك: كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد - عليهما السلام. هـ. قلت: ولعلمهم استمروا من زمن سليمان إلى أن جاوزوا زمن عيسى عليه السلام.

الإشارة: لكل مريد وعارف جنتان عن يمين وشمال، يقطف من ثمارهما ما يشاء؛ جنة العبودية، وجنة الربوبية، جنة العبودية للقيام بآداب الشريعة، وجنة الربوبية للقيام بشهود الحقيقة، فيتفنن في جنة العبودية بعلوم الحكمة، ويتفنن في جنة الربوبية بعلوم القدرة، وهى أسرار الذات وأنوار الصفات. كُتِلوا من رزق ربكم حلالة المعاملة في جنة العبودية، وحلاوة المشاهدة في جنة الربوبية؛ بلدة طيبة هي جنة الربوبية؛ إذ لا أطيّب من شهود الحبيب، ورب غفور لتقصير القيام بآداب العبودية؛ إذ لا يقدر أحد أن يحصيها، ولا جزءاً منها. فأعرض أهل الغفلة عن القيام بحقهما، ولم يعرفوهما، فأرسلنا على قلوبهم سيل العرم، وهو سيل الخواطر والوساوس، وخوض القلب في حص الأكوان، فبدلناهم بجنتيهم جنتين؛ مرارة الحرص والتعب، والهم والشغب. ذلك جزيناهم بكفرهم بطريق الخصوص من أهل التربية، وهل يُجَازَى إلا الكفور.

(١) قرأ حمزة، والكسائي، وحفص، ويعقوب (وهل نجازى) بثنى العظمة وكسر الزاى، ونصب «الكفور». وقرأ الباقر (يجازى) بالياء المضمومة، وفتح الزاى، ورفع الكفور. انظر الإتحاف (٢/٣٨٥).
(٢) ما بين المعرفتين زيادة ليست في الأصول. وأنبهه لاقتضاء السياق له.

قال القشيري: «ویدلناهم بجنتيهم جنتين..» الآية، كذلك من الناس من يكون في رَغَدٍ من الحال، واتصال من التوفيق، وطيب من القلب، ومساعدة من الوقت، فيرتكبُ زَلَّةً، أو يتبع شهوةً، ولا يعرف قَدْرَ ما يفوته فيفتقر عليه الحال، فلا وقت ولا حال، ولا قُرب ولا وصال، يظلم عليه النهار، بعد أن كانت لياليه مضيئة. وأنشدوا:

مازلتُ أختال في زَمَانِي حَتَّى أَمِنْتُ الزَمَانَ مَكْرَهَ

طال علينا الصَدُودُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِمَّا شَهِدْتُ ذَرَهَ (١)

«ذلك جزيناهم بما كفروا..» الآية: ما عوقبوا إلا بما استوجبوا، وما سقوا إلا ما أفيضوا، ولا وقعوا إلا في الرهدة التي حفرها، وما قتلوا إلا بالسيف الذي صنعوا. هـ.

ثم ذكر سبب تمزيقهم، فقال:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالٍ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (١٨) ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (١٩)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وجعلنا بينهم﴾ أي: بين سبأ ﴿وبين القرى التي باركنا فيها﴾ بالتوسعة على أهلها بالنعم والمياه، وهي قرى الشام، ﴿قرى ظاهرة﴾؛ متواصلة يرى بعضها من بعض؛ لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين الناظرين، أو: ظاهرة للسابلة، لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم، وهي أربعة آلاف وسبعمئة قرية متصلة، من سبأ إلى الشام، ﴿وقدّرنا فيها السير﴾ أي: جعلنا هذه القرى على مقدار معلوم، يقلل المسافر في قرية، ويدور إلى أخرى، إلى أن يبلغ الشام. قلنا لهم: ﴿سيروا فيها﴾، ولا قول هناك، ولكنهم لما تمكنوا من السير، وسرت لهم أسبابه، فكانهم أمروا بذلك، فقلل لهم: سيروا في تلك القرى ﴿ليالي وأياماً آمنين﴾ أي: سيروا فيها إن شئتم بالليل، وإن شئتم بالنهار، فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات، أو: سيروا فيها آمنين لا تخافوا عدواً، ولا جوعاً، ولا عطشاً، وإن تطاولت مدة سيركم، وامتدت أياماً وليالي. فبطروا النعمة، وسلموا العافية، وطلبوا الكدر والتعب.

(١) الأبيات بلحواها في لطائف الإشارات (٣/ ١٨١)، وجاءت في شرح أسماء الله الحسنى / ١٧٣ مسبوقة ببيت، هو:

يا سائلي كيف كنت بعده؟ لقيت ما مآني وسره

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قالوا: ياليتها كانت بعيدة، نسير على نجائبنا، ونتخذ الزاد، ونختص بالريح في تجارتنا، أرادوا أن يتطاولوا على الفقراء بالركوب على الرواحل، ويختصوا بالأرباح. وقرأ يعقوب «ربَّنَا، بالرفع» «باعد، بفتح العين، قربنا: مبتدأ، والجملة: خبر، على أنه شكوى منهم ببعد سفرهم، إفراطاً في الترفيه وعدم الاعتداد بالنعمة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بشد العين، من «بعد، المضعف. والباقون بالألف والتخفيف، من: باعد، بمعنى «بعد، المشددة. ﴿وظلموا أنفسهم﴾ بما قالوا، وما طلبوا، ففرق الله شملهم، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بهم، ويتعجبون من أحوالهم، ويضرب بهم الأمثال، يقال: تفرقوا أيادي سبأ، وأيدي سبأ، يقال بالوجهين. وفي الصحاح: ذهبوا أيادي سبأ، أي: متفرقين، فهو من المركب تركيب مزج.

﴿وَمَرْقَنَاهُمْ كُلٌّ مُمَزَّقٌ﴾ أي: فرقناهم كل فريق، فتيامن منهم ست قبائل، وتشاءمت أربعة، حسبما تقدم في الحديث. قال الشعبي: أما غسان فلقحوا بالشام، وأما أنمار فلقحوا ببثرب، وأما خزاعة فلقحوا بتهامة، والأزد بنعمان. هـ. قلت: وفيه مخالفة لظاهر الحديث، فإن أنمار جد خثعم وبجيلة، ولم يكونوا في المدينة.

والذي هو المشهور أن الأوس والخزرج هما اللذان قدما المدينة، فوجدوا فيها طائفة من بني إسرائيل، بعد قتلهم للعماليق. وسبب نزولهم بها: أن حبرين منهم مرّاً ببثرب مع تبع، فقالا له: نجد في علمنا أن هذه المدينة مهاجرة نبي، يخرج في آخر الزمان، يكون سنة كذا وكذا، فاستوطنها، يترصدان خروجه ﷺ، فمن نسلهما بقيت اليهود في المدينة، والأوس والخزرج هما ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأسد بن الغوث بن بنت مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ. وولد مازن بن الأسد هم غسان، سموا بماء اليمن، شربوا منه. ويقال: غسان: ماء بالشمال شربوا منه، نسبوا إليه. قال حسان:

أما سألت فإننا معشر نجب الأسد نسبنا والماء غسان

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي ﴿شَكُورٍ﴾ للنعم، أو: لكل مؤمن؛ لأن الإيمان نصفان؛ نصفه صبر، ونصفه شكر.

الإشارة: وجعلنا بين السائرين وبين منازل الحضرة المقدسة منازل ظاهرة، ينزلوها، ويرحلون عنها، آمنين من الرجوع، إن صدقوا في الطلب، وهي منازل كثيرة، وأهمها اثنا عشر مقاماً: التوبة، والخوف، والرجاء، والزهد، والصبر، والشكر، والتوكل، والرضا، والتسليم، والمراقبة، والمشاهدة. ومنازل الحضرة هي الفناء، والبقاء، وبقاء البقاء، والترقي في معارج الأسرار والكشوفات، أبداً سرمداً. يقال للسائرين: سيروا فيها، وأقيموا في كل منزل منها، ليالي وأياماً، حتى يتحقق به نازله، ثم يرحل عنه إلى ما بعده. ثم إن قوماً سئموا من السير وادعوا القوة، فقالوا:

ربنا باعد بين أسفارنا حتى يظهر عزمنا وقوتنا، وظلموا أنفسهم بذلك، ففرقناهم عنا كل فريق، وعوقبناهم عن السير كل تعريق، ليكون ذلك آية وعبرة لمن بعدهم، فلا يخرجون عن مقام الاستضعاف والمسكنة، والانكسار والذلة، «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي».

وسبب الحرمان هو إبليس، كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٢١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقد صدق (١) عليهم إبليس ظنه﴾، الضمير في «عليهم» لكفار سبأ وغيرهم. وكان إبليس أضمر في نفسه حين أقسم: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢) أنه يسلط عليهم، وظن أنه يتمكن منهم، فلما أغواهم وكفروا صدق ظنه فيهم. فمن قرأ بالتخفيف في «ظنه»: ظن، أي: صدق في ظنه. ومن قرأ بالتشديد فظنه مفعول به، أي: وجد ظنه صادقاً عليهم حين كفروا ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ أي: أهل سبأ ومن دان دينهم، ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قللهم بالإضافة إلى الكفار، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (٣) وفي الحديث: «ما أنتم في أهل الشرك إلا كشجرة بيضاء في جلد ثور أسود» (٤).

﴿وما كان له عليهم من سلطان﴾ أي: ما كان لإبليس على من صدق ظنه عليهم من تسلط واستيلاء بالوسوسة، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ موجوداً ما علمناه معدوماً ﴿مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ﴾ أي: إلا ليتعلق علمنا بذلك تعلقاً تلجيزياً، يترتب عليه الجزاء، أو: ليميز المؤمن من الشاك، أو: ليؤمن من قدر إيمانه، ويشك من قدر ضلاله. ﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾، محافظ رقيب، وفعل ومفاعل أخوان.

الإشارة: كل من لم يصل إلى حضرة العيان صدق عليه بعض ظن الشيطان؛ لأنه لما رأى بشرية آدم مجوفة، ظن أنه يجري معه مجرى الدم، فكل من لم يسد مجاريه بذكر الله، حتى يستولى الذكر على بشريته، فيصير قطعة من نور، فلا بد أن يدخل معه بعض وساوسه، ولا يزال يتسلط على قلب ابن آدم، حتى يدخل حضرة

(١) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي صدق، بتشديد الدال. وقرأ الباقرن بالتخفيف. انظر الإنعاف (٢/٣٨٦).

(٢) من الآية ٨٢ من سورة ص.

(٣) من الآية ١٧ من سورة الأعراف.

(٤) أخرجه مطولاً البخاري في (الرقائق، باب العشر، ح ٦٥٢٨) ومسلم في (الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة ٢٠٠/١، ح ٢٢١) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

القدس، فحيث يحرص منه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (١). وعباده الحقيقيون هم الذين تحرروا مما سواه، فلم يبق لهم في هذا العالم علة، وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وما سلطه عليهم إلا لتمييز الخواص من العوام، فلولاً ميادين النفوس، ومجاهدة إبليس، ماتحقق سير السائرين، أي: وما كان له عليهم من تسلط إلا لتعلم علم ظهور من يؤمن بالخصلة الآخرة، وهي الشهود، ممن هو منها في شك، «وربك على كل شيء حفيظ» يحفظ قلوب أوليائه من استيلاء غيره عليها. وبالله التوفيق.

ولما كان تسلط إبليس جله من الشرك، الذي زين له، رده بقوله:

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

قلت: حذف مفعولى زعم، أي: زعمتموهم آلهة تعبدونهم من دون الله، بدلالة السياق عليهما.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ أي: زعمتموهم آلهة، فعبدتموهم من دون الله، من الأصنام والملائكة، وسميتهم باسمه، فالتجّلوا إليهم فيما يعرفونكم، كما تلجئون إليه في اقتحام الشدائد الكبرى. وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون استجابته. وهذا تعجيز وإقامة حجة على بطلان عبادتها. ويرى أنها نزلت عند الجوع الذي أصاب قريشاً. ثم ذكر عجزهم فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شر، ونفع أو ضرر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، وما لهم فيهما من شرك ﴿أَيُّ﴾ وما لهم في هذين العالمين: العلوي والسفلي، من شرك في الخلق، ولا في الملك، ﴿وَمَالَهُ﴾ تعالى ﴿مِنْهُمْ﴾؛ من آلهتهم ﴿مِنْ ظَهِيرٍ﴾؛ معين يعينه على تدبير خلقه. يريد أنه على هذه الصفة من العجز، فيكف يصح أن يدعوا كما يدعى تعالى، أو يرجوا كما يرجى سبحانه؟

ثم أبطل قولهم: «هؤلاء شفعائنا عند الله» (٢) بقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ تعالى في الشفاعة، ممن له جاه عنده، كالأنبياء، والملائكة، والأولياء، والعلماء الأتقياء، وغيرهم ممن له مزية عند الله. وقرأ

(١) الآية ٤٢ من سورة الحجر.

(٢) من الآية ١٨ من سورة يونس.

أبو عمرو^(١) والأخوان بالبناء للمفعول، أى: إلا من وقع الإذن للشفيع لأجله. ثم ردّ على من زعم من الكفار أن الملائكة تشفع، قطعاً لمكانها من الله، فقال: ﴿حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾، فحتى: غاية لمحدّرف، أى: وكيف تشفع قبل الإذن، وهى فى غاية الخوف والهيبة من الله، إذا سمعوا الوحي صعقوا، ﴿حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم﴾ أى: كشف الفزع عن قلوبهم ﴿قالوا ماذا قال ربكم﴾ من الوحي؟ ﴿قالوا الحق﴾، فمن كان هذا وصفه لا يجترئ على الشفاعة إلا بإذن خاص. قال الكواشى: إنه يفزع عن قلوبهم حين سمعوا كلام الله لجبريل بالوحي، قال عليه السلام: (إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر لأهل السماء أخذت السموات منه رجفة - أو قال: رعدة شديدة - خوفاً من ذلك، فإذا سمع أهل السموات صعقوا، وخرواً سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه من وحيه بما أراد، ثم يمرّ على سماء سماء، إلى أن ينزل بالوحي، فإذا مرّ على الملائكة سأله، ثم قالوا: ماذا قال ربكم؟ فيقول جبريل: قال الحق^(٢)). نصب المفعول بقالوا، وجمع الضمير تعظيماً لله تعالى.

ثم قال: وفى الحديث: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة، كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، حتى يأتيهم جبريل، فيفزع عن قلوبهم، - أى: يكشف - ويخبرهم الخبر، ثم قال^(٣): وقيل المعنى: أنه لا يشفع أحد إلا بعد الإذن، ولا يشعر به إلا المقربون؛ لما غشى عليهم من هول ذلك اليوم، فإذا ذهب الفزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم فى الشفاعة؟ قالوا الحق، أى: أذن فيها. هـ. ومثل هذا لابن عطية، وتبعه ابن جزى، قال: الضمير فى «قلوبهم»، وفى «قالوا» للملائكة. فإن قيل: كيف ذلك، ولم يتقدم لهم ذكر؟ فالجواب: أنه قد وقعت إليهم إشارة بقوله: «ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له»، لأن بعض العرب كانوا يعبدون الملائكة، ويقولون: هؤلاء شفاعونا عند الله، فذكر الشفاعة يقتضى ذكر الشافعين، فعاد الضمير على الشفعاء، الذين دلّ عليهم ذكر الشفاعة. هـ.

وقرأ يعقوب وابن عامر «فزع» بفتح الفاء بالبناء للفاعل. والتضعيف للسلب والإزالة، أى: سلب الفزع وأزاله عن قلوبهم، مثل: قردت البعير: إذا أزلت قراده، ومن بناء للمفعول فالجار نائب. ﴿وهو العلى الكبير﴾ أى: المتعالى عن سمة الحدوث، وإدراك العقول، الكبير الشأن، فلا يقدر أحد على شفاعته بلا إذنه.

(١) فى الأصول [ابن عمرو].

(٢) أخرجه الطبري (٩١/٢٢) والبغوى فى التفسير (٣٩٨/٦) والبيهقى فى الأسماء والصفات (٣٢٦/١) وابن أبى عاصم فى السنة (٢٢٧/١) من حديث النّوّاس بن سميان.

(٣) أى: الكواشى.

الإشارة: كل من أثر شيئاً أو أحبه سوى الله، أو خافه، يقال له: ادعوا الذين زعمتم أنهم ينفعونكم أو يضرونكم، من دون الله، «لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض...» الآية. وأما محبة الأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء فهي محبة الله، لأنهم يوصلون إليه، فلم يحبهم أحد إلا لأجل الله، فتتفع شفاعتهم بإذن الله. وقوله: «حتى إذا فزع عن قلوبهم...» الخ، قال الورتجبي: وصف سبحانه أهل الوجد، من الملائكة المقربين، وذلك من صولة الخطاب، فإذا سمعوا كلام الحق، من نفس العظمة، وقعوا في بحار هيبة وإجلاله، حتى فتوا تحت سلطان كبريائه، ولم يعرفوا معنى الخطاب في أول وارد السلطنة. فإذا فاقوا سألوا معنى الخطاب من جبريل عليه السلام، فهو من أهل الصحو والتمكين في المعرفة. هـ.

ثم تتم قوله: «لا يملكون مثقال ذرة» أي: لا من رزق ولا غيره، فقال:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿من يرزقكم من السموات والأرض﴾ أي: بأسباب سماوية وأرضية؟ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ وحده. أمره أن يقررهم، ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم، أي: يرزقكم الله لا غيره، وذلك للإشعار بأنهم مقررون به بقلوبهم، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به، لأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم: فما لكم لاتعبدون من يرزقكم، وتؤثرون عليه من لا يقدر على شيء؟

ثم أمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإحجاج: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ما نحن وأنتم على حالة واحدة، بلى على حالين متضادين، وأحدنا مهتد، وهو من انتضحت حجته، والآخر ضال، وهو من قامت عليه الحجة. ومعناه: أن أحد الفريقين من الموحدين ومن المشركين على أحد الأمرين من الهدى والضلال. وهذا من كلام المنصف، الذي كل من سمعه، من موالٍ ومعاند، قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك. وفي ذكره بعد تقديم ما قدم من التقرير: دلالة واضحة على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض أوصل بالمجادل إلى الغرض، ونحو قولك لمن تحقق كذبه: إن أحدنا لكاذب، ويحتمل أن يكون من تجاهل العارف.

قال الكواشي: وهذا من المعارض، وقد ثبت أن من اتبع محمداً على الهدى، ومن لم يتبعه على الضلال. هـ. ويحتمل أن يكون من اللف والدشر المرتب. وفيه ضعف. وخولف بين حرفي الجار، الداخلين على الهدى والضلال؛ لأن صاحب الهدى كأنه مستعل على فرس جواد، يركضه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في ظلام، لا يدري أين يتوجه.

﴿ قل لا تسألون عما أجرنا ولا تسأل عما تعملون ﴾ أي: ليس القصد بدعائي إياكم خوفاً من ضرر كفركم، وإنما القصد بما أدعوكم إليه الخير لكم، فلا يسأل أحد عن عمل الآخر، وإنما يسأل كل واحد عن عمله. وهذا أيضاً أدخل في الإنصاف، حيث أسند الإجماع إلى أنفسهم، وهو محذور، والعمل إلى المخاطبين، وهو مأمور به مشكور. ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ﴾ يوم القيامة، ﴿ ثم يفتح ﴾ أي: يحكم ﴿ بيننا بالحق ﴾ بلا جور ولا ميل، فيدخل المحققين الجنة، والمبطلين النار، ﴿ وهو الفتاح ﴾؛ الحاكم ﴿ العليم ﴾ بما ينبغي أن يحكم به.

﴿ قل أروني الذي ألحقتهم ﴾ أي: ألحقتهم ﴿ به شركاء ﴾ في العبادة معه، بأي صفة ألحقتهم به شركاء في استحقاق العبادة، وهم أعجز شيء. قال القشيري: كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك؛ لانهم آكهم في ضلالهم، مع تحققهم بأنها جمادات لا تفقه ولا تعقل، ولا تسمع ولا تبصر، ولا شبهة لهم غير تقليد أسلافهم. هـ. ومعنى قوله: (أروني) مع كونه يراهم: أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله، وأن يطلعهم على [حالة] (١) الإشراك به، ولذلك زجرهم بقوله: ﴿ كلا ﴾ أي: ارتدعوا عن هذه المقالة الشنعاء، وتنبهوا عن ضلالكم. ﴿ بل هو الله العزيز ﴾ أي: الغالب القاهر، فلا يشاركه أحد، وهو: ضمير الشأن، ﴿ الحكيم ﴾ في تدبيره وصنعه. والمعنى: بل الوجدانية لله وحده؛ لأن الكلام إنما وقع في الشراكة، ولا نزاع في إثبات الله وجوده، وإنما النزاع في وحدانيته. أي: بل هو الله وحده العزيز الحكيم.

الإشارة: أرزاق الأرواح والأشباح بيد الله، فأهل القلوب من أهل التجريد اشتغلوا بطلب أرزاق الأرواح، وغابوا عن طلب أرزاق الأشباح، مع كونهم مفتقرين إليه، أي: غابوا عن أسبابه. وأهل الظاهر اشتغلوا بطلب أرزاق الأشباح، وغابوا عن توجهه إلى أرزاق الأرواح، مع كونهم أخرج الناس إليه. وكل فريق يرجح ما هو فيه، فأهل الأسباب يعترضون على أهل التجريد، ويرجحون تعاطي الأسباب، وأهل التجريد يرجحون مقام التجريد، فيقولون لهم: وإنا أو أياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين. قل: لا تسألون عما أجرنا، بزعمكم، من ترك الأسباب، ولا تسأل

(١) في الأصول [حالة] والمثبت هو الذي في تفسير السفي.

عما تعملون. وسيجمع الله بيننا، ويحكم بما هو الحق، فإن كلتم تعتمدون على الأسباب، وتركتمون إليها، فهو شرك، أروني الذين ألحقتم به شركاء، كلا، بل هو الله العزيز الحكيم، يعز أوليائه، المتوجهين إليه، الحكيم في إسقاط من أعرض عنه إلى غيره.

قال القشيري: «قل يجمع بيننا ربنا»، أخبر سبحانه أنه يجمع بين عباده، ثم يعاملهم في حال اجتماعهم، بغير ما يعاملهم في حال افتراقهم، وللإجماع أثر كبير في الشريعة، وللصلاة في الجماعة أثر مخصوص. ثم قال: وللشيوخ في الاجتماع زوائد، ويستروحون إلى هذه الآية: «قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح..». هـ.

ولما ذكر ما من به على داود وسليمان، وذكر وبال من لم يشكر النعم، ذكر ما من به على نبيينا محمد ﷺ من عموم الرسالة والدعوة، فقال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْنُونَ ﴿٣٠﴾

قلت: «كافة»: حال من «الناس»، على قول الفارسي وابن جنى وابن كيسان، واختاره ابن مالك. وقال الأكثر: إنه حال من الكاف، والتاء للمبالغة، وما قاله ابن مالك أحسن. انظر الأزهري.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: جميعاً، إنهم وجنهم، عربهم وعجمهم، أحمرهم وأسودهم. وقدم الحال للاهتمام. قال ﷺ: «أُعْطِيتُ خُمُساً لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ قَبْلِي، بَعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِداً وَطَهوراً، وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَنَصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، فَادْخَرْتُهَا لَأُمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهِيَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ نَائِلَةٌ مِنْ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً» (١).

أو: وما أرسلناك إلا رسالة عامة لهم، محيطية بهم؛ لأنها إذا عمتهم فقد [كفتهم] (٢) أن يخرج منها أحد. وقال الزجاج: معنى الكافة في اللغة: الإحاطة، والمعنى: أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ، على أنه حال

(١) أخرجه البخاري في (التيمم، باب ١ ح ٣٣٥) ومسلم في (فاتحة كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١/ ٣٧٠، ح ٥٢١) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) في الأصول [كفتهم] والمثبت من تفسير أبي السعد.

من الكاف، والتاء للمبالغة، كالأروية والعلامة. حال كونك ﴿بشيراً﴾ بالفضل العظيم لمن أقر، ﴿ونذيراً﴾ بالعذاب لمن أصر، ﴿ولكن أكثر الناس﴾ أى: الكفرة، ﴿لا يعلمون﴾ ذلك، فيحملهم جهلهم على مخالفتك.

﴿ويقولون﴾ من فرط جهلهم: ﴿متى هذا الوعد﴾ أى: القيامة، المشار إليها بقوله: ﴿قل يجمع بيننا ربنا﴾ (١)، أو: الوعد بالعذاب الذى أنذرت به. وأطلق الوعد على الموعود به؛ لأنه من متعلقاته، ﴿إن كنتم صادقين﴾ فى إتيانه؟ ﴿قل لكم ميعاد يوم﴾، «الميعاد»: ظرف الوعد، من مكان، أو زمان. وهو - هنا - الزمان، بدليل من قرأ «ميعاد يوم»، فأبدل منه «اليوم». وأما الإضافة لإضافة تبين، كما نقول: بعير سائبة، أى: قد وقت لعذابكم يوماً ﴿لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ أى: لا يمكنكم التأخر عنه بالإمهال، ولا التقدم عليه بالاستعجال. ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم: أنهم سألوا عن ذلك، وهم متكرون به، نعتاً لا استرشاداً، فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً للسؤال، على وجه الإنكار والتعنت، وأنهم مرصدون له، يفاجئهم، فلا يستطيعون تأخراً، ولا تقدماً عليه.

الإشارة: الداعرون إلى الله على فرقتين: فرقة تدعو إلى معرفة أحكام الله، وهم العلماء، وفرقة تدعو إلى معرفة ذات الله بالعيان، وهم الأولياء العارفون بالله، فالأولون دعوتهم خاصة بمن فى مذهبهم، والآخرين دعوتهم عامة؛ إذ معرفة الله تعالى الذوقية لم يقع فيها اختلاف مذاهب، فأهل المشرق والمغرب كلهم متفقون عليها، فشيخ واحد يرى جميع أهل المذاهب، إن خضعوا له، وفى ذلك يقول صاحب المباحث:

مذاهب الناس على اختلاف ومذهب القوم على اتلاف

وقال الشاعر:

عبارتنا شتى وحسبك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير

ويقول من استبعد الفتح: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ قل: لكم ميعاد يوم عيته للفتح، لا يتقدم ولا يتأخر. فالأدب: الخدمة وعدم الاستعجال.

(١) الآية ٢٦ من السورة.

ثم ذكر ما يلقون في ذلك الميعاد على كفرهم، فقال:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قلت: أتى بالعاطف في قوله: (وقال) الأخيرة، وترك في الأولى؛ لأن قول الرؤساء جواب لقول المستضعفين، فحسن ترك العاطف، ثم جاء بكلام آخر للمستضعفين، فعطفه على كلامهم الأول. (و) مكر الليل: الإضافة هلى معنى «فى»، وإضافة المكر إلى الليل على الاتساع، بإجراء الثانى مجرى المفعول به، وإضافة المكر إليه، أو: جعل الليل والنهار مكرين بهم مجازاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الذين كفروا ﴾، كأبى جهل وأضرابه: ﴿ لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ أى: ما نزل قبل القرآن، من كتب الله تعالى، الدالة على البعث. وقيل: إن كفار قريش سألوا أهل الكتب عن الرسول ﷺ، فأخبروهم أنهم يجدون نعتة فى كتبهم، فغضبوا، وقالوا ذلك. وقيل: (الذين بين يديه): القيامة والجنة والنار، فكانهم جحدوا أن يكون القرآن من عند الله، وأن يكون مادل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة.

﴿ ولو ترى ﴾ يا محمد، أو من تصح منه الرؤية، ﴿ إذ الظالمون موقوفون ﴾: محبسون ﴿ عند ربهم ﴾ فى موقف الحساب ﴿ يرجع ﴾: يرد ﴿ بعضهم إلى بعض القول ﴾ فى الجدل والمحاورة. أخبر عن عاقبتهم ومآلهم فى الآخرة، فقال لرسوله ﷺ، أو للمخاطب: ولو ترى فى الآخرة موقفهم، وهم يتجادلون أطراف المحاورة، ويتراجعونها بينهم، لرأيت أمراً فظيماً، فحذف الجواب؛ لأن العبارة لا تنفى به. ثم بين بعض محاورتهم بقوله:

﴿يقول الذين استضعفوا﴾ أي: الأتباع السفلة ﴿للكذين استكبروا﴾ أي: الرؤساء المقدمين: ﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾؛ لولا دعاؤكم إيانا إلى الكفر لكنا مؤمنين بالله ورسوله.

﴿قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صدّدناكم﴾: رددناكم ﴿عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾ أي: بل أنتم صددتم باختباركم، ولم نقهركم على الكفر. أنكروا أنهم كانوا صادّين لهم عن الإيمان، وأثبتوا أنهم هم الذين صدّوا أنفسهم، حيث أعرضوا عن الهدى، وآثروا التقليد عليه. وإنما وقعت، إذ، مضافاً إليها، وإن كانت، إذ، وإذ، من الظروف اللازمة للظرفية؛ لأنه قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره.

﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار﴾ أي: بل مكركم بنا بالليل والنهار هو الذي صدنا عن الهدى. أو: مكر بنا الليل والنهار، وطول السلامة، حتى ظننا أنكم على حق فقلدناكم. ﴿إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾: أشباهاً، نعبد معها. والحاصل: أن المستكبرين لما أنكروا أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين، وأثبتوا أن ذلك بسبب اختيارهم، كرّ عليهم المستضعفون بقولهم: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾، فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم، كأنهم قالوا: ما كان الإجماع من جهتنا، بل من جهة مكركم بنا دائماً، ليلاً ونهاراً، وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد.

ثم حصل الدم حيث لم ينفع، كما قال تعالى: ﴿وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب﴾ أي: أضمر الدم كلاً الفريقين، وأخفاه عن رفيقه، مخافة التعيير، لما رأوا العذاب، وتحقّقوا لحوقه بهم، فندم المستكبرون على إضلالهم وضلالهم، والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم. وقيل: معنى أسروا: أظهروا، فهو من الأضداد. ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾ أي: في أعناقهم. فأظهر في محل الإضمار؛ للدلالة على ما استوجبوا به الأغلال، وهو كفرهم. ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أي: لا يفعل بهم إلا ما استوجبته أعمالهم الخبيثة في الدنيا.

الإشارة: كل من له رئاسة وجاء، عالماً كان أو جاهلاً، وصدّ الناس عن طريق التربية على يد المشايخ، يقع له هذا الخصام، مع من صدّهم من ضعفاء الناس، حيث يرتفع المقربون، ويسقط الغافلون من تلك المراتب، فيقع الدم والتحسر، ويتبرأ الرؤساء من المرءوسين من عامة أهل اليمين. قال القشيري: وهكذا أصحاب الزلات، الأخلاء في الفساد - أي: يتبرأ بعضهم من بعض - وكذلك الجوارح والأعضاء، يشهد بعضها على بعض، اليد تقول للجملة: أخذت، العين تقول: أبصرت، والاختلاف في الجملة عقوبة. ومن عمل بالمعاصي أخرج الله عليه من كان أطوع له، ولكنهم لا يعلمون ذلك. ولو علموا لاعتذروا، ولو اعتذروا لتابوا وتوقفوا، ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً. هـ.

ثم سلى رسوله، فقال:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾
وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير ﴾ ؛ رسول ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ : متنعّموها، ورؤساؤها: ﴿ إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ ، فهذه تسلية لرسول ﷺ مما لقي من رؤساء قومه من التكذيب، والكفر بما جاء به، وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله ﷺ أهل مكة. وتخصيص المتنعّمين بالتكذيب؛ لأن الداعى إلى التكبر، وعدم الخضوع للغير؛ هو الانهماك فى الشهوات، والاستهانة بمن لم يحظ بها، جهلاً، ولذلك افتخروا بالأموال الفانية، كما قال تعالى:

﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمُعَذَّبِينَ ﴾ ، رأوا - من فرط جهلهم - أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم. نظرُوا إلى أحوالهم فى الدنيا، وظنوا أنهم لو لم يُكرموا على الله لَمَّا رزقهم ذلك. ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم ذلك، فأبطل الله رأيهم الفاسد بقوله: ﴿ قل إن ربي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى: يُضيقه على من يشاء، فإن الرزق بيد الله، يقسمه كيف يشاء. فربما وسّع على العاصي، استدراجاً، وضيق على المطيع، تمحيصاً وتطهيراً، فيوسع على المطيع، ويضيق على العاصي، وربما وسّع عليهما على حسب مشيئته، فلا يُقاسُ عليهما أمر الثواب، ولو كان ذلك لكرامة وهوان يُوجبانه لم يكن بمشيئته. ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعملون ﴾ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة عند الله. وقد تكون للاستدراج، وصاحبها لا يشعر.

الإشارة: ما حاز الخصوصية وتبع أهلها إلا ضعفاء المال والجاه، الذين هم أتباع الرسل، فهم الذين حطّوا رؤوسهم، وباعوا نفوسهم وأموالهم لله، وبذلوها لمن يُعرفهم به، فعوضهم جنة المعارف، يتبوءون منها حيث شاءوا، وأما من له جاه أو مال فقلّ من يحط رأسه منهم، إلا من سبقت له العناية الكبرى. قال القشيري: بعد كلام: ولكنها أقسام سبقت، وأحكام حقّت، ثم الله غالبٌ على أمره. ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾، وليس هذا بكثرة الأموال والأولاد، وإنما هي ببصائر مفتوحة لقوم، ومسدودة لقوم هـ.

ثم قال تعالى:

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ۖ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ۖ أَيْلَتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ ۖ ﴾

قلت: جمع التفسير يُذكر ويؤنث للعقلاء وغيرهم، ولذلك قال: «بالتى»، و(زلفى): مفعول مطلق، أى: وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم، و(إلا من آمن): مستثنى من الكاف فى «تقريبكم»، متصل، وقيل: منقطع. و(من): شرط، جوابه: (فأولئك). وعلى الاتصال ف «من» منصوبة بتقرب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تُقربكم عندنا زلفى ﴾ أى: قربة، ﴿ إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾، يعنى أن الأموال لا تُقرب أحداً إلا المؤمن الصالح، الذى يُنفقها فى سبيل الله. والأولاد لا تُقرب أحداً من الله إلا من علمهم الخير، وفقَّهم فى الدين، وأرشدهم للصالح والطاعة، فإن عملهم يجرى عليه بعد موته لقوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم بثه فى صدور الرجال، وولد صالح يدعو له بعد موته» (١).

﴿ فأولئك لهم جزاء الضَّعْفِ ﴾ أى: تضاعف لهم حسناتهم، الواحدة عشراً إلى سبعمائة، على قدر النية والإخلاص. وهو من إضافة المصدر إلى المفعول. والأصل: يُجازون الضعف، ثم جزاء الضعف، ثم أضيف. وقرأ يعقوب بالنصب على التمييز، أى: فأولئك لهم الضعف لأعمالهم جزاء ﴿ بما عملوا ﴾ أى: بأعمالهم ﴿ وهم فى الغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ أى: فى غرفات الجنان آمنون من كل هائل وشاغل. وقرأ حمزة: «فى الغرفة، إرادة الجنس».

﴿ والذين يَسْعَوْنَ فى آياتنا ﴾؛ فى إبطالها، بالرد والطعن ﴿ مُعْجِزِينَ ﴾: مغالبين لأنبيائنا، أو: سابقين، ظانين أنهم يفوتوننا، ﴿ أولئك فى العذاب مُحْضَرُونَ ﴾؛ يحضرونه فيحيط بهم

الإشارة: الأموال والأولاد لا تُقرب العبد ولا تُبعده؛ إنما يُقربه سابق العداية، ويبدعه سابق الشقاء، فمن سبقته العداية قربه أمواله، بإنفاق المال فى سبيل الله، وإرشاد الأولاد إلى طاعة الله، ومن سبق له الشقاء صرف أمواله

(١) أخرجه، بلحوه، مسلم فى (الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ٣/ ١٢٥٥ ح ١٦٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

فى الهوى، وأولاده فى جمع الدنيا. قال القشيري: لا تستحق الزلفى عند الله بالمال، ولا بالأولاد، ولكن بالأعمال الصالحة الخالصة، والأحوال الصافية، والأنفس الزاكية، بل بالعناية السابقة، والهداية اللاحقة، والرعاية الصادقة. هـ. وقال فى قوله: «والذين يسعون فى آياتنا معاجزين»: هم الذين لا يحترمون الأولياء، ولا يراعون حق الله فى السر، فهم فى عذاب الاعتراض على أولياء الله، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك فى ارتكاب محارم الله، ثم فى عذاب السقوط من عين الله تعالى. هـ.

ثم حض على الصدقة، فقال:

﴿قُلْ إِنْ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾، إنما كرره تنزيهاً فى المال، وحضاً على إنفاقه فى سبيل الله. ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾، إما عاجلاً فى الدنيا إذا شاء، أو أجلاً فى الآخرة، ما لم يكن إسرافاً، كنزها لهو، أو فى بديان، أو معصية. وذكر الكواشى هنا أحاديث منها: «كُلُّ معروفٍ صدقةٌ، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله صدقةٌ، وما رقى به الرجل عِرْضَهُ كُتِبَتْ له بها صدقةٌ - وهو ما أعطى لشاعر، أو لذى اللسان المتقى - وما أنفق المؤمن صدقةً فعلى الله خلفها ضامناً، إلا ما كان من نفقة فى بديان أو معصية» (١). قلت: يُقيد النفقة فى البديان بما زاد على الحاجة والضرورة، وإلا فهو مأمور به، فيؤجر عليه. والله تعالى أعلم.

﴿وهو خير الرازقين﴾: المطعمين؛ لأن كل من رزق غيره من سلطان، أو سيد، أو زوج، أو غيره، فهو من رزق الله، أجراه على يد هؤلاء، وهو خالق الرزق، والأسباب التى بها ينتفع المرزوق بالرزق. وعن بعضهم؛ قال: الحمد لله الذى أوجده، وجعلنى ممن يشتهى، فكم من مشتهٍ لا يجد، وواجد لا يشتهى!

الإشارة: فى الآية إشارة إلى متقبة السخاء، وإطلاق اليد بالعطاء، وهو من علامة اليقين، وخروج الدنيا من القلب. وذكر الترمذى الحكيم حديثاً طويلاً عن الزبير رضي الله عنه رأيت أن أذكره لكثرة فوائده مع مناسبتة لهذا المعنى. قال: جئت حتى جلست بين يدي رسول الله ﷺ فأخذ بطرف عمامتى من ورائى، ثم قال: يا زبير إني رسول الله إليك خاصة، وإلى الناس عامة. أتدرون ما قال ربكم؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال. قال ربكم حين استوى على

(١) رواه الدارقطنى فى سننه (٢٨/٣) والحاكم فى المستدرک (٥٠/٢) من حديث جابر رضي الله عنه. وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي.

عرشه ونظر إلى خلقه: عبادي أنتم خلقي وأنا ربكم، أرزاقكم بيدي، فلا تتعبوا فيما تكفلت لكم به، فاطلبوا مني أرزاقكم، وإلى فارفعوا حوائجكم، انصبوا إلى أنفسكم أصب عليكم أرزاقكم. أندرون ما قال ربكم؟ قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم، أنفق أنفق عليك، وأوسع أوسع عليك، ولا تضيق فأضيق عليك، ولا تصر فأصر عليك، ولا تخزن فأخزن عليك، إن باب الرزق مفتوح من فوق سبع سموات، متواصل إلى العرش، لا يغلَق ليلاً ولا نهاراً، ينزل الله منه الرزق، على كل امرئ بقدر نيته، وعطيته، وصدقته، ونفقته، من أكثر أكثر عليه، ومن أقل أقل عليه، ومن أمسك أمسك عليه. يازبير فكل وأطعم، ولا توك فيوك عليك^(١)، ولا تحص فيحص عليك، ولا تقتر فيقتر عليك، ولا تعسر فيعسر عليك. يازبير، إن الله يحب الإنفاق، ويبعض الإقتار، وإن السخاء من اليقين، والبخل من الشك، فلا يدخل النار من أيقن، ولا يدخل الجنة من شك. يازبير؛ إن الله يحب السخاوة، ولو بفلق نمرة، والشجاعة، ولو بقتل عقرب أوحية. يازبير؛ إن الله يحب الصبر عند زلزلة الزلازل، واليقين النافذ عند مجيء الشهوات، والعقل الكامل عند نزول الشبهات. والورع الصادق عند الحرام والخبيثات. يازبير؛ عظم الإخوان، وأجل الأبرار، ووقر الأخيار، وصل الجار، ولا تماش الفجار، تدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب، هذه وصية الله إلي، ووصيتي إليك.

ثم ذكر توبيخه على الشرك، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مَنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يوم نحشرهم ﴾ (٢) جميعاً ﴿ ، العابدين والمعبودين، ﴾ ثم نقول للملائكة أهولاء إياكم كانوا يعبدون ﴿ ؟ هو خطاب للملائكة، وتقريع للكفرة، واردة على المثل السائر من قول العامة: الخطاب للسارية وافهمي يا جارية. ونحوه قوله: .. ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي .. ﴾ الآية (٣). وتخصيص

(١) أي: لا تدخر وتشد ما عندك، وتمنع ما في يديك، فتقطع مادة الرزق عنك. والركاء: الخيط الذي تشد به الصرة والكيس وغيرهما. انظر النهاية في غريب الحديث (وكاء، ٥/ ٢٢٢ - ٢٢٣).

(٢) قرأ حفص، ويعقوب: يحشرهم، بالياء، وقرأ الباقر «نحشرهم» ونقول، بالنون. وقد أثبت المفسر قراءة النون. انظر إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٣٨٨).

(٣) من الآية ١١٦ من سورة المائدة.

الملائكة؛ لأنهم أشرف شركائهم، والصالحون للخطاب منهم. ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾؛ تنزيهاً لك أن يعبد معك غيرك. ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾؛ أنت الذي نؤاليه من دونهم، لا موالاة بيننا وبينهم. والموالاة خلاف المعاداة، وهى مفاعلة من الولى، وهو القرب. والولى يقع على الموالى والموالى جميعاً. فبينوا بإثبات موالاة الله تعالى ومعاداة الكفار: براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم؛ فإن من كان على هذه الصفة، كانت حاله منافية لذلك.

ثم قالوا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أى: الشياطين، حيث أطاعوهم فى عبادة غير الله، أو: كانوا يدخلون فى أجواف الأصنام، إذا عُبِدَتْ، فيُعَبَّدون بعبادتها، أو: صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن، وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها. ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ أى: أكثر الإنس، أو: الكفار، ﴿بِهِمْ﴾؛ بالجن ﴿مُؤْمِنُونَ﴾؛ مصدقون لهم فيما يأمرونهم به. والأكثر هنا بمعنى الكل.

قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾؛ لأن الأمر فى ذلك اليوم إليه وحده، لا يملك أحد فيه منفعة ولا مضرة لأحد؛ لأن الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقب هو الله، فكانت حالها خلاف حال الدنيا، التى هى دار تكليف، والناس فيها مخلق بينهم، يتضارون، ويتنافعون، وأما يوم القيامة فلا فعل لأحد قط. ثم ذكر معاقبة الظالمين بقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بوضع العبادة فى غير موضعها: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ فى الدنيا.

الإشارة: ما أحببت شيئاً إلا وكنت له عبداً، ولا يحب أن تكون لغيره عبداً، فإذا تحققت الحقائق، التحق كل عابد بمعبوده، وكل حبيب بمحبوبه، فيرتفع الحق بأهله، ويهوى الباطل بأهله. وكل ماسوى الله باطل، فارفع همك أيها العبد عن هذه الدار وما فيها، وتعلق بالباقي، ودن الفانى، ولا تتعلق بشيء سوى المتكبر العتالى.

قال القشيري: قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾ الخ، الإشارة فى هذا: أن من علق قلبه بالأغيار، وظن صلاح حاله فى الاختيار، والاستعانة بالأمثال والأشكال، نزع الله الرحمة من قلوبهم، وتركهم، وتشوش أحوالهم، فلا لهم من الأشكال والأمثال معونة، ولا لهم فى عقولهم استبصار، ولا إلى الله رجوع، فإن رجعوا لا يرحمهم ولا يحبهم، ويقول: ذوقوا وبال ما به استوجبتم هذه العقوبة. هـ. قلت: قوله: ﴿فَإِنْ رَجَعُوا لَا يَرْحَمُهُمْ﴾ يعنى أنهم فزعوا أولاً إلى المخلوق، فلما لم ينجح مسعاهم، رجعوا إلى الله، فلم ينفعهم، ولو تابوا فى المستقبل لقبول توبتهم. وقال أيضاً: ومن تشديد العقوبة الافتضاح فى السؤال. وفى بعض الأخبار: أن عبداً يسألهم الحق غداً، فيقع عليهم من الخجل ما يقولون: يارينا لو عذبنا بما شئت من ألوان العقوبة، ولا تعذبنا بهذا السؤال. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حال أهل الغفلة، فقال:

﴿وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِئْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أى: إذا قرئت عليهم آيات القرآن، ﴿بيِّنَاتٍ﴾: واضحات، ﴿قَالُوا﴾: أى: المشركون: ﴿ما هذا﴾؟ يعنون محمداً ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ﴾: يصرفكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ من الأصنام. ﴿وقالوا ما هذا﴾ أى: القرآن ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾: كذب ﴿مُفْتَرًى﴾ بإضافته إلى الله تعالى. ﴿وقال الذين كفروا﴾ أى: وقالوا. والعدول عنه دليل على إنكار عظيم، وغضب شديد، حيث سجل عليهم بالكفر والجحد، ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أى: للقرآن، أو لأمر النبوة كله، لما عجزوا عن معارضته، قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أى: ما هذا إلا سحر ظاهر سحريته. وإنكارهم أولاً باعتبار معناه، وثانياً باعتبار لفظه وإعجازه، ولذلك سموه سحراً.

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أى: ما أعطينا مشركى مكة كتباً يدرسونها، فيها برهان على صحة الشرك. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أى: ولا أرسلنا إليهم نذيراً يذّرههم بالعقاب إن لم يشركوا، ويدعوهم إليه، إذ لا وجه له، فمن أين رقع لهم هذه الشبهة؟ وهذا فى غاية التجهيل لهم، والتسفيه لرأيهم. ثم هددهم بقوله: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى: وكذب الذين تقدموا من الأمم الماضية، والقرون الخالية، الرسل، كما كذب هؤلاء. ﴿وَمَا بَلَّغُوا مِئْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أى: وما بلغ أهل مكة عشر ما أوتى الأولون، من طول الأعمار، وقوة الأجرام، وكثرة الأموال والأولاد، وتوالى الدعم، والظهور فى البلاد. والمِئْشَار: مِغْفَال، من: العشر، ولم يأت هذا البناء إلا فى العشرة والأربعة. قالوا: معشار ومرباع. وقال فى القوت: المعشار: عشر العشر. ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ أى: فكذبت تلك الأمم رسلى، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى: فأنظر كيف كان إنكارى عليهم

بالهلاك والتدمير. فالنكير: مصدر، كالإنكار معنى، وكالذير وزناً. و(كيف) للتعظيم، لا لمجرد الاستفهام، أى: فحين كذبوا رسلى جاءهم إنكارى بالتدمير والاستئصال، ولم تغن عنهم تلك الأموال والأولاد، وما كانوا مستظهرين به من الرئاسة والجاه، فليحذر هؤلاء أن يحل بهم مثل [ما حل] (١) بأولئك، لمشاركتهم لهم فى الكفر والعدوان.

الإشارة: تكذيب الصادقين سنة ماضية، وكل من ظهر بخصوصية يجذب الناس إلى الله، ويخرجهم من عوائدهم، قالوا: ما هذا إلا سحر مفترى، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين، فحين كذبوا أولياء زمانهم حرّموا بركتهم، فبقوا فى عذاب الحرص والتعب، والهلع والنصب. قال القشيري: إن الحكماء والأولياء - الذين هم الأئمة فى هذه الطريقة - إذا دلوا الناس على الله، قال إخوانهم من إخوان السوء - وربما كان من الأقارب وأبناء الدنيا: من ذا الذى يطيق هذا؟ ولا بد من الدنيا مادمت تعيش! .. وأمثال هذا كثير، حتى يميل ذلك المسكين من قبل النصيح، فيهلك ويضل. هـ. باختصار. وقال فى قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا..﴾ ما حاصله: إن أرباب القلوب إذا تكلموا بالحقائق، على سبيل الإلهام والفيض، لا يطلب منهم البرهان على ما نطقوا به، فإذا طالبهم أهل القبلة بذلك، فسبيلهم السكوت عنهم، حتى يجيب عنهم الحق تعالى. هـ. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالتفكر والاعتبار، فقال:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شُحْرِ وَفُرَادَى تَتَنَفَّكُرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (٤٦)

قلت: «أن تقوموا»: بدل من «واحدة»، أو خبر عن مضمّر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةٍ﴾؛ بخصلة واحدة، وهى: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ أى: لوجه الله خالصاً، لا لحمية، ولا عصبية، بل لطلب الحق والاسترشاد. فالقيام على هذا معنوى، وهو القصد والتوجه بالقلب، وقيل: حسى، وهو قيامهم وتفرقهم عن مجلس رسول الله ﷺ، فيقوم كل واحد منفرداً بنفسه، يتفكر، أو مع صاحبه. وهذا معنى قوله: ﴿مِثْلَ شُحْرِ وَفُرَادَى﴾ أى: اثنين اثنين، أو فرداً فرداً. والمعنى: أعظمكم بواحدة أن تعملوا ما أصبتم الحق، وتخلصتم من الجهل. وهى أن تقوموا وتلهضوا لله، معرضين عن المراء

(١) فى النسخة الأم [ما حق].

والقليد، متفرقين اثنين اثنين، أو واحداً واحداً؛ فإنَّ الازدحام يُشوشُ خاطر، ويخلط القول، ويمنع من الروية، ويقلُّ فيه الإنصاف، ويكثر الاعتساف.

﴿ثم تفكروا﴾ في أمر محمد ﷺ، وما جاء به، حتى تعلموا أنه حق، أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف، حتى يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق، وكذلك المفرد، يتفكر في نفسه ويعرض فكره على عقله. فإذا تفكرتم بالإنصاف عرفتم أن ﴿ما بصاحبكم﴾ يعلى محمداً ﷺ ﴿من جنّة﴾؛ من جنون، وهذا كقوله: ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنّة﴾ (١). ومنهم من يقف على «تفكروا» ثم يستأنف النفي. قال القشيري: يقول: إذا سؤلتكم أنفسكم تكذيب الرسل، فأمعنوا النظر، هل ترون فيهم آثار ما رميتموهم به - هذا محمد ﷺ قلتم ساحر، فأين آثار السحر في أحواله وأفعاله وأقواله؟ قلتم: فأى قسم من أقسام الشعر كلامه؟ قلتم مجنون، فأى جنون ظهر منه؟ وإذا عجزتم فهلاً اعترفتم به أنه صادق؟ ١٢ هـ.

﴿إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ أى: قدام عذاب شديد، وهو عذاب الآخرة، وهو كقوله ﷺ: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ» (٢).

الإشارة: فكرة الاعتبار تشد عروة الإيمان، وفكرة الاستبصار تشد عروة الإحسان، فأول ما يتفكر فيه الإنسان في أمره ﷺ، وما جاء به من الطوم اللدنية، والأسرار الريانية، مع ما أخبر به من قصص القرون الماضية، والشرائع المتباينة، مع كونه أمياً، لم يقرأ، ولم يطالع كتاباً قط، وما أخبر به من أمر الغيب، فوقع كما أخبر، وما ظهر على يديه من المعجزات، وما اتصف به عليه الصلاة والسلام؛ من الأخلاق الحسنة، والشيم الزكية، وما كان عليه من سياسة الخلق، مع مشاهدة الحق. وهذا لا يطاق إلا بأمر رباني، وتأيد إلهي. فإذا أشرقت على قلبه أنوار النبوة، ترقى بها إلى أنوار الربوبية، فيتفكر في عجائب السموات والأرض، فيعرف عظمة صانعها، فإذا سقط على شيخ عارف بالله أدخله فكرة العيان، فيغيب عن نظره الأكوان، ويبقى المكون وحده. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان.

(١) من الآية ١٨٤ من سورة الأعراف.

(٢) بعض حديث، أخرجه أحمد في المسند (٥٠/٢) وابن أبي شيبة في مصنفه، من حديث سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما (٣١٣/٥)، وانظر: مجمع الزوائد (٢٦٧/٥)، وجاء معنى الجملة عند البخاري ومسلم بلفظ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، أخرجه البخاري في (الرفاق، باب: قول النبي ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» ح ٦٥٠٤) ومسلم في (الفتن، باب قرب الساعة، ٢٢٦٨/٤، ح ٢٩٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ثم بيّن أنه لا يطلب أجراً على الإنذار؛ إزاحةً للتهمة عنه، فقال:

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٤٧ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ما سألتكم عليه ﴾ أى: على إنذارى وتبليغ الرسالة ﴿ من أجر ﴾، إذ لو كنت كذلك لاهتمتمونى أنى أطمع فى أموالكم. وما طلبت من ذلك ﴿ فهو لكم ﴾، ومعناه: نفى سؤاله الأجر رأساً. نحو: ما لى فى هذا فهو لك، وما تعطينى تصدق به على نفسك. ﴿ إن أجرى ﴾ فى ذلك ﴿ إلا على الله، وهو على كل شيء شهيد ﴾ فيعلم أنى لا أطلب الأجر فى نصيحتكم، ودعائكم إليه، إلا منه تعالى.

الإشارة: تقدم مراراً أن الدعاة إلى الله ينبغي لهم أن يتنزّها عن الطمع فى الناس جهدهم، ولو اضطرّوا إلى ذلك؛ إذ لا يقع الدفع العام على أيديهم إلا بعد الزهد التام، والتعفف التام عما فى أيدي الناس، فإذا تحققوا بهذا الأمر جعلهم الله حجة، يدمغ بهم على الباطل، كما قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ ٤٨ ﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ
وَمَا يُعِيدُ ٤٩ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ
سَمِيعٌ قَرِيبٌ ٥٠

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل إن ربى يقذف بالحق ﴾ أى: بالوحى، فيرمى به على الباطل، من الكفر وشبهه، فيدمغه، أو: يرمى به إلى أقطار الآفاق، فيكون رعداً بإظهار الإسلام، أو: يلقيه وينزله إلى أنبيائه. والقذف: رمى السهم ونحوه بدفع واعتماد، ويستعار لمطلق الإلقاء، ومنه: ﴿ وقذف فى قلوبهم الرعب ﴾ (١). ثم وصف الرب بقوله: ﴿ علام الغيوب ﴾ أى: هو علام الغيوب.

﴿ قل جاء الحق ﴾ أى: الإسلام، أو: القرآن، ﴿ وما يبدي الباطل وما يعيد ﴾ أى: زال الباطل وهلك، لأن الإبداء والإعادة من صفات الحى، فعدمهما عين الهلاك، والمعنى: جاء الحق وهلك الباطل، كقوله: ﴿ جاء الحق وزهق الباطل ﴾ (٢) قال الكواشى: المعنى: ذهب الباطل لمجىء الحق، فلم يبق له بقية حتى يبدي شيئاً أو يعيده. ثم

(١) من الآية ٢٦ من سورة الأحزاب.

(٢) الآية ٨١ من سورة الإسراء.

قال: وهذا مثل، يقال: فلان لا يبدئ ولا يعيد، إذا كان لا يلتفت إليه ولا يعتمد عليه. وقال الهروي: الباطل: إيليس، ما يبدئ ولا يعيد: لا يخلق ولا يبعث، والله تعالى هو المبدئ المعيد، ومعناهما: الخالق الباعث. وقال في الصحاح: وفلان ما يبدئ وما يعيد، أي: ما يتكلم ببادية ولا عائدة، ومثله في القاموس.

والحاصل: أنه عبارة عن زهوق الباطل، حتى لا يبقى له ظهور. وعن ابن مسعود رضي الله عنه دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح، وحول الكعبة أصنام، فجعل يطعنها بعود، فتقطع لقفاها، ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً. قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد، (١)».

ولما قالوا له ﷺ: قد ضللت بترك دين آبائك قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ﴾ عن الحق ﴿فَأَنَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾؛ فإن وبال ضلالي عليها، ﴿وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ أي: فبتسديده بالوحي إلى. وكان قياس المقابلة أن يقال: وإن اهتديت فإنما اهتدي لها، كقوله: ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (٢)، ولكن هما متقابلان معنى؛ لأن النفس كل ما يضرها فهو بسببها، وما لها مما ينفعها، فهو بهداية ربها وتوفيقه، وهذا حكم عمل لكل مكلف. وإنما أمر رسوله أن ينسبه إلى نفسه؛ تشريعاً لغيره؛ لأنه إذا كان هذا له مع جلالة قدره فما باله بغيره؟ ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما أقوله لكم، ﴿قَرِيبٌ﴾ مني ومنكم، فيجازيني ويجازيكم على ما أخفيتم وما أعلنتم.

الإشارة: الحق هو العلم بالله، والباطل الجهل بالله، أو: ما سوى الله، فإذا حصل للعبد العلم بالله غاب عنه كل ما سواه، وما بقي في الوجود إلا الله، وفي ذلك يقول الشاعر:

قلم يبق إلا الله لم يبق كائن

فما ثم موصول ولا ثم بائن

بذا جاء برهان العيان فما أرى

بعيني إلا عينه إذ أعاين

وفي القوت في تفسير الآية: أي: لما جاء الحق أبطل الباطل وأعاده، فأظهر حقيقة الأمر بدءاً وعوداً، أي: كشف ما يبدئ الباطل للابتداء، وما يعيد على العبد من الأحكام، يعني: أن نور الحق يكشف حقيقة الباطل وضرر عاقبته، وقبحه في ذاته. والله أعلم. هـ. ومن رمى بباطل أو بدعة، وهو محقق بالحق، متمسك بالسنة النبوية، فليقل لمن رماه: (إن ضللت فإنما أضل على نفسي..) الآية.

(١) أخرجه البخاري في (المظلم، باب: هل تكسر الدنان التي فيها خمر، ح ٢٤٧٨) ومسلم في (الجهاد والسير، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة ٣/ ١٤٠٨. ح ١٧٨١) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) الآية ٤١ من سورة الزمر.

ثم ذكر حسرة من فاته الإيمان في إبانته، فقال:

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۖ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَأَمْنَابِهِ ۖ
وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ
بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ
مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مَُّرِيبٍ ۖ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت: «مرّيب»: اسم فاعل، من: أراب، أى: أتى برّيبة، وأرّيته: أوقعته فى الرّيبة. ونسبة الإربابة إلى الشك مجاز. والمراد: وصفه بالشدة والإظلام، بحيث إنه يوقع فى شك آخر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو ترى ﴾ يا محمد، أو: يا من تصح منه الرؤية، الكفرة. ﴿ إذ فرعوا ﴾؛ حين فرعوا عند صيحة البعث، لرأيت أمراً فظيماً هائلاً، ﴿ فلا فوت ﴾ أى: لا مهرب لهم، أو: فلا يفوتن الله ولا يسبقونه. ﴿ وأخذوا ﴾ إلى النار ﴿ من مكان قريب ﴾؛ من المحشر إلى قعر جهنم. أو: ولو ترى إذ فرعوا عند الموت فلا فوت منه، وأخذوا من ظهر الأرض إلى بطنها، أو: إذ فرعوا يوم بدر، وأخذوا من صحراء بدر إلى القليب.

﴿ وقالوا ﴾ حين عاينوا العذاب: ﴿ آمناً به ﴾ أى: بمحمد ﷺ؛ لمرور ذكره فى قوله: ﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾ (١) أو: بالله، أو: بالقرآن المذكور فى قوله: ﴿ فبما يوحى إلى ربي ﴾ ﴿ وأننى لهم التناوش ﴾ أى: التناول. من قرأه بالواو (٢) فوجهه: أنه مصدر: ناش، ينوش، نوشاً، أى: تناول، وهى لغة حجازية، ومنه: تناوش القوم فى الحرب: إذا تدانوا، وتناول بعضهم بعضاً، أى: ومن أين لهم تناول التوبة وقد بعدت عنهم، يعنى أن التوبة كانت منهم قريبة، تقبل منهم فى الدنيا، وقد ذهبت الدنيا وبعدت عن الآخرة. وقيل: هو تمثيل لطلبهم ما لا يكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت، كما نفع المؤمنين إيمانهم فى الدنيا، فمُثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول

(١) الآية ٤٦ من السورة.

(٢) قرأ أبو عمرو، وأبو بكر، وحمزة، والكسائى (التناوش) بالهمزة، وقرأ الباقون (التناوش) بالواو من غير همز.

الشيء من غلوة كما يتناولها الآخر من ألف ذراع. ووجه من قرأه بالهمز: أنه مصدر: تناءش، بمعنى أبطأ، أو: بعد، يقال: تناءشت الشيء: أخذته من بُعد. والنثيش: الشيء البطيء، كما قال الشاعر:

وجئت نثيشاً بعد ما فاتك الخير (١).

أى: جئت بطيئاً. وقيل: الهمز بدل الراء، كالصائم، والقائم، وأقنت. والمعنى: ومن أين لهم حصول الإيمان المعتذر بعد حصول البعد عن وقته.

﴿وقد كفروا به من قبل﴾ حصول العذاب، أو: قبل الموت في الدنيا، ﴿ويُقَذَّفُونَ بالغيب من مكان بعيد﴾، هو عطف على «كفروا» على حكاية الحال الماضية، أى: وقد كفروا في الدنيا، ورموا بظنونهم في الأمور المغيبة، فقالوا: لا بعث ولا حساب، ولاجنة ولا نار. «من مكان بعيد» عن الحق والصواب، أو: هو قولهم في رسول الله ﷺ، شاعر، ساحر، كذاب، وهو رجم بالغيب؛ إذ لم يشاهدوا منه سحراً ولا شِعْراً ولا كذباً. وقد أتوا بهذا الأمر من جهة بعيدة من حاله ﷺ؛ إذ لم يعرفوه إلا بالصدق، والأمانة، ورجاحة العقل.

﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ من نفع الإيمان يومئذ، والنجاة به من الديران، والفوز بنعيم الجنان، أو بين الرد إلى الدنيا، كما حكى عنهم بقوله: «فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا» (٢) ﴿كما فعل بأشياعهم من قبل﴾ أى: بأشباههم من الكفرة الدارجة من قبلهم، فإنه قد حيل بينهم وبين ما يشتهون من الإيمان والعمل الصالح بالموت، وهذه الأفعال كلها تقع في المستقبل، عبر عنها بالماضى لتحقق وقوعها. ﴿إنهم كانوا في شك﴾ فى أمر الرسول والبعث، ﴿مريب﴾: موقع للريبة، أو: ذى ريبة، نعت به للمبالغة. وفيه رد على من زعم أن الله لا يعذب على الشك، قاله النسفى.

الإشارة: قوم غفلوا عن تحقيق الإيمان، وتربيته، بصحبه أهل الإيقان، حتى إذا كشف - بعد الموت - عن مقامهم القصير، ومكانهم البعيد، قالوا: آمنا وتيقنا، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد. وقوم اشتغلوا بالبطالة والتقصير، وصرفوا في الشهوات والحظوظ عمرهم القصير، وتوغلوا في أشغال الدنيا وزخارفها، فذهلوا عن الجد والتشمير، فإذا انقضت عنهم أيام الدنيا حيل بينهم وبين ما يشتهون، من اغتنام الأوقات، وتعمير الساعات، لتيل المراتب والدرجات، وهنالك يقع الدم حين لم ينفع، ويطلب الرجوع فلا يسمع.

(١) عجز بيت، وهو كما فى القرطبي (٥٥٥٣/٦):

فعدت زماناً عن طلبك للملا

وجئت نثيشاً بعد ما فاتك الخبر

(٢) من الآية ١٢ من سورة السجدة.

قال الفشيرى: إذا تابوا - وقد أُغْلِقَتْ الأبواب، وندموا - وقد تقطعت بهم الأسباب، فليس إلا الحسرات مع الندم، ولات حين ندامة كذلك من استهان بتفاصيل فترته، ولم يستفّق من غفلته فتجاوز حده، ويعفى عنه كره. فإذا استمكن فى القسوة، وتجاوز فى سوء الأدب حدّ القلة، وزاد على مقدار الكثرة، فيحصل لهم من الحق ردّ، ويستقبلهم حجاب البعد. فعند ذلك لا يسمع لهم دعاء، ولا يرحم لهم بكاء، كما قيل، وأنشد:

فَخَلَّ سَبِيلَ الْعَيْنِ بَعْدَكَ لِلْبُكَاءِ فليس لأيام الصفاء رجوع. هـ

وقوم شمروا عن سابق الجد والتشمير، ولم يقلعوا من مولاهم بقليل ولا كثير، قد انتهزوا فرصة الأعمار، ولم يشغلهم عن الله ريع ولاديار، عمّروا أوقاتهم بالذكر والتذكّر، وفكرة الاعتبار والاستبصار، حتى وردوا دار القرار، أولئك المصطفون الأخيار، يدفع الله تعالى بهم عن أهل الدنيا الأنكاد والأغيار، يكشف عن قلوبهم الحجب والأستار. وقوم حققوا مقام الإيمان، واشتغلوا بتربيته، بصحبة أهل الإيقان، حتى أقضوا إلى مقام العيان، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين. جعلنا الله من خواصهم بمنه وكرمه، وبمحمد نبيه وحبّه ﷺ وعلى آله وصحبه.



سُورَةُ فَاطِرٍ

مكية. وآياتها ست - أو خمس - وأربعون. ومناسبتها لما قبلها: أن صدرها استدلال على عظم ذاته، وباهر قدرته، وتحقيق رسالة نبيه، بجعل الملائكة رُسلًا إليه، ففيها إزاحة للشك، وقلع للريب، الواقع في قلوب الكفرة، الذي خُتمت به السورة، فكأنه تعالى حمد نفسه على إظهار شأنه، وإن لم يحمده عتاة خلقه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ زَيْدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١)

قلت: (أولى): اسم جمع، كذُر، وهو بدل من «رسل»، أرعت له، و«مثنى وثلاث ورباع»: نعوت لأجنحة، وهو غير منصرف؛ لأنه معدول عن اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وهو باعتبار الأشخاص، أى: منهم من له اثنان، ومنهم من له ثلاثة، هذا ظاهر الكشف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الحمد لله ﴾، حمد نفسه؛ تعظيماً وتعظيماً، ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ مبدئهما ومبدعهما. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما كنت أدري معنى فاطر حتى اختصم إلى أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أى: ابتدأتها. قال البيضاوى: من الفطر، بمعنى الشق، كأنه شق العدم بإخراجهما منه. قلت: وكأنه شق الدور الكثيف من الدور اللطيف، فنور السموات والأرض من نوره الأزلى، وسره الخفى. ﴿ جاعل الملائكة رُسُلًا ﴾ إلى عبادته، أى: وسائط بين الله وبين أنبيائه والصالحين من عبادته، فيبلغون إليهم رسالاته بالوحي، والإلهام، والرؤيا الصادقة. ﴿ أُولَى أَجْنِحَةٍ ﴾ متعددة ﴿ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ أى: منهم ملائكة لهم اثنان؛ لكل واحد جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، بتفاوت ما لهم من المراتب، ينزلون بها، ويعرجون، أو: يسرعون نحو ما وكلهم الله عليه، يتصرفون فيه على ما أمرهم به، ولعله تعالى لم يرد الحصر ونفى مازاد عليها، لما روى أنه ﷺ رأى جبريل ليلة المعراج، وله ستمائة جناح (١). وروى أنه طلب منه أن يريه

(١) أخرجه البخارى فى (بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم «آمين» ح ٢٢٣٢) ومسلم فى (الإيمان، باب ذكر مدرة الملائكة ١/١٥٨، ح ١٧٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، لكنه ليس فيه «ليلة المعراج».

صورته التي خلقه الله عليها، فلما رآه كذلك خر مغشياً عليه . وقال: ما كنت أرى شيئاً من الخلق هكذا. فقال له: لو رأيت إسرافيل، إن له لاثني عشر جناحاً بالمشرق، واثني عشر جناحاً بالمغرب، وإن العرش لعلی كاهله، وإنه ليتضاءل لعظمة الله تعالى (١) هـ.

﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يزيد في خلق الأجنحة وغيره ما يريد. وقيل: هو الوجه الحسن، والشعر الحسن، والصوت الحسن، والحظ الحسن، والملاحة في العيّن. والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق، من طول قامه، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة العقل، وجزالة في الرأي، وفصاحة في اللسان، وحسن خلق في المعاشرة، ومحبة في قلوب المؤمنين وغير ذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على ما يشاء، من زيادة في الخلق، ونقصان فيها، على حسب المشيئة السابقة.

الإشارة: الحمد في القرآن وقع على أربعة أقسام: حمد مطلق، وهو الواقع على عظمة ذاته، من غير أن يكون في مقابلة شيء، وهو قوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ (٢)، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣)، وحمد وقع في مقابلة تنزيه ذاته عن النقائص، وهو قوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا...﴾ (٤) الآية. وحمد وقع في مقابلة نعمة الإيجاد، وهو قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ (٥)، وحمد وقع في مقابلة نعمة الإمداد الحسى، كقوله: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦)، فإن التربية تقتضى وصول ما يحتاج إليه المرئى، أو الإمداد المعنوى، وهو إمداد القلوب والأرواح بالهداية، وهو قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ (٧) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا...﴾ (٨) فهذه أربعة: حمد مطلق، أو مقيد بشأن التنزيه، أو بنعمة الإيجاد، أو الإمداد، وما وقع هنا في إظهار تجلياته، من أرضه وسماواته، ولطائف ملائكته، فإن ذلك كله من نور جبروته.

وقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ قال القشيري: يقال: هو الفهم عن الله، أو السخاء والجود، أو: الرضا بالتقدير، أو: علو الهمة، أو: التواضع في الشرف، أو: العفة في الفقر، أو: الظرف - أي: الظرافة - في الشمائل، أو: أن يكون محبوباً في القلوب، أو: خفة الروح، أو: تحرر القلب عن رِق الحرمان - أي: بالوقوف مع الأكوان - أو: ألا يطلب لنفسه منزلة في الدارين - أي: بأن يكون عبد الله حقيقة - هـ. ملخصاً.

(٢) من الآية ٥٩ من سورة النمل.
(٤) الآية ١١١ من سورة الإسراء.
(٦) الآية ٣٦ من سورة الجاثية.
(٨) من الآية ٤٣ من سورة الأعراف.

(١) ذكره القرطبي (٥٥٥٨/٦) عن الزهري.
(٣) من الآية ٧٥ من سورة اللحل.
(٥) من الآية الأولى من سورة الأنعام.
(٧) الآية الأولى من سورة الكهف.

والصواب أن الزيادة تشمل ذلك كله، وكل من خصه بشيء؛ فإنما ذلك رحمة منه تعالى، كما قال تعالى:

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ ﴾ أى: ما يطلق ويرسل من رحمة، كنعمة، ومطر، وأمن، وعافية، ورزق، وعلم، ومعرفة، ونبوة، وغيرها، ﴿ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾؛ فلا أحد يقدر على إمساكها وردّها، واستعير الفتح للإطلاق؛ لأنه مسبب عنه. ونكر الرحمة للإشاعة والإبهام، كأنه قال: من أى رحمة كانت، فتشمل نعمة الدفع والجلب، كدفع المحن وجلب المنن. والاعتراف بالمنعم من تمام النعمة، والأمران مدرجان فى الفتح والإمساك، ﴿ وَمَا يُمْسِكُ ﴾ أى: يمنع ويحبس من ذلك ﴿ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ ﴾؛ فلا مطلق له ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾؛ من بعد إمساكه. وأنت الضمير الراجع إلى الاسم المتضمن معنى الشرط على معنى الرحمة، وذكره؛ حملاً على لفظ المرجوع إليه؛ إذ لا تأنيث فيه؛ لأن الأول فسر بالرحمة، فحسن إتباع الضمير التفسير، ولم يفسر الثانى فترك على أصل التذكير.

وعن معاذ رضي الله عنه مرفوعاً: «لا تزال يد الله مبسطة على هذه الأمة ما لم يرفق خيارهم بشارهم، ويعظم برهم فاجرهم، وتعين قراؤهم أمراءهم على معصية الله. فإذا فعلوا ذلك نزع الله يده عنهم» ^(١) قال ابن عرفة: يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُمْسِكُ .. ﴾ أن العدم السابق الإضافى متعلق للقدرة، وجعله بعض الأصوليين متعلقاً للإرادة أيضاً، وذلك لأن المصحح للتعلق الإمكان. هـ. قال الأبي: لا دليل فى الآية؛ لاحتمال أن يكون التقدير: وما يريد إمساكه، فيكون من متعلقات الإرادة، ويحتمل: وما يُمْسِكُ عن الإرسال بعد وجوده، كإمساك الماء عن النزول بعد خلقه فى السحاب. هـ. ﴿ وهو العزيز ﴾ الغالب، القادر على الإرسال والإمساك. ﴿ الحكيم ﴾ الذى يرسل ويُمْسِكُ، بما تقتضى الحكمة إرساله، أو إمساكه.

الإشارة: ما يفتح الله لقلوب عباده من نفحات، وواردات، وإلهامات، وعلوم لدنية، وحكم ريانية، وتعارفات جمالية وجلالية، فلا ممسك لها، بل الله يفتح على من يشاء، ويسد الباب فى وجه من شاء. وسد الباب فى وجه العبد عن معرفته الخاصة، علامته: عدم إيصاله إلى أوليائه. فكل من وصله إليهم، وصحبهم، وعظمهم، وخدمهم،

(١) ذكر نحوه العراقى فى المغنى (٢/١٦٤) وعزاه لأبى عمرو الدانى، فى كتاب الفتن، من رواية الحسن، مرسلًا، بلفظ: (لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه ما لم يماليء قراؤها أمراءها) وقال العراقى. ورواه الديلمى فى مسند الفردوس، من حديث على، وابن عمر، بلفظ: «ما لم يعظم أبرارها فجارها، ويداهن خيارها شرارها»، وإسنادهما ضعيف.

فقد فتح الله له الباب في وصوله إليه، وكل من نكبه عنهم، ولم يصحبهم، كما ذكر، فقد سد الباب في وجهه عن معرفته العيانية. وفي الحكم: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه» (١). وما يمسك من ذلك فلا مرسل له من بعده، ولو صلى وصام ألف عام. قال القشيري: ما يلوح لقلوب العارفين من أنوار التحقيق لا سحاب يستتره، ولا ضباب يقهره. ويقال: ما يلزم قلوب أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا ممسك له، والذي يمنع من أعدائه - بسبب ما يلقيهم فيه من انغلاق الأمور واستصعابها - فلا ميسر له من دونه. هـ. وبالله التوفيق.

ثم نكروهم بالنعم؛ لأن تذكر النعم سبب الفتح، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ
قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾

قلت: «غير الله»: من رفعه فنعت للمحل، أى: هل خالق غير الله، ومن جره: فنعت للفظ. ويرزقكم: إما استئناف، أو: صفة ثانية لخالق، ولا إله إلا هو: مستأنفة، لا محل لها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم﴾ باللسان والقلب، وهى التى تقدمت، من بسط الأرض كالمهاد، ورفع السماء بلا عماد، وإرسال الرسل للهداية والإرشاد، والزيادة فى الخلق، وفتح أبواب الرزق. ثم نبه على أصل النعم، وهو توحيد المنعم، فقال: ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء﴾ بالمطر ﴿والأرض﴾ بالنبات، بل لا خالق يرزق غيره، ﴿لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾. فمن أى وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

ثم سأل نبيه عن صدف قومه عن شكر المنعم بقوله: ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك﴾، فلك فيهم أسوة، فاصبر كما صبروا. وتكثروا رسل، للتعظيم، المقتضى لزيادة التسليّة، والحث على المصابرة، أى: فقد

(١) انظر الحكم بتجريب المتقى الهلدى (ص/١٣، حكمة/١٥٦).

كُذِّبَتْ رسل عظام، ذرو عدد كثير، وأولو آيات عديدة، وأهل أعمار طوال، وأصحاب صبر وعزم. وتقدير الكلام: وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل قبلك؛ لأن الجزاء يعقب الشرط، ولو أجرى على الظاهر، لكان الجزاء مقدماً على الشرط؛ لأن تكذيب الرسل سابق، فوضع ﴿فقد كُذِّبَتْ رسل من قبلك﴾ موضع فتأس، استغناء بالسبب عن المسبب. ﴿والى الله ترجع الأمور﴾، وهو كلام مشتمل على الوعد والوعيد، من رجوع الأمور إلى حكمه، ومجازاة المكذب والمكذب بكل ما يستحقه في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والعز لأهل الحق، وبالنذل والإهانة لأهل التكذيب، وفي الآخرة معلوم، فالإطلاق أحسن من التقييد بالآخرة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ذكر النعمة هو أن ينظر العبد، ويتفكر في نفسه، فيجد نفسه مغروقة في النعم الظاهرة والباطنة. وقد تقدم تعدادها في لقمان (١). ولينظر في حالته الماضية، فقد كان جاهلاً، فعلمه الله، ضالاً، فهداه الله، غافلاً، فأيقظه الله، عاصياً، فوفقه الله، إلى غير ذلك من الأحوال السنية. ولينظر أيضاً إلى من تحته من العباد، فيجد كثيراً من هو أسوأ منه حالاً ومقاماً، فيحمد الله ويشكره. قال ﷺ: «انظروا إلى من هو تحتكم ولا تنظروا إلى من فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم» (٢). وحمله المحققون على العموم في الدين والدنيا. ذكره ابن عباد في الرسائل وغيره.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: تذكروا النعم؛ فإن ذكرها شكر. هـ. وقال القشيري: من ذكر نعمته فصاحب عبادة، ونائل زيادة، ومن ذكر المنعم فصاحب إرادة، ونائل زيادة، ولكن فرق بين زيادة وزيادة، هذا زيادته في الدارين عطاؤه، وهذا زيادته لقاءه، اليوم سرّاً بسراً، من حيث المشاهدة، وغداً جهراً بجهراً، من حيث المعاينة. هـ. قلت: من تحقق بغاية الشهود لم يبق له فرق بين شهود الدارين؛ إذ المتجلى واحد. ثم قال: والنعمة على قسمين: ما دفع من المحن، وما وضع من المنن، فذكره لما دفع عنه يوجب دوام العصمة، وذكره لما نفع به يوجب تمام النعمة، «هل من خالق غير الله...؟» فائدة هذا التعريف بوحديته، فإذا عرف أنه لا رازق غيره؛ لم يعلق قلبه بأحد في طلب شيء. وتوهم شيء من أمثاله وأشكاله، ويستريح لشهود تقديره، ولا محالة يخلص في توكله وتقويضه. هـ.

(١) راجع تفسير الآية ٢٠ من سورة لقمان.

(٢) أخرجه مسلم في (الزهد والرقائق ٤/ ٢٢٧٥، ح ٢٩٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم قال في قوله: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ...﴾ الآية: وفي هذا إشارة للحكماء، وأرباب القلوب، مع العوام والأجانب عن هذه الطريقة، فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل، وأهل الحقائق منهم أبداً في مقاساة الأذية، إلا بستر حالهم عنهم، والعوام أقرب إلى هذه الطريقة من القراء المتعمقين، والعلماء المتجمدين، الذين هم لهذه الأصول منكرون. هـ.

ثم حذر من الدنيا؛ لأنها تنسى النعم والشكر، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمُ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۚ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۚ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله﴾ بالبعث والجزاء ﴿حق﴾، أي: كائن لا محالة، فاستعدوا للقاءه، ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾؛ لا تخدعنكم زخارف الدنيا الفرارة، ولا يذهلنكم التمتع بها، والتلذذ بملاذها، والاشتغال بجمعها واحتكارها، عن التأهب للقاء الله، وطلب ما عنده. وفي الحديث: «فلا تخدعنكم زخارف دنيا دنية، عن مراتب جنات عليّة، فكأن قد كشف القناع، وارتفع الارتباب، ولاقى كل امرئ مستقره، وعرف مثواه ومنقلبه». ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ أي: الشيطان، فإنه يمنيكم الأمانى الكاذبة، ويقول: إن الله غنى عن عبادتك وعن تكذيبك. أو: إن الله غفور لمن عصاه.

﴿إن الشيطان لكم عدو﴾؛ ظاهر العداوة، فعل بأبيكم ما فعل، وأنتم تعاملونه معاملة الحبيب الناصح، ﴿فاتخذوه عدوا﴾؛ فلا تقبلوا غروره في عقائدكم وأفعالكم، وكونوا على حذر منه في جميع أحوالكم؛ إذ لا يوجد منه إلا ما يدل على عداوته في سرهم وجهرهم.

قال الورعجي: إنه عدو؛ لأنه من عالم القهر خلق، ونحن من عالم اللطف خلقنا. والطبعان متخالفان أبداً، لأن القهر واللطف تسابقا في الأزل، فسبق اللطف القهر، فعداوته من جهة الطبع الأول، والجهل بالعصمة، وأنوار التأييد والنصرة، ومن لا يعرفه بما وصفنا، كيف يتخذ عدواً؟ وهو لا يعرف مكائده، ولا يعرف مكائده إلا ولي أو صديق. هـ.

ثم خطأ من اتبعه؛ بأن غرضه أن يورد شيعته موارد الهلاك، بقوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، فهو تقرير لعداوته، وبيان لغرضه في دعوى شيعته إلى اتباع الهوى، والركون إلى الدنيا، أى: إنما يدعوهم إلى الهوى، ليكونوا من أهل النار.

ثم بين مآل من اتبعه ومن عاداه، فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أى: فمن أجابه إلى ما دعى فله عذاب شديد؛ لأنه صار من حزبه وأتباعه، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يجيبوه، ولم يصيروا من حزبه، بل عادوه، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ لكبر جهاده ودوامه.

الإشارة: وعد الله هنا عام، وكله حق، واجب الوقوع، لا يتخلف، فيصدق بوعده الرزق، وكفاية من انقطع إليه عن الخلق، لقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (١) وتولى من أصلح حاله لقوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَكَّلُ الصَّالِحِينَ﴾ (٢)، ويصدق بإثابة المطيع، وعتاب العاصي، أو: حلمه عنه، وغير ذلك من المواعد كلها، فيجب على العبد كفه عن الاهتمام بالرزق، وخوف الخلق، والتشمير في الطاعة، والفرار من المعصية، إن كان له ثقة بوعده ربه، وإلا فالخلل في إيمانه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ الخ، قوم فهموا من الخطاب أنهم أمروا بعدارة الشيطان، فاشتغلوا بعداوته ومحاربتها، فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب، وقوم فهموا من سر الخطاب: إن الشيطان لكم عدو، وأنا لكم حبيب، فاشتغلوا بمحبة الحبيب، فكفاهم عداوة العدو. قيل لبعضهم: كيف صنعتك مع الشيطان؟ فقال: نحن قوم صرفنا همنا إلى الله، فكفانا من دونه. فالشيطان كالكلب إن اشتغلت بدفعه مزق الثياب، أو قطع الإهاب، وإن رفعته إلى مولاه كفاك شره. وكذلك النفس إن اشتغلت بقصفتها ومجاهدتها على الدوام شغلتك عن ذكر الله، والفناء فيه، ولكن الدواء هو الغيبة عنها، والاشتغال بالله دائماً، فإذا أظهرت رأسها بقيام شهوتها، دقها، بعكس مرادها، وغب عنها في ذكر الله. ومن حكم شيخنا البوزيدى رحمته الله: «أنس نفسك بالله، واعتمد على فضل الله، وامتلئ شياً ما، وينوب الله». (٣) وفي الحكم العطائية: «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عن ناصيتك بيده». وقال أيضاً: «وحرك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه». وقال: «لو كنت لا تصل إليه إلا بعد فناء مساوئك، ومحو دعاويك، لم تصل إليه أبداً. ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه، غطى وصفك بوصفه، ونعتك بنعته، فوصلك بما منه إليك، لا بما منك إليك» (٤).

(١) من الآية ٣ من سورة الطلاق.

(٢) من الآية ١٩٦ من سورة الأعراف.

(٣) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص/٢٣، حكمة/٢٣٦). (٤) (ص/٣١، حكمة/١٣٠).

ومن جملة عداوته؛ تزيين القبائح، كما قال تعالى:

﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قلت: «أفمن»: مبتدأ حذف خبره، أي: كمن هداه الله، أو ذهبت نفسك عليه حسرات. و«حسرات»: مفعول له. وجمعها للتضاعف اغتمامه، أو تعدد مساوئهم. و«عليهم»: صلة لتذهب، كما نقول: هلك عليه حُباً، ومات عليه حُزناً. ولا يتعلق بحسرات؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته، إلا أن يتسامح في الجار والمجرور.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ بأن غلب هواه على عقله، وجهله على علمه، حتى انعكس رأيه، ﴿ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾؛ فرأى الباطل حقاً، والقبیح حسناً، كمن هداه الله واستبصر، فرأى الحق حقاً، والباطل باطلاً، فتبع الحق، وأعرض عن الباطل، ليس الأمر كذلك، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾، فمن أضله رأى الباطل حقاً، فتبعه، ومن هداه رأى الباطل باطلاً، فاجتنبه، والحق حقاً فاتبعه. ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ﴾ أي: فلا تهلك نفسك عليهم للحسرات على غيهم وإصرارهم على الكذب، فإن أمرهم بيدي، وأنا أرحم بهم منك، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ فيجازيهم عليه، وهو وعيد لهم بالعقاب على سوء صليهم.

الإشارة: إذا أراد الله إبعاد قوم؛ غطى نور بصيرتهم بظلمة الهوى، فيزيّن في عينهم القبيح، ويستقبح المليح، فيرون القبيح حسناً، والحسن قبيحاً، كما قال الشاعر:

يُغْمَى عَلَى الْمَرْءِ فِي أَيَّامِ مُحَنَّتِهِ حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ

قال القشيري: ومعنى التزيين؛ كالكافر يتوهم أن فعله حسن، وهو عند الله من أقبح القبيح، ثم الراغب في الدنيا يجمع حلالها وحرامها، ويحوش حطامها^(١)، لا يفكر في زوالها، ولا في ارتعاله عنها من قبل كمالها، ولقد زين له سوء عمله، والذي يتبع الشهوات يبيع مؤبد راحته في الجنة، بمتابعة شهوة ساعة، فلقد زين له سوء عمله، والذي يؤثر على ربه شيئاً من المخلوقات، فهو من جملتهم، والذي يتوهم أنه إذا رجد النجاة والدرجات في الجنة

(١) أي: يجمعه ويدخره.

فقد اكتفى، فقد زين له سوء عمله، حيث تغافل عن حلاوة مناجاته. والذي هو في صحبة حظوظه، دون إيثار حقوق الله، فقد زين له سوء عمله فرآه حسناً..

قلت: وكذلك من وقف مع الكرامات والمقامات، وحلاوة الطاعات، دون درجة المشاهدة، فقد زين له سوء عمله. والحاصل: كل من وقف مع شيء، دون تحقيق الفناء في الذات، فهو مزين له سوء عمله. وكل من لم يصحب الرجال فهو غلط، يظن أنه واصل، وهو منقطع في أول البدايات. وبالله التوفيق. وقوله تعالى: «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات»، كذلك يقال للواعظ، إذا رأى إقبال الخلق، وعدم تأثير الوعظ فيهم، فليكتف بعلم الله فيهم، ولا يتأسف على أحد، فإن التوفيق بيد الله.

وربما يحييهم بعد حين، كما يحيى الأرض بعد موتها، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ۝﴾

قلت: «كذلك»: خبر مقدم، والنشور: مبتدأ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿والله الذي أرسل الرياح﴾، وفي قراءة بالافراد، للجنس (١)، ﴿فتثير سحاباً﴾ أى: تزعجه، وعبر بالمضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة، التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، الدالة على كمال القدرة وباهر الحكمة. ﴿فسقناه إلى بلدٍ ميتٍ﴾، لا نبات فيه، ﴿فأحيينا به﴾ أى: بالمطر الدازل منه ﴿الأرض بعد موتها﴾ بعد يبسها. وعدل من الغيبة الى التكميل؛ لأنه أدخل في الاختصاص؛ لما فيه من مزيد بديع الصنع، ﴿كذلك النشور﴾ أى: مثل إحياء الموات نشور الأموات. وقيل: يحيى الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش، كمنى الرجال، فتنبت به الأجساد في قبورها، ثم يرسل الأرواح فتدخل في أشباحها (٢). قال أبو رزين: قلت: يارسول الله كيف يحيى الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال: «هل مررت بوادٍ أهلك محلاً؟» أى: جدياً. قلت: نعم، قال: فكذلك يحيى الله الموتى، وتلك آية الله في خلقه» (٣).

(١) قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي (الريح) بالتوحيد، وقرأ الباقون (الرياح) بالجمع. انظر الإنحاف (٣٩٢/٢).

(٢) ذكره الطبري (١١٩/٢٢).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١١/٤) والطبراني في الكبير (٢٠٨/١٩ ح ٤٧٠) والطحاوي (ص ١٤٧ ح ١٠٨٩) عن أبي رزين العقيلي. قال الهيثمي في المجمع (٨٥/١): رجاله ثقات.

الإشارة: والله الذي أرسل رياح الهداية، فتزعج سحب الغين عن قلوب أهل الهداية، فسقناه - أى: ربح الهداية - إلى قلب ميت بالغفلة والجهل بالله، فأحيينا بالوارد الناشئ عن ربح الهداية أرض النفوس، بالنشاط إلى العبادة، والذكر، والمعرفة، بعد موتها بالغفلة والقسوة، كذلك الدشور. وذلك عزها، كما قال تعالى:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۖ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ ۝﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ أى: الشرف والمنعة على الدوام، فى الدنيا والآخرة، ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾؛ فليطلبها من عنده، بالتقوى، والعلم، والعمل الصالح، كالزهد فى الدنيا، والتبذل إلى الله، أى: فالعزة كلها مختصة بالله، عز الدنيا وعز الآخرة. وكان الكفار يتعززون بالأصنام، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (١)، والمنافقون كانوا يتعززون بالمشركين، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُمِيتُوا عَنْ عِلْمِهِمْ عِنْدَ الْعِزَّةِ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا...﴾ (٢)، فبيّن أن العزة إنما هى لله بقوله: «فإن العزة لله، فليطلبها من أرادها من عنده. فوضع قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ موضعه، استغناء به عنه؛ لدلالته؛ لأن الشيء لا يطلب إلا من عند صاحبه ومالكه. ونظيره قولك: مَنْ أَرَادَ النَّصِيحَةَ؛ فهى عند الأبرار، أى: فليطلبها من عندهم. وفى الحديث: «إِنْ رِئِمَ يَقُولُ كُلُّ يَوْمٍ: أَنَا الْعَزِيزُ، فَمَنْ أَرَادَ عِزَّ الدَّارَيْنِ فَلْيَطْعِ الْعَزِيزُ» (٣).

ثم ذكر ما يطلب به العز، وهو العمل المقبول، بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾؛ كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وما يلحقها من الأذكار، والدعاء، والقراءة. وعنه عليه السلام: «هُوَ سُبْحَانُ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ. إِذَا قَالَهَا الْعَبْدُ عَرَجَ بِهَا الْمَلِكُ إِلَى السَّمَاءِ، فَحَيَّاهَا وَجْهَ الرَّحْمَنِ» (٤). وكان القياس: الطيبة، ولكن كل جمع ليس بينه وبين واحد إلا التاء يذكّر ويؤنث. ومعنى الصعود: القبول والرضا، وكل ما اتصف بالقبول وصف بالرفعة والصعود.

(٢) الآية ١٣٩ من سورة النساء.

(١) الآية ٨١ من سورة مريم.

(٣) ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات (١٢٠/١) عن أنس رضي الله عنه. وقال ابن الجوزى: وهذا من تلخيص سعيد بن هبيرة العامري، قال ابن عدى: كان يحدث الموضوعات.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري (١٢٠/٢٢) والحاكم - وصححه ووافقه الذهبي (٤٢٥/٢) - وأخرجه البيهقي فى الأسماء والصفات (٣٤/٢) والبيهقى فى التفسير (٤١٤/٦ - ٤١٥) من حديث ابن مسعود، موقوفاً.

﴿والعملُ الصالحُ﴾ كالعبادة الخالصة ﴿يرفعه﴾ الله تعالى، أى: يقبله. أو: الكلم الطيب، فالرافع على هذا الكلم الطيب، والمرفوع العمل الصالح، أى: والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب؛ لأن العمل متوقف على التوحيد، المأخوذ من الكلم الطيب؛ وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع، والكلم الطيب يصعد بنفسه، ففيه ترجيح الذكر على سائر العمل. وقيل: بالعكس، أى: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فإذا لم يكن عمل صالح فلا يقبل منه الكلم الطيب. وقيل: والعمل الصالح يرفع العامل ويشرفه، أى: من أراد العزة والرفعة فليعمل العمل الصالح؛ فإنه هو الذى يرفع العبد.

ثم ذكر سبب الذل فى الدارين، فقال: ﴿والذين يَمْكُرُونَ﴾ المكرات ﴿السيئات﴾، فالسيئات: صفة لمصدر محذوف؛ لأن «مكر» لا يتعدى بنفسه. والمراد: مكر قريش برسول الله ﷺ حين اجتمعوا فى دار الندوة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ (١) الآية. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فى الآخرة، ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ﴾ أى: يفسد ويبطل، دون مكر الله بهم، فالضمير يفيد الاختصاص.

الإشارة: العز على قسمين: عز الظاهر، وعز الباطن، فعز الظاهر هو تعظيم الجاه وبعد الصيت، واحترام الناس لصاحبه، ولمن تعلق به، وسببه: التقوى، والعلم، والعمل، ومكارم الأخلاق؛ كالسخاء، والتواضع، وحمس الخلق، والإحسان إلى عباد الله. وعز الباطن: هو الغنى بالله، وبمعرفة، والتحرر من رِق الطمع، والتحلّى بحلية الورع. وسببه الذل لله، يظهر ذلك بين أقرانه، كما قال الشاعر:

تَذَلُّ لِمَنْ تَهْوَى لِتَكْسِبَ عِزَةً فكم عِزَةً قَدْ نَالَهَا المرءُ بالذُّلِّ

إذا كان من تَهْوَى عزيزاً ولم تكن ذليلاً له فاقْرِ السلامَ على الوَصْلِ

وغايته: الوصول إلى معرفة الشهود والعيان. فإذا تعزز القلب بالله لم يلتفت إلى شيء، ولم يفتقر إلى شيء، وكان حراً من كل شيء، عبداً لله فى كل شيء. وقد يجتمع للعبد العزان معاً، إذا كان عارفاً بالله عاملاً، وقد ينفرد عز الظاهر فى أهل الظاهر، وينفرد عز الباطن فى بعض أهل الباطن، يتركهم تحت أستار الخمول، حتى يلقوه وهم

(١) من الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

عرانس الأولياء، صن بهم الحق تعالى عن خلقه، فلم يظهرهم لأحد، حتى قدموا عليه، وهم الأولياء الأخفيا، الاتقياء، كما ورد مدحهم في الحديث (١). وكلا العزيز لله، وبإيد الله، فلا يطلب واحد منهما إلا مده سبحانه.

قال القشيري: وقال في آية أخرى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) فأثبت العزة لغيره، والجمع بينهما: أن عزة الربوبية لله وصفاً، وعزة الرسول والمؤمنين لله فضلاً، ومنه لطفاً، فإذا العزة لله جميعاً. والكلم الطيب هو الذي يصدر عن عقيدة طيبة، وقلب طيب، لا كدر فيه ولا أغيار، وقيل: ما ليس فيه حظ للعبد، وقيل: ما يستخرج من العبد، وهو فيه مفقود، وقيل: ما ليس فيه حاجة، ولا يطلب عليه عوض، وقيل: ما يشهد بصحته الإذن والتوقيف. انظر القشيري.

ويؤخذ من قوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أن العمل إذا بقى بين عين العبد يلحظه، وينظر إليه، فهو علامة على عدم قبوله، إذ لو قبل لرفع عن نظره، فلا عمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده، ويختفى لديك وجوده. والذين يمكرون بالأولياء، المكرات السيئات، لهم عذاب شديد، وهو البعد من الله، ومكر أولئك هو بيور. وأما الأولياء فهم في حجاب مستور، من كل مكر وخداع وغرور.

ثم ذكر أصل نشأتهم؛ ليتحققوا ضعفهم وروهنهم، فقال:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والله خلقكم﴾ أي: أباكم ﴿من تراب، ثم﴾ أنشأكم ﴿من نطفة، ثم جعلكم أزواجاً﴾؛ أصنافاً، أو: ذكراً وإناثاً، ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾؛ إلا معلومة له، وقتاً وكيفية، ﴿وما يعمر من معمر﴾ أي: وما يمد في عمر أحد فيكون طويلاً. وإنما سمّاه معمراً لما هو صائر

(١) يشير الشيخ المفسر - رحمه الله - إلى حديث: «إن لله ضلالتين من خلقه، يندوهم في رحمته، يحبيهم في عافية، ويميتهم في عافية، وإذا توفاهم توفاهم إلى جلته، أولئك الذي تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم وهم بها في عافية، عزاه السيوطي في الجامع الصغير (ج ٢٣٧٢) للطبراني، وأبى نعيم في الحلية، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) من الآية ٨ من سورة المفاقون.

إليه، ﴿وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ أي: يكون عمره قصيراً ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: اللوح المحفوظ، أو: صحيفة الإنسان. وقال ابن جبير: «مكتوب في أول الكتاب: عمره كذا وكذا، ثم يكتب أسفل ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، ذهب ثلاثة، حتى ينقطع عمره» (١). ففسر النقص بالذهاب، ولا يذهب شيء من عمره إلا في كتاب. ويمكن أن يُجرى على ظاهره، باعتبار المحو والإثبات في غير أم الكتاب، كما ورد في صلة الرحم وقطعها. وانظر عند قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ...﴾ (٢) إلخ. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إحصاء الأعمار، أو زيادتها ونقصانها، سهل على علم الله وقدرته.

الإشارة: أصل نشأة الأشباح من الصلصال، وأصل نشأة الأرواح من نور الكبير المتعال، فمن غلبت طبيئته على روحانيته، وهواه على عقله، التحق بالبهائم، ومن غلبت روحانيته على بشريته، وعقله على هواه، التحق بالملائكة الكرام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْمرُّ مِنْ مَعْمَرٍ...﴾ الآية، طول العمر وقصره عند الحكماء، ليس هو بكثرة أماده، وإنما هو بكثرة أمداده. وفي الحكم: «رُبَّ عَمْرٍ اتسعت أماده، وقلَّتْ أمداده، ورُبَّ عَمْرٍ قليلة أماده، وكثيرة أمداده». والأمداد: ما يجد القلب من معارف الله، وعلومه، وأنواره، وأسراره. فربَّ قلب استمد في زمان قليل، من العلوم والمعارف والأسرار، مالم يستمده غيره في أزمنة متطاوله. وقال أيضاً: «من بورك له في عمره، أدرك في يسير من الزمان من ممن الله تعالى، ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، ولا تلحقه الإشارة» (٣). والغالب أن هذه الأمداد إنما تدال بصحبة الرجال العارفين بالله، فإن المدد الذي يحصل له معهم في ساعة واحدة؛ لا يحصل في أزمنة طويلة مع غيرهم، ولو كثرت صلاتهم وصيامهم.

وقال في القوت: فإن البركة في العمر أن تدرك في عمرك القصير، بيظنتك، ما فات غيرك في عمره الطويل بعد، فيرتفع لك في السنة ما لا يرتفع لغيرك في عشرين سنة. وللخصوص من المقربين في مقامات القرب عند التجلي بصفات الرب إلحاق برفع الدرجات، وتدارك بما فات عدد أذكارهم، وأعمال قلوبهم، اليسيرة، في هذه الأوقات. فكل ذرة من تسبيح، أو تهليل، أو حمد، أو تدبر، أو تبصرة، أو تفكر وتذكرة، لمشاهدة قرب، ووجد برب، ونظرة إلى حبيب، ودنو من قريب، أفضل من أمثال الجبال من أعمال الغافلين، الذين هم لنفوسهم واجدون، وللخلق مشاهدون. ومثال العارفين، فيما ذكرناه؛ من قيامهم بشهادتهم ورعايتهم لأماناتهم وعهدهم، في وقت

(١) عزاء السيوطي في الدر المنثور (٤٦٤/٥) لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في العظمة.

(٢) الآية ٤٠ من سورة الرعد.

(٣) انظر الحكم بتبريب المتقي الهندي (ص ٢٨، حكمة ٢٥٩، ٢٦٠).

قريبهم وحضورهم؛ مثل العامل في ليلة القدر، العمل فيها، لمن وافقها، خير من ألف شهر. وقد قال بعض العلماء: كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر. هـ. منه.

ثم ذكر دلائل قدرته؛ تنميماً لقوله: ﴿إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، فقال:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِيَتَبَغَّوْا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما يستوي البحرين﴾ في العذوبة والملوحة، بل هما مختلفان، والماء واحد، ﴿هذا عذب فرات﴾ أي: شديد العذوبة. وقيل: هو الذي يكسر العطش؛ لشدة برودته، ﴿سائغ شرابه﴾ أي: سهل الانحدار، مريء، لعذوبته، ﴿وهذا ملح أجاج﴾؛ شديد الملوحة، وقيل: الذي تحرق ملوحته. ﴿ومن كلٍّ﴾ أي: من كل واحد منهما ﴿تأكلون لحماً طرياً﴾، وهو السمك، ﴿وتستخرجون حليّة﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان. قيل: من الملح فقط. وقيل: منهما. قال بعضهم: نسب استخراج الحلية إليهما؛ لأنه تكون في البحر عيون عذبة، تمتزج بماء الملح، فيكون اللؤلؤ من ذلك هـ. ﴿تلبسونها﴾ أي: نساؤكم؛ لأن القصد بالتزين هو الرجال.

﴿وترى الفلك﴾؛ السفن، ﴿فيه موازير﴾؛ شواقٍ للماء بجريها، يقال: مخرت السفينة الماء: شقته، وهي جمع ماخرة، ﴿ليتبغوا من فضله﴾؛ من فضل الله، ولم يتقدم له ذكر في الآية؛ ولكن فيما قبلها، ولو لم يجر له ذكر، لم يشكل لدلالة المعنى عليه. ﴿ولعلكم تشكرون﴾ الله على ما أولاكم من فضله.

وقيل: هو ضرب مثل للكافر والمؤمن، فالمؤمن يجري عذب فرات، والكافر ملح أجاج. ثم ذكر - على سبيل الاستطراد - ما يتعلق بالبحرين من نعم الله وعطائه. ويحتمل أن يكون على غير الاستطراد، وهو أن يشبه الجنسَيْن، ثم يفضّل البحر الأجاج على الكافر، وهو ما خص به من المنافع، كاستخراج اللؤلؤ، والمرجان، والسمك، وجري الفلك فيه، وغير ذلك. والكافر خلّو من المنافع بالكلية، فهو على طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ...﴾ (١).

(١) الآية ٧٤ من سورة البقرة.

الإشارة: بحر الشريعة عذب فُرات، سائغ شرابه، وبحر الحقيقة ملح أجاج؛ لأنه مُرٌّ على النفس، يحتاج ركوبه إلى بذل المهج والنفوس، وحط الرؤوس، وبذل الأموال، ورفض الأوطان والدنيا وأهلها. بخلاف الشريعة، فلا تحتاج إلى هذا كله، وإن كانت متوقفة على مشاق التعلم والتدريس، ولكن تنال مع بقاء عز النفس والمال والجاه، وغير ذلك. ومن كُلُّ تَأْكُلُون لَحْمًا طَرِيًّا، فبحر الشريعة يُنال منه حلاوة المعاملة الظاهرة، وبحر الحقيقة يأكل منه حلاوة الشهود والمعرفة. وترى سَفَنَ الْأَفْكَارِ فِي بَحَارِ الْأَحْدِيَةِ، مواخر، تجول في عظمة بحر الجبروت والملكوت، ولتبتغوا من فضله تمام معرفته، ولتكونوا من الشاكرين، أي: ممن يعبد شكرًا، لا قهراً.

قال القشيري: وما يستوى الوقتان، هذا بسيط، وصاحبه في رُوح، وهذا قبض، وصاحبه في نَوح. هذا خوف وصاحبه في اجتياح، وهذا رجاء وصاحبه في ارتياح. قلت: الرجاء عذب، والخوف ملح، خلاف ما يقتضى كلامه. ثم قال: هذا فرق، وصاحبه بوصف العبودية، وهذا جمع، وصاحبه بشهود الربوبية.

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال:

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكَكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل من ساعات أحدهما في الآخر، حتى يصير الزائد منهما خمس عشرة ساعة، والناقص تسعاً. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾؛ ذلّلها لما يراد منهما، ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يوم القيامة، فينقطع جريهما، ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، الإشارة إلى فاعل هذه الأشياء، وهى: مبتدأ، والله، وما بعده: أخبار، ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾؛ له التصرف التام. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾؛ من الأصنام، أي: تعبدونهم، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾؛ وهى القشرة الرقيقة الملتفة على النواة، كما أن النقيير: النقطة في ظهره. وهما كنايةتان عن حقارة الشيء وتصغيره.

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أى: الأصنام ﴿لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ﴾؛ لأنهم جماد، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾؛ لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلهية، بل يتبرزون منها. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْ كَيْكُمْ﴾؛ بإشراككم لهم، وعبادتكم إياهم. ويقولون: ﴿مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ﴾ (١). ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أى: ولا يخبرك بالأمر على حقيقته مخبر مثل خبير به، وهو الله تعالى؛ فإنه خبير به على الحقيقة، دون سائر المخبرين. والمراد: تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم، ونفى ما يدعون لها. أو: ولا يخبرك أيها المفتون بأسباب الغرور، كما ينبتك الله الخبير بخبايا الأمور وتحقيقها، أى: لا يخبرك بالأمور مخبر هو خبير عالم به، يريد أن الخبير بالأمور وحده هو الذى يخبرك بالحقيقة، دون سائر المخبرين. والمعنى: أن هذا الذى أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق؛ لأنه خبير بما أخبرت به. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال الشيخ أبو العباس المرسى رحمته: يُولج الليل فى النهار، ويُولج النهار فى الليل. يُولج المعصية فى الطاعة، ويُولج الطاعة فى المعصية. يعمل العبد الطاعة فيُعجب بها، ويعتمد عليها، ويستصغر من لم يفعلها، ويطلب من الله العوض عليها، فهذه حسدات أحاطت بها سيئات. ويذنب العبد الذنب، فيلتجأ إلى الله فيه، ويعتذر منه، ويستصغر نفسه، ويعظم من لم يفعله، فهذه سئلة أحاطت بها حسدات، فأيتهما الطاعة، وأيتهما المعصية؟ هـ. أو: يُولج ليل القبض فى نهار البسط، وبالعكس، أو: يُولج ليل الحجة فى نهار الكشف، ونهار الكشف فى ليل القطيعة، يتواردان إلى حال طلوع شمس العرفان، فلا غروب لها، كما قال الشاعر:

طلعت شمس من أحب بليلٍ واستنارت فما تلاها غروب
إن شمس النهار تغرب بالليل لشمس القلوب ليست تغيب (٢).

قال القشيري: يُولج الليل فى النهار، تغلب النفس مرة على القلب، وبالعكس، وكذلك القبض والبسط، فقد يستويان، وقد يغلب أحدهما، وكذلك الصحو والسكّر، والفناء والبقاء، وآثار شمول التوحيد، وأقمار المعرفة على ما يريد من إظهارها على القلوب هـ. فهذه كلها يُولج أحدها فى الآخر. ولا يعرف هذا إلا من تحقق بفقره إلى الله تعالى، كما قال:

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۖ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝﴾

(١) من الآية ٢٨ من سورة يونس.

(٢) البيت من الخفيف، وهو للعلاج. انظر ديوانه ص ٢٣، وصلة تاريخ الطبرى ٨٧/١١.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾ في دقائق الأمور وجليلها، في كل لحظة لا يستغنى أحد عنه طرفة عين، ولا أقل من ذلك؛ إذ لا قيام للعبد إلا به، فهو مفتقر إلى الله، إيجاباً وإمداداً. قال البيضاوي: وتعريف الفقراء؛ للمبالغة في فقرهم، كأنهم لشدة افتقارهم، وكثرة احتياجهم، هم الفقراء دون غيرهم، وأن افتقار سائر الخلق بالإضافة إلى فقرهم غير معتد به، ولذلك قال: ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ (١) قلت: ويمكن أن يكون الحصر باعتبار الحق تعالى، أي: أنتم فقراء دون خالقكم، بدليل وصله بقوله: ﴿والله هو الغني الحميد﴾.

وقال ذون النون رحمته الله: الخلق محتاجون إليه في كل نفس، وطرفة، ولحظة، وكيف لا، ووجودهم به، وبقاؤهم به؟، ﴿والله هو الغني﴾ عن الأشياء كلها، ﴿الحميد﴾ أي: المجمود بكل لسان. ولم يسمهم بالفقر لتحقيق، بل للتعظيم؛ لأن العبد إذا أظهر فقره لسيد الغنى؛ أغناه عن أشكاله وأمثاله. وذكر الحميد، ليدل به على أنه الغنى النافع بغناه خلقه، والجواد المدعم عليهم؛ إذ ليس كل غنى نافعا بغناه، إلا إذا كان الغنى جواداً منعماً، وإذا جاد وأنعم، حمده المنعم عليهم.

ولما ذكر افتقارهم إلى نعمة الإيجاد، ذكر افتقارهم إلى نعمة الإمداد، بقوله: ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أي: إن يشأ يفتيككم كلكم، ويردكم إلى العدم؛ فإن غناه بذاته، لا بكم، ﴿ويأت بخلق جديد﴾ يكون أطوع منكم، أو بعالم آخر غير ما تعرفون. ﴿وما ذلك﴾ أي: الإفناء والإنشاء ﴿على الله بعزیز﴾ بممتنع. وعن ابن عباس: يخلق بعدكم من يعبد، لا يشرك به شيئاً. قال القشيري: فقر الخلقة عام لكل أحد، في أول حال وجوده؛ ليبيد وينشئه، وفي ثاني حال بقائه؛ ليديمه ويبقيه. هـ. قلت: وإليه أشار في الحكم بقوله: «نعمتان ما خلا موجود عنهما، ولا بد لكل موجود منهما: نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، أنعم أولاً بالإيجاد، وثانياً بتوالي الإمداد».

الإشارة: الفقر على أربعة أقسام: فقر من الدين، وفقر من اليقين، وفقر من المال، وفقر مما سوى الله. فالأولان مذمومان، وصاحبهما موسوم بالإفلاس والهلع، ومنهما وقع التعوذ في الحديث. والثالث: إن صاحبه الرضا فممدوح، وفيه وردت الأحاديث النبوية، والأفمذموم، ويشمله التعوذ في الحديث. الرابع: هو مطلب القاصدين والعارفين، وهو الغيبة عما سوى الله، والغنى بالله، كما قال الشيخ أبو الحسن: «أسألك الفقر عما سواك، والغنى بك، حتى لا تشهد إلا إياك» وهو ينشأ عن التحقق بالفقر ظاهراً وباطناً؛ لأن الفقر من وصف العبد، والغنى

(١) الآية ٢٨ من سورة النساء.

من وصف الرب، فمن تحقق بوصفه أمده الله بوصفه، «تحقق بوصفك يمدك بوصفه، تحقق بفقرك يمدك بغناه، تحقق بذلك يمدك بعزه» (١).

وقال القشيري - بعد كلام -: والفقراء على أقسام؛ فقير إلى الله، وفقير إلى شيء هو من الله؛ معلوم ومرسوم. ومن افتقر إلى شيء استغنى بوجود ذلك الشيء، فالفقير إلى الله هو الغني بالله، فالافتقار إلى الله لا يخلو من الاستغناء بالله. فالفقير إليه مستغنى به، والمستغنى به فقير إليه. ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخشوع، ومن آفات الغنى امتزاجه بالتكبر. وشرف العبد وعزه في فقره، وذله وصغاره في توهمه الغنى، وأنشدوا.

وَإِذَا تَذَلَّلْتَ الرَّقَابَ [تَقَرُّبًا] (٢) مَنَا إِلَيْكَ فَعَزُّهَا فِي ذُلِّهَا

ومن شرط الفقير: ألا يملك شيئاً، ولا يملكه شيء. ومن آداب الفقير الصادق: إظهار التكثر عند وجود التقتر، والشكر على البلوى، والبعد عن الشكوى. ويقال: الفقر المحمود: العيش مع الله براحة الفراغ على سَرْمَدِ الوقت، من غير استكراه شيء منه بكل وجه. هـ. ملخصاً.

قال الورتجبي: فطرة الإنسانية وقعت من الخيب مضطربة متحركة إلى الأزل، بنعت الافتقار إليه، كانجذاب الحديد إلى المغناطيس؛ لأنها وقعت بنعت العشق، والعاشق مفتقر إلى معشوقه، انفعالاً، فمن عرفه بالأزلية والأبدية يفتقر إليه افتقاراً قطعياً؛ لأن بقاءه لا يكون إلا به. وإذا كان كذلك صار غنياً بالله، متصفاً بغناه، غنياً به عن غيره، مفتقراً إليه. فإذا كان في محل الصحو يكون مفتقراً إليه، وإذا كان في محل السكر بقى في رؤية غناه عنه، فصار محجوباً عنه، ولا يدري. هـ.

وقال سهل رحمته الله: لما خلق الله الخلق حكم لنفسه بالغنى، ولهم بالفقر، فمن ادعى الغنى، حُجب عن الله، ومن أظهر فقره أوصله فقره إليه. فيدبغى للعبد أن يكون مفتقراً بالسر إليه، ومنقطعاً عن الغير إليه، حتى يكون عبوديته لله محضنة، فالعبودية هي الذل والخضوع. هـ.

وقال الواسطي: من استغنى بالله لا يفتقر، ومن يتعزز بالله لا يذل. وقال يحيى بن معاذ: الفقر خير للعبد من الغنى؛ لأن الذلة في الفقر، والكبر في الغنى، والرجوع إلى الله بالتواضع والذلة خير من الرجوع إليه بكثرة الأعمال. وقيل: صفة الأولياء ثلاثة: الثقة بالله في كل شيء، والفسق إليه في كل شيء، والرجوع إليه من كل شيء. هـ.

(١) في الأصول [بقرها].

(٢) انظر الحكم (ص ٣١، حكمة / ١٧٨).

وكيف يفتقر العبد إلى العبد وهو لا يغنى عنه شيئاً؟ قال تعالى:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۚ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝﴾

قلت: «وازره»: صفة لمحذوف، أى: نفس آثمة. وإن تدع: شرط، ولا يحمل: جواب، ولا، النافية لا تمنع الجواب من الجزم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أى: ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى، والوزر والوقر أخوان، ووزر الشيء: حمله. والمعنى: أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذى اقترفته، فلا تؤخذ نفس بذنب نفس أخرى، كما تأخذ جبابرة الدنيا الظلمة الجار بجرمة الجار، والقريب بالقريب، فذلك ظلم محض. وأما قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (١) ففى الضالين المضلين، فإنهم يحملون أثقال إضلالهم وأثقال ضلالهم، وكل ذلك أوزارهم، ليس فيها شيء من أوزار غيرهم. ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى فى قوله: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٢).

قال ابن عطية: من تطرق من الحكام إلى أخذ قريب بقريبه فى جريمة - كفعل [زياد ونحوه] (٣)، فإن ذلك، لأن المأخوذ ربما أعان المجرم بمؤازرة، أو مواصلة، أو اطلاع على حاله، أو تقرير له، فهذا قد أخذ من الجرم بنصيب. وهذا هو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ...﴾ الآية؛ لأنهم أغروهم، وهو معنى قوله ﷺ: «من سنَّ سُنَّةً حَسَنَةً...» (٤) الحديث، فراجع. قلت: لا يجوز الإقدام على ظلم أحد بمجرد الظن، فالصواب حسم هذا الباب، والتصريح بتحريمه؛ لكثرة جور الحكام.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ نَفْسٌ مَّثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا﴾ أى: إلى حمل ثقل ذنوبها، ليتحمل عنها بعض ذلك، ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ﴾ المدعو، المفهوم من قوله: ﴿وَإِن تَدْعُ﴾، ﴿ذَا﴾

(١) الآية ١٣ من سورة العنكبوت. (٢) الآية ١٢ من سورة العنكبوت.

(٣) فى الأصول [كفعل زاد] والمثبت هو الذى فى تفسير ابن عطية. قلت: قال أبو حيان فى البحر المحيط، تعقيباً على كلام ابن عطية: «وكان ابن عطية تأول أفعال زياد، وما فعل فى الإسلام، وكانت سيرته قريبة من سيرة الحجاج».

(٤) الحديث أخرجه كاملاً مسلم فى (الزكاة، باب الحث على الصدقة، ٧٠٥/٢، ح ١٠١٧) من حديث جرير بن عبدالله.

قُرْبِي ﴿١٩﴾؛ ذا قرابة قريبة، كَأَبٍ، وولد، وأخ. والفرق بين معنى قوله: ﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وبين قوله: ﴿إِنْ تَدْعُ مِثْقَلَةَ إِلَى جِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ أَنَّ الْأَوَّلَ دَالٌّ عَلَى عَدْلِ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُوَازِئُ نَفْسًا بِغَيْرِ ذَنْبِهَا، وَالثَّانِي: فِي بَيَانِ أَنَّهُ لَا غِيَاثَ يَوْمُئِذٍ لِمَنْ اسْتَغَاثَ، فَمَنْ أَثْقَلَتْهُ ذُنُوبُهُ ثُمَّ اسْتَغَاثَ بِأَحَدٍ لَمْ يَنْفَعِهِ، وَهَذَا غَايَةُ الْإِنْذَارِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ مَنْ يَنْتَفِعُ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِإِنْذَارِكَ مَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أَيْ: يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ غَائِبِينَ عَنْهُ، أَوْ: يَخْشَوْنَ عَذَابَهُ غَائِبًا عَنْهُمْ، فَهُوَ حَالٌ، إِمَّا مِنَ الْفَاعِلِ أَوْ الْمَفْعُولِ الْمَحْذُوفِ. أَوْ: يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ فِي حَالِ الْغَيْبِ، حَيْثُ لَا أَطْلَاعَ لِلْغَيْرِ عَلَيْهِمْ، فَيَتَّقُونَ اللَّهَ فِي السِّرِّ، كَمَا يَتَّقُونَ فِي الْعَلَانِيَةِ. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾؛ اتَّقَنُوهَا فِي مَوَاقِفِهَا، ﴿وَمَنْ تَرَكَّى﴾ أَيْ: تَطَهَّرَ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَتَرَكَ الْمُنْهَيَّاتِ، ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾؛ إِذْ نَفَعَهُ يَعُودُ لَهَا، وَهُوَ اعْتِرَاضٌ مُؤَكَّدٌ لَخَشْيَتِهِمْ، وَإِقَامَتِهِمُ الصَّلَاةَ؛ لِأَنَّهَا مِنْ جَمَلَةِ التَّزَكَّى. ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾؛ الْمَرْجِعُ، فَيَجَازِيهِمْ عَلَى تَزَكِّيَتِهِمْ، وَهُوَ وَعْدٌ لِلْمُتَزَكِّينَ بِالْثَوَابِ.

الإشارة: وبإل الوزير خاص بصاحبه، إلا إذا كان مقتدى به، فإن عيبه أو نقصه يسرى في أصحابه، حتى يطهر منه؛ لأن الصحبة صيرت الجسدين واحداً. وراجع ما تقدم عند قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً...﴾ (١) الآية. قال القشيري: ﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾: كُلُّ مُطَالَبٍ بِعَمَلِهِ، وَمَحَاسِبٌ عَنْ دِيْوَانِهِ. وَلِكُلِّ مَعَهُ شَأْنٌ، وَلَهُ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ شَأْنٌ، وَمِنَ الْعِبَادَاتِ مَا تَجْرِي فِيهَا النِّيَابَةُ، وَلَكِنْ فِي الْمَعَارِفِ لَا تَجْرِي النِّيَابَةُ؛ وَلَوْ أَنَّ عَبْدًا عَاصِيًا مِنْهُمْكَ فِي غَوَايَتِهِ فَاتَتْهُ صَلَاةٌ مَفْرُوضَةٌ، فَلَوْ قَضَى عَنْهُ أَلْفُ وَلِيٍّ، وَأَلْفُ صَفِيٍّ، تِلْكَ الصَّلَاةُ الْوَاحِدَةُ، عَنْ كُلِّ رُكْعَةٍ أَلْفُ رُكْعَةٍ لَمْ تُقْبَلْ. هـ. وَقَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ...﴾ النخ: الْإِنْذَارُ هُوَ الْإِعْلَامُ بِمَوْضِعِ الْمَخَافَةِ. وَالْخَشْيَةُ هِيَ الْمَخَافَةُ، فَمَعْنَى الْآيَةِ: لَا يَنْتَفِعُ بِالْتَخْوِيفِ إِلَّا صَاحِبُ الْخَوْفِ. طَبِيرُ السَّمَاءِ عَلَى إِلَافِهَا تَقَعُ. هـ.

ثم ضرب المثل لمن تزكى، ومن لم يتزك، فقال:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ (٢٠) ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ (٢١) ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ (٢٢) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٣) إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٤) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٥)

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ أى: لا يستوى الكافر والمؤمن، أو الجاهل والعالم. وقيل: هما مثلان للصنم والله تعالى. ﴿ولا الظلمات﴾ كالكفر والجهل، ﴿ولا النور﴾ كالإيمان والمعرفة، ﴿ولا الظل﴾ كنعيم الجنان، ﴿ولا الحرور﴾ كآليم النيران. والحرور: الريح الحار كالسموم، إلا أن السموم يكون بالنهار، والحرور يكون بالليل والنهار. قاله الفراء.

﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾، تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين، أبلغ من الأول، ولذلك كرر الفعل، وقيل: للعلماء والجهال. وزيادة لا، فى الجميع للتأكيد، وهذه الواوات بعضها ضمت شفعاً إلى شفع، وبعضها وترأ إلى وتر. ﴿إن الله يسمع من يشاء﴾ بهدايته وتوفيقه لفهم آياته والاعتاظ بها. ﴿وما أنت بمسمع من فى القبور﴾، شبه الكفار بالموتى، حيث لا ينتفعون بمسموعهم، مبالغة فى تصاممهم، يعنى أنه تعالى علم من يدخل فى الإسلام ممن لا يدخل، فيهدى من يشاء هدايته، وأما أنت فخفى عليك أمرهم، فلذلك تحرص على إسلام قوم مخذولين، فإنذارهم كإنذار من فى القبور من الموتى.

قال ابن عطية: الآية تمثيل بما يحسسه البشر، ويعهده جميعنا من أن الميت الذى فى القبر لا يسمع، وأما الأرواح؛ فلا نقول: إنها فى القبر، بل تتضمن الأحاديث أن أرواح المؤمنين فى شجر عند العرش، وفى قناديل وغير ذلك^(١)، وأن أرواح الكفرة فى سجين، ويجوز فى بعض الأحيان أن تكون الأرواح عند القبور، فربما سمعت، وكذلك أهل قليب بدر، إنما سمعت أرواحهم، فلا تعارض بين الآية وحديث القليب هـ^(٢).

ثم قال تعالى: ﴿إن أنت إلا نذير﴾ أى: ما عليك إلا التبليغ والإنذار، فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفعه، وإن كان من المصرين فلا عليك.

﴿إننا أرسلناك بالحق﴾ أى: محقاً، أو: محقين، أو: إرسالاً مصحوباً بالحق، فهو حال من الفاعل، أو المفعول، أو صفة لمصدر محذوف، ﴿بشيراً﴾ لمن آمن ﴿ونذيراً﴾ لمن كفر، ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ أى: ما من أمة من الأمم الماضية، قبل أمك، إلا فيها نذير؛ نبى، أو عالم، يخوفهم. ويقال لأهل كل عصر: أمة. والمراد هنا: أهل العصر. قال ابن عطية: معناه: أن دعوة الله تعالى قد عمّت جميع الخلق، وإن كان فيهم من لم تبشره النذارة، فهو ممن بلغته الدعوة، لأن آدم بعث إلى بنيه، ثم لم تنقطع النذارة إلى وقت محمد ﷺ. والآية

(١) من هذه الأحاديث ما أخرجه الدرهمى فى (الجهاد، باب أرواح الشهداء) عن مسروق، قال: سألنا عبدالله فى أرواح الشهداء ولولا عبدالله لم يحدثنا أحد. قال: أرواح الشهداء عند الله يوم القيامة فى حواصل طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح فى أى الجنة حيث شئت، ثم ترجع إلى قناديلها، فيشرف عليهم ربهم، فيقول: ألكم حاجة؟ تريدون شيئاً؟ فيقولون: لا، إلا أن نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أخرى.

(٢) النقل باختصار.

تتضمن أن قريشاً لم يأتهم نذيرٌ، ومعناه: نذيرٌ مباشر، وما ذكر المتكلمون من فرض أصحاب الفترات ونحوهم، فإنما ذلك بالفرض، لا أنه توجد أمةٌ لم تعلم أن في الأرض دعوة إلى عبادة الله. هـ.

وذكر في الإحياء، في باب التوبة: أنه يشبه أن يكون من لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد، وعاشوا [على البلاء] (١) وعدم المعرفة، فلم تكن لهم معرفة، ولا جحود، ولا طاعة، ولا معصية، هم أهل الأعراف؛ لأنه لا وسيلة تقربهم، ولا جناية تبعدهم، فما هم من أهل الجنة، ولا من أهل النار، ويتركون في منزلة بين المنزلتين، ومقام بين المقامين. هـ. وقال ابن مرزوق في شرح حديث [هرقل] (٢): الدين الحق هو الإسلام، وماسواه باطل، عقلاً ونقلاً، فلا عذر لمن تحيله بالإجماع، كان متأولاً مجتهداً، أو مقلداً جاهلاً؛ لأن أدلة الإسلام واضحة قطعية، ومخالف مقتضاها مخطئ قطعاً. هـ.

وقال ابن عطية أيضاً، ما نصه: آدم ﷺ فمن بعده، دعا إلى توحيد الله تعالى دعاء عاماً، واستمر ذلك على العالم، فوجب على آدمي أن يبحث عن الشرع، الأمر بتوحيد الله تعالى، وينظر في الأدلة المنصوبة على ذلك، بحسب إيجاب الشرع النظر فيها، ويؤمن، ولا يعبد غير الله، فمن فرضناه لم يجد سبيلاً إلى العلم؛ فأولئك أهل الفترات، الذين أطلق عليهم أهل العلم أنهم في الجنة، وهم بمنزلة الأطفال والمجانين، ومن قصر في النظر والبحث، فعبد صنماً أو غيره، وكفر، فهذا ترك الواجب عليه، مستوجب للعقاب بالنار. هـ. وقال أيضاً: إنما صاحب الفترة بفرض أنه آدمي، لم يصل إليه: أن الله بعث رسولاً، ولا دعا إلى دين. وهذا قليل الوجود. إلا أن شذ في أطراف الأرض، والمواضع المنقطعة عن العمران. هـ.

والحاصل: أن من بلغه خبر الشرائع السابقة، والدعاء إلى توحيد الله، لا عذر له، وإنما بعثت الرسل بعد ذلك تجديداً، ومبالغة في إزاحة العذر، وإكمال البيان. قاله المحشي.

الإشارة: وما يستوي الأعمى، الذي لا يرى إلا حس الكائنات، والبصير، الذي فتحت بصيرته، فشاهد المكون، ولم يقف مع حس الكون، ولا الظلمات: المعاصي والغفلة ودائرة الحس، ونور اليقظة والعفة والمعرفة، ولا ظل برد الرضا والتسليم، وحرور التدبير والاختيار، وما يستوي الأحياء، وهم العارفون بالله، الذاكرون الله، والأموات الجاهلون، أو الغافلون. قال القشيري: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير...﴾ الآية، كذلك لا يستوي الموصول بنا والمشغول عنا، والمجذوب إلينا والمحجوب عنا، ومن أشهدناه حقنا، ومن أغفلنا قلبه عن ذكرنا. هـ.

(١) الكلمة مشتبهة في الأصول، وأثبتها من إحياء علوم الدين ٣٢/٤.

(٢) ما بين المعقوفين أثبتته من النسخة التيمورية، وهو مطموس في النسخ الأخرى. قلت: وحديث هرقل أخرجه البخاري في (بدء الوحي، باب ٦، ح ٧) ومسلم في (الجهاد، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعو إلى الإسلام ١٣٩٣/٣ - ١٣٩٧، ح ١٧٧٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس ؓ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾. النذير على قسمين: نذير من وبال الذنوب، ونذير من وبال العيوب. فوبال الذنوب: العذاب، ووبال العيوب: الحجاب، فمن تطهر من الذنوب استوجب نعيم الجنان، ومن تطهر من العيوب استوجب لذيذ الشهود والعيان. فالنذير الأول عالم بأحكام الله، والثاني عارف بالله، الأول مقتصد، والثاني سابق، ولا يخلو الدهر منهما، حتى يأتي أمر الله، فالشريعة باقية قائمة بقيام العلماء، والطريقة والحقيقة قائمتان بقيام الأولياء العارفين بالله، أهل التربية النبوية، بالاصطلاح، والهمة، والحال. ومن قال خلاف هذا فقد قال بالمحال.

ثم سلى نبيه؛ لأنه لما أنذر قومه قابله بالكذب، فقال:

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ
وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ أى: قومك ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم، حال كونهم قد ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ بالمعجزات الواضحة، ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾؛ وبالصحف ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أى: التوراة، والإنجيل، والزيور. ولما كانت هذه الأشياء من جنسهم، أسند المجئ بها إليهم إسناداً مطلقاً، وإن كان بعضها فى جميعهم، وهى البينات، وبعضها فى بعضهم، وهى الزُّبُر والكتاب. ويجوز أن يراد بالزُّبُر والكتاب واحد، والعطف لتغاير الوصفين، فكونها زُبر باعتبار ما فيها من المواعظ التى تزيّر القلوب، وكونها كتباً منيرة؛ لما فيها من الأحكام والبراهين النيرة. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: ثم عاقبت الكفرة بأنواع العقاب، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ إنكارى عليهم، وتعذيبى لهم؟ والاستفهام للتهويل.

الإشارة: تكذيب الصادقين سنة ماضية. فأولياء كل زمان يتسلون بمن سلف قبلهم، فقد قُتل بعضهم، وسُجن بعضهم، وأُجلى بعضهم، إلى غير ذلك؛ زيادة فى مقامهم وترقية بأسرارهم. والله عليم حكيم.

ثم ذكر دلائل قدرته على إهلاك من خالف أمره، فقال:

﴿الْمُرْتَأْنَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ...﴾

قلت : «مختلفاً» : نعت «ثمرات» . و «مختلف ألوانه» : صفة لمحدوف ، أى : صنف مختلف .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ۖ بِالماء ﴿ ثمراتٍ مختلفاً ألوانها ﴾ أى : أجناسها ، كالرمان ، والتفاح ، والتين ، والعنب ، وغيرها مما لا يُحصى ، أو : ألوانها : هياتها من الحمرة والصفرة ونحوهما . ﴿ ومن الجبال جُدَدٌ ۖ ﴾ طرق مختلفة اللون . جمع : جُدَّة ، كَمُدَّة ومُدَدٍ . والجُدَّة : الطريقة والخطّة ، تكون فى الجبل ، تخالف لون ما يليها . وكل طريقة من سواد أو بياض فهى جُدَّة . قاله الهروى . وهى مبتدأ وخبر ، أى : وطرق ﴿ بيض وحمراً ﴾ كائنة من الجبال .

﴿ وغرابيب سود ﴾ أى : ومنها غرابيب سود ، أى : ومن الطرق سود غرابيب ؛ جمع : غريب ، وهى التى أبعد فى السواد وأغرب ، ومنه : الغراب . قال الهروى : هى الجواد ذوات الصخور السود ، والغريب : شديدة السواد . هـ . وفى الصحاح : تقول هذا أسود غريب ، أى : شديد السواد ، وإذا قلت : غرابيب سود ؛ تجعل السود بدلاً من غرابيب ؛ لأن تركيد الألوان لا يتقدم . هـ . تقول : أصفر فاقع ، وأسود حالك ، ولا يتقدم الوصف ، ونقل الكواشى عن أبى عبيد : أن فى الآية تقديمًا وتأخيرًا ، تقديره : وسود غرابيب . وفائدته : أن يكون المؤكد مضمراً ، والمظهر تفسيراً له ، فيدل على الاعتناء به ، لكونهما معاً يدلان على معنى واحد . هـ . ولا بد من تقدير حذف مضاف فى قوله : ﴿ ومن الجبال جُدَدٌ ﴾ أى : من الجبال ذو جدد بيض ، وحمرة ، وسود غرابيب ؛ حتى يؤول إلى قولك : ومن الجبال مختلف ألوانه ، كما قال : «ثمرات مختلفاً ألوانها» .

﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه ﴾ ، أى : ومنهم صنف مختلف ألوانه بالحمرة والصفرة والبياض والسواد . ﴿ كذلك ﴾ أى : كاختلاف الثمرات والجبال . قال القشيري : تخصيص الفعل بهيئته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبرهانه . فاتقان الفعل وإحكامه شواهد الصنع وإعلامه . وكذلك أيضاً الناس والدواب والأنعام ، بل جميع المخلوقات ، متجانس الأعيان ، مختلف الصفات ، وهو دليل ثبوت مشئها بدعت الجلال . هـ .

الإشارة : ألم تر أن الله أنزل من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية ، فأخرجنا به ثمرات ، وهى العلوم والأذواق والوجدان ، مختلف ألوانها ، فمنها علوم الشرائع ، وتحقيق مسائلها ، ومنها علم العقائد ، وتشديد أدلتها وبراهينها ، ومنها علوم اللسان باتقان قواعدها ، ومنها علم القلوب وتصفياتها من العيوب ، وهو علم الطريقة ، ومنها علم الأسرار ، وهى أسرار الذات والصفات ، وهو علم الحقيقة . ومن جبال العقل طرق بيض ، وحمرة ، وسود ، فالبيض : طرق الكشف والبيان ، وحلاوة الذوق والوجدان ، والحمرة : طرق الدليل والبرهان ؛ لأنها قد تظهر وتخفى ، والسود الغرابيب : عقول

الفلاسفة والطبائعيين، أهل الحس والتخمين، إذا لم يقتدوا بالكتاب المبين، وشرع النبي الأمين. أولئك هم الضالون المضلون.

ولما كان النظر في هذه المصنوعات إنما يكون بالعلم، ذكر أهله، فقال:

﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (٢٨)

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ﴾ أى: يخافه ﴿من عباده العلماء﴾؛ لأنهم هم الذين يتفكرون في عجائب مصنوعات، ودلائل قدرته، فيعرفون عظمته وكبريائه، وجلاله وجماله، ويتفكرون فيما أعد الله لمن عصاه من العذاب ومناقشة الحساب، وفيما أعد لمن خافه وأطاعه من الثواب، وحسن المآب، فيزدادون خشية، ورهبة، ومحبة، ورغبة في طاعته، وموجب رضوانه، دون من عداهم من الجاهل. وفي الحديث عنه ﷺ: «أعلمكم بالله أشدكم له خشية» (١) وقال ﷺ: «رأس الحكمة مخافة الله» (٢).

وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم، وقال ابن عباس في تفسير الآية: كفى بالزهد علماً، وقال ابن مسعود: كفى بخشية الله علماً، وبالاعتذار جهلاً. وفي الحكم: «خير علم ما كانت الخشية معه». وقال في التنوير: اعلم أن العلم حيثما تكرر في الكتاب والسنة؛ فإنما المراد به العلم النافع، الذي تُقارنه الخشية، وتكتنفه المخافة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. بين سبحانه أن الخشية تلازم العلم، وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية. هـ.

وقال الشيخ ابن عباد رحمه الله: وأعلم أن العلم النافع، المتفق عليه فيما سلف وخلف، إنما هو العلم الذي يؤدي بصاحبه إلى الخوف والخشية، وملازمة التواضع والذلة، والتخلق بأخلاق الإيمان، إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها، وإثارة الآخرة عليها، ولزوم الأدب بين يدي الله تعالى، إلى غير ذلك من الصفات العلية، والمناحي السنية. هـ.

(١) قال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا، وفي الصحيح: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية». حاشية الكشاف (٦١١/٣).
(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٤٧١/١ ج ٧٤٣، ٧٤٤) عن ابن مسعود، موقوفاً ومرفوعاً. قال العراقي في المغنى: رواه أبو بكر بن لآل الفقيه في مكارم الأخلاق، والبيهقي في الشعب، وضعفه من حديث ابن مسعود، ورواه في دلائل النبوة، من حديث عقبة بن عامر، ولا يصح أيضاً.

وقال في لطائف المنن: شاهد العلم، الذي هو مطلب الله تعالى: الخشية، وشاهد الخشية: موافقة الأمر، فأما علم تكون دعه الرغبة في الدنيا، والتملق لأربابها، وصرف الهمة لاكتسابها، والجمع، والادخار، والمباهاة، والاستكثار، وطول الأمل، ونسيان الآخرة، فما أبعد من هذا نعته من أن يكون من ورثة الأنبياء! وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التي كان بها عند الموروث عنه. ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كالشمعة، تضيء على غيرها، وهي تحرق نفسها. جعل الله العلم - الذي علمه من هذا وصفه - حجة عليه، وسبباً في تكثير العقوبة لديه. هـ.

وتقديم اسم الله تعالى، وتأخير العلماء، يؤذن أن معناه: إن الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم. ولو عكس، بأن قال: إنما يخشى العلماء الله، لكان المعنى: أنهم لا يخشون إلا الله.

وقرأ أبو حنيفة وعمر بن عبد العزيز: بنصب العلماء، ورفع الله، والخشية في هذه القراءة بمعنى التعظيم. والمعنى: إنما يعظم الله من عباده العلماء. وعنه رحمته: «يقول الله للعلماء يوم القيامة - إذا قعد على كرسيه، يفصل قضاء عباده: إني لم أجعل علمي وحلمي فيكم؛ إلا وأنا أريد أن أغفر لكم، على ما كان فيكم، ولا أبالي» (١)، قال المنذرى: انظر إلى قوله: «علمي وحلمي» يتضح لك بإضافته إليه أنه لم يرد به علم أكثر أهل الزمان المجرد عن العمل به والإخلاص. وفي رواية: «لم أجعل حكمتي فيكم إلا لخير أريده بكم، ادخلوا الجنة بما فيكم». وقال - عليه الصلاة والسلام -: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء» (٢).

﴿إن الله عزيزٌ غفور﴾، هو تعليل لوجوب الخشية؛ لدلالته على عقوبة العصاة؛ لعزته وغلبته، وإثابة أهل الطاعة، والعفو عنهم؛ لعظيم غفرانه، والمعاقب والمثيب حقه أن يخشى.

الإشارة: العلماء على قسمين؛ علماء بأحكام الله، وعلماء بالله، العلماء بالأحكام يخشون غضبه وعقابه، والعلماء بالله يخشون إبعاده واحتجابه، العلماء بالأحكام يتقون مواطن الآثام، والعلماء بالله يتقون سوء الأدب في حضرة الملك العلام. فخشية العلماء بالله أرق وأشد. العلماء بالله أخذوا علمهم من الله، والعلماء بالأحكام أخذوا علمهم عن الأموات. قال الشيخ أبو يزيد رحمته: في علماء أهل الرواية: مساكين أخذوا علمهم ميت عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. هـ.

(١) أخرجه للطبراني في الكبير (١٣٨١) من حديث ثعلبة بن الحكم الصحابي. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦/١): رجاله موثقون.

(٢) عزاه السيوطي في الجامع الصغير (ح/١٠٠٢٦) للمرهبي، عن عمران بن حصين، وابن عبد البر، في العلم، عن أبي الدرداء، وابن الجوزي في العلل، عن النعمان بن بشير، وضعفه.

والفرق بين الخوف والرغبة والخشية: أن الخوف من العقاب، والرغبة من العتاب، والخشية من الإبعاد. قال القشيري: والفرق بين الخشية والرغبة: أن الرغبة؛ خوفٌ يُوجبُ هربَ صاحبه، فيجرى في تفرقه. والخشية إذا حصلت كَبَحَتْ صاحبها، فيبقى مع الله. فقدمت الخشية على الرغبة في الجملة، والخوف قضية الإيمان، قال تعالى: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١). والخشية قضية العلم والهيبة. هـ. ثم قال: العالم يخاف تقصيره في حق ربه، والعارف يخشى من سوء أدبه وترك احترام، وانبساط في غير وقت، بإطلاق لفظ، أو ترخيص بترك الأولى. هـ.

قال الورعجي: الخوف عموم، والخشية خصوص. وقد قرن سبحانه الخشية بالعلم، أي: العلم بالله وجلاله وقدره وربوبيته وعبوديته له. وحقيقة الخشية: وقوع إجلال الحق في قلوب العارفين، ممزوجاً بسنا التعظيم، ورؤية الكبرياء والعظمة، ولا يحصل ذلك إلا لمن شاهد القدم، والأزل، والبقاء، والأبد، فمن زاد علمه بالله زاد خشية، لقوله ﷺ: «أنا أعرقكم بالله وأخشاكم منه». هـ. وفي الحديث: قيل يا رسول الله: أي الأعمال أفضل؟ قال: «العلم» قيل: أي العلم؟ قال: «العلم بالله سبحانه»، (٢). وقال ﷺ: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنع؟ والله إني لأعلمكم بالله، وأشدكم له خشية» (٣).

ثم قال (٤): عن جعفر الصادق: العلم أمرٌ ترك الحرمة في العبادات، وترك الحرمة في الحياء من الحق، وترك الحرمة في متابعة الرسول، وترك الحرمة في خدمة الأولياء الصديقين. هـ. ومعنى كلامه: أن العلم الحقيقي هو الذي يأمن صاحبه من انتهاك حرمة العبادات، ومن هتك حرمة الاحتشام من الله ورسوله وأوليائه. ومن أراد من العلماء السلامة من الاغترار بالعلم فليطالع شرح ابن عباد، في قول الحكم: «العلم إن قارنته الخشية فلك، وإلا، فعليك». وبالله التوفيق.

(١) من الآية ١٧٥ من سورة آل عمران.

(٢) ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة (كتاب العلم، ١/٢٧٨، القيم الثالث) وعزاه لابن حبان، والديلمي عن أنس، عن طريق عباد ابن عبد الصمد. قال في تنزيه الشريعة (١/٧٠): «عباد بن عبد الصمد عن أنس، بنسخة، أكثرها موضوع. قاله ابن حبان». قلت: معلي الحديث صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في (الاعتصام، باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع، ح ٧٣٠١)، ومسلم في (الفضائل، باب علمه ﷺ بالله وشدة خشيته، ٤/١٨٢٩، ح ٢٣٥٦) من حديث السيدة عائشة بلفظ: «...لأننا أعلمهم بالله، وأشدهم له خشية».

(٤) أي: الورعجي.

ولما ذكر العلماء، ذكر حملة القرآن، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أى: يداومون على تلاوة القرآن ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: ألتفوها فى أوقاتها، ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ فرضاً ونفلاً ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: مسرّين النفل، ومعلنين الفرض، ولم يقتنعوا بتلاوته عن العمل به. وخبر إن: قوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾: لن تكسد، وهو ثواب أعمالهم، يعنى: يطلبون تجارة ينتفى عنها الكسد، وتنفق عند الله.

﴿لِيُوفِّيَهُمْ﴾ متعلق ب: «تبور»، أى: ليوفّيهم بإنفاقها عند الله ﴿أَجُورَهُمْ﴾: ثواب أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ بتفسيح القبور، أو: تشفيهم فى أهلهم، ومن أحسن إليهم، أو: تضعيف حسناتهم، أو: بتحقيق وعد لقائه.

أخرج ابن أبى شيبه عن بريدة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، يَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرَفَكَ، فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَتِكَ، فَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ وَرَاءَ تِجَارَتِهِ. قَالَ: فَيُعْطَى الْمَلِكُ بِيَمِينِهِ، وَالْخُدَّ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ، لَا تُقَوِّمُ لَهُمَا الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ: بِمِ كُسِينَا هَذَا؟ فَيَقَالُ لَهُمَا: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ، وَاصْعِدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغَرَفِهَا، فَهُوَ فِي صَعُودِ مَا دَامَ يَقْرَأُ» (١).

وذكر فى بعض الأخبار: أن حملة القرآن يحشرون يوم القيامة على كُتبان المسك، وأنوار وجوههم تغشى النظار، فإذا أتوا إلى الصراط تلقىهم الملائكة؛ الذين وكلوا بحملة القرآن، فتأخذ بأيديهم، وتوضع التيجان على

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٣٤٨/٥)، وأخرجه، مختصراً، ابن ماجه فى (الأدب، باب ثواب القرآن ١٢٤٢/٢ ح ٣٧٨١) والدارمى فى (فضائل القرآن، باب فى فضل سورة البقرة وآل عمران، ٥٤٣/٢ ح ٣٣٩١) والحاكم (٥٦٨/١) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبى.

رؤوسهم، والحلل على أجسادهم، وتُقرب إليهم خيل من نور الجنة، عليها سرج المسك الأذفر، أجمتها من اللؤلؤ والياقوت، فيركبونها، وتطير بهم على الصراط، ويجوز في شفاعته كل واحد منهم مائة ألف ممن استوجب النار، وينادي مناد: هؤلاء أحباء الله، الذين قرأوا كتاب الله، وعملوا به، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. هـ.

﴿ إنه غفور شكور ﴾، غفور لهفواتهم، شكور لأعمالهم، يعطي الجزيل، على العمل القليل.

﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب ﴾ أى: القرآن، ومن: للتبيين، ﴿ هو الحق ﴾ لا مزية فيه، ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾؛ لما تقدمه من الكتب، ﴿ إن الله بعباده خبير بصير ﴾؛ عالم بالظواهر والبواطن، فعلمك وأبصر أحوالك، وراك أهلاً لأن يوحى إليك هذا الكتاب المعجز، الذى هو عيار على سائر الكتب.

الإشارة: كل ما ورد فى فضل أهل القرآن، فالمراد به فى حق من عمل به، وأخلص فى قراءته، وحافظ على حدوده، ورعاه حق رعايته. وقد ورد فىمن لم يعمل به، أو قرأه لغير الله، وعيد كبير، وورد أنهم أول من يدخل جهنم. قال شيخ شيوخنا، سيدى عبدالرحمن الفاسى، بعد ذكر الحديثين فى فضل حامل القرآن: وهذا مقيد بالعمل، أى: فإن منزلتك عند آخر آية مما عملت، لا مما تلوت بلسانك وخالفت بعملك؛ لأنه لو كان كذلك لانخرقت أصول الدين، ويؤدى إلى أن من حفظ سرد القرآن اليوم، يكون أفضل من كثير من الصحابة الأخيار، والصالحين الأبرار؛ فإن كثيراً من خيارهم مات قبل حفظ جميعه. هـ.

ثم فصل أحوالهم، فقال:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِى أَهْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا الْغُوبُ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ أي: أوحينا إليك القرآن، وأورثناه من بعدك، أي: حكمنا بتوريثه ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾، وهم أمة محمد ﷺ من الصحابة والتابعين، وتابعيهم، ومن بعدهم إلى يوم الدين؛ لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم، وجعلهم أمة وسطاً؛ ليكونوا شهداء على الناس، واختصهم بالانتساب إلى أكرم رسله. قال ابن عطية: الكتاب هنا يراد به معاني القرآن وأحكامه وعقائده، فكأن الله تعالى أعطى أمة محمد القرآن، وهو قد تضمن معاني الكتب المنزلة قبله، فكأنه ورث أمة محمد الكتاب الذي كان في الأمم قبلها. هـ.

ثم رتبهم مراتب، فقال: ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ بالتقصير في العمل به، وهو المرجأ لأمر الله، ﴿ومنهم مقتصد﴾ وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ﴿ومنهم سابق بالخيرات﴾، بأن جمع بين علمه والعمل به، وإرشاد العباد إلى اتباعه. وهذا أوفق بالحديث، فقد روى عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر - بعد قراءة هذه الآية: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له» (١) وعنه ﷺ أنه قال: «السابق يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة، والظالم يحبس، حتى يظن أنه لن ينجو، ثم تناله الرحمة، فيدخل الجنة» رواه [أبو الدرداء] (٢). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: السابق، المخلص، والمقتصد: المرائي، والظالم: الكافر النعمة غير الجاحد له، لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة. وقال الربيع بن أنس: الظالم: صاحب الكبائر، والمقتصد: صاحب الصغائر، والسابق: المجتنب لهما. وقال الحسن: الظالم: من رجحت سيئاته، والسابق: من رجحت حسناته، والمقتصد: من استوت حسناته وسيئاته. وسئل أبو يوسف عن هذه الآية فقال: كلهم مؤمنون. وأما صفة الكفار فبعد هذا، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ (٣). وأما الطبقات الثلاث فهم من الذين اصطفى من عباده؛ لأنه قال: فمنهم، ومنهم، ومنهم، والكل راجع إلى قوله: ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾ فهم أهل الإيمان، وعليه الجمهور.

وإنما قدم الظالم للإيدان بكثرتهم، وأن المقتصد: قليل بالإضافة إليهم، والسابقون أقل من القليل. وقال ابن عطاء: إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله. وقيل: إنما قدمه ليعرفه أن ذنبه لا يبعده من ربه. وقيل: لأن أول

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤٧٣/٥) لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي في البعث، موقوفاً على سيدنا عمر. وأخرجه البغوي في تفسيره (٤٢١/٦) مرفوعاً. وعزى السيوطي المرفوع للعقيلي في الضعفاء (٤٤٣/٣) رين لال، وابن مردويه، والبيهقي.

(٢) في الأصول: [أبو داود] والصواب ما أثبت، قلت: والحديث أخرجه أحمد في المسند (١٩٤/٥، ١٩٨، ٤٤٤/٦)، قال الهيثمي في المجمع (٩٦/٧): «رواه أحمد بأسانيد رجال أحدها رجال الصحيح». وأخرجه الحاكم (٤٢٦/٢) والطبري (١٣٧/٢٢) والبغوي في التفسير (٤٢١/٦) كلهم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) الآية ٣٦ من سورة فاطر.

الأحوال معصية، ثم توبة، ثم استقامة. وقال سهل: السابق: العالم، والمقتصد: المتعلم، والظالم: الجاهل. وقال أيضاً: السابق: الذي اشتغل بمعاده، والمقتصد: الذي اشتغل بمعاشه ومعاده، والظالم: الذي اشتغل بمعاشه عن معاده. وقيل: الظالم: الذي يعبد على الغفلة والعادة، والمقتصد: الذي يعبد على الرغبة والرغبة، والسابق: الذي يعبد على الهيبة والاستحقاق. وقيل: الظالم: من أخذ الدنيا حلالاً وحراماً، والمقتصد: المجتهد ألا يأخذها إلا من حلال، والسابق: من أعرض عنها جملة.

وقيل: الظالم: طالب الدنيا، والمقتصد: طالب الآخرة، والسابق: طالب الحق لا يبغي به بدلاً. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه. وقال عكرمة والحسن وقتادة: الأقسام الثلاثة في جميع العباد؛ فالظالم لنفسه: الكافر، والمقتصد: المؤمن العاصي، والسابق: التقى على الإطلاق. وقالوا هذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ (١) والتحقيق ما تقدم.

وقوله: ﴿يَا ذُنَّ لِلَّهِ﴾ أي: بأمره، أو: بتوفيقه وهدايته ﴿ذَلِكَ﴾ أي: إيراد الكتاب والاصطفائية. أو السابق إلى الخيرات ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ الذي لا أكبر منه، وهو ﴿جَنَاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: الفرق الثلاث؛ لأنها ميراث، والعاق والبار في الميراث سواء، إذا كانوا مقرين في النسب. وقرأ أبو عمرو بالبناء للمفعول. ﴿يُحَلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة، جمع سوار، ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا﴾ أي: من ذهب مرصع باللؤلؤ. وقرأ نافع بالنصب (٢)، عطف على محل أساور، أي: يحلون أساور ولؤلؤاً. ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾؛ لما فيه من اللذة والليونة والزينة.

﴿وَقَالُوا﴾ بعد دخولهم الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾؛ خوف النار، أو: خوف الموت، أو: الخاتمة، أو: هم الرزق. والتحقيق: أنه يعم جميع الأحزان والهموم، دنيوية أو أخروية، وعن ابن عمر: قال النبي ﷺ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة، في قبورهم، ولا في محشرهم، وكأنني بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم، وهم ينفضون التراب عن وجوههم، فيقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن» (٣). ﴿إِنْ رِئَا لَغُفُورٍ شُكُورٍ﴾، يغفر الجنايات، وإن كثرت، ويقبل الطاعات، ويشكر عاملها، وإن قلت. ﴿الَّذِي أَحَلَّلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾

(١) الآية ٧ من سورة الواقعة.

(٢) وهي أيضاً قراءة عاصم. وقرأ الباقر بالجر عطفاً على «ذهب». انظر الإتحاف (٢/٣٩٣).

(٣) أخرجه البخاري في تفسيره (٤٢٤/٦) وعزاه الحافظ ابن حجر، في الكافي الشاف (ص ١٣٩) لأبي يعلى، وابن أبي حاتم، والبيهقي في أول الشعب، والطبراني في الأوسط.

أى: دار الإقامة لا نبرح عنها ولا نفارقها. يقال: أقمت إقامة ومقاماً ومقامة ﴿من فضله﴾ أى: من عطائه وإفضاله، لا باستحقاق أعمالنا، ﴿لا يمسنّا فيها نصب﴾، تعب ومشقة ﴿ولا يمسنّا فيها لغوب﴾؛ إعياء وكلّ من التعب، وفرة؛ إذ لا تكليف فيها ولا كد. نفى عنهم أولاً التعب والمشقة، وثانياً ما يتبعه من الإعياء والممل.

وأخرج البيهقي: أن رجلاً قال يارسول الله: إن النوم مما يقرُّ الله به أعيننا، فهل فى الجنة من نوم؟ فقال: «إن النوم شريك الموت - أو أخو الموت - وإن أهل الجنة لا ينامون - أو: ليس فى الجنة موت». وفى رواية أخرى، قال: فما راحتهم؟ قال: «ليس فيها لغوب، كل أمرهم راحة»^(١)، فالنوم ينشأ من نصب الأبدان، ومن ثقل الطعام، وكلاهما ملتقيان فى الجنة.

قال الضحاك: إذا دخل أهل الجنة الجنة، استقبلهم الولدان والخدم، كأنهم اللؤلؤ المكنون، فيبعث الله ملكاً من الملائكة، معه هدية من رب العالمين، وكسوة من كسوة الجنة، فيلبسه، فيريد أن يدخل الجنة فيقول الملك: كما أنت، فيقف، ومعه عشرة خواتم، فيضعها فى أصابعه، مكتوب: طيتم فادخلوها خالدين، وفى الثانية: ادخلوها بسلام، ذلك يوم الخلود، وفى الثالثة: رفعت عنكم الأحزان والهموم، وفى الرابعة: وزوجناهم بحور عين، وفى الخامسة: ادخلوها بسلام آمنين، وفى السادسة: إنى جزيتهم اليوم بما صبروا، وفى السابعة: أنهم هم الفائزون. وفى الثامنة: صرتم آمنين لا تخافون أبداً، وفى التاسعة: رفقتم اللبيين والصديقين والشهداء، وفى العاشرة: سكنتم فى جوار من لا يؤذى الجيران. فلما دخلوا قالوا: «الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن..» إلى: «لغوب» هـ.

الإشارة: قال المرتجى: الاصطفائية تقدمت الورثة لمحبه ومشاهدته، ثم خاطبهم بما له عندهم وما لهم عنده. وهذا الخيرات الذى أورثهم من جهة نسب معرفتهم به، واصطفائيته إياهم، وهو محل القرب والانبساط، لذلك قال: «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا»، ثم قسمهم على ثلاثة أقسام: ظالم، ومقتصد، وسابق. والحمد لله الذى جعل الظالم من أهل الاصطفائية. ثم قال: فالظالم عندى - والله أعلم - الذى وازى القدم بشرط إرادة حمل وارد جميع الذات والصفات، وطلب كنه الأزلية بنعت إدراكه، فأى ظالم أعظم منه؟ إذ طلب شيئاً مستحيلاً، ألا ترى كيف وصف سبحانه آدم بهذا الظلم بقوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٢)، وهذا من كمال شوقه إلى حقيقة الحق، وكمال عشقه، ومحبة جلاله هـ.

(١) عزاه السيوطى فى الدر (٤٧٦/٥) لابن أبى حاتم، وابن مردويه، والبيهقى فى البعث، عن عبد الله بن أبى أوفى رضي الله عنه.

(٢) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

قلت: وهذا النوع من المتوجهين غلب عليه سكر المحبة، ودهش العشق، فادعى قوة الربوبية، وطلب إدراك الألوهية، ونسى ضعف عبوديته، فكان ظالماً لنفسه، من هذا المعنى؛ إذ العبودية لا تطيق إدراك كنه الربوبية. ولو أنه طلب الوصول إليه من جهة فقره، وضعفه، لكان مقتصدًا، ولو أنه طلب الوصول إلى الله بالله لكان سابقاً. فالأقسام الثلاثة تجرى في المتوجهين؛ فالظالم لنفسه: من غلب سكره على صحوه في بدايته، والمقتصد من غلب صحوه على سكره في بداية سيره، والسابق من اعتدل سكره مع صحوه في نهايته أو سيره.

أو الظالم: السالك المحض، والمقتصد: المجذوب المحض، والسابق: الجامع بينهما؛ إذ هو الذي يصلح للتربية. أو الظالم: الذي ظاهره خير من باطنه، والمقتصد: الذي استوى ظاهره وباطنه، والسابق: هو الذي باطنه خير من ظاهره.

وعن عليّ - كرم الله وجهه -: الظالم: الآخذ بأقوال النبي ﷺ، والمقتصد: الآخذ بأقواله وأفعاله، والسابق: الآخذ بأقواله وأفعاله وأخلاقه. وقال القشيري: ويقال: الظالم: من غلبت زلاته، والمقتصد: من استوت حالاته، والسابق: من زادت حسناته. أو: الظالم: من زهد في دنياه، والمقتصد: من رغب في عقباه، والسابق: من أثر على الدارين مولاه. أو: الظالم: من نجم كوكب عقله، والمقتصد: من طلع بدر علمه، والسابق: من ذرت شمس معرفته. أو: الظالم: من طلبه، والمقتصد: من وجده، والسابق: من بقى معه. أو: الظالم: من ترك الزلة، والمقتصد: من ترك الغفلة، والسابق: من ترك العلاقة. أو: الظالم: من جاد بنفسه، والمقتصد: من لم يبخل بقلبه، والسابق: من جاد بروحه. أو: الظالم: من له علم اليقين، والمقتصد: من له عين اليقين، والسابق: من له حق اليقين. أو: الظالم: بترك الحرام، والمقتصد: بترك الشبهة، والسابق: بترك الفضل في الجملة.

أو: الظالم: صاحب سقاء، والمقتصد: صاحب جود، والسابق: صاحب إثارة. أو: الظالم: صاحب رجاء، والمقتصد: صاحب بسط، والسابق: صاحب أنس. أو: الظالم: صاحب خوف، والمقتصد: صاحب خشية، والسابق: صاحب هيبة. أو: الظالم له المغفرة، والمقتصد: له الرحمة، والسابق: له القرية، أو: الظالم: طالب النجاة، والمقتصد: طالب الدرجات، والسابق: طالب المناجاة. أو: الظالم: أمن من العقوبة، والمقتصد: طالب المثوبة، والسابق: متحقق بالقرية. أو: الظالم: صاحب التوكل، والمقتصد: صاحب التسليم، والسابق: صاحب التفويض، أو: الظالم: صاحب تواجد، والمقتصد: صاحب وجد، والسابق: صاحب وجود - غير محجوب عنه البتة - . أو: الظالم: مجذوب إلى فعله، والمقتصد مكاشف بوصفه، والسابق: مستهلك في حقه، الذي هو وجوده. أو: الظالم: صاحب

المحاضرة، والمقتصد: صاحب المكاشفة، والسابق: صاحب المشاهدة. وبعضهم قال: يراه الظالم في الآخرة في كل جمعة، والمقتصد: في كل يوم مرة، والسابق: غير محجوب عنه ألبتة. هـ باختصار.

والتحقيق: أن الأقسام الثلاثة تجرى في كل من العارفين، والسائرين، والطماء، والعباد، والزهاد، والصالحين؛ إذ كل فن له بداية ووسط ونهاية. ذلك السبق إلى الله هو الفضل الكبير، جنات المعارف يدخلونها، يحلون فيها من أساور من ذهب، وهي الأحوال، ولؤلؤا، وهي المقامات، ولباسهم فيها حرير، وهي خالص أعمال الشريعة ولبها. وقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن؛ إذ لا حزن مع العيان، ولا أغيار مع الأنوار، ولا أكدار مع الأسرار، ما تجده القلوب من الأحزان فلما منعت من العيان. ولابن الفارض رحمته الله في وصف الخمرة:

وإن خَطَرْتُ يوماً على خاطرٍ امرئٍ أقامتُ بها الأفراحُ وارْتَحَلَ الهَمُّ

وقال أيضا:

فما سَكَنْتُ والهمُّ يوماً بموضعٍ، كذلك لم يسكن مع النغم الغم^(١)

إن ربنا لغفور بتغطية العيوب، شكور بكشف الغيوب، الذي أحلنا دار المقامة، هي التمكين في الحضرة، بفضله، لا بحول منا ولا قوة، لا يمسننا فيها نصب. قال القشيري: إذا أرادوا أن يروا مولا هم لا يحتاجون إلى قطع مسافة، بل هم في غرفهم يشاهدون مولا هم، ويلقون فيها تحية وسلاما، وإذا رآه لا يحتاجون إلى تحديق مقلة من جهة، كما هم يرونه بلا كيفية هـ.

ثم ذكر أصدادهم، فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهِارَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

(١) في الأصول الخطية: [كذلك لا يسكن مع النغم الغم].

قلت: «فيموتوا»: جواب النفى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، يُخَلَّدُونَ فِيهَا، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أى: لا يحكم بموت ثان فيستريحوا، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ ساعة، بل كلما خبت زيد إيسارها، وهذا مثل قوله: ﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ﴾ (١)، وذكر عياض انعقاد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم، ولا يُثابرون عليها. ولا تخفيف عذاب. وقد ورد فى الصحيح سؤال عائشة عن ابن جددان، وأنه كان يصل الرحم، ويطعم المساكين، فهل ذلك نافع، فقال ﷺ: «لا، فإنه لم يقل يوماً: رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين». ثم قال عياض: ولكن بعضهم يكون أشد عذاباً، بحسب جرائمهم.

وذكر أبو بكر البيهقي: أنه يجوز أن يراد بما ورد فى الآيات والأخبار من بطلان خيرات الكفار: أنهم لا يتخلصون بها من النار، ولكن يُخَفَّفُ عنهم ما يستوجبونه بجنائىة سوى الكفر، ودافعه المازرى. قال شارح الصغاني بعد هذا النقل: وعلى ما قاله عياض، فما ورد فى أبى طالب من النفع بشفاعته ﷺ، بسبب ذنبه عنه ونصرته له، مختص به. هـ. ويرد عليه ماورد من التخفيف فى حاتم بكرمه، فالظاهر ما قاله البيهقي. والله أعلم. ومثل ما قاله فى أبى طالب، قيل فى انتفاع أبى لهب بعنق ثوبية، كما فى الصحيح (٢).

والحاصل: أن التخفيف يقع فى بعض الكفار، لبره فى الدنيا، تفضلاً منه تعالى، لا فى مقابلة عملهم؛ لعدم شرط قبوله. انظر الحاشية.

﴿كَذَلِكَ﴾ أى: مثل ذلك الجزاء الفظيع، ﴿نَجْزَىٰ كُلَّ كَافِرٍ﴾؛ مبالغ فى الكفران ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا﴾: يستغيثون، فهو يفتعلون، من: الصراخ، وهو الصياح بجهد ومشقة. فاستعمل فى الاستغاثة لجهر صوت المستغيث. يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ منها، وردنا إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، فلؤمن بعد

(١) من الآية ٧٥ من سورة الزخرف.

(٢) كانت السيدة (ثوبية) مولاة لأبى لهب، عم الرسول ﷺ، فأعتقها حين بشرته بمولاد النبى ﷺ - على أصح الأقوال - حين قالت لأبى لهب: أشعرت أن أمته قد ولدت غلاماً لأخيك عبدالله، فقال لها: اذهبي فأنت حرة. ويؤكد ذلك ما أخرجه الإمام البخارى فى (الدكاخ، باب «وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم» ح ٥١٠١) عن عروة بن الزبير أن ثوبية مولاة أبى لهب، وكان أبو لهب اعتقها، فأرضعت النبى ﷺ، فلما مات أبو لهب، أريه بعض أهله بشر حبيبة. قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم [راحة - رضاء] غير أنى سقيت فى هذه بعنق ثوبية، وأشار إلى النقيرة التى بين الإبهام والى تليها من الأصابع. وقد نظم شمس الدين محمد بن ناصر فى هذا المعنى شعراً، قال فيه:

إذا كان هذا كافراً جاء ذمه وتبت يداه فى الجحيم مخداً
أتى أنه فى يوم الاثنين دائماً يخفف عنه السرور بأحمداً
فما الظن بالبعد الذى كان عمره بأحمد مسروراً ومات موحداً

انظر: شرح المواهب (١/١٣٨ - ١٣٩) وأيضاً: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/١٠٨) وكتاب «أعظم المرسلين، لشيخنا البركة الدكتور «جودة للمهدى، (١٧٧ - ٧٩).

الكفر، ونطيع بعد المعصية. فيجابون بعد قدر عمر الدنيا: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ﴾ أى: أولم نعمركم تعميراً يتذكر فيه المتذكر. وهو متناول لكل عمر يتمكن منه المكلف من إصلاح شأنه، والتدبر في آياته، وإن قصر، إلا أن التوبيخ في المتناول أعظم. وقيل: هو ثمانى عشرة سنة. وقيل: ما بين العشرين إلى الستين، وقيل: أربعون. وروى أن العبد إذا بلغ أربعين سنة ولم يتب، مسح الشيطان على وجهه. وقال: وجه لا يفلح أبداً، وقيل: ستون. وعنه عليه السلام: «العمر الذي أعذر الله فيه ابن آدم ستون سنة»^(١)، وفي البخارى عنه عليه السلام: «أعذر الله المرء آخر أجله حتى بلغ ستين سنة»^(٢).

﴿وجاءكم النذير﴾ أى: الرسول عليه السلام، أو: الكتاب، وقيل: الشيخوخة، وزوال السن، وقيل: الشيب. قال ابن عزيز: وليس هذا شىء؛ لأن الحجة تلحق كل بالغ وإن لم يشب. وإن كانت العرب تسمى الشيب النذير. هـ. ولقوله تعالى بعد: ﴿فلما جاءهم نذير﴾، فإنه يتعين كونه الرسول، وهو عطف على معنى: ﴿أولم نعمركم﴾؛ لأن لفظه استخبار، كأنه قيل: قد عمرناكم وجاءكم النذير. قال قتادة: احتج عليهم بطول العمر، وبالرسول، فانقطعت حجبتهم. قال تعالى: ﴿فذوقوا﴾ العذاب ﴿فما للظالمين من نصير﴾ يدفع العذاب عنهم.

الإشارة: الذين كفروا بطريق الخصوصية، وأنكروا وجود التربية بالاصطلاح، فبقوا مع نفوسهم، لهم نار القطيعة ولو دخلوا الجنة الحسية، لا يقضى عليهم فيموتوا، ويرجعوا إلى الاستعداد بدخول الحضرة، ولا يخفف عنهم من عذاب حجاب الغفلة، بل يزيد الحجاب بتراكم الحظوظ، ونسج الأكنة على القلوب، كذلك نجى كل كفور وجحود لطريق التربية. وهم يصطرخون فيها، بلسان حالهم، قائلين: ربنا أخرجنا، وردنا إلى دار الفناء، نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل، حتى ندخل، كما دخلها أهل العزم واليقظة؟ فيقال لهم: أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءكم النذير، من يذكركم وبال القطيعة، ويعرفكم بطريق الحضرة، فأنكرتموه، فذوقوا وبال القطيعة، فما للظالمين من نصير.

ولما كان الكفر والإيمان من أعمال القلوب، قد يخفى على الناس، أخبر أن الله هو مطلع على مافيهما، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٣٨)
هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا
عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا^(٣٩)

(١) عزاه المناوى فى الفتح السماوى (٩٤٧/٣) للبزار، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه. وأصله عند البخارى.
(٢) أخرجه البخارى فى (الرفاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه فى العمر، ح ٦٤١٩) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: ما غاب فيهما عنكم، **﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾**، تعليل لما قبله؛ لأنه إذا علم ما فى الصدور، وهى أخفى ما يكون، فقد علم كل غيب فى العالم. وذات الصدور: مضمراتها ووساوسها. وهى تأنيث «ذو»، بمعنى: صاحب الوسوس والخطرات، مصحوب الصدور وتلازمها فى الغالب، أى: عليم بما فى القلوب، أو بحقائقها، على أن «ذات»، بمعنى الحقيقة.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: جعلكم خلفاء عنه فى التصرف فى الأرض، قد ملككم مقاليد التصرف فيها، وسلطكم على ما فيها، وأباح لكم منافعها؛ لتشكروه بالتوحيد والطاعة. ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ منكم، وغمط مثل هذه النعمة السنية، ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾؛ فويل كفره راجع عليه، وهو مقت الله، وخسران الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾، وهو أشد البغض، ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾: هلاكاً وخسراناً.

الإشارة: إن الله عالم بما غاب فى سموات الأرواح، من أسرار العلوم والمكاشفات، والاطلاع على أسرار الذات، وأنوار الصفات، وما غاب فى أرض النفوس من الموافقات أو المخالفات، إنه عليم بحقائق القلوب، من صفاتها وكدرها، وما فيها من اليقين والمعرفة، وضدهما.

قال القشيري: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، بإخلاص المخلصين، وصدق الصادقين، ونفاق المنافقين، وجحد الكافرين، ومن يريد بالناس شراً، ومن يحسن بالله ظناً. هـ.

وقال فى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ﴾: أهل كل عصر خليفة عصر تقدمهم، فمن قوم هم أنفسهم جمال، ومن قوم أراذل وأنذال، والأفاضل زمانهم لهم محنة، والأراذل هم لزمانهم محنة. وحاصل كلامه: أن قوماً عرفوا حق الخلافة، فقاموا بحققها، وشكروا الله عليها، بالقيام بطاعته، فكانوا فى زمانهم جمالاً لأنفسهم، ولأهل عصرهم، لكنهم لما تحملوا مشاق الطاعات، وترادف الأزمات، كان زمانهم لهم محنة. وقوماً لم يعرفوا حق الخلافة، فاشتغلوا بالعصيان، فانتحس الزمان بهم، فكانوا محنة لزمانهم.

ثم رد على من كفر بالشرك، فقال:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾

قلت: «أرأيتم»: بمعنى: أخبروني، وهي تطلب مفعولين: أحدهما منصوب، والآخر مُشتمل على استفهام، كقولك: أرأيت زيدا ما فعل، فالأول: (شركاءكم) والثاني: (ماذا خلقوا). و(أروني): اعتراض، فيها تأكيد للكلام وتشديد. ويحتمل أن يكون من باب التنازع؛ لأنه توارد على (ماذا خلقوا): (أرأيتم) و(أروني)، ويكون قد أعمل الثاني على المختار عند البصريين. قاله أبو حيان. ولابن عطية وابن عرفة غير هذا، فانظره. وبعضهم: بدل من «الظالمين».

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ لَهُمْ أَرْأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمْ﴾ أي: أخبروني عن آلهتكم التي أشركتموها في العبادة مع الله، ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدونهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، ما سندكم في عبادتهم؟ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: جزء من الأرض، استبدؤا بخلقه حتى استحقوا العبادة بسبب ذلك، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي: أم لهم مع الله شركة في خلق السموات حتى استحقوا أن يعبدوا؟ بل لا شيء من ذلك، فبطل استحقاقها للعبادة. ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾؛ أم معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه، ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾؛ فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب؟ قال ابن عرفة: هذا إشارة إلى الدليل السمعي، والأول إشارة إلى الدليل العقلي، فهم لم يستندوا في عبادتهم الأصنام إلى دليل عقلي ولا سمعي، ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: ما يعد الظالمون، وهم الرؤساء ﴿بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾؛ باطلاً وتمويهاً، وهو قولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١). لمّا نفى أنواع الحجج العقلية والسمعية، أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه، وهو تقرير الأسلاف الأخلاف، والرؤساء الأتباع؛ بأنهم شفعاء عند الله تُقربهم إليه. هذا هو التقليد الرديء، والعياذ بالله.

الإشارة: كل من ركن إلى مخلوق، أو اعتمد عليه، يتلى عليه: «أرأيتم شركاءكم..» الآية. وفي الحكم: «كما لا يقبل العمل المشترك، لا يحب القلب المشترك. العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه».

ثم ذكر من يستحق العبادة وحده، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿٤١﴾

(١) من الآية ١٨ من سورة يونس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أي: يمنعهما من أن تزولا؛ لأن إمساكهما منع. والمشهور عند المجملين: أن السموات هي الأفلاك التي تدور دورة بين الليل والنهار. وإنكار ابن يهود على كعب، كما في الثعلبي، تحامل؛ إذ لا يلزم من دورانها عدم إمساكها بالقدرة، وانظر عند قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا...﴾ (١) قال القشيري: أمسكهما بقدرة، وأتقنهما بحكمته، وزينهما بمشيئته، وخلق أهلها على موجب قضيته، فلا شبهة في إيقانها وإمساكها يساهمه، ولا شريك في إيجادها وإعدامها يقاسمه هـ.

﴿وَلَنْ زَالَا﴾، على سبيل الغرض، ﴿إِنْ أَمْسَكْتَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾، من بعد إمساكه. ومن، الأولى: مزيدة، لتأكيد النفي، والثانية: ابتدائية، ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، غير معاجل بالعقوبة، حيث أمسكهما على من يشرك به ويعصيه، وكاننا جديرتين بأن تهذا هذا، كما قال: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ...﴾ (٢) الآية.

الإشارة: الوجود قائم بين سماء القدرة وأرض الحكمة، بين سماء الأرواح وأرض الأشباح، بين سماء المعاني وأرض الحس، فلوزال أحدهما لاختل نظام الوجود، وبطلت حكمة الحكيم العليم. الأول: عالم التعريف، والثاني: عالم التكليف. الأول: محل التنزيه، والثاني: محل التشبيه، الأول: محل أسرار الذات، والثاني: محل أنوار الصفات، مع اتحاد المظهر؛ إذ الصفات لا تفارق الموصوف، فافهم. وفي بعض الآثار: «إن العبد إذا عصى الله استأذنت السماء أن تسقط عليه من فوقه، والأرض أن تخسف من تحته، فيمسكهما الله تعالى بحلمه وعفوه، ثم تلى الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ إلى قوله: ﴿كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، هـ. بالمعنى.

ثم ذكر عناد قريش وعتوهم، تنميماً لقوله: ﴿وَالَّذِي كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ...﴾ الخ، فقال:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۚ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجْدِلُ سُنَّتَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجْدِلُ سُنَّتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾

(١) الآية ٣٨ من سورة يس.

(٢) الآية ٩٠ من سورة مريم.

قلت :، جهده: نصب على المصدر، أو على الحال. واستكبار، ومكر: مفعول من أجله أو حال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أى: إقساماً وثيقاً، أو: جاهدين فى أيمانهم: ﴿لئن جاءهم نذير﴾؛ رسول ﴿ليكوننَّ أهدى من إحدى الأمم﴾ المهتدية، بدليل قوله: (أهدى) وقوله فى سورة الأنعام: ﴿لكنَّا أهدىٰ مِنْهُمْ﴾ (١) وذلك أن قريشاً قالو قبل مبعث النبى ﷺ لَمَّا بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم: لعن الله اليهود والنصارى، أنتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكوننَّ أهدى من إحدى الأمم (٢)، أى: من الأمة التى يقال فيها: هى أهدى الأمم، تفضيلاً لها على غيرها فى الهدى والاستقامة. كما يقال للداهية العظيمة: هى أهدى الدواهى. فلما بعث رسول الله ﷺ، ﴿مازادهم إلا نفوراً﴾ أى: ما زادهم مجيء الرسول ﷺ إلا تباعداً عن الحق، وهو إسناد مجازى؛ إذ لا فاعل غيره.

﴿استكباراً فى الأرض ومكر السيئ﴾ أى: ما زادهم إلا تهوراً للاستكبار ومكر السيئ. أو: مستكبرين وماكرين برسول الله ﷺ والمؤمنين، المكر القبيح، وهو إجماعهم على قتله. عليه الصلاة والسلام، وإذاية من تبعه. وأصل قوله: (ومكر السيئ): وأن مكروا المكر السيئ، فحذف الموصوف استغناء بوصفه، ثم أبدل «أن» مع الفعل بالمصدر، ثم أضيف إلى صفته اتساعاً، كصلاة الأولى، ومسجد الجامع. ﴿ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله﴾ أى: لا يحيط وينزل المكر السيئ إلا بمن مكره، وقد حاق بهم يوم بدر. وفى المثل: من حفر حفرة وقع فيها.

﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين﴾: ما ينتظرون إلا أن ينزل بهم ما نزل بالمكذبين الأولين، من العذاب المستأصل، كما هى سنة الله فىمن كذب الرسل. ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾، بين أن سنته - التى هى الانتقام من مكذبي الرسل - سنة ماضية، لا يبدلها فى ذاتها، ولا يحولها عن وقتها، وأن ذلك مفعول لامحالة.

﴿أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ ممن كذبوا رسلهم، كيف أهلكهم الله ودمرهم، كعاد، وثمود، وقرى قوم لوط. استشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه فى مسائرهم إلى الشام واليمن والعراق، من آثار الماضين، وعلامات هلاكهم ودمارهم. ﴿و﴾ قد ﴿كانوا أشد منهم قوة﴾ واقتداراً، فلم يتمكنوا من الفرار، ﴿وما كان الله ليُعْجِزَهُ﴾؛ ليسبقه ويفوته ﴿من شيء﴾ أى شئ كان ﴿فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً﴾ بأحوالهم ﴿قديراً﴾ على أخذهم. وبالله التوفيق.

(١) من الآية ١٥٧ من سورة الأنعام.

(٢) قاله الضحاك، فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره (٥٦٢/٣).

الإشارة: ترى بعض الناس يقول: لأن ظهر شيخ التربية لنكونن أول من يدخل معه، فلما ظهر، عاند واستكبر، وربما أنكر ومكر. نعوذ بالله من سابق الخذلان. قال القشيري: ليس لقولهم تحقيق، ولا لضعفهم توثيق، وما يعدون من أنفسهم فصريح زور، وما يوهمون من وفاقهم فصرف غرور. وكذلك المريد في أول نشاطه، تمنيه نفسه ما لا يقدر عليه، فربما يعاهد الله، ويؤكد فيه عقداً مع الله، فإذا عصته شهوته، وأراد الشيطان أن يكذبه، صرعه بكيده، وأركسه في كوة غيه، وفتنة نفسه، فيسود وجهه، ويذهب ماء وجهه.

ثم قال في قوله: ﴿أو لم يسيروا...﴾ الخ: ما خاب له ولي، وما ربح له عدو، ولاتنال الحقيقة بمن انعكس قصده، وارند عليه كيده، دمر على أعدائه تدميراً، وأوسع لأوليائه فضلاً كبيراً. هـ.

ثم تم قوله: ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ بقوله:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ (١٥)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا﴾؛ بما اقترفوا من المعاصي ﴿ما ترك على ظهرها﴾؛ على ظهر الأرض؛ لأنه جرى ذكرها في قوله: ﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض﴾ (١)، ﴿من دابة﴾؛ من نسمة تدب عليها. قيل: أهل المعاصي فقط من الناس، وقيل: من الجن والإنس. والمشهور: أنه عام في كل ما يدب؛ لأن الكل خلق للآدمي. وعن ابن مسعود: (إن الجعل^(٢) ليعذب في جحره بذنب ابن آدم) (٣)، يعني ما يصيبه من القحط، بشؤم معاصيه. وقال أبو هريرة: إن الحباري^(٤) لتموت هزلاً في وكرها بظلم الظالم. هـ.

(١) الآية ٤٤ من السورة.

(٢) الجعل: حيوان معروف كالخنفساء. انظر النهاية في غريب الحديث (جعل ١/٢٧٧).

(٣) عزاه السيوطي في الدر (٥/٤٨٠) للقرطبي، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم، وصححه.

(٤) الحباري: طائر معروف، وهو على شكل الأوزة، برأسه وبطنه غبرة، ولون ظهره وجناحيه كلون السمانى غالباً. والجمع حبابير، وحباريات. انظر اللسان (حبر) مع تعليق محققه.

وقال: ابن الأثير في النهاية (١/٣٢٨):

ولأنها خصها بالذكر لأنها أبعد الطير نجعة، فربما تذيب بالبصرة، ويوجد في حوصلتها الحبة الخضراء، وبين البصرة وبين منابتها مسيرة أيام.

قال القشيري: لو عَجَّلَ لهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب، لم تَفِ أعمارهم القليلة، وما اتسعت أفهامهم القصيرة له، فأخَّرَ ذلك ليوم الحشر، فإنه طويل، والله على كل شيء قدير، بأمور عباده بصير، وإليه المصير هـ وهذا معنى قوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾؛ أجل جمعهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ أى: لن يخفى عليه حقيقة أمرهم، وحكمة حكمهم، فيجازيهم على قدر أعمالهم.

الإشارة: تعجيل العقوبة في دار الدنيا للمؤمن إحسان، وتأخيرها لدار الدوام استدراج وخذلان. فكل من له عناية سابقة؛ عاتبه الله في الدنيا، بمصيبة في بدنه، أو ماله، أو في أهله، ومن لا عناية له أخرت عقوباته كلها لدار الجزاء. نسأل الله العصمة بمنه وكرمه، وسيدنا محمد نبيه - صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه.



سُورَةُ يَسِّ

مكية، وقيل: إلا قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ (١)، نزلت في بنى سلمة، حين أرادوا الانتقال إلى جوار النبي ﷺ (٢). وآيها: ثلاث وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ (٣) مع قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فقد حقق هنا نذارته ورسالته بالقسم. وعنه ﷺ: «يس تدعى المعمة، تعم صاحبها بخير الدارين، والدافعة والقاضية - تدفع عنه كل شر، وتقضى له كل حاجة» (٤). وفي خبر آخر: «يس لما قرئ له»، وفي حديث آخر: «ما قرأها خائف إلا أمن، ولا جائع إلا شبع، ولا عطشان إلا روى، ولا عريان إلا كسى، ولا مسجون إلا سرح، ولا عازب إلا تزوج، ولا مسافر إلا أعين، ولا ذو ضالة إلا وجدها». وقال ﷺ: «من قرأ يس عند الموت، أو قرئ عليه، أنزل الله بعدد كل حرف منها عشرة من الملائكة، يقفون بين يديه، ويصلون عليه، ويستغفرون له، ويشهدون جنازته».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسَّ﴾ (١) وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) ﴿﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يس﴾؛ أيها السيد المفخم، والمجيد المعظم، ﴿و﴾ حق ﴿القرآن الحكيم﴾؛ المحكم ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. وفي الحديث: «إن الله تعالى سماني في القرآن بسبعة أسماء: محمد، وأحمد، وطه، ويس، والمزمل، والمدثر، وعبد الله»، قيل: ولا تصح الاسمية في يس؛ لإجماع القراء السبعة على قراءتها ساكنة، على أنها حروف هجاء محكية، ولو سمي بها لأعريت غير مصروفة، كهابيل وقابيل، ومثلها «طس»، و«حم»، كما قال الشاعر:

لما سمي بها السورة فهلا تلى حميم قبل التكلم.

(١) الآية ١٢.

(٢) أخرجه الترمذي في (التفسير، باب: ومن سورة يس، ٣٣٩/٥، ح ٣٢٢٦) والحاكم، وصححه، وأقره الذهبي (٢/٤٢٨)، والواحدى في أسباب النزول (ص ٣٧٨ - ٣٧٩) عن أبي سعيد الخدري. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب، وقال العافظ ابن كثير في التفسير (٣/٥٦٦) معلقاً على حديث نعمه، رواه البزار: فيه غرابة».

(٣) من الآية ٤٢ من سورة فاطر.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/٤٨١، ح ٢٤٦٥) وضعفه، من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وذكره بنحوه، مطولاً، القرطبي في تفسيره (٦/٥٦٠٢) وعزاه للعلبي، من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

فدلّ على أنها حروف حال التلاوة. نعم قد قرئ 'يس' بضم النون، ونصبها، خارج السبعة، وعلى ذلك تخرج بأن اللفظ اسم للسورة، كأنه قال: أتلى يس، على النصب، وعلى أنها اسم من أسمائه ﷺ، وتوجه في قراءة الضم على النداء هـ. قلت: والظاهر أنها حروف مختصرة من السيد، على طريق الرمز بين الأحباء، إخفاء عن الرقباء.

ثم أقسم على رسالته، رداً على من أنكره بقوله: ﴿والقرآن الحكيم﴾ أي: ذي الحكمة البالغة، أو: المحكم الذي لا يسخه كتاب، أو: ذي كلام حكيم، فوصف بصفة المتكلم به، ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ من أعظمهم وأجلهم. وهو ردّ على من قال من الكفار: «لستُ مرسلًا» (١). ﴿على صراطٍ مستقيم﴾ أي: كائناً على طريق مستقيم، يوصل من سلكه إلى جوار الكريم، فهو حال من المستكن في الجار والمجرور. وفائدته: وصف الشرع بالاستقامة صريحاً، وإن دلّ عليه: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» التزاد. : خبر ثان لأن. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال القشيري: يس، معناه: ياسيد - رقاؤه أشرف المنازل، وإن لم يسم إليه بطرق التأميل، سنة منه سبحانه أنه لا يضع أسرارهِ إلا عند من تقاصرت الأرواح عن استحقاقه، ولذلك قضوا بالعجب في استحقاقه، وقالوا: كيف أثر يتيم أبى طالب من بين البرية، ولقد كان - صلوات الله عليه - في سابق اختياره تعالى مقدماً على الكافة من أشكاله وأضرابه، وفي معناه قيل:

هذا وإن أصبح في أطمار وكان في فقر من اليسار

آثر عندي من أخى وجارى وصاحب الدرهم والديار

وصاحب الأمر مع الإكثار (٢). هـ.

(١) من الآية ٤٣ من سورة الرعد.

(٢) وردت الأبيات - كاملة - في قصة، ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية (٨/٨٩ - ٩٠)، وملخصها:

كان معاوية بن أبي سفيان على السماط، فمثل بين يديه شاب من بني عذرة، فأنشده شعراً، مضمونه: التشوق إلى زوجته سعاد. وقال: يا أمير المؤمنين: إني كنت متزوجاً بابنة عم لي، وكان لي إيل وغدم، وأنفقت ذلك عليها، فلما قلّ ما بيدي رغب على أبوها، وشكّاني إلى عاملك بالكوفة (ابن أم الحكم) وبلغه جمالها، فحبسني، وحملني على أن أطلقها، فلما انقضت عدتها أعطاها عاملك عشرة آلاف درهم، فزوجه إياها، فهل من فرج؟ فكتب معاوية إلى ابن أم الحكم يؤنبه، وأمره بطلاقها، فطلقها، وسيرها إلى معاوية، وخيرها معاوية بين زوجها وابن أم الحكم، فاخترت زوجها الأول، وأنشدت الأبيات:

هذا وإن أصبح في أطمار وكان في نقص من اليسار

أكبر عندي من أبي وجارى وصاحب الدرهم والديار

أخشى إذا غدرت حر الدار خلى سبيلي ما به عار

لعلنا نرجع للديار وأن عسى نظفر بالأوطار

راجع أيضاً: تزيين الأسواق (١/٢٤٩)، ونهاية الأرب (٢/١٥٩)، ولطائف الإشارات (١/٤٢ - ٤٣).

قال الورتجبي: قيل: الياء تُشير إلى يوم الميثاق، والسين تُشير إلى سره مع الأحباب، فقال: بحق يوم الميثاق، وسرى مع الأحباب، وبالقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين يا محمد هـ...

وجاء: «إن قلب القرآن يس، وقلبه: «سلام قولاً من رب رحيم»، (١). قلت: وهو إشارة إلى سر القرية، الداعي إليه القرآن، وعليه مداره، وحاصله: تسليم الله على عباده كفاحاً، لحياتهم به، وأنسهم بحديثه وسره. وقيل: لأن فيه تقرير أصول الدين. قاله في الحاشية الفاسية.

ثم فسر القرآن، المقسم به، فقال:

﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا نُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: «تنزيل»: خبر، أى: هو تنزيل. ومن نصبه فمصدر، أى: نزل تنزيل، أو: اقرأ تنزيل، وقرئ بالجر، بدل من القرآن. وما أُنذر: نعت لقوم. وما: نفي، عند الجمهور، أو: موصولة مفعولاً ثانياً لتُنذر، أى: العذاب الذى أُنذره آبائهم، أو: مصدرية، أى: لتُنذر قوماً إنذاراً مثل إنذار آبائهم.

يقول الحق جل جلاله: هذا، أو هو ﴿ تنزيل (٢) العزيز ﴾ أى: الغالب القاهر بفصاحة نظم كتابه أوهام دوى العناد، ﴿ الرحيم ﴾؛ الجاذب بلطافة معنى خطابه أفهام دوى الرشاد. أنزلناه ﴿ لتُنذر ﴾ به ﴿ قوماً ﴾، أو:

(١) وردت الجملة الأولى فى حديث أخرجه الترمذى فى (فضائل القرآن، باب: ما جاء فى فضل يس، ٥/ ١٥٠. ح ٢٨٨٧) والدرامى فى (فضائل القرآن، باب فضل يس، ٥٤٨/ ٢. ح ٣٤١٦) وأحمد فى المسند (٢٦/ ٥) عن أنس. بلفظ «إن لكل شىء قلباً، وقلب القرآن يس.. الحديث، قال الترمذى: هذا حديث غريب. وهارون أبو محمد شيخ مجهول.

(٢) قرأ ابن عامر، وحفص، وحزمة، والكسائى، بنصب اللام على المصدر. وقرأ الحسن بالجر، وقرأ الباقر بالرفع، خبر لمقدر. وقد سار المفسر على قراءة الرفع. انظر الإتحاف (٢/ ٣٩٧).

أرسلناك لتنذر قوماً غافلين، ﴿١﴾ ما أنذر آباؤهم ﴿٢﴾ أى: غير منذر آباؤهم، كقوله: ﴿لُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (١) وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ (٢) أو: لتُخوف قوماً العذاب الذى أنذر به آباؤهم، لقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ (٣). أو: لتنذر قوماً إنذار آبائهم، وهو ضعيف؛ إذ لم يتقدم لهم إنذار. ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾، إن جعلت «ما» نافية فهو متعلق بالنفى، أى: لم يندروا فهم غافلون، وإلا فهو متعلق بقوله: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» لتنذر قوماً، كقولك: أرسلته إلى فلان لينذره فهو غافل.

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، يعنى قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٤) أى: تعلق بهم هذا القول، وثبت عليهم روجب؛ لأنه علم أنهم يموتون على الكفر. قال ابن عرفة: إنذارهم مع إخباره بأنهم لا يؤمنون ليس من تكليف ما لا يطاق عقلاً وعادة، وما لا يطاق من جهة السمع يصح التكليف به، اعتباراً بظاهر الأمر، وإلا لزم أن تكون التكليف كلها لا تطاق، ولا فائدة فيها؛ لأن المكلفين قسمان: فمن علم تعالى أنه لا يؤمن فلا فائدة فى أمره بالإيمان؛ إذ لا يطيقه، ومن علم أنه يؤمن فلا فائدة فى إنذاره وأمره بالإيمان؛ إذ لا يطيق عدمه. هـ. قلت: الحكمة تقتضى تكليفهم؛ لتقوم الحجة عليهم أو لهم، والقدرة تقتضى عذرهم. والنظر فى هذه الدار - التى هى دار التكليف - للحكمة لا للقدرة.

ثم مثل تصميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى أرعائهم، بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين فى أنهم لا يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، وكالحاصلين بين سدين، لا ينظرون ما قدامهم ولا ما خلفهم، بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾، معناه: فالأغلال واصله إلى الأذقان ملزوزة إليها، ﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾؛ مرفوعة رؤوسهم إلى فوق، يقال: قمح البعير فهو قامح؛ إذا روى فرفع رأسه، وهذا لأن طرق الغل الذى فى عنق المغلول، يكون فى ملتقى طرفيه، تحت الذقن، حلقة، فلا [تخليه] (٥) يطأطئ رأسه، فلا يزال مقمحا. والغل: ما أحاط بالعنق على معنى التنقيف والتعذيب. والأذقان والذقن: مجتمع اللحيين. وقيل: «فهى» أى: الأيدي. وذلك أن الغل إنما يكون فى العنق مع اليدين. وفى مصحف أبى: «إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَيْمَانِهِمْ أَغْلَالًا، وَفِي بَعْضِهَا: «فِي أَيْدِيهِمْ فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ».

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾، بفتح السين وضمها - قيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح، وما كان من خلق الله، كالجبل ونحوه، فالبضم، أى: جعلنا الموانع والعوائق محيطة بهم، فهم محبوسون

(١) الآية ٣ من سورة السجدة.

(٢) الآية ٤٤ من سورة سبأ.

(٣) الآية ٤٣٠ من سورة النبأ.

(٤) الآية ١٣ من سورة السجدة.

(٥) ما بين المعرفتين مطموس فى النسخة الأم، وغير موجود فى غيرها من النسخ المعتمدة فى التحقيق.

في مظمورة الجهالة، ممنوعون عن النظر في الآيات والدلائل، ﴿فأغشيناهم﴾ أى: فأغشينا أبصارهم، أى: غطيناها وجعلنا عليها غشاوة، ﴿فهم لا يبصرون﴾ الحق والرشاد.

وقيل: نزلت في بلى مخزوم، وذلك أن أبا جهل حلف: لئن رأى محمداً يصلى ليرضخن رأسه، فأتاه وهو يصلى، ومعه حجر، فلما رفع يده انثنت إلى عنقه، ولزق الحجر بيده، حتى فكّوه عنها بجهد، فرجع إلى قومه، فأخبرهم، فقال مخزومي: أنا أقتله بهذا الحجر، فذهب، فأعمى الله بصره، فلم ير النبي ﷺ، وسمع قوله، فرجع إلى أصحابه، ولم يرهم حتى نادوه^(١). وقيل: هي ذكر حالهم في الآخرة، وحين يدخلون النار، فتكون حقيقة. فالأغلال في أعناقهم، والنار محيطة بهم. والأول أرجح وأنسب؛ لقوله: ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾، أى: الإنذار وتركه في حقهم سواء؛ إذ لا هادي لمن أضله الله.

روى أن عمر بن عبد العزيز قرأ الآية في غيلان القدرى، فقال غيلان: كأنى لم أقرأها قط، أشهدك أنى نائب عن قولى في القدر. فقال عمر: اللهم إن صدق فتب عليه، وإن كذب فسلط عليه من لا يرحمه، فأخذه هشام بن عبد الملك من غده، فقطع يديه ورجليه، وصلبه على باب دمشق^(٢).

ثم ذكر من ينفعه الإنذار، فقال: ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر﴾ أى: إنما ينتفع بإنذارك من تبع القرآن ﴿وخشى الرحمن بالغيب﴾؛ وخاف عقاب الله قبل أن يراه، أو: نقول: نزل وجود الإنذار لمن لم ينتفع به منزلة العدم، فمن لم يؤمن كأنه لم يُنذر، وإنما الإنذار لمن انتفع به. ﴿فبشارة بمغفرة﴾، وهو العفو عن ذنوبه، ﴿وأجر كريم﴾؛ الجنة وما فيها.

الإشارة: كل من تصدى لوعظ الناس، وإنذارهم، على فترة من الأولياء، يقال له: لتنذر قوماً ما أنذر آبائهم فهم غافلون. ويقال في حق من سبق له الإبعاد عن طريق أهل الرشاد: لقد حق القول على أكثرهم، فهم لا يؤمنون. إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً تمنعهم من خط رؤوسهم لأولياء زمانهم، وجعلنا من بين أيديهم سداً: موانع تمنعهم من النهوض إلى الله، ومن خلفهم سداً: علائق تردهم عن حضرة الله، فأغشيناهم: غطينا أعين بصيرتهم، فلا يرون خصوصية أحد ممن يدل على الله، فهم لا يبصرون داعياً، ولا يلَبون منادياً، فالإنذار وعدمه في حقهم سواء، ومعالجة دائهم عناء. قال الورتجبي: سد ما خلفهم سد قهر الأزل، وسد ما بين أيديهم شقاوة الأبد، فبنفسه منعهم من نفسه. لا

(١) أخرجه الطبري مختصراً (١٥٢/٢٢) عن عكرمة. وعزاه الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف (١٣٩) لابن إسحاق في السيرة، وأبى نعيم في الدلائل، عن عكرمة، عن ابن عباس - رضى الله عنهما.

(٢) انظر تفسير السفي (٩٧/٣).

جرم أنهم في غشاة القسوة، لا يبصرونه أبدا هـ. إنما ينتفع بتذكير الداعين إلى الله من خضع قلبه بذكر الله، واشتاق روحه إلى لقاء الله، فبشره بمغفرة لذنوبه، وتغطية لعيوبه، وأجر كريم، وهو النظر إلى وجه الله العظيم.

ثم ردّ على من أنكر البعث، ممن سبق له الشقاء، فقال:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أى: تبعثهم بعد مماتهم، أو: نخرجهم من الشرك إلى الإيمان. قال شيخ شيوخنا سيدى عبدالرحمن الفاسى: لما أمر بالتبشير بالمغفرة، والأجر الكريم، لمن انتفع بالإنذار، أعلم بحكم من لم يؤمن، ولم ينتفع بالإنذار، وأنه يبعثهم، وإليه حكمهم، كما قال: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ (١) هـ.

﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾؛ ما أسلفوا من الأعمال الصالحات وغيرها، ﴿ وَآثَرَهُمْ ﴾؛ ما تركوه بعدهم من آثار حسنة، كعلم علموه، أو كتاب صنّفوه، أو حبس حبسوه، أو رباط أو مسجد صنعوه. أو آثار سيئة، كبدعة ابتدعوها في الإسلام. ونحوه قوله تعالى: ﴿ يَبْنِى الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ يَمَأْ قَدَمٌ وَآخِرٌ ﴾ (٢) أى: قدّم من عمله وأخر من آثاره. وفي الحديث: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة، فعمل بها من بعده، كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيء». ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة فعلية وزرها، ووزر من عمل بها، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» (٣) وفي خبر آخر: «سبع تجرى على العبد بعد موته: من غرس غرساً، أو حفر بئراً، أو أجرى نهراً، أو علم علماً، أو بنى مسجداً، أو رث مصحفاً، أو ولدأ صالحاً» (٤). انظر المنذرى. وهذا كله داخل في قوله تعالى: ﴿ وَآثَرَهُمْ ﴾ قيل: آثارهم: خطاهم إلى المساجد، للجمعة وغيرها.

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ ﴾؛ حفظناه، أو عددناه وبيناه ﴿ فِي إِمَامٍ ﴾؛ كتاب ﴿ مُّبِينٍ ﴾؛ اللوح المحفوظ؛ لأنه أصل الكتب وإمامها، وقيل: صحف الأعمال. والمراد: تهديد العباد بإحصاء ما صنعوه من خير أو شر، لينزجروا عن معاصي الله، وينهضوا إلى طاعة الله.

(١) الآية ٣٦ من سورة الأنعام. (٢) الآية ١٣ من سورة القيامة.

(٣) أخرجه مسلم، في (الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمر، ٧٠٤/٢ - ٧٠٥، ح ١٠١٧) من حديث جرير.

(٤) أخرجه بلحوه البزار (كشف الأستار - ١٤٩) والبيهقى في الشعب (ح ٣٤٤٩) من حديث أنس بن مالك. وأخرجه ابن ماجه، بلفظ مقارب، في (المقدمة / ح ٢٤٢) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

الإشارة: إنا نحن نحى القلوب المينة بالغفلة والجهل، فلحييها بالعلم والمعرفة، ونكتب ما قدموا من العلوم، والأسرار والمعارف، وآثارهم، أى: الأنوار المتعدية إلى الغير، ممن اقتبس منهم وأخذ عنهم. قال القشيري: نحى قلوباً مانت بالقسوة، بما نطر عليها من صنوف الإقبال والزلفة، ونكتب ما قدموا «وآثارهم»؛ خطاهم إلى المساجد، ووقفهم على بساط المناجاة معنا، وما تفرق من دموعهم على عرصات خدودهم، وتصاعد أنفاسهم. هـ.

ثم ضرب مثلاً لقريش فى تكذيبهم، وفيه تسلية للنبي ﷺ، فقال:

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا أُرْسِلُوا يَعْلَمُونَ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطِيرُنَا بِكُمْ لَيْنَ لَمْ تَنْتَهُوا لَزَجْنَاكُمْ وَلَيْمَسَنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

قلت: «اضرب»: يكون بمعنى: اجعل، فيتعدى إلى مفعولين، ومثلاً: مفعول أول، و«أصحاب»: مفعول ثان، أو: بمعنى «مثل»، من قولهم: عندي من هذا الضرب كذا، أى: من هذا المثال. و«أصحاب»: بدل من «مثلاً»، و«إذ»: بدل من «أصحاب»، و«أئن ذُكرتم»: شرط، حذف جوابه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ﴾ أى: لقريش ﴿مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ أى: واضرب لهم مثل أصحاب القرية أنطاكية، أى: اذكر لهم قصة عجيبة؛ قصة أصحاب القرية، ﴿إِذْ جَاءَهَا﴾ أى: حين جاءها ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾؛ رسل عيسى عليه السلام (١)، بعثهم دعاءً إلى الحق، إلى أهل أنطاكية. وكانوا عبدة أوثان.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾: بدل من «إذ، الأولى»، أى: إذ بعثنا ﴿إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾، بعثهما عيسى عليه السلام، وهما يوحنا وبولس، أو: صادقاً وصدوقاً، أو غيرهما. فلما قربا إلى المدينة، رأيا شيخاً يرعى غنيمات له، وهو حبيب النجار، فصأل عن حالهما، فقالا: نحن رسولا عيسى، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن؟ فقال: أمعكما آية؟

(١) هذا قول قتادة، أخرجه الطبري (١٥٥/٢٢) والظاهر من (أرسلنا) أنهم أنبياء، أرسلهم الله، ويدل عليه: قول المرسل إليهم: «وما أنتم إلا بشر مثلاً» وهذه المحاورة لا تكون إلا مع من أرسله الله، ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح - عليه السلام. راجع تفسير ابن كثير (٥٦٩/٣) والبحر المحيط (٣١٣/٧).

فقالا: نشفى المريض، ونبرىء الأكمه والأبرص، وكان له ابن مريض منذ سنين، فمسحاه، فقام، فأمن حبيب، وفشا الخبر، فشفى على أيديهما خلق كثير، فدعاهما الملك، وقال: أئنا إله سوى آلهتنا؟ فقالا: نعم، من أوجدك وآلهتك، فقال: قوما حتى أنظر فى أمركما، فحبسهما.

ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون، فدخل متكرراً، وعاشر حاشية الملك، حتى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك، فاستأنس به. فقال له ذات يوم: بلغنى أنك حبست رجلين، فهل سمعت قولهما؟ قال: لا، فدعاهما. فقال شمعون: من أرسلكما؟ فقالا: الله الذى خلق كل شيء، ورزق كل حي، وليس له شريك. فقال: صفاه وأجزا، فقالا: يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، قال: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنى الملك، فدعا بغلام أكمه، فدعوا الله، فأبصر الغلام، فقال شمعون للملك: أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا، فيكون لك وله الشرف؟ فقال: ليس لى عندك سر، إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع، ولا يضر، ولا ينفع. فقال: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا، فدعوا بغلام مات منذ سبعة أيام، فقام، فقال: إنى دخلت فى سبعة أودية من النار لما مات عليه من الشرك، وأنا أحذرکم ما أنتم عليه! فآمنوا. قال: وفتحت أبواب السماء، فرأيت شاباً حسن الوجه، يشفع لهؤلاء الثلاثة، قال الملك: من هم؟ قال: شمعون وهذان، فتعجب الملك. فلما رأى شمعون أن قوله أثر فيه، نصحه وآمن، وآمن قوم، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل، فهلكوا^(١). كما سيذكره بقوله: «إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون».

وهذا معنى قوله هنا: ﴿فكذبوهما﴾ أى: فكذب أصحاب القرية المرسلين، ﴿فعززنا﴾: قويناهما. وقرأ شعبة بالتخفيف، من: عزه: غلبه، أى: فغلبنا وقهرنا ﴿بثالث﴾، وهو شمعون، وترك ذكر المفعول به؛ لأن المراد ذكر المعزز به، وهو شمعون، وما لطف به من التدبير حتى عز الحق، وذل الباطل. وإذا كان الكلام منصباً إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وترجّاه إليه كأنما سواه مرفوض. ﴿فقالوا﴾ أى: الثلاثة لأهل القرية: ﴿إنا إليكم مرسلون﴾ من عند عيسى، الذى هو من عند الله. وقيل: كانوا أنبياء من عند الله - عز وجل - أرسلهم إلى قرية، ويرجحه قول الكفرة: ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾، إذ هذه محاوررة إنما تقال لمن ادعى الرسالة، أى: ما أنتم إلا بشر، ولا مزية لكم علينا، ﴿وما أنزل الرحمن من شيء﴾ أى: وحياً، ﴿إن أنتم إلا تكذبون﴾ فيما تدعون من الرسالة. ﴿قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون﴾، أكد الثانى باللام دون الأول؛ لأن الأول مجرد إخبار،

(١) انظر تفسير البغوى (١١/٧ - ١٢).

والثاني جواب عن إنكار، فيحتاج إلى زيادة تأكيد. و«ربنا يعلم» جار مجرى القسم في التأكيد، وكذلك قولهم: شهد الله، وعلم الله. ﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ أى: التبليغ الظاهر، المكشوف بالآيات الظاهرة الشاهدة بصحته.

﴿قالوا إنا تطيرنا بكم﴾؛ تشاء منا بكم. وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منه نفوسهم. وعادة الجاهل أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه، وقبلته طبايعهم، ويتشائموا بما نفروا عنه، وكرهوه، فإن أصابهم بلاء، أو نعمة، قالوا: بشؤم هذا، وبركة ذلك. وقيل: حبس عنهم المطر، فقالوا ذلك. وقيل: ظهر فيهم الجذام، وقيل: اختلفت كلماتهم. ثم قالوا لهم: ﴿لئن لم تنتهوا﴾ عن مقاتلكم هذه ﴿لنرجمنكم﴾؛ لنقتلكم بالحجارة، أو: لنطردنكم، أو: لنشتنكم، ﴿وليمنسكنكم منا عذاب أليم﴾؛ وليصيبنكم منا عذاب الحريق، وهو أشد العذاب.

﴿قالوا﴾ أى: الرسل ﴿طائركم﴾؛ سبب شؤمكم ﴿معكم﴾ وهو الكفر، ﴿أئن ذكركم﴾ أى: وعظمت، ودعيتم إلى الإسلام تطيرتم، وقتلتم ما قتلتم، ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾؛ مجاوزون الحد فى العصيان، فمن ثم أتاكم الشؤم، لا من قبل الرسل. أو: بل أنتم قوم مسرفون فى ضلالكم وغيككم، حيث تشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله - عليهم الصلاة والسلام.

الإشارة: إذا أرسل الله إلى قلب ولى وارداً أولاً، ثم شك فيه، ودفعه، ثم أرسل ثانياً ودفعه، ثم عززه بثالث، وجب تصديقه والعمل بما يقول، وإلا وقع فى العتق وسوء الأدب؛ لأن القلب إذا صفى من الأكدار لا يتجلى فيه إلا الحق، وإلا رجب اتهامه، حتى يتبين وجهه. وباقى الآية فيه تسلية لمن قُوبل بالكذب من الأولياء والصالحين. وبالله التوفيق.

ثم نعم القصة، فقال:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾
اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ
تَرْجِعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ
شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ
﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى﴾، وهو حبيب النجار^(١)، وكان في غار من الجبل يعبد الله، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم، وأظهر دينه. قال القشيري: في القصة أنه جاء من قرية فسمّاها مدينة، وقال: من أقصاها، ولم يكن بينهما تفاوت كثير، وكذلك أجرى سنته في استكثار القليل من فعل عبده، إذا كان يرضاه، ويستنزّر الكثير من فضله إذا بذّله وأعطاه. هـ.

ولما قدّم سألهم: أتطلبون على ما تقولون أجراً؟ فقالوا: لا، ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجراً﴾ على تبليغ الرسالة ﴿وهم مهتدون﴾ على جادة الهداية والنصح وتبليغ الرسالة. فقالوا: وأنت على دين هؤلاء؟ فقال: ﴿ومالي لا أعبدُ الذي فطرني﴾: خلقتني ﴿وإليه ترجعون﴾، وفيه التفات من التكلم إلى الخطاب، ومقتضى الظاهر: وإليه أرجع. والتحقيق: أن المراد: مالكم لا تعبدون، لكن لما عبّر عنهم بطريق التكلم؛ تطف في الإرشاد، بإيراده في معرض المناصحة لنفسه، وإمحاض النصح، حيث أراد لهم ما أراد لها، جرى على ذلك في قوله: ﴿إليه ترجعون﴾، والمراد: تفرغهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره.

ثم قال: ﴿أأخذ من دونه آلهة﴾ يعني الأصنام، ﴿إن يردن الرحمن بضر﴾، وهو شرط جوابه: ﴿لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا يُنقذون﴾ من مكروه بالنصر والمظاهرة، ﴿إني إذا﴾ أي: إذا اتخذت إلهاً غيره ﴿لفي ضلال مبين﴾؛ لفي خطأ بين، لا يخفى على عاقل، ﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ أي: اسمعوا إيماني، لتشهدوا به لي يوم القيامة، فقتله قومه^(٢).

ولما مات ﴿قيل﴾ له: ﴿ادخل الجنة﴾، فدفن في أنطاكية، وقبره بها. ولم يقل: قيل له؛ لأن الكلام مسوق لبيان القول، لا لبيان المقول له؛ لكونه معلوماً. وفيه دلالة على أن الجنة مخلوقة الآن. وقال الحسن: لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله، فهو في الجنة^(٣)، ولا يموت إلا بفناء السماوات والأرض، فلما دخل الجنة ورأى نعمها، وما أعد الله لأهل الإيمان، ﴿قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي﴾ أي: بالسبب الذي غفر لي ربي به، ﴿وجعلني من المكرمين﴾ بالجنة، وهو الإيمان بالله ورسله، أو: بمغفرة ربي وإكرامه، ف «ما»: موصولة، حذف عائدها المجرور، لكونه جرّ بما جرّ به الموصول، أو: مصدرية، وقيل: استفهامية. وردّ بعدم حذف ألفها.

(١) أخرجه ابن جرير (١٥٩/٢٢)، وعزاه السيوطي في الدر (٤٩١/٥) لعبد بن حميد، وعبدالرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة.

(٢) عزاه ابن كثير في تفسيره (٥٦٨/٤) لابن إسحاق، فيما بلغه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ركعب، ووهب.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره (١٥/٧).

قال الكواشي: تمنى أن يعلم قومه أن الله قد غفر له، وأكرمه، ليرغب قومه في اتباع الرسل، فيسلموا، فلصح قومه حياً وميتاً. وكذلك ينبغي أن يكون كل داعٍ إلى الله تعالى، في المجاهدة والنصيحة لعباد الله، وألاً يحقد عليهم إن آذوه، وأن يكظم كل غيظ يداله بسببهم. وعن رسول الله ﷺ: «سُبَّاقُ الْأُمَمِ ثَلَاثَةٌ: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَصَاحِبُ يَسٍ، وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ» (١) هـ.

قال القشيري: قد أبلغ - حبيب الوعظ، وصدق النصيح، ولكن كما قالوا وأنشدوا:

وَكَمْ سَقَتْ فِي آثَارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الْبَغْيَةُ الْمَتْنَصِحُ (٢)

فلما صدق في حاله، وصبر على ما لقي من قومه، ورجع إلى ربه، تلقاه بحسن إقباله، وأواه إلى كنف إفضاله، ووجد ما وعده به من لطف نواله، فتمنى أن يعلم قومه حاله، فحقق مآه، وأخبر عن حاله، وأنزل فيه خطابه، وعرف قومه هـ.

الإشارة: أحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله وأنصحهم لهم. وفي الحديث: «لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُرِ النَّعَمِ» (٣) فينبغي لمن أراد الظفر بمحبة الحبيب، وينال منه الحظوة والتقريب، أن يتحمل المشاق في إرشاد عباد الله، ويستعمل الأسفار في ذلك، لينال عنده الجاه الكبير، والقرب العظيم. حققنا الله بذلك، بمنه وكرمه.

ثم ذكر هلاك قومه، فقال:

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (٢٨)
﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد قتله، أو رفعه ﴿مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ فيهلكهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾، وما كان يصح في حكمنا في إهلاك قوم أن ننزل عليهم جنداً من

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤٩٢/٥) بدحوه، للطبراني، وابن مردويه، بسند ضعيف، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البيت للعباس بن الفرج الرياشي. انظر: الكامل للمبرد (٣٩٢/٢).

(٣) جزء من حديث شريف، أخرجه البخاري في (فضائل الصحابة، باب: مناقب سيدنا علي بن أبي طالب، ح ٣٧٠١) ومسلم في (فضائل الصحابة باب: من فضائل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ١٨٧٢/٤، ح ٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد، رضي الله عنه.

السماء، كما فعلنا معك يوم بدر والخذق؛ لحظوتك عندنا. وفيه تحقير لإهلاكهم، وتعظيم لشأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال في الكشف: فإن قلت: لم أنزل الجدود من السماء يوم بدر والخذق، مع أنه كان يكفي ملك واحد، فقد أهلك مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة واحدة؟ قلت: لأن الله فضل محمداً ﷺ بكل شيء، على كبار الأنبياء وأولى العزم، فضلاً عن حبيب النجار هـ. ملخصاً. ﴿إِنْ كَانَتْ الْعُقُوبَةُ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً﴾، صاح عليهم جبريل عليه السلام ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾؛ ميتون.

الإشارة: كل وعيد ورد في مكذبي الرسل يجر ذيله على مكذبي الأولياء؛ لأنهم خلفاء الأنبياء، إلا أن عقوبة مؤذي الأولياء، تارة تكون ظاهرة، في الأبدان والأموال، وتارة باطنة، في قسوة القلوب والتعويق عن صالح الأعمال، وكشف نور الإيمان والإسلام، والبعد وسوء الختام، وهي الحسرة العظمى، كما قال تعالى:

﴿يَحْسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٠)
 أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢)

قلت: «كم أهلكنا»: معلقة ليرى عن المفعولين. و«أنهم»: بدل من «كم»، والتقدير: ألم يروا كثرة إهلاكنا قبلهم من القرون كونهم غير راجعين إليهم. و«وإن كلٌّ لَّمَّا جميع»: من قرأ «لما» بالتخفيف (١)، فإن: مخففة، واللام: فارقة، و«ما» مزيدة، أي: وإنه، أي: الأمر والشأن لجميع محضرون عندنا. ومن قرأها بالتشديد؛ فإن: نافية، و«لما»: بمعنى إلا، أي: ما كلهم إلا مجموعون ومحضرون للحساب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا حسرة على العباد﴾ تعالى، فهذا أوان حضورك. ثم بين لأي شيء كانت الحسرة عليهم، فقال: ﴿ما يأتيهم من رسول﴾ من عند الله ﴿إلا كانوا به يستهزؤون﴾، فإن المستهزئين بالناصحين المخلصين، المنوط بنصحهم خير الدارين، أحقاء بأن يتحسروا، ويتحسر عليهم المتحسرون، ويتلهف المتلهفون. أو: هم متحسرون عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين.

﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ أي: ألم يعلموا كثرة إهلاكنا قبلهم من القرون الماضية، ﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾ أي: كونهم غير راجعين إليهم أبداً حتى يلحقوا بهم، ففيهم عبرة وموعظة لمن يتعظ. ﴿وإن

(١) قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة «لما» بتشديد الميم. وقرأ الباقون بالتخفيف. انظر الإتحاف (٢/٤٠٠).

كلُّ لما جميعٌ لدينا مُحَضَّرُونَ ﴿٣٣﴾ أى: وإن كلهم مجموعون محضرون للحساب، أو معذبون. وإنما أخبر عن «كل» بجميع؛ لأن «كل» تفيد معنى الإحاطة. والجميع: فعيل، بمعنى مفعول، ومعناه: الاجتماع، والمعنى: أن المحشر يجمعهم، فكلهم مجموعون محضرون للحساب.

الإشارة: يا حسرة على العباد، ما يأتيهم من داع يدعو إلى الله، على طريق التربية الكاملة، إلا كانوا به يستهزون. ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون، ماتوا على الغفلة والحجاب، وكلهم محضرون للعتاب والحساب، ماتوا محجوبين، ويبعثون محجوبين؛ لأنكارهم في الدنيا من يرفع عنهم الحجاب، ويفتح لهم الباب، وهم شيوخ التربية، الموجودون في كل زمان. أو: يا حسرة على المتوجهين، ما يأتيهم من وارد على قلوبهم إلا كانوا به يستهزون، ولو فهموا عن الله لعملوا بما يرد على قلوبهم الصافية.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث والإحضر، فقال:

﴿وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا
مِنْ ثَمَرِهِ: وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ
كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قلت: «آية لهم»: مبتدأ، وجملة «الارض الميتة»: خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ أى: وعلامة لهم تدلُّ على أن الله يبعث الموتى، ويحضرهم للحساب، إحياء الأرض اليابسة بالمطر، فاهتزت وريت بالنبات. ﴿وأخرجنا منها حَبًّا﴾؛ جنس الحب، ﴿فمنه يأكلون﴾، هم وأنعامهم. وقدم الظرف ليدل على أن الحب هو الشيء الذى يتعلق به معظم العيش، ويقوم، بالارتفاق به، صلاح الإنسان، إذا قلَّ جاء القحط، ووقع الضر، وإذا فقد حضر الهلاك، ونزل البلاء. ﴿وجعلنا فيها﴾؛ فى الأرض ﴿جَنَاتٍ﴾؛ بساتين ﴿من نخيلٍ وأعنابٍ﴾، وفجَّرنا فيها من العُيُونِ ﴿من﴾؛ زائدة على الألف، وعدل غيره: المفعول: محذوف، أى: ما تتمتعون به من العيون.

﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أى: من ثمر الله، أى: ليأكلوا مما خلق الله تعالى من الثمر، أو: من ثمرة، يخلقها الله من ذلك، على قراءة الأخوين (١). ﴿وما عملته أيديهم﴾ أى: ومما عملته أيديهم من الغرس، والسقى، والتلقيح، وغير ذلك، مما تتوقف عليه فى عالم الحكمة، إلى أن يبلغ الثمر منتهاه. يعنى: أن الثمر فى نفسه فعل الله، وفيه آثار من عمل ابن آدم، حكمة، وتغطية لأسرار الربوبية. وأصله: من ثمرنا، كما قال: ﴿وجعلنا﴾ ﴿وفجرنا﴾، فالتفت إلى الغيبة. ويجوز أن يرجع الضمير إلى النخيل، ويترك الأعتاب غير مرجوع إليها؛ لأنه علم أنها فى حكم النخيل. وقيل: «ما، نافية، على أن الثمرة خلق الله، ولم تعمله أيدي الناس، ولا يقدرُونَ عليه. ﴿أفلا يشكرون﴾ الله على هذه النعم الجسيمة، وهو حث على الشكر.

﴿سبحان الذى خلق الأزواج﴾؛ الأصناف ﴿كلها مما تُنبِت الأرض﴾ من النخيل، والشجر، والزرع، والثمار، كيف جعلها مختلفة فى الطعوم، والروائح، والشكل، والهيئة، واختلاف أوراق الأشجار، وفنون أغصانها، وأصناف نورها وأزهارها، واختلاف أشكال ثمارها، فى تفردا واجتماعها، مع ما بسط فيها من الطبائع الأربع؛ من الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، وما فيها من المنافع المتنوعة. ﴿ومن أنفسهم﴾؛ الأولاد، ذكورا وإناثا، ﴿ومما لا يعلمون﴾ من أصناف لم يُطلعهم الله عليها، ولم يتوصلوا إلى معرفتها، فى البحار عجائب لا يعلمها الناس. قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢). وفائدة التنزيه: نفى تشبيه الذات بشيء من هذه الأزواج. والله تعالى أعلم.

قال القشيري: والعجب ممن يُنكر أصول الدين، ويقول: ليس فى الكتاب عليه دليل، وأكثر ما فى القرآن من الآيات تدل على سبيل الاستدلال، ولكن يَهْدِي لنوره من يشاء، ولو أنهم أنصفوا واشتغلوا بأهم شيء لهم ماضٍ عوا أصول الدين، ورضوا فيها بالتقليد، وأدعوا فى الفروع رتبة الإمامة والتصدير، وفى معناها قيل:

يا مَنْ تصدَّرَ فى دَسْتِ (٣) الإمامة من مسائل الفقه إملاءً وتدريساً
غَفَلَتْ عن حجج التوحيد تحكيمها شِدَّتْ فرعاً وما مهَّدَتْ تأسيساً

قلت: وحاصله: مدح علم الأصول وترك علم أصل الأصل، وهو علم التوحيد الخاص، أعنى الشهود والعيان. وقد قلت فى ذلك، تذليلاً:

(١) قرأ حمزة والكسائي (من ثمر) بضم المثلثة والميم. وهى إما جمع «ثمرة» مثل: خشبة وخشب. وإما جمع ثمار، وثمار جمع

ثمرة، فيكرن جمع الجمع. انظر: شرح الهداية للمهدوى (٢/٢٨٥)، وإتحاف فضلاء البشر (٢/٢٥).

(٢) من الآية ٨ من سورة النحل.

(٣) الدست: صدر البيت.

يَا مَنْ تَصَدَّى لَعَلَّ الْأَصْلَ يُحْكِمُهُ قَدْ فَاتَكَ الذُّرْقُ بِالْوَجْدَانِ مُسْتَأْنَسًا.

الإشارة: وآية لهم النفس الميعة بالجهل أحييناها بالعلم، وأخرجنا منها علماً لدنيا، فمعه تنقوت القلوب والأرواح، وجعلنا فيها جنات المعارف، من نخيل الحقائق، وأعنان الفرائع، وفجرنا فيها من عيون الحكيم، ليأكلوا من ثمره، ومما عملته أيديهم، من المجاهدات والمكابدات، فإنها تثمر المشاهدات. سبحانه الذي خلق الأوج كلها من الأحوال، والمقامات، والعلوم، والمعارف، مما يستخرج من النفوس والأرواح، ومما لا يعطيه إلا الله.

ثم ذكر برهاناً آخر، فقال:

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾؛ نخرج منه النهار، إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوء النهار. مستعار من: سلخ الجلد عن الشاة، أو: نزع عنه الضوء نزع القميص الأبيض، فيعري نفس الزمان، كشخص أسود، نزع عنه قميص أبيض؛ لأن أصل ما بين السماء والأرض من الهواء: الظلمة، فاكتسى بعضه ضوء الشمس، كبيت مظلم أسرج فيه، فإذا غاب السراج أظلم. ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾؛ داخلون في الظلام.

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾؛ لحد لها مؤقت، تنتهي إليه من فلکها في آخر السنة. شبهت بمستقر المسافرين إذا انتهى سفره، أو: لحد لها من مسيرها كل يوم في مرائي عيون الناس، وهو المغرب. وفي الحديث الصحيح - من طريق أبي ذر -: «إنها تسجد كل يوم تحت العرش، فتستأذن، فيؤذن لها، ويوشك أن تستأذن فلا يؤذن لها، فتطلع من مغربها»، ذر قال ﷺ: «وذلك قوله: ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾» (١).

(١) أخرجه البخاري في (بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر، ح ٣١٩٩) ومسلم في (الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، ١/١٣٩ ح ٢٥١) من حديث أبي ذر.

وعن ابن عباس: أن الشمس بمنزلة السانية، تجرى بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت؛ جرت في الليل تحت الأرض في فلكها، حتى تطلع من مشرقها، وكذلك القمر. كذا نقل الكواشي عنه. ولعله لا يناقض ما جاء في الحديث، من أنها تسجد تحت العرش، لإحاطة العرش بالجميع، فهي حيث ما انتهت تحته. ونقل الأقليشي من حديث عكرمة، عن ابن عباس: (ما طلعت شمس حتى ينخسها سبعون ألف ملك، فيقولون لها: اطلعي، فتقول: لا أطلع على قوم يعبدونني من دون الله، فيأتونها ملك من الله، فيأمرها بالطلوع، فتستقل بضياء بنى آدم، فيأتونها شيطان يريد أن يصدّها عن الطلوع، فتطلع بين قرنيه، فيحرقه الله تعالى تحتها، وما غربت شمس قط إلا خربت لله ساجدة، فيأتونها شيطان، يريد أن يصدّها عن السجود، فتغرب بين قرنيه، فيحرقه الله تعالى، وذلك قوله ﷺ: «ما طلعت شمس إلا بين قرني الشيطان، ولا غربت إلا بين قرني الشيطان»^(١). هـ. على نقل شيخ شيوخنا الفاسي.

وقرأ ابن عباس وابن مسعود: «تجرى لا مستقر لها»، ومعناها: إنها جارية أبداً، لا تثبت في مكان. وقراءة الجماعة أوفق بالحديث. ﴿ذلك تقدير العزيز الحكيم﴾ أي: ذلك الجري على ذلك التقدير البديع، والحساب الدقيق، تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور، العليم بكل معلوم.

﴿والقمر قدرناه﴾، من نصبه؛ فيفعل مضمر، ومن رفعه؛ فمبتدأ، والخبر: ﴿قدرناه منازل﴾، وهي ثمانية وعشرون منزلاً: فرع الدلو المقدم، فرع الدلو المؤخر، بطن الحوت، النطح، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهقعة، الذراع، النثرة، الصرفة، الجبهة، الطرفة، الزبرة، العواء، السماء، الغفر، الزباني، الإكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد الذابح، سعد السعود، سعد الأخبية^(٢)، ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يخطأها، ولا يتقاصر عنها. على تقدير مستو، يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين، ثم يستتر ليلتين، أو ليلة إذا نقص الشهر. ولا بد في ﴿قدرناه منازل﴾ من تقدير مضاف؛ أي: قدرنا سيره، أو نوره، فيزيد وينقص، إذ لا معنى لتقدير القمر منازل، فيكون «منازل، ظرفاً.

فإذا كان في آخر منزله، دق وتقوس، ﴿حتى عاد كالعرجون﴾ أي: كالشمراخ، وهو عتقود التمر إذا يبس واعوج. ووزنه فعلون، من الانعطاف، وهو الانعراج، ﴿القديم﴾؛ العتيق المحول^(٣)، وإذا قدم دق، وانحنى، واصفر، فشبه القمر به من ثلاثة أوجه.

(١) أخرجه ابن عساكر (تهذيب تاريخ دمشق ٣/١٢٤).

(٢) انظر البحر المحيط (٣٢٢/٧) وتفسير القرطبي (٥٦٣٢/٦ - ٥٦٣٣).

(٣) أي: مر عليه حول (عام) فصاعداً.

﴿ لا الشمس ينبغي لها ﴾ ؛ يصح ويستقيم لها ﴿ أن تدرك القمر ﴾ ؛ فتجتمع معه في وقت واحد، وتداخله في سلطانه، فتطمس نوره قبل تمام وقته ؛ لأن لكل واحد من النيرين سلطاناً عل حiale، فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل. ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ ؛ ولا يسبق الليل النهار، أى: آية الليل لا تسبق آية النهار، وهى النيران. ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن تقوم الساعة، فيجمع الله بين الشمس والقمر، ويكوران ويرميان فى النار، ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ أى: وكلهم فى فلك يسبحون؛ يسرون؛ فالتنوين للعوض؛ والضمير للشمس والقمر؛ فإن اختلاف الأحوال يوجب تعدداً ما فى الذات، أو: للكواكب؛ فإن ذكر النيرين مشعر بها ﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾ يقرأ مقلوباً ومرتباً، ففيه نوع من البديع.

الإشارة: وآية لهم ليل الغفلة نسلخ منه نهار اليقظة، ونهار اليقظة، نسلخ منه ليل الغفلة، فلا يزال العبد بين غفلة ويقظة، حتى تشرق عليه شمس العرفان، وتستقر فى قلبه، فلا غروب لها، وإليه الإشارة بقوله: «والشمس تجرى لمستقر لها»، ومستقرها: قلوب العارفين. وقمر الإيمان قدرناه منازل، ينقص ويزيد، بزيادة التفرغ والتوجه ونقصانه، حتى تطلع عليه شمس العرفان، فينسخ نوره، فلا زيادة ولا نقصان. قال القشيري: فشبيه الشمس عارف أبداً فى ضياء معرفته، صاحب تمكين، غير متلون، شرف فى بروج سعادته قائماً، لا يأخذه كسوف، ولا يستره سحب. وشبيه القمر عبد تلون أحواله فى التنقل، صاحب تلوين، له من البسط ما يرقيه إلى حد الوصال، ثم يرد إلى الفترة، ويقع فى القبض مما كان فيه من صفاء الحال، فيتناقص، ويرجع إلى نقص أمره، إلى أن يدفع قلبه عن وقته، ويجود عليه الحق سبحانه، فيؤفقه لرجوعه عن فقرته، وإفاقته من سكرته، فلا يزال تصفو أحواله، إلى أن يقرب من الوصال، ويرزق صفة الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ فى النقص والزوال، كذلك حاله إلى أن يحق له بالمقسوم ارتحاله، وأنشدوا:

كُلُّ يَوْمٍ تَلَوْنُ غَيْرُ هَذَا بِكَ أَجْمَلُ (١) هـ.

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال:

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

(١) غلته جارية فى قصة. انظرها فى الرسالة القشيرية / ١٥٦. وورد فى الكبرى الأحمر (١٤٧/٢): [غير هذا بك أحسن].

يقول الحق جل جلاله: ﴿وآية لهم أننا حملنا ذريتهم﴾؛ أولادهم، الذين يبعثونهم إلى تجارتهم، أو صبيانهم ونسائهم الذين يستصحبونهم؛ فإن الذرية تقع عليهم؛ لأنهم مزارعها. وتخصيصهم؛ لأن استقرارهم في السفن أشق، ونماسكهم فيها أعجب، أو خصهم؛ لضعفهم عن السفر، فالنعمة فيهم أظهر. فحملناهم ﴿في الفلك المشحون﴾: المملوء، والظاهر: أن الضمير في «ذريتهم» للجنس. كأنه قال: ذريات جنسهم ونوعهم. قال ابن عباس: جماعة: يريد بالذريسات المحمولين: أصحاب نوح في السفينة، ويريد بقوله: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾: السفن الموجودة في جنس بنى آدم إلى يوم القيامة، وإياها عني بقوله: ﴿وإن نشأ نغرقهم..﴾ إلخ. وأما إطلاق الذرية على الآباء، فقال ابن عطية: لا يعرف لغة، وإنما المراد بالذرية الجنس، أو حقيقة ما تقدم. وعليه يكون قوله: «وخلقنا لهم من مثله ما يركبون» يراد به الإيل؛ فإنها سفن العرب.

﴿وإن نشأ نغرقهم﴾ إذا ركبوا سفن البحر، ﴿فلا صريخ لهم﴾؛ فلا مغيث، أو: لا مستغيث لهم، وهو أبلغ، أى: لم تبق لهم قدرة على الاستغاثة. ﴿ولا هم ينقذون﴾؛ ينجون من الموت، ﴿إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين﴾ أى: لا ينقذون إلا لرحمة منا، ولتمتع بالحياة إلى انقضاء الأجل. فهما مفعولان له. وقال بعضهم: الاستثناء راجع لثلاث جمل: «نغرقهم»، «فلا صريخ لهم»، «ولا هم ينقذون».

الإشارة: إذا عامت أفكار العارفين، في بحار التوحيد، وأسرار التفريد، تلاطمت عليها أمواج الدهش من كبرياء الله، فإن سبق لها سابق عناية الاعتدال؛ أوت إلى سفينة الشريعة، بعد ركوبها في فلك الحقيقة، وإليه الإشارة في قوله: «حملنا ذريتهم في الفلك المشحون، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون». وإن لم تسبق له عناية، غرق في بحر الزندقة والإلحاد، كما قال تعالى: ﴿وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم﴾ من شيخ كامل، ولا هم ينقذون إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين الكمال، فيعتدل. قال القشيري: الآية إشارة إلى حمل الخلق في سفينة السلامة، في بحار التقدير، عند تلاطم أمواجها، بفنون من التغيير والتأثير، وكم من عبد غرق في أشغاله، في ليله ونهاره، لا يستريح لحظة في كد أفعاله، ومقاساة التعب من أعماله، وجمع ماله، بنسيان عاقبه ومآله. ثم قال في قوله تعالى: ﴿وإن نشأ نغرقهم﴾: لولا صفة جوده وفضله؛ لحل بهم من البلاء ما حل بأمثالهم، لكنه لحسن إفضاله، حفظهم في جميع أحوالهم. هـ.

ثم ذكر كفرهم لهذه النعم، فقال:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ٤٥ وَمَا تَأْتِيهِمْ
مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ
اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾

قلت: جواب «إذا، محذوف، أى: أعرضوا، فدل عليه قوله: «معرضين».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ أى: كفار قريش: ﴿ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ أى: ما تقدم من ذنوبكم، وما تأخر مما أنتم تعملونه بعد، أو: ما بين أيديكم: ما سلف من مثل الوقائع التى حلت بالأمم المكذبة قبلكم، وما خلفكم من أمر الساعة، أو: ما بين أيديكم من فتنة الدنيا، وما خلفكم من عذاب الآخرة. ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾؛ لتكونوا فى رجاء رحمة الله، فإذا قيل لهم ذلك أعرضوا.

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ الدالة على وحدانيته تعالى، وصدق رسوله، ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ لا يلتفتون إليها، ولا يرفعون لها رأساً، فـ «من، الأولى لتأكيد النفي، والثانية للتبويض، أى: دأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى: تصدقوا على الفقراء، ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من مشركى مكة ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾. عن ابن عباس رضي الله عنه: كان بمكة زنادقة، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين، قالوا: لا والله، أيفقره الله ونطعمه نحن؟ (١). قيل: سبب الآية: أن قريشاً لما أسلم ضعفاؤهم، قطعوا عنهم صلاتهم، فندبهم بعض المؤمنين إلى ذلك، فقالوا تلك المقالة.

وقيل: إن قريشاً شحت - بسبب أزمة نزلت بهم - على المساكين، مؤمنهم وكافرهم، فندبهم النبى ﷺ إلى النفقة على المساكين، فقالوا على سبيل الجهل: أنطعم قوماً أراد الله فقرهم وتعذيبهم. ومن أمثالهم: كن مع الله على المدبر، حتى كان الرجل يرعى إبله، فيجعل السمان فى الخصب، والمهازيل فى الجذب، فإذا قيل له فى ذلك، قال:

(١) انظر: البحر المحيط (٣٢٥/٧) وتفسير القرطبي (٥٦٤١/٦).

أكرم ما أكرم الله، وأهين ما أهان الله. ويحتمل أن يكون قولهم ذلك استهزاءً، فكانهم قالوا: لم لا يرزقهم إلهك الذي تزعم.

قال الكواشي: قد يتمسك بهذه الآية بعضُ البخلاء، فيقول: لا أعطى من حرمة الله. وليس هذا بصحيح؛ لأن الله تعالى أغنى وأفقر، وجعل للفقير جزءاً من مال الغنى كما يشاء. وفي الإحياء: أن المراد بالصدقة وشرعها: التخلص من رذيلة البخل، وذلك نفع يعود على المتصدق، بإخراجه عن حب الدنيا، وتعلق قلبه بها، الصاد عن الله، وهؤلاء لم يفهموا حكمة الله، فقالوا ما قالوا هـ. ثم قال: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ في أمركم لنا بالنفقة، أو في غير ذلك من دينكم، أو: يكون من قول الله تعالى للكفرة.

الإشارة: وإذا قيل للعامة: اتقوا ما بين أيديكم، من شدائد الدنيا، وما خلفكم، من أهوال الآخرة، لعلمكم ترحمون فيهما؛ فإن التقوى الكاملة تحفظ الرجل في حياته وبعد مماته، وربما يسرى الحفظ إلى عقبه، كما هو مشاهد في عقب أولياء الله. أو: إذا قيل لهم: اتقوا خواطر التدبير فيما بين أيديكم؛ إذ ليس أمره ببيدكم، فجُل ما تبنيه من التدبير تهدمه رياح التقدير، وخواطر التدبير، فيما سلف قبلكم، إذ فيه تحصيل الحاصل، وتعطيل الوقت بلا فائدة. «لعلمكم ترحمون» بمقام الرضا، وسكون القلب وراحته تحت مجارى القضاء، أعرضوا وانهمكوا في أودية الغفلة والخواطر. وما تأنيهم من آية دالة على وحدانيته تعالى، وانفراده بالخلق والتدبير، إلا كانوا عنها معرضين.

قال القشيري: هذه صفة من سييهم في أودية الخذلان، ورسمهم بسمة الحرمان، وأصمهم عن سماع الرشد، وصدّهم بالخذلان عن سلوك القصد، فلا تأنيهم آية في الزجر إلا قابلوها بإعراضهم، وتجاؤا عن الاعتبار بها، على درام انتباضهم، وإذا أمرُوا بالإنفاق والإطعام عارضوا بأن الله رازق الأنام، وإذا شاء نظر إليهم بالإِنعام هـ.

ثم ذكر استعجالهم البعث، فقال:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا أَيْتُونَا مِنْ بُعَثِنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويقولون﴾ - استهزاء -: ﴿متى هذا الوعد﴾ أى: وعد البعث والقيامة ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما تقولون. خطاب للنبي ﷺ، وأصحابه. قال تعالى: ﴿ما ينظرون﴾؛ ينتظرون ﴿إلا صيحة واحدة﴾ هى: النفخة الأولى، ﴿تأخذهم وهم يخضعون﴾؛ يخضعون، يخضع بعضهم بعضاً فى المعاملات، لا يخطر ببالهم أمرها، فتأتيهم بغتة. وقرأ حمزة - بسكون الخاء - من: خصمه: إذا غلبه فى الخصومة. وفتح الباقون، مع الاختلاس والنقل وعدمهما. ﴿فلا يستطيعون توصية﴾؛ فلا يستطيعون أن يوصوا فى أمورهم بشئ، ﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾؛ ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم، بل يموتون حيث يسمعون الصيحة.

﴿ونفخ في الصور﴾ النفخة الثانية، بعد خلو الأرض أربعين سنة. والصور: القرن، أو: جمع صورة. ﴿فإذا هم من الأجداث﴾؛ القبور ﴿إلى ربهم ينسلون﴾؛ يسرعون فى المشى إلى المحشر.

﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا﴾؛ من أنشرنا ﴿من مرقدنا﴾؛ مضجعنا؟. قال مجاهد وأبى بن كعب: للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم، فإذا صبح بأهل القبور، قالوا يا ويلنا من بعثنا؟ وأنكره ابن عطية، وقال: إنما هو استعارة، كما تقول فى قتيل: هذا مرقده إلى يوم القيامة. فتقول الملائكة فى جوابهم: ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾، أو يقوله المؤمنون، أو: الكفار، يتذكرون ما سمعوه من الرسل، فيجيبون به أنفسهم، أو بعضهم بعضاً. وهما: مصدرية، أى: هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين، على تسمية الموعود والمصدق فيه بالوعد والصدق. أو: موصولة، أى: هذا الذى وعده الرحمن والذى صدقه المرسلون، أى: والذى صدق فيه المرسلون.

﴿إن كانت﴾ النفخة الأخيرة ﴿إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ للحساب، ثم يقال لهم فى ذلك اليوم: ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ من خير أو شر.

الإشارة: إذا كبر يقين العبد صارت عنده الأمور المستقبلية واقعة، والآجلة عاجلة، فيستعد لها قبل هجومها، ويتأهب للقائها قبل وقوعها، أولئك الأكياس، الذين نظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر الناس إلى ظاهرها، واهتموا بآجالها، حين اغتر الناس بعاجلها، كما فى الحديث فى صفة أولياء الله.

ثم بين الحق تعالى مآلهم، فقال:

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِعُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَنَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت: «سلام»: بدل من «ماء»، أو: خبر عن مضمر، أو: مبتدأ حذف خبره، أى: من ذلك سلام، وهو أظهر؛ ليكون عاماً، أى: ولهم كل ما يتمنون، كقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ (١) ومن جملة ذلك: ﴿ سلام قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ فيوقف على «ما يدعون»، و«قولا»: منصوب على المصدر المحذوف، أى: يقال لهم «قولا»، وقيل: على الاختصاص.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ ﴾ - بضم الغين وسكونها (٢) - أى: فى شغل لا يوصف؛ لعظم بهجته وجماله. فالتنكير للتعظيم، وهو افتضاض الأبقار، على شط الأنهار، تحت الأشجار، أو سماع الأوتار فى ضيافة الجبار. وعن أبى هريرة وابن عباس - رضى الله عنهما - قيل: يارسول الله أنفصى إلى نساتنا فى الجنة، كما نفصى إليهن فى الدنيا؟ قال: «نعم»، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليفضى فى الغداة الواحدة إلى مائة عذراء (٣) وعن أبى أمامة: سئل رسول الله ﷺ: هل يتناكح أهل الجنة؟ فقال: «نعم، بذكر لا يمل، وشهوة لا تنقطع، دحماً دحماً» (٤). قال فى القاموس: دحمه - كمنعه: دفعه شديداً. وعن أبى سعيد الخدرى قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عادوا أبقاراً» (٥)، وفى رواية أبى الدرداء: «ليس فى الجنة منى»، وفى رواية: «بول أهل الجنة عرق يسيل تحت أقدامهم مسكاً» (٦) وعن إبراهيم النخعى: جامع ماشئت، ولا ولد. هـ. فإذا اشتهى الولد كان بلا وجع، فقد روى الحاكم والبيهقى عنه - عليه الصلاة والسلام -: «إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد، كما يشتهى، فيكون حملة وفصاله وشبابه فى ساعة واحدة». انظر البدر السافرة.

(١) من الآية ٣١ من سورة فصلت.

(٢) قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائى، وأبو جعفر (شغل) بضم الغين، وقرأ الباقر بالسكون. انظر الإنحاف (١٠٢/٢).

(٣) أخرج حديث أبى هريرة: البزار (كشف الأستار ح ٣٥٢٥). قال الهيثمى فى المجمع (٤١٦/١٠): (رواه البزار والطبرانى، ورجال هذه الرواية رجال الصحيح، غير محمد بن ثواب، وهو ثقة). وحديث ابن عباس عزاه فى المجمع لأبى يعلى.

(٤) عزاه فى المجمع (٤١٦/١٠) للطبرانى.

(٥) أخرجه البراز (كشف الأستار ح ٣٥٢٧). وقال الهيثمى فى المجمع (٤١٧/١٠): (رواه البزار، والطبرانى فى الصغير، وفيه معنى ابن عبد الرحمن، وهو كذاب).

(٦) عزاه فى المجمع (٤١٦/١٠) للطبرانى فى الأوسط وفى الكبير، بدعوه، عن زيد بن أرقم.

قلت: والتحقيق أن شغل أهل الجنة مختلف، فمنهم من هو مشغول بنعيم الأشباح، من حور، وولدان، وأطعمة، وأشربة، على ما يشتهي، ومنهم من هو مشغول بنعيم الأرواح، كالنظر لوجه الله العظيم، ومشاهدة الحبيب، ومناجاة ومكالمات، ومكاشفات، وترقيات في معارج الأسرار كل ساعة. ومنهم من يجمع له بين النعيمين، وسيأتي في الإشارة. وقوله تعالى: ﴿فَاكْهُون﴾ أى: مثلذون في النعمة، والفاكه والفقه: المتنعم، ومنه: الفكاكة؛ لأنه مما يتلذذ به، وكذا الفاكهة.

ثم قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾؛ جمع ظل، وهو: الموضع الذى لا تقع عليه الشمس. وفي قراءة: «ظُلٌّ»، بالضم، جمع ظلة، كبرمة وبران، وهو ما يسترك عن الشمس، وظل أهل الجنة لا تنسخه شمس، قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُتَدَوِّدِ﴾ (١) ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾: جمع أريكة، وهى السرير فى الحَجَلَة. فالأرائك: السرر المفروشة، بشرط أن تكون عليها الحَجَلَة، وإلا فليست بأريكة، والحَجَلَة: ما يستر السرير من ثوب الحرير. وهم ﴿مُتَكُونُونَ﴾ عليها كالمملوك على الأسرة. ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ كثيرة مما يشتهون. ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ أى: كل ما يدعونه يأتيهم فوراً، فوزنه: يفتعلون، من الدعاء، أو: ما يتمنون من نعيم الأشباح والأرواح، من قولهم: ادع على ما شئت، أى: تمته. وقال الفراء: هو من الدعوى، ولا يدعون إلا ما يستحقون.

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ أى: من أهم ما يدعون: سلام يقال لهم قولاً من رب رحيم، بلا واسطة؛ مبالغة فى تعظيمهم، وذلك غاية متمناهم، مضافاً لرؤيته، ومن مقتضى الرحمة: الإبقاء عليهم مع ذلك. قال القشيري: يسمعون كلامه وسلامه بلا واسطة، وأكد بقوله: «قولاً». ويقول: «من رب رحيم» ليعلم أنه ليس على لسان سفير، والرحمة فى تلك الحالة أن يرزقهم الرؤية فى حال التسليم عليهم، ليكمل لهم النعمة هـ. وفى الحديث عنه ﷺ: «بيد أهل الجنة فى نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم، فيقول: السلام عليكم يا أهل الجنة، فينظر إليهم، وينظرون إليه» (٢).

ثم ذكر أهل البعد والحجاب، فقال: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أى: انفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة، وذلك حين يحشر المؤمنون، ويساق بهم إلى الجنة. وقال قتادة: عزلوا عن كل خير. وعن الضحاك: لكل كافر بيت من النار، يكون فيه، لا يرى ولا يرى أبداً هـ.

(٤) الآية ٣٠ من سورة الواقعة.

(٢) أخرجه ابن ماجه فى (المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية ١/٦٦، ح ١٨٤) وزاد السيوطى فى الدر المنثور (٥/٥٠١) عزوه لابن أبى الدنيا، فى صفة الجنة، والبخارى، وابن أبى حاتم، والآجورى فى الرؤية، وابن مردويه، عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

الإشارة: إن أصحاب الجنة المعجلة لأوليائه، اليوم، في شغل كبير، لا تجدهم إلا مشغولين بالله، بين شهود واستبصار، وتفكر واعتبار، في محل المشاهدة والمكالمة، والمناجاة والمسارة، أوقاتهم محفوظة، وحركاتهم وسكناتهم بالإخلاص ملحوظة، فهم في شغل شاغل عن الدنيا وأهلها، هم ومن تعلق بهم في ظلال الرضا، ويرد التسليم يرتادون، وفي مشاهدة وجه الحبيب يتنعمون. قال القشيري: إن أصحاب الجنة اليوم، أي: طلابها، والمساعدون لها، والعاملون لنيلها، ولمثل ذلك فليعمل العاملون، فهم في الدنيا في طلب الجنة عن المنعم بها، كما جاء في الحديث: «أكثر أهل الجنة البله» (١)، ومن كان في الدنيا عن الدنيا حراً، فلا يبعد أن يكون في الجنة عن الجنة حراً، يختص برحمته من يشاء - قلت: فالبله هم أهل الحجاب، الذين يعبدون الله لطلب الجزاء، ويقتنعون بالنعيم الحسى - ثم قال: ويقال: الحق تعالى لا يتعلق به حق ولا باطل، فلا تنافى بين اشتغالهم بلذاتهم مع أهلهم، وبين شهودهم مولاهم، كما أنهم اليوم مستديمون لمعرفته، بأي حالة كانت. ولا يقدح اشتغالهم باستيفاء حظوظهم، في معارفهم. هـ. مختصراً.

قلت: وما في سورة الواقعة، من ذكر نعيم السابقين، يدل على أنهم يجتمع لهم نعيم الحور والولدان، مع نعيم العيان والرضوان؛ لأنهم في الدنيا جمعوا بين القيام بوظائف الشريعة، ومعاينة أسرار الحقيقة. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿سَلامٌ قَولاً مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ قال ابن عطاء: السلام جليل عظيم الخطر، وأجله خطراً ما كان وقت المشاهدة والمصافحة، حين يقول: سلام قولاً من رب رحيم. قال القشيري: الرحمة في ذلك الوقت أن يبقيهم في حال سماع السلام، أو حال اللقاء، فلا تصحبهم دهشة، ولا تلحقهم حيرة. هـ. وقال الورتجبي: سلام الله أزلي الأبد، غير منقطع عن عباده الصالحين، في الدنيا والآخرة، لكن في الجنة ترفع عن آذانهم جميع الحجب، فسمعوا كلامه، ونظروا إلى وجهه كفاحاً. هـ. قلت: وقد يرفع في دار الدنيا، فيسمع سلام الله على عباده، كما وقع لبعض الأولياء - قيل: وفي قوله: ﴿رَحِيمٍ﴾ إشارة إلى عدم حجبهم عن جماله أبداً، مع الإبقاء عليهم في حال السلام واللقاء، فلا تصحبهم دهشة، كما تقدم. وقيل: الإشارة في الرحيمية: أن ذلك الوصول ليس باستحقاق ولا سبب من فعل العبد، وإنما هو بالرحمة، فيكون للعاصي فيه نفس ومساغ للرجاء. قاله المحشي.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٢٠ - ١٢٦، ح ١٣٦٦) من حديث جابر رضي الله عنه قال البيهقي معقباً: هذا الحديث بهذا الإسناد منكر.

كما أخرجه البيهقي في الموضع نفسه (ح ١٣٦٧) والديلمى (الفردوس ح ١٤٦٣)، وعزاه في الكنز (ح ٣٩٢٨٣) للبزار، من حديث أنس بن مالك. وقال العراقي في المغنى (٣/ ٢٠): أخرجه البزار، من حديث أنس وضعفه، وصححه القرطبي في التذكرة، وليس كذلك، فقد قال ابن عدي: إنه منكر. راجع الكامل لابن عدي (٣/ ١١٦٠) والعلل المتناهية (٢/ ٩٣٤).

قلت: قال في النهاية في غريب الحديث (١/ ١٥٥): «البله، هو جمع الأبله. وهو الغافل عن الشر، المطبوع على الخير، وقيل: هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدر وحسن الظن بالناس؛ لأنهم أغفلوا أمر دينهم، فجهلوا حذق التصرف فيها، وأقبلوا على آخرتهم، فشغلوا أنفسهم بها، فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة. فأما الأبله، وهو الذي لا عقل له، فغير مراد في الحديث.

وقوله: ﴿وامتازوا اليوم﴾ إشارة إلى أن غيبة الرقيب من أتم النعمة، وإبعاد العدو من أجل العوارف، فالأولياء في إيجاب القرية، والأعداء في العذاب والحجبة. انظر القشيري.

ثم ذكر توبيخ أعدائه يوم القيامة، فقال:

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلَّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، في توبيخ الكفرة يوم القيامة: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾، يقال: عهد إليه: إذا وصاه. وهذا العهد إما على ألسنة الرسل، أو: يوم: أأست بربكم، أو: ما نصبه لهم من الحجج العقلية، والدلائل السمعية، الأمر بعبادته، الزاجرة عن عبادة غيره. وعبادة الشيطان: طاعته فيما يوسوس به إليهم، ويزينه لهم. ﴿ وَأَنْ أَعْبُدُونِي ﴾: عطف على: أأست بربكم، أي: عهدنا إليكم ألا تطيعوا الشيطان ورحدوني، وأطيعوني، ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم فيه من معصية الشيطان، وطاعة الرحمن، أي: هذا طريق بليغ في الاستقامة، لا طريق أقوم منه. وفيه إشارة إلى جنائتهم على أنفسهم بعد التصح التام، فلا حجة بعد الإعذار، ولا ظلم بعد التذكير والإنذار.

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا ﴾ أي: خلقاً كثيراً - وفيه لغات مذكورة في كتب القراءات - أي: ولقد أطف الشيطان عن طريقى المستقيم خلقاً كثيراً، بأن أشركوا معي غيري، ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾، قرعهم على تركهم الانتفاع بالعقل، الذى ركب فيه، حيث استعملوه فيما يضرهم، من تدبير حظوظهم وهواهم. ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ بها، ﴿ أَصَلَّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي: ادخلوا واحترقوا فيها، بكفركم وإنكاركم لها.

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي: نمنعهم من الكلام، ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾. يروى: أنهم يجحدون، ويخاصمون، فتشهد عليهم جيرانهم، وأهاليهم، وعشائهم، فيحلفون: ماكانوا

مشركون، فحينئذ يُختم على أفواههم، وتكلم أيديهم وأرجلهم. وفي الحديث: «يقول العبد يوم القيامة: إني لا أُجيزُ على إلا شاهداً من نفسي، فيُختم على فيه، ويُقال لأركانِه: انطقي، فنطق بأعماله، ثم يخلَى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكن، وسحقاً، فعنك كنت أناضل» (١).

الإشارة: كل من آثر حظوظه ومناه، ولم يقدر على مجاهدة هواه، حتى مات محجوباً عن الله، يلحقه شيء من هذا التقريع. والصراط المستقيم: هو طريق التربية، التي توصل إلى الحضرة، التي قام ببيانها الأولياء العارفون بالله. ولقد أضل الشيطان عنها خلقاً كثيراً، حملهم على طلب الدنيا والرئاسة والجاه، فلم يقدروا على التفرغ لذكر الله، ولم يحطوا رؤوسهم لمن يعرفهم بالله، فيقال لهم: هذه نار القطيعة التي كنتم تُوعدون، إن بقيتم مع حظوظهم ورئاستكم، اصلوها اليوم بكفركم بطريق التربية، اليوم نختم على أفواههم، فلا مناجاة بينهم وبين حبيبهم، وتكلمنا أيديهم، وتشهد أرجلهم - بلسان الحال أو المقال - بما كانوا يكسبون من التقصير.

قال القشيري: قوله: ﴿وتكلمنا أيديهم...﴾ الخ، فأما الكفار فشهادة أعضائهم عليهم مؤيدة، وأما العصاة من المؤمنين فقد تشهد عليهم أعضاؤهم بالعصيان، ولكن تشهد عليهم بعض أعضائهم بالإحسان، وأنشدوا:

بينى وبينك يا ظلوم الموقفُ والحاكم العدلُ، الجوادُ المنصفُ.

وفي بعض الأخبار المروية: أن عبداً شهدت أعضاؤه عليه بالزلة، فتطير شعرة من جفن عينه، فتشهد له بالشهادة. فيقول الحق تعالى: يا شعرة جفن عبدى احتجى عن عبدى، فتشهد له بالبكاء من خوفه، فيغفر له، وينادى مناد: هذا عتيق الله بشعرة هـ.

ثم هددهم في دار الدنيا، فقال:

﴿لَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾
لَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾
وَمَنْ تَعَمَّرَهُ نَكَسْنَاهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾

(١) أخرجه مسلم في (الزهد، ٤/ ٢٨٨٠، ح ٢٩٦٩) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ اليوم، أى: أعميناهم وأذهبنا أبصارهم. والطمس: سد شق العين حتى تعود ممسوخة. ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾، على حذف الجار، وإيصال الفعل، أى: فاستبقوا إلى الطريق الذى اعتادوا سلوكه، وبأدروا إليه؛ لما يلحقهم من الخوف، ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ فكيف يُبصرون حينئذ من جهة سلوكهم، فيضلون فى طريقهم عن بلوغ أملهم.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ قرزة، وخنازير، أو حجارة، ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾: على منازلهم، وفى ديارهم، حيث يأمنون من المكاره. والمكانة والمكان واحد، كالمقامة والمقام. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾؛ فلم يقدروا على ذهاب ومجىء، أى: مُضِيًّا أمامهم، ولا يرجعون خلفهم. والمعنى: أنهم لكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم أحقاء بأن نفعل بهم ذلك، لكننا لم نفعل؛ لشمول الرحمة لهم، واقتضاء الحكمة إمهالهم.

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾؛ نُطِلْ عمره ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ (١) فى الخلق؛ نغلبه فيه. وقرأ عاصم وحمزة بالتشديد. والنكس والتنكيس: جعل الشيء أعلاه أسفله. والمعنى: من أطلنا عمره نكسنا خلقه، وهو نوع من المسخ، فصار بدل القوة ضعفاً، وبدل الشباب هرماء، وذلك أنا خلقناه على ضعف فى جسده، وخلقنا من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد إلى أن يبلغ أشده، ويستكمل قوته، ويعقل، ويعلم ما له وعليه، فإذا انتهى نكسناه فى الخلق، فجعلناه يتناقص حتى يرجع إلى حال شببيه بحال الصبى، فى ضعف جسده، وقلة عقله، وخلوه من العلم، كما ينكس السهم، فيجعل أعلاه أسفله. قال تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٢). قال ابن عباس: «من قرأ القرآن - أى وعمل به - لم يرد إلى أَرْدَلِ العمر». ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن من قدر أن ينقلهم من الشباب إلى الهرم، ومن القوة إلى الضعف، ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز، قادر على أن يطمس على أعينهم، ويمسحهم على مكانتهم، ويبعثهم بعد الموت.

الإشارة: ولو نشاء لطمسنا على أعينهم، فلا يهتدون إلى طريق السلوك، ولا يسلكونها، فيبقوا فى الحجاب على الدوام. ولو نشاء لمسحنا قلوبهم على مكانتهم، من رجاحة العقل والفهم، فلا يتدبرون إلا فى الأمور الحسية،

(١) قرأ عاصم وحمزة «ننكسه»، بضم الأول، وفتح الثانى، وتشديد الثالث وكسره، مضارع: (نكس)، للتكثير، وقرأ الباقون بفتح الأول، وإسكان الثانى، وضم الثالث، وتخفيفه. مضارع «نكسه»، ككسره. انظر الإتحاف (٢٠/٤٠٤).

(٢) الآية ٧٠ من سورة النحل.

فلا يستطيعون مُضياً في بلاد المعاني، ولا رجوعاً عن الحسيات. ومن نُعمّره من هؤلاء نُنكّسه في الخلق، فيلحقه الخرف والضعف، وأما من اهتدى إلى طريق السير، وسلك بلاد المعاني، فلا يزيده طول العمر إلا رجاحة في العقل، وقوة في العلم، وتمكيناً في المعاني والمعرفة.

قال القشيري: ومن نُعمّره نُنكّسه في الخلق: نرده إلى العكس، فكما كان يزداد في القوة، يأخذ في النقصان، إلى أن يبلغ أرذل العمر، فيصير إلى مثل حال الطفولية من الضعف، ثم لا يبقى بعد النقصان شيء، كما أنشدوا:

طوى العصران ما تشراه ملي فأبلى جـدتي نُشروطي

أراني كل يوم في انقاصٍ ولا يبقى مع النقصان شيء (١)

وهذا في الجثة والمباني، دون الأحوال والمعاني، فإن الأحوال - في حق الجثة - في الزيادة إلى بلوغ حد الخرف، فيختل رأيه وعقله. وأصحاب الحقائق تشيب ذوائبهم، ولكن محابهم ومعانيهم في عنفوان شبابها، وطراوة جدتها. هـ.

ثم أنكر على من رمى القرآن بكونه شعراً، فقال:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ أي: وما علّمنا نبينا محمداً الشعر، حتى يقدر أن يقول شعراً، فيتهم على القرآن، أو: وما علّمناه بتعلم القرآن الشعر، على معنى: أن القرآن ليس بشعر، فإنه غير مقفى ولا موزون، وليس معناه ما يتوقاه الشعراء من التخيلات المرغبة والمنفرة ونحوها. فأين الوزن فيه؟ وأين التقفية؟ فلا مناسبة بينه وبين كلام الشعراء، ﴿وما ينبغي له﴾ أي: وما يليق بحاله، ولا يتأتى له لو طلبه، أي: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يأت له، ولم يسهل، كما جعلناه أمياً لم يهتد إلى الخط؛ لتكون الحجة أثبت، والشبهة أدهض.

(١) نسب البيتان إلى محمد بن يعقوب بن إسماعيل، كما في كتاب الوافي بالوفيات (٢٢٢/٥). ونسباً إلى أبي بكر بن أبي الدنيا، كما في تاريخ بغداد (٣١١/١٤).

وأما قوله - عليه الصلاة والسلام -: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»^(١)، وقوله: «هَلْ أَنْتَ إِلَّا إصْبَعٌ دَمِيتَ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ»^(٢)، فهو مما اتفق وزنه من غير قصد، كما يتفق في خطاب الناس ورسائلهم ومحاوراتهم، ولا يسمى شعراً إلا ما قصد وزنه.

ولمّا نفى القرآن أن يكون من جنس الشعر، قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أى: ما الذى يُعلم ويقولُه إلا ذكر من الله، يُوعظ به الإنس والجن، ﴿وَقُرْآنٌ﴾ أى: كتاب سمارى، يُقرأ فى المحاريب، ويُنلى فى المتعبدات، ويُنال بتلاوته والعمل به أعلا الدرجات. فكم بينه وبين الشعر، الذى هو من همزات الشيطان!؟

أنزلناه إليك ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾^(٣) يامحمد، أو: لينذر القرآن ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ بالإيمان، أو عاقلاً متأملاً؛ فإن الغافل كالميت، أو: من سبق فى علم الله أنه يحيى؛ فإن الحياة الأبدية بالإيمان، وتخصيص الإنذار به؛ لأنه المنتفع به، ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ﴾ أى: تجب كلمة العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ المصيرين على الكفر، وجعلهم فى مقابلة من كان حياً إشعار بأنهم بكفرهم فى حكم الأموات، كقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّنْ فِي الْقُبُورِ﴾^(٤).

الإشارة: أما النبى - عليه الصلاة والسلام - فنفى الله عنه صنعة الشعر، والقوة عليه، لئلا يتهم فيما يقوله، وأما الأولياء فكثير منهم تكون له القوة عليه، ويصرف ذلك فى أمداح الخمرة الأزلية، والحضرة القدسية، أو فى الحضرة النبوية، وينالون بذلك تقريباً، ورتبة كبيرة، وأما قوله - عليه الصلاة والسلام -: «لَأَنْ يَمْتَلَى جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً يَرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلَى شِعْراً»^(٥) فالمراد به شعر الهوى، الذى يشغل عن ذكر الله، أو يصرف القلب عن حضرة الله. قيل لعائشة - رضى الله عنها - أكان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت: لم يتمثل بشيء من الشعر إلا بيت طرفة، أخى بنى قيس:

سَبْدِي لَكَ الْيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُدْ.

وربما عكسه فقال: «ويأتيك من لم تزود بالأخبار»^(٦). وبالله التوفيق.

(١) أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب من قاد دابة غيره فى الحرب، ح ٢٨٦٤) ومسلم فى (الجهاد، باب فى غزوة حنين، ١٤٠٠/٣، ح ١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب.

(٢) أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب من ينكب فى سبيل الله، ح ٢٨٠٢) وفى (الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز) ومسلم فى (الجهاد، باب لقي النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، ١٤٢١/٣، ح ١٧٩٦) من حديث جندب بن سفيان.

(٣) قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب، واللتذر، بالخطاب. وقرأ الباقر، والينذر، بالغيب. انظر الإتحاف (٤٠٤/٢).

(٤) من الآية ٢٢ من سورة فاطر.

(٥) أخرجه البخارى فى (الأدب، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصدّه عن ذكر الله، ح ٦١٥٥) ومسلم فى (كتاب الشعر، ١٧٦٩/٤، ح ٢٢٥٧).

(٦) أخرجه بحره، ريدون ذكر بيت الشعر، الطبرى فى تفسيره (٢٧/٢٣) وعزاه السيوطى فى الدر (٥٠٥/٥) لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم. وانظر: تفسير البغوى (٢٧/٧) وتفسير ابن كثير (٥٧٩/٣).

ثم ذكّرهم بالنعمة، عليهم ينقادوا بملاطفة الإحسان فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾
وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أى: أعموا ولم يعلموا ﴿ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ أى: أظهرته قدرتنا، ولم يقدر على إحداثه غيرنا. وذكر الأيدي، وإستاد العمل إليها، استعارة، تفيد مبالغة فى الاختصاص والتفرد بالإيجاد، ﴿ أَنْعَمًا ﴾، خصّها بالذكر؛ لما فيها من بدائع الحكمة والمنافع الجمة. ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ أى: خلقناها لأجلهم، فملكناها إياهم، فهم يتصرفون فيها تصرف المالك، مختصون بالانتفاع بها. أو: فهم لها حافظون قاهرون.

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾؛ وصيرناها متقلدة لهم. وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليله وتسخيرها لها. وبهذا أمر الراكب أن يشكر هذه النعمة، ويسبح بقوله: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ (١) ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ أى: مركوبهم، وهو ما يركب منها، وقرئ بضم الراء، أى: ذو ركوبهم. أو: فمن منافعها ركوبهم. ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾؛ ما يأكلون لحمه، أى: سخرنّاها لهم ليركبوا ظهرها ويأكلوا لحمها. ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ من الجلود، والأوبار، والأصواف، وغير ذلك، ﴿ وَمَشَارِبٌ ﴾ من اللبن، على تلونه من المضروب وغيره، وهو جمع: مشرب، بمعنى: موضع الشرب. أو: المصدر، أى: الشرب. ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ نعم الله فى ذلك؟ إذ لولا إيجاده إياها لها ما أمكن الانتفاع بها.

الإشارة: قوم نظروا إلى ما من الله إليهم من العبرة والإكرام، فانقادوا إليه بملاطفة الإحسان، فعرفوا المنعم، وشكروا الواحد المتان، فسخر لهم الكون وما فيه، وقوم لم ينجع فيهم سرايغ النعم، فسلب عليهم المصائب والنقم، فانقادوا إليه قهراً بسلاسل الامتحان، «عَجِبَ رَبِّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلاسلِ» (٢)، وكل هؤلاء سبقت لهم

(١) الآية ١٣ من سورة الزخرف.

(٢) لفظ حديث، أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب الأسارى فى السلاسل، ح ٣٠١٠) من حديث سيدنا أبى هريرة رضي الله عنه.

من الله العناية. وقوم لم يتجح فيهم نعم ولا نقم، قد سبق لهم الخذلان، فأصرروا على العصيان، ولم يشكروا الله على ما أسدى من سوابغ الإحسان، وإلى هؤلاء توجه الخطاب بقوله:

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴿ ٧٥ ﴾ فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنََّّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿ ٧٦ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾، أشركوها معه في العبادة، بعد ما رأوا منه تلك القدرة الباهرة، والنعمة المتظاهرة، وتحققوا أنه المفرد بها، فعبدوا الأصنام، ﴿ لعلهم ينصرون ﴾ بها إذا حزبهم أمر. والأمر بالعكس، ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ أبداً، ﴿ وهم لهم ﴾ أى: الكفار للأصنام ﴿ جند ﴾ أى: أعوان وشيعة ﴿ محضرون ﴾ يخدمونهم، ويدبّون عندهم، ويعكفون على عبادتهم. أر: اتخذوهم لينصروهم عند الله، ويشفعوا لهم، والأمر على خلاف ما توهموا، فهم يوم القيامة جند معدون لهم، محضرون لعذابهم؛ لأنهم يجعلون وقوداً للنار، التى يحترقون بها.

ثم سأل نبيه عما يسمع بقوله: ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾، فلا يهمنك تكذيبهم، وأذاهم، وما تسمع منهم من الإشراك والإلحاد. ﴿ إنا نعلم ما يسرون ﴾ من عداوتهم وكفرهم، ﴿ وما يعلنون ﴾، فيجازيهم عليه، فحق مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد، ويستحضر فى نفسه صورة حاله وحالهم فى الآخرة، حتى ينقشع عنهم الهم، ولا يرهقه حزن. وهو تعليل للنهى على طريق الاستئناف، ولذلك لو قرئ: أنا، بالفتح، على حذف لام التعليل، لجاز، خلافاً لمن أنكره وأبطل صلاة من قرأ به. انظر النسفى.

الإشارة: كل من ركن إلى شيء دون الله، فهو فى حقه صنم، كائناً ما كان، علماً، أو عملاً، أو حالاً، أو غير ذلك. ولذلك قال القطب ابن مشيش لأبى حسن الشاذلى - رضى الله عنهما - لما قال: بِمَ تَلْقَى الله يا أبا الحسن؟ فقال له: بفقرى، قال: إذا تلقاه بالصنم الأعظم، أى: وإنما يلقى الله بالله، ويغيب عما سواه. وقوله تعالى: ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ فيه تسلية لمن أودى فى جانب الله. قال القشيري: إذا علم العبد أنه بمرأى من الحق، هان عليه ما يقاسيه، لا سيما إذا كان فى الله هـ.

ثم أبطل دسري من أنكر البعث، وهو من جملة قولهم، الذي أمر نبيه بالتسلي عنه، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝
وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝
أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝
الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ
نَارًا فَإِذَا أَنْشَمَ مِنْهُ تُوقَدُونَ ۝
أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى
أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝
إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝
فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ مذرة، خارجة من الإحليل، الذي هو قناة الدجاسة، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾: بين الخصومة، أي: فهو على مهانة أصله، ودناءة أوله، يتصدى لمخاصمة ربه، وينكر قدرته على إحياء الميت بعد مارمت عظامه. وهي تسلية ثانية له ﷺ، وتهوين ما يقولونه في جانب الحشر، وهو توبيخ بليغ؛ حيث عجب منه، وجعله إفراطاً في الخصومة بيناً فيها.

روى أن أبا بن خلف أتى النبي ﷺ بعظم بال، ففتنه بيده، وقال: يا محمد؛ أترى الله يحيى هذا بعد ما رم؟ فقال ﷺ: «نعم وبيعتك ويدخلك جهنم» (١) فنزلت الآية.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾، أمراً عجيباً، بأن جعلنا مثل الخلق العاجزين، فنعجز عما عجزوا عنه؛ من إحياء الموتى، ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ من المعنى المهين، فهو أغرب من إحياء العظم الرميم. وخلقته: مصدر مضاف للمفعول، أي: خلقنا إياه، ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾: بال مفتت، وهو اسم لما يلي من العظام، لا صفة، ولذلك لم يؤنث. وقد وقع خبراً لمؤنث، وقيل: صفة بمعنى مفعول، من: رممته، فيكون كقتيل وجريح. وفيه

(١) أخرجه الطبري (٣٠/٢٣) والواحدى في أسباب النزول (ص ٣٧٩) عن قتادة. وعزاه السيوطي في الدر (٥٠٨/٥) لسعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي في البعث، عن أبي مالك. وأخرج الحاكم (٤٢٩/٢) وصححه ووافقه الذهبي عن ابن عباس: أن الآية نزلت في العاص بن وائل، والآية عامة، والآلف واللام في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ﴾ للجنس، يعم كل منكر للبعث.

دليل على أن العظم تحله الحياة، فإذا مات صار نجساً، وهو مذهب مالك والشافعي، وقال أبو حنيفة: لا تحله الحياة، فهو طاهر كالشعر والعصب.

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا ﴾ ؛ خَلَقَهَا ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أَيْ: ابتداءً، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ ﴾ ؛ مَخْلُوقٍ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه أجزائه، وإن تفرقت في البر أو البحر، فيجمعه، ويعيده كما كان.

ثم ذكر برهان إحيائه الموتى بقوله: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ﴾ ، كَالْمَرْخِ وَالْعَفَّارِ، ﴿ نَارًا ﴾ ، فإذا أنتم منه تُوقَدُونَ ﴿ ، تَقْدَحُونَ ﴾ ، ولا تشكون أنها نار خرجت منه، فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر، مع ما فيه من المائية، المضادة للنار، كان أقدر على إيجاد الحياة والغضاضة فيما غضا ويبس، وهي الزناد عند العرب، وأكثرها من المرخ والعفار، وفي أمثالهم: «في كل شجر نار»، واستمجد المرخ والعفار، أَيْ: استكثر في هذين الصنفين. وكان الرجل يقطع منهما غصنين مثل السواكين، وهما خضراوان، يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ - وهو ذكر - على العفار - وهي أنثى، فينقدح النار بإذن الله تعالى. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ليس من الشجر شجرة إلا وفيها نار، إلا العناب؛ لمصلحة الدق للثياب.

والمَرخ - ككثف: شجر سريع الوري. قاله في الصحاح. وهو المسمى عندنا بالكُخ. وفي القاموس: عفار كسحاب: شجر يتخذ منه الزناد. قال ابن عطية: النار موجودة في كل عود، غير أنها في المتحلل، المفتوح المسام، أوجد، وكذلك هو المرخ والعفار. هـ.

﴿ أَوَّلَى الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ مع كبر جرمهما، وعظم شأنهما ﴿ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ ؛ مثل أجسامهم في الصغر والحقارة، بالإضافة إلى السموات والأرض، أَوْ: أن يعيدهم مثل ما كانوا عليه في الذات والصفات؛ لأن المعاد مثل المبدأ، بل أسهل، ﴿ بَلَى ﴾ أَيْ: قُلْ: بَلَى هو قادر على ذلك، ﴿ وَهُوَ الْخَلَّاقُ ﴾ ؛ كثير الخلق والاختراع، ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوال خلقه، أَوْ: كثير المخلوقات والمعلومات.

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ ﴾ ؛ شَأْنُهُ ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا ﴾ يكونه ﴿ أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فيحدث، أَيْ: فهو كائن موجود، لا محالة. وهو تمثيل لتأثير قدرته في الأشياء، بأمر المطاع للمطيع في حصول الأمور، من غير امتناع وتوقف، من غير أن يحتاج إلى كاف ولا نون، وإنما هو بيان لسرعة الإيجاد، كأنه يقول: كما لا يثقل عليكم قول «كن»، فكذلك لا يصعب على الله إنشاءكم وإعادةكم. قال الكواشي: ثم أوماً إلى كيفية خلقه الأشياء المختلفة في الزمان المتحد، وذلك ممّن على غيره، فقال: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ... ﴾ الآية، فيحدث من غير توقف، فمن رفع «فيكون»،

فلأنه جعله من مبتدأ وخبر، أي: فهو يكون. ومن نصب قللعطف على «يقول». والمعنى: أنه ليس ممن يلحقه نصب ولا مشقة، ولا يتعاضمه أمر، بل إيجاد المعدومات، وإعدام الموجودات، عليه أسرع من لمع البصر هـ.

﴿ فسبحان ﴾ ؛ تنزيهاً له عما وصفه به المشركون، وتعجيب مما قالوا، ﴿ الذي بيده ملكوت ﴾ أي: ملك ﴿ كل شيء ﴾ والتصرف فيه على الإطلاق. وزيادة الوار والتاء؛ للمبالغة، أي: مالك كل شيء، ﴿ وإليه ترجعون ﴾ بالبعث للجزاء والحساب.

الإشارة: أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة مهينة، فإذا هو خصيم لنا في تدبيرنا واختيارنا، ويتنازعنا في مرادنا من خلقنا، ومرادنا منهم: ما هم عليه. فاستحى أيها الإنسان أن تُخاصم الله في حكمه، أو تنازعه في تقديره وتدبيره، وسلم الأمور لمن بيده الخلق والأمر. بكى بعض الصالحين أربعين سنة على ذنب أذنبه. قيل له: وما هو؟ قال: (قلت لشيء كان: ليت لم يكن). فأرض بما يختاره الحق لك، جلالياً كان أو جمالياً ولا تختر من أمرك شيئاً، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. وكل من اهتم بأمر نفسه، واشتغل بتدبير شئونها، فقد ضرب الله مثلاً، بأن أشرك نفسه معه، ونسى خلقه، ولو فكر في ضعف أصله، وحاله، لاستحيا أن يدبر لنفسه مع ربه، وفي الإشارات عن الله تعالى: أيها العبد لو أذنت لك أن تدبر لنفسك لكنت تستحيى مني أن تدبر لها، فكيف وقد نهيتك عن اللذية أ.

وكما قدر على إحياء العظام الرميمة، يقدر على إحياء القلوب الميتة، ومن قدر على استخراج النار من محل الماء، يقدر على استخراج العلم من الجهل، واليقظة من الغفلة، ومن كان أمره بين الكاف والدون، بل أسرع من لحظ العيون، ينبغي أن يرجع إليه في جميع الشئون. قال القشيري: فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء، فلا يحدث شيء - قل أو كثر - إلا بإبداعه وإنشائه، ولا يبقى منها شيء إلا بإبقائه، فمنه ظهر ما يحدث، وإليه يصير ما يخلق هـ.

قال النسفي: قال ﷺ: «من قرأ يس يريد بها وجه الله غفر الله له، وأعطى من الأجر كمن قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة» وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وصحبه، وسلم.



سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مكية. وهي مائة وإحدى، أو اثنتان، وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها: أنها رد على المشركين في عبادة الأصنام، وإنكارهم البعث، المختتم بهما السورة قبلها، فقال في صدر هذه: ﴿إِنْ إِلَهَاكُمْ إِلَّا وَاحِدٌ﴾، ثم قال: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أَتَذَّا مِتْنَا...﴾ (١) الخ. قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۝٧ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والصافات صفاً، فالزاجرات زجراً، فالتاليات ذكراً﴾، أقسم بطوائف الملائكة، الصافين أقدامهم في مراتب العبادة، كل على ما أمر به، فالزجرات السحاب سوقاً إلى ما أراد الله، أو: عن المعاصي بإلهام الخير. أو: الشياطين عن التعرض لهم. (فالتاليات ذكراً) لكلام الله تعالى من الكتب المنزلة وغيرها، قاله ابن عباس وابن مسعود وغيرهما. وفيه رد على ابن الصلاح، حيث قال في فتاويه: إن الملائكة لا تقرأ القرآن، وإنما قراءته كرامة أكرم الله بها البشر. قال: فقد ورد أن الملائكة لم تعط ذلك، فهي حريصة لذلك على استماعه من الإنس، كما نقله عنه في الإتيان، فانظره.

أو: بنفوس العلماء والعمال، الصافات أقدامها في التهجد وسائر الصلوات، فالزاجرات بالمواعظ والنصائح، فالتاليات آيات الله، والدراسات شرائعه. أو: بنفوس الغزاة في سبيل الله، التي تصف الصفوف، وتزجر الخيل للجهاد، وتتلو الذكر مع ذلك، لا يشغلهم عنه مبارزة العدو. و (صفاً): مصدر مؤكد، وكذلك (زجراً)، والفاء تدل على الترتيب، فتفيد فضل المتقدم على المتأخر، فتفيد الفضل للصف، ثم للزجر، ثم للتلاوة، أو بالعكس.

(١) الآية ١٥ من سورة الصافات.

وجواب القسم: ﴿إِنْ إِلَهَاكُمْ إِلَّا وَاحِدٌ﴾ لا شريك معه يستحق أن يُعبد، ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وهو خير بعد خبر، أو: خبر عن مضمر، أى: هو ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أى: مطالع الشمس، وهى ثلاث مائة وستون مشرقاً، وكذلك المغارب. تشرق الشمس كل يوم فى مشرق منها، وتغرب فى مغرب، ولا تطلع ولا تغرب فى واحد يومين. وأما: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (١) فإنه أريد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما. وأما: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ (٢) فإنه أريد به الجهة، فالمشرق جهة، والمغرب جهة. قال الكواشى: لم يذكر المغارب؛ لأن المشرق تدل عليها.

﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾؛ القربى منكم، تأنيث الأدنى، ﴿بَزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ بالإضافة، أى: بأن زينتها الكواكب ومن قرأ بالتنوين والخفض (٣) فبدل، أى: هى الكواكب، ومن قرأ بالنصب فعلى إضمار أعنى، أو: بدل من محل «بزينة»، أى: زينا الكواكب، أو: على إعمال المصدر منوئاً فى المفعول، أى: بتزين الكواكب. قال البيضاوى: وركوز الثوابت فى الكوة الثامنة، وما عدا القمر من السيارات فى الست المتوسطة بينهما وبين سماء الدنيا إن تحقق لم يقدح فى ذلك، فإن أهل الأرض يرونها بأسرها كجواهر مشرقة، متألثة على سطحها الأزرق. هـ.

﴿وَحِفْظًا﴾ من الشياطين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ (٤) أو: بإضمار فعله، أى: حفظناها حفظاً ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾؛ خارج عن الطاعة، فيرمى بالشهب. ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٥) إلى الملائكة الأعلى: استئناف؛ لبيان حالهم، بعد بيان حفظ السماء منهم، ولا يجوز وصفه لكل شيطان؛ لأنه يقتضى أن يكون الحفظ من شياطين لا يسمعون. والضمير لكل باعتبار المعنى؛ لأنه فى معنى شياطين، وتعدية (يسمعون) يالى لتضمنه معنى الإصغاء؛ مبالغة فى نفيه، وتهويلاً لما يمنعهم عنه. ومن قرأ بالتشديد فأصله: «يَتَسَمَّعُونَ» فأدغم. والتسمّع: طلب السماع. يقال: تسمّع فسمع أو لم يسمع إذا منعه مانع. والملائكة الأعلى هم: الملائكة؛ لأنهم فى السموات العلى، والإنس والجن هم الملائكة الأسفل؛ لأنهم سكان الأرض، ﴿وَيُقَذَّفُونَ﴾؛ يرمى بالشهب، ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾؛ من جميع جوانب السماء، من أى جهة صعدوا للاستراق.

(١) الآية ١٧ من سورة الرحمن.

(٢) الآية ٩ من سورة المزمل.

(٣) قرأ حفص، وحمزة، بتلوين (زينة) وجر (الكواكب). وقرأ أبو بكر بفتحة (زينة) ونصب (الكواكب). والباقرن بحذف التنوين، على إضافة «زينة» للكواكب. انظر الإتحاف (٤٠٨/٢).

(٤) الآية ٥ من سورة الملك.

(٥) قرأ حفص، وحمزة، والكسائى، بتشديد السين والميم، والأصل «يَتَسَمَّعُونَ» فأدغمت التاء. وقرأ الباقرن بالتخفيف. انظر الإتحاف (٤٠٨/٢).

﴿ دُحُورًا ﴾؛ مفعول له، أى: وَيُقَذَّفُونَ للدحور، وهو الطرد، أو: مدحورين، على الحال، أو: لأن القذف والطرد متقاربان فى المعنى، فيكون مصدرًا له، فكأنه قيل: وَيُقَذَّفُونَ قذفًا، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ ﴾ آخر ﴿ وَاَصْبُ ﴾؛ دائم، أو: شديد، وهو عذاب الآخرة، أو: عذاب الدنيا؛ لأنه دائم الوجوب؛ لأنهم فى الدنيا مرجمون بالشهب دائمًا، ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾، «مَنْ»: بدل من ضمير «يسمعون»، أى: لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذى خَطَفَ الخطفة، أى: اختلس شيئاً من كلام الملائكة بسرعة، ﴿ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ أى: نجم مضىء يثقبه، أو يحرقه، أو يخبله، ومنه تكون الغيلان. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أقسم الحق تعالى بصفوف الذاكرين، الزاجرين للخواطر عن قلوبهم، فى طلب الحضور، التالين لذكر ربهم لرفع الستور، إنه منفرد فى ألوهيته، متوحد فى ربوبيته؛ إذ هو ربُّ كل شيء، ربُّ سموات الأرواح، وربُّ أرض النفوس والأشباح، وربُّ مشارق أنوار العرفان، وهى قلوب أهل العيان، ولم يذكر المغارب؛ لأن شمس القلوب إذا طلعت ليس لها مغيب.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا .. ﴾ الخ، قال القشيري: زَيْنَ السماء بالنجوم، وزَيْنَ قلوب أوليائه بنجوم المعارف والأحوال. هـ. وقوله تعالى: ﴿ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾، قال القشيري: كذلك حفظ القلوب بأنوار التوحيد، فإذا قَرَّبَ منها الشيطان رَجَمَهَا بنجوم معارفهم، إلا من خَطَفَ الخطفة، كذلك إذا اغتلم الشيطان من الأولياء أن يُلْقَى شيئاً من وساوسه؛ تَذَكَّرُوا، فإذا هم مُبْصِرُونَ. هـ.

وقال فى لطائف المنن: إن الله تعالى إذ تولى ولياً صان قلبه من الأغيار، وحرسه بدوام الأنوار، حتى لقد قال بعض العارفين: إذا كان سبحانه قد حرس السماء بالكواكب والشهب؛ كي لا يسرق السمع منها، فقلب المؤمن أولى بذلك، لقول الله سبحانه، فيما يحكيه عنه رسول الله ﷺ: «لم تسعنى أرضى ولا سمائى، ووسعنى قلب عبدى المؤمن». هـ. والمراد: المؤمن الكامل، الذى تولى الله حفظه، وهو الولي العارف.

ثم ردَّ على من أنكر البعث بعد هذه الدلائل الباهرة، فقال:

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ ذَا مِثْنًا وَكُنَّا نَرَىٰ آبَاءَ عَظَمَاءِ إِيَّاكَ الْمُبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾

قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا إِنَّا نَوَيْلُنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أى: فاستخبر كفار مكة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أى: أقوى خلقاً وأعظم، أو: أصعب خلقاً وأشقّه. ﴿أَمْ مِنْ خَلْقًا﴾ يعنى ما ذكر من السماء والأرض وما بينهما، وما يعمرهما من الملائكة والكواكب، والشهب الثواقب؟. وجيء به من، تغليباً للعقلاء. ويدل عليه قراءة من قرأ: (أم من عددنا) بالتشديد والتخفيف. والقصد: الرد على منكري البعث، فإن من قدر على خلق هذه العوالم، على عظمها، كان على بعثهم أقدر. ثم ذكر ضعف أصلهم بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾، لاصق باليد، أو: لازم. وقرئ به، أى: يلزم من جاوره ويلصق به. وهذا شاهد عليهم بالضعف؛ لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة. أو: احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذى خلقوا منه إنما هو تراب، فمن أين استنكروا أن نخلق من تراب مثله خلقاً آخر؟ حيث قالوا: ﴿أَنْذَا كُنَّا تَرَابًا﴾ (١) الخ، وهذا المعنى يعضده ما يتلوه بعد؛ من ذكر إنكارهم البعث.

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من تكذيبهم إياك، وإنكارهم البعث، ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ هم منك، ومن تعجبك، أو: من أمر البعث، قال الكواشي: ولما لم تؤثر فيهم البراهين، أمر نبيه - عليه الصلاة والسلام - بالإضراب عنهم، والإعجاب منهم، حيث لم يؤمنوا به وبالبعث، والمعنى: إنك تعجبت من تكذيبهم، وهم يسخرون منك ومن تعجبك. هـ. قال قتادة: لما نزل القرآن عجب منه النبي ﷺ، واعتقد أنه لا يسمعه أحد إلا آمن به، فلما سمعه المشركون، ولم يؤمنوا، وسخروا، تعجب من ذلك (٢). هـ. وذكر ابن عطية وغيره: أن الآية نزلت فى رُكَّانة، الذى صرعه ﷺ (٣)، وذكر ابن عبد البر: أنه أسلم يوم الفتح. هـ.

وقرأ الأخوان: عَجِبْتُ، بضم التاء، أى: استعظمت. والعجب: روعة تعترى الإنسان عند استعظام الشيء؛ لخشاه سببه، وهو فى حقه تعالى محال، ومعناه: التعجب لغيره، أى: كل من يرى حالهم يقول: عَجِبْتُ، ونحوه: قوله ﷺ: «عجب الله من شاب ليست له صبوة» (٤). وهو عبارة عما يظهره الله فى جانب المتعجب منه، من التعظيم أو التحقير، أو: قل يا محمد: عَجِبْتُ ويسخرون.

(١) الآية ٥ من سورة الرعد.

(٢) أخرجه الطبرى (٤٤/٢٣).

(٣) حديث صرع النبي ﷺ للركانة، أخرجه الترمذى فى (اللباس، باب العمائم على القلائس ٢١٧/٤ ح ١٧٨٤) وأبو داود فى (اللباس، باب فى العمائم ٣٤١/٤ ح ٤٠٧٨) عن أبى ركانة.

(٤) أخرجه أحمد (١٥١/٤) والطبرانى فى الكبير (٣٠٩/١٧) من حديث عقبة بن عامر. قال الهيثمى فى المجمع (٢٧٠/١٠): وإسناده حسن.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ أى: ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به. ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾؛ معجزة، كانشقاق القمر، ونحوه، ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾؛ يُبالغون فى السخرية، ويقولون: إنه سحر، ويستدعى بعضهم بعضاً أن يسخر منها، ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا﴾؛ ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ ظاهر سحريته، ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أى: أتُبْعَثُ إذا كنا تُرَاباً وَعِظَاماً؟ ﴿أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾، فمن فتح الواو عطف على محل، وإن، واسمها، والهمزة للإنكار، أى: أَوْ يُبْعَثُ أيضاً آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ الْأَقْدَمُونَ، على زيادة الاستبعاد، يعنون أنهم أقدم، فبعتهم أبعد وأبطل. ومن سَكَنَ (١) فَمِنْ عَظْفٍ أَحَدِ الشَّيْئَيْنِ، أى: أُبْعَثُ واحد منا، على المبالغة فى الإنكار. ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تَبْعُثُونَ ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾؛ صاغرون.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أى: صيحة واحدة، وهى النفحة الثانية، والفاء: جواب شرط مقدر، أى: إذا كان كذلك فمأهى إلا صيحة واحدة، وهى مبهمة، يفسرها خبرها. أو: فإنما البعثة زجرة واحدة. والزجرة: الصيحة، من قولك: زجر الراعى الإبل والغنم: إذا صاح عليها، ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أحياء ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى سوء أعمالهم، أو: ينظرون ما يحل بهم.

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾، الويل: كلمة يقولها القائل وقت الهلكة، ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾؛ اليوم الذى يُدان فيه العباد، ويُجازون بأعمالهم. ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ أى: يوم القضاء والفرق بين فرق الهدى والضلالة، ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، يحتمل أن يكون قوله: ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ من كلام الكفرة، بعضهم مع بعض، وأن يكون من كلام الملائكة لهم، وأن يكون ﴿يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ من كلام الكفرة، وما بعده كلام الملائكة، جواباً لهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الإنسان فيه عالمان، عالم فى غاية الضعف والخسة، وهى بشريته الطينية، أصلها من ماء مهين. وعالم فى غاية القوة والكمال، وهى روحانيته السماوية النورانية، فإذا حييت الروح بالعلم بالله، واستولت على البشرية، استيلاء النار على الفحم، أكسبتها القوة والشرف، وإذا ماتت الروح بالغفلة والجهل، واستولت عليه البشريّة أكسبتها الضعف والذل، والعارف الكامل هو الذى ينزل كل شيء فى محله، فينزل الضعف فى ظاهره، والقوة فى باطنه، فظاهره يمتد من الوجود بأسره، وباطنه يمد الوجود بأسره. فمن نظر إلى أصل ظاهره تواضع وعرف قدره، ولذلك قال سيدنا على كرم الله وجهه: ما لابن آدم والفخر، وأوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قدرة، وفيما بينهما يحمل العذرة. هـ.

(١) قرأ قالون، وابن عامر، وأبو جعفر، بإسكان الواو، وقرأ الباقر بالفتح. انظر الإتعاظ (٢/٤١٠).

ومن نظر إلى باطنه تاه على الوجود بأسره، لكن من آداب العبد: ألا يظهر بين يدي سيده إلا ما يناسب العبودية، من الضعف، والذل، والفقر، فإذا تحقق بوصفه مدد الله بوصفه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مثال أهل الكفر، فقال:

﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُتَسَلِّمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَغَيْنَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنْ كُنَّا غَالِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَنَّهُمْ يُومِذُونَ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾

يقول الحق جل جلاله للملائكة يوم القيامة: ﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى: اجمعوا الذين كفروا ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾؛ وأشباههم، فيحشر عابد الصنم مع عبدة الأصنام، وعابد الكواكب مع عبيدتها. أو: نساءهم الكافرات، أو: قرنائهم من الشياطين. والواو بمعنى «مع»، أو: عاطفة. ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾، من دون الله ﴿ أَي: الأصنام، اجمعوها معهم ﴾، ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ أى: دلوهم على طريقها، وعرفوهم بها. وعن الأصمعي: يقال: هديته في الدين هدى، وهديته الطريق هداية.

﴿ وَقِفُوهُمْ ﴾: احبسوهم ﴿ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ عن أقوالهم وأفعالهم وعقائدهم، ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾؛ لا ينصر بعضهم بعضاً. وهذا توبيخ لهم بالعجز عن التناصر، بعد ما كانوا يتناصرون في الدنيا، أو: استهزاء بهم. وقيل: هو جواب لأبي جهل، حيث قال يوم بدر: ﴿ نحن جميع منتصر ﴾ (١)، وجملة النفى: حال، أى: ما لكم غير متناصرين، ﴿ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُتَسَلِّمُونَ ﴾؛ متقادون لما يراد بهم؛ لعجزهم، وانسداد أبواب الحيل عليهم، أو: قد أسلم بعضهم بعضاً وخذله.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أى: التابع على المتبوع ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾؛ يتخاصمون، ويسأل بعضهم بعضاً سؤال توبيخ وتسخط، ﴿ قَالُوا ﴾ أى: الأتباع للمتبوعين: ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ أى: تصدرونا عن

(١) كما حكى الآية ٤٤ من سورة القمر.

الحق والإيمان، قاله الحسن. وبيانه: أن العرب كانت تقيم بالسانح^(١) عن اليمين من الطير، ويناسبه ما ذكره ابن عطية في جملة التأويلات بقوله: ومنها: أن يريد باليمين اليمن، أي: تأتوننا من جهة النصائح، والعمل الذي يقيم به. هـ. قلت: والأحسن: أن يقدر معلق الجار، أي: تأتوننا وتصرفوننا عن طريق أهل اليمين.

﴿ قالوا ﴾ أي: الرؤساء: ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ أي: بل أنتم أبيتم الإيمان، وأعرضتم عنه مع تمكّنكم منه، مختارين للكفر، غير ملجلجين إليه، أر: بل أنتم سبقت منكم الضلالة على إغوائنا، وإنما نشأ عن إغوائنا دوام كُفركم لا استئنافه. ﴿ وما لنا كان عليكم من سلطان ﴾ وقهر، نسلبكم به تمكّنكم واختياركم، ﴿ بل كنتم قوماً طاغين ﴾ أي: بل كنتم قوماً مختارين للطغيان، ﴿ فحق علينا ﴾ أي: لزمنا جميعاً ﴿ قول ربنا إنا لذائقون ﴾، يعني: حقت علينا كلمته بأننا ذائقون لعذابه. ولو حكى الوعيد على ما هو لقال: إنكم لذائقون، لكنه عدل به إلى لفظ المتكلم؛ لأنهم يتكلمون بذلك عن أنفسهم. ثم قالوا لضعفائهم: ﴿ فأغويناكم ﴾؛ فدعوناكم إلى الغي ﴿ إنا كنا غاوين ﴾؛ فأردنا إغواءكم لتكونوا مثلنا، ﴿ فإنهم ﴾ أي: الأتباع والمتبوعين جميعاً، ﴿ في العذاب يومئذٍ مشتركون ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية. ﴿ إنا كذلك نفعل بالجرمين ﴾؛ المشركين، أي: مثل ذلك الفعل نفعل بكل مجرم.

الإشارة: ويقال على طريق العكس: أحشروا الذين أحسنوا واتقوا ربهم، وأزواجهم، ومن انتسب إليهم، فاهدوهم إلى طريق الجنان، وقفروهم يشفعوا فيمن تعلق بهم، إنهم مسؤولون عن أصحابهم وعشائرتهم، حتى يخلصوهم من ورطة الحساب. ما لكم لا تناصرون، فينصر بعضكم بعضاً في هذا الموطن الهائل، بل هم اليوم متفادون لأمر الله، حتى يأذن لهم في الشفاعة. وفي الحديث: «اتخذوا يداً عند الفقراء، فإن لهم دولة يوم القيامة»^(٢) ودولتهم: الشفاعة فيمن أحبهم وأحسن إليهم. والفقراء هم المتوجهون إلى الله تعالى، حتى وصلوا إلى حضرته. ومن صدّ الناس عن طريقه وصحبته، يتعلق به المخذول عنهم، فيقول له: (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين...) الآية.

ثم ذكر سبب ورودهم العذاب، فقال:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾^(٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا
 ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا
 الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾

(١) السانح: ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر، أو غير ذلك، والبارح: ما أتاك من ذلك عن يسارك. انظر اللسان (سج ٢/ ٢١١٢).
 (٢) عزاء السيوطي في الجامع الصغير (ج ١٠٤) لأبي نعيم في الحلية، عن الحسين بن علي رضي الله عنه. والحديث ضعفه السيوطي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أى: المشركين ﴿كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، هو أعم من إذا قيل لهم: قولوها، أو: ذكرت بمحضرهم، ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: يتعاضمون عن قولها، أى: كانوا فى الدنيا إذا سمعوا كلمة التوحيد استكبروا عنها، وأبوا إلا الشرك، ﴿وَيَقُولُونَ أَأَنْتَ لِتَأْتِنَا بِآلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾، يعنون نبينا محمداً ﷺ، ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ لكونه مصدقاً لما بين يديه من الرسل. وهو ردٌ عليهم بأن ما جاء به الحق من التوحيد قد قام عليه البرهان، وتطابق عليه المرسلون. فقوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ مقابل لقولهم: «شاعر»؛ لأن الشاعر فى الغالب كذوب، وتصديق المرسلين فى مقابلة مجنون؛ لأنه لا يكون إلا من العاقل. قال تعالى لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ بالإشراك وتكذيب الرسول ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ إلا مثل ما عملتم بلا زيادة ولا نقصان، فعذبتم، على الكفر والتكذيب، وخلدتم، على نيتكم الدوام عليه.

الإشارة: ينبغى للمؤمن إذا سمع كلمة التوحيد، وهى «لا إله إلا الله»، أن يخشع قلبه، وتهتز جوارحه، فرحاً بها، ويخضع لمن جاء بها، ودل عليها، حتى يدخله فى بحار معانيها، وهو التوحيد الخاص، أعنى: توحيد أهل العيان، وهم خلفاء الرسول ﷺ فى التربية النبوية. قال القشيري: ﴿... كَانُوا إِذَا قِيلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ...﴾ إلخ. احتجاجهم بقلوبهم أوقعهم فى رهة عذابهم، وذلك أنهم استكبروا عن الإقرار بربوبيته، ولو عرفوا لافتخروا بعبوديته؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ...﴾ (١) وقال: ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْبَشَرُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ...﴾ (٢)، فمن عرف الله فلا لذة له إلا فى طاعته وعبوديته، قال قائلهم:

ويظهر فى الورى عز الموالى فيلزمنى له ذل العبيد

ولما لم يحتشموا من وصفه - سبحانه - بما لا يليق بجلاله، لم يبالوا بها أطلقوا من المثالب فى جانب أنبيائه هـ.

ثم استئلى المخلصين، فقال:

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤٠) ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ (٤١) ﴿فَوَكَهَهُمْ مِّكْرُمُونَ﴾ (٤٢) ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (٤٣) ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٤) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ﴾ (٤٥) ﴿بَيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ (٤٦) ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ (٤٨) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ (٤٩) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٥٠)

(١) من الآية ٢٠٦ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ١٧٣ من سورة النساء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ - بفتح اللام، وكسرهما (١) - أى: لكن عباد الله المخلصين فى أعمالهم، أو: الذين أخلصهم الله ونجاهم من الشرك، فليسوا مع أولئك المعذبين، بل ﴿أُولَئِكَ﴾ المخلصون ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾، يأتىهم بكرة وعشيا، كحال المياسير فى الدنيا، فهو معلوم الوقت؛ لأن النفس إليه أسكن. قال القشيري: قد كان فى وقت الرسول ﷺ من له رزق معلوم، فهو من جملة المياسير، وهذه صفة أهل الجنة، لهم فى الآخرة رزق معلوم لأبشارهم وأسرارهم، فالأغنياء - اليوم - لهم رزق معلوم لأبشارهم، والفقراء لهم رزق معلوم لقلوبهم وأسرارهم. هـ.

ثم فسره بقوله: ﴿فَوَاكِهَ﴾: جمع فاكهة، وهى كل ما يتلذذ به، فليس قوتهم لحفظ الصحة، بل رزقهم كله فواكه؛ لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات؛ لأن أجسامهم نورانية مخلوقة للأبد، فما يأكلونه إنما هو للتلذذ. أو: معلوم، أى: منعت بخصائص خلق عليها من طيب طعم، ورائحة، ولذة، وحسن منظر، ﴿وَهُمْ مَكْرُمُونَ﴾: معظّمون. قال القشيري: من ذلك: ورود الرسل عليهم من قبل الله - عز وجل - فى كل وقت، وكذلك اليوم الخطاب وارد على قلوب الخواص فى كل وقت بكل أمر. هـ.

وقوله: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، إما ظرف لمكرمون، أو: حال، أو: خبر، أى: فى جنة ليس فيها إلا النعيم المقيم. وكذا ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾: يُقَابِلُ بعضها بعضا، إن استوت درجاتهم، فالتقابل أتم للسور، وأنس.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ﴾: إناء من زجاج فيه شراب، ولا يكون كأساً حتى يكون فيه شراب، وإلا فهو إناء. وقد تسمى الخمر كأساً. قال الأخفش: كل كأس فى القرآن فهو خمر. ومثل لابن عباس. ﴿مِنْ مَّعِينٍ﴾: من خمر معين، أى: جارية فى أنهار ظاهرة للعيون، وصف بما وصف به الماء؛ لأنه يجرى فى الجنة أنهاراً، كما يجرى الماء، قال تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ﴾ (٢). وقوله: ﴿بَيْضَاءَ﴾: صفة للكأس، أى: صافية فى نهاية اللطافة. ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أى: لذیذة للشاربين، وصفت باللذة، كأنها نفس اللذة وعينها. أو: ذات لذة. ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أى: لا تغتال عقولهم فتذهب بها، كخمر الدنيا، وهو من: غاله يغوله: إذا أهلكه وأفسده. أو: لا فيها غول: إثم، أو وجع بطن أو صداع، وهو وجع الرأس، أى: لا ينشأ عنها شيء مما ذكر. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ يسكرون، من: نَزَفَ الشارب: إذا ذهب عقله. ويقال للسكران: نزيف، ومنزوف. ومن قرأ بكسر الزاى (٣) فمعناه: لا ينفد شرابهم، يقال: أنزف الرجل فهو منزف: إذا فليت خمرته.

(١) قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، «المخلصين» بفتح اللام.

(٢) من الآية ١٥ من سورة سيدنا محمد.

(٣) قرأ بذلك حمزة، والكسائي. وقرأ الباقون بفتح الزاى.. انظر الإنحاف (٢/ ٤١١).

﴿وَعندهم قاصِرَاتُ الطُّرْفِ﴾ أى: حور قصرت أبصارهن على أزواجهن، لا يمددن طرفاً إلى غيرهم
 ﴿عَيْنٍ﴾: جمع عينا، أى: نجلاء، واسعة العين. يقال: رجل أعين، وامرأة عينا، ورجال ونساء عيّن. ﴿كأنهنَّ
 بَيضٌ مَكُونٌ﴾؛ مصون مستور. شبههنّ النعام المكنون من الريح والغبار، فى الصفاء والبياض.

﴿فَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ فى الجنة، تساؤل راحة وتنعم. والمعنى: أنهم يشربون ويتحدثون
 على الشرب، كعادة الشُّرب^(١). قال الشاعر:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَاتِ إِلَّا أَحَادِيثُ الْكَرَامِ عَلَى الْمُدَامِ

أو: أقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى عليهم فى الدنيا. وجيء به ماضياً على ما عرف فى أخباره
 المحققة الوقوع.

الإشارة: المخلصين - بالفتح - أبلغ من المخلصين - بالكسر - المخلصين: أخلصهم الله واصطفاهم،
 والمخلصى: من طالبين الإخلاص، مجتهدين فيه، الأولون مجذوبون، والآخرون سالكون، الأولون محبوبون،
 والآخرون محبوبون، الأولون واصلون، والآخرون سائرون. قال القشيري: والإخلاص: أفراد الحق - سبحانه -
 بالعبودية، فالذى يشوب عمله برىاء ليس بمخلص. ويقال: الإخلاص: تصفية العمل، لا توفيقه، وفى الخبر:
 «يا معاذ: أخلص العمل، يكفك القليل منه»^(٢). ويقال: الإخلاص: فقد رؤية الأشخاص. هـ.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ للمخلصين - بالفتح - رزق أرواحهم وأسرارهم، من النظر إلى وجه الحبيب فى كل
 ساعة. وللمخلصين، رزق أشباحهم مما يشتهون. وقد يجتمع لهما، ويغلب لكل واحد ما كان الغالب على همته فى
 الدنيا. وهم مكرمون بالتقريب والمشاهدة، على قدر سعيهم هنا، ويشربون كأس المحبة والاصطفاء على قدر شربهم
 هنا خمرة المعانى، وشرب خمرة المعانى على قدر الغيبة عن حس الأوائى والزهد فى بهجتها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾، كان من تمام نعميهم فى الشرب: التحدث عليها بما
 يناسب حالها، ومدحها، كما قال الشاعر:

وَإِذَا جَسَلْتَ إِلَى الْمُدَامِ وَشُرْبِهِ فَاجْعَلْ حَدِيثَكَ كُلَّهُ فِي الْكَاسِ

(١) الشُّرب: القرم يشربون، ويجتمعون على الشراب، جمع شارب، كَرَكَبَ وَرَجَلِي. انظر اللسان (شرب ٢٢٢/٤).

(٢) عزاه السيوطى فى الجامع الصغير (ح ٢٩٨) لابن أبى الدنيا فى الإخلاص، والحاكم، عن معاذ.

كذلك العارف إذا جلس مجلس الفكرة، وغاب في الشهود والنظرة، لا يجول إلا في عظمة الذات، وأسرارها، وبهائها، وجمالها، لا يخطر على باله غيرها، فحديث روحه وسره كله في الخمرة الأزلية. هذه هي الفكرة الصافية، والنظرة الشافية، متعلا الله بها على الدوام. آمين.

ثم ذكر حال من يعوق عن شرب هذه الخمرة، فقال:

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَتِنَّكَ لِمَنِ الْمُسَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَمْ ذَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَمْ نَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعَ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ أى: من أهل الجنة ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ فى الدنيا، قيل: كان شيطاناً، وقيل: من الإنس، ففيه التحفظ من قرناء السوء، وقيل: كانا شريكين بثمانية آلاف دينار، أحدهما: قطروس، وهو الكافر، والآخر: يهوذا، المؤمن، فكان أحدهما مشغولاً بعبادة الله، وكان الآخر مُقْبِلاً على ماله، فحلّ الشراكة مع المؤمن، وبقي وحده؛ لتقصير المؤمن فى التجارة، وجعل الكافر كلما اشترى شيئاً من دار، أو جارية، أو بستان، عرضه على المؤمن، وفخر عليه، فيمضى المؤمن، ويتصدق بنحو ذلك، ليشتري به من الله تعالى فى الجنة. فكان من أمرهما فى الجنة ما قصه الله تعالى فى هذه الآية (١). قال السهيلي: هما المذكوران فى سورة الكهف بقوله: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا رَّجُلَيْنِ... ﴾ (٢) الخ.

﴿ يَقُولُ ﴾ أى: قرين السوء، لقرينه المؤمن فى الدنيا: ﴿ أَتِنَّكَ لِمَنِ الْمُسَدِّقِينَ ﴾ بالبعث؟ ﴿ أَتَذَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَتَنَا لَمَدِينُونَ ﴾، محاسبون ومجزيون بأعمالنا؟ من: الدين، وهو الجزاء.

(١) ذكر السيوطي القصة بطولها فى الدر (٥١٨/٥ - ٥١٩) وعزاها لعبد الرزاق، وابن المنذر، عن عطاء الخراساني، وأخرجها الطبري (٥٦/٢٣) عن فرات بن ثعلبة البهراني. وقد ذكر الشيخ ابن عجيبة - رحمه الله تعالى - القصة كاملة عند تفسير الآية ٣٢ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٣٢ وما بعدها من سورة الكهف.

﴿ قَالَ ﴾ ذلك القائل لمن معه في الجنة: ﴿ هل أنتم مُطَّلَعُونَ ﴾ معى إلى النار، لأريكم حال ذلك القرين. قيل: إن في الجنة كُوىَ ينظر أهلها منها إلى أهل النار. قلت: حال الجنة كله خوارق، فيُكشف لهم عن حال أهل النار كيف شاء. وقيل: القائل: هو الله، أو: بعض الملائكة. يقول لهم: هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار، لأريكم ذلك القرين، أو: لتعلموا منزلتكم من منزلتهم. قال الكواشي: أو: إن المؤمن يقول لإخوانه من أهل الجنة: هل أنتم ناظرون أخى في النار؟، فيقولون له: أنت أعرف به منا، فانظر إليه. ﴿ فاطَّلَعَ ﴾ على أهل النار ﴿ فرآه ﴾ أى: قرينه ﴿ في سواءِ الجحيم ﴾؛ فى وسطها.

﴿ قال تالله إن كدت تُردِّين ﴾؛ لتهلكنى ياغوائك. وإن، مخففة، واللام: فارقة، أى: إنه قريت لتهلكنى، ﴿ ولولا نعمة ربى ﴾ على بالهداية، والعصمة، والتوفيق للتمسك بعروة الإسلام، ﴿ لكنتُ من المخضرين ﴾ معك، أو: من الذين أحضروا العذاب، كما أحضرتَه أنت وأمثالك.

﴿ أفما نحن بميتين، إلا مَوْتُنَا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾، الفاء للعطف على محذوف، أى: أنحن مخلصون فما نحن بميتين ولا معذبين. وعلى هذا يكون الخطاب لرفقائه في الجنة، لما رأى ما نزل بقرينه، ونظر إلى حاله وحال رفقائه في الجنة، تحدّثاً بنعمة الله. أو: قاله بمرأى من قرينه ومسمع؛ ليكون توبيخاً له، وزيادة تعذيب، ويحتمل أن يكون الخطاب لقرينه، كأنه يقول: أين الذى كنت تقول فى الدنيا من أنا نموت، وليس بعد الموت عقاب ولا عذاب؟ كقوله: ﴿ إن هِي إِلا مَوْتُنَا الأولى ﴾ (١) والتقدير: أكما كنت تزعم هو ما نحن بميتين إلا مَوْتُنَا الأولى، وما نحن بمعذبين، بل الأمر وقع خلافه، وكان يقال له: نحن نموت ونُسأل فى القبر، ثم نموت ونحيا، فيقول: ما نحن بميتين إلا مَوْتُنَا الأولى وما نحن بمعذبين.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾. الخ، يحتمل أن يكون من خطاب المؤمن لقرينه، وأن يكون من خطاب الله تعالى لنبيه - عليه الصلاة والسلام، أى: إن هذا النعيم الذى نحن فيه لهو الفوز العظيم. ثم قال الله - عز وجل: ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ أى: لنيل مثل هذا يجب أن يعمل العاملون، لا للحظوظ الدنيوية، المشوبة بالالآم، السريعة الانصرام. أو: لمثل هذا فليجتهد المجتهدون، مادام يُمكنهم الاجتهاد، فإن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، فبقدر ما يزرع هنا يحصد ثم، وسيندم المفرط إذا حان وقت الحصاد.

(١) الآية ٣٥ من سورة الدخان.

الإشارة: تنسحب الآية من طريق الإشارة على من رام النهوض إلى الله، بصحبة الرجال في طريق التجريد، فينهاه رفقاؤه، فيخالفهم، وينهض إلى الله، فإذا كان يوم القيامة رفع مع المقربين، فيقول لهم: إني كان قرين يكر طريق الخصوص، وينهاني عن صحبتهم، فيطلع عليه، فيراه في أسفل الجنة، مع عامة أهل اليمين، فيحمد الله على مخالفته، ويقول: لولا نعمة ربي لكنت من المحضرين معك. قال القشيري: فيقول الولي له: إن كدت لتُردين، لولا نعمة ربي. نطقوا بالحق، ولكنهم لم يصرّحوا بعين التوحيد؛ إذ جعلوا الفضل واسطة، والأولى أن يقول: ولولا ربي لكنت من المحضرين. ثم يقول: لمثل هذا فليعمل العاملون. ثم قال: فإذا بدت شظية، من الحقائق، أو ذرة من نسيم القرية، فبالحرى أن يقول القائل: لمثل هذا الحال تبذل الأرواح، وأنشدوا:

على مثلٍ ليسلى بقتل المرء نفسه وإن بات من ليلى على اليأس طاوياً (١) هـ.

ثم قال تعالى:

﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ (٦٢) ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ (٦٣) ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (٦٤) ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ (٦٥) ﴿فَإِنَّهُمْ لَا كُفُونَ مِنْهَا فَمَا لُتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ (٦٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ (٦٧) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ﴾ (٦٨) ﴿إِنَّهُمْ أَلفَؤَاءُ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ (٦٩) ﴿فَهُمْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ (٧٠) ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٧١) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٧٢) ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٧٣) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٧٤)

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ أي: أنعيم الجنة وما فيها من اللذات، والطعام، والشراب، خيرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ؟ النزل: ما يُقدَّم للنازل من الرزق. ونزلاً: تمييز، وفي ذكره: تنبيه على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يُقدَّم للنازل، ولهم من وراء ذلك ما تقصر عنه الأفهام، وكذلك الزقوم لأهل النار. قال ابن عطية: في البلاد الجدبة المجاورة للصحارى شجرة، مرة، مسمومة، لها لبن، إن مس جسم أحد تورم ومات منه، في غالب الأمر، تُسمى شجرة الزقوم. والتزقم: البلع على شدة وجهه. هـ. وفي

(١) البيت لمجنون ليلى. انظر: ديوانه: ٢٩٦/ وتزيين الأسواق/ ١٢٨. وجاء في لطائف الإشارات: (سلمى) بدل (ليلى).

الحديث: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم. فكيف بمن يكون الزقوم طعاماً» (١). وقال ابن عرفة: هذه الشجرة يحتمل أن تكون واحدة بالترع، فيكون كل جهة من جهات جهنم فيها شجرة، أو: تكون واحدة بالشخص. هـ.

﴿إنا جعلناها فتنة للظالمين﴾؛ محنة وعذاباً لهم في الآخرة، وابتلاء لهم في الدنيا. وذلك أنهم قالوا: كيف تكون في النار شجرة، والنار تحرق الشجر؟ ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش في النار ويتلذذ بها - وهو السمندل - (٢) كيف لا يقدر على خلق شجر في النار، وحفظه من الإحراق؟ ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾، قيل: منبتها في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتهما، وهذا يؤيد أنها واحدة بالشخص.

﴿طلعها﴾ أي: حملها ﴿كأنه رؤوس الشياطين﴾، الطلع للدخلة، فاستعير لما يطلع من شجرة الزقوم من حملها، وشبه برؤوس الشياطين للدلالة على تناهيه في الكراهة، وقبح المنظر؛ لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس؛ لا اعتقادهم أنه شر محض. وقيل: الشياطين: حيات هائلة، قبيحة المنظر، لها أعراف يقال لها شياطين. وقيل: شبه بما استقر في النفوس من كراهة رؤوس الشياطين وقبحها، وإن كانت لا ترى، كما شبهوا سنان الرماح بأنياب أغوال، كما قال امرؤ القيس:

أَيَقْتُلُنِي وَالْمُشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زُرْقٍ كَأَنِّيَابِ أَغْوَالٍ (٣)

﴿فإنهم لا ياكلون منها﴾ أي: من طلع تلك الشجرة، ﴿فما لئول منها البطون﴾ مما يبلغهم من الجوع الشديد، فيملأون بطونهم منها مع تناهي بشاعتها، ﴿ثم إن لهم عليها﴾؛ على أكلها، أي: بعد ما شبعوا منها، وغلبهم العطش، وطال استقاؤهم، ﴿لشوباً من حميم﴾ أي: لشراباً من غساق، أو: حديد، مشوباً بماء حار، يشرب وجوههم، ويقطع أمعاءهم، في مقابلة ما قال في شراب أهل الجنة: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ (٤) وأتى به ثم؛ لما في شرابهم من مزيد البشاعة والكراهة؛ فإن الزقوم حار محرق، وشرابهم أشد حراً وإحراقاً.

(١) أخرجه الترمذي وصححه في (صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، ٦٠٩/٤، ح ٢٥٨٥)، وابن ماجه في (الزهد، باب صفة النار، ٤٤٦/٢، ح ٤٣٢٥) وابن حبان (ح ٧٤٧٠) والحاكم (٢٩٤/٢) وصححه، من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما.

(٢) السمندل: طائر إذا انقطع نسله، وهرم، ألقى نفسه في الجمر، فيعود إلى شبابه. وقيل: هو دابة يدخل النار فلا تحرقه. انظر اللسان (سمندل، ٢١٠٥/٣).

(٣) انظر: ديوان امرئ القيس (ص ٣٣). والكامل (٩٦/٣) ..

(٤) الآية ٢٧ من سورة المطففين.

﴿ثم إن مرجعهم إلی الجحیم﴾ أى: إنهم يخرجون من مقارهم فی الجحیم - وهو الدركات التى أسكنوها - إلی شجرة الزقوم، فیاكلون منها إلی أن یتملأوا. ویشریون بعد ذلك، ثم یرجعون إلی دركاتهم، كما تورد الإبل، ثم ترد إلی وطنها. ومعنى التراخى فی ذلك ظاهر.

ثم ذكر سبب عذابهم، فقال: ﴿إنه ألفوا آباءهم ضالین، فهم علی آثارهم یهرعون﴾، علل استحقاقهم للوقوع فی تلك الشدائد بتقليد آبائهم فی الضلال، وترك اتباع الدلیل. والإهراع: الإسراع الشدید. كأنهم یزعجون ویحثون حدًا. وفيه إشعار بأنهم بادروا إلی اتباعهم من غیر توقف ولا نظر. ﴿ولقد ضل قبلهم﴾؛ قبل قومك قریش ﴿أكثر الأولین﴾، یعنی الأمم الماضیة، بالتقليد وترك النظر. ﴿ولقد أرسلنا فیهم منذرین﴾؛ أنبیاء، حذروهم العواقب. ﴿فانظر کیف كان عاقبة المنذرین﴾ الذين أنذروا، وحذروا، فقد أهلكوا جمیعًا، ﴿إلا عباد الله المخلصین﴾ أى: إلا الذين آمنوا، وأخلصوا دینهم لله، أو: أخلصهم الله لدینہ، علی القراءتین (١).

الإشارة: إذا قامت القيامة انحاز الجمال كله إلی أهل الإيمان والإحسان، وانحاز الجلال كله إلی أهل الكفر والعصیان، فیرى المؤمن من جماله تعالى وبره وإحسانه ما لا تقى به العبارة، ویرى الكافر من جلاله تعالى وقهره ما لا یکيف. وأما فی دار الدنيا فالجمال والجلال یجریان علی كل أحد، مؤمنًا أو كافرًا، كان من الخاصة أو العامة، غیر أن الخاصة یزیدون إلی الله تعالى فی الجلال والجمال؛ لمعرفتهم فی الحالتین. وأما العامة فلا یزیدون إلا بالجمال؛ لإنكارهم فی الجلال. والمراد بالجلال: كل ما یقهر النفس ویذلها. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أول المنذرین من أولى العزم، فقال:

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (٧٧) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨) ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (٧٩) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٠) ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨١) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ (٨٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد نادانا﴾ أى: دعانا ﴿نوح﴾، حين أيس من قومه بقوله: ﴿أنى مغلوب فاتنصر﴾ (٢) أو: دعانا؛ لننجيه من الفرق، ﴿فلنعم المجيبون﴾ أى: فأجبناه أحسن الإجابة، ونصرناه على أعدائه،

(١) في «المخلصين»، وقد قرأ بفتح اللام: نافع وعاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر. وقرأ الباقون بالكسر.

(٢) الآية ١٠ من سورة القمر.

وانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون، فوالله لننعم المجيبون نحن، فحذف القسم؛ لدلالة اللام عليه. وحذف المخصوص، والجمع؛ دليل العظمة والكبرياء. ﴿وَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ ومن آمن به وأولاده المؤمنين ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، وهو غم الغرق، أو: إذابة قومه، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، وقد فنى غيرهم. قال قتاده: الناس كلهم من ذرية نوح، وكان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد: سام - وهو أبو العرب وفارس والروم، وحام - وهو أبو السودان، من المشرق إلى المغرب - ويافث - وهو أبو الترك ويأجوج وماجوج (١). وقد نظمهم بعضهم، فقال:

العرب والروم وفارس اعلمن أولاد سام فيهم الخير كمن
من نسل حام نشأ السودان شرقاً وغرباً، ذال له برهان
يأجوج ماجوج مع الصقالبه ليافث، لاخير فيهم قاطبه

﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ أى: وأبقينا عليه الثناء الحسن فى الأمم الآخرين، الذين يأتون بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة، ﴿سلام على نوح﴾: مبتدأ وخبر، استئناف، ﴿فى العالمين﴾، يعنى: أنهم يسلّمون عليه تسليماً، ويدعون له، أى: ثبتت هذه التحية فيهم، ولا يخلو أحد منهم منها، كأن الله أثبت التسليم على نوح وأداهه فى الملائكة والثقّلين، يسلّمون عليه عن آخرهم. ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾، فنكرمهم ونحبّهم، وهو تعطيل لما فعل بنوح من التكرمة السنية، بأنه مجازاة له على إحسانه، ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً؛ ليريك جلالة محلّ الإيمان. ﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾ أى: الكافرين.

ذكر فى كتاب حياة الحيوان، عن القشيري: أن العقرب والحية أتيا نوحاً عليه السلام فقالتا: احملنا معك، ونحن نعهذك ألا نضر أحداً ذكرك، فحملهما. فمن قرأ، حين يخاف مضرتهما، حين يمسي وحين يصبح: سلام على نوح فى العالمين، ومحمد فى المرسلين، إنا كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين، ماضرته. هـ. وقال نبينا - عليه الصلاة والسلام: «من قال حين يمسي وحين يصبح: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء» (٢).

الإشارة: إذا تحقّق الإيمان والإحسان فى عبد أعطى ثلاث خصال: نفوذ الدعوة، والثناء الحسن بعده، والبركة فى الذرية، كل ذلك مقتبس من قضية نوح عليه السلام.

(١) قاله سعيد بن المسيب، كما فى تفسير ابن كثير (١٣/٤).

(٢) أخرجه، بنحوه، مسلم فى: (الذكر والدعاء، باب فى التعوذ من سوء القضاء، ٤/٢٠٨٠، ح ٢٧٠٨، ٢٧٠٩) من حديث سعد بن أبى وقاص، وأبى هريرة - رضى الله عنهما.

ثم ذكر خليله إبراهيم عليه السلام، فقال:

﴿وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لِّإِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۖ أَيفُكَّا إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۖ ۝٨٥﴾

قلت: (أفكاً): مفعول له، و(إلهة): مفعول «تريدون»، أى: أتريدون آلهة من دون الله إفكاً وزوراً. وإنما قدم المفعول به على الفعل للعناية له، وقدم المفعول له على المفعول به؛ لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل فى شركهم، ويحجز أن يكون «إفكاً، مفعولاً به، أى: أتريدون إفكاً. ثم فسّر الإفك بقوله: «آلهة دون الله» على أنها إفك فى نفسها، أو: حالاً، أى: أتريدون آلهة من دون الله أفكين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنَّ مِّن شَيْعَةٍ﴾ أى: نوح ﴿لِّإِبْرَاهِيمَ﴾، أى: ممن شايعه على أصول الدين، وإن اختلفا فى الفروع، أو: شايعه على التصلب فى دين الله، ومصابة المكذّبين. وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمئة وأربعون سنة، وما كان بينهما إلا نبيان؛ هود، وصالح. ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ﴾: متعلق بما فى الشيعة من معنى المشايعة، أى: وممن شايعه على دينه إبراهيم، حين جاء ربه ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك، أو: من آفات القلوب، ومعنى المجيء بقلبه ربه: أنه أخلص لله قلبه، وعلم ذلك منه.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾، «إذ»: بدل من الأولى، أو: ظرف لجاء، أو: لسليم، ﴿أَفُكَّا إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾؛ أتريدون آلهة تعبدونها من دون الله إفكاً وزوراً وباطلاً. ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يفعل بكم إذا لقينموه، وقد عبدتم غيره، فما تقولون، وكيف بكم فى مقام الخجل الذى بين أيديكم، وإن كنتم اليوم غائبين عنه؟. أو: أى شئ ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة؛ لكونه رب العالمين، حتى تركتم عبادته، وأشركتم معه غيره، أو: أمنتم عذابه؟.

الإشارة: لا يكون العبد إبراهيمياً حنيفياً حتى يقدس قلبه مما سوى الله، ويرفض كل ما عبده الناس من دون الله، كحب الدنيا، والرئاسة، والجاه، فيجئ إلى الله بقلب سليم، أى: مقدس من شوائب الطبيعة، فهو سالم مما دون الله؛ لاتصاله بالله. قال القشيري: «بقلب سليم» لا آفة فيه. ويقال: لديغ من محبة الأغيار، أو: من الحظوظ، أو: من الاختيار والمنازعة. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر كسره الأصنام، وما ترتب عليه، فقال:

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۖ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۖ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۖ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۖ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۖ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۖ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ ۖ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۖ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۖ ﴿٩٦﴾ قَالُوا أَبْنَاؤُا لِمِ اللَّهِ بَنَيْنَا فَاَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ ۖ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ۖ ﴿٩٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَنَظَرَ﴾ إبراهيم ﴿نظرة في النجوم﴾، وذلك أن قومه كانوا يتعاطون علم النجوم، فعاملهم بما يعلمون؛ لئلا ينكروا عليه تخلفه. وكانوا يقولون: إذا طلع سهيل مقابل الزهرة سقم من نظر إليه، فاعتلّ عليهم؛ لأنه نظر إليه ليتركوه. وذلك أنه كان لهم من الغد عيد ومجمع، وكانوا يدخلون على أصنامهم، فيقربون إليها القرابين، ويضعون بين أيديها الطعام، قبل خروجهم إلى عيدهم، لتبارك عليه، فإذا قدموا أكلوه. فلما نظر إلى النجوم، قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ إني مشارف للسقم - وهو الطاعون، وكان أغلب الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى - ليتفرقوا عنه، فهربوا منه إلى عيدهم، وتركوه في بيت الأصنام، ليس معه أحد، ففعل بالأصنام ما فعل. قيل: إن علم النجوم كان حقاً ثم نسخ الاشتغال به.

والكذب حرام إلا إذا عرّض. والذي قاله إبراهيم عليه السلام معراض من الكلام، أي: سأسقم، أو: من في عنقه الموت سقيم، أو: سقيم مما أرى من مخالفتكم وعبادتكم الأصنام. وعلى كل حال لم يلم إبراهيم بشيء من الكذب، وإنما عرّض. وأيضاً: إنما كان لمصلحة، وقد أبيع لها، كالجهاد ونحوه. وفي الحديث: ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، ما منها واحدة إلا وهو يناضل عن دينه؛ قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ (١)، وقوله لسارة: هي أختي (٢).

قال السدي: خرج معهم إلى بعض الطريق، فوقع في نفسه كيده آلهتهم، فقال: إني سقيم أشتكى رجلى. ﴿فتولوا عنه مدبرين﴾؛ أعرضوا عنه مولين الأدبار، ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾؛ فمال إليها سرّاً، وكانت اثنتين وسبعين صنماً من خشب، وحديد، ورصاص، ونحاس، وفضة، وذهب، وكان كبيرهم من ذهب، في عنقه

(١) من الآية ٦٣ من سورة الأنبياء.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾، ح ٣٣٥٨) ومسلم في (الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام ٤/ ١٨٤٠ ح ٢٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ياقوتتان، ﴿فَقَالَ﴾ لها، استهزاء: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ من الطعام الذي وُضع عندكم، ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾؟. والجمع بالواو والفون؛ لأنه خاطبها خطاب من يعقل. ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾؛ فمال إليهم سرّاً، فضربهم ﴿ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ أى: ضرباً شديداً بالقوة؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدّهما، أو: بالقوة والمتانة، أو: بسبب الحلف الذي سبق منه بقوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ (١).

﴿فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ﴾؛ إلى إبراهيم ﴿يَرْفُقُونَ﴾: يسرعون، من: الزفيف، وهو الإسراع. وكان قد رآه بعضهم يكسرها. فأخبرهم، فلما جاء من لم يره قال لمن رآه: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾ (٢) فأجابوه على سبيل التعريض: ﴿سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٣)، ثم قالوا بأجمعهم: نحن نعبدُها وأنت تكسرها؟، فأجابهم بقوله:

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾: ما تجرونه بأيديكم من الأصنام؟ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى: وخلق ما تعملونه من الأصنام. أو: وما، مصدرية، أى: وخلق أعمالكم. وهو دليلنا فى خلق الأفعال لله تعالى، أى: الله خالقكم وخالق أعمالكم، فلم تعبدون غيره؟!.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ﴾ أى: لأجله ﴿بُيُوتًا﴾ من الحجر، طوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، ﴿فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ﴾؛ فى النار الشديدة: وقيل: كل نار بعضها فوق بعض فهو جحيم. فبنوه وملأوه حطباً، وأضرموه ناراً، ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ يالقائه فى النار، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾؛ المقهورين عند إلقائه، حين خرج من النار سالمًا، فعلاهم بالحجة والنصرة. قيل: ذكر أسفل، هنا؛ لمناسبة ذكر البناء، بخلاف سورة الأنبياء (٤).

الإشارة: كلُّ عبدٍ مأمور بكسر صنمه، وهو: ما تَرَكَّنْ إليه نفسه من حظٍّ، أو هوىٍّ، أو علمٍ، أو عملٍ، أو حالٍ، أو مقامٍ. وفى الإشارات عن الله تعالى: لا تركزن لشيء دوننا، فإنه وبال عليك، وقاتل لك، فإن ركنت إلى العلم تتبعناه عليك، وإن أويت إلى العمل رددناه إليك، وإن وثقت بالحال وقفناك معه، وإن أنست بالوجد استدرجناك فيه، وإن لحظت إلى الخلق وكلناك إليهم، وإن اعتززت بالمعرفة نكرناها عليك، فأى حيلة لك، وأى قوة معك؟ فارضننا لك رياءً حتى نرضاك لنا عبداً هـ. ولا بأس أن يتعلل لنفسه، ويحتال عليه بحيل، كما تعلل الخليل للقعود لكسر الأصنام، لعلها توافقه على ترك ما تهواه وتركن إليه، كما قال القائل (٥):

فاحتل على النفس فرب حيلة أنفع فى النصر من قبيله.

(١) الآية ٥٧ من سورة الأنبياء. (٢) الآية ٥٩ من سورة الأنبياء. (٣) الآية ٦٠ من سورة الأنبياء.

(٤) فى قوله تعالى: «وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ» الآية ٧٠.

(٥) وهراين البنا السرقسطى، فى المباحث الأصلية (ص ٥٠٥).

ثم ذكر هجرة إبراهيم، وما امتحن به، فقال:

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنِي إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَأْتٍ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّيِّرْهُمَا ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقَتِ الرَّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

قلت: «معه»: يتعلق بمحذوف، أي: بلغ السعي يسعي معه، ولا يتعلق ببلغ؛ لأنه يقتضي الاشتراك في البلوغ، ولا بالسعي؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه معموله، إلا أن يقال: يتسع في الظروف ما لا يتسع في غيرها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾؛ إلى موضع أمرني ربي بالذهاب إليه، وهو الشام، أو: إلى مرضاة ربي، بامتنال أمره بالهجرة، أو: إلى المكان الذي أتجرد فيه إلى عبادة ربي، ﴿ سَيِّدِينَ ﴾ أي: سيرشدني إلى ما فيه صلاح ديني، أو: إلى مقصدي، وإنما بت القول لمسبق وعده؛ لأن الله وعده بالهداية، أو: لفرط توكله، أو: للبناء على عادته معه. ولم يكن كذلك حال موسى ﷺ حيث عبر بما يقتضي الرجاء^(١).

ثم قال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾؛ بعض الصالحين، يعينني على الدعوة والطاعة، ويونس في الغربة. يريد الولد؛ لأن لفظ الهبة غلب على الولد. ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾، انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد ذكر، وأنه يبلغ أو أن الحلم؛ لأن الصبي لا يوصف بالحلم، وأنه يكون حليماً، وأي حليم أعظم من حلمه، حيث عرض عليه أبوه الذبح وهو مراهق، فقال: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾^(٢)، ثم استسلم. وقيل: ما نعت الله نبياً بالحلم إلا إبراهيم وابنه؛ لمعزة وجوده.

(١) حيث قال: «عسى ربي أن يهديني سواء السبيل» الآية ٢٢ من سورة القصص.

(٢) الآية ١٠٢ من سورة الصافات.

﴿ فلما بلغ معه السعى ﴾ أى: فلما وُجدَ وبلغ أن يسعى مع أبيه فى أشغاله وحوائجه، أى: الحد الذى يقدر على السعى مع ابنه، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة. وقيل: سبع سنين. ﴿ قال يا بني إني أرى فى المنام أني أذبحك ﴾ أى: قيل له فى المنام: اذبح ابنك، ورؤيا الأنبياء وحى، كاليقظة. قال الكواشى: لم ير أنه يذبحه فى النوم، ولكنه أمر فى النوم بذبحه، بدليل قوله: ﴿ افعل ما تؤمر ﴾. وقيل: رأى أنه يعالج ذبحه، ولم ير إراقة الدم. وقال قتادة: رؤيا الأنبياء حق، إذا رأوا شيئاً فعلوه^(١). وفى رؤيا ذلك فى النوم وتحققه إياه حتى عمل بما رأى، إيدان بأن الأنبياء قد تجوهرت نفوسهم، فلا مجال للكذب فيما يوحى إليهم، وفيما يصدر عنهم، فهم صادقون مصدقون، فليس للشيطان عليهم سبيل، وإيدان بأن من كان فى منامه صادقاً كان يقظته أولى بالصدق. هـ.

وإنما لم يقل: «رأيت»؛ لأنه رأى مرة بعد أخرى، فقد قيل: رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح روى فى ذلك من الصباح إلى الرواح؛ ليعلم أمن الله هذا الحلم، أم لا، فسمى يوم التروية، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله، فسمى يوم عرفة، ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة، فهم بنحره، فسمى يوم النحر^(٢).

واختلف من المخاطب الأمور بذبحه، فقال أهل الكتابين: هو إسحاق، وبه قال عمر، وعلى، وابن مسعود، والعباس، وابنه عبد الله، وكعب الأحبار، وسعيد بن جبير، وقاتادة، ومسروق، وعكرمة، والقاسم بن أبى برة، وعطاء، ومقاتل، والزهرى، والسدى. قال سعيد بن جبير: أرى إبراهيم ذبح إسحاق فى المنام، فسار به على البراق مسيرة شهر فى غداة واحدة، حتى أتى المنحر بمنى، فلما صرف عنه الذبح، وأمره أن يذبح الكبش، وذبحه، سار به مسيرة شهر فى روحة واحدة، طويت له الأودية والجبال. هـ.

واحتج أهل هذا القول بأنه ليس فى القرآن أن إبراهيم بُشِّرَ بولد إلا بإسحاق، وقال هنا: ﴿ فبشرناه بغلام ﴾ فتعین أنه إسحاق؛ إذ هو المبشَّر به فى غير هذه الآية، وبأن الذى كان يسعى معه فى حوائجه وأشغاله إنما هو إسحاق، وأما إسماعيل فإنما كان بعكة غائباً عنه، ولم يثبت فى الصحيح أن إبراهيم قدم مكة إلا ثلاث مرات وإسماعيل متزوج. وبما روى أن موسى ﷺ قال: يا رب؛ الناس يقولون: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فبم ذلك؟ فقال: إن إبراهيم لم يعدل بى شيئاً قط إلا اختارنى، وإن إسحاق جاد لى بالذبح، وهو لى بغير ذلك أجود، وإن يعقوب كلما زده بلاء زاد لى حسن ظن^(٣). وقال يوسف للملك: أترغب أن تأكل معى، وأنا - والله - يوسف بن

(١) عزاه السيوطى فى الدر (٥٢٨/٥) لعبد بن حميد.

(٢) انظر تفسير البغوى (٤٨/٧).

(٣) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٨٢/٢٣) وعزاه السيوطى فى الدر (٥٣٠/٥) لابن أبى شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقى فى الشعب، عن عبد الله بن عمير.

يعقوب، نبي الله، ابن اسحاق، ذبيح الله، ابن إبراهيم، خليل الله^(١). وبما روى أن نبينا - عليه الصلاة والسلام - سئل: أى النسب أشرف؟ فقال: «يوسف صديق الله، ابن يعقوب إسرائيل الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله»^(٢). وفى الجامع الصغير: «الذبيح إسحاق» رواه الدارقطني عن ابن مسعود، والبزار وابن مردويه عن العباس، وأبى هريرة^(٣).

وقال آخرون: هو إسماعيل، وبه قال عمر، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، وسعيد من المسيب، والشعبي، ويوسف ابن مهران، ومجاهد، وابن عباس أيضاً، وغيرهم. واحتجوا بأن البشارة بإسحاق متأخرة عن قصة الذبح. ويقولون عليه السلام: «أنا ابن الذبيحين»^(٤) فأحدهما: جده إسماعيل، والآخر: أبوه، فإن عبد المطلب نذر أن يذبح ولداً إن سهل له حفر زمزم، أو بلغ بلوه عشراً، فلما سهل، أقرع بينهم، فخرج السهم على عبد الله، ففداه بمائة من الإبل، ولذلك سنت الدية مائة. وبأن ذلك كان بمكة، وكان قرنا الكبش معلّنين بالكعبة حتى احترقا معها فى أيام ابن الزبير، ولم يكن إسحاق ثمة. هـ.

وقد يجاب بأن البشارة أولاً كانت بولادته، والثانية بنبوته، أو: بسلامته. وبأن الثانية تفسير للأولى، كأنه قال بعدما فرغ من ذكر المبشر به: وكانت تلك البشارة بإسحاق. قاله الفاسى فى حاشيته. وعن الحديث بأن العم يطلق عليه أباً، كقوله تعالى: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾^(٥) وكان عمّاً له، وتقدم عن ابن جبير أن إبراهيم سار بابنه على البراق إلى مكة وحيث كان الذبح بها بقى القران فيها. والله تعالى أعلم بغيبه^(٦).

(١) أخرجه الطبري (٨٣/٢٣) عن أبى مسرة.

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٥٣١/٥) للطبرانى، وابن مردويه، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) حديث رقم (٤٣٤٩) وعبارة السيوطى: «(قط) فى الأفراد، عن ابن مسعود، والبزار وابن مردويه، عن العباس بن عبد المطلب، وابن مردويه عن أبى هريرة، والحديث ضعفه السيوطى.

(٤) أخرج ابن جرير (٨٥/٢٣) والحاكم فى المستدرک (٥٥٤/٢) عن الصنابحي، قال: كنا عند معارية بن أبى سفيان، فذكروا الذبيح، إسماعيل أو إسحاق، فقال: على الخبر سقطينم، كنا عند رسول الله ﷺ، فجاءه رجل، فقال: يا رسول الله عدّ على مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فضحك عليه الصلاة والسلام، فقال له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم... إلخ. والحديث ضعفه السيوطى فى الدر المنثور (٥٢٩/٥).

(٥) من الآية ١٣٣ من سورة البقرة.

(٦) الصواب فى هذه المسألة: أن الذبيح هو سيدنا إسماعيل عليه السلام، وهذا هو المروى عن جمهرة الصحابة والتابعين - كسيدنا على، وابن عمر، وسعيد بن المسيب، والربيع بن أنس، والشعبي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم، واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة، منها: * أن الله تعالى لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح فى هذه السورة (الصافات، الآيات ١٠٠ - ١١١) عطف على ذلك فقال: ﴿وَبَشِّرْنَا بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فهذه بشارة من الله تعالى، شكراً له على صبره على ما أمر به. وهذا ظاهر جداً فى أن المبشر به غير الأول، بل هو كاللص فيه، وغير معقول أن يبشر بإسحاق بعد قصة يكون فيها هو الذبيح.

ولَمَّا قَالَ لَهُ: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾، فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴿بِهِ﴾ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿عَلَى الذَّبْحِ﴾. رَوَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ قَالَ لِابْنِهِ: انْطَلِقْ بِذَا نُقْرَبُ قَرِيبًا لِلَّهِ تَعَالَى، فَأَخْذُ سَكِينًا وَحَبْلًا، ثُمَّ انْطَلِقْ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ بَيْنَ الْجِبَالِ، قَالَ لَهُ الْغَلَامُ: يَا أَبَتِ أَيْنَ قَرِيبُكَ؟ فَقَالَ: ﴿يَابُنَى إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ...﴾ الآية، فَقَالَ: يَا أَبَتِ خُذْ بِذَاصِيتِي، وَاجْلِسْ بَيْنَ كَتْفِي، حَتَّى لَا أُوْذِيكَ إِذَا أَصَابَتْنِي الشَّفَرَةُ، وَلَا تَذْبَحْنِي وَأَنْتَ تَنْظُرُ لَوَجْهِهِ؛ لَعَلَّا تَرْحَمَنِي، وَاجْعَلْ وَجْهِي إِلَى الْأَرْضِ. وَفِي رِوَايَةٍ. وَادْبَحْنِي وَأَنَا سَاجِدٌ، وَاقْرَأْ عَلَى أُمِّي السَّلَامَ، وَإِنْ رَأَيْتَ أَنَّ تَرْدَ قَمِيصِي إِلَى أُمِّي فَافْعَلْ، عَسَى أَنْ يَسْلِيَهَا عَلَيَّ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ: نِعْمَ الْعَوْنُ أَنْتَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى. فَرِيطَهُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ ثُمَّ جَعَلَ يَقْبَلُهُ، وَهُوَ يَبْكِي، وَالْإِبْنُ يَبْكِي، حَتَّى اسْتَنْقَعَتِ الدَّمُوعُ تَحْتَ خَدِّهِ.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أَي: انْقَادَا لِأَمْرِ اللَّهِ وَخُضْعًا. وَعَنْ قَتَادَةَ: أَسْلَمَ هَذَا ابْنُهُ، وَهَذَا نَفْسُهُ. ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾؛ صَرَعَهُ عَلَى جَنْبِهِ، وَوَضَعَ السَّكِينِ عَلَى حَلْقِهِ، فَلَمْ تَعْمَلْ، ثُمَّ وَضَعَ السَّكِينِ عَلَى قَفَاهُ فَانْقَلَبَ السَّكِينُ، وَنُودِيَ:

= فَإِنْ قِيلَ: فَالْبَشَارَةُ الثَّانِيَّةُ وَقَعَتْ عَلَى نَبُوْتِهِ، أَي: لَمَّا صَبَرَ الْأَبُ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ، وَأَسْلَمَ الْوَلَدُ لِأَمْرِ اللَّهِ، جَازَاهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ أَعْطَاهُ الدَّبْرَةَ.

قِيلَ: الْبَشَارَةُ وَقَعَتْ عَلَى الْمَجْمُوعِ؛ عَلَى ذَاتِهِ وَوُجُودِهِ، وَأَنْ يَكُونَ نَبِيًّا، وَلِهَذَا نَصَبَ نَبِيًّا، عَلَى الْحَالِ الْمَقْدَرِ، أَي: مَقْدَرًا نَبُوْتِهِ، فَلَا يُمْكِنُ إِخْرَاجُ الْبَشَارَةِ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَصْلِ، ثُمَّ تَخْصُ بِالْحَالِ النَّاطِقَةِ الْجَارِيَةِ مَجْرَى الْغَفْلَةِ، هَذَا مُحَالٌ مِنَ الْكَلَامِ، بَلْ إِذَا وَقَعَتْ الْبَشَارَةُ عَلَى نَبُوْتِهِ، فَوَقَّعَهَا عَلَى وَجُودِهِ أَوَّلَى وَأَحْرَى.

* أَنَّ الْبَشَارَةَ بِإِسْحَاقَ رَفَعَتْ مَقْرُونَةً بِوَلَادَةِ يَعْقُوبَ، عَلَى مَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ، وَمَنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ سورة هود/ ٧١، وَلَا يَتَصَوَّرُ أَنْ يَبْشُرَ بِالْوَلَدِ وَوَلَدَ الْوَلَدِ دَفْعَةً، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِذَبْحِ الْوَلَدِ قَبْلَ وِلَادَةِ وَلَدِهِ.

* وَأَيْضًا: فَلَا رَيْبَ أَنَّ الذَّبْحَ كَانَ بِمَكَّةَ، وَلِذَلِكَ جَعَلَتِ الْقُرَابِينَ يَوْمَ النُّحْرِ بِهَا، كَمَا جَعَلَ السَّعْيَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَرَمَى الْجِمَارَ، تَذَكُّيرًا لِشَأْنِ إِسْمَاعِيلَ وَأُمِّهِ، وَإِقَامَةً لِذِكْرِ اللَّهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ وَأُمَّهُ هُمَا اللَّذَانِ كَانَا بِمَكَّةَ، دُونَ إِسْحَاقَ وَأُمِّهِ. وَكَانَ النُّحْرُ بِمَكَّةَ مِنْ تَمَامِ حِجِّ الْبَيْتِ، وَلَوْ كَانَ الذَّبْحُ بِالشَّامِ - كَمَا يَزْعُمُ أَهْلُ الْكِتَابِ - لَكَانَتِ الْقُرَابِينَ وَالنُّحْرُ بِالشَّامِ، لَا بِمَكَّةَ.

وَفِي هَذَا الشَّأْنِ نَقَلَ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ أَنَّهُ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَمْرٍو بْنَ الْعَلَاءِ عَنِ الذَّبْحِ، فَقَالَ: يَا أَصْمَعِيُّ أَيْنَ عَقْلُكَ، وَمَنْ كَانَ إِسْحَاقَ بِمَكَّةَ؟ وَإِنَّمَا كَانَ إِسْمَاعِيلُ بِمَكَّةَ، وَهُوَ الَّذِي بَنَى الْبَيْتَ مَعَ أَبِيهِ، وَالنُّحْرُ بِمَكَّةَ.

* أَمَّا مَنْ نَقَلَ مِنْ أَخْبَارٍ أَنَّ الذَّبْحَ هُوَ إِسْحَاقُ فَهُوَ مَنْقُولٌ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَحَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا يَخْفَى عَلَ ذَوِي الْأَلْبَابِ، وَنَقَلَ ابْنُ الْقَيْمِ فِي زَادِ الْمَعَادِ (٧١/١) عَنِ الشَّيْخِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ - قَوْلَهُ: هَذَا الْقَوْلُ إِنَّمَا هُوَ مُتَقَلِّدٌ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، مَعَ أَنَّهُ بَاطِلٌ بِنَصِّ كِتَابِهِمْ، فَإِنَّ فِيهِ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ بِكَرٍّ، وَفِي لَفْظٍ: «وَحِيدَهُ»، وَلَا يَشْكُ أَهْلُ الْكِتَابِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ هُوَ بَكْرُ أَوْلَادِهِ، وَالَّذِي غَرَّ أَصْحَابَ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ فِي التَّوْرَةِ، الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ: أَذْبَحَ ابْنُكَ إِسْحَاقَ. وَقَالَ: وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ مِنْ تَحْرِيفِهِمْ وَكَذِبِهِمْ، لِأَنَّهَا تَنَاقُضُ قَوْلَهُ: (أَذْبَحْ بِكَرٍّ وَوَحِيدَكَ)، وَلَكِنْ الْيَهُودُ حَسَدَتْ بَنَى إِسْمَاعِيلَ عَلَى هَذَا الشَّرَفِ، وَأَحْبَبُوا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ، وَأَنْ يَسْرِقُوهُ إِلَيْهِمْ، وَيَخْتَارُوهُ لَأَنْفُسِهِمْ دَرَنَ الْعَرَبِ، وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ فَضْلَهُ لِأَهْلِهِ.

لِلْمَزِيدِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ انْظُرْ: مِفَاتِيحَ الْغَيْبِ (٢٤٧/٣) - تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ (١٧/٤ - ١٩) زَادَ الْمَعَادَ لِابْنِ الْقَيْمِ (٧١/١) - (٧٥) الْقَوْلُ الْفَصِيحُ، لِلْمَسِيوِيِّ، ضَمَّنَ كِتَابَ الْحَاوِي (٣١٨/١ - ٣٢٢) - الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ وَالْمَوْضُوعَاتِ، لِلدَّكْتُورِ أَبِي شَهْبَةَ (٢٥٢ - ٢٦٠).

ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا. روى أن ذلك المكان عند الصخرة التي بملى. وجواب لما، محذوف، أى: فلما أسلما رحما وسعدا. وقال بعض الكوفيين: الجواب: (وتله)، والواو: زائدة. وقال الكسائي: الجواب: (وناديناها). والواو زائدة. وقال الخليل وسيبويه: الجواب محذوف، أى: فلما أسلما سلما. وقدر الراضى: فلما أسلما كان من لطف الله ما لا يوصف. هـ.

﴿وناديناها أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ أى: حققت ما أمرناك به فى المنام، من تسليم الولد للذبح، وبالعزم والإتيان بالمقدمات، ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾؛ تعليل لما خولهما من الفرج بعد الشدة. والحاصل: أن الجزاء هو الوقاية من الذبح، مع إمرار السكين، ولم تقطع، جزاء على إحسانهما، وقد ظهرت الحكمة بصدقهما، فإن المقصود إخلاء السر من عادة الطبيعة، لا تحصيل الذبح، روى أنه لما أمر السكين فلم تقطع، تعجب، فتودى: يا إبراهيم كان المقصود من هذا استسلامكما، لا ذبح ولدك.

﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾؛ الاختبار البين، الذى يتميز فيه المخلصون من غيرهم. أو: المحنة البينة الصعبة، فإنه لا محنة أصعب منها. ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾: ضخم الجثة سمين. قال ابن عباس: هو الكبش الذى قرّبه هابيل فقبل منه، وكان يرعى فى الجنة حتى فدى به ولد إبراهيم. وعنه: لو تمت تلك الذبيحة لصارت سنة، وذبح الناس أولادهم. روى أن الكبش هرب من إبراهيم عند الجمرة، فرماه؛ سبع حصيات، حتى أخذه، فبقيت سنة فى الرمي. قلت: والجمهور: أن الشيطان تعرض له عند ذهابه لذبح ولده، ثلاث مرات، فرماه سبع حصيات عند كل مرة، فبقيت سنة فى الرمي. وروى أنه لما ذبحه، قال جبريل: الله أكبر، فقال الذبيح: لا إله إلا الله، والله أكبر، فقال إبراهيم: الله أكبر والله الحمد، فبقيت سنة صبيحة العيد.

قال البيضاوى: واحتج به من جوز النسخ قبل الفعل، فإنه ﷺ كان مأمورا بالذبح، لقوله: «افعل ما تؤمر» ولم يحصل. هـ. قال سيدى عبد الرحمن الفاسى فى الحاشية: ولما بذل إبراهيم وسعه، وفعل ما يفعله الذابح من ضجعه على شقه، وإمرار الشفرة على حلقه، لم يكن هذا من النسخ قبل الفعل، وإن كان ورود النسخ قبل الفعل جائز، لكن هذه الآية ليست منه فى شيء؛ لأنه ﷺ باشر الفعل بقدر الإمكان وبذل المجهود، ولم يكن منه تقصير، ولو لم يمنع مانع القدرة الإلهية لثم الذبح المأمور به، لهذا قال تعالى: ﴿صدقت الرؤيا﴾. وإنما احتيج إلى الفداء لتحصيل حقيقة الذبح فيه نيابة عن المفدى شرعاً، وعلامة على غاية القبول والرضا عنهما، وعوض عن ذلك ما هو كرامة لهما، ولمن بعدهما إلى غابر الدهر. هـ.

وقيل: إن هذه الآية نسخ بها الأمر بالذبح قبل التمكين من الفعل، بناءً على أن إبراهيم لم يمر الآلة. وعزاه المحلى فى جمع الجوامع لمذهب أهل السنة. وعليه ينزل الفداء، ثم قال: والحق: أن الآية من المنسخ قبل تمام الفعل وكماله، لا قبل الأخذ فيه ومعالجته. ثم اعترض كلام ابن عطية، وقال: فيه تدافع، فانظره.

﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ أى: الثناء الحسن فى الأمم الآخرين، ﴿سلاماً على إبراهيم﴾، سبق بيانه فى نوح (١) ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾، لم يقل: إنا كذلك، هنا، كما فى غيره؛ لأنه قد سبق فى القصة، فاكتفى هنا عن ذكره. ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾، فيه تنويه بشأن الإيمان؛ لأنه أساس لكل ما يبنى عليه من معرفة وإحسان.

الإشارة: قال إنى ذاهب إلى ربي بالتوجه والعزم، سيهدين إلى صريح معرفته، ومكافحة رؤيته، ودوام شهوده. فالذهاب إليه يفضى إلى الذهاب فيه، وهو غيبة العبد عن شهود نفسه، بشهود محبوبه، وهذه الحالة متبوعة للامتحان؛ إذ امتحان كل عبد على قدر مقامه، فكلما علا المقام عظم الامتحان. فامتحان الخليل بأربع محن: تسليم بدنه للنيران، وولده للقربان، ورمى آخر عند البيت فى يد الرحمن، (٢) وذهاب زوجه للجبار، فوقع اللطف فى الجميع، واصطفى خليلاً للرحمن. وأيضاً: الحق غيور، لا يحب أن يرى فى قلب خليله أو وليه شيئاً سواه، فأمر بذبح ولده؛ لإخراجه من قلبه، كما فرق بين يوسف ووالده، وامتحان حبيبته ﷺ فى عائشة صديقتها، وهذه عادة الله مع أصفياه.

قال القشيري: يقال فى القصة: أنه رآه راكباً على فرس أشهب، فاستحسنه، ونظر إليه بقلبه، فأمر بذبحه، فلما أخرجه من قلبه، واستسلم لذبحه، ظهر الفداء. وقيل له: كان المقصود من هذا فراغ قلبك منه، لا ذبحه. ويقال فى القصة: أنه أمر أباه أن يشد يديه ورجليه؛ لئلا يضطرب إذا مسه ألم الذبح، فبعثت، ثم لما هم بذبحه قال: افتح القيد عني، فإنى لا أتحرك، فإنى أخشى أن أعاتب، فيقول: أمشدود اليد جئتني؟ وأنشدوا:

ولو بيد الحبيب سقيت سماً
لكان السم من يده يطيب

قيل: إن الولد كان أشد بلاء، لأنه وجد الذبح من يد أبيه، ولم يتعود منه إلا التربية بالجميل، فكان البلاء منها (٣) أشد؛ إذ لم يتوقعه منها. وقيل: بل إبراهيم أشد بلاء؛ لأنه كان يحتاج أن يذبح ابنه بيده، ويعيش بعده، ولم يأت الولد بالدعوى، بل قال: إن شاء الله، فتأدب بلفظ الاستثناء. ثم قال: ويقال: إن الله ستر عليهما ما علم أنه أريد منهما فى حال البلاء، وإنما كشف لهما بعد مضي وقت المحنة، لئلا يبتل معنى الابتلاء، وهو توجع القلب

(١) راجع تفسير الآية ٧٩ من هذه السورة.

(٢) هذا على أن الذبيح هو إسحاق، وقد مر آنفاً أن الصحيح أنه سيدنا إسماعيل عليه السلام.

(٣) أى: من اليد.

بالقهرية، وكذلك لما ألقى في النار أخفى عنه المراد منه، وهو السلامة منها ليحصل معنى الابتلاء. وهكذا يكون الحال في حال البلاء، [ينسد عيون التهدي إلى الحال] (١). وكذلك كان حال نبينا ﷺ في الإفك، وأيوب عليه السلام، وإنما تبين الأمر بعد ظهور أجر المحنة وزوالها، وإلا لم تكن حينئذ محنة، ولكن مع استعجام الحال وانبهاهم؛ إذ لو كشف الأمر عن صاحبه لم يكن حينئذ بلاء. هـ. ملخصاً.

ثم قال تعالى:

﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

قلت: «نبيا»: حال مقدرة من «إسحاق»، ولا بد من تقدير مضاف محذوف، أي: وبشرناه بوجود إسحاق نبياً، أي: بأن يوجد مقدراً نبوته، فالعامل في الحال: الوجود، لا فعل البشارة، قاله الكواشي وغيره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وبشرناه﴾ أي: إبراهيم ﴿إسحاق﴾ بعد امتحانه، ﴿نبياً﴾ أي: يكون نبياً. قال قتادة: بشره بنبوة إسحاق بعدما امتحنه بذبحه. قالوا: ولا يجوز أن يبشر بنبوته وذبحه معاً؛ لأن الامتحان لا يصح مع كونه عالماً بأن سيكون نبياً. هـ. قلت: لا يبعد أن يبشر بهما معاً قبل المحنة؛ لأن العارف لا يقف مع وعد ولا وعيد؛ لاتساع علمه، فإن الوعد قد يكون متوقفاً على شروط، قد لا يلزم العبد بها، وراجع ما تقدم عند قوله: «حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا» (٢) بالتخفيف، وعند قوله: «وزلزلوا زلزالاً شديداً» (٣). ثم قال قتادة: وهذه حجة لمن يقول: إن الذبيح كان إسحاق. ومن قال: كان إسماعيل الذبيح، قال: بشر إبراهيم بولد يكون نبياً بعد القصة؛ لطاعته. هـ. وذكر ابن عطية عن مالك أنه نزع بهذه الآية لكون الذبيح إسماعيل، انظر بقية كلامه. وتقدم الجواب عنه، فإن الأولى بولادته، وهذه بنبوته. انظر الحاشية.

وقوله: ﴿من الصالحين﴾: حال ثانية، وورودها على سبيل الثناء؛ لأن كل نبي لابد أن يكون من الصالحين. قال ابن عرفة: الصلاح مقول بالتشكيك، فصلاح النبي أعظم من صلاح الولي. هـ. ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ أي: أفضنا عليهم بركات الدين والدنيا. وقيل: باركنا على إبراهيم في أولاده، وعلى إسحاق بأن أخرجنا

(١) عبارة القشيري: (تسدد الوجوه في الحال).

(٢) الآية ١١٠ من سورة يوسف.

(٣) الآية ١١ من سورة الأحزاب.

من صلبه ألف نبي، أولهم يعقوب، وآخرهم عيسى عليه السلام. ﴿ومن ذُرِّيَّتَهُمَا﴾ أي: إبراهيم وإسحاق، وليس لإسماعيل هنا ذكر، استغناء بذكر ترجمته في مريم (١)، ﴿محسن﴾ مؤمن ﴿وظالم لنفسه﴾ بالكفر ﴿مبين﴾ ظاهر كفره. أو: محسن إلى الناس، وظالم لنفسه بتعديه عن حدود الشرع.

وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجرى أمرهما على العرق والعصر، فقد يلد البرُّ الفاجر، والفاجرُ البرُّ. وهذا مما يهدم الطبائع والخصائص، وتنبيه على أن الظلم في أعقابهما لم يعدْ عليهما بعيب، وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله، ويعاقب بما كسبت يده، لا على ما وجد من أصله وفرعه. قاله النسفي. قلت: قاعدة «العرق نزع، أغلبية، لا كلية. وقيل: هو حديث، فيكون أغلبياً، فالشجرة الطيبة لا تثبت في الغالب إلا الطيب، إلا لعارض، والشجرة الخبيثة لا تجد فروعها إلا مثلها، إلا لسبب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: البشارة الكبيرة، والبركة العظيمة، إنما تقع في الغالب بعد الامتحان الكبير، فبقدر الامتحان يكون الامتكان، وبقدر الجلال يعظم الجمال، فإن مع العسر يسراً. فبقدر الفقر يعقب الغنى، وبقدر الذل يعقب العز، إن كان في جانب الله. وقس على هذا.. ويسرى ذلك في العقب، كما هو مشاهد في عقب الصالحين والعلماء والأولياء. وبالله التوفيق.

ثم ذكر موسى وهارون، فقال:

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْفَالِحِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْيَرِ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد منّا﴾ أنعمنا ﴿على موسى وهارون﴾ باللبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية، ﴿ونجّيناهما وقومهما﴾؛ بنى إسرائيل، ﴿من الكرب العظيم﴾؛ من الغرق والدهش الذي

(١) في قوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً﴾ الآيتان: ٥٤ - ٥٥.

أصابهم، حين طلعت خيل فرعون عليهم، أو: من سلطان فرعون وقومه وعنتهم. ﴿ونصرناهم﴾ أى: موسى وهارون وقومهما، ﴿فكانوا هم الغالبين﴾ على فرعون وقومه. ﴿وآتيناهما الكتاب المستبين﴾؛ البليغ فى بيانه، وهو التوراة، ﴿وهديناهما الصراط المستقيم﴾؛ صراط أهل الإسلام، وهو الطريق الذى يؤصل إلى الحق، ﴿وتركنا عليهما﴾ الثناء الحسن ﴿فى الآخرين﴾ الآتين بعدهما، ﴿سلاماً على موسى وهارون، إنا كذلك نجزي المحسنين، إنيهما من عبادنا المؤمنين﴾ الكاملين فى الإيمان.

الإشارة: من عليهما أولاً بالخصوصية، ثم امتحنهما عليها بالكرب العظيم، كما هى عادته فى أهل الخصوصية، ثم من عليهما بالفرج والنصر والعز، ثم هداهما إلى طريق السير إليه، فى الظاهر والباطن، بإنزال الكتاب، وبيان طريق الرشد والصواب، فالطريق المستقيم هى طريق الوصول إلى الحضرة، وشهود عين التوحيد الخاص، ثم ينشر الصيت والذكر الحسن فى الحياة والممات. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر إلياس، فقال:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَأَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ ﴿١٢٤﴾ أَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَى إِيلَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، وهو إلياس بن ياسين بن العيزار، من سبط هارون عليه السلام. قال ابن إسحاق: لما قبض الله حزقيال النبی، عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل، ونسوا عهد الله، وعبدوا الأوثان، فبعث الله إلياس (١)، وبنو إسرائيل حينئذ متفرقون فى أرض الشام، وفيهم ملوك كثيرة. وذلك أن يوشع لما فتح الشام بعد موسى عليه السلام وملكها، بوأها بنى إسرائيل، وقسمها بينهم، وأحل سبطاً منهم ببعلبك ونواحيها. ومنهم السبط الذى نشأ منهم إلياس. انظر الثعلبى. وقيل: إلياس هو إدريس. وقرأ ابن مسعود - رضى الله عنه -: «وإن إدريس، موضع إلياس. والمشهور ما تقدم.

(١) أخرجه الطبرى (٩٢/٢٣) عن ابن إسحاق، عن رهب بن منبه.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أَلَا تَخَافُونَ اللَّهَ، ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾، هو عَلمٌ لصنم، كان من ذهب، وكان طوله عشرين ذراعاً، وكان له أربعة أوجه، فافتتنوا به وعظموه، حتى أخدموه أربعمئة سادن، وجعلوهم أنبياءه. وكان الشيطان يُوسوس إليهم شريعة من الضلالة، وكان موضعهم يُسمى «بك»، فركب معه وصار «بعليكَ»، وهو من بلاد الشام، قلت: ويسمونه اليوم عكا، وفيه قبر صالح عليه السلام، وقيل: إن إلياس والخضر حيّان، يلتقيان كل سنة بالموسم^(١)، فيأخذ كل واحد من شعر صاحبه. قيل: إن إلياس وكُلٌّ بالقيافي، والخضر وكُلٌّ بالبحار. وقيل: إن الله قطع عنه لذة المطعم والمشرب، وألبس الريش، وطار مع الملائكة، فصار إنسياً ملكياً، أرضياً سماوياً. فهو ما زال حياً. فالله أعلم.

ثم قال: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ أى: تعبدون صنماً جامداً، وتتركون عبادة الله الذى هو أحسن الخالقين. ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾^(٢). من نصب الثلاثة فبدل، ومن رفعها فمبتدأ وخبر. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فسلط الله عليهم، بعد رفعه، أو موته، عدواً، فقتل ملكهم وكثيراً منهم، ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ فى النار، وإنما أطلقه اكتفاءً بالقرينة، أو: لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ من قومه، فإنهم ناجون من حضور العذاب، ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ الثناء الحسن ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾. ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾^(٣)، وهو إلياس وأهله؛ لأن «ياسين» اسم أبيه. وقرأ أكثر القراء: إلياسين، بكسر الهمزة ووصل اللام، أى: إلياس وقومه المؤمنين، كقولهم: الخبيثون والمهلبون، يعنون عبد الله بن الزبير وقومه. والمهلب وأتباعه. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. إنه من عبادنا المؤمنين ﴿وَقِيلَ: آلِ يَاسِينَ هُوَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَأَهْلُهُ﴾، والسياق يأباه.

الإشارة: يؤخذ من قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا..﴾ الخ، أن مدار التقوى هو توحيد الله، والانحياز إليه، والبعد عن كل ماسواه، والرجوع إلى الله فى كل شيء، والاعتماد عليه فى كل حال. ويؤخذ من قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ فى قراءة المد، أن الرجل الصالح ينتفع به أهله وأقاربه، وهو كذلك؛ فإن عظم صلاحه تعدت منفعته إلى جيرانه وقبيلته، فإذا كبر جاهه شفع فى الوجود بأسره.

(١) عزاه فى الدر المنثور (٥/٥٣٧) لابن عساكر، عن ابن شوذب، والحسن.

(٢) قرأ حفص، وحمزة، والكسائي بنصب الأسماء الثلاثة، وقرأ الباقر بالرفع. انظر الحجة للفارسي (٦/٦٣).

(٣) قرأ نافع، وابن عامر، ويعقوب: (آل ياسين) بفتح الهمزة، مشبعة، وكسر اللام، مفصولة عما بعدها، والمراد: ولد ياسين وأصحابه، قرأ الباقر «على إلياسين» بكسر الهمزة، وسكون اللام، موصولة بما بعدها، كلمة واحدة، جمع «إلياس». انظر الإتحاف (٢/٤١٦).

ثم ذكر لوطاً عليه السلام ، فقال :

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنُمرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ نَجَّيْنَاهُ ﴾ أى : واذكر إذ نجيناہ ﴿ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ ، فى الباقيين ؛ لأنها شاركتهم فى عصيانهم ، فحقَّ عليهم العذاب مثل ما حقَّ عليهم ، ﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا ﴾ : أهلكنا ﴿ الْآخَرِينَ ، وَإِنَّا لَنُمرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴾ ؛ داخلين فى الصباح ، ﴿ وَبِاللَّيْلِ ﴾ أى : ومساء ، أو : نهاراً وليلاً . ولعل مدينتهم الخالية كانت قريب منزل ينزل به المسافرين ، فيغدوا منه ذهاباً ، ويروح إليه إياباً ، فكانت قريش تنزل به وتروح عنه فى متاجرهم إلى الشام ، فتشاهد آثارهم الدارسة ، وديارهم الخالية . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؛ أفما فيكم عقول تعتبرون بها ؟ وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام ، كما ختم قصص من قبلهما ؛ لأن الله تعالى قد سلّم على جميع المرسلين فى آخر السورة ، أو : تفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع ، من أولى العزم .

الإشارة : ينبغى لمن له عقل إذا مرّ بآثار من سلف قبله أن يعتبر ، وينظر كيف كان حالهم ، وإلى ما صار إليه مآلهم ، وأنه عن قريب لاحق بهم ، فينأهب للسفر ، ويتزود للمسير . وبالله التوفيق .

ثم ذكر قصة يونس ، فقال :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْقَمَمَةُ الْخَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِثَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنْ يُونُسَ﴾ بن متى، اسم أبيه، ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى أهل نينوى، فكذبوه، فرعدهم بالعذاب، فلما رأى أمارات العذاب هرب عنهم، وهي معنى قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ هرب. والإباق: الهرب إلى حيث لا يهتدى إليه الطلب، فسمى هربه من قومه - بغير إذن ربه - إباقاً، مجازاً. روى أنه لما فر عنهم، وقف في مكان ينتظر نزول العذاب بهم، وكان يحب ذلك؛ لتكذيبهم إياه، فلما رأوا مخايل العذاب تابوا وخرجوا إلى الصحراء، يجأرون إلى الله تعالى، فكشف عنهم، فلما رأى يونس العذاب انكشف عنهم، كره أن يرجع إليهم، فركب البحر، فأوى ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾: المملوء بالناس والمتاع، فلما ركب معهم وقفت السفينة، فقالوا: ها هنا عبد أبى من سيده. وفيما يزعم أهل البحر: أن السفينة إذا كان فيها أبى لم تجر، فاقترعوا، فخرجت القرعة على يونس، فقال: أنا الآبق، وزج بنفسه في البحر، فذلك قوله: ﴿فَسَاهَمَ﴾: فقارعههم مرة - أو ثلاثاً - بالسهم، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾: المغلوبين بالقرعة. ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ﴾: فابتلعه وهو ملثم؛ داخل في الملامة، أو: آت بما يلام عليه، ولم يَلَمْ فإذا ليم كان مألوماً.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾: من الذاكرين كثيراً بالتسبيح، أو: من القائلين: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١) أو: من المصلين قبل ذلك؛ قال ابن عباس رضي الله عنه: كل تسبيح في القرآن فهو صلاة. قال الحسن: ما كان له صلاة في بطن الحوت، ولكنه قدّم عملاً صالحاً فنجاه، وإن العمل الصالح يرفع صاحبه، إذا عثر وجد متكافئاً. هـ (٢). أى: فلولا طاعته قبل ذلك ﴿لَلْبِثَ فِي بطنِهِ إِلَى يَوْمِ يُعْثُونَ﴾ قيل: للبت حياً إلى يوم البعث. وعن قتادة: لكان بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة. وقد لبث في بطنه ثلاثة أيام، أو: سبعة أو: أربعين يوماً. وعن الشعبي: التقمه ضحوة، ولَفَظَهُ عَشِيَّةً. قيل: أوحى الله تعالى إل الحوت: إني جعلت بطنك ليونس سجناً. وفي رواية: مسجداً. ولم أجعله لك طعاماً (٣). هـ.

﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أى: أخرجناه ﴿بِالْعُرَاءِ﴾: بالمكان الخالي، لا شجر فيه ولا نبات. أو: بالفضاء، وهو سقيم؛ عليل مطبوخ، مما ناله من بطن الحوت. قيل: إنه عاد بدنه كبذن الصبي حين يولد. ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً﴾ أى: أنبتناها فوقه، مظلة له، كما يطنّب البيت على الإنسان، ﴿مَنْ يَقْطِينُ﴾: الجمهور على أنه القرع،

(١) الآية ٨٧ من سورة الأنبياء.

(٢) انظر: تفسير البغوي (٦٠/٧).

(٣) قال الحافظ ابن حجر: لم أجده. وذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٥٣٥) وعزاه لابن مردويه، عن ابن مسعود، في قصة يونس. وانظر الفتح السماوي (٩٥٧/٣).

وفائدته: أن الذباب لا تجتمع عنده، وأنه أسرع الأشجار نباتاً، وامتداداً، وارتفاعاً، وأن ورقه باطنها رطبة. وقيل لرسول الله ﷺ: إنك لتحب القرع، فقال: «أجل، هي شجرة أخى يونس»^(١)، قلت: ولعلها النوع الذي يسمى اليوم «الساوى»؛ لأنه هو الذى ورقه لينة، وفيه مدافع.

روى أن ظبية كانت تخطف إليه، فيشرب من لبنها بكرة وعشية، حتى نبت لحمه، وأرسل الله تعالى على اليقطين دابة تقرض ورقها، فتساقطت حتى أدته الشمس، فشكاها إلى الله تعالى. وفي رواية: فحزن عليها، فقيل له: أنت الذى لم تخلق، ولم تسق، ولم تُنبت، تحزن عليها وأنا الذى خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون تريد منى أن أستأصلهم فى ساعة واحدة، وقد تابوا، وتبت عليهم، فأين رحمتى يا يونس، أنا أرحم الراحمين^(٢) هـ.

﴿وأرسلناه إلى مائة ألف﴾، المراد به القوم الذين بعث إليهم قبل الانتقام، فتكون «قد، مضمرة، أو يزيدون» فى مرأى الناظر، أى: إذا رآها الراى قال: هي مائة ألف أو أكثر. وقال الزجاج: «أو، بمعنى بل». وقيل: بمعنى الواو. قال ابن عباس: زادوا على مائة ألف عشرين ألفاً. وقال الحسن: بضعا وثلاثين ألفاً. وقال ابن جبير: سبعين ألفاً. وقيل: وأرسلناه بعد الانتقام إلى مائة ألف. وقيل: قوماً آخرين. ﴿فآمنوا﴾ به، وبما أرسل به، ﴿فمتعناهم﴾ بالحياة ﴿إلى حين﴾ منتهى أجلهم، ولم يعاجلوا، حيث تابوا وآمنوا.

الإشارة: فى قصة يونس نكتة صوفية، ينبغى الاعتناء بها، وهو أن العبد إذا زلت قدمه، وانحط عن منهاج الاستقامة، لا ييأس ولا يضعف عن التوجه، بل يلزم قرع الباب، ويتذكر ما سلف له من صالح الأعمال، فإن الله تعالى يرعى نمام عبده، كما يرعى العبد نمام سيده، وفى حال البعد والغضب يظهر المحب الصادق من الكذاب، وفى ذلك يقول ابن وفا رحمه الله:

ونحن على العهد نرعى الذمام وعهد المحبين لا ينقضى

صددت فكنت مليح الصدود وأعرضت أفديك من معرض

وفى حالة السخط لا فى الرضا . بيان المحب من المبغض.

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/٥٤٤) لعبد بن حميد، وابن جرير، عن شهر بن حوشب.
(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٥/٤٥٤ - ٥٤٦) لعبد الرزاق، وأحمد فى الزهد، وعبد بن حميد، عن وهب.

وفيهما أيضاً: الحث على الشفقة على عباد الله، وإن كانوا عصاة. قال القشيري: وفي القصة: أن الله تعالى أوحى إلى يونس بعد نجاته: قُلْ لِفُلَانِ الْفَخَّارِ: يَكْسِرُ مِنَ الْجِرَاتِ مَا عَمِلَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ كُلِّهَا، فَقَالَ يُونُسُ: يَا رَبُّ، إِنَّهُ تَعْلَى مَدَّةً فِي إِنْجَازِ ذَلِكَ، فَكَيْفَ أَمْرُهُ أَنْ يَكْسِرَهَا كُلِّهَا؟ فَقَالَ لَهُ: يَا يُونُسُ، يَرِقُّ قَلْبُكَ لَخِزَافٍ يُتْلَفُ عَمَلُ سَنَةٍ، وَأُرِيدَتْ أَنْ أَهْلِكَ مِائَةَ أَلْفٍ مِنْ عِبَادِي؟ لَمْ تَخْلُقْهُمْ، وَلَوْ خَلَقْتَهُمْ لِرَحْمَتِهِمْ. هـ.

ثم رُبِّحَ فَرِيشاً عَلَى قَوْلِهِمْ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ - بعد ذكر هلاك من كفر من الأمم قبلهم، تهديداً، فقال:

﴿ فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ ١٤٩ ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْتَاوَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ ١٥٠ ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴾ ١٥١ ﴿ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ١٥٢ ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ ١٥٣ ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ١٥٤ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ١٥٥ ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ ١٥٦ ﴿ فَاتُّوْا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ١٥٧ ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ ١٥٨ ﴿ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ١٥٩ ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ١٦٠

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾، أَمَرَ رَسُولَهُ أولاً في أول السورة باستفتاء قريش على وجه إنكار البعث، بقوله: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ (١)، ثم أمره هنا باستفتائهم [عن] (٢) وجه القسمة الصنيزى التى قسموها، بأن جعلوا لله الإناث، ولهم الذكور فى قولهم: الملائكة بنات الله، مع كراهتهم لهن، واستنكافهم من ذكرهن، وليس من باب العطف النحوى، خلافاً للزمخشري.

﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾؛ حاضرون حتى تحققوا أنهم إناث. وتخصيص علمهم بالمشاهدة استهزاء بهم، وتجهيل لهم، لأنهم كما لم يعلموا ذلك مشاهدة، لم يعلموه بخلق الله علمه فى قلوبهم، ولا بإخبار صادق، ولا بطريق استدلال ونظر، بل بمجرد ظن وتخمين، وإلقاء الشيطان إليهم. أو: معناه: أنهم يقولون ذلك عن طمأنينة نفس؛ لإفراط جهلهم، كأنهم شاهدوا خلقهم.

(١) الآية ١١ من سورة الصافات.

(٢) فى الأصول [على].

﴿الْأَإِنِّهْم مِّنْ إِنْكِهِم لَيَقُولُنَّ وَلَدَ اللّٰهُ، وَإِنِّهْم لَكَاذِبُونَ﴾ فى قولهم. ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾، الهمزة للاستفهام الإنكارى، وحذفت همزة الوصل استغناء عنها بهمزة الاستفهام، والاصطفاء: أخذ صفوة الشيء، ﴿مَالِكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الفاسد، الذى لا يرتضيه عقل ولا نقل، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفوا أنه منزّه عن ذلك؟ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾؛ حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بنات الله؟ ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الذى أنزل عليكم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى دعواكم.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ﴾؛ بين الله ﴿وَبَيْنَ الْجَنَّةِ﴾؛ الملائكة - لاستنابهم، ﴿نَسَبًا﴾ وهو زعمهم أنهم بنات الله. أو: قالوا: إن الله صاهر الجن، تزوج سُرَوَاتِهِمْ فولدت له الملائكة^(١)، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ مُحَضَّرُونَ﴾ أى: ولقد علمت الملائكة إن الذين قالوا هذا القول لمحضرون فى النار. أو: لقد علمت الملائكة إنهم سيحضرون للحساب من جملة العباد، فكيف تكون بنات الله؟ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾، نزه نفسه عما يصفه الكفرة من الولد والصاحبة، ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، استثناء منقطع من «المحضرين»، أى: لكن المخلصون ناجون من النار. وسبحان الله: اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه، ويجوز أن يقع الاستثناء من «أو يصفون»، أى: عما يصفه هؤلاء الكفرة لكن المخلصون براء من أن يصفوه بذلك.

الإشارة: الحق تعالى فى عالم القدرة منزّه عن الولد والصاحبة، وتصور الاثنيتية، وإنما سر الازدواج والتولد خاص بعالم الحكمة فى حضرة الأشباح، فليكن للعارف عيان عين تنظر لعالم القدرة فى حضرة أسرار الذات، فتوحّد الله، وتنزّهه عن الاثنيتية، وعين تنظر لعالم الحكمة، فتثبت سر الازدواج والتولد فى حضرة الأشباح، والمظهر واحد، ولا يفهم هذا إلا الأفراد من البحرية، الذين خاضوا بحر أحدية الذات وتيار الصفات، فحطّ رأسك لهم، إن أردت أن تذوق هذه الأسرار. وإلا فسلم تسلم.

ثم بيّن أن الأمور كلها بيد الله، هداية وإضلالاً، فقال:

﴿فَإِنِّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَعْتَيْنِ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَن هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾

(١) انظر تفسير الطبرى (١٠٨/٢٣).

يقول الحق جل جلاله: ﴿فإنكم﴾ أيها المشركون ﴿وما تعبدون﴾ أي: ومعبوديكم، ﴿ما أنتم﴾ وهم جميعاً ﴿عليه﴾، على الله ﴿بفاتنين﴾ بمضلين، ﴿إلا من هو صالٍ الجحيم﴾ أي: إلا من سبق في علمه أنه من أهل النار. والمعنى: إنكم لستم تضلون أحداً إلا أصحاب النار، الذين سبق في علمه أنهم يستخرجون بأعمالهم النار، يقال: فتن فلان على فلان امرأته: أفسدها عليه. وقال الحسن: فإنكم أيها القائلون لهذا القول والذي تعبدونه من الأصنام، ما أنتم على عبادة الأصنام بمضلين أحداً، إلا من أوجبت عليه الضلال في السابقة. هـ. وفيها دليل للقدر، بل هي صريحة فيه. وما، في أنتم: نافية، ومن: في موضع النصب بفاتنين، على الاستثناء المفرغ، أي: لا تفتنون إلا الذي هو صالٍ الجحيم. وحذفت الياء في الرسم اكتفاء بالكسرة، وقرأ الحسن: «صال الجحيم، بضم اللام - ووجهه: أنه جمع، فحذفت النون للإضافة. والوار لالتقاء الساكنين، ومن، مفرد في اللفظ، جمع في المعنى، فحمل هو، على اللفظ، و«الصالون» على المعنى.

الإشارة: ويقال لمن يرغب الناس في الدنيا، ويدلهم على جمعها، والاعتناء بها، بمقاله، أربحاله، ويزهد في طريق التجريد والانقطاع إلى الله: ما أنتم بفاتنين أحداً عن طريق الله، إلا من سبق أنه يصلى نار القطيعة والبعد، وأما من سبقت له سابقة الوصال، فلا يصدّه عن الله فاتن ولا ضال. ولا شك أن من يدلّ الناس على الدنيا فقد غشهم. قال القطب ابن مشيش رحمه الله: من ذلك على الدنيا فقد غشك، ومن ذلك على العمل فقد أتبعك، ومن ذلك على الله فقد نصحك. هـ. فالدلالة على الدنيا من شأن المغرورين، ودين الفاتنين، والدلالة على العمل من شأن الصالحين، الواقفين مع ظاهر الشريعة وعملها، والدلالة على الله من شأن العارفين أهل التربية، يدلون على الله، بسقى الكؤوس، ونسيان النفوس، ودخول حضرة القدوس، من باب الكرم والجود. وبالله التوفيق.

ثم رجع إلى الكلام على الملائكة، فقال:

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (١٦٤) ﴿وإِنَّا لَنَحْنُ الصّٰفّٰوْنَ﴾ (١٦٥) ﴿وإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (١٦٦)

يقول الحق جل جلاله حاكياً عن الملائكة: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ في العبادة، أو: في السموات، نعبد الله فيه، أو: في القرب والمشاهدة لا نعداه، ولا نترقى عنه إلى غيره، ففيه تنبيه واعتراف بافتقارهم لمخصصهم، القاضى بحدوثهم. وفي اعترافهم بذلك ردّ على زعم الكفار أنهم بنات الله، أو شركاء له، وتلزيه له تعالى عن ذلك، لتدافى العبودية والطاعة التي اعترفوا بها، والبدوة المدّعاة من الكفار، تعالى الله عن قولهم. وهذا

يجرى أيضا في القول الذي يقول: إنهم قسم ثالث، مجردات، ليسوا بجوهر ولا عرض، كالأرواح، فإنها على تقدير كونها كذلك، جائزة؛ لقبولها التفاوت في العلوم والمعارف وغير ذلك. وذلك قاضٍ بالافتقار، والتخصيص لما هي عليه، المستلزم للحدوث. قاله في الحاشية.

قلت: القول بأن الملائكة مجردات عن المادة، هو قول الفلاسفة، ونحى إليه الغزالي. وهو مناقض للقرآن والحديث؛ لأن كونهم صفوفاً قائمين، أو ساجدين، أو سائرين، يقتضى تشكيلهم وتحيزهم، فيستلزم المادة؛ إلا أنها نورانية لطيفة، وكذلك الأرواح، على ما في الأحاديث، فإنها متحيزة على أشكال لطيفة. والله أعلم.

﴿وإنا لنحن الصّافون﴾؛ نصف أقدامنا في الصلاة، أو: نصفاً حول العرش داعين للمؤمنين، ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾؛ الملتزمون بالله تعالى عما نسبته إليه الكفرة، من الولد، وغير ذلك من الأباطيل المذكورة. أو: المشتغلون بالتسبيح على الدوام، أو: المصلون. ويحتمل أن يكون هذا وما قبله؛ من قوله: «سبحان الله... إلخ، من كلام الملائكة، حتى يتصل بذكرهم^(١)، كأنه قيل: ولقد علم الملائكة أن المشركين محضرون للعذاب على افترائهم على الله فيما نسبوا إليه، وقالوا: سبحان الله، ونزهوه عن ذلك، واستثنوا عباد الله المخلصين، وبرّوهم من ذلك، وقالوا للكفرة: وإذا صح ذلك؛ فإنكم وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على الله أحداً من خلقه، وتضلّوه، إلا من كان من أهل النار، وكيف نكون مناسبين لرب العزة! وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه، لكل منا مقام من الطاعة معلوم، لا يستطيع أن يزلّ عنه، ونحن نصف أقدامنا لعبادته، مسبحين بحمده، كما يجب على العباد. ولعل قولهم: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ إشارة إلى تفاوتهم في درجات القرب ومقامات اليقين. وقولهم: ﴿وإنا نحن الصّافون﴾ إشارة إلى تفاوتهم في الطاعات والعبادات، وهم طبقات؛ منهم هائمون مستغرقون في الشهود، ومنهم مستغرقون في مقام الهيبة والمراقبة، ومنهم مستغرقون في الخدمة والعبادة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: مادة الآدمي أكمل من مادة الملائكة، فإذا اتصل العبد بشيخ كامل، واعتنى بتصفية روحه وسره، طوى نوره الوجود بأسره، ولا يزال يترقى في معارج أسرار التوحيد والتفريد، وتتوارد عليه الكشوفات، والعلوم، والأسرار، في هذه الدار الفانية، وفي تلك الدار الباقية، أبداً سرمداً، بخلاف الملائكة، فإن لكل واحد مقاماً معلوماً لا يتعداه، كما أخبر تعالى.

وسر ذلك: أن الآدمي فيه بشرية وروحانية، فكلما جاهد نفسه، وغاب عن حس بشريته؛ ترقى في معارج التوحيد، والمجاهدة لا تنقطع عنه في هذا الدار؛ لأنها دار أقدار، فلا ينقطع عنه الترقى في المشاهدة، وأما في تلك

(١) في قوله: «ولقد علمت الجنة».

الدار؛ فالترقى فيها من باب الكرم والإثابة على ما هنا. وأيضا: البشرية للآدمى بمنزلة الطلاء للمرأة، فالمرأة بلا طلاء لا ترى فيها صور الأشياء، كذلك الملائكة لا بشرية لهم، فلا تنكشف لهم الحقائق كما تنكشف للآدمى، ولو كشف لهم ما أنكشف له لذابوا. والله أعلم.

قال فى القوت: لعمري إن سائر الملائكة لا ينتقلون فى المقامات كترقى المؤمنين، إنما لكل مقام معلوم، لا ينتقل إلى غيره، إلا أنهم يمدون من ذلك بمدد لانهاية له إلى يوم القيامة، بأكثر مايزاد جملة البشر هـ. قلت: ومعنى كلامه: أن الملائكة يمدون فى مقامهم بقوة لا يستطيعها البشر، فمن كان فى مقام الهيبة دام فيها، وقوى عليها، ومن كان فى مقام الخدمة، دام عليها، وقوى عليها، قوة لا يطيقها البشر، ولا يترقى عنها، بخلاف الآدمى، فليست فيه هذه القوة، لكنه يترقى من مقام إلى مقام، ويترقى فى المعارف على الدوام.

ثم بسط صاحب القوت فى ذلك الكلام فى فضائل الصلاة، وأنها جامعة لما فرق على الملائكة من الأعمال والأذكار. قال: وبذلك فضل المؤمنون الملائكة، وكذلك فضل الموقن أيضا فى مقامات اليقين من أعمال القلوب، على الأملاك بالتنقيل بأن جمعت فيه، ورفع فيها مقامات، والملائكة لا ينقلون، بل كل ملك موقوف فى مقام معلوم، لا ينقل منه إلى غيره، وإنما له المزيد من المقام الواحد على قدر قواه، وجمع ذلك كله فى قلب المؤمن، ونقل فيه مقامات. وكان له من كل مقام مشاهدات. هـ.

قال المحشى الفاسى: وفيه نظر، مع تلقيهم ضروب الوحي الجامع للمقامات، فكيف لا يمكنهم تحقّقاً بها على اختلافها؟، ولو كان كما قال؛ لكان كل ملك إنما يتلقى من الوحي ما يناسبه، ويختص بمقامه، وليس الأمر كذلك ضرورة. هـ. قلت: وفى نظره نظر؛ إذ لا يلزم من تلقيهم للوحي على أنواعه أن يترقوا به؛ إذ ليس الترقى هو مجرد العلم، بل الترقى إنما هو أذواق ووجدان، وكشوفات بعد حصول العلم. وقد يتحقق العلم بالمقام، ولا ينتقل عنه إلى غيره، بل قد يعلمه ولا يذوقه، كما هو محقق عند أهل الفن، ثم قال: والحق مانبه عليه البيضاوى. وكلام القوت ينظر لقول الحكماء، ومثله كلام الإحياء. هـ.

ونص البيضاوى فى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١) الآية: إن علوم الملائكة وكماالاتهم تقبل الزيادة، والحكماء منعوا ذلك فى الطبقات العليا منهم، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾. هـ. قلت: ترقى الآدمى هو انتقاله من مقام إلى مقام، حتى يكشف بأسرار الذات وأنوار الصفات، ثم لا يزال يترقى

(١) الآية ٣٣ من سورة البقرة.

فى الأنواق والكشوفات، يتجدد له فى كل يوم وساعة، حلاوة وكشف لم تكن عنده قبل، بخلاف الملائكة، فإنما يترقى كل واحد فى كشف أسرار مقامه، ويجد حلاوة فى ذلك المقام لم تكن له قبل، ولا ينتقل عنه، فمن كان من أهل الخدمة زاده الله حلاوتها. ومن كان من أهل المراقبة فكذلك. ومن كان من أهل المشاهدة غلب عليه السكر وال... ولا يزيد على ذلك. وهم الطبقة العليا، فلا منافاة بين كلام القوت وكلام البيضارى؛ لأن الترقى إنما هو فى الأدواق والكشوفات، لا فى العلوم الغيبية، ولا فى الكمالات النفسية. فتأمل.

وقال القشيري: الملائكة لا يتخطون مقامهم، ولا يتعدون حدهم، والأولياء مقامهم مستور بينهم وبين الله، لا يطلع عليه أحد، والأنبياء - عليهم السلام - لهم مقام مشهور، مؤيد بالمعجزات الظاهرة؛ لأنهم للخلق قدوة، فأمرهم على الشهرة، وأمر الأولياء على الستر. هـ. وقال الورتجبي: أهل البدايات فى مقام الطاعات، والأوساط فى المقامات، مثل التوكل والرضا، والتسليم، والمحبون فى مقامات الحالات والمواجيد، وأهل المعرفة فى مقام «حارف»، ينقلون فى المشاهدة من مقام إلى مقام، ولا يبقى المقام للموحدين، فإنهم مستغرقون فى بحار الذات والصفات، فليس لهم مقام معلوم؛ لأن هناك لم يكن لهم وقوف، حيث أفتاهم قهر الجلال، والجمال، والعظمة، والكبرياء، عن كل ما وجدوا من الحق، فيبقوا فى الفناء إلى الأبد. هـ. قلت: ما ذكر من الطبقات الثلاث هم العباد، والزهاد، وأرباب الأحوال، وحالهم كحال الملائكة، يمدون فى مقامهم، ولا ينتقلون منه، فكل واحد قوة فى مقامه، لا يطبقها العارف، لكنه فاتهم بالترقى عنهم إلى مشاهدة الذات، والترقى فيها أبداً..

ثم قال الورتجبي فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾: لما كانوا من أهل المقامات المعلومات افتخروا بمقاماتهم فى العبودية، من الصلاة والتسبيح، ولو كانوا من أهل الحقائق فى المعرفة لفنوا عن ملاحظة طاعتهم، من استيلاء أنوار مشاهدة الحق عليهم، والاستغراق فى بحار من الألوهية. قال بعضهم: لذلك قطعت بهم مقاماتهم عن ملاحظة المنّة، حتى قالوا بالتفخيم: «إنا نحن»، فلما أظهروا سرائرهم عارضوا إظهار أفعال الربوبية بالمعارضة، حتى قالوا: «أتجعل بها من يفسد فيها». هـ. وكلامنا كله مع عامة الملائكة، وأما المقربون؛ فالأدب الإمساك عنهم - صلوات الله وسلامه عليهم.

ثم رجع إلى الكلام مع قریش، فقال:

﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ ۖ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ۖ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۚ﴾ (١٦٧)
﴿فَكَفَرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۚ﴾ (١٦٨) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۖ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۚ (١٦٩)

وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَنُؤَلِّهِمْ هَهُنَا الْيَوْمَ ثُمَّ لَنَنْبِتَ الْغُلَّةَ فِيهِمْ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ أى: مشركو قريش ﴿لَيَقُولُونَ﴾ قبل مبعثه ﷺ: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ﴾ أى: كتاباً من كتب الأولين، الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل، ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْخَالِصِينَ﴾ أى: لأخلصنا لله، وما كذبنا كما كذبوا، ولما خالفنا كما خالفوا، فلما جاءهم الذكر الذى هو سيد الأذكار، والكتاب الذى هو مهيمن على الكتب، فكفروا به، ﴿فسوف يعلمون﴾ عاقبة تكذيبهم، وما يحل بهم من الانتقام. وإن، مخففة، واللام فارقة. وفى ذلك أنهم كانوا يقولون، مؤكدين للقول، جادين فيه، ثم نقصوا بأشنع نقص، فكم بين أول الأمر وآخره!

ثم بشر رسوله بالنصر والعز، فقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: وعدناهم بالنصر والغلبة. والكلمة هى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ دون غيرهم، ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، وإنما سماها كلمة، وهى كلمات؛ لأنها لما انتظمت فى معنى واحد كانت فى حكم كلمة مفردة، والمراد: الوعد بعلوهم على عدوهم فى مقام الاحتجاج وملاحم القتال فى الدنيا، وعلوهم عليهم فى الآخرة. وعن الحسن: ما غلب نبي فى حرب قط. وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن لم ينتصروا فى الدنيا نصروا فى العقبى. والحاصل: أن قاعدة أمرهم، وأساسه، والغالب منه: الظفر والنصر، وإن وقع فى تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة فنادر، والعبرة بالغالب.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾؛ إلى مدة يسيرة. وهى المدة التى أمهلوا فيها، أو: إلى بدر، أو: إلى فتح مكة، ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ أى: أبصر ما ينالهم، والمراد بالأمر: الدلالة على أن ذلك كائن قريب، ﴿فسوف يبصرون﴾ ما قضينا لك من النصر والتأييد، والثواب الجزيل فى الآخرة. و«سوف» للوعيد، لا للتباعد.

ولما نزل: ﴿فسوف يبصرون﴾ قالوا: متى هو؟ فنزل: ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ قبل وقته؟ ﴿فإذا نزل﴾ العذاب ﴿بساحتهم فسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ صباحهم. واللام للجنس؛ لأن «ساء» و«ليس» يقتضيان ذلك. قيل: هو

نزل رسول الله ﷺ يوم الفتح بمكة. وقيل: نزل العذاب بهم يوم القيامة. شبهه بجيش هجم فأناخ بفنائهم بغتة. والصباح: مستعار من: صباح الجيش المبيت، استعير لوقت نزول العذاب. ولما كثرت الغارة في الصباح سما الغارة صباحاً، وإن وقعت في غيره.

﴿وتول عنهم حتى حين، وأبصر فسوف يبصرون﴾، كرر ليكون تسلية بعد تسلية، وتأكيذاً لوقوع الوعد إلى تأكيد، وفيه فائدة، وهو إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول، بعد التقييد له، إيدان بأنه يبصر من صنوف المسرة ويبصرون من أنواع المساءة ما لا يفى به نطاق العبارة. وقيل: أريد بأحدهما: عذاب الدنيا، وبالأخر: عذاب الآخرة.

﴿سبحان ربك رب العزة﴾، أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها، أو: يريد: أن ما من عزة لأحد إلا وهو ربها ومالكها، لقوله: ﴿وتعز من تشاء﴾ (١) أى: تنزيهاً له عما يصفون من الولد والصحابة والشريك. ﴿وسلام على المرسلين﴾، عمم الرسل بالسلام بعدما خصص البعض في السورة؛ لأن في تخصيص كل بالذكر تطويلاً. ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ على هلاك الأعداء، ونصرة الأنبياء.

قيل: في ختم السورة بالتسبيح بعد ما تضمنته السورة من تخليط المشركين وأكاذبيهم، ونسبتهم إلى جلاله الأقدس ما لا يليق بجناحه الأرفع، تعليم للمؤمنين ما يختصون به مجالسهم؛ لأنهم لا يخلو إذا جلسوا مجلساً من فلة أو هفوة، وكلمات فيها رضى الله وسخطه، فالواجب على المؤمن إذا قام من مجلسه أن يتلو هذه الآية؛ لتكون مكفرة لتلك السقطات، ويحمد لما وفق من الطيبات، ومن ثم قال ﷺ: «كلمات لا يتكلم بهن أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات؛ إلا كفر بهن عنه، ولا يقولن في مجلس خير، ومجلس ذكر، إلا ختم الله بهن، كما يختم بخاتم على الصحيفة؛ سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك» (٢). والمراد هو ختم المجلس أو الكلام بالتنزيه. وعن علي - كرم الله وجهه: من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه: «سبحان ربك رب العزة عما يصفون» (٣) .. الخ.

(١) من الآية ٢٦ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه، بلفظه، أبو داود في (الأدب، باب في كفارة المجلس ١٨١/٥، ح ٤٨٥٧) وابن حبان في صحيحه (٥٩٢) عن عبد الله ابن عمرو بن العاص، موقوفاً. وأخرجه أبو داود في الموضع نفسه (ح ٤٨٥٨) عن أبي هريرة مرفوعاً. ولم يذكر أبو داود نص الرواية، بل قال - بعد ذكره لرواية عبد الله بن عمرو: (عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ مثله)، وأخرجه بنحوه الترمذي في (الدعوات باب: ما يقول إذا أقام من المجلس ٤٦٠/٥ - ٤٦١، ح ٢٤٢٣) من حديث أبي هريرة، مرفوعاً.

(٣) أخرجه البغوي في تفسيره (٦٦/٧) وعبد الرزاق في المصنف (٢٣٧/٢)، عن سيدنا علي، موقوفاً، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥٥٤/٥) لابن أبي حاتم، من رواية الشعبي، عن النبي ﷺ، مرسلًا.

وعنه عليه السلام أنه قال: «إذا سلمتم على فسلموا على المرسلين، فإنما أنا أحدهم» (١).

الإشارة: ترى بعض الناس يقول: لو ظهر شيخ التربية لكناً من المخلصين، بصحبته وخدمته، فلما ظهر كل الظهور جحد وكفر، وأنف واستكبر، وقنع بما عنده من العلم، فإذا رأى ما ينزل بأهل النسبة من أصحابه، من الامتحان في أول البادية، قال: ليس هذه طريق اللوالة، فيقال له: ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، ولمن كان على قدمهم، إنهم لهم المنصورون، وإن جلدنا لهم الغالبون، فتول عن مثل هذا حتى حين، وهو وقت هجر الموت عليه، وأبصر ما يحل به من غم الحجاب، وسوء الحساب، فسوف يبصرون ما يناله أهل النسبة من الاصطفاء والتقريب، فإذا طلب الكرامة بالانتصار ممن ظلمهم، فيقال له: «أفبعذابنا يستعجلون....» الآية. والغالب عليهم الرحمة. فإذا أودوا قابلوا بالإحسان، إذ لم يروا الفعل إلا من الرحمن، فينزهونه بقولهم: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين﴾ (*).



(١) أخرجه الطبري (١١٦/٢٣) وزاد السيوطي في الدر (٥٥٣/٥) عزوه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، بنحوه. كما عزاه السيوطي لابن مردويه، وابن سعد، عن قتادة، عن أنس.

(*) إلى هنا ينتهي المجلد الرابع بتجزيته المحقق، ويثبته - إن شاء الله - المجلد الخامس، وأوله تفسير سورة «ص».. أسأل الله العلي القدير - أن يتقبله بأحسن قبول، وأن يبلغ من طالع كل مأمول. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. وكان الفراغ من نسخ هذا المجلد وتحقيقه ومراجعته في الثاني عشر من ربيع الأول، سنة عشرين وأربعمائة وألف، على يد/ أحمد عبدالله القرشي، عفا الله عنه، آمين.

فهرس المجلد الرابع

٥	تفسير سورة النور
٧٥	تفسير سورة الفرقان
١٢٣	تفسير سورة الشعراء
١٧٣	تفسير سورة النمل
٢٢٩	تفسير سورة القصص
٢٨٥	تفسير سورة العنكبوت
٣٢٣	تفسير سورة الروم
٣٥٩	تفسير سورة لقمان
٣٨٥	تفسير سورة السجدة
٤٠٣	تفسير سورة الأحزاب
٤٧١	تفسير سورة سبأ
٥١٣	تفسير سورة فاطر
٥٥٥	تفسير سورة يس
٥٨٩	تفسير سورة الصافات

* * *

**مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب**

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٩٢٩ / ٩٩

I . S . B . N 977 - 01 - 6419 - 4

البحر المكي في تفسير القرآن المجيد

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة
١١٦١ هـ - ١٢٢٤ هـ

تحقيق وتعليق
أحمد عبد الله القرشي رسلان
مدرس مساعد بقسم التفسير - كلية أصول الدين - طنطا

المجلد الخامس
من أول سورة ص حتى آخر سورة القمر

طبع على نفقة د. من عباس زكي
القاهرة ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

تفسير ابن عجيبة
«البحر المديد»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة
للدكتور/ حسن عباس زكى

سُورَةُ صَاحِي

مكية، أو: سورة دارد. وآيها: ست أو ثمان وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله تعالى: ﴿لَوْ أَن عِدَّتَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأُولِينَ﴾ (١) مع قوله: ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾، فأخبر عنهم أولاً أنهم لو نزل عليهم الذكر لأخلصوا في الإيمان، فلما نزل كفروا به، وتعززوا عنه، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَاوَلَاتِ حَيْنٍ مِّنَّا ص (٣) ﴿

يقول الحق جل جلاله: ﴿ص﴾ أي: أيها الصادق المصدوق. وقال القشيري: معناه: مفتاح اسمه الصادق، والصبور، والصمد. أقسم بهذه الأسماء، وبالقُرْآنِ ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ أي: ذِي الشرف التام، الباقي، المخد لمن تمسك به، أو: ذِي الوعظ البليغ لمن اتعظ به، أو: ذِي الذِّكْرِ للأُمم والقصاص والغيوب. أو: يراد به الجميع. وجواب القسم: محذوف، أي: إنه لكلام معجز، أو: إنه لمن عند الله، أو: إن محمداً لصديق، أو: ما الأمر كما يزعمون، أو: ﴿إنك لمن المرسلين﴾ وقيل: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبُ الرِّسَالِ﴾ أو: ﴿إِنْ ذَلِكَ لِحَقِّ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ﴾، وهو بعيد.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قريش ﴿فِي عِزَّةٍ﴾، تكبر عن الإذعان لذلك، والاعتراف بالحق، ﴿وَشِقَاقٍ﴾، خلاف لله ولرسوله. والإضراب عن كلام محذوف يدل عليه جواب القسم، أي: إن كفرهم ليس عليه برهان، بل هو بسبب العزة، والعداوة، والشقاق، وقصد المخالفة. والتكثير في «عزة وشقاق» للدلالة على شدتهما وتفاقمهما. وقرئ: «فِي غِرَّةٍ» (٢) أي: في غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحق.

ثم هددهم بقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ﴾، من قبل قومك ﴿مِّن قَرْنٍ﴾، من أمة أو جيل، ﴿فَنَادَوا﴾ أي: قدعوا واستغاثوا حين رأوا العذاب: ﴿وَلَاتِ حَيْنٍ مِّنَّا ص﴾ أي: وليس الوقت وقت خلاص ونجاة وفرار،

(١) الآية ١٦٨ من سورة الصافات. (٢) هي قراءة حماد بن الزريقان. انظر مختصر ابن خالويه ص ١٣٠.

والمعنى: أنهم استغاثوا حين لم ينفعهم ذلك. «ولات» هي «لا» المشبهة بـ«ليس»، زیدت عليها تاء التانيث، كما زیدت على «رب»، وثمَّ، للتوكيد، وتغيّر بذلك حكمها، حيث لم تدخل إلا على الأحيان، ولم يبرز إلا أحد معموليها، إما الاسم أو الخبر، وامتنع ببرزهما بنفى الأحيان، وهذا مذهب الخليل وسيبويه، وعند الأخفش أنها الناقية للجنس، زیدت عليها الهاء، وخصّت بنفى الأحيان. وقال أبو محمد مكي: الوقف عليها عند سيبويه، والفراء، وأبي إسحاق، وابن كيسان، بالناء، وعليه جماعة القراء، وبه أتى خط المصحف. وعند المبرد والكسائي بالهاء، بمنزلة «رب». هـ.

الإشارة: افتتح الحق جل جلاله هذه السورة، التي ذكر فيها أكابر أصفياه، بحرف الصاد، إشارة إلى مادة الصبر، والصدق، والصمدانية، والصفاء؛ إذ بهذه المقامات ارتفع من ارتفع، وبالإخلال بها سقط من سقط. فبالصبر على المجاهدات تتحقق الإمامة والقُدرة، وبالصدق في الطلب يقع الظفر بكل مطلب، وبالصمدانية تقع الحرية من رقّ الأشياء، وبالصفاء تحصل المشاهدة والمكالمة، فكأن الحق تعالى أقسم بهذه الأشياء وبكتابه العزيز؛ إن المتكبرين على أهل الخصوصية ما أنكروا إلا جُوداً وعناداً، وتعزّزاً واستكباراً، لا لخلل فيهم، ثم أوعدهم بالهلاك، كما أهلك من قبلهم، فاستغاثوا حين لم ينفعهم الغياث.

ثم ذكر تعجبهم من كون المُنذر منهم، فقال:

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلُ لِلَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا شَيْءٌ عَجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلِقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾﴾ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ... ﴿٨﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَعَجِبُوا﴾ أي: كفار قريش من ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾؛ رسول من أنفسهم، استبعدوا أن يكون الرسول من البشر. قال القشيري: وعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ، ولم يعجبوا أن يكون المنحوت إلهاً لهم، وهذه مناقضة ظاهرة. هـ. يعنى: لأن المستحق للإعجاب إلهية المنحوت من الحجر، لا وجود من البشر، وهم عكسوا القضية. ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ أي: ساحر فيما يظهر من المعجزات، كذاب فيما يدعيه من الرسالة. وضع الظاهر موضع المضمّر تسجيلاً عليهم بالكفر، وغضباً عليهم، وإشعاراً بأن كفرهم هو الذي جسرهم على هذه المقالة الشنعاء.

ثم قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ بأن نفى الألوهية التي كانت لآلهتهم وقصرها على واحد، ﴿إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾؛ بليغ في العجب، وذلك لأنه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم، الذين أطبقوا على عبادة آلهتهم، كابرًا عن كابر، فإن مدار كل ما يأتون ويذرون، من أمور دينهم، هو التقليد والاعتقاد، فيعدون ما يخالف ما اعتادوه عجبًا من العجاب، بل محالًا، وأما جعل مدار تعجبهم عدم وقاء علم الواحد، وقدرته بالأشياء الكثيرة، فلا وجه له؛ لأنهم لا يدعون أن لآلهتهم علمًا وقدرًا ومدخلًا في حدود شيء من الأشياء، حتى يلزم من ألوهيتهم بقاء الأثر بلا مؤثر، قاله أبو السعود منتقدًا على البيضاوي.

قال القشيري: لم تباشر خلاصة التوحيد قلوبهم، ويعدوا عن ذلك تجويزًا، فضلًا عن أن يكون إثباتًا وحكمًا، فلا عرفوا أولًا معنى الإلهية؛ فإن الإلهية هي القدرة على الاختراع. وتقدير قادرين على ذلك غير صحيح؛ لما يجب من وجود التمانع بينهما وجوازه، وذلك يمنع من كمالها، ولو لم يكونا كاملَي الوصف لم يكونا إلهين، وكل من جرّ ثبوته لسقوطه فهو مطرح باطل. هـ.

رُوي أنه لما أسلم عمر رضي الله عنه فرح به المؤمنون، وشقّ على قريش، فاجتمع خمسة وعشرون نفسًا من صناديدهم، ومشوا إلى أبي طالب، وقالوا: أنت كبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء - أي: الذين دخلوا في الإسلام - رجئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك المساء، فلا تملّ كل الميل على قومك، فقال - عليه الصلاة والسلام - «ماذا يسألونني؟» فقالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا، وندعك وإلهك، فقال - عليه الصلاة والسلام: «اعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب، وتدين لكم العجم»، قالوا: نعم، وعشرًا^(١). قال: «قولوا: لا إله إلا الله» فقاموا، وقالوا: «أجعل الآلهة إلها واحدًا، إن هذا شيء عَجَابٌ»^(٢). قيل: العجب: ما له مثل، والعجاب: لا مثل له.

﴿وانطلق الملأ منهم﴾ أي: وانطلق الأشراف من قريش عن مجلس أبي طالب، بعد ما بكتهم رسول الله ﷺ بالجواب، وشاهدوا تصلبه - عليه الصلاة والسلام - في الدين، وعزيمته على إظهاره، ويسوا مما كانوا يرجونه، بتوسط أبي طالب، من المصالحة على الوجه المذكور، قائلين ﴿أَنْ أَمْشُوا﴾ ودأن: تفسيرية؛ لأن المنطلقين عن

(١) أي: لعمليكمها وعشر كلمات معها.

(٢) أخرجه بلحويه أحمد في المسند (٢٢٧/١، ٣٦٢) والترمذي وحسنه في (التفسير - سورة ص، ح ٣٢٣٢) والنسائي في الكبرى (التفسير ٤/٤٥٦) وابن حبان (الموارد ح ١٧٥٧) والطبري في التفسير (١٢٥/٢٣) والبيهقي في السنن (١٨٨/٩). والواحد في الأسباب (ص ٣٨٠) وصححه الحاكم (٤٣٢/٢) ووافقه الذهبي. عن ابن عباس رضي الله عنه.

مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا، أو يتفاوضوا فيما جرى لهم، فكان انطلاقهم مضمناً معنى القول، وقيل: ليس المراد بالانطلاق المشي، بل انطلاق ألسنتهم بهذا الكلام، كما أنه ليس المراد بالمشي المتعارف، بل الاستمرار على المشي، يعنى أنه على هذا القول: عبارة عن تفرقهم في طرق مكة، وإشاعتهم للكفر. هـ. أى: امشوا ﴿واصبروا على آلهتكم﴾ أى: اثبتوا على عبادتها، متحملين لما تسمعون في حقها من القدح.

قال القشيري: إذا [تواصى] (١) الكفار فيما بينهم بالصبر على آلهتهم، فالمؤمنون أولى بالصبر على عبادة معبودهم، والاستقامة في دينهم. هـ.

﴿إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أى: هذا الذى شاهدناه من محمد ﷺ من أمر التوحيد، وإبطال أمر آلهتنا، لشيء يراد إمضاؤه وتنفيذه، من جهته - عليه الصلاة والسلام - لا محالة، من غير صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه، لا قول يُقال من طرف اللسان، وأمر تُرجى فيه المسامحة بشفاعة أو امتنان، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله عن رأيه، بواسطة أبى طالب وشفاعته، وحسبكم ألا تمنعوا من عبادة آلهتكم بالكيفية، فاصبروا عليها، وتحملوا ما تسمعون في حقها من القدح وسوء المقالة، أو: إن هذا الأمر لشيء يريد الله تعالى، ويحكم بإمضائه، فلا مرد له، ولا ينفع فيه إلا الصبر، أو: إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر، يراد بنا، فلا انفكاك لنا منه، أو: إن دينكم لشيء يراد، أى: يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه، أو: إن هذا الذى يدعيه من التوحيد، ويقصده من الرئاسة، والترفع على العرب والعجم، لشيء يتمنى، ويريد كل أحد. فتأمل هذه الأقاويل، واختر منها ما يساعده النظم الجليل.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ الذى يقوله من أمر التوحيد ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أى: فى ملة عيسى، التى هى آخر المال؛ لأن النصراني مئثلة غير موحدة، أو: فى ملة قريش التى أدركنا عليها آبائنا، ويجوز أن يكون الجار والمجذور حالاً من (هذا)، أى: ما سمعنا بهذا من أهل الكتاب ولا الكهان كائناً فى الملة المترتبة. ولقد كذبوا فى ذلك أقبح كذب؛ فإن حديث البعثة والتوحيد، وإبطال عبادة الأصنام، كان أشهر الأمور قبل الظهور. ﴿إِنْ هَذَا﴾ أى: ما هذا ﴿إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أى: كذب، اختلقه من تلقاء نفسه.

﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أى: القرآن ﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾ ونحن رؤساء الناس وأشرافهم. أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم، وينزل عليه الكتاب من بينهم، حسداً من عند أنفسهم، كقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٢). وأمثال هذه المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد، وقصر النظر على الحطام الدنيوية، والعياذ بالله.

(٢) الآية ٣١ من سورة الزخرف.

(١) فى الأصول [تواصوا].

قال الورتجبي: كانوا منطمسة العيون عما ألبسه الحق من أنوار ربوبيته، وسنا جلاله وجماله، لم يروا إلا الصورة الإنسانية، التي هي ميراث آدم من ظاهر الخلقة. وهذا كقوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١)، استبعدوا اصطفايته بالوحى، ولم يعرفوا أنه أثر الله فى العالم، ومشكاة تجليه، حتى قالوا مثل ما قالوا: ﴿وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾، رأوا أنفسهم خالية عن مشاهدة الغيوب، وإدراك نور صفات الحق، فقاوسوا نفس محمد ﷺ بأنفسهم، ولم يعلموا أنه كان نفس النفوس، وروح الأرواح، وأصل الخليقة، وبأكورة من بساتين الربوبية. ياليتهم لو رأوه فى مشاهدة الملكوت، ومناصب الجبروت، إذ خاطبه الحق بلولاك ما خلقت الأفلاك. هـ.

الإشارة: هذه عادة الله تعالى فى خلقه، كل من يأمر الناس بالتجريد، وخرق العوائد، وصريح التوحيد، وترك ما عليه الناس من جمع الدنيا، وحب الرئاسة، والجاه، أنكره، وسفها رأيه، وقالوا فيه: ساحر كذاب. ويقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على ما أنتم عليه، من جمع الدنيا، والخدمة على العيال، وعلى ما وجدتم عليه أسلافكم، من الوقوف مع العوائد، ما سمعنا بهذا الذى يدل عليه هذا الرجل من ترك الأسباب والانقطاع إلى الله فى هذا الزمان، إن هذا الا اختلاق، أنزلت عليه الخصوصية من بيننا، ولم يعلموا أن الله يختص برحمته من يشاء، ويبعث فى كل زمان من يجدد الدين بتربية مخصوصة. والله تعالى أعلم.

ثم رد عليهم بقوله:

﴿... بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ۝١٠ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ۝١١﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿بل هم﴾ أى: كفار قريش ﴿فى شك من ذكرى﴾ من القرآن، أو الوحى، لميلهم إلى التقليد، وإعراضهم عن النظر فى الأدلة المؤدية إلى علم حقيقته، ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ أى: بل لم يذوقوا عذابي الموعود فى القرآن، ولذلك شكوا فيه، فإذا ذاقوه زال ما بهم من الشك والحسد حينئذ، أى: إنهم لا يصدقون به إلا أن يمسه العذاب، فحينئذ يصدقون، ولات حين تصديق.

(١) الآية ١٩٨ من سورة الأعراف.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أى: ما هم بمالكي خزائن الرحمة حتى يُصيبوا بها من شاءوا، ويصرفوها عن من شاءوا، ويختاروا للنبوة بعض صناديدهم، ويترفعوا بها عن محمد ﷺ، وإنما يملك الرحمة وخزائنها العزيزُ القاهر على خلقه، الوهابُ الكثير المواهب، المصيب بها من يشاء. والمعنى: أن النبوة عطية من الله تعالى، يتفضل بها على من يشاء من عباده المصطفين، لا مانع له، فإنه الغالب، الذي له أن يهب كل ما يشاء لكل من يشاء.

وفى إضافة اسم الرب المنبئ عن التربية والتبليغ إلى الكمال إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام - من تشريفه واللفظ به ما لا يخفى.

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: بل ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يتكلموا فى الأمور الربانية، ويتحكموا فى التدابير الإلهية، التى اختص بها رب العزة والكبرياء؟ ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال: ﴿فليرتقوا فى الأسباب﴾، وهو جواب عن شرط مقدر، أى: إن كان لهم ما ذكر من الملك، ويملكون التصرف فى قسمة الرحمة، فليصعدوا فى المعارج والطرق التى يتوصل بها إلى السماء، حتى يدبروا أمر العالم وملكوت الله، فينزلون الوحي إلى من يختارون ويستصوبون. والسبب، فى الأصل: ما يتوصل به إلى المطلوب.

ثم وعد نبيه - عليه الصلاة والسلام - بالنصر عليهم بقوله: ﴿جندٌ ما هنالك مهزومٌ من الأحزاب﴾ أى: هم جند ما من الكفار المتحزبين على الرسل ﴿مهزومٌ﴾؛ مكسور عما قريب، فلا تُبال بما يقولون، ولا تكثر بما يهذون. وجندٌ: خبر، أو: مبتدأ، ومهزومٌ: خبره وماء: صلة مقوية للكرة. أو: للتقليل والتحقير. ومن الأحزاب: متعلق بجند، أو: بمهزوم، وهنالك: إشارة إلى بدر ومصارعهم، أو: إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم، من قولهم لمن ينتدب لأمر وليس من أهله: لست هنالك

الإشارة: يُقال فى جانب أهل الغفلة: بل فى شك من حلاوة ذكرى ومعرفتى، حيث لم يذوقوا. قال إبراهيم ابن أدهم رحمته الله: (خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا شيئاً، قيل: وما فاتهم؟ قال: حلاوة المعرفة). بل لما يذوقوا عذابي، هو وبال القطيعة والبعد، والانحطاط عن درجات المقربين، وسيذوقونه إذا تحققت الحقائق، حيث لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم. ويقال فى جانب من حسد أهل الخصوصية: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ...﴾ الآية.

ثم هدد كفار قريش بقوله:

﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أى: قبل أهل مكة ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ نوحاً، ﴿ وَعَادٌ ﴾ هوداً ﴿ وَفِرْعَوْنُ ﴾ موسى، ﴿ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾، قيل: كانت له أربعة أوتاد وحبال يلعب بها أو عليها بين يديه، وقيل: كان يوتد من يعذب بأربعة أوتاد فى يديه ورجليه، ويتركه حتى يموت. وقيل: كان يرسل عليه عقارب وحيات. وقيل: معناه: ذو الملك الثابت، من: ثبات البيت المطنَّب (١) بأوتاده، فاستعير لرسوخ السلطنة، واستقامة الأمر، كقول الشاعر:

ولقد غنوا فيها بلنعم عيشة فى ظل ملكٍ ثابتٍ الأوتاد (٢)

﴿ وَثَمُودٌ ﴾ وهم قوم صالح، ﴿ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ كذبوا لوطاً، ﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾؛ أصحاب [الغيضة] (٣) كذبوا شعباً عيسى عليه السلام، ﴿ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾: بدل من الطوائف المذكورة. وفيه فضل تأكيد وتمهيد لما يعقبه، وأراد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هؤلاء الطوائف، وأنهم الذين وجد منهم التكذيب، ولذلك قال:

﴿ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ ﴾ أى: ما كل أحد من آحاد أولئك الأحزاب، أو: ما كل حزب منهم إلا كذب الرسل؛ لأن تكذيب واحد منهم تكذيب لجميعهم؛ لاتفاق الكل على الحق، أو: ما كل حزب إلا كذب رسوله، على نهج مقابل الجمع بالجمع. وأياً ما كان فالاستثناء مفرغ من أعم [العلل] فى خبر المبتدأ، أى: ما كل أحد منهم محكوم عليه بحكم إلا أنه كذب الرسل، ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ أى: فوجب لذلك أن أعاقبهم حق العقاب، التى كانت توجبها جنایاتهم من أصداف العقوبات.

(١) خباء مطنَّب، أى: مشدود بالأطناب، والأطناب: ما يشد به البيت من الحبال بين الأرض والطرائق، وقيل: هى الأوتاد، واحدها: طنَّب. انظر اللسان (٢٧٠٨/٤).

(٢) البيت للأسود بن يعفر. انظر غريب القرآن لابن قتيبة (١٠٠/٢) ومعانى القرآن للنحاس (٨٥/٦).

(٣) فى الأصول الخطية [الغيضة].

﴿ وما ينظر هؤلاء ﴾ أى: وما ينتظر أهل مكة. وفى الإشارة إليهم بهؤلاء؛ تحقير لشأنهم، وتهوين لأمرهم، أى: وما ينتظر هؤلاء الكفرة الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلكة فى الكفر والتكذيب، ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ وهى النفخة الثانية؛ لما فيها من الشدة والهول، فإنها داهية، يعم هولها جميع الأمم، برها وفاجرها. والمعنى: أنه ليس بينهم وبين حلول ما أعد الله لهم من العقاب إلا نفخة البعث، أخرت عقوبتهم إلى الآخرة؛ لأن حلولها بهم فى الدنيا يوجب الاستئصال، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ (١)، فأخرت ليوم القيامة. وأما ما قيل من أنها النفخة الأولى فمما لا رجه له؛ لأنه لا يشاهد هولها، ولا يصعق بها إلا من كان حياً عند وقوعها. قاله أبو السعود.

﴿ ما لها من فواق ﴾ أى: من توقف مقدار فواق، هو ما بين حلتى الحالب، أى: إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان. وعن ابن عباس: ما لها من رجوع وترداد، من أفاق المريض: إذا رجع إلى الصحة، وفواق الناقة: ساعة يرجع الدر إلى ضرعها. يريد: أنها نفخة واحدة، لا تثنى، ولا تردد. والفواق بمعنى التأخر، فيه لغتان: الفتح والضم، وأما ما بين حلتى الناقة، فبالضم فقط.

الإشارة: ما جرى على مكذبي الرسل يجرى فى مكذبي الأولياء، إلا أن عذابهم البعد والطرْد، وحرمان معرفة العيان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر استعجالهم العذاب، فقال:

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (١٦) أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاثَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا ﴾ أى: كفار مكة لما سمعوا بتأخير عقابهم إلى الآخرة: ﴿ ربنا عجل لنا قِطْنَا ﴾ أى: حطنا من العذاب الذى وعدتنا به، ﴿ قبل يوم الحساب ﴾ ولا تؤخره إلى الصيحة المذكورة. وفى القاموس: القِط - بالكسر: النصيب، والصك، وكتاب المحاسبة. هـ. أر: عجل لنا صحيفة أعمالنا لننظر فيها، أر:

(١) من الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

حظنا من الجنة؛ لأنه ﷺ ذكر وعد الله المؤمنين بالجنة، فقالوا على سبيل الهزة: عَجَلْ لَنَا نَصِيبَنَا مِنْهَا (١).
وتصدير دعائهم بالنداء للإيمان في الاستهزاء، كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة.

﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من أمثال هذه المقالات الباطلة. ثم سلاه بما يقص عليه من خبر الأنبياء - عليهم السلام - الذين كانت بدايتهم أيام المحن، ثم جاءتهم أيام المنن، وبدأ بنبيه داود ﷺ، فقال: ﴿واذكر عبدنا داود﴾، فإنه كان في أول أمره ضعيفاً، يرعى الغنم، ثم صار نبياً ملكاً، ذا الأيادي العظام. وقوله: ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ أى: ذا القوة في الدين، والملك، والنبوة. يقال: فلان ذو يد وأيد وأياد، بمعنى القوة، وأياد كل شيء: ما يتقوى به. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾: رجّاع إلى الله في كل شيء، أو: إلى مرضاة الله تعالى. وهو تعليل لكونه ذا الأيد، ودليل على القوة في الدين؛ فإنه كان ﷺ يصوم يوماً ويفطر يوماً، وهو أشد الصوم، ويقوم نصف الليل (٢)، مع مكابدة سياسة التوبة والملك والشهود، فقد أعطى القوة في الجهتين.

﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾ أى: ذللناها له، تسير معه حيث يريد. ولم يقل «له»؛ لأن تسخير الجبال له ﷺ لم يكن بطريق التفويض الكلى، كتسخير الرياح وغيرها لابنه، بل بطريق التبعية، والاقتداء به في عبادة الله تعالى. وقيل: «معه» متعلق بـ ﴿يُسَبِّحُنَّ﴾، أى: سخرناها تسبح معه، إما بلسان المقال، يخلق الله لها صوتاً، أو: بلسان الحال، أى: يقدس الله تعالى وينزله عما لا يليق به. والجملة: حال، أى: مسبحات، واختيار الفعل ليدل على حدوث التسبيح من الجبال، وتجده شيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال، ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ في طرفي النهار، والعشي: وقت العصر إلى الليل ﴿وَالْإِشْرَاقِ﴾، وهو حين تشرق الشمس، أى: تضيء، وهو وقت الضحى، وأما شروقها - الثلاثي؛ فطلوعها، تقول: شرقت الشمس ولما تشرق، أى: طلعت ولم تضيئ. وعن ابن عباس رضى الله عنه: ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية (٣). وعنه - عليه الصلاة والسلام - أنه صلى عند أم هانئ صلاة الضحى، وقال: «هذه صلاة الإشراق» (٤).

(١) انظر تفسير البغوى (٧/٧٥).

(٢) أخرجه البخارى في (التهجد، باب من نام عند السحر، ح ١١٣١) ومسلم في (الصيام، باب النهى عن صوم الدهر ٨١٦/٢، ح ١٨٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ﷺ وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً».

(٣) عزاه السيوطى في الدر المنثور (٥/٥٦٢) لسعيد بن منصور، بلفظ: طلبت صلاة الضحى في القرآن، فوجدتها «بالعشى والإشراق». وانظر روايات أخرى تفيد هذا المعنى ذكرها السيوطى في الدر.

(٤) أخرجه البغوى في التفسير (٧/٧٦) عن ابن عباس بلفظ: قال - أى ابن عباس - : كنت أمرُ بهذه الآية لا أدري ما هي حتى حدثنى أم هانئ بنت أبى طالب: أن رسول الله ﷺ دخل عليها فدعا بوضوء فتوضأ، ثم صلى الضحى، فقال: «يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق».

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أى: وسخرنا الطير مجموعة من كل ناحية. عن ابن عباس رضي الله عنه: كان إذا سبَّح، جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير، فسبَّحت، فذلك حشرها. ﴿كُلُّ لَهْ أَوَابٍ﴾ أى: كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيح داود. ووضع الأواب موضع المصبَّح؛ لأن الأواب: الكثير الرجوع إلى الله تعالى، من عادته أن يذكر الله، ويدير تسبيحه وتقديسه على لسانه. وقيل: الضمير لله، أى: كل من داود والجبال والطير أواب، أى: مسبِّح لله تعالى ومرجع للتسبيح، وقيل: لداود، أى: يرجع لأمره.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أى: قوينا بالهيبة واللمعة وكثرة الجنود. قيل: كان بيت المقدس حول محرابه ثلاثة وثلاثون ألف رجل. قال القشيري: ويقال: وشددنا ملكه بالعدل في القضية، وحسن السيرة في الرعية، أو: بدعاء المستضعفين، أو: بقوم مناصحين، كانوا يدلونه على ما فيه صلاح ملكه، أو: بقبوله الحق من كل أحد، أو: برجوعه إلينا في عموم الأوقات. هـ. وقال ابن عباس: أن رجلاً من بنى إسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم إلى داود، فقال المستعدى: إن هذا غصبنى بقرتي، فجدد الآخر، ولم تكن له بينة، فقال داود: قوما حتى أنظر في أمركما، فأوحى الله تعالى إلى داود في منامه: أن اقتل الرجل الذي استعدى عليه، فتثبت داود حتى أوحى الله إليه ثلاثاً أن يقتله، أو تأتبه العقوبة من الله، فأرسل داود إلى الرجل: أن الله قد أوحى إلي أن أقتلك، فقال: تقتلني بغير بينة؟ فقال: نعم، والله لأنفذن أمر الله فيك، فلما عرف الرجل أنه قاتله، فقال: لا تعجل علي حتى أخبرك أن الله تعالى لم يأخذني بهذا الذنب، الذي هو السرقة، ولكني كنت قتلُ أبا هذا غيلة، وأخذت البقرة، فقتله داود، فقال الناس: إذا أذنب أحد ذنباً أظهره الله عليه؛ فقتله، فهابوه، وعظمت هيبة في القلوب هـ. (١).

﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾؛ النبوة، وكمال العلم، وإتقان العمل، والإصابة في الأمور، أو: الزبور وعلم الشرائع. وكل كلام وافق الحق فهو حكمة. ﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابَ﴾؛ علم القضاء وقطع الخصام، فكان لا يتشعب في القضاء بين الناس، أو: الفصل بين الحق والباطل. والفصل: هو [التمييز] (٢) بين الشئيين، وقيل: الكلام البين، بحيث يفهمه المخاطب بلا التباس، فصل بمعنى مفصول، أو: الكلام البين الذي يبين المراد بسرعة، فيكون بمعنى فاصل، والمراد: ما أعطاه الله من فصاحة الكلام، الذي كان يفصل به بين الحق والباطل، والصحيح والفاسد، في قضاياها

(١) أخرجه الطبري (١٣٨/٢٣ - ١٣٩) والبغوي في التفسير (٧٧/٧). وعزاه في الدر المنثور (٥٦٣/٥) لعبد بن حميد، وابن أبي

حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) في الأصول [التحيز].

وحكوماته، وتدابير الملك، والمشورات. وعن علي رضي الله عنه: «هو البينة على المدعى، واليمين على من أنكر» وعن الشعبي: «هو: أما بعد» (١) فهو أول من تكلم بها، فإن من تكلم في الذي له شأن يفتتح بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له الكلام، فصل بينه وبين ذكر الله بقوله: أما بعد.

الإشارة: فاصبر أيها الفقير على ما يقولون فيك، وتسل بمن قبلك من أهل الخصوصية الكبرى والصغرى، ففيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الوصول إلى الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ...﴾ الخ. قال القشيري: كل من تحقق بحالة ساعده كل شيء. هـ. قلت: وفي الحكيم: «أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك» وبالله التوفيق.

ثم ذكر امتحان داود عليه السلام، فقال:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِّكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَنَا عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّعَآبٍ ﴿٢٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾؛ استفهام، معناه التعجب والتشويق إلى استماع ما في حيزه؛ لأنه من الأنبياء البديعة، والأخبار العجيبة. والخصم - في الأصل: مصدر، ولذلك يطلق على الواحد والجمع، كالضيف والزور. وأريد هنا اثنان، وإنما جمع الضمير بناء على أن أقل الجمع اثنان. ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ أي: تصعدوا سورته ونزلوا إليه. والسور: الحائط المرتفع، ونظيره: تسلمه: إذا علا سلمه. والمحراب:

(١) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٤٠/٣) والبغوي (٧٧/٧ - ٧٨) والدر المنثور (٥٦٤/٥).

الغرفة، أو: المسجد، سمي محرّاباً لتحارب الشيطان فيه والخواطر الرديّة. وبإذ: متعلق بمحذوف، أي: نبأ تحاكم الخصمين، أو: بالخصم؛ لما فيه من معنى الخصومة، ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾: بدل مما قبله، أو: ظرف لتسوروا، ﴿فَفَزَعَ مِنْهُمْ﴾: تروّع منهم.

رُوي أن الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين، قيل: جبريل وميكائيل، فطلباً أن يدخلوا عليه، فوجداه في عبادته، فمنعهما الحرس، فتسوروا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه، جالسان، ففزع منهم؛ لأنهم دخلوا عليه في غير يوم القضاء، ولأنهم نزلوا من فوق، وفي يوم الاحتجاب، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه. قال الحسن: جزأ داود عليه السلام الدهر أربعة أجزاء؛ يوماً للنساء، ويوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للمذاكرة مع بلى إسرائيل. فدخلوا عليه يوم عبادته.

فلما فزع ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾، نحن ﴿خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: ظلم وتناول عليه، ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ﴾: لا تجر، من: الشطط، وهو مجاوزة الحد وتخطي الحق، ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾: وأرشدنا إلى وسط الطريق ومحجته، والمراد: عين الحق وصريحه.

رُوي: أن أهل زمان داود عليه السلام كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته، فيتزوجها إذا أعجبتهم، وكان لهم عادة في المراساة بذلك. وكان في أول الإسلام شيء من ذلك بين المهاجرين والأنصار، فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على امرأة أوريا، وكانت جميلة، فأحبها، فسأله النزول له عنها، فاستحيا أن يرده، ففعل، فتزوجها، وهي أم سليمان؛ فعوتب في ذلك، وقيل له: إنك مع عظيم منزلتك، وكثرة نسائك، لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة، كان الواجب عليك مغالبة هواك، وقهر نفسك، والصبر على ما امتحنت به. وقيل: خطبها أوريا، وخطبها داود، فأثره أهلها، فكانت زلتة أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه (١). هـ. ولعلم لم يكن محرماً في شرعهم، وإنما كان خلاف الأولى.

وقال شيخ شيوخنا في حاشيته: لا يصح هذا في حق الأنبياء، وما يحكى أنه بعث أوريا إلى الغزو مرة بعد مرة، وأحب أن يقتل ليتزوجها، فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أبناء الناس، فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء. وقال علي - كرم الله وجهه -: من حدثكم بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين (٢)، وهو

(١) قال القاضي عياض في الشفاء (٢/٨٢٧): لا تلتفت إلى ما سطره الإخباريون من أهل الكتاب، الذين بدّلوا وغيّروا، ونقله المفسرون، ولم ينص الله تعالى على شيء من ذلك في كتابه، ولا ورد في حديث صحيح، والذي نص الله عليه في قصة داود: قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ وليس في قصة داود وأوريا خبر ثابت.

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/٣١): قد ذكر المفسرون ما هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه.... فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً. وانظر: الإسرائيليات والموضوعات لأبي شهبه (٢٦٤ - ٢٧٠).

(٢) قال الحافظ ابن حجر، في الكافي الشاف: (رقم ٣٠٦): لم أجده.

حدّ القرية على الأنبياء - يعنى الحدّ مرتين - . وروى: أن رجلاً حدّث بها عند عمر بن عبد العزيز، وعنده رجل من أهل الحق، فكذب المحدث، وقال: إن كانت القصة على ما فى كتاب الله، فما ينبغي أن يلتصم خلافها، ولا أن يقال غير ذلك، وإن كانت على ما ذكرت، وقد سترها الله على نبيه، فما ينبغي إظهارها عليه، فقال عمر: لسماعى لهذا الكلام أحبّ إلى مما طلعت عليه الشمس (١).

والذى يدلّ عليه المثل الذى ضربه الله لقصته ﷺ ليس إلا أنه طلب من زوج المرأة أن ينزل عنها فحسب، فتزوجها، وإنما جاءت على طريق التمثيل والتعريض، دون التصريح؛ لكونها أبلغ فى التوبيخ، من قبل أن المتأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع فى نفسه، وأشدّ تمكناً من قلبه، وأعظم أثراً فيه، مع مراعاة حسن الأدب، بترك المجاهرة بالعتاب. قاله النسفى.

ثم ذكر التعريض بقوله: ﴿إِنْ هَذَا أَخِي﴾ فى الدين، أو: فى الصداقة، أو: الشراكة. والتعبير به لبيان كمال قبح ما فعل به صاحبه، ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾؛ النعجة: الأنثى من الضأن، وقد يكتنى بها عن المرأة، والكناية والتعريض أبلغ من التصريح (٢). ﴿وَلِيَّ نَعْجَةً وَاحِدَةً﴾ لا أملك غيرها، ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾ أى: ملكيتها، واجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، ﴿وَعَزَّنِي﴾؛ غلبنى ﴿فِي الْخُطَابِ﴾؛ فى الخصومة، أى: كان أقدر منى على الاحتجاج والمجادلة، أو: غلبنى فى الخطبة، حيث خطبت وخطب، فأخذها، وهذا منهما تعريض وتمثيل، كأنهما قالوا: نحن كخصمين هذه حالهما، فمكّلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة، وخليطه له تسع وتسعون، فأراد صاحبه تنمة المائة، فطمع فى نعجة خليطه، وحاجّه فى أخذها، محاجة حريص على بلوغ مراده. وإنما كان ذلك على وجه التحاكم إليه، ليحكم بما حكم به من قوله:

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى زِغَاجِهِ﴾، حتى يكون محجوجاً بحكمه. وهو جواب عن قسم محذوف، قصد به ﷺ المبالغة فى إنكار فعل صاحبه به، وتهجين طمعه فى نعجة من ليس له غيرها، مع أن له قطيعاً منها. ولعله ﷺ قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه عليه، أو: بناء على تقدير صدق المدعى، أى: إن كنت صدقت فقد ظلمك، والسؤال: مصدر مضاف إلى المفعول، وتعديته إلى مفعول آخر لتضمينه معنى الضم.

(١) ذكره النسفى فى تفسيره (١٥٠/٣).

(٢) الظاهر: إبقاء لفظ النعجة على الحقيقة، من كونها أنثى الضأن، ولا يكتنى بها عن المرأة، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك. انظر البحر المحيط (٧ / ٣٧٦).

﴿وإن كثيراً من الخلطاء﴾؛ الشركاء الذين خلطوا أموالهم، ﴿ليبغى بعضهم على بعض﴾؛ غير مراعاة لحق الصحبة والشركة، ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ منهم، فإنهم يتحامون عن البغى والعدوان، ﴿وقليل ما هم﴾ أى: وهم قليل. وهما: مزيدة للإبهام، والتعجب من قلةهم. والجملة: اعتراض. ﴿وظن داود أنما فتاه﴾، الظن مستعار للعلم الاستدلالي؛ لما بينهما من المشابهة الظاهرة، أى: علم بما جرى فى مجلس الحكومة؛ وقيل: لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى الآخر، فضحك، ثم صعدا إلى السماء فعلم ﷺ أنه تعالى ابتلاه. والقصر منصب على الفتنة، أى: علم أنما فعلناه به فتنة وامتحان.

واختلف فى سبب امتحانه، قيل: لأنه تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وقال: يارب أرى الخير كله ذهب به آبائى، فأوحى إليه: إني ابتليتهم، فصبروا، فابتلى إبراهيم بنمرود وبذبح ولده، وإسحاق بالذبح^(١). ويعقوب بالحزن على يوسف وذهاب بصره، وأنت لم تبطل بشيء، فقال: يارب ابتلى بمثل ما ابتليتهم به، فابتلى بالمرأة^(٢). وقيل: إنه ادعى القوة، وقال: إنه لا يخاف من نفسه قط، فامتنح، ﴿فاستغفر ربّه﴾ إثر ما علم أن ما صدر منه ذنب؛ ﴿وخراً راکعاً﴾ أى: ساجداً، على تسمية السجود ركوعاً، أو: خراً راکعاً مصلياً صلاة التوبة، ﴿وأناب﴾ أى: رجع إلى الله بالتوبة، روى: أنه بقى ساجداً أربعين يوماً يبكى، حتى نبت البقل من دموعه، ولم يشرب ماءً إلا وثلاثاء دموع، واشتغل بذلك عن الملك، حتى وثب ابن له، يقال له: «إشاه» على ملكه ودعا إلى نفسه، واجتمع إليه أهل الزرع من بنى إسرائيل، فلما غفر له حاربه فهزمه. هـ.

وهذا الموضع فيه سجدة عند مالك، خلافاً للشافعى، إلا أنه اختلف فى مذهب مالك؛ هل سجد عند قوله: ﴿وأناب﴾ أو عند قوله: ﴿وحسن مآب﴾. وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى: أنه رأى فى المنام شجرة نقرأ سورة «ص»، فلما بلغت: «وأناب» سجدت، وقالت: اللهم اكتب لى بها أجراً، وحط عني بها رزراً، وارزقنى بها شكراً، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود، فقال له: عليه الصلاة والسلام. «وسجدت أنت يا أبا سعيد؟» قلت: لا. قال: «كنت أحق بالسجود من الشجرة»، ثم تلى نبي الله الآيات، حتى بلغ: ﴿وأناب﴾ فسجد، وقال كما قالت الشجرة^(٣).

(١) تقدم أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، راجع التعليق على تفسير الآيات: ٩٩ - ١١١ من سورة الصافات.

(٢) انظر تفسير الطبرى (١٤٦/٢٣) والبغوى (٧٨/٧).

(٣) أخرجه، عن ابن عباس، الترمذى فى (أبواب السفر، باب ما يقول فى سجود القرآن ٣/٤٧٢ - ٤٧٣ - ح ٥٧٩)، وابن ماجه فى (إقامة الصلاة والسنة، باب: سجود القرآن ١/٣٣٤، ح ١٠٥٣) والحاكم وصححه ووافقه الذهبى، (١/٢١٩ - ٢٢٠) والبغوى فى تفسيره (٨٦/٧) قال - أى: ابن عباس - : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت الليلة وأنا نائم كأننى أصلى خلف شجرة، فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودى.. الخ الحديث.. قال الترمذى: (وفى الباب عن أبى سعيد) قلت: حديث أبى سعيد الخدرى عزاه الميوطى فى الدر المنثور (٥/٥٧٢) لأبى يعلى.

﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ أى: ما استغفر منه. قال القشيري: ولما أوحى الله بالمغفرة، قال: يارب كيف بحديث الخصم؟ - أى: الرجل الذى ظلمته - فقال: قد استوهبتك منه. هـ. وفى رواية: إني أعطيه يوم القيامة ما لم تر عيناه، فاستوهبتك منه فيهبك لى، قال: يارب الآن قد عرفت أنك غفرت لى (١). هـ. قال تعالى ﴿ وإن له عندنا لزلفى ﴾ لقربى وكرامة بعد المغفرة، ﴿ وحسن مآب ﴾ مرجع فى الجنة.

الإشارة: إنما عوتب داود عليه السلام لأنه التفت إلى الجمال الحسى الفرقى، دون الجمال المعنوى الجمعى، ولو سبته المعانى بجمالها ما التفت إلى الجمال الفرقى، فلما نبهه الحق تعالى استغفر ورجع إلى الجمال المعنوى، الذى هو جمال الحضرة القدسية، وعبارة شيخ شيوخنا سيدى عبدالرحمن الفاسى رحمه الله: عدّ عليه التفاته عن الجمال المطلق عن الأشكال والصور إلى المقيد بهما، وهى مقام تفرقة، لا مقام جمع، فاستغفر ورجع إلى شهود الفاعل جمعاً، عن شهود فعله فرقاً، فخلع عليه خلعة الخلافة والله أعلم. هـ. قال القشيري: قال داود عليه السلام: يارب إني أجد فى التوراة أنك أعطيت الأنبياء الرتب العالية، فأعطيتها؟ فقال: إنهم صبروا لما ابتليتهم، فوعد من نفسه الصبر إذا ابتلاه، طمعاً فى مثل تلك الرتب، فأخبر أنه يبتليه يوم كذا، فلما جاء ذلك اليوم دخل خلوته، وأغلق أبوابه، ولم يمكنه غلق باب السماء، وقد قال الحكماء: الهارب مما هو كائن فى كف الطالب يتقلب. ثم إنه كان فى البيت كوة، يدخل منها النور، فدخل منها طير صغير، كأنه من ذهب، وكان لداود ولد صغير، فهم أن يقبضه لابنه، فما زال يحاوله ويتبعه حتى وقع بصره على المرأة، فامتحن بها، فلم يدع به الاهتمام بولده حتى فعل ما فعل، وفى ذلك لأولى الأبصار عبرة. هـ.

وقال عند قوله: ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾: التجأ داود عليه السلام فى أوائل البلاء إلى التوبة، والبكاء، والتضرع، والاستكانة، فوجد المغفرة والتجاوز. وهكذا من رجع فى أوائل الشدائد إلى الله، فانه يكفيه ويتوب عليه، و[كذلك] (٢) من صبر إلى حين طالته عليه المحنة. ويقال: إن زلة قدرها عليك، توصلك إليه بتدمك، أخرى بك من طاعة، إعجابك بها يقصيك عن ربك. هـ. وفى الحكم: «معصية أورثت ذلاً وافتقاراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً» وقال الشيخ أبو العباس المرسى رحمه الله: كل سوء أدب يثمر لك حسن أدب؛ فهو أدب. هـ.

(١) انظر تفسير البغوى (٧/٨٤).

(٢) ما بين المعقوفتين مستدرك من لطائف الإشارات.

ولما تحققت إنابته، جعله الله خليفة، كما قال:

﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أى: استخلفناك على الملك فيها، والحكم فيما بين أهلها، أو: جعلناك خليفة عمّن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق، وفيه دليل على أن حاله عليه السلام بعد التوبة، كما كان قبلها، لم يتغير قط، خلاف ما نقله الثعلبي من تغير حاله وصوته، ومنع الطيور من إجابته، فانظره.

﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾؛ بحكم الله تعالى، إذ كنت خليفة، أو: بالعدل، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أى: هوى النفس فى الحكومات، وغيرها من أمور الدين والدنيا، بل قفْ عند ما حدّ لك. وفيه تنبيه على أن أقبح جنایات العبد متابعة هواه، ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: فيكون الهوى، أو اتباعه، سبباً لضلالك عن دلائل اللاتى نصبها على الحق، تكريماً وتشريعاً. ويضلك: منصوب فى جواب النهى، أو: مجزوم، ففتح؛ لالتقاء الساكنين. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ عن طريقه الموصلة إليه. وأظهر سبيل الله فى موضع الإضمار للإيدان بكمال شناعة الضلال عنه، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا﴾؛ بسبب نسيانهم ﴿يَوْمَ الْحِسَابِ﴾؛ فإن تذكره وترداده على القلب يقتضى ملازمة الحق ومباعدة الهوى.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات على هذا النظام البديع ﴿بَاطِلًا﴾ أى: خلقاً باطلاً، عارياً عن الحكمة، أو: مبطلين عابثين، بل لحكم بالغة، وأسرار باهرة، حيث خلقنا من بينها نفوساً، أودعناها العقل؛ لتمييز بين الحق والباطل، والنافع والضار، ومكناها من التصرفات العلمية والعملية، فى استجلاب

مناقعها، واستدفاع مضارها، ونصيبنا لها للحق دلائل آفاقية، ونفسية، ومنحناها القدرة على الاستشهاد بها، ثم لم نقتصر على ذلك المقدار من الألفاظ، بل أرسلنا إليها رسلاً، وأنزلنا عليها كتباً، بيّنا فيها كيفية الأدب معنا، وهيئة السير إلى حضرة قدسنا، وقبضنا لها جهابذة، غاصوا على جواهر معانيها، فاستخرجوا منها كيفية المعاملة معنا، ظاهراً وباطناً، وأوعدنا فيها بالعقاب لمن أعرض عنها، ووعدنا بالثواب الجزيل لمن تمسك بها، ولم نخلق شيئاً باطلاً.

﴿ ذلك ظن الذين كفروا ﴾، الإشارة إلى خلق العيب، والظن بمعنى المظنون، أى: خلقها عبثاً هو مظلون الذين كفروا، وإنما جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث، وإن لم يصرحوا بذلك؛ لأنه لما كان إنكارهم للبعث، والثواب، والحساب، والعقاب، التى عليها يدور فلك تكوين العالم، مؤدياً إلى خلقها عبثاً، جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه؛ لأن الجزاء هو الذى سيقف إليه الحكمة فى خلق العالم، فمن جحدته فقد جحد الحكمة فى خلق العالم.

﴿ فويل للذين كفروا من النار ﴾، الفاء سببية؛ لإفادة ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل، وأظهر فى موضع الإضمار للإشعار بأن الكفر علة ثبوت الويل لهم، ومن النار؛ تعليلية، كما فى قوله: ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ (١) أى: فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم.

﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ﴾، «أم»: منقطعة، والاستفهام فيها للإنكار، والمراد أنه لو بطل الجزاء - كما تقول الكفرة - لاستوت أحوال أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة، ومن سوى بينهما كان سفيهاً، ولم يكن حكيماً، أى: بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين فى أقطار الأرض، كما يقتضيه عدم البعث وما يترتب عليه من الجزاء؛ لاستواء الفريقين فى التمتع فى الحياة الدنيا، بل الكفرة أوفر حظاً فيها من المؤمنين، مع صبر المؤمنين، وتعبدهم فى مشاق الطاعات، لكن ذلك الجعل محال، فتعين البعث والجزاء؛ لرفع الأولين إلى أعلى عليين، وخفض الآخرين إلى أسفل سافلين.

﴿ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾؛ إنكار للتسوية بين الفريقين المذكورين، وحمل الفجار على فجرة المؤمنين مما لا يساعده المقام، ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الأولين، ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين، هما أدخل فى إنكار التسوية من الوصفين الأولين. وقيل: قالت قريش للمؤمنين: إنا نعطى من الخير يوم القيامة مثل ما تعطون، فنزلت (٢).

(١) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.

(٢) ذكره البغوى فى تفسيره (٨٧/٧).

الإشارة: قال المرتجبي: ولما خرج داود من امتحان الحق وبلائه، كساه خلعة الربوبية، وألبسه لباس العزة والسلطنة، كآدم خرج من البلاء، وجلس في الأرض على بساط فك الخلافة، وذلك بعد كونهما متخلفين بخلق الرحمن، مصورين بصورة الروح الأعظم، فإذا تمكن داود في العشق، والمحبة، والنبوة، والرسالة، والتخلق، صار أمره أمر الحق، ونهيه نهى الحق. هـ. وقال ابن عطية: لا يطلق خليفة الله إلا للنبي، وإطلاقه في غير الأنبياء تجوز وغلو. هـ. قلت: يطلق عند الأولياء على من تحققت حريته، ورسخت ولايته، وظهر تصرفه في الوجود بالهمة، حتى يكون أمره بأمر الله، غالباً، وهو مقام القطبانية، فالمراتب ثلاث: صلاح، وولاية، وخلافة، فالصلاح لمن صلح ظاهره بالتقوى، والولاية لمن تحقق شهوده، مع بقية من نفسه، بحيث تقل عثراته جداً، والخلافة لمن تحققت حريته، وظهرت عصمته، بجذب العناية. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾، الهوى: ما تهواه النفس، وتميل إليه، من الحظوظ الفانية، قلبية كانت، كحب الجاه، والمال، وكالميل في الحكم عن صريح الحق، أو: نفسانية، كالتأنيق في المأكول، والمشارب، والمناجح. واتباع الهوى: طلبه، والسعى في تحصيله، فإن كان حراماً قدح في الإيمان، وإن كان مباحاً قدح في نور مقام الإحسان، فإن تيسر من غير طلب ونشوف، وكان مرافقاً للسان الشرع، جاز تناول الكفاية منه، مع الشكر وشهود المنة. قال عمر بن عبدالعزيز: إذا وافق الحق الهوى، كان كالزبد بالبرسام، أي: السكر. وفي الحكم: «لا يخاف أن تلتبس الطرق عليك، إنما يخاف من غلبة الهوى عليك»^(١) وغلبة الهوى: قهره وسلطنته، بحيث لا يملك نفسه عند هيجان شهوتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ أي: بل خلقناهما لتعرف بهما، فما نصبت الكائنات لتراها، بل لتري فيها مولاها. وقد تقدم هذا مراراً.

ولا ينال هذا المقام إلا بعبادة التفكير والتدبر، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

قلت: «كتاب»: خبر عن مضمرة، أي: هذا، وأنزلناه: صفة له، ومبارك: خبر ثان، أو: صفة الكتاب، ولِيَدَّبَّرُوا: متعلق بأنزلناه.

(١) حكمة رقم ١٠٧، أنظر الحكم بتبويب المفتي الهندي ص ١٧.

قيل: لما نفى بالتسوية بين الصالح المتقي، والمفسد الفاجر، بين ما تحصل به لمتبعيه السعادة الأبدية، ويحصل به الصلاح التام، والتقوى الكاملة. وهو كتاب الله فقال جل جلاله: ﴿هذا كتاب﴾؛ وهو القرآن ﴿أنزلناه إليك مبارك﴾؛ كثير المنافع الدنيوية والدنيوية، أنزلناه ﴿ليدبروا آياته﴾ أى: ليتفكروا فى آياته، التى من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التكوين والتشريع، فيعرفوا ما فى ظاهرها من المعانى الفائقة، والتأويلات اللائقة. وقرئ: ﴿لتدبروا﴾ على الخطاب^(١)، أى: أنت وعلماء أمتك، بحذف إحدى التاءين. ﴿وليتذكروا أولوا الألباب﴾ أى: وليتعض به ذرو العقول الصافية، السليمة من الهوى، فيقفوا على ما فيه، ويعملوا به، فإن الكتب الإلهية ما نزلت إلا ليتدبر ما فيها، ويعمل به. وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبداً وصبيان، لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه وضيّعوا حدوده. هـ.

الإشارة: كتاب الله العزيز بطاقة من عند الملك، والمراد من البطاقة فهم ما فيها، والعمل به، لا قراءة حروفها ورسومها فقط، فمن فعل ذلك فهو مقصر.

وذكر فى الإحياء أن آداب القراءة عشرة، أى: الآداب الباطنية:

الأول: فهم عظمة الكلام وعُلُوّه، وفصل الله سبحانه بخلقه، فى نزوله عن عرش جلاله، إلى درجة أفهام خلقه، فلو استتار كنه جلال كلام الله تعالى، بكسوة الحروف، لما ثبت لكلام الله عرش ولا ثرى، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه، ولو لا تثبيت الله موسى ﷺ ما أطلق سماع كلامه، كما لم يطق الجبل مبادر نوره.

الثانى: تعظيم المتكلم به، وهو الله سبحانه، فيخطر فى قلبه عظمة المتكلم، ويعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر، وأن فى تلاوة كتابه غاية الخطر، ولهذا كان عكرمة إذا نشر المصحف غشى عليه.

الثالث: حضور القلب، وترك حديث النفس، فإذا قرأ آية غافلاً أعادها.

الرابع: التدبر، وهو وراء الحضور، فإنه قد لا يتفكر فى غير القرآن، ولكنه مقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره. قال على رضي الله عنه: لا خير فى عبادة لا فقه فيها، ولا خير فى قراءة لا تدبر فيها.

الخامس: التفهم^(٢)، وهو أن يستوضح كل آية ما يليق بها؛ إذ القرآن مشتمل على ذكر صفات الله تعالى، وذكر أفعاله، وذكر أحوال أنبيائه - عليهم السلام -، وذكر أحوال المكذبين، وكيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن، أى: فإنه مشتمل على فعل الله، وصفاته، وكشف أسرار ذاته، لمن تأمله حق تأمله.

(١) وبذلك قرأ أبو جعفر.. انظر إتحاف فضلاء البشر (٢/٤٢١).

(٢) فى الأصول [التفهم] والمثبت هو الذى فى الإحياء.

السادس: التخلي عن موانع الفهم، ومعظمها أربعة: أولها: صرف الهمّة إلى إخراج الحروف من مخارجها، وهذا تولى حفظه شيطان وكل بالقراء. وكذلك الاشتغال بضبط رواياته، فأنى تنكشف لهذا أسرار المعانى. ثانيها: أن يكون مقيداً بمذهب، أخذه بالتقليد، وجمد عليه، فهذا شخص قيده معتقده، فلا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده، فلا يتبحر في معانى القرآن؛ لأنه مقيد بما جمد عليه. ثالثها: أن يكون مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو: مبتلى بهوى في الدنيا، وبهذا ابتلى كثير من الناس، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ (١) أى: عن فهم آياتي. رابعها: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما يتناوله النقل عن ابن عباس وغيره، وأما ما وراء ذلك تفسير بالرأى، فهذا أيضاً من أعظم الحجب؛ فإن القرآن العظيم له ظاهر وباطن، وحدّ ومطلع، فالفهم فيه لا يقطع إلى الأبد، فهو بحر مبدول، يغرف منه كل واحد على قدر وسعه، إلى يوم القيامة.

السابع: التخصيص، وهو أن يعتقد أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمراً أو نهياً، قدر أنه المأمور والمنهى، وكذلك إن سمع وعداً ورعيماً، وإن سمع قصص الأولين علم أن المقصود به الاعتبار، ليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه، ويتقوى إيمانه، قال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (٢) فالقرآن لم ينزل خاصاً برسول الله ﷺ، بل هو شفاء ورحمة ونور للعالمين، فيثبت فؤاد كل من يسمعه.

الثامن: التأثير، وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة، بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد، يتصف به قلبه؛ من الخوف، والرجاء، والقبض، والبسط، وغير ذلك.

التاسع: الترقى وهو أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله سبحانه، لا من نفسه، ولا من غيره. فدرجات القرآن ثلاث: أدناها: أن يقدر العبد كأنه يقرأ على الله تعالى، واقفاً بين يديه، فيكون حاله السؤال والتعلق. ثانيها: أن يشهد بقلبه كأن الله تعالى يخاطبه بألفاظه، ويداجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم. الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، فلا ينظر إلى نفسه، ولا إلى قراءته، بل يكون مقصور الهم على المتكلم، مستغرقاً في شهوده، وهذه درجة المقربين، وما قبلها درجة أصحاب اليمين، وما خرج عن هذا فهو درجة الغافلين. وعن الدرجة العليا أخبر جعفر الصادق عليه السلام بقوله: والله لقد تجلى الله لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون. هـ. وقال

(١) من الآية ١٤٦ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ١٢٠ من سورة هود.

بعض الحكماء: كنت أقرأ القرآن ولا أجد حلاوة، حتى تلوته كأنه أسمع من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام، كأني أسمع من جبريل، يلقيه على رسول الله ﷺ، ثم جاء الله بمنزلة أخرى، فأنا الآن أسمع من المتكلم به، فعندها وجدت له لذة ونعيماً لا أصبر عنه.

العاشر: التبرى، وهو أن يتبرأ من حوله، وقوته، والاتفات إلى نفسه بعين الرضا. انظر بقية كلامه فقد اختصرناه غاية.

ثم ذكر سليمان عليه السلام، فقال:

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نَعَمَ الْعَبْدُ ﴾ أى: سليمان، فهو المخصوص، ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أى: رجأع إلى الله تعالى فى السراء والضراء، وفى كل أموره، ﴿ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ ﴾ أى: واذكر ما صدر عنه حين عرض عليه ﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾؛ وهو ما بين الظهر إلى آخر النهار، ﴿ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ أى: الخيل الصافنات، وهى التى تقوم على طرف سنبك يد أو رجل. وهى من الصفات المحموده، لا تكاد توجد إلا فى الخيل العرب، الخُص. وقيل: هو الذى يجمع يديه ويستبق بهما، والجياد: جمع جواد، أو: جود، وهو الذى يسرع فى جريه، أو: الذى يجود عند الركض، وقيل: وصفت بالصفون والجودة؛ لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين، واقفة وجارية، أى: إذا وقفت كانت ساكنة، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً فى جريها.

رُوى أنه عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين، وأصاب ألف فرس، وقيل: أصابها أبوه من العمالقة، ورثها منه، وفيه نظر؛ فإن الأنبياء لا يورثون، إلا أن يكون تركها حبساً، فرث النظر فيها. ويكون عقرها بنية إيدالها. وقيل: خرجت من البحر لها أجنحة، ففقد يوماً بعد ما صلى الظهر على كرميه، فاستعرضها، فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس، وغفل عن العصر، أو: عن الورد، كان له من الذكر وقتلذ، وهو أليق بالعصمة، فاغتم لما فاته، فاستردها، فعقرها، تقريباً إلى الله تعالى، وبقي مائة، فما فى أيدي الناس اليوم من الجياد فمن نسلها (١).

(١) انظر تفسير البغوى (٧/٨٨).

وقيل: لما عقرها أبدل الله تعالى له خيراً منها، وهى الريح تجرى بأمره، ﴿فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي﴾، قاله ﷺ عند غروب الشمس، اعترافاً بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة أو الذكر، وغايته حينئذ: أن الأولي استغراق الأوقات في ذكر الله من الاشتغال بالدنيا، فترك الأولى، وتحسر لذلك، وأمر بالقطع. وأما حمله على الصلاة والاشتغال بها حتى يفوت الوقت، فذنب عظيم، تأباه العصمة. قاله شيخ شيوخنا الفاسي. وقد يجاب بأن تركه كان نسياناً وذهولاً، لا عمداً، فلا معصية.

وعذّي «أحببت» بدع، دون «على»؛ لتضمنه معنى النياية، أي: أنبت حب الخير^(١)، وهو المال الكثير، والمراد: الخيل التي شغلته عن ذكر ربه، ﴿حتى توارت﴾ أي: استتارت ﴿بالحجاب﴾ أي: غربت واحتجبت عن العيون، وعن: متعلق بأحببت، باعتبار استمرار المحبة ودوامها. حسب استمرار العرض، أي: أنبت حب الخير عن ذكر ربي، واستمر ذلك حتى غربت الشمس. وإضمارها من غير تقدم ذكر لدلالة «العشى» عليها.

﴿ردوها علي﴾، هو من مقالة سليمان، ﴿فطفق مسحاً﴾، الفاء فصيحة، مفصحة عن جملة حذفت، لدلالة الكلام عليها، إيذاناً بسرعة الامتثال، أي: فردوها عليه، فأخذ يمسح السيف مسحاً ﴿بالسوق والأعناق﴾ أي: بسوقها وأعناقها يقطعها، من قولهم: مسح عنقه بالسيف، وقيل: جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها، حباً لها، وإعجاباً بها، وهو ينافي سياق الكلام^(٢).

الإشارة: لم يذكر الحق تعالى لسليمان ترجمة مخصوصة، كما ذكر لغيره بقوله: ﴿واذكر عبدنا داود﴾، ﴿واذكر عبدنا أيوب﴾، بل خرطه في سلك ترجمة أبيه، وجعله هبة له؛ تنبيهاً على أن مقام أهل الجلال الدنيوي، لا يبلغ مقام أهل الجلال؛ ففيه تنبيه على أن الفقير الصابر أعظم من الغنى الشاكر. قاله في القوت.

وقوله تعالى: ﴿فطفق مسحاً بالسوق﴾، فيه: أن من ترك شيئاً عوضه الله خيراً منه، فمن كان في الله توفقه، كان على الله خلفه. وفيه حجة للصوفية على إتلاف كل ما شغل القلب عن الله، كما فعل الشبلي من تمزيق الثياب الرفهة^(٣). والله تعالى أعلم.

(١) أي: أنبت حب الخير عن ذكر ربي روضته موضع.

(٢) وقيل معناه: أنه حبسها في سبيل الله، وكوى سوقها وأعناقها بكى الصدقة. وهذا هو الذي رجحه أبو حيان، لأنه يناسب مناصب الأنبياء، لا القول الأول؛ فإن فيه ما لا يليق ذكره بالنسبة للأنبياء. انظر البحر المحيط (٣٨٠/٧).

(٣) قال القرطبي في تفسير (٥٨٠٦/٦): وقد استدلل الشبلي وغيره من الصوفية في تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا، وهو استدلال فاسد، لأنه لا يجوز أن ينسب إلى نبي معصوم أنه فعل الفساد. والمفسرون اختلفوا في معنى الآية... وأما إفساد ثوب صحيح لا لغرض صحيح، فإنه لا يجوز.. انظر بقية كلامه.

ثم ذكر امتحانه، فقال:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ أى: ابتليناه، ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ ﴾؛ سرير ملكه، ﴿ جَسَداً ﴾؛ شق ولد، أو جنياً، ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾؛ رجع إلى الله تعالى، وأظهر ما قيل في فتنته ﷺ ما روى مرفوعاً: أنه قال: لأطوفن الليلة على سبعين - أو تسع وتسعين - امرأة، تأتى كل واحدة منهن بفارس، يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل. قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «والذى نفسى بيده لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»^(١) فالفتنة على هذا: كونه لم يقل: إن شاء الله، والجسد هو شق الإنسان الذى ولد له. وقيل: إنه ولد له ابن، فأجمعت الشياطين على قتله، وقالوا: إن عاش له ولد لم نفك من خدمته، فلما علم ذلك، حملة في السحاب، فما شعر حتى ألقى على كرسية جسد ميتاً، فتنبه لخطأه، حيث لم يترك على الله.

وقيل: إنه غزا صيغرون من الجزائر، فقتل ملكها، وأخذ بنتاً له تسمى جرادة، من أحسن الناس، فاصطفاه لنفسه، وأسلمت على جفاء، وأحبها، وكان لا يرقأ دمعها، جزعاً على أبيها، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته، فكانت تغدو عليها وتروح مع ولاندها، فيسجدن لها، كعادتهم في ملكه، فأخبره صاحبه آصف بذلك، فكسر الصورة، وعاقب المرأة، ثم خرج إلى فلاة، وفرش له الرماد، وجلس عليه تائباً إلى الله متضرعاً. وكانت له أم ولد، يقال لها: «أمينة»، إذا دخل للطهارة، أو لإصابة امرأة، يعطيها خاتمه، وكان فيها ملكه، فأعطاه يوماً، فتمثل لها بصورته شيطان، اسمه «صخر»، وأخذ الخاتم، فتختم به، وجلس على كرسية، فأجتمع عليه الخلق، ونفذ حكمه في كل شيء، إلا في نسائه، على المشهور، وغير سليمان عن هيلته، فأتى «أمينة» لطلب الخاتم، فأنكرته وطرده، فعلم

(١) أخرجه البخارى في (أحاديث الأنبياء، باب «روينا لدود سليمان» ح ٣٤٢٤) ومسلم في (الإيمان، باب الاستثناء ٣/١٢٧٥ ح ١٦٥٤) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

أن الخطيئة قد أدركته، فكان يطوف على البيوت يتكفف، وإذا قال: أنا سليمان، حثوا التراب عليه، وسبّوه، ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك، فيعطونه كل يوم سمكتين، فمكث على ذلك أربعين صباحاً، عدد ما عبد الوثن في بيته، فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان، حتى دخلوا على نسائه، فقالوا: قد أنكرنا حكمه، فذهبوا حتى جلسوا بين يديه، فنشروا التوراة، فقرروها، فطار من بين أيديهم، والخاتم معه، ثم قذفه في البحر، فابتلعته سمكة، فوُقت في يد سليمان، فبقر بطنها، فإذا هو بالخاتم، فتختم به، وخز ساجداً لله، وعاد إليه ملكه، وقبض الجني صخر، فجعله في وسط صخرة، وشد عليه بأخرى، ثم أوثقهما بالحديد والرصاص، وقذفه في البحر، فهر باق فيه. فالجسد على هذا عبارة عن صخر، سمي به، وهو جسم لاروح فيه؛ لأنه تمثيل بما لم يكن كذلك، والخطيئة: تغافلته ﷺ عن حال أهله؛ لأن اتخاذ التعائيل لم يكن محظوراً حينئذ، والسجود للصورة بغير علم منه لا يضره. وأنكر بعض المحققين هذه القصة. وقال: لا يصح ما نقله الإخباريون وأهل التفسير في هذا الموضع، من تشبه الشيطان ببنيه، وتسلمه على ملكه، وتصرفه في أمته والجور في حكمه (١).

قال القاضي عياض: الشياطين لا يتسلطون على مثل هذا، وقد عصم الله الأنبياء عن مثله. ومثله لابن العربي أيضاً. وحكى إنكاره عن السمرقندي. وقال الطيبي: أشبه الأقاويل في إلقاء الجسد هو شق الولد، كما تقدم. وخالفه ابن حجر، فقال: قال غير واحد من المفسرين: أن المراد بالجسد المذكور شيطان، وهو المعتمد، فأنه أعلم، غير أن التلزيه أسلم.

قال شيخ شيوخنا الفاسي في حاشيته: وليس هذه كقصة أيوب، فيما يذكر أنه تسلط الشيطان على إتلاف ماله وولده، وضرره في جسده؛ لأن ذلك إنما فيه تسلط على محض ضرر دنيوي لا ديني. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «تفلت على البارحة عفريت...» الحديث (٢). وكذا سحر، وسم، وشج. والتسلط المذكور في حق سليمان، فيه تلبيس في الدين فلا يصح، إلا أن يقال: أنه لم يقر، بل رفع اللبس بعد ذلك، كما في آية: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ (٣)، والله أعلم هـ.

(١) قال النسفي - رحمه الله - في تفسيره (١٥٦/٣): وأما ما يروى من حديث الخاتم، والشيطان، وعبادة الوثن في بيت سليمان ﷺ، فمن أبيات اليهود. وقال في البحر المحيط (٣٨١/٧): نقل المفسرون في هذه القصة إلقاء الجسد أقوالاً، يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وأما هي من أوضاع اليهود والزنادقة. للمزيد انظر تفسير ابن كثير (٣٦/٤) والإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (٢٧٥ - ٢٧٥).

(٢) ولفظه كاملاً: «إن عفريتك من الجن تفلت على البارحة، ليقطع على الصلاة، فأمكنني الله منه، فأخذته، فأريت أن أربطه على سارية من سواري المسجد، تظنوا إليه كلكم. فذكرت دعوة أخى سليمان: «رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي» فرددته خاسئاً».

أخرجه البخاري في (الأنبياء، باب قوله تعالى: «ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب» ح ٢٤٢٣) ومسلم في (المساجد، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعرض منه. ٣٨٤/١ ح ٥٤١) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

(٣) من الآية ٥٢ من سورة الحج.

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ ، هو بدل من «أناب»، أى: اغفر لى ما صدر عني من الزلة، ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ ، ليكون معجزة لى، مناسبة لحالى، فإنه ﷺ لَمَّا نَشَأَ فِي بَيْتِ الْمَلِكِ وَالنَّبُوءَةِ، وَوَرِثَهُمَا مَعًا، اسْتَدْعَى مِنْ رَبِّهِ مَعْجِزَةً جَامِعَةً لِحُكْمِهِمَا. أَوْ: لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ يَسْلُبُهُ مِنِّي بَعْدَ هَذِهِ السَّلْبَةِ، أَوْ: لَا يَصْحُحُ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي؛ لِعَظَمَتِهِ وَشِدَّتِهِ.

قال القشيري: وَيُقَالُ: لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَسْأَلَ الْمُلْكَ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكِلَ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ - وَمِثْلُهُ لِلْجَنِيدِ، وَزَادَ: فَإِنَّ الْمُلْكَ شُغِلَ عَنِ الْمَالِكِ - أَوْ: يُقَالُ: لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي مِنَ الْمُلُوكِ، لَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّمَا سَأَلَ الْمُلْكَ لِسِيَاسَةِ النَّاسِ، وَإِنْصَافِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، وَالْقِيَامِ بِحَقِّ اللَّهِ، وَلَمْ يَسْأَلْهُ لِأَجْلِ مَيْلِهِ إِلَى الدُّنْيَا. وَهُوَ كَمَا قَالَ يُوسُفُ ﷺ: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ...﴾ (١). ثُمَّ قَالَ: عَلِمَ أَنَّ نَبِيَّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَلَاحِظُ الدُّنْيَا، وَلَا يَمْلِكُهَا، تَحْقِيرًا لَهَا فَقَالَ: ﴿لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ لَا لِأَنَّهُ بَخِلَ بِهِ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى ذَلِكَ. هـ. هَذَا، وَقَدْ يُقَالُ: أَنْ قَوْلَهُ: ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا ﴾ قَدْ جَرَى عَلَى لِسَانِهِ، كَمَا هُوَ حَالُ النَّطْقِ بِاللَّهِ مِنْ أَهْلِ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَلَمْ يَزَاحِمْهُ أَحَدٌ، كَقَوْلِ الْخَلِيلِ: ﴿وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ (٢)، لَمَّا جَرَى بِهِ الْقَضَاءُ أَنْطَقَهُ اللَّهُ بِمَا سَيَكُونُ. وَتَقْدِيمُ الاسْتِعْفَارِ عَلَى الاسْتِيْهَابِ؛ لِمَزِيدِ اهْتِمَامِهِ بِأَمْرِ الدِّينِ، جَرِيًّا عَلَى سُنَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَكَوْنِ ذَلِكَ أَدْخَلَ فِي الْإِجَابَةِ.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ؛ تَعْلِيلٌ لِلدَّعَاءِ بِالْهَبَةِ وَالْمَغْفَرَةِ مَعًا، فَإِنَّ الْمَغْفَرَةَ مِنْ أَحْكَامِ وَصْفِ الْوَهَّابِيَّةِ قَطْعًا، ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ ؛ فَذَلَّلْنَاهَا لَطَاعَتِهِ، إِجَابَةً لِدَعْوَتِهِ، فَعَادَ أَمْرَهُ ﷺ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ الْفِتْنَةِ، قِيلَ: فِتْنِ سُلَيْمَانَ بَعْدَمَا مَلَكَ عَشْرِينَ، وَمَلَكَ بَعْدَ الْفِتْنَةِ عَشْرِينَ، فَسَخَّرَتْ لَهُ الرِّيحُ ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ ؛ بَيَانٌ لِنَسْخِيرِهَا، ﴿رُخَاءً﴾ أَيْ: لَيِّنَةً، مِنَ الرُّخَاوَةِ، أَوْ: طَيِّبَةً لَا تَزْعِجُ، وَهَذَا بَعْدَ أَنْ ثَقُلَ السَّرِيرُ مِنَ الْأَرْضِ الْإِعْصَارُ، فَإِذَا صَارَ فِي الْهَوَاءِ حَمَلَتَهُ الرُّخَاءُ الطَّيِّبَةُ، ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أَيْ: قَصْدَ وَشَاءَ، بَلْغَةً حَمِيرًا. نَقُولُ الْعَرَبُ: أَصَابَ الصَّوَابُ فَأَخْطَأَ الْجَوَابَ، أَيْ: أَرَادَ الصَّوَابَ فَأَخْطَأَ. قَالَ الشَّاعِرُ:

أَصَابَ الْكَلَامَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ فَأَخْطَأَ الْجَوَابَ لَدَى الْمِفْصَلِ

﴿و﴾ سَخَّرْنَا لَهُ ﴿الشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ﴾: بَدَلَ مِنَ الشَّيَاطِينِ، فَكَانُوا يَبْنُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ، وَيَغْوِصُونَ لَهُ فِي الْبَحْرِ؛ لِاسْتِخْرَاجِ اللَّائِي، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اسْتَخْرَجَ اللَّؤْلُؤَ مِنَ الْبَحْرِ، أَيْ: وَسَخَّرْنَا لَهُ كُلَّ بِنَاءٍ

(١) مِنَ الْآيَةِ ٥٥ مِنْ سُورَةِ يُوسُفَ.

(٢) مِنَ الْآيَةِ ١٢٩ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

وغواص من الشياطين؛ ﴿وَآخَرِينَ مَقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾؛ فكان يقرن مرده الشياطين، بعضهم مع بعض، في القيود والسلاسل، للتأديب والكف عن العباد.

والصفد: القيد، وقد يسمى العطاء بالصفد؛ لأنه ارتباط للمنع عليه في يد المنعم. ومنه قول علي رضي الله عنه: (من برّك فقد أسرك، ومن جفاك فقد أطلقك)، ومن هذا كانت الصوفية يهربون من خير الناس، أكثر مما يهربون من شرهم. قال الشيخ عبدالسلام بن مثنى لأبي الحسن الشاذلي - رضي الله عنهما: يا أبا الحسن اهرب من خير الناس، أكثر مما تهرب من شرهم، فإن خيرهم يُصيبك في قلبك، وشرهم يُصيبك في بدنك، ولئن تصاب في بدنك خير من أن تصاب في قلبك، ولعدو تصل به إلى ربك خير من حبيب يقطعك عن ربك. هـ.

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾، هو حكاية لما خُوطب به سليمان من قبل الحق تعالى، أي: وقلنا له هذا الذي أعطيناك من الملك العظيم، والسلطنة، والتسلط على مالم يُسلط عليه غيرك، هو عطاؤنا الخاص بك، ﴿فَأَمْنٌ أَوْ أَمْسَلٌ﴾ أي: أعط من شئت، وامنع من شئت، ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: غير محاسب على منته ومنعه لتفويض التصرف فيه إليك، فكان إذا أعطى أجر، وإذا منع لم يَأثم، بخلاف غيره. قال الحسن: إن الله لم يعط أحدا عطية إلا جعل فيها حسابا، إلا سليمان، فإن الله أعطاه عطاء هينا. وهذا مما خص به سليمان عليه السلام، وأما غيره، فيؤخر على بذله، ويعاقب على منعه من حقه، و﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: قيل: متعلق بعطاؤنا، وقيل: حال من المستكن في الأمر، أي: هذا عطاؤنا جمعا كثيرا، لا يكاد يقدر على حصره، أو: هذا التسخير عطاؤنا. فامتن على من شئت من الشياطين بالإطلاق، أو: أمسك من شئت منهم في الوثاق، لاحساب عليك في ذلك.

﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾؛ لقربى في الآخرة، مع ماله في الدنيا من الملك العظيم، ﴿وَحُسْنِ مَآبٍ﴾؛ مرجع، وهي الجنة. وزُلْفَى: اسم إن، وله: خير، وعند: متعلق بالاستقرار.

رَوَى أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا وَرِثَ مَلِكُ أَبِيهِ، سَارَ مِنَ الشَّامِ إِلَى الْعِرَاقِ، فَبَلَغَ خَبْرَهُ كَسْرِي، فَهَرَبَ إِلَى خِرَاسَانَ، فَلَمْ يَلْبِثْ حَتَّى هَلَكَ. ثُمَّ سَارَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَرَوْ، ثُمَّ إِلَى بِلَادِ التُّرْكِ، فَأَوَّغَلَ فِيهَا، ثُمَّ جَاازَ بِلَادَ الصِّينِ، ثُمَّ عَطَفَ إِلَى أَنْ وَافَى بِلَادَ فَارِسَ، فَنَزَلَهَا أَيَّامًا، ثُمَّ عَادَ إِلَى الشَّامِ، فَأَمَرَ بِنَاءَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُ سَارَ إِلَى تِهَامَةٍ، ثُمَّ إِلَى صَنْعَاءَ، وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهِ مَعَ صَاحِبَتِهَا مَا ذَكَرَ اللَّهُ، وَغَزَا بِلَادَ الْمَغْرِبِ؛ الْأَنْدَلُسَ وَطَنْجَةَ وَغَيْرَهُمَا. انْظُرْ أَبَا السَّعُودِ (١). والله تعالى أعلم.

(١) إرشاد العقل السليم (٧/٢٢٨).

الإشارة: ما أعطى الله عبداً مكنة إلا بعد محنة، ولارفع مقاماً إلا بعد ابتلاء، إما في البدن والمال، وإما في الدين، إن صحبه رجوع وانكسار. كأن الله تعالى إذا أراد أن يرفع عبداً أهبطه إلى أرض قهرية العبودية، ثم يرفعه إلى مشاهدة عظمة الربوبية، ثم يملكه الوجود بأسره، يتصرف فيه بهمته كيف شاء. ولذلك قيل في معصية آدم: نعمت المعصية أورثت الخلافة. وشاهده حديث: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي» (١). ومن كان الله عنده، ماذا يفوته؟

وقوله تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مَلِكاً...﴾ الخ، قال القشيري: لم يطلب الملك الظاهر، وإنما أراد به أن يملك نفسه، فإن الملك - على الحقيقة - من ملك نفسه، فمن ملكها لم يتبع هواه، - أي: فيكون حراً، فيملكه الله التصرف في الوجود. ثم قال: ويقال أراد به كمال حاله في شهود ربه، حتى لا يرى معه غيره، ويقال: سأل القناعة التي لا يبقى معها اختيار. هـ.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، هو عند الأولياء ليس خاصاً بسليمان، فكل من تمكن مع الله التمكن الكبير يفوض إليه الأمر، ويقال: افعل ما شئت، وشاهده: حديث أهل بدر. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: رحمته يبلغ الولي مبلغاً يقال له: أصحابك السلامة، وأسقطنا عك الملامة، فاصنع ما شئت. ثم استشهد بالآية في حق سليمان، هذا، وإن كان للنبي من أجل العصمة، فلمن كان من الأولياء في مقام الإمامة قسط منه، من أجل الحفظة.

ثم ذكر أيوب عليه السلام، فقال:

﴿وَإِذْ كُرِّعَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۖ ﴿٤١﴾
 أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۖ ﴿٤٢﴾ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ
 لَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ ۖ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ، وَلَا تَحْنُثْ إِنَّهُ وَجَدَنَّهُ صَابِرًا
 نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۖ ﴿٤٤﴾﴾

(١) سبق تخريج الحديث.

يقول الحق جل جلاله: ﴿واذكر عبدنا أيوب﴾، وهو ابن عيصو ابن إسحاق عليه السلام، أى: من ذريته؛ لأنه بعد يوسف، وامراته: رحمة بنت إفرائيم بن يوسف. ﴿إذ نادى ربه﴾، وهو بدل اشتغال من «عبدنا». و«أيوب»: عطف له، ﴿أنى﴾ أى: بأنى ﴿مسنى الشيطان بنصب﴾ (١) أى: تعب، وفيه قراءات بفتحيتين، وبضميتين، وبضم وسكون، وبنصب وسكون. ﴿وعذاب﴾ أى: ألم، يريد ما كان يقاسيه من فتن الشدائد، وهو الضر فى قوله: ﴿مسنى الضر﴾ (٢)، وهو حكاية لكلامه الذى ناداه به، وإلا لقل: إنه مسه. وإسناده إلى الشيطان على طريق الأدب فى إسناد ما كان فيه كمال إلى الله تعالى، وما كان فيه نقص إلى الشيطان أو غيره، كقول الخليل: ﴿وإذا مرضت﴾ (٣) ولم يقل: أمرضنى. وكقول يوشع عليه السلام: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان﴾ (٤). وفى الحقيقة: كل من عند الله. وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه فى مرضه، من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويفريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله فى أن يكفيه ذلك، بكشف البلاء، أو بدفعه ورده بالصبر الجميل.

وروى: أنه كان يعود ثلاثة من المؤمنين، فارتد أحدهم، فسأل عنه، فقيل: ألقى إليه الشيطان: أن الله لا يبتلى الأنبياء والصالحين، فشكا ذلك إلى ربه. وذكر فى سبب بلائه؛ أنه ذبح شاة فأكلها، وجاره جائع، أو: رأى متكراً فسكت عنه، أو: استغاثه مظلوم فلم يغثه، أو: كانت مواشيه فى ناحية ملك كافر، فداهته، فلم يغزه، أو: سؤاله امتحاناً لصبره، أى: هل يصبر أم لا، أو: ابتلاه لرفع درجاته بلا سبب، وهو أولى (٥).

﴿اركض برجلك﴾، حكاية ما أجيب به أيوب عليه السلام، أى: أرسلنا له جبريل عليه السلام بعد انتهاء مدة مرضه، فقال له: اركض، أى: اضرب برجلك الأرض، وهى أرض موضع بالجابية (٦)، فضربها، فنبعت عين، فقيل: ﴿هذا مغتسل بارد وشراب﴾ أى: هذا ما تغتسل منه، وتشرب منه، فيبرأ ظاهرك وباطلك، وقيل: نبعت له عينا، حارة للاغتسال، وباردة للشرب، فاغتسل من إحدهما، فبرئ ما فى ظاهره، وشرب من الأخرى، فبرئ ما فى باطنه، بإذن الله تعالى. ومدة مرضه قيل: ثمان عشرة سنة، وقيل: أربعين، وقيل: سبع سنين، وسبعة أشهر، وسبعة أيام، وسبع ساعات (٧).

(١) قرأ أبو جعفر «بنصب» بضم اللون والصاد، وقرأ يعقوب بفتحهما، وقرأ الباقون بضم اللون وسكون الصاد. انظر الإتحاف (٤٢١/٢)

(٢) من الآية ٨٠ من سورة الشعراء.

(٣) من الآية ٨٣ من سورة الأنبياء.

(٤) من الآية ٦٣ من سورة الكهف.

(٥) انظر تفسير النسفى (١٥٧/٣).

(٦) الجابية: موضع بالشام.

(٧) راجع (٤٨٧/٣) من هذا الكتاب.

﴿ووهبنا له أهله ومثلهم معهم﴾، قيل: أحياهم الله بأعيانهم، وزاد مثلهم، وقيل: جمعهم بعد تفرقهم، وقيل: أعطاه أمثالهم وزاده ضعفهم. قال القشيري: وكان له سبع بنات، وثلاثة بنين، في مكتب واحد، فحرك الشيطان الاسطوانة، فانهدم البيت عليهم. هـ. ولم يذكر كم كان له من الزوجات، فقد سلمت [منهن] (١) رحمة، وهلك الباقي.

أعطيناه ذلك ﴿رحمة منا﴾ أي: رحمة عظيمة عليه من قبلنا. ﴿وذكرى لأولي الألباب﴾ أي: ولذا ذكرهم بذلك ليصبروا على الشدائد، ويلتجئوا إلى الله فيما ينزل بهم؛ لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه، لصبره، رغبهم في الصبر على البلاء.

ولما حلف: ليضربن امرأته مائة ضربة، حيث أبطأت عليه في حاجتها. وقيل: باعت ذوائبها واشترت به رغيفين، وكانت متعلق أيوب. وقيل: طمع الشيطان فيها أن يسجد زوجها له فيشفيه، أمره الله تعالى ببر يمينه، فقال: ﴿وخذ بيدك ضغثاً﴾؛ حزمة صغيرة من حشيش أو ربحان، وعن ابن عباس رضي الله عنه: قبضة من الشجر، ﴿فاضرب به ولا تحنث﴾، وهذه الرخصة باقية عند الشافعي وأبي حنيفة، خلافاً لمالك؛ لأن الأيمان عنده مبنية على الأعراف. قال تعالى: ﴿إنا وجدناه﴾؛ علمناه ﴿صابراً﴾ على البلاء، وأما شكواه فليست جزعاً، بل رجوعاً إلى مولاه، على أنه عليه السلام إنما طلب الشفاء خيفة على قومه، حيث كان الشيطان يوسوس إليهم: لو كان نبياً لما ابتلى بمثل ما ابتلى به، وإرادة القوة على الطاعة، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان. قلت: طلب الشفاء لا ينافي الرضا؛ لأن العبد ضعيف، لا قوة له على قهرية الحق. ثم قال تعالى: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾؛ رجأع إلى الله تعالى. قال القشيري: لم يشغله البلاء عن المبلى. وهو تعليل لمرضه.

الإشارة: كثير من الصوفية اختاروا البلاء على العافية، وبعضهم اختار العافية، قال علي رضي الله عنه: لأن أعطى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر، أي: لأنه طريق السلامة، وبه وردت الأحاديث، والأولى للعبد ألا يختار مع سيده شيئاً، بل يكون مفوضاً مستسلماً، يتلقى ما يرد عليه بالترحيب، أي شيء كان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر إبراهيم وبنيه، فقال:

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۖ إِنَّا أَخْلَصْتَهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرِي الدَّارِ ۖ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لِمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ۖ﴾

(١) في الأصول منهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿واذكر عبادنا﴾، وقرأ المكي (١): «عبدنا»، إما على إرادة الخبر، وإما أن يريد إبراهيم، وحده لشرفه، ثم عطف عليه من بعده، ثم بيّنهم بقوله: ﴿إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار﴾ أي: أولى القوة في الطاعة والبصيرة في الدين، أو: أولى الأعمال الجليلة، والعلوم الشريفة. فعبر بالأيدي عن الأعمال؛ لأن أكثرها تباشر بها، وبالأبصار عن المعارف؛ لأنها أقوى مبادئها. وفيه تعريض بالجهلة الباطلين، كأنهم كالزمنى والعماة، وتوبيخ على ترك المجاهدة والفكرة مع تمكنهم منهما.

﴿إنا أخلصناهم بخالصة﴾ أي: جعلناهم خالصين لنا بخصلة عظيمة الشأن، لاشوب فيها، هي ﴿ذكرى الدار﴾ أي: تذكر للدار الآخرة على الدوام، فإن خلوصهم في الطاعة بسبب تذكّرهم لها، وذلك لأن مطمح أنظارهم، ومسرح أفكارهم، في كل ما يأتون وما يذرون، جوار الله عز وجل، والفوز ببقائه، ولا يتأتى ذلك على الدوام إلا في الآخرة، فمطلبهم إنما هو الجوار والرؤية، لا مجرد الحضور في تلك الدار، كما قال ابن الفارض - رحمته الله :

ليس سؤلى من الجنان نعيماً غير أنى أريدُها لأراك

قال ابن عطية: يحتمل أن يكون معنى الآية: ﴿إنا أخلصناهم﴾ بأن خلص لهم التذكير بالدار الآخرة، ودعاء الناس إليها، أي: وتزهيدهم في الدنيا، كما هو ديدن الأنبياء والرسل. وهذا قول قتادة، أو: إنا أخلصناهم بأن خلص لهم تذكّرهم للدار الآخرة وخوفهم والعمل بحسب ذلك. وهذا قول مجاهد. هـ. قلت: مرتبة الرسل تنافى العمل لحرف، فإن أولياء هذه الأمة تحرروا من العمل للحرف، بل عبدوا الله شكراً ومحبة وعبودية، لاطعماً في شيء، فكيف بأكابر الرسل. وإطلاق الدار للإشعار بأنها الدار في الحقيقة، وإنما الدنيا معبر إليها.

ومن قرأ بالإضافة (٢)، فمن إضافة الشيء إلى ما بيّنه؛ لأن الخالصة تكون ذكرى وغير ذكرى، وذكرى: مصدر مضاف إلى المفعول، أي: بإخلاصهم ذكرى الدار. وقيل: خالصة بمعنى خلوص، وهي مضافة إلى الفاعل، أي: بأن خلصت لهم ذكرى الدار، على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بشيء آخر، إنما همهم ذكرى الدار الآخرة لجوار الحبيب.

(١) وهو ابن كثير الدار، أحد القراء السبعة.

(٢) أي: «خالصة» بغير تلوين، مضافاً للبيان، كما في «بشهاب قيس». وبها قرأ نافع وأبو جعفر. انظر الإتحاف (٤٢٢/٢).

﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين﴾ المختارين من بين أبناء جنسهم ﴿الأخيار﴾: جمع خير، أو: خير، على التخفيف، كأمرات جمع مئت، أو: مئت.

الإشارة: أولياء هذه الأمة - أى: العارفون بالله - يزاحمون الأنبياء والرسل فى جلّ المراتب، قال ﷺ: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»^(١) أى: العلماء بالله؛ فإنهم لم يقفوا مع دنيا ولا مع آخرة، بل حطوا همهم على الله، ولم يقصدوا شيئاً سواه، خلعوا النعلين عن الكونين، وركضوا إلى المكنون، وكانت لهم اليد الطولى فى عمل الطاعات عبودية، والبصيرة النافذة فى مشاهدة الربوبية، هذه طريقهم، وهذا مذهبهم، ومن حاد منهم عن هذا لم يعدّره منهم. جعلنا الله ممن خرط فى سلكهم.

ثم ذكر بقية بنيه، فقال:

﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿٤٨﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿واذكر إسماعيل﴾، فصل ترجمته عن أبيه وأخيه؛ للإشعار بعلو شأنه، واستقلاله بالشرف والذكر، ولعراقته فى الصبر، الذى هو المقصود بالتذكير، وهو أكبر بنيه. ﴿و﴾ اذكر ﴿اليسع﴾ بن خطوب^(٢) بن العجوز، استعمله إلياس على بنى إسرائيل، ثم استنّبى. ووال، فيه، قيل: للتعريف، وأصله: يسع، وقيل: زائدة؛ لأنه عجمى علم، وقيل: هو يوشع، ﴿وذا الكفل﴾ وهو ابن عم اليسع، أو: بشر بن أيوب. واختلف فى نبوته وسبب لقبه، فقيل: فرأى مائة نبي من بنى إسرائيل، خوفاً من القتل، فأواهم وكفلهم، وقيل: تكفل بعبادة رجل صالح كان فى وقته. ﴿وكل﴾ أى: وكلهم ﴿من الأخيار﴾ المشهورين بالخير.

الإشارة: إنما كان هؤلاء مصطفين أخياراً بالوفاء بالعهود، والوقوف مع الحدود، والصبر على طاعة الملك المعبود، وتحمل ما يقرب إلى حضرة الشهود، فكل من اتصف بهذه الخصال كان من المصطفين الأخيار.

ثم ذكر عامة المؤمنين، أو: ما أعد لمن ذكر آجلاً، بعد ذكرهم الجميل عاجلاً، فقال:

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مِّنْ مَّفْتَحَةٍ لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾

(١) قال فى كشف الخفاء (٨٣/٢، ح ١٧٤٤): «قال السيوطى فى الدرر: لا أصل له. وقال فى المقاصد: قال شيخنا - يعنى ابن حجر -

ومن قبله الدميرى والزركشى: إنه لا أصل له. زاد بعضهم: ولا يعرف فى كتاب معتبر. وانظر أيضاً العلل المتناهية (ح ٧٠٢).

(٢) فى نسخة [قطوب].

مُتَكِّينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ
أَنْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾

قلت: (جنات): عطف بيان لحسن مآب، أو: بدل. و(مفتحة): حال من (جنات عدن). والعامل فيها: الاستقرار في (المتقين). و(الأبواب): نائب الفاعل لمفتحة. والرباط بين الحال وصاحبها: إما ضمير مقدر، كما هو رأى البصريين، أي: الأبواب منها، أو: الألف واللام القائم مقامه، كما هو رأى الكوفيين، أي: أبوابها. و(متكئين): حال من ضمير (لهم)، والعامل فيه: (مفتحة). و(يدعون): إما استئناف، أو: حال مما ذكر، أو: من ضمير (متكئين).

يقول الحق جل جلاله: ﴿هذا﴾ أي: هذا الذي ذكر من الآيات الناطقة بمحاسن الأنبياء والرسل، ﴿ذكر﴾ أي: شرف لهم، وذكر جميل يذكرون به أبداً، أو: نوع من الذكر، أي: القرآن. وآي منه مشتمل على أنباء الأنبياء، أو: تذكير ووعظ؛ لأنه يذكر أحوال الأكابر ليقتدى بهم، أو: ذكر من مضى الأنبياء، أو: شرف لك؛ لأنه معجزة لك يدل على صدقك، ﴿وإن للمتقين﴾ أي: جلس المتقين، أو: من ذكر من الرسل، عبر عنهم بالمتقين مدحاً لهم بالتقوى؛ إذ هي غاية الكمال. ﴿لحسن مآب﴾؛ مرجع.

ثم بيّنه بقوله: ﴿جنات عدن﴾؛ إقامة ﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ فإذا جاءوها لا يلحقهم ذل الحجاب، ولا كلفة الاستئذان، تستقبلهم الملائكة بالتبجيل والترحيب، ﴿متكئين فيها﴾ على أرائكهم في حجالهم، ﴿يدعون فيها بفاكهة كثيرة﴾ مما يشتهون ﴿وشراب﴾ كثير كذلك، حذف اكتفاء بالأول، والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيدان بأن مطاعهم لمحض [التفكه] (١) والتلذذ، دون التغذية والحاجة، فإنه لا تحل في الأبدان ولا حاجة.

﴿وعندهم﴾ حور ﴿قاصرات الطرف﴾ على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، ﴿أتراب﴾؛ لدات، أسنانهن كأسنانهم. قيل: ثلاث وثلاثون سنة لكل واحد، أو: مستويات في الحسن والجمال والشكل؛ لأن التحاب بين الأقران أبلغ وأثبت، وقيل: أتراب بعضهم لبعض، لا عجوز فيهن ولا صبية. واشتقاقه من التراب، فإنه [يمسهن] (٢) في وقت واحد.

(١) في الأصول [الفاكهة].

(٢) في الأصول الخطية [يمسهم].

﴿ هذا ما تُوعَدون لיום الحساب ﴾ ، قال ابن عرفة: اللام للتوقيت، أى: عنده، أو: للتعليل، فإن الحساب علة للوصول إلى الجزاء. وقرأ المكي والبصري بياء الغيب، ليوافق ما قبله، والالتفات أليق بمقام الامتنان والتكريم. ﴿ إن هذا ﴾ الذى ذكر من ألوان النعيم والكرامات ﴿ لَرِزْقُنَا ﴾ أعطيناكموه، ﴿ ماله من نفاد ﴾ ؛ من انقطاع وتام أبداً.

الإشارة: كل من توجه إلى الله بكلية، وانصف بمحاسن الأخلاق، كان له ذكر وشرف فى الدنيا، وكرامة فى العقبى، بما لآعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ثم ذكر أصدادهم بقوله:

﴿ هَذَا وَابٍ لِلطَّغِينَ لَشَرِّ مَاءٍ ﴾ (٥٥) ﴿ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُفْسَرُّ الْمَاءُ ﴾ (٥٦) ﴿ هَذَا فَلْيَذوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ (٥٧) ﴿ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ (٥٨) ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ (٥٩) ﴿ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ أَمْشَرُكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيُفْسَرُّ الْقَرَارُ ﴾ (٦٠) ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضَعُفًا فِي النَّارِ ﴾ (٦١) ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾ (٦٢) ﴿ أَخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ (٦٣) ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ (٦٤)

قلت: (هذا): خبر، أى: الأمر هذا، أو: مبتدأ؛ أى: هذا كما ذكر، وهو من الاقتصاب^(١) الذى يقرب من التخلص^(٢)، كقوله بعد الحمد: أما بعد. قال السعد: هو من فصل الخطاب، الذى هو أحسن موقعاً من التخلص. قال: وقد يكون الخبر مذكوراً كقوله: ﴿ هذا ذكر وإن للمتقين .. ﴾ الآية. هـ. قال الطيبي: هو من فصل الخطاب، على التقدير الأول، لا الثانى. هـ. أى: إذا كان خبراً عن مضمّر، لا ما إذا ذكر الخبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ هذا ﴾ أى: الأمر هذا، ﴿ وَإِنَّ لِلطَّغِينَ لَشَرَّ مَاءٍ ﴾ ؛ مرجع ﴿ جهنم ﴾ يصلونها، يدخلونها، حال من جهنم، ﴿ فَيُفْسَرُّ الْمَاءُ ﴾ : الفراش، شبه ماتحتهم من النار بالمهاد الذى يفرش للنائم، والمخصوص محذوف، أى: جهنم.

(١) الاقتصاب عند البلغاء: الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود من غير مناسبة، كقولك بعد حمد الله: أما بعد فقد فعلت كذا وكذا. انظر محيط المحيط (ص ٧٤٢).

(٢) التخلص عند البلغاء: الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود مع رعاية المناسبة. انظر محيط المحيط (ص ٢٤٨).

﴿ هذا فليذوقوه ﴾ أى: ليذوقوا هذا فليذوقوه، كقوله تعالى: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (١) أو: العذاب هذا فليذوقوه، وهو ﴿ حميمٌ وغساقٌ ﴾ .. إلخ، أو: (هذا): مبتدأ، و(حميم وغساق): خبر، وما بينهما اعتراض، والغساق: ما يفسق، أى: يسيل من صديد أهل النار، يقال: غسقت العين؛ إذا سال دمعها. وقيل: الحميم يحرق بحرّه، والغساق يحرق ببرده. قيل: لو قطرت منه قطرة بالمشرق لانتلت أهل المغرب، ولو قطرت بالمغرب لانتلت أهل المشرق، وقيل: الغساق: عذاب لا يعلمه إلا الله. وهو بالتخفيف والتشديد، قرىء بهما (٢).

﴿ وآخر ﴾ أى: وعذاب آخر، أو: مذوق آخر، ﴿ من شكّله ﴾؛ من مثل العذاب المذكور. وقرأ البصري: «آخر، بالجمع، أى: ومذوقات آخر من شكل هذا العذاب فى الشدة والفضاعة، ﴿ أزواج ﴾ أى: أصناف، وهو خبر لآخر، أو: صفة له، أو: للثلاثة.

﴿ هذا فوجٌ مُّقْتَحِمٌ معكم ﴾، حكاية لما يقوله الخزنة للطاغين إذا دخلوا النار، واقتحمها معهم فوج كانوا يتبعونهم فى الكفر والضلالة. والاقترحام: الدخول فى الشيء بشدة، أو: من كلام الطاغين بعضهم من بعض. ﴿ لا مرحباً بهم ﴾، هو من تمام كلام الخزنة، على الأول، أو: من كلام الطاغين، دعاء منهم على أتباعهم. يقال لمن يدعو له أو يفرح به: مرحباً، أى: وجدت مكاناً رحباً، لا ضيقاً، ثم تدخل عليه النفى فى دعاء السوء، فتقول: لا مرحباً. وبهم: بيان للمدعو عليهم، ﴿ إنهم صالوا النار ﴾ أى: داخلوها. وهو تعليل لاستحقاقهم الدعاء عليهم. وقيل: (هذا فوج...) إلخ، من كلام الخزنة لرؤساء الكفرة. و(لا مرحباً بهم...) إلخ، من كلام الرؤساء.

﴿ قالوا ﴾ أى: الأتباع: ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ أى: الدعاء الذى دعوتكم به علينا أنتم أحق به، وعلموا ذلك بقوله: ﴿ أنتم قدمتموه لنا ﴾ أى: إنكم دعوتمونا للكفر، فتبعناكم، فقدمتمونا به للعذاب، ﴿ فبئس القرار ﴾ أى: بئس المقر جهنم، قصدوا بذهابها تغليظ جناية الرؤساء عليهم. ﴿ قالوا ﴾ أى: الأتباع، معرضين عن خصومتهم، متوجهين إلى الله: ﴿ ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً ﴾ أى: مضاعفاً. ﴿ فى النار ﴾ أى: ذا ضعف، ومثله قوله: ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا فآت بهم عذاباً ضعفاً ﴾ (٣)، وهو أن يزيد على عذابه مثله.

(١) من الآية ٤٠ من سورة البقرة.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وحفص بالتشديد. وخففها الآخرون. انظر الإتحاف (٢/٤٢٣).

(٣) من الآية ٣٨ من سورة الأعراف.

﴿وقالوا﴾ أي: الرؤساء: ﴿ما لنا لا نرى رجالاً﴾، يعنون: فقراء المسلمين، ﴿كنا نعدُّهم﴾ في الدنيا ﴿من الأشرار﴾؛ من الأردال الذين لاخير فيهم ولا جدوى، حيث كانوا يستردلونهم ويسخرون منهم، ﴿أتخذناهم سخرية﴾، بهمزة الاستفهام، سقطت لأجلها همزة الوصل. والجملة: استئنافية، ومن قرأ بالوصل (١) فقط فالجملة: صفة ثانية لرجال، ﴿أم زاغت﴾؛ مالت ﴿عنهم الأبصار﴾، والمعنى على الاستفهام: أتخذناهم سخرية وليسرا كذلك، فلم يدخلوا معنا النار فهم في الجنة، أم دخلوها معنا، ولكن مالت عنهم أبصارنا، فلا نراهم معنا؟ وعلى الاستخبار: مالنا لا نرى رجالاً معنا في النار، كانوا عندنا أشراراً، قد اتخذناهم سخرية نسخر بهم، ثم أضربوا وقالوا: بل زاعت عنهم الأبصار، فلا نراهم فيها، وإن كانوا معنا، أو: زاغت أبصارنا، وكَلَّتْ أفهامنا عنهم، حتى خفي علينا مقامهم، وأنهم على الحق ونحن على الباطل، وما تبعناهم. ومن قرأ «سخرية» بالضم (٢)؛ فمن: التسخير والاستخدام. ومن قرأ بالكسر، فمن: السخر، الذي هو الهزء. وجوز في القاموس الضم والكسر فيهما معاً، فراجعه.

﴿إنَّ ذلك﴾ الذي حكى من أحوالهم ﴿لَحَقُّ﴾ لا بد من وقوعه أثبتة، وهو ﴿تخاصم أهل النار﴾ فيها على ما تقدم.

ولما شبه تفاوضهم، وما يجري بينهم من السؤال والجواب، بما يجري بين المتخاصمين، سمَّاه تخاصماً، وبأن قول الرؤساء: «لا مرحباً» وقول الاتباع: «بل أنتم لا مرحباً بكم» من باب الخصومة لامحالة، فسمى التقاؤل كله تخاصماً؛ لا شتماله على ذلك.

الإشارة: كل من تعدى وطغى، ولم يتب، من المؤمنين، يرى شيئاً من أهوال الكفرة، فلا يدخل الجنة حتى يتخلص، وكل من سخر بالفقراء يسقط في الحضيض الأسفل، ويكون سكناه في أسفل الجنة، فيقول: مالنا لا نرى معنا رجالاً كنا نعدُّهم من المبتدعة الأشرار، اتخذناهم سخرية، وهم كبراء عند الله، رفعوا عنا، أم هم معنا ولكن زاغت عنهم الأبصار؟ فيجابون: بأنهم رفعوا مع المقربين، كانوا مشتغلين بنا، وكلتم منهم تضحكون. إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون بالقرب ومشاهدة طلعتنا، في كل حين، وبالله التوفيق.

(١) قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ويعقوب «اتخذناهم» بوصل الهمزة بما قبلها، وبكسر الألف عند الابتداء. وقرأ الباقر بقطع الألف وفتحها، على الاستفهام. انظر الإتحاف (٤٢٣/٢).

(٢) قرأ بضم السين نافع، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر. وقرأ الباقر بكسرها.

ثم قرر تحقيق الرسالة والوحدانية، فقال:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٦٥) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للمشركين: ﴿ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ ﴾ من جهته تعالى، أنذركم عذابه، ﴿ وَمَا مِن إِلَهٍ ﴾ في الوجود ﴿ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ ﴾ الذي لا يقبل الشراكة أصلاً، ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ لكل شيء سواء، ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقات، فكيف يترهم أن يكون له شريك منها، ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يغلب ﴿ الْغَفَّارُ ﴾؛ المبالغ في المغفرة لمن يشاء. وفي هذه الدعوت من تقرير التوحيد، والوعد للموحدين، والوعيد للمشركين، ما لا يخفى. وتثنية ما يشعر بالوعيد من وصف القهر والعزة وتقديمهما على وصف المغفرة؛ لتقوية الإنذار.

﴿ قُلْ هُوَ ﴾ أي: ما نبأتكم به من كوني رسولاً، وأن الله واحد لا شريك له، ﴿ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾؛ وارد من جهته تعالى، لا يعرض عن مثله إلا غافل منهمك. ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾؛ غافلون، وعن ابن عباس: النبأ العظيم: القرآن. وعن الحسن: يوم القيامة. وتكرير الأمر للإيذان بأن المقول أمرٌ جليل، له شأن خطير، لا بد من الاعتناء به، أمراً وانتصاراً.

﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾، احتجاج على صحة نبوته، بأن ما ينبي به عن الملأ الأعلى، واختصامهم، أمر غيبى، لم يكن له به علم قط، ثم علمه وأخبر به، ولم يسلك الطريق الذى سلكه الناس فى علم ما لم يعلموا، وهو الأخذ عن أهل العلم، ودراسة الكتب، فتحقق أن ذلك لم يحصل له إلا بالوحي من الله تعالى. والملأ الأعلى هم الملائكة، وآدم، وإبليس؛ لأنهم كانوا فى السماء، وكان اختصاصهم: التقاؤل بينهم، كقولهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا... ﴾ (١) النخ، وكقول إبليس: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ... ﴾ (٢) النخ، ويدل عليه ما يأتى من الآيات. وقيل: اختصاصهم فى الكفارات وغفران الذنوب، فإن العبد إذا فعل حسنة اختلفت الملائكة فى قدر ثوابه، حتى يقضى الله ما شاء.

(١) الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٢ من سورة الأعراف، والآية ٧٦ من سورة ص.

وروى في هذا حديث، وهو أنه - عليه الصلاة والسلام - قال له ربه - عز وجل - في النوم: «أتدري فيما يختصم المملأ الأعلى؟ قلت: لا، قال: اختصموا في الكفارات والدرجات، فأما الكفارات فإسباغ الوضوء على المكاره، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وأما الدرجات؛ إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام» (١). رواه الترمذی.

وه إذا يختصمون: متعلق بمحذوف يقتضيه المقام؛ إذ المراد نفى علمه - عليه الصلاة والسلام - بحالهم لا بذواتهم، والتقدير: ما كان لي فيما سبق علم بما يوحيه في شأن المملأ الأعلى وقت اختصاصهم. وانظر أبا السعود.

﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما يوحى إلى ما يوحى من الأمور الغيبية، التي من جملتها حال المملأ الأعلى، إلا لأنما أنا نذير مبين من جهته تعالى، فحذف اللام وانتصب بإيصال الفعل إليه، ويجوز أن يرتفع بالنيابة عن الفاعل، أي: ما يوحى إلى إلا هذا، وهو أن أنذر وأبلغ، ولا أفرط في ذلك، أي: ما أومر إلا بهذا الأمر وحده، وليس إلى غير ذلك. وقرئ بكسر، إنما، (٢) على الحكاية، أي: إلا هذا القول، وهو: أن أقول لكم: إنما أنا نذير مبين، ولا أدعى شيئاً آخر.

الإشارة: تربية اليقين تطلب في ثلاثة أمور؛ في توحيد الألوهية، بالتبري من الشرك الجلى والخفى. وهو مفاد قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ...﴾ إلخ. وفي تصديق الواسطة، وهو النذير المبين، بتعظيمه واتباع سنته ومنهاجه القويم، وفي التصديق بما جاء به، وهو النبأ العظيم، على أى تفسير كان، إما القرآن، باتباعه، والتدبر في معانيه، أو: يوم القيامة، بالتأهب له، وجعله نصب العين. وبالله التوفيق.

ثم فسر الاختصاص المتقدم، فقال:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۖ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۖ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۖ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ

(١) أخرجه الترمذی في (التفسير - سورة ص، ح ٣٢٣٤ و ٣٢٣٥) من حديث ابن عباس، ومعاذ بن جبل - رضى الله عنهما.

وقال عن حديث ابن عباس: حسن غريب. وعن حديث معاذ: حسن صحيح.

(٢) وهى قراءة أبى جعفر المذنبى. انظر الإتحاف (٢/٤٢٤).

أَسْتَكْبَرُواكَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَبْنَؤُا بِلَيْسَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ اسْتَكَبَرْتَ
 أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْنَاهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ
 مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾
 قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أَغْوِيَنَّهُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَا مَلَأَنَّ
 جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴿

قلت: (إذ قال): متعلق بـيختصمون، أو: بدل من (إذ) قبله، أو: باذكر. والحق: فمن نصبه، فعلى حذف فعل
 القسم، كقولك: الله لأفعلن، أى: أقسم بالحق، فحذفت الباء ووصل الفعل به، ومن رفعه؛ فمبتدأ، أى: الحق منى، أو:
 خبر، أى: أنا الحق. والحق الثانى: مفعول «أقول»، والجملة: معترضة بين القسم وجوابه، وهو: (لأملأن).

يقول الحق جل جلاله فى تفسير الاختصاص المذكور: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأُتْكَ﴾ حين أراد خلق آدم،
 ﴿إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾، وقال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ (١). والتعرض
 لعنوان الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام - لتشريفه ﷺ، والإيدان بأن وحى هذا النبأ إليه
 تربية وتأيد له. والكاف وارد باعتبار حال الأمر، لكونه أدل على كونه وحياً منزلاً من عنده تعالى، كما فى قوله
 تعالى: ﴿... يَا عِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَقُوا...﴾ (٢) إلخ، دون حال المأمور، وإلا لقال: ربى؛ لأنه داخل فى حيز الأمر.
 ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أى: صورته بالصورة الإنسانية، والخلقة البشرية، أو: سويت أجزاء بدنه، بتعديل أعضائه،
 ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى﴾ الذى خلقته قبل، وأضافه إليه تخصيصاً، كبيت الله، وناقة الله. والروح سر من أسرار
 الله، لطيفة ربانية، سارية فى كثيفة ظلمانية، فإذا سرت فيه حى بإذن الله، أى: فإذا أحييته ﴿فَقَعُوا﴾ أى: اسقطوا
 ﴿له﴾، وهو أمر، من وقع، ﴿ساجدين﴾ قيل: كان انحناء يدل على التواضع، وقيل: كان سجوداً لله، أو سجود
 تحية لآدم وتكريماً له.

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٥٤ من سورة الزمر.

﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ ، «كل» للإحاطة ، وأجمعون ، للاجتماع ، فأفاد أنهم سجدوا عن آخرهم جميعاً ، في وقت واحد ، غير متفرقين في أوقات . وظاهر هذه الآية وما في سورة الحجر^(١) : أن الأمر بالسجود كان تعليقاً ، لا تنجيزياً ، فأمرهم بالسجود قبل أن يخلقه ، بل حين أعلمهم بخلقه ، فلما خلقه سجدوا منتقلين للأمر الأول ، وظاهر ما في البقرة والأعراف والإسراء والكهف : أن الأمر كان تنجيزياً بعد خلقه ، والجمع بينهما : أنه وقع قبل وبعد ، أو : اكتفى بالتعليق ، كما يقتضيه الحديث ، حيث قال له بعد نفخ الروح فيه : « اذهب فسلم على أولئك الملائكة ، فسلم عليهم ، فردوا عليه وسجدوا له » . والله تعالى أعلم بغيبه .

﴿ إلا إبليس استكبر ﴾ أي : تعاضم عن السجود ، والاستثناء متصل إن قلنا : كان منهم ، حيث عبد عبادتهم ، واتصف بصفاتهم ، مع كونه جنياً ، أو : منقطع ، أي : لكن إبليس استكبر ، ﴿ وكان من الكافرين ﴾ أي : صار منهم بمخالفته للأمر ، واستكباره عن الطاعة ، أو : كان منهم في علم الله .

﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد ﴾ أي : عن السجود ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ ، بلا واسطة أب ولا أم ، امتثالاً لأمرى ، وإعظاماً لخطابى ، ولما كانت الأعمال تُبأشر في الغالب باليد ، أطلقت على القدرة . والثنية لإبراز كمال الاعتناء بخلقه ﷺ ، المستدعى لإجلاله وإعظامه ، قصداً إلى تأكيد الإنكار ، وتشديد التوبيخ . وسيأتى في الإشارة بقية الكلام في سر الثنية . قال له تعالى : ﴿ استكبرت ﴾ ، بهمزة الاستفهام ، وطرح همزة الوصل ، أي : أنكبرت من غير استحقاق ، ﴿ أم كنت من العالين ﴾ المستحقين للتفوق ، أو : استكبرت عن السجود ولم تكن قبل ذلك من المتكبرين ، أم كنت قبل ذلك من المتكبرين على ريك ؟ .

﴿ قال أنا خير منه ﴾ ، ولا يليق أن يسجد الفاضل للمفضول ، كقوله : ﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقت من صلصال من حمأ مسنون ﴾^(٢) ، وبين فضيلته في زعمه بقوله : ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ ، يعنى لو كان مخلوقاً من نار لما سجدت له ؛ لأنه مخلوق مثلى ، فكيف أسجد لمن هو دونى ؛ لأنه طين ، والنار تغلب الطين وتأكله ، ولقد أخطأ اللعين ، حين خصَّ الفضل بما من جهة المادة والعنصر ، وغاب عنه ما من جهة الفاعل ، كما أنبأ عنه قوله تعالى : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ ، وما من جهة الصورة كما نبه عليه قوله تعالى : ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ ، وما من جهة الغاية ، وهو ما خصه به من علوم الحكمة ، التي ظهرت بها مزيته على الملائكة ، حتى أمروا بالسجود ، لما ظهر أنه أعلم منهم بما تدور عليه أمر الخلافة في الأرض ، وأن له خواص ليست لغيره .

(١) في قوله تعالى : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴿ الآيات ٢٩ - ٣٠ .

(٢) الآية ٣٠ من سورة الحجر .

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ ؛ من الجنة، أو: من زمرة الملائكة، وهو المراد بالأمر بالهبوط، أو: من السموات، أو: من الخلقة التي أنت فيها، وانسلخ منها، فإنه كان يفتخر بخلقته، فغير الله خلقته، فاسودَّ بعدما كان أبيض، وقبح بعد ما كان حسناً، وأظلم بعد ما كان نواريناً. ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أى: مرجوم، مطرود، من كل خير وكرامة. أو: شيطان يُرجم بالشُّهب.

﴿ وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ ؛ إبعادى من الرحمة. وتقييدها هنا، وإطلاقها فى قوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴾ (١) ؛ لأن لعنة اللاعنين من الثقلين والملائكة أيضاً من جهته تعالى، وأنهم يدعون عليه بلعنة الله وإبعاده من الرحمة، ﴿ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ؛ إلى يوم الجزاء والعقوبة، ولا يُظَنُّ أن لعنته غايتها يوم الدين، ثم تنقطع، بل فى الدنيا اللعنة وحدها، ويوم القيامة يقترب بها العذاب، فيلقى يومئذ من ألوان العذاب، وأقانين العقاب، ما ينسى به اللعنة، وتصير عنده كالزائد. أو: لما كان عليه اللعنة فى أوان الرحمة، فأولى أن يكون عليه اللعنة فى غير أوانها، وكيف ينقطع، وقد قال تعالى: ﴿ فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) وهو إمامهم؟

﴿ قَالَ ﴾ إيليس: ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي ﴾ ؛ أمهلنى وأخرنى، أى: إذا جعلتنى رجيماً فأمهلى ولا تمتلى، ﴿ إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴾ أى: آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم. وأراد بذلك فسحته لإغوائهم، وليأخذ منهم ثأره، وينجو من الموت بالكلية؛ إذ لا موت بعد البعث، ﴿ قَالَ ﴾ تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ ، وهو وقت النفخة الأولى، ومعنى معلوم، أنه معلوم عند الله، لا يتقدم ولا يتأخر. وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرُّض لشمول ما سألته الآخرين، على وجه يشعر بكون السائل تبعاً لهم فى ذلك، دليل واضح على أنه إخبار بالإنظار المقدر لهم أزلاً، لا إنشاء لإنظار خاص به، قد وقع إجابة لدعائه، أى: إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلاً، حسبما تقتضيه حكمة التكوين.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، أقسم بعزة الله، وهو سلطانه وقهره على إغواء بنى آدم، بتزيين المعاصى والكفر، ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴾ ، وهم الذين أخلصهم الله للإيمان به وطاعته، وعصمهم من الغواية، أو: الذين أخلصوا قلوبهم وأعمالهم لله فى قراءة الكسر (٣).

(١) من الآية ٣٥ من سورة الحجر.

(٢) من الآية ٤٤ من سورة الأعراف.

(٣) قرأ بكسر اللام فى «المخلصين» ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. اسم فاعل. وقرأ الباقون بفتحها، اسم مفعول. انظر السبعة، ٣٤٨ والإتعاظ (٢/٣٢٤).

﴿ قال ﴾ تعالى: ﴿ فالحق وأقول ﴾ أى: أقسم بالحق ولا أقول إلا الحق، أو: الحق قسمى (١) وأقول الحق: ﴿ لأملأن جهنم منك ﴾ ؛ من جسدك، وهم الشياطين، ﴿ ومن تبعك منهم ﴾ ؛ من ذرية آدم ﴿ أجمعين ﴾ أى: لأعمرن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين، لا أترك منهم أحداً.

الإشارة: التجلى بهذا الهيكل الآدمى فاق جميع التجليات، وصورته البديعة فاقت جميع الصور، ولذلك لم يقل الحق تعالى فى شيء أنه خلقه فى أحسن تقويم إلا الآدمى، وذلك لأنه اجتمع فيه العندان، واعتدل فيه الأمران؛ الظلمة والنور، الحسن والمعنى، الروحانية والبشرية، القدرة والحكمة. ولذلك قال تعالى فيه: ﴿ لما خلقت بيدي ﴾، ولم يقله فى غيره، أى: خلقته بيد القدرة ويد الحكمة. فالقدرة كناية عما فى باطنه من أسرار المعانى الإلهية، والحكمة عبارة عما فى قلبه من عجائب التصوير، وغرائب التركيب، ولذلك كانت معرفته أتم، وترقيه لا ينقطع، إن كان من أهله، وراجع ما تقدم فى قوله تعالى ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ (٢).

وقال القشيري بعد كلام: فسبحان الله! خلق أعز خلقه من أدل شيء وأخسّه. ثم قال: ما أردع عند آدم لم يوجد عند غيره، فيه ظهرت الخصوصية. هـ.

ثم نزه نبيه عن الطمع فى الأجر على التبليغ والتكليف، فقال:

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (٨٦) ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٨٧) وَلَعَلَّكُمْ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿ (٨٨)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ما أسألكم ﴾ على تبليغ، الوحي أو على القرآن ﴿ من أجر ﴾ دنيوى، حتى يثقل عليكم، ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ أى: المتصنعين بما ليسوا من أهله، وما عرفتمونى قط متصنعاً حتى أنتحل النبوة، أو أتقول القرآن، وعنه ﷺ: «للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا يئال، ويقول ما لا يعلم» (٣).

(١) هذا المعنى على قراءة «فالحق» بالرفع، وهى قراءة عاصم وحمزة. والمعنى الأول على قراءة «فالحق» بالنصب، على أنه مقسم به حذف منه حرف القسم، فانتصب. ولأملأن، جواب القسم، وهى قراءة نافع، وابن كثير، وأبى عمرو، وابن عامر، والكسائي. انظر الإتحاف (٢/٤٢٥).

(٢) الآية ٧٠ من سورة الإسراء. (٢١٦/٣ - ٢١٨).

(٣) عزاء الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف (رقم ٣١٤) للعلوى، عن سلمة بن نفيل، مرفوعاً.

﴿إِنْ هُوَ﴾ : ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ : وعظ من الله عز وجل ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ : الثقلين كافة، ﴿وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ : نبأ القرآن، وصحة خبره، وما فيه من الوعد والوعيد، وذكر البعث والنشور، ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ : بعد الموت، أو: يوم بدر، أو: القيامة، أو: بعد ظهور الإسلام وفشوه. وفيه من التهديد ما لا يخفى. ختم السورة بالذكر كما أفتتحها بالذكر.

الإشارة: تقدم مراراً التحذير من طلب الأجر على التعليم، أو الوعظ والتذكير، اقتداء بالرسول عليهم السلام. وفي الآية أيضاً: النهي عن التكلف والتصنع، وهو نوع من النفاق، وضرب من الرياء. وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه نادى منادى النبي ﷺ : «اللهم اغفر للذين لا يدعون، ولا يتكلفون، ألا إني برىء من التكلف، وصالحو أمتي» (١). وقال سلمان (٢) : «أمرنا رسول الله ﷺ ألا نتكلف للضيف ما ليس عندنا» (٣). وكان الصحابة رضي الله عنهم يُقدِّمون ما حضر من الكسر اليابسة، والحشف البالي - أي: الرديء من التمر - ويقولون: لا ندري أيهما أعظم وزراً، الذي يحتقر ما قدم إليه، أو: الذي يحتقر ما عنده فلا يقدمه. هـ. وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.



(١) ذكره السيوطي في الدر (٦٠٠/٥) بلفظ: «إني لا ألي من التكلف وصالحو أمتي، وعزاء للدلمي وابن عساكر، عن الزبير رضي الله عنه.

(٢) في الأصول (أبو سليمان).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (الباب السابع والستون، ح ٩٦٠١) من حديث سلمان الفارسي - رضي الله عنه.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

مكية، إلا قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ .. إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١) فإنها نزلت في وحشي، قاتل حمزة (٢). وهي خمس وسبعون آية في مصحف البصرة، واثنان وسبعون في مصحف الكوفة. ومناسبتها لما قبلها قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٣)، فإنه عين التنزيل الذي صدر به، حيث قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ... ﴿٣﴾

قلت: «تنزيل»: خبر، أى: هذا تنزيل، ومن الله: صلة لتنزيل، أو: خبر ثان، أو: حال من التنزيل، عاملها: معنى الإشارة.

يقول الحق جل جلاله: هذا الذى تلتوه هو ﴿تنزيل الكتاب﴾، نزل ﴿من﴾ عند ﴿الله العزيز﴾ فى سلطانه ﴿الحكيم﴾ فى تدبيره. وإيثار الوصفين للإيذان بجريان أثرهما فى الكتاب، بجريان أحكامه ونفوذ أوامره ونواهيه. ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾: ليس بتكرار؛ لأن الأول كالعنوان للكتاب، والثانى لبيان ما فى الكتاب. قال أبو السعود: والمراد بالكتاب: القرآن، وإظهاره على تقدير كونه هو المراد بالأول؛ لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه. والباء إما متعلقة بالإنزال، أى: بسبب الحق وإظهاره، أو: بداعيته واقتضائه، وإما بمحذوف هو حال من نون العظمة، أو: من الكتاب، أى: أنزلناه إليه محقين فى ذلك، أو: ملتبساً بالحق والصواب، أى: ما فيه حق لا ريب فيه موجب العمل به حتماً. قال القشيري: بالحق، أى: بالدين الحق والشرع الحق، وأنا مُحَقِّقٌ فى إنزاله.

(١) الآيات: ٥٣ - ٥٥.

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٥ / ٦٠٢) لابن اللعاس فى تاريخه، عن ابن عباس - رضى الله عنهما.

(٣) الآية: ٨٧ من سورة (ص).

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أى: فاعبده تعالى مخلصاً دينه من شوائب الشرك والرياء، حسبما بين في تضاعيف ما أنزل إليه. ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ أى: هو الذى وجب اختصاصه بأن تخلص له الطاعة من كل شائبة؛ لأنه المفرد بصفات الألوهية، التى من جملتها: الاطلاع على السرائر والضمائر.

الإشارة: قال القشيري: كتاب عزيز، نزل من رب عزيز، على عبد عزيز، بلسان ملك عزيز، فى شأن أمة عزيزة، بأمر عزيز. وأنشدوا:

ورد الرسول من الحبيب الأول بعد البلاء، وبعد طول الأمل^(١)

تنزيل تنزهت قلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها، فى كتاب الأحباب، عند قراءة فصولها. والعجب مدتها كيف لاتزهو سروراً بوصولها، وارتياحاً بحصولها، وكتاب موسى فى الألواح، ومدتها كان يقرأ موسى، وكتاب نبينا ﷺ نزل به الروح، الأمين، على قلبك، وفصل بين من يكون خطاب ربه مكتوباً فى ألواح، وبين من يكون خطاب ربه محفوظاً فى قلبه، وكذلك أمته، ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾^(٢) هـ .

وقوله تعالى: ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾، قال القشيري: العبادة: معانقة الطاعات على نعت الخضوع، وتكون بالنفس وبالقلب وبالروح، فالتى بالنفس - أى: بالجوارح - الإخلاص فيها: التباعد عن الانتقاص، والتى بالقلب، أى: كالفكرة والنظرة، الإخلاص فيها: التباعد عن رؤية الأشخاص - أى: الحس من حيث هو - والتى بالروح، الإخلاص فيها: التلقى عن رؤية طلب الاختصاص^(٣) .

قوله تعالى: ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ هو ما يكون جملة لله، وما للعبد فيه نصيب فهو عن الإخلاص بعيد، اللهم إلا أن يكون بأمره، فإنه إذا أمر العبد أن يحتسب الأجر على طاعته، فأطاعه، لا يخرج عن الإخلاص بامتثاله ما أمره به، ولولا هذا ما صح أن يكون فى العالم مخلص، يعنى: أن جل الناس إنما يطيعون لاحتساب الأجر، إلا الفرد النادر، فمن زال عنه الحجاب فإنه يعبد الله بالله، شكراً، وإظهاراً للأدب، فإن قصد الاحتساب، ثم طرأ عليه خواطر بعد تحقق الإخلاص، فلا يضمر، يدل عليه قوله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»^(٤) وهذا فى أصل القصد، والعوارض غير مضرة، كما هو صريح حديث آخر. والله تعالى أعلم.

(١) البيت غير موجود فى لطائف الإشارات المطبوع. (٢) الآية ٤٩ من سورة العنكبوت. (٣) بتصرف
(٤) بعض حديث، أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، ج ٨١٠) ومسلم فى (الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، ٢/١٥١، ج ١٩٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه. وأول الحديث: (أن أعرابياً أتى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله! الرجل يقاتل للمنعم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن فى سبيل الله...؟) الحديث.

ثم رد على المشركين، فقال:

﴿... وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾

قلت: «والذين»: مبتدأ، و«ما نعبدهم»: محكى بقول محذوف، حال من واو «اتخذوا» وجملة «إن الله»: خبر، والاستثناء مفرغ من أعم العلل، و«زلفى»: مصدر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ أى: لم يخلصوا فى عبادتهم، بل شاربوها بعبادة غيره، كالأصنام، والملائكة، وعيسى، قائلين: ﴿ما نعبدهم﴾ لشيء من الأشياء ﴿إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ أى: تقريبا، ﴿إن الله يحكم بينهم﴾ وبين خصمائهم، الذين هم المخلصون للدين، وقد حذف لدلالة الحال عليه، كقوله: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾^(١) على أحد الوجهين، أى: بين أحد مدهم وبين غيره. قيل: كان المسلمون إذا قالوا للمشركين: من خلق السماوات والأرض؟ قالوا: الله، فإذا قالوا لهم: فمالكم تعبدون الأصنام؟ قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى^(٢).

﴿إن الله يحكم﴾ يوم القيامة بين المتنازعين من المسلمين والمشركين ﴿فيما هم فيه يختلفون﴾ من التوحيد والإشراك، وادعاء كل واحد صحة ما انتحله، وحكمه تعالى هو إدخال الموحدين الجنة والمشركين النار. وقيل: الموصول واقع على الأصنام، والعائد محذوف، أى: والذين اتخذوهم من دونه أولياء، قائلين: ما نعبدهم... إلخ، إن الله يحكم بينهم، أى: بين العبد والمعبودين فيما هم فيه يختلفون، حيث يرجون منها شفاعتها وهى تلعبهم، وهذا بعيد.

﴿إن الله لا يهدي﴾: لا يوفق للاعتداء ﴿من هو كاذب كفار﴾ أى: راسخ فى الكذب، مبالغ فى الكفر، كما يُعرب عنه قراءة من قرأ: «كذاب، أو: «كذوب»^(٣)، أى: لا يهديهما اليوم لدينه؛ لسابق الشقاء، ولا فى الآخرة

(١) من الآية ٢٨٥ من سورة البقرة

(٢) ذكره البيهقى فى تفسيره (١٠٨/٧) عن قتادة.

(٣) قرأ أنس بن مالك، والحسن، والأعرج، وابن يعمر: «كذاب»، وقرأ زيد بن على: «كذوب».. انظر البحر المحيط (٣٩٩/٧).

لثوابه؛ لأنهما اليوم فاقدان للبصيرة، غير قابلين للاهتداء؛ لتغييرهما الفطرة الأصلية بالتمرن في الضلالة والتعادي في الغي.

﴿لو أراد الله أن يتخذ ولدًا﴾ كما يزعم من يقول: الملائكة بنات الله، والمسيح وعزير ابن الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ﴿لاصطفى مما يخلق ما يشاء﴾ أي: لاختر من خلقه ما يشاء، ممن له مناسبة صمدانية، كالملائكة، فإنهم منزّهون عن نقائص البشرية، كالأكل والشرب والنكاح، لكن لم يرد ذلك؛ لاستحالته في حقه تعالى.

قال القشيري: خاطبهم على قدر عقولهم وعقائدهم، فقال: لو أراد الله أن يتخذ ولدًا بالتبني والكرامة لاختر من الملائكة، الذين هم مبرءون من الأكل والشرب وأوصاف الخلق، ثم أخبر عن تقدّسه عن ذلك، فقال: ﴿سبحانه﴾ أي: تنزيهاً له عن اتخاذ الولد على الحقيقة؛ لاستحالة معناه في نعمته، ولا بالتبني، لتقدّسه عن الجنسية، والمحاللات تدل على وجه الإبعاد. هـ.

والحاصل: أن الولد في حقه تعالى؛ إن كان عن طريق التولد فهو محال، عقلاً ونقلاً، وإن كان عن طريق التبني والكرامة فمحال سماعاً، وقيل: وعقلاً. قال شيخ شيوخنا سيدي عبدالرحمن الفاسي رحمته الله: قوله، أي: القشيري: لتقدّسه عن الجنسية، يعني لوحده وقهره، كما رمز إلى ذلك بذكر الاسمين، أي: الواحد القهار، وهما عاملان في كل مخلوق، ومحال تعطيلهما بالتبني المقتضى للجنسية، المباينة للوحدانية والقهر، فلا يمكن إلا العبودية، عقلاً، ونقلاً، وحقيقة، وهذا أشد من كلام ابن عطية، فإنه جوز اتخاذَه على جهة التشريف والتبني عقلاً، وإن امتنع شرعاً، لعموم آية: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾^(١)؛ لاتخاذ النسل المستحيل عقلاً ونقلاً، ولاتخاذ الاصطفاء الممتنع شرعاً. وهو أيضاً أشد من كلام الزمخشري، حيث قال: معنى الآية: لو أراد الله اتخاذ الولد لامتنع ذلك، ولكنه يصطفى من يشاء من عباده، على وجه الاختصاص والتقريب، لا على وجه اتخاذه ولدًا. هـ. فأجمل في الامتناع، وإن كان المتبادر منه شمول القسمين، وكذا قرر جواب «لو»، أي: لامتنع، وجعل قوله: ﴿لاصطفى﴾ الذي هو ظاهر في كونه جواباً غير جواب «بل»، على معنى الاستئناف، وهو خلاف المطروق والمفهوم من جرى الكلام. والله أعلم.

وما ذكره الزمخشري أيضاً من الامتناع مع الإرادة هو فرض لتعلق الإرادة بالامتنع، وهي إنما تتعلق بالجائز، ويحتمل بناؤه على مذهبه الفاسد في إرادة بعض ما لم يقع، وهو شنيع مذهبه، بل ويلزمه عود القهر

(١) الآية ٩٢ من سورة مريم.

عليه - تعالى عن ذلك، وهو الله الواحد القهار، فكيف يريد ويمتنع ما يريده ١٩ وهل ذلك إلا عين القهر؟ تعالى عن ذلك علواً كبيراً . هـ .

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أى: تنزهه بالذات عن اتخاذ الولد، تنزهه الخاص به، على أن «سبحان» مصدر، من: سَبَّحَ: إذا بَعَدَ. ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾: استئناف مبين لتنزهه بحسب الصفات، إثر بيان تنزهه عنه بحسب الذات، فإن صفة الألوهية المستتعبة لسائر صفات الكمال، النافية لسمات النقصان، والوحدة الذاتية، الموجبة لامتناع المماثلة والمشاركة بيده تعالى وبين غيره على الإطلاق، مما يقتضى تنزهه تعالى عما قالوه، قضاء متيقناً، وكذا وصف [القهارية]^(١)، لأن اتخاذ الولد شأن من يكون تحت ملكوت الغير، عرضة للفناء، ليقوم الولد مقامه عند فئاته، ومن هو مستحيل الفناء، قهار لكل الكائنات، كيف يتصور أن يتخذ من الأسماء الغانية من يقوم مقامه؟ قاله أبو السعود.

الإشارة: الحق سبحانه غيور، لا يرضى لغيره أن يعبد معه غيره، كان على وجه الوسطة والتقريب، أو: على وجه الاستقلال. لذلك حُرِّمَ السجود لغير الله، وأما الخضوع للأولياء، العارفين بالله، على غير وجه العبادة، فهو عين الخضوع لله؛ لأن الله تعالى أمر بالخضوع للرسول، الدالين على الله، وهم ورثتهم فى الدلالة، لكن لا يكون ذلك على هيئة السجود، وإنما يكون على وجه تقبيل القدم أو الأرض بين أيديهم، كما قال الشاعر:

يا من يلوم خمرة المحبه	فخذوا على هي حلال
ومن يرد يسقى منها عبه	خَذَ يَضَعُ لأقدام الرجال
رأسى حططت بكل شيبه	هم الموالى سقونى زلال

وجعل القشيري مناط الرد على الكفرة حيث فعلوا ذلك، وقالوا: ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله، بغير إذن الله، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم. فرد الله عليهم. قال: وفى هذا إشارة إلى ما يفعله العبد من القرب، بنشاط نفسه، من غير أن يقتضيه حكم الوقت، وما يعقد بينه وبين الله تعالى من عقد لا يفى بها، وكان ذلك اتباع هوى. قال الله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾^(٢). قلت: ولأجل هذا وجب على من أراد الوصول إلى الله أن يتخذ شيخاً عارفاً بأحكام الوقت، ذا بصيرة بدسائس النفس، فيأمره فى كل وقت، وفى كل زمان، بما يناسبه؛ ليخرجه من هوى نفسه، وأسر طبيعته، وإلا بقى فى العنت والبعد عن الله، يعبد الله على حرف، كلما زاد عبادة وقرباً. فى

(٢) من الآية ٢٧ من سور الحديد

(١) فى الأصول: القاهرية.

زعمه - زاد بعداً من ربه، وهو لا يشعر، فالنفس إن لم تتصل بمن يرفع عنها الحجاب، كانت كدود القز، تنسج الحجاب على نفسها بنفسها، حتى تموت في وسطه. وفي ذلك يقول المشتري في نونيته رحمته :
ونحن كدود القز يحصرنا الذي صنعنا لدفع الحصر سجنًا لنا منّا ^(١)
وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل توحيده تعالى، فقال:

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَورُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَورُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً ۚ أَزْوَاجٌ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُصِرُّونَ ۝ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ أى: وما بينهما من الموجودات، ملتبسة ﴿ بالحق ﴾؛ مشتملة على الحكم والمصالح الدينية والدنيوية ﴿ يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل ﴾، التكوير: لف واللى، يقال: كار العمامة على رأسه وكورها. والمعنى: أن كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه، ويلفه لف اللباس باللباس، أو: يغيبه كما يغيب الملقوف باللفافة، أو: يجعله كالأرعة كروراً متتابعاً، تتابع أكوار العمامة، وهذا بيان لكيفية تصرفه تعالى في السموات والأرض بعد بيان خلقهما، وعبر بالمضارع للدلالة على التجرد.

﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾: جعلهما منقادين لأمره. ﴿ كلٌّ يجرى لأجلٍ مسمى ﴾، وهو يوم القيامة، أو: كل منهما يجرى لمنتهى دورته، ﴿ ألا هو العزيز ﴾، الغالب القادر على كل شيء، ومن جملتها: عقاب العصاة، ﴿ الغفار ﴾: المبالغ في المغفرة، ولذلك لا يعاجل بالعقوبة، ولا يمنع ما في هذه الصنائع البديعة من آثار رحمته. وتصدير الجملة بحرف التنبيه، لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها.

(١) انظر ديوان المشتري (ص ٧٤)

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ، لَمَّا ذَكَرَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالعَالَمِ العُلْوِيِّ ، ذَكَرَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالعَالَمِ السُّفْلِيِّ ، وَتَرَكَ العَاطِفَ لِلإِذْنِ بِاسْتِقْلَالِهِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ ، وَبَدَأَ بِالْإِنْسَانِ ؛ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ الْأَهَمُّ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ ، وَلِعَرَأْفَتِهِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى تَوْحِيدِ الْحَقِّ وَبَاهِرِ قُدْرَتِهِ ؛ لَمَّا فِيهِ مِنْ تَعَاجِيبِ آثَارِ الْقُدْرَةِ ، وَأَسْرَارِ الْحِكْمَةِ ، وَأَصَالَتِهِ فِي الْمَعْرِفَةِ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ بِحَالِ نَفْسِهِ أَهْرَفٌ ، وَالْمَرَادُ بِالنَّفْسِ : نَفْسُ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ : عَطَفَ عَلَى مَحْذُوفٍ ، صِفَةُ لِنَفْسٍ ، أَيْ : مِنْ نَفْسٍ خَلَقَهَا ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، أَوْ : عَلَى مَعْنَى : وَاحِدَةٍ ، أَيْ : نَفْسٍ وَجَدْتَ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا حَوَاءً ، وَعَطَفْتَ بِثَمِّ دَلَالَةٍ عَلَى مَبَايِنَتِهَا لَهُ فَضْلاً وَمَزِيَّةً ، فَهُوَ مِنَ التَّرَاخِي فِي الْحَالِ وَالْمَنْزِلَةِ ، مَعَ التَّرَاخِي فِي الزَّمَانِ . وَقِيلَ : أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ كَالذَّرِّ ، ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْهُ حَوَاءً ، فَفِيهِ ثَلَاثُ آيَاتٍ ؛ خَلَقَ آدَمَ مِنْ غَيْرِ آبٍ وَلَا أُمٍّ ، وَخَلَقَ حَوَاءً مِنْ قَصِيرَاهُ (١) ، ثُمَّ تَشَعَّبَ الْخَلْقُ الْفَائِتُ لِلْحَصْرِ مِنْهُمَا .

﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ﴾ أَيْ : قَضَى وَجَعَلَ ، أَوْ : خَلَقَهَا فِي الْجَنَّةِ مَعَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ أَنْزَلَهَا ، أَوْ : أَحْدَثَ لَكُمْ بِأَسْبَابِ نَازِلَةٍ مِنَ السَّمَاءِ ، كَالْأَمْطَارِ ، وَأَشْعَةِ الْكَوَاكِبِ ، كَمَا تَقُولُ الْفَلَّاسِفَةُ . ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ ذَكَرًا وَأُنْثَى ، وَهِيَ : الْإِبِلُ ، وَالْبَقَرُ ، وَالضَّئَانُ ، وَالْمَعْزُ . فَالزَّوْجُ اسْمُ لَوَاحِدٍ مَعَهُ آخَرٌ ، فَإِذَا انْفَرَدَ فَهُوَ فَرْدٌ ، وَنَرٌ .

﴿ يَخْلُقْكُمْ فِي بَطُونٍ أَمْهَاتِكُمْ ﴾ : اسْتِغْنَاءٌ ؛ لِبَيَانِ كَيْفِيَّةِ خَلْقِهِمْ ، وَأَطْوَاهِمِ الْمُخْتَلِفَةِ ، الدَّالَّةُ عَلَى الْقُدْرَةِ الْقَاهِرَةِ . وَصِيغَةُ الْمَضَارِعِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّجَرُّدِ . ﴿ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ : مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ ، أَيْ : يَخْلُقْكُمْ فِيهَا خَلْقًا كَائِنًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ، أَيْ : خَلْقًا مُدْرَجًا ، حَيَوَانًا سَرِيًّا ، مِنْ بَعْدِ عِظَامٍ مَكْسُوءَةٍ لِحْمًا ، مِنْ بَعْدِ عِظَامٍ عَارِيَةٍ ، مِنْ بَعْدِ مَضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ ، مِنْ بَعْدِ مَضْغَةٍ غَيْرِ مُخْلَقَةٍ ، مِنْ بَعْدِ عِلْقَةٍ ، مِنْ بَعْدِ نَطْفَةٍ ، ﴿ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ : ظِلْمَةُ الْبَطْنِ ، وَظِلْمَةُ الرَّحِمِ ، وَظِلْمَةُ الْمَشِيمَةِ ، أَوْ : ظِلْمَةُ الصُّلْبِ ، وَالْبَطْنِ ، وَالرَّحِمِ .

﴿ ذَلِكُمْ ﴾ : إِشَارَةٌ إِلَى الْحَقِّ تَعَالَى ، بِاعْتِبَارِ أَعْمَالِهِ الْمَذْكُورَةِ ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ ، وَمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْبُعْدِ ؛ لِلإِذْنِ بِبُعْدِ مَنْزِلَتِهِ فِي الْعِظَمَةِ وَالْكَبَرِيَاءِ ، أَيْ : ذَلِكُمُ الْعَظِيمُ الشَّانُ ، الَّذِي عَدَدْتَ أَعْمَالَهُ هُوَ ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أَيْ : مَرْبِيكُمْ بِنِعْمَةِ الْإِبْجَادِ عَلَى الْأَطْوَارِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَبِنِعْمَةِ الْإِمْدَادِ بَعْدَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ . ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ : التَّصَرُّفُ الْقَامُ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي الدَّارَيْنِ . ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ : لَا مُتَصَرِّفَ غَيْرِهِ . ﴿ فَأَنِّي تُصَرِّفُونَ ﴾ : فَكَيْفَ تُصَرِّفُونَ عَنْ عَادَتِهِ تَعَالَى ، مَعَ وَفُورِ دَوَاعِيهَا ، وَانْتِفَاءِ الصَّارِفِ عَنْهَا بِالْكُلِّيَّةِ ، إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهِ ، مِنْ غَيْرِ دَاعٍ إِلَيْهَا ، مَعَ كَثْرَةِ الصَّوَارِفِ عَنْهَا ؟ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

(١) «قَصِيرَاهُ» : مَثَلِي الْقُصَيْرَى ، وَالْقُصِيرَانِ : ضِلْعَانِ تَلِيَانِ التَّرْقُوتَيْنِ وَالْقُصَيْرَى : أَسْفَلُ الْأَضْلَاعِ . وَقِيلَ : هِيَ آخِرُ الْجَنْبِ . انْظُرِ اللِّسَانَ (٣٦٤٩/٥) مَادَّةُ قُصِرَ .

الإشارة: خلق سماوات الأرواح، وأرض النفوس، بالحق، أى: لسبب معرفته، وعبادته، فالمعرفة للأرواح، والعبادة للنفوس، يَكُورُ نهار البسط على ليل القبض، وبالعكس، وسخر شمس العيان، وقمر البرهان، كُلُّ يجرى إلى أجل مسمى، إلا أن قمر البرهان ينتهى بطلوع شمس العيان، وشمس العيان لا انتهاء لها. ﴿ لا إله إلا هو العزيز ﴾ فيمنع بعزته من الوصول إليه من أراد احتجابه، ﴿ الغفار ﴾ فيغشى بفضله مساوئ من أراد وصلته. ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾، من روح واحدة، هى الروح الأعظم، ثم تفرعت منها الأشياء كلها. وأنزل لكم من الأنعام ما تنصرون فيه، وتنكرون به إلى ربكم، ثم ذكرهم بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، بقوله: ﴿ يخلقكم فى بطن أمهاتكم... ﴾ الخ، فنعمة الإيجاد ظاهرة، ونعمة الإمداد: ما يتغذى به الجنين فى بطن أمه من دم الحيض.

ثم أمرهم بالشكر عليها، فقال:

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن تكفروا ﴾ به تعالى، بعد مشاهدة هذه النعم الجسيمة، وشئونه العظيمة، الموجبة للإيمان والشكر، ﴿ فإن الله غنى عنكم ﴾ أى: فاعلموا أنه تعالى غنى عن إيمانكم وشكركم، ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾؛ لأن الكفر ليس برضا الله، وإن كان بإرادته، وعدم رضاه تعالى بالكفر لأجل منفعتهم، ودفع مضرتهم، رحمة بهم، لا لتضرره تعالى به. ﴿ وإن تشكروا ﴾ وتؤملوا ﴿ يرضه لكم ﴾ أى: يرضى الشكر لأجلكم ومنفعتكم؛ لأنه سبب الفوز بسعادة الدارين.

وإنما قال: ﴿ لعباده ﴾ ولم يقل لكم، لتعميم الحكم، وتعليله بكونهم عباده تعالى، والحاصل: أن وقوع الطاعة والإيمان هو بقدرته تعالى، وإرادته ورضاه، وأما الكفر والمعاصي فهو بقضائه وإرادته، ولم يرضها من عبده شرعاً، وإن رضيتها تكويداً، لتقوم الحجة على العبد، ويظهر صورة العدل، ولا يظلم ريك أحداً، وإن كان الكل منه واليه.

﴿ ولا تزر وازرةٌ وِزرَ أُخرى ﴾: بيان لعدم سرعان كفر الكافر إلى غيره، أى: ولا تحمل نفس حاملة لوزرها حمل نفس أخرى، ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم ﴾ بالبعث بعد الموت، ﴿ فينبئكم ﴾؛ يخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾

فى الدنيا من الإيمان والكفر، فيجازيكم بها ثواباً وعقاباً. ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾: أى بمضممرات القلوب، فكيف بالأعمال الظاهرة، وهو تغليل لـ: ينبغي لكم، .

الإشارة: قد تقدم الكلام على الشكر فى سورة سبأ^(١) قال القشيري: قوله تعالى: ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ إن أطمعنى شكرتك، وإن ذكرتنى ذكرك، وإن خطوت لأجلى خطوة ملأت السموات والأرض من شكرك، والشهداء.

لَوْ عَلِمْنَا أَنَّ الزِّيَارَةَ حَقٌّ لَفَرَشْنَا الْغُدُودَ أَرْضًا لِنَرْضَى

ثم بين حال من يشكر، فقال:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ﴾ أى: جنس الإنسان ﴿ضُرٌّ﴾ من مرض وغيره ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا﴾ إليه، راجعاً إليه مما كان يدعوه فى حالة الرخاء؛ لعلمه بأنه بمعزل عن القدرة على كشف ضرره، وهذا وصف للجنس ببعض أفراده، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(٢) وقيل: المراد أبو جهل، أو: كل كافر. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أى: أعطاه نعمة عظيمة من جنابه، من التخول، وهو التعهد، يقال: فلان خائل مال، إذا كان متعهداً إليه حسن القيام به، وفى الصحاح: خَوَّلَهُ اللَّهُ الشَّيْءَ: مَلَكَهُ إِيَّاهُ. وفى القاموس: وخَوَّلَهُ اللَّهُ الْمَالَ: أَعْطَاهُ إِيَّاهُ.

قال ابن عطية: خَوَّلَهُ، أى: ملكه، وحكمه فيها ابتداءً من الله، لامجازاة، ولا يقال فى الجزاء: خَوَّلَهُ. هـ. أو: من الخول، وهو الافتخار، أى: جعله يخول، أى: يفتخر بنعمه. ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أى: نسى النصر الذى كان يدعو الله تعالى كشفه من قبل التخويل، أو: نسى ربه الذى كان يدعو ويتضرع إليه، على أن

(١) راجع إشارة الآية ١٣ من سورة سبأ

(٢) من الآية ٣٤ من سورة إبراهيم.

﴿ما﴾ بمعنى «من»، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ (١)، أو: إيداناً بأن نسيانَه بلغ به إلى حيث لا يعرف ما يدعو، وهو كقوله تعالى: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ (٢).

﴿وجعل لله أنداداً﴾: شركاء في العبادة؛ ﴿لِيُضِلَّ﴾ (٣) بذلك ﴿عن سبيله﴾ الذي هو التوحيد. أي: ليضل غيره، أو: ليزداد ضلالاً، أو: يثبت عليه، على القراءتين، وإلا؛ فأصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور. واللام للعاقبة، كما في قوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ (٤) غير أن هذا أقرب للحقيقة؛ لأن الجاعل هنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الإضلال والضلال، وإن لم يعرف؛ لجهله أنهما إضلال وضلال، وأما آل فرعون فهم غير قاصدين بالتقاطهم العدو أصلاً. قاله أبو السعود.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: تمتعاً قليلاً، أو: زماناً قليلاً في الدين، وهو تهديد لذلك الضال المضل، وبيان لحاله ومآله. ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: من ملازميها، والمعدبين فيها على الدوام، وهو تعليل لقلة التمتع. وفيه من الإقناط من النجاة ما لا يخفى، كأنه قيل: إذا أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة، فمن حقاك أن تؤمر بتركه لتذوق عقوبته.

الإشارة: الصفة الممدوحة في الإنسان: أن يكون إذا مسه الضر التجأ إلى سيده، مع الرضا والتسليم، فإذا كشف عنه شكر الله وحمده، ودام على شكره، ونسب التأثير إلى الأسباب والعلل، وهو صريح الآية. وبالله التوفيق. ثم ذكر حال من شكر، فقال:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ۖ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰؤُلَاءِ ۚ﴾ (٥)

يقول الحق جل جلاله: ﴿أمن﴾ (٥) هو قانتٌ أي: مطيع، قائم بواجب الطاعات، دائم على أداء وظائف العبادات، ﴿أناء الليل﴾ أي: في ساعات الليل، حالتى السراء والضراء، كمن ليس كذلك، بل إنما يفرع إلى الله

(١) الآية ٣ من سورة الليل.

(٢) من الآية ٢ من سورة الحج.

(٣) قرأ الجمهور: «ليضل» بضم الياء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: بفتحها. انظر الإتعايف (٤٢٧/٢) والبحر المحيط (٤٠١/٧).

(٤) الآية ٨ من سورة القصص.

(٥) قرأ نافع، وابن كثير، وحمزة: بتخفيف الميم، على أنها موصولة، دخلت عليها همزة الاستفهام التقريرى، ومقابله محذوف؛ لفهم المعنى، والتقدير: أمن هو قانت. الخ كمن جعل لله أنداداً. وقرأ الباقرين بالتشديد. والتوجيه ذكره الشيخ المفسر - رحمه الله. انظر: إتعايف فضلاء البشر (٤٢٨/٢).

فى الصراء فقط، فإذا كشف عنه نسي ما كان يدعو إليه من قبل، وحذفه لدلالة ما قبله عليه. ومن قرأ بالتشديد، فـ «أم»، إما متصلة، حذف مقابله، أى: أنت خير حالاً ومالاً أم من هو قائم بوظائف العبادات، أو: منقطعة، والإضراب للانتقال من التهديد إلى التبكيت بالجواب الملجئ إلى الاعتراف بما بينهما، كأنه قيل: أم من هو قائم أفضل، أم من هو كافر مثلك؟

حال كون القانت ﴿ساجداً وقائماً﴾ أى: جامعاً بين الوصفين المحمودين. وتقديم السجود على القيام؛ لكونه أدخل فى معنى العبادة. ﴿يحذر الآخرة﴾ أى: عذاب الآخرة، حال أخرى، أو: استئناف، جواب عما نشأ من حكاية حاله من القنوت والسجود، كأنه قيل: فما باله يفعل ذلك؟ فقيل: يحذر الآخرة، ﴿ويرجو رحمة ربه﴾ أى: الجنة، فينجو بذلك مما يحذره، ويفوز بما يرجوه، كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية، المنبئة عن التبليغ إلى الكمال، مع الإضافة إلى ضمير الراجى.

ودلت الآية على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته، لا عمله، ويحذر عقابه؛ لتقصيره فى عمله، ثم الرجاء إذا جاوز حدّه يكون أمناً. والخوف إذا جاوز حدّه يكون إياساً، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١)، و﴿لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٢) فيجب ألا يجاوز أحدهما حدّه؛ بل يكون كالطائر بين جناحيه، إلا فى حالة المرض، فيغلب الرجاء، ليحسن ظنه بالله. ومذهب محققى الصوفية: تغليب الرجاء مطلقاً، لهم ولعباد الله؛ لغلبة حسن ظنهم بربهم.

والآية، قيل: نزلت فى عثمان رضي الله عنه كان يحيى الليل، وقيل: فى عمار وأبى حذيفة (٣)، وهى عامة لمن سواهم.

﴿قل هل يستوي الذين يعلمون﴾ حقائق الأحوال، فيعملون بموجب علمهم، كالقانت المذكور، ﴿والذين لا يعلمون﴾ شيئاً؛ فيعملون بمقتضى جهلهم، كدأب الكافر المتقدم. والاستفهام للتوبيخ على أن كون الأولين فى أعلى معارج الخير، وكون الآخرين فى أقصى مدارج الشر من الظهور، بحيث لا يكاد يخفى على أحد.

قال النسفى: أى: يعلمون ويعملون به، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم، وفيه ازدراءً عظيم بالذين يقتنون - أى: يدخرون - العلوم، ثم لا يفتنون، ويتفنون فيها، ثم يفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء. أو: يريد به التشبيه، أى: كما لا يستوى العالم والجاهل، كذلك لا يستوى المطيع والعاصى. هـ.

(١) من الآية ٩٩ من سورة الأعراف. (٢) من الآية ٨٧ من سورة يوسف.

(٣) انظر الدر المنثور (٦٠٥/٥) وتفسير البغوى (١١/٧) وأسباب النزول للراحدى (ص ٣٨٢).

الإشارة: القنوت هو القيام بأداب الخدمة، ظاهراً وباطناً، من غير فتور ولا تقصير، قاله القشيري. وهو على قسمين، قنوت العارفين، وهي عبادة القلوب، كالفكرة والنظرة، ساعة منها أفضل من عبادة سبعين سنة، وثمرتها: التمكن من شهود الذات الأقدس، عاجلاً وآجلاً، وقنوت الصالحين، وهي عبادة الجوارح، كالركوع والسجود والتلاوة، وغيرها من أعمال الجوارح، وثمرتها نعيم الجنان بالحدود والولدان، مع الرضا والرضوان، ورؤية وجه الرحمن.

روى عن فهيسة بن سفيان، قال: رأيت سفيان الثوري في المنام بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فألشاً يقول:

نظرتُ إلى ربي عياناً فقال لي	هنيئاً رضائي عنك يا ابن سعيدٍ
لقد كنتَ قروماً إذا الليلُ قد دجا	بعبرةً محزونٍ وقلب عميدٍ
فدونك فاخترأي قصر تريدُهُ	وزرني فراني ملك غير بعيدٍ

وكان شعبةً ومُسعرَ رجلين صالحين، وكانا من ثقة المحدثين، فماتَا، قال أبو أحمد اليزيدي: فزأيتهما في المنام، وكنتُ إلى شعبة أميل مني إلى مسعر، فقلت لشعبة: يا أبا بسطام، ما فعل الله بك؟ فقال: يا بني احفظ ما أقول لك:

حَبَانِي إِلَهِي فِي الْجِدَانِ بَقْبَةً	لَهَا أَلْفُ بَابٍ مِنْ لُجَيْنٍ ^(١) وَجَوْهَرَا
وَقَالَ لِي الْجَبَّارُ: يَا شُعْبَةُ الَّذِي	تَبَحَّرَ فِي جَمْعِ الْعُلُومِ وَأَكْبَرَا
تَمَتَّعَ بِقُرْبِي، إِنِّي عَنْكَ ذُو رِضَا	وَعَنْ عَبْدِي الْقُرَّامِ فِي اللَّيْلِ مِسْعَرَا
كَفَى مِسْعَرًا عِزًّا بَأَنْ سَيُزَوَّرُنِي	وَأَكْشَفُ عَنْ وَجْهِهِ وَيَدْنُو لِيَنْظُرَا
وَهَذَا فَعَالِي بِالَّذِينَ تَنْسَكُوا	وَلَمْ يَأْلَفُوا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ مَنَكْرَا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يستوى العالم بالله مع الجاهل به، العالم بعبده على العيان، والجاهل به في مقام الاستدلال والبرهان. العالم بالله يستدل بالله على غيره، والجاهل به يستدل بالأشياء على الله، وشتان بين من يستدل به أو يستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله، وأثبت الأمر

(١) اللُّجَيْنُ: القنعة. انظر اللسان (٥/٤٠٠٢، مادة لجن).

من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، كما في الحكم^(١). العالم بالله من السابقين المقربين، والجاهل به من عامة أهل اليمين، ولو تبحر في العلوم الرسمية غاية التبحر. قال المرتجبي: وصف تعالى أحوال أهل الوجود والكشوفات، المستأنسين به، وبلذائذ خطابه ومناجاته، وتحملوا من لطائف خطابه مكنون أسرار غيبه، من العلوم الغريبة، والأنباء العجيبة، لذلك وصفهم بالعلم الإلهي، الذي استفادوا من قربه ووصاله، وكشف جماله بقوله: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ كيف يستوي الشاهد والغائب، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ هـ..

قال القشيري: العلم المخلوق على ضربين: علم مجلوب بكسب العبد، وموهوب من قبل الرب.. انظر تمامه.

ثم أمر بالتقوى، التي هي أصل القنوت، فقال:

﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

قلت: ﴿في هذه﴾: متعلق بأحسنوا، أو: بحسنة، على أنه بيان لمكانها، أو: حال من ضميرها في الظرف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم﴾ بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه، أمر رسوله ﷺ بأن يحثهم على التقوى ويذكرهم بها، بعد تخصيص التذكير بأولى الأبواب، إيذاناً بأن أولى الأبواب هم أهل التقوى، وفي إضافتهم إلى ضمير الجلالة بقوله: ﴿يا عبادي﴾ تشریف لهم، ومزيد اعتناء بشأن الأمور به، وهر التقوى.

ثم حرص على الامتنال بقوله: ﴿للذين أحسنوا﴾ أي: اتقوا الله وأطاعوه ﴿في هذه الدنيا﴾ الفانية، التي هي مزرعة الآخرة. ﴿حسنة﴾ أي: حسنة عظيمة، لا يكتنه كنهها، وهي الجنة ونعيمها، أو: للذين أحسنوا بالطاعة والإخلاص حسنة معجلة في الدنيا، وهي الصحة والعافية، والحياة الطيبة، أو: للذين أحسنوا، أي: حصلوا مقام الإحسان - الذي عبر عنه عليه الصلاة والسلام بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه» - حسنة كبيرة، وهي لذة الشهود، والأنس بالملك الودود في الدارين.

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي / ٢٧ حكمة ٢٩.

ولما كان هذا المقام لا يتأتى تحصيله إلا في بعض البلاد الخالية من الشواغل والموانع، أمر بالهجرة من الأرض التي لا يتأتى فيها التفرغ، فقال: ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾، فمن تعسر عليه التفرغ للتقوى، والإحسان وعمل القلوب، في وطنه، فليهاجر إلى بلد يتمكن فيه ذلك، كما هي سنة الأنبياء والأولياء، فإنه لا عذر له في التفرط والبطالة أصلاً.

ولما كان الخروج من الوطن صعباً على النفوس، يحتاج إلى صبر كبير؛ رغب في الصبر بقوله: ﴿ إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ ﴾ على مفارقة الأوطان، وتحمل مشاق الطاعات، وتحقيق الإحسان، ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾ في مقابلة ما كابدوه من الصبر، ﴿ بغير حساب ﴾ بحيث لا يحصى ولا يحصر؛ بل يصب عليهم الأجر صباً، فلم مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (لا يهدى إليه حساب الحساب، ولا يعرف)، وفي الحديث: «أنه ينصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصيام والحج، فيوزن بها أجورهم، ولا تنصب لأهل البلاء؛ بل ينصب عليهم الأجر صباً، حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تفرض بالمقاريض، مما يذهب به أهل البلاء من الفضل»^(١). وكل ما يشق على النفس ويتعبها فهو بلاء، والله تعالى أعلم

الإشارة: بالتقوى الكاملة بصير العبد من أولى الألباب، فيقدر ما تعظم التقوى يعظم إشراق النور في القلب، ويتصفي من الرذائل، وقد تقدم الكلام عليها مستوفياً عند قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾^(٢) فمن أحسن في تقواه أحسن الله عاقبته ومثواه، وحفظه في دنياه وأخراه.

فمن تعذرت عليه التقوى في وطنه، فليهاجر منه إلى غيره، والهجرة سنة نبوية، وليتجرع الصبر على مفارقة الأوطان، ومهاجرة العشائر والإخوان، لينخرط في سلك أهل الإحسان، قال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾^(٣) الآية.

قال القشيري: الصبر: حبس النفس على ما تكره، ويقال: تجرع كاسات التقدير، من غير استكراه ولا تعيب، ويقال: التهدف^(٤) لسهام البلاء. هـ.

(١) عزاء السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٦٠٦) لابن مردويه، من حديث أنس، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ١٨٤) ح

١٢٨٢٩ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً

(٢) الآية ١٠٠ من سورة التوبة.

(٣) الآية ١٠٠ من سورة النساء.

(٤) التهدف: الدنو والاستقبال.

ثم أمر بالإخلاص، الذي هو شرط في الجميع، فقال:

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۚ ۝١١
قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٢ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْهُ مُخْلِصًا لِمُذِينِي ۚ ۝١٣ فَاعْبُدُوا
مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۚ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَا ذَلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝١٤ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ أَلَا ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ
بِهِ عِبَادَهُ يُعْبَادُونِ ۚ ۝١٥ ۝١٦﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قُلْ ﴾ لهم: ﴿ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ﴾ حال كونى ﴿ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ من كل ما ينافيه من الشرك والرياء، وما أمر به ﷺ يؤمر به أمته؛ بل هم المقصودون. ثم قال: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى: وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم فى الدنيا والآخرة؛ لأن إحراز قصب السبق فى الدين بالإخلاص فيه، فالإسلام الحقيقى هو المنعوت بالإخلاص، والتقدير: أمرت بالعبادة والإخلاص فيها، وأمرت بذلك لأن أكون أول المخلصين.

أو: تكون اللام زائدة، وهو أظهر، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾^(١) أى: من قومى، أو: من أهل زمانى، أو: أكون أول من دعا غيره إلى ما دعا إليه نفسه، وهو الإسلام، وحاصله: أمرت بإخلاص الدين، وأمرت أن أكون من السابقين فى ذلك زماناً ورتبة؛ لأنه داع إلى الإسلام، والداعى إلى الشىء ينبغى أن يكون متحلياً به، كما هى سنة الأنبياء والأولياء، لا الملوك والمتجبرين.

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ بترك الإخلاص، والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هو يوم القيامة. وصف بالعظمة؛ لعظمة ما فيه من الدواهي والأحوال.

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْهُ ﴾ لا غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً. وليس بتكرار؛ لأن الأول إخبار عن كونه مأموراً بالإخلاص فى الدين، وبالسبق إليه، وهذا إخبار بأنه امتثل الأمر، وفعل ما أمر به. وقدم المفعول لأنه جواب لقول الكفرة: اعبدوا

(١) الآية ١٤ من سورة الأنعام

ما نعبد، لنعبد ما تعبد، فهو كقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(١) أى: لا أعبد إلا الله ﴿مخلصاً له ديني﴾ من كل ما يشوبه من العلل، فأمر ﷺ أولاً ببيان كونه مأموراً بعبادة الله وإخلاص الدين له، ثم بالإخبار بخوفه من العذاب على تقدير العصيان، ثم بالإخبار بامتناله لما أمر به على أبلغ وجه؛ إظهاراً لتصلبه في الدين، وحسماً لمادة أطماعهم الفارغة، وتمهيداً لتهديدهم بقوله: ﴿فاعبدوا ما شئتم﴾ أن تعبدوه ﴿من دونه﴾ تعالى. وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم ما لا يخفى، كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به، كي يحيق بهم العذاب.

﴿قل إن الخاسرين﴾، الكاملين في الخسران، الذى هو عبارة عن: إضاعة ما يهمل، وإتلاف ما لا بد منه، هم ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ بتعريضها للعطب، ﴿وأهلهم﴾ بتعريضهم للتفرق عنهم، فرقاً لاجمع بعده؛ إما في عذاب الأبد، إن ماتوا على الكفر معهم، أو: في الجنة، إن آمنوا، فلا يرونهم أبداً. وقيل: خسروا أهلهم؛ لأنهم لم يدخلوا مدخل الذين لهم أهل في الجنة، أو: خسروا أهلهم الذين كانوا يتمتعون بهم، لو آمنوا. ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ الذى لا خسران أظهر منه. وتصدير الجملة بحرف التنبية، والإشارة بذلك إلى بعد منزلة المشار إليه في الشر. وتوسيط ضمير الفصل، وتعريف الخسران، ووصفه بالمبين؛ من الدلالة على كمال هولاء وقطاعته، وأنه لا خسران وراءه، ما لا يخفى.

﴿لهم من فوقهم ظلل من النار﴾ أى: لهم ظلال كثيرة متراكمة بعضها فوق بعض، كائنة من النار، ﴿ومن تحتهم﴾ أيضاً ﴿ظلل﴾ أى: أطباق كثيرة، بعضها تحت بعض، هي ظلال الآخرين. ﴿ذلك﴾ العذاب القظيع هو الذى ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ ويحذّرهم إياه، ليجتنبوا ما يوقعهم فيه. ﴿يا عباد فاتقون﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي. وهذه موعظة من الله بالغة، منطقية على غاية اللطف والرحمة، جعلنا الله من أهلها بمنه وكرمه.

الإشارة: الإخلاص سر بين الله وبين عبده، لا يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، وهو الغيبة عما سوى الله، فلا يرى في الدارين إلا الله، ولا يعتمد إلا عليه، ولا يخاف إلا منه، ولا يرجو إلا إياه. والإسلام هو: الانقياد بالجوارح في الظاهر للأحكام التكليفية، والاستسلام في الباطن للأحكام القهرية التعريفية، فالإسلام صورة، والاستسلام روحها، فالإسلام بلا استسلام جسد بلا روح.

وقوله تعالى: ﴿فاعبدوا ما شئتم﴾ هو تهديد لمن عبد نفسه وهواه، وهو الخسران المبين. ويقال: الخاسر: من خسر أيام عمره بالبطالة والتقصير، وخسر آخرته بعدم التأهب والتشمير، وخسر مولاه بعدم الوصول إلى

(١) الآية ٦ من سورة الكافرون.

مشاهدة حضرة العلى الكبير، وهى حضرة الذات، فمن خسر هذا الخسران، فقد أحاطت به نار القطيعة والحجاب من كل مكان. ﴿ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ قال القشيري: إن خفت اليوم كُفيت خوف ذلك اليوم، وإلا فبين يديك عقبة كروية.

ثم ذكر ضد أهل الخسران، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۖ ﴿١٧﴾
الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ
هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۚ ﴿١٨﴾

قلت: ﴿ أن يعبدوها ﴾: بدل احتمال من «الطاغوت»، والطاغوت: فعلوت، من الطغيان، بتقديم اللام على العين، وأصله: طغيوت، ثم طيفوت، ثم طاغوت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ أى: البالغ ذاقصى (١) غاية الطغيان، وهو الشيطان ﴿ أن يعبدوها ﴾ أى: اجتنبوا عبادة الطاغوت، الذى هو الشيطان، أو: كل ما عبد من دون الله، وكل من عبد غير الله فإنما عبد الشيطان؛ لأنه هو المزيّن لها، والحامل عليها. ﴿ وأناهبوا إلى الله ﴾ أى: وأقبلوا إليه، معرضين عما سواه، إقبالا كلياً، ﴿ لهم البشرى ﴾ بالنعيم المقيم، على ألسنة الرسل والملائكة، عند حضور الموت، وحين يحشرون، وبعد ذلك.

﴿ فبشّر عباد ﴾ الذين يستمعون القول ﴾ أى: ما نزل من الوحي ﴿ فيتبعون أحسنه ﴾، أرجحه وأكثره ثواباً، أو: أبينه، الذى هو ضد المتشابه. وهؤلاء هم الموصوفون باجتنب الطاغوت، والإنابة إلى ربهم، لكن وضع موضع ضميرهم الظاهر؛ تشريراً لهم بالإضافة، ودلالة على أن مدار اتصافهم بالوصفين الجليلين كونهم نقاداً فى الدين، يميزون الحق من الباطل، ويؤثرون الأفضل.

﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بفلك المحاسن الجميلة؛ هم ﴿ الذين هداهم الله ﴾ لدينه، والإشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من الدعوت الجلية، وما فيه من معنى البعد؛ للإيذان بعلو رتبهم، وبعد منزلتهم فى الفضل.

(١) فى الأصول [فى أقصى].

﴿وأولئك هم أولوا الألباب﴾ أى: هم أصحاب العقول الصافية، السليمة من معارضة الوهم ومنازعة الهوى، المستحقون للهداية، لا غيرهم.

وفيه دليل على أن الهداية تحصل بفضل الله تعالى، لقوله: «هداهم الله»، وقبول النفس لها؛ لقوله: «هم أولوا الألباب»

الإشارة: مذهب الصوفية: الأخذ بالعزائم، والأرجح من كل شيء، عقداً، وقولاً، وعملاً، فأخذوا من العقائد مقام العيان، ولم يقتنعوا بالدليل والبرهان، وأخذوا من الأقوال أليدها وأطيبها، ويجمع ذلك: حسن الخلق مع كل مخلوق، فآثروا العفو على القصاص، والصنف على العتاب، وغير ذلك من عزائم الشريعة على رخصها، ومن الأذكار: أرجحها وأجمعها، وهو الاسم المفرد، الذى هو سلطان الأسماء، ومن الأعمال: أعظمها وأرجحها، وهو عمل القلوب، الذى هو الذرة منه تعدل أمثال الجبال من أعمال الجوارح، كعبادة الفكرة والنظرة، وفى الحديث: «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة»^(١)، فأوقاتهم كلها ليلة القدر، وكالتخلق بمكارم الأخلاق، كالرضا، والتسليم، والحلم، والسخاء، والكرم، وغير ذلك من محاسن الخُل، الذى هو من عمل القلوب، فهم الذين تحققت فيهم البشارة بقوله: ﴿فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾.

وقال الورتجبي - بعد كلام : يتبع الكلام الأزلى - الذى هو الخطاب - بالفهم العجيب، والعلم الغريب، والإدراك الصافي، وانفراد الحق عن المخلوق، فى المحبة، والشوق، والمعرفة، والتوحيد، والإخلاص، والعبودية، والربوبية، والحرية، فهذا أفضل ورد بالبدئية، من حيث ظهور الأنبياء العجيبة، والروح القدسية، والإلهامات الربانية.. انظر بقية كلامه. وقال القشيري: الاستماع يكون لكل شيء، والاتباع يكون للأحسن. ثم قال: من عرف الله لا يسمع إلا بالله. هـ. «أولئك الذين هداهم الله» إلى صريح معرفته العيانية. «وأولئك هم أولوا الألباب»، ولب الشيء: قلبه وخالصه، فقلوبهم خالصة لمولاهم، وأرواحهم متنعمة بشهود حبيبها، وأسرارهم متنزهة فى رياض ملكوت سيدها. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ضدهم، فقال:

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾

(١) أخرجه أبو الشيخ فى كتاب العظمة (١/ ٣٠٠، ح ٤٣) عن أبى هريرة بلفظ: «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة، وأخرجه الديلمى فى الفردوس (٢/ ٧٠ ح ٢٣٩٧) من حديث أنس بلفظ: «ثمانين سنة، وانظر الموضوعات لابن الجوزى (٣/ ١٤٤).

قلت: «مَنْ»: شرطية، دخل عليها همزة الإنكار، والفاء عاطفة على جملة محذوفة، ليعتلق الإنكار والنفي بمضمونها معاً، أى: أنت مالك أمر الناس، فمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه، ثم كررت الهمزة فى الجزاء؛ لتأكيد الإنكار، وتكريره، لما طال الكلام، ثم وضع موضع الضمير مَنْ فى النار؛ لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد، والتنبية على أن المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع فى النار، ويجوز أن يكون الجزاء محذوفاً، دل عليه: «أفأنت تنقذه»... إلخ، أى: أفمن حق عليه العذاب تنقذه أنت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾، وهم عبدة الطاغوت ومتبعو خطواتها، كما يلوح إليه التعبير عنهم بـمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، فإن المراد بها قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢) أى: أفمن حقت عليه كلمة الشقاء، تقدر أن تهديه وتنقذه من الكفر، الذى هو سبب النار؟ أو: تقول: المحكوم عليه بالنار بمنزلة الداخل فيها، فاجتهاده ﷺ فى دعائهم إلى الإيمان سعى فى إنقاذهم من النار بعد الدخول فيها، وهو لا يفيد. فالمراد: تسكينه ﷺ وتفريغه من الحرص عليهم.

الإشارة: مَنْ سبق له الإبعاد لا يفيد الكد والاجتهاد، ومن أسدل بينه وبينه الحجاب، لا يفيد إلا الوقوف بالباب، حتى يحن الكريم الوهاب، فإن العواقب فى هذه الدار مبهمة، والأعمال بالخواتم. قال القشيري: والذين حقت عليهم كلمة العذاب، فإنهم اليوم لا يخرجون من حجاب قلوبهم. هـ. وبالله التوفيق.

ولما كان المراد بقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ هم الذين قيل فى حقهم: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾^(٣) استدرك عنهم أهل التقى، فقال:

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

(٢) الآية ١٨ من سورة الأعراف.

(١) الآية ٨٥ من سورة ص.

(٣) الآية ١٦ من السورة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾، وهم الذين وصفوا بقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ (١)، ووصفوا بالاجتناب والإنابة، وحصل لهم البشرى، حيث استمعوا وتبعوا أحسن القول، وهم المخاطبون أيضاً بقوله: ﴿يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ (٢) ... الآية.

فبين هذا أن لهم درجات عالية في جنات النعيم، في مقابلة ما للكفرة من دركات سافلة في الجحيم، فهي في مقابلة قوله لهم: ﴿مَنْ فَوْقَهُمْ ظُلٌّ مِنَ النَّارِ وَمَنْ تَحْتَهُمْ ظُلٌّ﴾ في حق الكفار، أى: لكن أهل التقى لهم علالي، بعضها فوق بعض ﴿مَبْنِيَّةٌ﴾ بناء المنازل المؤسسة على الأرض في الرصانة والإحكام. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أى: من تحت تلك الغرف ﴿الْأَنْهَارُ﴾ من غير تفاوت بين العلو والسفل. ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ أى: وعد الله ذلك وعداً، فهو مصدر مؤكد لقوله: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ فإنه في قوة الوعد. ﴿لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ لاستحالة عليه سبحانه.

الإشارة: من اتقى الله فيما أمر ونهى، كانت له درجات حسية، مبنية من الذهب والفضة، يترقى فيها على قدر عمله وتقواه. ومن اتقى ما يشغل عن الله من جنس الكائنات، كانت له درجات ومقامات معنوية، قريبة اصطفاوية، يرتقى فيها بقدر تقواه وسعيه إلى مولاه، وعد الله لا يخلف الله الميعاد. قال القشيري: وعد المطيعين الجنة - ولا محالة - لا يخلفه، ووعد المذنبين المغفرة، ولا محالة - يغفر لهم، ووعد المریدين القاصدين بالوصول، فإذا لم تقع لهم فترة، فلا محالة يصدق وعده. هـ.

ثم برهن على ما أوعده ووعد مما يكون بعد البعث من آثار قدرته، فقال:

﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿الَمْ تَرَ﴾ أيها السامع ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هو المطر، وقيل: كل ماء في الأرض فهو من السماء، ينزل منها إلى الصخرة، فيقسمه الله تعالى بين البقاع. ﴿فَسَلَكَهُ﴾: أدخله ونظمه ﴿يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: عيوناً ومجاري في الأرض، كجري الدماء في العروق في الأجساد، أو: مياهاً

(٢) من الآية ١٠ من سورة الزمر.

(١) من الآية ١٦ من السورة.

نابعة في ظهرها، فإن الينبوع يطلق على المنبع والدابع. فنصب، ينابيع، على الحال، على القول الثاني، وعلى نزع الخافض، على الأول.

﴿ثم يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلَفًا أَلْوَانُهُ﴾: أصنافه، من بر وشعير وغيرهما، أو: كفيّاته من الألوان، كالصفرة والخضرة والحمرة، والطعوم وغيرهما. ﴿ثم﴾: للتراخي في الرتبة والزمان، وصيغة المضارع: لاستحضار الصورة البديعة، ﴿ثم يهيج﴾ أي: يتم جفافه، ويشرف على أن يثور من منابته، ويستقل على وجه الأرض، سائراً لها، ﴿فتراه مصفراً﴾ من بعد خضرته ونضرتة، ﴿ثم يجعله حطاماً﴾؛ فتاتاً متكسرة، كأن لم يغن بالأمس، فمن قدر على هذا قدر على إنشاء الخلق بعد فنائهم ومجازاتهم.

وقيل: المراد من الآية: تمثيل الحياة الدنيا، في سرعة الزوال، وقرب الاضمحلال، بما ذكر من أحوال الزرع، ترغيباً عن زخارفها وزينتها، وتحذيراً من الاغترار بمن سربها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾^(١)... الآية، وقيل: للاستشهاد على تحقق الموعود من الأنهار الجارية من تحت العُرف، بما يشاهد من إنزال المياه من السماء، وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى، وإحكام حكمته ورحمته.

﴿إِن فِي ذَلِكَ﴾ أي: ما ذكر تفصيلاً من إنزال الماء وما نشأ عنه. ﴿لَذِكْرَى﴾: لتذكيراً عظيماً ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: لأصحاب العقول الخالصة من شوائب الهوى، فيتذكرون بذلك أن الحياة الدنيا في سرعة التقضي والانصرام، كما يشاهدونه من حال الحكام كل عام، فلا يغترون ببهجتها، ولا يفتنون بفتنتها، أو: يجزمون بأن من قدر على إنزال الماء من السماء، وإجرائه في ينابيع الأرض، قادر على إجراء الأنهار من تحت العُرف. وأما ما قيل: من أنه استدلال على وجود الصانع؛ فلا يليق؛ لأن هذه الأفعال الجليلة ذكرت مسندة إلى الله تعالى؛ وإنما يليق الاستدلال بها على وجود الصانع لو ذكرت غير مسندة إلى مؤثر، فتعين أن يكون متعلق التذكير والتنبيه شئونه تعالى وشئون آثاره، كما بين، لا وجوده تعالى. قاله أبو السعود.

الإشارة: قال القشيري: والإشارة في هذا أن الإنسان يكون طفلاً، ثم شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم يصير إلى أرذل العمر، ثم إلى آخره يُخترم، ويقال: إن الزرع مالم يأخذ في الجفاف لا يؤخذ منه الحب، الذي هو المقصود منه، كذلك الإنسان مالم [يخل]^(٢) من نفسه وحوليه لا يكون له قدر ولا قيمة. قلت: يعنى أنه مالم يحصن نفسه، وينهكها في التقرب إلى مولاه، لا قيمة له.

(١) الآية ٢٤ من سورة يونس. (٢) في القشيري: [يحصل].

ثم قال: ويقال: إن المؤمن بقوة عقله يوجب [استقلاله بعمله] (١) إلا أن يبرز منه كمالٌ يُمكنه من وفارة بصيرته، ثم إذا بدت لائحة من سلطان المعارف تصير تلك [الأبواب] (٢) مغمورة، فإذا بدت أنوار التوحيد استهلكت تلك الجملة كذلك، وأنشدوا:

فلما استبان الصبحُ أدرج ضوءه بأنواره أنوار ضوء الكواكب (٣) . هـ .

قلت: استقلال العبد بعمله هو مثل بروز الزرع من مئبته، ووقور بصيرته هو إخراج حبه في سنبله، ويدر لائحة من سلطان المعارف هو اصفراره، وظهور أنوار التوحيد التي تفتى وجوده وتغمره في وجود الحق هو صيرورتها حطاماً، فتأمل. وهذا كله نتيجة شرح الصدر الذي أشار إليه بقوله:

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ
قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢٢)

قلت: الهمزة للإنكار، و «من»: مبتدأ، والخبر محذوف، أى: كمن ليس كذلك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ ﴾ أى: وسَّعه وهَيَّاهُ ﴿ لِلْإِسْلَامِ ﴾ حتى قلبه وفرح به، واستضاء بنوره، ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ ﴾ عظيم ﴿ مِّن رَّبِّهِ ﴾، وبصيرة فى دينه، وهذا النور: هو اللطف الإلهى الفائض عليه عدد مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية، والتوفيق للاهتداء بها، أو: بمحض الإلهام من الجود والكرم، فيقذف فى قلبه نور اليقين، بلا سبب، أو: بصحبه أهل النور، هل يكون هذا كمن قسا قلبه، وخرج صدره، واستولى عليه ظلمة الغي والضلالة، فأعرض عن تلك الآيات بالكلية؟

ولما نزلت هذه الآية سئل ﷺ عن الشرح المذكور، فقال: «نور يقذفه الله فى القلب، فإذا دخل النور القلب انشرح وانفسح» قيل: وهل لذلك علامة؟ قال: «نعم التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله» (٤).

(١) فى القشيري: [استفادة له بعمله] (٢) فى القشيري (الأنوار).

(٣) أنشده أبو العباس السهاري. كما فى طبقات الأرياء (٣٦٧). وجاء فى طبقات الصوفية للمصطفى (٤٤٧): أنشده أبو العباس السيارى، واسمه: القاسم بن القاسم بن مهدي.

(٤) أخرجه البغوي فى تفسيره (١١٤/٧) والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، فى (الأصل السادس والثمانين) والحاكم فى المستدرک (٤١١/٤) وسكت عنه. والبيهقى فى الشعب (ح ١٠٥٥٢) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿ فويلٌ للقاسية قلوبهم ﴾ : أى الصلبة اليابسة ﴿ من ذكر الله ﴾ أى : من أجل ذكره، الذى من حقه أن يشرح له الصدر، وتلين له النفس، ويطمئن به القلب، وهؤلاء إذا ذكر الله عذبهم أشمأزوا من أجله، وازدادت قلوبهم قساسة .

قال الفخر: اعلم أن ذكر الله سبب لحصول النور والهداية، وزيادة الاطمئنان فى النفوس الطاهرة الروحانية، وقد يوجب القسوة والبعد عن الحق فى النفوس الخبيثة الشيطانية، فإذا عرفت هذا، فنقول: رأس الأدوية التى تفيد الصحة الروحانية ورتبتها: هو ذكر الله، فإذا اتفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله سبباً لازدياد مرضها، كان مرض تلك النفوس مرضاً لا يرجى زواله، ولا يتوقع علاجه، وكانت فى نهاية الشر والرداءة، فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿ فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين ﴾ وهذا كلام محقق . هـ . وهو كما قيل فى الجمل (١) أنها تنضرب برياح الورد، أى: وتتبعش بالشين . فكل من يفر من ذكر الله، ويثقل عليه، فقلبه جعل ذكره فى الحاشية .

﴿ أولئك فى ضلال مبين ﴾ أى: أولئك؛ البعداء الموصوفون بما ذكر من قساسة القلوب فى ضلال بعيد من الحق، ظاهر ضلاله لكل أحد . قيل: نزلت الآية فى حمزة وعلى - رضى الله عنهما - وأبى لهب وولده (٢)، وقيل: فى عمار وأبى جهل . والحق: أنها عامة .

الإشارة: من أراد الله به المساعدة شرح صدره للإسلام، فقبله وعمل عمله، ومن أراد به جذب العناية وتحقيق الولاية، شرح صدره لطريق أهل مقام الإحسان، فدخل فى طريقهم، وهىأ نفسه لصحبتهم وخدمتهم، فما زال يقطعون به مهامه النفوس حتى يقولون له: ها أنت وريك، فتلوح له الأنوار، وتشرق عليه شمس المعارف والأسرار، حتى يفتنى ويبقى بالله .

قال القشيري: والنور الذى من قبله تعالى نور اللوائح بتحقيق العلم، ثم نور اللوامع بثبات الفهم، ثم نور المحاضرة بزوائد اليقين، ثم نور المكاشفة بتجلى الصفات، ثم نور المشاهدة بظهور الذات، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد، وعند ذلك فلا [وجد ولا فقد] (٣)، ولا بعد ولا قرب، كلا، بل هو الله الواحد القهار . هـ . فمن لم يبلغ هذا لا يخلو قلبه من قساسة، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله، أولئك فى ضلال مبين .

(١) الجمل: دابة سوداء من دواب الأرض، كالخنفساء . انظر اللسان (جمل ١/ ٦٣٨) .

(٢) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٨٣) بدون إسناد .

(٣) فى الأصول [فلا وجه ولا قصة] والمثبت من القشيري .

ثم ذكر سبب لين القلوب، وهو كتاب الله العزيز، فقال:

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَقَّشَ عُرْمَهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ﴿٢٣﴾

قلت: «كتاباً»: بدل من «أحسن»، أو: حال، لوصفه بقوله: «متشابهاً». و«مثنائي»: صفة أخرى لكتاب، أو: حال أخرى منه، أو: تمييز من «متشابهاً»، كما تقول: رأيت رجلاً حسناً شمائل، أي: شمائله، والمعنى: متشابهة مثنائية. و«نقش عرمة»: الأظهر أنه استئناف، وقيل: صفة لكتاب، أو: حال منه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وهو القرآن؛ إذ لا حديث أحسن منه، لانتمه القلوب، وتناسمه الأسماع؛ بل ترداده يزيده تجملاً وطراوة وتكثير حلاوة. روى أن أصحاب رسول الله ﷺ، ملأوا ملة، فقالوا لرسول الله ﷺ: حدثنا حديثاً، فنزلت^(١). والمعنى: أن فيه مندوحة عن سائر الأحاديث.

وفى إيقاع اسم الجلاله مبتدأ، وبناء «نزل» عليه، من تفخيم أحسن الحديث، ورفع محله، والاستشهاد على حسنه، وتأكيده إسناده إليه تعالى، وأنه من علده، لا يمكن صدوره من غيره، والتنبية على أنه وحى معجز، مالا يخفى.

حال كونه ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ أي: يشبه بعضه بعضاً في الإعجاز والبلاغة، أو: تشابهت معانيه بالصحة، والإحكام، والابتداء على الحق والصدق، واستتباع منافع الخلق في المعاد والمعاش، وتناسب ألفاظه وجمله في الفصاحة والبلاغة، وتجاوب نظمها في الإعجاز. ﴿مَثَانِي﴾: جمع مثني، أي: مكرر، ومردد، لما ثنى من قصصه، وأنبائه، وأحكامه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، ووعظه. وقيل: لأنه يثنى في التلاوة، ويكرر مرة بعد أخرى. قال القشيري: ويشتمل على نوعي الثناء عليه، بذكر سلطانه وإحسانه، وصفة الجده والنار، والوعد والرعيد. هـ.

(١) أخرجه بلحوه ابن جرير (٢٣/٢١١) عن ابن عباس ؓ، والواحدى في الأميباب (ص ٢٨٣) عن سعد، ؓ.

﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أى: ترتعد وتنقبض، والاقشعرار: التقبض، يقال: اقشعر الجلد: إذا انقبض، ويقال: اقشعر جلده ووقف شعره: إذا عرض له خوف شديد، من مكر هائل دهمه بغتة. والمعنى: أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارعه وزواجره، أصابتهم هيبة وخشية تقشعر منه جلودهم، وإذا ذكروا رحمة الله تعالى تبدلت خشيتهم رجاء، ورجبتهم رهبة، وذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَلَيَّنَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى: ساكنة مطمئنة إلى ذكر الله.

﴿ ذَلِكَ ﴾ أى: الكتاب الذى شرح أحواله ﴿ هُدَى اللَّهِ ﴾، يهدي به من يشاء ﴿ أَنْ يَهْدِيَهُ، بِصَرْفٍ مَجْهُودٍ إِلَى سَبَبِ الْاهْتِدَاءِ بِهِ، أَوْ بِتَأْمَلِهِ فِيمَا فِي تَضَاعُيفِهِ مِنْ شَوَاهِدِ الْحَقِيقَةِ، وَدَلَائِلِ كَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. ﴾ ومن يضل الله ﴿ أى: يخلق فيه الضلالة، بصرف قدرته إلى مبادئها، وإعراضه عما يرشد إلى الحق بالكلية، وعدم تأثره بوعده ووعيده، أو: من يخذله ﴿ فما له من هَادٍ ﴾ يخلصه من ورطة الضلال. أو: ذلك الذى ذكر من الخشية والرجاء هو أثر هدى الله، يهدي لذلك الأثر من يشاء من عباده، ﴿ ومن يضل ﴾ أى: ومن لم يؤثر فيه لطفه وهدايته؛ لقسوة قلبه، وإصراره على فجوره ﴿ فما له من هَادٍ ﴾: من مؤثر فيه بشيء قط.

الإشارة: أول ما يظهر الفتح على قلب العبد فى فهم كتاب الله، والتمتع بحلارة تلاوته، ثم ينتقل إلى الاستغراق فى ذكره باللسان، ثم بالقلب، ثم إلى الفكرة، ثم العكوف فى الحضرة، إن وجد من يرييه وينقله عن هذه المقامات، وإلا بقى فى مقامه الأول.

وقال الطيبي: من أراد الله أن يهديه بالقرآن، أوقع فى قلبه الخشية، كقوله: ﴿ هُدَى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) ثم يتأثر منه ظاهراً، بأن تأخذه فى بدء الحال قشعريرة؛ لضعفه، وقوة سطوة الوارد، فإذا أدمن على سماعه، وألف أنواره، يعلمن ويلين ويسكن. هـ. قلت: وعن هذا عبر الصديق بقوله حين رأى قوماً يكون عند سماعه: (كذلك كنا ثم قست القلوب) (٢) أى: صلبت وقويت على حمل الواردات.

وقال الورعجي: سماع المريدين بإظهار الحال عليهم، وسماع العارفين بالطمأنينة والسكون. هـ. وقال على قوله: ﴿ متشابهاً ﴾: إنه أخير عن كلية الذات والصفات، التى منبعهما أصل القدم، وصفاته كذاته، وذاته كصفاته،

(١) من الآية ٢ من سورة البقرة.

(٢) نقله الحافظ أبو نعيم فى الحلية ١/٣٣ - ٣٤، راجع البحر المديد ٣/٣٤٦.

وكل صفة كصفة أخرى، من حيث التنزيه والقدس والتقديس، والكلام بنفسه متشابه المعانى. هـ. يعنى : إنما كان القرآن متشابهاً؛ لأنه أخبر عن كلية الذات والصفات القديمين، والذات لها شبه بالصفات من حيث اللطافة، والصفات تشبه بعضها بعضاً فى الدلالة على التنزيه والكمال، أى: كتاباً دالاً على كلية الذات المشابهة للصفات. وهذا حملٌ بعيد.

ثم ذكر مثال المهتدى والضال، فقال:

﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سَوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَاذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

قلت : «وقيل» : عطف على «يتقى»، أو: حال من ضمير «يتقى»، بإضمار «قد» .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ ﴾ الذى هو أشرف أعضائه ﴿ سَوءَ الْعَذَابِ ﴾ أى: العذاب السيئ الشديد ﴿ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ كمن ليس كذلك، بل هو آمن، لا يعتريه مكروه، ولا يحتاج إلى اتقاء، بوجه من الوجوه، وإنما كان يتقى النار بوجهه؛ لكون يده التى كان يتقى بها المكاره والمخاوف مغולה إلى عنقه. قال القشيري: قيل: إن الكافر يلقى فى النار، فيلقاها أولاً بوجهه؛ لأنه يرمى فيها منكوساً^(١)؛ فأما المؤمن الموقى ذلك؛ فهو الملقى بالكرامة، فوجهه ضاحك مستبشر^(٢). هـ.

﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ﴾ : يقال لهم من جهة خزنه النار. وصيغة الماضى للدلالة على التحقق. ووضع المظهر فى مقام المضمر للتسجيل عليهم بالظلم، والإشعار بعله الأمر فى قوله: ﴿ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أى: وبال ما كنتم تكسبونه فى الدنيا، من الظلم بالكفر والمعاصى.

(١) أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: «ينطلق به إلى النار مكتوباً ثم يرمى فيها، فأول ما تمس وجهه النار».

(٢) النقل فيه تصرف: انظر لطائف الإشارات.

﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم السالفة، ﴿ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ ﴾ المقرر لكل أمة ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ : من الجهة التي لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم إتيان الشر منها. ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخَزْيَ ﴾ أى: الذل والصغار ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾، كالمسخ، والخسف، والقتل، والأسر، والإجلاء، وغير ذلك من فنون النكال، ﴿ وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ ﴾ المعد لهم ﴿ أَكْبَرُ ﴾؛ لشدة ودوامه ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى: لو كان من شأنهم أن يعلموا شيئاً لعلموا ذلك واعتبروا به.

والآية، يحتمل أن تكون تهديداً لقريش، فالضمير في «قَبْلِهِمْ» يعود إليهم؛ لأن قوله: «وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ..» الخ تعرض بمن أعرض عن كتابه من كفار قريش. وقال أبو السعود: هو استئناف، مسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة من العذاب، إثر بيان ما يصيب الكل من العذاب الأخرى. هـ.

الإشارة: الوجه هو أشرف الأعضاء وإمامها، فإن كانت في الباطن بهجة المحبة، أو سيما المعرفة، ظهرت عليه، فيتنور ويبتهج، وإن كانت ظلمة المعاصي، أو كآبة الحجاب، ظهرت عليه، وإن كانت غيبة في الحق أو سكرة، كان هو أول ما يغيب من الإنسان ويفرق، ثم تغيب البشرية في البحر المحيط، وهو بحر الأحدية. وقوله تعالى: «فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ»، قال القشيري: أشد العذاب ما يكون بغتة، كما أن أتم السرور ما يكون فلة. وفي الهجران والفراق و الشدة ما يكون بغتة غير متوقعة، وهو أنكى للفؤاد، وأشد في التأثير، وأرجعه للقلوب، وفي معناه أنشدوا^(١):

فَبِتْ (٢) بخيرِ والدني مطمئنة فأصبحت يوماً والزمان تقلباً

وأتم السرور وأعظمه تأثيراً ما يكون فجأة، حتى قال بعضهم: أشد السرور غفلة على غفلة، وأنشدوا:

بينما خاطر الملى بالتسلاقي سابع (٣) في فؤاده وفؤادي

جمع الله بيننا فالتقينا هكذا بغتة (٤) بلا ميعاد. هـ (٥)

(١) في القشيري: وفي معناه قلنا. (٢) في الأصول: فبتنا..

(٣) في الأصول: سانح. (٤) في القشيري: صدفة.

(٥) انظر لطائف الإشارات ٢٧٩/٣.

ولما بين وبال من أعرض عن أحسن الحديث، بين فضله وشرفه، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾
قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قلت: قرأنا: حال مؤكدة من «هذا»، على أن مدار التأكيد هو الوصف، كقولك: جاءني زيد رجلاً صالحاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد ضربنا ﴾ أى: وضعنا ﴿ للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾: يحتاج إليه الناظر في أمر دينه، ﴿ لعلمهم يتذكرون ﴾ أى: كي يتذكروا به ويتعظوا، حال كونه ﴿ قرآنًا عربيًّا ﴾؛ لتفهموا معانيه بسرعة، ﴿ غير ذي عوج ﴾: لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه، فهو أبلغ من المستقيم، وأخص بالمعاني. وقيل: المراد بالعوج: الشك. ﴿ لعلمهم يتقون ﴾ ما يضرهم في معادهم ومعاشهم.

الإشارة: قد بين الله في القرآن ما يحتاج إليه المرید في سلوكه وجذبه، وسيره ووصوله، من بيان الشرائع وإظهار الطرائق، وتبيين الحقائق. قال تعالى: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾^(١) لكن لا يفوص على هذا إلا الجهابذة من البحرية الذين غاصوا بأسرارهم في بحر الأحدية، وتغلغلوا في العلوم الدنية، ومن لم يبلغ هذا المقام يصعب من يبلغه، حتى يوصله إلى ربه، ولا يكون الوصول إلا بقلب مفرد، غير مشترك، كما بين ذلك بقوله تعالى:

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

قلت: ﴿ مثلاً ﴾: مفعول ثان لضرب، و﴿ رجلاً ﴾: مفعول أول، وأخر للتشويق إليه، وليصل بما وصف به، وقيل: بدل من «مثلاً»، و﴿ فيه ﴾: خبر، و﴿ شركاء ﴾: مبتدأ، والجملة: صفة لرجل، و«مثلاً»: تمييز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ للمشرك والموحد، ﴿ رجلاً فيه شركاء متشاكسون ﴾: مختلفون متخاصمون عسكرون، وهو المشرك، ﴿ ورجلاً سلاً ﴾ أى: خالصاً ﴿ لرجل ﴾ فرد، ليس لغيره عليه

(١) من الآية ٢٨ من سورة الأنعام.

سبيل. والمعنى: جعل الله مثلاً للمشرك حسبما يقوده إليه مذهبه، من ادعاء كل من معبوديه عبوديته، عبداً يتشارك فيه جماعة، يتجاذبونه في مهماته المتباينة في تحيره وتعبه، ومثلاً آخر للموحد، وهو عبد خالص لرجل واحد، فإنه يكون عند سيده أحظى، وبه أرفق.

﴿ هل يستويان مثلاً ﴾: إنكار استبعاد لاسترائهما، وإيدان بأن ذلك من الجلاء والظهور، بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما؛ ضرورة أن أحدهما في أعلى عليين، والآخر في أسفل سافلين.

وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون ﴿ سَلَمًا ﴾ بفتح السين، وهو مصدر، من: سلم له كذا: إذا خلص، نعت به للمبالغة، فالقراءتان (١) متفقتان معنى. والمراد من المثل: تصوير استراحة الموحد وانجماعه على معبوده، وتعب المشرك وتشتيت باله، وخصوصاً مع فرض التعاكس من الشركاء، فيصير متحيراً، وفي عنت كبير من الجمع بين أغراضهم، بل ربما يتعذر ذلك ويستحيل؛ للتضاد في الأغراض والتناقض، مع فرض التخالف والتنازع بينهم، واعتبر ذلك بحال الوالدين، إذا اختلفا على الولد، فإنه يحسر إرضاءهما إلا بمشقة واحتيال، وكذلك عابد الأوثان؛ فإنه معذب الفكر بها، وبحراسة حاله منها، ومتى تروم أنه أرضى واحداً في زعمه تفكر فيما يصنع مع الآخر، فهو أبداً في تعب وضلال، وكذلك هو المصانع للناس، الممتحن بخدمة الملوك. قاله ابن عطية.

والحاصل: أن إرضاء الواحد أسهل وأيسر من إرضاء الجماعة

﴿ الحمد لله ﴾ على عدم استوائهما. [قال] (٢) الطيبي: ثم إذا لزمهم الحجة قل: الحمد لله، شكراً على ما أولاك من النصر، وقهر الأعداء بالحجج الساطعة. وفيه تدبیه للموحدین على أن ما لهم من المزية، وعلو الرتبة، بتوفيق الله تعالى، وأنه مئة جليلة، موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته، أو: حيث ضرب لهم المثل الأعلى، وللمشركين المثل السوء، فهذا صنع جميل، ولطف تام، مستوجب لحمده وشكره؛ ﴿ بل أكثرهم ﴾ أي: المشركون ﴿ لا يعلمون ﴾ ذلك، مع كمال ظهوره، فيقعرون في ورطة الشرك والضلال، وهو انتقال من بيان الاستواء على الوجه المذكور، إلى بيان عدم علمهم ذلك، مع غاية ظهوره.

(١) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: (سالمًا) بالألف وكسر اللام، اسم فاعل من سلم، أي: خالصاً من الشركة. وقرأ الباقون: (سَلَمًا) بفتح السين واللام، بلا ألف، مصدر وصف به، مبالغة في الخلو من الشركة. انظر الإتصاف (٢/٤٢٩) والبحر المحيط (٧/٤٠٧).

(٢) زيادة ليست في الأصول.

ثم ذكر المحل الذي يظهر فيه عدم استوائهما عياناً، وهو ما بعد الموت، فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾، فتجتمعون عندنا، فلنحكم بينكم. وقيل: كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته، أي: إنكم جميعاً بصدد الموت، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، فتحتج عليهم بأنك بلغت الرسالة، واجتهدت في الدعوة، فتلزمهم الحجة؛ لأنهم قد لجؤا في العناد، فإذا اعتذروا بتقليد آبائهم لم يقبل عذرهم. وقيل: المراد: الاختصام فيما دار بينهم في الدنيا، والأول أنسب.

الإشارة: لا يستوى القلب المشترك مع القلب المفرد الخالص لله، القلب المشترك تفرقت همومه، وتشتت أنواره، بتشتت شواغله وعلاقاته، وتفرقت محبته، بتفرق أهواله وحفظه، والقلب المفرد اجتمعت محبته، وتوفرت أنواره وأسراره بقدر تفرغه من شواغله وعلاقاته. وفي الحكم: «كما لا يحب العمل المشترك، لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه». وقال أيضاً: «فرِّغ قلبك من الأغيار تملؤه بالعارفات والأسرار».

وقيل للجنيد: كيف السبيل إلى الوصول؟ فقال: بتوبة تزيل الإصرار، وخوف يقطع التسويف، ورجاء يبعث على مسالك العمل، وبإهانة النفس، بقربها من الأجل، وبُعدها من الأمل. قيل له: وبم يتوصل إلى هذا؟ فقال: بقلب مفرد، فيه توحيد مجرد. هـ.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «من جعل الهموم همّاً واحداً - أي: وهو الله - كفاه الله همّ دنياه، ومن تشعبت به الهموم لم يُبالِ الله به في أي أودية الدنيا هلك» (١) وقال ﷺ: «من كانت الدنيا همه فارق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما قسم له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله عليه أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي صاغرة» (٢). ومن كان الله همه بفنائيه فيه، جمع الله عليه سره، وأغناه به عما سواه، وخدمه الوجود بأسره، وأنت مع الأكوان مالم تشهد المكون، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك» (٣). والله تعالى أعلم.

(١) رواه الحاكم (٤٤٣/٢) وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب (١٠٣٤٠) من حديث ابن عمر رضيهما الله عنهما. وأخرجه ابن ماجه بسند ضعيف، في (المقدمة، ٩٥/١ ح ٢٥٧) من حديث ابن مسعود رضيه الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٨٣/٥) وابن ماجه في (الزهد، باب الهم بالدنيا، ١٣٧٥/٢ ح ٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه وأخرجه، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، الترمذي في (صفة القيامة والرقائق، ٥٥٤/٤ ح ٢٤٦٥).

(٣) حكمة عطائية، انظر الحكم بتبويب المفتي الهندي / ص ٣٣ حكمة ٢٤٨.

ثم بين فريقى الاختصاص، فقال:

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ
أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾
لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ بأن أضاف إليه الشريك والولد، فإنه لا أحد أظلم منه؛ إذ هو أظلم من كل ظالم. ﴿ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ ﴾ أى: الأمر الذى هو نفس الصدق وعين الحق، وهو ما جاء به النبى ﷺ من عند الله ﴿ إِذْ جَاءَهُ ﴾ أى: كذب فى أول مجيئه، من غير تأمل فيه ولا تدبر، ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أى: لهؤلاء الذين افتروا على الله، وسارعوا إلى التكذيب بالصدق، فأظهر موضع الإضممار تسجيلاً وإيضاحاً بعلّة الحكم الذى استحقوا به جهنم، والجمع باعتبار معنى «من»، كما أن الأفراد فى الضمائر السابقة باعتبار لفظها، أر: لجنس الكفرة، وهم داخلون فى الكفر دخولاً أولياً.

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾: وهم المؤمنون، أى: والفوج، أر: الفريق الذى جاء بالصدق، والفريق الذى صدّق به. ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾: المعتنون بالتقى، [التى] (١) هى أجل الرغائب. وقرئ «صَدَقَ» بالتخفيف (٢)، أى: صدق به الناس، فأداه إليهم كما أنزل عليه، من غير تغيير، وقيل: صار صادقاً بسببه؛ لأن ما جاء به من القرآن معجزة دالة على صدقه ﷺ.

﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾: هو بيان لما لهم فى الآخرة من حسن المآب، بعد بيان ما لهم فى الدنيا من محاسن الأعمال، أى: لهم ما يشاءونه من جلب المنافع ودفع المضار، وتوالى المسار فى الآخرة، لا فى الجنة فقط؛

(١) فى الأصول [الذى].

(٢) ربه قرأ أبو صالح، وعكرمة بن سليمان، ومحمد بن حجازة. انظر: مختصر ابن خالويه (ص ١٣٢)، والمحتسب (٢/٢٣٧).

لأن بعض ما يشاؤون يقع قبل دخول الجنة، من تكفير السيئات، والأمن من الفزع الأكبر، وسائر أهوال القيامة. ﴿ذلك﴾ الذي ذكر من حصول كل ما يشاءونه ﴿جزاء المحسنين﴾ أى: الذين أحصلوا أعمالهم فى الدنيا.

﴿ليُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، اللام متعلق بقوله: ﴿لهم ما يشاؤون﴾؛ لأنه فى معنى الوعد، كأنه قيل: وعد الله لهم جميع ما يشاءونه من دفع المضار وحصول المسار؛ ليكفر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الذى عملوا، أى: أقبحه وأعظمه، وأولى أصغره. وقيل: يتعلق بمحذوف، أى: يسر لهم الصدق والتصدق ليكفر.. إلخ. ﴿ويَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإذا كان فى عملهم حسن وأحسن منه، جزاهم بجزاء الأحسن على الجميع، تكملاً منه وإحساناً.

والحاصل: أنه سبحانه لكرمه يكفر السيء والأسوأ بالأحرورية، ويجزى على الحسن بجزاء الأحسن منه والأرجح، كمن أهدى لملك هديتين؛ صغيرة وكبيرة، فكافأه على الصغيرة بقدر ما كافأه على الكبيرة. قال القشيري: وأحسن أعمال المؤمن: الإيمان والمعرفة، فيكون على أحسن الأعمال أحسن الثواب، وهو الرؤية. هـ.

واظهار اسم الجليل فى موضع الإضمار، لإبراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام، والجمع بين الماضى والمستقبل فى صلة الموصول الثانى - أى: الذى كانوا يعملون - دون الأول؛ للإيدان باستمرارهم على الأعمال الصالحة، بخلاف السيئة.

الإشارة: كل من ادعى حالاً مع الله، وليست متحققة فيه، فقد كذب على الله، وكل من أنكر على أولياء زمانه فقد كذب بالصدق إذ جاءه. ﴿والذى جاء بالصدق﴾، وهو من أذن له فى التذكير أو القربة. ﴿وصدق به﴾، وهو من سمع وتبع، أولئك هم المتقون، دون غيرهم، لهم ما يمتنون عند ربهم فى الدنيا والآخرة، ذلك جزاء أهل مقام الإحسان، الذين يعبدونه على العيان، يغطى وصفهم بوصفه، ونعتهم بنعته، فيوصلهم بما منه إليهم، لا بما منهم إليه، ثم يكفيهم جميع الشرور، كما قال تعالى:

﴿الَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي
أَنْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ أى: نبيه ﷺ. نزلت تقوية لقلبه - عليه السلام، وإزالة للخوف الذى كان الكفار يخوفونه، أر: جلس العبد، فيشمل الأنبياء كلهم والمؤمنين، وينتظم فيه النبى ﷺ انتظاماً أولياً، ويؤيده قراءة الأخوين^(١) بالجمع. وهو إنكار ونفى لعدم كفايته تعالى على أبلغ وجه وأكدته، كأن الكفاية بلغت من الظهور ما لا يقدر أحد على أن ينفيه بعدمها، أو يتلعم فى الجواب بوجودها، وإذا علم العبد أن الحق تعالى قائم بكفايته، سكن قلبه واطمأن، وأسقط الأحمال والكلف عن ظهره، فلا جرم أن الله يكفيه ما أهمه، ويؤمته مما يخافه، كما قال تعالى لنبيه ﷺ:

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أى: الأوثان التى اتخذوها آلهة دونه تعالى، وهى جوامد، لا تنضر ولا تنفع، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ عما قالت قريش: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا، وتصيبك معرفتها لعيبك إياها. وفى رواية: قالوا: لتكفن عن آلهتنا، أو ليصيبك منهم خيل أو جنون^(٢)، كما قال قوم هود: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾^(٣). وجملة: ويخوفونك: استئناف، أر: حال. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ حتى غفل عن كفايته وعصمته ﷺ، أر: اعتقد أن الأصنام تنضر وتنفع؛ ﴿فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى ما يرشده.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ إلى توحيده وطاعته ﴿فَمَالَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ يصرفه عن رشده، أو يصيبه سوء يخل بسلوكه؛ إذ لا راد لفعله، ولا معارض لقضائه، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾: غالب لا يغالب، منيع لا يمانع ولا ينازع، ﴿ذِي انتِقَامٍ﴾ من أعدائه لأوليائه، بإعزاز أوليائه وإذلال أعدائه. وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتحقيق مضمون الكلام، وتربية المهابة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا علم العبد أن الله كاف جميع عبادته، وثق بضمانه، فاستراح من تعب، وأزال الهموم والأكدار عن قلبه، فيدخل جنة الرضا والتسليم، ويهب عليه من روح الوصال وريحان الجمال نسيم، فيكتفى بالله، ويقنع بعلم الله، ويلقى بضمانه.

قال فى لطائف المنن: مبنى الولي على الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه، والاعتماد بشهرده. قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٤). هـ. وقال الشيخ

(١) قرأ حمزة والكسائي: (عباده) باللف، على الجمع. وقرأ الباقون: (عبد) بغير ألف. انظر الإتحاف (٢/٤٢٩).

(٢) ذكر هذه الرواية السيوطى فى الدر (٥/٦١٥ - ٦١٦) وعزاها لعبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة. وانظر تفسير البغوى (٧/١٢٠).

(٣) من الآية ٥٤ من سورة هود.

(٤) من الآية ٥٣ من سورة فصلت.

أبو الحسن عليه السلام : يقول الله - عز وجل : عبدى اجعلنى مكان همك أكفك همك، عبدى؛ ما كنت بك فأنت فى محل البعد، وما كنت بى فأنت فى محل القرب، فاختر لنفسك. هـ. أى: ما دمت مهموماً بنفسك فأنت فى محل البعد، وإذا خرجت عنها، وطرحتها بين يدى خالقها، أو غبت عن وجودها بالكلية، فأنت فى محل القرب، الأول: قرب مراقبة، والثانى: قرب مشاهدة.

وقوله تعالى: ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾: هو عام فى كل ما يخاف منه، فالعارف لا يخاف من شيء؛ نعلمه بأن الله ليس معه شيء، ولا يقع فى الوجود إلا قدره وقضاؤه، ومن يعتقد غير هذا فهو ضال، ومن يضل الله فلا هادى له. وبالله التوفيق.

ثم قرر هذا الأمر وحقيقته بقوله:

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ أى: من يخوفونك ممن سوى الله، وقلت لهم: ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾؛ لوضوح الدلائل على انفراده بالاختراع. ﴿ قُلْ ﴾ تبكيئاً لهم: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأصنام، ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ أى: إذا تحققتم أن خالق العالم العلوى والسفلى هو الله وحده، فأخبرونى عن آلهتكم، إن أرادنى الله بضراً هل يقدر أحد منهم على كشف ذلك الضر عني؟ ﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾ أى: ينفع ﴿ هل هن مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ ﴾ وصارفتها عني؟

وقرأ البصرى: «كاشفات» و«ممسكات» بالتثنية، ونصب «ضره» و«رحمته» على المفعول. وتعلق إرادة الضر والرحمة بنفسه عليه السلام، للرد فى نحورهم؛ حيث كانوا يخوفونه من معرة الأوثان، ولما فيه من الإيذان بامحاض النصيحة. وإنما قال: «كاشفات» و«ممسكات» على التانيث، بعد قوله: ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾؛ لأنهن إناث، وهن اللات، والعزى، ومناة، وفيه تهكم بهن، ومعبودهم؛ حيث جعلهم يعبدون الإناث.

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى: كافيلنى فى جميع أمورى من إصابة الخير ودفع الشر. روى أنه ﷺ لما سأله سكتوا، فنزلت (١): ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، لا على غيره أصلاً؛ لعلمهم بأن كل ما سواه تحت قهر ملكوته.

الإشارة: الناس على قسمين: أعداء وأحباب، فإن نظرت إلى الأعداء وجدتهم لا يقدرُونَ أن ينفكوك بشيء إلا ما قدر الله لك، وإن نظرت إلى الأعداء وجدتهم لا يقدرُونَ أن يضروك بشيء إلا ما قدر الله عليك، فافرض الجميع، وتعلق بالله يغفك عن غيره، ويوصل إليك ما قسم لك بالعز والهداء.

ثم توعدهم بالعذاب، فقال:

﴿قُلْ يَاقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ أَسْتَكَدَّ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا
أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أى: على حالتكم التى أنتم عليها، وجهتكم من العداوة التى تمكنتم فيها، فالمكانة بمعنى المكان، فاستعيرت من العين للمعنى، وهى الحال، كما تستعار «هنا». و«حيث»، للزمان، وإنما وضعا للمكان. وقرأ أبو بكر وحماد: «مكانيات»، بالجمع. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتى، فحذف للاختصار، والمبالغة فى الوعيد، والإشعار بأن حاله لا تزال تزداد قوة بنصر الله تعالى له، وتأبيده، ولذلك توعدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾؛ فإن خزي أعدائه دليل غلبته ﷺ ونصره فى الدنيا والآخرة. وقد أخزاهم وعذبهم يوم بدر، ﴿و﴾ سوف تعلمون أيضا من ﴿يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ فى الآخرة؛ لأنه مقيم على الدوام.

ثم ذكر الفاصل بين أهل العذاب المقيم، والنعيم الدائم، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ﴾ أى: لأجلهم، فمن أعرض عنه فقد استحق العذاب الأليم، ومن تمسك به استوجب النعيم المقيم، حال كونه ملتبساً

(١) انظر تفسير القرطبي (٥٨٧١/٦) والبغوى (١٢١/٧).

﴿ بالحق ﴾ ناطقاً به، أو: أنزلناه مُحِقِّين في إنزاله. ﴿ فمن اهتدى فلنفسه ﴾، إنما ينفع به نفسه ﴿ ومن ضل ﴾: بأن أعرض عنه، أو عن العمل به. ﴿ فإنما يضلُّ عليها ﴾، لأن وبال إضلاله مقصور عليها. ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ حتى تجبرهم على الهدى، وما وظيفتك إلا التبليغ، وقد بلغت أى بلاغ.

الإشارة: من ذكّر قوماً فأعرضوا عنه، ولم يرفعوا له رأساً، يقول لهم: يا قوم اعملوا على مكانتكم.. إلخ، وأى عذاب أشد من الحجاب، والبعد عن حضرة الحبيب؟

ثم ذكر دلائل البعث الذى يحل فيه العذاب على أهل الإعراض، فقال:

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ
الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الله يتوفى الأنفس ﴾ أى: الأرواح ﴿ حين موتها ﴾ فيقبضها إليه قبضاً، ﴿ و ﴾ يتوفى الأنفس ﴿ التي لم تمت في منامها ﴾ فيقبضها ويترك شعاعها في البدن، فالتي قضى عليها الموت يتوفاها ظاهراً وباطناً، والتي لم يقض موتها يتوفاها ظاهراً فقط عند النوم، ﴿ فيُمسك التي قضى عليها الموت ﴾، لايردها إلى البدن، ﴿ ويرسل الأخرى ﴾ أى: الدائمة إلى بدنها عند التيقظ ﴿ إلى أجل مُسمى ﴾: هو الوقت المضروب لموتها، فشبّه الدائمين بالموتى، حيث لا يميزون ولا يتصرفون، كما أن الموتى كذلك.

قال الإمام (١): النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحانى، إذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه فى جميع الأعضاء، وهى الحياة، ثم إنه فى وقت النوم ينقطع تعلقه عن ظاهر البدن، دون باطنه، وفى وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر البدن وباطنه، فالموت والنوم من جنس واحد بهذا الاعتبار، لكن الموت انقطاع كامل، والنوم انقطاع ناقص، فظهر أن القادر الحكيم دبّر [تعلق جوهر] (٢) النفس بالبدن على ثلاثة أوجه، أحدها: أنه دبّر أمرها، بحيث يقع ضوء [الروح] (٣) على جميع أجزاء البدن، ظاهره وباطنه، وذلك هو اليقظة.

(١) هو الإمام الرازى، وانظر كلامه فى مفاتيح الغيب (٤٤٨/١٣). والنقل بصرف.

(٢) زيارة ليست فى الأصول الخطية. وأثبتها من تفسير الفقر الرازى.

(٣) فى تفسير الرازى: النفس.

وثانيها: بحيث يقطع عن الظاهر والباطن، وهو الموت. وثالثها: بحيث يقطع عن ظاهر البدن دون الباطن، وهو النوم، فثبت أن النوم والموت يشتركان في كل واحد منهما بتوفى النفس، ثم يمتاز أحدهما بخواص معينة. ومثل هذا التقدير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم. هـ.

وقال سهل: إن الله إذا توفى الأنفس أخرج الروح النورية من لطيف نفس الطبيعي الكثيف، فالذى يتوفى في النوم من لطيف نفس الطبع، لا لطيف نفس الروح. فالنائم يتنفس تنفساً لطيفاً، وهو نفس الروح، الذى إذا زال لم يكن للعبد حركة، وكان ميتاً. وقال: حياة النفس الطبيعي بدور لطيف، وحياة لطيف نفس الروح بذكر الله. وقال أيضاً: الروح تقوم بلطيفة في ذاتها بغير نفس الطبع، ألا ترى أن الله تعالى خاطب الكل في الذر بنفس، وروح، وفهم، وعقل، وعلم لطيف، بلا حضور طبع كثيف. هـ. قلت: وبهذا الاعتبار يقع لها العذاب في البرزخ أو النعيم، وتذهب وتجيء في عالم البرزخ.

وقال في القصد: النفس مع الروح كالجسد مع الظل، والظل يعيل، والأصل لا يعيل، والروح سره، والسر بريه، وهو شعاع الحقيقة الصغرى، والسر نور السر الأعلى، وكل هذا مخلوق، بقدرة الله موثوق، فلا يستفرك غير هذا فتشقى، وفي جهنم من نور البعد تلقى. هـ. قلت: السر الأعلى هو معانى أسرار الذات القائمة بالأشياء، وهو قديم غير مخلوق.

وذكر الثعلبي عن ابن عباس أنه قال: في ابن آدم نفس وروح، بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس هي التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها التحرك والنفس؛ فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه. هـ. هذا، وفي الصحيح: إن الله قبض أرواحنا حيث شاء، وردها حيث شاء. فأطلق القبض على الأرواح. والصواب: أن النفس والروح في هذا واحد؛ بدليل قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ والحاصل: أن الموت: توفى كامل، بإخراج الروح مع شعاعها من البدن، فتذهب الحياة، والنوم: توفى ناقص، بإخراج الروح مع بقاء شعاعها في البدن، به الحياة والتنفس.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أيضاً أنه قال: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقى في المنام، ويتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد الله رجوعها إلى الأجسام، يُمسك الله عدده أرواح الأموات، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها، فذلك قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى فِي الْأَنْفُسِ﴾ .. الآية ^(١).

(١) انظر تفسير السفي (١٨٣/٢).

وعبارة «عز الدين بن عبد السلام»: في كل جسد روحان؛ إحداهما: روح اليقظة، التي أجرى الله العادة أنها إذا كانت في الجسد كان الإنسان متيقظاً، فإذا خرجت من الجسد نام الإنسان، ورأت تلك الروح المنامات، والأخرى: روح الحياة، التي أجرى الله العادة أنها إذا كانت في الجسد كان حياً؛ فإذا فارقت مات، فإذا رجعت إليه حياً، وهاتان الروحان في بطن الإنسان، لا يعلم مقرهما إلا من أطلعه الله عليهما، فهما كجنينين في بطن امرأة. هـ.

والآية منبهة على كمال قدرته، وفيها دلالة على البعث، وأنه كاليقظة سواء، وهذا معنى قوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عجائب قدرته، فيعلمون أن من قدر على إمساك الأرواح في النوم، وردها، قادر على إعادتها وإحيائها. وفي التوراة: كما تنام تموت، وكما تستيقظ تبعث.

الإشارة: الله يتوفى الأنفس المطهرة إلى حضرة قدسه، حين موتها من الهوى، ويقبض الأنفس التي لم تمت من حظوظها في سجن الأكران، وهيكل ذاتها، في حال منام غفلتها، فيمسك التي قضى عليها الموت في حضرة قدسه، فلا يردها إلى شهود حضرة الأشباح، ويرسل الأخرى تجول في حضرة الأشباح وأودية الدنيا، إلى أجل مسمى، إما موتها الحسى أو المعنوى، إن سبقت لها سابقة عناية.

ثم تم الرد على من اعتقد أن الأصنام تلتفع أو تضر، فقال:

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ أى: قريش ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾، فيزعمون أن أصنامهم تشفع لهم عند الله، أى: إنهم اتخذوا - على زعمهم - من دون الله شفعاء بحكمهم، لابتعريف من قبل الله وإخبار، فإن الله لا يقبل الشفاعة من أحد إلا بإذن منه، وإن الذين يقولون ذلك افتراء على الله. ﴿قُلْ أُولَٰئِكَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾، الهمزة لإنكار الواقع واستقبحه، والتوبيخ عليه، أى: قُلْ. اتَّخَذُونَهُمْ شُفَعَاءَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ وَلَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا، فضلاً عن أن يملكو الشفاعة عند الله تعالى.

﴿ قُلْ ﴾ تبكيًا وتجهيلًا لهم: ﴿ لله الشفاعةُ جميعاً ﴾ أى: هو مالِكها، ولا يقدر أحد أن يتصدى لها، إلا أن يكون المشفوع له مرتضىً، والشفيع مأذوناً، وكلاهما مفقود في أصنامهم ، ثم قرر اختصاصه بالشفاعة بقوله: ﴿ له ملكُ السماوات والأرض ﴾ أى: له التصرف فيهما، وفيما فيهما من المخلوقات، لا يملك أحد أن يتكلم في أمر من أموره بدون إذنه ورضاه، ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ يوم القيامة، لا إلى أحد سواه، فيفعل يومئذ ما يريد.

قال السفي: ﴿ له ملك السماوات والأرض ﴾ اليوم ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ يوم القيامة، فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له، فله الملك في الدنيا والآخرة. هـ.

الإشارة: الشفاعة إنما تكون لأهل الجاه عند الله، والجاه يعظم بحسب التوجه، والتوجه يعظم على قدر المحبة، والمحبة على حسب العناية السابقة، ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ فيقدر أنوار التوجه تعظم أنوار المواجهة، ويقدر أنوار المواجهة تتسع المعرفة، وبحسب المعرفة يكون الجاه، ويقدر الجاه تتسع الشفاعة، حتى إن الواحد من الأولياء يشفع في وجود بأسره من أهل زمانه، إما عند موته، أو عند الحساب. والله تعالى أعلم .

ثم ذكر علامة أهل الشرك، فقال:

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ^ط
وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قلت: «وحده»: منصوب عند سيبويه، على المصدر، وعند الفراء: على الحال، والظاهر: أنه أطلق المصدر على اسمه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا ذكر الله وحده ﴾ أى: إذا أفرد الله بالذكر، ولم تذكر معه آلهتهم، فمدار المعنى على قوله: «وحده»، ﴿ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى: انقبضت ونفرت، كقوله: ﴿ .. وَإِذَا ذُكِرْتُ بِكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ ^(١)، ﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ يعنى: آلهتهم، ذكر الله معهم، أو لم يذكر، ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾؛ لفرط افتقارهم بها، ونسيانهم ذكر الله، أو: وإذا قيل لهم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، نفروا؛ لأن فيه نفياً لآلهتهم.

(١) من الآية ٤٦ من سورة الإسراء.

وقال الورتجبي: صورة الآية وقعت على الجاحدين والمتكبرين، الذين ليس في محبتهم إلا متابعة الأشكال والأمثال، من حيث التشبيه والخيال؛ لأن قلوبهم خلقت على مشاكلة الأصداد والأنداد، ولم يكن في قلوبهم سجية أهل المعرفة بالله، فإذا سمعوا ذكر من لا يدخل في الخيال والمثال انتقبضت قلوبهم وصدورهم، ونفرت، وإذا سمعوا ذكر غير الله من الصور والأشباح، سكنت نفوسهم إليها من هابة هبارتهم، وكمال جهالتهم، فهم مثل الصبيان، إذ هم يفرحون بالأفراس الطينية والأسد الخشبية، ولا يطيعون أن ينظروا إلى عذر العاديات، وإلى الضراغم الباديات.. هـ. مختصراً

ولقد بالغ في بيان حالتهم المتقابلتين؛ حيث ذكر الغاية فيهما، فإن الاستبشار: هو أن يمتلئ القلب سروراً، حتى تنبسط له بشرة الوجه وتتهلل، والاشمئزاز: أن يمتلئ القلب غيظاً وغماً، حتى ينقبض منه أديم الوجه، فتظهر عليه الكآبة والحزن. والعامل في «إذا» الأولى: «اشمأزت»، وفي الثانية: ما هو العامل في «إذا» الفجائية، والتقدير: وقت ذكر الذين من دونه قاجأوا وقت الاستبشار.

ثم أمر نبيه بالالتجاء إليه حين إدبارهم، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يا فاطر، وليس بوصف، خلافاً للقرء والمبرد، أي: اللهم يا مظهر السماوات الأرض، ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: ما غاب من أسرار ذاتك وما ظهر، أو: السر والعلانية، أي: التجئ إليه تعالى إذ اغتممت من شدة شكيمتهم في المكابرة والعناد؛ فإنه القادر على الأشياء بجملتها، والعالم بالأحوال برمتها. ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: حكماً يسلمه كل مكابر ومعاند، ويخضع له كل عاتٍ ومارد، فاحكم بيني وبين معاندي، بالنصر عليهم في الدنيا والآخرة.

وعن ابن المسيب^(١): «ما أعرف آية قرئت فدعى عندها إلا أجيب سوى هذه». يعني أنه ﷺ دعا الله أن يحكم بينه وبين عدوه بالاستئصال، فأهل؛ لأنه رحمة. وعن الربيع بن خثيم - وكان قليل الكلام -: أنه أخبر بقتل الحسين ﷺ، وقالوا: الآن يتكلم، فما زاد على أن قال: «أر قد فعلوا؟»، وقرأ: ﴿اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية، ثم قال على إثرها: قُتِلَ مَنْ كَانَ رَسُولَ ﷺ يُجْلِسُهُ فِي حَجَرِهِ، وَيُقْبِلُ فَاهُ^(٢). هـ.

الإشارة: ينبغي للمؤمن أن يكون متعاكساً مع المشرك، إذا سمع كلمة التوحيد «لا إله إلا الله، فرح وانبسط، وإذا ذكر اللغو واللعب اشمأز وانقبض، والعابد أو الزاهد إذا سمع ما يدل على الطاعة والاستعداد للآخرة فرح ونشط،

(١) في السفي: الربيع بن المسيب.

(٢) انظر: تفسير السفي (٢/١٨٥).

وإذا سمع ما يدلّ على الدنيا والبطالة اشعّأز وانقبض، والمريد السائر، إذا سمع ما يقرب إلى الله فرح وانبسط، وإذا سمع ما يبعد عنه من ذكره السوى اشعّأز وانقبض، وأما الواصل الكامل فلا ينقبض من شيء؛ لزيادته إلى الله بكل شيء؛ لأنه عرف الله في كل شيء، وسمع منه في كل شيء، فلا يحجبه عن الله شيء، قد فنيت دائرة حسه، واتسعت دائرة معرفته، يأخذ النصيب من كل شيء، ولا يأخذ النصيب منه شيء.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمته الله: في بعض كتب الله المنزلة على أنبيائه، يقول الله تعالى: من أطاعني في كل شيء، بهجرانه لكل شيء، أطعته في كل شيء، بأن أتجلى له دون كل شيء، حتى يراني أقرب إليه من كل شيء. هذه طريق أولى، وهي طريق السالكين. وطريق أخرى كبرى: من أطاعني في كل شيء، بإقباله على كل شيء، لحسن إرادة مولاه في كل شيء، أطعته في كل شيء، بأن أتجلى له في كل شيء، حتى يراني كأنني كل شيء. هـ.

ثم ذكر وبال الشرك، فقال:

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا فِتْنَةً لَهُمْ مِنْ سُوِّ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَالٌ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَّا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو أن للذين ظلموا ﴾ بالشرك، ﴿ ما في الأرض جميعاً ﴾: من الأموال والذخائر، ﴿ ومثله معه ﴾ زائد عليه، ﴿ لا فتنة لهم من سوء العذاب ﴾ أى: شدته، ﴿ يوم القيامة ﴾ أى: لو أن لهم جميع ما في الدنيا لجعلوا ذلك فدية لأنفسهم من العذاب الشديد، وهيئات هيئات، ولات حين مناص. وهذا كما ترى وعيد شديد لأهل الشرك، وإقناط كلّ لهم. ﴿ وبدأ لهم من الله مالاً يكونوا يحتسبون ﴾ أى: ظهر لهم من فنون العقوبات ما لم يكن في ظلمهم وحسبانهم، ولم يحدثوا به نفوسهم. وهذا غاية من الوعيد، لا غاية وراءها، ونظيره في الوعد: قوله تعالى: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ ^(١).

(١) من الآية ١٧ من سورة السجدة.

﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾ أى: ظهر لهم سيئات أعمالهم التى كسبوها، أو: سيئات كسبهم حين تعرض عليهم صحائفهم، وكانت خافية عليهم، أو: عقاب ذلك. ﴿وحاق بهم﴾ أى: نزل بهم وأحاط، ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾ أى: جزاء هزئهم بالإسلام، ومن جاء به، ومن تبعه.

الإشارة: الآية تجرّ ذيلها على كل ظالم لم يتب، فيتمنى الفداء بجميع ما فى الأرض، فلا يمكن منه. وقوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكرنوا يحسبون﴾، هذه الآية عامة، لا يفلت منها إلا الفرد النادر، الذى وصل إلى غاية المعرفة العيانة، ومن لم يصل إلى هذا المقام فهو مقصر، يظن أنه فى عليين، وهو فى أسفل سافلين، ولذلك عظم خوف السلف منها، فقد جزع محمد بن المنكدر عند الموت، فقيل له فى ذلك، فقال: أخشى آية من كتاب الله: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكرنوا يحسبون﴾ فأنا أخشى أن يبدو لى من الله ما لم أحتسب^(١). وعن سفيان أنه قرأها، فقال: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء. هـ.

وفى الإحياء: من اعتقد فى ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق، وخلاف ما هو عليه؛ إما برأيه أو معقوله ونظره، الذى به يجادل، وعليه يعول، وبه يغتر، وإما بالتقليد، فمن هذا حاله ربما ينكشف له حال الموت بطلان ما اعتقده جهلاً، فيتطرق له أن كل ما اعتقده لا أصل له، فيكون ذلك سبباً فى شكه عند خروج روحه، فيختم له بسوء الخاتمة، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكرنوا يحسبون﴾ ويقول: ﴿هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾^(٢).. الآية. انظر عبارته فى كتاب الخوف، وقريباً منه فى القوت، عصمنا الله من سوء القضاء، وختم لنا بالسعادة التامة بمئه وكرمه.

ثم ذكر حالة أخرى من قبائح أهل الشرك، فقال:

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَتْهُ نِعْمَةٌ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾

(١) انظر تفسير البغوى (١٢٤/٧).

(٢) الآية ١٠٣ من سورة الكهف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ﴾ أى: جنسه ﴿ضُرٌّ﴾: فقر أو غيره ﴿دَعَانَا﴾ معرضاً عما سوانا. والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، من ذكر حالتي أهل الشرك القبيحتين، وما بينهما اعتراض مؤكد للإنكار عليهم، أى: إنهم يشتمون عن ذكر الله وحده، ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسهم الضر دعوا من أشمازوا عن ذكره، دون من استبشروا بذكره، فذاقوا فعلهم.

فإن قلت: حق الاعتراض أن يؤكد المعارض بينه وبينه؟ قلت: مافى الاعتراض من دعاء الرسول ﷺ ربه، بأمر من الله، وقوله: ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾، ثم ما عقبه من الوعد العظيم، تأكيداً لإنكار أشمئزازهم، واستبشارهم، ورجوعهم إلى الله فى الشدائد، دون آلهتهم، كأنه قيل: قل: يارب لا يحكم بينى وبين هؤلاء، الذين يجترون عليك مثل هذه الجراءة، إلا أنت، ثم هدم بقوله: ولو أن هؤلاء الظلمة ما فى الأرض جميعاً لافتدوا به. انظر النسفى.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوْلَانَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾: أعطيناه إياها، تفضلاً؛ فإن التخويل مختص به، لا يطلق على ما أعطى جزاء، فإذا أعطيناه ذلك ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ أَوْتِيَّتِهِ﴾ أى: ذلك التخويل أو الإنعام ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منى بوجوه كسبه، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^(١) أى: على علم منى بأتى سأعطاه، لما فى من فضل واستحقاق، أو: على علم من الله تعالى باستحقاقى لذلك المال، فتذكير الضمير إما لعوده على التخويل المأخوذ من «خولناه»، أو: بتأويل النعمة بمعنى الإنعام، أو: المراد بشيء من النعمة، أو: يعود على «ما، إذا قلنا: موصولة، لا كافة، أى: إن الذى أوتيته على علم منى.

قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أى: ليس ما خولناه نعمة؛ بل هى محنة وابتلاء له؛ ليظهر كفره أو شكره. ولما كان الخبر مؤثلاً ساغ تأنيث المبتدأ لأجله، وقرئ: «بل هو فتنة»، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كذلك، وأن التخويل إنما كان فتنة، وفيه دلالة على أن المراد بالإنسان الجنس.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى: قد قال هذه المقالة، وهى: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من قبلهم، كقارون وقومه، قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^(٢) وقومه راضون بمقالته، فكانهم قالوها معه. ويجوز أن يكون فى الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها. ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا، وما جمعوا منها شيئاً حين ينزل بهم العذاب، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أى: جزاء سيئات ما كسبوا، وهو العذاب فى الدنيا والآخرة، أو: سمى جزاء السيئة سيئة؛ للازدواج، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾^(٣) أى: فأصابهم وبال

(١) من الآية ٧٨ من سورة القصص.

(٢) من الآية ٤٠ من سورة الشورى.

ما كسبوا، ﴿والذين ظلموا من هؤلاء﴾: المشركين، يعنى قريشا، ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ من الكفر والمعاصي، كما أصاب أولئك. والصين للتأكيد. وقد أصابهم ذلك، حيث قحطوا سبع سنين، وقتل صناديدهم يوم بدر. ﴿وما هم بمعجزين﴾: بفائتين من عذاب الله

الإشارة: هذه الخصال الأهمية توجد في كثير من هذه الأمة، إذا أصابت العبد هذه ألهرية رجع إلى الله، فإذا فرج عنه بسبب عادي، كما هو دأب عالم الحكمة، أسند الفرج إلى ذلك السبب، فيقول: فلان فرج عني، أو الدواء الفلاني شفاني، وهو شرك، كاد أن يكون جلياً. والواجب: النظر إلى فعل الله وقدرته، وإسقاط الوسائط من نظره، ولو وجدت حكمة، فالكمال فعلها وجوداً، والغيبة عنها شهوداً. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما جرت به عادته في خلقه، من تعاقب العسر واليسر، والقبض والبسط، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أى: أقالوا ذلك ولم يعلموا، أو: أغفلوا ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ أى: يوسعه ﴿لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى: يضيق لمن يشاء بلا سبب ولا علة، أو: يجعله على قدر القوت من غير زيادة ولا نقصان، وهو من إتمام النعمة. وفي الحكم: من تمام النعمة عنك أن يعطيك ما يكفيك، ويمتلك ما يطغيك، (١). ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾: البسط والقبض ﴿لَآيَاتٍ﴾ دالة على أن الحوادث كلها من الله بلا واسطة، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، إذ هم المستدلون بها على أن القابض والباسط هو الله، دون غيره.

الإشارة: قد يبسط الله الرزق لمن لا خلاق له عنده، ويقبضه عن أحب الخلق إليه، وهو الغالب، فرزق المتقين كفاف، ورزق المترفين جُزاف.

ولما ربح المشركين، وأطرب الكلام فيه، وأبرق وأرعد، رغب في التوبة للكافة، استعطافاً وترغيباً بعد الترهييب، فقال:

(١) انظر الحكم، بتبويب المتقي الهندي / ص ٣٧ حكمة ٢٢٥.

﴿ قُلْ يَعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ أي: أفرطوا في الجناية عليها، بالإسراف في المعاصي، والغلو فيها، ﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾: لا تيأسوا من مغفرته أولاً، وتفضل به بالرحمة ثانياً، ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾، بالعفو عنها، إلا الشرك. وفي قراءة النبي ﷺ: «يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي» (١) لكنها لم تواتر عنه.

والمغفرة تصدق بعد التعذيب وقبله، وتقيدده بالتوبة خلاف الظاهر، كيف، وقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (٢) ظاهر في الإطلاق مما عدا الشرك؟ ولما يدل عليه التعليل بقوله: ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ على المبالغة، وإفادة الحصر، والوعد بالرحمة بعد المغفرة. وما في ﴿عبادي﴾ من الدلالة على الذلة والاختصاص، المقتضيين للترحم. ﴿إنه هو الغفور﴾؛ يستر عظام الذنوب ﴿الرحيم﴾ يكشف فظائع الكروب. والآية، وإن نزلت في «وحشى»، قاتل حمزة، أو في غيره، لا تقتضي التخصيص بهم، فإن أسباب النزول لا تخصص. وعن النبي ﷺ: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية» (٣).

ولما نزلت في شأن وحشى، وأسلم، قال المسلمون: هذه له خاصة، أو للمسلمين عامة؟ فقال النبي ﷺ: «بل هي للمسلمين عامة» (٤). وقال قتادة: إن ناساً أصابوا ذنباً عظيماً، فلما جاء الإسلام أشفقوا ألا يناب عليهم، فدعاهم الله تعالى بهذه الآية (٥). وقال ابن عمر: نزلت هذه الآيات في عياض بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد،

(١) أخرجه الترمذي في (التفسير - باب ومن سورة الزمر، ح ٣٢٣٧) والبغوي في شرح السنة (٣٨٤/١٤) وفي التفسير (١٢٦/٧) من حديث أسماء بنت يزيد، قال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) الآية ٤٨، ١١٦ من سورة النساء.

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٥/٥) وابن جرير (١٦/٢٤) والبيهقي في شعب الإيمان (باب ٤٧ ح ٧١٣٧) من حديث ثوبان رضى الله عنه.

(٤) عزاه السيوطي في الدر (٦٢٠/٥) للطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، بسند لين. عن ابن عباس رضى الله عنه.

(٥) أخرج البخاري في (التفسير - تفسير سورة الزمر - باب «يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم» ح ٤٨١٠) عن سعيد جبير، عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك كانوا قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا النبي ﷺ، وقالوا: إن الذي تدعونا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزلت هذه الآية.

ونفر كانوا قد أسلموا ثم قُتلوا، فكنا نقول: لا يقبل الله منهم صرفاً ولا عدلاً، فنزلت الآية، وكان عمر بن الخطاب كاتباً، فكتبها بيده، ثم بعث بها إلى عياش بن أبي ربيعة والوليد، وإلى أولئك نفر، فأسلموا، وهاجروا^(١).

قال عليّ رضي الله عنه: «ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية»^(٢). فما يُقنط الناس ويشدد عليهم بعد هذه الآية إلا جهول، أو جامد، قال زيد بن أسلم: إن رجلاً كان في الأمم الماضية مجتهداً في العبادة، فيشدد على نفسه، ويقنط الناس من رحمة الله، فمات، فقال: أي رب؟ مالي عندك؟ فقال: النار. فقال: يا رب؟ أين عبادتي؟ فقال: إنك كنت تُقنط الناس من رحمتي في الدنيا، فالיום أقنطك من رحمتي. وعن عليّ - كرم الله وجهه - قال: الفقير كل الفقير انذى لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذاب الله، ولا يرخص لهم في معاصي الله. هـ.

ثم حضّ على التوبة لتحقيق المغفرة، فقال: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: ارجعوا إليه بالتوبة والإخلاص. فالإنابة أخص من التوبة؛ لأن التوبة: مطلق الدم على الزلة، والإنابة: تحقيق التوبة والنهوض إلى الله بإخلاص التوجه. قال رضي الله عنه: «من السعادة أن يطول عمر الرجل ويرزقه الله الإنابة»^(٣). قال القشيري: وقيل الفرق بين الإنابة والتوبة: أن التائب يرجع خوفاً من العقوبة، والمنيب يرجع حياءً منه تعالى. هـ.

والأمر بالتوبة لا يدل على تقييد المغفرة في الآية بها، كما تقدم؛ إذ ليس المدعى: أن الآية تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب، حتى يغنى عن الأمر بها، وإنما المراد: الإخبار بسعة غفرانه، سواء كان مع التوبة أم لا. قال ابن عرفة: واعلم أن التوبة من الكفر مقطوع بها، ومن المعاصي، قيل: مظلونة، وقيل: مقطوع بها، هذا في الجملة، وأما في التعيين، كتوبة زيد بن عمرو، فلا خلاف أنها مظلونة. هـ. قلت: قد اقترن بتوبة زيد من الأخبار ما يقطع بصحتها.

ثم قال: وأما المعاصي إذا لم يتب فهو في المشيئة، مع تغليب جانب الخوف والعقوبة، واعتقاد أن العذاب أرجح، وأما العصيان بالقتل، ففيه خلاف بين أهل السنة، فقيل: يخلد في النار، وقيل: في المشيئة. هـ. وقال أبو الحجاج الشيرازي - رحمه الله:

وتوبة الكافر تحوّل أثره	لا خلاف فيه بين الأمة
وتوبة المعاصي على الإرجاء	وقيل كالأول بالسواء
إذ لا يكون دونه في الحال	وهو عندي أحسن الأقوال
دليله: تنابح الظواهر	شاملة مسلم وكافر. هـ

(١) أخرجه الطبري (١٥/٢٤) وانظر: أسباب النزول للواحدى (ص/٢٨٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٦/٢٤).

(٣) رواه الحاكم (٢٤٠/٤) وصححه، ووافقه الذهبي، من حديث جابر رضي الله عنه.

﴿وَأَسْلَمُوا لَهُ﴾ أى: اخضعوا له، وانقادوا لأمره. قال القشيري: أى: أخلصوا فى طاعتكم، والإسلام - الذى هو الإخلاص بعد الإنابة -: هو أن يعلم نجاته بفضلِهِ، لا بإنابته؛ فبفضله يصل إلى إثابته، لا بإنابته يصل إلى فضله. هـ. ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ فى الدنيا، أو فى الآخرة، إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب. قال القشيري: العذاب هنا، قيل: الفراق، وقيل: هو أن يفوته وقت الرجوع بسوء الإياس. هـ. ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾: لا تملعون منه أبداً.

الإشارة: لا يعظم عندك الذنب عظمة تصدك عن حسن الظن بالله، فإن من استحضر عظمة ربه صغر فى عينه كل شيء. وتذكر قضية الرجل الذى قتل تسعاً وتسعين نفساً، ثم سأل راهباً: هل له توبة؟ فقال: لا، فكمل به المائة، ثم سأل عارفاً، فقال له: ومن يحول بينك وبينها؟ لكن أخرج من القرية التى كنت تعمس فيها، واذهب إلى قوم يعبدون الله فى مكان، فذهب، فأدركه الموت فى الطريق، فلما أحس بالموت انحاز بصدره إلى القرية التى قصدها، ثم مات، فاختصمت فيه ملائكة العذاب وملائكة الرحمة، فقال لهم الحق تعالى^(١): فیسوا من القرية التى خرج منها، إلى القرية التى قصدها، فإلى أيهما هو أقرب هو منها؟ فوجدوه أقرب إلى القرية التى قصدها بشبر، فأخذته ملائكة الرحمة^(٢). إلى غير ذلك من الحكايات التى لا تحصى فى هذا المعنى.

وتأمل قضية الشاب الذى أتى النبى ﷺ يبكى، فقال: ما يبكيك؟ قال: ذنوبى. فقال له ﷺ: إن الله يغفر ذنوبك، ولو كانت مثل السموات السبع، والأرضين السبع، والجبال الرواسى، فقال: يا رسول الله، ذنب من ذنوبى أعظم من السموات السبع والأرضين السبع، فقال له: ذنوبك أعظم أو العرش؟ قال: ذنوبى، فقال له: ذنوبك أعظم أو الكرسي؟ قال: ذنوبى، فقال: ذنوبك أعظم أو إلهك؟ فقال: الله أعظم، فقال: فأخبرنى عن ذنبك. قال: إني أستحيى، فقال: فأخبرنى، فقال: إني كنت نباشاً أنبش القبور منذ سبع سنين، حتى ماتت جارية من بنات الأنصار، فنبتشتها، وأخرجتها من كفنها، فمضيت، ثم غلبنى الشيطان، فرجعت، فجامعتها، فقامت الجارية، وقالت: الويل لك يا شاب من ديان يوم الدين، يوم يضع كرسيه للقضاء، يأخذ من الظالم للمظلوم، تركتلى عريانة فى عساكر الموتى، وأوقفتنى جنباً بين يدي الله، فقام النبى ﷺ وهو يضرب فى قفاه، وهو يقول: يا فاسق، أخرج، ما أقربك من النار، فخرج الشاب تائباً إلى الله تعالى، حتى أتى عليه ما شاء الله، ثم قال: يا إله محمد وآدم وحواء، إن كنت

(١) بروحى، كما تفيد رواية البخارى. وفى رواية مسلم: «فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم»، فقال: فیسوا... الحديث.

(٢) أخرج القصة البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، ح ٣٤٧٠) ومسلم فى (الدعوة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، ٢١١٨/٤، ح ٢٧٦٦) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

غفرت لي فأعلم محمداً وأصحابه، وإلا فأرسل علي ناراً من السماء فأحرقني بها، ونجني من عذاب الآخرة، فجاء جبريل، فقال: السلام يقرئك السلام، فقال: هو السلام وإليه يعود السلام، قال: يقول: أنت خلقت خلقي؟ قال: بل هو الذي خلقهم. قال: يقول: ترزقهم؟ قال: بل هو الذي يرزقهم، قال: يقول: أنت تتوب عليهم؟ قال: بل هو الذي يتوب عليهم. قال: فتب على عبيدي، فإني تبت عليه، فدعا النبي ﷺ الشاب، وتاب عليه، وقال: إن الله هو التواب الرحيم. هـ. ذكره السمرقندي والعلبي (١).

ثم أمر باتباع القرآن بعد الإنابة، فقال:

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ أَيْتِي فَكَذَّبْتُ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتُ وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: القرآن، فإنه أحسن الحديث، ولا أحسن منه لفظاً ومعنى، أو: الأمور به دون المنهى، أو: العزائم دون الرخص، كقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (٢)، أو: الناسخ دون المنسوخ، ولعله ما هو أعم، فيصدق بكل ما يقرب إلى الله، كالإنابة، والطاعة، ونحوهما، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً﴾: فجأة، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾: بمجيئه؛ لتداركوا وتأنهوا.

أمرتكم بذلك كراهة ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾، والتنكير للتكثير، كما في قوله: ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا أَحْضَرْتُ﴾ (٣)، أو: يراد به بعض الأنفس، وهي نفس الكافر، أو: يراد نفس متميزة إما بلجاج في الكفر شديد أو بعقال عظيم:

(١) غفر الله لشيخنا ابن عجيبة، لقد كان في غلي عن ذكر هذه الرواية الغريبة.

(٢) من الآية ١٨ من سورة الزمر.

(٣) من الآية ١٤ من سورة التكوين.

﴿يا حسرتا﴾ ، بألف بدل من ياء الإضافة؛ لأن العرب تقلب ياء المتكلم ألفاً في الاستغاثة، فيقولون: يا ويلتنا، ياندامتنا، فيخرجون ذلك على لفظ الدعاء، وربما ألحقوا بها الهاء، فيقال: يا رياه، يا مولاه، وربما ألحقوا ياء المتكلم، جمعاً بين العوض والمعوذ، وبذلك قرأ أبو جعفر: «يا حسرتاي، أي: ياندامتاه وياحزنانه». ﴿على ما فرطت﴾: قصرت. و «ما»: مصدرية، أي: على تقصيري وتفريطي ﴿في جنب الله﴾ أي: جانبه وحقه وطاعته، أو: في ذاته، أي: معرفة ذاته، أو في قربه، من قوله: ﴿والصاحب بالجنب﴾^(١)، أو: في سبيل الله ودينه، والعرب تسمى السبب الموصل إلى الشيء جنباً، تقول: تجرعت في جنبك غصصاً، أي: لأجلك، أو: في الجانب الذي يؤدي إلى رضوانه، وهو توحيده والإقرار بنبوة نبيه محمد ﷺ. وقرئ «في ذكر الله». ﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾ أي: المستهزئين بدين الله. قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر بأهلها. وإن: مخففة، والجملة: حالية، أي: فرطت وأنا ساخر.

﴿أو تقول لو أن الله هداني﴾: أعطاني الهداية، ﴿لكنك من المتقين﴾: من الذين يتقون الشرك. قال الإمام [أبو منصور]^(٢): هذا الكافر أعرف بهداية الله من المعتزلة. وكذلك أولئك الكفرة، الذين قالوا لأتباعهم: ﴿لو هدانا الله لهديتناكم﴾^(٣) يقولون: لو وفقنا الله للهداية، وأعطانا الهدى لدعوناكم إليه، ولكن علم منا اختيار الضلالة والغواية فخذلنا ولم يوفقنا. والمعتزلة يقولون: بل هداهم وأعطاهم التوفيق؛ لكنهم لهم يهتدوا، انظر النسخة.

﴿أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة﴾ أي: رجعة للدنيا، ﴿فأكون من المحسنين﴾: الموحدين الطائعين. و «أو»: للدلالة على أنها لا تخلو من هذه الأقوال، تعبيراً وتحسراً، وتعليلاً بما لا طائل تحته.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ أي: قد جاءتك آياتي، وبيئت لك الهداية من الغواية، وسبيل الحق من الباطل، فتركت ذلك، وضيعت، واستكبرت عن قبوله، وآثرت الضلالة على الهدى، واشتغلت بضد ما أمرت به، وإنما جاء التضييع من قبلك، فلا عذر لك.

و «بلى»: جواب للنفي مقدر، وهو نتيجة القياس الاستثنائي، أي: لو أن الله هداني لاهتديت وكنت متقياً، لكنه لم يهدني، وإنما أخره؛ لأنه لا بد من حكاية أقوال النفس على ترتيبها، ثم يذكر الجواب في الجملة. والله تعالى أعلم.

(٢) في الأصول [ابن منصور] والمثبت هو الذي في النسخة.

(١) من الآية ٣٦ من سورة النساء.

(٣) كما جاء في الآية ٢١ من سورة إبراهيم.

الإشارة: واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم، أى: خذوا فى الجد والاجتهاد فى اتباع الأحسن والأرجح، فى الأفعال، والأقوال، والعقائد، من قبل أن ينزل بكم العذاب. ولا عذاب أشد من الحجاب، والتخلف عن مقامات الأحياء، فى وقت لا ينفع التأسف ولا التحسر. قال القشيري: هذا فى أقوام يرون أمثالهم وأشكالهم، تقدموا عليهم فى أحوالهم، فشكوا ما سلف من تقصيرهم، ويرون ما وفق أولئك إليه من أعالي الرتب، فيعضون بتواجد الحسرة على أنامل الخيبة. هـ. وفى ذلك قيل وأنشد:

السَّابِقُ السَّابِقَ قَوْلًا وَفِعْلًا حَذَرَ النَّفْسَ حَسْرَةَ الْمَسْبُوقِ

وهو معنى قوله: «أن تقول نفس» كانت مقصرة فى الدنيا: «يا حسرتنا على ما فرطت فى جنب الله» أى: فى السير إلى معرفة ذاته، «وإن كنت لمن الساخرين» ممن يتعاطى ذلك، ويخرب ظاهره لتعمير باطنه، فكنت أسخر منه وأضحك عليه، أو تحتج بالقدر، فتقول: لو أن الله هدانى لسلوك طريقه لكنت من المتقين الكاملين فى التقوى. ولا ينفع الاحتجاج بالقدر فى دار التكليف مع بيان الطريق. أو تقول حين ترى العذاب، وهو فراق الأحياء والتخلف عنهم: لو أن لى كرة إلى الدنيا، فأجهد نفسى حتى أكون من أهل الإحسان، الذين يعبدون الله على العيان، بلى قد جاءتك آياتى، وهم الدعاة إلى فى كل زمان «ما ننسخ من آية أو ننسها بخير منها أو مثلها»، فكذبت بها، واستكبرت عن الخضوع لهم، وكنت من الجاحدين لطريق التربية.

ثم ذكر مآل أهل التكذيب والصدق، فقال:

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ٦٠ ﴿ وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ٦١ ﴿

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله ﴾، بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه، كاتخاذ الولد والشريك ونفى الصفات عنه، ﴿ وجوههم مسودة ﴾ بما ينالهم من الشدة والكآبة. والجملة: حال، على أن الرؤية بصرية، أو: مفعول ثان لها، إن كانت علمية. ﴿ أليس فى جهنم مثوى ﴾ أى: مقام ﴿ للمتكبرين ﴾ عن الإيمان والطاعة، وهى إشارة إلى قوله: «واستكبرت»، ولا ينافى إشعاره بأن تكبرهم علة لاستحقاقهم النار أن يكون دخولهم فيها؛ لأجل أن كلمة العذاب حقّت عليهم؛ لأن كبرهم مسبب عنها.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي، أى: من جهنم. ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: بفوزهم، مصدر ميمي، يقال: فاز بالمطلوب: ظفر به، والباء متعلقة بمحذوف، حال من الموصول، مفيدة لمقارنة نجاتهم من العذاب بنيل الثواب، أى: ينجيهم الله من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم، أو: بسبب فوزهم بالإيمان والأعمال الحسنة في الدنيا، ولذا قرأ ابن عباس رضي الله عنه: «بمفازتهم بالأعمال الحسنة». قال القشيري: كما وقَّاهم اليوم من المخالفات، وحمَّاهم، فكَذلك غداً عن العقوبة وقَّاهم، فالمتقون فازوا بسعادة الدارين، اليوم عصمة، وغداً نعمة، واليوم عناية، وغداً كفاية. هـ.

﴿لَا يَمْسُهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: إما حال أخرى من الموصول، أو: من مفازتهم وقيل: تفسير للمفازة، كأنه قيل: وما مفازتهم؟ فقيل: لا يمسهم السوء، أى: ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم، فلا يمس أبدانهم سوء، ولا قلوبهم حزن.

الإشارة: ويوم القيامة ترى الذين كَذَّبُوا على الله، بالدعوى الباطلة، من القلوب الخاوية، فكل من ادعى حالاً ليست فيه، أو: مرتبة لم يتحققها، فالآية تجر ذيلها عليه، واسوداد وجوههم بافتضاحهم. قال القشيري: هؤلاء الذين ادَّعَوْا أحوالاً، ولم يَصُدِّقُوا فيها، وأظهروا المحبة لله، ولم يتحققوا بها، وكفى بهم ذلك افتضاحاً، وأنشدوا:

ولما ادَّعَيْتُ الْحُبَّ قَالَتْ: كَذَبْتَنِي فما لى أرى الأعضاء منك كواسياً؟

فما الْحُبُّ حَتَّى تَنْزِفَ الْعَيْنُ بِالْبُكَاءِ وتخرسَ حَتَّى لَا تَجِيبَ الْمَنَادِيَا^(١).

وينجى الله الذين اتَّقَوْا شهود السُّوَى من كل مكروه، بسبب مفازتهم بمعرفة الله في الدنيا، لا يمسهم السوء، أى: غم الحجاب، لرفعه عنهم على الدوام، ولا هم يحزنون على فوات شيء؛ إذ لم يفهم شيء؛ حيث فازوا بالله، «ماذا فَقَدَ من وجدك»؟^(٢).

(١) انظر: ديوان قيس بن الملوح (مجنون ليلى) ص ٢١٣. وقال في اللمع (٣٢١): كان أبو الحسن سَرَى السَّقَطَى - رحمه الله - كثيراً. يشد هذه الأبيات:

ولما ادَّعَيْتُ الْحُبَّ قَالَتْ: كَذَبْتَنِي فما لى أرى الأعضاء منك كواسياً
فما الْحُبُّ حَتَّى يَلْصُقَ الْجَدُّ بِالْحَشَا وتذبلُ حَتَّى لَا تَجِيبَ الْمَنَادِيَا
وتنحلُ حَتَّى لَا يَبْقَى لَكَ الْهَوَى سوى مقلَّةٍ تَبْكِي بها أو تناجيا

(٢) جزء من مناجاة الشيخ أحمد بن عطاء الله المكندي: انظر الحكم بتوبيخ المتقى الهندي ص ٤٢.

قال الورتجبي: بمفازتهم: ما كان لهم في الله في أزل أزله، من محبتهم، وقبولهم بمعرفته، وحسن وصاله، ودوام شهود كماله. لا يمسهم سوء: لا يلحقهم، فلا يلحق بهم في منازل الامتحان، تفرقة عن مقام الوصلة، وحجاب عن جمال المشاهدة، انظر تعامه. وحاصله: فازوا بإدراك السعادة الأزلية. وعن جعفر الصادق: بمفازتهم: بسعادتهم القديمة، يعنى لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ (١)... الآية. قاله المحشى الفاسي.

ثم برهن على البعث الموعود به قبل، فقال:

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ
اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ
أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ
الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾: جامد أو حي، خير أو شر، إيمان أو كفر، لا بالجبر، بل بمباشرة الكاسب في عالم الحكمة، وفيه إثبات القدرة والعلم، وهما مصححان للبعث والجزاء بالخير والشر، لمحسن أو مفسد. قال القشيري: ويدخل تحت قوله: ﴿كل شيء﴾ كسب العباد، ولا يدخل كلامه؛ لأن المخاطب لا يدخل تحت خطابه ولا صفاته. هـ. والمراد بالكلام: المعاني القديمة، وأما الألفاظ والحروف فهي مخلوقة، كما هو مقرر في محله. ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أي: حافظ يتولى التصرف فيه كيف يشاء.

﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ أي: مفاتيح خزائنها، واحدها، مَقْلِيدٌ، أو: إقْلِيدٌ (٢)، أو: لا واحد لها، وأصلها فارسية، والمراد: أنه مالکها وحافظها، وهو من باب الكناية؛ لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي يملك مقاليدها، ومنه قولهم: فلان ألقيت إليه مقاليد الملك، أي: مفاتيح التصرف قد سلمت إليه، وفيه مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد؛ لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها.

(١) الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

(٢) انظر لسان العرب (٥/٣٧١٨، مادة قلد).

وعن عثمان: أنه سأل النبي ﷺ عن العقاليد، فقال ﷺ: «هي لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير» (١). ومعناه: أن لله هذه الكلمات، يوحد بها ويمجد، وهي مفاتيح خير السموات والأرض، ومن تكلم بها أدرك ذلك في الدنيا أو في الآخرة، ومرجعها إلى التحقق بالعبودية في الظاهر، ومعرفة الذات في الباطن، وهما السبب في كل خير، وبهما يدرك العبد التصرف في الوجود بأسره، فتأمله.

﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ أي: كفروا به بعد كونه خالق كل شيء، ومتصرفاً في ملكه كيف يشاء، بيده مقاليد العالم العلوي والسفلي، فكفروا بعد هذا بآياته التكوينية، المنصوبة في الآفاق وفي الأنفس، والتنزيلية، التي من جماتها هذه الآيات الناطقة بذلك، ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ خساراً لا خسر وراءه، وقيل: هو متصل بقوله: ﴿وينجي الله الذين اتقوا﴾، وما بينهما اعتراض.

﴿قل أغير الله تأمروني أعبدُ أيها الجاهلون﴾ به، وكانوا يقولون له: أسلم لبعض آلهتنا نؤمن باللهك؛ لفرط جهالتهم. «وغير»: منصوب بـ «أعبد»، «تأمروني»: اعتراض، أي: أتأمروني أعبد غير الله بعد هذا البيان التام؟ وحذف نون الوقاية وإثباتها مدغمة وغير مدغمة، كل قرئ به.

﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك﴾: من الأنبياء - عليهم السلام: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾، كلام وارد على طريق الفرض، لتهيج الرسل، وإقنات الكفرة، والإيدان بغاية بشاعة الإشراك وقبحه، وكونه بحيث ينهي عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره بمن عداه أو: الخطاب له، والمراد غيره. وإفراد الخطاب مع كون الموحى إليهم جماعة، باعتبار خطاب كل واحد في عصره، واللام موطئة لقسم محذوف، والثانية لام الجواب، وهو ساذ مسدّ جواب الشرط، وإطلاق الإحباط لاحتمال أن يكون من خصائصهم؛ لأن الإشراك منهم أشد، وأن يكون مقيداً بالموت، كما صرح به في آية البقرة (٢)، وهو مذهب الشافعي، وذهب مالك إلى أن الشرك يحبط العمل قبل الردة، مات عليها، أو رجع إلى الإسلام، فيلتنقض وضوؤه وصومه. وما قاله الشافعي أظهر.

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (باب ذكر الأسماء التي تتبع إثبات الباري ص ١٣) وابن السلي في عمل اليوم والليلة (ح ٧٢) والعقيلي في الضعفاء (ترجمة مغلد أبي هذيل ٢٣١/٤) من حديث ابن عمر. وعزاه المناوي في الفتح السماوي لأبي بطل في مسنده. وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١٤٤/١) وقال: «هذا حديث لا يصح». وانظر الفتح السماوي (٩٦٨/٣) - (٩٧٠) مع حاشية المحقق.

(٢) في قوله تعالى: «... ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة..» الآية ٢١٧.

﴿بل الله فاعبد﴾، رد لما أمره به من عبادة آلهتهم، كأنه قال: لاتعبد ما أمرك بعبادته؛ بل إذا عبدت فاعبد الله، فحذف الشرط، وأقيم تقديم المفعول مقامه. ﴿وكن من الشاكرين﴾ على ما أنعم به عليك؛ حيث جعلك رأس المرحدين وسيد المرسلين.

الإشارة: الله مظهر كل شيء؛ حيث تجلى بها، وهو قائم بكل شيء. له مفاتيح غيوب السماوات والأرض، لا يطلع عليها إلا من خضع لأوليائه، الذين هم آيات من آياته. والذين كفروا بآيات الله، الدالة على الله، وهم أولياء الله، أولئك هم الخاسرون، فلا خسران أعظم من خيبة الوصول؛ إذ لا يخلو المفروق عن الله من الشرك الخفى، فإذا أمر المرید بإظهار شيء من سره، أو مdahنة غيره، قال: «أفغير الله تأمرونى أعبد أياها الجاهلون». «ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت» بأن طالعت غيرى فى شرك، أو تشوفت أن يعلم الناس بخصوصيتك «ليحبطن عملك وتكونن من الخاسرين، بل الله فاعبد» واكتف به، واقنع بعلمه، واغتن بشهوده، «وكن من الشاكرين» على ما أولاك من سر خصوصيته.

ثم رد على أهل الشرك، فقال:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أى: ما عظموه حق تعظيمه؛ حيث جعلوا له شريكاً، أو وصفوه بما لا يليق بشئونه الجلية، أو: حيث دعوك إلى عبادة غيره تعالى، أو: ما عرفوه حق معرفته، حيث لم يؤمنوا بقدرة الله تعالى. قال ابن عباس: فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره. يقال: قدرت الشيء: إذا حررتَه لتعرف مبلغه، والقدر: المقدار. والضمير، إما لقريش، المحدث عنهم، وقيل: لليهود، حيث تكلموا فى صفات الله تعالى، فألحدوا وجسموا.

ثم بين لهم شيئاً من عظمتة تعالى، فقال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾: فجميعاً: حال من الأرض؛ لأنه بمعنى الأرضين، أى: والأرضون جميعاً مقبوضة له بقدرته يوم القيامة. «والسماوات مطويات بيمينه» أى: بقدرته. والقبضة: المرة من القبض، والقبضة: المقدار المقبوض بالكف، والمراد من الكلام: تصوير عظمتة تعالى، والتوقيف على كنهه جلاله، وأن تخريب هذا العالم هو عليه شيء هين، على طريقة التمثيل والتخييل، من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة، ولا مجازاً، هكذا قال جمهور المفسرين.

قلت: لا يبعد أن تحمل الآية على ظاهرها، فإن الله تعالى يُبدل الأرض ويجمعها بأجمعها، فتكون كخبزة النقي، ويطوى السماء كطي الكتاب، حتى يبرز العرش، كما في الحديث، ففي حديث البخاري، عن أبي سعيد الخدري، قال النبي ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفوها الجبار بيده، كما يتكفؤ أحدكم خبزته في السفر، نزلًا لأهل الجنة»^(١). وفي حديث أبي هريرة: «إن الله يقبض الأرض، ويطوى السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض»^(٢).

وقال ابن عمر رأيت النبي ﷺ قائماً على المنبر، وهو يحكي عن ربه تعالى، فقال: «إن الله تعالى إذا كان يوم القيامة، جمع السماوات والأرضين السبع في قبضته، ثم قال هكذا، وشد قبضته، ثم بسطها، ثم يقول: أنا الله، أنا الرحمن... الحديث. وفي لفظ آخر: «يطوى الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون أين المتكبرون؟»^(٣). وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية: «كل ذلك في يمينه، وليس في يده الأخرى شيء، وإنما يستعين بشماله المشغول بيمينه، وما السماوات السبع، والأرضون السبع، في يد الله تعالى، إلا كخردلة في يد أحدكم، ولهذا قال: ﴿مطويات بيمينه﴾: يعنى السماوات والأرضين كلها بيمينه»^(٤). قلت: من كحل عين بصيرته بإثمد التوحيد الخاص، لاتصعب عليه هذه الأمور؛ إذ تجليات الحق لاتحصر، فيمكن أن يتجلى من نور جبروته بنور يشاكل آدمي في الأعضاء كلها، فيكون له ذات لها يدان وقدمان، وبه ورد أن الله يضع قدمه على النار، فنقول: قط قط، ويكشف عن ساقه لأهل الموقف، ويتقدمهم للجنة، إلى غير ذلك مما ورد في الحديث. ولا يلزم من ذلك حصر ولا تجسيم، إنما هي تجليات للذات الكلية المطلقة، ولا يفهم هذا إلا أهل الفناء والبقاء من العارفين، فسلم تسلم.

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أى: تنزيهاً عظيماً لمن هذه قدرته وشأنه عما يضاف إليه من الشركاء، أى: ما أبعد من هذا شأنه عن إشراكهم!

(١) أخرجه البخاري في (الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة، ح ٦٥١٩) ومسلم في (صفات المنافقين وأحكامهم، باب في نزل أهل الجنة، ٢١٥١/٤، ح ٢٧٩٢).

وقوله ﷺ (يتكفوها بيده) أى: يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتمتد؛ لأنها ليست متباعدة كالرفاقة ونحوها. ومعنى هذا الحديث: أن الله يجعل الأرض كالرغيف العظيم.

(٢) أخرجه البخاري في (تفسير سورة الزمر، باب ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ ٥٥١/٥) ومسلم في (صفات المنافقين، باب صفة القيامة والجنة والنار، ٢١٤٨/٤، ح ٢٧٨٧).

(٣) أخرجه بلحore مسلم في (صفات المنافقين وأحكامهم، باب: صفة القيامة والجنة والنار، ٢١٤٨/٤، ح ٢٧٨٨) من حديث سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) ذكره السيوطي في الدر (٦٢٩/٥) مختصراً، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبى الشيخ.

الإشارة: ما عرف الله حق معرفته من أثبت الكائنات معه، وهي محورة بأحدية ذاته، لا وجود لها معه على التحقيق، فالأرض قبضة أسرار ذاته، والسموات محيطات أفلاك أنواره، وبحر الذات مطبق على الجميع، ماح لكل، وأنشدوا:

فالكُلُّ دُونَ اللَّهِ إِنْ حَقَّقْتَنَّهُ عَدَمٌ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ
وَأَعْلَمُ بِأَنْكَ وَالْعَوَالِمِ كُلِّهَا لَوْلَاهُ فِي مَحْوٍ وَفِي اضْمِحَالِ
مَنْ لَا وَجُودَ لِدَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ فَوَجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنُ مُحَالِ
وَقَالَ آخَرُ:

مَنْ أَبْصَرَ الْخُلُقَ كَالسَّرَابِ فَقَدْ تَرَقَّى عَنِ الْحِجَابِ
إِلَى وَجُودِ تَرَاهِ رَتَقًا بَلَا ابْتِعَادٍ وَلَا اقْتِرَابِ

ثم تم أحوال القيامة، فقال:

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ النفخة الأولى ﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى: خر ميتاً، أو مغشياً عليه، ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ قيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يميتهم الله بعد ذلك، وقيل: حملة العرش، وقيل: خزنة النار والجنة (١).

﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى ﴾ هى النفخة الثانية. وأخرى: فى محل الرفع صفة لمحذوف، أى: نفخ نفخة أخرى، ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ ﴾ من قبورهم، حال كونهم إذا فاجأهم خطب ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ ؛ يلقبون أبصارهم فى الجوانب

(١) راجع تفسير الآية ٨٧ من سورة النمل.

الأربعة، كالمبهوتين، أو: ينظرون ما يفعل بهم، ودلت الآية على أن النفخة اثنتان؛ للموت، والبعث، وقيل: ثلاث؛ للفرع، والموت، والبعث.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾: أضاءت ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ حين يتجلى للفصل عباده، فتشرق الأرض - أي: عرصات القيامة - بنور وجهه، ويقال: إن الله يخلق في القيامة نوراً يلبسه وجه الأرض، فتشرق به. قال في الحاشية الفاسية: وهذا القول هو الذي اختاره محيي السنة، وانتصر له الطيبي، بما ورد من الأحاديث المقتضية لرؤيته في عرصات القيامة، قال: وما تعسف الزمخشري، من حمل النور على العدل، إلا فراراً من ذلك. هـ. قال القشيري: هو نور يخلقه في القيامة، عند تكوير الشمس، وانكدار النجوم، ويستضيء به قوم دون قوم، والكفار يبقون في الظلمة، والمؤمنون: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾... الآية (١). ويقال: غداً إشراق الأرض، واليوم إشراق القلب، غداً أنوار التولى، واليوم أنوار التجلى. هـ.

وقال السدي: بعدله، على الاستعارة، يقال للملك العادل: أشرقت الأرض بعدله، كما استعيرت الظلمة للظلم. وفي الحديث: «الظلم ظلمات يوم القيامة» (٢).

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾: أي: صحائف الأعمال. اكتفى باسم الجنس، أو: كتاب المحاسبة والجزاء. ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾: ليسألهم ربهم عما أجابتهم به أمهم، ﴿وَالشَّهَدَاءَ﴾: أي: الحفظة، ليشهدوا على كل إنسان بما عمل، والذين يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة إذا جحدتهم أمهم، أو: الذين استشهدوا في سبيل الله. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: بين العباد ﴿بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب. قال ابن عطية: الضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائد على العالم بأجمعه. هـ. فيقتضى دخول الملائكة، ويتصور القضاء في حقهم، من حيث جعلوا حفظة على العباد، وأمناء على الوحي والتبليغ، وغير ذلك من ترتيبهم في مقاماتهم، وترقيهم في علومهم، وتفاوتهم في ذلك. وفي وجه تخصيصاتهم وتصديقهم في التبليغ، ورد ما استندوا فيه لظواهر الأمور، مع علمه تعالى خلافه، مما لا اطلاع لهم عليه. قاله في الحاشية.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾: جزاء ﴿مَا عَمَلَتْ﴾، وهو أعلم بما يفعلون ﴿فَلَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ﴾. ومضمون الآية: تصوير التعرض للقضاء بين العباد على ما هو شأن الملك، من إحضار الشهود وخواص حضرته، حين يبرز لذلك، ويشهده الظالم والمظلوم، وإن كان كنه معرفته موكولاً إليه، ثم من لوازم ذلك العدل. والله تعالى أعلم.

(١) الآية ١٢ من سورة الحديد.

(٢) أخرجه البخاري في (المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة ح ٢٤٤٧) ومسلم في (البر، باب تحريم الظلم، ١٩٩٦/٤، ح ٢٥٧٩) من حديث سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

الإشارة: في الآية إشارة للغناء والبقاء، فيصعق العبد عن رؤية وجوده، ثم يبقى بربه، فتشرق أرض البشرية بنور وجود الحق، ثم يشرق العالم كله. قال المرتجبي: نفخة الصعق قهرية جلالية، ونفخة البعث ظهور أنوار جماله في أنوار جلاله، وبذلك ينتظر وقوع نور الكشف بقوله: «وأشرقفت الأرضُ بنور ربها» فيستجلي للخواص، ثم تستضيء بأنوارهم أرض المحشر، للعموم والخصوص، تعالت صفاته عن أن تقع على الأماكن، أو أن يكون محلاً للحدثان، يا عاقل، لا تكون ذرة من العرش إلى الثرى إلا وهي مستغرقة في أنوار إشراق آزاله وآباده. ثم قال عن بعضهم: (إلا من شاء الله) هم أهل التمكين، مكن الله أسرارهم من تحمل الواردات.

ثم ذكر نتيجة الفصل بين العباد، فقال:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً﴾ أي: تسوقهم الزبانية بالعنف والإهانة، كما تساق الأسارى والخارجين على السلطان، إذا سيقوا للقتل أو السجن، فتسوقهم الزبانية إلى جهنم أفواجا متفرقة، بعضها إثر بعض، حسب ترتب طبقاتهم في الضلالة والشرارة، والزمر: جمع زمرة، أي: الجماعة، واشتقاقها من الزمر، أي: الصوت. والجماعة لا تخلو عنه.

﴿حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾ ليدخلوها، وهي سبعة^(١)، ﴿وقال لهم خزنتها﴾ تقريبا وتوبيخا: ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ من جنسكم. وقرئ: «نذركم»، ﴿يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أي: وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار. وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع، من حيث إنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب. ﴿قالوا بلى﴾ قد أتونا وأنذرونا، ﴿ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ أي: ولكن وجبت علينا كلمة الله: ﴿لأملأن جهنم﴾^(٢) بسوء أعمالنا حيث كذبنا، وقلنا: ما نزل الله

(١) كما ذكر في سورة الحجر، في قوله تعالى: ﴿لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ الآية ٤٤.

(٢) من الآية ١١٩ من سورة هود.

من شيء، إن أنتم إلا تكذبون. ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقدرين الخلود، ﴿فَبئس مثوى المتكبرين﴾، اللام للجنس، والمخصوص محذوف، أي: بئس مثوى المتكبرين جهنم، وتكبرهم مسبب عن استحقاق كلمة العذاب عليهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من تكبر عن أولياء زمانه - أهل التريية - حتى مات محجوباً عن شهود الحق، يلحقه التوبيخ بلسان الحال، فيقال له: ألم يأتكم رسل من أولياء زمانكم، يعرفون بنا في كل زمان؟ فيقولون: بلى، ولكن حقت علينا كلمة الحجاب، فيخلدون في القطيعة والحجاب، إلا في وقت مخصوص. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أهل الخير، فقال:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم﴾ مساق إعزاز وتشريف، بلا إسراع ولا تكليف، إلى دار الكرامة والتعريف. قيل: يساقون راكبين ميجلين، كما يجي الوافدون إلى دار الملوك، يساقون ﴿إلى الجنة زمرًا﴾؛ جماعة متفاوتين، بحسب تفاوت مراتبهم في الفضل، رعلو الطبقة، ﴿حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها﴾ الثمانية. وقرئ بالتخفيف والتشديد^(١). وجواب إذا، محذوف؛ للإيذان بأن لهم من فنون الكرامة ما لا تحيط به العبارة، كأنه قيل: حتى إذا جاءوها، وقد فتحت أبوابها، كان من الأمر والخبر ما يقصر عنه البيان. ﴿وقال لهم خزننها سلام عليكم طبتم﴾؛ ظفرتم، وتقدستم في دار التقديس من كل دنس، وطبتم نفساً، بما أتيح لكم من النعيم والأمن، ﴿فادخلوها خالدين﴾، وحذف الواو في وصف أهل الدار؛ لأن أبواب جهنم لا تفتح

(١) قرأ عاصم وحمة الكسائي (فتحت)، بتخفيف الداء، وقرأ الباقون بالتشديد، على الكثير. انظر الإتحاف (٢/٤٣٢).

لهم حتى يصلوا إليها، وفي وقوفهم قبل فتحها مذلة لهم، كما هي حال السجون، بخلاف أهل الجنة، فإنهم يجدونها مفتوحة، قال تعالى: ﴿مُفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾^(١)، كما هي حال منازل الأفراح والسرور.

﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي: أنجزنا ما وعدنا في الدنيا من نعيم العقبى. ﴿وأورثنا الأرض﴾ أي: أرض الجنة، أي: المكان الذي استقروا فيه، وقد أورثوها ومكروها. وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤون [تشبيهاً]^(٢) بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه، واتساعه فيها، ﴿نتبوا من الجنة حيث نشاء﴾ أي: يتخذ كل واحد منا جنة لا توصف، سعة وزيادة على الحاجة، فينبوا أي مكان أراد من جنته الواسعة، ﴿فنعم أجر العاملين﴾ في الدنيا الجنة.

﴿وترى الملائكة﴾ حال كونهم ﴿حافين من حول العرش﴾ أي: محققين به. ومن: لا ابتداء للغاية، أي: ابتداء حنوفهم من حول العرش إلى حيث شاء الله، أر: زائدة، ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ أي: يقولون سبحان الله، والحمد لله، سُبوح قُدوس، رب الملائكة والروح. أر: ينزهونه تعالى عما لا يليق به، ملتبسين بحمده. والمعنى: ذاكرين الله تعالى بوصفى جلاله وإكرامه، تليذاً، وفيه إشعار بأن أقصى درجات العليين في لذائذهم هو الاستغراق في شهوده عز وجل.

﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ يقوله أهل الجنة شكراً لله حين دخولها، وتم وعد الله لهم: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ كما قال: ﴿وآخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين﴾^(٣).

الإشارة: وسيق الذين اتقوا ربهم حق ثقاته إلى جنة المعارف، زمراً، متفاوتين في السير، على قدر تفاوتهم في القرية، والاعتناء، والتفرغ من الشواغل والعلائق. حتى إذا جاءوها وفُتحت أبوابها، بذهاب حجاب الكائنات، حتى بقى المكون وحده، كما كان وحده، وجدوا من الأسرار والأنوار ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، ولا تحيط به الإشارة. وقال لهم خزنتها، وهم شيوخ التربية، العارفين الله: سلام عليكم طيبتم، أي: تقدستم من العيوب والأكدار، فادخلوها خالدين؛ لأن من وصل لا يرجع أبداً، ومن رجع من رجع إلا من الطريق. وقالوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده، بأن أنجز لنا ما وعدنا من الوصول، على ألسنة المشايخ. قال في الحكم: سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه.

(١) من الآية ٥٠ من سورة ص.

(٢) ما بين المعقوفين، ليس في الأصول، وأثبتته لاقتضاء السياق له.

(٣) من الآية ١٠ من سورة يونس.

وَأَوْرَثْنَا أَرْضَ الْوُجُودِ بِأَسْرِهِ، نَتَّبِعُوا مِنْ جَنَّةِ الْمَعَارِفِ، فِي أَقْطَارِ الْوُجُودِ، بِفِكْرَتِنَا وَهَمَّتِنَا، حَيْثُ نَشَاءُ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ. وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ، أَيْ: قَلْبِ الْعَارِفِ؛ لِأَنَّهُ بَيْتُ الرَّبِّ، وَمَحَلُّ قَرَارِ نُورِهِ، فَيَحْفَوْنَهُ بِالْحَفِظِ وَالرَّعَايَةِ مِنْ دُخُولِ الْأَغْيَارِ، وَيُنْزِهُونَ اللَّهَ عَنِ الْحُلُولِ وَالِاسْتِقْرَارِ. وَقَضَى بَيْنَهُم بِالْحَقِّ، فَعَزَلَتِ الشَّيَاطِينُ عَنْ قُلُوبِ الذَّاكِرِينَ، وَتَسَلَّطَتْ عَلَى قُلُوبِ الْغَافِلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حَيْثُ لَمْ يَظْلَمْ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ.



سُورَةُ غَافِرٍ (٣)

مكية (١). وآيها: خمس - أو ثمان - وثمانون آية (٢)، ومناسبتها لما قبلها قوله: «غافر الذنب...» الخ، فإنها فذلكة لما تقدم من أحوال المحشر؛ لأن منهم من غُفرت ذنوبه، وقُبِلت توبته، فسيق إلى الجنة، وتناولت عليه اللعن، ومنهم من شُدَّ عقابه، ورُدَّت عليه محاسنه، فسيق إلى النار، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝ مَا يُجَدَّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ۝ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ حَمْدٌ ﴾ أى: يا محمد. فاقصر على بعض الحروف، سترًا عن الوشاة، كعادة العشاق في ذكر محبوبهم، يرموزن إليه ببعض حروفه. وقال ابن عطية: سأل أعرابي النبي ﷺ عن «حم، ما هو؟» فقال: ابدء أسماء وفواتح سور، (٣) وفي حديث: «إذا بُيِّمَ فقولوا: حم لا ينصرون» قال أبو عبيد: كأن المعنى: اللهم لا ينصرون. قلت: لا يبعد أن يكون ترسل بحبيب الله على هزم الأعداء. وعن ابن عباس: (أنه اسم الله الأعظم). هـ. وكأنه مختصر من «حي قيوم».

﴿ تنزيل الكتاب ﴾ أى: هذا تنزيل القرآن ﴿ من الله العزيز العليم ﴾ أى: العزيز بلسطانه، الغالب على أمره، العليم بمن صدق به وكذب. وهو تهديد للمشركين، وبشارة للمؤمنين. والتعرض لوصفي العزة والعلم للإيدان بظهور أثرهما في الكتاب؛ لظهوره عزه وعز من تمسك به، ولاشتماله على علوم الأولين والآخرين.

(*) في الأصول: [سورة المؤمن].

(١) قال السيوطي في الدر المنثور (٦٤٣/٥): أخرج ابن الضريس، والنحاس والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس - رضى الله عنهما، قال: «أنزلت الحواميم السبع بمكة».

(٢) قال الداني في البيان في عدد آي القرآن، ص ٢١٨: «وهي ثمانون وثلاثان في البصري، وأربع في المدني والمكي، وخمس في الكوفي، وست في الشامي». هذا ولم أقف على من قال أنها ثمان وثمانون آية.

(٣) ذكره في المحرر الوجيز (٥٤٥/٤) والبحر المحيط (٤٢٩/٧).

﴿ غافر الذنب ﴾ أى: سائر ذنب المؤمنين، ﴿ وقابل التوب ﴾ وقابل توبة الراجعين ﴿ شديد العقاب ﴾ للمخالفين، ﴿ ذي الطول ﴾ على العارفين، أى: الفضل التام على العارفين، أو: ذى الغنى عن الكل، وعن ابن عباس: (غافر الذنب، وقابل التوب، لمن قال: لا إله إلا الله، شديد العقاب لمن لم يقل لا إله إلا الله)^(١).

والتوب: مصدر، كالتوبة. ويقال: تاب وثاب وآب، أى: رجع، فإن قلت: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتذكيراً، والموصوف معرفة، وهو الله؟ قلت: أما «غافر الذنب وقابل التوب» فمعرفتان؛ لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين حتى يكون فى تقدير الانفصال، فتكون إضافتهما غير حقيقية، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه. وأما «شديد العقاب» فهو فى تقدير: شديد عقابه، فيكون نكرة، فقيل: هو بدل، وقيل: كلها أبدال غير أوصاف. وإدخال الواو فى «قابل التوب» لفكته، وهى: إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين قبول توبته، فتكتب له طاعة، وبين جعلها ماحية للذنوب، كأن لم يذنب، كأنه قال: جامع المغفرة والقبول. وفى توحيد صفة العذاب مغمورة بصفات النعمة دليل سبقها ورجحانها، «إن رحمتى سبقت غضبى»^(٢).

قال القشيري: سنة الله تعالى: إذا خوف العباد باسم، أو لفظ، تدارك قلوبهم بأن يبشرهم باسمين أو وصفين هـ. روى: أن عمر رضي الله عنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد، من أهل الشام، فقيل له: تابع هذا الشراب، فقال لكاتبه: اكتب: من عمر إلى فلان، سلام الله عليك، وأنا أحمد إليك الله، الذى لا إله إلا هو، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم... ﴾ إلى قوله: ﴿ إليه المصير ﴾ وختم الكتاب، وقال لرسوله: لاتدفعه إليه حتى تجده صاحبياً، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتمته الصحيفة، جعل يقرأها، ويقول: قد وعدنى الله أن يغفر لى، وحذرنى من عقابه، فلم يبرح يرددّها حتى بكى. ثم نزع، فأحسن النزع، وحسنت توبته. فلما بلغ عمر رضي الله عنه أمره، قال: «هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحاكم قد زل فسددوه، وادعوا له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه»^(٣) أى: بالدعاء عليه هـ.

﴿ لا إله إلا هو ﴾ أى: فيجب الإقبال الكلى عليه، وهو: إما استئناف، أو: صفة لذى الطول، ﴿ إليه المصير ﴾ أى: المرجع، فيجازى كلاً من العاصى والمطيع. قال القشيري: إذا كان إلى الله المصير فقد طاب المسير.

﴿ ما يجادل في آيات الله ﴾ أى: ما يخاصم فيها بالطعن فيها، واستعمال المقدمات الباطلة؛ لإدحاض الحق المشتعلة عليه، ﴿ إلا الذين كفروا ﴾، وأما الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة شبهة منها، فضلاً عن الطعن فيها،

(١) ذكره البغوى فى التفسير (١٣٨/٧).

(٢) جزء من حديث صحيح، أخرجه البخارى فى (التوحيد، باب قول الله تعالى: «بل هو قرآن مجيد» ح ٧٥٥٤) ومسلم فى (التوبة، باب فى سعة رحمة الله تعالى، رقم ٤٧٥١، ح ١٥) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية (٩٧/٤).

وأما الجدل فيها لحل مشكلاتها، وكشف حقائقها، وتوضيح مناهج الحق منها، وردّ مذاهب أهل الزرع بها، فمن أعظم الجهاد في سبيل الله.

قال الطيبي: وأما اتصال قوله: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ...﴾ الآية بما قبله، فهو أنه لما قال تعالى: ﴿حَمَّ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ﴾ من الإله المعبود، الموصوف بصفات العلم الكامل، والعزّ الغالب، الجامع بين غفران الذنب وقبول التوبة، المتفرد بالعقاب، الذي لا يقدر كنهه، وبالإفضال الذي لا يبلغ قدره، قال: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: ما يجادل في مثل هذا الكتاب، المشتمل على الآيات البينات، المنزل من مثل ذلك الموصوف بنعوت الكمال، إلا أمثال هؤلاء الكفرة المغرورين، ﴿فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ فإنه استدراج، فلا يغرر مثلك في منصب الرسالة تقلب أولئك تقلب الأنعام، المنعمين في هذا الحطم. وآيات الله: مظهر أقيم مقام المضمر؛ للتعظيم والتفخيم. هـ.

والفاء لترتيب النهي عن الاغترار على ما قبله من التسجيل عليهم بالكفر، الذي لا شيء أمقت منه عند الله، ولا أجلب لخسران الدنيا والآخرة، فإن من تحقق ذلك لا يكاد يغتر بما لهم من الحظوظ الفانية، والزخارف الدنيوية، فإنهم مأخوذون عما قليل، كما أخذ من قبلهم. ولذلك ذكرهم بقوله: ﴿كَذَبْتَ...﴾ الخ.

الإشارة: حم، أي: بحلمي ومجدي تجليت في كلامي، المنزل على حبي، وهو تنزيل الكتاب من الله العزيز، المعز لأوليائه، العليم بما كان وما يكون منهم، فلا يمنعه علمه عما سلف من قضاائه. غافر الذنب لمن أصر واجترأ، وقابل التوب لمن تاب واحتشم، شديد العقاب لمن جحد وكفر، ذي الطول لمن توجه ووصل، ويقال: غافر الذنب للغافلين، وقابل التوب للمتوجهين، شديد العقاب للمنكرين، ذي الطول للعارفين الواصلين. لا إله إلا هو، فلا موجود معه، إليه المصير بالسير في ميادين النفوس، حتى يحصل الوصول إلى حضرة القدوس. ما يجادل في آيات الله، وهم أولياء الله، الدالون على الله، إلا أهل الكفر بوجود الخصوصية. قال القشيري: إذا ظهر البرهان، واتضح البيان استسلمت الأبواب الصاحبة للاستجابة والإيمان. وأما أهل الكفر فلهم على الجحود إصرار، وشؤم شركهم يحول بينهم وبين الإنصاف، وكذلك من لا يحترم أولياء الله، يصرون على إنكارهم تخصيص الله عباده بالآيات، ويعترضون عليهم بقلوبهم، فيجادلون في جحد الكرامات، وسيفتضحون، ولكنهم لا يميزون بين رجحانهم ونقصانهم. هـ.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ

عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿كَذَبْتُ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً، ﴿وَالْأَحْزَابُ﴾ أى: الذين تحزبوا على الرسل، وناصبوهم العداوة، ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أى: من بعد قوم نوح، كعاد، وشمود، وقوم لوط، وأضرابهم، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من تلك الأمم الماضية ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾؛ لِيَتَمَكَّنُوا مِنْهُ، فَيُصِيبُوا مَا أَرَادُوا مِنْ تَعْذِيبٍ أَوْ قَتْلٍ. والأخذ: الأسر. ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ الذى لا أصل له، ولا حقيقة لوجوده، ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾؛ لِيُبْطِلُوا بِهِ الحق الذى جاءت به من الإيمان وغيره، ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ بسبب ذلك أخذاً وبيلاً، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الذى عاقبتهم به، فإن آثار ديارهم عرضته للناظرين، وسأخذ هؤلاء أيضاً؛ لاتحادهم فى السيرة، واشتراكهم فى الجريمة، كما ينبئ عنه قوله:

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أى: كما وجب حكم الله تعالى وقضاؤه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذبة، المجترئة على رسلهم، المجادلة بالباطل لإدحاض الحق، وجب أيضاً ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك، وتحزبوا عليك، وهموا بما لم ينالوا، كما ينبئ عنه إضافة إسم الرب إلى ضميره ﷻ؛ فإن ذلك للإشعار بأن وجوب كلمة العذاب من أحكام التربية، التى من جملتها: نصرته ﷻ، وتعذيب أعدائه، وذلك إنما يتحقق بكون الموصول عبارة عن كفار قومه، لا عن الأمم المهلكة.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ فى حيز النصب، بحذف لام التعليل، أى: لأنهم مستحقو أشد العقوبات وأفظعها، الذى هو عذاب النار، وملازمتها أبداً، لكونهم كفاراً معاندين، متحزبين على الرسول ﷺ، كذاب من قبلهم من الأمم المهلكة، وقيل: إنه فى محل رفع، على أنه بدل من «كلمة ربك»، والمعنى: ومثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة المهلكة كونهم من أصحاب النار، أى: كما وجب إهلاكهم فى الدنيا بعذاب الاستئصال؛ وجب تعذيبهم فى الآخرة بعذاب النار، ومحل الكاف من (كذلك) على التقديرين: النصب، على أنه نعت لمصدر محذوف.

الإشارة: الأولياء على قدم الرسل، فكل ما لحق الرسل من الإيذاء يلحق الأولياء، فقد كُذِّبَتْ، وتحزب عليهم أهل عصرهم، وهموا بأخذهم، وجادلوا بالباطل ليدحضوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره، فأخذهم الله بالخذلان والبعد، والخلود فى نار القطيعة والحجاب، والعياذ بالله.

ثم ذكر شرف الإيمان وأهله، فقال:

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

قلت: (الذين): مبتدأ، و(يسبحون): خبره، والجملة: استئناف مسوق لتسليية الرسول ﷺ ببيان أن أشراف،^(١) الملائكة - عليهم السلام - مثابرون على ولاية من معه من المؤمنين، ونصرتهم، واستدعاء ما يسعدهم في الدارين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الذين يحملون العرش﴾ على عواتقهم - وهم محمولون أيضاً بلطائف القدرة، ﴿ومن حوله﴾ أي: الحافين حوله، وهم الكروبيون، سادات الملائكة، وأعلى طبقاتهم. قال ابن عباس: حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام^(٢)، وقيل: أرجلهم في الأرض السفلى، ورؤوسهم خرقت العرش، وهم خشوع، لا يرفعون طرفهم، وهم أشد خوفاً من سائر الملائكة^(٣).

وقال أيضاً: لما خلق الله حملة العرش، قال لهم: احمِلوا عرشي؛ فلم يطيقوا، فخلق الله مع كل ملك من أعوانهم مثل جنود من في السموات ومن في الأرض من الخلق، فقال لهم: احمِلوا عرشي، فلم يطيقوا، فخلق مع كل واحد منهم مثل جنود سبع سنوات وسبع أرضين، وما في الأرض من عدد الحصى والثرى، فقال: احمِلوا عرشي، فلم يطيقوا، فقال: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فقالوها، فاستقلوا عرش ربنا، أي: لما حملوه بالله أطاقوه،

(١) في الأصول الخطية [أشرف] والمثبت من تفسير أبي السعود.

(٢) عزاه في الدر المنثور (٦٤٨/٥) لعبد ابن حميد، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٣) عزاه في الدر المنثور (٦٤٨/٥) لعبد بن حميد، عن ميسرة.

فلم يحمل عرشه إلا قدرته، وفي الحديث: «إن الله أمر جميع الملائكة أن يَغْدُوا، ويَرْوَحُوا بالسلام على حملة العرش، تفضيلاً لهم على سائر الملائكة». (١)

وقال وهب بن منبه: حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة، صف خلف صف، يدورون حول العرش، يطوفون به، يقبل هؤلاء، ويدبر هؤلاء، فإذا استقبل بعضهم بعضاً، هلك هؤلاء، وكبر هؤلاء، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام، أيديهم إلى أعناقهم، قد وضعوها على عواقبهم، فإذا سمعوا تكبير هؤلاء وتهليلهم، رفعوا أصواتهم، فقالوا: سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلك، أنت الله لا إله غيرك، أنت الأكبر، الخلق كلهم راجون رحمتك، ومن وراء هؤلاء مائة ألف صف من الملائكة، قد وضعوا اليمنى على اليسرى، ليس منهم أحد إلا يسبح الله - تعالى - بتسبيح لا يسبحه الآخر، ما بين جناحي أحدهم مسيرة ثلاثمائة عام، واحتجب الله عز وجل - بينه وبين الملائكة الذين هم حول العرش - بسبعين حجاباً من ظلمة، وسبعين حجاباً من نور، وسبعين حجاباً من دُرٍّ أبيض، وسبعين حجاباً من ياقوتٍ أحمر، وسبعين حجاباً من زمردٍ أخضر، وسبعين حجاباً من ثلج، وسبعين حجاباً من ماء، إلى ما لا يعلمه إلا الله تعالى هـ (٢).

قلت: لما أظهر الله العرش تجلى بدور جبروتى رحموتى، استوى به على العرش، كما يتجلى يوم القيامة لفصل القضاء، ثم ضرب الحجب بين هذا التجلى الخاص وبين الملائكة الحافيين، ولا يلزم عليه حصر ولا تجسيم؛ إذ تجليات الذات العالية لا تنحصر، وليست هذه الحجب بين الذات الكلية وبين الخلق؛ إذ لا حجاب بينها وبين سائر المخلوقات إلا حجاب القهر والوهم.

واختلف في هيئة العرش، فقيل: إنه مستدير، والكون كله في جوفه كخردلة في الهواء، حتى قيل: هو الفلك التاسع، وقيل: هو منبسط كهيفة السرير، وله سوارى وأعمدة، وهو ظاهر الأخبار النبوية. روى جعفر الصادق عن أبيه عن جده، أنه قال: إن بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية من خفقان الطير المسرعة قياس ألف عام، وإن ملكاً يقال له: حزقائيل، له ثمانية عشر ألف جناح، ما بين الجناح والجناح خمسمائة عام، فأوحى الله إليه: أن طر، فطار مقدار عشرين ألف سنة، فلم يذل رأسه قائمة من قوائم العرش، ثم طار مقدار ثلاثين ألف سنة فلم ينلها، فأوحى الله إليه: لو طرت إلى نفخ الصور لم تبلغ ساق عرشي. هـ. مختصراً.

وفي حديث آخر: «إن بين القائمة والقائمة من قوائم العرش ستين ألف صحراء، في كل صحراء ستون ألف عالم، في كل عالم قدر الثقلين». ومع هذا كله يسعه قلب العارف حتى يكون في زاوية منه؛ لأنه محدود، وعظمة

(١) قال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انظر الكافي الشاف (ص ١٤٤، ح ٣٣٧).

(٢) انظر تفسير البغوى (٧/١٤٠ - ١٤١) وزاد المسير (٧/٢٠٨).

الحق غير محدودة، وقلب العارف قد تجلت فيه عظمة الحق، فوسعها، بدليل الحديث: «لن تسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدی المؤمن» (١)، أي: الكامل.

ثم أخبر تعالى عن حملة العرش ومن حوله بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ينزهونه تعالى عما لا يليق بشأنه الجليل، ملتبسين بحمده على نعمائه التي لا تتناهى، ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إيماناً يناسب حالهم. وفائدة ذكره مع علمنا بأن حملة العرش ومن حوله الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون؛ إظهار لشرف الإيمان وفضيلته، وإبراز لشرف أهله، والترغيب فيه، كما وصف الأنبياء في بعض المواضع بالصلاح. وفيه تنبيه على أن الملائكة لم يحصل لهم العيان، وإنما وصفوا بالإيمان بالغيب، وهم طبقات: منهم العارفون أهل العيان، ومنهم أهل الإيمان.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ويستغفرون لمن شاركهم في حالهم من الإيمان، وفيه دليل على أن الإشراك يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة والشفقة، وإن تباعدت الأماكن، وفي نظم استغفارهم لهم في سلك وظائفهم المفروضة عليهم، من تسبيحهم، وتحميدهم، وإيمانهم، إيذان بكمال اعتنائهم به، وإشعار بوقوعه عند الله - تعالى - موقع القبول.

﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولون: ربنا، إما بيان لاستغفارهم، أو حال، ﴿وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ أي: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، فأزيل الكلام عن أصله، بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم، ونصباً على التمييز، مبالغة في وصفه - تعالى - بالرحمة والعلم، وفي عمومهما، وتقديم الرحمة؛ لأنها السابقة والمقصودة هنا، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ أي: للذين علمت منهم التوبة، ليناسب ذكر الرحمة، ﴿وَاتَّبِعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي: طريق الهدى التي دعوت إليها. والفاء لترتيب الدعاء على ما قبلها من سعة الرحمة والعلم، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: احفظهم منه، وهو تصريح بعد إشعار؛ للتأكيد.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ أيها، ﴿وَمَنْ صَلَّحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي: صلاحاً مصححاً لدخول الجنة في الجملة، وإن كانوا دون صلاح أصولهم، و(من): عطف على ضمير (وعدتهم)، أي: وأدخل معهم هؤلاء؛ ليتم سرورهم، ويتضاعف ابتهاجهم. قال سعيد بن جبیر: (يدخل الرجل الجنة، فيقول: أين أبي؟ أين أمي؟ أين ولدي؟ أين زوجتي؟ فيقال له: لم يعملوا مثل عملك، فيقول: كنت أعمل لى ولهم، فيقال: أدخلوهم الجنة) (٢). وسبق الوعد بالإدخال والإلحاق لا يستدعي حصول الموعود بلا توسط شفاعة واستغفار، وعليه بنى قول من قال: فائدة الاستغفار للمنيب الكرامة والثواب. انظر أبا السعود.

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (١٦/٣)، قال العراقي في المغنى: «ليس له أصل، وقال القاري في الأسرار المرفوعة (ص ٣١٠): «ليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ». والحديث وجدته بنحوه عند الديلمي في الفردوس (١٧٤/٣ ح ٤٤٦٦) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لفظه: «لا يسعني شيء ووسعني قلب عبدی المؤمن اللين الوادع إذا ألبسته لبسة أحبائي...» الحديث.

(٢) أخرجه ابن جرير (٤٥/٢٤).

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى: الغالب الذى لا يمتنع عليه مقدور، وأنت مع مُلكك وعزتك لا تفعل شيئاً خالياً عن حكمة، وموجب حكمتك أن تفى بوعدك.

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: جزاء السيئات، وهو العذاب، أو: المعاصى فى الدنيا، ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أى: ومن تَقِه عقاب السيئات يومئذ فقد رحمته، أو: ومن تَقِه المعاصى فى الدنيا فقد رحمته فى الآخرة، وكأنهم طلبوا لهم السبب بعد ما طلبوا المسبب، ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: الإشارة إلى الرحمة المفهومة من رحمته، أو: إليها وإلى الوقاية، أى: ذلك التوفى هو الفوز العظيم الذى لا مطمع وراءه لطامع.

الإشارة: العرش وحملته، والحاقون به محمولون بلطائف القدرة؛ لا حاملون فى الحقيقة، بل لا وجود لهم مع الحق، وإنما هم شعاع من أنوار الذات الأقدس وتجلُّ من تجلياتها.

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، قال الورتجى: يُسَبِّحُونَ الله بما يجدونه من القدس والتنزيه، حمداً لأفضاله، وبأنه منزّه عن النظير والشبيه، ويؤمنون به فى كل لحظة، بما يرون منه من كشف صفات الأوليات، وأنوار حقائق الذات، التى تطمس فى كل لحظة مسالك رسوم العقليات، وهم يُقرون كل لحظة بجهلهم عن كنه معرفة وجوده، ثم بين أنهم أهل الرأفة، والرحمة، والشفقة على أوليائه، لأنهم إخوانهم فى نسب المعرفة والمحبة. انظر تمامه.

والحاصل: أنهم مع تجلّى أنوار ذاته، قاصرون عن كنهه، وحقيقة ذاته، وغايتهم الإيمان به. قاله فى الحاشية. قلت: والتحقيق أن المقربين منهم تحصل لهم المعرفة العيانية، والرؤية للذات فى مظاهر التجليات، كما تحصل لخواص الأولياء فى الدنيا، ولكن معرفة الآدمى أكمل؛ لاعتدال حقيقته وشريعته، لما اعتدل فيه الضدان، وأما معرفة الملائكة فتكون مائلة لجهة الشكر والهيمن؛ للطافة أجسامهم، فمثلهم كالمرآة بلا طلاء خلفها، وأما ما ورد فى بعض الأخبار: أن جبريل لم ير الله قط قبل يوم القيامة، فلا يصح؛ إلا أن يحمل على أنه لم يره من غير مظهر، وهذا لا يمكن له ولا لغيره، وأما رؤيتهم الله يوم القيامة فهم كسائر المؤمنين، يرونه على قدر تفاوتهم فى المراتب والقرب.

قال إمام أهل السنة، أبو الحسن الأشعري رحمته الله، فى كتاب «الإبانة فى أصول الديانة»: أفضل اللذات لأهل الجنة رؤية الله تعالى، ثم رؤية نبيه ﷺ، فلذلك لم يحرم الله أنبياءه المرسلين، وملائكته المقربين، وجماعة المؤمنين، والصديقين النظر إلى وجهه تعالى. هـ. وفى الآية حث على الدعاء للمؤمنين بظهر الغيب، والاستغفار لهم، وهو من شأن الأبدال، أهل الرحمة لعباد الله، اقتداءً بالملأ الأعلى.

ثم شفع بضد أهل الإيمان، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ ١٠ ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَانِ اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ ١١ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَلَّيْتُمْ فَأَلْحَكُمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ ١٢

يقول الحق جلا جلاله: ﴿ إن الذين كفروا ينادون ﴾ يوم القيامة، من قبل الخزنة - وهم في النار: ﴿ لمقت الله ﴾ إياكم اليوم، وإهانته لكم، ﴿ أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ في الدنيا، حيث حرمتها الإيمان وعرضتموها للهوان، ﴿ إذ تدعون إلى الإيمان ﴾ من قبل الرسل ﴿ فتكفرون ﴾، والحاصل: أنهم مقتوا أنفسهم في الدنيا، وأهانوها، حيث لم يؤمنوا، فإذا دخلوا النار حصل لهم من المقت والغضب من الله أشد وأعظم من ذلك، فـ «إذا»: ظرف للمقت الثاني، لا الأول، على المشهور.

﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ أي: إمامتين وإحياءتين، أو: موتتين وحياتين. قال ابن عباس: كانوا أمواتاً في الأصلاب، ثم أحياهم، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَهْلًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ فَذَلِكُمْ أَنْتُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١). قال السدي: أميتوا في الدنيا، ثم أحيوا في قبورهم للسؤال، ثم أميتوا في قبورهم، ثم أحيوا في الآخرة.

والحاصل: أنهم أجابوا: بأن الأنبياء دعوهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وكانوا يعتقدون ما يعتقده الدهرية: ألا حياة بعد الموت، فلم يلتفتوا إلى دعوتهم، وداموا على الإنكار، فلما رأوا الأمر عياناً، اعترفوا. ووجه مطابقة قوله: ﴿ قالوا ربنا... ﴾ إلخ لما قبله: الإقرار بما كانوا منكبين له من البعث، الذي أوجب لهم المقت والعذاب؛ طمعاً في الإرضاء له بذلك؛ ليتخلصوا من العذاب، ولذلك قالوا: ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾، لما رأوا الإماتة والإحياء قد تكرر عليهم، علموا أن الله قادر على الإعادة، كما هو قادر على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار

(١) من الآية ٢٨ من سورة البقرة. وانظر تفسير البغوي (١٤٢/٧).

البعث وما يتبعه من جرائمهم. ومقصدهم بهذا الإقرار: التوسل بذلك إلى ما علّقوا به أطماعهم الفارغة من الرجوع إلى الدنيا، كما صرحوا به في قولهم: ﴿فهل إلى خروج﴾ أي: نوع من الخروج، سريع أو بطيء، ﴿من سبيل﴾ أو: لاسبيل إليه قط. وهذا كلام من غلب عليه اليأس، وإنما يقولون ذلك تحيراً، مع نوع استبعاد واستشعار يأس منه، ولذلك أُجيبوا بقوله:

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب، والأُسبيل إلى الخروج، ﴿بأنه﴾ أي: بسبب أن الشأن ﴿إذا دُعِيَ الله﴾ في الدنيا، أي: عبد ﴿وحده﴾ منفرداً ﴿كفرتم﴾ بتوحيده، ﴿وإن يُشرك به تؤمنوا﴾ بالإشراك وتسارعوا فيه، أي: كنتم في الدنيا تكفرون بالإيمان، وتسارعون إلى الشرك. قيل: والتعبير بالاستقبال، إشارة إلى أنهم لو ردوا لعادوا، وحيث كان حالكم كذلك، ﴿فالحكم لله﴾ الذي لا يحكم إلا بالحق، ولا يقضى إلا بما تقتضيه حكمته، ﴿العلّي﴾ شأنه، فلا يردّ قضاؤه، أو: فالحكم بعذابكم وتخليدكم في النار لله؛ لا لتلك الأصنام التي عبدتموها معه، ﴿الكبير﴾: العظيم سلطانه، فلا يحدّ جزاؤه. وقيل: إن الحرورية^(١) أخذوا قولهم: لا حكم إلا لله، من هذه الآية. قال عليّ رضي الله عنه: لما سمع مقالته: كلمة حق أريد بها باطل. هـ.

الإشارة: إن الذي كفروا بطريق الخصوص، وأنكروا وجود التربية، حتى ماتوا محجوبين عن الله، وبعثوا كذلك، ينادون يوم القيامة بلسان الحال: لمقت الله لكم اليوم - حيث سقطتم عن درجات المقربين - أكبر من مقتكم أنفسكم، حيث حرمتوها معرفة العيان ومقام الإحسان، حين كنتم تدعون إلى تربية الإيمان، وتحقيق الإيقان، على السنة شيوخ التربية، فتكفرون وتقولون: انقطعت التربية منذ زمان، ثم يطلبون الخروج من عالم الآخرة إلى عالم الدنيا، ليحصلوا المعرفة التي فاتهم، فيقال لهم: هيهات، قد فات الإبان^(٢)، الصيف ضيعت اللبن^(٣). فامكثوا في حجابكم، ذلكم بأنه إذا دُعِيَ الله وحده، وأن لا موجود سواه، كفرتم بإنكاركم سبيله، وهي طريق التجريد والتربية، وإن يُشرك به بالتعمق في الأسباب، والمكث فيها، تؤمنوا. والحاصل: أنهم كانوا ينكرون طريق التجريد، ويؤمنون بطريق الأسباب، فالحكم لله العلي الكبير، فيرفع من يشاء، ويضع من يشاء بعلوه وكبير شأنه.

(١) الحرورية: طائفة من الخوارج، تنسب إلى «حرور»، اسم قرية بالكوفة. انظر اللسان (حرر ٢/٨٣١).

(٢) إبان كل شيء: وقته وحينه الذي يكون فيه. انظر اللسان (ابن ١/١٢).

(٣) هذا مثل. والتاء من «ضيعت»، مكسورة في كل حال، إذا خوطب به المذكر والمؤنث والاثان والجمع، لأن المثل في الأصل خوطبت به امرأة، وهي دخنوس بنت لقيط بن زرارة، كانت تحت عمرو بن عمرو بن عدس، وكان شيخاً كبيراً، ففرسته (كرهته) فطلقها، ثم تزوجها فتى جميل الوجه، وأجديت، فبعثت إلى عمرو تطلب منه حلوبة، فقال عمرو: «في الصيف ضيعت اللبن، فلما رجع الرسول، وقال لها ما قال عمرو، ضربت يدها على منكب زوجها، وقالت: «هذا ومذقه خير، نعى أن هذا الزوج مع عدم اللبن خير من عمرو، فذهبت كلمتهما مثلاً». انظر مجمع الأمثال للميداني (٢/٤٣٤).

ثم برهن على علو شأنه بقوله:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ۝١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝١٤ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۝١٦ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٧ أَلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٧﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ الدالة على كبريائه، وكمال قدرته، من الرياح، والسحاب، والرعد، والبرق، والصواعق، وغير ذلك، لتستدلوا على ذلك، وتعملوا بموجبها، فتوحده تعالى، وتخصوه بالعبادة، ﴿وينزل لكم من السماء رزقاً﴾؛ مطراً؛ لأنه سبب الرزق. وأفرده بالذكر مع كونه من جملة الآيات؛ لتفرد بكونه من آثار رحمته، وجلائل نعمه الموجبة للشكر؛ إذ به قوام الحيوانات بأسرها. وصيغة المضارع في الفعلين؛ للدلالة على تجدد الإراءة والتنزيل، واستمرارهما. ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾ أي: وما يتعظ ويعتبر بهذه الآيات الباهرة، ويعمل بمقتضاها إلا من يتوب ويرجع عن غيه إلى الله تعالى، فيتفكر فيما أودعه في تصاعيف مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة، ونعمه الشاملة. وأما المعاند فلا يتعظ ولا يعتبر؛ لسفح الران على قلبه.

وإذا كان الأمر كما ذكرنا، من اختصاص التذكير بمن ينيب، ﴿فادعوا الله﴾، أو: تقول: لما ذكر أحوال المشركين، وأراد أن يشفع بأضدادهم، جعل قوله: ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ الخ، نوطلة لقوله: ﴿فادعوا الله﴾ أي: اعبدوه ﴿مخلصين له الدين﴾ من الشرك الجلى والخفى، بموجب إنابتكم إليه تعالى وإيمانكم، ﴿ولو كره الكافرون﴾؛ وإن غاظ ذلك أعداءكم، ممن لم يتب مثلكم، فإن الله يكرم مثواكم، ويرفع درجاتكم، فإنه ﴿رفيع الدرجات﴾ أي: رافع درجات أوليائه المؤمنين، الداعين إليه، المخلصين في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالعز والنصر، وفي الآخرة بالقرب والاختصاص، أو: رفيع السموات التي هي مصاعد الملائكة، ومهابطها، للسفارة بين

المرسل والمرسل إليه، وهو كالمقدمة لقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ...﴾ الخ. هذا على أنه اسم فاعل، مبالغة، وقيل: هو صفة مشبهة أُضيفت إلى فاعلها، أي: رفيع درجته بالعلو والقهرية.

﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي: ماله، وهما خبران آخران عن ﴿هُوَ الَّذِي...﴾ الخ، إيداناً بعلو شأنه، وعظيم سلطانه، الموجبين لتخصيص العبادة به، وإخلاص الدين له بطريق الاستشهاد بهما عليهما؛ فإن ارتفاع الدرجات والاستيلاء على العرش - مع كون العرش محيطاً بأكناف العالم العلوي والسفلي، وهو تحت ملكوته وقبضة قهره مما يقضى بكون علو شأنه وعظيم سلطانه - في غاية لا غاية ورائها. قاله أبو السعود.

ثم ذكر سبب رفع الدرجات بقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ أي: ينزل الوحي، الجارى من القلوب بمنزلة الروح من الأجسام، وكأنه لما ذكر رزق الأجسام أتبعه برزق الأرواح، الذي هو العلم بالله، وطريقه الوحي. والتعبير بالمضارع، قال الطيبي: يفيد استمرار الوحي من لدن آدم إلى زمن سيدنا محمد ﷺ، ثم اتصاله إلى قيام يوم التنادي، بإقامة من يقوم بالدعوة، على ما روى أبو داود، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ سَيَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا» (١) ومعنى التجديد: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة، والأمر بمقتضاهما. هـ.

قلت: وقد زرت شيخنا البوزيدي رحمه الله مرة، فلما وقع بصره عليّ، قال: والله، حتى يحيى الله بك الدين المحمدي. وكتب لي شيخ الجماعة، وقطب دائرة التربية، مولاي العربي الدرقاوي رحمه الله، فقال في آخر كتابه: وأرجو من الله ألا تموت حتى تكون داعياً إلى الله، تُذكر أهل المشرق والمغرب. أو ما هذا معناه، وقد وقع ذلك، والحمد لله.

وقوله: ﴿مَنْ أَمْرُهُ﴾ أي: من قضائه، أو: بأمره، فيجوز أن يكون حالاً من الروح، أو متعلقاً بـ ﴿يُلْقِي﴾ أي: يُلْقِي الروح حال كونه ناشئاً، أو: مبتدئاً من أمره، أو: يُلْقِي الوحي بسبب أمره ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهو الذي اصطفاه لرسالته، وتبليغ أحكامه إلى عبادِهِ، ﴿لِيُنْذِرَ﴾ أي: الله، أو: المَلَقَى عليه، وهو النبي ﷺ، ويؤيده قراءة يعقوب بالخطاب، أي: لتخوف ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾؛ يوم القيامة؛ لأنه يتلاقى فيه أهل السموات وأهل الأرض، والأولون والآخرون، و(يوم): ظرف للمفعول الثاني، أي: لينذر الناس العذاب يوم التلاق، أو: مفعول ثان لينذر، فإنه من شدة هوله وفضاعته حقيق بالإنذار.

(١) أخرجه أبو داود في (الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة ٤/٤٨٠، ح ٤٢٩١) والحاكم في المستدرک (الفتن والملاحم، ٥٢٢/٤) والبيهقي في المعرفة (١٢٤/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير (ح ١٨٤٥) بالصحة.

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾: بدل من «يوم التلاق» أى: خارجون من قبورهم، أو: ظاهرون، لا يستترون بشيء من جبل أو أكمة أو بناء؛ لكون الأرض يومئذ قاعاً صاففاً، ولا عليهم ثياب، إنما هم حفاة عراة، كما فى الحديث. أو: بارزة نفوسهم لا يحجبها غواش الأبدان، أو: بارزة أعمالهم وسرائرهم، ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ من أعمالهم وأحوالهم، الجلية والخفية، السابقة واللاحقة، وهو استئناف لبيان بروزهم، وإزاحة لما كان يتوهمه المتوهمون فى الدنيا من الاستتار توهماً باطلاً، فإذا برزوا وحشروا، نادى الحق - جل جلاله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؟ فلا يجيبه أحد، ثم يعود ثلاثاً، فيجيب نفسه بنفسه بقوله: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى: الذى قهر العباد بالموت.

رُوى أن الله تعالى يجمع الخلائق فى صعيد واحد، فى أرض بيضاء، كأنها سبيكة فضة، لم يعص الله عليها قط، فأول ما يتكلم به أن ينادى مناد: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ فيجيب نفسه: «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ». وقيل: المجيب أهل المحشر، وروى أيضاً: أن هذا القول يقوله الحق تعالى عند فناء الخلق وقبل البعث، ولعله يقال مرتين.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس البرة والفاجرة، ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر، وهذا من تنمة الجواب، أو: حكاية لما سيقوله تعالى يومئذ عقب السؤال والجواب، ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عذاب، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ لأنه لا يشغله شأن عن شأن، فكما أنه يرزقهم دفعة، يحاسبهم دفعة، فيحاسب الخلق قاطبة فى أقرب زمان، كما نقل عن ابن عباس: أنه تعالى إذا أخذ فى حسابهم لم يقل (١) أهل الجنة إلا فيها، وأهل النار إلا فيها. هـ.

قلت: المراد بالحساب: إظهار ما يستحق كل واحد من النعيم أو العذاب، وأما ما ورد من طول المكث فى المحشر على الكفار والفجار؛ فإنما ذلك تعذيب بعد فراغ المحاسبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: هو الذى يريكم آياته الدالة على توحيده، وينزل لكم من سماء الغيوب علماً، تتقوت به قلوبكم وأرواحكم، فتغيبون فى مشاهدة المدلول عن الدليل، وما يتذكر بهذا ويهتد إليه إلا من ينيب، ويصحب أهل الإنابة. فادعوا الله، أى: اعبدوه وادعوا إلى عبادته وإخلاص العمل، ولو كره الجاحدون، فإن الله رفيع درجات الداعين إليه مع المقربين، فى مقعد صدق عند ذى العرش المجيد. قال القشيري: يرفع درجات المطيعين بظواهرهم فى الجنة، ودرجات العارفين بقلوبهم فى الدنيا، فيرفع درجاتهم عن النظر إلى الكونين، والمسكنة إليهما، وأما المحبون فيرفع درجاتهم عن أن يطلبوا فى الدنيا والعقبى شيئاً غير رضا محبوبيهم. هـ.

(١) من القيلولة.

يُلْقِي الروح من أمره على من يشاء من عباده، هو وحي أحكام للأنبياء، ووحى إلهام للأولياء، فيحيي الله بهم الدين في كل زمان، وقال القشيري: بعد كلام: ويقال: روح النبوة، وروح الرسالة، وروح الولاية، وروح المعرفة. هـ. والمراد بالروح: مطلق الرحي، لينذر الداعي يوم التلاقى، فيحصل اللقاء السرمدى مع الحبيب للمقربين، ويحصل الافتراق والبعد للفاصلين، حين تهز الخلائق بين يدي الله، لادعوى لأهد يومئذ، فيقول الحق تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

قال القشيري: لا يتقيد ملكه بيوم، ولا يختص بوقت، ولكن دعاوى الخلق - اليوم - لا أصل لها، ترتفع غداً، وتقطع تلك الأوهام. هـ. ومثله في الإحياء، وأنه إذا كشف الغطاء شهد الأمر كذلك، كما كان كل يوم، لا في خصوص ذلك اليوم. فإذا حصل للعبد مقام الفناء، لم ير في الدارين إلا الله، فيقول: لمن الملك اليوم؟ فيجيب: لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت من التقريب أو الإبعاد. قال القشيري: يجازيهم على أعمالهم الجنان، وعلى أحوالهم الرضوان، وعلى أنفاسهم - أى: على حفظ أنفاسهم - القرب، وعلى محبتهم الرؤية، ويجازى المذنبين على توبتهم الغفران، وعلى بكائهم الضياء والشفاء. هـ. لا ظلم اليوم، بل كل واحد يرتفع على قدر سعيه اليوم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قال القشيري: وسريع الحساب مع أوليائه في الحال، يطالبهم بالانقياد والقطمير. هـ. قلت: يدقق عليهم الحساب في الحال، ويرفع مقدارهم في المآل. وبالله التوفيق.

ثم حذر من هول ذلك اليوم، فقال:

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمٍ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ﴾ أى: القيامة، سُميت بها لأزوفها، أى: قربها. فالأزوف والازدلاف هو القرب، غير أن فيه إشعاراً بضيق الوقت، أو الخطأ الأزفة، وهى مشاركة أهل النار لدخولها، ثم أبدل من يوم الأزفة قوله: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ أى: التراقى، يعنى: ترتفع قلوبهم عن مقارها، فتلتصق

بحناجرهم من الرعب، فلا هي تخرج فيموتوا فيستريحوا، ولا ترجع إلى مقارها فيتروحوها. حال كونهم ﴿كاظمين﴾؛ ممسكين الغيظ بحناجرهم، أو: ممسكين قلوبهم بحناجرهم، يرومون ردها للثلا تخرج، فهو حال من القلوب، وجمعت جمع السلامة لوصفها بالكظم، وهو من أوصاف العقلاء، أو: من أصحاب القلوب؛ إذ الأصل: قلوبهم، أو: من ضميرها في الظرف، ﴿ما للظالمين من حميم﴾ أي: قريب مشفق ﴿ولا شفيع يطاع﴾ أي: ولا شفيع تقبل شفاعته، فالمراد: نفى الشفاعة والطاعة، كقول الشاعر:

وَلَا تَرَى الصَّبَّ فِيهَا يَنْجَحِرُ^(١)

يريد به: نفى الصب وانجحاره. وكقول الآخر:

عَلَى لَاحِبٍ لَا يَهْتَدِي بِمَنَارِهِ^(٢)

وإن احتمل اللفظ نفى الطاعة دون الشفاعة. فعن الحسن البصري: «والله ما يكون لهم شفيع البتة». ووضع الظالمين، موضع الضمير؛ للتسجيل عليهم بالظلم وتعليل الحكم به.

﴿يعلم خائنة الأعين﴾ أي: النظرة الخائنة، كاستراق النظر إلى ما لا يحل. قيل: فيه تقديم وتأخير، أي: الأعين الخائنة، وقيل: مصدر، كالعافية، أي: خيانة الأعين. قال ابن عباس رضي الله عنه: «هو الرجل يكون جالسا مع القوم، فتعر المرأة، فيسارقهم النظر إليها»^(٣). هـ. وقال ابن عطية: متصل بقوله: «سريع الحساب»، فيحاسب على خيانة الأعين، وقالت فرقة: متصل بقوله: «لا يخفى على الله منهم شيء»، وهذا حسن، يقويه تناسب المعنيين، ويبيده بعد الآية من الآية، وكثرة الحائل. والحاصل: أنه متصل بما تقدم من ذكر الله ووصفه، واعترض في أثناء ذلك بوصف القيامة لما استطرد إليه من قوله: «لينذر يوم التلاق» الآية. قاله المحشي. ﴿و﴾ يعلم ﴿ما تخفى الصدور﴾ أي: ما تكنه من خيانة وأمانة. وقيل: هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوة مسارقة، ثم يتفكر بقلبه في جمالها، ولا يعلم بنظرته وفكرته من حضره، والله يعلم ذلك كله.

﴿والله يقضى بالحق﴾ أي: ومن هذه صفاته لا يقضى إلا بالعدل، فيجازي كلاً بما يستحقه؛ إذ لا يخفى عليه خفى ولا جلى، ﴿والذين يدعون﴾ يعبدونهم ﴿من دونه﴾ من الآلهة ﴿لا يقضون بشيء﴾، وهذا

(١) عجز بيت، صدره: لا تقزع الأرنب أهوالها.

(٢) هذا صدر بيت عجزه: إذا سافه الثباطي جرجرا. وهو من قصيدة لامرئ القيس في ديوانه (٦٦). وصدر البيت في لسان العرب (لحاف ٤٠٠٩/٥). والحب: الطريق الواسع، من لحيه: إذا وطله ومرّ فيه، والمنار: ما يعلم به الطريق.

والشاهد في البيت: نفى الاهتداء بالمنار، والمقصود: نفى المنار، فلا منار ولا هداية.

(٣) عزاه السيوطي في الدر (٦٥٣/٥) لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة وابن النذر وابن أبي حاتم.

تهكم بهم؛ لأن الجماد الذي لا يعقل لا يقال فيه: يقضى ولا يقضى، وقرأ نافع بالخطاب؛ أو: على إضمار «قل»، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾؛ تقرير لقوله: «يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور» ووعيد لهم؛ لأنه يسمع ما يقولون، ويبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه، وتعرض بما يدعون من دون الله، بأنها لا تسمع ولا تبصر.

الإشارة: قال القشيري: قيامة الكل مؤجلة، وقيامة المحبين معجلة، في كل نفس من العتاب والعذاب، والبعد والافتراق، ما لم يكن في حساب، وشهادة الأعضاء بالدمع تشهد، وخفقان القلب ينطق، واللحول يخبر، واللون يفضح، والعبد يستتر، ولكن البلاء يظهر، قال:

يَا مَنْ تَغَيَّرَ صُورَتِي لَمَّا بَدَأَ لَجَمِيعٍ مَا ظَنُّوا بِنَا تَحْقِيقُ هـ. (١)

وقوله تعالى: ﴿إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينَ﴾، هو في حق من فاته التأهب والترقى في هذه الدار، فتحسّر حين يعاين مقامات الرجال، وليس له شفيع يرقيه، ولا حميم يصادفه. وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ هو في حق العارفين: النظر إلى السوى بعين الاستحسان. قال القشيري: خائنة الأعين هي من المحبين استحسانهم شيئاً - أي: من السوى - وأنشدوا:

يَا قَرَّةَ الْعَيْنِ: سَلْ عَيْنِي هَلْ اكْتَحَلَتْ بِمَنْظَرٍ حَسَنٍ مَذْغَبَتْ عَنْ عَيْنِي؟

وأنشد أيضاً:

وَعَيْنِي إِذَا اسْتَحْسَنْتَ غَيْرَ كَمْ أَمَرْتُ الدَّمْعَ بِتَأْدِيبِهَا (٢)

قلت: ومثله قول الشاعر:

وَنَظَرْتُ فِي سَوَى مَعْنَاكَ حَقٌّ لَهُ يَقْتَصُّ مِنْ جَفْنِهِ بِالدَّمْعِ وَهُوَ دَمٌ
وَالسَّمْعُ إِنْ حَالَ فِيهِ مَا يُحَدِّثُهُ سَوَى حَدِيثِكَ، أَمْسَى وَقَرَهُ الصَّمَمُ

ثم قال: ومن خائنة الأعين: أن تأخذهم السنة والسّنات (٣) في أوقات المناجاة، وفي قصص داود عليه السلام: «كَذَّبَ مَنْ ادَّعَى مُحِبَّتِي، فَإِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ نَامَ عَنِّي، وَمَنْ خَائِنَةُ أَعْيُنِ الْعَارِفِينَ: أَنْ يَكُونَ لَهُمْ خَيْرٌ، أَيْ: اسْتِحْسَانُ يَقَعُ لِقُلُوبِهِمْ مِمَّا تَقَعُ عَلَيْهِ أَعْيُنُهُمْ، يَنْظُرُونَ وَلَكِنْ لَا يَبْصُرُونَ - أَيْ: يَنْظُرُونَ إِلَى الْمُسْتَحْسَنَاتِ، وَلَكِنْ لَا يَقْفُونَ

(١) في لطائف الإشارات: [لجميع ما ظنوا بنا تصديقاً].

(٢) في القشيري: [أمرت السهاد بتعذيبها]. والبيت منسوب إلى سلم الخاسر، كما في نهاية الأرب (٥٦/٢) وفيه:

تقول وفي قولها حشمة أتبكي بعين ترانسي بها
قلت إذ استحسننت غيركم أمرت الدموع بتأديبها بأديبها

(٣) في القشيري: والسبات.

معها - ومن خائفة أعين المرحدين - أى: السائرين للتوحيد - أن يخرج منها قطرة دمع، تأسفاً على مخلوق يفوت من الدنيا والآخرة، ومن خائفة الأعين: النظر إلى غير المحبوب بأى وجه كان، ففي الخبر: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمَى وَيُصَمُّ» (١)، أى: يُغَيِّبُكَ عَنْ غَيْرِهِ، فلا ترى إلا محاسن الحبيب، وجماله فى مظاهر تجلياته، وإليه يشير قول ابن الفارض رحمته:

عَيْنِي لغيرِ جمالِكُمْ لاَ تَنْظُرُ وَسِوَاكُمْ فى خَاطِرِي لاَ يَخْطُرُ

وقوله تعالى: ﴿ وَاللّٰهُ يَقْضِيْ بِالْحَقِّ ﴾ قال القشيري: يقضى للأجانب بالبعد، ولأهل الوداد بالوصال، ويقضى يوم القدوم بعدل (٢) عمال الصدود. هـ. أى: يعدل فى أهل الصدود عن حضرته، فيجازيهم بنعيم الأشباح فقط. ثم قال: وإذا ذبح الموت غدا بين الجنة والنار على صورة كبش أملح، فلا غرو أن يذبح الفراق على رأس سكة الأحباب، فى صورة شخص، ويصلب على جذوع الغيرة، لينظر إليه أهل الحضرة. هـ.

ثم أمر بالتفكر - الذى هو طريق النجاة من كل ضرر - فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الْاَرْضِ فَيَنْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِيْنَ كَانُوْا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ اَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَّءَاثَارًا فِى الْاَرْضِ فَاَخَذَهُمُ اللّٰهُ بِذُنُوْبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ اِلّٰهِ مِنْ وَّاقٍ ﴿٢١﴾ ذٰلِكَ بِاَنَّهُمْ كَانَتْ تَاْتِيْهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰتِ فَاَكْفَرُوْا فَاَخَذَهُمُ اللّٰهُ اِنَّهُمْ قَوْمٌ شَدِيْدُو الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾

قلت: (هم أشد): ضمير فصل، وحقه أن يقع بين معرفتين، إلا أن (أشد) لما ضارع المعرفة فى كونه لا يدخله الألف واللام أجرى مجراها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الْاَرْضِ ﴾ أفطار ﴿ فى الأرض ﴾، فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ﴿ أى: مآل من قبلهم من الأمم المكذبة لرسولهم، كعاد، وثمود، وأصرابهم، ﴿ كانوا هم أشد منهم قوة ﴾ أى: قدرة وتمكناً من التصرف، ﴿ وَاَثَارًا فِى الْاَرْضِ ﴾: وأشد تأثيراً فى الأرض، ببناء القلاع الحصينة،

(١) أخرجه أحمد فى المسند (١٩٤/٥) وأبو داود فى (الأدب، باب فى الهوى ٣٤٦/٥ ح ٥١٣٠) والخطيب فى تاريخ بغداد (١١٧/٣) من حديث أبى الدرداء رضي الله عنه.

(٢) فى القشيري: (بعزل)، وهو أنسب.

والمدائن المتينة. وقيل: المعنى: وأكثر آثاراً، أى: ترك آثار فى الأرض، كالحصون وغيرها. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أخذاً وبيلاً، ﴿وَمَا كَانَ لَهُمُ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أى: لم يكن لهم شىء يقيهم من عذاب الله.

﴿ذَلِكَ﴾ الأخذ ﴿بأنهم﴾: بسبب أنهم ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ بالمعجزات الدالة على صدقهم، أو: بالأحكام الظاهرة الجلية، ﴿فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾، متمكن مما يريد غاية التمكن، قادر على كل شىء، ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يؤبه عند عقابه بعقاب.

الإشارة: قال القشيري: أَوَلَمْ يَسِيرُوا بِنَفْسِهِمْ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَيَطُوفُوا مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، فَيَعْتَبِرُوا بِهَا، فَيُزْهِدُوا فِيهَا؟ وَيَسِيرُوا بِقُلُوبِهِمْ فِي الْمَلَكُوتِ بِجَوْلَانِ الْفِكْرِ، فَيَشْهَدُوا أَنْوَارَ التَّجَلَّى، فَيَسْتَبْصِرُوا بِهَا؟ وَيَسِيرُوا بِأَسْرَارِهِمْ فِي سَاحَاتِ الصَّمَدِيَّةِ، فَيَسْتَهِلُّوْا فِي سُلْطَانِ الْحَقَائِقِ، وَيَتَخَلَّصُوا مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ قَاصِيَهَا وَدَانِيَهَا؟ ثُمَّ قَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، إِنَّ بَغْيَ مَنْ أَهْلَ السُّلُوكِ، قَاصِدٌ لَهُمْ يَصِلُ إِلَى مَقْصُودِهِ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مُوجِبَ حُجُبَتِهِ اعْتِرَاضُ خَآمِرِ قَلْبِهِ عَلَى بَعْضِ شَيْوْخِهِ، فِي بَعْضِ أَوْقَاتِهِ، فَإِنَّ الشَّيْخَ بِمَحَلِّ السَّفِيرِ لِلْمُرِيدِينَ. وَفِي الْخَبَرِ: «الشَّيْخُ فِي أَهْلِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ» (١). هـ.

ثم سأل نبيه بقصة موسى عليه السلام، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۖ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَمْنٍ وَقَرَوْنَ فَقَالُوا سَحَرٌ كَذَابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾

(١) عزاه السيوطي في الجامع الصغير (ح ٤٩٦٩ - ٤٩٧٠) للخليلي في مشيخته، وابن النجار، عن أبي رافع. وابن حبان في الضعفاء، والشيرازي في الألقاب، عن ابن عمر. والحديث ضعيف. وقال الشوكاني في الفوائد (٢٨٦): جزم ابن حجر وغيره بأنه موضوع. وانظر: تنزيه الشريعة (٢٠٧/١) الشذرة في الأحاديث المشتهرة للصالحى (٣٥٢/١).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ ؛ معجزاته التسع ﴿وسلطان مبین﴾ أى: حجة قاهرة، وهى: إما عين الآيات، والعطف لتغاير العنوانين، فكونها آيات من جهة خرق العادة، وكونها حجة من حيث الدلالة على صدق صاحبها، وإما أن يريد بالسلطان بعض مشاهيرها، كالعصا، أفردت بالذكر مع اندراجها تحت الآيات؛ لعظمها. وقال ابن عرفة: الآيات: المعجزات، والسلطان المبین، راجع إلى التحدى بها، فهو من قبيل الإدعاج^(١)، أو: يكون السلطان راجعاً إلى ظهورها؛ إذ ليس من شرطها الظهور، أو: يرجع إلى نتيجتها، وهو الغلبة والنصر. هـ.

أرسل ﴿إلى فرعون وهامان وقارون﴾، فقالوا ﴿فيما أظهره، أو: فيما ادّعاء من الرسالة: هو﴾ ساحر كذاب. فلمّا جاءهم بالحق من عندنا ﴿وهو الوحي والرسالة﴾، ﴿قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه﴾ أى: صبيانهم الذكور، ﴿واستحيوا نساءهم﴾ للخدمة، أى: أعيدوا عليهم القتل الذى كلّم تفعلونه أولاً، وكان فرعون قد كفّ عن قتل ولدان؛ لئلا تعطل خدمته، فلما بعث ﷺ، وأحسّ بأنه قد وقع ما توقع، أعاده عليهم غيظاً، وحُمقاً، وزعماً منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرته. ﴿وما كيد الكافرين إلا فى ضلال﴾، فى ضياع وبطلان، فإنهم باشروا قتلهم أولاً، فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه، فما يغنى عنهم هذا القتل الثانى، فلم يعلم أن كيده ضائع فى الكرّتين، واللام: إما للعهد المتقدم، والإظهار فى موضع الإضماع؛ لذمهم بالكفر، والإشعار بعة الحكم، أو: للجنس، وهم داخلون فيه دخولاً أولياً. والجملة: اعتراض جىء بها فى تضاعيف ما حكى عنهم من الأباطيل؛ للمسارعة إلى بيان بطلان ما أظهره من الإبراق والإرعاد الذى لا طائل تحته.

﴿وقال فرعون﴾ لملكه: ﴿ذروني أقتل موسى﴾، وكان ملؤه إذا هم بقتله كفّوه، وقالوا: ليس بالذى تخافه، وهو أقل من ذلك، وما هو إلا ساحر، وإذا قتلته أدمنت شبهة على الناس، واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة، والظاهر من دهاء اللعين وتكابرته أنه قد استيقن أنه نبيّ، وأن ما جاء به آيات باهرة، وما هو بسحر، ولكن كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك، وكان قوله تمريهاً على قومه، وإيهاماً أنهم هم الكافون عن قتله، ولولا هم لقتله، وما كان يكفه إلا ما فى نفسه من الازع الهائل. وقوله: ﴿وليدع ربّه﴾ تجلد منه وإظهار لعدم المبالاة بدعائه، ولكنه أخوف ما يخافه.

(١) مكذا.

ثم قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَنْ يُدَلَّ دِينَكُمْ﴾ أى: يغير ما أنتم عليه من الدين، وهو عبادتهم له وللأصنام؛ لتقريبهم إليه، ﴿أَوْ أَنْ يُظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ﴾ أى: ما يفسد دنياكم من التحارب والتهاجر إن لم يقدر على تبديل دينكم بالكلية. والحاصل: أنه قال: أخاف أن يفسد عليكم دينكم، بدعوته إلى دينه، أو: يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من القتال والتهاجر، الذى يذهب معه الأمن، وتتعطل المزارع والمكاسب والمعاش.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لَمَّا سَمِعَ مَا أَجْرَاهُ مِنَ الْحَدِيثِ فِي قَتْلِهِ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾، صَدَرَ عَلَيْهِ كَلَامُهُ بَيِّنٌ؛ تَأْكِيداً لَهُ، وإظهاراً لمزية الاعتناء بمضمونه، وفرط الرغبة. وخص اسم الرب المنبئ عن الحفظ والتربية؛ إذ بهما يقع الحفظ.

وفى قوله: «وربكم» حث لهم على أن يقتدوا به، فيعوزوا بالله عيادته، ويعتصموا بالتوكل اعتصامه، ولم يسم فرعون، بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة؛ لتعميم الاستعاذة، والإشعار بعلّة القساوة والجرأة على الله تعالى، وهو التكبر. قال ابن عرفة: أشار إلى أن كفره لم يكن لأجل أن موسى لم يأت بدليل ولا معجزة، ولم يكن أيضاً لخفاء تلك المعجزة، وعدم ظهورها، بل كان لجحود التعنت والتكبر، والإبابة عن الانحطاط من سلطنة الملك إلى رتبة الاتباع. هـ. وقال: «لا يؤمن بيوم الحساب»؛ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء، وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القوة والجرأة على الله وعباده، والعياذ بالله.

الإشارة: قال القشيري: كان موسى عليه السلام أكرم خلقه في رفته، وكان فرعون أخس خلقه في وقته؛ إذ لم يقل أحد: ما علمت لكم من إله غيري، فأرسل أخس عباده إلى أخس عباده. ثم إن فرعون سعى في قتل موسى، واستعان على ذلك بخيله ورجله، ولكن كما قال تعالى: «وما كيد الكافرين إلا في ضلال»، وإذا حفر أحد لولي الله حفرة، ما وقع فيها غير حافرها، كذلك أجرى الحق سنته. هـ.

ثم ذكر موعظة مؤمن آل فرعون لقومه، فقال:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ

كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمِ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال رجل مؤمن﴾، قيل: كان قبطياً، ابن عم لفرعون، آمن بموسى سرّاً، وقيل: كان إسرائيلياً موحّداً، وهو المراد بقوله: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ (١)، قال ابن عباس: اسمه حزقيل. وقال ابن إسحاق: جبريل، وقيل: سمعان. وقيل: حبيب (٢). و﴿من آل فرعون﴾: صفة ثانية لرجل، أو: صلة ليكنتم، أي: ﴿يكنتم إيمانه﴾ من فرعون وملائته: ﴿أتقتلون رجلاً﴾ أي: أنقصون قتله كراهة ﴿أن يقول ربي الله﴾ وحده، من غير روية ولا تأمل في أمره؟ وهذا إنكار منه عليهم، كأنه قال: أترتكبون هذه الفعلة الشنعاء - وهي قتل نفس محرمة - من غير حجة، غير قوله الحق، وإقراره بالتوحيد؟ ﴿وقد جاءكم بالبينات﴾ أي: والحال أنه جاءكم بالمعجزات الظاهرة، التي شاهدتموها وعاهدتموها من ربكم، يعني أنه لم يكتف ببينة واحدة، بل جاء ببينات كثيرة ﴿من﴾ عند ﴿ربكم﴾، أضافه إليهم، استنزالاً لهم عن رتبة المكابرة، واستدراجاً للاعتراف.

ثم أخذهم بالاحتجاج فقال: ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه﴾، لا يتخفى ويال كذبه إلى غيره، فيحتاج في دفعه إلى قتله، ﴿وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم﴾ من العذاب، احتج عليهم بطريق التقسيم؛ لأنه لا يخلو، إما أن يكون كاذباً أو صادقاً، فإن كان كاذباً فوبال كذبه عليه، وإن كان صادقاً يصيبكم قطعاً بعض ما يعدكم من العذاب، ولم يقل: كل الذي يعدكم، مع أنه وعد من نبي صادق، مداراة لهم وسلوكاً لطريق الإنصاف، فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم له، فكأنه قال: إن لم يصيبكم الجميع يصيبكم البعض، وليس فيه نفى لإصابة الكل، فكأنه قال: أقل ما فيه أن يصيبكم بعض ما يعدكم، وهو العذاب العاجل، وفي ذلك هلاككم، وكان وعدهم عذاب الدنيا والآخرة. وتفسير البضع بالكل مزيف. ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾، هذا احتجاج آخر ذو وجهين؛ أحدهما: أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى النبوة، ولما عضده بتلك البينات، وثانيهما: إن كان كذلك خذله الله وأهلكه، فلا حاجة إلى قتله. وقيل: أوهم أنه يريد بالمسرف موسى، وهو يعلى به فرعون، ويحتمل أن يكون من كلام الله - تعالى - اعتراضاً بين أجزاء وعظه، إخباراً بما سبق لهم من الشقاء، فلا ينفع فيهم الوعظ.

(١) من الآية ٢٠ من سورة يس.

(٢) انظر هذه الأقوال في تفسير القرطبي (٥٩٢١/٧) والبعري (١٤٦/٧).

ثم قال: ﴿يَا قَوْم لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ حال كونكم ﴿ظَاهِرِينَ﴾ ؛ غالبين عالين على بنى إسرائيل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ؛ أرض مصر، لا يقاومكم أحد في هذا الوقت، ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ يعنى: إن لكم اليوم ملك مصر، وقد علوتم الناس، وقهرتموهم، فلا تسرفوا على أنفسكم، ولا تتعرضوا لبأس الله، أى: عذابه؛ فإنه لا طاقة لكم به إن جاءكم، ولا يمنعكم منه أحد. وإنما نسب ما يسرهم من الملك والظهور في الأرض إليهم خاصة، ونظم نفسه فيما يسوؤهم، من مجئ بأس الله تعالى، إحاضاً للنصح، وإيضاحاً بأن الذى ينصحهم به هو مساهم لهم فيه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بعدما سمع نصحه لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ﴾ أى: ما أشير عليكم ﴿إِلَّا مَا أَرَى﴾ وأستصوبه من قتل موسى، يعنى: لا أستصوب إلا قتله، وهذا الذى تقولونه غير صواب، ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأى ﴿إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أى: الصواب، ولا أعلنكم إلا ما أعلم، ولا أسر عنكم شيئاً خلاف ما أظهر، يعنى: أن لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول، وقد كذب اللعين، فقد كان مضمرّاً للخوف الشديد من جهة موسى عليه السلام، ولكنه كان يتجلد، ولولا استشعاره للخوف لم يستشر أحداً في قتله، وقد كان سفاكاً جباراً، فما منعه إلا خوف الهلاك إن مَدَّ يده إليه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال القشيري: قد نصح وأبلغ مؤمن آل فرعون، واحتج عليهم، فلم ينجع فيهم قوله، وأعاد عليهم نصحه فلم يسمعوا، وكان كما قيل:

وَكَمْ سَفَتْ فِي آثَارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الْبَغْضَةَ الْمُسْتَنْصِحُ (١)

ثم قال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (٣٠) ﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ (٣١) ﴿وَيَنْقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ (٣٢) ﴿يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٣)

(١) البيت للعباس بن الفرغ الرياشي. انظر الكامل للمبرد (٢/٣٩٢) وفيه: وكم صغت في آثاركم...

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذي آمن﴾ مخاطباً قومه: ﴿يا قوم إني أخاف عليكم﴾ في تكذيب موسى، والتعرض له بسوء، ﴿مثل يوم الأحزاب﴾ أى: مثل أيام الأمم الماضية المتحزبة على رسلها، يعنى وقائعهم. وجمع الأحزاب مع التفسير أغنى عن جمع اليوم، أى: بالإضافة، وفسره بقوله:

﴿مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم﴾: كقوم لوط وشعيب، لم يلبس أن كل حزب منهم كان له يوم دمار، فاقصر على الواحد من الجمع. ودأب هؤلاء: دؤوبهم فى عملهم من الكفر، والتكذيب، وسائر المعاصى، حتى دمرهم الله. ولا بد من حذف مضاف، أى: مثل جزاء دأبهم - وهو الهلاك. (مثل) الثانى: عطف بيان لمثل الأولى. ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾: فلا يعاقبهم بغير ذنب، أو: يزيد على ما يستحقونه من العذاب، يعنى أن تدميرهم كان عدلاً؛ لأنهم استحقوه بأعمالهم، وهو أبلغ من قوله: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ (١)؛ حيث جعل المنفى إرادة الظلم منكراً، وإذا بعد عن إرادة ظلم ما لعباده؛ كان عن الظلم أبعد وأبعد. وتفسير المعتزلة: بأنه لا يريد لهم أن يظلموا، بعيد؛ لأن أهل اللغة قالوا: إذا قال الرجل لآخر: لا أريد ظلماً لك، معناه: لا أريد أن أظلمك، وهذا تخويف بعذاب الدنيا. ثم خوفهم من عذاب الآخرة بقوله:

﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد﴾ أى: يوم القيامة؛ لأنه ينادى فيه بعضهم بعضاً للاستغاثة، ويتصايحون بالويل والثبور، وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة، وأصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم، وعن الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندوا هرباً، فلا يأتون قطراً من الأقطار، إلا وجدوا ملائكة صفوفاً، فيرجعون إلى مكانهم، فبينما هم يموج بعضهم فى بعض، إذ سمعوا منادياً: أقبلوا إلى الحساب. أو: ينادى مناد عند الميزان: ألا إن فلاناً بن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، ألا إن فلان بن فلان شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبداً. قال ابن عطية: المراد التذكير بكل نداء فى القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة، وذلك كثير. هـ.

ثم أبدل من يوم التناد: قوله: ﴿يوم تولون مدبرين﴾ أى: منصرفين عن القوم إلى النار، أو: فارين منها غير معجزين، ﴿مالكم من الله من عاصم﴾ يعصمكم من عذابه، ولما أيس من قبولهم قال: ﴿ومن يضل الله فما له من هاد﴾ يهديه إلى طريق النجاة.

الإشارة: ينبغى للواعظ والمذكر إذا ذكر العصاة أن يخوفهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، كما فعل مؤمن آل فرعون، أما عذاب الدنيا فما يلحق العاصى من الذل والهوان عند الله، وعند عباده، وما يحلقه إن طال عمره من المسخ وأرذل العمر، فإن المعاصى فى زمن الشباب تجر الويال إلى زمن الهرم، كما أن الطاعة فى حال الشباب

(١) من الآية ٤٦ من سورة فصلت.

تجر الحفظ والرعاية إلى حال الكبر، وأما عذاب الآخرة فمعلوم، ثم يحض على التوبة والإقلاع، فإن التائب الناصح ملحق بالطائع، فلا يلحقه شيء من ذلك. وبالله التوفيق.

ثم وبخهم بما تعودوا من تكذيب الرسل، فقال:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

قلت: (الذين يجادلون): بدل من (من هو)، وإنما جمع؛ لأنه لم يرد مسرفاً واحداً، بل كل مسرف.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً لقول المؤمن: ﴿ولقد جاءكم يوسف﴾، هو ابن يعقوب، وقيل: يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب، أقام فيهم نبياً عشرين سنة^(١)، وقال وهب: فرعون موسى هو فرعون يوسف، عمر إلى زمنه، وقيل: هو فرعون آخر؛ لأن كل من ملك مصر يقال له فرعون، وهذا أظهر. وقول الجلال المحلى: هو يوسف بن يعقوب في قول، عمر إلى زمنه، سهو. وإنما قيل ذلك في فرعون لا في يوسف.

قلت: والتحقيق: أنه وبخهم بما فعل أسلافهم؛ لأنهم على منوالهم، راضون بما فعلوا، فالمراد بيوسف، هو الصديق، فما زالوا مترددين في رسالته حتى مات، واستمر خلفهم على ذلك إلى زمن موسى، وقوله تعالى: ﴿من قبل﴾ أي: من قبل موسى، أي: جاءكم يوسف ﴿بالبينات﴾؛ بالمعجزات الواضحة، كتعبير الرؤيا، ودلائل التوحيد، كقوله: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ...﴾ (٢) الآية، وملكه أموالهم ورقابهم في زمن المسغبة، وغير ذلك مما دل على رسالته. ﴿فما زلتُم في شكٍ مما جاءكم به﴾ من الدين ﴿حتى إذا هلك﴾ بالموت ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا﴾، حكماً، من عند أنفسكم، من غير برهان، أي: أقمت على كفركم، وظننتم أن لا يجدد عليكم إيجاب الحجة.

(١) ذكره القرطبي (٥٩٢٨/٧) عن ابن عباس رضي الله عنه، وجاء في البحر المحیط (٤٤٥/٧) والنسفي (٢١٠/٣) «إبراهيم، بدلاً من إفرائيم».

(٢) من الآية ٣٩ من سورة يوسف.

قال القشيري: يقال: إن تكذيبهم وتكذيب سلفهم للأنبياء - عليهم السلام - كان قديماً حتى أهلكهم، كذلك يفعل بهؤلاء (١). هـ.

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ أى: مثل ذلك الإضلال الفظيع يُضلُّ الله من هو مسرف في عصيانه، شاك في دينه، لم يفكر فيما شهدت البينات بصحته؛ لغلبة الوهم، والانهماك في التقليد.

ثم فسره فقال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ بالرد والإبطال ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ ؛ بغير حجة واضحة، تصلح للتمسك بها في الجملة، ﴿أَتَاهُمْ﴾ : صفة لسلطان، أى: بغير برهان جاءهم بصحة ذلك، ﴿كَبِيرٌ مُقْتًا﴾ أى: عظم بغضاً ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ، وفيه ضرب من التعجب والاستعظام. وفي «كبر» ضمير يعود على «من»، وتذكيره باعتبار اللفظ. ﴿كَذَلِكَ﴾ أى: مثل ذلك الطبع الفظيع ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ فيصدر منه أمثال ما ذكر من الإسراف، والارتياب، والمجادلة بالباطل. ومن قرأ بالتنوين (٢) فوصف لقلب، وإنما وصف بالتكبر والتجبر؛ لأنه منبعهما، كما تقول: سَمِعْتُ الْأَذْنَ، كقوله: ﴿فَأَنَّهُ آثَمٌ قَلْبُهُ﴾ (٣) وإن كان الإثم للجملة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقال لأهل كل عصر: ولقد جاءكم فلان - لولى تقدم قلبهم - بالآيات الدالة على صحة ولايته، فما زلتم، أى: مازال أسلافكم من أهل عصره - فى شك منه، حتى إذا مات ظهرت ولايته، وأقررتم بها، وقلتم: لن يبعث الله من بعده ولياً، وهذه عادة العامة، يُقرِّون الأموات من الأولياء، وينكرون الأحياء. وهى نزعة أهل الكفر والضلال، كذلك يُضلُّ الله من هو مسرف مرتاب، كالذين يخاصمون فى ثبوت الخصوصية عند أربابها، من غير برهان، وهو شأن المنكرين، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار.

ثم ذكر عتو فرعون وطغيانه، فقال:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَمْنُنْ أَبْنِي لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُرِّي لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

(١) بالمعنى.

(٢) قرأ أبو عمر (قلب) بالتنوين فى الباء على قطع قلب، عن الإضافة، وجعل التكبر والجبروت صفته، وقرأ الباقرن بغير تنوين بإضافة قلب، إلى ما بعده. واختلف عن ابن عامر. انظر الإنحاف (٢/٤٣٧).

(٣) من الآية ٢٨٣ من سورة البقرة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال فرعون﴾، تمويهاً على قومه، وجهلاً منه: ﴿يا هامان﴾ وزيره ﴿ابن لي صرحاً﴾ أى: قصرأً عالياً، وقيل: الصرح: البناء الظاهر الذى لا يخفى على الناظر وإن بعد منه. يقال: صرح الشيء: إذا ظهر. ﴿لعلّى أبلغ الأسباب﴾ أى: الطرق. ثم أبدل منها تفخيماً لشأنها، وإظهاراً أنه يقصد أمراً عظيماً:

﴿أسباب السموات﴾ أى: طرقها وأبوابها، وما يؤدى إليها، وكل ما أذاك إلى الشيء فهو سبب إليه، ﴿فأطلع إلى إله موسى﴾ أى: فأنظر إليه وأتحقق وجوده، قرأه حفص بالنصب، جواب التمنى، والباقي بالرفع، عطفاً على «أبلغ». قال البيضاوى: ولعله أراد أن يبنى له صرحاً فى موضع عال، يرصد منه أحوال الكواكب، التى هى أسباب سماوية، تدلّ على الحوادث الأرضية، فيرى هل فيها ما يدلّ على إرسال الله تعالى إياه، أو أن يرى فساد قوله ﷺ؛ فإن إخباره عن إله السماء يتوقف على اطلاعه ووصوله إليه، وذلك لا يتأتى إلا بالصعود للسماء، وهو مما لا يقوى عليه الإنسان، وما ذلك إلا لجهله بالله وكيفية استنباطه. هـ.

قلت: والظاهر أنه كان مجسماً، يعتقد أن الله فى السماء، وأن اطلاعه إليه إنما كان ليرى هل ثم إله، وإن قوله: ﴿وإنى لأظنه كاذباً﴾ أى: فى ادعاء إله غيرى، بدليل قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيرى﴾^(١) مع أن هذا كله إنما هو تمويه منه على قومه، وجرأة على الله، لا حقيقة له.

قال تعالى: ﴿وكذلك﴾ أى: ومثل ذلك التزيين المفرط، والصدّ البليغ، ﴿زينَ لفرعون سوءَ عمله﴾ فانهمك فيه انهماكاً لا يرعوى عنه بحال، ﴿وصدّ^(٢) عن السبيل﴾ أى: سبيل الرشاد، وقرأ الكوفيون ويعقوب «وصدّ» بالبناء للمفعول، فالفاعل فى الحقيقة فيهما هو الله، بتوسط الشيطان فى عالم الحكمة، ومن قرأ «صدّ» بالبناء للفاعل، فالفاعل: فرعون، إما صدّ الناس عن طريق الحق بأمثال هذه التمويهات، أو: اتصف بالصدّ. ﴿وما كيدُ فرعون إلا فى تباب﴾ أى: خسران وهلاك.

الإشارة: ما ظهر على فرعون هو من طغيان النفس وعتوها، فإن النفس إذا اتصلت بها العوافى، وساعدتها أقدار الجمال فى الظاهر، ادّعت الربوبية، فإن فرعون قيل: إنه عاش أربعمئة سنة، لم يتوجع فيها قط، فادعى الربوبية، ولذا قال بعض الصوفية: فى النفس خاصية ما ظهرت إلا على فرعون، حين قال: أنا ربكم الأعلى، فكان

(١) من الآية ٣٨ من سورة القصص.

(٢) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائى: (وصدّ) بضم الصاد. وقرأ الباقر بالفتح. انظر الحجة للفارسي (١١٢/٦).

نزول الأقدار القهرية والبلايا على العبد، رحمة عظيمة، تتحقق بها العبودية، التي هي شرف العبد ورفعته. وبالله التوفيق.

ثم ذكر بقية وعظ المؤمن، فقال:

﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَتَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَتَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَن
عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الذي آمن ﴾ أى: مؤمن آل فرعون: ﴿ يا قوم اتبعون ﴾ فيما دلتكم عليه، ﴿ أهدكم سبيل الرشاد ﴾ أى: طريقاً يوصل صاحبه إلى المقصود. والرشاد: ضد الغي، وفيه تعريض بأن ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغي والضلال.

﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ أى: تمتع يسير؛ لسرعة زوالها، فالإخلاق إليها أصل الشر، ومنبع الفتن، ومنه يتشعب فنون ما يؤدي إلى سخط الله. أجمل له أولاً، ثم فسر، فاستفتح بدم الدنيا، وتصغير شأنها، ثم ثلّى بتعظيم الآخرة، وبين أنها هي الموطن والمستقر بقوله: ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾؛ لخلودها، ودوامها، ودوام ما فيها. قال ابن عرفة: التمتع بالدنيا مانع من الزهد، وكون الآخرة دار مستقر يقتضى وجود الحرص على أسباب الحصول فيها. هـ.

ثم ذكر الأعمال التي تبعد عنها أو تقرب إليها، فقال: ﴿ من عمل سيئة ﴾ فى الدنيا ﴿ فلا يجزى ﴾ فى الآخرة ﴿ إلا مثلاً ﴾ عدلاً من الله تعالى. قال القشيري: له مثلاً فى المقدار، لا فى الصفة؛ لأن الأولى سيلة، والمكافأة حسنة ليست بسيلة. هـ. وقال ابن عرفة: فى توفيه معاملة العذاب الأبدى على كفر ساعة تنصور المماثلة، إما باعتبار نيته الكفر دواماً، وإما بأن يقال: ليس المراد المماثلة عقلاً، بل المماثلة شرعاً. وفى الإحياء: قال الحسن: إنما خلد أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار، فى النار، بالنية، وهو - والله أعلم - مقتبس من قوله تعالى: ﴿ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ (١) هـ. قاله المحشى.

(١) من الآية ٤٤ من سورة إبراهيم.

﴿ومن عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فأولئك﴾ الذين عملوا ذلك ﴿يدخلون الجنة يُرزقون فيها بغير حساب﴾ أى: بغير تقدير، وموازنة بالعمل، بل بأضعاف مضاعفة، فضلاً من الله - عز وجل - ورحمة. قال القشيري: أى: مؤبداً مخلداً، لا يخرجون من الجنة، ولا مما هم عليه من الحال. هـ. وجعل العمل عمدة، والإيمان حالاً، للإيدان بأنه لا عبرة بالعمل بدونه، وأن ثوابه أعلى من ذلك.

الإشارة: قال الورتجبي: سبيل الرشاد: طريق المعرفة، ومعرفة الله تعالى: موافقته ومتابعة أنبيائه وأوليائه، ولا تحصل الموافقة إلا بترك مراد النفس، ولذلك قال: «يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع». قال محمد بن علي الترمذي: لم تزل الدنيا مذمومة في الأمم السابقة، عند العقلاء منهم، وطالبوها مهانين عند الحكماء الماضية، وما قام داع في أمة إلا حذر متابعة الدنيا وجمعها والحب لها، ألا ترى مؤمن آل فرعون كيف قال: ﴿اتبعون أهدكم سبيل الرشاد﴾، كأنهم قالوا: وما سبيل الرشاد؟ قال: ﴿إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾ أى: لن تصل إلى سبيل الرشاد وفي قلبك محبة الدنيا وطلب لها. هـ.

﴿وَيَقَوْمٌ مَّا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ۖ﴾
 تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ۚ مَا لِيَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى
 الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ۖ﴾ لَاجِرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ
 وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبِ الْأُمُورِ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ﴾ فَتَذَكَّرُونَ
 مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۖ﴾ فَوَقَّعَهُ
 اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۖ﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ
 عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۖ﴾

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن المؤمن: ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة﴾؛ إلى السلامة من النار، ﴿وتدعونني إلى النار﴾ بملوك أسبابها. كرر نداءهم؛ إيقاظاً لهم عن سنة الغفلة، واعتناءً بالمنادي به، ومبالغة في توبيخهم، وفيه أنهم قومه، وأنه من آل فرعون، وجيء بالواو في النداء الثالث، دون الثاني؛ لأن الثاني

داخل في كلام هو بيان للمجمل وتفسير له، بخلاف الثالث. ومدار التعجب الذي يلوح به الاستفهام هو دعوتهم إياه إلى النار، لا دعوته إياهم إلى النجاة، كأنه قيل: أخبروني كيف هذا الحال؛ أدعوكم إلى الخير وتدعونني إلى الشر؟ ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ هو بدل من (تدعونني) الأول، وفيه تعليل، والدعاء يتعدى باللام وبإلى، كالهداية، ﴿وَأَشْرِكْ بِهِ﴾؛ وتدعونني لأشرك به ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: بريبيته، والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم، كأنه قال: وأشرك به شيئاً ليس بإله، وما ليس بإله كيف يصح أن يعلم إلهاً؟ ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ أي: إلى الله الجامع لصفات الألوهية، من كمال القدرة والغلبة، وما يتوقف عليه من العلم والإرادة؛ إذ بالقدرة يتمكن من المجازاة بالتعذيب، أو الإحسان بالغفران.

﴿لَا جَرَمَ﴾؛ لاشك، أو: حقاً، وقال البصريون: لا،: نفي رد لما دعوه إليه، وجرم: فعل، بمعنى: حق، وأن: مع ما، في حيزه؛ فاعل، أي: حق ووجب ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: وجب عدم دعوة آلهتكم إلى عبادتها، والظاهر: أن جرم، من الجرم، وأراد به هنا الكذب، أي: لا كذب في أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة.. الخ، فقد يضمن الفعل معنى المصدر، وتدخل لا، النافية للجنس عليه، والمعنى: أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط، ومن حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته، وما تدعونني إليه لا يدعو هو إلى عبادته، ولا يدعى الربوبية، أو: معناه: ليس له استجابة دعوة في الدنيا والآخرة، أو: دعوة مستجابة. جعلت الدعوة التي لاستجابة لها، ولا منفعة، كلا دعوة. ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: رجوعنا إليه بالموت، ﴿وَأَنْ الْمُسْرِفِينَ﴾ في الضلال والطغيان، كالإشراك وسفك الدماء، ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: ملازموها.

﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ من النصائح عند نزول العذاب، ﴿وَأَقْبُضُ﴾؛ أسلم ﴿أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾، قاله لما توعدوه. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِصِيرِ الْعِبَادِ﴾ فيحرس من يلوذ به من المكاره.

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا﴾؛ شذائد مكرهم، وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب لمن خالفه، وقيل: إنه خرج من عندهم هارباً إلى جبل، فبعث قريباً من ألف في طلبه، فمنهم من أكلته السباع، ومن رجع منهم صلبه فرعون. وقيل: لما وصلوا إليه ليأخذوه، وجدوه يصلي، والوحوش حوله، فرجعوا رعباً، فقتلهم. وقال مقاتل: لما قال المؤمن هذه الكلمات، قصدوا قتله، فوقاه الله من مكرهم، أي: بعد تفويض أمره إلى الله، فقيل: إنه نجا مع موسى في البحر. هـ. ﴿وَحَاقَ﴾؛ نزل ﴿بِأَلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: بفرعون وقومه. وعدم التصريح به، للاستغناء بذكرهم عن ذكره، ضرورة أنه أولى منهم بذلك، و﴿سَاءَ الْعَذَابُ﴾؛ الغرق والقتل والنار.

وقوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: جملة مستأنفة، مسوقة لبيان سوء العذاب، والنار: خبر عن محذوف، كأن قائلًا قال: ما سوء العذاب؟ فقل: هو النار، أو: بدل من «سوء»، وهـ النار: مبتدأ، ويعرضون: خبر، وعرضهم عليها: إحراقهم، يقال: عرض الإمام الأسارى على السيف: إذا قتلهم به. وذلك لأرواحهم، كما روى ابن مسعود: أن أرواحهم في أجواف طير سود، تعرض على النار - أى: تحرق بها - بكرة وعشيا، إلى يوم القيامة^(١). تخصيص الوقتين إما لأنهم يذهبون في غيرهما بجنس آخر، أو: يخفف عنهم، أو: يكون غدوا وعشيا عبارة عن الدوام.

هذا في الدنيا في عالم البرزخ، ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ يقال للخنزة: ﴿أدخلوا آل فرعون﴾، من الإدخال الرباعي، ومن قرأ: أدخلوا^(٢)، ثلاثيا، فعلى حذف النداء، أى: ادخلوا يا آل فرعون ﴿أشد العذاب﴾ أى: عذاب جهنم، فإنه أشد مما كانوا فيه، أو: أشد عذاب النار، فإن عذابها ألوان، بحضه أشد من بعض، وهذه الآية دليل على عذاب القبر في البرزخ، وهو ثابت في الأحاديث السماع.

الإشارة: النجاة التي دعاهم إليها: هي الزهد في الدنيا، وفي التمتع بها مع الاشتغال بالله. والنار التي دعوها إليها: هي الاشتغال بمتعة الدنيا مع الغفلة عن الله. لاجرم أن ما دعوها إليه لا منفعة له في الدارين، بل ضرره أقرب من نفعه. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ مَّرْنَا إِلَى اللَّهِ﴾ قال الورتجبي: [مرد المحبين]^(٣) إلى مشاهدته، ومرد العارفين إلى الوصلة، ومرد الكل إلى قضيات الأزلية.

قال حمدون القصار: لا أعلم في القرآن أرجى من قوله: ﴿وَأَنْ مَّرْنَا إِلَى اللَّهِ﴾، فقد حكى عن بعض السلف أنه قال: الكريم إذا قدر عفا، وإنما يكون مرد العبد إلى ربه إذا أتاه على أمد الإفلاس والفقر، لا أن يرى لنفسه مقاما في إحدى الدارين، وهو أن يكون في الدنيا خاشعا لمن يذله، ولا يلتفت إليه، هاربا ممن يكرمه ويبره، ويكون في الآخرة طالبا لفصل الله، مشفقا من حسداته أكثر من إشفاق الكفار من كفرهم. هـ. قلت: هذا مقام العباد والزهاد، وأما العارفون فلا يرون إلا الله، فيلقون الله بالله، غائبون عن إحسانهم وإساءتهم.

وقوله تعالى: ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾ هكذا يقول الواعظ إن لم ينفع وعظه، ويفوض أمره وأمرهم إلى الله؛ فإن الله بصير بهم. وقال بعضهم: وأفوض أمري في الدنيا والآخرة إلى الله، فهو بصير بمعجزى وضعفى عن

(١) عز د السيوطى فى الدر (٦٥٩/٥) لعبد الرزاق وابن أبى حاتم.

(٢) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر (ادخلوا) بهمزة وصل، وضم الخاء، وقرأ الباقر بن بقطع الهمزة المفتوحة، وكسر الخاء. أمر للخنزة. انظر الإتحاف (٤٣٨/٢).

(٣) مابين المعقوفتين غير موجود فى الأصول، وأثبتته من عرائس البيان للشيرازى.

رد القضاء والقدر، والتفويض: ألا يرى لنفسه، ولا للخلق جميعاً، قدرة على الدفع والضرر، فيرى الله بإيجاد الموجود في جميع الأنفاس، بدت المشاهدة والحال، لا بدت العلم والعقل. وقال بعضهم: التفويض: قبل نزول القضاء، والتسليم: بعد نزول القضاء. وقال ذو النون حين سئل عنه: متى يكون العبد مفوضاً؟ قال: إذا أيس من فعله ونفسه، والتجأ إلى الله في جميع أحواله، ولم تكن له علاقة سوى ربه. هـ. أى: لم يكن له تعلق إلا بالله. فالمقامات ثلاث: التفويض قبل النزول، والرضا بعده بالمجاهدة، والتسليم بلامجاهدة.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّامُكُرًا﴾ هذه نتيجة التفويض، فكل من فوض أمره إلى الله فيما ينزل به، وقاه الله جميع المكاره، وكل ما يخشى؛ إن قطع عن قلبه التعلق بغير الله، كما هو حقيقة التفويض. قال القشيري: أشد العذاب على الكفار: يأْسُهُم عن الخروج، وأما العصاة من المؤمنين فأشد عذابهم: إذا علموا أن هذا يوم لقاء المؤمنين. هـ. أى: وهم قد حرموا ذلك.

ثم ذكر احتجاج الكفار في النار، فقال:

﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ﴾ أى: واذكر لقومك وقت تخاصم الكفار في النار، ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾ منهم ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم رؤساؤهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، وهو جمع تابع، كخادم وخدم، أو: ذوى تبع، على أنه مصدر، أو: وصف به للمبالغة، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ أى: فهل أنتم دافعون، أو: حاملون عنا جزءاً من النار؟ ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾، التلويح عوض عن المضاف، أى: كلنا فيها، لا يغنى أحد عن أحد. وقرئ (كلاً) بالنصب^(١) على التأكيد، وهو ضعيف لخلوه من

(١) قرأ بذلك ابن السميع وعيسى بن عمر. انظر القرطبي (٥٩٣٧/٧) والبحر المحيط (٤٤٨/٧).

الضمير. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ ؛ قضى بينهم، بأن أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، لا مرد له، ولا معقب لحكمه، فلا يغنى أحد عن أحد شيئاً.

قال ابن عرفة: في الآية لف ونشر، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ فِيهَا﴾ راجع لقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: إنا قد حصلنا جميعاً في النار، فجازى كل على قدر عمله، أنتم على ضلالكم، ونحن على إضلالنا إياكم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ راجع لقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا﴾ وبهذا المعنى يتقرر الجواب. هـ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ ؛ للقوأم بتعذيب أهلها، وإنما لم يقل: لخزنتها؛ لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفضيلاً، ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعرأ، من قوله: بدر جهنم، أي: بعيدة القعر، وفيها أعتى الكفرة وأشداهم، أو: لكون الملائكة الموكلين بعذاب أهلها أقدر على الشفاعة؛ لمزيد قريهم من الله، فلهذا تعمدوهم بطلب الدعوة، فقالوا لهم: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أي: مقدار يوم من الدنيا ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ ، واقتصارهم في الاستدعاء على ما ذكر في تخفيف قدر يسير من العذاب في مقدار قصير من الزمان، دون رفعه رأساً، أو: تخفيف منه في زمان مديد؛ لأن ذلك عندهم ليس في حيز الإمكان، أو لا يكاد يدخل تحت أمانيتهم.

﴿قَالُوا﴾ أي: الخزنة، توبيخاً لهم، بعد مدة طويلة: ﴿أَوَلَمْ تَكُ﴾ أي: القصة ﴿تَأْتِيكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ؛ بالمعجزات، يثبوتون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟ أرادوا بذلك إلزامهم الحجة، وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء، وتعطيل أسباب الإجابة، ﴿قَالُوا﴾ أي: الكفار: ﴿بلى﴾ أتونا بها، فكذبناهم وقلنا: ما نزل الله من شيء. ﴿قَالُوا﴾ أي: الخزنة تهكمأ بهم: ﴿فَادْعُوا﴾ أي: إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم، فإن الدعاء لمن يفعل ذلك مما يستحيل صدوره منا. زاد البيضاوي: إذ لم يؤذن لنا في الدعاء لأمثالكم، ويبحث معه أبو السعود بأنه يؤهم أن المانع هو عدم الإذن، وأن الإذن في حيز الإمكان، ولا تجوز الشفاعة في كافر. انظره. قال تعالى: ﴿وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ؛ في ضياع وبطلان، لا يجابون فيه؛ لأنهم دعوا في غير وقته، ويحتمل أن يكون من كلام الخزنة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الآية تجر ذيلها على كل من له جاه، فدعا إلى سوء، بمقاله أو حاله، فتبعه العامة على ذلك، فيحتاجون يوم القيامة، فيقول المستضعفون: إنا كنا لكم تبعاً. فكل من أمر بسوء، وفعل، عوقب الأمر والمأمور، وكل من فعل فعلاً خارجاً عن السنة، كالرغبة في الدنيا، والتكاثر منها، فتبعه العامة على ذلك، عوتب الجميع، وبالله التوفيق.

ثم وعد أهل الحق بالنصر، فقال:

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ
الدَّارِ ۝٥٢ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالحجة والظفر، والانتقام لهم من الكفرة، بالاستئصال، والقتل، والسبى، وغير ذلك من العقوبات. ولا يقدح في ذلك ما يتفق لهم من صورة الغلبة، امتحاناً؛ إذ الحكم للغالب، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا... ﴾ (١) الآية، وقوله: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ (٢). والنصر في الدنيا إما بالسيف، في حق من أمر بالجهاد، أو: بالحجة والإهلاك فيمن لم يؤمر به، وبذلك يندفع قول من زعم تخصيص الآية أو تعميمها، وإخراج زكريا ويحيى من الرسالة، وإن ثبت لهما النبوة لقتلهما، وأن الآية، إنما تضمنت نصر الرسل دون الأنبياء، فإنه خلاف لما صرح به الجمهور من ثبوت الرسالة ليحيى، ففي كلام ابن جزى هنا نظر. قاله المحشى.

﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ أى: وننصرهم يوم القيامة، عبّر عنه بذلك للإشعار بكيفية النصرة، وأنها تكون حين يجتمع الأولون والآخرون، ويحضره الأشهاد من الملائكة وغيرهم، فيشهدون للأنبياء بالتبليغ، وعلى الكفرة بالتكذيب. قال الدسقي: الأشهاد جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، يريد: الأنبياء والحفظة، فالأنبياء يشهدون عند رب العزة على الكفرة بالتكذيب، والحفظة يشهدون على بنى آدم. هـ.

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ ﴾: هو بدل من «يوم يقوم» أى: لا يقبل عذرهم، ومن قرأ بالقأنيث (٣) فباعتبار لفظ المعذرة، ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ أى: البعد من الرحمة، ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ أى: سوء دار الآخرة، وهو عذابها.

الإشارة: كما نصرت الرسل بعد الامتحان، نصرت الأولياء بعد الامتحان والامتحان. قال الشاذلى رحمه الله: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا.. الخ. وهم داخلون في قوله: «والذين آمنوا في الحياة الدنيا»،

(١) من الآية ١٧١ من سورة الصفات.

(٢) من الآية ٢١ من سورة المجادلة.

(٣) قرأ «يوم لا ينفع» بالتذكير نافع، وعاصم، وحزمة، والكسائي، وقرأ الباقون «يوم لا تنفع» بالتاء. انظر الحجة للفارسي (١١٥/٦).

ونصرتهم تكون أولاً بالظفر بنفوسهم، ثم بالغيبة عن حس الكائنات، باتساع دائرة المعاني، ثم بالتصرف في الوجود بأسره بهمته. قال القشيري: ويقال: ينصرهم على أعدائهم بلطف خفي، وكيد غير مرئي، من حيث يحتسب أو لا يحتسب، كما ينصرهم في الدنيا على تحقيق المعرفة، واليقين بأن الكائنات من الله. ثم قال: غاية النصر أن يقتل الناصر عدو من ينصره، [فإذا رآه حقق له] (١) أنه لا عدو له في الحقيقة، وأن الخلق أشباح، وتجري عليهم أحكام القدرة، فالولي لا عدو له ولا صديق، ليس له إلا الله. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٢) هـ. والنصر في الحقيقة هو التأييد عند التعريفات، فإذا ابتلى الرسول أو الولي أيده الله باليقين، ونصره بالمعرفة، فيلقى ما ينزل عليه بالرضا والتسليم، وتذكر مالقى به الشاذلي حين دعا بالسلامة مما ابتلى به الرسل، متعللاً بأنهم أقوى، فقليل له: قل: وما أردت من شيء فأيدنا كما أيدتهم. هـ.

ثم وعد نبيه بالنصر، كما نصر موسى وغيره، فقال:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ۖ هُدًى
وَذِكْرًا لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۖ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ۖ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي
ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ
بِبَلَاغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۖ﴾ (٥٦)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾: ما يهتدى به من المعجزات، أو الشرائع والصحف. ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾: أي: تركنا فيهم التوراة، يرثه بعضهم من بعض، أو: جنس الكتاب، فيصدق بالتوراة والإنجيل والزيور؛ لأن المنزل عليه منهم. قال الطيبي: فيه إشارة إلى أن ميراث الأنبياء ليس إلا العلم والكتاب الهادي، الناطق بالحكمة والموعظة. هـ. حال كون الكتاب ﴿هُدًى وَذِكْرًا﴾: أي: هادياً ومذكراً، أو: إرشاداً وتذكراً ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: لأولى العقول الصافية، العالمين بما فيه، العاملين به.

(١) عبارة القشيري: فإذا أراد حقه تحققاً.

(٢) من الآية ٢٥٧ من سورة البقرة.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أى: فاصبر على ما يُجرّعك قومك من الغُصَصِ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصرك وإعلاء دينك، على ما نطق به قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ، وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١)، ﴿حَقٌّ﴾ لا يحتمل الاختلاف بحال. قال الطيبي: الآية تشير إلى نصره على أعدائه، كموسى، وأنه يظهر دينه على الدين كله، ويورث كتابه؛ ليعتصموا به، فيكون لهم هدىً ونكرى، وعزاً وشرفاً. هـ. أى: ولذلك قدّم ذكر موسى على بشارته بالنصر؛ ليتم التشبيه.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لَذَنْبِكَ﴾، تشريعاً لأمتك؛ فإن الاستغفار يمحو الذنوب التي تعوق عن النصر، أو: تداركاً لما فرط منك من ترك الأولي في بعض الأحيان، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين. والحاصل: أن كل مقام له ذنب يليق به، وهو التقصير في القيام به على ما يليق به، فالنبي ﷺ كلف بدوام الشهود ولو في حال التعليم، فإذا غاب عن الحق لحظة بشغل البال بالتعليم، كان في حقه نقصاً يوجب الاستغفار. ثم قال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أى: دُم على التسبيح ملتبساً بحمده، أى: قل: سبحان الله وبحمده، أو: صلّ في هذين الوقتين، إذ كان لواجب بمكة ركعتين بكرة وعشيا، وقيل: هما صلاة العصر والفجر، خصصهما لشرفهما.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ ويجحدونها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾؛ برهان ﴿أَتَاهُمْ﴾ من جهته تعالى، بل عناداً وحسداً. وتعليق المجادلة بذلك، مع استحالة إثباته؛ للإيدان بأن التكلم في أمر الدين لا بد من استناده إلى برهان، وهذا عام لكل مجادل، محق أو مبطل، وإن نزل في مشركى مكة. وقوله: ﴿إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا﴾: خبر، إن، أى: ما في قلوبهم إلا تكبر عن الحق، وتعاضم عنه، وهو إرادة التقدم والرئاسة، وألا يكون أحدٌ فوقهم، فلذلك عادوك، ودفعوا آياتك، خيفة أن تتقدمهم، ويكونوا تحت قهرك؛ لأن النبوة تحتها كل ملك ورئاسة، أو: إرادة أن تكون لهم النبوة دونك، حسداً وبغياً، كقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٢)، ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ (٣).

ثم وصف كبرهم بقوله: ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِهِ﴾ أى: ما هم ببالغى موجب ذلك الكبر ومقتضاه، وهو ما أرادوه من التقدم والرئاسة، وقيل: نزلت في اليهود، وهم المجادلون، كانوا يقولون: لست صاحبنا المذكور في التوراة، بل هو المسيح بن داود، يعنون الدجال، يخرج في آخر الزمان، فيبلغ سلطانه البر والبحر، وتسير معه الأنهار، وهو آية من

(١) الآيات: ١٧١ - ١٧٣ من سورة الصافات.

(٢) الآية ٣١ من سورة الزخرف. (٣) من الآية ١١ من سورة الأحقاف.

آيات الله، فيرجع إلينا الملك^(١) فسمى الله تَمَنِيهِمْ بذلك كِبَرًا، ونفى أن يبلغوا مَتَمَنَاهُمْ. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾؛ فالتجىء إليه من كيد من يحسدك، ويبغى عليك، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِمَا تَقُولُ وَيَقُولُونَ، ﴿الْبَصِيرُ﴾ بما تعمل ويعملون، فهو ناصرٌك عليهم، وعاصمٌك من شرهم.

الإشارة: فاصبر أيها المتوجه إلى الله، إن وعد الله بالفتح حق إن صبرت، وكابدت ولم تمل، واستغفر لذنبك، وتطهر من عيبك، لتدخل حضرة ربك. قال الورتجبي: «استغفر لذنبك، أي: لما جرى على قلبك من الأحكام البشرية، وأيضاً: استغفر لرؤية وجودك في وجود الحق، فإن كون الحادث في وجود القديم ذنب في أفراد القدم من الحدوث. انظر تمامه.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ..﴾ الخ، فيه الحث على التوجه إلى الله في هذين الوقتين، فإن العبرة بالافتتاح والاختتام، فمن فتح يومه بخير، وختمه بخير، حكم على بينهما. وقال في أهل الإنكار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ...﴾ الآية، فاستعذ بالله منهم، وغِبْ عنهم بإقبالك على مولاك. وبالله التوفيق.

ولما كانت مجادلة الكفرة في آيات الله مشتملة على إنكار البعث، احتج عليهم بقوله:

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَنِيَّةٌ لَّارِيبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، فمن قدر على اختراع هذه الأجرام مع عظمها كان على اختراع الإنسان بعد موته؛ وبعثه مع مهانته؛ أقدر، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك؛ لأنهم لا يتفكرون؛ لغلبة الغفلة عليهم، وعمى بصيرتهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي: الغافل والمستبصر، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾؛ ولا يستوى المحسن والمسيء، فلا بد أن تكون لهم حال أخرى، يظهر فيها ما بين الفريقين من التفاوت، وهي فيما بعد البعث، فيرتفع المستبصر المحسن في أعلى عليين، ويسقط الغافل المسيء في أسفل سافلين. وزيادة

(١) ذكره القرطبي (٥٩٤١/٧) وقيل في المراد بالذين يجادلون في آيات الله: هو كل من كفر بالنبي ﷺ وهذا حسن لأنه يعم.

«لا، في المسمى؛ لتأكيد النفي؛ لطول الكلام بالصلة. ﴿قَلِيلًا مَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١) أى: تذكر أقل قليلاً يتذكرون. وقرئ بالغيبة، والخطاب، على الالتفات. ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَّارِيبَ فِيهَا﴾؛ لاشك في مجيئها؛ لوضوح دلائلها، واجتماع الرسل على الوعد بوقوعها، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لا يصدقون بوقوعها؛ لقصور نظرهم على ظواهر ما يحسون.

الإشارة: التفكير في العوالم العلوية والسفلية، يوجب في القلب عظمة الحق جل جلاله، وباهر قدرته وحكمته، وإتيان البعث لا محالة؛ لنفوذ القدرة في الجميع. وكون خلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان، إنما هو باعتبار الجرم الحسى، وأما باعتبار المعنى؛ فالإنسان أعظم؛ لاشتماله على العوالم كلها، كما قال في المباحث:

اعْقِلْ فَأَنْتَ نُسْخَةُ الْوُجُودِ لِلَّهِ مَا أَعْلَاكَ مِنْ مَوْجُودِ
أَلَيْسَ فِيكَ الْعَرْشُ وَالْكَرْسِيُّ وَالْعَالَمُ الْعُلَوِيُّ وَالسُّفْلِيُّ؟

ثم أمر بعبادته، أو دعائه، بعد بيان عظمة قدرته، ليكون الداعى موقناً بالإجابة، فقال:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٦٠)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي﴾ أى: اعبدونى ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أى: أثبكم، ويدل على هذا قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾؛ صاغرين أذلاء، أو: أسألونى أعطكم، على ما أريد، فى الوقت الذى أريد. قال القشيري: والحكمة فى أنه أمر بالسؤال قبل الإجابة، وبالاستغفار قبل المغفرة، أنه حكم فى اللوح أن يعطيك ذلك الشيء الذى تسأله وإن لم تسأل، ولكن أمر بالسؤال، حتى إذا وجدته تظن أنك وجدته بدعائك، فتفرح به. قلت: السؤال سبب، والأسباب غطى بها سر قدرته تعالى. ثم قال: ويقال: إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما من مؤمن يدعو الله، ويسأله شيئاً، إلا أعطاه إياه، إما فى الدنيا، وإما فى الآخرة. حيث يقال له: هذا ما طلبته فى الدنيا، وقد أخرته لك إلى هذا اليوم، حتى يتمنى العبد أنه لم يعط شيئاً فى الدنيا. هـ.

(١) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي «تتذكرون» بفتن من فوق، على الخطاب، وقرأ الباقرين بالياء والتاء على الغيب.. انظر الإتحاف (٤٣٩/٢).

قلت: فالدعاء كله إذا مستجاب، بوعده القرآن، لكن منه ما يُعجل، ومنه ما يُؤجل، ومنه ما يصرف عنه به البلاء، كما في الأثر، وإذا فسر الدعاء بالسؤال كان الاستكبار عنه منزلاً منزلة الاستكبار عن العبادة؛ للمبالغة في الحث عليه. قال عليه السلام: «الدعاء هو العبادة» وقرأ الآية (١)، وفي رواية: «مخ العبادة» (٢)، وعن ابن عباس: «وحدوني أغفر لكم»، فسر الدعاء بالعبادة، والعبادة بالتوحيد.

الإشارة: اختلف الصوفية أي الحاليين أفضل؟ هل الدعاء والابتهال، أو السكوت والرضا؟ والمختار أن ينظر العبد ما يتجلى في قلبه، فإن انشرح للدعاء فهو في حقه أفضل، وإن انقبض عنه، فالسكوت أولى، والغالب على أهل التحقيق من العارفين، الغنى بالله، والاكتفاء بعلمه، كحال الخليل عليه السلام، فإنهم إبراهيميون.

قال الورعجي: أي: ادعوني في زمن الدعاء الذي جعلته خاصاً لإجابة الدعوة، فادعوني في تلك الأوقات، استجب لكم؛ فإن وقوع الإجابة فيها حقيقة بلا شك، ومن لم يعرف أوقات الدعاء، فدعاؤه ترك أدب؛ فإن الدعاء في وقت الاستغفار من قلة معرفة المقامات، فإن السلطان إذا كان غضبان لا يسأل منه، وإذا كان مستبشراً فيكون زمانه زمن العطاء والكرم. - قلت: هذا في حق الخصوص، الفاهمين عن الله، وأما العموم، فما يناسبهم إلا دوام الدعاء في الرخاء والشدة، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ (٣) ثم قال عن الوراق: ادعوني على حد الاضطرار والالتجاء، حيث لا يكون لكم مرجع إلى [سواي] (٤)، استجب لكم. هـ.

ثم برهن على توحيده، وأنه لا يصح الرجوع إلا إليه، فقال:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَالنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَإِنِّي تُؤَفِّكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤَفِّكَ الَّذِينَ كَانُوا يُعَٰيِنَتِ اللَّهُ يُمَجِّدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

(١) أخرجه أبو داود في (الصلاة، باب الدعاء ١٦١/٢، ح ١٤٧٩) والترمذي في (الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء ٤٢٦/٥، ح ٣٣٧٢) وقال حسن صحيح، وابن ماجه في (الدعاء، باب فضل الدعاء ١٢٥٨/٢، ح ٣٨٢٨) والحاكم (٤٩٠/١) وصححه، ووافقه الذهبي، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرج هذه الرواية الترمذي في (الموضع السابق حديث ٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) من الآية ٤٣ من سورة الأنعام. (٤) في الأصول [سواء] والمثبت هو الذي في عرائس البيان.

قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ بأن خلقه مظلماً بارداً، تقل فيه الحركات فتستريح فيه الجوارح، ﴿و﴾ جعل ﴿النهار مبصراً﴾ أى: مبصراً فيه. فأسند الإبصار إلى النهار، مجازاً، والأصل فى الحقيقة لأهل النهار. وقرن الليل بالمفعول له، والنهار بالحال، ولم يكونا حالين أو مفعولاً لهما؛ رعاية لحق المقابلة، لأنهما متقابلان معنى؛ لأن الليل مقابل النهار، فلما تقابلا معنى تقابلا لفظاً، مع أن كل واحد منهما يؤدى مؤدى الآخر، ولأنه لو قيل: لتبصروا فيه؛ فانت الفصاحة التى فى الإسناد مجازى، ولو قيل: «ساكناً» لم تتميز الحقيقة من المجاز، إذ الليل يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج، أى: ساكن لا ربح فيه.

﴿إن الله لذو فضل عظيم﴾ على الناس، حيث تفضل عليهم بهذه النعم الجسيمة، وإنما لم يقل: المتفضل؛ لأن المراد تكثير الفضل، وأنه فضله لا يوازيه فضل، فالتنكير للتعظيم. ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾؛ لجهلهم بالمنعم، وإغفالهم مواضع النعم. وتكرير الناس، ولم يقل: أكثرهم؛ لتخصيص الكفران بهم، وأنهم هم الذين من شأنهم الكفران، كقوله: ﴿إن الإنسان لكفور﴾ (١).

﴿ذلكم الله﴾ أى: ذلكم المنفرد بالأفعال المقتضية للألوهية، من خلق الليل والنهار؛ هو الله ﴿ربكم﴾ لا رياً غيره، ﴿خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾ أخبار مترادفة، أى: الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية، وإيجاد الأشياء، والوحدانية، ﴿فأنى تؤفكون﴾ أى: فكيف، ومن أى وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان؟! ﴿كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون﴾ أى: مثل ذلك الإفك العجيب، الذى لا وجه له، ولا مصحح له أصلاً، يؤفك كل من جحد بآياته تعالى من غير ترو ولا تأمل.

ثم ذكر فضله المتعلق بالمكان، بعد بيان فضله المتعلق بالزمان، فقال: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً﴾: مستقراً تستقرون عليها بأقدامكم ومساكنكم، ﴿والسمااء بناءً﴾: سقفاً فوقكم، كالدنيا بيت سقفه السماء،

(١) من الآية ٦٦ من سورة الحج.

مُزِيناً بالمصابيح، وبساطه الأرض، مشتملة على ما يحتاج إليه أهل البيت. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، هذا بيان لفضله المتعلق بالأجسام، أى: صَوَّرَكُمْ أَحْسَنَ تَصْوِيرٍ، حيث جعلكم مُتَنَصِّبَ القامة، بآدى البشرية، متناسب الأعضاء والتخطيطات، متهيئاً لمناولة الصنائع واكتساب الكمالات. قيل: لَمْ يَخْلُقِ اللهُ حَيَوَاناً أَحْسَنَ صُورَةً مِنَ الْإِنْسَانِ. ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: اللذائذ، ﴿ذَلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ أى: ذَلِكُمُ الْمُنْعُوتُ بِتِلْكَ النِّعَاتِ الْجَلِيلَةِ، هو المستحق للربوبية، ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ﴾ أى: تعالى بذاته وصفاته ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: مالِكهم ومربيهم، والكل تحت قدرته مفتقر إليه فى إيجاده وإمداده؛ إذ لو انقطع إمداده لا نُهَدَّ الوجود.

﴿هُوَ الْحَيُّ﴾؛ المنفرد بالحياة الذاتية الحقيقية، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ إذ لا موجود يدانيه فى ذاته وصفاته وأفعاله، ﴿فَادْعُوهُ﴾؛ فاعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: الطاعة من الشرك والرياء، وقولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. عن ابن عباس رضي الله عنه: من قال «لا إله إلا الله»، فليقل على إثرها: الحمد لله رب العالمين (١).

الإشارة: الله هو الذى جعل ليل القبض لتسكنوا فيه عند الله، ونهار البسط لتبصروا نعم الله، فتشكروا لتبتغوا زيادة فضله، وجعل أرض النفوس قراراً لقيام وظائف العبودية، وسماء الأرواح مرقى لشهود عظمة الربوبية. قال القشيري: سكون الناس بالليل - أى: الحسى - على أقسام: فأهل الغفلة يسكنون مع غفلتهم، وأهل المحبة يسكنون بحكم وصلاتهم، فشتان بين سكون غفلة، وسكون وصلة، وقوم يسكنون إلى أمثالهم وأشكالهم، وقوم إلى حلاوة أعمالهم، [وبسطهم، واستقبالهم] (٢)، وقوم يعدمون القرار فى ليلهم ونهارهم - أى: لا يسكنون إلى شيء - أولئك أصحاب الاشتياق، أبداً فى الإحراق هـ.

وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ أى: صَوَّرَ أَشْبَاحَكُمْ، فأحسن صورتها، حيث بهجها بأنوار معرفته. قال الورتجى: فأحسن صَوَّرَكُمْ بأن ألبستكم أنوار جلالى وجمالى، واتخاذكم بنفسى، ونفخت من روحى فيكم، الذى أحسن الهياكل من حسنه، ومن عكس جماله، فإنه مرآة نورى الجلى للأشباح هـ. قال القشيري: خلق العرش والكرسى والسموات والأرض، وجميع المخلوقات، ولم يقل فى شيء منها: فأحسن صورها، بل قاله لما خلق هذا الإنسان، وليس الحسن ما يستحسنه الناس، ولكن الحسن ما يستحسنه الحبيب، وأنشدوا:

مَاحِطُكَ الْوَأَشُونَ عَنْ رُبِّيَّةٍ عِنْدِي، وَلَا ضَرَّكَ مُغَابٍ
كَأَنَّهُمْ أَتْنَوْا وَلَمْ يَعْلَمُوا عَلَيْكَ عِنْدِي بِالَّذِي عَابُوا (٣)

(١) أخرجه الطبري (٨١/٢٤) والحاكم وصححه (٤٣٨/٢)، والبيهقى فى الأسماء والصفات (١٧٩/١) عن ابن عباس رضي الله عنه موقوفاً.

(٢) فى القشيري: [لبسطهم واستقلالهم].

(٣) البيهتان لأبى نواس. انظر ديوانه (١٠٩/١) ونهاية الأرب (٢٤١/٢) وينسبان أيضاً إلى العباس بن الأحنف، كما جاء فى ديوانه (ص ٦١).

لم يقل للشمس في علاها، ولا للأقمار في ضيائها: (فأحسن صوركم) ولما انتهى إلينا قال: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ (١). ثم قال: وكما أحسن صوركم محي من ديوانكم الزلات، وأثبت الحسرات، قال الله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ (٢). هـ.

قوله تعالى: ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ لذيق المشاهدة، وأنس الوصلة. وقوله تعالى: ﴿هو الحي﴾ الحياة عدد المتكلمين لا تتعلق بشيء، وعند الصوفية تتعلق بالأشياء؛ إذ لا قيام لها إلا بأسرار معاني ذاته، ومن تحققت حياته من الأولياء بحياة الله، بحيث كان له نور يمشي به في الناس، كان كل من لقيه حييت روحه بمعرفة الله، ولذلك يضم الشيخ المريد إليه، إن رآه لم ينهض حاله، ليسرى حاله فيه، يأخذون ذلك من ضم جبريل للنبي - عليهما السلام. وبالله التوفيق.

ولما كان ﷺ بين أظهر المشركين؛ نهى عن أن يتصف بصفاتهم، فقال:

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّفُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون ﴿من دون الله﴾ ولم يكن عبدا قط، ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾؛ من الحجج العقلية، والآيات التنزيلية.

قال الطيبي: معرفة الله تعالى ووجدانيته معلومتان بالعقل، وقد ترد الأدلة العقلية في مضمون السمعية، أما وجوب عبادة الله، وتحريم عبادة الأصنام، فحكم شرعي؛ لقوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ﴾ أي: حرم على، وهذا إنما يتحقق بعد البعثة، خلافاً للمعتزلة في الإيجاب قبل الشرع، للتحسين والتفبيح، والمعنى: أن قضية التقليد توجب ما أنتم

(١) الآية ٤ من سورة التين.

(٢) من الآية ٣٩ من سورة الرعد.

عليه، ولكنى خُصصت بأمر دونكم، كما قال إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ...﴾ (١) الخ كلامه، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾؛ أن أنقاد وأخلص ديني ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾ أي: أصلكم، وأنتم في ضمنه، ﴿ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ﴾ أي: ثم خلقكم خلقاً تفصيلياً من نطفة نمل، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ ثم يُخرجكم طفلاً ﴿أَيُّ: أطفالاً، واقتصر على الواحدة؛ لأن المراد الجنس، ﴿ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا أَشْدَكُمْ﴾: متعلق بمحذوف، أي: ثم يُبقيكم لتبلَّغوا أشدكم، وكذلك ﴿ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾، وقيل: عطف على محذوف، علة ليُخرجكم، فـ «يُخرجكم» من عطف علة على أخرى، كأنه قيل: ثم يُخرجكم طفلاً لتكبروا شيئاً فشيئاً، ثم لتبلَّغوا كمالكم في القوة والعقل، ثم لتكونوا شيوخاً، بكسر الشين وضمها (٢) جمع شيخ، وقرئ «شيخاً» كقوله: «طفلاً».

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ عبارة تجرى في الأدراج المذكورة، فمن الناس من يموت قبل أن يُخرج طفلاً، وآخرون قبل الأشد، وآخرون قبل الشيخوخة. ﴿وَلَتَبَلَّغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى﴾ أي: وفعل ذلك لتبلَّغوا أجلاً مُسمى، أي: ليبلغ كل واحد منكم أجلاً مسمى لا يتعداه، وهو أجل موته، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ ولكي تعقلوا ما في ذلك من العبر، والحجج، وفنون الحكم، فإن ذلك التدريج البديع يقضى بالقدر السابق، ونفوذ القدرة القاهرة؛ لبعد ذلك التفاوت، والاختلاف العظيم، عن الطبيعة والعلة، وإنما موجب ذلك سبق الاختيار والمشية الأزلية، ولذلك عقَّبه بقوله:

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ دفْعاً لما قد يُتوهم - من كونه لم يذكر الفاعل في قوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ - أن ذلك من فساد مزاجه، أو قتل غيره قبل أجله، فرفع ذلك الإبهام بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ لا غيره، أي: يحيي الأموات، ويميت الأحياء، أو: يفعل الإحياء والإماتة، ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي: أراد أمراً من الأمور، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ من غير توقف على شيء من الأشياء أصلاً، وهو تمثيل لتأثير قدرته تعالى في الأشياء عند تعلق إرادته بها، وتصوير سرعة ترتب المكونات على تكوينه، من غير أن يكون هناك أمر ولا مأمور.

الإشارة: إذا دخل المرید مقام التجريد، طالباً لأسرار التوحيد والتفريد، وطلبه العامة بالرجوع للأسباب قبل التمكين، يقول: (إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله...) الآية. والبيانات التي جاءت من ربه، هو اليقين

(١) الآية ٤٣ من سورة مريم.

(٢) ضم شين «شيوخاً» نافع، وأبو عمرو، وهشام، وحفص، وأبو جعفر، وقرأ الباقر بكسر الشين. انظر الإنحاف (٢/٤٣٩).

الكبير بأن الله يرزق أهل التقوى بغير أسباب، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (١). وفي هذا المعنى قال الغزالي رحمه الله:

تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ شُغْلًا بِذِكْرِكَ يَادِينِي وَدُنْيَايَ

قال القشيري: قل يا محمد: إني نهيت وأمرت بالتبري مما عبدتم، والإعراض عما به اشتغلتم، والاستسلام للذي خلقني، وبالنبوة خصني. هـ. وكما تقرى النطفة الإنسانية في الرحم، تقرى نطفة الإرادة - وهي المعرفة العيانية - في القلب، فإذا عقد المريد نكاح الصُّحبة مع الشيخ، قذف في قلبه نطفة الإرادة، فما زال يربِّيها له حتى يخرج عن حس دائرة الأكوان، فهي ولادته طفلاً، ثم لا يزال يحاذيه بهمة حتى يبلغ أشده، وهو كماله، ثم يكون شيخاً مربياً؛ إن أنن له. والله تعالى أعلم.

وفيما ذكر الحق تعالى من أطوار البشر، شواهد ظاهرة، دالة على إثبات البعث، وإنكار ذلك والجدال فيه، جهالة، كما قال تعالى:

﴿الْمُتَرِّ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يَصْرَفُونَ﴾ (٦٩) ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٠) ﴿إِذَا الْأَعْلَاقُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ (٧١) ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (٧٢) ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَتَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٧٣) ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ (٧٤) ﴿ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ (٧٥) ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٦) ﴿

(١) من الآيتين: ٢ - ٣ من سورة الطلاق.

قلت: (الذين يجادلون): بدل من الموصول قبله المجرور، أو: رفع، أو: نصب على الذم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾، كرر الحق تعالى الجدل في هذه السورة ثلاث مرات، فإما أن يكون في ثلاث طوائف: الأول في قوم فرعون، والثاني في اليهود، والثالث في المشركين، وإما للتأكيد، أي: انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آيات الله الواضحة، الموجبة للإيمان بها، الزاجرة عن الجدل فيها، ﴿أَنِّي يُصْرَفُونَ﴾ أي: كيف يُصْرَفُونَ عنها، مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها، وانتفاء الصوارف عنها بالكلية.

وهذا تعجيب من أحوالهم الركيكة، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن، أو بسائر الكتب والشرائع، كما أبانه بقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ أي: بالقرآن، أو: بجنس الكتب السماوية، ﴿وَبِمَا أُرْسِلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من سائر الكتب، أو: لوحى، أو: الشرائع، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ما فعلوا من الجدل والتكذيب، عند مشاهدتهم لأنواع العقوبات.

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي: سوف يعلمون حين تكون الأغلال في أعناقهم. وه، إذ: ظرف للماضي، والمراد به هنا: الاستقبال؛ لأن الأمور المستقبلية لما كانت محققة الوقوع، مقطوعاً بها، عبر بما كان ووجد. ﴿و﴾ في أعناقهم أيضاً ﴿السَّلاسلُ﴾. وفي تفسير ابن عرفة: ولا يجوز مثل ذلك في العقوبات الدنيوية، وقياسه على العقوبات الأخروية خطأ، وفاعله مخطيء غاية الخطأ، ولم يذكر الأئمة في اعتقال المحبوس للقتل؛ إلا أنه يجعل القيد من الحديد في رجله، خيفة أن يهرب، وأما عنقه فلا يجعل فيه شيء. هـ. ﴿يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ﴾ أي: يُجْرَوْنَ في الماء الحار، وهو استئناف بياني، كأن قائلًا قال: فماذا يكون حالهم بعد ذلك؟ فقال: يُسْحَبُونَ في الحميم، ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ ويُحْرَقُونَ، من: سَجَرَ الثَّوْر: إذا ملأه بالوقود، والمراد: أنهم يُعَذَّبُونَ بأنواع العذاب، وَيُنْقَلُونَ من لون إلى لون.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ من دون الله قالوا ضلُّوا عنا ﴿أَي: غابوا، وهذا قبل أن يُقَرَّنَ بهم آلهتهم، أو: ضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع منهم، ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾ أي: تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئاً. أو: يكون إنكاراً منهم، كقولهم: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (١). وهذا كله مستقبل عبر عنه بالماضي

(١) من الآية ٢٣ من سورة الأنعام.

لتحققه. ﴿كذلك﴾ أى: مثل ذلك الضلال الفظيع ﴿يُضل الله الكافرين﴾ حيث لا يهتدون إلى شيء ينفعهم فى الآخرة، أو: كما ضلّ عنهم آلهتهم يضلهم الله عن آلهتهم، حتى لو تطالبوا لم يتصادفوا.

﴿ذلكم﴾ الإضلال ﴿بما كنتم تفرحون فى الأرض﴾ أى: تبطرون وتتكبرون ﴿بغير الحق﴾، بل بالشرك والطغيان، ﴿وبما كنتم تفرحون﴾؛ تفخرون وتختالون، أو: تتكبرون وتعجبون. والالتفات إلى الخطاب؛ للمبالغة فى التوبيخ. فيقال لهم: ﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ أى: أبوابها السبعة المقسومة عليكم ﴿خالدين فيها﴾ مقدراً خلودكم فيها، ﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾ عن الحق، والمخصوص محذوف، أى: جهنم.

الإشارة: الأولياء العارفون أهل التربية الكاملة، آية من آيات الله فى كل زمان، فيقال فى حق من يخاصم فى وجودهم، ويتكذب عن صحبتهم: الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون؟ وهم الذين كذبوا بأسرار الكتاب، وعلوم باطنه، وبما أرسل به خلفاء الرسل، ممن يغوص على تلك الأسرار، فسوف يعلمون حين تخاطبهم أغلال الوسائس والخواطر، وسلاسل العلائق والشواغل، فيقبضهم عن النهوض إلى قضاء الشهود والعيان، وجولان الفكرة فى أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، يسحبون فى حرّ التدبير والاختيار، ثم فى نار القطيعة يسجرون، ثم قيل لهم إذا ماتوا: أين ما كنتم تشركون فى المحبة والميل من دون الله؟ قالوا: ضلوا عنا، وغاب عنهم كل ماتمتعوا به من الحظوظ والشهوات، فيقال لهم: ذلكم بما كنتم تنبسطون فى الدنيا فى أنواع المآكل، والمشارب، والملابس، والمناكح، وبما كنتم تفتخرون على الناس، فيخلدون فى الحجاب، إلا فى وقت مخصوص. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالصبر وانتظار الفتح، فقال:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمًا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَضَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فاصبر﴾ يا محمد على أذى قومك، وانتظر ما يلاقوا مما أعد لهم. ﴿إن وعد الله﴾ بإهلاككم وتعذيبهم ﴿حق﴾؛ كائن لا محالة، ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ من الهلاك، كالقتل والأسر في حياتك، ﴿أو نتوفينك﴾ قبل هلاكهم بعدك، ﴿فإلينا يرجعون﴾ لا محالة، فـ «ما: صلة بعد «إن»، لتأكيد الشرطية، والجواب: محذوف، أي: فإن نرينك بعض ما نعدهم لذلك، أو نتوفينك قبل ذلك فإلينا يرجعون يوم القيامة، فلتنقم منهم أشد الانتقام.

ثم سلّمه بمن قبله، فقال: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك﴾ فأوذوا وصبروا حتى جاءهم نصرنا، ﴿منهم من قصصنا عليك﴾ في القرآن، ﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾، قيل: عدد الأنبياء - عليهم السلام - مائة ألف وأربعمائة وعشرون ألفاً، والمذكور قصصهم في القرآن أفراد معدودة. قال الطيبي: والصحيح ما روينا عن أحمد بن حنبل، عن أبي ذر، قلت: يا رسول الله، كم عدد الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جملاً غفيراً» (١). هـ. وقد تكلم في الحديث بالضعف والصحة والوضع، وقيل: عدتهم ثمانية آلاف، أربعة آلاف نبي من بنى إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس. وعن علي - كرم الله وجهه: «إن الله تعالى بعث نبياً أسود، فهو ممن لم تذكر قصته في القرآن» (٢). فقله تعالى: ﴿ومنهم من نقصص عليك﴾ أي: في القرآن، فلا ينافي إخباره بمطلق العدد على ما في حديث أبي ذر.

﴿وما كان﴾ أي: ماصح، ولما استقام ﴿لرسول﴾ منهم ﴿أن يأتي بآية﴾ مما اقترح عليه قومه، ﴿إلا بإذن الله﴾. فإن المعجزات على تشعب فنونها، عطايا من الله تعالى، قسمها بينهم على حسب المشيئة، المبذبة على الحكم البالغة، وهذا جواب اقتراح قريش على رسول الله الآيات؛ عداداً، يعني: إننا قد أرسلنا كثيراً من الرسل، وما استقام لأحد منهم أن يأتي بآية ﴿إلا بإذن الله﴾ ومشيئته، فمن لم يأت بآية مما تقترحونه إلا أن يشاء الله، ويأذن في الإتيان بها؟ ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ بهلاكهم، أو: بقيام الساعة، ﴿فُضِيَ بالحق﴾ أي: بإنجاء المحق وإثابته، وإهلاك المبطل وتعذيبه، ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾ أي: المعاندون المقترحون للآيات، أو: المتمسكون بالباطل، فيدخل المقترحون المعاندون دخولاً أولياً.

(١) أخرجه مطولاً، أحمد في المسند (٢٦٦/٥) وابن حبان (موارد، كاب العلم، باب السؤال للفائدة ح ٩٤).
(٢) أخرجه الطبري (٨٧/٢٤) والطبراني في الأسط (ح/ ٩٣١٩)، زاد ابن حجر في الكافي (رقم ٣٤٤) عزوه لابن مردويه.

الإشارة: فاصبر أيها المتوجه إلى الله على الأذى وحمل الجفاء، فإما أن ترى ما وعد أهل الإنكار على الأولياء، من التدمير، وقطع الدابر، في حياتك، أو يلحقهم بعد موتك. ولقد أودى من قبلك، منهم من عرفت ومنهم من لم تعرف، وما صح لأحد منهم أن يظهر كرامة إلا بإذن الله، فإذا جاء أمر الله وقامت القيامة، قضى بالحق، فيرتفع أهل الصبر من المقربين، في أعلى عليين، وينخفض أهل الإذية في أسفل سافلين.

ثم ذكرهم بالنعم الحسية، فقال:

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾
وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ
تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿الله الذي جعل﴾؛ خلق ﴿لكم الأنعام﴾؛ الإبل ﴿لتركبوا منها، ومنها تأكلون﴾ أي: لتركبوا بعضها، وتأكلوا بعضها، وليس المراد: أن الركوب والأكل مختص ببعض معين منها، بحيث لا يجوز تعلقه بالآخر، بل على أن بعضاً منها صالح لكل منهما. ﴿ولكم فيها منافع﴾. أخر غير الركوب، كالألبانها وأوبارها وجلودها، ﴿ولتبغوا عليها حاجة﴾ أي: ما تحتاجون إليه من حمل أثقالكم من بلد إلى بلد، ﴿في صدوركم﴾؛ في قلوبكم، ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ أي: وعليها في البر، وعلى الفلك في البحر تحملون، ولعل المراد به: حمل النساء والولدان عليها بالهودج، وهو السر في فصله عن الركوب. والجمع بينها وبين الفلك في الحمل؛ لما بينهما من المناسبة، حتى سميت الإبل: سفائن البر.

وقيل: المراد بالأنعام: الأزواج الثمانية، على أن المعنى: لتركبوا بعضها، وهي الإبل، وتأكلوا بعضها، وهي الغنم والبقر، فذكر ما هو الأهم من كل، والمنافع تعم الكل، وبلوغ الحاجة تعم الإبل والبقر. وقال الثعلبي: التقدير: لتركبوا منها بعضاً، ومنها تأكلون، فحذف بعضاً للعلم به.

﴿ويريكم آياته﴾؛ دلائله الدالة على قدرته ووفور رحمته، ﴿فأي آيات الله﴾ أي: فأي آية من تلك الآيات الباهرة ﴿تُنكرون﴾؟ فإن كلاً منها من الظهور بحيث لا يكاد يجترىء على إنكارها من له عقل في الجملة. وإضافة آية إلى الاسم الجليل؛ لتربية المهابة، وتهويل إنكارها، وآيات، نصب بتفكرون، وتذكير أي، مع

تأنيث المضاف إليه، هو الشائع المستفيض، والتأنيث قليل؛ لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات، نحو: حمار وحمار غريب، وهي في «أى» أغرب؛ لإبهامه.

الإشارة: ما أعظم قدرك أيها الإنسان إن اتقيت الله، وعرفت نعمه، فقد سلطك على ما في الكون بأسره، الحيوانات تخدملك، وتلتفع بها، أكلًا، وركوبًا، وملبسًا، وحملًا، والبحر يحملك، والأرض تُقلك، والسماء تُظلك، وما قنع لك بالدنيا حتى ادخر لك الآخرة، التي هي دار الدوام، فإن شكرت هذه النعم فأنت أعز ما في الوجود، وإن كفرتها فأنت أهرن ما في الوجود. وبالله التوفيق.

ولا تعرف حقائق النعم إلا بالتفكر، ولذلك أمر به إثر ذكرها، فقال:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا
بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ
خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ أى: أقعدوا فلم يسيروا ﴿ في الأرض ﴾ ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم المهلكة، ﴿ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ ﴾ عدداً ﴿ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ فى الأبدان والأموال، ﴿ وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى: تركوا آثاراً كثيرة بعدهم، من الأبنية، والقبور، والمصانع، فكانوا أشد منهم، وقيل: هى آثار أقدامهم فى الأرض؛ لعظم أجرامهم، ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى: لم يغن عنهم ذلك شيئاً حين نزل بهم العذاب، أو: أى شىء أغنى عنهم مكسبهم أو كسبهم؟ على أن «ما» استفهام.

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ : بالمعجزات الواضحة، ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ يريد علمهم بأمور الدنيا، ومعرفة بتدبيرها، كما قال: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (١)،

(١) الآية ٧ من سورة الروم.

فلما جاءتهم الرسل بعلوم الديانة، والتأهب ليوم القيامة، وهى أبعد شئ من علمهم؛ لبعثها على رفض الدنيا، والتباعد عن تتبع ملاذها، لم يلتفتوا إليها، وصغروها، واستهزؤوا بها، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفؤاد من علمهم، ففرحوا به. أو: علم التنجيم والفلسفة، والدهريين؛ فإنهم كانوا إذا سمعوا بالوحي دفعوه، وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم، واعتقدوا عدهم علماً يستغنون به عن علم الأنبياء - عليهم السلام - ولما سمع بقراط بموسى عليه السلام قيل له: لو هاجرت إليه! فقال: نحن قوم مهذبون، فلا حاجة إلى من يهذبنا.

ورأى بعض الصالحين النبى ﷺ فسأله عن ابن سيرين، فقال له: إنه أراد أن يصل إلى الله بلا واسطة، فانقطع عن الله، وعلى فرض وقوفهم بالتجريد والرياضة على انكشاف حضرة القدس، فلا يظفرون بالعبودية، ولا بالفناء فى توحيد الربوبية، والتخلص من لوث وجودهم، والشأن أن تكون عين الاسم، لا أن تعرف الاسم والعين، إنما تقلب من مشكاة مهبط الوحي، وانصباب أنوار الغيب إنما تفيض بواسطة درة الوجود، نبينا ﷺ، ومظهر سر العيان الأحدي الأحمدي، فافهم. قاله شيخ شيوخنا، سيدى عبدالرحمن الفاسى.

قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أى: نزل بهم عقوبة استخفافهم بالحق، وتعظيمهم واعتباطهم بالباطل. ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ شدة عذابنا، ومنه: ﴿بِعَذَابِ يَمِينٍ﴾^(١)، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكُفِّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مَشْرِكِينَ﴾ يعنون الأصنام.

﴿فَلَمَّا يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أى: فلم يستقم، ولم يصح أن ينفعهم إيمانهم عند مجيء العذاب؛ لأن الدافع هو الإيمان الاختيارى، لا الاضطرارى، ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أى: سن الله ذلك سنة ماضية فى عباده، ألا يقبل الإيمان إلا قبل نزول العذاب. وهو من المصادر المؤكدة، نحو: وعد الله، ونحوه. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ أى: وقت رؤيتهم البأس. فهناك: مكان استعير للزمان، والكافرون خاسرون فى كل أوان، ولكن يتبين خسارتهم إذا عاينوا العذاب.

وفائدة ترادف الفاءات فى هذه الآيات: أن ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ نتيجة قوله: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ و﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ كالبیان والتفسير لقوله: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾، كقولك: رزق زيد المال، فمتع المعروف، فلم يحسن إلى الفقراء. و﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ تابع لقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾، كأنه قال: فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا. وكذلك: ﴿فَلَمَّا يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾ [تابع لإيمانهم]^(٢) لما رأوا بأس الله، والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ١٦٥ من سورة الأعراف.

(٢) ما بين المعقوفين ليس فى الأصول، وأثبتته من تفسير السقى.

الإشارة: قد تقدم مراراً الحث على عبادة التفكير. وقوله تعالى: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم...﴾ الآية، كذلك من يظهر بعلم التجريد، ويتكلم في أسرار التوحيد، سخر منه أهل زمانه، ويقنعون بما عندهم من علم الرسوم الظاهرة، وهو علم لا يُغنى ولا يُفنى؛ لأن جله يتعلق بمنافع الناس، لا بمنافع القلب، فلا يُغنى القلب، ولا يُفنى الحس، إنما ينفع لطالب الأجور، لا لطالب الحضور ورفع الستور، وما مثال من ظفر بعلم القلوب - وهو أسرار التوحيد الخاص - إلا كمن عنده كنز من الفلوس، ثم ظفر بالذهب الإبريز، أو الإكسير، فكيف يمكن أن يلتفت إلى الفلوس من ظفر بالإكسير؟ ولا يظهر هذا لأهل الظاهر إلا بعد موتهم، فيؤمنوا به حيث لا ينفعهم.

وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.



سُورَةُ فَصَّلَتْ^(١)

وهي ثلاث وخمسون آية. ومما سبقتها لما قبلها: قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٢) مع قوله: ﴿تَنْزِيلَ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فكانت قريش من جملة المستهزئين بالقرآن، وتقول: ﴿وَالْفُؤَادُ مِنْ رِجْزٍ﴾ (٣) فبين أنه منزل من الرحمن الرحيم، كما قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا أَأُفْلِحُ إِنَّا بِكُمْ أَكِنَّةٌ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ۝ فَأَعْمَلْنَا مَا عَمِلُوا ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۝ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۝ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝﴾

قلت: (تنزيل): خبر عن مضمرة، أي: هذا تنزيل. و(كتاب): بدل من «تنزيل»، أو: خبر بعد خبر، و(تنزيل): مبتدأ. و(من الرحمن): صفة، و(كتاب): خبره، و(قرآنًا): منصوب على الاختصاص والمدح، أو: حال، أي: فصلت آياته في حال كونه قرآنًا. و(لقوم): متعلق بفصلت، أو: صفة، مثل ما قبله وما بعده، أي: قرآنًا عربيًا كأننا لقوم يعلمون. و(بشيرًا ونذيرًا): صفتان لـ «قرآنًا».

(٢) الآية ٨٣ من سورة ظافر.

(١) في الأصول: [سورة حم السجدة] وهي سورة مكية.

(٣) كما جاء في الآية ٢٦ من سورة فصلت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿حَمَّ﴾؛ يامحمد هذا ﴿تنزيلٌ﴾، قال القشيري: أى: بحقى وحياتى ومجدى فى ذاتى وصفاتى، هذا تنزيلٌ ﴿من الرحمن الرحيم﴾. ونسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم للإيذان بأنه نزل للمصالح الدينية والدنيوية، واقع بمقتضى الرحمة الربانية، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١)، ﴿كتابُ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ﴾؛ ميزت وجعلت تفاصيل فى أساليب مختلفة، ومعانٍ متغايرة؛ من أحكام، وتوحيد، وقصص، ومواظ، ووعد، ووعيد وغير ذلك، ﴿قرآنًا عربيًّا﴾ أى: أعنى قرآنًا بلسان العرب كائنًا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ معانيه، ويتدبرون فى آياته؛ لكونه على لسانهم، أو: لأهل العلم والنظر؛ لأنهم المنتفعون به.

﴿بشيرًا ونذيرًا﴾؛ بشيرًا لأهل الطاعة، ونذيرًا لأهل المعصية، ﴿فَاعْرَضْ أَكْثَرَهُمْ﴾ عن الإيمان به والتدبر فى معانيه، مع كونه على لغتهم، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفكر وتأمل، حتى يفهموا جلاله قدره؛ فيؤمنوا به.

﴿وقالوا﴾ للرسول - عليه الصلاة والسلام - عند دعوته إياهم إلى الإيمان والعمل بما فى القرآن: ﴿قلوبنا فى أَكِنَّةٍ﴾ أى: أغطية متكاثفة، ﴿وفى آذاننا وقر﴾؛ صمم وثقل بمنعنا من استماع قولك، ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ غليظ، وستر مانع يمنعنا من التواصل إليك. و(من) للدلالة على أن الحجاب مبتدى منهم ومنه بحيث استوعب ما بينهما من المسافة المتوسطة، ولم يبق ثم فراغ أصلاً. وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله، ومج أسماعهم له، كأن بها صمماً وثقلاً منعهم من موافقتهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قالوا: ﴿فاعمل﴾ على دينك وإبطال ديننا، ﴿إننا عاملون﴾ على ديننا، لانفارقه أبداً.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، هذا تلقين للجواب عنه، أى: لست من جنس مبين لكم حتى يكون بينى وبينكم حجاب، وتباين مصحح لتباين الأعمال والأديان، كما ينبئ عنه قوله: ﴿فاعمل إننا عاملون﴾، بل إنما أنا بشر مثلكم، مأمور بما أمرتم به من التوحيد، حيث أخبرنا جميعاً بأن إلهنا واحد، فالخطاب فى إلهكم، محكى منتظم للكل، لا أنه خطاب منه - عليه الصلاة والسلام - للكفرة. وقيل: لما دعاهم إلى الإيمان، قالوا: إنا نراك مثلاً، نأكل وتشرب، فلو كنت رسلاً لاستغفيت عن ذلك، فأنزل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ...﴾ الآية

﴿فاستقيموا إليه﴾ بالتوحيد وإخلاص العبادة، غير ذاهبين يميناً وشمالاً، ولا ملتفتين إلى ما يسوّل لكم الشيطان من عبادة الأصنام..، قال تعالى: ﴿واستغفروه﴾ مما كنتم عليه من سوء العقيدة. والفاء لترتيب ما قبلها من إحياء التوحيد على ما بعدها من الاستقامة، ﴿وويل للمشركين﴾، وهو ترهيب وتلغيف لهم عن الشرك إثر ترغيبهم فى التوحيد.

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

ووصفهم بقوله ﴿الذين لا يؤتون الزكاة﴾ أى: لا يؤمنون بوجوب الزكاة ولا يعطونها، وهو إخبار بما سيقع، إذ لم تكن الزكاة حينئذ مفروضة، أو: لا يفعلون ما يكونون به أزكياء، وهو الإيمان. وفيه تحذير من منع الزكاة، حيث جعله من أوصاف المشركين. ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أى: وهم بالبعث والثواب والعقاب كافرون. والجملة: عطف على (يؤتون) داخل فى الصلة. وإنما جعل منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة لأن أحب شئ إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فإذا بذله فى سبيل الله فذلك أقوى دليل على استقامته، وصدق نيته، وخلص طويته، وما ارتدت العرب إلا بمنعها.

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجرٌ غيرُ ممنون﴾؛ غير مقطوع، من: مننت الحبل: قطعته، أو: غير ممنون به عليهم. وقيل: نزلت فى المرضى والهَرَمَى، إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون^(١).

الإشارة: كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يدعو إلى الإيمان بالقرآن والعمل به، وخلفاؤه من مشايخ التربية يدعون إلى تصفية البواطن، لنتهاء لفهمه والغوص عن أسرارهِ، وحضور القلب عند تلاوته، فأعرض أكثر الناس عن صحبتهم، «وقالوا قلوبنا فى أكلة مما تدعونا إليه..» إلى تمام الآية. فبقيت قلوبهم مغلفة بسبب الهوى، ألسنتهم تتلوا وقلوبهم تجول فى أودية الدنيا، فلا حضور ولا تدبر، فلا حول ولا قوة إلا بالله، فإذا طلبوا من المشايخ - الذين هم أطباء القلوب - الكرامة، يقولون ما قالت الرسل: إنما نحن بشر يوحى إلينا وحى إلهام بوحداية الحق، وانفراده بالوجود، فاستقيموا إليه بتصفية بواطنكم، واستغفروه من سالف زلاتكم، فإن بقيتم على ما أنتم عليه من الشرك ورؤية السوء، فويل للمشركين الذين لا يزكُّون أنفسهم، وهم بالآخرة - حيث لم يتأهبوا لها كل التأهب - هم الكافرون. إن الذين آمنوا إيمان الخصوص، بصحبة الخصوص، لهم أجر غير ممنون، وهو شهود الحق على الدوام. والله تعالى أعلم.

ثم وبَّخهم على الكفر بعد بيان بطلانه، فقال:

﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأُنْتِيَا

(١) قاله السدى فيما ذكره القرطبي (٧/٥٩٦١).

طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَنِنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ
فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

قلت: (وتجعلون): عطف على (تكفرون). و(جعل): عطف على (خلق) داخل في حيز الصلة، و(سواء):
من نصبه فمصدر، أى: استوت سواء. ومن جرّه فصفة لأيام، ومن رفعه فخبير هى سواء. و(للسائلين): متعلق
بقدر، أو: بمحذوف، أى: هذا الحصر للسائلين عن مدة خلق الأرض.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ أَنتِمْ لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ وهما الأحد والاثنين،
تعليمًا للأنبياء، ولو أراد أن يخلقها في لحظة لفعل. ﴿وتجعلون له أنداداً﴾؛ شركاء وأشباهاً. والحال أنه لا يمكن أن
يكون له ند واحد، فضلاً عن التعدد، وكيف يكون الحادث المعدوم ندًا للتقديم؟! ﴿ذلك﴾ الذى خلق ماسبق.
ومافى الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه لبعد منزلته في العظمة، أى: ذلك العظيم الشأن هو
﴿رب العالمين﴾ أى: خالق جمع الموجودات ومربيها، فكيف يتصور أن يكون أخس الخلق ندًا له؟!

﴿وجعل فيها رواسي﴾؛ جبلاً ثابتة كائنة ﴿من فوقها﴾، وإنما اختار إرساءها من فوق الأرض لتكون
منافع الجبال معرضة لأهلها، ويظهر للناظرين مافيه من مرادد الاعتبار، ومطارج الأفكار، فإن الأرض والجبال
أثقال على أُنْقَال، كلها ممسكة بقوة الله عز وجل. ﴿وبارك فيها﴾ أى: قدر بأن يكثر خيرها بما يخلق فيها من
منافع، ويجعل فيها من المصالح، وما ينبت فيها من الطيبات والأطعمة وأصناف النعم. ﴿وقدر فيها أقواتها﴾
أى: حكم أن يوجد فيها لأهلها ما يحتاجون إليه من الأقوات المختلفة المناسبة لهم على مقدار معين، تقتضيه الحكمة
والمشيئة، وما يصلح بمعاشهم من الثمار والأنهار والأشجار، وجعل الأقوات مختلفة في الطعم والصورة والمقدار،
وقيل: خصابها التى قسمها فى البلاد. جعل ذلك ﴿في أربعة أيام﴾ أى: تنمة أربعة أيام، يومين للخلق، ويومين
لتقدير الأقوات، كما تقول: سرت إلى البصرة فى عشرة، وإلى الكوفة فى خمسة عشر، أى: فى تنمة خمسة عشر،
ولو أجرى الكلام على ظاهرة لكانت ثمانية أيام؛ يومين للخلق، وأربعة للتقدير، ويومين لخلق السماء، وهو مناقض
لقوله: ﴿في ستة أيام﴾ (١).

(١) كما جاء فى آيات، منها: الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿سواء﴾ راجع للأربعة، أى: فى أربعة أيام مستويات ثامات، أو: استوت سواء ﴿للسائلين﴾ أى: قَدَّر فيها الأقوات للطالبين لها والمحتاجين إليها، لأن كلا يطلب القوت ويسأله، أو هذا الحصر فى هذه الأيام لأجل من سأل: فى كم خلقت الأرض وما فيها؟.

﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾، الاستواء مجاز عن إيجاد الله تعالى السماء على ما أراد، تقول العرب: فعل فلان كذا ثم استوى إلى عمل كذا، يريدون أنه أكمل الأول وابتدأ الثانى، أو قصد وانتهى. فالاستواء إذا عدى بـ «إلى» فهو بمعنى الانتهاء إليه بالذات أو بالتدبير، وإذا عدى بـ «على» فبمعنى الاستعلاء، ويفهم منه أن خلق السماء بعد الأرض، وهو كذلك، وأما دحو الأرض وتقدير أقواتها فمؤخر عن السماء، كما صرح فى قوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾^(١)، والقرتيب فى الخارج: أنه خلق الأرض، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض فى يومين. فـ «ثم» للتفاوت بين الخلقين لا للترتيب، أو: للتفاوت فى المرتبة، ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، كقول القائل:

إِنْ مَن سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ سَادَ بَعْدَ ذَلِكَ جَدُّهُ

وفى بعض الأحاديث: «إن الله خلق الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والعمران والخراب، فتلك أربعة أيام، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة، وخلق آدم ﷺ فى آخر ساعة من يوم الجمعة»^(٢) وهى الساعة التى تقوم فيها الساعة. قاله النسفى، وفى حديث مسلم ما يخالفه^(٣).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أول ما خلق الله - أى: بعد العرش - جوهرة طولها وعرضها ألف سنة، فنظر إليها بالهيبة، فذابت وصارت ماء، فكان العرش على الماء، فاضطرب الماء، فثار منه دخان، فارتفع إلى الجوى واجتمع زيد، فقام فوق الماء، فجعل الزيد أرضاً، ثم فتقها سبعاً، والدخان سماء، فسواهن سبع سموات^(٤).

ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان طوعاً أو كرهاً وامتناعاً؛ أنه أراد أن يكون لهما، فلم يمتنع عليهما، ووجدتا كما أراد، وكاننا فى ذلك كالمأمور والمطيع، وإنما ذكر الأرض مع السماء فى الأمر بالإتيان، مع أن الأرض

(١) الآية ٣٠ من سورة النازعات.

(٢) أخرجه مطولاً والطبرى (٩٤/٢٤) والحاكم وصححه ونعقبه الذهبى (٥٤٣/٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرج مسلم فى صحيحه (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب ابتداء الخلق، ٢١٤٩/٣، ح ٢٧٨٩) عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «خلق الله عز وجل التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم ﷺ بعد العصر من يوم الجمعة، فى آخر الخلق، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل».

(٤) ذكره النسفى فى تفسيره (٢٢٨/٣).

مخلوقة قبل السماء بيومين؛ لأن المعنى: انتبها على ما ينبغي أن تأتينا عليه من الشكل والوصف، أى: انتبها يا أرض مدحوة قراراً ومهاداً لأهلك، وانتبها يا سماء [مبنية] (١) سقفاً لهم، ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع.

وقوله: ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ لبيان تأثير قدرته فيهما، وأن امتناعهما عن قدرته محال، كما تقول لمن تحت يدك: لتفعلن هذا شئت أو أبييت، طوعاً أو كرهاً. وقال ابن عطية: الأمر بالإتيان بعد اختراعهما، قال: وهنا حذف، أى: ثم استوى إلى السماء فأوجدها، وأتقنها، وأكمل أمرها، وحينئذ قال لها وللأرض: انتبها لأمرى وإرادتى فيكما، والمراد: تنجيزهما لما أرادته منهما، وما قدر من أعمالهما. هـ. حكى أن بعض الأنبياء (٢) قال: يارب لو أن السماوات والأرض حين قلت لهما: انتبها طوعاً أو كرهاً عصتاك، ماكنت صانعاً بهما؟ قال: كنت أمر دابة من دوابي فتبتلحهما، قال: وأين تلك الدابة؟ قال: فى مرج من مروجى، قال: وأين ذلك المرج؟ قال: فى علم من علومى.

وانتصاب ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ على الحال، أى: طائعين أو مكرهين. ولم يقل «طائعتين»، لأن المراد الجنس، أى: السماوات والأرضين، وجمع جمع العقلاء لوصفهما بالطوع والكره، اللذين من وصف العقلاء، وقال: طائعين فى موضع طائعات؛ تغليباً للتذكير؛ لشرفه، كقوله: ﴿ساجدين﴾ (٣).

﴿ففضاهن سبع سموات﴾ أى: فأحكم خلقهن، وأتقن أمرهن سبعاً، حسبما تقتضيه الحكمة، فالضمير راجع إلى السماء، لأنه جنس، يجوز أن يكون الضمير مبهماً مفسراً بقوله: «سبع سموات»، فينتصب سبع على الأول حالاً، وعلى الثانى تمييزاً. حصل ذلك القضاء ﴿فى يومين﴾: الخميس والجمعة، أى: فى وقتين قدر يومين، فكان المجموع ستة أيام، ﴿وأوحى فى كل سماء أمرها﴾ أى: أوحى إلى ساكنها وعمارها من الملائكة فى كل سماء ما شاء الله من الأمور، التى تليق بهم، كالخدمة وأنواع العبادة، وإلى السماء فى نفسها ما شاء الله من الأمور التى بها قوامها وصلاحتها.

﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾؛ كالشمس والقمر والنجوم، وهى زينة السماء الدنيا، سواء كانت فيها أو فيما فوقها؛ لأنها ترى مثلألة عليها كأنها فيها، والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بأمرها، ﴿وحفظاً﴾ أى: حفظناها حفظاً من المسترقة، أو من الآفات، فهو مصدر لمحذوف، وقيل: مفعول لأجله على المعنى، أى: وجعلنا المصابيح للزينة والحفظ. ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أى: ذلك الذى ذكر تفصيله تقدير البالغ فى القدرة والعلم، أو: الغالب العليم بمواقع الأمور.

(١) فى النسفى (مقبية).

(٢) هو سيدنا موسى، كما ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٩٦٤/٧).

(٣) من الآية ٤ من سورة يوسف.

الإشارة: خلق الحق - تعالى - أرض النفوس محلاً للعبودية، وأرساها بجبال العقل، لتلا تميل إلى بحر الهوى، وبارك فيها، بأن جعل فيها صالحين وأبراراً، وعباداً وزهاداً، وعُلماء أتقياء، وقدر لها أقواتها الحسية والمعنوية، فجعل الحسية سواء للسائلين، أى: مستوية لا يزيد بالطلب ولا بالتعب، ولا ينقص، ففيه تأديب لمن لم يرض بقسمته، والأرزاق المعنوية: أرزاق القلوب من اليقين والمعرفة، يزيد بالطلب والتعب، وينقص بنقصانه، حكمة من الحكيم العليم، ثم استوى إلى سماء الأرواح، أى: قصدتها بالدعاء إليه، وهى لطائف، فقال لها ولأرض النفوس: انتبها إلى حضرتي، طوعاً أو كرهاً، قالتا: أتينا طائعين، فقضاهن سبع طبقات، وهى دوائر الأولياء، دائرة الغوث، ثم دائرة الأقطاب، ثم الأوتاد، ثم النقباء، ثم النجباء، ثم الأبرار، ثم الصالحين. وأوحى فى كل سماء، أى: فى كل دائرة ما يليق بها من العبادة، فمنهم من عبادته الشهود والعيان، ومنهم من عبادته الفكرة، ومنهم الركوع والسجود، ومنهم التلاوة والذكر... إلى غير ذلك من أنواع الأعمال.

قال القشيري: وجعل نفوس العابدين، أرضاً لطاعته وعبادته، وجعل قلوبهم فلماً لنجوم علمه، وشموس معرفته، فأوتاد النفوس الخوف والرجاء، والرغبة والرغبة، وفى القلوب ضياء العرفان، وشموس التوحيد، ونجوم العلوم والعقول، والنفوس والقلوب، بيده يُصرفها على ما أراد من أحكامه. وقال فى قوله: ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها﴾: الحبال أوتاد الأرض، فى الصورة، والأولياء رواسي الأرض فى الحقيقة، بهم تنزل البركة والأمطار، وبهم يدفع البلاء. ثم قال: قوله تعالى: ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ وزين وجه الأرض بمصابيح، وهى قلوب الأحباب، فأهل السماء إذا نظروا إلى قلوب أولياء الله بالليل، فذلك متنزههم، كما أن أهل الأرض إذا نظروا إلى السماء تأنسوا برؤية الكواكب. هـ.

ثم هدد أهل الكفر، فقال:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهُمْ
الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ
مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّْا قُوَّةً أَوَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا
بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْصَاتٍ لِنَذِيقَهُمْ

عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾
وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾ ﴿

قلت: (وأما ثمود)، قراءة الجماعة بالرفع، غير مصروف، إرادة القبيلة، وقراءة الأعمش ويحيى بن وثاب مصروفاً، إرادة الحي، وقراءة ابن أبي إسحاق: بالنصب، من باب الاشتغال، وأصل الكلام: مهما يكن من شيء فثمود هديناهم، فحذف الملزوم الذي هو الشرط، وأقيم مقامه لازمه، وهو الجزاء، وأبقيت الفاء المؤذنة بأن مابعد ما لازم لما قبلها، وإلا فليس هذا موضع الفاء؛ لأن موضعه صدر الجزاء. انظر المطول.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان؛ ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿أَنْذَرْتُكُمْ﴾؛ خوفتكم. وعبر بالماضي للدلالة على تحقق الإنذار المنبئ عن تحقق الوقوع، ﴿صَاعِقَةً﴾ أى: عذاباً شديداً لو وقع كان كأنه صاعقة، وأصلها: رعد معه نار تحرق. تكون ﴿مثل صاعقة عاد وثمود﴾ وقد تقدم عذابهما (١).

﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ﴾: ظرف لمحذوف، أى: أنزلناها بهم حين جاءتهم ﴿الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ أى: أتوهم من كل جانب، وعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا الإعراض، أو: جاءتهم الرسل قبلهم لأبائهم، وبعدهم لمن خلفهم، أى: تواردت عليهم الرسل قديماً وحديثاً، والمعهود إنما هو هود وصالح - عليها السلام. وعن الحسن: أنذروهم من وقائع الله بمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أى: بأن لاتعبدوا إلا الله، على أنها مصدرية، أو: لاتعبدوا، على أنها مفسرة، وقيل: مخففة، أى: أنه لاتعبدوا إلا الله. ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أى: لو شاء إرسال الرسل لأرسل ملائكة، ولما كان إرسالهم بطريق الإنزال عبر به، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أى: فحيث كنتم بشراً مثلاً، ولم تكونوا ملائكة، ولم يكن لكم فضل علينا، فإننا لانؤمن بكم، ولا بما جئتم به، وقولهم: ﴿أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ ليس بإقرار بالإرسال، وإنما هو على كلام الرسل، وفيه نهكم، كما قاله فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢) وقولهم: ﴿بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء، الذين دعوا للإيمان.

(١) راجع تفسير الآيات ٦٥ - ٧٩ من سورة الأعراف (٢/ ٢٣٠ - ٢٣٤).

(٢) الآية ٢٧ من سورة الشعراء.

رَوَى أَن أَبَا جَهْلٍ قَالَ فِي مَلَأٍ مِنْ قُرَيْشٍ: قَدْ التَّبَسَ عَلَيْنَا أَمْرُ مُحَمَّدٍ، فَلَوْ التَّمَسْتُمْ لَنَا رَجُلًا عَالِمًا بِالشَّعْرِ وَالْكَهَانَةِ، فَكَلَّمَهُ، ثُمَّ أَتَانَا بِالْبَيَانِ مِنْ أَمْرِهِ، فَقَالَ عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ: وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ الشَّعْرَ وَالْكَهَانَةَ وَالسَّحَرَ، وَعَلِمْتُ مِنْ ذَلِكَ عِلْمًا مَا يَخْفَى عَلَيَّ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ أَمْ هَاشِمٌ؟ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ أَمْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ اللَّهِ؟، فَبِمَ تَشْتُمُ آلَهُنَا وَتَضْلِلُنَا؟ فَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ الرِّيَاسَةَ عَقْدْنَا لَكَ اللِّوَاءَ، فَكُنْتَ رَئِيسَنَا مَا بَقِيتَ، وَإِنْ كَانَ بِكَ الْبَاءَةُ زَوْجَانِكَ عَشْرَ نِسْوَةٍ مِنْ أَيِّ بَنَاتِ قُرَيْشٍ شِئْتَ، وَإِنْ كَانَ بِكَ الْعَالُ، جَمَعْنَا لَكَ مَا تَسْتَغْنَى بِهِ أَنْتَ وَعَقَبُكَ. وَالنَّبِيُّ ﷺ سَاكِتٌ، فَلَمَّا فَرَّغَ عَتَبَةُ، قَالَ ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حَمْدُ تَنْزِيلٍ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ...﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِثْلُ صَاعِقَةِ عَادَ وَثُمُودَ﴾، فَأَمْسَكَ عَتَبَةُ عَلَى فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ وَنَاشَدَهُ بِالرَّحِمِ، فَرَجَعَ عَتَبَةُ إِلَى أَهْلِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى قُرَيْشٍ، فَلَمَّا احْتَبَسَ عَنْهُمْ، قَالُوا: مَا نَرَى عَتَبَةَ إِلَّا صَبًّا، فَاَنْطَلَقُوا، وَقَالُوا: يَا عَتَبَةُ؛ مَا حَبَسَكَ عَنَا إِلَّا أَنْكَ صَبَأْتَ إِلَى مُحَمَّدٍ، أَمْ أَنْكَ أَعْجَبَكَ طَعَامُهُ؟ فَغَضِبَ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: لَقَدْ كَلَّمْتُهُ فَأُجَابَنِي بِشَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا هُوَ شَعْرٌ، وَلَا كِهَانَةٌ، وَلَا سِحْرٌ، ثُمَّ تَلَّى عَلَيْهِمْ مَا سَمِعَ مِنْهُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مِثْلُ صَاعِقَةِ عَادَ وَثُمُودَ﴾ فَأَمْسَكَتْ بِفِيهِ، وَنَاشَدَتْهُ بِالرَّحِمِ أَنْ يَكْفَ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا إِذَا قَالَ شَيْئًا لَمْ يَكْذِبْ، فَخَفْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ الْعَذَابُ. هـ (١).

ثُمَّ بَيَّنَّ مَا ذَكَرَهُ مِنْ صَاعِقَةِ عَادَ وَثُمُودَ، فَقَالَ: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَيُّ: تَعَاظَمُوا فِيهَا عَلَى أَهْلِهَا بِمَا لَا يَسْتَحِقُّونَ بِهِ التَّعْظِيمَ، وَهُوَ الْقُوَّةُ، وَعَظُمَ الْأَجْرَامُ، وَاسْتَوْلُوا عَلَى الْأَرْضِ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ لِلْوِلَايَةِ، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، كَانُوا ذَوِي أَجْسَامٍ طَوَالٍ، وَخُلِقَ عَظِيمٌ، بَلَغَ مِنْ قُوَّتِهِمْ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَقْلَعُ الصَّخْرَةَ مِنَ الْجَبَلِ بِيَدِهِ، وَيَلْوِي الْحَدِيدَ بِيَدِهِ، ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا﴾ أَيُّ: أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا عِلْمَ عَيَانٍ ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؟ أَوْسَعُ مِنْهُمْ قُدْرَةً؛ لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى بَعْضِ الْأَشْيَاءِ بِإِقْدَارِهِ، ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ الْمَنْزِلَةِ عَلَى رُسُلِهِمْ ﴿يَجْحَدُونَ﴾ أَيُّ: يَنْكُرُونَهَا وَهُمْ يَعْرِفُونَ حَقِيقَتَهَا، كَمَا يَجْحَدُ الْمُوَدَّعُ الْوَدِيعَةَ. (وَهُمْ): عَظَفَ عَلَى (فَاسْتَكْبَرُوا)، وَمَا بَيْنَهَا اعْتِرَاضٌ، لِلرَّدِّ عَلَى كَلِمَتِهِمُ الشَّنْعَاءَ.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أَيُّ: بَارِدًا تَهْلِكُ وَتُحْرَقُ؛ لَشِدَّةِ بَرْدِهَا، مِنْ: الصَّرِّ، وَهُوَ الْبَرْدُ، الَّذِي يَجْمَعُ وَيَقْبِضُ، أَوْ: عَاصِفَةٌ تَصَوَّتْ فِي هُبُوبِهَا، مِنَ الصَّرِيرِ، فَضَوْعُفٌ، كَمَا يُقَالُ: نَهْنَهْتُ وَكَفَكَفْتُ. ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾؛ مَشْؤُومَاتٍ عَلَيْهِمْ، مِنْ: نَحْسٍ نَحْسًا، نَقِيضٌ: سَعْدٌ سَعْدًا، وَكَانَتْ مِنَ الْأَرْبَعَاءِ آخِرُ شَوَالٍ إِلَى الْأَرْبَعَاءِ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٦٧/٧) وَعَزَاهُ السَّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمُنْتَرِ (٦٧٣/٥ - ٦٧٤) لِلْبَيْهَقِيِّ فِي الدَّلَائِلِ وَابْنِ عَسَاكِرٍ. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وما عَذَّبَ قَوْمَ إِلَّا فِي الْأَرْبَعَاءِ . قِيلَ : أَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْمَطَرَ ثَلَاثَ سَنِينَ ، وَدَامَتِ الرِّيحُ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ مَطَرٍ . قِيلَ ، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ خَيْرًا ، أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْمَطَرَ ، وَحَبَسَ عَنْهُمْ كَثْرَةَ الرِّيحِ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ شَرًّا ، حَبَسَ عَنْهُمْ الْمَطَرَ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ كَثْرَةَ الرِّيحِ . هـ .

﴿لُنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ، أَضَافَ الْعَذَابَ إِلَى الْخِزْيِ ، وَهُوَ الذِّلُّ ، عَلَى أَنَّهُ وَصَفَ لِلْعَذَابِ ، كَأَنَّهُ قَالَ : عَذَابُ خِزْيٍ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿وَلْعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ أَيْ : أَذْلُ لِصَاحِبِهِ ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ وَصَفَ لِلْمُعَذَّبِ ، وَصَفَ بِهِ الْعَذَابَ لِلْمُبَالَغَةِ ، كَقَوْلِكَ : لَهُ شَعْرٌ شَاعِرٌ . ﴿وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ بَرَفَعَ الْعَذَابَ عَنْهُمْ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوَجْهِ .

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ ؛ دَلَّلْنَاهُمْ عَلَى الرُّشْدِ ، بَنَصَبِ الْآيَاتِ التَّكْوِينِيَّةِ ، وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ ، وَإِنْزَالِ الْآيَاتِ التَّشْرِيعِيَّةِ ، ﴿فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ أَيْ : اخْتَارُوا الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَايَةِ ، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أَيْ : دَاهِيَةُ الْعَذَابِ الَّتِي يَهِينُ صَاحِبُهَا وَيَخْزِيهِ ، وَهِيَ الصَّيْحَةُ وَالرَّجْفَةُ ، وَالْهُونُ : الْهَوَانُ ، وَصَفَ بِهِ لِلْمُبَالَغَةِ ، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَيْ : بِكَسْبِهِمُ الْخَبِيثَ مِنَ الشَّرِكِ وَالْمَعَاصِي .

قَالَ الشَّيْخُ : أَبُو مَنْصُورٍ : يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ : ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ : بَيَّنَّا لَهُمْ ، كَمَا تَقَدَّمَ ، وَيَحْتَمِلُ : خَلَقَ الْهُدَايَةَ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَصَارُوا مُهْتَدِينَ ، ثُمَّ كَفَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَعَقَرُوا النَّاقَةَ ، لِأَنَّ الْهُدَى الْمُضَافَ إِلَى الْخَالِقِ يَكُونُ بِمَعْنَى الْبَيَانِ ، وَيَكُونُ بِخَلْقِ فِعْلِ الْإِهْتِدَاءِ ، وَأَمَّا الْهُدَى الْمُضَافُ إِلَى الْخَلْقِ فَيَكُونُ بِمَعْنَى الْبَيَانِ ، لَا غَيْرَ . هـ .

وَقَالَ الطَّبِيبِيُّ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ﴾ (١) . وَقَوْلُهُ : ﴿فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ هُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا...﴾ (٢) . وَكَذَا فِي قَوْلِهِ : ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ، فَإِنَّ الْفَاءَ فِي «فَاسْتَكْبَرُوا» فَصِيحَةٌ ، تُفْصَحُ عَنْ مَحْذُوفٍ ، أَيْ : فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَكْبَرُوا بِدَلَالَةِ مَا قِيلَ فِي ثَمُودَ . هـ .

﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ : اخْتَارُوا الْهُدَى عَلَى الْعَمَى ، مِنْ تِلْكَ الصَّاعِقَةِ ، ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الضَّلَالَةَ وَالتَّقْلِيدَ .

(١) مِنَ الْآيَةِ ١٤ مِنْ سُورَةِ فَصَلَتِ .

(٢) مِنَ الْآيَةِ ١٤ مِنْ سُورَةِ فَصَلَتِ .

الإشارة: كل من أعرض عن الوعظ والتذكار، ونأى عن صحبة الأبرار؛ فالصعقة لاحقة به، إما في الدنيا أو في الآخرة. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا...﴾ الآية: أوصاف العبودية أربعة: الضعف، والذل، والفقر، والعجز، فمن خرج عن واحد منها، فقد تعدى طوره، واستحق الهلاك والهوان، ورمته رياح الأقدار في مهاري النيران.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بينا لهم طريق السير إلينا، على السنة الوسائط، فحادوا عنها، واستحبوا العمى على الهدى؛ حيث لم يسبق لهم الهداية في الأزل، فالسوابق تؤثر في العواقب، والعواقب لا تؤثر في السوابق، فكان جبلة القوم الضلالة، فمالوا إلى ما جبلوا عليه من قبول الضلالة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: في الدنيا من الصاعقة، وفي الآخرة من السقوط في الهاوية. قال القشيري: منهم من نجاهم من غير أن رأوا النار، عبروا القنطرة ولم يعلموا، وقوم كالبرق الخاطف، وهم أعلامهم - قلت: بل أعلامهم كالطرف. ثم قال: وقوم كالرواكض، وهم أيضا الأكابر، وقوم على الصراط يسقطون وتردُّهم للملائكة على الصراط، فبعُدوا. ثم قال: وقوم بعد ما دخلوا النار، فمنهم من تأخذه إلى كعبيه، ثم إلى ركبتيه، ثم إلى حقويه^(١)، فإذا بلغ القلب قال الحقُّ للنار: لا تحرقى قلبه، فإنه محترقٌ بى. وقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا^(٢) فصاروا حمماً^(٣). هـ منه.

ثم ذكر وعيد أهل الشرك، فقال:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا جُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ

(١) الحقو: الخصر

(٢) امتحش الحر أو النار جلده، أي: أحرقه وقشره عن اللحم.

(٣) الحمم: الفحم وكل ما احترق من النار

الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخُسْرَيْنِ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

يقول العلّ جلّ جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نحشر أعداء الله﴾ (١) من كفار المتقدمين والمتأخرين ﴿إلى النار لهم يوزعون﴾، يضمرون ويساقون إلى النار، ويحبس أولهم على آخرهم، فيستوقف سوابقهم حتى تلحق بهم تواليهم، وهي عبارة عن كثرة أهل النار، وأصله: من وزعته، أي: كلفته. ﴿حتى إذا ما جاؤوها﴾ أي: حضروها، وحتى: غاية للحشر، أو: ليوزعون، و «ما»: مزيدة؛ لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور، فبمجرد حضورهم ﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم﴾ أي: بشراتهم ﴿بما كانوا يعملون﴾ في الدنيا، من فنون الكفر والمعاصي، بأن ينطقها الله تعالى، ويظهر عليها آثار ما اقترفوا بها. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن المراد بشهادة الجلود: شهادة الفروج، كقول الشاعر:

أَوْ سَأَلْتُ مَنْ قَدْ تَلَّ سَنَى جِلْدَهُ وَابْيَضَ رَأْسُهُ (٢)

فكُنِّي بجلده عن فرجه، وهو الأنسب؛ لتخصيص السؤال بها في قوله تعالى: ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا﴾، فإن ما تشهد به من الزنا أعظم جناية وقبحاً، وأجلب للحرز والعقوبة، مما تشهد به السمع والأبصار من الجنايات المكتسبة بتوسطها. روى: أن العبد يقول يوم القيامة: يارب، أليس قد وعدتني ألا تظلمني؟ فيقول تعالى: فإن لك ذلك، قال: فإني لا أقبل على شاهد إلا من نفسي، قال تعالى: أو ليس كفى بي شهيداً، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال: فيُختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول لهن: بعداً لكنّ وسُحفاً، عنكن كنت أجادل، (٣).

﴿قالوا﴾ في جوابهم: ﴿أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾ من الحيوانات، وأقدرنا على بيان الواقع، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح، وما كتمناها. أو: ما نطقنا باختيارنا، بل انتقنا الله الذي أنطق كل شيء. وقيل: سألوها سؤال تعجب، فالمعنى حينئذ: وليس نطقنا بعجب من قدرة الله - تعالى - الذي أنطق كل شيء، ﴿وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾؛ فإن من قدر على خلقكم أول مرة، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه،

(١) قرأ نافع ويعقوب ونحش، بنون العظمة. وأعداء، بالنصب، مفعول به. وقرأ الباقر بن بياض الغيب مضمومة، وأعداء، بالرفع على النيابة. انظر الإتحاف (٤٤٣/٢).

(٢) جاء البيت في تفسير القرطبي (٥٩٧٠/٧) مسبوفاً ببيت آخر هو:
المرء يسعى للملاحة والسلامة حسبته

وعزاه القرطبي لعامر بن جزية.

(٣) أخرجه مسلم في (الزهد والرقائق، ٢٢٨١/٤، ح ٢٩٦٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

لا يتعجب من إنطاقه جوارحكم. ولعل صيغة المضارع، مع أن هذه المحاورة بعد البعث والرجع، كما أن المراد بالرجوع ليس مجرد الرد إلى الحياة بالبعث، بل ما يعمه، وما يترتب عليه من العذاب الخالد المترقب عند التخاطب، على تغليب المتوقع على الواقع، مع ما فيه من مراعاة الفواصل، فهذا على أنه من تنمة كلام الجلود، وقيل: هو من كلام الحق - تعالى - لهم، فيوقف على شيء، وهو ضعيف. وكذا قوله:

﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾، يحتمل أن يكون من كلام الجلود، أو: من كلام الله - عز وجل - وهو الظاهر، أي: وما كنتم تستترون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة أن تشهد عليكم جوارحكم، ولو خفتم من ذلك ما استترتم بها، ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ من القبائح الخفية، فلا يظهرها في الآخرة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: كنت مستتراً بأستار الكعبة، فدخل ثلاثة نفر؛ وثقفيان وقرشي، أو: قرشيان وثقفي، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: سمع جهرنا ولا يسمع ما أخفينا، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وما كنتم تستترون... ﴾ الآية (١)، فالحكم المحكي حينئذ يكون خاصاً بمن كان على ذلك الاعتقاد من الكفرة. انظر أبا السعود.

﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾؛ أهلككم، ف ذلك؛ مبتدأ، وظنكم؛ خبر، والذي ظننتم بربكم؛ صفة، وأرداكم؛ خبر ثان، أو: ظنكم؛ بدل من ذلك، وأرداكم؛ خبر، ﴿ فأصبحتم ﴾ بسبب الظن السوء ﴿ من الخاسرين ﴾ إذ صار ما منحوا لسعادة الدارين سبباً لشقاء النشأتين.

﴿ فإن يصبروا فالنار مشوى ﴾؛ مقام ﴿ لهم ﴾ أي: فإن يصبروا لم ينفعهم الصبر، ولم ينفكوا به من الثرى في النار، ﴿ وإن يستعذبوا ﴾ أي: يسألوا العتبي؛ وهو الاسترضاء ﴿ فما هم من المعتبين ﴾؛ المجابين إليها، أي: وإن يطلبوا الاسترضاء من الله - تعالى - ليرضى عنهم، فما هم من المرضين؛ لما تحتم عليهم واستوجبوه من السخط، قال الجوهري: أعتبني فلان: إذا عاد إلى مسرتي، راجعاً عن الإساءة، والاسم منه: العتبي، يقال: استعتبته فأعتبني، أي: استرضيته فأرضاني. وقال الهروي: إن يستقبلوا ربهم لم يقلهم، أي: لم يرددهم إلى الدنيا، أو: إن أقالهم وردداهم لم يعملوا بطاعته، كقوله: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ (٢).

(١) أخرجه البخاري في (التفسير، سورة حم السجدة، باب: ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم ﴾ ح ٤٨١٦) ومسلم في (صفات

المنافقين وأحكامهم، ٢١٤١/٤ ح ٢٧٧٥).

(٢) من الآية ٢٨ من سورة الأنعام.

الإشارة: أعداء الله هم الجاحدون لوحدايته ورسالة رسله، وهم الذين تشهد عليهم جوارحهم، وأما المؤمن فلا، نعم إن مات عامياً شهدت عليه البقع أو الحفظة، فإن تاب أنسى الله حفظته ومعالمه في الأرض ذنوبه. قال في التذكرة: إن العبد إذا صدق في توبته أنسى الله ذنوبه لحافظيه، وأوحى إلى بقع الأرض وإلى جميع جوارحه: أن اكتموا مساري عهدي، ولا تظهروها، فإنه تاب إلى توبة صادقة، بدية مخلصه، فقبلته وتبت عليه، وأنا اللواب الرحيم.

وفي الآية حث على حسن الظن بالله، وفي الحديث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل» (١) وقال أيضاً: «يقول الله - عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي...» الحديث (٢) فمن ظن خيراً لقي خيراً، ومن ظن شراً لقي شراً. وبالله التوفيق.

ثم إن سبب الغواية أو الهداية هي الصحبة، كما قال تعالى:

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَخَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴾ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقَيَّضْنَا ﴾ أى: سَيَّرْنَا، أو: قَدَرْنَا، ﴿ لهم ﴾ أى: كفار مكة في الدنيا ﴿ قُرَنَاءَ ﴾ سوء من الجن والإنس، أو: سلطنا عليهم نظراء لهم من الشياطين يستولون عليهم، كقوله: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (٣)، ﴿ فزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمور الدنيا، واتباع الشهوات، والتقليد لأسلافهم، حتى حادوا عن الحق، ﴿ وما خَلْفَهُمْ ﴾ من أمور الآخرة، حيث ألقوا إليهم: ألا بعث ولا حساب. أو: ما تقدم من أعمالهم وما هم عازمون عليها، ﴿ وحقَّ عليهم القول ﴾ أى: ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب، أو: تحقق موجبها ومصداقها، وهى قوله تعالى لإبليس: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤)، حال كونهم ﴿ في ﴾ جملة ﴿ أمم قد خلت من قبلهم ﴾ أى: قبل أهل مكة ﴿ من الجن والإنس ﴾

(١) أخرجه مسلم في (كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الأمر بحسن الظن بالله، ٤/٢٢٠٥، ح ٢٨٧٧) عن جابر رضي الله عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى في (كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: «ويحذركم الله نفسه» ٤، ح ٧٤٠٥) ومسلم في (كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، ٤/٢٠٦١ ح ٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الآية ٣٦ من سورة الزخرف.

(٤) من الآية ٨٥ من سورة الص.

كانوا مُصْرَبِينَ عَلَى الْكُفْرِ الْعَصِيَّانِ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ حَيْثُ آثَرُوا الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ، وَهُوَ تَعْلِيلٌ لَاسْتِحْقَاقِهِمُ الْعَذَابَ. وَالضَّمِيرُ لَهُمْ وَلِلْأَمَمِ.

الإشارة: قال القشيري: إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ سُوءًا، قَبِضَ لَهُ إِخْوَانُ سُوءٍ وَقَرْنَاءُ شَرٍّ، هُمُ الْأَصْدَادُ لَهُ فِيمَا رَامُوا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا قَبِضَ لَهُ قَرْنَاءُ خَيْرٍ، يُعِينُونَهُ عَلَى الطَّاعَةِ، وَيَحْمِلُونَهُ عَلَيْهَا، وَيَدْعُونَهُ إِلَيْهَا، وَإِذَا كَانُوا إِخْوَانًا سُوءٍ يَحْمِلُونَهُ عَلَى الْمَخَالَفَاتِ، وَيَدْعُونَهُ إِلَيْهَا، وَمِنْ ذَلِكَ الشَّيْطَانُ. ثُمَّ قَالَ: وَشَرُّ قَرِينٍ لِلْمَرْءِ نَفْسُهُ، ثُمَّ الشَّيْطَانُ، ثُمَّ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ، فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ طَوْلِ الْأَمَلِ، وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ نَسْيَانِ الزَّلِيلِ، وَالتَّسْوِيفِ فِي التَّوْبَةِ، وَالتَّقْصِيرِ فِي الطَّاعَةِ. هـ.

قلت: واللّه ما رأينا الفلاح والخسران إلا من الخلطة. قال بعضهم: واللّه ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح، ولا سيما صحبة العارفين؛ فساعة معهم تعدل عبادة سدين بالصيام والقيام وأنواع المجاهدة، واللّه در الجيلاني (١) رحمه الله حيث قال:

فَسَمَرُوا وَلِذِّبِ الْأَوْلِيَاءِ فَإِنَّهُمْ	لَهُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تِلْكَ الْوَقَائِعُ
هُمْ الدُّخْرُ لِلْمَلْهُوفِ وَالْكَزْزُ لِلرُّجَا	وَمِنْهُمْ يَنَالُ الصَّبْرُ مَا هُوَ طَامِعُ
بِهِمْ يَهْتَدِي لِّلْعَيْنِ مَنْ ضَلَّ فِي الْعَمَى	بِهِمْ يُجْذِبُ الْعُشَّاقُ وَالرَّبْعُ شَاسِعُ
هُمْ النَّاسُ فَالزَّمْ إِنْ عَسَرْتَ جَنَابَهُمْ	فَفِيهِمْ لِضُرِّ الْعَالَمِينَ مَنَافِعُ (٢)

ثم ذكر بعض ما زبّنوا لهم، فقال:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٦)
 فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧)
 ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ إِمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٢٨)

(١) هو الشيخ عبدالكريم الجبلي.

(٢) البيت الأخير جاء في ديوان الجبلي ص ٨٩ مسبقاً ببيت هو:

هم القصد والمطلوب السؤل والمعنى واسمهم للصب في الحب شافع

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذين كفروا﴾ من رؤساء المشركين لأتباعهم، أو: بعضهم لبعض: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن﴾ إذا قرئ، أي: لا تنصتوا له؛ لأنه يقلب القلوب، ويسبى العقول، وكل من استمع إليه صبا إليه، ﴿والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ أي: عارضوه بكلام غير مفهوم، أو: بالخرافات؛ من الرجز والشعر والتصديّة، وارفعوا أصواتكم بها ﴿لعلكم تغلبون﴾ أي: تغلبونه على قراءته، وشوشوا عليه في الغلط، أو: لا يسمعه منه أحد. واللغو: الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته.

﴿فلنديقن الذين كفروا﴾ أي فوالله لنذيقن هؤلاء اللاغين والقائلين، أو: جميع الكفار، وهم داخلون فيهم دخولا أوليا. ﴿عذاباً شديداً﴾ لا يقادر قدره، ﴿ولنجزيهم أسوأ الذي كانوا يعملون﴾ أي: أعظم عقوبة على أسوأ أعمالهم، وهو الكفر، وقيل: إنه لا يجازيهم بمحاسن أعمالهم، كإغاثة الملهوفين، وصلة الأرحام، وقرى الضيق؛ لأنها محبطة بالكفر، وإنما يجازيهم على أسوئها. وعن ابن عباس: ﴿عذاباً شديداً﴾: يوم بدر، و﴿أسوأ الذي كانوا يعملون﴾: ما يجزون في الآخرة.

﴿ذلك جزاء أعداء الله النار﴾ أي: ذلك الأسوأ من الجزاء هو جزاء أعداء الله، وهو النار. فالنار: خبر عن مضمّر، أو: عطف بيان للجزاء، والنار: مبتدأ. ﴿لهم فيها دار الخلد﴾: خبر، أي: النار في نفسها دار الخلد، كما تقول: لك في هذه الدار السرور، وأنت تعنى الدار بعينها، ويسمى في علم البلاغة: التجريد، وهو أن ينتزع من ذي صفة أمراً آخر مثله، مبالغة، لكمال فيه. تقول: لقيت من زيد أسداً. وقيل: هي على معناها، والمراد: أن لهم في الدار المشتملة على الدرجات دار مخصوصة، هم فيها خالدون، ﴿جزاء بما كانوا بآياتنا يجدون﴾ أي: جُوزوا بذلك جزاء بسبب ما كانوا يجدون بآياتنا ويلغون فيها.

الإشارة: الآية تنسحب على من يرفع صوته بمحضر مجلس الوعظ والذكر، أو العلم النافع، أو صفوف الصلاة، فهذه المجالس يجب صونها من اللغو والصخب، ويجب الاستماع لها، والإنصات، والتوقير، والتعظيم، لأنها موروثة عن الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ (١)، ومن فعل شيئاً من ذلك فالوعيد بقوله تعالى: ﴿فلنديقن الذين كفروا...﴾ الآية - منه بالمرصاد. والله تعالى أعلم.

(١) الآية ٣ من سورة الحجرات.

ثم ذكر مقاتلتهم بعد دخول النار، فقال:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا
تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب: ﴿ ربنا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾، يعنون الفريقين الحاملين على الضلال، من شياطين الجن والإنس، بالتسويل والتزيين، وقيل: هما إبليس وقابيل، فإنهما سَنَّ الكفر والقتل، وقرىء بسكون الراء تخفيفاً^(١)، كَفَخَذَ وفَخَذَ، وبالاختلاس^(٢)، أى: أبصرناهما، ﴿ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ أى: ندسهما تحت أرجلنا، انتقاماً منهما، أو: نجعلهما فى الدرك الأسفل ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ ذلاً ومهانة، أو: مكاناً، جزاء إضلالهم إيانا.

الإشارة: كل من سقط عن درجة المقربين العارفين، وتعوق عن صحبتهم، بسبب تعويق أحد، تملئ يوم القيامة أن يكون تحت قدمه، ليكون أسفل منه، غيظاً وندماً، ولا ينفع التمنى والندم فى ذلك اليوم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أهل القرب والعناية، بعد ذكر أهل البعد والغواية، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ
أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٣٠) نَحْنُ
أُولَئِكَ وَكُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ (٣١) نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (٣٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ﴾ أى: نطقوا بالتوحيد واعتقدوا، ﴿ ثم استقاموا ﴾ أى: ثبتوا على الإقرار ومقتضياته من حسن الأعمال، وعن الصديق عليه السلام: استقاموا فعلاً، كما استقاموا قولاً. وعنه: أنه تلاها ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذنبوا، قال: حملتم الأمر على أشده، قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر رضي الله عنه: لم يروغوا روغان الثعالب، أى: لم ينافقوا. وعن عثمان رضي الله عنه: أحكموا العمل،

(١) ربه قرأ ابن كثير، وأبو عمرو بخلفه، وأبو بكر، ويعقوب، وقرأ الباقر بالكسر. انظر الإنحاف (٢/٤٤٣).

(٢) وهى الوجه الثانى لأبى عمرو.

وعن علي بن أبي طالب: أدوا الفرائض. وعن الفضيل: زهدوا في الفانية، ورجعوا في الباقية^(١). قلت: ويجمعها الإقرار بالربوبية، والقيام بوصائف العبودية.

﴿تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ عند الموت، وفي القبر، وعند البعث، أو: في الدنيا بإلهام الخير وشرح الصدر، وإعانتهم على الأمور الدينية، كما أن الكفرة تقويهم ما قُيِّضَ لهم في قرناء السوء. والأظهر: العموم. ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ فـ «أن، مخففة، أو: تفسيرية، أي: لا تخافوا ما تُقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم، فالخوف: غم يلحق لتوقع مكروه، والحزن: غم يلحق لفوات نافع، أو حضور ضار. والمعنى: أن الله تعالى كتب لكم الأمن من كل غم، فلن تذوقوه أبداً. ﴿وَأَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على السنة الرسل. وقال محمد بن علي الترمذي: تنزل عليهم ملائكة الرحمة، عند مفارقة الأرواح الأبدان، ألا تخافوا سلب الإيمان، ولا تحزنوا على ما كان من العصيان، وأبشروا بدخول الجنان، التي تُوعَدون في سالف الأزمان.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، كما أن الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم، فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم في الدارين. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ﴾ من فنون الطيبات، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾؛ ما تَتَمَنُّونَ، افتعال من الدعاء، بمعنى الطلب، ﴿تَزُلُّ﴾: حال من مفعول «تَدْعُونَ، المحذوف، أو: من ماء، والنزل: ما يقدم للنزيل، وفيه تنبيه على أن ما يتمنونه بالنسبة إلى ما يعطون من عظام النعيم كالنزل للضيف. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إن الذين أقرؤا بقهرية الربوبية، وقاموا بوظائف العبودية، تنزل عليهم الملائكة بالبشارة الأبدية. قال القشيري: فأما الاستقامة فهي الثبات على شرائط الإيمان بجملتها، من غير إخلال بشيء من أقسامها.

ثم قال: من كان له أصل الاستقامة، وهي التوحيد، أمِنَ من الخلود في النار، ومن كان له كمال الاستقامة أمِنَ من الوعيد، من غير أن يلحقه سوء بحال. ويقال: استقاموا على دوام الشهود، وانفراد القلب بالمعبود، أو: استقاموا في تصفية العقد، ثم في توفية العهد، ثم في صحة القصد، بدوام الوجد، أو: استقاموا بأقوالهم، ثم بأعمالهم، ثم بصفاء أحوالهم، في وقتهم وفي مآلهم، أو: داموا على طاعته، واستقاموا في معرفته، وهاموا في محبته، وقاموا بشرائط خدمته. واستقامة العابد: ألا يعود إلى الفترة واتباع الشهوة، ولا يدخله رياء ولا تصنع، واستقامة العارف: ألا يشوب معرفته حظ في الدارين، فيحجب به عن مولاه، واستقامة المحبين: ألا يكون لهم أرب من غير محبوبهم؛ يكتفون من عطائه ببقائه، ومن مقتضى جوده بدوام عزه ووجوده. هـ.

(١) انظر في هذه الأقوال تفسير الطبري (١١٥/٢٤) والبخاري (١٧٢/٧) والبحر المحييط (٤٧٥/٧).

وقوله تعالى: ﴿تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أى: تقدمهم بالاهتداء والأنوار، وتلهمهم العلوم والأسرار، فى مقابلة تقييض الغافل بالقرناء الأشرار، فكما أن الغافل يخذل بتسليط الغواة فى الدارين، كذلك العارف يمد وينصر من قبل الملائكة فى الدارين.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أى: حيث وجدتم الله لا تخافوا من شيء، ولا تحزنوا على فوات شيء، إذ لم يفنكم شيء، وماذا فقد من وجده؟.

قال القشيري: لا تخافوا من عزلة الولاية، ولا تحزنوا على ما أسلفتم من الجناية، وأبشروا بحسن العناية، أو: لا تخافوا مما أسلفتم، ولا تحزنوا على ما خلفتم، وأبشروا بالجنة التى وعدتم. أو: لا تخافوا المذلة، ولا تحزنوا على ما أسلفتم من الزلة، وأبشروا بدوام الوصلة. هـ.

ثم قال فى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاكُمْ﴾: الولاية من الله - تعالى - بمعنى المحبة، وتكون بمعنى النصرة، وهذا الخطاب بقوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاكُمْ﴾، يحتمل أن يكون من قبل الملائكة، الذين يتنزلون عليهم، ويحتمل أن يكون ابتداء خطاب من الله - تعالى - والنصرة تصدر من المحبة، ولو لم تكن المحبة الأزلية لم تكن تحصل النصرة فى الحال. هـ. وكونه من الملائكة أظهر، كما تقدم. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر حال أهل الاستقامة، ذكر حال من دعا إليها، أو: تقول: لما ذكر حال أهل الكمال فقط، ذكر أهل الكمال والتكميل، فقال:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعُ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا أَذْوَحَظٍ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴿

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: إلى الإقرار بربوبيته، والاستقامة على عبوديته، وهو الرسول ﷺ وخلفاؤه من أمته، الدعاة إلى الله فى كل عصر، أى: لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى

معرفة الله، ﴿وَعَمِلْ صَالِحاً﴾ فيما بينه وبين ربه، بأن عمل أولاً بما دعا إليه، ﴿وقال إننى من المسلمين﴾ تفاخراً بالإسلام، وابتهاجاً بأنه منهم، واتخاذ الإسلام ديناً، من قولهم: هذا قول فلان، أى: مذهبه؛ لأنه يتكلم بذلك، أو: يقوله تواضعاً، أى: من جملة عامة المسلمين

﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾، هذا بيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد، إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وبين الرب - عر وجل - ترغيباً للدعاة إلى الله فى الصبر على إذابة الخلق، لأن كل من يأمر بالحق يؤذى، فأمرؤ بمقابلة الإساءة بالإحسان، أى: لا تستوى الخصلة الحسنة والخلصة السيئة، و(لا): مزيدة، لتأكيد النفى. ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ أى: ادفع السيئة التى اعترضتك من بعض أعدائك بالتي هي أحسن منها، وهى: أن تحسن إليه فى مقابلة إساءته، فالحسنة والسيئة متفاوتتان فى أنفسهما، فخذ بالحسنة التى هي أحسن من أختها، وادفع بها السيئة، كما لو أساء إليك رجل، فالحسنة: أن تغفر عنه، والتى هي أحسن: أن تحسن إليه مكان إساءته، مثل أن يذمك فتمدحه، ويحرمك فتعطيه، ويقطعك فتصله. وعن ابن عباس رضي الله عنه: التى هي أحسن: الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عن الإساءة. (١) هـ.

﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميم﴾ أى: فإنك إن فعلت ذلك انقلب عدوك المشاقق مثل وليك الحميم الشفيق، مصافاة لك، وهذا صعب على النفوس، ولذلك قال:

﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا﴾ أى: ما يلقى هذه الخصلة التى فى مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر، ﴿وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم﴾ من الله - تعالى - وسبق عنايته بكمال النفس وتهذيبها. وعن ابن عباس رضي الله عنه: الحظ العظيم: الثواب، وعن الحسن: والله ما عظم حظ دون الجنة. وقيل: نزلت فى أبى سفيان بن حرب، كان عدواً مؤذياً للنبي صلى الله عليه وسلم فصار ولياً مصافياً له (٢)، وبقيت عامة.

﴿وإما يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾، النزغ: شبه النخس، والشيطان ينزغ الإنسان، كأنه ينخسه، يبعثه على ما لا ينبغي، وجعل النزغ نازغاً مجاز، كجدّ جدّه، والمعنى: وإن طرّقك الشيطان على ترك ما وصّيت به من الدفع بالتي هي أحسن، ﴿فاستعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شرّه، وامض على [حلمك] (٣) ولا تطعه، ﴿إنه هو السميع﴾

(١) ذكره البغوى فى تفسيره (١٧٤/٧) وابن كثير (١٠١/٤).

(٢) قاله مقاتل بن حيان، فيما ذكره البغوى فى تفسيره. (١٧٤/٧).

(٣) فى الأصول (حكمه) والمثبت من النفسى.

لاستعاذتك ، ﴿العليم﴾ بنيتك وتعلقك به ، أو: بنزع الشيطان ووسوسته . وهو تعليم لأمته ﷺ إذ كان شيطانه أسلم على يده .

الإشارة : قال القشيري: قيل: الداعي إلى الله هو الذي يدعو الناس إلى الاكتفاء بالله ، وترك طلب العوض من الله ، بل يكل أمره إلى الله ، ويرضى من الله بقسمة الله . ثم قال: «وَعَمَلٌ صَالِحاً» كما يدعو الخلق إلى الله يأتي بما يدعوهم إليه ، ويقال: هم الذين عرفوا طريق الله ، ثم دعوا - بعد ما عرفوا الطريق إلى الله - الخلق إلى الله ، «وقال إننى من المسلمين» لحكمه ، الراضين بقضائه وتدبيره . هـ .

وقال الشاذلي رحمه الله : عليك برفض الناس جملة ، إلا من يدلك على الله ، بإشارة صادقة ، وأعمال ثابتة ، لا ينقضها كتاب ولا سنة . هـ . وشروط الداعي إلى الله على طريق المشيخة أربعة: علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، كما قال زروق رحمه الله . وقال الشريشي (١) في رائيته:

وللشيخ آيات إذا لن تكن له فما هو إلا في ليالى الهوى يسرى
إذا لم يكن علم لذيهِ بظاهر ولا باطن فاضرب به لجج البحر

أما العلم الظاهر فإنما يشترط منه ما يحتاج إليه في خاصة نفسه ، ويحتاج إليه المرید في حال سفره إلى ربه ، وهو القدر الذى لأبد منه ، من أحكام الطهارة والصلاة ونحو ذلك ، ولا يشترط التبحر في علم الشريعة . قال الشيخ أبو يزيد رحمه الله : صحبت أبا على المسندى ، فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه ، وكان يعلمنى التوحيد والحقائق صرفاً . هـ . ومن المعلوم أن الشيخ ابن عباد لم يفتح عليه إلا على يد رجل عامى ، وقد تحققت تربية كثير من الأولياء ، كانوا أميين في علم الظاهر (٢) . وأما علم الباطن فالمطلوب فيه التبحر التام ؛ إذ المقصود بالذات في الشيخ المصطلح عليه عند النجوم هو هذا العلم ؛ لأن المرید أنما يطلب الشيخ ليسلكه ويعلمه علم الطريقة والحقيقة ؛ فيكون عنده علم تام بالله وصفاته وأسمائه ، ذوقاً وكشفاً ، وعلم بآفات الطريق ، ومكائد النفس ، والشيطان ، وطرق المواجه ، وتحقيق المقامات ، كما هو مقرر في فنه ، وهذا الداعي لا تخلو الأرض منه على الكمال ، خلافاً لمن حكم بانقطاعه . والله تعالى أعلم .

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن خلف ، القرشي ، ناج الدين ، الشريشي ، المالكي ، الصوفي . ولد في سلا - بجوار الرباط سنة ٥٨١ هـ ، ونشأ بمراكش ، وبرع في علم الكلام وأصول الفقه . وتصوف على يد أبي حفص السهروري عمر بن محمد ، واستقر بالقيوم بمصر ، وتوفي بها سنة ٦٤١ هـ ، اشتهر بقصيدته الرائية المسماة «أنوار السرائر وسرائر الأنوار» . انظر الأعلام للزركلي (١/ ٢١٩) .

(٢) انظر الفتوحات الإلهية للإمام المفسر (١٠٢ - ٢٠٤) وراجع التعليق على إشارة الآيات: ٤٧ - ٤٩ من سورة العنكبوت .

وفي الإحياء: المقتدى به هو الذي استقام في نفسه، واستنار قلبه فانقشر نوره إلى غيره، لا من يظهر خلاف ما هو عليه ليقتدى به، فإنه ملبس، لم ينصح لنفسه، فكيف بغيره؟ . هـ .

قال الورعجي: ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله، أي: ممن عرف الله بعد أن رآه وأحبه واشتاق إليه، ودعا الخلق إليه، من حيث هو فيه وصدقته في حاله، يدعو الخلق إلى الله بلسان الأفعال، وصدق المقال، وحلاوة الأحوال، ويذكر لهم شمائل القَدَمِ وحق الربوبية، ويعرفهم صفات الحق وجلال ذاته، ويحبب الله في قلوبهم، وهذا عمله الصالح، ثم يقول بعد كماله وتمكنه: إنني واحد من المسلمين، من تواضعه ولطف حاله خلقاً وظرافة، وإن كان إسلامه من قُصارى - أي: غاية - أحوال المستقيمين. قال سهل: أي: ممن دلّ على الله، وعلى عبادة الله وسُنّة رسوله، واجتناب المناهي، وإدامة الاستقامة مع الله، ثم قال: «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة» بين الله هذا أن الخلق الحسن ليس كالخلق السيئ، وأمر بتبديل الأخلاق المذمومة بالأخلاق المحمودة، وأحسن الأخلاق: الحلم؛ إذ يكون به العدو صديقاً، والبعيد قريباً، حين دفع غضبه بحلمه، وظلمه بعفوه، وسوء جانبه بكرمه، وفي مظنة الخطاب: أن من كان متخلقاً بخلقه، متصفاً بصفاته، مستقيماً في خدمته، صادقاً في محبته، عارفاً بذاته وصفاته، ليس كالمدعى الذي ليس في دعواه معنى .

ثم قال: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾، بين الله سبحانه ألا يبلغ أحد درجة الخلق الحسن، وحسنات الأعمال وسُنَيَات الأفعال، إلا من تصبّر في بلاء الله، وامتحانه، بالوسائط وغير الوسائط، ولا يتحمل هذه البليات إلا ذو حظ عظيم من مشاهدته، وذو نصيب من قرينه ووصاله، صاحب معرفة كاملة، ومحبة شاملة. وكمال هذا الصبر الاتصاف بصبر الله، ثم الصبر في مشاهدة الأزل، فبالصبر الاتصاف ومشاهدة الأبدى، والحظ الجمالى، يوازي طوارق صدمات الألوهية، وغلبات القهارية. ثم قال: عن الجنيد: ما يوفق لهذا المقام إلا ذو حظ عظيم من عناية الحق فيه . هـ .

ثم بين دلائل توحيده، فقال:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٣٧)

فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ عَآيِنِهِ أَنَّهُ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على وحدانيته: ﴿الليل والنهار﴾ في تعاقبهما على حد معلوم، وتناوبهما على قدر مقسوم، ﴿والشمس والقمر﴾ في اختصاصهما بسير مقدر، ونور مقرر؛ إذ لا يصدر ذلك إلا من واحد قهار. ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر﴾؛ فإنها مخلوقان مثلكم، وإن كثرت منافعهما، ﴿واسجدوا لله الذي خلقهن﴾ أي: الليل والنهار والشمس والقمر. وحكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث في الضمير، تقول: الأقلام بريتها وبريتهن. ولعل ناساً من المشركين كانوا يسجدون للشمس والقمر، تبعاً للصائبين من المجوس في عبادتهم الكواكب، يزعمون أنهم يقصدون بالسجود لها السجود لله - تعالى - فنهوا عن هذه الوسطة، وأمرُوا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله وحده، إن كانوا موحدين، ولذلك قال: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ فإن السجود أقصى مراتب العبادة، فلا بد من تخصيصه به سبحانه، وهذا موضع السجدة عند مالك والشافعي، وعند أبي حنيفة: (لا يسأمون).

﴿فإن استكبروا﴾ عن الامتثال، ﴿فالذين عند ربك﴾ من الملائكة ﴿يسبحون له بالليل والنهار﴾ أي: دائماً، ﴿وهم لا يسأمون﴾؛ لا يملون ولا يفترون، والمعنى: فإن استكبر هؤلاء وأبوا إلا الوسطة، فدعهم وشأنهم، فإن الله غنى عنهم، وقد عمر سماواته بمن يعبد، وينزله بالليل والنهار عن الأنداد. والعندية عبارة عن الزلفى والكرامة.

﴿ومن آياته﴾ أيضاً ﴿أنك ترى الأرض خاشعة﴾؛ يابسة مغبرة. والخشوع: التذلل، فاستعير للأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها، ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء﴾؛ المطر ﴿اهتزت﴾ أي: تحركت ﴿وربت﴾؛ انتفخت؛ لأن النبات إذا دنا أن يظهر ارتفعت به وانتفخت، ثم تصدعت عن النبات، وقيل: تزخرفت وارتفعت بارتفاع نباتها، ﴿إن الذي أحياها لمحيي الموتى﴾ بالبعث، ﴿إنه على كل شيء قدير﴾، ومن جملة الأشياء: البعث والحساب.

الإشارة: الليل والنهار والشمس والقمر خلقهن من أجلك، فعار عليك أن تخضع لما خلق لك، وتترك المنعم بها عليك. قال القشيري: الحق - سبحانه - يأمر بك بصيانة وجهك عن الشمس والقمر مع علوهما، وأنت لأجل حظ خسيس تنقل قدمك إلى كل أحد، وتذل وجهك لكل أحد. هـ. وأما الخضوع لمن أمر الله بالخضوع له من الدعاة إلى الله فهو من الخضوع لله، كأمر الملائكة بالسجود لآدم، وكأمره بالخضوع للأنبياء والأولياء، فكان مآل من سجد وخضع التقريب، ومآل من استكبر وأنف الطرد والبعد، والله تعالى غنى عن الكل، ولذلك قال: ﴿فإن استكبروا... الآية﴾.

قوله تعالى: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة...﴾ الآية، وكذلك أرض النفوس تراها يابسة بالغفلة والقسوة والجهل، فإذا أنزل عليها ماء الحياة، وهي خمرة المحبة، هاجت وارتفعت، وحييت بذكر الله ومعرفته، إن الذي أحيا الأرض الحسنة قادر على إحياء النفوس الميتة بالغفلة، وانظر القشيري (١).

ثم ذكر حال من أعرض عن الآيات، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا﴾ أى: يميلون عن الحق فى أدلتنا التكوينية، الدالة على وحدانيتنا، فلا ينظرون فيها، أو: يلحدون فى آياتنا التنزيلية، بالطعن فيها، وتحريفها، بحملها على المحامل الباطلة، ﴿لا يخفون علينا﴾، بل نجازيهم على ذلك. يقال: ألحد الكافر ولحد: إذا مال عن الاستقامة عن الحق.

ثم ذكر جزاءهم فقال: ﴿أفمن يلقي فى النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾. قيل: نزلت فى أبى جهل وعثمان (٢)، وهى عامة، ﴿اعملوا ما شئتم﴾ من الأعمال المؤدية إلى ما ذكر من الإبقاء فى النار، والإتيان آمناً، وفيه تهديد وتنفيد. ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم.

(١) راجع لطائف الإشارات (٣/٣٢٤).

(٢) قاله مقاتل، فيما ذكره أبو حيان، فى البحر المحيط (٧/٤٧٨). وانظر تفسير القرطبي (٧/٥٩٨٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾؛ القرآن ﴿لَمَّا﴾ حين ﴿جاءهم﴾ مخلصون في النار، أو: هالكون، أو: معاندون، فخير «إن، محذوف، دل عليه ما قبله. وقيل: بدل من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ فخير «إن، هو الخبر السابق، وقال عمرو بن العلاء: الخبر: ﴿أُولَئِكَ يُفَادُونَ﴾^(١)، ورد بكثرة الفصل.

ثم قصر الذكر المذكور بقوله: ﴿وَإِنَّ لِكِتَابٍ عَزِيزٍ﴾، مديع، محمى بحماية الله، لا تتأذى معارضته بحال، أو: كثير المنافع، عديم النظير، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أى: لا يتطرقه الباطل من جهة من الجهات، أو: لا يأتيه التبديل والتحريف، أو: التناقض بوجه من الوجوه، وأما النسخ فليس بمبطل للمنسوخ، بل هو: انتهاء حكم إلى مدة وابتداء حكم آخر، خلافاً لمن احتج بالآية على عدم النسخ في القرآن، انظر ابن عرفة. ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أى: تنزيل من حكيم محمود، ف «تنزيل»: خبر عن مضمرة، أو: صفة أخرى لكتاب، مفيدة لفخامته الإضافية، كما أن الصلتين السابقتين، مفيدتان لفخامته الذاتية، كل ذلك لتأكيد بطلان الكفر به وبشاعة قبحه.

الإشارة: إن الذين يلحدون في آياتنا، فيقطعون في أولياتنا، الدالين علينا، لا يخفون علينا، وسيلقون في نار القطيعة والبعد مع عموم الخوف من هول المطلع، أفمن يلقي في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة؟ اعملوا ما شئتم من التسليم أو الانتقاد، وكل من لا يصحب الرجال لا يخلو خاطره من شك أو وهم في مواعيد القرآن، كالرزق وغيره، ينسحب عليه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ...﴾ الآية، من طريق الإشارة. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِكِتَابٍ عَزِيزٍ﴾ قال الشيخ عبدالرحمن اللجائى في كتاب «قطب العارفين»: الكتاب عزيز، وعلم الكتاب أعز، والعلم عزيز، والعمل به أعز، والعمل عزيز، والذوق أعز، والذوق عزيز، والمشاهدة في الذوق أعز، والمشاهدة عزيزة، والموافقة في المشاهدة أعز، والموافقة عزيزة، والأنس في الموافقة أعز، والأنس عزيز، وآداب الأنس أعز. ثم قال: لكن لا يستنشق رائحة هذه المقامات من غلب جهله على علمه، وهواه على عقله، وسفهه على حلمه. هـ.

ثم سأل نبيه من تكذيب قومه، فقال:

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْفِىَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ

(١) من الآية ٤٤ من سورة فصلت.

أَلِيمٌ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ما يقال لك﴾ أى: ما يقول لك كفار قومك ﴿إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾؛ إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم، من الكلمات المؤذية، والمطاعن فى الكتب المنزلة، فاصبر كما صبروا، ﴿إن ربك لذو مغفرة﴾ ورحمة لأنبيائه ﴿وذو عقاب أليم﴾ لأعدائهم، وقد نصر من قبلك من الرسل، وانتقم من أعدائهم، وسيفعل مثل ذلك بك وبأعدائك، أو: (ما يقال لك) من الوحي وتخاطب به من جهته تعالى، (إلا ما قد قيل للرسل) وأوحى إليهم، فلست ببدع منهم (إن ربك لذو مغفرة) لمن صدق وحيه، (وذو عقاب أليم) لمن كذب.

﴿ولو جعلناه﴾ أى: الذكر ﴿قرآنًا أعجميًا لقالوا لولا فُصِّلَتْ آياته﴾ أى: هلا بيّنت بلسان العرب حتى نفهمها، كانوا يقولون: لتعنتهم: هلا نزل القرآن بلغة العجم! فقل لهم: لو كان كما تقترحون لقلتم: هلا بيّنت آياته بلغتنا لنفهمه، ﴿أأعجميٌّ وعربيٌّ﴾، بهمزتين^(١)، الأولى للإنكار، يعنى: لو نزل بلغة العجم لأنكروا وقالوا: أقرآن أعجمي ورسول عربي؟ والأعجمي: الذى لا يفصح ولا يفهم كلامه، سواء كان من العجم أو من العرب، والعجمي: منسوب إلى أمة العجم، فصيحاً كان أو غير فصيح، ومن قرأ بهمزة واحدة، فالمعنى: هلا فُصِّلَتْ آياته فيجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم، وبعضها عربياً لإفهام العرب، فيكون معنى «فُصِّلَتْ»: نوعت.

وقرئ: «أعجمي، بفتح العين»^(٢)، ويتجه على كونهم طعنوا فيه من أجل ما فيه من الكلمة العجمية، كـ «سجين»^(٣) و«استبرق»^(٤)، فقالوا: فيه أعجمي وعربي، مخلط من كلام العرب وكلام العجم، وأياً ما كان فالمقصود: أن آيات الله - عز وجل - على أى طريق جاءتهم وجدوا متعنتاً يتعللون به؛ لأنهم غير طالبين للحق، وإنما يتبعون أهواءهم. ﴿قل هو للذين آمنوا هدى﴾ يهديهم إلى الحق، ﴿وشفاء﴾ لما فى الصدور من شك وشبهة؛ إذ الشك مرض.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر (أعجمي) بهمزتين. وقرأ حفص عن عاصم (أعجمي) ممدودة. وقرأ هشام بهمزة واحدة من غير مد. راجع الغاية فى القراءات العشر (٣٨٦) والإتحاف (٤٤٤/٢).

(٢) وهى قراءة عمرو بن ميمون. وهى قراءة شاذة، ذكرها فى البحر المحيط (٤٨٠/٧).

(٣) كما جاء فى الآية السابعة والثامنة من سورة المطففين.

(٤) كما جاء فى الآية ٣١ من سورة الكهف.

﴿والذين لا يؤمنون﴾ به ﴿في آذانهم وقر﴾ أى: صمم، فالموصول: مبتدأ، والجار: خبره، وقيل: فى موضع الجر، بدل من (الذين آمنوا) أى: هو للذين آمنوا هدى وللذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر، إلا أن فيه عطفاً على عاملين، وهو جائز عند الأخفش. ﴿وهو﴾ أى: القرآن ﴿عليهم عمى﴾ ظلمة وشبه، ﴿أولئك﴾ البعداء الموصوفون بما ذكر من التعامى عن الحق الذى يسمعون، والتعامى عن الآيات الظاهرة التى يشاهدونها، ﴿ينادون من مكان بعيد﴾ يعنى: أنهم لعدم قبولهم والتفاهم، كأنهم ينادون إلى الإيمان بالقرآن من حيث لا يسمعون، لبعد المسافة، وهو تمثيل لحالهم بحال من ينادى من مسافة بعيدة، لا يكاد يسمع من مسافتها الأصوات، وقيل: ينادون فى القيامة من مكان بعيد بأقبح الأسماء.

الإشارة: ما يقال لك أيها المتوجه أو الولي، إلا ما قد قيل لمن قبلك من المنتسبين، فقد أودى من قبلك من أهل النسبة بأنواع الإذابات؛ من ضرب وقتل وسجن، وغير ذلك، ففيهم أسوة لمن بعدهم، (إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم). ومما جرت عادة الله فى خلقه ألا يسلموا لأحياء عصرهم ما نطقوا به من حكم، وأتوا به من علوم، ولو بلغت من البلاغة ما بلغت، كما وقع من طعن الكفرة فى القرآن، على أى وجه جاء، وهى نزعة جاهلية.

وقوله تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾، قال الورتجى: هدى، لقلوب العارفين إلى معدنه، وهو الذات القديم، وشفاء لقلوب العاشقين، وأرواح مرضى المحبة وسقى الصباية، فلأنه خطاب حبيبهم، وكتاب مشوقهم، يستلذونه من حيث العبارات، ويعرفونه من حيث الإشارات. هـ. وقوله تعالى: ﴿فى آذانهم وقر﴾ قال ذو النون: من وقر سمعه وأصم عن نداء الحق فى الأزل، لا يسمع نداءه عند الإيجاد، وإن سمعه كان ذلك عليه عمى، ويكون عن دقائقه بعيداً، وذلك أنهم نودوا عن بعد، ولم يكونوا بالقرب. هـ. فكل من قرأه ذاهلاً عن تدبره بوساوس نفسه، فهو ممن نودى فى الأزل عن بعد. وبالله التوفيق.

ولما ذكر بيان القرآن؛ أتبعه بذكر التوراة، تسلية أيضاً، فقال:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾؛ التوراة ﴿فاختلف فيه﴾ فقال بعضهم: حق، وقال بعضهم: كتبه بيده في الجبل، كما اختلف قومك في كتابك القرآن، فمن مؤمن به وكافر، ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ في حق أمتك بتأخير العذاب، ﴿لقضى بينهم﴾؛ لأهلكهم إهلاك استئصال. وقيل: الكلمة السابقة هو العدة بالقيامة لقوله: ﴿بل الساعة موعدهم﴾^(١)، وأن الخصومات تفصل في ذلك اليوم، ولولا ذلك لتسنى بينهم في الدنيا. ﴿وإنهم﴾ أي: كفار قومك ﴿لفي شك منه﴾ من أجل القرآن ﴿مرتب﴾، موقع للريبة، وقيل: الضمير في (بينهم) و (إنهم) لليهود، وفي (منه) لموسى، أو: لكتابه، وهو ضعيف.

﴿من عمل صالحاً﴾ بأن آمن بالكتب وعمل بوحياها، ﴿فلنفسه﴾ نفع، لا غيره، ﴿ومن أساء فعليها﴾ ضرره، لا على غيره، ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾، فيعذب غير المسيء، أو ينقص من إحسان المحسن.

الإشارة: الاختلاف على أهل الخصوصية سنة ماضية، (ولن تجد لسنة الله تبديلاً)، فمن رام الاتفاق على خصوصيته، فهو كاذب في دعوى الخصوصية، وفي الحكم: «استشراك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك»^(٢).

ثم ذكر بيان الساعة الموعودة بها في قوله: (ولولا كلمة سبقت من ربك)؛ لأنها محل القضاء بين العباد، فكان قائلاً قال: متى ذلك؟ فقال:

﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آتِنَا شُرَكَاءَی قَالُوا آءِذْنُكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾^(٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِصٍ^(٤٨) ﴿

يقول الحق جل جلاله: ﴿إليه يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: إذا سئل عنها يجب أن يقال: الله أعلم بوقت مجيئها، أو: لا يعلمها إلا الله، ﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾؛ من أوعيتها، جمع كم، بكسر الكاف؛ وهو وعاء الثمرة قبل أن تنشق، أي: لا يعلم كيفية خروجها ومآلها إلا الله. ﴿وما تحمل من أنثى﴾ أي: تعلق النطفة في رحمها، وما ينشأ عنها من ذكورة وأنوثة وأوصاف الخلقة؛ تامة أو ناقصة، ﴿ولا تضع حملها﴾ إلا

(١) الآية ٤٦ من سورة القمر.

(٢) (حكمة ١٦١) انظر الحكم بيبوب المتقى الهندي (ص ١١).

بعلمه ﴿استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أى: ما يحدث شىء من خروج ثمرة، ولا حمل حامل، ولا وضع واضع، ملابساً بشىء من الأشياء، إلا ملابساً بعلمه المحيط.

﴿و﴾ اذكر ﴿يوم يناديهم﴾ فيقول: ﴿أين شركائي﴾ بزعمكم، أضافهم إليه على زعمهم، وفيه تهكم بهم وتقريع، ﴿قالوا آذنأك ما منا من شهيد﴾ أى: من أحد يشهد لهم بالشركة، إذ تبرأنا منهم، لما عاينا حقيقة الحال، وتفسير آذن، هنا بالإخبار، أحسن من تفسيره بالإعلام؛ لأن الله - تعالى - كان عالماً بذلك، وإعلام العالم محال؛ أما الإخبار للعالم بالشىء ليتحقق بما علم به فجائز، إلا أن يكون المعنى: إنك علمت من قلوبنا الآن: أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة؛ لأنه إذا علمه من نفوسهم، فكأنهم أعلموه، أى: أخبرناك بأننا ما منا أحد اليوم يشهد بأن لك شريكاً، وما منا إلا من هو موحد. أو: (ما منا من) أحد يشاهدهم، لأنهم ضلوا عنهم فى ساعة التوبيخ، وقيل: هو من كلام الشركاء، أى: ما منا شهيد يشهد بما أضافوا لنا من الشركة.

﴿وضل عنهم ما كانوا يَدْعُونَ﴾؛ يعبدون ﴿من قبل﴾ فى الدنيا ﴿وظنوا﴾؛ وأيقنوا ﴿ما لهم من محيص﴾؛ من مهرب، والظن معلق عنهم بحرف النفى عن المفعولين.

الإشارة: إليه تعالى يرد علم الساعة، التى يقع الفتح فيها على المتوجه، بكشف الحجاب بينه وبين حبيبه، وما تخرج من ثمرات العلوم والحكم من أكام قلبه، وما تحمل نفس من اليقين والمعرفة، إلا بعلمه - ثم ذم من مال إلى غيره بالركون والمحبة، وذكر أنه يتبرأ منه فى حال ضيقه، فلا ينبغي التعلق إلا به، ولا ميل القصد والمحبة إلا له - سبحانه - وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما جبل عليه طبع الإنسان من الجزع والهلع، فقال:

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَسْأَلْ قَنُوطًا ٤٩﴾
 وَلَيْنَ أَذِقْنَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّاهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا إِلَى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
 قَائِمَةً وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلْيُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا
 وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٥٠ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ
 وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ٥١﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لَا يَسَامُ الْإِنْسَانُ﴾ أي: جسده، أو: الكافر، بدليل قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ (١)، أي: لا يملّ ﴿من دعاء الخير﴾؛ من طلب السعة في المال والنعمة، ولا يملّ عن إرادة النفع والسلامة، والتقدير: من دعائه الخير، فحذف الفاعل وأضيف إلى المفعول، ﴿وإن مسّه الشر﴾؛ الفقر والضيق، ﴿فَيُؤْسُ﴾ من الخير ﴿قنوط﴾ من الرحمة، أي: لا يرجو زواله، لعدم علمه بربه، وانسداد الطريق على قلبه في الرجوع إلى ربه، بولع فيه من طريقين: من طريق بدء فصول، ومن طريق التكرير؛ لأن اليأس هو القنوط، والقنوط: أن يظهر أثر اليأس فيتمناه و ينكسر، ويظهر الجزع، وهذا صفة الكافر لقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٢). وقال الإمام الفخر: اليأس على أمر الدنيا من صفة القلب، والقنوط: إظهار آثاره على الظاهر. هـ.

﴿ولئن أذقناه رحمة من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي﴾ أي: وإذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض، أو: سعه بعد ضيق، قال: ﴿هذا لي﴾ أي: هذا قد وصل إلى لأنى استوجبته بما عندي من خير، وفضل، وأعمال بر، أو: هذا لي لا يزول على أبدا، ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أي: ما أظنها تقوم فيما سيأتي، ﴿ولئن رجعت إلى ربي﴾ كما يقول المسلمون، ﴿إن لي عنده للحسنى﴾ أي: الحالة الحسنی من الكرامة والنعمة، أو: الجنة. قاس أمر الآخرة على أمر الدنيا؛ لأن ما أصابه من نعم الدنيا، زعم أنه لاستحقاقه إياها، وأن نعم الآخرة كذلك. وهذا غرور وحمق، الرجاء ما قارنه عمل، وإلا فهو أمنية، «الجاهل من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله، والكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت» (٣).

﴿فلننبئن الذين كفروا بما عملوا﴾ أي: فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب، ﴿ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾؛ شديد، لا يفتر عنهم.

﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض﴾، هذا ضرب آخر من طغيان الإنسان؛ إذا أصابه الله بنعمته؛ أبطرت النعمة، وأعجب بنفسه، فأنسى المتعم، وأعرض عن شكره، ﴿ونأى بجانبه﴾؛ وتباعد عن ذكر الله ودعائه

(١) من الآية ٣٦ من سورة الكهف.

(٢) من الآية ٨٧ من سورة يوسف.

(٣) هذا حديث نبوي شريف. أخرجه ابن ماجه في (الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، ١٤٢٣/٢، ح ٤٢٦٠) والترمذي في (صفة القيامة، باب ٢٥، ٥٥٠/٤ ح ٢٤٥٩) والحاكم (٢٥١/٤) عن شداد بن أوس رضي الله عنه. بلفظ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله، قال الترمذي: حديث حسن».

وطاعته، أو: ذهب بنفسه وتكبر وتعاضم، والتحقيق: أن المراد بالجانب النفس، فكأنه قال: وتباعد بنفسه عن شكر ربه، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾؛ الفقر والضر، ﴿فَذُوْ دَعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أى: تضرع كثير، أى: أقبل على دوام الدعاء والابتهال. ولا منافاة بين قوله: ﴿فَيُؤْوِسُ قَنُوطٌ﴾ وبين قوله: ﴿فَذُوْ دَعَاءٍ عَرِيضٍ﴾؛ لأن الأول فى قوم، والثانى فى قوم، أو: قَنُوطٌ فى البر، وذو دعاء عريض فى البحر، أو: قَنُوطٌ بالقلب، وذو دعاء باللسان، أو: قَنُوطٌ من الصنم، وذو دعاء لله تعالى.

الإشارة: اللائق بالأدب أن يكون العبد عند الشدة داعياً بلسانه، راضياً بقلبه، إن أجابه شكر، وإن منعه انتظر وصبر، ولا ييأس ولا يقطع، فإنه ضمن الإجابة فيما يريد، لا فيما تريد، وفى الوقت الذى يريد، لا فى الوقت الذى تريد، وإن فرج عندك نسبت النعمة إليه، دون شيء من الوسائط العادية، هذا ما يفهم من الآية، وتقدم الكلام عليها فى سورة هود (١). والله التوفيق.

ثم ويخ من أعرض عن النظر، فقال:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيبَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾؛ أخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾؛ جحدتم أنه من عند الله، مع تعاضد موجبات الإيمان به، ﴿مِنْ أَضَلِّ﴾ منكم؟ فوضع قوله: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ موضعاً، شرحاً لحالهم، وتعليلاً لمزيد ضلالهم.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ الدالة على حقيقته وكونه من عند الله، ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ من فتح البلاد، وما أخبر به النبي ﷺ من العوالم الآتية، وآثار النوازل الماضية، وما يسر الله تعالى له ولخلفائه من الفتوحات، والظهور على آفاق الدنيا، والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب، على وجه خرق العادة، ﴿وَنُرِيهِمْ﴾ فى أنفسهم؛ ما ظهر من فتح مكة وما حل بهم.

(١) راجع تفسير الآيات: ٩ - ١١ من سورة هود. (٢/ ٥١٤ - ٥١٥).

وقال ابن عباس: في الآفاق: منازل الأمم الخالية وآثارهم، وفي أنفسهم: يوم بدر. وقال مجاهد وغيره: في الآفاق: ما يفتح الله من القرى على نبيه ﷺ والمسلمين، وفي أنفسهم: فتح مكة. وقيل: الآفاق: في أقطار السموات والأرض، من الشمس، والقمر، والنجوم، وما يترتب عليها من الليل، والنهار، والأضواء، والظلال، والظلمات، ومن النبات، والأشجار، والأنهار، «وفي أنفسهم»: من لطيف الصلعة وبديع الحكمة، من تكوين النطفة في ظلمات الأرحام، وحدث الأعضاء العجيبة، والتركيبات الغريبة، كقوله تعالى: «وفي أنفسكم...» (١).

وعبر بالسين مع أن إراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك، بمعنى أن الله - تعالى - سيطلعهم على تلك الآيات زماناً فزماناً، ويزيدهم وقوفاً على حقائقها يوماً فيوماً، ﴿حتى يتبين لهم﴾ بذلك ﴿أنه الحق﴾ أي: القرآن، أو: الإسلام، أو: التوحيد، ﴿أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾، توبيخ على ترددهم في شأن القرآن، وعنادهم المحوج إلى إراءة الآيات، وعدم اكتفائهم بإخباره تعالى. والهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي: ألم يغن ولم يكف ربك. والباء: مزيدة للتأكيد، ولا تكاد تزداد إلا مع «كفى».

(أنه...) الخ: بدل منه، أي: ألم يغنهم عن إراءة الآيات المبنية لحقية القرآن ولم يكفهم في ذلك أنه تعالى - شهيد على كل شيء، وقد أخبر أنه من عنده. وقيل: معناه: إن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونها ويشاهدونه فيتيقنون عند ذلك أن القرآن تنزيل من عالم الغيب؛ الذي هو على كل شيء شهيد.

﴿ألا إنهم في مرية﴾؛ شك عظيم ﴿من لقاء ربهم﴾ فلذلك أنكروا القرآن، ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾؛ عالم بجميع الأشياء وتفصيلها، وظواهرها، وبواطنها، فلا يخفى عليه خافية منهم، وهو مجازيهم على كفرهم وشكهم، لا محالة.

الإشارة: قد اشتملت الآية على مقام الاستدلال في مقام الإيمان، وعلى مقام العيان في مقام الإحسان، أي: سنريهم آياتنا الدالة على وجودنا في الآفاق، وفي أنفسهم، أي: في العوالم المنفصلة والمتصلة، حتى يتبين لهم أنه الحق، أي: وجوده حق، لأن الصنعة قطعاً تحتاج إلى صانع، ثم رقاهم إلى مقام المراقبة بقوله: «أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد»، ثم زاد إلى المشاهدة بقوله: «ألا إنهم» أي: أهل الجهل بالله، «في مرية من لقاء ربهم» في الدنيا، بحصول الفناء، فيفنى وجود العبد في وجود الحق، ألا إنه بكل شيء محيط، فبحر العظمة أحاط بكل شيء، وأفنى كل شيء، ولم يبق مع وجوده شيء.

(٢) من الآية ٢١ من سورة الذاريات. وانظر تفسير البغوي (١٧٩/٧) وابن كثير (١٠٥/٤).

وفى الحكم: «ما حجبك عن الله وجود موجود معه؛ إذ لا شيء معه، وإنما حجبك توهم موجود معه»^(١) وقال أيضاً: «الأكوان ثابتة بإثباته، محوكة بأحدية ذاته، فأحدية الذات محت وجود الأشياء كلها، ولم يبق إلا القديم الأزلي».

وقال القطب ابن مشيش لأبى الحسن عليه السلام: يا أبا الحسن، حدد بصر الإيمان تجد الله فى كل شيء، وعند كل شيء، ومع كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء، وتحت كل شيء، وقريباً من كل شيء، ومحيطاً بكل شيء، بقرب هو وصفه، وبحيطة هي نعتة، وعد عن الظرفية والحدود، وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب فى المسافات، وعن الدور بالمخلوقات، وأمحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو هو هو، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان. هـ.

وقوله: وعد عن الجهات: جاوز عن اعتقادها؛ إذ لا ظرف، ولا حد، ولا مكان، ولا جهة، إذ الكل عظمة ذاته، وأنوار وصفاته، والحد إنما يتصور فى المحدود، ولا حد لعظمة ذاته ولا نهاية، ولا يحصرها مكان، ولا جهة؛ إذ الكل منه وإليه. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، عین بحر التحقيق، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً*.



(١) (حكمة ١٣٧) انظر الحكم بترتيب المتقى الهندى (من ٣٤).

(*) فى آخر المجلد الثالث فى المخطوطة الأم، والمحفوظة بمكتبة السيد الفريق حسن التهامى مايلى:

كَمَلَ الْجُزْءُ الثَّالِثُ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ، وَوَأَقْبَلَ الْفَرَاغَ مِنْ تَبْيِيحِهِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، تَاسِعَ رَمَضَانَ، عَامَ تِسْعَةِ عَشَرَ وَمِائَتَيْنِ وَأَلْفَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. انْتَهَى اسْتِخْرَاجُهُ مِنْ مَبْيُضَتِهِ بِحَمْدِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ عَشِيَةَ الْأَرْبَعَاءِ، السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ الْمُعَظَّمِ، مُوَافِقاً لِتَارِيخِ التَّبْيِيضِ مِنْ هَآكِ الْعامِ، وَعَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ أَزْكَى الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ.



سُورَةُ الشُّورَى (١٠)

مكية . وهى خمس وثلاثون آية ، ومناسبتها لما قبلها قوله : ﴿ سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) أى : إن القرآن حق ، أى : وحى من الله ، مع قوله : ﴿ كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ ﴾ ، فهى كالنقمة لما قبلها . قال تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمْدٌ ۝١ عَسَقَ ۝٢ ﴾ كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥

يقول الحق جل جلاله : ﴿ حَمْدٌ . عَسَقَ ﴾ يُشير - والله أعلم - بكل حرف إلى وصف يدل على تعظيم قدر حبيبه ﷺ ، فالحاء : أَحَبُّنَاكَ ، أو : حَبِيبُنَاكَ ، أى : أعطيناك الملك والملوك ، والميم : مَلَكُنَاكَ ، والعين : عَلَمْنَاكَ ما لم تكن تعلم ، أو : عَيْنَاكَ للرسالة ، والسين : سَيِّدُنَاكَ ، والقاف : قَرِينَاكَ . ﴿ كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ ﴾ أى : كما خصصناك بهذه الخصائص العظام أوحينا إليك ﴿ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ، فقد خصصناهم ببعض ذلك ، وأوحينا إليهم ، وفى ابن عطية : عن ابن عباس : أن هذه الحروف بأعيانها نزلت فى كل كتب الله ، المنزلة على كل نبي أنزل عليه كتاب ، ولذلك قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (٢) . وقال القشيري : الحاء : مفتاح اسمه حكيم وحفيظ ، والميم : مفتاح اسمه مالك وماجد ومؤمن ومهيمن ، والعين : مفتاح اسمه علیم وعلى ، والسين : مفتاح اسمه سيد وسميع وسريع الحساب ، والقاف : مفتاح اسمه قادر وقاهر وقريب وقُدوس ، أقسم الله تعالى بهذه الحروف أنه كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ يَا مُحَمَّد . هـ .

(*) أول المجلد الرابع فى النسخة الأم .

(٢) ذكره ابن عطية (٢٥/٥) وعزاه للثعلبي ، وانظر : تفسير البغوى (١٨٤/٧) .

(١) من الآية ٥٣ من سورة فصلت .

وقال ابن عطية: وإنما فصلت «حم عسق»، ولم يفعل ذلك بـ «كهيعص»؛ لتجرى هذه مجرى الحواميم أخواتها. هـ. زاد النسخة: وأيضاً: هذه آيتان، وهكيعص، آية واحدة. هـ. فانظره .

﴿الله﴾ أى: يوحى الله ﴿العزيز الحكيم﴾: فاعل «يُوحى»، وقرأ ابن كثير بالبناء للمفعول^(١). والله: فاعل بمحذوف، كأن قائلًا قال: من الموحى؟ فقال: «الله العزيز الحكيم» أى: الغالب بقهره، الحكيم فى صنعه وتدبيره .

﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ ملكاً وملكاً، ﴿وهو العلى﴾ شأنه ﴿العظيم﴾ سلطانه وبرهانه .

ثم بين عظمته، فقال: ﴿يكادُ السمواتُ ينفطرنَ من فوقهن﴾؛ تتشققن من عظمة الله تعالى وعلو شأنه، يدلّ عليه مجيئه بعد قوله: «وهو العلى العظيم». وقيل: من دعائهم له ولداً، كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ﴾^(٢) إلخ، ويؤيده: مجيء قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾^(٣). وقرأ البصرى وشعبة: «ينفطرن»، والأول أبلغ. ومعنى: «من فوقهن» أى: يبتدئين بالانفطار من جهتهن الفوقانية. وتخصيصها على التفسير الأول؛ لأن أعظم الآيات وأدلها على العظمة والجلال من تلك الجهة، وأيضاً: استقرار الملائكة إنما هو من فوق، فكادت تنشق من كثرة الثقل، كما فى الحديث: «أطت السماء، وحق لها أن تئط»، ما فيها موضع قدم إلا وفيها ملك رাকع أو ساجد،^(٤).

وعلى الثانى للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الأولى؛ لأن تلك الكلمة الشنعاء، الواقعة فى الأرض حين أثرت فى جهة الفوق فلأن تؤثر فى جهة التحت أولى. وقيل: «من فوقهن»: من فوق الأرض، فالكناية راجعة إلى الأرض، من قوله: «له ما فى السموات وما فى الأرض» لأنه بمعنى الأرضين.

﴿والملائكةُ يسبحون بحمد ربهم﴾ خضوعاً؛ لما يرون من عظمته، ﴿ويستغفرون لمن فى الأرض﴾ أى: للمؤمنين منهم، خوفاً عليهم من سطواته، ويوحدون الله وينزهونه عما لا يليق به من الصفات، حامدين له على ما أولاهم من الطافه، متعجبين لما رأوا من تعرض الكفرة لسخط الله تعالى. ويستغفرون لمؤمنى أهل الأرض،

(١) قرأ ابن كثير - وحده: «يُوحى» بفتح الحاء. والنائب إما «إليك»، وإما ضمير يعود إلى «ذلك»، أى: مثل ذلك الإحياء يوحى إليك. انظر الإتحاف (٤٤٨/٢).

(٢) أثبت المفسر - رحمه الله - قراءة «يكاد، بالياء»، وهى قراءة نافع والكسائى، وقرأ الباقر «تكاد، بقاء التانيث». انظر: الإتحاف ٤٤٨/٢.

(٣) من الآية ٩٠ من سورة مريم. (٤) من الآية ٦ من السورة نفسها.

(٥) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند (١٧٣/٥) والترمذى فى (الزهد، باب فى قول النبى ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ٤٨١/٤، ح ٢٣١٢) وابن ماجه فى (الزهد، باب الحزن والبكاء ١٤٠٢/٢ ح ٤١٩٠)، وصححه الحاكم (٥١٠/٢) وأقره الذهبى، من حديث أبى نر، روى عنه (أطت): الأطيط: صوت الأفتاب، وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها، أى: إن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت، وهذا مثل وإيدان بكثرة الملائكة، وإن لم يكن ثم أطيط، وإنما هو كلام تقريب، أريد به تقرير عظمة الله تعالى. انظر النهاية (أطط، ٥٤/١).

الذين تبرءوا من تلك الكلمات، ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ حيث لا يعاجلهم بالعقوبة على ما وصفوه به مما لا يجوز عليه.

الإشارة: حمّ عسق، الحاء تشير إلى حمده لأوليائه، وتنويهه بقدرهم، والميم إلى تمليكهم التصرف في حس الملك، وأسرار الملكوت، والعين إلى علو رتبته، أو إلى علومهم الدنية، والسين إلى سيادتهم ومنّا نورهم وسرهم، والقاف إلى قربهم وتقريبهم حتى يمتحق وجودهم في وجود محبوبهم، فيمتحنى القرب من شدة القرب، وبذلك صاروا مقربين. والوحى ينقسم إلى أربعة أقسام؛ وحى أحكام، ووحى منام، ووحى إلهام، ووحى إعلام، فاختصت الأنبياء بالأول، وشاركتهم الأولياء في الثلاثة. ووحى إعلام هو إطلاعهم على بعض المغيبات.

وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ (١) السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ أى: يتشققن من هيئته تعالى وكبريائه. وذلك لما لطف حسها أدركت هيبة معانى أسرار الذات، وكذلك الأرواح؛ إذا لظفت ورقّ حس بشريتها أدركت عظمة الحق وجلاله وجماله، وإذا كثفت بشريتها، بمباشرة الحس واتباع الهوى، غلظ حجابها، فبعدت عن حضرة الحق في حال قربها. وقوله تعالى: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، انظر جلالة قدر هذا آدمى، حتى سخر الله له الملائكة الكرام يستغفرون له، ويسعون في مصالحه، فاستحى من الله أيها العبد، إن كان لك عقل وتمييز.

ثم ردّ على أهل الشرك، فقال:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝ (٦) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ (٨) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ (٩)﴾

قلت: «وكذلك»: الكاف في محل النصب على المصدر، و«قرآنًا»: مفعول «أوحينا».

(١) راجع الهامش رقم ٢ في الصفحة السابقة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾؛ شركاء، يُوالونهم بالعبادة والمحبة ﴿الله حفيظ عليهم﴾: رقيب على أحوالهم وأعمالهم، فيجازيهم بها، ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾؛ بموكل عليهم، تجبرهم على الإيمان، ثم نسخ بالجهاد. أو: ما أنت بموكل إليك أمرهم، وإنما وظيفتك الإنذار بما أوحينا إليك.

﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًا﴾ أى: ومثل ذلك الإحياء البديع الواضح أوحينا إليك قرآنًا عربيًا، لا لبس فيه عليك ولا على قومك، ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أى: أهلها، وهى مكة؛ لأن الأرض دحيت من تحتها، أو: لأنها أشرف البقع، ﴿و﴾ ﴿تُنذِرَ مَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب أو من سائر البلاد. قال القشيري: وجميع العالم مُحَدِّقٌ بالكعبة؛ لأنها سرُّ الأرض. هـ.

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾؛ يوم القيامة؛ لأنه تجمع فيه الخلائق، وفيه تجمع الأرواح والأشباح. وحذف المفعول الثانى من «تُنذِر» الأول للتهويل، أى: لتُنذِرَ الناس أمرًا فظليعًا تضيق عنه العبارة، ﴿لا ريب فيه﴾؛ لا شك فى وقوع ذلك اليوم، ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ أى: بعد جمعهم فى الموقف يفترقون، فريق يُصرف إلى الجنة، وفريق إلى السعير بعد الحساب، والتقدير: فريق منهم فى الجنة. والجملة: حال، أى: وتُنذِرَ يوم الجمع متفرقين.

﴿ولو شاء الله لجعلهم﴾ فى الدنيا ﴿أمة واحدة﴾ إما مهتدين كلهم، أو ضالين، ﴿ولكن يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أى: ويدخل من يشاء فى عذابه، يدلُّ عليه ما بعده، ومن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب: اختلاف الداخلين فيهما، فلم يشأ جعل الكل أمة واحدة، بل جعلهم فريقين، فيسرُّ كلًّا لمن خلق له. ﴿والظالمون ما لهم من لى ولا نصير﴾؛ والكافرون ما لهم من شافع ولا دافع.

قال أبو السعود: والذي يقتضيه سياق النظم أن يراد بقوله: «أمة واحدة» الاتحاد فى الكفر، كما فى قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ الآية (١)، على أحد الوجهين، بأن يراد بهم الذين هم فى فترة إدريس، أو فترة نوح. ولو شاء لجعلهم أمة واحدة متفقة على الكفر، بأن لا يرسل إليهم رسولاً لينذرهم ما ذكر من يوم الجمع، وما فيه من ألوان الأهوال، فيبقوا على ما هم عليه من الكفر، ولكن يدخل من يشاء فى رحمته إن شاء ذلك، فيُرسل إلى الكل من ينذرهم، فيتأثر بعضهم بالإنذار؛ فيعرفون الحق؛ فيوفقهم الله تعالى للإيمان والطاعة،

(١) الآية ٢١٣ من سورة البقرة.

وَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، وَلَا يَتَأَثَّرُ بِهِ الْآخَرُونَ، وَيَتِمَادُونَ فِي غِيهِمْ، وَهُمْ الظَّالِمُونَ، فَيُبْقُونَ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ فِي الْآخِرَةِ إِلَى السَّعِيرِ، مِنْ غَيْرِ وَلِيٍّ يَلِيَّ أَمْرَهُمْ، وَلَا نَصِيرٍ يُخْلَصُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ. هـ.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، هذه جملة مقررة لما قبلها، من انتفاء أن يكون للظالمين ولي ولا نصير. و. أم: منقطعة، وما فيها من الإضراب للانتقال من بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها. والهمزة لإنكار الوقوع ونفيه على أبلغ وجه، أي: ليس المتخذون أولياء، ولا ينبغي اتخاذ ولي سواه. وقوله: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾: جواب عن شرط مقدر، كأنه قيل بعد إبطال ما اتخذوه أولياء من الأصنام: إن أرادوا ولياً في الحقيقة فالله هو الولي، لا ولي سواه. ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي: ومن شأنه إحياء الأموات، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً، فليخصوه بالاتخاذ، دون من لا يقدر على شيء. وبالله التوفيق.

الإشارة: قال القشيري: كل من تبع هواه، وترك لله حداً، أو نقض له عهداً؛ فهو ممن اتخذ الشيطان ولياً، فالله يعلمه، لا يخفى عليه أمره، وعلى الله حسابه، ثم إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له. هـ. فيقال للواعظ أو الداعي إلى الله: لا تأمن عليهم إن أدبروا، الله حفيظ عليهم، وما أنت عليهم بوكيل. وكان الرسول ﷺ داعياً إلى الله، ينذر الناس بالقرآن، فمن تبعه كان من أهل الجنة، ومن خالفه كان من أهل السعير، وبقي خلفاؤه من بعده، العلماء بالله، الذين يذكرون الناس، ويدلونهم على الله، فمن صحبهم وتبعهم كان من أهل الجنة؛ جنة المعارف، أو الزخارف، أو هما، ومن انحرف عنهم كان من أهل السعير، نار القطيعة أو الهاوية.

قال القشيري: كما أنهم اليوم فريقان؛ فريق في [درجات] (١) الطاعات وحلاوة العبادات [أو المشاهدات] (٢)، وفريق في ظلمات الشرك وعقوبات الجحد، فكذاك غداً، فريق هم أهل اللقاء، وفريق هم أهل الشقاء. «ولو شاء الله» أي: أراد أن يجمعهم كلهم على الرشاد لم يكن مانع. هـ.

وقوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ تحوُّش إلى التوجه إلى الله، ورفض كل ما سواه، كما قال بعضهم: اتخذ الله صاحباً، ودع الناس جانباً، فكل من والى غير الله تعالى خذله، ومن حبه أبعد.

(١) في القشيري [راحة].

(٢) ما بين المعقوفين من تدخل المفسر في النقل عن القشيري.

ثم أمر بالرجوع إليه عند الاختلاف، فقال:

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمَنْ الْأُنثَىٰ أَزْوَاجًا ذُرِّيَّتُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ ، حكاية لقول رسول الله ﷺ للمؤمنين، بدليل قوله: ﴿ ذلكم الله ربي ﴾ أى: ما خالفكم الكفار فيه من أهل الكتاب والمشركين، من أمور الدين، واختلفتم أنتم وهم، فحكم ذلك المختلف [فيه] (١) راجع إلى الله، ومفوض إليه، وهو إثابة المحققين فيه، ومعاقبة المبطلين. والمختار العموم، أى: وما اختلفتم فيه أيها الناس من أمور الدين، سواء رجع ذلك الاختلاف إلى الأصول أو الفروع، فحكم ذلك إلى الله، وقد قال فى آية أخرى: ﴿ فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ (٢).

فكل ما اختلف فيه يرد إلى كتاب الله، ثم إلى سنة رسول الله، ثم إلى الإجماع، ثم القياس، فهذه هى قواعد الشريعة، وعليها بنيت الأحكام، فمن خرج عنها فهو مبطل، ففى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ من علم الأصول والفروع ما فيه غنية، فإن لم يوجد نص فالإجماع أو القياس.

وقيل: وما اختلفتم فيه من العلوم، التى لا تتصل بتكليفكم، ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا: الله أعلم.

ثم قال: ﴿ ذلكم الله ربي ﴾ أى: ذلكم العظيم الشأن؛ الله مالكي ومدير أمرى، ﴿ عليه توكلت ﴾ فى جميع أمورى، لا على غيره، ﴿ وإليه أُنِيبُ ﴾ ؛ أرجع فى كل ما يعرض لى، لا إلى أحد سواه. وحيث كان التوكل أمراً واحداً مستمراً، والإنابة متعددة، متجددة بحسب تجدد مؤداها، أوثر فى الأول صيغة الماضى، والثانى صيغة المضارع.

(١) زيادة ليست فى الأصول. (٢) من الآية ٥٩ من سورة النساء.

﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾؛ خالقهما ومظهرهما، وهو خبر ثانٍ لذكركم، أو عن مضمركم، ﴿ جعل لكم من أنفسكم ﴾؛ من جنسكم ﴿ أزواجاً ﴾؛ نساء ﴿ ومن الأنعام أزواجاً ﴾ أى: وجعل للأنعام من جنسها أزواجاً، أو: خلق لكم من الأنعام أصنافاً؛ ذكوراً وإناثاً، ﴿ يذروكم فيه ﴾ أى: يكثركم فيما ذكر من التدبير البديع، من: الذرة، وهو البث، فجعل الناس والأنعام أزواجاً، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل، واختير لفظ «فيه» على «به» لأنه جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكاثر. والضمير فى «يذروكم» يرجع إلى المخاطبين والأنعام، مقابلاً فيه المخاطبون العقلاء على غيرهم.

وقال الهروى: «يذروكم فيه» أى: يكثركم بالتزويج، كأنه قال: يذروكم به. هـ. وقال ابن عطية: لفظة «ذراً» تزيد على لفظة «خلق» معنى آخر، ليس فى خلق، وهو توالى طبقاته على مر الزمان، وقوله: «فيه» الضمير عائد على الجعل. وقال القتبى: الضمير للتزويج. هـ.

﴿ ليس كمثله شيء ﴾ أى: ليس مثله شيء [فى شأن] (١) من الشئون، التى من جملتها هذا التدبير البديع. قيل: إن كلمة التشبيه كررت لتأكيد نفى التماثل؛ لأن زيادة الحرف بمنزلة إعادة الجملة. قال ابن عطية: الكاف مؤكدة للتشبيه، فنفى التشبيه أؤكد ما يكون، وذلك أنك تقول: زيد كعمرو، وزيد مثل عمر، فإذا أردت المبالغة التامة قلت: زيد كمثال عمرو، وجرت الآية فى هذا الموضع على عرف كلام العرب، وعمل هذا المعنى شواهد كثيرة. هـ.

قال النسفى: وقيل: المثل زائد، والتقدير: ليس كهر شيء، كقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ (٢)، وهذا لأن المراد نفى المثلية، وإذا لم نجعل الكاف أو المثل زيادة كان إثبات المثل. هـ. والجواب ما تقدم لابن عطية.

وقيل: الآية جرت على طريق الكناية، كقولهم: مثلك لا يبخل، وغيرك لا يجود، أى: أنت لا تبخل؛ لأنه إذا نفى البخل عمن هو مثله كان نفية عنه أولى.

ثم قال تعالى: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾؛ سميع لجميع المسموعات بلا آذان، بصير بجميع المبصرات بلا أجفان. وذكرهما لئلا يتوهم أنه لا صفة له، كما لا مثل له، وقدم تنزيهه عن المماثلة على وصفه بالسمع والبصر ليعلمنا أن سمعه وبصره ليس كسمعنا وبصرنا.

(١) ما بين المعقوفتين ليس فى الأصول الخطية، وأثبتته من تفسير أبى السعود - رحمه الله.

(٢) الآية ١٣٧ من سورة البقرة.

﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ مفاتيح خزائنها، ﴿ ييسطُ الرزقَ لمن يشاء ﴾ أى: يوسعهُ ﴿ ويقدرُ ﴾ أى: يضيق على ما تقتضيه المناسبة المبنية على الحكيم البالغة. ﴿ إنه بكل شيءٍ عليم ﴾ لا يخفى عليه شيء، فيفعل كل ما يفعل على ما ينبغي أن يفعل، على ما تقتضيه مشيئته وحكمته البالغة.

قال ابن عرفة: تضمنت هذه الآية وصفه تعالى بجميع صفات الكمال. فالقدرة فى قوله: ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ والوحدانية فى قوله: ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ والإرادة فى قوله: ﴿ ييسطُ الرزقَ لمن يشاء ﴾؛ لأن تخصيص البعض بالبسط إنما هو بالإرادة. والعلم فى قوله: ﴿ إنه بكل شيءٍ عليم ﴾، والكلام فى قوله: ﴿ شرع لكم من الدين ﴾؛ لأن المراد به الحكم الشرعى، وهو خطاب الله تعالى المعلق بأفعال المكلفين، وخطابه كلامه. هـ. زاد فى الحاشية الفاسية: يعنى وكل وصف من هذه الأوصاف يستلزم الحياة، مع أنه قال: ﴿ يحيى الموتى ﴾ والإحياء إنما يكون من الحى. هـ.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء ﴾ قال القشيري: ويقال إذا لم تهتدوا إلى شيء وتعرضت منهم الخواطر؛ فدعوا تدبيركم والتجئوا إلى ظل شهود تقديره، [وانتظروا] (١) ما الذى ينبغي لكم أن تفعلوا بحكم تيسيره. ويقال: إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أنفسكم، فلا تدرون أبالسعادة جرى حكمكم، أو بالشقاوة جرى اسمكم، فكلوا الأمر فيه إلى الله، واشتغلوا فى الوقت بأمر الله، دون التفكير فيما ليس له سبيل إلى علمه من عواقبكم. هـ.

وقوله: ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى: شققهما من أسرار الغيب، ومتجل بهما وسائر الكائنات. جعل لكم فى عالم الحكمة من أنفسكم أزواجاً ليقع التناسل، بعضكم من بعض، ومن الأنعام أزواجاً ليقع التناسل فيها؛ وأما بحر الجبروت فليس كمثله شيء. وقال بعض العارفين: ليت شعري هل معه شيء حتى يشبهه أو لا يشبهه، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان. فقوله تعالى: ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ أى: ليس معه شيء حتى يشبهه.

وقال الورتجبي عن الواسطي: [أمور] (٢) التوحيد كلها خرجت من هذه الآية؛ لأنه ما عبر عن الحقيقة بشيء إلا والعلة مصحوبة، والعبارة منقوضة؛ لأن الحق لا يُنعت على أقداره؛ لأن كل ناعت مُشرف على المنعوت، وجل أن يُشرف عليه مخلوق. وقال الشبلي: كل ما ميزتموه بأوهامكم، وأدركتموه بعقولكم فى أتم معانيكم، فهو مصروف إليكم، ومردود عليكم، محدث مصنوع مثلكم؛ لأن حقيقته عالية عن أن تلحقها عبارة، أو يدركها وهم،

(١) ما بين المعقوفين أثبتته من القشيري. (٢) فى عرائس البيان: (رموز).

أو يحيط بها علم، كلا، كيف يحيط به علم، وقد اتفق فيه الأضداد، بقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (١)، أى عبارة تخبر عن حقيقة هذه الألفاظ؟، كلا، قصرت عنه العبارة، وخرست الألسن لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ . هـ .

ولما عرّف بذاته وصفاته: ذكر شرائعه لعباده، فقال:

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَهِهُ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿ ١٤ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ شَرَعَ ﴾ أى: بين وأظهر ﴿ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ ومن بعده من أرباب الشرائع، وأولى العزم من مشاهير الأنبياء - عليهم السلام - وأمرهم به أمراً مؤكداً. وفى بيان نسبته إلى المذكورين تنبيه على كونه ديناً قديماً، أجمع عليه الرسل، على أن تخصيصهم بالذكر لما ذكر من علو شأنهم، ولاستماله قلوب الكفرة إليه؛ لاتفاق الكل على نبوة جلهم. قيل: خص نوحاً وإبراهيم بالوصية، ونبينا محمداً ﷺ بالوحي؛ لأن متعلق الوصية غير الموصى، بل الموصى [إليه] (٢) به، ومتعلق الوحي: الموحى إليه بذاته، ولما كان - ﷺ - آخر الأنبياء جعل الملقى إليه وحياً، ولما كان ما قبله من الأنبياء متبعين له، ومنذرين بشريعته، أنه سيظهر آخر الزمان نبي اسمه محمد، كان ذلك وصية منهم لقومهم على الإيمان به. انظر ابن عرفة.

(١) من الآية ٣ من سورة الحديد.

(٢) ما بين المعقوفين غير موجود فى النسخة الأم.

قلت: والظاهر أنه تفنن^(١)، وفرار من تكرار لفظ الوحي؛ إذ الموحى به هو قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ وهو الذى أوحى إلى نبينا - عليه الصلاة والسلام. وقال أبو السعود: والتعبير عن ذلك عند نسبته ﷺ به الذى، لتفخيم شأنه من تلك الحيفية، وإثارة الإحياء على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع [فى] (٢) الآيات المذكورة - يعنى فى صدر السورة، من قوله: ﴿كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ...﴾ وفى آخرها من قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾، ولما فى الإحياء من التصريح برسالة ﷺ - القامع لإنكار الكفرة. والالتفات إلى نون العظمة إظهاراً لكمال الاعتناء بإحيائه، وهو السر فى تقديمه [على ما قبله] (٣) مع تقدمه عليه زماناً. وتقديم وصية نوح - عليه السلام - للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً - أى: فلا ينبغى إنكاره - وتوجيه الخطاب إليه - عليه الصلاة والسلام - بطريق التلوين؛ للتشريف، والتدبيه على أنه تعالى شرع لهم على لسانه عليه الصلاة والسلام. هـ.

ثم فسر ما وصاهم به فقال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أى: دين الإسلام، الذى هو توحيد الله تعالى، وطاعته، والإيمان بكتبه ورسوله، وبيوم الجزاء، وسائر أركان الإيمان. والمراد بإقامته: تعديل أركانه، وحفظه من أن يقع فيه زيغ، والمواظبة عليه، والتشمير فى القيام به. وموضع «أَنْ أَقِيمُوا» إما: نصب، بدل من مفعول «شرع»، أو: رفع، خبر جواب عن سؤال مقدر، كأن قائلًا قال: وما ذاك؟ فقال: هو إقامة الدين. ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾؛ ولا تختلفوا فى الدين، فالجماعة رحمة، والفرقة عذاب، والمراد: الاختلاف فى الأصول، دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الأمم باختلاف الأعصار، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (٤).

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ أى: عظم وشق عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد، ورفض عبادة الأصنام، الذى هو إقامة الدين، ﴿اللَّهُ يُجْتَبَى﴾ أى: يجلب ويجمع ﴿إِلَيْهِ مِنْ يَشَاءُ﴾ بالتوفيق والتسديد، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾؛ يقبل على طاعته. فالاجتباء يرجع إلى تصديق القلب، والإنابة إلى توفيق الطاعة فى الظاهر.

(١) كتب على هامش النسخة الأم ما يلى: لا بأس بما هو بتفنن، بل هو مقصود لحكمة، ولو كان للتفنن لما كرر الوصية مرتين، وخص لفظ الوحي بسيد البشر ﷺ، ولا بدل «وصينا» الثانية بلفظ الأمر، كأمرنا وأوجبنا وفرضنا ونحو ذلك. فالحق أنه عبر فى حق الأنبياء بالوصية دون الوحي؛ للإشارة إلى أنهم مجرد نواب عنه ﷺ. هـ.

(٢) فى الأصول [من].

(٣) فى تفسير أبى السعود [على ما بعده].

(٤) فى الآية ٤٨ من سورة المائدة.

﴿ وما تفرقوا ﴾ أى: أهل الكتاب من بعد أنبيائهم ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ ؛ إلا بعد أن علموا أن الفرقة ضلال، وأمر متوعد عليه على السنة الرسل، ﴿ بغياً بينهم ﴾ حسداً، وطلياً للرئاسة، والاستطالة بغير حق، أو: ما تفرقوا فى الدين الذى دُعا إليه، وهو الإسلام، ولم يؤمنوا كما آمن بعضهم إلا من بعد ما جاءهم العلم بحقيقته؛ لما يشهدونه فى رسول الله ﷺ والقرآن من دلائل الحقيقة، حسبما وجدوه فى كتبهم، أو: العلم بمبعثه ﷺ.

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ ، وهى العدة بتأخير العقوبة ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ هو يوم القيامة ﴿ لقضى بينهم ﴾ أى: لوقع القضاء بينهم، وأهلكوا حين افترقوا لعظم ما افترقوا. ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ﴾ وهم المشركون ﴿ لفي شك منه ﴾ أى: القرآن ﴿ مريب ﴾ ؛ موقع فى الريبة. وهو بيان لكيفية كفر المشركين، بعد بيان كيفية كفر أهل الكتاب، أى: وإن المشركين الذين أوتوا القرآن من بعدهم، أى: من بعدما أورث أهل الكتاب كتابهم، لفي شك من القرآن مريب. والظاهر: أن التفرق المذكور هنا إنما هو فى شأن الرسول ﷺ؛ لأن سياق النظم إنما هو لبيان أحوال هذه الأمة، وإنما ذكر من ذكر من الأنبياء - عليهم السلام - لتحقيق أن ما شرع لهؤلاء دين قديم، أجمع عليه أولئك الأعلام - عليهم الصلاة والسلام - تأكيداً لوجوب إقامته، وتشديداً للزجر عن التفرق والاختلاف. فالتعرض لبيان تفرق أممهم عنه ربما يؤهم الإخلال بذلك المرام. قاله أبو السعود.

الإشارة: الذى شرع الله من الدين لأقوياء عباده، ووصى به خواص أنبيائه: أن يشاهدوه وحده فى الباطن، ويقوموا برسم العبودية فى الظاهر، وهذا هو إقامة الدين، الذى يجب الاتفاق عليه، لكن لا ينال هذا إلا بعد موت النفوس، وحط الرؤوس، وبذل الفلوس. ولذلك كبر على أهل الفرق، قال تعالى: ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾، فإذا وفق العبد لفعل ما تقدم، وسلك طريقه؛ اجتباه ربه لحضرته، بعد أن هداه لسلوك طريقته. قال تعالى: ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من ينيب ﴾ فالاجتباء جذب، والإنابة سلوك، الاجتباء للحقيقة، والإنابة للشرعية والطريقة. وقدّم الاجتباء على الاهتداء اهتماماً بأمره؛ لأن الجذب عناية يختص به أهل الولاية، والإنابة هداية يدالها كل من تمسك بالشرعية. وحقيقة الجذب: شهود الخلق بلا خلق، وحقيقة السلوك المحض: شهود الخلق بلا حق، وحقيقة الجذب فى السلوك: شهود الحق فى قوالب الخلق، أو: شهود الخلق فى مظهر الحق.

فالناس ثلاثة: مجذوبون فقط، سالكون فقط، مجذوبون سالكون، فالأولان لا يصلحان للتربية، والثالث هو الذى يصلح للتربية، وهو الذى يتقدمه السلوك، ثم يختطف إلى الحضرة فى مقام الفناء، ثم يرجع إلى السلوك فى مقام البقاء. وما وقع من التفرق والاختلاف فى جانب النبوة، يقع فى جانب الولاية، سنه ماضية، فيجب على الداعى إلى الله أن يجهد نفسه فى الدعاء إليه، ولا يبالى باختلافهم، كما قال تعالى:

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾
وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحِشُهُمْ دَاخِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فلذلك فادع ﴾ أى: فلأجل ذلك التفرق، ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً، فادع إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية القيمة، ﴿ واستقم ﴾ عليها، وعلى الدعوة إليها ﴿ كما أمرت ﴾؛ كما أمرك الله. أو: لأجل ما شرع لكم من الدين القيم القديم، الحقيق بأن ينافس فيه المتنافسون، فادع الناس كافة إلى إقامته، والعمل بموجبه؛ فإن كلاً من تفرقهم وشكهم، سبب للدعوة إليه والأمر بها، أو: فإلى ذلك الدين المشروع فادع، واستقم عليه، وعلى الدعوة إليه، كما أمرت وأوحى إليك.

﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ الباطلة، وعقائدهم الزائغة، ﴿ وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب ﴾ أى كتاب كان من الكتب المنزلة، لا كالذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وهم أهل الكتاب، ﴿ أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ (١)، وفيه تحقيق للحق، وبيان لاتفاق الكتب فى الأصول، وتأليف لقلوب أهل الكتابين، وتعريض بهم. ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ فى الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إلى، أو: فى تبليغ الشرائع والأحكام، لا أخص بعضاً دون بعض، أو: لأسوى بينى وبينكم، ولا آمركم بما لا عمل به، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه. أو: لا أفرق بين أكابركم وأصاغركم. واللام: إما على حقيقتها، أى: أمرت بذلك لأعدل، أو: زائدة، أى: أمرت أن أعدل بينكم.

﴿ الله ربنا وربكم ﴾ خالقنا جميعاً، ومتولى أمورنا، كلنا عبيده، ﴿ لنا أعمالنا ﴾ لا يتخطانا ثوابها أو عقابها، ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ لا يجاوزكم وبالحق إلى غيركم، أو: لنا ديننا التوحيد، ولكم دينكم الشرك. ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ أى: لا خصومة؛ لأن الحق قد وضح، ولم يبق للمحاجة حاجة، ولا للفصاحة محل، سوى المكابرة.

(١) من الآية ١٥١ من سورة النساء.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة ﴿وإليه المصير﴾؛ المرجع، فيظهر هناك حائنا وحالك. وهذه معاجزة، لامتاركة، فلا نسخ فيها.

﴿والذين يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾؛ يُخَاصِمُونَ فِي دِينِهِ ﴿مَنْ بَعْدَ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ﴾؛ مَنْ بَعْدَ مَا اسْتَجَابَ لَهُ النَّاسُ، وَدَخَلُوا فِيهِ، لِيُرْذَوْهُمْ إِلَى دِينِ الْجَاهِلِيَّةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا...﴾ (١)، والتعبير عن ذلك بالاستجابة؛ باعتبار دعوتهم إليه، أو: مَنْ بَعْدَ مَا اسْتَجَابَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ وَأَيَّدَهُ بِنَصْرِهِ، كَيَوْمِ بَدْرٍ، أَوْ: مَنْ بَعْدَ مَا اسْتَجَابَ لَهُ أَهْلُ الْكِتَابِ، بِأَنْ أَقْرَأُوا بِنَعْوَتِهِ ﷺ، وَاسْتَفْتَحُوا بِهِ قَبْلَ مَبْعَثِهِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى كَانُوا يَقُولُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ: كِتَابُنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، وَنَبِينَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، فَلَحْنُ خَيْرٌ مِنْكُمْ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ...﴾ الْآيَةُ (٢) ﴿حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ﴾؛ بَاطِلَةٌ، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وَإِذَا كَانَتْ دَاحِضَةً مِنْ حَيْثُ كَوْنِهِ رَبًّا رَّءُوفًا فَأُخْرِى مِنْ حَيْثُ كَوْنِهِ قَاهِرًا مُنْتَقِمًا. وَسَمَّاها حُجَّةً، وَإِنْ كَانَتْ شُبْهَةً؛ لِزَعْمِهِمْ أَنَّهَا حُجَّةٌ. ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ عَظِيمٌ﴾، لِمَكَابِرَتِهِمُ الْحَقَّ بَعْدَ ظُهُورِهِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ.

الإشارة: إذا استولت الغفلة على الناس، وتفرقت القلوب، يجب على أهل البصيرة النافذة أن يتحركوا لوعظ الناس وتذكيرهم، ولا يلتفتون إلى أهوائهم، وما هو مشغوفون به من حظوظهم. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَذَلِكَ فَادِعْ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فتدعون الناس إلى التوحيد، وإقامة الشرائع، بامتنال الأوامر، واجتناب المناكر، ثم يدسونهم إلى حضرة الحق، إن رأوا منهم مَنْ هُوَ أَهْلُهُ، فَمَنْ فَعَلَ هَذَا كَانَ قَدْرُهُ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا، وَجَاهُهُ كَبِيرًا. وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ إِنْ شِئْتُمْ لِأَقْسَمُنَّ لَكُمْ: إِنْ أَحْبَبَ عِبَادُ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ اللَّهَ إِلَى عِبَادِهِ، وَيُحِبُّونَ عِبَادَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَيَمْشُونَ فِي الْأَرْضِ بِالنَّصِيحَةِ».

وَمَنْ وَظِيفَتْهُ أَنْ يَقُولَ: آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ، وَمَا بَعَثَ مِنْ نَبِيٍّ وَوَلِيٍّ، وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ فِي الْوَعْدِ، وَالنَّصِيحَةِ، وَإِمْدَادِ الْمَدَدِ، لَكِنْ يَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى قَدَرِ صَدَقَةٍ وَتَعْظِيمَةٍ، ثُمَّ يَقُولُ: (اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ)، يَخْصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، لَنَا أَعْمَالُنَا: مَا يَلِيقُ بِنَا مِنْ عِبَادَةِ الْقُلُوبِ، وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ: مَا تَطْلِقُونَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْجَوَارِحِ، لَا خُصُومَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ؛ لِأَنَّ قُلُوبَنَا سَالِمَةٌ لَكُمْ. اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ فِي الدُّنْيَا بِجَمْعٍ مُتَّصِلٍ، وَإِلَيْهِ مَصِيرُ الْكُلِّ بِالمَوْتِ وَالْفَنَاءِ. وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ، أَيْ: يُخَاصِمُونَ فِي طَرِيقِ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ: انْقَطَعَتِ التَّوْبَةُ، حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبُ الْبُعْدِ، وَلَهُمْ عَذَابُ الْكَذِّ وَالنَّعْبِ.

(١) الْآيَةُ ١٠٩ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. (٢) انْظُرْ: تَفْسِيرُ الْبَغْوِيِّ (١٨٨/٧).

ثم حضَّ على التمسك بكتابه؛ لأنه جامع لما أنزل الله من كتاب، فقال

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الله الذي أنزل الكتاب ﴾؛ القرآن، أو: جنس الكتاب، ﴿ بالحق ﴾؛ ملتبساً بالحق في أحكامه وأخباره، أو: بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام، ﴿ والميزان ﴾؛ وأنزل العدل والتسوية بين الناس، أى: أنزله في كتبه المنزلة، وأمر به، أو: الشرع الذي يوزن به الحقوق، ويساوى بين الناس. وقيل: هو عين الميزان، أى: الآلة، أنزله في زمن نوح عليه السلام. ﴿ وما يدريك ﴾ أى شئ يجعلك عالماً ﴿ لعلَّ الساعة ﴾ التى أخبر بها الكتاب الناطق بالحق ﴿ قريب ﴾ مجيئها. وضمن الساعة معنى البعث فذكر الخبر، وقيل: وجه المناسبة في ذكر الساعة مع إنزال الكتاب: أن الساعة يقع فيها الحساب ووضع الموازين بالقسط، فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية، والعمل بالشرائع، فاعملوا بالكتاب والعدل قبل أن يفاجئكم يوم حسابكم، ووزن أعمالكم.

﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ استعجال إنكار واستهزاء، ﴿ والذين آمنوا مشفقون ﴾؛ خائفون ﴿ منها ﴾ وجلون؛ لهولها، ﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ الكائن لا محالة، ﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة ﴾؛ يجادلون فيها، من: المرية، أو: المماراة والملاحاة، أو: من: مريت الناقة: إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب؛ لأن كلاً من المتجادلين يخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة. ﴿ لفي ضلال بعيد ﴾ عن الحق؛ لأن قيام الساعة أظهر من كل ظاهر، وقد تواترت الشرائع على وقوعها، والعقول تشهد أنه لا بد من دار الجزاء، وإلا كان وجود هذا العالم عبثاً.

﴿ الله لطيف بعباده ﴾ أى: برُّ بهم فى إيصال المنافع ودفع المضار، أوصل لهم من فنون اللطاف ما لا تكاد تتأله أيدي الأفكار والظنون. وقيل: هو من لطف بالغوامض علمه، وعظم عن الجرائم حلمه، أو: من ينشر المناقب

ويستر المثالب^(١)، أو: يعفو عمن يهفو، أو: من يعطى العبد فوق الكفاية، ويكلفه من الطاعة دون الطاقة. وقال شيخ شيوخنا، سيدى عبد الرحمن الفاسى رحمته الله: الظاهر حمل العباد على من اصطفاه، بدليل الإضافة المفيدة للتشريف، وأنه تعالى لطيف بهم رفيق، ومن ذلك: حمايتهم من الدنيا، ومما يطغى من الرزق، وعليه ينزل قوله: ﴿يرزق من يشاء﴾. هـ. أى: يرزق على حسب مشيئته، المبنية على الحكم البالغة. وفي الحديث: «إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك»^(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾^(٣) فهو وعد لجميع الخلق، وهو مبنى على المشيئة المذكورة هنا، فلا منافاة بينهما، خلافاً لابن جزى^(٤)؛ لأن المشيئة قاضية على ظاهر الوعد، ولا يقضى ظاهر الوعد عليها^(٥). انظر الحاشية.

﴿وهو القوي﴾؛ الباهر القدرة، الغالب على كل شيء، ﴿العزیز﴾ المنيع؛ الذى لا يغلب.

الإشارة: الميزان هو العقل؛ إذ به تعرف الأشياء ومقاديرها، نافعها وضارها. فالعقول متفاوتة كالموازين، فبعض الموازين لرقته لا يوزن فيها إلا الشيء الرفيع، كالذهب، والإكسير، والفضة، والطيب الرفيع، وبعضها يصلح لوزن الأشياء اللطيفة، دون الخشينة، كميزان العطار وشبهه، وبعضها يصلح للأشياء الخشينة المتوسطة، كميزان الغزالين والحاكة، وبعضها لا يصلح إلا للخشين، كالفحم وشبهه، وبعضها لا يصلح إلا للخشين الكثير، كالذى يوزن به القناطير من الشيء الخشين، فالأول عقول العارفين، لا يوزن فيها إلا أنوار التوحيد وأسرار التفريد، لا يصلح لغيرها، والثانى للعباد، والزهاد، والعلماء الصالحين، والثالث للمتجمدين من العلماء، والرابع لعامة المؤمنين، والخامس للفجار والكفار، وفيهم نزل: «يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها...» الآية، وما قبله هو قوله: ﴿والذين آمنوا مشفقون منها﴾.

(١) فى الأصول [المثاقب] والمثبت من تفسير النسفى - رحمه الله تعالى - .

(٢) أخرجه الديلمى (الفردوس ٢٥٠/٥ ح ٨١٠٠) والبيهقى فى الأسماء والصفات (ص ١٢١)، وأخرجه مطولا البغوى فى التفسير (١٩٤/٧ - ١٩٥). وعزاه السيوطى فى الدر (٧٠٤/٥ - ٧٠٥) لابن أبى الدنيا فى كتاب الأولياء، والحكيم الدرمدى فى نواذر الأصول، وابن مردويه، وأبى نعيم فى الحلية (٣١٨/٨)، وابن عساكر فى تاريخه، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه. وانظر كشف الخفاء (١٧٣٧).

(٣) من الآية ٦ من سورة هود.

(٤) قال ابن جزى - رحمه الله تعالى - : «يرزق من يشاء» يعطى الرزق الزائد على المضمون لكل حيوان فى قوله: «وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها» أى: ما تقوم به الحياة، فإن هذا على العموم لكل حيوان طول عمره، ولزائد خاص بمن شاء الله. (٥) وجدت على هامش النسخة الأساسية ما يلى: «الحق ما قاله ابن جزى، وأن المشيئة متعلقة بالتوسعة المسماة فى العرف رزقاً أيضاً، لا بأصل الرزق، ويدل على ذلك قوله تعالى عقب هذا مباشرة: «من كان يريد حرث الآخرة...» الآية، ولا مجملة فهي بمعنى قوله تعالى: «الله ييسر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له...» فهذا قوله تعالى: «وهو على جمعهم إذا يشاء قدير» فالجمع لا بد منه، والمشيئة متعلقة بوقت الجمع. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ ، اعلم أن لطفه سبحانه بعباده لا ينحصر ولا ينفك عنه مخلوق، من ظن انفكاك لطف الله عن قدره فذلك لقصور نظره، فمن لطفه سبحانه بخلقه: أنه أعطاهم فوق الكفاية، وكلفهم دون الطاقة. ومن لطفه سبحانه: تسهيله الأرزاق، وتيسير الارتفاق، فلو تفكر الإنسان في اللقمة التي توضع بين يديه، ماذا عمل فيها من العوالم العلوية والسفلية؛ لتحقيق بغاية عجزه، وتيقن بوجود لطفه، وكذا ما يحتاج إليه من مشروب، وملبوس، ومطعم. ومن لطفه سبحانه: توفيق الطاعات، وتسهيل العبادات، وتيسير الموافقات. ومن لطفه سبحانه: حفظ التوحيد في القلوب، وإطلاعها على مكاشفة الغيوب، وصيانة العقائد عن الارتياح، وسلامة القلوب عن الاضطراب. ومن لطفه سبحانه: إيهام العاقبة؛ للئلا يتكلموا أو ييأسوا. ومن لطفه سبحانه بالعبد: إخفاء أجله عليه؛ للئلا يستوحش إن كان قد دنا أجله. ومن لطفه سبحانه بخواصه: ستر عيوبهم، ومحو ذنوبهم، حتى وصلهم بما منه إليهم، لا بما منهم إليه، فكشف لهم عن أسرار ذاته، وأنوار صفاته، فشاهدوه جهراً، وعبدوه شكراً.

وقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ إما رزق الأرواح، أو رزق الأشباح، وإلى هذا القسمين أشار قوله:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ ، سُمي ما يعمله العامل مما يبتغى به الفائدة المستقبلية حرثاً، مجازاً؛ لأن الحرث: إلقاء البذر في الأرض للنظر نتاجه، فأطلقه على العمل، لجامع حصول النتاج، أي: من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ ؛ نصاعف له ثوابه، الواحدة بعشر إلى سبعمئة فما فوقها، أو: نَزِدْ لَهُ فِي تَرْفِيقِهِ وإعانتِهِ، وتسهيل سبيل الخيرات والطاعات عليه. ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ وهو متاعها وطيباتها ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي: شيئاً منها، حسبما قسمناه له، لا ما يريده ويبتغيه، ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ إذا كانت همته مقصورة على الدنيا. ولم يذكر في عامل الآخرة أن رزقه المقسوم يصل إليه، للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده، من زكاء أعماله، وفوزه في المآب؛ لأن ما يُعطى في الآخرة يستحق أن يذكر معه غيره من الدنيا.

الإشارة: قد مرّ مراراً ذم الدنيا وصرف الهمّة إليها، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في بعض خطبه: «أيها الناس، أقبلوا على ما كلفتموه من صالح آخرتكم، وأعرضوا عما ضمن لكم من أمر

دنياكم، ولا تشغلوا^(١) جوارحكم جوارح غذيت بنعمته في التعرض لخطأ بمعصيته، واجعلوا شغلكم بالتماس معرفته، واصرفوا همكم إلى التقرب بطاعته، إنه من بدأ بنصيبه من الدنيا فاته نصيبه من الآخرة، ولم يدرك منها ما يريد، ومن بدأ بنصيبه من الآخرة وصل إليه نصيبه من الدنيا، وأدرك من الآخرة ما يريد^(٢).

قال الورنجي: حرث الآخرة: مشاهدته ووصاله وقربه، وهذا للعارفين، وحرث الدنيا: كرامات الظاهر، ومن شغلته الكرامات احتجب بها عن الحق. ثم قال: عن بعضهم: من عمل لله محبة له، لا طلباً للجزاء، صغر عنده كل شيء دون الله، فلا يطلب حرث الدنيا، ولا حرث الآخرة، بل يطلب الله من الدنيا والآخرة. ثم قال: حرث الدنيا: قضاء الوطر منها، والجمع منها، والافتخار بها، ومن كان بهذه الصفة فما له في الآخرة من نصيب. هـ. وقال بعض الشعراء في هذا المعنى:

يا موثر الدنيا على دينه ومشتري دنياه بالآخرة

بعث الذي يبقى بما ينقضي تبأ لها من صفقة خاسره.

ثم ذكر مقابل قوله: «شرع لكم من الدين»، كأنه تعالى لما ذكر أنه شرع ما وصى به، أخذ ينكر ما شرع غيره، فقال:

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِّ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢١ ﴾
تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ٢٢ ﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ٢٣

يقول الحق جل جلاله: ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين﴾، أم: منقطعة، أي: بل لهم شركاء، أو: معادلة لمحدوف، تقديره: أقبلوا ما شرعت لهم من الدين، أم لهم آلهة شرعوا من الدين ﴿ما لم يأذن به الله﴾ أي: لم يأمر به، ﴿ولولا كلمة الفصل﴾ أي: القضاء السابق بتأخير الجزاء، أي: ولولا العدة بأن الفصل يكون يوم

(١) هكذا في جميع الأصول.

(٢) لم أقف عليه، رغم كثرة البحث.

القيامة ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ؛ بين الكفار والمؤمنين . أو: لعجلت لهم العقوبة . ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ؛ وإن المشركين لهم عذاب أليم في الآخرة، وإن أخر عنهم في دار الدنيا .

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ ؛ المشركين في الآخرة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ ؛ خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ ؛ من جزاء كفرهم، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ﴾ ؛ نازل ﴿بِهِمْ﴾ لا محالة، أشفقوا أم لم يشفقوا . ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ كأن روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها، فالروضات: المواضع المونقة المنضرة، فهم مستقرون في أطيب بقعها وأنزهها . ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِهِمْ﴾ أى: ما يشتهون من فنون المستلذات حاصل لهم عند ربهم، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ الذى لا يقادر قدره، ولا يبلغ غايته على العمل القليل، فضلاً من الكبير الجليل .

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ تعالى، ﴿عِبَادَهُ﴾ فحذف عائد الموصول . ويقال: بشر وبشر، بالتشديد والتخفيف، وقرئ بهما^(١) . ثم وصف المبشرين بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ دون غيرهم .

الإشارة: كل من ابتدع عملاً خارجاً عن الكتاب والسنة فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله، فينسحب عليه الوعيد، لقوله ﷺ: «من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»^(٢) .

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ قال القشيري: فى الدنيا جنة الوصلة، ولذاذة الطاعة والعبادة، وطيب الأنس في أوقات الخلوة، وفى الآخرة فى روضات الجنات، إن أرادوا دوام اللطف دام لهم، وإن أرادوا تمام الكشف كان لهم . هـ .

ولما كان من شأن المبشر بالخير أن يلتمس الأجر، نزه نبيه عن ذلك، فقال:

﴿... قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَّهٗ فِيهَا

حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

(١) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي؛ «بشّر، بفتح الباء، ومكون الموحدة، وضم الشين مخففة، من «بشر، الثلاثي». وقرأ الباقر بن عيسى «بشّر، بكسر الباء وكسر السين مشددة للتكثير. انظر الإتحاف (٢/٤٤٩) .

(٢) أخرجه بتمامه مسلم، فى (الزكاة، باب الحث على الصدقة، ٧٠٥/٢، ح ١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله .

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ على التبليغ ﴿أَجْرًا﴾. روى أنه اجتمع المشركون في مجمع لهم، فقال بعضهم لبعض: أترون أن محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً؟ فنزلت. أي: لا أسألكم على التبليغ والبشارة أجراً، أي: نفعاً ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؛ إلا أن تودوا أهل قرابتي، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً، أي: لا أسألكم أجراً قط، ولكن أسألكم أن تودوا قرابتي الذي هم قرابتكم، ولا تؤذوهم. ولم يقل: إلا مودة القربى، أو: المودة للقربى؛ لأنهم جعلوا مكاناً للمودة، ومقراً لها، مبالغة، كقولك: لى فى مال فلان مودة، ولى فيهم حب شديد، تريد: أحبهم، وهم مكان حبي ومحله. وليست «فى» بصلة للمودة كاللام، إذا قلت: إلا المودة للقربى، وإنما هى متعلقة بمحذوف، تعلق الظرف به والتقدير: إلا المودة ثابتة فى القربى، ومتمكنة فيها. والقربى: مصدر، كالزلفى والبشرى، بمعنى القرابة. والمراد: فى أهل القربى.

روى أنه لما نزلت قيل: يا رسول الله! من أهل قرابتك هؤلاء، الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: «على وفاطمة وإبناهما»^(١). وقيل: معناه: إلا أن تودوني لقرابتي فيكم، ولا تؤذوني، إذ لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله ﷺ وبينهم قرابة. وقيل: القربى: التقرب إلى الله تعالى، أي: إلا أن تحبوا الله ورسوله فى تقريكم إليه بالطاعة والعمل الصالح.

﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ﴾ أي: يكتسب ﴿حَسَنَةً﴾ أي حسنة كانت، فيتناول مودة ذى القربى تناولاً أولياً. وعن السدى: أنها المرادة، قيل: نزلت فى الصديق ﷺ ومودته فيهم، والظاهر: العموم، ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: نضاعفها له فى الجنة. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أذنب [بِطَوْلِهِ]^(٢) ﴿شُكُورٌ﴾ لمن أطاع بفضله، بتوفية الثواب والزيادة، أو: غفور: قابل التوبة، شكور: حامل عليها.

الإشارة: محبة أهل البيت واجبة على البشر، حرمة وتعظيماً لسيد البشر، وقد قال: «من أحبهم فبحبى أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم»^(٣) فمحبة الرسول ﷺ ركن من أركان الإيمان، وعقد من عقود، لا يتم الإيمان إلا بها، وكذلك محبة أهل بيته. وفى الحديث ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبني، ولا يحبني حتى يحب ذوى قرابتي، أنا حرب لمن حاربهم. وسلم لمن سالمهم، وعدو لمن عاداهم، ألا من آذى قرابتي فقد آذاني، ومن آذاني

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٤٤٤/١١، ح ١٢٢٥٩) وعزاه السيوطى فى الدر (٧٠١/٥) لابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه، بسند ضعيف، من طريق سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس رضى الله عنهما.

(٢) فى الأصول: [بعده] والمناسب ما أثبتته، وهو الذى فى تفسير السقى. والطول: الفضل والغلنى والسعة. انظر اللسان (طول ٧٢٨/٤).

(٣) ورد «من أحب هؤلاء، فقد أحبني، ومن أبغضهم فقد أبغضني، يعنى الحسن والحسين وفاطمة وعلياً. رضى الله عنهم أجمعين. والحديث ذكره فى كنز العمال ح (١٠٣) وعزاه لابن عساكر عن زيد بن أرقم.

والأحاديث فى محبة أهل البيت كثيرة. اللهم صلى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

فقد آذى الله تعالى»^(١). وقال أيضاً - عليه الصلاة والسلام: «إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله تعالى وعترتى»^(٢)، فانظر كيف قرنهم بالقرآن فى كون التمسك بهم يمنع الضلال.

وقال ﷺ: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد بدل الله له زوار قبره ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً^(٣) بين عينيه: آيس من رحمة الله»^(٤). انظر الثعلبى. زاد بعضهم: ولو عصوا وغيروا فى المذهب؛ فنكره فعلهم ونحب ذاتهم. قال الشيخ زروق فى نصيحته: وما ينزل بنا من ناحيتهم نعدّه من القضاء النازل. هـ.

وفى همزية البوصيرى - رحمه الله:

آل بيت النبى إن فؤادى ليس يسليه عنكم التأساء^(٥).

وقال آخر:

آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله فى القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم المجد أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له^(٦).

وقوله تعالى: «ومن يقترب حسنة نزد له فيها حسناً»، الزيادة فى الدنيا بالهداية والتوفيق، وفى الآخرة بتضعيف الثواب وحسن الرفيق. قال القشيري: إذا أتانا بالمجاهدة زدناه بفضلنا تحقيق المشاهدة. ويقال: من يقترب حسنة الوظائف نزد له حسن اللطائف. ويقال: الزيادة ما لا يصل إليه العبد بوسيلة، مما لا يدخل تحت طرق البشر. هـ.

ثم رد على من طعن فى الروى، الذى نفى الأجر على تبليغه، فقال:

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كِذْبًا فَإِنِ شَاءَ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ

(١) أخرج أحمد فى المسند (ح ٩٦٥٩) وابن حبان (موارد ح ٢٢٤٤) وابن أبى شيبه (٩٦/٢) والطبرانى فى الكبير (٣١/٣) عن أبى هريرة، قال: نظر النبى ﷺ إلى على والحسن والحسين وفاطمة فقال: «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم». وأخرجه الترمذى فى المناقب، باب فضل فاطمة، ح ٣٨٧٥ عن زيد بن أرقم، بلفظ «أنا حرب لمن حاربتم، وسلم لمن سالمتم».

(٢) أخرجه الترمذى وحسنه فى (المناقب، باب مناقب أهل بيت النبى ﷺ ٦٢١/٥، ح ٣٧٨٦) من حديث جابر بن عبد الله، (ح ٣٧٨٨) من حديث أبى سعيد وزيد بن أرقم - رضى الله عنهما.

(٣) هكذا فى الأصول.

(٤) ذكره بنحوه القرطبى (٦٠٢٢/٧)، وذكره الزمخشري فى تفسيره (٢٢٠/٤) بأطول من هذا، وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافى للثعلبى، وقال: «رأى الوضع عليه لائحة...».

(٥) انظر ديوان البوصيرى/ ٧٠.

(٦) الأبيات للإمام الشافعى. انظر ديوانه ٧٢، وفيه: يكفيكم من عظيم الفخر أنكم آ.

الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أم يقولون﴾ أي: بل يقولون ﴿افتري﴾ محمد ﴿على الله كذباً﴾ في دعوة النبوة، أو القرآن؟. والهمزة للإنكار التوبيخي، كأنه قيل: أيمن أن ينسبوا مثله - عليه الصلاة والسلام - للافتراء، لا سيما لعظم الافتراء، وهو الافتراء على الله، فإن الافتراء إنما يسام به أبعد خلق الله، ومن هو عرضة للظلم والطبع، فالعجب ممن يفوه به في جانب أكرم الخلق على الله.

﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾، هذا استبعاد للافتراء على مثله؛ لأنه إنما يجترئ على الله من كان مختوماً على قلبه، جاهلاً بربه، أما من كان على بصيرة ومعرفة بربه، فلا، وكأنه قال: إن يشأ الله خذلانك يختم على قلبك لتجترئ بالافتراء عليه، لكنه لم يفعل فلم تفتري. أو: فإن يشأ الله عدم صدور القرآن عنك يختم على قلبك، فلم تقدر أن تنطق بحرف واحد منه، وحيث لم يكن كذلك، بل تواتر الوحي عليك حيناً فحيناً؛ تبين أنه من عند الله تعالى. وهذا أظهر.

وقال مجاهد: إن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، وعلى قولهم: افتري على الله كذباً؛ لئلا تدخله مشقة بتكذيبهم. هـ.

﴿ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته﴾، استئناف مقرر لنفي الافتراء، غير معطوف على «يختم»، كما ينبئ عنه إظهار الاسم الجليل، وإنما سقطت الواو - كما في بعض المصاحف - لا تباع اللفظ، كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ...﴾ (١) مع أنها ثابتة في مصحف نافع. قاله النسفي. أي: ومن شأنه تعالى أنه يمحى الباطل، ويثبت الحق بوحيه، أو بقضائه، كقوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾ (٢)، فلو كان افتراء كما زعموا لمحقه ودمغه. أو: يكون عدة لرسول الله ﷺ بأنه تعالى يمحى الباطل الذي هم عليه، ويثبت الحق الذي هو عليه ﷺ بالقرآن، أو بقضائه الذي لا مرد له بنصره عليهم، وقد فعل ذلك، فمحا باطلهم، وأظهر

(١) من الآية ١١ من سورة الإسراء.

(٢) من الآية ١٨ من سورة الأنبياء.

الإسلام. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: عليم بما فى صدوركم وصدورهم، فيجرى الأمر على حسب ذلك من المحر والإثبات.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾. يقال: قبلت الشيء منه: إذا أخذته منه، وجعلته مبدأً قبورك، وقبلته عنه، أى: عزلته وأبطلته عنه. والتوبة: الرجوع عن القبيح بالندم، والعزم ألا يعود، ورد المظالم واجب غير شرط.

قال ابن عباس: لما نزل. ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا.....﴾ الآية. قال قوم فى نفوسهم: ما يريد إلا أن يحثنا على أقاربه من بعده، فأخبر جبريلُ النَّبِيُّ ﷺ أنهم قد اتهموه، وأنزل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا...﴾ الآية، فقال القوم: يا رسول الله! فإننا نشهد أنك صادق. فنزل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ...﴾ هـ.

قال أبو هريرة، قال النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُ أفرح بتوبة عبده المؤمن من الضالِّ الواصل، ومن العقيم الوالد، ومن الظَّمانَّ الوارد، فمن تاب إلى الله توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه، ولو كانت بقاعُ الأرض خطايا وذنوبه» (١).

راختلف العلماء فى حقيقة التوبة وشرائطها، فقال جابر بن عبد الله: دخل أعرابى مسجد النَّبِيِّ ﷺ، فقال: اللهم إني أستعيزك وأتوب إليك، سريعاً، وكبَّراً، فلما فرغ من صلاته، قال له على: ما هذا؟ إن سرعة الاستغفار باللسان توبة الكذابين، وتوبتك تحتاج إلى توبة، فقال: يا أمير المؤمنين، وما التوبة؟ قال: اسم يقع على سنة معانٍ: على الماضى من الذنوب الدائمة، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم، وإذابة النفس فى الطاعة، كما أذبتها فى المعصية، وإذابة النفس مرارة الطاعة، كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.

وعن السدى: هى صدقُ العزيمة على ترك الذنوب، والإنابة بالقلب إلى علام الغيوب. وعن سهل: هى الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة. وعن الجنيد: هى الإعراض عما سوى الله.

قال الله تعالى: ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ وهو ما دون الشرك، يعفو لمن يشاء بلا توبة، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ كائنًا ما كان، من خير أو شر، حسبما تقتضيه مشيئته.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: يستجيب لهم فحذف اللام كما فى قوله: ﴿وَإِذَا كَانُوا مِنْكَ يَمْلِكُونَ﴾ (٢) أى: يجيب دعوتهم، ويثيبهم على طاعتهم، أو: يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها. قيل لإبراهيم

(١) لم أفق عليه بهذا اللفظ، وفى الصحيح: «اللَّهُ أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهب راحلته، حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكانى، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه، فإذا راحلته عنده، أخرجه البخارى فى (الدعوات، باب التوبة، ح ٦٣٠٨) ومسلم فى (التوبة، باب فى الحوض على التوبة، ح ٢٧٤٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) من الآية ٣ من سورة المطففين.

ابن أدهم: ما لنا ندعو فلا نجاب؟ قال:، لأنه دعاكم فلم تجيبوا. ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ على ما سأله، واستحقوه بموجب الوعد. ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بدل ما للمؤمنين من الفضل العظيم والمزيد.

الإشارة: قال المرتجبي: «أم يقولون افتري على الله كذباً» فيه تقديس كلامه، وطهارة نبيه ﷺ عن الافتراء، وكيف يفترى وهو مصون من طريان الشك والريب والوساوس والهواجس على قلبه ٢. وقال أيضاً: عن الواسطي: إن يشأ الله يختم على قلبك [لكن ما يشاء] (١)، ويمح الله الباطل بنفسه ونعته، حتى يعلم أنه لا حاجة له إلى أحد من خلقه، ثم يحقق الحق في قلوب أنشأها للحقيقة.

قلت: في الآية تهديد لأهل الدعوى؛ لأنهم إن داموا على دعواهم الخصوصية بلا خصوصية؛ ختم الله على قلوبهم بالنفاق، ثم يحو الله الباطل بأهل الحق والتحقيق، فتشرق حقائقهم على ما يقابلها من البال فتدمغه بإذن الله وقضائه وكلماته.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ...﴾ الخ، لكل مقام توبة، ولكل رجال سيئات، فتوبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من العيوب، وتوبة خواص الخواص من الغيبة عن شهود علام الغيوب. وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يشير إلى الحلم بعد العلم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: في كل ما يتمنون، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ النظر إلى وجهه، ويتفاوتون فيه على قدر توجههم، ومعرفتهم في الدنيا. وذكر في القوت حديثاً عن رسول الله ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: «يشفعهم في إخوانهم، فيدخلهم الجنة» (٢). هـ. قال القشيري: ويقال: لما ذكر أن التائبين يقبل توبتهم، ومن لم يتب يعفو عن زلته، والمطيع يدخله الجنة، فلعلة خطر ببال أحد: فهذه النار لمن هي؟ فقال «والكافرون لهم عذاب شديد»، ولعله يخطر بالبال أن العصاة لا عذاب لهم، فقال: (شديد) بدليل الخطاب أنه ليس بشديد (٣) هـ.

ولما ذكر أن أهل الإيمان يستجيب لهم، ويزيدهم من فضله، يعني في الآخرة، وأما في الدنيا فإنما يعطيهم الكفاف، ذكر حكمة ذلك، فقال:

(١) في المرتجبي [بما يشاء].

(٢) أخرجه ابن جرير، من طريق قتادة عن أبي إبراهيم اللخمي، موقوفاً.

(٣) اختصر المفسر عبارة القشيري، وهذا نصها حتى يتضح المراد: فالعصاة من المؤمنين لهم عذاب، أما الكافرون فلهم عذاب شديد، لأن دليل الخطاب يقتضي هذا، وذلك يقتضي أن المؤمنين لهم عذاب، ولكن ليس بشديد، وأما عذاب الكافرين فشديد. هـ.

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوُا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿ ٢٨ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ ﴾ أى: لو أغناهم جميعاً ﴿ لَبَغَوُا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى: لتكبروا وأفسدوا فيها، بطراً، ولعلا بعضهم على بعض بالاستعلاء والاستيلاء، لأن الغنى مبطرة مفسدة، وكفى بحال قارون وفرعون عبدة. وأصل البغى: تجاوز الاقتصاد [عما يجزى] (١) من حيث الكمية أو الكيفية. ﴿ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ ﴾ أى: بتقدير ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ أن ينزله، مما تقتضيه مشيئته. يقال: قدره وقدره قدراً وتقديراً ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾: محيط بخفايا أمورهم وجلاياها، فيقدر لكل واحد منهم ما يليق بشأنه، فيفقر ويغنى، ويعطى ويمنع، ويقبض ويبسط، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية، ولو أغناهم جميعاً لبغوا فى الأرض، ولو أفقرهم لهلكوا، وما ترى من البسط على من يبغى، ومن البغى بدون البسط، فهو قليل، ولكن البغى مع الفقر أقل، ومع البسط أكثر وأغلب، فالحكمة لاتنافى بغى البعض بدفعه بالبعض الآخر، بخلاف بغى الجميع. ﴿ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ... ﴾ (٢) الآية.

وقال شقيق بن إبراهيم: ﴿ لو بسط الله الرزق لعباده ﴾ أى: لو رزق الله العباد من غير كسب «لبغوا»؛ طغوا وسعوا فى الأرض بالفساد، ولكن شغلهم بالكسب والمعاش، رحمة منه هـ. أى: لتلا يتفرغوا للفساد، ومثله فى التنوير. وقال شيخ شيوخنا الفاسى العارف: والظاهر حمل العباد على الخصوص المصطفين من المؤمنين، فإنهم يحمون من الطغيان وبسط الرزق؛ لتلا يبغوا هـ.

وقال قتادة: كان يقال: خير الرزق: ما لا يطغيك، ولا يلهيك، فذكر لنا أن النبى ﷺ قال: «أخوف ما أخاف على أمتى زهرة الدنيا وكثرتها» (٣) هـ.

(١) هكذا فى الأصول، وفى تفسير أبى السعود فيما يتجرى أ.

(٢) من الآية: ٤٠ من سورة الحج.

(٣) أخرجه الطبرى (١٩/٢٥).

روى: أن أهل الصُّفَّة تملأوا الغدى، فنزلت^(١). وقيل: نزلت في العرب، كانوا إذا أخصبوا تحاربوا، وإذا جددوا انتجعوا. هـ.

﴿وهو الذى يُنزل الغيث﴾ أى: المطر الذى يُغيثهم من الجذب، ولذا خص بالنافع منه، فلا يقال للمطر الكثير: غيث، ﴿من بعد ما تنطروا﴾: يلسوا منه. وتقييد تنزيله بذلك، مع نزوله بدونه أيضا، لمزيد تذكّر كمال النعمة. ﴿وينشر رحمته﴾ أى: بركات الغيث ومنافعه، وما يحصل به من الخصب فى كل مكان، من السهل، والجبل، والنبات، والحيوان. أو: رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر وغيره. ﴿وهو الولي﴾ الذى يتولى عباده بالإحسان ونشر الرحمة، ﴿الحميد﴾: المستحق للحمد على ذلك، لا غيره.

الإشارة: عادته تعالى مع أوليائه أن يعطيهم ما يكفيهم بعد الاضطرار، ويمنعهم منه فوق الكفاية؛ لئلا يشغلهم بذلك عن حضرته، وفى الحديث: «إن الله يحمى عبده المؤمن - أى: مما يضره الدنيا وغيرها - كما يحمى الراعى الشقيق غنمه من مراتع الهلكة»^(٢) وفى حديث آخر: «إذا أحب الله عبداً حماه الدنيا كما يحمى أحدكم سقيمته الماء»^(٣). وروى ابن المبارك، عن سعيد بن المسيب قال: جاء رجل رسول الله ﷺ فقال: أخبرنى يا رسول الله بجلساء الله يوم القيامة؟ فقال: «هم الخائفون، الخاضعون، المتواضعون، الذاكرون كثيراً»، فقال: يا رسول الله؛ فهم أول الناس يدخلون الجنة؟ قال: «لا»، قال: فمن أول الناس دخولا الجنة؟ قال: «الفقراء يسبقون الناس إلى الجنة، فيخرج إليهم ملائكة، فيقولون: ارجعوا إلى الحساب، فيقولون: علام نحاسب؟ والله ما أفيضت علينا الأموال فنفيض فيها، وما كنا أمراء نعدل ونجور، ولكننا جاءنا أمره فعبدنا حتى أتانا اليقين». هـ.

قوله: ﴿وهو الذى يُنزل الغيث...﴾ الآية، كما ينزل غيث المطر على الأرض الميتة، ينزل أمطار الواردات الإلهية على القلوب الميتة، فتحيا بالذكر والمعرفة، بعد أن أيست من الخصوصية.

قال القشيري، بعد كلام: وكذلك العبد إذا ذبل غصن وقته، وتكدّر صفو ودّه؛ وكسفت شمس أنسه، ويعدّ عن الحضرة وساحات القرب عهده، فريما ينظر إليه الحقّ نظر رحمة، فينزل على سرّه أمطار الرحمة، ويعود عوده طرياً، وينبت فى مشاهد أنسه ورداً جنياً، وأنشدوا فى المعنى:

(١) أخرجه الواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٩٠) عن عمرو بن حريث، وذكره الهيثمى فى المجمع (١٠٤/٧) وعزاه للطبرانى، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (ح ١٠٤٥١) من حديث حذيفة رضى الله عنه، والحديث ضعفه السيوطى فى الجامع الصغير (ح ١٩٠١).

(٣) أخرجه الترمذى فى (الطب، باب ما جاء فى الحمية، ح ٣٠٣٦) والبيهقى فى الشعب (ح ١٤٥٠) من حديث قتادة بن النعمان رضى الله عنه.

إِنْ رَاعَنِى مِنْكَ الصَّدُودُ فَلَعلَّ أَيْامِى تَعُودُ
وَلَعَلَّ عَهْدَكَ بِاللَّوِى يَحْيَا فَقَدْ تَحْيَا الْعَهْدُودُ
وَالْغُصَصُ بْنُ يَبِيسَ تَارَةً وَتَسْرَاهُ مُخَضَّرًا يَمِيدُ .

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ قال القشيري في شرح الأسماء: الولي هو المتولي لأحوال عباده، وقيل معناه: المناصر، فأولياء الله أنصار دينه، وأشباع طاعته، والولي في صفة العبد: هو من يواظب على طاعة ربه. ومن علامات من يكون الحق سبحانه وليه: أن يصونه ويكفيه في جميع الأحوال، ويؤمنه، فيغار على قلبه أن يتعلق بسخلاق في دفع شر أو جلب نفع، بل يكون سبحانه هو القائم على قلبه في كل نفس، فيحقق آماله عند إشارته، ويجعل مآربه عند خطراته. ومن أمارات ولايته لعبده: أن يديم توقيفه، حتى لو أراد سوءاً، أو قصد محظوراً، عصمه من ارتكابه. ثم قال: ومن أمارات ولايته: أن يرزقه مودة في قلوب أوليائه. هـ. قلت: جعل مآربه عند خطراته، ليس شرطاً؛ لأن هذا من باب الكرامة، ولا يشترط ظهورها عند المحققين. وروى أنس عن النبي ﷺ عن جبريل، عن ربه - عز وجل - قال: «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وإنني لأسرع شيء إلى نصرة أوليائي، وإنني لأغضب لهم، كما يغضب الليث الحرد»^(١) انظر بقية الحديث في الثعلبي.

ثم ذكر شواهد قدرته ، فقال:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ

إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ۝ ٢٩ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على باهر قدرته ووحدانيته ﴿خلق السموات والأرض﴾ على ما هما عليه من تعجيب الصنعة، فإنها بذاتها وصفاتها تدل على شؤنه العظيمة، ﴿وما بئ﴾ أى: فرق ﴿فيهما من دابة﴾؛ من حي على الإطلاق، فأطلق الدابة على مطلق الحيوان، ليدخل الملائكة. أو: ما يدب على الأرض،

(١) أخرجه مطولاً، البيهقي في التفسير (٧/١٩٤ - ١٩٥) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/٧٠٤) لابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن مردويه، وأبي نعيم في الحلية (٨/٣١٥)، وابن عساكر في تاريخه. وقوله: «الحرد، الحرد: الغيظ والغضب. وحرد الرجل فهو حرد. انظر اللسان (مادة حرد ٢/٨٢٤ - ٨٢٥).

فإن ما يختص أحد الشيليين المجاورين يصح نسبته إليهما، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (١) وإنما يخرج المرجان من الملح، ولا يبعد أن يخلق الله في السموات حيواناً يمشون مشى الأناسى على الأرض، أو: يكون للملائكة مشى مع الطيران، فوصفوا بالدبيب لذلك. ﴿وهو على جمعهم﴾ أى: حشرهم بعد البعث للحساب ﴿إذا يشاء﴾ أى: فى الوقت الذى يشاء ﴿قدير﴾ لا يعجزه شيء

الإشارة: من تعرفاته: إظهار السموات والأرض، وهذه رسوم المعانى، وما بثّ فيهما من دابة، وهذه أشكال توضح أسرار المعانى، فإذا قبضت المعانى محيت الرسوم والأشكال. وقوله تعالى: ﴿وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾، قال القشيري: الإشارة فى هذا: أن الحق تعالى يغار على أوليائه أن يسكن بعضهم بقلبه إلى بعض، فأبداً يبدد شملهم، ولا يكاد تنفق الجماعة من أهل القلوب إلا نادراً، وذلك أيضاً مدة يسيرة، كما أنشدوا:

رمى الدهر بالفتيان حتى كأنهم بأكفاف أطراف السماء نجوم (٢)

وقد يتفضل تعالى باجتماعهم فى الظاهر، وذلك وقت نظر الحق بفضله إلى العالم، وفى بركات اجتماعهم حياة العالم، وإذا كان قادراً فهو على جمعهم إذا يشاء قدير. (٣) هـ.

قلت: مما جرت به عادة الله تعالى فى أوليائه: أنه لا يجتمع فى موضع واحد منهم اثنان فأكثر إلا قام أحدهما بالآخر، ويفقد نظامهما، فلا تكاد تجد أهل النور القوي إلا متباعدي الأوطان، لئلا يطفى نور أحدهما نور الآخر، وقد يجتمعون نادراً فى وقت مخصوص، وذلك وقت النفحات. كما تقدم للقشيري.

ثم ذكر سبب نزول المصائب بعباده، فقال:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٠)
﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٣١)

(١) الآية ٢٢ من سورة الرحمن.

(٢) البيت منسوب للقشيري كما فى تبیین كذب المفتري للدمشقي / ٣٥٦.

(٣) بتصرف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما أصابكم من مصيبة﴾ غم، أو ألم، أو مكروه ﴿بما﴾ (١) كسبت أيدىكم ﴿أى: بجناية كسبتموها، عقوبة لكم. ومن قرأ بالفاء؛ فـ ما، شرطية. ومن قرأ بغيرها فموصولة. وتعلق بهذه الآية من يقول بالتناسخ، ومعناه عندهم: أن أرواح المتقدمين حين تموت أشباحها تنتقل إلى أشباح آخر، فإن كانت صالحة انتقلت إلى جسم صالح؛ وإن كانت خبيثة انتقلت إلى جسم خبيث، وهو باطل وكفر. ووجه التعلق: أنه لو لم يكن للأطفال حالة كانوا عليها قبل هذه الحالة لما تألموا، ويجاب: بأن تألم الأطفال إما زيارة في درجات آبائهم إن عاشوا، أو في درجاتهم إن ماتوا؛ لأنهم يلحقون بأبائهم في الدرجة، ولا عمل لهم إلا هذا التألم. والله أعلم

والآية مخصوصة بالمكلفين بدليل السياق، وهو قوله: ﴿ويعفوا عن كثير﴾ أى: من الذنوب فلا يعاقب عليها، أو: عن كثير من الناس، فلا يعاجلهم بالعقوبة. وفي الحديث عنه ﷺ: «والله أكرم من أن يثقل عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا عنه فالله أحلم من أن يعود فيه بعد عفو» (٢) وقال ابن عطاء: من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه، وأن ما عفا عنه مولاه أكثر، كان قليل النظر في إحسان ربه إليه. وقال محمد بن حامد: انعبد ملازم للجديات في كل أوان، وجنایاته في طاعته أكثر من جنایاته في معاصيه؛ لأن جنایة المعصية من وجه، وجنایة الطاعة من وجوه، والله يطهر العبد من جنایاته بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله في القيامة، ولولا عفو ورحمته لهلك في أول خطوة.

وعن على - كرم الله وجهه - : هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن؛ لأن الكريم إذا عاقب مرة لا يعاقب ثانياً، وإذا عفا لا يعود . هـ . وقد تقدم حديثاً. قال في الحاشية الفاسية: قلت: وإنما يعفو في الدنيا عما يشاء ، ويؤخر عقوبة من شاء إلى الآخرة، فلا يلزم إبطال وعيد الآخرة. ثم الآية إما خاصة بالحدود ، أو بالمجرم المذنب، وأما من لا ذنب له فما يصيبه من البلاء اجتناء، وتخصيص، لاثمحيص . هـ .

قلت: لكل مقام ذنب، حسرات الأبرار سيدات المقربين، فالتمحيص جار في كل مقام، وراجع ما تقدم عند قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ (٣) وسيأتى عند قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ...﴾ (٤) ما يبين هذا. والله أعلم

(١) قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر (بما) بغير فاء، على جعل (ما) في «ما أصابكم» موصولة، مبتدأ، و(بما كسبت) خبر، وعلى جعلها شرطية، تكون الفاء محذوفة، نحو قوله تعالى: ﴿وإن أطعموهم إنكم...﴾ - الآية ١٢١ من سورة الأنعام. وقرأ الباقر (فيما كسبت). فـ (ما) شرطية، أى: فهي بما كسبت، أو موصولة، والفاء تدخل في حيز الموصول إذا أجرى مجرى الشرط. انظر: الحجة للفارسي، (١٢٩/٦) والإتعاظ (٤٥٠/٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٨٥/١) والحاكم (٢٨٨/٤) وزاد السيوطي عزوه في الدر المنثور (٧٠٥/٥) لابن راهويه، وابن منيع، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن سيدنا على - كرم الله وجهه - .

(٣) من الآية ١١٧ من سورة التوبة. (٤) من الآية ١٩ من سورة سيدنا محمد.

﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ﴾ أى: ما أنتم بفائزين ما قضى عليكم من المصائب، وإن هجرتم فى أقطارها كل مهرب، ﴿ وما لكم من دون الله من ولى ﴾ متولٍ يحميكم منها ﴿ ولا نصير ﴾ يدفعها عنكم، أو يدفع عذابه إن حلَّ. الإشارة: إذا كان العبد عند الله فى عين العناية أدبه فى الدنيا، ويبقى فى حال قربه، وإذا كان عنده فى عين الإهمال؛ أهمل عقوبته إلى دار البقاء، وربما استدرجه باللعم فى حال إساءته، والعياذ بالله من مكره. وإذا علم العبد أن ما يصيبه فى هذه الدار من الأكدار كلها تخلص وتمحيص؛ لم يسترحش منها، بل يفرح بها؛ إذ هى علامة العناية، وإذا كانت على أيدى الناس، لم يقابلهم بالانتصار، بل يعفو ويصفح؛ لعلَّه أن ذلك زيارة وترقية. وقوله تعالى: ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ هذا - والله أعلم - فى حق العامة، وأما الخاصة؛ فيشدد عليهم المحاسبة والتأديب؛ ليرفع مقامهم، ويكرم مثراهم.

ثم ذكر برهاناً آخر على قدرته تعالى، فقال:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِضْهُنَّ يَمًا كَسَبَوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن آياته ﴾ للدلالة على قدرته ورحمته ﴿ الجوار ﴾ (١) السفن الجارية ﴿ فى البحر كالأعلام ﴾ كالجبال ﴿ إن يشاء يسكن الرياح ﴾ (٢) التى تجريها. وقرئ بالافراد. ﴿ فيظللن رواكد على ظهره ﴾ فيبقين ثوابت على ظهر البحر، أى: غير جاريات لاغير متحركات أصلاً، ﴿ إن فى ذلك لآيات ﴾ عظيمة فى أنفسها، كثيرة فى العدد، دلالة على باهر قدرته ﴿ لكل صبار شكور ﴾ لكل من حبس نفسه عن الهوى، وصرف همهته إلى النظر فى آلائه، أو: لكل صبار على بلائه، شكور لنعمايه، أى: لكل مؤمن كامل؛ فإن الإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر؛ لأن الإنسان لا يخلو من ضرر يمسه، أو نفع يناله، فأداب

(١) هكذا فى الأصول، وقد أثبت الياء فى (الجوار) وصلاً نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وفى الحالين ابن كثير يعقوب. وقرأ الباقر بن بغير ياء. انظر الإنعاف (٢/ ٤٥٠)

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر، الرياح، بالجمع. وقرأ الجمهور (الريح) إفراداً.

الضر: الصبر، وآداب النفع: الشكر، وأيضاً: راكب السفن ملزوم، إما للمشقة أو السلامة، فالصبر والشكر لازمان له. ولم يعطف إحدى الصفتين على الأخرى؛ لأنهما لموصوف واحد.

﴿أَوْ يُوقَهُنَّ﴾ أى: يهلكهن، عطف على قوله: ﴿يُسْكِنُ﴾ أى: إن يشأ يسكن الريح فيركدن، أو يعصفها فيغرقن [بعضفها] (١) ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من الذنوب. وإيقاع الإيلاق عليهن مع أنه حال [أهلن] (٢)؛ للمبالغة والتهويل، ﴿ويعف عن كثير﴾ منها، فلا يجازى عليها، وإنما أدخل العفو فى حكم الإيلاق، حيث جزم جزمه؛ لأن المعنى: أو إن يشأ يهلك ناساً ويُنَج ناساً، على طريق العفو عنهم. وقرئ: «ويعفو» (٣) على الاستئناف. ﴿ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا﴾ أى: فى إبطالها وردّها ﴿ما لهم من محيص﴾؛ من مهرب من العذاب. والجملة معلقة بالنفى، ومن نصب «يعلم» عطفه على علة محذوفة، أى: ليلتقم منهم وليعلم، كما فى قوله: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ (٤). وقيل غير ذلك. ومن رفعه (٥) فعلى الاستئناف. وقرئء بالجزم، عطفًا على: «يعف»، فيكون المعنى: أو إن يشأ يجمع بين إهلاك قوم وإنجاء آخرين وتحذير قوم.

الإشارة: ومن آياته الأفكار الجارية فى بحر التوحيد، كالأعلام، أى: أصحابها كالجبال الرواسى، لايهزم شىء من الواردات ولا غيرها، إن يشأ يسكن رياح الواردات عن أسرارهم، فيبقى رواكد على ظهر بحر الأحدية، مستغرقين فى شهود الذات العلية، أو يوقهن بما كسبوا من سوء الأدب، فيغرقن فى الزندقة أو الحلول والاتحاد، ويعف عن كثير، ويعلم الذين يطعنون فى آياتنا الدالة علينا ما لهم من مهرب.

ثم زهد فى الدنيا؛ لأنها العائقة للأفكار، عن الجرى فى بحار الأسرار، فقال:

﴿فَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كِبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ

(١) فى الأصول [بعضفها] والمناسب ما أثبتته، وهو الذى فى تفسير السفى وأبى السعود.

(٢) فى الأصول [أهلها].

(٣) قرأ بها الأعمش، انظر البحر المحيط ٤٩٧/٧.

(٤) من الآية ٢١ من سورة مريم.

(٥) وهى قراءة نافع وابن عامر، وأبى جعفر. وقرأ الجمهور (ويعلم) بالنصب. انظر الإنحاف (٢/٤٥٠).

عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٢﴾
 إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ ﴿٤٣﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لما أوتيتم من شيء﴾ مما ترجون وتتنافسون فيه ﴿فمتاع الحياة الدنيا﴾
 أى: فهو متاعها، تتمتعون به مدة حياتكم، ثم يفنى، ﴿وما عند الله﴾ من ثواب الآخرة ﴿خير﴾ ذاتاً لخصوص
 نفعه، ﴿وأبقى﴾ زماناً لدوام بقائه. ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وهما الأولى ضُمَّتْ معنى
 الشرط، فدخلت فى جوابها الفاء، بخلاف الثانية. وعن عليّ عليه السلام: أن أبا بكر - رضى الله عنه - تصدق بماله
 كله، فلامه الناس، فنزلت الآية.

ثم قال تعالى: ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم﴾ أى: الكبائر من هذا الجنس. وقرأ الأخوان: (كبير الإثم).
 قال ابن عباس: هو الشرك، ﴿و﴾ يجتنبون ﴿الفواحش﴾ وهى ما عظم قبحها، كالزنى ونحوه، ﴿وإذا ما
 غَضِبُوا﴾ من أمر دنياهم ﴿هم يغفرون﴾ أى: هم الأخصاء بالغفران فى حال الغضب، فيحلمون، ويتجاوزون.
 وفى الحديث: «من كظم غيظه فى الدنيا رَدَّ اللهُ عنه غضبه يوم القيامة» (١).

﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة﴾: أتقوا الصلوات الخمس، ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أى: ذو
 شورى، يعنى: لا ينفردون برأيهم حتى يجتمعون عليه. وعن الحسن: ما تشاور قوم إلا هُتِدوا لأرشد أمورهم.
 والشورى: مصدر، كالفتيا، بمعنى التشاور. ﴿وما رزقناهم ينفقون﴾: يتصدقون.

﴿والذين إذا أصابهم البغي﴾: الظلم ﴿هم ينتصرون﴾: ينتقمون ممن ظلمهم، أى: يقتصرون فى
 الانتصار على ما حُدَّ لهم، ولا يعتدون، وكانوا يكرهون أن يذلُّوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق، فإذا قدرُوا عفوًا،
 وإنما حمدوا على الانتصار؛ لأن من انتصر، وأخذ حقه، ولم يجاوز فى ذلك حدَّ الله، قلم يسرف فى القتل، إن كان
 ولى دم، فهو مطيع لله. وقال ابن العربي: قوله: ﴿والذين إذا أصابهم البغي...﴾ الآية، ذكر الانتصار فى معرض

(١) أخرج الطبرانى فى الأوسط (ج ١٣٢٠) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من دفع غضبه دفع الله عنه عذابه»، قال
 الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧٠/٨): فيه عبد السلام بن هلال، وهو ضعيف.

وأخرج أبو داود فى (الأدب، باب فى كظم الغيظ ج ٤٧٧٧) والترمذى وحسنه فى (البر والصلة، باب فى كظم الغيظ، ج ٢٠٢١)
 وابن ماجه فى (الزهد، باب الحلم، ج ٤١٨٦) عن معاذ بن أنس الجهنى رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من كظم غيظًا هو قادر على
 أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة، حتى يخيره فى أى الحور شاء».

المدح، ثم ذكر العفو في معرض المدح، فاحتمل أن يكون أحدهما رافعاً للآخر، واحتمل أن يكون ذلك راجعاً إلى حالين، أحدهما: أن يكون الباغي مُعلناً بالفجور وقحاً في الجمهور، ومؤذياً للصغير والكبير، فيكون الانتقام منه أفضل، وفي مثله قال إبراهيم النخعي: يكره للمؤمنين أن يذُلُّوا أنفسهم، فيجتري عليهم الفساق. وإما أن تكون الفلأة، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة، ويسأل المغفرة، فالعفو هاهنا أفضل، وفي مثله نزل: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (١)، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ الآية (٢). هـ.

ثم بين حد الانتصار، فقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، فالأولى سيئة حقيقة، والثانية مجازاً للمشكلة، وفي تسميتها سيئة نكتة، وهي الإشارة إلى أن العفو أولى، والأخذ بالقصاص سيئة بالنسبة إلى العفو، ولذلك عقبه بقوله: ﴿فَمَن عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين خصمه بالتجاوز والإغضاء ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، وهي عدة مبهمة لا يقادر قدرها، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يبدؤون بالظلم، أو: يتجاوزون حد الانتصار. وفي الحديث: «ينادي مناد يوم القيامة: من كان له أجر على الله فليقم، فلا يقوم إلا من عفا» (٣).

﴿وَلَمَن انتصر بعد ظلمه﴾ أي: أخذ حقه بعد ما ظلم - على إضافة المصدر إلى المفعول - ﴿فَأُولَٰئِكَ جَمَعَ﴾ الإشارة مراعاة لمعنى «من»، ﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ للمعاقب ولا للمعائب ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾؛ يبتدئونهم بالظلم، ﴿وَيَغْوُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ يتكبرون فيها، ويعلون، ويفسدون ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بسبب بغيتهم وظلمهم. وفسر السبيل بالتبعة والحجة.

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الظلم والأذى، ﴿وَعَفَرَ﴾ ولم ينتصر، أو: ولم يصبر على البلاء من غير شكوى، وعفر بالتجاوز عن الخصم، ولا يبقى لنفسه عليه دعوى، بل يبرى خصمه من جهته من كل دعوى في الدنيا والعقبى، ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: إن ذلك الصبر والغفران منه لمن عزم الأمور، أي: من الأمور التي ندب إليها، وعزم على فعلها، أو: مما ينبغي للعاقل أن يوجهه على نفسه، ولا يترخص في تركه. وحذف الراجع - أي: منه - كما حذف في قولهم: السمن متوأن بدرهم. وقال أبو سعيد القرشي: الصبر على المكاره من علامات الانتباه، فمن صبر على مكروه أصابه، ولم يجزع، أورثه الله تعالى حال الرضا، وهو أصل الأحوال؛ ومن جزع من المصيبات، وشكى، وكله إلى نفسه، ثم لم تنفعه شكواه. هـ. وانظر تحصيل الآية في الإشارة، إن شاء الله.

قال ابن جزى: ويظهر لي أن هذه الآية إشارة إلى ذكر الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - لأنه بدأ أولاً بصفات أبي بكر الصديق، ثم صفات عمر، ثم صفات عثمان، ثم صفات علي بن أبي طالب، فأما صفات

(١) من الآية ٢٧٧ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٢ من سورة النور.

(٣) عزاء في انحاف السادة المتقين ٥٦١/٧ لابن عساكر في التاريخ، من حديث علي بن أبي طالب.

أبى بكر، فقله: «الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون» وإنما جعلنا هذه صفات أبى بكر، وإن كان جميعهم متصفاً بها، لأن أبا بكر كانت له مزية فيها لم تكن لغيره، قال رسول الله ﷺ: «لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان الأمة لرجح»^(١) وقال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة الإيمان، وأبو بكر بابها». وقال أبو بكر: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً». والتوكل إنما يقوى بقوة الإيمان.

وأما صفات عمر: فقله «والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش»؛ لأن ذلك هو التقوى، وقد قال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة التقوى وعمر بابها، وقوله: «وإذا ما غضبوا هم يغفرون»، وقوله: «قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله» نزلت في عمر. وأما صفات عثمان؛ فقله: «والذين استجابوا لربهم»؛ لأن عثمان لما دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام بادر إليه، وقوله: «وأقاموا الصلاة»؛ لأن عثمان كان كثير الصلاة بالليل، وفيه نزلت: «أمن هو قانت آناء الليل...» الآية^(٢). وروى أنه كان يحبى الليل بركعة، يقرأ فيها القرآن كله. وقوله: «وأمرهم شورى بينهم»؛ لأن عثمان ولى الخلافة بالشورى، وقوله: «ورمما رزقناهم ينفقون»؛ لأن عثمان كان كثير النفقة في سبيل الله، ويكفيك أنه جهز جيش العسرة.

وأما صفات على؛ فقله: «والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون»؛ لأنه لما قاتله الفئة الباغية قاتلها، انتصاراً للحق، وانظر كيف سمي رسول الله ﷺ المقاتلين لعلى الفئة الباغية، حسبما ورد في الحديث الصحيح، أنه قال لعمار: «ويح عمار، تقتله الفئة الباغية»^(٣) وذلك هو البغي الذى أصابه. وقوله: «فمن عفا وأصلح فأجره على الله» إشارة إلى فعل الحسن بن على، حين بايع معاوية، وأسقط حق نفسه، ليصلح أحوال المسلمين، ويحقق دماءهم. قال رسول الله ﷺ في الحسن: «إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٤). وقوله: «ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل» إشارة إلى انتصار الحسين بعد موت

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (ح ٣٦) وابن أبى شيبه في الإيمان (١٠٨) عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ موقوفاً. وقال في كشف الخفاء (٢/٢٣٤): (أخرجه ابن عدى والديلمي، كلاهما عن ابن عمر، مرفوعاً، بلفظ: «لو وضع إيمان أبى بكر على إيمان هذه الأمة لرجح بها». وفي سنده «عيسى بن عبد الله، ضعيف، لكن يقويه ما أخرجه ابن عدى أيضاً من طريق أخرى بلفظ: «لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم». وله شاهد أيضاً في المتن عن أبى بكر، مرفوعاً: «أن رجلاً قال: رأيت يارسول الله! كأن ميزاناً نزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر، فرجحت أنت، ثم وزن أبو بكر بمن بقى فرجح...» الحديث. قلت: حديث أبى بكر، أخرجه أبو داود في (السنن، باب في الخفاء، ح ٤٦٣٤) والترمذى في (الرؤيا، باب ما جاء في رؤيا النبي ﷺ الميزان والدلو، ح ٢٢٨٧) وقال: «حسن صحيح، وعندهما: «وزن عمر وأبو بكر، فرجح أبو بكر...».

(٢) الآية ٩ من سورة الزمر.

(٣) أخرجه البخارى في (الصلاة، باب التعاون في بناء المسجد، ح ٤٤٧) عن أبى سعيد، قال - وهو يحدث عن بناء المسجد -: كنا نحمل لبنة لبنة، وعمار لبنتين لبنتين، فرأه النبي ﷺ، فينفخ التراب عنه، ويقول: «ويح عمار، تقتله الفئة الباغية، يدعوك إلى الجنة، ويدعونه إلى النار، قال: يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن.

(٤) أخرجه البخارى في (الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن على رضي الله عنهما: «إن هذا سيد، ح ٢٧٠٤) من حديث أبى بكره رضي الله عنه.

أخيه، وطلبه للخلافة، وانتصاره من بنى أمية. وقوله: «إنما السبيل على الذين يظلمون الناس» إشارة إلى بنى أمية، فإنهم استطالوا على الناس، كما فى الحديث: «إنهم جعلوا عباد الله خولاً، ومال الله دُولاً، فيكفيك من ظلمهم أنهم كانوا يلعنون على بن أبى طالب على منابرهم». وقوله: «ولمن صبر وغفر» إشارة إلى صبر أهل بيت النبى ﷺ على ما نالهم من الضر والذل، طول مدة بنى أمية. (١) هـ.

الإشارة: قوله تعالى: «فما أوتيتم من شئٍ فمتاع الحياة الدنيا» أى: وينقص من درجاتكم فى الآخرة بقدر ما تمتعتم به، كما فى الخبر، ولذلك زهد فيه بقوله: «وما عند الله خير وأبقى..» الآية، أى: وما عند الله من الثواب الموعود خير من هذا القليل الموجود. «والذين يجتنبون كبائر الإثم» هى أمراض القلوب، كالحسد والكبر والرياء وغيرها، «والفواحش» هى معاصى الجوارح كالزنا وغيره. وقوله تعالى: «وإذا ما غضبوا هم يغفرون» لم يقل الحق تعالى: والذين لم يغضبوا؛ لأن الغضب وصف بشرى، لا ينفك عنه مخلوق، فالمطلوب المجاهدة فى دفعه، ورد ما ينشأ عنه، لا زواله من أصله، فعدم وجوده فى البشر أصلاً نقص، ولذلك قال الشافعى رحمه الله: «من استغضب ولم يغضب فهو حمار، فالشرف هو كظمه بعد ظهوره، لازواله بالكلية.

وقوله تعالى: «والذين استجابوا لربهم» قال القشيري: المستجيب لربه هو الذى لا يبقى له نفس إلا على موافقة رضاه، ولا يبقى لهم منه بقية، «وأمرهم شورى بينهم» أى: لا يستبد أحدهم [أحدهم] (٢) برأى، ويتهم رأيه وأمره، ثم إذا أراد القطع توكل على الله. هـ.

وحاصل ما اشتملت عليه الآية فى رد الغضب: أربع مقامات؛ الأول: قوم من شأنهم الغفران مطلقاً، قدروا أو عجزوا، لا يتحركون فى الانتصار قط، وهو قوله تعالى: «وإذا ما غضبوا هم يغفرون» والثانى: قوم قادرون على إنفاذ الغضب، فتحركوا فى الانتصار، ثم عفوا بعد الاقتدار، وهذا قوله: «والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون»، ثم قال: «فمن عفا وأصلح فأجره على الله». والثالث: قوم قدروا وانتصروا، وأخذوا حقهم، لكن وقفوا عند ما حد لهم، وهو قوله: «ولمن انتصر بعد ظلمه..» الآية. والرابع: قوم ظلموا، فعفوا، وزادوا الإحسان إلى من أساء إليهم، والدعاء له بالمغفرة، حتى يصير مرحوماً بهم، وهى رتبة الصديقية، أن ينتفع بهم أعداؤهم، وهو قوله تعالى: «ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور»، ولذلك جعل الله هذا القسم من عزم الأمور.

(١) على هامش النسخة الأم ما يلى: قلت: هذا التفسير الذى نقله عن ابن جزى بإسناد، يجل كلام الله تعالى عنه، والأحاديث التى ذكرها كلها موضوعة، ماعدا: «لو وزن إيمان أبى بكر..» و«ما عدا حديث: أنا مدينة العلم، وعلى بابها..» (٢) ما بين المعقوفين مستدرك من لطائف الإشارات.

وعند الصوفية: ثلاث طبقات: العامة ينتصرون، والخاصة لا ينتصرون، لكن يرفعون أمرهم إلى الله في أخذ حقهم من ظالمهم، وخاصة الخاصة يحسنون لمن أساء إليهم، كما تقدم. وقال القشيري: «والذين إذا أصابهم البغي» وهو الظلم، ينتصرون؛ لعلمهم أن الظلم أصابهم من قبل أنفسهم، فينتصرون من الظالم، وهو النفس، ويكبحون عنانها من الركض في ميدان المخالفة. ثم قال: قوله: «ولمن انتصر..» الآية، علم الله أن من عباده من لا يجد الحرية من أحكام النفس، ولا يستمكن من محاسن الخلق، فرخص لهم في المكافأة على سبيل العدل والقسط، وإن كان الأولى بهم الصفح والعفو. هـ.

ثم ذكر وبال الظلم وعقوبته، فقال:

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ۖ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ۚ ﴾ (٤٤) وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ۚ ﴾ (٤٥) وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ۚ ﴾ (٤٦) أَسْتَجِبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ ۚ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ۚ ﴾ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۚ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِتَارَ حِمَّةٍ فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ۚ ﴾ (٤٨)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ۚ ﴾ أى: فما له من أحد يلى هدايته من بعد اضلال الله إياه، ويمنعه من عذابه. ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ ۚ ﴾ يوم القيامة، وهم الذين أضلهم الله، ﴿ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ۚ ﴾ حين يرون العذاب، وأتى بصيغة الماضى للدلالة على تحقيق الوقوع، ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ ۚ ﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿ مِنْ سَبِيلٍ ۚ ﴾ حتى تؤمن ونعمل صالحاً.

﴿وتراهم يُعرضون عليها﴾ ؛ على النار، يدلّ عليها ذكر العذاب . والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية ﴿خاشعين من الذل﴾ ؛ متذللين متضائلين مما دهاهم، فالخشوع: خفض البصر وإظهار الذل، ﴿ينظرون﴾ إلى النار ﴿من طرف خفي﴾ ضعيف بمسارقة، كما ترى المصّبور ينظر إلى السيف عند إرادة قتله. ﴿وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم﴾ بالتعرض للعذاب الخالد ﴿يوم القيامة﴾ ، و«يوم»: متعلق بخسروا . وقول المؤمنين واقع في الدنيا. ويقال، أى: يقولونه يوم القيامة، إذا رأوهم على تلك الصفة: ﴿ألا أن الظالمين في عذابٍ مقيم﴾ ؛ دائم، ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم﴾ برفع العذاب عنهم ﴿من دون الله﴾ حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا، ﴿ومن يضل الله فما له من سبيل﴾ إلى النجاة .

﴿استجيبوا لربكم﴾ إلى ما دعاكم إليه على لسان نبيه، ﴿من قبل أن يأتى يوم﴾ أى : يوم القيامة ﴿لامردّ له من الله﴾ أى: لا يرده الله بعد ما حكم بمجيئه، ف«من» متعلق ب«لامرد»، أو: ب«يأتى» أى: من قبل أن يأتى من الله يوم لا يقدر أحد على رده، ﴿مالكم من ملجأ يومئذ﴾ أى: مفر تلتجئون إليه، ﴿ومالكم من نكير﴾ أى: وليس لكم إنكار لما اقترفتموه؛ لأنه مدون فى صحائف أعمالكم، وتشهد عليكم جوارحكم .

﴿فإن أعرضوا﴾ عن الإيمان ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ ؛ رقيباً، تحفظ أعمالهم، وتحاسبهم، ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ ؛ ما عليك إلا تبليغ الرسالة، وقد بلغت، وليس المانع لهم من الإيمان عدم التبليغ، وإنما المانع: الطغيان وبطر النعمة، كما قال تعالى: ﴿وإنّا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة﴾ أى: نعمة من الصحة، والغنى، والأمن، ﴿فرح بها﴾ وقابلها بالبطر، وتوصل بها إلى المخالفة والعصيان . وأريد بالإنسان الجنس، لقوله تعالى: ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ ، بلاء، من مرض، وفقر، وخوف، ﴿بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ ؛ بليغ الكفر، ينسى النعمة رأساً، ويذكر البلية، ويستعظمها، بل يزعم أنها أصابته من غير استحقاق .

وأفرد الضمير فى (فرح) مراعاة للفظ، وجمعه فى «تصبهم» مراعاة للمعنى . وإسناد هذه الخصلة إلى الجنس مع كونها من خواص الجنس، لغلبتها فيهم . وتصدير الشرطية الأولى بإذا، مع إسناد الإذاقة إلى نون العظمة؛ للتنبيه على أن إيصال الرحمة محقق الوجود، كثير الوقوع، وأنه مراد بالذات، كما أن تصدير الثانية بأن، وإسناد الإصابة إلى السيئة، وتعليلها بأعمالهم؛ للإيدان بندرة وقوعها، وأنها غير مرادة بالذات، وإن رحمتى سبقت غضبى . ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم . قاله أبو السعود .

الإشارة: من تنكبته العناية السابقة، وأدركته الغواية اللاحقة، لم يرفع فيه وعظ ولا تذكير، وليس له من عذاب الله ولى ولا نصير، فإذا تحققت الحقائق، وطلب الرجوع، لم يجد له سبيلاً، وبقي فى الهوان خاشعاً ذليلاً، فيغيرهم

من سبقت لهم العناية، من أهل الجد والتشمير، ويقولون: هؤلاء الذين خسروا أنفسهم، حيث لم يتعبوها في مرضاة الله، وأهليهم، حيث لم يذكرهم الله.

قال القشيري: قوله تعالى: ﴿استجيبوا لربكم﴾ بالوفاء بعهدده، والقيام بحقه، والرجوع من مخالفته إلى موافقته، والاستسلام في كل وقت لحكمه والطريق اليوم إلى الاستجابة مفتوح، وعن قريب سيفلق الباب على القلب بغنة، ويؤخذ قلته. هـ. ويقال لكل واعظ وداع: ﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً...﴾ الآية.

ثم بين وجه ما تقدم، من أن الأمور كلها بيده، هداية وإضلالاً، وإنعاماً وإبتلاء، فقال:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يَزُوجَهُمْ ذُكْرًا أَوْ إِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لله ملك السموات والأرض﴾ أى: يملك التصرف فيهما، وفي كل ما فيهما، كيف يشاء، ومن جملة: أن يقسم النعمة والبلية، حسبما يريد. ﴿يخلق ما يشاء﴾ مما يعلمه الخلق ومما لا يعلمونه، ﴿يهب لمن يشاء إناثاً﴾ من الأولاد ﴿ويهب لمن يشاء الذكور﴾ منهم، من غير أن يكون لأحد في ذلك مدخل، ﴿أو يزوجهم﴾ أى: يقرن بين الصنفين، ويهبهما جميعاً ﴿ذكراناً وإناثاً﴾، بأن تلد غلاماً ثم جارية، أو تلدهما معاً. ﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾ لا نسل له. والعقيم: الذى لا يولد له، رجل أو امرأة.

وقدّم الإناث أولاً على الذكور؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء، لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم، أو: لأن الكلام فى البلاء، والعرب تعدهن عظيم البلايا، أو: تطيب قلوب آبائهن، ولما أحر الذكور. وهم أحقاء بالتقديم. تدارك ذلك بتعريفهم؛ لأن التعريف تنويه وتشريف، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين ما يستحقه من التقديم والتأخير، فقال: ﴿ذكراناً وإناثاً﴾. وقيل المراد: أحوال الأنبياء - عليهم السلام - حيث وهب لشعيب ولوط إناثاً، وإبراهيم ذكوراً، وللنبي ﷺ ذكوراً وإناثاً، وجعل يحيى وعيسى عقيمين. ﴿إنه عليم قدير﴾ مبالغ فى العلم والقدرة، فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة.

الإشارة: يهب لمن يشاء إناثاً، علوماً وحسنات، ويهب لمن يشاء الذكور، أذواقاً وواردات، ويجعل من يشاء عقيماً، لا علم ولا ذوق، وانظر لطائف المنن^(١). أو تقول: يهب لمن يشاء إناثاً؛ من ورث علم الرسوم الظاهر،

(١) للشيخ أحمد بن عطاء السكندري. باب تبيان معنى آيات كتاب الله تعالى ص ١٦٦.

وأقيمت بعده، ويهب لمن يشاء الذكور؛ من ورث علم الأذواق والوجدان، وعمر رجالاً، أو يزوجهم؛ من ورثهما، ويجعل من يشاء عقيماً لم يترك وارثاً، لا من الظاهر، ولا من الباطن، وقد يكون كاملاً وهو عقيم، وقد يكون غير كامل وله أولاد كثيرة، لكن الغالب على من له أولاد أن يتسع بهم، بخلاف العقيم. والله تعالى أعلم.

ثم قرر عظمة ملكه، فقال:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما كان لبشر ﴾ أى: ما صح لأحد من البشر ﴿ أن يكلمه الله ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ إلا وحيًا ﴾؛ إلهامًا، كقوله عليه الصلاة والسلام: «ألقي في روعي»^(١) أو: رؤيا في المنام لقوله ﷺ: «رؤيا الأنبياء وحي»^(٢) كأمر إبراهيم عليه السلام بذبح الولد، وكما أوحى إلى أم موسى، روى عن مجاهد: «أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام» في صدره. ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ بأن يسمع كلاماً من الله، من غير رؤية السامع من يكلمه، كما سمع موسى عليه السلام من الشجرة، ومن الفضاء في جبل الطور، وليس المراد به حجاب الله تعالى على عبده حساً؛ إذ لا حجاب بينه وبين خلقه حساً، وإنما المراد: المنع من رؤية الذات بلا واسطة.

﴿ أو يرسل رسولاً ﴾ أو: بأن يرسل ملكاً ﴿ فيوحى ﴾ الملك ﴿ بإذنه ﴾؛ بإذن الله تعالى وتيسيره ﴿ ما يشاء ﴾ من الوحي. وهذا هو الذي يجرى بينه تعالى وبين أنبيائه في عامة الأوقات. روى: أن اليهود قالت للنبي ﷺ: ألا تكلم الله، وتنظر إليه إن كنت نبياً، كما كلمه موسى، ونظر إليه؟ فقال ﷺ: «لم ينظر موسى إلى الله تعالى، فنزلت»^(٣).

(١) ورد: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها...» الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢٧/١٠) من حديث أبي أمامة عليه السلام. وجاءت كلمة «ألقي في روعي» بنصها عن أبي سعيد الخدري في حديث الرقية بالفاتحة، ذلك عندما قال الرسول ﷺ: «وما يدريك أنها رقية؟» فقال أبو سعيد: «ألقي في روعي». الحديث أخرجه أحمد (٥٠/٣).

(٢) أخرجه البخاري في (الوضوء، باب التخفيف في الوضوء، ١٣٨) عن عبيد بن عمير (تابعي) موقفاً، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢٨٩/١): «رواه مسلم مرفوعاً».

(٣) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف (ص ١٤٦): «لم أجده».

والذى عليه جمهور المحققين أن نبينا عليه الصلاة والسلام رأى ربه ليلة المعراج، وكلمه مشافهة، وعليه حمل البيضاوى قوله تعالى: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾؛ لأن الوحي هو: الكلام الخفى، المدرك بصرعة، أعم من أن يكون مشافهة أو غيرها.

قال الطيبي: وإذا حمل الوحي على ما قاله البيضاوى، وأنه المشافهة، المعنى بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (١) اتجه ترتيب الآية، وأنه ذكر أولاً الكلام بلا واسطة، بل مشافهة، وهو حال نبينا ﷺ، ثم ذكر ما كان بغير واسطة، ولكن لا بمشافهة، بل من وراء الغيب، ثم ذكر الكلام بواسطة الإرسال (٢). هـ. بالمعنى.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾؛ متعال عن صفات المخلوقين، لا يتأتى جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم إلا بأحد الوجوه المذكورة، ولا تكون المكافحة إلا بالغيبة عن حس البشرية، ﴿حَكِيمٌ﴾ يجرى أفعاله على سنن الحكمة، فيكلم تارة بواسطة، وأخرى بدونها، مكافحة، أو غيرها.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أى: ومثل ذلك الإحياء البديع - كما وصفنا ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وهو القرآن، الذى هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان، فحييت الحياة الأبدية. ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ قبل الوحي ﴿مَا الْكِتَابُ﴾ أى شىء هو، ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ بما فى تضاعيف الكتاب من الأمور التى لا تهتدى إليها العقول، لا الإيمان بما يستقل به العقل والنظر، فإن درايته ﷺ مما لا ريب فيه قطعاً. قال القشيري: ما كنت تدري قبل هذا ما القرآن ولا الإيمان بتفصيل هذه الشرائع. وقال الشيخ البكري: أى الإيمان على الوجه الأخص، المرتب على تنزلات الآيات، وتلاوة البينات، واستكشاف وجه الحق بأنوار العلم المنزل على قلبه من حضرة ربه. هـ.

وقال ابن المنير: الإيمان برسالة نفسه، وهو المنفى عنه قبل الوحي؛ لأن حقيقة الإيمان: التصديق بالله وبرسوله. هـ.

﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أى: الروح الذى أوحيناه إليك ﴿نُورًا نَهْدِي بِهِ مِنْ نِّشَاءٍ﴾ هدايته ﴿مِّنْ عِبَادِنَا﴾، وهو الذى يصرف اختياره نحو الاهتداء به. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ بذلك النور من نشاء هدايته، أو: وإنك لتدعو ﴿إِلَىٰ

(١) الآية: ١٠ من سورة النجم.

(٢) على هامش النسخة الأساسية مايلى:

وعلى كلام البيضاوى يخل نظام القرآن المعجز ببلاغته، إذ معناه: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا كلاماً مواجهة أو من وراء حجاب.. إلخ، وهذا غير معقول صدوره من بلغاء البشر، فضلاً عن كلام الله، فأعجب للطبيي والمؤلف، ولكل من أمره على هذا المعنى المختل. هـ.

صراط مستقيم ﴿ هو الإسلام وسائر الشرائع والأحكام، ﴿ صراط الله ﴾ ؛ بدل من الأول، وإضافته إلى الاسم الجليل، ثم وصفه بقوله تعالى: ﴿ الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ لتفخيم شأنه، وتقرير استقامته، وتأكيد وجوب سلوكه ؛ فإن كون جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى، خلقاً، ملكاً، وتصرفاً، مما يوجب ذلك أتم الإيجاب. ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ أى: الأمور قاطبة راجعة إليه، لا إلى غيره، فيتصرف فيها على وفق حكمته ومشيلته.

الإشارة: قد تحصل للأولياء المكاملة مع الحق تعالى بواسطة تجلياته، فيسمعون خطابه تعالى من البشر والحجر، أو بلا واسطة، بحيث يسمعون الكلام من الفضاء، وإليه أشار الشيخ أبو الحسن رحمته بقوله: «وهب لنا مشاهدة تصحبها مكاملة»، ولا تكون هذه الحالة إلا للأكابر من أهل الفناء والبقاء. وأما مكاملة الحق من النور الأقدس، بلا واسطة، فهو خاص نبينا عليه السلام ليلة الإسراء. قال شيخ شيوخنا، سيدى عبدالرحمن الفاسى رحمته: والذي عندى أن التكلم على المكافحة والمشافهة إنما يكون بالانخلاع عن البشرية، ومحوها، والبقاء بصفات الربوبية، وذلك إشارة إلى أنه - عليه السلام - إنما شُوفه وكلم بعد العروج عن أرض الطبيعة إلى سماء الحقيقة، وكان بالأرض يكلم بالواسطة، وموسى كُلم بغير واسطة، ولكن بغير مشافهة، ولذلك كان كلامه بالأرض، ولم يعط الرؤية؛ لأنها لا تكون فى الأرض، أى: فى أرض البشرية، بل لا بد من الغيبة عنها. وذهب الورتجى إلى أن الحصر فيما ذكر فى الآية إنما هو لمن كان فى حجاب البشرية، فأما من خرج عنها إلى الغيب، وألبس نور القرب وكحل عينه بنوره تعالى، ومدّ سمعه بقوة الربوبية، فإنه يُخاطب كفاً وعياناً. ونقل مثل ذلك عن الواسطى، فراجع بسطه فيه. والفرق بينه وبين ما ذكرنا: أن خطاب المكافحة عنده خارجة من الثلاثة المذكورة فى الآية، وعندنا داخلة فى قوله: ﴿إلا وحياً﴾؛ لأنه أعم من المشافهة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وانك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ أى: طريق الوصول والترقى أبداً، فيؤخذ منه: أن وساطته عليه السلام لا تنقطع عن المرید أبداً؛ لأن الترقى يكون باستعمال أدب العبودية، وهى مأخوذة عنه عليه السلام، وكما أن الترقى لا ينقطع؛ فالأدب - الذى هو سلوك طريقته عليه السلام لا ينقطع. والله تعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.



سُورَةُ الْخُرُوفِ

مكية. وهي تسع وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب...﴾ (١) إلخ، مع قوله: ﴿والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾، فإنه تتميم له.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ۝٥﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿حَمْدٌ﴾؛ يا محمد، ﴿و﴾ حق ﴿الكتاب المبين﴾ أي: المبين لما أنزل عليهم، لكونه بلغتهم، وعلى أساليبهم، أو: الموضح لطريق الهدى من الضلالة، أو: المبين لكل ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة. وجواب القسم: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾ بلغتكم ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي: جعلنا ذلك الكتاب قرآناً عربياً لكي تفهموه، وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق، والمعنى الفائق، وتقفوا على ما تضمنه من الشواهد القاطعة بخروجه عن طوق البشر، وتعرفوا حق النعمة في ذلك، فتقطع أعذاركم بالكلية.

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا﴾ أي: وإن القرآن العظيم مثبت عند الله في اللوح المحفوظ، دليله قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (٢). وسمى أم الكتاب؛ لأنه أصل الكتب السماوية، منه تُنقل وتُنسخ. وقوله تعالى: ﴿لَعَلِّي﴾ خبر ﴿إن﴾ أي: إنه رفيع القدر بين الكتب، شريف المنزلة؛ لكونه معجزاً من بينها. أو: في أعلى طبقات البلاغة. ﴿حَكِيمٌ﴾؛ ذو حكمة بالغة. أو: محكم، لا ينسخه كتاب.

وبعد ما بين علو شأنه، وبين أنه أنزله بلغتهم؛ ليعلموه، ويؤمنوا به، ويعملوا بما فيه، عَقَّبَ ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه، فقال: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ﴾ أي: ننحيه ونُبْعده. والضرب: مجاز، من قولهم: ضرب الغرائب

(١) الآية ٥٢ من سورة الشورى.

(٢) الآيتان: ٢١ - ٢٢ من سورة البروج.

عن الحوض^(١) . وفيه إشعار باقتضاء الحكمة توجيه الذكر إليهم، وملازمته لهم، كأنه يتهافت عليهم ثم يضربه عنهم . والفاء: للعطف على محذوف، أي: أنهتمكم فنضرب عنكم الذكر ﴿صَفْحًا﴾ أي: إعراضاً، مصدر، من: صَفَحَ عنه: إذا أعرض، منصوب على أنه مفعول له، على معنى: أفنعزل عنكم إنزال القرآن، والزام الحجة به إعراضاً عنكم . ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لما دلَّ عليه «نضرب»؛ لأنه في معنى الصفح، كأنه قيل: أفنفصح صفحاً ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾، أي: لأن كنتم ملهمكين في الإسراف، مصترين عليه؛ لأن حالكم اقتضى نهيكم وشأنكم، حتى تموتوا على الكفر والضلالة، فتبقوا في العذاب الخالد، لكن بسعة رحمتنا لا نفعل ذلك، بل نهديكم إلى الحق، بإرسال الرسول الأمين، وإنزال الكتاب المبين .

ومن قرأ بالكسر^(٢) فشرط حذف جوابه؛ لدلالة ما قبله عليه، وهو من الشرط الذي يصدر عن الجازم بصحة الأمر، كما يقول الأجير: إن كنت عملت لك فوقتي حتى، وهو عالم بذلك . وعبر بـ «أن»؛ إخراجاً للمحقق مخرج المشكوك؛ لاستهجالهم^(٣)، كأن الإسراف من حقه ألا يقع .

الإشارة: (حم) أي: حبيبناك، ومجدناك، وملكناك، وحق الكتاب المبين . ثم استأنف فقال: (إنا جعلناه) أي: ما شرفناك به أنت وقومك (قرآنًا عربيًا) يفهمه من يسمعه (لعلكم تعقلون) عن الله، فتشكروا نعمه . (وإنه في أم الكتاب) أي: وإن الذي شرفناكم به في أم الكتاب . قال الورتجبي: أي: إنه صفتي، كان في ذاته^(٤) منزهاً عن النقائص والافتراق . أي: منزهاً عن الحروف والأصوات، التي من شأنها التغير، وعن التقديم والتأخير، وهو افتراق كلمائه . إذ هما من صفات الحدث . وأم الكتاب عبارة عن [ذاته القديم، لأنها]^(٥) أصل جميع الصفات، (لدينا) معناه: ما ذكرنا أنه في أم الكتاب عندنا (لعلّ) علا عن أن يدركه أحد بالحقيقة، ممتنع من انتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، (حكيم) محكم مبين . وقال جعفر: عليّ عن درك العباد وتوهمهم، حكيم فيما دبّر وأنشأ وقدره . فانظره، فإن هذه من صفات الحق، والكلام في أوصاف القرآن .

وقوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا...﴾ الآية، قال القشيري: وفي هذه إشارة لطيفة، وهو: ألا يقطع الكلام عمّن تمادى في عصيانه، وأسرف في أكثر شأنه، [فأحرى]^(٦) أن من لم يقصر في إيمانه، أو تلطّخ

(١) الغرائب: جمع غريبة، وهي الإبل الغريبة عن إبل صاحب الحوض .

(٢) قرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، إن كنتم، بكسر الهمزة، على أنها شرطية . وقرأ الباقر بالفتح على الטה . انظر الإتاعف (٤٥٣/٢) .

(٣) في الأصول (لاستهجانهم) والمثبت من تفسير أبي السعود .

(٤) في الورتجبي (ذاتي) .

(٥) في الأصول (أرجوا) .

(٦) في الورتجبي: [ذات القدم لأنه] .

بعصيانه، ولم يَدْخُلْ خَلًّا فِي عِرْفَانِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَمْنَعُ عَنْهُ رُؤْيَا لَطَائِفِ غَفْرَانِهِ هـ. يعنى: أن الحق جل جلاله لم يقطع كلامه عن تمادى فى ضلاله، فكيف يقطع إحسانه عن تمسك بإيمانه، ولو أكثر من عصيانه. وكذلك أهل النسبة الصوفية، إذا أعوج أخوهم، لا يقطعون عنه كلامهم وإحسانهم، بل يلاطفونه، حتى يرجع، وهذا مذهب الجمهور.

ثم سلى نبيه بمن قبله، فقال:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وكم أرسلنا﴾ أى: كثيراً أرسلنا قلبك ﴿من نبي في الأولين﴾؛ فى الأمم الماضية، فكذبوهم واستهزؤوا بهم. ﴿وما يأتىهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون﴾، فاصبر كما صبروا. ويحتمل أن يكون تقريراً لما قبله؛ لبيان أن إسراف الأمم السابقة لم يمنعه تعالى من إرسال الرسل إليهم، وكونها تسليية للرسول ﷺ أظهر. ﴿فأهلكنا أشد منهم بطشاً﴾ أى: فأهلكنا من الأمم السالفة من كان أكثر منهم طغياناً وإسرافاً، ﴿ومضى مثل الأولين﴾ أى: سلف فى القرآن غير مرة ذكر قصة الأولين، وهى عدة له ﷺ، ووعيد لقومه، بطريق الأولوية. فمثل ما جرى على الأولين يجرى على هؤلاء؛ لاشتراكهم فى الوصف. وظاهر الآية: أن النبي والرسول واحد، والمشهور: أن النبى أعم، فكل رسول نبي، ولا عكس، فالنبي مقصور فى الحكم على نفسه، والرسول نبي مكلف بالتبليغ.

الإشارة: مأسيت به الأنبياء والرسل يسلى به الأولياء؛ لأنهم خلفاؤهم، فكل من أودى واستهزئ به يتذكر ما جرى على من كان أفضل منه من الأنبياء وأكابر الأولياء، فيخف عليه الأذى. وبالله التوفيق.

ثم ذكر إقرارهم بوجود الصانع، فقال:

﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ

تُخْرِجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾
لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ
لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولئن سألتهم﴾ أي: المشركين ﴿من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ أي: ينسبون خلقها إلى من هذا وصفه في نفس الأمر؛ لا أنهم يعبرون عنه بهذا العنوان. واختار هذين الرصفين للإيدان بانفراده بالإبداع والاختراع والتدبير؛ لأن العزة تؤذن بالعلية والاقتدار، والعلم يؤذن بالتدبير والاختيار، وليرتب عليه ما يناسبه من الأوصاف، وهو قوله: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهاداً﴾ (١) أي: موضع قرار كالمهد المعلق في الهواء، ﴿وجعل لكم فيها سبلاً﴾ تسلكونها في أسفاركم ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي: لكي تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم، أو: بالتدبر فيها إلى توحيد ربكم، الذي هو المقصد الأصلي.

﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر﴾؛ بمقدار يسلم معه العباد، وتحتاج إليه البلاد، على ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح، ﴿فأنشأنا به﴾ أي: أحيينا بذلك الماء ﴿بلدة ميثاً﴾ خالياً عنه الماء والنبات. وقرئ: «ميثاً، بالتشديد» (٢). وتذكيره؛ لأن البلدة بمعنى البلاد. والالتفات إلى نون العظمة؛ لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظيم خطره، ﴿كذلك تخرجون﴾ أي: مثل ذلك الإحياء، الذي هو في الحقيقة: إخراج النبات من الأرض، تخرجون من قبوركم أحياء. وفي التعبير عن إخراج النبات بالإنشاء، الذي هو إحياء الموتى، وعن إحيائهم بالإخراج؛ تفخيم لشأن الإنبات، وتهوين لأمر البعث، لتقويم سنن الاستدلال، وتوضيح منهاج القياس.

وهذه الجمل، من قوله ﴿الذي جعل...﴾: استئناف منه تعالى، وليست من مقول الكفار؛ لأنهم ينكرون الإخراج من القبور، بل الآية حجة عليهم في إنكار البعث، وكذا قوله: ﴿والذي خلق الأزواج كلها﴾، أي: أصناف المخلوقات بحذاقيرها، على اختلاف أنواعها وألوانها. وقيل: الأزواج: ما كان مزدوجاً، كالذكر والأنثى، والفرق والتحت، والأبيض والأسود، والحلو والحامض، وقيل: كل ما ظهر من الغيب فهو مزدوج. والفرد هو الله.

(١) أثبت المفسر قراءة: «مهاداً» بكسر الميم وفتح الهاء، وألف بعدها، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو، وابن عامر. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «مهداً» بفتح الميم وسكون الهاء، مع القصر.

(٢) وبذلك قرأ أبو جعفر.. انظر الإتحاف (٢/٤٥٤).

﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ أى: ما تركبونه، يقال: ركبوا فى الفلك، وركبوا الأنعام، فغلب المتعدى بغير واسطة؛ لقوته [على] (١) المتعدى بواسطة، ففعل: تركبونه.

﴿لستبشروا على ظهوره﴾: ولتستعملوا على ظهور ما تركبونه من الفلك والأنعام، ﴿ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾: تذكروها بقلوبكم، معترفين بها بألسنتكم، مستعظمين لها، ثم تحمدوا عليها بألسنتكم، ﴿وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا﴾ أى: ذل لنا هذا المركوب، متعجبين من ذلك ﴿وما كنا له مقرنين﴾؛ مطيقين. يقال: أقرن الشئ: إذا أطاقه، وأصله: وجده قرينه؛ لأن الصعب لا يكون قريناً للضعيف إلا إذا ذلله الله وسهله، ﴿وانأ إلى ربنا لمقلبون﴾ أى: راجعون. وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يذكر عند ركوبه مركب الدنيا، آخر مركبه منها، وهو: الجازاة؛ فيبنى أموره فى مسيره على تلك الملاحظة، حتى لا يخطر بباله شئ من زينة الدنيا، وملاهيها وأشغالها.

وعن النبى ﷺ أنه كان إذا وضع رجله فى الركاب، قال: «بسم الله، فإذا استوى على الدابة قال: «الحمد لله الذى سخر لنا هذا...» إلى: «منقلبون»، ثم كبر ثلاثاً، وهلل ثلاثاً، ثم قال: «اللهم اغفر لى...» (٢)، وحكى أن قوماً ركبوا، وقالوا: «سبحان الذى سخر لنا هذا...» الآية، وفيهم رجل على ناقة لا تتحرك هزلاً، فقال: إني مقرن لهذه - أى مطيق - فسقط منها لوثبتها، واندقت عنقه (٣). وينبغى ألا يكون ركوب العاقل للشهرة والتلذذ، بل للاعتبار، فيحمد الله ويشكره على ما أولاه من نعمه، وسخر له من أنعامه.

الإشارة: قد اتفقت الملل كلها على وجود الصانع، إلا من لا عبرة به من الفلاسفة، وإنما كفر من كفر بالإشراك، أو: بوصف الحق على غير ما هو عليه، أو: بجحد الرسول. وقد تواطأت الأدلة العقلية والسمعية على وجود الحق وظهوره، بظهور آثار قدرته، والصفة لا تفارق الموصوف، فدل بوجود آثاره على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه، على وجود أوصافه، وثبوت أوصافه على وجود ذاته. فأهل السلوك يكشف لهم أولاً عن وجود آثاره، ثم عن أسمائه، ثم عن صفاته، ثم عن شهود ذاته. وأهل الجذب يكشف لهم أولاً عن ذاته، ثم عن أوصافه، ثم عن أسمائه، ثم عن آثاره، فربما التقيا فى الطريق، هذا فى ترقيه، وهذا فى تدليه، كما فى الحكم.

(١) فى الأصول (فى) والمثبت من تفسير اللسفى.

(٢) أخرجه، مطولاً، أبو داود فى (الجهاد، باب ما يقول الرجل إذا ركب ٣ / ٧٧، ح ٢٦٠٢) والترمذى فى (الدعوات، باب ما يقول إذا ركب دابة ٥ / ٤٦٧ ح ٣٤٤٦). وقال: [حديث حسن صحيح]. وابن حبان (الأذكار، باب ما يقول إذا ركب الدابة ح ٢٣٧٠ -

٢٣٨١، ص ٥٩١ موارد) والحاكم (٩١ / ٢) وصححه على شرط مسلم. من حديث سيدنا على ؓ وكرم وجهه.

(٣) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٧١٧ / ٥) لعبد بن حميد، وابن المنذر، عن سليمان بن يسار.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا...﴾ (١) الخ، قال القشيري: كما جعلها قَرَارًا لأشباحهم، جعل الأشباح قَرَارًا لأرواحهم؛ فهي سُكَّانُ النفوس، كما أن الخلق سُكَّانُ الأرض، فإذا انتهت مدة كَوْنِ النفوس، حَكَمَ اللهُ بخرابها.. كذلك إذا فارقت الأرواحُ الأشباحَ بالكلية، قضى الله بخرابها.

ثم قال في قوله: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾: وكما يُحْيِي الأرضَ بالمطرِ يُحْيِي القلوبَ بحسنِ النظر. والذي خلق من الأزواج أصنافَ الخلق، كذلك حبس عليكم الأحوال كلها، فمن رغبة في الخيرات، وخوفٍ يحملكُم على تركِ الزلات، ورجاءٍ يبعثكم على فعل الطاعات، طمعاً في الثوابات، وغير ذلك من فنون الصفات، وكما سَخَّرَ الأنعام، وأعظمَ المنَّةَ بذلك، سَخَّرَ للمؤمنين مركبَ التوفيق، يحملهم عليه إلى بساطِ الطاعة، وسَهَّلَ للمريدين مركبَ الإرادة، وحملهم عليه إلى عَرَصاتِ الجود، وفضاءِ الشهود، وسَهَّلَ للعارفين مركبَ الهمة، فأنَاخُوا بالحضرة القدسية، وعند ذلك مَحَطُّ الكافة؛ ثم لا تخرق سرادقاتِ العزةِ همةٌ مخلوق، سواء كان ملكاً مَقْرَباً، أو نبيّاً مَرْسَلاً، أو وليّاً مَكْرَماً. فعند سطواتِ العِزِّ يتلاشى كلُّ مخلوقٍ، ويقف وراءها كلُّ مُحَدَّثٍ مسبورٍ. هـ. ببعض المعنى. وسرادات العز: حجاب الكبرياء، فلا تحصل الإحاطة بكنه الربوبية لأحدٍ من الخلق. ولهذا يبقى الترقى أبداً للعارفين، في هذه الدار، وفي تلك الدار، ولا يحصل على غاية أسرار الربوبية أحد، ولو بقي يترقى أبداً سرمداً. والله تعالى أعلم.

ثم أبطل مذهب أهل الشرك، فقال:

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانُ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يَنْشِؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وجعلوا﴾ أي: المشركين ﴿له من عباده جزءاً﴾ حيث قالوا: الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءاً له، وبعضاً منه، كما يكون الولد لوالده جزءاً. وهذا متصل بقوله ﴿ولئن سألتهم...﴾ الخ، أي:

(١) راجع التعليق على هذه القراءة في موضعها أثناء التفسير.

ولكن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به، وقد جعلوا له سبحانه بألسنتهم، واعتقادهم مع ذلك الاعتراف، من عباده جزءاً. وعبر بالجزء لمزيد استحالة في حق الواحد الأحد، من جميع الجهات. وقرأ أبو بكر وحماد بضميتين. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾؛ لجحود للعممة، ظاهر الكفران، مبالغ فيه؛ لأن نسبة الولد إليه أشنع الكفر. والكفر أصل الكفران كله.

ثم رد عليهم بقوله: ﴿أَمْ اتَّخَذَ مَا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾، الهمة للإنكار، تجهيلاً [وتعجبياً] (١) من شأنهم، حيث ادَّعوا أنه اختار لنفسه أخس الأشياء، ولهم الأعلى، أي: بل اتخذ لنفسه أخس الصنفين، واختار لكم أفضلهما؟ على معنى: هبوا أنكم اجترأتم إضافة جنس الولد إليه سبحانه، مع استحالة وامتناعه، أما كان لكم شيء من العقل، ونبذة من الحياء، حتى اجترأتم على التفوه بهذه العظيمة، الخارقة للمعقول، من ادعاء أنه تعالى أترككم على نفسه بخير الصنفين وأعلاهما، وترك له شرهما وأدناهما؟. وتكثير «بنات»، وتعريف «البنين»، لما اعتبر فيهما من الحقارة والفضامة.

وجملة: «وأصفاكم»؛ إما عطف على «اتخذ»، داخل في حكم [التعجب] (٢) والإنكار، أر: حال من فاعله، بإضمار قد، أر: بدونه، على الخلاف. والالتفات إلى الخطاب لتأكيد الإجماع وتشديد التوبيخ.

ثم قرره بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ أي: وإذا أخبر أحدهم بولادة ما جعل مثلاً له سبحانه، وهي الأنثى، لأنهم جعلوا الملائكة بنات الله، وجزءاً منه؛ إذ الولد لا بد أن يجانس الوالد ويشابهه. ﴿ظُلٌّ وَجْهٌ مُسْوَدٌّ وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعنى: أنهم نسبوا إليه هذا الجنس، ومن حالهم: أن أحدهم إذا قيل له: قد ولدت لك بنت، اغتم، واربد وجهه غيظاً وتأسفاً، وهو مملوء من الكرب. والظلول: بمعنى الصيرورة، أي: صار أسود في الغاية من سوء ما بشر به.

﴿أَوْ مَنْ يَنْشَأُ﴾ (٣) في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾ أي: أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته، وهو أنه ينشأ في الحلية، أي: يتربى في الزينة والتخنث، وإذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم، ومجارية الرجال، كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان؛ لضعف عقولهن. قال مقاتل: لا تتكلم المرأة إلا وتأتي بالحجة عليها. أي: في الغالب. وفيه: أنه جعل النشأ في الزينة من المعاييب. فعلى الرجل أن يجتنب ذلك، له ولأولاده، ويتزين بلباس التقوى. ومن: منصوب المحل، أي: أو جعلوا من يربى في الحلية. يعنى البنات - لله - عز وجل. وقرأ الأخوان وحفص: «يُنشَأ»، أي: يربى.

(٢) في الأصول [تعجباً].

(١) في الأصول [وتعجباً].

(٣) قرأ حفص وحمزة والكسائي: «يُنشَأ» بضم الياء، وفتح اللين، وتشديد الشين، مضارع «نشأ» معدي بالتضعيف، مبني للمفعول. وقرأ الباقر: بفتح الياء، وسكون اللين: وتخفيف الشين من «نشأ» لازم، مبني للفاعل. انظر الإتحاف (٢/٤٥٤).

﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عند (١) الرحمن إناثاً﴾ أى: اعتقدوا الملائكة وسموهم إناثاً. وهو بيان لتضمن كفرهم كفراً آخر، وتقريع لهم بذلك؛ وهو جعلهم أكمل العباد وأكرمهم على الله - عز وجل - أنقصهم رأياً. والعندية عندية منزلة ومكانة، لا مكان. ومن قرأ «عباد، فجمع «عبد»، وهو ألزم فى الاحتجاج مع أهل العناد لتضاد العبودية والولادة. ﴿أشهدوا خلقهم﴾ أى: أحضروا خلقهم، فشهدوا الله حين خلقهم إناثاً حتى يحكموا بأنوثتهم، فإن ذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة، وهو تجهيل لهم، وتهكم بهم. وقرأ نافع بهزتين، أى: أَلْحَضِرُوا خلقهم. ﴿سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمُ﴾ التى شهدوا بها على الملائكة من أنهم إناث، فى ديوان أعمالهم. ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عنها يوم القيامة، وقرئ: شهاداتهم وهى قولهم: إن الله جزءاً من خلقه، وإن لله بنات، وأنها الملائكة.

الإشارة: وجعلوا له من عباده جزءاً، أشركوا فى المحبة معه غيره، والمطلوب: أفراد المحبة للمحبيب، فلا يجب معه شيئاً. إن الإنسان لكفور مبين، حيث علم أن الحبيب الذى أنعم عليه واحد، وأنه غيور، لا يرضى لعبده أن يحب معه غيره.

قال القشيري: جعلوا الملائكة جزءاً على التخصيص من جملة مخلوقاته هـ. أى: جعلوا له جزءاً من عين الفرق، ولو نظروا بعين الجمع لرأوا الأشياء كلها متدفقة من بحر الجبروت. وفى الآية تحذير من كراهية البنات، حيث جعله من نعت أهل الكفر.

ثم أبطل شبهتهم، فقال:

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَنَيْنَافُ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ جُنُودُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

(١) أثبت المفسر قراءة «عند» باللون الساكنة وفتح الدال بلا ألف، ظرفاً، وتصديقه «إن الذين عند ربك...» الأعراف/ ٢٠٦. وهى قراءة ابن كثير ونافع، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي «عباد، بالألف. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٤ - ٤٥٥).

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَدِمَ عِبَادَتَنَا لِلْمَلَائِكَةِ ﴿٢﴾ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴿٣﴾، أَرَادُوا بِذَلِكَ بيان أن ما فعلوه مَرْضَىٰ عنده تعالى، ولولا ذلك ما خلى بينهم وبينها، ويجاب: بأنه تعالى قد يخلى بين العبد ومعصيته، لينفذ فيه ما سبق من درك الوعيد. وتعلقت المعتزلة بظاهر الآية في أن الله تعالى لم يشأ الكفر من الكافر، وإنما شاء الإيمان، فإن الكفار ادَّعَوْا أن الله شاء منهم الكفر، وما شاء منهم ترك عبادة الأصنام، حيث قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أى: لو شاء بنا أن نترك عبادة الأصنام لَمَنَعَنَا عن عبادتها، لكنه لم يشأ ذلك. والله تعالى ردَّ عليهم قولهم، واعتقادهم، بقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ﴾ القول ﴿مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: يكذبون، ومعنى الآية عندنا: أنهم أرادوا بالمشيئة: الرضا، وقالوا: لو لم يرض بذلك لعجل عقوبتنا، ولمنعنا من عبادتها مع قهر واضطرار، وإذا لم يفعل ذلك فقد رضى بذلك، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ...﴾ الآية. أو: قالوا هذا القول استهزاء، لا جدأ واعتقاداً، فأكذبهم وجهلهم حيث لم يقولوه اعتقاداً، كما قالوا ﴿أَنْطَعُمْ مِنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ (١). وهذا كلام حق أرادوا به باطلاً. انظر النسفى.

قلت: ما تمسكوا به من قوله: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ من الاحتجاج بالقدر، وهو لا ينفع فى هذه الدار، لأنه من التمسك بالحقيقة الخالية عن الشريعة، وهى بطلالة وزندقة، ولذلك ردَّهم الله تعالى إلى التمسك بالشريعة بقوله: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ﴾؛ من قبل القرآن، أو: من قبل ادعائهم ذلك، ينطق بصحة ما يدَّعون، ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾: آخذون.

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾: على دين وقلدناهم. والأمة فى الأصل: الطريقة التى تؤم وتُقصد ﴿وإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ أى: لم يأتوا بحجة عقلية ولا عقلية، ولا سند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم. والظرف: صلة لمهتدون، أو: هما خبران.

﴿وكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾؛ من نبيٍّ ﴿إِلَّا قَالَ مُتَرْفِئُوا﴾ أى: منعموها، وهم الذين أترفهم النعمة، أى: أبطرتهم، فلا يحبون إلا الشهوات والملاهى، ويعافون مشاق الدين وتكاليفه، قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾، وفيه تسلية للنبي ﷺ، وبيان أن التقليد فيهم ضلال قديم. وتخصيص المترفين بتلك المقالة؛ للإيذان بأن النعم بالشهوات، وحس البطالة، هو الذى صرفهم عن النظر إلى التقليد.

﴿قُلْ﴾ (٢)، هو حكاية لما جرى بين المنذرين وبين أممهم، عند تعللهم بتقليد آبائهم، أى: قيل لكل نذير وأرعى إليه: أن قل، وليس خطاباً لنبينا - عليه الصلاة والسلام - بدليل ما بعده من قوله: ﴿قَالُوا...﴾ الخ. وقيل:

(١) من الآية ٤٧ من سورة يس.

(٢) قرأ ابن عامر، وحفص، قال، على الخبر، والباقون قل، بغير ألف على الأمر. انظر الإتحاف (٢/٤٥٥).

خطاب له عليه الصلاة والسلام، فتكون الجملة معترضة بين قصة المتقدمين؛ لأن قوله: «قالوا، راجع للمتقدمين. وقرأ الشامي وحفص: ﴿قال﴾ أي: النذير: ﴿أولوا جنتكم﴾ أي: أتقنون بأبائكم ولو جنتكم ﴿بأهدى﴾؛ بدين أهدى ﴿مما وجدتم عليه آباءكم﴾ من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء؟ ﴿قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي: قالت كل أمة للذيرها: إنا ثابتون على ديننا، وإن جئتمونا بما هو أهدى وأهدى. وقد أجمل عند الحكاية؛ للإيجاز، كقوله: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾ (١).

﴿فانتقمنا منهم﴾؛ فعاقبناهم بما استحقوه على إصرارهم، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ من الأمم المذكورين، فلا تكثر بتكذيب قومك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم، تمسكوا بالحقيقة الظلمانية، الخالية عن التشريع، وهو كفر وزندقة، ولذلك رد الله عليهم بقوله: «أم آتيناهم كتاباً...» الخ، وترى كثيراً ممن خذله الله يقول: لو أراد الله هدايتي لهداني، ولا ينفع ذلك في هذه الدار، التي هي التكليف، بل يجب عليه النهوض، والقصد إلى ما أمر الله به، من حقوق العبودية، فإن منعه الأقدار فليُنظر إلى الواحد القهار، وإلا فالشقاء لازم له. وقد قالوا: من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق، ومن تشرع ولم يتحقق فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق. فالواجب: النظر إلى تصريف الحقيقة في الباطن، والتمسك بالشرعية في الظاهر. وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة...﴾ الآية، فيه توبيخ لمن تجمد على تقليد أسلافه، وقد ظهر من هو أهدى منهم، ففيه نزعة جاهلية، وحمية من حميتهم.

ثم برهن على بطلان التقليد الرديء، فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(١) من الآية ٥١ من سورة المؤمنون.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي: واذكر وقت قوله ﷺ ﴿لَأُبَيِّنَ وَقَوْمَهُ﴾ المُنْكِبِينَ على التقليد، كيف تبرأ مما هم فيه بقوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ أي: برىء ﴿مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾، وتمسك بالبرهان. وذكر قصته ليسلكوا مسلكه في الاستدلال، أو: ليقادوه، إن لم يكن لهم بُد من التقليد؛ فإنه أشرف آبائهم. ويراء: مصدر، يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع، والمذكر والمؤنث، كرجل عدل، وامرأة عدل، وقوم عدل. وهما: إما مصدرية، أو: موصولة، أي: برىء من عبادتكم ومن معبودكم ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ استثناء متصل، أو: منقطع، على أن «ما» نعم أولى العلم وغيرهم، وأنهم كانوا يعبدون الله تعالى والأصنام، أو: صفة، على أن «ما» موصوفة، أي: إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي ﴿فَطَرَنِي﴾؛ خلقني ﴿فَإِنَّهُ سَيَّهَدِينِ﴾؛ يثبتني على الهداية، أو: سيهدين إلى ما وراء الذي هداني إليه الآن. والأوجه: أن السين للتأكيد دون التسوييف، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿وجعلها﴾ أي: وجعل إبراهيم ﷺ كلمة التوحيد التي تكلم بها، وهي قوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾، ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ أي: في ذريته، حيث وصّاهم بها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ...﴾ (١)، فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى، ويدعوهم إلى توحيده. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: جعلها باقية في ذريته رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء المرحّد.

﴿بل تمتّ هؤلاء﴾، إضراب عن محذوف، ينساق إليه الكلام، كأنه قيل: جعلها كلمة باقية في عقبه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم، فلم يحصل ما رجاء، بل تمتّ هؤلاء المعاصرين من أهل مكة. ﴿وَأَبَاءَهُمْ﴾ بالمد في العمر، والنعمة، والمهلة، فاغترّوا بالمهلة، وانهمكروا في الشهوات، وشغلوا بها عن كلمة التوحيد، ﴿حتى جاءهم الحق﴾؛ القرآن ﴿ورسولٌ مبين﴾؛ ظاهر الرسالة، واضحا بالمعجزات الباهرة، أو: مبين التوحيد بالآيات والحجج القاطعة.

وفي الآية توبيخ لهم؛ فإن التمتع بزيادة النعم يوجب أن يجعلوه سبباً لزيادة الشكر، والثبات على التوحيد والإيمان، فجعلوه سبباً لزيادة أقصى مراتب الكفر والضلال.

وحاصل معنى الآية: أنه تعالى جعل كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم ﷺ ليدعو الموحد المشرك، نسلًا بعد نسل، فيرجع المشرك عن شركه، فلم يرجعوا، بل اغترّوا بما متّعوا به، فاستمروا على الشرك حتى جاءهم

(١) من الآية ١٣٢ من سورة البقرة.

الحق، فكفروا وأصروا، ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أى: القرآن يُبَيِّهُم على ما هم عليه من الغفلة، ويرشدهم إلى التوحيد، ازدادوا كفراً وعُتُوا، وضموا إلى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به، حيث ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ فسموا القرآن سحراً، وجحدوه ومن جاء به. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كان إبراهيم عليه السلام إمام أهل التوحيد، لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (١)، وجعل الدعوة إليه فى عقبه إلى يوم القيامة، وهو على قسمين؛ توحيد البرهان، وتوحيد العيان. وقد جاءت بعده الرسل بالأميرين معاً، وقام بها خلفاؤهم بعدهم، فقام بالأول العلماء، وقام بالثانى خواص الأولياء، أهل التربية الحقيقية، ولا يندال من توحيد العيان شيئاً من علق قلبه بالشهوات الجسمانية، والحظوظ الفانية، كما قال الششتري رحمه الله:

تَرْكُنَا حُظُوظًا مِنْ حَضِيضٍ لُحُوظَنَا مَعَ الْمَقْصِدِ الْأَقْصَى إِلَى الْمَطْلَبِ الْأَسْنَى

وكل من تمتع بذلك، وانهمك فيه حُرِمَ بركة صحبة العارفين؛ إذ يمنعه ذلك من حط رأسه، ودفع فلسه، فينخرط فى سلك قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَأَبَاءَهُمْ...﴾ الآية. وكل زمان له رسول، خليفة عن الرسول ﷺ يدعو إلى الحق ومعرفته. وبالله التوفيق.

ثم ذكر تحكمهم على الله، واستحقاقهم لرسوله ﷺ، فقال:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٢١) أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخًا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أى: من إحدى القريتين؛ مكة والطائف، على نهج قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (٢) وعدوا بعظيم مكة: الوليد بن المغيرة، وبالعظيم الطائف: عروة بن مسعود الثقفى. وعن مجاهد: عظيم مكة: [عتبة] (٣) بن ربيعة، وعظيم الطائف: ابن عبد ياليل (٤). ولم يتفوهوا بهذه العظيمة حسداً، بل استدلالاً على عدم نزوله، بمعنى: لو كان قرآناً

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢٢ من سورة الرحمن.

(٣) فى الأصول [عتبة].

(٤) انظر تفسير الطبرى (٦٥/٢٥). والدر المنثور للسيوطى (٧٢١/٥).

لأنزل على أحد هؤلاء، بناء على ما زعموا من أن الرسالة منصب جليل، لا يليق له إلا من له جلالة من جهة المال والجاه، ولم يدروا أنها رتبة روحانية، لا يترقى إليها إلا هم الخواص، المختصين بالنفوس الزكية، المؤيدين بالقوة القدسية، المتحلين بالفضائل الإنسية، وأما المتزخرفون بالزخارف الدنيوية، المتمتعون بالخطوط الدنية، فهم من استحقاق تلك الرتبة بألف معزل.

قال ابن عطية: وإنما قصدوا إلى من عظم ذكره بالسنن، وإلا فرسول الله ﷺ كان أعظم هؤلاء؛ إذ كان المسمى عندهم الأمين هـ. ومرادهم: الشرف الدنيوي، بحيث يتعرض للأمور؛ ليذكر ويشار إليه، ورسول الله ﷺ كان منزهاً عن ذلك من أول النشأة، كما هو حال أهل الآخرة، والنفوس في مهماتها إليهم أميل، وعليهم تعمل، ولذلك كان أميلاً عندهم، ولا ترضى جل النفوس أهل الفضول، لأماناتها، ولا تسكن إليها وتطمئن بها، وإنما تعظمها ظاهراً، لا حقيقة. وهذا كاف في الرد عليهم في أنهم لا يرضونهم لأماناتهم، فكيف يرضون لأمانات الوحي. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(١). قاله في الحاشية.

وقوله تعالى: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، إنكار عليهم، وفيه تجهيل لهم وتعجيب من تحكمهم في اختيار من يصلح للنبوة. والمراد بالرحمة: النبوة.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾؛ ما يعيشون به، وهو أرزاقهم الحسية ﴿في الحياة الدنيا﴾ أي: لم نجعل قسمة الآدوين إليهم، وهو رزق الأشباح، فكيف بالنبوة، والعلم، الذي هو رزق الأرواح؟ ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ أي: جعلنا البعض أقوياء وأغنياء وموالي، والبعض ضعفاء وفقراء وخداماء، ﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا﴾ أي: ليصرف بعضهم بعضاً في حوائجهم، ويستخدموهم في مهماتهم، ويسخروهم في أشغالهم، حتى يتعاشروا، ويصلوا إلى أعمالهم، هذا بماله، وهذا ببذنه، ولو استورا في الغنى والفقر لبطل جل المصالح، فسبحان المدبر الحكيم.

قال القشيري: لو كانت المقادير متساوية لتعطلت المعاش، ولبقى كل عند حاله، فجعل بعضهم مخصصاً بالترفة والمال، وآخرين بالفقر ورقة الحال، حتى احتاج الفقير في حين حاجته أن يعمل للغنى، ليتفرق من جهته بأجرته، فيصلح بذلك أمر الفقير والغنى معاً هـ. ولو فوضنا ذلك إلى تدبيرهم لهلكوا. وإذا كانوا في تدبير خويصة أمرهم، وما يصلحهم من متاع الدنيا الدنية، في غاية العجز، فما ظنهم في تدبير أمر الدين والنبوة ١٢.

(١) من الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.

وقيل: «سخرى، أى: يسخر بعضهم من بعض».

﴿ورحمتُ ربك﴾ أى: النبوة، أو: الدين وما يتبعه من الفوز فى المآب، ﴿خيرٌ مما يجمعون﴾ أى: مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا الدنية الفانية.

الإشارة: مما جرى فى طبع الناس أنهم لا يُقرون الولاية إلا فىمن عَظُمَ جاهُهُ، وكثر طعامه، أو كثرت صلاته، أو كان مجذوباً مصطليماً، أو: سبقت فى أسلافه، وهذا خطأ، فإن الولاية سر من أسرار الله، أودعها قلوب أصفيائه، لا تظهر على جوارحهم، ولا تكون فى الغالب إلا فى أهل التجريد، وأهل الخمول، أخفاها الله فى عباده، فمن ادعاها من غير تجريد ولا تخريب، فهو مدع، ولذلك قال أبو المواهب رحمته: من ادعى شهود الجمال، قبل تأدبه بالجلال، فارقضه فإنه دجال.

ويقال لمن أنكر على أهلها من أهل التجريد: «أهم يقسمون رحمت ربك...» الآية، ورحمة ربك - هى سر الخصوصية - خير مما يجمعون.

وقال القشيري على قوله تعالى: «نحن قسمنا بينهم معيشتهم...» الخ، بعد كلام: ثم إنه تعالى قسم لبعض لعباده^(١) النعمة والغنى، ولقوم الفقر والفلة، وجعل لكل واحد منهم مسكناً يسكنون إليه، ويستقلون به، فلأغنياء وجود الإنعام، وجزيل الأقسام، فشكروا واستبشروا، وللفقراء شهود القسأم، فحمدوا واقتضروا، فلأغنياء وجدوا النعمة فاستغنوا وانشغلوا، والفقراء سمعوا قوله: «نحن، فاشتغلوا، وفى الخير: أنه ﷺ قال للأنصار: «أما ترضون أن يرجع الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله إلى أهليكم؟ والله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون، (٢) هـ».

قوله تعالى: «نحن قسمنا بينهم...» الخ، قد سبقت أقسام الرزق قبل ظهور الخلق، فالواجب انتظار القسمة، والرضا بما قسم، كما قال الشاعر:

اقنع بما قسم الرزاق من قسَم وسلم الأمر فالرزاق مختارُ
لا تجزعن ولا تبطر عسى مِحَن أو منَح، فإنما هى أحكام وأقْدارُ
واقنع بكل الذى يجرى الزمانُ به ولا يكن منك للمغرور انكسارُ.

(١) فى الأصول [لعباده] والمثبت من القشيري، وهو الأنسب.

(٢) أخرجه مسلم فى (الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم... ٢ / ٧٣٤، ح ١٠٥٩) وينحوه البخارى فى (مناقب الأنصار باب مناقب الأنصار ح ٣٧٧٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

ثم ذكر إهانة الدنيا، وخساستها عنده، فقال:

﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَنَكَّبُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ أى: ولولا كراهة أن يجتمع الناس على الكفر، ويطبّقوا عليه، ﴿ لجعلنا ﴾ لأجل حقارة الدنيا عندنا ﴿ لمن يكفر بالرحمن لبُيُوتِهِمْ ﴾: بدل «من»، ﴿ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ ﴾ أى: متخذة منها، ﴿ وَمَعَارِجَ ﴾ أى: ولجعلنا لهم مصاعد، أى: سلالم من فضة أيضاً، يصعدون عليها إلى السطوح، ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أى: يعلون السطوح والعلالي عليها. ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ ﴾ أى: وجعلنا لبُيُوتِهِمْ ﴿ أَبْوَابًا وَسُرُورًا ﴾ من فضة أيضاً، ﴿ عَلَيْهَا ﴾ أى: السرر ﴿ يَتَنَكَّبُونَ ﴾، ولعل تكرير «بيوتهم» لزيادة التقرير. ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ أى: وجعلنا لهم زخرفاً، أى: زينة من كل شيء. والزخرف: الذهب والزينة. ويجوز أن يكون الأصل: سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَزُخْرُفٍ، أى: بعضها من فضة، وبعضها من ذهب، فنُصِبَ عطفًا على محل «من فضة».

﴿ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى: وما كل ما ذكر من البيوت الموصوفة بما ذكر من الزخارف الفرارة، إلا شيء يتمتع به فى الحياة الدنيا، ثم يفنى وتبقى تبعته. ﴿ وَالْآخِرَةُ ﴾ أى: ونعيم الآخرة الذى يقصر عنه البيان، خير ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الكفر والمعاصى. وبهذا يتبين أن العظيم إنما هو العظيم فى الآخرة، لا فى الدنيا، ولذلك لم يجعل للمؤمنين فيها حظاً وافراً؛ لأنه تمتع قليل بالنسبة إلى ما لهم فى الآخرة، ولأنه ربما يشغلهم عن ذكر الرحمن، كما أشار إليه بقوله: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ... ﴾ الخ.

الإشارة: فى الآية ذم للدنيا ولمن اشتغل بها. وفى الحديث: لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء^(١). وعن علقمة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: اضطلع رسول الله ﷺ على حصير، فأثر الحصير فى جنبه، فلما استيقظ، جعلت أمسح عنه، وأقول: يا رسول الله! ألا آذنتنى قبل أن تنام على هذه الحصير، فأبسط لك عليه شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «مالى والدنيا، وماللدنيا ومالى، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل فى فيء، أو ظل

(١) أخرجه الترمذى فى (الزهد، باب ما جاء فى هوان الدنيا على الله، ح ٢٣٢٠) وقال: حديث صحيح غريب، وابن ماجه فى (الزهد، باب مثل الدنيا، ح ٤١١٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

شجرة، ثم راح وتركها» (١). وروى أن عيسى عليه السلام أخذ لبنة من طوب، فجعلها تحت رأسه، فجاءه جبريل عليه السلام، فوكز الطوبة من تحت رأسه، ونزعها، وقال: «اترك هذه مع ما تركت». وأنشدوا في هذا المعنى:

رضيت من الدنيا بقوت رخرقة وأشرب من كوز حوافيه نُكسرُ

فقل لبنى الدنيا: اعزلوا من أردتم رولوا، وخلصنى على البعد أنظرُ

وقال عليه السلام: «الدنيا خراب، وأخرب منها قلب مشتغل بها» (٢). ومن اشتغل بها غفل عن ذكر الرحمن، وسلط عليه الشيطان، كما قال تعالى:

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَّخِذَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾

قلت: «من يعش»: شرط وجواب. وحكى أن أبا عبد الله بن مرزوق دخل على ابن عرفة، فحضر مجلسه، ولم يعرفه أحد، فوجده يفسر هذه الآية: «ومن يعش عن ذكر الرحمن»، فكان أول ما افتتح به - يعنى ابن مرزوق - أن قال: وهل يصح أن تكون «من»، هنا موصولة؟ فقال ابن عرفة: وكيف، وقد جزمت؟ فقال ابن مرزوق: جزمت تشبيها بالشرطية، فقال ابن عرفة: إنما يقدم على هذا بنص من إمام، أو شاهد من كلام العرب، فقال: أما النص؛ فقال ابن مالك فى التسهيل: وقد يحزم مسبب عن صلة الذى، تشبيهاً بجواب الشرط، وأما الشاهد فقوله:

فلا تحفرن بئراً تريد أخاً بها فإنك فيها أنت من دونه تقع
كذلك الذى يبغى على الناس ظالماً تُصِبه على رغم عواقب ما صنع

(١) أخرجه ابن ماجه فى الموضع السابق (ح ٤١٠٩) والترمذى فى الموضع السابق (باب ٤٤، ح ٢٣٧٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) لم أقف عليه.

فقال ابن عرفة: فأنت إذا أبو عبدالله بن مرزوق؟ فقال: نعم، فرحب به. وقال: والله ما ظلمناك هـ.

وقرأ ابن عباس: «يعش» - بفتح الشين، أى: يعم، من: عشى يعشى^(١). وقرأ: «يعشور» على أن «من» موصولة غير مضممة معنى الشرط، وإلا جزمت كما تقدم. قلت: والذي يظهر من كلام التسهيل أن الموصول المضمن معنى الشرط إنما يجزم الجواب لا الشرط، فتأمله، مع كلام ابن مرزوق. والشاهد الذى أتى به إنما فيه جزم الجواب لا الشرط، فلا يصح ما قاله ابن مرزوق باعتبار جزم لفظ الشرط. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾ أى: يتعام، أو: يعم. والفرق بين القراءتين^(٢) أنه إذا حصلت الآفة فى بصره قيل: عشى يعشى، وإذا ضعف بصره بلا آفة قيل: عشى يعشور. والمعنى: ومن يعرض ﴿عن ذكر الرحمن﴾ وهو القرآن، لفرط اشتغاله بزهرة الدنيا، وانهماكه فى الحظوظ الفانية، فلم يلتفت إليه، ولم يعرف أنه حق - على قراءة الفتح - أو: عرف أنه حق وتعامى عنه، تجاهلاً، على قراءة الضم، ﴿نُقِصَ له شيطاناً فهو له قرين﴾، قال ابن عباس: نسلطه عليه فهو معه فى الدنيا والآخرة، لا يفارقه، ولا يزال يوسوسه ويغويه. وفيه إشارة إلى أن من دام عليه لم يغره الشيطان. وإضافته إلى «الرحمن» للإيذان بأن نزوله رحمة للعالمين، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله، أى: ما ذكره الرحمن وأوحى به فى كتابه. وقال ابن عطية: ما ذكر الله به عباده من المواعظ. ويحتمل أن يريد مطلق الذكر، أى: ومن يغفل عن ذكر الله نسلط عليه شيطاناً، عقوبة على الغفلة، فإذا ذكر الله تباعد عنه.

﴿وإنهم﴾ أى: الشياطين، الذى قيض كل واحد منهم لكل واحد ممن يعشور، ﴿ليصدونهم﴾؛ ليمنعون العاشين ﴿عن السبيل﴾؛ عن سبيل الهدى الذى جاء به القرآن، ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾ أى: أنفسهم مهتدون، أو: يحسب العاشون أن الشياطين مهتدون، فلذلك قلّدهم، فمدار جمع الضمير اعتبار معنى «من»، كما أن مدار إفراده فيما سبق اعتبار لفظها. وصيغة المضارع فى الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجديدي، لقوله: ﴿حتى إذا جاءنا﴾ فإن «حتى» تقتضى أن تكون غاية لأمر ممتد، أى: يستمر العاشون على ما ذكر من مقارنة الشياطين والصد والحسيان الباطل، حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة. ومن قرأ بالثنية^(٣)، فالمراد العاشى وقرينه. قال مخاطباً لقرينه: ﴿يأليت بينى وبينك﴾ فى الدنيا ﴿بعد المشرقين﴾

(١) فهو أعشى، وامرأة عشواء.

(٢) أى: قراءة «يعش» بضم الشين و«يعشور» بفتحها.

(٣) قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر، وأبو جعفر (جاءنا) بألف بعد الهمزة على الثنية وهما العاشى وقرينه. وقرأ الباقون

بغير ألف بعد الهمزة. والضمير يعود على العاشى. انظر شرح الهداية (٥٠٨/٢) والإتحاف (٤٥٦/٢).

أى: بُعد المشرق والمغرب، أى: تباعد كل منهما من صاحبه، فغلب المشرق على المغرب، كما قيل: القمران والعمران، وأضيف البعد إليهما، ﴿فبئس القرين﴾ أنت.

قال تعالى: ﴿ولن ينفعكم اليوم﴾ أى: يوم القيامة ﴿إذ ظلمتم﴾ أى: حين صبح وتبين ظلمكم وكفركم، ولم تنف لكم ولا لأحد شبهة فى أنكم كنتم ظالمين، وإذا: بدل من اليوم. وقوله: ﴿أنكم فى العذاب مشتركون﴾: لا عمل ينفع، أى: لن ينفعكم يوم القيامة اشتراككم فى العذاب، كما كان فى الدنيا بهون عليكم المصيبة اشتراككم فيها، اتعاونتكم على تحمل أعبائها وتقسيمكم لعنائها، ولذلك قيل: المصيبة إذا عمت هانت، وإذا خصت هالت، وفى ذلك تفور الخساة:

ولولا كثرة البساكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

ولا يكون مسئلاً أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسي (١)

أما هؤلاء فلا يؤسيهم اشتراكهم، ولا يروحهم، لأن بكلّ منهم ما لا تبلغه طاقة، وقد ورد أنهم يكونون فى توابيت من نار، لا يرى أحد صاحبه، بل يظن أنه وحده فيها. وقيل: الفاعل مضمر، أى: ولن ينفعكم هذا التمسى، أو هذا الاعتذار؛ لأنكم فى العذاب مشتركون؛ لاشتراككم فى سببه، وهو الكفر، ويؤيده: قراءة من قرأ: «إنكم، بالكسر.

وكان ﷺ يبلغ فى المجاهدة فى دعاء قومه، وهم لا يزيدون إلا غياً وتعامياً عما يشهدونه من شواهد النبوة، وتصامماً عما يسمعون من القرآن، فأنزل الله تعالى: ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى﴾، وهو إنكار وتعجيب من أن يكون هو الذى يقدر على هدايتهم، وقد تمرنوا فى الكفر، واستغرقوا فى الضلال، حيث صار ما بهم من العشى عما مقروناً بالصمم، أى: أفأنت تقدر أن تسمع من فقد سمع القبول، أو تهدى من فقد بصر الاستبصار. ﴿ومن كان فى ضلال مبين﴾ أى: ومن كان فى علم الله أنه يموت على الضلال. ومدار الإنكار هو التمكن والاستقرار فى الضلال المفرط، بحيث لا ارعواء له منه، لا توهم القصور من قبل الهادى، ففيه رمز فى أنه لا يقدر على ذلك إلا الله.

﴿فإما نذنبن بك﴾ أى: فإن قبضناك قبل أن تلصرك على أعدائك، ونشقى صدور المؤمنين منهم، ﴿فإنا منهم منتقمون﴾ أشد الانتقام فى الآخرة. ﴿أو نرينك﴾ العذاب الذى وعدناهم ﴿نبل أن نتوفيك﴾ كما وقع بهم يوم بدر، ﴿فإنا عليهم مقتدرون﴾ بحيث لا ناصر لهم من حلول نعمتنا وقهرنا. وإما: شرط دخلت ما، على «إن» تركيداً للشرط، وزاد التوكيد نون الثقيلة.

(١) انظر البحر المحيط (١٧/٨) تفسير القرطبي (٦٠٩٤/٧).

الإشارة: كل من غفل عن ذكر الله تسلط الشيطان على قلبه بالوسوسة والخواطر الرديئة، وقد ورد في الحديث: إن قلب ابن آدم بين ملك وشيطان، فإذا ذكر الله قرب الملك منه وانخس الشيطان (١)، وإذا غفل عن ذكر الشيطان قرب منه، فلا يزال يوسوسه ويمليه حتى يغفله عن الله. ولا شك أن الذكر الذي يصرف الشيطان عن القلب إنما هو الذكر القلبي لا اللساني، فكم من ذاكر بلسانه وقلبه مشغول بهواه، فذكر اللسان نتائج الأجر، وذكر القلب نتائج الضرر، وشتان بين من همم الحور والقصور، ومن همم الحضور ورفع الستور، هذا من عامة أهل اليمين، وهذا من خاصة المقربين، فإن أردت يا أخى ذكر القلوب، ولمعان أسرار الغيوب، فاصحب الرجال، حتى ينقلوك من عالم الطبيعة إلى عالم الروحانية، وإلا بقيت في عالم الأشباح.

قال القشيري: من لم يعرف قدر الخلوة مع الله، فحاد عن ذكره، وأخذ إلى الخواطر الرديئة، قبيض الله له من يشغله عن الله - وهذا جزاء من ترك الأدب في الخلوة. وإذا اشتغل العبد في خلوته مع ربه، وتعرض له من يشغله عن ربه، صرفه الحق عنه بأى وجه كان.. ويقال: أصعب الشياطين نفسك، والعبد إذا لم يعرف قدر فراغ قلبه، واتبع شهوته، وفتح ذلك الباب على نفسه، بقى في يد هواه أسيراً، لا يكاد يتخلص منه إلا بعد مدة هـ.

[وقال في الإحياء: للشيطان جندان؛ جند يطير، وجند يسير، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار. ثم قال: فتحقق أن الشيطان من المنظرين، فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين؛ إلا أن تصبح وهمومك هم واحد، وهو الله، فيشتغل قلبك بالله وحده، فلا يجد الملعون مجالاً فيك، فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين، الداخلين في الاستثناء من سلطنته. ولا تظن أن يفرغ منه قلب فارغ من ذكر الله، بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وسيلانه مثل الهواء في القدر، إن أردت أن يخلو عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو غيره، فقد طمعت في غير مطمع، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه من الهواء لامحالة، فكذلك القلب المشغول بتفكير مهم في الدين، يخلو عن جولان الشيطان، وإلا فمن غفل عن الله، ولو لحظة، فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان، ولذلك سبحانه: ﴿ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقبض له شيطاناً فهو له قرين﴾ هـ. المرامه (٢).

(١) هذا معنى حديث، ونقظه: إن الشيطان واضع حطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه، رواه أبو يعلى في مملته (٤٣٠/١٧) والبيهقي في الشعب (٥٤٠)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٩/٧): رواه أبو يعلى: وفيه عدى بن أبي عمارة، وهو ضعيف.

(٢) ما بين المعكوفتين من هامش النسخة الأم، وليس في غيرها.

وكل من عوق الناس عن طريق الحق يصدق عليه قوله: ﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾ ، فإذا تحققت الحقائق، وارتفع الغطاء، وظهر الصواب من الخطأ، قال للذي صدّه عن طريق القوم: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين، فيقول الحق جل جلاله: ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنفسكم﴾ حيث منعتهم من الوصول إلى أنكم في عذاب العذاب مشتركون. ويقال لمن وعظ ردها إلى الله، فلم يقبل منه: ﴿أفأنت تسمع الصم...﴾ الآية. لئلا نذهبن بك بالمرت، فيقع الندم عليك، أو نريدك الذي رعدناهم من العز لك والنصر، والانتقام ممن أذى أولياء الله، فإننا عليهم مقفرون.

ثم أمر بالثبوت في طريق الحق، فقال:

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فاستمسك﴾ أي: تمسك ﴿بالتى أوحى إليك﴾ من الآيات والشرائع، واعمل بذلك، سواء عجلنا لك الموعود أو أخرناه، ﴿إنتك على صراط مستقيم﴾ ، على دين قيم لا عوج فيه، وهو تعليل للأمر بالاستمسك. ﴿وإنه﴾ أي: ما أوحى إليك ﴿لذكر﴾ ، لشرف عظيم ﴿لك ولقومك﴾ ، ولأمتك، أو: لقومك من قريش، فما زال العز فيهم، والشرف لهم، من زمانه ﷺ إلى قرب الساعة. قال ﷺ: «لا يزال هذا الشأن في قريش ما بقى منهم اثنان» (١). وفي رواية: «لا يزال هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كُتب على وجهه ما أقاموا الدين» (٢). قال ابن عباس: كان ﷺ يعرض نفسه على القبائل بمكة، ويعددهم الظهور، فإذا قالوا: لمن الملك بعدك؟ أمسك فلم يجيبهم، حتى نزلت: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ فكان به ذلك إذا سئل قال: القريش، فلا يجيبونه، فقبلته الأنصار على ذلك (٣).

(١) أخرجه البخارى فى (المناقب، باب مناقب قريش ح ٣٥٠١) ومسلم فى (الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة لقريش ٣ / ١٤٥٢ ح ١٨٢٠) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى، فى الموضع السابق (ح ٣٥٠٠)، من حديث معاوية رضى الله عنه.

(٣) عزاء فى الدر المنثور (٧٢٥/٥) لابن عدى وابن مردويه، عن على وابن عباس - رضى الله عنهما -

قلت: على هامش النسخة الأم ما يلى: هذا غريب جداً، والمعروف أنه كان يقول: «الملك لله يضعه حيث يشاء».

أر: وإنه لموعظة لك ولأمك بأجمعها. ﴿وسوف تستلون﴾ يوم القيامة عن شكركم هذه النعمة، أر: عما أرحى إليه، وعن قيامكم بحقوقه، وعن تعظيمكم له.

﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلَنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾، فليس المراد سؤال الرسل حقيقة، ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن مللهم، هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملّة من ملل الأنبياء؟ وكفاه نظراً وفحصاً نظره في كتاب الله المعجز، المصدق لما بين يديه. وإخبار الله فيه بأنهم إنما يعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطاناً. وهذه الآية في نفسها كافية، لا حاجة إلى غيرها.

وقيل إنه ﷺ جمع له الأنبياء - عليهم السلام - وقيل له: سلهم (١)، وهو ضعيف. وقيل معناه: سل أمم من أرسلنا، وهم أهل الكتابين؛ التوراة والإنجيل، وإنما يخبرونه عن كتب الرسل، فإذا سألهم فكأنما سأل الأنبياء، ومعنى هذا السؤال: التنبيه على بطلان عبادة الأوثان، والاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، وأنه ليس ببدع ابتدعه حتى ينكر ويعادي. وقيل: الخطاب له، والمراد غيره ممن يرتاب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الاستمساك بالروحى كان حاصلًا له ﷺ، وإنما المراد الثبوت على ما هو حاصل، والاسترشاد إلى ما ليس بحاصل، فالمراد الترقى في زيادة العلم، والكشف إلى غير نهاية، كقوله: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فالترقى لا ينقطع لمن تمسك بالروحى التمسك الحقيقى، بحيث كشف له عن غوامض أسرار القرآن، وزال الحجاب بينه وبين الله تعالى، فهو دائماً في زيادة العلم والكشف، إلى ما لا نهاية له. وهذا هو الشرف العظيم في الدارين. فمن لم يشكره سئل عنه، أو سلب منه في الدنيا. ثم إن التوحيد في الذات والصفات والأفعال مما أجمعت عليه الملل، وكل داع إنما يدعو إليه، وكل شيخ مريى إنما يوصل إليه، ومن لم يوصل إليه أصحابه فهو دجال. وبالله التوفيق.

ثم سئى رسوله بقوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُشُونَ ﴿٥٠﴾﴾

(١) ذكره البغوى (٢١٦/٧) والقرطبى (٦٠٩٧/٧) عن ابن عباس، وفيه: قال الله: لا أسأل فقد اكتفيت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ أي: متلبساً بآياتنا ﴿إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين﴾ فأجابوه بقولهم: ﴿فأتنا بآية إن كنت من الصادقين﴾ كما صرح به في آية أخرى (١). ﴿فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون﴾ يسخرون منها، ويهزؤون، ويسمونها سحراً. وإذا، للمفاجأة، وهو جواب الماء، لأن فعل المفاجأة معها مقدر، وهو العامل في «إذا»، أي: لما جاءهم فاجؤوا وقت ضحكهم منها، أي: استهزؤوا بها أول ما رأوها، ولم يتأملوا فيها.

﴿وما نريهم من آية﴾ من الآيات ﴿إلا هي أكبر من أختها﴾ قرينتها، وصاحبيتها التي كانت قبلها، أي: ما ظهر لهم آية إلا وهي بالغة أقصى مراتب الإعجاز، بحيث يجزم كل من ينظر إليها أنها أكبر من كل ما يقاس بها من الآيات. والمراد: وصف الكل بغاية الكبر من غير ملاحظة قصور في شيء منها، قال النسفي: وظاهر النظم يدل على أن اللاحقة أعظم من السابقة، وليس كذلك، بل المراد بهذا الكلام: أنهم موصوفات بالكبر، كما يقال: هما أخوان، كل منهما أكبر من الآخر. هـ. وقال في الانتصاف: الظاهر: أن كل آية إذا أفردت استغرقت عظمتها الفكر وبهرته، حتى يجزم أنها النهاية، وأن كل آية دونها، فإذا نقل الفكر إلى الأخرى كانت كذلك. وحاصله: أنه لا يقدر الفكر أن يجمع بين آيتين، للتميز الفاضلة من المفضولة. هـ.

﴿وأخذناهم بالعذاب﴾ وهو ما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ (٢)، ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ...﴾ الآية (٣). ﴿لعلهم يرجعون﴾ لكي يرجعوا عما هم عليه من الضلال.

﴿وقالوا يا أيُّه الساحر﴾ كانوا يقولون للعالم: إنما هو ساحر؛ لتعظيمهم علم السحر، أر: نادوه بذلك في مثل تلك الحالة لغاية عتوهم ونهاية حماقتهم. وقرأ الشامي بضم الهاء (٤)، لاتباع حركة ما قبلها حين سقطت الألف، ﴿ادع لنا ربك﴾ يكشف عنا العذاب ﴿بما عهد عندك﴾ أي: لعهدك عندك بأن دعوتك مستجابة، أر: بما عهد عندك من النبوة والجاه، أر: بما عهد من كشف العذاب عن اهتدى، ﴿إننا لمهتدون﴾ مؤمنون إن كشف عنا بدعوتك، كقوله: ﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننَّ لك﴾ (٥)، ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب﴾ بدعوته ﴿إذا هم ينكثون﴾ ينقضون العهد، أي: فاجؤوا وقت نكث عهدهم بالاهتداء. وقد مرّ تمامه في الأعراف (٦).

(١) في قوله تعالى: ﴿.. إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصادقين﴾ الآية ١٠٦ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ١٣٠ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ١٣٣ من سورة الأعراف.

(٤) أي ديا أيه، وبهذا قرأ ابن عامر.

(٥) من الآية ١٣٤ من سورة الأعراف. (٦) راجع تفسير الآيات ١٣٣ - ١٣٦ من سورة الأعراف.

الإشارة: قد ظهرت الآيات على الأنبياء والرسل، فلم ينتفع بها إلا من سبقت له العناية، وكذلك ظهرت الكرامات على أيدي الأولياء الداعين إلى الله، فلم ينتفع بها إلا من سبق له التقريب والاصطفاء. على أن الصادق في الطلب لا يحتاج إلى ظهور كرامة، بل إذا أراد الله أن يوصله إليه وصله إلى ولي من أوليائه، فطوى عنه رجود بشريته، وأشهد سر خصوصيته، فخصه له من غير توقف على كرامة ولا آية. وأما من لم يسبق له التقريب؛ إذا رأى ألف آية ضحك منها واستهزأ، وربما بالسحر والشعوذة، والعياذ بالله من البعد والطرود.

ثم ذكر عتو فرعون وملغيانه، فقال:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ٥٦﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾، إما بنفسه، أو: أمر من نادى، كقولك: قطع الأمير اللص. والظاهر أنه نادى بنفسه، ﴿فِي قَوْمِهِ﴾، في مجتمعهم وفيما بينهم، بعد أن كشف العذاب عنهم، مخافة أن يؤمنوا، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ﴾؛ أنهار النيل، ومعظمها أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تيبس، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾؛ تحت سريري؛ لارتفاعه، أو: بين يدي في جناتي وساتلي.

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، فإذا أراد الله أن يجريه أمر الأنهار فأمدته بمائها، وفجر له الأرض عيوناً، فإذا انتهت جريته إلى ما أراد الله سبحانه أوحى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره. قاله في الاكتفاء. ومهبطه من جبل القمر. وقيل: أصله من الجنة، والله تعالى أعلم. وحد مصر: من بحر الاسكندرية إلى أسوان، بطول الليل. والأنهار المذكورة هي الخلجان الكبار، الخارجة من النيل.

وعن عبد الله بن طاهر: أنه لما ولى مصر خرج إليها، فلما شارقها، قال: أهى القرية التى افتخر بها فرعون، حتى قال: «أليس لى ملك مصر»؟ والله لهى أقلّ عندى من أن أدخلها، فثلثى عنانه. وعن هارون الرشيد: أنه لما قرأها، قال: والله لأوليئها أخسُ عبيدى، فولأها الخُصيب، وكان خادماً وُصُوته (١).

﴿ وهذه الأنهار ﴾: إما عطف على «ملك مصر»، ف «تجرى»: حال منها، أو: وارو الحال، ف «هذه، مبتدأ، والآنهار»: صفتها و«تجرى»: خبر، ﴿ أفلا تبصرون ﴾ قوتى وسلطانى، مع ضعف موسى وقلة أتباعه. أراد بذلك استعظام ملكه وترغيب الناس فى اتباعه.

ثم قال: ﴿ أم أنا خير ﴾ مع هذه المملكة والبسطة ﴿ من هذا الذي هو مهين ﴾ أى: ضعيف حقير، من: المهانة، وهى القلة. ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ الكلام لما به من اللثة. قاله افتراء عليه عليه السلام، وتنقيصاً له فى أعين الناس، باعتبار ما كان فى لسانه عليه السلام. وقد كانت ذهبت عنه، لقوله تعالى: ﴿ قال قد أوتيت سؤلئك يا موسى ﴾ (٢). والهمزة للتقرير، كأنه قال إثر ما عدد من أسباب فضله، ومبادئ خيريته: أثبت عندكم واستقر لديكم أنى أنا خير، وهذه حالى، من هذا. وإما متصلة، والمعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون؟ فوضع قوله: ﴿ أم أنا خير ﴾ موضع «تبصرون»؛ لأنهم إذا قالوا: أنت خير؛ فهم عنده بصرأ. وهذا من باب تنزيل السبب منزلة المسبب. انظر أبا السعود.

﴿ فلولاً ألقى عليه أساوره ﴾ (٣) من ذهب ﴿ أى: فهلاً ألقى عليه مقاليد الملك إن كان صادقاً، لأنهم كانوا إذا سؤدوا رجلاً سؤروه بسوار، وطوقوه بطوق من ذهب. ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾؛ مقرونين يمشون معه، مقترن بعضهم ببعض، ليكونوا أعضاده وأنصاره، أو: ليشهدوا له بالدبرة؟ ﴿ فاستخف قومه ﴾ أى: فاستفزه، وطلب ملهم الخفة والسرعة فى مطارعة. أو: فاستخف أحلامهم واستزلهم، ﴿ فآطاعوه ﴾ فيما أمرهم به ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾، خارجين عن الدين، فلذلك سارعوا إلى طاعته.

﴿ فلما آسفونا ﴾؛ أغضبونا أشد الغضب، منقول من: أسف: إذ اشتد غضبه، ﴿ انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾، والمعنى: أنهم أفرطوا فى المعاصى فاسترجبوا أن نُعجلَ لهم العذاب، وألا نحلم عليهم. ﴿ فجعلناهم سلفاً ﴾؛ قدوة لمن بعدهم من الكفار، يسلكون مسلكهم فى استيجاب مثل ما حلَّ بهم من العذاب، فكل من تفرعن

(١) انظر تفسير القرطبي (٦١٠٢/٧) وتفسير السفي (٢٧٦/٣).

(٢) الآية ٣٦ من سورة طه.

(٣) قرأ حفص ويعقوب «أسورة» بسكون السين بلا ألف، جمع «سوار» كأخمرة وخمار، وقرأ الباقر «أسورة» بفتح السين، وألف، جمع «أسورة»، كأسفية وأساقى، أو جمع «أساور» بمعنى «سوار». وقد أثبت المفسر - رحمه الله - قراءة «أسورة». انظر: شرح الهداية (٥٠٨/٢) والإتحاف (٤٥٧/٢).

وتجبر فرعون إمامه وقدوته . أر: جعلناهم متقدمين في الهلاك، ليعتظ بهم من بعدهم إلى يوم القيامة . والسلف: جمع سالف، وهو الفارط المتقدم، ﴿ وَمِثْلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ أي: عظة لهم، أر: قصة عجيبة، تسير مسير الأمثال، فيقال: مثلكم كقوم فرعون، كما قال تعالى: ﴿ كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ (١) . وهاهنا قراءات، قد وجهناها في كتاب مستقل .

الإشارة: عاقبة التكبر والافتخار الدل والهوان والدمار، وعاقبة التواضع والانكسار العز والنصرة، انظر إلى فرعون لما تعزز واستكبر هلك مع قومه في لجة البحار. قال القشيري: ليعلم أن من تعزز بشيء دون الله فهلاكه وحُتِفَ فيه، وفرعون لما استصغر موسى وحديثه، وعابه بالفقر، سلطه الله عليه، فكان هلاكه بيده، وما استصغر أحدٌ أحداً إلا سلط عليه. ثم قال في قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾: طاعة الرهبة لا تكون مخلصاً، وإنما تكون الطاعة صادقة إذا صدرت عن الرغبة، «فلما آسفونا»؛ أغضبونا، وإنما أراد: أغضبوا أوليائنا، وهذا أصل في باب الجمع، أضاف إغضابهم أوليائه إلى نفسه . وفي الخبر أنه تعالى يقول: «مرضت فلم تعدني» (٢) وقال لإبراهيم عليه السلام: ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ (٣) وقال لنبينا ﷺ: ﴿ مَنْ يَطْعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (٤) هـ .

ثم ذكر شأن عيسى، فقال:

﴿ وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

(١) من الآية ١١ من سورة آل عمران .

(٢) حديث قدسي صحيح، أوله: يا ابن آدم...، أخرجه مسلم في (البر والصلة، باب فضل عيادة المريض، ٤/ ١٩٩٠، ج ٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) من الآية ٢٧ من سورة الحج .

(٤) من الآية ٨٠ من سورة النساء .

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمَا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مِثْلًا﴾ ، وذلك أن رسول الله ﷺ قرأ على قريش: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ...﴾ (١) الآية، فغضبوا، فقال ابن الزبير: يا محمد! أخاصة لنا ولآلهتنا، أم لجميع الأمم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم»، فقالوا: ألسنت تزعم أن عيسى [نبي]، يُثلي عليه وعلى أمه خيراً، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما؟ وعزير يعبد، والملائكة يعبدون، فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، وفرحوا، وضحكوا، وسكت النبي ﷺ انتظاراً للوحى.

وفى رواية: فقال لهم ﷺ: «إنما عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك». وقال لابن الزبير: «ما أجهلك بلغة قومك، أما فهمت أن «ما» لما لا يعقل، فهي خاصة بالأصنام» (٢)، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مَنَا الْحُسْنَى...﴾ (٣) الآية. ونزلت هذه الآية.

والمعنى: ولما ضرب ابن الزبير عيسى ﷺ ابن مريم مثلاً لآلهتهم، وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ قريش ﴿مِنْهُ﴾ أى: من هذا المثل ﴿يَصْدُونَ﴾ ترتفع لهم جلبية وضجيج، فرحاً وضحكاً، فهو من: الصديد، وهو الجلبة ورفع الصوت، ويؤيده: تعديته بمن، ولو كان من الصدود لقال: «عنه»، وقرئ بالكسر والضم، قيل: هما لغتان، كيعكفون ويعكفون ويعرشون ويعرشون، وقيل: بالكسر معناه: الصديد، أى: الضجيج والضحك، وبالضم معناه: الإعراض، فيكون من الصدود، أى: فهم من أجل هذا المثل يعرضون عن الحق، أى: يثبتون على ما كانوا عليه من الإعراض، أو يزدادون.

﴿وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنى أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى، فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا هيناً. أو: فإذا كان عيسى فى النار، فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها. قال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أى: ما ضربوا لك ذلك المثل إلا لأجل الجدال والخصام، لا لطلب الحق حتى يذعنوا له عند ظهوره، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أى: لُدّا، شِدَادُ الخصومة، مجبولون على اللجاج، وذلك أن الآية إنما قصدت الأصنام، بدليل التعبير بـ «ما»، إلا أن ابن الزبير حدا عنه لما رأى كلام الله تعالى محتملاً لفظه للعموم، مع علمه بأن المراد به أصنامهم، وجد للحيلة مساعاً، فصرف اللفظ إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله، على طريق اللجاج والجدال والمكابرة، وتوقع فى ذلك، فصمت عنه ﷺ حتى أجاب عنه ربه.

(١) الآية ٩٨ من سورة الأنبياء.

(٢) قال الحافظ ابن حجر فى الكافر الشافى (ص ١١١ - ١١٢): «استقر فى السنة كثير من علماء العجم، وفى كتبهم أن النبي ﷺ قال: «ما أجهلك بلغة قومك... الخ. وهو شىء لا أصل ولا يرجد لا مصداً ولا غير مستند». وهذا وجد على هامش النسخة الأم ما يلى: «هذه الرواية لا أصل لها، بل الخبر من أصله لم يورده المؤلف كما هو، وليبان ذلك لا يسعه هذا المجلد...».

(٣) الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

وقيل: لما سمعوا قوله تعالى: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ...﴾ (١) الآية، قالوا: نحن أهدى من النصارى، لأنهم عبدوا آدمياً، ونحن نعبد الملائكة، فنزلت. فقولهم: آلهتنا خير، هو حيلٌ تفضيل لآلهتهم على عيسى عليه السلام؛ لأن المراد بهم الملائكة. ومعنى: ﴿ما ضربه..﴾ الخ: ما قالوا هذا القول إلا للجدال. وقيل: لما نزل: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ...﴾ الآية، قالوا: ما يريد محمد إلا أن نعبدَه كما عبد النصارى المسيح. ومعنى «يصدون»: يضجون ويسخرون، والضمير على هذا في «أم» هو لمحمد ﷺ، وغرضهم ومرادهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم الاستهزاء به ﷺ ويجوز أن يكون مرادهم التصلُّ عما أنكر عليهم من قولهم: الملائكة بنات الله، ومن عبادتهم لهم، كأنهم قالوا: ما قلنا بدعاً من القول، ولا فعلنا منكراً من الفعل، فإن النصارى جعلوا المسيح ابن الله، وعبدوه، فتحن أرشد منهم قولاً وفعلًا، حيث نسبنا له الملائكة، وهم نسبوا إليه الأناسى. فقله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أى: ما عيسى إلا عبد، كسائر العبيد، أنعمنا عليه بالنبوة، ﴿وجعلناه مثلاً لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، أى: أمراً عجيباً، حقيقة بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة، ففيه تنبيه على بطلان رفعه عن رتبة العبودية، أى: قصارى أمره أنه ممن أنعمنا عليه بالنبوة، وخصصناه ببعض الخواص البديعة، بأن خلقناه على وجهٍ بديع، وقد خلقنا آدم بوجه أبداع منه، فأين هو من رتبة الربوبية حتى يتوهم أنه رضى بعبادته مع الله؟ ومن عبده فإنما عبد الشيطان.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ﴾ بدلاً منكم، كذا قال الزجاج، فـ «من» بمعنى البديل ﴿يَخْلُقُونَ﴾ أى: يخلقونكم فى الأرض، أى: لو نشاء لذهبنا بكم وجعلنا بدلاً منكم ملائكة يخلقونكم فى الأرض، فيكونون أطوع منكم لله تعالى، وقيل: (ولو نشاء) لقدرتنا على عجائب الأمور (لجعلنا منكم) بطريق التوالد، وأنتم رجال، من شأنكم الولادة - (ملائكة) كما خلقناهم بطريق الإبداع (فى الأرض) مستقرين فيها، كما جعلناهم مستقرين فى السماء، يخلقونكم مثل أولادكم، ويباشرون الأفاعيل المدبوطة بمباشرتكم، فكيف يستحقون المعبودية مع أنهم أجسام، متولدون عن أجسام، والمستحق للعبادة يتعالى عن ذلك؟

﴿وَإِنَّهُ﴾ أى: عيسى عليه السلام ﴿لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ﴾ أى: مما يعلم به مجيء الساعة عند نزوله. وقرأ ابن عباس «لَعَلَّمُ» بفتح اللام (٢)، أى: وإن نزوله لَعَلَّمُ للسَّاعَةِ، أو: وإن وجوده بغير أب، وإحياءه للموتى، دليل على صحة البعث، الذى هو معظم ما ينكره الكفرة.

(١) الآية ٥٩ من سورة آل عمران.

(٢) اللام الثانية مع فتح العين (لَعَلَّمُ) وهى الأمانة والعلامة.

وفى الحديث: إن عيسى عليه السلام ينزل على ثلثة بالأرض المقدسة، يقال لها: أفيق، وهى عقبة بيت المقدس، وعليه مَمَصْرَتَان (١)، وشعر رأسه ذهين، ويده حربة يقتل بها الدجال، فيأتى بيت المقدس، والناس فى صلاة العصر، والإمام يؤم بهم، فيتأخر الإمام، فيقدمه عيسى، ويصلى خلفه على شريعة محمد ﷺ، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارى إلا من آمن به ومحمد ﷺ (٢).

وقيل: الضمير للقرآن ؛ لأن فيه الإعلام بالساعة، ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ ؛ فلا تشكن فيها، من المَرِية، وهو الشك، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ أى: اتبعوا هداى وشرائعى، أو: رسولى، وقيل: هو قول نبينا ﷺ مأموراً به من جهته تعالى: ﴿هَذَا﴾ أى: الذى أدعوكم إليه ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ؛ موصل إلى الحق. ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ عن اتباعى ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ؛ بين العداوة، حيث أخرج آباكم من الجنة، وعرضكم للبلىة.

الإشارة: الوعظ والتذكير لا تسرى أنواره فى القلوب إلا مع التسليم والتصديق، والسكوت والاستماع، كما كان الصحابة - رضى الله عنهم - مع الرسول ﷺ كأن على رؤوسهم الطير، وأما إن دخل معه الجدل واللجاج ذهبت بركته، ولم تسر أنواره، ولذلك قيل: مذهب الصوفية مبنى على التسليم والتصديق، ومذهب الفقهاء مبنى على البحث والتفتيش، لكن مع الإنصاف، وخفض الصوت، وحسن السؤال من غير ملاحجة ولا غضب.

ثم ذكر بعثة عيسى ودعوته إلى الله، فقال:

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ
بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٦٣ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا
صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ
يَوْمٍ أَلِيمٍ ٦٥ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٦٦﴾

(١) مَمَصْرَتَان: ثلثة «ممصرة»، وهى اللباب التى فيها صفرة خفيفة. انظر النهاية فى غريب الحديث (مصر ٤/٣٣٦).

(٢) ذكره بلفظه القرطبى فى تفسيره (٦١٠٩/٧) وعزاه للعلبى، وأخرجه بلفظ مقارب أبو داود فى (الملاحم، باب خروج الرجال، ٤٩٨/٤ ح ٤٣٢٤). عن أبى هريرة. وأصل الحديث فى الصحيحين. انظر البخارى، (كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم عليهما السلام ح ٣٤٤٨) ومسلم (الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ ١/١٣٥ ح ١٥٥).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولما جاء عيسى بالبينات﴾؛ بالمعجزات؛ أو: بآيات الإنجيل؛ أو: بالشرائع الواضحات ﴿قال﴾ لبنى إسرائيل: ﴿قد جئكم بالحكمة﴾؛ بالشرعة، أو: بالإنجيل المشتغل عليها ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ وهو ما يتعلق بأمر الدين، وأما ما يتعلق بأمور الدنيا فليس بيانه من وظائف الأنبياء - عليهم السلام - كما قال ﷺ: «أنتم أعلم بدينكم»^(١)، وهو عطف على مقدر، ينبئ عنه المجيء بالحكمة، كأنه قيل: جئكم بالحكمة لأعلمكم إياها، ولأبين لكم ما تختلفون فيه، ﴿فاتقوا الله﴾ في مخالفتي ﴿وأطيعون﴾ فيما أبلغكم عن الله تعالى:

﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه﴾ بيان لما أمرهم به من الطاعة، وهو اعتقاد التوحيد، والتعبد بالشرائع، ﴿هذا صراط مستقيم﴾ لا يضل سالكه؛ فهذا تمام كلام عيسى عليه السلام، وقيل: قوله: ﴿هذا....﴾ إلخ من كلام الله تعالى، مقرر لمقالة عيسى عليه السلام.

﴿فاختلف الأحزاب﴾ أى: الفرق المتحزبة بعد عيسى، وهم: اليعقوبية والسطورية، والملكانية، والشمعونية، ﴿من بينهم﴾ أى: من بين النصارى، أو: من بين من بعث إليهم من اليهود والنصارى، أى: اختلافاً ناشئاً من بينهم، من غير حجة ولا برهان، ﴿قويل للذين ظلموا﴾ من المختلفين، حيث قالوا فى عيسى ما كفروا به، ﴿من عذاب يوم أليم﴾ وهو يوم القيامة ﴿هل ينظرون﴾ أى: ما ينتظر أولئك الكفرة، أو قوم عيسى ﴿إلا الساعة أن تأتيهم﴾: بدل من «الساعة» أى: هل ينتظرون إلا إتيان الساعة ﴿بغثة﴾: فجأة ﴿وهم لا يشعرون﴾ غافلون عن الاستعداد لها، لاشتغالهم بأمر دنياهم، أو: منكرون لها، غير متقربين وقوعها.

الإشارة: كانت الرسل - عليهم السلام - يبينون لأممهم ما يقع فيه الاختلاف من أمر الدين، سواء تعلق ذلك بالظاهر أو بالباطن، بما يوحى إليهم من إلهام، أو بملك مرسل، فلما ماتوا بقى خلفاؤهم من العلماء والأولياء، فالعلماء يبينون ما اختلف فيه من الشرائع والعقائد، بما عندهم من القواعد والبراهين، والأولياء يبينون الحقائق، وما يتعلق بالقلوب من الشكوك والخواطر، وسائر الأمراض، بما عندهم من الأدواق والكشوفات. فالعلماء يرجعون إلى كتبهم وعلومهم، والأولياء يرجعون إلى قلوبهم وأذواقهم، حتى كان فيما سلف من العلماء إذا توقفوا فى مسألة عقلية أو قلبية أخذوا صوفياً أمياً فيسألونه، ويجبرونه على الجواب، فيجيبهم عن كل ما يسألونه، كقصة أبى الحسن النورى مع القاضى، وغيره، وقد كان الشعرانى يسأل شيخه الخواص - وهو أسمى - عن أمور معضلة، فيجيب عنها، حتى إن كتبه كلها مطرزة بكلامه - رضى الله عنهم أجمعين.

(١) أخرجه مسلم فى (الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً، ٤ / ١٨٣٥ ح ٢٣٦٣) عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - وسيدنا أنس عليه السلام بلفظ: «أنتم أعلم بدينكم».

وأهل الأذواق هم المتقون المتحابون في الله، الذين أشار إليهم تعالى بقوله:

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) يَتَعَبَادُ لَأَخَوَفُ
عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا
الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا
مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي
أُورِثْتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: المتحابون في الدنيا على الأمور
الدنيوية متعادون يوم القيامة، يبغض بعضهم بعضاً، فينقطع في ذلك اليوم كل صلة كانت لغير الله، وتقلب عداوة
ومقتاً؛ لا لقطاع سببها، وهو الاجتماع على الهوى، ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ أي: الأخلة المصادقين في الله، لئلاها الخلّة
الباقية؛ لأن خلّتهم في الدنيا لها كانت لله، وفي الله بقيت على حالها؛ لأن ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير
الله انقطع وانفصل، بل تزداد خلّتهم بمشاهدة كل واحد منهم بركة خلّتهم من الثواب، ورفع الدرجات. وسئل رسول الله ﷺ:
مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ؟ فقال: «المتحابون في الله»، وخرج البزار عن ابن عباس
رضي الله عنه: قيل: يا رسول الله! أَيُّ جَلَسَاتِنَا خَيْرٌ؟ قال: «مَنْ ذَكَرَكُمْ بِاللَّهِ رُؤْيَتْهُ، وَزَادَ فِي عَمَلِكُمْ مَنَاطِقُهُ، وَذَكَرَكُمْ بِاللَّهِ
عَلِمَهُ» (١).

ومن كلام الشيخ أبي مدين رضي الله عنه: دليل تخليطك صحبتك للمخاطين، ودليل انقطاعك إلى الله صحبتك
للمنقطعين. هـ. وفي سماع العتبية: قال مالك: لا تصحب فاجراً لئلا تتعلم من فجوره، قال ابن رشد: لا ينبغي أن
يصحب إلا من يقتدى به في دينه وخيره؛ لأن قرين السوء يردى، قال الحكيم:

عَنْ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ مُقْتَدٍ. (٢)

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢٤٣٦) عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) البيت منسوب إلى عدی بن زید: انظر: نهاية الأرب (٦٥/٣) والعقد الفريد (٣١١/٢).

وفي الحديث: «المرء على دين خليله» وسيأتى، فى الإشارة بقية الكلام على المتحابين فى الله.

ويقال لهم حينئذ، تشريفاً لهم، وتطبيباً لقلوبهم: ﴿يا عبادي (١) لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾، ثم وصفهم أو مدحهم بقوله: ﴿الذين آمنوا بآياتنا﴾؛ صدقوا بآياتنا التنزيلية، ﴿وكانوا مسلمين﴾؛ متقادين لأحكامنا، مخلصين وجوههم لنا، وعن مقاتل: «إذا بعث الله الناس، فزع كل أحد، فينادى مناد: يا عبادي، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، فيرجوها الناس كلهم، فيتبعها الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين، فينكس أهل الأديان الباطلة رؤسهم» (٢).

ثم يقول لهم: ﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم﴾؛ نساؤكم المزمئات ﴿تخبرون﴾؛ تسرون سروراً يظهر حُبارِه - أى: أثره - على وجوهكم أو: تزينون، من: العبدة وهو حسن الهيئة، أو: تكرمون إكراماً بليغاً، وتتدعمون بأنواع الدميم، والعبدة: المبالغة فيما وصف بجميل، وتقدم فى قوله: ﴿في روضة يخبرون﴾ (٣) أنه السماع. ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب﴾ أى: بعد دخولهم الجنة حسبما أمروا به ﴿وأكواب﴾ من ذهب، حذف دلالة ما قبله، والصحاف: جمع صحيفة، قيل: هى كالقصعة، وقيل: أعظم القصاع، هى ثلاث: الجنة، ثم القصعة، ثم الصحيفة، والأكواب: جمع كواب، وهو كوكب مستدير لا عروة له.

وفى حديث أبى هريرة، عنه رضي الله عنه: قال: «أدنى أهل الجنة من له سبع درجات، هو على السادسة، وفوقه السابعة، وإن له ثلاثمائة خادم، ويغدى عليه ويراح بثلاثمائة صحيفة من ذهب، فى كل صحيفة لون ليس فى الأخرى مثله، وإنه ليلد آخره كما يلد أوله، ويقول: لو أذنت لى يارب لأطعمت أهل الجنة، وأسقيتهم، ولا ينقص مما عندى شيء، وإن له من الحور العين لاثنتين وسبعين زوجة، سوى أزواجه فى الدنيا، وإن الواحدة مدهن لياخذ مِقْعُهَا قَدْرَ مِيل» (٤). وفى حديث عكرمة: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من يفسح له فى بصره مسيرة مائة عام، فى قصور من ذهب، وخيام من لؤلؤ، وليس منها موضع شبر إلا معمور، يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحيفة

(١) هكذا (يا عبادي لاخوف) بإثبات الياء، وإسكانها، وهى قراءة نافع، وأبى عمرو، وابن عامر، وأبى جعفر، وصلاً ووقفاً. والباقرن بحذفها فى الحالين. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٨ - ٤٥٩).

(٢) أخرجه الطبرى (٢٥/ ٩٥) عن سليمان التيمي.

(٣) الآية ١٥ من سورة الروم.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٥٣٧) وقال ابن القيم فى حادى الأرواح (٢٢٣): «سُكِّنَ بن عبد العزيز، صنَّعه الصالى. وشهر بن حوشب، صنَّعه مشهور. والحديث منكر، يخالف الأحاديث الصحيحة».

من ذهب، ليس فيها صحيفة إلا وفيها لون ليس في الأخرى مثله، شهوته في آخرها كشهوته في أولها، ولو نزل به جميع أهل الدنيا لوسع عليهم مما أعطى، ولا ينقص ذلك مما أوتى شيئاً^(١). ويجمع بينهما بتعدد أهل هذه المنزلة، وتفاوتهم.

﴿ وفيها ﴾ أى: فى الجنة ﴿ ما تشتهيه الأنفس ﴾ من فنون الملاذ. ومن قرأ بحذف الهاء؛ فلطول الموصول بالفعل والفاعل. ﴿ وتلذ الأعين ﴾ أى: تستلذه، وتقر بمشاهدته، وهذا حصر لأنواع النعيم؛ لأنها إما مشتبهات فى القلوب، أو مستلذات فى العيون، ففى الجنة كل ما يشتهى العبد من الملابس والمناكح والمراكب.

روى أن رجلاً قال: يا رسول الله، إنى أحب الخيل، فهل فى الجنة خيل؟ فقال: «إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء، يطير بك فى الجنة حيث شئت، إلا فعلت، قال أعرابى: يا رسول الله، إنى أحب الإبل، فهل فى الجنة إبل؟ فقال: يا أعرابى، إن يدخلك الله الجنة ففيها ما اشتهدت نفسك ولذت عيناك^(٢). هـ. وقال أبو طيبة السلمى: إن الشردمة من أهل الجنة لتظلم سحابة، فتقول: ما أمطركم؟ فما يدعو داع من القوم بشيء إلا أمطرته، حتى إن الرجل منهم يقول: أمطر علينا كواعب أترابا. وقال أبو أمامة: إن الرجل من أهل الجنة ليشتهى الطائر وهو يطير، فيقع نضيجاً فى كفه كما أراد، فيأكل منه حتى تشهى نفسه، ثم يطير كما كان أول مرة، ويشتهى الشراب، فيقع الإبريق فى يده، فيشرب منه ما يريد، ثم يرفع الإبريق إلى مكانه. هـ. من الثعلبى.

قال القشيري: وفيها ما تشتهيه الأنفس للعباد؛ لأنهم [قاسوا]^(٣) فى الدنيا - بحكم المجاهدات - الجوع والعطش، وتحملوا رجوه المشاق، فيجزون فى الجنة رجوها من الثواب، وأما أهل المعرفة والمحبون فلهم ما تلذ أعينهم من النظر إلى الله، لطول ما قاسوه من فرط الاشتياق بقلوبهم، وما عالجوه من احتراقهم فيه لشدة غليلهم. هـ. والحاصل: أن ما تشتهى الأنفس يرجع لنعيم الأشباح، وتلذ الأعين لنعيم الأرواح من النظر، والقرب، والمناجاة والمكالمة، والرضوان الأكبر، ملحننا الله من ذلك الحظ الأوفر.

﴿ وأنتم فيها خالدون ﴾ إتمام للنعمة، وكمال للسرور؛ فإن كل نعيم له زواله مكدور بخوف زواله لا محالة. ﴿ وتلك الجنة ﴾؛ مبتدأ وخبر، ﴿ التى أورتتموها ﴾: صفة الجنة، أو: الجنة، صفة المبتدأ، الذى هو الإشارة، واللى أورتتموها: خبره. أو: التى أورتتموها، صفة المبتدأ، ﴿ بما كنتم تعملون ﴾: خبر، أى: حاصلة، أو كائنة

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٧٣٢/٥) لعبد بن حميد، عن عكرمة، يرفعه.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٣٥٢/٥) والترمذى فى (صفة الجنة، باب ما جاء فى صفة خيل الجنة ٤/٨٨٥ / ح ٢٥٤٣) والبخارى

فى التفسير (٢٢٢/٧) عن عبدالرحمن بن سابط مرسلأ. وقال الهيثمى (٤١٣/١٠): رواه الطبرانى ورجاله ثقات.

(٣) فى الأصول: أقاموا وما أثبتته هو الذى فى القشيري.

بما كنتم تعملون في الدنيا، شبه جزاء العمل بالميراث؛ لبقائه على أهله دائماً، ولا ينافي هذا قوله ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ عَمَلُهُ» (١)؛ لأن نفس الدخول بالرحمة، والتلذذ بالدرجات بقدر العمل، أو: تقول: للحديث خرج مخرج الحقيقة، والآية خرجت مخرج الشريعة، فالحقيقة تنفي العمل عن العبد، وتثبت لله، والشريعة تثبت له باعتبار الكسب، والدين كله وارد بين حقيقة وشريعة؛ فإذا شرع القرآن حقيقته السنية، وإذا شرعت السنة حقيقته القرآن. والله تعالى أعلم.

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ بحسب الأنواع والأصناف، لا بحسب الأفراد فقط، ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أى: لا تأكلون إلا بعضها، وأعقابها باقية في أشجارها على الدوام، لا ترى فيها شجراً خلت عن ثمرها لحظة، فهي مزيّنة بالثمار أبداً، موقورة بها، وعن النبي ﷺ: «لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها إلا نبت في مكانها مثلاًها» (٢).

الإشارة: كل خلة وصحبة تنقطع يوم القيامة، إلا خلة المتحابين في الله، وهم الذين ورد في الحديث: أنهم يكونون في ظل العرش، والناس في حر الشمس، يغطي نورهم الناس في المحشر، يغطيهم النبيون والشهداء لمنزلتهم عند الله. قيل: يا رسول الله، من هؤلاء؟ صفهم لنا لنعرفهم، قال: «رجال من قبائل شتى، يجتمعون على ذكر الله» (٣).

وقد ورد فيهم أحاديث، منها: حديث الموطأ، عن معاذ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: وَجَبَتْ مُحِيطَاتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ» (٤)، وفي رواية أبي مسلم الخولاني: قال ﷺ: «المتحابون في الله على منابر من نور، في ظل العرش، يوم لا ظل إلا ظله» (٥)، وفي حديث آخر: «ما تحاب اثنين في الله إلا وُضِعَ لهما كرسيان، فيجلسان عليه حتى يفرغ من الحساب» (٦) وقال: ﷺ: «إن المتحابين في الله لَنَرَى غُرْفَهُمْ فِي الْجَنَّةِ كَالْكُوكَبِ الطَّالِعِ الشَّرْقِيِّ أَوِ الْغُرْبِيِّ، فيقال: من هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء المتحابون في الله عز وجل».

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري في (الرفاق، باب القصد والمدارمة على العمل، ح ٦٤٦٧). ومسلم في (صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى ٢١٧١/٤، ح ٢٨١٨) من حديث السيدة عائشة - رضي الله عنها: «رَأَى الْحَدِيثَ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا...».

(٢) أخرجه الطبري (٩٧/٢٥) والبزار (كشف الأستار ح ٣٥٣٠) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤١٤/١٠): رواه الطبراني والبزار، ورجال الطبراني وأحد إسناده البزار ثقات.

(٣) قال الهيثمي في المجمع (٧٧/١٠): رواه الطبراني، وإسناده حسن.

(٤) رواه مالك في الموطأ (٩٥٣/٢) وأحمد (٢٣٣/٥) والحاكم (١٦٩/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

(٥) رواه ابن حبان (٥٧٧) وعبدالله بن الإمام أحمد في زوائد المسند (٣٢٩/٥).

(٦) عزاه السيوطي في الجامع الصغير (ح ٧٨٦٨) للطبراني، عن أبي عبيدة ومعاذ، وضعفه.

وفي رواية: «إن في الجنة غرفاً يرى ظواهرها من بواطنها، وبواطنها من ظواهرها، أعدّها الله للمتحابين في الله، والمتزاورين فيه، والمتباذلين فيه» (١) وفي لفظ آخر: «إن في الجنة لعمداً من ياقوت، عليها غرف من زبرجد، لها أبواب مفتحة؛ تضيء كما يضيء الكوكب الدري، قلنا: يارسول الله، من يسكنها؟ قال: المتحابون في الله والمتباذلون في الله، والمتلاقون في الله، مكتوب علي وجوههم: هؤلاء المتحابون في الله» (٢) وفي الأثر أيضاً: إذا كان يوم القيامة، نادى مناد: أين المتحابون في الله؟ فيقوم ناس - وهم يسير - فينطلقون إلى الجنة سراعاً، فتلقاهم الملائكة: فيقولون: رأيكم سراعاً إلى الجنة، فمن أنتم؟ فيقولون: نحن المتحابون في الله؛ فيقولون: وما كان تحابكم؟ فيقولون: كنا نتحاب في الله، ونزاور في الله، ونتعاطف في الله، ونتبادل في الله، فيقال لهم: ادخلوا الجنة، فنعيم أجر العاملين. هـ. من الدور السافرة. والتبادل: المواساة بالبدل.

وذكر في الإحياء شروط المتحابين في الله، فقال عليه السلام: أهم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين، كعقد النكاح بين الزوجين، ثم قال: فألصق عليك قلبك في المال، وفي النفس، وفي اللسان، وفي القلب، وبالعمل، وبالدهاء، وذلك تجمعه لمالية هلقا.

الحق الأول: في المال بالمواساة، وذلك على ثلاثة مراتب: أدناها: أن تنزله منزلة عبدك وخادمك، فتقوم بحاجاته بفضلة مالك، فإذا سحت له حاجة، وعندك فضلة أعطيته ابتداءً، فإذا أحوجته إلى سؤال فهر غاية التقصير. الثانية: أن تنزله منزلة نفسك، وترضى بمشاركته إياك في مالك، فتسمح له في مشاركته. الثالثة - وهي العليا -: أن تؤثره على نفسك، وتقدم حاجته على حاجتك، وهي رتبة الصديقين، ومنتهى درجات المتحابين.

الحق الثاني: الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات، والقيام بها قبل السؤال، وهذا أيضاً لها درجات كما للمواساة، فأدناها: القيام بالحاجة عند السؤال، ولكن مع البشاشة والاستبشار، وإظهار الفرح. وأوسطها: أن تجعل حاجته كحاجتك، فتكون متفقداً لحاجته، غير غافل عن أحواله، كما لا تغفل عن أحوال نفسك، وتغنيه عن السؤال. وأعلىها: أن تؤثره على نفسك، وتقدم حاجته على حاجتك، وتؤثره على نفسك، وأقاربك، وأولادك. كان الحسن يقول: إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا؛ لأن أهلينا يذكروننا الدنيا، وإخواننا يذكروننا الآخرة.

(١) رواه الطبراني في الأوسط (ج ٢٩٠٣)، عن بريدة. قال الهيثمي في المجمع (٢٧٨/١٠): وفيه إسماعيل بن سيف، وهو ضعيف.

(٢) رواه البزار (كشف الأستار، ج ٣٥٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الحق الثالث: على اللسان بالسكوت، فيسكت عن التجسس، والسؤال عن أحواله، وإذا رآه في طريقه فلا يسأله عن غرضه وحاجته، فربما يثقل عليه، أو يحتاج إلى أن يكذب، ويسكت عن أسرارهِ التي بثها إليه، فلا يبثها إلى غيره، ولا إلى أخص أصدقائه، ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة، وليسكن عن مماراته ومدافعتهِ في كلامه.

الحق الرابع: على اللسان بالنطق، فيتودد إليه بلسانه، ويتفقده في أحواله، كالسؤال عن عارض عرض له، وأظهر شغل القلب بسببه، فيتنبهى أن يظهر له بلسانه كراحتها. والأحوال التي يُسرُّ بها، يتنبهى أن يظهر له بلسانه مشاركتهِ في السرور بها. فمعنى الأخوة: المساهمة في السراء والضراء، ويدعوه بأحب أسمائه في حضوره ومغيبه، ويُثني عليه بما يعرف من محاسن أحواله، عدد من يريد هو الثناء عنده، وكذا على أولاده وأهله، حتى على عقله، وخلقه، وهيبته، وخطه، وشعره، وتصنيفه، وجميع ما يلوح به، من غير كذب ولا إفراط، ويذب عنه في غيبته مهما قصد بسره، ويعلمه مما علمه الله وينصحه.

الحق الخامس: العفو عن الزلات والهلوات، فإن كانت زلته في الدين، بارتكاب معصية، فليتلطف في نصحه، فإن بلى مصراً، فقد احتلف الصحابة في ذلك، فذهب أبو ذر إلى مقاطعته، وقال: إذا انقلب أخوك عما كان عليه فابغضه من حيث أحببته. وذهب أبو الدرداء، وجماعة، إلى خلاف ذلك، وقال أبو الدرداء: إذا تغير أخوك عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك؛ فإن أخاك يُعرجُ مرةً، ويستقيم أخرى. وهذا أَلطف وأفقه، وذلك لما في هذه الطريق من الرفق، والاستمالة، والتعطف، المُفضي إلى الرجوع والتوبة. وأيضاً: للأخوة عقد، ينزل منزلة القرابة، فإذا انعقدت وجب الوفاء بها، ومن الوفاء: ألا يهمله أيام حاجته وفقره، وفقر الدين أشد من فقر المال. ثم قال: والفاجر إذا صحبَ نقياً وهو ينظر إلى خوفه رجع عن قريب، ويتخلى من الإصرار، بل الكسلان يصحب الحريص في العمل، فيحرص، حياءً منه، وإن كانت زلته في حقك فلا خلاف أن العفو والاحتمال هو المطلوب. هـ. قلت: ولعل حق القلب يندرج هنا مع المحبة وشهود الصفاء منه.

الحق السادس: الدعاء له في حياته ومماته بكل ما يحب لنفسه وأهله. قلت: ومن ذلك زيارة قبره، وإيصال النفع له في ذلك الوقت.

الحق السابع: الوفاء والإخلاص. ومعنى الوفاء: الثبات على الحب، وإدامته إلى الممات، معه ومع أولاده وأصدقائه.

الحق الثامن: تخفيف وترك التكليف والتكلف، فلا تكلف أخاك ما يشق عليه؛ بل تروح سره عن مهماتك وحاجاتك، وترفعه عن أن تحمله شيئاً من أعبائك، ولا تكلفه التواضع لك، والتفقد والقيام بحقوقك، بل ما تقصد بمحبته إلا الله تعالى. هـ. باختصار (١).

وفي وصية القطب ابن مشيش، لأبي الحسن - رضى الله عنهما -: لا تصحب من يؤثر نفسه عليك، فإنه لليم؛ ولا من يؤثرك على نفسه، فإنه قلما يدرم؛ واصحب من إذا ذكر ذكر الله، فالله يغنى به إذا شهد، ويلوب عنه إذا فُقد، ذكره نور القلوب، ومشاهدته مفاتيح الغيوب. ومعنى كلام الشيخ: لا تصحب من يبخل عنك بما عنده من العلوم، ولا من يتكلف لك، فإنه لا يدرم، وهذه صحبة الشيخوخة.

وقال رحمه الله: «مَثَلُ الْآخِرِينَ كَمَثَلِ الْيَدَيْنِ، يَفْصِلُ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، وَكَمَثَلِ الْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» (٢). وفي معناه قيل:

إِنْ أَخَاكَ الْحَقُّ مَنْ كَانَ مَعَكَ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ
وَمَنْ إِذَا رَأَى زَمْسَانًا صَدَّكَ شَتَّتَ فِيكَ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكَ

وهذا في حق الإخوان، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر تعالى أصدقاء هؤلاء، فقال:

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (٧٤) لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾
وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا بِمَلَائِكَةٍ لِقَاضٍ عَلَيْنَا رَبِّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٧٧﴾
لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ مِنْ قُلُوبِنَا أَمْ يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾
لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٠﴾

قلت: (خالدون): خبر، إن، و(في عذاب): معمول الخبر، أو: خبر، و(خالدون): خبر بعد خبر.

(١) انظر: إحياء علوم الدين. (كتاب آداب الألقه والأخوة).

(٢) قال العراقي في المظلي (١٧٢/٢): «رواه المصنف في آداب الصحبة، وأبو المنصور الديلمي في مسند الفردوس، من حديث أنس. وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلي، كذاب. وهو من قول سلمان الفارسي في الأول من الحزبيات».

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: الراسخين فى الإجرام، وهم الكفار، كما ينبى عنه إتيانه فى مقابلة المؤمنين ﴿فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ، لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ﴾ ؛ لا يخفف عنهم، من قولهم: فترت عنه الحمى: سكنت. قال القشيري: هم الكفار والمشركون، أهل الخلود، لا يخفف عنهم، وأما أهل التوحيد فقد يكون قوم منهم فى النار، ولكن لا يخلدون فيها؛ فيقتضى دليل الخطاب أنه يُفْتَرُ عنهم العذاب، أى: يخفف، وورد فى الخبر الصحيح: «أن الحق يميتهم إماتة إلى أن يخرجوا منها، والميت لا يحس ولا يألم، وذكر فى الآية أنهم ﴿مَبْلُسُونَ﴾ فيدل أن المؤمنين لا إيلاس لهم، وإن كانوا فى بلائهم فهم على وصف رجالهم، ويعُدون أيامهم. هـ.

وحمل ابن عطية الموت على المقاربة، لا الموت حقيقة؛ لأن الآخرة لا موت فيها، قال: والحديث أراه على التشبيه، لأنه كالتسبات والركود والهمود، فجعله موتاً. انظره فى ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (١). وقال عياض فى الإكمال: عن بعض المتكلمين: يحتمل الحقيقة، ويحتمل الغيبة عن الإحساس، كالنوم، وقد سمي النوم وفاتاً؛ لإعدامه الحس. هـ.

﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أى: فى العذاب ﴿مَبْلُسُونَ﴾ ؛ أيسون من الفرج، متحيرون، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بذلك، حيث أرسلنا الرسل ﴿وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ بتعريض أنفسهم للعذاب الخالد، بمخالفة الرسل، وإيثارهم التقليد على النظر.

﴿وَنَادُوا﴾ وهم فى النار لما أيسوا من الفتور (٢) ﴿يَا مَالِكُ﴾، وهو خازن النار. قيل لابن عباس: إن ابن مسعود يقرأ «يَا مَالِكُ» - ورويت عن النبى ﷺ (٣) - فقال (٤): «ما أشغل أهل النار عن الترخيم» (٥)، قيل: هو رمز إلى ضعفهم وعجزهم عن تمام اللفظ. ﴿لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أى: ليمتدنا حتى نستريح، من: قضى عليه إذا أماته، والمعنى: سل ربك أن يقضى علينا بالموت، وهذا لا يناهى ما ذكر من إيلاسهم؛ لأنه جوار، وتمنى الموت؛ لفرط الشدة. ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ﴾ ؛ لا بثون فى العذاب، لا تخلصون منه بموت ولا فتور، قال الأعمش: أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابتهم ألف عام (٦)، وفى الحديث: «لو قيل لأهل النار: إنكم ما كنتم فى النار عدد كل حصة فى الدنيا لفرحوا؛ ولو قيل لأهل الجنة ذلك لحزنوا، ولكن جعل الله لهم الأبد».

(١) الآية ١٣ من سورة الأعلى.

(٢) أى: فتور العذاب عنهم.

(٣) نقل القرطبي (٦١٢٠/٧) عن أبى بكر الأنباري قوله فى رفع هذه القراءة إلى النبى ﷺ: «لا يعمل على هذا الحديث، لأنه مقطوع، لا يقبل مثله فى الرواية عن الرسول ﷺ. وكتاب الله أحق أن يحاط له، وينفى عنه الباطل».

قلت: الذى فى الصحيح أن النبى ﷺ كان يقرأ: «ونادوا يا مالك». فقد أخرج البخارى فى (التفسير - سورة الزخرف، باب «ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك» الآية ح ٤٨١٩) عن صفوان بن يحيى عن أبيه قال: «سمعت النبى ﷺ يقرأ على المنبر: «ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك»... الحديث».

(٤) أى: سيدنا ابن عباس رضى الله عنهما.

(٥) الترخيم: التليين وقيل: هو للحذف: ومنه: ترخيم الاسم فى الداء، وهو أن يحذف من آخره حرف أو أكثر، فنقول فى: «مالك، يا مال»، وفى «هارث، يا حارث».. وهكذا. وسمى ترخيماً للتليين المنادى صوته بحذف الحرف. انظر اللسان (رخم ١٦١٧/٣).

وانظر قول ابن عباس رضى الله عنهما فى فتح البارى (٤٣١/٨) وتفسير السمعى (٢٨٣/٣).

(٦) قول الأعمش، ذكره الترمذى فى (صفة جهنم، باب ما جاء فى صفة طعام أهل النار).

﴿لقد جئناكم بالحق﴾ في الدنيا بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهو خطاب توبيخ وتقريع من جهته - تعالى، مقرر لجواب مالك، ومبين لسبب مكثهم، وقيل: الضمير في (قال) لله تعالى، أي: لقد أعذرنا إليكم بإرسال الرسل بالحق ﴿ولكن أكثرهم للحق﴾ أي حق كان ﴿كارهون﴾ لا تسمعون وتفرون منه؛ لأن مع الباطل الدعة، ومع الحق التعب، هذا في مطلق الحق، وأما في الحق المعهود، الذي هو التوحيد والقرآن، فكلمهم كارهون مشتمزون منه.

﴿أم أبرموا أمراً﴾: مبتدأ، ناع على المشركين ما فعلوا من الكيد لرسول الله ﷺ، وأم، منقطعة، وما فيها من معنى «بل»، للانتقال من توبيخ أهل النار إلى حكاية جنائهم هؤلاء، أي: أم أحكم مشركو مكة أمراً من كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ، ﴿فإننا مبرمون﴾ كيدنا حقيقة، كما أبرموا كيدهم صورة، كقوله تعالى: ﴿أم يريدون كيداً فألذين كفروا هم المكيدون﴾ (١) الآية. وكانوا يتناجون في أدينتهم، ويتشاورون في أمره ﷺ.

﴿أم يحسبون﴾: بل يحسبون ﴿أنا لا نسمع سرهم﴾ وهو ما حدثوا به أنفسهم أو غيرهم في مكان خال، ﴿ونجواهم﴾ أي: ما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي، ﴿بلى﴾ نحن نسمعها ونطلع عليها ﴿ورسلنا﴾ الملائكة الذين يحفظون أعمالهم، ويلزمونهم أينما كانوا ﴿لديهم﴾ أي: عندهم ﴿يكتبون﴾ كل ما صدر عنهم من الأفعال والأقوال، ومن جملتها: ما ذكر من سرهم ونجواهم، والجملة: إما عطف على ما ترجم عنه «بلى»، أي: نكتبها ورسلنا كذلك، أو حال، أي: نسمعها والحال أن رسلنا يكتبونه.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿إن المجرمين...﴾ إلخ.. أما أهل الشرك فقد اتفق المسلمون على خلودهم، إلا ما انفرد به ابن العربي الحاتمي الجيلي، فقد نقل خيراً ما ثوراً: أن النار تخرب، وينبت موضعها الجرجير، وينقل زبانيتهما إلى خزنة الجنان، فهذا من جهة الكرم وشمول الرحمة لا يطلع، ومن جهة ظواهر النصوص معارض، وباطن المشيئة مما اختص الله تعالى به. ونقل الجيلي أيضاً في كتابه (الإنسان الكامل): أن بعض أهل النار أفضل عند الله من بعض أهل الجنة يتجلى لهم الحق تعالى في دار الشقاء. ونقل أيضاً: أن بعض أهل النار تعرض عليهم الجنة فيأنفون منها، وأن بعض أهل النار يتلذذون بها كصاحب الجرب. وذكر بعضهم أن أهل النار يتطعمون بها، كالسمندل، فهذه مقالات غريبة، الله أعلم بصحتها. وعلى تقدير وقوعها في غيب مشيئته تعالى، فلعلها في قوم مخصوصين من المسلمين ختم لهم بالشقاء بعد مقاسات شذائد الطاعة، أو: في قوم من أهل الفترة لم يكن فيهم

(١) من الآية ٤٢ من سورة الطور.

إذاية، أو صدر منهم إحسان، والله أعلم بأسرار غيبه، وأما أهل التوحيد فحالهم في النار أرفق من هذا، بل حالهم فيها أروح من حال الدنيا من وجه.

قال القشيري: ولقد قال الشيوخ، إن حال المؤمنين في النار - من وجه - أروح لقلوبهم من حالهم اليوم في الدنيا؛ لأن اليوم خوف الهلاك، وغدا يقين النجاة، وأنشدوا:

عَيْبُ السَّلامَةِ أَنْ صَاحِبِهَا مُتَوَقِّعٌ لِقَرَامِيمِ الظُّهْرِ
وَفَضِيلَةُ الْبَسَلَوَى تَرْقُبُ أَهْلِهَا عَقَبَى الرَّجَاءِ وَدَوْرَةُ الدَّهْرِ (١)

ثم قال في قوله تعالى: ﴿ونادوا يامالك﴾ لو قالوا: يا مالك بدل من يامالك لكان أقرب إلى الإجابة، ولكن الأجنبية حالت بينهم وبين ذلك هـ. أى: تعلقهم بالمخلوق دون الخالق. وقوله تعالى: ﴿أم أبرموا أمراً...﴾ إلخ، هي عادته تعالى مع خواصه كيفما كانوا، يرد كيد من كادهم في نحره. وقوله تعالى ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم...﴾ إلخ، قال القشيري: إنما خوفهم بسماع الملائكة، وكتابتهم أعمالهم عليهم، لغفلتهم عن الله، ولو كان لهم خبر عن الله لما [خوفهم] (٢) بغير الله، ومن علم أن أعماله تكتب عليه، ويطلب بمقتضاها، قل الإمام بما يخاف أن يسأل عنه هـ.

ثم رد على من زعم اتخاذ الولد لله تعالى، كعيسى والملائكة، فقال:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ (٨١) سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ
الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤)
وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥)
وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) ﴿

(١) في القشيري: [عقب الرجاء مودة الدهر].

(٢) في القشيري [خافوهم].

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ على زعمكم ﴿فَأَنَا أَوْلُ الْعَابِدِينَ﴾ لله، كان أو لم يكن، ويسمى هذا إرخاء العنان، أى: أنا أول من يخضع لله، كان له ولد أو لم يكن، وقد قام البرهان على نفيه. قال معناه السدى، أو: وإن كان للرحمن ولد فأنا أول من يعظم ذلك الولد، وأسبقكم إلى طاعته، والانقياد إليه، كما يعظم ولد الملك، لتعظيم أبيه؛ وهذا الكلام وارد على سبيل الفرض، والمراد: نفي الولد، وذلك أنه علق العبادة بكنونة الولد، وهي محال في نفسها، فكان المعلق بها محالاً مثلها، ونظيره، قول سعيد بن جبير للحجاج، - حين قال له: والله لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى -: لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك. أو: إن كان للرحمن ولد في زعمكم ﴿فَأَنَا أَوْلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: الموحدين لله، المكذبين قرلكم، بإضافة الولد إليه؛ لأن من عبد الله، واعترف بأنه إلهه فقد دفع أن يكون له ولد. أو: إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين، أى: الجاحدين والآنفين من أن يكون له ولد، من عبد: بكسر الباء: إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد، ومنه قول الشاعر:

متى ما يشا ذو الودِّ يصرمَ خليله ويعبدُ عليه لا محالة ظالمًا (١)

وقول الحريري:

قال ما يجب على عابد الحق قال يحلف بالإله الخلق (٢).

أى: على جاحد الحق. وقيل: هي «إن» النافية، أى: ما كان للرحمن ولد فأنا أول من عبد الله ورحمته، فيوقف على «ولد» على هذا التأويل.

روى: أن النضر قال: إن الملائكة بذات الله، فنزلت الآية، فقال النضر: ألا ترون أنه صدقنى؛ فقال الوليد: ما صدقك، ولكن قال: ما كان للرحمن ولداً، فأنا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له (٣). وسيأتى فى الإشارة قول آخر.

قال القشيري: وفي الآية وأمثالها دليل على جواز حكاية قول المبتدعة فيما أخطأوا فيه فى الاعتقاد، على وجه الرد عليهم. هـ. قلت: ولا تجوز مطالعة أقوالهم إلا لمن رسخت قدمه فى المعرفة، والإعراض عنها أسلم.

ثم نزه ذاته عن اتخاذ الولد، فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: تنزهه رب هذه العوالم العظام عن اتخاذ الولد؛ لأن اتخاذ الولد من صفة الأجسام، ولو كان جسماً ما قدر على خلق هذه

(١) البيت للمرقش الأصغر. انظر المفضليات (٥٠٢) وروح المعاني للألوسى (١٠٥/٢٥).

(٢) هكذا فى الأصول، وأظله [الحق]، ولم أقف على البيت فى غير هذا المكان.

(٣) ذكره السفي (٢٨٣/٣).

الأجرام، وفي إضافة اسم الرب إلى أعظم الأجرام وأقوامها، تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوت ربوبيته؛ كيف يتوهم أن يكون شيء منها جزءاً منه. وفي تكرير اسم الرب تفخيم لشأن العرش.

﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ في باطلهم ﴿ ويلعبوا ﴾ في [دنياههم] (١) أي: حيث لم يذعنوا لك، ولم يرجعوا عن غيهم، أعرض عنهم واتركهم في لهوهم ولعبهم، ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾، وهو القيامة، فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا، وما يفعل بهم، أو: يوم بدر، قاله عكرمة وغيره. وهذا دليل على أن ما يقولونه إنما هو خوض ولعب لا حقيقة له.

ثم ذكر انفراده بالألوهية في العالم العلوي والسفلي، فقال: ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ أي: وهو الذي هو معبود في السماء وفي الأرض، فضمن إله، معنى مألوه، أي: وهو الذي يستحق أن يُعبد فيهما. وقرأ عمر، وأبى، وابن مسعود: «وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ (٢)» وقد مر تحقيقه عبارة وإشارة. والراجع إلى الموصول: محذوف؛ لطول الصلة، كقولهم: ما أنا بالذي قائل لك سوءاً، والتقدير: وهو الذي هو في السماء إله، وإله: خبر عن مضمر، ولا يصح أن يكون إله، مبتدأ، وفي السماء، خبره؛ لخلو الصلة حينئذ عن العائد ﴿ وهو الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله ﴿ العليم ﴾ بما كان وما يكون، أو: الحكيم في إمهال العصاة، العليم بما يؤول أمرهم إليه، وهو كالدليل على ما قبله من التنزيه، وانفراده بالربوبية.

﴿ وتبارك الذي له ملك السموات والأرض ﴾ أي: تقدس وتعاظم الذي ملك ما استقر في السموات والأرض ﴿ وما بينهما ﴾ إما على الدوام، كالهواء، أو في بعض الأوقات، كالطير، ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ أي: العلم بالساعة التي فيها تقوم، ﴿ وإليه ترجعون ﴾ للجزاء، والالتفات للتهديد، فيمن قرأ بالخطاب. ﴿ ولا يملك الدين يدعون من دونه ﴾ أي: لا تملك آلهتهم التي يدعونها ﴿ من دونه ﴾ أي: من دون الله ﴿ الشفاعة ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ الذي هو التوحيد، ﴿ وهم يعلمون ﴾ بما يشهدون به عن بصيرة وإيقان وإخلاص، وهم خواص المسلمين، والملائكة. وجمع الضميرين باعتبار معنى (من) كما أن الأفراد أولاً باعتبار لفظها. والاستثناء: إما متصل، والموصول عام لكل ما يعبد من دون الله، أو: منقطع، على أنه خاص بالأصنام.

(١) في الأصول [دينهم] والمثبت من النسخ وأبى السعد.

(٢) من الآية ٣ من سورة الأنعام.

الإشارة: قل يا محمد: إن كان للرحمن ولد، على زعمكم في عيسى والملائكة، فأنا أولى بهذه النسبة على تقدير صحتها؛ لأنى أنا أول من عبد الله في سابق الوجود؛ لأن أول مظهر نوري، فعبد الله سنين متطاولة؛ ثم تفرعت منه الكائنات، ومن سبق إلى الطاعة كان أولى بالتقريب، فلم خصصتم الملائكة وعيسى بهذه النسبة، وأنا قد سبقتهم في العبادة، بل لا وجود لهم إلا من نوري، لكن لا ولد له، فأنا عبد الله ورسوله. قال جعفر الصادق: أول ما خلق الله نور محمد ﷺ قبل كل شيء، وأول من وحد الله عز وجل من خلقه، درة محمد ﷺ، وأول ما جرى به القلم، لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، هـ. قاله المرتجبي. ففي الآية إشارة إلى سبقيته ﷺ، وأنه أول تجل من تجليات الحق، فمن نوره انشقت أسرار الذات، وانفلقت أنوار الصفات، وامتدت من نوره جميع الكائنات.

قوله تعالى ﴿فذرهم يخوضوا...﴾ إلخ، كل من خاض في بحار التوحيد بغير برهان العيان، تصدق عليه الآية، وكذا كل من اشتغل بغير الله، وبغير ما يقرب إليه؛ فهو ممن يخوض ويلعب، وفي الحديث: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله، وما والاه، أو عالماً أو متعلماً» (١).

وقوله تعالى: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة...﴾ إلخ. قال القشيري: وفي الآية دليل على أن جميع المسلمين تكون شفاعتهم غداً مقبولة. هـ. أى: لأنهم في الدنيا شهدوا بالحق، وهو التوحيد عن علم وبصيرة، لكن في تعميمه نظراً لأن الاستثناء، الأصل فيه الاتصال، ولأن من شهد بالحق مستثنى من الذين يدعون من دونه، وهم الملائكة، وعيسى، وعزير، فهم الذين شهدوا بالحق ممن دعوا من دون الله، وشفاعة من عداهم مأخوذة من أدلة أخرى. ثم ذكر إقرار المشركين بالربوبية، فقال:

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝٨٧ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّا هَنَّا قَوْمٌ لَا يَوْمِنُونَ ۝٨٨ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾

قالت: (قيله): مصدر مضاف لفاعله، يقال: قال قولاً وقيلاً ومقالاً. واختلف في نصبه (٢)، فقيل: عطف على «سرهم» (٣)، أى: يعلم سرهم ونجواهم وقيله، وقيل: عطف على محل «الساعة»، أى: يعلم الساعة ويعلم قيله،

(١) أخرجه ابن ماجه (الزهد، باب مثل الدنيا ١٣٧٧/٢، ح ٤١١٢) والترمذي في (الزهد، باب ١٤ / ٣، ٤٨٦، ح ٢٣٢٢) والبيهقي في الشعب (١٧٠٨) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه. وقال الترمذي: (حديث حسن) والمراد بالدنيا: كل ما يشغل عن الله تعالى، ويبعد عنه.

(٢) قرأ الجمهور «قيله»، بنصب اللام، وضم الهاء. وقرأ عاصم وحزمة بخفض اللام وكسر الهاء.

(٣) من الآية ٨٠، وانظر الهداية للمهدوي (٥١٠/٢).

ويجوز أن يكون الجر والنصب على إضمار القسم، وحذفه، كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ (١) وجوابه: ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ...﴾ إلخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ﴾ أى: المشركين، أو: العابدين والمعبودين ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لا الأصنام والملائكة ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره، مع كون الكل مخلوقاً له تعالى.

ولما شق عليه ﷺ صرفهم عن الإيمان جعل يستغيث ربه فى شأنهم، حرصاً على إيمانهم، ويقول: ﴿يَا رَبِّ إِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: قد عالجتهم فلم ينفع فيهم شيء، فلم يبق إلا الرجوع إليك، إما إن تهديهم، أو تهلكهم، فأخبر تعالى أنه يسمع سرهم ونجواهم، وقوله عليه السلام فى شأنهم، قال له تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أى: أعرض عنهم وأمهلهم، ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أى: أمرى تسلم منكم ومتاركة، حتى تأمرك بجهادهم، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ حالهم قطعاً، وإن تأخر ذلك. وهو وعيد من الله تعالى، وتسلية لرسول الله ﷺ، أو: فسوف يعلمون حقيقة ما أنكروا من رسالتك. ومن قرأ بالخطاب (٢)، فهو داخل فى حيزه قل، من جملة ما يقال لهم.

الإشارة: العجب كل العجب أن يعلم العبد أنه لا خالق له سوى ربه، ولا محسن له غيره، وهو يميل بالمحبة أو الركون إلى غيره، وفى الحكم: «والعجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه، ويطلب ما لا بقاء له معه، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور». ويقال لمن دعا إلى الله فلم ينجح دعاؤه: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ...﴾ الآية.

وبالله التوفيق.. وصلى الله على سيدنا محمد وآله.



(١) الآية ٨٤ من سورة ص.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر، بالخطاب على الالتفات، والباقرن بالغيب. انظر: الاتحاف/ ٤٦١.

سُورَةُ الذُّخْرَانِ

مكية. وهي سبع وخمسون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله: ﴿سوف تعلمون﴾ على الاحتمال الثاني (١)، أي: سوف تعلمون حقيقة ما أنزلنا على محمد، ثم أقسم أنه أنزل في ليلة مباركة، أو لقوله: ﴿إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ (٢) أي: بما أنزلت إلي، فأقسم الله تعالى أنه أنزله من عنده، أو يرجع لقوله: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ (٣) والحديث شجون، يجر بعضه بعضا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۝٣ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝٤ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٥ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٦ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٧ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝٨ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝٩ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝١٠ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝١١﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿حَمْدٌ﴾: يا محمد ﴿و﴾ حق ﴿الكتاب المبين﴾، الواضح البين، وجواب القسم: ﴿إنا أنزلناه﴾ أي: الكتاب الذي هو القرآن ﴿في ليلة مباركة﴾، ليلة القدر، أو ليلة النصف من شعبان، والجمهور على الأول، لقوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ (١) وقوله: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ (٢)، وليلة القدر على المشهور في شهر رمضان، وسيأتي الجمع بينهما. ثم قيل: أنزله جملة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، ثم نزل به جبريل نجوماً، على حسب الوقائع، في ثلاث وعشرين سنة، وقيل: معنى نزوله فيها: ابتداء نزوله.

(١) راجع تفسير الآية الأخيرة من سورة الزخرف.

(٢) الآية ٨٨ من سورة الزخرف.

(٣) الآية ٤٤ من سورة الزخرف.

(٤) الآية الأولى من سورة القدر.

(٥) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

والمباركة: الكثيرة الخير؛ لما ينزل فيها من الخير والبركة، والمنافع الدينية والدنيوية، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن لكفى به بركة.

﴿إنا كنا منذرين﴾؛ استئناف مبين لما يقتضى الإنزال، كأنه قيل: إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾؛ استئناف أيضاً مبين لسر تخصيص هذه الليلة بالإنزال، أى: إنما أنزلناه في هذه الليلة المباركة، لأنها فيها يفرق كل أمر حكيم، أى: ذى حكمة بالغة، ومعنى «يُفرق»: يفصل ويكتب كل أمر من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم، من هذه الليلة إلى ليلة القدر المستقبلة، وقيل: الضمير في «فيها» يرجع لليلة النصف، على الخلاف المتقدم.

وروى أبو الشيخ، بسند صحيح، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: «يمحو الله ما يشاء ويثبت» قال: ليلة النصف من شعبان، يدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء ويثبت غيره؛ الشقاوة والسعادة، والموت والحياة. قال السيوطي: سنده صحيح لا غبار عليه ولا مطعن فيه. هـ. وروى عن ابن عباس: قال: إن الله يقضى الأفضية كلها ليلة النصف من شعبان، ويسلمها إلى أربابها ليلة القدر. وفي رواية: ليلة السابع والعشرين من رمضان، قيل: وبذلك يرتفع الخلاف أن الأمر يبتدأ في ليلة النصف من شعبان، ويكمل في ليلة السابع والعشرين من رمضان^(١). والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿حكيم﴾ الحكيم: ذو الحكمة، وذلك أن تخصيص الله كل أحد بحالة معينة من الرزق والأجل، والسعادة والشقاوة، في هذه الليلة، يدل على حكمة بالغة؛ فأسند إلى الليلة لكونها ظرفاً، إسناداً مجازياً. وقوله: ﴿أمرأ من عندنا﴾: منصوب على الاختصاص، أى: أعنى بهذا الأمر أمراً حاصلًا من عندنا، على مقتضى حكمتنا، وهو بيان لفخامته الإضافية، بعد بيان فخامته الذاتية، ويجوز أن يكون حالاً من كل أمر؛ لتخصيصه بالوصف، ﴿إنا كنا مرسلين﴾؛ بدل من «إنا كنا منذرين».

﴿رحمة من ربك﴾: مفعول له، أى: أنزلنا القرآن؛ لأن من عادتنا إرسال الرسل بالكتب؛ لأجل إفاضة رحمتنا. ووضع الرب موضع الضمير، والأصل: رحمة منا؛ للإيذان بأن ذلك من أحكام الربوبية ومقتضياتها، وإضافته إلى ضميره ﷻ لتشريفه وفخامته.

(١) على هامش النسخة الأم مايلى: كيف يرتفع، والله تعالى يقول فيها - أى: الليلة المباركة «يُفرق كل أمر حكيم» وهي ليلة القدر؟ على أنه: أى إشكال لكلام الله تعالى مع كلام غيره، والمرفوع بذلك ضعيف أيضاً، فلا إشكال من كل جهة، والله الحمد. هـ.

وقال الطيبي: هذه الجمل كلها واردة على التعليل المتداخل؛ فكأنه لما قيل: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ قيل: فلم أنزل؟ فأجيب: لأن من شأننا التحذير والعقاب، فقيل: لم خص الإنزال في هذه الليلة؟ فقيل: لأنه من الأمور المحكمة، ومن شأن: هذه الليلة أن يفرق فيها كل أمر حكيم، فقيل: لم كان من الأمور المحكمة؟ فأجيب: لأن ذا الجلال والإكرام أراد إرسال الرحمة للعالمين، ومن حق المنزل عليه أن يكون حكيماً، لكونه للعالمين نذيراً، أو داهياً إلى الله بإذله.... الآية، فقيل: لماذا رحمهم الرب بذلك؟ فأجيب: لأنه وهذه سميع عليم، يعلم جريان أحوال عباده، ويعلم ما يحتاجون إليه دنيا وأخرى. هـ. وهذا معنى قوله: ﴿إنه هو السميع﴾ لأقوالهم وحده، ﴿العليم﴾ بأحوالهم.

﴿رب السموات والأرض وما بينهما﴾، من جزئه (١) بدل من «ربك»، ومن رفعه خبر عن مضمرة، أي: هو رب العوالم العلوية والسفلية، وما بينهما، ﴿إن كنتم موقنين﴾ أي: من أهل الإيقان، ومعنى الشرط: أنهم كانوا يقررون بأن للسموات والأرض رباً وخالقاً، فإن كان إقرارهم عن علم وإيقان فهو الذي أنزل الكتاب وأرسل الرسل رحمة منه، وإن كانوا مذبذبين فليعلموا ذلك.

﴿لا إله إلا هو﴾، من قصر أفراد لا قصر قلب (٢)؛ لأن المشركين كانوا يثبتون الألوهية لله - تعالى - ويشركون معه غيره، فرد الله عليهم بكونه لا يستحق العبادة غيره، ﴿يحيى ويميت﴾، ثم يبعث للجزاء، ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ أي: هو رب الجميع، ثم رد أن يكونوا موقنين بقوله: ﴿بل هم في شك يلعبون﴾، وإقرارهم غير صادر عن علم وإيقان، بل قول مخلوط بهزؤ ولعب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: (حم)، قال الورتجبي: الحاء: الوحي الخاص إلى محمد، والميم: محمد ﷺ، وذلك الوحي الخاص بلا واسطة خبر عن سر في سر، لا يطلع على ذلك - الذي بين المحب والمحبوب - أحد من خلق الله، ألا ترى كيف قال سبحانه: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ (٣)؟ وذلك إشارة إلى وحي السرفى السر، وجملتها قسم، أي: بمعنى الوحي السرى والمحبوب، والقرآن الظاهر الذي ينبئ عن الأسرار، إنا أنزلناه. هـ. قال القشيري: الحاء تشير إلى حقه، والميم إلى محبته، ومعناه: بحقى ومحبتى لعبادى، وكتابى العزيز إليهم، ألا أعذب أهل محبتى بفرقتى. هـ.

(١) قرأ عاصم وحمة والكسائي وخلف «رب» بخفض الباء، بدل من (ربك) أو صفة، وقرأ الباقر بالرفع، على إضمار مبتدأ، أو مبتدأ، خبره: ﴿لا إله إلا هو﴾. انظر: الإتحاف (١/ ٤٦٢).

(٢) القصر عدد أهل البيان: تخصيص شيء بآخر، ويسمى الأول مقصوراً والثانى مقصوراً عليه، كقولك: ما زيد إلا شاعر، فإن كان المخاطب يعتقد أنه شاعر وعالم معاً، قيل له: قصر أفراد، وإن كان يعتقد أنه عالم لا شاعر، قيل له: قصر قلب، وإن كان يتردد بين كونه عالماً أو شاعراً قيل له: قصر تعيين. انظر محيط المحيط (ص ٧٣٨).

(٣) الآية ١٠ من سورة النجم

والليلة المباركة عند القوم، هي ليلة الوصال والاتصال، حين يمتحى وجودهم، ويتحقق فناؤهم، وكل وقت يجدون فيه قلوبهم، ويفقدون وجودهم؛ فهو مبارك، وهو ليلة القدر عندهم، فإذا دام اتصالهم، كانت أوقاتهم كلها ليلة القدر، وكلها مباركة. قال الورتجبي: قوله تعالى: «في ليلة مباركة» كانت مباركة لتجلى الحق فيها بالأقضية، والرحمة غالبية فيها، ومن جملتها: إنزال القرآن فيها؛ فإنه افتتاح وصلة لأهل القرية. هـ.

قال القشيري: رسمها ليلة مباركة، لأنها ليلة افتتاح الرصلة، وأشد الليلي بركة، ليلة يكون العبد فيها هاضماً بقلبه، مشاهداً لربه، يتنسم^(١) بأنوار الرصلة، ويجد فيها نسيم القرية، وأحوال هذه الطائفة في لياليهم مختلفة، كما قالوا، وأنشدوا:

لا أَظْلِمُ اللَّيْلَ وَلَا أَدْعَى أَنْ نُجُومَ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَغُورُ
لَيْلِي كَمَا شَاءَ فَإِنْ لَمْ يَزَرْ طَال، وَإِنْ زَارَ فَلَيْلِي قَصِيرُ. هـ^(٢)

أي: ليلي كما شاء المحبوب، فإن لم يزرني طال ليلى، وإن زارني قصر. والحاصل: أن أوقات الجمال والبسط كلها قصيرة، وأوقات الجلال كلها طويلة، وقوله تعالى: «فيها يفرق كل أمر حكيم» أي: في ليلة الوصال تفرق وتبرز الحكم والمواهب القدسية، بلا واسطة، بل أمراً من عندنا، والغالب أن هذه الحالة لا تكون إلا عند الحيرة والشدة من الفاقة أو غيرها، وكان بعض العارفين من أشياخنا يستعدون فيها لكتب المواهب، ويسمون لها ليلة القدر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ هو الرسول ﷺ قال: «أنا الرحمة المهداة»^(٣)، فرحمة مفعول به، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. قال القشيري: السميع لأنين المشاقين، العليم بحدثين المحبين. هـ. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يستحق أن يتأله ويعشق إلا هو، «يُحْيِي وَيُمِيتُ»؛ يُحْيِي قلوب قوم بمعرفته ومحبته، ويميت قلوباً بالجهل والبعد، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. ثم وصف أهل الجهل والبعد بقوله: «بل هم في شك يلعبون»، وأما أهل المعرفة والقرب فهم في حضرة محبوبهم يتنعمون، ومن روح وصاله يتنسمون. قال القشيري: واللعب يجري على غير ترتيب، تشبيهاً باللعب الذي يسيل لا على نظام مخصوص، ووصف الكافر باللعب لتردده وشكّه وتحيره في عقيدته. هـ.

(١) في القشيري: يتنعم

(٢) في القشيري: لا أظلم الليل ولا أدعى أن نجوم الليل ليست تزول
ليلى كما شئت قصير إذا جاءت، وإن ضلت فليلى طويل

ونسب البيتان في زهرة الآداب (٨٤/٣) إلى علي بن خليل.

(٣) أخرجه البراز (٢١٧/٢) والطبراني في الصغير (٩٥/١) والحاكم (٣٥/١) وصححه، والقضاعي (١٨٩/١ - ١٩٠) عن أبي صالح عن أبي هريرة. وأخرجه عن أبي صالح مرسلاً، الدارمي في (المقدمة، باب كيف كان أول شأن النبي ﷺ، ح ١٥) والبيهقي في الشعب (ح ١٤٤٦) والحديث صححه الألباني في تخريج المشكاة (١٦١٥/٣).

ثم هددهم بقوله:

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ بَجْنُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فارتقب ﴾؛ فانتظر ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾، قال علي وابن عباس وابن عمر والحسن - رضي الله عنهم -: هو دخان يجيء قبل يوم القيامة، يصيب المؤمن منه مثل الزكام، وينضج رؤوس المنافقين والكافرين، حتى تكون كأنها مصليّة حنيذة^(١)، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه نار، ليس فيه خصاص^(٢)، ويؤيد هذا حديث حذيفة: «أول الآيات الدخان، ونزل عيسى، ونار تخرج من عدن، تسوق الناس إلى المحشر، تقيل معهم إذا قالوا....» الحديث^(٣)، انظر الثعلبي.

وأنكر هذا ابن مسعود، وقال: هذا الدخان قد رآته قريش حين دعا عليهم النبي ﷺ بسبع كسبع يوسف، فكان الرجل يرى من الجوع دخاناً بينه وبين السماء^(٤). ويؤيده ما يأتي بعده. وقوله ﴿ مبين ﴾ أي: ظاهر لا يشك أحد أنه دخان، ﴿ يغشى الناس ﴾ أي: يحيط بهم، حتى كان الرجل يحدث الرجل، ويسمع كلامه، ولا يراه من الدخان، أي: انتظر يوم شدة ومجاعة؛ فإن الجائع يرى بينه وبين السماء كهينة الدخان، إما لضعف بصره، أو لأن عام القحط يظلم الهواء لقلة الأمطار، أو كثرة الغبار، ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ أي: قائلين هذا عذاب أليم.

ولما اشتد بهم القحط، مشى أبو سفيان، ونفر معه إلى رسول الله ﷺ وناشده الله - تعالى - والرحم، وواعده إن دعا لهم، وكشف عنهم، أن يؤمنوا، وذلك قوله تعالى: ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ أي: سنؤمن إن

(١) المصليّة والحنيذة: المشوية.

(٢) الخصاص: الفرج والخرق في البناء أو الباب ونحوه، راجع اللسان (خصص ١١٧٣/٢) والخبر أخرجه الطبري (١١٣/٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في تفسيره (٢٣٠/٧) من حديث حذيفة بن اليمان، وأخرجه الطبري (١١٤/٢٥) بذكر كلمة (الدجال) بدل (الدخان).

(٤) معنى ما أخرجه البخاري في (التفسير، سورة حم الدخان، باب «أني لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين» ح ٤٨٢٣) ومسلم (في صفات المنافقين، باب الدخان ح ٢٧٩٨) (٣٩). ولفظه كما عند البخاري: قال عبد الله: «إن رسول الله ﷺ لما دعا قريشاً كذبره واستعصروا عليه، فقال: اللهم أعني عليه بسبع كسبع يوسف. فأصابهم سنة حصت كل شيء، حتى كانوا يأكلون الميتة وكان يقوم أحدهم، فكان يرى بينه وبين السماء مثل الدخان، من الجهد والجوع. ثم قرأ: ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾ حتى بلغ: ﴿ إنكم عائدون ﴾ قال عبد الله: أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ قال: والبطش الكبير يوم بدر.

كُشِفَ عَنَّا الْعَذَابُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ أَي: كَيْفَ يَذْكُرُونَ وَيَتَعَذَّوْنَ وَيَفُونَ بِمَا وَعَدُوهُ مِنَ الْإِيمَانِ عِنْدَ كَشْفِ الْعَذَابِ، ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّبِينٌ﴾ أَي: وَالْحَالُ أَنَّهُمْ يَشَاهِدُونَ مِنْ دَوَاعِي التَّذْكِيرِ وَمَوْجِبَاتِ الْإِتْعَازِ، مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، حَيْثُ جَاءَهُمْ رَسُولٌ عَظِيمُ الشَّانِ، بَيِّنُ الْبِرْهَانِ، يَبَيِّنُ لَهُمْ مَنَاجِجَ الْحَقِّ بِإِظْهَارِ آيَاتِ ظَاهِرَةٍ، وَمَعْجَزَاتِ قَاهِرَةٍ، تَخَرَّ لَهَا صَمُّ الْجِبَالِ.

﴿لَمْ تُولُوا هَدًى﴾ أَي: هُنَا ذَلِكَ الرَّسُولُ، بَعْدَ مَا شَاهَدُوا مِنَ الْعِظَائِمِ مَا يَوْجِبُ الْإِقْبَالَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَقْنَعُوا بِالتَّوَلَّى، بَلْ اقْتَرَفُوا مَا هُوَ أَشَدُّ، ﴿وَقَالُوا﴾ فِي حَقِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ أَي: قَالُوا نَارَ مُعَلِّمٍ يَعْلَمُهُ غَلَامٌ أَعْجَمِي لِبَعْضِ ثَقِيفٍ، وَنَارَ مَجْنُونٍ، أَوْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ كَذًا، وَبَعْضُهُمْ كَذًا، وَكَيْفَ يَتَوَقَّعُ مِنْ قَوْمِ هَذِهِ صِفَتِهِمْ أَنْ يَتَأَثَّرُوا بِالْعِظَةِ وَالتَّذْكِيرِ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كَاشَفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا﴾ أَي: زَمَنًا قَلِيلًا، أَوْ كَشَفْنَا قَلِيلًا، ﴿إِنْكُمْ عَائِدُونَ﴾ إِلَى الْكُفْرِ، الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ، أَوْ: إِلَى الْعَذَابِ بَعْدَ صَرْفِ الدَّخَانِ، عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ يَوْمَ بَدْرٍ، أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ أَي: نَنْتَقِمُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. وَانْتِصَابُ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾ بِإِذْكَرٍ أَوْ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ (إِنَّا مُنْتَقِمُونَ)، وَهُوَ نَنْتَقِمُ، لَا بِمَنْتَقِمُونَ، لِأَنَّهُ مَا بَعْدَ «إِنْ»، لَا يَعْمَلُ فِيهِمَا قَبْلَهُ.

الإشارة: فارتقب أيها العارف يوم تأتي السماء بدخان مبين، أي: يوم يبرز من سماء الغيوب بدخان الحس، وظلمة الأسباب تغشى قلوب الناس، فتحجبهم عن شمس العرفان، هذا عذاب أليم مرجع للقلوب، حيث حجبها عن حضرة علام الغيوب. وأما العارف فشمسه ضاحية، ونهاره مشرق على الدوام، كما قال شاعرهم:

لَيْلِي بِوَجْهِكَ مَشْشَرِقٌ وَظِلَامُهُ فِي النَّاسِ سَارِ
النَّاسُ فِي سَدَفِ الظُّلَامِ وَنَحْنُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ

وقال آخر:

طَلَعَتْ شَمْسُ مَنْ أَحَبُّ لَيْلِي فَاسْتَنَارَتْ فَمَا تَلَاهَا غُرُوبُ
إِنْ شَمْسُ النَّهَارِ تَغْرِبُ لَيْلِي وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ^(١)

قال القشيري: قِيَامَةُ هَوْلَاءَ - أَيِ الصُّوفِيَّةِ - مُعْجَلَةٌ لَهُمْ، يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ فِيهِ بِدْخَانٍ مُبِينٍ، وَهُوَ بَابُ غَيْبَةِ الْأَخْبَارِ، وَانْسِدَادِ بَابِ مَا كَانَ مَفْتُوحًا مِنَ الْأَنْسِ بِالْأَحْبَابِ. قُلْتُ: وَأَحْسَنُ مِنْ عِبَارَتِهِ أَنْ تَقُولَ: وَهُوَ بَابُ غَيْبَةِ الْأَنْوَارِ، وَانْسِدَادِ مَدْبِيعِ الْأَسْرَارِ. ثُمَّ قَالَ: وَفِي مَعْنَاهُ قَالُوا:

(١) البیتان من الخفیف، وهما للحلاج، كما فی دیوانه / ٢٣ تحقیق د/ کامل الشیبی. وصلة تاریخ الطبری ٨٧/١١.

فَلَا الشَّمْسُ شَمْسٌ تَسْتَدِيرُ وَلَا الضُّحَى
بَطْلَقٍ وَلَا مَاءُ الْحَيَاةِ بِيَارِدٍ . هـ^(١)

وقوله تعالى: «ربنا اكشف عنا العذاب» قال القشيري: وقد يستزيد هؤلاء العذاب على العكس من أحوال الخلق، وفي ذلك أنشدوا:

وَكُلُّ مَا رَأَيْتُ قَدْ نَلَيْتُ مِنْهَا
سِوَى مُلْكٍ وَدَّ قَلْبِي بِالْعَذَابِ^(٢)

فهم يسألون البلاء بدل ما يستكشفه الخلق، وأنشدوا:

أَنْتَ الْبَلَاءُ فَكَيْفَ أَرْجُو كَشْفَهُ
إِنَّ الْبَلَاءَ إِذَا فَقَدْتُ بَلَائِي . هـ

قلت: وأصرح منه: قول الشاعر:

يَا مَنْ عَذَابِي عَذَبٌ فِي مَحَبَّتِهِ
لَا أَشْتَكِي مِنْكَ لَا صَدَأٌ وَلَا مَلَأٌ

وقول الجيلاني^(٣) - رَحِمَهُ اللهُ:

تَلَدْتُ لِي الْآلَامُ إِذْ كُنْتُ مُسْقِمِي
وَأَنْ تَخْتَبِرْتَنِي فَهِيَ عِنْدِي صَدَائِعُ
تَحْكُمُ بِمَا تَهْوَاهُ فِي فِائِسِي
فَقِيرٌ لِسُلْطَانِ الْمَحَبَّةِ طَائِعُ

قوله تعالى: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ أي: كيف يتعظ من تنكب عن صحبة الرجال، وملأ قلبه بالخواطر والأشغال؟ وقد جاءهم من يدعوهم إلى الكبير المتعال، فأنكروه، وقالوا: معلّم مجنون، إنا كاشفوا العذاب عن قلوبهم من الشكوك والخواطر قليلاً، حين يتوجهون إلينا، ويفزعون إلى بابنا، أو يسمعون من بعض أوليائنا، ثم تكثر عليهم الخواطر، حين تنقشع عنهم سحابة أمطار الواردات من قلوب أوليائنا، إنكم عائدون إلى ما كنتم عليه، يوم نبطش البطشة الكبرى، هي خطفة الموت، فلا ينفع فيها ندم ولا رجوع، بل يورثهم حزناً طويلاً، فلا يجدون في ظلال انتقامنا مقيلاً، فللتقم ممن أعرض بسريرته عن دوام رؤيتنا.

(١) هكذا في الأصول، أما في لطائف الإشارات، فالشطر الأول فيه: [فما جانب الدنيا ب سهل ولا الضحى] .

والبيت لأبي تمام، في رثاء خالد بن يزيد. انظر ديوان أبي تمام (٧٢/٤) .

(٢) هكذا في الأصول، والشطر الثاني في القشيري وغيره من المصادر والمذكورة بعد: [سوى ملخوذ وجدى بالعذاب] .

هذا، والبيت جاء منسوباً للحلاج في ديوانه (قسم أعشار نسبت للحلاج ص ٦٨) وتاريخ بغداد (١١٦/٨)، كما نسب البيت في

الكواكب الدرية (٤٤) والفتوحات المكية (١٨٥/٣) لأبي يزيد البسطامي .

(٣) الشيخ عبد الكريم الجيلي في عينيته (ص ٥٠ - ٥١) .

ثم ذكر وبال من سلك مسلكهم، فقال:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي حُذِّثُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزَلُوكُمْ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَبْ لَنَا قَوْمٌ تُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِعْ بَادِيَ لَيْلَا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله . ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ ﴾ ؛ قبل هؤلاء المشركين، ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي: امتحناهم بإرسال موسى عليه السلام، أو: أوقعناهم في الفتنة بالإمهال وتوسيع الأرزاق، أو فعلنا بهم فعل المختبر؛ ليظهر ما كان باطنًا، ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ ؛ موسى عليه السلام، أي: كريم على الله، أو على المؤمنين، أو في نفسه حسيب نسيب، لأن الله - تعالى - لم يبعث نبيًّا إلا من سادات قومه: ﴿ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ ﴾ أي: بأن أذوا إلى، أي: ادفعوا عباد الله، وهم بنو إسرائيل، بأن ترسلوهم معي، فكانت دعوة موسى لفرعون بعد الإقرار بالتوحيد إرسال بنى إسرائيل من يده، أو: بأن أذوا إلى يا عباد الله ما يجب عليكم من الإيمان، وقبول الدعوة، فالعباد على هذا عام. فـ «إن» مفسرة؛ لأن مجئ الرسل لا يكون إلا بدعوة، وهي تتضمن القول، أو مخفية، أي: جاءهم بأن الشأن أذوا إلى، وعباد الله، على الأول: مفعول به، وعلى الثاني: منادى، ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ تعليل للأمر، أو لوجوب الأمور، أي: رسول غير ظنين، قد ائتمنتني الله على وحيه، وصدقتني بالمعجزات القاهرة.

﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أي: لا تتكبروا على الله بالاستهانة بوحيه وبرسوله أو: لا تتكبروا على نبي الله، ﴿ إِنِّي آتِيكُمْ ﴾ من جهته تعالى ﴿ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ؛ بحجة واضحة، لا سبيل إلى إنكارها، تدل على نبوتى. وفي إيراد الأداء مع الأمين، والسلطان مع العلو، من الجزالة ما لا يخفى، ﴿ وَإِنِّي حُذِّثُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أي: التجأت إليه، وتوكلت عليه، ﴿ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ ، من أن ترجمون، أي: تؤذوننى ضرباً وشتماً، أو تقتلونى رجماً.

قيل: لما قال: ﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ توعدوه بالرجم، فتوكل على الله، واعتصم به، ولم يبال بما توعدوه. ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزَلُوكُمْ ﴾ أي: وإن كابرتم ولم تدعوا لى، فلا موالاة بينى وبين من لا يؤمن، فتنحروا عني، أو: فخلونى كفافاً لا لى ولا على، ولا تتعرضوا لى بشركم وأذاكم، فليس ذلك جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلاحكم، قال أبو السعود: وحمله على قطع الوصلة وعدم الموالاة بينه وبينهم، ياباه المقام.

﴿ فِدْعَا رَبِّهٖ ﴾ بعد ما تمادوا على تكذيبه، شاكياً إلى ربه: ﴿ أَنْ هَؤُلَاءِ ﴾ أى: بأن هؤلاء، ﴿ قوم مجرمون ﴾، وهو تعريض بالدعاء عليهم، بذكر ما استوجبوه، ولذلك سمي دعاء، وقيل: كان دعاءه: اللهم عجل لهم ما يستوجبونه بإجرامهم، وقيل: هو قوله: ﴿ أَنى مغلوب فانتصر ﴾ ^(١) وقيل: قوله: ﴿ لَا تَجْعَلْنَا لِقْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٢)، وقرئ بالكسر ^(٣) على إضمار القول. قال تعالى له - بعد: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً ﴾، والفاء تؤذن بشرط محذوف، أى: إن كان الأمر كما تقول ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي ﴾؛ بنى إسرائيل ﴿ لَيْلاً إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴾ أى: دبر الله أن تتقدموا، ويتبعكم فرعون وجنوده، فلنجى المتقدمين، ونغرق الباقين، ﴿ وَاَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾؛ ساكناً على حاله بعد ما جاوزته، ولا تضربه بعصاك لينطبق، ولا تُغيره عن حاله ليدخله القبط، أراد موسى عليه السلام لما جاوزه أن يضربه بعصا لينطبق، فأمره أن يتركه ساكناً على هيئته ^(٤)، قاراً على حاله، من انتصاب الماء كالطود العظيم، وكون الطريق ييساً لا يُغير منه شيئاً، ليدخله القبط، فإذا دخلوا فيه أطبقه الله عليهم، فالرهو فى كلام العرب: السكون، قال الشاعر:

طَيْرٌ رَأَتْ بَازِيًا نَصَحَ الدُّعَاءُ بِهِ وَأُمَّةٌ خَرَجَتْ رَهْوًا إِلَى عِيدِ

أى: ساكنة، وقيل: الرهو: الفرجة الواسعة، أى: اتركه مفتوحاً على حاله منفرجاً، ﴿ إِنَّهُمْ جند مُفْرَقُونَ ﴾ بعد خروجكم من البحر. وقرئ بالفتح، أى: لأنهم.

الإشارة: كل زمان له فراعين، يحبسون الناس عن طريق الله، وعن خدمته، فيبعث الله إليهم من يُذكرهم، ويأمرهم بتخلية سبيلهم، أو بأداء الحقوق الواجبة عليهم، فإذا كُذِّب الداعى، قال: وإن لم تؤمنوا فاعتزلون، فإذا أيس من إقبالهم دعا عليهم، فيفترقون فى بحر الهوى، ويهلكون فى أودية الخواطر. وبالله التوفيق.

ثم حض على الاعتبار، فقال:

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ^(٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ^(٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ^(٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ^(٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ

(١) الآية ١٠ من سورة القمر.

(٢) الآية ٨٥ من سورة يونس.

(٣) قرأ «إن هؤلاء» بالكسر ابن أبى إسحاق وعيسى والحسن فى رواية، وزيد بن على. انظر مختصر ابن خالويه (ص ١٣٨) والبحر المحيط (٣٦/٨).

(٤) قاله قتادة فيما أخرجه ابن جرير (١٢١/٢٥).

وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

يقول الحق جل جلاله ﴿كم تركوا من جنات وعيون﴾ أى: كثير ما ترك فرعون وجلوده بمصر من بساتين. روى أنها كانت متصلة بضفتى النيل جميعاً، من رشيد إلى أسوان، (وعيون) يحتمل أن يريد الخلجان، شَبَّهَها بالعيون، أو كانت ثم عيون وانقضت، ﴿وزروع﴾ أى: مزارع، ﴿ومقام كريم﴾، محافل مزيّنة، ومنازل مُحَسَّنَة، وسماه كريماً؛ لأنه مجلس الملوك، وقيل: المذابح، ﴿ونعمة﴾ أى: بسطة ولذابة عيش وتنعم، ﴿كانوا فيها فاكهين﴾ أى: متنعمين فرحين مسرورين.

وفى المشارق: النعمة - بالفتح: التمتع، وبالكسر: إسم ما أنعم الله به على عباده، قال ابن عطية: النعمة - بالفتح: غضاوة العيش، ولذابة الحياة، والنعمة - بالكسر: أعم من هذا كله، وقد تكون الأمراض والمصائب نعمة، ولا يقال فيها نعمة بالفتح. هـ فانظره.

﴿كذلك﴾، أى: الأمر كذلك، فالكاف فى محل الرفع، على أنه خبر عن مضمر، أو نصب على أنه مصدر محذوف يدل عليه: (تركوا) أى: مثل ذلك السلب سلبناهم إياها، ﴿وأورثناها قوماً آخرين﴾ ليسوا منهم فى شيء فى قرابة ولا دين، ولا ولاء، وهم بنو إسرائيل، بأن تولوا أحكامها والتصرف فيها. وقال الحسن: رجعوا بعد هلاك فرعون إلى مصر، نظيره: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون...﴾^(١) الآية، ومثله عن القرطبي والبيضاوى، وكذلك فى نواذر الأصول، وقد تقدم الكلام عليه فى الشعراء^(٢). وفى الآية اعتبار واستبصار، وتنبيه للعاقل على عدم الاغترار، وسيأتى فى الإشارة ما فيه كفاية نظماً ونثراً.

﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾، مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم، والاعتداد بوجودهم، وفيه تهكم بهم، وبحالهم المذافية، بحال من يعظم فقده، فيقال: بكت عليهم السماء والأرض، وكانت العرب إذا عظمت مهلك رجل قالوا: بكته الريح والبرق والسماء، قال الشاعر:

(١) من الآية ١٣٧ من سورة الأعراف.

(٢) عدد تفسير الآية ٥٩ من سورة الشعراء.

الرِّيحُ تَبْكِي شَجْوَهَا وَالْبَرْقُ يَلْمَعُ فِي الْغَمَامَةِ^(١)

وقال جرير، يرثى عمر بن عبد العزيز:

فالشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرُ
حُمِلَتْ أَمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبَرَتْ لَهُ وَقُمْتُ فِينَا بِأَمْرِ اللَّهِ يَاعُمْرَا^(٢).

وقيل: البكاء حقيقة، وأن المؤمن تبكى عليه من الأرض مصلّاه، ومحل عبادته، ومن السماء مصعد عمله، كما في الحديث^(٣)، وإذا مات العالم بكت عليه حيّتان البحر، ودوابه، وهوام البر وأنعامه، والطير في الهواء، وهؤلاء لما ماتوا كفاراً لم يعبأ الوجود بفقدهم، بل يفرح بهلاكهم. ﴿وما كانوا﴾ لما جاء وقت هلاكهم ﴿منظرين﴾، مهملين إلى وقت آخر، أو إلى الآخرة، بل عجل لهم في الدنيا.

﴿ولقد نجينا بني إسرائيل﴾ لما فعلنا بفرعون وقومه ما فعلنا ﴿من العذاب المهين﴾، من استعباد فرعون إياهم، وقتل أبنائهم، واستحياء نساءهم، ﴿من فرعون﴾، بدل من العذاب المهين بإعادة الجار، كأنه في نفسه كان عذاباً مهيناً، لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم، أو خبر عن مضمرة، أي: ذلك من فرعون، وقرئ: «من فرعون»^(٤) على معنى: هل تعرفونه من هو في عتوه وتفرغه؟ وفي إيهام أمره أولاً، وتبييده بقوله تعالى: ﴿إنه كان عالياً من المسرفين﴾ ثانياً، من الإفصاح عن كنه أمره في الشر والفساد مما لا مزيد عليه، وقوله تعالى: ﴿من المسرفين﴾ إما خبر ثان، أي: كان متكبراً مسرفاً، أو حال من الضمير في «عالياً»، أي: كان رفيع الطبقة من بين المسرفين، فائقاً لهم، بليغاً في الإسراف.

(١) هذا البيت من أبيات قالها ابن المفرغ في بيعه جارية تسمى «الأراكة»، وغلاماً يسمى «برذاً»، وكانا أعز عليه من نفسه، وقد رغبه عباد بن زياد على بيعهما، ومن أبيات ابن المفرغ هذه:

والعبد يقرع بالعصا والحرّ تكفيه الملامه

والقصة في خزنة الأدب.

(٢) انظر ديوان جرير/ ٢٣٥. وأما المرتضى (٥٢/١).

(٣) أخرج ابن جرير في التفسير (١٢٤/٢٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً: «ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء، منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأخلق بابه من السماء ففقهه فبكى عليه، وإذا فقد مصلاه من الأرض التي كان يصلى فيها، وينكر الله فيها، بكت عليه، وإن آل فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار مبالغة، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض».

وأخرج الترمذي في (التفسير - سورة الدخان ح ٣٢٥٥) وأبو يعلى في مسنده (١٥٧/٤) والبخاري في التفسير (٢٣٢/٧) والخطيب في تاريخ بغداد (٣٢٧/٨) عن أنس بن مالك مرفوعاً: «ما من مؤمن إلا وله بابان، باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه، ذلك قوله عز وجل: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾»، قال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. وانظر مجمع الزوائد ١٠٥/٧.

(٤) على الاستفهام. عزاها أبو حيان لابن عباس رضي الله عنه، انظر البحر المحيط ٣٨/٨.

﴿ ولقد اخترناهم ﴾ أي: بنى إسرائيل ﴿ على علم ﴾ أي: عالمين بأنهم أحقاء بالاختيار، أو عالمين بأنهم يزيغون في بعض الأوقات، ويكثر منهم الفرطات، فلم يؤثر ذلك في سوابق علمنا، ليعلم أن الجنايات لا تؤثر في الرعايات، ﴿ على العالمين ﴾ أي: عالمي زمانهم، لما كثر فيهم من الأنبياء، ﴿ وآتيناهم من الآيات ﴾، كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغيرها من عظام الآيات، ﴿ ما فيه بلاء مبين ﴾؛ نعمة ظاهرة، أو: اختبار ظاهر، لينظر كيف يعملون، وقيل: البلاء المبين هو المطالبة بالشكر عند الرضا، والصبر عند الكدر والعناء.

الإشارة: كم ترك أهل الغفلة والاغترار، من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، من قصور وديار، فارقوها، أخصب ما كانوا فيها، وأزعجوا عنها أحوج ما كانوا إليها، استبدلوا سعة القصور بضيق اللحد والقبور، ومحاسن الملابس والتيجان بعصائب الخرق والأكفان، فيا من ركن إلى الدنيا، انظر كيف تفعل بأهلها، فرحم الله عبداً أخذ من الدنيا الكفاف، وصاحب فيها العفاف، وتزود للرحيل، وتأهب للمسير.

ذكر الطرطوسي في كتابه «سراج الملوك»: قال أبو عبدالله بن حمدون: كنت مع المتوكل، لما خرج إلى دمشق، فركب يوماً إلى رصافة هشام بن عبدالملك، فنظر إلى قصورها خاوية، ثم خرج فنظر إلى دير هناك قديم، حسن البناء، بين مزارع وأشجار، فدخله، فبينما هو يطوف به، إذ بصر برقعة قد التصقت ب صدره، فأمر بقلعها، فإذا فيها مكتوب هذه الأبيات:

أَيَا مَنَزَلًا بِالْدَّيْرِ أَصْبَحَ خَالِيَا	تَلَاعَبَ فِيهِ شِمَالٌ وَدِفُورُ
كَأَنَّكَ لَمْ يَسْكُنْكَ بَيْضُ نَوَاعِمٍ	وَلَمْ يَتَبَخَّرْ فِي قِبَابِكَ حُورُ
وَأَبْدَاءُ أَمْلاكٍ غَوَاشِمُ سَادَاتٍ	صَغِيرُهُمْ عِنْدَ الْأَنَامِ كَبِيرُ
إِذَا لَبَسُوا أَدْرَاعَهُمْ؛ فَعَوَّاسُ	وَأَن لَّبَسُوا تِيْجَانَهُمْ فَبَدُورُ
عَلَى أَنَّهُمْ يَوْمَ اللَّقَاءِ ضَرَّاعِمُ	وَأَنَّهُمْ يَوْمَ النُّوَالِ بِحُورُ
لِيَأْتِيَ هِشَامٌ بِالرَّصَافَةِ قَاطِنُ	وَفِيكَ ابْنُهُ يَادَيْرُ وَهُوَ أَمِيرُ.

إلى أن قال:

بَلَى فَسَقَاكَ الْغَيْثُ صَوْبَ سَحَابٍ	عَلَيْكَ بِهَا بَعْدَ الرُّوْحِ بُحُورُ
تَذَكَّرْتُ قَوْمِي فَيَكَمَا فَبَكَيْتَهُمْ	بَشَجَرٍ وَمِثْلِي بِالْبُكَاءِ جَدِيرُ
فَعَزَيْتُ نَفْسِي وَهِيَ نَفْسٌ إِذَا جَرَى	لَهَا ذِكْرُ قَوْمِي أَنَّهُ وَزَفِيرُ

فلما قرأها المتوكل ارتاع، ثم دعا صاحب الدير، فسأله: من كتبها؟ فقال: لا علم لي، وانصرف هـ .
ومن هذا القبيل ما وجد مكتوباً على باب «كافور الإخشيدى» بمصر:

انظر إلى عِبْرِ الأَيَّامِ مَا صَنَعْتُ أَقْنَتُ أَنَا سَاءَ بِهَا كَانُوا وَمَا فَنَيْتُ
دِيَارَهُمْ ضَحِكْتُ أَيَّامَ دَوْلَتِهِمْ فَإِذَا خَلَّتْ مِنْهُمْ صَاحَتَهُمْ وَبَكَتُ

ومن هذا أيضاً ما وجد على قصر «ذى يزن» مكتوباً:

بَاتُوا عَلَى قُلَّ الأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ غَلَبَ الرِّجَالُ فَلَمْ تَمْنَعُهُمُ الْقُلُوسُ
وَاسْتَنْزَلُوا مِنْ أَعَالِي عِزِّ مَعْقَلِهِمْ فَأُسْكِنُوا حُفْرَاءَ يَابِسَ مَا نَزَلُوا
أَيْنَ الْوُجُوهِ الَّتِي كَانَتْ مُحَجَّبَةً مِنْ دُونِهَا تُضْرِبُ الأَسْتَارُ وَالْكَلَلُ؟
فَأَفْصَحَ الْقَبْرِ عَنْهُمْ حِينَ سَأَلْتَهُمْ تِلْكَ الْوُجُوهِ عَلَيْهَا الدُّودُ تَقْتَبِلُ
قَدْ طَالَ مَا أَكَلُوا دَهْرًا وَمَا شَرَبُوا فَأَصْبَحُوا بَعْدَ طُولِ الأَكْلِ قَدْ أَكَلُوا

وحاصل الدنيا ما قال الشاعر:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا كَأَحْلَامٍ نَائِمٍ وَمَا خَيْرَ عَيْشٍ لَا يَكُونُ بِدَائِمٍ (١)
تَأْمُلُ إِذَا مَا نِلْتَ بِالْأَمْسِ لَذَّةً فَأَقْيِنْتُهَا هَلْ أَنْتَ إِلَّا كَحَالِمٍ (٢)

هذه فكرة اعتبار، وأما فكرة استبصار، فما ثمَّ إلا تصرفات الحق، ومظاهر أسرار ذاته، وأنوار صفاته، ظهرت في عالم الحكمة بالأشكال والرسوم، وأما في عالم القدرة فما ثمَّ إلا الحى القيوم.

تَجَلَّى حَبِيبِي فِي مِرَائِي جَمَالَهُ فِي كُلِّ مَرْنَى لِلْحَبِيبِ ظَلَائِعُ
فَلَمَّا تَبَدَّى حُسْنُهُ مَتْنَوْعاً تَسْمَى بِأَسْمَاءٍ فَهِنْ مَطَالِعُ (٢)

وقوله تعالى: «فما بكت عليهم السماء والأرض» يفهم منه: أن من عظم قدره تبكى على فقده السموات والأرض ومن فيهن، في عالم الحس، الذى هو عالم الأشباح، وتفرح به أهل السموات السبع في عالم الأرواح؛

(١) ورد: وكل نعيم فيها ليس بدائم.

(٢) البيتان للجبلى. انظر: النادر العينية/ ٦٩.

لتخلصه إليها، فيستبشر بقدومه كل من هنالك، وينظر الله إلى خلقه بعين الرحمة، فيرتحم ببركة قدومه الوجود بأسره. والله ذو الفضل العظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَا هُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قال القشيري: ويقال: على علم بمحبة قلوبهم لنا مع كثرة ذنوبهم فينا، ويقال: على علم بما نودع عندهم من أسرارنا، ونكاشفهم به من حقائق حقنا.

وقال الورتجبي: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَا هُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أى: على علم بصفاتنا، ومعرفة بذاتنا، ومشاهدة على أسرارنا، وبيان على معرفة العبودية والربوبية، ودقائق الخطرات والقهريات واللطيفات في زمان المراقبات - هـ.

وقال الواسطي: اخترناهم على علم منا بجنايتهم، وما يقترفون من أنواع المخالفات، فلم يؤثر ذلك في سوابق علمنا لهم، ليُعلم أن الجنايات لا تؤثر في الرعايات. وقال الجرّار: علمنا ما أودعنا فيهم من خصائص سرنا، فاخترناهم بعلمنا على العالمين. هـ. قلت: والمقصود بالذات: بيان أن اختياره - تعالى - مرتب على سابق علمه الأزلي، وعلمه - تعالى - لا تُغيره الحوادث، وقد انقطعت دولة بنى إسرائيل، فما بقى الكلام إلا مع المله المحمدية. ثم ردّ على من أنكر البعث، بعد أن ذكر بعض أشراطه، كالدخان وغيره، فقال:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَتَوَابِعَا بَابَيْنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعنى كفار قريش؛ لأن الكلام معهم، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على مماثلتهم فى الإصرار على الضلالة، والتحذير من حلول مثل ما حلّ بهم، ﴿لَيَقُولُونَ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى﴾ أى: ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى، المزيلة للحياة الدنيوية، ولا قصد فيه لإثبات موتة أخرى، كقولك: حج زيد الحجة الأولى ومات، أو: ما الموتة التى تعقبها حياة إلا الموتة الأولى، التى تقدمت وجودنا، كقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا فَأَخْيَاكُمْ﴾ (١) كأنهم لما قيل لهم: إنكم تموتون موتة تعقبها حياة، كما تقدمتكم كذلك، أنكروها، وقالوا: ما هى إلا موتتنا الأولى، وأما الثانية فلا حياة تعقبها، أو: ليست الموتة إلا هذه الموتة، دون الموتة

(١) من الآية ٢٨ من سورة البقرة.

التي تعقب حياة القبر كما تزعمون، ﴿وما نحن بمنشرين﴾ ؛ بمبعوثين، ﴿فأتوا بآبائنا﴾ ، خطاب لمن كان بعدهم النشر، من الرسول والمؤمنين، ﴿إن كنتم صادقين﴾ أى: إن صدقتم فيما تقولون، فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ركم، حتى يكون دليلاً على أن ما تعدونه من البعث حق.

قيل: كانوا يطلبون أن ينشر لهم قصي بن كلاب، ليُشاوروه، وكان كبيرهم ومفزعهم في المهمات، قال تعالى: ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾ ، رد لقولهم وتهديد لهم، أى: أهم خير في القوة والمنعة، اللتين يدفع بهما أسباب الهلاك، أم قوم تبع الحميري؟ وكان سار بالجيش حتى حير الحيرة، وبنى سمرقند، وقيل: هدمها، وكان مؤمناً وقومه كافرين، ولذلك ذمهم الله - تعالى - دونه، وكان يكتب في عنوان كتابه: بسم الله الذي ملك براً وبحراً ومضجاً وريحاً.

قال القشيري: كان تبع ملك اليمن، وكان قومه فيهم كثرة، وكان مسلماً، فأهلك الله قومه على كثرة عددهم وكمال قوتهم. هـ. روى عنه عليه السلام أنه قال: «لا تسبوا تبعاً فإنه كان مؤمناً» (١) هـ وقيل: كان نبياً، وفي حديث أبي هريرة عنه عليه السلام قال: «لا أدري تبعاً كان نبياً أو غير نبى» (٢).

وذكر السهيلي: أن الحديث يؤذن بأنه واحد بعينه، وهو - والله أعلم - أسعد أبو كرب، الذي كسا الكعبة بعد ما أراد غزوه، وبعد ما غزا المدينة، وأراد خرابها، ثم انصرف عنها، لما أخبر أنها مهاجر نبي اسمه «أحمد» وقال فيه شعراً، وأودعه عند أهلها، فكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر، إلى أن هاجر النبي عليه السلام فأدوه إليه. ويقال: كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب الأنصاري، حتى نزل عليه النبي عليه السلام فدفعه إليه، وفي الكتاب الشعر، وهو:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ (٣) أَنَّهُ	رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بَارِي النَّسَمِ
فَلَوْ مَدَّ عُمَرَى إِلَى عُمُرِهِ	لَكُنْتُ وَزيراً لَهُ وَابْنِ عَمِّ
وَأَلْزَمْتُ طَاعَتَهُ كُلِّ مَنْ	عَلَى الْأَرْضِ، مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمِ
وَلَكِنْ قَوْلِي لَهُ دَائِماً	سَلَامٌ عَلَى أَحْمَدٍ فِي الْأُمَمِ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٤٠ / ٥) والبيهقي في التفسير (٢٣٤ / ٧) وزاد السيوطي غزوه في الدر (٧٥٠ / ٥) للطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه، من حديث سهل بن سعد، وقال ابن حجر في الكافي الشاف (ص / ١٤٨): «وفيه ابن لهيعة عن عمرو بن جابر، وهما ضعيفان».

(٢) أخرجه الحاكم (٣٦ / ١) والبيهقي في السنن (٣٢٩ / ٨) والبيهقي في التفسير (٢٣٥ / ٧) وعزاه الحافظ ابن حجر في الكافي (ص / ١٤٨) للعلبي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث صحيحه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٣) كلمة «أحمد» ممنوعة من الصرف هذا، وصرفت هنا لضرورة الشعر.

ونذكر الزجاج وابن أبي الدنيا: أنه حُفِرَ قَبْرٌ بصنعاء في الإسلام، فوجد فيه امرأتان، وعند رؤوسهما لوح من فضة، مكتوب فيه بالذهب اسمهما، وأنهما بنتا تبع، تشهدان ألا إله إلا الله، ولا تُشْرِكُان به شيئاً، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما. هـ^(١). ويقال لملوك اليمن: التبابعة؛ لأنهم يتبعون، ويقال لهم: الأقيال لأنهم يتقيلون. هـ.

﴿والذين من قبلهم﴾: عطف على «قوم تبع»، والمراد بهم عاد وثمود، وأضرابهم من كل جبار عنيد، أولى بأس شديد، ﴿أهلكناهم﴾ بأنواع من العذاب ﴿إنهم كانوا مجرمين﴾، تعليل لإهلاكهم، ليعلم أن أولئك حيث أهلكوا بسبب إجرامهم مع ما كانوا عليه من غاية القوة والشدة، فكان مهلك هؤلاء - وهم شركاؤهم في الإجرام، مع كونهم أضعف منهم في الشدة والقوة - أولى.

قال الطيبي: لما أنكر المشركون الحشر، بقولهم: (إن هي إلا موتتنا الأولى) وبُخِهم بقوله: «أهم خير أم قوم تبع» إيذاناً بأن هذا الإنكار ليس عن حجة قاطعة ودليل ظاهر، بل عن مجرد حب العاجلة، والتمتع بملاذ الدنيا، والاعتزاز بالمال والمآل والقوة والمنعة، أي: كما فعل بمن سلك قبلهم من الفراعنة والتبابعة حتى هلكوا، كذلك يفعل بهؤلاء إن لم يرددعوا.

ثم قرر أن الحشر لا بد منه بقوله: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما﴾ أي: بين الجنسين، ﴿لاعبين﴾؛ لاهين من غير أن يكون في خلقهما غرض صحيح، وغاية حميدة، جلّ جناب الجلال عن ذلك، ﴿ما خلقناهما إلا بالحق﴾ أي: ما خلقناهما ملتبساً بشيء من الأشياء إلا ملتبساً بالحق، أو: ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، الذي هو الإيمان والطاعة في الدنيا، والبعث والجزاء في العقبى.

قال الطيبي: وقد سبق مراراً: أنه ما خلقهما إلا ليوحد ويعبد، ثم لا بد أن يجزى المطيع والعاصي، وليست هذه دار الجزاء. وقال ابن عرفة: قوله: «إلا بالحق» أي: إلا مصاحبين للدلالة على النشأة الآخرة، وهي حق. هـ. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أنهم خلقن لذلك، بل عبثاً، تعالى الله عن ذلك.

الإشارة: كانت الجاهلية تنكر البعث الحسى، والجهلة اليوم ينكرون البعث المعنوى، ويقولون: إن هي إلا موتتنا الأولى، أي: موت قلوبنا وأرواحنا بالجهل والغفلة، فكيف يكون الرجل منهمكاً في المعاصي، ميت القلب، ثم ينقذه الله ويحييه بمعرفته، حتى يصير ولياً من أوليائه «من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يُخرجه من

(١) ذكره القرطبي (٦١٥١/٧).

وجود غفلته، فقد استعجز قدرة الإلهية، وكان الله على كل شيء مقتدراً»^(١) أهم خير أم قوم تبع؟ وقد أخرج الله من قومه أنصار نبيه ﷺ، وكانوا من خواص أحبائه، حتى قال: «الناس دثار والأنصار شعار، لو سلك الناس وادياً أو شعباً، وسلك الأنصار وادياً، لسكنت وادي الأنصار وشعبهم»^(٢). وما خلقنا الأجرام العظام إلا لتدل على كمال قدرتنا، والسلام.

ثم ذكر شأن البعث الذي أنكرته الجاهلية، فقال:

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَاَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ أى: فصل الحق عن الباطل، وتمييز المحق من المبطل، أو فصل الرجل عن أقاربه وأحبابه، وهو يوم القيامة، ﴿ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى: وقت مواعدهم كلهم، ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا ﴾؛ لا يغنى ناصر عن ناصر، ولا حميم عن حميم، ولا نسب عن نسب، شيئاً من الإغناء. قال قتادة: انقطعت الأسباب يومئذ بابن آدم، وصار الناس إلى أعمالهم، فمن أصاب يومئذ خيراً، سعد به، ومن أصاب يومئذ شراً شقى به^(٣). هـ. ﴿ يَوْمَ ﴾: بدل من يوم الفصل، أو: صفة لميقاتهم، أو: ظرف لما دل عليه الفصل، أى: يفصل فى هذا اليوم، ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾؛ يمنعون مما أراد الله، والضمير لـ «مولى».

(١) حكمة عطائية. انظر الحكم بتبويب المفتى الهندي، (ص ١٨، حكمة ١٩٧).

(٢) أخرجه مطولاً البخارى فى (المغازى، باب غزوة الطائف، ح ٤٣٣٠) ومسلم فى (الزكاة، باب إعطاء المؤلفات قلوبهم على الإسلام.. رقم ١٠٦١ ح ٩١٣٩ من حديث عبد الله بن زيد، والشعار هو: الثوب الذى يلى الجسد، والدثار فوقه، ومعنى الحديث: الأنصار هم البطانة والخاصة، وألصق الناس بى من سائر الناس.

(٣) أخرجه الطبرى، وزاد السيوطى عزوه فى الدر (٧٥١/٥) لعبد بن حميد.

باعتبار المعنى، لأنه عام، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾؛ بدل من الواو في «يُنصرون»، أى: لا يمنع من العذاب إلا من رحم الله، بالعفو عنه، أو بقبول الشفاعة فيه، أو: منصوب على الاستثناء المنقطع، أو: مرفوع على الابتداء، أى: لكن من رحم ﴿الله﴾ فيُغْنِي عنه ﴿إنه هو العزيز﴾؛ الغالب، الذى لا يُنصر من أراد تعذيبه، ﴿الرحيم﴾ لمن أراد أن يرحمه.

﴿إِنْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾، هى على صورة شجرة الدنيا، لكنها من النار، والزقوم تمرها؛ وهو كل طعام ثقيل. روى: أنها لما نزلت، جمع أبو جهل عجوة وزيداً، وقال لأصحابه: تزقموا، فهذا هو الزقوم، وهو طعامى الذى حدث به محمد^(١)، قصد بذلك المغالطة والتلبيس على الجهلة. أى: إن ثمر شجرة الزقوم هو ﴿طعام الأثيم﴾ أى: الكثير الإثم، وهو الكافر؛ لدلالة ما قبله وما بعده عليه. وقيل: نزلت فى أبى جهل، ثم تعم. وكان أبو الدرداء يقرىء رجلاً، فكان أبو الدرداء يقول: طعام الأثيم، والرجل يقول: طعام اليتيم، فكرر عليه، فلم يفهم منه؛ فقال: «طعام الفاجر يا هذا»^(٢). قال النفسى: وبهذا يستدل على أن إبدال الكلمة مكان الكلمة جائز، إذا كانت مؤدية معناها، ومنه أجاز أبو حنيفة رحمته القراءة بالفارسية، بشرط أن يؤدى القارئ المعانى كلها، من غير أن يخرم منها شيئاً^(٣). انظر بقيته.

﴿كَأْمَهِلٍ﴾، وهو دُرْدَى الزيت^(٤)، أو: ما يمهل فى النار فيذوب، من نحاس وغيره، ﴿يغلي فى البطون﴾؛ من قرأه بالغيب^(٥) رده للمهل، أو للطعام، ومن قرأه بالتاء رده للشجرة، ﴿كغلي الحميم﴾؛ الماء الحار الذى انتهى غليانه، أى: غليان كغلي الحميم، فالكاف فى محل نصب، ثم يقال للزبانية: ﴿خَذُوهُ﴾ أى: الأثيم ﴿فاعتلوه﴾ أى: جرّوه، فاعتل: الأخذ بمجامع الشئ. والسوق بالعنف والقهر، يقال: عتل يعتل بالضم والكسر، أى: جرّوه ﴿إلى سواء الجحيم﴾؛ وسطها ومعظمها.

(١) أخرج سعيد بن منصور عن أبى مالك قال: «إن أبا جهل كان يأتى بالتمر والزبد، فيقول: تزقموا بهذا الزقوم الذى يعدكم به محمد، فنزلت: ﴿إِنْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾، انظر الدر المنثور (٧٥٢/٥).

(٢) أخرجه الحاكم (٤٥١/٢) «وصححه وأقره الذهبى، والطبرى (١٣١/٢٥) وزاد السيوطى عزوه فى الدر (٧٥٣/٥) لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر، عن همام بن الحارث.

(٣) قال أحمد بن المنير الإسكندرى فى الانتصاف: «لادليل فيه لذلك، وقول أبى الدرداء محمول على إيضاح المعنى، ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عوناً على أن يأتى بالقراءة كما أنزلت، وعلى هذا حمله القاضى أبو بكر فى الانتصار. (حاشية الكشف ٢٨١/٤). وانظر أيضاً: تفسير القرطبى ٦١٥٤/٧.

(٤) الدردى: مارسب أسفل الزيت ونحوه.

(٥) قرأ ابن كثير وحفص: (يغلى) بالياء على التذكير، والباقون «تغلى» بالتأنيث. انظر: الإتحاف (٤٦٤/٢).

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ : المصبوب هو الحميم، لا عذابه، إلا أنه إذا صب عليه الحميم، فقد صب عليه عذابه وشدته: والأصل: ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ عَذَاباً هُوَ الْحَمِيمُ، ثُمَّ أَضِيفَ الْعَذَابُ إِلَى الْحَمِيمِ؛ لِلْمُبَالَغَةِ، وَزَيْدٌ «مَنْ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْمَصْبُوبَ بَعْضُ هَذَا النَّوعِ، وَيُقَالُ لَهُ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ عَلَى سَبِيلِ الْهَزْوَ وَالْتِهْكِمْ، رُوِيَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا بَيْنَ جَبَلِيهَا أَعَزُّ وَلَا أَكْرَمُ مَنَى، فَوَاللَّهِ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْتَ وَلَا رِيكَ أَنْ تَفْعَلَا بِي شَيْئاً^(١)، فَتَقُولُ لَهُ الزَّيْنَانِيَةُ هَذَا عَلَى طَرِيقِ الْاسْتَهْزَاءِ وَالتَّوْبِيخِ. وَقَرَأَ الْكَسَائِيُّ: «أَنْتَ» بِالْفَتْحِ^(٢)، أَيْ: لِأَنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ فِي قَوْمِكَ، الْكَرِيمُ فِي زَعْمِكَ. ﴿إِنْ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾؛ تَشْكُونَ، وَتَمَارُونَ فِيهِ، وَالْجَمْعُ بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ جِنْسَ الْأَثِيمِ.

الإشارة: يوم الفصل هو اليوم الذي يقع فيه الانفصال بين درجة المقربين، ومقام عامة أهل اليمين، فيرتفع المقربون، ويسقط الغافلون، فلا يغنى صاحبٌ عن صاحبٍ شيئاً، ولا هم ينصرون من السقوط عن مراتب الرجال، فلا ينفع حينئذٍ إلا ما سلف من صالح الأعمال، إلا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ، مِمَّنْ تَعَلَّقَ بِالْمَشَايِخِ الْكِبَارِ، مِنَ الْمُرِيدِينَ، فَإِنَّهُمْ يَرْتَفِعُونَ مَعَهُمْ بِشَفَاعَتِهِمْ. وَشَجَرَةُ الزَّقُومِ هِيَ شَجَرَةُ الْمَعْصِيَةِ؛ فَإِنَّهَا تَقْلَى فِي الْبَطُونِ، وَتَعْوِقُ عَنِ الْوُصُولِ، فَقَدْ قَالُوا: مَنْ أَكَلَ الْحَرَامَ عَصَى اللَّهَ، أَحَبُّ أُمَّ كَرِهَ، وَمَنْ أَكَلَ الْحَلَالَ أَطَاعَ اللَّهَ، أَحَبُّ أُمَّ كَرِهَ، فَيُقَالُ: خَذُوهُ فَادْفَعُوهُ إِلَى سِوَاءِ الْجَحِيمِ، وَهِيَ نَارُ الْقَطِيعَةِ وَالْبُعْدِ، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا، وَشَغْبِ الْخَوْضِ وَالْخَوَاطِرِ، ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ، وَلَوْ كُنْتَ ذَلِيلًا خَامِلًا لَلَّتِ الْعِزَّ وَالْكَرَامَةَ. وَبِاللَّهِ التَّرَفِيقُ.

ثُمَّ شَفَعَ بَصْنَدِهِمْ، فَقَالَ:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوتٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعْنَا لَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّامِينَ رَبَّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

(١) أخرجه الطبري (١٣٤/٢٥) وعزاه السيوطي في الدر (٧٥٣/٥) لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة.

(٢) على العلة، وقرأ الباقر بكسرها.. انظر الاتحاف ٤٦٤/٢.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ﴾، بضم الميم^(١)؛ مصدر، أى: فى إقامة حسنة، وبالفتح: اسم مكان، أى: فى مكان كريم، وأصل المقام، بالفتح: موضع القيام، ثم عمم واستعمل فى جميع الأمكنة، حتى قيل لموضع القعود: مقام، وإن لم يقيم فيه أصلاً، ويقال: كنا فى مقام فلان، أى: مجلسه، فهو من الخاص الذى وقع مستعملاً فى معنى العموم، وقوله: ﴿أَمِينٌ﴾: وصف له، أى: يأمن صاحبه الآفات والانتقال عنه، وهو من الأمن ضد الخيانة، وصف به المكان مجازاً، لأن المكان المخيف يخون صاحبه بما يلقي فيه من المكاره.

وقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾: بدل من «مقام» جئ به دلالة على نزاهته واشتماله على طيبات المآكل والمشارب، ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ﴾، وهو ما رق من الديباج، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾: ما غلظ منه، وهو معرب، والجملة إما حال، أو استئناف، حال كونهم ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ فى مجالسهم، يستأنس بعضهم ببعض، ﴿كَذَلِكَ﴾ أى: الأمر كذلك، قيل: المعنى فيه أنه لم يستوف الوصف، وأنه بمثابة ما لا يحيط به الوصف، فكأنه قال: الأمر نحو ذلك وما أشبهه، وليس بعين الوصف وتحققه.

﴿وَزَوْجَانَهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى: قرنائهم وأصحابنهم، ولذلك عدى بالباء. قال القشيري: وليس فى الجنة عقد نكاح ولا طلاق، بل تمكن الولي من هذه اللطاف بهذه الأوصاف هـ. والهور: جمع حوراء، وهى الشديدة سواد العين، والشديدة بياضها، والعين: جمع عينا، وهى الواسعة العين، واختلف فى أنها نساء الدنيا أو غيرها.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ أى: يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهونه من الفواكه، لا يختص بزمان ولا مكان، ﴿آمِنِينَ﴾ من زواله وانقطاعه، ومن ضرره عند الإكثار منه، أو: من كل ما يسوءهم، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ أصلاً، بل يستمرون على الحياة الأبدية، ﴿إِلَّا الْمَوْتَ الْأُولَى﴾: سوى الموة الأولى، التى ذاقوها، أو: لكن الموة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا، فالاستثناء منقطع، أو متصل على أن المراد استحالة ذوق الموت إلا إذا كان يمكن ذوق الموة الأولى حينئذ، وهو محال، على نمط قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾^(٢).

﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾، فضلاً من ربك ﴿أَيُّ﴾: أعطوا ذلك كله عطاء وتفضلاً منه. تعالى: إذ لا يجب عليه شيء، فهو مفعول له، أو مصدر مؤكد لما قبله، لأن قوله: ﴿وَقَاهُمْ﴾ فى معنى تفضل عليهم، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذى لا فوز وراءه؛ إذ هو خلاص من جميع المكاره، ونيل لكل المطالب.

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بضم الميم الأولى فى «مقام» بمعنى الإقامة، وقرأ الباقون بفتحها، موضع الإقامة.

(٢) من الآية ٢٢ سورة النساء.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ أى: الكتاب، وقد جرى ذكره فى أول السورة، أى: سهّلنا قراءته ﴿بِلِسَانِكَ﴾، بلغتك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أى: كى يفهموه ويتعظوا به، ويعملوا بموجبه، فلم يفعلوا، ﴿فَارْتَقِبْ﴾؛ فانظر ما يحلّ بهم، ﴿إِنَّهُمْ مَرْتَقِبُونَ﴾ ما يحلّ بك. قال القشيري: فارتقب العواقب ترى العجائب، إنهم مرتقبون، ولكن لا يرون إلا ما يكرهون. هـ.

الإشارة: إن المتقين شهود ما سوانا فى مقام العرفان، وهو مقام المقربين، وهو محل الأمن والأمان، فى جنات المعارف، وعيون العلوم والحكم، يلبسون من أسرار الحقيقة وأنوار الشريعة، ما تبتهج به بواطنهم وظواهرهم، متقابلين فى المقامات، يجمعهم الفناء والبقاء، ويتفاوتون فى اتساع المقامات والأسرار، تفاوت أهل غرف الجنان، كذلك، أى: الأمر فوق ما تصف، وزوجانهم بعرائس المعرفة، لا يذوقون فى جنات المعارف - إذا دخلوها - الموت أبداً إلا الموتة الأولى، وهى موت نفوسهم، فحييت أرواحهم حياة أبدية، وأما الموت الحسى فإنما هو انتقال من عالم إلى عالم، ومن مقام إلى مقام، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم، فضلاً منه وإحساناً، خلق فيهم المجاهدة، ومن عليهم بالمشاهدة.

وقال الورتجى بعد كلام: إذا أحضرهم - تعالى - فى ساحة كبريائه، ويتجلى لهم بالبدية من غير الجبرية والقهرية؛ يكونون فى محل الفناء، وفى فناء الفناء، وغلبات سطوات ألوهيته، فإذا صاروا فانيين، ألبسهم الله لباس بقاءه، فيبقون ببقائه أبد الأبد، فإذا الاستثناء وقع على التحقيق، لا على التأويل، فيارب موت هناك، ويارب حياة هناك؛ لأن الحدث لا يستقيم عند بروز حقائق بواطن القدم، ألا ترى إلى إشارة النبى ﷺ كيف قال: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(١) أى: فيتلاشى الخلق ويبقى الحق.

قيل للجنيد: أهل الجنة باقون ببقاء الحق؟ فقال: لا، ولكنهم مبقون ببقاء الحق، والباقي على الحقيقة من لم يزل، ولا يزال باقياً. هـ.

والحاصل: أنه لا عدم بعد وجودهم بالله، ولا يكون إلا بعد الفناء عن أوصاف الخليقة، ووجود البشرية، بالاندراج فى وجود الحق، ثم الحياة بحياته، والبقاء ببقائه أبداً، قاله فى الحاشية الفاسية. والفرق بين الباقي والمبقى فى كلام الجنيد: أن الباقي يدل على ثبوت بقاءه مستقلاً، بخلاف المبقى، لا وجود لبقائه، بل مبقى ببقاء غيره.

(١) سبق تخريج الحديث الشريف، انظر (١٧٨/٤).

وقال في قطب العارفين، لما تكلم على التقوى: التقوى مطرد في وجوه كثيرة، تقوى الشرك، ثم تقوى المعصية، ثم تقوى فضل المباح، ثم تقوى كل ما يسترق القلوب عن الله تعالى، وإلى هذا الصنف الإشارة بسر قوله تعالى «إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون...» الآية. هـ. وعنه رحمته: «من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» ^(١) ذكره في الجامع، وفي فضلها أحاديث، تركتها.



(١) أخرجه الترمذي في (فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل حم الدخان، ح ٢٨٨٨) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمر بن أبي خنعم يضعف». وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (باب ما يستحب أن يقرأ في اليوم والليلة) والبيهقي في الشعب (الباب التاسع عشر، فصل في فضائل السور، ح ٢٤٧٥) والبغوي في التفسير (٧/ ٢٣٨) وابن عدي في الكامل (٥/ ٢٧٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

مكية، وقيل: إلا قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا...﴾ الخ. وهي سبع وثلاثون آية. ووجه مناسبتها: قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ (١) مع قوله: ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ﴾ أي: فالذي يسرناه بلسانك هو منزل من الله، الغالب على أمره.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٤ وَأَخْلَلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ٦﴾

قلت: (واختلاف الليل والنهار...) الآية؛ فيها العطف على عاملين، سواء نصبت «آيات» أو رفعتها، فالعاملان إذا نصبت «إن» وفي، أقيمت الواو مقامهما، فعملت الجر في (واختلاف) والنصب في (آيات)، وإذا رفعت فالعاملان الابتداء، وحرف «في» عملت الواو الرفع في «آيات» والجر في «واختلاف» وهذا مذهب الأخفش، فإنه يجوز العطف على عاملين، وأما سيبويه فلا يجيزه، وتخريج الآية عنده: أن يكون على إضمار «في»، والذي حسنه: تقديم ذكر «في» في الآيتين قبله، ويؤيده: قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (وفي اختلاف الليل والنهار) وفيها أوجه أخر.

يقول الحق جل جلاله ﴿حَمْدٌ﴾؛ يا حبيب يا مجيد هذا ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، فكونه من الله عز وجل دل أنه حق وصدق وصواب، وكونه من العزيز دل أنه معجز، يغلب ولا يغلب، وكونه من الحكيم دل أنه مشتمل على الحكم البالغة، وأنه محكم في نفسه، ينسخ ولا ينسخ.

ثم برهن على عزته، وباهر حكمته، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ إما في نفس السموات والأرض؛ فإن في شكلهما من بدائع وفنون الحكم ما يقصر عنه البيان، وإما في خلقهما وإظهارهما، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٢)، ﴿لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لدلالات على وحدانيته تعالى لأهل الإيمان،

(١) الآية ٥٨ من سورة الدخان.

(٢) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران.

وهو الأوفى بقوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أى: من نطفة ثم من علقة متقلبة من أطوار مختلفة إلى تمام الخلق، ﴿وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾: عطف على المضاف دون المضاف إليه، أى: وفى خلق ما يَبُثُّ، أى: ينشر ويصرف من دابة ﴿آيَاتٍ﴾ ظاهرة على باهر قدرته وحكمته، ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى: من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هى عليه، ويعرفوا فيها صانعها، ﴿وَفِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى: تعاقبهما بالذهاب والمجيء، أو: تفاوتهما طولاً، وقصراً، ﴿وَفِي﴾ ما أنزل الله من السماء من رزقٍ ﴿مَطَرٍ﴾؛ لأنه سبب الرزق، فعبر عن السبب بالمسبب؛ لأنه نتيجة، تنهيهما على كونه آية من جهة القدرة والرحمة، ﴿فَاحْيَا بِهِ الْأَرْضُ﴾ بأن أخرج أصناف الزرع والثمار والنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى: خلوها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التسمية عنها، وخلو أشجارها عن الثمار والأزهار.

﴿وتصريف الرياح﴾ أى: هبوبها من جهة إلى أخرى، ومن حال إلى حال، وتأخيرها عن نزول المطر مع تقدمه عليه فى الوجود، إما للإيدان بأنه آية مستقلة، ولوروعى الترتيب الوجودى لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح ونزول المطر آية واحدة، أو: لأن كون التصريف آية ليس مجرد كونه مبتدأ لإنشاء المطر، بل له ولسائر المدافع، التى من جملتها: سوق السفن فى البحار، وإفراح الأشجار، ﴿آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ يتدبرون بعقولهم، فيصلون إلى صريح التوحيد. وفى تقديم الإيمان على الإيقان، وتأخير تدبر العقل؛ لأن العباد إذا نظروا فى السموات والأرض نظراً صحيحاً، علموا أنها مصنوعة، وأنه لا بد لها من صانع، فأمنوا بالله، وإذا نظروا فى خلق أنفسهم، وتنقلها من حال إلى حال، وفى خلق ما ظهر على ظهر الأرض من صفوف الحيوان ازدادوا إيماناً وأيقنوا، فإذا نظروا فى سائر الحوادث التى تتجدد فى كل وقت، كتعاقب الليل والنهار، ونزول الأمطار، وحياة الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح، جنوباً وشمالاً، ودبوراً وصبا، عقلوا، واستحكم فى عقولهم، وخلص يقينهم، فكانوا من ذوى الألباب.

﴿تلك آيات الله﴾؛ مبتدأ وخبر، و﴿نتلوها عليك﴾ حال، والعامل: معنى الإشارة، أى: تلك الآيات المتقدمة هى آيات الله الدالة على وجوب وجوده واتصافه بأوصاف الكمال، حال كونها متلوّة عليك، ملتبسة ﴿بالحق﴾ أو: نتلوها محققين فى ذلك، فالجار والمجرور: حال من المفعول أو الفاعل. ﴿فبأي حديثٍ من الأحاديث﴾ بعد الله وآياته ﴿أى: بعد آيات الله، كقولك: أعجبنى زيد وكرمه، أى: أعجبنى كرم زيد، أو: بعد حديث الله، الذى هو القرآن، وآياته العامة فى كل شيء، فيكون على حذف مضاف، أو: يراد بها القرآن أيضاً، والعطف للتغاير العوائى، فالأول من جهة كونه حديثاً حسناً، والثانى باعتبار كونه معجزاً، أى: فبأي حديث بعد أحسن الحديث وأبهر الآيات ﴿يؤمنون﴾؛ يصدقون^(١) ومن قرأ بالخطاب^(١) يُقدر: قل يا محمد.

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر ويعقوب «يؤمنون» بالناء، وقرأ الباقر بالغيب. انظر الإتحاف (٢/٤٦٦).

الإشارة: قال القشيري: الحاء تدل على حياته، والميم تدل على مردته، كأنه قال: بحق حياتي ومودتي لأوليائي، لا شيء أعز على أحبائي من لقائي، العزيز في جلاله، الحكيم في فعاله، العزيز في أزلّه، الحكيم في لطفه بالعبد بوصف إقباله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية: شواهد الربوبية لائحة، وأدلة الإلهية واضحة، فمن صحا فكره عن سكر الغفلة، ووضع سره في محل العبرة، حظي - لامحالة - بحقائق الوصلة. هـ. قلت: إنما يحظى بالوصلة إذا نفذت بصيرته إلى شهود المكون، ولم يقف مع شيء من حسن الكائنات، بل نفذ إلى ما فيها من أسرار المعاني، فعرف فيها مولاها، وشاهد فيها المتجلى بها، وبقي مسجوناً محضوراً في ذاته.

قوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ...﴾ الآية، قال القشيري: إذا أنعم العبد النظر في استواء قده وقامته، واستكمال خلقه^(١)، وتمايز تمييزه، وما هو مخصص به من جوارحه وحوائجه، ثم فكر فيما عداه من الدواب، وأجزائها وأعضائها، ووقف على اختصاصه، وامتنياز بني آدم من بين البرية من الحيوانات، في الفهم والعقل والتمييز والعلم، ثم في الإيمان والعرفان، ووجوه خصائص أهل الصفوة من هذه الطائفة من فنون الإحسان، عرف تخصيصهم بمناقبهم، وانفرادهم بفضلهم، فاستيقن أن الله أكرمهم، وعلى كثير من المخلوقات قدمهم.

ثم قال في قوله: ﴿واختلاف الليل والنهار...﴾ الآية. جعل الله العلوم الدينية كسبية مُصنَّحة بالدلائل، مُحَنَّفَةٌ بالشواهد، فمن لم يستبصر لها زلت قدمه عن الصراط المستقيم، ووقع في عذاب الجحيم، فاليوم في ظلمة الحيرة والتقليد، وفي الآخرة في التخليد في الوعيد. هـ. قلت: النظر في دلائل الكائنات من غير تنوير، ولا صحبة أهل التنوير، لا تزيد إلا حيرة، ولذلك قال بعضهم: إيمان أهل علم الكلام كالخيوط في الهواء، يميل مع كل ريح، فالتقليد حينئذ أسلم، والتمسك بظاهر الكتاب والسنة أتم، ومن سقط على العارفين بالله، لم يحتج إلى دليل ولا شاهد، وأغناه شهود الشهيد عن كل شاهد.

عجبت لمن يبغى عليك شهادة وأنت الذي أشهدته كل شاهد.

كيف يُعرف بالمعارف من به عُرِفَت المعارف؟ تنزه الحق تعالى أن يفتقر إلى دليل يدل عليه، بل به يستدل على غيره، فلا يجد غيره. تلك آيات شواهد نزلوها عليك لقرانا فيها، لا لتراها مفروقة عنا، ولذلك قال تعالى: (بالحق)، أي: ملتبسة بنور الحق، الله نور السماوات والأرض.

(١) في القشيري: عقله.

قوله تعالى: ﴿فَبَأَىٰ حَدِيث...﴾ الآية، قال القشيري: فَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا فَبَأَىٰ حَدِيثُ يَوْمِن؟ ومن أي أصل ينشأ بعده^(١)؟ ومن أي بحر في التحقيق يغترف؟ هيهات ما بقى للإشكال في هذا مجال. هـ.

ثم ذكر حال من أعرض عنها، فقال

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۖ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُّ مُسْتَكْبِرًا ۚ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ بِعَذَابِ
الْإِيمِ ۖ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۚ ۝٩ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ
وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۚ ۝١٠
هَٰذَا هُدًىٰ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزِ الْإِيمِ ۚ ۝١١﴾

يقول الحق جل جلاله ﴿ويل لكل أفَّاكٍ﴾: كذاب ﴿أثيم﴾: كثير الآثام، ﴿يسمع آيات الله﴾: التنزيلية ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾: جملة «يسمع» صفة أخرى لأفَّاك، أو استئناف، أو حال من ضمير «أثيم»، وتتلوه: حال من آيات الله، ﴿ثم يصِرُّ﴾ أي: يُقيم على كفره، حال كونه ﴿مستكبراً﴾ عن الإيمان بالآيات، والإذعان لما تنطق به من الحق، مُزدرياً بها، مُعجباً بما عنده من الأباطيل. قيل: نزلت في النضر بن الحارث، وكان يشتري من أحاديث الأعاجم، ويشغل بها الناس عن سماع القرآن^(٢)، والآية عامة في كل من كان مضاراً لدين الله وجيء بتم لأن الإصرار على الضلالة، والاستبكار عن الإيمان عند سماع آيات القرآن، مستبعد في العقول. ثم قال: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: كأنه لم يسمعها، فأن مخففة، ومحل الجملة النصب على الحال، أي: يصِرُّ شبيهاً بغير السامع، ﴿فبشيره﴾ على إصراره واستكباره ﴿بعذاب إيمٍ﴾ أي: أخبره خبر يظهر أثره على البشرية، تهكماً به.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾ أي: إذا بلغه من آياتنا شيئاً يمكن أن يتشبث بها المعاند، ويجد له محملاً فاسداً يتوسل به إلى الطعن والمغمزة، ﴿اتَّخَذَهَا﴾ أي: مهزوءاً بها، لا ما يسمعه فقط، وإنما لم يقل: اتَّخَذَهُ؛ للإشعار بأنه إذا أحسن بشيء من الكلام فيه شيء بزعمه الركيك؛ لم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه، بل يستهزئ بالجميع، ويجوز أن يرجع الضمير (لشيء) لأنه في معنى الآية. ﴿أولئك لهم﴾ بسبب جنائياتهم المذكورة ﴿عذابٌ مُّهِينٌ﴾، وصف العذاب بالإهانة. توفية لحق استكبارهم واستهزائهم بآيات الله تعالى، وجمع الإشارة باعتبار

(١) في القشيري: يستمد بعده ١ وهو أنسب.

(٢) ذكره في البحر المحيط (٤٤/٨).

ما في ﴿كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيمٌ﴾ من الشمول، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(١)، وأفرد فيما سبق من الضمائر باعتبار كل واحد واحد. ﴿مِنْ ورائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أى: من قدامهم، لأنهم متوجهون إلى ما أعد لهم، أو: من خلفهم؛ لأنهم معرضون عن ذلك، مقبلون على الدنيا، فإن وراء: اسم للجهة التي يوارىها الشخص من قدام وخلف، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ﴾؛ لا يدفع عنهم ﴿مَا كَسَبُوا﴾ من الأموال والأولاد ﴿شَيْئاً﴾ من عذاب الله تعالى، ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: الأصنام، وهما: مصدرية، أو موصولة، وتوسط حرف النفي بين المعطوفين ينبئ أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعاً، مبني على زعمهم الفاسد، حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره.

﴿هَذَا﴾ أى: القرآن ﴿هُدًى﴾ فى غاية الكمال من الهداية، كأنه نفس الهدى، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أى: القرآن، وإنما رضع موضع ضميره الآيات لزيادة تشنيع كفرهم وتفظيع حالهم، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ﴾؛ من أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم، بالرفع^(٢) صفة عذاب، وبالجر صفة رِجْز، وتلويح عذاب فى المواضع الثلاثة للتفخيم.

الإشارة: من لم يضبط لسانه وجوارحه، وتصاممت آذان قلبه عن تدبر القرآن، فالويل حاصل له، ويبشّر بالخيبة والخسران من مراتب أهل العرفان، ومن ضبط أمور ظاهره بالقوى، وفتحت آذان قلبه لسماع كلام المولى، فقد فار بعض الدارين. قال القشيري: فمن استمع بسمع الفهم، واستبصر بنور التوحيد، فاز بذخر الدارين، وتصدى لعز المنزلتين، ومن تصامم بحكم الغفلة، وقع فى وهدة الجهل، ورسم بكى الهجر. هـ.

قوله تعالى: ﴿إِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذُوهَا هُزْأً﴾. قال: القشيري: وقد يكشف العبد من مواطن القلب بتعريفات لا يداخله فيها ريب، ولا يتخلله فيها شك فيما هو فيه من حاله، فإذا استهان بها وقع فى ذل الحجة، وحجاب الفرقة وهوانها. هـ. فإذا صفا القلب صار مرسى لتجلى الواردات الإلهية، وهى آية من آياته، فإذا تجلى فيه شيء بأمر أو نهى فاستهان به وخالفه أدبه الحق على ذلك، إما فى ظاهره، وهو أخف، أو فى باطنه بالحجة أو الفرقة، ولقد سمعت شيخ شيخنا، مولاي العربي الدرقاوى رحمته يقول: لى ثلاثون سنة ما خالفت قلبى فى شيء إلا أدبني الحق تعالى عليه. هـ. أى: فى ظاهره، وذلك لغاية صفائه.

(١) من الآية ٥٣ من سورة المؤمنون.

(٢) قرأ، أليم، برفع الميم، ابن كثير وحفص ويعقوب، وقرأ الباقون بالجر. انظر الإتحاف (٤٦٦/٢).

قوله تعالى: ﴿من ورائهم جهنم﴾ الآية، لا عذاب أشد من الحجب بعد الإظهار، والفرقة بعد الوصال، وأنشدوا:

فَخَلَّ سَبِيلَ الْعَيْنِ بَعْدَكَ لِلْبُكَاءِ فَلَيْسَ لِأَيَّامِ الصُّفَاءِ رَجُوعُ

انظر القشيري.

ولما ذكر ما من به عليهم من النعم الباطنة، وهي دلائل التوحيد، ذكر ما من به عليهم من النعم الظاهرة، فقال:

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٣)

يقول الحق جل جلاله: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي: ذلله، بأن جعله أملس السطح، يطفو عليه ما فوقه، ولا يمنع الغوص فيه، لمياعانه، ﴿لتجري الفلك فيه بأمره﴾؛ بإذنه، وأنتم راكبوها، ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ بالتجارة، والغوص لا ابتغاء الحلية، كاللؤلؤ والمرجان، وكالذهب، بيد وغيرها، ﴿ولعلكم تشكرون﴾؛ ولكي تشكروا النعم المترتبة على ذلك، ﴿وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض﴾ من الموجودات، بأن جعلها مداراً لمنافعهم.

قال القشيري: إذ ما من شيء من الأعيان الظاهرة، إلا وللإنسان به انتفاع من وجوه، فالسمااء لهم بناء، والأرض لهم مهاد، وليتأمل العبد في كل شيء [لولا لم يكن، أي خلل يرجع إلى الخلق] (١)، لولا الشمس كيف كانوا يتصرفون بالنهار،؟ ولولا الليل، كيف كانوا يسكنون؟ ولولا القمر هل كانوا يهتدون للحساب والآجال؟ وكذلك جميع المخلوقات. هـ. وقوله: ﴿جميعاً منه﴾: حال، وليس من التوكيد لعدم الضمير، ولو كان توكيداً لقال: جميعه، ثم التوكيد بجميع قليل، فلا يحمل التنزيل عليه، قاله في المعنى. والمنفى كونه توكيداً اصطلاحياً، فلا ينافي كونه حالاً مؤكدة في المعنى. ﴿إن في ذلك﴾ أي: فيما ذكر من الأمور العظام ﴿آيات﴾ عظيمة الشأن، كثيرة العدد، ﴿لقوم يتفكرون﴾ في بدائع صنعه تعالى، فإنهم يقفون بذلك على جلائل نعمه تعالى ودقائقها، ويوقفون لشكرها.

الإشارة: الله الذي سخر لكم بحر التوحيد الخاص، وهو تجلي عظمة الذات، لتجري فلك الأفكار في تيار بحر الذات ونور الصفات، فتراها تعوم تارة في أسرار الجبروت الأعلى، وتارة في أنوار الملكوت الأدنى، ولتبتغوا من

(١) العبارة في القشيري: كيف إن كان خلل في شيء منها ماذا يمكن أن يكون؟.

فضل معرفته، وزيادة الترقى في كشف الأسرار، وهذا لمن اتسع عليه فضاء الشهود، وزاحت عنه حجب الكائنات، وأما من بقى مسجوناً فيها، السماء تظله، والأرض تقله، فلا يطمع أن تسرح فكرته في هذه البحار، وحسبه أن يكون حماراً يسافر في البر، تعبته كثير، وريحه قليل، والغناء به بعيد، وسبب بقائه في تعب البر عدم صحبتته للرجال البحرية، الذين هم رؤس البحر، وشيوخ ركب البر. وبالله التوفيق.

قال القشيري: «الله الذي سخر لكم البحر» تركبونه، فربما تسلم السفينة، وربما تغرق، كذلك العبد في فلك الاعتصام في بحر التقدير، تمشي بهم رياح العناية، وترفع لهم شراع التوكل، تجرى في البحر لتجر اليقين، فإن هبت رياح السلامة نجت السفينة، وإن هبت نكباء الفتنة لم يبق بيد الملاح شيء، فعند ذلك المقادير غالبية، وبلغت قلوب أهل السفينة الحناجر. هـ. قلت: من ركب مع رائس ماهر؛ الغالب عليه السلامة.

قوله تعالى: «وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه»، في بعض الأثر: يقول الله تعالى: «يا ابن آدم؛ خلقت الأشياء من أجلك، وخلقتك من أجلي، فلا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك لأجله،^(١) أي: لا تشتغل بخدمة الكون عن خدمة المكون، فما أفلح من انشغل بدنيائه، وأثر هواه على خدمة مولاه، كان حراً والأشياء كلها عبيد له، فصار عبداً لعبيده، بحبه للأشياء وتعشقه لها، كانت الأشياء تعشقه وتخدمه، ثم صار يخدم الأشياء ويعشقه، أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك، فاعرف قدرك أيها الإنسان، وارفع همتك عن الأكوان، وعلق قلبك بالملك الديان، يعطيك الحق تعالى من العرش إلى الفرش، تتصرف فيه بهمتك كيف شئت، وما ذلك على الله بعزيز.

ثم بين الطريق الموصل إلى هذا، وهو حسن الخلق مع كل مخلوق، فقال:

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

قلت: (يغفروا)، قيل: جواب الأمر المذكور، أي: إن تقل يغفروا، وقيل: لأمر محذوف، أي: قل لهم اغفروا يغفروا، وقيل: حذف لام الأمر، أي: ليغفروا، وقرأ أبو جعفر: (ليجزي قوماً) بالبناء للمفعول، ونصب (قوماً) إما

(١) رواه الشيخ محي الدين ابن عربي في «مشكاة الأنوار فيما روى عن الله سبحانه من الأخبار»، ح ٥٨، وقال: «رويته من جزء الربيع».

على نيابة المصدر، أى: ليَجْزَى الجزاء قوماً، أو ليَجْزَى الخير قوماً، فأضمر الخير؛ لدلالة الكلام عليه، أو تاب الجار مع وجود المفعول به، وهو قليل.

يقول الحق جل جلاله ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أى: يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقعون نِقْمَه ووقائعه بأعدائه، من قولهم: أيام العرب، لوقائعها، أو: لا يأمكون الأوقات التى وقَّتها الله تعالى لثواب المؤمنين، ووعدهم بالفوز فيها. قيل: نزلت قبل آية القتال ثم نسخت. قال ابن عطية: ينبغي أن يقال: إن الأمور العظام، كالقتل والكفر مجاهدة ونحو ذلك، قد نسخ غفرانه آية السيف والجزية، وإن الأمور الحقيرة، كالجفاء فى القول ونحو ذلك، يحتمل أن تبقى مُحْكَمَة، وأن يكون العفو عنها أقرب للتقوى. هـ.

قيل: نزلت فى عمر رضي الله عنه حين شتمه رجل من غفار، فهم أن يبطش به، فنزلت ^(١). وقيل: نزلت فى ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا فى أذى شديد من المشركين، قبل أن يؤمروا بالقتال، فشكروا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت ^(٢)، وعلى هذا تكون الآية مكية. وقال ابن عباس: لما نزل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ^(٣) قال فنحاص: افتقر رب محمد، فلما بلغ ذلك عمر، طلبه بالسيف؛ ليقتله، فنزلت، فوضع السيف، وقال: والذى بعثك بالحق لا يرى الغضب فى وجهي ^(٤). وقيل: فى شأن أبي بن سلول، رأس المنافقين، لما قال فى غزوة المريسيع: ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعنى المهاجرين - إلا كما قيل: سَمْنٌ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ، فبلغ ذلك عمر، فاشتعل السيف، يريد التوجه إليه، فنزلت ^(٥). وعلى هذا تكون مدنية.

﴿لِيَجْزَى قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: إنما أمروا أن يغفروا ليوفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة. وتكثير (قرم) مدح لهم، كأنه قيل: ليَجْزَى قوماً - أيما قوم، أو قوماً مخصوصين - بالصبر بسبب ما كسبوا فى الدنيا من الأعمال الحسنة، التى من جملتها الصبر على إذابة الكفار، والإغضاء عنهم، بكظم الغيظ، واحتمال المكروه، ما يقصر عنه البيان من الثواب العظيم، ويجوز أن يراد بالقوم: الكفرة، وبما كانوا يكسبون: سيئاتهم، التى من جملتها ما كانوا يؤذون به المسلمين.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أى: لها الثواب وعليها العقاب، لا يكاد يسرى عمل إلى غير عامله، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم، خيراً كان أو شراً.

(١) ذكره القرطبي (٦١٦٢/٧) وعزاه للحاس والمهدري، عن الضحاك عن ابن عباس.

(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٢٤٣/٧). عن القرطبي والسدي.

(٣) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة.

(٤) أخرجه الراحدى فى أسباب النزول (ص ٢٩٣ - ٢٩٤) عن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنه، بسند ضعيف.

(٥) ذكره الراحدى فى أسباب النزول (٢٩٣) والقرطبي (٦١٦٢/٧) عن ابن عباس فى رواية عطاء.

الإشارة: مذهب الصوفية: العفو عن ظلمهم، والإحسان إلى من أساء إليهم؛ لأنهم رحمة للعباد، ومقصدهم بذلك رضا الله، لأن الخلق عيال الله، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله. قال اللجائي رحمته في شمائل الخصوص: قصد السادات بالعفو عن ظلمهم، ابتغاء مرضاة الله، لا ابتغاء الثواب، فإنه تعالى يحب العفو، وتسمى به. ومقصدهم بالعفو أيضاً: قطع العداوة والحقد عن الظالم، وترك الانتصار منه، بيد أو لسان، استعداداً منهم لسلامة الصدور. ومقصدهم أيضاً: زوال الدلة عن الظالم في موقف الحساب، من أجل ما يطالب به من الحقوق، وهو ضرب من الشفقة على العبيد، وهو مقام محمود، فشأنهم رضا الله عنهم إذا حلّ بالعباد في الموقف بلاء، أرادوا أن يكونوا للخلق فداء، فهذا أدنى مقام في العفو. هـ.

وفي الحديث: «إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة، نادى مناد: أين أهل الفضل، فيقوم ناس، وهم يسير، فينطلقون إلى الجنة سراعاً، فتتلقاهم الملائكة، فيقولون: إننا نراكم سراعاً؟ فيقولون: نحن أهل الفضل، فيقولون: وما فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظلمنا صبرنا، وإذا جهل علينا حلمنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة: فنعم أجر العاملين» (١).

قال القشيري بعد كلام: فمن أراد أن يعرف كيف يحفظ أوليائه، وكيف يدمر أعداءه، فليصبر على أيام قلائل، ليعلم كيف صارت عواقبهم، من عمل صالحاً فله مهناه، ومن ارتكب سيئة قاسى بلواه، ثم مرجعه إلى مرلاه. هـ.

ثم ذكر ما من به على بنى إسرائيل، بعد ما ذكر ما من به على عباده جملة، فقال.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ﴾ أى: الفصل بين العباد، لأن الملك لم يزل فيهم حتى غيروا، أو: الحكمة النظرية والعملية والفقه فى الدين، ﴿ والنبوة ﴾؛ حيث كثر فيهم الأنبياء ما لم

(١) رواه الأصبهاني في الترغيب (٢٣٧٤) عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

يكثر في غيرهم. ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾؛ ما أحل الله لهم من اللذائذ، كالمن والسلوى، وغيره من الأرزاق، ﴿وفضلناهم على العالمين﴾؛ على عالمي زمانهم.

﴿وآتيناهم بينات من الأمر﴾؛ دلائل ظاهرة من أمر الدين، ومعجزات قاهرة. قال ابن عباس: هو العلم بمبعث النبي ﷺ، وما بين لهم من أمره، وأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب، ويكرن أنصاره أهل يثرب، ﴿فما اختلفوا﴾ في ذلك الأمر ﴿إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ بحقيقته وحقيقته، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً له، ﴿بغياً بينهم﴾ أى: عداوة وحسداً، حدث بينهم، لا شك وقع لهم فيه، ﴿إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة﴾ بالمواخذه والجزاء ﴿فيما كانوا فيه يختلفون﴾ من أمر الدين.

الإشارة: كانت بنو إسرائيل في أول أمرها متمسكة بكتاب ربها، عاملة بما شرعت لها أنبيائها، فرقع الله بذلك قدرها، حتى تحاسدوا، وتهاجروا على الدنيا والرئاسة، فأعقبهم الله ذل الأبد، فهذه سنة الله تعالى في عباده، من تمسك بالكتاب والسنة، وزهد في الدنيا، وتواضع لعباد الله، رفعه الله وأعزه، فإذا خرج عن هذا الوصف انعكس حاله إلى أسفل، والعياذ بالله.

ولما ذكر شريعة موسى أعقبه بشريعة نبينا - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فقال:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم جعلناك﴾ يا محمد بعد اختلاف أهل الكتاب، ﴿على شريعة﴾؛ على طريقة عظيمة الشأن، ومنهاج واضح ﴿من الأمر﴾؛ الدين، وأصل الشريعة فى اللغة: مورد الماء، أى: الطريق الموصلة إليه، ثم جعل للطريق الموصلة إلى حياة القلوب والأرواح؛ لأن الماء به حياة الأشباح، ﴿فاتتبعها﴾ بإجراء أحكامها فى نفسك وفى غيرك، من غير إخلال بشيء منها. قال ابن عرفة: الخطاب له ﷺ، والمراد غيره؛ لأنه معلوم الاتباع التام، أو: دم على اتباعها. هـ.

﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ أى: لا تتبع آراء الجهلة واعتقاداتهم الزائفة التابعة للشهوات، وهم رؤساء قريش، كانوا يقولون له ﷺ: ارجع إلى دين آبائك. ﴿إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً﴾ مما أراد بك إن اتبعتهم، أى: لن ينفعونك بدفع ما ينزل بك بدلاً من الله شيئاً إن اتبعت أهواءهم، ﴿وإن الظالمين بعضهم أولياء

بعض ﴿ فلا يُؤاليهم ولا يتبع أهواءهم إلا من كان ظالماً مثلهم ﴾ ﴿ والله وليّ المتقين ﴾ أى: ناصر المتقين، الذين أنت قدوتهم، قدم على ما أنت عليه من توليته خاصة، والإعراض عما سواه بالكلية.

﴿ هذا بصائر للناس ﴾ أى: هذا القرآن واتباع الشريعة بصائر لقلوب الناس، كما جعل روحاً وحياة لها، فإن من تمسك بالكتاب والسنة، وأمعن فيها النظر، وعمل بمقتضاها، فتحت بصيرته، وحيى قلبه، ﴿ وهدى ﴾ من الضلالة ﴿ ورحمة ﴾ من العذاب، ﴿ لقوم يوقنون ﴾ لمن كمل إيمانه وإيقانه بالأمور الغيبية.

الإشارة: الشريعة لها ظاهر وباطن، وهما لبها وخالصها، فالعامة أخذوا بظاهرها، فأخذوا بكل ما يبيحه ظاهر الشريعة من الرخص والسهولة، ولا نظر عندهم لقلوبهم من النقص والزيادة، والخاصة أخذوا بباطنها، فأخذوا منها بالمهم، وتركوا كل ما يفتلهم أو ينقص من نور إيقانهم، فوصلوا بذلك إلى حضرة ربهم، فيقال للمريد: ثم جعلناك على طريقة واضحة من أمر الخاصة، فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ما يزيد فى قلوبهم وما ينقص. إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً إن أبعدك بميلك إليهم واتباع أغراضهم.

قال القشيري: ﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ﴾ إن أراد بك نعمة، فلا يمنعها أحد، وأن أراد بك فتنة فلا يصرفها عنك أحد، فلا تعلق بمخلوق فكرك، ولا توجه ضميرك إلى شيء، وثق به، وتوكل عليه. هـ. وأهل الغفلة بعضهم أولياء بعض، يتوالون على حظوظ الدنيا وشهواتها، ﴿ والله وليّ المتقين ﴾ الذين اتقوا كل ما يشغل عن الله، ﴿ هذا بصائر للناس ﴾ أى: سبب فتح بصائرهم، ﴿ وهدى ﴾ أى: إشارة لطريق الوصول، ورحمة للأرواح والقلوب، لقوم يوقنون، أى: لأهل اليقين الكبير.

قال القشيري: ﴿ هذا بصائر للناس ﴾، أنوار البصيرة إذا تلالأت انكشفت دونها نعمة التجويز، ونظر الناس على مراتب، من نظر بنور نجومه، فهو صاحب عقل، ومن نظر بنور فراسته فهو صاحب ظن، يقويه لوح، ولكنه من وراء ستار، ومن نظر بيقين فهو على تحكم برهان، ومن نظر بعين إيمان فهو بوصف اتباع، ومن نظر بنور بصيرة، فهو على نهار، وشمسه طالعة، وشمسه عن السحاب مصحبة. هـ.

ثم بين حال من لا يرجو أيام الله ومن يرجوه، فقال:

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قلت (أم): منقطعة، والهمزة لانكار الحساب، من قرأ «سواء» بالرفع^(١)؛ فخير مقدم، (ومحياتهم): مبتدأ، ومن قرأ بالنصب؛ فحال من ضمير الظرف، أي: كائنين كالذين آمنوا، حال كونهم مستويًا محياهم ومماتهم، و«محياتهم» - حينئذ -: فاعل بسواء، وقرأ الأعمش: «ومماتهم» بالنصب على الظرفية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا﴾؛ اكتسبوا ﴿السيئات﴾ من الكفر والمعاصي، وسميت الأعضاء جوارح؛ لاكتسابها الخير والشر، ويقال: فلان جارحة أهله؛ أي: كاسبهم، أي: أطلقوا أن نصيرهم ﴿كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، وهم فيما هم فيه من محاسن الأعمال، ونعاملهم معاملتهم في رفع الدرجات، أي: حتى يكونوا ﴿سواء﴾ في ﴿محياتهم ومماتهم﴾، كلاً، بل نجعل أهل الإيمان في محياهم ومماتهم متلعمين بطاعة مولاهم، مطمئنين به، يحيون حياة طيبة، ويموتون موتة حسنة، وفي مماتهم مكرمين بقاء مولاهم، في روح وريحان، وجنات نعيم، ونجعل أهل الكفر والعصيان في محياهم في ذل المعصية، وكد الحرص وكدر العيش، وفي الممات في ضيق العذاب الخالد، ﴿سواء ما يحكمون﴾ أي: سواء حكمهم هذا، أو: بئس شيئاً حكموا به.

قال النسفي: والمعنى إنكار أن يستوى المسيئون والمحسنون محياً ومماتاً؛ لافتراق أحوالهم أحياء، حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات، وأولئك على اقتراف السيئات، ومماتاً، حيث مات هؤلاء على البشري بالرحمة والكرامة، وأولئك على اليأس من الرحمة والندامة. وقيل: معناه: إنكار أن يستووا في [الممات، كما استووا في]^(٢) الحياة في الرزق والصحة. سواء ما يحكمون، فليس من أقعد على بساط الموافقة، كمن أبعد في مقام المخالفة، بل تفرق بينهم، فتعلى المؤمنين، ونخزي الكافرين. هـ.

وسبب نزول الآية: افتخار وقع للكفار على المؤمنين، قالوا: لئن كانت آخرة كما تزعمون لنفضلن فيها كما فضلنا في الدنيا، فرد الله عليهم، وأبطل أمنيته^(٣).

﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق﴾ لتدل على قدرته على البعث وغيره، قال البيضاوي: كأنه دليل على الحكم السابق، من حيث إن خلق ذلك بالحق يقتضي العدل، يقتضي انتصار المظلوم من الظالم، والتفاوت بين المحسن والمسيء، إذا لم يكن في المحيا كان بعد الممات. هـ. ﴿ولتجزى كل نفس بما كسبت﴾: عطف

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر برفع «سواء» وقرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بالنصب. انظر الإنشاف ٢/٤٦٧.

(٢) ما بين المعقوفتين من تفسير النسفي، وأثبتته لاقتضاء السياق ذلك.

(٣) ذكره البغوي في التفسير (٢٤٤/٧).

على هذه العلة المحذوفة، أى: لتدل وتُجزى، أو على «بالحق» لأن فيه معنى التعليل؛ إذ معناه: خلقها مقرونة بالحكمة والصواب، دون العبث وتُجزى... إلخ، أو: ليعدل وتُجزى كل نفس بما كسبت، ﴿وهم﴾ أى: النفوس، المدلول عليها بكل نفس ﴿لا يظلمون﴾ بنقص الثواب أو زيادة عقاب.

الإشارة: أم حسب الذين ماتوا على دنس الإصرار، أن نجعلهم كالمطهرين الأبرار، أم حسب الذين عاشوا فى البطالة والتقصير أن نجعلهم كالذين عاشوا فى الجد والتشمير؟ أم حسب الذين عاشوا فى غم الحجاب، وصاروا إلى سوء الحساب، أن نجعلهم كالذين تهذبوا حتى ارتفع عنهم الحجاب، وصاروا إلى غاية الكرامة والاقتراب؟ لا استواء بينهم فى المحيا ولا فى الممات، الأولون عاشوا معيشة ضنكا، وصاروا بعد الموت إلى الدامة والحسرة، والآخرون عاشوا عيشة راضية، وماتوا موة طيبة، وصاروا إلى كرامة أبدية، ولهذا بكت الأكابر عند قراءتها، فرؤى عن تميم الدارى: أنه كان يصلى ليلة عند المقام، فبلغ هذه الآية، فجعل يبكى ويردها إلى الصباح. وعن الفضيل: أنه بلغها، فجعل يبكى، ويقول: يا فضيل! ليت شعرى من أى الفريقين أنت؟ وعن الربيع بن خيثم: أنه قام يصلى ليلة، فمر بهذه الآية، فمكث ليلة حتى أصبح يبكى بكاء شديداً، وكانت تسمى مبةاة العابدين.

وسبب تسوية العاصي مع المطيع الانهماك فى الهوى، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ

عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أى: أباح لنفسه كل ماتهواه، سواء كان مباحاً أو غير مباح، فكأنه يعبد ما يعبد الرجل إلهه، وإليه أشار فى المباحث بقوله:

ومن أباح النفس ما نهواه فإنما معبوده هـواه

فالآية وإن نزلت فى هوى الكفر؛ فهى متناولة لكل هوى النفس الأمارة، قال ابن جبیر: نزلت فى قريش والعرب، كانوا يعبدون الحجارة والذهب والفضة، فإذا وجدوا شيئاً أحسن ألقوه وعبدوا غيره^(١). هـ ومتابعة الهوى كلها مذمومة، فإن كان ما هوته محرماً أفضى بصاحبه إلى العقاب، وإن كان مباحاً بقى صاحبه فى غم الحجاب وسوء الحساب، وأسرى نفسه وكذب طبعه. وفى الحديث عنه ﷺ: «ما عبد تحت السماء أبغض إلى الله تعالى من

(١) ذكره القرطبي (٦١٧٣/٧) والبغوي (٢٤٥/٧).

هوى،^(١)، وقال ﷺ: «ثلاث مهلكات؛ شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»^(٢) وقال أيضاً: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله»^(٣)، وسيأتى فى الإشارة تمامه .

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أى: خذله على علم منه، باختياره الضلالة، أى: عالماً بضلاله، وتبديله لفطرة الله التى فطر الناس عليها. وقيل: نزلت فى أمية بن أبى الصلت، وكان عنده علم بالكتب المتقدمة، فكان ينتظر بعثة الرسول ﷺ، فلما ظهر، قال: ما كنت لأؤمن لرسول ليس من ثقيف، وأشعاره محشوة بالتحديد، ولكن سبق له الشقاء، فلم يؤمن، وختم على سمعه فلا يقبل وعظاً وقلبه، فلا يعتقد حقاً، أى: لا يتأثر بالمواعظ، ولا يتفكر فى الآيات والنذر. ﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ أى: ظلمة مانعة من الاعتبار والاستبصار، ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾؛ من بعد إضلال الله إياه؟ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾؛ أفلا تتعظون، فتسلمون الأمور إلى مولاها، يضل من يشاء ويهdy من يشاء.

الإشارة حقيقة الهوى كل ماتعشقه النفس، وتميل إليه من الحظوظ العاجلة، ويجرى ذلك فى المآكل، والمشارب، والملابس، والمناكح، والجاه، ورفع المنزلة، فليجاهد العبد نفسه فى ترك ذلك كله، حتى لا تحب إلا ما هو طاعة يقرب إلى الله، كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تابعاً لما جئتُ به»^(٤) فإن كان فى طريق الإرادة والتربية ترك كل ماتميل إليه نفسه وتسكن إليه، ولو كان طاعة، كما قال البوصيرى رحمه الله:

وراعها وهى فى الأعمال سائمة وإن هى استحلّت المرعى فلا تسم

فإن حلاوة الطاعة سموم قاتلة، يمنع الوقوف معها من الترقى إلى حلاوة الشهود ولذة المعرفة، وكذلك الركون إلى الكرامات، والوقوف مع المقامات، كلها أهوية تمنع مما هو أعلى منها؛ من مقام العيان، فلا يزل المرید يُجاهد نفسه، ويرحلها عن هذه الحظوظ، حتى تتمحض محبتها فى الحق تعالى، فلا يشتهى إلا شهود ذاته الأقدس، أو ما يقضيه عليه، فإذا ظهر بهذا المقام لم تبق له مجاهدة ولا رياضة، وكان ملكاً حراً، فيقال له حينئذ:

(١) الحديث ذكره القرطبى فى تفسيره (٦١٧٣/٧) عن أبى أمامة.

(٢) أخرجه مطولاً البزار (كشف الأستار/ ٨١)، وأبو نعيم فى الحلية (٢٤٣/٢) من حديث أنس رضي الله عنه. وأخرجه الطبرانى فى الأوسط (ح ٥٧٥٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد (١٢٤/٤) وابن ماجه فى (الزهد، بات ذكر الموت والاستعداد له، ح ٤٢٦٠) والترمذى، وحسنه فى (صفة القيامة والرفائق، ح ٢٤٥٩) والحاكم (٢٥١/٤) وصححه وأقره الذهبى، والطبرانى فى الكبير (٣٣٨/٧، ح ٧١٤١) وابن المبارك فى الزهد (٥٦ ح ٢٥) من حديث شداد بن أوس.

(٤) أخرجه البغوى فى شرح السنة (٢١٣) والبغدادى فى تاريخ بغداد (٣٦٩/٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. وقد بسط الكلام على هذا الحديث الحافظ ابن رجب فى «جامع العلوم والحكم» فراجع إن شئت.

لك الدهر طوع، والأنام عسبـيد فـعش، كل يوم من أيامك^(١) عـيد.

وطريق السير في هذا أن يُسَّاس نفسه شيئاً فشيئاً، يمنعها من المكروهات، ثم من المباحات شيئاً فشيئاً، حتى تستأنس، يترك شهوة ثم أخرى، وهكذا، وأما لو منعها الكل دفعة واحدة فربما تمل وتسقط، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا يكن أحدكم كالمنبت، لا أرضاً قطعَ، ولا ظهراً أبقى»^(٢). وإلى هذا أشار في المباحث، حيث قال:

واحتل على النفس فرُب حيلة أنفع في النصرة من قـبـيله

وأعظم الحظوظ حب الجاه والتقدم، فلا يسامحها المرید في شيء من ذلك قط، ولينزل بها إلى الخمول والسفليات، وأما شهوة البطن والفرج؛ فما تشرفت إليه النفس من ذلك فليمنعها منها كلياً، وما أتاها من غير حرص ولا تشرف فليأخذ منه قدر الحاجة، مع الشكر عليه، هكذا يسير حتى يتحقق وصوله، ويتمكن من معرفة الحق، وحينئذ فلا كلام معه، كما تقدم، ولا بد من صحبة شيخ عارف كامل، يلقيه زمام نفسه، فيحمله بهيمته، والإ فلا طاقة على مجاهدتها أصلاً، وجرب في التجريب علم الحقائق.

قال القشيري: من لم يسلك سبيل الاتباع، ولم يستوف أحكام الرياضة، ولم ينسلخ عن هواه بالكلية، ولم يؤدبه إمام مقتدى به، فهو يلحرف في كل وهدة، ويهيم في كل ضلالة، ويضل في كل فج، خسارته أكثر من ربحه، ونقصانه أوفر من رجحانه، أولئك في ضلال بعيد، زمامهم بيد هواهم، أولئك أهل المكر، استدرجوا وما يشعرون. هـ. وفي الحكم: «لا يخاف أن تلبس الطرق عليك، وإنما يخاف من غلبة الهوى عليك»^(٣). فمن غلبه الهوى غلبه الوجود بأسره، وتصرف فيه، أحب أم كره، ومن غلب هواه غلب الوجود بأسره، وتصرف فيه بهيمته كيف شاء.

حكى عن أبي عمران الواسطي، قال: انكسرت بنا السفينة، فبقيت أنا وامرأتى على ألواح، وقد ولدت في تلك الليلة صبية، فصاحت بي، وقالت: يقتلني العطش، فقلت: هو ذا يرى حالنا، فرفعت رأسي، فإذا رجل جالس في يده سلسلة من ذهب، فيها كوز من ياقوت أحمر، فقال: هاك اشربا، فأخذت الكوز، فشربنا، فإذا هو أطيب من

(١) هكذا، وأرى - أنها «زمانك»، ليستقيم الوزن.

(٢) أخرجه البيهقي السنن (١٨/٣) والبيهزار (٧٤) والحاكم في معرفة علوم الحديث (ص ٩٦) والشهاب القضاعي في مسنده (ح ١١٤٧، وح ١١٤٨) عن جابر مرفوعاً، بلفظ «إن هذا الدين متين، فأرغل فيه برفق، فإن المنبت... إلخ الحديث، وزاد القضاعي بعد «فأرغل فيه برفق»؛ «ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله».

وأخرجه بلحوه البيهقي في الشعب (ح ٣٨٨٥) عن السيدة عائشة رضي الله عنها، ر (ح ٣٨٨٦) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وانظر الشذرة في الأحاديث المشتهرة (ح ٨٩٣) وكشف الخفاء (٢٣٣٩).

(٣) حكمة رقم (١٠٧) انظر تبريب الحكم ص ١٧.

المسك، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا عبد لمولايك، فقلت: بم وصلت إلى هذا؟ فقال: تركت هواي لمرضاته، فأجلسني في الهواء، ثم غاب ولم أره. هـ. وقال سهل رحمته: هواك ذاؤك، فإن خالفته فذاؤك، وقال وهب: إذا عرض لك أمران، وشككت في خيرهما، فانظر أبعدهما من هواك فأتته. هـ. ومثله في الحكم: «إذا التبس عليك أمران، فانظر أثقلهما على النفس، فاتبعه، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً». فالعز كنه في مخالفة الهوى، والذل والهوان كله في متابعة الهوى، فلن الهوان سرقت من الهوى، كما قال الشاعر:

نون الهوان من الهوى مسرقةً أسير كل هوى أسير هوان.

وقال آخر:

إن الهوى لهو الهوان بعينه فإذا هويت فقد لقيت هواناً
وإذا هويت فقد تعبّدك الهوى فاضع حبك كائناً من كانا

وقال ابن المبارك:

ومن البلاء للبلاء علامة ألا يرى لك عن هواك نزوع
العبد أعلى النفس في شهواتها والحر يشبع نارة ويجوع^(١)

ولابن دريد:

إذا طالبستك النفس يوماً بشهوة وكان إليها للخلاف طريق
فدعها وخالف ما هويت فإنما هواك عدو والخلاف صديق

وقال أبو عبيد الطوسي:

والنفس إن أعطيتها منهاها فاغيرة نحو هواها فساها

هذا، وللآية إشارة أخرى، رويت عن بعض مشايخنا، قال: يمكن أن تكون الآية مدحاً، يقول تعالى: «أفرأيت من اتخذ إلهه»، وهو الله تعالى، ومحبوته وهواه، لا يهوى معه غيره، وأضله الله، في محبته، على علم منه بالله، وختم على سمعه وقلبه بمحبته، فلا يسمع إلا منه، ولا يحب غيره، وجعل على بصره غشاوة، فلا يرى سواه، فمن

(١) انظر ديوان ابن المبارك (ص ٨٢) والبيت فيه: [والعبد عبد النفس] كما جاء البيتان في ديوان سيدنا علي بن أبي طالب رحمته، (ص ١٢٢) ومعهما بيت ثالث، هو:

وكفاك من عبر الحوادث أنه يبلى الجديد ويحصد المزروع

يهدية هذه الهداية العظمى من بعد الله، (١) وهذا يُسَلَّم في طريق الإشارة، لأنها خارجة عن سياق العبارة، وللقُرآن أسرار باطنة، يعرفها أهل الباطن فقط، فسَلِّم تسَلِّم.

ثم ذكر مقالة أهل الأهواء والضلال، فقال:

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّتُوا بِثَابِتٍ وَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا ﴾ من غاية غيهم وضلالهم: ﴿ ما هي ﴾ أى: ما الحياة؛ لأنهم وعدوا حياة ثانية، ﴿ إلا حياتنا الدنيا ﴾ التى نحن فيها، ﴿ نموت ونحيا ﴾ أى: يُصَيِّبنا الموت والحياة فيها، وليس وراء ذلك حياة، أو: نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا، أو: يموت بعض ويحيا بعض، أو: نكون مواتاً نطفأ فى الأصلاب، ونحيا بعد ذلك. وقيل: هذا كلام من يقول بالتناسخ، فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان، أى: يموت الرجل، ثم تجعل روحه فى شبح آخر، فيحيا به، وهو باطل عند أهل الإسلام. ثم قالوا: ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾؛ إلا مرور الزمان وهو فى الأصل: مدة بقاء العالم، من: دهره؛ إذا غلبه، وكانوا يزعمون أن مرور الزمان بالليالى والأيام هو المؤثر فى هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت، وقبضه الأرواح بأمر الله تعالى، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان، كما قال شاعرهم:

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرَ كَرُّ الْغَدَاةِ وَمَرُّ الْعَشَى.

ومنه قول تبع الأكره، أو غيره:

منع البقاء تغرب الشمس وطلوعها بيضاء صافية
وطلوعها بيضاء صافية وطلوعها من حيث لا تمسى
تجرى على كبد السماء كما وغروبها صفراء كالورس (٢)
اليوم أعلم ما يجيء به يجرى حمام الموت بالنفس
ومضى بفصل قصائده أمس

(١) فى هذا الكلام نظر.

(٢) الورس: نبات كالسمسم أصفر يزرع باليمن ويصنع به، ويتخذ منه الغمرة للوجه. وقيل صنف من الكمك، وقيل: يشبهه. انظر اللسان (ورس ٦/٤٨١٢) ومحيط المحيط (ص ٩٦٥).

فإن كان تبعاً المتقدم؛ فنسبة الفعل إلى الدهر مجاز، كما سيأتى، وعقيدة الموحدين ألا فاعل إلا الله، فالدهر مُسَخَّرٌ بأمر الله وقدرته، بل هو من أسرار الله وأنوار صفاته، ولذلك قال ﷺ: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»^(١) وقال ﷺ: «قال الله تعالى: يُؤذِنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأُمْرُ، أَقْلِبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»^(٢) فالأمور كلها بيد الله، والدهر إنما هو مظهر لعجائب القدرة، كما قال أبو علي الثقفى رحمه الله:

يا عاتب الدهر إذا نابَهَ ^(٣)	لا تلم الدهر على غُدْرِهِ
الدهرُ ما مورَّ له أمر	قد انتهى الدهر إلى أمره
كم كافر أمواله جَمَّةٌ	تزداد أضعافاً على كفرِهِ؟
ومؤمن ليس له درهمٌ	يزداد إيماناً على فسقِ سرِهِ؟

وقد ينسب أهل التوحيد الفعل إلى الدهر مجازاً، تغزلاً، في أشعارهم، كما قال عبد الملك بن مروان، حين منصف حاله:

فاستأثر الدهر الغداة بهم	والدهر يرمى سيني وما أرمى
يا دهر قد أكرهت فجعتنا	بسِّسراتنا وفرت في العظم
وتركتنا لحمًا على وضم ^(٤)	لو كنت تستسبقى من اللحم!!
وسلبتنا ما لست تعقبنا	يا دهرُ ما أنصفت في الحكم!!

قال تعالى: ﴿وما لهم بذلك من علم﴾ أى: ليس لهم بما ذكر من اقتصار الحياة على ما فى الدنيا، وإسناد التأثير إلى الدهر، (من علم) يستند إلى عقل ولا نقل، ﴿إن هم إلا يظنون﴾ ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد، هذا معتقدهم القاسد فى أنفسهم .

(١) أخرجه مسلم فى (الألفاظ من الأدب، باب النهى عن سب الدهر، رقم ٢٢٤٦، ح ٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الخطابى: معناه أنا صاحب الدهر، ومدير الأمور التى يسبونها إلى الدهر فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور عاد سبه إلى ربه الذى هو فاعلها . انظر فتح البارى (٤٣٨/٨) .

(٢) أخرجه البخارى فى (التفسير - تفسير سورة الجاثية، باب «وما يهلكنا إلا الدهر» ح ٦٢٨٤) وفى (الأدب، باب لا تسبوا الدهر) ومسلم فى (الموضع السابق، ح ٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) فى الأصول: [يا عالماً بعجب من دهره] والمثبت من تفسير القرطبى .

(٤) الوضم: خشبة الجزار يقطع عليها اللحم، وكل ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب وحصير . يجمع على أوضاع وأوضمة . وتركهم لحمًا على وضم، أى أوقع بهم فذلّلهم وأوجعهم . انظر اللسان (وضم ٤٨٦١/٦) .

﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الناطقة بالحق، الذي من جملة البعث، ﴿بَيِّنَاتٍ﴾؛ واضحات الدلالة على ما نطق به، أو مبيِّنات له، ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾؛ ما كان متمسكاً لهم شيء من الأشياء، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَرْنَا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أَنَا نُبْعَث بعد الموت، أى: لا شبهة لهم إلا هذا القول الباطل، الذي يستحيل أن يكون من قبيل الحجة، أى: ليس لهم حجة إلا العناد والاستبعاد. وتسميته حجة إما لسوقهم إياه مساق الحجة في زعمهم، أو تهكماً بهم، كقول القائل: تحية بيدهم ضرب وجيع. قال ابن عرفة: ﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ...﴾ الآية، أى: إنهم مع كونهم ظانين فهم بحيث لو استدلل لهم لما ازدادوا إلا ضللاً، وقد تقرر في علم الجدل أن المصمم على الشيء يصعب نقله عنه، بخلاف الظان والشاك، فأنت هذه الآية نفيًا لما يتوهم في هؤلاء أنهم حيث لا يقين عندهم يسهل رجوعهم، حين تظهر الحجة. هـ. وَمَنْ نَصَبَ حُجَّتَهُمْ، فخير كان، ومن رفعه فاسمها (١).

الإشارة: قال القشيري: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا...﴾ الآية، اغتروا بما وجدوا عليه خلفهم، وأرخوا في البهيمية عنانهم وعمرهم، وأغفروا عن ذكر الفكرة قلوبهم، فلا بالعلم استبصروا، ولا من الحقائق استمددوا، رأس ما لهم الظن، وهم غافلون، وإذا تلى عليهم الآيات طلبوا إحياء موتاهم، وسوف يرون ما استبعدوا. هـ.

ثم قرر البعث الذي أنكره، فقال:

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلَّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

(١) قرأ الجمهور: حجتهم، بالنصب، وعن الحسن وغيره: حجتهم، بالرفع، اسم كان، وإلا أن قالوا: الخبر، وهي قراءة شاذة. انظر: الإتحاف (٤٦٧/٢) وأعراب القراءات الشاذة للعكبري (٤٧١/٢).

قلت : (ويوم) : منصوب بيخسر، ويومئذ، بدل منه، وكل أمة تدعى : مبتدأ وخبر، ومن نصب (١) فبدل من «كل أمة»، (والساعة لا ريب فيها) : من رفعها فمبتدأ (٢)، ومن نصبها فعطف على (وعد الله) .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قل الله يحييكم ﴾ في الدنيا ﴿ ثم يميتكم ﴾ عند انقضاء أعماركم، لا كما تزعمون من أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر، ﴿ ثم يجمعكم ﴾ بعد الموت ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ للجزاء، ﴿ لا ريب فيه ﴾ أى : فى جمعكم؛ فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالة، وتأخير يوم معلوم، والرد لأبائهم كما اقترحوا، حيث كان مزاحماً للحكمة التشريعية، امتنع إيقاعه لرفع الإيمان بالغيب حينئذ، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ قدرة الله على البعث، وحكمة إمهاله، لإعراضهم عن التفكير بالانهماك فى الغفلة، وهو استدراك من قوله : (لا ريب)، إما من تمام الكلام المأمور به، أو مستأنف من جهته تعالى، تحقيقاً للحق، وتنبهياً على أن ارتياحهم إنما هو لجهلهم وتقصيرهم فى التفكير والنظر، لا لأن فيه شائبة ريب ما.

﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ أى : له التصرف فيهما وفيما بينهما، وهو بيان لاختصاص الملك المطلق بالله، إثر بيان تصرفه تعالى فى الناس بالإحياء والإماتة، والبعث والجمع والجزاء، وكأنه دليل لما قبله، ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴾ : الداخلون فى الباطل، وهو الكفر، ﴿ وترى كل أمة ﴾ من الأمم المجموعة ﴿ جاثية ﴾ : باركة على الركب، مستوفزة من هول ذلك اليوم، يقال : جثا فلان يجثو : إذا جلس على ركبتيه، قال سلمان رضي الله عنه : فى القيامة ساعة هى عشر سنين، يخر الناس فيها جثاة على ركبهم، حتى إن إبراهيم ينادى : نفسى نفسى (٣) . هـ وروى : أن جهنم حين يؤمر بها أن تساق إلى الموقف، تنفلت من أيدي الزبانية، حتى تهم أن تأتى على أهل الموقف جميعاً، وتزفر زفرة تذهب بحاسة الآذان، فيجثوا الكل على الركب، حتى المرسلين، وكل واحد يقول : نفسى نفسى، لا أسألك اليوم غيرها، ونبيينا عليه الصلاة والسلام يقول : «أمتى أمتى» . نقله الغزالي، وعن ابن عباس : جاثية : مجتمعة، وقيل : جماعات، من : الجثرة، وهى الجماعة.

﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ : صحيفة أعمالها، والمراد الجنس، أى : صحائف أعمالها، ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعلمون ﴾ فى الدنيا، ثم يقال لهم : ﴿ هذا كتابنا ﴾، أضيف الكتاب إليهم أولاً؛ لملايسته إياهم، لأن أعمالهم مثبتة فيه، وإلى الله ثانياً؛ لأنه مالكه، والأمر للملائكة بكتبه، وأضيف لنون العظمة تفخيماً لشأنه، وتهويلاً

(١) قرأ يعقوب بنصب «كل»، وقرأ الباقر برفعها.

(٢) قرأ حمزة «والساعة» بالنصب، وقرأ الباقر بالرفع.

(٣) ذكره البغرى فى تفسيره (٢٤٦/٧) والقرطبي (٦١٨٠/٧).

لأمره، ﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾؛ يشهد عليكم ملتبساً بالحق، من غير زيادة ولا نقصان، ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ﴾ أى: نستكتب ونطلب نسخ ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فى الدنيا، من الأعمال، حسنة أو سيئة، وقال ابن عزيز: نستنسخ: نثبت، ويقال: نستنسخ: نأخذ نسخته، وذلك أن الملكين يرفعان عمل الإنسان، صغيره وكبيره، فيثبت الله منه ما كان له ثواب أو عقاب، وي طرح منه اللغو، وروى عن ابن عباس وغيره حديثاً: «أن الله يأمر بعرض أعمال العباد كل يوم خميس، فينقل من الصحف التى ترفع الحفظة، كل ما هو معد أن يكون له ثواب وعقاب، ويلقى الباقي، فهذا هو النسخ من أصل».

وقيل: المراد بكتابنا: اللوح المحفوظ. قال ﷺ: «أول ما خلق الله القلم من نور مسيرة خمسمائة عام، واللوحة من نور مسيرة خمسمائة عام، فقال للقلم: اجر، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل، برها وفاجرها، ورطبها ويابسها، ثم قرأ: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ..﴾ الآية، فيروى «أن الملائكة تصعد كل يوم إلى الملك الموكل بالروح، فيقولون: أعطنا ما يعمل صاحبنا اليوم، فينسخ من اللوح عمله ذلك اليوم، ويعطيه إياهم، فإذا انقضى أجله، قال لهم: لا نجد لصاحبكم عملاً بقى له، فيعلمون أنه انقضى أجله».

ثم فصل أحوال أهل الموقف، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، أى: جنته ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾؛ الظاهر، الذى لا فوز وراءه، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أى: ألم تكن تأتيكم رسلى فلم تكن آياتى تلى عليكم، فحذف المعطوف عليه، ثقة، بقرينة الكلام، ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها، ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أى: قوماً عادتكم الإجرام.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ أى: وكنتم إذا قيل لكم: إن وعد الله بالجزاء ﴿حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أى: فى وقوعها ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾؛ أى شئ هو الساعة، استهزاء بها، ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾، أصله: نظن ظناً، ومعناه: إثبات الظن، فحسب، فأدخل حرف النفي والاستثناء ليفيد إثبات الظن مع نفي ما سواه. وقال المبرد: أصله: إن نحن إلا نَظُنُّ ظناً، وإنما أوله؛ لأنه لا يصح التفريع فى المصدر المؤكد، لعدم حصول الفائدة، إذ لا معنى لقولك: لا نصرب إلا ضرباً، وجوابه: إن المصدر نوعى لا مؤكد، أى: ظناً حقيراً ضعيفاً. وفى الآية اللف والنشر المعكوس^(١)، فقوله: ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ راجع لقوله: ﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، وقوله: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾

(١) اللف والنشر: هو أن يذكر متعدد ثم يذكر ما لكل من أفراد، شائعاً من غير تعيين، اعتماداً على تصرف السامع فى رده إليه، وهو إما أن يكون النشر فيه على ترتيب اللف، نحو: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾، وإما أن يكون على خلاف ترتيبه، نحو: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ لِمَنْ يُبْتَغَىٰ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب. انظر التعريفات (٢٤٤) ومحيط المحيط (ص ٥٦١).

ظناً» راجع لقوله: «إن وعد الله حق»، وكذا قوله: «وما نحن بمستيقنين» أى: لا يقين عندنا، وهو راجع لقوله «إن وعد الله حق». قاله ابن عرفة. ولعل هؤلاء غير القائلين: «ما هي إلا حياتنا الدنيا». والله أعلم.

الإشارة: قل الله يحييكم الحياة الفانية، ثم يميتكم عن حظوظكم، وعن شهود وجودكم، ثم يجمعكم به إلى يوم القيامة، لا يعزلكم عن رؤيته أبداً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن هذا يقع في الدنيا، مع أن الملك لله يتصرف فيه كيف شاء، يوصل من أراد، ويبعد من شاء. ويوم تقوم الساعة يخسر الباطلون والمبطلون، ويفوز المجتهدون والواصلون. وترى كل أمة جاثية من هيبة المتجلى باسمه القهار، وهذه القهرية - نعم - لا ينجو منها خاص ولا عام؛ لأن الطبع البشرى يثبت عند صدمات الجلال. وقوله تعالى: «كل أمة تدعى إلى كتابها» هو أيضاً عام، فيستبشر المجتهدون، ويحزن الباطلون، ولا يظلم ريك أحداً، فالיום يوم عمل، وغداً يوم جزاء، فأهل الإيقان يفوزون بغاية النعيم والرضوان، وأهل الشك يخلدون في الخسران، فيظهر لهم ما لم يكونوا يحسبون، كما قال:

﴿وَبَدَأْهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَخْكُمْ
كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمُ آيَاتِ
اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ
رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وبدا لهم﴾ أى: ظهر لهؤلاء الكفرة ﴿سيئات ما عملوا﴾؛ قبائح أعمالهم على ما هي عليه من الصورة المنكرة الهائلة، وعابنوا وخامة عاقبتها، أو: جزاؤها، فإن جزاء السيئة سيئة مثلها، ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أى: نزل بهم جزاء استهزائهم من العقاب العظيم، ﴿وقيل اليوم نساكم﴾؛ نترككم ترك المنسى، ﴿كما نسيتم﴾ فى الدنيا ﴿لقاء يومكم هذا﴾ أى: كما تركتم الاستعداد له، ولم تبالوا به. وإضافة اللقاء إلى اليوم إضافة المصدر إلى ظرفه، أى: لقاء الله فى يومكم هذا، أو لقاء جزائه، ﴿وماواكم النار﴾ أى: منزلكم، ﴿وما لكم من ناصرين﴾؛ لا أحد يمنعكم أو يخلصكم منها.

﴿ذلكم﴾ العذاب ﴿بأنكم﴾؛ بسبب أنكم ﴿أخذتم آيات الله﴾ المنزلة ﴿هزوا﴾؛ مهزواً بها، ولم ترفعوا لها رأساً، ﴿وغرركم الحياة الدنيا﴾؛ وألهتكم زخارف الدنيا، فحسبتم ألا حياة بعدها، ﴿فاليوم

لا يُخرجون منها ﴿ أي: من النار، والالتفات إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب، استهانة بهم. وقرأ الأخوان بالخطاب^(١). ﴿ ولا هم يُستعتبون ﴾ أي: لا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم، أي: يرضوه بعمل صالح؛ لفوات إبانته، وإن طلبوا الرجوع لم يقبل منهم.

﴿ فله الحمد ﴾ خاصة، ﴿ رب السموات ورب الأرض رب العالمين ﴾، فلا يستحق الحمد أحد سواه، أي: فاحمدوا الله الذي هو ربكم ورب كل شيء، فإن مثل هذه الربوبية العامة، توجب الحمد والثناء على كل مربيوب، وتكرير الرب للتأكيد والإيذان بأن ربوبيته تعالى لكل منهما بطريق الأصالة. ﴿ وله الكبرياء في السموات والأرض ﴾ أي: وكبروه، فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته في السموات والأرض، وإظهارهما في موضع الإضمار لتفحيم شأن الكبرياء، ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ الحكيم ﴾ في كل ما قضى وقدر، فاحمدوه وكبروه، وأطيعوه، فصاحب هذه الصفات العظام مستحق لذلك.

الإشارة: وقيل اليوم ندساكم من شهود قُربى، كما نسيتم لقاء يومكم هذا، فلو ذكرتموني على الدوام لقربكم على الدوام، ولو ذكرتموني على الانفراد لأشهدتكم ذاتي على التعماد، ولكنكم اتخذتم آيات الله الدالة على وجودي من الكائنات، والدالة على شهودي من الأولياء، هزواً، وغرتمكم الحياة الدنيا، فاليوم لا يخرجون من غم الحجاب، ولا يُمنعون من انسداله، ولا هم يرضون ربهم، فيرضى عنهم، فله الحمد على غناه عن الكل، وله الكبرياء في السموات والأرض، أي: رداء الكبرياء منشور على أسرار ذاته في السموات والأرض، وهو ما ظهر من حصها، كما هو منشور على وجهه في جنة عدن، كما في الحديث.

وقال الورعجي: نفى الحق الكبرياء عن الحدثان؛ لأنه هو المستحق للكبرياء، وكبرياؤه ظاهر في كل ذرة، من العرش إلى الثرى، إذ هي كلها مستغرقة مقهورة في أنوار كبريائه، يعز بعزه الأولياء، ويقهر بقهره الأعداء، حكيم في إبداع الخلق وإلزامهم عبوديته، التي هي شرائعه المحكمة بحكمه، وقال سهل رحمته: ﴿ وله الكبرياء: العلو والقدرة والعظمة، والحوّل والقوة في جميع الملك، فمن اعتصم به أيده بحوّل وقوته، ومن اعتمد على نفسه وكله الله إليها. هـ. وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. ﴾



(١) قرأ حمزة والكسائي: «لا تخرجون»، بفتح الياء وضم الراء. وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الراء. انظر الإتحاف (٢/٤٦٨).

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

مكية: وقيل: إلا قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ (١) الآية، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَرْزِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (٢). وهي خمس وثلاثون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا﴾ (٣) أى: حيث قلتم: إن محمداً اختلقها، مع قوله: ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾، فهي رد عليهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٢﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿حَمْدٌ﴾؛ يا محمد، أر: الوحي إلى محمد، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: هذا تنزيل القرآن، وهو من الله ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، فمن حفظه، وعرف ما فيه، وعمل بمضمونه كان عزيزاً على الله، حكيماً فيما يبدئ ويعيد. ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أى: إلا ملتبساً بالحق الذى تقتضيه الحكمة التكوينية والتشريعية، فالاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل، أو من أعم الأحوال، أى: ما خلقناهما فى حال من الأحوال إلا حال ملاستنا بالحق، وفيه من الدلالة على وجود الصانع، وصفات كماله، وابتداء أفعاله على حكمة بالغة، مالا يخفى، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تنتهى إليه، وهو يوم القيامة، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا﴾ به من هول ذلك اليوم، الذى لا بد لكل مخلوق من الانتهاء إليه، ﴿مُّعْرِضُونَ﴾؛ لا يؤمنون به، ولا يهتمون بالاستعداد له، ويجوز أن تكون «ما» مصدرية، أى: عن إنذارهم ذلك اليوم معرضون.

وحاصل افتتاح السورة: أن الوحي الخاص إلى محمد هو منزل من الله العزيز، الذى عز عن الافتراء عليه، وأعز بالوحي من تمسك به، الحكيم فى تنزيله وحيه، مرشداً لعباده لما فيه صلاحهم وهداهم، ومن حكمته: أن

(١) الآية ١٠ من السورة.

(٢) الآية الأخيرة.

(٣) من الآية ٣٥ من سورة الجاثية.

خلق السموات والأرض دالاً بذلك على توحيده، وكماله في أوصافه وتدابيره، المقتضية لترتب دار الجزاء على دار العمل، بحيث لا يسرى بين مبطل ومحق، فأرشد بخلق الأشياء إلى حكمته دلالة، ثم بإنزال الوحي بذلك قالة، ومع وضوح الأمر في دلالتهما أعرض الذين كفروا من غير دليل عقلي ولا نقلي متواتر ولا آحاد، على أن ما اقتضاه الوحي إلى محمد من التوحيد، والجزاء المرتب على الإخلاص له، والصدق في عبودية الله، والدعاء إلى محاسن الأخلاق، مما اجتمعت عليه الرسل قبله، فليس بمبدع من عنده. هـ. من الحاشية.

الإشارة: ﴿حَمَّ﴾ يا حبيب ممجد، قد مجدناك بإنزال كتابنا، وعززناك برسالتنا، ما خلقنا الكائنات إلا ملتبسة بأسرار الحق، وأهل الغفلة معرضون عن هذا.

قال القشيري: حميت قلوب أهل عنايتي، فصرفت عنها خواطر التجويز، ورميتها في مشاهد اليقين بدور التحقيق، فيها شواهد برهانهم، أي: برهان العيان - فأضفنا إليها لطائف إحساننا، فكملت منازلها من عين الوصلة، وغديناهم بنسيم الأنس في ساحات القرية. (العزیز) المعز للمؤمنين بإنزال الكتب، (الحكيم) لكتابه عن التبديل والتحويل. هـ. وخواطر التجويز هي خواطر الشك في المقدور، يجوز الوقوع وعدمه بسبب ضعف اليقين، فإذا انتفى عن القلب خواطر التجويز، دخله السكون والطمأنينة، وارتاح في ظل برد الرضا والتسليم. والله تعالى أعلم.

ثم ويختم على الشرك بعد ظهور بطلانه، فقال:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد، توبيخاً وتبكيتاً لهم: ﴿أرأيتم﴾؛ أخبروني ﴿ما تدعون﴾ من دون الله، ما تعبدون من الأصنام من دون الله، ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾؛ أي شيء خلقوا في الأرض إن كانوا آلهة؟ ﴿أم لهم شرك في السموات﴾ أي: أم لهم شركة مع الله في خلق السموات، حتى يتوهم

أن تكون لهم شائبة استحقاق للعبادة؟ فإن من لا مدخل له في شيء من الأشياء، بوجه من الوجوه، بمعزل من ذلك الاستحقاق بأسره، وإن كان من الأحياء العقلاء، فما ظنك بالجماد؟ ﴿اتُّونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أى: من قبل القرآن، يعنى: أن هذا الكتاب ناطق بالتوحيد، وإبطال الشرك، وما من كتاب أنزل من قبله من كتب الله إلا وهو ناطق بمثل ذلك، فأتوا بكتاب واحد منزل من قبله، شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله، ﴿أو أثارة من علم﴾؛ أو بقية من علم بقيت عندكم من علوم الأقدمين، شاهدة باستحقاق الأصنام للعبادة، ﴿إن كنتم صادقين﴾ فى أن الله أمركم بعبادة الأوثان، فإن الدعوى لا تصح مالم يقم عليها برهان عقلى، ولا سلطان نقلى، وحيث لم يقم عليها شيء، بل قامت على خلافها أدلة العقل والنقل تبين بطلانها.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ أى: لا أحد أشد ضلالاً ﴿مَنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، غاية لنفى الإجابة، ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾، لأنهم جمادات لا يسمعون.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ عند قيام الساعة ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ﴾ أى: الأصنام لعبدتها، ﴿وكانوا﴾ أى: الأصنام ﴿بعبادتهم كافرين﴾، جاحدين، يقولون: ما دعوناهم إلى عبادتنا، والحاصل: أنهم فى الدنيا لا ينفعونهم، وفى الآخرة يتبرءون منهم، ويكونون عليهم ضداً، ولما أسند إليهم ما يسند إلى العقلاء من الاستجابة والغفلة؛ عبر عنهم بـ «من»، ووصفهم بترك الاستجابة نهكاً بها وبعيدتها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقال لأهل الغفلة: رأيتم ما تركنون إليه من الخلق، هل لهم قوة على نفعكم أو ضرركم؟ «أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات...» الآية. فلا أحد أضل ممن يرجو الضعيف مثله، الذى لا يستجيب له إلى يوم القيامة، وهو غافل عن إجابته فى الحال والمآل، وإذا أحبه على هوى الدنيا صارت يوم القيامة عدواً ومقتلاً.

ثم ذكر كفرهم بالتنزيل المتقدم، فقال:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ﴾، واضحات، أو: مبينات، جمع بيّنة، وهي الحجة والشاهد، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أى: لأجله وفي شأنه، والمراد بالحق: الآيات المتلوة، وبالذين كفروا: المتلّون عليهم، فوضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بالكفر والمتلّو بالحق، والأصل: قالوا فى شأن الآيات، التى هى حق ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أى: بادها الحق بالجحد ساعة أتاها، وأول ما سمعوه، من غير إجابة فكر ولا إعادة نظر: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ ظاهر كونه سحر.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾، إضراب وانتقال من حكاية شناعتهم السابقة - وهى تسميتهم الآيات سحراً، إلى حكاية ما هو أشنع منها، وهو كون الرسول ﷺ ﴿افْتَرَاهُ﴾ أى: اختلقه، وأضافه إلى الله كذباً، والضمير للحق، والمراد به الآيات. ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أى: إن افتريته على سبيل الفرض لعاجلنى الله بعقوبة الافتراء، فلا تقدرون على كفه عن معاجلتى، ولا تملكون لى شيئاً من دفعه، فكيف أفتريه وأعرض لعقابه الذى لا مناص منه؟! ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ من القدح فى رضى الله - تعالى - والطنن فى آياته، وتسميته سحراً تارة وفرية أخرى. ﴿كُفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ حيث يشهد لى بالصدق والبلاغ، وعليكم بالكذب والجحود، وهو وعيد بجزاء إفاضتكم، ﴿هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب وآمن، وهو وعد لمن آمن بالمغفرة والرحمة، وترغيب فى الإسلام.

الإشارة: رعى أهل الخصوصية بالسحر عادة مستمرة، ومثلاً ماضية، ولقد سمعنا هذا فينا وفى أشياخنا مراراً، فيقول أهل الخصوصية: إن افترينا على الله كذباً عاجلنا بالعقوبة، ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لَنَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً...﴾ الآية. ثم أمر نبيه بالجواب عما رموه به، فقال:

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَنِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَىٰ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِيَّاهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا﴾ أى: بديعاً، كخف وخفيف، ونصب ونصيب، فالبدع والبديع من الأشياء: ما لم يتقدم مثله، أى: لست بأول مرسل فتتكرر نبوتى، بل تقدمت الرسل قبلى، واقتدرحت عليهم المعجزات، فلم يقدرروا على الإتيان بشيء إلا ما أظهره الله على أيديهم، فى الوقت الذى يريد. قيل: كانت

قريش تقترح على رسول الله ﷺ آيات تظهر لهم، ويسألونه عن الغيبيات، عناداً ومكابرة، فأمر ﷺ بأن يقول لهم: ما كنت بدعاً من الرسل، قادراً على ما لم يقدرُوا عليه، حتى آتيكم بكل ما تقترحونه، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من الغيوب، فإن من قبلى من الرسل - عليهم السلام - ما كانوا يأتون إلا بما آتاهم الله - تعالى - من الآيات، ولا يخبرون إلا بما أوحى إليهم، ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ أى: لا أدري ما يصيبنا فيما يستقبل من الزمان من أفعاله تعالى، وماذا يبرز لنا من قضاياه. وعن الحسن: ما أدري ما يصير إليه أمرى وأمركم فى الدنيا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما يفعل بي ولا بكم فى الآخرة.

وقال: إنه منسوخ بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾. ^(١) قال شيخ شيوخنا القاسى: وهو بعيد، ولا يصح النسخ؛ لأنه لا يكون فى الأخبار، ولأنه لم يزل يعلم أن المؤمن فى الجنة، والكافر فى النار، من أول ما بعثه الله، لكن محمل قول ابن عباس وغيره على أنه لم تكشف له الخاتمة، فقال: لا أدري، وأما من رافى على الإيمان، فقد أعلم بنجاته من أول الرسالة، وإلا فكان للكفار أن يقولوا: وكيف تدعوننا إلى ما لا ندري له عاقبة؟ قاله ابن عطية. هـ. وقال أبو السعود: والأوفق بما ذكر من سبب النزول: أن «ما» عبارة عما علمه ليس من وظائف النبوة، من الحوادث الواقعات الدنيوية، دون ما سيقع فى الآخرة، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة، وقد ورد به الروحى، الناطق بتفاصيل الفعل بالجانبين. هذا، وقد روى عن الكلبي: «أن أصحاب النبى ﷺ قالوا له ﷺ وقد ضجروا من إذاية المشركين: متى نكون على هذا؟ فقال: ﴿ما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ أترك بمكة أو أومر بالخروج إلى أرض ذات نخيل وشجر، قد رفعت إلى رأيته». هـ. ^(٢) وسيأتى فى الإشارة تحقيق المسألة - إن شاء الله تعالى.

ثم قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أى: ما أفعل إلا الاتباع، على معنى: قصر أفعاله ﷺ على اتباع الروحى، لا قصر اتباعه على الروحى، كما هو المتبادر، وهو جواب عن اقتراحهم الإخبار بالغيوب، أو عن استعجال المسلمين أن يتخلصوا من إذاية المشركين، والأول هو الأوفق بقوله: ﴿وما أنا إلا نذير مبين﴾ أنذركم عقاب الله - تعالى - حسبما يوحى إلى من الإنذار بالمعجزات الباهرة.

(١) الآية الثانية من سورة الفتح.

(٢) ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٩٥) عن الكلبي، عن أبى صالح، عن سيدنا ابن عباس: لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ، رأى فى المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء، فقصها على أصحابه، فاستبشروا بذلك، ورأوا فيها فرجاً مما هم فيه من أذى المشركين، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك، فقالوا: يا رسول الله! متى نهاجر إلى الأرض التى رأيت؟ فسكت النبى ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾. ومعلوم أن الكلبي لم يسمع من أبى صالح، وأبى صالح لم يسمع ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ ﴾ ما يوحى إلى من القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ لا بسحر ولا مفترى، كما تزعمون ﴿ وَ ﴾ قد ﴿ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾، وشَهِدَ شَاهِدٌ عَظِيمٌ ﴿ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الواقفين على شئون الله وأسرار الوحي، بما أتوا من التوراة. والشاهد: عبد الله بن سلام، عند الجمهور، ولهذا قيل: إن الآية مدنية، لأن إسلام عبد الله بن سلام، بالمدينة. قلت: لَمَّا عَلِمَ اللَّهُ مَا يَكُونُ مِنْ ابْنِ سَلَامٍ مِنَ الْإِسْلَامِ أَخْبَرَهُ قَبْلَ وَقْعِهِ، وجعل شهادته المستقبلية كالواقعة، فالآية مكية.

وقوله: ﴿ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ أى: مثل القرآن من المعانى المنطوية فى التوراة، المطابقة لما فى القرآن من الوعد والوعيد وغير ذلك، فَإِنْ مَا فِيهِ عَيْنٌ مَا فِيهَا فِى الْحَقِيقَةِ، كما يُعَرَّبُ عَنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١) والمثلية باعتبار كونه من عند الله. وقيل: المثل: صلة.

﴿ فَأَمِنْ ﴾ ذلك الشاهد لَمَّا تَحَقَّقَ بِرِسَالَتِهِ. رَوَى أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَظَرَ إِلَى وَجْهِهِ، فَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَابٍ، وَقَالَ لَهُ: إِنِّى سَأَلْتُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِىٌّ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ وَمَا بِأَلِ الْوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؛ فَتَارُ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؛ فزِيَادَةُ كِبِدِ الْحَوْتِ، وَأَمَّا الْوَلَدُ؛ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ نَزْعَهُ، وَإِنْ سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزْعَتَهُ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، فَأَسْلَمَ (٢).

﴿ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن الإيمان به، وجواب الشرط محذوف، والمعنى: أخبرونى إن كان من عند الله، وشهد بذلك أعلم بنى إسرائيل، فأمن به من غير تلثم، واستكبرتم عن الإيمان به بعد هذه البينة، فمن أضل منكم؟ بدليل قوله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ... ﴾ الآية (٣) أو: إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به أستم ظالمين؟ ويدل عليه قوله: ﴿ إِنْ أَلَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾، والتقديران صحيحان، لأن عدم الهداية مستلزم الضلال، ووصفهم بالظلم للإشعار بعلّة الحكم، فإن تركه - تعالى - لهدايتهم إنما هو لظلمهم. وقال الواحدى: معنى: ﴿ إِنْ أَلَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾: إن الله جعل جزاء المعاندين للإيمان بعد الوضوح والبيان أن يمدهم فى ضلالتهم، ويحرمهم الهداية. هـ.

(١) الآية ١٩٦ من سورة الشعراء

(٢) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة البقرة، «باب من كان عدواً لجبريل» ح ٤٤٨٠) مطولاً، عن أنس رضى الله عنه، وكذا أخرجه أحمد فى المسند (١٠٨/٣) والبيهقى فى الدلائل (٥٢٨/٢ - ٥٢٩).

(٣) الآية ٥٢ من سورة فصلت

(الإشارة: قل ما كنت بدعاً من الرسل، وكذلك الولي يقول: ما كنت بدعاً من الأولياء، مع العصمة والحفظ وصريح الوعد باللجاة، لا تساع معرفتهم وعلمهم بالله؛ لأنهم لا يقفون مع وعد ولا وعيد؛ لأن غيب المشيئة لا يعلم حقيقته إلا الله، وقد يكون الوعد معلقاً بشروط أخفاها الله عنهم، ليتحقق اختصاصه بحقيقة العلم، وفي الحديث: «لا تأمن مكرى وإن أمنتك»، ولذلك كان العارف لا يزول اضطرابه، ولا يكون مع غير الله قراره، وعلى ذلك الششتري في نونيته، حيث قال:

وأى وصالٍ فى القضية يدعى وأكمل من الخلق لم يدع الأمان؟

هذا، وقد قال تعالى فى حق رسوله ﷺ: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ (١) وقال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (٢)، ومع ذلك كله لم يقف مع ظاهر الوعد، لغيب المشيئة، فقال فى حديث ابن مطعون: «والله لا أدري - وأنا رسول - ما يفعل بى، وحديث ابن مطعون بالمدينة بعد الهجرة (٣)، فتبين أن الأمن الحقيقى لا يحصل لأحد قبل الختام، وإن كان الغالب والطرف الراجح أن من وعد بخير أو بشر به يُنجز له بفضل الله وكرمه، والكرام إذا وعد لا يخلف، لكن المشيئة وقهرية الربوبية لا تزال فوق رأس العبد حتى يلقاه . والله تعالى أعلم.

قال القشيري: وفى الآية دليل على فساد قول أهل البدع، حيث لم يجوزوا إيلاهم البرىء عقلاً؛ لأنه لو لم يجز ذلك لكان يقول: أعلم قطعاً أنى معصوم، فلا محالة يغفر لى، ولكنه قال هذا ليُعلم أن الأمر أمره، والحكم حكمه، له أن يفعل بعباده ما يريد . هـ.

وقال الورعجي: لا أدري أين استغرق فى بحار وصال جماله الأبدى، وهناك لججيات تغيب فى ذرة منها جميع الأرواح العاشقة، والأسرار الوالهة، والقلوب الحائرة . هـ . والحاصل: أنه لا يدري نهاية مثاله من الله، لنفى الغاية فى حقه تعالى والنهائية، وهو صريح استبعاد الششتري دعوى الوصال، والله أعلم . هـ من الحاشية .

(١) الآيات: ٤ - ٥ سورة الضحى

(٢) الآية الثانية من سورة الفتح .

(٣) حديث عثمان بن مطعون - ر - أخرجه البخارى فى (الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج فى أكفانه، ح ١٢٤٣) ولفظه: عن خارجة بن زيد بن ثابت: أن أم العلاء - امرأة من الأنصار، بايعت النبى ﷺ - أخبرته أنه اقتسم المهاجرون فرعةً فطار لنا عثمان بن مطعون فأنزلناه فى أبياتنا، فوجع وجعه الذى توفى فيه، فلما توفى وغسل، وكفن فى أثوابه، دخل رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله، فقال النبى ﷺ: «وما يدريك أن الله قد أكرمه؟» فقلت: بأبى أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، والله إنى لأرجو له الخير، والله ما أدري، وأنا رسول الله، ما يفعل بى، فوالله لا أزكى أحداً بعده أبداً.

ثم حكى مقالة أخرى للكفار من مقالاتهم الباطلة، فقال:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ۖ ﴾ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۖ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرِيسٍ لِّسَنُورٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۖ ﴾ (١٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى: لأجلهم، وهو كلام كفار مكة، قالوا: إن عامة من يتبع محمد السقاط، يعنون الفقراء، كعمار وصهيب وبلال وابن مسعود - رضى الله عنهم - قالوا: ﴿ لو كان ﴾ ما جاء به محمد من القرآن والدين ﴿ خيراً ما سبقونا إليه ﴾، فإن معالى الأمور لا تنالها أيدي الأراذل، فإن عامتهم فقراء وموال ورعاة، قالوه زعماً منهم أن الرئاسة الدينية مما تنال بأسباب دنيوية، كما قالوا: ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم ﴾ (١)، وفضل عنهم أنها مدروطة بكلمات نفسانية، وملكات روحانية، مبناهما: الإعراض عن زخارف الدنيا، والإقبال على الله بالكلية، وأن من فاز بها حازها بحذاقيرها، ومن حرماها فعلا له عدد الله من خلاق. والحاصل: أن هذه المقالة سببها الرضا عن النفس، وهو أصل كل معصية وغفلة. ثم قال تعالى: ﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾، العامل فى الظرف محذوف، لدلالة الكلام عليه، أى: وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم، وقالوا ما قالوا. ﴿ فسيقولون ﴾ غير مكلفين بنفى خيريته: ﴿ هذا إفكٌ قديم ﴾ أى: كذب متقدم، كقوله: ﴿ أساطير الأولين ﴾ (٢).

وقال القشيري: إنه تكذيب للرسل فيما بين لهم، فيما أنزل عليهم من بعثة محمد رسولاً، يعلى: فيكون كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ وَنَّ ۖ ﴾ (٣). وقيل لابن عباس: أين نجد فى القرآن من كره شيئاً عاداه، فقرأ هذه الآية: ﴿ وإذ لم يهتدوا... الخ.

﴿ ومن قبله ﴾ أى: من قبل القرآن ﴿ كتاب موسى ﴾ أى: التوراة، فكتاب: مبتدأ، و﴿ من قبله ﴾: خبر، والاستقرار هو العامل فى قوله: ﴿ إماماً ورحمة ﴾ على أنهما حالان من الكتاب، أى: قدوة يؤتم به فى دين الله

(١) من الآية ٣١ من سورة الزخرف.

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الأنعام.

(٣) من الآية ٤٨ من سورة القصص، وكذا من الآية ٣٠ من سورة الزخرف.

وشرائعه، ورحمة من الله - تعالى - لمن آمن به. ﴿وهذا﴾ القرآن، الذي يقولون في حقه ما يقولون، هو ﴿كتاب﴾ عظيم الشأن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى، الذي هو إماماً ورحمة، أو: لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية. قال ابن عرفة: وجه مناسبتها لما قبلها: أنه لما تضمن قوله: ﴿فسيقولون هذا إفاك قديم﴾ تقييحهم إياه بأنه إما كذب في نفسه، أو شبيه بما قبله من الأكاذيب والافتراءات، عقبه ببيان أنه إما صدق في نفسه، أو شبيه بما قبله من الكتب الصادقة. هـ.

حال كون الكتاب ﴿لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا﴾: متعلق بمُصَدِّقٍ، أو بأنزل، محذوفاً، وفيه ضمير الكتاب، أو: الله - تعالى، أو: الرسول ﷺ، ويؤيده: قراءة الخطاب^(١)، ﴿وبُشِّرِ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ في حيز النصب، عطف على محل «لينذر»؛ لأنه مفعول له، أي: للإنذار والبشرى، أو: وهو بشرى للمحسنين، للمؤمنين المطيعين.

الإشارة: قال في الحكيم: «أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة وبقطة وعفة: عدم الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه، خير من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، فأى علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟»^(٢)، وعلامة الرضا عن النفس: تغطية مساوئها، وإظهار محاسنها، كما قال الشاعر:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنْ عَيْنُ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

وإذا نقصها له أحد انتقم منه وغضب، وإذا مدحها له فرح واستبشر، يرى أنه أهل لكل خير، وأولى من غيره، فيقول إذا رأى من حاز خيراً أو رئاسة، كما قال الكفار: لو كان خيراً ما سبقونا إليه، وعلامة عدم الرضا عنها: إظهار مساوئها، واتهامها في كل حال.

وقال أبو حفص الحداد: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروها في سائر أيامه، كان مغروراً، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه؟! والكريم ابن الكريم يقول: ﴿وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي﴾^(٣) هـ.

(١) قرأ «لتنذر» بالخطاب، نافع، وابن عامر، وأبو جعفر بخلفه، ويعقوب، وقرأ الباقر بالغيب. انظر الإتخاف (٢/ ٤٦٩ - ٤٧٠).

(٢) حكمة رقم / ٣٥، انظر تبويب الحكم ص/ ١٧.

(٣) من الآية ٣٥ من سورة يوسف.

فإذا لم يرض عن نفسه، وهذبه، استقامت أحواله، وكان من المحسنين، الذين قال الله - تعالى - في شأنهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أى: جمعوا بين التوحيد، الذى هو خاصة العام، والاستقامة فى الظاهر، التى هى منتهى العمل، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحرق مكروه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على قوات مرغوب، وهثم، للدلالة على تراخى رتبة العمل، وتوقف الاعتداد به على التوحيد. ودخلت الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط، والتعبير بالمضارع للدلالة على دوام نفي الحزن عنهم، ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الاسمين الجليلين، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾: حال من أصحاب الجنة، والعامل: معنى الإشارة، ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الصالحة، وهجاء، مصدر لمحدوف، أى: جوزوا جزاء، أى بمعنى ما تقدم، فإن قوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ فى معنى: جزيدهم.

الإشارة: مضى تفسير الاستقامة، وأن من درج على الإيمان والاستقامة حظى بكل كرامة، ووصل إلى جزيل السلامة، وقيل: السنين فى الاستقامة سنين الطلب، وأن المستقيم يتوصل إلى الله - تعالى - فى أن يقيمه على الحق، ويثبته على الصدق. هـ.

قال الورتجبي: ما قال القوم هذا القول - أى: «ربنا الله» - حتى شاهدوه بقلوبهم، وعقولهم، وأرواحهم، وأسرارهم، مشاهدة الحق سبحانه، فإذا رأوه يقولون: هذا الهلال، وصاحوا، وضحكوا، فهذا القول منهم بعد كشف مشاهدته الحق لهم، فلما رأوه أحبه وعرفوه، وشربوا من بحار وصالة، حتى تمكنوا، فاستقاموا بقوتها فى موازاة رؤية أنوار الأزل والآباد، واستقاموا فى مراد الله منهم، وأداء حقوق عبديته، فلا يبقى عليهم خوف الحجاب، ولا حزن العتاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. هـ.

ثم وصى بالربوبية الصغرى بعد الكبرى، فقال:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ
وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ

نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي
دُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا
وَنَسْجَاوُزُهُمْ فِي سَعَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ووصينا الإنسان﴾ بأن يحسن ﴿بوالديه حسناً﴾^(١) وقرا أهل الكوفة «إحساناً» وهما مصدران، وقرئ: «حسناً» بفتح الحاء والسين، أى: يفعل بهما فعلاً حسناً، أى: وصينا بإصاء حسناً، ﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً﴾ أى: حملته بكره ومشقة، ووضعته كذلك، وذكره للحث على الإحسان والبرور بها، فإن الإحسان إليها أوجب، وأحق من الأب. ونصبهما على الحال، أى: حملته كارهة، أى: ذات كره، وفيه لغتان؛ الفتح والضم، وقيل: بالفتح مصدر، وبالضم اسمه. ﴿وحمله وفصاله﴾ أى: ومدة حمله وفصاله، وهو الفطام. وقراً يعقرب: «وفصله»، وهما لغتان كالقظم والفطام، ﴿ثلاثون شهراً﴾؛ لأن في هذه المدة عظم مشقة التربية، وفيه دليل على أن أقل مدة ستة أشهر؛ لأنه إذ حط منه للفطام حولان، لقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾^(٢) يبقى للحمل ستة، قيل: ولعل تعيين أقل مدة الحمل، وأكثر مدة الرضاع لانضباطهما، وارتباط النسب والرضاع بهما.

﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ أى: اكتهل، واستحكم عقله وقوته، وانتهت قامته وشبابه، وهى ما بين ثماني عشرة سنة إلى أربعين، وقال زيد بن أسلم: العلم، وقال قتادة: ستة وثلاثون سنة، وهو الراجح، وقال الحسن: قيام الحجة عليه. ﴿وبلغ أربعين سنة﴾، وهو نهاية الأشد، وتمام العقل، وكمال الاستواء.

قيل: لم يبعث نبي إلا بعد الأربعين، قال ابن عطية: وإنما ذكر - تعالى - الأربعين، لأنها حد الإنسان في فلاحه ونجاته، وفي الحديث: «إن الشيطان يمد يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب، فيقول: بأبى وجه لا يفلح»^(٣). هـ. ومن حديث أنس قال ﷺ: «من بلغ أربعين سنة أمّنه الله من البلايا الثلاث؛ الجدون والجذام

(١) أثبت المفسر - رحمه الله - قراءة «حسناً» بضم الحاء وسكون السين، بلا همز ولا ألف، مفعلاً به، وهى قراءة ابن كثير، ونافع، وأبى عمرو، وابن عامر. وقراً عاسم وحمزة والكمثاني وخلف «إحساناً» على أنها مصدر. انظر السبعة / ٥٩٦ والإتعاظ ٤٧٠/٢.

(٢) من الآية ٢٢٣ من سورة البقرة.

(٣) ذكره ابن عطية، (٣٤٨/١٣) وأبو حيان فى البحر المحيط (٦١/٨) بلفظ: «إن الشيطان يجريده...». ولم أقف على هذا الحديث عند غيرهما.

والبرص، فإذا بلغ الخمسين خفف الله عنه الحساب، فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة كما يحب، فإذا بلغ سبعين سنة؛ غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفع في أهل بيته، وناداه مناد من السماء: هذا أسير الله في أرضه». وهذا في العبد المقبل على الله. والله تعالى أعلم. وقرأ: «حتى إذا استوى وبلغ أشده».

﴿قال رب أوزعني﴾ أي: ألهمني ﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي﴾ من الهداية والترحيد، والاستقامة على الدين، ﴿وعلى والدي﴾ كذلك، وجمع بين شكر النعمة عليه وعلى والديه؛ لأن النعمة عليهما نعمة عليه، ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾، التنكير للتفخيم والتكثير، قيل: هو الصلوات الخمس، والعموم أحسن، ﴿وأصلح لي في ذريتي﴾ أي: واجعل الصلاح سارياً في ذريتي راسخاً فيهم، أو: اجعل ذريتي موقفاً للصلاح دائماً فيهم، ﴿إني تبت إليك﴾ من كل ذنب، ﴿وإني من المسلمين﴾ الذين أخلصوا لك أنفسهم، وانقادوا إليك بكليتهم.

قال علي رضي الله عنه: نزلت في أبي بكر - رضي الله عنه -، ولم تجتمع لأحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من المهاجرين من أسلم أبواه غيره، وأوصاه الله بهما. هـ. فاجتمع لأبي بكر إسلام أبي قحافة وأمه، أم الخير، وأولاده، عبدالرحمن، وابنه عتيق، فاستجاب الله دعاءه في نفسه وفي ذريته، فإنه آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، ودعا لهم وهو ابن أربعين سنة. قال ابن عباس: أعتق أبو بكر تسعة من المؤمنين، منهم: بلال، وعامر بن فهيرة، ولم يرد شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه. (٢) هـ.

قال ابن عطية: معنى الآية: هكذا ينبغي للإنسان أن يكون، فهي وصية الله - تعالى - للإنسان في كل الشرائع، وقول من قال: إنها في أبي بكر وأبويه ضعيف، لأن هذه نزلت في مكة بلا خلاف، وأبو قحافة أسلم يوم الفتح. هـ. قلت: كثيراً ما يقع في التنزيل تنزيل المستقبل منزلة الماضي، فيُخبر عنه كأنه واقع، ومنه: «وشهد شاهد من بني إسرائيل» (٣) و «وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة» (٤)، وهذه الآية في إسلام أبي قحافة. والله تعالى أعلم.

﴿أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا﴾ (٥) من الطاعات، فإن المباح لا يثاب عليه إلا بنية صالحة، فإنه يَنقَلِبُ حينئذ طاعة، وضمن «يتقبل» معنى يتجاوز، فعذاه بمن؛ إذ لا عمل يستوجب القبول، لولا عفو

(٢) انظر تفسير البغوي (٢٥٨/٧) وزاد المسير (٣٧٨/٧).

(١) ذكره القرطبي (٦٢٠١/٧).

(٣) الآية ١٠ من سورة الأحقاف.

(٤) الآيتان ٦ - ٧ من سورة فصلت.

(٥) قراءة حمزة والكسائي وحفص (نتقبل، ونتجاوز) بالنون المفتوحة وأحسن، بالنصب، وقرأ الباقون (يتقبل - يتجاوز) بالياء المضمومة، ورفع أحسن.. انظر الإتحاف (٤٧١/٢).

الله وتجاوزه عن عامله، إذ لا يخلو عمل من خلل أو نقص، فإذا تجاوز الحق عن عبده قبله منه على نقصه، فلولا حلمه - تعالى - ورأفته ما كان عمل أهلًا للقبول. ﴿ويتجاوز عن سيئاتهم﴾ فيغفرها لهم، ﴿في﴾ جملة ﴿أصحاب الجنة﴾، كقولك: أكرمتي الأمير في ناس من أصحابه، أى: أكرمتني في جملة من أكرمهم، ونظمتني في سلكهم، ومحلّه: نصب على الحال، أى: كائنين في أصحاب الجنة، ومعدودين فيهم، ﴿وَعَدَ الصِّدْقُ﴾ أى: وعدهم وعداً صدقاً، فهو مصدر مؤكد، لأن قوله: ﴿يتقبل ويتجاوز﴾ وعد من الله - تعالى لهم بالتقبل والتجاوز، ﴿الذي كانوا يُوعِدُونَ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل - عليهم السلام.

الإشارة: لما كانت تربية الأبرين مظهراً لنعمة الإمداد بعد ظهور نعمة الإيجاد، وصى الله - تعالى - بالإحسان إليهما، وفي الحقيقة: ما ثم إلا تربية الحق، ظهرت في تجلى الوالدين، قذف الرأفة في قلوبهما، حتى قاما بتربية الولد، فالإحسان إليها إحسان إلى الله - تعالى - في الحقيقة. وقال الورتجبي: وصى الإنسان بالإحسان إلى أبيه، لأنهما أسباب وجوده، ومصادر أفعال الحق بدأ منهما بدائع قدرته، وأنوار ربوبيته، فحرمتهما حرمة الأصل، ومن صبر في طاعتهما رزقه الله حسن المعاشرة على بساط حرمة وقربته.

قال بعضهم: أوصى الله العوام ببر الوالدين لما لهما عليه من نعمة التربية والحفظ، فمن حفظ وصية الله في الأبوين، وفقه بركة ذلك، لحفظ حرمة الله، وكذلك رعاية الأوامر والمحافظة عليها توصل بركتها بصاحبها إلى محل الرضا والأنس. هـ.

قال القشيري: وشر خصال الولد: التبرم بطول حياتهما، والتأذى بما يجب من حقهما، وعن قريب يموت الأصل، وقد يبقى النسل، ولا بد أن يتبع الأصل. هـ. أى: فيعق إن عاق أصله، ويبر إن بر، وفي الحديث: «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم»^(١). ثم قال: ولقد قالوا في هذا المعنى وأنشدوا:

رَوَيْدَكَ إِنَّ الدَّهْرَ فِيهِ كَفَايَةٌ لِتَفْرِيقِ ذَاتِ الْبَيْنِ فَارْتَقِبِ الدَّهْرَ (٢). هـ.

قلت: وقد تقدم أن حرمة الشيخ أؤكد من حرمة الوالدين، فيقدم أمره على أمرهما، كما تقدم عن الجنيد في سورة النساء^(٣). والله تعالى أعلم.

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١٠٠٢/ح) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٨/٨): رجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني.

(٢) منسوب إلى أبي علي الثقفى، كما في طبقات السلمي / ٣٦٤ وطبقات الشافعية الكبرى (١٩٥/٣)، ونسب إلى عبيد الله بن عبدالله طاهر، في زهر الآداب (٦٠٤/٢) وأمالى المرتضى (١١٩/١).

(٣) راجع إشارة الآية ٣٦ من سورة النساء.

ثم ذكر ربال عقوقهما، فقال:

﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيهِ أَفِ لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَأَمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَتِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قلت: «والذي قال»: مبتدأ، وخبره: «أولئك الذين حق عليهم القول»، والمراد بـ «الذي قال»، الجنس، ولذلك جمع الخبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿والذي قال لوالديه﴾ عند دعوتها إلى الإيمان: ﴿أف لكم﴾، وهو صوت يصدر عن المرء عند تضجره وقنطه، واللام لبيان المؤقف، كما في «هيت لك» وفيه أربعون لغة، مبسطة في محلها، أي: هذا التأفيف لكما خاصة، أو لأجلكما دون غيركما.

وعن الحسن: نزلت في الكافر العاق لوالديه، المكذب بالبعث، وقيل: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه، قبل إسلامه. وأنكرت عائشة - رضي الله عنها - ذلك، وقالت: والله ما نزال في آل أبي بكر شيئا من القرآن، سوى براءتي ^(١)، ويبتل ذلك ^(٢) قطعاً: قوله تعالى: «أولئك الذين حق عليهم القول»، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم، وكان من فضلاء الصحابة، وحضر فتح الشام، وكان له هناك غناء عظيم، وكان يسرد الصيام. قال السدي: ما رأيت أعبد منه. هـ. وقال ابن عباس: نزلت في ابن لأبي بكر، ولم يسمه، ويرده ما تقدم عن عائشة، ويدل على العموم: قوله تعالى: «أولئك الذين حق عليهم القول»، ولو أراد واحداً لقال: حق عليه القول.

ثم قال لهما: ﴿أتعدانني أن أُخْرِجَ﴾ أي: أبعث وأخرج من الأرض، ﴿وقد خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ ولم يبعث أحد منهم، ﴿وهما يستغيثان الله﴾، يسألانه أن يغيثه ويوفقه للإيمان، أو يقولان: الغياث بالله منك، ومن قولك، وهو استعظام لقوله، ويقولان له: ﴿ويلك﴾ دعاء عليه بالثبور والهلاك، والمراد به: الحث والتحريض.

(١) أخرجه بلحوه البخاري في (التفسير - سورة الأحقاف، باب «والذي قال لوالديه أف لكم» ح ٤٨٢٧).

(٢) أي: القول بأن الآية نزلت في سيدنا عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه.

على الإيمان، لاحقيقة الهلاك، ﴿ آمِنُ ﴾ بالله وبالبعث ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بالبعث والحساب ﴿ حَقٌّ ﴾ لا مرية فيه، وأضاف الوعد إليه - تعالى - تحقيقاً للحق، وتنبيهاً على خطئه، ﴿ فيقول ﴾ مكذباً لهما: ﴿ ما هذا ﴾ الذي تسميانه وعد الله ﴿ إلا أساطير الأولين ﴾، أباطيلهم التي سطورها في كتبهم، من غير أن يكون له حقيقة.

﴿ أولئك الذين حق عليهم القول ﴾، وهو قوله تعالى لإبليس: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) كما بينى عنه قوله تعالى - : ﴿ في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ﴾ أى: فى جملة أمم قد مضت، ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ حيث ضيعوا فطرتهم الأصلية، الجارية مجرى رؤوس أموالهم، باتباعهم الشيطان، وتقليداً بآبائهم الضالين.

﴿ ولكلٍّ ﴾ من الفريقين المذكورين، الأبرار والفجار، ﴿ درجاتٌ مما عملوا ﴾ أى: منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر، يقال فى جانب الجنة: درجات، وفى جانب النار: دركات، فغلب هنا جانب الخير.

قال الطيبي: ولكل من الجنسين المذكورين درجات، والظاهر أن أحد الجنسين مادل عليه قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ (٢)، والآخر قوله: ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما ﴾، ثم غلب الدرجات على الدركات، لأنه لما ذكر الفريق الأول، ووصفهم بثبات فى القول، واستقامة فى الفعل، وعقب ذلك بذكر فريق الكافرين، ووصفهم بعقوق الوالدين، وبإنكارهم البعث، وجعل العقوق أصلاً فى الاعتبار، وكرر فى القسم الأول الجزاء، وهو ذكر الجنة مراراً ثلاثاً، وأفرد ذكر النار، وأخره، وذكر ما يجمعهما، وهو قوله: ﴿ ولكل درجات ﴾ غلب الدرجات على الدركات لذلك، وفيه ألا شيء أعظم من التوحيد والثبات عليه، وبر الوالدين والإحسان إليهما، ولا شيء أفحش من عقوق الوالدين، وإنكار الحشر، وفى إيقاع إنكار الحشر مقابلاً لإثبات التوحيد الدلالة على أن المنكر معطل مبطل لحكمة الله فى إيجاد العالم. هـ.

﴿ ولنوفيههم (٣) أعمالهم ﴾، وقرأ المكي والبصري بالغيب، أى: ولنوفيههم الله جزاء أعمالهم، ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ بنقص ثواب الأولين، وزيادة عقاب الآخرين، واللام متعلقة بمحذوف، أى: ولنوفيههم أعمالهم، ولا يظلمهم حقوقهم، فعل ما فعل من ترتيب الدرجات أو الدركات.

(١) الآية ١٨ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ١٣ من السورة نفسها.

(٣) أثبت المفسر - رحمه الله - قراءة «لنوفيههم» بنون العظمة، وهى قراءة نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: «لنوفيههم» بالياء. انظر: السبعة لابن مجاهد / ٥٩٨.

الإشارة: عقوق الأساتيد^(١) أقبح من عقوق الوالدين، كما أن برهما أوكد؛ لأن الشيخ أخرجك من ظلمة الجهل إلى نور المعرفة بالله، والوالدان أخرجاك إلى دار التعب، معرض لأمرين، إما السلامة أو العطب، والمراد بالشيخ هنا شيخ التربية، لا شيخ التعليم، فلا يقدم حقه على حق الوالدين، هذا ومن يسر الله عليه الجمع بين بر الوالدين والشيخ فهو كمال الكمال. وبالله التوفيق.

ثم ذكر جزاء العاق المنكر للبعث، فقال.

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبَتْ طَبِيبَتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا
وَأَسْتَمَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (٢٠)

قلت: «ويوم»: منصوب بقول مقدر قبل «أذهبتم»، أى: يقال لهم: أذهبتم طيباتكم يوم عرضكم، أو باذكر، وهو أحسن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ أى: يُعَذَّبُونَ بِهَا، من قولهم: عرض بنو فلان على السيف، إذا قتلوا به، وقيل: المراد: عرض النار عليهم، من قولهم: عرضت الناقة على الحوض، يريدون: عرض الحوض عليها، فقلبوا. وإذا عرضوا عليها يقال لهم: ﴿أذهبتم طيباتكم﴾ أى: أخذتم ما كتب لكم من حظوظ الدنيا ولذائذها ﴿في حياتكم الدنيا﴾ فقد قدمتم حظكم من النعيم في الدار الفانية.

قال ابن عرفة: قيل: المراد بالطيبات المستلذات، والظاهر: أن المراد أسباب المستلذات، أى: الأسباب التي تنوصلون بها إلى نيل المستلذات في الدار الآخرة، إذ نسيتموها في الدنيا، أى: تركتموها ولم تفعلوها. هـ. قلت: يبعده قوله: ﴿واستمعتم بها﴾ أى: فلم يبق ذلك لكم شيئاً منها، بل قدمتم جنتكم في دنياكم.

وعن عمر - رضي الله عنه -: لو شئت كنت أطيبكم طعاماً، وألينكم لباساً، ولكنى أستبقى طيباتى. ولما قدم الشام صنع له طعام لم ير قبله مثله، قال: هذا لنا، فما للفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ قال خالد: لهم الجنة، فاغرورقت عيناه وعمر وبكى، وقال: لأن كان حظنا من الحطام، وذهبوا بالجنة، لقد باينونا بوناً بعيداً^(٢).

(١) أساتيد جمع أستاذ. ويجمع أيضاً على أساتذة وأستاذين، وهو فارسي معرب، والأستاذ: المعلم والمقرئ والعالم، وأستاذ الصناعة: رئيسها. انظر محيط المحيط (ص ٩، مادة الأستاذ).

(٢) انظر هذه الأخبار وغيرها في كتاب «مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب»، لابن الجوزي/ ١٥٣ - ١٦٧.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إنما كان طعامنا مع النبي ﷺ الماء والتمر، والله ما كان نرى سمراءكم هذه، وقال أبو موسى: ما كان لباسنا مع النبي ﷺ إلا الصوف.

وروي: أن النبي ﷺ دخل على أهل الصفة، وهم يرقعون ثيابهم بالأدم، ما يجدون لها رقاعاً، فقال: «أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلة، ويدروح في أخرى، ويغدا عليه بجفنة^(١) ويراح بأخرى، ويستر بيته كما تستر الكعبة؟ قالوا: نحن يومئذ خير، فقال لهم: «بل أنتم اليوم خير»^(٢).

وقال عمرو بن العاص^(٣): كنت أتغدى عند عمر الخبز والزيت، والخبز والخل، والخبز واللبن، والخبز والقديد، وأجل ذلك اللحم الغريض^(٤)، وكان يقول: لا تنخلوا الدقيق، فإنه كله طعام، ثم قال عمر رضي الله عنه: والله الذي لا إله إلا هو، لولا أني أخاف أن تنقص حسناتي يوم القيامة لشاركنهم في العيش ولكني سمعت الله يقول لقوم: «أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها»^(٥).

﴿فاليوم تجزون عذاب الهون﴾ أي: الهوان، وقرئ به، ﴿بما كنتم﴾ في الدنيا ﴿تستكبرون في الأرض بغير الحق﴾، بغير استحقاق لذلك، ﴿وبما كنتم تفسقون﴾، وتخرجون عن طاعة الله عز وجل، أي: بسبب استكباركم وفسقكم.

الإشارة: ما زالت الأكابر من الأولياء تتنكب الحظوظ والشهوات، مجاهدةً لنفوسهم، وتصفيةً لقلوبهم، فإن تتبّع الشهوات يقسى القلب، ويكسف نور العقل، كما قال الشاعر:

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصي الهوى يزاد تنويراً.

هذا في حال سيرهم، فإذا تحقق وصولهم فلا كلام عليهم؛ لأنهم يأخذون من الله، ويتصرفون به في أمورهم كلها، فلا حرج عليهم في نيل ما أنعم الله به عليهم، حيث أمنوا ضرره، ومن ذلك: ما روي عن إبراهيم بن أدهم،

(١) الجفنة: قصعة الطعام، والجمع جفان وجففات.

(٢) عزاه في كنز العمال (ح ٦٢٢٧) لهناد وأبي نعيم في الحلية عن الحسن مرسلاً. كما ذكره بلحوه (ح ٦٢٢٦) وعزاه للطبراني والبيهقي، عن عبد الله بن يزيد الخطمي.

(٣) في القرطبي: حفص بن أبي العاص.

(٤) الغريض: الطرى. انظر اللسان (غرض، ٣٢٤١/٥).

(٥) ذكره بأطول من هنا: القرطبي في تفسيره (٦٢٠٨/٧) ثم قال: «والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه: على المرء أن يأكل ما وجد، طبيباً كان أو فقاراً، ولا يتكلف الطيب ويتخذ عادة، وقد كان النبي ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر له، ولا يعتمد أصلاً، ولا يجعله ديناً، ومعيشة النبي ﷺ وسلم معلومة... انظر بقيته.

أنه أصلح ذات يوم طعاماً كثيراً، ودعا نقرأ يسيراً، منهم الأوزاعي والثوري، فقال له الثوري: أما تخاف أن يكون هذا إسرافاً؟ فقال: ليس في الطعام إسراف، إنما الإسراف في الثياب والأثاث، ودفع أيضاً إلى بعض إخوانه دراهم، فقال: خذ لنا بهذه زبداً وعسلاً وخبزاً حواري^(١)، فقال: يا أبا إسحاق: هذا كله؟ قال: ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدنا صبرنا صبر الرجال، وإن معروفاً الكرخي كأن يهدي له طيبات الطعام، فيأكل، فيقال له: إن أخاك بشرأ كان لا يأكل من هذا، فيقول: أحي بشر قبضه الورع، وأنا بسطنتي المعرفة، وإنما أنا ضيف في دار مولاي، إذا أطعمني أكلت، وإذا جوعلي صبرت، مالي وللاعتراض والتمييز. هـ.

والحاصل: أن الناس أقسام ثلاثة: عوام، لاهمة لهم في السير، وإنما قلنوا أن يكونوا من عامة أهل اليمين. فهؤلاء يأخذون كل ما أباحتها الشريعة، إذ لا سير لهم حتى يخافوا من تخلفهم، وخواص، نهضت هممتهم إلى الله، وراموا الوصول إليه، وهم في السير لم يتحقق وصولهم، أو من العباد والزهاد، يخافون إن تدارلوا المستلذات تفترت عزائمهم، فهؤلاء يتأكد في حقهم ترك الحظوظ والشهوات، والقسم الثالث: خواص الخواص، قد تحقق وصولهم، ورسخت أقدامهم في المعرفة، فهؤلاء لا كلام معهم، ولا ميزان عليهم.

قال في الإحياء، بعد كلام: وأكل الشهوات لا يسلم إلا لمن نظر من مشكاة الولاية والنبوة، فيكون بينه وبين الله علامة في استرساله وانقباضه، ولا يكون ذلك إلا بعد خروج النفس من طاعه الهوى والعادة بالكيفية، حتى يكون أكله إذا أكل بنية، كما يكون إمساكه بنية، فيكون عاملاً له في إفطاره وإمساكه. ثم قال: وينبغي أن يتعلم الحزم من عمر، فإنه كان يرى النبي ﷺ يحب العسل ويأكله، ثم لم يقس نفسه عليه، بل لما عرض عليه ماء مبرد بالعسل جعل يدير الإناء في كفه، ويقول: أشربها فتذهب حلاوتها وتبقى تباعتها، اعزلوا عني حسابها، وتركها، رحمته (٢).

ثم ذكر وبال من تمتع بدنيته، وأعرض عن أخراه، فقال:

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا
لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُّنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ

(١) الحواري هو الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه. انظر اللسان (حور ٢/ ١٠٤٤).

(٢) ذكره بنحوه ابن الجوزي في مناقب أمير المؤمنين (ص ١٦٤) عن ثابت.

وَأَبْلَغُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ
أُودِيْنِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾
تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ
الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿واذكر أخوا عاد﴾ وهو هود عليه السلام ﴿إذ أنذر قومه﴾: بدل اشتمال أي: وقت
إنذاره قومه ﴿بالأحقاف﴾: جمع حقف، وهو رمل مستطيل فيه انحناء، من: احقوف الشيء إذا اعوج، وكان عاد
أصحاب عمدة، يسكنون بين رمال مشرفة على البحر، بأرض يقال لها: الشحر، بأرض اليمن. وعن ابن عباس:
الأحقاف: وأد بين عمان ومهرة، وقال مقاتل: كانت منازل عاد باليمن، في حضر موت، بموضع يقال له: مهرة،
واليه تنسب الإبل المهرية، ويقال لها: المهارى، وكانوا أهل عمد سياراة في الربيع، فإذا هاج العود رجعوا إلى
منازلهم، وكانوا من قبيلة إرم^(١)، والمشهور: أن الأحقاف اسم جبل ذا رمل مستطيل، كانت منازل عاد حوله.

﴿وقد خلت النذر﴾: جمع نذير، بمعنى المنذر، أي: مضت الرسل، ﴿من بين يديه ومن خلفه﴾ أي: من
قبل هود ومن بعده، وقوله: ﴿وقد خلت﴾ الخ: جملة معترضة بين إنذار قومه وبين قوله: ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾
مؤكد لوجوب العمل بموجب الإنذار، وإيضاحاً باشتراكهم في العبادة المذكورة، والمعنى: واذكر لقومك إنذار هود
قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم، وقد أنذر من تقدمه من الرسل، ومن تأخر عنه قومهم قبل ذلك. ﴿إني أخاف
عليكم﴾ إن عصيتموني ﴿عذاب يوم عظيم﴾ يوم القيامة.

﴿قالوا أجبنا لتأفكنا﴾؛ لتصرفنا ﴿عن آلهتنا﴾، عن عبادتها، ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ من العذاب العظيم
﴿إن كنت من الصادقين﴾ في وعدك بنزوله بنا، ﴿قال إنما العلم﴾ بوقت نزوله، أو بجميع الأشياء التي من
جملتها ذلك، ﴿عند الله﴾ وحده، لا علم لي بوقت نزوله، ولا دخل لي في إيتائه وحلوله، وإنما علم ذلك عند
الله، فيأتيكم به في وقته المقدر له. ﴿وأبلغكم ما أرسلت به﴾ من التخويف والإنذار من غير وقف على تعيين
وقت نزول العذاب، ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ حيث تقترحون على ما ليس من وظائف الرسل، من الإتيان
بالعذاب وتعيين وقته.

(١) انظر تفسير البغوي ٢٦٢/٧.

رُوي: أنهم قحطوا ستين، ففرعوا إلى الكعبة، وقد كانت بنتها العمالقة، ثم خربت، فطافوا بها، واستغاثوا، فعرضت لهم ثلاث سحابات؛ سوداء وحمراء وبيضاء، وقيل لهم: اختاروا واحدة، فاختاروا السوداء، فمرت إلى بلادهم، فلما رأوها مستقبلة أوديتهم، فرحوا واستبشروا، وهذا معنى قوله، تعالى: ﴿فلما رأوه﴾ أي: العذاب الذي استعجلوه بقولهم: ﴿فأتنا بما تعدنا﴾، وقيل: الضمير مبهم، يفسره قوله: ﴿عارضاً﴾ على أنه تمييز، أي: رأوا عارضاً، والعارض: السحاب، سُمي به لأنه يعرض السحاب في أفق السماء. قال المفسرون: ساق الله السحابة السوداء التي اختاروها بما فيها من النعمة، فخرجت عليهم من واد يُقال له: «مغيث»، فلما رأوها مستقبلة أوديتهم، أي: متوجهة إليها، فرحوا، وقالوا: ﴿هذا عارض ممطرنا﴾ أي: ممطر إيانا، لأنه صفة النكرة، فيقدر انفصالة. قال الله تعالى: ﴿بل هو ما استعجلتم به﴾ من العذاب، وقيل: القائل هود عليه السلام، ﴿ريح فيها عذاب أليم﴾، فجعلت تحمل الفساطيط، وتحمل الطعينة فترفعها في الجو، فتري كأنها جردة.

قال ابن عباس: لما دنا العارض، قاموا فنظروا، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من حالهم ومواشيهم، تطير بهم الريح بين السماء والأرض، مثل الريش، فدخلوا بيوتهم، وأغلقوا أبوابهم، فألقت الريح أبوابهم، وصرعتهم، وأمر الله تعالى الريح فأمالته عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، لهم أنين، ثم أمر الله تعالى الريح، فكشفت عنهم الرمال، فاحتملتهم، فرمت منهم في البحر، وشدخت الباقي بالحجارة^(١).

وقيل: أول من أبصر العذاب امرأة منهم، قالت: رأيت ريحاً فيها كشهب النار، وهو معنى قوله: ﴿تدمر كل شيء﴾ أي: تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير، فعبر عن الكثرة بالكلية. ﴿بأمر ربها﴾ أي: رب الريح، وفي ذكر الأمر والرب، والإضافة إلى الريح، من الدلالة على عظيم شأنه - تعالى - ما لا يخفى، ﴿فأصبحوا لا يرى﴾^(٢) إلا مساكنهم أي: فجاءت الريح فدمرتهم، فصاروا بحيث لا يرى شيء إلا مساكنهم خاوية، ومن قرأ بقاء الخطاب، فهو لكل من يتأتى منه الرؤية، تنبيهاً على أن حالهم صار بحيث لو نظر كل أحد بلادهم لا يرى فيها إلا مساكنهم.

(١) انظر تفسير البغوي (٢٦٣/٧).

(٢) قرأ عاصم وحمزة ويعقوب «يرى» بضم الياء، و«مساكنهم» برفع اللون، نائب فاعل، وقرأ الباقيون «تري» بالتاء وفتحها، و«مساكنهم» بالنصب، مقولاً به. انظر الإتحاف (٤٧٢/٢ - ٤٧٣).

﴿ كذلك ﴾ أى: مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿ نجزي القوم المجرمين ﴾ وندجى المؤمنين. روى أن هود عليه السلام ومن معه من المؤمنين فى حظيرته، ما يصيبهم من الريح إلا ماتلين على الجلود، وتلذه الأنفس، وإنها لتعمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة. سبحان الحكيم القدير، اللطيف الخبير.

الإشارة: إنما جاءت النذر من عهد آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، تأمر بعبادة الله، ورفض كل ما سواه، فمن تمسك بذلك نجى، ومن عبد غير الله، أو مال إلى سواه، عاجلته العقوبة فى الظاهر أو الباطن. والله تعالى أعلم!

ثم خوف هذه الأمة بما جرى على عاد، فقال:

﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيْمَا إِن مَكَنَّاكُمْ فِيْمَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً
فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنْ
الْقُرَى وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قلت: «فيما»: موصولة، أو موصوفة، ومفعول «اتخذوا» الأول: محذوف، و«آلهة»: مفعول ثان، أى: اتخذوهم آلهة، و«قرباناً»: حال، ولا يصح أن يكون مفعولاً ثانياً لـ «اتخذوا»، و«آلهة»: بدل، لفساد المعنى، وأجازه ابن عطية، ووجه فساده: أن اتخاذهم آلهة مناف لا اتخاذهم قرباناً؛ لأن القربان مقصود لغيره، والآلهة مقصودة بنفسها، فتأمل، و«إن» نافية، والأصل: فيما ما مكنكم فيه، ولما كان التكرار مستقلاً جىء بأن، كما قالوا فى مهما، والأصل: ما ما، فلبشاعة التكرار قلبوا الألف هاء، وقيل: «إن» صلة، أى: فى مثل ما مكنكم فيه، والأول أحسن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد مكنّاهم ﴾ أى: قررنا عاد ومكنّاهم فى التصرف ﴿ فيما ﴾ أى: فى الذى، أو فى شىء ما ﴿ مكنّاكم ﴾ يا معشر قريش ﴿ فيه ﴾ من السعة والبسطة، وطول الأعمار، وسائر مبادئ التصرفات، فما أغنى عنهم شىء من ذلك، حين نزل بهم الهلاك، وهذا كقوله تعالى: ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنّاهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ﴾ (١)، أو: ولقد مكنهم فى مثل ما مكنكم فيه، فما جرى عليهم بجرى

(١) من الآية ٦ من سورة الأنعام.

عليكم، حيث خالفتم نبيكم، والأول أوفق بقوله: ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ (١) وقوله: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَارًا وَرِئَاءً﴾ (٢).

﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾ أى: آلات الإدراك والفهم، ليعرفوا بكل واحدة منها ما خلقت له، وما نيطت به معرفته، من فتون النعم، ويستدلوا بها شئون منعمها، ويدأوموا على شكرها، ويرحدوا خالقها، ﴿فما أغنى عنهم سمعهم﴾ حيث لم يستعملوه فى استماع الوحي ومواعظ الرسل، ﴿ولا أبصارهم﴾ حيث لم يبصروا ما نصب من الآيات الدالة على وحدانيته - تعالى - ووجوب وجوده، ﴿ولا أفئدتهم﴾ حيث لم يتفكروا بها فى عظمة الله - تعالى - وأسباب معرفته، فما أغنت عنهم ﴿من شيء﴾ أى: شيئاً من الإغناء. و «من»: زائدة؛ للتأكيد، وقوله: ﴿إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾: ظرف لقوله: ﴿فما أغنى﴾ جار مجرى التعليل، لاستواء مؤدى التعليل والظرف فى قولك: ضربته إذ أساء، أو: لإساءته، لأنك إذا ضربته وقت إساءته فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه، وكذلك الحال فى «حيث» دون سائر الظروف غالباً، أى: فما أغنت عنهم آلات الإدراك لأجل جحودهم بآيات الله. ﴿وحاق﴾ أى: نزل ﴿بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ من العذاب الذى كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء، ويقولون: «فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين».

﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾ يا أهل مكة، كحجر ثمود، وقرى لوط، والمراد: أهل القرى، ولذلك قال: ﴿وصرفنا الآيات﴾، كررناه، ﴿لعلهم يرجعون﴾ أى: كررنا عليهم الحجج وأنواع العبر لعلهم يرجعون من الطغيان إلى الإيمان، فلم يرجعوا، فأنزلنا عليهم العذاب.

﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة﴾ أى: فهلاً منعمهم وخلصهم من العذاب الأصنام الذين اتخذوهم آلهة من دون الله، حال كونها متقرباً بها إلى الله، حيث كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (٣) و ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (٤) ﴿بل ضلوا عنهم﴾ أى: غابوا عن نصرتهم، ﴿وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾، الإشارة إلى امتناع بصرة آلهتهم وضلالهم، أى: وذلك أثر إفكهم الذى هو اتخاذها آلهة، وثمرة شركهم، وافترائهم على الله الكذب.

(١) الآية ٢١ من سورة غافر.

(٢) من الآية ٧٤ من سورة مريم.

(٣) من الآية ٣ من سورة الزمر.

(٤) من الآية ١٨ من سورة يونس.

وقرأ ابن عباس وابن الزبير: «أَفْكَهْم» (١) أى: صرفهم عن التوحيد. وُقرئ: بتشديد الفاء، للتكثير (٢).

الإشارة: التمكن من كثرة الحس لا يزيد إلا ضعفاً فى المعنى، وبعداً من الحق، ولذلك يقول الصوفية: كل ما زاد فى الحس نقص فى المعنى، وكل ما نقص من الحس زاد فى المعنى، والمراد بالمعنى: كشف أسرار الذات وأنوار الصفات، وما مكن الله - تعالى - عبده من الحواس الخمس إلا ليستعملها فيما يقربه إليه، ويوصله إلى معرفته، فإذا صرفها فى غير ذلك، عرّقب عليها. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حال من أغنى عنه سمعه ونفّعه، حيث استعمله فيما وصله إلى ربه، فقال:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

قلت: «النفر» بالفتح: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة، وقيل: إلى سبعة، ولا يقال نفر فيما زاد على عشرة، والرهط والقوم والعشيرة والمعشر معناهم الجمع، ولا واحد لهم من لفظه، وهو للرجال دون النساء. قاله فى المصباح. و «من الجن»: نعت للنفر، وكذا «يستمعون».

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿و﴾ إذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴿و﴾ أى: أملاهم إليك، وأقبلنا بهم نحرك، وهم جن نصيبين، أو جن نيلوى، قال فى القاموس: «نيلوى» بكسر أوله، موضع بالكوفة، وقرية بالموصل

(١) انظر مختصر ابن خالويه (ص ١٤٠) والبحر المحيط (٦٦/٨).

(٢) «أَفْكَهْم» وبذلك قرأ أبو عبيد، كما فى مختصر ابن خالويه/ ١٤٠ والمحتسب (٢٦٧/٢) وزاد فى البحر المحيط (٦٦/٨): وعكرمة.

ليونس عليه السلام هـ. ﴿يستمعون القرآن﴾ منه ﷺ ﴿فلما حضروه﴾ أى: الرسول ﷺ، أو القرآن، أى: كانوا منه حيث يسمعون، ﴿قالوا﴾ أى: قال بعضهم لبعض: ﴿أنصتوا﴾؛ اسكتوا مستمعين، ﴿فلما قضى﴾، تم وفرغ من تلاوته، ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾؛ مقدّرين إنذارهم عند رجوعهم إليهم.

روى: أن الجن كانت تسترق السمع، فلما حرست السماء، ورُموا بالشهب، قالوا: ما هذا إلا لأمر حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها، لتعرفوا ما هذا، فنهض سبعة أو تسعة من أشرف جن نصيبين أو نينوى، منهم: زوبعة، فمضوا نحو نهامة، ثم انتهروا إلى وادى نخلة، فوافقوا رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى صلاة الفجر، فاستمعوا القرآن، وذلك عند متصرفه من الطائف، حين ذهب يدعوهم إلى الله، فكذبوه، وردوا عليه، وأغروا به سفاههم، فمضى على وجهه، حتى وصل إلى نخلة، فصلّى بها الغداة، فوافاه نفر الجن يصلى، فاستمعوا لقراءته، ولم يشعر بهم، فأخبره الله تعالى باستماعهم^(١).

وقيل: أمره الله - تعالى - أن يذّر الجن، ويقرأ عليهم، فصرف الله إليه نفراً منهم، رجعهم له، فقال ﷺ: إني أمرت أن أقرأ على الجن، فمن يتبعنى؟ قالها ثلاثاً، فأطرقوا إلا عبد الله مسعود، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة، فى شعب الحجون، فخطّ خطاً، فقال: لا تخرج عنه حتى أعود إليك، ثم افتتح القرآن، وسمعت لغطاً شديداً، حتى خفت على رسول الله ﷺ فجعلت أرى أمثال النور تهوى وتمشى، وغشيت أسودة كثيرة حالت بينى وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم تتقطع كقطع^(٢)، ففرغ ﷺ مع الفجر، فقال: أنمت؟ فقلت: لا والله، ولقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرأهم بعصاك، تقول: أجلسوا، فقال: لو خرجت لم آمن عليك أن يتخطفك بعضهم، ثم قال رسول الله ﷺ: هل رأيت شيئاً؟ قلت: نعم، رجالاً سوداً، فى ثياب بيض، قال: أولئك جن نصيبين^(٣)، وكانوا اثنتى عشر ألفاً، والسورة التى قرأ عليهم: ﴿اقرأ باسم ربك﴾.

فلما رجعوا إلى قومهم ﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى﴾، قيل: قالوا ذلك لأنهم كانوا على اليهودية، وعن ابن عباس: إن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام وهو بعيد. حال كون الكتاب ﴿مصدقاً﴾ لما بين يديه يهدى إلى الحق ﴿من العقائد الصحيحة، أو إلى الله﴾، ﴿وإلى صراط مستقيم﴾ يوصل إلى الله، وهو الشرائع والأعمال الصالحة.

(١) أخرجه بمعناه البخارى فى (الأذان، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر ح ٧٧٣) وكذا أخرجه فى (التفسير، سورة الجن) من حديث

عبد الله بن عباس عليه السلام.

(٢) انظر تفسير الينوى ٢٦٧/٧.

﴿يا قومنا أجيئوا داعي الله﴾ وهو محمد ﷺ، ﴿وآمنوا به﴾ أي: بالرسول أو القرآن. وصفوه بالدعوة إلى الله - تعالى - بعد ما وصفوه بالهداية إلى الحق والطريق المستقيم؛ لتلازمهما، دعوهم إلى ذلك بعد بيان حقيقته واستقامته، ترغيباً في الإجابة، ثم أكدوه بقولهم: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي: بعض ذنوبكم، وهو ما كان في حق خالص لله - تعالى - فإن حقوق العباد لا تغفر بالإيمان، وقيل: تغفر. ﴿ويجركم من عذاب أليم﴾؛ موجه.

واختلف في مؤمنى الجن، هل يثابون على الطاعة، ويدخلون الجنة، أم يجارون من النار فقط؟ قال الفخر: والصحيح أنهم في حكم بنى آدم، يستحقون الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية، وهو قول مالك، وابن أبي ليلى، وقال الضحاك: يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون. هـ. ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ كما تقدم في الأنعام (١).

﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ أي: لا يلجى منه مهرب، وإظهار داعي الله من غير اكتفاء بضميره، للمبالغة في الإيجاب، بزيادة المهابة والتقرير وتربيته، وإدخال الروعة. وتقيد الإعجاز بكونه في الأرض؛ لتوسيع الدائرة، أي: فليس بمعجز له - تعالى - وإن هرب في أقطار الأرض ودخل في أعماقها. ﴿وليس له من دونه أولياء﴾ ينصرونه من عذاب الله، وهو بيان لاستحالة نجاته بواسطة، إثر بيان استحالة نجاته بنفسه، وجمع الأولياء، مبالغة، إذا كان لا ينفعه أولياء، فأولى واحد. ﴿أولئك﴾ الموصوفون بعدم إجابة داعي الله ﴿في ضلال مبين﴾ أي: ظاهر، بحيث لا تخفى ضلالته على أحد، حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه، وجمع الإشارة باعتبار معنى «من»، وأفرد أولاً باعتبار لفظها.

الإشارة: قد استعملت الجن الأدب بين يديه ﷺ حيث قالوا: أنصتوا، فالجلوس مع الأكابر يحتاج إلى أدب كبير، كالصمت، والوقار، والهيبة، والخضوع، كما كانت حالة الصحابة - رضي الله عنهم - مع الرسول ﷺ إذا تكلم أنصتوا كأنما على رؤوسهم الطير. قال الشيخ أبو الحسن رحمه الله: «إذا جالست الكبراء فدع ما تعرف إلى ما لا تعرف، لتفوز بالسر المكنون» فإذا انقضى مجلس التذكير رجع كل واحد منذراً وداعياً إلى الله كل من لقيه، وقد كان ﷺ يقول لأصحابه: «يليلغ الشاهد الغائب» (٢) فمن بلغه ذلك واستجاب ربح وغنم، ومن لا يجب داعي الله

(١) راجع تفسير الآية ١٣٢ من سورة الأنعام. وانظر في حكم مؤمنى الجن: تفسير القرطبي (٦/٢٢٢٤) وآكام المرجان في أحكام الجان، للشبلي النعماني.

(٢) جزء من حديث خطبة الرسول في حجة الوداع، أخرجه البخاري في (الحج، باب الخطبة أيام منى ح ١٧٤١)، ومسلم في (القسامة، باب تعليق تحريم الدماء والأعراض والأموال رقم ١٦٧٩، ح ٢٩، ٣٠) عن أبي بكره.

خاب وخسر، والاستجابة أقسام، قال القشيري: فمستجيب بنفسه، ومستجيب بقلبه، ومستجيب بروحه، ومستجيب بسرّه، ومن توقف عند دعاء الداعي إليه، ولم يبادر إلى الاستجابة هجر فيما كان يخاطب به . هـ.

قلت: المستجيب بنفسه هو المستجيب بالقيام بوظائف الإسلام، والمستجيب بقلبه القائم بوظائف الإيمان، والمستجيب بروحه القائم بوظائف الإحسان، والمستجيب بسرّه هو المتمكن من دوام الشهود والعيان، وقول: هجر فيما يخاطب به، أي: كان يخاطب بملاحظة الإحسان، فإذا لم يبادر قيد بسلاسل الامتحان. والله تعالى أعلم.

ثم برهن على قوله، فليس بمعجزه في الأرض، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ
بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا
عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٣٤)

قلت: ﴿ولم يعي﴾: حال من فاعل «خلق»، يقال: عي، كرصني، وعي بالإدغام، وهو أكثر. قاله في الصحاح. وفي القاموس: عي بالأمر وعي كرصني، وتعايا واستعيا وتعيا: لم يهتد لوجه مراده، أو عجز عنه ولم يطق إحكامه. هـ. و «بقادر»: خبر «أن»، ودخلت الباء لاشتغال النفي الذي في صدر الآية على «أن»، وما في حيزها، قال الزجاج: لو قلت: ما ظننت أن زيدا بقائم، جاز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: ألم يتفكروا ولم يعلموا علماً جازماً ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، ابتداء من غير مثال يحتويه، ولا قانون يحتضيه، ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ لم يعي بخلقهن ﴿أَيُّ: لم يتعب ولم ينصب بذلك أصلاً، ولم يعجز عنه، أليس من فعل ذلك﴾ بقادر على أن يحيي الموتى بلى: ﴿جواب النفي، أي: بلى هو قادر على ذلك،﴾ إنه على كل شيء قدير ﴿تقرير للقدرة على وجه عام، ليكون كالبرهان على المقصود.

ثم ذكر عقاب من أنكر البعث المبرهن عليه، فقال: ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ فيقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾، فالإشارة إلى ما يشاهدونه من فظيع العذاب، وفيه تهكم بهم، وتوبيخ لهم، على استهزائهم بوعد الله تعالى ووعيده، ونفيه بقولهم: «وما نحن بمعذبين»، ﴿قَالُوا﴾ في جواب الملائكة: ﴿بلى

وربنا ﴿ إنه لحق، أكدوا جوابهم بالقسم كأنهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقيقتهم كما في الدنيا، وأنى لهم ذلك؟ ﴾ قال ﴿ تعالى لهم: ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ بها في الدنيا، ومعنى الأمر: الإهانة بهم والتوبيخ لهم، نعوذ بالله من موارد الهوان.

الإشارة: تربية اليقين تطلب في أمرين، حتى يكونا كراى العين: وجود الحق أو شهوده، وإيتان الساعة وقربها، حتى تكون نصب العين، وتقدم حديث حارثة شاهداً على إيمانه، حيث قال: «وكانى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون...، الحديث.

ثم أمر بالصبر على ما يسمع من الكفرة، في إمكان البعث وغيره، فقال:

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فُهِلَّ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

قلت: ﴿ لهم ﴾: متعلق بتستعجل، وأما تعليقه ببلاغ فضعيف، لا يليق بإعجاز التنزيل، خلافاً لوقف الهبطي، «وبلاغ»: خبر عن مضمرة، أى: هذا بلاغ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فاصبر ﴾ يا محمد على ما يصيبك من جهة الكفرة ﴿ كما صبر أولوا العزم ﴾ أى: الثبات والحزم ﴿ من الرسل ﴾، فإنك من جملتهم، بل من أكملهم وأفضلهم، و«من» للتبعيض، واختلف في تعيينهم، فقيل: هم المذكرون في الأحزاب ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ (١) وهم أهل الشرائع، الذى اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها، وصبروا على تحمل مشاقها، وسياسة من تمسك بها، ومعاداة الطاعنين فيها. وقيل: هم الصابرون على بلاء الله تعالى، كلوح صبر على إذابة قومه، كانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم صبر على النار، وذبح ولده، ومفارقة وطنه، وترك ولده ببلاد خالية من العمران، ويعقوب على فقد ولده، وذهاب بصره، ويوسف على الجب والسجن، وأيوب على الضر، وموسى قال له قومه: ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٢) وعلى مكابدة النيه مع قومه، وداود بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة.

(١) الآية ٧ من سورة الأحزاب.

(٢) الآيتان ٦١، ٦٢ من سورة الشعراء.

وقيل: هم اثنا عشر نبياً، أرسلوا إلى بنى إسرائيل، فعصوهم، فأوحى الله إلى الأنبياء: إني مرسل عذابي على عصاة بنى إسرائيل، فشق عليهم، فأوحى الله إليهم: أن اختاروا لأنفسكم، إن شئتم أنزلت بكم العذاب، وأنجيت بنى إسرائيل، وإن شئتم أنجبتكم وأنزلت ببنى إسرائيل، فتشاوروا بينهم، فاجتمع رأيهم على أن ينزل بهم العذاب وينجى بنى إسرائيل، فسلط عليهم ملوك الأرض، فممنهم من نشر بالمشاير، وممنهم من سلخ جلدة رأسه ووجهه، وممنهم من رفع على الخشب، وممنهم من أحرق بالنار. نسأل الله العافية، فإنهم أقوياء ونحن ضعفاء.

وقيل: «من، للتبيين، كقولك: اشتريت ثياباً من الخز، فكلهم أولو العزم، وقيل: «إلا يونس، لقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ (١) وآدم لقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (٢).

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أى: لكفار مكة نزول العذاب، فإنه نازل بهم، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ فى الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾ يسيرة ﴿مِنْ نَّهَارٍ﴾ لما يشاهدونه من شدة العذاب وطول مدته. قال الثعالبي: وإذا علمت أيها الأخ أن الدنيا أضغاث أحلام، كان من الحزم اشتغالك الآن بتحصيل الزاد للمعاد، وحفظ الحواس، ومراعاة الأنفاس، ومراقبة مولاك، فاتخذة صاحباً، ودع الناس جانباً، ثم نقل عن الغزالي ما يهيج النفس إلى النهوض إلى الله، والفرار مما سواه، فانظره.

هذا ﴿بلاغ﴾ أى: هذا الذى وعظمت به كفاية فى الموعظة، أو تبليغ من الرسول، أو منى إليك، ومناك إلى العالمين. ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: ما يهلك إلا الخارجون عن هذا الاتعاض، أو عن هذه المواعظ، أو عن الطاعة، أو: فلا يهلك مع هذه المواعظ البالغة، والأدلة القاطعة إلا من هلك عن بينة، أو: فلا يهلك مع رحمة الله وتفضله إلا الهالكون، ونظير ما ختم به هنا ما ختم به سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ الآية (٣).

فائدة: قال ابن عباس: إذا عسر على المرأة ولدها، فليكتب هاتين الآيتين الكريمتين فى صحيفة، ثم تغسل وجهها منها، وتسقى منها: بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، العظيم الحليم، سبحانه الله رب السموات والأرض، ورب العرش العظيم، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها، «كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار». صدق الله العظيم. هـ.

(١) الآية ٤٨ من سورة القلم.

(٢) الآية ١١٥ من سورة طه.

(٣) الآية ١٠٦ من سورة الأنبياء.

الإشارة: أولو العزم من الأولياء هم أولو الجد والتشمير، قد خلّصهم البلاء وشحّهم، فهم جلاليون الظاهر، جماليون الباطن، قد أسسوا منار الطريق، وأظهروا معالم التحقيق، فأسوا شدائد المجاهدة، وأفضوا إلى دوام المشاهدة، عالجوا سياسة الخلق، حتى هدى الله على أيديهم الجم الغفير، فهم خلفاء الرسل في تجديد الشرائع، وإحياء الدين - جعلنا الله منهم بمنه وكرمه. فيقال لكل ولي من أولي العزم: فاصبر كما صبر أولو العزم من الأولياء قبلك.

قال القشيري: والصبر هو الوقوف لحكم الله تعالى، والثبات من غير بث الاستكراه. هـ. أى: من غير إظهار الشكوى والتكره. قلت: وأعظم مواطن الصبر عند ورود الفاقات، وتوالي الأزمات، وصيانة الوجه عن ذل المخلوقات، والله در القائل.

أَرْضِ بِأَدْنَى الْعَيْشِ وَأَشْكُرْ عَلَيْهِ	شُكْرَ مَنْ الْقُلُ كَثِيرٌ لَدَيْهِ
وَجَانِبِ الْحَرَصِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ	يَحْطُ قَدْرَ الْمُنْتَرَقِ إِلَى
وَحَامٍ عَنْ عِرْضِكَ وَأَسْتَبِقْهُ	كَمَا يُحَامِي اللَّيْثُ عَنْ لُبْدَتَيْهِ
وَأَصْبِرْ عَلَى مَا نَابَ مِنْ نَوْبٍ	صَبْرَ أُولَى الْعَزْمِ، وَأَغْمِضْ عَلَيْهِ

ولبدتى الأسد: جانبا كتفيه.

ويقال لأولى العزم، حين يؤذون من جهة الخلق: «ولا تستعجل لهم...» الآية. وقوله تعالى: «كأنهم يوم يرون...» الآية، قال القشيري: مدة الخلق من مبتدأ خلقهم إلى منتهى آجالهم، بالإضافة إلى الأزلية، كلحظة، بل هي أقل، إذ الأول لا ابتداء له ولا انتهاء، وأى خطر لما حصل في لحظة.. خيراً كان أو شراً؟ هـ.

قال الورتجبي، ثم بين أن عند معاينة سطوات القهريات، لا يهلك فيها إلا الخارجون من نعوت استعداد معرفتي، حين يحتجبون بظلمات نعوتهم^(١) بقوله: «فهل يهلك إلا القوم الفاسقون» الخارجون بالدعوى الباطلة. هـ. وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.



(١) فى الورتجبي: ظنونهم.



سُورَةُ مُحَمَّدٍ *

مدنية . وهي ثمان وثلاثون آية ، ومناسبتها لما قبلها : قوله : (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) ، فإنهم الكفرة الذين أشار إليهم بقوله :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾

قلت : (الذين) : مبتدأ ، و (أضل) : خبر ، و (من ربهم) : حال من ضمير الحق ، وجملة (وهو ...) الخ : اعتراضية بين المبتدأ والخبر ، و (ذلك) : مبتدأ ، و (بأن) : خبر .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : أعرضوا وامتنعوا عن الدخول فى الإسلام ، أو صدوا غيرهم عنه . قال الجوهري : صدَّ عنه ، يصدُّ ، صدوداً : أعرض ، وصدَّه عن الأمر صدأً : منعه ، وصرَّفه عنه . هـ . وهم المطعمون يوم بدر^(١) ، أو : أهل الكتاب ، كانوا يصدون من أراد الدخول فى الإسلام ، منهم ومن غيرهم ، أو عام فى كل من كفر وصدَّ . فهؤلاء ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى : أحبطها وأبطلها ، أى : جعلها ضالة ضائعة ، ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها ، كضالة الإبل . وليس المعنى أنه أبطلها بعد أن لم تكن كذلك ، بل بمعنى : أنه حكم ببطلانها وضياعها ، فإن ما كانوا يعملونه من أعمال البر ، كصلة الأرحام ، وقرى الضيف ، وفك الأسارى ، وغيرها من المكارم ، ليس لها أثر من أصلها ؛ لعدم الإيمان ، أو : أبطل ما عملوا من الكيد برسول الله ﷺ ، والصد عن سبيله ، بنصر رسوله ، وإظهار دينه على الدين كله ، وهو الأوفق بقوله : ﴿ فَتَعَسَّأَ لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٢) .

(*) فى الأصول : «سورة محمد أو القتال» .

(١) قاله ابن عباس رضي الله عنه - فيما ذكره القرطبي فى تفسيره (٧/٦٢٣٠) . «وهم اثنا عشر رجلاً ، وذكر القرطبي أسماءهم» .

(٢) الآية ٨ من نفس السورة .

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قيل: هم ناس من قريش، وقيل: من الأنصار، وقيل: من آمن من أهل الكتاب، والمختار أنه عام، ﴿وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ﴾، وهو القرآن، وخص بالذكر من بين ما يجب الإيمان به؛ تنويراً بشأنه، وتليهاً على سمو مكانه من بين ما يجب الإيمان به، وأنه الأصل في الكل؛ ولذلك أكدّه بقوله: ﴿وهو الحق من ربهم﴾ أى: القرآن، لكونه ناسخاً لغيره من الكتب، وقيل: دين محمد - ﷺ؛ إذ لا يرد عليه النسخ، وهو ناسخ لسائر الأديان، ﴿كَفَرَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أى: ستر بالإيمان والعمل الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي؛ لرجوعهم عنها بالتوبة ﴿وأصلح بهم﴾ أى: حالهم وشأنهم، بالتوفيق لأمر الدين، وبالتسليط على الدنيا، بما أعطاهم الله من النصرة والعزة والتمكين في البلاد.

﴿ذلك بأن الذين كفروا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أى: ذلك الأمر، وهو إضلال أعمال أهل الكفر، وتكفير سيئات أهل الإيمان، وإصلاح شأنهم؛ كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل؛ وهو الشيطان، حيث فعلوا ما فعلوا من الكفر والصد، واتباع هؤلاء الحق، وهو القرآن، أو ما جاء به ﷺ، أو يراد بالباطل: الزائل المذهب من الدين الفاسد، وبالحق: الدين الثابت، أو يراد بالباطل: نفس الكفر والصد، وبالحق: نفس الإيمان والأعمال الصالحة.

﴿كذلك﴾ أى: مثل الضرب البديع ﴿يضرب الله﴾ أى: يبين ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أى: أحوال الفريقين، وأوصافهما، الجارية في الغرابة مجرى الأمثال، وهو اتباع الأولين الباطل، وخيبتهم وخسرانهم، واتباع الآخرين الحق، وفوزهم وفلاحهم، والضمير راجع إلى الناس، أو إلى المذكورين من الفريقين، على معنى: أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم، وقد جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكافرين، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين، أو جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز الأبرار.

الإشارة: الذين كفروا بوجود الخصوصية، وصدوا الناس عنها؛ أبطل سيرهم إليه، فكلما ساروا رجعوا، والذين آمنوا الإيمان الكامل واتبعوا السنة النبوية، ستر مساوئهم، وأصلح شأنهم، حتى صلحوا لحضرته. قال القشيري: الذين كفروا: امتنعوا، وصدوا: منعوا^(١)، فلأمتناعهم عن الله استوجبوا العقوبة، ولمنعهم الخلق عن الله استوجبوا الحجة. ثم قال في قوله: ﴿وأصلح بهم﴾: فالكفر للأعمال مُحِيطٌ، والإيمان للخلود مُسْقِطٌ، ويقال: الذين اشتغلوا بطاعة الله، ولم يعملوا شيئاً مما خالف الله - فلا محالة - يقرم الله بكفاية أشغالهم. هـ.

(١) في القشيري: وصدوا فمُنَعُوا.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بَأْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ...﴾ الآية، قال الورتجبي: اتبع الكفرة ما وقع في مخايلهم، من هواجس النفس، ووساوس الشيطان، ولا يقبلون طرائق الرشد من حيث الوحي والإلهام، وأن الذين صدقوا في دين الله، وشاهدوا الله بالله، اتبعوا سنة رسوله وخطابه، وما يقع في أسرارهم من النور والبيان، والإلهام والكلام، بلغت الإخلاص في طاعته، والأدب في خدمته والإعراض عن غيره. قال ابن عطاء: اتباع الباطل: ارتكاب الشهوات وأمالي النفس، واتباع الحق: اتباع الأوامر والسنن. هـ. قال القشيري: اتباع الحق بموافقة السنة، ومتابعة الجد في رعاية الحق وإثارة رضاه، والقيام بالطاعة، واتباع الباطل: الابتداع والعمل بالهوى، وإثارة الحظوظ وارتكاب المعصية. هـ.

ثم أقر بجهاد من كفر وصدّ، فقال:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتَمُوهُم مَّ فَشَدُّوا الْوَتَاقَ فَإِذَا مَآمَنَّا بَعْدُ وَإِذَا مَآفِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنْتَصِرْ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسَاءَ لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾

قلت: (فَضَرْبَ) : مصدر، نائب عن فعله، مضاف إلى مفعوله، و(مَنَّا) و(فِدَاءً) : مصدران لمحذوف، و(الذين كفروا) : مبتدأ محذوف خبره، وهو العامل في المصدر، أي: والذين كفروا فأتعسهم تعساً، و(أضل أعمالهم) : عطف على الخبر المحذوف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في المحاربة ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾، أصله: فاضربوا الرقاب ضرباً، فحذف الفعل وناب عن مصدره؛ للاختصار، مع إعطاء معنى التوكيد، لدلالة نصبه على مؤكده، وضرب الرقاب عبارة عن مطلق القتل، والتعبير به عن القتل تصوير له بأشنع صورة ونهريل لأمره، وإرشاد للفراة إلى أيسر ما يكون، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتَمُوهُم﴾؛ أكثرتم فيه القتل، وأغلظتموه، من: الشيء الثخين، وهو الغليظ،

أو: أثقلتهم بالجراح وهزمتهم، ﴿فشدوا الوثاق﴾ أي: فأسروهم، وشدوا وثاقهم، لئلا يتفلتوا، والوثاق بالفتح والكسر: ما يشد به. فإذا أسرتهم فتخيروا فيهم ﴿فإما مناً﴾ أي: فإما أن تموتوا مناً بعد الأسر، ﴿وإما فداءً﴾: أن تغدوا فداء، والمعنى: التخير بين الأمرين بعد الأسر، بين أن يموتوا عليهم فيطلقوهم، وبين أن يفادوهم، ومذهب مالك: أن الإمام مخير في الأسارى بين خمسة، وهي: المن، والفداء، والقتل، والاسترقاق، وضرب الجزية، وقيل: لا يجوز المن ولا الفداء؛ لأن الآية منسوخة بقوله: ﴿فأقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾^(١) فيتعين قتلهم، والصحيح أنها محكمة. ومذهب الشافعي: أن الإمام مخير بين أربعة: القتل، والاسترقاق، والفداء بأسارى المسلمين، والمن. ولعل لجزية عنده خاصة بأهل الكتاب.

ومذهب أبي حنيفة: التخير بين القتل والاسترقاق فقط، قال: والآية منسوخة؛ لأن سورة براءة آخر ما نزل. وعن مجاهد: ليس اليوم من ولا فداء، والمراد بالمن في الآية: أن يمن عليهم بترك القتل، فيسترقوا، أو يمن عليهم بإعطاء الجزية. هـ.

والمشهور: مذهب مالك؛ لأن النبي ﷺ قتل عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، يوم بدر صبراً، وفادى سائر الأسارى، ومن على ثعامة بن أثال الحنفي، وهو أسير، واسترق نساء بنى قريظة، فباعهم، وضرب الجزية على نصارى نجران ومجوس هاجر.

ثم ذكر غاية الحرب فقال: ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ أي: اضربوا رقابهم حتى تضع الحرب أثقالها، وآلاتها، التي لا تقوم إلا بها، كالصلاخ والكراع، وذلك حيث لم يبق حرب، بأن تضع أهل الحرب عدتها. وقيل: (أوزارها): آثامها، يعنى: حتى يترك أهل الحرب المشركين شركهم، بأن يسلموا جميعاً. والمختار: أن المعنى: أثنوا المشركين بالقتل والأسر حتى يظهر الإسلام على سائر الأديان، ويؤمن أهل الكتاب، طوعاً أو كرهاً، ويكون الدين كله لله، فلا يحتاج إلى قتال. وقال الحسن: معناه: حتى لا يعبد إلا الله. وقال ابن عطية: ظاهر اللفظ: أنها استعارة، يراد بها التزام الأمر كذلك أبداً، كما تقول: أنا أفعل ذلك إلى يوم القيامة. هـ. فالغاية بـ حتى، راجعة إلى الضرب والشد، وما ترتب عليه من المن والفداء.

﴿ذلك﴾ الأمر ذلك، أو افعلوا ذلك، ﴿ولو يشاء الله لانتصر﴾: لانتقم ﴿منهم﴾ بغير قتال؛ بأن ينزل بهم أسباب الهلاك والاستئصال، كالخسف أو الرجف أو غير ذلك، ﴿ولكن﴾ أمركم بالقتال ﴿ليلاؤا بعضكم بعض﴾

(١) الآية ٥ من سورة التوبة.

أى: المؤمنين بالكافرين، فأمرهم بالجهاد ليسترجبوا الثواب العظيم، وليسلم من سبق إسلامه من الكافرين. ﴿والذين قاتلوا﴾^(١) في سبيل الله ﴿؛ لإعلاء كلمة التوحيد، لا لغرض آخر، ﴿فلن يضل أعمالهم﴾؛ فلن يضيعها.

﴿سيهديهم﴾ في الدنيا إلى طريق الرشد والصواب، وفي الآخرة إلى جزيل الثواب، وقيل: يهديهم إلى جواب منكر ونكير، ﴿ويصلح بالهم﴾ بأن يقبل أعمالهم ويرضى خصماءهم، ﴿ويدخلهم الجنة عرفلها لهم﴾. قال مجاهد: عرفهم مساكنهم فيها؛ حتى لا يحتاجوا إلى دليل لها^(٢)، أو: طيبها، من: العرف، وهو مطيب الرائحة، ويمكن الجمع: بأن عرف المحل يهدي صاحبه إلى جنته ومحلّه.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله﴾ بنصر دينه وإظهار شريعته نبيه ﴿ينصركم﴾ على عدوكم، ويفتح لكم، ﴿ويثبت أقدامكم﴾ في مواطن الحرب ومواقفها، أو على محجة الإسلام، ﴿والذين كفروا فتعسوا لهم﴾ أى: فيقال: تعسوا لهم، والتعس: الهلاك، أو السقوط والانحطاط، أو العثار، أو البعد. وقال ابن السكيت: التعس: أن يجر على وجهه. هـ أى: أتعسهم الله تعساً، أى: أهلكهم وأبعدهم. وقال ابن عباس: «في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالتردى في النار». والمراد بالذين كفروا عام، وقيل: المراد من يضاد الذين ينصرون دين الله، كأنه قيل: إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، ومن لم ينصره فتعسأ له، فوضع الذين كفروا موضع من لم ينصره؛ تغليظاً، فهو وفق لأسلوب السورة من التقابل المعنوي، فهو عطف جملة على جملة شرطية مثلها، ولذلك دخلت الفاء في خبر الموصول، كما قرره الزجاج. انظر الطيبي. هـ من الحاشية. ﴿وأضل أعمالهم﴾ أى: أحبطها وأبطلها.

﴿ذلك﴾ التعس والإضلال ﴿بأنهم كرهوا ما أنزل الله﴾ من القرآن؛ لما فيه من التوحيد؛ وسائر الأحكام، المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمارة بالسوء، ﴿فأحبط﴾ لأجل ذلك ﴿أعمالهم﴾ التي كانوا عملوها، من صلة الأرحام وغيرها.

الإشارة: نهاية الجهاد الأصغر: وضع الحرب أوزارها بالإسلام أو السلم، ونهاية الجهاد الأكبر: استسلام النفس وانقيادها لما يراد منها، أو موتها بالغيبة عنها بالكلية. قال بعض العارفين: انتهى سير المسائرين إلى الظفر

(١) قرأ أبو عمرو وحفص (قتلوا) بضم القاف، وقرأ الباقر (قاتلوا) بفتح القاف، وتخفيف التاء، وألف بيئهما. انظر: السبعة لابن مجاهد / ٦٠٠ والإتحاف ٤٧٥/٢ - ٤٧٦.

(٢) هذا معنى ما قاله مجاهد وأكثر المفسرين. وقول مجاهد أخرجه الطبري، وفي الصحيح ما يدل على صحة هذا القول، فقد أخرج البخاري في (الرقائق، باب الفصاح يوم القيامة ح ٦٥٣٥) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتل لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا».

بنفوسهم، فإن ظفروا بها وصلوا . هـ . فالإشارة بقوله: (إذا لقيتم الذين كفروا...) الخ إلى قتل الهوى والشيطان وسائر القواطع، حتى إذا أئخنتهم فشدوا وثاقهم، ولا تأمنوا غائلتهم.

قال القشيري، بعد كلام: وكذلك العبد إذا ظفر بنفسه، فلا ينبغي أن يبقى بعد انتقاش شوكتها بقية، ولا في قلع شجرها مستطاعاً وميسوراً؛ فالحية إن بقيت منها بقية من الحياة من وضع عليها إصبعه بقتل منها فيه . هـ . فإذا تمكنت من معرفة الله، فإما أن تموتوا عليها بترك جهادها الأكبر، وإما أن تغدوها بالغبية عنها في حلاوة الشهود، حتى تصنع الحرب أوزارها بالموت، ولو شاء الله لخلصكم منها من غير جهاد، فالقدرة صالحة، ولكن ليختبركم، فيظهر السائرين من القاعدين مع حظوظهم «لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين»^(١) . والذين قاتلوا نفوسهم في سبيل الله وطلب معرفته، فلن يصل أعمالهم، سيهديهم إلى معرفته، ويصلح بهم بالاستغراق في شهوده، ويدخلهم جنة المعارف، قد عرفها لهم، ويبدئها على أيدي الوسائط من الشيوخ العارفين، أو طيبتها لهم، فيهدون بنسيم واردات التوجه، إلى أنوار المواجهة . وقد أشار تعالى بقوله: «والذين قاتلوا في سبيل الله» إلى طلب الإخلاص، فلا يرصل الجهاد الأسفر ولا الأكبر إلى رضوان الله، أو معرفته، إلا بتحقيق الإخلاص، من غير التفات لغرض نفساني، لا عاجلاً ولا آجلاً.

ذكر الشيخ أبو نعيم الحافظ: أن ميسرة الخادم، قال: غزونا في بعض الغزوات، فإذا بفتى^(٢) جانبي، وهو مقلع بالحديد، فحمل على الميمنة، ثم الميسرة، ثم على القلب، ثم أنشأ يقول:

أَحْسَنُ بِمَوْلَاكَ سَعِيدُ ظَنًّا	هَذَا الَّذِي كُنْتَ تَمَنَّى ^(٣)
تَنَحَّ يَا حُورَ الْجَدَانِ عَنَّا	مَا فِيكَ قَاتِلْنَا وَلَا قُتِلْنَا
لَكِنْ إِلَى سَيِّدِكُنْ اسْتَقْنَا	قَدْ عَلِمَ السَّرُّوَمَا أَعْلَنَّا

قال: فحمل فقاتل، فقتل منهم عدداً، ثم رجع إلى موقفه، فتكالب عليه العدو، فحمل، وأنشأ يقول:

قَدْ كُنْتُ أَرْجُو وَرَجَائِي لَمْ يَخِبْ	الْأَيُّضِيعَ الْيَوْمَ كَدَى وَالطَّلَبُ
يَا مَنْ مَلَأَ تِلْكَ الْقُصُورَ بِاللَّعِبِ	لَوْلَاكَ مَا طَابَتْ وَلَا طَابَ الطَّرَبُ

(١) حكمة عطائية رقم (٢٤٤) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي ص ١٨ .

(٢) اسمه «سعيد»، كما هو واضح من البيت الأول، وترجم له أبو نعيم بـ «سعيد الشهيد»، المقلع في الحديد، المشتاق إلى رؤية المنعم المجيد .

(٣) هكذا في الأصول، وفي الحلية: «هذا الذي كنت له تمنى» .

ثم حَمَلْ فِقَاتِلْ، فَقَتَلَ عِدداً كَثِيراً، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَصَافِهِ، فَتَكَالَبَ عَلَيْهِ الْعَدُو، فَحَمَلَ ثَالِثَةً، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

بِالْعَبَةِ الْخُلْدِ قِنِي ثُمَّ اسْمَعِي
مَالِكٍ قَاتِلًا فَكُنِّي وَأَرْجِعِي
ثُمَّ أَرْجِعِي إِلَى الْجِدَانِ وَأَسْرِعِي
لَا تَطْمَعِي لَا تَطْمَعِي لَا تَطْمَعِي

فَقَاتَلَ ﷺ حَتَّى قُتِلَ - رَحِمَهُ اللَّهُ. هـ (١).

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصَرِكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، فيه ترغيب وتنشيط لأهل الرعظ والتذكير، الداعين إلى الله، الذين يسعون في إظهار الدين، وإرشاد عباد الله إلى محبة الله وطاعته. وفي الحديث عنه ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لئن شئتم لأقسمن لكم، إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحبون الله إلى عبادته، ويحبون عباد الله إلى الله، ويمشون في الأرض بالنصيحة». وقال أيضاً: «الخلق عيال الله، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله» (٢) وأعظم النفع: إرشادهم إلى الله، الذي هو سبب سعادتهم السرمدية.

وقال الورنجي: نُصرة العبد لله: أن يجاهد نفسه وهواه وشيطانه، فإنهم أعداؤه، فإذا خاضعها يقويه الله وينصره عليهم، بأن يدفع شرهم عنه، ويجعله مستقيماً في طاعة الله، ويجازيه بكشف جماله، حتى يثبت في مقام العبودية، وانكشاف أنوار الربوبية. هـ.

قال القشيري: ونصرة الله للعبد بإعلاء كلمته، وقمع أعدائه. ثم قال في قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ هو إدامة التوفيق، لئلا يتهزم من صولة أعداء الدين، ولا يضعف قلبه في معاداتهم، ولا ينكسر باطنه ثقةً بالله في إعزاز دينه. هـ. ثم ذكر تعالى أصدقاء الداعين إلى الله، الناصرين لدينه، وهم المنتقدون عليهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ آيٌ: خِيبة لهم، «وأضل أعمالهم»، فلا يتوصلون بها إلى معرفته، لكونها مطولة.

ثم أمر بالتفكير والنظر؛ لأنه أقرب الطرق إلى التخلص من غوائل الأعداء، فقال:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَّا اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۚ﴾ (١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/١٦٥ - ١٦٦).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (ح ٧٤٤٥) والطبراني في الكبير (ح ١٠٠٣٣) وأبو يعلى في مسنده (٦/ رقم ٣٣١٥ ر ٣٣٧٠) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وأخرجه البيهقي في الشعب (ح ٧٤٤٨) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٠٢) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ ﴿١٢﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أفلم يسيروا﴾ أى: أقعدوا فلم يسيروا ﴿في الأرض﴾، يعنى كفار مكة، ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ من الأمم المكذبة؟ فإن آثار ديارهم تنبئ عن أخبارهم، فقد ﴿دمر الله عليهم﴾، فالجملة: استئناف مبنى على سؤال، كأنه قيل: كيف كان عاقبتهم؟ فقيل: استأصل الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم، يقال: دمره؛ أهلكه، ودمر عليه: أهلك عليه ما يختص به، قاله أبو السعود. وفي الصحاح: الدمار: الهلاك، دمره تدميرا، ودمر عليه، بمعنى. هـ. فظاهره: أن معناه واحد، وفسره في الأساس بالهلاك المستأصل، وقال الطيبي: فى دمر عليهم تضمنين معنى أطبق، فعدى بعلی، ولذلك استأصل. هـ.

﴿وللكافرين﴾ أى: ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم ﴿أمثالها﴾ أى: أمثال تلك الهلكة المفهومة من التدمير، أو أمثال عواقبهم أو عقوباتهم، لكن لا على أن لهؤلاء أمثال ما لأولئك وأضعافه؛ بل مثله، وإنما جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة، حسبما تعدد الأمم المعذبة، ويجوز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الأولين؛ فقد قُتلوا وأسروا بأيدي من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم، والقتل بيد المثل أشد ألماً من الهلاك بسبب عام. وقيل: دمر الله عليهم فى الدنيا، ولهم فى الآخرة أمثالها.

﴿ذلك﴾ أى: نصر المؤمنين وهلاك الكافرين فى الحال أو المال ﴿بأن الله مولى الذين آمنوا﴾ أى: ناصرهم ومعزهم ﴿وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ فيدفع عنهم ما حل بهم من العقوبة، ولا يخالف هذا قوله: ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ (١)؛ لأن المولى هناك بمعنى المالك.

﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، وهذا بيان لحكم ولاية الله لهم وثمرتها الآخروية، ﴿والذين كفروا يتمتعون﴾ فى الدنيا بمتاعها أياماً قلائل، ﴿ويأكلون﴾ غافلين عن عواقبهم، غير متفكرين فيها ﴿كما تأكل الأنعام﴾ فى مسارحها، غافلة عما هى بصدد من النحر والذبح، فالتشبيه بالأنعام صادق بالغفلة عن تدبير العاقبة، وعن شكر المنعم، وبعدم التمييز للمضر من غيره، كأكل الحرام وعدم توقيه، وكذا كونه غير مقصور على الحاجة، ولا على وقتها، وسيأتى فى الإشارة إن شاء الله. ﴿والنار مشوى لهم﴾ أى: منزل ثوابه وإقامته، والجملة إما حال مقدرة من وار (يأكلون)، أو استئناف.

(١) من الآية ٦٢ من سورة الأنعام.

الإشارة: تفكر الاعتبار يكون في أربعة، الأول: في سرعة زهاب الدنيا وانقراضها، كأضغاث أحلام، وكيف غرّت من انتشب بها، وأخذته في شبكتها، حتى قديم على الله بلا زاد، وكيف دمر الله على أهل الطغيان، واستأصل شأفتهم، فينتج ذلك التضمير والتأهب ليوم الجزاء. الثاني: في دوام دار البقاء، ودوام نعيمها، فينتهز الفرصة في العمل الصالح. الثالث: في النعم التي أنعم الله بها على عباده، الدنيوية والأخرية، الحسية والمعنوية، قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ (١) فينتج ذلك الشكر، لتدوم عليه. الرابع: في نصب هذه العوالم، على ما هي عليه من الإبداع والإتقان، فيثمر ذلك معرفة الصانع، وباهر قدرته وحكمته.

وقوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا...﴾ الخ، قال القشيري: المولى: المحب، فهو محب الذين آمنوا، والكافرين لا يحبهم، ويصح أن يقال: أرجى آية في القرآن هذه الآية، لم يقل مولى الزهاد والعباد وأصحاب الأرواد والاجتهاد؛ بل قال: «مولى الذين آمنوا»، والمؤمن وإن كان عاصياً فهو من جملة من جملتهم. هـ - والمحبة تكفوت بقدر زيادة الإيمان والإيقان حتى يصير محبوباً مقرباً.

قوله تعالى: ﴿والذين كفروا يمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام﴾، وكذلك الغافل، فالأنعام تأكل بلا تمييز، من أى موضع وجدت، كذلك الجاهل، لا تمييز له من الحلال أو من الحرام، والأنعام ليس لها وقت لأكلها، بل تأكل في كل وقت، وكذلك الغافل والكافر. فقد ورد: «أن الكافر يأكل في سبعة أمعاء»، والمؤمن يجتري بما تيسر، (٢)، كما في الخبر: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن» (٣). والأنعام تأكل على الغفلة، فمن كان في أكله ناسياً لربه، فأكله كأكل الأنعام. انظر القشيري.

ولما أمرهم بالنظر فلم يفتروا، هدمهم بالهلاك، فقال:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ

لَهُمْ ۚ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ﴾ (١٤)

(١) من الآية ٣٤ من سورة إبراهيم.

(٢) ورد بلفظ «إن المؤمن يأكل في معي واحد»، وإن الكافر يأكل في سبعة أمعاء، الحديث أخرجه البخاري في (الأطعمة، باب المؤمن يأكل في معي واحد، ح ٥٣٩٣) ومسلم في (الأشربة باب المؤمن يأكل في معي واحد رقم ٢٠٦١، ح ١٨٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) بعض حديث أخرجه الترمذي في (الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، ح ٢٣٨٠) وقال: «حديث صحيح، وابن ماجه في (الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، ح ٢٣٤٩) والنسائي في الكبرى (آداب الأكل، باب ذكر القدر الذي يستحب للإنسان من الأكل ح ٦٧٦٨) والحاكم (١٢١/٤) «رواه النجاشي» من حديث مقدم بن معدي كرب.

قلت : (كأين) : كلمة مركبة من الكاف و«أى» ، بمعنى كم الخبرية ، ومحلها : الرفع بالابتداء ، وقوله : (هى أشد) : نعت لقرية ، و(أهلكناهم) : خبر ، وحذف المضاف ، أى : أهل قرية ، بدليل «أهلكناهم» .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وكأين من قرية ﴾ أى : كثير من أهل قرية ﴿ هى أشد قوة من قريتك ﴾ : مكة ، ﴿ التى أخرجتك ﴾ أى : تسببوا فى خروجك ، أى : وكم من قوم هم أشد قوة من قرمك الذين أخرجوك ، ﴿ أهلكناهم ﴾ بأنواع العذاب ، ﴿ فلاناصر لهم ﴾ فلم يكن لهم من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم ، فأنتم يا معشر قريش أهون منهم ، وأولى بنزول ما حجل بهم .

﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أى : حجة واضحة ، وبرهان قاطع ، وهو القرآن المعجز ، وسائر المعجزات ، يعنى : رسول الله ﷺ ، ﴿ كمن زين له سوء عمله ﴾ ، وهم أهل مكة ، زين الشيطان شركهم وعداوتهم لله ولرسول ﷺ ، ﴿ واتبعوا أهوائهم ﴾ الزائغة ، وانهمكوا فى فنون الضلالات ، من غير أن يكون لهم شبهة توهم صحة ما هم عليه ، فضلاً عن حجة تدل عليها . وقيل : المراد بمن كان على بينة : المؤمنون فقط ، المتمسكون بأدلة الدين .

قال أبو السعود : وجعلها عبارة عن النبى ﷺ وعن المؤمنين ، لیساعده النظم الكريم ، على أن الموازاة بينه ﷺ وبين من زين له سوء عمله مما ياباه منصبه الجليل . والتقدير : أليس الأمر كما ذكر ؟ فمن كان مستقراً على حجة ظاهرة ، وبرهان نير من مالِك أمره ومرتبته ، وهو القرآن ، وسائر الحجج العقلية ، ﴿ كمن زين له سوء عمله ﴾ من الشرك وسائر المعاصي ، مع كونه فى نفسه أقبح القبائح . هـ .

الإشارة : فى الآية تهديد لمن يؤذى أولياء الله ، ويخرجهم من مواطنهم بالهلاك العاجل أو الآجل . وقوله تعالى : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ تقدم فى سورة هود الكلام عليها^(١) . وقال القشيري هنا ، فى تفسير البينة : هى الضياء والحجة والاستبصار بواضح المحجة ، فالطماء فى ضياء برهانهم ، والعارفون فى ضياء بيانهم ، فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يبصرون ، وهؤلاء بحكم الإلهام والوصول يستبصرون . هـ .

ثم عرّف بالجنة ، التى تقدمت فى قوله : ﴿ عرفها لهم ﴾ ، فقال :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

(١) راجع إشارة الآية ١٧ من سورة هود .

وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾

قلت: (مثل): مبتدأ حذف خبره، أى: صفة الجنة ما تسمعون، وقدره سيبيويه: فيما يتلى عليكم مثل الجنة، وقيل: المثل زائد، أى: الجنة فيها أنهار... الخ، و(كمن هو خالد): خبر لمحذوف، أى: أمن هو خالد فى هذه الجنة، كمن هو خالد فى النار؟.

يقول الحق جل جلاله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أى: صفتها العجيبة، العظيمة الشأن ﴿التي وعد المتقون﴾ الشريك والمعاصي، هو ما نذكره لكم، ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ غير متغير الطعم واللون والرائحة، يقال: أسن الماء: إذا تغير، سواء أنتن أم لا، فهو آسن وآسن، ﴿وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾ كما تتغير ألوان الدنيا بالحموضة وغيرها، وانظر إذا تمناه كذلك مريباً أو مضروباً. والظاهر: أنه يعطاه كذلك، إذ فيها ما تشتهيهِ الأنفس. ﴿وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾ أى: لذية، ليس فيها كراهة طعم وريح، ولا غائلة سكر، وإنما هى تلذذ محض. واللذة: إما تأنيث الداء، بمعنى لذية، أو: مصدر نعت به للمبالغة.

﴿وأنهار من عسل مصفى﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه شمع أو غيره، وفى حديث الترمذى: «إن فى الجنة بحر الماء، وبحر اللبن، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد»^(١) قال: حسن صحيح. وعن كعب: نهر دجلة من نهر ماء الجنة، والفرات نهر من لبنها، والنيل من نهر خمرها، وسيحان من نهر عسلها، والكل يخرج من الكوثر^(٢). قلت: ولعل الثلاثة لما خرجوا إلى الدنيا تغير حالهم، ليبقى الإيمان بالغيب. والله تعالى أعلم.

قيل: بدئ من هذه الأنهار بالماء؛ لأنه لا يستغنى عنه قط، ثم باللبن؛ لأنه يجرى مجرى المطعوم والمشروب فى كثير من الأوقات، ثم بالخمر؛ لأنه إذا حصل الرى والمطعوم تشوقت النفس إلى ما يلتذ به، ثم بالعسل؛ لأنه فيه الشفاء فى الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم؛ فهو متأخر فى الرتبة.

(١) أخرجه الترمذى فى (صفة الجنة، باب ما جاء فى صفة أنهار الجنة ح ٢٥٧١) والدارمى فى (الرقائق، باب فى أنهار الجنة ح ٢٨٣٦) وأحمد فى المسند (٥/٥) عن حكيم بن معاوية عن أبيه، قال الترمذى: «حديث حسن صحيح».

(٢) ذكره بلفظه القرطبي (٦٢٤٤/٧) والبغوى فى التفسير (٢٨٢/٧) وذكره بلفظ مقارب السيوطى فى الدرر (٢٥/٦) وعزاه للحديث بن أبى أسامة فى مسنده، عن كعب.

هذا، وقد وجدت على هامش المصحف الأم ما يلى: هذا من خرافات كعب، التى كثر بهما القصاص والروعاظ مسائل العلم، بدون طائل ولا جدوى، والحديث الصحيح إنما فيه أنها من الجنة، فإما أن ذلك حقيقة على ظاهره، وإما أن يكون خرج مخرج التشبيه، كما هو قول طائفة.

قلت: حديث أنها من أنهار الجنة أخرجه مسلم فى (الجنة، باب ما فى الدنيا من أنهار الجنة، ح ٢٨٣٩) عن أبى هريرة، ولفظه: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة».

﴿ولهم فيها﴾ مع ما ذكر من فنون الأنعام ﴿من كل الثمرات﴾ أى: صنف من كل الثمرات. ﴿و﴾ لهم ﴿مغفرة﴾ عظيمة ﴿من ربهم﴾ أى: كائنة من ربهم، فهو متعلق بمحذوف، صفة لمغفرة، مؤكدة لما أفاده التذكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، أى: مغفرة عظيمة من ربهم. وعبر بعنوان المغفرة دون الرحمة؛ إشعاراً بأن الميل إلى نعيم الأشباح نقص فى الدارين يستوجب المغفرة.

أىكون هذا ﴿كمن هو خالد فى النار﴾؟ أو: مثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد فى النار؟ وهو كلام فى صورة الإثبات، ومعناه: النفى، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار، ودخوله فى حيّزه، وهو قوله: ﴿أَقَمَّنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ﴾^(١)، وفائدة حذف حرف الإنكار: زيادة تصوير لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبيئة والتابع لهواه، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة، التى يجرى فيها تلك الأنهار، وبين النار، التى يسقى أهلها الحميم الحار، المشار إليه بقوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾؛ حاراً فى النهاية، إذا دنا منهم شوى وجروهم، ووقعت فروة رؤوسهم ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾؛ مضارينهم، التى هى مكان تلك الأشربة. نسأل الله العافية.

الإشارة: مثل جنة المعارف، التى وعدّها المتقون كل ما يشغل عن الله، فيها أنهار من ماء علوم الحقيقة، غير متغير صفاؤها، ولا متكدرة أنوارها، وأنهار من لبن علوم الشريعة المؤيدة بالكتاب والسنة، لم تتغير حلاوة معاملتها، ولا لذة مناجاتها، وأنهار من خمرة الشهود، لذة للشاربين لها، تذهل حلاوتها العقول، وتفرت عن مدارك النقول، وأنهار من عسل حلاوة المكالمة والمصاررة والمناجاة، صافيات الأوقات، محفوظة من المكدرات، ولهم فيها من طُرف الحكَم، وفواكه العلوم، ما لاتحصىه الطروس، ولاتدركه محافل الدروس.

قال القشيري: (مثل الجنة)، أى: صفتها كذا، وللأولياء اليوم، لهم شراب الوفاء، ثم شراب الصفاء، ثم شراب الولاء، ثم شراب فى حال اللقاء، ولكل من هذه الأشربة عمل، ولصاحبه سكر وصحو، فمن تحسى شراب الوفاء لم ينظر إلى أحد من الخلق فى أيام غيبته عن إحساسه، وأنشدوا:

وَمَا سِرِّ صَدْرِي مِثْلَ شَطَطِ بَيْتِ النَّبِيِّ
أَنْبَسَ وَلَا كَأْسُ وَلَا مُتَطَرَفُ^(٢)

(١) الآية ١٤ من سورة محمد.

(٢) ورد: وما سر قلبي مثل شط به النبوى نعيم ولا كأس ولا متصرف

ونسب إلى عبد الله بن أحمد بن مصروف. انظر بقيمة الدهر ١٠٨/٣.

وَمَنْ شَرِبَ بِكَاسِ الصِّفَا خَلَصَ لَهُ عَنْ كُلِّ شَوْبٍ بِلَا كَدٍ فِي عَهْدِهِ، فَهُوَ فِي كُلِّ وَقْتٍ ظَامٍ عَنْ نَفْسِهِ، خَالٍ عَنْ مَطَالِبَاتِهِ، قَائِمٌ بِهِ، بِلَا شُغْلٍ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ شَرِبَ كَأْسَ الْوَلَاءِ عَدِمَ فِيهِ الْقَرَارُ، وَلَمْ يَغِبْ سِرُّهُ لِحِظَةٍ، لَيْلًا وَلَا نَهَارًا، وَمَنْ شَرِبَ فِي حَالِ الْلِقَاءِ أُنْسَ عَلَى الدَّوَامِ بِيَقَائِهِ؛ فَلَمْ يَطْلُبْ مَعَ بَقَائِهِ شَيْئًا آخَرَ، لَا مِنْ عَطَائِهِ وَلَا مِنْ لِقَائِهِ؛ لِاسْتِهْلَاكِهِ فِي عِلَائِهِ عِنْدَ سَطَوَاتِ كِبَرِيَّاتِهِ هـ.

قلت: أما شراب الوفاء؛ فهو عقد الإرادة مع الشيخ، أو عقد المحبة والخدمة مع الحق، فيجب الوفاء بكل منهما، وهو كشرب العطشان من الماء العذب، وأما شراب الصفاء فهو صفاء العلم بالله، وهو كاللبن تتغذى به الأرواح في حال ترقيقها إلى الحضرة، وأما شراب الولاء فهو شراب أهل التمكين من الولاية الكبرى، فيشربون من الخمرة الأزلية، فيسكرون، ثم يصحون، وفيها يقول الششتري رحمته الله:

لا شراب الدرالي، إنها أرضيه خمرها دُرٌّ خمرى، خمرنى أزيله^(١)

وأما شراب حال اللقاء؛ فالمراد به: أوقات رجوعهم إلى البقاء، فيتفنون في علوم الحكمة وحلاوة المعاملة. والله تعالى أعلم.

ثم شفع بأصدقائهم، فقال:

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَآذَا قَالَ أَنْفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۚ فَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ۚ ﴾^(١٨)

قلت: (أنفًا): قال الزمخشري ومن تبعه: ظرف، أى: الساعة، وقال أبو حيان: لا أعلم أحداً عدّه من الظروف، وجوز «مكى» فيه الظرف والحالية، قال الهروي: «أنفًا» مأخوذة من: انتفتت الشيء: إذا ابتدأته، وروضة أنف: إذا لم ترع. المعنى: ماذا قال في وقت يقرب من وقتنا؟ (وأن تأتيتهم): يدل اشتغال من الساعة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾، وهم المنافقون، كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ، ويسمعون كلامه ولا يعونّه، ولا يراعونه حق رعايته، تهاوناً منهم، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ﴾^(١) انظر الديوان ص ٣١٠. والدرالي: العتب

العلم ﴿من الصحابة - رضى الله عنهم - : ﴿ماذا قال آنفا﴾؛ ما الذى قال الساعة؟ على طريقة الاستهزاء، أو: ما القول الذى ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه؟.

وقال مقاتل: كان النبى ﷺ يخطب، ويعيب المنافقين، فسمع المنافقون قوله، فلما خرجوا من المسجد، سألوا ابن مسعود عما قال النبى ﷺ استهزاء^(١). وقال ابن عباس: أدنا من الذين أتوا العلم، وقد سئلت فيمن سئل،^(٢). ويقال: الناس ثلاثة: سامع عامل، وسامع غافل، وسامع تارك.

﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾ لعدم توجهها إلى الخير أصلاً، ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ الباطلة، فلذلك فعلوا ما فعلوا، مما لاخير فيه، ﴿والذين اهتمدوا﴾ إلى طريق الحق ﴿زادهم﴾ الله بذلك ﴿هدى﴾ علماً وبصيرة، أو شرح صدر بالتوفيق والإلهام، أو: زادهم ما سمعوا من الرسول ﷺ هداية على ما عندهم، ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أعانهم عليها، أو: آتاهم جزاء تقواهم، أو: بين لهم ما يتقون.

﴿فهل ينظرون﴾ أى: ما ينتظرون ﴿إلا الساعة أن تأتيهم بغتة﴾ أى: تباغتتهم بغتة، وهى الفجاءة، والمعنى: أنهم لا يتذكرون بأحوال الأمم الخالية، ولا بالإخبار بإتيان الساعة، وما فيها من عظام الأهوال، وما ينتظرون إلا إتيان نفس الساعة بغتة، ﴿فقد جاء أشراطها﴾؛ علاماتها، جمع: شرط بالتحريك، بمعنى: العلامة، وهى مبعث محمد ﷺ. وانشقاق القمر، والدخان، على قول. وقيل: قطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثر اللام، فقوله تعالى: ﴿فقد جاء أشرطها﴾ تعطيل لمفاجأتها، لا لمطلق إتيانها، على معنى: أنه لم يبق من الأمور الموجبة للتذكير أمر مترقب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة، إذ قد جاء أشراطها، فلم يرفعوا لها رأساً، ولم يعدوها من مبادئ إتيانها؛ فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لامحالة.

﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾، قال الأخفش: التقدير: فأنى لهم ذكراهم إذا جاءتهم، أى: فمن أين لهم التذكير والانتعاض إذا جاءتهم الساعة؟ فـ «ذكراهم»: مبتدأ، وأنى: خبر مقدم، وإنا جاءتهم: اعتراض، وسط بينهما، رمز إلى غاية سرعة مجيئها، والمقصود: عدم نفع التذكير عند مجيئها، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾^(٣).

(١) ذكره البغوى فى تفسيره (٢٨٣/٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (٥١ / ٢٦) والحاكم (التفسير ٤٥٧/٢) بلفظ: «كنت فيمن يسئل، والحديث صحيحه الحاكم، من طريق سعيد بن جبير، ووافقه الذهبى.

(٣) من الآية ٢٣ من سورة الفجر.

الإشارة: مجلس الوعظ والتذكير، إن كان المذكر من أهل التنوير، نهض المستمع له إلى الله قطعاً، لكن ذلك يتفاوت على قدر سريان النور فيه قطعاً، فمنهم من يصل الدور إلى ظاهر قلبه، ومنهم من يصل إلى داخل القلب، ومنهم من يصل إلى روحه، ومنهم من يصل إلى سره، وذلك على قدر التفرع والاستعداد، فمن وصل النور إلى ظاهر قلبه نهض إلى العمل الظاهر، وكان بين حب الدنيا والآخرة، ومن وصل إلى قلبه نهض بقلبه إلى الله، ورفض الدنيا وراءه، ومن وصل إلى روحه انكشف عنه الحجاب، ومن وصل إلى سره تمكن من شهود الحق.

وفي الحكم: «تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيثما سار التنوير وصل التعبير»^(١)، وهذا إن حضر مستفيداً، وأما إن حضر منتقداً، فهو قوله تعالى: «ومنهم من يستمع إليك..» الآية، والذين اهتموا لدخول طريق التربية زادهم هدى، فلا يزالون يزيدون تربية وترقية إلى أن يصلوا إلى مقام التمكين من الشهود. قال القشيري: والذين اهتموا بأنواع المجاهدات زادهم هدى لأنوار المشاهدات، واهتدوا بتأمل البرهان، فزادهم هدى بروح البيان، أو اهتموا بعلم اليقين، فزادهم هدى بحق اليقين. هـ.

ثم ذكر سبب الهداية وأساسها، فقال:

﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۖ

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ۖ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أى: إذا علمت أن مدار السعادة، والفوز بالنعيم في دار البقاء هو التوحيد والطاعة، ومناط الشقاء والخسران في دار الهوان هو الإشراك والعصيان، فاثبت على ما أنت عليه من التوحيد، واعلم أنه لا إله في الوجود إلا الله، فلا يستحق العبادة غيره، ﴿ وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ ﴾ وهو ما قد يصدر منه ﷺ من خلاف الأولى، عبّر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل، كيف لا، وحسنات الأبرار سيئات المقربين؟ فكل مقام له آداب، فإذا أخل بشيء من آدابه أمر بالاستغفار، فلمقام الرسالة آداب، ولمقام الولاية آداب، ولمقام الصلاح آداب، وضعف العبودية لا يقوم بجميع حقوق الربوبية، قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾^(٢). وبالجملة، فالقيام بالآداب مع الله - تعالى - على ما يستحقه - سبحانه - حتى يحيط العبد بجميع الآداب مع عظمة

(١) حكمة (رقم ١٨٢) انظر تبويب الحكم للمفتي الهندي (ص ٣٦).

(٢) من الآية ٦٧ من سورة الزمر.

الربوبية محال عادة، قال ﷺ مع جلالة منصبه : « لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أئذيت على نفسك » (١) فكل ما قُرِبَ العبدُ من الحضرة شُدَّ عليه في طلب الأدب، فإذا أخذته سنةٌ أمر بالاستغفار، ولذلك كان ﷺ يستغفر في المجلس سبعين مرة، أو مائة، على ما في الأثر (٢).

وقال شيخ شيوخنا، سيدى عبدالرحمن الفاسى، بعد كلام: والحق أن استغفاره ﷺ طلب ثبات المغفرة والمستر من الوقوع، لا طلب العفو بعد الوقوع، وقد أخبره تعالى بأنه فعل. وقد يُقال: استغفار تعبد لا غير. قال: والذي يظهر لى أن أمره بالاستغفار مع وعد الله بأنه مغفور له؛ إشارة إلى الوقوف مع غيب المشيئة، لا مع الوعد، وذلك حقيقة، والوقوف مع الوعد شريعة. وقال الطيبي: إذا تيقنت أن الساعة آتية، وقد جاء أشراطها، فخذ بالأهم فالأهم، والأولى فالأولى، فتمسك بالتوحيد، ونزه الله عما لا ينبغي، ثم طهر نفسك بالاستغفار عما لا يليق بك، من ترك الأولى، فإذا صيرت كاملاً في نفسك فكن مكملاً لغيرك، فاستغفر ﴿للمؤمنين والمؤمنات﴾. هـ. أى: استغفر لذنوبهم، بالدعاء لهم، وترغيبهم فيما يستدعى غفران ذنوبهم.

وفى إعادة الجار تنبيه على اختلاف متعلقيه؛ إذ ليس موجب استغفاره ﷺ كموجب استغفارهم، فسيئاته - عليه السلام - فرضاً - حسناتهم. وفى حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه - أى: ولذنب المؤمنين - إشعار بعراققتهم فى الذنوب، وفرط افتقارهم إلى الاستغفار.

﴿والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ أى: يعلم متقلبكم فى الدنيا، فإنها مراحل لا بد من قطعها، ويعلم مثواكم فى العقبى؛ فإنها مواطن إقامتكم، فلا يأمركم إلا بما هو خير لكم فيهما، فبادروا إلى الامتثال لما أمركم به، فإنه المهم لكم، أو: يعلم متقلبكم: فى معاشكم ومتاجركم، ومثواكم: حيث تستقرون فى منازلكم، أو متقلبكم: فى حياتكم، ومثواكم: فى القبور، أو: متقلبكم: فى أعمالكم الحسنة أو السيئة، ومثواكم: من الجنة أو النار، أو: يعلم جميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها، فمثله حقيق بأن يخشى ويتقى ويستغفر.

الإشارة: قال القشيري: قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾، وكان عالماً، ولكن أمره باستدامة العلم واستزادته، وذلك فى الثانى من حاله فى ابتداء العلم، لأن العلم أمر، ولا يجوز البقاء على الأمر الواحد، فكل لحظة يأتى فيها علم. ويقال: كان له علم اليقين، فأمر بعين اليقين، أو: كان له عين اليقين، فأمر

(١) بعض حديث صحيح، أخرجه مسلم فى (الصلاة، باب ما يقال فى الركوع والسجود ح ٤٨٦) من حديث السيدة عائشة - رضى الله عنها.

(٢) أخرج مسلم فى (الذكر والدعاء والقوبة، باب الاستغفار واستحباب الاستغفار والاستكثار منه ح ٢٧٠٢) عن الأغر المزنى، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإننى لأستغفر الله فى كل يوم مائة مرة».

بحق اليقين. ويقال: قال ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له، فنزلت الآية (١)، أى: أمر بالتواضع. وهنا سؤال: كيف قال: «فاعلم، ولم يقل ﷺ بعد: علمت، كما قال إبراهيم حين قال له: ﴿أَسْلَمَ قَالَ أَسَلَّمْتُ﴾ (٢) ويجاب: بأن الله تعالى أخبر عنه بقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ (٣) والإيمان هو العلم، فأخبار الحق - تعالى - عنه أتم من إخباره عن نفسه بقوله: علمته.

ويقال: إبراهيم عليه السلام لما قال: «أَسَلَّمْتُ»؛ ابتلى، ونبينا ﷺ لم يقل علمت، فعوفى، ويقال: فرق بين موسى، لما احتاج إلى زيادة العلم أحيل على الخضر، ونبينا ﷺ قال له: ﴿قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (٤) فكم بين من أحيل في استزاده العلم على عبد، وبين من أمر باستزادة العلم من الحق. ويقال: إنما أمره بقوله: ﴿فاعلم﴾ بالانقطاع إليه من الحظوظ من الخلق، ثم بالانقطاع منه إليه، وإذا قال العبد هذه الكلمة على العادة، والغفلة عن الحقيقة، [وهي نصف البيان] (٥)؛ فليس لهذا القول كبير قيمة، وهذا إذا تعجب من شيء فذكر هذه الكلمة، فليس له قدر، وإذا قاله مخلصاً ذاكراً لمعناها، متحققاً بحقيقتها، فإن قاله بنفسه فهو في وطن التفرقة، وعندهم هذا من الشرك الخفى، وإن قاله بالحق فهو إخلاص، والعبد أولاً يعلم ربه بدليل وحجة، فعلمه بنفسه ضرورى، وهو أصل الأصول، وعليه يبنى كل علم استدلالى، ثم تزداد قوة علمه بزيادة البيان، وزيادة الحجج، ويتناقض علمه بنفسه لغلبة ذكر الله بقلبه عليه، فإذا انتهى لحال المشاهدة، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه، صار علمه في تلك الحالة ضرورياً، ويقول إحساسه بنفسه، حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلال، وكأنه غافل عن نفسه، أو ناسٍ لنفسه، ويقال: الذى فى البحر غلب عليه ما يأخذه من الرؤية عن ذكر نفسه، فإذا ركب البحر فهو من هذه الحالة، فإذا غرق فى البحر فلا إحساس له بشيء سوى ما هو مستغرق فيه مستهلك. هـ.

قلت: لأمدخل للحجج هنا، وإنما هو أنواق وكشوفات، فالصواب أن يقول: ثم تزداد قوة علمه، بزيادة الكشف والذوق، حتى يغيب عن وجوده، بشهود معبوده، فيتناقض علمه، فيصير علمه بالله ضرورياً، وعلمه بعدم وجوده ضرورياً، والله تعالى أعلم.

(١) نزول الآية فى هذا لم أقف عليه، أما الحديث فصحيح، فقد ترجم البخارى فى صحيحه (كتاب الإيمان، باب قول النبى ﷺ: «أنا أعلمكم بالله» ح ٢٠) وأورد حديث السيدة عائشة - رضى الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيلتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيقضب ﷺ، حتى يعرف الغضب فى وجهه، ثم يقول: «إن أنفلكم وأعلمكم بالله أنا». وأخرج البخارى أيضاً فى (الأدب، باب من لم يواجه الناس بالكتاب ح ٦١٠١) عن السيدة عائشة - رضى عنها - قالت: صنع رسول الله ﷺ شيئاً، فترخص فيه، فتلزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبى ﷺ، فخطب فحمد الله، ثم قال: «ما بال أقوام يكتفون عن الشيء أصنعه، قاله إني لأعلمهم بالله عز وجل، وأشدهم له خشية».

(٢) من الآية ١٣١ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٢٨٥ سورة البقرة.

(٤) من الآية ١١٤ من سورة طه.

(٥) فى القشيري: [أى كان بصفة السيئان] وهو أنسب.

ويستوحشون إذا أبطأ، وكان المنافقون على العكس من ذلك، ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾ في معنى الجهاد ﴿مُحْكَمَةٌ﴾ أى: مبيّنة غير متشابهة، لاتحتمل وجهاً إلا وجوب الجهاد. وعن قتادة: كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة^(١)، لأن النسخ لا يرد عليها؛ لأن القتال نسخ ما كان قبل من الصلح والمهادنة، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة. هـ.

﴿وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ﴾ أى: أمر فيها بالجهاد ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾؛ نفاق، أى: رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها، ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أى: تشخص أبصارهم جبناً وجزعاً؛ كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت.

قال القشيري: كان المسلمون تضيق صدورهم لتأخر الوحي، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحي بسرعة، والمنافقون إذا ذكر القتال يكرهون ذلك؛ لما كان يشق عليهم القتال، فكانوا بذلك يفتضحون وينظرون إليه نظر المغشى عليه من الموت؛ أى: بغاية الكراهة لذلك، ﴿فَأُولَىٰ لَهُمْ﴾ تهديد، أى: الوعيد لهم. هـ. وقيل: المعنى: فويل لهم، وهو أقبل، من: الولي، وهو القرب، والمعنى: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه، ويقرب من ساحتهم، وقيل: أصله: أول، فقلب، فوزنه: أفلع، قال الثعلبي: يقال لمن هم بالعطب ثم أفلت: أولى لك، أى: قاربت العطب.

وقوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾: استئناف، أى: طاعة لله وللرسول، وقول معروف حسن خير لهم، أو: يكون حكاية قول المنافقين، أى: قالوا: أمرنا طاعة وقول معروف، قالوه نفاقاً، فيكون خبراً عن مضمر، وقيل: «أولى»: مبتدأ، وطاعة: خبره، وهذا أحسن، وهو المشهور من استعمال «أولى»، بمعنى: أحق وأصوب، أى: فالطاعة والقول المعروف أولى لهم وأصوب.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أى: فإذا جد الأمر ولزمهم القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ فى الإيمان والطاعة ﴿لَكَانَ﴾ الصدق ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ من كراهة الجهاد، وقيل: جواب إذا، وهو العامل فيها - محذوف، أى: فإذا عزم الأمر خالفوا أو تخلفوا، أو نافقوا، أو كرهوا.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أى: فلعلكم إن أعرضتم عن دين الله وسنة رسول الله ﷺ أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية من الإفساد فى الأرض، بالتغاور والتناهب، وقطع الأرحام، بمقاتلة بعض الأقارب بعضاً، أو: فهل عسيتم إن توليتم أمور الناس وتأمّرت عليهم أن تفسدوا فى الأرض، تفاخراً على الملك، ونهاكاً على الدنيا، فإن أحوالكم شاهدة بذلك من خراب الدين، والحرص على الدنيا. قال فى

(١) أخرج قول قتادة، الطبرى (٢٦ / ٥٤).

الحاشية الفاسية: والأشهر أنه من الولاية، أى: إن وليتم الحكم، وقد جاء حديث أنهم قرئش؛ أخذ الله عليهم إن ولوا أمر الناس ألا يفسدوا، ولا يقطعوا الأرحام، قاله ابن حجر (١). هـ.

وخبر «عسى»: «أن تفسدوا»، والشرط اعتراض بين الاسم والخبر، والتقدير: فهل عسيتم أن تفسدوا فى الأرض إن توليتم. تقول: عسى يا فلان إن فعلت كذا أن يكون كذا، فهل عسييت أنت ذلك، أى: فهل توقعت ذلك؟ ﴿أولئك﴾ المذكورون، فالإشارة إلى المخاطبين، إيذاناً بأن ذكر مسائرهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب، وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم، وهو مبتدأ، وخبره: ﴿الذين لعنهم الله﴾؛ أبعدهم عن رحمته، ﴿فأصمهم﴾ عن استماع الحق والموعظة لتصاممهم عنه بسوء اختيارهم، ﴿وأعمى أبصارهم﴾ لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق.

﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ فيعرفون ما فيه من المواعظ والزواجر؛ حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات، ﴿أم على قلوب أقفالها﴾ فلا يصل إليها وعظ أصلاً، ودأماً، منقطعة، وما فيها من معنى «بل» للانتقال من التوبيخ على عدم التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مغلقة، لاتقبل التدبر والتفكير، والهمزة للتقرير. وتكثير «قلوب»، إما لتهويل حالها، وتفظيع شأنها، بإيهام أمرها فى الفساد والجهالة، كأنه قيل: قلوب منكرة لايعرف حالها، ولا يقادر قدرها فى القسوة، وإما لأن المراد بها قلوب بعض منهم، وهم المنافقون، وإضافة الأفعال إليها للدلالة على أنها مخصوصة بها، مناسبة لها، غير مجانسة لسائر الأفعال المعهودة.

قال القشيري: إذا تدبروا القرآن أفضى بهم إلى حص العرفان، وأزاحهم عن ظلمة التحير «أم على قلوب أقفالها» أقفل الحق على قلوب الكفار، فلا يدخلها زواجر التنبيه، ولا تنبسط عليها شعاع العلم، ولا يحصل فيهم الخطاب، والباب إذا كان مغلقاً، فكيف لا يدخل فيه شيء لا يخرج ما فيه، كذلك هى قلوب الكفار مغلقة؛ فلا الكفر الذى فيها يخرج، ولا الإيمان الذى يدعو إليه يدخل فى قلوبهم. هـ.

وقال ابن عطية: هو للران الذى منعهم من الإيمان، ثم ذكر حكاية الشاب، وذلك أن وفد لليمن قدم على النبى ﷺ وفيهم شاب، فقرأ عليهم النبى ﷺ هذه الآية، فقال الشاب: عليها أقفالها حتى يفتحها الله ويفرجها، قال عمر:

(١) فى فتح البارى (التفسير، سورة سيدنا محمد ﷺ ٤٤٥/٨) وعزى ابن حجر الحديث المشار إليه للطبرى فى تهذيبه، من حديث عبدالله بن مغفل. ونصه: «سمعت النبى ﷺ يقول: «فهل، عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض» قال: هم هذا الحى من قرئش، أخذ الله عليهم إن ولوا الناس أن لا يفسدوا فى الأرض ولا يقطعوا أرحامهم».

فَعَظُمَ فِي عَيْنِي، فَمَا زَالَتْ فِي نَفْسِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - حَتَّى وَلَّى الْخِلَافَةَ، فَاسْتَعَانَ بِذَلِكَ الْفَتَى (١). هـ. وفي الحديث: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ قُلُوبَ قَلْبِهِ، وَجَعَلَ فِيهِ الْيَقِينَ» (٢).

الإشارة: أهل التوجه والرياضة يفرحون بما ينزل بهم، مما يثقل على نفوسهم، كالفاقات والأزمات، وتسلط الخلق عليهم، وغير ذلك من النوائب؛ لتموت نفوسهم؛ فتحيي قلوبهم وأرواحهم بمعرفة الله، والذين في قلوبهم مرض كالوساوس والخواطر يفرعون من ذلك، وينظرون - حين يرون أمارات ذلك - نظر المغشى عليه من الموت، فالأولى لهم الخضوع تحت مجارى الأقدار، والرضا والتسليم لأحكام الواحد القهار، فإذا عزم الأمر بالتوجه إلى جهاد النفس، أو بالسفر إلى من يداويها، فلو صدقوا في الطلب، وتوجهوا للطبيب، كان خيراً لهم. فهل عسيتم إن توليتم وأعرضتم عن ذلك، ولم تسافروا إلى الطبيب، أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي والغفلة، وتقطعوا أرحامكم، إذ لا يصل رحم حقيقته إلا من صفا قلبه، ودخله الخوف والهيبة، أولئك الذين أبعدهم الله عن حضرته، فأصمهم عن سماع الداعى إلى الله، وأعمى أبصارهم عن رؤية خصوصيته، وأنوار معرفته، أفلا يتدبرون القرآن، فإن فيه علوم الظاهر والباطن، لكن إذا زالت عن القلوب الأقفال، وحاصلها أربعة: حب الدنيا، وحب الرئاسة، والانهماك في الحظوظ والشهوات، وكثرة العلائق والشواغل، فإن سلم من هذه صفا قلبه، وتجلت فيه أسرار معانى الذات والصفات، فيتدبر القرآن، ويغوص في بحر أسرارهِ، ويستخرج يواقيته ودرره. وبالله التوفيق.

ثم ذكر من رجع بعد التوجه، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ
الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۖ﴾ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ
اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۖ﴾ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتَهُمُ
الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۖ﴾ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ
اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ۖ فَاحْبِطْ أَعْمَلَهُمْ ۖ﴾ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمُ

(١) أخرجه الطبري (٥٨/٢٦) والبغوي في التفسير (٢٨٧/٧) وزاد السيوطي عزوه في الدر (٥٢/٦) لإسحاق بن راهويه، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عروة.

(٢) ذكره في كنز العمال (ح ٣٠٧٦٨) وعزاه لأبي الشيخ عن أبي نر. وقال المناوي في الفيض (٢٦٠/١): «وفيه سعيد بن إبراهيم، قال الذهبي: مجهول». وبقية الحديث: «جعل فيه اليقين والصدق، وجعل قلبه واعياً لما سلك فيه، وجعل قلبه سليماً، ولسانه صادقاً، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه سمعية، وعينه بصيرة».

مَرَضُ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَمِهِمْ
وَلَتَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ﴾ أى : رجعوا إلى الكفر، وهم المنافقون، الذين وصفوا قبل بمرض القلوب، وغيره، من قبائح الأفعال والأحوال، فإنهم كفروا به ﷺ ﴿ من بعدما ما تبين لهم الهدى ﴾ بالدلائل الظاهرة، والمعجزات القاهرة. وقيل : اليهود، وقيل : أهل الكتابين جميعاً، كفروا به ﷺ بعدما وجدوا نعته فى كتابهم، وعرفوا أنه المنعوت بذلك، وقوله تعالى : ﴿ الشيطان سولٌ لهم ﴾ ، الجملة : خبر إن، أى : الشيطان زين لهم ذلك، أو : سهل لهم ركوب العظائم، من : السؤل، وهو الاسترخاء، أى : أرخى العنان لهم، حتى جرهم إلى مراده، ﴿ وأملئ لهم ﴾ ؛ ومد لهم فى الآمال والأمانى، وقرأ البصرى : «وأملئ» بالبناء للمفعول، أى : أملأهم ومد فى عمرهم.

﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله ﴾ الإشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم، لا إلى الإملاء، ولا إلى التسويل - كما قيل - إذ ليس شيئاً منهما سبباً فى القول الآتى؛ أى : ذلك الارتداد بسبب أنهم - أى المنافقون - قالوا لليهود الذين كرهوا ما نزل الله من القرآن على رسول الله ﷺ بعدما علموا أنه من عند الله حسداً وطمعاً فى نزوله عليهم : ﴿ سنطيعكم فى بعض الأمر ﴾ أى : عداوة محمد [والقعود عن] (١) نصر دينه، أو : فى نصرهم والدفع عنهم إن نزل بهم شيء، من قبله ﷺ، وهو الذى حكاه عنهم بقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم... ﴾ الآية (٢) وهم بنو قريظة والنضير، الذين كانوا يوالونهم ويوادونهم، وإنما كانوا يقولون لهم ذلك سرا، كما ينبئ عنه قوله تعالى : ﴿ والله يعلم أسرارهم ﴾ (٣) أى : جميع أسرارهم التى من جملتها : قولهم هذا، وقرأ الأخوان وحفص بكسر الهمزة مصدر، أى : إخفاءهم لما يقولون لليهود.

﴿ فكيف ﴾ تكون حياتهم وما يصنعون ﴿ إذا توفتهم الملائكة ﴾ حال كونهم ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ ، وهو تصوير لحال توفيتهم على أهول الوجوه وأفظعها. وعن ابن عباس رضي الله عنه : «لا يتوفى أحد على

(١) ما بين المعقوفين ليس فى الأصول، وأثبتته لانتضاء السياق له.

(٢) الآية ١١ من سورة العنكبوت.

(٣) قرأ حفص وحزمة والكسائى «إسرارهم» بكسر الهمزة، مصدر «أسرأ»، وقرأ الباقون «بالهمزة المفتوحة» جمع : سر.

انظر الهداية للمهدوى (٥١٦/٢) والإتحاف ٤٧٨/٢.

معصية إلا تضرب الملائكة رجةً ودبره،^(١) ﴿ذلك﴾ التوفى الهائل ﴿بأنهم﴾، بسبب أنهم ﴿اتبعوا ما أسخط الله﴾ من الكفر والمعاصي ومعاونة الكفرة، ﴿وكرهوا رضوانه﴾ من الطاعة والإيمان ونصر المؤمنين، ﴿فأحبط﴾ لأجل ذلك ﴿أعمالهم﴾ التي عملوها حال الإيمان وبعد الارتداد، من أعمال البر.

﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض﴾، هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الشريعة، ﴿أن لن يخرج الله أضغانهم﴾؛ أحقادهم، فـ «أم، منقطعة، وأن، مخففة، واسمها: ضمير الشأن، أى: أظن المنافقون الذين في قلوبهم حقد وعداوة أنه لن يخرج الله حقادهم، ولن يبرزها لرسول الله ﷺ والمؤمنين، فيبقى أمورهم مستورة؟ بل لا يكاد يدخل ذلك تحت الاحتمال.

﴿ولو نشاء لأريناكم﴾ ودللتناك عليهم بأمارات، حتى تعرفهم بأعينهم، معرفة مزاحمة للرؤية. والالتفات للون العظيمة لإبراز العناية بالإرادة، وفي مسند أحمد، عن ابن مسعود: خطبنا رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إن منكم منافقين، فمن سميت قليقم، ثم قال: قم يا فلان، حتى سمى ستة وثلاثين،^(٢) انظر الطيبي. ﴿فلعرفتهم بسيماهم﴾؛ بعلامتهم التي نسمهم بها، وعن ابن عباس رضى الله عنه: ما خفى عن رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين؛ كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين، يشكرهم الناس^(٣)؛ فناموا، فأصبح على وجه كل واحد منهم مكتوب: هذا منافق،^(٤) قال ابن زيد: قصد الله إظهارهم، وأمرهم أن يخرجوا من المسجد، فأبوا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا الله، فحقت دمائهم، ونكحوا ونكح منهم بها.

﴿ولتعرفنهم﴾ أى: والله لتعرفنهم ﴿في لحن القول﴾ أى: مجراه وأسلوبه وإماليته عن الاعتدال؛ لما فيه من التذويق والتشديق، وقد كانت ألسنتهم حادة، وقلوبهم خارية، كما قال تعالى: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله...﴾ الآية^(٥)، من في قلبه شيء لا بد أن يظهر على لسانه، كما قيل: «ما كمن فيك ظهر على فيك». وهذه الجمل كلها داخلية تحت الوء معلقة بالمشيئة، واللحن يطلق على وجهين: صواب وخطأ، فالفعل من الصواب: لحن يلحن لحنًا،

(١) ذكره القرطبي (٦٢٥٧/٧) بلحوه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٧٣/٥) والطبراني في الكبير (٢٤٦/١٧ ح ٦٨٧).

(٣) في القرطبي: يشك فيهم الناس.

(٤) على هامش النسخة الأم مايلى: «هذا غريب جداً، بل باطل عن ابن عباس»، قلت: والخبر ذكره القرطبي في التفسير (٦٢٥٩/٧) عن أنس.

(٥) الآية ٤٠٢ من سورة البقرة.

كفرح، فهو لحنٌ، إذا فطنَ للشيء، ومنه قوله ﷺ: «ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض» (١) أى: لقوته على تصريف الكلام. والفعلُ من الخطأ: لحنَ يلحنُ لحنًا، كجعل، فهو لحنٌ إذا أخطأ، والأصل فيه: إزالة الكلام عن جهته، مأخوذٌ من: اللحن، وهو ضد الإعراب، وهو الذهاب عن الصواب فى الكلام (٢). ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ فيُجازيكم بحسب قصدكم؛ إذ الأعمال بالنيات، وهذا وعد للمؤمنين، وإيدانٌ بأن حالهم بخلاف حال المنافقين، أو: يعلم جميع أعمال العباد، فيميزُ خيرها من شرها.

الإشارة: إن الذين ارتدوا على أدبارهم، أى: رجعوا عن صحبة المشايخ، بعد ماظهر لهم أسرارُ خُصُوصيتهم؛ الشيطانُ سولَ لهم وأملَى لهم، وتقدم عن القشيري: أنه يتخلف عنهم يوم القيامة، ولا يلحق بالمقربين، ولو يشفع فيه ألفُ عارف، بل من كمال المكر به أن يلقى شبهه فى الآخرة على غيره، حتى يتوهم عارفه من أهل المعرفة أنه هو، فلا يشفع أحد فيه؛ لظنهم أنه معهم، فإذا ارتفعوا إلى عليين مُحيت صورته، ورفع إلى مقام العامة، انظر معناه فى آل عمران (٣).

وقال هنا: الذى طلع فجر قلبه وتلأل نور التوحيد فيه، ثم ارتد قبل طلوع نهار إيمانه؛ انكسف شمس يومه، وأظلم نهار عرفانه، ودجا ليل شكّه، وغابت نجوم عقله، فحدث عن ظلماتهم ولا حرج. هـ. ولا سيما إذا تحزّب مع العامة فى الإذابة، وقال للذين كرهوا ما نزل الله على أهل الخصوصية من الأسرار: سنطيعكم فى بعض الأمر من إذابتهم، والله يعلم أسرارهم، وباقى الوعيد الذى فى الآية ربما يشملهم. وقوله تعالى: «أم حسب الذين فى قلوبهم مرض» أى: عداوة لأولياء الله أن لن يُخرج الله أضغانهم؟ بل يُخرجها ويظهر وبالها، ويفتضحون ولو بعد حين، وقوله تعالى: «ولتعرفلهم فى لحن القول». فى قوة الخطاب، ومفهوم الكلام؛ لأن الأسرة تدلُّ على السريرة، وما خامر القلوب فعلى الوجوه يلوح، وأنشدوا فى المعنى:

لَسْتُ (٤) مَنْ لَيْسَ يَذْرِى مَا هَوَانٌ مِنْ كَرَامِهِ إِنَّ لِلْحُبِّ وَلِلْبَغْضِ عَلَى الْوَجْهِ عَلَامَهُ

المؤمن ينظر بنور الفراسة، والعارف ينظر بعين التحقيق، والموحد ينظر بالله، ولا يستتر عليه شيء. هـ. من

القشيري.

(١) بعض حديث أخرجه البخارى فى (الشهادات)، باب من أقام البينة بعد اليمين ح ٢٦٨٠ ومسلم فى (الأقضية)، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة ح ١٧١٣. من حديث أم سلمة - رضى الله عنها.

(٢) انظر اللسان (لحن ٥/٤٠١٣ - ٤٠١٤).

(٣) راجع إشارة الآية ٩٠ من سورة آل عمران. (٣٧٩/١).

(٤) هكذا فى الأصول، وأظله: لست ممن.

ثم ذكر اختباره لأهل الصدق، فقال:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ۖ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَالُهُمْ ۖ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ أى: والله لنختبرنكم بالأمر بالجهاد، ونحوه من التكاليف الشاقة، أى: نعاملكم معاملة المختبر؛ ليكون أبلغ فى إظهار العدل، ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ على مشاق الجهاد والتكاليف، علماً ظاهراً، يتعلق به الجزاء بعد تعلق العلم به فى الأزل، ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ أى: ونختبر أسراركم بإظهار ما فيها من خير أو شر، بالدهوض أو التخلف، وقيل: أراد بأخباركم: أعمالكم، عبر بالأخبار عن الأعمال على سبيل الكناية؛ لأن الإخبار تابع لوجود المخبر عنه، إن كان الخبر حسناً كان المخبر عنه - وهو العمل - حسناً، وإن كان الخبر قبيحاً فالمخبر عنه قبيح - هـ.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا ﴾ الناس ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ ﴾ أى: عادوه ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ ﴾ بما شاهدوا من نعمة فى التوراة، وبما ظهر على يديه من المعجزات، ونزل من الآيات، وهم بنوا قريظة والنضير، أو: المطعمون يوم بدر من رؤساء قريش، ﴿ لَن يَضُرُّوا ﴾ بكفرهم وصددهم ﴿ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ من الأشياء، أو: شيئاً من الصد، أو: لن يضروا رسول الله ﷺ بمشاقته، وقد حذف المضاف؛ لتعظيم شأنه وتعظيم مشاقته. ﴿ وَسَيُحِيطُ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أى: مكائدهم التى نصبوها فى إبطال دينه تعالى، ومشاقة رسوله ﷺ، فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغيون من الغوائل، ولا يثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم.

الإشارة: قال القشيري: فى الابتلاء والامتحان يتبين جواهر الرجال، فيظهر المخلص، ويفتضح الممارق^(١)، وينكشف المنافق - هـ. وكان الفضيل إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: اللهم لا تبلىنا؛ فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا - هـ. ويغنى أن يزيد: وإن بلوتنا فأيدنا، وبالله التوفيق. إن الذين جحدوا وصدوا الناس عن طريق الوصول، وخرجوا عن منهاج السنة، لن يضروا الله شيئاً؛ فإن لله رجالاً يقومون بالدعوة، لا يضرمهم من عاداهم، حتى يأتى أمر الله، وسيحيط أعمال الصادقين المعوقين، فلا ينهضون إلى الله نهوض الرجال، بشؤم انتقادهم. والله تعالى أعلم.

(١) فى القشيري: الممازق.

ولما ذم الذين كرهوا الجهاد، أمر المؤمنين بالطاعة فيه، وألا يكونوا أمثال أولئك، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ۚ (٣٣)
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا
 وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ۚ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ
 الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ إِنْ تَوَمَّنَا وَتَنَقَّوْا يَتُوكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْئَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۚ (٣٦) إِنْ
 يَسْئَلَكُمْوهَا فَيُخَفِّفْكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَنْتَكُمْ ۚ (٣٧) هَآأَنْتُمْ هَآؤَلاءِ تَدْعُونَ
 لِنُفِيقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ
 وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا
 أَمْثَلَكُمْ ۚ (٣٨)﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله﴾ فيما يأمركم به من الجهاد وغيره ﴿وأطيعوا الرسول﴾ فيما سنه لكم، ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ بما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق، وغير ذلك من مفسدات الأعمال، كالعجب والرياء، والمن والأذى، وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر، خلافاً للمعتزلة، أو: لا تبطلوا أعمالكم بأن تقطعوها قبل تمامها. وبها احتج الفقهاء على وجوب إتمام العمل؛ فأوجبوا على من شرع في نافلة إتمامها، وأخذوا عن الآية ضعيف؛ لأن السياق إنما هو في إحباط العمل بالكفر، لقوله قبل: ﴿وسيحبط أعمالهم﴾ ثم قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لا تكونوا كهؤلاء الذين أحبط الله أعمالهم؛ بكفرهم وصددهم عن سبيل الله، ومشاقتهم الرسول، ويؤيده أيضاً: قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم﴾، هذا عام في كل من مات على الكفر، وإن صح نزوله في أهل القليب (١).

﴿فلا تهنوا﴾: لا تضعفوا عن الجهاد ﴿وتدعوا إلى السلم﴾، أي: لا تدعوا الكفار إلى الصلح والمصالحة؛ فإن ذلك إعطاء الدنية - أي: الذلة - في الدين، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار «أن»، في جواب الله؛ أي: لا تهنوا مع

(١) انظر تفسير البغوي (٢٩٠/٧) والقرطبي (٦٢٦٢/٧).

إعطاء السلم، ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ : الأغلبون، ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ بالنصر والمعونة، ومن كان غالباً ومنصوراً والله معه، لا يتصور منه إظهار الذلة والصراعة لعدوه، ﴿ وَلَنْ يَتْرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ : لن يضيعها، من: وثرت الرجل: إذا قتلت له قتيلاً، من ولد أو أخ أو حميم، فأفردته منه، حتى صار وترأ، عبّر عن ترك الإثابة في مقابلة العمل بالوتر، الذي هو إضاعة شيء معتد به من الأنفس والأموال، مع أن الأعمال غير موجبة للثواب على قاعدة أهل السنة، إبرازاً لغاية اللطف، بتصوير الثواب بصورة الحق المستحق، وتنزيل ترك الإثابة منزلة إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها، سبحانه من رب رحيم!

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهْوٌ ﴾ لا ثبات لها، ولا اعتداد بها، فلا تؤثر حياتها الفانية على الحياة الأبدية بالموت في الجهاد الأصغر أو الأكبر، ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْاْ تَقْبَلُواْ يَأْتِكُمْ أَجُورُكُمْ ﴾ أى: ثواب إيمانكم وأعمالكم من الباقيات الصالحات، التي فيها يتنافس المتنافسون، ﴿ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ بحيث يخل أدلؤها بمعايشكم، وإنما سألكم نزرأ يسيراً؛ هو ربع العشر، تؤدونه إلى فقرائكم.

﴿ إِنْ يَسْأَلُكُمْ عَنْهَا ﴾ أى: جميع أموالكم ﴿ فَيُخْفِكُمْ ﴾ أى: يجهدكم بطلب الكل، فالإحفاء والإلحاف: المبالغة في السؤال، وبلوغ الغاية، يقال: أحفاء في المسألة: إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح، وأحفى شارب: استأصله، أى: إن يسألكم جميعها ﴿ تَبْخُلُواْ ﴾ فلا تعطوا شيئاً، ﴿ وَيُخْرِجْ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أى: أحقادكم؛ لأن عند سؤال المال يظهر الصادق من الكاذب، وضمير لا يسألكم، وما بعدها لله أو لرسوله. وضمير يخرج، لله تعالى، ويؤيده القراءة بنون العظمة^(١)، أو البخل؛ لأنه سبب الأضغان.

﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ ﴾ أى: يا هؤلاء، وقيل: (ها): للتببيه، (هؤلاء): موصول بمعنى الذين، وصلته: ﴿ تُدْعَوْنَ ﴾ أى: أنتم الذين تدعون ﴿ لَتُفْقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ هي النفقة في الغزو والزكاة، كأنه قيل: الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر، ﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ ﴾ أى: فممنكم ناس يبخلون به، ﴿ وَمَنْ يَبْخُلْ ﴾ بالصدقة وأداء الفريضة ﴿ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ فإن كلاً من نفع الإنفاق وضرر البخل عائد إليه، وفي حديث الترمذى: «السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار، ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل»^(٢) وفي رواية: «من عالم بخيل، والبخل يتعدى بـ «عن»، و«على»، لتضمنه معنى: الإمساك والتعدي.

(١) وبها قرأ يعقوب الحضرمي، انظر البحر المحيط (٨٥/٨).

(٢) أخرجه الترمذى في (البر والصلة، باب ما جاء في السخاء، ح ١٩٦١) والبيهقى في التفسير (١٠٤/٢ - ١٠٥) والطبراني في الأوسط (ح ٢٣٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال الترمذى: «هذا حديث غريب».

﴿والله الغنى﴾ عن كل ما سواه، ويفتقر إليه كلُّ ما عداه، ﴿وأنتم الفقراء﴾ أى: إنه - تعالى - لا يأمر بذلك لحاجته إليه؛ لأنه الغنى عن الحاجات، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب، ﴿وإن تتولوا﴾ أى: وإن تعرضوا أيها العرب عن طاعته، وطاعة رسوله، والإنفاق فى سبيله ﴿يستبدل قوماً غيركم﴾، يخلف قوماً خيراً منكم وأطوع، ﴿ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ فى الطاعة، بل أطوع، راغبين فيما يقرب إلى الله ورسوله، وهم فارس، وسئل رسول الله ﷺ عن هؤلاء القوم - وكان سلمان إلى جنبه، فضرب على فخذه، فقال: «هذا وقومه، والذي نفسى بيده لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من فارس»^(١).

قلت: صدق الصادق المصدوق، فكم خرج منهم من جهابذة العلماء، وأكابر الأولياء، كالجديد، إمام الصوفية، والغزالي، حبر هذه الأمة، وأضرابهما. وقيل: الملائكة، وقيل: الأنصار، وقيل: كندة، وقيل: الروم، والأول أشهر.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، أرخيفته، وهو الداعى إلى الله على بصيرة العيان، ولا تبطلوا أعمالكم، برجوعكم عن السير، بترك المجاهدة قبل المشاهدة. إن الذين كفروا بوجود خصوصية التربية، وصدوا الناس عنها، ثم ماتوا على ذلك، لن يستر الله مساوئهم، ولا يغيبهم عن شهود نفوسهم التى حجبهم عن الله. فلاتهنوا: لاتضعفوا، أيها المترفهيون، عن مجاهدة نفوسكم، فينقطع سيركم، وذلك بالرجوع إلى الدنيا، ولاتدعوا إلى السلم والمصالحة بينكم وبين نفوسكم، وأنتم الأعلون، قد أشرفتم على الظفر بها، والله معكم؛ لقوله: ﴿والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾^(٢)، ولن ينقصكم شيئاً من أعمالكم، بل يريكم ثمرتها، عاجلاً وآجلاً، ولا يفترنكم عن المجاهدة طول الأمل.

إنما الحياة الدنيا لعب ولهو؛ أى: ساعة من نهار، وإن تؤمنوا بكل ما وعد الله، وتتقوا كل ما يشغل عن الله، يؤتكم أجوركم عاجلاً وآجلاً، ولا يسألكم الداعى إليه جميع أموالكم، إنما يسألكم ما يخف عليكم، تقدموه بين يدي نجواكم، ولو سألكم جميع أموالكم لبخلتم، ويخرج أضغانكم، وهذا فى حق عامة المريدين، وأما الخاصة الأقوياء، فلو سئلوا أرواحهم لبذلوها، واستحقروها فى جنب ما نالوا من الخصوصية، وأما أموالهم فأهون عندهم من أن يبخلوا بشيء منها، ويقال لعامة الطالبين للوصول: «هاأنتم هؤلاء تدعون... الآية».

(١) أخرجه الترمذى فى (التفسير - سورة سيدنا محمد ﷺ ح ٣٢٦٠، ٣٢٦١) وقال: هذا حديث غريب، والحاكم (٤٥٨/٢) «وصححه، وسكت عنه الذهبى». والطبرى فى (٦٦/٢٦ - ٦٧) وعبد الرزاق فى المصنف (٦٦/١١) والبغوى فى التفسير (٢٩٢/٧) وفى شرح السنة (٢٠٠/١٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه وزاد السيوطى فى الدر (٥٥/٦) عزوه لعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، والطبرانى فى الأوسط، (ح ٨٨٣٨) والبيهقى فى الدلائل (٣٣٤/٦).

(٢) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

قال القشيري : والله الغنى لذاته بذاته، ومن غناؤه: تمكنه من تنفيذ مراده، واستغناؤه عما سواه، وأنتم الفقراء إلى الله، في نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، في الابتداء لخلقكم، وفي الوسط ليُربّيكم، وفي الانتهاء يغنيكم عن أنانيّكم، ويبقيكم بهويته، فالله غني عنكم من الأزل إلى الأبد، وأنتم الفقراء محتاجون إليه من الأزل إلى الأبد^(١). هـ. وإن تقولوا عن السير، وتركنا إلى الرخص والشهوات قبل التمكين، يستبدل قوماً غيركم، يكونوا أحزم منكم، وأشد مجاهدة، صادقين في الطلب، ثابتين القدم في آداب العبودية، قد أدركتهم جذبات العناية، وهبت عليهم ريح الهداية، ثم لا يكونوا أمثالكم في التولي والضعف، حتى يصلوا إلى مولاهم. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.



(١) بالمطى.

سُورَةُ الْفَتْحِ

مدنية. وهي تسع وعشرون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ (١)؛ فإنه إشارة بالفتح الذي أشار إليه سبحانه بقوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُسَمِّعَنَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ (٣)

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾، الفتح عبارة عن الظفر بالبلدة عنوة أو صلحاً، بحرب أو بدون، فإنه ما لم يقع الظفر مُنْغَلَقٌ، مأخوذ من: فتح باب الدار. واستاده إلى نون العظمة لإسداد الفعل إلى الله تعالى خلقاً وإيجاداً. قيل: المراد به فتح مكة، وهو المروى عن أنس رضي الله عنه، بشر به ﷺ عند انصرافه من الحديبية. والتعبير عنه بصيغة الماضي على سنن الأخبار الإلهية المحققة الوقوع، للإيدان بتحقيقه، تأكيداً للتبشير، وتصدير الكلام بحرف التحقيق لذلك، وفيه من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر به - وهو الفتح - ما لا يخفى. وقيل: هو فتح الحديبية، وهو الذي عند البخاري عن أنس (٢)، وهو الصحيح عند ابن عطية، وعليه الجمهور. وفيها أخذت البيعة على الجهاد، وهو كان سبب إظهار الإسلام وقشوه، وذلك أن المشركين كانوا ممنوعين من مخالطة أهل الإسلام، للحرب التي كانت بينهم، فلما وقع الصلح اختلط الناس بعضهم مع بعض، وجعل الكفار يرون أنوار الإسلام، ويسمعون القرآن، فأسلم حينئذ بشر كثير قبل فتح مكة.

وقد ورد عنه ﷺ حين بلغه أن رجلاً قال: ما هذا بفتح، لقد صدونا عن البيت، ومنعونا، قال: «بل هو أعظم الفتوح، وقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم

(١) الآية ٣٥ من سورة محمد، ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في (التفسير - سورة الفتح، باب «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا» ح ٤٨٣٤).

مايكرهون»^(١). وعن الشعبي أنه قال: نزلت سورة الفتح بالحديبية، وأصاب رسول الله ﷺ في تلك الغزوة ما لم يصب في غزوة، حيث بُويع بيعة الرضوان، وغُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبلغ الهدى محلّه، وبُشروا بخيبر، وظهرت الروم على فارس، ففرح به المسلمون، وكان في فتح الحديبية آية عظيمة، وهي أنه نزع ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة، فتمضمض رسول الله ﷺ ثم مجّه فيها، فدرّت بالماء، حتى شرب جميع من كان معه^(٢)، وقيل: جاش بالماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد^(٣). وقيل: هو جميع ما فتح له ﷺ، من الإسلام، والدعوة، والنبوة، والحجة، والسيف، ولا فتح أبين منه وأعظم، وهو رأس الفتوح كافة؛ إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا هو شعبة من شعبه، وفرع من فروعه. وقيل: الفتح: بمعنى القضاء، والمعنى: قضينا لك على أهل مكة أن تدخلها من قابل، وأياً ما كان فحذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل، والإيدان بأن مناط التبشير هو نفس الفتح الصادر عنه سبحانه، لا خصوصية المفتوح. قاله أبو السعود.

﴿فتحاً مبيناً﴾؛ ظاهر الأمر، مكشوف الحال، فارقاً بين الحق والباطل. وقوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله﴾ غاية للفتح، من حيث إنه مترتب على سعيه ﷺ في إعلاء كلمة الله، بمكابدة مشاق الحروب، واقتحام موارد الخطوب، أي: جعلنا الفتح على يدك، وبسبب سعيك، ليكون سبباً لغفران الله لك ﴿ما تقدّم من ذنبك وما تأخر﴾ أي: جميع ما فرط منك من ترك الأولى، وما سيقع، وتسميته ذنباً بالنظر إلى منصبه الجليل، وتقدم قريباً تحقيقه^(٤). وقول الجلال^(٥): «اللام للعلّة الغائية فمدخولها مسبب لا سبب»، لا يريد التعليل على حقيقته العقلية، فإنه عليه تعالى محال، وإنما يريد صورة التعليل، الذي هو حكمة الشيء، وفائدته العائدة على خلقه، فضلاً وإحساناً، فالحكم والمصالح غاية لأفعاله تعالى، ومنافع راجعة إلى المخلوقات، وليس شيء منها غرضاً وعلة غائية لفعله، بحيث يكون سبباً لإقدامه على الفعل، وعلة غائية للفعل؛ لغناه تعالى، وكماله في ذاته عن الاستكمال

(١) ذكره السيوطي مطبوعاً في الدر (٥٨/٦) وعزاه للبيهقي.

(٢) أخرج البخاري في (المغازي، باب غزوة الحديبية ح ٤١٥٠) عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان، يوم الحديبية، كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأتانا، فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتروصاً، ثم مضمض ودعا، ثم صبّه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ماثلتنا نحن وركابنا.

وقوله ﷺ: «أصدرتنا، أي: رجعتنا، يعنى: أنهم رجعوا عنها وقد روي.

(٣) على هامش النسخة الأم ما يلي: قلت: هذه القصة تكررت منه ﷺ في عدة مرات، وفي مواطن متعددة، فلا خصوصية للحديبية بذلك. هـ.

(٤) عند الآية ١٩ من سورة محمد، ﷺ.

(٥) أي: جلال الدين المحلي في تفسير الجلالين (٥١١). وقد فسر المحلي من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس.

بفعل من الأفعال، وماورد في الآيات والأحاديث مما يؤهم الغرض والعلة فإنه يحمل على الغايات المترتبة والحكمة، فاحتفظ بذلك. قاله صاحب الحاشية الفاسية. واللائق أن المعنى: إنا فتحنا لك وقضينا لك بأمر عاقبته أن جمع الله لك بين سعادة الدنيا والآخرة، بأن غفر لك، وأتم نعمته عليك وهداك، ونصرك. فاللام لام العاقبة لا لام العلة؛ فإن إفضال الله على رسوله لا يعطى ولا يوازي بعمله. هـ.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين، وضم الملك إلى النبوة، وغيرها مما أفاض عليه من النعم الدينية والدنيوية، ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أى: يثبتك على الطريق القويم، والدين المستقيم، والاستقامة وإن كانت حاصلة قبل الفتح، لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق، واستقامة مناهجه، مالم يكن حاصلًا قبل. ﴿وَيَنْصُرْكَ اللَّهُ﴾ أى: يظهر دينك، ويعزك، فإظهار الاسم الجليل لكونه خاتمة الغايات، وإظهار كمال العناية بشأن النصر، كما يعرب عنه تأكيد بقوله: ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أى: نصرًا فيه عزة ومنعة، أو: قويا منيعًا، على وصف المصدر بوصف صاحبه، مجازًا، للمبالغة، أو: عزيزًا صاحبه.

الإشارة: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، بأن كشفنا لك عن أسرار ذاتنا، وأنوار صفاتنا، وجمال أفعالنا، فشاهدتنا بنا، ليغفر لك الله، أى: ليغيبك عن وجودك فى شعور محبوبك، ويستتر عنك حسك ورسمك، حتى تكون بنا فى كل شىء، قديماً وحديثاً، قال القشيري: وذنب الرجود هو الشرك فى الرجود، وغفره: ستره بنور الوحدة، لمحور ظلمة الاثنية هـ. ويتم نعمته عليك بالجمع بين شهود الربوبية، والقيام بأداب العبودية، ودلالة الخلق على شهود قيام الديمومية، ويهديك طريقاً مستقيماً توصل إلى حضرتنا، فتسلكها وتبينها لمن يكون على قدمك، وينصرك الله نصراً عزيزاً، بالتمكن فى شهود ذاتنا، والعكوف فى حضرتنا، محفوراً بالنصرة والعناية، محمولاً فى محفة الرعاية.

ولما نزل قوله: ﴿ليغفر لك الله﴾ قال المؤمنون: هذا لك يا رسول الله، فمالنا؟ فأنزل الله^(١):

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا

(١) أخرجه البخارى فى (المغازى، باب غزوة العديبية ح ٤١٧٢) من حديث أنس، وفيه: «فنزلت عليه» «ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار... الآية».

عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ
بِاللَّهِ ظَنُّكَ السَّوْءُ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿هو الذي أنزل السكينة﴾ أى: السكون والطمأنينة، فعلة، من: السكون، كالبهية من البهتان، ﴿فى قلوب المؤمنين﴾ حتى لم يتضعضوا من الشروط التى عقدها ﷺ مع المشركين، من رد من أسلم منهم، وعدم ردهم من رجع إليهم، ومن دخول مكة قابلاً بلا سلاح، وغير ذلك مما فعله ﷺ معهم بالروحى، وما صدر عن عمر رضي الله عنه فلشدة قوته وصلابته، وما زال يعتق ويفعل أموراً كفارة لذلك. وقيل: (السكينة): الصبر على ما أمر به الله من الشرائع والثقة بوعده الله، والتعظيم لأمر الله، ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ أى: يقيناً إلى يقينهم، أو: إيماناً بالشرائع مع إيمانهم بالعقائد.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: بعث الله نبيه بشهادة «ألا إله إلا الله، فلما صدقوه فيها، زادهم الصلاة، فلما صدقوه، زادهم الزكاة، فلما صدقوه، زادهم الحج، فلما صدقوا زادهم الجهاد، ثم أكمل لهم دينهم^(١)، فذلك قوله: ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، ولله جنود السموات والأرض﴾ يدبرها كما يريد، يسلط بعضها على بعض تارة، ويوقع الصلح بينهما أخرى، حسبما تقتضيه مشيئته المبينة على الحكم والمصالح، ﴿وكان الله عليماً﴾؛ مبالغاً فى العلم بجميع الأمور، ﴿حكيماً﴾ فى تدبيره وتقديره.

﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات﴾، اللام متعلق بما يدل عليه ما ذكر من قوله: ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ من معنى التصرف، أى: دبر ما دبر من تسليط المؤمنين، ليعرفوا نعمة الله ويشكروها، فيدخلهم ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ أى: يغطي عنهم مساوئهم، فلا يظهرها لهم ولا لغيرهم. وتقديم الإدخال على التكفير، مع أن الترتيب فى الوجود على العكس؛ للمسارعة إلى بيان ما هو المطلوب الأعلى. ﴿وكان ذلك﴾ أى: ما ذكر من الإدخال والتكفير ﴿عند الله فوزاً عظيماً﴾ لا يقادر قدره؛ لأنه منتهى

(١) أخرجه الطبرى (٧٢/٢٦) وزاد السيوطى فى الدر المنثور (٦٢/٦) عزوه لابن المنذر، والطبرانى، وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل.

هذا، وعلى هامش النسخة الأم ما يلى: قلت: هذا يقتضى أن الحج فرض قبل الجهاد، وليس كذلك، بل الجهاد فرض قبل الزكاة، فيدبى أن لا يكون هذا صحيحاً. هـ.

ما امتدت إليه أعناق الهمم من جلب نفع ودفع ضرر. وعند الله: حال من «فرزاً عظيماً، لأنه صفتة في الأصل، فلما قُدِّم عليه صار حالاً، أى: كائنًا عند الله في علمه وقضائه. والجملة: اعتراض مُقرر لما قبله.

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ لما أغاظهم من ذلك وكرهوه، وهو عطف على «يدخل»، وفي تقديم المنافقين على المشركين ما لا يخفى من الدلالة على أنهم أحق منهم بالعذاب. ﴿الظَّالِمِينَ﴾ بالله ظنُّ السُّوءِ ﴿أى: ظنُّ الأمرِ السُّوءِ، وهو ألا ينصر الله رسوله والمؤمنين، ولا يرجعهم إلى مكة، فالسُّوءُ عبارة عن رداءة الشيء وفساده، يقال: فَعَلَ سَوْءً، أى: مسخوط فاسد. ﴿عليهم دائرةُ السُّوءِ﴾ أى: ما يظفونه ويتريصونه بالمؤمنين، وهو دائر عليهم وحائق بهم. وفيه لغتان: فتح السين وضمها، كالكره والكُره، والضعف والضعف، غير أن المفتوح غلب عليه أن يُضاف إليه ما يُراد ذمُّه من كل شيء، وأما السُّوءُ فجار مجرى الشيء الذى هو نقيض الخير، أى: الدائرة التى يذمونها ويسخطونها دائرة عليهم، ولاحقة بهم، ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ لهم، وهو عطف لما استوجبه في الآخرة على ما استوجبه في الدنيا، وعطف «ولعنهم» وما بعده بالوار، مع أن حقهما الفاء المفيدة للسببية؛ إيماناً باستقلال كل واحد منهما بالوعيد، وأصالته، من غير اعتبار استتباع بعضها لبعض.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، إعادة لما سبق، وفائدتها: التنبيه على أن الله جنود الرحمة وجنود العذاب، كما يدبى عنه التعرض لوصف العزة في قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ أى: غالبًا، فلا يردُّ بأسه ﴿حَكِيمًا﴾ فلا يعترض صنعه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: هو الذى أنزل السكينة في قلوب المتوجهين، حتى سكنوا لصدمات تجلى الجلال، وأنوار الجمال، وسكنوا تحت مجارى الأقدار، كيفما برزت، بمرارة أو حلاوة. قال القشيري: والسكينة: ما يسكن إليه القلب من أنوار الإيمان والإيقان، أو العرفان بمشاهدة العيان، بل الاستغراق في بحر العين بلا أين. هـ. (١) ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، فيترقوا من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان، ومن مقام الإيمان إلى مقام الإحسان، أو من علم اليقين إلى عين اليقين، ومن عين اليقين إلى حق اليقين، أو من المراقبة إلى المشاهدة، أو من رؤية الأسباب إلى مسبب الأسباب.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهى الجنود التى يمد الله بها الروح فى محاربتها للنفس، حتى تغلبها وتستولى عليها، وهى اليقين، والعلم، والذكر، والفكر، والواردات الإلهية، التى تأتى من حضرة القهار، فتدمغ

(١) لم أقف على النص فى مخطاته فى تفسير القشيري.

كل ما تُصادمه من الأغيار والأكدار، وكان الله عليمًا بمن يستحق هذه الواردات، حكيمًا في ترتيبها وتدبيرها، ليدخل من تأيد بها جنات المعارف، تجرى من تحتها أنهار العلوم والحكم، ويغطي عنهم مسائرهم حتى يصلوا إليه، بما منه إليهم، لا بما منهم إليه وهذا هو الفوز العظيم، يفوز صاحبه بالتعيم المقيم، في جوار الكريم. ويعذب أهل النفاق المنتقدين على أولياء الله، المتوجهين إليه، الظانين بالله ظن السوء، وهو أن خصوصية التربية انقطعت. والله جنود السموات والأرض، أي: جنود الحجاب، وهو جند النفس، من الهوى والشيطان، والدنيا والناس، يسلطها على من يشاء من عباده، إن يبقى في ظلمة الحجاب، والله غالب على أمره.

ثم شهد لرسوله بالرسالة، بعد بشارته بالفتح والعصمة، فقال:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ ٨ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۝
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُقَرِّوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ ٩ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۖ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۚ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا
عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ ١٠ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا ﴾ تشهد على أمتك يوم القيامة، كقوله: ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ
عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١) وهو حال مقدرة، ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ لأهل الطاعة بالجنة، ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ لأهل المعصية بالنار،
﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾، والخطاب للرسول والأمة، ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾؛ تقووه بنصر دينه، ﴿ وَتُقَرِّوهُ ﴾ أي:
تعظموه بتعظيم رسوله وسائر حرمانه، ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾؛ تنزهوه، أو تصلوا له، من: السبحة، ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾،
غدوة وعشية، قيل: غدوة: صلاة الفجر، وعشية: الظهر والعصر والمغرب والعشاء. والضمان لله تعالى. ومن فرق؛
فجعل الأولين للنبي ﷺ والأخير لله تعالى، فقد أبعد. وقرأ المكي والبصري بالغيب في الأربعة، والضمان للناس،
وقرأ ابن السميع (٢): «وتعزروه» بزائين (٣)، أي: تنصروه وتعزروه دينه.

(١) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

(٢) في الأصول: «السميع».

(٣) وهي قراءة شاذة. انظر المحتسب ٢/ ٢٧٥.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ على الجهاد، بيعة الرضوان ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ لأنه خليفة عنه، فعقد البيعة معه ﷺ كعقدها مع الله من غير تفاوت بينهما، كقوله: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(١) ثم أكد ذلك بقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعنى: أن يد رسول الله ﷺ الذى تعلو أيدي المبايعين هي يد الله، من باب مبالغة التشبيه، ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ نقض البيعة، ولم يف بها ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه، قال جابر رضي الله عنه: «بأيضا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت، وعلى ألا نفر، فما نكث أحد منا البيعة، إلا جد بن قيس المنافق، اختبأ تحت إبط بعيره، ولم يسر مع القوم»^(٢). ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾، يقال: وفيت بالعهد وأوفيت. قرأ حفص بضم الهاء من «عليه، توسلاً لتفخيم لام الجلالة، وقيل: هو الأصل، وإنما كسر لمنااسبة الياء. أى: ومن وفى بعهد بالبيعة ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: الجنة وما فيها.

الإشارة: لكل جيل من الناس يبعث الله من يذكّرهم، ويدعوهم إلى الله، بمعرفته، أو بإقامة دينه، ليدوم الإيمان بالله ورسوله، ويحصل النصر والتعظيم للدين إلى يوم الدين، ولولا هؤلاء الخلفاء لضاع الدين. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ الآية، قال الورتجبي: ثم صرح بأنه عليه السلام مرآة لظهور ذاته وصفاته، وهو مقام الاتصاف بأنوار الذات والصفات في نور الفعل، فصار هو هو، إذ غاب الفعل في الصفة، وغابت الصفة في الذات. فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ...﴾ الآية. وإلى ذلك يشير الحلاج وغيره. وقال في القوت: هذه أمدح آية في كتاب الله عز وجل، وأبلغ فضيلة فيه لرسول الله ﷺ؛ لأنه جعله في اللفظ بدلاً عنه، وفى الحكم مقامه، ولم يدخل فيه كاف التشبيه، فيقول: كأنما، ولا لام الملك، فيقول: لله، وليس هذا من الربوبية للخلق سوى رسول الله ﷺ. هـ.

وقال الحسن بن منصور الحلاج: لم يظهر الحق تعالى مقام الجمع على أحد بالتصريح إلا على أخص نسبه وأشرفه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾. هـ.

قال القشيري. وفى هذه الآية تصريح بعين الجمع، كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾^(٣) وقال فى مختصره: يشير إلى كمال فئائه وجوده عليه السلام فى الله ويقائه بالله. هـ. فالآية تشير إلى مقام الجمع، المنبه عليه فى الحديث: «فإذا أحببته كنت سمعه، وبصره، ويده»^(٤) وسائر قواه، الذى هو سر الخلافة والبقاء بالله، وهذا الأمر حاصل

(١) من الآية ٨٠ من سورة النساء.

(٢) أخرجه مسلم فى (الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، رقم ١٨٥٦، ح ٦٨، ٦٩).

(٣) من الآية ١٧ من سورة الأنفال.

(٤) سبق تخريج الحديث.

لخلفائه ﷺ من العارفين بالله، أهل الفداء والبقاء، وهم أهل التربية النبوية في كل زمان، فمن بايعهم فقد بايع الله، ومن نظر إليهم فقد نظر إلى الله، فمن نكث العهد بعد عقده معهم فإنما ينكثه على نفسه، فتدبس شجرة إرادته، ويطمس نور بصيرته، فيرجع إلى مقام عامة أهل اليمين ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً شهود ذاته المقدسة على الدوام، والظفر بمقام المقربين، ثبتنا الله على منهاجه القويم، من غير انتكاص ولا رجوع، آمين.

ثم ذكر من تخلف عن البيعة، فقال:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾
 يَقُولُونَ يَا لَسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ
 ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ
 وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ
 قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾
 وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ
 غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ﴾ يا محمد إذا رجعت من الحديبية ﴿ الْمُخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾
 وهم الذين تخلفوا عن الحديبية، وهم أعراب غفار، ومزينة، وجهينة، وأسلم، وأشجع، والدليل، وذلك أنه ﷺ حين
 أراد المسير إلى مكة، عام الحديبية، معتمراً، استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي، ليخرجوا معه،
 حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدروه عن البيت، وأحرم ﷺ وساق معه الهدى؛ ليُعلم أنه لا يريد
 حرباً، فتناقل كثير من الأعراب، وقالوا: نذهب إلى قوم غزوه في داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه، فنقاتلهم،
 وظنوا أنه لا ينقلب إلى المدينة، فأرعى الله تعالى إليه ما قالوا^(١)، حيث تعللوا وقالوا: ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾

(١) انظر تفسير البغوي (٧/٣٠٠).

ولم يكن تخلفنا عنك اختياراً، بل عن اضطرار، ﴿ فاستغفر لنا ﴾ ، فأكذبهم الله بقوله: ﴿ يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ ، فليس تخلفهم لأجل ذلك، وإنما تخلفوا شكاً ونفاقاً، وطلبهم الاستغفار أيضاً ليس بصادقٍ عن حقيقة.

﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ فمن يملك لكم من الله شيئاً ﴾ ؛ فمن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ﴿ إن أراد بكم ضرراً ﴾ أى: ما يضركم من هلاك الأهل والمال وضياعها، حتى تخلفتم عن الخروج لحفظها، ﴿ أو أراد بكم نفعاً ﴾ أى: من يقدر على ضرركم إن أراد بكم نزول ما ينفعكم، من حفظ أموالكم وأهلكم، فأى حاجة إلى التخلف لأجل القيام بحفظهما والأمر كله بيد الله؟ ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ ، إضراب عما قالوه، وبيان لكذبه بعد بيان فساده على تقدير صدقه، أى: ليس الأمر كما يقولون، بل كان الله خبيراً بجميع الأعمال، التى من جملتها تخلفكم وما هو سببه، فلا ينفعكم الكذب مع علم الله بجميع أسراركم.

﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ﴾ بأن يستأصلهم المشركون بالموت، فخشيتهم إن كنتم معهم أن يصيبكم ذلك، فتخلفتم لأجل ذلك، لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة، ﴿ وزين ذلك في قلوبكم ﴾ زينه الشيطان وقبلتموه، واشتغلتم بشأن أنفسكم، غير مباليين بهم، ﴿ وظننتم ظن السوء ﴾ ، والمراد به الظن الأول، والتكرير لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء، أو ما يعمه وغيره من الظنون الفاسدة، كعلو الكفر، وظهور الفساد، وعدم صحة رسالته ﷺ، فإن الجازم بصحتها لا يحول حول فكره هذه الظنون الباطلة، ﴿ وكنتم قوماً بوراً ﴾ ؛ هالكين عند الله، مستوجبين لسخطه وعقابه، جمع: بائر، كعائذ وعود، من بار الشيء: هلك وفسد، أى: كنتم قوماً فاسدين فى أنفسكم وقلوبكم ونياتكم.

﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعتدنا ﴾ ؛ أعددنا ﴿ للكافرين ﴾ أى: لهم، فأقيم الظاهر مقام المضمّر للإيدان بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر مستوجب السعير. وتكرّر ﴿ سعيراً ﴾ لأنها نار مخصوصة، كما تكرّر ﴿ ناراً تَلْظَى ﴾ (١). وهذا كلام وارد من قبله تعالى، غير داخل فى الكلام المتقدم، مقرر لبوارهم، ومبين لكيفيته، أى: ومن لم يؤمن كهؤلاء المتخلفين، فإننا أعتدنا له سعيراً يحترق بها.

﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ يدبره تدبير قادر حكيم، ويتصرف فيهما وفيما بينهما كيف يشاء، ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ بقدرته وحكمته، من غير دخل لأحد فى شيء، ومن حكمته: مغفرته

(١) الآية ١٤ من سورة الليل.

للمؤمنين وتعذيبه للكافرين. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يشاء، أى: لمن تقتضى الحكمة مغفرته ممن يؤمن به ويرسوله، وأما من عداه من الكفر فبمعزل من ذلك قطعاً.

الإشارة: هذه الآية تجر ذيلها على من تخلف من المريدين عن زيارة المشايخ من غير عذر بين، واعتذر بأعذار كاذبة، يقول بلسانه ما ليس فى قلبه، وما زالت الأشياء تقول: كل شيء يسمح فيه إلا القدوم^(١)؛ إذ به تحصل التربية والترقية، وتقول أيضاً: من جلس عنا لعذر صحيح عذرناه، وربما يصل إليه المدد فى موضعه، ومن جلس لغير عذر لا نسامح له، بل يحرم من زيادة الإمداد، ومن الترقى فى المقامات والأسرار، وما قطع الناس عن الله إلا أموالهم وأهلهم اشتغلوا بهم، وحرّموا السير والوصول، فكل مريد شغله عن زيارة شيخه أهله وماله لا يأتى منه شيء. قل: فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً، بأن قطعكم عنه بعله الأهل والمال، أو: أراد بكم نفعاً، بأن وصلكم إليه، وغيب عنكم أهلكم ومالككم، بل كان الله بما تعملون خبيراً، يعلم من تحلف لعذر صحيح، أو لعذر باطل. وبالله التوفيق.

ثم قال:

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُحْسِنُونَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَتِّلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون آنفاً ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ﴾ أى: مغنم خيبر ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ حسبما وعدكم الله بها، وخصكم بها، عوض ما فاتكم من مغنم مكة. (إذا): ظرف لما قبله، لا شرط لما بعده، أى: سيقولون عند انطلاقكم إلى مغنم خيبر: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر، ونشهد معكم قتال أهلها ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ الذى وعد به أهل الحديبية بأن يخصصهم بغنائم خيبر ولا يشاركهم فيها أحد، فأراد المخلفون أن يشاركهم ويبدلوا وعد الله. وكانت رقة الحديبية فى ذى الحجة سنة ست، فلما رجع إلى

(١) أى: القدوم على مشايخ التربية وزيارتهم.

المدينة أقام بها بقية ذى الحجة، ثم غزا في أول السابعة خيبر، ففتحها، وغنم أموالاً كثيرة، فخصصها بأهل الحديبية، بأمره تعالى، ﴿قُلْ لَهُمْ إِقْطَاعُ لَهُمْ﴾: ﴿لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ إلى خيبر، وهو نفى بمعنى النهي، للمبالغة، أى: لا تتبعونا، أو: نفى محض، إخبار من الله تعالى بعدم اتباعهم وألا يبدل القول لديه.

﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبل انصرافهم إلى الغنيمة، وأن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية فقط، ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهي: ﴿بَلْ تَحْسَدُونَا﴾ أى: ليس ذلك النهي من عند الله، بل تحسدوننا أن نشارككم فى الغنائم، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ كلام الله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ شيئاً قليلاً، يعنى: مجرد اللفظ، أى: لا يفهمون إلا فهماً قليلاً؛ وهو فطنتهم لأمر الدنيا دون الدين، وهو رد لقولهم الباطل، ووصف لهم بسوء الفهم والجهل المفرط. والفرق بين الإضرابين: أن الأول رد أن يكون حكم الله ألا يتبعوهم وإثبات الحسد، والثانى إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أعظم منه، وهو الجهل وقلة الفقه.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ وهم الذين تخلفوا عن الحديبية: ﴿سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعنى: بلى حليفة، قوم مسلمة الكذاب، وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر رضي الله عنه، لأن المشركين وأهل الردة هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف. واستدل بالآية على حقيقة خلافة أبى بكر، وأخذها من القرآن بقوله: ﴿سُدُّعُونَ﴾ فكان الداعى لهؤلاء الأعراب إلى قتال بلى حليفة، وكانوا أولى بأس شديد، هو أبو بكر، بلا خلاف، قاتلوهم ليسلموا لا ليعطوا الجزية بأمر الصديق. وقيل: هم فارس، والداعى لقتالهم «عمر»، فذلت على صحة إمامته، وهو يدل على صحة إمامة أبى بكر. ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ﴾ أى: يكون أحد الأمرين، إما المقاتلة أو الإسلام، ومعنى «يسلمون» على هذا التأويل: يفتادون؛ لأن فارس مجوس، تقبل منهم الجزية، ﴿فَإِنْ تَطِيعُوا﴾ من دعاكم إلى قتالهم ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمة فى الدنيا، والجنة فى الآخرة، ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ عن الدعة، كما توليتم من قبل فى الحديبية، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعف جرمكم. وقد تضمنت الآية إيجاب طاعة الأمراء بالوعد بالثواب عليها، والوعيد بالعقاب على التولى، وقد تقدم فى النساء^(١).

الإشارة: سيقول المخلفون عن السير بترك مجاهدة النفوس، التى بها يتحقق سير السائرين: ذرونا نتبعكم فى السير إلى الله من غير مجاهدة ولا تجريد، يريدون أن يبدلوا كلام الله، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(٢)، فخص الهداية إلى الوصول بالمجاهدة، لا بالبقاء مع حظوظ النفوس، قل: لن تتبعونا فى

(١) راجع تفسير الآية ٥٩ من سورة النساء، (١/٥١٩).

(٢) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

السير، ولو فعلتم ما فعلتم بلا مجاهدة، كذلك حكم الحكيم العليم، فإن قالوا: حسدتمونا، حيث لم تسيرونا على ما نحن عليه، فقد دل ذلك على جهلهم، وعدم فهمهم، قل للمخلفين على السير، بالبقاء مع حظوظهم: سددعون إلى مجاهدة قوم أولى بأس شديد، وهو النفس، بتحميلها ما يثقل عليها، كالذل، والفقر، والهوى بمخالفته، والدنيا بالزهد فيها ورميها وراء الظهر، والناس بالفرار منهم جملة، إلا من يدل على الله، تقاتلوهم، أو يسلمون، بأن ينفادوا لكم، ويصيروا طوع أيديكم، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً، وهو لذة الشهوة، ورؤية الملك الودود، عاجلاً وآجلاً، وإن تتولوا كما توليتم في زمان البطالة، وبقيتم مع هوى نفوسكم، يعذبكم عذاباً أليماً، بغم الحجاب وسوء العقاب.

قال القشيري: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ دلت الآية على أنه يجوز أن تكون للعبد بداية غير مرضية، ثم تتغير للصلاح، وأنشدوا:

إذا فسَدَ الإنسانُ بعد صلاحه فرَجَّ له بعد الفساد صلاحاً^(١)

قلت: وجه الاستدلال: أن طاعتهم كانت بعد التخلف والعصيان، فقبلت منهم.

ثم استثنى أهل الأعدار الصحيحة، فقال:

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٧﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ في التخلف عن الغزو ﴿ولا على الأعرج حرج﴾ ولا على المريض ﴿الذي لا يقدر على الحرب﴾ ﴿حرج﴾ لأن الجهاد منوط بالاستطاعة ونفى الحرج، وهؤلاء أعدارهم ظاهرة صحيحة، فلا حرج عليهم في التخلف. وفي التصريح بنفى الحرج مع كل طائفة مزيد اعتناء بأمرهم، وتوسيع لدائرة الرخصة. ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ فيما ذكر من الأوامر والنواهي، ﴿يُدْخِلْهُ﴾^(٢) جنات تجري من تحتها الأنهار. ومن يتولَّ ﴿يعذبه عذاباً أليماً﴾ لا يقدر قدره. وقرأ نافع والشامي: بنون العظمة، والباقي بياء الغيبة.

(١) في القشيري [فرج له عود الصلاح لعلة].

(٢) أثبت المفسر - رحمه الله - قراءة «يدخله» و«يعذبه» بنون العظمة، وهي قراءة نافع، وابن عامر، وأبي جعفر، وقرأ الباقر «يدخله» و«يعذبه» بالياء. انظر الإتحاف (٤٨٢/٢).

الإشارة: أصحاب هذه الأعذار إن صحبوا الرجال، وخطوا رؤوسهم لهم، وبذلوا نفوسهم وقلوسهم، سقط عنهم السفر إلى صحبة أشياخهم، ووصلت الواردات والأمداد إليهم في أماكنهم، ونالوا مراتب الرجال، حيث حبسهم العذر من العمى والعرج والمرض المزمن، والله يرزق العبد على قدر نيته وهمة.

ثم ذكر شأن بيعة الرضوان، فقال:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهم الذين ذكر شأن مبايعتهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ...﴾ الآية، وبهذه الآية سميت بيعة الرضوان، وإذا، منصوب بـ «رضي»، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة، و(تحت الشجرة): متعلق به، أو: بمحذوف، حال من مفعوله، أي: رضي عنهم وقت مبايعتهم لك ﴿تحت الشجرة﴾ أو: حاصلًا تحتها.

روى: أنه ﷺ، لما نزل الحديبية، بعث خراش بن أمية الخزاعي، رسولاً إلى أهل مكة، فهموا به، وأنزلوه عن بعيره، فمنعته الأحابيش، فلما رجع دعا بعمر لبيعته، فقال: يا رسول الله إنني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بنى عدى أحد يمنعني، ولكن عثمان أعز بمكة مني، فبعث عثمان إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه ﷺ جاء زائراً إلى البيت، معظماً لحرمته، ولم يرد حرباً، ففرقوه، وقالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله ﷺ، فاحتبس عندهم، فأرجف بأنهم قتلوه، فقال ﷺ: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا الناس إلى البيعة، فبايعوه تحت الشجرة - وكانت سمره^(١) وقيل: سدره - على أن يقاتلوا قريشاً، ولا يفروا،^(٢) وأول من بايع «أبو سنان الأسدي»، واسمه: وهب بن عبدالله بن محسن، ابن

(١) السمره: واحده السمر، كرجل: شجرة الطلح. انظر النهاية (سمر ٢/٣٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في (الجهاد والسير باب البيعة في الحرب أن لا يفروا ح ٢٩٥٨) عن عبدالله بن عمر رضى الله عنه، وأخرجه مسلم في (الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام للجيش عند إرادة القتال ح ١٨٥٦) من حديث جابر بن عبدالله رضى الله عنه.

أخى عكاشة بن محصن. وقيل: بايعوه على الموت عنده^(١)، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم خير أهل الأرض»،^(٢) وقال أيضاً: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»^(٣). وكانوا ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين، وقيل: ألفاً وأربعمائة. والحديبية بتخفيف الياء، قاله في المصباح، وهي على عشرة أميال من مكة.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص، وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه. وقال القشيري: عَلِمَ ما في قلوبهم من الاضطراب والتشكك. وذلك أنه ﷺ رأى في منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين، فبشّر أصحابه، فلما صدوا خامر قلوبهم شك^(٤)، ﴿فَأَنْزَلَ﴾ الله ﴿السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: اليقين والطمأنينة، فذهب عنهم. ثم قال: وفي الآية دليل على أنه قد يخطر ببال الإنسان خواطر مشككة، وفي الرّيب موقعة، ثم لا عبرة، فإن الله تعالى إذا أراد بعبده خيراً ألزم التوحيد قلبه، وقارن التحقيق سرّه، فلا يضره كيد الشيطان. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا...﴾ الآية^(٥).

﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الطمأنينة والأمن، وسكن النفس، بالربط على قلوبهم، ﴿وَأَثَابَهُمْ﴾ أي: جازاهم ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ وهو فتح خبير عقب انصرافهم من الحديبية كما تقدم. ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وهي مغنم خبير، وكانت أرضاً ذات عقار وأموال، فقسمها بينهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً﴾ متعباً فلا يغالب، ﴿حَكِماً﴾ فيما يحكم به فلا يعارض.

(١) أخرجه البخاري في (المغازي، باب غزوة الحديبية ح ٤١٦٩) ومسلم في (الإمارة باب البيعة في الحرب أن لا يقرأ ح ١٨٦٠) عن سلمة بن الأكوع.

وقد بين العلماء أنه لا تنافي بين من قال: إنهم بايعوا النبي ﷺ يومئذ على الموت، وبين من قال: إنهم بايعوه على عدم الفرار. قال العافظ ابن حجر في الفتح (٥١٥/٧): فحاصل الجمع أن من أطلق أن البيعة كانت على الموت أراد لازمها، لأنه إذا بايع أنه لا يقرّ لزوم من ذلك أن يثبت، والذي يثبت إما أن يغلب وإما أن يؤسر، والذي يؤسر إما أن ينجو وإما أن يموت، ولما كان الموت لا يؤمن في مثل ذلك أطلقه الراوي. وحاصله: أن أحدهما حكى صورة البيعة، والآخر حكى ما تكرر إليه، وجمع الترمذي بأن بعضاً بايع على الموت، وبعضاً بايع على أن لا يقرّه.

(٢) أخرجه البخاري في (المغازي، باب غزوة الحديبية، ح ٤١٥٤) ومسلم في (الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عدد إرادة القتال، رقم ١٨٥٦، ح ٧١) من حديث جابر عبد الله رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/٣٥٠). وأبو داود في (السنن، باب في الخلفاء ح ٤٦٥٣) والترمذي في (المعاني، باب ما جاء في فضل من بايع تحت الشجرة ح ٣٨٦٠) وقال: حديث حسن صحيح.

وأخرج مسلم في (فضائل الصحابة باب من فضائل أصحاب الشجرة ح ٢٤٩٦) من حديث جابر، عن أم مبشر، أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار إن شاء الله - من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوه تحتها».

(٤) في القشيري: شيء.

(٥) الآية ٢٠١ من سورة الأعراف.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هو ما فتح على المؤمنين، وغنموه مع النبي ﷺ وبعده إلى يوم القيامة. والالتفات إلى الخطاب لتشريفهم في مقام الامتنان. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ المغانم، يعنى مغانم خيبر، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أى: أيدى أهل خيبر وحلفاءهم من أسد وغطفان حين جاءوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب فانصرفوا، وقيل: أيدى أهل مكة بالصلح، ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفة ﴿آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعبرة يعرفون أنهم من الله بمكان، وأنه ضامن لنصرتهم والفتح عليهم، أو: لتكون آية يعرفون بها صدق الرسول ﷺ من وعده إياهم عند رجوعه من الحديبية بما ذكر من المغانم، ودخول مكة، ودخول المسجد الحرام آمنين. واللام إما متعلقة بمحذوف مؤخر، أى: وليكون آية لهم فعل ما فعل من التعجيل والكف، وإما يتعلق بعة أخرى محذوفة من أحد الفعلين، أى: فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم لتغنموها وتكون.... الخ، ﴿ويهديكم صراطاً مستقيماً﴾ أى: يزيدكم بصيرة وقيدا وثقة بوعد الله حتى تثقروا في أموركم كلها بوعد الله تعالى.

قال الثعلبي، ولما فتح النبي ﷺ حصون خيبر سمع أهل فدك ما صنع - ﷺ - بأهل خيبر، فأرسلوا له يسألونه أن يسيرهم ويحقق دماءهم، ويخلوا له الأموال، ففعل، ثم صالح أهل خيبر، على أن يعملوا في أموالهم على النصف، على أنه إن شاء أجلاهم متى شاء^(١)، ففعلوا، فكانت خيبر فينا للمسلمين، وكانت فدك خالصة له ﷺ، إذ لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، ولما اطمأن ﷺ بعد فتح خيبر أهدت له زينب الحارث اليهودية شاة مصلية مسمومة، أكلت في ذراعها السم، فأخذ ﷺ الذراع، فأكل منه، ثم كلمه، فأمسك، وأكل معه بشر بن البراء بن معرور، فمات من ساعته، وسلم ﷺ حتى قام عليه بعد سنتين، فمات به، فجمع له بين الشهادة والنبوة^(٢).

ثم قال تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ أى: وعجل لكم مغانم أخرى، وهى مغانم هوازن في غزوة حنين. ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة. ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾؛ قدر عليها واستولى، وأظهركم عليها، وهى صفة أخرى له أخرى، مفيدة لسهولة بأسها بالنسبة إلى قدرته تعالى، بعد بيان صعوبة مثالها بالنظر إلى حذرهم. ويجوز فى «أخرى» النصب بفعل مضمر، يفسره «قد أحاط الله بها»، أى: وقضى الله أخرى، ولا ريب فى أن الإخبار بقضاء إياها بعد اندراجها فى جملة الغنائم الموعودة بقوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ فيه مزيد فائدة، وإنما الفائدة فى بيان تعجيلها وتأخير هذه.

(١) حديث مصالحة النبي ﷺ لأهل خيبر، أخرجه البخارى فى (فرض الخمس، باب ما كان للنبي، ﷺ، يعطى المؤلفه قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه ح ٣١٥٢) ومسلم فى (المساقاة، باب المساقاة والمعاملة بجزء من اللز والزرع، ح ١٥٥١) عن ابن عمر رضى الله عنهما.
(٢) انظر سيرة ابن هشام (٣٣٧/٢ - ٣٣٨) وتفسير البيهقي (٣١١/٧). وحديث أكلة خيبر أخرجه البخارى فى (الهبة، باب قبول الهدية من المشركين، ح ٢٦١٧) ومسلم فى (السلام، باب السم، ح ٢١٩٠) عن أنس رضى الله عنه.

وقال ابن عباس والحسن ومقاتل: «وأخرى لم تقدروا عليها» هي فارس والروم. وقال مجاهد: ما فتحوها حتى اليوم^(١). هـ. قلت: بل إلى يوم القيامة وهذا أظهر الأقوال. أي: لم تقدروا على أخذها الآن وستأخذونها، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾؛ لأن قدرته تعالى عامة التعلق، لا تختص بشيء دون شيء.

قال ابن عرفة: مذهبنا أن المستحيل لا يصدق عليه شيء، فيبقى النظر: هل يطلق على الواجب شيء، لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾^(٢) أم لا يطلق عليه شيء؟ فإن قلنا: يصلح الإطلاق وجب التخصيص في الآية، فيكون عاماً مخصوصاً، وإن قلنا بعدم صحته، فيبقى النظر: هل المراد بالقدرة الإحداث أو الصلاحية، فإن أريد الإحداث فهي مخصوصة، وإن أريد الصلاحية فهو عام غير مخصوص. هـ.

الإشارة: مشايخ التربية خلفاء الرسول ﷺ فحين بايعهم على عقد الإرادة فكانما بايع الرسول، فيقال على طريق الإشارة: لقد رضى الله عن المؤمنين المتوجهين، إذ يبايعونك أيها العارف تحت الشجرة، تحت ظل شجرة همتك، فعلم ما في قلوبهم من الصدق، فأنزل السكينة عليهم، حتى سكنوا تحت مشاق التربية والرياضة، وأثابهم فتحاً قريباً، وهو الوصول إلى حضرة العيان، ومغانم كثيرة؛ فتوحات ومكاشفات، وأسرار، وترقيات كثيرة، إلى ما لا نهاية له، يأخذونها. ووعدهم الله مغانم كثيرة تأخذونها بعد الفتح، من الرجوع إلى البقاء وبقاء البقاء، والتوسع في المقامات، والترقي في معارج المكاشفات، فعجل لكم هذه، هو مقام الفناء، وكف أيدي القواطع عنكم، لتتوجهوا إلى مولاكم، لتكون عبرة للمؤمنين المتخلفين عن السير، يهتدون بهديكم، ويهديكم صراطاً مستقيماً: طريق الوصول إلى حضرة القدس، ومحل الأنس، وأخرى لم تقدروا عليها في الدنيا، ادخرها لكم يوم القيامة، هو المقام في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وقال الورنجي: «لقد رضى الله عن المؤمنين» أي: رضى عنهم في الأزل، وسابق علم القدم، ويبقى رضاه إلى الأبد؛ لأن رضاه صفة الأزلية الباقية الأبدية، لا تتغير بتغير الحدوث، ولا بالوقت والزمان، ولا بالطاعة والعصيان، فإذا هم في اصطفايته باقون إلى الأبد، لا يسقطون من درجاتهم بالزلات ولا بالبشرية، ولا بالشهوات، لأن أهل الرضا محروسون برعايته، لا تجرى عليهم نعوت أهل البعد، وصاروا متصفين بوصف رضاه، فرضوا عنه كما رضى عنهم، قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾^(٣)، وهذا بعد قذف نور الأنس في قلوبهم بقوله: «فأنزل السكينة عليهم» فسكنت قلوبهم إليه، واطمأنت به؛ لتنزل اليقين. هـ.

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٣١٢/٧).

(٢) من الآية ١٩ من سورة الأنعام.

(٣) من الآية ١١٩ من سورة المائدة.

قلت: هذا لمن تحققت محبوبيته ممن رسخت قدمه في شهود الحق، واطمأن به، وأما قبل هذا فالأمر مبهم.

قال اللجائي، في كتابه «قطب العارفين»: وإياك أن تعتقد أن في الناس شراً منك، وإن كان عاصياً وأنت مطيع، فإن الأمر يحدث بعد الأمر، وسر الله تعالى في خلقه غامض، لا يدري من يبرء بالشقاوة، ولا من يفوز بالسعادة، وقد يتلقى العبد رضا الله تعالى بحسنة واحدة، ويتلقى سخطه بذنب واحد، فإن أمر الله خفى في غموض المشيئة... الخ.

ثم بشرهم بالنصر، فقال:

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢﴾
 سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ
 أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 بَصِيرًا ۝٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعْكُوفًا
 أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ... ﴿

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا﴾ من أهل مكة ولم يصلحوا، أو من خلفاء خيبر، الذين جاءوا لنصرهم ﴿لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ﴾ منهزمين ﴿ثم لا يجدون ولياً﴾ يلي أمرهم، ﴿ولا نصيراً﴾ ينصرهم. ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾: مصدر مؤكد، أي: سن الله غلبة أنبيائه سنة ماضية، وهو قوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (١) ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾: تغييراً.

﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم﴾ أي: أيدى كفار أهل مكة ﴿وأيديكم عنهم﴾: عن أهل مكة ﴿بطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ أي: أقدركم وسلطكم عليهم، يعنى: قضى بينهم وبينكم المكافئة والمجازة بعد ماخولكم الظفر عليهم والغلبة، وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة إلى الحديبية، يطلب غرة بالمسلمين، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند، فهزمهم، حتى أدخلهم حيطان مكة، ثم عاد ثانياً

(١) من الآية ٢١ من سورة المجادلة.

فهزمه، ثم عاد فهزمه^(١)، هكذا نقله الثعلبي وغيره . فانظره مع ما في الاكتفاء للكلاعي: أن خالداً كان مع المشركين في الحديبية، وإنما أسلم بعد الحديبية قبل الفتح، وكان في السنة الثامنة، والحديبية في السادسة، والذي ذكر النسفي أنه ﷺ بعث من هزمهم، ولم يسمه، وهزم خالد لبعض قريش إنما كان في الفتح، لا في الحديبية، فعمل الراوي غلط. وقال أنس: إن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ وأصحابه من جبل التلعييم عند صلاة الفجر، عام الحديبية، ليقاتلوا المسلمين، فأخذهم النبي ﷺ سُلماً، فأعتقهم، فنزلت الآية^(٢).

وجه المنة في كف أيدي المؤمنين عن الكافرين: ما ذكر بعد من قوله: ﴿ولولا رجال مؤمنون﴾ ... الآية، أو: ما تطرق بسببه من الصلح وانقيادهم إليه، فإنهم لما رأوا أصحابهم انهزموا أذعنوا للصلح، وقال القشيري: بعد أن اضطروهم المسلمون إلى بيوتهم، أنزل الله هذه الآية بمن عليهم، حيث كف أيدي بعضهم عن بعض، عن قدرة من المسلمين، لا عن عجز، فأما الكفار فكفوا أيديهم رعباً وخوفاً، وأما المسلمون فنهياً من قبل الله، لما في أصلايهم من المؤمنين هـ. ﴿وكان الله بما تعملون﴾ من مقاتلتهم وهزمهم أولاً، والكف عنهم ثانياً، لتعظيم بيته الحرام، وقرأ البصري بياء الغيب، أي: بما يعمل المشركون ﴿بصيراً﴾ فيجازي كل بما يستحقه.

﴿هم الذين كفروا وصدؤكم عن المسجد الحرام﴾ ﴿و﴾ ﴿صدوا﴾ ﴿الهدى﴾ ﴿حال كونه﴾ ﴿معكروفاً﴾ أي: محبوساً عن ﴿أن يبلغ محله﴾ أي: مكانه الذي يحل به نحره، وهو منى وكان ﷺ ساق سبعين بدنة، فلما صد، نحرها بموضعه، وبه استدل من قال: أن المحصر ينحر هداياه بموضعه، وروى أن خيامه ﷺ كانت في الحل، ومصلاه في الحرم، وهناك نحرته هداياه ﷺ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يُقال لمن سبقت لهم العناية، وحفّت بهم الرعاية: لو قاتلكم الذين كفروا من النفس الأمارة، والشيطان، والهوى، وسائر القواطع، لوّلوا الأدبار، ثم لا يجدون تسلطاً عليكم أبداً، سنة الله التي قد خلت فيمن توجه إليه بصدق الطلب، ودخل تحت تربية الرجال، فإن هممتهم دائرة عليه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. وهو الذي كف أيدي الأعداء من القواطع عنكم، وكف أيديكم عنهم، من بعد أن أظفركم عليهم، فإن النفس إذا تعذبت واطمأنت وجب الكف عن مجاهدتها، ووجب البرور بها، وتصديقها فيما تحدثه، وكذا سائر القواطع تجب الغيبة عنها، وعدم

(١) أخرجه ابن جرير (٩٥/٢٦) وانظر الكافي الشاف (٤٢٤) فقد قال الحافظ ابن حجر معقبا: وفي صحته نظر؛ لأن خالداً لم يكن أسلم في الحديبية. وظاهر السياق أن هذه القصة كانت في الحديبية. وسيذكر الشيخ بعد قليل حديث أنس. وهو أصح لوروده في الصحيح.

(٢) أخرجه مسلم في (الجهاد، باب قول الله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم﴾ ح ١٨٠٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

الالتفات إليها غيبة في الله واشتغالا بشهوده . وقيل لبعضهم: متى ينتهى سير الطالبين؟ قال: «الظفر بنفوسهم، فإن ظفروا بها وصلوا». وأيضاً: لا تجتمع المجاهدة مع المشاهد، فإذا تحققت المشاهدة فلا مجاهدة. هم الذين كفروا من النفوس المتمردة، والهوى، وصدركم عن مسجد الحضرة، والهدى معكوفاً، وحبسكم عن التقرب إلى الله بالنفس والمال أن يبلغ محله، بأن تمنعكم من إعطائه، أو تشييه بما يفسده من الرياء والعجب، لئلا تبلغ محل الإخلاص.

ثم ذكر حكمة منعهم من دخول مكة عام الحديبية، فقال:

﴿... وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمَّ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

قلت: (أن تطوؤهم): بدل اشتغال من رجال ونساء، ومن ضمير «تعلموهم»، وبغير متعلق بتطوؤهم، وجواب «لولا»، محذوف، أغنى عنه جواب «لولا» أى: لما كف أيديكم عنهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ بمكة، ضَعُفُوا عن الهجرة ﴿لم تعلموهم﴾؛ لم تعرفوهم بأعيانهم؛ لاختلاطهم مع المشركين، ﴿أن تطاؤهم بغير علم﴾ أى: غيّر عالمين بهم ﴿فتصيبكم منهم معرة﴾ أى: مشقة ومكروه. وفى تفسير المحلى «المعرة، بالإثم نظر، مع فرض عدم العلم، إلا أن يحمل على صورة الإثم، وهو الخطأ، وفيه الكفارة. والمعرة: مفعلة من: عراه: إذا دهاه ما يكرهه وشق عليه، وهو هنا الكفارة إذا قتله خطأ، وسوء مقالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز، والإثم إذا قصد قتله. والوطء عبارة عن الإيقاع والإبادة. والحاصل أنه كان بمكة قوم مسلمون مختلطون بالمشركين، غير متميزين منهم، فقيل: ولولا كراهة أن تهلوكوا ناساً من المؤمنين بين ظهرائى المشركين وأنتم غير عارفين بهم، فتصيبكم بإهلاكهم مشقة ومكروه، ولما كفنا أيديكم عنهم، ولما كففناكم عنهم.

وكان ذلك الكف ﴿ليدخل الله في رحمته﴾ أى: فى توفيقه لزيادة الخير والطاعة لمؤمنيه، أو: ليُدْخِلَهُمْ فى الإسلام من رغب فيه من مشركيه ﴿من يشاء﴾ زيادته أو هدايته، فاللام متطوعة بمحذوف، تحليل لما دلت عليه الآية، وسيقت له، من كف الأيدي عن أهل مكة، والمنع من قتلهم، صوناً لما بين أظهرهم من المؤمنين. ﴿لو تزيّلوا﴾ أى: تفرقوا وتميز المسلمون من الكافرين، ﴿لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ بقتل

مقاتلتهم، وسبى ذراريهم. ويجوز أن يكون: «لو تزيلوا» كالتكرير لـ «لولا...»؛ لمرجعهما المعنى واحد، ويكون (لعذبنا...) الخ، هو جواب «لولا» والتقدير: ولولا أن تطلقوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات من غير علم، ولو كانوا متميزين لعذبناهم بالسيف.

الإشارة: إذا اختلط أهل الانتقاد مع أهل الاعتقاد، لا يعم البلاء المعد لأهل الانتقاد، ولو تزيلوا لعذبنا المنكرين عذاباً أليماً، وكذلك إذا اختلط الفجار مع الأبرار، وغلب جمع الأبرار، لا يعم البلاء، ويصرف عن الجميع، فلو تزيل الفجار لعذبوا عذاباً أليماً.

قال القشيري: قد تكون في النفس أوصاف مستحسنة، تليق بالفيض الإلهي، مع أوصاف مذمومة، فلو سلطناكم على إهلاكها بالمرّة، لفاتكم مافيها من الأوصاف الحسنة، فتصيبكم معرة، ليدخل الله في رحمته بالوصول إلى حضرته من يشاء من النفوس، بتصفية مافيها من الرذائل. لو تزيلوا تميز ما يصلح قلعه، كالكبر، والشر، والحرص والحقد، أو ما يصلح تبديله، كالبخل بالسقاء، والحرص بالقناعة، والغضب بالحلم، والجبن بالشجاعة، والشهوة بالعفة، لعذبنا النفوس المتمردة عذاباً أليماً، بإهلاكها بالكلية. بالمعنى.

ثم وصف أهل الكفر المتقدمين الآن بالحمية، فقال:

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قريش أي: ألقوا ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ أي: الأنفة والتكبر، أو: صيروا الحمية راسخة في قلوبهم ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾: بدل، أي: حمية الملة الجاهلية، أو الحمية الناشئة من الجاهلية، ووضع الموصول موضع ضميرهم، إذ تقدم ذكرهم، لدمهم بما في حيز الصلة، وتعليل الحكم به. والجعل بمعنى الإلقاء، فلا يتعدى إلى مفعولين، أو: بمعنى التصيير، فالمفعول الثاني محذوف، كما تقدم. والذين: فاعل، على كل حال. ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنزل في قلوبهم الطمأنينة والوقار، فلم يتضعضوا من الشروط التي شرطت قريش.

روى: أن رسول الله لما نزل الحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص، على أن يعرضوا على رسول الله ﷺ أن يرجع من عامه ذلك، على أن تخلي له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام، ففعل ذلك، وكتب بينهم كتاباً، فقال لعلي عليه السلام: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل وأصحابه: مانع من هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة، فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة، فقال ﷺ: اكتب ما يريدون، فأنا أشهد أني رسول، وأنا محمد بن عبد الله، فهم المسلمون أن يأبوا ذلك، ويبتشوا بهم، فأنزل الله السكينة عليهم، فتوقروا وحلموا^(١). وفي رواية البخاري: فكتب علي عليه السلام: «هذا ما قضى عليه محمد رسول الله، فلما أبوا ذلك، قال ﷺ لعلي: «امح رسول الله، وكتب: محمد بن عبد الله»، فقال: والله لأمحوك أبداً، فأخذ ﷺ الصحيفة وكتب ما أرادوا. قيل: كتب بيده معجزة، وقيل: أمر من كتب، وهو الأصح.

﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾: شهادة «لا إله إلا الله»^(٢)، وقيل: بسم الله الرحمن الرحيم، وقيل: محمد رسول الله، وقيل: الوفاء بالعهد، والثبات عليه. وإضافتها إلى التقوى؛ لأنها سببها وأساسها، وقيل: كلمة أهل التقوى. ﴿وكانوا أحق بها﴾ أي: متصفين بمزيد استحقاق بها، على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقاً، أو: أحق بها من غيرهم من سائر الأمم ﴿وكانوا أيضاً﴾ أهلها ﴿المتأهلون لها بتأهيل الله إياهم﴾. قال القشيري: كلمة التقوى هي التوحيد عن قلب صادق، وأن يكون مع الكلمة الاتقاء من الشرك، وكانوا أحق بها في سابق حكمه، وقديم علمه، وهذا إلزام إكرام ولطف، لا إلزام إكراه وعنف، وإلزام بر، لا إلزام جبر. هـ. ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ فيجري الأمور على مساقها، فيسوق كلاً إلى ما يستحقه.

الإشارة: لا يصل العبد إلى مولاه حتى تكون نفسه أرضية، وروحه سماوية، يدور مع الحق أينما دار، ويخضع للحق أينما ظهر، ولأهله أينما ظهوروا، لم تبق فيه حمية ولا أنفة، بل يكون كالأرض يطأها البار والفاجر، ولا تميز بينهما، وأما من فيه حمية الجاهلية، فهو من أهل الخذلان، وأما أهل العناية، فأشار إليهم بقوله: ﴿فأنزل الله

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (باب سياق قصة الحديبية ١٠٥/٤) من حديث عروة بن الزبير، مرسلاً، والقصة في الصحيح، فقد أخرجه البخاري في (الصلح، باب كيف يكتب: هذا ما صالح فلان بن فلان، ح ٢٦٩٨) كما أخرجهها مطولة في (الشروط، باب الشروط في الجهاد، ٣٢٩/٥ - ٣٣٣) من حديث عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان، وأخرجها مسلم في (الجهاد، باب صلح الحديبية ح ١٧٨٣) من حديث البراء بن عازب - رضي الله عن الصحابة أجمعين.

(٢) هذا هو التفسير المروي عن الرسول ﷺ. وأخرجه الترمذي في (ال تفسير - سورة الفتح ح ٣٢٦٥) وأحمد في المسند (١٣٨/٥)، ح ٢١١٥١) والحاكم (٤٦١/٢) وصححه روافقه الذهبي، والطبراني في الكبير (١٦٨/١) من حديث علي عليه السلام. وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (ص ١٠٩) من حديث الطفيل بن أبي، عن أبيه.

سكنته على رسوله» فكان متواضعاً سهلاً ليناً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾^(١) وعلى المؤمنين، فأخبر عنهم بقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٢) الآية، «وألزمهم كلمة التقوى»، «لا إله إلا الله، لأنها تهذب الأخلاق، وتخرج ما في القلب من الأمراض والنفاق؛ لأن النفي: تنزيه وتخليه، والإثبات: نور وتحلية، فلا يزال النفي يخرج من القلب ما فيه هي الظلمة والمساوي، حتى يتطهر ويتصف بكمال المحاسن.

قال في نوادر الأصول، لما تكلم على «وألزمهم كلمة التقوى»: هو «لا إله إلا الله»، وجه تسميتها بذلك: أنه اتقى بها ونفى ما أحدث من الشرك، حمية للتوحيد وعصبية وغيرة، اقتضاها نور التوحيد والمحبة، فنفى القلب كل رب ادعى العباد ربوبيته، ووليت قلوبهم إليه، فابتدأ هذا القلب - الذي وصفنا - بالنفي لأرباب الأرض، ثم سما عالياً حتى انتهى إلى الرب الأعلى، فوقف عنده، وتذلل وخشع له، واطمأن ووليه إليه. وقال لنبيه: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(٣) أي: إن هذه أرباب متفرقون، والرب الله الواحد القهار، فهدها إلى الرب الأعلى، وقال: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾^(٤). ثم قال: ألزم قلوبهم هذه الكلمة بنور المحبة، كما قال: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٥)، فبحلولة الحب، وزينة البهاء، صارت الكلمة لازمة لقلوبهم.

وأما قوله: «وكانوا أحق بها وأهلها» فإنما صاروا كذلك؛ لأن الله كان ولا شيء، فخلق المقادير، وخلق الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك الدور اهتدى، ومن أخطأه ضل، فقد علم من يخطئه ممن يصيبه. ثم ذكر أحاديث، من ذلك: حديث [ابن عمرو]^(٦): «إن الله خلق خلقه، ثم جعلهم في ظلمة، ثم أخذ من نوره ما شاء، فألقاه عليهم، فأصاب الدور من شاء أن يصيبه، وأخطأ من شاء أن يخطئه...» الحديث^(٧). ثم قال بعد كلام طويل: ثم لما نفخ الروح في آدم أخرج نسمة بنبيه، أهل اليمين، من كتفه الأيمن في صفاء وتلاؤ، وأصحاب الشمال [كالحمة]^(٨) سود من كتفه الأيسر، والسابقون أمام الفريقين، المقربون، وهم الرسل والأنبياء والأولياء،

(١) الآية ٤ من سورة القلم.

(٢) الآية الأولى من سورة الأعلى.

(٣) من الآية ٧ من سورة الحجرات.

(٤) في الأصول [ابن عمر] والمثبت هو الصحيح، فالحديث مروي عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

(٥) أخرجه بنحوه الترمذي وحسنه في [الإيمان، باب افتراق هذه الأمة، ح ٢٦٤٢] وأحمد في المسند (ح ٦٨٥٤) ومطولاً (ح ٦٦٤٤)

والحاكم (٣١/١ - ٣٠/١) وصححه ووافقه الذهبي، وكذا صححه ابن حبان (ص ٤٤٩) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص،

وقال الهيثمي في المجمع (١٩٣/٧ - ١٩٤): «رواه أحمد بإسنادين، والبخاري، ورجال أحمد إسنادي أحمد ثقات».

(٨) في الأصول [كالحمة] والمثبت من نوادر الأصول، وهو الصحيح.

والحم: الأسود من كل شيء، والاسم: الحمة. انظر اللسان (حم ١٠٠٩/٢).

فقرَّبهم^(١) كلهم، وأخذ عليهم الميثاق على الإقرار بالعبودية، وأشهدهم على أنفسهم، وشهد عليهم بذلك، ثم ردهم إلى الأصبلا ليخرجهم تناسلاً إلى الأرحام^(٢) هـ.

وقال الجنيد رحمه الله في قوله: ﴿وكانوا أحقَّ بها وأهلها﴾: من أدركه عناية السبق في الأزل جرى عليه عنوان المواصلة، وهو أحق بها، لما سبق إليه من كرامة الأزل هـ. والحاصل: أنهم أحق بها بالسبق بالاصطفائية، وبقيت نعمتها وأنوارها في قلوبهم، دون الذين حجبهم الله عن رؤية نورها. قاله في الحاشية.

ثم بشرهم بفتح مكة، وصدق الرؤيا التي رآها النبي ﷺ، فقال:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ
اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ
مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ﴿٢٧﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا﴾ أي: صدقه في رؤياه ولم يكذبه - تعالى الله عن الكذب - فحذف الجار وأوصل الفعل، كقوله: ﴿صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾^(٣) يقال: صدقه الحديث: إذا حققه وبيته له، أو: أخبره بصدق، روى أنه ﷺ رأى في النوم، قبل خروجه إلى الحديبية، كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حلَّقوا وقصَّروا، فقص الرؤيا على أصحابه، وفرحوا، وحسبوا أنهم داخلوها، وقالوا: إن رؤيا رسول الله حق. والله تعالى قد أبهم الأمر عليهم لينفرد بالعلم الحقيقي، فلما صدوا، قال عبد الله بن أبي وغيره من المنافقين: والله ما حلَّقنا ولا قصَّرنَا، ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت^(٤): ﴿لقد صدق الله رسوله﴾ فيما أراه، وما كذب عليه، ولكن في الوقت الذي يريد.

وقوله: ﴿بالحق﴾، إما صفة لمصدر محذوف، أي: صدقاً ملتبساً بالحق، أي: بالغرض الصحيح، والحكمة البالغة التي تميز بين الراسخ في الإيمان والمتزلزل فيه، أو: حال من الرؤيا، أي: ملتبسة بالحق ليست من قبيل

(١) في نوادر الأصول: فقرَّبهم.

(٢) النقل بتصريف.

(٣) من الآية ٢٣ من سورة الأحزاب.

(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (باب نزول الفتح مرجع الحديبية ٤/ ٣٦٤) وابن جرير في التفسير (١٠٧/ ٢٦) عن مجاهد، مرسلًا.

أضغاث الأحلام، ويجوز أن يكون قسماً، أى: أقسم بالحق ﴿لَتَدْخُلَنَّ المسجد الحرام﴾، وعلى الأول: جواب القسم محذوف، أى: والله لتدخلن المسجد الحرام، والجملة القسمية: استئناف بياني، كأن قائلًا قال: فقيم صدقه؟ فقال: (لتدخلن المسجد إن شاء الله). وهو تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد. قال ثعلب: استثنى الله فيما يعلم؛ ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون. وقال في القوت: استثنى الله معلماً لعباده ورأداً لهم إلى مشيئته، وهو أصدق القائلين، وأعلم العالمين. هـ. أو: للإشعار بأن بعضهم لا يدخلونه، لموت، أو غيبة، أو غير ذلك، أو: هو حكاية لما قاله ملك الرؤيا لرسول الله ﷺ، أو لما قاله ﷺ لأصحابه، حين قص عليهم، أى: والله لتدخلنها ﴿آمين﴾ من غائلة العدو، فهو حال من فاعل، لتدخلن، والشرط معترض. ﴿مُحَلِّقِينَ رؤوسكم ومقصرين﴾ أى: محلقاً بعضكم، ومقصراً آخرين، ﴿لا تخافون﴾ بعد ذلك أبداً، فهو حال أيضاً، أو استئناف، ﴿فَعَلِمَ ما لم تعلموا﴾ من الحكمة فى تأخير فتح مكة إلى العام القابل، ﴿فجعل من دون ذلك﴾؛ فتح مكة ﴿فتحاً قريباً﴾ وهو فتح خيبر، لتستروح إليه قلوب المؤمنين، إلى أن يتيسر الفتح الموعود. والله تعالى أعلم.

الإشارة: العارف الكامل لا يركن إلى شيء دون الله تعالى، فلا يطمئن إلى وعد، ولا يخاف من وعيد، بل هو عبد بين يدي سيده، ينظر ما يبرز من زمن عنصر قدرته، فإن بشر بشيء فى النوم أو اليقظة، لا يركن إليه، ولا يقف معه؛ لأن غيب المشيئة غامض، وإن خوف بشيء فى النوم أو غيره، لا يفرع ولا يجزع؛ لأن الغنى بالله والأنس به غيبه عن كل شيء، وفى الله خلف من كل تلف، ماذا فقد من وجدك؟^(١)، والله يتولى الصالحين، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً...﴾ الآية (٢).

قال فى الإبريز^(٣): الرؤيا المحزنة إنما هى اختبار من الله للعبد، هل يبقى مع ربه أو ينقطع عنه، فإن كان العبد متعلقاً به تعالى، ورأى الرؤيا المحزنة، لم يلتفت إليها، ولما يُبال بها؛ لعلمه بأنه منسوب إلى من بيده تصارييف الأمور، وأن ما اختاره تعالى سبقت به المشيئة، فلا يهوله أمر الرؤيا، ولا يلقي إليها بالاً، وهذه لا تضره بإذن الله تعالى؛ وإذا كان العبد غير متعلق بربه، ورأى رؤيا محزنة، جعلها نصب عينيه، وعمر بها باطله، وانقطع بها عن ربه، ويُقدّر أنها لا محالة نازلة به، فهذا هو الذى تضره؛ لأن من خاف من شيء سلطه عليه. هـ.

(١) من مناجاة الشيخ ابن عطاء المكندى. انظر تريب الحكيم للمتقى الهدى (ص ٤٢).

(٢) الآية ٢ من سورة الطلاق.

(٣) لسيدى عبدالعزيز الدبّاغ - رحمه الله تعالى.

وسئل سهل التستري رحمته عن الاستثناء في هذه الآية، فقال: تأكيداً في الافتقار إليه، وتأديباً لعباده في كل حال ووقت. هـ. أى: أدبهم للآل يفتقروا مع شيء دونه.

ثم رد حمية الجاهلية في عدم إقرارهم برسالته عليه السلام، فقال:

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿٢٩﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ﴾؛ بالترديد، أى: ملتبساً به، أو: بسببه، أو: لأجله، ﴿ ودين الحق ﴾؛ ودين الإسلام، وبيان الإيمان والإحسان. وقال الورتجبي: ودين الحق: هو بيان معرفته والأدب بين يديه. هـ. ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾؛ ليُعْلِيَهُ على جنس الدين، يريد الأديان كلها من أديان المشركين وأهل الكتاب، وقد حقق ذلك سبحانه، فإنك لا ترى ديناً قط إلا والإسلام فوقه بالعزة والغلبة، إلا ما كان من النصارى بالجزيرة^(١)، حيث فرط أهل الإسلام، وقيل: هو عند نزول عيسى عليه السلام حين لا يبقى على وجه الأرض كافر. وقيل: هو إظهاره بالحجج والآيات. ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ على أن ما وعده كائن. وعن الحسن: شهد على نفسه أنه سيظهر دينه، أو: كفى به شهيداً على نبوة محمد عليه السلام وهو تمييز، أو حال.

﴿ محمد رسول الله ﴾ أى: ذلك المرسل بالهدى ودين الحق هو محمد رسول الله، فهو خير عن مضمهر، ورسول: نعت، أو: بدل، أو: بيان، أو: محمد، مبتدأ ورسول: خبر، ﴿ والذين معه ﴾: مبتدأ، خبره: ﴿ أشداء ﴾

(١) يعنى الأندلس.

على الكفار رُحماء بينهم ﴿أر: الذين﴾: عطف على محمد، وأشداء: خبر الجميع، أي: غلاظ شديد على الكفار في حربهم، رُحماء متعاطفون بينهم، يعنى: أنهم كانوا يُظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافق دينهم الرأفة والرحمة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١)، وبلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلتق بثياب الكفار، ومن أبدانهم أن تص أبدانهم، وبلغ من تراحمهم فيما بينهم: أنهم كانوا لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه.

وهذا الوصف الذى مدح الله به الصحابة - رضى الله عنهم - مطلوب من جميع المؤمنين، لقوله ﷺ: «ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٢). رواه البخارى، وقال أيضاً: «نظر الرجل إلى أخيه شوقاً خيراً من اعتكاف سنة فى مسجدى هذا»^(٣)، ذكره فى الجامع.

﴿تراهم رُكعاً سجداً﴾ أى: تُشاهدُهم حال كونهم راكعين ساجدين؛ لمواظبتهم على الصلوات، أو: على قيام الليل، كما قال من شاهد حالهم: رهبان بالليل أسدً بالنهار، وهو استئناف، أر: خبر، ﴿يستغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ أى: ثواباً ورضاً وتقريباً ﴿سِيمَاهُمْ﴾: علاماتهم ﴿فى وجوههم﴾: فى جباههم ﴿من أثر السجود﴾ أى: من التأثير الذى يؤثره كثرة السجود. وما روى عنه ﷺ: «لا تُعلموا صوركم»^(٤) أى: لا تسموها، إنما هو فيمن يتعمد ذلك باعتماد جبهته على الأرض، ليحدث ذلك فيها، وذلك رياء ونفاق، وأما إن حدث بغير تعمّد، فلا يلهى عنه، وقد ظهر على كثير من السلف الصالح غرة فى جباههم مع تحقق إخلاصهم.

وقال منصور: سألت مجاهداً عن قوله: «سِيمَاهُمْ فى وجوههم» أهو الأثر يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا ربما يكون بين عيني الرجل مثل ركة البعير، وهو أقسى قلباً من الحجارة، ولكنه نور فى وجوههم من الخشوع. وقال ابن جريج: هو الوقار والبهاء، وقيل: صفرة الوجه، وأثر السهر. وقال الحسن: إذا رأيتهم حسبته مرضى، وما هم مرضى. وقال سفيان وعطاء: استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل، لقوله ﷺ: «من كثرت صلاته

(١) من الآية ٥٤ من سورة المائدة.

(٢) أخرجه البخارى فى (الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ح ٦٠١١) ومسلم فى (البر والصلة باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاظمهم، ح ٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه.

(٣) عزاه السيوطى فى الجامع الصغير (ح ٩٢٦٦) للحكيم عن ابن عمرو، وضعفه.

(٤) على هامش النسخة الأم: «هذا حديث لا أصل له».

بالليل حسن وجهه بالنهار»^(١) وقال ابن عطية: إنه من قول شريك^(٢) لأحد، فأنظره، وقال ابن جبير: في وجوههم يوم القيامة يعرفون به أنهم سجدوا في الدنيا لله تعالى هـ.

﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾، الإشارة إلى ما ذكر من نعتهم الجليلة، وما فيها من معنى البعد مع قرب العهد للإيذان بطول شأنه، وبعد منزلته في الفصل، أي: ذلك وصفهم العجيب الجاري في الغرابة مجرى الأمثال، هو نعمهم في التوراة، أي: كونهم أشداء على الكفار، رحماء بينهم، سيماهم في وجوههم.

ثم نكر وصفهم في الإنجيل فقال: ﴿ ومثلهم في الإنجيل كزرع... ﴾ الخ، وقيل: عطف على ما قبله، بزيادة «مثل»، أي: ذاك مثلهم في التوراة والإنجيل، ثم بين المثل فقال: هم كزرع ﴿ أخرج شطأه ﴾ فَرَآخَهُ، يقال: أَسْطَأَ الزرع: أفرخ، فهو مُسْطِئٌ، وفيه لغات: شطأه بالسكون والفتح، وحذف الهمزة، كقضاة. وشطأه، بالقصر. ﴿ فازره ﴾؛ فقواه، من: الموازرة، وهي الإعانة، ﴿ فاستغلظ ﴾؛ فصار من الرقة إلى الغلظ، ﴿ فاستوى على سوقه ﴾؛ فاستوى على قصبه، جمع: ساق، ﴿ يعجب الزراع ﴾ يتعجبون من قوته، وكثافته، وغلظه، وحسن نباته ومنظره. وهو مثل ضربه الله لأصحابه ﷺ في بدء الإسلام، ثم كثروا واستحكموا، بترقى أمرهم يوماً بيوم، بحيث أعجب الناس أمرهم، فكان الإسلام يتقوى كما تقوى الطاقة من الزرع، بما يحتف بها مما يتولد منها.

وقيل: مكتوب في الإنجيل: سيخرج قوم يبتنون نبات الزرع، يأمرهم بالمعروف، وينهون عن المنكر^(٣). وعن عكرمة: أخرج شطأه بأبي بكر، فازره بعمر، فاستغلظ بعثمان، فاستوى على سوقه بطي^(٤). وحكى النقاش عن ابن عباس، أنه قال: الزرع النبي ﷺ، فازره علي بن أبي طالب، فاستغلظ بأبي بكر، فاستوى على سوقه بعمر هـ.

(١) أخرجه ابن ماجة في (إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ماجاء في قيام الليل، ح ١٣٣٣) قال: «حدثنا إسماعيل بن محمد الطلمي، ثنا ثابت بن مرسى أبو يزيد، عن شريك، عن الأعشى، عن أبي سفيان، عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الحديث، ورفع..»
(٢) شريك، أحد رواة الحديث. قال السدي:

معنى الحديث ثابت بموافقة القرآن، وشهادة للتجربة، لكن الحفظ على أن الحديث بهذا اللفظ غير ثابت. وأخرج للبيهقي في الشعب، عن محمد بن عبد الرحمن بن كامل قال: قلت لمحمد بن عبد الله بن نمير: ما تقول في ثابت بن مرسى؟ قال: شيخ له فضل وإسلام ودين وصلاح وعبادة، قلت: ما تقول في هذا الحديث؟ قال: غلط من الشيخ، ولما غير ذلك فلا يتوهم عليه. وقد تواردت أقوال الأئمة على عد هذا الحديث في الموضوع، على سبيل الخطأ، لا الصدق، وخالفهم القضاة في مسئلة الشهاب، فقال في الحديث إلى ثبوته. انظر حاشية سنن ابن ماجة (٤٢٣/١). وانظر أيضاً - تفسير القرطبي (٦٣٠٢/٧).

(٣) أخرجه الطبري (١١٤/٢٦) عن قتادة.

(٤) انظر هذه الأقوال في تفسير البغوي (٣٢٥/٧).

واختار ابن عطية: أن المثل شامل للنبي ﷺ وللصحاباء، فإن النبي ﷺ بُعث وحده، فهو الزرع، حبة واحدة، ثم كثر المسلمون، فهم كالشوط، تقوى بهم ﷺ.

﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ تعليل لما يُعرب عنه الكلام من تشبيههم بالزرع في ذكائه واستحكامه، أى: جعلهم كذلك ليغيظ بهم من كفر بالله.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ استئناف مبين لما خصهم به من الكرامة في الآخرة، بعد بيان ما خصهم به في الدنيا، ويجوز أن يرجع لقوله: (ليغيظ بهم...) الخ: أى: ليغيظ بهم وعدهم بالمغفرة والأجر العظيم؛ لأن الكفار إذا سمعوا ما أُعد لهم في الآخرة مع ما خصهم في الدنيا من العزة والنصر غاظهم ذلك أشد الغيظ، ومن، فى منهم، للبيان، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ (١)، أى: وعد الله الذين آمنوا من هؤلاء.

الإشارة: هو الذى أرسل رسوله بالهدى: بيان الشرائع، ودين الحق: بيان الحقائق، فمن جمع بينهما من أمتة ظهر دينه وطريقته، وهذا هو الولي المحمدي، أعنى: ظاهره شريعة، وباطنه حقيقة، وما وصف به سبحانه أصحاب الرسول ﷺ هو وصف الصوفية، أهل التربية النبوية، خصوصاً طريق الشاذلية، حتى قال بعضهم: من حلف أن طريق الشاذلية عليها كانت بواطن الصحابة ما حثت. وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ قال الورتجبي: أى: يطلبون مزيد كشف فى الذات والدنو والوصال والبقاء مع بقائه بلا عتاب ولا حجاب، وهذا محل الرضوان الأكبر هـ.

وقوله تعالى: ﴿سِيَمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ﴾ أى: نورهم فى وجوههم، لتوجههم نحو الحق، فإن من قرب من نور الحق ظهرت عليه أنوار المعرفة، وجمالها وبهاؤها، ولو كان زنجياً أو حبشياً، وفى ذلك قيل:

وعلى العارفين أيضاً بهاءٌ وعليهم من المحبة نورٌ

ويقال: السيماء للعارفين، والبهجة للمحبين، فالسيما هي الطمأنينة، والرزانة، والهيبة والوقار، كل من رآهم بديهة هابهم، ومن خالطهم معرفة أحبهم، والبهجة: حسن السمعة والهدى، وغلبة الشوق، والعشق، واللهج بالذكر اللسانى. والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ٣٠ من سورة الحج.

وروى السلمي عن عبدالعزيز المكي: ليس السیما النُحولة والصفرة، ولكنه نور يظهر على وجوه العابدين، يدر من باطنهم على ظاهريهم، يتبين ذلك للمؤمنين، ولو كان ذلك في زنجى أو حبشى. وعن بعضهم: ترى على وجوههم هيئة لقرب عهدهم بمناجاة سيدهم. وقال ابن عطاء: ترى عليهم طلع الأنوار لائحة. وقال الورتجبي: المؤمن وجهه لله بلا قفا، مقبلاً عليه، غير معرض عنه، وذلك سيما المؤمن. هـ. وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.



سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

مدنية . وهي ثمانى عشرة آية . ومناسبتها لما قبلها : أنه تعالى لما مدح الصحابة ، وبشرهم بالمغفرة ؛ علمهم الأدب ؛ لأنه من أعظم أسباب المغفرة والقرب ، فقال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَانْقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، تصدير الخطاب بالنداء ، تلييه المخاطبين على أن مافى حيزه أمر خطير يستدعى اعتنائهم بشأنه ، وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ، روصفهم بالإيمان لتتشطبهم ، والإيدان بأنه داع إلى المحافظة عليه ورازع عن الإخلال به ، ﴿ لَا تَقْدِمُوا ﴾ أى : لا تفعلوا التقديم ، على ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل من غير اعتبار تعلقه بأمر من الأمور ، على طريقة قولهم : فلان يعطى ويعنع ، أو : لا تَقْدِمُوا أموراً من الأمور ، على حذف المفعول ، للعموم ، أو : يكون التقديم بمعنى التقدم ، من : قدم ، اللازم ، ومنه : مقدمة الجيش ، للجماعة المتقدمة ، ويؤيده قراءة من قرأ : ﴿ لَا تَقْدِمُوا ﴾ ^(١) بحذف إحدى التاءين ، أى : لا تتقدموا ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، أى : لا تقطعوا أمراً قبل أن يحكما به ، حقيقة قولك : جلست بين يدي فلان : أن تجلس بين الجهتين المسامتين ليمينه وشماله قريباً منه ، فسميت الجهتان يدين ؛ لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما ، توسعاً ، كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره .

(١) وهى قراءة يعقوب ، أحد القراء المشهورين . انظر الإتحاف (٢/٤٨٥) .

وفى هذه العبارة ضرب من المجاز الذى يُسمى تمثيلاً، وفيه فائدة جليلة، وهى: تصوير الهُجْنَةِ والشناعة فيما نُهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. ويجوز أن يجرى مجرى قولك: سرّنى زيد وحسن ماله، فكذلك هذا المعنى: لا تُقَدِّمُوا بين يدي رسول الله - ﷺ. وفائدة هذا الأسلوب: الدلالة على قوة الاختصاص، ولما كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذى لا يخفى؛ سلك به هذا المسلك، وفى هذا تمهيد لما نُقِمَ منهم من رفع أصواتهم فوق صوته؛ لأن من فضله الله بهذه الأثرة، واختصه بهذا الاختصاص، كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال: أن لا يرفع صوت بين يديه، ولا يقطع أمر دونه، فالتقدم عليه تقدّم على الله؛ لأنه لا يُلْطَقُ عن الهوى، فينبغى الاقتداء بالملائكة؛ حيث قيل فيهم: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ...﴾ الخ^(١).

قال عبد الله بن الزبير: قدّم وفد من تميم على رسول الله ﷺ. فقال أبو بكر: لو أمرت عليهم القعقاع بن معبد، وقال عمر: يا رسول الله؛ بل أمر الأقرع بن حابس؛ فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، وقال عمر: ما أردت خلافاً، وارتفعت أصواتهما، فنزلت^(٢). فعلى هذا يكون المعنى: لا تُقَدِّمُوا ولاةً، والعموم أحسن كما تقدم. وعبارة البخارى: «وقال مجاهد: (لا تُقَدِّمُوا)؛ لا تُفَتِّتُوا على رسول الله ﷺ حتى يقضى الله - عز وجل - على لسانه»^(٣). وعن الحسن: أن ناساً ذبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة، فنزلت، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يعيدوا^(٤)، وعن عائشة: أنها نزلت فى النهى عن صوم يوم الشك^(٥).

﴿واتقوا الله﴾ فى كل ما تأتون وتذرون من الأحوال والأفعال، التى من جملة ما نحن فيه، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿علیم﴾ بأفعالكم، فمن حقّه أن يتقّى ويراقب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، شروع فى النهى عن التجاوز فى كيفية القول عند النبى ﷺ، بعد النهى عن التجاوز فى نفس القول والفعل، وإعادة النداء مع قرب العهد؛ للمبالغة فى الإيقاظ والتنبية، والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه؛ أى: لا تبلغوا بأصواتكم وراء حدّ يبلغه

(١) من الآية ٢٧ من سورة الأنبياء.

(٢) أخرجه البخارى فى (التفسير، باب «إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون» ح ٤٨٤٧).

(٣) ذكره البخارى فى (التفسير، سورة الحجرات). وأخرجه الطبرى (١١٦/٢٦).

(٤) أخرجه الطبرى (١١٧/٢٦). وعزاه السيوطى فى الدر (٨٦/٦) لابن أبى الدنيا فى الأصاحى.

(٥) عزاه السيوطى فى الدر (٨٦/٦) لابن الدجار فى تاريخه، والطبرانى فى الأوسط، وابن مردويه.

هذا، وما ذكره المفسر عن السيدة عائشة والحسن إنما هو داخل فى عموم الآية، لأنه سبب النزول؛ لأن ما ذكر عن السيدة عائشة والحسن مخالف للرواية الصحيحة الواردة فى سبب النزول، والتى أخرجه البخارى.

صوته ﷺ، بل يكون كلامه عالياً لكلامكم، وجهره باهراً لجهركم، حتى تكون مزيقته عليكم لائحة، وسابقته لديكم راضحة.

﴿ولا تجهروا له بالقول﴾ إذا كلمتموه ﴿كجهر بعضكم لبعض﴾ أى: جهراً كائنًا كالجهر الجارى فيما بينكم، بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته، واختاروا فى مخاطبته القول اللين القريب من الهمس، كما هو الدأب فى مخاطبة المهاب العظيم، وحافظوا على مراعاة هيبة النبوة وجلالة مقدارها. وقيل: معنى: ﴿لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾: لا تقولوا: يا محمد، يا أحمد، بل: يا رسول الله. يأنبى الله، ولما نزلت هذه الآية؛ ما كلم رسول الله ﷺ أبو بكر إلا كأخى السرار^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنها نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس، وكان فى أذنيه قر، وكان جهري الصوت، وكان إذا تكلم رفع صوته، وربما كان يكلم النبى ﷺ فيتأذى من صوته. هـ. والصحيح ما تقدم. وفى الآية أنهم [لم] ينهوا عن الجهر مطلقاً، وإنما نهوا عن جهر مخصوص، أى: الجهر المنعوت بمماثلة ما اعتادوه فيما بينهم، وهو الخلو عن مراعاة هيبة النبوة، وجلالة مقدارها.

وقوله: ﴿أن تحبط أعمالكم﴾؛ مفعول من أجله، أى: لا تجهروا خشية أن تحبط أعمالكم، ﴿وأنتم لا تشعرون﴾ فإن سوء الأدب ربما يؤدى بصاحبه إلى العطب وهو لا يشعر. ولما نزلت الآية جلس ثابت بن قيس فى بيته ولم يخرج، فتفقدته رضي الله عنه، فدعاه فسأله، فقال: يا رسول الله؛ لقد أنزلت عليك هذه الآية، وإنى رجل جهير الصوت، فأخاف أن يكون عملى قد حبط، فقال له رضي الله عنه: «لست هناك، تعيش بخير، وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة»^(٢).

وأما ما يروى عن الحسن: أنها نزلت فى المنافقين، الذين كانوا يرفعون أصواتهم فوق صوته ﷺ فقد قيل: محمله: أن نهيبهم مندرج تحت نهى المؤمنين بدليل النص.

﴿إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله﴾ أى: يخفضون أصواتهم فى مجلسه، تعظيماً له، وانتهاء عما نهوا عنه، ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ أى: أخلصها وصفأها، من قولهم: امتحن الذهب وفتلته: إذا أذابه، وفى القاموس: محنه، كمنعه: اختبره، كامتحنه، ثم قال: وامتحن القول: نظر فيه ودبره، والله قلوبهم: شرحها ورسعها، وفى الأساس: ومن المجاز: محن الأديم: مدده حتى وسعه، وبه فسر قوله تعالى:

(١) أخرجه الحاكم (٤٢٢/٢) وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبى، والبيهقى فى الشعب (رقم ١٥٢٠ و ١٥٢١) عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) فى الأصول: [الن].

(٣) أخرجه بمعناه البخارى فى (المناقب، باب علامات النبوة فى الإسلام ح ٣٦١٣) ومسلم فى (الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله، رقم ١٨٧ ح ١١٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿ امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ أى: شرحها ووسعها، ﴿ لهم مغفرة وأجرٌ عظيم ﴾ أى: مغفرة لذنوبهم، وأجر عظيم: نعيم الجنان.

الإشارة: على هذه الآية والتي بعدها اعتمد الصوفية فيما دونوه من آداب المريد مع الشيخ، وهى كثيرة أفردت بالتأليف، وقد جمع شيخنا البوزيدي الحسنى رحمته الله كتاباً جليلاً جمع فيه من الآداب ما لم يوجد فى غيره، فيجب على كل مريد طالب للوصول لمطالعته والعمل بما فيه.

والذى يؤخذ من الآية: أنه لا يتقدم بين يدي شيخه بالكلام، لاسيما إذا سأل أحد، فمن الفضول القبيح أن يسبق شيخه بالجواب، فإن السائل لا يرضى بجواب غير الشيخ، مع ما فيه من إظهار علمه، وإشهار شأنه، والتقدم على شيخه. ومن ذلك أيضاً: ألا يقطع أمراً دون مشورته، مادام تحت الحجرية، وألا يتقدم أمامه فى المشى إلا بإذنه، وأن يخفض صوته عند حضوره، بل لا يتكلم إلا أن يأذن له فى الكلام، ويكون بخفض صوت وتعظيم.

قلت: وما زالت أشيأنا تأمرنا بالتكلم عند المذاكرة؛ إذ بالكلام تعرف أحوال الرجال، وسمعت شيخ شيخنا، مولاي العربى الدرقاوى الحسنى رحمته الله يقول: حَكُونَا فى المذاكرة؛ ليظهر العلم، وكونوا معنا كما قال القائل: حك لى نربل لك، لا كما قال القائل: سَفَّج لى نعسل لك. هـ. لكن يكون بحثه مع الشيخ على وجه الاسترشاد والاستعلام، من غير معارضة ولا جدال، وإلا فالسكوت أسلم.

قال القشيري: ﴿ لا تَقْدَمُوا بين يدي الله ورسوله ﴾: لانعملوا فى أمر الدين من ذات أنفسكم شيئاً، وقفوا حيثما وقفتُم، وافعلوا ما به أمرتُم، أى: اعملوا بالشرع لا بالطبع فى طلب الحق، وكونوا من أصحاب الاقتداء والاتباع، لا من أرياب الابتداء أو الابتداع.

وقال فى قوله تعالى: ﴿ لا ترفعوا أصواتكم... ﴾ الآية، يشير إلى أنه من شرط المؤمن: ألا يرى رأيه وعقله واختياره فوق رأى النبى والشيخ، ويكون مستسماً لرأيه، ويحفظ الأدب فى خدمته وصحبته، ﴿ ولا تجهرأ له بالقول كجهر بعضكم لبعض ﴾ أى: لا تخاطبوه كخطاب بعضكم لبعض، بل خاطبوه بالتعظيم والتبجيل، ولا تنظروا إليه بالعين التى تنظرون إلى أمثالكم، رانه لحسن خلقه قد يلاعبيكم، فلا تنبسطوا معه، متجاسرين عليه بما يعاشركم من خلقه، ولا تبدأوه بحديث حتى يفتحكم، أن تحبط أعمالكم بسوء أدبيكم، وأنتم لاتشعرون. إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله وعند شيخه أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أى: انتزع عنها حب الشهوات، وصفأها من دنس سوء الأخلاق، وتخلقت بمكارم الأخلاق، حتى انسلخت من عادات البشرية^(١) هـ.

(١) بالمعنى

وقال في القوت: الرقاية مقرونة بالنصرة؛ فإذا تولاه نصره على أعدائه، وأعدى عدوه نفسه، فإذا نصره عليها، أخرج الشهوة منها، فامتحن قلبه للتقوى، ومحض نفسه، فخلصها من الهوى...هـ.

ثم ذكر من لم يستعمل الأدب مع الحضرة النبوية، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾؛ من خارجها، أو: من خلفها، أو: من أمامها، فالوراء: الجهة التي توارى عنك الشخص تظله من خلف أو من قدام، ومن، لا ابتداء الغاية، وأن المناداة نشأت من ذلك المكان، والحجرة: الرقعة من الأرض، المحجورة بحائط يحوط عليها، فعلة، بمعنى مفعولة، كالقُبْضَةِ، والجمع: حُجُرَات، بضميتين، ويفتح الجيم، والمراد: حجرات النبي ﷺ، وكان لكل امرأة حجرة.

نزلت في وفد بنى تميم، وكانوا سبعين، وفيهم عينية بن حصن الفزارى، والأقرع بن حابس، وفدوا على النبي ﷺ وقت الظهيرة، وهو راقد، فنادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته، وقالوا: اخرج إلينا يا محمد؛ فإن مدحنا زين، وذمنا شين، فاستيقظ، وخرج ﷺ وهو يقول: «ذلكم الله الذي مدحه زين، وذمه شين»، فقالوا: نحن قوم من بنى تميم، جلنا بشاعرنا وخطيبنا، لشاعرك، ونفاخرك، فقال ﷺ: «ما بالشعر بعثت، ولا بالفخار أمرت»، ثم أمر ﷺ خطيبهم فتكلم، ثم قال لثابت بن قيس بن شماس - وكان خطيب النبي ﷺ: قم، فقام، فخطب، فأقحم خطيبهم، ثم قام شاب منهم، فأنشأ يقول:

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلَا حَى يُعَادِلُنَا فسينا الرؤوسُ وفينا يُقَسِّمُ الرِّيعُ
وَنُطْعِمُ النَّاسَ عِنْدَ الْقَحْطِ كُلَّهُمْ إِنَّا كَذَلِكَ عِنْدَ الْفَخْرِ نَرْتَفِعُ^(١)

(١) هكذا جاء في الأصول، أما في البحر المحيط (١٠٦/٨ - ١٠٧) وأسباب النزول للواحدي (ص ٤٠٥) وغيرهما من المصادر، فذكروا بعد البيت الأول:

ونطعم الناس عند القحط كلهم من السديف إذا لم يؤنس الفرع
إذا أبينا فلا يابى لنا أحد إنا كذلك عند الفخر نرتفع.

فقال ﷺ لحسان: قم فأجبه، فقال:

إِنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتَهُمْ قَسَدٌ شَرَّعَسُوا سُنَّةَ لِلَّاسِ تُتَسَبَّعُ
يرضى بها كلُّ من كانت سريرته تَقْرَى إِلَهُ وَكُلُّ الْفَخْرِ يُصْطَنَعُ^(١)

ثم قال الأقرع شعراً افتخر به، فقال عليه السلام - لحسان، قم فأجبه، فقال حسان:

بَنِي دَارِمٍ، لَا تَفْخُرُوا، إِنَّ فَخْرَكُمْ يَعُودُ وَبِالْأَعْدَاءِ ذِكْرُ الْمَكَارِمِ
هَبَلْتُمْ، عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمْ لَنَا خَوْلٌ مِنْ بَيْنِ ظَنَرٍ وَخَادِمٍ^(٢)

فقال ﷺ: «لقد كنت غنياً عن هذا يا أخا بني دارم أن يذكر منك ما قد ظننت أن الناس قد نسوه»، ثم قال الأقرع: تكلم خطيبنا، فكان خطيبهم أحسن قِيلاً، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر. هـ^(٣).

هذا ومناداتهم من وراء الحجرات؛ إما لأنهم أتوها حجرة حجرة، فنادوه ﷺ من ورائها، أو: بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له ﷺ، أو: نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها، ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ. وقيل: الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع، وإنما أسند إلى جميعهم لأنهم راضون بذلك وأمروا به. ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾، إذ لو كان لهم عقل لما تجاسروا على هذه العظيمة من سوء الأدب.

﴿ولو أنهم صبروا﴾ أى: ولو تحقق صبرهم وانتظارهم، فمحل (أنهم صبروا) رفع على الفاعلية؛ لأنَّ «أن» تسبك بالمصدر، لكنها تفيد التحقق والثبوت، للفرق بين قولك: بلغنى قيامك، وبلغنى أنك قائم، ودحتى، تفيد أن الصبر ينبغي أن يكون مغيياً بخروجه ﷺ، فإنها مختصة بالغايات. والصبر: حبس النفس على أن تنازع إلى هواها، وقيل: الصبر مرٌّ لا يتجرعه إلا حرٌّ. أى: لو تأنوا حتى تخرج إليهم بلا مناداة؛ لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال، لما فيه من رعاية حسن الأدب، وتعظيم الرسول، الموجبتين للثناء والثواب، والإسعاف بالمستول؛ إذ روى أنهم وفدوا شافعين في أسارى بني العنبر، وذلك أنه ﷺ بعث سرية إلى حى بني العنبر، وأمر عليهم عيينة

(١) انظر ديوان حسان بشرح البرقوقى ص ٣٠١. وفيه:

إِنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتَهُمْ قَدِ بَيَّنَّا سُنَّةَ لِلَّاسِ تُتَسَبَّعُ
يرضى بها كلُّ من كانت سريرته تَقْرَى إِلَهُ وَبِالْأَمْرِ السُّذَى شَرَعُوا

(٢) انظر ديوان حسان ص ٤٣٧.

(٣) أخرجه الواحدى فى أسباب النزول ص (٤٠٤ - ٤٠٦) عن جابر بن عبد الله. وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافى الشافى (ص ١٥٥ - ١٥٦ رقم ١٥) للعلبى. وأخرج الجزء الأول من القصة، الترمذى فى (ال تفسير، باب ومن سورة الحجرات، ح ٣٢٦٧) عن البراء بن عازب رضى الله عنه.

ابن حصن، فهربوا وتركوا عيالهم، فسباهم عبينة، ثم قَدِمَ رجالهم يَفْدُون الذراري، فلما رأتهم الذراري أجهشوا إلى آبائهم يَبْكُون، فعَجَلُوا أن يخرج إليهم النبي ﷺ، فنَادَوْهُ حتى أَيْقَظُوهُ من نومه، فخرج إليهم، فأطلق النصف وفادى النصف^(١)، ﴿والله غفور رحيم﴾؛ بليغ المغفرة والرحمة واسعهما، فلن يضيق ساحتُهما عن هؤلاء إن تابوا وأصلحوا.

الإشارة: من آداب المريد ألا يُوقَظ شيخه من نومه، ولو بقى ألف سنة ينتظره، وألا يطلب خروجه إليه حتى يخرج بنفسه، وألا يقف قبالة باب حجرته لئلا يرى بعض محارمه. ومن آدابه أيضاً: ألا يبيت معه في مسكن واحد، وألا يأكل معه، إلا أن يعزم عليه، وألا يجلس على فراشه أو سجّادته إلا بأمره، وإذا تعارض الأمر والأدب، فهل يُقَدَّم الأمر أو الأدب؟ خلاف، وقد تقدّم في صلح الحديبية: أن سيدنا علياً - كرم الله وجهه - قدّم الأدب على الأمر، حين قال له ﷺ: «امح اسم رسول الله من الصحيفة»^(٢)، فأبى، وقال: «والله لأمحوك أبداً». والله تعالى أعلم.

ومن جملة الأدب: التأنى في الأمور وعدم العجلة، كما أبان ذلك بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجَاهِلَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾. نزلت في الوليد بن عتبة بن أبي معيط، وكان من فضلاء الصحابة - رضي الله عنه - إلى بني المصطلق، بعد الوقعة مصدقاً، وكان بيده وبينهم عداوة في الجاهلية، فخرجوا يتلقونه، تعظيماً لأمر النبي ﷺ، فظن أنهم مقاتلوه؛ فرجع، وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فهم ﷺ أن يغزوهم، ثم أتوا النبي ﷺ وأخبروه أنهم إنما خرجوا يتلقونه تكرماً؛

(١) انظر تفسير البغوي (٣٣٧/٧).

(٢) راجع تفسير الآية ٢٦ من سورة الفتح.

فاتهمهم النبي ﷺ وبعث إليهم خالد بن الوليد، خفيةً مع عسكر، وأمره أن يخفى عليهم قدومه، ويتطلع عليهم، فإن رأى ما يدل على إيمانهم؛ أخذ زكاتهم ورجع، وإن رأى غير ذلك؛ استعمل فيهم ما يستعمل في الكفار، فسمع خالد فيهم آذان صلاتي المغرب والعشاء، فأخذ صدقاتهم، ولم ير منهم إلا الطاعة، فنزلت الآية (١).

وسمى الوليد فاسقاً لعدم تثبته؛ فخرج بذلك عن كمال الطاعة، وفي تسميته بذلك زجرٌ لغيره، وترغيبٌ له في التوبة، والله تعالى أعلم بغيبه، حتى قال بعضهم: إنها من المتشابه، لما ثبت من تحقق إيمان الوليد. وقال أبو عمر في الاستيعاب: لا يصح أن الآية نزلت في قضية الوليد؛ لأنه كان في زمن النبي ﷺ من (٢) ثمانية أعوام، أو من عشرة، فكيف يبعثه رسولا؟! (٣) هـ. قلت: لا غرابة فيه، وقد كان ﷺ يؤمر أسامة بن زيد على جيش، فيه أبو بكر وعمر، مع حداثة سنه، كما في البخاري وغيره.

وفي تنكير (فاسق) و(نبأ) شياع في الفساق والأنباء، أي: إذا جاءكم فاسقٌ أي فاسقٌ كان، بأي خبر ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أي: فتوقفوا فيه، وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول من لا يتحرى الصدق، ولا يتحامي الكذب، الذي هو نوع من الفسوق.

وفي الآية دليل على قبول خبر الواحد العدل؛ لأننا لو توقفنا في خبره؛ لسوينا بينه وبين الفاسق، ولخلا التخصيص به عن الفائدة. وقرأ الأخوان: «فتثبتوا» والتثبت والتبين متقاربان، وهما: طلب الثبات والبيان والتعرف. ﴿أَنْ تُصِيبُوا﴾ أي: لئلا تصيبوا ﴿قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾: حال، أي: جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة. ﴿فَتُصَبِّحُوا﴾: فتصيروا ﴿عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾: مغتمين على ما فعلتم، متملين أنه لم يقع، والندم: ضرب من الغم؛ وهو أن يغتم على ما وقع، يتمنى أنه لم يقع، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام في الجملة.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فلا تكذبوا، فإن الله يخبره، فيهلك سر الكاذب، أو: فارجعوا إليه واطلبوا رأيه، ثم استأنف بقوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾: لوقعتم في العنت؛ وهو الجهد والهلاك.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٧٩/٤) والطبراني في الكبير (٤٠١/٣) والطبري (١٢٣/٢٦) وعبد الرزاق في التفسير (٢٣١/٢) وقال الهيثمي في المجمع (١١١/٧): «رواه الطبراني، وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف، وانظر: تفسير ابن كثير (٢٠٦/٤) - ٢١٠) والفتح السماري مع حاشية المحقق (١٠٠١/٣).

(٢) هكذا في الأصول، وأظله: «ابن».

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولا على معناه، وإنما وجدت ما يفيد ترجيح ابن عبد البر بأن الوليد لم يكن غلاماً في هذا الوقت. راجع الاستيعاب (١١٤/٤). وهذا أيضاً ما رجحه ابن حجر في الإصابة (٦٠١/٣) حيث قال: قلت: ومما يؤيد أنه كان رجلاً: أنه كان قدم في فداء ابن عم أبيه، الحارث بن أبي ربيعة بن أبي عمرو بن أمية، وكان أسير يوم بدر، فافتداه بأربعة آلاف. حكاه أصحاب المغازي هـ.

والتعبير بالمضارع للدلالة على أن عنتهم إنما يلزم في استمرار طاعته لهم في كل ما يعرض من الأمور، وأما طاعته في بعض الأمور استتلاًفاً لهم، فلا. انظر أبا السعود. وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زين لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق تصديقاً لقول الوليد، وأن بعضهم كانوا يتصونون ويتحرجون الوقوع بهم تأنيلاً وثبثاً في الأمر، وهم الذين استثناهم الله بقوله:

﴿ولكن الله حبيب إليكم الإيمان﴾، وأسندته إلى الكل تنبيهاً على أن أكثرهم تحرجوا الوقوع بهم وتأثروا، وقيل: هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وهو تجديد الخطاب وتوجيهه إلى بعضهم بطريق الاستدراك، بياناً لبراءتهم عن أوصاف الأولين وإحماًداً لأفعالهم، أي: ولكنه - تعالى - جعل الإيمان محبوباً لديكم ﴿وزينه في قلوبكم﴾ حتى رسخ فيها، ولذلك صدر منكم ما يليق به من الثبوت والتحرج، وحاصل الآية على هذا: واعلموا أن فيكم رسول الله، فلا تقرُّون معه على خطأ، لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتكم، ولكن الله حبيب إلى بعضكم الإيمان، فلا يأمر إلا بما هو صواب من التأنى وعدم العجلة.

قلت: والأحسن في معنى الاستدراك: أن التقدير: لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتكم، ولكن الله لا يقره على طاعتكم بل ينزل عليه الوحي بما فيه صلاحكم وراحتكم؛ لأن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، فلا يسلك بكم إلا ما يليق بشأنكم من الحفظ والعصمة.

ثم قال: ﴿وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ ولذلك تخرجتم عما لا يليق مما لا خير فيه مما يؤدي إلى عنتكم، قال ابن عرفة: العطف في هذه الآية تدلِّي؛ فالكفر أشدها، والفسوق دونه، والعصيان أخف؛ لصدقه على ترك المندوبات، حسبما نقل ذلك البغداديون وحملوا عليه، ومن لم يجب الدعوة فقد عصى أبا القاسم. هـ.

﴿أولئك هم الراشدون﴾ أي: أولئك المستثنون، أ و: المتصفون بالإيمان، المزيّن في قلوبهم، هم السالكون على طريق السرى، الموصول إلى الحق، أي: أصابوا طريق الحق، ولم يعيلوا عن الاستقامة. والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه، من: الرشادة، وهي الصخرة الصماء. ﴿فضلاً من الله ونعمة﴾ أي: إفضالاً من الله وإنعاماً عليهم؛ مفعول من أجله، أي: حبيب وكره للفضل والنعمة عليهم ﴿والله عليم﴾؛ مبالغ في العلم، فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل، ﴿حكيم﴾ يفعل ما يفعل لحكمة بالغة.

الإشارة: إن جاءكم خاطر سوء بنياً سوء فتبينوا وثبثوا، ولا تبادروا بإظهاره، خشية أن تُصيروا قوماً بجهالة، فتظنوا بهم السوء، وتقعوا في الغيبة، فتصبحوا على ما فطمت نادمين، فالمنافق قلبه على طرف لسانه، إذا خطر فيه شيء نطق به، فهذا هالك، والمؤمن لسانه من وراء قلبه، إذا خطر شيء نظر فيه، ووزنه بميزان الشرع، فإن كان

فيه مصلحة نطق به، وإلا رده وكتمه، فالواجب: وزن الخواطر بالقسطاس المستقيم، فلا يظهر منها إلا ما يعود عليه منفعة.

﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾، قد بين لكم ماتفعلون وماتذرون، ظاهراً وباطناً، ومن اتصل بخليفة الرسول، وهو الشيخ حكّمه على نفسه، فإن خطر في قلبه شيء يهّم أمره عرضة عليه، والشيخ ينظر بعين البصيرة، لو يطيعكم في كثير من أمركم التي تعزمون عليها لعنتم، ولكن الله حبيب إليكم الإيمان، وزينه في قلوبكم، فتستمعون لما يأمركم به، وتمثلون أمره، وكره إليكم الكفر والفسوق؛ الخروج عن أمره ونهيه، والعصيان لما يأمركم به، فلا ترون إلا مايسركم، ويفضي بكم إلى السهولة والراحة، فضلاً من الله ونعمة، فإن السقوط على الشيخ إنما هو محض فضل وكرم، فله الحمد وله الشكر دائماً سرمداً.

وللقشيري إشارة أخرى، قال: إن جاءكم فاسق بنبأ يشير إلى تسويلات النفوس الأمارة بالسوء، ومجيئها كل ساعة نبأ شهوة من شهوات الدنيا؛ فتبديروا ربحها من خسرانها، من قبل أن تُصيبوا قوماً من القلوب وصفاتها بجهالة، فإن مافيه شفاء النفوس وحياتها فيه مرض القلوب ومعاتها؛ فتصبحوا صباح القيامة على ما فعلتم نادمين، واعلموا أن فيكم رسول الله، يشير إلى رسول الإلهام في أنفسكم، يلهمكم فجور نفوسكم وتقواها، لو يطيعكم في كثير من أمر النفس الأمارة، لعنتم؛ لوقعتم في الهلاك، ولكن الله حبيب إليكم الإيمان بالإلهامات الربانية، وزينه في قلوبكم بقلم الكرم، وكره بنور نظر العناية إليكم الكفر، والفسوق؛ هو ستر الحق والخروج إلى الباطل، والعصيان، وهو الإعراض عن طلب الحق، أولئك هم الراشدون إلى الحق بإرشاد الحق، فضلاً من الله ونعمة منه، يُنعم به على من شاء من عباده، والله عليم حكيم (١). هـ.

ثم أمر الراشدين المتقدمين بالإصلاح بين الناس، إذ لا ينجح في الغالب إلا على أيديهم، فقال:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

(١) لم أقف على هذا النص في محله من لطائف الإشارات.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ أى: تقاتلوا. والجمعُ باعتبار المعنى؛ لأن كل طائفة جمع؛ كقوله: ﴿مَذَانِ خَصِمَانِ اخْتَصَمُوا﴾^(١)، ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بالنصح والدعاء إلى حكم الله تعالى، ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ ولم تتأثر بالنصيحة ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ﴾؛ ترجع ﴿إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ إلى حكمه، أو: إلى ما أمر به من الصلح وزوال الشحناء، والفيء: الرجوع، وقد يسمى به الظل والغنيمة، لأن الظل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنيمة ترجع من أيدي الكفار إلى المسلمين.

وحكم الفلة الباغية: وجوب قتالها، فإذا كُفَّت عن القتال أيدىها تركت. قال ابن جزى: وأمر الله في هذه الآية بقتال الفلة الباغية؛ وذلك إذا تبين أنها باغية، فأما الفتن التي تقع بين المسلمين؛ فاختلف العلماء فيها على قولين، أحدهما: أنه لا يجوز النهوض، فى شيء منها ولا القتال، وهذا مذهب سعد بن أبى وقاص، وأبى ذر، وجماعة من الصحابة، وحجتهم حديث: «قتال المسلم كفر»^(٢)، وحديث: الأمر بكسر السيوف فى الفتن، والقول الثانى: النهوض فيها واجب، لكف الفلة الباغية، وهذا مذهب على، وعائشة، وطلحة، وأكثر الصحابة، وهو مذهب مالك وغيره من الفقهاء، وحجتهم هذه الآية. فإذا فرعنا على القول الأول، فإن دخل داخل على من اعتزل الفرقتين منزله يريد نفسه أو ماله فعلية دفعه، وإن أدى ذلك إلى قتله؛ لحديث: «من قتل دون نفسه وماله فهو شهيد»^(٣)، وإذا فرعنا على الثانى، فاختلف؛ مع من يكون النهوض من الفتنين؟ فقيل: مع السواد الأعظم، وقيل: مع العلماء، وقيل: مع من يرى أن الحق معه . هـ.

قلت: إذا وقعت الحرب بين القبائل فمن تعدت تربتها إلى تربة غيرها فهي باغية، يجب كفها، وإذا وقعت بين الحدود؛ فالمشهور: النهوض، ثم يقع السؤال عن السبب؛ فمن ظهر ظلمه وجب كفه، فإن أشكل الأمر، فالإمساك عن القتال أسلم. والله تعالى أعلم.

﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ عن البغى، وأقلعت عن القتال؛ ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾؛ بفصل ما بينهما على حكم الله تعالى، ولا تكتفوا بمجرد مشاركتهم؛ لئلا يكون بينهما قتال فى وقت آخر، وتقييد الإصلاح بالعدل لأنه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة، وقد أكد ذلك بقوله: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أى: واعدلوا فى كل ما تأتون وما تذكرون،

(١) من الآية ١٩ من سورة الحج.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند، (١٧٨/١) والترمذى فى (الإيمان، باب سباب المؤمن فسوق، ح ٢٦٣٤) والنسائى فى (تحريم الدم، باب قتال المسلم) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخارى فى (المظالم، باب من قاتل دون ماله ح ٢٤٨٠) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، بلفظ: «من قتل دون ماله فهو شهيد». وأخرجه أبو داود فى (السنة، باب فى قتال اللصوص ح ٤٧٧٢) والترمذى فى (الديات، باب من قاتل دون ماله ح ١٤٢١) وكذا ابن ماجه والنسائى، من حديث سعيد بن زيد، بلفظ: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد».

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ : العادلين، فيجازيهم أحسن الجزاء، والقسط بالفتح: الجور، وبالكسر: العدل، والفعل من الأول: قسط فهو قاسط: جار، ومن الثاني: أقسط فهو مقسط: عدل، وهمزته للسلب، أى: أزال القسط، أى: الجور.

والآية نزلت في قتال حدث بين الأوس والخزرج، وذلك أن رسول الله ﷺ ذهب يعود سعد بن عباد، فمر بمجلس من الأنصار، فيه أخلاط من المسلمين والمنافقين، فوقف ﷺ على المجلس، ووعظ وذكر، فقال عبد الله ابن أبي: يا هذا، لا تؤذنا في مجالسنا، واجلس في موضعك، فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: بل أغثنا يا رسول الله وذكرنا، فارتفعت أصواتهما، وتضاربوا بالنعال، فنزلت الآية، وقيل غير ذلك^(١).

وفي الآية دليل على أن الباغى لا يخرج بغيه عن الإيمان، وأنه يجب نصرة المظلوم، وعلى فضيلة الإصلاح بين الناس.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ : أى: منتسبون إلى أصل واحد، وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية، فيجب الاجتهاد في التآلف بينهما لتحقيق الأخوة. والفاء في قوله: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ للإيدان بأن الأخوة الدينية موجبة للإصلاح. ووضع المظهر مقام المضممر مضافاً إلى المأمورين للمبالغة في تأكيد وجوب الإصلاح والتحضيض عليه، وتخصيص الاثنين بالذكر؛ لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولى؛ لتضاعف الفتنة والفساد فيه. وقيل: المراد بالأخوين: الأوس والخزرج. وقرأ يعقوب: «إخوتكم، بالجمع». ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما تأتون وتذرون، التى من جملتها: الإصلاح بين الناس ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ : راجين أن ترحموا على تقواكم، لأن التقوى تحمكم على التواصل والاتلاف، وهو سبب نزول الرحمة.

الإشارة: النفس الطبيعية والروح متقابلان، والحرب بينهما سجال، فالنفس تريد السقوط إلى أرض الحظوظ والبقاء مع عوائدها، والروح تريد العروج إلى سماء المعارف وحضرة الأسرار، وبينما اتصال والتصاق، فإن غلبت النفس هبطت بالروح إلى الحضيض الأسفل، ومنعتها من العلوم الدنية والأسرار الربانية، وإن غلبت الروح، عرجت بالنفس إلى أعلى عليين، بعد تركيتها وتصفيتها، فتكسر حلة الروحانية، وينكشف لها من العلوم والأسرار ما كان للروح، ولكل جند تقابل به، فيقال من طريق الإشارة: وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، بأن تؤخذ

(١) والذي في الصحيح: ما أخرجه البخارى في (الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس، ح ٢٦٩١) ومسلم في (الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين ح ١٧٩٩) عن أنس بن مالك قال: قيل للنبي ﷺ: لو أنيت عبد الله بن أبي؟ قال: فأنطلق إليه، وركب حماراً، وأنطلق المسلمون، وهى أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك على، فوالله لقد أدانى نتن حمارك. فقال رجل من الأنصار: والله؛ لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، قال: فغضب لعبد الله رجل من قومه. قال: فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجرید وبالأيدى وبالنعال، قال: فبلغت أنها نزلت فيهم: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾.

النفس بالسياسة شيئاً فشيئاً، ينقص من حظوظها شيئاً فشيئاً، حتى تنزكى وتعالج الروح لدخول الحضرة، وعكوف الهم في الذكر شيئاً فشيئاً، حتى تدخل الحضرة وهي لا تشعر، ثم تشعر ويقع الاستفراق. وأما إن قُطعت النفس عن جميع مأثوراتها مرة واحدة، أو كُلفت الروح الحضور في الذكر على الدوام مرة واحدة، أفسدتهما، لقوله: **﴿وَلَا تَدْخُلُوا فِي مِثْرِ الَّذِينَ أَخَذُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَلَوْنَ كَيْدَهُمْ فَظَاهَرُوا ظُهُورَهُمْ﴾** (١) وقال أيضاً: «لا يَكُنْ أَحَدُكُمْ كَالْمُنْتَبِتِ، لَا أَرْضَا قَطْعَ وَلَا ظَهراً أَبْقَى» (٢)؛ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى، بأن تُردع النفس إن طغت، وتأخذ لجام الروح إن هاجت، حتى تنفء إلى أمر الله، وهو الاعتدال، فيعطى كل ذي حق حقه، ويوفى كل ذي قسط قسطه.

وقوله تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾** قال المرتضى: أفهم أيها العاقل أن الله سبحانه خلق الأرواح المقدسة من عالم الملكوت، وألبسها أنوار الجبروت؛ فمواردُها من قُربه مختلفة، لكن عيبتها واحدة، وخلق هياكلها وأشباحها من تربة الأرض التي أخلصها من جملة، وزينها بنور قدرته، ونفخ فيها تلك الأرواح، وجعل من الأرواح والأجسام النفوس (٣) الأمارّة التي ليست من قبيل الأرواح، ولا من قبيل الأجسام، وجعلها مخالفة للأرواح ومساكنها، فأرسل الله عليها جند العقول، يدفع بها شرّها، فإذا امتحن الله عباده المؤمنين هيّج نفوسهم الأمارّة؛ ليظهر حقائق درجاتهم من الإيمان، فأمرهم أن يعينوا العقل والروح والقلب على النفس حتى تنهزم؛ لأن المؤمنين كالبديان يشد بعضهم بعضاً.

ثم بين أن في الإصلاح بين الإخوان الفلاح والنجاة، إذا كان مقروناً بالنقوى التي تقدر البواطن من البغى والحسد بقوله: (واتقوا الله لعلكم ترحمون) فإذا فهمت ما ذكرت علمت أن حقيقة الأخرة مصدر الاتحاد، فإنهم كنفس واحدة؛ لأن مصادرهم مصدر واحد، [وهو] (٤) آدم، ومصدر روح آدم نور الملكوت، ومصدر جسمه تربة الجنة في بعض الأقوال. لذلك يصعد الروح إلى الملكوت، والجسم إلى الجنة، كما قال **﴿وَيُصْعَدُ الرُّوحُ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾** (٥)؛ قلت: صعود الروح إلى الملكوت هو شهود معاني الأسرار في دار الجنة، ونزول الجسم إلى الجنة هو تمتعه بتعيم حسها في عالم الأشباح، وكل ذلك بعد الموت، وأحسن العبارة أن يقال: لأن مصادرهم مصدر واحد، وهو بحر الجبروت، المتدفق بأنوار الملكوت، والوجود بأسره مرجّة من بحر الجبروت.

(١) يريد الشيخ حديث: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه...» الحديث أخرجه البخاري في (الإيمان، باب الدين يسر، ح ٣٩) من حديث أبي هريرة **رضي الله عنه**.

(٢) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية ٢٣ من سورة الجاثية.

(٣) عبارة المرتضى: [وجعل بين الأرواح والأجسام والنفوس].

(٤) في الأصول: [بلوا] والمثبت من المرتضى.

(٥) على هامش النسخة الأم ما يلي: لعله يريد: كل ميسر لما خلق له، أما بهذا اللفظ فلا نراه وارد. والله أعلم. هـ.

ثم قال الورتجبي: قال أبو بكر النقاش: سألت الجليل عن الأخ الحقيقي؟ فقال: هو أنت في الحقيقة، غير أنه غيرك في الهيكل. قلت: يعنى أن الناس في الحقيقة ذات واحدة، وما افترقوا إلا في الهياكل، فكلهم أخوة. وقال أبو عثمان الحيرى: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تقطع بمخالفة النسب. هـ. وتقدم لنا شروط الأخوة في قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ...﴾ الآية (١).

وقال القشيري هنا: ومن حق الأخوة ألا تلجأ إلى الاعتذار، بل تبسط عذره أى: تذكر عذره قبل أن يعتذر، فإن أشكل عليك وجهه عدت بالعلامة على نفسك فى خفاء عذره عليك، وتتوب عليه إذا أذنب، وتعوده إذا مرض، وإذا أشار عليك بشيء فلا تطالبه بالدليل وإيراد الحجة، كما أنشدوا:

إِذَا اسْتَنْجِدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مِنْ دَعَاهُمْ لَأَيَّةٍ حَرْبٍ أَمْ لَأَى مَكَانٍ (٢) هـ.

ومن أركد شروطها (٣): التعظيم، كما أبان ذلك بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١١)

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾ أى: عسى أن يكون المسخور منهم خيراً عند الله - تعالى - من الساخرين؛ لأن الناس لا يظلمون إلا على الظواهر، وهو تعليل للهي، والقوم خاص بالرجال؛ لأنهم القوامون على النساء، وهو فى الأصل: جمع قائم، كصوم وزور، فى جمع صائم وزائر، واختصاص القوم بالرجال صريح فى الآية؛ إذ لو كانت النساء داخلة فى الرجال، لم يقل: ﴿ولانساء من نساء﴾، وحقق ذلك زهير فى قوله:

وَمَا أَدْرِى وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِى أَقَوْمٌ أَلْ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءٌ؟ (١)

وأما قولهم فى قوم فرعون، وقوم عاد: هم الذكور والإناث، فليس لفظ القوم شاملاً لهم، ولكن قصد ذكر الذكور، والإناث تبع لهم.

(١) الآية ٦٧ من سورة الزخرف.

(٢) البيت ينسب إلى وداك بن ثميل المازنى. كما فى العقد المفرد (٢٠٢/٥)، ونهاية الأرب (٢٢٩/٣).

(٣) أى: الأخيرة.

(٤) حيث أراد بالقوم الرجال دون النساء. والبيت من الوافر. انظر ديوان زهير (١٢) والمغنى (٤١/١).

﴿وَلَا يَسْخَرُ ﴿نِسَاءٌ﴾ مُؤْمِنَاتٌ ﴿مِنْ نِسَاءٍ﴾ مِنْهُنَّ ﴿عَسَى أَنْ يَكُنَّ﴾ أَيْ: الْمَسْخُورُ مِنْهُنَّ ﴿خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ أَيْ: السَّاخِرَاتُ، فَإِنَّ مَنَاطَ الْخَيْرِيَّةِ فِي الْفَرِيقَيْنِ لَيْسَ مَا يَظْهَرُ مِنَ الصُّورِ وَالْأَشْكَالِ، وَالْأَوْضَاعِ وَالْأَطْوَارِ، الَّتِي عَلَيْهَا يَدُورُ أَمْرُ السَّخَرِيَّةِ، وَإِنَّمَا هِيَ الْأُمُورُ الْكَامِنَةُ فِي الْقُلُوبِ، مِنْ تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ، وَكَمَالِ الْإِيقَانِ، وَمَوَارِدِ الْعِرْفَانِ، وَهِيَ خَفِيَّةٌ، فَقَدْ يُصَغِّرُ الْعَبْدُ مَنْ عَظَّمَ اللَّهُ، وَيَتَحَقَّرُ مَنْ وَقَّرهَ اللَّهُ، فَيَسْقُطُ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ، فَيَنْبَغِي أَلَّا يَجْتَرِئَ أَحَدٌ عَلَى الاسْتِهْزَاءِ بِأَحَدٍ إِذَا رَأَاهُ رَثَّ الْحَالِ، أَوْ ذَا عَاهَةٍ فِي بَدَنِهِ، وَلَوْ فِي دِينِهِ، فَلَعَلَّهُ يَتُوبُ وَيُبْتَغِي بِمَا ابْتُلِيَ بِهِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ فَيُعَاقِبَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ»^(١). وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْقَوْلِ، لَوْ سَخَرْتُ مِنْ كَلْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ أُحَوَّلَ كَلْبًا. هـ.

وَتَكْثِيرُ الْقَوْمِ وَالنِّسَاءِ؛ إِمَّا لِإِرَادَةِ الْبَعْضِ، أَيْ: لَا يَسْخَرُ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِنْ بَعْضٍ، وَإِمَّا لِإِرَادَةِ الشُّيُوعِ، وَأَنْ يَصِيرَ كُلُّ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ مَنَهِيَّةً عَنِ السَّخَرِيَّةِ، وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ: رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ، وَلَا امْرَأَةٌ مِنْ امْرَأَةٍ؛ إِعْلَامًا بِإِقْدَامِ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ رَجَالِهِمْ وَغَيْرِ وَاحِدَةٍ مِنْ نِسَائِهِمْ عَلَى السَّخَرِيَّةِ، وَاسْتِفْظَاعًا لِلشَّأْنِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ وَلَا يَعِيبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِالطَّعْنِ فِي نَسَبِهِ أَوْ دِينِهِ، وَاللَّمْزُ: الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ بِاللِّسَانِ، وَالْمُؤْمِنُونَ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، فَإِذَا عَابَ الْمُؤْمِنُ الْمُؤْمِنَ فَقَدْ عَابَ نَفْسَهُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: لَا تَفْعَلُوا مَا تَلْمِزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ بِالْتَعَرُّضِ لِلْكَلَامِ؛ لِأَنَّ مَنْ فَعَلَ مَا اسْتَحَقَّ بِهِ اللَّمَزَ فَقَدْ لَمَزَ نَفْسَهُ حَقِيقَةً. ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أَيْ: لَا يَدَّعُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِلَقَبِ السُّوءِ، فَالْتِنَابُزُ بِالْأَلْقَابِ: التَّدَاعَى بِهَا. وَالتَّلَقُّيبُ الْمُنْهَى عَنْهُ مَا يَدْخُلُ عَلَى الْمَدْعُوبِ بِهِ كِرَاهِيَةً، لَكُونِهِ تَقْصِيرًا بِهِ وَذَمًّا لَهُ، فَأَمَّا مَا يُحِبُّهُ فَلَا بَأْسَ بِهِ، وَكَذَا مَا يَقَعُ بِهِ التَّمْيِيزُ، كَقَوْلِ الْمُحَدِّثِينَ: حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ وَالْأَحْذَبُ وَالْأَعُورُ.

رَوَى أَنَّ قَوْمًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ اسْتَهْزَأُوا بِبِلَالٍ وَخُبَّابٍ وَعَمَّارٍ وَصُهَيْبٍ، فَنَزَلَتْ^(٢). وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا كَانَتْ تَسْخَرُ مِنْ زَيْنَبَ بِنْتِ خُزَيْمَةَ، وَكَانَتْ قَصِيرَةً. وَعَنْ أَنَسٍ: عَيَّرَتْ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ أُمَّ سَلَمَةَ بِالْقِصَرِ، فَنَزَلَتْ^(٣). وَرَوَى: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ بِهِ وَقْرٌ - أَيْ: صَعَمٌ - فَكَانُوا يَرْسَعُونَ لَهُ فِي مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَى قَوْمًا وَهُوَ يَقُولُ: تَفْسَحُوا، حَتَّى أَنْتَهِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِرَجُلٍ: تَلَحَّ؛ فَلَمْ يَفْعَلْ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: أَنَا فَلَانٌ، فَقَالَ: فَلَانُ بْنُ فَلَانَةَ - يَرِيدُ أُمًّا كَانَ يُعَيَّرُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَخَجَلَ الرَّجُلُ، فَنَزَلَتْ، فَقَالَ ثَابِتٌ: وَاللَّهِ لَا أَفْخَرُ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ هَذَا أَبَدًا^(٤).

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي (صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ، بَابُ ٥٤، ح ٢٥٠٦) مِنْ حَدِيثِ وَائِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٢) عَزَاهُ السَّيُوطِيُّ فِي الدَّر (٩٦/٦ - ٩٧) لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ مَقَاتِلٍ.

(٣) ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ (ص ٤٠٩).

(٤) ذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣٤٢/٧٠ - ٣٤٣) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقال ابن زيد: معنى ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾؛ لا يقل أحد: يا يهودي، بعد إسلامه، ولا يافاسق، بعد توبته. ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ يعني: أن اللقب بئس الاسم هو، وهو ارتكابُ الفسوق بعد الإيمان، وهو استهجان للتنازع بالألقاب، وارتكاب هذه الجريمة بعد الدخول في الإسلام، أو: بئس قول الرجل لأخيه: يافاسق، بعد توبته، أو: يا يهودي، بعد إيمانه، أي: بئس الرمي بالفسوق بعد الإيمان.

رُوي: أن الآية نزلت في صفية بنت حيي، أنت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يقلن لي: يا يهودية بنت يهوديين، فقال ﷺ: «هلا قلت: إن أبي هارون، وعمي موسى، وزوجي محمد ﷺ»^(١)، أو: يراد بالاسم هنا: الذكور، من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو اللؤم، كأنه قيل: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائم أن يذكروا بالفسق.

وقوله: ﴿بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾، استقباح للجمع بين الإيمان والفسق الذي يحظره الإيمان، كما تقول: بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة. ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ عما نهى عنه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بوضع المخالفة موضع الطاعة، فإن تاب واستغفر؛ خرج من الظلم.

وعن حذيفة رضي الله عنه: شَكَوتُ إلى رسول الله ﷺ ذَرْبَ لِسَانِي، فقال: «أين أنت من الاستغفار؟ إني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة»^(٢)، والذَرْب - بفتح الدال والراء: الفحش، وفي حديث ابن عمر: كنا نَعُدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: «رب اغفر لي، وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم»^(٣).

الإشارة: مذهب الصوفية التعظيم والإجلال لكل ما خلق الله، كائنًا من كان؛ لنفوذ بصيرتهم إلى شهود الصانع والمتجلى، دون الوقوف مع حس الصنعة الظاهرة، وقالوا: «شروط التصوف أربعة: كف الأذى، وحمل الجفا، وشهود الصفا، ورمي الدنيا بالقفا». فشهود الصفا يجري في الأشياء كلها، فأياك يا أخى أن تحقر أحدًا من خلق الله؛ فتطرد عن بابه، وأنت لا تشعر، والله در القائل:

(١) أخرجه الترمذى في (المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ ح ٣٨٩٤) والنسائي في الكبرى (عشرة النساء ٣٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣٩٤/٥ و ٣٩٦، ح ٢٣٢٣٣ و ٢٣٢٥٥) وابن أبي شيبة (كتاب الدعاء ٥٧/٦، ح ٢٩٤٣٢) والحاكم (٤٥٧/٢) وصححه وأقره الذهبي، والبيهقي في الشعب (٦٧٨٦).

(٣) أخرجه أبو دارد في (الصلاة، باب في الاستغفار، ح ١٥١٦) والترمذى في (الدعوات، باب ما يقول إذا قام من مجلسه، ح ٣٤٣٤) وقال: «حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه في (الأدب، باب الاستغفار، ح ٣٨١٤) والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص ١٤٨) وزاد السيوطي عزوه في الدر (٤٨/٦) لابن أبي شيبة وابن مردويه، والبيهقي في الأسعاء والصفات.

لِلَّهِ فِي الْخَلْقِ أَسْرَارٌ وَأَنْوَارٌ وَيَصْطَفِي اللَّهُ مَنْ يَرْضَى وَيَخْتَارُ
لَا تَحْقِرَنَّ فَقِيرًا إِنْ مَرَرْتَ بِهِ فَسَقْدُ يَكُونُ لَهُ حِظٌّ وَمَقْدَارُ
وَالْمَرْءُ بِالنَّفْسِ لَا بِاللِّبْسِ تَعْرِفُهُ قَدْ يَخْلُقُ الْغَمْدُ وَالْهَنْدِيُّ بَنَارُ
وَالْتَّبَرُّ فِي التُّرْبِ قَدْ تَخْفَى مَكَانَتُهُ حَتَّى يُخَلِّصَهُ بِالسَّبِّكَ مَسْبَارُ
وَرُبَّ أَشْعَثَ ذِي طَمَرَيْنِ مَجْتَهِدٌ لَهُ عَلَى اللَّهِ فِي الْإِقْسَامِ إِتْرَارُ

وعن أبي سعيد الخراز، قال: دخلت المسجد الجامع، فرأيت فقيراً، عليه خرقتان، فقلت في نفسي: هذا وأشباهه كلُّ على الناس، فناداني، وتلا: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ (١) فاستغفرتُ الله في سري، فناداني وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ (٢) ثم غاب على فلم أراه . هـ .

وقال ﷺ: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة، فيقال لأحدهم: هلم، فيجىء بغمه وكرهه، فإذا جاء أغلق بونه، ثم يفعل به هكذا مراراً، من باب إلى باب، حتى يأتيه الإياس» (٣) . بالمعنى من البدور السافرة .

ثم نهى عن الظن، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن﴾ أي: كونوا في جانب منه، يقال: جنبه الشر إذا أبعد عنه، أي: جعله في جانب منه، واجتنب، يتعدى إلى مفعولين، قال تعالى: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٤) ، ومطاوعه: اجتنب، ينقص مفعولاً، وإبهام الكثير، لإيجاب التأمل في كل ظن، حتى يعلم من

(١) من الآية ٢٣٥ من سورة البقرة .

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الشورى .

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (ح ٦٧٥٧) عن الحسن، مرسلًا .

(٤) من الآية ٣٥ من سورة إبراهيم .

أَيَّ قَبِيلٍ هُوَ، فَإِنَّ مِنَ الظَّنِّ مَا يَجِبُ اتِّبَاعُهُ، كَالظَّنِّ فِيَمَا لَا قَاطِعَ فِيهِ مِنَ الْعَمَلِيَّاتِ، وَحَسَنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْهُ مَا يَحْرُمُ، وَهُوَ مَا يُوجِبُ نَقْصًا بِالْإِلَهِيَّاتِ وَاللَّبَوَاتِ، وَحَيْثُ يَخَالِفُهُ قَاطِعٌ، وَظَنُّ السُّوءِ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْهُ مَا يُبَاحُ، كَأُمُورِ الْمَعَاشِ.

﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، تَعْلِيلٌ لِلأَمْرِ بِالاجْتِنَابِ، قَالَ الزَّجَّاجُ: هُوَ ظَنُّكَ بِأَهْلِ الْخَيْرِ سُوءًا، فَأَمَّا أَهْلُ الْفَسْقِ فَلَمَّا أَنْ نَظُنَّ بِهِمْ مِثْلَ الَّذِي ظَهَرَ عَلَيْهِمْ، وَقِيلَ الْمَعْنَى: اجْتَنِبُوا اجْتِنَابًا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ، وَتَحَرَّزُوا مِنْهُ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ، وَأَوَّلَى كَثِيرُهُ، وَالْإِثْمُ: الذَّنْبُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ الْعِقَابَ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»^(١)، فَالْوَاجِبُ أَلَّا يَعْتَمِدَ عَلَى مَجْرَدِ الظَّنِّ، فَيَعْمَلُ بِهِ، أَوْ يَتَكَلَّمَ بِحَسْبِهِ.

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: وَمَا زَالَ أَوَّلُو الْعِزِّ يَحْتَرِسُونَ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ، وَيَجْتَنِبُونَ ذُرَائِعَهُ. قَالَ النَّوَوِيُّ: وَاعْلَمْ أَنَّ سُوءَ الظَّنِّ حَرَامٌ مِثْلُ الْقَوْلِ، فَكَمَا يَحْرُمُ أَنْ تَحْدِثَ غَيْرَكَ بِمَسَاوِيِّ إِنْسَانٍ؛ يَحْرُمُ أَنْ تَحْدِثَ نَفْسَكَ بِذَلِكَ، وَتُسَيِّءَ الظَّنَّ بِهِ، وَالْمُرَادُ: عَقْدُ الْقَلْبِ وَحُكْمُهُ عَلَى غَيْرِهِ بِالسُّوءِ، فَأَمَّا الْخَوَاطِرُ، وَحَدِيثُ النَّفْسِ، إِذَا لَمْ يَسْتَقِرَّ وَيَسْتَمِرَّ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ، فَمَعْفُوفٌ عَنْهُ بِاتِّفَاقٍ؛ لِأَنَّهُ لَا اخْتِيَارَ لَهُ فِي وَقْعِهِ، وَلَا طَرِيقَ لَهُ إِلَى الْإِنْفِكَاحِ عَنْهُ هـ.

وَقَالَ فِي التَّمْهِيدِ: وَقَدْ ثَبِتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «حَرَّمَ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِ دَمَهُ وَمَالَهُ وَعَرِضَهُ، وَأَلَّا يُظَنَّ بِهِ إِلَّا الْخَيْرَ»^(٢) هـ. وَنَقَلَ أَيْضًا أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَانَ إِذَا ذُكِرَ عَنْدهُ رَجُلٌ بِفَضْلٍ أَوْ صِلَاحٍ، قَالَ: كَيْفَ هُوَ إِذَا ذُكِرَ عَنْدهُ إِخْوَانُهُ؟ فَإِنْ قَالُوا: يَنْتَقِصُ مِنْهُمْ، وَيُنَالُ مِنْهُمْ، قَالَ عُمَرُ: لَيْسَ هُوَ كَمَا تَقُولُونَ، وَإِنْ قَالُوا: إِنَّهُ يَذْكُرُ مِنْهُمْ جَمِيلًا، وَيُحَسِّنُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِمْ، قَالَ: هُوَ كَمَا تَقُولُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ هـ. وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا: «خَصِلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ، حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِعِبَادِ اللَّهِ، وَخَصِلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا شَيْءٌ مِنَ الشَّرِّ، سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ، وَسُوءُ الظَّنِّ بِعِبَادِ اللَّهِ».

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾؛ لَا تَبْحَثُوا عَنْ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَمَعَايِبِهِمْ، يُقَالُ: تَجَسَّسَ الْأَمْرُ: إِذَا تَطَلَّبَهُ وَبَحَثَ عَنْهُ، تَفَعَّلَ مِنَ: الْجَسِّ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: خُذُوا مَا ظَهَرَ وَدَعُوا مَا سَتَرَ اللَّهُ. وَقَالَ سَهْلٌ: لَا تَبْحَثُوا عَنْ طَلَبِ مَا سَتَرَ اللَّهُ عَلَى

(١) أَخْرَجَهُ بَطُولُهُ الْبُخَارِيُّ فِي (الْأَدَبِ، بَابُ «يَأْيَاهَا الَّذِينَ آمَلُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ» ح ٦٠٦٦) وَمُسْلِمٌ فِي (الْبِرِّ وَالصَّلَةِ، بَابُ تَحْرِيمِ الظَّنِّ، ح ٢٥٦٣).

(٢) انْظُرِ التَّمْهِيدَ (١٥٧/٢٠)، وَأَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (٣٧/١١٠ ح ١٠٩٦٦) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْكُعْبَةِ فَقَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مَا أَطْيَبُكَ وَأَطْيَبَ رِيحَكَ وَأَعْظَمَ حَرَمَتَكَ، وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حَرَمَةً مِنْكَ، إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَكَ حَرَامًا، وَحَرَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِ مَالَهُ وَدَمَهُ وَعَرِضَهُ وَأَنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنًّا سِيئًا».

عباده، وفي الحديث: «لا تتبعوا عورات المسلمين؛ فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته» (١).

قال ابن عرفة: من هو مستور الحال فلا يحل التجسس عليه، ومن اشتهر بشرب خمر ونحوه فالتجسس عليه مطلوب أو واجب. هـ. قلت: معناه: التجسس عليه بالشم ونحوه؛ ليقام عليه الحد، لا دخول داره لينظر ما فيها من الخمر ونحوه، فإنه منهي عنه، وأما فعل عمر - رضي الله عنه - فحال غالبة، يقتصر عليها في محلها. وانظر الثعلبي، فقد ذكر عن عمر رضي الله عنه أنه فعل من ذلك أمراً، ومجملها ما ذكرنا.

وقرئ بالحاء (٢)، من «الحس» الذي هو أثر الجس وغايته، وقيل: التجسس - بالجيم - يكون بالسؤال، وبالحاء يكون بالاطلاع والنظر، وفي الإحياء: التجسس - أي: بالجيم - في تطلع الأخبار، والتحسس بالمراقبة بالعين. هـ. وقال بعضهم: التجسس - بالجيم - في الشر، وبالحاء في الخير، وقد يتداخلان.

والحاصل: أنه يجب ترك البحث عن أخبار الناس، والتماس المعاذر، حتى يحسن الظن بالجميع، فإن التجسس هو السبب في الوقوع في الغيبة، ولذلك قدمه الحق - تعالى - على النهي عن الغيبة، حيث قال: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ أي: لا يذكر بعضكم بعضاً بسوء. فالغيبة: الذكر بالعيب في ظهر الغيب، من الاغتيال، كالغيلة من الاغتيال. وسئل عليه السلام عن الغيبة، فقال: «ذكرك أخاك بما يكره، فإن كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته» (٣).

وعن معاذ: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر القوم رجلاً، فقالوا: لا يأكل إلا إذا أطعم، ولا يرحل إلا إذا رحل، فما أضعفه! فقال عليه السلام: «اغتبتم أخاكم»، فقالوا: يا رسول الله، أو غيبة أن يحدث بما فيه؟ قال: «فحسبكم غيبة أن تحدثوا عن أخيك بما فيه» (٤). قال أبو هريرة: قام رجل من عند النبي صلى الله عليه وسلم فرأوا في قيامه عجزاً، فقالوا: يا رسول الله، ما أعجز فلاناً! فقال عليه السلام: «أكلتم لحم أخيك واغتبتموه» (٥).

(١) أخرجه الترمذي في (البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن ح ٢٠٣٢) وابن حبان (موارد ص ٢٥٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وأخرجه أبو داود في (الأدب، باب في الغيبة، ح ٤٨٨٠) من حديث أبي برزة الأسلمي.

(٢) نسبها في البحر المحيط (١١٣/٨) للحسن وأبي رجاء وابن سيرين.

(٣) أخرجه مسلم في (البر والصلة، باب تحريم الغيبة ح ٣٥٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه الأصبهاني في الترغيب (٢٢٠٨) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. ولم أقف عليه من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٥) عزاه المنذرى في الترغيب والترهيب (ح ٤١٧٠) لأبي يعلى في مسنده (٦١٥١) والطبراني - واللفظ له - عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال النووي: الغيبة: كل ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم عاقل، وهو حرام. هـ. قوله: ما أفهمت... الخ، يتناول اللفظ الصريح والكناية والرمز والتعريض والإشارة بالعين والرأس، والتحكية بأن يفعل مثله، كالتعارج، أو يحكى كلامه على هيئته ليضحك غيره، فهذا كله حرام، إن فهم المخاطب تعيين الشخص المغتاب، وإلا فلا بأس، والله تعالى أعلم. ولا فرق بين غيبة الحى والميت، لما ورد: «مَنْ شَتَمَ ميتاً أو اغتابه فكأنما شتم ألف نبي، ومن اغتابه فكأنما اغتاب ألف ملك، وأحبط الله له عمل سبعين سنة، ووضع على قدمه سبعين كية من نار» (١).

والسامع للغيبة كالمغتاب، إلا أن يُغَيَّرَ أو يقوم، وورد عن الشيخ أبي المواهب التونسي الشاذلى أن النبى ﷺ قال له: «فإن كان ولا بد من سماعك غيبة الناس - أى: وقع منك - فاقراً سورة الإخلاص والمعوذتين، واهد ثوابها للمغتاب؛ فإن الله يرضيه عنك بذلك». هـ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الغيبة إدام كلاب الناس. هـ. وتشبيههم بالكلاب فى التمزيق والتخريق، فهم يمزقون أعراض الناس، كالكلاب على الجيفة، لا يطيب لهم مجلس إلا بذكر عيوب الناس. وفى الحديث: «رأيت ليلة أُسرى بى رجلاً لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم ولحومهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم» (٢).

﴿أُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾، هذا تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه. وفيه مبالغات، منها: الاستفهام الذى معناه التقرير، ومنها: فعل ما هو الغاية فى الكراهة موصولاً بالمحبة، ومنها: إسناد الفعل إلى «أحدكم» إشعاراً بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك، ومنها: أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم مطلق الإنسان، بل جعله أخاً للأكل، ومنها: أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتاً. وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها؛ كذلك فأكره لحم أخيك. هـ.

ولما قرره بأن أحداً منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أى: رحيث كان الأمر كما ذكر فقد كرهتموه، فكما تحققت كراهتكم له باستقامة العقل فأكروها ما هو نظيره باستقامة الدين. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى ترك ما أمرتم باجتنابه، والندم على ما صدر منكم منه، فإنكم إن اتقيتم وتبتم تقبل الله توبتكم، وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾؛ مبالغ فى قبول التوبة، وإفاضة الرحمة، حيث جعل التائب كمن لا ذنب له، ولم يخص تائباً دون تائب، بل يعم الجميع، وإن كثرت ذنوبه.

(١) على هامش النسخة الأم: يا أستاذ هذا الحديث كذب موضوع، ظاهر من لفظه. هـ.

(٢) أخرجه أبو داود فى (الأدب، باب فى الغيبة، ح ٤٨٧٨) وأحمد (٢٢٤/٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

رَوَى أَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ يَخْدُم رَجُلَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَيُصْلِحُ طَعَامَهُمَا، فَنَامَ عَنْ شَأْنِهِ يَوْمًا، فَبِعَثَّاهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا عَتَدَى شَيْءٍ، فَأَخْبِرْهُمَا سُلَيْمَانُ، فَقَالَا: لَوْ بَعَثْنَاهُ إِلَى بَدْرٍ سَمِيحَةٍ لَغَارَ مَأْوَاهَا. فَلَمَّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُمَا: «مَا لِي أَرَى حُمْرَةَ اللَّحْمِ فِي أَفْوَاهِكُمَا؟» فَقَالَا: مَا تَدَاوَلْنَا لَحْمًا، فَقَالَ: «إِنْ كُنتُمَا قَدْ اغْتَبَتُمَا، مِنْ اغْتَابٍ مُسْلِمًا فَقَدْ أَكَلْتُمَا لَحْمَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ (١).

وقيل: غيبة الخلق إنما تكون بالغيبة عن الحق. هـ. قاله السفي. قال بعضهم: والغيبة صاعقة الدين، فمن أراد أن يفرق حسناته يميناً وشمالاً؛ فليغيب الناس. وقيل: مثل صاحب الغيبة مثل من نصب ملجئاً فهو يرمى به حسناته يميناً وشمالاً، شرقاً وغرباً. هـ. والأحاديث والحكايات في ذم الغيبة كثيرة، نجانا الله منها بحفظه ورعايته. وهل هي من الكبائر أو من الصغائر؟ خلاف، رجَّح بعض أنها من الصغائر؛ لعدم البلوى بها، قال بعضهم: هي فاكهة القراء، ومراتع النساء، وبساتين الملوك، ومزيلة المتقين، وإدام كلاب الناس. هـ (٢).

الإشارة: مَنْ نَظَرَ النَّاسَ بَعَيْنَ الْجَمْعِ عَذَرَهُمْ فِيمَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ، وَحَصَّنَ الظَّنَّ فِيمَا لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُمْ، وَعَظَّمَ الْجَمِيعَ، وَمَنْ نَظَرَهُمْ بَعَيْنَ الْفَرَقِ طَالَ خُصَمُهُ مَعَهُمْ فِيمَا فَعَلُوا، وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهِمْ فِيمَا لَمْ يَفْعَلُوا، وَصَغُرَ هَمُّهُ حَيْثُ لَمْ يَرِ مِنْهُمْ مَا لَا يُعْجِبُهُ، فَالسَّلامَةُ: النَّظَرُ إِلَيْهِمْ بَعَيْنَ الْجَمْعِ، وَإِقَامَةُ الْحَقِّ عَلَيْهِمْ فِي مَقَامِ الْفَرَقِ، قِيَامًا بِالْحِكْمَةِ فِي عَيْنِ الْقُدْرَةِ. وفي الحديث: «ثَلَاثَةٌ دَبَّتْ لَهُذِهِ الْأُمَةُ: الظَّنُّ، وَالطَّيْرَةُ، وَالْحَسَدُ، قِيلَ: فَمَا النِّجَاةُ؟ قَالَ: إِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تَحَقِّقْ، وَإِذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضُ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبِغْ» (٣) أَوْ كَمَا - قَالَ ﷺ. قَالَ الْقَشِيرِيُّ: النَّفْسُ لَا تُصَدِّقُ، وَالْقَلْبُ لَا يُكْذِبُ، وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَهُمَا مُشْكِلٌ، وَمَنْ بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْ حَظْرَتِهِ بَقِيَّةٌ - وَإِنْ قَلَّتْ - فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَدَّعِيَ بَيَانَ الْقَلْبِ - أَيْ: اسْتِفْتَاءَهُ - بَلْ يَتَّهَمُ نَفْسَهُ مَا دَامَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَجِبُ أَنْ يَتَّهَمَ نَفْسَهُ فِي كُلِّ مَا يَقَعُ لَهُ مِنْ نَقْصَانٍ غَيْرِهِ، هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرٌ قَالَ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ: «كُلُّ النَّاسِ أَفْقَهُ مِنْ عَمْرِ حَتَّى النَّسَاءِ» (١). هـ.

(١) قَالَ الْمَنَاوِيُّ فِي الْفَتْحِ السَّمَاوِيِّ (٣/١٠٠٤): «ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ بِغَيْرِ إِسْنَادٍ، وَرَوَى مَعْنَاهُ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي التَّرغِيبِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى».

(٢) عَلَى هَامِشِ النُّسخَةِ الْأُمِّ مَا يَلِي: غَرِيبٌ هَذَا التَّرْجِيحُ، وَأَغْرَبُ مِنْهُ دَلِيلُهُ، فَالْأَحَادِيثُ الْكَثِيرَةُ الصَّحِيحَةُ تُفِيدُ أَنَّ الْغَيْبَةَ مِنَ الْكِبَائِرِ، بَلْ مِنْ أَكْبَرِهَا، بَلْ مِنْ أَرَبَى الرِّيَاءِ، وَأَشَدَّ مِنْ سِتِّ وَثَلَاثِينَ زَنِيَّةً، وَالزُّنَا وَالرِّيَاءُ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَأَيْضًا: هِيَ مِنْ حَقِّقِ الْخُلُقِ، الَّتِي لَا تُكْفَرُ إِلَّا بِالْإِسْتِحْلَالِ، فَكَيْفَ تَكُونُ مِنَ الصَّغَائِرِ أ. هـ.

(٣) ذَكَرَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي التَّمْهِيدِ (٦/١٢٥) بَلْفِظِ (ثَلَاثٌ لَا يَسْلُمُ مِنْهُنَّ أَحَدٌ...) الْحَدِيثُ، وَعِزَّاهُ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أُمِيَّةٍ. وَذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي الْمَجْمَعِ (٨/٨١) وَابْنُ كَلْبٍ فِي التَّفْسِيرِ (٤/١٣) بَلْفِظِ «ثَلَاثٌ لَازِمَاتٌ لِأَمْنِي...» الْحَدِيثُ، وَفِيهِ: «وَإِذَا حَسَدْتَ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ، وَعِزَّاهُ كُلُّهُمَا لِلطَّبْرَانِيِّ عَنْ حَارِثَةَ بْنِ الدَّعْمَانِ. وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ: «وَفِيهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ قَيْسٍ الْأَنْصَارِيُّ، وَهُوَ ضَعِيفٌ».

(٤) قَالَ ﷺ بَعْدَ أَنْ خُطِبَ نَاهِيًا عَنِ الْمَخَالَاةِ فِي مَهْرِ النِّسَاءِ، وَأَنْ لَا يَزْدَنَ عَنْ أَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ: أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: «وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِدْمَارًا» النِّسَاءُ/ ١٢٠. ذَكَرَهُ فِي كَنْزِ الْعَمَالِ (رَقْمُ ٤٥٧٩٨) وَعِزَّاهُ لِسَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ، وَأَبَى يَحْيَى فِي مُسْنَدِهِ، وَالْمَحَامِلِي فِي أَمَالِيهِ، عَنْ مَسْرُوقٍ، وَانْظُرْ: الشُّذْرَةَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُشْتَهَرَةِ (رَقْمُ ٦٩٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا...﴾ إلخ، التجسس عن أخبار الناس من علامة الإفلاس، قال القشيري: العارف لا ينفرد من شهود الحق إلى شهود الخلق، فكيف ينفرد إلى التجسس عن أحوالهم ١٢ لأن من اشتغل بنفسه لا ينفرد إلى الخلق، ومن اشتغل بالحق لا ينفرد لنفسه، فكيف إلى غيره ١٢ هـ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، ليست الغيبة خاصة باللسان في حق الخاصة، بل تكون أيضاً بالقلب، وحديث النفس، فيعاتبون عليها كما تعاتب العامة على غيبة اللسان، وتذكر قضية الجديد مع الفقير الذي رآه يسأل، وهي مشهورة، وتقدمت حكاية أبي سعيد الخزاز، ونقل الكواشي عن أبي عثمان: أن من وجد في قلبه غيبة لأخيه، ولم يعمل في صرف ذلك عن قلبه بالدعاء له خاصة، والتضرع إلى الله بأن يخلصه منه؛ أخاف أن يبتليه الله في نفسه بتلك المعاييب. هـ. قال القشيري: وعزيز رؤية من لا يغتاب أحداً بين يديك. هـ. وقد أبيحت الغيبة في أمور معلومة، منها: التحرز منه لتلايق الاغترار بكلامه أو صحبته، والترك أسلم وأنجى.

ثم نهى عن الافتخار بالأنساب، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾؛ آدم وحواء، أر: كل واحد منكم من أب وأم، فما منكم من أحد إلا وهو يدلي بما يدلي به الآخر، سواء بسواء، فلا معنى للتفاخر والتفاضل بالنسب. وفي الحديث: الأفضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقى، (٢). وقال أيضاً: ثلاثة من أمر الجاهلية؛ الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والدعاء بدعاء الجاهلية، (٣) أو كما قال ﷺ.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾، الشعوب: رؤوس القبائل، مثل ربيعة ومضر، والأوس والخزرج، واحدها: شعب. بفتح الشين، سمو بذلك لتشعبهم كتشعب أغصان الشجرة، والقبائل: دون الشعوب، واحدها: قبيلة، كبكر من ربيعة، وتميم من مضر. ودون القبائل: العائلات، جمع عمارة بفتح العين، وهم كشيبيان من بكر، ودارم من تميم،

(١) أخرجه مطولاً: البيهقي في الشعب (ج ٥١٣٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع (١٦/٣) بلحوه، وعزاه للطبراني في الكبير. عن سلمان مرفوعاً، وقال: فيه عبد الغفور أبو الصباح،

وهو ضعيف.

ودون العماير: البطون، واحدها: بطن، وهي كبنى غالب ولوى من قريش، ودون البطون: الأفخاذ، واحدها: فخذ، كهاشم وأمية من بنى لوى، ثم الفصائل والعشائر، واحدها: فصيلة وعشيرة، فالشعب تجمع القبائل، والقبيلة تجمع العماير، والعماير تجمع البطون، والبطون تجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل^(١). وقيل: الشعوب من العمم، والقبائل من العرب، والأسباط من بنى إسرائيل. ﴿لَتَعَارَفُوا﴾ أى: إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم نسب بعض، فلا يتعدى إلى غير آبائه، لا لتتفاخروا بالأجداد والأسباب.

ثم ذكر الخصلة التي يفضل بها الإنسان، ويكتسب الشرف والكرم عند الله، فقال: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ أى: لا أنسبكم، فإن مدار كمال النفوس وتفاوت الأشخاص هو التقوى، فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بالتقوى، قال ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ»^(٢) ورُوى أنه ﷺ طاف يوم فتح مكة، ثم حمد الله، وأثنى عليه، وقال: «الحمد لله الذي أذهب [عَبِيَّةَ]»^(٣) الجاهلية وتكبرها، يأيها الناس، إنما الناس رجلان، رجل مؤمن تقى كريم على الله، ورجل فاجر شقى هين على الله» ثم قرأ الآية^(٤).

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقى. وقال قتادة: أكرم الكرم التقى، وألأم اللوم الفجور، وسئل ﷺ عن خير الناس؟ فقال: «أمركم بالمعروف، وأنهاكم عن المنكر، وأوصلكم للرحم، وقال عمر ﷺ: أكرم الرجل: دينه وتقواه، وأصله: عقله، ومروءته: خلقه، وحسبه: ماله»^(٥).

وعن يزيد بن شجرة: مر رسول الله ﷺ في سوق المدينة، فرأى غلاماً أسود، قائماً ينادى عليه؛ من يزيد في ثمنه، وكان الغلام يقول: من اشترابنى فعلى شرط ألا يمتنعنى من الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ، فاشتراه

(١) وقد نظمها بعض الأدباء، فقال: اقصد الشعب فهو أكثر حمى

ثم تلوها العماير ثم الـ

ثم من بعدها العشيرة لكن

هى فى جلب ما ذكرناه قليلة

(٢) أخرجه الحاكم (٢٧٠/٤) والطبرانى فى الكبير (٣٨٩/١٠) وأبو نعيم فى الحلية (٢١٨/٣) عن ابن عباس ﷺ.

(٣) فى الأصول [غيبية] أما عن معناها، فقال ابن الأثير: يعطى الكبر، وتضم عيها وتكسر، وهى فعيلة أو قعيلة، فإن كانت فعيلة، فهى من التعيبة، لأن المتكبر ذو تكلف وتعبية، خلاف من يسترمل على سجيته، وإن كانت فعيلة، فهى من عباب الماء، وهو أرله وارتفاعه. انظر النهاية (عيب ١٦٩/٣) ..

(٤) أخرجه بطوله الترمذى فى (التفسير) سورة الحجرات، ح (٣٢٧٠)، والبيهقى فى تفسيره (٣٤٨/٧) وفى شرح السنة (١٢٤/١٣) من حديث ابن عمر ﷺ.

(٥) أخرجه ابن أبى شبة (٥٢٠/٨) والبيهقى فى السنن (١٠/١٩٥) من قول سيدنا عمر، موقوفاً، بلفظ «حسب الرجل دينه، ومروءته خلقه، وأصله عقله، وأخرج الإمام مالك فى الموطأ (ص ٤٦٣) عن سيدنا عمر موقوفاً: «الكرم التقوى، والحسب والمال...» وأخرج أحمد (٣٦٥/٢) والحاكم (١٢٣/١) والبيهقى فى السنن (١٣٦/٧) وابن حبان (إحسان - ٤٨٣) والقضاعى فى مسند الشهاب (١٩٠) عن أبى هريرة، مرفوعاً: «كرم المرء دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه، قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم».

بعضهم، فعاد رسول الله ﷺ، ثم توفي، فترلى رسول الله ﷺ غسله وتكفينه ودفنه، فقالت المهاجرون: هاجرنا ديارنا وأموالنا وأهلينا، فما نرى أحداً منا لقي في حياته ولا موته مالم يلقى هذا الغلام، وقالت الأنصار: آويناه ونصرناه وواسيناه بأموالنا، فأثر علينا عبداً حبشياً، فنزلت (١).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ، وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ: فَلَانِ بْنِ فَلَانٍ، وَأَنَا الْيَوْمَ أَرْفَعُ نَسَبِي وَأَضَعُ أَنْسَابَكُمْ، أَيْنَ الْمُتَّقُونَ؟» (٢). وقيل: يارسول الله، مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قال: «اتَّقَاهُمْ» (٣). هـ. وأنشدوا:

مَا يَصْنَعُ الْعَبْدُ بِعِزِّ الْفِنَى وَالْعِزُّ كُلُّ الْعِزِّ لِلْمُتَّقِي
مَنْ عَرَفَ اللَّهَ لَمْ تَغْلِبْهُ مَعْرِفَةُ اللَّهِ لِذَلِكَ الشَّقِي

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، عليم بكرم القلوب وتلواها، خبير بهمم النفوس في هواها.

الإشارة: كَانَ سَيِّدُنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَقُولُ: «مَا لَابَنُ آدَمَ وَالْفَخْرُ، أَرَلَهُ نُطْفَةٌ مَذْرُوءَةٌ، وَآخِرُهُ جِيلَةٌ لَذْرَاءٌ، وَلَيْمَّا بَيْنَهُمَا يَحْمِلُ الْعَذْرَةَ» وَكَانَ يُنْشَدُ:

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّمَثِيلِ أَكْفَاءُ أَبُوهُمْ آدَمُ وَالْأُمُّ حُورَاءُ
وَمَنْ يَزِمُ مِنْهُمْ فَخْرًا بِذِي نَسَبٍ فَإِنَّ أَصْلَهُمُ الطَّيْنُ وَالْمَاءُ
مَا الْفَخْرُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّهُمْ عَلَى الْهَدْيِ لَمَنْ اهْتَدَى أَدْلَاءُ
وَقَدَرُ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يُتَّقَنُهُ وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ (٤)

(٦) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٤١١ - ٤١٢) بدون إسناد.

(٢) أخرجه إلى قوله: «وأعمالكم، مسلم في (البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، رقم ٢٥٦٤، ح ٣٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والجزء الثاني جاء في حديث، لفظه: «إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي: ألا إني جعلت نسباً وجعلت نسباً، فجعلت أكرمكم أنفاكم، فأببتم إلا أن تقولوا: فلان بن فلان خير من فلان بن فلان، فالיום أرفع نسبى وأضع نسبكم، أين المتقون؟» الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط (ح ٤٥١١) والصغير (٦٣٤) وينحوه البيهقي في الشعب (ح ٥١٣٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) بعض حديث أخرجه البخاري في (التفسير، سورة يوسف، باب: «لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسالكين» ح ٤٦٨٩) ومسلم في (الفضائل، باب من فضائل يوسف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رقم ٢٣٧٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ولفظ البخاري: مثل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عدد الله أنفاكم، ولفظ مسلم نحوه.

(٤) هكذا في الأصول، والنظر ديوان الإمام علي، جمع وضبط دليم زرزور، (ص ٥ - ٦) وتفسير القرطبي (٦٣٤٧/٧) واتحاف السادة المتقين (٨٨/١) فقد جامت الأبيات فيها بأنم من هنا مع اختلاف.

وقوله: ما للفخر إلا لأهل العلم.. الخ، يعنى: لو كان الفخر مباحاً ما أبيح إلا لهم، وإلا فهم أولى بالتواضع، اقتداء برسول الله ﷺ، وقد قال: «من تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره»^(١) فما رفع الله قدر العلماء إلا بتواضعهم حتى ينالهم الشريف والوضيع، والصغير والكبير، والقوى والضعيف، فمن لم يكن هكذا فليس بعالم؛ لأن الخشية تحمل على التواضع، ومن لم يخش فليس بعالم حقيقة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ﴾، اعلم أن نصيب كل عبد من الله تعالى على قدر تقواه، وتقواه على قدر توجهه إلى الله، وتوجهه على قدر تفرغه من الشواغل، وتفرغه على قدر زهده، وزهده على قدر محبته ومحبته على قدر علمه بالله، وعلمه على قدر يقينه، ويقينه على قدر كشف الحجاب عنه، وكشف الحجاب على قدر جذب العناية، وجذب العناية على قدر السابقة، وهى سر القدر الذى لم يكشف فى هذه الدار. وسقوط العبد من عين الله على قدر قلة تقواه، وقلة تقواه على قدر ضعف توجهه، وضعف توجهه على قدر تشعب همومه، وتشعب همومه على قدر حرصه ورغبته فى الدنيا، ورغبته فى الدنيا على قدر ضعف محبته فى الله، وضعف محبته على قدر جهله به، وجهله على قدر ضعف ياقينه، وضعف اليقين من كثافة الحجاب، وكثافة الحجاب من عدم جذب العناية، وعدم جذب العناية من علامة الضلالان السابق، الذى هو سر القدر، والله تعالى أعلم.

ثم إن أساس التقوى: الإيمان الصادق دون الكاذب، الذى أشار إليه بقوله:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٤)
 ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(١٥)

يقول الحق جل جلاله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ أى: بعض الأعراب ﴿آمَنَّا﴾، نزلت فى نفر من بنى أسد، قدموا المدينة فى سنة جدبة، فأظهروا الإسلام، ولم يؤمنوا فى السر، وأفسدوا طرق المدنية بالعدرات، وأغلوا

(١) لم أفت عليه بهذا اللفظ، وأخرج أحمد فى المسند (٣٦/٣) وابن ماجه فى (الزهد ١٣٩٨/٢/٣، ح ٤١٧٦) عن أبى سعيد القدرى، قال: قال ﷺ: «من يتواضع لله سبحانه درجة يرفعه الله به درجة، ومن يتكبر على الله درجة، يضعه الله به درجة، حتى يجعله فى أسفل سافلين».

(٢) الآية ٢٨ من سورة فاطر.

أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأنثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، وهم يريدون الصدقة، ويقولون: أعطنا، ويمنون بإسلامهم^(١).

﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ لم تؤمنوا ﴾؛ لم تصدقوا بقلوبكم ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾، فالإيمان هو التصديق بالقلب مع الإذعان به، والإسلام هو الدخول في السلم، والخروج من أن يكون حرباً للمؤمنين بإظهار الشهادتين، ألا ترى إلى قوله: ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ فهو يدل على أن مجرد النطق بالشهادتين ليس بإيمان، فالحاصل أن ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطاة للقلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان، وهذا من حيث اللغة، وأما في الشرع فهما متلازمان، فلا إسلام إلا بعد إيمان، ولا إيمان إلا بعد النطق بالشهادة إلا لعذر.

والتعبير بـ«لما» يدل على أن الإيمان متوقع من بعضهم وقد وقع. فإن قلت: مقتضى نظم الكلام أن يقول: قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا، أر: قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم؟ قلت: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً، فقيل: قل لم تؤمنوا، مع حسن أدب، فلم يقل: كذبتم صريحاً، ووضع «لم تؤمنوا» الذي هو نفس ما ادعوا إثباته موضعاً، واستغنى بقوله: «لم تؤمنوا» عن أن يقال: لا تقولوا آمنا؛ لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن القول بالإيمان، ولم يقل: ولكن أسلمتم؛ ليكون قولهم خارجاً مخرج الزعم والدعوى، كما كان قولهم: «آمنا» كذلك، ولو قيل: ولكن أسلمتم؛ لكان كالتسليم، والاعتداد بقولهم، وهو غير معتد به.

وليس قوله: «ولما يدخل الإيمان في قلوبكم» تكريراً لمعنى قوله: «لم تؤمنوا» فإن فائدة قوله: «لم تؤمنوا» تكذيب دعواهم، وقوله: «ولما يدخل الإيمان في قلوبكم» توقيت لما أمروا به أن يقولوه، كأنه قيل لهم: ولكن قولوا أسلمنا حين لم يثبت مواطاة قلوبكم لألسنتكم؛ لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في «قولوا». قاله النسفي.

﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله ﴾ بالإخلاص وترك النفاق ﴿ لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ﴾ من أجورها. يقال: ألت يأل (٢)، وألات يليت، ولات يليت، بمعنى، وهو النقص، ﴿ إن الله غفور ﴾ لما فرط من الذنوب، ﴿ رحيم ﴾ يستر العيوب.

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾؛ لم يشكوا، من: ارتاب، مضارع رابه: إذا أوقعه في الشك والتهمة، والمعنى: أنهم آمنوا ثم لم يقع في إيمانهم شك فيما آمنوا، ولا اتهام لمن صدقوه، ولما كان الإيقان

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ٤١٢) والبغوى فى التفسير (٣٤٩/٧) بذكر إسناد، وعزاه ابن كثير فى التفسير

(٤/٢١٩-٢٢) للبخارى، عن ابن عباس رضى الله عنهما.

(٢) بضم اللام وكسرهما، انظر البحر المحيط (١٠٤/٨).

وزوال الريب ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان، تنبيهاً على علو مكانه، وعُطف على الإيمان بتم؛ إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غصناً جديداً. ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ أي: جاهدوا ما ينبغي جهاده من الكفار والأنفس والهوى، بالإعانة بأموالهم، والمباشرة بأنفسهم في طلب رضا الله. ﴿أولئك هم الصادقون﴾ أي: الذين صدقوا في قولهم: آمنا، لم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد، بل إيمانهم إيمان صدق وحق. والله تعالى أعلم.

الإشارة: مذهب الصوفية: أن العمل إذا كان حده الجوارح الظاهرة يسمى مقام الإسلام، وإذا انتقل لتصفية البواطن بالرياضة والمجاهدة يسمى مقام الإيمان، وإذا فتح على العبد بأسرار الحقيقة يسمى مقام الإحسان، وقد جعل الساحلي مقام الإسلام مركباً من ثلاثة: التوبة والتقوى والاستقامة، والإيمان مركباً من الإخلاص والصدق والطمانينة، والإحسان مركباً من المراقبة والمشاهدة والمعرفة، ولكل زمان ورجال تربية واصطلاح في السير، والمقصد واحد، وهو المعرفة العيانية.

قال القشيري: الإيمان هو حياة القلوب، والقلوب لا تحيا إلا بعد ذبح النفوس، والنفوس لا تموت، ولكنها تغيب. هـ. أي: المقصود بقتل النفوس هو الغيبة عنها في نور التجلي، فإذا وقع الفناء في شهود الحق عن شهود الخلق فلا مجاهدة. وقال القشيري في مختصره: «قالت الأعراب آمناً...» الخ، يشير إلى أن حقيقة الإيمان ليست مما يتناول باللسان، بل هو نور يدخل القلوب، إذا شرح الله صدر العبد للإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ (١)، وقال ﷺ في صفة ذلك الدور: «إنَّ الدور إذا وقع في القلب انفسح له واتسع»، قالوا: يا رسول الله! هل لذلك الدور من علامة؟ قال: «بلى؛ التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله» (٢). لهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: نور الإيمان. هـ.

(وإن تطيعوا الله ورسوله) في الأوامر والنواهي بعد ذبح النفوس بسيف الصدق (لأيلتكم من أعمالكم شيئاً) بل كل ما تقتربون به إلى الله من مجاهدة النفوس تروى جزاءه عاجلاً، من كشف غطاءه، وحلاوة شهوده، إن الله غفور

(١) من الآية ٢٢ من سورة الزمر.

(٢) أخرجه الحاكم (٣١١/٤) والبيهقي في الشعب (ح ١٠٥٥٢) وابن أبي شيبة في مصنفه (الزهد، باب ٦، ح ١٤) والبهقي في التفسير (١١٤/٧ - ١١٥) وابن جرير (٢٧/٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، «والحديث سكت عنه الحاكم، وتعقبه الذهبي، ورواه البيهقي في الأسماء (ص ١٥٦) وقال: «هذا منقطع»، وابن المبارك في الزهد (رقم ٣١٥، ص ١٠٦) عن أبي جعفر المدائني، مرسلاً، ورواه بلخره الحكيم الترمذي في النوادر (الأصل السادس والثمانين) من حديث ابن عمر رضي الله عنه. وقد ذكر ابن كثير (١٧٦/٢) لهذا الحديث طرقاً كثيرة، متصلة ومرسلة، ومال إلى تقويته لتعدد طرقه.

لمن وقع له فتور، رحيم بمن وقع منه نهوض، (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله) وشاهدوا أنواره وأسراره، (ورسوله) حيث عرفوا حقيقة النورانية الأولية، (ثم لم يرتابوا)؛ لم يخطر على بالهم خواطر سوء، ولا شكوك فيما وعد الله من الرزق وغيره؛ لأن حجاب نفوسهم قد زال عنهم، فصار الغيب شهادة، والخبر عياناً، والتعبير به، ثم، يقتضى تأخر تربية اليقين شيئاً فشيئاً حتى يحصل التمكين فى مقامات اليقين، مع التمكن فى مقام الشهود والعيان.

ثم ذكر سبب إزاحة الشكوك عنهم بقوله: (وجاهدوا بأموالهم) حيث بذلوا لله (أنفسهم) حيث جاهدوها فى طلب الله (أولئك هم الصادقون) فى طلب الحق، فظفروا بما أمكوا، وريحوا فيما به تجروا. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

ثم رد على من من على الله بدينه، فقال:

﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٦ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بِلِ اللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٧ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بدينكم ﴾ أى: أتخبرونه بذلك بقواكم آمناً؟ روى أنه لما نزل قوله: ﴿ قُلْ لَا تَمُنُّوا ﴾ جاؤوا يحلفون إنهم لصادقون فأكذبهم الله بقوله: ﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ... ﴾ (١) الخ. والتعبير عنه بالتعليم لغاية تشديعهم، كأنهم وصفوه تعالى بالجهل. قال الهروي: ودعلت، ودأملت، فى اللغة بمعنى واحد، وفى القاموس: وعلمه العلم تعليماً، وأعلمه إياه فتعلمه. هـ. ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فلا يحتاج إلى إعلام أحد، وهو حال مؤكدة لتشديعهم، ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى: مبالغ فى العلم بجميع الأشياء، التى من جملتها ما أخفوه من الكفر عند إظهارهم الإيمان.

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ أى: يعدون إسلامهم مئة عليك، فـأن، نصب على نزع الخافض، والمن: ذكر النعمة على وجه الافتخار. وقال النسفى: هو ذكر الأيادى تعريضاً للشكر، ونهينا (٢) عنه. هـ. فانظره.

(١) انظر تفسير القرطبي (٦٣٥٤/٧).

(٢) فى الأصول: ونهيا.

﴿قُلْ لَا تَتَّبِعُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ﴾ أى: لا تعدوا إسلامكم منةً على، فإن نفعه قاصرٌ عليكم إن صح، ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ أى: المنة إنما هي لله عليكم ﴿أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أى: لأن هداكم، أو: بأن هداكم للإيمان على زعمكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى ادعاء الإيمان، إلا أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليم بخلافه. وجواب الشرط محذوف؛ لدلالة ما قبله عليه؛ أى: إن كنتم صادقين فى ادعاءكم الإيمان فله المنة عليكم.

وفى سياق النظم الكريم من اللطف ما لا يخفى؛ فإنهم لما سموا ما فى صدورهم إيماناً، ومنوا به، نفى تعالى كونه إيماناً، وسماه إسلاماً، كأنه قيل: يمتنون عليك بما هو فى الحقيقة إسلام وليس بإيمان، بل لو صح ادعائهم للإيمان فله المنة عليهم بالهداية إليه لا لهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: ما غاب فيهما، ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فى سرركم وعلائيتكم، وهذا بيان لكونهم غير صادقين فى دعواهم، يعنى: الله تعالى يعلم كل مستتر فى العالم، ويبصر كل عمل تعملونه فى سرركم وعلائيتكم، لا يخفى عليه منه شيء، فيكيف يخفى عليه ما فى ضمائركم. قال الورتجبي: ليس لله غيب، إذ الغيب شيء مستور، وجميع الغيوب عيان لله - تعالى - وكيف يغيب عنه وهو موجد؟! يبصر ببصره القديم ما كان وما لم يكن، وهناك العلم والبصر واحد. هـ. قوله: «العلم والبصر واحد، هذا على مذهب الصوفية فى أن بصره يتعلق بالمعدوم، كما يتعلق به العلم، ومذهب علماء الكلام: أن متعلق البصر خاص بالموجودات، فمتعلق العلم أوسع. وانظر حاشية الفاسى على الصغرى.

الإشارة: كل من تمنى أن يعلم الناس ما عنده من العلم والسر؛ يُقال له: أتعلمون الله بدينكم، والله يعلم ما فى سموات القلوب والأرواح من السر واليقين، وما فى أرض النفوس من عدم القناعة بعلم الله، والله بكل شيء عليم.

وفى الحكم: «استشرفك أن يعلم الناس بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك»^(١). وكل من غلب عليه الجهل حتى من على شيخه بصحبته له، أو بما أعطاه، يقال فى حقه: «يمنون عليك أن أسلموا». الآية. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قال القشيري: فمن لاحظ شيئاً من أعماله وأحواله؛ فإن رآها من نفسه كان شركاً، وإن رآها لنفسه كان مكرراً، وإن رآها من ربه بربه كان توحيداً. وفقنا الله لذلك بمنه وجوده. هـ.

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.



(١) حكمة رقم ١٦١ انظر تبويب الحكم للمتقى الهندى (ص ١١).

سُورَةُ قَافٍ

مكية . وهي خمس وأربعون آية . ووجه مناسبتها : أن السورة قبلها واردة في الترغيب في الأدب ، والترهيب من سوء الأدب ، ولا يتحقق ذلك إلا لمن صحت عنده رسالة الرسول ونبوته ، فأقسم في هذه السورة على تحقيق رسالته وإنذاره بقوله :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَافٌ وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ ﴾ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَمْ دَامَتُنَا وَكُنَّا نَرَىٰ ذَٰلِكَ رَجْعًا بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّسِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قَافٌ ﴾ ؛ أيها القريب المقرب من حضرتنا ﴿ وَ ﴾ حق ﴿ القرآن المجيد ﴾ إنك لرسول مجيد ، أر : ﴿ قَافٌ ﴾ أي : وحق القوى القريب ، والقادر القاهر . وقال مجاهد : هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء ، وعليه طغى الماء ، وخضرة السماء منه ، والسماء مقببة عليه ، وما أصاب الناس من زمرد فمما تساقط من ذلك الجبل . وروى أن ذا القرنين وصل إليه ، فخاطبه (١) ، وقال : يا قاف أخبرني بشيء من عظمة الله ، قال : إن

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢٢٢/٤) : « وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا : قَافٌ ، جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له : جبل قاف ، وكان هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأوا من جواز الرواية عنهم ، مما لا يصدق ولا يكذب ، وعندى : أن هذا وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر ديلهم . »

شأن ربنا لعظيم، وإن ورائي أرضاً ميسرة خمسمائة عام، في عرض خمسمائة عام، من ثلج يحطم بعضه بعضاً، لولا ذلك الثلج لاحتُرقت من نار جهنم. هـ.

﴿والقرآن المجيد﴾ أي: ذي المجد والشرف على سائر الكتب، أو: لأنه كلام مجيد، من علم معانيه وعمل بما فيه مجد عند الله وعند الناس. وجواب القسم محذوف، أي: إنك لرسول نذير، أو: لتبعثن، بدليل قوله: ﴿أنذا متنا﴾ الخ، أو: إنا أنزلناه إليك لتنذر به فلم يؤمنوا، ﴿بل عجبوا أن جاءهم﴾ أي: لأن جاءهم ﴿منذر منهم﴾، من جنسهم، لا من جنس الملائكة، أو: من جلدتهم، وهو إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن يخوفهم من غضب الله رجل منهم قد عرفوا عدالته وأمانته، ومن كان كذلك لم يكن إلا ناصحاً لقومه، خائفاً أن ينالهم مكروه وإذا علم أن مخوفاً أظلمهم لزمه أن ينذرهم، فكيف بما هو غاية المخارف؟ أو إنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما، وإقرارهم بالنشأة الأولى، مع شهادة العقل بأنه لا بد من الجزاء، وإلا كان إنشاء الخلق عبثاً. ثم بين تعجبهم بقوله: ﴿فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾ أي: هذا الذي يقوله محمد من البعث بعد الموت شيء عجيب، أو: كون محمد منذراً بالقرآن شيء يُعجب منه. روضع الكافرون، موضع الضمير للدلالة على أنهم في قولهم هذا مقدمون على كفر عظيم.

ثم قالوا: ﴿أنذا متنا وكنا تراباً﴾ أي: أنبعث حين نموت ونصير تراباً كما يقوله هذا النذير؟ ﴿ذلك رجع بعيد﴾ أي: ذلك البعث بعد هذه الحالة رجوع مستبعد، منكر، بعيد من الهم والعادة. فالعامل في إذا، محذوف مفهوم من الكلام كما قدرنا. قال تعالى: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾، وهو رد لاستبعادهم؛ فإن من عم علمه ولطفه حتى ينتهي إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى، وتأكل من لحومهم وعظمتهم، كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا؟ عن النبي ﷺ: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، ومنه خلق، وفيه يركب»، (١) وهو العُصْصُ، وقال في المصباح: العَجَبُ (٢) - كفلس - من كل دابة: ما انضم عليه الورك من أصل الذنب. هـ. وهو عظم صغير قدر الحمصة، لا تأكله الأرض، كما لا تأكل أجساد الأنبياء والأولياء والشهداء. قال ابن عطية: حفظ ما تنقص الأرض إنما هو ليعود بعينه يوم القيامة، وهذا هو الحق. وذهب بعض الأصوليين إلى أن الأجساد المبعوثة يجوز أن تكون غير هذه، هذا عندي خلاف ظاهر كتاب الله، ولو كانت غيرها كيف كانت تشهد الجلود والأيدي والأرجل على الكفرة؟ إلى غير ذلك مما يقتضي أن أجساد الدنيا هي التي تعود. هـ.

(١) أخرجه مسلم في (الفتن، باب ما بين النفختين ح ٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري مطولاً وبلحظه في (التفسير - سورة الزمر، باب «ونفخ في الصور» ح ٤٨١٤).

(٢) بسكون الجيم.

﴿وعندنا كتابٌ حفيظ﴾ لتفاصيل الأشياء، أو: محفوظ من التغيير، وهو اللوح المحفوظ، أو: حافظاً لما أودعه وكتب فيه، أو: يريد علمه تعالى، فيكون تمثيلاً لعلمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها، بعلم من عنده كتاب حفيظ ينقل منه كل شيء.

﴿بل كذبوا بالحق﴾، إضراب وانتقال من بيان شناعتهم السابقة، وتكذيب البعث، إلى ما هو أشنع منه وأقطع، وهو تكذيبهم للنبوة الثابتة بالمعجزات الباهرة، ﴿لَمَّا جاءهم﴾ من غير تأمل وتفكر، وقيل: الحق: القرآن، أو: الإخبار بالبعث، ﴿فهم في أمرٍ مريج﴾ مضطرب، لا قرار له، يقال: مرج الخاتم في أصبعه إذا اضطرب من سعته، فيقولون تارة: مجنون، وطوراً: ساحر، ومرة: كاهن، ولا يثبتون على قول. أو: مختلط، يقال: مرج أمر الناس: اختلط. أو: ملبس، قال قتادة: من ترك الحق مرج عليه أمره، وألبس عليه دينه.

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم﴾ بحيث يشاهدونها كل وقت ﴿كيف بنيناها﴾؛ رفعناها بغير عمد ﴿وزيناها﴾ بما فيها من الكراكب المترتبة على نظام عجيب، ﴿ومالها من فروع﴾؛ من فروع لملاستها وسلامتها من كل عيب وخلل، ﴿والأرض مددناها﴾؛ بسطناها ﴿وألقينا فيها رواسي﴾؛ جبلاً ثوابت، من: رسي الشيء: ثبت، والتعبير عنها بهذا الوصف للإيذان بأن إلقاءها إنما هو للإرساء، ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج﴾؛ صنف ﴿بهيج﴾؛ حسن. ﴿تبصرةً وذكرى﴾ علتان للأفعال المذكورة، أي: فعلنا ما فعلنا تبصراً وتذكيراً ﴿لكل عبدٍ منيب﴾ أي: راجع إلى ربه، متفكر في بدائع صنائعه.

﴿ونزلنا من السماء ماءً مباركاً﴾؛ كثير المنافع ﴿فأنبتنا به جنات﴾؛ بساتين كثيرة ﴿وحبّ الحصيد﴾ أي: حب الزرع الذي شأنه أن يحصد من البر والشعير وأمثالهما، وتخصيص حب الحصيد بالذكر لأنه المقصود بالذات؛ إذ به جل القوام.

﴿والنَّحْلَ باسقات﴾؛ طوالاً في السماء، أو: حوامل، من: بسقت الشاة: إذا حملت. وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في جنات، لبيان فضلها على سائر الأشجار، ﴿لها طلع نضيد﴾؛ منصود، بعضه فوق بعض، والمراد: تراكم الطلع، أو: كثرة ما فيه من الثمر، ﴿رزقاً للعباد﴾ أي: لرزق أشباحهم، كما أن قوله: ﴿تبصرةً وذكرى﴾ لرزق أرواحهم. وفيه تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه بما ذكر من حيث التذكر والتبصر الذي هو رزق الروح أهم وأقدم من تمتعه من حيث الرزق الحسى، ﴿وأحيينا به﴾؛ بذلك الماء ﴿بلدةً ميثاً﴾؛ أرضاً جذبة، لا نماء فيها أصلاً، فلما أنزلنا عليها الماء ريت واهتزت بالنبات والأزهار، بعد ما كانت جامدة. وضمن البلدة معنى

البلاد فذكر الوصف. ﴿كذلك الخروج﴾ من القبور، فكما حييت هذه البلدة الميتة كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم، لأن إحياء الموات كإحياء الأموات. وقدم الخبر للقصد إلى القصر. والإشارة في ذلك، إلى الحياة المستفادة من الإحياء، وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد رتبها، أي: مثل ذلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور، لأشياء مخالفة لها. وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء، وعن حياة الأموات بالخروج؛ تفخيم لشأن النبات، وتهوين لأمر البعث، وتحقيق للمماثلة؛ لتوضيح منهاج القياس، وتقريبه إلى أفهام الناس.

الإشارة: ﴿ق﴾ أيها القريب المقرب، وحق القرآن المجيد، إنك لحبيب مجيد، رسول من عند الملك المجيد، وإن كنت بشراً فنسبتك من البشر كيقوتة بين الحجر، فالبشرية لا تنافي الخصوصية، بل تجامعها منه تعالى وفضلاً، على من شاء من عباده، فاستبعاد الكفار مجامعة الخصوصية للبشرية كاستبعاد إبليس تفضيل آدم لكونه بشراً من طين، وذلك قياس فاسد، مضاد للصل، وكما استبعدت الكفرة وجود خصوصية النبوة في البشر، استبعدت الجهلة خصوصية التربية بالاصطلاح في البشر، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم، يدل على الله، ويبين الطريق إليه، قالوا: هذا شيء عجيب، أئذا متنا؛ بأن ماتت قلوبنا بالغفلة، وكنا تراباً أرضيين بشريين، تحيي أرواحنا بمعرفة العيان؟ ذلك رجع بعيد.

قال تعالى: (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أرض النفوس من أرواحهم، وتهوى بها إلى الحضيض الأسفل، فيجذبها إلى أعلى عليين، إن سبقت عنايتنا، وعندنا كتاب حفيظ يحفظ المراتب والمقامات، فيلتحق كل واحد بما سبق له. بل كذبوا بالحق، وهو الداعي إلى الحق، لما جاءهم في كل زمان، فهم في أمر مريج، تارة يُقرّون وجود التربية بالهمة والحال، وينكرون الاصطلاح، وتارة يُقرّون بالجميع، وينكرون تعيينه، أقلم ينظروا إلى سماء القلوب والأرواح، كيف بليتها، أي: رفعتها بالعلوم والمعارف، وزينها بأنوار الإيمان والإحسان، وليس فيها خلل، وأرض النفوس مددناها: جعلناها بساطاً للعبودية، وألقينا فيها رواسي أرسيناها بالعقول الصافية الثابتة، لئلا تضطرب عند زلزلات الامتحان، وأنبتنا فيها من كل صنف بهيج، من فنون علم الحكمة والتشريع، تبصرة وتذكيراً لكل عبد منيب، راجع إلى مولاه، قاصد لمعرفته.

قال القشيري: تبصرة وذكرى لمن رجع إلينا في شهود أفعالنا إلى رؤية صفاتنا، ومن شهود صفاتنا إلى شهود ذاتنا. هـ. ونزلنا من السماء ماء العلوم اللدنية، كثير البركة والنفع، فأنبطنا به جنات المعارف وحب الحصيد، وهو حب المحبة؛ لأنه يحصد من القلب محبة ما سوى الله. والنخل باسقات، أي: شجرة المعرفة الكاملة لها طلع نصيد:

ثمرة المعرفة وحلاوة الشهود، رزقاً لأرواح العباد، وأحيينا به نفساً مينة بالغفلة والجهل، كذلك الخروج من ظلمة الجهل إلى نور العلم، أى: مثل هذا الخروج البديع يكون الخروج، وإلا فلا.

ثم هددهم بما جرى على من قبلهم، فقال

﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أى: قبل قريش ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ نوحاً، حيث أنذرهم بالبعث، ﴿ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾، قيل: هم من بعث إليهم شعيب عليه السلام كما مر في سورة الفرقان بيانه (١) وقيل: قوم باليامة، وقيل: أصحاب الأخدود. والرس: بئر لم تطو، ﴿ وَثَمُودُ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ ﴾، أراد بفرعون قومه؛ ليلائم ما قبله؛ لأن المعطوف عليه جماعات، ﴿ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾، قيل: كان قومه من أصحابه عليه السلام، فسماهم إخوانه، ﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ هم ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام غير أهل مدين، ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هو ملك باليمن، دعا قومه إلى الإسلام وهم حمير، فكذبوه، وسمي تبعاً؛ لكثرة تبعه.

قال ابن إسحاق: كان تبع الآخر هو أسعد بن كرب، حين أقبل من المشرق، ومر على المدينة، ولم يهج أهلها، وخلف عندهم ابناً له، فقتل غيلة، فجاء مجمعاً على حربهم، وخراب المدينة، فأجمع هذا الحى من الأنصار على قتاله، وسيدهم عمرو بن طلحة، أخو بنى النجار، ففرغ الأنصار: أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار، ويقرونه بالليل، فيعجبه ذلك، ويقول: إن قوما هؤلاء لكرام، فبينما هو كذلك إذ جاءه حبران من أحبار بنى قريظة، من علماء أهل زمانهما، فقالا: أيها الملك لا تقاتلهم، فإننا لا نأمن عليك العقوبة؛ لأنها مهاجر نبي يخرج من هذا الحى، من قريش، في آخر الزمان، هي داره وقراره، فكف عنهم، ثم دعواهم إلى دينهما، فاتبعهما، ثم رجع إلى اليمن، فقالت له حمير: لا تدخلها وقد فارقت ديننا، فحاكمتنا إلى النار، وقد كانت باليمن نار أسفل جبل يتحاكمون إليها، فتأكل الظالم ولا تضر المظلوم، فخرجوا بأصنامهم، وخرج الحبران بمصاحفهما، فأكلت النار الأوثان، وما قرّبوا معها، ومن دخل ذلك من رجال حمير، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما، يثلوان التوراة، ولم تضرهما، فأطبق

(١) راجع تفسير الآية ٣٨ من سورة الفرقان.

أهل حمير على دين الحبرين، فمن هنالك كان أصل اليهودية باليمن. قال الرياشي: كان أبو كرب أسعد الحميري من التباينة، آمن بالنبي ﷺ قبل أن يبعث بسبعمئة سنة. وتقدم شعره في الدُخَان (١).

﴿كُلُّ كَذِبٍ الرِّسْلِ﴾ فيما أرسلوا به من الشرائع، التي من جملتها: البعث الذي أجمعوا عليه قاطبة، أي: كل قوم من الأقوام المذكورين كذبوا رسولهم ﴿فحق وعيد﴾ أي: فوجب وحل عليهم وعيدي، وهي كلمة العذاب. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لهم.

﴿أفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾، استئناف مقرر لصحة البعث، الذي حكيت أحوال المنكرين له من الأمم المهلكة. والمعنى بالأمر: العجز عنه، يقال: عجزى بالأمر: إذا لم يهتد لوجه عمله. والهمزة للإنكار، والفاء: عطف على مقدر، ينبئ عنه المقام، كأنه قيل: أقصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه حتى يترهم عجزنا عن الإعادة؟ ﴿بل هم في لبس من خلق جديد﴾ أي: بل هم في لبس وخط و شبهة، قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم، حيث سؤل لهم أن إحياء الموتى خارج عن العادة، فتركوا لذلك الاستدلال الصحيح، وهو: أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر. وهو معطوف على مقدر يدل عليه ما قبله، كأنه قيل: هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأول، بل هم في خلط وشبهة من خلق مستأنف جديد. وتكثير الخلق لتفخيم شأنه، والإشعار بخروجه عن حدود العادة، والإيذان بأنه حقيق بأن يبحث عنه ويهتم بمعرفته.

الإشارة: قال القشيري: الإشارة في الآية إلى أن الغالب في كل زمان غلبة الهوى والطبيعة الحيوانية واستيلاء الحس على الناس، نفوسهم متمردة، بعيدة من الحق، قريبة من الباطل، كلما جاء إليهم رسول كذبوه، وعلى ما جاء به قاتلوه، فحق عليهم عذاب ربهم، لما كفروا نعمة، فما أعياهم إهلاكهم. هـ. قلت: وكذلك جرى في كل زمان، كل من أمر الناس بإخراجهم عن عوائدهم، ومخالفة أهوائهم، رفضوه وعادوه، فقل بسبب ذلك المخلصون، وكثر المخطئون، فإذا قالوا: لا يمكن الإخراج عن العوائد، قلنا: القدرة صالحة، قال تعالى: ﴿أفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ بل هم في لبس من خلق جديد، وهو إحياء القلب الميت، فيجدد إيمانه، وتحيا روحه حياة سرمدية. وبالله التوفيق.

ثم إن عادته تعالى في التنزيل: أنه مهما ذكر دلائل قدرته ذكر بآثره شأن علمه، أو بالعكس، إشارة إلى إسناد كل المقدرات إليه تعالى، رداً على الطباعيين؛ لأن الفاعل بالطبيعة لا يتوقف على العلم، ولذلك قال تعالى:

(١) راجع تفسير الآيات: ٣٤ - ٣٩.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦
 إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨
 وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ
 الْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا
 عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ أى: ما تحدثه نفسه ويهجس في ضميره من خير وشر. والوسوسة: الصوت الخفى، ووسوسة النفس: ما يخطر بالبال. والضمير فى «به» لـ «ما» إن جعلتها موصولة، والباء كما فى: صوت بكذا، أو: للإنسان، إن جعلتها مصدرية. والباء حينئذ للتعددية. ﴿ ونحن أقرب إليه ﴾ أى: أعلم بحاله مما كان أقرب إليه ﴿ من حبل الوريد ﴾. والحبل: العرق، وإضافته بيانية والوريدان: عرقان مكتفان بصفحتي العنق فى مقدمه متصلان بالوتين، والوتين: عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه. قاله فى القاموس، يردان من الرأس إليه، وقيل: سُمى وريد؛ لأن الماء يرد.

﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ أى: الملكان الحافظان لأعمال العبد. والظرف: منصوب بما فى «أقرب» من معنى الفعل، أى: يتقرب إذ يتلقى. والمعنى: أنه تعالى لطيف يتوصل علمه إلى ما لا شئ أخفى منه، وهو أقرب للإنسان من كل قريب، حين يتلقى الحافظان ما يتلفظ به، وفيه إيذان بأنه تعالى غنى عن استحفاظها؛ لإحاطة علمه بما يخفى عليهم، وإنما ذلك لما فى كتبهما وحفظهما لأعمال العباد، وعرض صحائفها يوم يقوم الأشهاد، وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطته بتفاصيل أحواله من زيادة لطف به فى الكف عن السيئات، والرغبة فى الحسنات. ثم ذكر مكانهما بقوله: ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ أى: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، وحذف الأول للدلالة الثانى عليه. وقعيد: بمعنى مقاعد، كالجلوس بمعنى المجالس، أو: بمعنى قاعد، كالسميع والعليم. وعنه عليه السلام: «إن مقعد ملكك على ثنيتيك، ولسانك قلمهما، وريقك مدادهما، وأنت تجرى فيما لا يعينك لا تستحيى من الله ولا منهما» (١) وقال الضحاك: مجلسهما تحت الثغر من الحنك، ورواه عن الحسن (٢)، وكان يعجبه أن يلطف عنقته (٣).

(١) ذكره بلقظه القرطبي فى التفسير (٦٣٦٥/٧) عن سيدنا على عليه السلام، مرفوعاً، وقال السيوطى فى الدر المنثور (١١٨/٦): أخرجه أبو نعيم والديلمى، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، مرفوعاً: «إن الله لطف الملكين الحافظين حتى أجلسهما على الناجنين، وجعل لسانه قلمهما، وريقه مدادهما».

(٢) العبارة فى القرطبي: ورواه عوف عن الحسن قال: وكان يعجبه.. الخ.

(٣) العنقته: شعيرات بين الشفة السفلى والذقن. انظر: النهاية (عنق ٣/٣٠٩).

﴿ ما يلفظ من قول ﴾ أى: ما يتكلم به وما يرمى به من فيه ﴿ إلا لديه رقيب ﴾؛ حافظ ﴿ عتيد ﴾؛ حاضر لازم، أو معد مهياً لكتابة ما أمر به من الخير والشر. وقال أبو أمامه عنه عليه السلام: «كاتب الحسنات عن يمين الرجل وكاتب السيئات عن يساره، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات، لعله يسبّح أو يستغفر» (١).

قال الحسن: إن الملكين يجتنبان العبد عند غائطه، وعند جماعه، ويكتبان عليه كل شيء، حتى أنبئه في مرضه. وقال عكرمة: لا يكتبان عليه إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر (٢). وعنه عليه السلام: «ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا، فيرى الله تعالى في أول الصحيفة خيراً وفي آخرها خيراً، إلا قال للملائكة: اشهدوا أني قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة» (٣). والحفظه أربعة، اثنان بالليل، واثنان بالنهار، فإذا مات العبد قاموا على قبره يكبران ويهللان ويكتب ذلك للعبد المؤمن.

ولما ذكر إنكارهم للبعث، واحتج عليهم بعموم قدرته وعلمه، أعلمهم أن ما أنكروه هم لا قره بعد الموت، ونبهه على اقتراب ذلك بأن عبّر عنه بلفظ الماضي فقال: ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق .. ﴾ الخ. وقال ابن عطية: هو عندي عطف على «إذ يتلقى» والتقدير: وإذ تجيء سكرة الموت، يعنى فهو كقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ الآية (٤) هـ. وحاصل الآية حينئذ: ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ظاهره وباطنه، ونحن أقرب إليه في جميع أحواله، في حياته، ووقت مجيء سكرة الموت، أى: شدته الذاهبة بالعقل، ملتبسة ﴿ بالحق ﴾ أى: بحقيقة الأمر، وجلاء الحال، من سعادة الميت أو شقاوته، ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ أى: تنفر وتهرب وتميل عنه طبعاً. والإشارة إلى الموت. والخطاب للإنسان في قوله: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ على طريقة الالتفات.

﴿ ونفخ في الصور ﴾ نفخة البعث ﴿ ذلك يوم الوعيد ﴾ أى: وقت ذلك النفخ هو يوم الوعيد، أى: يوم إنجاز الوعد ووقوع الوعيد. وتخصيص الوعيد بالذكر؛ لتحويله، ولذلك بدأ ببيان حال الكفرة بقوله: ﴿ وجاءت كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من النفوس البرة والفاجرة ﴿ معها سائق وشهيد ﴾ أى: ملكان، أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد

(١) أخرجه البغرى في التفسير (٣٥٩/٧) والبيهقى في الشعب (الباب السابع والأربعون، ح ٧٠٤٩) والطبراني في الكبير (٢٢٥/٨)، ح ٧٧٨٧ وأيضاً (٢٩٥/٨ - ٢٩٦، ح ٧٩٧١) وأبو نعيم في الحلية (١٢٤/٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (٢٠٨/١٠): «رواه الطبراني بأسانيد، رجال أحدهما وثقوا».

(٢) عزاء السيوطي في الدر (١١٩/٦) لابن المنذر.

(٣) ذكره القرطبي (٦٣٦٦/٧) عن أبي هريرة وأنس - رضي الله عنهما.

(٤) الآية ٨٥ من سورة الواقعة.

عليه بعمله . قيل: السائق: كاتب الحسنات، والشاهد: كاتب السيئات، ويقال لها: (لقد كنت في غفلة من هذا) النازل بك اليوم، ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾ فأزلنا غفلتك، وهو الوقوف مع المحسوسات والإلف، والانهماك في الحظوظ، وقصر النظر عليها، فشاهدت اليوم ما كنت غافلاً عنه ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ : نافذ؛ لزال المانع . جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده، أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئاً، فإذا كان يوم القيامة سقط، وزالت عنه الغفلة، وكشف غطاؤه، فبصر ما يبصره من الحق، ورجح بصره الكليل حديداً، لتيقظه حين لم يرفع اللفظ .
وبالله التوفيق

الإشارة : هذه الآية وأشباهها أصل في مقام المراقبة القلبية، فينبغي للعبد أن يستحيى من الله أن يحدث في نفسه بشيء يستحيى أن يظهره، يعنى الاسترسال معه، وإلا فالخواطر العارضة لا قدرة على دفعها . قال القشيري: (ما توسوس به نفسه) من شهوة تطلب استيفاءها، أو تصنع مع الخلق، أو سوء خلق، أو اعتقاد فاسد، أو غير ذلك من أوصاف النفس، توسوس بذلك لتشوش عليه قلبه ووقته، وكيف لا تعلم ذلك وكل ذلك مما خلقناه وقدرناه . هـ .

وقوله تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ أى: أنا أقرب إلى كل أحد من عروق قلبه، وهذا لأن قيام الفعل بالصفات، والصفات لا تفارق الذات، فالقرب بالعلم والقدرة، وتستلزم القرب بالذات، وقرب الحق من خلقه هو قرب المعانى من الأوانى، إذ هى كليتها وقائمة بها، فافهم . قال القشيري: وفى هذه الآية هيبة وفزع لقوم، وروح وأنس وسكون قلب لقوم . هـ . وقوله تعالى: ﴿إذ يتلقى المتلقيان﴾ الخ، كأنه تعالى يقول: من لم يعرف قدر قريى منه، بأن يعده وهمه وجهله، فإنى أوكل عليه رقيبين يحفظان أعماله لعله ينزجر .

وقوله تعالى: ﴿ما يلفظ من قول..﴾ الخ، وأما عمل القلوب فاختص الله تعالى بعلمها، وهى محض الإخلاص . قال بعضهم: الإخلاص: إخفاء العمل بحيث لم يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، فالعارفين جل أعمالهم قلبية، نظرة أو فكرة . روى أن بعض العارفين قال له حفظته: يا سيدى أظهر لنا شيئاً من أعمالك نفرح به عند الله، فقال لهم: يكفيكم الصلوات الخمس . هـ . قال القشيري: وفيه أيضاً إشارة إلى كمال عنايته فى حق عباده، إذ جعل على كل واحد رقيبين من الملائكة ليحفظوه بالليل والنهار، إذا كان قاعداً فواحد عن يمينه وواحد عن شماله، وإذا قام فواحد عند رأسه، وواحد عند قدميه، وإذا كان ماشياً فواحد بين يديه وواحد خلفه . انظر بقيته . هـ . وهذان غير الملكين الموكلين بحفظ الأعمال . والله أعلم .

وقال فى قوله: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾: إذا أشرفت النفس على الخروج من الدنيا، فأحوالهم تختلف، فممنهم من يزداد فى ذلك الوقت خوفه، ولا يتبين حاله إلا عند ذهاب الروح، ومنهم من يكشف قبل خروجه

فَتَسْكُنُ رُوحَهُ^(١)، وَيُحْفَظُ عَلَيْهِ عَقْلُهُ، وَيَتِمُّ لَهُ حَضُورُهُ وَتَمْيِيزُهُ، فَسَلَّمَ الرُّوحَ عَلَى مَهَلٍ مِنْ غَيْرِ اسْتِكْرَاهٍ وَعَبَوسٍ مِنْهُمْ. وَفِي مَعْنَاهُ يَقُولُ بَعْضُهُمْ:

أَنَا إِنْ مِتُّ فَالْهُوَى حَشَوُ قَلْبِي وَبَدَأَ الْهُوَى تَمُوتُ الْكِرَامُ^(٢).

«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الرَّعِيدِ» لكل نفس ما وعدّها الله، بحسب سيرها من أول العمر إلى يوم البعث، (وجاءت كل نفس معها سائق) وهو الذي ساقها في مبدأ الوجود، إما سوقاً باللطف، أو سوقاً بالعنف عند قوله: «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي» وهؤلاء إلى النار ولا أبالي^(٣)، وشهيد يشهد عليها بما جرى لها من الأحكام الأزلية (لقد كنت في غفلة من هذا) قال القشيري: يشير إلى أن الإنسان، وإن خلق من عالم الغيب والشهادة، فالغالب عليه في البداية الشهادة، وهو العالم الحسي، فيرى بالحواس الظاهرة العالم المحسوس مع اختلاف أجناسه، وهو بمعزل عن إدراك عالم الغيب، فمن الناس يكشف له غطاؤه عن بصر بصيرته، فيجعل حديداً، يبصر رشده، ويحذر شره، وهم المؤمنون من أهل السعادة، ومنهم من يكشف له غطاء عن بصر بصيرته يوم القيامة يوم لا ينفع نفساً إيمانها.. الآية^(٤)، وهم الكفار من أهل الشقاوة.. هـ.

ثم ذكر أحوالهم بعد البعث، فقال

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عِيتِدٍ^(٢٣) أَلْقِيَافِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عِيتِدٍ^(٢٤) مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ^(٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ^(٢٦) ﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ^(٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ^(٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ^(٢٩) ﴾

(١) في القشيري: فيسكن رُوحه.

(٢) في الرسالة القشيرية (٣٠٨): قال علي المزين: كلت بمكة، فخرجت أريد المدينة المنورة، وإذا أنا بشاب ينزع، فقلت له: قل، لا إلا لا الله، ففتح عيبيه وأنشأ يقول: [.....] البيت. فشوق شهقة، ثم مات.

(٣) أخرجه أحمد (١٨٦/٤) وابن سعد في الطبقات (٣٠/١) و(٤١٧/٧) وابن حبان في صحيحه (١٨٠٦) والحاكم (٣١/١) وصححه وأقره الذهبي، عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي - وكان من أصحاب النبي ﷺ - مرفوعاً: «إن الله - عز وجل - خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره، وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي». فقال قائل: يا رسول الله! فطلي ماذا نعمل؟ قال ﷺ: «على مواقع القدر». قال الزبيدي في اتحاف السادة المتقين (٢٠٧/٩) عن العراقي: رجاله ثقات، والحديث صحيحه الألباني (مسئلة الأحاديث الصحيحة ح ٤٨).

(٤) نص الآية «.. يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً..» الآية ١٥٨ من سورة الأنعام.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال قرينه﴾ أي: الشيطان المقيض له، أو: الملك الكاتب الشاهد عليه: ﴿هذا ما لدى عتيد﴾ أي: هذا ما عندى وفى ملكى عتيد لجهنم، قد هيأته بإغوائى وإضلالي، أو: هذا ديوان عمله عندى عتيد مهياً للعرض، فـ «ما» موصولة، إما بدل من «هذا» أو صفة، و«عتيد»: خبر، أو: خبر آخر، أو: موصوفة خبر «هذا»، و«لدى»: صفة، وكذا «عتيد»، أي: هذا شيء ثابت لدى عتيد.

ثم يقول الله تعالى للسائق والشهيد: ﴿ألقيا في جهنم﴾، أو: لملكين من خزنة جهنم، أو: يكون الخطاب لواحد، وكان الأصل: ألقى ألق، فتاب «ألقيا» عن التكرار؛ لأن الفاعل كالجزء من الفعل، فكان تلبية الفاعل نائباً عن تكرار الفعل، أو: أصله: ألقين، والألف بدل من نون التركيد، إجراء للموصول مجرى الوقف، دليله: قراءة الحسن: (ألقين)^(١) والأحسن: أن يراد جنس قرينه، فيصدق بالسائق والشهيد، فيقال لهما: ﴿ألقيا في جهنم كل كفار﴾ بالنعيم والمُنعِم ﴿عنيد﴾: مجانب للحق، معاد لأهله، ﴿مناع للخير﴾: كثير المنع للمال عن حقوقه، أو: مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله، أو: يراد بالخير الإسلام، لأن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، لما منع بنى أخيه من الإسلام. ﴿معتد﴾: ظالم متخطئ للحق ﴿مريب﴾: شاك في الله تعالى وفى دينه.

﴿الذي جعل مع الله إلهاً آخر﴾: بدل من «كل كفار» ولا يجوز أن يكون صفة؛ لأن النكرة لا توصف بالموصول، خلافاً لابن عطية، أو: مبتدأ مضمن معنى الشرط، خبره: ﴿فألقياه في العذاب الشديد﴾، وعلى الأول يكون «فألقياه» تكريراً للتركيد، أو مفعولاً بمضمر، يفسره «فألقياه»، أي: ألقى الذى جعل مع الله إلهاً آخر ألقياه. ﴿قال قرينه﴾ أي: شيطانه الذى قرن به، وهذا يؤيد أن المراد بالمتقدم جنس القرين، وإنما أخليت هذه الجملة من الواردين الأولى؛ لأن الأولى واجب عطفها؛ للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها فى الحصول، أى: مجيء كل نفس مع ملكين، وقول قرينه ما قال له، وأما هذه فهي مستأنفة، كما تستأنف الجمل الواقعة فى حكاية التقارل، كما فى مقابلة موسى وفرعون فى قوله: ﴿وما رب العالمين قال...﴾ إلى آخر الآيات^(٢)، فكان الكافر قال: هو أطفانى، فأجابه قرينه بتكذيبه فقال: ﴿ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد﴾ عن الحق، أى: ما أوقعه فى الطغيان بالقهر، ولكن طغى واختار الضلالة على الهدى، وهذا كقوله: ﴿وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم﴾^(٣)، فالوسوسة والتزيين حاصل منه، والاختيار من الكافر، والفعل لله، لا يسأل عما يفعل.

﴿قال﴾ تعالى: ﴿لا تختصموا لى﴾ أى: فى موقف الحساب والجزاء، إذ لا فائدة فى ذلك، والجملة استئناف جواب عن سؤال، كأن قائلًا قال: فماذا قال الله تعالى لهم؟ قال: لا تختصموا عندى ﴿وقد قدمت إليكم﴾

(١) بلون التركيد الخفيفة، نحر قوله: «اللسفعا». وانظر مختصر ابن خالويه / ص ١٤٥ والمحتسب (٢٨٤/٢) وإعراب شواذ القراءات للعكبرى (٥٠٧/٢) والقرطبي (٦٣٧١/٧).

(٢) الآيات: ٢٣ - ٣١ من سورة الشعراء.

(٣) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

بالوعيد ﴿ في دار الكسب على ألسنة رسل، فلا تطمعوا في الخلاص منه بما أنتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة. والجملة فيها تعليل للنهي، على معنى: لا تختصموا وقد صح عندكم أني قدمت إليكم بالوعيد حيث قلت: «لأملن جهنم... الخ، فاتبعتموه معرضين عن الحق، فلا وجه للاختصام في هذا الوقت. والباء إما مزيدة كما في قوله: ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ (١) أو معدية على أن «قدم» مضارع تقدم.

﴿ مَا يُدَلُّ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ أي: لا تطمعوا أن يبدل قولي ووعيدي بإدخال الكفار في النار، ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ فلا أعذب عبداً بغير ذنب من قبله، بل بما صدر منه من الجنايات، حسبما أشير إليه آنفاً. والتعبير عنه بالظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنة، فضلاً عن كونه ظلماً مفرطاً لتأكيد هذا المعنى، بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب في معرض المبالغة في الظلم، وقيل: هو لرعاية جمعية العبيد، من قولهم: فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده، وقيل: ظلام بمعنى: ذى ظلم، كلبان لذي اللبن. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قرين الإنسان نفسه الأمارة وروحه المطمئنة، فإذا غلبت النفس على الروح وصرفت صاحبها في الهوى، تقول يوم القيامة: هذا ما لدى عتيد، مهياً للعتاب، فيقال لهما: ألقيا في نار القطيعة كل كفار للنعم، جحود لوجود الطبيب، مناع للخير، فلم يصرفه فيما يخلصه من نفسه، معتد على الله بتكبره، وعدم حط رأسه للداعي إلى الله، مريب، قد لعبت به الشكوك والأوهام والخواطر، أو: شاك في وجود الطبيب، الذي جعل مع الله إلهاً آخر، يحبه ويخضع له، من الهوى والدنيا، وكل ما أشركه مع الله في المحبة، فألقياه في العذاب الشديد: الحجب عن الله، وعدم اللجوء بأوليائه الله، أو العذاب الحسى. قال قرينه - روحه التي كانت سماوية، فصيرها أرضية، بمقاومة هواه: ربنا ما أطغيته، فإنه ليس الإغواء والإطغاء من شأني، ولكن كان في ضلال بعيد، حيث أطاع نفسه وهواه، ورماني في مزابل الشهوات والغفلة، قال تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ اليوم، قد قدمت إليكم بالوعيد، حيث قلت: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (٢) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (٣) وقلت في شأن من جاهد نفسه، ردها لأصلها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٤) الآية، «ما يُدَلُّ الْقَوْلُ لَدَيَّ» فإني وعدت أهل المجاهدة بالوصول إلى حضرتي، والنتعم برؤيتي بقولي: ﴿والذين جاهدوا فينا...﴾ (٥) الآية، وأهل الغفلة بالحجاب، بقولي: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لجوبيون ﴿(٦)﴾، وما ظلمت أحداً قط، لأن الظلم ليس من شأني، ولا يليق بملكي.

(١) من الآية ١٩٥ من سورة البقرة.

(٢) الآيتان ٩ - ١٠ من سورة الشمس.

(٣) الآية ٦٩ من سورة الطه.

(٤) من الآية ٥٣ من سورة يوسف.

(٥) من الآية ٢٧ من سورة الفجر.

(٦) الآيتان ١٤ - ١٥ من سورة المطففين.

ثم ذكر اليوم الذي يظهر الوعد والوعيد، فقال

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٣٠) وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُنْقَرِنِ
غَيْرِ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ
مُنِيبٍ (٣٣) أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴿

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿يوم يقول (١) لجهنم هل امتلأت﴾ ؟ وقرأ غير نافع وشعبة: بنون العظمة.
فالعامل في الطرف: اذكر أو: بظلام، أو محذوف مؤخر، أي: يكون من الأحوال والأحوال ما يقصر عنه المقال،
﴿وتقول هل من مزيد﴾ ؟ أي: من زيادة، مصدر كالمجيد، أو: مفعول، كالمنيع، أي: هل بقي ما يزداد، يعني: أنها
مع اتساعها وتباعد أقطارها يطرح فيها الناس والجنة فوجاً بعد فوج حتى تملأ ﴿وتقول﴾ بعد امتلائها: ﴿هل من
مزيد﴾ أي: هل بقي في موضع لم يمتلئ؟! يعني: قد امتلأت. أو: أنها من السعة يدخل من يدخلها ولم تمتلئ
فتطلب المزيد، وهذا أولى (٢).

قال ابن جزى: واختلف هل تتكلم جهنم حقيقة، أو مجازاً بلسان الحال، والأظهر: أنه حقيقة، وذلك على الله
يسير، ومعنى قولها: هل من مزيد: أنها تطلب الزيادة، وكانت لم تمتلئ، وقيل: معناه: لا مزيد، أي: ليس عندي
موضع للزيادة، فهي على هذا قد امتلأت، والأول أرجح، لما ورد في الحديث: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل
من مزيد؟ حتى يضع الجبار فيها قدمه، فننزوي، وتقول: قط قط» (٣) وفي هذا الحديث كلام ليس هذا موضعه. هـ.

قال في الحاشية: ووضع القدم مثلاً للردع والقمع، أي: يأتيها أمر يكفها عن طلب المزيد وقال ابن حجر:
واختلف في المراد بالقدم، فطريق السلف في هذا وغيره مشهورة. ثم قال: وقال كثير من أهل العلم بتأويل ذلك،

(١) هكذا بالياء، وهي قراءة نافع، وقرأ الباقر «نقول» بالنون. انظر الإتحاف (٤٨٩/٢).

(٢) على هامش النسخة الأم ما يلي: بل هذا هو الواجب، وما قبله باطل بداهة ونصاً عن الرسول ﷺ، فكان الواجب عدم ذكر القول
الباطل المقطوع ببطلانه، لاسيما مع عدم رده والمبالغة في إبطاله، ففي الحديث الصحيح: «أنها لا تزال تطلب المزيد حتى يضع
الجبار فيها قدمه فنقول: قط قط». هـ.

(٣) أخرجه البخاري في (الإيمان والذور، باب الحلف بعزة الله، ح ٦٦٦١) ومسلم في (الجنة، باب النار يدخلها الجبارون،
ح ٢٨٤٨) من حديث أنس بن مالك. رَوَاهُ.

فقل: المراد إذلال جهنم، فإنها إذا بلغت في الطغيان، رطلت المزيد، أذلها الله، كوضعها تحت القدم، وليس المراد حقيقة القدم، والعرب تستعمل ألفاظ الأعضاء ظرفاً للأمثال، ولا تريد أعيانها، كقولهم: رغم أنفه، وسقط في يده. هـ. قلت: من دخل بحار الأحدية لم يصعب عليه حل أمثال هذه الشبهة، فإن تجليات الحق لا تنحصر، فيتجلى سبحانه كيف شاء، وما شاء، ولا حصر ولا تحييز، ولا يفهم هذه إلا أهل الفناء والبقاء بصحبة الرجال.

ثم قال تعالى: ﴿وَأُزِلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وهو شروع في بيان أحوال المؤمنين بعد النفخ ومجيئ النفوس إلى موقف الحساب. وتقديم الكفرة في أمثال هذا؛ إما لتقديم التهريب على الترغيب، أو لكثرة أهل الكفر، فإن المؤمنين بينهم كالشجرة البيضاء في جلد أسود^(١)، أي: قريت الجنة للمتقين الكفر والمعاصي، بحيث يشاهدونها من الموقف، ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن، فيبتهجون بأنهم محشورون إليها، فائزون بها، ويأتى في الإشارة بقية بيان، إن شاء الله. وقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأكيد للإزلاف، أي: مكاناً غير بعيد، ويجوز أن يكون التذكير لكونه على زنة المصدر، الذي يستوى في الوصف به المذكر والمؤنث، أو لتأول الجنة بالبستان.

﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ﴾ أي: هذا الثواب، أو الإزلاف، ما كنتم توعدون به في الدنيا، وهو حاصل ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أي: رجاء إلى الله تعالى ﴿حَفِظَ﴾ لأوامر الله، أو لما استودعه الله من حقوقه، ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾: بدل من «أواب» أو مبتدأ، خبره: أدخلوها، على تقدير: يقال لهم: أدخلوها؛ لأن «من» في معنى الجمع، والخشية: انزعاج القلب عند ذكر الخطيئة أو التقصير أو الهيبة. وقوله تعالى: (بالغيب) حال من فاعل «خشى»، أو من مفعوله، أو صفة لمصدره، أي: خشية ملتبسة بالغيب، حيث خشى عقابه وهو غائب عنه، وخشى الرحمن وهو غائب عن الأعين في رداء الكبرياء، لانتراه الأعين الحسية الحادثة. والتعرض لعنوان الرحمن للثناء البليغ على الخاشي، حيث خشيه مع علمه بسعة رحمته، فلم يصددهم علمهم بسعة رحمته عن خوفه تعالى، أو: للإشعار بأنهم مع خشيتهم عقابه راجون رحمته. ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ راجع إلى الله، أو سريرة مرضية، وعقيدة صحيحة.

يُقال لهم: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي: سالمين من زوال النعم وحلول النقم، أو: ملتبسين بسلام من الله تعالى وملائكته عليكم، ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾، الإشارة إلى الزمان الممتد الواقع في بعض منه ما ذكر من الأحوال، أي:

(١) كما جاء في الصحيح، فقد أخرج البخاري في مواضع منها (الرقاق باب كيف الحشر، ح ٦٥٢٨) ومسلم في (الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة رقم ٣٧٦، ح ٢٢١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع للنبي ﷺ في قبة، فقال: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة، قلنا: نعم، قال: «أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة، قلنا: نعم، قال: «أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة، قلنا: نعم، قال: «والذي نفسي محمد بيده، إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشجرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشجرة السوداء في جلد الثور الأحمر».

نهاية ذلك اليوم هو يوم الخلود، الذي لا انتهاء له، ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ من فنون المطالب ومنتهى الرغائب ﴿وَلَدِينَا مَزِيدٌ﴾ هو النظر إلى وجهه الكريم، على قدر حضورهم اليوم، أو: هو ما لا يخطر ببالهم، ولا يتدرج تحت مشيئتهم من الكرامات، التي لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وقيل: إن السحاب تمر بأهل الجنة فتمطر عليهم للحر، فنقول، نحن المريد الذي قال تعالى: ﴿وَلَدِينَا مَزِيدٌ﴾ قلت: مزيد كل واحد على قدر همته وشهوته. والله تعالى أعلم

الإشارة: يوم يقول لجهنم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد، كذلك النفس، نار شهواتها مشتطة كلما أعطيتها شيئاً من حظوظها طابت المريد، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، وفي الحديث: «اثنان لا يشبعان، طالب الدنيا وطالب علم، طالب الدنيا يزاد من الله بعداً، وطالب العلم يزاد من الله رضا وقرباً، أو كما قال ﷺ (١)».

واعلم أن الروح إذا عشقت شيئاً فإن كان من الدنيا يسمى حرصاً، وإن كان في جانب الحق سمي محبة وشوقاً، وفي الحقيقة ما هي إلا محبة واحدة، إلا أنها لما تاهت انقلبت محبتها للفروقات الحسية، وغابت عن المعاني الأزلية، وكلما زاد في الحرص نقص من المحبة، وما نقص من الحرص زاد في المحبة. ويقال: كلما زادت محبة الحص نقصت المعنى، وبالعكس، وإذا اشتعلت نار المحبة فلا تسكن بما يلقى فيها من الأمور الحسية، كانت حظوظاً أو حقوقاً، بل كلما ألقى فيها نقول: هل من مزيد، حتى يضع الجبار قدمه، وهو قذف نور معرفته في القلب، فحينئذ يحصل الفناء وتقول: قط قط.

ثم أخبر عن حال المؤمنين بقوله: (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) أي: قربت الجنة المعارف إلى قلوب خواص المتقين، الذين اتقوا ما سوى الله، فقربت منهم، ودخلوها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قربت إليهم الجنة الحسية في المحشر، فيركبون في قصورها وغرفها، وتطير بهم إلى الجنة، فلا يحسون بالصراط ولا بالدار، وفيهم قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً﴾ الآية (٢). والناس على ثلاثة أصناف؛ قوم يحشرون إلى الجنة مشاة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ (٣) وهم عوام المؤمنين، وقوم يحشرون إلى الجنة ركباناً

(١) أخرجه الدرر في (المقدمة، باب في فضل العلم والعالم، ح ٣٣٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. ولفظه: «منهم من لا يشبعان: صاحب العلم وصاحب الدنيا، ولا يشبعان، أما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن، وأما صاحب الدنيا، فيتمادى في الطغيان، ثم قرأ عبد الله. «كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» قال: وقال الآخر: «إنما يخشى الله من عباده العلماء». وسند الحديث فيه لنقطاع. انظر المشكاة (٨٧/١).

(٢) الآية ١٠٢ من سورة الأنبياء.

(٣) الآية ٧٣ من سورة الزمر.

على طاعتهم، المصورة لهم على صورة المراكب، وهؤلاء الخواص من العباد والزهاد والعلماء والصالحين، وأما خواص الخواص، وهم العارفون ومن تعلق بهم، فهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَأَزَلَفْتُ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تقرب منهم، فيركبون فيها، ويسرحون إلى الجنة. انظر القشيري.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ﴾ الإشارة إلى مقعد صدق، ولو كان إلى الجنة لقال هذه. قاله القشيري. ثم وصف أهل هذا المقام بقوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٌ﴾ أى: راجع إلى الله فى جميع أموره، لا يعرف غيره، ولا يلتجئ إلا إليه، حفيظ لأنفاسه مع الله، لا يصرفها إلا فى طلب الله، من خشى الرحمن بالغيب، أى: بنور الغيب يشاهد شواهد الحق، فيخشى بعده أو حجبته. قال القشيري: والخشية تكون مقرونة بالأنس، ولذلك لم يقل: من خشى الجبار. ثم قال: والخشية من الرحمن خشية الفراق، ويقال: هو مقتضى علمه بأنه يفعل ما يشاء، لا يسأل عما يفعل، ويقال: الخشية أطف من الخوف، فكأنها قريبة من الهيبة هـ. (وجاء بقلب منيب) مقبل على الله بكلية، معرض عما سواه، (ادخلوها) جنة المعارف (بسلام) من العيوب، آمنين من السلب والرجوع، وهذا قوله (ذلك يوم الخلود) فيها، لهم ما يشاءون من فنون المكاشفات، ولذيذ المشاهدات، ولدينا مزيد، زيادة ترقى أبداً سرمداً، جعلنا الله من هذا القبيل فى الرعيل الأول، آمين.

ثم رجع إلى تهديد الكفرة، فقال

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وكم أهلكنا قبلهم﴾ من قرونك ﴿من قَرْنٍ﴾ من القرون الذين كذبوا رسلهم ﴿هم أشد منهم﴾ من قومك ﴿بطشاً﴾ قوة وسطوة، ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أى: خربوا وطافوا وتصرفوا فى أقطارها، وجالوا فى أكناف الأرض كل مجال حذار من الموت ﴿هل﴾ وجدوا ﴿من محيص﴾ أى: مهرب منها؟ بل لحقتهم ردت أعناقهم، أو: هل وجدوا من مهرب من أمر الله وقضائه؟ وأصل التلقيب والتقب: البحث والطلب، قال امرؤ القيس:

لقد نَقَبْتُ فى الآفاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَلِيمَةِ بِالْإِيَابِ (١)

(١) فى الديوان: ١ وقد طوّفت فى الآفاق حتى ... انظر الديوان (٧٢).

ودخلت الغاء للتسبب عن قوله: (هم أشد منهم بطشا) أى: شدة بطشهم، أى: قدرتهم على التنقيب فى البلاد، ويجوز أن يعود الضمير إلى أهل مكة، أى: ساروا فى أسفارهم ومسايرهم فى بلد القرون، فهل رأوا لهم محيصاً حتى يؤملوا مثله أنفسهم؟ ويؤيده قراءة من قرأ (فَنَقَّبُوا) على صيغة الأمر.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أى: فيما ذكر من قصصهم، أو: فيما ذكر فى السورة ﴿لَذِكْرَى﴾ ؛ لتذكرة وعظة ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ سليم راع يدرك كنه ما يشاهده من الأمور، ويتفكر فيها، ليعلم أن مدار دمارهم هو الكفر، فيرتدع عنه بمجرد مشاهدة الآثار من غير تذكير، ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أى: أصغى بقلبه إلى ما ينطق عليه من الوحى الناطق بما جرى عليهم، فإن من فعله يقف على كنه الأمر، فينزع عما يؤدى إليه من الكفر والمعاصى، يقال: ألقى إلى سمعك، أى: استمع، فـ «أو» لمنع الخلو، لا لمنع الجمع، فإن إلقاء السمع لا يجدى بدون سلامة القلب عما ذكر من الصفات، للإيدان بأن من عرى قلبه عنهما كمن لا قلب له أصلاً: وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ : حال، أى: والحال أنه حاضر القلب لا يغفل أو: شاهد على ما يقرأ من كتاب الله.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من أصناف المخلوقات، وهذا أيضاً احتجاج على القدرة على البعث بما هو أكبر، كقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إنما خلقها فى تلك المدة تعليماً لخلق التوذة، وإلا فهو قادر على أن يخلقها فى لحظة، ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾^(٢)، ويحتمل أن هذا فى عالم الأمر، وأما عالم الخلق فاقتضت الحكمة خلقه بالتدريج، وله الخلق والأمر، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ ؛ من إعياء ولا تعب فى الجملة، وهذا رد على جهلة اليهود، أنه تعالى بدأ العالم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على العرش^(٣)، تعالى عما يقولون علواً كبيراً.

الإشارة: كثيراً ما أهلك الله من النفوس المتمردة فى القرون الماضية، زجراً لمن يأتى بعدهم، وفى ذلك ذكرى لمن كان له قلب سليم من تعلقات الكونين. قال القشيري: فالقلوب أربعة؛ قلب فاسد؛ وهو الكافر، وقلب مقفول، وهو قلب المنافق، وقلب مطمئن، وهو قلب المؤمن، وقلب سليم، وهو قلب المحبين والمحبيبين، الذى هو مرآة صفات جمال الله وجلاله، كما قال تعالى: «لَا يَسْعَى أَرْضِي وَلَا سَمَائِي، وَرَسَعْنِي قَلْبِي عَبْدِي الْمُؤْمِنُ»^(٤) هـ.

(١) الآية ٥٧ من سورة غافر. (٢) الآية ٥٠ من سورة القمر. (٣) نزول الآية رداً على اليهود، أخرجه الطبرى (١٧٨/٢٦) والواحدى فى الأسباب (ص ٤١٣). (٤) سبق.

وقال الشبلي: لمن كان له قلب حاضر مع الله، لا يغفل عنه طرفة عين. وقال يحيى بن معاذ: القلب قليان؛ قلب احتشى بأشغال الدنيا، حتى إذا حضر أمر من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع، وقلب احتشى بالله وشهوده، فإذا حضر أمر من أمور الكونين لم يدر ما يصنع، غائب عن الكونين بشهود المكون. وقال القناد: لمن كان له قلب لا يتقلب عن الله في السراء والضراء هـ. (أر ألقى السمع وهو شهيد) أي: يشهد ما من الله إلى الله، أو: يشهد أسرار الذات. قال القشيري: يعنى من لم يكن له قلب بهذه الصفة يكون له سمع يسمع الله وهو حاضر مع الله، فيعتبر بما يشير إليه الله في إظهار اللطف أو القهر هـ. (ولقد خلقنا السموات) أي: سموات الأرواح، وأرض الأشباح، وما بينهما من النفوس والقلوب والأسرار، وسر الأسرار، في ستة أيام، أي: ستة أنواع من المخلوقات، وهي محصورة فيما ذكرناه من الأرواح، والأشباح، والنفوس، والقلوب، والأسرار، وسر الأسرار، فلا مخلوق إلا وهو داخل في جملتها، لا يخرج عنها، وما مستأ من لغوب؛ لأن أمرنا بين الكاف واللون.

ثم أمر نبيه بالصبر على ما يسمع في جانبه تعالى، أو في نفسه، فقال

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ۝٤٠ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مَن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۝٤٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۝٤٣ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرُ عَلَيْنَا أَسِيرٍ ۝٤٤ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ أي: ما يقوله المشركون في شأن البعث من الأباطيل، فإن الله قادر على بعثهم والانتقام منهم، أو: يقولونه في جانبك من النقص والتكذيب، أو: ما تقوله لليهود من مقالات الكفر والتشبيه، ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ أي: اصبر على ما تسمع واشتغل بالله عنهم، فسبح، أي: نزه ربك عن العجز عما يمكن، وعن وصفه تعالى بما يوجب التشبيه، حامداً له تعالى على ما أنعم به عليك من إصابة الحق والرشاد، ﴿ قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾، وهما وقت الفجر والعصر، وفضلهما مشهور.

﴿ومن الليل فسبحه﴾ أى: وسبحه فى بعض الليل ﴿وأدبار السجود﴾ أى: أعقاب الصلوات، جمع: دبر، ومن قرأ بالكسر (١)، فمصدر، من: أدبرت الصلاة: انقضت، ومعناه: وقت انقضاء الصلاة، وقيل: المراد بالتسبيح: الصلوات الخمس، فالمراد بما قبل الطلوع: صلاة الفجر، وما قبل الغروب: الظهر والعصر، وما من الليل: المغرب والعشاء والتهجد، وأدبار السجود: النوافل بعد المكتوبات .

﴿واستمع﴾ أى: لما يوحى إليك من أحوال القيامة، وفيه تهويل وتفظيع للمخبر به، ﴿يوم ينادى المناد﴾ (٢) أى: إسرافيل عليه السلام، فيقول: أيتها العظام البالية، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة؛ إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، وقيل: إسرافيل ينفخ، وجبريل ينادى بالمحشر، ﴿من مكان قريب﴾ بحيث يصل نداؤه إلى الكل، على سواء، وقيل: من حجرة بيت المقدس، وهو أقرب مكان من الأرض إلى السماء، باثني عشر ميلاً، وهى وسط الأرض، وقيل: من تحت أقدامهم، وقيل: من مذابت شعورهم، فيسمع من كل شعرة. «يوم، منصوب بما دلّ عليه يوم الخروج، أى: يوم ينادى المناد يخرجون من القبور، فيوقف على «واستمع، وقيل: تقديره: واستمع حديث يوم ينادى المنادى.

﴿يوم يسمعون الصيحة﴾: بدل من «يوم ينادى، أى: واستمع يوم ينادى المنادى، وذلك اليوم هو يوم يسمعون الصيحة، وهى النفخة الثانية. ﴿وبالحق﴾: متعلق بالصيحة، أو: حال، أى: ملتبسة بالحق، وهو البعث والحشر للجزاء، ﴿ذلك يوم الخروج﴾ من القبور.

﴿إنا نحن نحيى﴾ الخلق ﴿ونُميت﴾ أى: نُميتهم فى الدنيا من غير أن يشاركنا فى ذلك أحد، ﴿والينا المصير﴾ أى: مصيرهم إلينا لا إلى غيرنا. وذلك ﴿يوم تشقق﴾ أصله: تشقق، فأدغم، وقرأ الكوفيون والبصري (٣) بالتخفيف، بحذف إحدى التاءين، أى تتصدع، ﴿الأرض عنهم سراعاً﴾ فيخرج المؤمنون من صدورهم مسرعين، ﴿ذلك حشر﴾ أى: بعث ﴿علينا يسيراً﴾: هيناً، وهو معادل لقول الكفرة: (ذلك رجع بعيد)، وتقديم الجار والمجرور لتخصيص اليسر به تعالى.

(١) قرأ نافع وابن كثير وحزمة وأبو جعفر وخلف «وإدبار» بكسر الهمزة، وقرأ الباقر بن فتحها، جمع «دبر». انظر الإتحاف ٢/ ٤٨٩.
(٢) أثبت المفسر - رحمة الله - قراءة «المنادى، بإثبات الياء، وهى قراءة نافع وأبى عمرو وصلاً، وفى الحالين ابن كثير ويعقوب، وقرأ الباقر بن غير ياء وصلاً ووقفاً.
(٣) قرأ «تشقق» بتخفيف الشين، أبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائى، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «تشقق» بتشديد الشين. انظر السبعة / ٦٠٧.

﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ من نفى البعث وتكذيب الآيات، وغير ذلك مما لا خير فيه، وهو تهديد لهم، وتسلية لرسول الله ﷺ، ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ أى: ما أنت بمسلط عليهم، إنما أنت داع، كقوله: ﴿ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسِطِرٍ ﴾ (١) من: جبره على الأمر: قهره، أى: ما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان، وهذا قبل الأمر بالقتال، ﴿ فذكر القرآن من يخاف وعيد ﴾، لأنه هو الذى يتأثر بالوعظ، كقوله: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا ﴾ (٢) وأما من عداهم، فلحن نفل بهم ما توجبه أقوالهم، وتستدعيه أعمالهم من أنواع العقاب وفتون العذاب.

الإشارة: فاصبر أيها المتوجه على ما تسمع من الأذى، وغب عن ذلك بذكر ربك قبل طلوع شمس البسط، وقبل غروبها، أى: اشتغل بالله فى القبض والبسط، أو: قبل طلوع شمس المعرفة، فى حال السير، وقبل الغروب حين تطلع، ومن ليل القبض أو القطيعة فسبح حتى يطلع نهار البسط أو المعرفة، وأدبار السجود، أى: عقب سجود القلب فى الحضرة، فلا يرفع رأسه أبداً، واستمع يوم ينادى المنادى، وهى الهوائف الغيبية، والواردات الإلهية، والإلهامات الصادقة، من مكان قريب، هو القلب، يوم يسمعون الصيحة، أى: تسمع النفوس صيحة الداعى إلى الحق بالحق، فتجيب وتقصع إن سبقت لها العناية، ذلك يوم الخروج، خروج العوائد والشهوات من القلب، فتحيى الروح، وتبعث بعد موتها بالغفلة والجهل، بإذن الله، إنا نحن نحى نفوساً بمعرفتنا، ونميت نفوساً بقهريتنا، وإلينا المصير، أى: الرجوع إنما هو إلينا، فمن رجع إلينا اختياراً أكرمناه ونعمناه، وفى حضرة القدس أسكناه، ومن رجع قهراً بالموت عاتبناه أو سامحناه، وفى مقام البعد أقمناه.

يوم تشقق الأرض عنهم: أرض الحشر فى حق العامة، وأرض الوجود فى حق الخاصة، أى: يذهب حس الكائنات، وتضمحل الرسوم، وتبدل الأرض والسموات، ذلك حشر علينا يسير، أى: جمعكم إلينا، بإقناء وجودكم، وإيقائكم بوجودنا، يسير على قدرتنا، وجذب عنايتنا. ويقال لكل داع إلى الله، فى كل زمان، حين يدبر الناس عنه، ويقالون منه: نحن أعلم بما يقولون، وما أنت عليهم بجبار، إنما أنت داع: خليفة الرسول، فذكر بالقرآن، وادع إلى الله من يخاف وعيد؛ إذ هو الذى يتأثر بالوعظ والتذكير، وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلم،



(١) الآية ٢٢ من سورة الغاشية.

(٢) الآية ٤٥ من سورة النازعات.

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

مكية . وهى ستون آية . ومناسبتها لما قبلها ما خُتمت به من قوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (١) ، فأقسم سبحانه فى صدر هذه السورة إنه لواقع ، حيث قال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴾ (١) ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ (٢) ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ (٣) ﴿ فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا ﴾ (٤) ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ (٥) ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ (٦) ﴿

يقول الحق جل جلاله : ﴿ والذاريات ﴾ : الرياح الذاريات ؛ لأنها تذرر التراب والحشيش وغير ذلك ، يقال : ذرت الرياح تذرر ذرراً ، وأذرت تذرر ، و ﴿ ذرراً ﴾ : مصدر ، والعامل فيه اسم الفاعل . ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ ، أى : السحاب الحاملة للأمطار ، أو : الرياح الحاملة للسحاب الموقورة بالماء . وقال ابن عباس : السفن الموقورة بالناس ، فـ ﴿ وِقْراً ﴾ : مفعول بالحاملات ، ﴿ فالجاريات يُسْراً ﴾ أى : السفن الجارية فى البحر والرياح الجارية فى مهاهبها ، أو السحاب الجارية فى الجو تسوق الرياح ، أو : الكواكب السيارة الجارية فى مجاريها ومنازلها بسهولة ، (يسرا) : نعت لمصدر محذوف ، أى : جرياً ذا يسر .

﴿ فالمقسّمات أَمْراً ﴾ أى : الملائكة التى تقسم الأمور الغيبية من الأمطار والأرزاق والآجال ، والخلق فى الأرحام ، وأمر الرياح ، وغير ذلك ؛ لأن هذا كله إنما هو بملائكة تخدمه ، فـ ﴿ أَمْراً ﴾ هنا جنس ، وأنثى «المقسّمات» ؛ لأن المراد الجماعات ، ويجوز أن يراد الرياح فى الكل ، فإنها تنشئ السحاب ، وتقلعه ، وتصرفه ، وتجري به فى الجو جرياً سهلاً ، وتقسم الأمطار بتصريف السحاب فى الأقطار . ومعنى الفاء على الأول : أنه تعالى أقسم بالرياح ، فبالسحاب التى تسوقه ، فبالفلك الجارية بهبوبها ، فبالملائكة التى تقسم الأرزاق ، وعلى الثانى : أنها تبدئ بالهبوب ، فتذرر التراب والحصباء ، فتقل السحاب ، فتجري فى الجو باسطة له ، فتقسم المطر .

وقال أبو السعود : فإن حملت الأمور المقسم بها على ذوات مختلفة ، فالفاء لترتيب الإقسام باعتبار ما بينها فى التفارقت فى الدلالة على كمال القوة ، وإلا فهي لترتيب ما صدر عن الريح من الأفاعيل ، فإنها تذرر الأبخرة إلى الجو حتى تنعقد سحاباً ، فتجري به باسطة له إلى ما أمرت به ، فتقسم المطر . هـ .

(١) من الآية ٤٤ من سورة ق .

والمقسم عليه قوله: ﴿إِنْ مَا تُوعِدُونَ﴾ من البعث والجزاء، ﴿لَصَادِقٌ﴾؛ لوعده صادق، ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ أي: الجزاء على الأعمال ﴿لَوَاقِعٌ﴾؛ لكائن لا محالة. وتخصيص الأمور المذكورة بالإقسام بها رمزاً إلى شهادتها بتحقيق مضمون الجملة المقسم عليها، من حيث إنها أمور بديعة، مخالفة لمقتضى الطبيعة، فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود، وما، موصولة، أو مصدرية، ووصف الوعد بالصدق كوصف العيشة بالرضا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: والذاريات: رياح الواردات الإلهية، التي ترد على القلوب، فتذرونها الأمراض والشكوك والأوهام والخواطر؛ لأنها تأتي من حضرة قهار، لا تصادم شيئاً إلا دفعته، فالحاملات وقرأ؛ فالأنفس المطهرة، الحاملة للعلوم والحكم والمراهب، وقرأ: حملاً لاحد له، فالجاريات يسراً: فالأفكار الجارية في بحار الأحدية، من الجبروت إلى الملكوت، ثم تنزل إلى عالم الملك، تتفنن في علوم الحكمة، في جرياً يسراً شيئاً فشيئاً، فالمقسّمات أمراً: فالأرواح أو الأسرار الكاملة، التي تقسم الأرزاق المعنوية والحسية، حيث جعل الله لها ذلك بفضله عند كمالها، وهذه أرواح أهل التصرف من الأولياء. إنما توعدون من الوصول إلينا لصادق لمن صدق في الطلب، وإن الجزاء على المجاهدة بالمشاهدة لواقع. قال القشيري: إن الله تعالى وعد المطيعين بالجنة، والقائمين بالمحبة، والأولياء بالقرية، والعارفين بالوصلة، والطالبين بالوجدان. ولعل مراده بالأولياء عموم الصالحين.

ثم جدد قسماً آخر، فقال:-

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَافِكُ (٩) قِيلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والسما ذات الحبك﴾؛ ذات الطرق الحسية، مثل ما يظهر على الماء والرمال من هبوب الرياح، وكذلك الطرق التي في الأكسية من الحرير وغيره، يقال لها: حبك جمع حبيكة، كطريقة وطرق، أر: جمع حبك، قال الرازي:

كأنما جلاها (١) الحواك طنفسة في وشيها حبك (٢)

(١) هكذا في الأصول. وفي تفسير الطبري وابن عطية وغيرهما: (جلها) وهو الصواب.

(٢) يصف الرازي ظهر أتان من حمير الوحش بأن فيه خطوطاً وطرائق، وجلها: ألبسها وكساها، والطنفسة: البساط أو اللمرقة فوق الرجل، والوشى: الزخرف والنقش، والحبك: الطريقة.

والحوالك: صانع الحياكة، والمراد: إما الطريق المحسوسة، التي هي مسير الكواكب، أو: المعنوية، التي يسلكها النُّظار في النجوم، فإن لها طرائق. قال البيضاوي: النكته في هذا القسم: تشبيه أقوالهم في اختلافها، وتباين أغراضها، بطرائق السماعات في تباعدها، واختلاف غاياتها، وقال ابن عباس وغيره: ذات الخلق المستوى، وعن الحسن: حبكها نجومها. وقال ابن زيد: ذات أشدة، لقوله تعالى: ﴿سَبْعًا شَدَادًا﴾ (١).

﴿إنكم﴾ يا أهل مكة ﴿لفي قولٍ مختلفٍ﴾: متخالف متناقض، وهو قولهم في حقه ﷺ تارة: شاعر، وأخرى ساحر، وفي شأن القرآن، تارة: شعر، وأخرى أساطير الأولين. ﴿يُؤفكُ عنه من أفكٍ﴾: يُصرف عن القرآن، أو عن الرسول، من ثبت له الصرف الحقيقي، الذي لا صرف أقطع وأشد منه، فكان لا صرف حقيقة إلا لهذا الصرف، أي: يُصرف عن الإيمان من صرف عن كل سعادة وخير، أو: يُصرف عن الإيمان من صرف في سابق الأزل.

قلت: والأظهر أن يرجع لما قبله، أي: يُصرف عن هذا القول المختلف من صرف في علم الله تعالى، وسبقت له العناية، يقال: أفكه عن كذا: صرفه عنه، وإن كان الغالب استعماله في الصرف عن الخير إلى الشر، لكنه عرُف، لا لغوى. والله تعالى أعلم.

﴿قُلِ الْخِرَاصُونَ﴾، دعاء عليهم، كقوله: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (٢)، وأصله: الدعاء بالقتل والهلاك، ثم جرى مجرى «لُعِنَ»، والخِرَاصون: الكذابين المُقدِّرون ما لا صحة له، وهم أصحاب القول المختلف، كأنه قيل: لعن هؤلاء الخِرَاصون ﴿الذين هم في غمرةٍ﴾: في جهل يغمرهم، ﴿سَاهُونَ﴾: غافلون عما أمروا به، ﴿يسألون أياَنَ يومِ الدينِ﴾ أي: متى وقوع يوم الجزاء، لكن لا بطريق الاستعلام حقيقة، بل بطريق الاستعجال، استهزاء، فإن «أَيَّانَ» ظرف للوقوع المُقدَّر؛ لأن «أَيَّانَ» إنما يقع ظرفاً للحدثان.

ثم أجابهم بقوله: ﴿يومَ هم على النارِ يفتنون﴾ أي: يقع يوم هم على النار يُحرقون ويُعذبون، ويجوز أن يكون خبراً عن مضمر، أي: هو يوم هم، وبني لإضافته إلى مضمر، ويؤيده أنه قرئ بالرفع (٣). ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: وتقول لهم خزنة النار: ذوقوا عذابكم وإحراقكم بالنار، ﴿هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ أي: هذا العذاب هو الذي

(١) من الآية ١٢ من سورة الدُّبَا، وانظر في هذه الأقوال تفسير البغوي ٣٧١/٧ - ٣٧٢ والقرطبي (٦٣٨٧/٧ - ٦٣٨٨).

(٢) الآية ١٧ من سورة عبس.

(٣) «يوم» بالرفع، وهي قراءة ابن أبي عبلة والزعفراني. انظر مختصر ابن خالويه في شواذ القراءات (ص/١٤٦) والبحر المحيط (١٣٤/٨).

كلتم تستعجلونه في الدنيا، بقولكم: ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ (١)، فـهـذا: مبتدأ، والذي... الخ: خبر، ويجوز أن يكون هذا: بدلاً من فتنكم، والذي: صفته.

الإشارة: أقسم الله تعالى بسماء الحقائق، وتسمى سماء الأرواح؛ لأن أهل الحقائق روحانيون سماويون، ترقوا من أرض الأشباح إلى سماء الأرواح، حيث غلبت روحانيتهم، على بشريتهم، كما أن أهل الشرائع اليابسة أرضيين بشريين، حيث غلبت بشريتهم الطينية على روحانيتهم السمارية، ولكل واحدة طرق، فطرق سماء الحقائق هي المسالك التي توصل إليها، وهي قطع المقامات والمنازل، وخرق الحجب النفسانية، حتى يفضوا إلى مقام العيان في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وطرق أرض الشرائع هي المذاهب التي سلكها الأولون، واقتدى بهم الآخرون، يفضوا أهلها إلى رضا الله ونعيمه. وكان الشيخ الشاذلي رحمته الله يقول في تلميذه المرسى: إن أبا العباس أعرف بطرق السماء منه بطرق الأرض، أي: أعرف بمسالك الحقائق منه بمذاهب الشرائع، وهذا إشارة قوله: «ذات الحيك» أي: الطرق. إن أهل الجهل بالله لفي قولٍ مختلفٍ مضطرب، لا تجد قلوبهم تأتلف على شيء، قلوبهم متشعبة، ونياتهم مختلفة، وهمهم دنية، وأقوالهم مضطربة، بخلاف أهل الحقائق العارفين بالله، قلوبهم مجتمعة على محبة واحدة، وقصد واحد، وهو الله، بدايتهم في السلوك مختلفة، ونهايتهم متفقة، وهو الوصول إلى حضرة العيان، والله در ابن البنا، حيث قال:

مذاهب الناس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف

وقال الشاعر:

عباراتهم شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير

يؤفك عن هذا الاختلاف من صرف في سابق العناية، أو من صرف من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح. قتل الخراصون؛ المعتمدون على ظنهم وحدهم، فعلومهم جلها مظلونة، وإيمانهم غيبي، وتوحيدهم دليلى من وراء الحجاب، لا يسلم من طوارق الاضطراب، الذين هم في غمرة أي: في غفلة وجهل وضلالة. ساهون عما أمروا به من جهاد النفوس، والمسير إلى حضرة القدوس، أو ساهون غائبون عن مراتب الرجال، لا يعرفون أين ساروا، وفي أي بحر سبحوا وغاصروا، كما قال شاعرهم:

تركنا البحور الزاخرات وراءنا فمن أين يدري الناس أين توجهنا؟

(١) من الآية ٧٠ من سورة الأعراف.

يسألون أيان يوم الدين؛ لطول أمهم، أو يسألون أيان يوم الجزاء على المجاهدة. قال تعالى: هو (يوم هم) أى: أهل الغفلة - على نار القطيعة أو الشهوة يفتنون بالدنيا وأهوالها، والعارفون منزّهون في جنات المعارف. ويقال للغافلين: ذوقوا وبال فتنكم، وهو الحجاب وسره الحساب، هذا الذى كنتم به تستعجلون، بإنكاركم على أهل الدعوة الربانيين، فتستعجلون الفتح من غير مفتاح، تطلبون مقام المشاهدة من غير مجاهدة، وهو محال في عالم الحكمة^(١). وبالله التوفيق.

ثم ذكر أضعادهم، فقال:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ آخِذِينَ مَا أَرَاهُمْ مِنْ رِجِّهِمْ ۖ وَكَانُوا مُقْبِلِينَ ۚ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۖ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۖ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۖ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۖ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ عظيمة، لا يبلغ كثرتها، ولا يقادر قدرها، ولعل المراد بها الأنهار الجارية، بحيث يرونها، ويقع عليها أبصارهم، لا أنهم فيها، ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ مِنْ رِجِّهِمْ﴾ أى: نائلين ما أعطاهم راضين به، بمعنى أن كل ما يأتهم حسن مرضى، يتلقى بحسن القبول، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ فِي الدُّنْيَا﴾ محسنين؛ متقين لأعمالهم الصالحة، آتين بها على ما ينبغي، فلذلك نالوا ما نالوا من الفوز العظيم، ومعنى الإحسان ما فسره به عليه الصلاة والسلام: «أن تعبد الله كأنك تراه» الحديث^(٢). ومن جملة ما أشار إليه بقوله:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أى: كانوا يهجعون، أى: ينامون في طائفة قليلة من الليل، على أن «قليلاً» ظرف؛ أو كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً، على أنه صفة لمصدر، وهما مزيدة في الوجهين، ويجوز أن تكون مصدرية مرتفعة بـ «قليلاً»، على الفاعل، أى: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم. وقال النسفي: يرتفع هجوعهم على البدل من الواو في «كانوا» لا بـ «قليلاً» لأنه صار موصوفاً بقوله: «من الليل» فبعد من شبه الفعل وعمله، ولا يجوز أن

(١) على هامش النسخة الأساسية مايلي: ليس بمحال، وكما من واحد جذبه العناية الإلهية وانتشله.... الغفلة والظلمات فأصبح على بساط القرب والمشاهدة دون أدنى مجاهدة، بل نص العارفون على أن طريق المجاهدة انقطعت، ولم يبق إلا طريق المحبة بعد جذب العناية الإلهية. هـ.

(٢) جزء من حديث سؤال سيدنا جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان، وهو حديث مشهور. أخرجه البخاري في (الإيمان باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، ح ٥٠) ومسلم في (الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان رقم ٩، ح ٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تكون «ماء» نافية على معنى: أنهم لا يهجمون من الليل قليلاً ويحيونه كله. هـ. أو كانوا ناساً قليلاً ما يهجمون من الله؛ لأن «ماء» الدافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، ولأن المحسنين وهم السابقون كانوا كثيراً في الصدر الأول، وموجودون في كل زمان ومكان، فلا معنى لقتلهم، خلافاً لوقف الهبطي، وأيضاً: فمدحهم بإحياء الليل كله مخالف لحالته عليه السلام، وما كان يأمر به.

﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾، وصفهم بأنهم يحيون جل الليل متهمجين، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار من رؤية أعمالهم. والسحر: السدس الأخير من الليل، وفي بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار، كأنهم المختصون به، لاستدامتهم له، وإطناهم فيه.

﴿وفي أموالهم حق﴾ أي: نصيب وافر، يوجبونه على أنفسهم، تقرباً إلى الله تعالى، وإشفاقاً على الناس، ﴿للسائل والمغرم﴾ أي: لمن يصرح بالسؤال لحاجة، وللمتعفف الذي يتعرض ولا يسأل حياءً وتعففاً، يحسبه الناس غدياً فيحرم نفسه من الصدقة. وقد تكلم في نوادر الأصول^(١) على من سأل بالله، أي: قال: أعطني لوجه الله، هل يجب إعطاؤه أم لا؟ وفي الحديث: «من سألكم بالله فأعطوه»^(٢). قال: وهو مفيد بما إذا سأل بحق، أي: لحاجة، وأما إذا سأل بباطل - أي: لغير حاجة - فإنما سأل بالشیطان؛ لأن وجه الله حق. ثم ذكر كلاماً على شاهد^(٣)، ثم حديث معاذ: «من سألكم بالله فأعطوه، فإن شئتم فدعوه»، قال معاذ: وذلك أن تعرف أنه غير مستحق، وإذا عرفتم أنه مستحق، وسأل فلم تعطوه فأنتم ظلمة. وألحق بغير المستحق من اشتبه حاله؛ لتعليق الظلم على معرفة الاستحقاق خاصة.

وقال النووي في الأذكار: يكره منع من سأل بالله، وتشفع به؛ لحديث: «من سأل بالله فأعطوه»، قال: ويكره أن يسأل بوجه الله غير الجنة. هـ. وفي حديث المنذرى: «ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من سأل بوجه الله، ثم منع سائله ما لم يسأل هجراً»^(٤). وقال في كتابه «الأخبار»، على قوله عليه الصلاة والسلام: «من سألكم بالله فأعطوه، إجلالاً لله تعالى، وتعظيماً، وإيجاباً لحقه». ثم قال: إذ ليس يجب إعطاء السائل إذا كان في معصية أو

(١) الأصل التاسع عشر والمائتان (في الاستعاذة بالله تعالى، ١٨٧/٢ - ١٨٨).

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد في المسند (٦٨/٢) وأبو داود في (الزكاة، باب عطية من سأل بالله، ح ١٦٧٢) والحاكم في المستدرک (٤١٢/١) وصححه وأقره الذهبي، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وكذا أخرجه الطبراني في الكبير (٣٩٧/١٢) والبيهقي (١٩٩/٤). وفي أوله: «من استعاذ بالله فأعينوه...» الحديث.

(٣) قال الحكيم الترمذي: «سأل رجل علي بن أبي طالب عليه السلام شيئاً، فلم يعطه فقال: أسألك بوجه الله تعالى، فقال له: كذبت، ليس بوجه الله مألتي، إنما وجه الله الحق، ولكن سألت بوجهك الخلق».

(٤) ذكره المنذرى في الترغيب والترهيب (ح ١٢٤٦) وعزاه للطبراني، من حديث أبي موسى الأشعري. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٣/٣): «رواه الطبراني في الكبير، إسناده حسن، على ضعف في بعضه مع توثيق».

وقوله «هجراً»، بضم الهاء وسكون الجيم: أي: ما لم يسأل أمراً قبيحاً لا يليق، ويحتمل أنه أراد: ما لم يسأل سؤالاً قبيحاً بكلام قبيح.

فمن سأل بالله فيما ليس عليه ولا عليك فرضه، فأعطاك إياه لإجلال حق الله وتعظيمه، وليس عليك بفرض ولا حتم. انظر تمامه في الحاشية الفاسية.

الإشارة: إن المتقين ماسوي الله في جنات المعارف، وعيون العلوم والأسرار. قال القشيري: في عاجلهم في جنة الوصل، وفي آجلهم في جنة الفضل، فغداً نجاة ودرجات، واليوم قربات ومناجاة. هـ. (آخذين ما آتاهم ربهم) من فنسبون المواهب والأسرار، وغداً من فنون التقريب والإبرار، راضين بالقسمة، قليلة أو كثيرة. إنهم كانوا قبل ذلك: قبل الإعطاء، محسنين، يعبدون الله على الإخلاص، يأخذون من الله، ويدفعون به، وله، ولا يردون ما أعطاهم، ولو كان أمثال الجبال، ولا يسألون ما لم يعطهم، اكتفاء بعلم ربهم.

قال القشيري: كانوا قبل وجودهم محسنين، وإحسانهم: كانوا يحبون الله بالله، يحبهم ويحبونه وهم في العدم، ولما حصلوا في الوجود، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، كأن نومهم عبادة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «نوم العالم عبادة»^(١)، فمن يكون في العبادة لا يكون نائماً، وهجوع القلب: غفلته، وقلوبهم في الحضرة، ناموا أو استيقظوا، فغفلتهم بالنسبة إلى حضورهم قليلة. وقال سهل رحمه الله: أي: كانوا لا يغفلون عن الذكر في حال، يعلى هجروا النوم؛ لوجود الأنس في الذكر، والمراد بالنوم: نوم القلب بالغفلة.

(وبالأسحار هم يستغفرون)؛ قال القشيري: أخبر عن تهجدهم، وقلة دعاويهم، وتنزلهم بالأسحار، منزلة العاصيين، تصغيراً لقدرهم، واحتقاراً لفعالهم. ثم قال: والسهر لهم في ليالهم دائم، إما لفرط لهف، أو شدة أسف، وإما لاشتياق، أو للفراق، كما قالوا:

كم ليلة فيك لا صباح لها أفديتها قابضاً على كبدي
قد غصت العين بالدموع وقد وضعت خدي على بنان يدي^(٢)

إما لكمال أنس، وطيب روح، كما قالوا:

سقى الله عيشاً قصيراً مضى زمان الهوى في الصبا والمجون^(٣)
لياليه تحكى انسداد لحاظ لعيني عند ارتداد الجفون. هـ. (٤)

(١) أخرجه الديلمي (مسند الفردوس ج ٦٧٣١) عن عبدالله بن أبي أوفى، بزيادة «ونفسه تسبيح، وعمله مضاعف، ودعاؤه مستجاب، وذنبه مغفور» وأخرجه الديلمي (ج ٦٧٣٤) والبيهقي في الشعب (ج ٣٩٣٧) بلفظ «الصائم، بدل العالم». وانظر كشف الخفاء ٤٤٥/٢، والأسرار المرفوعة ص ٣٧٤.

(٢) القائل هو أحمد بن يوسف، صاحب ديوان الرسائل في عهد المأمون. انظر الأغاني (٥٧٠/٢٢).

(٣) في الأصول: المجنون.

(٤) البيت في الأصول: [لياليه تحكى إنشاء اللحاظ .. للعين عند ارتداء الجفون] والمثبت هو الذي في لطائف الإشارات.

﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ أى: هم يؤامون مَنْ قصدهم بالحس والمعنى، فيبذلون ما خولهم الله من الأموال، للسائل والمتعفف، وما خولهم الله من العلوم، للطالب والمعرض، وهو المحروم، فيقصدونه بالدواء بما أمكن؛ فإنهم أطباء، والطبيب يقصد المريض أينما وجده، شفقةً ورحمةً، ونصحةً للعباد. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل قدرته على ما أقسم عليه من البعث، فقال:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وفي الأرض آياتٌ﴾ دالة على كمال قدرته على البعث وغيره، من حيث إنها مدحوة كاليساط الممهد، وفيها مسالك وفجاج للمتقربين في أقطارها، والسالكين في مناكبها، وفيها سهل وجبل، وبحر وبر، وقطع متجاورات، وعيون متفجرات، ومعادن مقلية، ودواب منبثة، مختلفة الصور والأشكال، متباينة الهيات والأفعال، وهى مع كبر شكلها مبسطة على الماء، المرفوع فوق الهواء، فالقدرة فيها ظاهرة، والحكمة فيها باهرة، ففى ذلك عبرة ﴿للموقنين﴾ الموحدين، الذين ينظرون بعين الاعتبار، ويشاهدون صانعها ببصيرة الاستبصار.

﴿وفي أنفسكم﴾ آيات وعجائب القدرة؛ إذ ليس شيء فى العالم إلا وفى الأنفس له نظير، مع ما فيه من الهيات النابعة والمصادر البهية، والترتيبات العجيبة، خلقه نطفة، ثم علقه، ثم مضغه، ثم فصلها إلى العظم والعصب والعروق، فالعظام عمود الجسد، ضم بعضها إلى بعض بمفاصل وأقفال ربطت بها، ولم تكن عظماً واحداً؛ لأنه إذ ذاك يكون كالخشبة، لا يقوم ولا يجلس، ولا يركع ولا يسجد لخالقه، ثم خلق تعالى المخ فى العظام فى غاية الرطوبة ليرطب يَبْسُ العظام، ويتقوى به، ثم خلق سبحانه اللحم وعباه على العظام، وسد به خلل الجسد، واعتدلت هيئته، ثم خلق سبحانه العروق فى جميع الجسد جداول، يجرى الغذاء منها إلى أركان الجسد، لكل موضع من الجسد عدد معلوم، ثم أجرى الدم فى العروق سيالاً خائراً، ولو كان يابساً، أو اكتف مما هو فيه، لم يجر فى العروق، ثم كسى سبحانه اللحم بالجلد كالوعاء له، ولولا ذلك لكان قشراً أحمر، وفى ذلك هلاكه، ثم كساه الشعر؛ وقايةً وزينةً، ولين أصوله، ولم تكن يابسة مثل رؤس الإبر، وإلا لم يهتد عيش، وجعل الحواجب والأشجار وقايةً للعين، ولولا ذلك لأهلكهما الغبار والسقط، وجعلها سبحانه طوع يده، يتمكن من رَفْعِهَا عند قصد النظر، ومن إرخائها على جميع العين عند إرادة إمساك النظر عما يضر ديناً ودنياً، وجعل شعرها صفّاً واحداً لينظر من خلالها،

ثم خلق سبحانه شفتين ينطبقان على الفم؛ يصرونان الحلق والفم من الرياح والغبار، ولما فيهما من كمال الزينة، ثم خلق الله سبحانه الأسنان؛ ليتمكن من قطع مأكوله وطحنه، ولم تكن له في أول خلقته لئلا يؤذي أمه، وجعلها ثلاثة أصناف: قسم يصلح للكسر، كالأنياب، وقسم يصلح للقطع، كالرباعية، وقسم يصلح للطحن، كالأمضراس... إلى غير ذلك مما في الإنسان من عجائب الصنع وبدائع التركيب.

﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾ أي: تنظرون نظر من يعتبر، وما قيل: إن التقدير: أفلا تبصرون في أنفسكم، فضعيف؛ لأنه يُفنى إلى تقديم ما في حيز الاستفهام عليه.

﴿وفي السماء رزقكم﴾ وهو المطر. وعن الحسن؛ أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه رزقكم إلا أنكم تحرمونه بخطاياكم^(١)، أو: في سماء الغيب تقدير رزقكم، فهو مضمون عند الله في سماء غيبه، ستر ذلك بسر الحكمة، وهو الأسباب، ﴿وما توعدون﴾ أي: وفي السماء ما توعدون من الثواب؛ لأن الجنة في السماء السابعة، سقفها العرش، أو: أراد: إنما توعدونه من الرزق في الدنيا وما توعدونه في العقبى كله مقدر ومكتوب في السماء، وقيل: إنه مبتدأ وخبره: ﴿فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أي: ما توعدون من البعث وما بعده، أو: ما توعدونه من الرزق المقسوم، فَوَرَبُّ الْعَالَمِ الْعُلَى وَالسْفَلَى ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ أي: مثل نطقكم، شبه ما وعد به من الرزق وغيره بتحقيق نطق آدمي؛ لأنه ضروري، يعرفه من نفسه كل أحد.

قال الطيبي: وإنما خص النطق دون سائر الأعمال الضرورية، لكونه أبقي وأظهر، ومن الاحتمال أبعد، فإن النطق يفصح عن كل شيء، ويجلي كل شبهة. هـ. فضمان الرزق وإنجاز وعده ضروري، كنطق الناطق. روى عن الأصمعي أنه قال: أقبلت من جامع البصرة، فطلع أعرابي على قعود، فقال: من الرجل؟ فقلت: من بني أسمع، فقال: من أين أقبلت؟ فقلت: من موضع يتلى فيه كلام الله، قال: اتل علي، فتلوت: ﴿والذاريات...﴾ فلما بلغت قوله: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحراها، ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها، وولى، فلما حجبت مع الرشيد، وطفت، فإذا أنا بصوت رقيق يهتف بي، فالتفت، فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر، فسلم علي، واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية، صاح، وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: ﴿فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ فقال: سبحانه الله الذي أغضب الجليل حتى حلف؟ لم يصدقوه بقوله حتى حلف، قالها ثلاثاً، وخرجت معها نفساً هـ. من النسخة^(٢).

قلت: وقد سمعت حكاية أخرى، فيها عبرة، وذلك أن رجلاً سمع قارئاً يقرأ هذه الآية، فدخل بيته، ولزم زاوية منه يذكر فيها، ويتبطل، فجاءت امرأته تنقم عليه، وتأمره بالخدمة، فقال لها: قال تعالى: ﴿وفي السماء

(١) ذكره القرطبي (٦٣٩٩/٧).

(٢) وذكره القرطبي (٦٣٩٩/٧).

رزقكم﴾، فلما أيست منه ذهبت تحفر شيئاً، فوجدت آنية مملوءة دنانير، فجاءت إليه، وقالت: قد أتانا رزقنا، قم تحفره معي، هو في موضع كذا، فقال: إنما قال تعالى: (في السماء) ولم يقل في الأرض، فامتنع، فذهبت إلى أخ لها تستعين به، فلما فتحتها وجدت مملوءة عقارب، فقالت: والله لأطرحنها عليه لنستريح منه، ففتحت كوة من السقف، وطرحتها عليه، فسقطت دنانير، فقال: الآن نعم، قد آتاني من حيث قال ربي: ﴿وفي السماء رزقكم﴾. هـ. وذكر في التلويز: أن الملائكة لما نزلت هذه الآية ضجت في السماء، وقالت: ما أضعف بني آدم حتى أحوجوا ربهم إلى الحلف.

الإشارة: وفي أرض نفوس العارفين آيات، منها: أن الأرض تحمل كل شيء، ولا تستثقل شيئاً، فكذلك نفس العارف، تحمل كل كَلٍّ وثقل، ومن استثقل حملاً، أو تبرم من أحد، أو من شيء، ساقته القدرة إليه، فلغيبته عن الحق، ومطالعته الخلق بعين التفرقة، وأهل الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة. ومنها: أنها يلقي عليها كل قذارة وقمامة فتنبت كل زهر ونور وورد، فكذلك العارف يلقي عليه كل جفاء، ولا يظهر منه إلا الصفاء. ومنها: أن الأرض الطيبة تنبت الطيب، وينصع نباتها، والأرض السبخة لا تنبت شيئاً، كذلك القلوب الطيبة تنبت كل ما يلقي فيها من الخير، والقلوب الخبيثة لا تعي شيئاً، ولا ينبت فيها إلا الخبيث.

وقوله تعالى: ﴿وفي أنفسكم...﴾ قال القشيري: يشير إلى أن النفس مرآة جميع صفات الحق، لهذا قال عليه الصلاة والسلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»^(١) فلا يعرف أحد نفسه إلا بعد كمالها، وكمالها: أن تصير مرآة كاملة تامة مصقولة، قابلة لتجلى صفات الحق لها، فيعرف نفسه بالمرآتية، ويعرف ربه بالتجلي فيها، كما قال تعالى: ﴿سُورِهِمْ آيَاتٍ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ...﴾ الآية^(٢). هـ.

قلت: حديث «من عرف نفسه، أنكره اللوى»، وقال إنه من كلام يحيى بن معاذ^(٣) وقد اشتهر عند الصوفية حديثاً، ومعناه حق؛ فإن من عرف حقيقة نفسه، وأنها مظهر من مظاهر الحق، وغاب عن حس وجوده الوهم، فقد عرف ربه وشهده، فاطلب المعرفة في نفسك، ولا تطلبها في غيرك، فليس الأمر عندك خارجاً، والله در الششتري في بعض أزراله، حيث قال:

واليك هو السير^(٤) * وأنت معنى الخير * وما دونك غير

(١) قال السخاوي في المقاصد (ص ١٩٨): «لا يعرف مرفوعاً، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي من قوله»، وقال السيوطي في القول الأشبه (٣٥١/٢) من الحارثي للفتاوى: «هذا الحديث ليس بصحيح».

(٢) الآية ٥٣ من سورة فصلت.

(٣) على هامش النسخة الأم مايلي: قلت: كذا قالوا؛ لأنهم وجدوه مرصفاً عنه، فظنوه من كلامه، وهو إنما رواه من التوراة، ففيها: قال الله تعالى: يا ابن آدم اعرف نفسك تعرف ربك، فمن هذا أخذ يحيى بن معاذ الرازي. هـ.

(٤) في الديوان (ص ١١٤): «واليك السير».

يا قاصدا عين الخبز
ارجع لذاتك واعقب
الخير منك والخبز
غطاء أينك (١)
مائم غيورك
والسمر عندك

ثم سرد قصص الأمم السالفة، وما جرى عليها؛ لأن فيها آيات، فتتخرط في سلك الآيات المتقدمة، فقال:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا
 قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا
 تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ
 أَمْرَاتُهُ فِي صَرَةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ

142

الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم﴾، استفتح بالاستفهام التشويقي، تفخيماً لشأن الحديث، وتنبهياً على أنه ليس مما علمه رسول الله ﷺ بغير طريق الوحي. والضيف في الأصل: مصدر: كالزور، والصوع، يصدق بالواحد والجماعة، قيل: كانوا اثني عشر ملكاً، وقيل: تسعة عشرهم جبريل. وجعلهم ضيفاً لأنهم في صورة الضيف، حيث أضافهم إبراهيم، أو لأنهم كانوا في حسابانه كذلك. وقوله ﴿المكرمين﴾ أي: عند الله، لأنهم عباد مكرمون، أو عند إبراهيم، حيث خدمهم بنفسه، وأخدمهم امرأته، وعجل لهم القرى.

﴿إذ دخلوا عليه﴾: ظرف للحديث، أو لما في الضيف من معنى الفعل، أو بالمكرمين، إن فسر بإكرام إبراهيم لهم، ﴿فقالوا سلاماً﴾ أي: نُسِّم عليك سلاماً، ﴿قال﴾ إبراهيم: ﴿سلام﴾ أي: عليكم سلام. عدل به إلى الرفع بالابتداء للقصد إلى الثبوت والدوام حتى تكون تحيته ﷺ أحسن من تحيتهم، وهذا أيضاً من إكرامه، ﴿قوم منكرون﴾ أي: أنتم قوم منكرون، لا نعرفكم، فعرفوني من أنتم. قيل: إنما أنكرهم لأنهم ليسوا ممن عهدهم من الناس، أو: لأن أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس، وقيل: إنما قال ذلك سراً ولم يخاطبهم به، وإلا لعرفوه بأنفسهم.

﴿فَرَأَوْهُمُ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أي: ذهب إليهم في خفية من ضيوفه، فالروغان: الذهاب بسرعة، وقيل: في خفية. ومن آداب المضيف أن يبادر الضيف: بالقرى، وأن يخفي أمره من غير أن يشعر به الضيف، حذراً من أن يكفه، وكان عامة مال إبراهيم البقر. ﴿فجاء بعجل سمين﴾، الفاء فصيحة تفسح عن جمل حذفت لدلالة الحال عليها، وإيضاً بكمال سرعة المجيء، أي: فذبح عجلاً فحذذه^(١)، فجاء به، ﴿فقربه إليهم﴾، بأن وضعه بين أيديهم، حسبما هو المعتاد، فلم يأكلوا، ف﴿قال ألا تأكلون﴾، أنكر عليهم ترك الأكل، أو: حثهم عليه، ﴿فأوجس﴾: أضمر ﴿منهم﴾ خيفة، خوفاً، لترهم أنهم جاءوا للشر، لأن من لم يأكل طعامك لم يحفظ ذمامك. عن ابن عباس ؓ: وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب، ﴿قالوا لا تخف﴾: إنا رسل الله. قيل: مسح جبريل العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه^(٢)، فعرفهم وأمن منهم، ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ أي: يبلغ ويكون عالماً، وهو إسحاق ؑ.

(١) أي: شواه، انظر اللسان (حذ ١٠٢١/٢).

(٢) رواه عون بن أبي شداد، فيما ذكره القرطبي (٦٤٠٢/٧).

﴿ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ ﴾ سارة لما سمعت بشارتهم إلى بيتها، وكانت في زاوية منه تنظر إليهم، ﴿ فِي صَرَّةٍ ﴾، صيحة، من الصرير، وهو الصوت، ومنه: صرير الباب وصرير الأقلام. قال الزجاج: الصرة: شدة الصياح. وفي القاموس الصرة: - بالكسر: أشد الصياح، وبالفتح: الشدة من الكرب والحر والعطفة والجماعة وتغضيب الوجه. هـ. ومحلها النصب على الحال، أي: فجاءت صارة، وقيل: صرتها: قولها: ﴿ يَا وَيْلَتَى أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ... ﴾ (١) أو: فجاءت مغضبة الوجه، كما هو شأن من يخبر بشيء غريب، استبعاداً له، ﴿ فَصَكَتُ وَجْهَهَا ﴾؛ لطمته ببسط يدها، وقيل: ضربت بأطراف أصابعها جبهتها، فعل المتعجب، ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي: إنها عجوز عاقر، فكيف ألد؟!

﴿ قَالُوا كَذَلِكَ ﴾ أي: مثل ما قلنا وأخبرناك به ﴿ قَالَ رَبِّكَ ﴾ أي: إنما نخبرك عن الله تعالى، والله قادر على ما يستعبد، ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ ﴾ في فعله، ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ فلا يخفى عليه شيء، فيكون قوله حقاً، وفعله متقناً لا محالة. روى أن جبريل عليه السلام قال لها حين استبعدت: انظري إلى بيتك، فنظرت، فإذا جذوعه موزقة مثمرة، ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط، بل هي وإبراهيم عليه السلام حاضراً، حسبما شرح في سورة الحجر (٢)، وإنما لم يذكرها إكتفاء بما ذكر هناك، كما أنه لم يذكر هناك سارة، إكتفاء بما ذكر هنا وفي سورة هود (٣).

ولما تحقق أنهم ملائكة، ولم ينزلوا إلا لأمر، ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ أي: فما شأنكم وما طلبتكم وفيم أرسلتم؟ ﴿ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾، هل أرسلتم بالبشارة خاصة، أو لأمر آخر، أولهما؟ ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ أي: قوم لوط، ﴿ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ أي: طين متحجر، هو السجيل، وهو طين طَبِخَ، كما يطبخ الآجر، حتى صار في صلابه الحجارة، ﴿ مَسْوُومَةٍ ﴾؛ معلمة، على كل واحد اسم من يهلك بها، من السومة وهي العلامة، أو: مرسلة، من أسمت الماشية: أرسلتها، ومر تفصيله في هود (٤) ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أي: في ملكه وسلطانه ﴿ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ المجاوزين الحد في الفجور.

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا ﴾، الفاء فصيحة، مفسحة عن جمل قد حذفت، ثقةً بذكرها في مواضع آخر، كأنه قيل: فبأشروا ما أمروا به، فذهبوا إلى لوط، وكان من قصتهم ما ذكر في موضع آخر، ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا ﴾ أي: من قري قوم لوط ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعلى لوطاً ومن آمن معه. قيل: كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة

(١) كما جاء في الآية ٧٢ من سورة هود.

(٢) عند قوله تعالى: ﴿بَشِّرْهُمْ بِالْحَقِّ﴾ فلا تكن من القانطين. قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴿ الآيات ٥٥ - ٥٦.

(٣) في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ﴾ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿ الآية ٧١.

(٤) عند تفسير الآيات ٨١ - ٨٢.

عشر. ﴿فما وجدنا فيها غير بيت﴾ أى: غير أهل بيت ﴿من المسلمين﴾، وفيه دليل على أن الإسلام والإيمان واحد، أى: باعتبار الشرع، وأما فى اللغة فمختلف، والإسلام محله الظاهر، والإيمان محله الباطن. ﴿وتركنا فيها﴾ أى: فى قراهم ﴿آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ أى: من شأنهم أن يخافوا؛ لسلامة فطرتهم، ورقة قلوبهم، وأما من عداهم من ذوى القلوب القاسية، فإنهم لا يعتبرون بها، ولا يعدونها آية.

الإشارة: الإشارة بإبراهيم إلى القلب، وأضيفه: تجليات الحق، فنقول حينئذ: هل بلغك حديث إبراهيم القلب، حين يدخل عليه أنوار التجليات، مسلمة عليه، فينكرها أول مرة، حيث لم يألَف إلا رؤية حس الكائنات، فراغ إلى أهله: عوالمه، فجاء بعجلٍ سمين؛ النفس أو السوى، فقرّبه إليهم، بذلاً لها فى مرضاة الله، فقال: ألا تأكلون منها، لتذهب عني شوكتها؛ إذ لا تثبت أنوار الشهود إلا بعد محق النفس وموتها، فأرجس منهم خيفة؛ لأن صدمات التجلى تدهش الأبواب، إلا من ثبتته الله، قالوا: لا تخف، أى: لا تكن خوّافاً، إذ لا ينال هذا السر إلا الشجعان، كما قال الجيلانى^(١):

وإياك حَزْماً لا يَهْوُكَ أَمْرُهَا فَمَا نَالَهَا إِلَّا الشُّجَاعُ الْمُقَارِعُ

ويُشْرُوهُ بَغْلَامٌ عَلِيمٌ، وهو نتيجة المعرفة، من اليقين الكبير، والطمأنينة العظمى، فأقبلت النفس تصيح، وتقول: أأد هذا الغلام، من هذا القلب، وقد كبر على ضعف اليقين، وأنا عجوز، شِخْتُ فى العوائد، عقيم من علوم الأسرار؟ فنقول القدرة: كذلك قال ربك، هو على هين، أتعجبين من قدرة الله، «من استغرب أن يُنقذه الله من شهوته، وأن يُخرجه من وجود غفلته. فقد استعجز القدرة الإلهية، وكان الله على كل شيء مقتدراً»^(٢) إنه هو الحكيم فى ترتيب الفتح على كسب المجاهدة، العظيم بوقت الفتح، ومن يستحقه. قال إبراهيم القلب أو الروح: فما خطبكم أيها التجليات، أو الواردات الإلهية، قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين، وهم جند النفس، لنرسل عليهم حجارة من طين، مسومة عند ربك للمسرفين، وهم الأذكار والأوراد والمجاهدات والرياضات والمعاملات المهلكة للنفس وأوصافها، فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين، سالمين من الهلاك، وهو ما كان لها من الأوصاف الحميدة، والعلوم الرسمية، إذ لا تُخرج المجاهدة إلا من كان مذموماً، فما وجدنا فيها من ذلك إلا النذر القليل؛ إذ معاملة النفس جلّها مدخولة، وتركنا فيها آية من تزكية النفس، وتهذيب أخلاقها، للذين يخافون العذاب الأليم، فيشتغلون بتزكيتها؛ لئلا يلحقهم ذلك العذاب.

(١) الشيخ عبد الكريم الجبلى فى عييته (ص ٧٨).

(٢) حكمة عطالية رقم (١٩٧) انظر تبويب الحكم (ص ١٨).

ثم ذكر آيات أخرى في بقية الأمم، فقال:

﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانَهُ قَالِ سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا أَصْطَلَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قلت: (وفي موسى): عطف على (وفي الأرض)، أو على قوله: (وتركنا فيها آية) على معنى: وجعلنا في موسى آية، كقوله:

علفتها تيبًا وماءً باردًا (١).

(وإذ أرسلناه): منصوب بآيات، أو: بمحذوف، أي: كائنة وقت إرسالنا، أو بتركنا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وفي موسى ﴾ آية ظاهرة حاصلة ﴿ إذ أرسلناه إلى فرعون بسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾؛ بحجة واضحة، وهي ما ظهر على يديه من المعجزات الباهرة، ﴿ فتوَلَّىٰ بُرْكَانَهُ ﴾؛ فأعرض عن الإيمان وازورَّ عنه (٢) ﴿ بُرْكَانَهُ ﴾؛ بما يتقوى به من جلوده ومُلْكِهِ، والركن: ما يركن إليه الإنسان من عزٍّ وجند، ﴿ وقال ﴾ في موسى: هو ﴿ ساحرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾، كأنه نسب ما ظهر على يديه ﷺ من الخوارق العجيبة إلى الجن، وتردد هل ذلك باختياره وسعيه، أو بغيرهما. ﴿ فأخذناه وجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾، وفيه من الدلالة على عِظَمِ شَأْنِ القدرة الربانية، ونهاية حماقة فرعون ما لا يخفى، ﴿ وهو مُلِيمٌ ﴾، أت بما يلام عليه من الكفر والطغيان.

(١) شطر بيت، تمامه: حتى شئت همالة عيهاها.

(٢) أي: مال عنه.

﴿ وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريحَ العقيمَ ﴾ ، وصفت بالعقيم لأنها أهلكتهم، وقطعت دابرهم، أو: لأنها لم تتضمن خيراً مآ، من إنشاء مطرٍ، أو إلقاح شجرٍ، وهي الدبور، على المشهور، لقوله ﷻ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكْتُ عَادًا بِالدُّبُورِ» (١)، ﴿ ما تذرُ من شيءٍ أتت عليه ﴾ أى: مرت عليه ﴿ إلا جعلته كالرميم ﴾ ؛ وهو كل ما رمى، أى: بلى وتفتت، من عظم، أو نبات، أو غير، والمعنى: ما تركت شيئاً هبَّت عليه من أنفسهم وأموالهم إلا أهلكته.

﴿ وفي ثمودَ ﴾ آية أيضاً ﴿ إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ ، تفسيره قوله تعالى: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ (٢)، روى أن صالحاً قال لهم: تصبح وجوهكم غداً مصفرة، وبعد غدٍ مُحَمَّرَةٌ، وفي الثالث مسودة، ثم يصحبكم العذاب، ﴿ فَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ استكبروا عن الامتثال، ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ ؛ العذاب، وكل عذاب مهلك صاعقة. قيل: لما رأوا العلامات من اصفرار الوجوه، واحمرارها، واسودادها، التى بُيِّنَتْ لهم، عمدوا إلى قتله ﷻ فلجأه الله تعالى إلى أرض فلسطين، وتقدم فى النمل (٣)، ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم الصيحة، فهلكوا، كبيرهم وصغيرهم وهم ينظرون إليها، ويعاينونها جهراً، ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ ؛ من هرب، أو هو من قولهم: ما يقوم بهذا الأمر: إذا عجز عن دفعه. ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ ؛ ممتنعين من العذاب بغيرهم، كما لم يمتنعوا بأنفسهم.

﴿ وقومَ نوحٍ ﴾ أى: وأهلكنا قوم نوح؛ لأن ما قبله يدل عليه، أو: واذكر قوم نوح، ومن قرأ بالجر (٤) فعطف على ثمود، أى: وفى قوم نوح آية، ويؤيده قراءة عبدالله «وفى قوم نوح» ﴿ من قبل ﴾ أى: قبل هؤلاء المذكورين، ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ ؛ خارجين عن الحدود بما كانوا فيه من الكفر والمعاصى وإذابة نوح ﷻ.

﴿ والسماءَ بَنَيْنَاهَا ﴾ من باب الاشتغال، أى: بَنَيْنَا السَّمَاءَ، بَنَيْنَاهَا ﴿ بَأَيْدٍ ﴾ ؛ بقوة، والأيد: القوة، ﴿ وإنا لموسعون ﴾ ؛ لقادرين، من الوسع، وهو الطاقة، والموسع: القوي على الإنفاق، أو: لموسعون بين السماء والأرض، أو: لموسعون الأرزاق على من نشاء، وهو تميم كما تم ما بعده بقوله: ﴿ فَنِعْمَ المَاهِدُونَ ﴾ لزيادة الامتنان.

﴿ والأرضَ فرشناها ﴾ ؛ بسطناها ومهدناها؛ لتستقروا عليها، ﴿ فَنِعْمَ المَاهِدُونَ ﴾ نحن. ﴿ ومن كلِّ شيءٍ خلقنا زوجين ﴾ ؛ نوعين؛ ذكر وأنثى، وقيل: متقابلين، السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر،

(١) متفق عليه، وسبق تخريجه عند تفسير الآية ٤٦ من سورة الروم (٤/٣٤٩).

(٢) من الآية ٦٥ من سورة هود.

(٣) راجع تفسير الآيات ٤٨ - ٥٣ من سورة النمل، فى المجلد الرابع (ص ٢٠٢ - ٢٠٣).

(٤) قرأ أبو عمرو وحمة والكسائى وخلف (وقوم) بجر الميم، وقرأ الباقون بنصبها. راجع الإنشاف ٢/٤٩٣.

الموت والحياة. قال الحسن: كل شيء زوج، والله فرد لا مثل له. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى: جعلنا ذلك كله، من بناء السماء، وفرش الأرض، وخلق الأزواج، لتذكروا، وتعرفوا أنه خالق الكل ورازقهم، وأنه المستحق للعبادة، وأنه قادر على إعادة الجميع، وتعملوا بمقتضاه. وبالله التوفيق.

الإشارة: وفي موسى القلب إذ أرسلناه إلى فرعون النفس، بسطان، أى: بتسلط وحجة ظاهرة، لتأدب وتهذب، فتولى فرعون النفس بركنه، وقوة هواه، وقال لموسى القلب: ساحر أو مجنون، حيث يأمرنى بالخضوع والذل، الذى يفر منه كل عاقل، طبعاً، فأخذناه وجنوده من الهوى والجهل والغفلة، فبذناهم فى اليم فى بحر الوحدة، فلما غرقت فى بحر العظمة، ذابت وتلاشت، ولم يبق لها ولا لجنودها أثر، وهو- أى: فرعون النفس - ملهم: فعل ما يلام عليه من الميل إلى ما سوى الله قبل إلقائه فى اليم.

وفى عاد، وهى جسد النفس وأوصاف البشرية، من التكبر، والحسد، والحرص، وغير ذلك، إذ أرسلنا عليهم الريح المقيم؛ ريح المجاهدة والمكابدة. أر: ريح الواردات القهرية، ماتذر من شيء من الأوصاف المذمومة إلا أهلكته، رجعلته كالريم. وفى ثمود، وهم أهل الغفلة، إذ قيل لهم: تمتعوا بدنياكم إلى حين زمان قليل؛ مدة عمركم القصير، فعتوا: تكبروا عن أمر ربهم، وهو الزهد فى الدنيا، والخضوع لمن يدعوهم إلى الله، فأخذتهم صاعقة الموت على الغفلة والبطالة، وهم لا ينظرون إلى ارتحالهم عما جمعوا، فما استطاعوا من قيام، حتى يدفعوا منازلهم، ولو افتدوا بالدنيا وما فيها، وما كانوا ممتنعين من قهرية الموت، فرحلوا بغير زاد ولا استعداد. وقوم نوح من قبل، وهو من سلف من الأمم الغافلة، إنهم كانوا قوماً فاسقين خارجين عن حضرتنا.

والسماء، أى: سماء الأرواح، بتبناها ورفعناها بأيد، ورفعنا إليها من أحببنا من عبادنا، وإنا لموسعون على المتوجهين إلينا فى المعارف والأنوار، والعلوم والأسرار، والأرض؛ وأرض النفوس، فرشناها للعبودية، والقيام بأداب الربوبية، فنعم الماهدون، مهدنا الطريق لذوى التحقيق، ومن كل شيء من تجليات الحق، خلقنا، أى: أظهرنا زوجين، الحس والمعنى، الحكمة والقدرة، الشريعة والحقيقة، الفرق والجمع، الملك والملوك، الأشباح والأرواح، الذات والصفات، فتجلى الحق جل جلاله بين هذين الضدين؛ ليبقى الكنز مدفوناً، والسر مصوناً، ولو تجلى بضد واحد لبطلت الحكمة، وتعطلت أسرار الربوبية، فمن لم يعرف الله تعالى فى هذين الضدين، لم يعرفه أبداً، ومن لم يفرق بين هذين الضدين، فى هذه الأشياء المذكورة، لم تنسج فكرته، فصفاء الغزل هو التمييز بين هذين الضدين، نوقاً، وببدهما تنسج الفكرة، وبالغيبة عن الأول فى شهود الثانى يحصل القرب إلى الله تعالى، كما أبان ذلك فى قوله:

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥٠ ﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي
لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥١ ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِن رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ
٥٢ ﴿ أَتَوَاصَوْنَاهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ٥٣ ﴿ فَنُفِثَ عَنْهُمْ فَمَّا أَنتَ بِمَلُومٍ ٥٤ ﴿ وَذَكَرْنَا
الذِّكْرَ لِنَنْفَعَ الْمُؤْمِنِينَ ٥٥ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾، الفاء لترتيب ما بعد ما على ما قبلها، أى: إذا كان الأمر كما
ذكر من شئونه تعالى فى إهلاك من تعدى الحدود، ففرُّوا إلى الله بالإيمان والطاعة، كي تنجوا من غضبه، وتفوزوا
بثوابه، أو: ففرُّوا من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، أو: من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن،
﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾، تعليل للأمر بالفرار إليه تعالى، فإنَّ كونه ﷻ منذاراً منه تعالى، لا من تلقاء نفسه،
موجب للفرار، وفيه وعد كريم بنجاتهم من المهروب، وفوزهم بالمطلوب، ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ هو نهى
موجب للفرار من سبب العقاب، بعد الأمر بالفرار من نفس العقاب، كما يشعر به قوله تعالى: ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ ﴾ أى:
من الجعل المنهى عنه ﴿ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ كأنه قيل: ففرُّوا إلى الله من عقابه، ومن سببه، وهو جعلكم مع الله إلهاً آخر.

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى: الأمر ما ذكر من تكذيبهم الرسول، وتسميتهم له ساحراً أو مجنوناً، ثم فسر ما أجمل بقوله
﴿ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾؛ من قبل قومك ﴿ مِن رَسُولٍ ﴾ من رسل الله ﴿ إِلَّا قَالُوا ﴾ فى حقه: هو ﴿ سَاحِرٌ أَوْ
مُجْنُونٌ ﴾، فرمواهم بالسحر والجنون؛ لجهلهم، ﴿ أَتَوَاصَوْنَاهُ ﴾، الضمير للقول، أى: أتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا فى زمان
بهذا القول، حتى قالوه جميعاً متفقين عليه، ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أى: لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا فى زمان
واحد، بل جمعهم العلة الواحدة، وهى الطغيان، ﴿ فَنُفِثَ عَنْهُمْ ﴾ أى: أعرض عن الذين كررت عليهم الدعوة، فلم
يجيبوا عناداً، ﴿ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾؛ فلا لوم عليك فى إعراضك بعد ما بلغت الرسالة، وبذلت مجهودك فى البلاغ
والدعوة. ﴿ وَذَكَرْنَا ﴾، وعظ بالقرآن ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين قدر الله سبحانه وتعالى إيمانهم، أو آمنوا
بالفعل، فإنها تزيدهم بصيرة وقوة فى اليقين والعلم. وبالله التوفيق.

الإشارة: الفرار إلى الله يكون من خمسة أشياء: من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة بالتوبة،
ومن الغفلة إلى اليقظة بدوام الذكر، ومن المقام مع العوائد والحظوظ إلى الزهد بالمجاهدة وخرق العوائد، ومن
شهود الحس إلى شهود المعنى، وهو مقام الشهود. وفى القوت: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ الفرد،
﴿ ففرُّوا إلى الله ﴾ أى: من الأشكال والأضداد إلى الواحد الفرد. وفى البخارى: «معناه: من الله إليه» (١).

(١) ذكره البخارى فى (التفسير - سورة الذاريات).

قال القشيري: ارجعوا إلى الله، والإشارة إلى حاليتين، إما رغبة في شيء، أو رهبة من شيء، أو حالي خوف ورجاء، أو طلب نفع أو دفع ضرر، وينبغي أن يفر من الجهل إلى العلم، ومن الهوى إلى التقوى، ومن الشك إلى اليقين، ومن الشيطان إلى الله، ومن فعله الذي هو بلاؤه إلى فعله الذي هو كفايته، ومن وصفه الذي هو سخطه، إلى وصفه الذي هو رحمته، ومن نفسه، حيث قال: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (١) إلى نفسه، حيث قال: ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ هـ. ونقل الورتجبي عن الخراز (٢)، فقال: أظهر معنى الربوبية والوحدانية، بأن خلق الأزواج (٣) فخلص له الفردانية، فلما تبين أن أشكال الأشياء تواقع (٤) علة الفناء؛ دعا العباد إلى نفسه؛ لأنه الباقي، وغيره فان، بقوله: ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: ففرّوا من وجودكم، ومن الأشياء كلها، إلى الله بنعت الشوق والمحبة والتجريد عما سواه هـ.

ولما أمرهم بالفرار إليه، أعلم أنه ما خلقهم إلا لذلك، فقال:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ (٥٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٥٨) ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٥٩) ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٦٠)

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ أي: إلا لأمرهم بالعبادة والخضوع لربوبيتي، لا للاستعين بهم على شأن من شئوني، كما هي عادة السادات في كسب العبيد، ليستعينوا بهم على أمر الرزق والمعاش، ويدل على هذا التأويل: قوله تعالى: ﴿ما أريد منهم من رزق...﴾ الخ، قال ابن المنير: إلا لأمرهم بعبادته، لا لطلب رزق لأنفسهم، ولا لإطعام لي، كما هو حال السادات من الخلق مع عبيدهم، بل الله هو الذي يرزق، وإنما على عباده العبادة له؛ لأنهم مكلفون، ابتلاء وامتحاناً، أما الإرادة فكما تعلقت بالعبادة تعلقت بما يخالفها، لقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ (٥). هـ. وقيل المعنى: ما خلقهم إلا مستعدين للعبادة، متمكنين منها أتم استعداد، وأكمل تمكن، فمنهم من أطاع، ومنهم من كفر، وهو كقولهم: البقر مخلوقة للحرث، أي: قابلة لذلك، وقد يكون فيها من لا يحرث. والحاصل: أنه لا يلزم من كون الشيء معداً لشيء أن يقع منه جميع ذلك.

أو: ما خلقتهم إلا ليتذللوا لي، ولقدرتي، وإن لم يكن ذلك على قواعد شرع، وهذا عام في الكل، طوعاً أو كرهاً؛ إذ كل ما خلق منقاد لقدرته وقهرته، عابد له بهذا المعنى. وفي البخاري: وما خلقت أهل السعادة من

(١) من الآية ٢٨ من سورة آل عمران.

(٢) في الورتجبي: الخراز.

(٣) في الورتجبي: الأرواح.

(٤) في الورتجبي: مواضع.

(٥) من الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.

الفريقين إلا ليُوحَّدون. وقال بعضهم: خلقهم ليفعلوا، ففعل بعضٌ وترك بعضٌ. وليس فيه حجة لأهل القدر. هـ.
منه (١). والمراد بأهل القدر: المعتزلة، القائلون بأن الله تعالى لم يرد الكفر والمعاصي، وهو باطل، وسيأتي في الإشارة بقية تحقيق إن شاء الله.

﴿ما أريد منهم من رزق﴾ أى: ما خلقتهم ليرزقوا أنفسهم، أو واحداً من عبادي، ﴿وما أريد أن يطعمون﴾، قال ثعلب: أن يطعموا عبادي، وهو إضافة تخصيص، كقوله عليه السلام: «من أكرم مؤمناً فقد أكرمني ومن آذى مؤمناً فقد آذاني» (٢)، والحاصل: أنه تعالى بين أن شأنه مع عباده متعالياً عن أن يكون كشأن السادات مع عبيدهم، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم، ونهيئة أرزاقهم، أى: ما أريد أن أصرفهم في تحصيل رزقي ولا رزقهم، بل أفضّل عليهم برزقهم، وبما يصلحهم ويعيشهم من عدي، فليشتغلوا بما خلّقا له من عبادتي.

﴿إن الله هو الرزاق﴾ أى: يرزق كل من يفتقر إلى الرزق، وفيه تلويح بأنه غنى عنه، ﴿ذو القوة﴾؛ ذو الاقتدار، ﴿المتين﴾ أى: الشديد الصلب. وقرأ الأعمش «المتين» بالجر (٣)، نعت للقوة، أى: ذو القوة المتينة، وإنما ذكره لتأول القوة بالاقتدار.

﴿فإن للذين ظلموا﴾ أنفسهم، بتعريضها للعذاب، حيث كذبوا الرسول ﷺ، أو: وضعوا التكذيب مكان التصديق، وهم أهل مكة، ﴿ذنوباً﴾ أى: نصيباً وافراً من العذاب، ﴿مثل ذنوب أصحابهم﴾؛ مثل عذاب نظائهم من الأمم المحكية. قال الزجاج: الذنوب في اللغة: النصيب، مأخوذ من مقاسمة السقاء الماء بالذنوب، وهو الدلو العظيم المملوء. ﴿فلا يستعجلون﴾ ذلك النصيب، فإنه لاحق بهم، وهذا جواب النضر وأصحابه حين استعجلوا العذاب.

﴿فويل للذين كفروا﴾، وضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالكفر، أى: فويل لهم ﴿من يومهم﴾ الذي يُوعَدون، أى: من يوم القيامة، أو يوم بدر، والأول أنسب لما في صدر السورة الآتية.

الإشارة: اعلم أن الحق - جل جلاله - إنما بعث الرسل بإظهار الشرائع، ليحوّشوا العباد إلى الله، ويدعوهم إليه كافة، ويأمروهم بالتبذل والانقطاع، من غير التفات لمن سبق له السعادة أو الشقاء؛ لأن ذلك من سر القدر، وغيب المشيئة لا يجوز كشفه في حالة الدعوة، فقله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ هذا ما يمكن

(١) ذكره البخاري في (التفسير، سورة «الذاريات»)

(٢) أخرجه الديلمي (مسند الفردوس ح ٥٨٠٦) والطبراني في الأوسط (ح ٨٦٤٥) من حديث جابر رضي الله عنه بلفظ: «من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم الله عز وجل». وليس فيه الجزء الأخير.

(٣) انظر «المحتسب في تبیین وجوه شواذ القراءات» لابن جنى (٢/٢٨٩).

الأمر به في ظاهر الأمر، ويُؤمر بإظهاره في حالة الدعوة، وكون الحق تبارك وتعالى أراد من قوم الكفر والمعاصي من غيب المشيئة، وسر القدر لا يقدح في عموم الدعوة التي تعلقت بالظواهر؛ لأنه من قبيل الحقيقة، وما جاءت الرسل إلا بالشرعية، فالدعاة إلى الله يعممون الدعوة، ويحرضون على التبتل والانقطاع إلى الله، وينظرون إلى ما يبرز من غيب المشيئة. وقال المرتجبي: عن جعفر الصادق «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» أي: ليعرفوني هـ. ومداره قوله ﷺ فيما يحكيه عن رب العزة: «كنت كنزاً مخفياً لم أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لأعرف» (١) أي: ما أظهرت الخلق إلا لأعرف بهم، فتجليت بهم في قوالب العبودية، لتظهر ربوبيتي في قوالب العبودية، فتظهر قدرتي وحكمتي، فسبحان الحكيم العليم.

قال أبو السعود: ولعل السر في التعبير عن المعرفة بالعبادة للتنبيه على أن الاعتبار هي المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى، لا ما يحصل بغيرها، كمعرفة الفلاسفة هـ. قلت: وكل معرفة وحقيقة لا تصحبها شريعة لا عبرة بها، بل هي زندقة أو دعوى (٢). وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾، هذه الآية وأمثالها هي التي غسلت الأمراض والشكوك من قلوب الصديقين، حتى حصل لهم اليقين الكبير، فسكنت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، فهم في روح وريحان. والأحاديث في ضمان الرزق كثيرة، وأقوال السلف كذلك، وفي حديث أبي سعيد الخدري عنه ﷺ قال: «لو فرأ أحدكم من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت» (٣) وقال أيضاً عن الله عز وجل: «يقول: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي، أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت يدك شغلاً» (٤)، وقال ﷺ: «من كانت الآخرة همه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأنته الدنيا وهي صاغرة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأتيه من الدنيا إلا ما قدر له» (٥).

(١) قال ابن تيمية: إنه ليس من كلام النبي ﷺ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وتبعه الزركشي وابن حجر. انظر: النذرة (ح) ٧١٧ وأسلى المطالب (١١١٠) وتنزيه الشريعة ١/١٤٨.

(٢) صدقت يا شيخنا رضي الله عنك.

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير (٢٢٠/١) والأوسط (ح ٤٤٤٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٢/٤): «رواه الطبراني في الأوسط والصغير، وفيه عطية العوفي، وهو ضعيف وقد وثق».

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٣٥٨/٢) والترمذي في (صفة القيامة ٥٥٤/٤، ح ٢٤٦٦) وابن ماجه في (الزهد، باب الهم بالدنيا، ح ٤١٠٧) والحاكم (٤٤٣/٢) وصححه وافقه الذهبي، من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه الترمذي في الموضع السابق (ح ٢٤٦٥) من حديث أنس، ويتبعه أخرجه ابن ماجه في الموضع السابق (ح ٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت رضى الله عنه.

وقال المحاسبي: قلت لشيخنا: من أين وقع الاضطراب في القلوب، وقد جاء الضمان من الله عز وجل؟ قال: من وجهين؛ من قلة المعرفة وقلة حسن الظن. ثم قال: قلت: شيء غيره؟ قال: نعم، إن الله عز وجل وعدَّ الأرزاق وضمنها، وغيب الأوقات، ليختبر أهل العقول، ولولا ذلك لكان كل المؤمنين راضين، صابرين، متوكلين، لكن الله - عز وجل - أعلمهم أنه رازقهم، وحلف لهم، وغيب عنهم أوقات العطاء، فمن هنا عرف الخاص من العام، وتفاوت العباد، فمنهم ساكن، ومنهم متحرك، ومنهم ساخط، ومنهم جازع، فعلى قدر ما تفاوتوا في المعرفة تفاوتوا في اليقين. هـ. مختصراً - وبالله التوفيق. صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.



سُورَةُ الطُّورِ

مكية. وهي سبع وأربعون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (١) وهو يوم القيامة، وهو الذي أقسم عليه بقوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢ ﴿فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧﴾ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ ﴿

يقول الحق جل جلاله: ﴿والطور﴾، هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بمدين، ﴿وكتاب مسطور﴾ وهو القرآن العظيم، ونكر لأنه كتاب مخصوص من بين سائر الكتب، أو: اللوح المحفوظ، أو: التوراة، كتبه الله لموسى، وهو يسمع صرير القلم، ﴿في رَقٍّ منشور﴾، الرق: الجلد الذي يكتب فيه، والمراد: الصحيفة، وتنكيره للتفخيم والإشعار بأنها ليست مما يتعارفه الناس، والمنشور: المفتوح لا ختم عليه، أو: الظاهر للناس، ﴿والبيت المعمور﴾ وهو بيت في السماء السابعة، حيال الكعبة، ويقال له: الضراح^(٢)، وعمرانه بكثرة زواره من الملائكة، روى: أنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، يطوفون به، ويخرجون، ومن دخله لا يعود إليه أبداً^(٣)، وخازنه ملك يقال له: رزين. وقيل: الكعبة، وعمارته بالحجاج والعُمار والمجاورين.

﴿والسقف المرفوع﴾ أي: السماء، أو: العرش، ﴿والبحر المسجور﴾ أي: المملوء، وهو البحر المحيط، أو الموقد، من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾^(٤)، والمراد الجنس، روى أن الله تعالى يجعل البحار يوم القيامة

(١) الآية الأخيرة من سورة الذاريات.

(٢) روى ذلك عن ابن عباس، مرفوعاً، فيما ذكره السيوطي في الدر (١٤٤/٦) وعزاه للطبراني وابن مردويه، بسند ضعيف. وأخرجه ابن جرير، عن سيدنا علي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في (الإيمان) باب الإسراء برسول الله ﷺ ح رقم ٥٩، ح ١٦٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الإسراء، وفيه: «فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه... الحديث.

(٤) الآية ٦ من سورة التكوين.

ناراً، تسجر بها نار جهنم، كما يسجر التنور بالحطب، وعن ابن عباس: المسجور: المحبوس^(١)، أى: المُلجَم بالقدرة. والوارى الأولى للقسم، والتوالى للعطف، والمقسم عليه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾؛ لنازل حتماً، ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ أى: لا يمنعه مانع، والجملة: صفة لواقع، أى: وقع غير مدفوع. ومن: مزيدة للتأكيد، وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها؛ لأنها أمور عظام، تُنبئ عن عظم قدرة الله تعالى، وكمال علمه، وحكمته الدالة على إحاطته تعالى بتفاصيل أعمال العباد، وضبطها، الشاهدة بصدق أخباره، التى من جملتها: الجملة المُقسَم عليها.

الإشارة: أقسم الله تعالى بجبل العقل، الذى أرسى به النفس أن تميل إلى مافيه هلاكها، وبما كتب فى قلوب أوليائه من اليقين، والعلوم، والأسرار، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾^(٢) وذلك حين رقت وصفت من الأغيار، ثم أقسم أيضاً بذلك القلب، وهو البيت المعمور؛ لأن القلب بيت الرب، يا داود طهر بيتاً أسكنه... الحديث^(٣)، وهو معمور بالمعارف والأنوار، وأقسم بسماء الأرواح المرفوعة عن خوض عالم الأشباح، وهو سقف بيت القلب، وبحر الأحدية الذى عمر كل شىء، وأحاط بكل شىء، وأقنَى كل شىء، فالوجود كله بحر متصل، أوله وآخره، وظاهره وباطنه. إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لِأَهْلِ الْعَذَابِ، وهم أهل الحجاب، لواقع، وأعظم العذاب: غم الحجاب وسوء الحساب. ومن دعاء السرى السقطى: اللهم مهما عذبتنى فلا تعذبنى بذل الحجاب. هـ. ما له من دافع؛ لا يدفعه أحد من الخلق، إلا من رحم الله، أر: من أهله الله لذلك من أهل التربية النبوية.

ثم ذكر وقت ما أقسم عليه، فقال:

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾^(٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْيَوْمِذِ
لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾
هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾
أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾ أو: لواقع يوم تمور ﴿السَّمَاءُ﴾ أى: تدور كالرحى مضطربة ﴿مَوْرًا﴾ عظيماً تنكفاً بأهلها كالسفينة، ﴿وتسير الجبال سيراً﴾ أى: تزول عن وجه الأرض، فتصير فى الهواء

(١) أخرجه الطبرى. (٢) من الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

(٣) ذكره ابن القيسراني فى تذكرة الموضوعات (٥٣٦).

كالهباء . وتأکید الفعل بمصدریهما للإیذان بغرابتھما وخروجھما عن الحدود المعهودة، أى: موراً عجیباً وسيراً بدیعاً، لا یدرک کنتھما. ﴿ فویل یومئذ للمکذبین ﴾ إذا وقع ذلك، أو: إذا کان الأمر كما ذکر، فویل لهم إذا وقع ذلك، ﴿ الذین هم فی خوض ﴾ أى: فی اندفاع عجیب فی الباطل والأکاذیب ﴿ یلعبون ﴾: یلهون، فالخوض غلب بإطلاقه فی الاندفاع فی الباطل والكذب، ومنه قوله: ﴿ وَكُنَّا نَخْرُصُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ (١). ﴿ یوم یدعون إلى نار جهنم دعاً ﴾ أى: یدفعون إليها دفعاً عنيفاً شديداً، بأن تفل أیدیهم إلى أعناقهم، وتجمع نواصیهم إلى أقدامهم، فیدفعون إلى النار على وجوههم، ویقال لهم: ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ فی الدنيا.

﴿ أفسحراً هذا ﴾، تویخ وتفریع لهم، حیث كانوا یسمون الوحی الناطق بذلك العذاب سحراً، كأنه قیل: كنتم تقولون للقرآن الناطق بهذا سحراً، أفهذا أيضاً سحر؟. وتقدیم الخبر لأنه محط الإنكار ومدار التویخ. ﴿ أم أنتم لا تبصرون ﴾؛ أم أنتم عمى عن المخبر عنه، كما كنتم عمياً عن الخبر؟ وهذا تفریع وتهكم، ﴿ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا ﴾ أى: ادخلوها وقاسوا شدائدھا فافعلوا ما شئتم من الصبر وعدمه، ﴿ سواء علیکم الأمران؛ الصبر وعدمه، فإسواء: مبدأ حذف خبره. وعلل استواء الصبر وعدمه بقوله: ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ من الکفر والمعاصی، فالصبر إنما یكون له مزية على الجزع لنفعه فی العاقبة؛ بأن یجازى علیه الصابر جزاء الخیر، وأما الصبر على العذاب، الذی هو الجزاء، ولا عاقبة له ولا منفعة، فلا مزية له على الجزع. نعوذ بالله من موارد الهوان.

الإشارة: یوم تمور سماء الأرواح، أى: تتحرك الأرواح وتهیج بالواردات الإلهیة، شوقاً إلى اللقاء، فإذا حصل اللقاء وقع لها السكون والطمأنیة، ولذلك قیل: «المحبة أولھا جنون، ووسطھا فنون، وآخرھا سكون». وسبب هذا الاضطراب الذی یتظهر على المرید فی أول بدايته: أن جند الأنوار إذا أراد أن یدخل على جند الأغیار، ویخرجه من وطنه - الذی هو باطن العبد - وقع بینھما تجارب وتضارب، فجند الأنوار یرید أن یقلع جند الأغیار من باطن العبد، ویسكن هو، وجند الأغیار یرید المقام فی وطنه، فلا یزال القتال بینھما، حتى یغلب واحد منھما، فإذا غلب جند الأنوار سكن فی الباطن، وسكن الظاهر، ولم تقع فكرة العبد إلا فی التوحید، أو ما یقرب إلى الحق تعالى، وإذا غلب جند الأغیار، ولم یترك جند الأنوار یدخل إلى الباطن، سكن الظاهر أيضاً، وبقى باطن العبد منحشواً بالخواطر والوساوس الدنیویة كما كان، ورجع العبد إلى مقام العمومیة.

وقوله تعالى: ﴿وتسير الجبال سیراً﴾ أى: تزول جبال وجود العبد عند إشراق أنوار الحقائق، فویل یومئذ للمکذبین، أى: بُعد لأهل الإنكار عن حضرة الأسرار، حین ظفر الطالب بالمطلوب، ووصل المحب إلى المحبوب،

(١) الآية ٤٥ من سورة المدثر.

الذين هم في خوض الدنيا وشهواتها وزخارفها يلعبون، لا حديث لهم إلا عليها، ولا فكرة إلا فيها. يوم يدعون إلى النار القطيعة والبعد، دعاء، لا خلاص منها، ولا رجوع، فتناديهم عزة الحق تعالى: هذه النار التي كنتم بها تكذبون، وتقولون: لا يقطعنا عن الله شيء من الدنيا، وترمون أهل التربية بالسحر، أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون حقائق هذه المعاني؟ اصلوا نار القطيعة، فاصبروا على غم الحجاب، أو لا تصبروا، إذ لم تصبروا على مخالفة النفوس حين ينفعكم الصبر، سواء عليكم أجزعتكم أم صبرتم، إنما تجزون ما كنتم تعملون في الدنيا، من إثارة الهوى والحظوظ، على مجاهدة النفوس.

ثم ذكر أصدادهم، فقال:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَاءٍ أَنَّهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلٌّ أُمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينَ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْشَرِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْسٍ ﴿٢٣﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ الشرك والمعاصي ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ عظيمة ﴿ وَنَعِيمٍ ﴾ أي نعيم، فالتنكير للتفخيم، أو: للتنوع، أي: جنات مخصوصة بهم، ونعيم مخصوص، ﴿ فَكَاهِينِ ﴾ ناعمين متلذذين ﴿ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾: بما أتاهم، ﴿ وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾، عطف على آتاهم، على أن ماء مصدرية، أي: فأكهين بإتيانهم ووقايتهم، أو: على في جنات النعيم أي: استقروا في جنات ووقاهم، أو: حال، إما من المستكن في الخبر، أو: من قاعل آتى، أو: مفعوله بإضممار قد، وإظهار الرب في موضع الإضممار مضافاً إلى ضمير (هم) لتشريفهم، ويقال لهم: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ ما شئتم ﴿ هَنِيئًا ﴾ أي: أكلاً وشراباً هنيئاً، أو: طعاماً وشراباً هنيئاً، لا تنغيص فيه بخوف انقطاعه أو فواته، ﴿ بِمَا كُنْتُمْ ﴾ أي: عوض ما كنتم تعملون في الدنيا من الخير، أو جزاءه.

﴿ مُتَّكِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾: مصطفة، وهو حال من الضمير في ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾، ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ ﴾ أي: قرناهم ﴿ بِحُورٍ عِينٍ ﴾: جمع حوراء ﴿ عِينٍ ﴾: جمع عيناء، أي: عظام الأعين حسانتها. وفي الكشف: وإنما دخلت

البناء في (بحور) لتضمن معنى زوجناهم قرناهم هـ. وقال الهروي: (زوجناهم) أى: قرناهم، والأزواج: الأشكال والقرناء، وليس في الجنة تزويج هـ. والمنفى: تحمل مؤنة التزويج والمعاقدة، وإنما يقع التملك والإقران.

﴿والذين آمنوا﴾: مبتدأ، ﴿وأتبعهم ذريتهم﴾: عطف على (آمنوا)، و﴿بإيمان﴾ متعلق بالاتباع، والخبر: ﴿ألحقنا بهم ذرياتهم﴾^(١) أى: تلحق الأولاد بدرجات الآباء، إذ شاركوهم في الإيمان، وإن قصرت أعمال الذرية عن أعمال الآباء، وكذلك الآباء تلحق بدرجة الأبناء؛ لتقر بذلك أعينهم، فيلحق بعضهم ببعض، إذا اجتمعوا في الإيمان من غير أن ينقص أجر من هو أحسن عملاً شيئاً، بزيادته في درجة الأنقص، ولا فرق بين من بلغ من الذرية، أو لم يبلغ، إذا كان الآباء مؤمنين. انظر الثعلبي.

وفي حديث ابن عباس: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، يسأل الرجل عن أبيه، وزوجته، وولده، فيقال: إنهم لم يدركوا ما أدركت، فيقول: لقد عملت لى ولهم أجمعين، فيؤمر بالحاقهم به»^(٢). قال القشيري: ليكمل عليهم سرورهم بذلك؛ فإن الانفراد بالنعمة والقلب مشغول بالأهل والذرية ينقص العيش، وكذلك كل من يلاحظ قلباً من صديق وقريب وولى وخادم، قال تعالى في قصة يوسف: ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣) هـ.

قال في الحاشية: وربما يستأنس بما ذكر في الجملة بقوله: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم...﴾ الآية^(٤)، وما قيل في سبب نزولها^(٥)، وكذلك حديث: «المرء مع من أحب»^(٦)، وحال الجنة مما لا يخطر على بال، فيجوز أن يكون الأدنى مع الأعلى بمنزلته معه، مع مباينته له بحقيقته، كما أن حيلة الحق تعالى شاملة لكل، وكل يتعرف له على قدره، فالكل معه بمطلق التعرف، مع تحقق التفاوت، وأهل الجنة فيها على حكم الأرواح، وأحكامها لا تكيف، واعتبر بالفروع مع الأصول، مع تفاوتها. والله أعلم هـ.

(١) أثبت المفسر - رحمه الله - قراءة «ذرياتهم» بالجمع، وهي قراءة نافع وأبي جعفر، في الثاني دون الأول، وقرأ ابن كثير، وعاصم، وحمره، والكسائي، وخلف: «ذريتهم» بالفتح في الأول والثاني، وقرأ ابن عامر ويعقوب «ذرياتهم» بالجمع في الأول والثاني. انظر الإتحاف ٢/ ٤٩٥ - ٤٩٦.

(٢) عزاه السيوطي في الدر (١٤٨/٦) للطبراني وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً..

(٣) من الآية ٩٣ من سورة يوسف.

(٤) الآية ٦٩ من سورة النساء.

(٥) راجع سبب نزول الآية في (٥٢٥/١).

(٦) أخرجه البخاري في (الأدب، باب علامة الحب في الله، ح ٦١٦٩، رح ٦١٧٠) عن ابن مسعود، وأبي موسى - رضي الله عنهما، ومسلم في (البر والصلة، باب المرء مع من أحب، ح ٢٦٤٠) عن ابن مسعود.

والحاصل: أنهم يلحقون بهم في الطبقة، ويتفاوتون في نعيم الأرواح والأشباح، وفي الرؤية والزيادة^(١). والله تعالى أعلم.

﴿وما ألتاهم﴾ أي: ما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق ﴿من عملهم﴾؛ من ثواب عملهم ﴿من شيء﴾ بأن أعطينا بعض مثوباتهم لأبنائهم، فتنقص مثوبتهم، وتنحط درجاتهم، وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض الفضل والإحسان. والألت: البخس. وقرأ المكي: (ألتاهم) بكسر اللام، من: أَلَتْ يَأْلَتُ، كَعَلِمَ يَعْلَمُ^(٢)، ومن: الأولى منطقة به ألتاهم، والثانية زائدة لتأكيد النفي. ﴿كُلُّ امرئ بما كسب رهين﴾ أي: كل امرئ مرهون عند الله تعالى بعمله، فإن كان صالحاً فله، وإلا أهلكه. والجملة: استئناف بياني، كأنه لما قال: مانقصناهم من عملهم شيئاً نعطيهم الأبداء حتى يلحقوا بهم على سبيل الفضل، قيل: لم كان الإلحاق تفضلاً؟ قال: لأن كل امرئ بما كسب رهين، وهؤلاء لم يكن لهم عمل يلحقوا بسببه بهم، فألحقوا تفضلاً.

﴿وأمددناهم﴾ أي: وزودناهم في وقت بعد وقت ﴿بفاكهة ولحم مما يشتهون﴾ من فنون النعماء وألوان اللآلئ، وإن لم يطلبوا ذلك. ﴿يتنازعون فيها كأساً﴾ أي: يتعاطون ويتعاورون^(٣) هم وجلساؤهم من أقرانهم كأساً فيها خمر، يتناول هذا الكأس من يد هذا، وهذا من يد هذا، بكمال رغبة واشتياق، ﴿لا لغو فيها﴾ أي: في شربها، فلا يتكلمون في أثناء الشراب إلا بكلام طيب، فلا يجري بينهم باطل، ﴿ولا تأثيم﴾ أي: لا يفعلون ما يوجب إثماً لصاحبه لو فعله في دار التكليف، كما هو شأن المندامين في الدنيا، وإنما يتكلمون بالحكم وأحسن الكلام، ويفعلون ما يفعله الكرام.

قال القشيري: ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ لا يجري بينهم باطل ولا مافيه لوم، كما يجري من الشرب^(٤) اليوم في الدنيا، ولا تذهب عقولهم، فيجرى بينهم ما يخرج عن حد الأدب والاستقامة، وكيف لا يكون مجلسهم بهذه الصفة، وعلى المعلوم من يسقيهم بمشهد من مجلوسهم، وعلى رؤية من شربهم، والقوم عن الدار وعن مافيه مختطفون باستيلاء ما يستغرقهم، فالشراب يؤنسهم، ولكن لا يمر بحاستهم هـ.

وقرأ المكي والبصري بالفتح^(٥) فيها على إعمال لا، النافية للجنس.

(١) على هامش النسخة الأم ما يلي: هذا تحكم على الآية، وعلى كرم الله تعالى، فإن الآية مطلقة في الإلحاق، فلا يقيد بها إلا آية، أو حديث صحيح هـ.

(٢) والأول (ألتاهم) بفتح اللام، من: أَلَتْ يَأْلَتُ، كضرب يضرب.

(٣) تعوروا الشيء وتعاوروه: تداولوه فيما بينهم. انظر اللسان (عور ٤/٣١٦٨).

(٤) الشرب: جمع شارب، كراكب، وركب. وهم القوم يشربون ويجتمعون للشراب، انظر اللسان (شرب، ٤/٢٢٢٢).

(٥) في لا لغو فيها ولا تأثيم، وقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالفتح بلا تنوين، وقرأ الباقر بالرفع والتنوين. انظر الإتحاف ١/٤٩٦.

الإشارة: إن المتقين مأسوى الله في جنات المعارف عاجلاً، وجنات الزخارف والمعارف آجلاً، ونعيم المشاهدات والمكاشفات والمناجاة، فاكهين، معجبين، متلذذين بما آتاهم ربهم من أصناف ألطافه، وتقريبه، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم، أي: نار شهوة نفوسهم، فبردت عنهم، وسلموا منها، كلوا من طعام المشاهدات، واشربوا من أمداد الزيادات والترقيات، هنيئاً بما كنتم تعملون من المجاهدات والمكابدات، متكئين على سرر المقامات، والدرجات، مصفوفة في منازل العبودية، وزوجناهم بحور عین من أبنكار الحقائق، وثيبات العلوم، والذين آمنوا بهذه الطريق وسلکوها، واتبعتهم ذريتهم ومن تعلق بهم من طلاب الحق، ألحقنا بهم ذريتهم ومن تعلق بهم، وإن لم يبلغوا صفاء مشربهم من الوصال والاتصال، فيكونون معهم في الدرجة، مع تفاوتهم في نعيم المشاهدة، وما ألتناهم من عملهم من شيء، بل ألحقناهم بهم فضلاً وكرماً، مع توفر ثواب عمل الملحق بهم. كل امرئ بما كسب رهين، لا يزيد نعيم روحه على سعيه في الدنيا ومجاهدته، وإن تساوى في الدرجة مع غيره. وأمددناهم بفاكهة من حلاوة المعاملة، ولحم مما يشتهون من لذائذ المشاهدة، يتنازعون فيها؛ في جنة المعارف، كأس خمرة المحبة والفناء، فيفنون عن وجودهم في شهود محبوبهم. يتناولون ذلك من أشياخهم واحداً بعد واحد، وقد يجتمعون في كأس واحدة، لا لغو فيها، أي: لا حديث للنفس في حال شربها، بل الهم كله مجموع فيها، كما قال القائل:

وإذا جلست إلى المدام وشربه فاجعل حديثك كله في الكاس

فالخمرة التي يشوبها شيء من حديث النفس ليست بصافية من الأكدار. ولا تأثيم بنزوع الروح إلى طبع النفس، إذا نزلت إلى سماء الحقوق، أو أرض الحظوظ، بل تكون في ذلك بالله، ومن الله، وإلى الله، تنزل بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين، جعلنا الله من ذلك القبيل بمنه وكرمه.

وقال الورعجي: «يتنازعون...» الآية: وصفهم الله في شربهم كاسات شراب الوصلة بالمسارعة والشوق إلى مزيد القرية، ثم وصف شرابهم أنه يورثهم التمكين والاستقامة في السكر، لا يزول حالهم إلى الشطح والعريضة، وما يتكلم به سكارى المعرفة في الدنيا عند الخلق، ولا يشابه حال أهل الحضرة حال أهل الدنيا من جميع المعاني. هـ.

ثم قال تعالى:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ﴾ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّعَنَا عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أى: بالكأس أو: فى شأن الخدمة كلها ﴿غُلَامَانُ لَهُمْ﴾ أى: مماليك مخصصون بهم، قيل: أولاد الكفار الذين ماتوا صغاراً، وقيل: توجد لهم القدرة من الغيب، وفى الحديث: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من يُنادى الخادم من خدامه، فيجيبه ألف، كلهم يُناديه: لبيك لبيك»^(١). قلت: هذا فى مقام أهل اليمين، ولما المقربون فإذا اهتموا بشيء حضر، بغلام أو بغير غلام، من غير احتياج إلى نداء. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: (ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام، كل غلام على عمل ما عليه صاحبه)^(٢). ﴿كَانَهُمْ﴾ من بياضهم وصفائهم ﴿لَوْ لَوَّ مَكْنُونٌ﴾ مصون فى الصدف؛ لأنه حينئذ يكون أصفى وأبهى، أو مخزون؛ لأنه لا يخزن إلا الثمن الغالى القيمة. قيل لقتادة: هذا الخادم فكيف المخدم؟، فقال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده إن فضل المخدم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم»^(٣).

﴿وَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ يسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله، وما استحق به نيل ما عند الله، فكل بعض سائل ومُسْتَوَلٍ. ﴿قَالُوا﴾ أى: المستولون فى جوابهم، وهم كل واحد منهم فى الحقيقة: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلَانَا﴾ أى: فى الدنيا ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أرقاء القلوب من خشية الله، أو: خائفين من نزع الإيمان وفوت الأمان، أو: من رد الحسنات والأخذ بالسيئات، أو: واجلين من العاقبة، ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالمغفرة والرحمة ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ وهى الريح الحارة، التى تدخل المسام، فسَمِّتَ بها نار جهنم؛ لأنها بهذه الصفة. ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أى: من قبل لقاء الله والمصير إليه - يعنون: فى الدنيا، ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبد ولا نعبد غيره، أو نسأله الوقاية، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ المحسن ﴿الرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة، الذى إذا عبد أثاب، وإذا سئل أجاب، وقرأ نافع والكسائى بالفتح^(٤)، أى: لأنه، أو بأنه.

الإشارة: ويَطُوفُ على قلوبهم علومٌ وهبية، وحكمٌ غيبية، تزهو على اليواقيت المكنونة. وأَقْبِلْ بعضهم على بعض يتساءلون: كيف سلكوا طريق الوصول، وكيف كانت مجاهدة كل واحد ومسيره إلى الله، إما تحدثاً بالنعم، أو: للاقتداء بهم، وفى الحكم: «عبارتهم إما لفيضان وجد، أو: لهداية مريد»^(٥). إِنَّا كُنَّا قَبْلُ الوصول فى أَهْلَانَا، أى: فى عالم الإنسانية مشفقين من الانقطاع والرجوع، خائفين من سُموم صفات البهيمية والشيطانية، والشهوات الدنيوية، فإنها تهب بسموم قهر الحق، قهر بها جُلَّ عبادِه فانقطعوا عنه، فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا، ووصلنا بما منه إلينا، لا بما منا إليه،

(١) عزاه الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف (ص ١٦٠) للعلبي، عن وكيع عن هشام عن أبيه، عن السيدة عائشة - رضى الله عنها.

(٢) ذكره البغوى فى تفسيره (٣٩٠/٧).

(٣) أخرجه عبد الرزاق فى التفسير (٢٤٨/٢) والطبرى (٢٩/٢٧) عن قتادة، مرسلًا.

(٤) فى «ندعوه أنه، على التعليل، وقرأ الباقر «إنه، بالكسر على الاستئناف. انظر الإتعاظ (٤٩٧/٢).

(٥) حكمة رقم ١٨٦ انظر الحكم بتبويب المتقى الهنذى (ص/٣٦).

ورقانا عذاب السموم، وهو الحرص والجزع، والانقطاع عن الحبيب، ولولا فضله ماتخلصنا منه، إنا كنا من قبل الوصول ندعوه أن يأخذ بأيدينا، ويجذبنا إلى حضرته، ويرحمنا بالوصول، ويبرئ بنا، إنه هو البر بمزيد، الرحيم بمن ينب إليه.

ثم أمر نبيه باستمراره على ما أمره به من التذكير فيما سلف، فقال:

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (٢٩) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ (٣٠) ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ (٣١) ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (٣٢) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٣) ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (٣٤) ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٣٥) ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٣٦) ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴾ (٣٧) ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلُمٌ نَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ (٣٨) ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ (٣٩) ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ (٤٠) ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (٤١) ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ (٤٢) ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤٣) ﴿

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فذكّر ﴾ أى: فأنبت على ما أنت عليه من تذكير الناس وموعظتهم، ﴿ فما أنت بنعمة ربك ﴾ أى: بحمده وإنعامه عليك بالنبوة ورجاحة العقل ﴿ بكاهن ولا مجنون ﴾ كما زعموا، قاتلهم الله أنى يوفكون، ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ أى: حوادث الدهر، أى: نتنظر به نوائب الزمان حتى يهلك كما هلك الشعراء من قبله، زهير والنابعة. وأما، فى هذه الآى منقطعة بمعنى «بل». ﴿ قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين ﴾ أترىص هلاككم، كما تتربصون هلاكى. وفيه عدة كريمة بإهلاكهم، وقد جرب أن من تربص موت أحد لينال رئاسته، أو ماعنده، لايموت إلا قبله.

﴿ أم تأمرهم أحلامهم ﴾ أى: عقولهم ﴿ بهذا ﴾ التناقض فى المقالات، فإن الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر فى الأمور، والمجنون مغطى عقله، مختل فكره، والشاعر يقول ما لا يفعل، فكيف يجتمع أوصاف هؤلاء فى

واحد؟ وكانت قريش يُدْعُونَ أهل الأحلام والنهي، فكذبهم ما صدر منهم من هذه المقالات المضطربة، ﴿أم هم قوم طاغون﴾ يجاوزون الحدود في المكابرة والعناد، ولا يحومون حول الرشد والسداد. وإسناد الأمر إلى الأحلام مجاز.

﴿أم يقولون تقوله﴾؛ اختلقته من تلقاء نفسه، ﴿بل لا يؤمنون﴾، رد عليهم، أي: ليس الأمر كما زعموا، بل لكفرهم وعنادهم يقذفون بهذه الأباطيل، التي لا يخفى بطلانها على أحد، فكيف يقدر البشر أن يأتي بما عجز عنه كافة الأمم من العرب والعجم، ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾ أي: مثل القرآن في البلاغة والإعجاز ﴿إن كانوا صادقين﴾ في أن محمداً تقوله من تلقاء نفسه؛ لأنه بلغاتهم، وهم فصحاء، مشاركون له ﷺ في العربية والبلاغة، مع مالهم من طول الممارسة للخطب والأشعار، وكثرة المقالة للنظم والنثر، والمبالغة في حفظ الوقائع والأيام، ولاريب في أن القدرة على الشيء من موجبات الإتيان به مع دواعي الأمر بذلك من تعجيزهم وإفحامهم وطلب معارضتهم.

﴿أم خلقوا من غير شيء﴾ أي: أم أحدثوا وقَدَرُوا هذا التقدير البديع، الذي عليه فطرتهم، من غير محدث ومقدّر. أو: أم خلقوا من غير شيء من الحكمة، بأن خلقوا عبثاً، فلا يتوجه عليهم حساب ولا عقاب؟ ﴿أم هم الخالقون﴾؛ الموجدون لأنفسهم؟ فيلزم عليه الدور، وهو تقدم الشيء على نفسه وتأخره عنها، ﴿أم خلقوا السموات والأرض﴾ فلا يعبدون خالقهما ﴿بل لا يوقنون﴾؛ لا يتدبرون في الآيات، فيعلمون خالقهم، وخالق السموات والأرض، فيفردونه بالعبادة.

﴿أم عندهم خزائن ربك﴾ من النبوة والرزق وغيرهما، فيخصّصوا بما شاءوا من شاءوا، ﴿أم هم المصيطرون﴾ أي: الأرباب الغالبون، المُسلِّطون على الأمور يدبرونها كيف شاءوا، حتى يدبروا أمر الربوبية، ويبينوا الأمور على إرادتهم ومشيتهم. وقرأ المكي والشامي بالسین على الأصل.

﴿أم لهم سلّم﴾ منصوب يرتقون به إلى السماء، ﴿يستمعون فيه﴾ كلام الملائكة، وما يوحى إليهم من علم الغيب، حتى يعلموا أن ما هم عليه حق، وما عليه غيرهم باطل، أو ما هو كائن من الأمور التي يتفوهون بها رجماً بالغيب، ويعلقون بها أطماعهم الفارغة من هلاكه ﷺ قبلهم، وانفرادهم بالرياسة. وفي: سببية، أي: يستمعون بسبب حصولهم فيه، أو: ضمّن «يستمعون» يعرجون. وقال الزجاج: (يستمعون فيه) أي: عليه، ﴿فليأت مستمعهم بسلطان مبين﴾؛ بحجة واضحة، تصدق استماع مستمعهم.

ثم سَفَّه أحلامهم بقوله: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾، حيث اختاروا الله ما يكرهون، وهم حكماء في زعمهم، ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على التبليغ والإنذار ﴿فَهُمْ﴾ لأجل ذلك ﴿مَنْ مَغْرَمٌ مُثْقَلُونَ﴾ أى: من التزام غرامة فادحة محملون الثقل، فلذلك لا يتبعونك. والمغرم: أن يلزم الإنسان ما ليس عليه. ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أى: اللوح المحفوظ، المكتوب فيه الغيوب، ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ مافيه، حتى يتكلموا فى ذلك بنفى أو إثبات.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ هو كيدهم برسول الله ﷺ فى دار الندوة، ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم المذكورون، ووضع الموصول موضع ضميرهم؛ للتسجيل عليهم بالكفر، أى: فـ ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ الذين يحيق بهم كيدهم، ويعود عليهم وبآله، لا مَنْ أَرَادُوا أَنْ يَكِيدُوهُ وَهُوَ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِهِ. ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يمنعهم من عذابه، ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى: تنزيهاً له عن إشراكهم، أو: عن شركة ما يشركونه به. وحاصل ما ذكر الحق وتعالى من الإضرابات: أحد عشر، ثمانية طعنوا بها فى جانب النبوة، وثلاثة فى جانب الربوبية، وهو قوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ ذكرها الحق تعالى تسلياً لرسول الله ﷺ أى: كما طعنوا فى جنابك طعنوا فى جانبى، فاصبر حتى نأخذهم.

الإشارة: فذكر أيها الخليفة للرسول، فما أنت بحمد الله بكاهن ولا مجنون، وإن رموك بشيء من ذلك. قال القشيري: قد علموا أنه ﷺ برىء من الكهانة والجنون، ولكنهم قالوه على جهة الاشتفاء، كالسفيه إذا بسط لسانه فيمن يشأه^(١) بما يعلم أنه برىء مما يقوله هـ. وكل ما قيل فى جانب النبوة يقال مثله فى جانب الولاية، سنة ماضية. قال القشيري: طبع الإنسان متلفة من حقيقة الدين، مجبولة على حب الدنيا والحظوظ، لا يمكن الخروج منها إلا بجهد جهيد، على قانون الشريعة، ومتابعة الرسول ﷺ وخلفائه، وهم العلماء الربانيين، الراسخون فى العلم بالله، من المشايخ المسلّكين فى كل زمان، والخلق مع دعوى إسلامهم ينكرون على سيرهم فى الأغلب، ويستبعدون ترك الدنيا والعزلة، والانقطاع عن الخلق، والتبتل إلى الله، وطلب الأمن. كتب الله فى قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، وهو الصدق فى الطلب، وحسن الإرادة المنتجة من بذر ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء هـ مختصراً.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَرِيسُوا...﴾ الآية، قال القشيري: ولا ينبغي لأحد أن يتمنى نفاق سوقه بموت أحد، لتنتهى الدوبة إليه، قلّ ماتكون هذه صفة إلا سبقته منيته، ولا يدرك ماتمناه هـ. وقال فى مختصره: الآية تشير إلى التصبر فى الأمور، ودعوة الخلق إلى الله، والتوكل على الله فيما يجرى على يد عباده، والتسليم لأحكامه فى

(١) أى: يبغيضه.

المقبولين والمرددين هـ. وقوله: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾... إلى قوله: ﴿عَمَّا يَشْرُكُونَ﴾ هذه صفة أهل الانتقاد على أهل الخصوصية في كل زمان، وهي تدل على غاية حمقهم وسفهمهم، نجانا الله من جميع ذلك.

ثم هددهم بعد تبیین عنادهم، فقال:

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ٤٤﴾ فذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٤٧﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا﴾: قطعة ﴿من السماء ساقطًا﴾ عليهم لتعذيبهم، ﴿يقولوا﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم: هذا ﴿سحابٌ مَرْكُومٌ﴾ أى: تراكُم بعضها على بعض لمطرنا، ولم يصدقوا أنه ساقط عليهم لعذابهم، يعنى: أنهم بلغوا فى الطغيان بحيث لو أسقطناه عليهم حسبما قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ (١) لعاندوا وقالوا سحاب مَرْكُوم. ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ (٢)، وهو اليوم الذى صُعِقُوا فيه بالقتل يوم بدر، لا عند النفخة الأولى، كما قيل؛ إذ لا يصعق بها إلا من كان حيًا حينئذ (٣). وقرأ عاصم والشامى بضم الياء، يقال: صعقه، فصعق، أو: من أصعقه.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا﴾ من الإغناء، بدل من «يومهم»، ولا يخفى أن التعرض لبيان عدم نفع كيدهم يستدعى استعمالهم له فى الانتفاع به، وليس ذلك إلا مادبروه فى أمره ﷺ من الكيد يوم بدر، من

(١) من الآية ٩٢ من سورة الإسراء.

(٢) قرأ عاصم وابن عامر «يصعقون» بضم الياء، مبنياً للمفعول. وقرأ الباقون بفتحها، مبنياً للفاعل. انظر الإتحاف (٢/٤٩٨).

(٣) على هامش النسخة الأم ما يلى:

هذا باطل بداهة، بل المراد به عند النفخة، كما فى آية المعارج: ﴿... حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ، يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ...﴾ الآية: ٤٢ - ٤٣. وقوله: لا يصعق بها إلا من كان حيًا حينئذ، أبطل من الذى قبله، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَصَعَقَ مِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ...﴾ ومن فى الأرض عام، بدليل الحديث المخرج فى الصحيح: «يصعق الناس فأكون أول من أفاق، فإذا موسى باطش بالعرش، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلى، أو كان ممن استثنى الله، فصرح ﷺ النبى بأن جميع الخلق يصعقون، فمن أين جاء هذا الوهم فى تخصيص ذلك بالأحياء، بل قرله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ نص فى ذلك أيضاً؛ لأن الضمير عائد على من فى السموات ومن فى الأرض. وأيضاً: فإن يوم بدر لم يكن فيه صعق، وإنما كان فيه قتل، وليس هو بصعق. ثم إن الله يخاطب كفار قريش كلهم، ولم يمت منهم يوم بدر إلا سبعون... هـ.

قلت: حديث الصعق الذى ذكره المحشى، أخرجه البخارى فى (الرقاق، باب نفخ الصعق ح ٦٥١٧) ومسلم فى (الفضائل،

باب من فضائل موسى، رقم ٢٣٧٣، ح ١٦٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

مناشبتهم القتال، وقصد قتله خفية، وليس يجرى فى نفخة الصعق شيء من الكيد والحيل، فلا يليق حمله عليه^(١). ﴿وَلَا هُمْ يُنصرون﴾ من جهة الغير فى دفع العذاب عنهم.

﴿وإنَّ للذين ظلموا﴾ أى: لهم، ووضع الموصول موضع الضمير تسجيلاً عليهم بالظلم، أى: وإنَّ لهؤلاء الظلمة ﴿عذاباً﴾ آخر ﴿دون ذلك﴾؛ دون ما لاقوه من القتل، أى: قبله، وهو القحط الذى أصابهم، حتى أكلوا الجلود والميتة. أو: وإنَّ لهم عذاباً دون ذلك، أى: وراءه، وهو عذاب القبر وما بعده من فنون عذاب الآخرة، ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ أن الأمر كما ذكر، وفيه إشارة إلى أن فيهم من يعلم ذلك، وإنما يصبر على ذلك عناداً أو: لا يعلمون شيئاً أصلاً؛ إذ هم جاهلية جهلاء.

الإشارة: أهل الحسد والعناد لا ينفعهم ما يرونه من المعجزات والكرامات، أو الحسد يغطى نور البصيرة، فذرههم فى غفلتهم وحيرتهم، وكثافة حجابهم، حتى يصعقوا بالموت؛ فيعرفون الحق، حين لا تنفع المعرفة فيقع الدم والتحسر. وإنَّ لهم عذاباً دون ذلك، وهو عيشهم فى الدنيا عيش ضنك فى هم وغم وجزع وهلع، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون ذلك؛ لأنهم لا يرون إلا من هو مثلهم. ومن توسعت دائرة معرفته، فعاش فى روح وريحان، فهو غائب عنهم، لا يعرفون مقامه، ولا منزلته.

ثم أمر بالصبر، الذى هو عنوان الظفر بكل مطلوب، فقال:

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ ولمن كان على قدمه: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يأمهالهم إلى اليوم الموعود مع مقاساتك آذاهم، أو: واصبر لما حكم به عليك من شدائد الوقت، وإذابة الخلق، ﴿فإنَّك بأعيننا﴾ أى: حفظنا وحمايتنا، بحيث نراقبك وتكلموك. والمراد بالحكم: القضاء السابق، أى: لما قضى به عليك، وفى إضافة الحكم إلى عنوان الربوبية تهييج على الصبر، وحمل عليه، أى: إنما هو حكم سيدك الذى يربيك ويقوم بأمرورك وحفظك، فما فيه إلا نفعك ورفع قدرك. وجمع العين والضمير للإيذان بغاية الاعتناء بالحفظ والرعاية. ﴿وسبِّح بحمد ربك﴾ أى: نزهه ملتبساً بحمده على نعمائه الفائقة للحصر، ﴿حين تقوم﴾ أى: من أى مكان قمت، أو: من

(١) بل يليق حمله على نفخة الصعق، على أن يكون المراد بكيدهم: ما كادوا به فى الدنيا.

منامك . وقال سعيد بن جبير: حين تقوم من مجلسك تقول: سبحانك اللهم وبحمدك . وقال الضحاك والربيع: إذا قمت إلى الصلاة فقل: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك^(١) . هـ. ﴿ومن الليل فسبحه﴾ أى: فى بعض الليل وأفراده؛ لأن العبادة فيه أشق على النفس، وأبعد من الرياء، كما يلوح به تقديمه على الفعل، والمراد إما الصلاة فى الليل، أو التسبيح باللسان؛ سبحانه الله وبحمده، ﴿وإدبار النجوم﴾ أى: وقت إدبارها، أى: غيبتها بضوء الصبح، والمراد: آخر الليل، وقيل: التسبيح من الليل: صلاة العشاء، وإدبار النجوم: صلاة الفجر. وقرأ زيد عن يعقوب بفتح الهمز^(٢)، أى: أعقابها إذا غربت.

الإشارة: فى هذه تسلية لأهل البلاء والجلال، فإن من علم أن ما أصابه إنما هو حكم ربه، الذى يقوم به ويحفظه، وهو بمرئ منه ومسمع، لا يهوله ما نزل، بل يزيده غبطة وسروراً؛ لعلمه بأنه ما أنزله به إلا لرفعة قدره، وتشهير^(٣) ذهاب نفسه، وقطع البقايا منه، فهو فى الحقيقة نعمة لا نقمة، وفى الحكم: «من ظن انفكاك لطف الله عن قدره؛ فذلك لقصور نظره». ^(٤)

قال القشيري: أى: اصبر لما حكم به فى الأزل، فإنه لا يتغير حكمنا الأول إن صبرت وإن لم تصبر، لكن إن صبرت على قضائى جزيت ثواب الصابرين بغير حساب . وفيه إشارة أخرى، أى: اصبر فإنك بأعيننا نعينك على الصبر لأحكامنا الأزلية، كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ^(٥) . هـ. وقيل المعنى: فإنك من جملة أعيننا، وأعيان الحق الكمل من الأنبياء، والرسل، والملائكة، وأكابر أوليائه، فإنهم أعيان تجلياته، ولذلك الإشارة بقول عمر رضي الله عنه فى شأن على - كرم الله وجهه، حين ضرب شخصاً فشكاه: «أصابته عين من عيون الله»، وذلك لما تمكنوا من سر الحقيقة، صاروا عين العين . ومن ذلك قولهم: ليس الشأن أن تعرف الاسم، إنما الشأن أن تكون عين الاسم، أى: عين المسمى، وهو سر التصرف بالهوية عند التمكين فيها، وتمكن غيبة الشهود فى الملك المعبود، وقوله تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك...﴾ إلخ، فيه إشارة إلى مداومة الذكر، والاستغراق فيه، ودوام التنزيه لله تعالى عن رؤية شئ معه . وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.



(١) أخرجه الطبرى (٢٨/٢٧) وزاد السيوطى عزوه فى الدر (١٥١/٦) لسعيد بن منصور، وابن أبى شيبة، وابن المنذر، عن الضحاك .
(٢) وقرأ بها أيضا الأعمش، كما فى مختصر ابن خالويه (ص ١٤٧) وسالم بن أبى الجعد، ومحمد بن السميع، كما فى القرطبى (٦٤٣٨/٧).

(٣) أى: تلقية وتصفية.

(٤) حكمة رقم (١٠٦) انظر تريب الحكم (ص/٢١).

(٥) من الآية ١٢٧ من سورة النحل.

سُورَةُ النَجْمِ

مكية. وهي اثنتان وستون آية. وهي أول سورة أعلن بها النبي ﷺ. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ
تَقُولُهُ﴾ (١) فأقسم هنا أنه ما ينطق عن الهوى، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ
هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧
ثُمَّ دَنَا فَدَلَّى ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ
الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتَمْرُونَهُ عَلَيَّ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ
الْمُنْتَهَىٰ ۝١٤ عِنْدَ حَاجَةِ الْمَآوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧
لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والنجم﴾ أي: الثريا، أو: جنس النجم ﴿إذا هوى﴾؛ إذا غرب، أو: انتثر يوم
القيامة، أو طلع، يقال: هوى هرباً، بوزن، فيقول، إذا غرب، وهوى هرباً، بوزن دخول: إذا طلع (٢). والعامل في
(إذا) فعل القسم، أي: أقسم بالنجم وقت غروبه أو طلوعه. وجواب القسم: ﴿ما ضل﴾ عن قصد الحق ﴿صاحبكم﴾
أي: محمد ﷺ، والخطاب لقريش. ﴿وما غوى﴾ في اتباع الباطل، أو: ما اعتقد باطلاً قط، أي: هو في غاية
الهدى والرشد، وليس مما تتوهموه من الضلالة والغواية في شيء. فالضلال نقيض الهدى، والغى نقيض الرشد،
ومرجعهما لشيء واحد، وهو عدم اتباع طريق الحق.

(١) الآية سورة الطور ٢٣.

(٢) راجع لسان العرب (مادة هوا ٦ / ٤٧٢٧).

وقال الفخر: أكثر المفسرين لم يفرقوا بين الغي والضلال، والفرق بينهما: أن الغي في مقابلة الرشد، والضلال أعم منه، والاسم من الغي: الغواية - بالفتح - والحاصل: أن الغي أقبح من الضلال، إذ لا يرجى فلاحه. وإبراده ﷺ بعنوان صاحبهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة، وإحاطتهم خبراً ببراءته - عليه الصلاة والسلام - مما نفى عنه بالكلية، وبانصافه - عليه الصلاة والسلام - بغاية الهدى والرشد؛ فإن كون صحبتهم له ﷺ، ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً. وتقيد القسم بوقت الهوى؛ لأن النجم لا يهتدى به السارى إلا عند هبوطه أو صعوده، وأما مادام في وسط السماء فلا يهتدى به، ولا يعرف المشرق من المغرب، ولا الشمال من الجنوب.

ثم قال: ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ أى: وما يصدر نطقه بالقرآن أو غيره عن هواه ورأيه أصلاً، ﴿ إن هو إلا وحي ﴾ من الله تعالى ﴿ يوحي ﴾ إليه، وهى صفة مؤكدة لوحي، لرفع المجاز، مفيدة لاستمرار التجدد للوحي، واحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء - عليهم السلام - رجا بآن الله تعالى إذا سوغ لهم الاجتهاد وقرهم عليه كان كالوحي، لا نطقاً عن الهوى.

﴿ علمه شديد القوى ﴾ أى: ملك شديد قواه، وهو جبريل عليه السلام، فإنه الوسطة فى إيراد الوحي إلى الأنبياء، ومن قوته أنه خلق قري قوم لوط من الماء الأسود الذى تحت الثرى، وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء ثم قلبها، وصاح صيحة بئمود، فأصبحوا جاثمين، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده أسرع من لحظة.

﴿ ذو مرة ﴾ أى: ذر خصابة^(١) فى عقله، ورزانة ومثانة فى دينه. وأصل المرة: الشدة، من مراير الحبل، وهو قتله قتلاً شديداً، أو: ذو حسن فى منظره، ﴿ فاستوى ﴾ : عطف على علمه، بطريق التفسير، فإنه إلى قوله: (ما أوحى) بيان لكيفية التعليم، أو: فاستقام على صورته التى خلقه الله عليها، دون الصورة التى كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي، وذلك أن رسول الله ﷺ أحب أن يراه فى الصورة التى خلقه الله عليها، وكان ﷺ بحراء، فطلع له جبريل من المشرق، وسد الأرض من المغرب، وملأ الأفق، فخر رسول الله ﷺ، فنزل فى صورة الأدمى، فضمه إلى نفسه، وجعل يمسح الغبار عن وجهه. قيل: ماراه أحد من الأنبياء فى صورته الأصلية إلا النبى ﷺ فإنه رآه فيها مرتين؛ مرة فى الأرض، ومرة فى السماء، وقيل: استوى بقوته على ما جعل له [من الأمر]^(٢).

(١) فى تفسير أبى السعود (خصافة).

(٢) زيادة من تفسير أبى السعود.

﴿وهو﴾ أى: جبريل ﴿بالأفق الأعلى﴾، أفق الشمس، أى: مطلعها، ﴿ثم دنا﴾ جبريل من النبي ﷺ ﴿فتدلى﴾ أى: زاد فى القرب، أو: استرسل من الأفق مع تعلق به. يقال: تدلت الشجرة، ودلى رجله من السرير، وأدلى دلو، والدوالى: اللحم المعلق. ﴿فكان قاب قوسين﴾ أى: مقدار قوسين عريبين. والقاب: المقدار. قال قتادة وغيره: معناه: من طرف العود إلى طرفه الآخر. وقال مجاهد والحسن: من الوتر إلى العود فى وسط القوس، أى: فكان بين جبريل والنبي ﷺ مقدار قوسين، ﴿أو أدنى﴾ فى تقديركم، كقوله: ﴿أو يزيدون﴾^(١) وهذا لأنهم خوطبوا على لغتهم وفهمهم، وهم يقولون: هذا مقدار قوسين أو أدنى.

﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ أى: فأوحى الله تعالى إلى عبده بواسطة تجلى جبريل (ما أوحى) من الأمور العظيمة التى لا تنفى بها العبارة، وقيل: أوحى إليه: أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمثلك، ويمكن حمل الآية على قصة المعراج، أى: (علمه شديد القوى) وهو الله تعالى، (ذو مرة) أى: شدة ومثانة، ومنه: اسمه «المتين»، (فاستوى) بنوره أى: تجلى بنور ذاته من ناحية الأفق، أى: العلو (فتدلى) ذلك النور (فكان قاب قوسين أو أدنى) وفى البخارى: «فدنا رب العزة دنو يليق بجلاله ومجده» ويرجع لتجليه لنبيه، وتنزله له، وتعرفه له، وفى حديث الإسراء عنه - عليه الصلاة والسلام: «سمع النداء من العلى الأعلى: أدن يا خير البرية، أدن يا محمد، فأدنانى ربي حتى كنت كما قال تعالى: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾». قال القشيري: ويقال: كان بينه وبين ربه قدر قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى.

﴿ماكذب الفؤاد﴾ أى: فؤاد محمد ﷺ ﴿ما رأى﴾ أى: ما رآه ببصره من صورة جبريل على تلك الكيفية، أو: من نور الحق تعالى الذى تجلى له، أى: ما قال فؤاده لما رآه: لم أعرفك، ولو قال ذلك لكان كاذباً؛ لأنه عرفه بقلبه، كما عرفه ببصره، وقيل: على إسقاط الخافض، أى: ماكذب القلب فيما رآه البصر، بل ما رآه ببصره حقيقته، وفى الحديث: سئل ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت ربي بفؤادى مرتين»^(٢)، حديث آخر: «جعل نور بصرى فى فؤادى، فنظرت إليه بفؤادى»^(٣)، يعنى أنه انعكس نور البصر إلى نور البصيرة فرأى ببصره ما رآته البصيرة، وجاء

(١) من الآية ١٤٧ من سورة الصافات.

(٢) أخرجه الطبري، وعزاه السيوطى فى الدر (١٦٠/٦) لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القرظى، عن بعض أصحاب النبي ﷺ. وأخرج مسلم فى (الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾.. رقم ٢٨٤ ح ١٧٦) عن ابن عباس، قال: «رآه بفؤاده مرتين».

(٣) أخرجه بطوله، الطبري، عن ابن عباس، فى رواية لحديث «اختصام الملائكة فى الدرجات والكفارات». قال ابن كثير فى التفسير (٢٥١/٤): «إسناده ضعيف».

أيضاً: أنه لما انتهى إلى العرش صار كله بصرأ، وبهذا يرتفع الخلاف، وأنه رآه ببصر رأسه؛ وقوله ﷺ، حين سأله أبو ذر: هل رأيت ربك؟ فقال «نوراني أراه»^(١) وفي رواية: «نور أني أراه»^(٢) بالاستفهام، وفي طريق آخر: «رأيت نوراً»^(٣) وحاصلها: أنه رأى ذات الحق متجلية بنور من نور جبروته؛ إذ لا يمكن أن ترى الذات إلا بواسطة التجليات، كما هو مقرر عند محققى الصوفية، كما قال الشاعر:

وليست تُنال الذاتُ من غير مظهرٍ ولو هُتِكَ الإنسانُ من شدة الحرصِ

وقال كعب لابن عباس: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فكلم موسى مرتين، ورآه محمد مرتين^(٤). وقيل لابن عباس: ألم يقل الله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^(٥)، قال: ذلك إذا تجلى بنوره^(٦). الذى هو نوره الأصلي، يعنى أن الله تعالى يتجلى لخلقه على مايطيقون، ولو تجلى بنوره الأصلي لتلاشى الخلق، كما قال فى الحديث: «حجابه الدور، لو كشفه لأحرقت تجليات وجهه ما أدركه من بصره»^(٧).

﴿أَفْتَمَرُونَهُ﴾ أى: أفتجادلونه، من: المراء، وهو المجادلة، واشتقاقه من: مَرَى الداقة، وهو استخراج لبنها، كأن كل واحد من المتجادلين يمرى ماعدد صاحبه، أى: يستخرجه. وقرئ فى التواتر: «أَفْتَمَرُونَهُ»^(٨) أى: أفتغلبونه. ولما فيه من معنى الغلبة، قال تعالى: ﴿على ما يرى﴾ فعذى بعل، كما نقول: غلبته على كذا، وقيل: أفتمرونه: أفتجحدونه، يقال: مريته حقّه: جحدته، وتعديته بـ «على»، على مذهب التضمين، والمعنى: أفتخاصمونه على ما يرى معاينةً، وحققه باطلاً.

(١) ذكر هذه الرواية بنصها السيوطى فى الدر المنثور (١٦٠/٦) وعزاها لمسلم والترمذى وابن مردويه، عن أبى ذر، ولم أقف عليها فى مسلم والترمذى. وقال الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم (١٢/٣): قال الإمام المازرى: وروى: «نوراني أراه» بفتح الراء وكسر اللون وتشديد الياء، ويحتمل أن يكون معناه راجعاً إلى ما قلنا، أى: خالق الدور المانع من رؤيته، فيكون من صفات الأفعال. وقال القاضى عياض - رحمه الله: هذه الرواية لم تقع إلينا، ولا رأيتها فى شيء من الأصول. هـ.

(٢) أخرجه مسلم فى (الإيمان، باب فى قوله ﷺ: نور أني أراه، رقم ٢٩١، ح ١٧٨).

(٣) أخرجه مسلم فى الموضع السابق (رقم ٢٩٢).

(٤) أخرجه بطوله الترمذى فى (التفسير، باب ومن سورة النجم، ح ٣٧٢٨).

(٥) من الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.

(٦) أخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات (ص ٤١٠) وضعفه، عن عكرمة عن ابن عباس، بلفظ: «قال: يا لا أم لك، ذلك نوره الذى هو نوره، إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء».

(٧) جزء من حديث صحيح أخرجه مسلم فى (الإيمان، باب فى قوله ﷺ: «إن الله لا ينام، رقم ٢٩٣ ح ١٧٩) عن أبى موسى ﷺ.

(٨) «أفتمرونه» بفتح التاء وسكون الميم بلا ألف. وبها قرأ حمزة والكسائى ويعقوب، وخلف. وقرأ الجمهور «أفتمارونه» بضم التاء وفتح الميم وألف بعدها. انظر الإتصاف (٥٠١/٢).

﴿ ولقد رآه ﴾ أى: رأى محمدٌ جبريلَ على صورته الأصلية، أو: رأى ربه على تجلٍ خاص وتعرفٍ تام، ﴿ نزلةً أخرى ﴾؛ مرةً أخرى، والحاصل: أنه ﷺ رأى ربه بتجلٍ خاص جبروتى مرتين، عند خرق الحجب العنصرية فوق العرش، عند السدرة، وأما رؤيته ﷺ لله تعالى فى مظاهر الكائنات ففى كل حين، لا يغيب عنه طرفة عين. والنزلة: فعلة من النزول، نصب نصب الطرف الذى هو مرة. ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾، الجمهور: أنها شجرة النبق فى السماء السابعة، عن يمين العرش، وتسميتها المنتهى؛ إما لأنها فى منتهى الجنة وآخرها، أو: لأنها لم يجاوزها أحد، وإليها ينتهى علم الخلائق، ولا يعلم أحدٌ ما وراءها، أو: إليها ينتهى أرواح الخلائق، أو: أرواح الشهداء، وفى الحديث: «أنها شجرة يسير الراكب فى ظلها ألف عام، لا يقطعها، والبرقة ملها تظل الأمة، وتمرها كالقلال الكبار».

﴿ عندها جنة المأوى ﴾ أى: الجنة التى يصير إليها المتقون ويأرون إليها، أو: تأوى إليها أرواح الشهداء والصديقين والأنبياء. قال ابن جزى: يعنى أن الجنة التى وعد الله بها عباده هى عند سدرة المنتهى، وقيل: هى جنة أخرى، والأول أظهر وأشهر. هـ. ويؤيده ما فى الحديث: «إن النيل والفرات يخرجان من أصلها، وهما من الجنة، كما فى الصحيح (١)». ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾، ظرف للرؤية، أى: لقد رآه عند السدرة وقت ما غشيها ما غشيها، مما لا يكتله الوصف، ولا يفى به البيان، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية، استحضرنا لصورته البديعة، أو للإيذان باستمرار الغشيان وتجده، وقيل: يغشاها الجم الغفير من الملائكة، يعبدون الله تعالى عندها، وقيل: يزورونها متبركين بها، كما يزور الناس الكعبة، وقيل: يغشاها فراش من ذهب، والفراش - بفتح الفاء - ما يطير ويضطرب. ﴿ ما زاغ البصر ﴾ أى: بصر محمد ﷺ، أى: ما عدل عن رؤية العجائب التى مكن من رؤيتها، ﴿ وما طغى ﴾، وما جاوز ما أمر برؤيته، ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ أى: والله لقد رأى من عجائب الملكوت وأسرار الجبروت وما لا يفى به نطاق العبارة، وقد دوت هنا كتب فى عجائب ما رآه ﷺ ليلة المعراج.

الإشارة: أقسم الله تعالى بنجم العلم إذا طلع فى أفق سماء القلوب الصاحية، إن هذا القلب الذى طلع فيه نجم العلم بالله، وأشرقت عليه شمس الحقائق، لا يضل صاحبه ولا يغوى، وما ينطق عن الهوى؛ لأنه مستغرق فى شهود الحق، لا يتجلى فيه إلا الحق، (إن هو) أى: ما يتجلى فيه إلا وحى يوحى من قبل الإلهام الإلهى، علمه شديد القوى، وهو الوارد الربانى، ذو مرة وشدة؛ لأنه من حضرة قهار، ولا يصادم شيئاً إلا دفعه، فاستوى وهو بالأفق

(١) جزء من حديث الإسراء الطويل، وأخرجه البخارى فى (بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ح ٣٢٠٧) ومسلم فى (الإيمان، باب الإسراء رقم ٢٦٤، ح ١٦٤) عن أنس، عن مالك بن صعصعة، وفيه: «ورفعت لى سدرة المنتهى، فإذا نبقها كأنه قلال هجر، وورقها كأنه أذان الفيل، فى أصلها أربعة أنهار، نهران باطنان، ونهران ظاهران، فسألت جبريل، فقال: «أما الباطنان فى الجنة، وأما الظاهران الليل والفرات...» الحديث.

(٢) قوله: «هما فى الجنة كما فى الصحيح، يشير الشيخ - رحمه الله - إلى ما أخرجه مسلم فى (الجنة، باب ما فى الدنيا من أنهار الجنة ح ٢٨٣٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه: «سبحان رجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة».

الأعلى من سماء الغيوب، ثم دنا من القلب فتدلى، فكان من القلب قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله تعالى بواسطة ذلك الوارد إلى عبده ما أوحى من علوم الحقائق والأسرار، ومن مكاشفات غيوب الأقدار، ما كذب الفؤاد فيما رأى لأنه حق، لكن قهرية العبودية غيبت عنه تعيين وقت وقوعه. ولقد رآه، أى: رأى القلب أسرار ذات الحق، نزلة أخرى فى عالم الجبروت، الخارج عن دائرة التجليات الكونية، وهى الأسرار اللطيفة، المحيطة فى الأنوار الملكوتية والملكية، عند سدرة المنتهى، وهى شجرة القبضة المحمدية، التى انتهى إليها علم الطماء، وأرواح الشهداء، إذ لا يخرج عن دائرتها أفكار العارفين. عندها جنة المأوى التى يأوى إليها أفكار العارفين وأسرار الراسخين، إذ يعيش السدرة - أى: شجرة الكون - ما يغشى من الفناء والتلاشى عند سطوع شمس الحقائق، مازاغ بصر البصيرة عن شهود تلك الأسرار، وما حجب عنها أرض، ولا سماء، ولا عرش، ولا كرسي، لتلطف تلك العوالم فى نظر العارف، وما طفى: وما جاوز العبودية حتى يطمع فى الإحاطة بعظمة كنه الربوبية، فإن الإحاطة لا تمكن، لا فى هذه الدار، ولا فى تلك الدار، بل يبقى الترقى فى الكشوفات، والمزيد من حلاوة الشهود أبداً سرمداً، لقد رأى هذا القلب الصافى من عجائب ربه الكبرى، حيث وسع من لم تسعه أرضه ولا سماؤه.

وقال الورتجى بعد كلام: فى هذه الآية بيان كمال شرف حبيبه، إذ رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، ظن ﷺ أن ما رآه فى الأول لا يكون فى الكون - أى: فى مظهر الكون - لكمال علمه بتلزيه الحق، فلما رآه ثانياً علم أنه لا يحجب عنه شيء من الحدثن، وعادة الكبراء إذا زارهم أحد يأتون معه إلى باب الدار إذا كان عليهم كريماً، فهذا منه سبحانه إظهار كمال حبه لحبيبه. وحقيقة الإشارة: أنه سبحانه أراد أن يعرف حبيبه مقام الالتباس، فلبس [الأمر] (١)، وظهر المكرو، وبان الحق من شجرة سدرة المنتهى، كما بان من شجرة العباب لموسى، ليعرفه حبيبه بكمال المعرفة، إذ ليس بعارف من لم يعرف حبيبه فى لباس مختلفة، وبيان ذلك فى قوله: (إذ يغشى السدرة ما يغشى) وأبهم ما غشيه، لأن العقول لا تدرك حقائق ما يغشاها، وكيف يغشاها، والقدم منزّه عن الحلول فى الأماكن؟ كان ولا شجرة، وكانت الشجرة مرآة لظهوره سبحانه، ما أطف ظهوره، لا يعلم تأويله إلا الله، والراسخون فى العلم يؤمنون به بعد عرفانهم به. هـ.

ولما فرغ من ذكر عظمة الله وكبريائه، ذكر حقارة من عبد من دونه، ترهيباً وترغيباً، فقال

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ (١٩) وَمَنُوءَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۚ (٢٠) أَلَمْ تَذْكُرُوهُ الْأَنْثَىٰ (٢١)﴾

تِلْكَ إِذْ أَوَّسَمُ ضَيْزَىٰ (٢٢) إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ

(١) زيادة أثبتتها من الورتجى.

سُلْطَنٌ إِنْ يَنْتَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴿٢٣﴾
أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ أى: أخبرونى عن هذه الأشياء التى تعبدونها من دون الله، هل لها من القدرة والعظمة التى وصف بها رب العزة فى الآى السابقة حتى استحقت العبادة، أم لا؟ واللات ومابعداها: أصنام كانت لهم، فاللات كانت لثقيف بالطائف، وقيل: كانت بنخلة تعبدوها قريش، وهى فعلة، من: لوى؛ لأنهم كانوا يلون عليها ويطوفون بها. وقرأ ابن عباس ومجاهد ورويس بتشديد التاء، على أنه اسم فاعل، اشتهر به رجلاً كان يُلْتُ السويق بالزيت، ويُطعمه الحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه^(١). (والعزى) كانت لغطفان، وهى شجرة كانوا يعبدونها، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها، واضعة يدها على رأسها، وهو قول، فجعل خالد يضربها بالسيف حتى قتلها، فأخبر رسول الله ﷺ فقال: «تلك العزى، لن تعبد بعد اليوم أبداً»^(٢).

(ومناة): صخرة على ساحل البحر لهذيل وخزاعة، وقيل: بيت بالمشكل يعبد به بنو كعب، وسميت مناة؛ لأن دماء النسائك تُمنى، أى: تُراق عندها؛ لأنهم كانوا يذبحون عندها. وقرأ ابن كثير بالهمزة بعد الألف، مشتق من النوء؛ لأنهم كانوا يستمطرون بالأنواء عندها، تبركاً بها، وقيل: سموها هذه الأصنام بأسماء الله، وأنثوها، كأنها بنات الله فى زعمهم الفاسد، فاللات من «الله»، كما قالوا: عمر وعمرة، وعباس وعباسة، فالتاء للتأنيث. والعزى: تأنيث العزيز، ومناة: تأنيث منان، فغُيِّر تخفيفاً، ويؤيد هذا قوله تعالى رداً عليهم: «ألكم الذكر وله الأنثى». ﴿والأخرى﴾: صفة ذم لها، وهى المتأخرة الوضعية القدر، كقوله: ﴿قَالَتْ أَخْرَاهُمُ لَأُولَاهُمْ﴾^(٣) أى: وضعناهم لرؤسائهم، وقيل: وصفها بالوصفين؛ لأنهم كانوا يُعظمونها أكثر من اللات والعزى، والفاء فى قوله: (أفرايتم) للعطف على محذوف، وهى لترتيب مابعداها على ما قبلها، أى: عَقِب ما سمعتم من كمال عظمته تعالى فى ملكه وملكوته، وأحكام قدرته، ونفوذ أمره فى الملأ الأعلى وماتحت الثرى ومابينهما، رأيتم هذه الأصنام مع حقارتها بنات الله، مع وأدكم البنات، وكراهتمكم لهن؟.

(١) أخرج البخارى المقطع الأول: «كان اللات رجلاً يُلْتُ سويق الحاج، فى (الفسير، سورة النجم، باب «أفرايتم اللات والعزى» رقم ٤٨٥٩).

(٢) عزاء المئوى فى الفتح السماوى ٩٠٧/٣ لابن مردويه، من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٣) من الآية ٣٨ من سورة الأعراف.

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴾ أي: أتحبون لكم الذكر وتنسبون له الأنثى كهذه الأصنام والملائكة؟ ﴿ تِلْكَ إِذَا قُسِمَتْ ضِيزَى ﴾ أي: جائرة، من: ضأزه يضيزه: إذا ظلمه، وصرح في القاموس بأنه مثلث الضاد ضيزى وضوزى وضأزى، وهو هنا فعلى بالضم، من الضيز، لكنه كسر فأزه لتسلم الياء، كما فعل في «بيض»، فإن «فعلى» بالكسر لم تأت وصفاً، وإنما هي من بناء الأسماء، كالشعري والدقلى. وقال ابن هشام: فإن كانت فعلى صفة محضة وجب قلب الضمة كسرة، ولم يسمع من ذلك إلا «قسمة ضيزى» ومشية حيكى، أي: يتحرك فيها المنكبان. هـ. وقرأ المكي بالهمز (١)، من: ضأزه: ظلمه، فهو مصدر نعت به.

﴿ إِنْ هِيَ ﴾ أي: هذه الأصنام ﴿ إِلَّا أَسْمَاءُ ﴾ وليس تحتها في الحقيقة مسميات؛ لأنكم تدعون لها الألوهية، وهى أبعد شئ منها، ﴿ سَمِيتُمُوهَا ﴾ آلهة، أو: سميتم بها هذه الأصنام، واعتقدتم أنها آلهة، بمقتضى أهوائكم الباطلة، ﴿ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ ﴾ ما أنزل الله بها ﴿ بَعَادَتِهَا ﴾ من سلطان ﴿ مِنْ حِجَّةٍ ﴾ ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ ﴾ فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها ﴿ إِلَّا الظَّنَّ ﴾: إلا توهم أن ما هم عليه حق، توهماً باطلاً، ﴿ وَمَاتَهُوَ الْأَنْفُسُ ﴾ أي: ماتت شهية أنفسهم الأمارة، ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾: الرسول والكتاب فتركوه.

﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ . أم: منقطعة، والهمزة للإنكار، أي: ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه من الأمور التي من جعلتها أطعاعهم الفارغة في شفاعة الآلهة ونظائرها، كقول بعضهم: ﴿ وَلَنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ ﴾ (٢)، وكتمى بعضهم أن يكون هو النبي، ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ أي: الدنيا والآخرة، هو مالكما والحاكم فيهما، يعطى الشفاعة والنبوة من شاء، لا من تمناهما بمجرد الهوى، وهو تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان ما تمنى، فإن إختصاص أمور الآخرة والأولى به تعالى مقتض لانتفاء أن يكون للإنسان شئ مما تمنى إلا أن يشاء ويرضى.

الإشارة: هذه الأصنام موجودة في كل إنسان، فاللات: حب اللذات والشهوات الجسمانية الفانية، فمن كان حريصاً عليها، جامعاً لأسبابها، فهو عابد لها، والعزى: حب العز والجاه والرئاسة وسائر الشهوات القلبية، فمن طلبها فهو عبد لها، ومناة: تمنى البقاء في الدنيا الدنية الحقيرة، وطول الأمل فيها، وكراهية الموت، فمن كان هذا وصفه فهو عبد الدنيا، كاره لقاء الله، فيكره الله لقاءه، فتوجه لهؤلاء العتاة بقوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ ألكم الذكر حيث تحبون ما هو كمال لأنفسكم، ﴿ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴾؟ حيث جعلتم هذه الأشياء الحقيرة

(١) «ضيزى» بهمزة ساكنة، وبها قرأ ابن كثير المكي. انظر الإتحاف (١/٥٠١).

(٢) الآية ٥٠ من سورة فصلت.

شريكة لله في استحقاق العباداة والمحبة، تلك إذا قسمة ضيزى جائرة، ما هي إلا أسماء ليس تحتها طائل، تفتى ويبقى عليها العذاب والعقاب، سميتموها واعتنيتم بشأنها والانكباب عليها، أنتم وأباؤكم، ما أنزل الله بمتابعتها والحرص على تحصيلها من سلطان ولا برهان، إن يتبعون في اتباعها والحرص عليها إلا الظن، ظنوا أنها حيث كانت مباحة في ظاهر الشرع لا تضر القلب ولا تحجبه عن شهود الرب، وهو رأى فاسد؛ إذ ليس للقلب إلا وجهة واحدة، إن توجه لطلب الحفظ أعرض عن الله قطعاً، وإن توجه لله أعرض عما سواه، وراجع ما تقدم في قوله: ﴿أَذْمَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ الآية (١). ويتبعون أيضاً ما تهوى الأنفس الأمارة؛ لأنها لا تهوى إلا ما فيه حظها وهواها، ولقد جاءهم من ربهم الهدى، أى: من يهذى إلى طريق السلوك، بقطع العلائق الدفسانية والقلبية، وهم خلفاء الرسول ﷺ، الدعوان إلى الله، من شيوخ التربية في كل زمان، أم للإنسان ما تمنى، ليس له ما يتمنى إلا بسابق العناية، فلا يدرك العبد من الدنيا والآخرة، ومن الله تعالى، إلا ما سبق به القدر، كما قال الشاعر:

ماكل ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن

قله الآخرة والأولى، قال القشيري: يشير إلى قهر مانية الحق تعالى على العالم كله، ملكه ومكونه، الأخرى والدنيوى، فلا يملك الإنسان من أمر الدارين شيئاً، بل ملك الآخرة تحت تصرف يده اليمنى، المقتضية لموجبات حصول الآخرة من الأعمال الصالحة والأفعال الحسنة، يهبه باسمه الواهب لمن شاء أن يكون مظهرًا للطفه وجماله، وملك الدنيا تحت تصرف يده اليسرى، المقتضية لأسباب حصول الدنيا، من حب الدنيا الدنية، المنتجة للخطيئة ومتابعة النفس الخبيثة، وموافقة الطبيعة اللئيمة، باسمه المقسط، لمن شاء أن يكون مظهر قهره وجلاله، وليس ذلك يزيد في ملكه، ولا هذا ينقص من ملكه، وكلتا يديه ملأى سحاًء، أى: فياضة. هـ.

ثم نفى الشفاعة عمن يستحقها من الملائكة الكرام، فضلاً عمن لا يستحقها من الأصنام اللئام، فقال:

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (٢٦) **﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى﴾** (٢٧) **﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾** (٢٨) **﴿فَاعْرِضْ**

(١) الآية ٢٠ من سورة الأحقاف.

عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٢٧﴾

قلت: (كم): خبرية، تفيد التكثير، ومحلها: رفع بالابتداء، والجملة المنفية: خبر، وجمع الضمير في (شفاعتهم) لأن النكرة المنفية تعم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وكم من ملك في السموات﴾ أي: كثير من الملائكة ﴿لا تغنى شفاعتهم﴾ عند الله تعالى ﴿شيئاً﴾ من الإغناء في وقت من الأوقات، ﴿إلا من بعد أن يأذن الله﴾ لهم في الشفاعة ﴿لمن يشاء﴾ أن يشفعوا له، ﴿ويرضى﴾؛ ويراه أهلاً للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم عن إذن الله بمعزل، وعن الشفاعة بألف معزل، فإذا كان حال الملائكة في باب الشفاعة كما ذكر، فما ظنهم بحال الأصنام؟!

ثم شنع عليهم في اعتقادهم الفاسد في الملائكة، فقال: ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ وما فيها من العقاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصي ﴿ليُسْمَوْنَ الملائكة﴾ المنزهين عن سمات النقص ﴿تسمية الأنثى﴾، فإن قولهم: الملائكة بنات الله، قول منهم بأن كلاً منهم بنته - سبحانه، وهي التسمية بالأنثى، وفي تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنهم في الشناعة واستتباع العقوبة بحيث لا يجترؤ عليها إلا من لا يؤمن رأساً.

﴿وما لهم به من علم﴾ أي: بما يقولون. وقرئ: بها، أي: بالتسمية، أو بالملائكة. ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾، وهو تقليد الآباء، ﴿وإن الظن﴾ أي: جنس الظن، ولذلك أظهر في موضع الإضممار، ﴿لا يغنى من الحق شيئاً﴾ من الإغناء؛ لأن الحق عبارة عن حقيقة الشيء، وهو لا يدرك إلا بالعلم، والظن لا اعتداد به في باب المعارف الحقيقية، وإنما يعتد به في العمليات وما يؤدي إليها.

﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا﴾ أي: عنهم، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتوصل إلى وصفهم بما في حيز الصلة من الأوصاف القبيحة، ولتعطيل الحكم، أي: فأعرض عمن تولى عن ذكرنا المفيد للعلم اليقيني، وهو القرآن المنطوق على علوم الأولين والآخرين، المذكر بالأمور الآخرة، أو: عن ذكرنا كما ينبغي، فإن ذلك يستتبع ذكر الآخرة وما فيها من الأمور المرغوب فيها والمرهوب عنها، قال الطيبي: أعرض عن دعوة من تدعوه إلى لقاء ربه والدار الآخرة، وهو يقول: ما هي إلا حياتنا الدنيا... إلخ، ﴿ولم يرد إلا الحياة الدنيا﴾ وزخارفها، قاصراً

نظرة إليها، والمراد بالإعراض عنه: إهماله والغيبة عنه، فإن من أعرض عن الذكر، وانهك في الدنيا، بحيث كانت هي منتهى همته، وقصارى سعيه، لا تزيد الدعوة إلى خلافها إلا عناداً، وإصراراً على الباطل.

﴿ذلك﴾ أى: ما هم فيه من التولى، وقصر الإرادة على الحياة الدنيا، هو ﴿مبلغهم من العلم﴾ أى: منتهى علمهم، لا يكادون يجاوزونه إلى غيره، فلا تجدى فيهم الدعوة والإرشاد شيئاً. وجمع الضمير بعد أن أفرد به باعتباره معنى «من»، ولفظها، والمراد بالعلم: مطلق الإدراك الشامل للظن الفاسد. ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ أى: هو أعلم بالضلال والمهتدى ومجازاتهما، وهو تطيل الأمر بالإعراض، وتكرير «هو أعلم» لزيادة التقرير، وللإيدان بكمال تباين المعلومين، أى: هو المبالغ في العلم بمن لا يرعى عن الضلال، ومن يقبل الاهتداء في الجملة، فلا تتعب نفسك في دعوتهم، فإنهم من القبيل الأول.

الإشارة: شفاعة كل أحد على قدر جاهه وتمكنه من الله، فقد يشفع الولي في أهل زمانه، كما تقدم في مريم (١). والاعتقاد في الملائكة: أنهم أنوار لطيفة من تجليات الحق، اللطافة فيهم أغلب، لا يتصفون بذكورة ولا أنوثة، يتشكلون كيف شاءوا. وقوله تعالى: ﴿فأعرض عن من تولى عن ذكرنا...﴾ الآية، فيه تحذير من مخالطة الغافلين والصحبة لهم، فإن صحبتهم سم قاتل، والجلوس معهم تضيق وبطالة، إلا أن يستولى نور من يصحبهم على ظلمتهم، فيجرهم إلى الله، فهذا جلوسه معهم كمال. وقال بعضهم: الوحدة أفضل من الجلوس مع العامة، والجلوس مع الخاصة أفضل من العزلة، إلا من تحقق كماله، فلا كلام معه.

إشارة أخرى: ﴿وكم من ملك...﴾ الخ، أى: كثير من الأرواح الصافية السماوية لا تغنى شفاعتها في الأنفس الظلمانية الطبيعية، لتنتقلها من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء انتقاله وعروجه إلى سماء الأرواح، ويرضى أن يسكنه في الحضرة القدسية. إن الذين لا يؤمنون بالحالة الآخرة، وهى الانتقال من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، وينكرون على من يوصل إليها، ليسمون الخواطر القلبية بقسمية الخواطر النفسانية، أى: لا يميزون بينهما، لجهلهم بأحوال القلوب، ما لهم به - أى: بهذا التمييز - من علم، إن يتبعون في جُل اعتقاداتهم إلا الظن القوي، وإن الظن لا يغنى عن الحق شيئاً، فلا ينفع في مقام الإيمان إلا الجزم عن دليل وبرهان، ولا في مقام الإحسان إلا شهود الحق بالعيان، فمن لم يحصل هذا فهو غافل عن ذكر الله الحقيقي، يجب الإعراض عنه، قال تعالى: ﴿فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا﴾ وزخارفها، ذلك مبلغهم

(١) راجع إشارة الآية ٨٧ من سورة مريم.

من العلم، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون. وقال اللجائي، في قطبه: وإياك أن تكون دنياك إرادة قلبك تبعاً لشهوات نفسك، أو تكون دنياك أحب إليك من آخرتك، وقلبك من ذكر مولاك خالياً معرضاً، فإنها صفة الهالكين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: «فأعرض عن من تولى عن ذكرنا...» الآية. وقيل لأبي الحسن الشاذلي: ياسيدي، بم فقت أهل عصرك، ولم نر لك كبير عمل؟ فقال: بخصلة، أمر الله بها نبيه ﷺ، وتمسكتُ بها أنا، وهي الإعراض عنكم وعن دنياكم. هـ. إن ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن طريق الوصول إليه، وهو أعلم بمن اهتدى إليها، فيعينه، ويجذبه إلى حضرته، فإن الأمر كله بيده، كما قال:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (٣٢)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ خلقاً وملكاً، لا غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ﴾؛ بعقاب ما عملوا من سوء، أو: بسبب ما عملوا، ﴿ ويجزي اللذين أحسنوا بالحسنى ﴾؛ بالمتوبة الحسنى، وهي الجنة، والمعنى: أن الله تعالى إنما خلق هذا العالم العلوى والسفلى، وتصرف فيه بقدرته بين جلاله وجماله، ليجزي المحسن من المكلفين، والمسيء منهم؛ إذ من شأن الملك أن ينصر أوليائه ويكرمهم، ويقهر أعداءه ويهينهم.

وقال الطيبي: «ليجزي» راجع لقوله: «هو أعلم بمن ضلَّ» الآية، والمعنى: إن ربك هو أعلم بمن ضلَّ وبمن اهتدى ليجزي كل واحد بما يستحقه، يعنى: أنه عالم، كامل العلم، قادر، تام القدرة، يعلم أحوال المكلفين فيجازيهم، لا يمنعه أحد مما يريد؛ لأن كل شيء من السموات والأرض ملكه، وتحت قهره وسلطانه، فقوله: ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾: جملة معترضة، تؤكد للاقتدار وعدم المعارض. هـ.

﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم ﴾: بدل من الموصول الثانى، أو: رفع على المدح، أى: هم الذين يجتنبون. والتعبير بالمضارع للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره. وكبائر الإثم: ما يكبر عقابه من الذنوب، وهو مرتب

عليه الوعيد بخصوصه . قال ابن عطية: وتحرير القول في الكبائر: أنها كل معصية يوجد فيها حد في الدنيا، أو ترعد عليها بنار في الآخرة، أو بلعة ونحوها . وقرأ الأخوان: (كبير الإثم) على إرادة الجنس، أو الشرك، ﴿و﴾ يجتنبون ﴿الفواحش﴾ وهو ما فحش من الكبائر، كأنه قيل: يجتنبون الكبائر وما فحش منها خصوصاً، فيحتمل أن يريد بالكبائر: ما فيه حق الله وحده، والفواحش منها: ما فيه حق الله وحق عباده، ﴿إلا اللطم﴾ أى: إلا ما قل وصغر، فإنه مغفور لمن يجتنب الكبائر، وقيل: هى النظرة والغمزة والقبلة، وقيل: الخطرة من الذنب، وقيل: كل ذنب لم يجعل الله فيه حداً ولا عذاباً . والاستثناء منقطع، لأنه ليس من الكبائر ولا من الفواحش .

﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، أو: حيث يغفر ما يشاء من الذنوب من غير توبة، وهذا أحسن، ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم﴾ فى ضمن إنشاء أبيكم آدم ﷺ ﴿من الأرض﴾ إنشاء أجمالياً، حسبما مر تحقيقه مراراً، ﴿وإذ أنتم أجنة﴾ أى: يعلم وقت كونكم أجنة ﴿في بطون أمهاتكم﴾ على أطوار مختلفة، لا يخفى عليه حال من أحوالكم، ولا عمل من أعمالكم .

﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ : فلا تنسبوا إلى زكاء الأعمال، وزيادة الخير والطاعات، أو: إلى الزكاة والطهارة من المساوىء، ولا تثنوا عليها، واهضموها، فقد علم الله الزكى منكم والتقوى، قبل أن يخرجكم من صلب آدم، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم . وقيل: كان ناس يعملون أعمالاً حسنة، ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجنا، فنزلت . وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء، لا على سبيل الاعتراف بالنعمة، والتحدث بها، فإنه جائز؛ لأن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكرها . والأحسن فى إيراد الاعتراف والشكر أن يقدم ذكر نقصه، فيقول مثلاً: كنا جهالاً فعلمنا الله، وكنا ضلالاً فهدانا الله، وكنا غافلين فأيقظنا الله، وهكذا فنحن اليوم كذا وكذا .

قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون نهياً عن أن يزكى بعض الناس بعضاً، وإذا كان هذا، فإنما ينهى عن تزكية السمع^(١)، أو القطع بالتزكية، ومن ذلك الحديث فى عثمان بن مظعون، عند موته^(٢)، وأما تزكية القدوة أو الإمام، أو أحداً، ليؤتم به أو ليتهمم الناس بالخير، فجائز، وقد زكى رسول الله ﷺ أبا بكر وغيره، وكذلك تزكية الشهود فى الحقوق جائزة؛ للضرورة إليها، وأصل التزكية: التقوى، والله تعالى أعلم بتقوى الناس منكم . هـ^(٣) .

(١) فى ابن عطية: السمة والمدح للدنيا .

(٢) حديث عثمان بن مظعون ﷺ - سبق ذكره وتخريجه عند التعليق على إشارة الآية ٩ من سورة الأحقاف، فراجع إن شئت .

(٣) ببعض المعنى

وقال في القوت: هذه الذنوب تدخل على النفوس من معاني صفاتها، وغرائز جبلاتها، وأول إنشائها من نبات الأرض، وتركيب الأطوار في الأرحام، خلق من بعد خلق، ومن اختلاط الأمشاج بعضها مع بعض، ولذلك عقبه بقوله: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم...﴾ الآية . هـ.

ثم قال تعالى: ﴿هو أعلم بمن اتقى﴾ ، فاكثفوا بعلومه عن علم الناس، وبجزائه عن ثناء الناس . وبالله التوفيق .

الإشارة: ولله ما في سموات الأرواح من أنوار الشهود، وما في أرض النفوس من آداب العبودية، رتب ذلك ليجزى الذين أساءوا بوقوفهم مع أرض النفوس في العالم المحسوس، ويجزى الذين آمتوا بترقيهم إلى مقام الإحسان، بالحسنى، وهى المعرفة، حيث ترقوا من أرض الأشباح إلى عالم سماء الأرواح، وهم الذين يجتنبون كبائر الإثم، وهو شهود وجودهم مع وجود الحق محبوبهم، ووقوفهم مع عالم الحس، والفواحش، وهو اعتراضهم على الله فيما يبرز من عنصر قدرته، وتصغيرهم شيئاً مما عظم الله، إلا اللهم؛ خواطر تخطر ولا تثبت.

قال القشيري: كبائر الإثم ثلاث؛ محبة النفس الأمارة، ومحبة الهوى النافخ في نيران النفس، ومحبة الدنيا، التى هى رأس كل خطيئة، ولكل واحدة من هذه الثلاث فاحشة لازمة لها، أما فاحشة محبة النفس: فموافقة الطبيعة ومخالفة الشريعة، وأما فاحشة محبة الهوى: فحب الدنيا وشهواتها، وأما فاحشة محبة الدنيا فالإعراض عن الله، والإقبال على ماسواه . وقوله ﴿إلا اللهم﴾ أى: الميل اليسير إلى الهوى والنفس والدنيا، بحسب ضرورته البشرية؛ من استراحة البدن، ونيل قليل من حظوظ الدنيا، بحسب الحقوق، لا بحسب الحظوظ، فإن مباشر الحقوق مغفور، ومباشر الحظوظ مغرور . هـ.

﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ يستر العيوب، ويوصل إلى حضرة الغيوب . هو أعلم بكم إذ أنشأكم من أرض البشرية، ورقاكم إلى عالم الروحانية، وإذ أنتم أجنة فى أول بدايتكم فى بطون أمهاتكم، فى بطون الهوى والغفلة، ودائرة الكون، فأخرجكم منها بمحض فضله، فلا تزكوا أنفسكم، فتتنظروا إليها بعين الرضا، أو تنسبوا إليها شيئاً من الكمالات قبل صفاتها . قال القشيري: تزكية المرء نفسه علامة كونه محجوباً؛ لأنَّ المجذوب عن بقائه، المستغرق فى شهود ربه، لا يزكى نفسه . هـ . قلت: هذا مادام فى السير، وأما إن حصل له الوصول؛ فلا نفس له، وإنما يزكى ربه إذا زكاها، هو أعلم بمن اتقى ماسواه .

ثم ذكر وبال من زكى نفسه، فقال:

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا نَزَرُ وَأَنْزَرُهُ ﴿٣٨﴾ وَزُرَّاخْرَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٤٠﴾ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤١﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أفرايت الذي تولى﴾؛ أعرض عن الإيمان ﴿وأعطى قليلاً وأكدى﴾ أى: قطع عطيته وأمسك، وأصله: إكداء الحافر، وهو أن تلقاه كدّية - وهى صلابة، كالصخرة - فيمسك عن الحفر. [قال] (١) ابن عباس: «هو فيمن كفر بعد الإيمان»، وقيل: فى الوليد بن المغيرة، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ فغيره بعض الكافرين، وقال: تركت دين الأشياخ، وزعمت أنهم فى النار؟ قال: إني خشيت عذاب الله، فضمن له إن أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى شركه، أن يتحمل عنه عذاب الله، ففعل ذلك المغرور، وأعطى الذى عاتبه بعض ما كان ضمن له ثم بخل به ومنعه (٢). ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ أى: يعلم هذا المغرور أن ما ضمنه له حق؟

﴿أم لم ينبا﴾؛ يخبر ﴿بما فى صحف موسى﴾ أى: التوراة، ﴿وإبراهيم﴾ أى: وما فى صحف إبراهيم الذى وفى ﴿أى: أكمل وأتم ما ابتلى به من الكلمات، أو: ما أمر به، أو بالغ فى الوفاء بما عاهد الله عليه. وعن الحسن: ما أمره الله بشيء إلا وفى به. وعن عطاء بن السائب: عهد ألا يسأل مخلوقاً، فلما قذف فى النار قال له جبريل: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. وقال الشيخ المرسى: وفى بمقتضى قوله: (حسبى الله) وعن النبى ﷺ: «وفى عمله كل يوم بأربع ركعات فى صدر النهار» (٣) وهى صلاة الضحى. وروى: «ألا أخبركم لم سئى خليله الذى وفى؛ كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى: «سبحان الله حين تمسون... إلى «تظهرون»» (٤) وقيل: وفى سهام

(١) زيادة ليست فى الأصول.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧٠/٢٧) عن ابن زياد، بدون تعيين من نزلت فيه.

(٣) أخرجه الطبرى (٧٣/٢٧) وعزاه السيوطى فى الدر (١٦٨/٦) لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، وابن مردويه، والثيرازى فى الألقاب، والديلمى، بسند ضعيف، عن أبى أمامة (رضي الله عنه).

(٤) أخرجه أحمد فى المسند (٤٣٩/٣) عن سهل بن سعد الساعدي عن أبيه، وقال الهيثمى (١١٧/١٠): «فيه ضعفان وثقوا».

وأخرجه الطبرى (٧٣/٢٧) عن أنس عن أبيه.

الإسلام، وهي ثلاثون، عشرة في التوبة: ﴿التَّائِبُونَ...﴾^(١) إلخ، وعشرة في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ...﴾^(٢) وعشرة في المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. وقيل: وفي حيث أسلم بدنه للديران، وولده للقريان، وطعامه للضيغان. وروى: أنه كان يوم يضيف ضيفاً، فإن وافقه أكرمه، وإلا نوى الصوم^(٣). وتقدير موسى لأن صحفه وهي التوراة أكثر وأشهر.

ثم فسّر ما في تلك الصحف فقال: ﴿أَلَا تَرَىٰ وَازِرَةً وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: أنه لا تحمل نفس وازرة وِزْرَ أُخْرَىٰ، بل كل نفس تستقل بحمل وزرها، يقال: وزر يزر إذا اكتسب وزراً، وهأن، مخففة، وكأن قائلًا قال: ما في صحف موسى وإبراهيم؟ فقال: ألا تحمل نفس مثقلة بوزرها وِزْرَ أُخْرَىٰ.

﴿وَأَن لِّسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ هو أيضا مما في صحف موسى وإبراهيم، وهو بيان لعدم انتفاع الإنسان بعمل غيره، إثر بيان عدم انتفاعه من حيث رفع الضرر عنه به، وأما ما صح من الأخبار في الصدقة عن الميت والحج عنه، فلأنه لما نواه عنه كان كالوكيل عنه، فهو نائب عنه.

قال ابن عطية: الجمهور أن قوله: ﴿وَأَن لِّسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ مُحْكَمٌ لا نسخ فيه، وهو لفظ عام مخصّص. هـ يعنى: أن المراد: الكافر، وهكذا استقرئ من لفظ «الإنسان» في القرآن، وأما المؤمن فجاءت نصوص تقتضى انتفاعه بعمل غيره، إذا وهب له من صدقة ودعاء وشفاعة واستغفار، ونحو ذلك، وإلا لم يكن فائدة لمشروعية ذلك، فيتصور التخصيص في لفظ «الإنسان» وفي السعى، بأن يخص الإنسان بالكافر، أو السعى بالصلاة، ونحو ذلك مما لا يقبل النيابة مطلقاً. والحاصل: أن الإيمان سعى يستتبع الانتفاع بسعى الغير، بخلاف من ليس له الإيمان. هـ قاله الفاسي: وكان عز الدين يحتج بهذه الآية في عدم وصول ثواب القراءة للميت، فلما مات روى في النوم، فقال: وجدنا الأمر خلاف ذلك.

قلت: أما في الأجر فيحصل الانتفاع بسعى الغير، إن نواه له، وأما في رفع الستور، وكشف الحجب، والترقي إلى مقام المقربين، فالآية صريحة فيه، لا تخصيص فيها؛ إذ ليس للإنسان من حلاوة المشاهدة والقرب إلا بقدر ما سعى من المجاهدة. والله تعالى أعلم.

(١) الآية ١١٢ من سورة التوبة.

(٢) الآية ٣٥ من سورة الأحزاب.

(٣) قال أبو حيان في البحر المحيط ١٦٤/٨: وللمفسرين أقوال غير هذه، ويبلغ أن تكون هذه الأقوال أمثلة لما وفي، لا على سبيل التعيين. هـ.

ثم قال: ﴿وَأَنْ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى﴾ أى: يعرض عليه، ويكشف له يوم القيامة فى صحيفته وميزانه، ﴿يُجْزَاهُ﴾ أى: يجزى العبد سعيه، يقال: جزاه الله عمله، وجزاه عليه، بحذف الجار وإيصال الفعل، ويجوز أن يكون الضمير للجزاء، ثم فسره بقوله: ﴿الجزاء الأوفى﴾ أى: أبدله منه، أى: الجزء الأكمل بحيث يزيده ولا ينقصه.

الإشارة: أفرأيت الذى تولى عن طريق السلوك، بعد أن أعطى نفسه وفلسه، وتوجه إلى حضرة مولاه، ثم ملته نفسه، وغرته أنه يصل بلا عطاء ولا مجاهدة، فقطع ذلك واشتغل بنفسه، أو غره أحد حتى رده، وضمن له الوصول، بلا ذلك، أعنده علم الغيب حتى علم أنه يصل بلا واسطة ولا مجاهدة؟ فهو يرى عاقبة ما هو سائر إليه. وتصدق الإشارة بمن صحب شيخاً، وأعطاه بعض ماله أو نفسه، ثم رجع ومال إلى غيره، فلا يأتى منه شيء، أعنده علم الغيب، وأن فتحه على يد ذلك الشخص، فهو يرى ما فيه صلاحه وفساده؟ وهذا إن كان شيخه أهلاً للتربية، وإلا فلا. أم لم ينبأ هذا المنقطع بما فى صحف موسى وإبراهيم، أنه لا يتحمل أحد عن أحد مجاهدة النفوس ورياضتها؟ وأن ليس للإنسان من لذة الشهود والعيان إلا ما سعى فيه بالمجاهدة، وبذل النفس والفلس، وأن سعيه سوف يرى؟ أى: يظهر أثره من الأخلاق الحسنة، والرزانة والطمانينة، وبهجة المحبين، وسيما العارفين.

وقسم القشيري السعى على أربعة أقسام؛ الأول: السعى فى تزكية النفس وتطهيرها، ونتيجته: النهوض للعمل الصالح، الذى يستوجب صاحبه نعيم الجنان. الثانى: السعى فى تصفية القلب من صدأ ظلمات البشرية، وغطاء عورات الطبيعية، ونتيجته: صحته من الأمراض القلبية، كحب الدنيا والرئاسة والحسد، وغير ذلك، لينتهي لدخول الواردات الإلهية. الثالث: السعى فى تزكية الروح، بمتعتها من طلب الحظوظ الروحانية، كطلب الكرامات، والوقوف مع المقامات، وحلارة المعاملات، لنتهى بذلك للاستشراق على مقام المشاهدات، وحمل أعباء أسرار الذات. الرابع: السعى فى تزكية السر بتحليلته بالصفات الإلهية، والأخلاق الربانية، ليتحقق بمقام الفناء والبقاء، وهو منتهى السعى وكماله. هـ. بالمعنى.

والى هذا الانتهاء أشار تعالى بقوله:

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ۖ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۖ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۖ ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۖ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۖ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَآءَ ۖ ﴿٤٧﴾ وَالْآخِرَىٰ ۖ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۖ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ ۖ ﴿٥٠﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا ۖ ﴿٥١﴾

الْأُولَى ۝ وَثُمُودَ أَمَّا أَتَقَى ۝ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ۝ وَالْمُؤَنَفِكَةَ ۝ أَهْوَى ۝ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ۝ فَيَأِيءَ إِلَاءَ رَبِّكَ نَتَمَارَى ۝ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَى ۝ أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ۝ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۝ ﴿٦٢﴾

يقول الحق جل جلاله في بقية ذكر ما في المصحف الأولى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ أي: الانتهاء، أي: ينتهي إليه الخلق ويرجعون، إليه كقوله: ﴿وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾^(١) أو: ينتهي علم العلماء إليه ثم يقفون، لقوله ﷺ: «لا فكرة في الرب»^(٢) أي: كنه الذات، وسيأتي في الإشارة. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ أي: خلق الضحك والبكاء، أو: خلق الفرح والحزن، أو: أضحك المؤمنين في الآخرة، وأبكى الكافرين، أو: أضحك المؤمنين في العقبى بالمواهب وأبكاهم في الدنيا بالنوائب، ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي: أَمَاتَ الْآبَاءَ وَأَحْيَا الْأَبْنَاءَ، أو: أَمَاتَ بِالْكَفْرِ وَأَحْيَا بِالْإِيمَانِ.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ من نطفة إذا تُمْنَىٰ: إذ تدفق وتدفق في الرحم. يقال: مَنَى وَمَنَى، ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ الإحياء بعد الموت، ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ أي: صَيَّرَ الْفَقِيرَ غَنِيًّا ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أي: أَعْطَى الْقَنِيَّةَ، وهو المال الذي تأثله^(٣)، وعزمت ألا تخرجه من يدك. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ﴾، وهو كركب يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر، وكانت خزاعة تعبيدها. من لهم ذلك «ابن أبي كبشة، رجل من أشرافهم، قال: لأن النجوم تقطع السماء عرضاً، والشعرى طولاً، ويقال لها: شعرى العبور. انظر الثعلبي. وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ: ابن أبي كبشة، تشبهاً له ﷺ به، لمخالفته إياهم في دينهم، فأخبر تعالى أنه ربّ معبودهم، فهو أحق بالعبادة وحده.

(١) من الآية ٤٨ من سورة الحج.

(٢) أخرجه البغوي في التفسير (٤١٧/٧) وزاده السيوطي عزوه في الدر (١٧٠/٦) للدراطيني في الأفراد، عن أبي بن كعب. وهذا مثل ما روى عن ابن عباس مرفوعاً: «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق، فإنكم لن تقدروا عزاء السيوطي في الدر (١٧٠/٦) لأبي الشيخ في العظمة. وانظر: كشف الخفاء ٣٧١/٨، وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ٣٩٧/٤.

(٣) المقائل: الجامع. والمائل اتخاذ أصل مال، وكل شيء له أصل قديم، أو جمع حتى يصير له أصل، فهو مؤئل. انظر اللسان (أئل ٢٨ / ١).

﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾ ، وهم قوم هود، وعاد الأخرى: عاد إرم، وقيل: معنى الأولى [العدمى] (١) لأنهم أولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح، وقال الطبري وغيره: سميت «أولى» لأن ثم عاداً آخرة، وهي قبيلة كانت بمكة مع العمالق، وهم بنو لقيم بن هزال. والله أعلم. هـ (٢). قلت: والتحقيق: أن عاداً الأولى هي عاد إرم، وهي قبيلة هود التي هلك بالريح، ثم بقيت منهم بقايا، فكثروا وعمّروا بعدهم، فقيل لهم عاد الآخرة، وأنظر أبا السعود في سورة الفجر (٣) وهاهنا قراءات، وجهناها في كتاب الدرر (٤).

﴿وَتَمُوداً﴾ (٥) أي: وأهلك تموداً، وهم قوم صالح، ﴿فَمَا أَبْقَى﴾ أحداً منهم، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ ، وأهلك قوم نوح من قبل عاد وتمود، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ من عاد وتمود؛ لأنهم كانوا يضربونه حتى لا يكون به حراك، وينفرون منه حتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ أي: والقرى التي ألتفتت، أي: انقلبت بأهلها، وهم قوم لوط. يقال: أفكته فائتفك، أي: قلبه فانقلب، (والمؤتفكة) منصوب بـ ﴿أَهْوَى﴾ أي: رفعها إلى السماء على جناح جبريل، ثم أهواها إلى الأرض، أي: أسقطها، ﴿فَغَشَّاهَا﴾ ؛ ألبسها من فنون العذاب ﴿مَا غَشَّى﴾ ، وفيه تهويل لما صب عليها من العذاب، وأمطر عليها من الصخر المنضود.

﴿فَبَايَ آلاءَ رَبِّكَ﴾ أيها المخاطب ﴿تَمَارَى﴾ أي: تتشكك؟، أي: فباي نعم من نعم مولاك تحجد ولا تشكر؟ فكم أولاك من النعم، ودفع عنك من النقم، وتسمية الأمور المتعددة قبل نعماً مع أن بعضها نقم؛ لأنها أيضاً نعم من حيث إنها نصرة الأنبياء والمرسلين، وعظة وعبرة للمعتبرين. ﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ أي: محمد مَنذَرٌ ﴿مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ ؛ من المنذرين الأولين، وقال: «الأولى» على تأويل الجماعة، أو: هذا القرآن نذير من النذر الأولى، أي: إنذار من جنس الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم.

(١) في تفسير أبي السعود (القدماء ١).

(٢) العبارة بالمعنى، ونصها كما في تفسير الطبري (٧٨/٢٧) : «وانما مثل لعاد بن إرم: عاد الأولى، لأن بنى لقيم بن هزال بن هزيل بن عبيل بن مند بن عاد الأكبر، كانوا أيام أرسل الله تعالى على عاد الأكبر عذابه، سكاناً بمكة مع إخوانهم من العمالقة».

(٣) عند تفسير الآية السادسة من سورة الفجر، وأنظر تفسير أبي السعود ١٥٤/٩.

(٤) للشيخ ابن عجيبة - رحمه الله تعالى - مؤلف في القراءات، سماه «الدرر المتناثرة في توجيه القراءات المتواترة» وهو كما يقول ابن عجيبة في الفهرمة: تأليف يشتمل على آداب القراءة والتعريف بالشيوخ العشرة، ورواتهم، وتوجيه قراءة كل واحد منهم، وفيه عشرون كراسة. انظر الفهرسة ٣٨/.

(٥) أثبت المفسر قراءة «تموداً» بالتثنية، وقرأ عاصم وحمزة ويعقوب بغير تثنية. والباقون بالتثنية. انظر الإتحاف (٥٠٣/٢).

﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ أى: قربت الساعة الموصوفة بالقرب فى قوله: ﴿اقتربت الساعة﴾ (١)، وفى ذكرها بعد إنذارهم إشعار بأن تعذيبهم مؤخر إلى يوم القيامة، ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ أى: ليس لها نفس مبيّنة وقت قيامها إلا الله تعالى، وهذا كقوله: ﴿لَا يُجْلِيهَا لَوْحٌ إِلَّا هُوَ﴾ (٢) أى: ليس لها نفس قادرة على كشف أهوالها إذا وقعت إلا الله تعالى، فيكشفها عن شاء، ويعذب بها من شاء.

ولما استهزؤوا بالقرآن، الناطق بأهوال القيامة، نزل قوله تعالى: ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون﴾ إنكاراً، ﴿وتضحكون﴾ استهزاء، ﴿ولا تبكون﴾ خشوعاً، ﴿وأنتم سامدون﴾ غافلون، أو: لاهون لاعبون، وكانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء؛ ليشغلوا الناس عن استماعه، ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ ولا تعبدوا معه غيره، من اللات والعزى ومناة والشعري، وغيرها من الأصنام، أى: اعبدوا رب الأرباب، وسارعوا له، رجاء فى رحمته. والفاء لترتيب الأمر بالسجود على بطلان مقابلة القرآن بالإنكار والاستهزاء، وجوب تلقية بالإيمان والخضوع والخشوع، أى: إذا كان الأمر كذلك فاسجدوا لله الذى أنزله واعبدوه.

الإشارة: وأن إلى ربك المنتهى، انتهى سير السائرين إلى الوصول إلى الله، والعكوف فى حضرته. ومعنى الوصول إلى الله: العلم بأحدية وجوده، قيمته وجود العبد فى وجود الرب، وتضمحل الكائنات فى وجود المكون، فتسقط شفعية الأثر، وتثبت وتريه المؤثر، كما قال القائل:

وبروح وراح	عاد شفعى وترى
وقال آخر:	فلم يبق إلا الله لم يبق كائن
	فما ثم موصول ولا ثم بائن
	بذا جاء برهان العيان، فما أرى
	بغنى إلا عييه إذ أعاين

إلى غير ذلك مما غنوا به من أدواقهم ووجدانهم.

ثم قال تعالى: (وأنه هو أضحك وأبكى) أى: قبض ووسط، أو: أنه أضحك أرواحاً بكشف الحجاب، وأبكى نفوساً بذل الحجاب، أو: أضحك إذا تجلى بصفة الجمال، وأبكى إذا تجلى بصفة الجلال، وأنه هو أمات قلوباً بالجهل والغفلة، بمقتضى اسمه القهار، وأحيا قلوباً بالعلم والمعرفة، بمقتضى اسمه الغفار، أو: أمات نفوساً عن شهواتها الفانية، وأحيا بسبب ذلك أرواحاً بكمال المعرفة، فاتصفت بالأوصاف الربانية، أو: أمات أرواحاً بغلبة ظلمة النفس واستيلائها عليها، وأحيا نفوساً باستيلاء الأرواح عليها، وغلبة نورها، فحييت وانقلبت روحاً. وأنه خلق الزوجين، أى: الصنفين؛ الذكر والأنثى، الحس والمعنى، الحقيقية والشريعة، القدرة والحكمة، كما تقدم. وقال القشيري: الروح

(١) الآية الأولى من سورة القمر.

(٢) من الآية ١٨٧ من سورة الأعراف.

كأنها ذَكَرَ موصوفة بصفة الفاعلية، والنفس أنثى موصوفة بصفة القابلية، لتحصل نتيجة القلب، بحصول المطالب الدنيوية والأخروية. هـ. مختصراً. وقال بعضهم: والشيطان كالذكر، والنفس كالأنثى، يتولد بينهما المعصية. هـ.

وأن عليه النشأة الأخرى، وهو بعث الأرواح من موت الغفلة، وحشرها إلى موقف المراقبة والمحاسبة، ثم إدخالها جنة المعارف، فلا تتشاق إلى جنة الزخارف أبداً، أو: النشأة الأخرى: الجذب بعد السلوك، والفناء بعد البقاء، ثم البقاء بعد الفناء، البقاء الأول بوجود النفس، والثاني بالله. وأنه هو أغنى به بوصول العبد إلى مشاهدته، وأغنى بأن مكَّنه منه فزاد غناه. وطبّل على ماله، وأنه هو ربُّ الشعري، وهو كل ما عبد من الهوى والدنيا، فكيف يعبد المريب اللئيم، ويترك الرب الكريم؟ وأنه أهلك عاداً الأولى؛ النفوس المتفرعة، والأهوية المغوية، أرسل عليهم ريح الهداية القوية، حتى اضمحلّت وخضعت لمولاها، وثمود الخواطر، فما أبقي منها إلا خواطر الخير، التي تأمر بالخير، وقوم نوح؛ من القواطع الأربعة؛ النفس، والشيطان، والداس، والدنيا، فطعنهم عن المتوجه من قبل، أي: من قبل أن يتوجه إلينا، لما سبق في علمنا أنهم كانوا هم أظلم وأطغى من بقية العلائق، والنفس المؤتفكة، أي: المنقلبة عن التوجه، أهوى بها في أسفل سافلين، باعتبار أهل عليين، فغشاها من الدنيا ومن الخواطر والهموم والغموم، ما غشى.

فإذا سلمت أيها العبد من هؤلاء القواطع والعلائق، وترجعت إلى مولاك، فبأي آلاء ربك تتماهى؟ بل الواجب عليك أن تشكر الله آناء الليل والنهار. هذا الذي أخذ بيدك نذير من النذر الأولى، المتقدمين الداعين إلى الله في كل زمان، أزفت الآزفة، أي: قريت ساعة الفتح حين توجهت وانقطعت عنك العلائق، ووجدت من يدخلك بحر الحقائق، ليس لها من دون الله كاشفة، لا يكشف لك هذه الحقائق إلا الذي من عليك بصحبة من يدلك عليه. قال القشيري: أزفت الآزفة: قريت الحقيقة الموصوفة بالقرب والدنو، وأنت أيها السالك في عيها، وما لك بها شعور، لفنائك في أوصافك النفسانية^(١). هـ مختصراً. أقمن هذا الحديث العجيب، والغزل الرقيق الغريب، تعجبون، إنكاراً، وتضحكون استهزاء؟ قلت: وقد رأيت كثيراً ممن ينكر الإشارة، ويستهزئ بها، ويتنكب مطالعتها، وقد قيل: من كره شيئاً عاداه. ولا تبكون على أنفسكم، حيث حرمت من هذه المراهب، وأنتم سامدون غافلون لاهون، للدنيا طالبون، فاسجدوا لله واعبدوا، وتضرعوا إليه، حتى يخرجكم من سجن هواكم ونفوسكم.

وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.



(١) لم أفق على هذا النص أو على معناه في لطائف الإشارات.

سُورَةُ الْقَمَرِ

مكية كلها عند الجمهور، وقيل: إلا قوله: «سِيَهْزَمُ الْجَمْعُ...» الخ. وهي خمسون آية، ومناسبتها لما قبلها: قوله تعالى: «أَزَفْتُ الْأَزْفَةَ» (١) وهي التي أخبر عنها بقوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۚ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۚ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۚ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ۚ (٤) حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۚ (٥) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يُومٌ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ۚ (٦) خُشِعَا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۚ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۚ (٨) ۝﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ اقتربت الساعة ﴾؛ قربت القيامة، قال القشيري: ومعنى قربها: أن ما بقي من الزمان إلى القيامة قليل بالإضافة إلى ما مضى. هـ. قال ابن عطية: وأمرها مجهول التحديد، وكل ما يروى من التحديد في عمر الدنيا فضعيف. هـ. ﴿ وانشق القمر ﴾ نصفين، وقرئ: وقد انشق القمر، أي: اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق، كما نقول: أقبل الأمير، وقد جاء البشير بقدمه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: انشق القمر على عهد النبي ﷺ فرقتين، فكانت إحداهما فوق الجبل، والأخرى أسفل من الجبل، فقال ﷺ: «اشهدوا» (٢). قال ابن عباس: إن المشركين قالوا للنبي ﷺ: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فلفقتين، فقال: «إن فعلت؛ أتؤمنون؟» فقالوا: نعم، وكانت ليلة بدر، فسأل ﷺ ربه؛ فانشق فرقتين، نصف على أبي قبيس، ونصف على قُعيْقَعان (٣). وقيل: سألوا آية مجملة، فأراهم انشقاق القمر (٤). قال ابن عطية: وعليه الجمهور، يعني عدم التعيين.

(١) الآية ٥٧ من سورة النجم.
(٢) أخرجه البخاري في (التفسير، تفسير سورة القمر، باب «وانشق القمر») ومسلم في (صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر، ح ٢٨٠٠).
(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (٦٤٨٣/٧). وقُعيْقَعان: جبل بمكة. انظر اللسان (قعع ٣٦٩٦/٥).
(٤) أخرجه البخاري في (مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر ح ٣٨٦٨) عن أنس بن مالك.

وفى صحيح مسلم: أنه انشق مرتين^(١)، وصرح فى شرح المواقف بأن انشقاقه متواتر. هـ. وقيل: معناه؛ انشق، أى: ينشق يوم القيامة، وهو ضعيف، ولا يُقال: لو انشق لما خفى على أهل الأقطار، ولو ظهر عندهم لنقل متواتراً؛ لأن الطباع جبلت على نشر العجائب، لأنه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم أو غيره، مع أنه كان ليلاً، وجَلَّ الناس نائمون، وأيضاً: عادة الله - تعالى - فى معجزاته أنه لا يراها إلا مَنْ ظهرت لأجله فى الغالب.

تنبيه: قال القسطلانى فى المواهب اللدنية: ما يذكره بعض القصاص أن القمر دخل فى جيب النبى ﷺ وخرج من كفه، ليس له أصل، كما حكاه الزركشى عن شيخه العماد ابن كثير. هـ.

﴿وإن يروا﴾ أى: أهل مكة ﴿آية﴾ تدل على صدق رسوله ﷺ ﴿يعرضوا﴾ عن الإيمان ﴿ويقولوا سحر مستمر﴾؛ محكم شديد قوى، من: المرّة، وهى القوة، أو: دائم مطرد. روى: أنه لما انشق؛ قالوا: هذا سحر ابن أبى كبشة؟ فسلوا السفار، فلما قَدِمُوا سألوهم، فقالوا: إنهم قد رأيناه، فقالوا: قد استمر سحره فى البلاد، فنزلت^(٢). قال البيضاوى: دل قوله: (مستمر) على أنهم رأوا قبله آيات أخرى مترادفة، ومعجزات سابقة. هـ. أو: مستمر؛ ذاهب ومار، يزول ولا يبقى، من: مرّ الشيء واستمر: ذهب.

﴿وكذبوا واتَّبَعُوا أهواءهم﴾ الباطلة، وما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره، حتى قالوا: سحر القمر، أو: سحر أعيننا، ﴿وكلُّ أمرٍ﴾ وعدهم الله به ﴿مستقرٌّ﴾؛ كائن فى وقته، أو: كل أمر قَدَر واقع لا محالة يستقر فى وقته، أو: كل أمر من الخير والشر يقع بأهله من الثواب والعقاب، وقُرِئ: «مستقرٌّ بالجر^(٣)»، فيعطف على «الساعة»، أى: اقتربت الساعة وكل أمرٍ مستقر، يعنى: أشراطها.

﴿ولقد جاءهم﴾ أى: أهل مكة فى القرآن؛ ﴿من الأنبياء﴾؛ من أخبار القرون الماضية، وكيف أهلكوا بالكذب ﴿ما فيه مُزْدَجَرٌ﴾ أى: ازدجار عن الكفر والعناد، يقول: زجرته وازدجرته، أى: منعه، وأصله: ازتجر، افتعل، من الزجر، ولكن التاء إذا وقعت بعد زاي ساكنة أبدلت دالاً؛ لأن التاء حرف مهموس، والزاي حرف مجهور. فأبدل من التاء حرف مجهور، وهو الدال؛ ليناسب الميم.

(١) أخرجه مسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر ح ٢٨٠٢) عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبرى (٨٥/٢٧) وعزاه السيوطى فى الدر (١٧٦/٦) لابن المنذر، وابن مردويه، وأبى نعيم، والبيهقى، كلاهما فى الدلائل، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) قرأ أبو جعفر «مستقر، بخفض الراء، صفة، ورفع (كل) حيلك بالعطف على «الساعة»، وقيل: بالابتداء والخبر، أى: وكل أمرٍ مستقر لهم فى القدر بالغوه. وقرأ الباقرن بالرفع، خبر «كل». النظر الإتحاف (٥٠٥/٢).

﴿حكمة بالغة﴾: بدل من «ماء»، أو: خير، أي: هو حكمة بالغة؛ ناهية في الرشد والصواب، أو: بالغة من الله إليهم. قال القشيري: والحكمة البالغة: الصحيحة الظاهرة الواضحة لمن فكر فيها. هـ. قال المحلى: وصفت بالبلاغة؛ لأنها تبلغ من مقصد الوعظ والبيان ما لا يبلغ غيرها هـ. ﴿فما تُغنى النُّذُرُ﴾ شيئاً، حيث سبق القدر بكفرهم، و«ماء نافية»، أو استفهامية منصوبة بـ «تُغنى»، أي: فأى إغناء تُغنى النُّذُرُ مع سابق القدر؟ والنُّذُرُ: جمع نذير، وهم الرسل، أو: المُنذِرُ به، أو: مصدر بمعنى الإنذار، والتعبير بالمضارع للدلالة على تجدد عدم الإغناء، واستمراره حسب تجدد مجئ الزواجر واستمرارها.

﴿فقل عنهم﴾ لعلمك بأنَّ الإنذار لا يُغنى فيهم شيئاً، واذكر ﴿يوم يدع الداع^(١)﴾ وهو إسرافيل عليه السلام ﴿إلى شيءٍ تُكْرهُ﴾ أي: منكر فظيع، تُكره النفوس، لعدم العهد بمثله، وهو هول القيامة. ﴿خُشَعاً أبصارهم يخرجون﴾، فـ«خُشَعاً»: حال من فاعل «يخرجون»، أي: ﴿يخرجون من الأجداث﴾ أذلة أبصارهم من شدة الهول؛ لأن ذلة الذليل وعزة العزيز يظهرن في أعينهما، ومن قرأ: «خاشعاً»^(٢) فوجهه؛ أنه أسند إلى ظاهر، فيجب تجريده كالفعل، وأما من قرأ بالجمع، فهو على لغة: «أكلوني البراغيث»، ﴿كانهم جراد منتشر﴾ في الكثرة والتعرج والتفرق في الأقطار. قال ابن عطية: في الحديث: أن مريم دعت للجراد؛ فقالت: اللهم أعشها بغير رضاع، وتتابع بينها بغير شِباع. هـ.

ثم وصف خروجهم من القبور، فقال: ﴿مهطعين إلى الداع﴾؛ مسرعين مَادِي أعناقهم إليه، أو ناظرين إليه، ﴿يقول الكافرون﴾ استلفاف بياني، وقع جواباً عما نشأ من وصف اليوم بالأهوال، وأهله بسوء الحال، كأنَّ قائلاً قال: فماذا يكون حينئذ؟ فقال: ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسير﴾؛ صعب شديد. وفي إسناد هذا القول إلى الكفار تلويح بأن المؤمنين ليسوا في تلك المرتبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اقتربت ساعة الفتح لمن جدَّ في السير، ولازم صحبة أهل القرب، قال القشيري: الساعة ساعتان؛ كبرى، وهي عامة، وصغرى، وهي خاصة بالنسبة إلى المسالك إلى الله، برفع الأوصاف البشرية، وقطع العلائق الطبيعية. ثم قال: وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»^(٣) راجعة إلى الساعة الصغرى. هـ. أي:

(١) أثبت المصنف الياء في «الداع» إلى، وهي قراءة ورش وأبي عمرو وأبي جطر، وصلأ، والبزى ويعقوب في الحالين. وقرأ الباقر بن خزيمة وصلأ روقفاً. انظر السبعة / ٦١٧ والإتعاظ / ٥٠٥/٢.

(٢) قرأ أبو عمرو وحمة والكسائي ويعقوب «خاشعاً» بفتح الخاء وألف بعدها وكسر الشين مخففة، بالإفراد. وقرأ الباقر «خُشَعاً» بضم الخاء وفتح الشين وتشديدها بلا ألف. انظر الإتعاظ (٥٠٦/٢).

(٣) قال العراقي في المصنف ٦٧/٤: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت، من حديث أنس، بسند ضعيف، وكذا قال الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص ٢٦٧) وزاد: وهو من قول الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى، وأخرجه الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب (ح ١١١٧) عن أنس بلفظ: «إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته...» الحديث. وانظر كشف الخفاء (ح/٢٦١٨).

من مات عن رؤية نفسه؛ قامت قيامته بقاء ربه وشهوده. وقوله تعالى: «وانشق القمر» أي: قمر الإيمان؛ فإنه إذا أشرقت عليه شمس العيان، لم يبق لنوره أثر، ليس الخبر كالعيان، وإن يروا - أي: أهل الغفلة والحجاب - آية تدل على طلوع شمس العيان على العبد المخصوص، يعرضوا منكبين، ويقولوا: «هذا سحر مستمر..» الآية، وكل أمر قدره الحق - تعالى في الأزل، من أوقات الفتح أو غيره، مستقر، يستقر ويقع في وقته، لا يتقدم ولا يتأخر، فلا ينبغي للمريد أن يستعجل الفتح قبل إيانته، فربما عرقب بحرمانه، ولقد جاءهم من الأخبار عن منكري أهل الخصرصية، وما لحق أهل الانتقاد من الهلاك أو الطرد والبعد ما فيه مزدجر، كما فعل بابن البراء وأمثاله، حكمة من الله بالغة، وسنة ماضية، يقول: «من آذى لي ولياً فقد آذن بالحرب» فما تنع النذر إذا سبق الخذلان، فتول أيها السالك عنهم، وعن خوضهم، واشتغل بالله عنهم؛ فسيكفيهم الله وهو السميع العليم، واذكر الموت وما بعده، فإنه حينئذ يظهر عز الأولياء، وذلل الأغبياء، يقولون: هذا يوم عسر على من طغى وتجبر.

ثم سرد قصص الأنبياء، تسلية لرسوله ﷺ - وتفسيراً لقوله: «ولقد جاءهم من الأنبياء» فقال:

﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِرَ ﴿١٣﴾ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهُ آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ سَرَّانَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أي: قبل أهل مكة ﴿ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ نوحاً ﷺ . ومعنى تكرار التكذيب: أنهم كذبوا تكذيباً عقب تكذيب، كلما خلا منهم قرن مكذب، جاء عقبه قرن آخر مكذب مثله، وقيل: كذبت قوم نوح الرسل، (فكذبوا عبدنا)؛ لأنه من جملتهم. وفي ذكره ﷺ بعنوان العبودية مع إضافته لنون العظمة؛ تفخيم له ﷺ ورفع لمحلّه، وزيادة تشنيع لمكذبيه، ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ ﴾ أي: لم يقتصروا على مجرد التكذيب، بل نسبوه للمجنون، ﴿ وَازْدُجِرَ ﴾ أي: زجر عن أداء الرسالة؛ بالشتم، وهدد بالقتل، أو: هو من جملة قولهم، أي: قالوا: هو مجنون وقد ازدجرته الجن، أي: تخبطته وذهبت بلبه.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ حين أيس منهم ﴿أني مغلوب﴾ أى: بأنى مغلوب من جهة قومي، بتسليطهم عليّ، فلم يسمعوني، واستحكم اليأس من إجابتهم. قال القشيري: مغلوب بالتسلط لا بالحجة، إذ الحجة كانت له. هـ. وهذا جار فيمن لم يستجب لك، تقول: غلبني. ثم دعا عليهم بقوله: ﴿فانتصر﴾؛ فانتقم منهم بعداب تبعثه عليهم، وذلك بعد تحقق يأسه منهم وعظم إذابتهم. فقد روى أن الواحد منهم كان يلقاه فيضربه حتى يغشى عليه، فيقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾؛ منصب بكثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوماً، قال يمان: حتى طبق بين السماء والأرض^(١)، وقيل: كانوا يطلبون المطر سنين، فأهلكوا بمطلوبهم. وفتح الأبواب كناية عن كثرة الأمطار، وشدة انصابتها، وقيل: كان في السماء يومئذ أبواب حقيقة.

﴿وفجّرنا الأرض عيونا﴾؛ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تنفجر، وهو أبلغ من قولك: وفجّرنا عيون الأرض، ومثله: ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾^(٢) في إفادة العموم والشمول، ﴿فالتقى الماء﴾ أى: مياه السماء ومياه الأرض، وقرئ: «الماءان»^(٣)، أى: النوعان من الماء السمائي والأرضي. ﴿على أمر قد قدر﴾ أى: قضى في أم الكتاب، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان، أر: قدر أن الماءين يكون مقدارهما واحداً من غير تفاوت. قيل: كان ماء السماء بارداً كالثلج، وماء الأرض مثل الحميم، ويقال: إن الماء الذي نبع من الأرض نضج، والذي نزل من السماء بقي حاراً.

﴿وحملناه على ذات ألواح﴾ أى: أخشاب عريضة، والمراد: السفينة، وهى من الصفات التى تقوم مقام موصوفها كالشرح له، وهو من فصيح الكلام ومن بديعه، ﴿ودُسّر﴾؛ ومسامير، جمع: دسار، وهو المسمار، فعال من: دسره: إذا دفعه؛ لأنه يدسّر به منفعده. ﴿تجري بأعيننا﴾ أى: بمرأى منا، أو: بحفظنا، وهو حال من فاعل «تجري»، أى: تجري محفوظة ﴿جزاء﴾ مفعول له، أى: فعلنا ذلك جزاءً ﴿لن كان كُفراً﴾ وهو نوح عليه السلام، وجعله مكفوراً؛ لأن النبي نعمة من الله ورحمة، فكان نوح نعمة مكفورة. وقرأ مجاهد بفتح الكاف، أى: عقاباً لمن كفر بالله. قيل: ما نجا من الغرق إلا عوج بن عنق، كان الماء إلى حجزته^(٤)، وسبب نجاته: أن نوحاً احتاج إلى

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٤٢٨/٧.

(٢) من الآية ٤ من سورة مريم.

(٣) عزائها في مختصر ابن خالويه، وزاد في البحر المحيط (١٧٥/٨) على والحسن ومحمد بن كعب.

(٤) العجزة: موضع التكة من السروال.

خشب الساج للسفينة، فلم يمكنه نقلها، فحمل عرج تلك الخشب إليه من الشام، فشكر الله له ذلك، ونجّاه من الفرق. قاله الثعلبي^(١). قلت: وقد تقدم إبطاله في سورة العقود^(٢)، وأنه من وضع الزنادقة. ذكره القسطلاني.

﴿ولقد تركناها﴾ أي: السفينة، أو: الفعلة، أي: جعلناها ﴿آية﴾ يعتبر بها من يقف على خبرها. وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة، وقيل: على الجودي، حتى رآها أوائل هذه الأمة^(٣). ﴿فهل من مُدْكِ﴾ من منعذ يتعظ ويعتبر، وأصله: مذتكر، فأبدلت التاء دالاً مهملة، وادغمت الذال فيها لقرب المخرج، ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ ١٩ استفهام تعظيم وتعجيب، أي: كان عذابي وإنذارى لهم على هيئة هائلة، لا يحيط بها الوصف، والنذر: جمع نذير، بمعنى الإنذار.

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ أي: سهّلناه للادّكار والانتعاظ؛ بأن شحّناه بأنواع المواعظ والعبر، وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد ما فيه شفاء وكفاية. ﴿فهل من مُدْكِ﴾ إنكار ونفى للمتعظ على أبلغ وجه، أي: فهل من منعذ يقبل الانتعاظ، وقيل: ولقد سهّلناه للحفظ، وأعتنا من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه؟ قال القشيري: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾؛ يسرّ قراءته على ألسنة قوم، وعلمه على قوم، وفهمه على قلوب قوم، وحفظه على قلوب قوم، وكلهم أهل القرآن، وكلهم أهل الله وخاصته. ويقال: كاشف الأرواح من قوم قبل إدخالها في الأجساد، فهل من مذكر يذكر العهد الذي جرى لنا معه ٢٠ هـ.

ويروى: أن كتب أهل الأديان من التوراة في الإنجيل والزيور لا يقرؤها أهلها إلا نظراً، ولا يحفظونها ظاهراً كالقرآن، وفي القوت: مما خصّ الله به هذه الأمة ثلاثة أشياء: حفظ كتابنا هذا، إلا ما ألهم الله عزيزاً من التوراة بعد أن كان يختصر أحرق جميعها، ومنها: تبقية الإسناد فيهم، يآثره خلف عن سلف، متصلاً إلى نبينا ﷺ، وإنما كانوا يستنسخون الصحف، كلما خلقت صحيفة جددت، فكان ذلك أثره العلم فيهم، والثالثة: أن كان مؤمن من هذه الأمة يسأل عن علم الإيمان، ويسمع قوله مع حداثة سنه، ولم يكن مما مضى يسمعون العلم إلا من الأحبار والقسيسين والرهبان. وزاد رابعة: وهي ثبات الإيمان في قلوبهم، لا يعنونه شك، ولا يختلجه شرك، مع تقلب الجوارح في المعاصي. وقد قال قوم موسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً﴾^(٤) بعد أن رأوا الآيات العظيمة، من انفلاق البحر وغيره. هـ. قال أبو السعود: وحمل تيسيره على حفظه لا يساعده المقام. هـ.

(١) وذكره القرطبي في تفسيره (٦٤٨٩/٧).

(٢) لم يذكر الشيخ شيئاً عن عوج بن علق في تفسير سورة المائدة. وقد ولع بعض المفسرين بذكر قصة عوج عند تفسير قوله تعالى: ﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإذا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾ المائدة / ٢٢. وقد بين العلماء زيف ما نقل في هذه القصة. راجع في هذا، الإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد أبي شهبه / ١٨٦.

(٣) أخرجه ابن جرير (٩٥/٢٧) وعزاه السيوطي في الدر (١٨٠/٦) لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف.

الإشارة: في الآية تسليية لمن أُرذَى من الأولياء، وإجابة الدعاء على الظالم، لهم إن [أذن] (١) لهم في ذلك بإلهام أو هاتف، وإلا فالصبر أولى، وجعل القشيري نوحاً إشارة إلى القلب، وقومه جنود النفس، من الهوى والدنيا وسائر العلائق، فيكون التقدير: كذبت النفس وجنودها القلب، فيما يردُّ عليه من تجليات الحق، وكشوفات الغيب، وقالوا: إنما هو مجنون فيما يُخبر به، فزجرته، ومنعته من تلك الواردات الإلهية بظلمات شهواتها، فدعا ربه وقال: أنى مغلوب في يد النفس وجنودها، فانتصر لي حتى تغيبني عنهم، ففتحنا أبواب سماء الغيب بأقطار الواردات الإلهية القهارية، لنحقق تلك الظلمات النفسانية، وفجرنا أرض البشرية بعلوم آداب العبودية، فالتقى ماء الواردات، التي هي من حضرة الربوبية، مع ماء علوم العبودية، على أمر قد قدر أنه ينصر القلب، ويرقيه إلى حضرة القدس، وحملناه على سفينة الجذب والعناية، تجرى بحفظنا، جزاء لنعمة القلب التي كفرت به النفس وجنودها، ولقد تركنا هذه الفعلة آية يعتبر بها السائرون إلينا، والطالبون لنا، فهل من مدكر؟ فكيف كان عذابي لمن استولت عليه النفس وجنودها؟ وكيف كان إنذارى من غم الحجاب، وسوء الحساب، ولقد يسرنا القرآن للذكر؛ للاتعاظ، فهل من مدكر، فينهض من غفلته إلى مولاة؟.

ثم ذكر قصة عاد، فقال:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كذبت عادٌ ﴾ هوداً عليه السلام، ﴿ فكيف كان عذابي ونذرٍ ﴾ ١٨: أى: وإنذارى لهم بالعذاب قبل نزوله، والاستفهام لتوجيه قلوب السامعين للإصغاء إلى ما يلقي إليهم قبل ذكره؛ لتحويله وتعظيمه، وتعجيبهم من حاله قبل بيانه، كما قبله وما بعده، كأنه قيل: كذبت عاد فهل سمعتم ما حلَّ بهم؟ أو: فاسمعوا، فكيف كان عذابي وإنذارى لهم.

ثم بين ما أجمل فقال: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾؛ باردة أو: شديدة الصوت؛ ﴿ في يومٍ نحسٍ ﴾؛ شوم ﴿ مستمرٍ ﴾ شومه عليهم إلى أن أهلكهم، وكان في أربعماء آخر شوال، ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ ﴾ أى: تقلعهم، وجاء بالظاهر

(١) في الأصول [أذن].

مكان المضمرة؛ ليشمل ذكورهم وإناثهم، صغيرهم وكبيرهم. روى: أنهم كانوا يتداخلون الشعاب، ويحفرون الحفر، ويندسون فيها، ويمسك بعضهم ببعض؛ فتزعجهم الريح، وتصرعهم موتى.

قال ابن إسحاق: ولما هاجت عليهم الريح، قام سبعة نفر من عاد؛ [فأولجوا] (١) العيال في شعب بين جبلين، ثم اصطفوا على باب الشعب، ليردوا الريح عنهم، فجعلت الريح تجعفهم (٢) رجلاً رجلاً. هـ. ثم صاروا بعد موتهم ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ أى: أصول نخل منقطع من مغارسه، وشبهوا بأعجاز النخلة، وهى أصولها التى قطعت رؤوسها؛ لأن الريح كانت تقطع رؤوسهم، فتبقى أجساداً بلا رؤوس، فيتساقطون على الأرض أمواتاً، وهم جثث طوال. وتذكير صفة النخل بالنظر إلى اللفظ، كما أن تأنيته فى قوله تعالى: ﴿أعجاز نخل خاوية﴾ (٣) بالنظر للمعنى. ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾؟! تهويل وتعجيب من أمرهما بعد بيانهما، فليس فيه شائبة تكرار، وما قيل: من أن الأول لما حاق بهم فى الدنيا، والثانى لما يحيق بهم فى الآخرة، يردده ترتيب الثانى على العذاب الدنيوى.

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾؟! وفى تكريره بعد كل قصة؛ تنبيه على أن إيراد قصص الأمم إنما هو للوعظ والتذكار، وللانزجار عن مثل فعلهم، لا لمجرد السماع والتلذذ بأخبارهم، كما هى عادة القصاص.

الإشارة: من شأن النفوس العاتية المتجبرة العادية؛ تكذيب أهل الخصوصية كيفما كانوا، ولا ترضى بحط رأسها لمن يدعوها إلى ربها، فيرسل الله عليهم ريح الهوى والخذلان، فتصرعهم فى محل الذل والهوان، وتتركهم عبيد لنفوسهم الخسيسة، وللدنيا الدنية، فكيف كان عذابي لهؤلاء وانذارى لهم؟! ولقد يسرنا القرآن للذكر، وبيناً فيه ما فعلنا بأهل التكبر والعناد من الإهانة والطرود والإبعاد، فهل من مدكر، يتيقظ من سنة غفلته، ويرحل من دنياه لآخرته، ومن نفسه إلى ربه؟.

ثم ذكر قصة ثمود، فقال:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّمَّنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَلْهَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ

(١) من الآية ٧ من سورة الحاقة.

(٢) تجعفهم: تصرعهم.

(٣) فى الأصول: فأولجوا.

كُلُّ شَرِبٍ مُّحْضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٣٢﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿كذبت ثمود بالنذر﴾ بصالح عليه السلام؛ لأن من كذب واحداً فقد كذب الجميع؛ لاتفاقهم في الشرائع، أو: كذبوا بالإنذارات والمواعظ التي يسمعونها من صالح، ﴿فقالوا أبشراً منا﴾ أي: كائناً من جنسنا، وانتصابه بفعل يفمره «نتبعه»، أي: أنتبع بشراً منا ﴿واحداً﴾ منفرداً لا تباعة له؟ أو: واحداً من الناس لا شرف له ﴿تبعه﴾ وندع ديننا؟ ﴿إنا إذا﴾ أي: على تقدير اتباعنا له، وهو مفرد ونحن أمة جمة ﴿لقي ضلال﴾ عن الصواب ﴿وسعر﴾ نيران تحرق، جمع «سعير». كان صالح يقول لهم: إن لم تتبعوني كلتم في ضلال عن الحق، وصرتم إلى سعير، ونيران تحرق، فعكسوا عليه، لغاية عتوهم، وقالوا: إن اتبعناك كنا كما تقول. وقيل: المراد بالسعر: الجنون، لأنها تشوه صاحبها، أنكروا أن يكون الرسول بشراً، وطلبوا أن يكون من الملائكة، وأنكروا أن تتبع أمة واحداً، أو: رجلاً لا شرف له في زعمهم، حيث لم يتعاط معهم أسباب الدنيا. ويؤيد التأويل الثاني قولهم: ﴿ألقى الذكر﴾ أي: الوحي ﴿عليه من بيننا﴾ وفيما من هو أحق منه بالاختيار للنبوة؟ ﴿بل هو كذاب أشبر﴾ أي. بطر متكبر، حملة بطره وطلبه التعظيم علينا على إدعائه ذلك.

قال تعالى: ﴿سيعلمون غدا﴾ أي: عن قريب، وهو عند نزول العذاب بهم، أو يوم القيامة، ﴿من الكذاب الأشبر﴾ أصالح أم من كذبه؟ وقرأ الشامي وحمزة بناء الخطاب، على حكاية ما قاله صالح مجيباً لهم. ﴿إنا مرسلوا الناقة﴾ ؛ باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سألوا، ﴿فتنة لهم﴾ ؛ ابتلاء وامتحاناً لهم، مفعول له، أو: حال، ﴿فارتقبهم﴾ ؛ فانتظرهم وتبصر ما هم صانعون ﴿واضطرب﴾ على أذاهم، ولا تعجل حتى يأتيك أمرى.

﴿ونبيهم أن الماء قسمة بينهم﴾ ؛ مقسوم بينهم، لها شرب يوم، ولهم شرب يوم، وقال: «بيدهم، تقليباً للعقلاء. ﴿كل شرب محتضر﴾ ؛ محضور، يحضر القوم الشرب يوماً، وتحضر الناقة يوماً، ﴿فنادوا صاحبهم﴾ قدار بن سالف، حمير ثمود، ﴿فتعاطى﴾ ؛ فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم، غير مكترث به، ﴿فعقر﴾ الناقة، أو: فتعاطى الناقة فعقرها، أو: تعاطى السيف فقتلها، والتعاطى: تناول الشيء بتكلف. وقال أبو حيان: هو مضارع عاطا، وكان هذه الفعلة تدافعها الناس بعضهم بعضاً، فتعاطاها قدار وتناول العقر بيده. هـ.

﴿ فكيف كان عذابي ونذر، إنا أرسلنا عليهم ﴾ في اليوم الرابع من عقرها، ﴿ صيحة واحدة ﴾ صاح بهم جبريل عليه السلام ﴿ فكانوا ﴾؛ فصاروا ﴿ كهشيم المحتظر ﴾ كالشجر اليابس الذي يجده من يعمل الحظيرة، فالهشيم: الشجر اليابس المتكسر، الذي يبس من طول الزمان، وتتوطؤه البهائم؛ فيتحطم ويتهشم، والمحتظر: الذي يعمل الحظيرة. قال ابن عباس: هو الرجل يحل لغنمه حظيرة من الشجر والشوك، فما يسقط من ذلك ودرسته الغنم فهو هشيم، (١) شبههم في تبدهم، وتفرق أوصالهم، بالشوك الساقط على الأرض، ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ فيتعظ بما يسمع من هذه القصص.

الإشارة: سبب إنكار الناس على أهل الخصوصية؛ ظهور وصف البشرية عليهم، ولا يلزم من وجود الخصوصية عدم وصف البشرية، ووصف البشرية على قسمين:

قسم لازم، لا تنفك العبودية عنه، كالأكل والشرب والدم والنكاح، وغيرها من الأوصاف الضرورية، وهذه هي التي تجامع الخصوصية، وبها سترت، واحتجبت حتى أنكرت، فوجودها في العبد كمال؛ لأنها صوان لسر الخصوصية. قال في الحكم: «سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية». وقسم عارض يمكن زواله؛ وهي الأوصاف المذمومة، كالكبر والحسد والحقد، وحب الدنيا والرياسة، وغير ذلك، فهذا لاتجامعه الخصوصية، ولا بد من التطهير منه في وجودها.

وللقشيري إشارة أخرى، وحاصلها: كذبت ثمود؛ النفس الأمارة وجنودها؛ صالح القلب؛ حين دعاها إلى الخروج عن عوائدها، والتطهر من أوصافها المذمومة، فقالت النفس وجنودها: أنتبع واحدا منا، لأنه مخلوق مثلنا، ونحن عصابة؟ إنا إذا لقي ضلال وسعر، ألقى الذكر الإلهامي عليه من بيننا؟ بل هو كذاب أشر، سيعلمون غداً، حين يقع لهم الرحيل من عالمهم، من الكذاب الأشر، أثمود النفس وجنودها، أم صالح القلب؟ إنا مرسل ناقة النفس فتنة لهم، ابتلاء؛ ليظهر الخصوص من العموم، فارتقبهم، لعلمهم يرجعون إلى أصلهم من النزاهة والطهارة، واصطبر في مجاهدتهم، ونبههم أن ماء الحياة - وهي الخمرة الأزلية - قسمة بينهم، من شرب منها صفا، ومن تنكب عنها أظلم، كل شرب يحضره من يتأهل له. فنادوا صاحبهم - وهو الهوى - فتعاطى ناقة النفس، التي أرادت الخروج إلى وطن الروح، فعقرها وردّها إلى وطنها الخسيس، فكيف كان عذابي لها، وإنذارى إياها؟ إنا أرسلنا عليهم صيحة القهر، فسقطوا إلى الحضيض الأسفل، فكانوا كهشيم المحتظر؛ صاروا أرضيين بعد أن كانوا سماويين. هـ بالمعنى مع تخالف له.

(١) انظر تفسير البغوي ٤٣١/٧.

ثم قال القشيري: اعلم أن النفس حقيقة واحدة، غير متعددة، لكن بحسب توارد الصفات المتباينة تعددت أسماؤها، فإذا توجهت إلى الحق توجهاً كلياً، سميت مطمئنة، وإذا توجهت إلى الطبيعة البشرية توجهاً كلياً، سميت أمارة، وإذا توجهت إلى الحق تارة، وإلى الطبيعة أخرى، سميت لوامة. هـ مختصراً.

ثم ذكر قصة لوط، فقال:

﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي إِذَا أُرْسِلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلُ لُوطٍ نَجَيْنَهُمْ بِسَحَرٍ ۚ ﴾
 نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۚ ﴿ ٣٤ ﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا
 بِالَّذِي ۚ ﴿ ٣٥ ﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ۚ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿ ٣٦ ﴾ وَلَقَدْ
 صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۚ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿ ٣٧ ﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ
 فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿ ٤٠ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي ﴾، وقد تقدم، ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي: على قوم لوط ﴿ حَاصِبًا ﴾ أي: ريحاً تحصبهم، أي: ترميهم بالحصباء، ﴿ إِلَّا آلُ لُوطٍ ﴾ ابتليه ومن آمن معه، ﴿ نَجَيْنَهُمْ بِسَحَرٍ ﴾، ملتبسين بسحر من الأسحار، ولذا صرفه، وهو آخر الليل، أو: السُّدُس الأخير منه، وقيل: هما سحران، فالسحر الأعلى: قبل انصداع الفجر، والآخر: بعد انصداعه، ﴿ نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ أي: إنعاماً منا، وهو علة لنجيننا، ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة.

﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ ﴾ لوط ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾؛ أخذتنا الشديدة بالعذاب، ﴿ فَتَمَارَوْا ﴾؛ فكذبوا ﴿ بِالَّذِي ﴾؛ بإنذاره متشاكين فيه، ﴿ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ قصدوا الفجور بأضيافه، ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ فمسخناها وسويناها كسائر الوجه، أي: صارت وجوههم صفيحة واحدة لا ثقب فيها.

روى أنهم لما قصدوا دار لوط، وعالجوا بابها ليدخلوا، قالت الرسل للوط: خلّ بينهم وبين الدخول، فإننا رسل ربك، لن يصلوا إليك. وفي رواية: لما منعوا من الباب تسوروا الحائط، فدخلوا، فصفعهم جبريل بجناحه؛ فتركهم عمياً يترددون، ولا يهتدون إلى الباب، فأخرجهم لوط عمياً. وقلنا لهم على السنة الرسل، أو بلسان الحال: ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴾ أي: وبال إنذارى، والمراد به: الطمس؛ فإنه من جملة ما أنذروا به.

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً ﴾ أول النهار ﴿ عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ لا يفارقهم حتى يسلمهم إلى النار، وفي وصفه بالاستقرار إيماء إلى أن عذاب الطمس ينتهي إليه، ﴿ فذوقوا عذابي ونذراً ﴾، حكاية لما قيل لهم حينئذ من جهته - تعالى - تشديداً للعتاب.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾، قال النسفي: وفائدة تكرير هذه الآية؛ أن يجذِّدوا عند سماع كل نبأ من أنباء الأولين أذكّاراً واتعاضوا إذا سمعوا الحث على ذلك، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك، وهكذا حكم التكرير في قوله، ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١) عند كل نعمة عدها، وقوله: ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٢) عند كل آية أوردتها، وكذا تكرير القصص في أنفسها؛ لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب، مصورة في الأذهان، [مذكورة] (٣) غير منسية في كل أوان - هـ.

الإشارة: قال القشيري: يُشير إلى أن كل من غلبته الشهوة البهيمية - شهوة الجماع - يجب عليه أن يقهر تلك الصفة، ويكسرها بأحجار ذكر، لا إله إلا الله، ويعالج تلك الصفة بضدها، وهو العفة - هـ. فالإشارة بقوم لوط إلى الشهوات الجسمانية، فقد كذبت الروح حين دعته إلى مقام الصفاء، ودعتها النفس بالميل إليها إلى الحضيض الأسفل، فإذا أراد الله نصر عبده أرسل عليها حاصب الواردات والمجاهدات، فمحت أوصافها الذميمة، ونقلتها إلى مقام الروحانية، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾، يعني الأوصاف المحمودة، نجيناها في آخر ليل القطيعة، أو: الروح وأوصافها الحميدة، نجيناها في وقت النفحات من التدنس بأوصاف النفس الأمارة، نعمة من عندنا، لا بمجاهدة ولا سبب، كذلك نجزي من شكر نعمة العناية، وشكر من جاءت على يديه الهداية، وهم الوسائط من شيوخ التربية. ولقد أُنذر الروح النفس وهواها وجنودها بطشتنا: قهرنا، برارده قهرى، من خوف مزعج، أو شوق مُقلق، حتى يُخرجها من وطنها، فتَمَارُوا بالنذر، وقالوا: لم يبق من يُخرجنا من وطننا، فقد انقطعت التربية، ولا يمكن إخراجنا بغيرها، ولقد راودوه عن ضيفه، راودوا الروح عن نور معرفته وبقينه، بالميل إلى شهوات النفس؛ فطمسنا أعينهم، فلم يتمكنوا من رد الروح إذا سبقت لها العناية، فيقال للنفس وجنودها: ذوقوا عذابي ونذري بالبقاء مع الخواطر والهموم، ولقد صَبَّحَهُمْ أول نهار المعرفة حين أشرقت شمس العيان عذاب مستقر، وهو محق أوصاف النفس، والغيبة عنها أبداً سرمداً . والله تعالى أعلم.

(١) كررت هذه الآية في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة، المرة الأولى جاءت في الآية ١٣ .

(٢) الآية ١٥ من سورة المرسلات.

(٣) في النسخ [مذكورة] .

ثم ذكر قوم فرعون، تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ﴾ موسى وهارون، جمعهما لغاية ما عالجا في إنذارهم، أو: بمعنى الإنذار، وصدر قصتهم بالتوكيد القسبي؛ لإبراز كمال الاعتناء بشأنها؛ لغاية عظم ما فيها من الآيات، وكثرتها، وهول ما لاقوه من العذاب، واكتفى بذكر آل فرعون؛ للعلم بأن نفسه أولى بذلك، ﴿ كذبوا بآياتنا كلها ﴾ وهي التسع ﴿ فأخذناهم أخذ عزيز ﴾ لا يغالب ﴿ مقتدر ﴾ لا يعجزه شيء.

الإشارة: النفوس الفراعنة، التي حكمت المشيئة بشقائها، لا ينفع فيها وعظ ولا تذكير؛ لأن الكبرياء من صفة الحق، فمن نازع الله فيها قصمه الله وأبعده.

ثم هدد قريشاً بما نزل على من قبلهم، فقال:

﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أكفاركم ﴾ يا معشر العرب، أو: يا أهل مكة ﴿ خير من أوليكم ﴾ الكفار المعدودين في السورة؛ قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون، والمعنى: أنه أصابهم ما أصابهم مع ظهور خيريتهم منكم قوة وآلة ومكانة في الدنيا، أو: كانوا أقل منكم كفراً وعداداً، فهل تطمعون ألا يصيبكم مثل ما أصابهم، وأنتم شر منهم مكانة، وأسوأ حالاً؟ ﴿ أم لكم براءة في الزُّبُر ﴾؛ أم نزلت عليكم يا أهل مكة براءة في الكتب المتقدمة: أن من كفر منكم وكذب الرسول كان آمناً من عذاب الله، فأملتكم بتلك البراءة؟

﴿ أم يقولون نحن جميع ﴾ أي: جماعة أمرنا جميع ﴿ منتصر ﴾؛ ممتنع لا نرام ولا نضام، والالتفات للإيذان باقتضاء حالهم الإعراض عنهم، وإسقاطهم عن رتبة الخطاب، وحكاية قبائحهم لغيرهم، أي: يقولون واثقين

بشوكتهم: نحن أولوا حزم ورأى، أمرنا مجتمع لا يقدر علينا، أو: منتصرون من الأعداء، لا تغلب، أو: منتاصرون، ينصر بعضنا بعضا. والإفراد باعتبار لفظ «جميع».

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾؛ جمع أهل مكة، ﴿وَيُولُونُ الدُّبْرَ﴾؛ الأدبار. والتوحيد لإرادة الجنس، أو: إرادة أن كل منهم يولى دبره، وقد كان كذلك يوم بدر. قال عمر رضي الله عنه: لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونُ الدُّبْرَ﴾ كنت لا أدري أى جمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يلبس الدرع، ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونُ الدُّبْرَ﴾ فعرفت تأويلها^(١)، فالآية مكية على الصحيح. ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أى: ليس هذا تمام عقوبتهم، بل الساعة موعد أصل عذابهم، وهذا طلائعه، ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ أى: أقصى غاية من الفظاعة والمرارة من عذاب الدنيا. والداهية: الأمر الفظيع الذى لا يهتدى إلى الخلاص منه، وإظهار الساعة فى موضع إضمارها تربية لهولها.

﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ﴾ من الأولين والآخرين ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق فى الدنيا ﴿وَسُعْرٍ﴾؛ ونيران تحرق فى الآخرة، أو: لقى هلاك ونيران مسعرة، ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ﴾؛ يُجْرُونَ فيها ﴿عَلَىٰ وجوههم﴾ ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أى: قيسوا حرها وألمها، كقولك: وجدَّ مس الحمى، وذاق طعم الضرب؛ لأن النار إذا أصابتهم بحرَّها فكأنها تمسهم مساً بذلك، وسقر، غير مصروف للعلمية والتعريف؛ لأنها علم لجهنم، من: سقرته النار: إذا لَوَّحَتْه.

الإشارة: ما قيل فى منكرى خصوصية النبوة، يُقال فى منكرى خصوصية الولاية إذا اشتغل بأذاهم، يعطى: أن من أنكر على الأولياء المتقدمين قد أصابهم ما أصابهم، إما ذل فى الظاهر، أو طرد فى الباطن، وأنتم أيها المنكرون على أهل زمانكم مثلهم. أمنتكم خير من أولئك أم لكم براءة من العذاب فى كتب الله تعالى؟ أم يقولون: نحن جميع، أى: مجتمعون على الدين، لا يصيبنا ما أصاب الكفار، فيقال لهم: سيُهزم جمعكم، ويتفرق شملكم، وتفضوا إلى ما أسلفتم، نادمين على ما فعلتم، ولن ينفع الدم حين تزل القدم، فتبقيون فى حسرة البعد على الدوام، فالكفار حرموا من جنة الزخارف، وأنتم تحرمون من جنة المعارف، مع غم الحجاب وذل البعد عن الحضرة القدسية، إن المجرمين - وهم أهل الطعن والانتقاد - فى ضلال عن طريق الوصول إلى الله، ونيران القطيعة، يوم

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٢٩/٢) والطبرى (١٠٨/٢٧). رزاد المناوى فى الفتح السعوى (١٠١٨/٣ - ١٠١٩) عزوه لعبد الرزاق وابن أبى حاتم، وابن مردويه، فى تفاسيرهم، من مرسل عكرمة.

يُسْحَبُونَ عَلَى وجوههم، فينهمكون في الدنيا في الحظوظ والشهوات، وفي الآخرة في نار البُعد والقطيعة، على دوام الأوقات، ويقال لهم: ذوقوا مرارة الحجاب وسوء الحساب، وكل هذا بقدر وقضاء سابق، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۖ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۖ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدْكِرٍ ۖ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۖ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ۖ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ جَنَّتْ وَنَهَرٌ ۖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدَرٍ ۖ ﴿٥٥﴾ ۝

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ أى: بتقدير سابق في اللوح قبل وقوعه، قد علمنا حاله وزمانه قبل ظهوره، أو: خلقناه كل شيء مقدراً محكماً مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة، وكل: منصوب بفعل يُفسره الظاهر. وقرىء بالرفع شاذاً، والنصب أولى؛ لأنه لو رفع لأمكن أن يكون «خلقناه» صفة لشيء، ويكون الخبر مقدراً، أى: إنا كل شيء مخلوق لنا حاصل بقدر، فيكون حجة للمعتزلة، باعتبار المفهوم، وأن أفعال العباد غير مخلوقة لله. فلم يسبق لها قدر، تعالى الله عن قولهم، ويجوز أن يكون الخبر: «خلقناه»، فلا حجة فيه، ولا يجوز في النصب أن يكون «خلقناه» صفة لشيء؛ لأنه يفسر الناصب، والصفة لا تعمل في الموصوف، وما لا يعمل لا يفسر عاملاً. قال أبو هريرة: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونهم في القدر، فنزلت الآية (١)، وكان عمر يحلف أنها نزلت في القدرية، أى: على طريق الإخبار بالغيب.

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ أى: كلمة واحدة، سريعة التكوين، وهو قوله تعالى: ﴿ كُنْ ﴾ أى: وما أمرنا لشيء نريد تكوينه إلا أن نقول له: كن، فيكون، أو: إلا فِعْلَةٌ واحدة، وهو الإيجاد بلا معالجة، ﴿ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ فى السرعة، أى: على قد ما يلمح أحد ببصره، وقيل: المراد سرعة القيامة، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ ﴾ (٢). ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ ﴾ أى: أشباهكم فى الكفر من الأمم، وقيل: أتباعكم، ﴿ فَهَلْ مِنْ مَدْكِرٍ ﴾ من متعظ بذلك، ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ ﴾ من الكفر والمعاصى مكتوب على التفصيل ﴿ فى الزُّبُرِ ﴾ فى ديوان الحفظ، ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴾ من الأعمال، ومن كل ما هو كائن ﴿ مُسْتَطَرٌّ ﴾ مسطور فى اللوح بتفاصيله.

(١) أخرجه مسلم فى (القدر، باب كل شيء بقدر، ح ٢٦٥٦).

(٢) الآية ٧٧ من سورة النحل.

ولمّا بيّن سوء حال الكفرة بقوله: ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ...﴾ الخ، بيّن حُسن حال المؤمنين، جمعاً بين الترهيب والترغيب فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: الكفر والمعاصي ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ عظيمة ﴿وَنَهَرٍ﴾ أى: أنهار كذلك. والإفراد للاكتفاء بذكر الجنس، مراعاة للفواصل، وقرئ: «نَهَرٌ»^(١) جمع «نَهَرٍ»، كَأَسَدٍ وَأَسَدٌ. ﴿فِي مَقْعَدٍ صَدِيقٍ﴾؛ فى مكان مرضى، وقرئ: «فِيمَقَاعِدٍ صَدِيقٍ»^(٢)، ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أى: مقربين عند ملك قادر لا يقادر قدر ملكه وسلطانه، فلا شيء إلا وهو تحت ملكوته، سبحانه، ما أعظم شأنه. والعندية: عندية منزلة وكرامة وزلفى، لا مسافة ولا محاسة.

الإشارة: هذه الآية وأشباهاها هي التي غسّلت القلوب من الأحزان والأغيار، وأراحت العبد من كد التدبير والاختيار؛ لأنّ العاقل إذا علم علم يقين أنّ شئونه وأحواله، وكل ما ينزل به، قد عمه القدر، لا يتقدم شيء عن وقته ولا يتأخر، فوض أمره إلى الله، واستسلم لأحكام مولاه، وتلقى ما ينزل به من النوازل بالرضا والقبول، خيراً كان أو شراً، كما قال الشاعر:

إِذَا كَانَتْ الْأَقْدَارُ مِنْ مَالِكِ الْمُلْكِ فَسَيَّانٍ عِنْدِي مَا يَسِرُّ وَمَا يُبْكِي

وقال آخر:

تَسَلَّ عَنِ الْهَمِّ مَوْمَ تَسَلُّ^(٣) فَمَا الدُّنْيَا سِوَى ثَوْبٍ يُعَارُ
وَسَلَّمَ لِلْمُهَيَّمِينَ فِي قَضَائِهِ وَلَا تَخْشَرُ فَلَيْسَ لَكَ اخْتِيَارُ
فَمَا تَدْرِي إِذَا مَا اللَّيْلُ وَلَّى بِأَيِّ غَرِيبَةٍ يَأْتِي النَّهَارُ

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ...﴾ الخ، هذا في عالم الأمر، ويسمى عالم القدرة، وأما في عالم الخلق، ويسمى عالم الحكمة، فجُله بالتدريج والترتيب، سترأ لأسرار الربوبية، وصوناً لسر القدرة الإلهية، ليبقى الإيمان بالغيب، فتظهر مزية المؤمن، ويقال لأهل العناد المتجبرة: ولقد أهلكنا أشياعكم؛ إما بالهلاك الحسى، أو المعنوى، كالطرد والبعد، فهل من متعظ، يرجع عن عناده؟ وكل شيء فعلوه في ديوان صحائفهم، وكل صغير وكبير من

(١) عزاها في مختصر ابن خالويه/ ١٤٩ للأعرج. وزاد في البحر المحيط (١٨٢/٨) الأعمش وأبا مجلز واليماني وأبا نهيك وزهير العرقبي.

(٢) عزاها في مختصر ابن خالويه/ ١٤٩ وفي البحر المحيط (١٨٢/٨) لعثمان البني.

(٣) كذا، والشرطة غير مستقيمة الوزن، وقد تكون: «تسل عن الهموم به تسل».

أعمال العباد مسطورة في العلم القديم. إن المتقين ما سوى الله، في جنات المعارف، وأنهار العلوم والحكم، في مقعد صدق، هو حضرة القدس، ومحل الأنس، عند ملك مقتدر. قال الورتجبي: مقامات العندية جناتها زفارف الأنس، وأنهارها أنوار القدس، أجلسهم الله في بساط الزلفة والمدانة، التي لا يتغير صاحبها بعله القهر، ولا يزول عنها بالتستر والحجاب؛ لذلك سماه «مقعد صدق» أي: محل كرامة دائمة، ومزية قائمة، ومواصلة سرمدية، والله مقدر قادر. انظر تمام كلامه.

وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم (*).



(*) إلى هنا ينتهي المجلد الخامس بتجزئة المحقق. وينلوه - إن شاء الله - المجلد السادس، وأوله تفسير سورة «الرحمن»، أسأل الله تعالى أن ينفعني وجميع المسلمين به، وأن يبلغنا بهذا الكتاب أسمى الدرجات، وأن يوفقنا لما يقرينا إليه في كل الأوقات، وألا يجعلنا من المقتولين. اللهم اغفر لنا وارحمنا ويسر لنا كل عسير. آمين. أحمد عبدالله القرشي

فهرس المجلد الخامس

٥	 سورة ص
٤٧	 سورة الزمر
١٠٩	 سورة غافر
١٥٩	 سورة فصلت
١٩٣	 سورة الشورى
٢٣٣	 سورة الزخرف
٢٧٧	 سورة الدخان
٢٩٩	 سورة الجاثية
٣٢٣	 سورة الأحقاف
٣٥٣	 سورة محمد
٣٨٣	 سورة الفتح
٤١٣	 سورة الحجرات
٤٤٣	 سورة ق
٤٦٣	 سورة الذاريات
٤٨٥	 سورة الطور
٤٩٩	 سورة النجم
٥٢١	 سورة القمر

**مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب**

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٧٠٨ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6928 - 5